شرح رياض الصالحين

من كلام سيد المرسلين

للإمام أبي زكريا يحيى بن شرف النووي

المتوفى سنة: ٦٧٦ هـ

شرحه وأملاه

فضيلة الشيخ محمد بن صالح العثيمين

عضو هيئة كبار العلماء وأستاذ في كلية الشريعة بالقصيم

حققه وخرج أحاديثه وشرح غريبه

أحمد عبد الرازق البكري — محمد عادل محمد — محمد عبد اللطيف خلف

بإشراف

أ. د عبد الحميد مذكور

أستاذ بكلية دار العلوم جامعة القاهرة



دار السلام

للطباعة والنشر والتوزيع والترجمة

الطبعة الأولى

١٤٢٣ هـ - ٢٠٠٢ م

دار السلام
للطباعة والنشر والتوزيع والترجمة
ش.م.م

تأسست الدار عام ١٩٧٣م وحصلت على جائزة أفضل ناشر للتراث لثلاثة أعوام متتالية ١٩٩٩م ، ٢٠٠٠م ، ٢٠٠١م هي عشر الجائزة تتويجًا لعقد ثالث مضى في صناعة النشر

القاهرة - جمهورية مصر العربية
الإدارة : ١٩ شارع عمر لطفي موازٍ لشارع عباس العقاد خلف مكتب مصر للطيران عند الحديقة الدولية وأمام مسجد الشهيد عمرو الشربيني - مدينة نصر
هاتف : ٢٧٠٤٢٨٠ - ٢٧٤١٥٧٨ (٢٠٢ +) فاكس : ٢٧٤١٧٥٠ (٢٠٢ +)
المكتبة : فرع الأزهر : ١٢٠ شارع الأزهر الرئيسي - هاتف : ٥٩٣٢٨٢٠ (٢٠٢ +)
المكتبة : فرع مدينة نصر : ١ شارع الحسن بن علي متفرع من شارع علي أمين امتداد شارع مصطفى النحاس - مدينة نصر - هاتف : ٤٠٥٤٦٤٢ (٢٠٢ +)
بريديًا : ص.ب ١٦١ الغورية الرمز البريدي ١١٦٣٩
البريد الإلكتروني : info@dar-alsalam.com
موقعنا على الإنترنت : www.dar-alsalam.com





تقديم الكتاب

الحمد لله رب العالمين : ...

وبعد : فهذا شرحٌ لكتاب رياض الصالحين من كلام سيد المرسلين ، لمحيي الدين أبي زكريا يحيى ابن شرف النووي (٦٣١ هـ - ٦٧٦ هـ) .

والنووي إمام من أئمة العلم والهدى عند المسلمين ، وقد وصفه واصفوه بأنه « شيخ الإسلام ، وأستاذ المتأخرين ، وحجة الله على اللاحقين ، والداعي إلى سبيل السالفين » .

* وقد كان شديد الاجتهاد في طلب العلم ، يسهر به ليله ، ويشغل به نهاره ، ويقدمه على كل مطلوب ، إلا أن يكون طاعة لله تعالى . ومما يدل على ذلك : أنه كان يقرأ في كل يوم اثني عشر درسًا في علوم مختلفة ، منها درسان في الوسيط للغزالي ، ودرسٌ في المهذب ، ودرسٌ في الجمع بين الصحيحين ، ودرس في صحيح مسلم ، ودرس في اللمع لابن جني ، ودرس في إصلاح المنطق لابن السكيت ، ودرس في التصريف ، ودرس في أصول الفقه ، ودرس في أسماء الرجال ، ودرس في أصول الدين ، وكان يعلِّق على جميع ما يتعلق بها من شرح مشكلٍ ووضوح عبارة ، وضبط لغةٍ . وبارك الله له في وقته حتى اتسع لهذه الدروس والعلوم جميعًا .

* ولم يقتصر همه على طلب العلم بل إنه كان مع هذا التبحُّرِ في العلم ، وسعة المعرفة بالحديث والفقه واللغة ، وغير ذلك من العلوم « رأسًا في الزهد ، وقدوة في الورع ، عديم المِثْلِ في الأمر بالمعروف ، والنهي عن المنكر ، قانعًا باليسير ، راضيًا عن الله تعالى ، والله راضٍ عنه . مقتصدًا - إلى الغاية - في ملبسه ومطعمه وأثاثه . تعلوه سكينة وهيبة » .

* وهكذا جمع بين العلم والعمل ، والعبادة والمجاهدة ، ورزقه الله الإخلاص والتقوى ، فأثمر له ذلك فقهًا وفهمًا ونورًا ، وكتب الله له محبة وقبولًا ، فأحبه الخلق ، ووثقوا بعلمه ودينه ، وأقبلوا على كتبه التي صنَّفها وألفها : قراءة ودرسًا ، وتلخيصًا وشرحًا ، وكان من فضل الله عليه أن كثيرًا منها قد سارت به الركبان ، واتُّخِذ أصلًا في بابه ومقدَّمًا في ميدانه ، ومن ذلك ، كتابه : « المجموع » في فقه الشافعية ، «والمنهاج » في شرح صحيح مسلم ، « والأذكار » في أعمال اليوم والليلة ، وسائر أنواع العبادات ، «والتقريب » في الحديث ، « والتبيان في آداب حملة القرآن » ، « والأربعون حديثًا النووية » إلى آخر ما فتح الله به عليه . ومن عجيب أمره أن يتسع عمره لكل هذا العلم ولم يعش إلا خمْسًا وأربعين سنة وبضعة أشهر ﴿ ذَلِكَ فَضْلُ ٱللَّهِ يُؤْتِيهِ مَن يَشَآءُ وَٱللَّهُ ذُو ٱلْفَضْلِ ٱلْعَظِيمِ ﴾ [الجمعة : ٤] .

* وكان من هذه الكتب العظيمة التي كثر انتفاع الناس بها ، ورجوعهم إليها ، كتابه : « رياض الصالحين » .

وهو كتاب جمع الخير من أطرافه ، ففيه : آداب ، وأخلاق ، وتربية ، وتهذيب ، وحث على الطاعة وتحبيب فيها ، ونهي عن المعاصي وتحذير منها . وهو يسوق قارئه إلى الخير سوقًا رفيقًا ، مستضيئًا فيما جمعه فيه بنور القرآن والسنة اللذين يقوم عليهما كتابه ، وهو ينبض في كل أبوابه بهذا الإخلاص الذي بدأ به كتابه ، وهو مقرون بصدق اليقين ، وطهارة النية ، وحسن الإقبال على الله ، ودوام التوجه إليه ، وكمال التوكل عليه .

وتكشف مقدمة الكتاب عن رغبته الصادقة في دلالة الخلق على السنة ، ودعوتهم إلى الهدى ، طلبًا للمثوبة وعظيم الأجر من الله تعالى ، وكان يرى أن ذلك من التعاون على البر والتقوى ، وكان يستحضر - في هذا المقام قول الرسول ﷺ : « من دل على خير فله مثل أجر فاعله » وقوله : « من دعا إلى هدى كان له من الأجر مثل أجور من تبعه ، لا ينقص ذلك من أجورهم شيئًا » .

* وقد أوضح منهجه لتحقيق هذه الغاية فقال : « فرأيت أن أجمع مختصرًا من الأحاديث الصحيحة ، مشتملًا على ما يكون طريقًا لصاحبه إلى الآخرة ، ومحصلًا لآدابه الباطنة والظاهرة ، جامعًا للترغيب والترهيب ، وسائر أنواع الآداب من أحاديث الزهد ورياضات النفوس ، وتهذيب الأخلاق ، وطهارات القلوب وعلاجها وصيانة الجوارح وإزالة اعوجاجها ، وغير ذلك من مقاصد العارفين » .

وقد انتقى هذه الأحاديث بعناية بالغة لأداء هذه المهمة الجليلة في الدعوة إلى الله تعالى ، واختارها من كتب السنة الصحيحة ، وفي ذلك يقول : « وألتزم فيه ألا أذكر إلا حديثًا صحيحًا من الواضحات ، مضافًا إلى الكتب الصحيحة المشهورات ، وأُصدِّر الأبواب من القرآن العزيز بآيات كريمات ، وأوشِّح ما يحتاج إلى ضبط أو شرح معنى خفي بنفائس من التنبيهات » .

وقد جعل الله لهذا الكتاب قبولًا عظيمًا وانتشارًا كبيرًا ، وهو من الكتب التي يحرص المسلمون على اقتنائها والانتفاع بها لسهولة عرضه ، وقرب مأخذه ، واعتدال حجته ، وشمول أحاديثه لأهم ما يحتاج إليه المسلم في أمر دينه وأمر دنياه ، ثم يضاف إلى ذلك بركة الإخلاص الساري في عروق الكتاب ، ثم تلك المحبة الإلهية التي جعلها الله لصاحبه في قلوب عباده ، مصداقًا لحديث الرسول ﷺ ، الذي يقول فيه : « إذا أحب الله تعالى العبد نادى جبريلَ : إن الله تعالى يحب فلانا فأحْبِبْه ، فيحبه جبريل ، فينادى في أهل السماء : إن الله يحب فلانا فأحبوه ، فيحبه أهل السماء ، ثم يوضع له القبول في الأرض » .

* ومن أجل ذلك تسابق الناس إلى طباعة الكتاب وتحقيقه وشرحه واختصاره : وكان كل مهتم بالكتاب يبذل جهده في خدمته ، تيسيرًا للإفادة منه ، وسعيًا لنوال شيء من فوائد هذا الكتاب المبارك .

ومن هذه الجهود هذا الشرح الذي بين يديك أيها القارئ الكريم ، وهو للشيخ العالم : محمد بن صالح بن عثيمين .

ترجمة الشارح :

وهو أبو عبد الله محمد بن صالح بن محمد بن سليمان بن عبد الرحمن العثيمين الوهيبي التميمي ،

المولود في رمضان (١٣٤٧ هـ) . بمدينة « عنيزة » إحدى مدن القصيم بالمملكة العربية السعودية .

نشأ رَحِمَهُ اللَّهُ محبًّا للعلم ، وتلقاه على يد نخبة من كبار العلماء الذين حفظ على أيديهم القرآن الكريم في مراحل نشأته الأولى ثم واصل دراسته حتى تخرج من جامعة الإمام محمد بن سعود .

عمل رَحِمَهُ اللَّهُ في مجال التدريس والخطابة في العديد من المدارس والمعاهد ، كما عمل أستاذًا في كلية الشريعة وأصول الدين في فرع جامعة الإمام محمد بن سعود بالقصيم منذ عام (١٣٩٨ - ١٣٩٩ هـ) حتى توفي رَحِمَهُ اللَّهُ .

كما قام بالتدريس في المسجد الحرام والمسجد النبوي في مواسم الحج وشهر رمضان والعطل الصيفية .

كما كان له رَحِمَهُ اللَّهُ الكثير من المشاركات في المؤتمرات والندوات العلمية والدينية ، كما كان عضوًا في العديد من المجالس العلمية ، وكذلك هيئة كبار العلماء .

وحصل الشيخ رَحِمَهُ اللَّهُ على جائزة الملك فيصل العالمية لخدمة الإسلام سنة (١٤١٤ هـ) .

وقد ترك الشيخ ابن عثيمين رَحِمَهُ اللَّهُ لنا ثروة لا تقدر بثمن من الأعمال ؛ حيث خلف رَحِمَهُ اللَّهُ أكثر من (٩٠) كتابًا ما بين رسالة ومجلدات ، هذا إضافة إلى اللقاءات العامة كاللقاء الأسبوعي الذي كان يعقده في منزله ، واللقاء الشهري الذي كان يعقده في مسجده ، واللقاءات الموسمية التي كان يجدولها خارج مدينته ، والتي تمخض عنها هذا السِّفر الطيب الذي بين أيدينا ، والذي ألقاه فضيلته كمحاضرات متتابعة شرح فيها الكتاب شرحًا وافيًا مستفيضًا يفهمه القاصي والداني ، والعالم والذي يريد العلم ، والمثقف والعادي ، وقد جاء هذا العمل ليكون مسك الختام للشيخ رَحِمَهُ اللَّهُ الذي لقي ربه في شوال سنة (١٤٢١ هـ) في مدينة جدة وصُلِّيَ عليه في المسجد الحرام . رحمه الله رحمة واسعة وجزاه عن الإسلام خير الجزاء .

عملنا في تحقيق هذا الكتاب متنًا وشرحًا :

أولًا : قمنا بتخريج جميع آيات الكتاب حيث ذكرنا اسم السورة ورقم الآية .

ثانيًا : قمنا بشرح كلمات الآيات التي تحتاج إلى شرح أو التي يصعب على القارئ فهم معناها موضحين المعنى المجازي للكلمة ، وذلك عند إرادة معنى آخر غير المعنى الأصلي لها .

ثالثًا : قمنا بترقيم أحاديث الكتاب ترقيمًا مسلسلًا ، مع تشكيل متن الكتاب تشكيلًا كاملًا .

رابعًا : قمنا بتخريج جميع أحاديث الكتاب ؛ وقد راعينا في ذلك ذكر المصدر الذي ذكره الإمام النووي أولًا ، ثم إضافة مصدر أو اثنين من صحاح كتب الحديث التي لم يذكرها الإمام النووي ، وقد قمنا بذكر رقم الحديث واسم الكتاب الموجود فيه . كما قمنا بتخريج جميع الأحاديث التي استشهد

بها الشارح رَحِمَهُ اللَّهُ وكذلك الآثار والأقوال .

خامسًا : قمنا بشرح الكلمات الصعبة الغريبة في الأحاديث ، كما قمنا ببيان الألفاظ التي تحتاج إلى بيان - قدر الإمكان - سواء أكان ذلك من المصطلحات الشرعية أو اللغوية ، والتي يحتاج إليها القارئ؛ وذلك حتى نسهل عليه الأمر ، وحتى يفهم مضمون الحديث بشكل سهل ، كما قمنا بضبط النص ، ووضع علامات الترقيم .

سادسًا : اعتمدنا في شرحنا لألفاظ الحديث على أمهات الكتب الخاصة بغريب الحديث مثل : شرح غريب الحديث لابن الأثير ، وشروح الكتب الصحاح مثل : فتح الباري ، وصحيح مسلم بشرح النووي ، وعون المعبود شرح سنن أبي داود ، ودليل الفالحين وغيرها .. هذا إضافة إلى المعاجم العربية مثل : لسان العرب ، والمصباح المنير ، والقاموس المحيط ، والمعجم الوسيط .

وقد حرصنا في شرحنا للألفاظ على ذكر ما قل ودل حتى لا نصيب القارئ الكريم بالملل أو الضيق .

سابعًا : قمنا بالإشارة إلى آراء المذاهب الفقهية في بعض المسائل التي كانت موضع اختلاف بين الفقهاء ، بيانًا للمذاهب الأخرى ، إضافة إلى مذهب الإمام أحمد بن حنبل الذي كان الشارح رَحِمَهُ اللَّهُ يفتي به . هذا إضافة إلى توثيق المسائل الفقهية من مراجعها الأصيلة مع ذكر الجزء والصفحة والطبعة .

ثامنًا : قمنا بتنظيم الكتاب تنظيمًا علميًا يتوافق مع كونه كتابًا مقروءًا وليس مادة مسموعة ؛ حيث كان الشارح رَحِمَهُ اللَّهُ يقوم بشرح الأحاديث في دروس متعاقبة ، فكان من الممكن أن يشرح جزءًا من الحديث وينتهي اللقاء ، ثم يكمل الحديث في الجلسة التالية ، فيبدأ في شرح الحديث من أوله مرة أخرى ، وهذا من الممكن أن يصلح في المادة المسموعة ؛ لذا فقد آثرنا أن يكون الكلام متصلًا دون تكرار ، ومع ذلك فقد أشرنا إلى هذا في الهامش مع إضافة الجزء المحذوف في الهامش ، وذلك للتوضيح فقط .

تاسعًا : قمنا - أيضًا - بإضافة وتكملة الأحاديث التي لم يتناولها الشيخ رَحِمَهُ اللَّهُ ولم يشرحها ، فأدرجناها في مواضعها وعلقنا عليها - قدر الإمكان - مع تخريجها وشرح غريبها والإشارة في الهامش إلى أن الشيخ رَحِمَهُ اللَّهُ لم يتناولها . وذلك بهدف جعل الكتاب نسخة كاملة شاملة لجميع أحاديث كتاب رياض الصالحين .

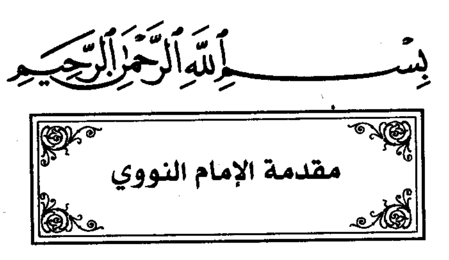
عاشرًا : وقد قمنا بإعداد فهرس علمي للآيات القرآنية رتبناها حسب ترتيب سور القرآن الكريم وآياته ، كما قمنا بإعداد فهرسة لأحاديث الكتاب رتبناها حسب الترتيب المعجمي (الألف بائي) ؛ وذلك بهدف التسهيل على القارئ للوصول إلى كل حديث بطريقة سهلة ميسرة .

واللَّه نسأل أن ينفع بهذا العمل القيم إنه نعم المولى ونعم المعين .. والحمد للَّه رب العالمين .

* * *

أ.د عبد الحميد عبد المنعم مذكور

أحمد عبد الرازق البكري   محمد عادل محمد   محمد عبد اللطيف خلف



مقدمة الإمام النووي

الْحَمْدُ لِلَّهِ الْوَاحِدِ الْقَهَّارِ ، الْعَزِيزِ الْغَفَّارِ ، مُكَوِّرِ اللَّيْلِ عَلَى النَّهَارِ ، تَذْكِرَةً لأُولِي الْقُلُوبِ وَالأَبْصَارِ ، وَتَبْصِرَةً لِذَوِي الأَلْبَابِ وَالاعْتِبَارِ ، الَّذِي أَيقَظَ مِنْ خَلْقِهِ مَنِ اصْطَفَاهُ فَزَهَّدَهُمْ فِي هذِهِ الدَّارِ ، وَشَغَلَهُمْ بِمُرَاقَبَتِهِ وَإِدَامَةِ الأَفْكَارِ ، وَمُلازمَةِ الاتِّعَاظِ والادِّكَارِ [١] ، وَوَفَّقَهُمْ لِلدَّأَبِ في طَاعَتِهِ ، وَالتَّأَهُّبِ لِدَارِ الْقَرَارِ ، وَالْحَذَرِ مِمَّا يُسْخِطُهُ وَيُوجِبُ دَارَ الْبَوَارِ ، وَالْمُحَافَظَةِ عَلَى ذَلِكَ مَعَ تَغَايُرِ الأَحْوَالِ وَالأَطْوَارِ .

أَحْمَدُهُ أَبْلَغَ حَمْدٍ وَأَزْكَاهُ ، وأَشْمَلَه وَأَنْماه .

وَأَشْهَدُ أَنْ لاَ إِلهَ إِلَّا اللَّهُ البَرُّ الْكَرِيمُ ، الرَّؤُوفُ الرَّحِيمُ ، وَأَشْهَدُ أَنَّ مُحَمَّدًا عَبْدُهُ وَرَسُولُهُ ، وَحَبِيبُهُ وَخَلِيلُهُ ، الهَادِي إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيم ، وَالدَّاعِي إِلَى دِينٍ قَوِيمٍ . صَلَوَاتُ اللَّهِ وَسَلامُهُ عَلَيهِ ، وَعَلَى سَائِرِ النَّبِيِّينَ ، وَآلِ كُلٍّ ، وَسَائِرِ الصَّالِحِينَ .

أما بعدُ : فقد قال اللَّه تعالى : ﴿ وَمَا خَلَقْتُ ٱلْجِنَّ وَٱلْإِنسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ ۝ مَآ أُرِيدُ مِنْهُم مِّن رِّزْقٍ وَمَآ أُرِيدُ أَن يُطْعِمُونِ ﴾ [الذاريات : ٥٦، ٥٧] وهذَا تَصْرِيحٌ بأَنَّهُمْ خُلِقوا للعبادةِ ، فَحَقٌّ عَلَيهِمُ الاعْتِنَاءُ بِمَا خُلِقُوا لَهُ والإِعْرَاضُ عَنْ حُظُوظِ الدُّنْيا بالزَّهَادَةِ ؛ فَإِنَّهَا دَارُ نَفَادٍ لا مَحَلُّ إِخْلادٍ ، ومَرْكَبُ عُبُورٍ لا مَنْزِلُ حُبُورٍ ، ومَشْرَعُ انْفِصَامٍ لا مَوطنُ دَوَامٍ . فَلِهذَا كَانَ الأَيقَاظُ مِنْ أَهْلِهَا هُم الْعُبَّادَ ، وَأَعْقَلُ النَّاسِ فيهَا هُم الزُّهَّادُ . قال اللَّه تعالى : ﴿ إِنَّمَا مَثَلُ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا كَمَآءٍ أَنزَلْنَٰهُ مِنَ ٱلسَّمَآءِ فَٱخْتَلَطَ بِهِۦ نَبَاتُ ٱلْأَرْضِ مِمَّا يَأْكُلُ ٱلنَّاسُ وَٱلْأَنْعَٰمُ حَتَّىٰٓ إِذَآ أَخَذَتِ ٱلْأَرْضُ زُخْرُفَهَا وَٱزَّيَّنَتْ وَظَنَّ أَهْلُهَآ أَنَّهُمْ قَٰدِرُونَ عَلَيْهَآ أَتَىٰهَآ أَمْرُنَا لَيْلًا أَوْ نَهَارًا فَجَعَلْنَٰهَا حَصِيدًا كَأَن لَّمْ تَغْنَ بِٱلْأَمْسِ كَذَٰلِكَ نُفَصِّلُ ٱلْءَايَٰتِ لِقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ ﴾ [يونس : ٢٤] والآيات في هذا المعنى كَثِيرةٌ ، ولقد أَحْسَنَ الْقَائلُ :

إِنَّ لِلَّهِ عِبَادًا فُطَنَا ... طَلَّقُوا الدُّنْيَا وَخَافُوا الْفِتَنَا

نَظَرُوا فيهَا فَلَمَّا عَلِمُوا ... أَنَّها لَيسَتْ لِحَيٍّ وَطَنَا

جَعَلُوهَا لُجَّةً وَاتَّخَذُوا ... صَالِحَ الأَعْمَالِ فيها سُفُنَا

فإذا كان حالُها ما وصفْتُهُ ، وحالُنَا ومَا خُلِقْنَا لَهُ مَا قَدَّمْتُهُ ؛ فَحَقٌّ على الْمُكَلَّفِ أَنْ يَذْهَب بنَفْسِهِ مَذْهَب الأَخْيَارِ ، ويَسْلُكَ مَسْلَكَ أُولِي النُّهَى وَالأَبْصارِ ، وَيَتَأَهَّبَ لِمَا أَشَرْتُ إِلَيهِ ، وَيَهْتَمَّ بِمَا نَبَّهْتُ عَلَيهِ ،

---

(١) الادِّكار : الذكر .

وَأَصْوَبُ طريقٍ له في ذلِكَ ، وَأَرْشَدُ مَا يَسْلُكُهُ مِنَ المَسَالِكِ : التَأَدُّبُ بمَا صَحَّ عَنْ نَبِيِّنَا سَيِّدِ الأَوَّلِينَ والآخرينَ ، وَأَكْرَمِ السَّابقينَ وَاللَّاحقينَ . صَلَوَاتُ اللَّهِ وَسَلامُهُ عَلَيهِ وَعَلَى سَائِرِ النَّبِيينَ . وَقَدْ قَالَ اللَّهُ تَعَالَى : ﴿ وَتَعَاوَنُوا عَلَى ٱلْبِرِّ وَٱلتَّقْوَىٰ ﴾ [المائدة : ٢] وَقَدْ صَحَّ عَنْ رسول اللَّهِ ﷺ أَنَّهُ قَالَ : « واللَّهُ في عَونِ العَبْدِ مَا كَانَ العَبْدُ في عَونِ أخِيهِ » [١] وأنَّهُ قَالَ : « مَنْ دَلَّ عَلَى خَيرٍ ؛ فَلَهُ مِثْلُ أجْرِ فَاعِلِهِ » [٢] وأَنَّهُ قَالَ : « مَنْ دَعَا إلَى هُدًى ؛ كَانَ لَهُ مِنَ الأجْرِ مِثْلُ أُجورِ مَنْ تَبِعَهُ ؛ لا يَنْقُصُ ذلِكَ مِنْ أُجُورِهِمْ شَيئًا » [٣] وَأنَّهُ قَالَ لِعَليٍّ ﷺ : « فَوَاللَّهِ لأَنْ يَهْدِيَ اللَّهُ بِكَ رَجُلًا وَاحِدًا خيرٌ لَكَ مِنْ حُمْرِ النَّعَمِ » [٤] .

فَرَأَيتُ أنْ أَجْمَعَ مُخْتَصَرًا مِنَ الأَحَادِيثِ الصَّحِيحَةِ مشْتَمِلًا عَلَى مَا يَكُونُ طَرِيقًا لِصَاحِبِهِ إلَى الآخِرَةِ ، ومُحَصِّلًا لآدَابِهِ البَاطِنَةِ وَالظَّاهِرَةِ ، جَامِعًا لِلتَّرْغِيبِ والتَّرْهِيبِ وَسَائِرِ أَنْوَاعِ آدَابِ السَّالِكِينَ : مِنْ أَحَادِيثِ الزُّهْدِ ، ورِيَاضَاتِ النُّفُوسِ ، وَتَهْذِيبِ الأَخْلاَقِ ، وطَهَارَاتِ الْقُلوبِ وَعِلاجِهَا ، وَصِيَانَةِ الجَوَارِحِ وَإزَالَةِ اعْوِجَاجِهَا ، وَغَيرِ ذلِكَ مِنْ مَقَاصِدِ الْعَارِفِينَ .

وَأَلْتَزِمُ فِيهِ ألا أَذْكُرَ إلَّا حَدِيثًا صَحِيحًا مِنَ الْوَاضِحَاتِ ، مُضَافًا إلَى الْكُتُبِ الصَّحِيحَةِ الْمَشْهُورَاتِ ، وَأُصَدِّرَ الأَبْوَابَ مِنَ الْقُرْآنِ الْعَزِيزِ بِآيَاتٍ كَرِيمَاتٍ ، وَأُوَشِّحَ مَا يَحْتَاجُ إلَى ضَبْطٍ ، أو شَرْحِ مَعْنًى خَفِيٍّ بِنَفَائِسَ مِنَ التَّنْبِيهاتِ . وَإذَا قُلْتُ في آخِرِ حَدِيثٍ : مُتَّفَقٌ عَلَيهِ ، فَمَعْنَاهُ : رواه البخاري ومسلم .

وَأَرْجُو إنْ تَمَّ هذَا الْكِتَابُ أَنْ يَكُونَ سَائِقًا لِلْمُعْتَنِي بِهِ إِلَى الْخَيرَاتِ ، حَاجِزًا لَهُ عَنْ أَنْوَاعِ الْقَبَائِحِ وَالْمُهْلِكَاتِ ، وأَنَا سَائِلٌ أَخًا انْتَفَعَ بِشَيءٍ مِنْهُ أَنْ يَدْعُوَ لِي ، وَلِوَالِدَيَّ ، وَمَشَايِخِي ، وَسَائِرِ أَحْبَابِنَا ، والمسْلِمِينَ أَجْمَعِينَ ، وَعَلَى اللَّه الْكَرِيمِ اعْتِمَادِي ، وَإلَيهِ تَفْوِيضي وَاسْتِنَادِي ، وَحَسْبِيَ اللَّهُ وَنِعْمَ الْوَكِيلُ ، وَلا حَولَ وَلا قُوةَ إلَّا باللَّهِ الْعَزِيزِ الحكيمِ .

---

(١) أخرجه الإمام أحمد في مسنده (٢/٢٧٤) .
(٢) أخرجه مسلم في الإمارة (١٣٣) والإمام أحمد في مسنده (٤/١٢٠) .
(٣) أخرجه مسلم في العلم (١٦) والترمذي في سننه (٢٦٧٤) .
(٤) أخرجه البخاري - واللفظ له - في الجهاد (٢٩٤٢) ومسلم في فضائل الصحابة (٣٤) . « وحمر النعم » أي : الإبل الحمر ، وهي أنفس أموال العرب ، يضربون بها المثل في نفاسة الشيء وإنه ليس هناك أعظم منه .

١ - باب الإخلاص وإحضار النية في جميع الأعمال والأقوال البارزة والخفية

قَالَ اللَّهُ تَعَالَى : ﴿ وَمَآ أُمِرُوٓاْ إِلَّا لِيَعۡبُدُواْ ٱللَّهَ مُخۡلِصِينَ لَهُ ٱلدِّينَ حُنَفَآءَ وَيُقِيمُواْ ٱلصَّلَوٰةَ وَيُؤۡتُواْ ٱلزَّكَوٰةَۚ وَذَٰلِكَ دِينُ ٱلۡقَيِّمَةِ ﴾ [البينة : ٥] وَقَالَ تَعَالَى : ﴿ لَن يَنَالَ ٱللَّهَ لُحُومُهَا وَلَا دِمَآؤُهَا وَلَٰكِن يَنَالُهُ ٱلتَّقۡوَىٰ مِنكُمۡۚ ﴾ [الحج : ٣٧] وَقَالَ تَعَالَى : ﴿ قُلۡ إِن تُخۡفُواْ مَا فِي صُدُورِكُمۡ أَوۡ تُبۡدُوهُ يَعۡلَمۡهُ ٱللَّهُۗ ﴾ [آل عمران : ٢٩] .

الشرح

قال المؤلف « باب الإخلاص ... » : « النيّة » محلها القلب ، ولا محل لها في اللّسان في جميع الأعمال . ولهذا كان من نَطَقَ بالنِّية عند إرادة الصَّلاة أو الصَّوم أو الحج أو الوضوء أو غير ذلك من الأعمال كان مُبتدعًا قائلًا في دين اللَّه مَا لَيس مِنْهُ ؛ لأن النَّبي ﷺ كان يتوضَّأ ويُصلِّي ويتصدَّق ويصوم ويحج . ولم يكن ينطق بالنِّية ، وذلك لأن النِّية مَحلُّها القلب ، واللَّه ﷻ يعلم ما في القلب ولا يخفي عليه شيء كما قال اللَّه تعالى في الآية التي ساقها المؤلف ﴿ قُلۡ إِن تُخۡفُواْ مَا فِي صُدُورِكُمۡ أَوۡ تُبۡدُوهُ يَعۡلَمۡهُ ٱللَّهُۗ ﴾ [آل عمران : ٢٩] .

ويجب على الإنسان أن يُخلصَ النِّيَّة للَّه في جميع عباداته ، وألا ينوي بعبادته إلَّا وَجْه اللَّه والدَّار الآخرة ، وهذا هو الذي أمَر اللَّه به في قوله : ﴿ وَمَآ أُمِرُوٓاْ إِلَّا لِيَعۡبُدُواْ ٱللَّهَ مُخۡلِصِينَ لَهُ ٱلدِّينَ ﴾ [البينة : ٥] أي مخلصين له العمل .

وينبغي أن يستحضر النِّيَّة في جميع العبادات ، فينوي مثلًا الوضوء وأنَّه توضأ للَّه ، وأنَّه توضأ امتثالًا لأمر اللَّه . فهذه ثلاثة أشياء :

١ – نيَّة العبادة . ٢ – وَنيَّة أن تكون للَّه . ٣ – ونيَّة أنه قام بها امتثالًا لأمر اللَّه .

هذا أكمل شيء في النِّية كذلك في الصَّلاة وفي كل العبادات .

وذكر المؤلف عِدَّة آيات كلها تدلُّ على أن النِّية محلها القلب ، وأن اللَّه سبحانه عَالِمٌ بنيَّة العبد . ربما يعمل عملًا يظهر أمام الناس أنَّه عمل صالح وهو عمل فاسد أفسدته النِّية ؛ لأنَّ اللَّه يعلم ما في القلب ، وما يجازي الإنسان يوم القيامة إلَّا على ما في قلبه ، لقول اللَّه تعالى : ﴿ إِنَّهُۥ عَلَىٰ رَجۡعِهِۦ لَقَادِرٞ ۝٨ يَوۡمَ تُبۡلَى ٱلسَّرَآئِرُ ۝٩ فَمَا لَهُۥ مِن قُوَّةٖ وَلَا نَاصِرٖ ﴾ [الطارق : ٨، ١٠] .

أي يوم تُخْتبر السرائر – البواطن – كقوله : ﴿ أَفَلَا يَعۡلَمُ إِذَا بُعۡثِرَ مَا فِي ٱلۡقُبُورِ ۝٩ وَحُصِّلَ مَا فِي ٱلصُّدُورِ ﴾ [العاديات : ٩، ١٠] .

ففي الآخرة يكون الثَّواب والعِقاب والاعتبار بما في القلب ، أما في الدنيا : فالعِبْرة بما ظهر ، فيعامل الناس بظواهر أحوالهم ، ولكن هذه الظواهر !! إن وافقت ما في البواطن صَلُحَ ظاهره وباطنه وسريرته وعلانيته ، وإن خالفت وصار القلب منطويًا على نيَّةٍ فاسدةٍ فما أعظم خسارته ، يعمل ويَتْعب ولا

حظٌّ له في العمل ، كما جاء في الحديث الصَّحيح عن النبي ﷺ : « إنَّ اللّٰه قال : أنَا أغْنى الشُّركاء عَن الشرْكِ ، مَنْ عمِلَ عملًا أشْرَكَ فِيهِ مَعِي غَيرِي تَرَكْتُهُ وشِرْكَه »[١] ، فاللّٰه اللّٰه ، أيها الإخوة بالإخلاص للّٰه .

واعلم أن الشيطان قد يأتيك عند إرادة عَمَل الخَير فيقول إنَّك إنما تعمل هذا رياءً !!

فيُحْبِط همَّتك ويُثبِّطُها ولكن لا تَلْتفِت إلى هذا ولا تُطِعْه بل اعمل ؛ لأنك لو سُئلْتَ : هل أنت الآن تعمل هذا رياءً وسمعة ؟ قلت : لا !! إذن فهذا الوسواس الذي أدْخَله الشَّيطان في قلبك لا تلتفت له .

* * *

١ - وعَنْ أَمِير الْمُؤْمِنِينَ أَبِي حَفْصٍ عُمَرَ بْنِ الخَطَّابِ بْنِ نُفَيلِ بْنِ عَبْدِ الْعُزَّى بْنِ رِيَاحِ بْنِ عَبْدِ اللّٰهِ بْنِ قُرْطِ بْنِ رَزَاحِ بْنِ عَدِيِّ بْنِ كَعْبِ بْنِ لُؤَيِّ بن غالب الْقُرشيِّ الْعَدَوِيِّ ﷺ قَالَ : سَمِعْتُ رَسُولَ اللّٰهِ ﷺ يَقُولُ : « إِنَّمَا الأَعْمَالُ بالنِّيَّاتِ ، وَإنَّمَا لكُلِّ امْرِئٍ مَا نَوى ، فَمَنْ كَانَت هجْرَتُهُ إِلَى اللّٰهِ وَرَسُولِهِ ؛ فَهِجْرَتُه إِلَى اللّٰهِ وَرَسُولِهِ ، وَمَنْ كَانَتْ هِجْرَتُهُ لِدُنْيَا يُصِيبُهَا أَو امْرَأَةٍ يَنْكِحُهَا ؛ فَهِجْرَتُهُ إِلَى مَا هَاجَرَ إِلَيهِ »[٢] مُتَّفَقٌ عَلَى صِحتِهِ . رواهُ إمَاما المُحَدِّثِينَ : أَبُو عَبْدِ اللّٰهِ مُحَمَّدُ بْنُ إِسْمَاعِيلَ بْنِ إِبْراهِيمَ بْن الْمُغِيرَةِ بْنِ بَرْدِزْبَة الْجُعْفِيُّ الْبُخاريُّ ، وَأَبُو الْحُسَينِ مُسْلمُ بْنُ الْحَجَّاجِ بْن مُسْلمِ الْقُشَيرِيُّ النَّيسَابُورِيُّ رضي الله عنهما فِي صَحيحيهِما اللَّذَين هُما أَصَحُّ الْكُتُبِ الْمُصنفة .

الشرح

لما كان هذا الباب في الإخلاص للّٰه ، وأنَّه ينبغي أن تكون النية المخلصة للّٰه في كل قول وفي كل فعلٍ وعلى كُلِّ حال ، وذكر المؤلف من الآيات ما يتعلَّق بهذا المعنى ، ذكر رحمه الله من الأحاديث ما يتعلَّق به أيضًا ، وصدَّر هذا بحديث عمر بن الخطاب الذي قال فيه : سمعت الرسول ﷺ يقول : « إنَّما الأعْمالُ بِالنيَّاتِ وَإنَّما لكل امْرِئٍ ما نَوى » هاتان الجملتان اختلف العلماء - رحمهم اللّٰه - فيهما ، فقال بعض العلماء : إنهما جملتان بمعنى واحد ، وأن الجملة الثَّانية تأكيدٌ للجملة الأولى ، ولكن هذا ليس بصحيح ؛ وذلك لأنَّ الأصل في الكلام أن يكون تأسيسًا لا تأكيدًا . ثمَّ إنَّهما عند التأمل يتبيَّن أنَّ بينهما فَرْقًا عظيمًا .

فالأولى سَبَبٌ ، والثَّانية نَتِيجةٌ .

الأولى سبب : يُبيِّن فيها النبي ﷺ أنَّ كُلَّ عمل لابد فيه من نيَّة . كل عملٍ يعمله الإنسان وهو عاقل مختار فلابد فيه من نيَّة ، ولا يمكن لأي عاقل مختار أن يعمل عملًا إلَّا بنيَّة .

---

(١) أخرجه مسلم في الزهد (٤٦) .

(٢) أخرجه البخاري في بدء الوحي (١) - واللفظ له - وفيه (لدنْيَا يصيبها) ، ومسلم في الإمارة (١٥٥) .

حتى قال بعض العلماء : (لو كلَّفنا اللَّه عملًا بلا نيّة لكان من تكليف ما لا يُطاق !) . وهذا صحيح ، كيف تعمل وأنت عاقل في عقلك وأنت مختار غير مُكره عملًا بلا نيّة ؟ هذا مستحيل لأن العمل ناتج عن إرادة وقدرة ، والإرادة هي النّية ، إذًا فالجملة الأولى معناها : أنّه ما من عامل إلّا وله نيّة .

ولكن النّيات تختلف اختلافًا عظيمًا وتتباين تباينًا بعيدًا كما بين السَّماء والأرض ، من الناس من نيّته في القمة في أعلى شيء ، ومن النَّاس من نيّته في القمامة في أخسِّ شيء وأدنى شيء . حتى إنك لترى الرَّجلين يعملان عملًا واحدًا يتّفقان في ابتدائه وانتهائه وفي أثنائه ، وفي الحركات والسَّكنات ، والأقوال والأفعال ، وبينهما كما بين السَّماء والأرض ، كل ذلك باختلاف النّية . إذًا الأساسُ أنّه : ما من عمل بلا نية .

نتيجة قوله : « وإنّما لِكُلِّ امْرِىءٍ مَا نَوى » إن نويت اللَّه والدار الآخرة في أعمالك الشرعية حصل لك ذلك ، وإن نويت الدُّنيا فقد تَحْصل وقد لا تحصل .

قال اللَّه : ﴿ مَّن كَانَ يُرِيدُ ٱلْعَاجِلَةَ عَجَّلْنَا لَهُۥ فِيهَا مَا نَشَآءُ لِمَن نُّرِيدُ ﴾ [الإسراء: ١٨] ما قال عجلنا له ما يُريد !! بل قال ما نَشاء - أي لا ما يشاء هو - لمن نريد لَا لِكُلِّ إنسان فقيَّد المُعَجَّل والمُعَجَّل له . إذًا مِنَ النَّاس مَنْ يُعْطى ما يُريد من الدُّنيا ، ومنهم من يُعطى شيئًا منه ، ومنهم من لا يعطى شيئًا أبدًا . هذا معنى قوله : ﴿ عَجَّلْنَا لَهُۥ فِيهَا مَا نَشَآءُ لِمَن نُّرِيدُ ﴾ [الإسراء: ١٨] ﴿ وَمَنْ أَرَادَ ٱلْءَاخِرَةَ وَسَعَىٰ لَهَا سَعْيَهَا وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَأُو۟لَٰٓئِكَ كَانَ سَعْيُهُم مَّشْكُورًا ﴾ [الإسراء: ١٩] لابد أن يجني هذا العمل الَّذي أراد به وَجْه اللَّه والدَّار الآخرة .

وقوله : « إنّما الأعْمالُ بالنِّيات ... إلخ » هذه ميزان لكل عملٍ ، لكنه ميزان الباطن .

وقوله ﷺ فيما أخرجه الشيخان عن عائشة رضي الله عنها : « مَنْ عمِلَ عَمَلًا ليسَ عليه أمْرُنَا فَهُو رَدٌّ [١] » [٢] ، ميزان للأعمال الظَّاهرة .

ولهذا قال أهل العلم : (هذان الحديثان يجمعان الدِّين كُلَّه) .

ثم ضرب النّبي ﷺ مثلًا يطبق هذا الحديث عليه ، قال : « فَمَنْ كانت هجْرَتُه إلى اللَّه وَرَسُولِه فَهِجْرَتُه إلى اللَّه وَرَسُوله ، وَمَن كانت هِجْرته لِدُنيا يُصيبها أو امْرَأةٍ يَنْكِحُها ؛ فِهجْرَتُه إلى مَا هَاجَر إليهِ » .

« الهجرة » : أن ينتقل الإنسان من دار الكفر إلى دار الإسلام . مثل أن يكون في أمريكا - وأمريكا دار كفر - فيُسْلم ولا يتمكن من إظهار دينه هناك ، فينتقل منها إلى البلاد الإسلامية . هذه هي الهجرة ، إذا هاجر النَّاس ، فهم يختلفون في الهجرة ، منهم من يهاجر وَيَدع بلده إلى اللَّه ورسوله ، يعني إلى شريعة اللَّه التي شرعها اللَّه على لسان رسوله ﷺ ، هذا هو الذي ينال الخير ، وينال مقصوده ولهذا قال : « فَهِجْرَتُه إلى اللَّه وَرَسُوله » أي فقد أدرك ما نَوى .

---

(١) ردٌّ : أي مردود عليه . لسان العرب (١٦٢١) .

(٢) أخرجه البخاري في الاعتصام (باب إذا اجتهد العامل أو الحاكم ٢٠) ومسلم في الأقضية (١٨) .

الثاني : هاجر لدنيا يُصيبها ، مثلًا : رجل يحبُّ جمع المال ، فسمع أن في بلاد الإسلام مرتعًا خصبًا لاكتساب الأموال ، فهاجر من بلد الكفر إلى بلد الإسلام فقط ، لا يقصد أن يستقيم على دينه ولا يهتم لدينه ، إنما همُّه المال .

ثالثًا : رَجُلٌ هاجر من بلد الكفر إلى بلد الإسلام يُريد امرأة يتزوجها ، قيل له لا نزوِّجُك إلا في بلاد الإسلام ، ولا تسافر بها إلى بلاد الكفر ، فهاجر من بلده إلى بلاد الإسلام من أجل المرأة . فمُريد الدُّنيا ومُريد المرأة لم يهاجرا إلى اللَّه ورسوله ، ولهذا قال الرسول ﷺ « فهجرته إلى ما هاجر إليه » ، وهنا قال « إلى ما هَاجَرَ إلَيهِ » ولم يقل : « فهجرته إلى دُنيا يُصيبها أو امرأة يَنْكِحها » فلماذا ؟ قيل : لطول الكلام ، فإذا قيل : فهجرته إلى دنيا يصيبها أو امرأة ينكحها ، طال الكلام . وقيل : بل لم يُنصّ عليهما احتقارًا وإعراضًا عن ذكرهما ؛ لأنها نية فاسدة مُنْحَطَّة . وعلى كل حال فإن هذا الذي نوى بهجرته الدُّنيا أو المرأة لا شك أن نيته سافلة مُنْحَطَّة هابطة بخلاف الأوَّل الذي هاجر إلى اللَّه وَرُسُوله ﷺ .

أقسام الهجرة :

الهجرة تكون للعمل ، وتكون للعامل ، وتكون للمكان .

القسم الأول : هجرة المكان : كأن ينتقل الإنسان من مكان تكثر فيه المعاصي ويكثر فيه الفُسوق وربما يكون بلد كفر إلى بلد لا يوجد فيه ذلك ، وأعْظمه الهجرة من بلد الكفر إلى بلد الإسلام ، وقد ذكر أهل العلم أنه تجب الهجرة من بلد الكفر إلى بلد الإسلام إذا كان الإنسان لا يستطيع أن يُظهر دينه . وأمَّا إذا كان قادرًا على إظهار دينه ولا يُعارض إذا أقام شعائر الإسلام ؛ فإن الهجرة لا تجب عليه ولكنها تستحب ، وبناءً على ذلك يكونُ السَّفر إلى بَلد الكفر أعظم من البقاء فيه ، فإذا كان بلد الكفر الذي كان وطن الإنسان إذا لم يستطع إقامة دينه فيه وَجَبَ عليه مغادرته والهجرة منه .

فكذلك إذا كان الإنسان من أهل الإسلام ومن بلاد المسلمين ؛ فإنه لا يجوز له أن يُسافر إلى بلد الكفر لما في ذلك من الخطر على دينه وعَلَى أخلاقه ولما في ذلك من إضاعة ماله ولما في ذلك من تقوية اقتصاد الكفار ونحن مأمورون بأن نغيظ الكفار بكل ما نستطيع كما قال اللَّه تبارك وتعالى : ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ قَٰتِلُواْ ٱلَّذِينَ يَلُونَكُم مِّنَ ٱلْكُفَّارِ وَلْيَجِدُواْ فِيكُمْ غِلْظَةًۚ وَٱعْلَمُوٓاْ أَنَّ ٱللَّهَ مَعَ ٱلْمُتَّقِينَ ﴾ [التوبة : ١٢٣] وقال تعالى : ﴿ وَلَا يَطَـُٔونَ مَوْطِئًا يَغِيظُ ٱلْكُفَّارَ وَلَا يَنَالُونَ مِنْ عَدُوٍّ نَّيْلًا إِلَّا كُتِبَ لَهُم بِهِۦ عَمَلٌ صَٰلِحٌۚ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُضِيعُ أَجْرَ ٱلْمُحْسِنِينَ ﴾ [التوبة : ١٢٠] .

فالكافر أيًّا كان ، سواء كان من النَّصارى ، أو من اليهود ، أو من الملحدين ، وسواء تسمَّى بالإسلام أم لم يَتَسم بالإسلام ، الكافر عدو للَّه ولكتابه ولرسوله وللمؤمنين جميعًا ، مهما تلبَّس بما يتلبَّس به ؛ فإنه عدو !!

فلا يجوز للإنسان أن يُسافر إلى بلد الكفر إلا بشروط ثلاثة :

الشَّرط الأول : أن يَكُونَ عِندَهُ عِلْمٌ يدفعُ به الشُّبهات ؛ لأن الكفار يُوردون على المسلمين شُبَهًا في دينهم ، وفي رَسُولهم ، وفي كتابهم ، وفي أخلاقهم ، في كل شيء يُوردون الشُّبهة ليبقى الإنسان

شَاكًا متذبذبًا ، ومن المعلوم أن الإنسان إذا شكَّ في الأمور التي يجب فيها اليقين ؛ فإنَّه لم يقم بالواجب ، فالإيمان باللَّه ، وملائكته وكتبه وَرُسله واليوم الآخر والقدر خيره وشره ، يجب أن يكون يقينًا ، فإن شكَّ الإنسان في شيء من ذلك فهو كافر .

فالكفار يُدْخِلون على المسلمين الشَّك حتى أنَّ بعض زعمائهم صرَّح قائلًا : « لا تحاولوا أن تخرجوا المسلم من دِينه إلى دين النَّصارى ، ولكن يكفي أن تُشَكِّكُوه في دينه ؛ لأنكم إذا شكَّكْتموه في دِينه سَلَبْتموه الدِّين ، وهذا كافٍ » .

أنتم أخرجوه من هذه الحظيرة التي فيها العزة والغلبة والكرامة ويكفي ، أما أن تحاولوا أن تدخلوه في دين النَّصارى المبني على الضَّلال والسَّفاهة فهذا لا يمكن ؛ لأن النَّصارى ضالون كما جاء في الحديث عن الرسُول ﷺ [1] وإن كان فدين المسيح دينٌ حَقٌّ لكنه دِينُ الحقِّ في وقته قبل أن يُنسخ بِرِسَالة النبي ﷺ .

الشَّرط الثاني : أن يكون عنده دين يَحْمِيه من الشَّهوات ؛ لأن الإنسان الذي ليس عنده دين إذا ذهب إلى بلاد الكفر انغمس ؛ لأنه يجد زهرة الدُّنيا هناك ، من خمر وزنى ولِواط وغير ذلك .

الشَّرط الثالث : أن يكون محتاجًا إلى ذلك مثل أن يكون مريضًا يحتاج إلى السَّفر إلى بلاد الكفر للاستشفاء ، أو يكون محتاجًا إلى علم لا يوجد في بلاد الإسلام تَخَصُّص فيه فيذهب إلى هناك أو يكون الإنسان محتاجًا إلى تجارة ، يذهب ويتَّجر ويرجع . المهم أن يكون هناك حاجة ، ولهذا أرى أن الذين يُسافرون إلى بلد الكفر من أجل السِّياحة فقط أرى أنهم آثمون ، وأن كل قرش يَصْرفونه لهذا السَّفر فإنه حرام عليهم وإضاعةٌ لمالهم ، وسَيُحاسَبُون عنه يوم القيامة حين لا يجدون مكانًا يتفسَّحون فيه أو يتنزهون فيه . حين لا يجدون إلا أعمالهم ؛ لأن هؤلاء يُضَيِّعون أوقاتهم ، ويُتْلِفون أموالهم ، ويُفسدون أخلاقهم ، وكذلك ربما يكون معهم عوائلهم ، ومن عجب أن هؤلاء يذهبون إلى بلاد الكفر التي لا يُسمع فيها صوت مؤذن ولا ذِكْرُ ذاكر وإنما يُسمع فيها أبواق اليهود ونواقيس النَّصارى ثم يبقون فيها مدة هم وأهلوهم وبنوهم وبناتهم فيحصل في هذا شرٌّ كثير نسأل اللَّه العافية والسلامة .

وهذا من البلاء الذي يَحلُّ اللَّه به النَّكبات ، والنَّكبات التي تأتينا والتي نحن الآن نعيشها كلها بسبب الذُّنوب والمعاصي ، كما قال اللَّه : ﴿ وَمَآ أَصَـٰبَكُم مِّن مُّصِيبَةٍ فَبِمَا كَسَبَتْ أَيْدِيكُمْ وَيَعْفُواْ عَن كَثِيرٍ ﴾ [الشورى : ٣٠] .

نحن غافلون في بلادنا ، كأن ربنا غافل عنا ، كأنه لا يعلم ، كأنَّه لا يُملي للظَّالم حتى إذا أخذه لم يُفلته . والنَّاس يُعْصرون في هذه الحوادث ولكن قلوبهم قاسية والعياذ باللَّه ! وقد قال اللَّه سبحانه : ﴿ وَلَقَدْ أَخَذْنَـٰهُم بِٱلْعَذَابِ فَمَا ٱسْتَكَانُواْ لِرَبِّهِمْ وَمَا يَتَضَرَّعُونَ ﴾ [المؤمنون : ٧٦] .

أخذهم العذاب ونزل بهم ومع ذلك ما استكانوا إلى اللَّه ، ومَا تضرَّعوا إليه بالدُّعاء ، ومَا خافوا من

---

(١) أخرجه الترمذي في تفسير سورة الفاتحة (٢٩٥٣) وقال : هذا حديث حسنٌ غريب لا نعرفه إلا من حديث سِماكِ بن حرب .

سَطْوته ، لكن قَسَت القُلُوب - نسْأَلُ اللَّه العافية - ومَاتت حتى أصبحت الحَوادث المصيرية تمرُّ على القلب وكأنها ماءٌ بارد - نعوذ باللَّه من موت القلب وقسوته - وإلا لو كان النَّاس في عقل وصحوة وفي قلوب حية ما سَارُوا على هذا الوضع الذي عليه نحن الآن ، مع أننا في وضع نعتبر أننا في حال حربٍ مدمرة مُهلكة ، حرب غازات الأعصاب والجنود وغير ذلك ، ومع هذا لا تجد أحدًا حَرَّك ساكنًا ، إلا أن يشاء اللَّه .

إنَّ أناسًا في هذه الظروف العصيبة ذهبوا بأهليهم يتنزهون في بلاد الكفر وفي بلاد الفِسق وفي بلاد المجون والعياذُ باللَّه !

أقول مرة ثانية : إنَّ الهجرة من بلد الكفر الذي لا يستطيع أن يقيم الإنسان فيه دينه واجبة . والسَّفر إلى بلاد الكفر للدَّعوة يجوز إذا كان له أثر وتأثير هناك فإنه جائز ؛ لأنه سفر لمصلحة ، وبلاد الكفر كثير من عوامهم قد عُمِّيَ عليهمُ الإسلام لا يَدْرُون عن الإسلام شيئًا بل قد ضُلِّلوا وقيل لهم إن الإسلام دين وَحْشيَّة وهَمَجية ورعاع ، ولا سيما إذا سمع الغرب هذه الحوادث التي جرت على يد أناسٍ يقولون أنهم مُسْلمون ، سيقولون أين الإسلام ؟! هذه وَحْشِيَّة !! فينفرون من الإسلام بسبب المسلمين وأفعَالهم ، نسأل اللَّه أن يهدينا أجمعين .

القسم الثاني : هجرة العمل ، وهي أن يهجر الإنسان مَا نَهاهُ اللَّه عنه من المعاصِي والفُسوق كما قال النبي ﷺ : « المُسْلِمُ مَنْ سَلِمَ المُسْلِمُونَ مِن لِسَانِهِ ويَدِهِ ، والمُهَاجِرُ مَنْ هَجَر ما نَهى اللَّه عَنْهُ »[١] فاهجر كل ما حرَّم اللَّه عليك سواء كان ممَّا يتعلق بحقوق اللَّه أو مما يتعلَّق بحقوق عباد اللَّه فتهجر السَّب والشَّتم والقتل والغِش وأكل المال بالباطل وعُقُوق الوالدين وقطيعة الأرحام وكل شيء حرَّم اللَّه تهجره ، حتى لو أن نفسك دَعَتْك إلى هذا وألحَّت عليك فذكِّرها أنَّ اللَّه حرَّم ذلك حتى تَهجُره وتبعد عنه .

القسم الثالث : هجرة العامل ، فالعامل قد تجب هِجْرتُه أحيانًا ، قال أهل العلم : مثل الرَّجل المُجَاهر بالمعصية الذي لا يُبالي بها فإنه يُشْرَعُ هَجْره إذا كان في هَجْرِه فائدة ومَصلحة . والمصلحة والفائدة أنه إذا هُجِر عَرَفَ قَدْرَ نفسه ورجع عن المعصية .

ومثال ذلك : رَجُلٌ مَعْرُوفٌ بالغِش بالبيع والشِّراء فيهجره النَّاس ، فإذا هجروه تَابَ من هذا وَرَجَع ونَدِمَ ، ورجل ثانٍ يتعامل بالرِّبا فيهجره الناس ولا يُسلِّمون عليه ولا يكلمونه ، فإذا عرف هذا خَجلَ من نفسه وعاد إلى صَوابه .

أما إذا كان الهَجْرُ لا يفيد ولا ينفع وهو من أجل مَعْصية لا من أجل كفر ؛ لأن الكافر المُرْتدَّ يُهجر على كل حال - أفاد أم لم يفِد - لكن صاحب المعصية التي دون الكفر إذا لم يكن في هجره مصلحة ؛ فإنَّه لا يَحلُّ هجره ؛ لأنَّ الرسول ﷺ قال : « لَا يَحِلُّ لِمُؤمِنٍ أنْ يَهْجُرَ أخاهُ فَوقَ ثَلَاثٍ ، يَلْتَقِيانِ فَيُعْرِضُ هَذا ، وَيُعرِضُ هَذا ؛ وخَيرُهُمَا الَّذي يَبْدأ بِالسَّلام »[٢] .

---

(١) أخرجه البخاري في الرِّقاق (٦٤٨٤) - واللفظ له - ومسلم في الإيمان (٦٥) .
(٢) أخرجه البخاري في الأدب (٦٠٧٧) ، ومسلم في البر والصلة (٢٥) واللفظ له .

ومن المعلوم أن المعاصي التي دون الكفر عند أهل السُّنة والجماعة لا تُخْرج من الإيمان . فيبقى النَّظر هل الهجر يُفيد أم لا ، فإن أفاد ؛ فإنه يُهجر ، ودَليل ذلك قِصَّه كعب بن مالك ، وهلال بن أمية ، ومرارة بن الرَّبيع ﷺ الذين تخلفوا عن غزوة تبوك فهجرهم النبي ﷺ ، وأمَر المسلمين بهجرهم لكنهم انتفعوا في ذلك انتفاعًا عظيمًا ، ولجؤوا إلى اللَّه وضَاقت عليهم الأرض بما رَحُبت ، وضاقت عليهم أنفسهم وأيقَنوا أن لا ملجأ من اللَّه إلَّا إليه فتابوا وتاب اللَّه عليهم [١] .

هذه أنواع الهجرة : هجرة المكان ، وهجرة العَمَل ، وهجرة العَامِل .

* * *

٢ – وَعَنْ أُمِّ الْمُؤْمِنِينَ أُمِّ عَبْدِ اللَّهِ عائشة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا قَالَتْ : قَالَ رَسُولُ اللَّه ﷺ : « يَغْزُو جَيشٌ الْكَعْبَةَ فَإِذَا كَانُوا بِبَيدَاءَ مِنَ الأَرْضِ يُخْسَفُ بأَوَّلِهِمْ وآخِرِهِمْ » . قَالَتْ : قُلْتُ : يَا رسُولَ اللَّه ، كَيفَ يُخْسَفُ بأَوَّلِهِمْ وآخِرِهِمْ وَفِيهِمْ أَسْوَاقُهُمْ وَمَنْ لَيسَ مِنْهُمْ !؟ قَالَ : « يُخْسَفُ بأَوَّلِهِمْ وآخِرِهِمْ ، ثُمَّ يُبْعَثُون عَلى نِيَّاتِهِمْ » [٢] . مُتَّفقٌ عَلَيه . هذَا لَفْظُ الْبُخَارِيِّ .

الشرح

قوله : « يغزو جيش الكعبة » الكعبة المشرَّفة حَمَاها اللَّه وأنقذها من كل شر . هذه الكعبة هي بيت اللَّه بناه إبراهيم وابنه إسماعيل ، وكانا يرفعان القواعد من البيت ويقولان : ﴿ رَبَّنَا تَقَبَّلْ مِنَّآ إِنَّكَ أَنتَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ ﴾ [البقرة : ١٢٧] . هذا البيت أراد أبرهة أن يغزوه من اليمن فغزاه بجيش عظيم في مقدمه فيل عظيم يُريد أن يهدم به الكعبة بيت اللَّه ، فلما قرب من الكعبة ووصل إلى مكان يقال له : المُغَمَّس حَرَنَ الفيل ، وأبى أن يتقدَّم فجعلوا ينهرونه ليتقدم إلى الكعبة فأبَى ، فإذا صرفوه نحو اليمن هرول وأسرع ، ولهذا قال الرَّسول – عليه الصَّلاة والسلام – في غزوة الحديبية لما أن ناقته حرنت وأبت أن تمشي فقال الصحابة : خلأت القصواء خلأت القصواء – يعني حرنت وبركت من غير علة – قال الرَّسول ﷺ : « واللَّه ما خَلأت القَصْوَاء وَمَا ذاك لَهَا بخلق ! » النبي – عليه الصلاة والسلام – يُدافع عن بهيمة ، لأن الظلم لا ينبغي ولو على البهائم .

« مَا خَلأَتِ القَصْوَاء وَمَا ذَاكَ لَها بِخُلُق – أي عادة – بَلْ حَبَسَها حَابِسُ الفِيل » ، وحَابِسُ الفيل : هو الرَّب ﷻ ، « والذي نَفْسِي بِيَدِه لا يَسْأَلُوني خُطَّة يُعظِّمُون فيها حُرُمَاتِ اللَّه إلَّا أجَبْتُهم عَلَيهَا » [٣] .

المهم أن الكعبة غُزِيت من قبل اليَمن في جيش عظيم يقوده هذا الفيل العظيم ليهدم الكعبة فلما وصلوا إلى المغمس أبى الفيل أن يَمْشي وحَرَن ، فانتهروه ولكن لا فائدة فبقوا هناك وانحبسوا ، فأرسل اللَّه عليهم طيرًا أبَابيل ، والأبابيل : الجماعات الكثيرة من الطُّيور ، وكل طير يحمل حجرًا قد أمسكه

---

(١) انظر في قصتهم في سورة التوبة الآية (١١٨) وانظر البخاري في تفسير القرآن (٤٦٧٧) ، ومسلم في التوبة (٥٥) .
(٢) أخرجه البخاري في البيوع (٢١١٨) – واللفظ له – ومسلم في الفتن (٨) .
(٣) أخرجه البخاري في الشروط (٢٧٣١) وفيه « إلا أعطيتهم إياها » .

برجله ثم يرسله على الواحد منهم حتى يَضْربه مع هامته حتى يخرج إلى دُبره : ﴿ فَجَعَلَهُمْ كَعَصْفٍ مَّأْكُولٍ[١] ﴾ [الفيل : ٥] كأنهم زرع أكَلَتْهُ البهائم ، واندكوا في الأرض ، وفي هذا يقول أميَّة بن الصَّلت :

حبسَ الفِيل بالمُغمَّس [٢] حتى صار يحْبُو كأنَّه مَعْقُور

فحمى اللَّه ﷻ بيته من كَيد هذا الملك الظالم الذي جاء لكي يهدم بيت اللَّه وقد قال اللَّه ﷻ : ﴿ وَمَن يُرِدْ فِيهِ بِإِلْحَادٍ[٣] بِظُلْمٍ نُّذِقْهُ مِنْ عَذَابٍ أَلِيمٍ ﴾ [الحج : ٢٥] في آخر الزمان يغزو قوم الكعبة ، جيش عظيم .

وقوله : « حَتَّى إذَا كَانُوا بِبَيداء مِن الأرْض » أي بأرض واسعة ، خسف اللَّه بأوَّلهم وآخرهم . خسفت بهم الأرض وساخوا فيها هم وأسواقهم وكل من معهم . وفي هذا دَليلٌ على أنَّهم جيش عظيم ؛ لأنَّ معهم أسواقهم للبيع والشِّراء وغير ذلك .

فيخسف اللَّه بأولهم وآخرهم . لمَّا قال الرسول ﷺ هذا وَرَدَ على خاطر عائشة رضي الله عنها سؤال : « كَيفَ يُخسَفُ بأوَّلهم وآخرهم وَفيهم أسْواقهم ومَنْ لَيس مِنهم ؟ » أسواقهم : الذين جاءوا للبيع والشِّراء ليس لهم قصد سيء في غزو الكعبة . وفيهم أناس ليسوا منهم تَبعُوهم من غير أن يعلموا بخطتهم فقال الرسول ﷺ : « يُخْسَفُ بأوَّلِهم وآخِرِهم وأسْوَاقِهم وَمَن لَيسَ منْهم ، ثمَّ يُبْعثُونَ يومَ القِيامَة على نيَّاتِهم » كل له ما نَوى .

هذا فرد من أفراد قول الرَّسول عليه الصَّلاة والسَّلام : « إنَّما الأعْمَالُ بالنِّياتِ ، وإنَّما لِكلِّ امْرِئٍ مَا نَوى » .

وفي هذا الحديث عبرة : أنَّ من شارك أهل الباطل وأهل البغي والعداون ؛ فإنَّه يكون معهم في العقوبة الصَّالح والطَّالح [٤] ، العقوبة إذا وقعت تعمُّ ولا تترك أحدًا ثم يوم القيامة يبعثون على نيَّاتهم .

يقول اللَّه ﷻ : ﴿ وَاتَّقُواْ فِتْنَةً لَّا تُصِيبَنَّ الَّذِينَ ظَلَمُواْ مِنكُمْ خَاصَّةً وَاعْلَمُواْ أَنَّ اللَّهَ شَدِيدُ الْعِقَابِ ﴾ [الأنفال : ٢٥] .

والشاهد من هذا الحديث قول الرَّسول ﷺ : « ثم يُبْعثُونَ عَلَى نِيَّاتِهم » فهو كقوله : « إنَّما الأعْمَالُ بالنِّياتِ وإنَّما لِكُلِّ امْرِئٍ مَا نَوى » .

* * *

٣ – وعَنْ عَائِشَةَ رضي الله عنها قَالَتْ : قَالَ النَّبيُّ ﷺ : « لا هِجْرَةَ بَعْدَ الْفَتْحِ ، وَلكنْ جِهَادٌ وَنِيةٌ ، وَإذَا اسْتُنفِرْتُم فَانْفِرُوا » [٥] مُتفَقٌ عَلَيهِ .

وَمَعْنَاهُ : لا هِجْرَةَ مِنْ مَكَّةَ ؛ لأنَّهَا صَارَتْ دَارَ إسْلامٍ .

---

(١) كعصفٍ مأكول : أي كتبنٍ أكلته الدوابُّ وراثته . صفوة البيان لمعاني القرآن ص (٨٢٥) .

(٢) المغمَّس : اسم المفعول من غمستُ الشيءَ في الماء إذا غيبتهُ فيه : موضع قرب مكة في طريق الطائف مات فيه أبو رغال وقبره يرجم لأنه كان دليل صاحب الفيل فمات هناك . معجم البلدان (١٦١/٥) .

(٣) ومن يرد فيه بإلحاد : أي ومن يرد فيه مرادًا ما عادلاً عَن القصد والاستقامة ، فيشمل سائر الآثام ؛ لما فيه من الميل عن الحق إلى الباطل . صفوة البيان لمعاني القرآن ص ٤٢٧ .

(٤) الطالح هو : الفاسد انظر المعجم الوسيط ص (٥٨١) .

(٥) أخرجه البخاري في الجهاد والسير (٢٧٨٣) ومسلم في الإمارة (٨٦) واستنفرتم : أي طلب منكم الخروج للجهاد .

الشرح

في هذا الحديث نفى رسول اللَّه ﷺ الهجرة بعد الفتح فقال : « لا هجرة » وهذا النفي ليس على عمومه ، يعني أن الهجرة لم تبطل بالفتح ؛ فإنه : « لا تَنْقِطع الهجرة حتَّى تَنْقطِع التَّوبة ، ولَا تَنْقطع التَّوبَة حتَّى تَخْرُج الشَّمْس مِن مَغْربها »[(١)] كما جاء ذلك في الحديث عن رسول اللَّه ﷺ ، لكن المراد بالنَّفي هنا نفي الهجرة من مكة كما قال المؤلف رَحِمَهُ اللَّهُ لأن مكة بعد الفتح صارت بلاد إسلام ، ولن تعود بعد ذلك بلاد كفر ، ولذلك نفى النَّبي ﷺ أن تكون هجرة بعد الفتح .

وكانت مكة تحت سيطرة المشركين وأخرجوا منها رسول اللَّه ﷺ ، فهاجر بإذن ربِّه إلى المدينة وبعد ثمان سنوات رجع النبي ﷺ إلى مكة فاتحًا مظفرًا منصورًا صلوات اللَّه وسلامه عليه .

فصارت البلد بدل كونها بلد كفر صارت بلد إيمان وبلد إسلام ، ولم يكن منها هجرة بعد ذلك .

وفي هذا : دَلِيلٌ على أن مكة لن تعود لتكون بلاد كفر بل ستبقى بلاد إسلام إلى أن تقوم السَّاعة أو إلى أن يَشَاء اللَّه . ثم قال : « وَلكِن جِهَادٌ وَنِيَة » أي الأمر بعد هذا جهاد ، أي يخرج أهل مكة من مكة إلى الجهاد .

و « النِّيَّة » أي النِّية الصَّالحة للجهاد في سبيل اللَّه وذلك بأن ينوي الإنسان بجهاده ، أن تكون كلمة اللَّه هي العليا .

ثم قال - عليه الصَّلاة والسَّلام - : « وإذَا اسْتُنْفِرتُم فانْفِرُوا » يعني : إذا استنفركم وَليُّ أمركم للجهاد في سبيل اللَّه فانفروا وجوبًا ، وحينئذٍ يكون الجهاد فرض عين . فلا يتخلَّف أحدٌ إلَّا من عَذره اللَّه ، لقول اللَّه تعالى : ﴿ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مَا لَكُمْ إِذَا قِيلَ لَكُمُ ٱنفِرُوا۟ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ ٱثَّاقَلْتُمْ إِلَى ٱلْأَرْضِ ۚ أَرَضِيتُم بِٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا مِنَ ٱلْـَٔاخِرَةِ ۚ فَمَا مَتَـٰعُ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا فِى ٱلْـَٔاخِرَةِ إِلَّا قَلِيلٌ ﴿٣٨﴾ إِلَّا تَنفِرُوا۟ يُعَذِّبْكُمْ عَذَابًا أَلِيمًا وَيَسْتَبْدِلْ قَوْمًا غَيْرَكُمْ وَلَا تَضُرُّوهُ شَيْـًٔا ﴾ [التوبة : ٣٨، ٣٩] وهذا أحد المواضع التي يكون فيها الجهاد فَرْضَ عين .

والموضع الثاني : إذا حصر بلدَه العدوُّ ، أي جاء العدو حتى وصل إلى البلد ؛ وحصر البلد صار الجهاد فَرْضَ عين ، ووجب على كل أحد أن يقاتل حتى على النساء والشُّيوخ القادرين في هذه الحال ؛ لأن هذا قتال دفاع . وفرق بين قتال الدِّفاع وقتال الطَّلب . فيجب في هذه الحال أن ينفر الناس كلهم للدِّفاع عن بلدهم .

الحالة الثالثة : إذا حضر الصَّف ، والتقى الصَّفَّان ، صفُّ الكفار وصَفُّ المسلمين ، صار الجهاد حينئذٍ فَرْضَ عين ، ولا يجوز لأحد أن ينصرف كما قال اللَّه تعالى : ﴿ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ إِذَا لَقِيتُمُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ زَحْفًا فَلَا تُوَلُّوهُمُ ٱلْأَدْبَارَ ﴿١٥﴾ وَمَن يُوَلِّهِمْ يَوْمَئِذٍ دُبُرَهُۥٓ إِلَّا مُتَحَرِّفًا لِّقِتَالٍ أَوْ مُتَحَيِّزًا إِلَىٰ فِئَةٍ[(٢)]

---

(١) أخرجه أبو داود في السنن (٢٤٧٩) ، والإمام أحمد في مسنده (٤/٩٩) .

(٢) إلا متحرفًا لقتال : أي إلا أن يكون في توليه منعطفًا عن موقفه إلى موقف آخر أصلح للقتال فيه . أو إلى قتال طائفة أخرى أهم من هؤلاء . أو خادعًا للعدو بالفرَّة ، مريدًا الكرَّة والحربُ خدعة . أو متحيزًا إلى فئة : أو إلَّا أن يكون في توليه منحازًا إلى جماعة أخرى من الجيش ومنضمًا إليها للتعاون معها على القتال . صفوة البيان لمعاني القرآن ص (٢٣٦) .

﴿فَقَدْ بَآءَ بِغَضَبٍ مِّنَ ٱللَّهِ وَمَأْوَىٰهُ جَهَنَّمُ وَبِئْسَ ٱلْمَصِيرُ﴾ [الأنفال: ١٥، ١٦].

وقد جعل النبي ﷺ التَّولي يومَ الزَّحف من السبع المُوبِقات (١) !

الموضع الرابع : إذا احتيج إلى الإنسان بأن يكون السِّلاح لا يعرفه إلَّا فردٌ من الأفراد ، وكان الناس يحتاجون إلى هذا الرجل لاستعمال هذا السلاح الجديد مثلًا - فإنه يتعيَّن عليه أن يُجاهد وإن لم يستنفره الإمام ؛ وذلك لأنه محتاج إليه .

ففي هذه المواطن الأربعة ، يكون الجهاد فرض عين . وما سوى ذلك فإنه يكون فرض كفاية .

قال أهل العلم : ويجب على المسلمين أن يكون منهم جهاد في العام مرة واحدة ، يجاهد أعداء الله لتكون كلمة الله هي العليا ، لا لأجل أن يدافعوا عن الوطن لأنه وطن ؛ لأن الدِّفاع عن الوطن من حيث هو وطن يكون من المؤمن والكافر ، حتى الكفار يُدافِعُون عن أوطانهم لكن المسلم يدافع عن دين الله ، فيدافع عن وطنه لا لأنَّه وطنه مثلًا ، ولكن لأنه بلد إسلامي فيدافع عنه حماية للإسلام .

ولهذا يجب علينا في مثل هذه الظروف التي نعيشها اليوم ؛ يجب علينا أن نذُكِّر جميع العامَّة بأن الدعوة إلى تحرير الوطن وما أشبه ذلك دعوة غير مناسبة ، وأنه يجب أن يُعبَّأَ الناس تعبئة دينية ، ويُقال : إننا ندافع عن ديننا قبل كل شيء ؛ لأن بلدنا بلدُ دين وإسلام يحتاج إلى حماية ودفاع ، فلابد أن ندافع عنه بهذه النيَّة . أمَّا الدِّفاع بنية الوطنيَّة أو بنيَّة القوميَّة فهذا يكون من المؤمن والكافر ، ولا ينفع صاحبه يوم القيامة ، وإذا قتل وهو يدافع بهذه النية فليس بِشَهيد ؛ لأن الرسول ﷺ سُئِلَ عَنِ الرَّجل يُقاتل حميَّةً ويُقاتل شجاعةً ويُقَاتِل لِيُرى مَكانَه - أيُّ ذلك في سبيلَ الله ؟ فقال : « مَن قَاتل لِتُكونَ كَلِمَةُ اللَّه هِيَ العُلْيا ، فَهُو في سَبيلِ اللَّه » (٢) . انتبه إلى هذا القَيد !!

إذا كنت تُقاتل لوطنك فأنت والكافر سَواء ، لكن قاتل لتكون كلمة الله هي العليا ممثلةً في بلدك لأن بلدك بلد إسلام . ففي هذه الحال ربما يكون القتال قتالًا في سبيل الله .

وثبت عنه ﷺ أنَّه قال : « مَا مِن مَكْلُومٍ يُكْلَمُ في سَبيل اللَّه ، واللَّه أعْلَمُ بِمَن يُكْلَمُ في سَبِيله - أي يُجْرَح - إلا جَاءَ يَومَ القِيَامَةِ وَجُرْحُه يَثْعَبُ (٣) دَمًا اللَّونُ لَونُ الدَّم ، والرِّيح ريح المِسْك » (٤) . فانظر كيف اشترط النَّبي ﷺ للشهادة أن يكون الإنسان يُقاتل في سبيل الله . فيجب على طلبة العلم أن يبيِّنوا هذا ، والله الموفق .

* * *

(١) انظر في ذلك البخاري في الوصايا (٢٧٦٦) ، ومسلم في الإيمان (١٤٥) والموبقات : أي المهلكات .

(٢) أخرجه البخاري في الجهاد والسير (٢٨١٠) ، ومسلم في الإمارة (١٥٠) .

(٣) « وجرحه يثعبُ دمًا » أي يجري .

(٤) أخرجه بنحوه البخاري في الذبائح (٥٥٣٣) ، ومسلم في الإمارة (١٠٥) ، وأحمد في مسنده ، (٢٤٢/٢) ، (٣٨٤/٢) .

٤ - وَعَنْ أَبِي عَبْدِ اللَّهِ جَابِرِ بْنِ عَبْدِ اللَّهِ الأَنْصَارِيِّ ﭬ قَالَ : كُنَّا مَعَ النَّبِيِّ ﷺ فِي غَزَاةٍ فَقَالَ : « إِنَّ بِالمَدِينَةِ لَرِجَالًا مَا سِرْتُمْ مَسِيرًا ، وَلَا قَطَعْتُمْ وَادِيًا إِلا كَانُوا مَعَكم ؛ حَبَسَهُمُ الْمَرَضُ » وفي رواية : « إلا شَرِكُوكُمْ فِي الأَجْرِ » رَوَاهُ مُسْلِمٌ .

ورواهُ الْبُخَارِيُّ عَنْ أَنَسٍ ﭬ قَالَ : رَجَعْنَا مِنْ غَزْوَةِ تَبُوكَ مَعَ النَّبِيِّ ﷺ فَقَالَ : « إِنَّ أَقْوَامًا خَلْفَنَا بِالْمَدِيْنَةِ مَا سَلَكْنَا شِعْبًا وَلا وَادِيًا إلا وَهُمْ مَعَنا ؛ حَبَسَهُمُ الْعُذْرُ » [١] .

الشرح

قوله : « في غزاة » أي في غزوة .

فمعنى الحديث : أن الإنسان إذا نَوَى العمل الصَّالح ولكنه حبسه عنه حابس فإنَّه يكتب له الأجر أجر ما نوى . أما إذا كان يعمله في حال عدم العذر ، أي : لما كان قادرًا كان يعمله ثم عجز عنه فيما بعد فإنه يكتب له أجر العمل كاملًا ، لأن النبي ﷺ قال : « إذا مرض العبد أو سافرَ كُتِب لهُ ما كانَ يعْملُ صَحيحًا مُقِيمًا » [٢] .

فالمتمني للخير ، الحريص عليه إن كان من عَادَته أنَّه كان يعمله ولكنه حَبَسه عنه حابس ؛ كتب له أجره كاملًا .

فمثلًا : إذا كان الإنسان من عادته أن يُصَلِّي مع الجماعة في المسجد ولكنه حبسه حابس كنومٍ أو مرضٍ أو ما أشبهه فإنَّه يُكْتب له أجْرُ المصَلِّي مع الجماعة تمامًا من غير نقص .

وكذلك إذا كان من عادته أن يُصلِّي تطوُّعًا ؛ ولكنه منعه مِنْهُ مَانِع ، ولم يتمكن مِنْهُ فإنَّه يُكْتَبُ له أجره كاملًا . وغيره من الأمثلة الكثيرة .

أما إذا كان ليس من عادته أن يفعله فإنَّه يُكتب له أجْرُ النيَّة فقط دون أجر العلم .

ودليله : أن فقراء الصَّحابة ﭬ قالوا : يَا رَسُولَ اللَّه سَبَقَنا أَهْلُ الدُّثور بالأجُور والنَّعيم المُقِيم - يعني إن أهل الأموال سبقوهم بالصَّدقة والعتق - فقال النبي ﷺ : « ألا أُخبِرُكم بشيءٍ إذا فَعَلْتمُوه أدْرَكْتم مَنْ سَبَقكُم ولَم يُدْرِككم أحد إلا مَنْ عملَ مِثْلَ ما عَمِلْتُم » فقالَ : « تُسبِّحُون وتُكبِّرون وتَحْمدون دُبُرَ كُلِّ صَلاةٍ ثلاثًا وثَلاثين » فَفَعلوا فَعِلمَ الأغْنياء بذلك فَفَعلوا مِثْلَما فَعَلُوا !!

فجاء الفقراء إلى الرسول ﷺ وقالوا : يا رسول اللَّه سَمِع إخْواننا أهْل الأمْوال بِمَا فَعَلْنا فَفعلوا مِثْله .

فقالَ النَّبي ﷺ : « ذَلِكَ فَضْلُ اللَّهِ يُؤْتِيهِ مَنْ يَشَاء » [٣] واللَّه ذُو الفضْلِ العظيم .

لم يقل لهم : إنكم قد أدركتم أجر عملهم ؛ لكن لا شك أن لهم أجر نيَّة العمل .

---

(١) أخرجه مسلم في الإمارة (١٥٩) ، والبخاري في المغازي (٤٤٢٣) والجهاد والسير (٢٨٣٩) .

(٢) أخرجه البخاري في الجهاد والسير (٢٩٩٦) . وفيه « صحيحًا مقيمًا » ، ورواه الإمام أحمد في مسنده (٤/٤١٠) بلفظه .

(٣) أخرجه مسلم في المساجد (١٤٢) و بلفظ قريب من هذا ، والبخاري في الأذان (٨٤٣) .

ولهذا ذكر النَّبي – عليه الصلاة والسلام – فيمن آتاه اللَّه مالًا فجعل ينفقه في سبُل الخير وكان رجل فقير يقول : لو أن لي مال فُلان لعملت فيه عملَ فلان ، قال النبي ﷺ : « فَهُو بِنِيَّتِه فَهُمَا في الأَجْر سَواء » (١) .

أي سواء في أجر النيَّة أما العمل : فإنَّه لا يُكْتب له أجره إلَّا إن كان من عادته أن يعمله .

● وفي هذا الحديث : إشارة إلى أن من خرج في سبيل اللَّه في الغزو والجهاد ، فإن له أجر ممشاه ، ولهذا قال النبي ﷺ : « مَا سِرْتُم مَسِيرًا ، وَلا قطعتم وَاديًا ، إلا كانوا مَعَكم » .

ويدلُّ لهذا قوله تعالى : ﴿ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ لَا يُصِيبُهُمْ ظَمَأٌ وَلَا نَصَبٌ وَلَا مَخْمَصَةٌ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَلَا يَطَـُٔونَ مَوْطِئًا يَغِيظُ الْكُفَّارَ وَلَا يَنَالُونَ مِنْ عَدُوٍّ نَّيْلًا إِلَّا كُتِبَ لَهُم بِهِ عَمَلٌ صَالِحٌ إِنَّ اللَّهَ لَا يُضِيعُ أَجْرَ الْمُحْسِنِينَ ﴿١٢٠﴾ وَلَا يُنفِقُونَ نَفَقَةً صَغِيرَةً وَلَا كَبِيرَةً وَلَا يَقْطَعُونَ وَادِيًا إِلَّا كُتِبَ لَهُمْ لِيَجْزِيَهُمُ اللَّهُ أَحْسَنَ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴾ [التوبة : ١٢٠، ١٢١] .

ونظير هذا : أنَّ الرجل إذا توضَّأ في بيته فأسبغ الوضوء ثمَّ خرج إلى المسجد لا يخرجه إلا الصَّلاة فإنَّه لا يخطو خطوة إلَّا رفع اللَّه له بها درجة ، وحطَّ عنه بها خطيئة . وهذا من فضل اللَّه ﷻ أن تكون وسائل العمل فيها هذا الأجر الذي بيَّنه الرَّسول ﷺ ، واللَّه الموفق اهـ .

* * *

٥ – وَعَنْ أَبِي يَزِيدَ مَعْنِ بْنِ يَزِيدَ بْنِ الأَخْنَسِ رضي الله عنهم – وَهُوَ وَأَبُوهُ وَجَدُّهُ صَحَابِيُّونَ – قَالَ : كَانَ أَبِي يَزِيدُ أَخرجَ دَنَانِيرَ يَتَصَدَّقُ بِهَا فَوَضَعَهَا عِنْدَ رَجُلٍ فِي الـمَسْجِدِ ، فَجِئتُ فَأَخَذْتُهَا فَأَتَيتُهُ بِهَا ، فَقَالَ : وَاللَّه مَا إِيَّاكَ أَرَدْتُ ، فَخَاصَمْتُه إِلَى رسول اللَّهِ ﷺ فَقَالَ : « لَكَ مَا نَوَيتَ يَا يَزِيدُ ، وَلَكَ ما أَخَذْتَ يَا مَعْنُ » (٢) رواه البخاريُّ .

الشرح

هذا الحديث الذي ذكره المؤلف رحمه الله في قصة معن بن يزيد وأبيه رضي الله عنهما ، أن أباه يزيد أخرج دراهم عند رجل في المسجد ليتصدَّق بها على الفقراء فجاء ابنه معن فأخذها ، ربَّما يكون ذلك الرَّجل الذي وكَّل فيها لم يعلم أنه ابن يزيد . ويحتمل أنه أعطاه لأنَّه من المستحقين .

فبلغ ذلك أباه يزيد فقال : « ما إِيَّاكَ أَرَدْتُ – أي ما أردت أن أتصدَّق بهذه الدَّراهم عليك – فذهب إلى رسول اللَّه ﷺ فقال : « لَكَ يا يَزِيدُ ما نويت ، ولك يَا مَعْنُ مَا أخذت » .

فقوله – عليه الصلاة والسلام – : « لك يا يزيد ما نويت » يدل على أن الأعمال بالنيات وأن الإنسان إذا نوى الخير حصل له وإن كان يزيد لم ينو أن يأخذ هذه الدراهم ابنه لكنه أخذها وابنه من المستحقين فصارت له ، ولهذا قال النبي – عليه الصلاة والسلام – : « لك يا معن ما أخذت » .

ففي هذا الحديث : دليل كما ساقه المؤلف من أجله على أن الأعمال بالنِّيات وأن الإنسان يُكتب له

(١) أخرجه الإمام أحمد في مسنده (٤/٢٣٠) ، وابن ماجه في السنن (٤٢٢٨) .

(٢) أخرجه البخاري في الزكاة (١٤٢٢) بلفظه ، والإمام أحمد في مسنده (٣/٤٧٠) .

أجر مَا نَوى وإن وقع الأمر على خِلاف ما نَوى ، وهذه القاعدة لها فروع كثيرة :

منها : ما ذكره العلماء - رحمهم اللَّه - : أن الرَّجل لو أعطى زكاته شخصًا يظن أنَّه من أهل الزكاة فتبيَّنَ أنَّه غني وليس من أهل الزكاة ، فإن زكاته تجزئ وتكون مقبولة تبرأ بها ذمته ؛ لأنَّه نوى أن يعطيها مَنْ هُو أهل لها ، فإذا نوى فله نيَّته .

ومنها : أن الإنسان لو وَقَف شيئًا ، كمثل أن يوقف بيتًا صغيرًا فقال : وَقَفْتُ بيتي الفلاني وأشار إلى الكبير لكنه خلاف مَا نَواه بقلبه ، فإنَّه على مَا نَوى وليس على ما سَبَق بِهِ لِسَانُه .

ومنها : لو أن إنسانًا جاهلًا لا يعرف الفرق بين العُمرة والحج ، فحج مع النَّاس فقال : لبيك حجًّا وهو يُريد عمرة يتمتع بها إلى الحج فإنَّ لَهُ مَا نوى ، مَا دَام أن قَصْدُه يقيم العمرة لكن قال : لبيك حجًّا مع الناس فَلَهُ ما نَوى ، ولا يَضر سَبْقُ لسانه بشيء .

ومنها أيضًا : لو قال الإنسان لزوجته : أنت طالق وأراد أنت طالق من قيدٍ ، لا من نكاح فله ما نوى ، ولا تُطَلَّق بذلك زوجته .

المهم أن هذا الحديث له فوائد كثيرة وفروع منتشرة في أبواب الفقه .

ومن فوائده : أنه يجوز للإنسان أن يتصدَّق على ابنه وهو كذلك ، يعني أنه يجوز !

والدَّليل على هذا ما في حديث عبد اللَّه بن مسعود ﷺ حينما قال لزوجته ، وقد أرادَت أن تتصدَّق ، قال لها : زَوجُكِ وَوَلَدُك أحق مَنْ تَصدَّقت عَليه .

وكان الرسول - عليه الصلاة والسلام - قد أمر بالصدقة وحثَّ عليها ، فأرادت زينب زوجة عبد اللَّه بن مسعود أن تتصدَّق بشيء من مَالِها فقال لها زَوجها ما قَال لأنه كان فقيرًا ﷺ فقالت : لا !! حتى أسْأل النَّبي ﷺ . فسألت النبي ﷺ فقال : « صَدَق عَبدُ اللَّه ، زَوجُك وَولدك أحقُّ مَنْ تصدقتِ به عليهم » .

ومن فوائد الحديث : أنَّه يجوز أن يعطي الإنسان ولده من الزكاة بشرط أن لا يكون في ذلك إسقاط لواجب عليه .

يعني مثلًا : لو كان الإنسان عنده زكاة ، وأراد أن يعطيها ابنه من أجل أن لا يطالبه بالنَّفقة ، فهذا لا يجزئ ؛ لأنه أراد بالإعطاء أن يُسقط واجب نفقته .

أما لو أعطاه ليقضي دينًا عليه مثل : أن يكون على الابن حادث ويعطيه أبوه من الزكاة ما يُسدِّد به هذه الغرامة فإن ذلك لا بأس به وتجزئه من الزكاة ؛ لأن ولده أقرب الناس إليه وهو الآن لم يقصد بهذا إسقاط واجب عليه ، إنما قصد بذلك إبراء ذمة وَلَده لا الإنفاق عليه . واللَّه الموفق اهـ .

* * *

٦ - وَعَنْ أَبِي إِسْحَاقَ سَعْدِ بْنِ أَبِي وَقَّاصٍ مَالِكِ بْنِ أُهَيب بْن عَبْدِ مَنَافِ بْنِ زهْرَةَ بْنِ كِلابِ بْنِ مُرَّة بْنِ كعْب بْنِ لَوَيٍّ الْقُرَشِيِّ الزّهْرِيِّ ﷺ أَحَدِ الْعَشَرَة الْمَشْهُودِ لَهُمْ بِالْجَنَّةَ ﷺ قَالَ : « جاءني

رسول الله ﷺ يَعُودُني عَامَ حَجَّة الْوَداعِ مِنْ وَجَعٍ اشْتَدَّ بِي ، فَقُلْتُ : يَا رَسُولَ اللَّهِ إِنِّي قَدْ بَلَغَ بِي مِنَ الْوَجَعِ مَا تَرَى ، وأَنَا ذُو مَال وَلا يَرِثُني إلا ابْنَةٌ لِي ، أَفَأَتَصدَّقُ بِثُلُثَي مَالي ؟ قَالَ : « لا » ، قُلْتُ : فَالشَّطْرُ يَا رَسُولَ اللَّهِ ؟ فقالَ : « لا » قُلْتُ : فَالثُّلُثُ يَا رسول اللَّه ؟ قالَ : « الثُّلُثُ ، وَالثُّلُثُ كَثِيرٌ - أَو كَبيرٌ - إِنَّكَ أَنْ تَذَرَ وَرَثَتَكَ أَغْنِياءَ خَيرٌ مِنْ أَنْ تَذَرهُمْ عَالَةً يَتَكَفَّفُونَ النَّاسَ ، وَإِنَّكَ لَنْ تُنْفِقَ نَفَقَةً تَبْتَغي بِهَا وَجْهَ اللَّه إلا أُجرْتَ عَلَيهَا حَتَّى مَا تَجْعَلُ في فِي امْرَأَتِكَ » . قَالَ : فَقُلْتُ : يَا رسُولَ اللَّهِ أُخَلَّفُ بَعْدَ أَصْحَابِي ؟ قَالَ : « إِنَّكَ لَنْ تُخَلَّفَ فَتَعْمَلَ عَمَلًا تَبتَغي بِهِ وَجْهَ اللَّهِ إلا ازْدَدْتَ بِهِ دَرَجَةً وَرِفْعَةً ، وَلَعَلَّكَ أَنْ تُخَلَّفَ حَتَّى يَنْتَفعَ بكَ أَقوامٌ وَيُضَرَّ بكَ آخَرُونَ . اللَّهُمْ أَمْضِ لأَصْحَابي هِجْرَتَهُم ، وَلا تَرُدَّهُمْ عَلَى أَعْقَابِهِمْ ، لكنِ الْبَائِسُ سَعْدُ بنُ خَولَةَ » يَرْثي لَهُ رسول اللَّه ﷺ أَنْ مَاتَ بمَكَّةَ [(١)] . متفقٌ عليه .

الشرح

قال المؤلف - رحمه اللَّه تعالى - فيما نقله عن سعد بن أبي وقاص ﷺ : أن النبي ﷺ جاءه يعوده في مرض أَلَمَّ به وذلك في مكة ، ولكن سعد بن أبي وقاص ﷺ من المهاجرين الذين هاجروا من مكة إلى المدينة فتركوا بلدهم للَّه ﷻ ، وكان من عادة النبي ﷺ أنَّه يُعود المرْضى من أصحابه . كما أنه يزور من يزور منهم ؛ لأنه ﷺ كان أحسن الناس خُلقًا على أنه - الإمام المتبوع صلوات اللَّه وسلامُه عليه - كان من أحسن الناس خلقًا وألينهم بأصحابه ، وأشدهم تحببًا إليهم .

فجاءه يعوده فقال يا رسول اللَّه : « إِنِّي قَدْ بلغ بِي مِن الوَجَع مَا ترى » أي : أصابه الوجع العظيم الكبير .

« وأنا ذُو مالٍ كثير أو كبير » أي : أن عنده مالًا كبيرًا .

« ولا يَرثني إِلَّا ابْنَةٌ لي » أي : ليس له ورثة بالفرض إلا هذه البنت .

« أفأتصدَّقُ بِثُلُثَي مَالي » أي : اثنين من ثلاثة !

قال : « لا » قُلْتُ : « الشطر يا رسول اللَّه » أي : بالنصف .

قال : « لا » . قُلْتُ : « فالثُّلُثُ » . قال : « الثُّلُثُ والثُّلُثُ كَثِيرٌ » .

قوله : « أفأتصدَّق » أي : أعطيه صدقة فمنع النبي ﷺ من ذلك ؛ لأن سعدًا في تلك الحال كان مريضًا مرضًا يخشى منه الموت ؛ فلذلك منعه الرَّسول ﷺ أن يتصدَّق بأكثر من الثلث .

لأن المريض مرض الموت المخوف لا يجوز أن يتصدَّق بأكثر من الثلث ؛ لأن ماله قد تعلَّق به حقُّ الغير وهم الورثة . أما من كان صحيحًا ليس فيه مرض أو فيه مرض يسير لا يُخشى منه الموت فلَهُ أن يتصدَّق بما شاء بالثلث أو بالنصف أو بالثلثين أو بماله كله لا حرج عليه .

---

(١) أخرجه البخاري في الجنائز (١٢٩٥) والوصايا (٢٧٤٢) ، ومسلم في الوصية (٥) ، وأحمد في مسنده (١٧٦/١) وكلهم بلفظ قريب من هذا .

لكن لا ينبغي أن يتصدَّق بماله كله إلا إن كان عنده شيء يعرف أنه سوف يَشتغني به عن عباد الله . المهم أن الرسول ﷺ منعه أن يتصدَّق بأكثر من الثلث .

وقال : « الثُّلثُ والثّلثُ كثير أو كبير » وفي هذا دليلٌ على أنَّه إذا نقص عن الثلث فهو أحسن وأكمل ولهذا قال ابن عباس رضي الله عنهما : « لَو أنَّ الناس غَضُّوا من الثُّلث إلى الرُّبع » ؛ لأنَّ النبي ﷺ قال : « الثُّلث والثُّلث كثير » [1] .

وقال أبو بكر رضي الله عنه : « أرْضَى ما رَضيَهُ اللَّه لِنفسه » [2] يعني : الخمس ، فأوصى بالخمس رضي الله عنه .

وبهذا نعرف أن عمل الناس اليوم وكونهم يُوصون بالثُّلث خلاف الأولى وإن كان هو جائزًا لكن الأفضل أن يكون أدنى من الثُّلُث إمَّا الربع أو الخمس .

قال فقهاؤنا – رحمهم اللَّه – : والأفضل أن يُوصي بالخمس لا يزيد عليه ؛ اقتداءً بأبي بكر الصِّديق رضي الله عنه .

ثم قال الرَّسول – عليه الصَّلاة والسَّلام – : « إنَّك أنْ تَذَر ورَثَتك أَغْنياءَ خيرٌ مِن أنْ تَذَرَهُم عَالَةً يتكَفَّفُون الناس » .

أي كونك تبقي المال ولا تتصدق به حتى إذا مت وورثه الورثة صاروا أغنياء به ، هذا خيرٌ من أن تذرهم عالةً لا تترك لهم شيئًا « يتكفَّفون النَّاس » أي : يسألون الناس بأكُفِّهم : أعطونا أعطونا .

وفي هذا : دليلٌ على أن الميِّت إذا خلَّف مالًا للورثة فإن ذلك خيرٌ له .

لا يظن الإنسان أنه إذا خلف المال وَوُرِث منه قهرًا عليه أنه لا أجر له في ذلك ! لا بل له أجر ، حتى إن الرسول – عليه الصلاة والسلام – قال : « خيرٌ من أن تذرهم عَالَة .. إلخ » لأنك إذا تركت المال للورثة انتفعوا به وهم أقارب ، وإن تصدَّقت به انتفع به الأباعد .

والصَّدقة على القريب أفضل من الصَّدقة على البعيد ؛ لأن الصدقة على القريب صدقة وصِلة .

* * *

وقوله : « يا رسُول اللَّه أخلَّفُ بَعْد أصحابي ؟ » فقال : « إنَّك لَن تخلَّفَ » بل قال قبل ذلك : « وإنَّك لَنْ تُنفِق نَفقةً تبتغِي بِها وجه اللَّه إلَّا أُجرت عليها حتَّى ما تَجْعَلُ في فِي امْرأتكَ » تنفق نفقة : أي مالًا إمَّا من الدَّراهم أو الدَّنانير أو الثِّياب أو الفُرش أو طعامًا أو غير ذلك تبتغي به وَجه اللَّه إلا أُجرت عليه .

الشاهد من هذا قوله : « تَبتغي به وجْه اللَّه » أي : تقصد به وجه اللَّه عز وجل ، بدخولك الجنة ورؤيته سبحانه وتعالى فيها . لأن أهل الجنة – جعلني اللَّه وإيَّاكم منهم – يرون اللَّه سبحانه وتعالى وينظرون إليه عِيَانًا بأبصارهم كما يرون الشَّمس صَحْوًا ليس دُونها سحاب وكما يَرون القمر ليلة البدر . يعني أنهم يرون ذلك حقًّا .

---

(١) أخرجه البخاري في الوصايا (٢٧٤٣) فيه لوغض وليس فيه « من الثلث » ، ومسلم في الوصية (١٠) وفيه « فإن » .

(٢) ذكره عبد الرزاق في المصنف (٩/٦٦) (١٦٣٦٣) بنفس اللفظ ، والبيهقي في السنن الكبرى (٦/٢٧٠) .

فقال : « إنَّك لَن تُنفق نَفقةً تبتغي بِهَا وجه اللَّه إلا أُجرت عليها حتى ما تجعل في فِي امْرأتك » أي : حتى اللُّقمة التي تطعمها امرأتك تؤجر عليها إذا قصدت بها وجْه اللَّه ، مع أن الإنفاق على الزَّوجة أمر واجب ، لو لم تنفق لقالت أنفق أو طلّق ، ومع هذا إذا أنفقت على زوجتك تُريد بِهِ وجه اللَّه آجرك اللَّه على ذلك .

وكذلك إذا أنفقت على أولادك ، إذا أنفقت على أمك على أبيك ، بل إذا أنفقت على نفسك تبتغي بذلك وَجْهَ اللَّه فإن اللَّه يثُيبك على هذا .

ثم قال ﷺ : « أُخلَّفُ بَعْدَ أصْحابي » يعني أُخَلَّف بعد أصحابي ، أي : هل أتأخر بعد أصحابي فأموت بمكة . فبيَّن النبيُّ ﷺ أنَّه لن يُخلَّف فقال : « إنك لن تُخلَّف » وبيَّن له أنَّه لو خُلّف ثم عملَ عملًا يبتغي به وجه اللَّه لازداد به عند اللَّه درَجة ورفْعة .

يعني : لو فرض أنك خُلِّفت ولم تتمكن من الخروج من مكة وعملت عملًا تبتغي به وجه اللَّه فإن اللَّه سبحانه يزيدك به رِفْعة ودَرَجة ، رفعة في المقام والمرتبة ودرجة في المكان . فيرفعُك اللَّه ﷻ في جنَّات النعيم درجات . حتى لو عملت بمكة وأنت قد هاجرت منها .

ثم قال النبي ﷺ : « ولَعلَّكَ أنْ تُخلَّفَ » أن تُخَلَّفَ : هنا غير أن تُخَلَّف الأولى .

لعلك أن تُخلَّف : أي أن تعمر في الدُّنيا وهذا هو الذي وقع فإن سعد بن أبي وقاص عُمِّر زمانًا طويلًا . حتى إنه ﷺ كما ذكر العلماء خلَّف سبعة عشر ذكرًا واثنتي عشرة بنتًا . وكان في الأول ما عنده إلا بنت واحدة ، ولكن بقي وعُمِّر ورُزق أولادًا .

وقوله : « حتى يَنتفعَ بك أقْوامٌ ويُضَرَّ بك آخرون » وهذا الذي حصل ، فإن سعدًا ﷺ خُلِّف وصار له أثر كبير في الفتوحات الإسلامية ، وفتح فتوحات عظيمة كبيرة ، فانتفع به أقوام وهم المسلمون وضُرَّ به آخرون وهم الكفار . ثم قال النَّبي ﷺ : « اللَّهُمَّ أمْضِ لأصْحابِي هِجْرَتهم » سأل اللَّه أن يمضي لأصحابه هجرتهم وذلك بأمْرَين :

الأمر الأول : ثباتهم على الإيمان ، لأنه إذا ثبت الإنسان على الإيمان ثبت على الهجرة .

والأمر الثاني : ألاَّ يرجع أحد منهم إلى مكة بعد أن خرج منها مهاجرًا إلى اللَّه ورسوله .

لأنك إذا خرجت من البلد مُهاجرًا إلى اللَّه ورسوله فهو كالمال الذي تتصدق به ، لا يمكن أن ترجع فيه . وهكذا كل شيء تركه الإنسان للَّه لا يرجع فيه .

ومن ذلك : ما وُفِّق فيه كثير من النَّاس من إخراج التليفزيون من بيوتهم ؛ توبة إلى اللَّه وابتعادًا عنه وعمَّا فيه من الشُّرور . فهؤلاء قالوا : هل يمكن أن نعيده الآن إلى البيت ؟

نقول : لا ، بعد أن أخرجتموه للَّه لا تعيدوه لأن الإنسان إذا ترك شيئًا للَّه وهجر شيئًا للَّه ، فلا يعود فيه . ولهذا سأل الرسول - عليه الصلاة والسلام - ربَّه أن يمضي لأصحابه هجرتهم .

وقوله : « وَلَا تَرُدَّهم عَلى أعْقَابِهم » أي : لا تجعلهم ينتكسون عن الإيمان فيرتدون على أعقابهم ، لأن الكفر تأخُّر والإيمان تقدُّم وهذا على عكس ما يقوله الملحدون اليوم حيث يَصِفُون الإسلام بالرَّجعية ، ويقولون إن التَّقدمية أن ينسلخ الإنسان من الإسلام وأن يكون علمانيًّا لا يفرق بين الإيمان والكفر ، والعياذ باللّه . ولا بين الفسوق والطاعة ، فالإيمان هو التَّقدم في الحقيقة .

المتقدمون : هم المؤمنون ، والتقدُّم يكون بالإيمان . والرِّدة تكون نكوصًا على العقبين كما قال النبي - عليه الصلاة والسلام - هنا : « ولا تَرُدَّهم عَلى أعْقابهم » .

وفي هذا الحديث فؤائد عظيمة كثيرة :

منها : أن مِنْ هَدْي الرَّسول ﷺ عيادة المرضى لأنه عَاد سعد بن أبي وقَّاص ﷺ ، وفي عيادة المَرضى فوائد للعائد وفوائد للمَعُود :

أما العائد : فإنه يؤدي حق أخيه المسلم ؛ لأن من حق أخيك المسلم أن تعوده إذا مرض .

ومنها : أن الإنسان إذا عاد المريض فإنَّه لا يزال في مَخْرفَة الجنة ، يعني يجني ثمار الجنة حتى يعود .

ومنها : أن في ذلك تذكيرًا للعائد بنعمة اللّه عليه بالصِّحة ؛ لأنَّه إذا رأى هذا المريض ورأى ما هو فيه من المرض ثم رجع إلى نفسه رأى ما فيها من الصِّحة والعافية عرف قدر نعمة اللّه عليه بهذه العافية لأن الشيء إنما يعرف بضدِّه .

ومنها : أن فيها جَلْبًا للمحبة والمودة فإن الإنسان إذا عاد المريض صارت هذه العيادة في قلب المريض دائمًا على قلبه يتذكَّرها ، وكلما ذكرها أحبَّ الذي يَعُوده وهذا يظهر كثيرًا فيما إذا برأ المريض وَحصُلت منه مُلاقاة لك تجده يتشكَّر منك وتجد أن قلبه ينشرح بهذا الشَّيء .

أما المعود : فإن له فيها فائدة أيضًا ؛ لأنَّها تُؤنِسُه وتشرح صدره ويزول عنه ما فيه من الهم والغم ومن المرض وربما يكون العائد موفقًا يذكره بالخير والتوبة والوصية إذا كان يريد أن يُوصي بشيء عليه من الدّيون وغيرها فيكون في ذلك فائدة للمعود .

ولهذا قال العلماء : ينبغي لمن عاد المريض أن يُنفِّس له في أجله : أي يفرحه يقول : ما شاء اللّه أنت اليوم في خير وما أشبهه ، ليس لازمًا أن يقول له أنت طيب مثلًا ؛ لأنه قد يكون اليوم أشد مرضًا من أمس لكن يقول : أنت اليوم في خير ؛ لأن المؤمن كل أمره خير إن أصابه ضراء فهو في خير وإن أصابه سرَّاء فهو في خير .

والأجل محتوم إن كان هذا المرض أجله مات ، وإن كان بقي له شيء من الدنيا بقي . وينبغي أيضًا أن يذكِّره التوبة ؛ لكن لا يقول له ذلك بصفة مباشرة لأنه ربما ينزعج ، ويقول في نفسه لو أن مرضي غير خطير ما ذكَّرني بالتَّوبة .

لكن يبدأ بذكر الآيات والأحاديث التي فيها الثَّناء على التَّائبين ما يتذكر به المريض ، وينبغي كذلك أن يذكِّره الوصية ، لا يقول له : أوصِ فإن أجلك قريب . لو قال هكذا انزعج . بل مثلًا

يذكِّره بقصص واردة عليه .

قال أهل العلم : وينبغي أيضًا إذا رأى منه تَشوُّفًا إلى أن يقرأ عليه فليقرأ عليه ، ينفث عليه بما ورد عن النَّبي عليه الصلاة والسلام .

مثل قوله : « اللهُمَّ رَبَّ الناس أذْهِب البَاس ، اشْفِ أنت الشَّافي ، لا شِفَاء إلَّا شفاؤك ، شِفَاءً لا يُغَادِر سقمًا » [١] **ومثل قوله** : « رَبنا اللَّه الَّذي في السَّماء تقدّس اسمُكَ ، أمرك في السَّماء والأرض ، كَما رحمتُك في السَّماء ، فاجْعَل رَحمَتَك في الأرض ، أنت رَبُّ الطَّيبين اغْفر لنَا حَوبَنا وخَطايانا ، أنزل رَحمةً مِن رَحمتك ، وشِفاءً من شِفائك عَلى هَذا الوَجع ، فيبرأ » [٢] **أو يقرأ عليه بسورة الفاتحة لأن سورة الفاتحة رُقية يُقرأ بها على المرضى وعلى الذين لدغتهم العقرب أو الحية وما أشبه ذلك** [٣] .

المهم أنه إذا رأى من المريض أنَّه يحب أن يقرأ عليه فليقرأ عليه . لئلا يُلجئه إلى طلب القراءة ، لأن النبي ﷺ قال : « رأيت مَع أمَّتي سَبْعين ألفًا يدخلون الجنة بغير حِسَاب ولَا عَذاب » وقال : « هم الَّذين لَا يَسْترقُون وَلا يَكْتَوون وَلا يَتطَّيرون وعَلى ربِّهم يتوكلون » [٤] . فقوله : « لا يسترقون » أي : **لا يطلبون أحدًا يقرأ عليهم . كذلك أيضًا إذا رأيت أنَّ المريض يحب أن تُطيل المقام عنده فأطل المقام ؛ فأنت على خير وعلى أجر .**

أطل المقام عنده وأدخل عليه السُّرور ، ربما يكون في دخول السُّرور على قلبه سببُ لشفائه ؛ لأن سرور المريض وانشراح صدره من أكبر أسباب الشفاء . فأطل الجلوس عنده حتى تعرف أنَّه قد مَلَّ .

أما إذا رأيت أن المريض متكلِّف ولا يحب أنك تبقى ، أو يحب أن تذهب عنه لكي يبقى مع أهله ويأنس بهم فلا تتأخر ، اسأل عن حاله ثمَّ انصرف .

ففي حديث سعد بن أبي وقاص مشروعية عيادة المريض .

ومن فوائده : حسن خلق النبي ﷺ . ولا شك أن النبي ﷺ أحسن الناس خلقًا لأن اللَّه قال : ﴿ نٓ وَٱلْقَلَمِ وَمَا يَسْطُرُونَ ۝ مَآ أَنتَ بِنِعْمَةِ رَبِّكَ بِمَجْنُونٍ ۝ وَإِنَّ لَكَ لَأَجْرًا غَيْرَ مَمْنُونٍ ۝ وَإِنَّكَ لَعَلَىٰ خُلُقٍ عَظِيمٍ ﴾ [القلم : ١ - ٤] فأعظم النَّاس خُلقًا وأحسن النَّاس خَلقًا رسول اللَّه ﷺ ولهذا كان يُعود أصحابه ويَزُورهم ويُسلِّم عليهم ، حتى إنَّه يمر بالصِّبيان الصِّغار فيُسلم عليهم ، صلوات اللَّه وسلامه عليه .

ومنها : أنَّه ينبغي للإنسان مشاورة أهل العلم ؛ لأنَّ سعد بن أبي وقَّاص رضي الله عنه استشار النبي ﷺ حينما أراد أن يتصرَّف بشيء من ماله فقال : يا رسول اللَّه : « إنِّي ذُو مالٍ كَثير وَلا يَرِثُني إلَّا ابنةٌ لي أفأتصَدق بثلثي مَالي ؟ قال : لا .. الحديث » .

---

(١) أخرجه البخاري في الطب (٥٧٥٠) ، ومسلم بنحوه في السلام (٤٦ - ٤٩) ، وأبو داود في سننه (٣٨٩٠) .

(٢) أخرجه أبو داود في السنن (٣٨٩٢) وليس فيه « أنت رب الطيبين » .

(٣) انظر في ذلك صحيح البخاري في الطب (٥٧٤٩) ، ومسلم في السلام (٦٥) .

(٤) أخرجه بنحوه البخاري في الطب (٥٧٥٢) ، ومسلم في الإيمان (٣٧٤) ، والإمام أحمد في مسنده (٤/٤٣٦ ، ٤٤١) .

ففيه استشارة أهل العلم والرأي ، وكل إنسان بحسبه ، فمثلًا إذا كُنْتَ تُريد أن تقْدم على شيء من أمور الدِّين فشاور أهل العلم ؛ لأنَّهم أعلم بأمور الدِّين من غيرهم ، إذا أردت أن تشتري بيتًا فشاور أصحاب المكاتب العقارية ، إذا أردت أن تشتري سيارة فاستشر المهندسين في ميكانيكية السيارات وهكذا . ولهذا يقال : « ما خَابَ من اسْتخَار ولَا ندِم مَن اسْتشَار » (١) .

والإنسان بلا شك لا ينبغي له أن يكمل نفسه . من ادَّعى الكمال لنفسه فهو الناقص ، بل لابد أن يراجع خصوصًا في الأمور الهامة التي تتعلق بمسائل الأمة فإن الإنسان قد يحمله الحماس والعاطفة على فعل شيء هو في نفسه حق ولا بأس به لكن التَّحدث عنه قد يكون غير طيب إما في الزمان أو في المكان أو في الحال .

ولهذا ترك النَّبي ﷺ بناء الكعبة على قواعد إبراهيم خوفًا من الفتنة فقال لعائشة رضي الله عنها : « لَولا أنَّ قَومِك حَديثُو عَهْدٍ بِكُفْرٍ لَبنيت الكعْبةَ على قَواعدِ إبْراهيم ولَجعلتُ لَها بَابيْن ، بَابًا يَدْخل مِنْه النَّاس وبَابًا يَخْرجُونَ مِنْه » (٢) .

من أجل أن يتمكَّن الناس من دُخول بيت اللَّه ﷻ ، لكن تُرِكَ ذلك خوفَ الفتنة مع كونه مَصْلحة !

بل أعظم من ذلك ؛ إن اللَّه نهى أن نسُبَّ آلهة المشركين مع أن آلهة المشركين جديرة بأن تُسبَّ وتُعاب ويُنفَّر منها لكن لما كان سَبُّها يؤدي إلى سَبِّ الرَّب العظيم المنزَّه عن كل عيبٍ ونقص ، قال اللَّه ﷻ : ﴿ وَلَا تَسُبُّوا الَّذِينَ يَدْعُونَ مِن دُونِ اللَّهِ فَيَسُبُّوا اللَّهَ عَدْوًا بِغَيْرِ عِلْمٍ كَذَٰلِكَ زَيَّنَّا لِكُلِّ أُمَّةٍ عَمَلَهُمْ ثُمَّ إِلَىٰ رَبِّهِم مَّرْجِعُهُمْ فَيُنَبِّئُهُم بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴾ [الأنعام : ١٠٨] فالمهم أنه ينبغي أن نعلم أن الشَّيء قد يكون حسنًا في حد ذاته وفي موضوعه ، لكن لا يكون حسنًا ولا يكون من الحكمة ولا من العقل ولا من النُّصح ولا من الأمانة أن يذكر في وقت منَ الأوقات ، أو في مكان من الأماكن ، أو في حال من الأحوال وإن كان هو في نفسه حقًّا وصدقًا وحقيقة واقعة . ومن ثم كان ينبغي للإنسان أن يستشير ذوي العلم والرأي والنُّصح في الأمر ، قبل أن يقْدم عليه حتى يكون لديه برهان ؛ لأن اللَّه قال لأشرف خَلْقه - عليه الصلاة والسلام - وأسدِّهم رأيًا وأبلغهم نصحًا محمد ﷺ قال : ﴿ فَاعْفُ عَنْهُمْ وَاسْتَغْفِرْ لَهُمْ وَشَاوِرْهُمْ فِي الْأَمْرِ فَإِذَا عَزَمْتَ فَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ ﴾ [آل عمران : ١٥٩] .

هذا وهو رسول اللَّه ﷺ أَسَدُّ النَّاس رأيًا وأرجحهم عقلًا وأبلغهم نُصحًا .

الإنسان ربما تأخذه العاطفة فيندفع ويقول : هذا للَّه هذا أنا سأفْعله ، سأصدع بالحق سأقول : سوف لا تأخذني في اللَّه لومة لائم ، وما أشبه ذلك من الكلام ؛ ثم تكون العاقبة وخيمة ، ثم إن

(١) ذكره الهيثمي في مجمع الزوائد (٢/٢٨٠) وذكره الألباني في السلسلة الضعيفة (٢/٧٨) (٢/٢٤٢) (١/٦) وقال : موضوع رواه الطبراني في الصغير عن عبد القدوس بن عبد السلام بن عبد القدوس : ثني أبي عن جدي عبد القدوس بن حبيب عن الحسن عن أنس مرفوعًا . لم يَرْوِهِ عن الحسن إلا عبد القدوس تفرد به ولده عنه . عبد القدوس الجد كذاب وابنه اتهمه ابن حبان بالوضع .

(٢) أخرجه البخاري في العلم (١٢٦) ، ومسلم في الحج (١٣٣٣) ، والإمام أحمد في مسنده (٦/١٨٠) .

الغالب أن الذي يحكِّم العاطفة ويتبع العاطفة ، ولا ينظر للعواقب ولا للنتائج ، ولا يقارن بين الأمور الغالب أنه يحصل على يديه من المفاسد ما لا يعلمه إلَّا اللّٰه ﷻ مع أن نيَّته طيبة وقَصْده حسن ، لكن لم يحسن أن يتصرَّف ؛ لأن هناك فرقًا بين حُسن النِّية وحُسْن التَّصرف ، قد يكون الإنسان حَسَنَ النِّية لكنه سيء التَّصرف ، وقد يكون سيئ النِّية ، والغالب أن سيئ النِّية سيئ التصرف ، لكن مع ذلك قد يُحسن التصرف لينال غرضه السيء .

فالإنسان يُحمد على حُسن نيته ، لكن قد لا يحمد على سوء فعله إلا أنه إذا علم منه أنَّه مَعْروف بالنُّصح والإرشاد ، فإنه يعذر بسُوء تصرُّفه ويُلْتَمس له العذر ولا ينبغي أيضًا أن يتخذ من فعله هذا الذي لم يكن موافقًا للحكمة ، بل لا يجوز أن يتخذ منه ، قدحَ في هذا المتصرف ، وأن يحمل ما لا يتحمله ، لكن يعذر ويبين له ويُنصح ويُرشد ، ويقال : يا أخي هذا كلامك أو فعلك حسن طيب وصواب في نفسه : لكنه غير صواب في محله أو في زمانه أو في مكانه .

المهم : أن في حديث سعد بن أبي وقاص ﷺ إشارة إلى أنَّه ينبغي للإنسان أن يستشير من هو أكمل منه رأيًا ، وأكثرُ منه علمًا .

وفيه من الفوائد : أنَّه ينبغي للمستشير أن يذكر الأمر على ما هو عليه حقيقة لا يَلُوذ يمينًا وشمالًا بل يذكر الأمر حقًّا على ما هو عليه حتى يتبيَّن للمستشار حقيقة الأمر ويبني مشورته على هذه الحقيقة ولهذا قال سعد : « إنِّي ذُو مال ولا يرثني إلا ابنة » .

فقوله : « إنِّي ذو مال » بيان لسبب العطية التي يريد أن يعطيها ولا يرثني إلَّا ابنة لي بيان لانتفاء المانع ، يعني لا مانع من أن أوصي كثيرًا لانتفاء الوارث .

والمستشارُ عليه أن يتَّقي اللّٰه ﷻ فيما أشار فيه ، وأن لا تأخذه العاطفة في مراعاة المستشير ؛ لأن بعض الناس إذا استشاره الشَّخص ورأى أنه يميل إلى أحد الأمرين أو الرأيين ذهب يُشير عليه به .

ويقول : أنا أحب أن أوافق الذي يرى أنه يناسبه وهذا خطأ عظيم بل خيانة ، الواجب إذا استشارك أن تقول له ما ترى أنَّه حق وأنه نافع سواء أرضاه أم لم يرضه ، وأنت إذا فعلت هذا كنت ناصحًا وأدَّيت مَا عليك ثم إن أخذ به ، ورأى أنَّه صواب فذاك وإن لم يأخذ به فقد برئت ذمتك . مع أنك ربما تستنتج شيئًا خطأ ، قد تستنتج أنَّه يريد كذا وهو لا يريده فتكون خسرانًا من وجهين : من جهة الفهم السَّيئ ، ومن جهة القصد السَّيئ .

وفي قول الرسول - عليه الصلاة والسلام - « لا » دليل على أنه لا حرج أن يستعمل الإنسان كلمة « لا» وليس فيها شيء . فالنبي - عليه الصلاة والسلام - استعمل كلمة « لا » وأصحابه ﷺ استعملوا معه كلمة « لا » .

فجابر ﷺ لما أعيا جمله ولحقه النبي - عليه الصلاة والسلام - كيف لحقه وهو هزيل ؟ هل الجمل قدام الناس ؟ لا ! لكن من عادة الرسول - عليه الصلاة والسلام - لأنه راعي أمته أنه يمشي في الآخر

لا يمشي قدَّامهم بل يمشي وراءهم ؛ لأجل أنه إذا احتاج أحدٌ إلى شيء يساعده - عليه الصلاة والسلام - انظر إلى التواضع وحُسْن الرِّعاية .

لحق جابرًا وكان جَمله قد أعيا لا يمشي فضربه النَّبي ﷺ ودَعا له وقال : « بِعْنِيه بِوُقِيَّةٍ » قال جابر : لا[١] . قال : « لا » للرسول - عليه الصلاة والسلام - ولم ينكر عليه الرسول - عليه الصلاة والسلام - .

فلا مانع من كلمة « لا » فإنها ليست سوء أدب وخُلق ، كثير من الناس الآن يأنف أن يقول : « لا » يقول : سلامتك ، هذا طيب أن تدعو له بالسَّلامة لكن إذا قلت : « لا » ، فـ « لا » عيبٌ عليك .

ومن فوائد الحديث : أنَّه لا يجوز للمريض مرضًا مخوفًا أن يُعطي أكثر من الثُّلث إلا إذا أجازه الورثة لأن الورثة تعلَّق حَقُّهم بالمال لـمَّا مَرِضَ الرَّجل لقول النبي ﷺ : « الثُّلث والثُّلث كثير » .

وفيه : دليل على أنَّه ينبغي أن يكون عطاؤه أقل من الثُّلث كما قال ابن عباس ﷺ : « لو أنَّ النَّاس غضُّوا من الثُّلث إلى الرُّبع ؛ لأن النبي ﷺ قال : « الثُّلث والثُّلث كثير » [٢] .

* * *

ومنها : أنَّه لا يجوز للإنسان إذا كان مريضًا مرضًا يُخشَى منه الموت أن يتبرع بأكثر من الثُّلث من مَالِه ، لا صَدقة ولا مشاركة في بناء مسَاجد ولا هبة ولا غير ذلك ، لا يزيد على الثُّلث ؛ لأن النبي ﷺ منع سعدًا من أن يتصدَّق بأكثر من الثلث .

والوصيَّة كالعطية فلا يجوز أن يُوصي الإنسان بشيء من ماله بعد موته زائدًا على الثُّلث . والأفضل في الوصيَّة أن تكون بالخمس لأثر أبي بكر المتقدم آنفًا .

ومنها : إذا كان مال الإنسان قليلًا وكانَ وَرَثته فقراء فالأفضل أن لا يُوصي بشيء لا قليل ولا كثير لقوله - عليه الصلاة والسلام - : « إنَّك أنْ تذر وَرَثتك أغْنياء خيرٌ من أن تذرهم عَالَة » خلافًا لما يظنُّه بعض العوام أنَّه لابد من الوصيَّة هذا خطأ ، الإنسان الذي مَالُه قليل وَوَرثته فقراء ليس عندهم مال لا ينبغي له أن يُوصي ، الأفضل أن لا يُوصي .

ويظن بعض العامة أنه إذا لم يُوص فإنه لا أجر له وليس كذلك بل إذا ترك المال لورثته فهو مأجور في هذا ، وإن كان الورثة يرثونه قهرًا ، لكن إذا كان مسترشدًا بهدي النبي ﷺ لقوله : « إنَّك أنْ تَذَر وَرَثَتك أغْنياء خَير من أنْ تذَرهم عَالَةً » فإن أجره بذلك أفضل من أن يتصدَّق عنه بشيء من ماله .

ومنها : خوف الصحابة المهاجرين من مكة أن يموتوا فيها ، لأن سعدًا ﷺ قال : « أُخلَّف بعد أصحابي ؟ » وهذه الجملة استفهامية والمعنى « أأُخلَّف ؟ » وهذا استفهام توقُّعي مفروض يعني أنه لا

---

(١) أخرجه البخاري في الشروط (٢٧/٨) ، ومسلم في المساقاة (١٠٩ ، ١١١) - واللفظ له - والبيهقي في سننه (٣٣٧/٥) . والوقية لغة في الأوقية ، وهي جزء من اثنى عشر جزءًا من الرطل المصري . انظر المعجم الوسيط (٣٤/١) وقال في لسان العرب (١٧١/١) : زنة سبعة مثاقيل وقيل : زنة أربعين درهمًا .

(٢) أخرجه البخاري في الوصايا (٢٧٤٣) وفيه : « لوغَضَّ » وليس فيه « من الثلث » ، ومسلم في الوصية (١٠) وفيه « فإن » .

يحب أن يتخلف فيموت في مكة وقد خرج منها مهاجرًا إلى اللّٰه ورسوله .

ومنها : ظهور معجزة لرسول اللّٰه ﷺ وهو أن الرسول ﷺ قال له : « إنَّك لن تُخلَّف وسوف تُخلف حتى يُضَرَّ بك أقوام ويَنتفع بك آخرون » فإن الأمر وقع كما توقَّعه النبي ﷺ فإن سعدًا عُمِّرَ إلى خلافة معاوية .

وهذه من آيات النبي ﷺ أن يخبر عن أمر مستقبل فيقع كما أخبر به . ولكن هذا ليس خبرًا محضًا ولكن توقع لقوله : « لعَلَّك أن تُخلَّف » فلم يجزم ولكن كان الأمر كما توقَّعه النبي ﷺ .

ومنها : أنه ما من إنسان يعمل عملًا يبتغي به وجه اللّٰه إلا ازداد به رِفْعَة ودرجة حتى وإن كان في مكان لا يحل له البقاء فيه ، لأن العمل شيء والبقاء شيء آخر .

ولهذا كان القول الرَّاجح من أقوال أهل العلم أن الإنسان إذا صلَّى في أرض مغصوبة فإن صلاته صحيحة ؛ لأن النَّهي ليس عن الصَّلاة بل النَّهي عن الغصب .

فالنهي مُنصبٌّ على شيء غير الصَّلاة فتكون صلاته صحيحة في هذا المكان المغصوب لكنه آثم ببقائه في هذا المكان المغصوب . نعم لو وَرَد عن الرسول ﷺ أنه قال : لا تُصل في أرض مغصوبة . لقلنا إذا صليت في الأرض المغصوبة فصلاتك باطلة كما نقول : إنك إن صليت في المقبرة فصلاتك باطلة ؛ لأن الرسول ﷺ قال : « الأرضُ كُلُّها مَسْجِد إلَّا المَقْبرة والحَمَّام »(١) هذا غير صلاة الجنازة ؛ لأنها تجوز حتى في المقبرة .

ومنها : أن الإنسان إذا أنفق نفقة يبتغي بها وجْه اللّٰه فإنه يُثاب عليها ، حتى النفقات على أهله وعلى زوجته بل وعلى نفسه إذا ابتغى بها وجهَ اللّٰه أثابه اللّٰه عليها .

وفيه : إشارة إلى أنه ينبغي للإنسان أن يستحضر نيَّة التَّقرُّب إلى اللّٰه في كل ما ينفق حتى يكون له في ذلك أجر .

وقوله : « اللهُمَّ أمضِ لأصْحابي هِجرتَهم وَلا تردهم علَى أعْقَابِهم » سأل النبي ﷺ ربَّه أن يمضي لأصحابه هجرتهم وذلك بثباتهم على الإيمان وبقائهم في الأوطان التي هاجروا إليها من مكة ولهذا قال : « ولا تَرُدَّهُم على أعْقابِهم » الرَّد على العقب يعني الكفر بعد الإسلام - والعياذ باللّٰه - كما قال اللّٰه تعالى : ﴿ وَمَن يَرْتَدِدْ مِنكُمْ عَن دِينِهِۦ فَيَمُتْ وَهُوَ كَافِرٌ فَأُوْلَٰٓئِكَ حَبِطَتْ أَعْمَٰلُهُمْ فِى ٱلدُّنْيَا وَٱلْـَٔاخِرَةِ وَأُوْلَٰٓئِكَ أَصْحَٰبُ ٱلنَّارِ هُمْ فِيهَا خَٰلِدُونَ ﴾ [البقرة : ٢١٧] . وقوله : « لكن البائِس سعْد بن خولة .. » يقوله النبي - عليه الصلاة والسلام - .

سعد بن خولة رضي الله عنه من المهاجرين الذي هاجروا من مكة ولكن اللّٰه قدَّر أن يموت فيها فمات فيها

(١) أخرجه أبو داود في سننه (٤٩٢) ، والترمذي في سننه (٣١٧) .

فرثى له النَّبي - عليه الصَّلاة والسَّلام - أي توجَّع له أن مات بمكة وقد كانوا يكرهون للمهاجر أن يَموت في الأرض التي هاجر منها .

هذا ما تيسَّر من الكلام على هذا الحديث ، والمؤلف - رحمه اللَّه تعالى - ذكره في باب النِّيَّة لأن النبي ﷺ قال لسعد : « إنَّك لن تعمل عَملًا تبتغي به وجه اللَّه إلا ازددت به دَرَجة ورِفْعة » وقال له : « إنك لن تُنْفق نفقةً تَبْتغي بها وجه اللَّه إلَّا أجِرْت عليها » فأشار في هذا الحديث إلى الإخلاص في كون الإنسان يبتغي بعمله وبإنفاق ماله وجه اللَّه حتى ينال على ذلك الأجر وزيادة الدَّرجات والرِّفعة عند اللَّه ﷻ واللَّه الموفق .

* * *

٧ - وعَنْ أبي هُرَيْرَةَ عَبْدِ الرَّحْمن بن صخْرٍ ﷺ قَالَ : قَالَ رسولُ اللَّه ﷺ : « إنَّ اللَّهَ لا يَنظُرُ (١) إلى أَجْسَامِكُمْ ، وَلا إلَى صُوَرِكُمْ ، وَلكِنْ يَنْظُرُ إلى قُلُوبِكُمْ » (٢) رواه مسلم .

الشرح

وقوله : « ولكن ينظر إلى قُلُوبكم » وفي لفظ : « قلوبكم وأعمالكم » . هذا الحديث يدلُّ على ما يُدلُّ عليه قول اللَّه تعالى : ﴿ يَتَأَيُّهَا النَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَكُم مِّن ذَكَرٍ وَأُنثَىٰ وَجَعَلْنَكُمْ شُعُوبًا وَقَبَآئِلَ لِتَعَارَفُوٓاْ إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِندَ اللَّهِ أَتْقَنكُمْ ﴾ [الحجرات : ١٣] .

فاللَّه ﷻ لا ينظر إلى العباد ؛ إلى أجسامهم - هل هي كبيرة أو صغيرة أو صحيحة أو سقيمة ؟ ولا ينظر إلى الصُّور هل هي جميلة أو ذميمة ؟ .

كل هذا ليس بشيء عند اللَّه ، وكذلك لا ينظر إلى الأنسَاب هل هي رفيعة أو دنيئة ، ولَا ينظر إلى الأموال ولَا يَنظر إلى شيء من هذا أبدًا .

ليس بين اللَّه وبين خَلْقه صِلة إلا بالتقوى ، فمن كان للَّه أتْقى كان من اللَّه أقرب وكان عند اللَّه أكرم ، إذًا لا تفخر بمالك ولا بجمالك ولا ببدنك ولا بأولادك ولا بقصورك ولا بسياراتك ولا بشيء من هذه الدنيا أبدًا . إنما إذا وَفَّقك اللَّه للتَّقوى فهذا من فضل اللَّه عليك فاحمد اللَّه عليه . واعلم أن الأعمال بالنِّيات ، والقلوب هي التي عليها المدار .

كم من إنسان ظاهر عمله أنَّه صحيح وجيِّد وصالح لكن لمَّا بُني على خَراب صار خَرابًا .

النِّية هي الأصل ، تجد رجلين يُصلِّيان في صَفٍّ واحد مقتديـِن بإمام واحد يكون بين صلاتيهما كما بين المشرق والمغرب ، لأن القلب مختلف أحدهما قلبه غافل بل ، ربما يكون مُرائيًا في صلاته - والعياذ باللَّه - يُريد بها الدُّنيا . والآخر قلْبه حاضر يريد بصلاته وجه اللَّه واتِّباع سُنَّة رسول اللَّه ﷺ .

---

(١) معنى النظر هنا المجازاة والمحاسبة .

(٢) أخرجه مسلم في البر والصلة (٣٣) ، وأحمد في مسنده (٢/٢٨٥) .

فبينهما فَرْقٌ عظيم ، فالعلم على ما في القلب ، وعلى ما في القلب يكون الجزاء يوم القيامة كما قال الله سبحانه : ﴿ إِنَّهُۥ عَلَىٰ رَجْعِهِۦ لَقَادِرٌ ۝ يَوْمَ تُبْلَى ٱلسَّرَآئِرُ ﴾ [الطارق : ٨، ٩] أي : تختبر السرائر لا الظواهر . في الدنيا الحكم بين الناس على الظّاهر لقول النبي ﷺ : « فأقضي له على نحو مَا أَسْمَع » [(١)] لكن في الآخرة العلم على ما في السرائر ، نسأل اللّه أن يُطهِّر سرائرنا وإيَّاكم .

فإذا كانت السريرة جيِّدة صحيحة فأبشر بالخير وإن كانت الأخرى فقدت الخير كُلَّه وقال اللّه ﷻ : ﴿ أَفَلَا يَعْلَمُ إِذَا بُعْثِرَ مَا فِى ٱلْقُبُورِ ۝ وَحُصِّلَ مَا فِى ٱلصُّدُورِ ﴾ [العاديات : ٩، ١٠] فالعلم على ما في القلب .

وإذا كان اللّه في كتابه وكان رسوله ﷺ في سنته يؤكدان على إصلاح النّية فالواجب على الإنسان أن يُصلح نيته ، يُصلح قلبه ، ينظر ما في قلبه من الشّك فيزيله إلى اليقين : كيف ذلك ؟

يكون ذلك بنظره إلى الآيات قال اللّه ﷻ : ﴿ إِنَّ فِى خَلْقِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَٱخْتِلَٰفِ ٱلَّيْلِ وَٱلنَّهَارِ لَءَايَٰتٍ لِّأُو۟لِى ٱلْأَلْبَٰبِ ﴾ [آل عمران : ١٩٠] وقال : ﴿ إِنَّ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ لَءَايَٰتٍ لِّلْمُؤْمِنِينَ ۝ وَفِى خَلْقِكُمْ وَمَا يَبُثُّ مِن دَآبَّةٍ ءَايَٰتٌ لِّقَوْمٍ يُوقِنُونَ ﴾ [الجاثية : ٤] فأنت انظر في آيات اللّه .

إذا ألقى الشيطان في قلبك الشّك فانظر في آيات اللّه . انظر إلى هذا الكون من يُدَبِّره ؟ انظر كيف تتغير الأحوال ، كيف يداول اللّه الأيام بين الناس حتى تعلم أنَّ لهذا الكون مدبرًا حكيمًا ﷻ ! .

الشّركُ : طهر قلبك منه ، كيف أُطهر نفسي منه ؟ أطهر قلبي بأن أقول لنفسي : إن الناس لا ينفعوني إن عصيت اللّه ، ولا ينقذوني من العقاب ، وإن أطعت اللّه لم يجلبوا إليَّ الثواب .

فالذي يجلب الثّواب ويدفع العقاب هو اللّه ، إذا كان الأمر كذلك فلماذا تشرك باللّه ﷻ ، لماذا تنوي بعبادتك أن تتقرب إلى الخلق ؟! ولهذا من تقرَّب إلى الخلق بما يتقرَّب به إلى اللّه ابتعد اللّه عنه وابتعد عنه الخلق .

يعني لا يزيده تقرُّبه إلى الخلق بما يقربه إلى اللّه إلا بُعدًا من اللّه ومن الخلق ؛ لأن اللّه إذا رضي عنك أرضى عنك الناس وإذا سخط عليك أسخط عليك الناس نعوذ باللّه من سخطه ومن عقابه .

المهم يا أخي : عالِجْ القلب دائمًا ، كن دائمًا في غسيل للقلب حتى يطهر كما قال اللّه ﷻ : ﴿ أُو۟لَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ لَمْ يُرِدِ ٱللَّهُ أَن يُطَهِّرَ قُلُوبَهُمْ ﴾ [المائدة : ٤١] ، فتطهير القلب أمر مهم جدًّا ، أسأل اللّه أن يُطهر قلبي وقُلوبكم ، وأن يجعلنا له مخلصين ولرَسُوله متبعين .

* * *

٨ - وَعَن أبي مُوسَى عَبْدِ اللهِ بْنِ قَيسٍ الأَشْعَرِيِّ ؓ قَالَ : سُئِلَ رسول اللّه ﷺ عَنِ الرَّجُلِ يُقَاتِلُ شَجَاعَةً ، ويُقَاتِلُ حَمِيَّةً ، وَيُقَاتِلُ رِيَاءً ، أَيُّ ذلِكَ فِي سَبيل اللّهِ ؟ فَقَالَ رسول اللّهِ ﷺ : « مَنْ قَاتَلَ لِتَكُونَ كَلِمَةُ اللّه هِيَ الْعُلْيَا فَهُوَ فِي سَبيل اللّهِ » [(٢)] مُتَّفَقٌ عَلَيهِ .

---

(١) أخرجه البخاري في الحيل (٦٩٦٧) ، ومسلم في الأقضية (٤) بلفظه ، والإمام أحمد في مسنده (٦/٢٩٠) .
(٢) أخرجه البخاري في التوحيد (٧٤٥٨) ، ومسلم في الإمارة (١٥٠) واللفظ له . والحمية الأنفة والغيرة على العشيرة .

الشرح

وفي لفظٍ للحديث : « ويُقاتل ليرى مكانه أيُّ ذلك في سبيل اللَّه ؟ » قال : « من قاتل لتكون كلمة اللَّه هي العُليا فهو في سبيل اللَّه » .

وقوله : « من قاتل لتكون » : في هذا إخلاص النيَّة للَّه ﷻ ، وهذا الذي ساق المؤلفُ الحديثَ من أجله . فقد سئل الرسول ﷺ : عن الذي يقاتل على أحد الوجوه الثلاثة : شجاعة ، وحميَّة ، وليرى مكانه .

أما الذي يقاتل شجاعة : فمعناه أنَّه رجل شجاع يحب القتال ؛ لأن الرَّجل الشجاع متَّصف بالشجاعة ، والشجاعة لابد لها من ميدان تظهر فيه فتجد الشجاع يحبُّ أن اللَّه يُيَسِّر له قتالًا ليقاتل ويظهر شجاعة . فهو يقاتل لأنه شجاع يحب القتال .

الثاني : يقاتل حميةً : حمية على قومية ، حميَّة على قبيلة ، حمية على وطن ، حمية لأي عصبية كانت .

الثالث : يقاتل ليرى مكانه : أي ليراه الناس ويعرفوا أنه شجاع ، فعدل النبي ﷺ عن ذلك ، وقال كلمةً موجزة ميزانًا للقتال فقال : « مَنْ قاتَل لِتكون كَلِمةُ اللَّه هِي العُلْيا فهُو في سَبيل اللَّه » .

وعدل النبي - عليه الصلاة والسلام - عن ذكر هذه الثَّلاثة ليكون أعم وأشمل ؛ لأن الرجل ربما يقاتل من أجل الاستيلاء على الأوطان والبلدان ، يُقاتل من أجل أن يَحْصل على امرأة يشبيها من هؤلاء القوم .

المهم أن النّيات ما لها حدٌّ لكن هذا الميزان الذي ذكره النبي - عليه الصلاة والسلام - ميزان تامٌّ عدل ومن هنا نعلم أنَّه يجب أن تُعدَّل اللَّهجة التي يتفوه بها اليوم كثير من الناس .

اللهجة لهجتان :

لهجة قوم يقاتلون للقومية ، القومية العربية والقتال للقومية العربية قتال جاهلي ، مَنْ قُتل فيه فليس شهيدًا ، فقد الدُّنيا وخسر الآخرة ؛ لأن ذلك ليس في سبيل اللَّه . ولذلك على الرغم من قوة الدِّعاية للقومية العربية لم نستفد منها شيئًا !!

اليهود استولوا على بلادنا ، نحن تفككنا ، دخل في ميزان هذه القومية قوم كفار من النَّصارى وغير النَّصارى وخرج منها قوم مسلمون من غير العرب فخسرنا ملايين العالم من أجل هذه القومية ، ودخل فيها قوم لا خير فيهم ، قوم إذا دخلوا في شيء كُتبِ عليه الخذلان والخسارة .

واللَّهجة الثانية : قوم يقاتلون للوطن ، ونحن إذا قاتلنا من أجل الوطن لم يكن هناك فرق بيننا وبين الكافر ؛ لأنه أيضًا يقاتل من أجل وطنه .

والذي يقاتل من أجل الدفاع عن الوطن فقط ليس بِشهيد . ولكن الواجب علينا - ونحن مسلمون وفي بَلد إسلامي - وللَّه الحمد - ونسأل اللَّه أن يثبتنا على ذلك ، الواجب أن نقاتل من أجل الإسلام في بلادنا .

انتبه للفرق : نقاتل من أجل الإسلام في بلادنا ، فنحمي الإسلام الذي في بلادنا سواء كان في أقصى الشَّرق والغرب . فيجب أن تُصحَّح هذه النقطة ، فيقال : نحن نقاتل من أجل الإسلام في

وطننا أو من أجل وطننا لأنه إسلامي ندافع عن الإسلام الذي فيه .

أما مجرد الوطنية فإنها نيّة باطلة لا تُفيد الإسلام شيئًا ، ولا فرق بين الإنسان الذي يقول أنه مسلم والإنسان الذي يقول أنه كافر إذا كان القتال من أجل الوطن لأنه وطن .

وما يذكر من أنَّ « حُبُّ الوطَن من الإيمان » وأن ذلك حديثٌ عن رسول الله ﷺ كذب .

حبُّ الوطن إن كان إسلاميًا فهذا تحبه لأنه إسلامي . ولا فرق بين وطنك الذي هو مسقط رأسك أو الوطن البعيد عن بلاد المسلمين كلها وطن إسلامي يجب أن نحميه .

على كل حال يجب أن نعلم أن النية الصحيحة هي أن نُقاتل من أجل الإسلام في بلدنا أو من أجل وطننا لأنَّه إسلامي لا لمجرد الوطنية .

أما قتال الدفاع أي : لو أن أحدًا صَالَ عليك في بيتك يريد أخذ مالك أو يريد أن ينتهك عرض أهلك مثلًا فإنك تقاتله كما أمرك بذلك النبي – عليه الصَّلاة والسلام – .

فقد سُئل عن الرَّجل يأتيه الإنسان [يريد أخذ ماله ؟] [1] قال : « فلا تُعطه مالك » . قال : « أرأيت إن قاتلني ؟ » قال : « قاتله » . قال : « أرأيت إن قَتلني ؟ » قال : « فأنت شَهيدٌ » . قال : « أرأيت إنْ قَتَلْتُهُ ؟ » قال : « هو في النَّار !! » [2] لأنه معتدٍ ظالم حتى وإن كان مسلمًا ، إذا جاءَك المسلم يريد أن يقاتلك من أجل أن يخرجك من بلدك أو من بيتك فقاتله إن قتلته فهو في النَّار وإن قتلك فأنت شَهيد .

لا تقل كيف أقتل مسلمًا ؟ هو المعتدي ، ولو كتَّفنا أيدينا أمام المعتدين الظالمين الذين لا يرقبون في مؤمن إلًّا ولا ذمة ولا دينًا ، لكان المعتدون لهم السُّلطة ولأفسدوا في الأرض بعد إصلاحها ؛ ولذلك نقول : هذه المسألة ليست من باب قتال الطلب .

قتال الطَّلب : معلوم إنني لا أذهب أقاتل مسلمًا أطلبه ، ولكن أدفع عن مالي ونفسي وأهلي ولو كان مؤمنًا مع أنه لا يمكن أبدًا أن يكون شخص معه إيمان يقدم على مسلم يقاتله ليستولي على أهله وماله أبدًا .

ولهذا قال النبي – عليه الصلاة والسلام – : « سِبَابُ المُسلِم فُسُوق وقِتَالُه كُفر » [3] لا إيمان لإنسان يقاتل المسلمين إطلاقًا ، فإذا كان الرجل فاقدًا الإيمان أو ناقص الإيمان فيجب أن نقاتله دفاعًا عن النفس وجوبًا لأن النبي ﷺ قال : « قَاتِلهْ » وقال إن قَتَلْتَهُ : « فَهُو في النَّار » وقال وإن قتلك : « فأنت شهيد » .

الحاصل أن هناك قتالين : قتالًا للطَّلب أذهب أنا أُقاتل الناس مثلًا في بلادهم هذا لا يجوز إلا في شروط معينة .

مثلًا : قال العلماء إذا ترك أهل قرية الأذان وهو ليس من أركان الإسلام وجب على ولي الأمر أن

---

(١) ما بين المعكوفتين مصحح من نص الحديث ، وكان في نص المؤلف رحمه الله : « ويقول له : أعطني مالك » .

(٢) أخرجه مسلم في الإيمان (٢٢٥) ، والبيهقي (٢٦٦/٣) .

(٣) أخرجه البخاري في الإيمان (٤٨) ، ومسلم في الإيمان (١١٦) ، والترمذي في سننه (١٩٨٣ ، ٢٦٣٥) .

يقاتلهم حتى يؤذنوا ؛ لأنهم تركوا شعيرة من شعائر الإسلام .

وإذا تركوا صلاة العيد ، وقالوا لا نُصَلِّيها لا في بيوتنا ولا في الصَّحراء يجب أن نقاتلهم ، حتى لو فُرض أن قومًا حاجُّونا وقالوا : هل الأذان من أركان الإسلام ؟ قلنا : لا ولكنه من شعائر الإسلام فنقاتلكم حتى تؤذِّنوا . إذا اقتتلت طائفتان من المؤمنين وَجَب علينا أن نصلح بينهما فإن بغت إحداهما على الأخرى وجب أن نقاتلها حتى تفيء إلى أمر اللَّه مع أنها مؤمنة ، ولكن هناك فرق بين قتال الدِّفاع وقتال الطَّلب ، أَمَّا الطَّلب ما نطلبُ إلا من أباح الشارع قتاله وأمَّا الدِّفاع فلابد أن يدافع .

والحاصل : أنه لابد من تصحيح النِّية ، ونرجو منكم أن تنبهوا على هذه المسألة لأننا نرى في الجرائد والصُّحف الوطن ! الوطن ! الوطن ! وليس فيها ذكر للإسلام وهذا نَقْصٌ عظيم يجب أن توجه الأمة إلى النهج والمسلك الصَّحيح ، ونسأل اللَّه لنا ولكم التوفيق لما يحب ويرضى .

* * *

٩ - وَعَنْ أَبِي بَكْرَةَ نُفَيعِ بْنِ الْحَارِثِ الثَّقَفِيِّ ﷺ أَنَّ النَّبيَّ ﷺ قال : « إذا التقَى الْمُسْلِمَانِ بِسَيفَيهِمَا فَالْقَاتِلُ وَالمَقْتُولُ فِي النَّار » قُلْتُ : يا رَسُول اللَّهِ ! هذاَ الْقَاتِلُ فَمَا بَالُ الْمَقْتُولِ ؟ قَالَ : « إنَّهُ كَانَ حَرِيصًا عَلَى قَتْلِ صَاحِبِهِ » (١) متفقٌ عليه .

الشرح

قوله : « إذا التقى المُسْلِمان بسيفيهما » أي : يريد كل واحد منهما أن يقتل الآخر فَسلَّ عليه السَّيف وكذلك لو أشهر عليه السِّلاح كالبندقية أو غيرها مما يقتل كحجر ونحوه !

فَذِكْرُ السَّيف هنا على سبيل التمثيل وليس على سبيل اليقين بل إذا التقى المسلمان بأي وسيلة يكون بها القتل فقتل أحدهما الآخر ؛ فالقاتل والمقتول في النار والعياذ باللَّه !! فقال أبو بكرة للنبي ﷺ : هذا القاتل ؟ يعني أن كونه في النار واضح لأنه قتل نفسًا مؤمنة متعمدًا والذي يقتل نفسًا مؤمنة متعمدًا بغير حقٍّ فإنَّه في نار جهنم .

قال اللَّه تعالى : ﴿ وَمَن يَقْتُلْ مُؤْمِنًا مُّتَعَمِّدًا فَجَزَآؤُهُۥ جَهَنَّمُ خَٰلِدًا فِيهَا وَغَضِبَ ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَلَعَنَهُۥ وَأَعَدَّ لَهُۥ عَذَابًا عَظِيمًا ﴾ [النساء : ٩٣] فأبو بكرة ﷺ قال للنبي ﷺ : « هذا القاتِل » وهذه الجملة هي ما يُعرف في باب المناظرة بالتسليم يعني سَلَّمنا أن القاتل في النَّار فما بال المقتول كيف يكون في النار ؟!

فقال النبي ﷺ : « لأنَّه كان حَرِيصًا عَلَى قَتل صاحبه » فهو حريص على قتل صاحبه ولهذا جاء بآلة القتل ليقتله ، ولكن تفوَّق عليه الآخر فقتله فيكون هذا - والعياذ باللَّه - بنيته القتل وعمله السَّبب الموصل للقتل يكون كأنه قاتل ولهذا قال : لأنه كان حريصًا على قتل صاحبه .

ففي هذا الحديث : دليلٌ على أن الأعمال بالنِّيات وأن هذا لـمَّا نوى قتل صاحبه صار كأنه فاعلٌ

(١) أخرجه البخاري في الإيمان (٣١) واللفظ له ، ومسلم في الفتن وأشراط الساعة (١٥) .

ذلك أي كأنه قاتل وبهذا نعرف الفرق بين هذا الحديث وبين قوله ﷺ : « مَنْ قُتِلَ دُون ماله فَهُو شَهيدٌ ، ومنْ قُتِلَ دُون دِيْنِهِ فهو شهيدٌ ، ومَنْ قُتِلَ دونَ دمِهِ فهو شهيدٌ ، ومَنْ قُتِلَ دونَ أهلِه فَهُو شَهيدٌ » (١) . وقوله فِيمَن أتى ليأخذ مالك إن قَتَلْتَهُ : « فهُو في النَّار » وإن قتلَكَ : « فأنتَ شَهيد » .

وذلك لأن الإنسان الذي يُدافع عن ماله وأهْله ونفسه وعرضه إنما دافع رجلًا معتديًا صائلًا لا يندفع إلا بالقتل ، فهنا إذا قُتِلَ الصَّائلُ كان في النَّار وإن قُتِلَ الدَّافعُ كان شهيدًا في الجنة فهذا هو الفرق بينهما . فبهذا عُلِمَ أن من قتل أخاه مريدًا لقتله فإنه في النار ومن قَتَلَه أخوه وهو يُريد قتل أخيه لكن عجز فالمقتول أيضًا في النار .

وفي هذا الحديث : دَليل على عظم القتل وأنَّه من أسباب دخول النار والعياذ باللَّه .

وفيه : دَليلٌ على أن الصحابة ﷺ كانوا يَوردُونَ على الرسول ﷺ الشُّبهة فيجيب عنها .

ولهذا لا نجد شيئًا من الكتاب والسُّنة فيه شبهة حقيقية إلا وقد وجد حلها . إما أن يكون حلُّها بنفس الكتاب والسُّنة من غير إيراد سؤال وإما أن يكون بإيراد سؤال يجاب عنه .

ومن ذلك أن الرسول ﷺ لما أخبر بأن الدَّجال يمكث في الأرض أربعين يومًا اليوم الأول كسنة والثاني كشهر والثَّالث كالأسبوع وبقية الأيام كأيامنا سأله الصحابة هذا اليوم الذي (كسنه) هل تكفينا فيه صلاة يوم واحد ؟ قال : « لا . ولكن اقْدروا لَهُ قَدْرَه » (٢) ففي هذا أبينُ دليل على أنه لا يوجد - وللَّه الحمد - في الكتاب والسنة شيء مشتبه لا حلَّ له لكن الذي يوجد قصور في الأفهام تعجز عن معرفة الحل أو تقصير في الطلب والتأمل والتَّفتيش فيشتبه عليه الأمر .

أما في الواقع فليس في الكتاب والسُّنة شيء مُشْتبه إلَّا وجد حلُّه في الكتاب أو السُّنة إمَّا ابتداءً وإمَّا جوابًا عن سؤال يقع من الصَّحابة واللَّه الموفق .

* * *

١٠ - وَعَنْ أبي هُرَيرَةَ ﷺ قال : قال رسول اللَّه ﷺ : « صَلاَةُ الرَّجُلِ في جَمَاعَةٍ تَزِيدُ عَلَى صَلاَتِهِ في بيته وصلاتِهِ في سُوقِهِ بِضْعًا وَعِشْرِينَ دَرَجَةً ؛ وَذلِكَ أنَّ أَحَدَهُمْ إذَا تَوَضَّأَ فَأَحْسَنَ الْوُضُوء ، ثُمَّ أَتَى الْمَسْجِدَ لا يَنْهَزُهُ إلا الصلاةُ ، لا يريدُ إلا الصَّلاةَ ، لَمْ يَخطُ خَطْوَةً إلا رُفِع لَهُ بِهَا دَرَجَةٌ وَحُطَّ عَنْهُ بِهَا خَطِيئَةٌ حَتَّى يَدْخُلَ الْمَسْجِدَ ، فَإِذَا دَخَل الْمَسجدَ كَانَ فِي الصَّلاة مَا كَانَتِ الصَّلاةُ هِيَ تَحبسُهُ ، وَالْمَلائِكَةُ يُصَلُّونَ عَلَى أَحَدِكُمْ مَا دَامَ فِي مَجْلِسِهِ الَّذي صَلَّى فِيه ؛ يَقُولُونَ : اللَّهُمَّ ارْحَمْهُ ، اللَّهُمَّ اغْفِرْ لَهُ ، اللَّهُمَّ تُبْ عَلَيهِ ، مَا لَمْ يُؤذِ فِيهِ ، مَا لَمْ يُحْدِثْ فِيهِ » (٣) متفقٌ عليه ، وَهذاَ لَفْظُ مُسْلم . وَقَولُهُ ﷺ : « يَنْهَزُهُ » هُوَ بفَتْحِ الْيَاء وَالْهَاءِ وَبالزَّاي : أي يُخْرِجُهُ وَيُنْهضُهُ .

---

(١) أخرجه الترمذي في سننه (١٤٢١) وقال : حسن صحيح ، و أبو داود في سننه (٤٧٧٢) .

(٢) أخرجه مسلم في الفتن (٢٩٣٧) ، والترمذي في سننه (٢٢٤٠) بلفظه .

(٣) أخرجه البخاري في الأذان (٦٤٧) بلفظ « صلاة الرجل في الجماعة تضعف على صلاته في بيته وفي سوقه ... » =

الشرح

معنى الحديث : أنَّه إذا صلَّى الإنسان في المسجد مع الجماعة كانت هذه الصَّلاة أفضل من الصَّلاة في بيته أو في سوقه سبعًا وعشرين مرة لأن الصَّلاة مع الجماعة قيام بما أوجب اللَّه من صلاة الجماعة .

فإن القول الراجح من أقوال أهل العلم : أن صلاة الجماعة فرض عَين وأنه يجب على الإنسان أن يصلي مع الجماعة في المسجد لأحاديث وردت في ذلك ولما أشار إليه اللَّه سبحانه وتعالى في كتابه حيث قال : ﴿ وَإِذَا كُنتَ فِيهِمْ فَأَقَمْتَ لَهُمُ ٱلصَّلَوٰةَ فَلْتَقُمْ طَآئِفَةٌ مِّنْهُم مَّعَكَ ﴾ [النساء: ١٠٢] .

فأوجب اللَّه الجماعة في حال الخوف فإذا أوجبها في حال الخوف ففي حال الأمن من باب أولى وأحْرَى .

ثمَ ذكر السبب في ذلك : بأن الرَّجل إذا توضأ في بَيته فأسْبغ الوُضوء ثمَ خرج من بَيتِهِ إلى المسجد لَا يَنْهزُهُ - أو لا يُخْرجه - إلا الصَّلاة لم يخط خطوة إلا رفع اللَّه له بها درجة وحَطَّ عنه بها خطيئة ، سواء أقرب مكانه من المسجد أم بَعُد ، كل خطوة يحصل به فائدتان :

الفائدة الأولى : أن اللَّه يرفعه بها درجة .

والفائدة الثانية : أن اللَّه يحطُّ عنه بها خطيئة وهذا فضل عظيم .

وقوله : « فإنه في صلاة ما انتظر الصَّلاة » وهذه أيضًا نعمة عظيمة لو بقيت منتظرًا للصلاة مدة طويلة وأنت جالس لا تصلِّي بعد أن صلَّيت تحية المسجد ومَا شاء اللَّه فإنه يُحسب لك أجر الصلاة « لا يزال في صلاة ما انتظر الصلاة » .

وهناك أيضًا شيء رابع : أن الملائكة تصلي عليه ما دام في مجلسه الذي صلَّى فيه تقول : « اللهُمَّ صَلِّ عليه ، اللهُمَّ اغفر له اللَّهُمَّ ارحمه ، اللَّهم تُب عليه » وهذا أيضًا فضل عظيم لمن حضر بهذه النية وبهذه الأفعال .

والشاهد من هذا الحديث قوله : « ثمَّ خرج من بيته إلى المسجد لا يخرجه إلَّا الصلاة » فإنه يدلُّ على اعتبار النيَّة في حُصول هذا الأجر العظيم .

أما لو خرج من بيته لا يُريد الصَّلاة فإنه لا يُكتب له هذا الأجر مثل أن يخرج من بيته إلى دكانه لما أذَن ذهب يُصلي فإنه لا يَحْصلُ على هذا الأجر لأن الأجر إنَّما يحصل لمن خرج من البيت لا يخرجه إلا الصلاة .

لكن ربما يُكْتَبُ له الأجر من حين أن ينطلق من دكانه أو من مكان بيعه وشرائه إلى أن يصل إلى المسجد ما دام انطلق من هذا المكان وهو على طهارة . والله الموفق .

* * *

= ومسلم في المساجد (٢٧٢) واللفظ له .

١١ - وَعَنْ أبي الْعَبَّاس عَبْدِ اللَّهِ بْن عَبَّاس بْنِ عَبْدِ الْمُطَّلب ﷺ عَنْ رسول اللَّه ﷺ ، فيمَا يَرْوي عَنْ رَبِّهِ تَبَارَكَ وَتَعَالَى قَالَ : « إن اللَّه كَتَبَ الْحَسَنَاتِ وَالسَّيِّئاتِ ، ثُمَّ بَيَّنَ ذلكَ : فَمَنْ هَمَّ بحَسَنَةٍ فَلَمْ يَعْمَلْها كَتَبَهَا اللَّهُ تَبَارَكَ وَتَعَالَى عِنْدَهُ حَسَنَةً كَاملَةً ، وَإنْ هَمَّ بِهَا فَعَمِلَهَا كَتَبَهَا اللَّهُ عَشْرَ حَسَناتٍ إلَى سَبْعِمِائَةِ ضِعْفٍ إلَى أَضْعَافٍ كَثيرَةٍ ، وَإنْ هَمَّ بِسَيِّئَةٍ فَلَمْ يَعْمَلْهَا كَتَبَهَا اللَّهُ عِنْدَهُ حَسَنَةً كَاملَةً ، وَإنْ هَمَّ بهَا فَعَمِلَهَا كَتَبَهَا اللَّهُ سَيِّئَة وَاحِدَةً » [١] متفقٌ عَليه .

الشرح

قوله : « إن اللَّه كتب الحسنات والسيئات » كتابته للحسنات والسيئات تشمل معنيين :

المعنى الأول : كتابة ذلك في اللوح المحفوظ فإنَّ اللَّه تعالى كتب فيه كل شيء كما قال اللَّه : ﴿إِنَّا كُلَّ شَيْءٍ خَلَقْنَٰهُ بِقَدَرٍ﴾ [سورة القمر، الآية : ٤٩] وقال تعالى : ﴿ وَكُلُّ صَغِيرٍ وَكَبِيرٍ مُّسْتَطَرٌ ﴾ [٢] [سورة القمر، الآية : ٥٣] فاللَّه ﷻ كتب السيئات والحسنات في اللوح المحفوظ .

والمعنى الثاني : كتابته إيَّاهما إذا عملها العبد فإن اللَّه تعالى يكتبها حسب ما تقضيه حكمَتُه وحسب ما يقضيه عدلُه وفضلُه .

فهاتان كتابتان :

كتابة سابقة : لا يعلمها إلا اللَّه ﷻ فكل واحد منا لا يعلم ماذا كتب اللَّه له من خير أو شر حتى يقع ذلك الشيء .

وكتابة لاحقة : إذا عمل الإنسان العمل كُتِب له حسب ما تقضيه الحكمة والعدل والفضل : « ثم بين ذلك » أي : ثم بين النبي ﷺ ذلك كيف يُكْتَب فبين أن الإنسان إذا هم بحسنة فلم يعْملها كتَبها اللَّه حسنة كاملة .

مثاله : رجل هم أن يتوضأ ليقرأ القرآن ، ثمَّ لم يفعل ذلك وعدل عنه فإنه يكتب له بذلك حسنة كاملة .

هم أن يتصدَق وعين المال الذي يريد أن يتصدق به ثم أمسك ولم يتصدق فيكتب له بذلك حسنة كاملة . هم أن يُصلي ركعتين فأمسك ولم يُصلِّ فإنه يكتب له بذلك حسنة كاملة .

فإن قال قائل : كيف يكتب له حسنة وهو لم يفعلها ؟

فالجواب على ذلك : أن يُقال : إن فضل اللَّه واسع ، هذا الهَمُّ الذي حدث منه يعتبر حسنة لأن القلب همام إما بخير أو بشر ، فإذا هم بالخير فهذه حسنة تُكتَبُ له فإن عملها كتبها اللَّه عشر حسنات إلى سبعمائة ضعف إلى أضعاف كثيرة .

---

(١) أخرجه البخاري في الرقاق (٦٤٩١) ، ومسلم في الإيمان (٢٠٧) ، وأحمد في مسنده (١/٣١٠) .

(٢) أي وكل صغير وكبير من الأمور والأعمال . ومنها الذنوب : مسطور عندنا ومحصيٌّ على صاحبه . صفوة البيان لمعاني القرآن ص (٦٨٦) .

وهذا التفاوت مبني على الإخلاص والمتابعة فكلما كان الإنسان في عبادته أخلص لله كان أجره أكثر وكلما كان الإنسان أتبع في عبادته للرسول ﷺ كانت عبادته أكمل وثوابه أكثر .

أما السيئة فقال : « وإن هَم بسيئةٍ فلَمْ يعملها كَتبها اللَّه حسنة كامِلة » كرجل همَّ أن يسرق ولكن ذكر اللَّه ﷻ فأدركه خوف اللَّه فترك السرقة ، فإنه يُكتب له بذلك حسنة كاملة لأنه ترك فعل المعصية لله فأثيب على ذلك كما جاء ذلك مفسرًا في لفظ آخر : « لأنه تَرَكهَا مِن جَراي » [١] أي من أجلي .

فإن عَمل السيئة كتبت سيئة واحدة فقط لا تزيد لقوله تعالى : ﴿ مَن جَآءَ بِٱلْحَسَنَةِ فَلَهُۥ عَشْرُ أَمْثَالِهَا ۖ وَمَن جَآءَ بِٱلسَّيِّئَةِ فَلَا يُجْزَىٰٓ إِلَّا مِثْلَهَا وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ ﴾ [سورة الأنعام ، الآية : ١٦٠] .

وهذا الحديث فيه : دليل على اعتبار النية وأن النية قد توصل صاحبها إلى الخير .

وسبق لنا أن الإنسان إذا نَوى الشر وعمل العمل الذي يوصل إلى الشر ولكنه عجز عنه فإنه يكتب عليه إثم الفاعل كما سبق فيمن التقيا بسيفيهما من المسلمين : « إذا التقى المُسلمَان بسيفيهما فالقَاتلُ والمَقتولُ في النار » قالوا : يا رسولَ اللَّه هذا القاتلُ فمَا بالُ المَقتول؟ قالَ : « لأنه كانَ حَريصًا علَى قتْل صَاحبه » [٢] واللَّه الموفق .

* * *

١٢ - وعن أَبي عَبْدِ الرَّحمن عَبْدِ اللَّه بْنِ عُمَرَ بْنِ الْخَطَّاب ﵄ قال : سَمِعْتُ رسول اللَّه ﷺ يَقولُ : « انْطَلَقَ ثَلاثَةُ نَفرٍ مِمَّنْ كَانَ قَبْلكُم حَتَّى آوَاهُمُ الْمَبِيتُ إلى غَارٍ فَدَخَلُوهُ ، فانْحدَرت صَخْرَةٌ مِنَ الْجَبَل فَسدَّتْ عَلَيهِمُ الْغَارَ . فَقَالُوا : إنَّهُ لا يُنْجِيكُمْ مِنْ هذِهِ الصَّخْرَةِ إلا أنْ تَدْعُوا اللَّهَ بِصَالِحِ أعْمَالِكُمْ . قال رجلٌ مِنْهُمْ : اللَّهُمَّ كَانَ لِي أَبَوَانِ شَيخَانِ كَبِيرَان ، وكُنْتُ لاَ أَغْبِقُ قَبْلَهما أَهْلاً وَلا مالاً . فَنأَى بِي طَلَبُ الشَّجَرِ يَومًا فَلَمْ أُرِحْ عَلَيهِمَا حَتَّى نَامَا فَحَلَبْت لَهُمَا غَبُوقَهُمَا فَوَجَدْتُهُمَا نائِمِينِ فَكَرِهْت أَنْ أُوقِظَهُمَا وَأَنْ أَغْبِقَ قَبْلَهُمَا أَهْلاً أَو مَالاً ، فَلَبِثْتُ - وَالْقَدَحُ عَلَى يَدِي - أَنْتَظِرُ اسْتِيقَاظَهُمَا حَتَّى بَرَقَ الْفَجْرُ وَالصِّبْيَةُ يَتَضَاغَونَ عَنْدَ قَدَمي - فاسْتَيقَظَا فَشَرِبَا غَبُوقَهُمَا . اللَّهُمَّ إنْ كُنْتُ فَعَلْتُ ذَلِكَ ابْتِغَاءَ وَجْهِكَ فَفَرِّجْ عَنَّا مَا نَحْنُ فِيهِ مِنْ هذهِ الصَّخْرَةِ ، فانْفَرَجَتْ شَيئًا لا يَسْتَطِيعُون الْخُرُوجَ مَنْهُ . قال الآخر : اللَّهُمَّ إنَّهُ كَانَتْ لِيَ ابْنَةُ عَمٍّ كَانَتْ أَحَبَّ النَّاسِ إلَيَّ » وفي رواية : « كُنتُ أُحِبُّهَا كَأَشَدِّ مَا يُحِبُّ الرِّجَالُ النِّسَاءَ ، فَأَرَدْتُهَا عَلَى نَفْسها فَامْتَنَعَت مِنِّي حَتَّى أَلَمَّتْ بِها سَنَةٌ مِنَ السِّنِينَ ، فَجَاءَتْني فَأَعْطَيتُهَا عِشْرِينَ وَمِائَةَ دينار عَلَى أنْ تُخَلِّي بَيني وَبَينَ نَفْسِها فَفعَلَتْ ، حَتَّى إذَا قَدَرْتُ عَلَيهَا » وفي رواية : « فَلَمَّا قَعَدْتُ بَينَ رِجْلَيهَا ، قَالَت : اتَّقِ اللَّهَ وَلا تَفُضَّ الْخَاتَمَ إلا بحَقِّهِ ، فانْصَرَفْتُ عَنْهَا وَهيَ أَحَبُّ النَّاس إلَيَّ وَتَرَكْتُ الذَّهَبَ الَّذي أَعْطَيتُهَا ، اللَّهُمَّ إنْ كُنْتُ فَعَلْتُ ذلِكَ ابْتِغَاءَ وَجْهكَ

---

(١) أخرجه البخاري في الإيمان (٣١) - واللفظ له - ومسلم في الفتن وأشراط الساعة (١٥) .
(٢) أخرجه البخاي في الإيمان (٣١) ، ومسلم في الفتن (١٥) .

فافْرُجْ عَنَّا مَا نَحْنُ فيهِ ، فانفَرجتِ الصَّخْرَةُ غَيرَ أَنَّهُمْ لا يَسْتَطِيعُون الْخُرُوج مِنهَا . وقَالَ الثَّالثُ : اللهُمَّ اسْتَأجَرْتُ أُجَرَاء وَأَعْطَيتُهمْ أجرَهُمْ غَيرَ رَجُلٍ وَاحِدٍ تَرَكَ الْذي لَهُ وَذَهَبَ ، فَثَمَّرْتُ أَجْرَهُ حَتى كَثُرَت مِنْهُ الأمْوالُ ، فَجَاءني بَعْدَ حِين فَقَالَ : يَا عَبْدَ اللَّهِ أَدِّ إِليَّ أجرِي ، فقلْتُ : كُلُّ مَا تَرَى مِنْ أَجْرِكَ : مِنَ الإِبلِ وَالْبَقَرِ وَالْغَنَمِ وَالرَّقِيق . فَقَالَ : يا عَبْدَ اللَّهِ لا تَسْتَهْزِئ بِي ! فَقُلْتُ : لا أَسْتَهْزِئُ بك ، فَأَخَذه كُلَّهُ فاسْتَاقَهُ فَلَمْ يَترُك مِنْهُ شَيئًا ، اللَّهُمَّ إِنْ كُنْتُ فَعَلت ذلِك ابْتِغَاءَ وَجْهِكَ فافْرُجْ عَنَّا مَا نَحْنُ فِيهِ ، فَانْفَرَجَتِ الصَّخْرَةُ فَخَرَجُوا يَمْشُونَ » (١) متفقٌ عليه .

الشرح

قوله : « انطلق ثلاثة نفرٍ » أي : ثلاثة رجال . « فآواهم المبيت فدخلوا في غار » يعني ليبيتوا فيه ، والغار : هو مَا يَكون في الجبل مما يدخله الناس يبيتون فيه أو يَتظللون فيه عن الشمس وما أشبه ذلك . فهم دخلوا حين آواهم المبيت إلى هذا الغار فَتدحْرجت عليهم صخرة من الجبل حتى سَدَّتْ عليهم باب الغار ، ولم يستطيعوا أن يزحزحوها لأنها صخرة كبيرةٌ . فرأوا أن يتوسَّلوا إلى اللَّه تعالى بصالح أعمالهم .

فذكر أحدهم بِرَّه التام بوالديه ، وذكَر الثاني عِفَّته التَامة ، وذكر الثالث وَرَعه ونُصحه .

أمَّا الأول : يقول : إنَّه كان له أبوان شيخان كبيران « وكنت لا أغبق قبلهما أهْلًا ولا مالًا » الأهل مثل الزوجة والأولاد والمال مثل الأرقاء وشبهه . وكان له غنم فكان يَسْرحُ فيها ثم يرجع في آخر النهار ويحلب الغنم ويعطي أبويه الشيخين الكبيرين ، ثم يعطي بقية أهله ومَاله : يقول : « فنأى به طَلبُ الشجر ذات يوم » أي أبعد بي طلب الشجر الذي يرعاه ؛ فرجع فوجد أبويه قد ناما ، فنظر هل يسقي أهله وماله قبل أبويه أو ينتظر حتى يستيقظ الأبوان ، فرجَّح الثاني : يعني أنَّه بقي فأمسك الإناء بيده حتى برق الفجر ، أي حتى طلع الفجر وهو ينتظر أبويه فلما استيقظا وشربا اللبن أسْقَى أهله وماله .

قال : « اللَّهمَّ إن كنت فعلت ذلك ابتغاء وَجْهك ففرِّج عنا ما نحن فيه » والمعنى : إن كنت مخلصًا في عملي هذا ، فعَلْتُه من أجلك ، ففرج عنا ما نحن فيه .

وفي هذا : دليلٌ على الإخلاص لله ﷻ في العمل : وأن الإخلاص عليه مدار كبير في قبول العمل ، فتقبَّل اللَّه منه هذه الوسيلة وانفرجت الصخرة لكن انفراجًا لا يستطيعون الخروج منه .

الثاني : توسل إلى اللَّه ﷻ بالعفَّة التَّامة ؛ وذلك أنه كان له ابنة عمٍّ وكان يحبها حُبًّا شديدًا كأشد ما يحب الرجال النساء « فأرادها عن نفسها » أي بالزِّنى ليزني بها ، ولكنها لم توافق وأبَتْ فألمت بها سنة من السِّنين ، أي أصابها فقر وحاجة فاضطرت إلى أن تجود بنفسها في الزِّنى من أجل الضرورة - وهذا لا يجوز - ولكن هذا الذي حصل فجاءت إليه فأعطاها مائة وعشرين دينارًا اي مائة وعشرين

(١) أخرجه البخاري في الإجارة (٢٢٧٢) بلفظ « انطلق ثلاثة رهطٍ .. » ، ومسلم في الذكر والدعاء (١٠٠) .

جنيهًا من أجل أن تمكنه من نفسها .

ففعلت من أجل الحاجة والضَّرورة ، فلمَّا جلس منها مجلس الرجل من امرأته على أنه يُريد أن يفعل بها قالت له هذه الكلمة العجيبة العظيمة : « اتقِ اللَّه ولا تفض الخاتم إلا بحقه » .

فخوفته بالله ﷻ وأشارت إليه . إلا أنه إن أراد هذا بالحق فلا مانع عندها لكن كونه يفض الخاتم بغير حق ، هي لا تريده ، ترى أن هذا من المعاصي ولهذا قالت له : اتقِ اللَّه ، فلما قالت له هذه الكلمة التى خرجت من أعماق قلبها دخلت في أعماق قلبه ، وقام عنها وهي أحب الناس إليه ، يعني مَا زالت رغبته عنها ولا كرهها بل حبُّها باقٍ في قلبه ، لكن أدركه خوف اللَّه ﷻ فقام عنها وترك لها الذهب الذي أعطاها مائة وعشرين دينارًا ، ثم قال : « اللهم إن كنت فعَلْت هذا لأجلك فافرج عنا مَا نحن فيه ، فانفرجت الصخرة إلا أنهم لا يستطيعون الخروج » وهذا من آيات اللَّه ؛ لأن اللَّه على كل شيء قدير ، لو شاء اللَّه تعالى لانفرجت عنهم لأول مرة ، ولكنه ﷻ أرادَ أن يبقي هذه الصخرة حتى يتم لكل واحد منهم ما أراد أن يتوسل به من صالح الأعمال .

* * *

أما الثالث : فتوسل إلى اللَّه ﷻ بالأمانة والإصلاح والإخلاص في العمل فإنه يذكر أنه استأجر أجراء ، على عمل من الأعمال فأعطاهم أجورهم إلا رجلًا واحدًا ترك أجره فلم يأخذه . فقام هذا المستأجر فثمرَّ المال فصار يتكسب به بالبيع والشراء وغير ذلك حتى نما وصار منه إبل وبقر وغنم ورقيق وأموال عظيمة .

فجاءه بعد حين فقال له : يا عبد اللَّه ، أعطني أجري . فقال له : كل ما ترى فهو لك من الإبل والبقر والغنم والرقيق : فقال : لا تستهزئ بي ، الأجرة التي لي عندك قليلة كيف لي كل ما أرى من الإبل والبقر والغنم والرقيق ؛ لا تستهزئ بي . « فقلت : هو لك فأخذه واستاقه كله ولم يترك له شيئًا » . « اللهم إنْ كنتُ فعلْتُ ذلكَ مِن أجْلكَ فافْرج عنا مَا نَحن فيه فانفرَجَت الصخرة وانفتح الباب فخرجوا يَمْشون » لأنهم توسلوا إلى اللَّه بصالح أعمالهم التي فعلوها إخلاصًا لله ﷻ .

ففي هذا الحديث من الفوائد والعبر : فضيلة بر الوالدين وأنه من الأعمال الصالحة التي يفرج بها الكربات ويزيل بها الظلمات .

وفيه : فضيلة العفة عن الزنى وأن الإنسان إذا عف عن الزنى مع قدرته عليه فإن ذلك من أفضل الأعمال وقد ثبت عن النبي ﷺ أن هذا من السبعة الذين يُظلهم اللَّه في ظله يوم لا ظل إلا ظله : « رَجُلٌ دعته امرأة ذات منصب وجمال فقال إني أخاف اللَّه » [(١)] .

فهذا الرجل مَكنته هذه المرأة التي يحبها من نفسها فقام خوفًا من اللَّه ﷻ فحصل عنده كمال

---

(١) أخرجه البخاري في الزكاة (١٤٢٣) ، ومسلم في الزكاة (٩١) .

العِفة فيرجى أن يكون مِمن يظلهم اللَّه في ظِله يوم لا ظل إلا ظله :

وفي هذا الحديث : دَليلٌ على فضل الأمانة ، وإصلاح العمل للغير فإن هذا الرجلَ بإمكانه لما جاءه الأجير أن يعطيه أجره ويبقى هذا المال له ، ولكن لأمانتِه وثِقتِهِ وإخلاصه لأخيه ونُصْحه له أعطاه كل ما أثمر أجره .

ومن فوائد هذا الحديث : بيان قدرة اللَّه ﷻ ، حيث إنه تعالى أزال عنهم الصخرة بإذنه ، لم تأت سيارة تزيلها ، ولم يأت رجال يزحزحونها ، وإنما هو أمر اللَّه ﷻ !

أمر اللَّه هذه الصَّخرة أن تنحدر فتنطبق عليهم ثم أمرها أن تنفرج عنهم والله سبحانه على كل شيء قدير .

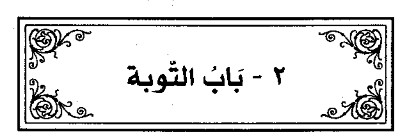
وفيه من العبر : أن اللَّه سميع الدعاء فإنه سَمع دُعاء هؤلاء واستجاب لهم .

وفيه من العبر : أن الإخلاص من أسباب تفريج الكربات لأن كل واحد منهم يقول : « اللهم إن كُنتُ فَعلْتُ ذلك من أجْلك فافرج عنَّا ما نحن فِيه » .

أما الرِّياء - والعياذ باللَّه - والذي لا يعمل الأعمال إلا رياءً وسُمعةً حتى يُمدح عند الناس فإن هذا كالزبد يذهب جفاءً لا ينتفع منه صاحبه ، نسأل اللَّه أن يرزقنا وإياكم الإخلاص له .

الإخلاص هو كل شيء : لا تجعل نصيبًا من عبادتك لأحد ، اجعلها كلها لله ﷻ حتى تكون مقبولة عند اللَّه ؛ لأنه ثبت عن النبي ﷺ فيما يرويه عن اللَّه أنه قال : « أَنَا أَغْنَى الشركاء عن الشرك مَنْ عَمِلَ عَمَلًا أَشْرَكَ فِيه مَعي غَيرِي تَرَكْتُه وشِرْكَه » (١) والله الموفق .

* * *



٢ - بَابُ التَّوبة

قال العلماءُ : التوبةُ واجبة منْ كُلِّ ذنب ، فإن كانت المَعصِيةُ بيْنَ العَبْدِ وبَينَ اللَّه تعالى لا تَتَعلقُ بحَق آدَمي ؛ فَلَها ثلاثةُ شُروطٍ :

أحَدُهَا : أنْ يُقلعَ عَن المَعصيةِ .

والثاني : أنْ يَندَمَ عَلى فِعْلِهَا .

والثالِث : أنْ يَعْزمَ أنْ لا يَعودَ إلَيهَا أبدًا : فإن فُقِدَ أَحَدُ الثلاثة لم تَصح تَوبَته :

وإنْ كانَتِ المَعصيةُ تتعلق بآدَمي فَشُروطُهَا أرْبَعَة : هذِه الثلاثة ، وأن يبرأ منْ حَقِّ صاحبها ؛ فإن كانت مالًا أو نَحْوهُ رده إليه ، وإن كانت حدَّ قذْفٍ ونَحْوهُ مَكنَهُ مِنهُ أو طَلب عَفْوهُ ، وإن كانت غيبة

---

(١) أخرجه مسلم في الزهد (٤٦) .

اسْتحلهُ مِنْهَا . ويجب أنْ يَتُوبَ مِنْ جَميع الذنُوبِ ، فإن تَابَ مِنْ بَعْضِها صَحتْ تَوبتُه عندَ أهْلِ الحَق من ذلكَ الذنب ، وبَقِي عليه الباقي . وقدْ تظاهرتْ دلائل الكتابِ ، والسنة ، وإجْماعُ الأمَةِ علَى وجوبِ التوبةِ :

قال اللَّه تعالى : ﴿ وَتُوبُوٓاْ إِلَى ٱللَّهِ جَمِيعًا أَيُّهَ ٱلْمُؤْمِنُونَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ﴾ [سورة النور ، الآية : ٣١] . وقال تعالى : ﴿ وَأَنِ ٱسْتَغْفِرُواْ رَبَّكُمْ ثُمَّ تُوبُوٓاْ إِلَيْهِ ﴾ [سورة هود ، الآية : ٣] : وقال تعالى : ﴿ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ تُوبُوٓاْ إِلَى ٱللَّهِ تَوْبَةً نَّصُوحًا [(١)] ﴾ [سورة التحريم ، الآية : ٨] .

الشرح

التوبة لُغة : من تاب يتوب إذا رجع ، وشَرْعًا : الرجوع من معصية اللَّه تعالى إلى طاعته .

وأعظمها وأوجبها التوبة من الكفر إلى الإيمان . قال اللَّه تعالى : ﴿ قُل لِّلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ إِن يَنتَهُواْ يُغْفَرْ لَهُم مَّا قَدْ سَلَفَ ﴾ [سورة الأنفال ، الآية : ٣٨] ثم يليها التوبة من كبائر الذنوب : ثم المرتبة الثالثة التوبة من صغائر الذنوب .

والواجب على المرء ، أن يتوب إلى اللَّه سبحانه وتعالى من كل ذنب .

وللتوبة شُروط ثلاثة كما قال المؤلف رَحِمَهُ اللَّهُ ولكنها بالتتبع تبلغ خمسة :

الشرط الأول : الإخلاص لله ، بأنْ يكون قصد الإنسان بتوبته وجه اللَّه عَزَّ وَجَلَّ وأن يتوب اللَّه عليه ، ويتجاوز عما فعل من المعصية : لا يقصد بذلك مراءة الناس والتقرب إليهم ، ولا يقصد بذلك دفع الأذية من السلطان وَوَلي الأمر . وإنما يقصد بذلك وجه اللَّه والدار الآخرة أن يعفو اللَّه عن ذنوبه .

الشرط الثاني : الندم على مَا فعل من المعصية ؛ لأن شعور الإنسان بالندم هو الذي يدل على أنه صادق في التوبة ، يعني بمعنى أن يتحسر على ما سَبق منه ، وينكسرمن أجله ولا يرى أنه في حِلٍّ منه حتى يتوب منه إلى اللَّه .

الشرط الثالث : أن يقلع عن الذنب الذي هو فيه وهذا من أهم شروطه . والإقلاع عن الذنب إن كان الذنب ترك واجب فالإقلاع عنه بفعله مثل أن يكون شخص لا يُزكي فأراد أن يتوب إلى اللَّه فلابد من أن يخرج الزكاة التي مضت ولم يُؤدها .

إذا كان الإنسانُ مقصرًا في بر الوَالدين فإنه يجب عليه أن يقوم ببرهما . وإذا كان مقصرًا في صِلةِ الرَّحم فإنه يجب عليه أن يصل الرحم .

وإن كانت المعصية بفعل محرم فالواجب أن يُقلع عنه فورًا ، ولا يبقى فيه ولا لحظة . وإذا كان مثلًا

---

(١) توبة نصوحًا : بالغة في النصح وهي أن يندم العبد على الذنب الذي أصاب فيعتذر إلى اللَّه تعالى ثم لا يعود إليه ، أو توبة ترفو خروقه في دينه وتَرُمُّ خلله . من نصح الثوب : أي خالصه ، أو توبة خالصة من قولهم عسل ناصح إذا خلص من الشمع . صفوة البيان لمعاني القرآن ص (٧٣٣) .

من آكلي الربا فالواجب أن يتخلص من الربا بتركه والبعد عنه وإخراج ما اكتسبه عن طريق الربا .

إذا كانت المعصية بالغِش والكذب على الناس وخيانة الأمانة ، فالواجب أن يُقلع عن ذلك ، وإذا كان اكتسب مالًا من هذا الطريق المحرم فالواجب عليه أن يَرُده إلى صاحبه أو يستحله منه .

إذا كانت غيبة فالواجب أن يقلع عن غيبة الناس والتكلم في أعراضهم ، أما أنه يقول إنه تائب إلى اللَّه وهو مصرٌّ على ترك الواجب أو مصرٌّ على فعل المحرم ، فإن هذه التوبة غير مقبولة . بل إن هذه التوبة كالاستهزاء بالله ﷻ ، كيف تتوب إلى اللَّه ﷻ وأنت مُصرٌّ على معصيته ؟!

لو أنك تُعامل بشرًا من الناس ، تقول : أنا تُبت إليك وأنا نادم لا أعود ثم في نيتك وقلبك أنك ستعود وعُدت فإن هذه سخرية بالرجل فكيف بالله رب العالمين ؟!

فالإنسان التائب حقيقةً هو الذي يُقلع عن الذنب ، ومن الغريب أن بعض الناس تجلس إليه ، وتجده يتأوَّه من وجود الربا وهو في نفسه يُرابي والعياذ بالله !!

أو يتأوَّه من الغيبة وأكل لحوم الناس وهو من أكثر الناس غيبة نسأل اللَّه العافية !!

أو يتأوه من الكذب وضياع الأمانة عند الناس ، وهو من أكذب الناس وأضيعهم للأمانة !!

على كل حال الإنسان لابد أن يقلع عن الذنب الذي تاب منه ، فإن لم يقلع فتوبته مردودة ولاتنفعه عند اللَّه ﷻ .

* * *

والإقلاع عن الذَّنب إما أن يكون إقلاعًا عن ذنب يتعلَّق بحق اللَّه ﷻ فهذا يكفي أن تتوب بينك وبين ربك ولا ينبغي بل قد نقول : لا يجوز أن تحدث الناس بما صَنَعْت من المحرم أو ترك الواجب ؛ لأن هذا بينك وبين اللَّه فإذا كان اللَّه قد مَنَّ عليك بالستر ، وسترك عن العباد فلا تحدث أحدًا بما صنعْت إذا تُبت إلى اللَّه .

وقد قال النبي – عليه الصلاة والسلام – : « كُل أمتي مُعَافَى إلا المجَاهِرين » [(١)] .

ومن المجاهرة ، كما جاء في الحديث : « أن يفعل الذنب ثم يُصْبح يحدث به الناس يقُول : فعلت كذا وكذا .. » [(٢)] .

إلا أن بعض العلماء قال : إذا فعل الإنسان ذنبًا فيه حد فإنه لا بأس أن يذهب إلى الإمام الذي يقيم الحدود مثل الأمير ويقول إنه فعل الذنب الفلاني ويريد أن يُطَهره منه و ذلك فالأفضل أن يستر على نفسه .

يعني يباح له أن يذهب إلى ولي الأمر إذا فعل معصية فيها حد كالزنى مثلًا فيقول إنه فعل كذا وكذا يطلب إقامة الحد عليه لأن الحد كفارة للذنب .

(١ ، ٢) أخرجه بنحوه البخاري في الأدب (٦٠٦٩) ، ومسلم في الزهد (٥٢) .

أما المعاصي الأخرى فاسترها على نفسك كما سترها اللّه وكذلك الزنى وشبهه استره على نفسك - بالنسبة لغير ولي الأمر - لا تفضح نفسك .

ما دمت أنك تبت فيما بينك وبين اللّه ، فإن اللّه يقبل التوبة عن عباده ويعفو عن السيئات .

أما إذا كان الذنب بينك وبين الخلق [أولًا] فإن كان مالًا فلابد أن تؤديه إلى صاحبه ولا تقبل التوبة إلا بأدائه . مثل أن تكون سرقت مالًا من شخص وتبت من هذا فلا بد أن توصل المسروق إلى المسروق منه .

جحدت حقًّا لشخص كأن يكون في ذمتك دين لإنسان وأنكرته ، ثم تبت فلا بد أن تذهب إلى صاحب الدين الذي أنكرته عليه وتقرَّ عنده وتعترفَ حتى يأخذَ حقه . فإن كان قد مات فإنك تعطيه ورثته فإن لم تعرفه أو غاب عنك هذا الرجل ولم تعرف له مكانًا فتصدق به عنه تخلصًا منه والله ﷻ يعلمه ويؤديه إليه .

[ثانيًا] أما إذا كانت المعصية التي فعلتها مع البشر ضرْبًا ومَا أشْبهه ، فاذهب إليه ومكنه من أن يَضْربك مثلما ضربته إن كان على الظهر فَعلى الظهر وإن كان على الرأس فعلى الرأس أو في أي مكان ضربته فليقتص منك لقول اللّه سبحانه : ﴿ وَجَزَٰٓؤُاْ سَيِّئَةٖ سَيِّئَةٞ مِّثۡلُهَاۖ ﴾ [سورة الشورى ، الآية : ٤٠] . ولقوله : ﴿ فَمَنِ ٱعۡتَدَىٰ عَلَيۡكُمۡ فَٱعۡتَدُواْ عَلَيۡهِ بِمِثۡلِ مَا ٱعۡتَدَىٰ عَلَيۡكُمۡۚ ﴾ [سورة البقرة ، الآية : ١٩٤] .

[ثالثًا] وإن كان بقول أي : أذية بالقول ، مثل أن تكون قد سَبَبْته بين الناس وَوَبَّخته وعَيَّرته فلابد أن تذهب إليه وتستحل منه بما تتفقان عليه . حتى لو قال لا أسمح لك إلا بكذا وكذا من الدراهم فأعطه .

[رابعًا] : أن يكون الحق غيبة ، يعني أنك تكلمت به في غيبته وقدحت فيه عند الناس وهو غائب .

فهذه اختلف فيها العلماء فمنهم من قال : لابد أن تذهب إليه تقول له : يا فلان إني تكلمت فيك عند الناس ، فأرجوك أن تسمح عني وتحلّلني .

وقال بعض العلماء : لا تذهب إليه بل فيه تفصيل! إن كان قد علم بهذه الغيبة فلا بد أن تذهب إليه وتستحله . وإن لم يكن علم فلا تذهب إليه واستغفر له وتحدث بمحاسنه في المجالس التي كنت تغتابه فيها فإن الحسنات يذهبن السيئات ، وهذا القول أصح وهو أن الغيبة إذا كان صاحِبها لا يعلم بأنك اغتبته فإنه يكفي أن تذكره بمحاسنه في المجالس التي اغتبته فيها وأن تستغفر له تقول : « اللهمَّ اغْفِر لَهُ » كما جاء في الحديث : « كَفَّارة مَنْ اغْتبْته أنْ تَسْتغْفِر له » (١) . فلابد في التوبة من أن تصل الحقوق إلى أهلها .

أما الشرط الرابع : فهو العزم على أن لا تعود في المستقبل إلى هذا العمل . فإن كنت تنوي أن

---

(١) ذكره العجلوني في كشف الخفاء (١٤٥/٢) من طرق معظمها ضعيف وقال « وبمجموع هذا يبعد الحكم عليه بالوضع وإن كان أصح من حديث أبي هريرة رفعه من كانت عنده مظلمة لأخيه فليستحله منها » .

تعود إليه عندما تسمح لك الفرصة فإن التوبة لا تصح مثل : رجل كان - والعياذ بالله - يستعين بالمال على معصية الله. يشتري به المسكرات ، يذهب إلى البلدان من أجل الزنى - والعياذ بالله - والسُّكْرِ !! فأصيب بفقرٍ وقال : اللَّهمَّ إني تبت إليك ، وهو كاذب ، هو في نيته أنه إذا عادت الأمور إلى مجاريها الأولى فعل فعله الأول .

فهذه توبة عاجز ، تُبْتَ أم لم تَتُبْ لست بقادر على فعل المعصية ؛ لأنه يوجد بعض الناس يُصاب بفقر فيقول : تركت الذنوب ، لكن يُحَدِّث قلبه أنَّه لو عاد إليه ما افتقده ، لعاد إلى المعصية مرة ثانية فهذه توبة غير مقبولة .

* * *

الشرط الخامس : أن تكون في زمن تُقْبل فيه التوبة فإن تاب في زمن لا تقبل فيه التوبة لم تنفعه التوبة . وذلك على نوعين :

النَّوع الأول : باعتبار كل إنسان بحسبه .

والنوع الثاني : باعتبار العموم .

أما الأول : فلابد أن تكون التوبة قبل حلول الأجل يعني الموت ، فإن كانت بعد حُلول الأجل فإنها لا تنفع التائب لقول الله سبحانه : ﴿ وَلَيْسَتِ ٱلتَّوْبَةُ لِلَّذِينَ يَعْمَلُونَ ٱلسَّيِّـَٔاتِ حَتَّىٰٓ إِذَا حَضَرَ أَحَدَهُمُ ٱلْمَوْتُ قَالَ إِنِّى تُبْتُ ٱلْـَٔـٰنَ ﴾ [سورة النساء ، الآية : ١٨] هؤلاء ليس لهم توبة .

وقال تعالى : ﴿ فَلَمَّا رَأَوْا۟ بَأْسَنَا قَالُوٓا۟ ءَامَنَّا بِٱللَّهِ وَحْدَهُۥ وَكَفَرْنَا بِمَا كُنَّا بِهِۦ مُشْرِكِينَ ﴿٨٤﴾ فَلَمْ يَكُ يَنفَعُهُمْ إِيمَـٰنُهُمْ لَمَّا رَأَوْا۟ بَأْسَنَا ۖ سُنَّتَ ٱللَّهِ ٱلَّتِى قَدْ خَلَتْ فِى عِبَادِهِۦ ۖ وَخَسِرَ هُنَالِكَ ٱلْكَـٰفِرُونَ ﴾ [غافر : ٨٤، ٨٥] .

فالإنسان إذا عاين الموت وحضره الأجل فهذا يعني أنه أيسَ من الحياة فتكون توبته في غير محلها! بعد أن ييئس من الحياة وعرف أنه لا بقاء له يذهب فيتوب! هذه توبة اضطرار فلا تنفعه ولا تُقبل منه لابد أن تكون التوبة سابقة .

النوع الثاني : وهو العموم فإن الرسول - عليه الصلاة والسلام - أخبر بأن « الهِجْرةَ لا تنقطِع حتى تنقطع التوبة وَلَا تنقطِع التوبة حتى تطلع الشَّمس مِن مَغرِبها » [١] .

فإذا طلعت الشمس من مغربها لم تنفع أحدًا توبة . قال الله سبحانه : ﴿ يَوْمَ يَأْتِى بَعْضُ ءَايَـٰتِ رَبِّكَ لَا يَنفَعُ نَفْسًا إِيمَـٰنُهَا لَمْ تَكُنْ ءَامَنَتْ مِن قَبْلُ أَوْ كَسَبَتْ فِىٓ إِيمَـٰنِهَا خَيْرًا ﴾ [سورة الأنعام ، الآية : ١٥٨] وهذا البعض هو طلوع الشمس من مغربها كما فسر ذلك النبي - عليه الصلاة والسلام - .

إذًا فلابد أن تكون التوبة في وقت تقبل فيه التوبة فإن لم تكن كذلك فلا توبة للإنسان . ثم

---

(١) انظر الحديث في مسند الإمام أحمد في مسنده (٩٩/٤) ، وأبو داود في السنن (٢٤٧٩) .

اختلف العلماء - رحمهم الله - هل تقبل التوبة من ذنب مع الإصرار على غيره أو لا ؟

في هذا ثلاثة أقوال لأهل العلم !

١ - منهم من قال : إنها تصِح التوبة من الذنب وإن كان مصِرًا على ذنب آخر ، فتقبل توبته مَن هذا الذنب ويبقى الإثم عليه في الذنب الآخر بكل حال .

٢ - ومنهم من قال : لا تقبل التوبة من الذنب مع الإصرار على ذنب آخر .

٣ - ومنهم من فصل فقال : إن كان الذنب الذي أصر عليه من جنس الذنب الذي تاب منه فإنها لا تُقبل ، وإن لا قُبِلت !

مثال ذلك : رجل تاب من الرِّبا ولكنه يَزْني والعياذ بالله أو يشرب الخمر ولنقل أنه يشرب الخمر ، تاب من الرِّبا ولكنه مُصرٌّ على شرب الخمر .

فهنا من العلماء من قال : إن توبته من الرِّبا لا تقبل كيف يكون تائبًا إلى اللّٰه وهو مُصِر على معصيته ؟! .

وقال بعض العلماء : بل تقبل لأن الربا شيء وشرب الخمرشيء آخر وهذا هو الذي مشى عليه المؤلف رَحِمَهُ ٱللَّهُ وقال إنها تقبل التوبة من ذنب مع الإصرار على غيره عند أهل الحق . فهذا فيه الخلاف أما إذا كان من الجنس مثل أن يكون الإنسان والعياذ بالله مُبْتلى بالزنى ومبتلًى بالاطلاع على النساء والنظر إليهن بشهوة وما أشبه ذلك فهل تقبل توبته من الزنى وهو مُصِرٌّ على النظر إلى النساء لشهوة ؟ أو بالعكس ؟

هذا فيه - أيضًا - خلاف فمنهم من يقول : تَصح ومنهم من يقول لا تصح التوبة .

ولكن الصحيح في هذه المسألة أنْ التوبة تصِح من كل ذنب مع الإصرار على غيره لكن لا يُعطى الإنسان اسم التائب على سبيل الإطلاق ولا يستحق المدح الذي يمدح به التائبون ؛ لأن هذا لم يتُب توبة تامة بل توبة ناقصة .

تاب من هذا الذنب فيرتفع عنه إثمه ، لكنه لا يستحق أن يُوصف بالتوبة على سبيل الإطلاق . فهذا هو القول الذي تطمئن إليه النفس أنه لا يعطى الوصف على سبيل الإطلاق ولا يحرم من التَّوبة التي تابها من هذا الذنب .

* * *

سبق أن المؤلف رَحِمَهُ ٱللَّهُ قال : إن النصوص من الكتاب والسنة تظاهرت وتضافرت على وجوب التوبة من جميع المعاصي ، وصدق رَحِمَهُ ٱللَّهُ فإن الآيات كثيرة في الحث على التوبة ، وبيان فضلها ، وأجرها ، وكذلك الأحاديث عن النبي ﷺ .

وقد بين اللّٰه في كتابه أنه سبحانه يحب التوابين ويحب المتطهرين ؛ التوابون الذين يكثرون التوبة إلى اللّٰه ﷻ كلما أذنبوا ذنبًا تابوا إلى اللّٰه .

ذكر المؤلف من الآيات قول اللّٰه تعالى : ﴿ وَتُوبُوٓاْ إِلَى ٱللَّهِ جَمِيعًا أَيُّهَ ٱلْمُؤْمِنُونَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ﴾

[النور: ٣١] هذه الجملة ختم الله بها آيتي وجوب غض البصر .

وهي قوله : ﴿ قُل لِّلْمُؤْمِنِينَ يَغُضُّوا مِنْ أَبْصَارِهِمْ وَيَحْفَظُوا فُرُوجَهُمْ ذَٰلِكَ أَزْكَىٰ لَهُمْ إِنَّ اللَّهَ خَبِيرٌ بِمَا يَصْنَعُونَ ۞ وَقُل لِّلْمُؤْمِنَاتِ يَغْضُضْنَ مِنْ أَبْصَارِهِنَّ وَيَحْفَظْنَ فُرُوجَهُنَّ .. ﴾ إلى قوله : ﴿ أَوِ الطِّفْلِ الَّذِينَ لَمْ يَظْهَرُوا عَلَىٰ عَوْرَاتِ النِّسَاءِ وَلَا يَضْرِبْنَ بِأَرْجُلِهِنَّ لِيُعْلَمَ مَا يُخْفِينَ مِن زِينَتِهِنَّ وَتُوبُوا إِلَى اللَّهِ جَمِيعًا أَيُّهَ الْمُؤْمِنُونَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ﴾ [النور: ٣٠، ٣١] .

ففي هذه الآية : دَليلٌ على وجوب التوبة من عدم غض البصر وحفظ الفرج ؛ لأن غض البصر قصره وعدم إطلاقه ، ولأن ترك غض البصر وحفظ الفرج كل ذلك من أسباب الهلاك وأسباب الشقاء وأسباب البلاء وقد ثبت عن النبي ﷺ أنه قال : « مَا تَرَكْتُ بَعْدي فِتنة أضر عَلَى الرجالِ مِن النساءِ » [(١)] و « إن أول فِتْنة بَني إسْرائيل كانت في النِّساء » [(٢)] .

ولهذا كان أعداؤنا أعداء الإسلام ، بل أعداء اللّٰه ورسوله من اليهود والنصارى والمشركين والشيوعيين وأشباههم وأذنابهم وأتباعهم ، كل هؤلاء يحرصون غاية الحرص على أن يفتنوا المسلمين بالنساء ، يَدْعون إلى التبرج ، يدعون إلى اختلاط المرأة بالرجل ، يدعون إلى التفسخ في الأخلاق ، يدعون إلى ذلك بألسنتهم وأقلامهم وأعمالهم والعياذ بالله . لأنهم يعلمون أن الفتنة العظيمة التي ينسى بها الإنسان ربه ودينه إنّما تكون في النساء .

النساء اللاتي يفتن أصحاب العقول كما قال النبي - عليه الصلاة والسلام - : « مَا رأيتُ مِن نَاقِصاتِ عقْل ودِينٍ أذْهَبَ للبِّ الرجُل الحَازِم مِنْ إحْداكُن » [(٣)] . هل تريد شيئًا أبين من هذا .

أذْهَب للُب الرجل الحازم ! فما بالك بالمهين الذي ليس عنده حَزْمٌ ولا عَزْمٌ ولا دِينٌ ولا رُجولة يكون أشد وأشد والعياذ بالله .

لكن الرجل الحازم تذهب النِّساء عَقْله نسأل اللّٰه العافية ، وهذا هو الواقع لذلك قال اللّٰه عقب الأمر بغض البصر بقوله : ﴿ وَتُوبُوا إِلَى اللَّهِ جَمِيعًا أَيُّهَ الْمُؤْمِنُونَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ﴾ [النور: ٣١] فيجب علينا أن نتواصى بالتَّوبة ، وأن يَتفقَّد بَعْضُنا بَعْضًا هل الإنسان تَاب من ذَنْبه أو بَقِي مصرًا عليه ؟! لأنَّه وجه الخطاب للجميع : ﴿ وَتُوبُوا إِلَى اللَّهِ جَمِيعًا أَيُّهَ الْمُؤْمِنُونَ ﴾ [النور: ٣١] وفي قوله : ﴿ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ﴾ دليل على أن التوبة من أسباب الفلاح ، والفلاح كما قال أهل العلم بالتفسير وباللغة : أنها كلمة جامعة يَحْصلُ بها المطلوب وَيزول بها المَرْهوب .

وكل إنسان يَطْلب خير الدُّنيا والآخرة ، حتى الكافر يريد الخير . لكن من الناس من يوَفق ومنهم من لا يُوَفَّق .

---

(١) أخرجه البخاري في النكاح (٥٠٩٦) ، ومسلم في الذكر والدعاء (٩٨) ، والإمام أحمد (٥/٢٠٠) .
(٢) أخرجه مسلم في الذكر (٩٩) ، والإمام أحمد في مسنده (٣/٢٢) .
(٣) أخرجه البخاري في كتاب الحيض (٣٠٤) (٧٩) .

الكافر يُريد الخير لكنَّه يريد خير الدنيا لأنه رجل بهيمي هو شرُّ الدَّواب عند اللَّه : ﴿ إِنَّ شَرَّ ٱلدَّوَآبِّ عِندَ ٱللَّهِ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ ﴾ [الأنفال : ٥٥] شر من كل دابة تدب على الأرض .. الكافر ، ومع ذلك يُريد الخير والرفاهية والتَّنعُّم بهذه الدنيا لكنها - أي الدنيا - جنته ، والآخرة - والعياذ باللَّه - عذابه ونَاره المهمّ أن كل إنسان يُريد الفلاح لكن حسب الهِمَّة . من أسباب الفلاح : التوبة إلى اللَّه ﷻ كما في الآية . واللَّه الموفق .

* * *

١٣ - وعن أبي هريرة ﷺ قال : سمعت رسول اللَّه ﷺ يقول : « واللَّه إني لأستغفر اللَّه وأتوب إليه في اليوم أكثر من سبعين مرة »[(١)] رواه البخاري .

١٤ - وعَن الأَغَرِّ بْن يَسَار المُزَنِيِّ ﷺ قال : قال رسول اللَّه ﷺ : « يا أَيُّها النَّاسُ تُوبُوا إلى اللَّهِ واسْتَغْفِرُوهُ ؛ فإنِّي أَتُوبُ في الْيَومِ مائَةَ مَرَّةٍ »[(٢)] رواه مسلم .

الشرح

تقدم الكلام على ما ذكره المؤلف رحمه الله من وجوب التَّوبة وشروطها وما ساقه من الآيات الدالة على وجوبها :

وهذان الحديثان ذكرهما المؤلف رحمه الله ليستدل على ذلك بالسنة .

لأنه كلما تضافرت الأدِلَّة على شيء قوي وصار أوكد وصار أوجب ، فذكر حديث أبي هريرة ﷺ ، عن النبي ﷺ أنه أقسم بأنَّه يَسْتغفر اللَّه ويتوبُ إليه أكثر من سَبْعِينَ مرة .

هذا وهو الرسول عليه أفضل الصلاةِ والسَّلام الذي غفر اللَّه لهُ ما تقدَم من ذنبه وما تأخر .

وفي حديث الأغر بن يسار المزني أنه ﷺ قال : « يا أيها الناس تُوبوا إلى اللَّه واسْتَغْفِروه فإني أَتُوبُ إلى اللَّه في اليَومِ مائَةَ مَرةٍ » .

ففي هذين الحديثين : دَليل على وجوب التَوبة لأن النبي ﷺ أمر بها فقال : « يَا أيها النَّاس تُوبوا إلى اللَّه » فإذا تاب الإنسان إلى ربه ، حَصل بذلك فائدتين :

الفائدة الأولى : امتثال أمر اللَّه ورَسوله ؛ وفي امتثال أمر اللَّه ورَسُوله كل خير : فعلى امتثال أمر اللَّه ورسوله تدور السعادة في الدنيا والآخرة .

والفائدة الثانية : الاقتداء برسول اللَّه ﷺ ، حيث كان ﷺ يَتُوب إلى اللَّه في اليوم مائة مرة يعني يقول : أتوب إلى اللَّه ، أتوبُ الى اللَّه .. إلخ .

والتوبة لابد فيها من صِدْق بحيث إذا تاب الإنسان إلى اللَّه أقلع عن الذنب . أما الإنسان الذي يتوب بلسانه ، وقلبه منطوٍ على فعل المعصية ، أو على ترك الواجب ، أو يتوب إلى اللَّه بلسانه ،

(١) أخرجه البخاري في الدعوات (٦٣٠٧) .

(٢) أخرجه مسلم في الذكر والدعاء (٤٢) وليس فيه « واستغفروه » ، وأحمد بنحوه في مسنده (٢٦١/٤) .

وجَوارحه مُصِرة على فعل المعصية فإن توبته لا تنفعه بل إنها أشبه ما تكون بالاستهزاء بالله ﷻ !

كيف تقول : أتوب إلى اللّه مِن مَعصية وأنت مُصرٌّ عليها أو تقول : أتوب إلى اللّه من معصية وأنت عازم على فعلها ؟

الإنسان لو عامل بشرًا مثله بهذه المعاملة لقال : هذا يسخر بي ويستهزئ بي !! كيف يتنصل من أمرٍ عندي وهو متلبس به ما هذا إلا هزؤ ولَعب فكيف برب العالمين ؟! .

إن من الناس من يقول إنه تائب من الربا ولكنه - والعياذ باللّه - مُصِرعليه !! يُمارس الربا صريحًا ويمارس الربا مخادعة وقد مر بنا - كثيرًا - أن الذي يمارس الربا بالمخادعة أعظم إثمًا وجُرمًا من الذي يمارس الربا بالصراحة . لأن الذي يمارس الربا بالمخادعة جَنَى على نفسه مرتين :

أولًا : الوقوع في الربا ، وثانيًا : مخادعة اللّه ﷻ وكأنَّ اللّه لا يعلم . وهذا يوجد كثيرًا في الناس اليوم الذين يتعاملون في الربا صريحًا أمرهم واضح لكن من الناس من يتعامل في الرِّبا خيانة ومخادعة . تجد عنده أموالًا لها سنوات عديدة في الدكان فيأتي الغني بشخص فقير يقوده للمذبحة والعياذ بالله !!

فيأتي إلى صاحب الدكان الذي عنده هذه البضاعة ويبيعها على الفقير بالدين بيعًا صُوريًّا . وكل يعلم أنه ليس بيعًا حقيقيًّا لأن هذا المشتري المدين لا يقلبه ولا ينظر إليه ولا يهمه بل لو كان أكياسًا من الرمل وبيعت عليه على أنها أرز أو سكر أخذها .

يهمه أن يقضي حاجة فيبيعها عليه مثلًا بعشرة آلاف لمدة سنة وينصرف بدون أن ينقلها من مكانها ثم يبيعها هذا المدين على صاحب الدكان بتسعة آلاف مثلًا فيؤكل هذا الفقير من وجهين : من جهة هذا الذي ديَّنه ، ومن جهة صاحب الدكان ويقولون : إن هذا صحيح . بل يسمونه التصحيح يقول قائلهم : أصحح عليك ، أو أصحح لك كذا وكذا ؟ . سبحان اللّه هل هذا تصحيح ؟ هذا تلطيخ بالذُّنوب والعياذ بالله !!

ولهذا يجب علينا - إذا كنا صادقين مع اللّه ﷻ في التوبة - أن نقلع عن الذنوب والمعاصي إقلاعًا حقيقيًّا ونكرهها ونندم على فعلها حتى تكون التوبة توبة نصوحًا .

وفي هذين الحديثين : دليلٌ على أن نبينا محمدًا ﷺ أشد الناس عبادة لله وهو كذلك .

فإنه أخشانا لله ، وأتقانا لله ، وأعلمنا بالله صلوات اللّه وسلامه عليه .

وفيه : دليل على أنه عليه الصَّلاة والسَّلام مُعَلم الخير بلسانه وفعاله .

فكان يستغفر اللّه ويأمر الناس بالاستغفار حتى يتأسوا به امتثالًا للأمر واتباعًا للفعل .

وهذا من كمال نُصْحِه صلوات اللّه وسلامه عليه لأمته . فينبغي لنا نحن - أيضًا - أن نتأسى به ، إذا أمرنا الناس بأمر أن نكون أول من يمتثل هذا الأمر .

وإذا نهيناهم عن شيء أن نكون أول من ينتهي عنه ؛ لأن هذه هي حقيقة الداعي إلى اللّه بل هذه حقيقة الدعوة إلى اللّه ﷻ أن تفعل ما تأمر به وتترك ما تنهى عنه ، كما كان الرسول ﷺ يأمرنا

بالتوبة وهو عليه الصلاة والسلام يتوب أكثر منا ، نسأل اللّه أن يتوب علينا وعليكم وأن يهدينا وإياكم صِراطًا مستقيمًا . واللّه الموفق .

* * *

١٥ - وعَنْ أَبي حَمْزَةَ أَنَسِ بن مَالِكٍ الأَنْصَاريِّ خَادِمِ رسول اللّه ﷺ رضي الله عنه قال : قال رسول اللّه ﷺ : « للّهُ أَفْرَحُ بِتَوبَةِ عَبْدِهِ مِنْ أَحَدِكُمْ سَقَطَ عَلَى بَعِيرِهِ وقد أَضَلَّهُ في أرضٍ فَلاةٍ » متفق عليه

وفي رواية لمُسْلمٍ : « للّهُ أَشَدُّ فَرَحًا بِتَوبَةِ عَبْدِهِ حِينَ يَتُوبُ إِلَيهِ مِنْ أَحَدِكُمْ كان على رَاحلَتِهِ بِأَرْضِ فَلاةٍ ، فَانْفَلَتَتْ مِنْهُ وعَلَيها طَعَامُهُ وشَرَابُهُ فأيسَ مِنْهَا ، فَأَتى شَجَرَةً فاضْطَجَعَ في ظِلِّهَا ، وقد أيسَ مِنْ رَاحِلَتِهِ ، فَبَيْنَمَا هُوَ كَذلِكَ إذا هُوَ بِها قَائِمَةً عِنْدَهُ ، فَأَخَذَ بِخطَامِهَا ثُمَّ قَالَ مِن شِدَّةِ الفَرحِ : اللَّهُمَّ أَنْتَ عَبدِي وأَنا رَبُّك ؛ أخطأَ مِنْ شِدَّةِ الفَرحِ »(١) .

الشرح

قوله رحمه الله : « خادم النبي ﷺ » وكان رضي الله عنه حين قدم النبي ﷺ المدينة أتت به أمه إلى رسول اللّه ﷺ وقالت له هذا أنس بن مالك يخدمك ، فقبل النبي ﷺ ذلك وصار أنس من خدَّام النبي ﷺ .

ذكر أنس رضي الله عنه أن الرسول ﷺ قال : « للّه أشدّ فَرَحًا بتوبة عبده إذا تاب إليه من هذا الرَّجل الذي سقط عن راحلته بعد أن أضلها » وذكر القصة ...

رجل كان بأرض فلاة ، ليس حوله أحد لا ماء ولا طعام ولا أناس : ضلَّ بعيره : أي ضاع فجعل يطلبه فلم يجده فذهب إلى شجرة ونام تحتها ينتظر الموت !

قد أيس من بعيره وأيس من حياته ؛ لأن طعامه وشرابه على بَعِيره والبعير قد ضاع .

فبينما هو كذلك إذا بناقته عنده قد تعلق خطامها بالشجرة التي هو نائم تحتها . فبأي شيء تُقَدِّرُوْنَ هذا الفرح ؟! .

هذا الفرح لا يمكن أن يتصوَّره أحد إلا من وقع في مثل هذه الحال !! لأنه فرحٌ عظيم ، فرح بالحياة بعد الموت !

ولهذا أخذ بالخطام فقال : « اللَّهمَّ أَنْتَ عَبْدي وأنا رَبك » !! » أراد أن يُثْني على اللّه فيقول : اللَّهُمَّ أنت ربِّي وأنا عَبْدُك لكن من شدة فرحه أخطأ فقلَبَ القضية .

ففي هذا الحديث : دليلٌ على فرح اللّه عز وجل بالتَوبة من عبده إذا تاب إليه وأنّه يحب ذلك تعالى محبّةً عظيمةً ولكن لا لأجل حاجته إلى أعمالنا وتوبتنا فاللّه غني عنا ولكن لمحبته سبحانه للكرم فإنه يحب أن يعفو وأن يغفر أحب إليه من أن ينتقم ويؤاخذ . ولهذا يفرح بتوبة الإنسان .

---

(١) أخرج الرواية الأولى البخاري في الدعوات (٦٣٠٩) بلفظها ، ومسلم بنحوها في التوبة (٨) ، الرواية الثانية رواها مسلم في التوبة (٧) .

ففي هذا الحديث : حث على التوبة ؛ لأن الله يحبها وهي من مصلحة العبد .

وفيه : إثبات الفرح الله ﷻ ، فهو ﷻ يفرح ويغضب ويكره ويحب لكن هذه الصفات ليست كصفاتنا ؛ لأن الله يقول : ﴿ لَيْسَ كَمِثْلِهِۦ شَيْءٌ ۖ وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْبَصِيرُ ﴾ [الشورى: ١١] بل هو فرح يليق بعظمته وجلاله ولا يشبهه فرحُ المخلوقين ولا يشبه فرحَ المخلوقين .

وفيه : دليل على أن الإنسان إذا أخطأ في قول من الأقوال ولو كان كفرًا سبق لسانه إليه ، فإنه لا يُؤاخذ به ! فهذا الرجل قال كلمة كفر ؛ لأن قول الإنسان لربه : « أنت عبدي وأنا ربك » . هذا كفر لا شك فيه .

لكن لما صدر هذا عن خطأ من شدة الفرح صار غير مؤاخذ به ، وكذلك غيرها من الكلمات لو سبَّ أحدًا على وجه الخطأ بدون قصد ، أو طلق زوجته على وجه الخطأ دون القصد ، أو أعتق عبده على وجه الخطأ بدون قصد ، فكل هذا لا يترتب عليه شيء لأن الإنسان لم يقصده فهو كاللغو في اليمين وقد قال الله تعالى : ﴿ لَّا يُؤَاخِذُكُمُ ٱللَّهُ بِٱللَّغْوِ فِىٓ أَيْمَـٰنِكُمْ وَلَـٰكِن يُؤَاخِذُكُم بِمَا كَسَبَتْ قُلُوبُكُمْ ﴾ [البقرة: ٢٢٥] بخلاف المُستهزئ فإنه يَكفُر إذا قال كلمة الكفر لقول الله سبحانه : ﴿ وَلَئِن سَأَلْتَهُمْ لَيَقُولُنَّ إِنَّمَا كُنَّا نَخُوضُ وَنَلْعَبُ ۚ قُلْ أَبِٱللَّهِ وَءَايَـٰتِهِۦ وَرَسُولِهِۦ كُنتُمْ تَسْتَهْزِءُونَ ۝ لَا تَعْتَذِرُوا۟ قَدْ كَفَرْتُم بَعْدَ إِيمَـٰنِكُمْ ﴾ [التوبة: ٦٥- ٦٦] .

فالمُستهزئ قصد الكلام وقَصد معناه لكن على سبيل السخرية والهزء فلذلك كان كافرًا بخلاف الإنسان الذي لم يقصد فإنَّه لا يعتبر قوله شيئًا . وهذا من رحمة الله ﷻ والله الموفق .

* * *

١٦ - وعَن أبي مُوسى عبد اللهِ بنِ قَيسٍ الأشعَرِيِّ ﷺ عن النَّبيِّ ﷺ قال : « إن اللَّه تَعَالَى يَبْسُطُ يَدَهُ باللَّيل لِيَتُوبَ مُسِيءُ النَّهَارِ ، ويَبْسُطُ يَدَهُ بالنَّهَارِ لِيتوبَ مُسِيء اللَّيلِ حَتَّى تَطلُع الشَّمْسُ مِنْ مَغْرِبِهَا » (١) رواه مسلم .

١٧ - وعَنْ أَبِي هُرَيرَةَ ﷺ قال : قال رسول اللَّه ﷺ : « مَنْ تَابَ قَبْل أَنْ تَطْلُعَ الشَّمْسُ مِنْ مَغرِبِها تَابَ اللَّه عَلَيه » (٢) رواه مسلم .

١٨ - وعَنْ أبي عَبْدِ الرَّحمن عَبْدِ اللَّه بن عُمَرَ بن الخَطَّاب ﷺ عن النَّبيِّ ﷺ قال : « إنَّ اللَّهَ عَزَّ وَجَلَّ يَقْبَلُ تَوبَةَ العَبْدِ مَا لَمْ يُغَرْغِرْ » (٣) رواه الترمذي وقال : حديث حسنٌ .

الشرح

هذه الأحاديث الثلاثة التي ذكرها المؤلف ﷺ كلها تتعلق بالتوبة .

أما حديث أبي موسى : فقد قال الرسول ﷺ : « إن اللَّه يَبسط يَدَهُ بالليل ليَتُوب مُسيءُ النهار .. الحديث » .

---

(١) أخرجه مسلم في التوبة (٣١) ، وأحمد في مسنده (٤/٤٠٤) .

(٢) أخرجه مسلم في (الذكر والدعاء) (٤٣) ، وأحمد بنحوه في مسنده (٢/٤٩٥) .

(٣) أخرجه الترمذي في سننه (٣٥٣٧) ، وأحمد في مسنده (٢/١٣٢) .

وهذا من كرمه ﷻ أنه يقبل التَّوبة حتى وإن تأخرت . فإذا أذنب الإنسان ذنبًا في النهار فإن اللَّه تعالى يقبل توبته ولو تاب في الليل . وكذلك إذا أذنب في اللَّيل وتاب في النهار فإن اللَّه يقبل توبته بل إن اللَّه يَبْسط يده حتى يتلقى هذه التوبة التي تصدر من عبده المؤمن .

وفي هذا الحديث : دليل على محبة اللَّه ﷻ للتوبة وقد سبق في الحديث السَابق في قصة الرجل الذي أضل راحلته حتى وجدها : أن اللَّه يفرح بتوبة عبده المؤمن إذا تاب إليه أشد فرحًا من هذا براحلته .

وفيه : إثبات اليد للَّه ﷻ في حديث أبي موسى وهو كذلك بل له يدان - جلَّ وعلا - كما قال تعالى : ﴿ وَقَالَتِ ٱلْيَهُودُ يَدُ ٱللَّهِ مَغْلُولَةٌ غُلَّتْ أَيْدِيهِمْ وَلُعِنُوا۟ بِمَا قَالُوا۟ بَلْ يَدَاهُ مَبْسُوطَتَانِ ﴾ [المائدة : ٦٤] وهذه اليد التيَ أثبتها اللَّه لنفسه بل اليدان يجب علينا أن نؤمن بهما وأنهما ثابتتان للَّه .

ولكن لا يجوز أن نتوهم أنها مثل أيدينا لأن اللَّه يقول في كتابه :

﴿ لَيْسَ كَمِثْلِهِۦ شَىْءٌ ۖ وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْبَصِيرُ ﴾ [الشورى : ١١] وهكذا كل ما مر بك من صفات اللَّه فاثبتها للَّه ﷻ لكن بدون أن تمثلها بصفات المخلوقين . لأن اللَّه ليس كمثله شيء لا في ذاته ولا في صفاته ﷻ .

وفي هذا الحديث : أن اللَّه ﷻ يقبل توبة العبد وإن تأخرت لكن المبادرة بالتوبة هي الواجب لأن الإنسان لا يدري قد يفجأه الموت فيموت قبل أن يتوب . فالواجب المبادرة لكن مع ذلك لو تأخرت تاب اللَّه على العبد .

وفي هذا الحديث : أن الشمس إذا طلعت من مغربها ، انتهى قبول التوبة . ولكن قد يسأل السائل ويقول : هل الشمس تطلع من مغربها ؟ المعروف أن الشمس تطلع من المشرق .

فنقول : نعم هذا هو المعروف والمطرد منذ خلق اللَّه الشمس إلى يومنا هذا . لكن في آخر الزمان يأمر اللَّه الشمس أن ترجع من حيث جاءت فتنعكس الدورة !

تدور بالعكس تطلع من مغربها فإذا رآها الناس آمنوا كلهم حتى الكفار اليهود والنصارى والبوذيون والشيوعيون وغيرهم كلهم يؤمنون . ولكن الذي لم يؤمن قبل أن تطلع الشمس من مغربها لا ينفعه إيمانه .

كل يتوب أيضًا ، لكن الذي لم يَتُب قبل أن تطلع الشمس من مغربها لا تقبل توبته ؛ لأن هذه آية يشهدها كل أحد وإذا جاءت الآيات المنذرة لم تنفع التوبة ولم ينفع الإيمان !

أما حديث أبي هريرة ﷺ : في أن اللَّه ﷻ يقبل التوبة ما لم تطلع الشمس من مغربها فهو كحديث أبي موسى .

وأما حديث ابن عمر : « إن اللَّه يَقْبَل تَوبَة عَبْدِه مَا لَم يغرْغر » . أي : ما لم تصل الروح الحلقوم ، فإذا وصلت الروح الحلقوم فلا توبة وقد بينت النصوص الأخرى أنه إذا حضر الموت فلا توبة لقوله تعالى : ﴿ وَلَيْسَتِ ٱلتَّوْبَةُ لِلَّذِينَ يَعْمَلُونَ ٱلسَّيِّـَٔاتِ حَتَّىٰٓ إِذَا حَضَرَ أَحَدَهُمُ ٱلْمَوْتُ قَالَ إِنِّى تُبْتُ ٱلْـَٔنَ ﴾ [النساء : ١٨] .

فعليك يا أخي المسلم أن تبادر بالتوبة إلى اللَّه من الذنوب وأن تقلع عما كنت متلبسًا به من

المعاصي وأن تقوم بما فرطت به من الواجبات وتسأل اللّه قبول توبتك والله الموفق .

* * *

١٩ - وَعَنْ زرِّ بْن حُبَيش قَالَ : أَتَيتُ صَفْوَانَ بْنَ عَسَّالٍ ﷺ أَسْأَلُهُ عَن الْمَسْحِ عَلَى الْخُفَّين فَقَالَ : مَا جَاء بِكَ يَا زِرُّ ؟ فَقُلْتُ : ابتغاء الْعِلْمِ ، فقالَ : إنَّ الْمَلائكَةَ تَضَعُ أجْنِحَتَهَا لِطَالِبِ الْعِلْم رضىً بمَا يَطْلُبُ ، فَقُلْتُ : إنّه قَدْ حَكَّ في صَدرِي الْمَسْحُ عَلَى الْخُفَّينِ بَعْدَ الْغائطِ وَالْبَولِ ، وَكنتَ امْرَءًا مِنْ أصْحَابِ النّبيِّ ﷺ ، فَجِئتُ أَسْأَلُكَ : هَل سَمِعْتَهُ يَذْكُرُ في ذلِكَ شَيئًا ؟ قَالَ : نَعَمْ ، كَانَ يَأْمُرنَا إذَا كُنَّا سَفرًا - أو مُسَافرينَ - أنْ لا نَنزعَ خِفَافَنَا ثَلاثَةَ أَيَّامِ وَلَيَاليهِنَّ إلا مِنْ جَنَابَةٍ ، لكن مِنْ غَائطٍ وَبَولٍ وَنَومٍ . فَقُلْتُ : هَلْ سَمِعْتَهُ يَذْكُر في الْهَوَى شَيئًا ؟ قال : نَعَمْ ؛ كُنَّا مَعَ رسول اللّهِ ﷺ في سَفرٍ ، فَبَينَا نَحْنُ عِنْدَهُ إذْ نَادَاهُ أعْرَابيٌّ بصَوتٍ لَهُ جَهْوَرِيٍّ : يَا مُحَمَّدُ ، فأجَابَهُ رسولُ اللّه ﷺ نَحْوًا مِنْ صَوتِه : « هَاؤُمُ » فَقُلْتُ له : وَيحكَ اغْضُضْ مِنْ صَوتِكَ فَإنَّكَ عِندَ النَّبيِّ ﷺ ، وَقَدْ نُهيتَ عَنْ هذا ! فقالَ : وَاللّهِ لا أغْضُضُ . قَالَ الأَعْرَابِيُّ : الْمَرْءُ يُحِبُّ الْقَوم وَلما يَلْحق بِهِمْ ؟ قَالَ النَّبيُّ ﷺ : « الْمَرْءُ مَعَ مَنْ أحَبَّ يومَ القِيَامة » فَمَا زَالَ يُحَدِّثُنَا حتى ذَكَرَ بَابًا مِنَ الْمَغْرب مَسيرَة عَرْضِه - أَو يَسِيرُ الرَّاكِبُ في عَرْضِهِ - أَرْبَعِينَ أو سَبْعينَ عَامًا . قَالَ سُفْيَانُ أَحدُ الرُّوَاة : قِبَلَ الشَّام ، خَلَقَهُ اللّهُ تَعَالى يَومَ خَلَقَ السَّماوَات وَالأَرْضَ مَفْتوحًا لِلتَّوبَةِ لا يُغْلَقُ حَتَّى تَطْلُعَ الشَّمْس مِنهُ .[١] رواه الترمذي وغيره وقال : حديث حسن صحيح .

الشرح

هذا الحديث من أحاديث التّوبة التي ساقها المؤلف رَحِمَهُ اللَّهُ في بيان متى تنقطع التوبة . لكنه يشتمل على فوائد :

منها : أن زر بن حبيش أتى إلى صفوان بن عسّال ﷺ من أجل العلم ، فقال له صفوان بن عسّال : « إن الملائكة لتضَع أجْنحتها لِطَالب العِلْم رِضىً بما يَطْلُب » .

وهذه فائدة عظيمة تدل على فضيلة العلم وطلب العلم والمراد به : العلم الشّرعي ، أي علم ما جاء به الرّسول ﷺ .

أما علم الدنيا فللدنيا ، لكن طلب العلم الذي جاء به النبي ﷺ هو الذي فيه الثّناء والمدح والحث عليه في القرآن ، السنة . وهو نوع من الجهاد في سبيل اللّه ، لأن هذا الدِّين قام بأمرين :

قام بالعلم والبيان ، وبالسلاح والسنان .

حتى إن بعض العلماء قال : (إن طلب العلم أفضل من الجهاد في سبيل اللّه بالسّلاح) لأن حفظ الشريعة إنما يكون بالعلم ، والجهاد بالسلاح مبني على العلم ، لا يَسيرُ المجاهد ولا يُقاتل ولا يحجم ولا

---

(١) أخرجه الترمذي في سننه (٣٥٣٥) ، وأحمد بنحوه في مسنده (٢٣٩/٤) .

يقسم الغنيمة ولا يحكم بالأسرى إلا عن طريق العلم ، فالعلم هو كل شيء .

ولهذا قال الله ﷻ : ﴿ يَرْفَعِ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مِنكُمْ وَٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلْعِلْمَ دَرَجَٰتٍ ﴾ [المجادلة : ١١] ووضع الملائكة أجنحتها لطالب العلم رضىً بما يطلب واحترامًا له وتعظيمًا له ولا يرد على هذا أن يقول القائل : أنا لا أحس بذلك ! لأنَّه إذا صح الخبر عن الرسول ﷺ فإنه كالمشاهد عيانًا .

أرأيت قوله ﷺ : « ينزلُ رُبنا تباركَ وتعالى كلَّ ليلةٍ إلى السماء الدّنيا حِينَ يَبْقى ثُلُثُ الليلِ الآخِرِ يقُولُ : مَنْ يَدْعُوني ؟ فَأَسْتَجيبُ لَهُ . ومَن يَسْأَلُني ؟ فَأُعْطِيهُ . ومَنْ يَسْتَغفِرني ؟ فأَغْفِر لَهُ » (١) .

نحن لا نسمع هذا الكلام من الله ﷻ لكن لما صحَّ عن نبينا ﷺ صار كأننا نَسْمعه ، ولذلك يجب علينا أن نؤمن بما قال الرسول ﷺ وبما صحَ عنه مما يذكر في أمور الغيب وأن نكون متيقنين لها كأنما نشاهدها بأعيننا ونسمعها بآذاننا .

ثم ذكر زر بن حبيش لصفوان بن عسَّال أنَّه حك في صدره المسح على الخفين بعد التبول أو الغائط .

يعني أن الله تعالى ذكر في القرآن قوله : ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِذَا قُمْتُمْ إِلَى ٱلصَّلَوٰةِ فَٱغْسِلُواْ وُجُوهَكُمْ وَأَيْدِيَكُمْ إِلَى ٱلْمَرَافِقِ وَٱمْسَحُواْ بِرُءُوسِكُمْ وَأَرْجُلَكُمْ إِلَى ٱلْكَعْبَيْنِ ﴾ [المائدة : ٦] فيقول إنه حك في صدري أي : صار عندي توقف وشك في المسح على الخفين بعد البول أو الغائط هل هذا جائز أو لا ؟

فبيَّن له صفوان بن عسَّال رضي الله عنه أن ذلك جائز لأن النبي ﷺ أمرهم إذا كانوا سفرًا أو مسافرين أن لا ينزعوا خفافهم إلا من جنابة ولكن من غائط وبول ونوم ، فدلَّ هذا على جواز المسح على الخفين بل إن المسح على الخفين أفضل إذا كان الإنسان لابسًا لهما : وقد ثبت في الصَّحيحين من حديث المغيرة بن شعبة رضي الله عنه أنه كان مع الرسول ﷺ في سفر فتوضأ النبي ﷺ فأهوى المغيرة لينزع خفيه فقال : « دَعْهُما فإنِّي أدْخَلْتُهما طَاهِرتينِ فَمَسَح عَلَيهما » (٢) .

ففي هذا : دَليلٌ واضح على أنَّ الإنسان الذي عليه جوارب أو عليه خفان أن الأفضل أن يمسح عليهما ولا يغسل رجليه .

* * *

ومنها : أنه ينبغي إذا أشكل عليه شيء أن يسأل ويبحث عمن هو أعلم بهذا الشيء ، حتى لا يبقى في قلبه حرج مما سمع ؛ لأن بعض الناس يسمع الشيء من الأحكام الشرعية ويكون في نفسه حرج ويبقى متشككًا مترددًا لا يسأل أحدًا يزيل عنه هذه الشبهة وهذا خطأ ، بل الإنسان ينبغي له أن يسأل حتى يصل إلى أمريطمئن إليه ولا يبقى عنده قلق .

فهذا زر بن حبيش رحمه الله سأل صفوان بن عسَّال رضي الله عنه عن المسح على الخفين وهل عنده شيء عن

---

(١) أخرجه البخاري في التهجد (١١٤٥) ، ومسلم في صلاة المسافرين (١٦٨) واللفظ له .

(٢) أخرجه البخاري في الوضوء (٢٠٦) ، مسلم في الطهارة (٧٩) ، والإمام أحمد في مسنده (٢٥١/٤) .

رسول الله ﷺ في ذلك فقال نعم ! كان يأمرنا .. الحديث .

فهذا الحديث فيه ثبوت المسح على الخفين وقد تواترت الأحاديث عن الرسول ﷺ في ذلك وأخذ بهذا أهل السنة حتى إن بعض أهل العلم الذين صنفوا في كتب العقائد ذكروا المسح على الخفين في كتاب العقائد وذلك لأن الرّافضة خالفوا في ذلك فلم يثبتوا المسح على الخفين وأنكروه . والعجب أن ممن روى المسح على الخفين عليٌّ بن أبي طالب رضي الله عنه .

ومع ذلك هم ينكرونه ولا يقولون به فكان المسح على الخفين من شعار أهل السنة ومن الأمور المتواترة عندهم التي ليس عندهم فيها شك عن رسول الله ﷺ .

قال الإمام أحمد : « ليس في قلبي من المسح شك » أو قال : « شيء فيه أربعون حديثًا عن النبي ﷺ وأصحابه » . ولكن لابد من شروط لجواز المسح على الخفين :

الشرط الأول : أن يضعهما على طهارة ؛ لأن النبي ﷺ قال للمغيرة بن شعبة رضي الله عنه حينما أراد أن ينزع خفي النّبي ﷺ قال : « دَعْهُما فإني أدخلتُهما طاهِرتين فمسح عَلَيهما » .

ولا فرق بين أن تكون هذه الطهارة قد غُسل فيها الرجل أو مسح فيها على خف سابق .

فمثلًا : لو توضأ وضوءًا كاملًا وغسل رجليه ثم لبس الجوارب أو الخفين فهنا لبسهما على طهارة .

كذلك لوكان قد لبس جوارب من قبل ومسح عليهما ، ثم احتاج إلى زيادة جورب ولبسه على الجورب الأول الذي مسحه وهو على طهارة فإنه يمسح على الثاني ، لكن يكون ابتداء المدة من المسح على الأول لا من المسح على الثاني ، هذا هو القول الصحيح إنه إذا لبس خفًّا على خفٍّ ممسوح فإنه يمسح على الأعلى لكن يبني على مدة المسح على الأول .

ولابد – أيضًا – أن تكون الطهارة بالماء فلو لَبسهما على طهارة تيمم ، فإنه لا يمسح عليهما مثل رجل مسافر ليس معه ماء فتيمم ولبس الخفين على طهارة تيمم ، ثم بعد ذلك وجد الماء وأراد أن يتوضأ ففي هذه الحال : لابد أن يخلع الخفين ويغسل قدميه عند الوضوء ، ولا يجوز المسح عليهما في هذه الحال لأنه لم يلبسهما على طهارة غسل فيها الرِّجْلَ ، فإن التيمم يتعلَّق بعضوين فقط وهما : الوجه والكفان .

الشرط الثاني : أن يكون المسح عليهما في الحدث الأصغر ولهذا قال صفوان بن عسّال : « إلا من جنابة لكن من غائط وبول ونومٍ » فإذا صار على الإنسان جنابة فإنه لا يجزئ أن يمسح على الجوربين أو الخفين بل لابد من نزعهما وغَسْل القدمين ؛ وذلك لأن الطهارة الكبرى ليس فيها مسح إلا للضرورة في الجبيرة ولهذا لا يمسح فيها الرأس .

لابد من غسل الرأس مع أنه في الحدث الأصغر يمسح ، لكن الجنابة طهارتها أوكَد وحدثها أكبر فلا بد من الغسل ولا يمسح فيها على الخف لهذا الحديث ولأن المعنى والقياس يقتضيان ذلك .

الشرط الثالث : أن يكون المسح في المدة التي حددها النبي ﷺ وهي يوم وليلة للمقيم وثلاثة أيام بلياليها للمسافر .

كما صحَّ ذلك أيضًا من حديث عليٍّ بن أبي طالب ﷺ في صحيح مسلم قال : « جعَل رسول اللَّه ﷺ ثلاثةَ أيامٍ ولياليهنَّ للمسافرِ ، ويومًا وليلةً للمقيم » (١) أي : في المسح على الخفين .

فإذا انتهت المدة فلا مسح ، لا بد أن يخلع الجوربين أو الخفين ثم يغسل القدمين ولكن إذا انتهت المدة وأنت على طهارة فاستمر على طهارتك ، لا تنتقض الطهارة ، ولكن إذا أردت أن تتوضأ بعد انتهاء المدة فلابد من غسل القدمين .

* * *

ثم إن زر بن حبيش سأل صفوان بن عسال : هل سمع النبي ﷺ يقول في الهوى شيئًا ؟ الهوى : المحبة والميل ، فقال : نعم ، ثم ذكر قصة الأعرابي الذي كان جهوريَ الصوت ، فجاء ينادي يا محمد بصوت مرتفع .

فقيل له : ويحَك تُنادِي رَسُول اللَّه ﷺ بصوت مرْتفع والله ﷻ يقول : ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَرۡفَعُوٓاْ أَصۡوَٰتَكُمۡ فَوۡقَ صَوۡتِ ٱلنَّبِيِّ وَلَا تَجۡهَرُواْ لَهُۥ بِٱلۡقَوۡلِ كَجَهۡرِ بَعۡضِكُمۡ لِبَعۡضٍ أَن تَحۡبَطَ أَعۡمَٰلُكُمۡ وَأَنتُمۡ لَا تَشۡعُرُونَ ﴾ [الحجرات : ٢] .

ولكن الأعراب لا يعرفون الآداب كثيرًا ؛ لأنهم بعيدون عن المدن وبَعيدون عن العلم . فأجابه النبي ﷺ بصوت مرتفع كما سأل الأعرابي ، لأن رسول اللَّه ﷺ أكمل النّاس هديًا ، يُعطي كل إنسان بقدر مَا يتحمله عقله .

فخاطبه بمثل ما خاطب به النبي ﷺ . قال له الأعرابي : « المرء يحب القوم ولما يلحق بهم » يعني : يحب القوم ولكن عمله دون عملهم لا يُساويهم في العمل . مع من يكون أيكون معهم أو لا ؟ .

فقال النبي ﷺ : « المَرْءُ مَع مَنْ أحَب يوم القِيَامة » . الحمد لله !! نعمة عظيمة وقد روى أنس بن مالك هذه القطعة من الحديث في أن الرسول ﷺ قال لرجل يحبُّ اللَّه ورسوله : « إنك مَعَ من أحببت » قال أنس : فأنَا أحِبُّ رسول اللَّه ﷺ وأبَا بَكرٍ وعُمر وأرْجو أن أكون معهم » .

وهكذا أيضًا نحن نُشهدُ اللَّهَ ﷻ على محبة رسول اللَّه ﷺ وخلفائه الراشدين وأصحابه وأئمة الهدى من بعدهم ونسأل اللَّه أن يجعلنا معهم .

هذه بشرى للإنسان أنه إذا أحبَّ قومًا صار معهم وإن قصر به عمله . يكون معهم في الجنة ويجمعه اللَّه معهم في الحشر ويشربون من حوض الرسول ﷺ جميعًا ..

وواجب المسلم أن يكره الكفار ، وأن يعلم أنهم أعداء له مهما أبدوا من الصَّدَاقَة والمودة والمحبة فإنهم لن يتقربوا إليك إلا لمصلحة أنفسهم ومضرتك . أما أن يتقربوا إليك لمصلحتك فهذا شيء بعيد . إن كان يمكن أن نجمع بين الماء والنار فيمكن أن نجمع بين محبة الكفار لنا وعداوتهم لنا .

---

(١) أخرجه مسلم في الطهارة (٨٦) .

لأن اللّه تعالى سمَّاهم أعداءً قال : ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَتَّخِذُواْ عَدُوِّى وَعَدُوَّكُمْ أَوْلِيَآءَ ﴾ [الممتحنة : ١] وقال ﷻ : ﴿ مَن كَانَ عَدُوًّا لِّلَّهِ وَمَلَٰٓئِكَتِهِۦ وَرُسُلِهِۦ وَجِبْرِيلَ وَمِيكَىٰلَ فَإِنَّ ٱللَّهَ عَدُوٌّ لِّلْكَٰفِرِينَ ﴾ [البقرة : ٩٨] .

كل كافر فإن اللّه عدو له ، وكل كافر عدو لنا ، وكل كافر فإنَّه لا يُضْمر لنا إلا الشَّر . ولهذا يجب عليك أن تكره من قلبك كل كافر مهما كان جنسه ، ومهما كان تقرُّبه إليك فاعلم أنه عدوك . قال تعالى : ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَتَّخِذُواْ عَدُوِّى وَعَدُوَّكُمْ أَوْلِيَآءَ ﴾ [الممتحنة : ١] إذًا نأخذ من هذه قاعدة أصَّلها النبي عليه الصلاة والسلام ألا وهي : « المَرْءُ مَعَ مَنْ أحب » فعليك يا أخي أن تشد قلبك على محبة اللّه ورسوله وخلفائه الرَّاشدين وأصحابه الكرام وأئمة الهدى من بعدهم لتكون معهم .

نسأل اللّه أن يحقق لنا ذلك بمنِّه وكَرَمِهِ واللّه الموفق .

* * *

٢٠ - وَعَنْ أَبي سَعِيدٍ سَعْدِ بْنِ مَالِكِ بْنِ سِنَانٍ الْخُدْرِيِّ ﷺ أن نَبيَّ اللّه ﷺ قال : « كَانَ فِيمن كَانَ قَبْلَكُمْ رَجُلٌ قَتَلَ تِسْعَةً وَتِسْعِينَ نَفْسًا ، فَسَأَلَ عَنْ أَعْلَم أهْلِ الأَرْض ، فَدُلَّ عَلَى رَاهِبٍ ، فَأَتَاهُ ، فقال : إنَّهُ قَتَلَ تِسْعَةً وتسعِينَ نَفْسًا ، فهَلْ لَهُ مِنْ تَوبَةٍ ؟ فقالَ : لا ، فَقَتَلَهُ فَكَمَّلَ به مِائَةً ، ثُمَّ سَأَلَ عَنْ أَعْلَمِ أَهْلِ الأَرْضِ ، فَدُلَّ عَلَى رجُلٍ عَالِمٍ فقالَ : إنَّهُ قَتَلَ مائَةَ نَفْسٍ فَهَلَ لَهُ مِنْ تَوبةٍ ؟ فقالَ : نَعَمْ ، وَمَنْ يَحُولُ بَينَهُ وَبَينَ التَّوبَة ؟ انْطَلِقْ إِلَى أَرْضِ كَذَا وَكَذَا ، فَإِنَّ بِهَا أُناسًا يَعْبُدُونَ اللّه تعالى فَاعْبُدِ اللّه مَعَهُمْ ، وَلا تَرْجعْ إِلَى أَرْضِكَ فَإِنَّهَا أَرْضُ سُوءٍ ، فانْطَلَقَ حَتَّى إذَا نَصَفَ الطَّرِيقَ أتَاهُ الْمَوتُ ، فاختصَمَت فيهِ مَلائكَةُ الرَّحْمَةِ ومَلائكة الْعَذَاب : فقالَتْ مَلائكَةُ الرَّحْمَة : جَاءَ تَائبًا مُقْبلًا بِقَلْبِهِ إلَى اللّهِ تعالى ، وقالَتْ مَلائكَةُ الْعَذَابِ : إنَّهُ لَمْ يَعْمَلْ خيرًا قَطُّ ، فَأَتَاهُمْ مَلَكٌ في صُورَةِ آدَميٍّ فَجَعَلُوهُ بَينَهُمْ - أي حَكَمًا - فقالَ : قيسُوا ما بَينَ الأَرْضَينِ فَإلَى أَيَّتِهِمَا كَانَ أَدْنَى فَهْو لَهُ ، فَقَاسُوا فَوَجَدُوهُ أَدْنَى إلَى الأَرْضِ الَّتِي أَرَادَ ، فَقَبَضَتْهُ مَلائكَةُ الرَّحْمَة » متفقٌ عليه .

وفي رواية في الصحيح : « فَكَانَ إِلَى الْقَرْيَةِ الصَّالِحَةِ أَقْرَب بشِبْرٍ ، فَجُعلَ مِنْ أَهْلِهَا » وفي رواية في الصحيح : « فَأَوحَى اللّهُ تَعَالَى إِلَى هذِهِ أنْ تَبَاعَدِي ، وإِلَى هَذِهِ أَنْ تَقَرَّبِي ، وَقَالَ : قِيسُوا مَا بَينَهُمَا ، فَوَجَدُوهُ إِلَى هَذِهِ أَقْرَبَ بِشِبْرٍ فَغُفِرَ لَهُ » . وفي روايةٍ : « فَنَأَى بِصَدْرِهِ نَحْوها » (١) .

الشرح

نقل المؤلف رَحِمَهُ اللّهُ عن أبي سعيد سعد بن مالك بن سنان الخدري رَضي اللّه تعالى عنه أن النبي ﷺ قال : « كان فيمن كان قبلكم رَجل قتل تسعة وتسعين نفسًا » ثم إنه ندم وسأل عن أعْلَمَ أهل

(١) أخرجه البخاري في أحاديث الأنبياء (٣٤٧٠) بلفظ « كان في بني إسرائيل رجلٌ ... » ، ومسلم في التوبة (٤٦) .
معنى راهب : عابد من بني إسرائيل ، و « نَصَف » أي بلغ نصفها ، و أدنى : أقرب ، ونأى : أي نهض .

الأرض يسأله - هل له من توبة ؟ فَدُلَّ على رَجُل ، فإذا هو راهب : يعني عابدًا ولكن لا عِلم عنده . فلما سأله قال إنه قتل تسعة وتسعين نفسًا فهل له من توبة ؟

فاستعظم الرَّاهب هذا الذنب وقال : ليس لك توبة ! فغضب الرجل وانزعج وقتل الراهب فأتم به مائة نفس ، ثم إنه سأل عن أعلم أهل الأرض فَدُلَّ على رَجل عالم فقال له : إنه قتل مائة نفس فهل له من توبة ؟ قال : نعم ! ومن الذي يَحُول بينه وبين التوبة . باب التوبة مفتوح ، ولكن اذهب إلى القرية الفلانية فإن فيها قومًا يعبدون اللّه ، والأرض التي كان فيها كأنها - والله أعلم - دار كفر ، فأمره هذا العالم أن يهاجر بدينه إلى هذه القرية التي يُعْبَدُ فيها اللّه ﷻ . فخرج تائبًا نادمًا مهاجرًا بدينه إلى الأرض التي فيها القوم الذين يعبدون اللّه ﷻ . وفي منتصف الطريق أتاه الموت فاختصمت فيه ملائكة الرحمة وملائكة العذاب لأن الكافر - والعياذ بالله - تقبض رُوحه ملائكة العذاب والمؤمن تقبض روحه ملائكة الرحمة . فاختصموا !! ملائكة العذاب تقول : إنه لَمْ يعمل خيرًا قط : أي بعد توبته مَا عمل خيرًا . وملائكة الرحمة تقول : إنه تاب وجاء نادمًا تائبًا . فحصل بينهما خصومة فبعث اللّه إليهم ملكًا ليحكم بينهم !

فقال : قيسوا ما بين الأرضين فإلى أيتهما كان أقرب فهو له : أي فهومن أهلها . إن كانت أرض الكفر أقرب إليه فملائكة العذاب تقبض روحه وإن كان إلى بلد الإيمان أقرب فملائكة الرحمة تقبض روحه .

فقاسوا مَا بينهما فإذا البلد التي اتجه إليها وهي بلد الإيمان أقرب من البلد التي هاجر منها بنحو شبر - مسافة قريبة - فقبضته ملائكة الرَّحمة .

ففي هذا دليل على فوائد كثيرة :

منها : أن القاتل له توبة ودليل ذلك في كتاب اللّه . قوله تعالى : ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَغْفِرُ أَن يُشْرَكَ بِهِۦ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَٰلِكَ لِمَن يَشَآءُ ﴾ [النساء: ٤٨] يعني ما دون الشِّرك فإن اللّه يَغْفِره إذا شاء .

وهذا الذي عليه جُمهور أهل العلم .

وذكر عن عبد اللّه بن عباس رضي الله عنهما : أن القاتل ليس له توبة لأن اللّه تعالى يقول : ﴿ وَمَن يَقْتُلْ مُؤْمِنًا مُّتَعَمِّدًا فَجَزَآؤُهُۥ جَهَنَّمُ خَٰلِدًا فِيهَا وَغَضِبَ ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَلَعَنَهُۥ وَأَعَدَّ لَهُۥ عَذَابًا عَظِيمًا ﴾ [النساء: ٩٣] .

ولكن ما ذهب إليه الجمهور هو الحق ، وما روي عن ابن عباس فإنه يمكن أن يُحمل على أنه ليس له توبة بالنسبة للمقتول وذلك لأن القاتل إذا قتل تعلقَ فيه ثلاثة حقوق :

الحق الأول : لله ، والثاني : للمقتول ، والثالث : لأولياء المقتول .

أما حق اللّه : فلاشك أن اللّه يغفره بالتوبة لقول اللّه تعالى : ﴿ قُلْ يَٰعِبَادِىَ ٱلَّذِينَ أَسْرَفُوا۟ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ لَا تَقْنَطُوا۟ مِن رَّحْمَةِ ٱللَّهِ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ يَغْفِرُ ٱلذُّنُوبَ جَمِيعًا ﴾ [1] [الزمر: ٥٣] .

---

(١) ﴿ أَسْرَفُوا۟ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ ﴾ : أي الذين أفرطوا في الجناية على أنفسهم بالمعاصي والآثام . ﴿ لَا تَقْنَطُوا۟ ﴾ : لا تيأسوا من مغفرة اللّه ورحمته .

ولقوله تعالى : ﴿ وَالَّذِينَ لَا يَدْعُونَ مَعَ اللَّهِ إِلَٰهًا ءَاخَرَ وَلَا يَقْتُلُونَ النَّفْسَ الَّتِي حَرَّمَ اللَّهُ إِلَّا بِالْحَقِّ وَلَا يَزْنُونَ وَمَن يَفْعَلْ ذَٰلِكَ يَلْقَ أَثَامًا ﴿٦٨﴾ يُضَٰعَفْ لَهُ الْعَذَابُ يَوْمَ الْقِيَٰمَةِ وَيَخْلُدْ فِيهِ مُهَانًا ﴿٦٩﴾ إِلَّا مَن تَابَ وَءَامَنَ وَعَمِلَ عَمَلًا صَٰلِحًا فَأُولَٰٓئِكَ يُبَدِّلُ اللَّهُ سَيِّـَٔاتِهِمْ حَسَنَٰتٍ ﴾ [الفرقان : ٦٨- ٧٠] .

وأمَّا حق المقتول : فإن توبة القاتل لا تَنْفعُه ولا تُؤديه ؛ حقه لأنه مات ولا يمكن الوصول إلى استحلاله أو التبرؤ من دمه فهذا هو الذي يبقى مُطَالَبًا به القاتل - ولو تاب - وإذا كان يوم القيامة فالله يفْصِلُ بينهم .

وأما حق أولياء المقتول : فإنها لا تصحُّ توبة القاتل حتى يُسلم نفسه إلى أولياء المقتول ويقر بالقَتل ويقول : أنا القاتل ، وأنا بين أيديكم إنْ شئتم اقتلوني وإنْ شئتم خذوا الدية وإنْ شئتم اسمحُوا .

* * *

٢١ - وعَنْ عَبْدِ اللَّهِ بنِ كَعْبِ بنِ مَالكٍ - وكَانَ قائِدَ كَعْبٍ ﷺ مِن بَنِيهِ حِينَ عَمِيَ - قَالَ : سَمِعْتُ كَعْبَ بنَ مَالكٍ ﷺ يُحَدِّثُ بحَدِيثِهِ حِينَ تَخلَّفَ عن رسول اللَّه ﷺ في غَزْوَةِ تَبُوكَ ، قَالَ كَعْبٌ : لَمْ أَتَخلَّف عَنْ رسول اللَّه ﷺ في غَزْوَة غَزَاهَا قَطُّ إلا في غزوَةِ تبوك ، غَيرَ أَنِّي قَدْ تَخلَّفْتُ في غَزْوَةِ بَدْرٍ ، ولَمْ يُعَاتَبْ أحدٌ تَخلَّفَ عَنهُ ، إِنَّمَا خَرجَ رسول اللَّه ﷺ والمُسْلمونَ يُرِيدُونَ عيرَ قُرَيش حَتَّى جَمعَ اللَّهُ تعَالَى بَينَهُمْ وبَينَ عَدُوِّهِمْ على غَيرِ ميعَادٍ ، ولَقَدْ شَهِدْتُ مَعَ رسولِ اللَّهِ ﷺ لَيلَةَ العَقَبَةِ حِينَ تَوَاثَقْنَا عَلَى الإِسْلام ، ومَا أُحِبُّ أنَّ لِي بِهَا مَشْهَدَ بَدْرٍ ، وإنْ كَانَتْ بَدْرٌ أَذْكَرَ في النَّاس مِنْهَا . وكَانَ مِن خَبَرِي حِينَ تَخلَّفْتُ عَنْ رسول اللَّه ﷺ في غَزْوَةِ تَبُوكَ أَنِّي لَمْ أَكُنْ قَطُّ أَقْوى وَلا أَيسَرَ مِنِّي حِينَ تخلَّفت عَنْهُ في تِلْكَ الْغَزْوَةِ ، واللَّهِ مَا جَمعْتُ قَبْلَهَا رَاحِلَتَينِ قَطُّ حتى جَمعْتُهما في تِلْكَ الْغَزْوَةِ ، وَلَمْ يَكُنْ رسول اللَّه ﷺ يُرِيدُ غَزْوَةً إلا ورَّى بِغَيرِها حَتَّى كَانَتْ تِلْكَ الْغَزْوَةُ ، فَغزَاها رسول اللَّه ﷺ في حَرٍّ شديد ، وَاسْتَقْبَلَ سَفَرًا بعِيدًا وَمَفازًا ، واسْتَقْبَلَ عَدَدًا كَثِيرًا ، فَجَلَّى للْمُسْلِمِينَ أَمْرَهُمْ ليتأَهَّبُوا أُهْبَةَ غَزْوِهِمْ فَأَخْبَرَهُمْ بوَجْهِهِمْ الذي يُرِيدُ ، وَالْمُسْلِمُونَ مَعَ رسول اللَّهِ كَثِيرٌ وَلا يَجْمَعُهُمْ كِتَابٌ حَافِظٌ - يُرِيدُ بذَلِكَ الدِّيوَان - قالَ كَعْبٌ : فَقَلَّ رَجُلٌ يُرِيدُ أَنْ يَتَغَيَّبَ إلا ظَنَّ أَنَّ ذلِكَ سَيَخْفَى بِهِ مَا لَمْ يَنْزل فيهِ وَحْيٌ مِنَ اللَّه ، وَغَزَا رسول اللَّه ﷺ تِلْكَ الْغَزْوَةَ حِينَ طَابَت الثِّمَارُ والظِّلالُ ، فأنَا إِلَيهَا أَصْعَرُ ، فَتَجَهَّزَ رسول اللَّه ﷺ وَالْمُسْلِمُونَ مَعَهُ ، وَطَفِقتُ أغدُو لِكَي أَتَجَهَّزَ مَعَهُ ، فأَرْجعُ وَلَمْ أَقْضِ شَيئًا ، وَأَقُولُ في نفسي : أنا قَادرٌ عَلَى ذلكَ إذا أَرَدْتُ ، فَلَمْ يَزَلْ يَتَمَادَى بي حَتَّى اسْتَمَرَّ بالنَّاس الجِدُّ ، فأَصْبَحَ رسول اللَّه ﷺ غاديًا وَالمُسْلِمُونَ مَعَهُ ، وَلَمْ أَقْض مِنْ جِهَازي شَيئًا ، ثُم غَدَوتُ فَرجَعْتُ وَلَمْ أَقْضِ شَيئًا ، فَلَمْ يَزَل يَتَمَادَى بي حَتَّى أَسْرعُوا وَتَفَارَطَ الْغَزوُ ، فَهَمَمْتُ أَنْ أَرْتَحِل فَأُدْرِكَهُمْ ، فَيَالَيتَني فَعَلْتُ ، ثمَّ لَمْ يُقَدَّرْ ذلكَ لِي ، فَطَفِقْتُ إذَا خَرَجْتُ في النَّاسِ بَعْدَ خُرُوجِ رسول اللَّه ﷺ يَحْزنُني أَنِّي لا أرَى لِي أُسْوةً ، إلا رَجُلًا مَغْمُوصًا عَلَيه في النِّفَاقِ ، أو رَجُلًا مِمَّنْ عَذَرَ اللَّه تعالَى مِنَ الضُّعَفَاء ، وَلَمْ يَذْكُرني رسول اللَّه ﷺ حَتَّى بَلَغَ تَبُوكَ ، فقالَ وَهوَ جَالِسٌ في القَوم بتبوكَ : « ما فَعَلَ كَعْبُ بْنُ

مَالك ؟ » فقالَ رَجُلٌ مِنْ بَني سَلَمَةَ : يا رسول اللّه حَبَسَهُ بُرْدَاهُ ، والنَّظَرُ في عِطْفَيهِ . فقالَ لَهُ مُعاذُ بْنُ جَبَلٍ ﷺ : بِئسَ ما قُلْتَ ! وَاللّه يَا رسول اللّه مَا عَلِمْنَا عَلَيهِ إلا خيرًا ، فَسَكَتَ رسولُ اللّه ﷺ . فَبينَا هُوَ عَلَى ذلكَ رَأى رَجُلًا مُبيضًا يَزُولُ بِهِ السَّرَابُ ، فقالَ رسولُ اللّه ﷺ : « كُنْ أبَا خَيثَمَةَ » ، فَإذَا هُوَ أبُو خَيثَمَةَ الأنْصارِيُّ وَهُوَ الَّذي تَصدَّقَ بِصَاعِ التَّمْرِ حِينَ لَمَزَهُ المنافِقُونَ ، قَالَ كَعْبٌ : فَلَمَّا بَلَغَنِي أنَّ رسول اللّه ﷺ قَدْ تَوَجَّهَ قَافلًا مِنْ تَبُوكَ حَضَرَني بَثِّي ، فَطَفِقْتُ أتَذَكَّرُ الْكَذِبَ وَأقُولُ : بِمَ أخْرُجُ مِنْ سَخَطِهِ غَدًا وَأسْتَعِينُ عَلى ذلكَ بِكُلِّ ذِي رَأيٍ مِنْ أهْلِي ، فَلَمَّا قِيلَ : إنَّ رسول اللّه ﷺ قَدْ أظَلَّ قادمًا زَاحَ عنِّي البَاطِلُ حَتَّى عَرَفْتُ أنِّي لم أنْجُ منهُ بِشيءٍ أبَدًا ، فَأجْمَعْتُ صِدْقَهُ ، وَأصْبَحَ رسول اللّه ﷺ قادمًا ، وكَانَ إذَا قَدِمَ مِنْ سَفَرٍ بَدَأ بالمَسْجِدِ فَرَكَعَ فِيهِ رَكْعَتَينِ ثُمَّ جَلَسَ لِلنّاسِ ، فَلَمَّا فَعَلَ ذلكَ جَاءَهُ المُخَلَّفُون يَعْتَذِرُونَ إلَيهِ وَيحلفُونَ لَهُ ، وَكَانُوا بضْعًا وَثَمَانِينَ رَجُلًا فَقَبِلَ مِنْهُمْ عَلانِيَتَهُمْ وَبَايَعَهُمْ وَاسْتَغْفَرَ لَهُمْ وَوَكَلَ سَرَائِرَهُمْ إلَى اللّه تَعَالى حَتَّى جِئتُ . فَلَمَّا سَلَّمْتُ تَبَسَّمَ تَبَسُّمَ المُغْضَب ثُمَّ قَالَ : « تَعَالَ » ، فَجِئتُ أمْشِي حتى جَلَسْتُ بَين يَدَيه ، فقالَ لِي : « مَا خَلَّفَكَ ؟ ألَمْ تَكُنْ قَد ابْتَعت ظَهْرك ؟ » قَالَ : قُلْتُ : يَا رَسولَ اللّه إنِّي واللّه لو جَلَسْتُ عِندَ غيرِكَ مِنْ أهْلِ الدُّنْيا لَرَأيتُ أنِّي سَأخْرُجُ من سَخَطِهِ بِعُذْرٍ ، لَقَدْ أُعطِيتُ جَدَلًا ، وَلكِنَّني وَاللّهِ لَقَدْ عَلِمْتُ لَئِنْ حَدَّثْتُكَ الْيَومَ حديثَ كَذب تَرْضى بِه عنِّي لَيُوشِكَنَّ اللّه يُسْخِطُكَ عَلَيَّ ، وَإنْ حَدَّثْتُك حَدِيثَ صِدقٍ تَجِدُ عَلَيَّ فِيه ، إنِّي لأَرْجُو فِيه عُقبَى اللّه ﷻ، واللّه مَا كَانَ لِي مِنْ عُذْرٍ ، وَاللّهِ مَا كُنْتُ قَطُّ أقْوَى وَلا أيسَرَ مِنِّي حِينَ تَخَلَّفْتُ عَنْكَ .

قَالَ : فَقالَ رسول اللّه ﷺ : « أمَّا هذا فَقَدْ صَدَقَ ، فَقُمْ حَتَّى يَقْضِيَ اللّهُ فيكَ » وَسَارَ رجالٌ مِنْ بَني سَلِمةَ فاتَّبَعُوني ، فَقَالُوا لِي : وَاللّهِ مَا عَلِمْنَاكَ أذْنَبْتَ ذَنْبًا قَبْلَ هذَا ، لَقَدْ عَجَزْتَ في أنْ لا تَكُونَ اعتَذَرْتَ إلَى رسول اللّه ﷺ بما اعتَذَرَ إليهِ المُخَلَّفُونَ ؛ فَقَدْ كَانَ كَافِيَكَ ذَنْبَكَ اسْتغْفَارُ رَسُول اللّه ﷺ لَكَ ، قَالَ : فَوَاللّه ما زَالُوا يُؤَنِّبُونَنِي حَتَّى أرَدْتُ أنْ أرْجعَ إلى رسول اللّه ﷺ فَأُكَذِّبَ نَفْسي ، ثُمَّ قُلْتُ لَهُمْ : هَلْ لَقِيَ هذَا مَعِيَ مِنْ أحَدٍ ؟ قَالُوا : نَعَمْ لَقِيَهُ مَعَكَ رَجُلانِ قَالا مِثْلَ مَا قُلْتَ ، وَقِيلَ لَهُمَا مِثْلُ مَا قِيلَ لَكَ ، قَالَ : قُلْتُ : مَنْ هُمَا ؟ قَالُوا : مُرَارَةُ بْنُ الرَّبِيعِ الْعَمْرِيُّ ، وهِلال بْنُ أُمَيَّةَ الْوَاقِفِيُّ . قالَ : فَذَكَرُوا لِي رَجُلَينِ صَالِحَينِ قَدْ شَهِدَا بَدْرًا فِيهِمَا أُسْوَةٌ . قالَ : فَمَضَيتُ حِينَ ذَكَرُوهُمَا لِي . وَنَهَى رسول اللّه ﷺ عَنْ كَلامِنَا أيُّها الثَّلاثَةُ مِنْ بَينَ مَنْ تَخَلَّفَ عَنْهُ ، قالَ : فاجْتَنَبَنَا النَّاسُ - أو قالَ : تَغَيَّرُوا لَنَا - حَتى تَنَكَّرَتْ لي في نَفْسي الأرْضُ ، فَمَا هيَ بالأرْضِ التي أعْرِفُ ، فَلَبِثْنَا عَلَى ذلِكَ خَمْسين لَيلَةً . فَأمَّا صَاحِبَايَ فَاسْتَكَانَا وَقَعَدَا في بُيُوتِهِمَا يَبْكِيَانِ ، وَأمَّا أنا فَكُنْت أشَبَّ القَوم وَأجْلَدَهُمْ ، فَكُنْتُ أخْرُجُ فَأشْهَدُ الصَّلاةَ مَعَ المُسْلِمِينَ ، وَأطُوفُ في الأسْوَاقِ وَلا يُكَلِّمُني أحَدٌ ، وَآتي رسول اللّه ﷺ فَأُسَلِّمُ عَلَيه ، وَهُوَ في مَجْلِسِهِ بَعْدَ الصَّلاةِ ، فَأقُولُ في نَفْسِي : هَلْ حَرَّكَ شَفَتَيه بَرَدِّ السَّلام أمْ لا ؟ ثُمَّ أُصَلِّي قَرِيبًا مِنْهُ وَأُسَارِقُهُ النَّظَرَ ، فَإذَا أقْبَلْتُ عَلَى صَلاتي نَظَرَ إلَيَّ ، وَإذَا الْتَفَتُّ نَحْوَهُ أعْرَضَ عَنِّي ، حَتَّى إذَا طَالَ ذلكَ عَلَيَّ مِنْ جَفْوَةِ المُسْلِمِينَ مَشَيت حتى تَسَوَّرْت جِدَارَ حَائط أبي قَتَادَةَ وَهُوَ ابن عَمِّي

وأحبُّ النَّاسِ إليَّ ، فسلَّمت عليه فوالله ما ردَّ عليَّ السلامَ ، فقلت له : يا أبا قتادة أنشدك بالله هل تعلمني أحبُّ اللَّه ورسوله ﷺ ؟ فسكت ، فعدت فناشدته فسكت ، فعدت فناشدته فقال : اللَّه ورسوله أعلم . ففاضت عيناي ، وتوليت حتَّى تسوَّرت الجدار ، فبينا أنا أمشي في سوق المدينة إذا نبطيٌّ من نبط أهل الشَّام ممَّن قدم بالطَّعام يبيعه بالمدينة يقول : من يدلُّ على كعب بن مالك ؟ فطفق النَّاس يشيرون له إليَّ حتَّى جاءني فدفع إليَّ كتابًا من ملك غسَّان ، وكنت كاتبًا . فقرأته فإذا فيه : أمَّا بعد فإنَّه قد بلغنا أنَّ صاحبك قد جفاك ، ولم يجعلك اللَّه بدار هوان ولا مضيعة ، فالحق بنا نواسك ، فقلت حين قرأتها : وهذه أيضًا من البلاء فتيمَّمت بها التَّنُّور فسجرتها ، حتى إذا مضت أربعون من الخمسين واستلبث الوحي ؛ إذا رسول رسول اللَّه ﷺ يأتيني ، فقال : إنَّ رسول اللَّه ﷺ يأمرك أن تعتزل امرأتك ، فقلت : أطلِّقها ، أم ماذا أفعل ؟ قال : لا ، بل اعتزلها فلا تقربنَّها ، وأرسل إلى صاحبيَّ بمثل ذلك فقلت لامرأتي : الحقي بأهلك فكوني عندهم حتَّى يقضي اللَّه في هذا الأمر ، فجاءت امرأة هلال بن أميَّة رسول اللَّه ﷺ فقالت له : يا رسول اللَّه إنَّ هلال بن أميَّة شيخ ضائع ليس له خادم ، فهل تكره أن أخدمه ؟ قال : « لا ، ولكن لا يقربنَّك » . فقالت : إنَّه والله ما به من حركة إلى شيء ، والله ما زال يبكي منذ كان من أمره ما كان إلى يومه هذا . فقال لي بعض أهلي : لو استأذنت رسول اللَّه ﷺ في امرأتك ، فقد أذن لامرأة هلال بن أميَّة أن تخدمه ؟ فقلت : لا أستأذن فيها رسول اللَّه ﷺ وما يدريني ماذا يقول رسول اللَّه ﷺ إذا استأذنته فيها وأنا رجل شابٌّ ! فلبثت بذلك عشر ليال ، فكمل لنا خمسون ليلة من حين نهى عن كلامنا .

ثمَّ صلَّيت صلاة الفجر صباح خمسين ليلة على ظهر بيت من بيوتنا ، فبينا أنا جالس على الحال التي ذكر اللَّه تعالى منَّا قد ضاقت علي نفسي وضاقت عليَّ الأرض بما رحبت ، سمعت صوت صارخ أوفى على سلع يقول بأعلى صوته : يا كعب بن مالك أبشر ، فخررت ساجدًا ، وعرفت أنَّه قد جاء فرج . فآذن رسول اللَّه ﷺ النَّاس بتوبة اللَّه ﷻ علينا حين صلَّى صلاة الفجر فذهب النَّاس يبشِّروننا ، فذهب قبل صاحبيَّ مبشِّرون ، وركض رجل إليَّ فرسًا وسعى ساع من أسلم قبلي وأوفى على الجبل ، وكان الصَّوت أسرع من الفرس ، فلمَّا جاءني الَّذي سمعت صوته يبشِّرني نزعت له ثوبيَّ فكسوتهما إيَّاه ببشارته ، والله ما أملك غيرهما يومئذ ، واستعرت ثوبين فلبستهما وانطلقت أتأمَّم رسول اللَّه ﷺ يتلقَّاني النَّاس فوجًا فوجًا يهنِّئونني بالتَّوبة ويقولون لي : لتهنك توبة اللَّه عليك ، حتَّى دخلت المسجد فإذا رسول اللَّه ﷺ جالس حوله النَّاس ، فقام طلحة بن عبيد اللَّه ﷺ يهرول حتَّى صافحني وهنَّأني ، والله ما قام رجل من المهاجرين غيره ، (فكان كعب لا ينساها لطلحة) . قال كعب : فلمَّا سلَّمت على رسول اللَّه ﷺ قال وهو يبرق وجهه من السُّرور : « أبشر بخير يوم مرَّ عليك مذ ولدتك أمُّك » ، فقلت : أمن عندك يا رسول اللَّه أم من عند اللَّه ؟ قال : « لا ، بل من اللَّه ﷻ » ، وكان رسول اللَّه ﷺ إذا سرَّ استنار وجهه حتَّى كأنَّ وجهه قطعة قمر ، وكنَّا نعرف ذلك منه ، فلمَّا جلست بين يديه قلت : يا رسول اللَّه إنَّ من توبتي أن

أَنْخلِعَ مِنْ مَالي صَدَقَةً إِلَى اللَّه وَإِلَى رَسُولِهِ . فَقَالَ رسول اللَّه ﷺ : « أَمْسِكْ عَلَيكَ بعْضَ مَالِكَ فَهُوَ خَيرٌ لَكَ » ، فقلتُ : إِنِّي أَمْسِكُ سَهْمِي الَّذي بِخَيبَرَ . وَقُلْتُ : يَا رَسُولَ اللَّه إِنَّ اللَّهَ تَعَالَى إِنَّمَا أَنْجَانِي بالصِّدْقِ ، وإِنَّ مِنْ تَوبَتِي أَنْ لا أَحَدِّثَ إِلا صِدْقًا مَا بَقِيتُ ، فَوَاللَّه مَا عَلِمْتُ أَحَدًا مِنَ المُسْلِمِينَ أَبْلاهُ اللَّه تعالى في صِدْقِ الحَدِيثِ مُنْذُ ذَكَرتُ ذلِكَ لِرَسُول اللَّه ﷺ أَحْسَنَ مِمَّا أَبْلانِي اللَّهُ تعالى ، وَاللَّهِ ما تَعَمَّدْتُ كِذْبَةً منذُ قلتُ ذلِكَ لِرسولِ اللَّه ﷺ إِلَى يَومِي هذَا ، وإِنِّي لأَرْجُو أَنْ يَحْفَظَنِيَ اللَّه تعالى فيمَا بَقِيَ ، قال : فأَنْزَلَ اللَّه تعالى : ﴿ لَقَد تَّابَ ٱللَّهُ عَلَى ٱلنَّبِيِّ وَٱلْمُهَٰجِرِينَ وَٱلْأَنصَارِ ٱلَّذِينَ ٱتَّبَعُوهُ فِي سَاعَةِ ٱلْعُسْرَةِ ﴾ حَتَّى بَلَغَ : ﴿ إِنَّهُۥ بِهِمْ رَءُوفٌ رَّحِيمٌ ۝١١٧ وَعَلَى ٱلثَّلَٰثَةِ ٱلَّذِينَ خُلِّفُوا۟ حَتَّىٰٓ إِذَا ضَاقَتْ عَلَيْهِمُ ٱلْأَرْضُ بِمَا رَحُبَتْ ﴾ حَتَّى بَلَغَ : ﴿ ٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ وَكُونُوا۟ مَعَ ٱلصَّٰدِقِينَ ﴾ (١) [التوبة : ١١٧، ١١٩] قَالَ كَعْبٌ : واللَّهِ ما أَنْعَمَ اللَّه عَلَيَّ مِن نِعمَةٍ قَطُّ بَعْدَ إِذْ هَدانِي اللَّهُ للإِسْلامِ أَعْظَمَ في نَفْسِي مِنْ صِدْقِي رسولَ اللَّه ﷺ أَنْ لا أَكُونَ كَذَبْتُهُ ، فَأَهْلَكَ كما هَلَكَ الَّذينَ كَذَبُوا ، إِنَّ اللَّه تعالى قال لِلَّذِينَ كَذَبُوا حِينَ أَنْزَلَ الوَحْيَ شَرَّ مَا قالَ لأَحَدٍ ، فقالَ اللَّه تعالى : ﴿ سَيَحْلِفُونَ بِٱللَّهِ لَكُمْ إِذَا ٱنقَلَبْتُمْ إِلَيْهِمْ لِتُعْرِضُوا۟ عَنْهُمْ ۖ فَأَعْرِضُوا۟ عَنْهُمْ ۖ إِنَّهُمْ رِجْسٌ ۖ وَمَأْوَىٰهُمْ جَهَنَّمُ جَزَآءًۢ بِمَا كَانُوا۟ يَكْسِبُونَ ۝٩٥ يَحْلِفُونَ لَكُمْ لِتَرْضَوْا۟ عَنْهُمْ ۖ فَإِن تَرْضَوْا۟ عَنْهُمْ فَإِنَّ ٱللَّهَ لَا يَرْضَىٰ عَنِ ٱلْقَوْمِ ٱلْفَٰسِقِينَ ﴾ [التوبة : ٩٥، ٩٦] .

قالَ كَعْبٌ : كُنَّا خُلِّفْنَا أَيُّهَا الثَّلاثَةُ عَنْ أَمْرِ أُولَئِكَ الَّذينَ قَبِلَ مِنْهُمْ رسُول اللَّه ﷺ حِينَ حَلَفُوا لَهُ ، فَبَايَعَهُمْ واسْتَغْفَرَ لهم ، وأَرجأَ رسولُ اللَّه ﷺ أَمْرَنَا حَتَّى قَضَى اللَّه تعالَى فيه بذلِكَ ، قال اللَّه تعالى : ﴿ وَعَلَى ٱلثَّلَٰثَةِ ٱلَّذِينَ خُلِّفُوا۟ ﴾ وَلَيس الَّذي ذكَرَ مِمَّا خُلِّفْنَا تخلُّفَنا عن الغَزْوِ ، وإِنَّمَا هُوَ تَخْلِيفُهُ إِيَّانا وإِرْجاؤُه أَمْرَنَا عَمَّنْ حَلَفَ له واعْتَذَرَ إِلَيه فَقَبِلَ مِنْهُ . متفقٌ عليه (٢) . وفي روايةٍ « أَنَّ النَّبيَّ ﷺ خَرَجَ في غَزْوَةِ تَبُوكَ يَومَ الخَمِيس ، وكانَ يُحِبُّ أَنْ يَخْرُجَ يَومَ الخَمِيس » وفي رواية : « وكانَ لا يَقْدُمُ مِن

---

(١) قوله تعالى : ﴿ لَقَد تَّابَ ٱللَّهُ عَلَى ٱلنَّبِيِّ ﴾ أي لقد تجاوز اللَّه عنه ، أو أدام توبته عليه ، وهي بالنسبة للنبي ﷺ لتشريف مكانته وإعلاء رتبته لا عن ذنب صدر منه لعصمته عن الذنوب ، قوله ﴿ سَاعَةِ ٱلْعُسْرَةِ ﴾ أي وقت غزوة تبوك قوله ﴿ بِمَا رَحُبَتْ ﴾ أي بما اتسعت ، قوله ﴿ خُلِّفُوا۟ ﴾ أي تخلفوا عن الخروج مع النبي ﷺ إلى تبوك .

(٢) أخرجه البخاري في المغازي (٤٤١٨) ومسلم واللفظ له في التوبة (٥٣) .

قوله « ليلة العقبة » هي الليلة التي بايع رسول اللَّه ﷺ الأنصار فيها على الإسلام وأن يؤوه وينصروه ، قوله « تواثقنا على الإسلام » تبايعنا عليه وتعاهدنا ، قوله : « إن كانت بدر أذكر » أي أشهر عند الناس بالفضيلة ، قوله : « ورّى » كنى وأوهم بغيرها ، قوله : « مفازًا » برية طويلة قليلة الماء ، قوله : « فجلى » كشف وبين ، قوله : « ليتأهبوا أهبة غزوهم » أى ليستعدوا بما يحتاجون إليه ، قوله : « فأخبرهم بوجههم » أي بمقصدهم ، قوله : « فأنا إليها أصعر » أي أميل ، قوله : « تفارط الغزو » أي تقدم وأسرع ، قوله : « طفقت » شرعت ، قوله : « مغموصًا عليه في النفاق » أى مُتَّهمًا به ، قوله : « حبسه برداه » أي لباسه ، قوله : « والنظر في عطفيه » أي جانبيه ؛ وهو إشارة إلى إعجابه بنفسه ، قوله : « مبيضًا » لابس البياض ، قوله : « يزول به السراب » أى يتحرك ، والسراب هو ما يظهر للإنسان في الهواجر ، قوله : « لمزه المنافقون » أي عابوه واحتقروه ، قوله : « أتوجه قافلاً » أي راجعًا ، قوله : « بثي » أشد الحزن ، قوله : « أظل قادمًا » أقبل وألقى عليه ظله ، قوله : « زاح » أي زال ، قوله : « ظهرك » راحلتك من الإبل ، قوله : « أُعطيت =

سَفَرٍ إلا نَهَارًا في الضُّحى ، فإذَا قَدِمَ بَدَأَ بالمسْجِدِ فصَلَّى فيهِ رَكْعَتَيْنِ ثُمَّ جَلَس فِيهِ » .

٢٢ - وَعَنْ أبي نُجَيد - بضَمِّ النُّون وفتْح الجيم - عِمْرَانَ بْنِ الحُصَيْنِ الخُزَاعِي ﷺ أَنَّ امْرَأَةً مِنْ جُهَيْنَةَ أَتت رسول اللَّه ﷺ وَهِيَ حُبْلَى مِنَ الزِّنى ، فقالَتْ : يا رسول اللَّه أَصَبْتُ حَدًّا فَأَقِمْهُ عَلَيَّ ، فَدَعا نَبيُّ اللَّه ﷺ وَلِيَّهَا فقالَ : « أَحْسِنْ إِلَيهَا ، فإذَا وَضَعَتْ فَأْتِني » فَفَعَلَ فأَمَرَ بهَا نَبيُّ اللَّه ﷺ ، فَشُدَّتْ عَلَيهَا ثِيَابُهَا ، ثُمَّ أمَرَ بِهَا فَرُجِمَتْ ، ثُمَّ صَلَّى عَلَيهَا . فقال لَهُ عُمَرُ : تُصَلِّي عَلَيهَا يا رسول اللَّه وقَدْ زَنَتْ ؟! قالَ : « لَقَدْ تَابَتْ تَوبَةً لَو قُسِمَتْ بَينَ سَبْعِينَ مِنْ أَهْلِ المدينَةِ لَوَسِعَتْهُمْ ، وَهَلْ وَجَدْتَ أَفضَلَ مِنْ أَنْ جَادَتْ بنَفْسِهَا للَّهِ ﷻ ؟! »[1] رواه مسلم .

الشرح

قال المؤلف - رحمه اللَّه تعالى - فيما نقله عن عمران بن حصين رضي اللَّه تعالى عنه أن امرأة جاءت إلى النبي ﷺ « وهي حبلى من الزنا » يعني : حاملًا ، كانت قد زنت رضي الله عنها .

« فقالت يا رسول اللَّه إني قد أصبت حدًّا فأقمه علي » أي : أصبت شيئًا يوجب الحد فأقمه عليّ .

فدعا النبي ﷺ وليها وأمره أن يحسن إليها فإذا وضعت فليأتي بها إلى رسول اللَّه ﷺ .

فلما وضعت أتى بها وليها إلى النبي ﷺ ، « فأمر بها فشدت عليها ثيابها » أي : لفت ثيابها وربطت لئلا تنكشف ، « ثم أمر بها فرجمت » أي : بالحجارة - وهي ليست كبيرة ولا صغيرة - حتى ماتت ثم صلى عليها النبي ﷺ .

ودعا لها دعاء الميت فقال له عمر : « تصلي عليها يا رسول اللَّه وقد زنت » أي : والزنى من كبائر الذنوب .

« فقال لقد تابت توبة لو قسمت على سبعين من أهل المدينة لوسعتهم » يعني : توبة واسعة لو قسمت على سبعين كلهم مذنب لوسعتهم ونفعتهم .

« وهل وجدت أفضل من أن جادت بنفسها لله ﷻ » أي : هل وجدت أفضل من هذه الحال ؛ امرأة جاءت فجادت بنفسها يعني سلمت نفسها من أجل التقرب إلى اللَّه ﷻ والخلوص من إثم

= جدلًا » أي فصاحة وقوة في الكلام ، قوله : « تجد علي فيه » تغضب ، قوله : « تنكّرت » تغيرت ، قوله : « فاستكانا » أي خضعا ، قوله : « أشب القوم وأجلدهم » أي أصغرهم سنًّا وأقواهم ، قوله : « جفوة » إعراض . قوله : « حتى تسورت » صعدت على سور بستانه ، قوله : « أنشدك » أسالك ، قوله : « نبطي » فلاح ، قوله : « مضيعة » يضيع فيها الحق ، قوله : « نواسك » وفي بعض النسخ نواسيك ، أى نشاركك ، قوله : « فتيممتُ » قصدت ، قوله : « فسجرتها » أي أحرقتها ، قوله : « استلبث الوحي » أي أبطأ ، قوله : « أوفى على سلع » أي صعد وارتفع ، وسلع اسم جبل بالمدينة معروف ، قوله « فآذن الناس » أي أعلمهم ، قوله : « أتأمم » أى أقصد ، قوله : « فوجًا فوجًا » الفوج الجماعة ، قوله : « أن أنخلع من مالي » أى أخرج منه وأتصدق به ، قوله : « أبلاه اللَّه » أنعم عليه .

(١) أخرجه مسلم باختلاف يسير في اللفظ في الحدود (٢٤) ، وأبو داود في الحدود (٤٤٤٠) .

الزنى . ما هناك أفضل من هذا ؟ ! ففي هذا الحديث دليل على فوائد كثيرة :

منها : أن الزاني إذا زنى وهو محصن « يعني قد تزوج » فإنه يجب أن يرجم وجوبًا وقد كان هذا في كتاب الله ﷻ آية ، قرأها المسلمون وحفظوها ووعوها ونفذوها .

رجم النبي ﷺ ورجم الخلفاء من بعده ولكن الله بحكمته نسخها من القرآن لفظًا وأبقى حكمها في هذه الأمة . فإذا زنى المحصن « وهو الذي قد تزوج » فإنه يرجم حتى يموت . يوقف في مكان واسع ويجتمع الناس ويأخذون من الحصى يرمونه به حتى يموت .

وهذه من حكمة الله ﷻ ، أي : أنه لم يأمر الشرع بأن يذبح بالسيف وينتهي أمره ، بل يرجم بهذه الحجارة حتى يتعذب ويذوق ألم العذاب في مقابل ما وجده من لذة الحرام ؛ لأن هذا الزاني تلذذ جميع جسده بالحرام فكان من الحكمة أن ينال هذا الجسد من العذاب بقدر ما نال من اللذة .

ولهذا قال العلماء - رحمهم الله - : إنه لا يجوز أن يرجم بالحجارة الكبيرة لأن الحجارة الكبيرة تجهز عليه ويموت سريعًا فيستريح ، ولا بالصغيرة جدًّا لأن هذه تؤذيه وتطيل موته . ولكن بحصى متوسط حتى يذوق الألم ثم يموت .

فإذا قال قائل أليس قد قال النبي ﷺ : « إذا قتلتم فأحسنوا القتلة وإذا ذبحتم فأحسنوا الذبحة » (١) والقتلة بالسيف أريح للمرجوم من الرجم بالحجارة ؟

قلنا : بلى قد قاله الرسول عليه الصلاة والسلام ، لكن إحسان القتلة يكون بموافقتها للشرع .

فالرجم إحسان لأنه موافق للشرع ولذلك لو أن رجلًا جانيًا جنى على شخص فقتله عمدًا وغرر به قبل أن يقتله فإننا نغرر بهذا الجاني إذا أردنا قتله قبل أن نقتله .

مثلًا لو أن رجلًا جانيًا قتل شخصًا فقطع يديه ثم رجليه ثم لسانه ثم رأسه ؛ فإننا لا نقتل الجاني بالسيف !! بل نقطع يديه ثم رجليه ثم لسانه ثم نقطع رأسه مثلما فعل ، ويعتبر هذا إحسانًا في القتلة لأن إحسان القتلة أن يكون موافقًا للشرع على أي وجه كان .

وفي هذا الحديث : دليل على جواز إقرار الإنسان على نفسه بالزنى من أجل تطهيره بالحد لا من أجل فضحه نفسه . فالإنسان الذي يتحدث عن نفسه أنه زنى عند الإمام أو نائبه من أجل إقامة الحد عليه هذا لا يُلام ولا يُذم . وأما الإنسان الذي يخبر عن نفسه أنه زنى يخبر بذلك عامة الناس فهذا فاضح نفسه وهو من غير المعافين ؛ لأن الرسول ﷺ يقول : « كل أمتي معافى إلا المجاهرين قالوا من المجاهرون » ؟ قال : « الذي يفعل الذنب ثم يستره الله عليه ثم يصبح يتحدث به » (٢) .

هناك قسم ثالث : فاسق مارد ماجن!! يتحدث بالزنى افتخارًا والعياذ بالله ! يقول إنه سافر إلى البلد الفلاني وإلى البلد الفلاني وفجر وفعل وزنى بعدة نساء وما أشبه ذلك يفتخر بهذا .

---

(١) أخرجه مسلم باختلاف يسير في الذبائح (٥٧) ، والدارمي في سننه (٨٢/٢) ، والبيهقي في سننه (٦٠/٨ ، ٩٠) .
(٢) هذا الحديث بمعناه ، وقد أخرجه البخاري في الأدب (٦٠٦٩) ، ومسلم في الزهد (٥٢) .

هذا يجب أن يستتاب فإن تاب وإلا قتل ؛ لأن الذي يفتخر بالزنى مقتضى حاله أنه استحل الزنى والعياذ بالله ، ومن استحل الزنى فهو كافر!

ويوجد بعض الناس الفسقة يفعل ذلك . الذين أصيب المسلمون بالمصائب من أجلهم ومن أجل أفعالهم .

يوجد من يتبجح بهذا الأمر ، إذا سافر إلى بلد معروف بالفسق والمجون مثل (بانكوك) وغيرها من البلاد الخبيثة التي كلها زنى ولواط وخمر وغير ذلك رجع إلى أصحابه يتبجح بما فعل . هذا كما قلت يجب أن يستتاب فإن تاب وإلا قتل ؛ لأن من استحل الزنى أو غيره من المحرمات الظاهرة المجمع عليها فإنه يكفر . إذا قال قائل : هل الأفضل للإنسان إذا زنى أن يذهب إلى القاضي ليقر عنده فيقام عليه الحد أو الأفضل أن يستر نفسه ؟

فيه تفصيل : قد يكون الإنسان تاب توبة نصوحًا وندم وعرف من نفسه أنه لن يعود فهذا الأفضل أن لا يذهب ولا يخبر عن نفسه ، بل يجعل الأمر سرًّا بينه وبين الله ومن تاب تاب الله عليه . وأما من خاف أن لا تكون توبته نصوحًا وخاف أن يعود ويرجع إلى الذنب مرة أخرى فهذا الأفضل في حقه أن يذهب إلى ولي الأمر - القاضي أو غيره - ليقر عنده فيقام عليه الحد .

* * *

٢٣ - وَعَن ابْنِ عَبَّاسٍ رضي الله عنهما أن رسول الله ﷺ قال : « لَو أَنَّ لابْنِ آدَمَ وَادِيًا مِنْ ذَهَبٍ أَحَبَّ أَنْ يَكونَ لَهُ وَادِيَانِ ، وَلَنْ يَمْلأَ فَاهُ إلا التُّرَابُ ، وَيَتُوبُ اللَّهُ عَلَى مَنْ تَابَ » [(١)] متفق عليه .

٢٤ - وَعَنْ أبي هُرَيرَةَ رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال : « يَضْحَكُ اللَّهُ سبحانه وتعالى إلَى رَجُلَين يَقْتُلُ أَحَدُهُمَا الآخَرَ يَدْخُلانِ الجَنَّةَ ، يُقَاتِلُ هذَا في سَبيلِ اللهِ فَيُقْتَلُ ، ثُمَّ يَتُوبُ اللَّهُ عَلَى القَاتِلِ فَيُسْلِم فَيُسْتَشْهَدُ » [(٢)] متفقٌ عليه .

الشرح

هذان الحديثان في بيان التوبة وأن من تاب تاب الله عليه مهما عظم ذنبه ، لأن الله تعالى قال في كتابه : ﴿ وَٱلَّذِينَ لَا يَدْعُونَ مَعَ ٱللَّهِ إِلَٰهًا ءَاخَرَ وَلَا يَقْتُلُونَ ٱلنَّفْسَ ٱلَّتِي حَرَّمَ ٱللَّهُ إِلَّا بِٱلْحَقِّ وَلَا يَزْنُونَ وَمَن يَفْعَلْ ذَٰلِكَ يَلْقَ أَثَامًا ﴿٦٨﴾ يُضَٰعَفْ لَهُ ٱلْعَذَابُ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ وَيَخْلُدْ فِيهِۦ مُهَانًا ﴿٦٩﴾ إِلَّا مَن تَابَ وَءَامَنَ وَعَمِلَ عَمَلًا صَٰلِحًا فَأُو۟لَٰٓئِكَ يُبَدِّلُ ٱللَّهُ سَيِّـَٔاتِهِمْ حَسَنَٰتٍ وَكَانَ ٱللَّهُ غَفُورًا رَّحِيمًا ﴾ [الفرقان : ٦٨- ٧٠] .

فالحديث الأول : عن ابن عباس ومعناه : أن ابن آدم لن يشبع من المال ولو كان له وادٍ واحدٌ « أحبَّ » أي : طلب أن يكون له واديان ولا يملأ جوفه إلا التراب وذلك إذا مات ودُفِنَ وترك الدنيا

(١) أخرجه البخاري في الرقاق (٦٤٣٩) ، ومسلم في الزكاة (١٠١٨) بلفظ « لو أن لابن آدم مِلءَ وادٍ مالًا ... » وأحمد في مسنده (٣٧٠/١) .

(٢) أخرجه البخاري بدون لفظ : « فيسلم » في الجهاد والسير (٢٨٢٦) ، ومسلم في الإمارة (١٢٨)، والنسائي في السنن (١٣٩/٦) ، وأحمد في مسنده (٤٦٤/٢) .

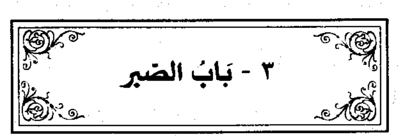
وما فيها حينئذ يقتنع ، لأنها فاتته ولكن مع ذلك حث الرسول ﷺ على التوبة ؛ لأن الغالب أن الذي يكون عنده طمع في المال أنه لا يحترز من الأشياء المحرمة من الكسب المحرم .

ولكن دواء ذلك بالتوبة إلى الله ﷻ ولذلك قال : « ويتوب الله على من تاب » فمن تاب من سيئاته ولو كانت هذه السيئات مما يتعلق بالمال فإن الله يتوب عليه .

أما الحديث الثاني : فهو عن أبي هريرة أن الرسول ﷺ قال : « يضحك الله إلى رجلين . . الحديث » .

وسبب ضحك الله أنه كان بينهما تمام العداوة في الدنيا حتى إن أحدهما قتل الآخر فقلب الله هذه العداوة التي في قلب كل واحد منهما وأزال ما في نفوسهما من الغل ؛ لأن أهل الجنة يطهرون من الغل والحقد كما قال الله في وصفهم : ﴿ إِخْوَانًا عَلَىٰ سُرُرٍ مُّتَقَابِلِينَ ﴾ وقال قبلها: ﴿ وَنَزَعْنَا مَا فِي صُدُورِهِم مِّنْ غِلٍّ إِخْوَانًا عَلَىٰ سُرُرٍ مُّتَقَابِلِينَ ﴾ [الحجر : ٤٧] . فهذا وجه العجب من هذين الرجلين ، ففيه دليل : على أن الكافر إذا تاب من كفره ولو كان قد قتل أحدًا من المسلمين فإن الله تعالى يتوب عليه لأن الإسلام يهدم ما قبله .

* * *



٣ - بَابُ الصَّبر

قال الله تعالى : ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱصْبِرُواْ وَصَابِرُواْ ﴾ [آل عمران : ٢٠٠] وقال تعالى : ﴿ وَلَنَبْلُوَنَّكُم بِشَيْءٍ مِّنَ ٱلْخَوْفِ وَٱلْجُوعِ وَنَقْصٍ مِّنَ ٱلْأَمْوَٰلِ وَٱلْأَنفُسِ وَٱلثَّمَرَٰتِ وَبَشِّرِ ٱلصَّٰبِرِينَ ﴾ [البقرة : ١٥٥] وقال تعالى : ﴿ إِنَّمَا يُوَفَّى ٱلصَّٰبِرُونَ أَجْرَهُم بِغَيْرِ حِسَابٍ ﴾ [الزمر : ١٠] وقال تعالى : ﴿ وَلَمَن صَبَرَ وَغَفَرَ إِنَّ ذَٰلِكَ لَمِنْ عَزْمِ ٱلْأُمُورِ ﴾ [الشورى : ٤٣] وقال تعالى : ﴿ ٱسْتَعِينُواْ بِٱلصَّبْرِ وَٱلصَّلَوٰةِ إِنَّ ٱللَّهَ مَعَ ٱلصَّٰبِرِينَ ﴾ [البقرة : ١٥٣] وقال تعالى : ﴿ وَلَنَبْلُوَنَّكُمْ حَتَّىٰ نَعْلَمَ ٱلْمُجَٰهِدِينَ مِنكُمْ وَٱلصَّٰبِرِينَ ﴾ [محمد : ٣١] وَالآيَاتُ في الأَمْرِ بالصَّبْرِ وَبَيَانِ فَضْلِهِ كَثيرَةٌ مَعْروفةٌ .

الشرح

الصبر لغةً : الحبس . وشرعًا : حبس النفس على ثلاثة أمور : الأول : طاعة الله ، الثاني : عن محارم الله ، الثالث : على أقدار الله المؤلمة . هذه أنواع الصبر التي ذكرها أهل العلم .

الأمر الأول : أن يصبر الإنسان على طاعة الله لأن الطاعة ثقيلة على النفس تصعب على الإنسان وكذلك ربما تكون ثقيلة على البدن بحيث يكون مع الإنسان شيء من العجز والتعب وكذلك أيضا يكون فيها مشقة من الناحية المالية كمسألة الزكاة ومسألة الحج .

المهم أن الطاعات فيها شيء من المشقة على النفس والبدن فتحتاج إلى صبر وإلى معاناة قال الله تعالى : ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱصْبِرُواْ وَصَابِرُواْ وَرَابِطُواْ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ﴾ [آل عمران : ٢٠٠] .

الأمر الثاني : الصبر عن محارم الله بحيث يكف الإنسان نفسه عما حرم الله عليه . لأن النفس

الأمارة بالسوء تدعو إلى السوء فيصبر الإنسان نفسه . مثل الكذب والغش في المعاملات وأكل المال بالباطل بالربا أو غيره والزنى وشرب الخمر والسرقة وما أشبه ذلك من المعاصي الكثيرة .

فيحبس الإنسان نفسه عنها حتى لا يفعلها وهذا يحتاج أيضًا إلى معاناة ويحتاج إلى كف النفس والهوى .

أما الأمر الثالث : فهو الصبر على أقدار اللَّه المؤلمة لأن أقدار اللَّه ﷻ على الإنسان ملائمة ومؤلمة .

الملائمة : تحتاج إلى الشكر ، والشكر من الطاعات فالصبر عليه من النوع الأول .

ومؤلمة : بحيث لا تلائم الإنسان ، فيبتلى الإنسان في بدنه ، يبتلى في ماله يفقده ، يبتلى في أهله ، ويبتلى في مجتمعه ، المهم أن أنواع البلايا كثيرة ، تحتاج إلى صبر ومعاناة . فيصبِّر الإنسان نفسه عما يحرم عليه من إظهار الجزع باللسان أو بالقلب أو بالجوارح ؛ لأن الإنسان عند حلول المصيبة له أربع حالات :

الحال الأولى : أن يتسخط . والحال الثانية : أن يصبر . والحال الثالثة : أن يرضى . والحال الرابعة : أن يشكر . هذه أربع حالات تكون للإنسان عندما يصاب بالمصيبة .

أما الحال الأولى : أن يتسخط إما بقلبه أو بلسانه أو بجوارحه . التسخط بالقلب أن يكون في قلبه شيء على ربه من السخط والشره على اللَّه - والعياذ بالله - وما أشبهه ، ويشعر وكأن اللَّه قد ظلمه بهذه المصيبة .

- وأما باللسان فأن يدعو بالويل والثبور : يا ويلاه .. يا ثبوراه ، وأن يسب الدهر فيوذي اللَّه ﷻ وما أشبهه .

- التسخط بالجوارح مثل أن يلطم خده أو يصفع رأسه أو ينتف شعره أو يشق ثوبه وما أشبه هذا .

هذا حال السخط حال الهلعين الذين حرموا من الثواب ولم ينجوا من المصيبة بل الذين اكتسبوا الإثم . فصار عندهم مصيبتان مصيبة في الدين بالسخط ومصيبة في الدنيا لما أتاهم مما يؤلمهم .

أما الحال الثانية : فالصبر على المصيبة بأن يحبس نفسه ، هو يكره المصيبة ولا يحبها ولا يحب أن وقعت لكن يصبر نفسه لا يتحدث باللسان بما يسخط اللَّه ولا يفعل بجوارحه ما يغضب اللَّه ولا يكون في قلبه على اللَّه شيء أبدًا . صابر لكنه كاره لها .

والحال الثالثة : الرضى بأن يكون الإنسان منشرحًا صدره بهذه المصيبة ويرضى بها رضاءً تامًّا وكأنه لم يصب بها .

والحال الرابعة : الشكر فيشكر اللَّه عليها وكان الرسول - عليه الصلاة والسلام - إذا رأى ما يكره قال : الحمد للّه على كل حال . فيشكر اللَّه من أجل أن اللَّه يُرتب لهُ من الثواب على هذه المصيبة أكثر مما أصابه .

ولهذا يُذكر عن بعض العَابدات أنها أصيبت في أصبعها فحمدت اللَّه على ذلك ، فقالوا لها : كيف تحمدين اللَّه والأصبع قد أصابه ما أصابه قالت إن حلاوة أجرها أنستني مرارة صبرها . والله الموفق .

* * *

قال رحمه اللَّه تعالى في الحث على الصَّبر والثناء على فاعليه : وقول اللَّه سبحانه : ﴿ يَـٰٓأَيُّهَا

﴿ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱصْبِرُوا۟ وَصَابِرُوا۟ وَرَابِطُوا۟ ﴾ [آل عمران : ٢٠٠] فأمر اللّٰه المؤمنين بمقتضى إيمانهم وبشرف إيمانهم بهذه الأوامر الثلاثة بل أربعة!! اصْبروا ، وصَابروا ، ورابطوا ، واتقوا اللّٰه .

فالصبر عن المعصية ، والمصابرة على الطاعة ، والمرابطة كثرة الخير وتتابع الخير ، والتقوى تعم ذلك كله .

فاصبروا عن محارم اللّٰه : لا تفعلوها ، تجنبوها ، ولا تقربوها .

ومن المعلوم : أن الصَّبْر عن المعصية لا يكون إلا حيث دَعت إليه النفس ، أما الإنسان الذي لم تطرأ على باله المعصية فلا يقال إنه صبر عنها ولكن إذا دعتك نفسك إلى المعصية فاصبر واحبس النفس .

وأما المصابرة فهي على الطَّاعة لأن الطاعة فيها أمران :

الأمر الأول : فعل يتكلف به الإنسان ويلزم نفسه به .

والأمر الثاني : ثقل على النَّفس لأن فعل الطاعة كترك المعصية ثقيلة على النفوس الأمارة بالسوء .

فلهذا كان الصبر على الطاعة أفضل من الصَّبر على المعصية لهذا قال اللّٰه تعالى : ﴿ وَصَابِرُوا۟ ﴾ كأن أحدًا يُصَابرك كما يُصابر الإنسان عدوه في القتال والجهاد .

وأما المرابطة : فهي كثرة الخير والاستمرار عَليه ولهذا جاء في الحديث عن الرسول ﷺ أنه قال : « إسْباغُ الوضُوء عَلى المكارِه وكَثْرة الخطى إلى المَساجد وانْتِظارُ الصَّلاة بعْد الصَّلاةِ فذَلِكُم الرِّباط فَذَلِكُم الربَاطُ » [1] لأن فيه استمرارًا في الطاعة وكثرة لفعلها .

وأما التَّقوى : فإنها تشمل ذلك كله ، لأن التَّقوى اتخاذ ما يقي من عِقاب اللّٰه وهذا يكون بفعل الأوامر واجتناب النَّواهي .

وعلى هذا فعطفها على ما سَبق من باب عَطف العام على الخاص ثم بين اللّٰه تعالى أن القيام بهذه الأوامر الأربعة سَببٌ للفلاح فقال : ﴿ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ﴾ .

والفلاح كلمة جامعة تدور على شيئين : على حُصُول المطلوب وعلى النَّجاة من الموهوب . فمن اتَّقى اللّٰه ﷻ حَصَل له مَطْلوبه ونجا من مرهوبه . وأما الآية الثَّانية فقال رَحِمَهُ ٱللَّٰهُ : وقوله تعالى : ﴿ وَلَنَبْلُوَنَّكُم بِشَىْءٍ مِّنَ ٱلْخَوْفِ وَٱلْجُوعِ وَنَقْصٍ مِّنَ ٱلْأَمْوَٰلِ وَٱلْأَنفُسِ وَٱلثَّمَرَٰتِ ۗ وَبَشِّرِ ٱلصَّٰبِرِينَ ﴾ [البقرة : ١٥٥] ، هذه الآية فيها قَسَمٌ من اللّٰه ﷻ أن يختبر العِباد بهذه الأمور . فقوله : ﴿ وَلَنَبْلُوَنَّكُم ﴾ أي : لنختبرنكم . ﴿ بِشَىْءٍ مِّنَ ٱلْخَوْفِ ﴾ لا الخوف كله بل بشيء منه ؛ لأن الخوف كله مهلك ومدمر . لكن بشيء منه . ﴿ ٱلْخَوْفِ ﴾ هو فَقْدُ الأمن وهو أعْظَمُ من الجوع . ولهذا قدَّمه اللّٰه عليه ، لأن الإنسان الجائع ربما يتعلل ويذهب يطلب ولو كان لِحَاءَ شجر .

لكن الخائف - والعياذ باللّٰه - لا يستقر لا في بيته ، ولا في سوقه . وأخوف ما نخاف منه ذنوبنا ؛ لأن الذنوب سبَبٌ لكل الوَيلات ، وسببٌ للمخاطر والمخاوف والعقوبات الدينية والدنيوية !! و ﴿ وَٱلْجُوعِ ﴾ أي : يُبتلى بالجوع . والجوع يحمل معنيين :

(١) أخرجه أحمد في مسنده (٢/٣٠١ ، ٣٠٣) وابن ماجه في سننه (٤٢٧) باختلاف يسير .

المعنى الأول : أن يحدث اللَّه سبحانه في العباد وباءً ، هو وباء الجوع بحيث يأكل الإنسان ولا يشبع وهذا يمر على الناس وقد مَرَّ بهذه البلاد سنة معروفة عند العامة تسمَّى سنة الجوع . يأكل الإنسان الشَّيء الكثير ولكنه لا يشبع – والعياذ باللَّه – أبدًا .

يَحدُث أن الإنسان يأكل من التمر محفرًا كاملًا في آنٍ واحدٍ ولا يشبع – والعياذ باللَّه – . ويأكل الخبز الكثير ولا يشبع لمرض فيه .

المعنى الثاني : الجدب والسِّنين الممحلة التي لا يدر فيها ضرع ، ولا ينمو فيها زرع ، هذا من الجوع .

وقوله ﴿ وَنَقْصٍ مِّنَ ٱلْأَمْوَٰلِ ﴾ يعني : نقْص الاقتصاد بحيث تُصاب الأمة بقلة المادة والفقر ويتأخر اقتصادها وترهق حكومتها بالديون التي تأتي نتيجة لأسباب يقدرها اللَّه ﷻ ابتلاءً وامتحانًا .

وقوله ﴿ وَٱلْأَنفُسِ ﴾ أي : الموت بحيث يحِلُّ في الناس أوبئة تهلكهم وتقْضي عليهم .

وهذا أيضًا يحدث كثيرًا ولقد حُدِّثنا أنَّه حدث في هذه البلاد – أي البلاد النجدية – حدث فيها وباء عظيم تُسمَّى سنَتُه عند العامة سنة الرحمة !! إذا دخل الوباء في البيت لم يبق منهم أحد إلا دُفِن والعياذ بالله .

يدخل في البيت فيه عشرة أنفس أو أكثر فيُصاب هذا بعرض ومن غدٍ الثاني والثالث والرابع حتى يموتوا عن آخرهم . وحدثنا أنه قدم في هذا المسجد – مسجد الجامع الكبير بعنيزة – وكان الناس بالأول في قرية صغيرة ما فيها ناس كثير كما هو الحال اليوم .

يُقدَّم أحيانًا في فَرْض الصَّلاة الواحد سبعٌ إلى ثمان جنائز نعوذ بالله من الأوبئة .

وقوله : ﴿ وَٱلثَّمَرَٰتِ ﴾ أي : أن لا يكون هناك جوع ولكن تنقص الثمرات ، تنزع بركتها في الزروع والنخيل وفي الأشجار الأخرى ، واللَّه ﷻ يبتلي العباد بهذه الأمور ليذيقهم بعض الذي عملوا لعلهم يرجعون . فيقابل الناس هذه المصائب بدرجات متنوعة بالتسخط ، بالصَّبر ، وبالرِّضى ، بالشكر كما قلناه فيما سبق واللَّه الموفق . قوله ﴿ إِنَّمَا يُوَفَّى ٱلصَّٰبِرُونَ أَجْرَهُم بِغَيْرِ حِسَابٍ ﴾ [الزمر : ١٠] يُوفى الصابرون أي : يُعطى الصابرون ، أجرهم : ثوابهم . وقوله : ﴿ بِغَيْرِ حِسَابٍ ﴾ لأن الأعمال الصَّالحة مضاعفة ؛ الحسنة بعشرة أمثالها إلى سبعمائة ضعف إلى أضعاف كثيرة . أما الصبر فإن مضاعفته تأتي بغير حساب من عند اللَّه ﷻ وهذا يدلُّ على أن أجره عظيم وأن الإنسان لا يمكن أن يتصور هذا الأجر ؛ لأنه لم يقابل بعدد بل هو أمر معلوم عند اللَّه ولا حساب فيه ، لا يقال : – مثلًا – الحسنة بعشرة أمْثالها إلى سبعمائة ضعف بل يقال : إنَّه يُوفى أجره بغير حساب . وفي هذه الآية من الترغيب في الصبر ما هو ظاهر . وقوله : ﴿ وَلَمَن صَبَرَ وَغَفَرَ إِنَّ ذَٰلِكَ لَمِنْ عَزْمِ ٱلْأُمُورِ ﴾ [الشورى : ٤٣] أي : أن الذي يصبر على أذى الناس ، ويحتملهم ويغفر لهم سيئاتهم ؛ التي يُسيئون بها إليه فإن ذلك من عزم الأمور أي : من مَعْزُوماتها وشدائدها التي تحتاج إلى مُقابلة ومُصابرة . ولاسيما إذا كان الأذى الذي ينال الإنسان بسبب جهاده في اللَّه ﷻ وبسبَب طاعته لأن أذية النَّاس لك لها أسباب متعددة متنوعة . فإذا كان سببها طاعة اللَّه ﷻ والجهاد في سبيله والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر ، فإن الإنسان يثاب على ذلك من وجهين :

الأول : من الأذية التي تَحصُل له .

الثاني : صبره على هذه الطاعة التي أُذِيَ في اللّه من أجلها .

وفي هذه الآية حثٌّ على صبْرِ الإنسان على أذية الناس ومغفرة لهم ما أساؤوا له فيه . ولكن ينبغي أن يعلم أن المغفرة لمن أساء إليكَ ليست محمودة على الإطلاق فإن اللّه قيَّد هذا بأن يكون العفو مقرونًا بالإصلاح فقال ﷻ : ﴿ فَمَنْ عَفَا وَأَصْلَحَ فَأَجْرُهُۥ عَلَى ٱللَّهِ ﴾ [الشورى : ٤٠] . أما إذا لم يكن في العفو والمغفرة إصلاح فلا تعفُ ولا تغفر .

مثاله : لو كان الذي أساءَ إليك شخصًا معروفًا بالشر والفساد ، وأنك لو عفوت عنه لكان في ذلك زيادة في شره . ففي هذه الحال الأفضل أن لا تعفو عنه بل تأخذ بحقك من أجل الإصلاح . أما إذا كان الشخص إذا عفوت عنه لم يترتب على العفو عنه مَفْسدة ، فإن العفو أفضل وأحسن لأن اللّه يقول : ﴿ فَمَنْ عَفَا وَأَصْلَحَ فَأَجْرُهُۥ عَلَى ٱللَّهِ ﴾ [الشورى : ٤٠] وإذا كان أجرك على اللّه كان خَيرًا لكَ من أنْ يكون ذلك بِمُعاوضَة تأخذ من أعمال صاحبك الصالحة .

وقوله : ﴿ ٱسْتَعِينُوا۟ بِٱلصَّبْرِ وَٱلصَّلَوٰةِ إِنَّ ٱللَّهَ مَعَ ٱلصَّـٰبِرِينَ ﴾ [البقرة : ١٥٣] أمر اللّه ﷻ أن نستعين على الأمور بالصبر عليها ؛ لأن الإنسان إذا صبر وانتظر الفرج من اللّه سهلت عليه الأمور .

فأنت إذا أصبت بشيء يحتاج إلى صبر فاصبر وتحمل « واعْلم أن النصر مَعَ الصبر وأن الفرجَ مع الكَرب وأن مَع العُسر يُسْرًا » .

وأما الصلاة فإنها تعين على الأمور الدينية والدنيوية حتى إن الرسول عليه الصلاة والسلام ذكر عنه : « أنه إذا حَزَبَهُ أمْر فزِعَ إلى الصلاة » .

وبين اللّه في كتابه أن الصلاة تَنْهَى عن الفحشاء والمنكر فإذا استعان الإنسان بالصلاة على أمُوره يسَّر اللّه له ذلك لأن الصلاة صِلة بين العبد وبين ربه ، فيقف الإنسان فيها بين يدي اللّه ويُناجيه ويدْعوه ويتقرب إليه بأنواع القُربات التي تكون في هذه الصلاة فكانت سببًا للمعونة .

* * *

قوله : ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ مَعَ ٱلصَّـٰبِرِينَ ﴾ يعني بذلك : المعية الخاصة لأن معية اللّه سبحانه تنقسم إلى قسمين :

١ - معية عامة شاملة لكل أحد : وهي المذكورة في قوله تعالى : ﴿ وَهُوَ مَعَكُمْ أَيْنَ مَا كُنتُمْ ﴾ [الحديد : ٤] وفي قوله تعالى : ﴿ مَا يَكُونُ مِن نَّجْوَىٰ ثَلَـٰثَةٍ إِلَّا هُوَ رَابِعُهُمْ وَلَا خَمْسَةٍ إِلَّا هُوَ سَادِسُهُمْ وَلَآ أَدْنَىٰ مِن ذَٰلِكَ وَلَآ أَكْثَرَ إِلَّا هُوَ مَعَهُمْ أَيْنَ مَا كَانُوا۟ ﴾ [المجادلة : ٧] .

وهذه المعية العامة شاملة لجميع الخلق فمَا من مخلوق إلا واللّه معه يعْلَمُه ويُحيط به سُلطانًا وقدرة وسَمْعًا وبصرًا وغير ذلك .

٢ - أما المعية الخاصّة : فهي المعيَّة التي تقتضي النَّصر والتَّأييد وهذه خاصَّة بالرُسل وأتباعهم ليست لكل أحد ، فـ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ مَعَ ٱلَّذِينَ ٱتَّقَوا۟ وَّٱلَّذِينَ هُم مُّحْسِنُونَ ﴾ واللّه مع الصابرين وما أشبه ذلك

من الآيات الدَّالة على هذه المعيَّة الخاصة .

ولكن هاتين المعيتين كلتيهما لا تدلان على أن اللَّه سبحانه مع الناس في أمكنتهم ، بل هو مع النَّاس وهو فوق سماواته على عرشه ولا مانع من ذلك ؛ لأن الشيء يكون فوق وهو معك والعرب يقولون : ما زلنا نسير والقمر معنا . وكل يعلم أن القمر في السَّماء ، ويقولون : مَا زِلنا نَسير وسهيل معنا - وهو نجم معروف - وهو في السَّماء . فما بالك بالخالق ﷻ هو فوق كل شيء اشتوى على عرشه ومع ذلك هو محيط بكل شيء مع كل أحد . مهما انفردت فإن اللَّه تعالى محيط بك علمًا وقُدرة وسُلطانًا وسَمْعًا وبصرًا وغير ذلك .

وفي قوله : ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ مَعَ ٱلصَّٰبِرِينَ ﴾ دليل على أنه مُعان من قبل اللَّه ، وأنَّ اللَّه يُعين الصابر ويؤيده ويكلؤه حتى يتم له الصبر على ما يحبه اللَّه ﷻ .

ثم ذكر رَحِمَهُ ٱللَّهُ آخر آية ساقها وهي قوله : ﴿ وَلَنَبْلُوَنَّكُمْ حَتَّىٰ نَعْلَمَ ٱلْمُجَٰهِدِينَ مِنكُمْ وَٱلصَّٰبِرِينَ وَنَبْلُوَا۟ أَخْبَارَكُمْ ﴾ [محمد : ٣١] لنبلونكم : لنختبرنكم ، فالابتلاء بمعنى الاختبار .

يعني أن اللَّه اختبر العباد في فرض الجهاد عليهم ليعلم من يصبر ومن لا يصبر ولهذا قال اللَّه في آية أخرى : ﴿ وَلَوْ يَشَآءُ ٱللَّهُ لَٱنتَصَرَ مِنْهُمْ وَلَٰكِن لِّيَبْلُوَا۟ بَعْضَكُم بِبَعْضٍ ۗ وَٱلَّذِينَ قُتِلُوا۟ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ فَلَن يُضِلَّ أَعْمَٰلَهُمْ ۝ سَيَهْدِيهِمْ وَيُصْلِحُ بَالَهُمْ ۝ وَيُدْخِلُهُمُ ٱلْجَنَّةَ عَرَّفَهَا لَهُمْ ﴾ [محمد : ٤-٦] .

وقوله : ﴿ حَتَّىٰ نَعْلَمَ ٱلْمُجَٰهِدِينَ ﴾ قد يتوهم بعض من قَصُر عِلْمه أن اللَّه سبحانه لا يعلم الشَّيء حتى يقع وهذا غيرصحيح فالله يعلم الأشياء قبل وقوعها كما قال : ﴿ أَلَمْ تَعْلَمْ أَنَّ ٱللَّهَ يَعْلَمُ مَا فِى ٱلسَّمَآءِ وَٱلْأَرْضِ ۗ إِنَّ ذَٰلِكَ فِى كِتَٰبٍ ۚ إِنَّ ذَٰلِكَ عَلَى ٱللَّهِ يَسِيرٌ ﴾ [الحج : ٧٠] .

ومن ادَّعى أن اللَّه لا يعْلم بالشيء إلا بعد وُقوعه فإنه مكذب لهذه الآية وأمثالها من الآيات الدَّالة على أن اللَّه تعالى قد علم الأشياء قبل أن تقع !

لكن العلم الذي في هذه الآية ﴿ حَتَّىٰ نَعْلَمَ ٱلْمُجَٰهِدِينَ ﴾ هو العلم الذي يترتَّب عليه الثواب أو العقاب . لأن علم اللَّه بالشيء قبل أن يكون لا يترتب عليه شيء من جهة فعل العبد لأن العبد لم يُبْلَ به حتى يتبين الأمر . فإذا اختبر به العبد حينئذٍ يتبين أنه استحق الثواب أو العقاب فيكون المراد بقوله : ﴿ حَتَّىٰ نَعْلَمَ ٱلْمُجَٰهِدِينَ ﴾ أي : عِلْمًا يترتب عليه الجزاء .

وقال بعض أهل العلم : المُراد بقوله : ﴿ حَتَّىٰ نَعْلَمَ ٱلْمُجَٰهِدِينَ ﴾ أي : علم ظهور ، يعني حتى يظهر الشيء لأن علم اللَّه بالشيء قبل أن يكون ، علم بأنه سيكون ، وعلمه بعد كونه علمٌ بأنه كان ، وفرق بين العِلْمين !!

ويظهر الفرق فيما لو قال لك شخص : سوف أفْعل كذا غدًا فالآن حصل عندك علم بما أخْبر به ولكن إذا فعله غدًا صار عندك علم آخر أي : علم بأن الشَّيء الذى حدثَك أنه سيفعله قد فعله فعلًا . فهذان وجهان في تفسير قوله : ﴿ حَتَّىٰ نَعْلَمَ ﴾ .

وقوله : ﴿ ٱلْمُجَٰهِدِينَ ﴾ المجاهد : هو الَّذي بذل جهده لإعلاء كلمة اللَّه فيشمل المجاهد بعِلْمه والمجاهد بالسلاح كلاهما مجاهد في سبيل اللَّه .

فالمجاهد بعلمه يتعلم العلم ويُعَلِّمه ويَنْشره بين الناس ويجعل هذا وسيلةً لتحكيم شريعة اللَّه ، هذا مجاهد . والذي يحمل السلاح لمقاتلة الأعداء ، هو أيضًا مُجاهد في سبيل اللَّه إذا كان المقصود في الجهادين أن تكون كلمة اللَّه هي العليا .

وقوله : ﴿ ٱلصَّٰبِرِينَ ﴾ أي : الذين يصبرون على ما كلفوا فيه من الجهاد ويَحْملونه ويقومون به .

وقوله : ﴿ وَنَبْلُوَاْ أَخْبَارَكُمْ ﴾ أي : نختبرها وتتبين لنا وتظهر لنا ظهورًا يترتب عليه الثواب والعقاب .

لما ذكر اللَّه هذا الابتلاء قال : ﴿ وَبَشِّرِ ٱلصَّٰبِرِينَ ﴾ والخطاب للنبي ﷺ ولكل من يبلغه هذا الخطاب .

يعني : بَشّرْ يا محمد - أوبَشِّرْ يا من يَبْلغُهُ هذا الكلام - الصابرين ، الذين يصبرون على هذه البلوى فلا يقابلونها بالتسخط وإنما يقابلونها بالصبر .

وأكمل من ذلك أن يُقابلوها بالرضى ، وأكمل من ذلك أن يقابلوها بالشكر كما مر علينا في مراتب التحمل في أقدار اللَّه المؤلمة .

قوله : ﴿ قَالُوٓاْ إِنَّا لِلَّهِ ﴾ إذا أصابتهم مصيبة اعترفوا لله ﷻ بعموم ملكه ، وأنهم ملك للّه تعالى ، ولله أن يفعل في ملكه ما شاء ولهذا قال الرسول عليه الصلاة والسلام لإحدى بناته قال : « فان للَّه ما أخذ وله ما أبقَى »[(١)] ، فأنت ملك لربك ﷻ يفعل بك ما يشاء حسَب ما تقتضيه حكمته - تبارك وتعالى - . ثم قال : ﴿ وَإِنَّآ إِلَيْهِ رَٰجِعُونَ ﴾ يعترفون بأنهم لابد أن يرجعوا إلى اللَّه فيجازيهم . إن تسخطوا جَازَاهم على سخطهم وإن صبروا كما هو شأن هؤلاء القوم فإن اللَّه يجازيهم على صبرهم على هذه المصائب فيبتلي ﷻ بالبلاء ويثيب الصابر عليه .

قال اللَّه ﷻ : ﴿ أُوْلَٰٓئِكَ عَلَيْهِمْ صَلَوَٰتٌ مِّن رَّبِّهِمْ وَرَحْمَةٌ ﴾ أولئك يعني الصَابرين ، والصَّلوات جمع صلاة وهي ثناء اللَّه عليهم في الملأ الأعلى عند الملائكة .

وقوله : ﴿ وَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُهْتَدُونَ ﴾ الذين هداهم اللَّه ﷻ عند حلول المصائب فلم يتسخطوا ولكن صبروا على ما أصابهم . وفي هذه الآية دليل على أن صلاة اللَّه ﷻ ليست هي رحمة بل هي أخص وأكمل وأفضل ، ومن فسرها من العلماء بأن الصلاة من اللَّه الرحمة ومن الملائكة الدُّعاء ومن الآدميين الاستغفار ، إن هذا لا وجه له بل الصلاة غير الرَّحمة لأن اللَّه عطف الرحمة على الصَّلوات والعطف يقتضي المغايرة ؛ ولأن العلماء مجمعون على أنك يجوز لك أن تقول لأي شخص من المؤمنين : اللَّهُمَّ ارحم فلانًا . واختلفوا هل يجوز أن يُصلى عليه أو لا يجوز على أقوال ثلاثة :

- فمنهم من أجازها مطلقًا ، ومنهم من مَنَعها مطلقًا ، ومنهم من أجازها إذا كانت تبعًا .

والصحيح : أنها تجوز إذا كانت تبعًا كما في قوله : « اللهُم صل على محمد وعَلى آل محمد » أو لم تكن تبعًا ولكن لها سبب كما قال اللَّه : ﴿ خُذْ مِنْ أَمْوَٰلِهِمْ صَدَقَةً تُطَهِّرُهُمْ وَتُزَكِّيهِم بِهَا وَصَلِّ عَلَيْهِمْ ﴾

---

(١) أخرجه البخاري في الجنائز (١٢٨٤) باختلاف يسير في بعض ألفاظه .

[التوبة: ١٠٣] فإذا كان لها سبب ولم تتخذ شعارًا فإنه لا بأس به . فلا بأس أن تقول : اللهُمَّ صَل على فلان ، فلو جاءك رجل ، قال لك : خذ زكاتي وفرقها على الفقراء فلك أن تقول : صلى اللّٰه عليك! تدعو له بأن اللّٰه يصلي عليه كما أمر اللّٰه نبيه ﷺ بذلك .

* * *

٢٥ - وَعَن أبي مَالكِ الحَارث بْنِ عَاصِم الأَشْعَرِيِّ ﷺ قَالَ : قَالَ رسول اللّٰه ﷺ : « الطُّهُورُ شَطْرُ الإيمان ، وَالحَمْدُ للّهِ تَمْلأُ الميزَانَ ، وَسُبْحَانَ اللّٰهِ والحَمْدُ للّهِ تَمْلآنِ - أَو تَمْلأُ - مَا بَينَ السَّمَاوات وَالأَرْضِ ، وَالصَّلاةُ نُورٌ ، وَالصَّدَقَةُ بُرْهَانٌ ، وَالصَّبْرُ ضِيَاءٌ ، والقُرْآنُ حُجَّةٌ لَكَ أَو عَلَيكَ . كُلُّ النَّاسِ يَغْدُو ، فَبَائعٌ نَفْسَهُ فَمُعْتِقُهَا ، أو مُوبِقُهَا »(١) رواه مسلم .

الشرح

سبق لنا الكلام على الآيات التي ساقها المؤلف رَحِمَهُ ٱللَّهُ في الصبر وثوابه والحث عليه . ثم شرع رَحِمَهُ ٱللَّهُ في بيان الأحاديث الواردة في ذلك .

فذكر حديث أبي مالك الأشعري ﷺ أن الرسول ﷺ قال : « سُبْحانَ اللّٰه والحَمْدُ للّٰه » الحديث إلى قوله « والصبرُ ضِياءٌ » فبين النبي ﷺ في هذا الحديث أن الصَّبر ضياء يعني : أنه يضيء للإنسان .

يضيء له عندما تحتلك الظلمات وتشتدُّ الكربات فإذا صبر فإن هذا الصبر يكون له ضياء يهديه إلى الحق . ولهذا ذكر اللّٰه عَزَّوَجَلَّ أنه من جملة الأشياء التي يُستعان بها فهو ضياء للإنسان في قلبه وضياء له في طريقه ومنهاجه وعمله لأنه كلما سار إلى اللّٰه عَزَّوَجَلَّ على طريق الصبر فإن اللّٰه تعالى يزيده هدىً وضياءً في قلبه ويبصره . أما بقية الحديث فقال عليه الصلاة والسلام « الطُّهُورُ شَطْرُ الإيمان » .

« الطهُور » : يعني بذلك طهارة الإنسان . « شطر الإيمان » : نصف الإيمان . وذلك لأن الإيمان تخلية وتحلية . يعني : تَبرؤًا من الشرك والفُسوق ، تَبرؤًا من المشركين والفسَّاق بحسب ما معهم من الفسق فهو تخل . وهذا هو الطهور أن يتطهر الإنسان طهارة حِسية ومَعنوية من كل ما فيه أذى . فلهذا جعله الرسول عليه الصلاة والسلام شطر الإيمان . قوله : « والحمد للّٰه تملأ الميزان » ذكر ابن علان ما مختصره : أي هذه الجملة بخصوصها لأنها أفضل صيغ الحمد ولذا بُدِئَ بها الكتاب العزيز ، والحمد لله هو الثناء على اللّٰه بالجميل الاختياري والإذعان له والرضا بقضائه . والميزان : المراد منه حقيقته : أي ما توزن به الأعمال ؛ إما بأن تجَسم الأعمال أو توزن صحائفها ، فتطيش بالسيئة وتثقل بالحسنة .

وهذه الكلمة كان لها هذا الثواب العظيم بحيث تملأ كفة الميزان مع سعتها ؛ لأن معاني الباقيات الصالحات في ضمنها ؛ لأن الثناء تارة يكون بإثبات الكمال ، وتارة بنفي النقص ، وتارة بالاعتراف بالعجز ، وتارة بالتفرد بأعلى المراتب . والألف واللام في الحمد لاستغراق جنس المدح : والحمد مما

---

(١) أخرجه مسلم واللفظ له في الطهارة (١) وأحمد في مسنده (٥/٣٤٢) .

علمناه وجهلناه ، وإنما يستحق الإلهية من اتصف بذلك ، فاندرج الجميع تحت « الحمد لله » .

وقوله : « وسُبحان اللَّه والحمْدُ للَّه تملآن - أو قال تملأُ - مَا بين السَّماوَاتِ والأرْض » شك من الراوي ، والمعنى لا يختلف . أي أن « سبحان اللَّه والحمد لله تملأ مَا بين السَّماوات والأرض » وذلك لأن هاتين الكلمتين مشْتَمِلَتَان على تنزيه اللَّه من كل نقص في قوله : « سُبحانَ اللَّه » وعلى وصف اللَّه بكل كمال في قوله : « والحمد للَّه » . فقد جمعت هاتان الكلمتان بين التَّخلية والتَّحلية كما يقولون .

فالتسبيح : تنزيه اللَّه عما لا يليق به في أسمائه وصفاته وأفعاله وأحكامه . فالله مُنزَه عن كل عيب في أسمائه وصفَاته وأفْعاله وأحْكامِه . لا تجد في أسمائه اسمًا يشتمل على نقص أو على عيب ولهذا قال تعالى : ﴿ وَلِلَّهِ ٱلْأَسْمَآءُ ٱلْحُسْنَىٰ ﴾ [الأعراف : ١٨٠] : ولا تجد في صفاته صفة تشتمل على عيب أو نَقْص ولهذا قال اللَّه : ﴿ وَلِلَّهِ ٱلْمَثَلُ ٱلْأَعْلَىٰ ﴾ بعد قوله : ﴿ لِلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِٱلْـَٔاخِرَةِ مَثَلُ ٱلسَّوْءِ وَلِلَّهِ ٱلْمَثَلُ ٱلْأَعْلَىٰ ﴾ [النحل : ٦٠] . فالله ﷻ له الوصف الأكمل الأعلى من جميع الوجوه . وله الكمال المنزَّه عن كل عيب في أفعاله كما قال اللَّه : ﴿ وَمَا خَلَقْنَا ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا لَٰعِبِينَ ﴾ [الدخان : ٣٨] فليس في خلق اللَّه لَعِبٌ ولَهو وإنَّما هو خلق مبني على الحكمة .

كذلك أحكامه لا تجد فيها عيبًا ولا نقْصًا كما قال اللَّه : ﴿ أَلَيْسَ ٱللَّهُ بِأَحْكَمِ ٱلْحَٰكِمِينَ ﴾ [التين : ٨] وقال ﷻ : ﴿ أَفَحُكْمَ ٱلْجَٰهِلِيَّةِ يَبْغُونَ وَمَنْ أَحْسَنُ مِنَ ٱللَّهِ حُكْمًا لِّقَوْمٍ يُوقِنُونَ ﴾ [المائدة : ٥٠] واللَّه ﷻ يُحْمدُ على كل حال ، وكان الرسول عليه الصلاة والسلام إذا أصابه ما يُسَرُّ به قال : « الحَمْدُ لله الذي بنعمتِهِ تتمُّ الصَّالحاتِ » وإذا أصابَهُ سوى ذلك قال : « الحمد لله على كُلِّ حَالٍ » [1] ثم إن ها هنا كلمة شاعت أخيرًا عند كثير من الناس وهي قولهم : « الحمد لله الذي لا يُحْمدُ علَى مَكْرُوه سِواه » . هذا حمد ناقص !!.

لأن قولك على مَكْروه سِواه تعبير يدل على قِلة الصبر أو على الأقل على عدم كمال الصَّبر ، وأنك كاره لهذا الشيء ولا ينبغي للإنسان أن يُعبر هذا التعبير ، بل ينبغي له أن يُعَبر بما كان الرسول ﷺ يعَبر به فيقول الحمد لله على كل حال أو يقول الحمد لله الذي لا يُحْمد على كل حال سواه . أما التعبير الأول فإنه تعبير واضح على مُضَادة ما أصابه من اللَّه ﷻ وأنه كاره له . وأنا لا أقول إن الإنسان لا يَكْره مما أصابه من البلاء بطبيعة الإنسان أن يكره ذلك لكن لا تُعْلن هذا بلسَانِك في مقام الثناء على اللَّه بل عبر كما عبر النبي ﷺ .

* * *

قوله ﷺ : « والصلاة نُور » : فالصلاة : نور للعبد في قلبه ، وفي وَجهِهِ ، وفي قبره ، وفي حَشْره . ولهذا تجد أكثر الناس نورًا في الوجوه أكثرهم صلاة وأخشعهم فيها لله ﷻ . وكذلك تكون نورًا للإنسان في قلبه تفتح عليه باب المعرفة لله ﷻ ، وباب المعرفة في أحكام اللَّه وأفعاله وأسمائه وصفاته

---

(١) أخرجه ابن ماجه واللفظ له في الأدب (٣٨٠٣) والحاكم في المستدرك (١/٤٩٩) .

وهي نور في قبر الإنسان ؛ لأن الصَّلاة عَمُود الإسلام إذا قام العمود قام البناء وإذا لم يَقُم العمود فلا بناء . كذلك نُورٌ في حَشْره يوم القيامة كما أخبر بذلك الرسول ﷺ « أن من حَافَظَ عَلَيها كَانتْ لَهُ نُورًا ونَجَاةً وبُرهانًا يَومَ القِيامَةِ ومَن لمْ يُحَافِظ عَلَيها لَم تكُن لَهُ نُورًا ولَا برهانا وَلَا نَجاةً يومَ القِيامَةِ وحُشِر مَعَ فِرْعَونَ وهَامَانَ وقَارُونَ وأُبيِّ بنِ خَلَف » (١) .

فهي نُورٌ للإنسان في جميع أحواله وهذا يقتضي أن يحافظ الإنسان عليها وأن يَحْرِص عليها وأن يكثر منها حتى يكثر نوره وعلمه وإيمانه .

وأما الصبر : فقال : « إنه ضياء » . أي : فيه نور لكن نور مع حرارة كما قال اللّه تعالى : ﴿ هُوَ ٱلَّذِى جَعَلَ ٱلشَّمْسَ ضِيَآءً وَٱلْقَمَرَ نُورًا ﴾ [يونس : ٥] . فالضَّوء لابد فيه من حرارة وهكذا الصَّبر لابد فيه من حَرارة وتعب لأن فيه مشقة كبيرة ولهذا كان أجره بغير حساب . فالفرق بين النُّور في الصَّلاة والضِّياء في الصَّبر ، أن الضياء في الصبر مصْحُوب بحرارة لما في ذلك من التَّعب القلبي والبدني في بعض الأحيان :

وقوله : « الصَّدقةُ بُرْهانٌ » الصَّدقة : بذل المال تقربًا لله ﷻ . للأهل والفقراء والمَصالح العامة مثل بناء المساجد وغيرها هذا برهان . بُرهانٌ على إيمان العَبْد وذلك لأن المال محبوب إلى النُّفوس والنفوس شحيحة به فإذا بذله الإنسان لله فإن الإنسان لا يبذل ما يحب إلا لما هو أحبُّ إليه منه . ولهذا تجد أكثر الناس إيمانًا بالله ﷻ وبالإخلاف تجدهم أكثرهم صَدقة . ثم قال الرسول عليه الصلاة والسلام « والقرآن حجة لك أو عليك » ؛ لأن القرآن هو حبل اللّه المتين وهو حجة اللّه على خلقه فإما أن يكون لك ، وذلك فيما إذا توصلت به إلى اللّه وقمت بواجب هذا القرآن العظيم من التَّصديق بالأخبار ، وامتثال الأوَامر ، واجتناب النواهي ، وتعظيم هذا القرآن الكريم واحترامه . ففي هذه الحال يكون حجة لَك . أما إن كان الأمر بالعكس أهَنْتَ القُرآن وهَجرته لفظًا ومعنىً وعملًا ولم تَقُم بواجبه فإنَّه يكون عليك شاهدًا يوم القيامة . ولم يذكر الرسول ﷺ مرتبة بين هاتين المرتبتين !. يعني لم يذكر أن القرآن لا لَك ولَا عليكَ لأنَّه لابد أن يكون إمَّا لك وإما عليك على كل حال . فنسأل اللّه أن يجعله لنا ولكم حجةً نهتدي به في الدنيا والآخرة إنه جواد كريم .

* * *

قوله : « كل الناس يَغْدو فَبائعٌ نفْسَهُ فمُعتقها أو مُوبقُها » . أي : كل الناس يبدأ يومه من الغدوة بالعمل وهذا شيء مُشاهد . فإن اللّه تعالى جعل الليل سكنًا وقال : ﴿ وَهُوَ ٱلَّذِى يَتَوَفَّىٰكُم بِٱلَّيْلِ وَيَعْلَمُ مَا جَرَحْتُم بِٱلنَّهَارِ ثُمَّ يَبْعَثُكُمْ فِيهِ ﴾ [الأنعام : ٦٠] فهذا النوم الذي يكون في الليل هو وفاة صغرى تهدأ فيه الأعصاب . وَيستريح : فيه البدن ويستَجد نشاطه للعمل المُقبل ويستريح من العمل الماضي . فإذا كان الصباح وهو الغُدوة شار الناس ، واتجهوا كُل لعمله . فمنهم من يتجه إلى الخير ، وهم المسلمون ومنهم من يتجه إلى الشر ، وهم الكفار والعياذ بالله .

( ) أخرجه الدارمي في الرقائق واللفظ له (٣٠٢/٢) .

المسلم أول مَا يغدو يتوضأ ويَتَطهر « والطهور شطر الإيمان » - كما في هذا الحديث - ثم يذهب فيصلي فيبدأ يومه بعبادة اللّٰه ﷻ بل يفتتحه بالتوحيد لأنه يُشرع للإنسان إذا استيقظ من نومه أن يذكر اللّٰه ﷻ وأن يقرأ عشر آيات من سورة آل عمران وهي قوله : ﴿ إِنَّ فِي خَلْقِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَٱخْتِلَٰفِ ٱلَّيْلِ وَٱلنَّهَارِ لَءَايَٰتٍ لِّأُو۟لِى ٱلْأَلْبَٰبِ .. ﴾ إلى آخر السورة . [آل عمران : ١٩٠- ٢٠٠] . هذا المسلم .

هذا الذي يغدو في الحقيقة بائع نفسه لكن هل باعها بيعًا يعتقها فيه ؟!. نعم ! المسلم بَاعَها بَيعًا يعْتِقُها فيه ولهذا قال : فبائع نفسه فمعتقها هذا قسمٌ . أو مُوبقها أي : بائع نفسه فَمُوبقها .

الكافر يغدو إلى العمل الذي فيه الهَلاك لأن معنى ، « أوبقَها » أي : أهلكها . وذلك أن الكافر يبدأ يومه بمعصية اللّٰه ، حتى لو بدأ بالأكل والشُّرب فإن أكله وشربه يُعاقب عليه يوم القيامة . كل لُقمة يرفعها الكافر إلى فمه فإنه يُعاقب عليها ، وكل شربة يَبْتلِعها من الماء فإنه يُعاقب عليها ، وكل لباس يلبسه فإنَّه يعاقَب عليه .

والدليل على هذا : قوله تعالى : ﴿ قُلْ مَنْ حَرَّمَ زِينَةَ ٱللَّهِ ٱلَّتِىٓ أَخْرَجَ لِعِبَادِهِۦ وَٱلطَّيِّبَٰتِ مِنَ ٱلرِّزْقِ ۚ قُلْ هِىَ لِلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا ﴾ للذين آمنوا لا غيرهم . ﴿ خَالِصَةً يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ ۗ ﴾ [الأعراف : ٣٢] يعني ليس عليهم من شَوائبها يوم القيامة . فمفهوم الآية الكريمة أنها لغير المؤمنين حَرَام ، وأنها ليست خالصة لهم يوم القيامة وأنهم سَيُعاقبون عليها . وقال اللّٰه في سورة المائدة وهي من آخر ما نزل والآية التي سقتها الآن في سورة الأعراف وهي مكية .

قال في المائدة : ﴿ لَيْسَ عَلَى ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ جُنَاحٌ فِيمَا طَعِمُوٓا۟ ﴾ [المائدة : ٩٣] فمفهوم الآية الكريمة أن على غير المؤمنين جناح فيما طعموه . فالكافر من حين مَا يُصبح - والعِياذ باللهِ - وهُو بائع نفسه فيما يُهلكها . أما المؤمن فبائعٌ نفسه فيما يُعْتقها وُينجيها من النار . نسأل اللّٰه أن يجعلنا وإيَّاكم منهم .

في آخر هذا الحديث : بيَّن الرسول عليه الصلاة والسلام أن الناس ينقسمون إلى قسمين : قسم يكون القرآن حجة لهم كما قال : « والقرآن حُجَّةٌ لَكَ » . وقسم يكون القرآن حجة عليهم كما قال : « أو عَلَيكَ » . وقسم يعتقون أنفسهم بأعمالهم الصالحة . وقسم يهلكونها بأعمالهم السّيئة واللّٰه المُوفِّق .

* * *

٢٦ - وَعَنْ أَبي سَعيد سَعْد بْنِ مَالِك بن سِنانٍ الخُدْري ﷺ : أَنَّ ناسًا منَ الأَنْصَار سَأَلوا رسول اللّٰه ﷺ فَأَعْطَاهُمْ ، ثُمَّ سَأَلُوهُ فَأَعْطَاهُمْ ، حَتَّى نَفدَ مَا عِنْده ، فَقَالَ لَهُمْ حِينَ أَنْفَقَ كُلَّ شَيءٍ بيَدِهِ : « مَا يَكُنْ عِندِي مِن خَيرٍ فَلَن أَدَّخِرَهُ عَنْكُمْ ، ومَنْ يَسْتَعْفِفْ يُعِفَّهُ اللّٰهُ ، وَمَنْ يَسْتَغْنِ يُغْنِهِ اللّٰهُ ، وَمَنْ يَتَصَبَّرْ يُصَبِّرْهُ اللّٰه . وَمَا أُعطِيَ أَحَدٌ عَطَاءً خَيرًا وَأَوسَعَ مِنَ الصَّبْر » (١) متفقٌ عليه .

---

(١) أخرجه البخاري واللفظ له في الزكاة (١٤٦٩) ومسلم في الزكاة (١٢٤) والنسائي في السنن (٥/٩٥) .

الشرح

قوله « إنَّ ناسًا مِن الأنْصار .. » إلى قوله « حَتَّى نَفِد ما عنده » . كان من خلقه الكريم أنَّه لا يُسأل شيئًا يجده إلا أعطاه ، وما عهد عنه أنه ﷺ منع سائلًا بل كان يعطي عطاء من لا يخشى الفقر ، ويعيش في بيته عيش الفقراء وربما ربط على بطنه الحجر من الجوع ، فهو عليه الصلاة والسلام أكرم الناس وأشجع الناس . فلما نفد ما في يده أخبرهم أنه : « ما يكن عندي من خير فلن أدخره عنكم » أي : لا يمكن أن يدخر خيرًا عنهم ؛ فيمنعهم ولكن ليس عنده شيء . ثم حثَّ الرسول عليه الصلاة والسلام على الاستعفاف والاستغناء والصبر فقال : « ومَنْ يَسْتعفِفْ يُعِفَّه اللَّه ومَنْ يَسْتغْنِ يُغْنه اللَّه ومَنْ يتصبر يُصَبِّرُهُ اللَّه » . هذه ثلاثة أمور :

أولًا : « من يستعفف يعفه اللَّه » ، فمن يَسْتعفف عما حرم اللَّه عليه من النِّساء يُعفه اللَّه ﷻ . والإنسان الذي يتبعُ نفْسَهُ هواها فيما يتعلق بالعِفة فإنه يهلك - والعياذ بالله - : لأنه إذا أتبَع نفسه هواها وصار يَتتبع النساء فإنه يهلك . تَزْني العين ، وتزني الأذن ، وتَزْني اليد ، وتزني الرجل ، ثم يَزْني الفرج ، وهو الفاحشة والعياذ بالله .

فإذا اسْتعف الإنسان عن هذا المحرم أعفه اللَّه ﷻ وحَماهُ وحَمى أهْله أيضًا .

ثانيًا : « من يَسْتغْن يغْنِه اللَّه » أي : من يَسْتغْنِ بما عند اللَّه عما في أيدي الناس يُغْنِهِ اللَّه ﷻ : وأما من يسأل الناس ، ويحتاج لما عندهم ، فإنه سَيبقى قلبه فقيرًا - والعياذ بالله - ولا يستغني . والغنىٰ غنى القلب ، فإذا اسْتغنى الإنسان بما عند اللَّه عما في أيدي الناس أغناه اللَّه عن الناس وجَعَلهُ عزيز النفس بعيدًا عن السؤال .

ثالثًا : « من يتصبَّر يُصَبره اللَّه » أي يعطه اللَّه الصَّبر .

فإذا حَبَسْت نَفْسك عما حرم اللَّه عليك وصَبرت على ما عندك من الحاجة والفقر ولم تلح على الناس بالسؤال فإن اللَّه تعالى يُصبركَ ويُعينُك على الصبر . وهذا هو الشاهد من الحديث لأنه في باب الصبر . ثم قال الرسول ﷺ : « ومَا أعطِي أحَد عَطاءً خيرًا وأوسع مِن الصبر » . أي : ما مَنَّ اللَّه على أحد بعطاء من رزق أو غيره خيرًا وأوسع من الصبر لأن الإنسان إذا كان صبورًا تحمل كل شيء . إنْ أصابته الضراء صبَر ، وإن عرض له الشَيطان بفعل المحرَّم صبر ، وإن خَذَله الشَّيطان عن ما أمر اللَّه .

فإذا كان الإنسان قد منَّ اللَّه عليه بالصَّبر فهذا خير ما يُعْطاهُ الإنسان وأوسَع مَا يُعطاه ولذلك تجد الإنسان الصَّبور لو أُوذِيَ من قِبل الناس لو سمع منهم ما يَكْره لَو حَصَل منهم اعتداءٌ عليه تجده هَادئ البال .

لا يَتصلَّب ولا يغضب لأنَّه صابر على ما ابتلاه اللَّه به فلذلك تجد قلبه دائمًا مطمئنًا ونفسه مستريحة .

ولهذا قال الرسول ﷺ : « ما أُعْطِي أحدٌ عطاءً خَيرًا وأوسعَ من الصَّبر » والله الموفق .

* * *

٢٧ - وَعَنْ أبي يَحْيى صُهَيبِ بْنِ سِنَانٍ ﷺ قال : قال رسول اللَّه ﷺ : « عَجَبًا لأَمْرِ المُؤمِنِ إنَّ أَمْرَهُ كُلَّهُ لَهُ خَيرٌ ، وَلَيسَ ذلِكَ لأَحَدٍ إلا لِلْمُؤْمِنِ : إنْ أَصَابتهُ سَرَّاءُ شَكَرَ فَكَانَ خَيرًا لَهُ ، وَإنْ أَصَابَتْه ضَرَّاءُ صَبَرَ فَكَانَ خَيرًا لَه » [1] رواه مسلم .

الشرح

« صهيب » هو الرُّوميّ .

وقوله : « عجبًا لأمْرِ المؤمِن إنَّ أمرهُ كلَّه لَهُ خَيرٌ » أي : إن الرسول عليه الصلاة والسلام أظهر العجب على وجه الاستحسان « لأمر المؤمن » أي : لشأنه . فإن شأنه كلَّه خير وليس ذلك لأحد إلا للمؤمن . ثم فصَّل الرسول عليه الصلاة والسلام هذا الأمر الخير فقال : « إنْ أصابَتْهُ سَرَّاء شَكَر فَكانَ خَيرًا لَهُ وإن أصابَتْهُ ضَرَّاء صبرَ فكَان خَيرًا لهُ » هذه حال المؤمن ، وكل إنسان فإنَّه في قضاء اللَّه وقدره بين أمرين : إما سَرَّاء وإمَّا ضَرَّاء ، والناس في هذه الإصابة ينقسمون إلى قسمين :

مؤمنٌ وغير مؤمن ، فالمؤمن على كُل حال ما قدَّر اللَّه له فهو خير له إن أصابته الضرَّاء صبر على أقدار اللَّه وانتظر الفرج من اللَّه واحتسب الأجر على اللَّه فكان خيرًا له فنال بهذا أجر الصابرين .

وإن أصابته سَرَّاء من نعمةٍ دينية كالعلمِ والعمل الصَّالح ونعمة دنيوية كالمال والبنين والأهل شَكرَ اللَّه وذلك بالقيام بطاعة اللَّه ﷻ . لأن الشُّكر ليس مجرّد قول الإنسان : أشْكرُ اللَّه ؛ بل هو القيام بطاعة اللَّه ﷻ .

فيشكر اللَّه فيكون خيرًا له ، ويكون عليه نعمتان : نعمة الدِّين ونعمة الدنيا . نعمة الدُّنيا بالسرَّاء ، ونعمة الدِّين بالشُّكر ، هذه حال المؤمن . وأما الكافر فهو على شر - والعياذ بالله - ، إن أصابته الضَّراء لم يصبر بل يضجر ودَعَا بالويل والثبور وسب الدهر وسَبَّ الزَّمن بل وسَبَّ اللَّه ﷻ .

وإن أصابته سرَّاء لم يشكر اللَّه فكانت هذه السَّراء عقابًا عليه في الآخرة ؛ لأن الكافر لا يأكل أكلة ولا يَشْرب شَرْبة إلا كان عليه فيها إثم ، وإن كان ليس فيها إثم بالنسْبة للمؤمن لكن على الكافر إثم كما قال اللَّه تعالى : ﴿ قُلْ مَنْ حَرَّمَ زِينَةَ اللَّهِ الَّتِي أَخْرَجَ لِعِبَادِهِ وَالطَّيِّبَاتِ مِنَ الرِّزْقِ قُلْ هِيَ لِلَّذِينَ آمَنُوا فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا خَالِصَةً يَوْمَ الْقِيَامَةِ ﴾ [الأعراف : ٣٢] هي للذين آمنوا خاصَّة وهي خَالِصة لهم يوم القيامة أما الذين لا يؤمنون فَليست لهم ، ويأكلونها حَرامًا عليهم ويُعاقَبون عليها يوم القيامة . فالكافر شر ، سواء أصابته الضَّراء أم السَّراء بخلاف المؤمن فإنَّه على خير . وفي هذا الحديث الحثُّ على الإيمان وأن المؤمن دائمًا في خير ونعمة . وفيه الحثُّ على الصَّبر على الضراء وأن ذلك من خِصال المؤمنين . فإذا رأيت نفسك عند إصابة الضراء صابرًا مُحتسبًا تنتظر الفرج من اللَّه ﷻ وتَحْتسب الأجر على اللَّه فذلك عنوان الإيمان . وإن رأيت بالعكس فلُم نفسك وعدِّل مَسيرك وتُب إلى اللَّه .

وفي هذا الحديث : الحث على الشُّكر عند السراء لأنَّه إذا شكر الإنسان ربَّه على نعمة فهذا من

---

(١) أخرجه مسلم بدون كلمة « له » بعد (كلَّه) في الزهد والرقائق (٦٤) وأحمد في مسنده (٥/٢٤) .

توفيق اللّه له وهو من أسباب زيادة النعم كما قال اللّه : ﴿ وَإِذْ تَأَذَّنَ رَبُّكُمْ لَئِن شَكَرْتُمْ لَأَزِيدَنَّكُمْ وَلَئِن كَفَرْتُمْ إِنَّ عَذَابِي لَشَدِيدٌ ﴾ [إبراهيم : ٧] وإذا وفّق اللّه العَبد لشكره فهذه نعمة تحتاج إلى شكرها مرّة ثانية ، فإذا وفق فهي نعْمة تحتاج إلى شكرها مرة ثالثة وهكذا لأن الشُّكر قَل من يَقُوم به فإذا منَّ اللّه عليك وأعانَك عليه فهذه نعمة . ولهذا قال بعضهم :

إِذَا كَانَ شُكْرِي نِعْمَةَ اللّه نِعْمَةٌ عَلَيَّ لَهُ فِي مِثْلِهَا يجبُ الشُّكْرُ

فَكيفَ بلوغ الشكرِ إلا بفَضْله وإن طَالَتِ الأيام واتصَلَ العمرُ

وصدق رَحِمَهُ اللَّهُ فإن اللّه إذا وفقك للشكر فهذه نعمة تحتاج إلى شكر جديد فإن شكرت فهي نعمة تحتاج إلى شكر ثانٍ وهلم جرا . ولكننا في الحقيقة في غفلة من هذا نسأل اللّه أن يُوقظ قُلوبنا وقلوبكم ويُصْلح أعْمالنا وأعمالكم إنه جواد كريم .

* * *

٢٨ - وَعنْ أَنسٍ رضي الله عنه قال : لَمَّا ثَقُل النَّبيُّ جعَلَ يَتَغشَّاه الكَرْبُ فَقَالَتْ فَاطِمَة رضي الله عنها : وَاكَرْبَ أَبَتاه . فَقَالَ : « لَيسَ عَلَى أَبيكِ كَرْبٌ بَعْدَ الْيومِ » فَلَما مَاتَ قَالَت : يا أَبَتَاه أَجَابَ رَبًّا دَعَاه ، يَا أَبَتَاه جَنَّةُ الفِرْدَوس مَأوَاه ، يَا أَبَتَاه إلى جبْريلَ نَنْعَاه ، فَلَمَّا دُفِنَ قَالَتْ فَاطِمَة رضي الله عنها : أَطَابَتْ أَنْفُسُكُمْ أَنْ تَحْثُوا عَلَى رسول اللّه صلى الله عليه وسلم التُّرَابَ ؟ [(١)] رواه البخاري .

الشرح

قوله : « جَعَلَ يتغشاهُ الكَربُ » أي : من شِدة مَا يُصِيبه ، جعل يُغْشى عليه من الكرب ، لأنه يُشدَّد عليه الوعك والمرض كان يوعك كما يوعك الرجلان من الناس .

والحكمة في هذا من أجل أن يَنَال صلى الله عليه وسلم أعْلى درجات الصبر . فإنَّ الصبر منزلة عالية لا يُنال إلا بامتحان واختبار من اللّه عز وجل ؛ لأنه لا صبر إلا على مكروه . فإذا لم يُصب الإنسان بشيء يكره فكيف يعرف صبره ولهذا قال اللّه : ﴿ وَلَنَبْلُوَنَّكُمْ حَتَّىٰ نَعْلَمَ الْمُجَاهِدِينَ مِنكُمْ وَالصَّابِرِينَ ﴾ [محمد : ٣١] فكان الرسول صلى الله عليه وسلم يُوعك كما يوعك الرجلان من الناس . فجعل يتغشّاه الكرب فتقول فاطمة رضي الله عنها : « واكَرْب أبتاه » تتوجع له من كربه لأنها امرأة ، والمرأة لا تطيق الصَّبر .

فقال عليه الصلاة والسلام : « لا كَرْبَ عَلَى أبيك بَعْد اليوم » [(٢)] لأنَّه لما انتقل من الدُّنيا انتقل إلى الرفيق الأعلى كما كان صلى الله عليه وسلم وهو يغشاه الموت يقول : « اللَّهمَّ الرَّفيق الأعْلى اللّهُمَّ الرَّفيق الأعْلى » [(٣)] وينظر إلى سقف البيت . تُوفي الرَّسول عليه الصلاة والسلام فجعلت رضي الله عنها تَنْدبُه لكنه نَدْبٌ خفيف

(١) أخرجه البخاري بدون كلمة « الكرب » في المغازي (٤٤٦٢) . قوله : « ثقل » أي أشتد عليه المرض .
(٢) أخرجه ابن ماجه واللفظ له في الجنائز (١٦٢٩) .
(٣) أخرجه البخاري في المرضى (٥٦٧٤) ، ومسلم في السلام (٤٦) ، وأحمد في مسنده (٦/٤٨) ، وابن مالك في الموطأ في الجنائز (٤٦) وكلها بألفاظ مختلفة .

لا يدلُّ على التسخط من قضاء اللّه وقدره . فجعلت تقول : « يا أبَتاه إلى جِبْرِيلَ نَنْعَاهُ » النَّعي هو الإخبار بموت الميت وقالت : إننا ننعاه إلى جبريل لأنه هو الذي كان يأتيه بالوحي صباحًا ومساءً . فإذا فُقِد الرسول عليه الصلاة والسلام فُقِد نزول جبريل إلى الأرض بالوحي ، لأنَّه انقطع بموت الرسول عليه الصلاة والسلام .

وقولها : « أجابَ رَبًّا دَعَاهُ » لأن اللّه هو الذي بيده ملكوت كل شيء ، آجال الخلق بيده ، تصريف الخلق بيده ، كل شيء إلى اللّه . إلى اللّه المنتهى وإليه الرّجعى .

فأجاب داعي اللّه وهو أنه ﷺ إذا توفي صار كغيره من المؤمنين يُصْعد بِرُوحه حتى توقف بين يدي اللّه ﷻ فوق السماء السابعة . وقولها : « جنةُ الفِرْدَوس مأوَاه » ﷺ لأنه أعلى الخلق منزلة في الجنة كما قال الرسول ﷺ « اسْألُوا لِيَ الوَسِيلَة فإنها أعْلَى درجة في الجَنَّة ولا تكُون إلاَّ لِعَبْدٍ مِن عِبادِ اللّه فأرْجو أنْ أكُون أنا هُو » . ولا شك أن الرسول ﷺ مأوَاهُ جنة الفردوس ، وجنة الفردوس هي أعلى درجات الجنة .

وسقفها الذي فوقها عرش الرَّب ﷻ . والرسول عليه الصلاة والسّلام في أعلى درجة منها .

ثم لما حُمِلَ ودُفن قالت رَضِيَ اللّهُ عَنْهَا : « أطابت أنْفُسكم أنْ تَحْثُوا عَلَى رَسُول اللّه ﷺ التُّراب ؟ » يعني من شِدَّة وَجْدِها عليه وحُزْنها ومَعْرفتها بأن الصحابة رضي الله عنهم قد ملأ قلوبهم محبة الرسول عليه الصلاة والسَّلام .

والجواب : أنها طابت لأنَّ هذا ما أراد اللّه ﷻ وهو شرع اللّه ولو كان الرسول عليه الصلاة والسلام يُفْدى بكل الأرض لَفَداهُ الصَّحابة رضي الله عنهم . لكن اللّه سبحانه هو الذي له الحُكْم وإليهِ المَرْجع وكما قال اللّه في كتابه : ﴿ إِنَّكَ مَيِّتٌ وَإِنَّهُم مَّيِّتُونَ ۝ ثُمَّ إِنَّكُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ عِندَ رَبِّكُمْ تَخْتَصِمُونَ ﴾ [الزمر : ٣٠- ٣١] . في هذا الحديث : بيان أن رسول اللّه ﷺ كغيره من البشر يَمْرَضُ ، وَيجُوع ، ويَعْطَش ، وَيبْرُد ، ويَحْتَرّ . وجميع الأمور البشرية تعتري النبي ﷺ . كما قال ﷺ : « إنمَا أنَا بشرٌ مثلكم أنْسى كَمَا تَنْسَونَ » (١) . وفيه : رد على هؤلاء القوم الذين يُشركون بالرسول ﷺ .

يَدْعُون الرسول وَيستغيثون به وهو في قبره بل إن بعضهم - والعياذ باللّه - لا يسأل اللّه ويسأل الرسول . كأن الذي يجيب هو الرسول ، ولقد ضلوا في دينهم وسَفهُوا في عقولهم . فإن الرسول ﷺ لا يملك لِنَفسهِ ضرًا ولا نفعًا فكيف يملك لغيره .

قال اللّه آمرًا نبيه : ﴿ قُل لَّا أَقُولُ لَكُمْ عِندِي خَزَائِنُ اللَّهِ وَلَا أَعْلَمُ الْغَيْبَ وَلَا أَقُولُ لَكُمْ إِنِّي مَلَكٌ ﴾ بل هو عبد من عباد اللّه ولهذا قال : ﴿ إِنْ أَتَّبِعُ إِلَّا مَا يُوحَىٰ إِلَيَّ ﴾ [الأنعام : ٥٠] .

وقال اللّه سبحانه له أيضًا : ﴿ إِنِّي لَا أَمْلِكُ لَكُمْ ضَرًّا وَلَا رَشَدًا ۝ قُلْ إِنِّي لَن يُجِيرَنِي مِنَ اللَّهِ أَحَدٌ وَلَنْ أَجِدَ مِن دُونِهِ مُلْتَحَدًا ۝ إِلَّا بَلَاغًا ﴾ أي : هذه وظيفتي ﴿ مِّنَ اللَّهِ وَرِسَالَاتِهِ ﴾ [الجن : ٢١- ٢٣] ولما أنزل اللّه قوله : ﴿ وَأَنذِرْ عَشِيرَتَكَ الْأَقْرَبِينَ ﴾ دَعا قرابته وجعل يُنادي إلى أن قال : « يا فاطمة بنْتَ مُحمد

---

(١) أخرجه البخاري في الصلاة (٤٠١) ومسلم في المساجد (٩٠) وأحمد في مسنده (١/٣٧٩) بدون كلمة « مثلكم » .

سَلِيني مِن مالي ما شئت لا أغني عَنكَ مِن اللَّه شيئًا » [١] إلى هَذا الحد .. ابنته التي هي بِضْعة مِنْهُ والتي يَرِيبُه ما رَابَها !! فهذا دليل على أن مَنْ سواها من باب أولى . ففيه بيان ضلال هؤلاء الذين يدعون الرسول ﷺ ، تجدهم في المسجد النبوي عند الدُّعاء يتَّجهون إلى القبر ويَصْمدُون أمام القبر كصُمودهم أمام اللَّه في الصلاة أو أشد .

وفي هذا الحديث : دَليل على أنه لا بأس بالندب اليَسير إذا لم يكن مؤذنًا بالتسخط على اللَّه ﷻ ، لأن فاطمة ندبت الرسول عليه الصلاة والسلام لكنه نَدْبٌ يسير وليس يَنُم عن اعتراض على قدر اللَّه ﷻ .

وفيه : دليلٌ على أن فاطمة بنت محمد رضي الله عنها بقيت بعد موته ولم يبق من أولاده بعده إلا فاطمة ، كل أولاده من بنين وبنات ماتوا في حياته .

بقيت فاطمة وليس لها ميراث ولا أزواجه ولا عمه العباس ولا أحد مِن عصبته لأن الأنبياء لا يُورثون كما قال الرسول عليه الصلاة والسلام : « إنَا مَعْشر الأنبياءِ لا نُورَث ، مَا تَرَكْناه صدقة » [٢] .

وهذا من حِكْمة اللَّه ﷻ ؛ لأنهم لو ورثوا لقال من يقول : إن هؤلاء جاؤوا بالرسالة يطلبون مُلْكًا يُورث من بعدهم ولكن اللَّه منع ذلك . فالأنبياء لا يُورثون بل ما يتركونه صدقة يصرف للمستحقين له والله الموفق .

* * *

٢٩ - وَعنْ أبي زَيدٍ أُسَامَةَ بْنِ زَيدِ بنِ حَارِثَةَ مَولَى رسول اللَّه ﷺ وَحِبِّه وَابْنِ حِبِّه ، رضي الله عنهما قال : أرْسَلَتْ بِنْتُ النَّبيِّ ﷺ : إنَّ ابْني قَد احْتُضِرَ فَاشْهَدْنَا ، فَأَرْسَلَ يُقْرِئُ السَّلامَ وَيَقُول : «إنَّ للَّهِ مَا أَخَذَ ، ولَه مَا أعْطَى ، وَكُلُّ شَيءٍ عِندَه بأجَلٍ مُسَمًّى ، فَلْتَصْبِرْ وَلْتَحْتَسِبْ » فأَرسَلَتْ إليهِ تُقْسِمُ عَلَيهِ لَيَأْتِيَنَّهَا . فَقَامَ وَمَعَه سَعْد بْن عُبَادَةَ ، وَمُعَاذُ بْنُ جبَل ، وَأُبَيُّ بْن كَعْبٍ ، وَزَيدُ بْنُ ثَابت ، وَرجَالٌ رضي الله عنهم ، فَرُفِعَ إِلَى رسول اللَّه ﷺ الصَّبيُّ ، فَأَقْعَدَهُ في حجْرِهِ وَنَفْسُهُ تُقَعْقِعُ ، فَفَاضَتْ عَيناهُ ، فَقَالَ سَعْدٌ : يا رسول اللَّهِ مَا هذَا ؟ فَقَال : « هذِهِ رَحْمَةٌ جَعَلَهَا اللَّه تَعَالَى في قُلُوبِ عِبَادِهِ » وفي رواية : « في قُلُوبِ مَن شَاءَ مِنْ عِبَادِهِ وَإِنَّمَا يَرْحَمُ اللَّهُ مِنْ عِبَادِهِ الرُّحَمَاءَ » [٣] متفق عليه . وَمَعْنَى « تُقَعْقِعُ » : تَتَحرَّكُ وَتضْطَرِبُ .

الشرح

أسامة بن زيد بن حارثة ، وزيد بن حارثة كان مولى لرسول اللَّه ﷺ وكان عبدًا فأهدته إليه خديجة رضي الله عنها فأعْتقه فصار مَولى له وكان يُلقب بِحِبِّ رسول اللَّه ﷺ أي حبيبه وابنه حِبّ فأسامة

---

(١) أخرجه الدارمي باختلاف في اللفظ في الرقائق (٢٧٢٨) .

(٢) أخرجه البخاري في فضائل الأنبياء (٣٧١٢) ومسلم في الجهاد (٤٩) باختلاف في اللفظ .

(٣) أخرجه البخاري بروايات كثيرة منها في الجنائز (١٢٨٤) ومسلم في الجنائز (١١) وأحمد في مسنده (٥/٢٠٤) قوله « احتضر » أي أشرف على الوفاة .

حبه وابن حبه ﷺ . ذُكر أنَ إحْدى بنات الرسول ﷺ أرسلت إليه رسولًا تقول له إن ابنها قد احتضر أي حضره الموت . وأنها تطلب من الرسول ﷺ أن يحضر ، فبلغ الرسولُ رسولَ اللّه ﷺ فقال له : « مُرْهَا فَلْتَصْبر ولتَحْتَسب فإن لله ما أخَذ ولَهُ مَا أعْطَى وكُلُّ شيءٍ عِنْدَهُ بأجَل مُسَمًّى » أمر الرسولُ الرسول بهذا!

قوله : « فلْتَصْبر » أي : فلتحبس نفسها عن السّخط وتتحمل المُصيبة .

وقوله : « ولْتَحْتسِب » أي : تَحتسب الأجر على اللّه بصبرها لأن من النَّاس من يَصْبر ولا يحتسب . يَصْبر على المصيبة ولا يَتَضجّر ، لكنه ما يُؤمّل أجرها على اللّه فيفوته بذلك خير كثير لكن إذا صبر واحتسب الأجر على اللّه فهذا هو الاحتساب . قوله : « فإنَّ لله مَا أخذَ وله مَا أعْطَى » هذه الجملة عظيمة ! إذا كان الشَّيء كُلّه لله إن أخذ منك شيئًا فهو ملكه وإن أعطاك شيئًا فهو ملكه فكيف تسخط إذا أخذ منك ما يملكه هو ؟ عليك إذا أخذ اللّه منك شيئًا محبوبًا لك أن تقول : هذا للّه ، له أن يأخذ مَاشاءَ ولهُ أن يُعطي ماشاء . ولهذا يُسَنُّ للإنسان إذا أصيب بمصيبة أن يقول : « إنَّا للّه وإنَا إلَيه رَاجعُون » يعني : نحن ملك لله يفعل بنا ما يشاء كذلك ما نُحِبُّه إذا أخذه من بين أيدينا فهو له ﷻ ، حتى الذي يعطيك أنت لا تملكه هو للّه تعالى ، ولهذا لا يمكن أن تتصرف فيما أعطاك اللّه إلا عَلى الوجه الذي أذن لك فيه ، وهذا دليلٌ على أن ملكنا لما يعطينا اللّه ، ملك قاصر ، ما نتصرف فيه تصرفًا مطلقًا .

لو أراد الإنسان أن يتَصرف في ماله تَصرفًا مُطلقًا على وجه لم يأذن به الشَّرع قُلنا له : أمْسِك لا يمكن ؛ لأن المال مال اللّه كما قال سبحانه : ﴿ وَءَاتُوهُم مِّن مَّالِ ٱللَّهِ ٱلَّذِىٓ ءَاتَىٰكُمْۚ ﴾ [النور : ٣٣] فلا تتصرف فيه إلا على الوجه الذي أذن لك فيه .

ولهذا قال : « ولله مَا أخَذ ولهُ مَا أعْطى » فإذا كان لله ما أخذ فكيف نجزع وكيف نَتَسخَّط أن يأخذ المالك ما ملك هذا خلاف المعقول والمنقول ! .

قال : « وكل شيء عنده بأجل مُسمًّى » فكل شيء عنده بمقدار كما قال اللّه في القرآن الكريم : ﴿ وَكُلُّ شَىْءٍ عِندَهُۥ بِمِقْدَارٍ ﴾ [الرعد : ٨] بمقدار في زمانه ومكانه وذَاته وَصِفَاته وكل ما يتعلق به فهو عند اللّه مقدر . وأجل مُسمى أي : معَيّن ، فإذا أيقَنت بهذا اقتنعت وهذه الجملة الأخيرة تعني : أن الإنسان لا يمكن أن يغير المكتوب المؤجل ، لا بتقديم ولا بتأخير . كما قال اللّه : ﴿ لِكُلِّ أُمَّةٍ أَجَلٌۚ إِذَا جَآءَ أَجَلُهُمْ فَلَا يَسْتَـْٔخِرُونَ سَاعَةًۖ وَلَا يَسْتَقْدِمُونَ ﴾ [يونس : ٤٩] . فإذا كان الشيء مُقدَّرًا لا يتقدَّم ولا يتأخر فلا فائدة من الجزع والتَّسخط ، لأنَّه وإن جزعت أو تسخطت لن تغير شيئًا من المقدور . ثم إنَّ الرسول ﷺ أبْلغ البنت ما أمره أن يبلغه إياها ولكنها أرْسَلت إليه تطلب أن يحضر فقام - عليه الصَّلاة والسَّلام - هو وجماعة من أصحابه ، فوصل إليها فرفع إليه الصَّبي ونفسه تَتَقعْقَع أي تَضطرب تَصْعد وتنزل فبكى الرسول عليه الصلاة والسلام ودَمَعَت عيناه ، فقال سعد بن عبادة - وكان معه وهو سيد

الخزرج - : ما هذا ؟ ظن أن الرسول ﷺ بكى جزعًا فقال الرَّسول عليه الصَّلاة والسلام : « هَذِه رَحْمَة » . أي بكيت رحمة بالصَّبي لا جَزَعًا بالمَقْدُور . ثم قال عليه الصلاة والسلام : « إنَّما يَرْحم اللَّه مِنْ عِبادِهِ الرحَماء » ففي هذا دَليلٌ على جواز البكاء رَحْمة بالمُصَاب . إذا رأيت مُصابًا في عَقْله أو بدنه فبكيت رحمة به فهذا دليل على أن اللَّه تعالى جعل في قلبك رحمة وإذا جعل اللَّه في قلب الإنسان رحمة كان من الرُّحماء الذين يَرْحَمُهم اللَّه ﷻ : نسأل اللَّه أن يرحمنا وإيَّاكم برحمته .

ففي هذا الحديث : دليل على وجوب الصَّبر لأن الرسول ﷺ قال : « مُرْهَا فَلْتَصْبِر ولْتَحْتَسب » . وفيه دليل على أن هذه الصيغة من العزاء أفْضَل صيغة . أفضل من قول بعض الناس : « أعْظَم اللَّه أجْرَكَ ، وأحْسَنَ عَزاءَكَ وَغَفرَ لِمَيتكَ » هذه صيغة اختارها بعض العلماء لكن الصِّيغة التي اختارها الرَّسول عليه الصلاة والسلام أفْضل ؛ لأنَّ المُصاب إذا سمعها اقتنع أكثر . والتعزية في الحقيقة ليست تهنئة كما ظنها بعض العوام ! يحتفل بها ويوضع لها الكراسي وتوقد لها الشموع ويحضر لها القراء والأطعمة!! لا . التعزية تسلية وتَقْوية للمُصاب أن يصبر .

ولهذا لو أنَّ أحدًا لم يُصَب بالمصيبة كما لو مات له ابن عم ولم يهتم به فإنه لا يعزى ، ولهذا قال العلماء : « تُسَن تَعْزيةُ المُصاب » ولم يقولوا : تسن تعزية القريب ، لأن القريب ربما لا يصاب بموت قريبه ، والبَعيد يصاب لقوة صَدَاقَة بينهما مثلًا .

أما الآن - مع الأسف - انقلبت الموازين وصَارت التَعزية للقريب حتى وإن فرح وضرب الطُّبول لموت قريبه فإنَّه يعزَّى . ربما يكون بعض الناس فقيرًا وبينه وبين ابن عمه مشاكل كثيرة ومات ابن عمه وله ملايين الدَراهم هل يفرح إذا مات ابن عمه في هذه الحال أو يُصاب ؟ غالبًا يفرح ، ويقول : الحمد لله الذي فكَّني من مشاكله ووَرَّثني مَاله! هذا لا يُعزَّى ، هذا يُهَنَّأ لو أردنا أن نقول شيئًا . والله الموفق .

* * *

٣٠ - وَعَنْ صُهَيبٍ ﷺ أن رسول اللَّه ﷺ قال : « كَانَ مَلِكٌ فيمَنْ قَبْلكُمْ ، وَكَانَ لَهُ سَاحِرٌ ، فَلَمَّا كَبِرَ قَالَ لِلْمَلِكَ : إنِّي قَدْ كَبِرْتُ فَابْعَثْ إلَيَّ غُلامًا أُعَلِّمْهُ السَّحْرَ ، فَبعَثَ إليه غُلامًا يُعَلِّمُهُ ، وَكَانَ في طَرِيقِهِ - إذَا سَلَكَ - رَاهِبٌ ، فَقَعَدَ إلَيهِ وَسَمِعَ كَلامَهُ فَأَعْجَبَهُ ، وَكَانَ إذَا أَتَى السَّاحِرَ مَرَّ بالرَّاهِب وَقَعَدَ إلَيه ، فَإذَا أَتَى السَّاحرَ ضَرَبَهُ ، فَشَكَا ذَلِكَ إلَى الرَّاهِب فَقَال : إذَا خَشِيتَ السَّاحِرَ فَقُلْ : حَبَسَني أَهْلي ، وإذَا خَشِيتَ أَهْلَكَ فَقُلْ : حَبَسَني السَّاحِرُ .

فَبينَمَا هُوَ عَلَى ذلكَ إذْ أَتَى عَلَى دَابَّةٍ عَظيمَةٍ قَدْ حَبَسَتِ النَّاس فَقَالَ : اليَومَ أَعْلَمُ السَّاحِرُ أَفْضَلُ أم الرَّاهِبُ أَفْضَلُ ؟ فَأَخَذَ حَجَرًا فَقَالَ : اللَّهُمَّ إنْ كَانَ أمْرُ الرَّاهِب أحَبَّ إلَيكَ مِنْ أمر السَّاحِرِ فَاقْتُلْ هذِهِ الدَّابَّةَ حَتَّى يَمْضِيَ النَّاسُ ، فَرَمَاهَا فَقَتَلَهَا وَمَضى النَّاس ، فَأَتَى الرَّاهِبَ فَأَخْبَرَهُ . فَقَالَ لَهُ الرَّاهِبُ : أي بُنَيَّ أَنْتَ اليَومَ أَفْضَلُ منِّي ، قَدْ بَلَغَ مِنْ أمرِكَ مَا أرَى ، وَإنَّكَ سَتُبْتَلَى ، فَإن ابتُلِيتَ فَلا تَدُلَّ عَلَيَّ ، وَكَانَ الغُلامُ يُبْرِئ الأَكْمَهَ وَالأَبْرَصَ ، وَيُدَاوي النَّاسَ مِنْ سَائِرِ الأَدْوَاءِ . فَسَمِعَ جَليسٌ لِلْمَلِكِ كَانَ قَدْ

عَمِيَ ، فَأَتَاهُ بَهدَايَا كثيرةٍ فَقَالَ : ما هَاهُنَا لَكَ أجمَعُ إنْ أنت شَفيتني ، فَقالَ : إنِّي لا أشفِي أحَدًا ، إنَّمَا يَشْفي اللَّهُ تَعالَى ، فَإنْ آمَنْتَ باللَّه تَعالَى دَعوتُ اللَّهَ فَشَفَاكَ ، فآمَنَ باللَّهِ تَعالَى فَشفَاهُ اللَّهُ تَعالَى ، فأَتَى المَلِكَ فَجلَسَ إلَيهِ كَما كَانَ يَجْلِسُ فقالَ لَهُ المَلكُ : مَنْ رَدَّ عَلَيكَ بَصَرَكَ ؟ قَالَ : رَبِّي . قالَ : أوَلَكَ رَبٌّ غَيري ؟! قالَ : رَبِّي وَرَبُّكَ اللَّهُ ، فَأَخذَهُ فَلَمْ يَزَلْ يُعَذِّبُهُ حَتَّى دَلَّ عَلَى الغُلام ، فَجيءَ بالغُلام فقالَ لَهُ المَلكُ : أي بُنيَّ قَدْ بَلَغَ مِنْ سِحرِكَ مَا تُبرئُ الأكْمَهَ وَالأَبْرَصَ وَتَفْعَل وَتَفعلُ ، فقالَ : إنِّي لا أَشْفِي أحَدًا ، إنَّمَا يَشْفِي اللَّهُ تعالَى ، فَأَخَذَهُ فَلَمْ يَزَلْ يُعَذِّبُهُ حَتَّى دَلَّ عَلَى الرَّاهب ، فَجِيءَ بالرَّاهِبِ فَقِيلَ لَهُ : ارْجِعْ عَنْ دِينكَ ، فَأَبَى ، فَدَعَا بِالمِنْشَارِ فَوُضِعَ المِنْشَارُ في مَفْرِقِ رَأْسِه ، فَشَقَّهُ حَتَّى وَقَعَ شِقَّاهُ ، ثُمَّ جيءَ بجَليس المَلِكِ فقيلَ لَهُ : ارْجعْ عَنْ دِينِكَ فَأبَى ، فَوُضِعَ المِنْشَارُ في مَفْرِق رَأْسِهِ ، فَشقهُ بِهِ حتى وَقَعَ شِقَّاهُ ، ثُمَّ جيء بالْغُلام فَقيلَ لَهُ : ارْجِعْ عَنْ دِينكَ فَأبَى فَدَفَعَهُ إلَى نَفر مِنْ أصْحَابِهِ فَقَالَ : اذْهَبُوا بِهِ إلَى جَبَلِ كَذَا وَكَذَا فاصْعَدُوا بِهِ الجَبَلَ ، فَإذَا بَلَغْتُمْ ذِرْوَتَهُ فَإنْ رَجَعَ عَنْ دِينِهِ وَإلا فاطْرَحُوهُ ، فَذَهَبُوا بِهِ فَصَعِدُوا بِهِ الجَبَلَ ، فقالَ : اللَّهُمَّ اكْفِنيهِمْ بِمَا شِئْتَ ، فَرَجَفَ بِهِمُ الجَبَلُ فَسَقَطُوا ، وَجَاءَ يَمْشِي إلَى المَلِكِ ، فَقَال لَهُ المَلِكُ : مَا فُعِلَ بأَصْحَابِكَ ؟ فقالَ : كَفَانِيهِمُ اللَّه تعالى ، فَدَفَعَهُ إلَى نَفَرٍ مِنْ أصْحَابه فقالَ : اذْهَبُوا به فاحْمِلُوهُ في قُرْقُورٍ وَتَوَسَّطُوا به البَحْرَ ، فَإنْ رَجَعَ عَنْ دِينِه وَإلا فاقْذِفُوهُ ، فَذَهَبُوا به فقالَ : اللَّهُمَّ اكْفِنِيهِمْ بمَا شِئتَ ، فانْكَفَأَتْ بِهِمْ السَّفِينَةُ فَغَرِقُوا ، وَجَاءَ يَمْشِي إلَى المَلِكِ . فقالَ لَهُ المَلِكُ : مَا فُعِلَ بأَصْحَابِكَ ؟ فَقَالَ : كَفَانِيهِمُ اللَّه تعالى ، فقالَ لِلْمَلِكِ : إنَّكَ لَسْتَ بِقَاتِلِي حَتَّى تَفْعَلَ مَا آمُرُكَ بِهِ . قالَ : مَاهُوَ ؟ قالَ : تَجْمَعُ النَّاس في صَعِيد وَاحِدٍ ، وَتَصْلِبُنِي عَلَى جِذْعٍ ، ثُمَّ خُذْ سهْمًا مِنْ كِنَانَتي ، ثُمَّ ضَعِ السَّهْمَ في كَبِدِ القَوسِ ثُمَّ قُلْ : بِسْمِ اللَّهِ رَبِّ الغُلامِ ثُمَّ ارْمِني ، فَإنَّكَ إذَا فَعَلتَ ذلكَ قَتَلْتَنِي . فَجَمَعَ النَّاسَ في صَعِيدٍ وَاحِدٍ ، وَصَلَبَهُ عَلَى جِذْعٍ ، ثُمَّ أخَذَ سَهْمًا مِنْ كِنَانَتِهِ ثُمَّ وَضَعَ السَّهْمَ في كَبِدِ القَوسِ ، ثُمَّ قَالَ : بِسْمِ اللَّه رَبِّ الغُلامِ ، ثُمَّ رَمَاهُ فَوَقَعَ السَّهْمُ في صُدْغه ، فَوَضَعَ يَدَهُ في صُدْغِهِ فَمَاتَ . فَقَالَ النَّاسُ : آمَنَّا بِرَبِّ الغُلامِ ، فَأُتيَ المَلِكُ فَقِيلَ لَهُ : أَرَأَيتَ مَا كُنْتَ تَحْذَر ؟ قَدْ وَاللَّهِ نَزَلَ بِكَ حَذَرُكَ . قَدْ آمَنَ النَّاسُ . فَأَمَرَ بالأُخْدُودِ بأفْوَاهِ السِّكَكِ فَخُدَّتْ وأُضْرِمَ فِيهَا النِّيرَانُ وَقَالَ : مَنْ لَمْ يَرْجعْ عَنْ دِينه فَأقْحِمُوهُ فيها - أو قِيلَ لَهُ : اقْتَحِمْ - فَفَعَلُوا حَتَّى جَاءتِ امْرَأَةٌ وَمَعَهَا صَبيٌّ لَهَا ، فَتَقَاعَسَتْ أنْ تَقَعَ فيهَا ، فَقَالَ لَهَا الغُلامُ : يَا أُمَّاهُ اصْبِرِي فإنَّكِ عَلَى الحَقِّ »[1] رواه مسلم . « ذِرْوَةُ الجَبَلِ » : أعْلاهُ ، وَهيَ بكَسْرِ الذَّالِ المُعْجَمَةِ وَضَمِّهَا وَ « القُرْقُورُ » بِضَمِّ القَافَين : نَوعٌ مِنَ السُّفُنِ وَ « الصَّعِيدُ » هُنَا : الأَرْضُ البَارِزَةُ وَ « الأُخْدُودُ » : الشُّقُوقُ في الأَرْضِ كَالنَّهْر الصَّغير ، وَ « أُضْرِمَ » ، أوقِدَ ، « وَانْكَفَأَتْ » أي : انْقَلَبَتْ ، وَ « تَقَاعَسَتْ » : تَوَقَّفَتْ وَجَبُنَتْ .

(١) أخرجه مسلم في الزهد والرقائق (٧٣) وأحمد في مسنده (١٧/٦) .

الشرح

هذا الحديث الذي ذكره المؤلف - رحمه اللَّه تعالى - في باب الصَّبر فيه قِصّة عجيبة : وهي أنَ رجلًا من الملوك فيمن سبق كان عنده ساحر هذا السَّاحر اتخذه الملك بطانة من أجل أن يستخدمه في مصَالحه ولو على حساب الدِّين لأن هذا الملك لا يهتمَ إلا بما فيه مصلحته وهو ملك مُسْتَبِد قد عبّد الناس لنفسه كما سيأتي في آخر الحديث .

هذا الساحر لما كَبَر قال للملك : إني قد كبرت فابعث إليَّ غلامًا أعلَمه السحر .

واختار الغلام لأنّ الغلام أقْبَلُ للتَعليم ولأن التعليم للغلام الشَاب هو الذي يبقى ولا ينسى ولهذا كان التعلم في الصِّغر خيرًا بكثير من التَّعلم في الكبر وفي كل خير .

لكن التَّعلم في الصَغر فيه فائدتان عظيمتان بل أكثر :

الفائدة الأولى : أن الشَّاب في الغالب أسْرع حفظًا من الكبير ؛ لأن الشَاب فارغ البال ليست عنده مشاكل توجب انشغاله .

الفائدة الثانية : أَنْ مَا يحفظه اَلشَّابّ يبقى وما يحفظه الكبير ينسى ولهذا كان من الحكمة الشَّائعة بين الناس : « **إن العلم في الصِّغر كالنقش في الحجر** » لا يزول .

وفيه فائدة ثالثة : وهي أنْ الشَّاب إذا ثُقِّف العلم من أول الأمر صار العلم كالسّجية له والطَّبيعة له وصار كأنَّه غريزة قد شبَّ عليه فَيَشيب عليه .

فهذا الساحر سَاحِرٌ كبير قد تَقَدَّمَتْ به السّن وجرَّب الحياة وعرف الأشياء . فطلب من الملك أن يختار له شابًّا غلامًا يُعَلمه السّحر ، فبعث إليه غلامًا ، فعلمه ما علّمه ، ولكن اللَّه تعالى قد أراد بهذا الغلام خَيرًا ، مَرَّ هذا الغلام يومًا من الأيام براهب ، فسَمِع مِنْهُ فأعجبه كلامُه ، لأنَ هذا الراهب - يعني العابد - عابد لله ﷻ ، لا يتكلم إلا بالخير ، وقد يكون راهبًا عالمًا لكن تغلب عليه العِبادة فسمي بما يغلب عليه من الرَّهبانية .

المهم : أنه أعجبه وصار إذا خرج هذا الغلام من أهله جلس عند الرَّاهب فتأخر على السَّاحر .

فجعل الساحر يضربه ، لماذا تتأخر ؟ فشكا الغلام إلى الراهب ما يجده من السَّاحر من الضرب إذا تأخر .

فلقَّنه الراهب أمْرًا يتخلص به ، قال : إذا ذهبت إلى الساحر وخَشيت أن يعاقبك فقل : إن أهلي حَبَسوني ، أي : تأخَّر عند أهله ، وإذا أتيت عند أهلك فقل : إنَّ اَلسَّاحِر حَبَسني ، حتى تنجو من هذا ومن هذا .

وكأن الراهب - والله أعلم - أمَره بذلك مع أنه كذب لعلَّه رأى أن المصلحة في هذا تَرْبُو على مَفْسَدة الكذب مع أنَه يمكن أن يتأول!!

ففعل فصار الغلام يأتي إلى الرَّاهب ويَسمَع منه ثم يذهب إلى السَّاحر فإذا أراد أن يُعاقبه على

تأخُّره قال : إن أهلي أخَّرُوني . وإذا رجع إلى أهْله وتأخر عند الرَّاهب قال : إن السَّاحر حبسني . فمر ذات يوم بدابَّة عظيمة ولم يعين في الحديث ما هذه الدَّابة ، قد حبست الناس عن التجاوز ، فلا يستطيعون أن يتجاوَزُوها فأراد هذا الغلام أن يَخْتبر ؛ هل الراهب خير له أم السَّاحر ؟ فأخذ حَجَرًا ودَعا اللَّه سبحانه وتعالى : إن كان أمر الراهب خيرًا أن يقتل هذا الحجر هذه الدَّابة ، فرمى بالحجر فقتل الدابة فمشى الناس .

فعَرف الغلام أنَّ أمْر الراهب خير من أمر السَّاحر وهذا أمر لا شك فيه ؛ لأن السَّاحر إمَّا مُعتد ظالم .

وإما كافر مُشرك ، فإن كان يستعين على سِحره بالشَّياطين يتقرَّب إليهم ويَعْبُدهم ويدعوهم ويَسْتغيث بهم فهو كافر مشرك ، وإن كان لا يفعل هذا لكن يَعْتَدِي على الناس بأدْوية فيها سحر فهذا ظالم معتد .

أمَّا الرَّاهب فإن كان يعبد اللَّه على بصيرة فهو مهتد ، وإن كان عنده شيء من الجَهل والضَّلال فنيَّته طيبة وإن كان عمله سيئا .

المهم : أن هذا الغلام أخبر الراهب بما جرى فقال له الراهب : أنت اليوم خير مني ، وذلك لأن الغلام دَعَا اللَّه فاستجاب اللَّه له .

وهذا من نعمة اللَّه على العَبْد أنَّ الإنسان إذا شك في الأمر ثم طلب من اللَّه آيةً تبين له شأن هذا الأمر فبيّنه اللَّه له فإن هذا من نعمة اللَّه عليه .

وَمِنْ ثَمَّ شُرعت الاستخارةُ ، للإنسان إذَا همَّ بالأمر وأشكل عليه هل في إقدامه خيرَ أم في إحجامه خير ؟ فإنه يَسْتخير اللَّه وإذا استخار اللَّه بصدق وإيمان فإن اللَّه يعطيه على ما يستدل به على أن الخير في الإقدام أو الإحجام . إمَّا بشيء يلقيه في قلبه يَنْشرح صدره لهذا أو لهذا وإمَّا برؤيا يَرَاها في المنام ، وإما بمشورة أحد من الناس وإمَّا بغيره .

المهم : أن هذا الغلام كان من كراماته أنَّه يُبرئُ الأكمه والأبرص ، يعني أنه يدعو لهم فيبرؤون ، وهذا من كرامات اللَّه له .

وليس كقصة عيسى ابن مريم يمسح صاحب العاهة فيبرأ ، بل هذا يدعو اللَّه فيستجيب اللَّه دعاءه ، فيبرأ بدعائه الأكمه والأبرص .

وقد أخبر الرَّاهب الغلام أنَّه سَيُبتَلَى ، يعني : سيكون له محنة واختبار وطلب منه أن لا يخبر به إن هو ابتلي بشيء .

وكان هذا الغلام - والله أعلم - مُسْتجاب الدّعوة إذا دعا اللَّه قَبِلَ منه .

وكان للملك جليس أعمى - لا يبصر - فأتى بهَدايا كثيرة لهذا الغلام حين سمع عنه ما سمع وقال : لكَ مَا ها هنا أجمع - أي : كله - إن أنت شَفَيتَني ، فقال : إنَّما يشفيك اللَّه .

انظر إلى الإيمان ، لم يَغْتَرّ بنَفْسه وادَّعى أنَّه هو الذي يَشْفِي المرضى ، بل قال : إنما يشفيك اللَّه عَجَّلَ .

يُشبه هذا من بعض الوجوه مَا جَرى لشيخ الإسلام ابن تيمية - رحمة اللَّه عليه - حينما جيء إليه برجل مَصروع قد صَرَعه الجني فقرأعليه الشَّيخ ولكنه لم يخرج فجعل شيخ الإسلام يضربه على رقبته ضربًا شديدًا حتى إن يد شيخ الإسلام أوجعته من الضرب . فتكلّم الجني الذي في الرجل وقال له : أخرج كرامة للشيخ !!

فقال له الشيخ : لا تخرج كرامة لي ولكن اخرج طاعة للّه ولرسوله .

لا يريد أن يكون له فضل بل الفضل للّه أوّلًا وآخرًا . فخرج الجني وعندها استيقظ الرجل فقال : ما الذي جاء بي إلى حضرة الشيخ ؟ لأنه حينما صرع يمكن أنه كان في بيته أو سوقه . فقالوا : سبحان اللّه ألم تحس بالضَّرب الذي كان يضربك ، قال : ما أحسست به ولا أوجعني ! فأخبروه فبرئ الرَجل .

الشاهد أن أهل العلم والإيمان لا ينسبون نعمة اللّه إليهم وإنما ينسبونها إلى مُوليها ﷻ وهو اللّه .

وقال له : « إنْ أنْتَ آمَنْتَ دَعَوتُ اللّه لكَ » فآمن الرجل فدعا الغلام ربه أن يَشْفِيه فشَفاهُ اللّه فأصبح مُبْصرًا .

فجاء هذا الجليس إلى الملك وجلس عنده على العادة وأتى بالغلام وأخبره بالخبر وعذَّبه تعذيبًا شديدًا قال : من الذي علَّمك هذا الشيء ؟ وكان الرَّاهب قد قال له : إنك سَتُبتلَى فإن ابْتُلِيتَ فلا تخبر عنِّي ولكن لعله عجز عن الصَبر فأخْبرَ عن الرَّاهب .

وكان هذا الملك الجبار - والعِياذ باللّه - قد عذَّب هذا الجليس الأعمى الذي آمن بدعوة هذا الغلام عذبه تعذيبًا شديدًا حيث قال : آمنت باللّه .

قال : أوَلَك رب غيري ؟! نعوذ باللّه .

لما دلُّوا على الرَّاهب ، جيء بالرَّاهب - والرَّاهب عابد يعبد اللّه - فدُعي إلى أن يقول هذا الملك هو ربه ولكنه أبى أن يرجع عن دينه .

فأتوا بالمنشار فنشروه من مفرق رأسه - نصف الجسم - فبدؤوا بالرأس ثم الرقبة ثم الظهرحتى انقسم قسمين - شقين شِق هنا وشِق هنا - ولكنه لم يُثْنِه ذلك عن دينه . أبى أن يَرْجع ورَضِيَ أن يُقتل هذه القتلة ولا يرجع عن دينه ، ما شاء اللّه !! ثم جيء بالرّجل الأعمى الذي كان جليسًا عند الملك وآمن وكفر بالملك فَدُعِي أن يرجع عن دينه فأبَى ففعل به كما فعل بالراهب ، ولم يَرُده ذلك عن دينه ، وهذا يدلُّ على أنه ينبغي للإنسان أن يَصْبر وأن يحتسب .

ولكن هل يجب على الإنسان أن يصبر على القتل أو يجوز أن يقول كلمة الكفر ولا تضرّه إذا كان مكرهًا ؟

هذا فيه تفصيل : إن كانت المسألة تتعلق به نفسه فله الخيار إن شاء قال كلمة الكفر دفعًا للإكراه مع طمأنينة القلب بالإيمان . وإن شاء أصرَّ وأبَى ولو قتل ، هذا إذا كان الأمر عائدًا إلى الإنسان بنفسه .

أما إذا كان الأمْرُ يتعلق بالدِّين بمعنى أنه لو كفر ولو ظاهرًا أمام النَّاس لكفر الناس فإنه لا يجوز له أن يقول كلمة الكفر ، بل يجب أن يصبر ولو قتل ، كالجهاد في سبيل اللَّه . المجاهد يقاتل ولو قتل ؛ لأنه يريد أن تكون كلمة اللَّه هي العليا فإذا كان إمَامًا للناس وأجبر على أن يقول كلمة الكفر فإنَّه لا يجوز أن يقول كلمة الكفر لا سيما في زمن الفتنة ، بل عليه أن يَصبر ولو قُتِل .

ومثل ذلك ما وقع للإمام أحمد بن حنبل رَحِمَهُ اللَّهُ حين امتُحن المحنة العظيمة المشهورة على أن يقول إن القرآن مخلوق وليس كلام اللَّه ، فَأَبَى فأوذي وعزر حتى إنه يجر بالبغلة بالأسواق - إمام أهل السُّنة - يُجر بالبغلة بالأسواق ويضرب بالسوط حتى يغشى عليه ، ولكنه كلما أفاق قال : القرآن كلام ربي غير مخلوق .

وإنما لم يجز لنفسه أن يقول كلمة الكفر مع الإكراه ؛ لأن الناس ينتظرون ماذا يقول الإمام أحمد ؟ فلو قال : القرآن مخلوق ، لصار كل الناس يقولون القرآن مخلوق وفسد الدين .

ولكنه رضي الله عنه جعل نفسه فداءً للدين ومع هذا صبر واحتسب وكانت العاقبة له ولله الحمد .

مات الخليفة ومات الخليفة الثاني الذي بَعْده ، وأتى اللَّه بخليفة صالح أكرم الإمام أحمد إكرامًا عظيمًا فما مات الإمام أحمد حتى أقر اللَّه عينه بأن يقول الحق عَاليًا مُرتفع الصوت ويقول الناس الحق معه .

وخُذل أعداؤه ولله الحمد وهذا دليل على أن العاقبة للصَابرين وهو كذلك واللَّه الموفق .

* * *

فأبَى الغلام أن يرجع عن دينه فدفعه الملك إلى نفر من أصحابه أي جماعة من الناس وقال لهم : اذهبوا به إلى جبل كذا وكذا - جبل معروف عندهم شاهق رفيع - وقال لهم : إذا بلغوا ذروته [1] فأطرحوه يعني : على الأرض ، ليقع من رأس الجبل فيموت بعد أن تَعْرِضُوا عليه أن يرجع عن دينه فإن رجع وإلا فاطرحوه .

فلما بلغوا به قمة الجبل فطلبوا منه أن يَرْجع عن دينه فأَبَى ؛ لأن الإيمان قد وقَر في قلبه ولا يمكن أن يتحول أو يتزحزح ، فلما همُّوا أن يطرحوه قال : « اللَّهُمّ اكفنيهم بما شئت » .

دَعْوة مضطر مؤمن : « اللَّهُم اكْفِنيهم بما شئْتَ » أي : بالذي تشاء ولم يُعين . فرجَف اللَّه بهم الجبل فَسقطوا وهلكوا وجاء الغلام إلى الملك فقال : ما الذي جاء بك ؟ أين أصحابك ؟ فقال : قد كفانيهم اللَّه عَزَّ وَجَلَّ ثم دَفَعه إلى جماعة آخرين وأمرهم أن يركبوا البحر في قرقور - أي سفينة - فإذا بلغوا لجة البحر عرضوا عليه أن يرجع عن دينه فإن لم يفعل رَمَوه في البحر .

فلما تواسطوا من البحر عَرَضُوا عليه أن يرجع عن دينه وهوالإيمان باللَّه عَزَّ وَجَلَّ فقال : لا! فقال : «اللَّهُم اكفنيهم بمَا شِئْتَ » فانقلبت السَّفينة وغرقوا وأنجاه للَّه ثم جاء إلى الملك فقال لَه : أين

---

(١) ذروته : أعلاه . مختار الصحاح ص (٢٢٢) .

أصحابك ؟ فأخبره بالخبر ثم قال له : إنك لَسْتَ قَاتلي حتى تفعل ما آمرك به قال : وما هو ؟

قال : تجمع الناس في صعيد واحد ، كل أهل البلد ، ثم تَصْلِبني على جذع ثم تأخذ سهمًا من كنانتي فتضعه في كبد القوس ثم ترميني به وتقول : بسم اللَّه رب الغلام ، فإنك إنْ فعلت ذلك قتلتني .

فجمع الملك الناس في صَعيد واحد وصلب الغُلام وأخذ سهمًا من كنَانَتِه فوضعها في كبد القوس ثم رماه وقال : بسم اللَّه رب الغلام ثم رماه فأصابه السهم في صدغه فوضع يده عليه ومات فأصبح الناس يقولون : آمنا برب الغلام وآمنوا باللَّه وكفروا بالملك .

وهذا هو الذي كان يُريده هذا الغلام .

ففي هذه القطعة من الحديث دليل على مسائل :

أولًا : على قوَّة إيمان هذا الغلام وأنَه لم يتزحزح عن إيمانه ولم يتحوَّل .

ثانيًا : فيه آية من آيات اللَّه حيث أكْرمه اللَّه ﷻ بقبول دعوته فزَلْزَلَ الجبل بالقوم الذين يُريدون أن يطرحوه من رأس الجبل حتى سقطوا .

ثالثًا : أن اللَّه ﷻ يُجيب دعوة المضطر إذا دعاه ، فإذا دَعَا الإنسان ربَّه في حال ضرورة موقنًا أن اللَّه يجيبه فإن اللَّه تعالى يجيبه ، حتى الكفار إذا دعوا اللَّه في حال الضَّرورة أجابهم اللَّه مع أنه يعلم أنهم سيرجعون إلى الكفر . إذا غشيهم موج كالظلل في البحر دعوا اللَّه مُخلصين له الدِّين فإذا نجَّاهم أشركوا ، فينجيهم ؛ لأنهم صدقوا في الرجوع إلى اللَّه عند دعائهم وهو سبحانه يجيب المضطر ولو كان كافرًا .

رابعًا : أن الإنسان يجوز أن يغرر بنفسه في مصلحة عامة للمسلمين فإن هذا الغلام دلَّ الملك على أمر يقتله به ويهلك به نفسه وهو أن يأخذ سهمًا من كنانته .. إلخ .

قال شيخ الإسلام : « لأنَّ هذا جهاد في سبيل اللَّه ، آمنَت أمَة وهو لم يفتقد شيئًا ؛ لأنَّه مات وسيموت آجلًا أو عاجلًا » .

فأمّا ما يفعله بعض الناس من الانتحار بحيث يحمل آلات متفجرة ويتقدّم بها إلى الكفار ثم يفجرها إذا كان بينهم ، فإن هذا من قتل النفس والعياذ باللَّه .

ومن قتل نفسه فهو خالد مخلد في نار جهنم أبد الآبدين كما جاء في الحديث عن النبي عليه الصلاة والسلام [1] .

لأن هذا قتل نفسه لا في مَصْلحة الإسلام لأنه إذا قتل نفسه وقتل عشَرة أو مائة أو مائتين ، لم ينتفع الإسلام بذلك فلم يُسْلم النَّاس ، بخلاف قِصّة الغلام . وهذا ربما يتعنت العدو أكثر وُيوغر صَدره هذا العمل حتى يَفْتِكَ بالمسلمين أشدّ الفتك .

(١) انظر صحيح البخاري في الطب (٥٧٧٨) ومسلم في الإيمان (١٧٥) والإمام أحمد في مسنده (٢/ ٢٥٤) .

كما يوجد في صُنع اليهود مع أهل فلسطين ، فإن أهل فلسطين إذا مات الواحد منهم بهذه المتفجرات وقتل ستة أو سبعة ، أخذوا من جراء ذلك ستين نفرًا أو أكثر فلم يحصل في ذلك نفع للمسلمين ولا انتفاع للذين فُجرت المتفجرات في صفوفهم .

ولهذا نرى أنَّ مَا يفعله بعض الناس من هذا الانتحار نرى أنه قتل للنفس بغير حق وأنه مُوجب لدخول النَّار والعياذ باللّه ، وأن صاحبه ليس بشهيد . لكن إذا فعل الإنسان هذا متأولًا ظانًّا أنه جائز فإننا نرجو أن يَسْلَم من الإثم ، وأمَّا أن تكتب له الشَّهادة فلا : لأنه لم يسلك طريق الشهادة . ومن اجتهد وأخْطأ فَلَه أجْر .

* * *

٣١ - وَعَنْ أَنَسٍ ﷺ قال : مَرَّ النَّبيُّ ﷺ بامْرَأَةٍ تَبْكِي عنْدَ قَبْرٍ فَقَالَ : « اتَّقِي اللَّه واصْبري » فَقَالَتْ : إلَيكَ عَنِّي ، فَإنَّكَ لَمْ تُصَبْ بمُصِيبَتِي ! وَلَمْ تَعْرِفْهُ ، فَقيلَ لَهَا : إنَّهُ النَّبيُّ ﷺ ، فَأَتَتْ بَابَ النَّبيِّ ﷺ ، فَلَمْ تَجِدْ عِنْدَهُ بَوَّابين ، فقالت : لَم أعرِفْكَ ، فقالَ : « إنَّمَا الصَّبْرُ عِنْدَ الصَّدْمَةِ الأُولَى » [1] متفقٌ عليه .

وفي رواية لمُسْلِم : « تَبْكِي عَلَى صَبيٍّ لَهَا » .

الشرح

عن أنس بن مالك ﷺ أن النبي ﷺ مرَّ بامرأة وهي عند قبر صَبِي لها قد مات وكانت تحبه حبًا شديدًا فلم تملك نفسها أن تخرج إلى قبره لتبكي عنده . فلما رآها الرسول ﷺ أمرها بتقوى اللّه والصبر . قال لها : « اتقِي اللّه واصْبري . فقالَت لهُ : إلَيك عنِّي فإنكَ لَم تُصَبْ بمُصِيبتي » إليك عني : أي : أَبعدْ عَني . وهذا يدلُ على أن المصيبة قد بلغت منها مبلغًا عظيمًا ، فانصرف النبي ﷺ عنها .

ثم قيل لها : إن هذا رسول اللّه ﷺ فندمت وجاءت إلى رسول اللّه ﷺ إلى بابه وليس على الباب بوابون أي : ليس عنده أحد يمنع الناس من الدّخول عليه . فأخبرته وقالت : إنني لم أعرفك فقال النبي ﷺ : « إنما الصَبْرُ عِنْد الصَدمةِ الأولَى » .

الصَّبر الذي يُثاب عليه الإنسان هو أن يَصْبر أوَل ما تصيبه المصيبة ، هذا هو الصبر .

أمَّا الصَّبر بعد ذلك فإن هذا ربما يكون تَسلِّيًا كما تَتَسلَّى البهائم فالصَّبر حقيقة أن الإنسان إذا صُدم أول ما يُصدم يصْبر ويَحْتَسب ويَحْسُن أن يقول : « إنَا للّه وإنا إليهِ راجعُون اللَّهمَّ أجرْني في مُصِيبتِي واخْلف لي خَيرًا مِنها » .

ففي هذا الحديث عِدَّة فوائد :

أولًا : حُسْن خُلُق الرسول عليه الصَّلاة والسَّلام ودَعْوَتِه إلى الحق وإلى الخير ، فإنَّه لما رأى هذه المرأة تبكي عند القبر أمرها بتقوى اللّه والصبر .

---

(١) أخرجه البخاري في الجنائز (١٢٨٣) ومسلم في الجنائز (١٥) وأحمد في مسنده (١٤٣/١٣) .

ولما قالت : « إِلَيكَ عَنِّي » لم ينتقم لنَفْسه ولم يضربها ولم يُقِمها بالقوة ؛ لأنَّه عرف أنه أصابها من الحزن ما لا تستطيع أن تملك نفسها ولهذا خرجت من بيتها لتبكي على هذا القبر .

فإن قال قائل : أليست زيارة القبور حرامًا على النِّساء ؟ قلنا : بلى هي حَرامٌ على النِّساء بل هي من كبائر الذُّنوب!! لأن الرسول عليه الصلاة والسلام : « لَعَن زائراتِ القُبُورِ والمتَّخذِينَ عليها المساجِد والسرج » [١] . لكن هذه لم تخرج للزيارة وإنما خرجت لما في قلبها من لوعة فِرَاق هذا الصبي والحزن الشديد . لم تملك نفسها أن تأتي ولهذا عذرها النبي عليه الصَّلاة والسَّلام ولم يقمها بالقوة ولم يجبرها أن ترْجع إلى بيتها .

ومن فوائد هذا الحديث : أن الإنسان يُعْذَر بالجهل سواء أكانَ جَهْلًا بالحكم الشَّرعي أم جَهلًا بالحال ، فإن هذه المرأة قالت للرسول ﷺ : إليك عني وقد أمرها بالخير والتَّقوى والصبر . ولكنها لم تعرف أنَه رسول اللَّه ﷺ فلهذا عَذَرَها الرَّسول عليه الصلاة والسلام .

ومنها : أنه لا ينبغي للإنسان المَسْئول عن حوائج المسلمين أن يجعل على بيته بوّابًا يمنع النَّاس إذا كان الناس يحتاجون إليه . إلّا إذا كان الإِنسان يخشى من كثرة النَّاس وإرهاق الناس ، وإشغال النَاس عن شيء يمكن أن يتداركوا شغلهم في وقت آخر فلهذا لا بأس به .

وما جعل الاستئذان إلا من أجل النظر كما في الحديث [٢] ، وإلا من أجل أن الإِنسان يتصرَّف في بيته في إدخال من شاء ومنع من شاء .

ومن فوائده : أن الصَّبر الذي يُحمد فاعله ، الصبر عند الصَّدمة الأولى ، يصبر الإِنسان ويحتسب ويعلم أنَّ للَّه مَا أَخَذ ولهُ ما أعطى وأن كل شيء عنده بأجل مسمى .

ومنها : أن البكاء عند القبر ينافي الصَّبر ولهذا قال لها الرسول ﷺ : « اتَّقِي اللَّه واصْبِري » .

ويوجد من الناس من يُبْتَلى ، فإذا مات له ميِّت صار يتردد على قبره ويبكي عنده .

وهذا يُنافي الصَّبر بل نقول : إن شئت أن تنفع الميت فادْعُ اللَّه وأنت في بيتك ، ولا حاجة أن تتردد على القبر ؛ لأنه يجعل الإنسان يتخيل هذا الميت دائمًا في ذهنه ولا يغيب عنه وحينئذٍ لا ينسى المصيبة أبدًا ، مع أن الأفضل للإنسان أن يَتَلَهَّى وأن يَنْسَى المصيبة بقدر ما يَسْتطِيع . واللَّه الموفق .

* * *

٣٢ - وَعَنْ أبي هُريرَةَ رضي الله عنه أَنَّ رسول اللَّه ﷺ قال : « يَقُول اللَّه تعالي : مَا لِعَبْدِي المُؤْمِنِ عِنْدِي جَزَاءٌ إِذَا قَبَضْتُ صَفِيّهُ مِنْ أَهْلِ الدُّنْيَا ثُم احْتَسَبَهُ إلا الجنَّة » [٣] رواه البخاري .

---

(١) أخرجه الترمذي في سننه (٣٢٠) وحسنه ، والإمام أحمد في مسنده (٢٢٩/١ ، ٢٨٧) وابن ماجه في سننه (١٥٧٤) .

(٢) انظر البخاري في الاستئذان (٦٢٤١) ومسلم في الأدب (٤١) .

(٣) أخرجه البخاري في الرقاق (٦٤٢٤) والدارمي في سننه (٢٧/٢) .

الشرح

هذا الحديث يرويه النبي ﷺ عن الله ويسمي العلماء - رحمهم الله - هذا القسم من الحديث الحديث القدسي لأن الرسول ﷺ رواه عن الله ﷻ .

والصَّفي : مَنْ يَصْطفيه الإنسان ويختاره من ولد ، وأخ ، أو عم ، أو أب ، أو أم ، أو صديق المهم أن مَا يصطفيه الإنسان ويختاره ويرى أنَّه ذو صِلة منه قوية . إذا أَخَذَهُ الله ﷻ ثم احتسبه الإِنسان فليس له جزاء إلَّا الجنة .

ففي هذا : دليل على فضيلة الصَّبر على قبض الصَّفي من الدنيا ، وأن الله ﷻ يُجازي الإنسان إذا احتسب ، يُجازيه الجنة .

وفيه : دليل على فضل الله ﷻ وكرمه على عباده فإن المُلك مُلكه ، والأمر أمره .

وأنت وصَفِيّك كلاكما لله ﷻ ، ومع ذلك إذا قبض الله صَفِي الإنسان واحتَسَب ، فإن له هذا الجزاء العظيم .

وفي هذا الحديث أيضًا من الفوائد : الإشارة إلى أفعال الله من قوله : « إذا قَبضْت صَفيه » ولا شك أن الله سبحانه فعَّالٌ لما يُريد ، ولكن يجب علينا أن نعلم أن فعل الله كله خير لا يُنْسَب الشَّر إلى الله أبدًا ، والشر إذا وقع فإنما يَقَعُ في المفعُولات ولا يقع في الفعل .

فمثلًا إذا قدر الله على الإنسان ما يَكْرَه فلا شك أنَّ مَا يكره الإنسان بالنَسبة إليه شر ، لكن الشر في هذا المقدر لا في تقدير اللَّه ، لأن الله لا يُقَدِّره إلا لحكمة عظيمة إما للمُقَدَّر عليه وإما لعامَّة الخلق .

أحيانًا تكون الحكمة خاصة في المقَدرِ عليه وأحْيانًا في الخلق على سبيل العموم .

المقدر عليه إذا قدر الله عليه شَرًّا وصَبَرَ واحتسبَ نال بذلك خيرًا ، إذا قدر الله عليه شَرًّا ورجع إلى رَبه بسبب هذا الأمر ؛ لأن الإنسان إذا كان في نعمة دائمًا قد يَنْسَى شكر المُنْعِم ﷻ ولا يلتفت إلى الله فإذا أصيب بالضرَّاء تذكر ورجَع إلى ربه سبحانه وتعالى ويكون في ذلك فائدة عظيمة له .

أمَّا بالنسبة للآخرين فإن هذا المقدَّر على الشَّخص إذا ضَره قد ينتفع به الآخرون .

ولنضرب لذلك مثلًا برجل عنده بيت من الطِّين فأرسل الله مطرًا غزيرًا دائمًا ، فإن صاحب هذا البيت يتضرر لكن المصلحة العامة للناس مصلحة ينتفِعُون بها .

صار هذا شَرًّا على شخص وخَيرًا للآخرين ومع ذلك فكَونُه شرًّا لهذا الشخص أمْرٌ نسبي إذ أنَّه شرٌّ من وجه لكنَّه خير له من وَجْه آخر .

فيتَّعِظ به ويَعْلم أنَّ الملجأ هو الله ﷻ لا ملجأ إلا إليه فيستفيد من هذا فائدة أكبر مما حَصَلَ لَهُ من المضرة .

المهم أن المؤلف ذكر هذا الحديث في باب الصَّبر ؛ لأنَّ فيه فائدة عظيمة فيما إذا صبر الإِنسان على قَبْض صفيه أنَّه ليس له جزاء إلَّا الجنة . والله الموفق .

٣٣ - وعَنْ عَائِشَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا أَنَّها سَأَلَتْ رسول اللَّه ﷺ عَنِ الطَّاعُون ، فأَخْبَرَهَا : « أَنَّهُ كَانَ عَذَابًا يَبْعَثُهُ اللَّه تعالى عَلَى منْ يَشَاءُ ، فَجَعَلَهُ اللَّهُ تعالى رَحْمَةً لِلْمُؤْمِنِينَ ، فَلَيس مِنْ عَبْدٍ يَقَعُ في الطَّاعُون فَيَمْكُثُ في بَلَدِهِ صَابِرًا مُحْتَسِبًا يَعْلَمُ أَنَّهُ لا يُصِيبُهُ إلا مَا كَتَبَ اللَّه لَهُ إلا كَانَ لَهُ مِثْلُ أَجْرِ الشَّهِيدِ » [1] رواه البخاري .

٣٤ - وَعَنْ أنسٍ رضي الله عنه قال : سَمِعْتُ رسول اللَّه ﷺ يَقُولُ : « إنَّ اللَّهَ عز وجل قَالَ : إذَا ابْتَلَيتُ عبدِي بحَبيبتَيهِ فَصَبَرَ عَوَّضْتُهُ مِنْهُمَا الجَنَّةَ » [2] يُرِيدُ عَينَيه ، رواه البخاري .

الشرح

نقل المؤلف - رحمه اللَّه تعالى - فيما نقله من الأحاديث الواردة في الصبر حديث عائشة وحديث أنس ابن مالك رضي الله عنه .

أما حديث عائشة فإن الرسول ﷺ أخبر أن الطاعون رجس أي : عذاب أرسله اللَّه عز وجل على من يشاء من عباده .

والطاعون : قيل : إنه وبَاءٌ مُعَّين ، وقيل : إنه كل وبَاء عام يَحِلُّ بالأرض فيصيب أهلها ويموت الناس منه .

وسَواء كان مُعَيَّنًا أم كان وباءً عامًّا مثل الكوليرا وغيرها ، فإن هذا الطاعون رجس ، عَذَابٌ أرْسَلَه اللَّه عز وجل ولكنه رحمةٌ للمؤمن إذا نزل بأرضه وبقي فيها صابرًا مَحْتسبًا يعلم أنه لا يصيبه إلا ما كَتَب اللَّه له فإن اللَّه يكتب له مثل أجْر الشهيد .

ولهذا جاء في الحديث الصحيح عن عبدالرحمن بن عوف رضي الله عنه قال : قال رسول اللَّه ﷺ : « إذا سمعتم به بأرض فلا تقدموا عليه ، وإذا وقع بأرض وأنتم بها فلا تخرجوا فرارًا منه » [3] .

إذا وقع الطاعون في أرض فإننا لا نقدم عليها ، لأن الإقدام عليها إلقاءٌ بالنفس إلى التهلكة . ولكنه إذا وقع في أرض فإننا لا نخرج منها فِرارًا منه ؛ لأنك مهما فررت من قدر اللَّه إذا نزل بالأرض فإن هذا الفرار لن يُغْني عنك من اللَّه شيئًا .

واذكر القِصَّة التي قصَّها اللَّه علينا في الَّذين خَرَجوا من ديارهم حَذَر الموت ، فقال لهم اللَّه : موتوا ثم أحْيَاهُم ليُبيِّن لهم أنه لا مَفرَّ من قضاء اللَّه إلا إلى اللَّه .

خرجوا من ديارهم وهم ألوف - قال بعض العلماء في تفسير الآية : إنه نزل في الأرض وباء فخرجوا منها فقال لهم اللَّه : مُوْتوا . فماتوا ثم أحْياهم حتى يتبين لهم أنَّه لا مفرَّ من اللَّه إلَّا إليه .

ففي حديث عائشة رضي الله عنها دليل على فضل الصبر والاحتساب وأن الإنسان إذا صبر نفسه في

---

(١) أخرجه البخاري في الطب (٥٧٣٤) وأحمد في مسنده (٦٤/٢) .

(٢) أخرجه البخاري في المرضى (٥٦٥٣) .

(٣) أخرجه البخاري في الطب (٥٧٣٠) .

الأرض التي نزل فيها الطاعون ثم مات به كتب اللَّه له مثل أجر الشهيد .

وذلك أنَّ الإنسانَ إذا نزل الطاعون في أرضه فإن الحياة غالية عند الإنسان ، سوف يَهْرب يخاف من الطَّاعون ، فإذا صَبَر وبقي واحتسب الأجر وعلم أنَّه لا يُصيبه إلا ما كتب اللَّه له ثم مات به فإنه يُكتب له مثل أجر الشهيد وهذا من نعمة اللَّه ﷻ .

أمَا حديث أنس بن مالك ﷺ : ففيه أنَّ الرسول ﷺ قال عن ربه تبارك وتعالى : إنَه مَا مِن إنسان يقبض اللَّه حَبيبتَيهِ - يَعْني عَينيه - فيعمى ثم يصبر إلا عوضه اللَّه بهما الجنة . لأن العينَ محبوبة للإنسان ، فإذا أخذهما اللَّه ﷻ وصبر الإنسان واحتسب فإن اللَّه يعوضه بهما الجنة .

والجنة تساوي كل الدّنيا بل قد قال النبي ﷺ : « لَمَوضِع سَوطِ أحَدكُم في الجنة خَيرٌ من الدنْيا ومَا فيها » [1] أي مقدار متر . لأن ما في الآخرة باقٍ لا يفنى ولا يَزُول والدُّنيا كلها فانية زائلة فلهذا كانت هذه المساحة القليلة من الجنة خيرًا من الدُّنيا وما فيها .

واعلم أن اللَّه ﷻ إذا قَبض من الإنسان حاسة من حَواسهِ فإن الغالب أن اللَّه يُعوضه في الحواس الأخرى ما يُخَفف عليه ألمَ فَقْدِ هذه الحاسة التي فقدها ، فالأعمى يَمُن اللَّه عليه بقوّة الإحساس والإدراك حتى أن بعض الناس إذا كان أعمى تجده في السوق يمشي وكأنه مُبْصر يحس بالمنعطفات في الأسواق ويحس بالمنحدرات وبالمرتفعات حتى أن بعضهم يتفق مع صاحب السيارة - سيارة الأجرة - يرْكب معه من أقصى البلد إلى بيته وهو يقول لصاحب السيَّارة : تيامَن تَيَاسَر حتى يوقفه عند بابه ؛ لأن صاحب السيارة لا يعرف البيت ، واللَّه الموفق .

* * *

٣٥ - وَعَن عَطَاءِ بْن أبي رَبَاحٍ قالَ : قالَ لِي ابْنُ عَبَّاسٍ ﷺ : ألا أريكَ امْرَأَةً مِنْ أَهْلِ الـجَنَّة ؟ فَقُلْتُ : بَلَى ، قالَ : هذِهِ المرْأةُ السَّودَاءُ أتَتِ النبيَّ ﷺ فقَالَتْ : إنِّي أُصْرَعُ ، وَإنِّي أتَكَشَّفُ ، فَادْعُ اللَّه تعالى لي قَالَ : « إنْ شئْتِ صَبرْتِ وَلَكَ الجَنَّةُ ، وَإنْ شِئتِ دَعَوتُ اللَّه تعالى أنْ يُعَافيكِ » فَقَالَتْ : أَصْبِرُ ، فَقَالَت : إنِّي أتَكَشَّفُ ، فَادْعُ اللَّه أنْ لا أتَكَشَّفَ ، فَدَعَا لَهَا [2] . متفقٌ عليه .

الشرح

قوله : « ألا أريكَ امْرأةً منْ أهْل الجنَة » يعرض عليه !.

وذلك لأن أهل الجنة ينقسمون إلى قسمين : قسم نشهد لهم بالجنة بأوصافهم وقسم نشهد لهم بالجنة بأعْيانهم .

١ - **أما الذين نشهد لهم بالجنة بأوصافهم فكل مؤمن** ، كل مُتقٍ فإننا نشهد له أنه من أهل الجنة .

---

(١) أخرجه البخاري في الجهاد والسير (٢٨٩٢) ، والإمام أحمد في مسنده (٤٣٣/٣) واللفظ له .

(٢) أخرجه البخاري في المرضى (٥٦٥٢) ، ومسلم في البر والصلة (٥٤) .

كما قال الله ﷻ في الجنة : ﴿ أُعِدَّتْ لِلْمُتَّقِينَ ﴾ [آل عمران : ١٣٣] وقال : ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ أُو۟لَٰٓئِكَ هُمْ خَيْرُ ٱلْبَرِيَّةِ ۝ جَزَآؤُهُمْ عِندَ رَبِّهِمْ جَنَّٰتُ عَدْنٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَآ أَبَدًا ﴾ [البينة : ٧، ٨] فكل مؤمن متقٍ يعمل الصالحات فإننا نشهد أنه من أهل الجنة .

ولكن لا نقول : هو فلان وفلان لأننا لا ندري ما يختم له ولا ندري هل بَاطنُه كظاهره فلذلك لا نشهد له بعَينه .

نقول مثلًا : إذا مات رجل مَشْهود لَه بالخير قلنا نَرْجُو أن يكون من أهل الجنة لكن ما نشهد أنه من أهل الجنة .

٢ – **قسم آخر نشهد له بعَينه** وهم الذين شَهِد لهم النبي ﷺ بأنهم في الجنة : مثل العشرة المُبشرَين بالجنة وهم أبو بكر وعمر وعثمان وعلي وسعيد بن زيد وسعد بن أبي وقاص وعبدالرحمن بن عوف وطلحة بن عبيد الله وأبو عبيدة عامر بن الجراح والزبير بن العوام .

ومثل ثابت بن قيس بن شَمَّاس ومثل سعد بن معاذ ﷺ ومثل عبدالله بن سلام ومثل بلال بن رباح وغيرهم ممن عيَّنهم الرسول عليه الصلاة والسلام .

هؤلاء نشهد لهم بأعيانهم نقول : نشهد بأن أبا بكر في الجنة ، ونشهد بأن عمر في الجنة وهكذا .

من ذلك هذه المرأة التي قال ابن عباس لتلميذه عطاء بن أبي رباح « ألا أرِيكَ امْرأةً مِنْ أهْل الجنة قُلْت : بلى ! قالَ : هذِه المرْأةُ السوداء » .

امرأة سوداء لا قيمة لها في المجتمع ، كانت تُصْرع وتنكشف فأخبرت الرسول عليه الصَلاة والسلام وسألته أن يدعو الله لها فقال لها : إن شئت دعوتُ اللّه لَكِ وإنْ شئت صَبَرْتِ ولك الجنة ؟ .

قالت : أصْبر ، وإن كانت تتألَّم وتتأذَّى من الصَّرْع ، لكنها صبرت من أجل أن تكون من أهل الجنَّة . ولكنها قالت : يا رسول الله إني أتكَشَّف فادع الله أن لا أتكشَف . فدعا الله أن لا تتكشف فصارت تُصْرع ولا تَتكَشَّف .

والصَّرْع – نعوذ بالله منه – نوعان :

١ – صرَعٌ بسبب تشنج الأعْصاب : وهذا مرض عضوي يمكن أن يُعالج من قِبَل الأطباء الماديين بإعطاء العقاقير التي تُسَكِّنه أو تُزيله بالمرَّة .

٢ – وقسم آخر بسبب الشَّياطين والجن : يتسلَّط الجنِّي على الإنسي فيصرعه ويدخل فيه ، ويضرب به على الأرض ويغمى عليه من شِدّة الصَّرع ولا يحس .

ويتلبَّس الشيطان أو الجني بنفس الإنسان ويبدأ يتكلم على لسانه ، الذي يسمع الكلام يقول : إن الذي يتكلّم الإنسي ولكنَّه الجني ولهذا تجد في بعض كلامه الاختلاف ، لا يكون ككلامه وهو مُستيقظ لأنه يتغير بسبب نطق الجني .

هذا النوع من الصَّرع نسأل اللَّه أن يُعيذنا وإيَّاكم منه ومن غيره من الآفات : هذا النَّوع علاجه بالقراءة من أهل العلم والخير .

أحيانًا يُخاطبهم الجني ويتكلَّم معهم ويُبيِّن السبب الذي جعله يصْرَع هذا الإنسي . وأحيانًا لا يتكلم وقد ثبت هذا !! أعني صَرعَ الجني للإنسي بالقرآن والسنة والواقع .

ففي القرآن : قال اللَّه سبحانه : ﴿ ٱلَّذِينَ يَأْكُلُونَ ٱلرِّبَوٰاْ لَا يَقُومُونَ إِلَّا كَمَا يَقُومُ ٱلَّذِى يَتَخَبَّطُهُ ٱلشَّيْطَـٰنُ مِنَ ٱلْمَسِّ ﴾ [البقرة: ٢٧٥] وهذا دليل على أن الشيطان يتخبط الإنسان من المس وهو الصرع .

وفي السُّنة : روى الإمام أحمد في مسنده : « أنَّ الرسول ﷺ كانَ في سَفَر من أسْفَارِه فمَر بامرأة مَعَها صَبي يُصْرعُ فأتت به إلى النبي عليه الصلاة والسلام وخَاطَب الجنِّي وتَكلَم معهُ وخَرج الجنِّي فأعطت أم الصبي الرسول ﷺ هدية على ذلك »[1] .

وكان أهل العلم أيضاً يخاطبون الجني في المَصروع ويتكلمون معه ومنهم شيخ الإسلام ابن تيمية رَحِمَهُ ٱللَّهُ !

ذكر ابن القيم وهو تلميذه : أنه جيء إليه برجل مَصْروع فجعل يقرأ عليه ويُخاطبه ويقول لها اتقي اللَّه اخرُجي – لأنها امرأة – فتقول له : إني أريد هذا الرجل وأحبه فقال لها شيخ الإسلام : لكنه لا يحبك اخرجي ، قالت : إني أريد أن أحج به قال : هو لا يريد أن تحجي به ؛ اخرجي فأبت فجعل يقرأ عليها ويضرب الرجل ضربًا عظيمًا حتى أن يد شيخ الإسلام أوجَعَتهُ من شدة الضرب .

فقالت الجنيَّة أنا أخرج كَرامة للشيخ قال : لا تخرجي كرامة لي اخرجي طاعة للَّه ورسوله فما زال بها حتى خرجت . لما خرجت استيقظ الرجل فقال : ما الذي جاء بي إلى حضرة الشيخ ؟ قالوا سبحان اللَّه ! أما أحْسَسْتَ بالضرب الذي كان يضربك أشد ما يكون ؟ قال ما أحْسسْتُ بالضرب ولا أحْسستُ بشيء ، والأمثلة على هذا كثيرة . هذا النوع من الصرع له علاج يدفعه وله علاج يَرْفَعه .

فهو نوعان :

١ – أما دفْعه : فبأن يحرص الإنسان على الأوْرَاد الشرعية الصباحية والمَسائية . وهي معروفة في كتب أهل العلم منها : آية الكرسي ، فإن من قرأها في ليلة لم يزل عليه من اللَّه حافظ ولا يَقْربُه شَيطان حتى يصبح .

ومنها : سورة الإخلاص والفلق والناس ، ومنها : أحاديث وردت عن الرسول عليه الصلاة والسلام فليحرص الإنسان عليها صباحًا ومساءًا فإن ذلك من أسباب دفع أذية الجن .

٢ – وأما الرفع : فهو إذا وقع بالانسان فإنَّه يقرأ عليه آيات من القرآن فيها تخويف وتذكير واستعاذة باللَّه عَزَّ وَجَلَّ حتى يخرج .

---

(١) انظر مسند الإمام أحمد في مسنده (٤/١٧٠) .

الشاهد من هذا الحديث قول الرسول ﷺ لهذه المرأة : « إنْ شئْتت صَبَرْتِ ولكِ الجَنة ، فقالَتْ : أصْبِر » ففيه دَليل على فضيلة الصبر وأنه سبب لدخول الجنة والله الموفق .

* * *

٣٦ - وعَنْ أَبي عَبْدِ الرَّحمنِ عَبْدِ اللهِ بْنِ مَسْعُودٍ ﷺ قال : كَأَنِّي أَنْظُرُ إلَى رسول الله ﷺ يَحْكِي نَبيًّا منَ الأَنْبِياءِ ، صَلَوَاتُ اللهِ وَسَلامُهُ عَلَيهِمْ ، ضَرَبَهُ قَومُهُ فَأَدْمَوهُ وَهُوَ يَمْسَحُ الدَّمَ عَنْ وَجْهِهِ ، يَقُولُ : « اللَّهُمَّ اغْفِرْ لِقَومي فَإنَّهُمْ لا يَعْلَمُونَ » [1] متفقٌ عليه .

الشرح

هذا الحديث يحكي الرسول ﷺ فيه شيئًا مما جرى للأنبياء عليهم الصَّلاة والسلام .

والأنبياء كلّفهم الله بالرِّسالة ، لأنَّهم أهل لها كما قال الله تعالى : ﴿ ٱللَّهُ أَعْلَمُ حَيْثُ يَجْعَلُ رِسَالَتَهُۥ ﴾ [الأنعام : ١٢٤] فهم أهل لها في التَّحمل والتَّبليغ والدعوة والأمر بالمعروف والنَّهي عن المنكر والصَّبر على ذلك .

وكان الرُّسل عليهم الصلاة والسلام يؤذَون بالقول وبالفعل وربما بلغ الأمر إلى قتلهم .

وقد بيَّن الله ذلك في كتابه حيث قال لنبيه ﷺ : ﴿ وَلَقَدْ كُذِّبَتْ رُسُلٌ مِّن قَبْلِكَ فَصَبَرُوا۟ عَلَىٰ مَا كُذِّبُوا۟ وَأُوذُوا۟ حَتَّىٰٓ أَتَىٰهُمْ نَصْرُنَا ۚ وَلَا مُبَدِّلَ لِكَلِمَٰتِ ٱللَّهِ ۚ وَلَقَدْ جَآءَكَ مِن نَّبَإِى۟ ٱلْمُرْسَلِينَ ﴿٣٤﴾ وَإِن كَانَ كَبُرَ عَلَيْكَ إِعْرَاضُهُمْ فَإِنِ ٱسْتَطَعْتَ أَن تَبْتَغِىَ نَفَقًا فِى ٱلْأَرْضِ أَوْ سُلَّمًا فِى ٱلسَّمَآءِ فَتَأْتِيَهُم بِـَٔايَةٍ ﴾ أي : إن استطعت أن تفعل ذلك فافعل﴿ وَلَوْ شَآءَ ٱللَّهُ لَجَمَعَهُمْ عَلَى ٱلْهُدَىٰ ﴾ ولكن الحكمة اقتضت أن يكذبوك حتى يتبيَّن الحق من الباطل بعد المصارعة والمجادلة ﴿ فَلَا تَكُونَنَّ مِنَ ٱلْجَٰهِلِينَ ﴾ [الأنعام : ٣٤، ٣٥] .

حكى نبينا ﷺ عن نبي من الأنبياء : أن قومه ضربوه ولم يضربوه إلا حيث كذَّبوه حتى أدْمَوا وجهه فجعل يَمْسَحُ الدم عن وجهه ويقول : اللَّهم اغْفِرْ لِقَومِي فإنَّهم لا يَعْلَمُون .

هذا غاية ما يكون من الصبر ؛ لأن الإنسان لو ضرب على شيء من الدنيا لاستشاط غضبًا ، وانتقم ممن ضربه ، وهذا يدعو إلى الله ، ولا يتخذ على دعوته أجرًا ، مع هذا يضربونه حتى يدموا وجهه ، وهو يمسح الدم عن وجهه ويقول : اللَّهم اغفر لقومي فإنهم لا يعلمون .

وهذا الذي حدثنا به الرسول ﷺ لم يُحدثْنا به عَبثًا أو لأجل أن يقطع الوَقت علينا بالحديث وإنَّما حدثنا بذلك من أجل أن نتخذ به عبرة نَسيرُ عليها كما قال سبحانه : ﴿ لَقَدْ كَانَ فِى قَصَصِهِمْ عِبْرَةٌ لِّأُو۟لِى ٱلْأَلْبَٰبِ ﴾ [يوسف : ١١١] العبرة من هذا أن نصبر على ما نُؤذى به من قَولٍ أو فِعْل في سبيل الدعوة إلى الله ، وأن نقول مُتَمثلين :

هَـلْ أنْـتِ إلا إصْبـع دَميـتِ وَفي سَبِـيـل الـلَّـه مَـا لَـقِـيتِ

[1] أخرجه البخاري في أحاديث الأنبياء (٣٤٧٧) ومسلم في الجهاد والسير (١٠٥) .

وأن نصبر على ما يُصيبنا مما نسمعه أو يُنقل إلينا مما يُقال فينا بسبب الدعوة إلى اللَّه .

وأن نَرَى أن هذا رِفْعَة لدرجاتنا وتكفير لسيئاتنا فعسى أن يكون في دعوتنا خلل مِنْ نَقْص في الإخلاص أو من كيفية الدعوة وطريقها فيكون هذا الأذَى الذي نسمع يكون كفارة لما وقع منا ؛ لأن الإنسان مهما عمل فهو ناقص لا يمكن أن يكمل عمَله أبدًا إلا أن يشاء اللَّه فإذا أصيب وأوذي في سبيل الدعوة إلى اللَّه فإن هذا من باب تكميل دعوته ورفعة درجته فليصبر وليَحْتَسب ولا ينكص على عقبيه ، لا يقول : لست بمُلْزَم ، أنا أصابني الأذى ، أنا تعبت ؛ بل الواجب الصبر ، الدنيا ليست طويلة! أيام ثم تزول ، فاصبر حتى يأتي اللَّه بأمره .

وفي قول عبداللَّه بن مسعود ﷺ : « كأني أنْظُر إلى النبي ﷺ وهو يَحْكي لنا » فيه دليل على أن المحدث أو المخبر يخبر بما يؤيد ضبطه للخبر والحديث . وهو أمر شائع عند جميع الناس يقول : كأني أنْظُرُ إلى فلان وهو يقول كذا وكذا أي : إني ضبطت القصة .

فإذا استعمل الإنسان مثل هذا الأسلوب لتثبيت ما يحدث به فلَهُ في ذلك أسوة من السلف الصالح ﷺ ، واللَّه الموفق .

* * *

٣٧ - وَعَنْ أَبي سَعيدٍ وأَبي هُرَيرَةَ ﷺ عن النبيِّ ﷺ قَالَ : « مَا يُصيبُ المُسْلِمَ مِنْ نَصَبٍ وَلا وَصَبٍ وَلا هَمٍّ وَلا حَزَنٍ وَلا أذًى وَلا غَمٍّ حَتَّى الشَّوكَةُ يُشَاكُهَا ؛ إلا كَفَّرَ اللَّهُ بهَا مِنْ خَطَايَاهُ » (١) متفقٌ عليه .

وَ « الوَصَبُ » : المَرَضُ .

٣٨ - وَعَن ابْن مَسْعُودٍ ﷺ قال : « دَخَلْتُ عَلَى النبي ﷺ وَهُوَ يُوعَكُ فَقُلْتُ : يَا رَسُولَ اللَّهِ إنَّكَ تُوعَكُ وَعْكًا شَدِيدًا قال : « أَجَلْ إنِّي أُوعَكُ كَمَا يُوعَكُ رَجُلانِ مِنْكُمْ » قُلْتُ : ذلك أنَّ لك أَجْرَين ؟ قال : « أَجَلْ ذلكَ كَذلكَ مَا مِنْ مُسْلِمٍ يُصِيبُهُ أذًى ، شَوكَةٌ فَمَا فَوقَهَا إلا كَفَّرَ اللَّهُ بهَا سَيِّئَاتِهِ ، وَحُطَّتْ عَنْهُ ذُنُوبُهُ كَمَا تَحُطُّ الشَّجَرَةُ وَرَقَهَا » (٢) متفقٌ عليه .

وَ « الوَعْكُ » مَغْثُ الحُمَّى ، وَقيلَ : الحُمَّى .

الشرح

في حديث أبي سعيد وأبي هريرة وابن مسعود ﷺ أجمعين فيها دليل على أن الإنسان يُكَفر عنه بما يُصِيبه من الهم والنصب والغَم وغير ذلك ، وهذا من نعمة اللَّه ﷻ يَبْتَلي ﷻ عبده بالمَصائب وتكون تكفيرًا لِسَيِّئاته وحطًّا لذنوبه .

---

(١) أخرجه البخاري في المرضى (٥٦٤٢) ، ومسلم في البر والصلة (٥٢) ، وأحمد في مسنده (٣٠٣/٢) .

(٢) أخرجه البخاري في المرضى (٥٦٤٨) ، ومسلم في البر والصلة (٤٥) ، وليس فيهما « وحطت عنه ذنوبه » .

والإنسان في هذه الدنيا لا يمكن أن يبقى مَسْرُورًا دائمًا ، بل هو يوم يُسَر ، ويوم يَحزن ، ويوم يأتيه شيء ويوم لا يأتيه ، فهو مصَاب بمصائب في نفسه ، ومَصَائب في بدنه ، ومصائب في مجتمعه ، ومصائب في أهْلِه ، ولا تحصى المصائب التي تُصيب الإنسان ، ولكن المؤمن أمْرُه كُله خير ، إن أصابته ضرَّاء صبر فكان خيرًا له ، وإن أصابته سَرّاء شكرفكان خيرًا له .

فإذا أصبت بالمصيبة فلا تظن أن هذا الهم الذي يأتيك أو هذا الألم الذي يأتيك ولو كان شَوكة لا تظن أنه يذهب سُدًى ، بل ستُعَوض عنه خيرًا مِنْهُ ، سَتُحَطُّ عنك الذُّنوب كما تحط الشجرة ورَقها وهذا من نعمة اللَّه .

وإذا زاد الإنسان على ذلك الصبر الاحتساب أي : احتساب الأجر كان له مع هذا أجر .

فالمصائب تكون على وجهين :

١ - تارة إذا أصيب الإنسان تذكر الأجر واحْتَسَبَ هذه المصيبة على اللَّه فيكون فيها فائدتان : تكفير الذُنوب ، وزيادة الحَسنَات .

٢ - وتارة يغفل عن هذا فَيَضِيقُ صَدْرُه ، ويغفل عن نِية الاحْتِساب والأجر على اللَّه فيكون في ذلك تكفير لسيئاته ، إذًا هو رابحٌ على كل حال في هذه المصائب التي تأتيه .

فإما أن يَرْبح تكفير السَّيئات وحطَّ الذُّنوب بدون أن يحصل له أجر لأنه لم يَنْو شيئًا ولم يَصْبر ولم يحتسب الأجر . وإمَّا أن يَرْبَح شيئين كما تقدم .

ولهذا ينبغي للإنسان إذا أصيب ولو بشوكة فليتذكر الاحتساب من اللَّه على هذه المصيبة .

وهذا من نعمة اللَّه ﷻ وجُوده وكَرَمه حيث يبتلي المؤمن ثم يُثيبه على هذه البَلوى أو يُكفِّر عنه سيئاته . فالحمد للَّه رب العالمين .

* * *

٣٩ - وعَنْ أبي هُرَيرَةَ ﷺ قال : قال رسول اللَّه ﷺ : « مَنْ يُرِدِ اللَّهُ بهِ خَيرًا يُصِبْ منْهُ » (١) رواه البخاري .

وَضَبَطُوا « يُصِبْ » بفَتْحِ الصَّادِ وكَسْرِهَا .

٤٠ - وَعَنْ أَنسٍ ﷺ قال : قال رسولُ اللَّه ﷺ : « لا يَتَمَنَّيَنْ أَحَدُكُمُ الموتَ لضُرٍّ أَصَابَهُ ، فَإنْ كَانَ لابُدَّ فَاعلًا فَلْيَقُل : اللَّهُمَّ أَحْيني مَا كَانَت الحَيَاةُ خَيرًا لي ، وَتَوَفَّني إذا كَانَتِ الوَفَاةُ خَيرًا لي » (٢) متفقٌ عليه .

---

(١) أخرجه البخاري في المرضى (٥٦٤٥) .

(٢) أخرجه البخاري في المرضى (٥٦٧١) ، واللفظ له ومسلم في الذكر والدعاء (١٠) .

الشرح

ذكر المؤلف - رحمه اللَّه تعالى - حديثين عن أبي هريرة وأنَس بن مالك رضي الله عنهما في ثواب الصَّبر والاحتساب وأنَّ الإنسان يجب عليه أنْ يَصْبر وأن يتحمل .

أما حديث أبي هريرة فإن الرسول ﷺ قال : « مَنْ يُرِد اللَّه به خيرًا يُصِب مِنْهُ » و(يصب) قُرأت على وجهين بفتح الصاد (يُصَب) وكسَرها (يُصِب) وكلاهما صحيح .

أما « يُصب منه » فالمعنى أنَّ اللَّه يُقَدِّر عليه المصائب حتى يَبْتليَه بها أيصبر أم يضجر . وأما «يُصَب منه » فهي أعَمُّ أي : يُصاب من اللَّه ومن غيره .

ولكن هذا الحديث المطلق مُقيد بأحاديث أخرى تدل على أن المراد : مِنْ يُرِدِ اللَّه بِهِ خيرًا فيصبر ويحْتَسب ، فيصيب اللَّهُ منه حتى يَبْلوه . أما إذا لم يَصْبر فإنَه قد يُصَاب الإنسان ببلايا كثيرة وليس فيها خير ولم يُرِد اللَّه به خيرًا .

فالكفار : يُصابون بمصائب كثيرة ومع هذا يبقون على كفرهم حتى يموتوا عليه وهؤلاء بلاشك لم يرد اللَّه بهم خيرًا .

لكن المراد من يَصْبر على هذه المَصَائب ، فإنَ ذلك من الخير له ؛ لأنَّه سبق أن المصائب يكفر بها الذُّنوب ويُحَط بها الخطايا ، ومن المعلوم أن تكفير الذُّنوب والسَّيئات وحَط الخطايا لا شك أنَّه خير للإنسان ؛ لأنَ المصائب غاية ما فيها أنَّها مصائب دنيوية تَزُول بالأيام كلَّما مضت الأيام خففت عليك المصيبة لكن عذاب الآخرة باقٍ والعياذ باللَّه ! فإذا كَفَّرَ اللَّه عنك بهذه المصائب صار ذلك خَيرًا لك .

أما الحديث الثاني : فهو أن الرسول ﷺ نهى عن أن يتمنى الإنسان الموت لِضُرٍّ نَزَل به . وذلك أنَّ الإنسان ربما ينْزِل به ضُر يَعْجز عن التحمل وَيتْعَب فيتمنى الموت . يقول يا رب : أَمِتْنِي سواء قال ذلك بِلِسانِه أو بقلبه . فنهى النبي ﷺ عن ذلك ، لأنه قد يكون خيرًا له هذا الَضر .

ولكن إذا أصِبْتَ بضُرّ فقل : اللَّهُمَّ أعنّي علَى الصَبر عليه ، حتى يعينك اللَّه فتَصْبِر ويكون ذلكَ لك خيرًا .

أمَا أن تَتمنَى الموت فأنت لا تدْري ربما يكون الموت شرًا عليكَ لا يَحْصلُ به راحة ، فليس كُل مَوتٍ رَاحة كما قال الشاعر :

لَيسَ مَنْ ماتَ فاستراح بِميت إنَّما المَيْتُ مَيتُ الأحياءِ

الإنسانُ ربما يموت إلى عُقُوبة وعَذَاب قبرٍ ، وإذا بقي في الدنيا فربما يَسْتَعْتِب ويتوب ويرجع إلى اللَّه فيَكون خيرًا له .

المهم : أنه إذا نزل بك ضر فلا تتمن الموت ، وإذا كان الرسول عليه الصلاة والسلام نهى أن يتمنَّى الإنسان الموت للضُّر الذي نزل به ، فكيف بمن يقتل نفسه إذا نزل به الضر ؟!

كما يوجد من بعض الحَمْقى الذين إذا نزلت بهم المضَائق خَنَقُوا أنفُسهم أو نَحروها أو أكلوا سُمًّا ومَا أشْبه ذلك ، فإن هؤلاء ارتحلوا من عذاب إلى أشد منه ، فلم يستريحوا انتقلوا من عذاب إلى أشد . لأن الذي يقتل نفسه يُعذب بما قَتل به نفسه في نار جهنم خالدًا فيها أبدًا كما جاء ذلك عن الرسول ﷺ (١) .

إن قتل نفسه بحديدة - خَنْجر أو سكين أو مسمار أو غيره - فإنه يوم القيامة في جهنم يَطعن نفسه بهذه الحديدة التي قتل بها نفسه .

وإن قتل نفسه بسُمٍّ فإنه يتحسَّاه في نارجهنم ، إن قتل نفسه بالتردِّي من جبل فإنه يُنْصَبُ له جبل في جهنم يتردى منه أبد الآبدين وهلم جرًا !

فأقول إذا كان النبي عليه الصَلاة والسَّلام نهى أن يَتمنى الإنسان الموت لِضُرّ نزل به فإن أعظم من ذلك أن يقتل الإنسان نفسه ويبادر اللَّه بنفسه ، نسأل اللَّه العافية .

ولكن الرَّسول عليه الصَّلاة والسَلام لما نهى عن شيء كان من عادته إذا كان له بديل من المباح أن يذكر بديله من المباح اقتداءًا بالرب ﷻ قال اللَّه سبحانه : ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَقُولُواْ رَٰعِنَا وَقُولُواْ ٱنظُرْنَا ﴾ [البقرة : ١٠٤] فلما نَهى اللَّه عن كلمة (رَاعِنا) بَيَّن لَنا الكلمة المباحة قال : ﴿ وَقُولُواْ ٱنظُرْنَا ﴾ .

ولما جيءَ إلى الرَّسول عليه الصلاة والسلام بتَمْرٍ جَيد اسْتَنْكرَهُ وقال : « أكل تمر خيبر هكذا ؟ » قالوا : لا ولكنا نشتري الصَاع من هذا بالصاعين والصاعين بالثَّلاثة قال : « لا تفعل لكن بع التمر - يعني الرديء - بالدراهم ثم ابتَعْ بالدراهم جنيبًا » (٢) أي : اشتر الجَنيب وهو من أعلى أنواع التمر ، فلما مَنعَهُ بيَّـن له الوَجْه المباح .

هنا قال : لا يَتمنَّين أحدكُم الموت لِضُرٍّ نَزَلَ به فإنْ كان لابدَّ فَاعلًا فلْيَقُلْ : « اللَّهُمَّ أحْيني مَا كَانَتِ الحياةُ خَيرًا لِي وتَوفَّني إذا عَلِمْتَ الوفاة خَيرًا لِي » ..

فتَح لك الباب ، لكنه بابٌ سَلِيم لأنَ تمني الموت يَدُلُّ على ضَجَرالإِنسان وعدَم صَبْرِه على قضاء اللَّه لكن هذا الدُّعاء يَكِلُ الإنسان فيه أمره إلى اللَّه ؛ لأن الإِنسان لا يعلم الغيب فيكل الأمر إلى عالمه ﷻ .

وتَمَني الموت اسْتِعْجالٌ من الإِنسان بأنْ يَقْطع اللَّه حياته وربما يَحْرِمه من خير كثير ، ربما يحرمه من التَّوبة وزيادة الأعمال الصَّالحة ، ولهذا جاء في الحديث : « مَا مِنْ مَيِّت يَمُوتُ إلَّا نَدِمَ ، فإنْ كانَ مُحسنًا نَدِمَ أنْ لا يَكُون ازْدَاد ، وإنْ كانَ مسِيئًا نَدمَ أن لا يَكُونَ اسْتَعْتَبَ » (٣) أي : استعتب من ذنبه وطلب العتبة وهي المعذرة . فإن قال قائل كيف يقول : اللَّهُمَّ أحْيِني مَا كَانت ! الحياةُ خَيرًا لِي وتَوفَّني

(١) أخرجه البخاري في الطب (٥٧٧٨) ، ومسلم في الإيمان (١٧٥) ، وأحمد (٢٥٤/٢ ، والترمذي في سننه (٢٠٤٤) .

(٢) أخرجه البخاري في البيوع (٢٢٠١ ، ٢٢٠٢) ، ومسلم في المساقاة (٩٥) ، والجَنِيْبُ : نوع جيد من أنواع التمر .

(٣) أخرجه الترمذي بنحوه في جامعه (٢٤٠٣) ، وقال : هذا حديث إنما نعرفه من هذا الوجه ، ويحيى بن عبيد اللَّه (راوي الحديث عن أبي هريرة) قد تكلم فيه شعبة ، وهو يحيى بن عبيد اللَّه بن موهب مدني .

مَا عَلِمْتَ الوفاة خَيرًا لي ؟

نقول نعم : لأن اللّٰه سبحانه يعلم ما سيكون ، أمَّا الإنسان فلا يعلم كما قال اللّٰه : ﴿ قُل لَّا يَعْلَمُ مَن فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ٱلْغَيْبَ إِلَّا ٱللَّهُ ﴾ [النمل : ٦٥] ﴿ وَمَا تَدْرِي نَفْسٌ مَّاذَا تَكْسِبُ غَدًا وَمَا تَدْرِي نَفْسٌ بِأَيِّ أَرْضٍ تَمُوتُ ﴾ [لقمان : ٣٤] فأنت لا تدري قد تكون الحياة خيرًا لك وقد تكون الوفاة خيرًا لك . ولهذا ينبغي للإنسان إذا دَعا لشخص بطول العُمر أن يُقيِّد هذا فيقول : أطال اللّٰه بقاءك على طاعته ، حتى يكون في طول بقائه خير . فإن قال قائل : إنه قد جاء تمني الموت من مريم ابنة عمران حيث قالت : ﴿ يَٰلَيْتَنِي مِتُّ قَبْلَ هَٰذَا وَكُنتُ نَسْيًا مَّنسِيًّا ﴾ [مريم : ٢٣] فكيف وقعت فيما فيه النهي ؟ فالجواب عن ذلك أن نقول :

أولًا : يجب أن نعلم أن شرع من قبلنا إذا ورد شَرْعنا بخلافه فليس بِحُجَّة ، لأنَّ شرعنا نسخ كل ما سَبَقه من الأديان .

ثانيًا : أن مريم لم تتمن الموت لكنها تمنت الموت قبل هذه الفِتْنَة ولو بقيت ألف سنة ، ولم تتمن استعجال الموت . المهم أن تموت بلا فِتْنة ومِثْلُه قول يوسف عليه الصلاة والسلام : ﴿ أَنتَ وَلِيِّۦ فِي ٱلدُّنْيَا وَٱلْآخِرَةِ تَوَفَّنِي مُسْلِمًا وَأَلْحِقْنِي بِٱلصَّٰلِحِينَ ﴾ [يوسف : ١٠١] ليس معناه سُؤال اللّٰه أن يتوفَّاه بل هو يسأل أن يتوفاه اللّٰه على الإسلام ، وهذا لا بأس به كأن تقول : اللَّهم توفني على الإسلام وعلى الإيمان وعلى التوحيد والإخلاص أو تَوَفني وأنتَ رَاضٍ عني ومَا أشْبَه ذلك .

فيجب معرفة الفَرق بين شخص يتمنى الموت من ضيقٍ نزل به وبين شخص يتمنى الموت على صِفةٍ معيَّنة يرضاها اللّٰه ﷻ !.

فالأول : هو الذي نهى عنه الرسول عليه الصلاة والسلام .

والثاني : جائز . وإنما نهى الرسول عليه الصَّلاة والسَلام عن تمني الموت لِضُر نزل به ؛ لأن من تمنى الموت لِضُرٍّ نزل به ليس عنده صَبْر والواجب أنْ يَصْبر الإنسان على الضر وأن يَحْتسب الأجر من اللّٰه ﷻ ، فإن الضرر الذي يُصيبك من همّ أو غم أو مَرَض أو أي شيء مُكَفِّر لِسيئاتِك ، فإن احتسبت الأجر كان رفعَة لدرجاتك وهذا الذي ينالُ الإنسان من الأذَى والمرض وغيره لا يَدُوم ولابد أن ينتهي ، فإذا انتهى وأنت تكسب حَسنات باحتساب الأجر على اللّٰه ﷻ وُيكَفَّر عنك من سَيئاتك بسببه صار خيرًا لك كما ثبت عن النبي عليه الصلاة والسلام أنه قال : « عَجبًا لأمْرِ المؤْمِن إن أمْرَهُ كُلَّهُ له خَير . إن أصابَتْهُ ضَرَّاءُ صَبَر فكانَ خَيرًا لَهُ . وإن أصَابَتْهُ سَراءُ شَكَرَ فكانَ خَيرًا له » [1] .

فالمؤمن على كل حال هو في خير في ضَرَّاء أو في سَرّاء .

* * *

٤١ - وَعَنْ أبي عبد اللّٰه خَبَّابِ بْن الأرتِّ ﷺ قال : شَكَونَا إلَى رسول اللّٰه ﷺ وَهُوَ مُتَوَسِّدٌ [2] بُرْدَة لَهُ في ظِلِّ الْكَعْبَة ، فَقُلْنَا : ألَا تَسْتَنْصِرُ لَنا ؟ ألَا تَدْعُو لَنَا ؟ فَقَالَ : « قَدْ كَانَ مَنْ قَبْلكُمْ يُؤْخَذُ

---

(١) أخرجه مسلم في الزهد (٦٤) .

(٢) متوسد بردة : جعلها تحت رأسه كالوسادة .

الرَّجُلُ فَيُحفرُ لَهُ في الأَرْضِ فَيُجْعَلُ فيها ، ثُمَّ يُؤْتَى بالْمِنْشَار فَيُوضَعُ عَلَى رَأْسِهِ فَيُجْعَلُ نصْفَين ، وَيُمشطُ بِأَمْشَاطِ الْحَدِيدِ مَا دُونَ لَحْمِهِ وَعَظْمِهِ ، مَا يَصُدُّهُ ذلك عَنْ دِينِهِ ، وَاللَّهِ لَيُتِمَّنَّ اللَّه هذَا الأَمرَ حَتَّى يَسيرَ الرَّاكِبُ مِنْ صَنْعَاء إِلَى حَضْرَمَوتَ لا يَخَافُ إِلَّا اللَّه وَالذِّئْبَ عَلَى غَنَمِهِ ، وَلكِنَّكُمْ تَسْتَعْجِلُونَ » [1] رواه البخاري . وفي رواية : « وَهُوَ مُتَوَسِّدٌ بُرْدَةً وَقَدْ لَقِينَا مِنَ الْمُشْرِكِينَ شِدَّةً » .

الشرح

حديث أبي عبدالله خباب بن الأرت ﷺ يحكي ما وجده المسلمون من الأذية من كفار قريش في مكة فجاؤوا يشكون إلى النبي ﷺ « وهو مُتَوسِّد بُردَة له في ظِل الكعبة » فبين النبي عليه الصلاة والسلام أنَّ من كان قَبْلَنا ابتلي في دينه أعْظمَ مما ابتلي به هؤلاء ! .

يُحْفَرُ له حُفْرة ثم يُلقى فيها ثم يؤتى بالمِنْشَار على مفرق رأسه ويشق ، وأيضًا يُمَشط بأمشاط الحديد ما بين جِلْدِه وعظمه ، وهذا تعزير عظيم وأذيَّة عظيمة .

ثم أقسم عليه الصَّلاة والسلام أنَّ اللَّه سبحانه سيتم هذا الأمر يعني سيتم ما جاء به الرسول عليه الصلاة والسلام من دعوة الإسلام ، حتى يَسير الراكب من صنعاء إلى حضرموت لا يخشى إلا اللَّه والذئب على غنمه ولكنكم تستعجلون أي فاصبروا وانتظروا الفرَج من اللَّه فإن اللَّه سيتم هذا الأمر . وقد صار الأمر كما أقسم عليه الصلاة والسلام .

ففي هذا الحديث : آية من آيات اللَّه حيث وقع الأمر مُطابقًا لما أخبر به النبي عليه الصلاة والسلام .

وآية من آيات النبي عليه الصلاة والسلام حيث صدقه اللَّه بما أخبر به وهذه شهادة له من اللَّه بالرسالة كما قال اللَّه : ﴿ لَّٰكِنِ ٱللَّهُ يَشْهَدُ بِمَآ أَنزَلَ إِلَيْكَ ۖ أَنزَلَهُۥ بِعِلْمِهِۦ ۖ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةُ يَشْهَدُونَ ۚ وَكَفَىٰ بِٱللَّهِ شَهِيدًا ﴾ [النساء: ١٦٦] .

وفيه أيضًا : دليل على وجوب الصبر على أذية أعداء المسلمين . وإذا صبر الإنسان ظفر!!

فالواجب على الإنسان أن يُقابل ما يَحصلُ من أذية الكفار بالصبر والاحتساب وانتظار الفرج ، ولا يظنن الأمرَينتهي بسرعة وينتهي بِسُهولة .

قد يبتلي اللَّه ﷻ المؤمنين بالكُفار يؤذونهم وربما يقتلونهم كما قتلوا الأنبياء .

اليهود من بني إسرائيل قتلوا الأنبياء الذين هم أعظم من الدعاة وأعْظم من المسلمين ، فليصبر ولينتظر الفرج ولا يمل ولايضجر بل يبقى راسِيًا كالصخرة والعاقبة للمتقين واللَّه تعالى مع الصابرين .

فإذا صبر وثابر ، وسَلك الطرق توصل إلى المقصود ولكن بدون فوضى وبدون استنفار وبدون إثارة بطريق منظمة ؛ لأن أعداء المُسْلمين من المنافقين والكفار يمشون على خُطًى ثابتة منظمة ويحصلون مَقْصُودهم .

---

(١) أخرجه البخاري في الإكراه (٦٩٤٣) ، وأحمد في مسنده (١١١/٥ ، ٣٩٥/٦) ، وأبو داود في سننه (٢٦٤٩) .

أما السَّطحيون الذين تأخذهم العواطف حتى يثُوروا ويستنفروا فإنَّه قد يفوتهم شيء كثير وربما حَصَل منهم زَلَّة تفسد كُلّ مَا بنوا إن كانوا قد بنوا شيئًا .

لكن المؤمن يَصْبر ويتئد ويعمل يتؤده ويوطِّن نفسه ويخطط تخطيطًا منظمًا يقضي به على أعداء اللَّه من المنافقين والكفار ويفوت عليهم الفرص ؛ لأنهم يتربصون الدَّوائر بأهل الخير ، يُريدون أن يثيروهم حتى إن حصل من بعضهم ما يحصل حينئذ استعلوا عليهم وقالوا : هذا الَّذي نُريد وحصل بذلك شر كبير .

فالرسول عليه الصلاة والسلام قال لأصحابه : اصبروا ، فالمؤمن فيمن قبلكم - وأنتم أحق بالصبر منه - كان يعمل به هذا العمل ويصبر فأنتم يا أمة محمد أمة الصبر والإحسان فاصبروا حتى يأتي اللَّه بأمْره والعاقبة للمتقين .

فأنت أيها الإنسان .. لا تسكت عن الشَّر ، ولكن اعملْ بنظام وبتخطيط وبحسن تصرف وانتظر الفرج من اللَّه ، ولا تمل فالدرب طويلٌ لاسيما إذا كنت في أول الفتنة ، فإن القائمين بها سوف يحاولون ما استطاعوا أن يصلوا إلى قمة ما يريدون فاقطع عليهم السبيل وكن أطْول منهم نفسًا وأشد منهم مكرًا فإن هؤلاء الأعداء يمكرون ويمكر اللَّه واللَّه خير الماكرين واللَّه الموفق .

* * *

٤٢ - وعن ابن مَسْعُودٍ ﷺ قال : لَمَّا كَانَ يَومُ حُنَين آثَر رسول اللَّه ﷺ نَاسًا في الْقِسْمَةِ ، فَأَعْطَى الأَقْرَعَ بْنَ حَابسٍ مائَةً مِنَ الإبلِ ، وَأَعْطَى عُيَينَة بْنَ حِصْن مثْل ذِلكَ ، وأَعْطَى نَاسًا مِنْ أشْرَافِ الْعَرَبِ وَآثَرَهُمْ يومَئِذٍ في الْقِسْمةِ . فَقَالَ رَجُلٌ : وَاللَّهِ إنَّ هَذِهِ قِسْمَةٌ مَا عَدل فِيهَا ، وَمَا أُرِيدَ فِيهَا وَجْهُ اللَّهِ ، فَقُلْتُ : وَاللَّه لأُخبرَنَّ رَسُولَ اللَّه ﷺ ، فَأَتَيتُهُ فَأَخْبَرْتُهُ بمَا قال ، فَتَغَيَّرَ وَجْهُهُ حَتَّى كَانَ كَالصِّرْفِ . ثُمَّ قال : « فَمَنْ يَعْدِلِ إذا لم يَعْدِلِ اللَّهُ وَرَسُولُهُ ؟ » ثُمَّ قال : « يَرْحَمُ اللَّهُ مُوسَى قَدْ أُوذِي بِأَكْثَرَ مِنْ هذاَ فَصَبر » فَقُلْتُ : لا جَرَمَ لا أَرْفَعُ إلَيهِ بَعْدَهَا حَدِيثًا [1] . متفقٌ عليه .

وَقَولُهُ « كَالصِّرْفِ » هُوَ بِكَسْرِ الصَّادِ الْمُهْمَلَةِ : وَهُوَ صِبْغٌ أَحْمَرُ .



الشرح

قوله : « لما كان يوم حنين » وهي غزوة الطَّائف التي كانت بعد فتح مكة ، غزاهم الرسول ﷺ وغنم منهم غنائم كثيرة جدًّا من إبل وغنم ودَرَاهِم ودنانير . ثم إن الرسول ﷺ نزل بالجِعرانة وهي محل عند منتهى الحرم من جهة الطائف .

نزل بها وصار يقسم الغنائم ، وقسم في المؤلفة قلوبهم - أي في زعماء القبائل - يؤلفهم على الإسلام ، وأعطاهم عطاءً كثيرًا حتى كان يُعطى الواحد منهم مائة من الإبل .

(١) أخرجه البخاري في فرض الخمس (٣١٥٠) ومسلم في الزكاة (١٤٠) واللفظ له .

فقال رجل من القوم : « واللَّه إن هذِهِ قِسمة ما عُدِلَ فيها ومَا أريد فيها وجْهُ اللَّه » نعوذ باللَّه!!

يقول هذا القول في قسمة قسمها رسول اللَّه ﷺ لكن حُب الدنيا والشَّيطان يوقع الإنسان في الهَلَكة .

هذه الكلمة كلمة كفر ، أن ينْسب اللَّهَ ورسولَه إلى عدم العَدل وإلى أن النبي لم يرد بها وجْه اللَّه .

ولا شك أن النبيِ ﷺ أراد بها وجه اللَّه ، أراد أن يؤلف كبار القبائل والعشائر من أجل أن يتقوَّى الإسلام ، لأن أسياد القوم إذا ألفوا الإسلام وقوي إيمانهم بذلك حصل منهم خير كثير وتبعهم على ذلك قبائل وعشائر ، واعتز الإسلام بهذا . ولكن الجهل - والعِياذ باللَّه - يُوقع صَاحبه في الهَلَكة .

عبد اللَّه بن مسعود ﷺ لما سمع هذه الكلمة تقال في رسول اللَّه ﷺ أخبره بها ، ورفعها إليه . أخبره بأن هذا الرجل يقول كذا وكذا فتغير وجه الرسول ﷺ حتى كان كالصرف - أي كالذهب - من صفرته وتغيره .

ثم قال : « فمنْ يعدل إذَا لَمْ يَعْدل اللَّه ورَسوله » وصدق الرسول عليه الصلاة والسلام إذا كانت قسمة اللَّه ليست عدلًا وقسمة رسوله ليست عدلًا فمن يعدل إذًا !

ثم قال : « يرحَم اللَّه موسى لقد أوذِي بأكثر مِنْ هذا فصَبَر » .

والشاهد هذه الكلمة : وهي أن الأنبياء يُؤذَون ويصْبرون ، فهذا نبينا ﷺ قيل له هذا الكلام بعد ثماني سنين من هجرته . يعني ليس في أول الدعوة ، بل بعدما مكن اللَّه له وبعدما عُرِفَ صدقه وبعدما أظهر اللَّه آيات الرسول في الآفاق وفي أنفسهم ، مع ذلك يقال : هذه القِسْمة لم يَعْدِل فيها ولم يُرِد بها وجه اللَّه ! .

فإذا كان هذا قول رجل في صحابة الرسول عليه الصلاة والسلام للنبي ﷺ فلا تستغرب أن يقول الناس في عالم من العلماء : إن هذا العالم فيه كذا وفيه كذا ويصِفُونه بالعُيوب ؛ لأن الشيطان هو الذي يَؤز (١) هؤلاء على أنْ يقدحوا في العلماء .

لأنهم إذا قدحوا في العلماء وسقطت أقوالهم عند الناس ما بقي للناس أحد يَقودُهم بكتاب اللَّه . بل تقودهم الشياطين وحزب الشيطان ولذلك كانتْ غيبة العلماء أعظم بكثير من غيبة غير العلماء ؛ لأن غيبة غير العلماء غيبة شخصية إن ضرت فإنها لا تضر إلا الذي اغتاب والذي قيلت فيه الغيبة ، لكن غيبة العلماء تَضرُ الإسلام كله ؛ لأن العلماء حملة لواء الإسلام فإذا سقطت الثقة بأقوالهم ، سقط لِواءُ الإسلام ، وسار في هذا ضَرر على الأمة الإسلامية .

فإذا كانت لحوم الناس بالغيبة لحوم ميتة فإن لحوم العلماء لحوم مَيتة مَسْمومة لما فيها من الضرر العظيم .

فأقول : لا تَستغرب إذا سمعت أحدًا يَسُب العلماء! وهذا رسول اللَّه ﷺ قيل فيه ما قيل ،

---

(١) يؤز : الأزُّ التهييج والإغراء .

فاصبر ، واحتسب الأجر من الله عَزَّوَجَلَّ واعلم أن العاقبة للتقوى . ما دام الإنسان في تقوى وعلى نور من الله عَزَّوَجَلَّ فإن العاقبة له .

كذلك يوجد بعض الناس يكون له صَديق أو قريب يخطِئ مرة واحدة فيصفه بالعيب والسب والشتم في خطيئة واحدة . على هذا الذي وصِفَ بالعيب أن يصبر ، وأن يعلم أن الأنبياء قد سُبوا وأوذوا وكُذبوا وقيل : إنهم مجانين وإنهم شعراء وإنهم كهنة وإنهم سحرة ﴿ فَصَبَرُوا۟ عَلَىٰ مَا كُذِّبُوا۟ وَأُوذُوا۟ حَتَّىٰٓ أَتَىٰهُمْ نَصْرُنَا ﴾ [الأنعام : ٣٤] هكذا يقول الله عَزَّوَجَلَّ .

ففي هذا الحديث : دليل على أن للإمام أن يُعْطِي من يَرَى في عطيته المصلحة ولو أكثر من غيره ، إذا كان في هذا مصلحة للإسلام ! ليست مصلحة شخصية يُحَابِي من يُحِب ويمنع من لايحب ، لا !

إذا رأى في هذا مصلحة للإسلام وزاد في العطاء ، فإن هذا إليه وهو مسؤول أمام الله ولا يحل لأحد أن يعترض عليه ، فإن اعترض عليه فقد ظلم نفسه .

وفيه : أن الرسول عليه الصلاة والسلام يعتبر بمن مضى من الرسل ، ولهذا قال : « لقد أوذِي مُوسى بأكثر من هذا فصبر » لأن الله يقول : ﴿ لَقَدْ كَانَ فِى قَصَصِهِمْ عِبْرَةٌ لِّأُو۟لِى ٱلْأَلْبَٰبِ ﴾ [يوسف : ١١١] ويقول : ﴿ أُو۟لَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ هَدَى ٱللَّهُ ۖ فَبِهُدَىٰهُمُ ٱقْتَدِهْ ﴾ [الأنعام : ٩٠] فأَمَرَ الله نبيه أن يقتدي بهدي الأنبياء قبله .

وهكذا ينبغي لنا نحن أن نقتدي بالأنبياء عليهم الصلاة والسلام في الصبر عَلَى الأذَى وأن نحتسب الأجر على الله وأن نعلم أن هذا زيادة في درجاتنا مع الاحتساب وتكفير لسيئاتنا والله الموفق .

* * *

٤٣ - وَعَن أنَسٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قال : قال رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ : « إِذَا أَرَادَ اللَّهُ بِعَبْدِهِ خَيرًا عَجَّلَ لَهُ الْعُقُوبَةَ في الدُّنْيَا ، وإِذَا أَرَادَ اللَّهُ بِعَبْدِهِ الشَّرَّ أَمْسَكَ عَنْهُ بذَنْبِهِ حَتَّى يُوَافِي بِهِ يَومَ الْقِيَامَةِ » [١] .

وَقَالَ النَّبيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ : « إنَّ عِظَمَ الجَزَاءِ مَعَ عِظَمِ الْبَلاءِ ، وَإنَّ اللَّهَ تعالى إذَا أحَبَّ قَوْمًا ابْتَلاهُمْ ، فَمَنْ رَضِيَ فَلَهُ الرِّضى ، وَمَنْ سَخِطَ فَلَهُ السُّخْطُ » [٢] رواه الترمذي وقَالَ : حَديثٌ حَسَنٌ .

الشرح

الأمور كُلُّها بيد الله عَزَّوَجَلَّ وبإرادته ؛ لأن الله يقول عن نفسه : ﴿ فَعَّالٌ لِّمَا يُرِيدُ ﴾ [هود : ١٠٧] ويقول : ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ يَفْعَلُ مَا يَشَآءُ ﴾ [الحج : ١٨] فكل الأمور بيد الله .

والإنسان لا يخلو من خطأ ومَعْصية وتقصير في الواجب ؛ فإذا أراد الله بعبده الخير عجَّل له العقوبة في الدُّنيا : إمَّا بماله أو بأهله أو بنفسه أو بأحد ممن يتصل به .

المهم أن تعجل له العقوبة ، لأن العقوبات تكَفر السيئات فإذا تعجلت العقوبة ، وكفر الله بها عن

(١ ، ٢) أخرجهما الترمذي في الزهد (٢٣٩٦) .

العبد فإنه يُوافي اللَّه وليس عليه ذنب قد طهرته المَصائب والبلايا ، حتى إنه لَيُشدد على الإنسان موته لبقاء سيئة أو سيئتين عليه ، حتى يخرج من الدنيا نقيًا من الذنوب ، وهذه نعمة ؛ لأن عذاب الدنيا أهون من عذاب الآخرة .

لكن إذا أراد اللَّه بعبده الشر ، أمهل له واستدرجه وأَدَرَّ عليه النِّعَم ، ودفع عنه النِّقَمَ حتى يبطر ؛ ويفرح فرحًا مذمومًا بما أنعم اللَّه به عليه .

وحينئذٍ يلَاقي ربه وهو مَغْمُور بسَيئاته فيُعَاقب بها في الآخرة نسأل اللَّه العافية . فإذا رأيت شخصًا يبَارز اللَّهَ بالعِصْيان وقد وقاه اللَّه البلاء وأدر عليه النعم فاعلم أن اللَّه إنما أراد به شرًّا ، لأن اللَّه أخرَّ عنه العقوبة حتى يُوافى بها يوم القيامة .

ثم ذكر في هذا الحديث : « إن عِظَم الجزَاء من عِظَم البَلاَء » يعني أنه كلما عظم البلاء عظم الجزاء . فالبلاء السهل له أجر يسير ، والبلاء الشديد له أجر كبير ؛ لأن اللَّه ﷻ ذُو فضل على الناس . إذا ابتلاهم بالشدائد أعطاهم عليها من الأجر الكبير وإذا هانت المصائب هان الأجر .

« وإن اللَّه إذا أحَب قومًا ابتَلاهم فمن رَضِي فلَهُ الرضى ومَن سَخِطَ فَلَه السخط » .

وهذه بُشْرى للمؤمن إذا ابتلي بالمصيبة فلا يظن أن اللَّه سُبْحانه يبْغِضهُ بل قد يكون هذا من علامة محبة اللَّه للعبد يبتليه سبحانه بالمَصَائب ، فإذا رضي الإنسان وصبر واحتسب فله الرضى ، وإن سخط فله السُّخط .

وفي هذا حث على أن الإنسان يصبر على المَصائب حتى يكتب له الرِّضى من اللَّه ﷻ واللَّه الموفق .

* * *

٤٤ – وَعَنْ أَنَسٍ رضي الله عنه قال : كَانَ ابْنٌ لأَبي طَلْحَةَ رضي الله عنه يَشْتَكِي ، فَخَرجَ أَبُو طَلْحَةَ ، فَقُبِضَ الصَّبيُّ ، فَلَمَّا رَجعَ أَبو طَلْحَةَ قال : مَا فَعَلَ ابْنِي ؟ قَالَتْ أُمُّ سُلَيم وَهِي أُمُّ الصَّبيِّ : هُوَ أَسْكَنُ مَا كَانَ ، فَقَرَّبتْ إلَيهِ الْعَشَاءَ فَتَعَشَّى ، ثُمَّ أَصَابَ مِنْهَا ، فَلَمَّا فَرَغَ قَالَت : وَارُوا الصبيَّ ، فَلَمَّا أَصْبَحَ أَبُو طَلْحَةَ أَتَى رسولَ اللَّه ﷺ فأَخبَرَهُ ، فَقَالَ : «أَعَرَّسْتُمُ اللَّيلَةَ (١) ؟ » قال : نَعَمْ ، قال : « اللَّهُمَّ بَارِكْ لَهُمَا » فولَدَتْ غُلامًا ، فَقَالَ لِي أَبُو طَلْحَةَ : احْمِلْهُ حَتَّى تأْتِيَ بِهِ النبي ﷺ ، وَبَعَثَ مَعَهُ بِتَمَرَاتٍ ، فَقَالَ : «أَمَعَهُ شَيءٌ ؟ » قال : نَعَمْ ، تَمَرَاتٌ ، فَأَخَذَهَا النَّبيُّ ﷺ فَمَضَغَهَا ، ثُمَّ أَخَذَهَا مِنْ فِيهِ فَجَعَلَهَا فِي فيِّ الصَّبيِّ ، ثُمَّ حَنَّكَهُ وَسَمَّاهُ عَبْدَ اللَّه . متفق عليه (٢) .

وفي روايةٍ للْبُخاريِّ قال ابنُ عُيَينَةَ : فَقَالَ رَجُلٌ منَ الأنْصارِ : فَرَأَيتُ تِسعةَ أولادٍ كُلُّهُمْ قَدْ قَرَؤُوا الْقُرْآنَ يَعْني مِنْ أولادِ عَبْدِ اللَّه الْمَوْلُودِ (٣) .

---

(١) أعْرَسَ الرجل : دخل بامرأته عند بنائه بها وأراد به ههنا : الوطء فسماه إعراسًا ؛ لأنه من توابع الإعراس . لسان العرب ص ٢٨٧٩ .
(٢) أخرجه البخاري في الحقيقة (٥٤٧٠) ، ومسلم في الآداب (٢٣) واللفظ له .
(٣) انظر صحيح البخاري في الجنائز (١٣٠١) .

وفي رواية لمسلم : مَاتَ ابنٌ لأَبي طَلْحَةَ مِنْ أُمِّ سُلَيم ، فَقَالَتْ لأَهْلِهَا : لا تُحَدِّثُوا أَبَا طَلْحَةَ بابنِه حَتَّى أَكُونَ أَنَا أُحَدِّثُهُ ، فَجاء فَقَرَّبَتْ إلَيه عَشَاء فَأَكَلَ وَشَرِبَ ، ثُمَّ تَصَنَّعَتْ لَهُ أَحْسَنَ مَا كَانَتْ تَصَنَّعُ قَبْلَ ذلِكَ ، فَوَقَعَ بهَا ، فَلَمَّا أَنْ رَأَتْ أَنَّهُ قَدْ شَبِعَ وَأَصَابَ مِنهَا قَالَتْ : يَا أَبَا طَلْحَةَ ، أَرأَيتَ لَو أَنَّ قَومًا أَعَارُوا عَارِيَتَهُمْ أَهلَ بَيتٍ فَطَلَبُوا عَارِيَتَهُمْ ، أَلَهُمْ أَنْ يَمْنَعُوهُمْ؟ قَالَ : لا ، فَقَالَتْ : فَاحْتَسِب ابْنَكَ . قَالَ : فَغَضِبَ ، ثُمَّ قال : تَرَكْتِني حَتَّى إذَا تَلَطَّخْتُ ثُمَّ أَخْبَرْتِني بابْني ؟! فَانطَلَقَ حَتَّى أَتَى رسول اللَّه ﷺ فَأَخبَرَهُ بمَا كَانَ ، فَقالَ رسولُ اللَّه ﷺ : « بَارَكَ اللَّهُ في لَيلَتكمَا » قال : فَحَمَلَتْ ، قال : وَكَانَ رسولُ اللَّه ﷺ في سَفَرٍ وَهيَ مَعَهُ ، وَكَانَ رسولُ اللَّه ﷺ إذَا أَتَى المَدِينَةَ مِنْ سَفَرٍ لا يَطْرُقُهَا طُرُوقًا ، فدَنَوا مِنَ المَدِينَةِ ، فَضَرَبَهَا المَخَاضُ ، فَاحْتَبَسَ عَلَيهَا أَبُو طَلْحَةَ ، وَانْطَلَقَ رسولُ اللَّه ﷺ . قَالَ : يَقُولُ أَبُو طَلْحَةَ : إنَّكَ لَتَعْلَمُ يَا رَبِّ أَنَّهُ يُعْجِبُنِي أَنْ أَخْرُجَ مَعَ رسول اللَّه ﷺ إذا خَرَجَ ، وَأَدْخُلَ مَعَهُ إذَا دَخَلَ ، وَقَد احْتَبَسْت بمَا تَرَى ، تَقُولُ أُمُّ سُلَيم : يَا أَبَا طَلْحَةَ مَا أَجِدُ الذي كُنْتُ أَجدُ ، انْطَلِقْ ، فَانْطَلَقْنَا ، وَضَرَبَهَا المَخَاضُ حينَ قَدِمَا فَوَلَدَتْ غُلامًا . فقالت لي أُمِّي : يَا أَنَسُ لا يُرْضِعُهُ أحَدٌ حَتَّى تَغْدُوَ بِهِ عَلَى رَسُول اللَّه ﷺ ، فَلَمَّا أَصْبَحَ احْتَمَلْتُهُ فَانطَلَقْتُ بِهِ إلى رسول اللَّه ﷺ [1] . وَذَكَر تَمَامَ الحَدِيث .

الشرح

حديث أنس بن مالك عن أبي طلحة أنَّه كان له ابن يشتكي يعني مريضًا ، وأبو طلحة كان زوج أم أنس بن مالك رضي الله عنه . وكان هذا الصبي يَشْتكي فخرج أبو طلحة لبعض حاجاته فقبض الصبي . يعني مات .

فلما رجع سأل أمه عنه فقال كيف ابني قالت : « هو أسكَنُ ما يَكون » وصَدقت في قولها هو أسكن ما يَكون ؛ لأنه مات ولا سُكون أعظم من الموت .

وأبو طلحة رضي الله عنه فَهِمَ أنه أسكن ما يكون من المرض وأنه في عافية ، فقدَّمتْ له العشاء فتعشى على أن ابنه بريء وطيب ثم أصَاب منها يعني : جَامعَها ، فلما انتهى قالت له : « وَارُوا الصبي » أي : ادفنوا الصبي ، فإنه قد مات .

فلما أصبح أبو طلحة رضي الله عنه ووارَى الصبي ، وعلم بذلك الرسول ﷺ .

فسأل : « هل أعرستم اللَّيلة ؟ » . قال : نعم فدعا لهما بالبركة « اللَّهمَ بَارِكْ لهُمَا في لَيلتِهما » فولدت غلامًا سمَّاه عبدالله وكان لهذا الولد تسعة أولاد كلهم يقرؤون القرآن ببركة دعاء الرسول ﷺ .

ففي هذا الحديث : دليل على قوة صبر أم سليم رضي الله عنها وأن ابنها الذي مات بلغ بها الحال إلى أن تقول لزوجها هذا القول وتواري هذه التورية وقدمت له العشَاء ونال منها ثم قالت ادفنوا الولد .

---

(١) أخرجه مسلم في فضائل الصحابة (١٠٧) .

وفي هذا دليل على جواز التورية يعني : أن يتكلم الإنسان بكلام تخالف نيته ما في ظاهر هذا الكلام . فله ظاهر هو المتُبادر إلى ذهن المخاطب وله معْنًى آخر مَرْجوح لكن هو المراد في نية المتكلم فيظهر خلاف ما يريد .

وهذا جائز ولكنه لا ينبغي إلا للحاجة إذا احتاج الإنسان إليه لمصلحة أو دفع مضرة فليوار ، وأما مع عدم الحاجة فلا ينبغي أن يُوارى ؛ لأنه إذا وارَى وظهر الأمر على خلاف ما يَظنه المخاطب نَسَبَ هذا الموارى إلى الكَذب وأسَاء الظن به لكن إذا دعت الحاجة فلا بأس .

ومن التورية المفيدة التي يحتاج إليها الإنسان : لو أن شخصًا ظَالمًا يأخذ أموال الناس بغير حق ، وأودع إنسان عندك مَالًا قال : هذا مَالي عندك ودِيعة أخشى أن يَطلع عليه هذا الظالم فيأخذه .

فجاء الظالم إليك وسألك هل عندك مال لفلان فقلت : واللَّه ما لَه عندي شيء .

المُخاطَب يَظُنُّ أن هذا نفي وأن المعنى ما عندي له شيء لكن أنت تنوي بـ (ما) الذي ، أي : الذي عندي له شيء ، فيكون هذا الكلام مُثْبتًا لا منفيًا ، هذا من التورية المباحة بل المطلوبة إذا دعت الحاجة إليها .

وفي هذا الحديث : أن الرسول ﷺ لما جاء أنس بن مالك بأخيه من أمه - ابن أبي طلحة - جاء به إلى النبي عليه الصَّلاة والسلام ومعه تمرات فأخذه النبي ﷺ ومضغ التمرات ثم جعلها في فِّي الصبي أي أدخلها في فمه وحنكه أي أدخل أصبعه ودَارَهُ في حَنَكه وذلك تَبَرُّكًا بِريق الرسول - عليه الصلاة والسلام - ليكون أول ما يصِلُ إلَى بطْن هذا الصبي ريق الرسول - عليه الصلاة والسلام - ، وكان الصحابة يفعلون هذا إذا ولد لهم أولاد بنين وبنات جاؤوا بهم إلى رسول اللَّه ﷺ وجاؤوا بالتمرات معهم من أجل أن يحنكه .

وهذا التحنيك هل هو لبركة ريق النبي ﷺ أومن أجل أن يصل التمر إلى معدة الصبي قبل كل شيء ؟

إن قلنا بالأول صار التحنيك من خصائص الرسول عليه الصلاة والسلام فلا يحَنِّك أحد صبيًّا ؛ لأنه لا أحد يُتبَرَّكُ بِريقه وعرقه إلَّا رسول اللَّه ﷺ .

وإن قلنا بالثاني إنه من أجل التمرات ، يكون هو أول ما يصل إلى معدة الصَّبي ؛ لأنه يكون لها بمنزلة الدباغ فإننا نقول كل مولود يحنك .

وفي هذا الحديث : آية من آيات اللَّه ﷻ حيث دعا لهذا الصبي فبارك اللَّه فيه وفي عقبه ، وكان له كما ذكرنا تسعة من الولد كلهم يَقْرَؤون القرآن ببركة دعاء الرسول عليه الصلاة والسلام .

وفيه : أنه يستحب التَّسمية بعبداللَّه فإن التسمية بهذا وبعبد الرحمن أفضل ما يكون . قال النبي ﷺ : « إن أحب أسمائكم إلى اللَّه ، عبد اللَّه وعبدُ الرحمن »[1] .

---

(١) أخرجه مسلم في الآداب (٢) واللفظ له ، والترمذي (٢٨٣٤) ، والبيهقي في سننه (٣٠٦/٩) .

وأما مَا يروى أن « خير الأسْماءِ مَا حُمِّدَ وعُبِّدَ » [١] فلا أصل له ، وليس حديثًا عن رسول اللّه ﷺ الحديث الصحيح : « أحب الأسماءِ إلى اللّه ؛ عَبدُالرحمن وعبدُ اللّه ، وأصدقها حَارث وهَمام » [٢] لأنها مُطَابِقة للواقع . كل واحد من بني آدم فهو حارث :يعمل ، وكل واحد من بني آدم فهو هَمَّام : يهم وينوي ويقصد وله إرادة .

قال اللّه تعالى : ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلْإِنسَٰنُ إِنَّكَ كَادِحٌ إِلَىٰ رَبِّكَ كَدْحًا فَمُلَٰقِيهِ ﴾ [الإنشقاق : ٦] كل إنسان يعمل .

ولهذا ينبغي للإنسان أن يختار لأبنائه وبناته أحْسنَ الأسماء ؛ لينال بذلك الأجر وليكون محسنًا لأبنائه وبناته .

أما أن يأتي بأسماء غريبة على المجتمع ، فإن هذا قد يوجب مضايقات نفسية للأبناء والبنات في المستقبل ، ويكون كل هم ينال الولد من هذا الاسم فعليك إثمه ووباله ؛ لأنك أنت المتسبب لمضايقته بهذا الاسم الغريب الذى يشار إليه ويقال : انظر إلى هذا الاسم أنظر إلى هذا الاسم !! .

ولهذا ينبغي للإنسان أن يختار أحسن الأسماء .

ويحرم أن يسمي الإِنسان أسماء من خصائص أسماء الكفار مثل : جورج وما أشبه ذلك من الأسماء التي يتلقب بها الكفار ؛ لأن هذا من باب التشبه بهم ، وقد قال النبي ﷺ : « من تشبه بقوم فهو منهم » [٣] . ويجب علينا نحن المسلمين أن نكره الكفار كرهًا عظيمًا ، وأن نعاديهم ، وأن نعلم أنهم أعداء لنا مهما تزينوا لنا وتقربوا لنا فهم أعداؤنا حقًّا وأعداء اللّه ﷻ وأعداء الملائكة وأعداء الأنبياء وأعداء الصالحين ، فهم أعداء ولو تلبسوا بالصداقة أو زعموا أنهم أصدقاء ، فإنهم واللّه هم الأعداء ، فيجب أن نعاديهم ولا فرق بين الكفار الذين لهم شأن وقيمة في العالم أو الكفار الذين ليس لهم شأن !

حتى الخدم والخادمات يجب أن نكره أن يكون في بلدنا خادم أو خادمة من غير المسلمين .

لا سيما وأن نبينا محمدًا ﷺ يقول : « أخرجوا اليهود والنصارى من جزيرة العرب » [٤] ويقول : « لأخرجن اليهود والنصارى من جزيرة العرب حتى لا أدع إلا مسلمًا » [٥] .

ويقول في مرض موته ، في آخر حياته وهر يودع الأمة « أخرجوا المشركين من جزيرة العرب » [٦] .

---

(١) كشف الخفاء للعجلوني (٤٦٨/١) .

(٢) أخرجه الإمام أحمد في مسنده (٣٤٥/٤) ، وأبو داود في سننه (٤٩٥٠) .

(٣) أخرجه الإمام أحمد في مسنده (٥٠/٢) ، وأبو داود في سننه (٤٠٣١) .

(٤) أخرجه البخاري في الجزية (٣١٦٨) ، ومسلم في الوصية (٢) بلفظ « أخرجوا المشركين من جزيرة العرب » وذكره الهندي في الكنز (١١٠/٥) بلفظه .

(٥) أخرجه مسلم في الجهاد (٦٣) ، والترمذي (١٦٠٧) ، وأبو داود في سننه (٣٠٣٠ ، ٣٠٣١) .

(٦) أخرجه البخاري في الجهاد والسير (٣٠٥٣) ، وفي الجزية (٣١٦٨) ، ومسلم في الوصية (٢٠) .

وبعض الناس الآن يخير بين عامل مسلم وعامل كافر فيختار الكافر ، نسأل الله العافية .

قلوب زائغة ضالة ، ليست إلى الحق مائلة .

يزين لهم الشيطان أعمالهم يقولون كذبًا وزورًا وبهتانًا : إن الكافر أخلص في عمله من المسلم ! أعوذ بالله ! يقولون : إن الكافر لا يصلي بل يستغل وقته في العمل في وقت الصلاة ، ولا يطلب الذهاب إلى العمرة أو الحج ولا يصوم ، هو دائمًا في عمل . ولا يهمهم هذا الشيء مع أن خالق الأرض والسماوات يقول : ﴿ وَلَعَبْدٌ مُّؤْمِنٌ خَيْرٌ مِّن مُّشْرِكٍ وَلَوْ أَعْجَبَكُمْ أُولَٰئِكَ يَدْعُونَ إِلَى النَّارِ وَاللَّهُ يَدْعُوا إِلَى الْجَنَّةِ وَالْمَغْفِرَةِ بِإِذْنِهِ ﴾ [البقرة : ٢٢١] فيجب عليكم أيها الإخوة يا من استمعتم إلى قولنا هذا أن تناصحوا إخوانكم الذين اغتروا وزين لهم الشيطان جلب الكفار إلى بلادنا خدمًا وعمالًا وما أشبه ذلك ، يجب أن يعلموا أن في ذلك إعانة كبيرة للكفار على المسلمين ؛ لأن هؤلاء الكفار يؤدون ضرائب لحكوماتهم لتقويتها على المسلمين .

والشواهد على هذا كثيرة فالواجب علينا أن نتجنب الكفار بقدر ما نستطيع ، فلا نتسمى بأسمائهم ولا نوادهم ولا نحترمهم ولا نبدؤهم بالسلام ولا نفسح لهم الطريق ؛ لأن الرسول ﷺ يقول : « لا تبدؤوا اليهود ولا النصارى بالسلام ، وإذا لقيتموهم في الطريق فاضطروهم إلى أضيقه » [١] .

أين نحن من هذه التعليمات !؟ أين نحن من كلام الرسول ﷺ الذي لا ينطق عن الهوى ؟ لماذا لا نحذر إذا كثر فينا الخبث من الهلاك ؟ استيقظ النبي عليه الصلاة والسلام ذات ليلة محمرًا وجهه فقال : « لا إله إلا الله ويل للعرب من شر قد اقترب » إنذار وتحذير ، ويل للعرب : حملة لواء الإسلام من شر قد اقترب ؛ « فتح اليوم من ردم يأجوج ومأجوج مثل هذه وقال بأصبعه الإبهام والسبابة » ، قالت زينب : يا رسول الله أنهلك وفينا الصالحون ؟ قال : « نعم إذا كثر الخَبَث » [٢] .

الخبث العملي والخبث البشري !

إذا كثر الخبث في أعمالنا فنحن عرضة للهلاك !

إذا كثر البشر النجس في بلادنا فنحن عرضة للهلاك والواقع شاهد بهذا نسأل الله أن يحمي بلادنا من أعدائنا الظاهرين والباطنين وأن يكبت المنافقين والكفار ويجعل كيدهم في نحورهم إنه جواد كريم .

قوله : « أرأيت لو أن قومًا أعاروا عاريتهم أهل بيت ثم طلبوا عاريتهم ألهم أن يمنعوهم ؟ قال : لا ، فقالت : فاحتسب ابنك » .

يعني : أن الأولاد عندنا عارية وهم ملك لله ﷻ متى شاء أخذهم ، فضربت له هذا المثل من أجل أن يقتنع ويحتسب الأجر على الله ﷻ .

---

(١) أخرجه الإمام مسلم في السلام (١٣) ، والترمذي (١٦٠٢ ، ٢٧٠٠) .

(٢) أخرجه البخاري في أحاديث الأنبياء (٣٣٤٦) ، واللفظ له ومسلم في الفتن (١، ٢) .

وهذا يدل على ذكائها رضي الله عنها وعلى أنها امرأة عاقلة صابرة محتسبة وإلا فإن الأم كالأب ينالها من الحزن على ولدها مثل ما ينال الأب وربما تكون أشد حزنًا لضعفها وعدم صبرها .

وفي هذا الحديث : بركة دعاء النبي ﷺ حيث إنه كان له تسعة من الولد كلهم يقرؤون القرآن .

وفيه : كرامة لأبي طلحة رضي الله عنه لأن أبا طلحة كان قد خرج مع النبي ﷺ في سفر وكانت معه أم سليم بعد أن حملت ، فلما رجع النبي ﷺ من السفر أتاها المخاض أي جاءها الطلق قبل أن يصلوا إلى المدينة وكان الرسول ﷺ « لا يحب أن يطرق أهله طروقًا » أي لا يحب أن يدخل عليهم ليلًا دون أن يخبرهم بالقدوم ، فدعا أبو طلحة رضي الله عنه ربه وقال : اللَّهم إنك تعلم أنني أحب أن لا يخرج النبي ﷺ مخرجًا إلا وأنا معه ولا يرجع مرجعًا إلا وأنا معه وقد أصابني ما ترى - يناجي ربه رضي الله عنه - تقول أم سليم : « فما وجدت الذي كنت وجدته من قبل » يعني هان عليها الطلق ولا كأنها تطلق .

قالت أم سليم لزوجها أبي طلحة : انطلق ، فانطلق ، ودخل المدينة مع رسول اللَّه ﷺ .

ولما وصلوا إلى المدينة وضعت ، ففي هذا كرامة لأبي طلحة رضي الله عنه حيث خفف اللَّه الطلق على امرأته بدعائه ثم لما وضعت قالت أم سليم لابنها أنس بن مالك وهو أخو هذا الحمل الذي ولد من أمه .

قالت : احتمله إلى رسول اللَّه ﷺ أي اذهب به ، كما هي عادة أهل المدينة إذا ولد لهم ولد ؟ يأتون به إلى رسول اللَّه ﷺ ومعهم تمر فيأخذ الرسول ﷺ التمرة فيمضغها بفمه ثم يحنك بها الصبي لأن في ذلك فائدتين :

الأولى : بركة ريق النبي ﷺ وكان الصحابة رضي الله عنهم يتبركون بريق النبي ﷺ وبعرقه ، حتى إنه من عادتهم أنه إذا كان في الصباح وصلوا الفجر أتوا بآنية فيها ماء فغمس الرسول ﷺ يديه في الماء ، وعرك يديه في الماء ، فيأتي الصبيان بهذا الماء ، ثم ينطلقون به إلى أهليهم يتبركون بأثر النبي ﷺ [١] .

وكان الصحابة إذا توضأ النبي عليه الصلاة والسلام كادوا يقتتلون على وضوئه أي فضل الماء يتبركون به وكذلك من عرقه وشعره [٢] .

حتى كان عند أم سلمة - إحدى زوجات الرسول عليه الصلاة والسلام وإحدى أمهات المؤمنين - عندها جلجل من فضة أي مثل (الطابوق) فيه شعرات من شعرات النبي ﷺ يستشفون بها أي يأتون بشعرتين أو ثلاث فيضعونها في الماء ثم يحركونها من أجل أن يتبركوا بهذا الماء ، لكن هذا خاص بالنبي عليه الصلاة والسلام .

الفائدة الثانية : من التمر الذي كان يحنكه الصبيان أن التمر فيه خير وبركة وفيه فائدة للمعدة فإذا كان أول ما يصيب الطفل مما يصل إلى معدته من التمر كان ذلك خيرًا للمعدة .

فحنكه الرسول عليه الصلاة والسلام ودعا له بالبركة والشاهد من هذا الحديث أن أم سليم قالت

---

(١) انظر صحيح مسلم في الفضائل (٨٣ ، ٨٤ ، ٨٥) ، والإمام أحمد في مسنده (٣/١١٢) .

(٢) انظر صحيح مسلم في الفضائل (٧٤ ، ٧٥) ، والإمام أحمد في مسنده (٣/١٣٧) .

لأبي طلحة : احتسب ابنك : أي اصبر على ما أصابك من فقده واحتسب الأجر على الله والله الموفق .

* * *

٤٥ - وَعَنْ أبي هُرَيرَة ﷺ أن رسول الله ﷺ قال : « لَيسَ الشديدُ بالصُّرَعةِ ، إنَّمَا الشَّديدُ الَّذِي يَمْلِكُ نَفْسَهُ عِنْدَ الغَضَبِ »[(١)] متفقٌ عليه .

« وَالصُّرعَةُ » بضَمِّ الصاد وَفَتْحِ الرَّاء ، وَأَصْلُهُ عِنْدَ العَرَبِ مَنْ يَصْرَعُ النَّاسَ كَثِيرًا .

٤٦ - وَعَنْ سُلَيمَانَ بْنِ صرَدٍ ﷺ قال : كُنْتُ جَالسًا مَعَ النَّبيِّ ﷺ ، وَرَجُلان يَسْتَبَّان ، وَأَحَدُهُمَا قَد احْمَرَّ وَجْهُهُ ، وانْتَفَخَتْ أَودَاجُهُ . فقال رسولُ الله ﷺ : « إنِّي لأَعْلَمُ كَلِمَةً لَو قَالَهَا لَذَهَبَ عَنْهُ ما يَجِدُ ، لَو قَالَ : أَعُوذُ باللَّه مِنَ الشَّيطَان الرَّجِيم ذَهَبَ عَنْهُ مَا يَجِدُ » . فَقَالوا لَهُ : إنَّ النَّبيَّ ﷺ قَالَ : « تعَوَّذْ باللَّهِ مِنَ الشَّيطَانِ الرَّجِيمِ »[(٢)] متفق عليه .

هذان الحديثان اللذان ذكرهما المؤلف في الغضب جمرة يلقيها الشيطان في قلب ابن آدم ، فيستشيط غضبًا ويحتمي جسده وتنتفخ أوداجه ويحمروجهه ويتكلم بكلام لا يعقله أحيانًا ويتصرف تصرفًا لايعقله أيضًا .

ولهذا جاء رجل إلى رسول الله ﷺ فقال : « أوصني قال : لا تغضب قال : أوصني قال : لا تغضب قال : أوصني قال : لا تغضب » .

وبين النبي عليه الصلاة والسلام في حديث أبي هريرة هذا الذي ذكره المؤلف رحمه الله أن الشديد ليس بالصرعة فقال : « ليس الشديد بالصرعة » أي : ليس القوي في الصرعة الذي يكثر صرع الناس فيطرحهم ويغلبهم .

هذا يقال عنه عند الناس : إنه شديد وقوي ، لكن النبي ﷺ يقول : ليس هذا هو الشديد حقيقة « إنما الشديد الذي يملك نفسه عند الغضب » أي : القوي حقيقةً هو الذي يصرع نفسه إذا صارعته وغضب ملكها ، وتحكم فيها ، لأن هذه هي القوة الحقيقية .

قوة داخلية معنوية يتغلب بها الإنسان على الشيطان ؛ لأن الشيطان هو الذي يلقي الجمرة في قلبك من أجل أن تغضب .

ففي هذا الحديث : الحث على أن يملك الإنسان نفسه عند الغضب وأن لا يسترسل فيه لأنه يندم بعده . كثيرًا ما يغضب الإنسان فيطلِّق امرأته وربما تكون هذه الطلقة آخر تطليقة .

كثيرًا ما يغضب الإنسان فيتلف ماله إما بالحرق أو بالتكسير . كثيرًا ما يغضب على ابنه حتى يضربه وربما مات بضربه ، وكذلك يغضب على زوجته - مثلًا - فيضربها ضربًا مبرحًا وما أشبه ذلك من الأشياء الكثيرة التي تحدث للإنسان وقت الغضب ؛ ولهذا نهى النبي ﷺ أن يقضي القاضي بين اثنين وهو غضبان ؛ لأن الغضب يمنع القاضي من تصور المسألة ، ثم من تطبيق الحكم الشرعي عليها فيهلك ويحكم

بين الناس بغير الحق . وكذلك ذكر المؤلف رَحِمَهُ اللَّهُ حديثًا لسليمان بن صرد رضي الله عنه في رجلين استبَّا عند الرسول صلى الله عليه وسلم فغضب أحدهما حتى انتفخت أوداجه وأحمرَّ وجهه فقال النبي صلى الله عليه وسلم : « إني لأعلم كلمة لو قالها لذهب عنه ما يجد لو قال أعوذ بالله من الشيطان الرجيم » أعوذ بالله أي : أعتصم به . « من الشيطان الرجيم » : لأنَ ما أصابه من الشيطان ، وعلى هذا فنقول المشروع للإنسان إذا غضب أن يحبس نفسه وأن يصبر وأن يتعوذ بالله من الشيطان الرجيم وأن يتوضأ فإن الوضوء يطفئ الغضب .

وإن كان قائمًا فليقعد وإن كان قاعدًا فليضطجع وإن خاف خرج من المكان الذي هو فيه حتى لا ينفذ غضبه فيندم بعد ذلك والله الموفق .

* * *

٤٧ - وَعَنْ مُعَاذِ بْنِ أنس رضي الله عنه أَنَّ النَّبِيَّ صلى الله عليه وسلم قَالَ : « مَنْ كَظَمَ غيظًا وَهُوَ قَادِرٌ عَلَى أَنْ يُنْفِذَهُ ؛ دَعَاهُ اللَّهُ سبحانه وتعالى عَلَى رؤوسِ الخَلَائِقِ يَومَ القِيَامةِ حَتَّى يُخَيِّرَهُ مِنَ الحورِ العِين مَا شَاءَ » [1] رواهُ أَبُو دَاوُدَ ، والتِّرمِذيُّ وقال : حديثٌ حسن .

٤٨ - وَعَنْ أَبي هُرَيرَة رضي الله عنه أَنْ رَجُلًا قَالَ للنَّبيِّ صلى الله عليه وسلم : أوصِني ، قَالَ : « لا تَغْضَبْ » فَرَدَّدَ مِرَارًا ، قَالَ : « لا تَغْضَبْ » [2] رواه البخاري .

٤٩ - وَعَنْ أَبي هُرَيرة رضي الله عنه قال : قال رسول اللَّه صلى الله عليه وسلم : « مَا يَزَال البَلاءُ بالمُؤْمِنِ وَالمُؤْمِنَةِ في نَفْسِهِ وَوَلَدِهِ ومَالِهِ حَتَّى يَلْقَى اللَّه تعالى وَمَا عَلَيهِ خطِيئَةٌ » [3] رواه التِّرمِذيُّ وقال : حدِيثٌ حسنٌ صحِيحٌ

الشرح

هذه الأحاديث في باب الصبر تدل على فضيلة الصبر .

أما الحديث الأول : حديث معاذ بن أنس رضي الله عنه أن النبي صلى الله عليه وسلم قال : « من كظم غيظًا وهو قادر على أن ينفذه دعاه اللَّه سبحانه وتعالى على رؤوس الخلائق يوم القيامة ... » الحديث .

الغيظ : هو الغضب الشديد ، والإنسان الغاضب هو الذي يتصور نفسه أنه قادر على أن ينفذ لأن من لا يستطيع لا يغضب لكنه يحزن ، ولهذا يوصف اللَّه بالغضب ولا يوصف بالحزن ؛ لأن الحزن نقص والغضب في محله كمال فإذا اغتاظ الإنسان من شخص وهو قادر على أن يفتك به ولكنه ترك ذلك ابتغاء وجه اللَّه وصبرعلى ما حصل له من أسباب الغيظ فله هذا الثواب العظيم أنه يُدعى على رؤوس الخلائق يوم القيامة ويخير من أي الحور شاء .

وأما الحديث الثاني : حديث أبي هريرة رضي الله عنه أن رجلًا قال : يا رسول اللَّه أوصني قال : لا

---

(١) أخرجه أبو داود واللفظ له في الأدب (٤٧٧٧) ، والترمذي في البر والصلة (٢٠٢١) ، وأحمد في مسنده (٣/٤٤٠) .
قوله : « من كظم غيظًا » أي تجرعه واحتمل سببه وصبر عليه .

(٢) أخرجه البخاري واللفظ له في الأدب (٦١١٦) ، والإمام أحمد في مسنده (٢/١٧٥) ، والبيهقي في سننه (١٠/١٠٥) .

(٣) أخرجه الترمذي واللفظ له في الزهد (٢٣٩٩) .

تغضب ، فردد مرارًا فقال : لا تغضب فقد سبق الكلام عليه .

والحديث الثالث : دليل على أن الإنسان إذا صبر واحتسب الأجر عند اللَّه كفَّر اللَّه عنه سيِّئاته ، إذا أصيب الإنسان ببلاء في نفسه أو ولده أو ماله ثمَّ صبر على ذلك فإن اللَّه سبحانه وتعالى لا يزال يبتليه بهذا حتى لا يكون عليه خطيئة ، ففيه دليل على أن المصائب في النَّفس والولد والمال تكون كفَّارة للإنسان ، حتى يمشي على الأرض وليس عليه خطيئة ولكن هذا إذا صبر .

أما اذا تسخَّط فإن من تَسخَّط فله السخط واللَّه الموفق .

* * *

٥٠ - وَعَنِ ابْن عَبَّاسٍ رضي الله عنهما قال : قَدِمَ عُيَينَةُ بْنُ حِصْنٍ فَنَزَلَ عَلَى ابْنِ أخِيهِ الحُرِّ بْنِ قِيسٍ ، وَكَانَ مِنَ النَّفَر الَّذِينَ يُدنِيهِمْ عُمرُ رضي الله عنه وَكَانَ القُرَّاءُ أَصْحَابَ مَجْلِس عُمَر رضي الله عنه وَمُشَاوَرَته كُهُولا كَانُوا أو شُبَّانًا ، فَقَالَ عُيَينَةُ لابن أخِيهِ : يَا ابْنَ أخِي لَكَ وَجْهٌ عِندَ هذَا الأمِير فَاسْتأذِنْ لِي عَلَيه ، فاسْتَأْذَنَ ، فَأَذنَ لَهُ عُمَرُ . فَلَمَّا دَخلَ قال : هِي يَا ابْنَ الخَطَّابِ ، فَوَاللَّهِ مَا تُعْطِينَا الجَزْلَ وَلا تَحْكُمُ فِينَا بالعَدْل ، فَغَضِبَ عُمَرُ رضي الله عنه حَتى هَمَّ أَنْ يُوقِعَ به ، فَقَالَ لَهُ الحُرُّ : يَا أَمِيرَ المُؤمِنينَ إنَّ اللَّهُ تعالى قَالَ لِنَبيِّهِ ﷺ : ﴿ خُذِ ٱلْعَفْوَ وَأْمُرْ بِٱلْعُرْفِ وَأَعْرِضْ عَنِ ٱلْجَٰهِلِينَ ﴾ [الأعراف : ١٩٨] وَإنَّ هذَا مِنَ الجَاهِلِينَ ، وَاللَّهِ مَا جَاوَزَهَا عُمَرُ حينَ تَلاهَا ، وَكَانَ وَقَّافًا عندَ كتَاب اللَّه تعالى [١] . رواه البخاري .

الشرح

ذكر المؤلف في سياق ذكر أحاديث الصبر حديث ابن عباس عن عمربن الخطاب رضي الله عنه أمير المؤمنين الخليفة الثاني ، وأبو بكر هو الأول . وكان قد اشتهر بالعدل بين الرعية وبالتَّواضع بالحق حتى أن المرأة ربما تذكره بالآية في كتاب اللَّه فيقف عندها ولا يتجاوزها فقد قدم عليه عيينة بن حصن وكان من كبار قومه فقال له : « هي يا ابن الخطاب » هذه كلمة استنكار وتلوُّن : وقال له : إنك لا تعطينا الجزل ولا تحكم فينا بالعدل .

انظر إلى هذا الرجل يتكلم على هذا الخليفة المشهور بالعدل بهذا الكلام مع أن عمر كما قال ابن عباس رضي الله عنه : « كان جلساؤه القُراء » القُراء من أصحاب رسول اللَّه ﷺ هم جلساؤه سواء كانوا شيوخًا أوكهولًا أو شَبَابًا يشاورهم ويدنيهم وهكذا ينبغي لكل أمير أو خليفة أن يكون جلساؤه الصالحين ، لأنه إن قيض له جلساء غير صالحين هَلَك وأهلَك الأمة . وإن يسر اللَّه له جلساء صالحين نَفَع اللَّه به الأمة ، فالواجب على ولي الأمر أن يختار من الجُلساء أهل العلم والإيمان وكان الصحابة رضي الله عنهم القُراء منهم هم أهل العلم ، لأنهم لا يتجاوزون عَشْر آيات حتى يتعلموا ما فيها من العلم والعمل .

---

(١) أخرجه البخاري باختلاف في اللفظ في الاعتصام (٧٢٨٦) قوله : « فو اللَّه ما تعطينا الجزل » أي ما تعطينا الشيء الكثير أو العطاء الكثير .

لما قال هذا الرجل هذا الكلام لعمر ، غضب ﷺ غضبًا حتى كاد أن يهمّ به أي : يضربه أو يبطش به .

ولكن ابن أخي عيينة بن حصن الحرّ بن قيس قال له : يا أمير المؤمنين إن اللّه تعالى قال لنبيه ﷺ ﴿ خُذِ ٱلۡعَفۡوَ وَأۡمُرۡ بِٱلۡعُرۡفِ وَأَعۡرِضۡ عَنِ ٱلۡجَٰهِلِينَ ﴾ [الأعراف : ١٩٩] وإن هذا مَن الجاهلين .

فوقف عندها عمر ولم يتجاوزها ؛ لأنه كان وقافًا عند كتاب اللّه ﷺ وأرضاه . فوقف ، ما ضرب الرَّجل وما بطش به لأجل الآية التي تليت عليه . وانظر الى أدب الصحابة ﷺ عند كتاب اللّه لا يتجاوزون . إذا قيل لهم : هذا قول اللّه . وَقَفُوا مهما كان ، فقوله تعالى : ﴿ خُذِ ٱلۡعَفۡوَ ﴾ أي : خذ ما عفا من الناس وما تيسر ولا تطلب حَقَّك كُلَّه لأنَّه لايحصل لك . وقوله : ﴿ وَأۡمُرۡ بِٱلۡعُرۡفِ ﴾ أي : وأمر بما عرفه الشرع وعرفه الناس ، ولا تأمر بمنكر ولا بغير العرف ، لأن الأمور ثلاثة أقسام :

١ - منكر يجب النهي عنه . ٢ - وعُرْفٌ يؤمر به .

٣ - وما ليس بهذا ولا بهذا فإنَّه يسكت عنه . ولكن على سبيل النَّصيحة لا يقول قولًا إلا فيه الخير لقول النبي ﷺ : « مَنْ كانَ يؤمِنُ بِاللَّه وَاليَومِ الآخِرِ ... فَلْيَقُل خَيرًا أو لِيَصْمُت » [(١)] .

وأما قوله : ﴿ وَأَعۡرِضۡ عَنِ ٱلۡجَٰهِلِينَ ﴾ فالمعنى : أن من جهل عليك وتطاول عليك فأعرض عنه ، لا سيما إذا كان إعراضك ليس ذُلًا وخُنوعًا . مثل عمر بن الخطاب ؛ إعراضه ليس ذُلًّا وخُنوعًا فهو قادر على أن يبطش بالرَّجل ، لكن امتثل هذا الأمر وأعرض عن الجاهلين . والجهل له معنيان :

أحدهما : عدم العلم بالشَّيء .

والثاني : السَّفه والتَّطاول ومنه قول الشاعر الجاهلي .

أَلَا لا يَجْـهَـلَـن أحد عـلـينا ... فَـنَـجْـهَـلَ فَـوقَ جَـهْـلِ الجاهِـلينا

أي لا يسفه علينا أحد ويتطاول علينا فنكون أشد منه ، لكن هذا شعر جاهلي!! أما الأدب الإسلامي فإن اللّه يقول : ﴿ وَلَا تَسۡتَوِي ٱلۡحَسَنَةُ وَلَا ٱلسَّيِّئَةُۚ ٱدۡفَعۡ بِٱلَّتِي هِيَ أَحۡسَنُ فَإِذَا ٱلَّذِي بَيۡنَكَ وَبَيۡنَهُۥ عَدَٰوَةٞ كَأَنَّهُۥ وَلِيٌّ حَمِيمٞ ﴾ [فصلت : ٣٤] .

سبحان اللّه !! إنسان بينك وبينه عداوة أساء إليك ادفع بالتي هي أحسن ، فإذا دفعت بالتي هي أحسن - فورًا - يأتيك الثواب والجزاء وقوله : ﴿ وَلِيٌّ حَمِيمٞ ﴾ أي قريب صديق في غاية ما يكون من الصداقة والقرب الذي يقوله مَنْ ؟ ... هو اللّه ﷻ مُقَلِّب القُلوب ، ما من قلب من قلوب بني آدم إلا بين أصبعين من أصابع الرحمن ﷻ يُصَرِّفه كيف يشاء . فهذا الذي كان عدوًّا لك ودافعته بالتي هي أحسن فإنه ينقلب بدل العداوة صداقة .

فالحاصل : أن هذه الآية الكريمة . ﴿ خُذِ ٱلۡعَفۡوَ وَأۡمُرۡ بِٱلۡعُرۡفِ ... ﴾ الآية [الأعراف : ١٩٩] لما تليت على أمير المؤمنين عمربن الخطاب ﷺ وقف ولم يبطش بالرجل ولم يأخذه على جهله .

---

(١) أخرجه البخاري في الأدب (٦٠١٨) وهذا جزء من الحديث ، ومسلم في الإيمان (٧٥ ، ٧٦) ، والترمذي في السنن (١٩٦٧) .

فينبغي لنا إذا حصلت هذه الأمور كالغضب والغيظ أن نتذكر كتاب الله وسنة رسوله ﷺ من أجل أن نسير على هديه ، من أجل أن لا نضل فإن من تمسك بهدي الله فإن الله يقول : ﴿ فَمَنِ ٱتَّبَعَ هُدَاىَ فَلَا يَضِلُّ وَلَا يَشْقَىٰ ﴾ [طه : ١٢٣] والله الموفق .

* * *

٥١ - وَعَنِ ابْنِ مَسْعُودٍ رضي الله عنه أَنَّ رسول اللَّه ﷺ قال : « إِنَّهَا سَتَكُونُ بَعْدِي أَثَرَةٌ وَأُمُورٌ تُنْكِرونها » قالوا : يا رسول الله فما تأْمُرُنا ؟ قال : « تُؤَدُّون الحَقَّ الذي عليكم ، وتسألون اللَّهَ الذي لكم » (١) متفقٌ عليه . « وَالأَثَرَةُ » الانفرادُ بالشَّيءِ عَمَّنْ لَهُ فيهِ حَقٌّ .

٥٢ - وَعَنْ أَبي يَحْيَى أُسَيدِ بْن حُضَيرٍ رضي الله عنه أَنَّ رَجُلًا مِنَ الأَنْصَارِ قال : يا رسول الله ألا تَسْتَعْمِلُني كَمَا اسْتَعْمَلْتَ فُلانًا ؟ فَقَالَ : « إِنَّكُمْ سَتَلْقَونَ بَعْدِي أَثَرَةً ، فاصْبِرُوا حَتَّى تَلْقَوني عَلَى الحَوضِ » (٢) متفق عليه .

« وَأُسَيدٌ » بِضَمِّ الهَمْزَةِ . « وحُضَيرٌ » : بِحَاءٍ مُهْمَلَةٍ مَضْمُومةٍ وَضَادٍ مُعْجَمَةٍ مَفْتُوحَةٍ ، وَاللَّهُ أَعْلَمُ .

الشرح

هذان الحديثان : حديث ابن مسعود وحديث أسيد بن حضير ذكرهما المؤلف في باب الصبر لأنهما يدلان على ذلك .

أما حديث عبدالله بن مسعود : فأخبر رضي الله عنه أن النبي ﷺ قال : « إنها ستكون بعْدِي أثَرَة » والأثرة يعني الاستئثار بالشيء عَمن له فيه حَق . يريد بذلك ﷺ أنه يستولي على المسلمين وُلاة يستأثرون بأموال المسلمين يصرفونها كما شاؤوا ويمنعون المسلمين حقهم فيها . وهذه أثرة وظلم من الولاة أن يستأثروا بالأموال التي للمسلمين فيها الحق وَيَستَأثروا بها لأنفسهم عن المسلمين ولكن قالوا : « .. فما تأمرنا ..؟ » . قال : « تؤدونَ الحَقَّ الذي عَلَيكُم » يعني : لا يمنعكم استئثارهم بالمال عليكم أن تمنعوا ما يجب عليكم نحوهم من السمع والطاعة وعدم الإثارة وعدم التشويش عليهم . بل اصبروا واسمعوا وأطيعوا ولا تنازعوهم الأمر الذي أعطاهم الله « وتسألون الله الذي لكُم » أي : اسألوا الحق الذي لكُم من الله .

أي اسألوا الله أن يهديهم حتى يَوَدُّوكُمْ الحق الذي عليهم لكم وهذا من حكمة النبي ﷺ ؛ فإنه عليه الصلاة والسلام علم أن النفوس شحيحة وأنها لن تصبر على من يَستأثر عليهم بحقوقهم ولكنه عليه الصلاة والسلام أرشد إلى أمر قد يكون فيه الخير . وذلك بأن نؤدي ما يجب علينا نحوهم من السمع والطاعة وعدم منازعة الأمر وغير ذلك وندعو الله لهم بأن يعطونا حقنا ، كان في هذا خير من جهتين .

وفيه : دليل على نبوة الرسول ﷺ لأنه أخبر بأمرٍ وَقع فإنَّ الخلفاء والأمراء منذ عهد بعيد كانوا

---

(١) أخرجه البخاري في الفتن (٧٠٥٢) ، ومسلم واللفظ له في الإمارة (٤٥) .

(٢) أخرجه البخاري بدون كلمة : « إنكم » في مناقب الأنصار (٣٧٩٢) ، ومسلم في الإمارة (٤٨) ، والإمام أحمد في مسنده (٣/١١١) .

يستأثرون بالمال فنجدهم يأكلون إسرافًا ، وَيشربون إسرافًا ، ويلبسون إسرافًا ، ويسكنون إسرافًا ، ويركبون إسرافًا . وقد استأثروا بمال الناس لمصالح أنفسهم الخاصة . ولكن هذا لا يعني أن ننزع يدًا من طاعة أو أن ننَابِذَهُم بل نسأل اللَّه الذي لنا ونقوم بالحق الذي علينا .

وفيه : استعمال الحكمة في الأمور التي قد تقتضي الإثارة فإنه لا شك أن استئثار الوُلاة بالمال دون الرَّعية يوجب أن تثور الرَّعية وتطالب بحقها ولكن الرسول عليه الصلاة والسَّلام أمر بالصَّبر على هذا وأن نقوم بما يجب علينا وأن نسأل اللَّه الذي لنا .

وحديث أسيد بن حضير : مثل حديث عبداللَّه بن مسعود ، أخبر النبي ﷺ : « إنَّها سَتَكُون أثَرَة » ولكنه قال : « اصْبروا حتى تَلْقَوني عَلَى الحَوض » . يعني أنَّكم إذا صبرتم فإن من جزاء اللَّه لكم على صَبركم أن يُسقيكم من حوضه ؛ حوض النَّبي ﷺ ، اللَّهُمَّ اجعلنا جميعًا ممن يَرِده ويشرب منه .

هذا الحوض الذي يكون في يوم القيامة في مكان وزمان أحوَجَ ما يكون النَّاس إليه ، لأنَه في ذلك المكان والزمان في يوم الآخرة يَحصُل على الناس من الهَمّ والغَمّ والكرب والعرق والحَرّ ما يجعلهم في أشدِّ الضَّرورة إلى الماء ، فيردون حوض الرسول ﷺ ، حوض عظيم طوله شهر وعرضه شهر ، يصب عليه ميزابان من الكوثر وهو نهر في الجنة أُعطِيَهُ النبي ﷺ .

فيصبان عليه ماءً أشد بياضًا من اللبن وأحلَى من العسل وأطيب من رائحة المسك وفيه أواني كنجوم السَّماء في اللمَعَان والحسن والكثرة ، من شَربَ منه شَرْبَةً وَاحِدةً لم يظمأ بعدها أبدًا اللَّهم اجعلنا ممن يشرب منه . فأرشده النَّبي عليه الصَّلاة والسلام إلى أن يصبروا على ما سَيَرونهُ من الأثرة فإن صبرهم على ظُلم الولاة من أسباب الورود على الحوض والشُّرب منه .

إذًا في هذين الحديثين : حث على الصَّبر على استئثار ولاة الأمور في حقوق الرَّعية ولكن يجب أن نَعلَم أن النَّاس كما يكونون يُوَلَّى عليهم .

إذا أساؤوا فيما بينهم وبين اللَّه فإنَّ اللَّه يُسَلط عليهم ولاتهم كما قال تعالى : ﴿ وَكَذَٰلِكَ نُوَلِّي بَعْضَ ٱلظَّٰلِمِينَ بَعْضًۢا بِمَا كَانُواْ يَكْسِبُونَ ﴾ [الأنعام : ١٢٩] . فإذا صلحت الرعية يَسَّر اللَّه لهم ولاةً صَالحين وإذا كانوا بالعكس كان الأمر بالعكس .

– ويُذكَرُ أن رجلًا من الخوارج جاء إلى علي بن أبي طالب ﷺ وقال : له يا علي ما بال الناس انتقدوا عليك ولم ينتقدوا على أبي بكروعمر ؟ فقال له : إنَّ رجال أبي بكر وعمر كُنْتُ أنا وَأمثالي ، أما رِجَالي فكَنت أنت وأمثالك!! معناه : أنَّك أنت ما فيك خير فصَار سببًا في تَسلُّط الناس وتفرقهم على عليٍّ بن أبي طالب وخروجهم عليه حتى قتلوه ﷺ .

– ويذكر أن أحد ملوك بني أمية سَمعَ مقالَة النَّاس فيه فجمع أشراف الناس ووجَهَاءهم وكَلَّمهم – وأظُنُّه عبدالملك بن مروان – وقال لهم : أيُّها الناس أتريدون أن نكون لكم مثل أبي بكر وعمر ؟ قالوا نعم ! قال إذا كنتم تُريدون ذلك فكونوا لنا مِثل رِجال أبي بكر وعمر !! فاللَّه ﷻ حَكِيمٌ

يُوَلِّي على الناس من يَكون بحسب أعمالهم ، إن أساؤوا فإنَّه يُساء إليهم وإن أحسنوا أُحْسِنَ إليهم . ولكن مع ذلك لا شك أنَّ صلاح الراعي هو الأصل وأنه إذا صَلُح الراعي صَلُحت الرعية ، لأنَّهُ له سُلطة يستطيع أن يُعَدِّل مَنْ مَالَ ، وأن يؤدب مَنْ عَالَ وجَار واللَّه الموفق .

* * *

٥٣ - وعَنْ أَبي إبْرَاهيمَ عَبْدِ اللَّه بن أبي أوفَى رضي الله عنهما أنَّ رسول اللَّه ﷺ في بَعْضِ أَيَّامِهِ الَّتي لَقِيَ فِيهَا العَدُوَّ ، انْتَظَرَ حَتَّى إذَا مَالَتِ الشَّمْسُ قَامَ فِيهِمْ فَقَال : « يَا أَيُّها النَّاسُ لا تَتَمَنَّوا لِقَاءَ العَدُوِّ ، وَاسْأَلُوا اللَّه العَافِيَةَ ، فَإذَا لَقِيتُمُوهُمْ فَاصْبِرُوا ، وَاعْلَمُوا أنَّ الجَنَّةَ تَحْتَ ظِلالِ السُّيُوفِ » . ثُمَّ قال النَّبيُّ ﷺ : « اللَّهُمَّ مُنْزِلَ الكِتَابِ ، وَمُجْرِيَ السَّحَابِ ، وَهَازِمَ الأَحْزَابِ ، اهْزِمْهُمْ وَانْصُرْنَا عَلَيهِمْ » [1] متفقٌ عليه .

الشرح

قال المؤلف رحمه الله فيما نقله عن عبد اللَّه بن أبي أوفى رضي الله عنه أنَّ النبي ﷺ كان في بعض غزواته فانتظر حتى زالت الشمس ، وذلك من أجل أن تُقْبِل البُرُودة ويَكثُر الظِّل وَيَنشَط الناس ، فانتظر حتى إذا مالت الشمس قام فيهم خطيبًا . وكان ﷺ يخطب الناس خُطبًا دائمة ثابتة كخطبة يوم الجمعة . وخُطَبًا عارضة إذا دَعَت الحَاجَة إليها قام فخطب عليه الصلاة والسلام وهذه كثيرة جدًّا ، فقال في جملة ما قال : « لا تتمنوا لِقَاء العَدُو » . أي : لا ينبغي للإنسان أن يتمنَّى لِقَاء العَدو ويقول اللَّهم ألقِني عَدُوي ! « وَاسْأَلوا اللَّه العَافِيَة » قل : اللَّهم عَافني !

« فإذا لقيتموهم » وابتُليتم بذلك « فاصبروا » ، هذا هو الشاهد من الحديث أي اصبروا على مُقاتَلَتِهم واسْتَعِينُوا باللَّه عز وجل وقاتلوا لتكون كلمة اللَّه هي العليا .

« وَاعْلَمُوا أن الجنة تَحت ظِلال السيوف » نسأل اللَّه من فضله ! فالجنة تحت ظلال السيوف التي يحملها المجاهد في سبيل اللَّه . وإن المجاهد في سبيل اللَّه إذا قُتِلَ صار من أهل الجنة كما في قوله تعالي : ﴿ وَلَا تَحْسَبَنَّ ٱلَّذِينَ قُتِلُوا۟ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ أَمْوَٰتًۢا ۚ بَلْ أَحْيَآءٌ عِندَ رَبِّهِمْ يُرْزَقُونَ ﴿١٦٩﴾ فَرِحِينَ بِمَآ ءَاتَىٰهُمُ ٱللَّهُ مِن فَضْلِهِۦ وَيَسْتَبْشِرُونَ بِٱلَّذِينَ لَمْ يَلْحَقُوا۟ بِهِم مِّنْ خَلْفِهِمْ أَلَّا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴿١٧٠﴾ ۞ يَسْتَبْشِرُونَ بِنِعْمَةٍ مِّنَ ٱللَّهِ وَفَضْلٍ وَأَنَّ ٱللَّهَ لَا يُضِيعُ أَجْرَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴾ [آل عمران : ١٦٩- ١٧١] .

والشهيد إذا قتل في سبيل اللَّه فإنه لا يحس بالطعنة أو بالضربة كأنها ليست بشيء ما يحس إلا أن روحه تخرج من الدنيا إلى نعيم دائم أبدًا . ولهذا قال الرسول ﷺ : « واعلموا أن الجنة تَحتَ ظلال السيوف » . وكان من الصحابة رضي الله عنهم أنس بن النضر قال : « إني لأجد ريح الجنة دون أحد » . انظُر كيف فتح اللَّه مشامَّه حتَّى شمَّ ريح الجنَّة دُون أحد ، فقُتل شهيدًا رضي الله عنه ، ولهذا قال عليه الصلاة والسَّلام : « واعلموا أن الجنة تحت ظلال السُّيوف » . ثم قال عليه الصلاة والسلام : « اللَّهم مُنْزِل الكِتَاب ومُجري السَّحاب وَهَازِم الأحزَاب اهْزِمْهُم وَانْصُرنا عَلَيهم » وهذا دعاءٌ ينبغي للمجاهد أن يَدْعو به إذا لقي العدو .

(١) أخرجه البخاري في الجهاد والسير (٢٩٦٦) ، ومسلم واللفظ له في الجهاد والسير (٢٠) .

فهنا توسل الرسول عليه الصلاة والسلام بالآيات الشَرعية والآيات الكونية . توسل بإنزال الكتاب وهو القرآن الكريم أو يشمل كل كتاب ويكون المراد به الجنس أي : منزل الكتب على محمد وعلى غيره . « ومُجرِي السحاب » هذه آية كونية ، فالسَّحاب المُسخر بين السَّماء والأرض لا يُجريه إلا اللَّه ﷻ .

لو اجتمعت الأمم كلها بآلاتها ومُعداتها على أن تجري هذا السحاب أو أن تصرف وجهه ما استطاعت إلى ذلك سبيلًا ، وإنما يجريه من إذا أراد شيئًا قال : له كن فيكون . « وَهَازِم الأحزاب » فإن اللَّه ﷻ وحده هو الذي يهزم الأحزاب .

ومنه : أن اللَّه هَزَمَ الأحزاب في غزوة الأحزاب ، والتي قد تجمَّع فيها أكثر من عَشرة آلاف مُقاتل حول المدينة ليُقاتلوا الرسول عليه الصلاة والسلام . ولكن اللَّه تعالى هزمهم وَرَدَّ اللَّه الذين كفروا بغيظهم لم يَنالوا خيرًا ، فأرسل عليهم ريحًا وجنودًا زلزلت بهم وكفأت قدورهم وأسقطت خيامهم وصار لا يستقر لهم قرار . ريح شديدة باردة شرقية حتى ما بقوا وانصرفوا .

قال اللَّه ﷻ : ﴿ وَرَدَّ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ بِغَيْظِهِمْ لَمْ يَنَالُوا۟ خَيْرًا ۚ وَكَفَى ٱللَّهُ ٱلْمُؤْمِنِينَ ٱلْقِتَالَ ۚ ﴾ [الأحزاب : ٢٥] فاللَّه ﷻ هو هَازِمُ الأحزاب ، ليست قوة الإنسان التي تهزم بل القوة سبب قد تنفع وقد لا تنفع . ونحن مأمورون بفعل السبب المباح ، لكن هازم الأحزاب حقيقة هو اللَّه ﷻ .

ففي هذا الحديث عِدة فوائد :

منها : أن لا يتمنى الإنسان لقاء العدو ، وهذا غير تَمني الشهادة ! تمنِّي الشهادة جائز ولا مَنهيٌّ عنه بل قد يكون مأمورًا به ، أما تمني لقاء العدو ، فلا تتمنه لأنه نُهِيَ عن ذلك .

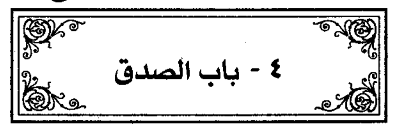
ومنها : أن يسأل الإنسان اللَّه العافية لأن العافية والسلامة لا يعدلها شيء ، فلا تتمن الحروب ولا المقاتلة واسأل اللَّه العافية والنصر لدينه ولكن إذا لقيت العدو ، فاصبر .

ومنها : أن الإنسان إذا لقي العدو فإن الواجب عليه أن يصبر قال اللَّه تعالى : ﴿ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ إِذَا لَقِيتُمْ فِئَةً فَٱثْبُتُوا۟ وَٱذْكُرُوا۟ ٱللَّهَ كَثِيرًا لَّعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ۝ وَأَطِيعُوا۟ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ وَلَا تَنَـٰزَعُوا۟ فَتَفْشَلُوا۟ وَتَذْهَبَ رِيحُكُمْ ۖ وَٱصْبِرُوٓا۟ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ مَعَ ٱلصَّـٰبِرِينَ ﴾ . [الأنفال : ٤٥، ٤٦] .

ومنها : أنه بنبغي لأمير الجيش أو السرية أن يَرفِق بهم وأن لا يَبْدأ القتال إلا في الوقت المناسب . سواء كان مناسبًا من النَّاحية اليومية أو من الناحية الفصلية ، فمثلًا في أيام الصَّيف لا ينبغي أن يتحرَّى القتال فيه لأن فيه مَشقَّة . وفي أيام البرد الشَّديد لا يتحر ذلك أيضا لأن في ذلك مَشقَّة ، لكن اذا أمكن أن يكون بين بين بأن يكون في الخريف فهذا أحسن ما يكون .

ومنها : أنه ينبغي للإنسان أنْ يَدعو بهذا الدُّعاء «اللَّهُم مُنزِل الكِتَاب ومجرِي السَّحاب وهَازِم الأحزَابِ اهزِمهُم وانصرْنَا عَلَيهم » .

ومنها : الدعاء على الأعداء بالهَزيمة لأنهم أعداؤك وَأعداء اللَّه فإن الكافر ليس عَدوًّا لك وَحْدَك بل هو عدو لك ولربك ولأنبيائه ولملائكَتِهِ ولِرُسُله ولكل مؤمن ، واللَّه الموفق .



٤ - باب الصدق

قال اللّه تعالى : ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ وَكُونُوا۟ مَعَ ٱلصَّٰدِقِينَ ﴾ [التوبة : ١١٩] وقال تعالى : ﴿ وَٱلصَّٰدِقِينَ وَٱلصَّٰدِقَٰتِ ﴾ [الأحزاب : ٣٥] وقال تعالى : ﴿ فَلَوْ صَدَقُوا۟ ٱللَّهَ لَكَانَ خَيْرًا لَّهُمْ ﴾ [محمد : ٢١] .

الشرح

الصدق : معناه مُطابقة الخبر الواقع ، هذا في الأصل . ويكون في الإخبار فإذا أخبرت بشيء وكان خبرك مطابقًا للواقع قيل إنَّه صدق مثل أن تقول عن هذا اليوم : اليوم يوم الأحد فهذا خبر صدق ، وإذا قلت : اليوم يوم الاثنين فهذا خبر كذب . فالخبر إنْ وافق الواقع فصدق وإلا فكذب . وكما يكون الصدق في الأقوال فهو في الأفعال وهو أن يكون الإنسان باطنه موافقًا لظاهره بحيث إذا عمل عملًا يكون موافقًا لما في قلبه . فالمُرائي مثلًا ليس بِصَادقٍ لأنه يُظهر للناس بأنه من العابدين وليس كذلك . والمشرك مع اللّه ليس بِصَادقٍ لأنه يظهر بأنه مُوَحد وليس كذلك . والمنافق ليس بصادق لأنه يظهر الإيمان وليس بمؤمن . والمبتدع ليس بصادق لأنه يُظهِرُ الاتباع للرسول عليه الصلاة والسلام وليس بمُتبع . المهم أن الصدق مُطَابقة الخبر للواقع وهو من سمات المؤمنين وعكسه الكذب وهو من سمات المنافقين . ثم ذكر آيات في ذلك . فقال : وقول اللّه تعالى : ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ وَكُونُوا۟ مَعَ ٱلصَّٰدِقِينَ ﴾ [التوبة : ١١٩] . هذه الآية نزلت بعد ذكر قصة الثلاثة الذين خُلفوا عن غزوة تبوك ومنهم كعب بن مالك الذي سنذكر حديثه إن شاء اللّه .

* * *

كان هؤلاء الثلاثة حين رجع النبي ﷺ من غزوة تبوك ، وكانوا قد تخلفوا عنها بلا عذر وأخبروا الرسول عليه الصلاة والسلام بأنهم لا عذر لهم فخلفهم أي : تركهم .

فمعنى : ﴿ وَعَلَى ٱلثَّلَٰثَةِ ٱلَّذِينَ خُلِّفُوا۟ ﴾ أي : تركوا فلم يُبتّ في شأنهم لأن المنافقين لما قدم الرسول عليه الصلاة والسلام من غزوة تبوك جاؤوا إليه يعتذرون إليه ويحلفون باللّه إنهم مَعْذُورون وفيهم أنزل اللّه هذه الآية ﴿ سَيَحْلِفُونَ بِٱللَّهِ لَكُمْ إِذَا ٱنقَلَبْتُمْ إِلَيْهِمْ لِتُعْرِضُوا۟ عَنْهُمْ ۖ فَأَعْرِضُوا۟ عَنْهُمْ ۖ إِنَّهُمْ رِجْسٌ ۖ وَمَأْوَىٰهُمْ جَهَنَّمُ جَزَآءًۢ بِمَا كَانُوا۟ يَكْسِبُونَ ﴿٩٥﴾ يَحْلِفُونَ لَكُمْ لِتَرْضَوْا۟ عَنْهُمْ ۖ فَإِن تَرْضَوْا۟ عَنْهُمْ فَإِنَّ ٱللَّهَ لَا يَرْضَىٰ عَنِ ٱلْقَوْمِ ٱلْفَٰسِقِينَ ﴾ [التوبة : ٩٥، ٩٦] أمّا هؤلاء الثلاثة فصدقوا الرسول عليه الصلاة والسلام ، وأخبروه بأنهم ليس لهم عذر . فأرجأهم الرسول عليه الصلاة والسلام خمسين ليلة حتى ضاقت عليهم الأرض بما رَحُبت وضاقت عليهم أنفسهم وظنوا أن لا ملجأ من اللّه إلّا إليه ثم أنزَل اللّه توبته عليهم .

ثم قال بعد ذلك ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ وَكُونُوا۟ مَعَ ٱلصَّٰدِقِينَ ﴾ [التوبة : ١١٩] فأمر اللّه تعالى المؤمنين بأن يتقوا اللّه وأن يكونوا مع الصَّادقين لا مَعَ الكاذبين .

وقال اللّه تعالى ﴿ وَٱلصَّٰدِقِينَ وَٱلصَّٰدِقَٰتِ ﴾ [الأحزاب : ٣٥] هذه في جملة الآية الطَّويلة التي ذَكرها اللّه

في سورة الأحزاب وهي ﴿ إِنَّ ٱلْمُسْلِمِينَ وَٱلْمُسْلِمَٰتِ وَٱلْمُؤْمِنِينَ وَٱلْمُؤْمِنَٰتِ ﴾ إلى أن قال : ﴿ وَٱلصَّٰدِقِينَ وَٱلصَّٰدِقَٰتِ ﴾ إلى قوله : ﴿ أَعَدَّ ٱللَّهُ لَهُم مَّغْفِرَةً وَأَجْرًا عَظِيمًا ﴾ [الأحزاب : ٣٥] .

فذكر اللَّه الصَّادقين والصَّادقات في مقام الثناءِ وفيما لهم من الأجر العَظيم .

وقال تعالى : ﴿ فَلَوْ صَدَقُواْ ٱللَّهَ لَكَانَ خَيْرًا لَّهُمْ ﴾ أي : لو عَامَلوا اللَّه بالصدق لكان خيرًا لهم ولكن عاملوا اللَّه بالكذب فنافقوا وأظهروا خلاف ما في قلوبهم وعاملوا النَّبي ﷺ بالكذب فأظهروا أنهم مُتبعون لَهُ وهم مخالفون له . فلو صدقوا اللَّه بقلوبهم وأعمالهم وأقوالهم لكَانَ خيرًا لهم ولكنهم كذبوا اللَّه فكان شَرًّا لهم .

وقال اللَّه : ﴿ لِّيَجْزِيَ ٱللَّهُ ٱلصَّٰدِقِينَ بِصِدْقِهِمْ وَيُعَذِّبَ ٱلْمُنَٰفِقِينَ إِن شَآءَ أَوْ يَتُوبَ عَلَيْهِمْ ﴾ [الأحزاب : ٢٤] . فدَّل ذلكَ على أن الصِّدق أمره عظيم وأنه محل للجزاء من اللَّه تعالى . إذن علينا أن نَصدق وعلينا أن نكون صادقين وعلينا أن نكون صُرَحاءَ وعلينا أن لا نخفي الأمر عن غيرنا مُداهَنة أو مراء .

كثير من الناس إذا حُدث عن شيء فَعَلَهُ ، وكان لا يُدرى فعله أم لا .. ؟ فإنَّه يكذب ويقول : ما فَعَلت !

لماذا ؟ أتستحي من الخلق وتبارز الخالق بالكذب ؟ ! قُلْ الصدق ولا يَهُمَّنَّكَ أحد وأنت إذا عَوَّدت نفسك الصِّدق فإنك في المستقبل سَوف تصلح حَالك أما إذا أخبرت بالكذب وسوف تكتم عن الناس وتكذب عليهم فإنك سوف تستمر في غيِّك ولكن إذا صدقت فإنك تُعَدِّل مَسيرك ومنهاجك . فعليك بالصدق فيما لَكَ وفيما عَلَيك حتى تكون مع الصادقين الَّذين أمرك اللَّه أن تكون معهم .

أما حديث كعب بن مالك : فهو في قصة تَخَلُّفه عن غزوة تبوك وكانت غزوة تبوك في السنة التاسعة من الهجرة . غزا النبي ﷺ الروم وهم على دين النصارى حين بلغهُ أنهم يجمعون له فغزاهم النبي عليه الصلاة والسلام وقام بتبوك عشرين ليلة ، ولكنه لم يرَ كيدًا ولم يَرَ عدُوًّا فرجع . وكانت هذه الغزوة في أيام الحر حين طابت الثمار والرطب وصار المنافقون يُفضلون الدنيا على الآخرة فتخلف المنافقون عن هذه الغزوة ولجؤوا إلى الظل والرطب والتمر وبعدت عليهم الشقة والعياذ باللَّه .

أما المؤمنون الخُلص فإنهم خرجوا مع الرسول - عليه الصلاة والسلام - ولم يثن عزمهم بُعد الشقة ولا طيب الثمار . إلا أن كعب بن مالك ﷺ تخلف عن غزوة تبوك بلا عُذر وهو من المؤمنين الخُلَّص ولهذا قال : « أَنَّهُ ما تخلف عَنْ رسول اللَّه ﷺ عَنْ غزْوَةٍ غزَاهَا قَط » - فهو من المجاهدين في سبيل اللَّه - .

« إلا في غزوة بدر » ، فقد تخلف فيها كعب وغيره لأن الرسول عليه الصلاة والسلام خرج من المدينة لا يريد القتال ولذلك لم يخرج معه إلا ثلاثمائة وبضعَة عَشرَ رجلًا لأنهم كانوا يريدون أن يأخذوا عِيرًا لقريش : أي حَمْلة قدمت من الشام تُريد مكة وتَمُر قرب المدينة . فَخَرَجَ النبي - عليه الصلاة والسلام - من أجل أن يستَقبل هذه العير ويأخذها وذلك لأن أهل مكة أخرجوا النبي ﷺ وأصحابه من ديارهم

وأموالهم . فلهذا كانت أموالهم غنيمة للنبي عليه الصلاة والسلام ويحل له أن يخرج ليأخذها وليس في ذلك عدوان من النبي ﷺ وأصحابه بل هذا أخذ لبعض حقهم . المهم أن الرسول خرج في ثلاثمائة وبضعة عشر رجلًا ليس معهم إلا سبعون بعيرًا وفَرَسان فقط ؛ وليس معهم عُدة والعَدد قليل ولكن اللَّه جمع بينهم وبين عدوهم على غير ميعاد لينفذ ما أراد ﷻ .

فسمع أبو سفيان وهو قائد العير أن النبي ﷺ خرج إليه ليأخذ العير؛ فعدَل عن سَيره إلى الساحل وأرسل إلى قريش صارخًا يستنجدهم - أي يستغيثهم - ويقول : أنقذوا العير . فاجتمعت قريش وخَرَجَ كبراؤها وزُعماؤها وشُرفاؤها فيما بين تسعمائة إلى ألف رَجل . خرجوا كما قال اللَّه عنهم ، خرجوا بطرا ورئاء الناس ويَصُدُّون عن سبيل اللَّه .

ولما كانوا في أثناء الطَّريق وعلموا أن العير نَجَت تراجعوا فيما بينهم وقالوا : العير نجت فما لنا وللقتال ؟! فقال أبو جهل : واللَّه لا نرجع حتى نقدم بدرًا فنقيم فيها ثلاثًا ننحر الجزور ونسقي الخمور ونطعم الطعام وتسمع بنا العرب فلا يزالون يهابوننا أبدًا .

هكذا قالوا ، بَطَرًا واستكبارًا وفخرًا ولكن الحمد للَّه صارت العرب تتحدث بهم وبالهزيمة النَّكراء التي لم يَذق العرب مثلها . لما التقوا بالرسول عليه الصلاة والسلام وكان ذلك في رمضان في السَّنة الثانية من الهجرة في اليوم السابع عشر منه . التقوا فأوحى اللَّه ﷻ إلى الملائكة : ﴿ أَنِّي مَعَكُمْ فَثَبِّتُوا الَّذِينَ آمَنُوا سَأُلْقِي فِي قُلُوبِ الَّذِينَ كَفَرُوا الرُّعْبَ ﴾ [الأنفال : ١٢] . انظر! في الآية تثبيت للمؤمنين وإلقاء الرعب في قلوب الذين كفروا ، فما أقرب النَّصر في هذه الحال ؟! فثبَّتَ اللَّه المؤمنين ثباتًا عظيمًا وأنزلَ في قلوب الذين كفروا الرُّعب . قال اللَّه سبحانه : ﴿ فَاضْرِبُوا فَوْقَ الْأَعْنَاقِ وَاضْرِبُوا مِنْهُمْ كُلَّ بَنَانٍ ﴾ [الأنفال : ١٢] أي : كل مفصَل ، فالأمر مُيسَّر لكم . فجعل المسلمون - وللَّه الحمد - يجلدون فيهم ، فقتلوا سبعين رجلًا وأسروا سبعين رجلًا . والذين قتلوا ليسوا من أطرافهم ، الذين قُتلوا كلهم من صناديدهم وكبرائهم . وأخذ منهم أربعة وعشرين رجلًا يُسْحَبُون سَحْبًا وألقوا في قليب من قُلُب بدر . سُحبُوا جثثًا هامدة ، ووقف عليهم الرَّسول عليه الصلاة والسلام وقال لَهُم : « يا فُلان ابن فُلان - يُنَاديهم بأسْمائهم وَأسْماء آبائهم - هَلْ وَجَدتم مَا وَعَدَ ربكُم حَقًّا ؟ فإني وجَدتُ ما وَعَدني رَبي حَقًّا » . فقالوا يا رسول اللَّه كيف تُكلِّم أنَاسًا قد جيَفُوا ؟ قال : « واللَّه مَا أنتم بأسْمَع لِمَا أقُول منْهم ولكنهم لا يُجيبونَ » [(١)] : لأنهم مَوتَى وهذه - وللَّه الحمد - نعمة علينا أنْ نشكر اللَّه عليها كلما ذكرناها . نَصَر اللَّه نبيه وسمى اللَّه هذا اليوم يوم الفرقان يوم التقى الجمعان . هذا اليوم فرق اللَّه فيه بين الحق والباطل تفريقًا عظيمًا وانظر إلى قدرة اللَّه ﷻ في هذا اليوم انتصر ثلاثمائة رجل وبضعة عشر رجلًا على نحو ألف رجل ، أكمل منهم عدة وأقوى ، وهؤلاء ليس معهم إلا عدد قليل من الإبل والخيل ! لكن نصر اللَّه ﷻ إذا نزل لقوم لم يقم أمامهم أحد وإلى هذا أشار اللَّه بقوله ﴿ وَلَقَدْ نَصَرَكُمُ اللَّهُ

---

(١) هذا الحديث مروي باختلاف في بعض ألفاظه . وقد أخرجه البخاري في المغازي(٣٩٧٦) ، ومسلم في الجنة(٧٦ ، ٧٧) وأحمد في مسنده(٢٧/١) .

بِبَدۡرٖ وَأَنتُمۡ أَذِلَّةٞۖ ﴾ ليس عندكم شيء ﴿ فَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ لَعَلَّكُمۡ تَشۡكُرُونَ ﴾ [آل عمران: ١٢٣] . ولما كان المسلمون حين فتحوا مكة وخرجوا باثني عَشرَ ألفًا وأمامهم هوازن وثقيف فأُعْجِبَ المسلمون بكثرتهم وقالوا : لن نغلب اليوم عن قلة فغلبهم ثلاثة آلاف وخمسمائة رجل .

غلبوا اثني عشر ألف رجل بقيادة النبي ﷺ لماذا ؟ لأنهم أعجبوا بكثرتهم قالوا : لن نُغلَب اليوم عن قِلة . فأراهم اللَّه ﷻ أن كثرتهم لن تنفعهم . قال اللَّه تعالى : ﴿ وَيَوۡمَ حُنَيۡنٍ إِذۡ أَعۡجَبَتۡكُمۡ كَثۡرَتُكُمۡ فَلَمۡ تُغۡنِ عَنكُمۡ شَيۡـٔٗا وَضَاقَتۡ عَلَيۡكُمُ ٱلۡأَرۡضُ بِمَا رَحُبَتۡ ثُمَّ وَلَّيۡتُم مُّدۡبِرِينَ ﴾ [التوبة: ٢٥] . المهم أن كعب بن مالك ؓ لم يشهد بدرًا لكن تخلف عنها لأن النبي ﷺ لم يخرج لقتال ، إنما خرج للعِير ولكن اللَّه جمع بينه وبين عَدُوه على غير ميعاد . أتدرون ماذا حَصَل لأهل بدر ؟ اطلع اللَّه عليهم وقال لهم : اعمَلُوا مَا شئتُم فقد غَفَرتُ لكم . كل معصية تقع منهم فإنها مغفورة ، لأن الثمن مقدم . فهذه الغزوة صارت سببًا لكل خير ، حتى أن حاطب بن أبي بلتعة ؓ لما حصل منه مَا حَصَل في كتابه لأهل مكة عندما أراد النبي عليه الصلاة والسلام أن يغزوهم غزوة الفتح كتب هو ؓ إلى أهل مكة يخبرهم ولكن اللَّه اطلَع نبيه على ذلك . أرسل حاطب بن أبي بلتعة الكتاب مع امرأة ، فَأُخْبِر النبي ﷺ بذلك عن طريق الوحي . فأرسل عليَّ بن أبي طالب وواحدًا معه حتى لحقوها في روضة تسمى «روضة خاخ » ، فأمسكوها وقالوا لها أين الكتاب ؟ فقالت ما معي كتاب ، فقالوا لها : واللَّه ما كذبنا ولا كذبنا أين الكتاب ، لتخرجنّه أو لَنَنْزِعن ثيابك! ؟ فلما رأت الجد أخرجته فإذا هو من حاطب بن أبي بلتعة إلى قريش فَأَخَذُوه . والحمد للَّه أنه لم يصل إلى قريش فصَار بهذا نعمة من اللَّه على المسلمين وعلى حاطب لأن الذي أراد ما حصل . فلما ردوا الكتاب إلى النبي ﷺ قال له : يَا حَاطِب كيف فَعَلت كذا ؟ فاعتذر فقال عمر : يَا رَسُول اللَّه ألا أضرب عُنقه فإنه قَد نَافَق ؟

قال له النبي - عليه الصلاة والسَّلام - : « أَمَا عَلِمْتَ أَنَّ اللَّه اطَّلَعَ عَلى أَهْل بَدْر - أو إلى أَهْلِ بَدْر - فقال : اعْمَلُوا مَا شِئتُم فقد غَفَرتُ لكم » [1] وكان حاطب من أهل بدر ؓ . فالمهم أن هذه الغُزاة تخلف عنها كعب ، لكنها ليست غزاة في أول الأمر إلا في ثاني الحال وكانت غُزاة مباركة وللَّه الحمد ، ثم ذكر بيعته النبي ﷺ ليلة العقبة في منى ، حيث بايعوا النبي ﷺ على الإسلام وقال : إنه لا يحب أن يكون له بدلها بدر . أي هي أحب إليه من غزوة بدر لأنها بيعة عظيمة . لكن يقول : كانت بدر أذكرُ في الناس منها أي أكثر ذكرًا ؛ لأنها غزوة اشتهرت بخلاف البيعة .

على كل حال كأنه يُسلي نفسه بأنه إن فاتته بدر فقد حصلت له بيعة العقبة فرضي اللَّه عن كعب وعن جميع الصحابة .

يقول ؓ : « إني لَم أَكُن قط أقوَى ولا أيسَرَ مني حِينَ تخلفت عَنه في تِلكَ الغَزْوَة » أي غزوة

---

(١) أخرجه البخاري في المغازي(٣٩٨٣) ، ومسلم في فضائل الصحابة(١٦١) ، وأحمد في مسنده(١/ ٨٠) بألفاظ مختلفة .

تبوك - كان قوي البدن ميسور الحال حتى إنه كان عنده راحلتان في تلك الغَزوة وما جمع راحلتين في غزوة قبلها أبدًا . وقد استعد وتجهّز ، وكان من عادة النبي ﷺ أنه إذا أراد غزوة - وَرَّى بغيرها - أي أظهر خلاف ما يريد وهذا من حكمته وحنكته في الحرب ، لأنه لو أظهر وجهه تبيّن ذلك لعدوه فربما يستعد له أكثر وربما يذهب عن مكانه الذي قصده النبي ﷺ فيه . فكان مثلًا : إذا أراد أن يخرج إلى الجنوب ورى وكأنه يريد أن يخرج إلى الشمال ، أو أراد أن يخرج إلى الشرق وَرى وكأنه يريد أن يخرج إلى الغرب حتى لا يطَّلع العدو على أسراره . إلا في غزوة تبوك فإنَّه قد بين أمرها وَوَضحها وجلاها لأصحابه وذلك لأمور :

أوَّلًا : لأنها كَانت في شِدَّة الحر حين طابت الثِّمار والنُّفوس مجبولة على الرّكون إلى الكسل وإلى الرخاء .

ثانيًا : أنَّ المدى بعيد من المدينة إلى تبوك ، ففيها مَفَاوِز وَرِمَال وعَطَش وشمس .

ثالثًا : أن العدو كبير وهم الروم اجتمعوا في عدد هائل حسب ما بلغ النبي ﷺ ، فلذلك أوضح أمر الغَزْوَة وأخبر أنَّه خارج إلى تبوك إلى عدو كثير وإلى مكان بعيد حتى يَتأهب الناس ، فخرج المسلمون مع رسول اللَّه ﷺ ولم يتخلّف إلا من خَذَله اللَّه بالنِّفاق ، وثلاثة رجال فقط هم كعب بن مالك ومرارة بن الربيع وهلال بن أمية رضي الله عنهم ؛ هؤلاء من المؤمنين الخلص لكن تخلَّفوا لأمر أراده اللَّه عز وجل. أما غيرهم ممن تخلف فإنهم مُنافقون منغمسون في النِّفاق ، فخرج النبي عليه الصَّلاة والسَّلام بأصحابه وهم كثير إلى جهة تبوك حتى نزل بها هناك ولكن اللَّه لم يجمع بينه وبين عدوه بل بقي عشرين يومًا في ذلك المكان ثم انصرف على غير حرب .

يقول كعب بن مالك : « إن الرسول ﷺ تجهَّز هو والمُسلِمُونَ وَخَرجُوا من المدينة » . أما هو رضي الله عنه فتأخر وجَعَل يغدو كل صباح يرحل راحلته ويقول : ألحَق بهم . ولكنَّه لا يفعل شيئًا . ثم يفعل كل يوم حتى تمادى به الأمر ولم يدرك . وفي هذا دليل على أن الإنسان إذا لم يُبادر بالعمل الصالح فإنَّه حَرِي أن يُحرم إياه كما قال اللَّه سبحانه : ﴿ وَنُقَلِّبُ أَفْئِدَتَهُمْ وَأَبْصَٰرَهُمْ كَمَا لَمْ يُؤْمِنُوا۟ بِهِۦٓ أَوَّلَ مَرَّةٍ وَنَذَرُهُمْ فِى طُغْيَٰنِهِمْ يَعْمَهُونَ ﴾ [الأنعام : ١١٠] . فالإنسان إذا علم الحق ولم يقبل عليه ولم يعمل به أوَّل مرة ، فإن ذلك قد يَفُوته ويحرم إيَّاه والعياذ باللَّه ، كما أن الإنسان إذا لم يَصبر أوَل مرة فإنه يحرم أجرها لقول النبي عليه الصلاة والسلام : « إنمَا الصَّبْرُ عِنْدَ الصَّدْمَةِ الأولَى » [(١)] .

فعليك يا أخي أن تبادر بالأعمال الصالحة ولا تتأخر فَتتمادى بك الأيام ثم تعجز وتَكسل ويغلب عَليك الشيطان والهَوَى فتتأخر . هو رضي الله عنه كل يوم يقول : أخرج . ولكن تمادى به الأمر ولم يخرج . يقول : فكان يَحزُّ في نفسي أنه إذا خرج إلى سوق المدينة وإذا المدينة لَيس فيها رسول اللَّه ﷺ ولا أبو بكر ولا عمر ولا عثمان ولا علي ولا السَّابقين من المهاجرين والأنصار إلا رجل مغموس في النِّفاق والعياذ باللَّه - قد غمسه نفاقه فلم يخرج ، أو رَجُل معذور عذره اللَّه عز وجل فكان يَعتب على نفسه كيف لا يبقى في المدينة إلا هؤلاء

(١) أخرجه البخاري واللفظ له في الجنائز (١٢٨٣) ، ومسلم في الجنائز (١٥) ، وأحمد في مسنده (٣/ ١٣٠) .

وأقعد معهم . ورسول الله ﷺ لم يذكره ولم يسأل عنه حتى وَصَلَ إلى تبوك . فبينما هو جالس وأصحابه في تَبُوك سأل عنه ، قال رسول الله : « أين كعب بن مالك ؟ » فتكلم فيه رجل من بني سَلِمة وغمزه ولكن دافع عنه معاذ بن جبل رضي الله عنه فسكت النبي ﷺ ولم يجب بشيء لا على الذي غَمزَه ولا على الذي رَدَّ عنه . فبينما هو كذلك إذ رأى رجلًا مبيضًا بياضًا يزول به السراب من بعيد . فقال النبي ﷺ : « كُن أبَا خيثمة الأنصاري » فكان أبا خيثمة ، وهذا من فراسة النبي عليه الصلاة والسلام أو من قوة نظره . ولا شك أنه من أقوى الرجال نظرًا وسَمْعًا ونُطقًا وفي كل شيء . وأُعطي قوة ثلاثين رجلًا بالنِّسبة للنساء .

أبو خيثمة هذا هو الذي تصدق بصَاع عندما حث النبي ﷺ على الصَّدقة ، فتصدَّق الناس كل بحسب حَاله . فكان الرجل إذا جاء بالصدقة الكثيرة قال المنافقون : هذا مراء ما أكثر الصدقة ابتغاء وجه الله . وإذا جاء الرجل الفقير بالصدقة اليَسيرةِ قالوا : إن الله غَني عن صاع هذا .

انظر - والعياذ بالله - يَلْمزون المؤمنين من هُنا ومن هنا كما قال الله : ﴿ ٱلَّذِينَ يَلْمِزُونَ ٱلْمُطَّوِّعِينَ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ فِى ٱلصَّدَقَٰتِ وَٱلَّذِينَ لَا يَجِدُونَ إِلَّا جُهْدَهُمْ ﴾ أي : إذا تصدَّقوا بما يستطيعون قالوا إن الله غني عن صَاعِك ﴿ فَيَسْخَرُونَ مِنْهُمْ سَخِرَ ٱللَّهُ مِنْهُمْ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴾ [التوبة : ٧٩] .

وهكذا المنافق شر على المسلمين ، فإن رأى أهل الخير لمزهم وإن رأى المقصرين لمزهم وهو أخبث عباد الله فهو في الدرك الأسفل من النار . المنافقون في زمننا هذا إذا رأوا أهل الخير وأهل الدعوة وأهل الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر قالوا : هؤلاء متزمّتون ، وهؤلاء متشدّدون ، وهؤلاء أصوليون ، وهؤلاء رجعيون ، وما أشبهه من الكلام .

فكل هذا مَورُوثٌ عن المنافقين في عهد الرسول عليه الصلاة والسلام إلى يومنا هذا . لا تقولوا : ليس عندنا مُنَافقون! بل عندنا منافقون ولهم علامات كثيرة !!

وقد ذكر ابن القيم رحمه الله في كتابه « مدارج السَّالكين » في الجزء الأول صفات كثيرة من صفات المنافقين كلها مبينة في كتاب الله عز وجل . فإذا رأيت رجلًا يَلْمِزُ المؤمنين من هنا ومن هنا فاعلم أنه مُنافق والعياذ بالله . فاستفدنا فائدتين عظيمتين :

الفائدة الأولى : أن الإنسان لا يَنْبغي له أن يتأخر عن فعل الخير ، بل لا بد أن يتقدم ولا يتهاون أو يتكاسل . وأذكر حديثًا قاله النبي عليه الصلاة والسلام في الذين يتقدمون إلى المسجد ولكن لا يتقدمون إلى الصف الأول بل يكونون في مؤخره . قال : « لا يَزالُ قَوم يتَأخرون ، حَتَّى يُوخّرَهُم الله » [1] .

إذا عَوَّدَ الإنسان نفسه على التأخر ، أخره الله عز وجل فبادر بالأعمال الصَّالحة من حين أن يأتي طلبها من عند الله عز وجل .

الفائدة الثانية : أن المنافقين يلمزون المؤمنين كما سبق . وأبو خيثمة هو الذي تصدق بصاع فقال المنافقون : إن الله غني عن صاع هذا الرجل ولكنهم منافقون لا يؤمنون .

---

(١) أخرجه مسلم في الصلاة (١٣٠) ، وابن ماجه في سننه (٩٧٨) ، وأحمد في مسنده (٣/٣٤) .

ثبت عن النبي عليه الصلاة والسلام : « أن الرجل يتصدق بعدل تمرة - أي بما يعادل تمرة - فيأخذها اللَّه ﷻ فيربيها له كما يربي أحدكم فَلُوَّه - أي مُهره : الحصان الصغير - حتى تكون مِثْلَ الجبلِ »[(١)] .

بل قال الرسول - عليه الصلاة والسلام - : « اتَّقُوا النَّار ولَو بِشِقٍّ تَمْرة »[(٢)] . أي : نصف تمرة .

بل قال اللَّه ﷻ : ﴿ فَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْرًا يَرَهُۥ ۝ وَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ شَرًّا يَرَهُۥ ﴾ [الزلزلة : ٧، ٨] واللَّه لا يُضِيع أجر المحسنين .

يقول ﷺ : « إنه لما بلغه أن النبي ﷺ رجع قافلًا من الغزو بدأ يفكر ويشاور ماذا يقول لرسول اللَّه ﷺ إذا رجع » . يريد أن يتحدث بحديث وإن كان كذبًا من أجل أن يعذره النبي ﷺ فيه ويجعل يُشَاور ذوي الرأي من أهله ماذا يقول ، ولكن يقول ﷺ : فلما بَلَغ النبي عليه الصلاة والسلام المدينة ، ذهب عنه كل ما جمعه من الباطل وعزم على أن يُبيِّنُ الحق ، فقدم النَّبي ﷺ المدينة ودخل المسجد وكان من عادته وسنته أنه إذا قدم بلده فأول ما يفعل أن يصلي في المسجد - عليه الصلاة والسَّلام - .

وهكذا أمر جابرًا ﷺ كما سأذكره إن شاء اللَّه . فدخل المسجد وصَلَّى وجَلَسَ للناس فجاءه المخلفون الذين تخلفوا من غير عُذر من المنافقين وجعلوا يحلفون له إنهم معذورون فيبايعهم ويستغفر لهم ولكن ذلك لا يفيدهم والعياذ باللَّه ؛ لأن اللَّه تعالى قال : ﴿ ٱسْتَغْفِرْ لَهُمْ أَوْ لَا تَسْتَغْفِرْ لَهُمْ إِن تَسْتَغْفِرْ لَهُمْ سَبْعِينَ مَرَّةً فَلَن يَغْفِرَ ٱللَّهُ لَهُمْ ﴾ [التوبة : ٨٠] فيقول : أما أنا فعزمت أن أَصْدُقَ النبي - عليه الصلاة والسلام - . فدخلت المسجد فسلمت عليه فتبسم تبسم المغضب - أي الذي غير راض عني - ثم قال : « تعال » فدنوت منه ، فلما دَنوتُ منه قال لي : « ما خلفك ؟ » فقال ﷺ : يا رسول اللَّه إني لم أتخلَّف لعذر وما جمعت راحلتين قبل غزوتي هذه وإني لو جلست عند أحد من مُلوك الدنيا لخرجت منه بعذر فلقد أوتيت جدلًا ؛ أي : لو أني جلست عند شخص من الملوك لعرفت كيف أتخلص منه لأن اللَّه قد أعطاني جدلًا . ولكني لا أحدثك اليوم حديثًا ترضى به عني فيوشك أن يسخط اللَّه عليَّ في ذلك .

انظر إلى الإيمان ! فأخبر النبي ﷺ بالصِّدق فأجله . وفي هذا فوائد :

أولًا : أنَّ اللَّه ﷻ قد يَمُنُّ على العبد فيعصمه من المعصية إذا علم من قلبه حُسْن النِّية .

فإن كعبًا لما هَمَّ أن يُزَوِّر على الرسول - عليه الصلاة والسلام - جلى اللَّه ذلك عن قلبه وأزاله عن قلبه ، وعزم على أن يَصْدقَ النبي - عليه الصلاة والسلام - .

ثانيًا : أن الإنسان إذا قَدِمَ بلده ، أن يَعْمَدَ إلى المسجد قبل أن يدخل إلى بيته فيصلي فيه ركعتين ، لأن هذه سُنَّة الرسول عليه الصَّلاة والسَّلام القولية والفعلية .

أما الفعلية : فكما في حديث كعب بن مالك .

وأما القولية : فإن جابر بن عبد اللَّه ﷺ حين باع على النبي ﷺ جَمَله في أثناء الطريق واستثنى

---

(١) أخرجه الترمذي في السنن (٦٦٢) ، وأحمد في مسنده (٢/٢٦٨) بألفاظ مختلفة .

(٢) أخرجه البخاري في الزكاة (١٤١٧) ، ومسلم في الزكاة (٦٨) .

أن يركبه إلى المدينة وأعطاه النبي ﷺ شرطه فقدم جابر المدينة وقد قدم النبيّ ﷺ قبله فجاء إلى رسول اللَّه فأمره أن يدخل المسجد ويصلي ركعتين . وما أظن أحدًا من الناس اليوم إلا قليلًا يستعمل هذه السنة ، وهذا لِجَهْل النَّاس بهذا وإلا فَهَذا سَهْل والحمد اللَّه . وسواءٌ صليت في مَسْجدك الذي كنت تصلي فيه القريب من بيتك أو صليت في أدنى مَسْجد من مَسَاجد البلد الذي أنت فيه .

ثالثًا : أن كعب بن مالك رجل قوي الحجة فصيح ولكن لتقواه وخوفه من اللَّه امتنع أن يكذب وأخبر النبي ﷺ بالحق .

رابعًا : أن الإنسان المغضب قد يتبسم ، فإذا قال قائل : كيف أعرف أن هذا تَبسُّم رضى أو تَبسُّم سخط ؟ قلنا : إن هذا يعرف بالقرائن ، كتلوّن الوجه وتغيّره .

فالإنسان يعرف أن هذا الرَّجل تَبَسَّمَ رضًا بما صنع أو سخطًا عليه .

خامسًا : أنَّه يجوز للإنسان أن يُسلم قائمًا على القاعد لأن كعبًا سلم وهو قائم فقال له النبي عليه الصلاة والسلام : « تعال » .

سادسًا : أن الكلام عن قُرْب أبْلغ من الكلام عن بُعْد فإنه كان بإمكان الرسول ﷺ أن يكلم كعب بنِ مالك ولو كان بعيدًا عنه لكنه أمره أن يَدْنُو منه ؛ لأن هذا أبْلَغ في الأَخْذِ والرد والمُعَاتبة ، فلهذا قال له الرسول عليه الصلاة والسلام : « ادْنُ » .

سابعًا : ومنها كمال يقين كعب بن مالك ﷺ حيث إنَّه قال : إنني أستطيع أن أخْرُجَ بعُذْرٍ من الرسول ، ولكن لا يمكن أن أخرج منه بعذر يعذرني فيه اليوم ثم يَغضب اللَّه عليَّ فيه غدًا .

ثامنًا : إن اللَّه يعلم السِّر وأخفَى ، فإنَّ كعبًا خاف أن يسمع اللَّه محاورته للرسول عليه الصلاة والسَّلام فيُنزل اللَّه فيه قرآنًا ، كما أنزل في قصة المرأة المجادلة التي جاءت إلى الرسول عليه الصَّلاة والسَّلام تشكو زوجها حين ظاهر منها فأنزل اللَّه فيها آية من القرآن ﴿ قَدْ سَمِعَ ٱللَّهُ قَوْلَ ٱلَّتِى تُجَٰدِلُكَ فِى زَوْجِهَا وَتَشْتَكِىٓ إِلَى ٱللَّهِ وَٱللَّهُ يَسْمَعُ تَحَاوُرَكُمَآ إِنَّ ٱللَّهَ سَمِيعٌۢ بَصِيرٌ ﴾ [المجادلة : ١] .

يقول كعب إنه أتى إلى الرسول ﷺ وصدقه القول وأخبره أنه لا عذر له لا في بدنه ولا في مَاله بل إنه لم يجمع رَاحِلتين في غزوة قبل هذه . فقال النبي ﷺ : « أمَّا هَذَا فَقد صَدَق » - ويَكْفي له فخرًا أن وصَفَهُ الرسول عليه الصلاة والسلام بالصِّدق - فاذهب حتى يَقْضي اللَّه فيك ما شاء فذهب الرجل مستسلمًا لأمر اللَّه ﷻ مؤمنًا باللَّه وأنَّه ما شاء اللَّه كان وما لم يشأ لم يَكُن . فَلَحِقَهُ قومه من بني سلمة وجعلوا يزينون له أن يرجع عن إقراره وقالوا له : إنك لم تذنب ذنبًا قبل هذا ؛ يعني : ما تخلفت به عن رسول اللَّه ﷺ ويكفيك أن يستغفر لك رسول اللَّه ﷺ وإذا استغفر لك الرسول ﷺ غفر اللَّه لك . فارجع كذِّب نفسك قل : إنِّي مَعْذُور حتى يستغفر لك الرسول عليه الصلاة والسلام فيمن استغفر لهم ممن جاؤوا يعتذرون إليه فهمَّ أن يفعل ﷺ ولكن اللَّه سبحانه أنقذه وكتب له هذه المَنْقَبَة العظيمة التي تُتْلَى في كتاب اللَّه إلى قيام الساعة . . فسأل قومه : هل أحد صَنَع مِثْلَمَا صَنَعْتُ ؟

قالوا : نعم هلال بن أمية ومُرارة بن الربيع قالا مثلما قلت وقيل لهما مثلما قيل لك . يقول : « فذكروا لي رَجُلين صالحِين شَهِدا بدْرًا لي فيهما أسوة » . أحيانًا يُقَيض اللَّه للإنسان ما يجعله يَدَعُ الشر اقْتداءً بغيره وتأسِّيًا به . فهو ﷺ لما ذُكِر له هذان الرجلان وهما من خيار عباد اللَّه من الذين شَهِدُوا بدرًا . فقال : « لي فيهما أسوة فَمَضيتُ » أي : لم يرجع إلى النَّبي عليه الصلاة والسلام . فأمر الرسول عليه الصَّلاة والسَّلام الناس أن يهجروهم فلا يُكَلِّمُوهم . فهجرهم المسلمون ولكنهم بعد ذلك صاروا يمشون وكأنهم بلا عقول قد ذهلوا ، وتنكرت لهم الأرض فما هي بالأرض التي كانوا يَعْرِفُونها ؛ لأنهم يَمْشُون إن سلَّموا لا يُرَدُّ عليهم السَّلام وإن قابلهم أحد لم يبدأهم بالسَّلام ، وحتى النبي عليه الصلاة والسَّلام أحْسَنُ النَّاس خُلُقًا لا يُسَلم عليهم السَلام العَادي . يقول كعب : كنت أحضر وأسلم على النبي فلا أدري أحَرك شفتيه بردِّ السلام أم لا ؟ .

هذا هو النبي عليه الصلاة والسلام ، وما ظَنُّك برجل يُهْجَر في هذا المجتمع الإسلامي الذي هو خير القرون حتى تضيق عليه الأرض ، وفعلًا ضاقت عليهم أنفسهم وظنوا أن لا ملجأ من اللَّه إلا إليه وبقوا على هذه الحال مدة خمسين يومًا أي : شهرًا كاملًا وعشرين يومًا . والناس قد هجروهم فلا يُسَلمون عليهم ولا يردون السلام إذا سلموا ، وكأنهم في الناس إبلٌ جرب لا يَقْربهم أحد . فضاقت عليهم الأمور وصعبت عليهم الأحوال وفروا إلى اللَّه ﷻ ولكن مع ذلك لم يكن كعب بن مالك يَدَعُ الصَّلاة مع الجماعة . فكان يحضر ويسلم على النبي عليه الصلاة والسلام ، ولكن في آخر الأمور ربما يتخلف عن الصلوات لما يجد في نفسه من الضيق والحرج ؛ لأنه يخجل أن يأتي إلى قوم يصلي معهم وهم لا يكلمونه أبدًا لا بكلمة طيبة ولا بكلمة تأنيب . فضاقت عليهم الأرض وبقوا على هذه الحالة خمسين ليلة تامة ولما تَمَّت لهم أربعون ليلة أرْسَل إليهم النبي عليه الصلاة والسلام أن يَعْتَزِلوا نِساءهم . إلى هذا الحد !. وما ظَنُّك بكعب بن مالك وهو شاب يُعْزَل عن امرأته .. أمْرٌ عظيم .

ولكن مع ذلك لما جاءهم رسول الرسول عليه الصلاة والسلام وقال : « إن النبي - ﷺ يأمُرُكَ أن تعتزل امرأتك » . قال : أطلقها أم لا ؟

لأنه لو قال له : طلِّقها . طَلقها بكُلِّ سُهولة طاعةً للَّه ورَسوله ، فقال له رسول الرَّسول : إنَّ الرسول عليه الصلاة والسلام يأمُرك أن تعتزل أهلك ، وبَقِي على ظاهر اللفظ .

حتى الصَّحابي الذي أرسِلَ ما حرَّف النَّص لا مَعْنًى ولا لَفْظًا قال هكذا قال : ولا أدري .

وهذا من أدب الصَّحابة ﷺ ، ما قال أظُنُّ أنه يُريد أن تُطَلِّقها ولا أظن أنه يريد أن لا تُطلقها ! ما قال شيئًا بل قال : إن النبي ﷺ قال هذا . فقال كعب لزوجته : الحقي بأهلك ، فلحقت بأهلها وسيأتي .

يقول ﷺ : « فأما صَاحِبَاي فاستكَانا في بيوتهما يبكيان » لأنَّهما لا يستطيعان أن يمشيا في الأسواق والناس قد هجروهم لا يلتفت إليهم أحد ، فعجزوا عن تحمُّل هذه الحال فبقيا في بيوتهما يبكيان .

يقول : « وأمَّا أنا فكُنْتُ أشب القَومِ وأجلدهم » أشبُّهم : أقواهم وأجْلدهم : أصبرهم . لأنه أصغر

منهم سِنًّا فكان يشْهد الجماعة مع المسلمين ويطوف بأسواق المدينة لا يكلمه أحد .

يقول : « وكنت آتي المسجد فأصلي وأسلم على النبي ﷺ وهو جالس للنَّاس بعد الصَّلاة فأقول : « هَل حَرك شفَتَيه بِرَدِّ السَّلام أم لا » . أي : مَا يرد عليه ردًّا يُسْمَعُ ، هذا مع أن النبي ﷺ أحْسن النَّاس خُلُقًا ولكن امتثالًا لما أوحى اللَّه إليه أن يهجر هؤلاء القوم هَجَرهم .

ويقول : كنت أصَلِّي وأسارق النبي ﷺ النَّظر أي : انظر إليه أحيانًا وأنا أصلي فإذا أقبلت على صلاتي نظر إليَّ وإذا التفتُّ إليه أعْرَضَ عني . كل هذا من شِدّة الهجر . يقول : « فبينما أنا أمشي ذات يوم في أسواق المدينة وطال عليَّ جفوة الناس تسَوَّرْتُ حَائطًا لأبي قَتَادة ﷺ » أي : دخله من فوق الجدار من دون الباب ، وكأنَّ الباب مُغْلَق والعلم عند اللَّه .

يقول : « فسلَّمت عليه فواللَّه ما ردَّ عليَّ السَّلام » وهو ابن عمه وأحب الناس إليه ومع ذلك لم يرد عليه السلام . مع أن الرجل كان مجفيًا من الناس مَنْبُوذًا لا يُكَلم ولا يُسَلِّم عليه ولا يُرَدُّ عليه السَّلام ومع ذلك لم يَعْطف عليه ابن عمه أبو قتادة .

كلَ هذا طاعةً للَّه ورَسُوله ؛ لأن الصحابة ﷺ لا تأخذهم في اللَّه لومةُ لائم ولا يُحَابون أحدًا في دين اللَّه ولو كان من أحَبِّ الناس إليهم فقلت له : أنشدك اللَّه هل تعلم أني أحب اللَّه ورسوله ؟ فلم يَرُد عليه . فقلت : أنْشُدكَ اللَّه هل تعلم أني أحب اللَّه ورسوله ؟ فلم يَرُد عليه . مرتين يُنَاشده ، وأبو قتادة يدري أنَّ كعب بن مالك يحب اللَّه ورسوله . فلما رد عليه الثالثة وقال : أنْشدك اللَّه هل تعلم أني أحب اللَّه ورسوله ؟ فقال : اللَّه ورسوله أعلم .

لم يُكلمه ، فلم يقل : نعم ! ولا قال : لا . قال كلمة لا تعد خطابًا . يقول ففاضت عَيناي (أي بكى) أنَّ رَجُلًا - ابن عمه - أحبُّ الناس إليه لا يُكَلمه مع هذه المنَاشَدة العظيمة . مع أنها مسْألة تعبُّدية ، لأنَّ قوله أنْشُدكَ اللَّه هل تعلم أني أحب اللَّه ورسوله ؟ شهادة ومع ذلك لم يشهد له مع أنه يعلم أنه يُحِبُّ اللَّه ورسوله . وتسور البستان : أي خرج إلى السّوق ، فبينما هو يمشي إذا برجل نَبَطي من أنباط الشام - والنبطيُّ الذي ليس بعربي ولا بعجمي وسموا بذلك ؛ لأنهم كانوا يخرجون في البراري يستنبطون الماء - يقول : من يدُلُّنِي على كعب بن مالك ! أهل الشّر ينتهزون الفُرَص ! فعندما قال : من يدلني على كعب ابن مالك ؟ قلت : أنا هو ، فأعطاني الورقة ، وكنت كاتبًا لأن الكُتَّاب في ذلك العهد قَليلون جدًّا .

يقول : « فقرأت الكتاب فإذا فيه : أمَّا بعد فقد بلغنا أن صاحبك جفاك - أي الرسول عليه الصلاة والسلام ، وكان هذا الملك ملك غسان كافرًا - وإنَّك لست بدار هَوان ولا مَضْيعة - أي لا تبقى في الدَّار في ذُل وضَياع وهوان فتعال إلينا - الْحق بنا نُواسِك » أي : تعال إلينا نُواسك بأموالنا وربما نواسك بملكنا .

ولكن الرجل رَجُلٌ مؤمن باللَّه ورسوله ومحب للّه ورسوله ، قال : وهذه من البلاء أي الامتحان وصدق ﷺ ، رجل مجفو لا يُكَلَّم مهجور منبوذ حتى من أقرب الناس إليه ، لو كان في قلبه ضعف إيمان لانتهز الفرصة بدعوة هذا الملك وذهب إليه . ثم ذهب إلى التَّنور فسَجَرَه فيه : أي أوقَدَها . وإنما أوقدها في

التَّنور ولم يجعلها معه لئلا تُوسوس له نفسه بعد ذلك أنْ يَذْهَبَ إلى هذا الملك . فأتلفها لكي ييأس منها ولا يُحَاول أن يجعلها حجة يذهب بها إلى هذا الملك . ثم بقي على ذلك مُدّة ، ففي هذه القطعة من الحديث : دليل على جواز التخلُّف عن الجماعة إذا كان الإنسان مهجورًا منبوذًا وعجزت نفسه أن تتحمل هذا كما فعلَ صاحبا كعب . لأنَّه لا شك أنه من الضيق والحرج أن يأتي الإنسان إلى المسجد مع الجماعة لا يسلم عليه ولا يُردُّ سلامه ومَهْجُور ومَنْبُوذ ، هذا تضِيق به نفسه ذرعًا ، وهذا عذر كما قاله العلماء .

ومن فوائده : شدة امتثال الصحابة لأمر النبي ﷺ ودليل ذلك ما جَرَى لأبي قتادة مع كعب .

ومن فوائده : أنَّه يجب التَّحرز من أصحاب الشَّر وأهل السُّوء الذين ينتهزون الضَعف في الإنسان والفُرص في إضاعته وهَلاكه فإن هذا الملك انتهز الفرصة في كعب يدعوه ة إلى الضلال لعلَّه يرجع عن دينه إلى دين هذا الملك بسبب حال كعب .

ومن فوائده : قوَّة كعب بن مالك في دين اللَّه وأنَّه من المؤمنين الخُلَّص وليس ممن قال اللَّه فيهم : ﴿ وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يَقُولُ ءَامَنَّا بِٱللَّهِ فَإِذَآ أُوذِىَ فِى ٱللَّهِ جَعَلَ فِتْنَةَ ٱلنَّاسِ كَعَذَابِ ٱللَّهِ ﴾ [العنكبوت : ١٠] من الناس من يقول : آمنا باللَّه . ولكن إيمانه ضعيف ، إذا أوذي في اللَّه ارتدَّ - والعِياذُ باللَّه - وفسق وترك الطاعة .

كعب بن مالك أوذِيَ في اللَّه إيذاءً أيَّما إيذاء لكنه صَبَر واحتسب وانتظر الفرج ؛ ففرج اللَّه له تفريجًا لم يكن لأحد غيره وصاحبيه ، أنزل اللَّه فيهم - ثناءً عليهم - آيات تُتلى إلى يوم القيامة . نحن نقرأ قصَّتهم في القرآن في صلاتنا! هذا فضل عظيم .

ومن فوائد الحديث : أنه ينبغي للإنسان إذا رأى فتنة أو خوف فتنة أن يُتلفَ هذا الذي يكون سَببًا لِفتْنتِه . فإنَ كعبًا لـمَّا خاف على نفسه أن تَميل - فيما بعد - إلى هذا الملك ويتخذ هذه الورقة وَثِيقةً حَرقها ﷺ .

ومنه أيضًا : ما جرى لسليمان بن داود عليه السلام حينما عُرضت عليه الخيل الصافنات الجياد في وقت العصر فغفل فيما عُرض عليه عن الصلاة حتى غابت الشمس ، فلما غابت الشمس وهو لم يصل العصر دعا بها فجعل يَضرب أعناقها وسُوقها انتقامًا من نفسه لنفسه .

لأنَّه انتقم من نفسه التي لَهت بهذه الصَّافنات الجياد عن ذكر اللَّه ﴿ فَقَالَ إِنِّىٓ أَحْبَبْتُ حُبَّ ٱلْخَيْرِ عَن ذِكْرِ رَبِّى حَتَّىٰ تَوَارَتْ بِٱلْحِجَابِ ۝ رُدُّوهَا عَلَىَّ فَطَفِقَ مَسْحًا بِٱلسُّوقِ وَٱلْأَعْنَاقِ ﴾ [ص : ٣٢، ٣٣] فالمهم أنَّك إذا رأيتَ شيئًا من مالك يصدك عن ذكر اللَّه فأبعده عنك بأي وسيلة تكون حتى لا يكون ، سببًا لإلهائك عن ذكر اللَّه . فإن الذي يُلهي عن ذكر اللَّه خسارة كما قال تعالى : ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَا تُلْهِكُمْ أَمْوَٰلُكُمْ وَلَآ أَوْلَٰدُكُمْ عَن ذِكْرِ ٱللَّهِ ۚ وَمَن يَفْعَلْ ذَٰلِكَ فَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْخَٰسِرُونَ ﴾ [المنافقون : ٩] .

* * *

يقول ﷺ : « فلما تمت لنا أربعون ليلة » أي شهر وعشرة أيام . وكان الوحي قد استلبث - أي لم ينزل كل هذه المدة - وهذا من حكمة اللَّه ﷻ في الأمور الكبيرة العظيمة يَسْتَلْبث الوحي كما في هذه القصة وكما في قِصة الإفك حين انقطع الوحي عن رسول اللَّه ﷺ .

وهذا لحكمة اللّٰه ﷻ حتى يتشوَّف الناس إلى الوحي ويتشوقوا إليه ؛ ماذا سينزل رب العالمين ﷻ ؟! .

بقي الوحي أربعين ليلة ما نزل فلما تمت أربعون ليلة أرسل الرسول ﷺ إلى كعب وصَاحِبيه أنْ يَعْتزلوا نساءهم وقد سبق . وجاءت زوجة هلال بن أمية إلى رسول اللّٰه ﷺ وأخبرته بأنَّه في حاجة إليها لِتَخْدمه لأنَّه ليس له خادم ، فأذن لها النبي ﷺ بشرط أن لا يقربها ، فقالت : إنه ليس له في هذا الأمر من شيء يعني أنه ليس له شهوة في النساء ، وإنه ما زال يبكي رضي الله عنه منذ أمر النبي ﷺ بهجرهم إلى يومه هذا . لأنَّه ما يدري ماذا تكون النهاية ؟

يقول رضي الله عنه : « فلمَّا مَضَى عشْر ليال بعد هذا ، وكنت ذات يوم أصلي الصبح على سطح بَيتٍ من بُيوتنا » لأنه كما مر كانوا رضي الله عنهم قد ضاقت عليهم الأرض بما رَحُبت وضاقت عليهم أنفسهم .

يقول : « فسمعت صَارخًا يقول وهو على سلْع – وهو جبل معروف في المدينة – وصاح بأعلى صوته يقول : يا كعب بن مالك أبشر » . يقول : فعلمت أنَّ اللّٰه قد أنزل في فَرَجي ، وركب فارس من المسجد يؤم بيت كعب بن مالك يُبشره . وذهب مبشرون إلى هلال بن أمية ومرارة بن الربيع يبَشرونهما بتوبة اللّٰه عليهما . انظر إلى فرح المسلمين بعضهم مع بعض ، كل يَسْعى ويركض من جهة . يقول : فجاء الصارخ وجاء صاحب الفرس فكانت البُشْرى للصارخ لأن الصَّوت أسْرَع من الفرس ، يقول : فأعطيته ثوبي الإزار والرداء ، وليس يملك غيرهما لكن استعار من أهله أو جيرانه ثوبين فلبسهما وأعطى ثوبيه هذا الذي بَشَّره . أعطاه كُلَّ ما يَمْلك ، لكنها – واللّٰه – بُشْرَى عظيمة أن ينزِّل اللّٰه توبتهم ويُمَنَّ عليهم بالتوبة .

ثم نزل مُتَوجهًا إلى رسول اللّٰه ﷺ في المسجد وإذا رسول اللّٰه ﷺ – جزاه اللّٰه عن أمَّته خيرًا – قد بشَّر النَّاس بعد صلاة الصبح بأنَّ اللّٰه أنْزل توبته على هؤلاء الثَّلاثة . لأنَّه يُحب من أصحابه وأمته إلى أن يتوبوا ويرجعوا إلى اللّٰه .

يقول : « فذهبت أتأمَّمُ الرَّسول فجعل الناس يُلاقونني أفواجًا » أي : جماعات يهنئونه بتوبة اللّٰه عليه .

هؤلاء القوم يحبون لإخوانهم ما يحبون لأنفسهم ، فلم يَحْسُدوهم على ما أنعم اللّٰه به عليهم من إنزَال القرآن العظيم بتوبتهم بل جعلوا يُهنئونهم حتى دخل المسجد . وفي هذا فوائد :

أولًا : شِدَّة هجر النَّبي عليه الصلاة والسلام لهؤلاء الثلاثة حتى إنه أمرهم أن يعتزلوا نساءهم والتفريق بين الرجل وامرأته أمْرٌ عظيم .

ثانيًا : وفيه أن قول الرجل لامرأته : الحقي بأهْلك لَيس بطلاق ؛ لأنَّ كعبًا فرق بين قوله : الحقي بأهلك وبين الطلاق ، فإذا قال الرَّجل لامرأته : الحقي بأهلك ولم ينو الطلاق فليس بطلاق . أما إذا نوى الطلاق فإن النبي ﷺ قال : « إنَّما الأعْمَالُ بالنِّيَاتِ وإنما لِكُلِّ امْرِئٍ مَا نَوى .. » الحديث . فإذا نوى بهذه الكلمة وأمثالها الطلاق فله ما نوى .

ثالثًا : شدة امتثال الصَّحابة لأمر النبي ﷺ لأنه رضي الله عنه ما تردَّدَ ولا قال لعلِّي أراجع الرسول عليه الصلاة والسلام . أو قال للرَّسول الذي أرسله النبي ﷺ : ارجع إليه لعله يَسْمَح ، بل وافق بكل شيء .

رابعًا : أنَّ النبي ﷺ كان رحيمًا بأمَّته فإنه بعد أن أمر باعتزال النساء لهم ، رَخَّص لهلال بن أمية لأنَّه يحتاج لخدمة امرأته .

خامسًا : جواز حكاية الحال عند الاستفتاء أو الشَّهادة أو ما أشبه ذلك ، وإن كان المحكي عنه قد لا يحب أن يطلعَ عليه الناس ؛ لأنَّ امرأة هلال بن أمية ذكرت من حَالِه أنَّه ليس له حاجة إلى شيء من النِّساء .

سادسًا : أن الإنسان إذا حَصلَ له مثل هذه الحال وهجره الناس وصار يَتأذَّى من مُشاهدتهم ولا يتحمل فإنه له أن يتخلَّف عن صلاة الجماعة ، وإنَّ هذا عذر ، لأنه لو جاء إلى المسجد في هذه الحال سوف يكون مُتشوِّشًا غير مطمئن في صلاته ، ولهذا صلَّى كعب بن مالك صلاة الفجر على ظهر بيت من بيوته وسبق لنا ذكر هذه الفائدة .

سابعًا : حِرْصُ الصحابة على التَّسابق إلى البُشرى لأن البُشْرى فيها إدخال السرور على المسلم . وإدخال السُّرور على المسلم مما يقرب إلى الله ﷻ لأنه إحسان والله سبحانه يحب المحسنين ولا يُضيعُ أجرهم . فلذلك ينبغي لك إذا رأيت من أخيك شيئًا يَسُرُّه كأن يكون خبرًا سارًّا أو رؤيا سَارَّة أو ما أشبه ذلك أن تُبشِّره بذلك لأنك تُدْخل السُّرور عليه .

ثامنًا : أنَّه ينبغي مكافأة من بَشَّرك بهدية تكون مناسبة للحال لأنَّ كعب بن مالك أعطى الذي بَشَّره ثَوبَيه وهذا نظير ما صح به الخبر عن عبد الله بن عباس رضي الله عنهما وكان يأمر النَّاس إذا حجُّوا أن يَتَمَتَّعوا بالعمرة إلى الحج ، وكان عمر بن الخطاب رضي الله عنه ينهى عن المُتْعة لأنَّه يحب أن يعتمر الناس في وقت وأن يحجوا في وقت حتى يكون البيت دائمًا مَعْمُورًا بالزُّوار ، فعل هذا اجتهادًا منه رضي الله عنه وهو من الاجتهاد المغفور وسنَّة الرسول عليه الصلاة والسلام أولى .

المهم : أن رجلًا استفتى عبدالله بن عباس في هذه المسألة فأمره أن يتمتَّع وأن يُحْرم بالعمرة ويُحِل منها . فرأى هذا الرجل في المنام شخصًا يقول له : حَج مبرور وعمْرةٌ متقبلة ، فأخبر بذلك عبدالله بن عباس الذي أفتاه ، ففرح بذلك ابن عباس وأمره أن يَبْقى حتى يعطيه من عطائه – أي : يُعْطيه هدية على ما بَشَّره به من هذه الرؤيا التي تدلُّ على صواب ما أفتاه به ابن عباس .

والمهم أن من بَشَّرك بشيء فأقل الأحوال أن تدعو له بالبشارة أو تهْدي له ما تيسر وكل إنسان بقدر حاله .

* * *

يقول رضي الله عنه : « حتى دخلت المسجد وإذا رسول الله ﷺ جَالِسٌ وحوله أصْحابه فقام » – إلى كعب – « طلحةُ بْنُ عبيد الله رضي الله عنه » فصافحه وهنأه بتوبة الله عليه .

يقول : والله ما قام إليَّ أحد من المهاجرين رَجُلٌ غير طلحة فكان لا يَنْسَاها له حيث قام ولَاقاهُ وصَافَحه وهنَّأه حتى وقَفَ على النبي ﷺ وإذا وجهه تبرق أَسَاريره ، لأنه ، عليه الصلاة والسلام سَرَّه أن يَتُوب الله على هؤلاء الثلاثة الذين صَدَقوا الله ورسوله وأخبروا بالصِّدق عن إيمان ، وحَصَل عليهم مَا جَرى من الأمر العظيم من هجر النَّاس لهم خمسين يومًا ، حتى نسائهم بعد الأربعين أمر الرسول عليه الصَّلاة والسلام أن

يعتزلوهن . ثم قال له النبي ﷺ : « أبْشِر بخير يَوم مرَّ عَلَيكَ مُذْ وَلَدتْكَ أمُّك » . وصدق النَّبي ﷺ ، لأنَّ اللَّه أنْزل توبته وتوبة صاحبيه في قرآن يُتْلى تكلَّم به رَبُّ العالمين ﷻ وأنزله على محمد ﷺ محفوظًا بواسطة جبريل ومحفوظًا إلى يوم القيامة . ولا يوجد أحد سِوى الأنبياء أو من ذَكَرهم اللَّه في القرآن حُفِظت قصته كما حفظت قصة كعب ابن مالك وصَاحِبيه . بقِيت هذه القِصَّة تُتْلى في كتاب اللَّه في المحاريب وعلى المنابر وفي كلِ مكان ومن قرأ هذه القصة فله بكل حرف عشر حسنات . « فقلت : أمِنْ عِنْدَكَ يَا رَسول اللَّه أمْ مِنْ عِنْد اللَّه ؟ قال : لا بل من عند اللَّه ﷻ» لأنه إذا كان من عند اللَّه كان أشْرَفُ وأفضل وأعظم .

فقال كعب : « إن مِنْ تَوبتِي أن أنخلع مِنْ مَالي صَدقةً إلى اللَّه وإلى رَسُوله » . أي يتخلَّى عنه ويجعله صَدَقة إلى اللَّه ورسوله شأنه وتدبيره . فقال النبي ﷺ : « أمْسِكْ عليك بعْض مالك فهو خَير لك » . فأمسكه رضي الله عنه . ففي هذه القطعة من الحديث فوائد :

أوَّلًا : فيها دَليلٌ على أن من السنة إذا أتى الإنسان ما يَسُرُّه أن يهنأ به ويبشر به سواء كان خير دين أو خير دنيا . ولهذا بَشَّرت الملائكة إبراهيم عليه السلام بِغُلام حَليم وبغلام عليم . الغلام الحليم : إسماعيل ، والغلام العليم : إسحاق .

ثانيًا : إنَّه لا بأس بالقيام إلى الرَّجل لمصافحته وتهنئته بما يَسُرُّه . والقيام إلى الرجل لا بأس به قد جاءت به السنة وكذلك القيام للرَّجل وأنت باقٍ في مكانك لا تتحرك إليه فهذا أيضًا لا بأس به إذا اعتاده الناس ، لأنه لم يرد النهي عنه ؛ وإنما النهي والتحذير من الذي يقام له لا من القائم ، فإن من يقام له قال فيه النبي عليه الصلاة والسلام : « مَنْ أحب أنْ يَتمثَّل لهُ النَّاسُ قيامًا فلْيَتبَوَّا مَقْعَدهُ مِن النار » (١) .

قال أهل العلم والقيام ثلاثة أقسام :

الأول : قِيامٌ إلى الرَّجُل . الثَّاني : قِيامٌ للرجل . والثَّالث : قِيامٌ على الرَّجل .

فالقيام إلى الرَّجل : لا بأس به وقد جاءت به السُّنة أمرًا وإقرارًا وفعلًا .

أما الأوَّل : فإن النبي ﷺ لما أقبل سعد بن معاذ رضي الله عنه عند تحكيمه في بني قريظة قال الرسول - عليه الصلاة والسلام - : « قُوموا إلى سَيِّدكُم » (٢) وكان سعدبن معاذ رضي الله عنه قد أصيب في غزوة الأحزاب في أكحله - وهو عرق في اليد إذا انفجر مات الإنسان - فدعا اللَّه أن لا يُميته حتى يَقرَّ عينه في بني قريظة ، وكانوا حُلفاء للأوس ، وخانوا عهد النبي - عليه الصَّلاة والسلام - وصاروا مع الأحزاب على رسول اللَّه ﷺ . فلما طُعِنَ سعد قال : اللَّهم لاتُمتني حتى تقرعيني في بني قريظة ، وكان من عُلُوَ منزلته عند رسول اللَّه ﷺ أنْ أمرَ النبيُّ ﷺ أن يُضْرب له خباء في المسجد - أي خيمة صغيرة - لأجْل أن يَعُودهُ من قريب ، فكان يَعُوده من قريب .

ولمَّا حصَلَت غزوة بني قريظة ورَضُوا أن يحكم فيهم سعد بن معاذ ، أمر النبى ﷺ أن يَحْضُرَ سَعْدٌ

---

(١) أخرجه الطبراني واللفظ له في المعجم الكبير (٣٥٢/١٩) ، والهيثمي في مجمع الزوائد (٤٠/٨) .
(٢) أخرجه مسلم واللفظ له في الجهاد (٦٤) ، وأحمد في مسنده (٢٢/٣) .

إلى بني قريظة فجاء راكبًا على حِمَار ، لأنَّه قد أنهَكه الجرح . فلما أقبل قال الرسول عليه الصلاة والسلام : « قُومُوا إلى سَيدكُم » فقاموا فأنزلوه فقال الرسول - عليه الصلاة والسلام - له : « إنَّ اليهود مِن بَني قُريظة حَكَّموك » . فقال ﷺ حُكْمي نافذ فيهم ؟ قال : نعم ! وأقَرّوا بهِ وقالوا : نعم حُكمُك نَافِذ . قال : وفيمن ها هنا - يشير إلى الرسول عليه الصلاة والسلام والصحابة - قالوا : نعم .

فقال : أحْكُم فيهم أنْ تُقتل مقاتلتهم وتُسْبى ذريتهم ونِساؤهم وتغنم أموالهم . حُكْمٌ صَارِم!!

قال الرسول عليه - الصَّلاة والسلام - : « حَكَمتَ فيهم بِحُكم اللَّه مِن فَوقِ سَبْع سماواته » .

فنفَذ النبي ﷺ حكمه وقتل منهم سبعمائة رجل وسبى نساءهم وذرياتهم وغنم أموالهم .

الشاهد قوله : « قُوموا إلى سَيدكم » هذا فِعْل أمْر ولما دخل كعب المسجد قام إليه طلحة بن عبيد اللَّه والنبي ﷺ يُشَاهد ولم يُنكر عليه .

ولمَا قَدِمَ وَفْدُ ثَقيف إلى الرسول - عليه الصلاة والسلام - بالجِعِرَّانة قبل الغزْوة قام لهم - أو قام إليهم - عليه الصلاة والسلام .

الثاني : القيام للرجل : وهذا لا بأس به لاسيما إذا اعتاد الناس ذلك وصار الداخل إذا لم تَقُم له يعد ذلك امْتهانًا له فإن ذلك لا بأس به ، وإن كان الأولى تَرْكه كما في السنة ، لكن إذا اعتاده فلا حَرَج فيه .

الثَّالث : القيام عليه : كانْ يكون جالسًا ويقوم واحد على رأسه تعظيمًا له فهذا مَنْهي عنه .

قال الرسول عليه الصلاة والسلام : « لا تَقومُوا كَمَا تَقُومُ الأعَاجِم ، يُعَظم بعضُهم بعضًا » . حتى إنَّه في الصَّلاة إذا صار الإمام لا يستطيع القيام وصلَّى جالسًا فإن المأمومين يُصلُّون جُلُوسًا ولو كانوا يَقْدِرُون على القيام لئلا يشبهوا الأعاجم الذين يَقُومون على ملوكهم .

فالقيام على الرجل مَنهيٌّ عنه - اللَّهُمَّ إلا إذا دَعت الحاجة لذلك - ، كأن يخاف على الرَّجُل أن يَعتدي عليه أحد فلا بأس أن يقوم عليه القائم ، وكذلك إذا قام عليه الرجل إكْرامًا له في حال يقصد فيه إكْرامُه وإهانة العَدو ، مِثْل مَا حَصل من المغيرة بن شعبة رضي الله عنه في صُلْح الحديبية حينما كانت قريش تُراسِل النبي ﷺ للمُفاوضَة فيما بينهم .

كان المغيرة بن شعبة رضي الله عنه واقفًا على رأس رسول اللَّه ﷺ وبيده السَّيف تعظيمًا لرسول اللَّه ﷺ وإهانة لِرُسُلِ الكفَّار الذين يأتون للمُفاوضَة .

وفي هذا : دليل على أنَّه ينبغي لنا - نحن المسلمين - أن نغيظ الكفار بالقول وبالفعل لأنَّا هكذا أمرنا ؛ قال اللَّه سبحانه : ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ جَٰهِدِ ٱلۡكُفَّارَ وَٱلۡمُنَٰفِقِينَ وَٱغۡلُظۡ عَلَيۡهِمۡۚ ﴾ [التوبة : ٧٣] . وقال تعالى : ﴿ لِيَغِيظَ بِهِمُ ٱلۡكُفَّارَۗ ﴾ وقال اللَّه تعالى : ﴿ وَلَا يَطَـُٔونَ مَوۡطِئٗا يَغِيظُ ٱلۡكُفَّارَ وَلَا يَنَالُونَ مِنۡ عَدُوّٖ نَّيۡلًا إِلَّا كُتِبَ لَهُم بِهِۦ عَمَلٞ صَٰلِحٌۚ ﴾ [التوبة : ١٢٠] . ومن المؤسف أن منا من يدخل عليهم السرور والفرح وربما يشاركهم في أعيادهم - والعياذ باللَّه - الكُفْرية التي لا يرضاها اللَّه ، بل يسخط عليها والتي يخشى أن ينزل العذاب عليهم وهم يلعبون بهذه الأعياد . يوجد من الناس من لا قَدْر

لِلدِّين عنده كما قال ابن القيم في أحكام أهل الذِّمة .

أدْخل عليهم ما يحزنهم ويُغيظهم ويدخل عليهم أشَدَّ ما يكون من الضِّيق ، هكذا أمرنا لأنهم أعْداءٌ للَّه ولدينه وللملائكة والنَّبيين والصِّديقين والشُّهداء والصَّالحين .

المهم : أن المغيرة بن شعبة واقف على رأس رسول اللَّه ﷺ وبيده السيف تعظيمًا له حتى أنه في أثناء تلك المراسلة فعل الصَّحابة شيئًا لا يفعلونه في العادة .

كان - عليه الصَّلاة والسلام - إذا تنخع تلقَّوا نُخَامَتَه بأيديهم ثم يمسحون بها وجوههم وصدورهم ، مع أنهم ما كانوا يفعلون هذا لكن لأجل إذا ذهب رسول الكفار إلى الكفار بين لهم حال الصَّحابة مع نبيهم عليه الصَّلاة والسلام .

ولذلك لما رجع الرسول إلى قُريش قال : واللَّه لقد دخلت على الملوك وكِسْرَى وقيصر والنجاشي فلم أر أحدًا يُعَظِّمه أصحابه مِثْلما يعظم أصحاب محمدٍ محمدًا ، ﷺ وأرضاهم وجزاهم اللَّه عنا خيرًا .

المهم أن القيام على الرَّجل إذا كان المقصود به حفظ الرَّجل أو كان المقصود به إغَاظة العَدو فإن هذا لا بأس به .

ثالثًا : أن من أنعم اللَّه عليه بنعمة فإن من السُّنة أن يَتَصدَّق بشيء من ماله فإن النبي ﷺ أقرَّ كعب ابن مالك على أن يتصدَّق بشيء من ماله توبة إلى اللَّه ﷻ لما حصل له من هذا الأمر العظيم الذي كان فخرًا له إلى يوم القيامة .

ذكر كعب بن مالك أن من توبته : أن لا يحدث بحديث كذب بعد إذ نجَّاه اللَّه تعالى بالصِّدق ، وما زَال كذلك مَا حَدَّث بحديث كذب أبدًا بعد أن تاب اللَّه عليه ، فكان ﵁ مَضْرَب المثل في الصِّدق حتى إن اللَّه أنزل فيه وفي صاحبيه ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَكُونُواْ مَعَ ٱلصَّٰدِقِينَ ﴾ [التوبة : ١١٩] أنزل اللَّه تعالى الآيات في بيان مِنَّته عليهم بالتَّوبة من قوله تعالى : ﴿ لَّقَد تَّابَ ٱللَّهُ عَلَى ٱلنَّبِيِّ وَٱلْمُهَٰجِرِينَ وَٱلْأَنصَارِ ٱلَّذِينَ ٱتَّبَعُوهُ فِي سَاعَةِ ٱلْعُسْرَةِ مِنۢ بَعْدِ مَا كَادَ يَزِيغُ قُلُوبُ فَرِيقٍ مِّنْهُمْ ﴾ [التوبة : ١١٧] ففي هذه الآية أكَّد اللَّه توبته على النبي والمهاجرين والأنصار ، أكدَّها بقوله ﴿ لَّقَد تَّابَ ٱللَّهُ ﴾ [التوبة : ١١٧] .

فأما النَّبي فهو محمد رسول اللَّه ﷺ خاتم النَّبيين الذي غفر اللَّه له ما تقدم من ذنبه وما تأخر .

وأمَّا المهاجرون فهم الذين هاجروا من بلادهم من مكة إلى المدينة هاجروا إلى اللَّه ورسوله فجمعوا في ذلك بين الهجرة ومُفارقة الوطن ومفارقة الدِّيار وبين نُصْرة النبي ﷺ . لأنَّهم إنَّما هاجروا إلى اللَّه ورسوله .

أمَّا الأنصار فهم الذين تَبوَّؤا الدَّار والإيمان مِنْ قَبْلهم ، أهل المدينة ﵃ الذين آووا النبي ﷺ ونصروه ومَنَعُوه مما يمنعون مِنه نِسَاءهم وأبناءهم . وقدَّم اللَّه المهاجرين لأنهم أفضل من الأنصار لجمعهم بين الهجرة والنُّصرة . وقوله تعالى : ﴿ ٱلَّذِينَ ٱتَّبَعُوهُ فِي سَاعَةِ ٱلْعُسْرَةِ ﴾ [التوبة : ١١٧] . وذلك في الخروج معه إلى غزوة تبوك إلى بلاد بعيدة والناس في أشد ما يكونون في الحرِّ ، والناس في أطيب ما يَكونون لو بَقُوا في ديارهم لأن الوقت وقت قيظ والوقت وقت طيب الثمار وحسن الظِّلال ، ولكنهم ﵃ خرجوا في هذه السَّاعة الحَرِجَة في ساعة العُسْرة ﴿ مِنۢ بَعْدِ مَا كَادَ يَزِيغُ قُلُوبُ فَرِيقٍ مِّنْهُمْ ﴾ [التوبة : ١١٧] . فإن بعضهم

كاد يتخلف بدون عذر فيزيغ قلبه ولكن الله ﷻ منَّ عليهم بالاستقامة حتى خرجوا مع النبي ﷺ . وقوله : ﴿ ثُمَّ تَابَ عَلَيْهِمْ ﴾ [التوبة : ١١٧] أكد ذلك مرة أخرى ﴿ إِنَّهُ بِهِمْ رَءُوفٌ رَّحِيمٌ ﴾ [التوبة : ١١٧] شملهم بالرأفة والرحمةُ والرأفة أرق من الرحمة ، لأنها رحمة ألطف وأعظم من الرحمة العامة . ثم قال : ﴿ وَعَلَى الثَّلَاثَةِ الَّذِينَ خُلِّفُوا ﴾ [التوبة : ١١٨] . والثلاثة هم كعب بن مالك ، ومرارة بن الربيع ، وهلال بن أمية وخُلِّفوا أي خُلِّف البَتُّ في أمْرِهم وليس المُرَاد تخلَّفوا عن الغزوة ، بل خَلَّفهم الرسول عليه الصلاة والسلام لكي ينظر في أمرهم ماذا يكون حكم الله تعالى فيهم ؟ وقوله : ﴿ حَتَّىٰ إِذَا ضَاقَتْ عَلَيْهِمُ الْأَرْضُ بِمَا رَحُبَتْ ﴾ [التوبة : ١١٨] ضاقت عليهم الأرض مع سَعَتِهَا ، والرحب - السَّعة . حتى قال كعب بن مالك : « لقد تنكرت لي الأرض حتى قلت لا أدري هل أنا في المدينة أو غيرها » من شدة الضيق عليهم .

﴿ وَضَاقَتْ عَلَيْهِمْ أَنفُسُهُمْ ﴾ [التوبة : ١١٨] نفس الإنسان ضاقت عليه فهي لا تتحمّل أن تبقى ، ولكنهم صبروا حتى فرَّج الله عنهم .

وقوله : ﴿ وَظَنُّوا أَن لَّا مَلْجَأَ مِنَ اللَّهِ إِلَّا إِلَيْهِ ﴾ [التوبة : ١١٨] . الظَّنُّ هنا بمعنى اليقين ، أي أيقنوا أن لا ملجأ من الله . أي : أنَّه لا أحد ينفعهم ولا ملجأ من الله إلَّا إلى الله ، فالله بيده كل شيء ﷻ .

وقوله : ﴿ ثُمَّ تَابَ عَلَيْهِمْ لِيَتُوبُوا إِنَّ اللَّهَ هُوَ التَّوَّابُ الرَّحِيمُ ﴾ [التوبة : ١١٨] . تاب عليهم لينالوا مراتب التوبة التي لا ينالها إلا أحباب الله كما قال الله : ﴿ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ التَّوَّابِينَ وَيُحِبُّ الْمُتَطَهِّرِينَ ﴾ [البقرة : ٢٢٢] .

أمَّا أولئك الذين اعتذروا من المنافقين إلى الرسول عليه الصلاة والسلام واستغفر لهم ، ووكل سَرَائرهم إلى الله فإن الله أنزل فيهم شَر ما أُنْزِل في بَشر .

فقال : ﴿ سَيَحْلِفُونَ بِاللَّهِ لَكُمْ إِذَا انقَلَبْتُمْ إِلَيْهِمْ لِتُعْرِضُوا عَنْهُمْ ﴾ [التوبة : ٩٥] - فلا تلومونهم ﴿ فَأَعْرِضُوا عَنْهُمْ إِنَّهُمْ رِجْسٌ ﴾ [التوبة : ٩٥] ، أعوذ بالله .. رجس ، الخمر رجس ، القذر الذي يخرج من دُبُر الإنسان رجس روث الحمير رِجْسٌ ، هؤلاء مثلهم ﴿ وَمَأْوَاهُمْ جَهَنَّمُ جَزَاءً بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ ﴾ [التوبة : ٩٥] . بئس المأوى - والعياذ بالله - إنَّهم ينتقلون من الدنيا إلى جهنم نسأل الله العافية ، نارٌ حامية تطلع على الأفئدة ، مؤصدة عليهم في عمد مُمَدَدة . ﴿ يَحْلِفُونَ لَكُمْ لِتَرْضَوْا عَنْهُمْ ﴾ [التوبة : ٩٦] لأنكم لا تعلمون سرائرهم ولا يبدو لكم إلا الظواهر ﴿ فَإِن تَرْضَوْا عَنْهُمْ فَإِنَّ اللَّهَ لَا يَرْضَىٰ عَنِ الْقَوْمِ الْفَاسِقِينَ ﴾ [التوبة : ٩٦] إذا رضي الناس عنك كلهم والله لم يرض عنك فإنه لا ينفعك .

إذَا رضِيَ الله عنك أرْضى عنك الناس وأمَالَ قلوبهم إليك كَما جاء في الحديث : « إنَّ الله ﷻ إذا أحَبَّ شَخْصًا نادَى جبريل يا جِبْريل إني أحب فُلانًا فأحِبه - يُعَيِّنُ اللهُ الرَّجل له - فيحبُّه جبريَل ثم ينادي في السماء إن الله يحب فلانًا فأحِبُّوه فَيحِبه أهْل السماء ثم يُوضَع لهُ القَبول في الأرْضِ »(١) فيكُون مَقْبولًا لدَى أهْل الأرْض .

كما قال الله ﷻ : ﴿ إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ سَيَجْعَلُ لَهُمُ الرَّحْمَٰنُ وُدًّا ﴾ [مريم : ٩٦] .

---

(١) أخرجه البخاري في التوحيد (٧٤٨٥) ، ومسلم في البر والصلة (١٥٧) ، وأحمد في مسنده (٤١٣/٢) وهذه الروايات باختلاف في اللفظ .

لكن إذا التمس الإِنسان رضى النَّاس بسخط اللَّه فالأمر بالعكس يسخط اللَّه عليه ويسخط عليه الناس . ولهذا لما تولَّى مُعَاوية ﷺ الخلافة كتبتْ له عائشة ﷺ قالت : سمعت النبي ﷺ يقول : « مَنِ الْتَمَس رِضَى اللَّه بسَخَطِ النَّاس كَفَاهُ اللَّه مُؤنَةَ الناس ومَنْ الْتَمَسَ رِضَى النَّاس بِسَخَطِ اللَّه سَخَطَ اللَّه عَلَيه وأسْخَطَ عليه الناس »[(١)] ومَا أكْثر الذين يَطْلبون رضى النَّاس بسخط الخالق ﷻ .

هؤلاء في سخط اللَّه ولو رَضي عنهم النَّاسِ ، فلا ينفعهم رضى الناس قال اللَّه هنا : ﴿ فَإِن تَرْضَوْا عَنْهُمْ فَإِنَّ ٱللَّهَ لَا يَرْضَىٰ عَنِ ٱلْقَوْمِ ٱلْفَـٰسِقِينَ ﴾ [التوبة : ٩٦] حتى لو رضي عنهم النبي أشرفُ الخلق ما نفعهم لأن اللَّه لا يرضى عن القوم الفاسقين . وفي هذه الآية تحذير من الفِسْقِ وهو ارْتكابُ المَعاصي التي أعظمها الكفر وكُل فِسْقٍ فإنَّه يُنقِص مِن رضى اللَّه عن الإِنسان بحسبه ، لأن الحكم المعلق بالوَصف يزداد بِزيَادَتِه وينقص بنقصانه ويقوى بقوته وَيضعف بضعفه .

الفِسقُ سببُ عدم رضى اللَّه ، وهو أنْواع كثيرة ومَرَاتِب عظيمة . مثل : عقوق الوَالدين من الفُسُوق وقطيعة الرَّحم من الفسوق ، وغش الناس من الفُسُوق ، والغدر بالعَهد من الفُسُوق ، والكَذِب من الفُسوق فكل معصية من الفُسوق .

لكن صَغَائِر الذُّنوب تكفرها حسنات الأعمال إذا أصلح الإنسان الحسنات كما قال اللَّه : ﴿ أَقِمِ ٱلصَّلَوٰةَ لِدُلُوكِ ٱلشَّمْسِ إِلَىٰ غَسَقِ ٱلَّيْلِ وَقُرْءَانَ ٱلْفَجْرِ ۖ إِنَّ قُرْءَانَ ٱلْفَجْرِ كَانَ مَشْهُودًا ﴾ [الإسراء : ٧٨] وقال : ﴿ إِنَّ ٱلْحَسَنَـٰتِ يُذْهِبْنَ ٱلسَّيِّـَٔاتِ ۚ ﴾ [هود : ١١٤] . أمَّا الكبائر فلا ينفع فيها إلا التَّوبة . على كُلِّ الفِسْقُ من أسباب انتفاء رضى اللَّه عن العبد والطاعة من أسباب الرِّضا . فعليك يا أخي التزام طاعة اللَّه إن كنت تُريد رِضاه وإن كنت تُريد رِضَى النَّاس فأَرْضِ اللَّه . ذكر ﷺ أنَّه خَرج من المدينة ، في يوم الخَميس وكان يحب أنْ يخرج فيه ، ولكن ذلك ليس بدائم ، أحْيانًا يخرج يوم السَّبت كما خرج في آخر سفرة سَافَرها في حجة الوداع وربما يَخرج في أيَّام أُخر لكن غالب مَا يخرج فيه هو يوم الخَميس . وذُكِرَ أنَّ النبي ﷺ عاد إلى المدينة ضُحىً وأنَّه دخل المسجد فصلَّى فيه ركعتين وكان هذا من سنته ﷺ أنه إذا قدم بلده لم يبدأ بشيء قبل المسجد وقد تقدم . وهاتان الركعتان تشمل كل الوقت حتى أوقات النَّهي لأنَّها صلاة سَبَبِيَّة فليس عنها نَهْيٌ في أيِّ وقت وُجدَ سببُها حَلَّ فعْلُها .

* * *

وأما الأحاديث :

٥٤ - فَالأَوَّلُ : عَن ابْن مسْعُودٍ ﷺ عن النَّبيِّ ﷺ قال : « إنَّ الصِّدْقَ يَهْدِي إِلَى البرِّ ، وإنَّ البرَّ يَهْدِي إِلَى الجنَّة ، وَإنَّ الرَّجُل لَيَصْدُقُ حَتَّى يُكْتَبَ عِنْدَ اللَّهِ صِدِّيقًا ، وَإن الكَذِبَ يَهْدِي إِلَى الفُجُورِ ، وإن الفجور يَهْدِي إِلَى النَّارِ ، وَإنَّ الرَّجُلَ لَيَكْذِبُ حَتَّى يُكْتَبَ عِنْدَ اللَّهِ كَذَّابًا »[(٢)] متفقٌ عليه .

---

(١) أخرجه الترمذي باختلاف في اللفظ في الزهد (٢٤١٤) .

(٢) أخرجه البخاري في الأدب (٦٠٩٤) ، ومسلم في البر والصلة (١٠٣) واللفظ له ، والإمام أحمد في مسنده (١/٣٨٤ ، ٤٣٢) .

الشرح

قوله : « عليكم بالصدق » ... أي : الزموا الصدق والصدْق مُطابقة الخبر للواقع . وقد سبق في حديث كعب وَصاحِبيه ما يدل على فضيلة الصدق وحُسْن عاقبته وأنَّ الصادق هو الذي له العاقبة والكاذب هو الذي يكون عمله هباءً . ولهذا يُذكر أن بعض العامة قال : إن الكَذِب ينجي فقال لهُ أخُوه : الصِّدْقُ أنْجَى وأنْجَى . وهذا صحيح . واعلم أن الخبر يكون باللسان ويكون بالأركان .

أما باللِّسان : فهو القول ، وأما بالأركان : فهو الفِعل ، ولكن يكون الكذب بالفعل!! إذا فعل الإنسان خلاف ما يُبْطن فهذا قد كذب بفعله ، فالمنافق مثلًا : كاذب لأنه يظهر للناس أنه مؤمن يُصَلِّي مَع الناس ويصوم مع الناس ويتصدق ولكنه بخيل . وربما يحجُّ ، فمن رأى أفعاله حكم عليه بالصَّلاح ، ولكن هذه الأفعال لا تنبئ عما في الباطن فهي كذب .

ولهذا نقول : الصدق يكون باللسان وبالأركان . فمتى طابق الخبرالواقع فهو صِدْق وهذا باللسان ، ومتى طابقت أعمال الجوارح مَا فِي القلب فهي صِدْق وهذا صدق بالأقوال . ثم إنَّ النبي عليه الصلاة والسلام عندما أمر بالصِّدق بيَّنَ عاقبته فقال : « إن الصِّدق يَهْدي إلى البر وإنِ البر يهْدي إلى الجنَة » . البرُّ كَثْرة الخير ومنه من أسماء اللّه البَرُّ أي : كثير الخير والإحسان ﷻ .

والبر من نتائج الصِّدق وقوله : « وإنَّ البر يَهْدي إلى الجنَّة » فصَاحب البر - نسأل اللّه أن يجعلنا وإياكم منهم - يَهْديه بِرُّه إلى الجنة والجنة غاية كل مطلب . ولهذا يؤمر الإنسان أن يسأل اللّه الجنة ويستعيذ به من النَّار ﴿ فَمَن زُحْزِحَ عَنِ ٱلنَّارِ وَأُدْخِلَ ٱلْجَنَّةَ فَقَدْ فَازَ وَمَا ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَآ إِلَّا مَتَٰعُ ٱلْغُرُورِ ﴾ [آل عمران : ١٨٥] . وقوله ﷺ : « إنَّ الرَّجُل لَيَصْدق حَتَى يُكْتَبِ عند اللّه صِدِّيقًا » وفي رواية : « ولا يزال الرَّجلُ يصْدُق ويتَحَرَّى الصدق حتَى يُكْتَب عندَ اللّه صِديقًا » . الصِّديق في المرتبة الثَّانية من الخلق من الذين أنعم اللّه عليهم كما قال اللّه سبحانه : ﴿ وَمَن يُطِعِ ٱللَّهَ وَٱلرَّسُولَ فَأُوْلَٰٓئِكَ مَعَ ٱلَّذِينَ أَنْعَمَ ٱللَّهُ عَلَيْهِم مِّنَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ وَٱلصِّدِّيقِينَ وَٱلشُّهَدَآءِ وَٱلصَّٰلِحِينَ ﴾ [النساء : ٦٩] فالرجل الذي يتحرى الصدق يكتب عند اللّه صِدِّيقًا ومعلوم أن الصِّديقية درجة عظيمة لا ينالها إلا أفذاذ من الناس .

وتكون في الرجال وتكون في النِّساء ، قال اللّه تعالى : ﴿ مَّا ٱلْمَسِيحُ ٱبْنُ مَرْيَمَ إِلَّا رَسُولٌ قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِهِ ٱلرُّسُلُ وَأُمُّهُۥ صِدِّيقَةٌ ﴾ [المائدة : ٧٥] . وأفضل الصديقين على الإطلاق أصدقهم ، وهو أبو بكر الصدِّيق ﷺ . عبد اللّه بن عثمان بن أبي قحافة الذي استجاب للنّبي ﷺ حين دعاه إلى الإسلام ولم يحصل عنده أي تردد وأي توقف بمجرد مَا دَعاه الرسول إلى الإسلام أسْلم . وصدَّق النبي ﷺ حين كذبه قومه ، وصدَّقه حين تحدث عن الإسراء والمعراج وكذَّبه الناس وقالوا كيف تذهب يا محمد من مكة إلى بيت المقدس وترجع في ليلة واحدة ؟! ثم تقول : إنك صعدت إلى السماء هذا لايمكن !.

ثم ذهبوا إلى أبي بكر وقالوا لهُ : أمَا تَسْمَعُ ما يقول صاحبك قال : ماذا قال ؟ قالوا : إنَه قال كذا وكذا قال : « إنْ كان قَدْ قالَ ذلك فقد صَدق » ، فمنذ ذلك اليوم سمي الصِّديق ﷺ . وأما الكذب فإنه قال :

« وإياكم والكذب » : « إياكم » للتحذير أي احذروا الكذب ، وهو الإخبار بما يُخالف الواقع سواء كان بالقول أو بالفعل . فإذا قال قائل : ما اليوم ؟ فقلت : اليوم يوم الخميس ، أو يوم الثلاثاء فكذب لأنه لا يُطابق الواقع ؛ لأن اليوم كان الأربعاء . والمنافق كاذب لأن ظاهره يدلُّ على أنه مسلم وهو كافر فهو كاذب بفعله .

وقوله : « وإن الكذب يهدي إلى الفجور » الفجور : الخروج عن طاعة الله لأن الإنسان يفسق ويتعدى طوره ويخرج عن طاعة الله إلى معصيته وأعظم الفجور الكفر . فإن الكَفَرة فَجَرة كما قال الله تعالى : ﴿ أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡكَفَرَةُ ٱلۡفَجَرَةُ ﴾ [عبس : ٤٢] وقال تعالى : ﴿ كَلَّآ إِنَّ كِتَٰبَ ٱلۡفُجَّارِ لَفِي سِجِّينٖ ۝ وَمَآ أَدۡرَىٰكَ مَا سِجِّينٞ ۝ كِتَٰبٞ مَّرۡقُومٞ ۝ وَيۡلٞ يَوۡمَئِذٖ لِّلۡمُكَذِّبِينَ ۝ ٱلَّذِينَ يُكَذِّبُونَ بِيَوۡمِ ٱلدِّينِ ﴾ [المطففين : ٧- ١١] . وقال تعالى : ﴿ وَإِنَّ ٱلۡفُجَّارَ لَفِي جَحِيمٖ ﴾ [الانفطار : ١٤] . فالكذب يهدي إلى الفجور والفجور يهدي إلى النار . وقوله : « وإن الرَّجل لَيَكْذِب » وفي لفظ : « لا يزالُ الرجل يكْذِب ويَتحرى الكَذِب حتى يُكْتَبَ عِنْد اللَّه كَذابا » والكَذِب من الأمور المحرمة ، بل قال بعض العلماء : إنَّه من كبائر الذُنوب لأنَّ الرسول ﷺ توعَده بأنَه يُكْتب عند اللَّه كذابًا .

ومن أعظم الكذب : ما يفعله الناس اليوم يأتي بالمَقالة كاذبًا لكن من أجْل أن يضحك الناس .

وقد جاء في الحديث الوعيد على هذا ، فقال الرسول عليه الصلاة والسلام : « ويلٌ لِمَنْ حَدثَ فَكَذبَ لِيُضْحِكَ بِهِ القَوم ويلٌ لهُ ثُمَّ ويلٌ لهُ » (١) وهذا وعِيد على أمْر سهل عند كثير من الناس .

فالكذب كله حرام ، وكله يَهدي إلى الفجور ، ولا يُسْتثنى منه شيء .

ورد في الحديث أنَّه يستثنى من ذلك ثلاثة أشياء ؛ في الحرب ، والإصلاح بين الناس ، وحَديثُ المرأة زَوجها وحديثه إيَّاها . ولكن بعض أهل العلم قال : إنَّ المراد بالكذب في هذا الحديث التَّورية وليس الكذب الصريح . وقال : التورية قد تُسَمى كذبًا كما في حديث أبي هريرة ﷺ أن النبي ﷺ قال : « لم يكذب إبراهيم إلا ثلاث كذبات . ثنتين فيهن في ذات اللَّه تعالى : قوله : « إني سقيم » وقوله : « بل فعله كبيرهم هذا » وواحدة في شأن سارة .. » (٢) الحديث وهو لم يكذب ، وإنما ورى تورية هو فيها صادق . وسواء كان هذا أو هذا فإن الكذب لا يجوز إلا في هذه الثَّلاث على رأي كثير من أهل العلم .

وأشدُّ شيء في الكَذب أن يكذب ويحلف ليأكل أموال الناس بالباطل ، مثل أن يدَّعى عليه بحق ثابت فينكر ويقول : واللَّه مَالَك عليَّ حق ، أو يَدَّعي ما ليس له فيقول : لي عندك كذا وكذا وهو كاذب ، فهذا إذا حَلَف على دعواه وكذب فإن ذلك هو اليمين الغموس التي تغمس صاحبها في الإِثم ثم تغمسه في النَّار - والعياذ باللَّه - .

وثبت عن النبي ﷺ قال : « مَنْ حَلَفَ عَلَى يَمِين صَبْرٍ هُو فيها فَاجِر يَقْتَطع بِها مَال امْرِئ مُسْلم لَقِي اللَّه وهُو عليه غضْبان » (٣) فالحاصل أن الكذب حرام ولا يجوز للإنسان أن يكذب مطلقًا إلا

---

(١) أخرجه الترمذي في السنن (٢٣١٥) ، وأحمد في مسنده (٥/٣ ، ٦) ، وهذا التخريج مع اختلاف في اللفظ .
(٢) أخرجه البخاري واللفظ في أحاديث الأنبياء (٣٣٥٧) ، ومسلم في الفضائل (١٥٤) .
(٣) أخرجه البخاري بدون عبارة : (هو فيها فاجر) في الإيمان (٦٦٧٦) ، ومسلم في الإيمان (١٧٦) .

على المسائل الثلاث على الخلاف السابق .

* * *

٥٥ - الثَّاني : عَنْ أَبي مُحَمَّدٍ الحَسَنِ بْن عَليٍّ بْن أَبي طَالِب ﷺ قال : حَفِظْت مِنْ رسول اللّه ﷺ : « دَعْ مَا يَرِيبُكَ إِلَى مَا لَا يَرِيبُكَ ، فَإِنَّ الصِّدْقَ طُمَأْنينَةٌ ، وَالكَذِبَ رِيبَةٌ »[1] رواه التِّرْمذي وقال : حديثٌ صحيحٌ .

قَوْلُهُ : « يَرِيبُكَ » هُوَ بفتحِ الياءِ وضمها ، وَمَعْنَاهُ : اتْرُكْ مَاتَشُكُّ في حِلّه ، واعْدِلْ إِلَى مَالا تَشُكُّ فيهِ .

الشرح

قوله : « دع » أي اترك « ما يَرِيبُكَ » بفتح الياء أي تشك فيه ولا تطمئن إليه « إلى مَا لَا يَرِيبُك » أي : إلى الشّيء الذي لا ريب فيه .

وهذا الحديث من أحاديث الأربعين النَّووية وهو حديث جامع مهم وهو باب عظيم من أبواب الوَرع والاحتياط .

وقد سلك أهل العلم - رحمهم اللّه - في أبواب الفقه هذا المَسْلكَ وهو الأخذ بجانب الاحتياط وذكروا لذلك أشياء كثيرة .

منها : إنسان أصاب ثوبه نجاسة ، ولا يدري هل هي في مقدم الثوب أو في مؤخره ؟ إن غسل المقدم صار عنده ريبة لاحتمال أنْ تكُون في مُؤخر الثوب ، وإن غسل المؤخر صار عنده ريبة لاحتمال أن تكون في مقدم الثوب ! فما هو الاحتياط ؟ الاحتياط أن يغسل مقدمه ومؤخره حتى تَزُول ريبته ويَطْمئن . ومنها لو شك الإنسان في صلاته هلْ صَلى ركعتين أو ثلاث ركعات ولم يترجح عنده شيء فهنا إن أخذ بركعتين صار عنده ريبة فلَعله نقص . وإن أخذ بالثلاث صار عنده ريبة فلعله لم ينقص لكن يبقى قلقًا . فهنا يعمل بما لا ريبة فيه فيعمل بالأقل فإذا شَك هل هي ثلاث أو أربع فليجعلها ثلاثًا وهكذا . فهذا الحديث أصل من أصول الفِقه أن الشيء الذي تشك فيه اتركه إلى شيء لا شَك فيه .

ثم إن فيه تربية نفسية وهي أن الإنسان يكون في طُمأنينة ليس في قلق ، لأن كثيرًا من الناس إذا أخذ ما يشك فيه يكون عنده قلق إذا كان حي القلب . فإذا قطع الشك باليقين زالَ عنه ذلك .

قال النبي ﷺ : « فإن الصدقَ طُمَأنِينَة » وهذا وجه الشاهد من هذا الحديث لهذا الباب .

فالصدق طمأنينة لا يندم صاحبه أبدًا ولا يقول : ليتني وليت ؛ لأن الصدق مَنجاة والصادقون يُنجيهم اللّه بصدقهم وتجد الصادق دائمًا مطمئنًا ؛ لأنه لا يتأسف على شيء حصل أويَحْصُل في المستقبل لأنه قد صدق ، « ومَنْ صَدَق نجا » .

---

(١) أخرجه الترمذي في صفة القيامة (٢٥١٨) ، والإمام أحمد في مسنده (١/٢٠٠) .

أما الكذب : فبين النبي عليه الصلاة والسلام أنه ريبة ، ولهذا تجد أول من يرتاب في الكاذب نفسه ، فيرتاب هل يصدقه الناس أو لا يُصدقونه . ولهذا تجد الكاذب إذا أخبرك بالخبر قام يحلف بالله أنّه صادق لئلا يرتاب في خبره مع أنه مَحَل ريبة .

تجد المنافقين مثلًا يحلفون بالله ما قالوا ، ولكنهم في ريبة قال الله : ﴿ وَلَقَدْ قَالُواْ كَلِمَةَ ٱلْكُفْرِ وَكَفَرُواْ بَعْدَ إِسْلَٰمِهِمْ وَهَمُّواْ بِمَا لَمْ يَنَالُواْ ﴾ [التوبة : ٧٤] . فالكذب لا شك أنّه ريبة وقلق للإنسان وَيرْتاب الإنسان هل عَلِمَ الناس بكَذِبه أم لم يعلموا ؟ ، فلا يزال في شك واضطراب .

إذًا نأخذ من هذا الحديث أنه يجب على الإنسان أن يَدَع الكذب إلى الصدق لأن الكذب ريبة والصِّدق طمأنينة وقد قال النبي - عليه الصلاة والسلام - : « دع مَا يَرِيبُك إلى ما لا يَرِيبُك » والله الموفق .

* * *

٥٦ - الثَّالِثُ : عَنْ أَبي سُفْيَانَ صَخْر بْنِ حَرْب رضي الله عنه في حديثه الطَّويل في قِصَّةِ هِرَقْلَ ، قالَ هِرَقْلُ : فَمَاذَا يَأْمُرُكُمْ - يَعْني النَّبي صلى الله عليه وسلم - قالَ أَبُو سُفيَانَ : قُلْتُ : يقولُ : « اعْبُدُوا اللَّهَ وَحدَهُ ولا تُشْرِكُوا بِهِ شَيْئًا ، وَاتْرُكُوا مَا يَقولُ آباؤُكُمْ ، وَيَأْمُرنَا بالصَّلاةِ ، والصِّدْقِ ، والعَفَافِ ، والصِّلَةِ » [(١)] متفق عليه .

الشرح

قال المؤلف - رحمه الله تعالى - فيما نقله عن أبي سفيان بن حرب ، وكان أبو سفيان مُشركًا لم يُسلم إلا متأخرًا وفيما بين صلح الحديبية وفتح مكة . وصلح الحديبية كان في السنة السادسة من الهجرة وفتح مكة كان في السنة الثامنة من الهجرة .

قدم أبو سفيان ومعه جماعة من قريش إلى هرقل في الشام ، وهرقل كان ملك النصارى في ذلك الوقت ، وكان قد قرأ في التوراة والإنجيل وعرف الكتب السابقة ، وكان مَلِكًا ذكيًا ، فلما سمع بهم أي : بأبي سفيان ومن مَعَه وهم قادمون من الحجاز دَعَا بهم ، وجعل يسألهم عن حال النبي صلى الله عليه وسلم وعن نَسَبه وعن أصْحابه وعن تَوقيرهم له وعن وَفَائه صلى الله عليه وسلم وكلما ذكر شيئًا أخبروه عرف أنه النبي الذي أخبرت به الكتب السابقة ، ولكنه - والعياذ بالله - شح بمُلْكه فلم يسلم للحكمة التي أرادها الله عز وجل .

لكن سأل أبا سفيان عما كان يأمرهم به صلى الله عليه وسلم فأخبر بأنه يأمرهم أن يَعْبدوا الله ولا يشركوا به شيئًا ، فلا يعبدوا غير الله لا ملِكًا ولا رَسُولًا ولا شجرًا ولا حجرًا ولا شَمْسًا ولا قمرًا ولا غير ذلك ، فالعبادة لله وحده وهذا الذي جاء به الرسول صلى الله عليه وسلم قد جاءت به الرسل كلهم قال الله : ﴿ وَمَآ أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ مِن رَّسُولٍ إِلَّا نُوحِىٓ إِلَيْهِ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّآ أَنَا۠ فَٱعْبُدُونِ ﴾ [الأنبياء : ٢٥] . وقال الله تعالى : ﴿ وَلَقَدْ بَعَثْنَا فِى كُلِّ أُمَّةٍ رَّسُولًا أَنِ ٱعْبُدُواْ ٱللَّهَ وَٱجْتَنِبُواْ ٱلطَّٰغُوتَ ﴾ [النحل : ٣٦] ، أي : اعبدوا الله واجتنبوا الشرك . هذه دعوة الرسل فجاء النبي صلى الله عليه وسلم بما جاءت به الأنبياء من قبله . ويقول : « اتركُوا مَا كَانَ

---

(١) أخرجه البخاري واللفظ له في بدء الوحي (٧) ، ومسلم في الجهاد (٧٤) .

عَلَيه آبَاؤكُم » انظر كيف الصدع بالحق! كل ما كان عليه آبآؤهم من عبادة الأصنام أمرهم النبي ﷺ بتركه . وأما ما كان عليه آباؤهم من الأخلاق الفَاضلة فإنه لم يأمرهم بتركها كما قال اللّٰه تعالى : ﴿ وَإِذَا فَعَلُوا فَاحِشَةً قَالُوا وَجَدْنَا عَلَيْهَا آبَاءَنَا وَاللَّهُ أَمَرَنَا بِهَا ﴾ فقال سبحانه مكذبًا لهم : ﴿ قُلْ إِنَّ اللَّهَ لَا يَأْمُرُ بِالْفَحْشَاءِ ﴾ [الأعراف : ٢٨] . فالحاصل أن الرسول عليه الصلاة و السلام أمر أمته الذين باشر دعوتهم أن يَدَعوا ما كان عليه آباؤهم من الإشراك باللّٰه .

وقوله : « وَكَانَ يَأمُرنا بالصلاة » الصلاة صِلة بين العبد وبين ربه وهي آكد أركان الإسلام بعد الشهادتين وبها يتميز المؤمن من الكافر ، فهي العهد التي بيننا وبين المشركين والكافرين كما قال النبي عليه الصلاة والسلام : « العَهْدُ الذِي بَينَنَا وَبَينَهُم الصلاة فَمَن تَرَكَهَا فَقَد كَفَر » (١) ، أي : كفر كفرًا مُخْرجًا عن الملة .

لأنَّ الرسول عليه الصَّلاة والسَّلام قال : « العهد الذي بيننا وبينهم الصلاة » ، فهذا حد فاصل بين المؤمنين وبين الكافرين . ولقد أبعد النجعة من قال من العلماء أن المراد بالكفر هنا الكفر الأصغر كالذي في قوله ﷺ : « اثْنَتَانِ في الناس هُمَا بهمَا كُفْر » (٢) لأنَّه من تدبَّر الحديث علم أن هذا تأويل خَاطئ وَأن الصَّواب المتعينٌ أن المراد بالكفر هنا : الكفر الأكبر المخرج عن الملة ؛ لأن الفاصل بين الإيمان والكفر لا بد أن يميز أحَدَهما الآخر ، وإلا لما صَحَّ أن يكون فاصلًا .

الحدود التي بين أرْضين إحداهما لِزَيد والأخرى لعمرو فإن هذه الحدود فاصلة لا تدخل أرض أحدهما في الأخرى ، وكذلك الصَّلاة حَدٌّ فاصل من كان خارجًا منها فليس داخلًا فيما وراءها .

إذًا الصلاة من بين سائر الأعمال إذا تركها الإنسان فهو كافر ، لو ترك الإنسان صيام رمضان وصار يأكل وَيشْرب بالنّهار ولا يبالي لم نقل إنه كافر . لكن لو ترك الصَّلاة قلنا إنه كافر ، ولو ترك الزَّكاة وصار لا يزكِّي لم نقل : إنه كافر ، لكن لو ترك الصَّلاة قلنا إنه كافر . ولو لم يَحُج مع قدرته على الحج لم نقل : إنه كافر ، لكن لو ترك الصَّلاة قلنا : إنه كافر . قال عبداللّٰه بن شقيق رحمه الله وهو من المشهورين ومن التابعين : « كانَ أصْحَابُ الرسول لا يَرَونَ شَيئًا مِن الأعْمَالِ تَرْكه كُفْر غَير الصلاة » . إذًا الصلاة التي كان الرسول عليه الصلاة والسلام يأمر بها إذا تركها الإنسان فهو كما لو ترك التَّوحيد أي : يكون كافرًا مشركًا والعياذ باللّٰه . وإلى هذا يشير حديث جابر الذي رواه مسلم عن جابر عن النبي ﷺ أنه قال : « بَينَ الرَّجُل وبَينَ الكُفْرِ والشِّرك تَرْكُ الصَّلاة » (٣) .

وقوله : « وكانَ يأمُرنا بالصِّدق » وهذا هو الشاهد من الحديث وهذا كقوله تعالى : ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَكُونُوا مَعَ الصَّادِقِينَ ﴾ [التوبة : ١١٩] .

والصدق قسمان : صدق مع اللّٰه ، وصدق مع عباد اللّٰه . وضِدُّ الصِّدق الكذب ، وهو الإخبار بخلاف الواقع ، وهو من أخلاق المنافقين ، كما قال الرسول عليه الصلاة والسلام : « آيَةُ المُنَافِق

---

(١) أخرجه الترمذي في الإيمان (٢٦٢١) ، وابن ماجه في الإقامة (١٠٧٨) ، وأحمد في مسنده (٣٤٦/٥) .
(٢) أخرجه مسلم في الإيمان (١٢١) ، والبيهقي في السنن (٦٣/٤) .
(٣) أخرجه مسلم في الإيمان (١٣٤) ، وأحمد في مسنده (٣٨٩/٣) واللفظ له .

ثَلَاثٌ : وَذَكر مِنها : إذَا حدث كَذَب » [١] وبعض الناس – والعياذ بالله – مُبتَلى بهذا المرض ، فلا يستأنس ولا يَنْشَرح صَدْرُه إلا بالكذب .

إن حدثك بحديث إذا هو كاذب ، إن جلس في مجلس جعل يَفْتَعل الأفاعيل ليضحك بها الناس .

وقوله : « العفاف » أي : العِفَّة والعِفَة نوعان : عفة عن شهوة الفرج وعِفّة عن شهوة البطن .

أما العِفة الأولى : فهي أن يبتعد الإنسان عمَّا حُرِّمَ عليه من الزِّنى ووسائله وذرائعه ، لأنَّ الله ﷻ يقول : ﴿ وَلَا تَقْرَبُوا الزِّنَىٰٓ إِنَّهُۥ كَانَ فَٰحِشَةً وَسَآءَ سَبِيلًا ﴾ [الإسراء: ٣٢] . وأوجَبَ على الزاني أن يُجلد مائة جلدة ويُطْرد عن البلد سَنَةً كاملةً إن كان لم يتزوج من قبل ، أما إذا كان قد تزوج وجامع زوجته وَزَنى بعد ذلك فإنه يُرْجَم رجمًا بالحجارة حتى يموت ، كل هذا رَدْعًا للناس عن أن يَقَعوا في هذه الفاحشة ، لأنها تُفْسد الأخْلاق والأديان والأنْساب وتوجد أمْرَاضًا عظيمة ظهرت آثارها في هذا الزمن لما كثرت فاحشة الزنى والعِياذ بالله . وَمَنع الله كل ما يُوصل إليه ويكون ذريعة له فَمَنَع المرأة أن تخرج متبرِّجة فقال : ﴿ وَقَرْنَ فِي بُيُوتِكُنَّ وَلَا تَبَرَّجْنَ تَبَرُّجَ الْجَٰهِلِيَّةِ الْأُولَىٰ ﴾ [الأحزاب: ٣٣] ، فأفضل مكان للمرأة أن تبقى في بيتها ولا تخرج إلا إذا دعت الحاجة أو الضرورة إلى ذلك ، فلتخرج كما أخبرها الرسول عليه الصلاة والسلام تَفِلَة [٢] أي : غير مُتَطيبة ولا متبرجة . كذلك أمر باحتجاب المرأة إذا خَرجت عن كل رجل ليس من محارمها والحجاب الشَّرعي هو أن تُغَطِّي المرأة جميع ما يكون النَّظر إليه ذريعة إلى الفاحشة وأهمه الوجه ، فإنَّ الوَجْه يجب حَجْبُه عن الرجال الأجانب أكثر مما يجب حَجْب الرَّأس وحجب الذراع وحَجْب القدم ، ولا عبرة بقول من يقول : إنه يجوز كَشْفُ الوجه ؛ لأن قوله هذا فيه شيء من التناقض .

كيف يجوز للمرأة أن تكشف وجهها ويجب عليها عند هذا القائل أن تَسْتُر قدميها ! أيهما أعظم فتنةً وأيهما أقرب إلى الزنى أن تكشف المرأة وجهها أو قدميها ؟ كل إنسان عاقل يفهم ما يقول ؛ يقول : إن الأقْرب إلى الزنى والفتنة أن تكشف عن وجهها . ومنها أن لا تخرج المرأة مُتَطيبة ، فإن خرجت مُتَطيبة فقد أتت بوسيلة الفتنة منها وبها ، فيفتتن الناس بها وهي تفتتن أيضًا حيث تمشي في الأسواق وهي متطيبة نسأل الله العافية . ولا يجوز لأحد أن يمكن أهله من ذلك أبدًا وعليه أن يتفقدهم سواء كانت الزوجة أو البنت أو الأخت أو الأم أو غير ذلك .

أما النوع الثاني : من العفاف فهو العفَاف عن شهوة البطن أي : عن ما في أيدي الناس كما قال الله تعالى : ﴿ يَحْسَبُهُمُ الْجَاهِلُ أَغْنِيَآءَ مِنَ التَّعَفُّفِ ﴾ [البقرة: ٢٧٣] ، أي : من التعفف عن سؤال الناس ، بحيث لا يسأل الإنسان أحدًا شيئًا ؛ لأن السؤال مَذَلة والسائل يده دُنيا سفلى والمعطي يده عُلْيَا فلا يجوز أن تسأل أحدًا ، أي : إلَّا ما لابد منه كما لو كان الإنسان مضطرًا أو محتاجًا حاجة

---

[١] أخرجه البخاري في الإيمان (٣٣) ومسلم في الإيمان (١٠٧) وأحمد في مسنده (٣٥٧/٢) .

[٢] هذا الحديث بمعناه وقد أخرجه أبو داود في الصلاة (٥٦٥) وأحمد في مسنده (٤٣٨/٢) .

شبه ضَرُورية فَحِينئذٍ لا بأس أن يسأل . أما بدون حاجة ملحة أو ضرورة فإن السؤال محرم ، وقد وردت أحاديث في التحذير منه حتى أخبر النبي عليه الصلاة والسلام أن السائل يأتي يوم القيامة وما في وجهه مُزْعَةُ لَحْم قد ظهر منه العظْم أمام الناس في هذا المقام العظيم المَشهود . ثم إن الصحابة ﷺ بَايَعُوا النبي ﷺ على أن لا يسألوا الناس شيئًا حتى يكون سَوطُ أحَدِهم يَسْقُط من على راحلته ولا يقول لأحد ناولني السَّوط ، بل ينزل ويأخذ السَّوط .

والإنسان الذي أكرمه اللَّه بالغنى والتَّعفف لا يعرف قدر السؤال إلا إذا ذل أمام المخلوق .

كيف تَمُد يدَكَ إلى مخلوق وتقول له أعْطني وأنت مثله ؟! « وإذَا سَألْتَ فاسْأل اللَّهِ ، وإذَا اسْتَعَنْتَ فاسْتَعِنْ باللَّه » [١] .

وقوله : « الصّلة » هذا هو الأمر الخامس . والصلة أن تَصل ما أمر اللَّه به أن يُوصل من الأقارب الأدْنَى فالأدنى وأعْلاَهم الوَالِدان ، فإنَّ صلة الوالدين بِر وصِلة ، والأقارب لهم من الصلة بقدر ما لهم من القرب ، فأخُوكَ أوكد صلة من عَمك وعَمك أشدُّ صِلَةً من عَمِّ أبيك وعلى هذا فَقِس . والصِّلة جاءت في الكتاب والسنة غير مُقَيدة ، وكُلّ ما جاء في الكتاب والسُّنة غير مقيد ، فإنَّه يحمل على العرف ، فما جرى العرف على أنَّه صلة فهو صلة . وهذا يختلف باختلاف الأشخاص والأحوال والأزمان والأماكن .

مثلًا : إذا كان قريبك مُسْتَغنيًا عنك وصَحِيح البدن وتسمع عنه أنَّه لا يحتاج إلى شيء ، فهذا صلته لو تحددت بشهر أو شهر ونصف وما أشبه ذلك فإن هذه صلة بعرفنا . وذلك لأن الناس - والحمد للَّه - قد استغنى بعضهم عن بعض وكل واحد منهم لا يشره على الآخر ، لكن لو كان هذا الرَّجل قريبًا جدًّا كالأب والأم والأخ والعم فإنه يحتاج إلى صِلَة أكثر ، وكذلك لو كان فقيرًا فإنه يحتاج إلى صِلة أكثر ، وكذلك لو مرض فإنَّه يحتاح إلى صلة أكثر وهكذا .

المهم : أن الصِّلة عندما جاءت في القرآن غير مُقَيَّدة فإنه يتبع في ذلك العُرف ويختلف هذا باختلاف الأمور التي ذكرنا . وقد وردت النصوص الكثيرة في الترغيب في وصلها والترهيب من قطعها .

* * *

٥٧ - الرَّابعُ : عَنْ أَبِي ثَابتٍ ، وَقِيلَ : أبي سَعيدٍ ، وقيل : أَبي الوَليد ، سَهْل بن حُنَيفٍ ، وَهُوَ بَدْريٌّ ﷺ أن النبي ، ﷺ ، قال : « مَنْ سَألَ اللَّه ، تعالى ، الشَّهَادَةَ بِصِدْقٍ بَلَّغَهُ اللَّهُ مَنَازِلَ الشُّهَدَاءِ ، وَإنْ مَاتَ عَلَى فِراشِهِ » [٢] رواه مسلم .

---

(١) هذا جزء من حديث ، وقد أخرجه الترمذي في صفة القيامة (٢٥١٦) ، وأحمد في مسنده (٢٩٣/١) .

(٢) أخرجه مسلم واللفظ له في الإمارة (١٥٧) ، والإمام أحمد في مسنده (٢٤٤/٥) ، والترمذي في فضائل الجهاد (١٦٥٣) ، وابن ماجه في الجهاد (٢٧٩٧) .

الشرح

هذا الحديث ذكره المؤلف رَحِمَهُ اللَّهُ في باب الصدق والشاهد منه قوله : « مَنْ سَأَلَ اللَّه تعالى الشهادة بِصِدْقٍ » : والشهادة مرتبة عليا بعد الصديقية كما قال اللَّه سبحانه : ﴿ وَمَن يُطِعِ ٱللَّهَ وَٱلرَّسُولَ فَأُوْلَٰٓئِكَ مَعَ ٱلَّذِينَ أَنۡعَمَ ٱللَّهُ عَلَيۡهِم مِّنَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ وَٱلصِّدِّيقِينَ وَٱلشُّهَدَآءِ وَٱلصَّٰلِحِينَۚ ﴾ [النساء : ٦٩] .

والشهادة أنواع كثيرة :

منها : الشهادة بأحكام اللَّه عَزَّوَجَلَّ على عباد اللَّه وهذه شهادة العلماء التي قال اللَّه فيها : ﴿ شَهِدَ ٱللَّهُ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ وَٱلۡمَلَٰٓئِكَةُ وَأُوْلُواْ ٱلۡعِلۡمِ ﴾ [آل عمران : ١٨] .

وقد ذهب كثير من العلماء في تفسير قوله : ﴿ وَٱلشُّهَدَآءِ ﴾ إلى أنهم العلماء ولا شك أن العلماء شُهَداء ، فَيَشْهدون بأن اللَّه تعالى أرْسَل رسوله بالهُدَى ودين الحق وَيشْهَدُون على الأمة بأنها بلغت شريعة اللَّه ، ويشهدون في أحكام اللَّه هذا حلال وهذا حَرَام ، وهذا واجب وهذا مستحب ، وهذا مكروه . ولا يعرف هذا إلّا أهْل العلم ، لذلك كانوا شهداء . ومن الشهداء أيضًا : من يُصَاب بالطعن والبَطن والحَرق والغرق وما أشبههم . ومن الشهداء الذين قُتلوا في سبيل اللَّه .

ومن الشهداء الذين يُقْتَلون دون أمْوالهم ودون أنفسهم كما قال النبي عليه الصلاة والسلام حينما سأله رجل وقال : أرَأيتَ يا رسول اللَّه إن جَاءَني شخصٌ يَطْلب مَالي - أي عنوة - قال : لا تعْطِه ، قال : أرأيتَ إن قاتلني ؟ قال : قَاتِله ، قال : أرأيت إن قَتَلْته ؟ قال : هو في النار - لأنَّه معتدٍ ظالم - قال : أرأيتَ إن قتلني ؟ قال : إن قَتَلَكَ فَأَنْتَ شَهِيدٌ (١) .

وقال الرسول عليه الصلاة والسلام : « مَنْ قُتِلَ دُونَ مَالِهِ وأهْلِهِ فَهُوَ شَهيد » (٢) .

ومن الشهداء أيضا : من قُتلوا ظُلْمًا ، كأن يعتدي عليه إنسان فيقتله غيلة - ظلمًا - فهذا أيضًا شهيد .

ولكن أعلى الشهداء هم الذين يقتلون في سبيل اللَّه ؛ كما قال اللَّه تعالى : ﴿ وَلَا تَحۡسَبَنَّ ٱلَّذِينَ قُتِلُواْ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ أَمۡوَٰتَۢاۚ بَلۡ أَحۡيَآءٌ عِندَ رَبِّهِمۡ يُرۡزَقُونَ ١٦٩ فَرِحِينَ بِمَآ ءَاتَىٰهُمُ ٱللَّهُ مِن فَضۡلِهِۦ وَيَسۡتَبۡشِرُونَ بِٱلَّذِينَ لَمۡ يَلۡحَقُواْ بِهِم مِّنۡ خَلۡفِهِمۡ أَلَّا خَوۡفٌ عَلَيۡهِمۡ وَلَا هُمۡ يَحۡزَنُونَ ١٧٠ ۞ يَسۡتَبۡشِرُونَ بِنِعۡمَةٖ مِّنَ ٱللَّهِ وَفَضۡلٖ وَأَنَّ ٱللَّهَ لَا يُضِيعُ أَجۡرَ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ ﴾ [سورة آل عمران ، الآية ١٦٩ - ١٧١] ، وهؤلاء هم الذين قاتلوا لتكون كلمة اللَّه هي العُلْيا ، فما قاتلوا لحظوظ أنفسهم وما قَاتَلُوا لأموالهم وإنما قَاتَلُوا لتكون كلمة اللَّه هي العليا ، كما قال ذلك النبي عليه الصلاة والسلام حين سُئل عن الرجل يُقَاتِل شَجَاعة وُيقاتِل حَمِيّة ويقَاتِل ليرى مَكَانُه أيُّ ذلك في سبيل اللَّه ؟ قال : « مَنْ قَاتَل لتكون كلِمَةُ اللَّه هي العُلْيا فَهُو في سَبِيل اللَّه » (٣) .

هذا مِيزَانُ عَدْل وَضعه النبي ﷺ يَزِنُ الإنسان بِهِ عمله .

---

(١) أخرجه أحمد باختلاف في اللفظ في مسنده (٤٢٣/٣) .

(٢) أخرجه البخاري في المظالم (٢٤٨٠) ، ومسلم في الإيمان (٢١٦) ، وأحمد في مسنده (٧٩/١) .

(٣) أخرجه البخاري واللفظ له في الجهاد والسير (٢٨١٠) ، ومسلم في الإمارة (١٤٩) ، وأبو داود في الجهاد (٢٥١٧) .

فمن قاتل لهذه الكلمة فهو في سبيل اللَّه ، إن قُتِلْتَ فأنت شهيد ، وإن غَنِمْتَ فأنت سَعيد ، كما قال اللَّه سبحانه : ﴿ قُلْ هَلْ تَرَبَّصُونَ بِنَآ إِلَّآ إِحْدَى ٱلْحُسْنَيَيْنِ ﴾ إما الشهادة وإما الظفر والنصر ﴿ وَنَحْنُ نَتَرَبَّصُ بِكُمْ أَن يُصِيبَكُمُ ٱللَّهُ بِعَذَابٍ مِّنْ عِندِهِۦٓ أَوْ بِأَيْدِينَا ﴾ [التوبة : ٥٢] ، أي إما أن اللَّه يعذبكم ويقينا شرَّكم كما فعل اللَّه تعالى بالأحزاب الذين تجمعوا على المدينة يُريدون قتال الرسول عليه الصلاة والسلام ، فأرسل اللَّه عليهم ريحًا وجنودًا وألقى في قلوبهم الرُّعب .

وقوله : ﴿ أَوْ بِأَيْدِينَا ﴾ كما حَصَل في بدر ، فإن اللَّه عذَّب المشركين بأيدي الرسول ﷺ وأصحابه .

فإذا سأل الإنسان ربَّه وقال : اللَّهم إنِّي أسْألك الشهادة في سَبيلك - ولا تكون الشَّهادة إلا بالقتال لتكون كلمة اللَّه هي العليا - فإن اللَّه تَعالى إذَا عَلِمَ منه صِدْقَ القَول والنيَّة أنزله مَنَازل الشهداء ، وإن مات على فِرَاشِه .

بقي علينا الذي يُقاتل دفاعًا عن بلده هل هوفي سبيل اللَّه أو لا ؟ نقول : إن كنت تُقاتل عن بلدك لأنها بلد إسْلاميٌ فتريد أن تَحْميها من أجل أنَّها بَلَدٌ إسلامي فهذا في سبيل اللَّه ، لأنَّك قاتلت لتكون كلمة اللَّه هي العُليا .

أما إذا قاتلت لأجل أنَّها وَطَن فقط فهذا لَيس في سبيل اللَّه ، لأن الميزان الذي وَضَعَهُ النَّبي عليه الصلاة والسلام لا يَنْطبِق عليه وقد تقدم الكلام على هذه المسألة واللَّه الموفق .

* * *

٥٨ - الخامسُ : عَنْ أبي هُرَيرَةَ ﷺ قال : قال رسول اللَّه ﷺ : « غَزَا نَبيٌّ مِنَ الأنْبيَاءِ صَلَواتُ اللَّهِ وَسَلامُهُ عَليهِمْ فَقَالَ لقَومِهِ : لا يَتْبَعْنِي رَجُلٌ مَلَكَ بُضْعَ امْرأَةٍ وَهُوَ يُرِيدُ أَنْ يَبْني بها وَلَمَّا يَبْنِ بِهَا ، وَلا أَحَدٌ بَنَى بُيُوتًا لَمْ يَرْفَعْ سُقُوفَهَا ، وَلا أَحَدٌ اشْتَرَى غَنَمًا أو خَلِفَاتٍ وَهَوَ يَنْتَظِرُ أولادَهَا ، فَغَزَا فَدَنَا مِنَ القَرْيَةِ صَلاةَ العَصْرِ أو قَريبًا مِنْ ذلكَ ، فَقَالَ لِلشَّمْسِ : إنَّكِ مَأْمُورَةٌ وَأَنَا مَأْمُورٌ ، اللَّهُمَّ احْبسْهَا عَلَيْنَا ، فَحُبِسَت حَتَّى فَتَحَ اللَّهُ عَلَيهِ ، فَجَمَعَ الغَنَائِم ، فَجَاءَتْ - يَعْني النَّارَ - لِتَأْكُلَهَا فَلَمْ تَطْعَمْهَا ، فَقَالَ : إنَّ فِيكُمْ غُلولًا ، فَلْيُبَايعْني منْ كُلِّ قَبيلَةٍ رَجُلٌ ، فَلَزِقَتْ يَدُ رَجُلٍ بِيَدِهِ فَقَالَ : فِيكُمُ الغُلُولُ ، فَلْتُبَايِعْني قَبيلتُكَ ، فَلَزِقَت يَدُ رَجُلَيْنِ أو ثَلاثة بيَدِهِ فَقَالَ : فِيكُمُ الغُلُولُ . فَجَاءوا برَأْس مِثْلِ رَأْس بَقَرةٍ مِنَ الذَّهب ، فَوَضَعَهَا فَجَاءت النَّارُ فَأكَلَتْهَا ، فَلَمْ تَحِلَّ الغَنَائِمُ لأحَدٍ قَبْلَنَا ، ثُمَّ أحَلَّ اللَّهُ لَنَا الغَنَائِمَ لَمَّا رَأَى ضَعْفَنَا وَعَجزَنَا فَأَحَلَّهَا لَنَا »[1] متفق عليه . « الخَلِفَاتُ » بفتح الخاءِ المعجمةِ وكسرِ اللامِ : جَمْعُ خَلِفَةٍ ، وَهِيَ النَّاقَةُ الحامِلُ .

---

(١) أخرجه البخاري واللفظ له في فرض الخمس (٣١٢٤) ، ومسلم في الجهاد (٣٢) ، والإمام أحمد في مسنده (٣١٨/٢) والبيهقي في سننه (٢٩٠/٦) . قوله : « بُضع » البُضْع يطلق على الفرج والنكاح والجماع ، قوله : « أن يبني بها » أي يدخل بها ، قوله : « اشترى غنمًا » أي حوامل بدليل ما بعده ، قوله : « إنك مأمورة » أي مسخرة بأمر اللَّه ، قوله : « فجاءت » يعني النار : تلك كانت عادة الأنبياء في الغنائم فكانوا يجمعونها فتجيء نار من السماء فتأكلها فإن أكلتها دل ذلك على عدم الغلول فيها وإن لم تأكلها علم أن فيها غلولًا .

الشرح

هذا الحديث الذي نقله المؤلف فيه آيات عظيمة ، فإن النبي ﷺ حدث عن نَبي من الأنبياء عليهم الصلاة والسلام أنَّه غَزَا قَومًا أمِر بجهادهم لكنه عليه السلام مَنَع كل إنسان عَقَد على امرأة ولم يدخل بها ، وكل إنسان بنى بَيتًا ولم يَرْفَع سقفه ، وكل إنسان اشترى غنمًا خلفاتٍ وهو ينتظر أولادها . وذلك لأن هؤلاء يكونون مشغولين بما أهمهم ، فالرجل المتزوح مشغول بزوجته التي لم يدخل بها ، فهو في شوقٍ إليها ، وكذلك الرجل الذي رفع بيتًا ولم يرفع سقفه هو أيضًا مشتغل بهذا البيت الذي يريد أن يسكنه هو وأهله ، وكذلك صاحب الخلفات والغنم مشغول بها ينتظر أولادها .

والجهاد ينبغي أن يكون الإنسان فيه متفرغًا ليس له هَمٌّ إلا الجهاد ، ولهذا قال الله سبحانه : ﴿ فَإِذَا فَرَغْتَ فَٱنصَبْ ﴾ [الشرح : ٧] ، أي : إذا فرغت من شُئون الدُّنيا بحيث لا تَشْتَغل بها فانصب للعبادة .

وقال النبي عليه الصلاة والسلام : « لا صلاة بحضرة طعام ولا وهو يدافعه الأخبثان » [(١)] .

فدلَّ على أنه يَنْبغي للإنسان إذا أراد طاعة أن يُفرغ قلبه وبَدَنه لها حتى يأتيها وهو مُشْتَاق إليها وحتى يُؤديها على مهل وطمأنينة وانشراح صَدْر .

ثم إنَّه غَزَا . فنزل بالقوم بعد صلاة العصر ، وقد أقبل الليل وخاف إن أظلم الليل أن لا يكون هناك انتصار فجعل يخاطب الشمس يقول : أنت مأمُورة و أنا مَأمور ، لكن أمر الشمس أمر كَوني وأما أمْره فأمر شَرْعي . فهو مأمور بالجهاد والشَّمس مَأمورة أن تسير حيث أمرها الله ﷻ ، قال الله : ﴿ وَٱلشَّمْسُ تَجْرِي لِمُسْتَقَرٍّ لَّهَاۚ ذَٰلِكَ تَقْدِيرُ ٱلْعَزِيزِ ٱلْعَلِيمِ ﴾ [يس : ٣٨] منذ خلقها الله ﷻ وهي سائرة حيث أمِرَت لا تتقدَم ولا تتأخر . ولا تنزل ولا ترتفع .

قال : « اللَّهم فاحْبِسْهَا عَنا » فحبس اللَّه الشمس ولم تَغب في وقتها حتى غزا هذا النَّبي وغَنِمَ غَنائم كثيرة ولما غَنِمَ الغَنائم وكانت الغنائم في الأمم السَّابقة لا تَحِلُّ للغُزاة ، بل حِل الغنائم من خصائص هذه الأمة وللَّه الحمد .

أما الأمم السَّابقة فكانوا يجمعون الغنائم فتنزل عليها نَارٌ من السَّماء فتحرقها ، فجمعت الغنائم فلم تَنْزل النار وتأكلها فقال : فيكم الغلول . ثم أمر من كل قبيلة أن يتقدم واحد يبايعه على أنَّه لا غلول فلما بايعوه على أنه لا غلول لزقت يد أحد منهم بيد النبي عليه السلام . فلما لزقت : قال فيكم الغلول – أي القبيلة هذه – ثم أمَر بأن يبايعه كل واحد على حِدة من هذه القبيلة ، فلزقت يد رجلين أو ثلاثة منهم فقال : فيكم الغلول فجاؤوا به . والغلول هو السَّرقة من الغنيمة بأن تخفي شيئًا منها . فإذا هم قد أخفوا مثل رأس الثور من الذَّهب فلما جيء به ووضع مع الغنائم أكلتها النَّار ، وهذه من آيات اللَّه ﷻ . ففي هذا الحديث دليل على فوائد عديدة :

منها : أن الجهاد مشروع في الأمم السابقة كما هو مشروع في هذه الأمَّة ، وقد دلَّ على هذا كتاب اللَّه في قوله : ﴿ وَكَأَيِّن مِّن نَّبِيٍّ قَٰتَلَ مَعَهُۥ رِبِّيُّونَ كَثِيرٌ فَمَا وَهَنُواْ لِمَآ أَصَابَهُمْ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ وَمَا ضَعُفُواْ وَمَا ٱسْتَكَانُواْۗ ﴾ [آل عمران : ١٤٦] ، وكذلك قصة طالوت وجالوت وداود عليه الصَّلاة والسلام في سُورة

---

(١) أخرجه مسلم في المساجد (٦٧) ، والبيهقي في السنن (٧٣/٣) ، والهندي في كنز لعمال (٢٠٠٦١) .

البقرة ، الآيات : [٢٤٦ - ٢٥٢] .

وفيها : دليل على عَظمة اللّه ﷻ ، وأنَّه هو مُدَبِّر الكون وأنه سُبحانه وتعالى يُجري الأمور على غير طَبَائِعها إمَّا بتأييد الرَّسول وإمَّا بدفع شَرّ عنه وإلا لمصلحة في الإسلام .

المهم أن آيات الأنبياء فيها تأييد لَهُم بأيِّ وجه كانت . وذلك لأن الشمس حَسَب طبيعتها التي خلقها اللّه عليها تجري دائمًا ولا تقف ولا تتقدَّم ولا تتأخر إلا بأمرِ اللّه ، لكن اللّه هنا أمرها أن تنحبس فَطَال وقت ما بين صلاة العصر إلى المغرب حتى فَتَح اللّه على يد النبي .

وفيها : رَد على أهل الطَّبيعة الذين يَقُولون إن الأفلاك لا تَتَغَيَّر ؟! سبحان اللّه من الذي خَلَق الأفلاك ؟ اللّه ﷻ ، فالذي خلقها قَادِرٌ على تغييرها ، لكن هم يَرَون أن هذه الأفلاك تجري بحَسَب الطَّبيعة ولا أحد يتصرف فيها - والعياذ باللّه - لأنهم يُنكرون الخالق .

وقد دلَّت الأدِلَّة من الكتاب والسُّنة على أن الأفلاك تَتَغَيَّر بأمر اللّه ، فهذا النبي دعا اللّه ووقفت الشَّمس .

ومحمد رسول اللّه ﷺ طلب منه المشركون آية تدلُ على صِدْقه فأشار ﷺ إلى القمر فانْشَقَّ شِقَّتين وهُم يُشاهدونه ، شقة على الصفا وشقة على المروة . وفي هذا يقول اللّه ﷻ : ﴿ ٱقْتَرَبَتِ ٱلسَّاعَةُ وَٱنشَقَّ ٱلْقَمَرُ ۝ وَإِن يَرَوْا۟ ءَايَةً يُعْرِضُوا۟ وَيَقُولُوا۟ سِحْرٌ مُّسْتَمِرٌّ ﴾ [القمر : ١، ٢] .

قالوا : هذا محمد سحرنا والقمرلم يَنْشق ، بل أفسَد نظرنا وعُيوننا ، لأن الكافر والعياذُ باللّه الذي حقت عليه كلمة اللّه لا يؤمن كما قال اللّه : ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ حَقَّتْ عَلَيْهِمْ كَلِمَتُ رَبِّكَ لَا يُؤْمِنُونَ ۝ وَلَوْ جَآءَتْهُمْ كُلُّ ءَايَةٍ ﴾ [يونس : ٩٦، ٩٧] .

القلوب بين أصبعين من أصابع الرحمن يُقَلبها كيف يشاء ، ويصرفها كيف يشاء ، فالذي حقت عليه كلمة العذاب لا يؤمن أبدًا ولو جِئْت بكل آية ولهذا طلبوا من الرسول آية وأرَاهم هذه الآية العجيبة التي لا يقدر أحد عليها ، وقالوا : ﴿ سِحْرٌ مُّسْتَمِرٌّ ۝ وَكَذَّبُوا۟ وَٱتَّبَعُوٓا۟ أَهْوَآءَهُمْ ۚ وَكُلُّ أَمْرٍ مُّسْتَقِرٌّ ﴾ [القمر : ٢، ٣] .

وفيها : بيان نعمة اللّه على هذه الأُمَّة حيث أحل لها المغانم التي تغنمها من الكفار كانت حَرَامًا على من سبقنا ؛ لأن هذه الغنائم فيها خير كثير على الأمة الإسلامية تُسَاعدها على الجهاد وتعينها عليه .

فهم يَغْنَمون من الكفار أموالًا يقاتلونهم بها مرة أخرى ، وهذا من فضل اللّه كما قال النبي ﷺ : « أعطِيتُ خَمْسًا لَمْ يعْطَهن أحَدٌ مِن الأنبياء قَبْلي وَذَكر أنه أحِلت لَهُ الغَنَائِم وَلَمْ تَحِل لِأحَدٍ كَانَ قَبْلَهُ » (١) .

وفي الحديث من آيات اللّه : أن الذين غلوا لَزِقت أيديهم بأيدي النبي وهذا خلاف العادة ، ولكن اللّه على كل شيء قدير ؛ لأنَّ العَادة إذا صافحت اليَد يدًا أخرى أنها تنطلق . ومنها : أن الأنبياء لا يعلمون الغَيب وهو واضح إلا ما أطْلَعَهُم عليه ، أما هم فلا يَعلمون الغيب . وشواهد هذا كثيرة فيما جَرى لنبينا محمد عليه الصلاة والسلام حيث يَخْفَى عليه أشياء كثيرة ، كما قال اللّه ﷻ : ﴿ قَالَتْ مَنْ أَنۢبَأَكَ هَـٰذَا ۖ قَالَ نَبَّأَنِىَ ٱلْعَلِيمُ ٱلْخَبِيرُ ﴾ [التحريم : ٣] ، أما هو فلا يعلم الغيب .

(١) هذا جزء من الحديث وقد أخرجه البخاري في التيمم (٣٣٥) ، ومسلم في المساجد (٣ ، ٥) .

وأصحابه يكونون معه يخفون عليه ، فكان معه ذات يوم أبو هريرة فانْخَنَس [(١)] وَكَان عَلَيه جَنَابة ، فقال له عندما رَجَع مِن غُسْل الجَنَابة : أين كُنْت يا أبا هريرة ؟ إذًا فالرسول لا يعلم الغيب ولا أحد من الخلق يعلم الغيب ، كما قال اللَّه ﷻ : ﴿ عَٰلِمُ ٱلْغَيْبِ فَلَا يُظْهِرُ عَلَىٰ غَيْبِهِۦٓ أَحَدًا ۝ إِلَّا مَنِ ٱرْتَضَىٰ مِن رَّسُولٍ فَإِنَّهُۥ يَسْلُكُ مِنۢ بَيْنِ يَدَيْهِ وَمِنْ خَلْفِهِۦ رَصَدًا ﴾ [الجن: ٢٦، ٢٧] .

ومنها : دليل على قدرة اللَّه من جهة أن هذه النَّار لا يدرى من أين جَاءَت ؟ بل تنزل من السَّماء ، لا هِي من أشجار الأرض ولا من حَطَب الأرض ، بل من السماء يأمرها اللَّه فَتَنْزِل فتأكل هذه الغَنيمَة التي جُمِعت واللَّه الموفق .

* * *

٥٩ - السادِسُ : عن أبي خالدِ حكِيم بن حزام ﷺ قال : قال رسول اللَّه ﷺ : « البَيِّعَان بالخيَارِ مالم يَتَفرَّقا ، فإن صَدَقَا وبيَّنا بُورِك لَهُما في بيعهِمَا ، وإن كَذَبا وكَتَما مُحِقَتْ بركَةُ بَيعهِما » [(٢)] متفق عليه .

الشرح

« البيِّعان » : البائع والمُشْتري ، وأطلق عليهما اسم البَيِّع من باب التَّغليب كما يقال : القمران للشمس والقمر والعُمران لأبي بكر وعمر . وقوله : « بالخيار » أي : كل منهما يختار ما يريد « مالم يتفرّقا » أي : ما داما في مكان العقد لم يتفرقا فإنهما بالخيار . ومثاله : رجل باع على آخر سيارة بعشرة آلاف فما داما في مكان العقد ولم يتفرقا فهما بالخيار إن شاء البائع فَسَخَ البيع ، وإن شاء المشتري فسخ البيع ، وذلك من نعمة اللَّه ﷻ وتوسيعه على العباد ؛ لأن الإنسان إذا كانت السِّلعة عند غيره صارت غالية في نفسه يحب أن يَحْصُل عليها بكل وسيلة ، فإذا حَصُلت له فربما تَزُول رغبته عنها ، لأنه أدركها فجعل الشَّارع له الخيار لأجل أن يَتَرَوَّى ويتزوَّد بالتأني والنَّظر . فما دام الرَّجلان لم يتفرَّقا فهما بالخيار وإن طال الوقت لعموم قوله : « مَا لَم يَتَفرَّقا » وفي حديث ابن عمر « أو يخَيِّر أحَدُهُما الآخر » أي : يقول أحدهما للآخر الخيار لك وحدك ، فحينئذٍ يكون الخيار له وحده ، والثَّاني لا خيار له . أو يقولا جميعًا : لا خيار بَيننا . فالصور أربع :

١ - إما أن يثبت الخيار لهما وذلك عند البيع المُطلق الذي ليس فيه شرط .

٢ - وإما أن يتبايعا على أن لا يكون الخيار لواحد مِنهما وحينئذ يلزم البيع لمجرد العقد ولا خيار لأحد .

٣ - وإما أن يتبايعا أن الخيار للبائع وَحْدَهُ دون المُشْتَري وهنا يكون الخيار للبائع والمشتري لا خيار له .

٤ - وإما أن يتَبَايعا على أن الخيار للمشتري والبائع لا خِيار له وحينئذٍ يكون الخيار للمُشْتري وليس للبائع خيار . وذلك لأن الخيار حق للبائع والمُشتري ، فإذا رَضِينَا بإسْقَاطه أو رَضِيَ أحدهما دون الآخر فالحق لهما لا يَعْدُوهما ، وقد قال النبي - عليه الصلاة والسلام - : « المُسْلِمُونَ عَلَى شُرُوطِهم إلَّا

(١) خنس : تأخر ويقال خنس الطريق عنهم أي جازوه وخلَّفوه وراءهم . المعجم الوسيط (١/٢٦٨) .

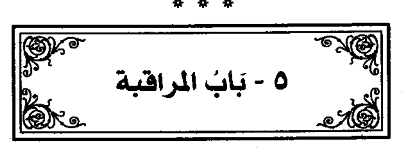
(٢) أخرجه البخاري في البيوع (٢١١٠) ، ومسلم في البيوع (٤٧) ، والترمذي في البيوع (١٢٤٦) ، وأبو داود في البيوع (٣٤٥٩) . قوله : « محقت » ذهبت بركته ، وهي زيادته ونماؤه فتتلف ولم يحصلا منه إلا على مجرد التعب .

شَرْطًا أحلَّ حَرَامًا أو حَرم حَلاَلًا »[(١)] . وقول النبي - عليه الصَّلاة والسَّلام - : « مَا لَمْ يَتَفرقَا » لم يبِنِّ التَّفرق ولكن المراد التَّفرق بالبدن ، فإن تفرقا بطل الخيار ولزم البيع ، قال النبي ﷺ : « فَإِنْ صَدَقَا وبَينا بُورِكَ لَهما في بَيعِهما » وهذا هو الشَّاهد من الحديث في الباب ، لأنَ الباب باب الصدق .

قوله : « فَإِنْ صَدَقَا وَبَيَّنَا » إنْ صدقا فيما يَصِفان السلعة به من الصِّفات المرغوبة ، وبينا فيما يَصِفان به السلعة من الصِّفات المكروهة ، فمثلًا : لو باع عليه هذه السيارة وقال : هذه السيَّارة جديدة موديلها كذا ونَظيفة ويمْدحُها بما ليس فيها نقول : هذا كذب فيما قال ، وإذا باعَهُ السيَّارة وفيها عَيبٌ ولم يخبره بالعيب نقول : هذا كتم ولم يبين والبركة في الصِّدق والبيان ، فالفرق بين الصدق والبيان أن الصدق فيما يكون مرغوبًا من الصفَات ، والبَيان فيما يكون مَكروهًا من الصفات ، فكتمان العيب هذا ضدُّ البيان ووصفه السِّلعة بما ليس فيها هذا ضد الصِّدق .

ومثال آخر : باع عليه شاة وفيها مرض غير بيِّن لكنه كَتَمه ، نقول : هذا لم يبين . وإذا وصفها بما ليس فيها من الصِّفات المطلوبة فهذا قد كذب ولم يَصْدُق . ومنه ما يفعله بعض النَّاس الآن - نسأل اللَّه العافية - يجعل الطَّيب من المال فوق والرديء أسفَل ، فهذا لم يبين ولم يَصْدُق . لم يُبَيِّن لأنه مَا بَيَّنَ التَّمر المعيب ولم يصدق ، لأنَّه أظهر التمر بمظهر طيب وليس كذلك .

* * *



٥ - بَابُ المراقبة

قال اللَّه تعالى : ﴿ ٱلَّذِى يَرَىٰكَ حِينَ تَقُومُ ۝ وَتَقَلُّبَكَ فِى ٱلسَّـٰجِدِينَ ﴾ [الشعراء : ٢١٨، ٢١٩] وقال تعالى : ﴿ وَهُوَ مَعَكُمْ أَيْنَ مَا كُنتُمْ ﴾ [الحديد : ٤] وقال تعالى : ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَخْفَىٰ عَلَيْهِ شَىْءٌ فِى ٱلْأَرْضِ وَلَا فِى ٱلسَّمَآءِ ﴾ [آل عمران : ٦] وقال تعالى : ﴿ إِنَّ رَبَّكَ لَبِٱلْمِرْصَادِ ﴾ [الفجر : ١٤] وقال تعالى : ﴿ يَعْلَمُ خَآئِنَةَ ٱلْأَعْيُنِ وَمَا تُخْفِى ٱلصُّدُورُ ﴾ [غافر : ١٩] والآيات في البَابِ كَثيرَةٌ مَعْلُومَةٌ .

الشرح

لما ذكر المؤلف رَحِمَهُ ٱللَّهُ باب الصدق وَذَكَرَ الآيات والأحاديث الوَارِدة في ذلك أعْقَب هذا بباب المراقبة . والمراقبة لها وجهان :

الوجه الأول : أن تُراقِب اللَّه عَزَّ وَجَلَّ .

والوجه الثاني : أن اللَّه تعالى رَقِيبَ عليك كما قال اللَّه : ﴿ وَكَانَ ٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ رَّقِيبًا ﴾ [الأحزاب : ٥٢] .
أما مُرَاقبتك للَّه أن تعلم أن اللَّه تعالى يعلم كُل مَا تَقوم به من أقوال وأفعال واعتقادات . كما قال اللَّه تعالى : ﴿ وَتَوَكَّلْ عَلَى ٱلْعَزِيزِ ٱلرَّحِيمِ ۝ ٱلَّذِى يَرَىٰكَ حِينَ تَقُومُ ۝ وَتَقَلُّبَكَ فِى ٱلسَّـٰجِدِينَ ﴾ [الشعراء : ٢١٧- ٢١٩] ، يراك حين

(١) أخرجه الترمذي في الأحكام (١٣٥٢) بلفظ حرم حلالًا وأحل حرامًا .

تقوم ، أي : فيَ الليل حين يقوم الإنسان في مكان خال لا يطَّلع عليه أحد ، فاللَّه سبحانه يراهُ . حتى ولو كان في أعظم ظلمة ، وأحْلَك ظلمة فإن اللَّه يراه .

وقوله : ﴿ وَتَقَلُّبَكَ فِي ٱلسَّٰجِدِينَ ﴾ أي وأنت تتقلَّب في الَّذين يسجدون للَّه في هذه السَّاعة ، يعني تقلبك فيهم ، أي : معهم ؛ فإن اللَّه سبحانه يَرَى الإنسان حين قيامه وحين سجوده .

وذكر القيام والسجود ؛ لأن القيام في الصَّلاة أشرف من السُّجود بذكره ، والسُّجود أفضل من القيام بهيئته .

أما كون القيام أفضل من السُّجود بذكره ؛ فلأن الذكر المَشْرُوع في القيام هو قراءة القرآن ، والقرآن أفضل الكلام .

أما السُّجود : فهو أشْرَفُ من القيام بهيئته ؛ لأن الإنسان السَّاجد أقْرَب ما يكون من رَبه ﷻ ، كما ثَبتَ ذلك عن النبي ﷺ حيث قال : « أَقْرَبُ مَا يَكُون العَبْدُ مِن رَبِّه وَهُو سَاجِد » [(١)] .

ولهذا أُمِرنَا أن نُكْثِر من الدُّعاء في السُّجود ، كذلك من مراقبتك لله : أن تعلم أن اللَّه يَسْمعك بأي قول قلت ، كما قال اللَّه : ﴿ أَمْ يَحْسَبُونَ أَنَّا لَا نَسْمَعُ سِرَّهُمْ وَنَجْوَىٰهُمۚ بَلَىٰ وَرُسُلُنَا لَدَيْهِمْ يَكْتُبُونَ ﴾ [الزخرف : ٨٠] .

ومع هذا فإن الذي تتكلم به خيرًا كان أم شرًّا معلنًا أم مسرًّا ، فإنه يكتب لك أو عليك ، كما قال اللَّه تبارك وتعالى : ﴿ مَّا يَلْفِظُ مِن قَوْلٍ إِلَّا لَدَيْهِ رَقِيبٌ عَتِيدٌ ﴾ [ق : ١٨] فاعلم هذا ، وإياك أن تخرج من لسانك قولًا تحاسب عليه يوم القيامة .

اجعل دائمًا لسانك يقول الحق أو يَصْمُت ، كما قال النبي – عليه الصلاة والسلام – : « مَنْ كَانَ يؤمِن بالله واليوم الآخر فَليَقل خَيرًا أو لِيَصمُت » [(٢)] . وراقب اللَّه في سِرك وفي قلْبك . انظر ماذا في قلبك من الشِّرك بالله والرياء وانحرافات والحقد على المؤمنين وبغضاء وكراهية ومحبة للكافرين وما أشبه ذلك من الأشياء التي لا يرضاها اللَّه ﷻ .

راقب قلبك ؛ فإن اللَّه يقول : ﴿ وَلَقَدْ خَلَقْنَا ٱلْإِنسَٰنَ وَنَعْلَمُ مَا تُوَسْوِسُ بِهِۦ نَفْسُهُۥ ﴾ [ق : ١٦] قبل أن ينطق به .

فراقب اللَّه في هذه المواضع الثلاثة : في فعلك ، وفي قولك ، وفي قلبك ؛ حتى يتم لك المُرَاقبة ، ولهذا لما سُئِل النبي ﷺ عن الإحسَان قال : « أن تَعْبُدَ اللَّه كأنكَ تَرَاهُ فإن لم تكن تَرَاهُ فإنْه يَرَاكَ » [(٣)] .

اعبد اللَّه كأنك تَرَاه وتشاهده رأي عَين ، فإن لم تكن تراه فانزل إلى المرتبة الثانية : « فإنه يَرَاك » ؛ فالأول : عبادة رغبة وطمع ، والثاني : عبادة رَهْبَة وخَوف ، ولهذا قال : « فإنْ لم تكُن تراهُ فإنه يرَاك » . فلا بد أن يراقب الإنسان ربه وأن تعلم أن اللَّه رقيب عليك ، أي شيء تَقوله أو تَفعله أو تضْمِره في سرِّك فالله تعالى عَليم به ، وقد ذكر المؤلف من الآيات مَا يَدل على هذا ، فبدأ بالآية التي ذكرناها وهي قوله تعالى لنبيه ﷺ : ﴿ وَتَوَكَّلْ عَلَى ٱلْعَزِيزِ ٱلرَّحِيمِ ۝٢١٧ ٱلَّذِى يَرَىٰكَ حِينَ تَقُومُ ۝٢١٨ وَتَقَلُّبَكَ فِي

---

(١) أخرجه مسلم في الصلاة (٢١٥) ، وأبو داود في السنن (٨٧٥) ، وأحمد في سنده (٢٤١/٢) .
(٢) أخرجه البخاري في الرقاق (٦٤٧٥) ، ومسلم في كتاب الإيمان (٧٤) .
(٣) أخرجه مسلم في الإيمان (١) ، وأبو داود في السنن (٤٦٩٥) ، وأحمد في مسنده (٥١/١) .

ٱلسَّٰجِدِينَ ۝ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ ﴾ [الشعراء: ٢١٧- ٢٢٠] .

وقال تعالى : ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَخْفَىٰ عَلَيْهِ شَيْءٌ فِى ٱلْأَرْضِ وَلَا فِى ٱلسَّمَآءِ ﴾ [سورة آل عمران ، الآية : ٥] شيء نكرة في سياق النفي في قوله : ﴿ لَا يَخْفَىٰ ﴾ فتعم كل شيء ؛ فكل شيء لا يخفى على اللَّه في الأرض ولا في السماء ، وقد فصل اللَّه هذا في قوله تبارك وتعالى : ﴿ وَعِندَهُۥ مَفَاتِحُ ٱلْغَيْبِ [(١)] لَا يَعْلَمُهَآ إِلَّا هُوَ ۚ وَيَعْلَمُ مَا فِى ٱلْبَرِّ وَٱلْبَحْرِ ۚ وَمَا تَسْقُطُ مِن وَرَقَةٍ إِلَّا يَعْلَمُهَا وَلَا حَبَّةٍ فِى ظُلُمَٰتِ ٱلْأَرْضِ وَلَا رَطْبٍ وَلَا يَابِسٍ إِلَّا فِى كِتَٰبٍ مُّبِينٍ ﴾ [الأنعام: ٥٩] .

قال العلماء : إذا كانت الأوراقُ الساقطة يعلمها فكيف بالأوراق النامية التي ينبتها ويَخْلقها فهو بها أعْلم ﷻ .

أما قوله : ﴿ وَلَا حَبَّةٍ فِى ظُلُمَٰتِ ٱلْأَرْضِ ﴾ ﴿ حَبَّةٍ ﴾ نكرة في سياق النفي في قوله : ﴿ وَمَا تَسْقُطُ مِن وَرَقَةٍ إِلَّا يَعْلَمُهَا وَلَا حَبَّةٍ ﴾ فهي نكرة في سياق النفي المؤكد بمن . إذًا يشمل كل ورقة صغيرة كانت أو كبيرة .

ولنفرض أن حبة صغيرة في ظُلمات الأرض ، وظُلمات الأرض خمسة أنواع !

لنفرض أن حبّة صغيرة مُنْغَمِسَة في طين البحر ، فَهي في خَمْس ظلمات :

الظلمة الأُولى : ظلمة الطين المنغمسة فيه . الثانية : ظلمة الماء في البحر .

الثالثة : ظلمة الليل . الرابعة : ظلمة السحاب المتراكم [(٢)] .

الخامسة : ظُلمة المطر النازل .

خمس ظُلُمات فوق هذه الحبة الصغيرة والله ﷻ يعلمها .

وقوله : ﴿ وَلَا رَطْبٍ وَلَا يَابِسٍ إِلَّا فِى كِتَٰبٍ مُّبِينٍ ﴾ [الأنعام: ٥٩] ، مكتوب مبين ظاهر معلوم عند رب العالَمين ﷻ .

إذًا من كان هذا سعة علمه ؛ فعلى المؤمن أن يُراقِب اللَّه ﷻ ، وأن يخشاه في السر كما يخشاه في العَلانية ، بل الموفق الذي يجعل خَشية اللَّه في السر أعْظَم وأقْوى من خشيته في العلانية ؛ لأن خشية اللَّه في السر أقوى في الإخلاص ؛ لأنه ليس عندك أحد ؛ لأن خشية اللَّه في العَلانِية ربما توقع في قَلْبِك الرياء ومراءاة الناس .

فاحرص يا أخي المسلم ، على مُراقبة اللَّه ﷻ وأن تقوم بطاعته امتثالًا لأمره واجتنابًا لِنَهيه ، ونسأل اللَّه العون على ذلك ؛ لأن اللَّه إذا لم يُعِنّا ، فإننا مَخْذُولون [(٣)] كما قال تعالى : ﴿ إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ ﴾ [الفاتحة: ٥] .

فإذا وُفِّق العبد للهداية والاستعانة في إطار الشَّريعة ؛ فهذا هو الذي أنعم اللَّه عليه .

﴿ إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ ۝ ٱهْدِنَا ٱلصِّرَٰطَ ٱلْمُسْتَقِيمَ ﴾ [الفاتحة: ٥، ٦] ، لا بد أن تكون العبادة في نفس هذا الصِّراط المستقيم وإلا كانت ضررًا على العبد . فهذه ثلاثة أمُور ، هي منهج الذين أنعم اللَّه عليهم .

---

(١) قوله تعالى ذكره : ﴿ مَفَاتِحُ ٱلْغَيْبِ ﴾ أي عنده علم جميع المعلومات ما غاب عنا ومالم يغب .

(٢) السحاب المتراكم : هو السحاب المجتمع بعضه فوق بعض .

(٣) مخذلون : أي تخلى اللَّه عن عوننا ونصرتنا .

وقوله تعالى : ﴿ وَهُوَ مَعَكُمْ أَيْنَ مَا كُنتُمْ ﴾ [الحديد : ٤] الضمير ﴿ وَهُوَ ﴾ يعود على الله ، أي الله سبحانه مع عباده أينما كانوا في برٍّ ، أو بحرٍ أو جو أو في ظلمة أو في ضياء . وفي أي حال هو معكم أينما كنتم .

وهذا يدلُ على كمال إحاطته ﷻ بنا علمًا وقُدْرةً وسلطانًا وتَدْبيرًا وغير ذلك .

وَلا يَعْني أنه ﷻ معنا في نفس المكان الذي نحن فيه ؛ لأنَّ الله فوق كل شيء كما قال الله : ﴿ ٱلرَّحْمَٰنُ عَلَى ٱلْعَرْشِ ٱسْتَوَىٰ ﴾ [طه : ٥] ، وقال : ﴿ وَهُوَ ٱلْقَاهِرُ فَوْقَ عِبَادِهِۦ ﴾ [الأنعام : ١٨] ، وقال : ﴿ ءَأَمِنتُم مَّن فِي ٱلسَّمَآءِ ﴾ [الملك : ١٦] ، وقال : ﴿ وَهُوَ ٱلْعَلِيُّ ٱلْعَظِيمُ ﴾ [البقرة : ٢٥٥] ، وقال : ﴿ سَبِّحِ ٱسْمَ رَبِّكَ ٱلْأَعْلَى ﴾ [الأعلى : ١] إلى غير ذلك من الآيات الكثيرة الدالة على أنَّه فوق كل شيء ، لكنه ﷻ ليس كمثله شيء في جميع نُعوته وَصِفَاته ، هو عَلِيٌّ في دنوه ، قريب في علوه ، جل وعلا كما قال الله تعالى : ﴿ وَإِذَا سَأَلَكَ عِبَادِى عَنِّى فَإِنِّى قَرِيبٌ أُجِيبُ دَعْوَةَ ٱلدَّاعِ إِذَا دَعَانِ ﴾ [البقرة : ١٨٦] ، ولكن يجب أن نعلم أنَّه ليس في الأرض ؛ لأننا لو توهمنا هذا لكان فيه إبطال لعلو الله سبحانه وتعالى . وأيضًا فإن الله سبحانه لا يَسَعَه شيء من مخلوقاته : ﴿ وَسِعَ كُرْسِيُّهُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ ﴾ [البقرة : ٢٥٥] .

الكرسي مُحيط بالسماوات والأرض كلها ، والكُرسِي هو موضع قدمي الرحمن ﷻ ، والعرش أعظم وأعْظم كما جاء في الحديث : « إن السمَاوات السبع والأرضين السبع بالنسبة للكرسي كَحَلَقَةٍ ألقِيَت فِي فَلَاةٍ من الأرْض » (١) .

حلقة كحلقة المغفر صَغِيرة ألْقِيَت في فَلاة من الأرْض ، أي مكان مُتسع ، نسبة هذه الحلقة إلى الأرض الفلاة لَيسَ بشيء .

قال : « وَإنَّ فَضْل العرش على الكُرْسي كَفَضْلِ الفَلاةِ عَلَى هَذِه الحَلَقَة » . فما بالك بالخالق جل وعلا !

الخالق لا يمكن أن يكون في الأرض ؛ لأنَّه سُبحانه أعْظم من أن يُحيط به شيء من مخلوقاته .

واعلم أن المعية التي أضَافها الله إلى نَفْسِه تنقسم بحسب السياق والقَرائِن . فتارةً : يكون مُقْتَضاها الإحاطة بالخلق عِلمًا وقُدرة وسُلطانًا وتدبيرًا وغير ذلك مثل هذه الآية : ﴿ وَهُوَ مَعَكُمْ أَيْنَ مَا كُنتُمْ ﴾ [الحديد : ٤] ، ومثل قوله : ﴿ مَا يَكُونُ مِن نَّجْوَىٰ (٢) ثَلَٰثَةٍ إِلَّا هُوَ رَابِعُهُمْ وَلَا خَمْسَةٍ إِلَّا هُوَ سَادِسُهُمْ وَلَآ أَدْنَىٰ مِن ذَٰلِكَ وَلَآ أَكْثَرَ إِلَّا هُوَ مَعَهُمْ ﴾ [المجادلة : ٧] .

وتارة : يكون المُراد بها التهديد والإنذار كما في قوله : ﴿ يَسْتَخْفُونَ مِنَ ٱلنَّاسِ وَلَا يَسْتَخْفُونَ مِنَ ٱللَّهِ وَهُوَ مَعَهُمْ إِذْ يُبَيِّتُونَ (٣) مَا لَا يَرْضَىٰ مِنَ ٱلْقَوْلِ وَكَانَ ٱللَّهُ بِمَا يَعْمَلُونَ مُحِيطًا ﴾ [النساء : ١٠٨] ، فإن

---

(١) ذكره : الطبري في تفسيره (٣/١٦) ، وابن الجوزي في زاد المسير (١/٣٠٤) ، والبيهقي في الأسماء والصفات (١/٤٠٤ ، ٤٠٥) « والفلاة » هي الأرض الواسعة المقفرة (مادة فلو ٢/٧٢٨ المعجم الوسيط) .

(٢) قوله : ﴿ نجوى ﴾ أي : تناجي وهو مسارَّتهم بالحديث بحيث لا يسمعه غيرهم .

(٣) قوله : ﴿ يبيتون ﴾ أي : يدبرون .

هذا تهديد وإنذار لهم أن يبيتوا مَا لا يَرْضَى من القول يكتمونه عن الناس يَظنُّونَ أن اللّه لا يعلم والله سبحانه عليم بكل شيء .

وتارةً : يُرادُ بها النصر والتأييد والتثبيت وَمَا أشْبه مثل قوله تعالى : ﴿ إِنَّ اللَّهَ مَعَ الَّذِينَ اتَّقَوا وَّالَّذِينَ هُم مُّحْسِنُونَ ﴾ [النحل : ١٢٨] ، ومثل قوله : ﴿ فَلَا تَهِنُوا وَتَدْعُوا إِلَى السَّلْمِ وَأَنتُمُ الْأَعْلَوْنَ وَاللَّهُ مَعَكُمْ وَلَن يَتِرَكُمْ أَعْمَالَكُمْ ﴾ [محمد : ٣٥] ، والآيات في هذا كثيرة .

وهذا القسم الثالث من أقسام المَعية تارة : يضَافُ إلى المخلوق بالوصف ، وتارة : يُضَافُ إلى المخلوق بالعين .

فقوله : ﴿ إِنَّ اللَّهَ مَعَ الَّذِينَ اتَّقَوا وَّالَّذِينَ هُم مُّحْسِنُونَ ﴾ [النحل : ١٢٨] . هذا مضاف إلى المخلوق بالوَصْف ، فأي إنسان يكون كذلك فالله مَعَه .

وتارة : يكون مُضافًا إلى المخلوق بعين الشخص مثل قوله تعالى : ﴿ إِلَّا تَنصُرُوهُ فَقَدْ نَصَرَهُ اللَّهُ إِذْ أَخْرَجَهُ الَّذِينَ كَفَرُوا ثَانِيَ اثْنَيْنِ إِذْ هُمَا فِي الْغَارِ إِذْ يَقُولُ لِصَاحِبِهِ لَا تَحْزَنْ إِنَّ اللَّهَ مَعَنَا ﴾ [التوبة : ٤٠] هذا مُضاف إلى الشخص بعينه .

هذه مَعية للرسول – عليه الصلاة والسلام – وأبي بكر رضي الله عنه وهما في الغَار ، لما قال أبو بكر للرسول : يا رسول اللّه لو نظر أحدهم إلى قَدَمَيه لأبْصَرنا ؛ لأن قريشًا كانت تطلب الرسول ﷺ بكل جد !

مَا مِنْ جَبل إلَّا صَعِدَت عَلَيه ، وَمَا مِن وَادٍ إلا هَبَطَت فيه ، ومَا من فلاة إلا بحثت وَجَعَلَت لِمَنْ يَأتي بالرسول وأبي بكر مائتا بعير ، مائة للرسول ومائة لأبي بكر . ونقب الناس وهُم يَطْلُبونهما ، ولكن اللّه معهما . حتى وقَفُوا على الغار ، يقول أبو بكر : لَو نَظَرَ أحَدُهم إلى قَدَميه لأبْصَرنا فيقول له الرسول : « لا تحزن إن اللّه مَعَنَا ، فما ظَنُّك باثنين اللّه ثَالثهما ؟ » [(1)] .

والله ظننا أن لا يغلبهما أحد ولا يقدر عليهما أحَد . وفعلًا هذا الذي حَصَلَ . مَا رأوهُمَا مع عدم المَانِع ، ما كان عشٌّ – كما يقولون – ولا حمامةٌ وقعت على الغار ، لا شجرة نَبَتت على فم الغار ، ما كان إلا عناية اللّه عز وجل ، لأنَّ اللّه معهما .

وكما في قوله سبحانه لموسى وهارون لما أمر اللّه موسى وأرسله إلى فرعون هو وهارون : ﴿ قَالَا رَبَّنَا إِنَّنَا نَخَافُ أَن يَفْرُطَ [(2)] عَلَيْنَا أَوْ أَن يَطْغَىٰ ۝ قَالَ لَا تَخَافَا إِنَّنِي مَعَكُمَا أَسْمَعُ وَأَرَىٰ ﴾ [طه : ٤٥، ٤٦] .

اللّه أكبر : ﴿ إِنَّنِي مَعَكُمَا أَسْمَعُ وَأَرَىٰ ﴾ إذا كان اللّه مَعَهُمَا هَل يُمكن أن يضرهما فرعون وجنوده ؟

لا يمكن ! هذه معيَّة خَاصة مقيدة بالعين : ﴿ إِنَّنِي مَعَكُمَا أَسْمَعُ وَأَرَىٰ ﴾ إلخ ... المهم أنه يجب علينا أن نؤمن بأن اللّه مع الخلق ، لكنه فوق عرشه ولا يُسَاميه أحد في صِفَاته ولا يُدانيه أحد في صفاته ، ولا يمكن أن تُورد على ذِهْنك أو على غيرك كيف يكون اللّه معنا وهو في السماء ؟

---

(١) انظر في ذلك البخاري في تفسير القرآن (٤٦٣) ، ومسلم في فضائل الصحابة (١) ، وأحمد في مسنده (٤/١) .

(٢) قوله : ﴿ يَفْرُطَ ﴾ أي : يعاجل بالعقوبة ولا يصبر على إتمام الدعوة وإظهار المعجزة .

نقول : اللّه ﷻ لا يُقَاسُ بخَلْقِه مع أن العلو والمعية لا منافاة بينهما حتى في المخلوق .

فلو سألَنَا سَائِلٌ : أين مَوضع القَمَر ؟

جـ : قلنا : في السماء ، كما قال اللّه : ﴿ وَجَعَلَ ٱلْقَمَرَ فِيهِنَّ نُورًا ﴾ [نوح : ١٦] .

وإذا قال : أين موضع النّجم ؟

جـ : قلْنا : في السماء ، واللغة العربية يقول المتكلمُون فيها : ما زلنا نَسير والقمر معنا ، وما زلنا نسير والنجم معنا ! مع أن القمر في السماء والنجم في السماء لكن هو معنا ؛ لأنه مَا غَاب عنا . فاللّه معنا وهو على عَرْشِهِ سبحانه فَوق جميع الخلق .

ما الذي تقتضيه هذه الآية بالنسبة للأمر المسلكي المنهجي ؟

جـ - تقتضي هذه الآية بأنك إذَا آمَنْتَ بأن اللّه معك ؛ فإنك تَتقِيه وتُراقِبُه ؛ لأنه لا يخفى عليه ﷻ حالك مَهْما كنت ، لو كنت في بيت مُظْلم وما فيه أحد ولا حَولك أحدَ فإن اللّه تعالى معك .

لكن ليس في نفس المكان لكنه محيط بك ﷻ لا يخفى عليه شيء من أمرك . فتراقب اللّه ، وتخاف اللّه ، وتقوم بطَاعتِه ، وتترك مَناهِيه ، واللّه الموفق .

قوله : ﴿ إِنَّ رَبَّكَ لَبِٱلْمِرْصَادِ ﴾ [الفجر : ١٤] ، وهذه الآية ختم اللّه بها ما ذكره من عُقوبة عاد إرم ذات العماد التي لم يخلق مثلها في البلاد : ﴿ أَلَمْ تَرَ كَيْفَ فَعَلَ رَبُّكَ بِعَادٍ ۝ إِرَمَ ذَاتِ ٱلْعِمَادِ ۝ ٱلَّتِى لَمْ يُخْلَقْ مِثْلُهَا فِى ٱلْبِلَٰدِ ۝ وَثَمُودَ ٱلَّذِينَ جَابُوا۟ ٱلصَّخْرَ بِٱلْوَادِ ۝ وَفِرْعَوْنَ ذِى ٱلْأَوْتَادِ ۝ ٱلَّذِينَ طَغَوْا۟ فِى ٱلْبِلَٰدِ ۝ فَأَكْثَرُوا۟ فِيهَا ٱلْفَسَادَ ۝ فَصَبَّ عَلَيْهِمْ رَبُّكَ سَوْطَ عَذَابٍ ۝ إِنَّ رَبَّكَ لَبِٱلْمِرْصَادِ (١) ﴾ [الفجر : ٩- ١٤] فبينَ ﷻ أنه بالمرصادَ لكل طاغية وأن كل طاغية فإن اللّه يَقْصم ظهره ويبيده ولا يبقى له باقية .

فعاد إرم ذات العماد ، أي ذات البيوت العَظيمة المبنية على العمد القوية أعْطاهم اللّه قوة شديدة فاستَكْبَروا في الأرض ، وقالوا : مَنْ أشد مِنّا قوة !؟ إلى هذا الحد ، فقال اللّه ﷻ : ﴿ أَوَلَمْ يَرَوْا۟ أَنَّ ٱللَّهَ ٱلَّذِى خَلَقَهُمْ هُوَ أَشَدُّ مِنْهُمْ قُوَّةً ﴾ [فصلت : ١٥] فبين اللّه أنه هو أشد منهم قوة واستدل لذلك بدليل عقلي وهو أن اللّه هو الذي خَلَقهم ، ولهذا قال : ﴿ أَوَلَمْ يَرَوْا۟ أَنَّ ٱللَّهَ ٱلَّذِى خَلَقَهُمْ ﴾ ولم يقل : « أو لم يروا أن اللّه هو أشد منهم قوة » ؛ لأنه من المعلوم بالعقل علمًا ضروريًّا أن الخالق أقوى من المخلوق ، فالذي خلقهم هو أشد منهم قوةً : ﴿ وَكَانُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَا يَجْحَدُونَ ﴾ [فصلت : ١٥] ، فأصابهم اللّه ﷻ بالقحط الشديد وأمْسَكت السماء ماءها فجعلوا يَسْتَسْقُون ، أي ينتظرون أن اللّه يغيثهم ، فأرسل اللّه عليهم الريح العَقِيم ، في صباح يوم من الأيام أقبلت الريح ، ريح عظيمة تحمل من الرمال والأتربة مَا صَار كأنه سحاب مركوم .

﴿ فَلَمَّا رَأَوْهُ عَارِضًا مُّسْتَقْبِلَ أَوْدِيَتِهِمْ قَالُوا۟ هَٰذَا عَارِضٌ مُّمْطِرُنَا ﴾ حكمة من اللّه ﷻ ، لم تأتهم الرِّيح هكذا ، بل جاءتهم وهم يُؤَمِّلون أنها غيث ليكون وقعها أشدُّ . فكونُ العذاب يأتي في حال يَتَأمَّل

---

(١) وقوله : ﴿ جَابُوا۟ ٱلصَّخْرَ ﴾ أي : قطعوا صخر الجبال قوله : ﴿ فَصَبَّ ﴾ أي : أنزل قوله : ﴿ سَوْطَ عَذَابٍ ﴾ أي : ضروب كثيرة من العذاب قوله : ﴿ لَبِٱلْمِرْصَادِ ﴾ هو يراقبك ويجازيك على فعلك .

فيها الإنسان كَشْفَ الضرر يكون أعظم وأعظم .

مثل ما لو مَنيت شخصًا بدراهم ثم سحبتها منه صار أشَد وأعْظَم : ﴿ فَلَمَّا رَأَوْهُ عَارِضًا مُّسْتَقْبِلَ أَوْدِيَتِهِمْ قَالُواْ هَٰذَا عَارِضٌ مُّمْطِرُنَاۚ (١) بَلْ هُوَ مَا ٱسْتَعْجَلْتُم بِهِۦۖ ﴾ [الأحقاف : ٢٤] ، لأنهم كانوا يتحدون نبيهم إن كان عندك عذاب فأتِ به إن كنت صادقًا .

﴿ رِيحٌ فِيهَا عَذَابٌ أَلِيمٌ ۝ تُدَمِّرُ كُلَّ شَيْءِۭ بِأَمْرِ رَبِّهَا فَأَصْبَحُواْ لَا يُرَىٰٓ إِلَّا مَسَٰكِنُهُمْۚ ﴾ [الأحقاف : ٢٥] ، والعياذ بالله !! هاجت عليهم سَبع ليال وثمانية أيام ؛ لأنها بدأت من الصباح وانتهت بالغروب ، فصارت سبع ليال وثمانية أيام حُسومًا مُتتابعة قاطعة لِدَابرهم تحْسمهم حَسْمًا حتى أنها تحمل الواحد منهم إلى عنان السماء ، ثم ترْمي بهِ ، فَصَارُوا كأنَّهم أعجازُ نخل خَاوِية ، أي مثل أصول النخل الخاوية ملتوين على ظهورهم - والعياذ بالله - كهيئة السجود ؛ لأنهم يريدون أن يتخلصوا من هذه الريح بعد أن تحملهم وتضرب بهم الأرض ، ولكن لم ينفعهم هذا . قال الله تعالى : ﴿ فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ رِيحًا صَرْصَرًا فِيٓ أَيَّامٍ نَّحِسَاتٍ لِّنُذِيقَهُمْ عَذَابَ ٱلْخِزْيِ فِي ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَاۖ وَلَعَذَابُ ٱلْأٓخِرَةِ أَخْزَىٰۖ وَهُمْ لَا يُنصَرُونَ (٢) ﴾ [فصلت : ١٦] ، والعياذ بالله .

أما ثَمُود الذين جَابُوا الصخر بالواد : هم أيضًا نفس الشيء عندهم عتو وطغيان وتحدٍّ لنبيهم حتى قالوا لَهُ : ﴿ قَدْ كُنتَ فِينَا مَرْجُوًّا قَبْلَ هَٰذَآۖ ﴾ [هود : ٦٢] ، أي كنا نَرجوك ونظنك عاقلًا ، أما الآن فأنت سَفيه ؛ لأنه ما من رسول أرْسل إلا قال له قومه ساحر أو مجنون كما قال الله : ﴿ كَذَٰلِكَ مَآ أَتَى ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِم مِّن رَّسُولٍ إِلَّا قَالُواْ سَاحِرٌ أَوْ مَجْنُونٌ ﴾ [الذاريات : ٥٢] .

فأنظرَهُم ثلاثة أيام : ﴿ فَقَالَ تَمَتَّعُواْ فِي دَارِكُمْ ثَلَٰثَةَ أَيَّامٍۖ ذَٰلِكَ وَعْدٌ غَيْرُ مَكْذُوبٍ ﴾ [هود : ٦٥] فلما تمت الثلاثة والعياذ بالله ارتجفت بهم الأرض ، وصيحَ بهم فأصْبَحُوا كَهَشيم المحتظر ، أي : مثل سعف النخل إذا طالت عليه المدة صار كأنه هشيم محترق من الشمس والهواء ، صاروا كهشيم المحتظر وماتوا عن آخرهم .

أما فرعون : وما أدراك ما فرعون فهو ذلك الرجل الجبار المتكبر الذي طغى وأنكر الله ﷻ وقال لموسى ما رب العالمين ؟! وقال لقومه ما لكم من إله غيري !!

نعوذ بالله ، وقال لهامان وزيره : ﴿ ٱبْنِ لِي صَرْحًا لَّعَلِّيٓ أَبْلُغُ ٱلْأَسْبَٰبَ ۝ أَسْبَٰبَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ فَأَطَّلِعَ إِلَىٰٓ إِلَٰهِ مُوسَىٰ (٣) ﴾ يقوله تهكمًا - والعياذ بالله - ﴿ وَإِنِّي لَأَظُنُّهُۥ كَٰذِبًاۚ ﴾ [غافر : ٣٦، ٣٧] .

وكذب في قوله : وإني لأظنه كاذبًا ؛ لأنَّه يعلم أنه صادق كما قال الله تعالى في مناظرته مع مُوسى قال له موسى : ﴿ لَقَدْ عَلِمْتَ ﴾ [الإسراء : ١٠٢] ، التاء للْخطاب فهي مفتوحة ﴿ لَقَدْ عَلِمْتَ ﴾ يا فرعون ﴿ مَآ أَنزَلَ هَٰٓؤُلَآءِ إِلَّا رَبُّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ بَصَآئِرَ وَإِنِّي لَأَظُنُّكَ يَٰفِرْعَوْنُ مَثْبُورًا (٤) ﴾ [الإسراء : ١٠٢] ، ما قال ما

---

(١) قوله ﴿ عَارِضٌ ﴾ أي : يرى في بعض آفاق السماء عشيًّا ثم يصبح من الغد قد استوى وحبا بعضه إلى بعض .

(٢) قوله ﴿ صَرْصَرًا ﴾ أي : شديدة السموم قوله : ﴿ أَيَّامٍ نَّحِسَاتٍ ﴾ أي : مشؤمة قوله : ﴿ عَذَابَ ٱلْخِزْيِ ﴾ أي : عذاب الذل والهوان .

(٣) قوله ﴿ صَرْحًا ﴾ أي : قصرًا . أو بناءً عاليًا ظاهرًا قوله : ﴿ ٱلْأَسْبَٰبَ ﴾ : أي الأبواب والطرق الموصلة إلى إله موسى .

(٤) قوله ﴿ مَثْبُورًا ﴾ أي : مُهلَكًا ، أو مصروفًا عن الخير .

علمت ، بل سكت في مقام التحدي والمناظرة ذلك يدلُّ على الانقطاع وعدم الجواب .

وقال اللَّه عنه وعن وقومه : ﴿ وَجَحَدُوا۟ بِهَا وَٱسْتَيْقَنَتْهَآ أَنفُسُهُمْ ظُلْمًا وَعُلُوًّا ﴾ [النمل : ١٤] .

فرعون وجنوده يعلمون أن مُوسى صَادِق ، لكنهم مُسْتَكْبرونَ جَاحِدُون . ماذا حصل لهم ؟

حصل لهم هزائم أعظمها الهزيمة التي حَصَلت للسحرة . جمع جميع السحرة في بلاده باتفاق مع موسى - عليه الصلاة والسلام - وموسى هو الذي عينَّ الموعد أمام فرعون مع أنَّ موسى أمام فرعون يعتبر ضعيفًا لولا أن اللَّه نَصَرَهُ وأيَّده .

قال لهم موسى : ﴿ مَوْعِدُكُمْ يَوْمُ ٱلزِّينَةِ وَأَن يُحْشَرَ ٱلنَّاسُ ضُحًى ﴾ [طه : ٥٩] . يوم الزينة يوم العيد ؛ لأن الناس يتزينون فيه ويلبسون الزينة . وقوله : ﴿ وَأَن يُحْشَرَ ﴾ يجمع ﴿ ٱلنَّاسُ ضُحًى ﴾ لا في الليل في الخفاء .

جمع فرعون جميع من عنده من السحرة من عظمائهم وكبرائهم واجتمعوا بموسى - عليه الصلاة والسلام - وألقوا حبَالهم وعصيهم في الأرض فصارت الأرض كلها ثَعَابين - حيات - تمشي أرهبت الناس كلهم ، حتى موسى أوجَفَ في نَفْسِهِ خيفَةً فأيده اللَّه وقال له : ﴿ لَا تَخَفْ إِنَّكَ أَنتَ ٱلْأَعْلَىٰ ۝ وَأَلْقِ مَا فِى يَمِينِكَ ﴾ [طه : ٦٨، ٦٩] . ألقى ما في يمينه وهي العَصا فإذا هي تلقف ما يأفكون ، كل الحبال والعصي ، أكلتها هذه العصا ، سبحان اللَّه العظيم ، وأنت تعجب : أين ذهبت العصا ؟ ليست كبيرة حتى تأكل هذه الدنيا ، لكن اللَّه ﷻ على كل شيء قدير ، التهمت الحبال والعِصي وكان السحرة أعْلم الناس بالسحر بلاشك ؛ يعرفون أن الذي حصل لموسى وعصاه ليس بسحر ، وأنه آية من آيات اللَّه ﷻ ﴿ فَأُلْقِىَ ٱلسَّحَرَةُ سَٰجِدِينَ ﴾ .

وانظر إلى كلمة ﴿ فَأُلْقِىَ ﴾ كأن هذا السجود جاء اندفاعًا بلا شعور ، ما قال سجدوا ! ألقوا سَاجِدين .

كأنهم من شدة مَا رَأوا اندفعوا من غير شُعور ولا اختيار حتى سجدوا مؤمنين بالله ورسوله .

﴿ قَالُوٓا۟ ءَامَنَّا بِرَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ۝ رَبِّ مُوسَىٰ وَهَٰرُونَ ﴾ [الشعراء : ٤٧، ٤٨] توعدهم فرعون واتهمهم وهو الذي جاء بهم ، قال : ﴿ إِنَّهُۥ لَكَبِيرُكُمُ ٱلَّذِى عَلَّمَكُمُ ٱلسِّحْرَ ﴾ [طه : ٧١] علمهم السحر وأنتَ الذي أتيت بهم ! سبحان اللَّه ، لكن المكابرة تجعل المرء يتكلم بلا عقل .

قال : ﴿ فَلَأُقَطِّعَنَّ أَيْدِيَكُمْ وَأَرْجُلَكُم مِّنْ خِلَٰفٍ ﴾ أقطع اليد اليمنى والرجل اليسرى . ﴿ وَلَأُصَلِّبَنَّكُمْ فِى جُذُوعِ ٱلنَّخْلِ وَلَتَعْلَمُنَّ أَيُّنَآ أَشَدُّ عَذَابًا وَأَبْقَىٰ ﴾ [طه : ٧١] ما الذي قالوا له ؟ ﴿ قَالُوا۟ لَن نُّؤْثِرَكَ عَلَىٰ مَا جَآءَنَا مِنَ ٱلْبَيِّنَٰتِ ﴾ [طه : ٧٢] ما يمكن أن نقدمك على ما رأينا من البينات! أنت كذاب لست برب ، الرب رب موسى وهارون . ﴿ عَلَىٰ مَا جَآءَنَا مِنَ ٱلْبَيِّنَٰتِ وَٱلَّذِى فَطَرَنَا ۖ (١) فَٱقْضِ مَآ أَنتَ قَاضٍ ۖ ﴾ [طه ٧٢] . انظر إلى الإيمان إذا دخل القلوب ! رخصت عليهم الدنيا كلها ﴿ فَٱقْضِ مَآ أَنتَ قَاضٍ ۖ ﴾ أي : افعل ما تريد إنما تقضي هذه الحياة الدنيا إذا قضيت علينا أن نفارق الدنيا ﴿ إِنَّآ ءَامَنَّا بِرَبِّنَا لِيَغْفِرَ لَنَا خَطَٰيَٰنَا وَمَآ أَكْرَهْتَنَا عَلَيْهِ مِنَ ٱلسِّحْرِ ۗ ﴾ [طه : ٧٣] ، لأنه قد أكرههم لكي يأتوا ويقابلوا موسى ﴿ وَٱللَّهُ خَيْرٌ وَأَبْقَىٰٓ ﴾ [طه ٧٣] . اللهُمَّ اجعلنا من المؤمنين المُوقنين !

الإيمان إذا دخل القلب ، واليقين إذا دخل القَلْب لا يفتنه شيء ، وإلا فإن السحرة جُنود فرعون ،

(١) قوله ﴿ فَطَرَنَا ۖ ﴾ أي : أبدعنا وأوجدنا .

كانوا في أول النهار سَحَرة كفرة ، وفي آخر النهار مؤمنين بَرَرَة ، يتحدون فرعون لما دخل في قلبهم من الإيمان ، هذه هزيمة نكْرَاء لفرعون ، لكن مع ذلك مَا زَال في طُغْيانه .

وفي النهاية : جمع الناس على أنه سيقضي على مُوسى . فخرج موسى في قَومه هربًا مِنه مُتجهًا بأمر اللَّه إلى البحر الأحْمر ويسمى « بَحْر القلْزم » متجهًا إليه مشرقًا ، تكُون مصر خَلْفه غربًا .

لما وصل إلى البحر وإذا فرعون بجنوده العَظيمة وجَحافله (١) القوية خلفهم والبحر أمامهم . ﴿ قَالَ أَصْحَٰبُ مُوسَىٰٓ إِنَّا لَمُدْرَكُونَ ﴾ [الشعراء : ٦١] ، البحر أمَامَنا وفرعون وجنوده خلفنا ، أين نفر ؟ ﴿ قَالَ كَلَّآ ۖ إِنَّ مَعِىَ رَبِّى سَيَهْدِينِ ﴾ [الشعراء : ٦٢] .

هكذا يقين الرسل - عليهم الصلاة والسلام - في المقامات الحرجة الصعبة تجد عندهم من اليقين .

ما يجعل الأمر العَسير بل الذي يظن أنه متعذر أمرًا يسيرًا سهلًا .

فأوحى إليه : أن اضرب بعصاك البحر الأحمر . فضرب البحر بعَصاهُ ضربة واحدة فانفلق البحر اثني عشرة طريقًا ، لأن بني إسرائيل كانواَ اثني عشرة قبيلة (سبطًا) والسبط بمعنى القبيلة عند العرب .

لا إله إلا اللَّه .. هذا البحر صَار اثني عشرة طَريقًا ، وكم بقي من مدة لكي ييبس ؟

بلحظة يبس ﴿ فَٱضْرِبْ لَهُمْ طَرِيقًا فِى ٱلْبَحْرِ يَبَسًا لَّا تَخَٰفُ دَرَكًا وَلَا تَخْشَىٰ ﴾ [طه : ٧٧] .

فعبر مُوسى بقومه في أمن وأمان ، الماء بين هذه الطُّرق مثل الجبال كأنه جبل واقف وأنتم تعلمون أن الماء جوهر سيَّال (٢) لكنه بأمر اللَّه صار واقفا كالجبَال . حتى إن بعض العلماء قال : إن اللَّه سبحانه وتعالى جعل في كل طود من هذه المياه فروجًا حتى ينظر بنو إسرائيل بعضهم إلى بعض لئلا يظنوا أن أصحابهم قد غرقوا وهلكوا .

فلما انتهى موسى وقومه خارجين دخل فرعون وقومه ، فلما تكاملوا أمر اللَّه البحر أن يعود على حاله فانطَبَقَ عليهم . وكان بنو إسرائيل من شدة خوفهم من فرعون وقع في نفوسهم أن فرعون لم يغرق ، فأظهر اللَّه جَسَد فِرْعَون على سطح الماء قالَ : ﴿ فَٱلْيَوْمَ نُنَجِّيكَ بِبَدَنِكَ لِتَكُونَ لِمَنْ خَلْفَكَ ءَايَةً ﴾ [يونس : ٩٢] حتى يشاهدوه بأعينهم واطمأنوا أن الرَّجل قد هلك .

فتأمل يا أخي هؤلاء الأمم الثلاثة الذين هُم في غاية الطُغيان كيف أخذهم اللَّه ﷻ وكان لهم بِالـمِرْصَاد ؟ وكيف أهلكوا بمثل ما يفتخرون به . قوم عاد قالوا ﴿ مَنْ أَشَدُّ مِنَّا قُوَّةً ﴾ فأهلكوا بالريح وهي أصلًا لطيفة وسهلة . قوم صالح أهلكوا بالرجفة والصَيحة ، فرعون أهلك بالماء والغَرق ، وكان يفتخر بالماء يقول لقومه : ﴿ أَلَيْسَ لِى مُلْكُ مِصْرَ وَهَٰذِهِ ٱلْأَنْهَٰرُ تَجْرِى مِن تَحْتِىٓ ۖ أَفَلَا تُبْصِرُونَ ۝ أَمْ أَنَا۠ خَيْرٌ مِّنْ هَٰذَا ٱلَّذِى هُوَ مَهِينٌ ﴾ - يعني موسى - ﴿ وَلَا يَكَادُ يُبِينُ ۝ فَلَوْلَآ أُلْقِىَ عَلَيْهِ أَسْوِرَةٌ مِّن ذَهَبٍ أَوْ جَآءَ مَعَهُ

---

(١) جحافله : أي جيوشه العظيمة الكثيرة الضخمة (المعجم الوسيط ١/١١٣ مادة جحفل) .

(٢) جوهر سيال : أي الجوهر الذي يكون في حالة وسط بين الصلابة والغازية (المعجم الوسيط ١/٤٨٦ مادة سيل) .

ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ مُقْتَرِنِينَ[١] ﴾ [الزخرف: ٥١- ٥٣] فأغرقه اللّٰه تعالى بالماء، فهذه جملة ما تشير إليه هذه الآية الكريمة: ﴿ إِنَّ رَبَّكَ لَبِٱلْمِرْصَادِ ﴾ [الفجر: ١٤].

* * *

وقوله[٢] عن اللّٰه ﷻ يقوله عن نفسه: ﴿ يَعْلَمُ خَآئِنَةَ ٱلْأَعْيُنِ وَمَا تُخْفِى ٱلصُّدُورُ ﴾ [غافر: ١٩] ﴿ يَعْلَمُ ﴾ يعني اللّٰه ﷻ، و﴿ خَآئِنَةَ ٱلْأَعْيُنِ ﴾: خيانتها. فالخائنة مصدر كالعاقبة، وما أشبهها. ويجوز أن تكون اسم فاعل على أنها مِنْ: خانَ يَخونُ. فيكون من باب إضافة الصفة إلى مَوصُوفها. على كل حال هذه مسألة نحوية ما تهم هنا، المهم أن للأعين خيانة، وذلك أن الإنسان ينظر إلى الشيء ولا تظن أنه ينظر إليه نظرًا محرمًا ولكن اللّٰه ﷻ يعلم أنه ينظر نظرًا محرمًا.

كذلك ينظر إلى الشخص نظر كراهية، والشخص المنظور لا يدري أن هذا نظر كراهية، ولكن اللّٰه يعلم أنه ينظر نظر كراهية، كذلك ينظر الشخص إلى شيء محرم ولا يدري الإنسان الذي يرى هذا الناظر، لا يدري أنه ينظر إلى الشيء نظر إنكار أو نظر رضا، ولكن اللّٰه سبحانه هو الذي علم ذَلك؛ فهو ﷻ يعلم خائنة الأعين.

ويعلمُ أيضًا ما تخفي الصدور أي القلوب؛ لأنَّ القلوب في الصُّدور والقلوب هي التي يكون بها العقل ويكون بها الفهم ويكون بها التدبير كما قال اللّٰه: ﴿ أَفَلَمْ يَسِيرُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ فَتَكُونَ لَهُمْ قُلُوبٌ يَعْقِلُونَ بِهَآ ﴾ [الحج: ٤٦]. وقال: ﴿ فَإِنَّهَا لَا تَعْمَى ٱلْأَبْصَٰرُ وَلَٰكِن تَعْمَى ٱلْقُلُوبُ ٱلَّتِى فِى ٱلصُّدُورِ ﴾ [الحج: ٤٦].

سبحان اللّٰه! كأن هذه الآية تنزل على حال الناس اليوم، بل حال الناس في القديم، يعني هل العقل في الدماغ أو العقل في القلب؟

جـ - هذه مسألة أشكلت على كثير من النُّظار الذين ينظرون إلى الأمور نظرة مادية لا يرجعون فيها إلى قول اللّٰه وقول رَسُوله ﷺ.

وإلا فالحقيقة أن الأمر فيها واضح، أن العقل في القلب، وأن القلب في الصدر ﴿ أَفَلَمْ يَسِيرُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ فَتَكُونَ لَهُمْ قُلُوبٌ يَعْقِلُونَ بِهَآ ﴾ [الحج: ٤٦]، وقال: ﴿ فَإِنَّهَا لَا تَعْمَى ٱلْأَبْصَٰرُ وَلَٰكِن تَعْمَى ٱلْقُلُوبُ ٱلَّتِى فِى ٱلصُّدُورِ ﴾ [سورة الحج، الآية: ٤٦]، ولم يقل القلوب التي في الأدْمِغة.

فالأمر فيه واضح جدًّا: إن العقل يكون في القلب ويؤيد هذا قول النبي ﷺ: «ألَا وإن في الجَسدِ مُضْغَة إذَا صَلُحت صَلُحَ الجَسَدُ كُله، وَإذَا فَسدَت فَسدَ الجَسَدُ كُله ألَا وَهِي القَلْب»[٣].

فما بالك بأمر شهد به كتاب اللّٰه والله هو الخالق العالم بكل شيء، وشهدت به سُنة الرسول ﷺ؟!.

إن الواجب علينا إزَاء ذلك أن نطرح كل قول يُخَالف كتاب اللّٰه وسنة رسوله ﷺ، وأن نجعله

---

(١) قوله تعالى: ﴿ مُقْتَرِنِينَ ﴾ أي مقرونين به يصدقونه. (٢) أي قول الإمام النووي رحمه اللّٰه.

(٣) أخرجه البخاري في الإيمان (٥٢)، ومسلم في المساقاة (١٠٧)، وابن ماجه في السنن (٣٩٨٤)، والمنذري في الترغيب والترهيب (٢/٥٥٤). والمضغة هي: قطعة اللحم بقدر ما يمضغ.

تحت أقدامنا وأن لا نرْفَع به رأسًا . إذًا : القلب هو محل العَقْل ، ولا شك ، ولكن الدماغ محل التصور ، ثم إذا تصورها وجهَّزها بعث بها إلى القلب ، ثم القلب يأمر أو يَنهى . فكأنَ الدِّماغ (سكرتير) يجهز الأشياء ثم يدفعها إلى القلب ، ثم القلب يأمر أو ينهى ، وهذا ليس بغريب ﴿ وَفِىٓ أَنفُسِكُمْۚ أَفَلَا تُبۡصِرُونَ ﴾ [الذاريات : ٢١] وفي هذا الجسم أشياء غريبة تحار فيها العُقُول .

وأيضًا قلنا هذا لأن النَّبي – عليه الصَّلاة والسلام – قال : « إذا صَلُحَتْ صَلَحَ الجَسَدُ » فلولا أن الأمر للقلب ما كان إذا صَلح صَلح الجسد ، وإذا فسدَ فَسَدَ الجَسَد كُلّهُ .

إذًا : فالقلوب هي محل العقل والتدبير للشخص ولكن لا شك أن لها اتّصالًا بالدماغ ، ولهذا إذا اختل الدِّماغ فسد التَّفكير وفسد العقل !

فهذا مُرْتبطٌ بهذا ، لكن العقل المدبر في القلب والقلب في الصدر ﴿ وَلَٰكِن تَعۡمَى ٱلۡقُلُوبُ ٱلَّتِي فِي ٱلصُّدُورِ ﴾ [الحج : ٤٦] .

ثم ذكر المؤلف رَحِمَهُ ٱللَّهُ حديث عمر بن الخطاب هذا الحديث العظيم الذي قال فيه النبي ﷺ في آخره : « أتدرون من السَّائل ؟ » قالوا : اللَّه وَرَسُوله أعلم ، قال : « فإنه جبريل أتاكم يُعَلّمكم دينكم » إذًا دِيننا في هذا الحديث ؛ لأنَّه مشتمل على كل الدِّين على الإسلام والإيمان والإحسان .

* * *

قال المؤلف رَحِمَهُ ٱللَّهُ :

٦٠ – وأمَّا الأحاديثُ ، فالأوَّلُ : عَنْ عَمَرَ بن الخطاب رضي الله عنه قال : « بَينَما نَحْنُ جُلُوسٌ عِنْدَ رسول اللَّه ﷺ ذَاتَ يَومٍ إذْ طَلَعَ عَلَينا رَجُلٌ شَديدُ بَياضِ الثِّيابِ ، شَديدُ سَوَادِ الشَّعْرِ ، لا يُرَى عَلَيهِ أَثَرُ السَّفَرِ ، وَلا يَعْرِفُهُ منَّا أَحَدٌ ، حَتَّى جَلَسَ إِلَى النَّبيِّ ﷺ فأَسْنَدَ رُكْبَتَيهِ إلى رُكْبَتَيهِ ، ووَضَعَ كَفَّيهِ عَلَى فَخِذَيهِ وقالَ : يَا مُحَمَّدُ أَخْبِرْنِي عَنِ الإسْلامِ ، فقالَ رسولُ اللَّه ﷺ : « الإِسْلامُ أَنْ تَشْهَدَ أَنْ لا إِلَه إِلا اللَّهُ وَأَنَّ مُحَمَّدًا رسولُ اللَّهِ ، وَتُقِيمَ الصَّلاةَ ، وَتُؤْتِيَ الزَّكاةَ ، وَتَصُومَ رَمَضَانَ ، وَتَحُجَّ البَيت إن اسْتَطَعْتَ إلَيهِ سَبيلاً » . قالَ : صَدَقْتَ . فَعَجِبْنا لَهُ يَسْأَلُهُ وَيُصَدِّقُهُ ! قالَ : فَأَخْبِرْني عَنِ الإيمان . قالَ : « أَنْ تُؤْمِنَ باللَّه ، وَمَلائكَتِه ، وَكُتُبِهِ ، وَرُسُلِهِ ، واليوم الآخِرِ ، وتُؤْمِنَ بالقَدَرِ خَيرِهِ وَشَرِّه » . قالَ : صَدَقْتَ . قالَ : فَأَخْبِرْنِي عَنِ الإحْسَانِ . قالَ : « أَنْ تَعْبُدَ اللَّهَ كَأَنَّكَ تَرَاهُ ، فإنْ لَمْ تَكُنْ تَرَاهُ فإنَّهُ يَرَاكَ » . قال : فأَخبِرْني عَنِ السَّاعَةِ . قالَ : « مَا المسْؤُولُ عَنْهَا بأَعْلَمَ مِن السَّائِلِ » . قالَ : فأخبرْني عَنْ أَمَارَاتِهَا . قالَ : « أَنْ تَلِدَ الأَمَةُ رَبَّتَها ، وَأَنْ تَرَى الحُفَاةَ العُرَاةَ العَالَةَ رِعَاءَ الشَّاءِ يَتَطَاوَلُونَ في البُنْيَانِ » . ثُمَّ انْطَلَقَ ، فَلَبِثْتُ مَلِيًا ، ثُمَّ قالَ : « يا عُمَرُ أَتَدْرِي مَنِ السَّائلُ ؟ » قلتُ : اللَّهُ ورسُولُهُ أَعْلَمُ . قالَ : « فإنَّه جِبْرِيلُ أَتَاكُمْ يُعَلِّمُكُمْ أَمْرَ دِينكُمْ » [١] رواه مسلم .

---

(١) أخرجه مسلم في الإيمان (١) ، وأبو داود في السنن (٤٦٩٥) ، وأحمد في مسنده (١/٥١) ، والبيهقي في السنن (٤/٢٤٢ ، ٣٢٥) .

ومَعْنى : « تَلِدُ الأَمَةُ رَبَّتَهَا » أَي : سَيِّدَتَهَا ، ومعناهُ أَنْ تَكْثُرَ السَّرَارِي حَتَّى تَلدَ الأَمَةُ السُّرِّيَّةُ بِنْتًا لِسَيِّدِهَا ، وَبِنْتُ السَّيِّدِ في مَعْنَى السَّيِّدِ ، وَقِيلَ غَيرُ ذلك . وَ « العَالَةُ » الفُقَرَاءُ . وقولُهُ « مَلِيًّا » أي : زَمَنًا طويلًا ، وَكَانَ ذلك ثَلاثًا .

الشرح

قوله : « بينَما » هذه ظرف تدل على المفاجأة ولهذا تأتي بعدها إذ المفيدة المفاجأة ، وكان الصحابة ﷺ يجلسون عند النبي ﷺ كثيرًا ؛ لأن الرسول - عليه الصلاة والسلام - لا يغيب عن أصْحابِه أو أهله .

- إما في البيت : في شؤون بيته - صلوات الله وسلامه عليه - ، يَحْلبُ الشاة ، وُيرقِّع الثوب ، ويخصف النعل [1] .

- وإما مع أصحابه في المسجد ، وإما ذاهبًا إلى عيادة مريض أو زيارة قريب ، أو غير ذلك من الأمور التي لا يمضي منها لحظة إلا وهو فى طاعة الله - عليه الصلاة والسلام . قد حفظ الوقت ، ليس مثلنا نُضيع الأوقات . والغريب أن أغلى شيء عند الإنسان هو الوقت وهو أرخص شيء قال الله : ﴿ حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءَ أَحَدَهُمُ ٱلْمَوْتُ قَالَ رَبِّ ٱرْجِعُونِ ۝ لَعَلِّىٓ أَعْمَلُ صَـٰلِحًا فِيمَا تَرَكْتُ ﴾ [المؤمنون : ٩٩- ١٠٠] حتى لا يضيع عليَّ الوقت . ما يقول لعلي أتمتع في المال ، أو أتمتع بالزوجة ، أو أتمتع في المركوب ، أو أتمتع في القصور ، بل يقول لعلي أعمل صالحاً فيما تركت .

مضى عليَّ الوقت ومَا استفدت منه ، هو أغلى شيء ، لكن هو أرْخَص شيء عندنا الآن نمضي أوقاتًا كثيرة بغير فائدة ؛ بل نمضي أوقاتًا كثيرة فيما يَضر ، ولَسْتُ أتحدث عن رجل واحد ، بل عن عموم المُسْلمين اليوم - مع الأسف الشديد - إنهم في سهو ولهو وغفلة ، لَيسُوا جادِّين في أمور دينهم . أكثرهم في غفلة وفي تَرَف ينظرون ما يترف به أبدانهم ، فإن أتلفوا أديانهم : فالرَسول - عليه الصَلاة والسَّلام - كان دائمًا في المَصَالح الخاصَة أو العامة .

فبينما الصحابة عنده جُلوس إذ طلع عليهم رجل « شَدِيدُ بياض الثِّياب شديد سواد الشعر ، لا يُرى عليه أثر السفر ولا يعرفه منا أحد » وهذا غريب! ليس مُسَافرًا حتى نقول : إنه غريب عن البلد ولا يعرف فنقول : إنه من أهل البلد . فتعجبوا منه ، ثم هذا الرجل الذي جاء نظيفًا شديدَ بَيَاض الثِّياب شديد سواد الشعر ، أي : شاب لا يُرى عليه أثر السفر ، لأن المسافر - لا سيما في ذلك الوقت - يكون أشْعَث أغبرلأنهم يمشون على الإبل ، أو على الأقدام والأرض غِير مُسَفْلتة كلها غبار ، لكن هذا لا يُرَى عليه أثر السفر ولا يعرفه منا أحد ، فهو غريب ليس بغريب .

حتى جاء وجلس إلى النبي - عليه الصَّلاة والسلام - وهذا الرَّجل هو جبريل - عليه الصَّلاة والسَّلامِ - أحد الملائكة العظام ، بل هو أفضل الملائكة فيما نعلم لشرف عمله ؛ لأنه يقوم بحَمْل الوَحْي من الله إلى الرسل عليهم الصَّلاة والسَلام ؛ فهو ملك عظيم رآه النبي ﷺ على صُورته التي

---

(١) انظر في ذلك أحمد في مسنده (٦٧/٦) .

خُلِقَ عَلَيها مَّرتين : مرّة في الأرض ، ومرّة في السماء .

- مرّة في الأرض في غار حراء رآه وله ستمائة جناح قد سد الأفق [(١)] ! كل الأفق أمام الرسول لا يرى السماء من فوق لأن هذا الملك ، قد سد الأفق . سبحان اللّه !! لأن اللّه يقول في الملائكة : ﴿ جَاعِلِ ٱلْمَلَٰٓئِكَةِ رُسُلًا أُوْلِىٓ أَجْنِحَةٍ ﴾ [فاطر : ١] . لهم أجنحة يطيرون بها طيرانًا سريعًا .

- والمرّة الثانية عند سدرة المنتهى . قال اللّه تبارك وتعالى : ﴿ إِنْ هُوَ إِلَّا وَحْيٌ يُوحَىٰ ۝ عَلَّمَهُۥ شَدِيدُ ٱلْقُوَىٰ ۝ ذُو مِرَّةٍ فَٱسْتَوَىٰ ۝ وَهُوَ بِٱلْأُفُقِ ٱلْأَعْلَىٰ ۝ ثُمَّ دَنَا فَتَدَلَّىٰ ۝ فَكَانَ قَابَ قَوْسَيْنِ أَوْ أَدْنَىٰ ﴾ [النجم : ٤- ٩] . هذا في الأرض ، دَنَا جبريل من فوق فتدلى أي : قرب إلى محمد ﷺ فأوحى إلى عبده الرسول ما أوحاه من وحي اللّه الذي حمله إياه .

أما الثانية : فقال : ﴿ وَلَقَدْ رَءَاهُ نَزْلَةً أُخْرَىٰ ۝ عِندَ سِدْرَةِ ٱلْمُنتَهَىٰ ﴾ [النجم : ١٣، ١٤] ، فهذا جبريل لكن اللّه جعل للملائكة قدرة على أن يتشكّلوا بغير أشكالهم الأصلية ؛ فها هو قد جاء في صورة هذا الرجل .

قوله : « حتّى جلس إلى النبي ﷺ فأسند رُكبتيه إلى رُكْبتيه » أي أسند رُكْبة جبريل إلى ركبة النبي ﷺ : « ووضع كفيه على فخذيه » .

قال العلماء : وضع كفيه على فخذي نفسه لا على فخذي النبي ﷺ ، وذلك من كمال الأدب في جلسة المتعلم أمام المعلم ، بأن يجلس بأدب واستعداد لما يسمع مما يُقَال من الحديث . جلس هذه الجلسة ثم قال : يا محمد أخبرني عن الإسلام ، ولم يَقُلْ يا رسول اللّه ، أخبرني . صنيع أهل البادية الأعراب ؛ لأن الأعراب إذا جاءوا إلى النبي ﷺ يقولون : يا محمد . أما الذين سَمِعُوا أدبَ اللّه ﷻ لهم فإنهم لا يقولون : يا محمد ، وإنّما يَقُولون : يا رسول اللّه ؛ لأنَّ اللّه قال في كتابه : ﴿ لَّا تَجْعَلُواْ دُعَآءَ ٱلرَّسُولِ بَيْنَكُمْ كَدُعَآءِ بَعْضِكُم بَعْضًا ﴾ [النور : ٦٣] . وهذا يشمل دعاءه عند النداء باسمه ، ويشمل دُعَاءه إذَا أمَرَ أو نَهَى فلا نجعل أمْره كأمْرِ النَّاس إنْ شِئْنَا امتثلنا ، وإن شِئْنَا تَرَكْنَا ولا نجعل نهيه كنهي الناس ، إن شئنا تَرَكنا ، وإن شئنا فعلنا .

كذلك إذا دعوناه لا ندعوه كدعاء بعضنا بعضًا فنقول : يا فلان يا فلان مثلما تنادي صاحبك ، وإنما تقول : يا رسول اللّه ، لكن الأعراب لبعدهم عن العلم وجهل أكثرهم يُنَادونه باسمه فيقولون : يا محمد .

قال : « أخبرني عن الإسلام - أي ما هُو الإسلام - فقال النبي ﷺ : « أنْ تشْهَد أن لا إله إلّا اللّه وأنَّ محمدًا رسُول اللّه » .

هذا الركن الأول : تشهد بلسانك نُطْقًا وبقلبك إقْرارًا أن لا إله إلا اللّه - يعني : لا مَعْبودَ بحق إلا اللّه ﷻ . وألوهية اللّه فرع عن رُبُوبيته ؛ لأن من تأله لله فقد أقر بالربوبية ؛ إذ إن المعبود لابد أن يكون ربًّا ولابد أن يكون كامل الصِّفات ، ولهذا تجد الذين ينكرون صفات اللّه ﷻ عندهم نقص عظيم في العُبُودية ، لأنَّهم يعبدون لا شيء ؛ فالرب لابد أن يكون كامل الصفات حتى يعبد بمقتضى هذه الصفات ، ولهذا قال اللّه تعالى : ﴿ وَلِلَّهِ ٱلْأَسْمَآءُ ٱلْحُسْنَىٰ فَٱدْعُوهُ بِهَا ﴾ [الأعراف : ١٨٠] أي : تعبَّدوا له

(١) انظر في ذلك البخاري في بدء الخلق (٣٢٣٢ ، ٣٢٣٤ ، ٣٢٣٥) ، والترمذي في السنن (٣٢٧٤) ، وأحمد في مسنده (١/٤٠١) ، والأفق هو ما بين السماء والأرض (لسان العرب مادة أفق) .

وتوسَّلُوا بأسْمَائه إلى مَطلوبكم . فالدعاء هنا يشمل دُعاء المسألة ودُعاء العبادة .

المهم أنه قال : « أن تشهد أن لا إله الا اللّه » ، فلا إله من الخلق ؛ لا مَلَكٌ مقرب ، ولا نبي مرسل ، ولا شَمس ولا قَمر ، ولا شَجر ولا حَجَر ، ولا بَر ولا بَحر ، ولا وَلي ولا صديق ولا شَهيد ، لا إله إلا اللّه وحده .

وهذه الكلمة أرسل اللّه بها جميع الرسل ، فقال اللّه تعالى : ﴿ وَمَآ أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ مِن رَّسُولٍ إِلَّا نُوحِىٓ إِلَيْهِ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّآ أَنَا۠ فَٱعْبُدُونِ ﴾ [الأنبياء : ٢٥] وقال تعالى : ﴿ وَلَقَدْ بَعَثْنَا فِى كُلِّ أُمَّةٍ رَّسُولًا أَنِ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ وَٱجْتَنِبُوا۟ ٱلطَّٰغُوتَ ﴾ [النحل : ٣٦] أي : ابتعدوا عن الشرك .

هذه الكلمة إذا حققها الإنسان وقالها من قلبه ملتزمًا بما تقتضيه من الإيمان والعمل الصالح ؛ فإنه يدخل الجنة بها .

قال النبي ﷺ : « مَنْ كانَ آخِرَ كَلَامِهِ مِن الدُنيا لا إلَه إلّا اللّه دَخَلَ الجنة » [١] جعلنا اللّه وإياكم منهم .

وقوله : « وأنَّ مُحمدًا رَسُولُ اللّه » أي تشهد أن محمد بن عبدالله الهاشمي القرشي العَربي رَسُول اللّه ولم يذكر من سِواه من الرُّسل ؛ لأنه نسخ جميع الأديان . كل الأديان باطلة ببعثة الرَّسول - عليه الصَّلاة والسَّلام - فدين اليهود باطل ، ودين النَّصارى باطل غير مقبول عند اللّه لقول اللّه تعالى : ﴿ وَمَن يَبْتَغِ غَيْرَ ٱلْإِسْلَٰمِ دِينًا فَلَن يُقْبَلَ مِنْهُ وَهُوَ فِى ٱلْءَاخِرَةِ مِنَ ٱلْخَٰسِرِينَ ﴾ [آل عمران : ٨٥] .

يتعبون في عباداتهم التي ابتدعوها تعبًا عظيمًا ، وينصبون [٢] نَصبًا عظيمًا ، وكل هذا هباء [٣] لا ينفعهم بشيء . وقوله : ﴿ وَهُوَ فِى ٱلْءَاخِرَةِ مِنَ ٱلْخَٰسِرِينَ ﴾ فلو رَبحُوا في الدنيا ما ربحوا في الآخرة ؛ لأن أديانهم باطلة ؛ فالذين يدَّعون الآن من النَّصارى أنهم ينتسبون إلى عيسى ابن مريم هم كاذبون والمسيح بريء منهم ولو جاء المسيح لقاتلهم . وسينزل في آخر الزمان ولا يقبل إلا الإسلام . فيكسر الصليب ويقتل الخنزير ويَضَعُ الجزية فلا يقبلها من أحد ، لا يقبل إلَّا الإسلام [٤] .

وقوله : « وأن محمدًا رسول اللّه » إلى مَنْ ؟

جـ - إلى الخلق كافة كما قال اللّه : ﴿ تَبَارَكَ ٱلَّذِى نَزَّلَ ٱلْفُرْقَانَ عَلَىٰ عَبْدِهِۦ لِيَكُونَ لِلْعَٰلَمِينَ نَذِيرًا ﴾ [الفُرقان : ١] للعالمين كلهم .

وقال اللّه تعالى : ﴿ قُلْ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِنِّى رَسُولُ ٱللَّهِ إِلَيْكُمْ جَمِيعًا ٱلَّذِى لَهُۥ مُلْكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ يُحْىِۦ وَيُمِيتُ فَـَٔامِنُوا۟ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِ ٱلنَّبِىِّ ٱلْأُمِّىِّ ٱلَّذِى يُؤْمِنُ بِٱللَّهِ وَكَلِمَٰتِهِۦ وَٱتَّبِعُوهُ لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ ﴾ [لأعراف : ١٥٨] ، فهو رسول إلى جميع الخلق . وقد أقسم ﷺ : « أنَّه لا يَسْمَعُ

(١) أخرجه أبو داود في السنن (٣١١٦) ، وأحمد في مسنده (٥/٢٣٣) ، والحاكم في المستدرك (١/٣٥١) .

(٢) ينصبون أي : يتعبون .

(٣) الهباء هو : التراب الذي تطيره الريح ويلزق بالأشياء ، أو ينبثُّ في الهواء فلا يبدو إلا في ضوء الشمس (المعجم الوسيط ٢/١٠١٠) ..

(٤) انظر البخاري في المظالم (٢٤٧٦) ، ومسلم في الإيمان (٢٤٢ ، ٣٤٣) ، أحمد في مسنده (٢٥/٤٨٢) ، والطبراني في الكبير (١/١٨٦) ، والبخاري في التاريخ الكبير (٣/٣٥٧) .

بِهِ أَحَدٌ يَهُودِي وَلَا نَصْرَانِي ثم لا يُؤْمِنُ بِمَا جَاءَ بِهِ إِلَّا كَانَ مِن أَصْحَابِ النار »[1] .

ولذلك نحن نؤمن ونعتقد بأن جميع النَّصارى واليَهُود وغيرهم من الكَفَرة كلهم من أصحاب النار؛ لأن هذا شهادة النبي - عليه الصلاة والسَّلام - والجنَّة حَرَامٌ عليهم لأنهم كفرة أعداء لله ولرسوله . أعداء إبراهيم ونُوح ومحمد وموسى وعيسى وجميع الرسل ليسوا على شَيء .

وقوله : « أنْ تشهد أن لا إله إلا اللَّه » مع قوله : « وأن محمدًا رسول اللَّه » هذان جمعا شرطي العبادة وهُما الإخلاص لله والمُتَابَعة لِرَسول اللَّه ﷺ ؛ لأنه من قال : لا إله الا اللَّه أخلص لله ، ومن شهد أنَّ محمدًا رسول اللَّه اتبع رسول اللَّه ولم يتبع سواه .

ولهذا عُدَّ هذان ركنًا واحدًا من أركان الإسلام ؛ لأنهما يعودان إلى شيء واحد وهو تصحيح العبادات ؛ لأن العبادات لا تصح إلا بمقتَضى هاتين الشهادتين : شهادة أن لا إله إلا اللَّه ، التي يكون بها الإخلاص ، وأن محمدًا رسول اللَّه ، التي يكون بها الاتِّباع .

وقوله : « وأن محمدًا رسول اللَّه » فإنه يجب أنْ تشهد بلسانك مقرًّا بقلبك أن محمدًا رسول اللَّه أرسله اللَّه إلى العالمين جميعًا رحمة بالعالمين كما قال اللَّه : ﴿ وَمَآ أَرْسَلْنَٰكَ إِلَّا رَحْمَةً لِّلْعَٰلَمِينَ ﴾ [الأنبياء : ١٠٧] ، وأن تؤمن بأنه خاتم النبيين كما قال اللَّه تعالى : ﴿ مَّا كَانَ مُحَمَّدٌ أَبَآ أَحَدٍ مِّن رِّجَالِكُمْ وَلَٰكِن رَّسُولَ ٱللَّهِ وَخَاتَمَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ ﴾ [الأحزاب : ٤٠] فلا نبي بعده ، ومن ادعى النبوة بعده فهو كافر كاذب ، ومن صدقه فهو كافر .

ويَلْزَم من هذه الشهادة أن تتبعه في شريعته وفي سنته ، وأن لا تبتدع في دينه مَا لَيس منه ، ولهذا نقول : إن أصحاب البدع الذين يبتدعون في شَريعة الرسول ﷺ ما ليس منها إنهم لم يُحَققوا شهادة : أن محمدًا رسول اللَّه ! حتى وإن قالوا إننا نحبه ونُعَظمه ؛ فإنهم لو أحبوه تمام المحبة وعظموه تمام التعظيم ما تقدموا بين يَديه ، ولا أدخَلوا في شريعته مَا لَيسَ منها .

فالبدعة مضمونها حقيقة القدح برسول اللَّه ﷺ كأنما يقول هذا المبتدع إن الرسول ﷺ لم يكمل الدين ولا الشريعة ؛ لأن هناك دينًا وشريعة ما جاء بها !

ثم في البدعة محذور آخر وهو عظيم جدًّا وهو أنه يتضمن تكذيب قول اللَّه : ﴿ ٱلْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ ﴾ [المائدة : ٣] ؛ لأن اللَّه إذا كان أكمل الدين ، فمعناه أنه لا دين بعد ما جاء به الرسول - عليه الصلاة والسلام - وهؤلاء المبتدعون شرعوا في دين اللَّه مَا لَيسَ مِنه من تَسْبيحات وتَهْليلات وحركات وغير ذلك ، فهم في الحقيقة مكَذبون لمضمون قوله تعالى : ﴿ ٱلْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ ﴾ [المائدة : ٣] . وكذلك قادحون برسول اللَّه ﷺ متهمون إيَّاه بأنه لم يكمل الشريعة للبشر وحاشاه من ذلك .

ومن تمام شهادة أن محمدًا رسول اللَّه أن تُصدقه فيما أخبر به ، فكل ما صح عنه وجب عليك أن تصَدق به ، وأن لا تعارض هذا بعقلك وتقديراتك وتَصوراتك ؛ لأنك لو لم تؤمن إلا بما صَدق به

---

(١) أخرجه مسلم في الإيمان (٢٤٠) ، وأحمد في مسنده (٣١٧/٢) ، والهيثمي في مجمع الزوائد (٢٦١/٨) .

عقلك لم تكن مؤمنًا حقيقة ، بل مُتبعًا لِهَواكَ لا آخذًا بهداك .

الإنسان الذي يؤمن بالرسول – عليه الصلاة والسلام – حقًّا يقول فيما صح عنه من الأخبار : سَمِعنا وآمنا وصدقنا .

أما أن يقول كيف يكون كذا ، كيف يكون كذا ؛ فهذا غير مؤمن حقيقة ، ولذلك يُخشى على أولئك القوم الذين يحَكِّمُون عقولهم فيما أخبر به الرسول – عليه الصلاة والسلام – لأنهم إن كانوا لا يقبلون إلا بما شهدت به عُقُولهم – وعُقُولهم لا شك أنَّها قاصرة – فإنهم لم يؤمنوا حقًّا برسول الله ﷺ ولم يشهدوا أنه رسول الله ﷺ على وجه الحقيقة .

عندهم من ضعف هذه الشَّهادة بمقدار ما عندهم من التشكك فيما أخبر به .

كذلك من تحقيق شهادة أنَّ محمدًا رسول اللَّه أن لا تَغْلُوا فيه فَتُنْزِلُه بمَنْزِلةٍ أكبر من المَنْزلة التي أنزله اللُّه إياها مثل أولئك الذين يعتقدون أَن الرسول ﷺ يكشف الضر حتى أنهم عند قبره يسألون النبي ﷺ مباشرة أن يكشف الضر عنهم وأن يجلب النفع لهم . هذا غُلُو في الرسول وشِرْك بالله ﷻ !! لا يقدر على ذلك أحد إلا الله ﷻ . والنَّبي ﷺ بعد مَوته لا يملك لِنَفْسِهِ شيئًا أبدًا .

حتى الصَّحابة لما أصَابَهم القَحْط في زمن أمير المؤمنين عمر بن الخطاب ﷺ واسْتَقُوا في مسجد الرَّسول – عليه الصلاة والسلام – ما جاءوا إلى القبر يسألون الرسول أو يقولون : ادْعو اللَّه لنا أو اشفع لنا عند اللَّه حتى ينزل الغيث !

قام عمر يدعو اللَّه : « اللّهم إنَّا كُنا نتوسلُ إليكَ بِنَبينا فَتَسْقِينَا ، وَإننا نتَوسلُ إليكَ بِعَم نَبينا » ثم أمر العباس أن يقوم ويدعو اللَّه بإنزال الغيث [١] . لماذا ؟

جـ : لأن النبي ﷺ مَيت لا عَمَلَ لهُ بعد موته ، هو الذي قال : «إذَا مَاتَ ابنُ آدَمَ انْقَطَعَ عَمَلَهُ إلا مِنْ ثلاثة : إلا مَنْ صدَقَة جَارِيةٍ ، أو عِلْم ينتفع بهِ ، أو وَلَد صَالح يدعُو لَهُ » [٢] .

فالنبي ﷺ بنفسه لا يملك شيئًا ، لا يملك أن يدعو لك وهو في قبره أبدًا . فمن أنزله فوق مَنْزلته التي أنزَلَهُ اللَّه فإنَّه لَمْ يحقق شهادة أن محمدًا عَبْدُه ورسُوله ! بل شهدَ أن محمدًا رب مع اللَّه – نعوذ بالله ، لأن معنى كونه رسولًا أنه عَبْد لا يعبد ورَسُول لا يكذب ، نحن في صلاتنا كل يوم نقول : «أشهَدُ أن لا إِلَه إلا اللَّه وأن محمدًا عَبْدُه وَرَسُوله » ؛ فهو عبد كغيره من العباد مَرْبُوب والله هو المَعْبُود وهو الرب .

إذًا نقول لهؤلاء الذين نجدهم يغلون برسول اللَّه ﷺ وينزلونه فوق منزلته التي أنزله اللَّه ، نقول لهم : إنكم لم تحققوا ، لا شهادة أن لا إله إلّا اللَّه ، ولا شهادة أنَّ محمدا رسول اللَّه ، فالمهم أن هاتين الشهادتين عليهما كل الإسلام ؛ لذلك لو أراد الإنسان أن يتكلَّم على ما يتعلَّق بهما مَنْطوقًا ومفهومًا ومضمونًا وإشارة لاستغرق أيامًا ! ، ولكن نحن أشرنا إشارة إلى ما يتعلَق بهما ، ونسأل اللَّه أن يجعلنا

---

(١) أخرجه البخاري في الاستسقاء (١٠١٠) .

(٢) أخرجه الترمذي في السنن (١٣٧٦) بلفظه ، ومسلم في الوصية (١٤) بلفظ : إذا مات الإنسان .

وإيَّاكُم مِمَّن يحققهما عقيدة وقَولًا وفعلًا !

الركن الثاني : إقام الصلاة :

الصلاة سميت صلاة لأنها صِلَةٌ بين العَبْد وبين اللَّه ؛ فإنَّ الإنسان إذا قام يصلي فإنه يناجي ربه ويحاوره يأخذ معه ويرد كما ثبت ذلك في الحديث الصحيح عن أبي هريرة ﷺ عن النبي ﷺ أن اللَّه سبحانه قال : « قَسمْتُ الصلاة بَيْني وبَيْنَ عَبْدِي نِصْفَين ، فإذا قال : ﴿ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴾ قال : حَمِدَني عَبْدِي ، فإذا قال : ﴿ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ ﴾ قال : أثنى عليَّ عبدي ، فإذا قال : ﴿ مَٰلِكِ يَوْمِ ٱلدِّينِ ﴾ قال : مجَّدَني عَبْدي ، فإذَا قال : ﴿ إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ ﴾ قال : هذا بيني وبَيْنَ عَبْدي نصفين . فإذا قال : ﴿ ٱهْدِنَا ٱلصِّرَٰطَ ٱلْمُسْتَقِيمَ ﴾ (الآية) [الفاتحة ١- ٧] قال اللَّه : هذا لِعَبْدي ولِعَبْدِي مَا سَأَل » [(١)] .

فتأمل : أخْذٌ وإعطاء ، ومُحَاوَرَة ، ومنَاجاة بين الإنسان وبين ربه ، ومع ذلك فالكثير منا في هذه المُنَاجاة معرض بقلبه تجده يتجول يمينًا وشمالًا مع أنه يُنَاجِي من يعلم ما في الصُدور ﷻ . وهذا من جهلنا وغفلتنا .

فالواجب علينا – ونسأل اللَّه أن يُعِينَنَا عليه – أن تكون قُلُوبُنا حاضرة في حال الصَّلاة حتى تبرأ ذمَّتنا وحتى ننتفع بها ؛ لأنَّ الفوائد المترتبة على الصَّلاة إنما تكون على صلاة كاملة . ولهذا كلنا يقرأ قول اللَّه ﷻ : ﴿ وَأَقِمِ ٱلصَّلَوٰةَ إِنَّ ٱلصَّلَوٰةَ تَنْهَىٰ عَنِ ٱلْفَحْشَآءِ وَٱلْمُنكَرِ ﴾ [العنكبوت : ٤٥] ، ومع ذلك يأتي الإنسان وُيصلي فلا يجد في قلبه إنكارًا لمنكر ، أو عرفًا لمعروف زائدًا عما دخل في الصلاة . يعني : لا يتحرك القلب ولا يَسْتَفيدُ ؛ لأن الصَّلاة نَاقِصة ، هذه الصلاة أعظم أركان الإسلام بعد الشهادتين . وقد فرضها اللَّه ﷻ على نبيه محمد ﷺ بدون واسطة من اللَّه إلى رسول اللَّه ، وفرضها عليه في أعلى مكان وَصله بَشر وفَرَضَها عليه في أشرف ليلة كانت لرسول اللَّه ﷺ وهي ليلة المعراج وفَرَضَها عليه خمسين صلاة في اليوم والليلة .

وهذه أربعة أمور :

أولًا : لم يكن فَرْضها كَفَرْض الصِّيام والحج ، بل هو من اللَّه مُبَاشرة إلى الرَّسول – عليه الصلاة والسلام – .

ثانيًا : من ناحية المكان : فهو في أفضل مكان وَصَلَ إليه البَشر ، فلم تُفْرض على النَّبي وهو في الأرض .

ثالثًا : من ناحية الزَّمان : في أشرف ليلة كانت لرسول اللَّه ﷺ وهي ليلة المعراج .

رابعًا : في الكمية : لم تُفْرَض صلاة واحدة ، بل خمسين صلاة مما يَدُلُّ على محبة اللَّه لها ، وأنه يحب من عبده أن يكون دائمًا مشغولًا بها .

ولكن اللَّه جعل لكل شيء سببًا لما نزل الرسول – عليه الصلاة والسَّلام – مُسَلِّمًا لأمر اللَّه قانعًا بفريضة اللَّه ، ومر بموسى ، وسأله موسى ماذا فرض اللَّه على أمتك ؟ قال : « خمسين صلاة في اليوم والليلة » .

---

(١) أخرجه مسلم في الصلاة (٣٩٥) ، والترمذي في السنن (٢٩٥٣) ، والبيهقي في السنن (٢/٣٧) ، جميعهم باختلاف يسير في اللفظ .

قال : إن أمَّتك لا تطيق ذلك ، إنَّني جربت الناس قبلك ، وعالجت بني إسرائيل أشَد المعالجة ، اذهب إلى ربك واسأله أن يخفف عن أمتك ! . فذهب إلى اللَّه وجعل يتردد بين موسى وبين اللَّه حتى جعلها اللَّه خمسًا [1] لكن اللَّه بمنِّه وكرمه - وله الحمد والفضل - قال : هي خمس بالفعل وخمسون في الميزان . وليس هذا من قبيل الحَسَنة بعشر أمْثالها ، بل من قبيل الفِعل الواحد يجزئ عن خمسين فعلًا ؛ فالخمس صَلوات هذه عن خَمْسين صلاة . فكأنما صلينا خمسين صلاة كل صلاة الحَسَنة بعشر أمثالها ، لأنَّه لو كان هذا من باب مُضَاعفة الحَسَنات لم يكن هناك فَرْقٌ بين الصَّلوات وغيرها ، لكن هذه خاصة ، وهذا يدل على عظم هذه الصلوات ، ولهذا فرضها اللَّه على عباده في اليوم والليلة خمس مرات لابد منها . لا بد أن تكون مع اللَّه خَمْس مَرَّات في اليوم تُنَاجِيه .

لو أن أحدًا من الناس حَصَلَ لَهُ مُقَابلة بينه وبين الملك خمس مرَّات باليوم لعُد ذلك من مناقبه ولفرح بذلك .

أنت تناجي ملك الملوك في اليوم خمس مرات على الأقل ، فلماذا لا تفرح بهذا ؟ احْمد اللَّه على هذه النِّعمة ، وأقم الصلاة .

وقول النبي ﷺ : « وَتقِيمَ الصَّلاة » يعني تأتِي بها قويمة سَالمَة بِشُرُوطها وأرْكَانِها وواجباتها .

فمن أهم شروطها : الوقت : لقول اللَّه سبحانه : ﴿ إِنَّ ٱلصَّلَوٰةَ كَانَتْ عَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ كِتَـٰبًا مَّوْقُوتًا ﴾ [النساء : ١٠٣] .

وإذا كانت الصَّلوات خَمْسًا فأوقاتها خمسة أو ثلاثة! خمسة لغير أهل الأعذار ، وثلاثة لأهل الأعذار الذين يجوز لهم الجمع ، فالظُّهر والعصر يكون وَقْتاهُمَا وَقْتًا واحدًا إذا جاز الجمع ، والمغرب والعشاء يكون وَقْتاهُمَا وقتًا واحدًا إذا جاز الجمع . والفجر وقت واحد ، ولهذا فَصلها اللَّه ﷻ : ﴿ أَقِمِ ٱلصَّلَوٰةَ لِدُلُوكِ ٱلشَّمْسِ إِلَىٰ غَسَقِ ٱلَّيْلِ وَقُرْءَانَ ٱلْفَجْرِ ﴾ [الإسراء : ٧٨] ، ولم يقلَ لدلوك الشمس [2] إلى طلوع الشمس بل قال : ﴿ إِلَىٰ غَسَقِ ٱلَّيْلِ ﴾ وغَسَق الليل يكون عند مُنْتَصَفه ؛ لأن أشد ما يكون ظلمة في الليل منتصف الليل ؛ لأنَّ منتصف الليل هو أبعد ما تكون الشمس عن النقطة التي فيها هذا المنتصف ، ولهذا كان القول الرَّاجح أن الأوقات خمسة كما يلي :

١ - الفجر : من طلوع الفجر الثاني - وهو البياض المعترض في الأفق - إلى أن تطلع الشمس .

وهنا أُنَبِّهُ فأقول : إن التَقْوِيم تقويم أم القُرى فيه تقديم خَمس دقائق في أذان الفجر على مدار السَّنة ، فالذي يُصَلي أول ما يؤذن يعتبر أنه صلى قبل الوقت ، وهذا شيء اختبرناه في الحساب الفلكي واختبرناه أيضًا في الرؤية ؛ فلذلك لا يعتمد هذا بالنِّسبة لأذان الفجر ؛ لأنه مُقَدم وهذه مسألة خطرة جدًّا .

---

(١) انظر حديث فرض الصلاة في : البخاري في مناقب الأخيار (٣٨٨٧) بلفظه ، ومسلم في الإيمان (١٦٣) . وقوله : « جَرَّبْتُ الناس » أي : تعرفت عليهم ، وقوله : « عالجت بني إسرائيل » أي داويتهم وحاولت هدايتهم .

(٢) دلوك الشمس : أي بعد زوالها وهو ميلها عن وسط السماء لجهة الغرب .

لو تكبر للإحرام فقط قبل أن يدخل الوقت ما صحَّت صلاتك فريضة . وقد حدثني أناس كثيرون ممن يعيشون في البر وليس حَولهم أنوار أنهم لا يشاهدون الفجر إلا بعد هذا التقويم بثلث ساعة ، أي : عشرون دقيقة أو ربع ساعة أحيانًا ، لكن التقاويم الأخرى الفلكية التي بالحساب بَينَها وبين هذا التَّقويم خمْسُ دقائق . على كل حال : وقت صلاة الفجر من طلوع الفجر الثَّاني إلى طلوع الشَّمس .

٢ - والظهر : من زَوَال الشمس إلى أن يصير ظل كلِّ شيء مثله ، لكن بعد أن تخصم ظل الزوال ، لأن الشمس خصوصًا في أيام الشتاء يكون لها ظل نحو الشِّمال ، هذا ليس بعبرة ، بل العبرة أنك تنظر إلى الظل ما دام ينقص فالشمس لم تزُل ، فإذا بدأ يزيد أدْنى زيادة ، فإن الشمس قد زالت .

اجعل علامة على ابتداء زيادة الظل فإذا صار ظل الشيء كطوله ؛ خرج وقت الظهر ودخل وقت العصر .

٣ - ووقت العصر : إلى أن تَصْفر الشمس والضرورة إلى غُروبها .

٤ - ووقت المغرب : من غروب الشمس إلى مغيب الشفق الأحمر ، وهو يختلف ، أحيانًا يكون بين الغروب وبين مغيب الشفق ساعة وربع ، وأحيانًا يكون ساعة واثنان وثلاثون دقيقة ، ولذلك وقت العشاء عند الناس الآن لا بأس به ، واحدة ونصف لا يضر (١,٣٠) غروبي ، لو تأخر عن دخول الوقت ما يهم .

٥ - ووقت العشاء : من خروج وقت المغرب إلى منتصف الليل . المعنى : أنك تقدر ما بين غروب الشمس وطلوع الفجر ثم تنصفه . فالنصف هو منتهى صَلاة العشاء . ويترتب على هذا فائدة عظيمة :

لو طهرت المرأة في الثلث الأخير من الليل فليس عليها صلاة عشاء ولا المغرب ؛ لأنها طهرت بعد الوقت .

وقد ثبت في صحيح مسلم من حديث عبد اللَّه بن عمرو بن العاص أن النبي - عليه الصلاة والسلام - قال : « وَقْتُ العِشَاء إلى نِصْف الليل »[1] . وليس عن رسول اللَّه ﷺ حَدِيث يدُلُّ على أن وقت العشاء يمتد إلى طلوع الفجر أبدًا . ولهذا القول الراجح إلى نصف الليل والآية الكريمة تدل على هذا ؛ لأنه فصل الفجر عن الأوقات الأربعة ﴿ أَقِمِ ٱلصَّلَوٰةَ لِدُلُوكِ ٱلشَّمۡسِ ﴾ أي : زوالها : ﴿ إِلَىٰ غَسَقِ ٱلَّيۡلِ ﴾ - جمع اللَّه بينها لأنها ليس بينها فاصل ، أما الفجر فقال : ﴿ وَقُرۡءَانَ ٱلۡفَجۡرِۖ إِنَّ قُرۡءَانَ ٱلۡفَجۡرِ كَانَ مَشۡهُودٗا ﴾ [الإسراء : ٧٨] فالفجر لا تتصل بصلاة لا قبلها ولا بعدها ؛ لأن بينها وبين الظهر نصف النهار الأول وبَينها وبين صلاة العشاء نصف الليل الآخر ، والله الموفق .

اعلم أن الصلاة قبل دخول الوقت لا تُقْبل حتى لو كبَّر تكبيرة الإحرام ، ثم دخل الوقت بعد التكبيرة مباشرة ؛ فإنها لا تقبل على أنها فريضة ؛ لأن الشيء الموقت بوقت لا يصح قبل وقته ، كما لو أراد الإنسان أن يَصُوم قبل رمضان ولو بيوم واحد ؛ فإنه لا يجزئه عن رمضان . كذلك الصلاة ، لكن إن كان جاهلًا لا يَدْري ؛ صارت نافلة ، ووجب عليه إعادتها فريضة . أما إذا صلاها بعد الوقت فلا يَخْلو مِنْ حالين :

---

(١) أخرجه مسلم في المساجد ومواضع الصلاة فيها (١٧٢) ، والبيهقي في السنن (١/١٦٧) ، وأبو عوانة في مسنده (١/٣٥٠) .

أ - إمَّا أن يكون مَعْذُورًا بجهلٍ ، أو نِسيانٍ ، أو نَوم ، فهذا تقْبل منه .

- الجهل : مثل أن لا يَعْرف أن الوقت قد دخل وقد خرج ، فهذا لا شيء عليه متى عَلِمَ فإنه يُصَلِّي الصَّلاة وتُقْبل منه ؛ لأنَّه معذور .

- والنسيَان : مثل أن يكون الإنسان اشتغل بشغل عظيم شغله وألهاه حتى خرج الوقت ؛ فإن هذا يُصَليها ولو بعد خروج الوقت ، والنوم كذلك ، فلو أن شخصًا نام على أنَّه سيقوم عند الأذان ، ولكن صار نومه ثقيلًا فلم يَسمَع الأذان ولا المنبه الذي وَضَعهُ عند رأسه حتى خرج الوقت ؛ فإنه يصلي إذا استيقظ لقول الرسول عليه الصلاة والسلام : « مَنْ نَامَ عَن صَلاةٍ ، أو نَسِيَهَا ، فَليُصلها إذَا ذَكَرهَا ، لَا كَفارَةَ لَهَا إلا ذَلك » [(١)] .

ب - فأمَّا الحالة الثانية : فأن يُؤخر الصَّلاة عن وقتها عمدًا من غير عذر ، فاتفق العلماء على أنَّه آثم وعَاص لله ورسوله . وقال بعض العلماء : إنَه يكفر بذلك كُفرًا مخرجًا عن المِلَّة - نسأل اللَّه العافية ! ولكن الصحيح : أنه لا يَكْفُر وهذا قول الجمهور ، ولكن اختلفوا فيما لو صلاها في هذه الحال ، أي بعد أن أخْرجَها عن وقتها عمدًا بلا عذر ثم صلى ، فمنهم من قال إنها تُقبل - أي صلاته - لأنَّه عاد إلى رشده وصوابه ، ولأنه إذا كان الناسي تقبل مِنه الصلاة بعد الوقت فالمتعمد كذلك .

لكن القول الصَحيح الذي تُؤيده الأدِلة : أنَّها لا تُقْبل منه إذا أخرها عن وقتها ، ولو صلى ألف مرة وذلك لقول النبي - عليه الصَلاة والسلام - : « مَنْ عَمِلَ عَمَلًا لَيسَ عَلَيه أمْرُنَا فَهُو رَد » [(٢)] ، يعني مردود غير مقبول عند اللَّه . وإذا كان مردودًا فلن يُقْبل ، وهذا الذي أخْرج الصلاة عمدًا عن وقتها إذا صلاها فقد صلاها على غير أمر اللَّه ورسوله .

وأما المعذور : فهو معذور ، ولهذا أمره الشارع أن يُصَليها إذا زال عُذْره ، أما من ليس بمعذور فإنَّه لو بقي يصلي كل دهره فإنها لا تقبل منه هذه الصلاة التي أخرجها عن وقتها بلا عذر ، فعليه أن يتوب إلى اللَّه ويستقيم ويكثر من العمل الصَالح والاستغفار « وَمَنْ تَابَ تَابَ اللَّه عَلَيهِ » .

الشَّرط الثاني : الطهارة :

وَمِنْ إقَام الصلاة : الطهارة ؛ فإنَّه لا تُقْبل صَلاةٌ بغَير طهور . قال النبي - عليه الصلاةَ والسلام - : « لا يَقْبَلُ اللَّه صَلَاةَ أحَدِكم إذَا أحْدَثَ حَتى يتوضأ » [(٣)] . فلا بد أن يقوم الإنسان بالطهارة عَلى الوَجْه الذي أمر به ؛ فإن أحدث حَدَثًا أصغر مثل : البول والغائط والريح والنوم وأكل لحم الإبل ؛ فإنَّه يتوضأ .

وفروض الوضوء كما يلي :

---

(١) أخرجه البخاري في مواقيت الصلاة (٥٩٧) ، ومسلم في المساجد (٣١٤) كلاهما بلفظ : « من نسي صلاة فليصلها إذا ذكرها » ، والألباني في إرواء الغليل (١/٢٩١ ، ٢٩٤) بألفاظ قريبة منه .

(٢) أخرجه مسلم في الأقضية (١٨) ، والبخاري في الاعتصام باب (٢٠) ، وأحمد في مسنده (٦/١٨٠) . ومعنى « ليس عليه أمرنا » أي ليس عليه إجماع الأمة .

(٣) أخرجه البخاري في الحيل (٦٥٤) ، وأبو داود في السنن (٦٠) ، وأحمد في مسنده (٢/٣١٨) ومعنى « أحدث » أي : أخرج شيئًا من السبيلين .

غسل الوجه ، واليدين إلى المرفقين ، ومَسْح الرأس ، وغسل الرجلين إلى الكعبين . كما أمر اللَّه بذلك في قوله : ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِذَا قُمْتُمْ إِلَى ٱلصَّلَوٰةِ فَٱغْسِلُواْ وُجُوهَكُمْ وَأَيْدِيَكُمْ إِلَى ٱلْمَرَافِقِ وَٱمْسَحُواْ بِرُءُوسِكُمْ وَأَرْجُلَكُمْ إِلَى ٱلْكَعْبَيْنِ ﴾ [المائدة : ٦] .

ومن الرأس : الأذُنان ، ومن الوجه : المَضْمَضة والاسْتِنْشَاق في الفم والأنف ، فلابد في الوضوء من غَسل هذه الأعضاء الأربعة ، غسل في ثلاثة ، وَمسح في واحد .

وأما الاستنجاء : أو الاستجمار : فهو إزالة نجاسة لا علاقة له بالوضوء ، فلو أن الإنسان بال أو تَغَوط واسْتَنْجَى ثم ذهب لشغله ، ثم دخل الوقت ؛ فإنه يتوضأ بتطهيره الأعضاء الأربعة ، ولا حاجة إلى أن يستنجي ، لأن الاستنجاء إزالة نجاسة متى أزِيلت فإنه لا يُعَاد الغسل مَرة ثانية إلا إذا رجعت مرة ثانية .

والصَّحيح : أنَه لو نسي أن يستجمر استجمارًا شرعيًا ثم توضأ ، فإن وضوءه صحيح ؛ لأنه كما قلت : ليس هُناك عِلاقة بين الاستنجاء وبين الوضوء .

أما إذا كان مُحْدِثًا حَدَثًا أكبر مثل الجَنَابة ؛ فعليه أن يَغْتَسل ، فيعمِّم جميع بدنه بالماء لقوله تعالى : ﴿ وَإِن كُنتُمْ جُنُبًا فَٱطَّهَّرُواْ ﴾ [المائدة : ٦] ، ومن ذلك : المضمضة والاستنشاق ؛ لأنَّهما دَاخِلان في الوجه ، فيجب تطهيرهما كما يجب تَطْهير الجبهة والخد واللِّحية .

والغسل الواجب الذي يكفي : أن تعم جميع بدنك بالماء سواء بدأت بالرَّأس ، أو بالصَّدر ، أو بالظَّهر ، أو بأسفل البَدَن ، أو انغمست في بركة وخَرَجت منها بنيَّة الغسل .

والوضوء في الغسل سُنَّة وليس بواجب ، ويُسَنُّ قبل أن يغتسل . وإذا اغتسل فلا حاجة إليه مَرَّة ثانية ؛ لأنه لم يثبت عن النبي عليه الصلاة والسلام أنه توضأ بعد اغتساله .

فإذا لم يجد الماء ، أو كان مريضًا يَخْشَي من استخدام الماء ، أو كان برد شديد وليس عنده ما يُسَخن به الماء فإنه يتيمم لقوله تعالى : ﴿ وَإِن كُنتُم مَّرْضَىٰٓ أَوْ عَلَىٰ سَفَرٍ أَوْ جَآءَ أَحَدٌ مِّنكُم مِّنَ ٱلْغَآئِطِ أَوْ لَٰمَسْتُمُ ٱلنِّسَآءَ فَلَمْ تَجِدُواْ مَآءً فَتَيَمَّمُواْ صَعِيدًا طَيِّبًا فَٱمْسَحُواْ بِوُجُوهِكُمْ وَأَيْدِيكُم مِّنْهُ ﴾ [المائدة : ٦] .

فبين اللَّه حَال السَّفر والمرض أنه يَتَيمم فيهما إذا لم يَجد الماء في السفر .

أما خوف البرد : فَدَلِيلُه قصة عمرو بن العاص ﷺ : أن النبي ﷺ بعثه في سرية فأجنب فتيمم وصلَى بأصحابه إمامًا . فلما رجعوا إلى النبي ﷺ قال له : « أَصَلَّيتَ بأصْحَابكَ وأَنْتَ جُنُب ؟ » قال نعم ! يا رسول اللَّه : ذكرت قول اللَّه تعالى : ﴿ وَلَا تَقْتُلُوٓاْ أَنفُسَكُمْ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ بِكُمْ رَحِيمًا ﴾ [النساء : ٢٩] وخفت البَرد فَتَيَمَمت صعيدًا طَيبًا فَصَليت . فأقَرّه النبي ﷺ على ذلك ولم يأمُره بالإعادة (١) . لأنَّ من خاف الضرر كمن فيه الضرر ، لكن بشرط أن يكون الخوف غَالبًا أو قَاطِعًا ، أمّا مُجَرد الوهم فهذا ليس بشيء .

واعلم أن طهارة التيمم تقوم مقام طهارة الماء ولا تنتقض إلا بما تنتقض به طهارة الماء أو بزوَال العُذر المبيح للتيمم .

---

(١) أخرجه أبو داود في السنن (٣٣٤) وأحمد في مسنده (٢٠٣/٤) ، والبيهقي في السنن (٢٢٥/١) .

فمن تيمم لعدم وجود الماء ثم وجده فإنه لا بد أن يتطهر بالماء ، لأن اللَّه تعالى إنما جعل التّراب طهارة إِذَا عُدِمَ الماء . وفي الحديث الذي أخرجه أهل السنن عن أبي هريرة عن النبي ﷺ أنه قال : « الصعِيدُ الطَّيب وضُوءُ المُسْلم » - أو قال : « طهُور المُسْلم » - « وإن لَم يَجِد الماءَ عَشْر سِنِين ، فإن وَجَدَهُ ، فليتق اللَّه وَليمسه بشَرَتَه » [١] .

وفي صحيح البخاري في حديث عمران بن حصين الطَّويل في قصة الرجل الذي اعتزل فلم يصلِّ مع النبي ﷺ فسأله فقال : « مَا مَنَعَكَ أنْ تُصَلِّي مَعَنَا ؟ » ، قال : أَصَابَتْني جَنَابَة وَلاَ مَاء ، فقَال : « عَلَيْكَ بالصَّعيد ؛ فإنه يَكْفيك » : ثم حَضَر الماء فأعطى النبي ﷺ هذا الرجل مَاءً ، وَقال : « أفْرِغْه عَلى نَفْسكَ [٢] » أي : اغتسل به فدل هذا على أنه إذا وُجدَ المَاءُ بَطُل التيمم ، وهذه ولله الحمد قاعدة حتى عند العامَّة يقولون : « إذاَ حَضَر المَاءُ بَطُل التيمم » [٣] .

أما إذا لم يحضر الماء ولم يَزُل العُذْر : فإنَه يقوم مقام طهارة الماء ولا يبطل بخروج الوقت ، فلو تيمم الإنسان وهو مُسَافر ولا ماء عنده لصلاة الظهر مثلًا ، وبَقي لم يُحْدِث إلى العشاء ؛ فإنه لا يَلْزمَه إعادة التيمم ؛ لأن التيمم لا يبطل بخروج الوقت ؛ لأنه طهارة شرعية كما قال اللَّه في القرآن الكريم : ﴿ فَٱمْسَحُواْ بِوُجُوهِكُمْ وَأَيْدِيكُم مِّنْهُۚ مَا يُرِيدُ ٱللَّهُ لِيَجْعَلَ عَلَيْكُم مِّنْ حَرَجٍ وَلَٰكِن يُرِيدُ لِيُطَهِّرَكُمْ ﴾ [المائدة: ٦] ، فبين اللَّه أن طهارة التيمم طهارة ، وقال الرسول ﷺ : « جُعلَتْ لي الأَرْضُ مَسْجدًا وطَهُورًا » بفتح الطاء أي : أنها تطَهر : « فأيما رَجُل مِن أمتي أدْرَكَتْهُ الصلاة فليصل » [٤] . وفي حديث آخر « فَعِنْدَهُ مَسْجدهُ وَطَهُوره » [٥] . يعني : فليتطهر وليصل .

هذا من الأشياء المهمة في إقامة الصلاة : المحافظة على الطهارة .

واعلم أن من المحافظة على الطهارة : إزالة النجاسة من ثوبك وبدنك ومُصَلاك الذي تصلي عليه . فلا بد من الطهارة في هذه المواضع الثلاث : البدن ، والثوب ، والمصَلى .

١ - ودليل هذا : أن النبي ﷺ أمر النساء اللاتي يُصَلِّين في ثِيابهن وهن يَحضن بهذه الثِّياب أن تُزيل المرأة الدم الذي أصابها من ثوبها ، تحكه بظفرها ثم تقرصه بأصبعيها الإبهام والسَّبابة ثم تغسله [٦] . ولما صلى ذات يوم بأصحابه وعليه نعاله خَلَع نعليه فخلع الناس نعالهم ، فلما سلم سألهم لماذا خلعوا نعالهم ! ؟ قالوا : رَأيناك خلعت نعليك فخلعنا نعالنا ، قال : « إن جِبْريل أتاني فأَخْبَرَني أن

---

(١) أخرجه أبو داود في السنن (٣٣٢) والبيهقي في السنن (١/٧ ، ٨) والدار قطني في السنن (١/١٨٦) .

(٢) أخرجه البخاري في التيمم (٣٣٤) أحمد في مسنده (٤/٤٣٤) ، والبيهقي في السنن (١/٢١٨) .

(٣) ذكره العجلوني في كشف الخفاء (١/٩٠) ، وقال : لا أعلمه حديثًا ، وإن كان معناه صحيحًا في الجملة .

(٤) أخرجه البخاري في التيمم (٣٣٥) ومسلم في المساجد (٣) وأحمد في مسنده (٥/١٤٨) ، والدارمي في السنن (٢/٢٢٤) .

(٥) أخرجه أحمد في مسنده (٥/٢٤٨) .

(٦) ذكر ذلك البخاري في الحيض (٣٠٧) ومسلم في الطهارة (١١٠) وأحمد في مسنده (٦/٣٤٦) ، والبيهقي في السنن (٢/٤٠٢) .

فيهما قَذرا » [(١)] . فدل هذا على أنه لابد من اجتناب النجاسة في الملبوس .

٢ - أما المكان : فإن دليله ؛ أنَّ أعرابيًا جاء فَبال في طائفة من المسجد - أي : في طرف منه ! لكنه أعرابي - والأعراب الغالب عليهم الجهل - فصاح به الناس وزجروه ، ولكن الرسول ﷺ بحكمته نهاهم وقال : « اتركوه » فلما قَضى بَولَه دعاه النبي ﷺ وقال له : « إنْ هَذِه المَسَاجد لا يَصْلُح فيها شيء من الأذى أو القَذر ؛ إنما هي للصلاة ، والتَّسبيح ، وقراءة القرآن » [(٢)] أو كما قال ﷺ ، فقال الأعرابي : اللهُم ارْحَمْني ومُحَمدًا وَلا تَرحَمْ مَعَنَا أحدًا . لأن الصحابة زجروه ، وأما النبي ﷺ فكلمه بلطف فظن أن الرحمة ضيقة لا تتسع للجميع . ويُذكر أن الرسول قال له : « لَقَد تحَجرت وَاسعًا » ، وأمر الرسول عليه الصلاة والسلام أن يُصَبّ على البول ذَنُوب من ماء مثل الدلو لِتَطْهُر الأرض [(٣)] .

٣ - وأما طهارة البدن : فقد ثبت في الصَّحيحين من حديث عبدالله بن عباس : أن الرسول ﷺ مَرَّ بِقَبْرَينِ فقال : إنهما لَيُعَذَّبَانِ وَمَا يُعَذبَانِ في كَبير : أما أحَدُهما : فكان لا يَسْتَبرئ من البَول ، وأما الآخَرُ : فكان يَمْشي بالنميمة بين الناس » [(٤)] والعياذ بالله .

فدل هذا : على أنه لابد من التَّنَزُّه من البول ، وهكذا بقية النجاسات ، ولكن لو فرض أن الإنسان في البر وتنجَّس ثوبه وليس معه مَا يَغْسله به فهل يتيمم من أجل صلاته في هذا الثوب ؟

جـ - لا يتيمم وكذلك لو أصاب بدنه نجاسة ، رجله أو يده أو سَاقه أو ذراعه نجاسة وليس عنده ما يغسله ؛ فإنه لا يتيمم ، لأن التيمم إنما هو بطهارة الحدث فقط . أما النجاسة فلا يتيمم لها ، لأن النجاسة عين قَذِرة تطهيرها بإزالتها إن أمكن فذاك ، وإن لم يمكن تبقى حتى يمكن إزالتها ، والله أعلم .

أحكام المسح على الخفين والجبيرة :

سبق أن للوضوء أربعة أركان : اثنان يغسلان وواحد يُمْسح وواحد يغسل ويمسح !.

- أما الوجه : فلا يمكن أن يمسح إلا إذا كان هناك جبيرة ، أي : لزقة على جرح وَمَا أشبهه .

فلو أنَ إنسانًا غطى وجهه بشيء من سموم شَمس أو غيره ، فإنه لا يمسح عليه ، بل يُزيل الغطاء ويغسل الوجه . إلَا إذا كان هناك ضرورة ؛ فإنه يَمْسح ما غطى به وجهه على سبيل البدل من الغَسل .

- وأما اليدان : فكذلك لا تمسحان ، بل لابد من غسلها إلا إذا كان هناك ضرورة ؛ مثل أن يكون فيهما حساسية يضرها الماء وجعل عليهما لفافة ، أو لبس قفازين من أجل أن لا يأتيهما الماء ، فلا بأس أن يمسح مسح جبيرة للضرورة .

---

(١) أخرجه أبو داود في السنن (٦٥٠) وأحمد في المسند (٩٢/٣) ، والبيهقي في السنن (٤٠٣/٢) .

(٢) أخرجه مسلم في الطهارة (١٠٠) .

(٣) هذه الرواية ذكرها البخاري في الأدب (٦٠١٠) وأحمد في مسنده (٢٨٣/٢) .

(٤) أخرجه البخاري في الوضوء (٢١٦) ومسلم في الطهارة (٢٩٢) والترمذي في السنن (٧٠) وابن ماجه في السنن (٣٤٧) .

– وأما الرأس : فيمسح وطهارته أخفُّ من غيره ، ولهذا لو كانت المرأة على رأسها حِنَّاء مُلَبَّد عِليه أو لبد المحرم رأسه في حال إحرامه كما فعل النبي عليه الصلاة والسلام ؛ فإنَّه يمسح هذا الملبد ولا حاجة إلى أن يزيله .

– أمَّا الرجلان : فتغسلان وتمسحان ولهذا جاء القرآن الكريم على وجهين في قراءة قوله تعالى : ﴿ وَأَرْجُلَكُمْ ﴾ بالفتح والكسر . أمّا قراءة الكسر ﴿ أَرْجُلِكُمْ ﴾ فهي عطفًا على قوله : ﴿ وَامْسَحُوا بِرُءُوسِكُمْ ﴾ [المائدة : ٦] ، أي : وامسحوا بأرجلكم . وأما النصب ﴿ وَأَرْجُلَكُمْ ﴾ فهي عطفًا على قوله تعالى : ﴿ فَاغْسِلُوا وُجُوهَكُمْ ﴾ [المائدة : ٦] أي : واغسلوا أرجلكم .

ولكن متى تُمْسَح الرِّجْل ؟

جـ – تمسح الرجل إذا لبس عَلَيها الإنسان جَوَارب أو خفين .

الجوارب : ما كان من القطن أو الصوف أو نحوه .

والخفَّان : ما كان من الجلد أو شبهه ؛ فإنه يمسح عليهما لكن بشروط أربعة :

الأول : الطهارة : أي طهارة الخفين أو الجوربين ، فلو كانا من جلد نجس فإنه لا يصح المسح عليهما ؛ لأن النجس خبيث لا يتطهر مهما مسحته وغسلته .

أما إذا كانتا متنجستين : فمن المعلوم أن الإنسان لا يصلي فيهما فلا يمسح عليهما .

الثَّاني : أن يَلبَسهما على طهارة بالماء ، فإن لبسهما على تيمم فإنَّه لا يمسح عليهما . فلو أن شخصًا مُسَافرًا لبس الجوارب على طهارة تيمم ثم قدم البلد ؛ فإنه لا يمسح عليهما ؛ لأنه لبسهما على طهارة تيمم ، وطهارة التيمم إنما تتعلق بالوجه والكفين لا علاقة لها بالرجلين .

وعلى هذا يكون الشرط مأخوذًا من قول النبي ﷺ للمغيرة بن شعبة : « إني أدخَلتهمَا طَاهِرَتَين » [(١)] .

الثالث : أن يكونا في الحدث الأصغر : أي : في الوضوء ، أما الغسل فلا تمسح فيه الخُفَّان ولا الجوارب ، بل لابد من خلعهما وغسل الرجلين . لو كان على الإنسان جَنَابة فإنه لا يمكن أن يمسح على خفيه .

الرابع : أن يكون في المدة المحددة شرعًا : وهي يوم وليلة للمقيم وثلاثة أيام للمسافر .

ولكن متى تَبْتَدِئ ؟

جـ : تبتدئ من أول مرة مَسْح بعد الحَدَث ، أما مَا قبل المَسْح الأول فلا يحسب من المدة . فلو فُرِض أنَ شخصًا لَبِسهما على طهارة في صباح اليوم الثلاثاء وبقي إلى أن صلَى العِشاء في طَهارته ثم نام في ليلة الأربعاء ولما قام لصلاة الفجر مسح ، فيوم الثلاثاء : لا يُحْسب عليه ؛ لأنه قبل المَسْح ، بل يحسب عليه من فجر يوم الأربعاء ؛ لأن علي بن أبي طالب ﷺ قال : « جعل رسول الله ﷺ ثلاثة أيام ولياليهن للمسافر ، ويومًا وليلة للمقيم » [(٢)] .

---

(١) أخرجه البخاري في الوضوء (٢٠٦) ومسلم في الطهارة (٧٩) وأحمد في مسنده (٢٥١/٤) .

(٢) أخرجه مسلم في الطهارة (٨٥) .

وقال صفوان بن عسال : « أَمَرَنَا رَسُول اللَّه ﷺ أن نَمسحَ خِفَافَنَا ثَلَاثَة أَيَّام بِلَيَالِيهن إِذَا كُنا سفرًا »[١] . فالعبرة بالمسح لا باللبس ، ولا بالحدث بعد اللبس . فيتم المقيم يومًا وليلة أي : (٢٤) ساعة ، ويتم المُسَافر ثلاثة أيام بِلَيَالِيهن أي : (٧٢) ساعة . فإن مسح الإنسان وهو مقيم وسافر قبل أن تتم المدة ؛ فإنَّه يتمِّم مَسْحَ مُسَافر ثَلاثة أيَّام ؛ مثلًا : لو لبس اليوم لصلاة الفجر ومَسَح لصلاة الظُّهر ، ثم سافر بعد الظهر ؛ فإنه يتمِّم ثلاثة أيام ، ولو كان بالعكس مَسَحَ وهو مُسَافر ثم أقام ، فإنه يتمم مَسْح مُقِيم ؛ لأن العبرة بالنِّهاية لا بالبداية .

وهذا الذي رجع إليه الإمام أحمد رَحِمَهُ اللَّهُ وكان بالأول يقول : إن الإنسان إذا مسح مقيمًا ثم سافر ؛ أتم مسح مقيم ، ولكنه رجع عن هذه الرِّواية وقال : إنه يتمم مَسْحَ مُسَافر[٢] . ولا تستغرب أن العَالِمَ يرجع عن قوله ؛ لأن الحق يجب أن يتبع فمتى تبين للإنسان الحق وجب عليه اتباعه .

فالإمام أحمد رَحِمَهُ اللَّهُ أحيانًا يُروى عنه في المسألة الواحدة أربعة أقوال أو خمسة إلى سبعة أقوال في مسألة واحدة . وهو رجل واحد ، أحيانًا يصرح بأنه رَجَع وأحيانًا لا يصرح .

إن صرح بأنه رجع عن قوله الأول ؛ فإنه لا يجوز أن ينسب إليه القول الأول الذي رجع عنه إلا مقيدًا فيقال : قال به أولًا ثم رجع ، أما إذا لم يصرح بالرُّجوع ؛ فإنه يجب أن يُحسب القولان له .

والإمام أحمد تكثر الرواية عنه ؛ لأنه أثري يأخذ بالآثار والذي يأخذ بالآثار ليس تأتيه الآثار دفْعَة واحدة حتى يُحيط بها مرة واحدة ويستَقِر على قول منها ، لكن الآثار تتجدد ، يُنقل له حديث اليوم وينقل له حديث في اليوم الثاني وهكذا .

واعلم أن الإنسان إذا تمت المدة وهو على طهارة ؛ فإنه لا تنتقض طهارته لكن لو انتقضت فلا بد من خلع الخفين وغسل القدمين ، لكن بمجرد تمام المدة لا ينقض الوضوء . كذلك إذا خلعهما بعد المسح وهو على طهارة ، فإنها لا تنتقض طهارته ، بل يبقى على طهارته ، فإذا أراد أن يتوضأ فلابد من أن يغسل قدميه بعد أن نزع .

والقاعدة في هذا أنه متى نزع الممسوح ؛ فإنه لا يعاد ليمسح ، بل لابد من غسل الرجل ثم إعادته إذا أراد الوضوء .

الشرط الثالث : استقبال القبلة :

فاستقبال القبلة شرط من شُرُوط الصلاة لا تصح الصَّلاة إلا به ؛ لأن اللَّه تعالى أمر وكرر الأمر به في أول الجزء الثاني من القرآن الكريم . قال تعالى : ﴿ وَمِنْ حَيْثُ خَرَجْتَ فَوَلِّ وَجْهَكَ شَطْرَ ٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِ وَحَيْثُ مَا كُنتُمْ فَوَلُّوا۟ وُجُوهَكُمْ شَطْرَهُۥ ﴾ [البقرة : ١٥٠] ، أي : جهته .

---

(١) أخرجه الترمذي في السنن (٩٦) والنسائي في السنن (١٢٧) وابن ماجه في السنن (٤٧٨) .

(٢) انظر المغني لابن قدامة مع الشرح الكبير (١/٣٢٧ - ٣٢٨) .

وكان النبي ﷺ أول مَا قَدِمَ المدينة كان يصلي إلى بيت المقدس فيجعل الكعبة خلف ظهره والشام قبل وجهه ، ولكنه بعد ذلك ترقب أن الله ﷻ يشرع له خلاف ذلك فجعل يقلب وجهه في السماء ينتظر متى ينزل عليه جبريل بالوحي في استقبال بيت الله الحرام (١) ، كما قال الله تعالى : ﴿ قَدْ نَرَىٰ تَقَلُّبَ وَجْهِكَ فِي ٱلسَّمَآءِ فَلَنُوَلِّيَنَّكَ قِبْلَةً تَرْضَىٰهَا فَوَلِّ وَجْهَكَ شَطْرَ ٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِ ﴾ [البقرة : ١٤٤] ، فأقره الله أن يستقبل المسجد الحَرام ، أي : جهته . إلا أنه يُستثنى من ذلك ثلاث مسائل :

المسألة الأولى : إذا كان عاجزًا كمريض وجهه إلى غير القِبْلة ولا يستطيع أن يَتوجه إلى القبلة فإن استقبال القبلة يسقط عنه في هذه الحال لقوله : ﴿ فَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ مَا ٱسْتَطَعْتُمْ ﴾ [التغابن : ١٦] . وقوله تعالى : ﴿ لَا يُكَلِّفُ ٱللَّهُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا ﴾ [البقرة : ٢٨٦] .

وقول النبي ﷺ : « إِذَا أَمَرْتُكُم بِأَمْرٍ فَأْتُوا مِنْه مَا اسْتَطَعْتُم » (٢) .

المسألة الثانية : إذا كان في شِدَّة الخوف كإنسان هَارب من عدو ، أو هارب من سبع ، أو هارب من نار ، أو هارب من وادٍ يغرقه ! المهم أنه في شدة خوف ؛ فهنا يُصَلِّي حيث كان وجهه ودَليله قوله تعالى : ﴿ فَإِنْ خِفْتُمْ فَرِجَالًا أَوْ رُكْبَانًا فَإِذَآ أَمِنتُمْ فَٱذْكُرُواْ ٱللَّهَ كَمَا عَلَّمَكُم مَّا لَمْ تَكُونُواْ تَعْلَمُونَ (٣) ﴾ [البقرة : ٢٣٩] ، فإنَ قوله : ﴿ فَإِنْ خِفْتُمْ ﴾ عام يشمل أيَّ خوف . وقوله : ﴿ فَإِذَآ أَمِنتُمْ فَٱذْكُرُواْ ٱللَّهَ كَمَا عَلَّمَكُم مَّا لَمْ تَكُونُواْ تَعْلَمُونَ ﴾ [البقرة : ٢٣٩] على أنَّ أي ذكر تركه الإنسان من أجل الخوف فلا حرج عليه فيه ، ومن ذلك استقبال القبلة .

ويدلُّ عليه : ما سبق من الآيتين الكريمتين والحديث النبوي في أن الوجوب معلق بالاستطاعة .

المسألة الثالثة : في النَّافلة في السَّفر سواء كان على طائرة ، أو على سيَّارة ، أو على بعير ؛ فإنَّه يصلي حيث كان وجهه في صلاة النفل مثل : الوتر ، وصلاة الليل ، والضُّحى ، وما أشبه ذلك .

والمسافر ينبغي له أن يتنفل بجميع النَّوافل كالمقيم سواءً إلا في الرواتب كراتبة الظهر والمغرب والعشاء ، فالسُّنة تركها .

فإذا أراد أن يتنفل وهو مُسَافر ؛ فليتنفل حيث كان وجهه ؛ لأن ذلك هو الثابت في الصحيحين عن رسول الله ﷺ (٤) . فهذه ثلاث مسائل لا يجب فيها استقبال القبلة ! .

أما الجاهل فيجب عليه أن يستقبل القبلة ، لكن إذا اجتهد وتحرى ثم تبين له الخطأ بعد الاجتهاد ؛ فإنه لا إعادة عليه ولا نقول إنه يسقط عنه الاستقبال ؛ بل يجب عليه الاستقبال ، ويتحرى بقدر استطاعته ، فإذا تحرى بقدر استطاعته ثم تبين له الخطأ ؛ فإنه لا يعيد صلاته ، ودليل ذلك : أن

---

(١) انظر البخاري في تفسير القرآن (٤٤٩٢) .

(٢) أخرجه البخاري في الاعتصام (٧٢٨٨) ومسلم في الحج (٤١٢) وأحمد في مسنده (٥٠٨/٢) ، والدار قطني في السنن (٢٨١/٢) .

(٣) قوله ﴿ فَرِجَالًا ﴾ أي سائرين على أرجلكم .

(٤) انظر البخاري في تقصير الصلاة (١٠٩٤) ومسلم في صلاة المسافرين (٣٢) .

الصحابة الذين لم يعلموا بتحويل القبلة إلى الكعبة ، كانوا يصَلون ذات يوم صلاة الفجر في مسجد قباء فجاءهم رجل فقال : إن النبي ﷺ أنزل عليه قرآن وأمِرَ أن يستقبل الكعبة فاستقبلوها فاستداروا ، بعد أن كانت الكعبة وراءهم جعلوها أمامهم ، فاستداروا واستمروا على صلاَتهم (١) . وهذا في عهد النبي ﷺ ولم يكن إنكارًا له فيكون ذلك مشروعًا ، يعني أن الإنسان إذا أخطأ في القبلة جَاهِلًا ؛ فإنه ليس عليه إعادة ، ولكن إذا تبين له ولو في أثناء الصلاة ؛ وجب عليه أن يستقيم إلى القبلة ، فهذا استقبال القبلة شرط من شروط الصلاة لا تصِح الصلاة إلا به إلا في المواضع الثلاثة ، وإلا إذا أخطأ الإنسان بعد الاجتهاد والتحَري .

وهنا مسألة : يجب على من نزل على شخص ضيفًا وأراد أن يَتَنَفل أن يسأل عن القبلة ، فإذا أخبره اتجه إليها ؛ لأن بعض الناس تأخذه العزة بالإثم ، ويمنعه الحياء وهو في غير محله عن السؤال عن القبلة . فبعض الناس يستحي من السؤال حتى لا يقول الناس لا يعرف ! لا يَضُرُّ ، فليقولوا ما يقولونه ، بل اسأل عن القبلة حتى يخبرك صاحب البيت .

أحيانًا بعض الناس تأخذه العِزة بالإثم ويتجه بناءً على ظنه إلى جهة ما ، ويتبين له أنها ليست القبلة ، وفي هذه الحال يجب عليه أن يعيد الصلاة ؛ لأنه استند إلى غير مستند شرعي . والمستند إلى غير مستند شَرْعي لا تقبل عبادته لقول النبي ﷺ : « مَنْ عَمِل عَمَلًا لَيسَ عَلَيهِ أمْرُنَا فَهُو رَد » (٢) .

الشرط الرابع : النيَّة :

فإن الصَّلاة لا تصِحُ إلَّا بنيّة لقول النبي ﷺ : « إنما الأعمال بالنيات ... » الحديث .

وقد دلت الآيات الكريمة على اعتبار النية في العبادات مثل قوله تعالى في وصف النبي ﷺ وأصحابه : ﴿ تَرَىٰهُمْ رُكَّعًا سُجَّدًا يَبْتَغُونَ فَضْلًا مِّنَ ٱللَّهِ وَرِضْوَٰنًا ﴾ [الفتح : ٢٩] . وقال تعالى : ﴿ وَمَا تُنفِقُونَ إِلَّا ٱبْتِغَآءَ وَجْهِ ٱللَّهِ ﴾ [البقرة : ٢٧٢] ، والآيات في هذا كثيرة وقال : ﴿ وَمَن يَخْرُجْ مِنۢ بَيْتِهِۦ مُهَاجِرًا إِلَى ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ ثُمَّ يُدْرِكْهُ ٱلْمَوْتُ فَقَدْ وَقَعَ أَجْرُهُۥ عَلَى ٱللَّهِ ﴾ (٣) [النساء : ١٠٠] ، فالنية شَرْط من شُروط صحة الصَّلاة لا تَصِح الصَّلاة إلا بها ، وهي في الحقيقة ليست بالأمر الصَّعب كل إنسان عاقل مختار يفعل فعلًا فإنه قد نواه . فلا تحتاج إلى تعب ولا إلى نطق محلها القلب : « إنما الأعمالُ بالنيات » ، ولأن النبي ﷺ لم ينطق بالنِّية وَلا أمَرَ أمته بالنُطق بها ، ولا فعلها أحد من أصحابه ، فأقره على ذلك ، فالنطق بالنية بدعة ، هذا هو القول الراجح ؛ لأنك كما تشاهد الرَّسول وأصحابه يصلون ليس فيهم أحد نطق قال : اللهم إني نويت أن أصلي .

وما أظرف قصة ذكرها لي بعض الناس عليه رحمة اللّه ، قال لي : إنَّ رجلًا في المسجد الحرام

---

(١) انظر البخاري في تفسير القرآن (٤٤٩٣) بلفظه والترمذي في تفسير القرآن (٢٩٦٢) .

(٢) سبق تخريجه .

(٣) قوله ﴿ مُهَاجِرًا إِلَى ٱللَّهِ ﴾ أي : مهاجرًا في سبيل اللّه .

قديمًا أراد أن يصلي فأقيمت الصلاة ، فقال : اللهم إني نويت أن أصلي الظهر أربع ركعات لله تعالى خلف إمام المسجد الحرام .

لما أراد أن يكبر قال له : اصبر بقي عليك ! قال : ما الباقي ؟ قال له : قل في اليوم الفُلاني وفي التاريخ الفلاني من الشهر والسَّنة حتى لا تضيع هذه الوثيقة . فتعجب الرجل ! والحقيقة أنها محل التعجب ، هل أنت تعلم اللَّه ﷻ بما تريد ؟ اللَّه يعلم ما توسوس به نفسك .

هل تُعْلِم اللَّه بعدد الركعات والأوقات ؟ لا داعي له هو يعلم هذا ؛ فالنية محلها القلب .

ولكن كما نعلم أن الصلوات تنقسم إلى أقسام : نفل مطلق ، ونفل معين ، وفريضة .

الفرائض خمس : الفجر ، والظهر ، والعصر ، والمغرب ، والعشاء . إذا جئت إلى المسجد في وقت الفجر ، فماذا تريد ؟ أتريد أن تصلي المغرب ! الفجر ؟ .

وهناك مسألة : إذا جئت وكَبرت وغاب عن ذهنك أي صلاة هي ، وهذا يقع كثيرًا إذا جاء بسرعة يخشى أن تفوته الركعة . فهنا لا حاجة ، ووقوع الصلاة في وقتها دليل على أنه إنما أردت هذه الصلاة . ولهذا لو سألك أي واحد هل أردت الظهر أو العصر أو المغرب أو العشاء ؟ لقلت : أبدًا ما أردت إلا الفجر .

إذًا لا حاجة إلى أن أنوي أنها الفجر ، صحيح أنني إن نويتها الفجر أكمل ، لكن أحيانًا يغيب عن الذهن التعيين ، فنقول يعينها الوقت .

إذًا الفرائض يكون تعيينها على وجهين :

الوجه الأول : أن يعينها بعينها فيقول بقلبه إنَّه نَوَى الظهر وهذا واضح .

الوجه الثاني : الوقت فما دمت تصلي الصَّلاة في هذا الوقت فهي هي الصلاة .

هذا الوجه الثاني إنما يكون في الصلاة المؤداة في وقتها ، أَمَّا لو فُرِضَ أن على إنسان صلوات مقضية كما لو نام يومًا كاملًا عن الظُّهر والعصر والمغرب ؛ فهنا إذا أراد أن يقضي لابد أن يعينها بعينها ؛ لأنه لا وقت لها .

النوافل المعينة مثل : الوتر ، وركعتي الضُّحى ، والرواتب ؛ فهذه لابد أن تعينها بالاسم .

لكن بالقلب لا باللِّسان !

فإذا أردت أن تصلي الوتر مثلًا وكبرت ولكن ، ما نويت الوتر وفي أثناء الصلاة نويتها الوتر هذا لا يصح ؛ لأن الوتر نفل معين والنَّوافل المعينة لابد أن تُعَيَّن بِعَينِها .

النَّوافل المطلقة مَا تحتاجُ إلى نية إلا نية الصَّلَاة .

نيَّة الصلاة لابد منها ، مثل إنسان في الضُّحى توضأ ، وأراد أن يصلي ما شاء اللَّه نقول : يكفي نية الصَّلاة ؛ وذلك لأنها صلاة غير معَيَّنة .

إذا أراد الإنسان أن ينتقل في الصلاة من نية إلى نيَّة هل هذا ممكن ؟

جـ - ننظر الانتقال من مُعَين إلى مُعيَّن أو من مطلق إلى معين لا يصح .

مثال المطلق : إنسان قام يصلي صلاة نافلة مطلقة ، وفي أثناء الصلاة ذكر أنه لم يصل راتبة الفجر فنواها لراتبة الفجر .

نقول : لا تصح لراتبة الفجر ؛ لأنَّه انتقال من مطلق إلى معيَّن ، المعيَّن لابد أن تنويه من أوله ، فراتبة الفجر من التكبير إلى التسليم .

ومثال معين إلى معين : رجل قام يُصَلِّي العصر ، وفي أثناء صلاته ذكر أنَّه لم يصل الظهر ، أو أنَّه صلَّاها بغير وضوء ، فقال : الآن نويتها للظُّهر ؛ هنا لا تصح للظهر ؛ لأنه من معين إلى معين ، ولا تصح أيضا صلاة العصر التي ابتدأ ؛ لأنه قطعها بانتقاله إلى الظهر .

أما الانتقال من معين إلى مطلق : فإنَّه يصح . مثل : إنسان شرع في صلاة الفَريضة ، ثم لما شرع ذكر أنه على مِيعاد لا يمكنه أن يتأخر فيه ، فنواها نفلًا ؛ فإنَّها تصح إذا كان الوقت مُتَّسعًا ولم يفوت الجماعة .

هذان شرطان : الشَّرط الأول : إذا كان الوقت مُتَّسِعًا ، والثاني : إذا لم يفوت الجماعة . فمثلًا إذا كان في صلاة جماعة فلا يمكن أن يُحوِّلها إلى نفل مطلق ؛ لأن هذا يَستلزم أن يدع صلاة الجماعة .

إذا كان الوقت ضيقًا ؛ فلا يصح أن يحولها إلى نفل مطلق ؛ لأن صلاة الفريضة إذا ضاق وقتها لا يتحمل الوقت سواها ، فصارت الحالات ثلاثًا :

١ - من مطلق إلى معيَّن : لا يَصِح المعين ويبقى المطلق .

٢ - من مُعَيَّن إلى مُعيَّن : يبطل الأول ولا ينعقد الثاني .

٣ - من معيَّن إلى مطلق : يصح ويبقى المعين عليه .

نية الإمامة والائتمام :

الجماعة تحتاج إلى إمَام ومأمُوم وأقلها اثنان : إمام ومأموم . وكلما كان أكثر فهو أحب إلى اللَّه ، ولابد من نية المأموم والائتمام ، وهذا شيء متفق عليه ، يعني إذا دخلت في جماعة فلابد أن تَنْوي الائتمام بإمامك الذي دخلت معه . ولكن النِّيَّة لا تحتاج إلى كبير عمل ؛ لأن مَنْ أتى إلى المسجد فإنه نوى أن يأتم ، ومن قال لشخص : صلِّ بي ؛ فإنه قد نوى أن يأتم .

أما الإمام : فقد اختلف العلماء - رحمهم اللَّه - هل يجب أن ينْوي أن يكون إمَامًا أو لا يجب ؟!

فقال بعض أهل العلم : لابد أن يَنْوي أنَّه الإمام ، وعلى هذا فلو جاء رجلان ووجَدَا رجُلًا يُصلي ونويا أن يكون الرجل إمامًا لهما فصفا خلفه وهو لا يدرك بهما . فمن قال : إنَّه لا بد للإمام أن يَنْوي الإمامة فقال : إن صلاة الرجلين لا تصح ؛ وذلك لأن الإمام لم يَنْو الإمامة .

ومن قال : إنه لا يشترط قال : إن صلاة هذين الرجلين صحيحة ؛ لأنهما ائتما به .

فالأول : هو المشهور من مذهب الإمام أحمد . والثاني : هو مذهب الإمام مالك ، واستدل بأن النبي

ﷺ صلى ذات ليلة في رمضان وحده ، فدخل أناس المسجد فصفُّوا خلفه والنبي ﷺ كان أول مَا دَخل الصلاة لَم ينو أن يكون إمامًا [(١)] . واستدلوا كذلك بأنَّ ابن عباس رضي الله عنهما بات عند النبي ﷺ ذات ليلة فلما قام النبي ﷺ يصَلي من الليل ، قام يصَلي وحده ، فقام ابن عباس فتوضأ ودخل معه الصلاة [(٢)] .

ولكن لا شك أن هذا الثاني ليس فِيه دلالة ؛ لأن النبي ﷺ نَوَى الإمامة ، لكن نواها في أثناء الصلاة ، ولا بأس بأن ينويها في أثناء الصلاة .

على كل حال الاحتياط في هذه المسألة أن نقول : إنه إذا جاء رجلان إلى شخص يُصَلّي فلْينبهَاه على أنه إمام لهما .

فإن سكت فقد أقرهما ، وإن رفض وأشار بيده أن لا تصليا خلفي فلا يصليا خلفه . هذا هو الأحوط والأولى .

ثانيًا : هل يشترط أن تتَسَاوَى صلاة الإمام مع صلاة المأموم في جنس المَشْرُوعية ؟ بمعنى : هل يَصِحُّ أن يُصَلي الفريضة خلف من يصلي النافلة ، أو أن يُصَلي النافلة خلف من يُصَلي الفريضة ؟

جـ - أمَّا الإنسان الذي يصَلي نافلة خلف من يُصَلي فريضة ؛ فلا بأس بهذا ؛ لأن السُّنة قد دلت على ذلك ، فإن الرسول ﷺ انفتل من صلاة الفجر ذات يوم في مسجد الخيف بمِنَى ، فوجد رَجُلين لم يُصليا فقال : « ما منعكما أن تصليا في القوم ؟ » قالا : يا رسول اللّه صلينا في رِحالنا - يحتمل أنهما صَليا في رحَالِهما لظنهما أنهما لا يدركان صلاة الجماعة أو لغير ذلك من الأسباب ، فقال : « إذا صَليتُما في رِحَالِكُما ثم أتيتما جَمَاعة ؛ فَصَليا فإنها لكما نافلة » [(٣)] .

« فإنها » الأولى أو الثانية ؟

جـ - الثانية ؛ لأن الأولى حصلت بها الفريضة وانتهت وَبَرِئَت الذمة .

إذن إذا كان المأموم هو الذي يُصَلي النَّافلة والإمام هو الذي يُصَلي الفريضة ؛ فلا بأس بذلك كما دلَّت عليه هذه السنة .

أما العكس إذا كان الإمام يصلي النافلة والمأموم يُصَلِّي الفريضة وأقْرَب مثال لذلك في أيام رمضان إذا دخل الإنسان وقد فاتته صلاة العشاء ووجد الناس يُصَلون صلاة التَّراويح ، فهل يدخل معهم بنية العشاء أو يصلي الفريضة وحده ثم يصلي التراويح ؟

جـ : هذا محل خلاف بين العلماء ، فمنهم من قال : لا يَصِح أن يصلي الفريضة خلف النافلة ؛ لأن الفريضة أعلى ، ولا يمكن أن تكون صلاة المأموم أعلى من صلاة الإمام .

ومنهم من قال : بل يَصِح أن يصلي الفريضة خلف النافلة ؛ لأن السُّنة وردت بذلك ، وهي : أن معاذ

---

(١) أخرجه البخاري في التهجد (١١٨٦) .

(٢) أخرجه البخاري في الدعوات (٦٣١٦) ومسلم في صلاة المسافرين (١٨١) والنسائي في الدعوات (٢١٨/٢) .

(٣) أخرجه الترمذي في السنن (٢١٩) والبيهقي في السنن (٣٠٠/٢) ، والطبراني في الصغير (٢١٧/١) .

ابن جبل رضي الله عنه كان يصلي مع النبي ﷺ صلاة العشاء ، ثم يذهب إلى قومه فيُصَلي بهم تلك الصلاة [١] .

فهي له نافلة ولهم فريضة ، ولم ينكر عليه النبي ﷺ ، فإن قال قائل : لعل النبي ﷺ لم يعلم ؟

فالجواب عن ذلك أن نقول : إن كان قد علم فقد تمَّ الاستدلال ؛ لأن معاذ بن جبل رضي الله عنه قد شُكِيَ إلى الرسول في كونه يُطول صلاة العشاء [٢] ؛ فالظاهر أن الرسول أخبر بكل القضية وبكل القِصَّة .

وإذا قُدِّر أن رسول اللَّه ﷺ لم يَعْلم أن معاذًا يُصَلي معه ثم يذهب إلى قومه ويصلي بهم ؛ فإن رب الرسول ﷺ قد علم وهو اللَّه جل وعلا لا يخفى عليه شيء في الأرض ولا في السماء ، وإذا كان اللَّه قد علم ولم ينزل على نبيه إنكارًا لهذا العمل ، دلَّ ذلك على جوازه ؛ لأن اللَّه لا يقر عباده على شيء غير مَشْروع لهم إطلاقًا : يتم الاستدلال حينئذٍ على كل تقدير .

إذن فالصحيح أنَّه يجوز أن يصلي الإنسان صلاة الفريضة خلف من يصلي صلاة النافلة . والقياس الذي ذُكر استدلالًا على المنع قياس في مُقَابَلة النص ، فيكون مطروحًا فَاسِدًا لا يعتبر . إذن إذا أتيت في أيام رمضان والنَّاس يصلون صلاة التَّراويح ولم تصلِّ العشاء ، فادخل معهم بنية صلاة العشاء . ثم إن كنت قد دخلت في أول ركعة فإذا سلَّم الإمام ؛ فصل ركعتين لتتم الأربع ، وإن كنت دخلت في الثانية فصل إذا سلم الإمام ثلاث ركعات ؛ لأنك صليت مع الإمام رَكعة . وهذا منصوص الإمام أحمد مع أن مذهبه خلاف ذلك ، لكن مَنْصُوصه الذي نصَّ عليه شخصيًّا أن هذا جائز [٣] .

إذن نلَخِّص الآن :

مَنْ صَلى فريضة خلف فريضة فجائز .

فريضة خلف نافِلة فيها خلاف .

نافلة خلف فريضة جائزة قولًا واحدًا .

المسألة الثالثة : في جنس الصلاة ، هل يشترط أن تتفق صلاة الإمام والمأموم في نوع الصلاة ، أي : ظهر مع ظهر ، وعصر مع عصر أم لا ؟

جـ : في هذا أيضًا خلاف ، فمن العلماء من قال : يجب أن تتفق الصَّلاتان فَيُصلِّي الظهر خلف من يُصَلِّي الظهر ، ويُصَلي العصر خلف من يُصَلي العصر ، ويُصَلِّي المغرب خلف من يُصَلِّي المغرب ، وهكذا ، لأن النبي ﷺ قال : « إنَّما جُعِلَ الإِمَامُ لِيُؤْتَم به » [٤] .

ومن العلماء من قال : لا يُشْتَرط فيجوز أن تُصَلي العَصْر خلف من يُصَلِّي الظهر ، أو الظهر خلف من يُصلي العصر ، أو العصر خلف من يُصَلي العشاء ؛ لأن الائتمام في هذه الحال لا يتأثر ، وإذا جاز أن

---

(١) أخرجه الهيثمي في مجمع الزوائد (٧٩/٢) وعزاه في الطبراني في الكبير .

(٢) أخرجه أحمد في مسنده (٧٤/٥) .

(٣) انظر المغني والشرح الكبير (٦٤/٢ - ٦٦) .

(٤) أخرجه البخاري في تقصير الصلاة (١١١٣ ، ١١١٤) ومسلم في الصلاة (٧٧) وأحمد في مسنده (٥١/٦) ، وأبو داود في السنن (٦٠١) .

يصلي الفريضة خلف النَّافلة مع اختلاف الحكم ، فكذلك اختلاف الاسم لا يضر ، وهذا القول أَصَحُّ .

فإذا قال إنسان : كيف يُصَلي الظُّهر خلف من يُصَلي العشاء ؟

جـ : حضرت لصلاة العشاء بعد أن أذن ولما أقيمت الصلاة تذكرت أنك صَليت الظُّهر بغير وضوء .

نقول له : ادخل مع الإمام وصل الظهر ، أنت نيتك الظهر والإمام نيته العشاء ولا يضر : « إنما الأعْمالُ بالنيات وإنَّما لِكل امْرِئٍ مَا نوَى » وأما قول النبي ﷺ : « إنَّما جُعِلَ الإمَامُ لِيؤْتَم بِهِ فَلا تَخْتَلِفُوا عَلَيهِ » ، فليس معناه : فلا تختلفوا عليه في النية ؛ لأنه فَصلَ وبين فقال : « فَإذَا كَبَّرَ فَكَبروا ، وإذا سَجَدَ فاسْجُدوا ، وإذَا رَفَع فارْفَعوا » أي : تابعوه ولا تسبقوه ، وكلام الرسول ﷺ يفسر بعضه بعضًا . هذا البحث يفرع علَيه بَحْث آخر : إذا اتفقت الصلاتان في العدَد والهيئة فلا إشكال في هذا مثل ظهر خلف عصر . العَدَد واحد والهيئة واحدة ، هذا لا إشكال فيه . لكن إذا اختلفت الصَلاتان بأن كانت صلاة المأموم ركعتين والإمام أربع وبالعكس ، أو المأموم ثلاث والإمام أربع أو بالعكس .

فنقول : إن كانت صلاة المأموم أكثر فلا إشكال مثل : لو صلى العَصر خلف من يصلي المغرب ، مثل رجل دخل المسجد يصلي المغرب ولما أقيمت الصلاة ذكر أنه صلى العصر بلا وضوء ، فهنا صار عليه صلاة العصر .

نقول : ادْخُل مع الإمام بنية صلاة العصر ، وإذا سلم الإمام ؛ فإنك تأتي بواحدة لتتم لك الأربع . هذا لا إشكال فيه .

إذا كانت صلاة الإمام أكثر من صلاة المَأمُوم فهنا نقول : إن دخل المأموم في الركعة الثانية فما بعدها فلا إشكال ، وإن دخل في الركعة الأولى فحينئذٍ يأتي الإشْكَال !

ولنُمَثل : إذا جئت والإمام يصَلي العشاء وهذا يقع كثيرًا في أيام الجمع . يأتي الإنسان من البيت والمسجد جامع للمصر و ما أشبهه ، فإذا جاء وجدهم يُصَلون العشاء .

لكن وجدهم يصلون في الركعتين الأخيرتين نقول : ادخل معهم بنية المغرب ، صل الركعتين وإذا سلم الإمام تأتي بركعة ولا إشكال .

وإذا جئت ووجدتهم يُصَلون العشاء الآخر لكنهم في الركعة الثانية نقول : ادخل معهم بنية المغرب وسلم مع الإمام ، ولا يَضُر ؛ لأنك مَا زدت ولا نقصت ، هذا أيضًا لا إشكال فيه .

هذا فيه إشكال عند البعض ويقول : إذا دخلت معه في الركعة الثانية ثم جلست في الركعة التي هي للإمام الثانية وهي لك الأولى فتكون جلست في الأولى للتشهد .

نقول : هذا لا يضر أَلَسْتَ إذا دَخَلْتَ مع الإمام في صلاة الظهر في الركعة الثانية ؛ فالإمام سَوف يَجْلِس للتشهد وهي لك الأولى ؟ هذا نفسه ، ولا إشكال .

الإشكال إذا جئت إلى المسجد ووجدتهم يُصَلُّون العِشاء وهم في الركعة الأولى ودَخَلْتَ معهم فيها ، حينئذٍ ستصلي ثلاثًا مع الإمام والإمام سيقوم للرابعة فماذا تصنع ؟

إن قمت معه زدت ركعة والمغرب ثلاث لا أربع ، وإن جلست تخلفت عن الإمام فماذا تصنع ؟

نقول : اجلس وإذا كنت تريد أن تجمع فانوِ المُفَارقَة واقرأ التحيات وسلم ، ثم ادخل مع الإمام فيما بقي من صلاة العشاء ؛ لأنك يمكن أن تدركه . أما إذا كنت لا تَنْوي الجَمْع أو مِمن لا يَحِق لهُ الجمع ؛ فإنك في هذه الحال تخيَّر إن شئت فاجلس للتَّشهد وانتظر الإمام حتى يكمل الركعة ويتشهَّد وتُسلم مَعَهُ ، وإن شئت فانْوِ الانفراد وسلم .

وهذا الذي ذكرناه هو القول الراجح وهو اختيار شيخ الإسلام رَحِمَهُ اللَّهُ ، ونية الانفراد هنا للضرورة ؛ لأن الإنسان لا يمكن أن يزيد في المغرب على ثلاث ، فالجلوس لضرورة شرعية ولا بأس بهذا [(١)] .

ومما يدخل في قوله : « وتُقِيمُ الصلاة » أركان الصلاة ! والأركان هي الأعمال القولية أو الفعلية التي لا تصح الصلاة إلا بها ولا تقوم إلا بها .

فمن ذلك : تكبيرة الإحرام : أن يقول الإنسان عند الدخول في الصلاة : « اللَّه أكبر » لا يمكن أن تنعقد الصلاة إلا بذلك ، فلو نَسي الإنسان تكبيرة الإحرام فصلاته غير صحيحة وغير منعقدة إطلاقًا ؛ لأن تكبيرةَ الإحرام لا تنعقد الصلاة إلا بها قال النبي ﷺ لرجل علمه كيف يصلي ، قال : « إِذَا قُمْتَ إلى الصلاة فأسبغ الوضُوء ، ثم اسْتَقْبِل القِبْلَةَ فكبِّر » [(٢)] فلا بد من التكبير وكان النبي ﷺ مداومًا على ذلك .

ومن ذلك : قراءة الفاتحة : فإنَّ قراءةَ الفَاتِحَة رُكْنٌ لا تَصِحُّ الصَّلاة إلا به ؛ لقوله تعالى : ﴿ فَٱقۡرَءُواْ مَا تَيَسَّرَ مِنَ ٱلۡقُرۡءَانِۚ ﴾ [المزمل : ٢٠] وهذا أمر . وقد بين النبي ﷺ هذا المُبْهم في قوله : ﴿مَا تَيَسَّرَ ﴾ وأن هذا هو الفاتحة فقال ﷺ : « لا صَلاة لِمَنْ لم يقرأ بفاتحة الكِتاب » [(٣)] .

وقال : « كُلُّ صلاةٍ لا يُقْرأ فِيهَا بأم الكِتَاب أو بأم القُرْآن فَهي خِدَاج » [(٤)] أي : فاسدة غير صحيحة .

فقراءة الفاتحة رُكن على كل مُصَل : الإمام ، والمأموم ، والمنفرد ؛ لأن النصوص الواردة في ذلك عامة لم تستثنِ شيئًا وإذا لم يستثنِ اللَّه ورسوله شيئًا فإن الواجب الحكم بالعموم ؛ لأنه لو كان هناك مستثنى لبينهُ اللَّه ورسوله كما قال اللَّه : ﴿ وَنَزَّلۡنَا عَلَيۡكَ ٱلۡكِتَٰبَ تِبۡيَٰنٗا لِّكُلِّ شَيۡءٖ ﴾ [النحل : ٨٩] .

ولم يَرِد عن النبي ﷺ حديثٌ صَحِيح صَرِيح في سقوط الفاتحة عن المأموم لا في السرية ولا في الجهرية ، لكن الفرق بين السرية والجَهْرية : أن الجهرية : لا تقرأ فيها إلا الفاتحة وتسكت وتسمع لِقَراءة إمامك .

أما السرية : فتقرأ الفاتحة وغيرها حتى يركع الإمام ، لكن دلت السنة على أنه يستثنى من ذلك ما

---

(١) انظر في ذلك : المغني والشرح الكبير (٢/ ٦٢) .

(٢) أخرجه البخاري في الاستئذان (٦٢٥١) ومسلم في الصلاة (٤٥) وأحمد في مسنده (٢/ ٤٣٧) ، والنسائي في السنن (٣/ ٥٩) ، « وأسبغ الوضوء » أي : وفِّ كل عضو حقه في الغسل .

(٣) أخرجه البخاري في الأذان (٧٥٦) ومسلم في الصلاة (٣٤) والترمذي في السنن (٣١١) والنسائي في السنن (٢/ ١٣٧) .

(٤) أخرجه أحمد (٢/ ٤٧٨) ، وابن ماجه في السنن (٨٤٠) ، والبيهقي في السنن (٢/ ١٦٧) .

إذا جاء الإنسان والإمام رَاكع ؛ فإنه إذا جاء والإمام راكع تسقط عنه قراءة الفاتحة ، دليلُ ذلك ما أخرجه البخاري عن أبي بكرة ﷺ أنه دخل والرسول ﷺ راكع في المسجد فأسْرَع وَركَع قبل أن يَدْخل في الصف ، ثم دَخل في الصف ، فلما سلم النبي ﷺ قال : « أيكم الذي صَنَعَ هَذَا ؟ » قال أبو بَكْرة : أنَا يا رسول اللَّه ! قال : « زادَكَ اللَّه حِرْصًا وَلا تعُد » [(١)] .

لأن النبي ﷺ علم أن الذي دفع أبا بكرة لسرْعَته والركوع قبل أن يَصل إلى الصف هو الحِرص على إدراك الركعة . فقال له : زادك اللَّه حِرْصًا ولا تعد : أي لا تَعد لمثل هذا العمل فتركع قبل الدُّخول في الصف وتسرع قال النبي ﷺ : « إذَا أتيتُم الصلاة فامْشُوا إلى الصلاة وَعَلَيكُم السكينَة والوَقَار » [(٢)] .

ولم يأمره النبي ﷺ بقضاء الركعة التي أسْرع لإدراكها ، ولو كان لم يدركها لأمره الرسول ﷺ بقضائها ؛ لأن النبي ﷺ لا يمكن أن يؤخر البَيَان عن وقت الحاجة ؛ لأنَّه مُبَلِّغ والمُبَلغ يُبَلغ متى احْتِيجَ إلى التبليغ ، فإذا كان الرسول عليه الصلاة والسلام لم يقل له إنك لم تدرك الركعة ، علم أنه قد أدركها وفي هذا الحال تسقط عنه الفاتحة . وهناك تعليل مع الدليل ، وهو أن الفاتحة إنما تجب مع القيام والقيام في هذه الحال قد سقط من أجل مُتَابَعة الإمام ، فإذا سَقَطَ القيام سَقَطَ الذكر الوَاجِب فيه .

فصار الدَليل والتَّعليل يدلَّان على أن من جَاء والإمام رَاكع فإنه يكبر تكبيرة الإحرام وهو قائم ولا يقرأ ، بل يَرْكَع . لكن إن كبر للركوع مرَّة ثانية فهو أفضل وإن لم يكبِّر فلا حرج وتكفيه التكبيرة الأولى .

ويجب أن يقرأ الإنسان الفاتحة وهو قائم ، وأما ما يفعله بعض الناس إذا قام الإمام للركعة الثَّانية مثلًا تجده يجلس ولا يقوم مع الإمام وهو يقرأ الفَاتحة فتجده يجلس إلى أن يصل نصف الفاتحة ، ثم يقوم وهو قادر على القيام .

نقول لهذا الرجل : إن قراءتك للفاتحة غير صحيحه ؛ لأن الفاتحة يجب أن تُقرأ في حال القيام وأنت قادر على القيام وقد قرأت بعضها وأنت قاعد فلا تَصِح هذه القراءة . أمَا ما زاد على الفاتحة فهو سنة في الركعة الأولى والثَّانية ، وأما في الركعة الثَالثة في المغرب أو في الرابعة في الظهر والعصر والعشاء فليس بسُنَّة ؛ فالسنة الاقتصار فيما بعد الركعتين على الفاتحة ، وإن قرأ أحيانًا في العصر والظهر شيئًا زائدًا على الفاتحة فلا بأس به ، لكن الأصل الاقتصار على الفاتحة في الركعتين اللَّتين بعد التَّشهد الأول إن كانت رُباعية ، أو الركعة الثَالثة إن كانت ثلاثية .

ومن أركان الصَلاة : الركوع : وهو الانحناء تعظيمًا لله ﷻ لأنك تستحضر أنَّك واقف بين يدي اللَّه فَتَنْحَني تعظيمًا له ﷻ ؛ ولهذا قال الرسول عليه الصلاة والسلام : « أمَا الركُوع فَعَظِّموا فيه

---

(١) أخرجه أحمد في مسنده (٥/٥٠) ، بلفظ : « أيكم ركع دون الصف » وأبو داود في السنن (٦٨٣) دون : أيكم الذي صنع هذا ؟

(٢) أخرجه البخاري في الجمعة (٩٠٨) ومسلم في المساجد (١٥١) والترمذي في السنن (٣٢٧) وأحمد في مسنده (٢/٢٧٠) ، وقوله « السكينة » أي التأني في الحركات واجتناب العبث ، وقوله « الوقار » أي في هيئة جميلة وإقبال على الطريق بغير التفات .

الرب (١) » ، أي : قولُوا سبحان رَبِّي العَظِيم ؟ لأن الركوع تعظيم بالفعل وقول : « سُبْحَانَ رَبِّي العَظِيم » تعظيم بالقول فيجتمع التعظيمان بالإضافة إلى التعظيم الأصْلي وهو تعظيم القلب لله . فيجتمع في الركوع ثلاث تعظيمات :

١ – تعظيم القلب . ٢ – تعظيم الجوارح . ٣ – تعظيم اللسان .

والوَاجب في الركوع الانحناء بحيث يتمكن الإنسان من مَس رُكْبتيه بيديه . فالانحناء اليَسير لا ينفع ، فلابد من أن تهصر ظهرك حتى تتمكن من مَس ركبتيك بيديك .

وقال بعض العلماء : إن الواجب أن يكون إلى الركوع التام أقرب منه إلى القيام التام والمؤدي مُتقَارب . المهم أنه لابد من هصر الظهر .

ومما ينبغي في الركوع : أن يكون الإنسان مُسْتَوي الظهر لا محْدَودِبًا ، وأن يكون رأسه مُحَاذِيًا لظهره ، وأن يضع يديه على ركبتيه مُفَرجتي الأصَابع ، وأن يجافي عضديه عن جنبيه ، ويقول : «سبحان ربي العظيم » يكررها ويقول : « سبْحَانكَ اللهمَّ وبِحَمْدِكَ اللهُم اغْفِرْ لي » (٢) ، ويقول : «سُبوحٌ قُدوسٌ رب الملائكة والروح » (٣) .

ومن أركان الصلاة : السجود : قال اللَّه ﷻ : ﴿ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱرْكَعُواْ وَٱسْجُدُواْ وَٱعْبُدُواْ رَبَّكُمْ ﴾ [الحج : ٧٧] وقال النبي ﷺ : «أمِرْتُ أنْ أسْجُدَ عَلَى سَبْعَةِ أعْظُم : عَلَى الجَبْهة (وَأشَارَ بِيَدِهِ إلى أنْفِه) والكَفين ، والركْبَتَينِ ، وأطْرَافِ القَدَمَين » (٤) . فالسُّجود لابُدَّ منه ؛ لأنه ركن لا تتم الصلاة إلا به .

ويقول في سجوده : « سُبْحانَ رَبِّيَ الأعْلى » وتأمل الحكمة أنك في الركوع تقول : « سبحان رَبيَ العظيم » لأن الهيئة هيئة تعظيم ، وفي السجود تقول : « سبحان ربي الأعلى » لأن الهيئة هيئة نزول .

فالإنسان نَزل أعلى ما في جسده وهو الوجه إلى أسفل ما في جسده وهو القدمين ؛ فترى في السجود أن الجبهة والقدمين في مكان واحد وهذا غاية ما يكون من التنزيه ولهذا يقول : « سبحان ربي الأعلى » أي : أنزه ربي الأعلى الذي هو فوق كل شيء عن كل سفل ونزول . أما أنا فمنزل رأسي وأشرف أعضائي إلى محل القدمين ومداسها ، فتقول : « سبحان ربي الأعلى » تكررها ما شاء اللَّه ثلاثًا أو أكثر حسب الحال ، وتقول : « سُبْحانكَ اللهم رَبنا وَبحَمْدِكَ اللهُم اغْفِرْ لِي » وتقول : «سبوحَ قدوس رَب المَلائكَة والروح » وتكثر من الدعاء بما شئت من أمور الدِّين ومن أمور الدنيا ؛ لأن النبي ﷺ يقول : « أما الركُوع فعَظموا فيه الرب ، وأما السجود فاجْتهدوا في الدعاء ، فَقَمِن أن

---

(١) أخرجه مسلم في الصلاة (٢٠٧) .

(٢) أخرجه أحمد في مسنده (٤١٠/١) ، والبيهقي في السنن (١٠٩/٢) ، وابن خزيمة في صحيحه (٨٤٧) .

(٣) أخرجه مسلم في الصلاة (٢٢٣) وأبو داود في السنن (٨٧٢) وأحمد في مسنده (٣٥/٦) ، ومعنى قوله (سبوح) أي المبرأ من النقئص ، وقوله (قدوس) أي : المطهر من كل ما لا يليق بالخالق .

(٤) أخرجه البخاري في الأذان (٨١٢) ومسلم في الصلاة (٢٣٠) وأحمد في مسنده (٢٨٥/١ ، ٢٩٢) .

يُستَجَاب لَكُم » (١) ، وقال : « أقرَب مَا يَكُونُ العَبدُ مِن رَبِّه وَهُو سَاجد » (٢) ، فأكثر من الدعاء بما شئت من سؤال الجنة والتعوذ من النار وسؤال علم نافع وعمل صالح وإيمان رَاسِخ وهكذا . وسؤال بيت جميل وامرأة صالحة وَوَلَدٌ صالح وسَيَّارة وما شئت من خير الدين والدُّنيا ؛ لأن الدعاء عبادة ولو في أمور الدنيا قال اللّه : ﴿ وَقَالَ رَبُّكُمُ ادْعُونِيٓ أَسْتَجِبْ لَكُمْ ﴾ [غافر : ٦٠] وقال : ﴿ وَإِذَا سَأَلَكَ عِبَادِي عَنِّي فَإِنِّي قَرِيبٌ أُجِيبُ دَعْوَةَ الدَّاعِ إِذَا دَعَانِ ﴾ [البقرة : ١٨٦] .

وفي هذه الأيام العَصيبة ينبغي أن نُطِيل السُّجود وأن نكثر من الدعاء بأن يأخذ اللّه على أيدي الظالمين المعتدين ، ونُلح ولا نَستبطئ الإجابة ؛ لأن اللّه حكيم قد لا يُجيب الدعوة بأول مرَّة أو ثانية أو ثَالثة من أجل أن يعرف الناس شدة افتقارهم إلى اللّه فيزدادوا دعاءً واللّه ﷻ أحكم الحاكمين ، حكمته بَالِغة لا نستطيع أن نَصل إلى مَعْرفتها ، ولكن علينا أن نفعل مَا أُمِرْنَا به من كثرة الدُّعاء .

ويسجد الإنسان بعد الرَّفع من الرُّكوع ويَسْجد على ركبتيه أولًا ثم كفيه ثم جبهته وأنفه . ولا يسجد على اليدين أولًا ؛ لأن النبي ﷺ نهى عن ذلك فقال : « إذا سَجد أحَدُكم فَلا يَبْرُك بُرُوك البَعير » (٣) . وبُروك البَعير يكون على اليَدَين أولًا كما هو مشاهد ، وإنما نهى الرسول عن ذلك ؛ لأن تشبه بني آدم بالحيوان ولا سيما في الصلاة أمر غير مرغوب فيه . لم يذكر اللّه تشبيه بني آدم بالحيوان إلا في مقام الذم . استمع إلى قول اللّه تعالى : ﴿ وَاتْلُ عَلَيْهِمْ نَبَأَ الَّذِيٓ ءَاتَيْنَٰهُ ءَايَٰتِنَا فَانسَلَخَ مِنْهَا فَأَتْبَعَهُ الشَّيْطَٰنُ فَكَانَ مِنَ الْغَاوِينَ ۝ وَلَوْ شِئْنَا لَرَفَعْنَٰهُ بِهَا وَلَٰكِنَّهُۥٓ أَخْلَدَ إِلَى الْأَرْضِ وَاتَّبَعَ هَوَىٰهُ فَمَثَلُهُۥ كَمَثَلِ الْكَلْبِ إِن تَحْمِلْ عَلَيْهِ يَلْهَثْ أَوْ تَتْرُكْهُ يَلْهَث ﴾ (٤) [الأعراف : ١٧٥ - ١٧٦] ، وقال : ﴿ مَثَلُ الَّذِينَ حُمِّلُوا التَّوْرَىٰةَ ثُمَّ لَمْ يَحْمِلُوهَا كَمَثَلِ الْحِمَارِ يَحْمِلُ أَسْفَارًا بِئْسَ مَثَلُ الْقَوْمِ الَّذِينَ كَذَّبُوا بِـَٔايَٰتِ اللَّهِ ﴾ (٥) [الجمعة : ٥] . وقال الرسول ﷺ : « العَائِدُ في هِبتِه كَالكَلْبِ يَقيء ثُمَّ يَعُود في قَيْئِهِ » (٦) ، وقال : « الذي يَتَكلم يَوم الجُمُعَة والإمَامُ يَخطبُ كَمَثَل الحِمَار يَحْمِلُ أسْفَارًا » (٧) .

فأنتَ تَرَى أن تَشبيه بني آدم بالحيوان لم يَكُن إلَّا في مَقَام الذم ولهذا نَهى المُصَلِّي أن يبرك كما يَبْرك البَعير فيقدم يديه ! بل قدم الركبتين إلا إذا كان هناك عُذْر كرَجُل كَبير يَشُقُّ عليه أن ينزل الركبتين أولًا ، فلا حرج ، أو إنسان مَريض أو إنسان في ركبتيه أذًى ومَا أشْبه ذلك .

---

(١) أخرجه مسلم في الصلاة (٢٠٧) بلفظه وأحمد في مسنده (١/٢١٩) ، وقوله (قمن) بفتح الميم وكسرها ، أي : حقيق وجدير .

(٢) أخرجه مسلم في الصلاة (٢١٥) والنسائي في السنن (٢/٢٢٦) ، وأحمد في مسنده (٢/٢٤١) .

(٣) أخرجه أبو داود في السنن (٨٤٠) والترمذي في السنن (٢٦٩) وأحمد في مسنده (٢/٣٨١) .

(٤) قوله ﴿ فَانسَلَخَ ﴾ أي : خرج منها بكفره ، وقوله ﴿ الْغَاوِينَ ﴾ أي : الضالين ، وقوله ﴿ أَخْلَدَ إِلَى الْأَرْضِ ﴾ أي : ركن إلى الدنيا واطمئن بها ، قوله ﴿ هَوَىٰهُ ﴾ أي : نفسه المائلة إلى الشهوة .

(٥) قوله : « أسفارًا » أي : كتبًا .

(٦) أخرجه مسلم في الهبات (٨) وابن ماجه في السنن (٢٣٨٦) والبيهقي في السنن (٦/١٨٠) .

(٧) أخرجه الطبراني في الكبير (١٢/٩٠) ، والهيثمي في مجمع الزوائد (٢/١٨٤) .

ولابد أن يكون السجود على الأعضاء السبعة : الجبهة والأنف تبع لها والكفين هذه ثلاثة ، والركبتين هذه خمسة ، وأطرافُ القَدَمين هذه سبعة أُمِرْنا أن نسجد عليها كما قال الرسول عليه الصلاة والسلام ، والذي أمرنَا ربنا ﷻ فنقول : سمعًا وطاعة ونسجد على الأعضاء السبعة في جميع السجود ، فما دمنا سَاجدين فلا يجوز أن نرفع شيئًا من هذه الأعضاء ، بل لا بد أن تبقى هذه الأعضاء مَا دُمنا سَاجدين .

وفي حال السجود ينبغي للإنسان أن يَضُمَّ قدَميه بعضهما إلى بعض ولا يفرج .

أما الركبتان : فلم يرد فيهما شيء فتبقى على ما هِي عليه ، وأمَّا اليدان : فتكون على حذو المنكبين ، أي الكتفين أو تقدمها قليلًا حتى تسجد بينهما ، فلها صفتان كلتاهما وردتا عن الرسول عليه الصلاة والسلام .

وينبغي أن تُجافي عَضديك عن جنبيك وأن ترفع ظهرك . إلا إذا كنت في الصف وخفت أن يتأذى جارك من مُجَافَاة العضدين فلا تُؤذِ جارك ؛ لأنه ما ينبغي أن تفعل سُنة يَتَأذَّى بها أخوك المُسْلم وتشوش عليه .

وقد رأيت بعض الإخوة الذين يُحبون أن يُطبقوا السنة يمتدون في حال السُّجود امتدادًا طويلًا حتى تكاد تقول أنهم منبطحون ، وهذا لا شك أنه خلاف السُّنة وهو بدعة . بل السُّنة أن ترفع ظهرك وأن تعلو فيه . وهذه الصفة كما أنها خلاف السنة ففيها إرهاق عَظيم للبدن ؛ لأن التحمل يكون على الجبهة والأنف في هذه الحال وتجد الإنسان يَضجر من إطالة السجود ؛ ففيها مخالفة السُّنة ، وتَعْذيب البَدن فَلهذا يَنْبغي إذا رأيتم أحدًا يسجد على هذه الكيفية أن تُرْشِدُوه إلى الحق وتقولوا له : هذا ليس بِسُنَّة .

وينبغي في حال السجود أيضًا أن يكون الإنسان خَاشِعًا لله ﷻ مستحضرًا علو اللَّه ﷻ ؛ لأنك سوف تقول : سُبحان رَبي الأعلى أي تنزيهًا له بعلوه ﷻ عن كُل سفل ونُزول ونحن نعتقد بأن اللَّه عالٍ بذاته فوق جميع مخلوقاته كما قال اللَّه : ﴿ سَبِّحِ ٱسْمَ رَبِّكَ ٱلْأَعْلَى ﴾ [الأعلى : ١] ، وإثبات علو اللَّه في القرآن والسنة أكثر من أن يُحْصَر .

والإنسان إذا دعا يرفع يديه إلى السماء فوق كل شيء ، وقد ذكر اللَّه أنه اسْتوى على عرشه في سبع آيات من القرآن ، والعَرش أعلى المخلوقات ، والله فوقَ العرش جل وعلا .

ومن أركان الصَّلاة : الطُّمأنينة : أي الاستقرار والسُّكون في أرْكان الصَّلاة ؛ يطمئن في القيام ، وفي الركوع ، وفي القيام بعد الرُّكوع ، وفي السجود ، وفي الجلوس بين السجدتين ، وفي بقية أركان الصلاة ؛ وذلك لما أخرج الشيخان من حديث أبي هريرة ﷺ : أن رجلًا جَاءَ فَدَخلَ المَسْجد فَصَلَّى ثمَّ سلم على النبي ﷺ فَرد السَّلام وقال : « ارْجِع فَصَل فإنَّكَ لَمْ تَصَل » - أي لم تصل صلاة تجزئك - فرجع الرجل فَصَلى ، ثم جَاءَ فَسَلم عَلَى النبي ﷺ فردَّ عليه وَقَال : « ارْجِع فَصَل فإنكَ لَمْ تَصَل » فَرَجَع وصَلى وَلَكِنه كصَلَاته الأولى ؛ ثم جاء إلى النبي ﷺ فَرد عليه وقال : « ارْجِع فَصَلِّ فإنكَ لَمْ تَصَل » فقال : والذي بَعَثَك بالحق لا أحسِنُ غيرَ هذا فَعَلِّمني [١] . وهذه هي الفائدة من كون

(١) أخرجه البخاري في الأيمان (٦٦٦٧) ومسلم في الصلاة (٤٥) بلفظه .

النبي ﷺ لم يُعَلمه لأول مرة بل ردَّه حتى صلى ثلاث مرات من أجل أن يكون مُتَشوقًا للعلم مشتَاقًا إليه حتى يأتيه العلم ويكون كالمطر النازل على أرض يابسة تقبل الماء ، ولهذا أقسم بأنه لا يحسن غير هذا وطلب من النبي ﷺ أن يعلمه . ومن المعلوم أن النبي ﷺ سيعلمه لكن فرق بين المطلوب والمجلوب إذا كان هو الذي طلب أن يعلم صار أشد تمسكًا وحفظًا لما بلغ إليه وتأمَّل قَسَمُه بالذي بَعَث الرسول ﷺ بالحق . فقال : « والَّذِي بَعَثَكَ بالحَق » وما قال والله ! لماذا ؟

جـ - لأجل أن يكون معترفًا غاية الاعتراف بأن ما يقوله النبي ﷺ حق .

فقال له النبي عليه الصلاة والسلام : « إِذَا قُمتَ الى الصلاة فأسبغ الوضوء » أي : توضأ وضُوءًا كاملًا ، « ثم استقبِل القِبلَة فَكَبر » أي : قل : اللَّه أكبر وهذه تكبيرة الإحرام « ثم اقرَأ مَا تيَسر مَعَكَ من القرآن » وقد بينت السنة أنه لابد من قراءة الفاتحة « ثم اركع حَتى تَطمَئِن رَاكعًا » أي : لا تسرع بل اطمئن واستقر « ثم ارْفَع حتى تَطمَئِن قَائِمًا » أي : إذا رفعت من الركوع اطمئن كما كنت في الركوع ، ولهذا من السنة أن يكون الركوع والقيام من الركوع متساويين أو متقاربين « ثُم اسجد حَتَّى تَطْمَئِن سَاجدًا » أي : تطمئن وتستقر . « ثُم ارْفَع حَتى تَطْمَئِنَ جَالِسًا » وهذه الجلسة بين السجدتين « ثم اسجُد حَتى تَطمَئِنَّ سَاجدًا » هذا هو السجود الثاني « ثُم افْعَل ذلك في صلاتِكَ كُلها » أي افعل هَذه الأركان : القيام ، والركوع ، والرفع منه ، والسجود ، والجلوس بين السجدتين ، والسجدة الثانية في جميع الصلاة .

الشاهد من هذا قوله : « حتى تَطمئن » ، وقوله فيما قبل : « إنكَ لَم تصَل » فدل هذا على أنه من لا يطمئن في صلاته فلا صلاة له . ولا فرق في هذا بين الرُّكوع والقيام بعد الركوع والسجود والجلوس بين السَّجدتين ؛ كلها لابد أن يطمئن الإنسان فيها .

قال بعض العلماء : إن الطمأنينة أن يَسْتقِر بقدر ما يقول الذكر الواجب في الركن . ففي الركوع بقدر ما تقول : « سُبْحان رَبي العَظيم » وفي السجود كذلك ، وهكذا .

ولكن الذي يظهر من السنة أن الطُّمأنينة أمر فوق ذلك ؛ لأن كون الطمأنينة بمقدار أن تقول : سبحان ربي العظيم في الركوع لا يظهر لها أثر ؛ لأن الإنسان إذا قال : اللَّه أكبر سبحان ربي العظيم ثم يرفع أين الطمأنينة ؟

الظَّاهر أنَّه لابد من استقرارٍ بحيث يقال : هذا الرجل مطمئن .

وعجبًا لابن آدم كيف يلعب به الشيطان !! هو واقف بين يدي اللَّه ﷻ يناجي اللَّه ويتقرَّب إليه بكلامه ، وبالثناء عليه ، وبالدعاء ، ثم كأنه ملحوق في صلاته كأن عدوًّا لاحق له ، فتراه يهرب من الصلاة .

أنت لو وقفت بين يدي مَلك من مُلوك الدُنيا يُنَاجيك ويخاطبك لو بقيت معه سَاعتين تكلمه لوجدت ذلك سهلًا . يمكن لو تقف على قدميك ولا تنتقل من ركوع إلى سجود إلى جلوس وتفرح أن هذا الملك يكلمك ، فكيف وأنت تناجي ربك الذي خلقك ورزقك وأمدك وأعدك ؟ تناجيه وتهرب هذا الهروب ؟!

لكن الشَيطان عدو للإنسان : والعاقل الحازم المؤمن هو الذي يَتخذ الشَيطان عدوًّا كما قال اللَّه : ﴿ إِنَّ ٱلشَّيْطَٰنَ لَكُمْ عَدُوٌّ فَٱتَّخِذُوهُ عَدُوًّا ۚ إِنَّمَا يَدْعُواْ حِزْبَهُۥ لِيَكُونُواْ مِنْ أَصْحَٰبِ ٱلسَّعِيرِ ﴾ [فاطر : ٦] .

فالواجب على الإنسان أن يَطْمئن في صلاته طمأنينة تَظْهر عليه في جميع أفعال الصلاة ، وكذلك أقوالها .

مسألة : ما حكم من لم يُقِم الصلاة ؟

الجواب عن ذلك أن نقول : أمَّا من لم يقمها على وَجْه الكَمَال - يعني أنه أخل ببعض الأشياء الـمُكَملَة للصلاة - فإن هذا مَحْروم من الأجر الذي يحصل له بإكمال الصلاة ، لكنه ليس بآثم .

مثلًا : لو اقتصر على « سبحان ربي العظيم » في الركوع مع الطمأنينة لكان كافيًا ، لكنه محروم من زيادة الأجر في التسبيح .

وأما من لم يُقِمْهَا أصْلًا يعني أنه تركها بالكُلِّية ؛ فهذا كافر مُرْتَد عن الإسلام كفرًا مخرجًا عن المِلة يخرج من عِدَاد المسلمين في الدنيا ، ويكون في عداد الكافرين في الآخرة . أخبر النبي ﷺ أنه يُحْشَرُ مع فِرْعَونَ وَهَامَان وَقَارُون وَأبي بن خَلَف [١] . هؤلاء رؤوس الكفرة يحشر معهم .

أما في الدُّنيا : فإنه كافر مرتد يجب على ولي الأمر أن يدعوه للصلاة ، فإن صلى فذاك ، وإن لم يصلِّ قتله قَتْلَ رِدَّةٍ والعياذ بالله ، وإذا قُتِلَ قَتْلَ ردة حُمِلَ في سيارة بعيدًا عن البلد وحُفِرَ له حفرة ورمس فيها حتى لا يتأذى الناس برائحته ولا يتأذى أهله وأصحابه بِمُشَاهَدَتِهِ ، إذن فلا حرمة له . لو أُبقِيَ على ظهر الأرض هكذا فلا حرمة له ، ولهذا مَا نُغَسِّلُه ولا نُكَفِّنُه ولا نصلي عليه ، ولا نُدْنِيه من مَسَاجد المسلمين للصلاة عليه ؛ لأنه كافر مرتد .

فإذا قال قائل : ما هذا الكلام ؟ أهذا جُزَافٌ أم تَحَامُل أم عَاطفة ؟

قلنا : لا ! ليس جُزَافًا ولا تحاملًا ولا عاطفة ، ولكننا نقوله بمقتضى دلالة كلام اللَّه وكلام رسُوله وكلام أصْحاب رَسُوله .

أما كلام اللَّه : فقد قال اللَّه في سورة التوبة عن المشركين : ﴿ فَإِن تَابُواْ وَأَقَامُواْ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتَوُاْ ٱلزَّكَوٰةَ فَإِخْوَٰنُكُمْ فِى ٱلدِّينِ ﴾ [التوبة : ١١] .

وَإِنْ لَم يَكُن ؟

جـ : فليسوا إخوانًا لنا في الدين ، وإذا لم يكونوا كذلك فهُم كفرة ؛ لأن كل مؤمن ولو كان عَاصِيًا أكبر مَعْصية لكنها لا تخرج من الإسلام فهو أخ لنا .

إذا اقتتلت طائفتان من المؤمنين فمن المعلوم أنَ قتال المسلم كفر ، لكن لا يخرج من الملة ؛ لأنَّ النبي ﷺ قال : « سِبَابُ الْمُسْلِم فُسُوق ، وَقِتَالُه كفر » [٢] ومع ذلك فإن هذا الـمُقَاتل لأخيه أخ لنا

---

(١) انظر أحمد في مسنده (٢/١٦٩) وسنن الدارمي في الرقاق (١٣) .

(٢) أخرجه البخاري في الأدب (٦٠٤٤) ومسلم في الإيمان (١١٦) والترمذي في السنن (٢٦٣٥) وأحمد في مسنده (١/٤١١) .

وما يخرج من دائرة الإيمان لقول الله تعالى : ﴿ وَإِن طَآئِفَتَانِ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ٱقْتَتَلُواْ فَأَصْلِحُواْ بَيْنَهُمَا ۖ فَإِنۢ بَغَتْ إِحْدَىٰهُمَا عَلَى ٱلْأُخْرَىٰ فَقَٰتِلُواْ ٱلَّتِى تَبْغِى حَتَّىٰ تَفِىٓءَ إِلَىٰٓ أَمْرِ ٱللَّهِ ۚ فَإِن فَآءَتْ فَأَصْلِحُواْ بَيْنَهُمَا بِٱلْعَدْلِ وَأَقْسِطُوٓاْ ۖ إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلْمُقْسِطِينَ ۝ إِنَّمَا ٱلْمُؤْمِنُونَ إِخْوَةٌ فَأَصْلِحُواْ بَيْنَ أَخَوَيْكُمْ ﴾ (١) [الحجرات : ٩، ١٠] . إذًا الطائِفتَانِ المُقْتَتِلتَانِ إخوة لنا مع أنَّها معصية عظيمة .

فإذا قال الله في المشركين : ﴿ فَإِن تَابُواْ وَأَقَامُواْ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتَوُاْ ٱلزَّكَوٰةَ فَإِخْوَٰنُكُمْ فِى ٱلدِّينِ ۗ ﴾ [التوبة : ١١] إذًا ، إذا لم يقوموا بهذه الأعمال فليسوا بإخوة لنا .

أما من السنة : فاستمع إلى ما رواه مسلم في صحيحه عن جابر بن عبد الله ﷺ أن الرسول ﷺ قال : « بين الرجُل وبَينَ الشرك وَالكُفر تَرْكُ الصلاة » (٢) والبَينِية تَقْتَضي التميز والتَّفريق وأن كل واحد غير الآخر .

« بَينَ الرجل وبَينَ الشِّرك وَالكُفْر تَرْكُ الصَّلاة » فإذا تركها صار غير مسلم ، صار مشركًا أو كافرًا .

وما رواه أهل السنن عن بُرَيدة بن الحُصَيب ﷺ أن الرسول ﷺ قال : « العَهْدُ الذِي بَينَنَا وَبَينَهُم الصلاة فَمَن تَرَكَهَا فَقَد كفر » (٣) العهد الذي بيننا وبين الكفار أي الأمر الفَاصل الذي بيننا وبينهم الصلاة فمن تركها فقد كفر صار منهم . وليس منا .

وهذا نص في الموضوع !

أما ما قاله الصحابة : فاستمع إلى ما قاله عبدالله بن شقيق وهو من التابعين المشهورين قال رحمه الله : « كَانَ أصْحَابُ النبي ﷺ لا يَرونَ شَيئًا مِن الأعْمَالِ تَرْكُه كُفر غَير الصَّلاة » (٤) .

وقد نقل إجماع الصَحابة على كفر تارك الصلاة : إسحاقُ بنُ رَاهَوَيهِ الإمامُ المشهورُ وبعض أهل العلم .

وإذا قدِر أن فيهم من خالف فإن جمهورهم أهْلَ الفتوى منهم يقولون إنه كافر .

هذه أدلة من كلام الله وكلام رسوله وكلام الصَّحابة ، وقال عمر بن الخطاب وناهيك به : « لا حظَّ في الإسلام لمن ترك الصلاة » (٥) ولا نافية للجنس تنفي الكثير والقليل . والذي لا حظ له لا قليل ولا كثير في الإسلام مَا هُو إلا كافر .

ويترتب على ترك الصَّلاة أمور دنيوية وأمور أخروية :

الأمور الدنيوية :

أولًا : أنه يدْعَى إلى الصَّلاة ؛ فإنْ صلَّى وإلا قُتِلَ ، وهذا واجب على ولاة الأمور ، وهم إذا فرطوا

---

(١) قوله ﴿ بَغَتْ ﴾ أي تعدت ، وقوله ﴿ تَفِىٓءَ ﴾ أي : تعود إلى رشدها وقوله ﴿ ٱلْمُقْسِطِينَ ﴾ أي العادلين .

(٢) أخرجه مسلم في الإيمان (١٣٤) وأحمد في مسنده (٣٨٩/٣) والبيهقي في السنن (٣٦٦/٣) .

(٣) أخرجه أحمد في مسنده (٣٤٦/٥) ، والترمذي في السنن (٢٦٢١) وابن ماجه في السنن (١٠٧٩) والحاكم في المستدرك (٧/١) .

(٤) أخرجه الترمذي والسنن (٢٦٢٢) .

(٥) أخرجه مالك في الموطأ (الطهارة ٥١) .

في هذا فسوف يسألهم اللَّه إذا وقفوا بين يديه ؛ لأن كل مُسْلم ارْتَد عن الإِسلام فإنَّه يدعى إليه فإنْ رَجَع وإلا قُتِلَ . قال الرسول ﷺ : « مَنْ بَدلَ دِينه فاقْتُلُوه » [١] .

ثانيًا : لا يُزَوج إذا خطب ، وإن زُوِّجَ فالعقد بَاطِل والمرأة لا تحل له أن يطأها وهو يَطأ أجْنبية والعياذ بالله ؛ لأن العقد غير صحيح لقوله تعالى : ﴿ فَإِنْ عَلِمْتُمُوهُنَّ مُؤْمِنَٰتٍ فَلَا تَرْجِعُوهُنَّ إِلَى ٱلْكُفَّارِ لَا هُنَّ حِلٌّ لَّهُمْ وَلَا هُمْ يَحِلُّونَ لَهُنَّ ﴾ [الممتحنة : ١٠] .

ثالثًا : أنه لا وِلَاية لَهُ عَلى أولَادِهِ ، وَلا عَلى أخوَاتِهِ ، ولا على أحَد من الناس ؛ لأن الكافر لا يمكن أن يكون وليًا على مسْلم أبدًا ، حتى بنتُه لا يزوجها .

لو فرضنا واحدًا بعد ما تزوج وكبر وصار له بنات صار لا يصلي والعياذ بالله ، فإنه لا يمكن أن يزوج بنته .

ولكن إذا قال قائل : هذا مشكل يوجد أناس عندهم بنات وهم لا يصلون كيف نعمل ؟

جـ : نقول في مثل هذه الحال إذًا كان لا يمكن التخلص من أن يعقد النكاح للبنات ، فإن الزوج يجعل أخاها يعقد له بالسر حتى تحل له أو عمها مثلًا أو أحدًا من عصباتها الأقرب فالأقرب حسب تَرْتيب الولاية حتى يتزوج امرأة بعقد صحيح ، أما عقد أبيها لها وهو مرتد كافر فلا يصح ولو كان ألف مرة .

وذهب بعض العلماء إلى أنه لا يكفر كفرًا مخرجًا عن الملة واستدلوا ببعض النصوص ولكن هذه النصوص لا تخرج عن أحوال خمسة :

١ - إما أنه ليس فيها دلالة أصلًا على هذا مثل قول بعضهم : إن هذا يعارضه قول اللَّه : ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَغْفِرُ أَن يُشْرَكَ بِهِۦ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَٰلِكَ لِمَن يَشَآءُ ﴾ [النساء : ٤٨] ، ومن جملته تارك الصلاة .

فنقول : إن تارك الصلاة في ظاهر حديث جابر الذي رواه مسلم أنه مُشْرك وإن كان لا يَسْجد للصنم لكنه مُتَّبع لِهَواه ، وقد قال اللَّه : ﴿ أَرَءَيْتَ مَنِ ٱتَّخَذَ إِلَٰهَهُۥ هَوَىٰهُ ... وَكِيلًا ﴾ [الفرقان : ٤٣] .

ثم على فرض أن مفهوم الآية أن ما دون الشرك تحت المَشيئة ؛ فإن هذا المفهوم خُصَّ بالأحاديث الدَّالة على أن تارك الصَّلاة كافر ، وإذا كان المنطوق وهو أقْوى دِلالة من المفهوم يخصص عُمومه بما دل على التخصيص فما بالك بالمفهوم ؟

٢ - أو استدلوا بأحاديث مُقيدة بما لا يمكن لمن اتَّصف به أن يَدع الصلاة : مثل قول النبي ﷺ : «إنَّ اللَّه حرَّم عَلَى النار مَن قَال لا إله إلا اللَّه يَبْتغِي بذَلِكَ وَجه اللَّه » [٢] ، فإن قوله : « يبتغي بذلك وجه اللَّه » تمنع منعًا باتًّا أنَ يدع الإنسان الصلاة ؛ لأن من قال : لا إله إلا اللَّه يَبْتَغي بذَلك وَجْه اللَّه فلا بد أن يعمل عملًا لما يبتغيه وهو وَجْه اللَّه .

وأعظم عمل يَحصل به رضا اللَّه ﷻ هو الصلاة . فهذا الحديث ليس فيه دليل على أن تارك الصلاة لا يكفر؛ لأنه مُقَيَّد بقَيد يَمْتنع معه غاية الامتناع أنْ يدع الإنسان الصَّلاة .

---

(١) أخرجه النسائي في السنن (٧/١٠٤) ، والترمذي في السنن (١٤٥٨) وأحمد في مسنده (١/٢٨٢) .

(٢) أخرجه البخاري في الصلاة (٤٢٥) ومسلم في المساجد (٢٦٣) بلفظه والبيهقي في السنن (١٠/١٢٤) .

٣ - أو مُقيَّد بحال يعذر فيها من تَرْك الصَّلاة مثل حديث حذيفة الذي أخرجه بعض أهل السنن في قوم لا يعرفون من الإسلام إلا قول : « لا إله إلا اللَّه » وهذا في وقت الإسلام والعياذ باللَّه [١] . وصار لا يعلم عن شيء مِنه إلا قول : لا إله إلا اللَّه فإنها تنجيهم من النار ؛ لأنهم مَعْذُورون بعدم العلم بِفَرائض الإسلام ونحن نقول بهذا لو أن قومًا في بَادِية ، بَعيدونَ عن المدن وبَعِيدون عن العلم لا يفهمون من الإسلام إلَّا « لا إله إلاَ اللَّه » وماتوا على ذلك فليسوا كُفارًا .

٤ - واستدلوا بأحاديث عامة ، هذه العامة من قواعد أصول الفقه : أن العام يُخصص بالخاص فالأحاديث العامَّة الدالة على أن من قال : لا إله إلا اللَّه فهو في الجنَّة [٢] ، وما أشْبَه ذلك . نقول : هذه مقيدة أو مخصوصة بأحاديث كفر تارك الصلاة .

٥ - واستدلوا بأحاديث ضعيفة لا تُقَاوم الأحاديث الصحيحة الدالة على كفر تارك الصلاة فضلًا عن أن تعارِضَها . ثم إن بعضهم لما لم يتيسر له إقامة الدليل على أن تارك الصلاة لا يكفر قال : إنه يحمل قوله ﷺ : « بَينَ الرجل وَبَينَ الشِّرك والكُفْر تَرْكُ الصَّلاة » [٣] على الكفر الأصْغِر والشِّرك الأصْغَر فيكون بمعنى قول ابن عباس رضي الله عنهما : (كُفر دون كفر) فيقال : ما الذي يوجب لنا أن نحمل الحديث على ذلك ؛ لأن الكفر إذا أطلق ولم يُوجد له معارض فهو الكُفر الحقيقي الأكبر . كيف ، وقد قال الرسول عليه الصَّلاة والسلام : « بَينَ الرجُل وبَينَ الشرك والكُفر » فجعل هناك حدًّا فاصلًا « بَين » والبينية تقتضي أن المتباينين منفصلان بعضهما عن بعض ، وأن المُرَاد بالكفر الكفر الأكبر .

وحينئذٍ تكون أدلة القول بكفر تَارك الصلاة مُوجِبة لا مُعَارض لها ، ولا مقاوم لها والواجب على العبد المؤمن إذا دَلَّ كتاب اللَّه وسنة رسوله ﷺ على حكم من الأحكام أن يقول به ؛ لأننا نحن لسنا بمُشرعين ، بل المُشَرِّع اللَّه ، ما قاله اللَّه وقاله رسوله هو الشَّرع ، نأخذ به ، ونَحكم بمقتضاه ، ونؤمن به ، سواء وافق أهواءنا أم خالفها . لابد أن نأخذ بما دلَّ عليه الشرع !!

واعلم أن كل خلاف يقع بين الأمة إذا كان الحامل عليه حسن القصد مع بذل الجهد في التحري ، فإن صاحبه لا يلام عليه ولا يضلل ؛ لأنه مجتهد ، وقد قال النبي عليه الصلاة والسلام : « إِذَا حَكَمَ الحاكِم فَاجْتَهَدَ وَأَخْطَأَ فَلَهُ أَجْرٌ ، وَإِن اجْتَهَدَ وَأَصَابَ فَلَهُ أَجْرَان » [٤] . وليس من حق الإنسان أن يقدح في أخيه إذا خالفه في الرأي بمقتضى الدَّليل عِنده .

أما من عَانَد وَأَصر بعد قيام الحجة عليه فهذا هو الذي يُلام .

وذكرنا في الدرس الماضي ما يترتَّب على ترك الصَّلاة من أحكام وأنها هي الأحكام المترتبة على

---

(١) انظر الحديث في سنن ابن ماجه (٤٠٤٩) ومستدرك الحاكم (٤/٤٧٣) .

(٢) انظر أحمد في مسنده (٤/٤١١) الطبراني في الكبير (٧/٥٥) ، والمنذري في الترغيب والترهيب (٢/٤٢٢) .

(٣) أخرجه مسلم في الإيمان (١٣٤) وأحمد في مسنده (٣/٣٨٩) ، والبيهقي في السنن (٣/٣٦٦) .

(٤) أخرجه البخاري في الاعتصام (٧٣٥٢) ومسلم في الأقضية (١٥) وأبو داود في السنن (٣٥٧٤) وأحمد في مسنده (٤/٢٠٤) .

الردة تمامًا . ومنها : لو ترك الصلاة في أثناء زواجه انفسخ نكاحه ، ومثاله : رجل تزوج امرأة وهي تصلي وهو يُصَلِّي وبعد ذلك ترك الصلاة ، فإننا نقول : يجب التفريق بينهما وجوبًا . فإذا فرَّقنا بينهما واعتدَّت ؛ فإنه لا يمكن أن يرجع إليها ، أما قبل انتهاء العدة ؛ فإنه إذا أسلم ورجع إلى الإسلام وصلى فهي زوجته ، أما إذا انتهت العِدة فقد انفصلت منه ولا تحل لَهُ إلا بعقد جديد على قول جمهور أهل العلم ؛ وبعضهم يقول : إنها إذا انتهت من العِدَّة ؛ ملكت نفسها ، ولكن لو أسلم وأرادت أن ترجع إليه فلا بأس بدون عقد ، وهذا القول هو الراجح لدلالة السنة عليه [1] ، لكن فائدة العدة : أنها قبل العِدَّة إذا أسلم لا خيار لها ، وأما بعد العدة فلها الخيار إذا أسلم .

ولا يحلُّ لِأَحَدٍ عنده شخص يعرف أنَّه لا يُصَلِّي أن يُغَسِّله أو يكفنه أو يقدمه للمسلمين يصلون عليه ، لأنه يكون بذلك غاشًا للمسلمين ، فإن الكافر قال اللَّه لِنَبيه عليه الصلاة والسَّلام في حق المنافقين وهم كفار لكنهم يظهرون الإسلام قال : ﴿ وَلَا تُصَلِّ عَلَىٰٓ أَحَدٍ مِّنْهُم مَّاتَ أَبَدًا وَلَا تَقُمْ عَلَىٰ قَبْرِهِۦٓ ۖ إِنَّهُمْ كَفَرُوا۟ بِٱللَّهِ ﴾ [التوبة : ٨٤] فدل هذا على أن الكفر مانع من الصَّلاة ومن القيام على القبر بعد الدفن .

وقال اللَّه : ﴿ مَا كَانَ لِلنَّبِىِّ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ أَن يَسْتَغْفِرُوا۟ لِلْمُشْرِكِينَ وَلَوْ كَانُوٓا۟ أُو۟لِى قُرْبَىٰ مِنۢ بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُمْ أَصْحَٰبُ ٱلْجَحِيمِ ﴾ [التوبة : ١١٣] .

ويسأل بعض الناس عن الرجل المتهم بترك الصلاة يقدم للصلاة عليه بعد مَوته وأنْت شَاك هل هو يُصَلي أو لا ؟

جـ : فنقول إذا كان هذا الشك مبنيًا على أصل ؛ فإنك إذا أردت أن تدعو له تقول : اللهم إنْ كان مؤمنًا فاغفر له وارحمه ، فتقيده وبهذا تسْلَم من شره .

وبهذا التقرير نعرف أنه يجب الحذر التام من التهاون بالصلاة ، وأنه يجب على من رأى شخصًا مُتهاونًا فيها أن يَنْصحه بعزيمة وجدٍّ لعَل اللَّه أن يهديه على يده فينال بهذا خيرًا كثيرًا .

وقوله : « إيتاء الزكاة » : إيتاء : بمعنى إعطاء ، وَإتيان بمعنى مَجيء ، وأتى بمعنى جَاء ؛ فإيتاء الزكاة يعني إعطاءها لمن عَيَّنَ اللَّه سبحانه أن يُعطَوا إياها .

والزَّكاة مأخُوذة من الزكاء وهو الطهارة والنماء ؛ لأن المزكي يطهر نفسه من البخل وينمي مَالَه بالزكاة . قال اللَّه تعالى : ﴿ خُذْ مِنْ أَمْوَٰلِهِمْ صَدَقَةً تُطَهِّرُهُمْ وَتُزَكِّيهِم بِهَا ﴾ [التوبة : ١٠٣] والزكاة تعريفها : نَصِيبٌ مُقدَّر شرعًا في مَال مخصوص لطائفةٍ مخصوصةٍ .

« نَصيب من مال » وَليس كل المَال ، بل أموال مُعَينة بينَها الرسول عليه الصلاة والسلام وبعضها مبيَن في القرآن . وليس كل هذه الأجناس من المال تجب فيه الزكاة ، بل لابد من شُروط .

والزكاة جزء بَسيط يؤدي بها الإنسان رُكْنًا من أرْكان الإسلام يطهر بها نفسه من البخل والرَّذيلة

---

(١) انظر في ذلك ، سنن أبي داود في الطلاق (٢٢٣٨ ، ٢٢٣٩ ، ٢٢٤٠) .

ويُطهِّر بها صفحات كتابه من الخطايا كما قال النبي ﷺ : « الصَدَقَةُ تُطْفِئ الخطيئة كَمَا يطْفِئُ المَاء النار »[١] ، وأفضل الصَّدقات الزَّكاة ، فَدِرْهم تخرجه في زكاتك أفضل من درهم تخرجه تطوعًا ؛ لأنَ اللَّه تعالى قال في الحديث القدسي : « مَا تَقَرب إلي عَبْدي بِشَيءٍ أحَب إليَّ مما افْتَرَضتُه عَلَيه »[٢] وَرَكْعَة من صلاة مفروضة أفضل من رَكعة من صَلاة تَطَوُّع .

ففي الزكاة : تَكْفِيرُ الخطايا . وفيها الإحسان إلى الخلق ؛ لأن المزكي يحسن إلى المدفوع إليه الزكاة فيدخل في عِدَاد المحسنين الذين يدخلون في محبّة اللَّه كما قال اللَّه تعالى : ﴿ وَأَحْسِنُوٓاْ إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلْمُحْسِنِينَ ﴾ [البقرة : ١٩٥] .

وفي الزكاة أيضًا : تأليف بين النَّاس ؛ لأن الفُقَراء إذا أعْطَاهم الأغنياء من الزكاة ذَهَب مَا في نُفُوسهم مِن الحِقْد على الأغنياء . أما إذا منعهم الأغنياء ولم يتفضلوا عليهم بشيء ، صار في نفوسهم أَحقاد على الأغنياء . وفي الزكاة أيضًا إغْناء للفقراء عن التسَلط ؛ لأن الفقير إذا قدر أن الغني لا يُعْطيه شيئًا ؛ فإنَّه يخشى منه أن يتسلَّط وأن يكسر الأبواب ويَنْهب الأموال ؛ لأنه لا بد أن يَعيش فيأكل ويشرب ، فإذا كان لا يُعطَى شيئًا فإن الجوع والعَطش والعُري يدفعونه على أن يتسلط على الناس بالسَّرقة والنهب وغير ذلك .

وفي الزكاة أيضًا : جَلْب للخيرات من السماء ؛ فإنه قد ورد في الحديث : « مَا مَنَعَ قَومٌ زَكَاةَ أمْوَالِهم إلَّا مُنِعُوا القَطْرَ مِن السَّماء »[٣] .

فإذا أدى الناسُ زَكاة أموالهم أنزل اللَّه لهم بركات من السَّماء والأرض ، وَحَصَل في هذا نُزُول المطر ونَبَاتُ الأرْض ، وشبع المَوَاشي ، وسَقى النَّاس بهذا الماء الذي ينزل من السَّماء ، وغير ذلك من المصالح الكثيرة .

وفي الزكاة أيضًا : إعَانة للمجاهدين في سبيل اللَّه ؛ لأنَّ من أصناف الزكاة الجهاد في سبيل اللَّه كما قال اللَّه : ﴿ وَفِى سَبِيلِ ٱللَّهِ ﴾ [التوبة : ٦٠] .

وفي الزكاة : تحرير العَبيد : فإنَّ الإنسان يجوز له أن يَشْتَري عبدًا مملوكًا من الزكاة فيعْتِقه لأنَ اللَّه قال : ﴿ وَفِى ٱلرِّقَابِ ﴾ [التوبة : ٦٠] .

وفي الزكاة : أيضًا : فَكَ الذِّمم من الدِّيون ، فكم من إنسان من حمولة ذات حَسَب وجَاه ابْتُلي بتراكم الديون عليه ، فتؤدي عنه من الزكاة ، فيحصل في هذا خير كثير ؛ فكاكٌ لِذمته وَرَدُّ حَقٍّ لمن له الحق .

وفي الزكاة : إعانة المُسَافرين الذين تَنْقَطع بهم السبل فيضيع ماله الذي أتى به معه ولا يجد مَا يُوصله إلى بلده ، فهذا يُعطى من الزكاة مَا يُوصله إلى بَلَده ولو كان غنيًّا في بلده .

المهم أن الزكاة فيها مَصَالح كثيرة ؛ ولهذا صارت رُكْنًا من أركان الإسلام .

---

(١) أخرجه أحمد في مسنده (٥/٢٤٨) ، والترمذي في السنن (٢٦١٦) وابن ماجه في السنن (٣٩٧٣) .
(٢) أخرجه البخاري في الرقاق (٦٥٠٢) والبيهقي في السنن (٣/٣٤٦) .
(٣) أخرجه ابن ماجه في الفتن (٤٠١٩) والحاكم في المستدرك (٤/٤٥٠) ومعنى (القطر) أي : المطر .

واختلف العلماء فيما لو تَهَاوَن الإنسان بها هل يَكْفُر كما يَكْفُر بالتهاون بالصلاة أو لا ؟

جـ : والصحيح أنَه لا يكفُر وَدَليلُه : ما رواه مسلم عن أبي هريرة ﷺ أن النبي ﷺ قال : « ما مِن صَاحِب ذَهَبٍ وَلَا فِضة لَا يُؤدي منها حقها إلا إذَا كانَ يَوم القِيَامَة صُفِّحَتْ لَهُ صَفَائح مِن نار فأحمي عَلَيها فِي نَارِ جَهَنم فَيُكْوَى بها جَنْبه وَجَبينه وَظَهْره ، كلما بَرَدت أعيدت في يَوم كَان مِقْداره خَمْسين أَلْفَ سَنَة ، حتى يقْضَى بَين العباد ، ثم يُرى سَبيله : إما إلى الجنة ، وإما إلى النار »[1] ، فإن هذا الحديث يدل على أنه لا يكفر ؛ لأنه لو كان كافرًا بترك الزكاة لم يَكُن له سَبيل إلى الجنة ، والحديث يقول : « ثم يُرى سَبيله إما إلى الجَنة وإما إلى النار » .

وعن الإمام أحمد ﷺ رواية : أنه يَكْفُر إذَا بَخِل بالزكاة قال : لأنها رُكن من أرْكَان الإسْلام وإذَا فات رُكن من أرْكان البَيتِ سَقَط البَيت[2] . ولكن الصحيح أنه : لا يَكْفُر إلا أنه عَلَى خَطَرٍ عظيم وَالعياذ بالله ، ومنه هذا الوعيد الشديد .

مسألة في الأموال الزكوية : لأن الأموال ليس كلها فيها زكاة ، بل منها ما فيه الزكاة ، ومنها ما لا زكاة فيه ، فالزكاة وَاجبة في أمور :

أولًا : في الذهب والفضة : على أي حال كانا سواء كانت نُقودًا كالدراهم والدَّنانير ، أو تبرًا كالقِطع من الذهب والفضَة ، أو حُليًّا يُلبس ويُستعار ، أو غير ذلك . المهم أن نفس هذا المعدن وهو الذهب والفضَّة فيه الزكاة على كل حال ، لكن بشرط أن يبلغ النِّصاب لمدة سنة كاملة . والنصاب من الذَّهب : ٨٥ جم خَمْس وثمانون جِرامًا والنَصاب من الفِضَّة ٥٦ سِت وخمسون ريالًا سُعوديًّا وهي ٥٩٥ جم خمس مائة وخمس وتسعون جرامًا .

فمن عنده من الذَّهب أو الفِضة هذا المقدار مَلَكَ النِّصاب ، فإذا استمر ذلك إلى تمام السَّنة ففيه الزكاة وإن نقص فلا زكاة فيه . فلو كان عنده ثمانون جِرامًا فلا زكاة عليه ، أو كان عنده خَمْس مائة وتسعون جرامًا (٥٩٠) من الفِضَّة فلا زكاة عليه .

واختلف العلماء هل يكمل نِصاب الذَّهب بالفضة أو لا ؟

يعني لو ملك نصف نِصاب من الذهب ونصف نصاب من الفضة ، فهل يكمل بعضها ببعضه ونقول : إنه ملك نصابًا فتجب عليها الزكاة أو لا ؟

جـ : الصحيح أنه لا يكمل الذَّهب من الفِضَّة ولا الفضة من الذهب ، كل واحد مستقل بنفسه كما أنَّه لا يكمل البر من الشعير أو الشعير من البر ، فكذلك لا يكمل الذهب بالفضة ولا الفضة بالذهب . ويَلْحَق بذلك مَا جَرَى مَجْرَى الذهب والفِضة وهي العملة النقدية من ورق أو نحاس أو

---

(١) أخرجه مسلم في الزكاة (٢٤) والمنذري في الترغيب والترهيب (٥٣٦/١) ، والبغوي في شرح السنة (٤٨٠/٥) ، ومعنى (صفحت له صفائح) أي : جعلت كنوزه الذهبية والفضية كأمثال الألواح .

(٢) انظر ذلك في المغني والشرح الكبير (٤٣٤/٢ - ٤٣٦) .

غيره ، فإن هذه فيها الزكاة إذا بلغت نصابًا بأحد النقدين بالذهب أو بالفضة ، فإن لم تبلغ ، فلا زكاة .

فمثلًا : إذا كان عن الإنسان ثلاثمائة من الريالات الورقية ، لكنها لا تبلغ نصابًا من الفضة فلا زكاة عليه ؛ لأن هذه مربوطة بالفِضَّة .

وأما الجَوَاهر الثمينة من غير الذهب والفِضة مثل : اللؤلؤ والمرجان والمعادن الأخرى كالألماظ وشَبَهه ، فهذه ليس فيها زكاة ، ولو كَثُر ما عند الإنسان منها إلا ما أعَده للتجارة فما أعَده للتجارة ففيه الزكاة من أي صِنف كان .

الصنف الثاني : مما تجب فيه الزكاة بهيمة الأنعام : وهي الإبل والبقر والغنم ؛ ففيها الزكاة لكن بشرط أن تبلغ نصابًا وأقل نصاب في الإبل خمس وَأَقَل نِصاب فِي البقر ثَلاثون وأقل نصاب في الغنم أربعون .

والبهيمة لَيسَت كغيرها من الأموال إذا بلغت النصَاب فما زاد فبحسابه ، بل هي مرتبة ؛ ففي أرْبَعين من الغنم شَاة ، وفي مائة شاة حتى تبلغ مائة وإحدى وعِشرين فيكون فيها شاتان .

فالوقص ما بين النصابين ليس فيه زكاة فمن أربعين إلى مائة وعشرين كلها ليس فيها إلا شاة واحدة . ومن مائة وإحدى وعِشرين إلى مائتين فيه شاتان . وفي مائتين وواحدة ثلاث شياه . ثلاثمائة : ثلاث شِياه . ثلاثمائة وتسع وتسعين : ثلاث شياه . أربعمائة : أربع شِياه . المهم أنها تختلف .

وفي الإبل من أرْبع وعشرين فأقل ، زكاتها من الغنم على كل خمسٍ شاةٌ ومن الخمس وعشرين فما فوق زكاتها من الإبل ، لكنها بأسنان مختلفة .

وبهيمة الأنعام يشترط لوُجُوب الزكاة فيها أن تبلغ النصاب وأن تكون سائمة . والسَّائمة الراعية التي ترعى في البر ولا تعْلف إما السنة كلها وإما أكثر السنة . فإذا كان عند الإنسان أرْبَعُون شاة تسرح وترعى كل السنة ففيها الزكاة . وإذا كانت تسرح وتَرْعى ثماني أشْهُر ؛ ففيها الزكاة ، ومثلها سبعة أشهر .

أما إذا كانت تسرح سنة وتعلف سنة فليس فيها زكاة ، وهكذا إن قلت أشهر السَّوم .

وإذا كان الإنسان مُتَاجرًا في الغنم مثلًا وليس يقيها للتَّنمية والنسل ؛ فهذا عليه الزكاة ولو لم يكن عنده إلَّا واحدة إذا بلغت نصابًا في الفضة ؛ لأن عروض التِّجارة فيها الزكاة بكل حال ونصابها مقدر بنصاب الذهب أو الفضة .

والغالب أن الأرخص للفقراء هو الفضة في زماننا ؛ لأن الذهب غالٍ .

الثالث من الأموال الزكوية : الخارج من الأرض من حُبوب وثمار ، مثل : التَّمر والبر والأرز والشَّعير وما أشبهها ، وهذا لابد فيه من بلوغ النِّصاب وهو ثلاثمائة صاع بصاع النبي ﷺ . ويعرفه الذين يأخذون الزكاة من الفلاحين .

فإذا كان عند الإنسان نخل يُثْمر وبلغت ثماره نصابًا وجب عليه الزكاة ، ويجب عليه أن يخرج من متوسط الثمر لا من الطيب فيظلم ، ولا من الرديء فيظلم .

وإذا باع الإنسان ثمره ؛ فإنه يزكي من الثمن ومقدار الزكاة في الخارج من الأرض نصف العشر أو العشر .

وإن كان يَشْرب سيحًا بدون مكائن أو مَوَاتير فإن فيه العُشْر كاملًا أي واحد من عشرة . فإذا كان عنده مثلًا عشرة آلاف كيلو فالواجب عليه ألف كيلو .

أما إذا كان يستخرج الماء بوسيلة كالمواتير والمكائن وشبهها فإن عليه نِصف العشر ؛ ففي عشرة آلاف خمسمائة فقط ؛ وذلك لأن الذي يسقى بمؤنة يغرم فيه الفلاح أكثر من الذي يسقى بلا مؤونة . فكان من حكمة اللّه ورحمته أن خفف الزكاة على هذا الذي يسقيه بالمؤنة والتعب .

أما الرابع من أصناف الزكاة فهو عروض التجارة : وعروض التجارة : كل ما أعده الإنسان للتجارة من عقارات وأقمشة وأواني وسيارات وغيرها فليس لها شيء معين . ومقدار الزكاة فيه ربع العُشر كالذهب والفِضة أي واحد في الأربعين . وفي المائة اثنان ونصف .

وإذا كان لديك مال وأردت أن تعرف مقدار الزكاة فالمسألة سهلة ؛ اقسم المال على أربعين والخارج بالقسمة هو الزكاة .

فإذا كان عند الإنسان أرْبَعون ألفًا من الدراهم ؛ فزكاتها ألف درهم ، وفي مائة وعشرين ألف ثلاثة آلاف ريال وهلم جرا .

وسمى عروض التجارة عروضًا ؛ لأنه ليس بثابت ، بل يعرض ويزول فكل شيء يعرض ويزول يُسَمى عرضًا كما قال اللّه : ﴿ تَبْتَغُونَ عَرَضَ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا ﴾ [النساء : ٩٤] .

والأموال التجارية هكذا عند التجار يشتري الإنسان السِّلعة لا يريد عينها ، بل يريد ما وراءها من كَسْب ، ولهذا تجده يشتريها في الصباح وتكسبه في آخر النهار فيبيعها .

وكيفية زكاة العروض : أنه إذا جاء وقت الزكاة في مالك تقوِّم كل ما عندك من هذه العروض وتخرج ربع عشر قيمتها حتى وإن كنت لم تشترها إلا أخيرًا .

مثال ذلك : إنسان تحل زكاته في شهر رجب واشترى سِلْعة في شهر ربيع ، فنقول له : إذا جاء شهر رجب فقدر قيمتها بما تساوي وأخرج زكاتها .

فإذا قال : إنها لم تتم عندي سنة ؟ قلنا : لا عبرة في عروض التجارة بالسنة ! عروض التجارة مبنية على القيمة .

والقيمة لها سنة عندك فتقدرها بما تُساوي وقت الوجوب سواء كانت أكثر مما اشتريتها به أم أقل .

فإذا قدر أنك اشْتَريتها بعشرة آلاف ريال (١٠٠٠٠) وكانت عند وجوب الزكاة تساوي ثمانية آلاف ريال (٨٠٠٠) فالزكاة على ثمانية . وإذا اشتريتها بثمانية وكانت تساوي عند وجوب الزكاة عشرة ؛ فالزكاة على العشرة . وإذا كنت لا تَدْري هل تكسب أو لا تكسب ؛ فالمعتبر رأس المال .

إلى من تصرف الزكاة ؟

جـ : إنها تصرف إلى الَّذين عينهم اللّه بحكمته فقال تعالى : ﴿ إِنَّمَا ٱلصَّدَقَٰتُ لِلْفُقَرَآءِ وَٱلْمَسَٰكِينِ وَٱلْعَٰمِلِينَ عَلَيْهَا وَٱلْمُؤَلَّفَةِ قُلُوبُهُمْ وَفِى ٱلرِّقَابِ وَٱلْغَٰرِمِينَ وَفِى سَبِيلِ ٱللَّهِ وَٱبْنِ ٱلسَّبِيلِ فَرِيضَةً مِّنَ ٱللَّهِ ﴾ أي : لابد أن تكون في هذه الأصناف ﴿ وَٱللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ ﴾ [التوبة : ٦٠] .

فالفقراء والمَساكين : هم الذين لا يجدون كفايتهم وكفاية عوائلهم لمدة سنة .

مِثاله : رَجُل موظف وظيفة براتب شهري قدره أرْبعة آلاف ريال ، لكن عنده عائلة ويَصْرف ستة آلاف ريال هذا يكون فقيرًا ؛ لأنه لا يجد ما يكفيه ؛ فنعطيه أربعة وعشرين ألفًا من الزكاة من أجل أن نكمل نفقته . ورجل آخر رَاتِبه ستة آلاف في الشهر ، لكنه عنده عائلة كبيرة والمؤنة شديدة لا يكفيه إلا اثنا عشر ألفًا ، فنعطيه من الزكاة اثنين وسبعين ألفًا . ولا نُعْطيه أكثر من كفاية سَنَة لأنَّه على مدار السَّنة تأتي زكاة جديدة تَسُد حاجته فلهذا قدرها العلماء بالسنة .

فإذا قال قائل : أيُّهما أشدُّ حاجة الفقير أو المسكين ؟

جـ : قال العلماء : إنما يبدأ بالأهم فالأهم ، والله قد بدأ بالفقير ، فيكون الفقير أشد حاجة من المسكين .

الثالث : العاملون عليها : أي الذين وَلَّاهُم رئيس الدولة أمْر الزكاة يأخذونها من أهلها وينفقونها في مُسْتحقها . فيعطيهم رئيس الدَّولة مقدار أجرتهم ولو كانوا أغنياء ؛ لأنهم يستحقونها بالعمل لا بالحاجة .

فإذا قال ولي الأمر : هؤلاء الواحد منهم إذا عمل بالشهر فراتبه ألف ريال فنعطيهم على ألف ريال من الزكاة . وذلك لأنهم يتصرفون في الزكاة لمصلحة الزّكاة فأُعْطُوا منها . لكن إذا أحب ولي الأمر أن يعطيهم من بيت مال المسلمين المال العام ليوفر الزكاة لمستحقيها فلا بأس .

الرابعِ المؤلفة قلوبهم : وهم الذين يؤلفون على الإسلام يكون رجل آمَنَ حديثًا ويحتاج أن نقوي إيمانه فنعطيه من الزكاة من أجل أن يألف الِإسلامَ ويحب المسلمين ويَتَقَوَّى ويعرف أن دين الإِسلام دين صِلة وَدين رَابطة .

ومن التَأْليف أن نعطي شخصًا للتَخَلُّص من شرِّه ويزول ما في قلبه من الحقد على المسلمين والعداوة .

واختلف العلماء – هل يُشترط في المؤلفة قلوبهم أن يكون لهم سِيادة وشَرَف في قومهم أو لايشترط ؟

جـ : الصَّحيح أنَّه لا يشترط حتى لو أعطيت فردًا من الناس لتؤلفه على الإسلام كفى . أما إذا أعطيت فردًا من الناس من أجل أن تدفع شرَّه فهذا لا يجوز ؛ لأن الواحد من الناس ترفعه إلى وُلَاة الأمور ويأخذون حقك منه .

الخامس : ﴿ وَفِى ٱلرِّقَابِ ﴾ : ذكر العلماء أنها تشمل ثلاثة أنواع :

النوع الأول : أن تَشْتري عبدًا فتعتقه .

والنوع الثاني : أن تساعد مكاتبًا في مكاتبته ، والمكاتب هو العبد الذي اشترى نفسه من سيده .

الثالث : أن تفك بها أسيرًا مسْلِمًا عند الكفار أو عند غيرهم حتى لواختطف مسلم عند أناس ظلمة ولم يَفكوه إلا بفداء من الزكاة فلا بأس .

السادس: قوله : ﴿ وَٱلْغَـٰرِمِينَ ﴾ [التوبة : ٦٠] . الغَارِم : هو الذي يكون في ذِمته دين لا يستطيع وفاءه ، أو يكون في ذمته دين لمصلحة عامة وإن كان يستطيع وفاءه ولهذا قال العلماء إن الغرم نوعان :

النوع الأول : الغارم لغيره . والثاني : الغارم لنفسه .

الغَارم لغيره : هو الذي يَغْرم مالًا لإصلاح ذات البين ، مثل : أن يكون بين قبيلتين نزاع ومُشَاجرة ومخاصمة ومعَاداة ، فيقوم رجل من أهل الخير فيصلح بين القَبيلتين على مال يَلْتَزمُ به في ذِمته فهنا يكون غارمًا لكن ليس لنفسه ، بل لمصلحة عامة ، وهي الإصلاح بين هاتين القبيلتين . قال العلماء : فيعطى هذا الرجل ما يوفي به الغرم وإن كان غنيًا ؛ لأن هذا ليس لنفسه ، بل لمصلحة الغير .

فلو قدر أن رجلًا عنده مائة ألف ريال فأصلح بين قبيلتين بعشرة آلاف ريال يستطيع أن يوفيها من ماله لكن نقول : لا ! لا يلزمه ، بل نُعْطيه من الزكاة ما يدفع به هذا الغرم ؛ لأن ذلك لمصلحة الغير ، ولأن هذا يفتح باب الإصلاح للناس ؛ لأننا لو لم نُعِنْ هذا الرجل ونُعْطيه ما غَرم لتكاسل الناس عن الإصلاح بين القبائل المتناحرة أو المُتَعادية .

أما النوع الثاني : فهو الغَارِم لنفسه : مثل رجل استأجر بيتًا بخمسة آلاف ريال وليس عنده ما يدفع به الإجارة . هو نفسه في أكْلِه وشربه ولباسه ليس محتاجًا ، لكن يحتاج الى وفاء الدَّين الذي لزمه بالاستئجار للبيت ؛ فنعطي هذا الرجل أجرة البيت من الزكاة ؛ لأنه من الغارمين .

كذلك إنسان أصيب بجائحة اجتاحت ماله مثل : الحريق أو الغرق أو ما أشبه ذلك ، وقد لحقه في هذا دين ؛ فنعطيه ما يُسَدد دينه ؛ لأنه غير قادر على الوفاء .

هذا النَّوع من الغرم يشترط فيه أن يكون الغَارم عاجزًا عن وفاء الدين ، فإن كان قادرًا ، فإنه لا يعطى .

ولكن هل يجوز أن يذهب الإنسان لمن له الدَّين ويقول له : هذا الطَّلب الذي لك على فلان خذه وَينْويه من الزكاة ؟ .

جـ : الجواب : نعم يجوز ، وليس بِشَرط أن تعطي الغَارم ليعطي الدائن ؛ لأن المقصود هو إبراء الذمة ، وهو حاصل سواء أخبرته أم لم تخبره ، وتأمل التعبير في الآية : ﴿ إِنَّمَا ٱلصَّدَقَـٰتُ لِلْفُقَرَآءِ وَٱلْمَسَـٰكِينِ وَٱلْعَـٰمِلِينَ عَلَيْهَا وَٱلْمُؤَلَّفَةِ قُلُوبُهُمْ ﴾ [التوبة : ٦٠] . كل هذه الثلاث معطوفة على قوله : ﴿ لِلْفُقَرَآءِ ﴾ باللام ﴿ وَفِى ٱلرِّقَابِ ﴾ [التوبة : ٦٠] ، ولم يقل وللرقاب ، بل قال : (في) الدالة على الظْرفية ؛ يعني أنك إذا صرفت الزكاة في هذه الجهات يجوز وإن لم تعط صاحبها ﴿ وَٱلْغَـٰرِمِينَ ﴾ [التوبة : ٦٠] معطوفه على ﴿ فِى ٱلرِّقَابِ ﴾ فيه من مدخول (في) أي : وفي الغارمين .

فإذا قال قائل : هل الأحسن أنْ أذهب إلى الدائن وَأوَفيه أو أعطي الغَريم لكي يوفي بنفسه ؟

جـ - نقول : في هذا تَفْصيل : إذا كنت تخشى أنك لو أعطيت الغَريم لم يُوفِّ ، بل أكل الدراهم وترك

الدين على ما هو عليه ؛ فهنا لا تعطِ الغريم ، بل أعْطِ الدائن . أما إذا كان الغَريم صاحب عَقْل ودِين ولا يمكن أن يَرْضى ببقاء ذِمته مشغولة ويغلب على ظني كثيرًا أنني إذا أعطيته سوف يذهب فورًا إلى الدائن ويقضي من دَينه ؛ فَهُنا نُعْطي الغَريم ، نقول : خذ هذه الدراهم أوف بها عن نفسك ؛ لأن هذا أستر له وأحسن ، ولكن يجب علينا إذا كنا نُوزع الزكاة أن نحذر من حيلة بعض الناس ؛ بعض الناس يقدم لك كَشفًا بالدين الذي عليه ، وتُوفي ما شاء الله أن تُوفي ، وبعد سنة يقدم لك نفس الكشف ولا يخصم الذي أوفى عنه ، فانتبه لهذا ؛ لأن بعض الناس صار لا يهمه حلال أم حرام المهم اكتساب المال .

وقد قدم لنا من هذا النوع أشياء ، وذهبنا نسلم الدائن بناءً على الكشف الذي قدم ، فقال الدائن إنه قد أوفى . وهذه مشكلة لكن الإنسان يتحرز ، وهو إذا اتقى اللَّه ما استطاع وتبين فيما بعد أن الذي أخذ الزكاة ليس أهلًا لها ؛ فإن ذمَّته تبرأ ، وهذه من نعمة اللَّه .

السَّابع قوله : ﴿ وَفِي سَبِيلِ ٱللَّهِ ﴾ : أي الجهاد في سبيل اللَّه وهو القتال لتكون كلمة اللَّه هي العليا ، هكذا حدده النبي ﷺ حينما سئل عن الرجل يقاتل شَجاعَة ، وَيُقَاتِل حَمِيَّة ، ويُقَاتل لِيُرَى مَكَانهُ ، أيُ ذَلِك في سَبيل اللَّه ؟ قال : « من قاتل لتكون كلمة اللَّه هي العُليا فَهُو في سبيل اللَّه »[1] ، وهذه كلمة جامعة مانعة وقد تقدم الكلام علىٰ هذا .

[تنبيه] يجوز قَتْلُ المُسْلم الظَّالم وإن كان مُسْلِمًا في الحرب ، فإذا قال قائل : وَإن كان مُكْرهًا ؟

جـ : الجواب : أنَ شيخ الإسلام ابن تيمية رَحِمَهُ اللَّهُ قال : إذا قاتل المُسْلِمون مع التَّتَار فإنهم يُقَاتَلون وإن كانوا مُسْلِمين ولو كانوا مُكْرَهين . فإن كانوا صَادِقين بأنهم مُكْرهون ؛ فإن لهم أجر الشهيد ، لأنهم قُتِلوا ظُلمًا من الذي أكرههم ؛ لأنَ الظلم على الذي أكرههم . وإن كانوا غير صَادقين ، بل هم مُخْتَارون طائعون ؛ فهذا ما أصابهم وهم الَّذين جروه على أنفسهم وقد قال رَحِمَهُ اللَّهُ في تعليل ذلك : إنَّه لا يعلم المكره من غير المكره ؛ لأنَّ ذلك محله القلب ، فالاختيار والكراهة محلها القلب ، فلا يعلم المكره من غيره ، فيقتل المكره دفاعًا عن الحق وحِسَابه علَى اللَّه . نعم ، لو فرض أنه أسِرَ وهو مُسْلم حقيقة ؛ فإنه لا يجوز قتله ، أما في ميدان القتال ؛ فإنه يقتل .

وقد ذكرها رَحِمَهُ اللَّهُ في « الفتاوى » في كتاب الجهاد ج (٢٨) ص (٥٤٤ - ٥٥٣) على كل حال نحن نقول : إن الذي يُقَاتل حِفظًا لماله ، أو حِفْظًا لبيته ، أو حِفظًا لبلاده ؛ فإنه لا يخرج عن أمْرين إذَا كان للبلاد : إنْ كان يُحافظ عليها لأنَّها بلاد إسلامية لما فيها من الإسلام ؛ فهو في سبيل اللَّه ولا شك ، وإن كان يحافظ عليها لأنها بلده لا يريد أن يَضيع كما لا يريد أن يَضيع ماله ؛ فهذا إن قتل فهو شهيد ، كما قال الرسول ﷺ : « وَقَاتِله إنْ قُتِل - أي المقاتل - فَهُو في النَّار »[2] والعياذ بالله .

وقوله سبحانه : ﴿ وَفِي سَبِيلِ ٱللَّهِ ﴾ [التوبة : ٦٠] يشمل إعطاء الزكاة للمجاهدين أنفسهم وشِرَاء

(١) أخرجه مسلم في الإمارة (١٤٩ ، ١٥٠) والنسائي في السنن (٢٣/٦) ، وأحمد في مسنده (٣٩٧/٤) .
(٢) أخرجه الترمذي في السنن (١٤١٨) والنسائي في السنن (١١٦/٧) ، وأحمد في مسنده (١٩٠/١) .

الأسلحة لهم .

فَشِرَاءُ الأسْلحة من الزكاة جائز من أجل الجهاد في سبيل اللَّه . قال أهل العلم : ومن ذلك : أن يتفرغ شخص لطلب العلم قادر على التكسب لكنه تفرغ من أجل أن يَطْلُب العلم ؛ فإنه يُعْطَى من الزكاة مقدار حَاجته ؛ لأن طلب العلم جهاد في سبيل اللَّه . أما من تفرغ للعبادة فلا يعطى من الزكاة ، بل يقال : اكتسب وبهذا عرفنا شرف العلم على العِبادة . فلو جاءَنَا رَجُلان أحدهما دَيِّن طيب ويقول : أنَا أسْتطيع أن أتكسب لكن أحبُّ أن أتفرغ للعبادة من الصلاة والصيام والذكر وقراءة القرآن ، فأعطوني من الزكاة واكفوني العمل ! نقول : لا نعطيك بل اكتسب .

وجاء رجل آخر قال : أنا أريد أن أتفرَّغ لَطَلب العلم وأنا قادر على التَكَسُّب ، لكن إن ذهبت أتكسب لم أطلب العلم ، فأعطوني ما يكفيني لكي أتفرغ لطلب العلم ، قلنا : مَرْحبًا نُعْطيك ما يكفيك لطلب العلم .

الثَّامن : ﴿ وَٱبۡنِ ٱلسَّبِيلِۖ ﴾ : وهو الصنف الثامن من أصناف أهل الزكاة . وابن السبيل هو المسافر الذي انقطع به السفر ونَفِدت نَفَقَتُه فلم يكن معه ما يُوصله إلى بلده ؛ فإنَّه يُعْطى من الزَّكاة ما يُوصله إلى بلده . وليس هذا من باب الفُقَراء والمَسَاكين ؛ لأنه غني في بلده لكن قصرت به النَفقة في أثناء السَّفر فيُعْطى ما يُوصله إلى بلده وإن كان غنيًا .

وسُمِّي ابن سَبيل ؛ لمصاحبته للسَّفر كما يُقال : ابن الماء في طير الماء الذي يألف الماء فيقع عليه .

هؤلاء ثمانية أصناف لا يجوز صَرْف الزكاة في غيرهم ، فلا يجوز أن تصرف الزكاة في بناء المَسَاجد ، ولا في إصلاح الطُّرق ، ولا في بناء المَدَارس ولا غيرها من طرق الخير ؛ لأن اللَّه ذكر هذه الأصناف بصيغة محصورة فقال : ﴿ إِنَّمَا ٱلصَّدَقَٰتُ ... ﴾ [التوبة : ٦٠] ، وإنما تُفيد الحَصْر ، وهو إثبات الحكم في المذكور ونفيه عَما سواه ، ولو قلنا بجواز صَرْف الزكاة في جميع وجوه الخير لفاتت فائدة الحصر ، ولكن بناء المساجد وإصلاح الطُّرق وبناء المدارس وما أشبهها تفعل عن طرق أخرى ، طرق البر والصدقات والتبرعات .

هذا هو الركن الثَّالث من أركان الإسلام الذي ذكره النبي ﷺ لجبريل في حديثه الطَّويل !.

أمَّا الرابع فقد قال : « وصَوم رَمضان » :

ورمضان شهر بين شعبان وشوال ، وسُميَ رمضان بهذا ، قيل : لأنَّه كان أول تسمية الشُّهور فصادف أنه كان في شدَة الرَمضاء والحر فسُمي رمضان . وقيل : لأنَّه تُطْفأ به حرارة الذُّنوب ؛ لأن الذُّنوب حارة و « مَنْ صَامَ رَمَضانَ إيمَانًا واحتِسَابا غُفِرَ لَهُ ما تَقَدم مِن ذَنْبه » (١) والمهم أن هذا الشَّهر معلوم للمسلمين ، ذكره اللَّه تعالى باسمه في كتابه فقال : ﴿ شَهۡرُ رَمَضَانَ ٱلَّذِيٓ أُنزِلَ فِيهِ ٱلۡقُرۡءَانُ ﴾ [البقرة : ١٨٥] ، ولم يذكر اللَّه اسمًا لشهر من الشُّهور سوى هذا الشهر .

---

(١) أخرجه البخاري في الإيمان (٣٨) ومسلم في صلاة المسافرين (١٧٥) وأحمد في مسنده (٢٤١/٢) ، والنسائي في السنن (١٥٦/٤) .

وصيام رمضان ركن من أركان الإسلام لا يتم الإسلام إلا به ، ولكنه لا يجب إلا على من تمت فيه الشُّروط الآتية :

أن يكون مُسْلِمًا ، وأن يكون بالغًا ، وعاقلًا ، قادرًا ، مقيمًا ، سَالمًا من الموانع . هذه سِتة شُروط :

- فإن كان صغيرًا : لم يجب عليه الصوم .

- فإن كان مجنونًا : لم يجب عليه الصَّوم .

- فإن كان كافرًا : لم يجب عليه الصوم .

- فإن كان عاجزًا : فعلى قسمين :

أ - إن كان عجزه يُرجى زَوَاله ، كالمرض الطَّارئ ؛ أفْطر ، ثم قضى أيامًا بعدد ما أفطر .

ب - وإن كان عجزًا لا يُرجى زَوَاله ، كالكبَر والأمراض التي لا يُرجى برؤها ؛ فإنه يُطْعِمُ عن كل يوم مِسكينًا .

- ومقيمًا ضده المُسَافِر ، فالمسافر ليس عليه صَوم ولكنه يقضي من أيام أخر .

- سَالما من الموانع احْترازًا من الحائض والنُّفساء ؛ فإنَّهما لا يجب عليهما الصَّوم ولا يجوز لهما ولكنهما تقضيان .

صوم رمضان يكون بعدد أيامه إما تسعة وعشرين ، وإما ثلاثين حسب رؤية الهلال ؛ لأنَّ النبي ﷺ قال : « إذَا رأيتُموه فَصُومُوا ، وَإذَا رَأيتُموه فَأفْطِرُوا ، فَإنْ غُم عَلَيكُم فأكملوا العِدة ثَلاثين » [(١)] عدة شعبان إن كان في أول الشَّهر ، وعدة رمضان إن كان في آخر الشهر .

الركن الخامس : « حج البيت » :

وهو بيت اللَّه سبحانه أي قَصْدُه لأدَاء المَنَاسك التي بينها اللَّه سبحانه في كتابه وعلى لسان رسوله ﷺ .

فحج البيت أحد أركان الإسلام ، ومِن حج البيت العمرةُ ؛ فإن النبي ﷺ سمَّاها حجًّا أصغر . ولكن له شروط منها : البلوغ ، والعقل ، والإسلام ، والحُرية ، والاستطاعة ، خمسة شروط ! فإذا اخْتَل شَرْطٌ وَاحد منها فإنَه لا يجب . ولكن العجز عن الحج إن كان بالمال فإنَّه لا يجب عليه لا بنفسه ولا بنائبه .

وإن كان بالبدن إن كان عجزًا يُرجى زَوَاله انتظر حتى يُعافيه اللَّه وَيزول المانع ، وَإن كان لا يرجى زواله كالكبير ؛ فإنَه يلزمه أن ينيب عنه من يأتي بالحج ، لأنَّ امرأة سألت النبي ﷺ قالت : إن أبي أدْرَكَته فَرِيضة اللَّه على عِبَادِهِ شيخًا لا يَثْبُت على الراحلة ، أفأحج عَنه ؟ قال : « نعم » [(٢)] .

فأقرها النبي ﷺ على أنها سمت هذا فريضة مع أنَه لا يستطيع لكنه قادر بماله ، فقال لها الرسول

---

(١) أخرجه مسلم في الصيام (١٧) بلفظ : « فإن غم عليكم فاقدروا له » والنسائي في السنن (١٣٤/٤) ومعنى (غم) أي : لم يظهر .

(٢) أخرجه البخاري في جزاء الصيد (١٨٥٥) ومسلم في الحج (٤٠٧) .

حُجِّي عنه .

هذه خمسة أركان هي أركان الإسلام .

فقال جبريل للنبي ﷺ لمَّا أخْبَره بذلك قال له : « صَدَقْتَ » قال عمر : « فعجبنا له يسأله ويصدقه » لأن الذي يصدق الشخص بقوله يعني أنه عنده علمٌ من ذلك .

السَّائل إذا أجيب يقول : فهمت لا يقول : صَدَقت ، لكن جبريل عليه الصَّلاة والسلام عنده عِلْم من هذا ولهذا قال : « صَدَقت » .

وقوله : « أخبرني عن الإيمان » :

والإيمان مَحلُّه القلب ، والإسلام محله الجوارح ، ولهذا نقول الإسلام عمل ظاهري والإيمان أمر باطني فهو في القلب . فالإيمان : هو اعتقاد الإنسان للشيء اعتقادًا جَازمًا به لا يتطرق إليه الشَّك ولا الاحتمال ، بل يؤمن به كما يؤمن بالشمس في رابعة النهار لا يمتري فيه ؛ فهو إقرار جازم لا يلحقه شك مُوجب للقبول والإذعان .

لقبول ما جاء في شرع اللَّه والإذعان له إذعانًا تامًّا . فقال له : « الإيمانُ أن تُؤْمِنَ بِاللَّه ، ومَلَائِكَتهِ ، وَكُتبه ، وَرُسُله ، واليَوم الآخرِ ، وتُؤْمِنَ بالقَدَرِ خَيره وشَره » . هذه ستَّة أركان هي أركان الإيمان :

قوله : « أن تؤمن بالله » : أي : تؤمن بأن اللَّه سبحانه مَوجود حي عَليم قَادِر ، وأنه رب العالمين لا رَب سِواه ، وأنَّ له المُلْكَ المُطْلق وله الحمد المطلق ، وإليه يرجع الأمر كُلُّه ، وأنَه سبحانه هو المستحق للعبادة لا يستحقها أحد سواه ﷻ . وأنَّه هو الذي عليه التُّكلان ومنه النصر والتوفيق ، وأنه مُتصف بكل صفات الكمال على وجه لا يُماثل صِفَات المخلوقين ؛ لأنه ﷻ : ﴿ لَيْسَ كَمِثْلِهِۦ شَىْءٌ ﴾ [الشورى : ١١] .

إذًا تؤمن بوجود اللَّه وَبِرُبوبيته وأُلوهيته وأسمائه وصفاته لا بد من هذا .

فمن أنكر وجود اللَّه فهو كافر - والعياذ بالله - مُخَلد في النار ، ومن تَردد في ذلك أو شَكَّ فهو كافر ؛ لأنَّه لابد في الإيمان من الجزم بأن اللَّه حي عليم قادر موجود . ومن شك في ربوبيته فإنه كافر .

ومن أشْرَكَ معه أحدًا في رُبُوبيته فهو كافر ، فمن قال : إن الأولياء يُدَبِّرُون الكون ولهم تَصَرف في الكون فدعاهم واسْتَغَاثَ بهم واسْتَنْصَر بهم ؛ فإنه كافر والعياذ بالله ؛ لأنه لم يؤمن بالله . ومن صَرَف شيئًا من أنواع العبادة لغير اللَّه فهو كافر ؛ لأنه لم يؤمن بانفراده بالألوهية .

فمن سجد للشمس أو للقمر أو للشجر أو للنهر أو للبحر أو للجبال أو للملك أو لنبي من الأنبياء أو لولي من الأولياء ؛ فهو كافر كفرًا مخرجًا عن الملة ؛ لأنه أشرك بالله معه غيره .

وكذلك من أنكر على وجه التكذيب شيئًا مِما وَصَف اللَّه به نفسه ؛ فإنه كافر ؛ لأنه مكَذب لله ورسوله .

فإذا أنكر صفة من صفات اللَّه على وجه التكذيب ؛ فهو كافر لتكذيبه لما جاء في الكتاب والسنة . فإذا قال مثلًا : إن اللَّه لم يستوِ على العرش ، ولا ينزل إلى السماء الدُّنيا فهو كافر .

وإذا أنكرها على وجه التأويل ؛ فإنه ينظر - هل تأويله سائغ يمكن أن يكون محلًا للاجتهاد أو لا ؟ فإن كان سَائِغًا ؛ فإنه لا يكفر ، لكنه يفسق لخروجه عن منهج أهل السنة والجماعة .

وأما إذا كان ليس له مسوغ : فإن إنكار التأويل الذي لا مسوغ له كإنكار التكذيب ؛ فيكون أيضًا كافرًا والعياذ بالله . هذا الإيمان بالله ﷻ .

وإذا آمنت بالله على هذا الوجه ؛ فإنك سوف تقوم بطاعته ممتثلًا أمرَه مجتنبًا نهيَه ؛ لأن الذي يؤمن بالله على الوجه الصَّحيح لا بد أن يقع في قلبه تعظيم اللَّه على الإطلاق ، ولابد أن يقع في قلبه محبة اللَّه على الإطلاق ، فإذا أحب اللَّه حُبًّا مطلقًا لا يساويه أي حب وإذا عظم اللَّه تعظيمًا لا يساويه أي تعظيم ؛ فإنه بذلك يقوم بأوامر اللَّه وينتهي عمَّا نهى اللَّه عنه . كذلك يجب عليك من جملة الإيمان بالله أن تؤمن بأن اللَّه فوق كل شيء ، على عرشه استوى ، والعرش فوق المخلوقات كلها وهو أعظم المخلوقات التي نعلمها ، لأنه جاء في الأثر : « إن السمَاوَات السَّبع والأرْضين السبع بالنسبة للكرْسي كَحَلَقة ألْقيت في فَلَاة مِن الأرْض » [1] انتبه !

ألقِ حلقة من حلق المغفر في فلاة من الأرض وانظر نِسْبَة هذه الحلقة بالنِّسبة للفلاة ماذا تكون ؟

جـ : لا شيء ، وفي بقية الأثر : « وإن فَضْل العَرْش علَى الكُرْسي كَفَضْل الفَلاة على هَذه الحَلَقة » .

إذًا الكرسي بالنسبة للعرش كحلقة ألقيت في فلاة من الأرض . فانظر إلى عظم هذا العرش!

لهذا وصَفَه اللَّه بالعظيم كما قال : ﴿ رَبُّ ٱلْعَرْشِ ٱلْعَظِيمِ ﴾ [التوبة : ١٢٩] وقال : ﴿ذُو ٱلْعَرْشِ ٱلْمَجِيدُ﴾ [البروج : ١٥] فوصفه اللَّه بالمجد والعظمة وكذلك بالكرم .

فهذا العرش استوى اللَّه فَوقَه فالله فَوقَ العرش ، والعرش فوق جميع المخلوقات ، والكرسي وهو صغير بالنسبة للعرش وسع السماوات والأرض كما قال تعالى : ﴿ وَسِعَ كُرْسِيُّهُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ ﴾ [البقرة : ٢٥٥] يجب عليك أن تؤمن بأن اللَّه تعالى فوق كل شيء وأن جميع الأشياء ليست بالنسبة إلى اللَّه شيئًا ، فالله أعْظَم وأجَل من أن يحيط به العقل أو الفكر ، بل حتى البصر إذا رأى اللَّه والله سبحانه يراه المؤمنون في الجنة لا يمكن أن يدركوه أو يحيطوا به كما قال اللَّه : ﴿ لَّا تُدْرِكُهُ ٱلْأَبْصَٰرُ وَهُوَ يُدْرِكُ ٱلْأَبْصَٰرَ ﴾ [الأنعام : ١٠٣] فشأن اللَّه أعْظَم شأن وأجل شأن ، فلا بد أن تؤمن بالله ﷻ على هَذَا الوَجه العَظيم حتى يوجب لك أن تعبده حَقَّ عبادته . ومن الإيمان بالله : أن تؤمن بأن اللَّه قد أحاط بكل شيء علمًا ، وأنه يعلم خائنة الأعينُ ومَا تخفي الصدور ، ويعلم ما في السَّماوات وما في الأرض من قليل وكثير وجَليل ودقيق ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَخْفَىٰ عَلَيْهِ شَىْءٌ فِى ٱلْأَرْضِ وَلَا فِى ٱلسَّمَآءِ ﴾ [آل عمران : ٥] وكذلك تؤمن بأن اللَّه تعالَى على كل شيء قدير ، وأنَّه إذا أراد شيئًا فإنَّما يقول له : كن . فيكون مهما كان هذا الأمر . وانظر إلى بَعْث النَّاس وخلق النَّاس . الناس ملايين لا يحصيهم إلا اللَّه ﷻ وقد قال اللَّه تعالى : ﴿ مَّا خَلْقُكُمْ وَلَا بَعْثُكُمْ إِلَّا كَنَفْسٍ وَٰحِدَةٍ ﴾ [لقمان : ٢٨] كل الخلائق خلقهم وبَعْثُهم كنفس واحدة .

---

(١) أخرجه البيهقي في الأسماء والصفات (٤٠٤/١ ، ٤٠٥) ، وابن الجوزي في زاد المسير (٣٠٤/١) .

وقال الله ﷻ في البعث : ﴿ فَإِنَّمَا هِيَ زَجْرَةٌ وَاحِدَةٌ ۝ فَإِذَا هُم بِالسَّاهِرَةِ ﴾ (١) [النازعات : ١٣، ١٤] .

وترى شيئًا من آيات الله في حياتك اليومية ؛ فإن الإنسان إذا نام فقد توفَّاه الله كما قال الله : ﴿ وَهُوَ الَّذِي يَتَوَفَّاكُم بِاللَّيْلِ ﴾ [الأنعام : ٦٠] لكنها ليست وفاة تامة تفارق فيه الروح الجسد مفارقة تامة ، لكن مفارقة لها نوع اتصال بالبدن ، ثم يبعث الله النائم من نومه فيحس بأنه قد حي حياة جديدة .

ولكن أثر هذا يظهر قبل أن توجد هذه الأنوار الكهربائية لما كان الناس إذا غشيهم الليل أحسوا بالظلمة وأحَسُّوا بالوحشة وأحسوا بالسكون ، فإذا انبلج الصبح أحَسوا بالأسفار والنور والانشراح فيجدون لذة لإدبَار الليل وإقبال النَّهار .

أما اليوم : فقد أصبحت اللَّيالي والأيام كأنها في النهار ، فلا نجد اللذة التي كنا نجدها من قبل ، لكن مع ذلك يحس الإنسان إذا استيقظ من نَومه فكأنما استيقظ إلى حياة جديدة ، وهذه من رحمة الله وحكمته .

وكذلك نؤمن بأن الله سَمِيعٌ بصير يَسْمَعُ كل ما نقول وإن كان خفيًّا قال الله تبارك وتعالى : ﴿ أَمْ يَحْسَبُونَ أَنَّا لَا نَسْمَعُ سِرَّهُمْ وَنَجْوَاهُم ۚ بَلَىٰ وَرُسُلُنَا لَدَيْهِمْ يَكْتُبُونَ ﴾ (٢) [الزخرف : ٨٠] ، وقال الله ﷻ : ﴿ يَعْلَمُ السِّرَّ وَأَخْفَى ﴾ [طه: ٧] ، أي : أخفى من السِّر وهو ما يُكِنه الإنسان في نفسه كما قال الله تعالى : ﴿ وَلَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنسَانَ وَنَعْلَمُ مَا تُوَسْوِسُ بِهِ نَفْسُهُ ﴾ [ق : ١٦] ، أي : ما تُحَدث به نفسه يعلمه الله وإن كان لم يظهر للعباد .

وهو ﷻ بَصير يُبْصر دَبيب النمل الأسود على الصَّخرة السَّوداء في ظلمة الليل لا يخفى عليه . فإذا آمنت بعلم الله وقُدْرته وسَمعه وبَصره ؛ أوجب لك ذلك أن تراعي رَبَّك ﷻ وأن لا تُسمعه إلا مَا يرضى بهِ ، وأن لا تفعل إلا ما يرضى به ؛ لأنك إن تكلمت سمعك ، وإن فعلت رآك الله فأنت تخشى ربك ويخاف من ربك أن يَراك حيث نهاك ، أو يَفقدك حيث أمَرَك ، وكذلك تخشى من ربك أن تُسمعه مالا يرضاه وأن تسكت عمَّا أمرك به . كذلك إذا آمنت بتمام قدرة الله فإنك تسأله كلما تريده مما لا يكون فيه اعتداء في الدعاء ولا تقل : إن هذا بعيد ولا يمكن ! كل شيء ممكن على قدرة الله ؛ فها هو موسى عليه السلام لما وصل إلى البحر الأحمر هَاربًا من فرعون وقومه ، أمره الله أن يضرب البحر بعصاه فَضَرَبَه فانفلق اثني عشرة طريقًا ، كان الماء بين هذه الطرق كالجبال ، وفي لحظة يبس البحر وصاروا يمشون عليه كأنما يمشون على صحراء لم يصبها الماء أبدًا بقدرة الله سبحانه وتعالى .

ويذكر أن سعد بن أبي وقاص رضي الله عنه لما كان يفتح بلاد فَارس ووصل إلى دِجلة - النهر المعروف في العراق - عَبَرَ الفرسُ النهر مشرقين وكسروا الجسور وأغرقوا السُّفن لئلا يعبر إليهم المسلمون فاستشار رضي الله عنه الصحابة ، وفي النهاية قرروا أن يعبروا النهر ، فعَبروا النهر يمشون على سطح الماء بخيلهم وإبلهم

---

(١) قوله ﴿ زَجْرَةٌ ﴾ أي : صيحة ، وقوله ﴿ بِالسَّاهِرَةِ ﴾ أي : وجه الأرض والعرب تسميه ساهرة ؛ لأن فيه نوم الحيوان وسهره ، وقيل : الساهرة أرض الشام .

(٢) قوله ﴿ وَنَجْوَاهُم ﴾ أي : ما تناجوا به ولم يطلع عليه غيرهم .

ورجلهم لم يمسهم سوء (١) !

فمن الذي أمسك هذا البحر حتى صار كالصَّفاء كالحجر يسير عليه الجند من غير أن يغرقوا؟ إنه هو اللَّه عَجَّلَ الذي على كل شيء قدير .

وكذلك جرى للعلاء بن الحضرمي ﷺ حينما غزا البحرين واعترض لهم البحر ، دعا اللَّه سبحانه فعَبروا على سطح الماء من غير أن يَمَسهم سُوء (٢) .

وآيات اللَّه كثيرة ، فكل ما أخبر اللَّه به في كتابه أو أخبر به رسوله عليه الصَّلاة والسلام أو شاهده الناس من خوارق العَادات فإن الإيمان به من الإيمان بالله ؛ لأنه إيمان بقدرة اللَّه ﷻ .

ومن الإيمان بالله عَجَّلَ أن تعلم أنه يراك ؛ فإن لم تكن تَرَاه فإنه يراك : وهذه مسألة يغفل عنها كثير من الناس تجده يتعبد لله وكأن العبادة أمْرٌ يفعله على سبيل العادة لا يفعلها كأنه يُشَاهد رَبه عَجَّلَ ، وهذا نقص في الإيمان ونقص في العمل .

ومن الإيمان بالله : أن تؤمن بأن الحكم لله العلي الكبير : الحكم الكوني والشْرعي كله لله لا حاكم إلا اللَّه ﷻ وبيده كل شيء كما قال اللَّه : ﴿ قُلِ ٱللَّهُمَّ مَٰلِكَ ٱلْمُلْكِ تُؤْتِى ٱلْمُلْكَ مَن تَشَآءُ وَتَنزِعُ ٱلْمُلْكَ مِمَّن تَشَآءُ وَتُعِزُّ مَن تَشَآءُ وَتُذِلُّ مَن تَشَآءُ بِيَدِكَ ٱلْخَيْرُ إِنَّكَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ﴾ [آل عمران : ٢٦] .

فكم من مَلك سُلِبَ مُلْكه بين عَشِية وضحَاها ، وكم من إنسان عَادي صَار مَلِكًا بين عشية وضحاها ؛ لأن الأمر بيد اللَّه ! وكم من إنسان عزيز يرى أنه غالب لكل أحد فيكون أذل عباد اللَّه بين عَشية وضحاها . وكم من إنسان ذليل يكون عزيزًا بين عَشِية وضُحاها ؛ لأن الملك والحكم لله ﷻ : وكذلك الحكم الشرعي لله ليس لأحد ، فالله تعالى هو الذي يُحَلل وُيحَرِّم ويوجب وليس أحد من الخلق له الفضل في ذلك .

الإيجاب والتحليل والتحريم لله ولهذا نهى اللَّه عباده أن يَصِفُوا شيئًا بالحلال والحرام بدون إذن فقال اللَّه تبارك وتعالى : ﴿ وَلَا تَقُولُوا۟ لِمَا تَصِفُ أَلْسِنَتُكُمُ ٱلْكَذِبَ هَٰذَا حَلَٰلٌ وَهَٰذَا حَرَامٌ لِّتَفْتَرُوا۟ عَلَى ٱللَّهِ ٱلْكَذِبَ إِنَّ ٱلَّذِينَ يَفْتَرُونَ عَلَى ٱللَّهِ ٱلْكَذِبَ لَا يُفْلِحُونَ ۝ مَتَٰعٌ قَلِيلٌ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴾ [النحل : ١١٦- ١١٧] فالحاصل أن الإيمان بالله بابُه وَاسِع جدًّا ولو ذهب الإنسان يتكلَّم عليه لبقي أيامًا كثيرة ولكن الإشارة تُغني عن طَويل العِبارة .

وقوله ﷺ : « وَمَلائِكَتِه » :

والملائكة : هم عَالَم غَيبي خلقهم اللَّه سبحانه وتعالى من نُور وجعل لهم أعمالًا خاصة كل منهم يعمل بما أَمَرَهُ اللَّه بِهِ وقد قال اللَّهُ في ملائكة النار : ﴿ عَلَيْهَا مَلَٰٓئِكَةٌ غِلَاظٌ شِدَادٌ لَّا يَعْصُونَ ٱللَّهَ مَآ أَمَرَهُمْ وَيَفْعَلُونَ مَا يُؤْمَرُونَ ﴾ [التحريم : ٦] فهم ليس عندهم اسْتِكبار عن الأمر ولا عَجْز عنه يفعلون مَا أمِرُوا به وَيقْدِرُون عليه بخلاف البَشَر .

---

(١) انظر القصة في : تاريخ الطبري (٢٠٣/٤) ، والبداية والنهاية (٦٤/٧) .

(٢) راجع القصة في : تاريخ الطبري (٦/٤) .

البَشر قد يستكبرون عن الأمر وقد يعجزون عَنْهُ ، أما الملائكة : فخلقوا لِتَنْفِيذ أمر اللَّه سَواء في العِبادات المُتَعَلِّقَة بهم أو في مصَالح الخلق .

فمثلًا : جبريل أشْرفُ الملائكة مُوَكل بِالوَحي يَنْزل به من اللَّه عَلَى رُسُله وأنبيائه ؛ فهو مُوَكل بأشْرف شيء ينتفع به الخلق والعباد ، وهو ذو قوة أمين مُطَاع بين الملائكة ولهذا كان أشرف الملائكة . كما أن محمدًا ﷺ أشْرف الرُّسل قال ﷺ : ﴿ عَلَّمَهُۥ شَدِيدُ ٱلْقُوَىٰ ۝ ذُو مِرَّةٍ فَٱسْتَوَىٰ ۝ وَهُوَ بِٱلْأُفُقِ ٱلْأَعْلَىٰ ﴾ (١) [النجم : ٦ ، ٧] يعني علم النبي ﷺ القرآن ، شديد القوى أي ذو القوى الشديدة وهو جبريل .

﴿ ذُو مِرَّةٍ ﴾ : أي ذُو هَيئَةٍ حَسَنة ﴿ فَٱسْتَوَىٰ ﴾ : أي كَمُلَ وعَلَا وهو بالأفق الأعلى .

وقال ﷻ : ﴿ إِنَّهُۥ لَقَوْلُ رَسُولٍ كَرِيمٍ ﴾ أي : جبريل ﴿ ذِى قُوَّةٍ عِندَ ذِى ٱلْعَرْشِ مَكِينٍ ۝ مُّطَاعٍ ثَمَّ أَمِينٍ ﴾ [التكوير : ١٩- ٢١] .

ومن هؤلاء أيضًا : من وكلوا بمصالح الخلق من جهة أخرى في حياة الأرض والنبات مثل مِيكَائِيل : فإن ميكائيل موَكَّل بالقطر - أي المطر - والنبات وفيهما حياة الأبدان حياة الناس والبهائم .

فالأول جبريل مُوَكلٌ بما فيه حياة القلوب وهو الوحي ، وهذا موكل بما فيه حياة الأبدان وهو القطر والنبات .

ومنهم إسرافيل : وهو أحد حَمَلة العَرش العظام ، وهو مُوَكلٌ بالنفخ في الصُّور وهو قرن عظيم دائرة كما بين السماء والأرض . فإذا سمعه الناس سَمِعُوا صَوتًا لا عَهْدَ لَهُم به ، صوتًا مزعجًا فيفزعون ثم يصعقون أي : يموتون من شدة هذا الصوت .

ثم ينفخ فيه أخرى فإذا هم قيام ينظرون تطاير الأرْواح من هذا القرن ، ثم تَرْجع كل روح إلى بدنها الذي تعمره في الدنيا لا تخطئه شعرة بأمر اللَّه ﷻ . فكل هؤلاء الثلاثة مُوَكلُون بما فيه الحياة !

فجبريل مُوَكل بحياة القلوب ، وميكائيل بما فيه من حياة النبات والأرض ، وإسرافيل بما فيه حياة الأبدان .

ولهذا كان النبي ﷺ يُثْني على اللَّه بربوبيته لهؤلاء الملائكة الثلاثة في افتتاح صلاة الليل فكان يقول في افتتاح صلاة الليل بدل « سُبْحانَكَ اللهُم وَبحَمْدِكَ » (٢) يقول : « اللهم رَب جبرائيل وميكائيل وإِسْرَافيل ، فاطر السَّمَاواتَ والأرْض ، عالم الغيب والشهادة ، أَنت تحكم بين عِبَادك فيما كانوا فيه يختلفون ، اهدني لما اختُلفَ فيه من الحق بإذنك ، إنك تهدي من تشاء إلى صراطٍ مُستقيم » (٣) .

ومنهم من وكل بقبض الأرواح : وهو مَلَكُ الموت وله أعوان يُساعدونه على ذلك وينزلون بالكفن

(١) قوله ﴿ بِٱلْأُفُقِ ٱلْأَعْلَىٰ ﴾ أي ظهر بالجهة العليا من السماء فسد الأفق إلى المغرب .

(٢) أخرجه الترمذي في السنن (٢٤٣) وأبو داود في السنن (٧٧٦) وابن ماجه في السنن (٨٠٦) .

(٣) أخرجه مسلم في صلاة المسافرين (٢٠٠) والترمذي في السنن (٣٤٢٠) وأحمد في مسنده (١٥٦/٦) ، وقوله « فاطر السماوات » أي موجدها على غير مثال يحتذى ، وقوله « الغيب والشهادة » أي السر والعلانية .

والحنوط للروح التي تخرج من الجسد إن كان من أهل الإيمان - جعَلنا اللّه منهم - فإنهم ينزلون بكفن من الجنة وحَنُوط من الجنة ، وإن كانوا من أهل النيران نزلوا بحنوط من النار وكفَن من النار ، ثم يجلسون عند المحتضر الذي حضر أجله ويخرجون روحه حتى تبلغ الحلقوم ، فإذا بلغت الحلقوم استلَّها ملك الموت ثم أعطاهم إياها فوضعوها في الحنوط والكفن [١] !

الملائكة تكفن وتحنط الروح والبشر يكفنون ويحنطون البدن ! انظر إلى عناية اللّه بالآدمي !! ملائكة يكفنون روحه وبشر يكفنون بدنه ، ولهذا قال اللّه ﷻ : ﴿ حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءَ أَحَدَكُمُ ٱلْمَوْتُ تَوَفَّتْهُ رُسُلُنَا وَهُمْ لَا يُفَرِّطُونَ ﴾ [الأنعام: ٦١] لا يفرطون في حِفْظِها : ولا يفرطون فيها .

ملك الموت أعطاه اللّه قدرة على قبض الأرواح في مَشَارق الأرض ومَغَاربها يَقْبِضُها ولو ماتوا في لحظة واحدة . ولا تستغرب ؛ لأن الملائكة لا يُقَاسون بالبشر ؛ لأن اللّه أعطاهم قدرة عظيمة أشد من الجن . الجن أقوى من البَشَر ، والملائكة أقوى من الجن .

انظر !! قصة سليمان حيث قال : ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلْمَلَؤُا۟ أَيُّكُمْ يَأْتِينِى بِعَرْشِهَا قَبْلَ أَن يَأْتُونِى مُسْلِمِينَ ۝٣٨ قَالَ عِفْرِيتٌ مِّنَ ٱلْجِنِّ ﴾ عفريت قوي شديد ﴿ أَنَا۠ ءَاتِيكَ بِهِۦ قَبْلَ أَن تَقُومَ مِن مَّقَامِكَ ۖ وَإِنِّى عَلَيْهِ لَقَوِىٌّ أَمِينٌ ﴾ [النمل: ٣٨، ٣٩] ، أين مكان العرش ؟

جـ : في اليمن ، وسُليمان في الشام مَسيرة شهر بينهما . وكان سُليمان عادة يقوم من مقامه في سَاعة معينة ! فـ ﴿ قَالَ ٱلَّذِى عِندَهُۥ عِلْمٌ مِّنَ ٱلْكِتَٰبِ أَنَا۠ ءَاتِيكَ بِهِۦ قَبْلَ أَن يَرْتَدَّ إِلَيْكَ طَرْفُكَ ﴾ . الثاني أسرع من الأول .

أي : مدَّة بَصرَك ، ما ترده إلا وقد جاءك ﴿ فَلَمَّا رَءَاهُ ﴾ حالًا رآه ﴿ مُسْتَقِرًّا عِندَهُۥ ﴾ قال العلماء : إن هذا الذي عنده علم من الكتاب دعا اللّه باسمه الأعظم فحملت الملائكة العَرش من اليمن إلى الشام [٢] في هذه اللحظة إذًا فالملائكة أقوى من الجن .

فلا تَسْتغرب أن يموت الناس في مشارق الأرض ومغاربها وأن يَقْبض أرواحهم ملك واحد كما قال اللّه : ﴿ قُلْ يَتَوَفَّىٰكُم مَّلَكُ ٱلْمَوْتِ ٱلَّذِى وُكِّلَ بِكُمْ ثُمَّ إِلَىٰ رَبِّكُمْ تُرْجَعُونَ ﴾ [سورة السجدة ، الآية : ١١] .

إذا قال اللّه لهذا الملك اقبض روح كل من مات هل يمكن أن يقول لا ؟

لا يمكن ؛ لأنهم لا يعْصُون اللّه ما أمرهم ، ولهذا لما قال اللّه للقلم : اكتب ما هو كائن الى يوم القيامة [٣] .

القلم جَمَاد فَهَل كتب أم لا ؟

جـ : كتب ما هو كائن إلى يوم القيامة ، فالله ﷻ إذا أمر بأمر لا يمكن أن يَعْصَى ، إلا المَرَدة من الجن أو من بني آدم ، أما الملائكة فلا يَعْصُون اللّه !

---

(١) انظر في ذلك أحمد في مسنده (٢٨٧/٤ ، ٢٩٦) .

(٢) هذا هو قول مجاهد ، وقتادة وابن زيد انظر تفسير الطبري (١٩٨/١٩) .

(٣) انظر الحديث في الترمذي في التفسير (٦٨) وأحمد في مسنده (٣١٧/٥) .

والملك الخامس مالِك المُوَكل بالنار : وهو خَازنها ، وقد ذكره اللَّه في قوله عن أهل النار : ﴿ وَنَادَوْا يَمَالِكُ لِيَقْضِ عَلَيْنَا رَبُّكَ قَالَ إِنَّكُم مَّكِثُونَ ﴾ [الزخرف : ٧٧] . ما معنى ليقضِ علينا ؟

جـ : يعني ليمتنا ويُهْلِكنا وَيُرِحْنا مما نحن فيه ﴿ قَالَ إِنَّكُم مَّكِثُونَ ﴾ .

السَّادس : خازن الجَنَّة : وَوَرَدَ في بعض الآثار أن اسمه (رضوان) وهذا وُكل بالجنة كما أن مالكًا وُكل بالنار .

فمن علمنا اسمه من الملائكة آمنا به باسمه ، ومن لم نعلم باسمه آمنا به على سبيل الإجمال ، آمنا بعمله الذي نعلمه وبوصفه وبكل ما جاء به الكتاب والسُّنة من أوصاف هؤلاء الملائكة .

نحن قلنا : إن الملائكة عَالَم غيبي فهل يمكن أن يُرَوا ؟

جـ : الجواب : نعم قد يُرونَ إما على صورتهم التي خلقوا عليها ، وإما على صورة من أراد اللَّه أن يكون على صورته ؛ فجبريل رآه النبي ﷺ على صُورته في الأرض وفي السَّماء عند سدرة المنتهى (١) كما قال اللَّه ﴿ وَلَقَدْ رَءَاهُ نَزْلَةً أُخْرَىٰ ۝ عِندَ سِدْرَةِ ٱلْمُنتَهَىٰ ﴾ [النجم : ١٣، ١٤] أتدرون كيف رآه ؟

جـ : رآه وله سُتمائة جناح قد سَد الأفق أي : ملأ الأفق كله ولا يعلم قدر الأجنحة إلا اللَّه ﷻ ، لكن إذا كان الشيء عاليًا وسد الأفق فهو معناه أنَّه واسع جدًّا .

هذا الذي رآه النبي ﷺ على صُورته مرتين أحيانًا يأتيه بصُورة إنسان كما في حديث عمر في قصة جبريل ؛ فقد جاءه بصورة رجل شديد سواد الشَّعر شديد بياض الثياب لا يُرَى عليه أثر السفر ولا يعرفه الصحابة ، والله على كل شيء قدير قد أعطاهم اللَّه ﷻ ذلك أن يَتَصوروا بصُور البَشَر إما بالاختيار وإمَّا بالإرادة . اللَّه يأمرهم أن يكونوا على هذه الصُّورة ، فالله أعلم .

إنما هذه حال الملائكة - عليهم الصلاة والسَّلام - وتفاصيل ما ورد فيهم مذكور في كتاب اللَّه وفي سُنة رسول اللَّه ﷺ ، لكن علينا أن نؤمن بهؤلاء الملائكة وأنَّهم أقوياء أشِدَّاء قال اللَّه لهم في غزوة بدر : ﴿ أَنِّي مَعَكُمْ فَثَبِّتُوا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا سَأُلْقِي فِي قُلُوبِ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا ٱلرُّعْبَ فَٱضْرِبُوا فَوْقَ ٱلْأَعْنَاقِ وَٱضْرِبُوا مِنْهُمْ كُلَّ بَنَانٍ ﴾ [الأنفال : ١٢] ، فكانوا يقاتلون مع الصَّحابة في بدر فيرى الكافر يسقط مضروبًا بالسيف على رأسه ولا يدرى الذي قتله والذي قتله هم الملائكة ؛ لأن اللَّه قال لهم : ﴿ فَٱضْرِبُوا فَوْقَ ٱلْأَعْنَاقِ وَٱضْرِبُوا مِنْهُمْ كُلَّ بَنَانٍ ۝ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ شَآقُّوا ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ وَمَن يُشَاقِقِ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ فَإِنَّ ٱللَّهَ شَدِيدُ ٱلْعِقَابِ ﴾ [الأنفال : ١٢، ١٣] فعلينا أن نؤمن بهم من عَلِمْنَاه بعَينه آمنا به بِعَينِهِ وإلا فَالإجمال وأن نُؤمن بمن جاء عنهم من عبادات وأعمال على وفْق ما جاء في الكتاب والسُّنة والإيمان بهم أحد أركان الإيمان الستة ومنَ أنْكَرهُم أو كذب بهم ، أو قال : إنهم لا وُجُودَ لهم أو قال : إنهم قوى الخير والشياطين قُوى الشر فقد كفر كفرًا مخْرجًا عن المِلة ؛ لأنه مكَذِّب لله ورَسُوله وإجماع المسلمين . لقد ضل قوم غاية الضلال حيث أنكروا أن يكون هنَاكَ ملائكة - والعياذ بالله ، وقالوا : إنَّ

(١) انظر الحديث في البخاري في بدء الخلق (٣٢٣٤) وأحمد في مسنده (٤٠١/١) .

الملائكة عبارة عن قُوى الخير وليس هناك شيء يسَمَّى عالم الملائكة .

وهؤلاء إنْ قالوا هذا مُتأوِّلين ، فإنَ الواجب أن نبين لهم أن هذا تأويل باطل ، بل تحريف ، وإن قالوه غير متأولين ؛ فإنهم كفار لأنَّهم مُكَذبون لما جاء به الكتاب والسُّنة وأجمعت عليه الأمة من وجود الملائكة والله قادر على أن يخلق عَالمًا كاملًا لا يحس به البشر عن طريق حَواسهم المُعْتادة فها هم الجن مَوجُودون ولا إشكال في وجودهم ومع ذلك لا تدركهم حَوَاسنا الظَّاهرة كما تدرك الأشياء الطاهرة ولله في خَلْقه شؤون .

وقوله : « وَكُتُبه » :

وهو الركن الثالث : والكتب جمع كتاب والمراد به الكتاب الذي أَنْزَلَهُ اللَّه على الرُّسل . فكُلُّ رَسُول لهُ كتاب كما قال تعالى : ﴿ اللَّهُ الَّذِي أَنزَلَ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ وَالْمِيزَانَ ﴾ [الشورى : ١٧] وقال : ﴿ لَقَدْ أَرْسَلْنَا رُسُلَنَا بِالْبَيِّنَاتِ وَأَنزَلْنَا مَعَهُمُ الْكِتَابَ وَالْمِيزَانَ لِيَقُومَ النَّاسُ بِالْقِسْطِ ﴾[1] [الحديد : ٢٥] .

لكن من الكتب ما لا نعلمه ومنها ما نعلمه ؛ فالتوراة : وهو الكتاب الذي أنزله اللَّه على مُوسى معلوم ، والإنجيل : وهو الكتاب الذي أنزله اللَّه على عيسى مَعْلوم ، وصحف إبراهيم : مذكورة في القرآن ، وَزَبُور دَاوُد : مَذْكُور في القرآن ، وصُحف مُوسَى : إن كانت غير التَّوراة مذكورة في القرآن أيضًا .

فما ذكر اللَّه اسمه في القرآن وجب الإيمان به بعَينه واسمه ، وما لم يذكر فإنه يؤمن به إجمالًا .

فنؤمن بأن اللَّه أنزل على مُوسى كِتابًا هو التوراة ، وعلَى عيسى كتابًا هو الإنجيل ، وعلى داود كتابًا هو الزبور ، وعلى إبراهيم صحفًا هكذا ، ولا يعني ذلك أن ما وجد عند النصارى اليوم هو الذي نزل على عيسى ؛ لأن الأناجيل الموجودة في أيدي النصارى اليوم محرفة ومغيرة ومُبَدلة ، لَعِبَ بها قساوسة النصارى فزادوا فيها ونقصوا وحرفوا ، ولهذا تجدها تنقسم إلى أربعة أقسام أو خمسة ، ومع ذلك فإن الكتاب الذي نزل عَلى عِيسى كتاب واحد ، لكن اللَّه إنما تكَفل بحفظ الكتاب الكريم الذي نزل على محمد ﷺ ؛ لأنه لا نبي بَعْدَهُ يبين للناس ما هو الصحيح ، وما هو المحرف . أما الكتب السابقة : فإنها لم تخلُ من التحريف ؛ لأنه سيبعث أنبياء يُبيِّنُونَ فيها الحق وُيبَينونَ فيها المحرف ، وهذا هو السر في أن اللَّه تكفل بحفظ القرآن دُون غيره من الكتب من أجل أن يعلم الناس حَاجتهم إلى الأنبياء إذا وجدوا الكتب محرفة فتأتي الأنبياء وتبين الحق .

فالمهم أن نُؤمن بأن الكتاب الذي نزل على النبي المعين حق من عند اللَّه لا على أن الكتاب الذي في أيدي أتباعه اليوم هو الكتاب الذي نزل ، بل قطعًا إنه مُحرف ومُغير ومُبَدل .

ومن الإيمان بالكتب : أن تؤمن بأن كل خبر جاء فيها فهو حق كما أن كل خبر في القرآن فهو حق ؛ لأن الأخبار التي جاءت في الكتب التي نَزَلت على الأنبياء من عند اللَّه ، وكل خبر من عند اللَّه فَهو حق ، وكذلك تؤمن بأَنَّ كل حكم فيها صحيح من عند اللَّه فهو حق ؛ لأن جميع أحكام اللَّه

---

(١) قوله ﴿ بِالْقِسْطِ ﴾ أي : بالعدل في كل شئونهم .

التي ألزم اللَّه بها عباده كلها حق ، لكن هل هي بَقِيت إلى الآن غير محرفة ؟ هذا السؤال بَيَّنَّا الجواب عنه ، ولكن هل علينا أن نعمل بالأحكام التي جاءت بها الكتب السابقة ؟ .

جـ : نقول : أما ما قصَّه اللَّه علينا من هذه الكتب ؛ فإننا نعمل به ما لم يَرِد شَرْعنا بخلافه .

مثاله : قوله تعالى عن التوراة : ﴿ وَكَتَبْنَا عَلَيْهِمْ فِيهَآ أَنَّ ٱلنَّفْسَ بِٱلنَّفْسِ وَٱلْعَيْنَ بِٱلْعَيْنِ وَٱلْأَنفَ بِٱلْأَنفِ وَٱلْأُذُنَ بِٱلْأُذُنِ وَٱلسِّنَّ بِٱلسِّنِّ وَٱلْجُرُوحَ قِصَاصٌ ۚ فَمَن تَصَدَّقَ بِهِۦ فَهُوَ كَفَّارَةٌ لَّهُۥ ۚ وَمَن لَّمْ يَحْكُم بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ فَأُو۟لَـٰٓئِكَ هُمُ ٱلظَّـٰلِمُونَ ﴾ [المائدة : ٤٥] هذه مكتوبة في التوراة ونقلها اللَّه ﷻ في القرآن .

لكن اللَّه ﷻ لم يقصها علينا إلا من أجل أن نعتبر ونعمل بها كما قال اللَّه : ﴿ لَقَدْ كَانَ فِى قَصَصِهِمْ عِبْرَةٌ لِّأُو۟لِى ٱلْأَلْبَـٰبِ ﴾ [يوسف : ١١١] ، وقال : ﴿ أُو۟لَـٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ هَدَى ٱللَّهُ ۖ فَبِهُدَىٰهُمُ ٱقْتَدِهْ ﴾ [الأنعام : ٩٠] فما قصَّه اللَّه علينا وَمَا نَقَلَهُ لنا من الكتب السابقة فهو شرع لنا ؛ لأن اللَّه لم يذكره عَبَثًا إلَّا إذا وَرَدَ شَرْعنا بخلافه فَيَصير نَاسِخًا لها . كما أن من الآيات الشرعية النازلة في شرعنا ما يكون منسُوخًا بآيات أخرى . فكذلك ما ذكره اللَّه عن الكتب السابقة نقلًا ؛ فإنه قد ينسخ بهذه الشريعة .

أمَّا ما جاء في كتبهم لهم : فإننا لا نُصدقه ولا نكذبه ، كما أمر بذلك النبي عليه الصَّلاة والسلام فيما إذا حدثنا بنو إسْرَائيل أن لا نُصَدِّقهم ولا نكذبهم (١) . لأننا ربما نُصدقهم بالباطل وربَّما نُكَذبهم بحق فنقول : آمنا بالله وما أنزل إلينا وَمَا أنزل إليكم ، ولا نُصَدقهم ولا نكذبهم إذا لم يَشْهد شرعنا بصحته ولا بكَذبه . فإن شهد بصحته أو بكذبه عملنا ما تقتضيه هذه الشَّهادة . ومن ذلك ما تقتضيه هذه الشهادة إلى بعض الأنبياء عليهم الصلاة والسلام ، كما ذُكر عن داود أنه أعجبته امرأة رَجل من جنده فأحبها وطلب من الجندي أن يذهب إلى العدو ويقاتل لَعَله يقْتل فيأخذ امرأته من بَعْده !

وأنه أرسل الجندي فبعث اللَّه إليه جماعة من الملائكة يختصمون إليه فقال أحد الخصمين : ﴿ إِنَّ هَـٰذَآ أَخِى لَهُۥ تِسْعٌ وَتِسْعُونَ نَعْجَةً وَلِىَ نَعْجَةٌ وَٰحِدَةٌ فَقَالَ أَكْفِلْنِيهَا وَعَزَّنِى فِى ٱلْخِطَابِ ۝٢٣ قَالَ لَقَدْ ظَلَمَكَ بِسُؤَالِ نَعْجَتِكَ إِلَىٰ نِعَاجِهِۦ ۖ وَإِنَّ كَثِيرًا مِّنَ ٱلْخُلَطَآءِ لَيَبْغِى بَعْضُهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ إِلَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّـٰلِحَـٰتِ وَقَلِيلٌ مَّا هُمْ ۗ وَظَنَّ دَاوُۥدُ أَنَّمَا فَتَنَّـٰهُ فَٱسْتَغْفَرَ رَبَّهُۥ وَخَرَّ رَاكِعًا وَأَنَابَ ﴾ [ص : ٢٣ ، ٢٤] قالوا : فهذا مَثَل ضربه اللَّه لِداود حيث كان عنده من النساء ما يبلغ تسعًا وتسعين امرأة فحاول أن يأخذ امرأة هذا الجندي ليكمل بها المائة !

فهذه القِصة كذبٌ واضح (٢) ، لأن داود نبي من الأنبياء ولا يمكن أن يتحيل هذه الحِيلَة لو أنه غير نبي ما فعل هذا وهو عاقل فكيف وهو نبي ؟!. فمثل هذه القِصة جَاءَت عن بني إسرائيل نقول : إنها كذب ؛ لأنها لا تليق بالنبي ، ولا بأيِّ عاقل .

والخلاصة : أن ما جاء في كتبهم ينقسم إلى قسمين رئيسيين :

(١) انظر الحديث في : البخاري في التوحيد (٧٥٤٢) والبيهقي في السنن (١٦٣/١٠) ، والبغوي في شرح السنة (٢٩٦/١) .

(٢) مما يؤسف له أن هذه القصة وردت عند بعض المفسرين مثل : الطبري (١٧٥/٢٣) والسيوطي في الدر المنثور (٣٠٣/٥) ، وقد نقلت هذه القصة عن وهب بن منبه ولم يثبت فيها حديث عن النبي ﷺ يجب اتباعه ؛ بل إن مثل هذه القصة لا تصح في حق أي نبي من الأنبياء لأنهم منزهون عن مثل هذه الأمور ؛ لأنهم الأئمة في الخير والهدى ، والمصطفون الأخيار .

أولًا : ما قصَّه اللَّه علينا في القرآن أو قصَّه علينا رسول اللَّه ﷺ فهذا مقبول صحيح .

والثاني : ما نقلوه هم ، فهذا لا يخلو من ثلاث حالات :

الحالة الأولى : أن يشهد شرعنا بكذبه فيجب علينا أن نكذبه ونرده .

والثانية : ما شهِد شرعنا بصدْقه فنُصَدقه ونقبله لشهادة شرعنا به .

والثالث : ما ليس هذا ولا هذا ؛ فيجب علينا أن نتوقف ؛ لأنهم لا يؤمَنون ويحْصل في خبرهم الكذب والتغيير والزيادة والنَّقص .

قوله : « ورسله » هذا هو الركن الرابع :

الرسل هم البَشَر الذين أرسلهم اللَّه إلى الخلق وجعلهم واسطة بينهم وبين عباده في تَبْليغ شَرَائِعه ، وهم بشر خلقوا بين أب وأم إلا عيسى ابن مريم فإن اللَّه خلَقَهُ من أم بلا أب .

أرسلهم اللَّه سبحانه وتعالى رَحْمَة بالعباد وإقامة للحجة عليهم كما قال اللَّه تعالى : ﴿ إِنَّآ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ كَمَآ أَوْحَيْنَآ إِلَىٰ نُوحٍ وَٱلنَّبِيِّـۧنَ مِنۢ بَعْدِهِۦ ﴾ إلى قوله : ﴿ رُّسُلًا مُّبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَ لِئَلَّا يَكُونَ لِلنَّاسِ عَلَى ٱللَّهِ حُجَّةٌۢ بَعْدَ ٱلرُّسُلِ ﴾ [1] [النساء : ١٦٣- ١٦٥] .

وهم عدد كثير أولهم نوح وآخرهم محمد ﷺ ودليل ذلك قوله تعالى : ﴿ إِنَّآ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ كَمَآ أَوْحَيْنَآ إِلَىٰ نُوحٍ وَٱلنَّبِيِّـۧنَ مِنۢ بَعْدِهِۦ ﴾ وقد صح في الصحيحين وغيرهما في حديث الشفاعة « أن الناس يوم القيامة يأتون إلى نوح فيقولون له : أنت أول رَسول أرسَلَه اللَّه الى أهل الأرض » [2] .

أما دليل كون النبي عليه الصلاة والسلام آخر الرسل فهو قوله تعالى : ﴿ مَّا كَانَ مُحَمَّدٌ أَبَآ أَحَدٍ مِّن رِّجَالِكُمْ وَلَـٰكِن رَّسُولَ ٱللَّهِ وَخَاتَمَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ ﴾ [الأحزاب : ٤٠] .

وصح عنه ﷺ أنه قال : « أنا خاتم النبيين » [3] وعلينا أن نُؤمن أن جميع الأنبياء صادقون فيما بلغوا به عن اللَّه وفي رِسَالتهم .

– علينا أن نؤمن بأسْمَاء من عينت أسماؤهم لنا ومن لم تُعَين أسماؤهم لنا ؛ فإننا نؤمن بهم على سبيل الإجمال .

– علينا أن نؤمن أن مَا مِن أمة إلا أرسل اللَّه إليها رسولًا لتقوم عليهم الحجة كما قال اللَّه : ﴿ وَلَقَدْ بَعَثْنَا فِى كُلِّ أُمَّةٍ رَّسُولًا أَنِ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ وَٱجْتَنِبُوا۟ ٱلطَّـٰغُوتَ ﴾ [النحل : ٣٦] . وقال تعالى : ﴿ وَإِن مِّنْ أُمَّةٍ إِلَّا خَلَا فِيهَا نَذِيرٌ ﴾ [فاطر : ٢٤] .

وعلينا أن نُصَدق بكل ما أخبرت به الرسل إذا صح عنهم من جهة النَّقل ونعلم أنه حق .

---

(١) قوله ﴿ حُجَّةٌ ﴾ أي : دليل وبرهان (المعجم الوسيط ١/١٦٣) .

(٢) أخرجه البخاري في الأنبياء (٣٣٤٠) ومسلم في الإيمان (٣٢٢) وأحمد في مسنده (٣/١١٦) .

(٣) أخرجه البخاري في المناقب (٣٥٣٥) ومسلم في الفضائل (٢٢) والترمذي في السنن (٢٢١٩) وأحمد في مسنده (٢/٣٩٨) .

وعلينا أن نتبع خاتمهم محمدًا ﷺ ؛ لأنه هو الذي فرض علينا اتباعه قال الله تعالى : ﴿ قُلْ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِنِّى رَسُولُ ٱللَّهِ إِلَيْكُمْ جَمِيعًا ٱلَّذِى لَهُۥ مُلْكُ ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۖ لَآ إِلَـٰهَ إِلَّا هُوَ يُحْىِۦ وَيُمِيتُ ۖ فَـَٔامِنُوا۟ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِ ٱلنَّبِىِّ ٱلْأُمِّىِّ ٱلَّذِى يُؤْمِنُ بِٱللَّهِ وَكَلِمَـٰتِهِۦ وَٱتَّبِعُوهُ لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ ﴾ [الأعراف : ١٥٨] فأمرنا الله باتباعه وقال تعالى : ﴿ قُلْ إِن كُنتُمْ تُحِبُّونَ ٱللَّهَ فَٱتَّبِعُونِى يُحْبِبْكُمُ ٱللَّهُ ﴾ [آل عمران : ٣١] أمَّا مَا سِواه من الرسل فإننا نتبعهم إذا ورد شرعنا بالأمر باتباعهم مثل قوله عليه الصلاة والسلام : « أفضَل الصلاة صَلاة أخي دَاوُد ، كان ينام نِصف الليل ، ويقوم ثُلثه ، ويَنَام سُدُسَه ، وأفْضَلُ الصِّيام صيام أخي داود ؛ كان يَصُوم يَومًا ، ويُفطِر يَومًا » (١) فهذا حكاية لتعبد داود وتهجده في الليل وكذلك صيامه من أجل أن نتبعه فيه .

أما إذا لم يَرِد شَرْعنا بالأمْر باتباعه فقد اختلف العلماء - رحمهم الله - هل شَرْعُ مَنْ قَبْلنا شَرْعٌ لنا مَا لَم يَرِد شرْعُنا بالأمر بخلافه ، أو أنه ليس بشرع لنا حتى يرد شرعنا باتباعه ؟

والصحيح : أن شرع مَنْ قبلنا شَرْعٌ لنا إذا لم يرد شرعنا بخلافه ؛ لأنَّه تعالى لما ذكر الأنبياء والرسل قال لنبيه ﷺ : ﴿ أُو۟لَـٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ هَدَى ٱللَّهُ ۖ فَبِهُدَىٰهُمُ ٱقْتَدِهْ ﴾ [الأنعام : ٩٠] فأمر الله نبيه محمدًا ﷺ أن يقتدي بهدي من سبقه .

وقال الله تعالى : ﴿ لَقَدْ كَانَ فِى قَصَصِهِمْ عِبْرَةٌ لِّأُو۟لِى ٱلْأَلْبَـٰبِ ﴾ [يوسف : ١١١] وهذه في آخر سورة يوسف التي قص الله علينا قِصة مطولة من أجل أن نعتبر بما فيها .

ولهذا أخذ العلماء - رحمهم الله - من سورة يوسف فوائد كثيرة في أحكام شرعية في القضاء وغيرها ، وأخذوا منها : العَمَل بالقرائن عند الحكم لقوله تعالى : ﴿ وَشَهِدَ شَاهِدٌ مِّنْ أَهْلِهَآ إِن كَانَ قَمِيصُهُۥ قُدَّ مِن قُبُلٍ فَصَدَقَتْ وَهُوَ مِنَ ٱلْكَـٰذِبِينَ ۝ وَإِن كَانَ قَمِيصُهُۥ قُدَّ مِن دُبُرٍ فَكَذَبَتْ وَهُوَ مِنَ ٱلصَّـٰدِقِينَ ﴾ [يوسف : ٢٦، ٢٧] فقالوا هذه قرينة ؛ لأنه إذا كان القميص ﴿ قُدَّ مِن قُبُلٍ ﴾ فالرجل هو الذي طالبها فَقدَّتْ قميصه ، وإذا كان ﴿ مِن دُبُرٍ ﴾ من الخلف فَهي التي طلبته وَجرَّت قميصه حتى انقدَّ ؛ فهذه قرينة ثبت بها الحكم ، والعلماء اعتمدوا هذه القَرينة وإن كان في السُّنة ما يدل على الحكم بالقرائن في غير هذه المسألة .

لكن الراجح أن « شَرْعَ مَنْ قبلنا شرعٌ لَنَا مَا لَم يَرِد شَرْعنا بخلافه » .

وللرسل علينا : أن نحبَّهم وأن نعظمهم بما يستحقون وأن نشهد أنهم في الطبقة العليا من طبقات أهل الخير والصلاح كما قال الله : ﴿ وَمَن يُطِعِ ٱللَّهَ وَٱلرَّسُولَ فَأُو۟لَـٰٓئِكَ مَعَ ٱلَّذِينَ أَنْعَمَ ٱللَّهُ عَلَيْهِم مِّنَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ وَٱلصِّدِّيقِينَ وَٱلشُّهَدَآءِ وَٱلصَّـٰلِحِينَ ۚ وَحَسُنَ أُو۟لَـٰٓئِكَ رَفِيقًا ﴾ (٢) [النساء : ٦٩] .

أما الركن الخامس فهو : « الإيمانُ باليوم الآخر » :

واليوم الآخر : هو يوم القيامة وسُمِّي بذلك ؛ لأنه لا يوم بعده . فالإنسان له مراحل أربع : مرحلة

---

(١) أخرجه النسائي في السنن (٤/٢٠٩) بلفظه ، والبخاري في التهجد (١١٣١) ومسلم في الصيام (١٨٩) كلاهما بلفظ : « أحب الصيام » .

(٢) قوله ﴿ وَٱلصِّدِّيقِينَ ﴾ أي : الذين صدق قولهم عملهم .

في بطن أمه ، ومرحلة في الدنيا ، ومرحلة في البرزخ ، ومرحلة يوم القيامة ، وهي آخر المراحل ولهذا سُمي اليوم الآخر ، يسكن فيه الناس إما بالجنة - نَسْأل اللَّه أن يجعلني وإياكم منهم - وإما في النار والعياذ بالله .

الإيمان باليوم الآخر يدخل فيه كما قال شيخ الإسلام ابن تيمية رَحِمَهُ اللَّهُ في كتاب العقيدة الواسطية وهو كتاب مختصر في عقيدة أهل السُّنة والجماعة من أحسن ما كتبه شيخ الإسلام رَحِمَهُ اللَّهُ في جمعه ووضوحه وعدم الاستطرادات الكثيرة .

يقول رَحِمَهُ اللَّهُ : « يَدْخُلُ في الإيمان باليوم الآخر الإيمانُ بكل ما أخبر به النبي ﷺ مِما يكُونُ بَعْد المَوت » [1] .

- **فمن ذلك : فتنة القبر** : إذَا دُفِن الميت أتاه ملكان يجْلِسَانه وَيسألانه ثَلاثة أسئلة يقولان : مَنْ رَبك ، مَا دِينك ، من نبيك !؟

فيثبت اللَّه الذين آمنوا بالقول الثابت - أسأل اللَّه أن يجعلني وإياكم منهم - فيقول المؤمن : ربي اللَّه وديني الإسلام ونبيِّي محمد فينادي منادٍ من السماء أن صَدق عبدي فأفرشوه من الجنة وألبسُوه من الجنة وافتحوا لَهُ بابًا إلى الجنة !

ويفْسح له في قبره مد البَصَر ويأتيه من الجنة من روحها ويشاهد فيها ما يشاهد من النعيم .

وأما المنافق أو الكافر فيقول : هَاه هَاه [2] ... لا أدري سمعت الناس يقولون شيئًا فقلته ؛ لأن الإيمان لم يصل إلى قلبه وإنما هو بلسانه فقط فهو يسمع ولا يدري ما المعنى ولا يفتح عليه في قبره هذه فتنة عظيمة جدًّا ، ولهذا أمرنا النبي عليه الصلاة والسلام أن نستعيذ بالله منها في كل صلاة : « أعوذ بالله من عَذَابِ جَهَنم ، وَمِن عَذَاب القبر » [3] .

- **ومن ذلك : أن تؤمن بنعيم القبر وعذاب القبر** : نعيم القبر لمن يستحق النعيم من المؤمنين وعذاب القبر لمن يستحق العذاب ، وقد جاء ذلك في القرآن والسنة وأجمع عليه أهل السنة والجماعة .

- ففي كتاب اللَّه يقول اللَّه تبارك وتعالى : ﴿ كَذَٰلِكَ يَجْزِي ٱللَّهُ ٱلْمُتَّقِينَ ۝ ٱلَّذِينَ تَتَوَفَّىٰهُمُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ طَيِّبِينَ يَقُولُونَ سَلَٰمٌ عَلَيْكُمُ ٱدْخُلُوا۟ ٱلْجَنَّةَ بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴾ [النحل : ٣١، ٣٢] أي : عند الوفاة .

ويقول اللَّه ﷻ في آخر سورة الواقعة : ﴿ فَأَمَّآ إِن كَانَ مِنَ ٱلْمُقَرَّبِينَ ۝ فَرَوْحٌ وَرَيْحَانٌ وَجَنَّتُ نَعِيمٍ ﴾ [الواقعة : ٨٨، ٨٩] يقول هذا في ذكر حال المحتضِر إذا جاءه الموت . إذا كان من المقرَبين فَلَهُ رَوحٌ وَريحان وَجَنَّة نَعِيم في نفس اليوم .

أما عذاب القبر : فاستمع إلى قول اللَّه ﷻ : ﴿ وَلَوْ تَرَىٰٓ إِذِ ٱلظَّٰلِمُونَ فِى غَمَرَٰتِ ٱلْمَوْتِ ﴾ أي :

---

(١) انظر العقيدة الواسطية (ص : ١٠) .

(٢) انظر نص الحديث في النسائي في الجنائز (٨/٤ ، ٩٧) وأحمد في مسنده (٤/٣ ، ١٢٦) .

(٣) أخرجه مسلم في المساجد (١٢٨) والحاكم في المستدرك (٥٣٣/١) ، كلاهما بلفظ « أعوذ بك » .

سَكَرات الموت ﴿ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةُ بَاسِطُوٓا۟ أَيْدِيهِمْ ﴾ مَادِّين أيديهم لهذا المحتضر من الكفار ﴿ أَخْرِجُوٓا۟ أَنفُسَكُمُ ﴾ وكأنهم شَحِيحون بأنفسهم لأنها تُبَشَّر - والعياذ بالله - بالعذاب فتهرب في البدن وتتفرق ويشح بها الإنسان ﴿ ٱلْيَوْمَ تُجْزَوْنَ عَذَابَ ٱلْهُونِ بِمَا كُنتُمْ تَقُولُونَ عَلَى ٱللَّهِ غَيْرَ ٱلْحَقِّ وَكُنتُمْ عَنْ ءَايَٰتِهِۦ تَسْتَكْبِرُونَ ﴾ [الأنعام: ٩٣] اليوم يوم موتهم .

وقال اللَّه ﷻ في آل فرعون : ﴿ ٱلنَّارُ يُعْرَضُونَ عَلَيْهَا غُدُوًّا وَعَشِيًّا ۖ وَيَوْمَ تَقُومُ ٱلسَّاعَةُ أَدْخِلُوٓا۟ ءَالَ فِرْعَوْنَ أَشَدَّ ٱلْعَذَابِ ﴾ [غافر: ٤٦] . فقال : ﴿ ٱلنَّارُ يُعْرَضُونَ عَلَيْهَا غُدُوًّا وَعَشِيًّا ﴾ هذا قبل يوم القيامة ﴿ وَيَوْمَ تَقُومُ ٱلسَّاعَةُ أَدْخِلُوٓا۟ ءَالَ فِرْعَوْنَ أَشَدَّ ٱلْعَذَابِ ﴾ [غافر: ٤٦] ، ولكن يجب علينا أن نعلم أن هذا النعيم والعذاب أمْرٌ غيبي لا نطلع عليه ؛ لأننا لو اطلعنا عليه ما دَفَنا أمواتنا ؛ لأن الإنسان لا يمكن أن يقدم مَيِّتَه لعذاب يسمعه . يفزع ؛ لأن الكافر أو المنافق إذا عجز عن الإجابة يضرب بمرزبة - قطعة من الحديد مثل المطرقة - فيصيح صيحة يسمعها كل شيء إلا الإنسان ! قال النبي ﷺ : « ولو سمعها الإنْسَانُ لَصعِق » [(١)] .

وقال النبي ﷺ : « لَولا أن لا تَدَافَنوا لدعوتُ اللَّه أنْ يُسمعكم عَذَاب القَبْر » [(٢)] ، ولكن من نعمة اللَّه أننا لا نعلم به حسًّا ، بل نؤمن به غيبًا .

كذلك لو كان عذاب القبر شهادة وحسًّا لكان فيه فضيحة ! إذا مررت بقبر إنسان ورأيته يعَذب ويصيح فيه فضيحة له .

ولو أنه شهادة يُحس ؛ لكان هذا قلقًا على أهْله وذَوِيه فلا ينامون في الليل وهم يَسْمَعُون صاحبهم يصيح ليلًا ونهارًا من العذاب ، لكن من رحمة اللَّه ﷻ أن جعله غيبًا لا يعلم عنه فلا يأت شخص ويقول : إننا لو حضرنا القبر بعد يومين لم نجد أثرًا للعذاب ؟

نقول : لأن هذا أمْرٌ غيبي ، على أن اللَّه تعالى قد يطلع على هذا الغيب مَن شَاءَ من عباده ؛ فقد ثبت في الصحيحين من حديث ابن عباس ﵄ : أن النبي ﷺ مَرَّ بقَبْرَين في المدينة وقال : « إنهما ليُعَذبَان وَمَا يُعَذَّبانِ في كَبير ، أما أحَدُهُمَا فكان لا يَسْتَنْزِهُ مِنَ البَول ، وَأمَّا الآخر فكان يَمْشي بالنَّميمة » [(٣)] ، فأطْلَعَ اللَّه نبيه على هذين القبرين أنهما يُعَذبان . فالحاصل أنه يجب علينا أن نؤمن بفتنة القبر وهي سؤال الملكين عن ربه ودينه ونبيه ، وأن نؤمن بنعيم القبر أو عذابه .

- ومما يدخل في الإيمان باليوم الآخر : أن يؤمن الإنسان بما يكون في نفس اليوم الآخر ، وذلك أنه إذا نفخ في الصور النفخة الثانية قام الناس من قبورهم لله رب العالمين حفاة ليس عليهم نِعال ، وعُراة ليس عليهم ثِياب ، وغرلًا ليسوا مختونين وبهْمًا ليس معهم مال .

---

(١) أخرجه البخاري في الجنائز (١٣٨٠) وأحمد في مسنده (٤١/٣ ، ٥٨) .

(٢) أخرجه أحمد في مسنده (١١١/٣) بلفظه ، ومسلم في الجنة وصفة نعيمها (٦٨) بلفظ : « من عذاب القبر » ومعنى قوله « لولا أنْ لا تدافنوا » أي : لا تدفنوا موتاكم .

(٣) أخرجه الترمذي (٧٠) والنسائي في السنن (١٠٦/٤) ، وابن ماجه في السنن (٣٤٧) ومعنى قوله « يستنزه » أي : لا يجعل بينه وبين بوله سترة تحفظه من رشاشته .

كل الناس حتى الأنبياء والرسل يُبعثون ، هكذا كما قال الله : ﴿ كَمَا بَدَأْنَآ أَوَّلَ خَلْقٍ نُّعِيدُهُۥ ﴾ [الأنبياء : ١٠٤] . فكما أن الإنسان يخرج من بَطن أمه هكذا عَاريًا غير مختون ليس معه مال ، فكذلك يخرج من بطن الأرض يوم القيامة على هذه الصفة ، يقومون لرب العالمين الرجال والنساء ، والصغار والكبار ، والكفار والمؤمنون ، كُلهم على هذا الوصف حُفاة عُراة غُرلًا بُهمًا ، ولا ينظر بعضهم إلى بعض ؛ لأنه قد دهاهم من الأمر ما يشغلهم عن نظر بعضهم إلى بعض .

رُبما تكون المرأة إلى جنب الرجل ولا ينظُران إلى بعض ، كما قال الله ﷻ : ﴿ فَإِذَا جَآءَتِ ٱلصَّآخَّةُ ۝ يَوْمَ يَفِرُّ ٱلْمَرْءُ مِنْ أَخِيهِ ۝ وَأُمِّهِۦ وَأَبِيهِ ۝ وَصَٰحِبَتِهِۦ وَبَنِيهِ ۝ لِكُلِّ ٱمْرِئٍ مِّنْهُمْ يَوْمَئِذٍ شَأْنٌ يُغْنِيهِ ﴾ [عبس : ٣٣ - ٣٧] .

ومن الإيمان باليوم الآخر : أن تؤمن بأن الله سبحانه وتعالى يبسط هذه الأرض ويمدها كما يمد الأديم ، أي الجلد ؛ لأن أرضنا اليوم كرة مستَديرة منبطحة بعض الشيء من الجنوب والشمال ، لكنها مُستديرة كما يفيده قوله تعالى : ﴿ إِذَا ٱلسَّمَآءُ ٱنشَقَّتْ ۝ وَأَذِنَتْ لِرَبِّهَا وَحُقَّتْ ۝ وَإِذَا ٱلْأَرْضُ مُدَّتْ ﴾ [الانشقاق : ١ - ٣] معناه أنها لا تمد إلا إذا انشقت السماء وذلك يوم القيامة ، فتبسط الأرض كما يُبسط الجلد المدبوغ ليس فيها أودية ولا أشجار ولا بناء ولا جِبال ، يذرها الرب ﴿ قَاعًا صَفْصَفًا [(١)] ۝ لَّا تَرَىٰ فِيهَا عِوَجًا وَلَآ أَمْتًا ﴾ [طه : ١٠٦ ، ١٠٧] [(٢)] .

يُحشر الناس عليها على الوَصف المذكور آنفًا وتطوى السماوات ، يطويها الرب ﷻ بيمينه ، وتدنى الشمس من الخلق حتى تكون فوق رُؤوسهم بقدر ميل [(٣)] ، إما مسافة وإما ميل المكحلة ، وأيًّا كان فهي قريبة من الرؤوس ، لكننا نؤمن أن من الناس من يَسْلَم من حرها وهم الذين يظلهم الله في ظِلِّه يوم لا ظل إلا ظله ومنهم السَّبعة الذين ذكرهم الرسول في نسق واحد فقال عليه الصلاة والسلام : « سَبْعَة يُظِلهم اللّه في ظِله يَومَ لَا ظِلِ إلا ظِله : إمَام عَادل ، وَشَابٌ نَشأ في طَاعَةِ اللّه ، وَرَجُل قلبُهُ مُعَلق بِالمسَاجِد ، وَرَجُلان تَحَابا في اللّه اجتَمعا عَليه وَتَفرقَا عَلَيهِ ، وَرَجُلٌ دَعَتْهُ امْرأَةٌ ذَات مَنْصِب وجمال فقال : إنِّي أخَافُ اللّه ، وَرَجُلَ تَصَدق بصَدَقَةٍ فَأخْفَاهَا حتى لَا تَعْلم شِمَالُه مَا تُنْفِق يَمِينُه ، وَرَجُل ذَكَرَ اللّه خاليًا فَفَاضَت عَيناه » [(٤)] .

١ - الإمام العادل : هو الَّذي عَدَل في رعيته ولا يَعْدِل أقوام وأحب عند اللّه من أن يحكُم فيهم شريعة اللّه هذا رأس العدل ، لأن اللّه يقول : ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ يَأْمُرُ بِٱلْعَدْلِ وَٱلْإِحْسَٰنِ ﴾ [سورة النحل ، الآية : ٩٠] فمن حكم شعبه بغير شريعة اللّه فإنه ما عدل ، بل هو كافر والعياذ بالله ، لأن اللّه قال : ﴿ وَمَن لَّمْ يَحْكُم بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْكَٰفِرُونَ ﴾ [المائدة : ٤٤] .

فإذا وضَعَ هذا الحاكم قوانين تخالف الشريعة وهو يَعْلم أنها تخالف الشريعة ، ولكنه عَدَل عنها

---

(١) قوله : « قاعًا » أي أرضًا لا نبات فيها ولا بناء ، وقوله : « صفصفًا » أي : مستوية ملساء كأن أجزاءها صف واحد من كل جهة .

(٢) قوله : « عوجًا ولا أمتا » أي : لا ترى في الأرض مكانًا منخفضًا ولا مكانًا مرتفعًا .

(٣) ذكر ذلك في البخاري في تفسير القرآن (٤٧١٢) والترمذي في القيامة (٢٤٣٤) .

(٤) أخرجه البخاري في الزكاة (١٤٢٣) واللفظ له وفيه « إمام عدل » ومسلم في الزكاة (٩١) .

وقال : أنا لا أعدل عن القانون ، فإنّه كافر ولو صلّى ولو تصدق ولو صام ولو حَجَّ ولو ذكر اللّه ولو شهد للرسول بالرّسالة ؛ فإنه كافر مخلد في نار جهنم يوم القيامة .

ولا يجوز أن يتولّى على شعب مُسلم إذا قَدرَ الشعب على إزَاحته عن الحكم . فأهم العَدل في الإمام أن يحكم في الناس بشريعة اللّه ، ومن العدل أن يُسوِّي بين الفقير والغني ، وبين العدو والولي ، وبين القريب والبعيد حتى العدو يسوي بينه وبين الولي في مسألة الحكم حتى إن العلماء - رحمهم اللّه - قالوا لو دخل على القاضي رَجُلان أحدهما كافر والثاني مسلم حرم عليه أن يُميز المسلم بشيء !

فيدخلان جميعًا و يجلسان جميعًا ويتحدث القاضي إليهما جميعًا فلا يتحدث لواحد دون الآخر ولا يَبَشّ في وجه المسلم ويُكَشرْ في وجه الكافر! لا !!

الآن هما في مقام الحكم يجب أن يُسَوى بينهما مع أن الكافر لا شك أنه ليس كالمسلم ﴿ أَفَنَجْعَلُ ٱلْمُسْلِمِينَ كَٱلْمُجْرِمِينَ ۝ مَا لَكُمْ كَيْفَ تَحْكُمُونَ ﴾ [القلم: ٣٥- ٣٦] ، لكن في باب الحكم الناس سواء .

ومن العدل : أن يقيم الحدود التي فرضها اللّه ﷻ على كل أحد حتى على أولاده وذُريته فإن النبي ﷺ وهو أعدل الأئمة لما شُفعَ إليه في امرأة من بني مخزوم أمر الرسول ﷺ بقطع يَدها فشفع إليه أسامة فيها فقال له : « أتشفعُ في حَد من حُدُود اللّه » ؟! - أنكر عليه - ثم قام النبي ﷺ فَخَطَب الناس فحمد اللّه وأثنى عليه ثم قال : « أما بعد .. فإنما أهْلَكَ مَنْ كان قَبْلكم أنَّهم كانوا إذا سَرَق فيهم الشريف تركوه ، وإذا سرَق فيهم الضعيف أقَامُوا عَلَيه الحَد ، وايم اللّه - أي أحْلف باللّه - لو أن فَاطمة بنت محمد سَرَقت لَقَطَعْتُ يَدَها » (١) صلى اللّه عليك يا رسول اللّه .

فاطمة بنت محمد أشْرف النساء ! سيدة نسَاء أهل الجنة بنت أفضل البشر ، لو سَرقت لقطع يدها وهو أبوها .

وتأمل « لَقَطَعْتُ يَدَهَا » ولم يقل : لأمرت بقطع يدها ! فظاهره أنه هو الذي يباشر قطعها لو سرقت .

هذا العدل وبهذا قامت السّماوات والأرض .

ومن عَدْل الإمام : أن يُوَلِّي المناصب من هو أهْلٌ لها في دينه وفي قُوَّته ، فيكون أمينًا وقويًّا أهْلًا لِمَا وُلِّي عليه .

وأرْكان الولاية اثنان : القوة ، والأمانة ، قال اللّه تعالى : ﴿ إِنَّ خَيْرَ مَنِ ٱسْتَـْٔجَرْتَ ٱلْقَوِيُّ ٱلْأَمِينُ ﴾ [القصص: ٢٦] ، ﴿ قَالَ عِفْرِيتٌ مِّنَ ٱلْجِنِّ ﴾ لسليمان : ﴿ أَنَا۠ ءَاتِيكَ بِهِۦ ﴾ - أي بعرش بلقيس ﴿ قَبْلَ أَن تَقُومَ مِن مَّقَامِكَ وَإِنِّي عَلَيْهِ لَقَوِيٌّ أَمِينٌ ﴾ [النمل: ٣٩] فمن العدل أن لا يولي أحدًا منصبًا إلا وهو أهْلٌ له في قوته وفي أمانته فإن فَعَل فليس بعادل أي: إن ولّى من ليس أهلًا ويوجد من هو خير منه فليس بعادل .

المهم أنَ النبي ﷺ جعل الإمام العَادل من الذين يُظِلهم اللّه في ظِله يوم لا ظل إلا ظله ، وجعله

---

(١) أخرجه البخاري في أحاديث الأنبياء (٣٤٧٥) ومسلم في الحدود (١٨) والنسائي في السنن (٧٣/٨) .

أول هؤلاء السَّبعة ؛ لأن العدل في الرعية صعب جدًّا ، فإذا وفق المرء الذي يُوَلِّيه اللَّه على عباده للعدل نَالَ في هذا خيرًا كثيرًا وانتفعت الأمة في عَصْره ومن بعده ؛ لأنه قدوة صالحة .

ثانيًا : « شاب نشأ في طاعة اللَّه » : الشَّاب ما بين الخمس عشرة سنة إلى الثلاثين . ولا شك أن يكون للشاب اتجاهات وأفكار ولا يستقر على شيء ؛ لأنه شاب غض [1] كل شيء يجذبه ، كل شيء يختطفه .

ولهذا أمر الرسول ﷺ في الحرب أن تقتل شيوخ المقاتلين المشركين ويستبقى شبابهم ؛ لأن الشباب إذا عرض عليهم الإسلام ربما يسلمون .

فالشَّاب لما كان في سن الشَّباب يكون له أفكار وأهواء واتجاهات فِكرية وخُلقية وسُلوكية صار الذي يمن اللَّه عليه وينشأ في طاعته من الذين يُظلهم اللَّه في ظِله يوم لا ظل إلَّا ظله .

وطاعة اللَّه هي امتثال أمر اللَّه واجتناب نهيه ، ولا امتثال للأمر واجتناب للنهي إلا بمعرفة أن هذا أمر وهذا نهي .

إذن لابد من سبق العلم فيكون هذا الشاب طالبًا للعلم ممتثلًا للأمر مجتنبًا للنهي .

الثالث : « رَجُل قَلْبُهُ مُعَلق بالمَسَاجد » : أي يحب المَسَاجد . وهل المقصود أماكن السجود ؟ أي أنه يحب كثرة الصلاة أو المقصود المَسَاجد المخصوصة ؟ يحتمل هذا وهذا !

هذا رجل دائمًا قلبه مُعَلق بالمَسَاجد وهو مَشْغُول في أماكن الصلاة ، وفي الصلاة . إذا انتهى من صلاة انتظر الأخرى وهكذا .

وهناك فرق بين قول الإنسان : « اللهُم أرحْني بالصلاة » ، و « اللهم أرِحْني من الصَّلاة » .

أرحْنِي بالصلاة : هذا خير ، أي اجعل الصلاة رَاحَةً لِقلبي . وأرِحني من الصَلاة : أي مَكِّنِي عنها .

الرابع : « رَجُلان تحابا في اللَّه اجتمعا عليه وتفرقا عليه » أي أحَب بعضهما بعضًا لا لشيء سوى اللَّه ﷻ فليس بينهما قرابة ولا صِلة مَالية ولا صَدَاقة طبيعية ، إنما أحبه في اللَّه ﷻ ؛ لأنَّه رآه عابدًا لله مُستقيمًا على شَرْعه فأحبه ..

وإذَا كان قريبًا أو صديقًا وما أشبه ذلك ؛ فلا مانع من أن يحبه من وجهين من جهة القرابة والصداقة ومن الجهة الإيمانية .

فهذان تحابا في اللَّه وَصَارَا كالأخوين لما بينهما من الرَّابطة الشَّرعية الدِّينية وهي عبادة اللَّه ﷻ .

اجتمعا عليه في الدُّنيا وتفرقا عليه أي ، لم يفرق بينهما إلا الموت ، هذان يظلهما اللَّه في ظله يوم لا ظل إلا ظله .

ويكونان يوم القيامة على محبتهما وعلى خلتهما كما قال اللَّه تعالى : ﴿ ٱلْأَخِلَّآءُ يَوْمَئِذٍۭ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ إِلَّا ٱلْمُتَّقِينَ ﴾ [الزخرف : ٦٧] تبقى الصداقة في الدنيا والآخرة .

---

(١) الغض الطري الحديث من كل شيء .

الخامس : « وَرَجل دَعتْهُ امرأة ذات مَنصب وجمال فقال : إني أخاف اللَّه » : رجل قادر على الجماع دَعتْهُ امرأة ليجامعها بالزنا والعياذ بالله ذات مَنصب ، أي أنها من حمائل [١] معروفة ليست من سقط النساء ، وهي جميلة دعته إلى نفسها في مكان خال لا يطلع عليهما أحد وهو فيه شهوة ويحب النساء ، لكن قال : إني أخاف الله! لم يمنعه من فعل هذا إلا خوف اللَّه ﷻ !

فانظر إلى هذا الرجل ! المقتضى موجود ! لأنه قادر على الجماع والمرأة جميلة وهي ذات منصب والمكان خالٍ . لكن مَنعَهُ مَانع أقوى من هذا المقتضى وهو خوف اللَّه قال : « إني أخَاف اللَّه » ما قال : إني لا أشتهي النساء ، وما قال : ما أنت جميلة ، وما قال : أنت من أسافل النّساء ولا أتنازل أن أجامِعك ، وما قال : إن حولنا أحدًا . قال : « إنِّي أخافُ اللَّه » هذا مِمن يُظِله اللَّه في ظله يوم لا ظل إلا ظله .

وانظر إلى يوسف بن يعقوب بن إسحاق بن إبراهيم عليه الصلاة والسلام وعمُّه إسماعيل ؛ لأن جدَّه إسحاق بن إبراهيم وإسماعيل هو أبو العرب . عشقته امرأة العزيز ملك مصر وكانت امرأة مَلِك على حال من الجمال والدَّلال : غلقت الأبواب بينهما وبين الناس : ﴿ وَقَالَتْ هَيْتَ لَكَۚ ﴾ [يوسف : ٢٣] يعني تدعوه إلى نفسها فكان رجلًا شابًّا وبمقتضى الطَّبيعة البشرية هَمَّ بها وهَمَّتْ به ، ولكن رأى برهان ربه ووقع في قلبه خوف اللَّه فامتنع فهددته بالسجن فقال : ﴿ رَبِّ ٱلسِّجۡنُ أَحَبُّ إِلَيَّ مِمَّا يَدۡعُونَنِيٓ إِلَيۡهِۖ وَإِلَّا تَصۡرِفۡ عَنِّي كَيۡدَهُنَّ أَصۡبُ إِلَيۡهِنَّ وَأَكُن مِّنَ ٱلۡجَٰهِلِينَ ۝٣٣ فَٱسۡتَجَابَ لَهُۥ رَبُّهُۥ فَصَرَفَ عَنۡهُ كَيۡدَهُنَّۚ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلۡعَلِيمُ ۝٣٤ ثُمَّ بَدَا لَهُم مِّنۢ بَعۡدِ مَا رَأَوُاْ ٱلۡأٓيَٰتِ لَيَسۡجُنُنَّهُۥ حَتَّىٰ حِينٖ ﴾ [يوسف : ٣٣- ٣٥] وسجن في ذات اللَّه وامتنع عن الزنا مع قوة أسبابه لكنه رأى برهان ربه فخاف اللَّه .

السادس : « وَرَجل تصدق بصدقةٍ فَأخفَاهَا حَتى، لا تعلم شِمَاله ما تنفق يمينه » : وهذا فيه كمال الإخلاص لا يريد من الناس أن يطلعوا على عمل من أعماله ، بل يريد أن يكون بينه وبين ربه فقط . ولا يريد أن يظهر للنَّاس بمظهر المنة على أحد ، لأنَّ الذي يعطي أمام الناس تكون له مِنَّة على من أعطاه .

فهو يُخْفي الصَدقة حتى لا تعلم شماله ما تنفق يمينه ، أي من شدَّة إخفائه لو أمكن أن لا تعلم يده الشمال ما أنفقت يده اليمين لفعل ، فهذا مخلص غاية الإخلاص وهو بعيد عن المن بالصدقة ، يظله اللَّه في ظله يوم لا ظل إلّا ظله . ولكن لاحظ أن إخفاء الصدقة أفضل بلا شك إلا أنّه ربما يعرض لهذا الأفضل ما يجعله مفضولًا مثل أن يكون في إظهار الصَّدقة تشجيع للنَّاس على الصَّدقة ؛ فإن هنا قد يكون إظهار الصَّدقة أفضل ، ولهذا امتدح الله ﷻ الذين ينفقون سِرًّا وَعَلانية على حسب ما تقتضيه المصلحة ، فالحال لا تخلو من ثلاث مراتب : إما أن يكون السرُّ أنفع ، أو الإظهار أنْفع ، فإن تَساوى الأمران فالسرُّ أنفع .

السّابع : « رَجُلٌ ذَكَر اللَّه خَاليًا ففاضت عيناه » : ذكر اللَّه بلسانه وبقلبه ليس عنده أحد يُرائيه بهذا الذكر خاليًا من الدُّنيا كلها قلبه معلّق بالله ﷻ . فلما ذكر اللَّه بلسانه وبقلبه وتذكر عظمة الرَّب ﷻ ؛ اشتاق إلى اللَّه ففاضت عيناه ، هذا ممن يُظِلُّه اللَّه في ظِله يوم لا ظل إلا ظِله .

---

(١) الحمائل : هي العروق التي في الأصل والجلد ، والمقصود بها هنا أنها من أصل عتيد (انظر لسان العرب مادة حمل ١٠٠٤/٢) .

هذه الأعمال السبعة قد يوفق الإنسان فيحصل على واحد منها أو اثنين أو ثلاثة أو أربعة أو خمسة أو ستة أو سبعة هذا ممكن ولا يناقض بعضه بعضًا ؛ فقد يوفق الإنسان فيأخذ كل واحدة من هذه بنصيب كما حدَّث الرسول ﷺ : « أن للجنة أبوابًا مَنْ كَان مِنْ أهْل الصلاة دُعِيَ مِن بَاب الصلاة ، وَمَن كان من أهْلِ الصدقة دُعِيَ من بَاب الصدقة ، ومَن كَانَ مِنْ أهْلِ الجِهاد دُعِيَ مِن بَابِ أهْل الجِهاد ، ومَنْ كانَ من أهل الصيام دُعِيَ من باب الريان » ذكر أربعة .. فقال أبو بكر : يا رسول اللَّه مَا عَلى من دُعي من واحد من هذه الأبواب من ضَرورة - أي الذي يُدعى من باب الوَاحد سهل - فهل يدعى أحد من هذه الأبواب كلها ؟ قال : « نعم وأرجو أن تكون منهم يا أبا بكر » (١) ، لأنه صَاحِب صَلَاة وَصدقة وجهاد وصيام فكل مَسَائل الخير قد أخذ منها بنصيب ﷺ وَأرْضاه وألحقنا به في جنات النعيم .

ومن **علامات يوم القيامة** : أن الشَمس تدنو من الخلائق قدر ميل ، وشرحنا حديث السبعة الذين يُظِلهم اللَّه في ظِلِّه يوم لا ظِل إلا ظله .

وهنا مسألة : أحِب أن أنبه عليها وهي أن بعض الناس يَظنون أن المراد بالظل في ظله يوم لا ظل إلا ظله ، أنه ظل الرب ﷻ وهذا ظن خاطئ جدًا لا يظنه إلا رجل جَاهل وذلك أن من المعلوم أن الناس في الأرض وأن الظل هذا يكون عن الشَمس فلو قدر أن المراد ظِل الرَّب ﷻ لَزِمَ من هذا أن تكون الشَمس فوق اللَّه ليكون حائلًا بينه وبين الناس وهذا شيء مُسْتحيل ولا يمكن ؛ لأن اللَّه سبحانه قد ثبت له العُلو المطلق من جميع الجهات .

ولكن المراد ظل يخلقه اللَّه في ذلك اليوم يظلل من يستحقون أن يظِلهم اللَّه في ظِله وإنَّما أضافه اللَّه إلى نفسه ؛ لأنه في ذلك اليوم لا يستطيع أحد أن يُظلل بفعل مخلوق ! لا هناك بناء ولا شيء يُوضع على الرؤوس ، إنما يكون الظل ما خلقه اللَّه لعباده في ذلك اليوم فلهذا أضافه اللَّه إلى نفسه لاختصاصه به .

ومما يكون في ذلك اليوم : نشر الدواوين أي : صَحَائف الأعمال التي كتبت على المرء في حياته ؛ وذلك لأن اللَّه وكل بكُل إنسان مَلكين أحدهما عن اليمين ، والثاني عن الشمال كما قال اللَّه تبارك وتعالى : ﴿ وَنَحْنُ أَقْرَبُ إِلَيْهِ مِنْ حَبْلِ ٱلْوَرِيدِ ﴿١٦﴾ إِذْ يَتَلَقَّى ٱلْمُتَلَقِّيَانِ عَنِ ٱلْيَمِينِ وَعَنِ ٱلشِّمَالِ قَعِيدٌ ﴿١٧﴾ مَّا يَلْفِظُ مِن قَوْلٍ إِلَّا لَدَيْهِ رَقِيبٌ عَتِيدٌ ﴾ (٢) [ق : ١٦، ١٧] .

هذان الملكان الكريمان يكتبان كل ما يعمله المرء من قول أو فِعل أما ما يحدث به نفسه ؛ فإنه لا يكتب عليه ؛ لأن النبي ﷺ قال : « إن اللَّه تجاوز عن أمتي مَا حدثت به أنفُسها مَا لَم تعمَل أو تكلَّم به » (٣) .

لكن القول والفعل يُكْتَب على الإنسان ، كاتب الحسنات على اليمين ، وكاتب السيئات على الشمال

---

(١) ينظر الحديث في : البخاري في فضائل الصحابة (٣٦٦٦) ومسلم في الزكاة (٨٥) وأحمد في مسنده (٣٨٦/٤) والترمذي في السنن (٣٦٧٤) .

(٢) قوله ﴿ حَبْلِ ٱلْوَرِيدِ ﴾ هو العرق الذي في باطن العنق ، قوله ﴿ ٱلْمُتَلَقِّيَانِ ﴾ أي الملكان الموكلان بكتابة الحسنات والسيئات ، قوله ﴿ قَعِيدٌ ﴾ أي أحدهما قاعد عن يمينه والآخر عن يساره .

(٣) أخرجه البخاري في الأيمان والنذور (٦٦٦٤) ومسلم في الإيمان (٢٠٢) .

فيكتبان كل ما أُمِرَا بكتابته ، فإذا كان يوم القيامة ألزم كل إنسان هذا الكتاب في عنقه كما قال الله تعالى : ﴿ وَكُلَّ إِنسَٰنٍ أَلْزَمْنَٰهُ طَٰٓئِرَهُۥ فِى عُنُقِهِۦ ﴾ [الإسراء: ١٣] ويخرج له هذا الكتاب فيقال : ﴿ ٱقْرَأْ كِتَٰبَكَ كَفَىٰ بِنَفْسِكَ ٱلْيَوْمَ عَلَيْكَ حَسِيبًا ﴾ [الإسراء: ١٤] فيقرأه له ويتبين كُل ما عنده .

هذا الكتاب المنشور من الناس من يأخذه بيمينه ومن الناس من يأخذه بشماله وراء ظهره .

أما من يأخذه بيمينه - أسال الله أن يجعلني وإياكم منهم - : فإنه يقول للناس : ﴿ هَآؤُمُ ٱقْرَءُوا۟ كِتَٰبِيَهْ ﴾ يُريهم إياه فرحًا ومسرورًا بما أنعم الله به عليه .

وأما من أوتي كتابه بشماله فيقول حزنًا وغمًّا : ﴿ يَٰلَيْتَنِى لَمْ أُوتَ كِتَٰبِيَهْ ﴾ [الحاقة: ٢٥] .

ومما يجب الإيمان به في ذلك اليوم : أن تؤمن بالحساب ، بأن الله تعالى يحاسب الخلائق كما قال الله تعالى : ﴿ وَإِن كَانَ مِثْقَالَ حَبَّةٍ مِّنْ خَرْدَلٍ أَتَيْنَا بِهَا ۗ وَكَفَىٰ بِنَا حَٰسِبِينَ ﴾ [الأنبياء: ٤٧] وقال الله تعالى : ﴿ فَسَوْفَ يُحَاسَبُ حِسَابًا يَسِيرًا ﴾ [الانشقاق: ٨] فيحاسب الله الخلائق .

لكن حساب المؤمن حساب يسير ليس فيه مناقشة يخلو الله تعالى بعبده المؤمن وَيضع عليه سِتْره ويُقرره بذُنوبه يقول : أتذكرُ كذَا ، أتذكر كذَا حتى يقول : نعم ويُقر بذلك كُله فيقول الله ﷻ له : « إني قَدْ سَترْتُها عَلَيكِ في الدنيا وأنَا أغْفرها لَكَ اليَوم » [(١)] وما أكثر الذنوب التي سَترَها الله علينا ؟ فإذا كان الإنسان مؤمنًا قال الله له : « فإني قد سترتها عليك في الدنيا .... » إلخ .

أما الكافر والعياذ بالله : فإنه يُفْضَح ويُخْزى وينادَى على رؤوس الأشهاد : ﴿ هَٰٓؤُلَآءِ ٱلَّذِينَ كَذَبُوا۟ عَلَىٰ رَبِّهِمْ ۚ أَلَا لَعْنَةُ ٱللَّهِ عَلَى ٱلظَّٰلِمِينَ ﴾ [هود: ١٨] .

ومما يجب الإيمان به : الحوض المورود لنبينا محمد ﷺ ، وهو حوض يَصُبُّ عليه مِيزابان من الكوثر وهو النهر الذي أعْطِيَهُ الرسول ﷺ في الجنة [(٢)] كما قال الله تعالى : ﴿ إِنَّآ أَعْطَيْنَٰكَ ٱلْكَوْثَرَ ﴾ [الكوثر: ١] فيصب منه ميزابان على الحوض الذي يكون في عَرصات يوم القِيامة .

وصفه النبي عليه الصلاة والسلام بأن « مَاءه أشَد بياضًا من اللبن ، وَأحْلَى من العَسَل ، وأطيب من رائحة المِسْك ، وأن آنيته كنجوم السماء ، وأن طُوله شهر وعَرْضه شهر ، وأن من شرب منه مرة واحدة ؛ فإنه لا يظمأ بعدها أبدًا » [(٣)] .

هذا الحوض يَرِدُهُ المؤمنون من أمة النبي ﷺ - أسأل الله أن يُوردني وإياكم إياه - يَشربون منه .

وأما من لم يؤمن بالرسول عليه الصلاة والسلام فإنه يطرد عنه ولا يشرب منه .

وهذا الحوض الذي جعله الله للنبي عليه الصَّلاة والسلام هو أعظم حِيَاض الأنبياء ولكل نبي حوض يَرده المؤمنون من أمته ، لكنها لا تنسب إلى حوض الرسول ﷺ ؛ لأن هذه الأمة يمثلون ثُلثي

---

(١) أخرجه البخاري في المظالم (٢٤٤١) .

(٢) انظر في ذلك البخاري في الرقاق (٦٥٧٨) والترمذي في السنن (٣٣٦١) وأحمد في مسنده (١٥٨/٢) .

(٣) أخرجه البخاري في الرقاق (٦٥٧٩) ومسلم في الفضائل (٣٦) .

أهل الجنة فلا جرم أن يكون حَوض الرسول عليه الصلاة والسلام أعْظَم الحيَاض وأكبرها وأوسَعَها وَأعْظَمها وأشملها .

وممّا يجب الإيمان به في ذلك اليوم : الإيمان بالصراط ، وهو جسر مَنْصُوب على متن ، وهو أدق من الشَّعر وأحَدُّ من السَيف يَمُرُّ الناس عليه على قدر أعمالهم ، من كان مُسَارعًا في الخيرات في الدنيا كان سريعًا في المشي على هذا الصراط ، ومن كان مُتبَاطئًا ، كان مُتبَاطئًا ومن كان قد خَلَطَ عملًا صالحًا وآخر سيئًا ولم يعفُ اللّه عنه ؛ فإنّه رُبما يكردس في النار والعياذ بالله [١] .

يختلف الناس في المَشْي عليه ؛ فمنهم من يمر كلمح البَصَر ، ومنهم من يمر كالبرق ، ومنهم من يمر كالريح ، ومنهم من يمر كالفرس الجواد ، ومنهم من يمر كركاب الإبل ، ومنهم من يمشي ، ومنهم من يَزْحَف ، ومنهم من يُلقى في جهنم [٢] .

وهذا الصراط لا يمر عليه إلا المؤمنون فقط ، أمّا الكافرون : فإنهم لا يمرون عليه ؛ وذلك لأنهم يُسَاقُون في عَرَصَات القيامة إلى النار رأسًا نسأل اللّه العافية ، والله أعلم .

فإذا عبروا على الصِّراط وقفوا على قنطرة بين الجنة والنار فيقتص من بعضهم لبعض وهذا القصاص غير القصاص الذي يكون في عرصات يوم القيامة !

هذا القِصَاص والله أعْلم يراد به أن تتخلى القلوب من الأضغان والأحقاد والغل حتى يدخلوا الجنة وهم على أكمل حال ، وذلك أن الإنسان وإن اقتص له ممن اعتدى عليه فلابد أن يبقى في قلبه شيء من الغِل والحِقْد على الذي اعتدى عليه ، ولكن أهل الجنة لا يدخلون الجنة حتى يقتص لهم اقتصاصًا كاملًا فيدخلونها على أحسن وجه .

فإذا هذبوا ونقوا ، أذن لهم في دخول الجنة ، ولكن لا يُفتح باب الجنة لأحد قبل الرسول ﷺ [٣] ، ولهذا يشفع هو بنفسه لأهل الجنة أن يدخلوا الجنة ، كما أنه شفع للخلائق أن يُقْضَى بينهم ويَسْتَريحوا من الهَول والكَرْب والغم الذي أصابهم في عرصات القيامة [٤] ، وهاتان الشفاعتان خاصتان برسول ﷺ .

فأول من يدخل الجنة من الناس رسول اللّه ﷺ ، وأول من يدخلها من الأمم أمة النبي ﷺ [٥] ، أما أهل النار - والعياذ بالله - فيساقون إلى النار زمرًا ، ويدخلونها أمة بعد أمة كلما دَخَلت أمة لَعنت أختها والعياذ بالله . والثانية تَلْعَنُ الأولى وهكذا ، ويتبرأ بعضهم من بعض نسأل اللّه العافية ، فإذا أتوا إلى النار وجدوا أبوابها مفتوحة حتى يبغتوا بعذابها والعياذ بالله ؛ فيدخلونها ويُخلدون فيها أبد الآبدين

---

(١) انظر ذلك في مسلم الإيمان (٣٠٢) والمنذري في الترغيب والترهيب (٤/٤٢٨) ، وقوله « يكردس » أي ينقبض الرجل ويجتمع بعضه إلى بعض .

(٢) انظر في ذلك : أحمد في مسنده (٤/١٣٧) .

(٣) دليل ذلك : ما ورد عند أحمد في مسنده (٣/١٤٤) والهيثمي في مجمع الزوائد (٨/١٦٢) .

(٤) ودليله ما ذكره البخاري في التوحيد(٧٤١٠) ومسلم في الإيمان(٣٢٢ ، ٣٢٧) ، وأحمد في مسنده(١/٢٨١) .

(٥) ودليل ذلك : ما رواه أحمد في مسنده(٣/١٤٤) ، وأبو داود في السنن(٤٦٧٣) والسيوطي في الدر المنثور(٤/٣٧١) .

إلى أبد لا مُنتهى لَهُ ، كما قال الله ﷻ في كتابه : ﴿ إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا وَظَلَمُوا لَمْ يَكُنِ اللَّهُ لِيَغْفِرَ لَهُمْ وَلَا لِيَهْدِيَهُمْ طَرِيقًا ۝ إِلَّا طَرِيقَ جَهَنَّمَ خَالِدِينَ فِيهَا أَبَدًا وَكَانَ ذَلِكَ عَلَى اللَّهِ يَسِيرًا ﴾ [النساء: ١٦٨، ١٦٩] .

وقال ﷻ : ﴿ إِنَّ اللَّهَ لَعَنَ الْكَافِرِينَ وَأَعَدَّ لَهُمْ سَعِيرًا ۝ خَالِدِينَ فِيهَا أَبَدًا لَا يَجِدُونَ وَلِيًّا وَلَا نَصِيرًا ۝ يَوْمَ تُقَلَّبُ وُجُوهُهُمْ فِي النَّارِ يَقُولُونَ يَا لَيْتَنَا أَطَعْنَا اللَّهَ وَأَطَعْنَا الرَّسُولَا ۝ وَقَالُوا رَبَّنَا إِنَّا أَطَعْنَا سَادَتَنَا وَكُبَرَاءَنَا فَأَضَلُّونَا السَّبِيلَا ۝ رَبَّنَا آتِهِمْ ضِعْفَيْنِ مِنَ الْعَذَابِ وَالْعَنْهُمْ لَعْنًا كَبِيرًا ﴾ [الأحزاب: ٦٤-٦٨] .

وقال سبحانه : ﴿ وَمَن يَعْصِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ فَإِنَّ لَهُ نَارَ جَهَنَّمَ خَالِدِينَ فِيهَا أَبَدًا ﴾ [الجن: ٢٣] !! فهذه ثلاث آيات من كتاب الله ﷻ كلها فيها التصريح بأن أهل النار خالدون فيها أبدًا ولا قول لأحد بعد كلام الله ﷻ .

كما أن أهل الجنة خالدون فيها أبدًا! فإن قال قائل : إن الله تعالى قال في سورة هود : ﴿ فَأَمَّا الَّذِينَ شَقُوا فَفِي النَّارِ لَهُمْ فِيهَا زَفِيرٌ وَشَهِيقٌ ۝ خَالِدِينَ فِيهَا مَا دَامَتِ السَّمَاوَاتُ وَالْأَرْضُ إِلَّا مَا شَاءَ رَبُّكَ إِنَّ رَبَّكَ فَعَّالٌ لِّمَا يُرِيدُ ﴾ [هود: ١٠٦، ١٠٧] ففي أهل الجنة قال : ﴿ عَطَاءً غَيْرَ مَجْذُوذٍ ﴾ أي غير مقطوع بل هو دائم . وفي أهل النار قال : ﴿ إِنَّ رَبَّكَ فَعَّالٌ لِّمَا يُرِيدُ ﴾ [هود: ١٠٧] فهل هذا يعني إن أهل النار ينقطع عنهم العذاب ؟ .

جـ : نقول : لا ! ولكن لما كان أهل الجنة يتقلبون بنعمة الله بَيَّنَ الله أن عطاءهم لا ينقطع ، أما أهل النار فلما كانوا يتقلبون بعدل الله قال : ﴿ إِنَّ رَبَّكَ فَعَّالٌ لِّمَا يُرِيدُ ﴾ [هود: ١٠٧] . ولا معقب لحكمه وقد أراد أن يكون أهل النار في النار . هذا الكلام فيما تيسر مما يتعلق بالإيمان باليوم الآخر .

وقوله : « وأن تؤمن بالقدر خيره وشره » هذا الركن السادس :

القدر : هو تقدير الله ﷻ لما يكون إلى يوم القيامة وذلك أن الله سبحانه خلق القلم فقال له : اكتب ! قال : ربي وما أكتب ؟ قال : اكتب ما هو كائن ، فجرى في تلك الساعة بما هو كائن إلى يوم القيامة . فما أصاب الإنسان لم يكن ليخطئه وما أخطأه لم يكن ليصيبه ، وقد ذكر الله هذا في كتابه إجمالًا فقال : ﴿ أَلَمْ تَعْلَمْ أَنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ مَا فِي السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ إِنَّ ذَلِكَ فِي كِتَابٍ إِنَّ ذَلِكَ عَلَى اللَّهِ يَسِيرٌ ﴾ [الحج: ٧٠] ، وقال تعالى : ﴿ مَا أَصَابَ مِن مُّصِيبَةٍ فِي الْأَرْضِ وَلَا فِي أَنفُسِكُمْ إِلَّا فِي كِتَابٍ مِّن قَبْلِ أَن نَّبْرَأَهَا إِنَّ ذَلِكَ عَلَى اللَّهِ يَسِيرٌ ﴾ [الحديد: ٢٢] من قبل أن نبرأها ، من قبل أن نخلقها أي : من قبل أن نخلق الأرض ، ومن قبل أن نخلق أنفسكم ومن قبل أن نخلق المصيبة . فإن الله كتب هذا من قبل خلق السماوات والأرض بخمسين ألف سنة .

قال أهل العلم : ولابد للإيمان بالقدر من أن تؤمن بكل مَرَاتبه الأربع :

المرتبة الأولى : أن تؤمن بأن الله عليم بكل شيء ، وهذا كثير في الكتاب العظيم ؛ يذكر الله عموم علمه بكل شيء كما قال الله تعالى : ﴿ لِتَعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ وَأَنَّ اللَّهَ قَدْ أَحَاطَ بِكُلِّ شَيْءٍ عِلْمًا ﴾ [الطلاق: ١٢] ولقوله تعالى : ﴿ وَعِندَهُ مَفَاتِحُ الْغَيْبِ لَا يَعْلَمُهَا إِلَّا هُوَ وَيَعْلَمُ مَا فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ وَمَا تَسْقُطُ مِن وَرَقَةٍ إِلَّا يَعْلَمُهَا وَلَا حَبَّةٍ فِي ظُلُمَاتِ الْأَرْضِ وَلَا رَطْبٍ وَلَا يَابِسٍ إِلَّا فِي كِتَابٍ مُّبِينٍ ﴾ [الأنعام: ٥٩] .

المرتبة الثانية : أن تؤمن بأن الله تعالى كتب مقادير كل شيء إلى قيام الساعة كتبه قبل خلق

السَّماوات والأرض بخمسين ألف سنة . كل شيء كائن فإنه مكتوب قد انتهى منه جفَّت الأقلام وطُويت الصحف ، فما أصابك لم يكن ليُخطئك ومَا أخْطَأك لم يكن ليصيبك .

فإذا أصابك شيء لا تقل : لو فعلت كذا ما أصابني ؛ لأن هذا شيء منتهٍ مكتوب لابد أن يقع كما كتب سبحانه فلا مَفَرَّ منه مهما عملت ، فالأمر سيكون على ما وقع لا يتغير أبدًا ؛ لأن هذا أمر قد كتب .

فإن قال قائل : ألم يكن قد جاء في الحديث : « مَنْ أحب أنْ يُبْسَطَ لَهُ في رِزْقِهِ ، وَيُنْسأ لَهُ في أثَره ؛ فَلْيَصِل رَحِمَه »[1] ؟ . فالجواب : بلى قد جاء هذا ، ولكن الإنسان الذي بُسط له في رزقه ونُسِئَ لَهُ في أثره من أجل الصلة ، قد كتب ذلك له كتب أنه سَيَصل رَحِمه وأنه سيُبْسَط له في الرزق وأنه سينسأ له في الأثر لابد أن يكون الأمر هكذا ، ولكن الرسول عليه الصلاة والسلام قال : « مَنْ أحب ... » (الحديث) من أجل أن نُبادر ونُسَارع إلى صلة الرَّحم .

واعلم أن الكتابة في اللوح المحفوظ يعقبها كتابات أخر !

منها : أن الجنين في بطن أمه إذا تم له أربعة أشهر أرسلَ إليه ملك موكل بالأرحام فينفخ فيه الروح ويؤمر بأربع كلمات : بكتابة رزقه وأجله وعمله وشَقي أم سَعيد فيكتب ذلك وهذه الكتابة غير الكتابة في اللوح المحفوظ ، هذه كتابة في مقتبل عمر الإنسان ، ولهذا يسميها العلماء : الكتابة العمرية يعني نسبة للعمر .

هذا إذا تمَّ له أربعة أشهر ، أي : مائة وعشرون يومًا[2] ، ولهذا ترى أن الجنين إذا تم له أربعة أشْهر بدأ يتحرك ؛ لأنه دخلت فيه الروح وقبل ذلك هو قطعة من اللحم .

كذلك : هناك كتابة أخرى تكون في كل سنة وهي في ليلة القدر ، فإن ليلة القدر يكتب اللّه فيها ما يكون في تلك السنة كما قال اللّه : ﴿ إِنَّآ أَنزَلْنَٰهُ فِى لَيْلَةٍ مُّبَٰرَكَةٍ إِنَّا كُنَّا مُنذِرِينَ ۝٣ فِيهَا يُفْرَقُ كُلُّ أَمْرٍ حَكِيمٍ ﴾ [الدخان : ٣، ٤] يفرق : أي يبين ويفصل ولهذا سميت ليلة القدر .

المرتبة الثالثة للإيمان بالقدر : أن تؤمن بأن كل شيء فهو بمشيئة اللّه لا يخرج عن مَشيئته شيء .

ولا يفرق بين أن يكون هذا الواقع مما يختصُ اللّه به كإنزال المطر وإحياء الموتى وما أشبه ذلك ، أو مما يعلمه الخلق كالصلاة والصيام وما أشبهها ، فكل هذا بمشيئة اللّه . قال اللّه : ﴿ لِمَن شَآءَ مِنكُمْ أَن يَسْتَقِيمَ ۝٢٨ وَمَا تَشَآءُونَ إِلَّآ أَن يَشَآءَ ٱللَّهُ رَبُّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴾ [التكوير : ٢٨، ٢٩] . وقال اللّه : ﴿ وَلَوْ شَآءَ ٱللَّهُ مَا ٱقْتَتَلَ ٱلَّذِينَ مِنۢ بَعْدِهِم مِّنۢ بَعْدِ مَا جَآءَتْهُمُ ٱلْبَيِّنَٰتُ وَلَٰكِنِ ٱخْتَلَفُوا۟ فَمِنْهُم مَّنْ ءَامَنَ وَمِنْهُم مَّن كَفَرَ ۚ وَلَوْ شَآءَ ٱللَّهُ مَا ٱقْتَتَلُوا۟ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ يَفْعَلُ مَا يُرِيدُ ﴾ [البقرة : ٢٥٣] فبين اللّه لنا أنه لا مشيئة لنا إلا بمشيئة اللّه وأن أفعالنا واقعة بمشيئة اللّه : ﴿ وَلَوْ شَآءَ ٱللَّهُ مَا ٱقْتَتَلُوا۟ ﴾ [البقرة : ٢٥٣] كل شيء ، فإنه واقع بمشيئة اللّه ، فلا يكون في ملكه ما لا يشاء أبدًا ، ولهذا أجمع المسلمون على هذه الكلمة العظيمة : « مَا شَاءَ اللّه كَانَ وَمَا لَم يَشأ لَمْ يَكن »[3] .

---

(١) أخرجه البخاري في الأدب (٥٩٨٦) ومسلم في البر والصلة والآداب (٢٠) .

(٢) ودليل ذلك ما رواه : أحمد في مسنده (٣/٣٩٧) ، ومسلم في القدر (٤) .

(٣) ذكره ابن السني في عمل اليوم والليلة (٤٠) والسيوطي في الدر المنثور (٦/٢٥) ، والبيهقي في السنن (٣/٢١٥) بلفظ : « ما شاء اللّه كان ولو كره الناس » .

وأما المرتبة الرابعة : فهي الإيمان بأن كل شيء مخلوق لله ، لقول الله تبارك وتعالى : ﴿ ٱللَّهُ خَٰلِقُ كُلِّ شَيۡءٖۖ وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَيۡءٖ وَكِيلٞ ﴾ [الزمر : ٦٢] وقال تعالى : ﴿ وَخَلَقَ كُلَّ شَيۡءٖ فَقَدَّرَهُۥ تَقۡدِيرٗا ﴾ [الفرقان : ٢] فكل شيء واقع فإنه مخلوق لله ﷻ .

الإنسان مخلوق لله وعمله مخلوق لله ، قال الله عن إبراهيم وهو يُخاطب قومه : ﴿ وَٱللَّهُ خَلَقَكُمۡ وَمَا تَعۡمَلُونَ ﴾ [الصافات : ٩٦] ففعل العبد مخلوق لله لكن المباشر للفعل هو العبد وليس الله ، لكن الله هو الذي خلق هذا الفعل ففعله العبد ، فهو منسوب لله خلقًا ومنسوب إلى العبد كَسبًا وفعلًا .

فكل شيء مما يحدث فإنه مخلوق لله ﷻ ، لكن ما كان من صِفَات الله فليس مخلوق ، فالقرآن مثلًا أنْزَله الله على محمد ﷺ لكنه ليس بمخلوق ؛ لأن القرآن كلام الله وكلام الله صفة من صفاته وصفاته سبحانه ليست بمخلوقة .

هذه مراتب أربع للإيمان بالقدر ! يجب أن تؤمن بها كلها وإلا فإنك لم تؤمن بالقدر .

وفائدة الإيمان بالقَدر عَظيمة جدًّا ؛ لأن الإنسان إذا علم أن الشَّيء لابد أن يقع كما أمر الله استراح .

فإذا أصيب بضراء صبرَ وقال : هذا من عند الله ، وإن أصيب بسرَّاء شكر وقال : هذا من عند الله وقد ثبت عن النبي عليه الصلاة والسلام أنه قال : « عَجَبًا لِأَمْرِ الْمُؤْمِنِ إِنَّ أَمْرَهُ كُله خَير ، إن أَصَابَته سَراء شَكَر فَكَان خَيرًا لَهُ ، وإِن أَصَابَتْه ضَراء صَبَرَ فَكَانَ خَيرًا لَهُ » [(١)] .

لأن المؤمن يؤمن أن كل شيء بقضاء الله فيكون دائمًا في سرور ودائمًا في انشراح ؛ لأنه يعلم أن ما أصابه فإنه من الله إن كان ضراء صبر وانتظر الفرج من الله وَلجأ إلى الله في كشف هذه الضَّراء ، وإن كان سَرَّاء شَكر وحمد الله وعلم أن ذلك لم يكن بحوله ولا قوته ، ولكن بفضل من الله ورحمة .

وقوله : « **خيره وشره** » : الخير : ما ينتفع به الإنسان ويُلائمه من عِلم نافع ، ومَال واسِع طيب ، وصحة وأهل وبنين ، وما أشْبه ذلك .

والشرُّ : ضد ذلك من الجهل ، والفقر ، والمرض ، وفُقْدان الأهل والأولاد ، وَمَا أشْبَهه .

كل هذا من الله ﷻ ، الخير والشرّ ، فإن الله سبحانه يقدر الخير لحكمة ويقدر الشرَّ لحكمة ، كما قال الله ﷻ : ﴿ وَنَبۡلُوكُم بِٱلشَّرِّ وَٱلۡخَيۡرِ فِتۡنَةٗۖ وَإِلَيۡنَا تُرۡجَعُونَ ﴾ [الأنبياء : ٣٥] .

فإذا علم الله أن من الخير والحكمة أن يقدر الشر قَدره لما يترتب عليه من المَصَالح العظيمة كقوله تعالى : ﴿ ظَهَرَ ٱلۡفَسَادُ فِي ٱلۡبَرِّ وَٱلۡبَحۡرِ بِمَا كَسَبَتۡ أَيۡدِي ٱلنَّاسِ لِيُذِيقَهُم بَعۡضَ ٱلَّذِي عَمِلُواْ لَعَلَّهُمۡ يَرۡجِعُونَ ﴾ [الروم : ٤١] .

فإذا قال قائل : كيف تجمع بين قول النبي عليه الصلاة والسلام : « وأن تؤمن بالقدر خيره وشره » وقوله ﷺ : « الشر لَيسَ إِلَيكَ » [(٢)] فنفى أن يكون الشر إليه ؟

---

(١) أخرجه مسلم في الزهد والرقائق (٦٤) ، والمنذري في الترغيب والترهيب (٢٧٨/٤) .

(٢) أخرجه مسلم في صلاة المسافرين (٢٠١) ، والنسائي في الافتتاح (١٧) .

جـ : فالجواب على هذا أن نقول : إن الشر المحض لا يكون بفعل اللَّه أبدًا .

الشر المحض الذي ليس فيه خير لا حَالًا ولا مَالًا ، هذا لا يمكن أن يوجد في فعل اللَّه أبدًا ، هذا من وجه ؛ لأنه حتى الشر الذي قدره اللَّه شرًّا لابد أن يكون له عاقبة حميدة ، ويكون شرًّا على قوم وخيرًا على آخرين ؛ أرأيت لو أنزل اللَّه المطر مطرًا كثيرًا فأغرَق زَرْع إنسان ، لكنه نفع الأرض وانتفعت به أمة لكان هذا خيرًا بالنسبة لمن انتفع به شرًّا بالنسبة لمن تضرر به فهو خير من وجه وشر من وجه .

ثانيًا : حتى الشَّر الذي يُقدره اللَّه على الإنسان هو خير في الحقيقة ؛ لأنه إذا صبر واحتسب الأجر من اللَّه نال بذلك أجرًا أكثر بأضعاف مضاعفة مما ناله من الشر .

ولهذا ذكر عن بعض العابدات أنها أصيبت في أصبعها أو يدها فانجرحت فصبرت وشكرت اللَّه على هذا وقالت : (إن حَلاوة أجرِهَا أنسَتْني مَرَارَة صبْرها) [1] .

ثم نقول : إنَّ الشَّر حقيقة ليس في فعل اللَّه نفسه ، بل في مفعولاته . المفعولات هي التي فيها خير وشر أمَّا الفعل نفسه فهو خير ، ولهذا قال اللَّه ﷻ : ﴿ قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ ٱلْفَلَقِ ۝ مِن شَرِّ مَا خَلَقَ ﴾ [الفلق : ١، ٢] أي : من شر الذي خلقه اللَّه .

يَدُلُّك لهذا أنه لو كان عندك مريض وقيل له : إنَّ من شفائه أن تكويه بالنَّار فَكَوَيتَهُ بالنَّار ، فالنَّار مُؤْلمة بلا شك ، لكن فِعْلك هذا ليس بشر ، بل هو خير للمريض ؛ لأنك إنما تنتظر عاقبة حميدة بهذا الكي كذلك فِعْل اللَّه للأشياء المكروهة والأشياء التي فيها شر هي بالنسبة لفعله وإيجاده خير ؛ لأنه يترتَّب عليها خير كثير .

فإن قال قائل : كيف تجمع بين هذا وبين قوله تعالى : ﴿ مَّآ أَصَابَكَ مِنْ حَسَنَةٍ فَمِنَ ٱللَّهِ وَمَآ أَصَابَكَ مِن سَيِّئَةٍ فَمِن نَّفْسِكَ ﴾ [النساء : ٧٩] .

جـ : فالجواب : أن نقول : ﴿ مَّآ أَصَابَكَ مِنْ حَسَنَةٍ فَمِنَ ٱللَّهِ ﴾ يعني من فضله هو الذي منَّ عليك بها أولًا وآخرًا ﴿ وَمَآ أَصَابَكَ مِن سَيِّئَةٍ فَمِن نَّفْسِكَ ﴾ أي : أنت سببها ، وإلا فالذي قدَّرها هو اللَّه لكن أنت السبب كما في قوله تعالى : ﴿ وَمَآ أَصَٰبَكُم مِّن مُّصِيبَةٍ فَبِمَا كَسَبَتْ أَيْدِيكُمْ وَيَعْفُواْ عَن كَثِيرٍ ﴾ [الشورى : ٣٠] .

وخلاصة الكلام : أن كل شيء واقع ، فإنه بقدر اللَّه سواء كان خيرًا أم شرًّا . أما الخير : فأمره واضح أنه من اللَّه ، وأما الشر : فإننا نقول : إن الشر ليس في فعل اللَّه ، بل في مَفعولاته ، ونقول أيضًا : هذه المفعولات التي فيها الشر قد تكون خيرًا من وجه آخر ، إما للشخص المصاب بها نفسه وإما لغيره .

فمثلًا : إذا نزل المطر وأتلَفَ زرع إنسان لكنه نفع الأمة فهنا صار شرًّا على شخص لكنه خير كثير بالنسبة للآخرين .

أو تقول : هو شر لك من وجه وخير لك من وجه آخر ؛ لأن هذا الشر إن أصابك لك فيه أجر كثير وربما يكون سببًا لاستقامتك ومعرفتك قدر نعمة اللَّه عليك فتكون العاقبة حميدة .

---

(١) هذا القول لرابعة العدوية .

قال عمر فيما نقله عن جبريل قال للنبي ﷺ : « أخْبِرني عن الإحسَان ؟ قال : أن تعبد اللَّه كأنك تراه فإن لَم تَكُن تَرَاه ؛ فإنه يَرَاكَ » :

الإحسان : ضد الإساءة ، والمراد بالإحسان هنا إحسان العَمل ، فبين النبي عليه الصلاة والسلام أن الإحسان أن تعبد اللَّه كأنك تراه ؛ يعني مثلًا : تُصَلي وكأنك ترى اللَّه ﷻ ، وتزكي وكأنك تَرَاه ، وتَصُوم وكأنك تراه ، وتحج وكأنك تراه ، وهكذا بقية الأعمال .

وكون الإنسان يعبد اللَّه كأنَّه يَرَاهُ فإن ذلك دليل على الإخلاص لله ﷻ ، وعلى إتقان العمل في متابعة الرسول ﷺ ؛ لأن كل مَنْ عَبَد اللَّه على هذا الوَصْف فلابد أن يقع في قلبه من محبة اللَّه وتعظيمه ما يَحْمله على إتقان العمل وإحكام العمل .

« فإن لَم تكُن تَرَاه فَإِنَّهُ يَرَاكَ » أي : فإن لم تعبد اللَّه على هذا الوصف فاعبده على سبيل المراقبة والخوف « فإنه يرَاكَ » ومعلوم أن عبادة اللَّه على وجه الطلب أكمل من عبادته على وجه الهرب ! فها هنا مرتبتان :

المرتبة الأولى : أنْ تعبد اللَّه كأنَّك تراه : وهذه مرتبة الطلب .

والثَّانية : أن تعبده كأنك تعلم أنه يراك وهذه مرتبة الهرب ، وكلتاهما مرتبتان عظيمتان ، لكن الأولى أكمل وأفضل .

ثم قال جبريل : «أخبرني عن الساعة » ، أي : عن قيام السَّاعة التي يبعث فيها الناس ويجازون فيها على أعمالهم ، فقال النبي ﷺ : « ما المسؤول عنها بأعلم من السَّائل » .

المَسْؤُول عنها : يعني نفسه عليه الصلاة والسلام ، بأعلم من السَّائل : يعني جبريل ، يعني إذا كنت أنت يا جبريل تجهلها فأنا كذلك أجهلها ، فهذان رَسُولان كريمان أحدهما رَسُول مَلَكي ، والثَّاني رسُول بشري وهما أكمل الرسل . فأكمل الرسل من الملائكة : جبريل ، وأكمل الرسل من البشر محمد ﷺ ، ومع ذلك فكل منهما ينفي أن يكون له علم بالساعة ؛ لأنَّ علم الساعة عند من بيده إقامتها ﷻ وهو تبارك وتعالى كما قال اللَّه في آيات متعددة : ﴿ يَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلسَّاعَةِ أَيَّانَ مُرْسَىٰهَا قُلْ إِنَّمَا عِلْمُهَا عِندَ رَبِّى ﴾ (١) [الأعراف : ١٨٧] ﴿ يَسْـَٔلُكَ ٱلنَّاسُ عَنِ ٱلسَّاعَةِ قُلْ إِنَّمَا عِلْمُهَا عِندَ ٱللَّهِ ﴾ [الأحزاب : ٦٣] فعلمها عند اللَّه ، فمن ادَّعى علم السَّاعة فإنه كاذب ، ومن أين له أن يعلم ورسول اللَّه ﷺ لا يعلم وجبريل لا يعلم وهما أفضل الرسل ؟ ولكن السَّاعة لها أمَارات كما قال اللَّه تعالى : ﴿ فَهَلْ يَنظُرُونَ إِلَّا ٱلسَّاعَةَ أَن تَأْتِيَهُم بَغْتَةً فَقَدْ جَآءَ أَشْرَاطُهَا ﴾ [محمد : ١٨] أي : علاماتها .

ولهذا لما أخبر النبي ﷺ جبريل أنه لا يعلم بذلك قال : « فأخْبرني عن أمَاراتها » أي : علاماتها الدالة على قُربها .

فقال : « أن تلِدَ الأمَة رَبَّتها وأن ترَى الحُفَاة العُرَاة العَالَة رعاء الشاء يَتَطَاوَلُون في البُنيان » : الأول :

(١) قوله ﴿ مُرْسَىٰهَا ﴾ أي : إثباتها واستقرارها ، والمراد : متى قيامها ؟

«أن تَلد الأمَة ربتها» يعني: أن تكون الأمة المملوكة يتطور بها الحال حتى تكون ربة للمماليك الآخرين وهو كناية عن كثرة الأموال.

وكذلك الثَّاني: «وأن تَرَى الحُفَاةَ العُرَاة العَالَةَ رعاءَ الشاءِ يَتَطَاوَلُون في البُنيان» الحفاة: الذين ليس لهم نِعال من الفقر، والعُراة: ليس لهم كسوة من الفقر، العَالة الفقراء، يتطاولون في البنيان: يعني أنهم لا يلبثون إلا أن يكونوا أغنياء يتطاولون في البنيان حِسًّا ومعنىً.

حِسًّا: بأن يرفعوا بنيانهم إلى السماء، ومعنىً: بأن يحسنوها ويزينوها ويدخلوا عليها كل ما يكون من مُكَملاتها؛ لأنَّ لديهم وفرة من المال.

وكل هذا وقع وهناك أمارات أخرى وعلامات أخرى ذكرها أهل العلم في باب الملاحم والفتن وأشراط السَاعة وهي كثيرة، ثم انطلق جبريل عليه الصلاة والسَّلام ولبثوا ما شاء اللَّه أن يلبثوا ثم قال النبي ﷺ لعمر: «أتَدْرِي مَنْ السَائل؟ قال: اللَّه ورسوله أعلم!». قال: «فإنه جبريل أتاكم يعلمكم دينكم».

وفي هذا الحديث من الفوائد:

إلقاء المَسائل على الطَّلبة ليمتحنهم كما ألْقَى النبي عليه الصلاة والسلام المسألة على عمر. وفيه: جواز قول الإنسان: اللَّه ورسوله أعلم ولا يلزمه أن يقول: اللَّه ثم رسوله أعلم؛ لأن علم الشَريعة الذي يصل إلى النبي عليه الصَّلاة والسلام من علم اللَّه، فَصَحَّ أن يُقَال: اللَّه ورسوله أعلم كما قال اللَّه: ﴿وَلَوْ أَنَّهُمْ رَضُوا۟ مَآ ءَاتَىٰهُمُ ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥ﴾ [التوبة: ٥٩] ولم يقل: ثم رسوله؛ لأن الإيتاء هنا إيتاء شرعي وإيتاء النبي ﷺ الشرعي من إيتاء اللَّه.

فالمسائل الشرعية يجوز أن تقول اللَّه ورسوله بدون (ثم) أما المسائل الكونية كالمشيئة وما أشبهها فلا تقال: اللَّه ورسوله، بل اللَّه ثم رسوله، ولهذا لما قال رجل للنبي ﷺ: ما شاء اللَّه وشئت. قال: «أجعلتني لله ندًا، بل ما شاءَ اللَّه وحده»(١).

وفي هذا دليل على أنَّ السائل إذا سأل عن شيء يعلمه من أجل أن ينتفع الحاضرون، فإنه يكون معلمًا لهم؛ لأن الذي أجاب النبي عليه الصَّلاة والسَّلام وجبريل سائل لم يعلم الناس، لكن كان سببًا في هذا الجواب الذي انتفع به الناس.

فقال بعض العلماء: إنَّه ينبغي لطالب العلم إذا جلس مع عالم في مَجْلس أن يسأل عن مسائل تَهم الحَاضرين، وإن كان يعلم حُكمها من أجل أن ينفع الحاضرين ويكون معلمًا لهم.

وفي هذا دليل على بركة العلم، وأن العلم ينتفع به السائل والمجيب كما قال هنا: «يعلمكُم دِينَكم»:

وفيه: أن هذا الحديث حديث عظيم يشتمل عَلَى الدِّين كُله ولهذا قال: «يعلمكم دينكم» لأنه

---

(١) أخرجه أحمد في مسنده (١/٢١٤)، والبيهقي في السنن (٣/٢١٧) كلاهما بلفظ: «أجعلتني مع اللَّه».

مشتمل على أصول العقائد وأصول الأعمال . أصول العقائد ، أركان الإيمان ، وأصول الأعمال : أركان الإسلام الخمسة والله الموفق .

* * *

٦١ - الثَّاني : عَنْ أبي ذَرٍّ جُنْدُبِ بْنِ جُنَادَةَ ، وَأبي عَبْد الرَّحْمنِ مُعَاذِ بْنِ جَبَل ﷺ عَنْ رسول اللَّه ﷺ ، قال : « اتَّقِ اللهَ حَيثُمَا كُنْتَ ، وأَتْبعِ السَّيِّئة الحَسَنَةَ تَمْحُهَا ، وَخَالِقِ النَّاسَ بخُلُقٍ حَسَنٍ » [١] رواه التِّرمذيُّ وقال : حديث حسنٌ .

الشرح

هذا الحديث من أحاديث الأربعين النووية للمؤلف رحمه الله وفيها أنَّ النبي ﷺ أوصى بثلاث وصايا عظيمة :

الوصية الأولى : قال : « اتق اللَّه حيثما كُنت » وتقوى اللَّه : هي اجتناب المحارم وفعل الأوَامِر هذه هي التقوى ! أن تفعل ما أمرك اللَّه به إخلاصًا لله واتِّباعًا لرسول اللَّه ﷺ ، وأن تترك ما نهى اللَّه عنه امتثالًا لنهي اللَّه عز وجل وتنزهًا عن محارم اللَّه .

مِثاله : تقوم بما أوجب اللَّه عليك في أعظم أركان الإسلام بعد الشهادتين وهي الصلاة ، فتأتي بها كاملة بشروطها وأركانها وواجباتها وتكملها بالمكملات . فمن أخل بشيء من شُروط الصلاة أو وَاجباتها أو أركانها ؛ فإنه لم يتق اللَّه ، بل نَقَص من تقواه بقدر ما نقص من المأمور . في الزكاة تقوى اللَّه فيها أن تُحصي جميع أموالك التي فيها الزكاة وتخرج زكاتك طيبة بها نفسك من غير بخل ولا تقتير ولا تأخير ، فمن لم يفعل فإنه لم يتق الله .

في الصيام تأتي بالصوم كما أمرت مجتنبًا فيه اللغو والرفث والصَخب والغيبة والنميمة وغير ذلك مما ينقص الصوم ويزيل روح الصوم ومعناه الحقيقي وهو الصوم عما حرم اللَّه عز وجل !

وهكذا بقية الواجبات تقوم بها طاعةً للَّه وامتثالًا لأمره وإخلاصًا له واتباعًا لرسوله ، وكذلك في المنهيات تترك ما نَهى اللَّه عنه امتثالًا لنهي اللَّه عز وجل حيث نهاك فانتهي .

الوصية الثانية : « أتبع السَّيئة الحَسَنة تمحها » أي : إذا عملت سيئة فأتبعها بحَسَنة فإن الحسنات يذهبن السيئات ، ومن الحسنات بعد السيئات : أن تتوب إلى اللَّه من السَيئات فإنَّ التَّوبة من أفضل الحَسَنات كما قال اللَّه عز وجل : ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلتَّوَّٰبِينَ وَيُحِبُّ ٱلْمُتَطَهِّرِينَ ﴾ [البقرة : ٢٢٢] وقال اللَّه تعالى : ﴿ وَتُوبُوٓا۟ إِلَى ٱللَّهِ جَمِيعًا أَيُّهَ ٱلْمُؤْمِنُونَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ﴾ [النور : ٣١] .

وكذلك الأعمال الصالحة تكفر السيئات كما قال النبي عليه الصَّلاة والسلام : « الصَّلَوَاتُ الخَمْسُ ، وَالجُمُعة إلى الجُمُعة ، وَرَمَضَان إلى رَمَضَانَ ، كَفارة لما بَينَهُن مَا اجْتُنِبَت الكَبَائر » [٢] .

---

(١) أخرجه الإمام أحمد في مسنده (١٥٣/٥ ، ١٥٨ ، ١٧٧ ، ٢٣٦) والترمذي في البر والصلة (١٩٨٧) .

(٢) أخرجه مسلم في الطهارة (١٤) والترمذي في السنن (٢١٤) وأحمد في مسنده (٤٠٠/٢) .

وقال : « العُمْرة إلى العُمرة كَفارة لِمَا بَينهما » (١) فالحسنات يذهبن السيئات .

الوصية الثالثة : « خَالِق الناس بخُلق حَسَن » !

والوصيتان الأوليان في مُعَاملة الخالق والثَّالثة في مُعَامَلة الخلق أن تعاملهم بخلق حسن تُحمد عليه ولا تذم فيه وذلك بطَلاقة الوجه وصِدق القول وحُسْن المخاطبة وغير ذلك من الأخلاق الحَسَنة .

وقد جاءت النصوص الكثيرة في فضل الخلق الحسن حتى قال النبي عليه الصلاة والسَّلام : «أكْمَلُ المُؤْمِنينَ إيمانًا أحْسَنهم خُلقًا » (٢) وأخبر أن أولَى الناس به ﷺ وأقربهم منه منزلة يوم القيامة أحاسنهم أخلاقًا .

فالأخلاق الحسنة مع كونها مَسْلكًا حَسَنًا في المجتمع ويكون صاحبها محبوبًا إلى الناس هي فيها أجر عظيم يناله الإنسان في يوم القيامة .

فاحفظ هذه الوصايا الثلاث من النبي ﷺ والله الموفق .

* * *

٦٢ - الثَّالثُ : عَن ابْن عَبَّاسٍ رضي الله عنهما قال : كُنْتُ خَلْفَ النَّبيِّ ﷺ يَومًا فَقَالَ : « يَا غُلامُ إنِّي أُعَلِّمُكَ كَلِمَاتٍ : احْفَظِ اللَّهَ يَحْفَظْكَ ، احْفَظِ اللَّهَ تَجِدْهُ تُجَاهَكَ ، إذَا سَأَلْتَ فَاسْأَل اللَّه ، وإذَا اسْتَعَنْتَ فَاسْتَعِنْ باللَّهِ ، واعْلَمْ : أنَّ الأُمَّةَ لو اجْتَمَعَتْ عَلَى أَنْ يَنْفَعوك بِشَيءٍ ، لَمْ يَنْفَعُوكَ إلا بشَيءٍ قَدْ كَتَبَهُ اللَّهُ لَكَ ، وَإنِ اجْتَمَعُوا عَلَى أَنْ يَضُرُّوك بِشَيءٍ ، لَمْ يَضُرُّوكَ إلا بشَيءٍ قَد كَتَبَهُ اللَّهُ عَلَيكَ ، رُفِعَتِ الأَقلامُ ، وَجَفَّتِ الصُّحُفُ » رواهُ التِّرمذيُّ وَقالَ : حديثٌ حسنٌ صحيحٌ .

وفي رواية غير التِّرمذيِّ : « احْفَظِ اللَّهَ تَجِدْهُ أَمامَكَ ، تَعَرَّفْ إلى اللَّه في الرَّخَاءِ يَعْرِفْكَ في الشِّدَّةِ ، وَاعْلَمْ أَنَّ مَا أَخْطَأَكَ لَمْ يَكُنْ لِيُصِيبَكَ ، وَمَا أَصَابَكَ لَمْ يَكُنْ لِيُخْطِئَكَ ، وَاعْلَمْ أَنَّ النَّصْرَ مَعَ الصَّبْرِ ، وَأَنَّ الفَرَجَ مَعَ الكَرْبِ ، وَأَنَّ مَعَ العُسرِ يُسْرًا » (٣) .

الشرح

قوله : « كنت خلف النبي ﷺ » أي راكبًا معه .

قوله : « فقال لي يا غلام .. احفظ اللَّه يحفظك » قال له : يا غلام ؛ لأن ابن عباس رضي الله عنهما كان صغيرًا فإن النبي ﷺ تُوفِّي وقد ناهز الاحتلام يعني من الخامسة عشر إلى السادسة عشرة أو أقل . فكان راكبًا خلف الرسول ﷺ فوجه إليه هذا النِّداء « يا غُلام » .

« احفظ اللَّه يحفظك » كلمة جليلة عظيمة ، احفظ اللَّه وذلك بحفظ شرعه ودينه بأن تمتثل لِأوَامِره

---

(١) أخرجه البخاري في العمرة (١٧٧٣) ومسلم في الحج (٤٣٧١) والنسائي في السنن (١١٢/٥) وابن ماجه في السنن (٢٨٨٨) .

(٢) أخرجه الترمذي في السنن (٢٦١٢) وأبو داود في السنن (٤٦٨٢) وأحمد في مسنده (٤٧٢/٢) .

(٣) أخرجه الإمام أحمد (٢٠٧/١) والترمذي في صفة القيامة (٢٥١٦) والطبراني في الكبير (١٢٣/١١ ، ١٧٨) .

وتجتنب نَوَاهيه ، وكذلك بأن تتعلم من دينه ما تقوم به عباداتك ومعاملاتك وتدعو به إلى اللّه ﷻ لأن كل هذا من حفظ اللّه . اللّه ﷻ نفسه ليس بحاجة إلى أحد حتى يحفظه ولكن المراد حفظ دينه وشَرِيعته كما قال اللّه تعالى : ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِن تَنصُرُواْ ٱللَّهَ يَنصُرۡكُمۡ ﴾ [محمد : ٧] وليس المعنى تنصرون ذات اللّه لأن اللّه ﷻ غني عن كل أحد ، ولهذا قال في آية أخرى : ﴿ ذَٰلِكَۖ وَلَوۡ يَشَآءُ ٱللَّهُ لَٱنتَصَرَ مِنۡهُمۡ ﴾ [محمد : ٤] ولا يعجزونه : ﴿ وَمَا كَانَ ٱللَّهُ لِيُعۡجِزَهُۥ مِن شَيۡءٖ فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَلَا فِي ٱلۡأَرۡضِۚ ﴾ [فاطر : ٤٤] .

إذًا : « احْفَظِ اللّه يَحْفَظك » جملة تدل على أن الإنسان كلما حفظ دين اللّه حفظه اللّه .

ولكن حفظه في ماذا ؟

جـ : حِفظه في بدنه وحفظه في مَالِه وأَهْلِه وفي دينه ، وهذا أهم الأشياء وهو أن يُسْلمك من الزيغ والضلال ؛ لأن الإنسان كلما اهتدى زاده اللّه هدىً : ﴿ وَٱلَّذِينَ ٱهۡتَدَوۡاْ زَادَهُمۡ هُدٗى وَءَاتَىٰهُمۡ تَقۡوَىٰهُمۡ ﴾ [محمد : ١٧] وكلما ضلَّ والعياذ بالله فإنه يزداد ضلالًا كما جاء في الحديث : « إنَّ الإِنْسَان إذَا أَذْنَبَ صَارَ في قلبه نُكْتَة سَودَاء فإن تَاب مُحِيت » [١] وإن أذنب ثانية انضم إليها نكتة ثانية وثالثة ورابعة حتى يطبع على قلبه نسأل اللّه العافية .

إذًا : يحفظك في دينك وفي بدنك ومَالك وأهلك .

وقوله : « احْفَظِ اللّه تَجِدْهُ تجاهك » : وفي لفظ اخر : « تجده أمَامَك » احفظ اللّه أيضًا بحفظ شريعته بالقيام بأمره واجتناب نهيه ، تجده تجاهك وأمامك ومَعناهما وَاحِد ، يعني تجد اللّه أمَامَك يَدُلك على كل خير ويَذُود عنك كل شر وَلَا سِيما إذا حفظت اللّه بالاستعانة به فإنَّ الإنسان إذا استعان بالله وتوكل على اللّه كان اللّه حَسْبه وكَافيه . وَمَن كان اللّه حَسْبه ؛ فإنه لا يحتاج إلى أحد بعد اللّه . قال اللّه : ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ حَسۡبُكَ ٱللَّهُ وَمَنِ ٱتَّبَعَكَ مِنَ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ ﴾ [الأنفال : ٦٤] أي وحسب من اتبعك من المؤمنين : ﴿ وَإِن يُرِيدُوٓاْ أَن يَخۡدَعُوكَ فَإِنَّ حَسۡبَكَ ٱللَّهُۚ ﴾ [الأنفال : ٦٢] فإذا كان اللّه حسب الإنسان ، أي : كافيه فإنَه لن يناله سوء ، ولهذا قال : « احفظِ اللّه تَجِدْهُ تجاهك » أو « تجده أمامك » !

ثم قال له : « إذَا سَأَلْتَ فَاسْأَل اللّه وإذَا اسْتَعَنْتَ فَاسْتَعِنْ باللّه » أي لا تعتمد على أحد مخلوق .

مثلًا : إنسان فقير ليس عنده مال يسأل اللّه يقول : اللّهم ارزقني اللهم هَيِّء لي رِزْقًا ، فيأتيه الرزق من حيث لا يحتسب .

لكن لو سأل الناس فربما يعطونه أو يمنعونه ولهذا جاء في الحديث : « لأن يَأخَذ أحدُكم حَبْلَه فَيَحتطِب ثم يَبِيعهُ لكَان خَيرًا لَهُ مِن أن يَسْأل النَّاس أعطوهُ أو مَنَعُوه » [٢] .

فكذلك أنت إذا سألت فاسأل اللّه قل : « اللّهُم ارْزُقني » « اللّهُمَ أغنني بِفضْلِكَ عمَّن سِواك » وما أشبهه من الكلمات التي تتجه بها إلى اللّه ﷻ .

---

(١) أخرجه الترمذي في السنن (٣٣٣٤) ، وابن ماجه في السنن (٤٢٤٤) ، وأحمد في مسنده (٢/٢٩٧) .

(٢) أخرجه البخاري في الزكاة (١٤٧١) ، والنسائي في الزكاة (٥/٩٣) .

وكذلك أيضًا : « إذا اسْتَعَنْتَ فاسْتَعن بالله » . الاستعانة طلب العَون فلا تطلب العَون من أي إنسان إلا للضرورة القُصْوى ومع ذلك إذا اضطررت إلى الاستعانة بالمخلوق فاجعل ذلك وَسيلة وسببًا لا ركنًا تعتمد عليه ! اجعل الرُّكن الأصيل هو الله ﷻ .

وفي هاتين الجملتين دليل على أنه من نَقْص التوحيد أن الإنسَان يسأل غير الله ، ولهذا تكْره المسألة لغير الله ﷻ في قليل أو كثير .

والله سبحانه إذا أراد عونك يَسر لَكَ العَون سواء كَان بأسْباب معلومة أو غير معلومة .

قد يعينك الله بسبب غير معلوم لك فيدفع عنك من الشرِّ ما لا طاقة لأحد به وقد يعينك الله على يد أحد من الخلق يسخره لك ويذَلِّله لك حتى يعينك ، ولكن مع ذلك لا يجوز لك إذا أعانك الله على يد أحد أن تنسى المُسَبِّب وهو الله ﷻ ، كما يفعله بعض الجهلة الآن لما استعانت الدولة بالكفار وحصل منهم العون الظاهر البين صار بعض الناس من الجهلة يُقَدسون هؤلاء الكفرة وَمَا علموا أنهم أعداء لهم سواء أعانوهم أم لا !

هم أعداء لكم إلى يوم القيامة ولا يجوز لأحد أن يواليهم أو يُناصرهم أو يدعو لهم كما سمعنا من بعض العامة الجهال يقول : سوف نُضَحِّي لفلان وفُلان من الكفرة والعياذ بالله ، ونسمي أبناءنا بأسمائهم - نسأل الله العافية - وندعو لهم . هم لولا أن الله سخرهم وذللهم لكم ما نفعوكم بشيء .

النافع الضار هو الله وهو الذي يَسَّرَهم وسَخَّرهم لِيُعِينُوكم ويُدافعوا عنكم وهو من تسخير الله ﷻ لعباده المؤمنين أن يسخر لهم كفارًا يذودون عنهم كما جاء في الحديث : « إن الله يؤيد هذا الدين بالرجل الفَاجِر » [١] .

فيجب علينا أن لا ننسى فضل الله الذي سخرهم لنا ، ويجب علينا أن ننبه العامة ، إذا سمعنا أحدًا يَرْكن إليهم ويقول : هم الذينَ نصرونا مائة بالمائة وهم الأول والآخر ، فيجب علينا أن نبين لهم أن هذا خلل في التوحيد ، والله أعلم .

وقوله : « وَاعلَم أن الأمة لَو اجْتَمَعَت عَلى أن يَنْفَعُوكَ بشَيءٍ لَم يَنْفَعُوك إلا بشيءٍ قَد كَتَبَهُ اللَّه لَك » .

فبين النبي عليه الصلاة والسلام في هذه الجملة أن الأمة لو اجتمعت كلها على أن ينفعوك بشيء لم ينفعوك إلا بشيء قد كتبه الله لك ! فإذا وقَع منهم نَفْعٌ لَكَ فاعلم أنه من الله ؛ لأنه هو الذي كتبه فلم يقل النبي ﷺ لو اجتمعت على أن ينفعُوك بشيء لم ينفعوك . بل قال : « لم يَنفَعُوكَ إلا بِشيءٍ قَد كَتَبَة الله لك » .

فالناس بلا شك ينفع بعضهم بعضًا ويساعد بعضهم بعضًا ، لكن كل هذا مما كتبه الله للإنسان ، فالفضل لله فيه أولًا ﷻ هو الذي سخر لَك من ينفعك ويحسن إليك ويُزيل كربتك ، وكذلك بالعكس لو اجتمعوا على أن يَضُروك بشيء لم يضروك إلا بشيء قد كتبه الله عليك .

والإيمان بهذا يَسْتَلْزم أن يكون الإنسان متَعَلقًا بربه ومتكلًا عليه لا يهتم بأحد ؛ لأنه يعلم أنَّهُ لو اجتمع كل الخلق على أن يضروه بشيء لم يضروه إلا بشيء قد كتبه الله عليه . وحينئذٍ يعلق رجاءه

(١) أخرجه البخاري في القدر (٦٦٠٦) ، ومسلم في الإيمان (١٧٨) ، وأحمد في مسنده (٣٠٩/٢) .

بالله وَيَعْتَصم به ولا يهمه الخلق ولو اجتمعوا عليه ، ولهذا نجد الناس في سلف هذه الأمة لما اعتمدوا على اللَّه وتوكلوا عليه لم يَضُرهم كيد الكائدين ولا حَسَد الحاسدين : ﴿ وَإِن تَصْبِرُواْ وَتَتَّقُواْ لَا يَضُرُّكُمْ كَيْدُهُمْ شَيْـًٔا إِنَّ ٱللَّهَ بِمَا يَعْمَلُونَ مُحِيطٌ ﴾ [آل عمران : ١٢٠] .

ثم قال عليه الصلاة والسلام : « رُفِعت الأقْلام وَجَفت الصحف » : يعني أن ما كتبه اللَّه فقد انتهى وَرُفِعَ ، والصُّحف جفَّت من المداد ولم يبق مراجعة . فما أصابك لم يكن ليخطئك كما في اللفظ الثاني : « وَمَا أخطَأَكَ لَم يَكن لِيُصِيبك » .

وفي اللفظ الثاني قال : « وَاعلم أن النصر مع الصبر ، وأن الفَرَجَ مَعَ الكَرب ، وأن مع العسر يُسرًا » .

يعني اعلم عِلم يقين أن النصر مع الصبر ، فإذا صبرت وفعلت ما أمرك اللَّه به من وَسَائل النصر فإن اللَّه تعالى ينصرك .

والصبر هنا يَشْمل الصَّبر على طَاعَة اللَّه وعن مَعْصيته ، وعَلى أقْداره المؤلمة ؛ لأن العدو يُصيب الإنسان من كل جهة ، فقد يشعر الإنسان أنه لن يُطيق عدوه فيستحسر ويدع الجهاد .

وقد يَشرع في الجهاد ولكن إذا أصابه الأذى استحسر وتوقف ، وقد يستمر ولكنه يُصيبه الألم من عدوه فهذا أيضًا يجب أن يصبر عليه . قال اللَّه : ﴿ إِن يَمْسَسْكُمْ قَرْحٌ فَقَدْ مَسَّ ٱلْقَوْمَ قَرْحٌ مِّثْلُهُۥ ﴾ (١) [آل عمران : ١٤٠] ، وقال تعالى : ﴿ وَلَا تَهِنُواْ فِى ٱبْتِغَآءِ ٱلْقَوْمِ إِن تَكُونُواْ تَأْلَمُونَ فَإِنَّهُمْ يَأْلَمُونَ كَمَا تَأْلَمُونَ وَتَرْجُونَ مِنَ ٱللَّهِ مَا لَا يَرْجُونَ وَكَانَ ٱللَّهُ عَلِيمًا حَكِيمًا ﴾ (٢) [النساء : ١٠٤] فإذا صبر الإنسان وصابر وَرَابط فإن اللَّه سُبحانه ينصره .

وقوله : « وَاعلم أن الفرج مع الكرب » : كلما اكتَرَبت الأمور وضَاقَت فإن الفرج قريب ؛ لأنَّ اللَّه عَجَّلَكَ يقول في كتابه : ﴿ أَمَّن يُجِيبُ ٱلْمُضْطَرَّ إِذَا دَعَاهُ وَيَكْشِفُ ٱلسُّوٓءَ وَيَجْعَلُكُمْ خُلَفَآءَ ٱلْأَرْضِ أَءِلَٰهٌ مَّعَ ٱللَّهِ قَلِيلًا مَّا تَذَكَّرُونَ ﴾ [النمل : ٦٢] فكلما اشتدت الأمور فانتظر الفرج من الله ﷻ .

وقوله : « وإن مع العسر يسرًا » فكل عسر فبعده يسر ، بل إن العُسر مَحْفوف بيسْرين !

يُسْرٌ سَابق ، وُيسْرٌ لاَحِق ، قال اللَّه تعالى : ﴿ فَإِنَّ مَعَ ٱلْعُسْرِ يُسْرًا ۝ إِنَّ مَعَ ٱلْعُسْرِ يُسْرًا ﴾ [الشرح : ٤، ٥]
وقال ابن عباس رضي الله عنه : « لَن يَغلب عُسْر يُسْرين » (٣) .

فهذا الحديث الذي أوصى به عبدالله بن عباس ينبغي للإنسان أن يكون على ذكر له دائمًا وأن يعتمد على هذه الوصايا النافعة التي أوصى بها النبي ﷺ ابن عمه عبدالله بن عباس رضي الله عنهما ، والله الموفق .

* * *

٦٣ - الرَّابعُ : عَنْ أَنَسٍ رضي الله عنه قالَ : « إِنَّكُم لَتَعْمَلُونَ أَعْمَالًا هِيَ أَدَقُّ في أَعْيُنِكُمْ مِنَ الشَّعْرِ ، كُنَّا

---

(١) قوله تعالى : ﴿ قَرْحٌ ﴾ هو : كل ما يجرح الجسد من جراح .
(٢) قوله تعالى : ﴿ تَهِنُواْ ﴾ أي : لا تضعفوا ، وقوله تعالى : ﴿ ٱبْتِغَآءِ ٱلْقَوْمِ ﴾ أي طلب الكفار بالقتال .
(٣) أخرجه الحاكم في المستدرك (٥٢٨/٢) ، والهندي في كنز العمال (٢٩٤٦) .

نَعُدُّهَا عَلَى عَهْدِ رسول اللَّه ﷺ مِنَ المُوبِقَاتِ »(١) رواه البخاري . وقال : « المُوبِقَاتُ » المُهْلِكَاتُ .

٦٤ - الخَامِسُ : عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ ﷺ عن النبي ﷺ ، قال : « إِنَّ اللَّه تَعَالَى يَغَارُ ، وَغَيرَةُ اللَّه تَعَالَى : أَنْ يَأْتِيَ المَرءُ مَا حَرَّمَ اللَّهُ عَلَيهِ »(٢) متفقٌ عَلَيه . وَ « الغَيرَةُ » : بفتحِ الغين ، وَأَصْلُهَا الأَنَفَةُ .

الشرح

أنس بن مالك من المعمرين فبقي بعد النبي ﷺ حوالي تسعين سنة . فتغيرت الأمور في عهده ﷺ واختلفت أحوال الناس وصاروا يتهاونون في بعض الأمور العظيمة في عهد الصحابة ﷺ .

مثل : صلاة الجماعة ؛ فقد كان الصحابة ﷺ لا يتخلف أحد عنها إلا منافق أو مريض معذور .

ولكن الناس تَهَاوَنُوا بها ولم يكونوا على مَا كَان عليه الصحابة في عهد النبي ﷺ . بل إنَّ الناس في عهدنا صاروا يتهاونون بالصَّلاة نفسها لا بصلاة الجماعة فقط ، فلا يصلون ، أو يُصَلُّون ويتركون ، أو يُؤخرون الصَّلاة عن وقتها ، كل هذه أعمال يَسيرة عند بعض النَّاس لكنها في عهد النبي ﷺ والصحابة كانت تعد من المُوبقَات .

كذلك - أيضًا - الغش في عهد النبي عليه الصلاة والسلام قال : « مَنْ غَش فَلَيسَ مني »(٣) . لكن انظر إلى الناس اليوم تجد أن الغش عندهم أهون من كثير من الأشياء ، بل إن بعضهم والعياذ بالله يَعُد الغش من الشطارة في البيع والشراء والعقود ويرى أن هذا من باب الحذق والذكاء - نسأل اللَّه العافية - مع أن النبي ﷺ تَبَرأ من الإنسان الذي يغش الناس .

ومن ذلك : الكذب : وهو من الأشياء العظيمة في عهد الصحابة ﷺ فيرونه من الموبقات ، لكنه عند كثير من الناس يَعُده أمرًا هينًا فتجده يكذب ولا يُبالي بالكذب مع أن النبي ﷺ قال : « لَا يَزَالُ الرجُل يَكْذِب وَيَتَحرى الكَذِب حَتى يُكْتَبَ عِنْدَ اللَّه كَذابًا »(٤) .

وربما يكذب في أمور أخطر فيجحد ما عليه للناس ، أو يدعي ما ليس له ويحاكمهم عند القاضي ، ويحلف على ذلك فيكون - والعياذ باللَّه - ممن يلقى اللَّه وهو عليه غضبان ، إلى غير ذلك من المَسَائل التي يعدها الصحابة من المهلكات ، ولكن الناس اختلفوا فصارت في أعينهم أدَق من الشعر وذلك أنَّه كلما قوي الإيمان عَظُمت المَعْصية عند الإنسان ، وكلما ضَعُف الإيمان خفت المعصية في قلب الإنسان ورآها أمرًا هينًا يتهاون ويتكاسل عن الواجب ولا يبالي ؛ لأنه ضعيف الإيمان .

قال المؤلف - رحمه اللَّه تعالى - فيما نقله عن أبي هريرة : « إن اللَّه تَعالى يَغَار ، وغَيرة اللَّه تعالى

---

(١) أخرجه البخاري في الرقاق (٦٤٩٢) ، وأحمد في مسنده (١٥٧٢٣/٣) ، والدارمي في الرقاق (٥٤) .

(٢) أخرجه البخاري في النكاح (٥٢٢٣) ، ومسلم في التوبة (٣٦) ، والترمذي في الرضاع (١١٦٨) ، وأحمد في مسنده (٣٨٧/٢) .

(٣) أخرجه مسلم في الإيمان (١٦٤/١٠٢) ، والبيهقي في السنن (٣٢٠/٥) .

(٤) أخرجه أحمد في مسنده (٤٤٠/١) .

أنْ يأتي المرْءُ مَا حَرم اللَّه » .

قوله : « مَا حَرمُ اللَّه » أي : محارم اللَّه . الغيرة صفة حقيقية ثابتة لله ﷻ ولكنها ليست كغيرتنا ، بَل هي أعظم وأجل ، والله سبحانه بحكمته أوجب على العباد أشياء وحرم عليهم أشياء ، وأحَل لهم أشياء .

فما أوجَبَه عليهم ؛ فهو خَير لهم في دينهم ودنياهم ، وفي حاضرهم ومستقبلهم ، وما حَرمه عليهم ؛ فإنه شر لهم في دينهم ودنياهم ، وحاضرهم ومستقبلهم ، فإذا حرَّم اللَّه على عباده أشياء فإنَّه ﷻ يغار أن يأتي الإنسان محارمه ، وكيف يأتي الإنسان محارم ربه والله إنما حرمها من أجل مصلحة العبد ، أما اللَّه فلا يضره أن يعصي الإنسان ربه .

لكن يغار كيف يعلم الإِنسان أن اللَّه سُبحانه حكيم ورحيم ولا يحرم على عباده شيئًا بُخْلًا منه عليهم به .

ولكن من أجل مَصْلحتهم ثم يأتي العبد فيتقدم فيعصي اللَّه ﷻ ولا سيما في الزنى فإنه ثَبَتَ عن النبي ﷺ أنه قال : « مَا مِن أَحَدٍ أَغْيَرُ من اللَّه أن يَزْني عَبْدُه أو تَزْني أَمَتُه » [1] لأن الزِّنى فَاحشة والزنى طريق سافل جدًّا ، ومن ثَمَّ حرَّم اللَّه على عباده الزِّنى وجميع وسائل الزنى كما قال اللَّه سبحانه : ﴿ وَلَا تَقْرَبُوا۟ ٱلزِّنَىٰٓ ۖ إِنَّهُۥ كَانَ فَٰحِشَةً وَسَآءَ سَبِيلًا ﴾ [الإسراء : ٣٢] فإذا زنى العبد والعِياذ بالله فإن اللَّه يَغَّار غَيرة أشد وأعظم من غيرته على ما دُونه من المحارم .

ومن باب أولى وأشد اللواط ، وهو إتيان الذكر الذكر ، فإن هذا أعظم وأعظم ، ولهذا جعله اللَّه تعالى أشد في الفحش من الزنى فقال لوط لقومه : ﴿ أَتَأْتُونَ ٱلْفَٰحِشَةَ مَا سَبَقَكُم بِهَا مِنْ أَحَدٍ مِّنَ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴾ [الأعراف : ٨٠] . قال هنا : ﴿ ٱلْفَٰحِشَةَ ﴾ وفي الزنى قال : ﴿ فَٰحِشَةً ﴾ أي فاحشة من الفواحش ، أما اللواط فجعله الفاحشة العظمى نسأل اللَّه العافية .

وكذلك أيضًا السرقة وشُرب الخمر وكل المحارم يغار اللَّه منها ، لكن بعض المحارم تكون أشد غيرة من بعض حَسَب الجرم والمضار التي تترتب على ذلك .

وفي هذا الحديث : إثبات الغيرة لله تعالى وسبيل أهل السنة والجماعة فيه وفي غيره من أحاديث الصفات وآيات الصفات أنهم يثبتونها لله سبحانه على الوجه اللائق به يقولون : إن اللَّه يغار لكن ليست كغيرة المخلوق ، وإن اللَّه يفرح ولكن ليس كفرح المخلوق ، وإن اللَّه له من الصفات الكاملة ما يليق به ، ولا تشبه صفات المخلوقين والله الموفق .

* * *

٦٥ – السَّادِسُ : عَنْ أَبي هُرَيرَةَ ﷺ أَنَّهُ سَمِعَ النَّبيَّ ﷺ يَقُولُ : « إنَّ ثَلاثَةً مِنْ بني إسْرَائيلَ : أَبْرَصَ ، وَأَقْرَعَ ، وأَعْمَى أَرَادَ اللَّهُ أَنْ يَبْتَلِيَهُمْ فَبَعَثَ إِلَيهِمْ مَلَكًا ، فَأَتَى الأَبْرَص فَقَالَ : أَيُّ شَيءٍ أَحَبُّ إِلَيكَ ؟ قَالَ : لَونٌ حسنٌ ، وَجِلْدٌ حَسَنٌ ، وَيَذْهبُ عَني الَّذي قَدْ قَذِرَني النَّاسُ ، فَمَسَحَهُ فَذَهَبَ عَنْهُ قَذَرُهُ وَأُعْطِيَ لَونًا حَسَنًا . قالَ : فَأَيُّ المال أَحَبُّ إِلَيكَ ؟ قَالَ : الإبلُ – أَو قَالَ البَقَرُ – شَكَّ الرَّاوي –

(١) أخرجه البخاري في النكاح (٥٢٢٠) والبيهقي في السنن (٣٣٨/٣) .

فَأُعْطِيَ نَاقَة عُشَرَاءَ ، فَقَالَ : بَارَكَ اللَّهُ لَكَ فِيهَا .

فأتى الأَقْرَعَ فَقَالَ : أَيُّ شَيءٍ أَحبُّ إِلَيكَ ؟ قال : شَعْرٌ حَسَنٌ ، وَيَذْهَبُ عَنِّي هذَا الذي قَذِرني النَّاسُ ، فَمَسَحَهُ فَذَهَبَ عَنْهُ وَأُعْطِيَ شَعْرًا حَسَنًا . قال : فَأَيُّ المَالِ أَحبُّ إِليكَ ؟ قَالَ : البَقَرُ ، فَأُعْطِيَ بَقَرَة حَامِلًا ، وقَالَ : بَارَكَ اللَّهُ لَكَ فِيهَا .

فَأَتَى الأَعْمَى فَقَالَ : أَيُّ شَيءٍ أَحبُّ إِليكَ ؟ قال : أَنْ يَرُدَّ اللَّهُ إِلَيَّ بَصَرِي فأُبْصِرُ النَّاسَ ، فَمَسَحَهُ فَرَدَّ اللَّهُ إِلَيهِ بَصَرَهُ . قال : فَأَيُّ المَالِ أَحبُّ إِلَيكَ ؟ قال : الغَنَمُ ، فَأُعْطِيَ شَاةً وَالِدًا . فَأَنْتَجَ هذَان وَوَلَّدَ هذَا ، فَكَانَ لهذَا وَادٍ مِنَ الإبلِ ، وَلَهذاَ وَادٍ مِنَ البَقَرِ ، وَلِهذَا وَادٍ مِنَ الغَنَمِ .

ثُمَّ إِنَّهُ أَتَى الأَبْرَصَ في صُورَتِهِ وَهَيئَتِهِ ، فَقَالَ : رَجُلٌ مِسْكِينٌ قَدِ انْقَطَعَتْ بِيَ الحِبَالُ في سَفَرِي ، فَلا بَلاغَ لِي اليَومَ إلا بِاللَّهِ ثُمَّ بِكَ ، أَسْأَلُكَ بالَّذي أَعْطَاك اللَّونَ الحَسَنَ ، وَالجِلْدَ الحَسَنَ ، وَالمَالَ ، بَعِيرًا أَتَبَلَّغُ بِهِ في سَفَرِي ، فقالَ : الحُقُوقُ كَثِيرة . فقالَ : كأَنِّي أَعرِفُكَ ، أَلَمْ تَكُنْ أَبْرَصَ يَقْذَرُكَ النَّاسُ ، فَقيرًا فَأَعْطَاكَ اللَّهُ ! فقالَ : إِنَّمَا وَرِثْتُ هذَا المالَ كَابِرًا عَنْ كَابِرٍ ، فقالَ : إِنْ كُنْتَ كَاذِبًا فَصَيَّرَكَ اللَّهُ إِلَى ما كُنْتَ .

وَأَتَى الأَقْرَعَ في صُورَتِهِ وَهَيئَتِهِ ، فقالَ لَهُ مِثْلَ ما قَالَ لِهذَا ، وَرَدَّ عَلَيهِ مِثْلَ مَا رَدَّ هذَا ، فقالَ : إِنْ كُنْتَ كَاذِبًا فَصَيَّرَكَ اللَّهُ إلى مَا كُنْتَ .

وَأَتَى الأَعْمَى في صُورَتِهِ وَهَيئَتِهِ ، فقالِ : رَجُلٌ مِسْكِينٌ وابْنُ سَبِيلٍ انْقَطَعَتْ بِيَ الحِبَالُ في سَفَرِي ، فَلا بَلاغَ لِيَ اليَومَ إلا باللَّهِ ثُمَّ بِكَ ، أَسْأَلُكَ بالَّذي رَدَّ عَلَيكَ بَصَرَكَ ، شَاةً أَتَبَلَّغُ بَها في سَفَرِي ؟ فقالَ : قَدْ كُنْتُ أَعْمَى فَرَدَّ اللَّهُ إِلَيَّ بَصَرِي ، فَخُذ ماشِئْتَ وَدَعْ مَا شِئْت ، فَوَاللَّهِ مَا أَجْهَدُكَ اليَوم بِشَيءٍ أَخَذْتَهُ للَّهِ ﷻ فقالَ : أَمْسِكْ مالَكَ فإِنَّمَا ابْتُلِيتُمْ ، فَقَدْ رضِيَ اللَّه عنك ، وَسَخِطَ عَلَى صَاحِبَيكَ » (١) متفقٌ عليه .

« وَالنَّاقَةُ العُشَراءُ » بِضم العين وفتح الشين وبالمدِّ : هِيَ الحاملُ . قولُهُ : « أَنْتَجَ » وفي روايةٍ : « فَنَتَجَ » معْنَاهُ : تَوَلَّى نتَاجَها ، والنَّاتِجُ لِلنَّاقَةِ كالقَابلَةِ لِلْمَرأَة . وقولُهُ « وَلَّدَ هذا » هُوَ بِتَشْدِيدِ اللَّامِ : أي تَوَلَّى ولادَتَها ، وهُوَ بمَعْنَى نَتَجَ في النَّاقَةِ . فالمُوَلِّدُ ، والناتِجُ ، والقَابِلَةُ بمَعْنىً ، لكِنْ هذَا لِلْحَيوانِ وذاكَ لِغيرِهِ . وقولُهُ : « انْقَطَعَتْ بي الحِبالُ » هُو بالحاء المهملة والباء الموحدة : أي الأَسْبَابُ . وقولُهُ : « لا أَجْهَدُكَ » معناهُ : لا أَشقُّ عليكَ في رَدِّ شَيءٍ تَأْخُذُهُ أَو تَطْلُبُهُ مِنْ مَالي . وفي رواية البخاري : « لا أَحْمَدُكَ » بالحاء المهملة والميم ، ومعناهُ : لا أَحْمَدُكَ بِتَرْكِ شَيءٍ تحتاجُ إليهِ ، كما قالُوا : لَيسَ على طُولِ الحياةِ نَدَمٌ ، أَي عَلَى فَوَاتِ طُولِهَا .

الشرح

قوله : « ثلاثة من بني إسرائيل » وإسرائيل هو إسحاق بن إبراهيم عليه الصلاة والسَّلام أخو إسماعيل ، ومن ذرية إسرائيل : موسى وهارون وعيسى ، وجميع بني إسرائيل كلهم من ذرية إسحاق عليه الصلاة والسلام .

(١) أخرجه البخاري في أحاديث الأنبياء (٣٤٦٤) ومسلم في الزهد والرقائق (١٠) .

وإسماعيل أخو إسحاق ، فهم والعرب أبناء عم ، وقد جاءت أخبار كثيرة عن بني إسرائيل ، وهي ثلاثة أقسام :

الأولى : ما جاء في القرآن . والثاني : ما جاء في صحيح السنة .

والثالث : ما جاء عن أخبارهم وعن علمائهم .

فأما الأول والثاني : فلا شك في أنه حق ولا شك في قبوله مثل قوله تعالى : ﴿ أَلَمْ تَرَ إِلَى ٱلْمَلَإِ مِنۢ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ مِنۢ بَعْدِ مُوسَىٰٓ إِذْ قَالُوا۟ لِنَبِىٍّ لَّهُمُ ٱبْعَثْ لَنَا مَلِكًا نُّقَٰتِلْ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ ﴾ [البقرة : ٢٤٦] .

ومن السنة مثل هذا الحديث الذي رواه أبو هريرة عن النبي ﷺ . وأما ما روي عنهم عن أحبارهم وعلمائهم ؛ فإنه ينقسم إلى ثلاثة أقسام :

الأول : ما شهد الشرع ببطلانه : فهذا باطل يجب رده وهذا يقع كثيرًا فيما نقل من الإسرائيليات في تفسير القرآن ، فإنه ينقل في تفسير القرآن كثير من الأخبار الإسرائيلية التي يشهد الشرع ببطلانها .

والثاني : ما شهد الشرع بصدقه : فهذا يقبل لا لأنَّه من أخبار بني إسرائيل ، ولكن لأن الشرع شَهِدَ بِصِدْقِه وأنه حق .

والثالث : ما لم يكن في الشرع تصْديقه ولا تكذيبه : فهذا يُتَوَقف فيه لا يُصدقون ولا يُكَذبون ؛ لأننا إن صدقناهم فقد يكون باطلًا فيكون قد صدقناهم بباطل ، وإن كذبناهم فقد يكون حَقًّا فقد كذبناهم بحق ، ولهذا نتوقف فيه ولا حرج من التحديث به فيما ينفع في ترغيب أو ترهيب .

ذكر النبي عليه الصَّلاة والسَّلام في هذا الحديث : أن ثلاثة من بني إسرائيل ابتلاهم اللَّه ﷻ بعاهات في أبدانهم أحدهم أبرص [1] ، والثاني أقرع ليس على رأسه شعر ، والثالث أعمى لا يبصر فأراد اللَّه سبحانه أن يَبتَلِيَهُمْ ويَخْتَبِرَهُم ، لأن اللَّه سبحانه يبتلي العبد بما شاء يَبْلُوه هل يصبر أو يَضجر إذا كان ابتلاه بضراء ، وهل يشكر أو يقتر إذا كان قد ابتلاه بسراء .

فبعث اللَّه إليهم ملكًا من الملائكة وأتاهم يسألهم أي شيء أحب إليهم فبدأ بالأَبْرَص فقال : « أي شيء أحب إليك ؟ قال : لون حَسن وجلْد حَسَن ، ويذهب عني الذي قذرني الناس به » لأن أهم شيء عند الإنسَان أن يكون مُعَافَى من العَاهَات ولا سيما العَاهات المكروهة عند الناس . فمسحه الملك فبرأ بإذن اللَّه وزَالَ عَنْه البَرص ، وأعطِي لونًا حسنًا وجلدًا حسنًا .

ثم قال له : « أيُّ المَال أحب إليك ؟ قال : الإبل - أو قال - البقَر! » .

والظاهر أنه قال الإبل ؛ لأنه في قِصة الأقرع أُعطيَ البقر ، فأعطاه ناقة عشراء وقال له : بارك اللَّه لك فيها فذهب عنه الفقر وذَهَبَ عَنْه العَيب البَدَني ، ودعا له الملك بأن يُبارك اللَّه له في هذه الناقة .

ثم أتى الأقرع وقال : « أي شيء أحب إلَيك ؟ قال : شَعْر حَسَن ويذهب عني الذي قذرني الناس .

---

(١) البرص : هو بياض يصيب الجلد (المعجم الوسيط ٥١/١) .

فمسحه فأعطِيَ شعْرًا حَسَنًا . وقيل له : « أي المال أحب إليك ؟ قال : البَقَر ، فأعْطِي بَقَرَةً حَامِلًا ، وَقَالَ لَهُ : بَارَكَ لكَ اللّٰه فيها » .

أما الأعمى فجاءه الملك فقال له : « أي شيء أحبُّ إليك ؟ قال : أن يَرد اللّٰه علي بصري فأبْصِرُ به الناس » ، وتأمل قول الأعمى هذا ! . فإنه لم يسأل إلا بَصرًا يُبْصر به الناس فقط ، أما الأبرص والأقرع فإن كل واحد منهما تمنى شيئًا أكبر من الحاجة ؛ لأن الأبرص قال : جلدًا حسنا ولونًا حسنًا ، وذاك قال : شعرًا حسنًا . فليست مجرد جلد أو شعر أو لون ، بل تمنيا شيئًا أكبر ، أما هذا فإن عنده زهدًا لذا لم يسأل إلا بصرًا يُبْصر به فقط .

ثم سأله : « أي المال أحب إليك ؟ قال : الغنم » وهذا من زهده فلم يتمن الإبل ولا البقر ، بل الغنم ونِسْبَة الغنم للبقر والإبل قَلِيلة ، فأعطاه شاة والدًا وقال : بارك لك اللّٰه فيها .

فبارك اللّٰه للأول في إبله ، وللثاني في بقره ، وللثالث في غنمه ، وصار لكل واحد منهما وادٍ مما أُعطِيَ .

ثم إن هذا الملك أتى الأبرص في صورته وهيئته ، صورته البدنية وهيئته الرثة ولباسه لباس الفقير ، وقال له : « إني رَجُل فقير وابن سَبيل قَد انقطعت بي الحبال في سَفَري فلا بلاغ لي اليوم إلا بالله ثم بك » .

فتوسل إليه بذكر حاله أنه فقير وأنه ابن سبيل - أي مسافر - وأن الحبال - أي الأسباب - التي توصله إلى أهله قد انقطعت به ، وأنه لا بلاغ له إلا بالله ثم به .

وقال له : « أسألك بالذي أعطاك الجِلد الحَسَن والمال ، بعيرًا أتبلغ به في سَفَري » .

لكنه قال : الحقوق كثيرة وَبَخل بذلك مع أن له واديًا من الإبل لكنه قال : الحقوق كثيرة ، وهو فيما يظهر والله أعلم أنه لا يؤدي شيئًا منها ، لأن هذا أحق من يكون ؛ لأنه مسافر وفقير وانقطعت به الحبال ومن أحق ما يكون استحقاقًا للمال . ومع ذلك اعتذر له !

فذكَّره بما كان عليه من قبل ، فقال له : قد كنت أعْرِفك ، ألم تكن أبرَصَ يَقْذرك الناس ؟ فقيرًا فأعطاك اللّٰه المال ، وأعطاك اللون الحسن والجلد الحسن ؟

ولكنه قال والعياذ باللّٰه : « إنما وَرِثتُ هَذَا المَال كَابِرًا عَنْ كابِرِ » وأنكر نعمة اللّٰه . فقال له المَلَكُ : « إنْ كُنتَ كَاذِبًا فَصَيرَكَ اللّٰه إلى مَا كُنت » أي إن كنت كاذبًا فيما تقول فصيرك اللّٰه إلى ما كنت من الفقر والبرص ، والذي يظهر أن اللّٰه استجاب دعاء الملك وإن كان دعاءً مشروطًا لكنه كان كاذبًا بلا شك ، فإذا تحقق الشرط تحقق المَشْرُوط .

وأتى الأقرع فقال له مثلما قال للأبرص وردَّ عليه مثلما رد عليه الأبرص فقال : « إنْ كنْتَ كَاذِبًا فَصَيرك اللّٰه إلى مَا كُنت » .

وأتى الأعمى وذكره بنعمة اللّٰه عليه : « فقال له : قد كنتُ أعمى فَرَد اللّٰه علي بَصَري ، وكنتُ فَقيرًا فأعطاني اللّٰه المال » فأقر بنعمة اللّٰه عليه « فَخُذْ مَا شِئتَ وَدَعْ مَا شِئْتَ مِن الغَنم ، فَوَاللّٰه لا أجْهَدك اليوم بشيء أخذته لله » . أي : لا أمنعك ولا أشق عليك بالمنع بشيء أخذته لله ﷻ ، انظر

إلى الشكر والاعتراف بالنعمة .

فقال له الملك : « أَمْسِكْ عَلَيكَ مَالَكَ ، إنما ابْتُلِيتم فقد رضيَ اللَّه عنك وسَخِط على صَاحبيك » .

وهذا يدل على أن القصة كانت مَشْهورة بين الناس ، ولهذا قال : « سَخِطَ عَلى صَاحِبيك » .

فأمسك ماله ، وبقي قدَ أنعَم اللَّه عليه بالبصر ، وأما الآخران فإن الظاهر أن اللَّه ردهما إلى ما كانا عليه من الفقر والعاهة والعياذ بالله .

وفي هذا دليل : على أن شكر نعمة اللَّه على العبد من أسباب بقاء النعم وزيادتها ، كما قال تعالى : ﴿ وَإِذْ تَأَذَّنَ رَبُّكُمْ لَئِن شَكَرْتُمْ لَأَزِيدَنَّكُمْ وَلَئِن كَفَرْتُمْ إِنَّ عَذَابِي لَشَدِيدٌ ﴾ [إبراهيم : ٧] .

وفي قِصتهم آيَاتٌ من آيات اللَّه ﷻ :

منها : إثبات الملائكة ، والملائكة هم عالم غيبي خلقهم اللَّه ﷻ من نُور وجعل لهم قُوة في تنفيذ أمر اللَّه ، وجعل لهم إرادة في طاعة اللَّه ، فهم لا يعصون اللَّه ما أمرهم ويفعلون ما يؤمَرُون .

ومنها : أن الملائكة قد يَكونون على صورة بني آدم ؛ فإن الملك أتى لهؤلاء الثلاثة بصورة إنسان .

ومنها : أنهم يتكيفون بصورة الشخص المعين ، كما جاء إلى الأبرص والأقرع والأعمى في المرة الثانية بصورة وهيئة .

ومنها : أيضًا أنه يجوز الاختبار للإنسان في أن يأتي الشخص على هيئة معينة ليختبره ؛ فإن هذا الملك جاء على صورة الإنسان المحتاج المصاب بالعاهة ليرقَّ له هؤلاء الثلاثة مع أن الملك فيما يبدو والعلم عند اللَّه لا يُصاب في الأصل بالعاهات ولكن اللَّه ﷻ جعلهم يأتون على هذه الصورة من أجل الاختبار .

ومنها : أن الملك مسح الأقرع والأبرص والأعمى مسحة واحدة فأزال اللَّه عيبهم بهذه المسحة ؛ لأن اللَّه إذا أراد شيئًا قال له : كن . فيكون ، ولو شاء اللَّه لأذهب عنهم العاهة ، ولكن اللَّه جعل هذا سَببًا للابتلاء والامتحان .

ومنها : أن اللَّه قد يبارك للإنسان بالمال حتى ينتج منه الشيء الكثير ؛ فإن هؤلاء النفر الثلاثة صار لواحد وادٍ من الإبل ، وللثاني وادٍ من البقر ، وللثالث وادٍ من الغنم وهذا من بركة اللَّه ﷻ . وقد دعا الملكُ لكل واحد منهم بالبركة .

ومنها : تفاوت بني آدم في شكر نعمة اللَّه ونفع عباد الله ، فإن الأبرص والأقرع وقد أعطاهم اللَّه المال الأهم والأكبر ، ولكن جحدا نعمة اللَّه قالا : إنما ورثنا هذا المال كابرًا عن كابر وهم كَذَبًا في ذلك ؛ فإنهم كانوا فقراء وأعطاهم اللَّه المال . أما الأعمى فقد شكر نعمة اللَّه واعترف لله بالفضل ؛ ولذلك وُفِّقَ وهداه اللَّه وقال للملك : « خُذْ مَا شِئْتَ وَدَع ما شِئْتَ » .

ومنها أيضًا : إثبات الرضى والسُّخط لله ﷻ ، وهما من الصفات التي يجب أن نثبتها لربنا ﷻ لأنه

وصف نفسه بها . ففي القرآن الكريم : الرضا : ﴿ رَّضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا۟ عَنْهُ ﴾ [١] [التوبة : ١٠٠] وفي القرآن : ﴿ أَن سَخِطَ ٱللَّهُ عَلَيْهِمْ وَفِى ٱلْعَذَابِ هُمْ خَٰلِدُونَ ﴾ [المائدة : ٨٠] . وفي القرآن الكريم : الغضب : ﴿ وَغَضِبَ ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَلَعَنَهُۥ ﴾ [النساء : ٩٣] وهذه الصفات وأمثالها يؤمن بها أهل السُّنة والجماعة بأنها ثابتة لله على وجه الحقيقة ، لكنها لا تشبه صفات المخلوقين كما أن اللّٰه لا يُشْبِه المخلوقين فكذلك صفاته لا تُشْبِه صِفَات المخلوقين .

ومن فوائد هذا الحديث : أن في بني إسْرائيل من العجب والآيات ما جعل النبي ﷺ ينقل لنا من أخبارهم حتى نتعظ . ومثل هذا الحديث قصة النفر الثلاثة الذين لجأوا إلى غار فانطبقت عليهم صخرة من الجبل فسَدَّتْ عليهم الغَار وعَجَزوا عن زحزحتها وتوسل كل واحد منهم إلى اللّٰه بصالح عمله [٢] . فالنبي عليه الصلاة والسلام يَقُصُّ علينا من أنباء بني إسرائيل ما يكون فيه الموعظة والعِبرة [٣] ، فعلينا أن نأخذ من هذا الحديث عبرة بأن الإنسان إذا شكر نعمة اللّٰه واعترف لله بالفضل وأدى ما يجب عليه في ماله فإن ذلك من أسْباب البقاء والبركة في ماله والله الموفق .

* * *

٦٦ - السَّابعُ : عَنْ أبي يَعْلَى شَدَّادِ بْن أَوسٍ ﷺ عن النبي ﷺ قال : « الكَيِّس مَنْ دَانَ نَفْسَهُ ، وَعَمِلَ لِمَا بَعْدَ المَوتِ ، وَالعَاجِزُ مَنْ أَتْبَعَ نَفْسَهُ هَوَاهَا ، وَتَمنى عَلَى اللّٰهِ » [٤] . رواه التِّرمِذيُّ وقال : حديثٌ حَسَنٌ . قال التِّرمذيُّ وَغيرُهُ مِنَ العُلَمَاء : مَعْنَى « دَانَ نَفْسَه » : حَاسَبَهَا .

الشرح

قوله : « الكَيِس » معناه الرجل الحازم الذي يغتنم الفُرَص ويتخذ لنفسه الحيطة حتى لا تفوت عليه الأيام والليالي فيضيع .

وقوله : « من دانَ نفسه » أي : مَن حاسبها ونظر ماذا فعل من المأمورات ، وماذا ترك من المنهيات ، هل قام بما أُمر به ؟ وهل ترك ما نُهي عنه ؟ إذا رأى من نفسه تفريطًا في الواجب استدركه إذا أمكن استدراكه وقام به أو ببدله ، وإذا رأى من نفسه انتهاكًا لمحرم أقلع عنه وندم وتاب واستغفر .

وقوله : « عَمِلَ لِمَا بَعْدَ المَوت » يعني عمل للآخرة ؛ لأن ما بعد الموت فإنه من الآخرة ، وهذا هو الحق والحزم أن الإنسان يعمل لما بعد الموت ؛ لأنه في هذه الدنيا مارٌّ بها مرورًا .

---

(١) قوله تعالى : ﴿ رَّضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُمْ ﴾ أي قبل أعمالهم وكافأهم عليها ، وقوله تعالى : ﴿ وَرَضُوا۟ عَنْهُ ﴾ أي : فرحوا بما أعطاهم من أنواع الكرامة والنعيم الدائم .

(٢) انظر قصتهم في : البخاري في الأدب (٢٩٧٤) ، ومسلم في الذكر (١٠٠) ، وأحمد في مسنده (١١٦/٢) .

(٣) ولذا قال اللّٰه تعالى : ﴿ لَقَدْ كَانَ فِى قَصَصِهِمْ عِبْرَةٌ ﴾ وقال : ﴿ نَحْنُ نَقُصُّ عَلَيْكَ أَحْسَنَ ٱلْقَصَصِ بِمَآ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانَ ﴾ [يوسف : ٢] .

(٤) أخرجه الإمام أحمد في مسنده (١٢٤/٤) والترمذي في صفة القيامة (٢٤٥٩) وابن ماجه في الزهد (٤٢٦٠) والبيهقي في سننه (٣٦٩/٣) .

والمآل هو ما بعد الموت ، فإذا فرط ومضت عليه الأيام وأضاعها في غير ما ينفعه في الآخرة فَليس بِكَيس . الكيس هو الذي يعمل لما بعد الموت ، والعاجز من أتبع نفسه هواها وصار لا يهتم إلا بأمور الدنيا . فيتبع نفسه هواها في التفريط في الأوامر وفعل النواهي ثم يَتمنى على اللَّه الأماني ، فيقول : اللَّه غفور رحيم ، وسوف أتوب إلى اللَّه في المستقبل ، وسوف أُصْلحُ من حالي إذا كَبرت ، وما أشبهه من الأماني الكاذبة التي يمليها الشيطان عليه ، فربما يدركها وربما لا يدركها .

ففي هذا الحديث : الحثُّ على انتهاز الفرص وعلى أن لا يضيع الإنسان من وقته فرصة إلا فيما يرضي اللَّه ﷻ ، وأن يَدَع الكسل والتهاون والتمني ؛ فإن التمني لا يفيد شيئًا كما قال الحسن البصري رحمه الله : (لَيسَ الإيمَانُ بالتمني ولا بالتحلي ، ولكن الإيمان ما وَقَرَ في القلب وصَدقته الأعمال) [(١)] .

فعلينا أيها الأخوة أن ننتهز الفرصة في كل ما يُقَرِّب إلى اللَّه من فعل الأوامر واجتناب النَّواهي ، حتى إذا قدمنا على اللَّه كنا على أكمل ما يكون من حال . نسأل اللَّه أن يعيننا وإياكم على ذكره وشكره وحُسن عبادته .

* * *

٦٧ - الثَّامِنُ : عَنْ أَبي هُرَيرَةَ رضي الله عنه قال : قال رسول اللَّه ﷺ : « مِنْ حُسْنِ إسْلامِ المَرْءِ تَرْكُهُ مَالا يَعْنِيه » [(٢)] حديثٌ حسنٌ رواه التِّرمذيُّ وَغيرُهُ .

٦٨ - التَّاسِعُ : عَنْ عُمَرَ رضي الله عنه عَنِ النَّبِي ﷺ قال : « لا يُسْأَلُ الرَّجُلُ فيمَ ضَرَبَ امْرَأَتَهُ » [(٣)] رواه أبو داود وغيره .

الشرح

إسلام المرء : هو استسلامه لله ﷻ ظاهرًا وباطنًا ؛ فأما باطنًا فاستسلام العبد لربه بإصلاح عقيدته ، وإصلاح قلبه ، وذلك بأن يكون مؤمنًا بكل ما يجب الإيمان به على ما سبق في حديث جبريل .

وأما الاستسلام ظاهرًا : فهو إصْلاح عَمَله الظاهر كأقواله بلسانه وأفعاله بجوارحه . والناس يختلفون في الإسلام اختلافًا ظاهرًا كثيرًا كما أن الناس يختلفون في أشكالهم وصورهم منهم الطويل ومنهم القصير ومنهم الضخم ومنهم من هم دون ذلك ومنهم القبيح ومنهم الجميل فيختلفون اختلافًا ظاهرًا . فكذلك يختلفون في إسلامهم لله ﷻ حتى قال اللَّه في كتابه : ﴿ لَا يَسْتَوِى مِنكُم مَّنْ أَنفَقَ مِن قَبْلِ ٱلْفَتْحِ وَقَٰتَلَ ۚ أُو۟لَٰٓئِكَ أَعْظَمُ دَرَجَةً مِّنَ ٱلَّذِينَ أَنفَقُوا۟ مِنۢ بَعْدُ وَقَٰتَلُوا۟ ۚ وَكُلًّا وَعَدَ ٱللَّهُ ٱلْحُسْنَىٰ ﴾ [الحديد : ١٠] .

وإذا كان الناس يختلفون في الإسلام فإن مما يزيد في حُسن إسلام المرء أن يدع ما لا يعنيه ولا يهمه لا في دينه ولا في دنياه : فالإنسان المسلم إذا أراد أن يجعل إسلامه حَسَنًا فليدع ما لا يعْنِيه .

---

(١) انظر الكامل في الضعفاء لابن عدي (٢٢٩٠/٦) .

(٢) أخرجه الترمذي في الزهد (٢٣١٨) وابن ماجه في الفتن (٣٩٧٦) .

(٣) وأبو داود في النكاح (٢١٤٧) وابن ماجه في النكاح (١٩٨٦) والألباني في إرواء الغليل (٩٨/٧) ، هذا الحديث لك يقم الشارح رحمه الله بشرحه .

فمثلًا : إذا كان هناك عمل وَتَرددت - هل تفعل أو لا تفعل ؟ انظر هل هو من الأمور الهامة في دينك ودنياك فافعله وإلا فاتركه . السلامة أسلم .

كذلك أيضًا ما تتدخل في أمور النَّاس إذا كان هذا لا يهمك وهذا خلاف ما يفعله بعض الناس اليوم من حرصه على اطلاعه على أعراض الناس وأحوالهم ويجد اثنين يتكلمان فيحاول أن يتقرب منهما حتى يسمع ما يقولان ويجد شخصًا جاء من جهة من الجهات فتراه يبعث وربما يبادر الشخص نفسه ، ويقول له : من أين جئت ؟ وماذا قال لك فلان ؟ وماذا قلت له ؟ وما أشْبهه في أمور لا تعنيه ولا تهمه .

فالأمور التي لا تعنيك اتركها ؛ فإن هذا من حُسْن إسلامك وهو أيضًا فيه راحة للإنسان ؛ فكون الإنسان لا يهمه إلا نفسَه هذا هو الراحة ، أما الذي يتتبع أحوال الناس ؛ فإنه سوف يتعب تعبًا عظيمًا ويفوت على نفسه خيرًا كثيرًا مع أنه لا يستفيد شيئًا ؛ فأنت اجعل دأبك دأب نفسك وهمك هم نفسك ، وانظر إلى ما ينفعك فافعله والذي لا ينفعك اتركه ، وليس من حسن إسلامك أن تبحث عن أشياء لا تهمك .

ولو أننا مشينا على هذا وصار الإنسان دأبه دأب نفسه ولا ينظر إلى غيره لحصل خيرًا كثيرًا .

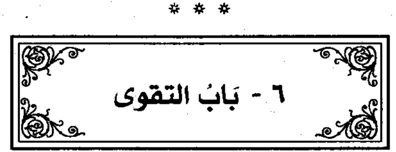
أما بعض الناس تجده مشغولًا بشئون غيره فيما لا فائدة فيه فيضيع أوقاته ويشغل قلبه ويشتت فكره وتضيع عليه مصالح كثيرة .

وتجد الرجل الدؤوب الذي ليس له هم إلا نفسه وما يعنيه تجده ينتج ويثمر ويحصل ويكون في راحة فكرية وقلبية وبدنية .

ولذا يعد هذا الحديث من جوامع كلم النبي ﷺ فإذا أردت شيئًا فعلًا أو تركًا انظر هل يهمك أو لا ؟!

إن كان لا يهمك اتركه واسترح منه وإن كان يهمك فاشتغل به بحسبه ، فعلى كل حال كل إنسان عاقل كما جاء في الحديث السابق : « الكَيِّس من دَانَ نَفْسه وعمل لما بَعد المَوت » . فكل إنسان عاقل يَحرص أن يعمل لما بعد الموت ويُحاسب نفسه على ، أعمالها والله الموفق .

* * *



٦ - بَابُ التقوى

التَّقوى اسم مأخوذ من الوقاية ، هو أن يتخذ الإنسان ما يَقِيه من عذاب اللَّه ، والذي يقيك من عذاب اللَّه فعل أوامر اللَّه واجتناب نواهيه ، فإن هذا هو الذي يقي من عذاب اللَّه ﷻ .

واعلم أن التقوى أحيانًا تقترن بالبرِّ فيقال : بر وتقوى كما في قوله تعالى : ﴿ وَتَعَاوَنُوا عَلَى الْبِرِّ وَالتَّقْوَىٰ ﴾ [المائدة : ٢] . وتارة تُذكر وحدها فإن قُرِنت بالبر صار البر فعل الأوامر والتقوى ترك النواهي ، وإذا أُفردتْ صارت شاملة تعم فعل الأوامر واجتناب النواهي وقَد ذكر اللَّه في كتابه أن الجنة أُعِدّت للمتقين فأهلُ التَّقوى هم أهل الجنة - جعلنا اللَّه وإياكم منهم - ولذلك يجب على الإنسان أن يتقي اللَّه ﷻ امتثالًا لأمره وطَلبًا لثوابه والنجاة من عقابه . ثم ذكر المؤلف آيات متعددة فقال رحمه الله .

قال اللَّه تعالى : ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱتَّقُواْ ٱللَّهَ حَقَّ تُقَاتِهِۦ ﴾ [آل عمران : ١٠٢] وقال تعالى : ﴿ فَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ مَا ٱسۡتَطَعۡتُمۡ ﴾ [التغابن : ١٦] وهذه الآية مبينة للمراد من الأولى . وقال اللَّه تعالى : ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَقُولُواْ قَوۡلٗا سَدِيدٗا ﴾ [الأحزاب : ٧٠] والآيات في الأَمْرِ بالتَّقْوى كَثِيرَةٌ مَعْلُومَةٌ ، وقال تعالى : ﴿وَمَن يَتَّقِ ٱللَّهَ يَجۡعَل لَّهُۥ مَخۡرَجٗا ۝ وَيَرۡزُقۡهُ مِنۡ حَيۡثُ لَا يَحۡتَسِبُۚ ﴾ [الطلاق : ٢، ٣] ، وقال تعالى : ﴿إِن تَتَّقُواْ ٱللَّهَ يَجۡعَل لَّكُمۡ فُرۡقَانٗا وَيُكَفِّرۡ عَنكُمۡ سَيِّـَٔاتِكُمۡ وَيَغۡفِرۡ لَكُمۡۗ وَٱللَّهُ ذُو ٱلۡفَضۡلِ ٱلۡعَظِيمِ ﴾ [الأنفال : ٢٩] والآيَات في البَاب كَثِيرَةٌ مَعْلُومَةٌ .

الشرح

قوله : ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱتَّقُواْ ٱللَّهَ حَقَّ تُقَاتِهِۦ ﴾ [آل عمران : ١٠٢] فوجَّه الأمر إلى المؤمنين ؛ لأن المؤمن يحمله إيمانه على تقوى اللَّه .

وقوله : ﴿ ٱتَّقُواْ ٱللَّهَ حَقَّ تُقَاتِهِۦ ﴾ وحق التقوى مفسرًا بما عقبه المؤلف من قوله تعالى : ﴿ فَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ مَا ٱسۡتَطَعۡتُمۡ ﴾ [التغابن : ١٦] بعد هذه الآية .

أي : أن معنى قوله : ﴿ حَقَّ تُقَاتِهِۦ ﴾ أن تتقي اللَّه ما استطعت ؛ لأن اللَّه لا يكلف نفسًا إلا وسعها .

وهذه الآية ليست آية يقصد بها التهاون بتقوى اللَّه ، بل يُقْصَد بها الحَث على التقوى على قدر المُستطاع ، أي : لا تدخر وسعًا في تقوى اللَّه ، ولكن اللَّه لا يكلف الإنسان شيئًا لا يستطيعه . ويُستفاد من قوله : ﴿ فَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ مَا ٱسۡتَطَعۡتُمۡ ﴾ [التغابن : ١٦] إن الإنسان إذا لم يستطع أن يقوم بأمر اللَّه على وجه الكمال ؛ فإنَّه يأتي منه على ما قَدرَ عليه . ومنه قول النبي ﷺ لعمران بن حصين : « صلِّ قَائمًا ، فإنْ لَمْ تَستطع فَقَاعِدًا ، فَإنْ لَم تَسْتَطِع فَعَلى جَنْب » (١) فرتب الرسول ﷺ الصلاة بحسب الاستطاعة وبأن يُصَلي قائمًا فإن لم يستطع فقاعدًا فإن لم يستطع فعلى جنب .

وهكذا بقية الأوامر ، ومثله الصَّوم إذا لم يستطع الإنسان أن يصوم في رمضان فإنه يؤخره ﴿ وَمَن كَانَ مَرِيضًا أَوۡ عَلَىٰ سَفَرٖ فَعِدَّةٞ مِّنۡ أَيَّامٍ أُخَرَۗ ﴾ [البقرة : ١٨٥] وفي الحج : ﴿ وَلِلَّهِ عَلَى ٱلنَّاسِ حِجُّ ٱلۡبَيۡتِ مَنِ ٱسۡتَطَاعَ إِلَيۡهِ سَبِيلٗاۚ ﴾ [آل عمران : ٩٧] فإذا لم تستطع الوصول إلى البيت فلا حج عليك . لكن إن كنت قادرًا بمالك دُون بدنك وَجَبَ عليك أن تقيم من يحج ويعتمر عنك (٢) ، فالحاصل أن التَّقوى كغيرها مَنُوطة بالاستطاعة فمن لم يستطع شيئًا من أوامر اللَّه فإنه يَعْدل إلى ما يَسْتطيع . ومن اضطر إلى شيء من محارم اللَّه حَلَّ له ما ينتفع به في دفع الضرورة لقوله تعالى : ﴿وَقَدۡ فَصَّلَ لَكُم مَّا حَرَّمَ عَلَيۡكُمۡ إِلَّا

---

(١) أخرجه البخاري واللفظ له في تقصير الصلاة (١١١٧) ، وأحمد في مسنده (٤/٤٢٦) .

(٢) وهذا هو قول عامة الفقهاء عدا المالكية الذين لا تجوز عندهم النيابة في الحج ، واختلف الفقهاء في ذلك في حج الفريضة وغيره ، فقال جمهور العلماء : إن النيابة تجوز في حج التطوع والفريضة وهو الظاهر من قول الحنفية والصحيح من قول الشافعية ، أما الحنابلة والشافعية في قول آخر ؛ فإنهم قالوا بأن النيابة إنما تجوز في الفرض دون التطوع (انظر بدائع الصنائع (٢٠/١٢٥) المهذب (١/١٩٩) المحلى (٧/٦٢) الكافي (١/٥١٥) فقه الكتاب والسنة (٢/٨٧٣ - ٨٧٨) .

﴿مَا ٱضۡطُرِرۡتُمۡ إِلَيۡهِۗ﴾ [الأنعام: ١١٩] حتى إن الرجل لو اضطر إلى أكل لحم الميتة، أو أكل لحم الخنزير، أو أكل لحم الحمار، أو غيره من المحرمات؛ فإنه يجوز له أن يأكل منه ما تَنْدَفع مِنه ضرورته.

وقوله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَقُولُواْ قَوۡلٗا سَدِيدٗا ٧٠ يُصۡلِحۡ لَكُمۡ أَعۡمَٰلَكُمۡ وَيَغۡفِرۡ لَكُمۡ ذُنُوبَكُمۡۗ﴾ [الأحزاب: ٧٠، ٧١]. فأمر اللَّه بأمرين: بتقوى اللَّه، وأن يقول الإنسان قولًا سديدًا أي صوابًا، وقد سبق الكلام على التقوى. أمَّا القول السَّديد: فهو القول الصَّواب وهو يشمل كل قول فيه خير سواء كان من ذكر اللَّه، أو من طلب العلم، أو من الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، أو من الكلام الحسن الذي يستجلب به الإنسان مودة الناس ومحبتهم أو غير ذلك. يجمعه قول النبي ﷺ: «مَنْ كَانَ يؤْمِن باللَّه واليوم الآخِر فَلْيَقل خَيرًا أو لِيَصْمت»[1] وضد ذلك القول غير السديد وهوَ القول الذي ليس بِصَواب، بل خطأ إما في مَوضوعه، وإما في محله.

أما في موضوعه: بأن يكون كلامًا فاحشًا يشتمل على السب والشتم والغيبة والنميمة وما أشْبهه. أو في محله: أي أن يكون هذا القول في نفسه هو خَير لكن كونه يقال في هذا المكان ليس بخير، لأن لكل مقام مقالًا ففي هذا الموضوع لا يكون قولًا سديدًا، بل خطأ وإن كان ليس حرامًا بذاته.

فمثلًا: لو فرض أن شخصًا رأى إنسانًا على مُنكر ونهاه عن المنكر، لكن نهاه في حال لا ينبغي أن يقول له فيها شيئًا أو أغلظ له في القول أو ما أشْبَهه لعُد هذا قولًا غير سَديد.

فإذا اتقى الإنسان ربه وقال قولًا سَديدًا حَصَل على فائدتين: ﴿يُصۡلِحۡ لَكُمۡ أَعۡمَٰلَكُمۡ وَيَغۡفِرۡ لَكُمۡ ذُنُوبَكُمۡۗ﴾ [الأحزاب: ٧١]، فبالتقوى صلاح الأعمال ومغفرة الذنوب وبالقول السديد صلاح الأعمال ومغفرة الذنوب، وعُلم من هذه الآية أن من لم يتق اللَّه ويقلْ قولًا سديدًا فإنه حَرِيٌّ بأن لا يُصلح اللَّه لَهُ أعماله ولا يغفر له ذنبه ففيه الحثُّ على تقوى اللَّه وبيان فوائدها.

قال تعالى: ﴿وَمَن يَتَّقِ ٱللَّهَ يَجۡعَل لَّهُۥ مَخۡرَجٗا ٢ وَيَرۡزُقۡهُ مِنۡ حَيۡثُ لَا يَحۡتَسِبُۚ﴾ [الطلاق: ٢، ٣]. يتق اللَّه بأن يفعل ما أَمَر اللَّه به ويترك ما نَهَى عنه يجعل له مخرجًا من كل ضيق، فكلما ضاق عليه الشيء وهو مُتقي اللَّه ﷻ، جَعَلَ لَهُ مخرجًا سواء كَانَ في معيشةٍ أو في أموالٍ أو في أولاد أو في مجتمع أو غير ذلك. إذا كنت مُتقِي اللَّه فَثِق أن اللَّه سيجعل لك مخرجًا من كل ضيق واعتمد ذلك؛ لأنه قول من يقول للشيء: كن. فيكون.

وما أكثر الذين اتقوا اللَّه فجعل لهم مخرجًا: من ذلك قصة الثلاثة الذين انطبق عليهم الغار فنزلت صخرة على باب الغار فَسَدته فأرادوا أن يُزيحوها فعجزوا فتوسل كل واحد منهم بصالح عمله إلى اللَّه ﷻ ففرج اللَّه ﷻ عنهم زِيلَتْ الصخرة.

والأمثلة على هذا كثيرة! وقوله: ﴿وَيَرۡزُقۡهُ مِنۡ حَيۡثُ لَا يَحۡتَسِبُۚ﴾ [الطلاق: ٣] هذا أيضًا فائدة عظيمة أن اللَّه يَرْزقك من حيث لا تحتسب.

---

(١) أخرجه البخاري واللفظ له في الرقاق (٦٤٧٥)، ومسلم في الإيمان (٧٤)، والترمذي في السنن (١٩٦٧).

فمثلًا : لو فرضنا أن رجلًا يكتسب المال من طريق محرم كطريق الغش أو الربا وما أشبهه ونصح في هذا وتركه لله ؛ فإن اللَّه سيجعل له مخرجًا ويرزقه من حيث لا يحتسب ، ولكن لا تتعجل ولا تَظُن أن الأمر إذا تأخر فلن يكون ولكن قد يبتلي اللَّه العبد فيؤخر عنه الثواب ليختبره هل يرجع إلى الذنب أم لا ؟ فمثلًا إذا كنت تتعامل بالرِّبا وَوَعَظك من يعظك من الناس وتركت ذلك ولكنك بقيت شهرًا أو شهرين ما وجدت ربحًا !

فلا تيأس وتقول أين الرِّزق من حيث لا أحتسب ؟! بل انتظر وثق بوعد اللَّه وصدق به وستجده ولا تتعجل ولهذا جاء في الحديث : « يُسْتَجَابُ لِأَحَدِكُمِ - أي إذَا دَعَا - مَا لَم يَعْجَل ، يقول : دَعَوتُ ثُمَّ دَعَوتُ ثم دَعَوت فلم يُسْتجَب لي » .

اصبر واترك ما حرم اللَّه عليك وانتظر الفرج والرزق من حيث لا تحسب .

وقوله تعالى : ﴿ إِن تَتَّقُوا۟ ٱللَّهَ يَجْعَل لَّكُمْ فُرْقَانًا وَيُكَفِّرْ عَنكُمْ سَيِّـَٔاتِكُمْ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ۗ وَٱللَّهُ ذُو ٱلْفَضْلِ ٱلْعَظِيمِ ﴾ [الأنفال : ٢٩] .

هذه ثلاث فوائد عظيمة :

الفائدة الأولى : ﴿ يَجْعَل لَّكُمْ فُرْقَانًا ﴾ أي يجعل لكم ما تُفرقُون به بين الحق والباطل وبين الضار والنافع وهذا يدخل فيه العلم بحيث يفتح اللَّه على الإنسان من العلوم ما لا يَفْتَحُها لغيره ، فإن التقوى يَحْصُل بها زيادة الهدَى وزيادة العلم وزيادة الحفظ ولهذا يذكر عن الشافعي رَحِمَهُ اللَّهُ أنه قال :

شَكَوتُ إلى وَكِيع سُوء حِفْظي ... فَأرْشَدَنِي إلى تَرْكِ المَعَاصِي

وقَالَ اعلَم بأن العِلْمَ نور ... ونورُ اللَّه لَا يؤتَاهُ عَاصِي

ولا شك أن الإنسان كلما ازداد علمًا ازْداد معْرِفة وفرقانًا بين الحق والباطل والضار والنافع ، وكذلك يدخل فيه ما يفتح اللَّه على الإنسان من الفهم ؛ لأن التقوى سببٌ لقوة الفهم ، وقوة الفهم يَحْصُل بها زيادة العلم فإنك ترى الرجلين يحفظان آية من كتاب اللَّه يستطيع أحدهما أن يستخرج منها ثلاثة أحكام ويستطيع الآخر أن يستخرج أكثر من هذا بحسب ما آتاه اللَّه من الفهم .

فالتقوى سبب لزيادة الفَهم ويدخل في ذلك أيضًا الفراسة أن اللَّه يعطى المُتَّقي فراسة يميز بها ، حتى بين الناس .

فبمجرد ما يرى الإنسان يَعْرف أنه كاذب أو صادق أو بَرٌّ أو فاجرٌ حتى أنه ربما يحكم على الشخص وهو لم يُعَاشره ولم يعرف عنه شيئًا بسبب ما أعطاه اللَّه من الفراسة .

ويدخل في ذلك أيضًا : مَا يحصل للمُتقين من الكَرَامات التي لا تحصل لغيرهم ومن ذلك : ما حصل لكثير من الصحابة والتابعين رضي الله عنهم فكان عمر بن الخطاب رضي الله عنه ذات يوم يخطب على المنبر في المدينة فَسَمِعُوه يقول في أثناء الخطبة : « يا سَارية الجبل ، يا سارية الجبل » فتعجبوا من يخاطب ، وكيف يقول هذا الكلام في أثناء الخطبة ؟ فإذا اللَّه سبحانه وتعالى قد كشف له عن سرية في العراق كان قائدها سَارية بن زنَيم ، وكان العدو قد حصرهم فكشف اللَّه لعمر عن هذه السرية كأنما يشاهدها رأي عين فقال لقائدها : « يا

سارية الجبل » أي تحصن بالجبل فسمعه سارية وهو القائد وهو في العراق ثم اعتصم بالجبل [١] .

هذه من التقوى ، لأنَّ كرامات الأولياء كلها جزاء لهم على تقواهم لله ﷻ . فالمهم أن من آثار التقوى أنَّ اللَّه يجعل للمتقين فُرقانًا يفرق به بين أشياء كثيرة لاتحصل إلا للمتقي .

الفائدة الثانية : ﴿ وَيُكَفِّرْ عَنكُمْ سَيِّئَاتِكُمْ ﴾ [الأنفال : ٢٩] وتكفير السيئات يكون بالأعمال الصالحة ، فإن الأعمال الصالحة تكفر الأعمال السيئة كما قال النبي ﷺ : « الصَّلَواتُ الخَمْسُ ، والجُمُعة إلى الجُمُعة ، ورَمَضان إلى رَمَضَان ؛ كَفَّارَة لِما بَينهما مَا اجتنبت الكَبائر » [٢] .

وقال الرسول ﷺ : « العمرة إلى العمرة كفارَة لِما بَينَهما » [٣] فالكفارة تكون بالأعمال الصالحة وهذا يعني أن الإنسان إذا اتقى اللَّه سهل له الأعمال الصالحة التي يُكفر اللَّه بها عنه .

الفائدة الثالثة : قوله : ﴿ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ﴾ بأن يُيَسركم للاستغفار والتوبة ؛ فإن هذا من نعمة اللَّه على العبد أن يُيَسره للاستغفار والتوبة .

ومن البلاء للعبد : أن يظن أن ما كان عليه من الذنوب ليس بذنب فيصر عليه والعياذ بالله كما قال اللَّه تعالى : ﴿ قُلْ هَلْ نُنَبِّئُكُم بِالْأَخْسَرِينَ أَعْمَالًا ۝ الَّذِينَ ضَلَّ سَعْيُهُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَهُمْ يَحْسَبُونَ أَنَّهُمْ يُحْسِنُونَ صُنْعًا ﴾ [الكهف : ١٠٣، ١٠٤] فكثير من الناس لا يقلع عن الذنب لأنه زُين له والعياذ بالله فألِفَهُ وصَعُبَ عليه أن ينتشل نفسه منه ، لكن إذا كان متقيًا لله ﷻ سهل اللَّه له الإقلاع عن الذُنوب حتى يغفر له ، وربما يغفر اللَّه لَه بسبب تقواه فتكون تقواه مكَفِّرة لسيئاته .

كما حصل لأهل بدر ﷺ « فإن اللَّه اطلَعَ عَلَى أهل بدرٍ فَقَال : اعمَلوا مَا شِئتم فَقَد غفرتُ لكم » [٤] . فتقع الذنوب منهم مغفورة لما حصَل لهم فيها ، أي في الغزوة من الأجر العظيم .

وقوله : ﴿ وَاللَّهُ ذُو الْفَضْلِ الْعَظِيمِ ﴾ [الأنفال : ٢٩] أي صاحب الفضل العظيم الذي لا يَعْدِلُه شيء ولا يوازيه شيء ، فإن كان اللَّه موصوفًا بهذه الصفة فاطلب الفضل منه سبحانه وتعالى ، وذلك بتقواه والرجوع إليه والله أعلم .

* * *

٦٩ - وَأَمَّا الأَحَادِيثُ فَالأَوَّلُ : عَنْ أبي هُرَيرَةَ ﷺ قال : قِيلَ : يا رسول اللَّهِ مَنْ أكْرَمُ النَّاس ؟ قال : « أتْقَاهُمْ » . فقَالُوا : لَيسَ عَنْ هذَا نَسْأَلُكَ ، قَالَ : « فَيُوسُفُ نَبيُّ اللهِ ابنُ نَبيِّ اللَّه ابْنِ نَبِيِّ اللَّهِ ابْنِ خليلِ اللَّهِ » قَالُوا : لَيسَ عَنْ هذَا نسْأَلُكَ ، قال : « فَعَنْ مَعَادِنِ العَرَب تَسْأَلُوني ؟ خِيَارُهُمْ في

---

(١) انظر تلك القصة في : تهذيب الأسماء واللغات (٢/ ١٠) ، وأسد الغابة (٤/ ٦٥) ، وتاريخ الخلفاء (ص : ٤٩) ، وأخبار عمر ص (٣٥٥) .

(٢) أخرجه مسلم في الطهارة (١٤ ، ١٥) ، والترمذي في السنن (٢١٤) ، وأحمد في مسنده (٢/ ٤٠٠) .

(٣) أخرجه البخاري في العمرة (١٧٧٣) ، ومسلم في الحج (٤٣٧) ، والنسائي في السنن (٥/ ١١٢) .

(٤) انظر البخاري في المغازي (٣٩٨٣) ، ومسلم في فضائل الصحابة (١٦١) ، وأحمد في مسنده (١/ ٨٠) .

الجَاهِلِيةِ خِيَارُهُمْ فِي الإِسْلامِ إِذَا فَقُهُوا »[١] متفق عليه . و « فَقُهُوا » بِضَمِّ القَافِ عَلَى المَشْهورِ ، وَحُكِيَ كَسْرُهَا ، أي : عَلِمُوا أَحْكَامَ الشَّرْعِ .

الشرح

قوله : « من أكرم الناس ؟ قال : أتقاهم » أي أكرم الناس أتقاهم لله ﷻ وهذا الجواب مطَابق تمامًا لقوله تعالى : ﴿ إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِندَ اللَّهِ أَتْقَىٰكُمْ ﴾ [الحجرات : ١٣] فالله سبحانه لا ينظر إلى الناس من حيث النسب ، ولا من حيث الحسب ، ولا من حيث المال ، ولا من حيث الجمال وإنما ينظر سبحانه إلى الأعمال .

فأكرم الناس عنده أتقاهم إليه ، ولهذا يمد أهل التقوى بما يُمدهم به من الكرامات الظاهرة أو الباطنة ؛ لأنهم أكرم خلقه عنده ، ففي هذا حَثٌّ على تقوى اللَّه ﷻ وأنه كلما كان الإنسان أتقى لله فهو أكرم عنده ، ولكن الصحابة لا يُريدون بهذا السؤال الأكرم عند اللَّه !

« قالوا : لسْنَا عن هذا نسألك » ثم ذكر لهم أن أكرم الخلق يوسف ابن نبي اللَّه ابن نبي اللَّه ابن خليل اللَّه فهو يوسف بن يعقوب بن إسحاق بن إبراهيم ؛ فإنه عليه الصلاة والسلام كان نبيًّا من سلالة الأنبياء فكان من أكرم الخلق .

« قالوا : لَسْنَا عن هذا نسألك ، قال : فعن معادن العرب تَسألُونني ؟ » معادن العرب يعني أصولَهم وأنسابهم ! « خيارهم في الجَاهِلية خِيارهم في الإِسْلام إذا فَقهوا » يعني أن أكرم الناس من حيث النسب والمعادن والأصول هم الخيار في الجاهلية لكن بشرط إذا فقهوا .

فمثلًا : بنو هاشم من المعروف هم خيار قُريش فيكونون هم خيارهم في الإسلام لكن بشَرْط أن يفقهوا في دين اللَّه وأن يتعلَّموا من دين اللَّه ، فإن لم يكونوا فقهاءَ ؛ فإنهم وإن كانوا من خيار العرب معدنًا فإنهم ليسوا أكرم الخلق عند اللَّه وليسوا خيار الخلق ؛ ففي هذا دليل على أن الإنسان يشرف بنسبه لكن بشرط أن يكون له فقه في دينه ولا شك أن النسب له أثر ، ولهذا كان بنو هاشم أطيب الناس وأشرفهم نَسَبًا ومن ثم كان منهم النبي ﷺ الذي هو أشرف الخلق ﴿ اللَّهُ أَعْلَمُ حَيْثُ يَجْعَلُ رِسَالَتَهُۥ ﴾ [الأنعام : ١٢٤] فلولا أن هذا البطن من بني آدم أشرف البطون ما كان فيه النبي ﷺ فلا يُبعث الرسول ﷺ إلا في أشرف البطون وأعلى الأنساب ، والشاهد من هذا الحديث قول الرسول ﷺ : إن أكرم الخلق أتقاهم .

فإذا كنت تريد أن تَكُون كَريمًا عند اللَّه وذَا منزلة عنده فعليك بالتقوى فكلما كان الإنسان لله أتقى كان عنده أكْرَم . أسأل اللَّه أن يجعلني وإياكم من المـُتَّقين .

* * *

٧٠ – الثَّاني : عَن أبي سَعيد الخُدْرِيِّ ﷺ عن النبي ﷺ قال : « إِنَّ الدُّنْيا حُلْوَةٌ خَضِرَةٌ ، وَإِنَّ اللَّهَ مُسْتَخْلِفُكُمْ فِيهَا فَيَنْظُر كَيفَ تَعْمَلُونَ ، فَاتَّقُوا الدُّنْيا وَاتَّقُوا النِّسَاء ، فَإِنَّ أَوَّل فِتْنَةِ بَنِي إِسْرَائيلَ كَانَتْ فِي

---

(١) أخرجه البخاري في أحاديث الأنبياء (٣٣٥٣) ومسلم في الفضائل (١٦٨) ، والإمام أحمد في مسنده (٢/٤٣١) .

النسَاءِ » [1] رواه مسلم

الشرح

هذا الحديث سَاقَه المؤلف لما فيه من أمر النبي ﷺ بالتقوى بعد أن ذكر حال الدنيا فقال : « إنَّ الدنيا حُلْوة خضرَة » حُلوة في المَذَاق خضرة في المرأى ، والشيء إذا كان خضرًا حلوًا فإن العَين تطلبه أولًا ثم تطلبه النفس ثانيًا ، والشيء إذا اجتمع فيه طلب العين وطلب النَّفس ؛ فإنه يُوشك للإنسان أن يقع فيه ؛ فالدنيا حلوة في مذاقها خضرة في مرآها فيغتر الإنسان بها وينهمك فيها ويجعلها أكبر همه ، ولكن النبي ﷺ بين أن اللَّه تعالى مستخلفنا فيها فينظر كيف تعملون ، هل تقومون بطاعته وتنهون النفس عن الهَوى وتقومون بما أوجب اللَّه عليكم ولا تغتروا بالدنيا أو أن الأمر بالعكس ؟!

ولهذا قال : « فاتقوا الدنيا » أي : قوموا بما أمركم به واتركوا ما نهاكم عنه ولا تغرنكم حلاوة الدنيا و نضرتها . كما قال تعالى : ﴿ فَلَا تَغُرَّنَّكُمُ ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَا وَلَا يَغُرَّنَّكُم بِٱللَّهِ ٱلْغَرُورُ ﴾ [لقمان : ٣٣] .

ثم قال : « فاتقوا الدنيا ، واتقوا النساء » اتقوا النساء أي احذروهن ، وهذا يشمل الحذر من المرأة في كيدها مع زوجها ، ويشمل أيضًا الحذر من النساء وفتنتهن ، ولهذا قال : « فإن أول فِتنة بَني إسرائيل كَانت في النساء » .

فافْتَتَنُوا في النساء فَضَلوا وأضَلوا – والعياذ بالله – ولذلك نجد أعداءنا وأعداء ديننا أعداء شريعة اللَّه ﷻ يُرَكزون اليوم على مسألة النساء وتبرجهن واختلاطهن بالرجال ومُشَاركتهن للرجال في الأعمال حتى يصبح الناس كأنهم الحمير لا يهمهم إلا بطونهم وفروجهم – والعياذ بالله – وتصبح النساء كأنهن دمَى أي صور لا يهتم الناس إلا بشكل المرأة .

كيف يُزَيِنُونها ؟ وكيف يُجَملُونها ؟ وكيف يأتون لها بالمجَملات والمُحَسِّنَات وما يتعلق بالشعر وما يتعلق بالجلد ونتف الشعر والساق والذراع والوجه وكل شيء حتى يجعلوا أكبر همِّ النساء أن تكون المرأة كالصورة من البلاستيك . لا يُهِمها عبادة ولا يَهمها أولاد .

ثم إن أعداءنا أعداء دين اللَّه وشريعته وأعداء الحياة يُريدون أن يُقْحِمُوا المرأة في وظائف الرجال حتى يُضَيقوا على الرجال الخناق ويجعلوا الشباب يَتَسَكَّعُون في الأسواق ليسَ لهم شُغل ويحصل من فراغهم هذا شر كبير وفتنة عظيمة لأن الشباب والفراغ والغنى من أعظم المفاسد كما قيل :

إنَّ الشـبـابَ والـفَـرَاغَ والجِده مَـفْـسَـدَةٌ لـلـمَـرْءِ أي مَـفْـسَـدة

فهم يقحمون النساء الآن بالوظائف الرجالية ، ويدعون الشباب ليفسد الشباب وليفسد النساء . أتدرون ماذا يحدث ؟

جـ : يحدث مَفْسدة الاختلاط ، ومفسدة الزنا والفاحشة ، سواء في زنى العين ، أو زنى اللسان ،

---

(١) أخرجه مسلم في الذكر والدعاء (٩٩) ، والإمام أحمد في مسنده (٣٦٤/٦) والبيهقي في السنن (٣٦٩/٧) .

أو زنى اليد ، أو زنى الفرج ، كل ذلك محتمل إذا كانت المرأة مع الرجل في الوظيفة .

وما أكثر الفساد في البلاد التي يتوظف الرجال فيها مع النساء . ثم إن المرأة إذا وُظفَت فإنها سَوفَ تَنْعَزِل عن بَيتها وعن زوجها وتصبح الأسرة مُتفككة ، ثم إنها إذا وُظفت سوف يحتاج البيت إلى خادم ، وحينئذٍ نَستجلب نساء العالم من كل مكان وعلى كل دين وعلى كل خلق ولو كان الدِّين على غير دين الإسلام ولو كان الخلق خُلُقًا فاسدًا [١] .

نستجلب النِّساء ليكنَّ خَدَمًا في البيوت ونجعل نساءنا تعمل في محل رجالنا فنعطل رجالنا ونشغل نساءنا .

وهذا فيه مفسدة عظيمة وهي تفكك الأسرة ؛ لأن الطفل إذا نشأ وليس أمامه إلا الخادم نَسِيَ أمه ونسيَ أباهُ ، وفقد الطفل تَعَلقهُ به ففسدت البيوت وتشتت الأسر ، وحصل في ذلك من المفاسد ما لا يعلمه إلا اللَّه .

ولا شك أن أعداءنا وأذناب أعدائنا - لأنه يُوجد فينا أذناب لهؤلاء الأعداء - درسوا عندهم وتلطخوا بأفكارهم السيئة ولا أقول : إنهم غسلوا أدمغتهم ، بل أقول : إنهم لَوثوا أدمغتهم بهذه الأفكار الخبيثة المعارضة لدين الإسلام .

قد يقولون إنه لا يعارض العَقِيدة ، بل نقول إنَّه يهدم العقيدة ليس معَارضة العقيدة بأن يقول الإنسان بأن اللَّه له شريك أو أن اللَّه ليس موجودًا وما أشْبهه فحسب ؛ بل هذه المعاصي تهدم العقيدة هدمًا ؛ لأن الإنسان يبقى ويكون كأنه ثَور أو حمار لا يهتم بالعقيدة ولا بالعبادة ، لأنه متعلق بالدنيا وزخارفها وبالنساء وقد جاء في الحديث الصحيح : « مَا تَرَكتُ بعدِي فِتنَة أَضَرَّ على الرجَال من النساء » [٢] .

ولهذا يجب علينا نحن - ونحن أمة مسْلِمة - أن نُعارض هذه الأفكار ، وأن نقف ضِدها في كل مكان وفي كل مُناسبة علمًا بأنه يوجد عندنا قوم لا كَثَّرهم اللَّه ولا أَنَالَهُم مَقْصُودهم يريدون هذا الأمر لهذا البلد المسلم المسَالم المحَافظ ؛ لأنهم يعلمون أن آخر مَعْقل للمسلمين هو هذه البلاد التي تشمل مُقدسات المسلمين وقبلة المسلمين ليفسدوها حتى تفسد الأمة الإسلامية كلها .

فكل الأمة الإسلامية ينظرون إلى هذه البلاد ماذا تفعل ، فإذا انهدم الحياء والدين في هذه البلاد فَسَلامَ عليهم وَسلام على الدين والحياء .

لهذا أقول يا إخواني : يجب علينا شبابًا وكهولًا وشيوخًا وعلماء ومتعلمين أن نعارض هذه الأفكار وأن نقيم الناس كلهم ضدها حتى لا تسري فينا سَرَيان النَّار في الهشيم فتحرقنا ، نسأل اللَّه أن يجعل كيد هؤلاء الذين يُدَبرُون مثل هذه الأمور في نُحورهم ، وأن لا يبلغهم مَنَالهم ، وأن يَكْبِتَهم بِرجال صَالحين حتى تخمد فتنتهم إنه جواد كريم .

---

(١) هذا هو رأي الشارح .

(٢) أخرجه البخاري في النكاح (٥٠٩٦) ومسلم في الذكر والدعاء (٩٧ ، ٩٨) والترمذي في السنن (٢٧٨٠) وأحمد في مسنده (٥/٢٠٠) .

٧١ - الثَّالثُ : عَن ابْنِ مَسْعُودٍ ﷺ أَنَّ النَّبِيَّ ﷺ كَانَ يَقُولُ : « اللَّهُمَّ إِنِّي أَسْأَلُكَ الهُدَى وَالتُّقَى وَالعَفَافَ وَالغِنَى » (١) رواه مسلم .

الشرح

كان النبي عليه الصلاة والسلام يدعو اللَّه ﷻ بهذا الدعاء : « اللَّهُمَّ إني أسْأَلُكَ الهُدَى والتُّقى والعَفَافَ والغِنَى » .

« الهدى » هنا بمعنى العلم والنبي ﷺ محتاج إلى العلم كغيره من الناس ، لأنَّ اللَّه سبحانه قال له : ﴿ وَلَا تَعْجَلْ بِٱلْقُرْءَانِ مِن قَبْلِ أَن يُقْضَىٰٓ إِلَيْكَ وَحْيُهُۥ ۖ وَقُل رَّبِّ زِدْنِى عِلْمًا ﴾ [طه : ١١٤] .

وقال اللَّه له : ﴿ وَعَلَّمَكَ مَا لَمْ تَكُن تَعْلَمُ ۚ وَكَانَ فَضْلُ ٱللَّهِ عَلَيْكَ عَظِيمًا ﴾ [النساء : ١١٣] . فهو عليه الصلاة والسَلام مُحْتَاجٌ إلى العلم فيسأل اللَّه الهدى .

والهُدى إذا ذكر وحده يشملِ العلم والتَّوفيق للحق ، أمَّا إذا قُرِن معه ما يدلُّ على التَوفيق للحق فإنَّه يُفسَّر بمعنى العِلم ؛ لأنَّ الأصل في اللغة العربية أنَّ العطف يقتضي المغايرة فيكون الهدى له مَعْنًى ومَا بَعْدَهُ مِمَّا يدل على التَوفيق له معنىً آخر .

وأمَّا قوله : « والتُقى » فالمراد بالتَقوى : تقوى اللَّه ﷻ فسأل النَّبي ﷺ ربه التُّقى أي : أن يُوفَقه إلى تقوى اللَّه ؛ لأن اللَّه هو الذي بيده مَقَاليد كل شيء فإذا وُكِل العَبْدُ إلى نفسه ضَاعَ ولم يحصل على شيء ، فإذا وفَّقَهُ اللَّه ﷻ ورزقه التُّقى صار مستقيمًا على تقوى اللَّه .

وأما قوله : « العَفَاف » فالمراد به أن يَمُنَّ اللَّه عليه بالعفاف والعفة من كل ما حرم اللَّه عليه فيكون عطفه على التقوى من باب عطف الخاص على العام إن خصصنا العَفَاف بالعَفَاف عن شيء مُعَيَّن وإلا فهو من باب عطف المُتَرادفين ؛ فالعفاف أن يعف عن كل ما حرَّم اللَّه عليه فيما يتعلق بجميع المحارم التي حرَّمها اللَّه ﷻ .

وأما « الغِنى » فالمراد به الغنى عما سوى اللَّه أي : الغنى عن الخلق بحيث لا يفتقر الإنسان إلى أحد سوى ربه ﷻ .

والإنسان إذا وفَّقه اللَّه ومنَّ عليه بالاستغناء عن الخلق صار عزيز النفس غير ذليل ، لأنَّ الحاجة إلى الخلق ذل ومَهَانة والحاجة إلى اللَّه عِزٌّ وعبادةٌ فهو يسأل عليه الصَّلاة والسلام الغنى .

فينبغي لنا أن نقتدي بالرسول عليه الصلاة والسلام في هذا الدعاء وأن نسأل اللَّه الهُدَى والتُّقى والعَفَافَ والغِنى . وفي هذا دليل على أن النبي ﷺ لا يملك لنفسه نفعًا ولا ضرًا وأن الذي يملك ذلك هو اللَّه .

وفيه دليل : على إبطال من تعلَّقُوا بالأولياء والصَالحين في جَلْب المنافع ودفع المَضَار كما يفعل بعض الجهال الذين يدعون الرسول عليه الصَّلاة والسَّلام إذا كانوا عند قبره ، أو يدعون من يزعمونهم أولياء من دون اللَّه ، فإن هؤلاء ضَالُّون في دينهم سُفَهاء في عقولهم ، لأن هؤلاء المدعوين هم بأنفسهم لا يملكون

---

(١) أخرجه مسلم في الذكر والدعاء (٧٢) ، وابن ماجه في الدعاء (٣٨٣٢) والترمذي في الدعوات (٣٤٨٩) .

لأنفسهم شيئًا قال الله لنبيه ﷺ : ﴿ قُل لَّآ أَقُولُ لَكُمْ عِندِى خَزَآئِنُ ٱللَّهِ وَلَآ أَعْلَمُ ٱلْغَيْبَ وَلَآ أَقُولُ لَكُمْ إِنِّى مَلَكٌ ﴾ [الأنعام : ٥٠] . وقال له : ﴿ قُل لَّآ أَمْلِكُ لِنَفْسِى نَفْعًا وَلَا ضَرًّا إِلَّا مَا شَآءَ ٱللَّهُ ﴾ [الأعراف : ١٨٨] ، وقال له : ﴿ قُلْ إِنِّى لَآ أَمْلِكُ لَكُمْ ضَرًّا وَلَا رَشَدًا ۝ قُلْ إِنِّى لَن يُجِيرَنِى مِنَ ٱللَّهِ أَحَدٌ وَلَنْ أَجِدَ مِن دُونِهِۦ مُلْتَحَدًا ﴾ [الجن : ٢١، ٢٢] .

فالإنسان يجب أن يعلم أنَّ البشر مهما أوتوا من الوَجَاهة عند الله ﷻ ومن المنزلة والمرتبة عند الله ؛ فإنهم ليسوا بمستحقين أن يدعوا من دون الله ، بل إنهم يتبرأون تبرؤًا تامًّا ممن يدعونهم من دون الله ﷻ . قال عيسى عليه الصلاة والسلام لما قال له الله : ﴿ ءَأَنتَ قُلْتَ لِلنَّاسِ ٱتَّخِذُونِى وَأُمِّىَ إِلَٰهَيْنِ مِن دُونِ ٱللَّهِ قَالَ سُبْحَٰنَكَ مَا يَكُونُ لِىٓ أَنْ أَقُولَ مَا لَيْسَ لِى بِحَقٍّ ﴾ [المائدة : ١١٦] ليس من حق عيسى ولا غيره أن يقولَ للناس اتخذوني إلهًا من دون الله : ﴿ إِن كُنتُ قُلْتُهُۥ فَقَدْ عَلِمْتَهُۥ تَعْلَمُ مَا فِى نَفْسِى وَلَآ أَعْلَمُ مَا فِى نَفْسِكَ إِنَّكَ أَنتَ عَلَّٰمُ ٱلْغُيُوبِ ۝ مَا قُلْتُ لَهُمْ إِلَّا مَآ أَمَرْتَنِى بِهِۦٓ أَنِ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ رَبِّى وَرَبَّكُمْ ﴾ [المائدة : ١١٦، ١١٧] .

فالحاصل : أن ما نسمع عن بعض جهال المسلمين في بعض الأقطار الإسلامية الذين يأتون إلى قبور من يزعمونهم أولياء فيدعون هؤلاء الأولياء ؛ فإن هذا العمل سفه في العَقْل وضَلَال في الدِّين . وهؤلاء لن ينفعوا أحدًا أبدًا ؛ فهم جثث هامدة ، والله الموفق .

* * *

٧٢ - الرَّابعُ : عَنْ أبي طَرِيفٍ عَدِيٍّ بْن حَاتم الطَّائِيِّ رضي الله عنه قال : سَمِعْتُ رسول الله ﷺ يَقُولُ : « مَنْ حَلَفَ عَلَى يَمِينٍ ثُمْ رَأى أَتْقَى للّهِ مِنْهَا فَلْيأْتِ التَّقْوَى » [(١)] رواه مسلم .

الشرح

اليمين هي الحَلِفُ بالله ﷻ أو باسم من أسمائه أو صفة من صفاته ، ولا يجوز الحلف بغير الله : لا بالنبي ﷺ ولا بجبريل ولا بأي أحد من الخلق ؛ لقول النبي ﷺ : « مَنْ كَانَ حَالِفًا فَلْيَحلِف بالله أو لِيَصْمت » [(٢)] . وقال : « مَنْ حلَف بغيرِ الله فَقَد كَفَر أو أَشرَكَ » [(٣)] .

فمن حلف بغير الله فهو آثم ولا يمين عليه لأنها يمين غير منعقدة لقول النبي ﷺ : « مَنْ عَمِلَ عَمَلًا لَيسَ عَلَيه أمْرُنَا فَهو رَد » [(٤)] .

ولا ينبغي للإنسان أن يُكْثر من اليمين فإن هذا هو معنى قوله تعالى : ﴿ وَٱحْفَظُوٓا۟ أَيْمَٰنَكُمْ ﴾ [المائدة : ٨٩] على رأي بعض المُفسرين قالوا : واحفظوا أيمانكم [(٥)] : أي لا تكثروا الحلف بالله وإذا حلفت

---

(١) أخرجه مسلم في الأيمان (١٥) ، والإمام أحمد في مسنده (٢٥٨/٤) .

(٢) أخرجه البخاري في الأيمان والنذور (٣٢٥١) ، ومسلم في الأيمان (٣/٣) ، وأحمد في مسنده (٥٢٠/٢) ، والدارمي في السنن (١٨٥/٢) .

(٣) أخرجه أبو داود في السنن (٣٢٥١) ، والترمذي في السنن (١٥٣٥) ، وأحمد في مسنده (٨٧/٢) .

(٤) أخرجه البخاري في الاعتصام (٢٠) ، ومسلم في الأقضية (١٨) ، وأحمد في مسنده (١٤٦/٦) .

(٥) ذكر هذا الرأي ابن الجوزي ، واستدل بقول كثير عزة :

* قليل الألايا حافظ ليمينه *

=

فينبغي أن تُقيد اليمين بالمشيئة فتقول : « والله إن شاء اللَّه » لتستفيد بذلك فائدتين عظيمتين :

الفائدة الأولى : أن يتيَسر لك ما حَلَفْتَ عليه .

والفائدة الثانية : أنك لو حنثت فلا كفَّارة عليك .

واليمين التي توجب الكفارة هي اليمين على شيء مستقبل ، أمَّا اليمين على شيء ماضٍ فلا كفارة فيها ، ولكن إن كان الحالف كاذبًا فهو آثم ، وإن كان صادقًا فلا شيء عليه . ومثاله لو قال قائل : والله ما فعلت كذا ؛ فهنا ليس عليه كفارة صِدْق أو كَذِب ، لكن إن كان صادقًا أنه لم يفعله فهو سَالِم من الإِثم ، وإن كان كاذبًا أنه قد فعله فهو آثم .

واليمين التي فيها الكفارة : هي اليمين على شيٍء مُسْتقبل فإذا حلفت على شيء مستقبل فقلت : والله لا أفعل كذا فهنا نقول : إن فعلته فعليك الكفارة ، وإن لم تفعله فلا كَفَّارة عليك ، فهذه يمين منعقدة ، ولكن هل الأفضل أن أفعل ما حلفت على تركه أو الأفضل أن لا أفعل ؟

في هذا الحديث بيَّن النبي عليه الصَّلاة والسَّلام أنك إذا حلفت على يمين ورأيت غيرها أتقى لله منها فكفر عن يمينك وأت الذي هو أتقى .

فإذا قال قائل : واللَّه لا أكلم فلانًا وهو مسلم ؛ فإن الأتقى لله أن تكلمه ؛ لأن هجر المسلم حَرَام .

فكلمه وكفّر عن يمينك ولو قلت : والله لا أزور قريبي ، فهنا نقول : زيارة القريب صلة رحم وصلة الرحم واجبة ، فَصِلْ قريبك وكفر عن يمينك ؛ لأن النبي عليه الصلاة والسَّلام يقول : « فَرَأى غَيرَها خَيرًا منها فَلْيُكَفِّر عَن يَمِينه ولْيَأتِ الذِي هُو خَير » وعلى هذا فقس .

الخلاصة : أن نقول : اليمين على شَيء ماض لا يبحث فيها عن الكفارة ؛ لأنه ليس فيها الكفارة ، لكن إما أن يكون الحالف سالمًا أو يكون آثمًا .

اليمين على المستقبل هي التي فيها الكفارة ، فإذا حلف الإنسان على شيء مستقبل وخالف ما حَلَف عَلَيهِ ؛ وجَبَت عليه الكفارة ، إلا أن يقرن يمينه بمشيئة اللَّه فيقول : إنْ شاءَ اللَّه ؛ فهذا لا كفارة عَلَيه ولو خَالَفَ . والله الموفق .

* * *

٧٣ - الخَامسُ : عَنْ أَبي أُمَامَةَ صُديٍّ بْنِ عَجْلانَ البَاهِلِي ﷺ قال : سَمِعْتُ رسول اللَّه ﷺ يَخْطُبُ في حَجَّةِ الوَدَاعِ فَقَالَ : « اتَّقُوا اللَّهَ ، وَصَلُّوا خَمْسَكُمْ ، وَصُومُوا شَهْرَكُمْ ، وَأَدُّوا زَكَاةَ أَمْوَالِكُمْ ، وَأَطِيعُوا أُمَرَاءَكُمْ ، تَدْخُلُوا جَنَّةَ رَبِّكُمْ »[1] رواه التِّرمذيُّ ، في آخر كتاب الصَّلاةِ وَقال : حديثٌ حسنٌ صحيح .

= (انظر زاد المسير ٤١٦/٢) .

(١) أخرجه الترمذي في الصلاة (٦١٦) ، وأحمد في مسنده (٢٥١/٥) ، والبغوي في شرح السنة (٢٣/١) .

الشرح

كانت خُطَب الرسول عليه الصَّلاة والسلام على قسمين : خطب راتبة ، وخطب عارضة .

فأما الراتبة : فهي خطبة في الجُمَعِ والأعياد ؛ فإنه ﷺ كان يخطب الناس في كل جمعة ، وفي كل عيد ، واختلف العُلَماء - رحمهم اللَّه - في خطبة صلاة الكسوف هل هي رَاتبة أو عارضة ، وسبب اختلافهم أن الكسوف لم يقع في عهد الرسول ﷺ إلا مرة واحدة ، ولما صلى قام فخطب الناس عليه الصلاة والسلام .

فذهب بعض العُلَماء إلى - أنها من الخطب الراتبة وقال : إن الأصل أن ما شَرعه النبي ﷺ فهو ثابت مستقر ولم يقع الكسوف مرة أخرى ، فيترك النبي ﷺ الخطبة حتى نقول : إنها من الخطب العارضة .

وقال بعض العلماء : بل هي من الخُطَب العَارضة التي إن كان لها ما يدعو إليها خطب وإلا فلا ، ولكن الأقرب أنها من الخُطَب الراتبة ، وأنه يسَن للإنسان إذا صلى صلاة الكسوف أن يقوم فيخطب الناس ويذكرهم ويخوفهم كما فعل النبي ﷺ .

أما الخطب العَارضة : فهي التي يخطبها عند الحاجة إليها مثل خطبته ﷺ حينما اشترط أهل بريَرة وهي جارية اشترتها عائشة رضي الله عنها فاشترط أهلها أن يكون الولاء لهم ولكن عائشة رضي الله عنها لم تقبل بذلك فأخبرت النبي ﷺ فقال : « خذيها واشترطي لهم الولاء » ثم قام فخطب الناس وأخبرهم أن الولَاء لِمَنْ أعتَق [1] .

وكذلك خطبته حينما شفع أسامة بن زيد رضي الله عنه في المرأة المخزومية التي كانت تستعير المَتَاع فَتَجْحَده فأمر النبي ﷺ أن تُقْطع يدها ، فأهم قريشًا شأنها ، فطلبوا من يشفع لها إلى رسول اللَّه ﷺ ، فطلبوا من أسامة بن زيد رضي الله عنه أن يَشْفَعَ فَشفع ، ولكن النبي ﷺ قال له : « أَتَشْفَع في حد مِن حُدُود اللَّه ؟ » ثم قام : « فخطب الناس وأَخْبَرَهم بأن الذي أهلَكَ من كَان قبلنا أنهم كانوا إذا سَرَق فيهم الشْريف تركوه ، وإذا سرق فيهم الوضيع أقاموا عليه الحد » [2] .

وفي حجة الوَدَاع خطب النبي ﷺ يوم عرفة وخطب يوم النحر ووَعَظَ الناس وذَكرهم ، وهذه خطبة من الخطب الرواتب التي يُسَن لقائد الحجيج أن يَخطب الناس كما خطبهم النبي ﷺ .

وكان من جملة ما ذكر في خطبته في حجة الوداع أنه قال : « يا أيها الناس اتقوا ربكم » وهذه كقوله تعالى : ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱتَّقُواْ رَبَّكُمُ ﴾ [النساء : ١] فأمر الرسول ﷺ الناس جميعًا أن يتقوا ربهم الذي خلقهم وأمدهم بنعمه وأعدهم لقبول رسالاته فأمرهم أن يتقوا اللَّه .

وقوله : « وصلوا خَمسَكُم » أي صلُّوا الصلوات الخمس التي فرضها اللَّه عز وجل على رسوله ﷺ .

وقوله : « وصوموا شَهْرَكم » أي شهر رمضان .

---

(١) أخرجه البخاري في المكاتب (٢٥٦٥) ، ومسلم في العتق (١٥٠٤) ، وقوله « الولاء » أي :

(٢) أخرجه البخاري في أحاديث الأنبياء (٣٤٧٥) ، ومسلم في الحدود (١٦٨٨) ، وأبو داود في السنن (٤٣٧٣) والترمذي في السنن (١٤٣٠) .

وقوله : « وأدُّوا زَكَاةَ أموالكم » أي : أعطوها مستحقيها ولا تبخلوا بها .

وقوله : « وأطِيعُوا أمَرَاءَكم » أي من : جعلهم اللّه أمراء عليكم ، وهذا يشمل أمراء المناطق والبلدان ويشمل الأمير العام أي : أمير الدولة كلها ؛ فإن الواجب على الرعية طاعتهم في غير معصية اللّه ، أما في معصية اللّه فلا تجوز طاعتهم ولو أمروا بذلك ؛ لأن طاعة المخلوق لا تقدم على طاعة الخالق جل وعلا ، ولهذا قال اللّه : ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ أَطِيعُواْ ٱللَّهَ وَأَطِيعُواْ ٱلرَّسُولَ وَأُوْلِي ٱلْأَمْرِ مِنكُمْۖ ﴾ [النساء: ٥٩] .

فعطف طاعة ولاة الأمور عَلى طاعة اللّه ورسوله ، وهذا يدل على أنها تابعة ؛ لأن المعطوف تابع للمعطوف عليه لا مُستقل ؛ ولهذا تجد أن اللّه جل وعلا قال : ﴿ أَطِيعُواْ ٱللَّهَ وَأَطِيعُواْ ٱلرَّسُولَ ﴾ [النساء: ٥٩] ، فأتى بالفعل ليتبَين بذلك أن طاعة النبي ﷺ طاعة مستقلة أي : تجب طاعته استقلالًا كما تجب طاعة اللّه .

ومع هذا فإن طاعته من طاعة اللّه واجبة ، إن النبي ﷺ لا يأمر إلا بما يُرضي اللّه ، أما غيره من وُلَاة الأمور ؛ فإنهم قد يأمرون بغير ما يرضي اللّه ولهذا جعل طاعتهم تَابعة لطاعة اللّه ورسوله .

ولا يجوز للإنسان أن يَعْصِي ولَاة الأمور في غير معصية اللّه ويقول : إن هذا ليس بدين ؛ لأن بعض الجهال إذا نظمت ولاة الأمور أنظمة لا تخَالف الشرع قال : لا يلزمني أن أقوم بهذه الأنظمة لأنها لَيسَت بشَرع ؛ لأنها لا توجد في كتاب اللّه ولا في سنة رسوله ، وهذا من جهله ، بلَ نقول : إن امتثال هذه الأنظمة موجود في كتاب اللّه ! وموجود في سُنة الرسول عليه الصلاة والسلام ! قال اللّه : ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ أَطِيعُواْ ٱللَّهَ وَأَطِيعُواْ ٱلرَّسُولَ وَأُوْلِي ٱلْأَمْرِ مِنكُمْۖ ﴾ [النساء: ٥٩] ، وورد عن النبي عليه الصلاة والسلام في أحاديث كثيرة أنه أمر بطاعة ولاة الأمور ومنها هذا الحديث .

ولو كنا لا نطيع ولاة الأمور إلا بما أمر اللّه به ورسوله ؛ لم يكن للأمر بطاعتهم فائدة ؛ لأن طاعة اللّه ورسوله واجبة سواء أمر بها ولاة الأمور أم لم يأمروا بها ، فهذه الأمور - التي أوصى بها النبي ﷺ في حجة الوداع من الأمور المهمة التي يجب على الإنسان أن يَعْتني بها وأن يمتثل أمر رَسُول اللّه ﷺ فيها ، والله أعلم .

* * *

٧ - باب اليقين والتوكل

قال اللّه تعالى : ﴿ وَلَمَّا رَءَا ٱلْمُؤْمِنُونَ ٱلْأَحْزَابَ قَالُواْ هَٰذَا مَا وَعَدَنَا ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥ وَصَدَقَ ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥۚ وَمَا زَادَهُمْ إِلَّآ إِيمَٰنًا وَتَسْلِيمًا ﴾ [الأحزاب: ٢٢] ، وقال تعالى : ﴿ ٱلَّذِينَ قَالَ لَهُمُ ٱلنَّاسُ إِنَّ ٱلنَّاسَ قَدْ جَمَعُواْ لَكُمْ فَٱخْشَوْهُمْ فَزَادَهُمْ إِيمَٰنًا وَقَالُواْ حَسْبُنَا ٱللَّهُ وَنِعْمَ ٱلْوَكِيلُ ۝١٧٣ فَٱنقَلَبُواْ بِنِعْمَةٍ مِّنَ ٱللَّهِ وَفَضْلٍ لَّمْ يَمْسَسْهُمْ سُوٓءٌ وَٱتَّبَعُواْ رِضْوَٰنَ ٱللَّهِۗ وَٱللَّهُ ذُو فَضْلٍ عَظِيمٍ ﴾ [آل عمران: ١٧٣، ١٧٤] ، وقال تعالى : ﴿ وَتَوَكَّلْ عَلَى ٱلْحَيِّ ٱلَّذِي لَا يَمُوتُ ﴾ [الفرقان: ٥٨] ، وقال تعالى : ﴿ وَعَلَى ٱللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ ٱلْمُؤْمِنُونَ ﴾ [إبراهيم: ١١] ، وقال تعالى : ﴿ فَإِذَا عَزَمْتَ فَتَوَكَّلْ عَلَى ٱللَّهِۚ ﴾ [آل عمران: ١٥٩] . والآيات في الأمر بالتَّوكُّلِ كَثِيرَةٌ مَعلُومَةٌ . وقال تعالى : ﴿ وَمَن يَتَوَكَّلْ عَلَى ٱللَّهِ فَهُوَ حَسْبُهُۥٓۚ ﴾ [الطلاق: ٣] أي : كَافِيهِ . وقال تعالى : ﴿ إِنَّمَا ٱلْمُؤْمِنُونَ ٱلَّذِينَ إِذَا

ذُكِرَ ٱللَّهُ وَجِلَتۡ قُلُوبُهُمۡ وَإِذَا تُلِيَتۡ عَلَيۡهِمۡ ءَايَٰتُهُۥ زَادَتۡهُمۡ إِيمَٰنٗا وَعَلَىٰ رَبِّهِمۡ يَتَوَكَّلُونَ ﴾ [الأنفال : ٢] وَالآيَات في فَضْلِ التَّوكُّل كَثِيرَةٌ مَعْروفَةٌ .

الشرح

جمع المؤلف بين اليقين والتَّوكل ؛ لأن التوكل ثمرة من ثمرات اليقين ؛ فاليقين : هو قوة الإيمان والثبات حتى كأن الإنسان يرى بعينه ما أخبر اللَّه به ورسوله من شِدَّة يَقِينه ؛ فاليقين هو ثَبَات وإيمان ليس معه شَك بوجه من الوجوه ، فيرى الغائب الذي أخبر اللَّه عنه ورسوله كأنَّه حاضر بين يديه ، وهو أعلى درجات الإيمان !

هذا اليقين يثمر ثمرات جليلة ، منها : التوكل على اللَّه ﷻ ، والتوكل على اللَّه : اعتماد الإنسان على ربه ﷻ في ظاهره وباطنه في جلب المنافع ودفع المَضَار : ﴿ وَمَن يَتَوَكَّلۡ عَلَى ٱللَّهِ فَهُوَ حَسۡبُهُۥٓ ﴾ [الطلاق : ٣] .

ففي هاتين المرتبتين : اليقين والتوكل يحصل للإنسان مقصوده في الدنيا والآخرة ، ويستريح ويعيش مطمئنًّا سعيدًا ؛ لأنه موقن بكل ما أخبر اللَّه به ورسوله ومتوكل على اللَّه ﷻ .

ثم ذكر المؤلف آيات في هذا الباب منها قوله تعالى : ﴿ وَلَمَّا رَءَا ٱلۡمُؤۡمِنُونَ ٱلۡأَحۡزَابَ قَالُواْ هَٰذَا مَا وَعَدَنَا ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥ وَصَدَقَ ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥۚ ﴾ [الأحزاب : ٢٢] .

الأحزاب : طوائف من قبائل متعددة تألبوا على رسول اللَّه ﷺ واجتمعوا على حربه ، وتجمع نحو عشرة آلاف مقاتل من قريش وغيرهم وحاصروا المدينة ليقضوا على النبي ﷺ ، وحصل في هذه الغزوة أزمة عظيمة على أصحاب الرسول ﷺ ، قال اللَّه تبارك وتعالى في وَصْفِها : ﴿ وَإِذۡ زَاغَتِ ٱلۡأَبۡصَٰرُ وَبَلَغَتِ ٱلۡقُلُوبُ ٱلۡحَنَاجِرَ وَتَظُنُّونَ بِٱللَّهِ ٱلظُّنُونَا۠ ﴾ (١) [الأحزاب : ١٠] الظنون البعيدة ﴿ هُنَالِكَ ٱبۡتُلِيَ ٱلۡمُؤۡمِنُونَ وَزُلۡزِلُواْ زِلۡزَالٗا شَدِيدٗا ﴾ (٢) [الأحزاب : ١١] .

فانقسم الناس في هذه الأزمة العصيبة العظيمة إلى قسمين بيَّنهما اللَّه ﷻ في هذه الآيات .

القسم الأول : قال اللَّه عنهم : ﴿ وَإِذۡ يَقُولُ ٱلۡمُنَٰفِقُونَ وَٱلَّذِينَ فِي قُلُوبِهِم مَّرَضٞ مَّا وَعَدَنَا ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥٓ إِلَّا غُرُورٗا ﴾ [الأحزاب : ١٢] المنافقون الذين يظهرون الإيمان ويبطنون الكفر ، والذين في قلوبهم مرض من المؤمنين وعندهم نقص في يقينهم قالوا : ما وعدنا اللَّه وَرَسُوله إلَّا غرورًا .

قالوا : كيف يقول محمد أنه سيفتح كِسْرى وَقَيصر وصَنعاء وهو الآن محاصر من هؤلاء الناس (٣) .

القسم الثاني : المؤمنون قال اللَّه عنهم : ﴿ وَلَمَّا رَءَا ٱلۡمُؤۡمِنُونَ ٱلۡأَحۡزَابَ قَالُواْ هَٰذَا مَا وَعَدَنَا ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥ وَصَدَقَ ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥۚ ﴾ [الأحزاب : ٢٢] . انظر إلى الفرق بين الطائفتين ! هؤلاء لما رأوا الأحزاب ورأوا هذه

---

(١) قوله تعالى : ﴿ وَبَلَغَتِ ٱلۡقُلُوبُ ٱلۡحَنَاجِرَ ﴾ أي : زالت عن أماكنها من الصدور حتى كادت تبلغ الحناجر وهذا من شدة الرعب .

(٢) قوله تعالى : ﴿ وَزُلۡزِلُواْ ﴾ أي : اضطربوا من شدة الفزع .

(٣) انظر مسلم في الفتن (٧٥) والطبري في تفسيره (٢١/١٦٠ ، ١٦١) .

الشدة ؛ علموا أنّه سيعقبها نصر وفرج ، وقالوا : هذا مَا وَعدنا اللّه ورسوله وصدق اللّه ورسوله ، فسيكون نصر وستفتح ممالك قيصر وكِسْرى واليمن ، وهكذا كان ولله الحمد .

والشاهد قوله : ﴿ هَٰذَا مَا وَعَدَنَا ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥ وَصَدَقَ ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥ ﴾ [الأحزاب : ٢٢] وهذا غاية اليقين أن يكون الإنسان عند الشدائد وعند الكرب ثابتًا مؤمنًا مُوقنًا عكس من كان توكله ويقينه ضعيفًا ؛ فإنه عند المَصَائب والكرب ربما ينقلب على وَجهه ، كما قال اللّه : ﴿ وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يَعْبُدُ ٱللَّهَ عَلَىٰ حَرْفٍۖ ﴾ [الحج : ١١] أي على طرف ﴿ فَإِنْ أَصَابَهُۥ خَيْرٌ ٱطْمَأَنَّ بِهِۦۖ وَإِنْ أَصَابَتْهُ فِتْنَةٌ ٱنقَلَبَ عَلَىٰ وَجْهِهِۦ خَسِرَ ٱلدُّنْيَا وَٱلْأَخِرَةَۚ ذَٰلِكَ هُوَ ٱلْخُسْرَانُ ٱلْمُبِينُ ﴾ [الحج : ١١] . كثير من الناس في عَافِية ، فهو مطمئن ولكن إذا ابتلي - والعِياذ بالله - انقلب على وجهه ؛ فربما يَصِل إلى حد الردة والكفر ويعترض على اللّه بالقضاء والقدر ويَكرَه تقدير اللّه ، وبالتالي يكره اللّه - والعياذ بالله - لأنه كان في الأول لم يصبه أذى ولا فتنة ، ولكنه في الثَّاني أصابته الفتنة فانقلب على وجهه .

وفي هذه الآيات وأشباهها دليل على أنه ينبغي للإنسان أن يخاف ويوجل ويخشى من زيغ القلب ويَسأل اللّه دائمًا الثبات ؛ فإنه ما من قَلْب من قلوب بني آدم إلا وهو بين أصبعين من أصابع الرحمن يقلّبه كيف يشاء : إن شاء أقَامه ، وإن شاء أزاغَه .

فنسأل اللّه مُقلب القُلُوب أن يُثَبت قلوبنا على طاعته ، وأن يرزقنا الاستقامة على دينه ، والثبات عليه .

الآية الثانية : قوله : ﴿ ٱلَّذِينَ قَالَ لَهُمُ ٱلنَّاسُ إِنَّ ٱلنَّاسَ قَدْ جَمَعُوا۟ لَكُمْ فَٱخْشَوْهُمْ فَزَادَهُمْ إِيمَٰنًا وَقَالُوا۟ حَسْبُنَا ٱللَّهُ وَنِعْمَ ٱلْوَكِيلُ ﴾ [آل عمران : ١٧٣] .

هذه الآية نزلت في الصحابة ﷺ حيث حَصَل عليهم ما حصل في غزوة أحد مما أصابهم من القَرْح والجروح والشهداء فقيل لهم : إن أبا سفيان كان قد عزم على الكرَّة عليكم وجمع لكم الناس فندبهم النبي عليه الصلاة والسلام إلى مُلاقاته ومقابلته فاستجابوا لله والرسول من بعد مَا أصابهم القرح وأصيبوا بهذه النكبة العظيمة فقُتِلَ منهم سبعون رجُلًا استشهدوا في سبيل اللّه وحَصَل للنبي ﷺ وَلِغَيره مِن صَحابته ﷺ ما حصل ومع هذا استجابوا لله وللرسول (١) .

قال اللّه تعالى : ﴿ ٱلَّذِينَ ٱسْتَجَابُوا۟ لِلَّهِ وَٱلرَّسُولِ مِنۢ بَعْدِ مَآ أَصَابَهُمُ ٱلْقَرْحُۚ لِلَّذِينَ أَحْسَنُوا۟ مِنْهُمْ وَٱتَّقَوْا۟ أَجْرٌ عَظِيمٌ ۝١٧٢ ٱلَّذِينَ قَالَ لَهُمُ ٱلنَّاسُ إِنَّ ٱلنَّاسَ قَدْ جَمَعُوا۟ لَكُمْ ﴾ [آل عمران : ١٧٢، ١٧٣] يعني أن أبا سفيان ومن معه ممن بقي من كبراء قريش جمعوا للرسول ﷺ يريدون استئصاله ولكن يأبى اللّه إلا أن يتم نُوره . قيل للصَّحابة : اخشوا هؤلاء ، ولكنهم ازدادوا إيمانًا ؛ لأن المؤمن كلما اشتدت به الأزمات ازداد إيمانًا بالله ؛ لأنه يؤمن بأن النصر مع الصبر وأن الفرج مع الكرب وأن مع العسر يسرًا . لهذا زادهم إيمانًا هذا القول وقالوا : ﴿ حَسْبُنَا ٱللَّهُ وَنِعْمَ ٱلْوَكِيلُ ﴾ [آل عمران : ١٧٣] حَسْبُنا أي : كافينا في مِهماتنا وملماتنا ﴿ وَنِعْمَ ٱلْوَكِيلُ ﴾ إنه نعم

(١) راجع ذلك في : تفسير الدر المنثور (٢/١٠٢) ، وتفسير الطبري (٤/٢٣٠ - ٢٣٨) ، وزاد المسير (١/٥٠٤ - ٥٠٦) ، والسيرة النبوية لابن هشام (٣/١٠٢) .

الكافي جل وعلا فإنه نعم المولى ونعم النصير . ولكنه يكون ناصرًا لمن انتصر به واستنصر به ؛ فإنه ﷻ أكرم الأكرمين وأجود الأجودين فإذا اتجه الإنسان إليه في أموره أعانه وَساعَدَهُ وتولاه ، ولكن البلاء من بني آدم حيث يكون الإعراض كثيرًا في الإنسان ويعتمد على الأمور المادية دون الأمور المعنوية . قال تعالى : ﴿ فَانقَلَبُوا بِنِعْمَةٍ مِّنَ اللَّهِ وَفَضْلٍ لَّمْ يَمْسَسْهُمْ سُوءٌ ﴾ [آل عمران : ١٧٤] ذهبوا لكنهم لم يجدوا كيدًا وأبو سفيان ومن معه ولَّوا على أدبارهم ولم يكرُّوا على الرسول ﷺ . فكتبت للصَّحابة غزوة من غير قتال . قال اللَّه : ﴿ فَانقَلَبُوا بِنِعْمَةٍ مِّنَ اللَّهِ وَفَضْلٍ لَّمْ يَمْسَسْهُمْ سُوءٌ وَاتَّبَعُوا رِضْوَانَ اللَّهِ وَاللَّهُ ذُو فَضْلٍ عَظِيمٍ ﴾ [آل عمران : ١٧٤] . ثم قال : ﴿ إِنَّمَا ذَٰلِكُمُ الشَّيْطَانُ يُخَوِّفُ أَوْلِيَاءَهُ فَلَا تَخَافُوهُمْ وَخَافُونِ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ﴾ [آل عمران : ١٧٥] . ﴿ يُخَوِّفُ أَوْلِيَاءَهُ ﴾ أي يخوفكم أنتم أولياءه ، أي : يلْقي في قلوبكم الخوف من أوليائه ﴿ فَلَا تَخَافُوهُمْ وَخَافُونِ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ﴾ . فالشَّيطان يأتي إلى المؤمن يقول : احذر أن تتكلم في فلان ؛ لأنه ربما يَسْجنك وربما يفعل كذا وكذا فيخوفك ، ولكن المؤمن لا يمكن أن يخاف أولياء الشيطان ؛ لأن اللَّه ﷻ قال : ﴿ فَقَاتِلُوا أَوْلِيَاءَ الشَّيْطَانِ إِنَّ كَيْدَ الشَّيْطَانِ كَانَ ضَعِيفًا ﴾ [النساء : ٧٦] بالنسبة للحق .

فعلى الإنسان أن لا يخاف في اللَّه لَومة لائم ، وأن لا يخاف إلا اللَّه . ولكن يجب أن يكون سيره على هدى من اللَّه ﷻ ! فإذا كان سيره على هدى من اللَّه فلا يخافن أحدًا .

وقوله تعالى : ﴿ وَتَوَكَّلْ عَلَى الْحَيِّ الَّذِي لَا يَمُوتُ ﴾ [الفرقان : ٥٨] وهو اللَّه ﷻ . اعتمد عليه في أمورك كلها دقيقها وجليلها ؛ لأن اللَّه إذا لم ييسر لك الأمر لم يتيسر لك ، ومن أسباب تَيسيره : أن تتوكل عليه لا سيما إذا دهمتك الأمور وكثرت الهُموم وازدادت الخطوب ؛ فإنه لا ملجأ لك إلا اللَّه ﷻ ؛ فعليك بالتوكل عليه والاعتماد عليه حتى يكفيك .

وفي قوله : ﴿ الَّذِي لَا يَمُوتُ ﴾ [الفرقان : ٥٨] دليل على امتناع الموت على الرب ﷻ .

قال اللَّه : ﴿ كُلُّ مَنْ عَلَيْهَا فَانٍ ۝ وَيَبْقَىٰ وَجْهُ رَبِّكَ ذُو الْجَلَالِ وَالْإِكْرَامِ ﴾ [الرحمن : ٢٦، ٢٧] فالله ﷻ لا يموت لكمال حياته فإنه دائمًا هو الأول الذي ليس قبله شيء ، وهو الآخر الذي ليس بعده شيء . ثم إنه ﷻ لا ينام أيضًا لكمال حَياته وقيوميته قال اللَّه تعالى : ﴿ اللَّهُ لَا إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ الْحَيُّ الْقَيُّومُ لَا تَأْخُذُهُ سِنَةٌ وَلَا نَوْمٌ ﴾ (١) [البقرة : ٢٥٥] .

أما الإنس والجن ؛ فإنهم ينامون ويموتون . أما الرب ﷻ : فإنه لا ينام لأنَّه غَنيٌّ عن النَّوم ، أما البشر فإنهم محتاجون له ؛ لأن الأبدان تتعب وتسأم وتمل ، والنوم راحة عما مَضَى من التَّعب وتجديد نشاط عما يستقبل من العمل .

وقال اللَّه : ﴿ وَمَن يَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ فَهُوَ حَسْبُهُ ﴾ [الطلاق : ٣] أي : كافيه . فإذا توكلت على اللَّه كفاك كل شيء ، وإذا توكلت على غير اللَّه وكلك اللَّه عليه ولكنك ، تنخذل ولا تتحقق لك أمورك .

---

(١) قوله تعالى : ﴿ الْقَيُّومُ ﴾ أي : الدائم القيام بتدبير أمر الخلق وحفظهم ، والمعطي لهم ما به قوامهم ، وقوله سبحانه : ﴿ سِنَةٌ ﴾ أي نعاس : وهو الفتور أول النوم مع بقاء الشعور والإدراك .

وقال الله : ﴿ إِنَّمَا ٱلْمُؤْمِنُونَ ٱلَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ ٱللَّهُ وَجِلَتْ قُلُوبُهُمْ وَإِذَا تُلِيَتْ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتُهُۥ زَادَتْهُمْ إِيمَٰنًا وَعَلَىٰ رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ ۝ ٱلَّذِينَ يُقِيمُونَ ٱلصَّلَوٰةَ وَمِمَّا رَزَقْنَٰهُمْ يُنفِقُونَ ۝ أُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُؤْمِنُونَ حَقًّا ﴾ [الأنفال : ٢-٤] .

قوله : ﴿ إِذَا ذُكِرَ ٱللَّهُ ﴾ إذا ذكرت عظمته وجلاله وسلطانه خافت القلوب ووجلت وتأثر الإنسان حتى إن بعض السلف إذا تليت عليه آيات الخوف يمرض أيامًا حتى يعوده الناس .

أما نحن فقلوبنا قاسية - نسأل الله أن يلينها - فإنه تتلى علينا آيات الخوف فلا نتأثر بذلك ولا نتعظ إلا من رحم الله . لكن المؤمن هو الذي إذا ذكر الله وجل قلبه وخاف .

كان بعض السَّلف إذا قيل له : اتق الله ارتعد حتى يسقط ما في يده .

﴿ وَإِذَا تُلِيَتْ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتُهُۥ زَادَتْهُمْ إِيمَٰنًا ﴾ إذا سمعوا كلام الله ﷻ ازدادوا إيمانًا من وجهين :

الوجه الأول : التصديق بما أخبر الله به من أمور الغيب الماضية والمستقبلة .

الوجه الثاني : القُبول والإذعان لأحكام الله ، فيمتثلون ما أمر الله به فيزداد بذلك إيمانهم ، وينتهون عما نهى الله عنه تقربًا إليه وخَوفًا منه فيزداد إيمانهم ، فهم إذا تليت عليهم آياته ازدادوا إيمانًا من هذين الوجهين .

وهكذا إذا رأيت من نفسك أنَّك كلما تلوت القرآن ازددت إيمانًا فإن هذا من علامات التوفيق .

أما إذا كنت تقرأ القرآن ولا تتأثر به ؛ فعليك بمُدَاوَاة نَفسك ، لا أقول تذهب إلى المُسْتَشفى لتأخذ جرعة من حُبوب أو مِياه أو غيرها، ولكن عليك بمُدَاوَاة القلب ؛ فإن القلب إذا لم ينتفع بالقرآن ولم يتعظ به فإنه قلب قاسٍ مريض نسأل الله العافية .

فأنت طبيب نفسك لا تَذْهَبْ إلى الناس . اقرأ القرآن فإن رأيت أنك تتأثر به إيمانًا وتصديقًا وامتثالًا فهنيئًا لك وأنت مؤمن ، وإلا فعَليك بالدواء من قبل أن يأتيك موت لا حياة بعده وهو موت القلب . أما موت الجسد فبعده حياة وبعده بعث وجزاء وحساب .

وقوله : ﴿ وَعَلَىٰ رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ ﴾ على ربهم فقط يتوكلون ! أي يفوضون أمورهم كلها إلى مالكهم ومدبرهم خاصة لا إلى أحد سواه كما يدل عليه تقديم المتعلق على عامله والجملة معطوفة على الصلة : إشارة إلى الاختصاص والحصر وأنهم لا يتوكلون إلا على الله ﷻ ؛ لأن غير الله إذا توكلت عليه فإنما توكلت على شخص مثلك ولا يحرص على منفعتك كما تحرص على منفعة نفسك . ولكن اعتمد على الله ﷻ في أمور دينك ودنياك .

﴿ ٱلَّذِينَ يُقِيمُونَ ٱلصَّلَوٰةَ وَمِمَّا رَزَقْنَٰهُمْ يُنفِقُونَ ﴾ ؛ ﴿ يُقِيمُونَ ٱلصَّلَوٰةَ ﴾ يأتون بها مستقيمة بواجباتها وشروطها وأركانها ، ويكملونها بمكملاتها ، ومن ذلك : أن يصلُّوها في أوقاتها ، ومن ذلك : أن يصلوها مع المُسْلمين في مَسَاجدهم ؛ لأنَّ صلاة الجماعة كان الناس لا يتخلفون عنها إلا منافق أو معذور ! قال ابن مسعود ﷺ : « لَقَد رَأيتُنَا - يَعْني مع الرسول عليه الصَّلاة والسَّلام - وَمَا يَتَخَلَّفُ عَنها إلا مُنَافِق أو مَرِيض ، وَلَقَد كَانَ الرجل يُؤتَى بِهِ يُهادَى بَين الرَّجُلين حتى يُقَام في

الصَّف »[١] لا يثنيهم عن الحضور إلى المساجد حتى المرض ﷺ .

أما كثير من الناس اليوم ؛ فإنَّهم على العَكس من ذلك فتَرَاهم يتَكَاسَلون ويتأخرون عن صلاة الجماعة .

ولهذا لو قارنت بين الصَّلوات النَّهارية وصلاة الفجر لرأيت فرقًا بينًا لأن الناس يلحقهم الكسل في صلاة الفجرمن نوم ولا يهتمون بها كثيرًا .

﴿ وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنفِقُونَ ﴾ : أي ينفقون أموالهم في مرضاة اللّه وحسب أوامر اللّه وفي المحل المناسب . ﴿ أُولَئِكَ هُمُ الْمُؤْمِنُونَ حَقًّا ﴾ حقًّا : توكيد للجملة التي قبلها أي أحق ذلك حقًّا . ﴿ لَّهُمْ دَرَجَاتٌ عِندَ رَبِّهِمْ وَمَغْفِرَةٌ وَرِزْقٌ كَرِيمٌ ﴾ نسأل اللّه أن يجعلنا وإياكم منهم بمنّه وكرمه إنه جواد كريم .

* * *

وَأَمَّا الأَحَادِيثُ :

٧٤ – فَالأَوَّلُ : عَن ابْن عَبَّاسٍ رضي الله عنهما قال : قال رسولُ اللّه ﷺ : « عُرِضَتْ عَلَيَّ الأُمَمُ ، فَرأَيت النَّبيَّ وَمَعَه الرُّهَيط ، وَالنَّبيَّ وَمَعَهُ الرَّجُل وَالرَّجُلانِ ، وَالنَّبيَّ ولَيس مَعَهُ أحَدٌ ؛ إذْ رُفِعَ لِي سَوَادٌ عَظِيمٌ فَظَنَنْت أَنَّهُم أُمَّتي ، فَقِيلَ لِي : هذَا مُوسَى وَقَومُه ، وَلكِنِ انْظُرْ إلَى الأُفقِ ، فَنَظَرْتُ فَإذَا سَوَادٌ عَظِيمٌ ، فَقِيلَ لِي : انْظُرْ إلَى الأُفقِ الآخرِ ، فَإذَا سَوَادٌ عَظِيمٌ ، فَقِيلَ لِي : هذِهِ أُمَّتُكَ ، وَمَعَهُمْ سَبْعُونَ أَلفًا يَدْخُلُونَ الجَنَّة بغَيرِ حِسَاب وَلا عَذَابٍ » ثُمَّ نَهضَ فَدَخَلَ مَنْزِلَهُ ، فَخَاضَ النَّاسُ في أُولئِكَ الَّذِينَ يَدْخُلُونَ الجَنَّةَ بِغَيرِ حِسَابٍ وَلا عَذاب ، فَقَالَ بَعضهُمْ : فَلَعَلَّهُم الَّذينَ صَحِبُوا رسولَ اللّه ﷺ ، وَقَالَ بَعْضهُمْ : فَلَعَلَّهُم الَّذينَ وُلِدُوا في الإسْلامِ فَلَمْ يُشْركُوا باللّه شيئًا – وَذَكَروا أَشْيَاءَ – فَخَرجَ عَلَيهِمْ رسول اللّه ﷺ فَقَالَ : « مَا الَّذي تَخُوضونَ فِيهِ ؟ » فَأَخْبَرُوهُ ، فَقَالَ : « هُمُ الَّذينَ لا يَرْقُونَ ، وَلا يَسْتَرْقُونَ ، وَلا يَتَطَيَّرُونَ ، وَعَلَى رَبِّهِم يَتَوَكَّلُونَ » فَقَامَ عُكَّاشَةُ بْنُ مُحْصِنٍ فَقَالَ : ادْعُ اللّهَ أَنْ يَجْعَلَني مِنْهُمْ ، فَقَالَ : « أنْتَ مِنْهُمْ » ثُمَّ قَامَ رَجُلٌ آخَرُ فَقَالَ : ادْعُ اللّهَ أنْ يجْعَلَني مِنْهُمْ ، فقال : « سَبَقَكَ بِهَا عُكَّاشَةُ »[٢] متفقٌ عليه .

« الرُّهَيطُ » بِضَمِّ الرَّاءِ : تَصْغِيرُ رَهْطٍ ، وهُمْ دُونَ عَشَرةِ أَنْفُس . « وَالأُفُقُ » : النَّاحِيَةُ وَالجَانِبُ . « وَعُكَّاشَةُ » بِضَمِّ العَين وَتشْديد الكَافِ وَبتَخْفِيفِها ، وَالتَّشْديدُ أَفْصَحُ .

الشرح

بعد ما ساق الآيات ذكر هذا الحديث العظيم الذي أخبر فيه النبي ﷺ أن الأمم عُرِضت عليه ؛ أي أُرِيَ الأمم عليه الصلاة والسلام وأنبياءَهم .

يقول : « فَرَأيت النبي ومعَه الرهيط » : أي معه الرهط القليل الذي ما بين الثلاثة إلى العشرة . « والنبي وَمَعَه الرجل والرجلان والنبي ولَيسَ مَعَه أحَدٌ » أي أن الأنبياء عليهم الصلاة والسلام

(١) أخرجه مسلم في المساجد(٦٥٤) باختلاف في اللفظ ، وأبو داود في الصلاة(٤٦) ، وابن ماجه في المساجد(١٤) .
(٢) أخرجه البخاري في الرقاق(٦٥٤١) ، ومسلم في الإيمان(٣٧٤) ، والإمام أحمد بنحوه (٢٧١/١) .

ليسوا كلهم قد أطاعهم قومهم بل بعضهم لم يطِعه أحد من قومهم ، وبعضهم أطاعه الرهط وبعضهم أطاعه الرجل والرجلان وانظر أن نوحًا - عليه الصَّلاة والسلام - مَكَثَ في قومه ألف سنة إلا خمسين عامًا يذَكِّرهم بالله ويدعوهم إلى اللّه .

قال اللّه ﴿ وَمَآ ءَامَنَ مَعَهُۥٓ إِلَّا قَلِيلٌ ﴾ [هود : ٤٠] كل هذه المدة ولم يَلْق منهم قبولًا ولا سَلِمَ من شرهم . قال نوح : ﴿ وَإِنِّي كُلَّمَا دَعَوْتُهُمْ لِتَغْفِرَ لَهُمْ جَعَلُوٓاْ أَصَٰبِعَهُمْ فِيٓ ءَاذَانِهِمْ وَٱسْتَغْشَوْاْ ثِيَابَهُمْ وَأَصَرُّواْ وَٱسْتَكْبَرُواْ ٱسْتِكْبَارًا ﴾ [1] [نوح : ٧] وكانوا يمرون به ويسخرون منه .

يقول : « رُفع لي سَوَادٌ » : أي بشر كثير فيهم جهمة من كثرتهم « فظننت أنهم أمتي فقيل : هذا مُوسى وقَومُه » لأن موسى من أكثر الأنبياء أتباعًا ، بعث في بني إسرائيل وأنزل اللّه عليه التوراة التي هي أم الكتب الإسرائيلية .

قال : « ثم قيل لي : انظر ! فنظرت إلى الأفق فإذا سَوَاد عظيم - وفي لفظ : سد الأفق - فقيل : انظر الأفق الثاني ! فنظرت إليه فإذا سواد عظيم فقيل لي : هذه أمتك » فإن الرسول ﷺ أكثر الأنبياء تابعًا ؛ لأنه منذ بعث إلى يوم القيامة والناس يتبعونه - صلوات اللّه وسلامه عليه - فكان أكثر الأنبياء تابعًا قد ملأ أتباعه ما بين الأفقين .

« ومعَهم سبْعُون ألفًا يدخلون الجنة بغير حسَاب ولا عذاب » : أي مع هذه الأمة سبعون ألفًا يدخلون الجنة لا يحاسبون ولا يعذبون من الموقف إلى الجنة بدون حساب ولا عذاب! اللهم اجعلنا منهم .

وقد ورد أن مع كل واحد من السبعين الألف سَبْعين ألفًا أيضًا . إذا ضربنا سبعين ألفًا في سبعين ألفًا (٧٠٠٠٠ × ٧٠٠٠٠ = ٤٩٠٠,٠٠٠,٠٠٠) هؤلاء الذين يدخلون الجنة بغير حساب ولا عذاب .

« ثم نهض فدخل منزله فخاض الناس في أولئك : قال بعضهم : لعلهم الذين صحِبُوا رسول اللّه ﷺ وقال آخرون : لعلهم الذين ولِدُوا في الإسلام فلم يشركوا بالله شيئًا - وذكروا أشياء » وكُلٌّ أتى بما يظن أنه الصواب ، فخرج عليهم النبي ﷺ فسَألهم عما يقولون فيه فأخبروه فقال ﷺ : « هم الذين لا يرْقون ولا يسْترقون ولا يكتوون ولا يتَطيرون وعلى ربهم يتوكلون » هذا لفظ مسلم وفيه : « لا يرقون » .

والمؤلف رَحِمَهُ اللَّهُ قال : إنه متفق عليه ، وكان ينبغي أن يبين أن هذا اللفظ لفظ مسلم فقط دون رواية البخاري وذلك أن قوله : « لا يرقون » كلمة غير صحيحة ولا تصح عن النبي عليه الصلاة والسلام لأن معنى « لا يرقون » : أي لا يقرأون على المرضى وهذا باطل فإن الرسول ﷺ كان يرقي المرضى .

وأيضًا القراءة على المرضى إحسان ، فكيف يكون انتفاؤها سببًا لدخول الجنة بغير حساب ولا عذاب ؟ فالمهم أن هذه اللفظة لفظة شاذة وخطأ لا يجوز اعتمادها والصواب : « هم الذين لا يسْترقون » أي : لا يطلبون من أحد أن يقرأ عليه إذا أصابهم شيء . وقوله : « ولا يكتوون » أي : لا يطلبون من أحد أن يكويهم إذا مرضوا .

---

(١) قوله تعالى : ﴿ وَٱسْتَغْشَوْاْ ثِيَابَهُمْ ﴾ أي : بالغوا في التغطي بثيابهم حتى لا يروه ، فيدعوهم إلى اللّه .

وقوله : « ولا يتطيرون » أي : لا يتشاءمون . « وعَلى ربهم يتَوَكلُون » أي : يعتمدون على اللّه وحده .

فهذه أربع صفات والشّاهد قوله : « وعَلى ربهم يتَوَكلُون » فلا يسترقون أي لا يطلبون من أحد أن يقرأ عليهم لأنهم معتمدون على اللّه ، ولأن الطلب فيه شيء من الذل ، لأنه سؤال الغير !

فربما تحرجه ولا يريد أن يقرأ ، وربما إذا قرأ عليك لا يبرأ المرض فتتهمه وما أشبه ذلك . وقوله : « ولا يكْتَوُون » : لأن الكَي عذاب بالنار لا يلجأ إليه إلا عند الحاجة .

وقوله : « ولا يتَطَيرُون » أي : لا يتشاءمون لا بمَرْئي ولا بمَسموع ولا بمشموم ولا بمجذوم .

وقد كان العرب في الجاهلية يتطيرون فإذا طار الطير وذهب نحو اليسار تشاءموا وإذا رجع تشاءموا ، وإذا تقدم نحو الأمام صار لهم نظر آخر وكذلك نحو اليمين وهكذا .

والطيرة محرمة لا يجوز لأحد أن يتطير لا بطيور ولا بأيام ولا بشهور ولا بغيرها .

وتطير العرب فيما سبق بشهر شوال إذا تزوج الإنسان فيه ويقولون : إن الإنسان إذا تزوج في شهر شوال لم يوفق . فكانت عائشة رضي الله عنها تقول : سبحان اللّه ! إن النبي ﷺ تزَوجها في شوال ودخل بها في شوال وكانت أحب نسائه إليه [1] ! كيف يقال - إن الذي يتزوج في شوال لا يوفق .

وكانوا يتشَاءَمُون بيوم الأربعاء ! يوم الأربعاء يوم كأيام الأسبوع ليس فيه تشاؤم . وكان بعضهم يتشاءم بالوجوه إذا رأى وجهًا لا يعجبه حتى إن بعضهم إذا فتح دكانه وكان أول من يأتيه رجل أعور أو أعمى غلق دكانه وقال : اليوم لا رزق فيه .

والتشاؤم كما أنه شرك أصغر فهو حسرة على الإنسان ، فيتألم من كل شيء يراه لكن لو اعتمد على اللّه وترك هذه الخرافات لسلم ولصار عيشه صافيًا سعيدًا .

أما قوله : « وعَلَى ربهم يتوكلون » فمعناه أنهم يعتمدون على اللّه في كل شيء لا يعتمدون على غيره لأنه قال في كتابه : ﴿ وَمَن يَتَوَكَّلْ عَلَى ٱللَّهِ فَهُوَ حَسْبُهُۥٓ ﴾ [الطلاق: ٣] ومن كان اللّه حسْبَه فقد كُفيَ كُلَّ شيء .

هذا الحديث العظيم فيه صفات من يدخل الجنة بلا حساب ولا عذاب .

فقام عُكَّاشة بن مِحصن رضي الله عنه فقال : يا رسول اللّه « ادع اللّه أن يجعلني منهم » .

ما شاء اللّه بادر إلى الخير وسبق إليه ، قال : « أنتَ منهم » ولهذا نحن نشهد الآن بأن عكاشة بن محصن رضي الله عنه يدخل الجنة بلا حساب ولا عذاب لأن الرّسول - عليه الصلاة والسلام - قال : أنت منهم .

« فقام رجل آخر فقال : ادع اللّه أن يجعلني منهم ! قال : سبَقَك بها عكاشة » فرده النبي عليه الصلاة والسلام لكنه رد لطيف .

---

(١) انظر الحديث في : مسلم في النكاح (٧٣) ، وأحمد في مسنده (٦/٥٤) ، الدارمي في النكاح (٢٢٠٧) وابن ماجه في النكاح (١٩٩٠) .

لم يقل : لست منهم ، بل قال : سبقك بها عكاشة ، واختلف العلماء - لماذا قال له : سبقك بها عكاشة ؟ فقيل : لأنه كان يعلم بأن هذا الذي قال : ادع اللّٰه أن يجعلني منهم قد علم الرسول بأنه منافق والمنافق لا يدخل الجنة فضلًا عن كونه بغير حساب ولا عذاب .

وقال بعض العلماء : بل قال ذلك من أجل أن لا ينفتح الباب فيقوم من لا يستحق أن يدخل الجنة بغير حساب ولا عذاب .

وعلى كل حال فنحن لا نعلم علمًا يقينيًا بأن الرسول ﷺ لم يَدْعُ اللّٰه له إلا لسبب معين ، فالله أعلم .

لكننا نستفيد من هذا فائدة وهو الرد الجميل من رسول اللّٰه ﷺ ؛ لأن قوله : سبقك بها عكاشة لايجرحه ولايحزنه .

وسبحان اللّٰه صارت هذه مثلًا إلى يومنا هذا ، كلما طلب الإنسان شيئًا قد سُبِقَ به قيل : قد سبَقكَ بها عكاشة .

أورد بعض العلماء إشكالًا على هذا الحديث وقال : إذا اضطر الإنسان إلى القراءة ؛ أي أن يطلب من أحد أن يقرأ عليه مثل أن يصاب بعين أو بسحر أو أصيب بجن ، هل إذا ذهب يطلب من يقرأ عليه يخرج من استحقاق دخول الجنة بغير حساب ولا عذاب ؟

فقال بعض العلماء : نعم هذا ظاهر الحديث وليعتمد على اللّٰه وليتصبر ويسأل اللّٰه العافية .

وقال بعض العلماء : بل إن هذا فيمن استرْقَى قبل أن يصَاب أي بأن قال : اقرأ علي أن لا تصيبني العين ، أو أن لا يصيبني السحر أو الجن أو الحمى ؛ فيكون هذا من باب طلب الرقية لأمر متوقع لا واقع وكذلك الكي .

فإذا قال إنسان : الذين يكوون غيرهم ، هل يحرمون من هذا ؟

جـ : لا ! لأنَّ الرسول ﷺ يقول : ولا يكتوون ، أي لا يطلبون من يكويهم ولم يقل : ولا يكوون وهو عليه الصلاة والسلام قد كوى أكحل سعد بن معاذ رضي الله عنه .

سعد بن معاذ الأوسي الأنصاري أصيب يوم الخندق في أكحله فانفجر الدّم [1] . والأكحل إذا انفجر دمه قضى على الإنسان . فكواه ﷺ في العرق حتى وقف الدّم ، والنبي ﷺ هو أول من يدخل الجنة بغير حساب ولا عذاب [2] .

فالذين يكوون محسنون والذين يقرأون على الناس محسنون ولكن الكلام على من يستَرْقُون أي يطلبون من يقرأ عليهم أو يكتوون أي من يطلبون من يكويهم ، واللّٰه الموفق .

* * *

(١) انظر القصة في : البخاري في المغازي (٤١٢٢) ، ومسلم في الجهاد (١٣٢) ، وأحمد في مسنده (٣٠٣/٣) والأكحل هو : عرق في وسط الذراع يكثر فصده ، فإذا قطع في اليد لم يرقأ الدم . لسان العرب مادة (كحل) .

(٢) ودليل ذلك ما رواه : أحمد في مسنده (١٤٤/٣) ، والهيثمي في مجمع الزوائد (٣٤٩/٧) .

٧٥ - الثَّاني : عَن ابْنِ عَبَّاسٍ ﷺ أيضًا أنَّ رسول اللَّه ﷺ كَانَ يَقُولُ : « اللَّهُمَّ لَكَ أَسْلَمْتُ ، وَبكَ آمَنْتُ ، وَعليكَ تَوَكَّلْتُ ، وَإليكَ أنَبْتُ ، وَبِكَ خاصَمْتُ ، اللَّهُمَّ إني أَعُوذُ بِعِزَّتِك ، لا إلَهَ إلا أَنْتَ أَنْ تُضِلَّني ، أَنْتَ الحَيُّ الذي لا يَموتُ ، وَالجِنُّ وَالإنْسُ يَموتُونَ » [١] متفقٌ عليه . وَهذا لَفْظُ مُسْلِمٍ ، وَاخْتَصَرَهُ البُخَارِيُّ .

٧٦ - الثَّالِثُ : عَن ابْنِ عَبَّاسٍ ﷺ أَيضًا قال : « حَسْبُنَا اللَّهُ وَنِعْمَ الوَكِيلُ ، قَالَهَا إبْرَاهِيمُ ﷺ حِينَ أُلقِيَ في النَّارِ ، وَقَالَهَا مُحَمَّدٌ ﷺ حِينَ قَالُوا : ﴿ إِنَّ ٱلنَّاسَ قَدْ جَمَعُوا۟ لَكُمْ فَٱخْشَوْهُمْ فَزَادَهُمْ إِيمَـٰنًا وَقَالُوا۟ حَسْبُنَا ٱللَّهُ وَنِعْمَ ٱلْوَكِيلُ ﴾ رواه البخاري .

وفي رواية له عن ابْنِ عَبَّاسٍ ﷺ قال : « كَانَ آخِر قَولِ إبْرَاهِيمَ ﷺ حِينَ أُلْقِيَ في النَّار : حَسْبِي اللَّهُ وَنِعْمَ الوَكِيلُ » [٢] .

الشرح

إبراهيم ومحمد عليهما الصلاة والسلام هما خليلان لله ﷻ . قال اللَّه : ﴿ وَٱتَّخَذَ ٱللَّهُ إِبْرَٰهِيمَ خَلِيلًا ﴾ [النساء: ١٢٥] وقال النبي ﷺ « إنَّ اللَّه قد اتخذَني خليلًا كما اتخذَ إبْرَاهِيمَ خليلًا » [٣] والخليل معناه الحبيب الذي بلغت محبته الغاية ولا نعلم أن أحدًا وُصِفَ بهذا الوصف إلا محمدًا ﷺ وإبراهيم فهما الخليلان .

وإنَّك تسمع أحيانًا يقول بعض الناس : إبراهيم خليل اللَّه ، ومحمد حبيب اللَّه ، وموسى كليم اللَّه .

والذي يقول : إن محمدًا حبيب اللَّه . في كلامه نظر ؛ لأن الخُلَّة أبلَغُ من المحبة فإذا قال : محمد حبيب اللَّه ، فهذا فيه نوع نقص من حق الرسول عليه الصلاة والسلام ؛ لأن أحباب اللَّه كثيرون ، فالمؤمنون يحبهم اللَّه والمحسنون والمقسطون يحبهم اللَّه والأحباب كثيرون .

لكن الخلة لا نعلم أنها ثبتت إلا لمحمد وإبراهيم وعلى هذا فنقول : الصواب أن يقال : إبراهيم خليل اللَّه ، ومحمد خليل اللَّه ، وموسى كليم اللَّه .

على أن محمدًا قد كلمه اللَّه ﷻ كلامًا بدون واسطة حيث عرج به إلى السّماوات السّبع .

هذه الكلمة : « حسْبُنَا اللَّه ونعمَ الوكيل » قالها إبراهيم حينما أُلقي في النار وذلك أن إبراهيم عليه الصلاة والسلام دعا قومه إلى عبادة اللَّه وحده لا شريك له ، وأبوا وأصروا على الكفر والشرك . فقام ذات يومٍ على أصنامهم فكسَّرها وجعلهم جُذاذًا إلا كبيرًا لهم فلما رجعوا وجدوا آلهتهم قد كُسِّرَتْ

---

(١) أخرجه مسلم في الذكر والدعاء (٦٧) والبخاري في الدعوات (٦٣١٧) الإمام أحمد (٣٠٢/١ ، ٣٠٨ ، ٣٥٨) والبيهقي في سننه (٥/٣) ، وهذا الحديث لم يشرحه الشارح رَحِمَهُ اللَّهُ .

(٢) أخرجه البخاري في (تفسير القرآن) (٤٥٦٣) وأحمد في مسنده (٣٢٦/١) ، والحاكم في المستدرك (٢٩٨/٢) .

(٣) أخرجه مسلم في المساجد (٥٣٢) وابن ماجه في السنن (١٤١) والطبراني في الكبير (٢٣٧/٨) .

فانتقموا والعياذ بالله لأنفسهم ، فقالوا : ماذا نصنع بإبراهيم ؟

﴿ قَالُوا۟ حَرِّقُوهُ ﴾ انتصارًا لآلهتهم ﴿ وَٱنصُرُوٓا۟ ءَالِهَتَكُمْ إِن كُنتُمْ فَٰعِلِينَ ﴾ [الأنبياء : ٦٨] .

فأوقدوا نارًا عظيمة جدًّا ثم رموا إبراهيم في هذه النار . ويقال : إنهم لِعِظَم النار لم يتمكنوا من القُربِ منها وأنهم رموا إبراهيم فيها بالمنجنيق من بُعْدٍ .

فلما رموه قال : « حسبنا اللّٰه ونعم الوكيل » فما الذي حدث ؟

قال اللّٰه تعالى : ﴿ قُلْنَا يَٰنَارُ كُونِى بَرْدًا وَسَلَٰمًا عَلَىٰٓ إِبْرَٰهِيمَ ﴾ [الأنبياء : ٦٩] بردًا ضد حر ، وسلامًا ضد هلاكًا ؛ لأن النار حارَّة ومحرقة مهلكة فأمَر اللّٰهِ هذه النَّار أن تكون بردًا وسلامًا عليه فكانت بردًا وسلامًا .

والمفسرون بعضهم ينقل عن بني إسرائيل في هذه القصَّة أن اللّٰه لما قال : ﴿ قُلْنَا يَٰنَارُ كُونِى بَرْدًا وَسَلَٰمًا عَلَىٰٓ إِبْرَٰهِيمَ ﴾ [الأنبياء : ٦٩] صارت جميع نيران الدنيا بردًا !

وهذا ليس بصحيح لأن اللّٰه وجه الخطاب إلى نار معينة ﴿ يَٰنَارُ كُونِى بَرْدًا ﴾ وعلماء النحو يقولون : أنه إذا جاء التركيب على هذا الوجه صار نكرة مقصودة ؛ أي : لا يشمل كل نار بل هو للنار التي أُلقيَ فيها إبراهيم فقط وهذا هو الصحيح وبقية نيران الدنيا بقيت على ما هي عليه . وقال العلماء أيضا : ولما قال اللّٰه : كوني بردًا قرن ذلك بقوله : « كوني سلامًا » لأنه لو اكتفى بقوله : « بردًا » لكانت بردًا حتى تهلكه ؛ لأن كل شيء يمتثل لأمر اللّٰه ﷻ [1] .

انظر إلى قوله تعالى : ﴿ ثُمَّ ٱسْتَوَىٰٓ إِلَى ٱلسَّمَآءِ وَهِىَ دُخَانٌ فَقَالَ لَهَا وَلِلْأَرْضِ ٱئْتِيَا طَوْعًا أَوْ كَرْهًا ﴾ فماذا قالتا ؟ : ﴿ قَالَتَآ أَتَيْنَا طَآئِعِينَ ﴾ [فصلت : ١١] منقادين لأمر اللّٰه .

أما الخليل الثاني الذي قال : « حسبنا اللّٰه ونعْم الوكيل » فهو النبي ﷺ وأصحابه حين رجعوا من أُحدٍ قيل لهم : إن الناس قد جمعوا لكم يريدون أن يأتوا إلى المدينة ويقضوا عليكم فقالوا : ﴿ حَسْبُنَا ٱللَّهُ وَنِعْمَ ٱلْوَكِيلُ ﴾ [آل عمران : ١٧٣] .

قال اللّٰه : ﴿ فَٱنقَلَبُوا۟ بِنِعْمَةٍ مِّنَ ٱللَّهِ وَفَضْلٍ لَّمْ يَمْسَسْهُمْ سُوٓءٌ وَٱتَّبَعُوا۟ رِضْوَٰنَ ٱللَّهِ ۗ وَٱللَّهُ ذُو فَضْلٍ عَظِيمٍ ﴾ [آل عمران : ١٧٤] .

فينبغي لكل إنسان رأى من الناس جمعًا له أو عدوانا عليه أن يقول : حسبنا اللّٰه ونعم الوكيل .

فإذا قال هكذا كفاه اللّٰه شرَّهم كما كفى إبراهيم ومحمدًا عليهما الصلاة والسلام فاجعل هذه الكلمة دائما على بالِكَ إذا رأيت من الناس عدوانًا عليك . واللّٰه الموفق .

* * *

٧٧ - الرَّابعُ : عَنْ أَبي هُرَيرَةَ ﷺ عن النبي ﷺ قال : « يَدخُلُ الجنَّةَ أَقْوامٌ أَفْئِدَتُهُمْ مِثْلُ أَفْئِدَةِ الطَّيرِ » [2]

---

(١) انظر في ذلك قول ابن عباس وأبي العالية في تفسير الطبري (١٧/٥٩) وزاد المسير (٥/٣٦٧) .

(٢) هذا الحديث لم يقم الشارح ﷺ بشرحه وقد أخرجه مسلم في الجنة وصفة نعيمها (٢٧) والإمام أحمد في مسنده (٢/٣٣١) .

رواه مسلم . قيلَ : مَعْنَاهُ مُتَوَكِّلُونَ ، وَقِيلَ : قُلُوبُهُمْ رَقِيقَةٌ .

٧٨ – الخَامِسُ : عَنْ جَابرٍ رضي الله عنه أَنَّهُ غَزَا مَعَ النَّبِيِّ ﷺ قِبَلَ نَجْدٍ ، فَلَمَّا قَفَلَ رسول اللَّه ﷺ قَفَلَ مَعَهُمْ ، فَأَدْرَكَتهُمُ القَائِلَةُ في وَادٍ كَثِيرِ العِضاهِ ، فَنَزَلَ رسولُ اللَّهِ ﷺ ، وَتَفَرَّقَ النَّاسُ يَسْتَظِلُّونَ بالشَّجرِ ، وَنَزَلَ رسولُ اللَّه ﷺ تَحْتَ سَمُرَةٍ ، فَعَلَّقَ بها سَيفَه ، ونِمنَا نَومَةً ، فإذَا رسولُ اللَّه ﷺ يَدْعُونَا ، وَإِذَا عِنْدَهُ أَعْرَابِيٌّ فَقَالَ : « إِنَّ هذَا اخْتَرَطَ عَلَيَّ سَيفي وَأَنَا نَائِمٌ ، فَاسْتَيقَظْتُ وَهُوَ في يَدِهِ صَلْتًا ، قَالَ : مَنْ يَمْنَعُكَ مِنِّي ؟ قُلْتُ : اللَّهُ » – ثَلاثًا وَلَمْ يُعَاقِبْهُ وَجَلَسَ . متفقٌ عليه .

وفي رِوايةٍ : قَالَ جَابر : كُنَّا مَعَ رسول اللَّه ﷺ بذَاتِ الرِّقَاعِ ، فَإِذَا أَتَينَا عَلَى شَجَرَةٍ ظَلِيلَةٍ تَرَكْنَاهَا لرسول اللَّه ﷺ ، فَجَاءَ رَجُلٌ منَ المُشْرِكِينَ ، وَسَيفُ رسول اللَّه ﷺ مُعَلَّقٌ بالشَّجَرَةِ ، فَاخْتَرَطَهُ فَقَالَ : تَخَافُني ؟ قَالَ : « لا » قَالَ : فَمَنْ يَمْنَعُكَ مِنِّي ؟ قَالَ : « اللَّه » .

وَفي رواية أبي بكر الإسماعيلي في صحيحه : قال : مَنْ يَمْنَعُكَ مِنِّي ؟ قَالَ : « اللَّهُ » قال : فَسَقَطَ السَّيفُ مِنْ يَدِهِ ، فَأَخَذَ رسول اللَّه ﷺ السَّيفَ فَقَال : « مَنْ يَمْنَعُكَ مِنِّي ؟ » فَقَالَ : كُنْ خَيرَ آخِذ ، فَقَالَ : « تَشْهَدُ أَنْ لا إله إلا اللَّه ، وَأَنِّي رسولُ اللَّه ؟ » قال : لا ، وَلكِنِّي أُعَاهِدُكَ أَنْ لا أُقَاتِلَكَ وَلا أكونَ مَعَ قَومٍ يُقَاتِلُونَكَ . فَخَلَّى سَبِيلَهُ ، فَأَتَى أَصْحَابَهُ فَقَالَ : جِئْتُكُمْ مِنْ عِنْدِ خَيرِ النَّاس [1] .

قَوْلُهُ : « قَفَلَ » أَي : رَجَعَ . وَ « العِضَاهُ » : الشَّجَرُ الَّذِي لَهُ شَوكٌ ، وَ « السَّمُرَةُ » بِفَتْحِ السِّين وَضَمِّ الميمِ : الشَّجَرَةُ مِنَ الطَّلْحِ ، وَهِيَ العِظَامُ منْ شَجَرِ العِضَاهِ . وَ « اخْتَرَطَ السَّيفَ » أَي : سَلَّهُ وهُوَ في يَدِهِ . « صَلْتًا » أي : مَسْلُولًا ، وَهُوَ بِفَتْحِ الصَّادِ وَضَمِّهَا .

٧٩ – السَّادِسُ : عَنْ عُمَرَ رضي الله عنه قال : سَمِعْتُ رسولَ اللَّه ﷺ يَقُولُ : « لَو أَنَّكُم تَتَوَكَّلُونَ عَلَى اللَّهِ حَقَّ تَوكُّلِهِ لَرَزَقَكُمْ كَمَا يَرْزُقُ الطَّيرَ ، تَغْدُو خِمَاصًا وَتَرُوحُ بِطَانًا » [2] رواه الترمذي ، وقال حديثٌ حسنٌ .

مَعْنَاهُ : تَذْهَبُ أَول النَّهَارِ خِمَاصًا : أي : ضَامِرَةَ البُطُونِ مِنَ الجُوعِ ، وَتَرْجِعُ آخِرَ النَّهَارِ بِطَانًا : أَي مُمْتَلِئَةَ البُطُونِ .

الشرح

قوله : « حق توَكُّله » أي توكُّلًا حقيقيًا تعتمدون على اللَّه عز وجل اعتمادًا كاملًا في طلب رزقكم وفي غيره .

« لرَزَقَكم كما يُرزَقُ الطير » الطَير رزقها على اللَّه عز وجل لأنها طيور ليس لها ما لك فتطير في الجو وتغدو إلى أوكارها وتستجلب رزق اللَّه عز وجل .

---

(١) هذا الحديث لم يقم الشارح رحمه الله بشرحه والحديث أخرجه البخاري في الجهاد والسير (٢٩١٠) ، وأحمد في مسنده (٣/٣١١) ، والبيهقي في السنن (٦/٣١٩) .

(٢) أخرجه الإمام أحمد في مسنده (١/٣٠) والترمذي في الزهد (٢٣٤٤) وابن ماجه في الزهد (٤١٦٤) والألباني في السلسلة الصحيحة (٣١٠) .

« تغدو خماصًا » الغدو : الذّهاب في أول النّهار . وخماصًا : جائعة كما قال اللّه : ﴿ فَمَنِ ٱضْطُرَّ فِي مَخْمَصَةٍ غَيْرَ مُتَجَانِفٍ لِّإِثْمٍ فَإِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴾ [المائدة : ٣] مخمصة : مجاعة .

« تغدو خماصًا » ليس في بطونها شيء لكنها متوكلة على ربها ﷻ . « وتروح بطانًا » تروح أي ترجع في آخر النهار ؛ لأن الرواح هو آخر النهار . « بطانًا » أي ممتلئة البطون من رزق اللّه ﷻ . ففي هذا دليل على مسائل :

أولًا : أنه ينبغي للإنسان أن يعتمد على اللّه حق الاعتماد .

ثانيًا : أنّه ما من دابة في الأرض إلا على اللّه رزقها حتى الطير في جو السماء لا يمسكه في جو السماء إلا اللّه ولا يرزقه إلا اللّه . كل دابة في الأرض من أصغر ما يكون كالذر [١] ، أو أكبر ما يكون كالفيلة وأشباهها ، فإن على اللّه رزقها كما قال اللّه : ﴿ وَمَا مِن دَآبَّةٍ فِي ٱلْأَرْضِ إِلَّا عَلَى ٱللَّهِ رِزْقُهَا وَيَعْلَمُ مُسْتَقَرَّهَا وَمُسْتَوْدَعَهَا ﴾ [هود : ٦] ولقد ضل ضلالًا مبينًا من أساءَ الظن بربه فقال : لا تكثروا الأولاد ، تضيق عليكم الأرزاق !!

كذبوا ورب العرش فإذا أكثَروا من الأولاد أكثر اللّه رزقهم ؛ لأنه ما من دابة في الأرض إلا على اللّه رزقها .

فرزق أولادك وأطفالك على اللّه ﷻ ، هو الذي يفتح لك أبواب الرزق من أجل أن تنفق عليهم ، لكن أكثر الناس عندهم سوء ظن باللّه ، ويعتمدون على الأمور المادية المنظورة ولا ينظرون إلى المدَى البعيد وإلى قدرة اللّه وأنه هو الذي يرزق ولو كثر الأولاد ، اكْثِرْ من الأولاد تكثر لك الأرزاق هذا هو الصَّحيح ؛ وفي هذا دليل على أنَّ الإنسان إذا توكل على اللّه حق التَّوكل فليفعل الأسباب .

وضلَّ من قال : لا أفعل السبب وأنا متوكِّل . فهذا غير صحيح ؛ المتوكل هو الذي يفعل الأسباب معتمدًا على اللّه ﷻ ولهذا قال : « كما يرزُق الطَّير ، تغدو خماصًا» تذهب لتطلب الرِّزق ، ليست الطيور في أوكارها ، ولكنها تغدو وتطلب الرزق . فأنت إذا توكلت على اللّه حقَّ التَّوكل ؛ فلابد أن تفعل الأسباب التي شرعها اللّه لك من طلب الرِّزق من وجه حلال بالزِّراعة ، بالتِّجارة ، بالعمالة بأي شيء من أسباب الرِّزق .

اطلب الرِّزق معتمدًا على اللّه ييسر اللّه لك الرِّزق .

ومن فوائد هذا الحديث : أن الطُّيور وغيرها من مخلوقات اللّه تعرف اللّه كما قال اللّه تعالى : ﴿ تُسَبِّحُ لَهُ ٱلسَّمَٰوَٰتُ ٱلسَّبْعُ وَٱلْأَرْضُ وَمَن فِيهِنَّ وَإِن مِّن شَيْءٍ إِلَّا يُسَبِّحُ بِحَمْدِهِۦ ﴾ [الإسراء : ٤٤] .

أي ما من شيء إلا يسبح بحمد اللّه ﴿ وَلَٰكِن لَّا تَفْقَهُونَ تَسْبِيحَهُمْ ﴾ [الإسراء : ٤٤] .

﴿ أَلَمْ تَرَ أَنَّ ٱللَّهَ يَسْجُدُ لَهُۥ مَن فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَن فِي ٱلْأَرْضِ وَٱلشَّمْسُ وَٱلْقَمَرُ وَٱلنُّجُومُ وَٱلْجِبَالُ وَٱلشَّجَرُ وَٱلدَّوَآبُّ وَكَثِيرٌ مِّنَ ٱلنَّاسِ وَكَثِيرٌ حَقَّ عَلَيْهِ ٱلْعَذَابُ وَمَن يُهِنِ ٱللَّهُ فَمَا لَهُۥ مِن مُّكْرِمٍ إِنَّ ٱللَّهَ يَفْعَلُ مَا يَشَآءُ ﴾ [الحج : ١٨] .

---

(١) الذر : هو صغار النمل ، وقيل : أصغر جزء في عنصر مادة قابل للتفاعلات (المعجم العربي الأساسي ص ٤٨٠ مادة ذرر) .

فالطُّيور تعرف خالقها ﷻ وتطير تطلب الرزق بما جبلها الله عليه من الفطرة التي تهتدي بها إلى مصَالحها وتغدو إلى أوكارها في آخر النهار بطونها ملأى وهكذا دواليك في كل يوم ، والله ﷻ يرزقها ويُيسر لها الرزق .

وانظر إلى حكمة الله كيف تغدو هذه الطيور إلى محلات بعيدة وتهتدي بالرُّجوع إلى أماكنها لا تخطئها ؛ لأن الله أعطى كل شيء خلقه ثم هدَى . والله الموفق .

* * *

٨٠ - السابعُ : عَنْ أَبي عُمَارَةَ البَرَاءِ بْنِ عَازِبٍ ﷺ قال : قال رسول الله ﷺ : « يَا فُلانُ إذَا أَوَيتَ إلَى فِرَاشِكَ فَقُل : اللَّهُمَّ أسْلَمْتُ نَفْسي إلَيكَ ، وَوَجَّهْتُ وَجْهي إلَيكَ ، وَفَوَّضْتُ أمْري إلَيكَ ، وَألْجأْتُ ظَهْري إلَيكَ ، رَغْبَةً وَرَهْبَةً إلَيكَ ، لا مَلْجأَ وَلا مَنْجى مِنْكَ إلا إلَيكَ ، آمَنت بكتابكَ الَّذي أنْزَلْت ، وَنَبِيِّكَ الَّذي أَرْسَلْتَ ، فَإنَّكَ إنْ مِتَّ مِنْ لَيلَتِكَ مِتَّ عَلَى الفِطْرَةِ ، وَإنْ أَصْبَحْتَ أَصَبْتَ خَيرًا » متفق عليه .

وفي روايةٍ في الصَّحيحين عَن البَرَاءِ قال : قال لي رسول الله ﷺ : « إذَا أَتَيتَ مَضْجعَك فَتَوَضَّأْ وُضُوءَكَ للصَّلاةِ ثُمَّ اضْطَجعْ عَلَى شِقِّكَ الأَيمَنِ وَقُلْ : وَذَكَرَ نَحْوَهُ ، ثُمَّ قالَ : « وَاجْعَلْهُنَّ آخرَ مَا تَقُولُ » [(١)] .

الشرح

ثم ذكر المؤلف في باب اليقين والتوكل حديث البراء بن عازب ﷺ حيث أوصاه النبي ﷺ أن يقول عند نومه : إذا أوى إلى فراشه أن يقول هذا الذكر الذي يتضمن تفويض الإنسان أمره إلى ربه وأنه معتمد على الله في ظاهره وباطنه مفوض أمره إليه .

وفيه أن النبي ﷺ أمره أن يضطجع على الجنب الأيمن ؛ لأن ذلك هو الأفضل وقد ذكر الأطباء أن النوم على الجنب الأيمن أفضل للبدن وأصح من النوم على الجنب الأيسر .

وذكر أيضًا بعض أرباب السلوك والاستقامة أنه أقرب في استيقاظ الإنسان ؛ لأن بالنَّوم على الجنب الأيسر ينامُ القلب ولا يستيقظ بسرعة ، بخلاف النوم على الجنب الأيمن ؛ فإنه يبقى القلب متعلقًا ويكون أقل عمقًا في منامه فيستيقظ بسرعة .

وفي هذا الحديث : أنَّ النبي ﷺ أمره أن يجعلهن آخر ما يقول مع أن هناك ذكرًا بل أذكارًا عند النوم تقال غير هذا .

مثلًا : التسبيح والتحميد والتكبير ؛ فإنه ينبغي للإنسان إذا نام على فراشه أن يقول : سبحان الله ثلاثا وثلاثين ، والحمد لله ثلاثًا وثلاثين ، والله أكبر أربعًا وثلاثين [(٢)] . هذا من الذكر لكن حديث البراء يدل على أن ما أوصاه الرسول ﷺ به أن يجعلهن آخر ما يقُول .

---

(١) أخرجه البخاري في التوحيد (٧٤٨٨) ، ومسلم في الذكر والدعاء (٥٦ ، ٥٨) .

(٢) وذلك لما رواه ابن ماجه (٣٨٧٨) ، وأحمد في مسنده (٦/٦) كلاهما دون لفظ « ثلاثًا وثلاثين » .

وقد أعاد البراء بن عازب هذا الحديث على النبي ﷺ ليتقنه فقال : « آمنت بكتابكَ الذي أنزلتَ ورَسولك الذي أرسَلت » فرد عليه النبي - عليه الصلاة والسلام - وقال قل : « ونَبيكَ الذي أرسَلْت» ولا تقل : « ورَسولكَ الذي أرسَلت » . قال أهل العلم : وذلك لأن الرسول يكون من البشر ويكون من الملائكة كما قال اللّٰه عن جبريل : ﴿ إِنَّهُۥ لَقَوْلُ رَسُولٍ كَرِيمٍ ۝ ذِى قُوَّةٍ عِندَ ذِى ٱلْعَرْشِ مَكِينٍ ﴾[1] [التكوير : ١٩، ٢٠] وأما النبي فلا يكون إلا من البشر .

فإذا قال : ورسولك الذي أرسلت ؛ فإن اللفظ صالح لأن يكون المراد به جبريل . لكن إذا قال : « ونَبيكَ الذي أرسَلت » اختص بمحمد ﷺ هذا من وجه .

ومن وجه آخر : أنه إذا قال : ورسولك الذي أرسلت ؛ فإن دلالة هذا اللفظ على النبوة من باب دلالة اللزوم ، وأما إذا قال : نبيك ؛ فإنه يدل على النبوة دلالة مطابقة ، ومعلوم أن دلالة المطابقة أقوى من دلالة اللزوم .

الشَّاهد من هذا الحديث قوله : « وفَوضت أمْري إليك » وقوله : « لا ملجأ ولا منجا منكَ إلا إليكَ » فإن التوكل تفويض الإنسان أمره إلى ربه ، وأنه لا يلجأ ولا يطلب منجا من اللّٰه إلا إلى اللّٰه ﷻ ؛ لأنه إذا أراد اللّٰه بقوم سوءًا فلا مرَدَّ له ، فإذا أراد اللّٰه بالإنسان شيئًا فلا مرد له إلا اللّٰه ﷻ بالرجوع إليه .

فينبغي للإنسان إذا أراد النوم أن ينام على جنبه الأيمن وأن يقول هذا الذكر وأن يجعله آخر ما يقول ، والله الموفق .

* * *

٨١ - الثَّامِنُ : عَن أَبي بَكْرٍ الصِّدِّيق ﷺ عبدِ اللَّهِ بنِ عثمان بن عامرِ بن عُمَرَ ابْن كَعْب بْن سَعْدِ ابْن تَيم بْن مُرَّة بْن كَعْبِ بْن لُؤيٍّ بْن غَالِبِ القُرَشِيِّ التَّيمِيِّ ﷺ وَهُوَ وَأَبُوهُ وَأُمُّهُ صَحَابَةٌ ﷺ قال : نَظَرتُ إلى أَقْدَامِ المشْرِكينَ وَنَحْنُ في الغارِ وَهُمْ عَلَى رُؤوسِنَا ، فقلتُ : يا رسول اللّٰهِ لَو أنَّ أحَدَهُمْ نَظَرَ تَحْتَ قَدَمَيهِ لأَبْصَرَنَا . فقالَ : « مَا ظَنُّكَ يا أبا بَكرٍ باثْنَين اللّٰه ثَالثُهمَا ؟ »[2] متفقٌ عليه .

الشرح

قوله : « ما ظنّكَ يا أبا بكر باثْنَينِ اللّٰه ثالثُهُمَا ؟ » أي ما ظنُّك هل أحد يقدر عليهما أو ينالهما بسوء ؟

وهذه القصَّة كانت حينما هاجر النبيِ ﷺ من مكة إلى المدينة وذلك لأنَّ رسول اللّٰه ﷺ لما جهَرَ بالدعوة ودعَا الناس وتبعوه وقام المشركون ضد دعوته وضايقوه وآذوه بالقول ، وبالفعل فأذن اللّٰه له بالهجرة من مكة إلى المدينة ، فهاجر عليه الصلاة والسَّلام على رأس ثِلاث عشرة سنة من مبعثه ، هاجر من مكة إلى المدينة ولم يصحبه إلا أبُو بَكر ﷺ والدليل والخادم .

---

(١) قوله تعالى : ﴿ مَكِينٍ ﴾ أي : ذي مكانة رفيعة ومنزلة عظيمة عند اللّٰه .

(٢) أخرجه البخاري في فضائل أصحاب النبي ﷺ (٣٦٥٣) ، ومسلم في فضائل الصحابة (١) ، وأحمد في مسنده (٤/١) .

ولما سمع المشركون بخروجه من مكَّة جعلوا لمن جاء به مائتي بعير ولمن جاء بأبي بكر مائة بعير وصار الناس يطلبون الرجلين في الجبال وفي الأودية وفي المغارات وفي كل مكان حتى وقفوا على الغار الذي فيه النبي ﷺ وأبو بكر ، وهو غار ثور الذي اختفيا فيه ثلاث ليالٍ حتى يبرد عنهما الطلب .

فقال أبو بكر : يا رسول اللَّه لو نظر أحدهم إلى قدميه لأبصرنا ؛ لأننا في الغار تحته فقال ﷺ : « ما ظنك باثنين اللَّه ثالثهما » وفي كتاب اللَّه : ﴿ لَا تَحْزَنْ إِنَّ ٱللَّهَ مَعَنَا ﴾ [التوبة : ٤٠] فيكون قد قال ﷺ الأمرين كلاهما . فقوله : « ما ظنك باثنين اللَّه ثالثهما ؟ » هل أحد يقدر عليهما أو غير ذلك ؟ .

ج : والجواب لا أحد يقدر ؛ لأنَّه لا مانع لمَا أعْطَى اللَّه ولا معْطي لما منَع ، ولا مذِل لمن أعَزَّ ولا معِزّ لمَن أذلَّ : ﴿ قُلِ ٱللَّهُمَّ مَٰلِكَ ٱلْمُلْكِ تُؤْتِى ٱلْمُلْكَ مَن تَشَآءُ وَتَنزِعُ ٱلْمُلْكَ مِمَّن تَشَآءُ وَتُعِزُّ مَن تَشَآءُ وَتُذِلُّ مَن تَشَآءُ بِيَدِكَ ٱلْخَيْرُ إِنَّكَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ﴾ [آل عمران : ٢٦] .

وفي هذه القصَّة : دليل على كمال توكل النبي ﷺ على ربه وأنَّه معتمد عليه ومفوض إليه أمره ، وهذا هو الشَّاهد من وضع هذا الحديث في باب اليقين والتوكل .

وفيه : دليل على أنَّ قصة نسج العنكبوت غير صحيحة ، فما يوجد في بعض التواريخ أن العنكبوت نسجت على باب الغار ، وأنَّه نبت فيه شجرة ، وأنَّه كان على غصنها حمامة ، وأن المُشركين لما جاءوا إلى الغار قالوا : هذا ليس فيه أحد ، فهذه الحمامة على غُصن شجرة على بابه ، وهذه العنكبوت قد عشَشَت على بابه [١] . كل هذا لا صحَّة له ، لأن الذي منع المشركين من رؤية النَّبي ﷺ وصاحبه أبي بكر ليست أمورًا حسّية تكون لهما ولغيرهما ، بل هي أمور معنوية وآية من آيات اللَّه ﷻ . حجب اللَّه أبصارَ المشركين عن رؤية الرَّسول عليه الصَّلاة والسلام وصاحبه أبي بكر . واللَّه الموفق .

* * *

٨٢ - التَّاسعُ : عَنْ أمِّ المؤْمنين أُمِّ سَلَمَةَ ، وَاسْمُهَا هِنْدُ بنْتُ أَبي أُمَيَّة حُذَيفَةَ ، المَخْزُوميَّة ، رضي الله عنها أن النبي ﷺ كانَ إذَا خَرَجَ مِنْ بَيته قالَ : « باسْم اللَّه ، تَوَكَّلْتُ عَلَى اللَّه ، اللَّهُمَّ إنِّي أَعُوذُ بكَ أنْ أَضِلَّ أو أُضَلَّ ، أَو أَزِلَّ أو أُزَلَّ ، أَو أَظْلِمَ أَو أُظْلَمَ ، أَو أَجْهَلَ أَو يُجْهَلَ عَلَيَّ » [٢] حديثٌ صَحيح رواه أبو داود ، والتِّرمذي وَغيرُهُمَا بأسانيدَ صَحيحةٍ . قالَ التِّرمذِي : حَديث حسنٌ صحيحٌ ، وهذا لفظ أبي داود .

الشرح

الشَّاهد من هذا الحديث قوله : « باسم اللَّه توَكَّلتُ علَى اللَّه » فإنَّ في هذا دليلًا على أنَّ الإنسان ينبغي له إذا خرج من بيته أن يقول هذا الذكر الذي منه التوكل على اللَّه والاعتصام به ؛ لأن الإنسان إذا خرج من بيته فهو عرضة لأن يصيبه شيء أو يعتدي عليه حيوان من عقرب أو حيَّة وما أشبهه فيقول : « آمَنت باللَّه ، اعْتَصمتُ باللَّه ، توكَّلتُ علَى اللَّه » .

---

(١) انظر مثل هذه الروايات في : مسند أحمد (١/٣٤٨) ، وسبل الهدى والرشاد للصالحي (٣/٣٤٠ - ٣٤٢) ، وغيرهما .

(٢) أخرجه أبو داود في الأدب بلفظه (٥٠٩٤) ، والترمذي في الدعوات (٣٤٢٧) ، وأحمد في مسنده (٦/٣١٨) .

وقوله : « اللهم إنِّي أعوذ بكَ أن أضِل » أي أضل في نفسي . « أو أُضَل » أي يضلني أحد . « أو أزل » من الزلل وهو الخطأ . « أو أُزَل » أي أحد يتوصل لفعل الخطأ . « أو أظلم » أي أظلم غيرى . « أو أُظلَم » يظلمني غيري . « أو أجهل » أسفه . « أو يُجهل علي » يسفه عليَّ أحدٌ وَيعْتدي علي أحدٌ .

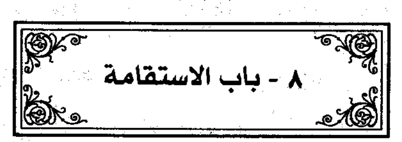
فهذا الذكر ينبغي أن يقوله الإنسان إذا خرج من بيته لما فيه من اللُّجوء إلى الله سبحانه والاعتصام به . والله الموفق .

* * *

٨٣ - العَاشِرُ : عَن أنس ﷺ قال : قال رسول اللَّه ﷺ : « مَنْ قَالَ - يَعْني إذا خَرَجَ مِنْ بَيْتِهِ - : باسْمِ اللَّهِ تَوَكَّلْتُ على اللَّهِ ، وَلا حَولَ وَلا قُوةَ إلا باللَّهِ ، يقالُ لَهُ : هُدِيت وَكُفِيتَ وَوُقِيتَ ، وَتَنَحَّى عَنْهُ الشَّيطَانُ » (١) . رواه أبو داود والترمذي ، والنسائي وغيرهم . وقال الترمذي : حديثٌ حسنٌ ، زاد أَبو داود : « فيقول : - يَعْني الشَّيطَانَ - لِشَيطَانٍ آخَرَ : كَيفَ لَكَ بِرَجُل قَدْ هُدِيَ وَكُفِيَ وَوُقِيَ ؟ » .

٨٤ - وَعَنْ أنَسٍ ﷺ قال : كَانَ أَخَوانِ عَلَى عَهْدِ النبيِّ ﷺ ، وَكَانَ أحَدُهُمَا يَأْتِي النبيَّ ﷺ ، وَالآخَرُ يَحْتَرِفُ ، فَشَكَا المُحْتَرِفُ أخَاهُ للنبي ﷺ فقال : « لَعَلَّكَ تُرْزَقُ بِهِ » (٢) رواه التِّرمذي بإسنادٍ صحيح على شرطِ مسلمٍ . « يَحْتَرِفُ » : يَكْتَسِبُ وَيَتَسَبَّبُ .

* * *



٨ - باب الاستقامة

قال اللَّه تعالى : ﴿ فَٱسْتَقِمْ كَمَآ أُمِرْتَ ﴾ [هود : ١١٢] ، وقالَ تعالى : ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ قَالُوا۟ رَبُّنَا ٱللَّهُ ثُمَّ ٱسْتَقَٰمُوا۟ تَتَنَزَّلُ عَلَيْهِمُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ أَلَّا تَخَافُوا۟ وَلَا تَحْزَنُوا۟ وَأَبْشِرُوا۟ بِٱلْجَنَّةِ ٱلَّتِى كُنتُمْ تُوعَدُونَ ۝ نَحْنُ أَوْلِيَآؤُكُمْ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَفِى ٱلْءَاخِرَةِ ۖ وَلَكُمْ فِيهَا مَا تَشْتَهِىٓ أَنفُسُكُمْ وَلَكُمْ فِيهَا مَا تَدَّعُونَ ۝ نُزُلًا مِّنْ غَفُورٍ رَّحِيمٍ ﴾ [فصلت : ٣٠ - ٣٢] ، وقال تعالى : ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ قَالُوا۟ رَبُّنَا ٱللَّهُ ثُمَّ ٱسْتَقَٰمُوا۟ فَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ۝ أُو۟لَٰٓئِكَ أَصْحَٰبُ ٱلْجَنَّةِ خَٰلِدِينَ فِيهَا جَزَآءًۢ بِمَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴾ [الأحقاف : ١٣ ، ١٤] .

الشرح

الاستقامة هي أن يَثْبت الإنسان على شريعة اللَّه ﷺ كما أمرَ اللَّه ويتقدمها الإخلاص لله ﷻ .

ثم ذكر المؤلف عدَّة آيات في هذا فذكر قول اللَّه تعالى : ﴿ فَٱسْتَقِمْ كَمَآ أُمِرْتَ ﴾ [هود : ١١٢] . الخطاب هنا للنبي ﷺ والخطاب الموجّه للرسول ﷺ يكون له ولأمته إلا إذا قام دليل عَلى أنَّه خاص به ؛ فإنَّه يختص به . أما إذا لم يكن الدليل خاصًّا به ؛ فإنه له وللأمة .

---

(١) هذا الحديث لم يقم الشارح رحمه الله بشرحه . والحديث أخرجه أبو داود في الأدب (٥٠٩٥) والترمذي في الدعوات (٣٤٢٢) ، قوله : « هديث » أي إلى طريق الحق ، قوله « كفيت » أي همك ، قوله : « وقيت أي حفظت .

(٢) أخرجه الترمذي في الزهد (٢٣٤٥) ، والحاكم في المستدرك (١/٩٤) .

فمما دل الدليل على أنَّه خاص به قوله تعالى : ﴿ أَلَمْ نَشْرَحْ لَكَ صَدْرَكَ ۝ وَوَضَعْنَا عَنكَ وِزْرَكَ ۝ الَّذِى أَنقَضَ ظَهْرَكَ ﴾ (١) [الشرح : ١-٣] فإن هذا خاص بالنبي ﷺ .

ومثل قوله : ﴿ وَلَقَدْ ءَاتَيْنَٰكَ سَبْعًا مِّنَ الْمَثَانِى وَالْقُرْءَانَ الْعَظِيمَ ﴾ [الحجر : ٨٧] هذا أيضا خاص بالرسول ﷺ .

وإذا لم يقُم الدَّليل على أن الخطاب للخصوصية ؛ فهو له ولأمته وعلى هذه القاعدة يكون قوله : ﴿ فَاسْتَقِمْ كَمَآ أُمِرْتَ ﴾ [هود : ١١٢] عامًّا له ولأمته . كل واحد يجب عليه أن يستقيم كما أمر فلا يبدل في دين اللَّه ولا يزيد فيه ولا ينقص ولهذا قال في آية أخرى : ﴿ وَاسْتَقِمْ كَمَآ أُمِرْتَ وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَآءَهُمْ ﴾ [الشورى : ١٥] . وقال تعالى : ﴿ إِنَّ الَّذِينَ قَالُوا رَبُّنَا اللَّهُ ثُمَّ اسْتَقَٰمُوا ... ﴾ [فصلت : ٣٠، ٣٢] .

﴿ رَبُّنَا اللَّهُ ﴾ خالقنا ومالِكنا ومدبِّر أمورنا فنحن نخلص له ﴿ ثُمَّ اسْتَقَٰمُوا ﴾ على ذلك أي على قولهم : ربنا اللَّه فقاموا بشريعة اللَّه . هؤلاء الذين اتصفوا بهذين الوصفين : ﴿ تَتَنَزَّلُ عَلَيْهِمُ الْمَلَٰٓئِكَةُ ﴾ ملكًا بعد ملك ﴿ أَلَّا تَخَافُوا وَلَا تَحْزَنُوا ﴾ يعني أن الملائكة تتنزل عليهم بأمر اللَّه في كل موطن مخوف ولا سيما عند الموت يقولون لهم : ﴿ أَلَّا تَخَافُوا وَلَا تَحْزَنُوا ﴾ لا تخافوا فيما تستقبلون من أموركم ولا تحزنوا على ما مضَى من أموركم . ﴿ وَأَبْشِرُوا بِالْجَنَّةِ الَّتِى كُنتُمْ تُوعَدُونَ ﴾ والبُشرى هي الإخبار بما يسُر ولا شك أن الإنسان يسُره أن يكون من أهل الجنة أسأل اللَّه أن يجعلني وإياكم منهم . ﴿ وَأَبْشِرُوا بِالْجَنَّةِ الَّتِى كُنتُمْ تُوعَدُونَ ﴾ لأن كل من قال : ربِّي اللَّه واستقام على دين اللَّه ؛ فإنَّه من أهل الجنة .

يقولون لهم أيضًا : ﴿ نَحْنُ أَوْلِيَآؤُكُمْ فِى الْحَيَوٰةِ الدُّنْيَا وَفِى الْآخِرَةِ ﴾ فالملائكة أولياء للذين قالوا ربنا اللَّه ثم استقاموا في الحياة الدنيا ، تسددهم وتساعدهم وتعينهم ، وكذلك في الآخرة تتلقاهم الملائكة يوم البعث والحساب ﴿ هَٰذَا يَوْمُكُمُ الَّذِى كُنتُمْ تُوعَدُونَ ﴾ فيبشرونهم بالخير في مقام الخَوف والشدة . قال اللَّه ﷻ : ﴿ وَلَكُمْ فِيهَا مَا تَشْتَهِىٓ أَنفُسُكُمْ وَلَكُمْ فِيهَا مَا تَدَّعُونَ ﴾ ﴿وَلَكُمْ فِيهَا ﴾ أي في الآخرة ﴿ مَا تَشْتَهِىٓ أَنفُسُكُمْ ﴾ وذلك في نعيم الجنة ؛ لأن الجنة فيها ما تشتَهيه الأنفس وتلَذ الأعْين . ﴿ وَلَكُمْ فِيهَا مَا تَدَّعُونَ ﴾ أي تطلبون ، بل لهم فوق ذلك : ﴿ لَهُم مَّا يَشَآءُونَ فِيهَا وَلَدَيْنَا مَزِيدٌ ﴾ [ق : ٣٥] لهم زيادة على ما يدعونه ويطلبونه ويتمنونه .

﴿ نُزُلًا مِّنْ غَفُورٍ رَّحِيمٍ ﴾ يعني أن الجنة نزل لهم وضيافة من غفور رحيم . ﴿ غَفُورٍ ﴾ غفر لهم سيئاتهم ، رحيم بهم رفع لهم درجاتهم . هذا جزاء الذين يقولون ربنا اللَّه ثم يستقيمون .

وفي هذا دليل على أهمية الاستقامة على دين اللَّه بأن يكون الإنسان ثابتًا لا يزيد ولا ينقص ولا يبدل ولا يغير .

فأما من غلا في دين اللَّه أو جفَا عنه ، أو بدل ؛ فإنه لم يكن مستقيمًا على شريعة اللَّه ﷻ ؛ والاستقامة لابد لها من الاعتدال في كل شيء حتى يكون الإنسان مستقيمًا .

* * *

---

(١) قوله : ﴿ أَنقَضَ ظَهْرَكَ ﴾ أي : أثقله وأوهنه حتى سمع له نقيض ؛ وهو الصوت الخفي الذي يُسمع من الرحل فوق البعير .

٨٥ – وَعَنْ أبي عَمْرو ، وقيل : أبي عَمْرَة سُفْيَانَ بن عبد اللَّه ﷺ قال : قُلْتُ : يَا رسول اللَّهِ ! قُلْ لِي في الإسْلامِ قَوْلًا لا أسْأل عَنْه أحَدًا غَيرَكَ . قال : « قُلْ : آمَنْتُ باللَّهِ ثُمَّ اسْتَقِمْ » (١) رواه مسلم .

الشرح

قوله : « قلْ لي في الإسلام قولًا لا أسأل عنه أحَدًا غيرك » أي : قل لي قولًا لا أسأل عنه أحدًا غيرك فيكون فصلًا وحَاسِمًا ولا يحتاج إلى سؤال أحد فقال له النبي ﷺ : « قل : آمنت باللَّه ثم استقم » .

فقوله : « قلْ : آمنْتُ » ليس المراد بذلك مجرد القول باللسان فإن من الناس من يقول آمنت بالله وباليوم الآخر وما هم بمؤمنين . ولكن المراد بذلك قول القلب واللِّسان أيضًا .

أي : أن يقوله بلسانه بعد أن يُقِرَّ ذلك في قلبه وتعتقِده اعتقادًا جازمًا لاشك فيه ؛ لأنَّه لا يكفي الإيمان بالقلب ولا الإيمان باللِّسان لا بد من الإيمان بهما جميعًا .

ولهذا كان النبي – عليه الصلاة والسلام – يقول وهو يدعو النَّاس إلى الإسلام يقول : « يا أيها الناس قولُوا : لا إلَه إلاَّ اللَّه تفلِحوا » فقال : قولوا : أي بألسنتكم . كما أنه لابد من القول بالقلب .

وقوله : « آمَنْتُ بالله » يشمل الإيمان بوجود اللَّه ﷻ وبرُبُوبيته وبأسمائه وصفاته وبأحكامه وبأخباره وكل ما يأتي من قِبَلِه ﷻ تؤمن به ، فإذا آمنت بذلك فاستقم على دين اللَّه ولا تحد عنه لا يمينًا ولا شمالًا لا تقصر ولا تزد . فاستقم على شهادة أن لا إله إلا اللَّه وأن محمدًا رسول اللَّه ، وذلك بالإخلاص لله ﷻ والمُتابعة لرسوله . استقم على الصَّلاة وعلى الزكاة والصِّيام والحج وعلى جميع الشرائع .

وقوله « قلْ آمَنْتُ باللَّه ثم » دليل على أنَّ الاستقامة لا تكون إلا بعد الإيمان ، وأن من شرط الأعمال الصالحة أي من شرط صحتها وقبولها أن تكون مبنية على الإيمان .

فلو أن الإنسان عمل بظاهره على ما ينبغي ولكن باطنه خراب وفي شك واضطراب ، أو في إنكار وتكذيب ؛ فإنَّ ذلك لا ينفعه ، ولهذا اتفق العلماء – رحمهم اللَّه – على أن من شُروط صحة العبادة وقبولها أن يكون الإنسان مؤمنًا بالله ، أي : معترفًا به وبجميع ما جاء من قِبَلِه تبارك وتعالى .

ويُستفاد من هذا الحديث : أنه ينبغي للإنسان إذا قام بعمل أن يَشْعُر أنَّه قام به للَّه ، وأنه يقوم به باللهَّ ، وأنَّه يقوم به في اللَّه ؛ لأنَه لا يستقيم على دين اللَّه إلا بعد الإيمان بالله ﷻ ، فيشعر أنَّه يقوم به لله أي : مُخلصًا ، وبالله مستعينًا ، وفي اللَّه متبعًا لِشَرْعه ، وهذه مُسْتَفَادة من قوله تبارك وتعالى : ﴿ إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ ۝ اهْدِنَا الصِّرَاطَ الْمُسْتَقِيمَ ﴾ [الفاتحة : ٥، ٦] فالأول قيام للَّه ، والثاني قيام فيه ، أي : في شرعه ، ولهذا نقول : إن المراد بالصَّراط المستقيم في الآية الكريمة هو شرع اللَّه ﷻ الموصل إليه ، والله الموفق .

* * *

(١) أخرجه البيهقي في السنن (٧٦/١) ، وأحمد في مسنده (٣٧١/٥) ، والدارقطني في السنن (٤٥/٣) .

٨٦ - وَعَنْ أبي هُرَيْرَةَ ﷺ : قال : قال رسولُ اللَّه ﷺ : « قَارِبُوا ، وسَدِّدوا ، واعْلَمُوا أَنَّه لَنْ يَنْجُوَ أَحَدٌ مِنْكُمْ بعَمَلِهِ » قَالُوا : وَلا أَنْتَ يَا رَسُولَ اللَّه ؟ قال : « وَلا أنا إلا أنْ يَتَغَمَّدَني اللَّه بِرَحْمَةٍ منْه وَفَضْلٍ » (١) رواه مسلم .

وَ « الْمُقَارَبَةُ » : الْقَصْدُ الَّذي لا غُلُوَّ فيهِ ولا تَقْصِيرَ . وَ « السَّدَادُ » : الاسْتِقَامَةُ وَالإِصَابَةُ ، وَ« يَتَغَمَّدني » يُلْبِسُني وَيَسْتُرُني .

قالَ الْعُلَمَاءُ : مَعْنَى الاسْتِقَامَةِ : لُزوم طَاعَةِ اللَّه تَعَالَى ، قَالُوا : وَهِيَ مِنْ جَوَامِعِ الْكَلِم ، وَهِيَ نظَامُ الأُمُورِ ، وَباللَّهِ التَّوْفيق .

الشرح

هذا الحديث يَدلُّ على أن الاستقامة على حَسَب الاستطاعة وهو قول النبي ﷺ : « قَارِبُوا وَسَدِّدُوا » أي : قاربوا مَا أمرتم به واحرصوا على أن تقربوا منه بقدر المستطاع .

وقوله « سدِّدوا » أي : سدِّدُوا على الإِصابة أي : احْرِصُوا على أن تكون أعمالكم مُصيبة للحق بقدر المُستطاع ، وذلك أن الإنسان مهما بلغ من التقوى ، فإنه لابد أن يخطئ كما جاء في الحديث عن النبي ﷺ أنه قال : « كل بني آدم خطاء وخير الخطائين التوابون » (٢) ، وقال عليه الصَّلاة والسَّلام : « لَوْ لَمْ تذْنِبُوا لَذَهَبَ اللَّه بكُمْ ثم لجَاءَ بقَوْمٍ يُذْنِبُونَ فيستغفرون اللَّه فيغفر لَهُمْ » (٣) . فالإنسان مأمور أن يُقارب ويُسدد بقدر ما يستطيع .

ثم قال : « واعْلَمُوا أنَّه لن ينجو أحَدٌ مِنكم بعَمَلِه » أي لن ينجو من النار بعمله : وذلك لأن العمل لا يبلغ ما يجبَ لله ﷻ من الشكر وما يجب على عباده من الحقوق ، ولكن يتغمد ﷻ العبد برحمته فيغفر له .

فلما قال الرسول هذا قالوا له : ولا أنت ؟! قالَ : « وَلَا أنا إلا أن يتغمدني اللَّه برحمة منه » .

فدلَّ ذلك على أن الإنسان مهما بلغ من المرتبة والولاية فإنه لن ينجو بعمله ، حتى النبي عليه الصَّلاة والسلام . لولا أن اللَّه مَنَّ عليه بأن غفر له ذنبه ما تقدم منه وما تأخر ، ما أنجاه عمله ، فإن قال قائل : هناك نُصُوص من الكِتاب والسنة تدل على أن العمل الصالح ينجي من النار ويدخل الجنة مثل قوله : ﴿ مَنْ عَمِلَ صَٰلِحًا مِّن ذَكَرٍ أَوْ أُنثَىٰ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلَنُحْيِيَنَّهُۥ حَيَوٰةً طَيِّبَةً وَلَنَجْزِيَنَّهُمْ أَجْرَهُم بِأَحْسَنِ مَا كَانُواْ يَعْمَلُونَ ﴾ [النحل: ٩٧] فكيف يجمع بين هذا وبين الحديث الذي مَر ؟ .

والجوابُ عن ذلك : أن يقال : يُجمع بينهما بأن المنفي دخولُ الإنسان الجنة بالعمل في المقابلة ، أما المُثْبت فهو أن العمل سبب وليس عوضًا ؛ فالعمل لا شك أنه سَبَب لدخول الجنة والنجاة من النَّار ، لكن ليس هو العوض وليس وحده الذي يدخل به الإنسان الجنة ، ولكن فضل اللَّه ورحمته هما السَّبب

(١) أخرجه مسلم في صفات المنافقين (٧١) ، وأحمد في مسنده (٤٨٢/٢) .
(٢) أخرجه الترمذي في السنن (٢٤٩٩) وأحمد في مسنده (١٩٨/٢) ، والسيوطي في الدر المنثور (٩١/٤) .
(٣) أخرجه مسلم في التوبة (١١) ، وأحمد في مسنده (٣٠٩/٢) ، والمنذري في الترغيب والترهيب (٩٩/٤) .

في دخول الجنة والنجاة من النار .

وفي هذا الحديث من الفوائد : أن الإنسان لا يعجب بعمله مهما كان .

عملك قليل بالنسبة لحق الله عليك .

وفيه : أنَّه ينبغي على الإنسان أن يكثر من ذكر الله دائمًا ومن السؤال بأن يتغمَّده الله برحمته .

قل دائما : « اللَّهم تغمدني برحمة منك وفضل » لأن عَملك في مرضاة الله لا يكون إلا برحمة الله ﷻ .

وفيه دليلٌ على حرص الصَّحابة ﷺ على العلم ، ولهذا استفصلوا هل هذا العموم شامل له أم لا ؟ فبين لهم ﷺ أنه شامل له .

ومن تدبر أحوال الصحابة وجد أنَّهم أحْرَص الناس على العلم ، وأنهم لا يتركون شيئًا يحتاجون إليه في أمورِ دينهم ودُنياهم إلا ابتدروه والله الموفق .

* * *

٩ - باب التفكير في عظيم مخلوقات الله تعالى وفناء الدنيا وأهوال الآخرة وسائر أمورهما وتقصير النفس وتهذيبها وحملها على الاستقامة

قال الله تعالى : ﴿ قُلْ إِنَّمَآ أَعِظُكُم بِوَٰحِدَةٍ أَن تَقُومُواْ لِلَّهِ مَثْنَىٰ وَفُرَٰدَىٰ ثُمَّ تَتَفَكَّرُواْ ﴾ [سبأ : ٤٦] .

وقال تعالى : ﴿ إِنَّ فِي خَلْقِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَٱخْتِلَٰفِ ٱلَّيْلِ وَٱلنَّهَارِ لَأَيَٰتٍ لِّأُوْلِي ٱلْأَلْبَٰبِ ﴿١٩٠﴾ ٱلَّذِينَ يَذْكُرُونَ ٱللَّهَ قِيَٰمًا وَقُعُودًا وَعَلَىٰ جُنُوبِهِمْ وَيَتَفَكَّرُونَ فِي خَلْقِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ رَبَّنَا مَا خَلَقْتَ هَٰذَا بَٰطِلًا سُبْحَٰنَكَ ﴾ الآيات [آل عمران : ١٩٠، ١٩١] . وقال الله تعالى : ﴿ أَفَلَا يَنظُرُونَ إِلَى ٱلْإِبِلِ كَيْفَ خُلِقَتْ ﴿١٧﴾ وَإِلَى ٱلسَّمَآءِ كَيْفَ رُفِعَتْ ﴿١٨﴾ وَإِلَى ٱلْجِبَالِ كَيْفَ نُصِبَتْ ﴿١٩﴾ وَإِلَى ٱلْأَرْضِ كَيْفَ سُطِحَتْ ﴿٢٠﴾ فَذَكِّرْ إِنَّمَآ أَنتَ مُذَكِّرٌ ﴾ [الغاشية : ١٧- ٢١] . وقال تعالى : ﴿ أَفَلَمْ يَسِيرُواْ فِي ٱلْأَرْضِ فَيَنظُرُواْ ﴾ [محمد : ١٠] . والآيات في الباب كثيرة .

وَمَنَ الأحَاديث الحَدِيث السَّابق : « الْكَيِّس مَنْ دَانَ نَفْسَه » .

الشرح

التَّفكُّر : هو أن الإنسان يُعْمِلُ فكره في الأمر حتى يصل فيه إلى نتيجة . قد أمر اللَّه تعالى به وحَضَّ عليه في كتابه ؛ لما يتوصل إليه الإنسان به من المَطَالب العَالية والإيمان واليقين . قال اللَّه تعالى : ﴿ قُلْ إِنَّمَآ أَعِظُكُم بِوَٰحِدَةٍ ﴾ أي : قل يا محمد للناس جميعًا : مَا أعِظُكُمْ إلَّا بواحدة أي ما أقدم لكم موعظة إلا واحدة فقط : إذا قمتم بها أدركتم المطلوب ونجوتم من المرهوب وهي : ﴿ أَن تَقُومُواْ لِلَّهِ مَثْنَىٰ وَفُرَٰدَىٰ ثُمَّ تَتَفَكَّرُواْ ﴾ [سبأ : ٤٦] . ﴿ تَقُومُواْ لِلَّهِ ﴾ مخلصين له فتقومون بطاعة اللَّه ﷻ على الوجه الذي أمرتم به مخلصين له ، ثم بعد ذلك تتفكروا فإذا فعلتم ذلك فهذه موعظة وأيُّ مَوْعِظة .

وفي هذه الآية إشارة إلى أنه ينبغي لِلإنسان إذا قام لله بعمل أن يتفكَّر ماذا فعل في هذا العمل :

هل قام به على الوَجْه المطلوب ؟ وهل قصَّر ؟ وهل زَادَ ؟ وماذا حصَلَ لَهُ من هذا العمل من طهارة القلب وَزَكَاءِ النَّفس وغير ذلك ؟

لا يكن كالذي يُؤدي أعماله الصَّالحة وكأنَّها عَادَات يَفعلها كل يوم ، بل تُفكِّر ماذا حصل لك من هذه العِبَادة ؟ وماذا أثَّرت على قلبك وعلى استقامتك ؟ .

ولنضرب لهذا مثلًا بالصَّلاة ، قال اللَّه تبارك وتعالى : ﴿ وَٱسْتَعِينُواْ بِٱلصَّبْرِ وَٱلصَّلَوٰةِ ﴾ [البقرة : ٤٥] وقال : ﴿ وَأَقِمِ ٱلصَّلَوٰةَ إِنَّ ٱلصَّلَوٰةَ تَنْهَىٰ عَنِ ٱلْفَحْشَآءِ وَٱلْمُنكَرِ ﴾ [العنكبوت : ٤٥] فلنفكِّر هل نحن إذا صلينا زِدْنا طاقة وقوة وَنشاطًا في الأعمال الصَّالحة حتى تكون الصَّلاة مُعِينَةً لنا . لننظر !! الواقع أن هذا لا يكون إلا نادِرًا باعتبار الإنسان نفسه ونادرًا باعتبار أفراد الناس . يُذْكر عن النبي عليه الصلاة والسلام : « أنه كان اذا حَزَبَه أمرٌ فَزِع إلى الصلاة »[1] أي : إذا أهمَّه وأغَمَّه فَزِع إلى الصَّلاة .

كذلك قال تعالى : ﴿ وَأَقِمِ ٱلصَّلَوٰةَ إِنَّ ٱلصَّلَوٰةَ تَنْهَىٰ عَنِ ٱلْفَحْشَآءِ وَٱلْمُنكَرِ ﴾ [العنكبوت : ٤٥] فانظر في صلاتك هل أنت إذا صلَّيتَ وجدت في نفسك كراهة للفحشاء والمنكر والمعاصي أو أن الصلاة لا تفيدك في هذا ؟

إذا عرفت هذه الأمور عرفت نتائج الأعمال الصَّالحة وكنت مُتعِظًا بما وَعَظَك به النبي ﷺ .

ومثال آخر في الزكاة : وهي المال الواجب في الأموال الزكوية يصرفه الإنسان في الجهات التي أمر اللَّه بها وقد بيَّنَ اللَّه فوائدها ، وقد قالَ اللَّه لرسوله ﷺ : ﴿ خُذْ مِنْ أَمْوَٰلِهِمْ صَدَقَةً تُطَهِّرُهُمْ وَتُزَكِّيهِم بِهَا ﴾ [التوبة : ١٠٣] فإذا أديتَ الزكاة فانظر - هل طهرَتكَ من الأخلاق الرذيلة والذنوب ، وهل زَكت مَالك ؟

كثير من الناس يُؤدِّي الزَّكاة وكأنها غُرْمٌ يُؤدِّيه وهو كَارِه لا يَشْعر بأنها تطهره ، ولا بأنها تُزكي نفسه . وعلى هذا بقية الأعمال .

فهذه موعظة عظيمة إذا اتَّعظ الإنسان بها نَفَعَتْه وصَلحت أحْواله ، نَسأل اللَّه أن يصلحَ لنا الأعمَال والأحوال .

ثم ذكر قول اللَّه تعالى : ﴿ إِنَّ فِي خَلْقِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَٱخْتِلَٰفِ ٱلَّيْلِ وَٱلنَّهَارِ لَءَايَٰتٍ لِّأُوْلِي ٱلْأَلْبَٰبِ ۝١٩٠ ٱلَّذِينَ يَذْكُرُونَ ٱللَّهَ قِيَٰمًا وَقُعُودًا وَعَلَىٰ جُنُوبِهِمْ .... ﴾ [آل عمران : ١٩٠، ١٩١] .

هذه الآية هي أول الآيات العَشر التي كان النبي ﷺ يقرؤها كلما استيقظ من صلاة الليل .

فينبغي للإنسان إذا استيقظ من صلاة الليل أن يقرأ من هذه الآية إلى آخر سورة آل عمران العشر الأخيرة .

قوله : ﴿ إِنَّ فِي خَلْقِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ﴾ من حيث الحَجْم والكبر والعظمة وغير ذلك ممَّا أَوْدَعَ اللَّه فيهما . في هذا الخلق آيات ؛ ففي النجوم آية من آيات اللَّه ، وفي الشمس آية من آيات اللَّه وكذا القمر ، وكذا الأشجار والبحار والأنهار ، وفي كل ما خلق اللَّه في السماوات والأرض آيات عظيمة تَدُل على

(١) ذكره السيوطي في الدر المنثور (٦٧/١) بلفظه ، وأبو داود في السنن (١٣١٩) ، وأحمد في مسنده (٣٨٨/٥) ، بلفظ : « إذا حزبه أمر صلى » .

كمال وحدانيته جل وعلا وعَلى كمال قدرته ، وعَلى كَمال رحمَته ، وعلى كمال حِكمتهِ .

وجَمعَ السماوات وأفْرد الأرض ؛ لأن السماوات سَبْع كما ذكرها اللَّه في عِدة آيات ﴿ ٱللَّهُ ٱلَّذِى خَلَقَ سَبْعَ سَمَٰوَٰتٍ ﴾ [الطلاق : ١٢] . ﴿ قُلْ مَن رَّبُّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ ٱلسَّبْعِ وَرَبُّ ٱلْعَرْشِ ٱلْعَظِيمِ ﴾ [المؤمنون : ٨٦] .

أما الأرض فإن اللَّه لم يذكرها في القرآن إلا مُفردة ؛ لأن المراد بها الجنس الشَّامل لجميع الأرضين ، وقد أشار اللَّه في سورة الطلاق إلى أن الأرْضين سبْع فقال : ﴿ ٱللَّهُ ٱلَّذِى خَلَقَ سَبْعَ سَمَٰوَٰتٍ وَمِنَ ٱلْأَرْضِ مِثْلَهُنَّ ﴾ [الطلاق : ١٢] أي : في العدد ليس مثلهن في الخلقة والعِظم ، بل السَّماوات أعظم من الأرض بكثير لكنهن مثل السَّماوات في العدد وقد جاءت السنة صريحة في ذلك مثل قول النبي عليه الصلاة والسلام : « مَن اقْتَطع شِبْرًا مِن الأرْض ظُلْمًا طُوِّقه يَوْم القِيامة مِن سَبْع أرْضِين » [(١)] .

﴿ وَٱخْتِلَٰفِ ٱلَّيْلِ وَٱلنَّهَارِ ﴾ يكون من وُجوه متعددة :

أولًا : من جهة أن اللَّيل مُظْلم والنَّهار مُضيء كما قال اللَّه : ﴿ وَجَعَلْنَا ٱلَّيْلَ وَٱلنَّهَارَ ءَايَتَيْنِ فَمَحَوْنَآ ءَايَةَ ٱلَّيْلِ وَجَعَلْنَآ ءَايَةَ ٱلنَّهَارِ مُبْصِرَةً ﴾ [الإسراء : ١٢] .

ثانيًا : اختلافهما في الطُّول والقِصر ، أحيانًا يَطُول الليل ، وأحْيانًا يَطول النهار ، وأحيانًا يَتَساويان كما قال تعالى : ﴿ يُولِجُ ٱلَّيْلَ فِى ٱلنَّهَارِ وَيُولِجُ ٱلنَّهَارَ فِى ٱلَّيْلِ ﴾ [الحج : ٦١] أي : يدخل هذا في هذا مرَّة فيأخذ منه ، وهذا في هذا مرة فيأخذ منه هذا من اختلافهما .

ثالثًا : اختلافهما في الحَرِّ والبُرودة تارة يكون باردًا وتارة حارًّا .

رابعًا : الخصب والجَدْب تارةً تكون الدُّنيا جدبًا وقَحْطًا وسنين ، وتارةً تكون خصبة وَرَبيعًا وَرَخاء .

خامسًا : اختلافهما في الحرب والسلم تارة تكون حَرْبًا ، وتارة تكون سلمًا ، وتارة تكون عزًّا ، وتارة تكون ذلة كما قال اللَّه : ﴿ وَتِلْكَ ٱلْأَيَّامُ نُدَاوِلُهَا بَيْنَ ٱلنَّاسِ ﴾ [آل عمران : ١٤٠] .

ومن تأمل اختلاف الليل والنهار وَجدَ فيهما من آيات اللَّه ﷻ ما يَبْهر العُقُول .

وقوله : ﴿ لَأَيَٰتٍ لِّأُو۟لِى ٱلْأَلْبَٰبِ ﴾ أي : علامات واضحات على وَحْدانية اللَّه وكمال قدرته وعزته وعلمه ورحمته وغير ذلك من آياته .

وقوله : ﴿ لِّأُو۟لِى ٱلْأَلْبَٰبِ ﴾ أي : لأصحاب الألباب : الألباب جمع لب وهو العقل وأولو الألباب أصحاب العقُول . وذلك لأن العقل لبٌّ والإنسان بلا عقل قُشور بلا لب فالأصل في الإنسان هو العقل فلهذا سُمِّيَ لبٌّ .

وأما إنسان بلا عقل فإنه قُشور .

لكن ما المراد بالعقل ؟ هل المراد به الذكاء ؟

---

(١) أخرجه البخاري في بدء الخلق (٣١٩٨) ومسلم في المساقاة (١٦١٠) وأحمد في مسنده (٤٣٢/٢) ، بلفظ : « فإنه يطوقه » .

جـ : لا ، الذكاء شيء والعقل شيء آخر ، رُبَّ ذَكِي نَابغ في ذَكَائِهِ لكن مجنون في تصرفاته ، فالعَقل : هو ما يَعْقل صاحبه عن سُوءِ تَصرف هذا العقل وإن لم يكن ذكيًا ، فإذا مَنَّ اللَّه على الإنسان بالذكاء والعقل تمت عليه النعمة وقد يكون الإنسان ذكيًا وليس بعاقل والعكس .

جميع الكفار وإن كانوا أذكياء فإنهم ليسوا عُقَلاء كما قال اللَّه : ﴿ إِنَّ شَرَّ ٱلدَّوَآبِّ عِندَ ٱللَّهِ ٱلصُّمُّ ٱلْبُكْمُ ٱلَّذِينَ لَا يَعْقِلُونَ ﴾ [الأنفال : ٢٢] .

كل إنسان يتصرَّف تَصَرفًا سيئًا فليس بعاقل ، فأولو الألباب هم أولو العُقول ، الذين يتفكرون في خلق السماوات والأرض وينظرون في الآيات ويعتبرون بها ويسْتَدلونَ - بها على من هي آيات له ، هؤلاء هم أصحاب العُقول ، وهم أصْحاب الألباب ، فاحرص على أن تتفكر في خلق السماوات والأرض مع التدبر والله الموفق .

ثم قال تعالى في وصف أولي الألباب ﴿ ٱلَّذِينَ يَذْكُرُونَ ٱللَّهَ قِيَـٰمًا وَقُعُودًا وَعَلَىٰ جُنُوبِهِمْ ﴾ أي : يذكرون اللَّه في كل حال .

وذِكْرُ اللَّه نوعان :

نوع مطلق في كل وقت : وهو الذي يشرع للإنسان دائمًا . أوْصَى النبي ﷺ رجلًا قال له : إن شَرَائع الإسلام كثرت عليَّ وإني كبير فأوصني . فقال : « لَا يَزَالُ لِسَانُكَ رَطِبًا بِذِكْرِ اللَّه » (١) .

وقالت عائشة رضي الله عنها : كان النبي ﷺ يذكر اللَّه على كل أحْيانه (٢) ، فَذِكْرُ اللَّه هنا مُطلق لا يتقيد بعدد بل هو إلى الإنسان على حسب نشاطه .

والنوع الثاني : ذكر مُقَيد بعدد أو في حال من الأحوال وهو كثير : منها أذكار الصلوات في الركوع والسجود ، وبعد السلام ، وأذكار الدخول للمنزل والخروج مِنه ، وأذكار الركوب على الدابة ، وأشياء كثيرة شرعها اللَّه لعباده من أجل أن يكونوا دَائِمًا على ذِكْرِه .

ومنها : أذكار النوم والاستيقاظ ، فالمهم أن اللَّه شَرَعَ لِعبَاده من الأذكَار ما يجعلهم إذا حافظوا عليها يذكرون اللَّه قيامًا وقُعُودًا وعلى جنوبهم .

واعلم أن الذكر أيضًا يكون على وجهين : ذكر تام وهو ما تواطأ عليه القلب واللسان .

وذكر ناقص وهو ما كان باللِّسان مع غفلة القلب وأكثر الناس - نسأل اللَّه أن يُعَامِلْنا بعَفْوه - عندهم ذكر اللَّه باللسان مع غفلة القلب فتجده يذكر اللَّه وقلبهَ يذهب يمينًا وشمالًا بدكانه وَسَيارته وفي بيْعه وشِرَائه .

لكن هو مأجور على كل حال ، ولكن الذكر التام هو الذي يكون ذكرًا لله باللسان وبالقلب .

---

(١) أخرجه الترمذي في الدعوات (٣٣٧٥) ، وأحمد في مسنده (٤/١٨٨) ، والبيهقي في السنن (٣/٣٧١) ، والحاكم في المستدرك (١/٤٩٥) .

(٢) أخرجه مسلم في الحيض (١١٧) ، والترمذي في السنن (٣٣٨٤) ، وأحمد في مسنده (٦/١٥٣) .

أحيانًا يكون الذكر بالقلب أنفع للإنسان من الذكر المجرد ، إذا تفكَّرَ الإنسان في نفسه وقلبه في آيات الله الكونية والشَّرعية بما يستطيع حصل على خير كثير .

قال : ﴿ وَيَتَفَكَّرُونَ فِي خَلْقِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ﴾ يقولُونَ : ﴿ رَبَّنَا مَا خَلَقْتَ هَٰذَا بَٰطِلًا ﴾ [آل عمران : ١٩١] يتفكرون في خلق السماوات والأرض لماذا خُلِقَتْ ؟ وكيف خلقت ؟ وما شابه ذلك ، ثم يقولون بقلوبهم وألسنتهم : ﴿ رَبَّنَا مَا خَلَقْتَ هَٰذَا بَٰطِلًا ﴾ أي : لابد أن يكون لخلق السماوات والأرض غاية محمودة يُحمد الرب عليها ﷻ .

ليس خلق السماوات والأرض باطلًا ليوجد الناس يأكلون ويشربون ويتمتعون كما تتمتع الأنعام ! لا ؛ بل هي مخلوقة لغرض عظيم .

قال الله : ﴿ وَمَا خَلَقْتُ ٱلْجِنَّ وَٱلْإِنسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ ﴾ [الذاريات : ٥٦] . ﴿ رَبَّنَا مَا خَلَقْتَ هَٰذَا بَٰطِلًا ﴾ فالذين يظنون خلق السماوات والأرض باطلًا هم أصحاب النَّار ، قال الله تبارك وتعالى : ﴿ وَمَا خَلَقْنَا ٱلسَّمَآءَ وَٱلْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا بَٰطِلًا ۚ ذَٰلِكَ ظَنُّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ ۚ فَوَيْلٌ لِّلَّذِينَ كَفَرُوا۟ مِنَ ٱلنَّارِ ﴾ [ص : ٢٧] .

فكل من ظن أن الله خلق هذه الخليقة لتوجد وتَفْنَى فقط بدون أن يكون هناك غاية ومَرْجع فإنه من الذين كفروا .

الناس لابد أن يَمُوتوا ، ولابد أن يُحاسبوا ، ولابد أن يُبعثوا ، ولابد أن يَؤُولوا إلى دارين لا ثالث لهما ؛ إمَّا الجنة أو النار ، نسأل الله أن يجعلنا وإياكم من أهل الجنة ، وأن يُعيذَنا من النَّار .

وقوله : ﴿ سُبْحَٰنَكَ ﴾ تنزيهًا لك أن تخلق هذه السماوات والأرض باطلًا . ﴿ فَقِنَا عَذَابَ ٱلنَّارِ ﴾ فيتوسلون إلى الله ﷻ بما يثنون عليه من صفات الكمال أن يقيهم عذاب النَّار ، والوقاية من عذاب النار تكون بأمرين :

الأمر الأول : أن يَعْصِمك الله من الذُّنوب ؛ لأن الذنوب هي سبب دخول النَّار .

الثاني : أن يمن الله عليك بالتوبة والإقلاع ؛ لأن الإنسان بشر لابد أن يعصي ولكن باب التَّوبة مفتوح قال الله : ﴿ قُلْ يَٰعِبَادِىَ ٱلَّذِينَ أَسْرَفُوا۟ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ لَا تَقْنَطُوا۟ مِن رَّحْمَةِ ٱللَّهِ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ يَغْفِرُ ٱلذُّنُوبَ جَمِيعًا ﴾ [الزمر : ٥٣] .

مهما عملت من المعاصي إذا رجعت إلى الله وتُبْتَ تاب الله عليك ، ولكن إذا كانت المعصية تتعلَّق بآدمي فلابد من الاستبراء بحقِّه إمَّا بوفائه أوْ باستحلاله منه ؛ لأنه حق آدمي لا يغفر بخلاف حق الله .

مع هذا لو فرض أنك لم تُدْرِك صَاحِبك ولم تعرفه أوْ لَمْ تتمكنْ من وفائها ؛ لأنها دَرَاهم كثيرة وعلم الله من نيتك أنك صَادِق في توبتك فإن الله يتحمل عنك يوم القيامة ويرضي صاحبك .

وقوله تعالى : ﴿ أَفَلَا يَنظُرُونَ إِلَى ٱلْإِبِلِ كَيْفَ خُلِقَتْ ﴿١٧﴾ وَإِلَى ٱلسَّمَآءِ كَيْفَ رُفِعَتْ ﴿١٨﴾ وَإِلَى ٱلْجِبَالِ كَيْفَ نُصِبَتْ ﴿١٩﴾ وَإِلَى ٱلْأَرْضِ كَيْفَ سُطِحَتْ ﴾ [الغاشية : ١٧- ٢٠] .

﴿ أَفَلَا يَنظُرُونَ ﴾ هذا من باب الحَثّ على النظر في هذه الأمور الأربعة ، أمَّا الإبل فتتأمل كيف خلقها الله على هذا الجسم الكبير المتحمل لحمل الأثقال كما قال تعالى : ﴿ وَتَحْمِلُ أَثْقَالَكُمْ إِلَىٰ بَلَدٍ

لَمْ تَكُونُوا بَالِغِيهِ إِلَّا بِشِقِّ الْأَنفُسِ ﴾ [النحل: ٧] .

هذه الإبل الكبيرة القوية ذَلَّلها اللَّه لعباده حتى كان الصبي يقودها إلى ما يريد مع أنها لو عتت ما استطاع الناس أن يدركوها ، ولهذا كان من المَشْروع أن يقول الإنسان إذا اسْتَوَى على ظهرها : ﴿ سُبْحَانَ الَّذِي سَخَّرَ لَنَا هَذَا وَمَا كُنَّا لَهُ مُقْرِنِينَ ﴾ [الزخرف: ١٣] أي مُطِيقين ؛ لأَنَّ قرين الإنسان من كان على مِثْله وعلى شَاكلته ، أي : لسنا مُطِيقين لها لولا أن سخرها اللَّه عَجَّلَ .

سخرها اللَّه لعباده فمنها ركوبهم ومنا يأكلون ولهم فيها منافع ومشارب فيتخذون من جُلودها بيوتًا ومن أصوافها وأوبارها وأشعارها أثاثًا ومتاعًا إلى حين إلى غير ذلك من الآيات العظيمة التي تحملها هذه الإبل .

وقوله : ﴿ وَإِلَى السَّمَاءِ كَيْفَ رُفِعَتْ ﴾ هذه السماء العظيمة رفعها اللَّه عَجَّلَ رفعًا عظيمًا باهرًا لا يستطيع أن يناله أحد من الخلق حتى الجن على قوتهم يقولون : ﴿ وَأَنَّا كُنَّا نَقْعُدُ مِنْهَا مَقَاعِدَ لِلسَّمْعِ فَمَن يَسْتَمِعِ الْآنَ يَجِدْ لَهُ شِهَابًا رَّصَدًا ﴾ (١) [الجن: ٩] .

ويقول اللَّه عَجَّلَ : ﴿ وَجَعَلْنَا السَّمَاءَ سَقْفًا مَّحْفُوظًا ﴾ (٢) [الأنبياء: ٣٢] .

هذه السماوات العظيمة كيف رَفعها اللَّه بغير عَمد ﴿ اللَّهُ الَّذِي رَفَعَ السَّمَاوَاتِ بِغَيْرِ عَمَدٍ تَرَوْنَهَا ﴾ [الرعد: ٢] أي : ترونها مرفوعة بغير عمد فاعتبروا بها .

وفي هذه السماوات من آيات اللَّه عَجَّلَ الشيء الكثير فهي رُفعت هذا الرفع العظيم وفيما بينها وبين الأرض آيات عظيمة من الأفلاك والنجوم وغيرها .

وقوله : ﴿ وَإِلَى الْجِبَالِ كَيْفَ نُصِبَتْ ﴾ هذه الجبال الصُم العظيمة الكبيرة لو أن الخلق اجتمعوا كلهم بقواهم ما كونوا مثلها .

الآن تجد المُعِدات الكبيرة إذا ، أرَادُوا أن يَردِمُوا شيئًا لا يردمون إلا شيئًا بسيطًا مع المشقة الشديدة .

هذه الجبال الصم يجب أن نتفكر فيها كيف نَصَبَها اللَّه عَجَّلَ ؟

نصبها اللَّه عَجَّلَ على حكمة عظيمة ، لأن اللَّه يجعل في هذه الجبال التي نصبها مصالح عظيمة وكبيرة !

منها أنها رَواسِيَ ترْسي الأرض وتمسكها عن الاضطراب كما قال اللَّه : ﴿ وَأَلْقَىٰ فِي الْأَرْضِ رَوَاسِيَ أَن تَمِيدَ بِكُمْ ﴾ [لقمان: ١٠] أي : أن تضطرب ، فلولا أن اللَّه رسّاها بهذه الجبال لكانت مضطربة كالسفينة على الماء في شدة الأمواج ولكن اللَّه جعلها بهذه الجبال ساكنة قارة لا تضطرب ولا تميد بأهلها .

هذه الجبال - أيضا - تقي من أهوية ورياح شديدة عاصفة في بعض الأماكن وتقي - أيضًا - من بُرودة عظيمة تأتي من ناحية القطب وتقي من حرارة شَدِيدة . وكذلك في سفوحها آية من آيات اللَّه

---

(١) قوله تعالى : ﴿ شِهَابًا رَّصَدًا ﴾ أي : معدًّا ومهيأ له ينقض عليه فيصيبه .

(٢) قوله تعالى : ﴿ سَقْفًا مَّحْفُوظًا ﴾ أي : مصونًا من الوقوع أو التغير .

ﷻ من النبات والأودية والمعادن شيء عظيم كثير ، فلهذا قال : ﴿ وَإِلَى ٱلْجِبَالِ كَيْفَ نُصِبَتْ ﴾ .

وقوله : ﴿ وَإِلَى ٱلْأَرْضِ كَيْفَ سُطِحَتْ ﴾ فجعلها الله سطحًا وسخرها للعباد وجعلها ذلولًا مُذللة بحيث لم تكن تربتها لينة جدًّا لا يستقرون عليها ولا صَلْبة جدًّا لا ينتفعون منها ، بل جعلها رخوة مسطحة مَبْسُوطة حتى ينتفع الناس على سطحها بما يسر الله لهم من الأسْباب النافعة .

وهذه الأرض المسطحة هي – أيضًا – كروية أي أنها شبه الكرة مُستَديرة من كل جانب إلا أنها مفرطحة من الناحية الشمالية والجنوبية .

ولذلك لو أن أحدًا من الناس رَكَب طَائرة متجهًا إلى المغرب على خط مستقيم لكان يخرج إلى المكان الذي أقلعت منه الطائرة ، وهذا يدل على أنها مستديرة ؛ لأن الإنسان يَصِل طرفها بطرفها .

ويدل على هذا قوله تعالى : ﴿ إِذَا ٱلسَّمَآءُ ٱنشَقَّتْ ۝ وَأَذِنَتْ لِرَبِّهَا وَحُقَّتْ ۝ وَإِذَا ٱلْأَرْضُ مُدَّتْ ۝ وَأَلْقَتْ مَا فِيهَا وَتَخَلَّتْ ﴾ [الانشقاق : ١-٤] وهذا يكون يوم القيامة فقوله : ﴿ وَإِذَا ٱلْأَرْضُ مُدَّتْ ﴾ يدل على أنها الآن ليست مَمْدُودة لكنها مَسْطُوحة ؛ يعني أنها كالسطح ؛ لأنها لكبر حَجْمها لا يتبين فيها الانحناء الذي يكون في الكرة ، فهذه الأشياء الأربعة يَحُثنا الله ﷻ بالنظر فيها بعين البَصَر وعين البصيرة حتى نستدل بها على ما تدلُّ عليه من آيات الله مِن قُدْرة وَعِلْم ورَحمة وحكمة وغير ذلك .

وقوله : ﴿ أَفَلَمْ يَسِيرُواْ فِى ٱلْأَرْضِ فَيَنظُرُواْ ﴾ ولم يكمل المؤلف الآية ؛ لأن هذا وَرَدَ في عِدة آيات من كتاب الله ، ففي عِدة آيات يَحُث الله ﷻ عباده إلى أن يسيروا في الأرض فينظروا كيف كان عاقبة الذين مَن قبلهم .

ومنها : قوله في سورة القتال : ﴿ أَفَلَمْ يَسِيرُواْ فِى ٱلْأَرْضِ فَيَنظُرُواْ كَيْفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ دَمَّرَ ٱللَّهُ عَلَيْهِمْ وَلِلْكَٰفِرِينَ أَمْثَٰلُهَا ﴾ (١) [محمد : ١٠] فأمَرَ الله بالسير وهو ينقسم إلى قسمين : سير بالقدم ، وسَيْر بالقَلْب .

١ – أما السير بالقدم : فأنْ يَسير الإنسان في الأرض على أقدامه ، أو على راحلة من بعير ، أو سَيارة ، أو طيارة أو غيرها ، حتى ينظر ماذا حصل للكافرين وماذا كانت حال الكافرين .

٢ – وأما السير بالقلب : فهذا يكون بالتأمل وبالتفكر فيما نقل من أخبارهم .

وأصح كتاب وأصْدَق كتاب وأنفع كتاب نقل أخبار الأولين كتاب الله ﷻ كما قال : ﴿ لَقَدْ كَانَ فِى قَصَصِهِمْ عِبْرَةٌ لِّأُوْلِى ٱلْأَلْبَٰبِ ﴾ [يوسف : ١١١] .

والقرآن مملوء من أخبار الأولين المكذبين للرسل والـمُؤَيدين للرسل وبَيَّنَ الله عاقبة هؤلاء وهؤلاء . ولهذا ينبغي للإنسان أن يَقرأ الآيات التي فيها أخبار من سبق ، وأن يسأل عن معناها ويستفسر حتى يكون على بصيرة من الأمر ، وكذلك – أيضًا – ما جاءت به السُّنة من أخبار الماضين فإنها جاءت

(١) قوله ﴿ دَمَّرَ ٱللَّهُ عَلَيْهِمْ ﴾ أي : أهلك ما يختص بهم من النفس والأهل والمال .

بالأحاديث الكثيرة النافعة وهي إذا صَحَّت عن النبي ﷺ فإنها أصدق منقول من الأخبار .

ثم بعد ذلك ما نقله المؤرخون ويجب أن يحذر من النقل ؛ لأن غالب كتب التاريخ ليس لها أصل ولا إسناد . وإنما هي أخبار تتناقل بين النَّاس فيجب الحذر كل الحذر منها وأن يحرص الإنسان على أن يتتبعها برفق ، ثم هذه الأخبار الواردة في غير الكتاب والسنة تنقسم إلى ثلاثة أقسام :

القسم الأوَل : ما يشهد شَرْعُنا ببطلانه ؛ فهذا يجب رده وبيان خطئه وكذبه حتى يكون النَّاس منه على بَصيرة .

القسم الثَّاني : ما أيده الكتاب والسُّنة ؛ فهذا يُقْبل بشَهادة الكتاب والسُّنة له بالصَحة .

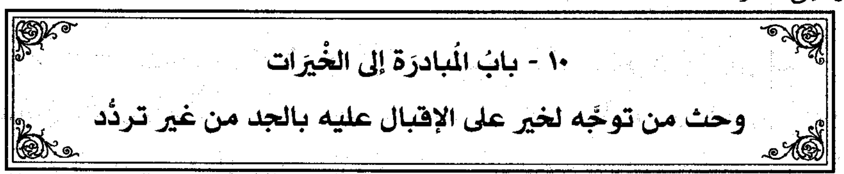
القسم الثالث : ما لم يؤيده الكتاب . ولا السُّنة : فهذا يُتوقَّف فيه ؛ لأن الأمم السابقة ليس بيننا وبينهم إسناد مُتَّصل حتى يمكن أن نعرف صحة ما نقل عنهم . ولكنه ينقل وتكون أخبارًا إسرائيلية ينظر فيها ولكن يتوقف فيها فلا تقبل ولا ترد هذا هو العدل .

ثم أشار المؤلف رَحِمَهُ اللَّهُ إلى الحديث السَّابق وهو قول الرسول ﷺ : « الكَيسُ مَنْ دَانَ نَفْسه وَعَمِلَ لِمَا بَعْدَ المَوْت ، والعَاجِز مَن أتبع نَفْسه هَوَاهَا وَتَمَنى عَلَى اللَّه الأمَاني » . والكَيس : هو الحازم الفطن المتنبه المنتهز للفُرَص ، هو الذي يَدِين نفسه أي : يُحاسبها فينظر ماذا أهمل من الوَاجِب ؟ وماذا فعل من المحرم ؟ وماذا فعل من الوَاجب ؟ وماذا ترك من المحرم ؟ حتى يصلح نفسه .

أما العاجز : فهو الذي يتبع نفسه هواها ، فما هوت نفسه أخذ به ، وما كرهت نفسه لم يأخذ به ، سواء وافق شرع اللَّه أم لا . هذا هو العَاجز ، وما أكثر اليوم الذين يُتْبِعُون أنفسهم هواها ولا يُبالون بمخالفة الكتاب والسُّنة نسأل اللَّه لنا ولهم الهداية .

وقوله : « وتمنى عَلَى اللَّه الأمَاني » فيقول : سَيُغفر لي وسوف أستقيم فيما بعد ، وسوف أقوم بالوَاجب فيما بعد ، وسَوف أترك هذا فيما بعد ، أو يقول : اللَّه يهديني ، وإذا نصحته قال : اسأل اللَّه لي الهداية ، وما أشْبهه ؛ هذا عاجز .

والكَيس : هو الذي يعمل بحزم وجد ويُحَاسِب نفسه ، ويكون عنده قوة في أمر اللَّه وفي دين اللَّه ؛ حتى يتمكن من ضَبْط نفسه ، وإلا فإن اللَّه يقول في كتابه عن زوجة العزيز : ﴿ وَمَآ أُبَرِّئُ نَفْسِيٓ إِنَّ ٱلنَّفْسَ لَأَمَّارَةُۢ بِٱلسُّوٓءِ إِلَّا مَا رَحِمَ رَبِّيٓ ﴾ [يوسف : ٥٣] نسأل اللَّه أن يرحمنا وإياكم برحمته ويُعِيننا على ذكره وشكره وحُسْن عبادته .



١٠ - باب المُبادرَة إلى الخيْرَات
وحث من توجّه لخير على الإقبال عليه بالجد من غير تردُّد

قال الله تعالى : ﴿ فَٱسْتَبِقُوا۟ ٱلْخَيْرَٰتِ ﴾ [البقرة: ١٤٨] . وقال تعالى : ﴿ وَسَارِعُوٓا۟ إِلَىٰ مَغْفِرَةٍ مِّن رَّبِّكُمْ وَجَنَّةٍ عَرْضُهَا ٱلسَّمَٰوَٰتُ وَٱلْأَرْضُ أُعِدَّتْ لِلْمُتَّقِينَ ﴾ [آل عمران: ١٣٣] .

الشرح

قال المؤلف - رحمه الله تعالى - : (باب المبادرة إلى الخيرات وحث من توجّه لخير على الإقبال عليه بالجد من غير تردد) وهذا العنوان تضمن أمرين : الأول : المبادرة والمسارعة إلى الخير ، والثاني : أن الإنسان إذا عزم على الأمر وهو خير فليمض فيه ولا يتردد .

أما الأول : فهو المبادرة ، وهي ضد التواني والكسل ، وكم من إنسان توانى وكسل ففاته خير كثير ، ولهذا قال النبي ﷺ : « المؤمنُ القويُّ خيرٌ وأحبُّ إلَى اللهِ مِنَ المُؤمِن الضعيف ، وفِي كُل خَير ، احْرِصْ عَلَى مَا يَنْفَعُكَ واستعِنْ باللهِ ولاَ تَعْجِزْ » (١) .

فالإنسان ينبغي له أن يسارع في الخيرات ، كلما ذكر له شيء من الخير بادر إليه ، فمن ذلك الصلاة ، والصدقة ، والصوم ، والحج ، وبر الوالدين ، وصلة الأرحام ، إلى غير ذلك من مسائل الخير ، التي ينبغي المسارعة إليها .

فالإنسان ربما يتوانى في الشيء ولا يقدر عليه بعد ذلك ، إما بموت ، أو مرض ، أو فوات ، أو غير هذا ، وقد جاء في الحديث عن النبي ﷺ : « إذَا أرَادَ أحَدُكُمْ الحجَّ فليتعجل ؛ فإنهُ قَدْ يَمْرَض المَرِيضُ ، وتَضلُّ الراحِلة ، وتعرض الحَاجَة » (٢) .

فقد يعرض له شيء يمنعه من الفعل فسارع إلى الخير ولا تتوانى .

ثم ذكر المؤلف قول الله تبارك وتعالى : ﴿ فَٱسْتَبِقُوا۟ ٱلْخَيْرَٰتِ ﴾ واستبقوها يعني اسبقوا إليها ، وهو أبلغ من سابقوا إلى الخيرات ، فالاستباق معناه أن الإنسان يسبق إلى الخير ، ويكون من أول الناس في الخير ، ومن ذلك المسابقة في الصفوف في الصلاة ؛ فإن النبي ﷺ قال : « خيرُ صفوفِ الرجالِ أوَّلُها ، وشرُّهَا آخِرُها ، وخيرُ صفوفِ النساءِ آخرُها وشرُّها أولُها » (٣) .

ورأى النبي ﷺ أقوامًا في مؤخرة المسجد لم يسبقوا ولم يتقدموا ، فقال : « لا يزالُ قومٌ يتأخرونَ حتَّى يؤخِّرَهم الله ﷻ » (٤) . فانتهز الفرصة واسبق إلى الخير .

---

(١) أخرجه مسلم في القدر (٣٤) وابن ماجه في المقدمة (٧٩) وأحمد في مسنده (٢/٣٧٠) .
(٢) أخرجه أبو داود في السنن (١٧٣٣) وأحمد في مسنده (١/٢١٤) ، والحاكم في المستدرك (١/٤٤٨) .
(٣) أخرجه مسلم في الصلاة (١٣٢) وأبو داود في الصلاة (٦٧٨) والترمذي في الصلاة (٢٢٤) .
(٤) أخرجه مسلم في الصلاة (١٣٠) وابن ماجه في الصلاة (٩٧٨) وأبو داود في الصلاة (٦٧٩) وأحمد في مسنده (٣/٣٤) .

وقال تعالى : ﴿ وَسَارِعُوٓاْ إِلَىٰ مَغْفِرَةٍ مِّن رَّبِّكُمْ وَجَنَّةٍ عَرْضُهَا ٱلسَّمَٰوَٰتُ وَٱلْأَرْضُ أُعِدَّتْ لِلْمُتَّقِينَ ﴿١٣٣﴾ ٱلَّذِينَ يُنفِقُونَ فِى ٱلسَّرَّآءِ وَٱلضَّرَّآءِ .. ﴾ [آل عمران : ١٣٣، ١٣٤] قال : سارعوا إلى المغفرة والجنة .

أما المسارعة إلى المغفرة : فأن يسارع الإنسان إلى ما فيه مغفرة الذنوب ، من الاستغفار لله عَزَّ وَجَلَّ ، كقول : أستغفر الله ، أو : اللهم اغفر لي ، أو : اللهم إني أستغفرك ، وما أشبه ذلك ، وكذلك أيضًا الإسراع إلى ما فيه المغفرة مثل : الوضوء ، والصلوات الخمس ، والجمعة إلى الجمعة ، ورمضان إلى رمضان .

فإن الإنسان إذا توضأ فأسبغ الوضوء ثم قال : أشهد ألا إله إلا الله وأشهد أن محمدًا عبده ورسوله ، اللهم اجعلني من التوابين واجعلني من المتطهرين ؛ فإنه تفتح له أبواب الجنة الثمانية يدخل من أيها شاء (١) ، وكذلك إذا توضأ فإن خطاياه تخرج من أعضاء وضوئه مع آخر قطرة من قطر الماء (٢) .

فهذه من أسباب المغفرة ، ومن أسباب المغفرة أيضًا : الصلوات الخمس كفارة لما بينهن ما اجتنبت الكبائر الجمعة إلى الجمعة كفارة لما بينهن ما اجتنبت الكبائر ، رمضان إلى رمضان كفارة لما بينهما ما اجتنبت الكبائر (٣) ، فليسارع الإنسان إلى أسباب المغفرة .

الثاني : ﴿ وَجَنَّةٍ عَرْضُهَا ٱلسَّمَٰوَٰتُ وَٱلْأَرْضُ ﴾ ، وهذا يكون بفعل المأمورات ، أي أن تسارع للجنة بالعمل لها ، ولا عمل للجنة إلا العمل الصالح ، هذا هو الذي يكون سببًا لدخول الجنة فسارع إليه .

ثم بين الله هذه الجنة ، بأن عرضها السماوات والأرض ، وهذا يدل على سعتها وعظمها ، وأنه لا يقدر قدرها إلا الله عَزَّ وَجَلَّ فسارع إلى هذه الجنة بفعل ما يوصلك إليها من الأعمال الصالحة ثم قال الله عَزَّ وَجَلَّ ﴿ أُعِدَّتْ لِلْمُتَّقِينَ ﴾ يعني هُيئت لهم والذي أعدها لهم هو الله عَزَّ وَجَلَّ ، كما جاء في الحديث القدسي : « أعددت لعبادي الصالحين ما لا عين رأت ، ولا أذن سمعت ، ولا خطر على قلب بشر » (٤) .

ثم من هم المتقون ؟ قال الله تعالى : ﴿ ٱلَّذِينَ يُنفِقُونَ فِى ٱلسَّرَّآءِ وَٱلضَّرَّآءِ وَٱلْكَٰظِمِينَ ٱلْغَيْظَ وَٱلْعَافِينَ عَنِ ٱلنَّاسِ ۗ وَٱللَّهُ يُحِبُّ ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿١٣٤﴾ وَٱلَّذِينَ إِذَا فَعَلُواْ فَٰحِشَةً أَوْ ظَلَمُوٓاْ أَنفُسَهُمْ ذَكَرُواْ ٱللَّهَ فَٱسْتَغْفَرُواْ لِذُنُوبِهِمْ وَمَن يَغْفِرُ ٱلذُّنُوبَ إِلَّا ٱللَّهُ وَلَمْ يُصِرُّواْ عَلَىٰ مَا فَعَلُواْ وَهُمْ يَعْلَمُونَ ﴿١٣٥﴾ أُوْلَٰٓئِكَ جَزَآؤُهُم مَّغْفِرَةٌ مِّن رَّبِّهِمْ وَجَنَّٰتٌ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَا ۚ وَنِعْمَ أَجْرُ ٱلْعَٰمِلِينَ ﴾ [آل عمران : ١٣٤- ١٣٦] .

هؤلاء هم المتقون : ﴿ ٱلَّذِينَ يُنفِقُونَ فِى ٱلسَّرَّآءِ وَٱلضَّرَّآءِ ﴾ يعني يبذلون أموالهم ﴿ فِى ٱلسَّرَّآءِ ﴾ يعني في حال الرخاء ، وكثرة المال والسرور والانبساط ، ﴿ وَٱلضَّرَّآءِ ﴾ في حال الضيق والانقباض .

---

(١) دليل ذلك ما أخرجه الترمذي في السنن (٦٠٣) والنسائي في السنن (٩٣/١) وأحمد في مسنده (٢٦٥/٣) ، وابن ماجه في السنن (٤٦٩) .

(٢) يدل على ذلك ما أخرجه مسلم في الطهارة (٣٢) والترمذي في الطهارة (٣٢) وأحمد في مسنده (٣٠٣/٢) .

(٣) ودليل ذلك ما أخرجه مسلم في الطهارة (١٥ ، ١٦) والترمذي في السنن (٢١٤) وابن ماجه في السنن (٥٩٨) وأحمد في مسنده (٣٥٩/٢) .

(٤) أخرجه البخاري في تفسير القرآن (٤٧٧٩) ومسلم في الجنة وصفة نعيمها (٢ ، ٣) وأحمد في مسنده (٤٦٦/٢) .

ولكن لم يبين اللّه تعالى هنا مقدار ما ينفقون ، ولكنه بينه في آيات كثيرة ، فقال تعالى : ﴿ وَيَسْـَٔلُونَكَ مَاذَا يُنفِقُونَ قُلِ ٱلْعَفْوَ ﴾ [البقرة : ٢١٩] العفو : يعني ما زاد عن حاجاتكم وضروراتكم فأنفقوه ، وقال تعالى : ﴿ وَٱلَّذِينَ إِذَآ أَنفَقُوا۟ لَمْ يُسْرِفُوا۟ وَلَمْ يَقْتُرُوا۟ وَكَانَ بَيْنَ ذَٰلِكَ قَوَامًا ﴾ [الفرقان : ٦٧] فهم ينفقون إنفاقًا ليس فيه إسراف ولا تقتير ، وينفقون أيضًا العفو ، أي ما عفا وزاد عن حاجاتهم وضروراتهم ﴿ وَٱلْكَـٰظِمِينَ ٱلْغَيْظَ ﴾ أي الذين إذا اغتاظوا - أي اشتد غضبهم - كظموا غيظهم ، ولم ينفذوه وصبروا على هذا الكظم ، وهذا الكظم من أشدِّ ما يكون على النفس ، كما قال النبي ﷺ : « ليس الشديد بالصرعة ؛ ولكن الشديد الذي يملك نفسه عند الغضب »(١) الصُّرعة : يعني الذي يصرع الناس ، أي يغلبهم في المصارعة ، فليس هذا هو الشديد ، ولكن الشديد هو الذي يملك نفسه عند الغضب ؛ لأن الإنسان إذا غضب ثارت نفسه ، فانتفخت أوداجه واحمرَّت عيناه ، وصار يحب أن ينتقم ، فإذا كظم الغيظ وهدأ ، فإن ذلك من أسباب دخول الجنة .

واعلم أن الغضب جمرة يلقيها الشيطان في قلب ابن آدم ، إذا أتاه ما يهزه ، ولكن النبي ﷺ أعلمنا بما يطفئ هذه الجمرة ، فمن ذلك : أن يتعوذ الإنسان بالله من الشيطان الرجيم ، فإذا أحس بالغضب وأن الغضب سيغلبه قال : أعوذ بالله من الشيطان الرجيم(٢) ، ومنها : أن يجلس إن كان قائمًا ، ويضطجع إن كان قاعدًا(٣) . يعني يضعْ نفسه ، وينزلها من الأعلى إلى الأدنى ، فإن كان قائمًا جلس ، وإن كان جالسًا اضطجع ، ومنها أن يتوضأ بتطهير أعضائه الأربعة ؛ الوجه واليدين والرأس والرجلين ، فإن هذا يطفئ الغضب(٤) ، فإذا أحسست بالغضب فاستعمل هذا الذي أرشدك إليه النبي ﷺ حتى يزول عنك ، وإلا فكم من إنسان أدى به غضبه إلى مفارقة أهله ، فما أكثر الذين يقولون : أنا غضبت على زوجتي فطلقتها ثلاثًا ، وربما يغضب ويضرب أولاده ضربًا مبرحًا ، وربما يغضب ويكسر أوانيه ، أو يشق ثيابه ، أو ما أشبه ذلك مما يثيره الغضب ، ولهذا قال تعالى : ﴿ وَٱلْكَـٰظِمِينَ ٱلْغَيْظَ ﴾ مدحهم لأنهم ملكوا أنفسهم عند سَورة الغضب(٥) .

﴿ وَٱلْعَافِينَ عَنِ ٱلنَّاسِ ﴾ يعني الذين إذا أساء الناس إليهم عفوا عنهم ، فإن من عفا وأصلح فأجره على اللّه ، وقد أطلق اللّه العفو هنا ، ولكنه بين في قوله تعالى : ﴿ فَمَنْ عَفَا وَأَصْلَحَ فَأَجْرُهُۥ عَلَى ٱللَّهِ ﴾ [الشورى : ٤٠] أن العفو لا يكون خيرًا إلا إذا كان فيه إصلاح ، فإذا أساء اليك شخص معروف بالإساءة والتمرد والطغيان على

---

(١) أخرجه البخاري في الأدب (٦١١٤) ومسلم في البر والصلة (١٠٧) وأحمد في مسنده (٢٣٦/٢) ، والبيهقي في السنن (٣٤١/١٠) .

(٢) ودليل ذلك ما أخرجه البخاري في الأدب (٦١١٥) ومسلم في البر والصلة (١٠٩ ، ١١٠) وأبو داود في السنن (٤٧٨٠) .

(٣) ويدل على ذلك ما أخرجه أبو داود في الأدب (٤٧٨٢) وأحمد في مسنده (١٥٢/٥) ، وابن حبان في صحيحة (١٩٧٣) .

(٤) ويدل على ذلك ما أخرجه أبو داود في الأدب (٤٧٨٤) وأحمد في مسنده (٢٢٦/٤) ، والطبراني في الكبير (١٦٧/١٧) ، والبغوي في شرح السنة (١٦١/١٣) .

(٥) سورة الغضب : أي شدته (المعجم العربي الأساسي . مادة سور) .

عباد الله ، فالأفضل ألا تعفو عنه ، وأن تأخذ بحقك ؛ لأنك إذا عفوت ازداد شره ، أما إذا كان الإنسان الذي أخطأ عليك قليل الخطأ ، قليل العدوان ، لكن أمر حصل على سبيل الندرة ، فهنا الأفضل أن تعفو ، ومن ذلك حوادث السيارات اليوم التي كثرت ، فإن بعض الناس يتسرع ويعفو عن الجاني الذي حصل منه الحادث ، وهذا ليست بالأحسن ، الأحسن أن تتأمل وتنظر : هل هذا السائق متهور ومستهتر ، لا يبالي بعباد الله ولا يبالي بالأنظمة ، فهذا لا ترحمه ، خذ بحقك منه كاملًا ، أما إذا كان إنسانًا معروفًا بالتأني ، وخشية الله ، والبعد عن أذية الخلق ، والتزام النظام ، ولكن هذا أمر حصل من فوات الحرص ، فالعفو هنا أفضل ؛ لأن الله قال : ﴿ فَمَنْ عَفَا وَأَصْلَحَ فَأَجْرُهُۥ عَلَى ٱللَّهِ ﴾ فلا بد من مراعاة الإصلاح عند العفو .

ثم بعد أن قال الله تعالى : ﴿ وَسَارِعُوٓا۟ إِلَىٰ مَغْفِرَةٍ مِّن رَّبِّكُمْ وَجَنَّةٍ عَرْضُهَا ٱلسَّمَٰوَٰتُ وَٱلْأَرْضُ أُعِدَّتْ لِلْمُتَّقِينَ ۝ ٱلَّذِينَ يُنفِقُونَ فِى ٱلسَّرَّآءِ وَٱلضَّرَّآءِ وَٱلْكَٰظِمِينَ ٱلْغَيْظَ وَٱلْعَافِينَ عَنِ ٱلنَّاسِ ﴾ قال تعالى : ﴿ وَٱللَّهُ يُحِبُّ ٱلْمُحْسِنِينَ ﴾ [آل عمران : ١٣٣، ١٣٤] ومحبة الله ﷻ للعبد هي غاية كل إنسان ؛ كل إنسان مؤمن فإن غايته أن يحبه الله ﷻ ، وهي المقصود لكل مؤمن ، لقول الله تعالى : ﴿ قُلْ إِن كُنتُمْ تُحِبُّونَ ٱللَّهَ فَٱتَّبِعُونِى يُحْبِبْكُمُ ٱللَّهُ ﴾ [آل عمران : ٣١] ولم يقل : اتبعوني تصدقوا فيما قلتم ، بل عدل عن هذا إلى إلى قوله ﴿ يُحْبِبْكُمُ ٱللَّهُ ﴾ لأن الشأن كل الشأن أن يحبك الله ﷻ ، أسأل الله أن يجعلني وإياكم من أحبابه .

وأما المحسنون في قوله : ﴿ وَٱللَّهُ يُحِبُّ ٱلْمُحْسِنِينَ ﴾ فالمراد بهم المحسنون في عبادة الله والمحسنون إلى عباد الله .

والمحسنون في عبادة الله ، بين رسول الله ﷺ مرتبتهم في قوله ، حين سأله جبريل عن الإحسان قال : « أن تعبد الله كأنك تراه ، فإن لم تكن تراه فإنه يراك » (١) يعني أن تعبد الله ﷻ بقلب حاضر كأنك ترى ربك تريد الوصول إليه ، فإن لم تفعل فاعلم أن الله يراك ، فاعبده خوفًا وخشية ، وهذه المرتبة دون المرتبة الأولى ؛ فالمرتبة الأولى : أن تعبد الله طلبًا ومحبة وشوقًا . والثانية : أن تعبده هربًا وخوفًا وخشية .

أما الإحسان إلى عباد الله : فأن تعاملهم بما هو أحسن ، في الكلام ، والأفعال ، والبذل ، وكف الأذى وغير ذلك ، حتى في القول ؛ فإنك تعاملهم بالأحسن ، قال الله تعالى : ﴿ وَإِذَا حُيِّيتُم بِتَحِيَّةٍ فَحَيُّوا۟ بِأَحْسَنَ مِنْهَآ أَوْ رُدُّوهَآ ﴾ [النساء : ٨٦] يعني إن لم تفعلوا فتردوا بأحسن منها ، فلا أقل من أن تردوها ، ولهذا قال كثير من العلماء : إذا قال المسلم : السلام عليكم ورحمة الله ، قل : السلام عليكم ورحمة الله . هذا أدنى شيء ، فإن زدت : « وبركاته » فهو أفضل ، لأن الله قال بأحسن منها ، فبدأ بالأحسن (٢) ، ثم قال : ﴿ أَوْ رُدُّوهَآ ﴾ كذلك إذا سلم عليك إنسان بصوت واضح بين ، ترد عليه بصوت واضح بين ، على الأقل ، كثير من الناس أو بعض الناس إذا سلمت عليه ردَّ السلام بأنفه ، حتى إنك تكاد لا تسمعه في ردِّ السلام ، وهذا غلط ؛ لأن هذا خلاف ما سلِّم عليك به ، يسلم عليك بصوت واضح ثم ترد بأنفك !! هذا خلاف ما أمر الله به .

(١) أخرجه البخاري في الإيمان (٥٠) ومسلم في الإيمان (٥٩) وأبو داود في السنن (٤٦٩٥) وأحمد في مسنده (٤٢٦/٢) .
(٢) انظر في ذلك : تفسير القرطبي (٢٢٩/٥ ، ٢٣٠) سبل السلام (١٥٦/٤) ، فقه الكتاب والسنة (١٣٧٧/٣ ، ١٣٧٨) .

كذلك الإحسان بالفعل مثل معونة الناس ، ومساعدتهم في أمورهم . كلما ساعدت إنسانًا فقد أحسنت إليه ، مساعدة بالمال ، بالصدقة ، بالهدية ، بالهبة وما أشبه ذلك ، هذا من الإحسان .

ومن الإحسان أيضًا : أنك إذا رأيت أخاك على ذنب أن تبين له ذلك وتنهاه عنه ؛ لأن هذا من أعظم الإحسان إليه ، قال النبي عليه الصلاة والسلام : « انصر أخاك ظالمًا أو مظلومًا » قالوا : يا رسول الله ، هذا المظلوم فكيف ننصر الظالم ؟ قال : « أن تمنعه من الظلم » (١) فإن منعك إياه من الظلم نصر وإحسان إليه ، والمهم أنه ينبغي لك في معاملة الناس أن تستحضر هذه الآية ﴿ وَٱللَّهُ يُحِبُّ ٱلْمُحْسِنِينَ ﴾ فتحسن إليهم بقدر ما تستطيع .

﴿ وَٱلَّذِينَ إِذَا فَعَلُوا۟ فَٰحِشَةً أَوْ ظَلَمُوٓا۟ أَنفُسَهُمْ ذَكَرُوا۟ ٱللَّهَ فَٱسْتَغْفَرُوا۟ لِذُنُوبِهِمْ ﴾ [آل عمران : ١٣٥] .

﴿ وَٱلَّذِينَ إِذَا فَعَلُوا۟ فَٰحِشَةً ﴾ والفاحشة ما يستفحش من الذنوب ، وهي كبائر الذنوب : مثل الزنا ، وشرب الخمر ، وقتل النفس وما أشبهها ، كل ما يستفحش فهو فاحشة ﴿ أَوْ ظَلَمُوٓا۟ أَنفُسَهُمْ ﴾ بما دون الفاحشة من المعاصي الصغار ﴿ ذَكَرُوا۟ ٱللَّهَ ﴾ أي ذكروا عظمته وذكروا عقابه ، ثم ذكروا أيضًا رحمته وقبوله للتوبة وثوابها ؛ فهم يذكرون الله من وجهين :

الوجه الأول : من حيث العظمة والعقوبة والسلطان العظيم ، فيوجلون (٢) ، ويخجلون ، ويستغفرون .

والثاني : من حيث الرحمة وقبول التوبة ، فيرغبون في التوبة ويستغفرون الله ، ولهذا قال : ﴿ ذَكَرُوا۟ ٱللَّهَ فَٱسْتَغْفَرُوا۟ لِذُنُوبِهِمْ ﴾ ومن أفضل ما يُستغفر به سيد الاستغفار : « اللهم أنت ربي لا إله إلا أنت ، خلقتني وأنا عبدك ، وأنا على عهدك ووعدك ما استطعت ، أعوذ بك من شر ما صنعت ، أبوء لك بنعمتك علي ، وأبوء بذنبي فاغفر لي ، فإنه لا يغفر الذنوب إلا أنت » (٣) .

قال الله تعالى : ﴿ وَمَن يَغْفِرُ ٱلذُّنُوبَ إِلَّا ٱللَّهُ ﴾ [آل عمران : ١٣٥] يعني لا أحد يغفر الذنوب إلا الله ﷻ ، لو أن الأمة كلها من أولها إلى آخرها ، والجنَّة والملائكة اجتمعوا على أن يغفروا لك ذنبًا واحدًا ماغفروه ؛ لأنه لا يغفر الذنوب إلا الله ﷻ . ولكننا نسأل الله المغفرة ، لنا ولإخواننا الذين سبقونا بالإيمان ، وأما أن يكون بيدنا أن نغفر ، فلا يغفر الذنوب إلا الله .

قال تعالى : ﴿ وَلَمْ يُصِرُّوا۟ عَلَىٰ مَا فَعَلُوا۟ وَهُمْ يَعْلَمُونَ ﴾ [آل عمران : ١٣٥] يعني لم يستمروا على معاصيهم وظلمهم وهم يعلمون أنها معاصي وظلم ، وفي هذا دليل على أن الإصرار مع العلم أمره عظيم ، حتى في صغائر الذنوب ، ولهذا ذهب كثير من العلماء ، إلى أن الإنسان إذا أصرَّ ولو على الصغيرة ، صارت الصغيرة كبيرة . ومن ذلك ما يفعله جهلة الناس اليوم من حلق اللحية ، تجدهم يحلقون اللحية ويصرون على ذلك ، ولا يرونها إلا زينًا وجمالًا ، والحقيقة أنها شين وأنها قبح ؛ لأن

---

(١) أخرجه البخاري في الإكراه (٦٩٥٢) والترمذي في السنن (٢٢٨٢) وأحمد في مسنده (٣/٩٩) .

(٢) وجل : أي خاف وفزع (المعجم العربي الأساسي ص ١٢٩٢) .

(٣) أخرجه البخاري في الدعوات (٦٣٠٦) وابن ماجه في السنن (٣٨٧٢) وأحمد في مسنده (٤/١٢٥) .

كل شيء ينتج عن المعصية فلا خير فيه ، بل هو قبح ، وهؤلاء الذين يصرون على هذه المعصية وإن كانت صغيرة ، أخطأوا ؛ لأنها بالإصرار تنقلب كبيرة والعياذ بالله ، لأن الإنسان لا يبالي ، تجده كل يوم ، كلما أراد أن يخرج إلى السوق أو إلى عمله يذهب وينظر في المرآة ، إذا وجد شعرة واحدة قد برزت تجده يسارع إلى حلقها وإزالتها ، نسأل الله العافية ، وهذا ولا شك أنه معصية للرسول عليه الصلاة والسلام ، وإن الإنسان ليخشى عليه من هذا الذنب أن يتدرج به الشيطان إلى ذنوب أكبر وأعظم .

قال الله تعالى : ﴿ أُوْلَٰٓئِكَ جَزَآؤُهُم مَّغۡفِرَةٞ مِّن رَّبِّهِمۡ وَجَنَّٰتٞ تَجۡرِي مِن تَحۡتِهَا ٱلۡأَنۡهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَاۚ وَنِعۡمَ أَجۡرُ ٱلۡعَٰمِلِينَ ﴾ [آل عمران : ١٣٦] اللهم اجعلنا من هؤلاء العاملين واجعل جزاءنا ذلك يارب العالمين .

* * *

وأما الأحاديث :

٨٧ - فالأوَّل : عَنْ أبي هُرَيرَة ﷺ أن رسول الله ﷺ قال : « بَادِروا بالأعْمَالِ فِتَنًا كَقِطَعِ اللَّيلِ المُظْلِمِ يُصْبح الرَّجل مُؤْمنًا وَيُمْسِي كَافرًا ، وَيُمسي مُؤْمنًا وَيُصبح كَافرًا ، يَبيع دِينَه بعَرَضٍ منَ الدُّنْيا » [١] رواه مسلم .

الشرح

قال المؤلف رحمه الله فيما رواه عن أبي هريرة ﷺ ، أن النبي ﷺ قال : « بادروا بالأعمال » وبادروا يعني أسرعوا إليها والمراد : الأعمال الصالحة وهي كل عمل يعمله الإنسان خالصًا لله موافقًا فيه رسول الله ﷺ ، يعني أن العمل الصالح ما بني على أمرين : الإخلاص لله ، والمتابعة لرسول الله ﷺ ، وهذا هو تحقيق شهادة ألا إله إلا الله ، وأن محمدًا رسول الله ، فالعمل الذي ليس بخالص ليس بصالح ، لو قام الإنسان يصلي ولكنه يرائي الناس بصلاته ؛ فإن عمله لا يقبل حتى لو أتى بشروط الصلاة ، وأركانها ، وواجباتها ، وسننها ، وطمأنينتها ، وأصلح إصلاحًا تامًّا في الظاهر ، لكنها لا تقبل منه ؛ لأنها خالطها الشرك ، والذي يشرك بالله معه غيره لا يقبل الله عمله ، كما في الحديث الصحيح عن أبي هريرة ﷺ أن النبي ﷺ قال : قال الله تعالى : « أنا أغنى الشركاء عن الشرك » يعني إذا أحد شاركني فأنا غني عن شركه ، « من عمل عملًا أشرك فيه معي غيري تركته وشركه » [٢] .

كذلك أيضًا : لو أن الإنسان أخلص في عمله ، لكنه أتى ببدعة ما شرعها الرسول عليه الصلاة والسلام ؛ فإن عمله لا يقبل حتى لو كان مخلصًا ، حتى لو كان يبكي من الخشوع ؛ فإنه لا ينفعه ذلك ، لأن البدعة وصفها النبي ﷺ بأنها ضلالة ، فقال : « فإن كلَّ محدثة بدعة ، وكل بدعة ضلالة » [٣] .

---

(١) أخرجه مسلم في الإيمان (١٨٦) والترمذي في الفتن (٢١٩٥) وأحمد في مسنده (٣٠٤/٢ ، ٥٢٣) .

(٢) أخرجه مسلم في الزهد (٤٦ ، ٦٠) وابن ماجه في الزهد (٤٢٠٢) وأحمد في مسنده (٤٦٦/٣) .

(٣) أخرجه الترمذي في العلم (٢٦٧٦) وأبو داود في السنة (٤٦٠٧) وأحمد في مسنده (١٢٦/٤) والطبراني في الكبير (٢٤٨/١٨) .

فقوله ﷺ : « بادروا بالأعمال » يعني بالأعمال الصالحة ، وهي كل عمل كان خالصًا لله ، صوابًا على شريعة الله ، هذا هو العمل الصالح ، ثم قال : « فتنًا كقطع الليل المظلم » أخبر أنه ستوجد فتن كقطع الليل المظلم ، يعني أنها مدلهمة مظلمة لا يرى فيها النور والعياذ بالله ، ولا يدري الإنسان أين يذهب ، يكون حائرًا ، ما يدري أين المخرج ، أسأل الله وإياكم أن يعيذنا من الفتن .

والفتن منها ما يكون من الشبهات ، وفتن تكون من الشهوات :

ففتن الشبهات : كل فتنة مبنية على الجهل فهي فتنة شبهة ، ومن ذلك : ما حصل من أهل البدع الذين ابتدعوا في عقائدهم ما ليس من شريعة الله ، أو أهل البدع الذين ابتدعوا في أقوالهم وأفعالهم ما ليس من شريعة الله ، فإن الإنسان قد يفتن - والعياذ بالله - فيضل عن الحق بسبب الشبهة .

ومن ذلك أيضًا : ما يحصل في المعاملات من الأمور المشتبهة التي هي واضحة في قلب الموقن ، مشتبهة في قلب الضال - والعياذ بالله - ، تجده يتعامل معاملة تبين أنها محرمة ، لكن لما على قلبه من رين الذنوب- نسأل الله العافية- يشتبه عليه الأمر ، فيزين له سوء عمله ، ويظنه حسنًا ، وقد قال الله في هؤلاء : ﴿ قُلْ هَلْ نُنَبِّئُكُم بِٱلْأَخْسَرِينَ أَعْمَٰلًا ۝ ٱلَّذِينَ ضَلَّ سَعْيُهُمْ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَهُمْ يَحْسَبُونَ أَنَّهُمْ يُحْسِنُونَ صُنْعًا ﴾ [الكهف : ١٠٣، ١٠٤] . فهؤلاء هم الأخسرون - والعياذ بالله . إذن الفتن تكون من الشبهات .

وتكون أيضًا من الشهوات : بمعنى أن الإنسان يعرف أن هذا حرام ، ولكن لأن نفسه تدعوه إليه فلا يبالي ، بل يفعل الحرام ، يعلم أن هذا واجب ، لكن نفسه تدعوه للكسل ؛ فيترك هذا الواجب ، هذه فتنة شهوة ، يعني فتنة إرادة ، ومن ذلك أيضًا- بل من أعظم ما يكون - : فتنة شهوة الزنا أو اللواط والعياذ بالله ، وهذه من أضر ما يكون على هذه الأمة ، قال النبي عليه الصلاة والسلام : « ما تركت بعدي فتنة أضر على الرجال من النساء » [(١)] ، وقال : « اتقوا النساء فإنما كانت فتنة بني إسرائيل في النساء » [(٢)] ، ولدينا الآن - وفي مجتمعنا - من يدعوا إلى هذه الرذيلة - والعياذ بالله - بأساليب ملتوية ، يلتوون فيها بأسماء لا تمت إلى ما يقولون بصلة ، لكنها وسيلة إلى ما يريدون ، من تهتك لستر المرأة ، وخروجها من بيتها لتشارك الرجل في أعماله ، ويحصل بذلك الشر والبلاء ، ولكن نسأل الله أن يجعل كيدهم في نحورهم ، وأن يسلط حكامنا عليهم بإبعادهم عن كل ما يكون سببًا للشر والفساد في هذه البلاد ، ونسأل الله ﷻ أن يوفق لحكامنا بطانة صالحة تدلهم على الخير وتحثهم عليه .

إن فتنة بني إسرائيل كانت في النساء ، وهي أعظم فتنة ، وهناك أناس الآن يحيكون كل حياكة من أجل أن يهدروا كرامة المرأة ، من أجل أن يجعلوها كالصورة ، كالدمى ، مجرد شهوة وزهرة يتمتع بها الفساق والسفلاء من الناس ، ينظرون إلى وجهها كل حين ، وكل ساعة - والعياذ بالله - ، ولكن

---

(١) أخرجه البخاري في النكاح (٥٠٩٦) ومسلم في الذكر والدعاء (٩٧ ، ٩٨) والترمذي في السنن (٢٧٨٠) وأحمد في مسنده (٥/٢٠٠) .

(٢) أخرجه مسلم في الذكر والدعاء (٩٩) وابن ماجه في السنن (٤٠٠٠) وأحمد في مسنده (٣/٢٢) ، والبيهقي في السنن (٧/٩١) .

بحول الله أن دعاء المسلمين سوف يحيط بهم ، وسوف يكبتهم ويردهم على أعقابهم خائبين ، وسوف تكون المرأة في كل مكان من بلاد الإسلام محترمة مصونة ، حيث وضعها الله ﷻ .

المهم : أن الرسول - عليه الصلاة والسلام - حذرنا من هذه الفتن التي كقطع الليل المظلم ، يصبح الإنسان مؤمنًا ويمسي كافرًا ، والعياذ بالله . يوم واحد يرتد عن الإسلام ، يخرج من الدين ، يصبح فيه مؤمنًا ويمسي كافرًا ، - نسأل الله العافية . لماذا ؟ « يبيع دينه بعرض من الدنيا » ولا تظن أن العرض من الدنيا هو المال ، كل متاع الدنيا عرض ، سواء مال أو جاه أو رئاسة ، أو نساء أو غير ذلك ، كل ما في الدنيا من متاع فإنه عرض ، كما قال تعالى : ﴿ تَبْتَغُونَ عَرَضَ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا فَعِندَ ٱللَّهِ مَغَانِمُ كَثِيرَةٌ ﴾ [النساء : ٩٤] فما في الدنيا كله عرض .

فهؤلاء الذين يصبحون مؤمنين ويمسون كفارًا ، أو يمسون مؤمنين ويصبحون كفارًا ، كلهم يبيعون دينهم بعرض من الدنيا ، نسأل الله أن يعيذنا وإياكم من الفتن . واستعيذوا دائمًا من الفتن ، وما أعظم ما أمرنا به نبينا - عليه الصلاة والسلام - ، حيث قال : « إذا تشهَّد أحدكم » - يعني التشهد الأخير - « فليستعذ بالله من أربع ، يقول : إني أعوذ بك من عذاب جهنم ، ومن عذاب القبر ، ومن فتنة المحيا والممات ، ومن فتنة المسيح الدجال » (١) نسأل الله أن يثبتنا وإياكم بالقول الثابت في الحياة الدنيا وفي الآخرة .

* * *

٨٨ - الثَّاني : عَنْ أبي سِروَعَةَ - بكسرِ السينِ المهملةِ وفتحها - عُقْبَةَ بْنِ الحَارِثِ رضي الله عنه قال : صَلَّيتُ وَرَاءَ النَّبيِّ ﷺ بالمَدِينَةِ العَصْرَ ، فَسَلَّمَ ثُمَّ قَامَ مُسْرعًا فَتَخطَّى رِقَابَ النَّاسِ إلَى بَعْضِ حُجَر نسَائِهِ ، ففزِعَ النَّاس منْ سُرْعَتِه ، فَخَرجَ عَلَيهِمْ ، فرأى أنَّهُمْ قَدْ عَجبوا منْ سُرْعَته ، قَالَ : « ذَكَرت شَيئًا منْ تِبْرٍ عنْدَنا ، فَكَرِهْت أنْ يَحْبسَني ، فَأَمَرْت بقسْمَته » رواه البخاري .

وفي رواية له : « كُنْتُ خَلَّفْتُ في البَيتِ تبْرًا منَ الصَّدَقَةِ ، فَكَرِهْت أنْ أُبَيِّتَه » (٢) . « التِّبرْ » : قطع ذَهَب أو فضَّةٍ .

الشرح

قال المؤلف رحمه الله فيما نقله عن عقبة بن الحارث رضي الله عنه أنه صلى مع النبي ﷺ ذات يوم صلاة العصر ، فقام النبي ﷺ حين انصرف من صلاته مسرعًا يتخطى رقاب الناس إلى بعض حجرات زوجاته ، ثم خرج فرأى الناس قد عجبوا من ذلك ، فبين لهم النبي ﷺ سبب هذا ، وقال : « ذكرت شيئًا من تبر عندنا » ، يعني مما تجب قسمته « فكرهت أن يحبسني فأمرت بقسمته » ، ففي هذا الحديث المبادرة إلى فعل الخير ، وألا يتوانى الإنسان عن فعله ، وذلك لأن الإنسان لا يدري متى يفجأه الموت فيفوته الخير ، والإنسان ينبغي أن يكون كَيِّسًا ، يعمل لما بعد الموت ولا يتهاون ، وإذا كان الإنسان في أمور

(١) أخرجه مسلم في المساجد (١٢٨) وأحمد في مسنده (٤٤٧/٢) ، والبيهقي في السنن (١٥٤/٢) .
(٢) أخرجه البخاري في الأذان (٨٥١) .

دنياه يكون مسرعًا وينتهز الفرص ، فإن الواجب عليه في أمور أخراه أن يكون كذلك بل أولى ، قال الله تبارك وتعالى : ﴿ بَلْ تُؤْثِرُونَ ٱلْحَيَوٰةَ ٱلدُّنْيَا ﴿١٦﴾ وَٱلْءَاخِرَةُ خَيْرٌ وَأَبْقَىٰٓ ﴿١٧﴾ إِنَّ هَٰذَا لَفِى ٱلصُّحُفِ ٱلْأُولَىٰ ﴿١٨﴾ صُحُفِ إِبْرَٰهِيمَ وَمُوسَىٰ ﴾ [الأعلى : ١٦ - ١٩] وفي هذا دليل على أن رسول الله ﷺ ، أسرع الناس مبادرة إلى الخير ، وأنه عليه الصلاة والسلام محتاج إلى العمل كما أن غيره محتاج إلى العمل ، ولهذا لما حدث فقال : « إنه لن يدخل الجنة أحد بعمله » ، قالوا ولا أنت ؟ قال : « ولا أنا ، إلا أن يتغمدني الله برحمته » [1] هذا وهو النبي عليه الصلاة والسلام .

وفي هذا الحديث : دليل على جواز تخطي الرقاب بعد السلام من الصلاة ، ولا سيما إذا كان لحاجة ، وذلك لأن الناس بعد السلام من الصلاة ليسوا في حاجة إلى أن يبقوا في أماكنهم ، بل لهم الانصراف ، بخلاف تخطي الرقاب قبل الصلاة ، فإن ذلك منهي عنه ؛ لأنه إيذاء للناس ، ولهذا قطع النبي ﷺ خطبته يوم الجمعة حين رأى رجلًا يتخطى الرقاب ، فقال له : « اجلس فقد آذيت » [2] .

وفي هذا الحديث : دليل على أن رسول الله ﷺ كغيره من البشر ، يلحقه النسيان ، وأنه ينسى كما ينسى غيره ، وإذا كان ﷺ ينسى ما كان معلومًا عنده من قبل ، فإنه كذلك من باب أولى يجهل ما لم يكن معلومًا عنده من قبل ، كما قال الله له : ﴿ قُل لَّآ أَقُولُ لَكُمْ عِندِى خَزَآئِنُ ٱللَّهِ وَلَآ أَعْلَمُ ٱلْغَيْبَ وَلَآ أَقُولُ لَكُمْ إِنِّى مَلَكٌ ﴾ [الأنعام : ٥٠] فأمره الله أن يعلن للملأ أنه ليس عنده خزائن الله ، وأنه لا يعلم الغيب ، وأنه ليس بملك ، صلوات الله وسلامه عليه .

وفي هذا قطع السبيل على من يلتجئون إلى الرسول ﷺ في مهماتهم وملماتهم ، ويدعونه ، فإن هؤلاء من أعدائه وليسوا من أوليائه ؛ لأنه عليه الصلاة والسلام لو كان حيًّا لاستتابهم فإن تابوا وإلا قتلهم . لأنهم مشركون ، فإن الإنسان لا يجوز أن يدعو غير الله ﷻ ؛ لا ملكًا مقربًا ، ولا نبيًّا مرسلًا ، وهو - عليه الصلاة والسلام - إنما جاء لحماية التوحيد وتحقيق عبادة الله ، فالنبي ﷺ لا يعلم الغيب ، وينسى ما كان قد علم من قبل ، ويحتاج إلى الأكل والشرب واللباس والوقاية من الأعداء ، وقد ظاهر بين درعين في غزوة أحد ، يعني لبس درعين ، خوفًا من السلاح [3] .

فهو كغيره من البشر ، جميع الأحكام البشرية تلحقه عليه الصلاة والسلام ، ولهذا قال الله له : ﴿ قُلْ إِنَّمَآ أَنَا۠ بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ يُوحَىٰٓ إِلَىَّ أَنَّمَآ إِلَٰهُكُمْ إِلَٰهٌ وَٰحِدٌ ﴾ [الكهف : ١١٠] فتأمل وصفه بأنه بشر مثلك ، لو لم يقل مثلكم لكفى ، يعني إذا قال إنما أنا بشر ، علمنا بطريق القياس أنه بشر كالبشر ، لكن قال ﴿ مِّثْلُكُمْ ﴾ ، لا أتميز عليكم بشيء إلا بالوحي ، ﴿ يُوحَىٰٓ إِلَىَّ أَنَّمَآ إِلَٰهُكُمْ إِلَٰهٌ وَٰحِدٌ ﴾ الآية .

وفي هذا الحديث أيضًا : دليل على شدة الأمانة وعظمها ، وأن الإنسان إذا لم يبادر بأدائها فإنها قد

---

(١) أخرجه البخاري في المرض (٥٦٧٣) والرقاق (٦٤٦٧) وفيه « فإنه بدلًا من لا إنه » . ومسلم في صفات المنافقين (٧٨) وأحمد في مسنده (٤٤٦/٢) ، والبيهقي في السنن (٣٧٧/٣) .

(٢) أخرجه أبو داود في الصلاة (١١١٨) وابن ماجه في السنن (١١١٥) والنسائي في السنن (١٠٣/٣) .

(٣) انظر ذلك في الترمذي في الجهاد (١٦٩٢) وأبو داود في الجهاد (٢٥٩٠) وأحمد في مسنده (٤٤٩/٣) .

تحبسه ، ولهذا قال : « فكرهت أن يحبسني » ، وإذا كان هذا في الأمانة ، فكذلك أيضًا في الدين ؛ يجب على الإنسان أن يبادر بقضاء دينه إذا كان حالًّا ، إلا أن يسمح له صاحب الدين فلا بأس أن يؤخر ، أما إذا كان لم يسمح له ؛ فإنه يجب عليه المبادرة لأدائه ، حتى إن العلماء - رحمهم اللَّه - قالوا : إن فريضة الحج تسقط على من عليه الدين حتى يؤديه ، لأن الدين أمره عظيم [1] . كان النبي - عليه الصلاة والسلام - قبل أن يفتح اللَّه عليه الفتوح إذا جيء إليه بالرجل سأل : « هل عليه دين ؟ » فإن قالوا : لا ، تقدم وصلى عليه ، وإن قالوا : نعم ، سأل : « هل له وفاء ؟ » فإن قالوا : نعم ، تقدم وصلى ، وإن قالوا : لا ، تأخر ولم يصل [2] . يترك الصلاة على الميت إذا كان عليه في دين . فقدم إليه ذات يوم رجل من الأنصار ليصلي عليه فخطا خطوات ثم قال : « هل عليه دين ؟ » . قالوا : نعم يا رسول اللَّه ، ثلاثة دنانير وليس لها وفاء ، فتأخر وقال : « صلوا على صاحبكم » فعرف ذلك في وجوه القوم ، تغيرت وجوههم ، كيف لم يصل عليه النبي عليه الصلاة والسلام ؟! فتقدم أبو قتادة ﷺ ، وقال يا رسول اللَّه : عليَّ دَينه ، فتقدم النبي ﷺ فصلى عليه [3] .

ومع الأسف الآن تجد كثيرًا من الناس عليه الدَّين وهو قادر على الوفاء ، ولكنه يماطل - والعياذ بالله - وقد ثبت عن النبي ﷺ أنه قال : « مطل الغني ظُلْم » [4] واعلم أن الدين ليس كما يفهمه الناس ؛ هو الذي يأخذ سلعة بثمن أكثر من ثمنها ، الدين كل ما ثبت في الذمة ، فهو دين ، حتى القرض - السلف - حتى إيجار البيت ، حتى أجرة السيارة ، أي شيء يثبت في ذمتك فهو دين عليك أن تبادر بوفائه ما دام حالًّا .

وفي هذا الحديث أيضًا : دليل على جواز التوكيل في القسم ؛ قسم ما يجب على الإنسان قسمته ، ولهذا قال : « فأمرت بقسمته » فأمَر - عليه الصلاة والسلام - أن يقسم ، وهذا التوكيل جائز في كل حق تدخله النيابة من حقوق اللَّه ؛ كالحج مثلًا ، وأداء الزكاة ، وحقوق الآدميين ؛ كالبيع ، والشراء ، والرهن وما أشبهها .

وخلاصة هذا الحديث والمهم منه : هو المبادرة إلى فعل الخيرات ، وعدم التهاون في ذلك ، لا تتهاون ، واعلم أنك إذا عودت نفسك على التهاون اعتادت عليه ، وإذا عودتها على الحزم والفعل والمبادرة اعتادت عليه . وأسأل اللَّه تعالى أن يعينني وإياكم على ذكره وشكره وحسن عبادته .

* * *

(١) وقد اشترط الأحناف في الاستطاعة إلى الحج أن يكون الحاج مالكًا للزاد والراحلة واشترطوا أن يكون هذا فاضلًا عما يحتاج إليه لنفسه ولنفقة عياله الذين تلزمهم نفقتهم ، وأن يكون فاضلًا عن قضاء دينه ؛ لأن قضاء الدين من حوائجه الأصلية ويتعلق به حقوق الآدميين ؛ فهو أكد ، ولذلك منع الزكاة مع تعلق حقوق الفقراء بها وحاجتهم إليها (انظر : المغنى مع الشرح الكبير ١٧٢/٣) .

(٢) انظر في ذلك ما أخرجه البخاري في الحوالات (٢٢٨٩) وأحمد في مسنده (٢٩٦/٣) ، والبيهقي في السنن (٧٢/٦) ، والطبراني في الكبير (٣٥/٧) .

(٣) انظر هذا الحديث بنصه في البخاري في الكفالة (٢٢٩٥) .

(٤) أخرجه البخاري في الاستقراض (٢٤٠٠) ومسلم في المساقاة (٣٣) والترمذي في السنن (١٣٠٨) والنسائي في السنن (٣١٧/٧) .

٨٩ - الثَّالث : عَنْ جَابر ﷺ قال : قال رجلٌ للنبيِّ ﷺ يَومَ أُحُدٍ : أَرَأَيتَ إنْ قُتِلْت فَأَينَ أَنَا ؟ قَالَ : « في الجَنَّةِ » فَألقَى تَمَرَاتٍ كُنَّ في يَدِهِ ، ثُمَّ قَاتَلَ حَتَّى قُتِلَ [١] . متفقٌ عليه .

الشرح

قال المؤلف رَحِمَهُ اللَّهُ فيما نقله عن جابر ﷺ ، وعن أبيه : أن رجلًا قال للنبي ﷺ يوم أحد : يارسول اللَّه أرأيت إن قاتلت حتى قتلت ، قال : « أنت في الجنة » ، فألقى تمرات كانت معه ، ثم تقدم فقاتل حتى قتل ﷺ ، ففي هذا الحديث دليل على مبادرة الصحابة ﷺ إلى الأعمال الصالحة وأنهم لا يتأخرون فيها ، وهذا شأنهم ، ولهذا كانت لهم العزة ، في الدنيا وفي الآخرة .

ونظير هذا أن النبي ﷺ خطب الناس يوم عيد ، ثم نزل فتقدم إلى النساء فخطبهن ، وأمرهن بالصدقة ، فجعلت المرأة منهن تأخذ خرصها وخاتمها ، وتلقيه في ثوب بلال ، يجمعه حتى أعطاه النبي ﷺ ، ولم يتأخرن رضي اللَّه عنهن بالصدقة ، بل تصدقن حتى من حليهن [٢] .

وفي حديث جابر من الفوائد : أن من قتل في سبيل اللَّه فإنه في الجنة ، ولكن من هو الذي يقتل في سبيل اللَّه ؟ الذي يقتل في سبيل اللَّه هو الذي يقاتل لتكون كلمة اللَّه هي العليا ، لا يقاتل حمية ولا شجاعة ولا رياءً ، وإنما يقاتل لتكون كلمة اللَّه هي العليا ، أما من قاتل حمية مثل الذين يقاتلون من أجل القومية العربية مثلًا ، فإن هؤلاء ليسوا شهداء ، وذلك لأن القتال من أجل القومية العربية ليس في سبيل اللَّه ؛ لأنه حمية .

وكذلك أيضًا : من يقاتل شجاعة ؛ يعني من تحمله شجاعته على القتال لأنه شجاع ، والغالب أن الإنسان إذا اتصف بصفة يحب أن يقوم بها ، فهذا أيضًا إذا قتل ليس في سبيل اللَّه .

وكذلك أيضًا : من قاتل مراءاة والعياذ بالله ، ليُرى مكانه ، وأنه رجل يقاتل الأعداء الكفار ، فإنه ليس في سبيل اللَّه ؛ لأن النبي ﷺ سئل عن الرجل يقاتل حمية ، ويقاتل شجاعة ، ويقاتل ليرى مكانه ، أي ذلك في سبيل اللَّه ؟ فقال : « من قاتل لتكون كلمة اللَّه هي العليا فهو في سبيل اللَّه » [٣] .

وفي هذا دليل على حرص الصحابة ﷺ على معرفة الأمور ؛ لأن هذا الرجل سأل النبي عليه الصلاة والسلام ، وكان هذا من عادتهم أنهم لا يفوتون الفرصة حتى يسألون النبي ﷺ ، لأنهم يستفيدون من هذا علمًا وعملًا ، فإن العالم بالشريعة قد منَّ اللَّه عليه بالعلم ، ثم إذا عمل به فهذه منّة

---

(١) أخرجه البخاري في المغازي (٤٠٤٦) ومسلم في الإمارة (١٤٣) وأحمد في مسنده (٣٠٨/٣) ، والبيهقي في سننه (٤٣/٩ ، ٩٩) .

(٢) انظر الحديث في البخاري في العيدين (٩٦٤) ومسلم في العيدين (٢ ، ١٣) والدارمي في الصلاة (٢١٨) وأحمد في مسنده (٢٢٠/١) .

(٣) أخرجه البخاري في فرض الخمس (٣١٢٦) ومسلم في الإمارة (١٤٩ ، ١٥٠) والترمذي في السنن (١٦٤٦) وابن ماجه في السنن (٥٧٨٣) .

أخرى ، والصحابة ﷺ كان هذا شأنهم ، فيسألون النبي ﷺ عن الحكم الشرعي من أجل أن يعملوا به ، بخلاف ما عليه كثير من الناس اليوم ؛ فإنهم يسألون عن الأحكام الشرعية حتى إذا علموا بها تركوها ونبذوها وراء ظهورهم ، وكأنهم لا يريدون من العلم إلا مجرد المعرفة النظرية ، وهذا في الحقيقة خسران مبين ؛ لأن من ترك العمل بعد علمه به فإن الجاهل خير منه .

فإذا قال قائل : لو رأينا رجالًا يقاتلون ، ويقولون نحن نقاتل للإسلام . دفاعًا عن الإسلام ، ثم قتل أحد منهم فهل نشهد له بأنه شهيد؟ فالجواب : لا . لا نشهد بأنه شهيد ؛ لأن النبي ﷺ قال : « ما من مكلوم يكلم في سبيل اللّه – والله أعلم بمن يكلم في سبيله – إلا جاء يوم القيامة وجرحه يثعُبُ دمًا ، اللون لون الدم ، والريح ريح المسك »[1] فقوله : « والله أعلم بمن يكلم في سبيله » يدل على أن الأمر يتعلق بالنية المجهولة لنا ، المعلومة عند اللّه ، وخطب عمر بن الخطاب ﷺ ذات يوم فقال : أيها الناس ، إنكم تقولون فلان شهيد وفلان شهيد ، ولعله أن يكون قد أوقر راحلته ، يعني قد حملها من الغلول ، يعني لا تقولوا هكذا ولكن قولوا : من مات أو قتل في سبيل اللّه فهو شهيد[2] . فلا تشهد لشخص بعينه أنه شهيد إلا من شهد له النبي ﷺ فإنك تشهد له ، أما من سوى هذا فقل كلامًا عامًّا ، قل : من قتل في سبيل اللّه فهو شهيد ، هذا نرجو أن يكون من الشهداء وما أشبه ذلك من الكلام .

* * *

٩٠ – الرَّابع : عن أبي هُريرةَ ﷺ قال : جَاءَ رجلٌ إلى النَّبيِّ ﷺ ، فقال : يا رسول اللّه ، أيُّ الصَّدقَةِ أَعْظَمُ أجْرًا ؟ قَالَ : « أنْ تَصدَّقَ وَأَنْتَ صَحِيحٌ شَحيحٌ تخشَى الفَقْرَ ، وَتأْمُلُ الغنى ، وَلا تُمْهلْ حَتَّى إذَا بَلَغَت الحُلْقُومَ . قُلْتَ : لفُلانٍ كَذَا وَلفُلانٍ كَذَا ، وَقَدْ كَانَ لفُلان »[3] متفقٌ عليه .

« الحُلْقُومُ » : مَجْرَى النَّفَسِ . و المَرِيءُ : مَجْرَى الطَّعَامِ وَالشَّرَاب .

الشرح

قال المؤلف رحمه الله فيما نقله عن أبي هريرة ﷺ أن النبي ﷺ سأله رجل فقال : أي الصدقة أفضل ؟ فقال النبي ﷺ : « أن تصدَّق وأنت صحيح شحيح ، تخشى الفقر ، وتأمل الغنى ، ولا تُمهَلُ حتى إذا بلغت الحلقوم قلت : لفلان كذا ، ولفلان كذا ، وقد كان لفلان» هذا الحديث ساقه المؤلف رحمه الله في باب المبادرة إلى فعل الخيرات وعدم التردد في فعلها إذا أقبل عليها . فإن هذا الرجل سأل النبي ﷺ : أي الصدقة أفضل ؟ وهو لا يريد أي الصدقة أفضل في نوعها ، ولا في كميتها ، وإنما يريد ما هو الوقت الذي تكون فيه الصدقة أفضل من غيرها ؟ فقال له : « أن تصدق وأنت صحيح شحيح » يعني صحيح

(١) أخرجه البخاري في الذبائح (٥٥٣٣) بلفظ « ما من مكلوم يكلم في اللّه» وأحمد في مسنده (٣٨٤/٢) بلفظه .
(٢) أخرجه النسائي في النكاح (١١٨/٦) وأحمد في مسنده (٤١/١ ، ٤٨) .
(٣) أخرجه البخاري في الوصايا (٢٧٤٨) ومسلم في الزكاة (٩٢) وأحمد في مسنده (٢٣١/٢ ، ٤١٥ ، ٤٤٧) وأبو داود في الوصايا (٢٨٦٥) والبيهقي في السنن (١٩٠/٤) .

البدن شحيح النفس ؛ لأن الإنسان إذا كان صحيحًا كان شحيحًا بالمال ؛ لأنه يأمل البقاء ، ويخشى الفقر ، أما إذا كان مريضًا ، فإن الدنيا ترخص عنده لا تساوي شيئًا ، فتهون عليه الصدقة .

قال : « أن تصدق وأنت صحيح شحيح ، تأمل البقاء وتخشى الفقر » وفي رواية : « تخشى الفقر وتأمل الغنى » [١] ، ولكن الرواية الأولى أحسن ، وقوله : « تأمل البقاء » يعني أنك لكونك صحيحًا تأمل البقاء وطول الحياة ؛ لأن الإنسان الصحيح يستبعد الموت ، وإن كان الموت قد يفجأ الإنسان بخلاف المريض ، فإنه يتقارب الموت .

وقوله : « وتخشى الفقر » يعني لطول حياتك ، فإن الإنسان يخشى الفقر إذا طالت به الحياة ؛ لأن ما عنده ينفذ ، فهذا أفضل ما يكون ، أن تتصدق في حال صحتك وشحك .

« ولا تمهل » أي لا تترك الصدقة ، « حتى إذا بلغت الحلقوم ، قلت : لفلان كذا ولفلان كذا » حتى إذا جاءك الموت وبلغت روحك حلقومك ، وعرفت أنك خارج من الدنيا « قلت : لفلان كذا » يعني صدقة « ولفلان كذا » يعني صدقة ، « وقد كان لفلان » أي قد كان المال لغيرك ، لفلان : يعني للذي يرثك . فإن الإنسان إذا مات انتقل ملكه ولم يبق له شيء من المال .

ففي هذا الحديث : دليل على أن الإنسان ينبغي له أن يبادر بالصدقة قبل أن يأتيه الموت ، وأنه إذا تصدق في حال حضور الأجل ، كان ذلك أقل فضلًا مما لو تصدق وهو صحيح شحيح .

وفي هذا : دليل على أن الإنسان إذا تكلم في سياق الموت ؛ فإنه يعتبر كلامه إذا لم يذهل [٢] ، فإن أذهل حتى صار لا يشعر بما يقول ، فإنه لا عبرة بكلامه ، لقوله : « حتى إذا بلغت الحلقوم قلت : لفلان كذا ولفلان كذا ، وقد كان لفلان » .

وفيه : دليل على أن الروح تخرج من أسفل البدن تصعد حتى تصل إلى أعلى البدن ، ثم تقبض من هناك ، ولهذا قال ﷺ : « حتى إذا بلغت الحلقوم » وهذا كقوله تعالى : ﴿ فَلَوْلَآ إِذَا بَلَغَتِ ٱلْحُلْقُومَ ۝ وَأَنتُمْ حِينَئِذٍ تَنظُرُونَ ﴾ [الواقعة : ٨٣، ٨٤] فأول ما يموت من الإنسان أسفله ، تخرج الروح بأن تصعد في البدن إلى أن تصل إلى الحلقوم ، ثم يقبضها ملك الموت ، نسأل اللّٰه أن يختم لنا ولكم بالخير والسعادة .

* * *

٩١ - الخامس : عن أنس رضي الله عنه ، أَنَ رسول اللّٰه ﷺ أَخَذَ سَيفًا يَومَ أُحُدٍ فَقَالَ : « مَنْ يَأْخُذُ منِّي هذَا ؟ » فَبَسَطُوا أيدِيَهُمْ ، كُلُّ إنْسَانٍ منهُمْ يَقُول : أَنَا أَنَا ، قالَ : « فَمَنْ يَأْخُذُهُ بحَقِّه ؟ » فَأَحْجَمَ القَومُ ، فَقَالَ أَبُو دُجَانَةَ رضي الله عنه : أَنَا آخُذُهُ بحَقِّهِ ، فَأَخَذَهُ فَفَلَقَ بِهِ هَامَ المُشْرِكينَ [٣] . رواه مسلم .

اسمُ أبي دُجَانَةَ : سِمَاكُ بْنُ خَرَشَةَ . قَولُهُ : « أَحْجَمَ القَومُ » أي تَوَقَّفُوا وَ « فَلَقَ بِهِ » : أَي شَقَّ

(١) أخرجه النسائي في السنن (٦/٢٣٧) .

(٢) يذهل : أي يغيب من رشده ، وذهل عن الشيء : نسيه وغفل عنه (المعجم العربي الأساسي ص ٤٨٨) .

(٣) أخرجه مسلم في فضائل الصحابة بلفظه (١٢٨) وأحمد في مسنده (٣/١٢٣) بنحوه .

« هَامَ الْمُشْرِكِينَ » : أي رؤوسَهُمْ .

الشرح

قال المؤلف رَحِمَهُ ٱللَّهُ تعالى فيما نقله عن أنس بن مالك رضي الله عنه أن النبي ﷺ أخذ سيفًا يوم أحد فقال : « من يأخذ هذا السيف ؟ » . فبسط القوم أيديهم ، كلهم يقول : أنا ، أنا ، أنا آخذه ، ثم قال ﷺ : « من يأخذه بحقه ؟ » فأحجم القوم ولم يشر أحد منهم ليقول أنا آخذه ، حتى بادر أبو دجانة رضي الله عنه ، فقال : أنا آخذه بحقه ، فأخذه ففلق به هام المشركين .

في هذا الحديث يقول أنس : إن الرسول ﷺ في غزوة أحد ، وغزوة أحد إحدى الغزوات الكبار التي غزاها رسول اللَّه ﷺ بنفسه ، وأحد جبل قرب المدينة ، وكان سبب الغزوة أن قريشًا لما أصيبوا ببدر بقتل زعمائهم وكبرائهم ، أرادوا أن يأخذوا بالثأر من النبي ﷺ ، فجاءوا إلى المدينة يريدون غزو الرسول ﷺ ، فاستشار النبي ﷺ أصحابه حين علم بقدومهم ، فأشار عليه بعضهم بالبقاء في المدينة ، وأنهم إذا دخلوا المدينة أمكن أن يرموهم بالنبل وهم متحصنون في البيوت ، وأشار بعضهم ولا سيما الشباب منهم والذين لم يحضروا غزوة بدر أشاروا أن يخرج إليهم ، فدخل النبي ﷺ بيته ولبس لامته ، يعني لامة الحرب ، ثم خرج ، وأمر بالخروج إليهم في أحد .

فالتقوا في أحد ، وصفَّ النبي ﷺ أصحابه صفًّا مرتبًا من أحسن ما يكون ، وجعل على الجبل الرماة الذي يحسنون الرمي بالنبل ، وهم خمسون رجلًا ، وأمر عليهم عبد اللَّه بن جبير رضي الله عنه ، وقال لهم : لا تبرحوا مكانكم ، ابقوا في مكانكم سواء كانت لنا أو علينا .

فلما التقى الصفان ، انهزم المشركون وولوا الأدبار ، وصار المسلمون يجمعون الغنائم ، فقال الرماة الذين في الجبل : انزلوا نأخذ الغنائم ، ونجمعها . فذكرهم أميرهم بأمر النبي ﷺ لهم أن يبقوا في مكانهم ، سواء كانت للمسلمين أو عليهم ، ولكنهم رضي الله عنهم ظنوا أن الأمر قد انتهى ؛ لأنهم رأوا المشركين ولَّوا ولم يبق إلا نفر قليل ، فلما رأى فرسان قريش أن الجبل قد خلى من الرماة ، كروا على المسلمين من خلفهم ، ثم اختلطوا بالمسلمين ، فصار ما كان بقَدَر العزيز الحكيم جل وعلا ، واستشهد من المسلمين سبعون رجلًا ، ومنهم حمزة بن عبد المطلب رضي الله عنه عم رسول اللَّه ﷺ ، وأسد اللَّه وأسد رسوله .

فلما أصيب المسلمون بهذه المصيبة العظيمة قالوا : أنى هذا ؟! كيف نهزم ، ومعنا رسول اللَّه ﷺ ونحن جند اللَّه ، وأولئك معهم الشياطين وهم جنود الشياطين ؟! فقال اللَّه عَزَّ وَجَلَّ : ﴿ أَوَلَمَّآ أَصَٰبَتۡكُم مُّصِيبَةٞ قَدۡ أَصَبۡتُم مِّثۡلَيۡهَا قُلۡتُمۡ أَنَّىٰ هَٰذَاۖ قُلۡ هُوَ مِنۡ عِندِ أَنفُسِكُمۡۗ ﴾ [آل عمران : ١٦٥] أنتم السبب لأنكم عصيتم ، كما قال اللَّه تعالى : ﴿ حَتَّىٰٓ إِذَا فَشِلۡتُمۡ وَتَنَٰزَعۡتُمۡ فِي ٱلۡأَمۡرِ وَعَصَيۡتُم مِّنۢ بَعۡدِ مَآ أَرَىٰكُم مَّا تُحِبُّونَۚ ﴾ [آل عمران : ١٥٢] يعني حصل ما تكرهون .

فحصل ما حصل لحكم عظيمة ، ذكرها اللَّه عَزَّ وَجَلَّ في سورة آل عمران ، وتكلم عليها الحافظ ابن

القيم رَحِمَهُ ٱللَّهُ كلامًا جيدًا لم أر مثله في كتاب «زاد المعاد»، في بيان الحكم العظيمة من هذه الغزوة [١].

المهم : أن الرسول - عليه الصلاة والسلام - أخذ سيفًا فقال لأصحابه : «من يأخذ مني هذا السيف ؟» كلهم قال : نأخذه ، رفعوا أيديهم وبسطوها ، يقولون : أنا أنا ، فقال : «فمن يأخذه بحقه ؟» ، فأحجم القوم ، ما يعلمون ما حقه ، يخشون أن حقه يكون كبيرًا جدًا لا يستطيعون القيام به ، ويخشون أيضًا أن يعجزوا عن القيام به ، فيكونون قد أخذوا هذا السيف على العهد من رسول الله ثم لا يوفون به ، ولكن الله وفّق أبا دجانة رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ فقال : أنا آخذه بحقه ، فأخذه بحقه ؛ وهو أن يضرب به حتى ينكسر ، أخذه بحقه رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ وقاتل به ، وفلق به هام المشركين رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ .

في هذا : دليل على أنه ينبغي للإنسان أن يبادر بالخير وألا يتأخر ، وأن يستعين الله عَزَّ وَجَلَّ ، وهو إذا استعان الله وأحسن به الظن أعانه الله .

كثير من الناس ربما يستكثر العبادة ، أو يرى أنها عظيمة ، يستعظمها ، فينكص على عقبيه ، ولكن يقال للإنسان : استعن بالله ، توكل على الله ، وإذا استعنت بالله وتوكلت عليه ودخلت فيما يرضيه عَزَّ وَجَلَّ ، فأبشر بالخير ، وأن الله تعالى سيعينك كما قال الله تعالى : ﴿ وَمَن يَتَوَكَّلْ عَلَى ٱللَّهِ فَهُوَ حَسْبُهُۥٓ ﴾ [الطلاق : ٣] .

وفي هذا : دليل أيضًا على حسن رعاية النبي ﷺ لأمته ؛ لأنه لم يخص بالسيف أحدًا من الناس ، ولكنه جعل الأمر لعموم الناس ، وهكذا ينبغي للإنسان الذي استرعاه الله رعية ألا يحابي أحدًا ، وألا يتصرف تصرفًا يُظن أنه محاب فيه ؛ لأنه إذا حابى أحدًا أو تصرف تصرفًا يظن أنه حابى فيه ، حصل من القوم فرقة ، وهذا يؤثر على الجماعة ، نعم لو امتاز أحد من الناس بميزة لا توجد في غيره ، ثم خصه الإنسان بشيء ، ولكنه يبين للجماعة أنه خصه لامتيازه بشيء لا يوجد فيهم فهذا لا بأس به .

* * *

٩٢ - السَّادس : عن الزُّبَيرِ بنِ عديٍّ قال : أَتَينا أَنَسَ بنَ مَالِكٍ رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ فَشَكَونَا إِلَيهِ مَا نَلْقَى مِنَ الحَجَّاجِ . فَقَالَ : «اصْبروا فَإنَّه لا يَأْتي عليكم زَمَانٌ إلا وَالَّذي بَعْدَه شَرٌّ منه حَتَّى تَلْقَوا رَبَّكُمْ» سَمِعْتُهُ منْ نَبِيِّكُمْ ﷺ [٢] . رواه البخاري .

الشرح

قال المؤلف رَحِمَهُ ٱللَّهُ فيما نقله عن الزبير بن عدي أنهم أتوا إلى أنس بن مالك رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ ، خادم رسول الله ﷺ ، وكان قد عمِّر وبقي إلى حوالي تسعين سنة من الهجرة النبوية ، وكان قد أدرك وقته شيء من الفتن ، فجاءوا يشكون إليه ما يجدون من الحجاج بن يوسف الثقفي أحد الأمراء لخلفاء بني أمية ، وكان معروفًا بالظلم وسفك الدماء ، وكان جبارًا عنيدًا والعياذ بالله .

---

(١) انظر زاد المعاد (٣/٢١٨) وما بعدها .

(٢) أخرجه البخاري في الفتن (٧٠٦٨) وأحمد في مسنده (٣/١٣٢ ، ١٧٧) .

وهو الذي حاصر مكة لقتال عبد الله بن الزبير ، وجعل يرمي الكعبة بالمنجنيق حتى هدمها أو هدم شيئًا منها ، وكان قد آذى الناس ، فجاءوا يشكون إلى أنس بن مالك ﷺ ، فقال لهم أنس : « اصبروا » ، أمرهم بالصبر على جور ولاة الأمور ؛ وذلك لأن ولاة الأمور قد يسلَّطون على الناس ، بسبب ظلم الناس ، كما قال تعالى : ﴿ وَكَذَٰلِكَ نُوَلِّي بَعْضَ ٱلظَّٰلِمِينَ بَعْضًا بِمَا كَانُوا۟ يَكْسِبُونَ ﴾ [الأنعام: ١٢٩] .

أنت إذا رأيت ولاة الأمور قد ظلموا الناس في أموالهم ، أو في أبدانهم ، أو حالوا بينهم وبين الدعوة إلى الله ﷻ ، أو ما أشبه ذلك ، ففكر في حال الناس ، تجد أن البلاء أساسه من الناس ، هم الذين انحرفوا فسلط الله عليهم من سلط من ولاة الأمور ، وفي الأثر - وليس بحديث - « كما تكونون يولى عليكم » (١) .

ويُذكر أن بعض خلفاء بني أمية ، وأظنه عبد الملك بن مروان جمع وجهاء الناس ، لما سمع أن الناس يتكلمون في الولاية ، جمع الوجهاء وقال لهم : أيها الناس ، أتريدون أن نكون لكم كما كان أبو بكر وعمر ؟ قالوا : بلى نريد ذلك ، قال : كونوا كالرجال الذين تولى عليهم أبو بكر وعمر لنكون لكم كأبي بكر وعمر ، يعني أن الناس على دين ملوكهم ، فإذا ظلم ولاة الأمور الناس ؛ فإنه غالبًا يكون بسبب أعمال الناس .

وجاء رجل من الخوارج إلى علي بن أبي طالب ﷺ وقال : ما بال الناس انتقدوا عليك ولم ينتقدوا على أبي بكر وعمر ، قال : لأن رجال أبي بكر وعمر أنا وأمثالي ، ورجالي أنت وأمثالك ، يعني أن الناس إذا ظلموا سلطت عليهم الولاة .

ولهذا قال أنس : « اصبروا » ، وهذا هو الواجب ، الواجب أن يصبر الإنسان ولكل كربة فرجة ، لا تظن أن الأمور تأتي بكل سهولة ، الشر ربما يأتي بغتة ويأتي هجمة ولكنه لن يدل على الخير أبدًا ، ولكن علينا أن نصبر وأن نعالج الأمور بحكمة لا نستسلم ولا نتهور ، نعالج الأمور بحكمة وصبر وتأن ، ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱصْبِرُوا۟ وَصَابِرُوا۟ وَرَابِطُوا۟ وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ﴾ [آل عمران : ٢٠٠] إن كنت تريد الفلاح فهذه أسبابه وهذه طرقه ، ﴿ ٱصْبِرُوا۟ وَصَابِرُوا۟ وَرَابِطُوا۟ وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ﴾ .

ثم قال أنس بن مالك : « فإنه لا يأتي على الناس زمان إلا وما بعده أشر منه حتى تلقوا ربكم ، سمعته من نبيكم محمد ﷺ » . يعني أن الرسول ﷺ قال : لا يأتي على الناس زمان إلا وما بعده أشر منه . شر منه في الدين ، وهذا الشر ليس شرًا مطلقًا عامًا ، بل قد يكون شرًا في بعض المواضع ، ويكون خيرًا في مواضع أخرى وهكذا .

ومع هذا فإن الناس كلما ازدادوا في الرفاهية ، وكلما انفتحوا على الناس ؛ انفتحت عليهم الشرور ، إن الرفاهية هي التي تدمر الإنسان ؛ لأن الإنسان إذا نظر إلى الرفاهية وتنعيم جسده ؛ غفل عن تنعيم قلبه ، وصار أكبر همه أن ينعم هذا الجسد الذي مآله إلى الديدان والنتن ، وهذا هو البلاء ، وهذا هو الذي ضر الناس اليوم ، لا تكاد تجد أحدًا إلا ويقول : ما قَصْرُنا ؟ ما سيارتنا ؟ ما فرشنا ؟ ما أكلُنا ؟ حتى الذين يقرأون العلم ويدرسون العلم ، بعضهم إنما يدرس لينال رتبة أو مرتبة يتوصل بها إلى نعيم

---

(١) ذكره الهندي في كنز العمال (١٤٩٧٢) والتبريزي في مشكاة المصابيح (٣٧١٧) والألباني في الضعيفة (٣٢٠) .

الدنيا . وكأن الإنسان لم يخلق لأمر عظيم ، والدنيا ونعيمها إنما هي وسيلة فقط .

قال شيخ الإسلام ابن تيمية رَحِمَهُ اللَّهُ ما معناه : ينبغي على الإنسان أن يستعمل المال كما يستعمل الحمار للركوب ، وكما يستعمل بيت الخلاء للغائط .

فهؤلاء هم الذين يعرفون المال ويعرفون قدره ، لا تجعل المال أكبر همك ، اركب المال فإن لم تركب المال ركبك المال ، وصار همك هو الدنيا .

ولهذا نقول : إن الناس كلما انفتحت عليهم الدنيا وصاروا ينظرون إليها ؛ فإنهم يخسرون من الآخرة بقدر ما ربحوا من الدنيا ، قال النبي - عليه الصلاة والسلام - : « والله ما الفقر أخشى عليكم »[1] يعني ما أخاف عليكم الفقر ، فالدنيا ستفتح . « وإنما أخشى عليكم أن تفتح عليكم الدنيا فتنافسوها كما تنافسها من قبلكم ، فتهلككم كما أهلكتهم » وصدق الرسول عليه الصلاة والسلام ، هذا الذي أهلك الناس اليوم ، الذي أهلك الناس اليوم التنافس في الدنيا ، وكونهم كأنهم إنما خلقوا لها لا أنها خلقت لهم ، فاشتغلوا بما خلق لهم عما خلقوا له ، وهذا من الانتكاس نسأل اللّٰه العافية .

وفي هذا الحديث : وجوب الصبر على ولاة الأمور وإن ظلموا وجاروا ؛ لأنك سوف تقف معهم موقفًا تكون أنت وإياهم على حد سواء عند ملك الملوك ، سوف تكون خصمهم يوم القيامة إذا ظلموك ، لا تظن أنما يكون في الدنيا من الظلم سيذهب هباء أبدًا ، حق المخلوق لابد أن يؤخذ يوم القيامة ، فأنت سوف تقف معهم بين يدي اللّٰه عَزَّ وَجَلَّ ليقضي بينهم بالعدل ، فاصبر وانتظر الفرج ، فيحصل لك بذلك اطمئنان النفس والثبات ، وانتظار الفرج عبادة ، تتعبد للّٰه به ، وإذا انتظرت الفرج من اللّٰه فقد قال النبي ﷺ : « واعلم أن النصر مع الصبر وأن الفرج مع الكرب ، وأن مع العسر يسرا »[2] .

وفي هذا التحذير من سوء الزمان ، وأن الزمان يتغير ويتغير إلى ما هو أشر . وقد قال النبي - عليه الصلاة والسلام - ذات يوم لأصحابه : « من يعش منكم فسيرى اختلافًا كثيرًا »[3] وأظن أننا وعيشنا في الدنيا قليل بالنسبة لمن سبق ، نرى اختلافًا كثيرًا . نرى اختلافًا كثيرًا بين سنين مضت وسنين الوقت الحاضر .

حدثني من أثق به أن هذ المسجد مسجد الجامع كان لا يؤذن لصلاة الفجر إلا وقد تم الصفُّ الأول ، يأتي الناس إلى المسجد يتهجدون ، أين المتهجدون اليوم إلا ماشاء اللّٰه ؟ . قليل !! تغيرت الأحوال ، كنت تجد الواحد منهم كما قال النبي - عليه الصلاة والسلام - « كالطير تغدو خماصًا وتروح بطانًا »[4] إذا أصبح يقول : اللهم ارزقني . قلبه معلق بالله عَزَّ وَجَلَّ فيرزقه اللّٰه ، وأما الآن فأكثر الناس في غفلة عن هذا ، يعتمدون على من سوى اللّٰه ، ومن تعلَّق شيئًا وُكِلِ إليه .

---

(١) أخرجه البخاري في المغازي (٤٠١٥) في الزهد (٦) وابن ماجه في السنن (٣٩٩٧) والترمذي في السنن (٢٤٦٢) .

(٢) أخرجه أحمد في مسنده (٣٠٧/١) .

(٣) أخرجه ابن ماجه في المقدمة (٤٣) وأحمد في مسنده (١٢٦/٤) والبيهقي في السنن (١١٤/١٠) . والترمذي في العلم (٢٦٧٦) بلفظ « يرى » بدلًا من « فسيري » .

(٤) أخرجه أحمد في مسنده (٥٢/١) ، والترمذي في الزهد (٢٣٤٤) .

نعم في الآونة الأخيرة والحمد لله لا شك أن الله ﷻ فتح على الشباب فتحًا أسأل الله تعالى أن يزيدهم من فضله ، فتح عليهم وأقبلوا إلى الله ، فتجد بين سنواتنا هذه الأخيرة ، والسنوات الماضية بالنسبة للشباب فنجد فرقًا عظيمًا ، قبل نحو عشرين سنة كنت لا تكاد تجد الشاب بالمسجد ، أما الآن ولله الحمد فأكثر من في المسجد هم الشباب ، وهذه نعمة ولله الحمد ، يرجو الإنسان لها مستقبلًا زاهرًا ، وثقوا أن الشعب إذا صلح فسوف تضطر ولاة أموره إلى الصلاح مهما كان ، فنحن نرجوا لإخواننا في غير هذه البلاد الذين منَّ الله عليهم بالصلاح واستقاموا على الحق أن يصلح لهم الولاة ، ونقول : اصبروا فإن ولاتكم سيصلحون رغمًا عنهم ، فإذا صلحت الشعوب صلحت الولاة بالاضطرار .

* * *

٩٣ - السَّابع : عن أبي هريرة ؓ أن رسول الله ﷺ قال : « بادِروا بالأَعْمَال سَبْعًا : هَلْ تَنْتظرونَ إلا فَقْرًا مُنسيًا ، أو غنىً مُطْغيًا ، أَو مَرَضًا مُفْسدًا ، أو هَرَمًا مُفْندًا ، أَو مَوتًا مُجْهِزًا ، أَو الدَّجَّالَ فَشَرُّ غَائبٍ يُنْتَظَر ، أَوِ السَّاعَةَ فَالسَّاعَةُ أَدْهَى وَأَمَرُّ ؟! »[1] رواه الترمذي وقال : حديث حسنٌ .

الشرح

سبق لنا أن النبي - عليه الصلاة والسلام - ذكر في أحاديث متعددة ما يدل على أنه من الحزم أن يبادر الإنسان بالأعمال الصالحة ، وفي هذا الحديث أشار النبي ﷺ إلى أشياء متعددة ينبغي للإنسان أن يبادر بالأعمال حذرًا منها . فقال : « بادروا بالأعمال سبعًا » : يعني سبعة أشياء كلها محيطة بالإنسان يخشى أن تصيبه ، منها الفقر . قال : « هل تنتظرون إلا فقرًا منسيًا أو غِنىً مطغيًا » . الإنسان بين حالين بالنسبة للرزق : تارة يغنيه الله ﷻ ويمده بالمال ، والبنين ، والأهل ، والقصور ، والمراكب ، والجاه ، وغير ذلك من أمور الغنى ، فإذا رأى نفسه في هذه الحال ؛ فإنه يطغى والعياذ بالله ، ويزيد ويتكبر ، ويستنكف عن عبادة الله ، كما قال تعالى : ﴿ كَلَّآ إِنَّ ٱلْإِنسَٰنَ لَيَطْغَىٰٓ ۝ أَن رَّءَاهُ ٱسْتَغْنَىٰٓ ﴾ [العلق : ٦ ، ٧] وبيَّن الله وقال : ﴿ إِنَّ إِلَىٰ رَبِّكَ ٱلرُّجْعَىٰٓ ﴾ [العلق : ٨] يعني مهما بلغت من الاستغناء والعلو فإن مرجعك إلى الله .

ونحن نشاهد أن الغنى يكون سببًا للفساد والعياذ بالله ، تجد الإنسان في حال فقره مخبتًا إلى الله ، منيبًا إليه ، منكسر النفس ، ليس عنده طغيان ، فإذا أمده الله بالمال استكبر - والعياذ بالله - وأطغاه غناه .

أو بالعكس : « فقرًا منسيًا » الفقر قلة ذات اليد ، بحيث لا يكون مع الإنسان مال ، الفقر ينسي الإنسان مصالح كثيرة ؛ لأنه يشتغل بطلب الرزق عن أشياء كثيرة تهمه وهذا شيء مشاهد ، ولهذا يخشى على الإنسان من هذين الحالين ؛ إما الغنى المطغي ، أو الفقر المنسي . فإذا منَّ الله على العبد بغنى لا يطغي ، وبفقر لا ينسي ، وكانت حاله وسطًا ، وعبادته مستقيمة ، وأحواله قويمة ، فهذه هي سعادة الدنيا .

وليست سعادة الدنيا بكثرة المال ؛ لأنه قد يطغي ، ولهذا تأمل قوله تعالى : ﴿ مَنْ عَمِلَ صَٰلِحًا مِّن ذَكَرٍ

---

(١) أخرجه الترمذي في الزهد (٢٣٠٦) .

أَوْ أُنثَىٰ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلَنُحْيِيَنَّهُۥ حَيَوٰةً طَيِّبَةً وَلَنَجْزِيَنَّهُمْ أَجْرَهُم بِأَحْسَنِ مَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴾ [النحل : ٩٧] ما قال من عمل عملًا صالحًا من ذكر أو أنثى فلنوسعن عليه ولنعطينه المال الكثير ، قال ﴿ فَلَنُحْيِيَنَّهُۥ حَيَوٰةً طَيِّبَةً ﴾ . إما بكثرة المال أو بقلة المال ، ويروى في الحديث القدسي : « إن من عبادي من لو أغنيته لأفسده الغنى ، وإن من عبادي من لو أفقرته لأفسده الفقر »[١] . وهذا هو الواقع من الناس من يكون الفقر خيرًا له ، ومن الناس من يكون الغنى خيرًا له ، ولكن الرسول - عليه الصلاة والسلام - حذر من غنى مُطغٍ وفقر منسٍ .

الثالث : قال : « أو مرضًا مفسدًا » المرض يفسد على الإنسان أحواله ، فالإنسان مادام في صحة تجده منشرح الصدر واسع البال ، مستأنسًا ، لكنه إذا أصيب بالمرض انكتم وضاقت عليه الأرض وصار همه نفسه ، فتجده بمرضه تفسد عليه أمور كثيرة ، لا يستأنس مع الناس ، ولا ينبسط إلى أهله ؛ لأنه مريض ومتعب في نفسه . فالمرض يفسد على الإنسان أحواله ، والإنسان ليس دائمًا يكون في صحة ، فالمرض ينتظره كلَّ لحظة . كم من إنسان أصبح نشيطًا صحيحًا وأمسى ضعيفًا مريضًا ، أو بالعكس أمسى صحيحًا نشيطًا وأصبح مريضًا ضعيفًا . فالإنسان يجب عليه أن يبادر إلى الأعمال الصالحة حذرًا من هذه الأمور .

الرابع : « أو هرمًا مفندًا » ، الهرم يعني الكبر ، فالإنسان إذا كَبُر وطالت به الحياة فإنه كما قال اللَّه ﷻ يردُّ إلى أرذل العمر أي إلى أسوئه وأردئه ، فيلتحق هذا الرجل الذي عهدته من أعقل الرجال ، يرجع حتى يكون مثل الصبيان ، بل هو أردأ من الصبيان ؛ لأن الصبي لم يكن قد عقل ، فلا يدري عن شيء ، لكن هذا قد عقل ، وفهم الأشياء ، ثم رد إلى أرذل العمر ، فيكون هذا أشد عليه .

ولذلك نجد أن الذين يردُّون إلى أرذل العمر من كبار السن يؤذون أهليهم أشد من إيذاء الصبيان ؛ لأنهم كانوا قد عقلوا ، وقد استعاذ النبي ﷺ من أن يردَّ إلى أرذل العمر[٢] .

نسأل اللَّه أن يعيذنا وإياكم من الردِّ إلى أرذل العمر ؛ لأن الإنسان إذا ردَّ إلى أرذل العمر تعب وأتعب غيره ، حتى إنَّ أخص الناس به يتمنى أن يموت ؛ لأنه آذاه وأتعبه ، وإذا لم يتمنَّ بلسان المقال فربما يتمنى بلسان الحال .

أما الخامس : فالموت المجهز : يعني أن يموت الإنسان ، والموت لا ينذر الإنسان ، قد يموت الإنسان بدون إنذار ، قد يموت على فراشه نائمًا ، وقد يموت على كرسيه عاملًا ، وقد يموت في طريقه ماشيًا كما هو معروف . إذا مات الإنسان انقطع عمله ، كما قال النبي - عليه الصلاة والسلام - : « إذا مات ابن آدم انقطع عمله إلا من ثلاثة : إلا من صدقة جارية ، أو علم ينتفع به ، أو ولد صالح يدعو له »[٣] فبادر بالعمل قبل الموت المجهز ، الذي يجهزك ولا يمهلك .

السادس : « أو الدجال فشر غائب ينتظر » الدجال صيغة مبالغة من الدَّجَل وهو الكذب والتمويه ،

---

(١) ذكره ابن الجوزي في العلل المتناهية (١/٣٢) .

(٢) ويدل على ذلك ما أخرجه البخاري في الجهاد (٢٨٢٢) .

(٣) أخرجه الترمذي في السنن (١٣٧٦) ومسلم في الوصية (١٤) بلفظ : « الإنسان » بدلًا من « ابن آدم » ، وأبو داود في السنن (٢٨٨٠) وأحمد في مسنده (٢/٣٧٢) .

وهو رجل يبعثه الله في آخر الزمان ، يصل إلى دعوى الربوبية ، يدعي أنه ربٌّ ، فيمكث في فتنته هذه أربعين يومًا ؛ يوم كسنة ، ويوم كشهر ، ويوم كأسبوع ، وسائر أيامه كالأيام المعتادة ، لكن يعطيه الله ﷻ من القدرات ما لم يعط غيره ، حتى إنه يأمر السماء فتمطر ويأمر الأرض فتنبت ويأمر الأرض فتجدب ، والسماء فتقحط : تمنع المطر ، ومعه جنة ونار ، لكنها مموهة جنته نار وناره جنة [(١)] .

هذا الرجل أعور العين كأن عينه عنبة طافية ، مكتوب بين عينيه « كافر » [(٢)] كاف . فاء . راء . يقرأه كل مؤمن ، الكاتب وغير الكاتب ، ولا يقرؤه المنافق ولا الكافر ولو كان قارئًا كاتبًا ، وهذا من آيات الله .

هذا الرجل يرسل الله عليه عيسى ابن مريم - عليه الصلاة والسلام - فينزل من السماء فيقتله كما جاء في بعض الأحاديث بباب لدٍّ في فلسطين حتى يقضي عليه [(٣)] .

فالحاصل أن الدجال شر غائب ينتظر ؛ لأن فتنته عظيمة ، ولهذا نحن في صلاتنا في كل صلاة نقول : « أعوذ بالله من عذاب القبر ، ومن فتنة المحيا والممات ، ومن فتنة المسيح الدجال » [(٤)] . خصَّها ؛ لأنها أعظم فتنة تكون في حياة الإنسان .

السابع : « أو الساعة » يعني قيام الساعة الذي فيه الموت العام « والساعة أدهى وأمر » كما قال الله ﷻ : ﴿ بَلِ ٱلسَّاعَةُ مَوْعِدُهُمْ وَٱلسَّاعَةُ أَدْهَىٰ وَأَمَرُّ ﴾ [القمر : ٤٦] .

فهذه سبع حذر منها النبي عليه الصلاة والسلام ، وأمرنا أن نبادر بالأعمال هذه السبع ، فبادر يا أخي المسلم بأعمالك الصالحة قبل أن يفوتك الأوان ، أنت الآن في نشاط ، وفي قوة ، وفي قدرة ، لكن قد يأتي عليك زمان لا تستطيع ولا تقدر على العمل الصالح ، فبادر وعود نفسك ، وأنت إذا عودت نفسك العمل الصالح اعتادته وسهل عليها وانقادت له ، وإذا عودت نفسك الكسل والإهمال ، عجزت عن القيام بالعمل الصالح ، نسأل الله أن يعينني وإياكم على ذكره وشكره وحسن عبادته .

* * *

٩٤ - الثامن : عنه أن رسولَ الله ﷺ قال يومَ خَيبَر : « لأُعْطِيَنَّ هذه الرَّايةَ رَجُلًا يُحِبُّ اللَّهَ وَرَسُولَه ، يَفْتَحِ اللَّه عَلَى يَدَيهِ » قَالَ عُمَر ﷺ : مَا أَحْبَبْت الإمَارَةَ إلا يَومَئِذٍ ، فَتَساوَرْتُ لَهَا رَجاء أَنْ أُدْعَى لَهَا ، فَدَعَا رسول اللَّه ﷺ عليَّ بن أَبي طَالب ﷺ فَأَعْطَاه إيَّاهَا ، وَقَالَ : « امْشِ وَلا تَلْتَفتْ حَتَّى يَفْتَحَ اللَّه عَلَيكَ » فَسَارَ عَلَيٌّ شَيئًا ، ثُمَّ وَقَفَ وَلَمْ يَلتَفِتْ ، فَصرَخَ : يَا رسول اللَّه ، على ماذَا أُقاتل النَّاس ؟ قال : « قَاتلْهُمْ حَتَّى يَشْهَدوا أَن لا إله إلا اللَّه ، وأَنَّ مُحَمَّدًا رسول اللَّه ، فَإِذَا فَعَلُوا ذلكَ فَقَدْ مَنَعُوا منْكَ دِمَاءهُمْ وَأَمْوَالهُمْ

---

(١) انظر عن فتنة الدجال : البخاري في الفتن (٧١٢٢ - ٧١٣٥) ومسلم في الفتن (١٠٤ - ١٠٨) وأحمد في مسنده (٢/٣٢ ، ٤٣) .

(٢) أخرجه البخاري في الفتن (٧١٣١) .

(٣) ودليل ذلك ما أخرجه مسلم في الفتن (١١٠) .

(٤) أخرجه البخاري في الجنائز (١٣٧٧) ومسلم في المساجد ومواضع الصلاة (١٢٨) ، والنسائي في السنن (٨/٢٦٦) وأحمد في مسنده (٢/٥٢٢) .

إلا بحَقِّهَا ، وَحِسَابُهُمْ عَلَى اللّهِ »[1] رواه مسلم . « فَتَسَاورتُ » هُوَ بالسِّين المهملة : أي وَثَبت مُتَطَلِّعًا .

الشرح

قال المؤلف - رحمه اللّه تعالى - فيما نقله عن أبي هريرة ﷺ . أن رسول اللّه ﷺ قال يوم خيبر : « لأعطين هذه الراية رجلًا يحبُّ اللّه ورسوله » ، وفي لفظ : « ويحبه اللّه ورسوله »[2] يوم خيبر : يعني يوم غزوة خيبر ، وخيبر حصون ومزارع كانت لليهود تبعد عن المدينة نحو مائة ميل نحو الشمال الغربي ، فتحها النبي - عليه الصلاة والسلام - كما هو معروف في السير ، وكان الذين يعملون فيها اليهود ، فصالحهم النبي - عليه الصلاة والسلام - على أن يبقوا فيها مزارعين بالنصف ، لهم نصف الثمرة وللمسلمين نصف الثمرة ، وبقوا على ذلك حتى أجلاهم عمر بن الخطاب ﷺ في خلافته ، أجلاهم إلى الشام وإلى أزرعات .

قال النبي - عليه الصلاة والسلام - : « لأعطين هذه الراية رجلًا يحبُّ اللّه ورسوله » الراية : هي ما يسمى عندنا العلم ، يحمله القائد من أجل أن يهتدي به الجيش وراءه وقوله : « رجلًا » نكرة لا يعلم من هو ، قال عمر بن الخطاب : فما تمنيت الإمارة إلا يومئذ ، رجاء أن يصيبه ما قاله النبي - عليه الصلاة والسلام - فتسورت لها ، وبات الناس تلك الليلة يخوضون ويلوكون ويدوكون كل منهم يرجو أن يعطاها ، فلما أصبحوا دعا النبي ﷺ علي بن أبي طالب ابن عمه ، قالوا : يارسول اللّه إنه يشتكي عينيه ، يعني عنده وجع في عينيه ، فدعا به فجاء ، فبصق في عينيه فبرأ كأن لم يكن به وجع ، في الحال واللّه على كل شيء قدير ، ثم أعطاه الراية ، وقال له : « امش ولا تلتفت حتى يفتح اللّه » .

ففعل ﷺ ، فلما مشى قليلًا وقف ، ولكنه لم يلتفت ؛ لأن النبي ﷺ قال له : لا تلتفت ، فصرخ بأعلى صوته يارسول اللّه ، على ماذا أقاتلهم ؟ قال : « قاتلهم حتى يشهدوا ألا إله إلا اللّه وأن محمدًا رسول اللّه » هذه الكلمة كلمة عظيمة ، لو وزنت بها السماوات والأرض لرجحت بالسماوات والأرض ، هذه الكلمة يدخل بها الإنسان من الكفر إلى الإسلام ، فهي باب الإسلام : شهادة ألا إله إلا اللّه ، وأن محمدًا رسول اللّه ، « فإذا فعلوا ذلك فقد منعوا منك دماءهم وأموالهم إلا بحقها وحسابهم على اللّه » يعني إذا قالوا : نشهد ألا إله إلا اللّه وأن محمدًا رسول اللّه ؛ فإنهم لا يقاتلون ، منعوا دماءهم وأموالهم إلا بحقها ، أي بحق لا إله إلا اللّه ، أي بالحقوق التابعة لها ؛ لأن لا إله إلا اللّه ليست مجرد لفظ يقولها الإنسان بلسانه ، بل لها شروط ولها أمور لابد أن تتم .

ولهذا قيل لبعض السلف : أليس مفتاح الجنة لا إله إلا اللّه ؟ فقال : نعم ، مفتاح الجنة لا إله إلا اللّه ، لكن لا بد من عمل ؛ لأن المفتاح يحتاج إلى أسنان ، وقد صدق رحمه الله : المفتاح يحتاج إلى أسنان ، لو جئت بمفتاح بدون أسنان ما فتح لك .

إذن قول الرسول - عليه الصلاة والسلام - : « إلا بحقها » يشمل كل شيء يكفر به الإنسان مع

---

(١) أخرجه مسلم في فضائل الصحابة (١٢٨) .

(٢) أخرجه أحمد في مسنده (٣٣٣/٥) ، والحاكم في المستدرك (٤٣٧/٣) .

قول لا إله إلا الله ، فإن من كفر وإن كان يقول لا إله إلا الله محمدًا رسول الله ، ولكنه أتى بمكفِّر فإن هذه الكلمة لا تنفعه .

ولهذا كان المنافقون يقولون لا إله إلا الله ، وإذا رأيتهم تعجبك أجسامهم ، هيئتهم ، وشكلهم كأنهم أكمل المؤمنين إيمانًا ، ويأتون للرسول ﷺ يقولون له : ﴿ نَشْهَدُ إِنَّكَ لَرَسُولُ ٱللَّهِ ﴾ الكلام مؤكد بثلاث مؤكدات (نشهد) (إنَّ) و (اللام) في ﴿ لَرَسُولُ ٱللَّهِ ﴾ فقال ربُّ العزة والجلال الذي يعلم ما في الصدور : ﴿ وَٱللَّهُ يَعْلَمُ إِنَّكَ لَرَسُولُهُۥ وَٱللَّهُ يَشْهَدُ إِنَّ ٱلْمُنَٰفِقِينَ لَكَٰذِبُونَ ﴾ [المنافقون : ١] أعطاهم شهادة بشهادة ، يشهد إن المنافقين لكاذبون ، وأكد الله ﷻ كذب هؤلاء في قولهم : نشهد إنك لرسول الله بثلاثة مؤكدات ، فليس كل من قال لا إله إلا الله يعصم دمه وماله ؛ لأن النبي ﷺ استثنى فقال : « إلا بحقها » .

ولما منع الزكاة من منعها من العرب بعد وفاة النبي ﷺ ، واستعد أبو بكر ﵁ لقتالهم ، تكلم معه من تكلم من الصحابة ، وقالوا : كيف تقاتلهم وهم يقولون : لا إله إلا الله ؟ قال ﵁ : والله لأقاتلن من فرق بين الصلاة والزكاة ، الزكاة حق المال ، وقد قال النبي ﷺ : « إلا بحقها » [(١)] فقاتلهم ﵃ على ذلك وانتصر ولله الحمد .

فالحاصل : أنه ليس كل من قال لا إله إلا الله فإنه يمنع دمه وماله ، ولكن لا بد من حق ، ولذلك قال العلماء - رحمهم الله - : لو أن قرية من القرى تركوا الأذان والإقامة ؛ فإنهم لا يكفرون ولكن يقاتلون وتستباح دماؤهم حتي يؤذنوا ويقيموا ، مع أن الأذان والإقامة ليسا من أركان الإسلام ، لكنها من حقوق الإسلام ، قالوا : ولو تركوا صلاة العيد مثلًا ، مع أن صلاة العيد ليست من الفرائض الخمس ، لو تركوا صلاة العيد وجب قتالهم ، يقاتلون بالسيف والرصاص حتى يصلوا العيد ، مع أن صلاة العيد فرض كفاية أو سنة عند بعض العلماء ، أو فرض عين على القول الراجح ، لكن الكلام على أن القتال قد يجوز مع إسلام المقاتلين ليذعنوا لشعائر الإسلام الظاهرة ، ولهذا قال هنا : « إلا بحقها » .

وفي هذا الحديث : دليل على أنه يجوز للإنسان أن يقول : لأفعلن كذا في المستقبل ، وإن لم يقل : إن شاء الله . ولكن يجب أن نعلم الفرق بين شخص يخبر عما في نفسه ، وشخص يخبر أنه سيفعل ، يعني يريد الفعل .

أما الأول : فلا بأس أن يقول سأفعل بدون إن شاء الله ؛ لأنه إنما يخبر عما في نفسه ، وأما الثاني الذي يريد أنه يفعل أي يوقع الفعل فعلًا : فهذا لا يقل إلا مقيدًا بالمشيئة قال تعالى : ﴿ وَلَا تَقُولَنَّ لِشَاْيْءٍ إِنِّي فَاعِلٌ ذَٰلِكَ غَدًا ۝ إِلَّآ أَن يَشَآءَ ٱللَّهُ ﴾ [الكهف : ٢٣، ٢٤] . فهناك فرق بين من يخبر عما في نفسه وبين من يقول إنني سأفعل غدًا . غدًا ليس إليك ، ربما تموت قبل غدٍ ، وربما تبقى ولكن يكون هناك موانع وصوارف ، وربما تبقى ويصرف الله همتك عنه ، كما يقع كثيرًا ؛ كثيرًا ما يريد الإنسان أن يفعل فعلًا غدًا أو في آخر النهار ، ثم يصرف الله همته .

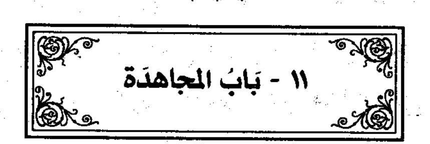
---

(١) أخرجه البخاري في الاعتصام (٧٢٨٤) ، ومسلم في الإيمان (٣٢) .

ولهذا قيل لبعض الأعراب - والأعراب سبحان الله عندهم أحيانًا جواب فطري - : بما عرفت ربك ؟ فأجاب أحدهم قائلًا : الأثر يدل على المسير ، والبعرة تدل على البعير . فسماء ذات أبراج وأرض ذات فجاج ، وبحار ذات أمواج ، ألا تدل على السميع البصير ؟ - الله أكبر - أعرابي لا يعرف لكنه استدل بعقله ؛ هذه الأمور العظيمة ألا تدل على خالق يخلقها ويدبرها ؟ بلى والله . وسئل آخر : بما عرفت ربك ؟ قال : بنقض العزائم وصرف الهمم . فكيف هذا ؟ يعزم الإنسان على شيء ثم تنتقض عزيمته بدون أي سبب ظاهر ، إذن من الذي نقضها ؟ الذي نقض العزيمة هو الذي أودعها أولًا ، وهو الله ﷻ وصرف الهمم حيث يهم الإنسان بالشيء ، وربما يبدأ به فعلًا ثم ينصرف .

لذا نقول إن في هذا الحديث دليلٌ على أن الإنسان له أن يقول سأفعل كذا إخبارًا عما في نفسه ، لا جزمًا بأن يفعل ؛ لأن المستقبل له الله ، لكن إذا أخبرت عما في نفسك فلا حرج .

* * *



١١ - باب المجاهدة

قال الله تعالى : ﴿ وَالَّذِينَ جَٰهَدُواْ فِينَا لَنَهْدِيَنَّهُمْ سُبُلَنَاۚ وَإِنَّ ٱللَّهَ لَمَعَ ٱلْمُحْسِنِينَ ﴾ [العنكبوت : ٦٩] . وقال تعالى : ﴿ وَٱعْبُدْ رَبَّكَ حَتَّىٰ يَأْتِيَكَ ٱلْيَقِينُ ﴾ [الحجر : ٩٩] . وقال الله تعالى : ﴿ وَٱذْكُرِ ٱسْمَ رَبِّكَ وَتَبَتَّلْ إِلَيْهِ تَبْتِيلًا ﴾ [المزمل : ٨] : أي انْقَطِعْ إليه . وقال الله تعالى : ﴿ فَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْرًا يَرَهُۥ ﴾ [الزلزلة : ٧] . وقال تعالى : ﴿ وَمَا تُقَدِّمُواْ لِأَنفُسِكُم مِّنْ خَيْرٍ تَجِدُوهُ عِندَ ٱللَّهِ هُوَ خَيْرًا وَأَعْظَمَ أَجْرًاۚ ﴾ [المزمل : ٢٠] . وقال تعالى : ﴿ وَمَا تُنفِقُواْ مِنْ خَيْرٍ فَإِنَّ ٱللَّهَ بِهِۦ عَلِيمٌ ﴾ [البقرة : ٢٧٣] والآيات في الباب كثيرةٌ معلومة .

الشرح

قال المؤلف - رحمه الله تعالى - : (باب المجاهدة) المجاهدة تعني مجاهدة الإنسان نفسه ومجاهدته غيره . **فأما مجاهدة الإنسان نفسه** : فإنها من أشق الأشياء ، ولا يتم مجاهدة الغير إلا بمجاهدة النفس أولًا ، ومجاهدة النفس تكون بأن يجاهد الإنسان نفسه على شيئين : على فعل الطاعات ، وعلى ترك المعاصي ؛ لأن فعل الطاعات ثقيل على النفس إلا من خففه الله عليه ، وترك المعاصي كذلك ثقيل على النفس إلا من خففه الله عليه ، فتحتاج النفس إلى مجاهدة لا سيما مع قلة الرغبة في الخير ، فإن الإنسان يعاني من نفسه معاناة شديدة ليحملها على فعل الخير .

ومن أهم ما يكون من هذا : مجاهدة النفس على الإخلاص لله ﷻ في العبادة ، فإن الإخلاص أمره عظيم وشاق جدًّا ، حتى إن بعض السلف يقول : ما جاهدت نفسي على شيء مجاهدتها على الإخلاص ، ولهذا كان جزاء المخلصين أن من قال لا إله إلا الله خالصًا من قلبه ؛ حرمه الله على النار [١] .

لكن متى يكون هذا الأمر ؟ إن هذا الأمر شديد جدًّا ، فالمجاهدة على الإخلاص لله من أشد ما

(١) انظر ذلك فيما أخرجه المنذري في الترغيب والترهيب (٤١٢/٢) ، وبنحوه أحمد في مسنده (٤٦٧/٣) .

يكون على النفوس ؛ لأن الإنسان يحب أن يكون مرموقًا عند الناس ، ويحب أن يكون محترمًا بين الناس ، ويحب أن يقال إن هذا رجل عابد ، هذا رجل فيه كذا وكذا من خصال الخير ، فيدخل الشيطان على الإنسان من هذا الباب ، ويحمله على مراءاة الناس . وقد قال النبي ﷺ « من راءى راءى اللَّه به ، ومن سمَّع سمَّع اللَّه به »[1] يعني أظهر أمره للناس حتى ينكشف والعياذ بالله .

كذلك أيضًا مما يجاهد الإنسان نفسه عليه فعل الطاعات الشاقة مثل : الصوم ، فإن الصوم من أشق الطاعات على النفوس ؛ لأن فيه ترك المألوف من طعام وشراب ونكاح ، فتجده يكون شاقًّا على الناس إلا من يسره اللَّه عليه وخفف عنه . تجد بعض الناس مثلًا إذا دخل رمضان كأنما وضع على ظهره جبل والعياذ بالله ؛ لأنه يستثقل الصوم ويرى أنه شاق ، حتى إن بعضهم يجعل حظ يومه النوم ، وحظ ليله السهر في أمر لا خير له فيه ، كل ذلك من أجل مشقة هذه العبادة عليه .

كذلك أيضًا من الأشياء التي تحتاج إلى مجاهدة : مجاهدة الإنسان نفسه على الصلاة مع الجماعة . فكثير من الناس يسهل عليه أن يصلي في بيته ، لكن يشق عليه أن يصلي مع الجماعة في المساجد ، فتجده مع نفسه في جهاد ؛ يقول : أصبر أؤدي هذا الشغل ، أو أفعل كذا أو أفعل كذا ، حتى يُسَوِّف فتفوته صلاة الجماعة ، وثقل صلاة الجماعة على الإنسان يدل على أن في قلب الإنسان نفاقًا ، والدليل على ذلك قول النبي ﷺ : « أثقل الصلوات على المنافقين صلاة العشاء وصلاة الفجر ، ولو يعلمون ما فيهما لأتوهما ولو حبوًا »[2] ، وهذا يحتاج إلى المجاهدة .

أما مجاهدة النفس على ترك المحرم : فما أكثر المحرمات التي يشق على بعض الناس تركها ، فتجد البعض يعتاد على فعل المحرم ويشق عليه تركه ، ولنضرب لهذا مثلين .

المثل الأول : الدخان ، فإن كثيرًا من الناس ابتلي بشرب الدخان ، وأول ما خرج الدخان اختلف العلماء فيه ؛ منهم من قال : إنه حلال ، ومنهم في قال : إنه حرام ، ومنهم من قال : إنه مكروه ، ومنهم من ألحقه بالخمر حتى أوجب الحد على شاربه ، ولكن بعد أن مضت الأيام تبين تبينًا لا شك فيه أنه حرام ؛ لأن الأطباء أجمعوا على أنه مضر بالصحة ، وأنه سبب لأمراض مستعصية تؤدي بالإنسان إلى الموت ، ولهذا نجد بعض المدخنين يموت وهو يكلمك ، أو يموت وهو على الفراش ، وإذا حمل أدنى شيء انقطع قلبه ومات ، وهذا يدل على أنه ضار ، والشيء الضار محرم على الإنسان ؛ لأن اللَّه يقول ﴿ وَلَا تَقْتُلُوٓا۟ أَنفُسَكُمْ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ بِكُمْ رَحِيمًا ﴾ [النساء : ٢٩] ويشق على بعض المبتلين بهذا الدخان أن يدعه ، مع أنه لو عَوَّدَ نفسه على تركه شيئًا فشيئًا وابتعد عن الذين يشربونه ، وصار يكره رائحته لهان عليه الأمر ، لكن المسألة تحتاج إلى عزيمة قوية وإيمان صادق .

المثل الثاني : مما يشق على كثير من الناس وقد ابتلي به الكثير : حلق اللحى ، فإن حلق اللحية محرم لأن الرسول ﷺ قال : « خالفوا المجوس . خالفوا المشركين ، وفِّروا اللحى ، وأحفُّوا الشوارب »[3] ،

---

(١) أخرجه مسلم في الزهد (٤٧) بلفظه ، والبخاري في الأحكام (٦٤٩٩) بنحوه .

(٢) أخرجه أحمد في مسنده (٢/٢٤٢) بلفظه . والبخاري في الأذان (٦٥٧) بلفظ « ليس صلاة أثقل على المنافقين » .

(٣) هذا الحديث لم يرد بهذا النص ؛ بل إنه حديثان الأول : « خالفوا المجوس » أخرجه مسلم في الطهارة (٥٥) ، وأحمد في =

وكثير من الناس قد غلبته نفسه فصار يحلق لحيته ، ولا أدري أي شيء يجني من حلق اللحية ؟ لا يجني إلا معاصي تتراكم عليه حتى تضعف إيمانه والعياذ بالله ؛ لأن من مذهب أهل السنة والجماعة : أن المعاصي تنقص الإيمان ، فيكتسب حالق اللحية معاصي تنقص إيمانه ، مع أنه لا يزيد نشاطه ولا صحته ، ولا تندفع عنه بذلك الأمراض ، ولكنه ابتلي بهذا الشيء وصار شاقًّا عليه ، فعلى الإنسان أن يجاهد نفسه على فعل الأوامر وعلى ترك النواهي ، حتى يكون من المجاهدين في الله ﷻ ، وقد قال الله تعالى في جزائهم : ﴿ وَالَّذِينَ جَاهَدُوا فِينَا لَنَهْدِيَنَّهُمْ سُبُلَنَا وَإِنَّ اللَّهَ لَمَعَ الْمُحْسِنِينَ ﴾ [العنكبوت : ٦٩] .

أما مجاهدة الغير : فإنها تنقسم إلى قسمين ؛ قسم بالعلم والبيان ، وقسم بالسلاح .

أما من مجاهدته بالعلم والبيان : فهو الذي يتسمى بالإسلام وليس من المسلمين ؛ مثل : المنافقين ، وأهل البدع المكفرة ، وما أشبه ذلك ، فإن هؤلاء لا يمكن أن نجاهدهم بالسلاح ؛ لأنهم يتظاهرون بالإسلام وأنهم معنا ، ولكننا نجاهدهم بالعلم والبيان ، قال الله تعالى : ﴿ يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ جَاهِدِ الْكُفَّارَ وَالْمُنَافِقِينَ وَاغْلُظْ عَلَيْهِمْ وَمَأْوَاهُمْ جَهَنَّمُ وَبِئْسَ الْمَصِيرُ ﴾ [التوبة : ٧٣] فجهاد الكفار يكون بالسلاح ، وجهاد المنافقين يكون بالعلم والبيان .

ولهذا كان الرسول - عليه الصلاة والسلام - يعلم بأن في أصحابه منافقين ، ويعلمهم بأعيانهم ولكنه لا يقتلهم ، واستؤذن في قتلهم فقال : « لا يتحدث الناس بأن محمدًا يقتل أصحابه » ، فكذلك الذين ينطوون تحت لواء الإسلام من أهل البدع لا نقاتلهم بالسلاح ، لكننا نقاتلهم بالعلم والبيان .

ولهذا كان واجبًا على شباب الأمة الإسلامية أن يتعلموا العلم على وجه راسخ ثابت ، لا علي وجه سطحي كما يوجد في كثير من بيوت العلم ، حيث يتعلمون علمًا سطحيًّا لا يرسخ بالذهن ، علمًا يقصد به الإنسان أن يحصل على بطاقة أو شهادة فقط ، ولكن العلم الحقيقي هو العلم الذي يرسخ في القلب ، ويكون كالمَلَكَةِ للإنسان ، حتى إن الإنسان الذي يوفق لهذا النوع من العلم تجده لا يكاد تأتيه مسألة من المسائل إلا عرف كيف يخرجها على الأدلة من الكتاب والسنة والقياس الصحيح ، فلابد من علم راسخ .

والناس اليوم في عصرنا محتاجون إلى هذا النوع من العلم ؛ لأن البدع بدأ يفشو ظلامها في بلدنا ، هذا بعد أن كانت نزيهة منها ، لكن نظرًا لانفتاحنا على الناس وانفتاح الناس علينا ، وذهاب بعضنا إلى بلاد أخرى ، ومجيء آخرين إلى بلادنا ليسوا على عقيدة سليمة ، بدأت البدع تظهر ويفشو ظلامها . وهذه البدع تحتاج إلى نور من العلم يضيء الطريق حتى لا يصيب بلادنا ما أصاب غيرها من البدع المنكرة العظيمة التي قد تصل إلى الكفر - والعياذ بالله ، فلا بد من مجاهدة أهل البدع وأهل النفاق بالعلم والبيان ، وبيان بطلان ما هم عليه بالأدلة المقنعة من كتاب الله ، وسنة رسوله ﷺ ، وأقوال السلف الصالح من الصحابة والتابعين لهم بإحسان ، وأئمة الهدى من بعدهم .

= مسنده (٢/٣٦٦) ، والثاني : « خالفوا المشركين » أخرجه البخاري في اللباس (٥٨٩٢) ، ومسلم في الطهارة (٥٤) .

أما النوع الثاني من جهاد الغير : فهو الجهاد بالسلاح وهذا في جهاد الأعداء الذين يظهرون العداوة للإسلام ويصرحون بذلك ؛ مثل : اليهود والنصارى الذين يُسمون بالمسيحيين - والمسيح منهم بريء - عليه الصلاة والسلام - المسيح لو أنه خرج لقاتلهم وهم ينتسبون إليه ، يقول الله ﷻ : ﴿ وَإِذْ قَالَ اللَّهُ يَٰعِيسَى ٱبْنَ مَرْيَمَ ءَأَنتَ قُلْتَ لِلنَّاسِ ٱتَّخِذُونِى وَأُمِّىَ إِلَٰهَيْنِ مِن دُونِ ٱللَّهِ ﴾ [المائدة : ١١٦] فماذا كان جواب عيسى ؟ : ﴿ قَالَ سُبْحَٰنَكَ مَا يَكُونُ لِىٓ أَنْ أَقُولَ مَا لَيْسَ لِى بِحَقٍّ إِن كُنتُ قُلْتُهُۥ فَقَدْ عَلِمْتَهُۥ تَعْلَمُ مَا فِى نَفْسِى وَلَآ أَعْلَمُ مَا فِى نَفْسِكَ إِنَّكَ أَنتَ عَلَّٰمُ ٱلْغُيُوبِ ۝ مَا قُلْتُ لَهُمْ إِلَّا مَآ أَمَرْتَنِى بِهِۦٓ أَنِ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ رَبِّى وَرَبَّكُمْ وَكُنتُ عَلَيْهِمْ شَهِيدًا مَّا دُمْتُ فِيهِمْ فَلَمَّا تَوَفَّيْتَنِى كُنتَ أَنتَ ٱلرَّقِيبَ عَلَيْهِمْ وَأَنتَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ شَهِيدٌ ﴾ [المائدة : ١١٦، ١١٧] .

فعيسى ابن مريم قال لهم ما أمرهم الله به : اعبدوا الله ربي وربكم ، ولكنهم كانوا يعبدون عيسى ، ويعبدون مريم ، ويعبدون الله ، ويقولون : « إن الله ثالث ثلاثة » ، إذن كيف يصح أن ينتسب هؤلاء إلى عيسى وهو يتبرأ منهم أمام الله ﷻ .

فاليهود والنصارى والمشركون من البوذيين وغيرهم والشيوعيون ، كل هؤلاء أعداء للمسلمين يجب على المسلمين أن يقاتلوهم حتى تكون كلمة الله هي العليا ، ولكن - مع الأسف - المسلمون اليوم في ضعف شديد ، وفي هوان وذل يقاتل بعضهم بعضًا أكثر مما يقاتلون أعداءهم ، هم فيما بينهم يتقاتلون أكثر مما يتقاتلون مع أعدائهم ، ولهذا سلط الأعداء علينا وصرنا كالكرة في أيديهم يتقاذفونها حيث يشاؤون .

لهذا يجب على المسلمين أن ينتبهوا لهذا الأمر ، وأن يعدوا العدة ولأن الله تعالى قال : ﴿ وَأَعِدُّوا۟ لَهُم مَّا ٱسْتَطَعْتُم مِّن قُوَّةٍ وَمِن رِّبَاطِ ٱلْخَيْلِ تُرْهِبُونَ بِهِۦ عَدُوَّ ٱللَّهِ وَعَدُوَّكُمْ وَءَاخَرِينَ مِن دُونِهِمْ لَا تَعْلَمُونَهُمُ ٱللَّهُ يَعْلَمُهُمْ ﴾ [الأنفال : ٦٠] وقال ﷻ : ﴿ قَٰتِلُوا۟ ٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَلَا بِٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِ وَلَا يُحَرِّمُونَ مَا حَرَّمَ ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥ وَلَا يَدِينُونَ دِينَ ٱلْحَقِّ مِنَ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْكِتَٰبَ حَتَّىٰ يُعْطُوا۟ ٱلْجِزْيَةَ عَن يَدٍ وَهُمْ صَٰغِرُونَ ﴾ [التوبة : ٢٩] .

﴿ يُعْطُوا۟ ٱلْجِزْيَةَ ﴾ أي يبذلون الجزية لنا ﴿ عَن يَدٍ ﴾ فيها قولان للعلماء ﴿ عَن يَدٍ ﴾ يعني عن قوة منا عليها [1] ، أو ﴿ عَن يَدٍ ﴾ يعني عن واحدة من أيديهم ، بحيث يمدها هو بنفسه - اليهودي أو النصراني - ولهذا قال العلماء : لو أرسل بها خادمه لم نأخذها حتى يأتي بنفسه ويسلمها للمسؤول من المسلمين . وتصوروا كيف يريد الله منا وكيف يكون الإسلام في هذه العزة ؛ تضرب عليهم الجزية ، ويأتون بها هم بأنفسهم ، ولو كان أكبر واحد منهم يأتي بها حتى يسلمها إلى المسؤول في الدولة الإسلامية عن يد وهو صاغر أيضًا ، لا يأتي بأبهة وبجنود وبقوم وبحشم ؛ بل يأتي وهو صاغر .

ثم إذا قال قائل : كيف تكون تعاليم الإسلام هكذا ؟ أليست هذه عصبية ؟

قلنا : عصبية لمن ؟ هل المسلمون يريدون عصبية لهم يستطيلون بها على الناس ؟ أبدًا فالمسلمون أحسن الناس أخلاقًا ، لكنهم يريدون أن تكون كلمة الخالق الذي خلقهم وخلق هؤلاء هي العليا ، ولا يمكن أن تكون هي العليا حتى يكون المسلمون هم الأعلون ، ولكن متى يكون المسلمون هم

---

(١) وهو قول عكرمة (انظر تفسير الطبري ١٤٢/١٠) .

الأعلون؟ يكونون كذلك إذا تمسكوا بدين الله حقًا ظاهرًا وباطنًا، وعرفوا أن العزّة لله ولرسوله وللمؤمنين [(١)].

أما أن يذلوا عن دين الله، ثم يذلوا أمام أعداء الله، ثم يصيروا أذنابًا لأعداء الله فأين العزة إذن؟.. لا يمكن أن تكون بهذا عزة أبدًا.

الإسلام دين حق. دين علو، قال الله ﷻ: ﴿ فَلَا تَهِنُوا وَتَدْعُوا إِلَى السَّلْمِ وَأَنتُمُ الْأَعْلَوْنَ وَاللَّهُ مَعَكُمْ ﴾ [محمد: ٣٥] أي شيء تريدون بعد؟ ﴿ وَأَنتُمُ الْأَعْلَوْنَ وَاللَّهُ مَعَكُمْ ﴾ كيف تدعون إلى السلم؟ كيف تهنون؟ ولكن نظرًا لتعثرنا في ديننا، تأخرنا وكنا على العكس من ذلك. كان الناس في عهد السلف الصالح يمشي المسلم وهو يرى أنه هو المستحق لأرض الله؛ لأن الله قال في كتابه: ﴿ وَلَقَدْ كَتَبْنَا فِي الزَّبُورِ مِن بَعْدِ الذِّكْرِ أَنَّ الْأَرْضَ يَرِثُهَا عِبَادِيَ الصَّالِحُونَ ﴾ [الأنبياء: ١٠٥] فهو يرى أنه صاحب الأرض. أما الآن فبالعكس مع الأسف الشديد، ولهذا نحن نحث أبناءنا وشبابنا على أن يفقهوا الدين حقيقة، ويتمسكوا به حقيقة، وأن يحذروا أعداء الله ﷻ، وأن يعلموا أنه لا يمكن لعدو الله وعدوهم أن يسعى في مصلحتهم إطلاقًا، بل لا يسعى إلا لمصلحة نفسه وتدمير المسلمين ومن ورائهم الإسلام. فنسأل الله تعالى أن يعزنا بدينه وأن يعز دينه بنا، وأن يجعلنا من دعاة الحق وأنصاره، وأن يهيئ للأمة الإسلامية قادة خير يقودونها لما فيه صلاحها وسعادتها في دينها ودنياها.

* * *

وأما الأحاديث:

٩٥ - فالأول: عن أبي هريرة ؓ قال: قال رسول الله ﷺ: «إنَّ الله تعالى قال: مَنْ عَادَى لي وَلِيًّا فَقَدْ آذَنْتُهُ بالحَرْب. وَما تَقَرَّبَ إلَيَّ عَبْدِي بشيءٍ أَحبَّ إلَيَّ مِمَّا افْتَرَضْت عَلَيهِ، وَمَا يَزَالُ عَبْدِي يَتَقرَّبُ إلَيَّ بالنَّوافِلِ حَتَّى أُحِبَّه، فَإذَا أَحْبَبْتُهُ كُنْتُ سَمعَهُ الَّذِي يَسْمَعُ به، وَبَصَرَهُ الَّذِي يُبْصرُ بِهِ، وَيَدَهُ الَّتي يَبطشُ بِهَا، وَرِجْلَهُ الَّتي يَمْشِي بهَا، وَإنْ سَأَلني أَعْطَيتُهُ، وَلَئِن اسْتَعَاذَني لأُعِيذَنَّهُ» [(٢)] رواه البخاري. «آذَنْتُهُ»: أَعْلَمْتُهُ بأَنِّي مُحَارِبٌ لَهُ «اسْتَعَاذَني» رُوي بالنون وبالباء.

الشرح

نقل المؤلف ؒ عن أبي هريرة ؓ، عن النبي ﷺ أنه قال: «قال الله تعالى: من عادى لي وليًا فقد آذنته بالحرب» المعاداة هي المباعدة، وهي ضد الموالاة، والولي بيّنه الله ﷻ في قوله ﴿ أَلَا إِنَّ أَوْلِيَاءَ اللَّهِ لَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ۝ الَّذِينَ آمَنُوا وَكَانُوا يَتَّقُونَ ﴾ [يونس: ٦٢، ٦٣] هؤلاء هم أولياء الله، ﴿ الَّذِينَ آمَنُوا ﴾: أي حققوا الإيمان في قلوبهم بكل ما يجب الإيمان به، ﴿ وَكَانُوا يَتَّقُونَ ﴾ أي حققوا العمل الصالح بجوارحهم، فاتقوا جميع المحارم من ترك الواجبات، أو فعل

---

(١) وهو قول ابن عباس (انظر تفسير الطبري ١٠/١٤٢).

(٢) أخرجه البخاري في الرقاق (٦٥٠٢)، والبيهقي في السنن (٣/٣٤٦، ١٠/٢١٩).

المحرمات ، فهم جمعوا بين صلاح الباطن بالإيمان ، وصلاح الظاهر بالتقوى ، هؤلاء هم أولياء الله .

وليست ولاية الله ﷺ تأتي بالدعوى ، كما يفعله بعض الدجالين الذين يموهون على العامة بأنهم أولياء لله ، وهم أعداء والعياذ بالله ، فتجد في بعض البلاد الإسلامية أناسًا يموهون للعامة ، يقولون نحن أولياء ، ثم يفعل من العبادات الظاهرة ما يموه به على العامة ، وهو من أعداء الله ، لكنه يتخذ من هذه الدعوة وسيلة إلى جمع المال ، وإلى إكرام الناس له ، وإلى تقربهم إليه وما أشبه ذلك .

وعندنا - ولله الحمد - ضابط بيّنه الله ﷻ ، وتعريف جيد للأولياء ﴿ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَكَانُوا۟ يَتَّقُونَ ﴾ هؤلاء هم أولياء الله . فالذي يعادي أولياء الله يقول الله ﷻ « فَقَدْ آذَنتهُ بالحَرْب » يعني أعلنت عليه الحرب . فالذي يعادي أولياء الله محارب لله ﷻ ، نسأل الله العافية ، ومن حارب الله فهو مهزوم مخذول لا تقوم له قائمة .

ثم قال ﷺ : « وما تقرب إلي عبدي بشيء أحب إليّ مما افترضت عليه » يعني أن الله يقول : « ما تقرب إليّ الإنسان بشيء أحبُّ إليّ مما افترضته عليه » يعني أن الفرائض أحب إلى الله من النوافل ، فالصلوات الخمس مثلًا أحب إلى الله من قيام الليل ، وأحب إلى الله من النوافل ، وصيام رمضان أحب إلى الله من صيام الاثنين والخميس والأيام الست من شوال وما أشبهها . كل الفرائض أحب إلى الله من النوافل .

ووجه ذلك : أن الفرائض وكَّدها الله ﷻ فألزم بها العباد ، وهذا دليل على شدة محبته لها ﷻ ، فلما كان يحبها حبًّا شديدًا ألزم بها العباد ، أما النوافل فالإنسان حر : إن شاء تنفل وزاد خيرًا ، وإن شاء لم يتنفل ، لكن الفرائض أحب إلى الله وأوكد ، والغريب أن الشيطان يأتي الناس فتجدهم في النوافل يحسنونها تمامًا ؛ تجده مثلًا في صلاة الليل يخشع ولا يتحرك ، ولا يذهب قلبه يمينًا ولا شمالًا ، لكن إذا جاءت الفرائض ؛ فالحركة كثيرة ، والوساوس كثيرة ، والهواجس بعيدة ، وهذا من تزيين الشيطان ، فإذا كنت تزين النافلة فالفريضة أحق بالتزيين ، فأحسن الفريضة لأنها أحب إلى الله ﷻ من النوافل .

« وما يزال عبدي يتقرَّبُ إليّ بالنوافل حتى أحبَّهُ » النوافل تقرب إلى الله وهي تكمل الفرائض ، فإذا أكثر الإنسان من النوافل مع قيامه بالفرائض ؛ نال محبة الله ، فيحبه الله ، وإذا أحبه فكما يقول الله ﷻ « كنت سمعه الذي يسمع به ، وبصره الذي يبصر به ، ويده التي يبطش بها ، ورجله التي يمشي بها » يعني أنه يكون مسددًا له في هذه الأعضاء الأربعة ، في السمع : يسدده في سمعه فلا يسمع إلا ما يرضى الله وما فيه الخير والصلاح ، ويعرض عما يغضب الله فلا يستمع إليه ، ويكون ممن إذا سمعوا اللغو أعرضوا عنه وقالوا لنا أعمالنا ولكم أعمالكم . كذلك أيضًا بصره : فلا ينظر إلا إلى ما يحب الله النظر إليه ، ولا ينظر إلى المحرم ، ولا ينظر نظرًا محرمًا ، ويده : فلا يعمل بيده إلا ما يرضي الله ، لأن الله يسدده . وكذلك رجله : فلا يمشي إلا إلى ما يرضي الله فلا يسعى إلا إلى ما فيه الخير وهذا معنى قوله « كنت سمعه الذى يسمع به ، وبصره الذي يبصر به ، ويده التي يبطش بها ، ورجله التي يمشي بها » ، أي أنه تعالى يسدد عبده هذا في سمعه وبصره وبطشه ومشيه .

فإذا كان اللّه ﷻ مسددًا له في هذه الأشياء ؛ كان موفقًا مغتنمًا لأوقاته منتهزًا لفرصه .

وليس المعنى أن اللّه يكون نفس السمع ونفس البصر ونفس اليد ونفس الرجل- حاش لله- فهذا محال ، فإن هذه أعضاء وأبعاد لشخص مخلوق لا يمكن أن تكون هي الخالق ، ولأن اللّه تعالى أثبت في هذا الحديث في قوله : « ولئن سألني أعطيته ، ولئن استعاذني لأعيذنه » فأثبت سائلًا ومسؤولًا ، وعائذًا ومعوذًا به ، وهذا غير هذا .

وفي قوله ﷻ في هذا الحديث القدسي : « ولئن سألنى أعطيته » دليل على أن هذا الولي الذي تقرب إلى اللّه تعالى بالفرائض ثم بالنوافل إذا سأل اللّه أعطاه فكان مجاب الدعوة ، وهذا الإطلاق يقيد بالأحاديث الأخرى الدالة على أنه يعطي السائل سؤاله ما لم يسأل إثمًا أو قطيعة رحم ، فإن سأل إثمًا فإنه لا يجاب [1] ، لكن الغالب أن الولي لا يسأل الإثم ، لأن الولي هو المؤمن التقي ، والمؤمن التقي لا يسأل إثمًا ولا قطيعة رحم .

« ولئن استعاذني لأعيذنه » يعني لئن اعتصم بي ولجأ إليَّ من شر كل ذي شر لأعيذنه ، فيحصل له بإعطائه مسؤوله وإعاذته مما يتعوذ منه المطلوب ، ويزول عنه المرغوب .

وفي هذا الحديث عدة فوائد :

أولًا : إثبات الولاية لله ﷻ ، وولاية اللّه تعالى تنقسم إلى قسمين : ولاية عامة وهي السلطة على جميع العباد ، والتصرف فيهم بما أراد . فإن الذي يتولى أمور كل إنسان وتدبيره وتصريفه هو اللّه ﷻ ، ومن ذلك قوله تبارك وتعالى : ﴿ حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءَ أَحَدَكُمُ ٱلۡمَوۡتُ تَوَفَّتۡهُ رُسُلُنَا وَهُمۡ لَا يُفَرِّطُونَ ۝٦١ ثُمَّ رُدُّوٓاْ إِلَى ٱللَّهِ مَوۡلَىٰهُمُ ٱلۡحَقِّۚ ﴾ [الأنعام : ٦١، ٦٢] فهذه ولاية عامة تشمل جميع الخلق .

أما الولاية الخاصة : مثل قوله تعالى : ﴿ ٱللَّهُ وَلِيُّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ يُخۡرِجُهُم مِّنَ ٱلظُّلُمَٰتِ إِلَى ٱلنُّورِۖ وَٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ أَوۡلِيَآؤُهُمُ ٱلطَّٰغُوتُ يُخۡرِجُونَهُم مِّنَ ٱلنُّورِ إِلَى ٱلظُّلُمَٰتِۗ ﴾ [البقرة : ٢٥٧] .

والولاية العامة : تكون بغير سبب من الإنسان ، يتولى اللّه الإنسان شاء أم أبى وبغير سبب منه .

أما الولاية الخاصة : فإنها تكون بسبب من الإنسان ، فهو الذي يتعرض لولاية اللّه حتى يكون اللّه وليًا له ، ﴿ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَكَانُواْ يَتَّقُونَ ﴾ [يونس : ٦٣] .

ومن فوائد هذا الحديث : فضيلة أولياء اللّه ، وأن اللّه ﷻ يعادي من عاداهم ، بل يكون حربًا عليهم ﷻ .

ومن فوائد هذا الحديث : أن الأعمال الواجبة من صلاة وصدقة وصوم وحج وجهاد وعلم وغير ذلك أفضل من الأعمال المستحبة ؛ لأن اللّه تعالى قال : « ما تقرب إلي عبدي بشيء أحب إلي مما افترضته عليه » .

---

(١) وذلك مصداقًا لما رواه مسلم في الذكر (٩٢) ، وأحمد في مسنده (١٥٤/٤) .

ومن فوائده : إثبات المحبة لله ﷻ ، وأن الله تعالى يحب الأعمال بعضها أكثر من بعض ، كما أنه يحب الأشخاص بعضهم أكثر من بعض ، فالله ﷻ يحب العاملين بطاعته ويحب الطاعة ، وتتفاوت محبته ﷻ على حسب ما تقتضيه حكمته .

ومن فوائد هذا الحديث أيضًا : أن الإنسان إذا تقرب إلى الله بالنوافل مع القيام بالواجبات ؛ فإنه يكون بذلك معافًى في جميع أموره ، لقوله تعالى في هذا الحديث القدسي : « وما يزال عبدي يتقرب إلي بالنوافل حتى أحبه .... » إلخ .

وفيه : دليل أيضًا على أن من أراد أن يحبه الله ؛ فالأمر سهل عليه إذا سهله الله عليه ، يقوم بالواجبات ويكثر من التطوع بالعبادات ؛ فبذلك ينال محبة الله وينال ولاية الله .

ومن فوائد هذا الحديث : إثبات عطاء الله ﷻ وإجابة دعوته لوليه ، لقوله : « إن سألني أعطيته ، ولئن استعاذني لأعيذنه » . وأتى به المؤلف في باب المجاهدة ؛ لأن النفس تحتاج إلى جهاد في القيام بالواجبات ثم بفعل المستحبات ، نسأل الله أن يعيننا على ذكره وشكره وحسن عبادته .

* * *

٩٦ – الثاني : عن أنس ﷺ عن النبي ﷺ فيما يَرْوِيهِ عَنْ رَبِّه عَزَّ وَجَلَّ قال : « إِذَا تَقَرَّبَ العَبْدُ إِلَيَّ شِبْرًا تَقَرَّبْتُ إِلَيهِ ذِرَاعًا ، وَإِذَا تَقَرَّبَ إِلَيَّ ذراعًا تَقَرَّبْتُ مِنْهُ بَاعًا . وَإِذَا أَتَانِي يَمْشِي أَتَيْتُهُ هَرْوَلَةً »[١] رواه البخاري .

٩٧ – الثالث : عن ابن عباس ﷺ قال : قال رسول الله ﷺ : « نِعْمَتَانِ مَغْبُونٌ فِيهِمَا كَثِيرٌ مِنَ النَّاسِ : الصِّحَّةُ ، وَالفَرَاغُ »[٢] رواه البخاري .

الشرح

قال المؤلف – رحمه الله تعالى – فيما رواه عن ابن عباس ﷺ : إن النبي ﷺ قال : « نعمتان مغبون فيهما كثير من الناس : الصحة ، والفراغ » يعني أن هذين الجنسين من النعم مغبون فيهما كثير من الناس ، أي مغلوب فيهما ، وهما الصحة والفراغ ، وذلك أن الإنسان إذا كان صحيحًا كان قادرًا على ما أمره الله به أن يفعله ، وكان قادرًا على ما نهاه الله عنه أن يتركه ؛ لأنه صحيح البدن ، منشرح الصدر ، مطمئن القلب ، كذلك الفراغ إذا كان عنده ما يؤويه وما يكفيه من مؤنة فهو متفرغ . فإذا كان الإنسان فارغًا

---

(١) أخرجه البخاري في التوحيد (٧٤٠٥) ، والإمام أحمد في مسنده (٥٠٩/٢) كلاهما بلفظه ، وبلفظ : « من تقرب » ، المنذري في الترغيب والترهيب (١٠٤/٤) ، والهيثمي في مجمع الزوائد (١٩٦/١٠ ، ١٩٧) .

(٢) أخرجه البخاري في الرقاق (٦٤١٢) ، وأحمد في مسنده (٣٤٤/١) ، والترمذي في الزهد (٢٣٠٤) وابن ماجه في الزهد (٤١٧٠) ، والبيهقي في السنن (٣٧٠/٣) .

صحيحًا فإنه يغبن كثيرًا في هذا ؛ لأن كثيرًا من أوقاتنا تضيع بلا فائدة ونحن في صحة وعافية وفراغ ومع ذلك تضيع علينا كثيرًا ، ولكننا لا نعرف هذا الغبن في الدنيا ، إنما يعرف الإنسان الغبن إذا حضره أجله ، وإذا كان يوم القيامة ، والدليل على ذلك قول اللّه تعالى : ﴿ حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءَ أَحَدَهُمُ ٱلۡمَوۡتُ قَالَ رَبِّ ٱرۡجِعُونِ ۝٩٩ لَعَلِّيٓ أَعۡمَلُ صَٰلِحٗا فِيمَا تَرَكۡتُۚ ﴾ [المؤمنون : ٩٩، ١٠٠] وقال ﷻ في سورة المنافقون : ﴿ مِّن قَبۡلِ أَن يَأۡتِيَ أَحَدَكُمُ ٱلۡمَوۡتُ فَيَقُولَ رَبِّ لَوۡلَآ أَخَّرۡتَنِيٓ إِلَىٰٓ أَجَلٖ قَرِيبٖ فَأَصَّدَّقَ وَأَكُن مِّنَ ٱلصَّٰلِحِينَ ﴾ [المنافقون : ١٠] قال اللّه ﷻ : ﴿ وَلَن يُؤَخِّرَ ٱللَّهُ نَفۡسًا إِذَا جَآءَ أَجَلُهَاۚ وَٱللَّهُ خَبِيرُۢ بِمَا تَعۡمَلُونَ ﴾ [المنافقون : ١١] .

الواقع أن هذه الأوقات الكثيرة تذهب علينا سدى لا ننتفع منها ، ولا ننفع أحدًا من عباد اللّه ، ولا نندم على هذا إلا إذا حضر الأجل ؛ يتمنى الإنسان أن يعطى فرصة ولو دقيقة واحدة لأجل أن يستعتب ، ولكن لا يحصل ذلك .

ثم إن الإنسان قد لا تفوته هذه النعمة ، بل قد لا تفوته هاتان النعمتان : الصحة ، والفراغ ، بالموت بل قد تفوته قبل أن يموت ، قد يمرض ويعجز عن القيام بما أوجب اللّه عليه ، وقد يمرض ويكون ضيِّق الصدر لا ينشرح صدره ويتعب ، وقد ينشغل بإيجاد النفقة له ولعياله حتى تفوته كثير من الطاعات .

ولهذا ينبغي للإنسان العاقل أن ينتهز فرصة الصحة والفراغ بطاعة اللّه ﷻ بقدر ما يستطيع ، إن كان قارئًا للقرآن ؛ فليكثر قراءة القرآن ، وإن كان لا يعرف القراءة ؛ يكثر من ذكر اللّه ﷻ ، وإذا كان لا يمكنه ؛ يأمر بالمعروف وينهى عن المنكر ، أو يبذل لإخوانه كل ما يستطيع من معونة وإحسان ، فكل هذه خيرات كثيرة تذهب علينا سُدًى ، فالإنسان العاقل هو الذي ينتهز الفرص ؛ فرصة الصحة ، وفرصة الفراغ .

وفي هذا : دليل علي أن نعم اللّه تتفاوت ، وأن بعضها أكبر من بعض ، وأكبر نعمة ينعم اللّه تعالى بها على العبد : نعمة الإسلام ، نعمة الإسلام التي أضل اللّه عنها كثيرًا من الناس ، قال اللّه تعالى : ﴿ ٱلۡيَوۡمَ أَكۡمَلۡتُ لَكُمۡ دِينَكُمۡ وَأَتۡمَمۡتُ عَلَيۡكُمۡ نِعۡمَتِي وَرَضِيتُ لَكُمُ ٱلۡإِسۡلَٰمَ دِينٗاۚ ﴾ [المائدة : ٣] ، فإذا وجد الإنسان أن اللّه قد أنعم عليه بالإسلام وشرح اللّه صدره له ؛ فإن هذه أكبر النعم .

ثم ثانيًا : نعمة العقل فإن الإنسان إذا رأى مبتلى في عقله لا يحسن التصرف ، وربما يسيء إلى نفسه وإلى أهله ، حَمَدَ اللّه على هذه النعمة فإنها نعمة عظيمة .

ثالثًا : نعمة الأمن في الأوطان ؛ فإنها من أكبر النعم ، ونضرب لكم مثلًا بما سبق عن آبائنا وأجدادنا من المخاوف العظيمة في هذه البلاد ، حتى إننا نسمع أنهم كانوا إذا خرج الواحد منهم إلى صلاة الفجر لا يخرج إلا مصطحبًا سلاحه ؛ لأنه يخشى أن يعتدي عليه أحد ، فنعمة الأمن لا يشابهها نعمة غير نعمة الإسلام والعقل .

رابعًا : كذلك مما أنعم اللّه به علينا ولا سيما في هذه البلاد : رغد العيش يأتينا من كل مكان ، فنحن في خير عظيم - وللّه الحمد - البيوت مليئة من الأرزاق ، والسماطات (١) يجعل فيها من

---

(١) السماط : هو ما يمد من الموائد لوضع الطعام عليه في المآدب (المعجم العربي الأساسي ص ٦٤١) .

الأرزاق للواحد ما يكفي اثنين أو ثلاثة أو أكثر ، هذه أيضًا من النعم ، فعلينا أن نشكر الله ﷻ على هذه النعم العظيمة ، وأن نقوم بطاعة الله حتى يمن علينا بزيادة النعم ؛ لأن الله تعالى يقول : ﴿ وَإِذْ تَأَذَّنَ رَبُّكُمْ لَئِن شَكَرْتُمْ لَأَزِيدَنَّكُمْ وَلَئِن كَفَرْتُمْ إِنَّ عَذَابِي لَشَدِيدٌ ﴾ [إبراهيم : ٧] .

* * *

٩٨ - الرابع : عن عائشة ﵂ أَنَّ النَّبِيَّ ﷺ كَانَ يَقُومُ مِنَ اللَّيلِ حَتَّى تَتَفَطَّرَ قَدَمَاهُ ، فَقُلْتُ لَهُ : لِمَ تَصْنَعُ هذَا يَا رَسُولَ اللَّهِ وَقَدْ غَفَرَ اللَّهُ لَكَ مَا تَقَدَّمَ مِنْ ذَنْبِكَ وَمَا تَأَخَّرَ ؟! قَالَ : « أَفَلا أُحِبُّ أَنْ أَكُونَ عَبْدًا شَكُورًا ؟ » [(١)] متفقٌ عليه . هذا لفظ البخاري ، ونحوه في الصحيحين من رواية المُغيرة بن شُعْبَةَ .

الشرح

ثم ذكر المؤلف - رحمه الله تعالى - ما نقله عن عائشة ﵂ في باب المجاهدة ، وقد سبق لنا أن من جملة المجاهدة مجاهدة الإنسان نفسه ، وحمله إياها على عبادة الله والصبر على ذلك ، ذكر المؤلف ﵀ عن عائشة ﵂ ، أن النبي ﷺ كان يقوم من الليل حتى تتفطر قدماه ، فقلت له : يارسول الله ، لم تصنع ذلك وقد غفر الله لك ما تقدم من ذنبك وما تأخر؟ فقال : « أفلا أحب أن كون عبدًا شكورًا » ، فعائشة ﵂ من أعلم الناس بحال النبي ﷺ فيما يصنعه في السر . أي في بيته ، وكذلك نساؤه ﵅ هن أعلم الناس بما يصنعه في بيته .

ولهذا كان كبار الصحابة يبعثون إلى نساء النبي ﷺ يسألونهن عما كان يصنع في بيته ، فكان ﷺ يقوم من الليل يعني في الصلاة تهجدًا . وقد قال الله تعالى في سورة المزمل ﴿ إِنَّ رَبَّكَ يَعْلَمُ أَنَّكَ تَقُومُ أَدْنَىٰ مِن ثُلُثَيِ ٱلَّيْلِ وَنِصْفَهُۥ وَثُلُثَهُۥ وَطَآئِفَةٌ مِّنَ ٱلَّذِينَ مَعَكَ ﴾ [المزمل : ٢٠] .

فكان يقوم - عليه الصلاة والسلام - أحيانًا أكثر الليل ، وأحيانًا نصف الليل ، وأحيانًا ثلث الليل ؛ لأنه - عليه الصلاة والسلام - يعطي نفسه حقها من الراحة مع القيام التام بعبادة ربه - صلوات الله وسلامه عليه - فكان يقوم أدنى من ثلثي الليل - يعني فوق النصف ودون الثلثين - ونصفه ، وثلثه ، حسب نشاطه - عليه الصلاة والسلام - وكان يقوم حتى تتورم قدماه وتتفطر من طول القيام : أي يتحجر الدم فيها وتنشق .

وقد قام معه شباب من الصحابة ﵃ ولكنهم تعبوا . فابن مسعود ﵁ يقول : صليت مع النبي ﷺ ذات ليلة فقام طويلًا حتى هممت بأمر سوء ، قالوا : بماذا هممت يا أبا عبد الرحمن ؟ قال : هممت أن أقعد وأدعه [(٢)] . أي يجلس لعجزه عن أن يصبر كما صبر النبي ﷺ ، وحذيفة بن اليمان ﵁ قام معه ذات ليلة فقرأ النبي ﷺ البقرة والنساء وآل عمران [(٣)] ، الجميع خمسة أجزاء وربع

---

(١) أخرجه البخاري في التفسير (٤٨٣٧) ، ومسلم في صفات المنافقين (٨١) وبنحوه ابن ماجه في إقامة الصلاة (١٤١٩) ، وأحمد في مسنده (٢٥١/١) .

(٢) انظر الحديث في البخاري في التهجد (١١٣٥) ، ومسلم في صلاة المسافرين (٢٠٤) ، وأحمد في مسنده (٤٥٠/١) .

(٣) انظر الحديث في مسلم في صلاة المسافرين (٢٠٣) .

تقريبًا ، ويقول حذيفة : كلما أتت آية رحمة سأل ، وكلما أتت آية تسبيح سبح ، وكلما أتت آية وعيد تعوذ ، وهو معروف - عليه الصلاة والسلام - أنه يرتل القراءة .

خمسة أجزاء وربع مع السؤال عند آيات الرحمة ، والتعوذ عند آيات الوعيد ، والتسبيح عند آيات التسبيح . فماذا يكون القيام ؟ يكون طويلًا ، وهكذا كان النبي - عليه الصلاة والسلام - يقرأ في الليل .

وإذا أطال القراءة أطال الركوع والسجود أيضًا ، فكان يطيل القراءة والركوع والسجود .

فإذا كان يقوم - عليه الصلاة والسلام - مثلًا في ليلة من ليالي الشتاء وهي اثنتي عشرة ساعة ، يقوم أدنى من ثلثي الليل : فلنقل : إنه كلية يقوم سبع ساعات تقريبًا وهو يصلي - عليه الصلاة السلام - في الليل الطويل . تصور ماذا يكون حاله - عليه الصلاة والسلام - ؟ ومع هذا فقد صبر نفسه وجاهد نفسه ، وقال : « أفلا أحب أن كون عبدًا شكورًا » .

وفي هذا دليل علي أن الشكر هو القيام بطاعة اللَّه ، وأن الإنسان كلما ازداد في طاعة ربه ﷻ فقد ازداد شكرًا لله ﷻ ، وليس الشكر بأن يقول الإنسان بلسانه أشكر اللَّه ، أحمد اللَّه ، فهذا شكر باللسان ، لكن الكلام هنا على الشكر الفعلي الذي يكون بالفعل بأن يقوم الإنسان بطاعة اللَّه بقدر ما يستطيع .

وفي هذا : دليل على أن النبي ﷺ قد غفر اللَّه له ما تقدم من ذنبه وما تأخر ؛ كل ما تقدم من ذنبه قد غفر اللَّه له ، وكل ما تأخر قد غفر اللَّه له ، وقد خرج من الدنيا - صلوات اللَّه وسلامه عليه - سالمًا من كل ذنب ؛ لأنه مغفور له .

وقد يخص اللَّه أقوامًا فيغفر لهم ذنوبهم بأعمال صالحة قاموا بها مثل أهل بدر . فأهل بدر كانوا ثلاث مائة وبضع عشر رجلًا ، منهم حاطب بن أبي بلتعة رضي الله عنه ، فإن النبي ﷺ قال لعمر في قصة مشهورة : « أما علمت أن اللَّه اطَّلع على أهل بدر فقال : اعملوا ما شئتم فقد غفرتُ لكم » [1] ، وهذا من خصائص أهل بدر أن اللَّه غفر لهم ما يفعلون من الذنوب .

وإلا فإن حاطبًا رضي الله عنه فعل ذنبًا عظيمًا ، وذلك أن الرسول - عليه الصلاة والسلام - لما أراد أن يغزو قريشًا حين نقضت العهد الذي بينه وبينهم في صلح الحديبية ، أرسل حاطب رضي الله عنه رسالة خطية إلى أهل مكة يخبرهم أن الرسول ﷺ قادم عليهم ، فأخبر النبي ﷺ بذلك عن طريق الوحي ، فأرسل علي بن أبي طالب ورجلًا معه في إثر المرأة فأدركوها في روضة خاخ - روضة معروفة في طريق مكة - فلما أدركوها أوقفوها وقالوا لها : أخرجي الكتاب : الذي معك لأهل مكة ، قالت : ما معي كتاب . قالوا : لا بد أن تخرجي الكتاب الذي معك ، فإما أن تخرجيه وإما أن نفتشك حتى ما تحت الثياب ، فلما عرفت عزيمتهم أخرجت الكتاب من خفها ، فإذا فيه خطاب : من حاطب رضي الله عنه إلى أهل مكة يخبرهم ، فرجعوا به إلى الرسول - عليه الصلاة والسلام - فاستأذن عمر رضي الله عنه - وكان من أقوى الناس في دين اللَّه - النبي ﷺ أن

(١) أخرجه البخاري في المغازي (٤٢٧٤) ، ومسلم في فضائل الصحابة (١٦١) كلاهما بلفظ « وما يدريك لعل اللَّه اطلع على من شهد بدرًا ، قال : « اعملوا » ، وأحمد في مسنده (١٠٩/٢) .

يقتل حاطبًا ، قال : إن الرجل نافق ، كتب بأسرارنا إلى أعدائنا ، قال : « أما علمت أن اللّٰه اطلع إلى أهل بدر ، فقال اعملوا ما شئتم فقد غفرت لكم » ، وكان منهم ﷺ ، وإلا فهذه جريمة كبيرة .

ولهذا يجب على ولي الأمر إذا أدرك جاسوسًا يكتب إلى أعدائنا بأخبارنا أن يقتله ولو كان مسلمًا ، لأنه عاث في الأرض فسادًا ، فقتل الجاسوس ولو كان مسلمًا واجب على ولي الأمر لعظم فساده ، ولكن هذا منع منه مانع وهو أنه كان من أهل بدر ، ولهذا لم يقل النبي - عليه الصلاة والسلام : أما علمت أنه مسلم ؟ بل قال « أما علمت أن اللّٰه اطّلع على أهل بدر » .

ففي هذا : دليل علي أن من خصائص الرسول - عليه الصلاة والسلام - أن اللّٰه قد غفر له ما تقدم من ذنبه وما تأخر ، وهذا قد يقع كما قلت لبعض الصحابة كأهل بدر ، قال بعض العلماء : واعلم أن من خصائص الرسول - عليه الصلاة والسلام - أن اللّٰه قد غفر له ماتقدم من ذنبه وما تأخر ، وبناءً عليه فكل حديث يأتي بأن من فعل كذا غفر له ما تقدم من ذنبه وما تأخر فإنه حديث ضعيف ، لأن هذا من خصائص الرسول ، أما « غفر له ما تقدم من ذنبه » فهذا كثير ، لكن « ما تأخر » هذا ليس إلا للرسول ﷺ فقط ، وهو من خصائصه ، وهذه قاعدة عامة نافعة لطالب العلم أنه إذا أتاك حديث فيه أن من فعل كذا غفر له ما تقدم من ذنبه وما تأخر ، فاعلم أن قوله : ما تأخر ، ضعيف لا يصح ؛ لأن هذا من خصائص محمد صلوات اللّٰه وسلامه عليه .

وفي هذا : دليل أيضًا على فضيلة قيام الليل وطول القيام ، وقد أثنى اللّٰه على من يقومون الليل ويطيلون فقال ﷻ : ﴿ تَتَجَافَىٰ جُنُوبُهُمْ عَنِ ٱلْمَضَاجِعِ ﴾ [السجدة : ١٦] يعني تبتعد عن الفرش ، ﴿ يَدْعُونَ رَبَّهُمْ خَوْفًا وَطَمَعًا ﴾ ﴿ خَوْفًا ﴾ أي إذا نظروا إلى ذنوبهم خافوا ﴿ وَطَمَعًا ﴾ أي إذا نظروا إلى فضل اللّٰه طمعوا في فضله ، ﴿ وَمِمَّا رَزَقْنَٰهُمْ يُنفِقُونَ ۝١٦ فَلَا تَعْلَمُ نَفْسٌ مَّآ أُخْفِىَ لَهُم مِّن قُرَّةِ أَعْيُنٍ جَزَآءًۢ بِمَا كَانُواْ يَعْمَلُونَ ﴾ (١) [السجدة : ١٦، ١٧] أسأل اللّٰه أن يجعلني وإياكم منهم .

وتتجافى جنوبهم عن المضاجع ليس بالسهر على التليفزيون ، أو على لعب الورق ، أو على أعراض الناس ، أو ما أشبه ذلك ، ولكنهم يدعون اللّٰه ، ويعبدونه ﷻ خوفًا وطمعًا ﴿ وَمِمَّا رَزَقْنَٰهُمْ يُنفِقُونَ ﴾ .

﴿ فَلَا تَعْلَمُ نَفْسٌ مَّآ أُخْفِىَ لَهُم مِّن قُرَّةِ أَعْيُنٍ جَزَآءًۢ بِمَا كَانُواْ يَعْمَلُونَ ﴾ أين هذا الذي أخفي لهم ؟ جاء في الحديث القدسي ما يبين ذلك حيث قال اللّٰه ﷻ : « أعددت لعبادي الصالحين ما لا عين رأت ، ولا أذن سمعت ، ولا خطر على قلب بشر » (٢) جعلني اللّٰه وإياكم من ساكني هذه الجنان إنه جواد كريم .

* * *

٩٩ - الخامس : عن عائشة رضي الله عنها أنها قالت : « كان رسول اللّٰه ﷺ إِذَا دَخَلَ العَشْرُ أحيَا اللَّيلَ ، وَأَيقَظَ أَهْلَهُ ، وَجَدَّ ، وَشَدَّ المِئْزَرَ » (٣) متفقٌ عليه .

---

(١) قوله ﴿ قُرَّةِ أَعْيُنٍ ﴾ أي مما تسر به قلوبهم .

(٢) أخرجه البخاري في تفسير القرآن (٤٧٧٩) ، ومسلم في الجنة وصفة نعيمها (٢ ، ٣) ، وأحمد في مسنده (٤٣٨/٢) .

(٣) أخرجه البخاري في فضل ليلة القدر (٢٠٢٤) ، ومسلم في الاعتكاف (٧) ، وأبو داود في الصلاة (١٣٧٦) وأحمد في مسنده (٤١/٦) .

والمراد : العَشْرُ الأَوَاخرُ من شهر رمضانَ . « وَالمِئْزَرُ » : الإزَارُ ، وَهُوَ كِنَايَةٌ عن اعْتِزَالِ النِّسَاءِ ، وَقيلَ : المُرَادُ تَشْمِيرُهُ للْعِبَادَةِ . يُقَالُ : شَدَدتُ لِهذَا الأَمْرِ مِئْزَرِي . أي : تَشَمَّرْتُ ، وَتَفَرَّغْتُ لَهُ .

الشرح

قال المؤلف - رحمه اللَّه تعالى - فيما نقله عن أم المؤمنين عائشة بنت أبي بكر الصديق ﵄ ، في حال رسول اللَّه ﷺ في العشر الأواخر من رمضان : إنه إذا دخل العشر : شد المئزر ، وأحيا ليله ، وجدَّ في العبادة ، وشمر عليه الصلاة والسلام .

وقد سبق في الحديث السابق أنه ﷺ كان يقوم في الليل حتى تتفطر قدماه ، وأنه يقوم من الليل أكثر من النصف أو النصف أو الثلث ، أما في ليالي العشر من رمضان ؛ فإنه كان يقوم الليل كله ، أي يحيي ليله كله - عليه الصلاة والسلام - بالعبادة ، لكن بالفطور بعد غروب الشمس ، والعشاء ، وصلاة العشاء ، والأشياء التي يرى - عليه الصلاة والسلام - أنها قربى إلى اللَّه ﷿ ، وليس معناه أن كل الليل في صلاة ، بدليل أن صفيه بنت حيي بن أخطب كانت تأتي إليه - عليه الصلاة والسلام - فيحدثها بعد صلاة العشاء ، ولكن كل ما كان يفعله - عليه الصلاة والسلام - في تلك الليالي فإنه قربى إلى اللَّه ﷿ ؛ إما صلاة أو تهيؤ لصلاة أو غير ذلك . وفي هذا دليل على أن الرسول ﷺ كان يحيي العشر الأواخر من رمضان كلها ، ولكنه لا يحيي ليلة سواها ؛ أي أنه لم يقم ليلة حتى الصباح إلا في العشر الأواخر من رمضان ، وذلك تحريًا لليلة القدر ، وهي ليلة تكون في العشر الأواخر من رمضان ، ولا سيما في السبع الأواخر منه ، فهذه الليلة يقدر اللَّه ﷻ فيها ما يكون في تلك السنة ، وهي كما قال اللَّه تعالى : ﴿ خَيْرٌ مِّنْ أَلْفِ شَهْرٍ ﴾ [القدر : ٣] فكان يحييها « ومن قام ليلة القدر إيمانًا واحتسابًا غفر اللَّه له ما تقدم من ذنبه » [١] .

ثم ذكر المؤلف ﵀ معنى قوله « شد المئزر » فمنهم من قال : إنه كناية عن ترك النساء ؛ لأنه يكون معتكفًا ، والمعتكف لا يباح له النساء [٢] ، كما قال تعالى ﴿ وَلَا تُبَٰشِرُوهُنَّ وَأَنتُمْ عَٰكِفُونَ فِى ٱلْمَسَٰجِدِ ﴾ [البقرة : ١٨٧] ومنهم من قال : بل هو كناية عن الجد والتشمير في العمل ، وكلا الأمرين صحيح ، فإن الرسول - عليه الصلاة والسلام - كان لا يأتي أهله في العشر الأواخر من رمضان لأنه معتكف ، وكان أيضًا يشد المئزر ويجتهد ويشمر صلوات اللَّه وسلامه عليه ، وهذا من أنواع المجاهدة ، فالإنسان يجب أن يجاهد نفسه في الأوقات الفاضلة حتى يستوعبها في طاعة اللَّه .

---

(١) أخرجه البخاري في الصوم (١٩٠١) ، ومسلم في صلاة المسافرين (١٧٦) ، والنسائي في السنن (٤/١٥٧) ، وأحمد في مسنده (٢/٢٤١) .

(٢) هذا هو ما عليه إجماع الفقهاء ، فقد قالوا أن الجماع يفسد الاعتكاف ، أما ما كان دون الجماع من أسبابه ودواعيه كالقبلة والنظرة والمباشرة فلا جرم أن ذلك منهي عنه ، وإن حصل بذلك إنزال بطل الاعتكاف بغير خلاف وإن لم يحصل إنزال فلا يبطل عند الحنفية لكنه مع ذلك قد أساء ، وهو عندهم كالصوم لا يفسد بدواعي الجماع ما لم يحصل إنزال فإن حصل إنزال فسد ، وهو رواية عن الإمام الشافعي ، أما المالكية والحنابلة والشافعية في الراجح من مذهبهم فقد ذهبوا إلى فساد الاعتكاف بما دون الجماع من أسبابه ودواعيه ولو لم يحصل إنزال (انظر : شرح فتح القدير ١/١٨٨ ، بداية المجتهد ١/٣١٦ ، المجموع ٦/٥٢٤ ، فقه الكتاب والسنة ١/١٧٨) .

١٠٠ - السادس : عن أبي هريرة ﷺ قال : قال رسول اللَّه ﷺ : « المُؤْمِنُ القَوِيُّ خَيرٌ وأحب إلى اللَّه من المؤمن الضعيف وفي كلٍّ خيرٌ احْرِصْ عَلى مَا يَنْفَعُكَ ، وَاسْتَعِنْ باللَّهِ وَلاَ تَعْجزْ ، وَإنْ أَصَابَكَ شيءٌ فَلاَ تَقُلْ : لَو أَنِّي فَعَلْتُ كَانَ كَذَا وَكَذَا ، وَلَكِنْ قُلْ : قَدَّرَ اللَّهُ ، وَمَا شَاءَ فَعَلَ ، فإنَّ لَو تَفْتَحُ عَمَلَ الشَّيطَانِ »[1] . رواه مسلم .

الشرح

قال المؤلف - رحمه اللَّه تعالى - فيما نقله عن أبي هريرة ﷺ . عن النبي ﷺ أنه قال : « المؤمن القوي خير وأحبُّ إلى اللَّهِ من المؤمِنِ الضعيفِ » « المؤمن القوي » : يعني في إيمانه ، وليس المراد القوي في بدنه ؛ لأن قوة البدن ضررًا على الإنسان إذا استعمل هذه القوة في معصية اللَّه ، فقوة البدن ليست محمودة ولا مذمومة في ذاتها ، إن كان الإنسان استعمل هذه القوة فيما ينفع في الدنيا والآخرة صارت محمودة ، وإن استعان بهذه القوة على معصية اللَّه صارت مذمومة .

لكن القوة في قوله ﷺ : « المؤمن القوى » أي قوي الإيمان ، ولأن كلمة القوي تعود إلى الوصف السابق وهو الإيمان ، كما تقول : الرجل القوي : أي في رجولته ، كذلك المؤمن القوي ؛ يعني في إيمانه ؛ لأن المؤمن القوي في إيمانه تحمله قوة إيمانه على أن يقوم بما أوجب اللَّه عليه ، وعلى أن يزيد من النوافل ما شاء اللَّه ، والضعيف الإيمان يكون إيمانه ضعيفًا لا يحمله على فعل الواجبات وترك المحرمات فيقصر كثيرًا .

وقوله : « خير » يعني خير من المؤمن الضعيف ، وأحب إلى اللَّه من المؤمن الضعيف ، ثم قال - عليه الصلاة والسلام - « وفي كُلٍّ خير » يعني المؤمن القوي والمؤمن الضعيف كل منهما فيه خير ، وإنما قال : « وفي كل خير » لئلا يتوهم أحد من الناس أن المؤمن الضعيف لا خير فيه ، بل المؤمن الضعيف فيه خير ، فهو خير من الكافر لا شك .

وهذا الأسلوب يسميه البلاغيون الاحتراز ، وهو أن يتكلم الإنسان كلامًا يوهم معنى لا يقصده ، فيأتي بجملة تبين أنه يقصد المعنى المعين ، ومثال ذلك في القرآن قوله تبارك وتعالى : ﴿ لَا يَسْتَوِى مِنكُم مَّنْ أَنفَقَ مِن قَبْلِ ٱلْفَتْحِ وَقَـٰتَلَ ۚ أُو۟لَـٰٓئِكَ أَعْظَمُ دَرَجَةً مِّنَ ٱلَّذِينَ أَنفَقُوا۟ مِنۢ بَعْدُ وَقَـٰتَلُوا۟ ۚ وَكُلًّا وَعَدَ ٱللَّهُ ٱلْحُسْنَىٰ ۚ ﴾ [الحديد : ١٠] لـمَّا كان قوله ﴿ أُو۟لَـٰٓئِكَ أَعْظَمُ دَرَجَةً مِّنَ ٱلَّذِينَ أَنفَقُوا۟ مِنۢ بَعْدُ وَقَـٰتَلُوا۟ ۚ ﴾ يوهم أن الآخرين ليس لهم حظ من هذا ، قال : ﴿ وَكُلًّا وَعَدَ ٱللَّهُ ٱلْحُسْنَىٰ ۚ ﴾ .

ومن ذلك : قوله تعالى ﴿ وَدَاوُۥدَ وَسُلَيْمَـٰنَ إِذْ يَحْكُمَانِ فِى ٱلْحَرْثِ إِذْ نَفَشَتْ فِيهِ غَنَمُ ٱلْقَوْمِ وَكُنَّا لِحُكْمِهِمْ شَـٰهِدِينَ ﴿٧٨﴾ فَفَهَّمْنَـٰهَا سُلَيْمَـٰنَ ۚ ﴾[2] [الأنبياء : ٧٨، ٧٩] لما كان هذا يوهم أن داود عنده نقص ، قال تعالى : ﴿ وَكُلًّا ءَاتَيْنَا حُكْمًا وَعِلْمًا ۚ ﴾ .

ومن ذلك : قوله تعالى : ﴿ لَّا يَسْتَوِى ٱلْقَـٰعِدُونَ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ غَيْرُ أُو۟لِى ٱلضَّرَرِ وَٱلْمُجَـٰهِدُونَ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ بِأَمْوَٰلِهِمْ

---

(١) أخرجه مسلم في القدر (٣٤) ، وأحمد في مسنده (٢/ ٣٧٠) ، والبيهقي في السنن (١٠/ ٨٩) .

(٢) قوله ﴿ نَفَشَتْ ﴾ أي تفرقت وانتشرت فيه ليلًا بلا راع فأفسدته .

وَأَنفُسِهِمْ فَضَّلَ ٱللَّهُ ٱلْمُجَٰهِدِينَ بِأَمْوَٰلِهِمْ وَأَنفُسِهِمْ عَلَى ٱلْقَٰعِدِينَ دَرَجَةً وَكُلًّا وَعَدَ ٱللَّهُ ٱلْحُسْنَىٰ ﴾ [النساء: ٩٥] فهنا قال النبي ﷺ: « وفي كل خير » أي المؤمن القوي والمؤمن الضعيف، لكن القوي خير وأحبُّ إلى الله، ثم قال – عليه الصلاة والسلام –: « احرص على ما ينفعك » هذه وصية من الرسول – عليه الصلاة والسلام – إلى أمته، وهي وصية جامعة مانعة: « احرص على ما ينفعك » يعني اجتهد في تحصيله ومباشرته، وضد الذي ينفع الذي فيه ضرر، وما لا نفع فيه ولا ضرر، وذلك لأن الأفعال تنقسم إلى ثلاثة أقسام: قسم ينفع الإنسان، وقسم يضره، وقسم لا ينفع ولا يضر.

فالإنسان العاقل الذي يقبل وصية النبي ﷺ هو الذي يحرص على ما ينفعه، وما أكثر الذين يضيعون أوقاتهم اليوم في غير فائدة، بل في مضرة على أنفسهم وعلى دينهم، وعلى هذا فيجدر بنا أن نقول لمثل هؤلاء: إنكم لم تعملوا بوصية النبي ﷺ؛ إما جهلًا منكم، وإما تهاونًا، لكن المؤمن العاقل الحازم هو الذي يقبل هذه النصيحة، ويحرص على ما ينفعه في دينه ودنياه.

وهذا حديث عظيم ينبغي للإنسان أن يجعله نبراسًا له في عمله الديني والدنيوي؛ لأن النبي ﷺ قال: « احرص على ما ينفعك » وهذه الكلمة جامعة عامة، « على ما ينفعك » أي على كل شيء ينفعك سواء في الدين أو في الدنيا، فإذا تعارضت منفعة الدين ومنفعة الدنيا؛ فإنما تقدم منفعة الدين؛ لأن الدين إذا صلح صلحت الدنيا، أما الدنيا إذا صلحت مع فساد الدين فإنها تفسد.

فقوله « على ما ينفعك » يشمل منافع الدين والدنيا، وعند التعارض تقدم منافع الدين على منافع الدنيا. وفي قوله « احرص على ما ينفعك » إشارة على أنه إذا تعارض منفعتان إحداهما أعلى من الأخرى، فإننا نقدم المنفعة العليا؛ لأن المنفعة العليا فيها المنفعة التي دونها وزيادة، فتدخل في قوله: « احرص على ما ينفعك ».

فإذا اجتمع صلة أخ وصلة عم كلاهما سواء في الحاجة، وأنت لا يمكنك أن تصل الرجلين جميعًا، فهنا تقدم صلة الأخ؛ لأنها أفضل وأنفع، وكذلك أيضًا بين مسجدين كلاهما في البعد سواء لكن أحدهما أكثر جماعة؛ فإننا نقدم الأكثر جماعة؛ لأنه الأفضل، فقوله: « على ما ينفعك » يشير إلى أنه إذا اجتمعت منفعتان إحداهما أعلى من الأخرى فإنها تقدم الأعلى.

وبالعكس إذا كان الإنسان لا بد أن يرتكب منهيًا عنه من أمرين منهي عنهما وكان أحدهما أشد؛ فإنه يرتكب الأخف، فالمناهي يقدم الأخف منها، والأوامر يقدم الأعلى منها.

وقوله – عليه الصلاة والسلام –: « واستعن بالله » ما أروع هذه الكلمة بعد قوله: « احرص على ما ينفعك » لأن الإنسان إذا كان عاقلًا ذكيًا؛ فإنه يتتبع المنافع ويأخذ بالأنفع، وربما تغره نفسه حتى يعتمد على نفسه وينسى الاستعانة بالله، وهذا يقع لكثير من الناس، حيث يعجب بنفسه ولا يذكر الله ﷻ ويستعين به، فإذا رأى من نفسه قوة على الأعمال وحرصًا على النافع وفعلًا له، أعجب بنفسه؛ ونسي الاستعانة بالله، ولهذا قال: « احرص على ما ينفعك واستعن بالله » أي لا تنس الاستعانة بالله ولو على الشيء اليسير.

وفي الحديث : « ليسأل أحدُكم ربَّه حاجته كلها حتى يسأل شعث نعله إذا انقطع »[١] يعني حتى الشيء اليسير لا تنس الله ، حتى ولو أردت أن تتوضأ أو تصلي أو تذهب يمينًا أو شمالًا أو تضع شيئًا ؛ فاستحضر أنك مستعين بالله ﷻ ، وأنه لولا عون الله ما حصل لك هذا الشيء .

ثم قال : « ولا تعجز »[٢] يعني استمر في العمل ولا تعجز وتتأخر ، وتقول : إن المدى طويل والشغل كثير ، فما دمت قد صممت في أول الأمر أن هذا هو الأنفع لك واستعنت بالله وشرعت فيه ؛ فلا تعجز .

وهذا الحديث في الحقيقة يحتاج إلى مجلدات يتكلم عليه فيها الإنسان ؛ لأن له من الصور والمسائل ما لا يحصى ، منها مثلًا : طالب العلم الذي يشرع في كتاب يرى أنه منفعة وفيه مصلحة له ، ثم بعد أسبوع أو شهر يمل ، وينتقل إلى كتاب آخر ، هذا نقول : استعان بالله وحرص على ما ينفعه ولكنه عجز ، كيف عجز ؟ بكونه لم يستمر ؛ لأن معنى قوله : « لا تعجز » أي لا تترك العمل ، بل ما دمت دخلت فيه على أنه نافع فاستمر فيه ، ولذا تجد هذا الرجل يمضي عليه الوقت ولم يحصل شيئًا ؛ لأنه أحيانًا يقرأ في هذا ، وأحيانًا في هذا .

حتى في المسألة الجزئية تجد بعض طلبه العلم مثلًا يريد أن يراجع مسألة من المسائل في كتاب ، ثم يتصفح الكتاب يبحث عن هذه المسألة ، فيعرض له أثناء تصفح الكتاب مسألة أخرى يقف عندها ، ثم مسألة ثانية فيقف عندها ، ثم ثالثة فيقف ، ثم يضيع الأصل الذي فتح الكتاب من أجله ؛ فيضيع عليه الوقت ، وهذا ما يقع كثيرًا في مثل فتاوى شيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله ، وهذا ليس بصحيح بل الصحيح أن تنظر الأصل الذي فتحت الكتاب من أجله .

كذلك أيضًا في تراجم الصحابة في الإصابة مثلًا لابن حجر رحمه الله حين يبحث الطالب عن ترجمة صحابي من الصحابة ، ثم يفتح الكتاب من أجل أن يصل إلى ترجمته ، فتعرض له ترجمة صحابي آخر فيقف عندها ويقرأها ، ثم يفتح الكتاب يجد صحابي آخر ، ثم هكذا يضيع عليه الوقت ولا يُحَصِّل الترجمة التي من أجلها فتح عليها الكتاب ، وهذا فيه ضياع للوقت .

ولهذا كان من هدي الرسول - عليه الصلاة والسلام - أن يبدأ بالأهم الذي تحرك من أجله ، ولذلك لما دعا عتبان بن مالك الرسول ﷺ وقال له : أريد أن تأتي لتصلي في بيتي لأتخذ من المكان الذي صليت فيه مصلى لي ، فخرج النبي - عليه الصلاة والسلام - ومعه نفر من أصحابه ، فلما وصلوا إلى بيت عتبان واستأذنوا ودخلوا ، وإذا عتبان قد صنع لهم طعامًا ، ولكن الرسول - عليه الصلاة والسلام - لم يبدأ بالطعام ، بل قال : « أين المكان الذي تريد أن نصلي فيه ؟ »[٣] فأراه إياه ، فصلى ثم جلس للطعام ، فهذا دليل على أن الإنسان يبدأ بالأهم ، وبالذي تحرك من أجله من أجل ألا يضيع عمله سدى .

---

(١) أخرجه الترمذي في الدعوات (٣٦١٢) ، والهندي في كنز العمال (٣١٣٩) ، وابن حجر في فتح الباري (٣٠٠/٢) .
(٢) أخرجه الترمذي في الدعوات (٣٦١٢ تحفة الأحوذي) ، والألباني في الضعيفة (١٣٦٢) .
(٣) انظر الحديث في البخاري في الصلاة (٤٢٥) ، ومسلم في المساجد ومواضع الصلاة (٢٦٣) ، وأحمد في مسنده (٤٤/٤) ، والدارمي في السنن (١٠/١) .

فقول الرسول ﷺ « لا تعجز » أي لا تكسل وتتأخر في العمل إذا شرعت فيه ، بل استمر لأنك إذا تركت ثم شرعت في عمل آخر ، ثم تركت ثم شرعت ثم تركت ، ماتم لك عمل .

ثم قال – عليه الصلاة والسلام – : « فإن أصابك شيء فلا تقل : لو أني فعلت لكان كذا وكذا » يعني بعد أن تحرص وتبذل الجهد وتستعين بالله وتستمر ، ثم يخرج الأمر على خلاف ما تريد ، فلا تقل لو أني فعلت لكان كذا ؛ لأن هذا أمر فوق إرادتك ، أنت فعلت الذي تؤمر به ولكن الله ﷻ غالب على أمره ﴿ وَٱللَّهُ غَالِبٌ عَلَىٰٓ أَمْرِهِۦ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ ﴾ [يوسف : ٢١] ونضرب مثالاً لذلك : إذا سافر رجل يريد العمرة ولكنه في أثناء الطريق تعطلت السيارة ، ثم رجع فقال : لو أني أخذت السيارة الأخرى لكان أحسن ولما حصل علي التعطل ، نقول : لا تقل هكذا ؛ لأنك أنت بذلت الجهد ، ولو كان الله ﷻ أراد أن تبلغ العمرة ليسر لك الأمر ، ولكن الله لم يرد ذلك .

فالإنسان إذا بذل ما يستطيع بذله وأخلفت الأمور ؛ فحينئذ يفوض الأمر إلى الله ؛ لأنه فعل ما يقدر عليه ، ولهذا قال : « إن أصابك شيء » يعني بعد بذل الجهد والاستعانة بالله ﷻ فلا تقل : لو أني فعلت لكان كذا وكذا .

وجزى الله عنا نبينا خير الجزاء فقد بين لنا الحكمة من ذلك ، حيث قال : « فإن لو تفتح عمل الشيطان » أي تفتح عليك الوساوس والأحزان والندم والهموم ، حتى تقول : لو أني فعلت لكان كذا ، فلا تقل هكذا ، والأمر انتهى ولا يمكن أن يتغير عما وقع ، وهذا أمر مكتوب في اللوح المحفوظ قبل أن تخلق السماوات والأرض بخمسين ألف سنة ، وسيكون على هذا الوضع مهما عملت . ولهذا قال : « ولكن قل : قدَّر الله » أي هذا قدَّر الله ؛ أي تقدير الله وقضاؤه ، وما شاء الله ﷻ فعله ﴿ إِنَّ رَبَّكَ فَعَّالٌ لِّمَا يُرِيدُ ﴾ [هود : ١٠٧] لا أحد يمنعه في ملكه ما يشاء ، ما شاء فعل ﷻ .

ولكن يجب أن نعلم أنه سبحانه وتعالى لا يفعل شيئًا إلا لحكمة خفيت علينا أو ظهرت لنا ، والدليل على هذا قوله تعالى : ﴿ وَمَا تَشَآءُونَ إِلَّآ أَن يَشَآءَ ٱللَّهُ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَلِيمًا حَكِيمًا ﴾ [الإنسان : ٣٠] فبين أن مشيئته مقرونة بالحكمة والعلم ، وكم من شيء كره الإنسان وقوعه فصار في العاقبة خيرًا له ، كما قال تعالى : ﴿ وَعَسَىٰٓ أَن تَكْرَهُوا۟ شَيْـًٔا وَهُوَ خَيْرٌ لَّكُمْ ۖ ﴾ [البقرة : ٢١٦] ولقد جرت حوادث كثيرة تدل على هذه الآية ، من ذلك : قبل عدة سنوات أقلعت طائرة من الرياض متجهة إلى جدة وفيها ركاب كثيرون يزيدون عن ثلاثمائة راكب ، وكان أحد الركاب الذين سجلوا في هذه الطائرة في قاعة الانتظار حتى نام ، وأعلن عن إقلاع الطائرة ، وذهب الركاب وركبوا ، فإذا بالرجل يستيقظ بعد أن أغلق الباب ، فندم ندامة شديدة . كيف فاتته الطائرة ؟ ثم إن الله قدَّر بحكمته أن تحترق الطائرة وركابها . فسبحان الله كيف نجا هذا الرجل ؟ كره أنه فاتته الطائرة ، ولكن كان ذلك خيرًا له .

فأنت إذا بذلت الجهد واستعنت بالله ، وصار الأمر على خلاف ما تريد لا تندم ، ولا تقل لو أني فعلت لكان كذا ، إذا قلت هذا انفتح عليك من الوساوس والندم والأحزان ما يكدر عليك الصفو ، فقد انتهى الأمر وراح ، وعليك أن تسلم الأمر للجبار ﷻ ، قل : قدر الله وما شاء فعل .

ووالله لو أننا سرنا على هدي هذا الحديث لاسترحنا كثيرًا ، لكن تجد الإنسان أولًا : لا يحرص على ما ينفعه ؛ بل تمضي أوقاته ليلًا ونهارًا بدون فائدة ، تضيع عليه سدى ، ثانيًا : إذا قُدر أنه اجتهد في أمر ينفعه ثم فات الأمر ، ولم يكن على ما توقع ؛ تجده يندم ، ويقول : ليتني ما فعلت كذا ، ولو أني فعلت كذا لكان كذا ، وهذا ليس بصحيح ؛ فأنت أدِّ ما عليك ثم بعد هذا فوض الأمر لله ﷻ .

فإذا قال قائل : كيف أحتج بالقدر ؟ كيف أقول قدر الله وما شاء فعل ؟ والجواب : أن نقول : نعم هذا احتجاج بالقدر ولكن الاحتجاج بالقدر في موضعه لا بأس به ، ولهذا قال الله لنبيه ﷺ : ﴿ اتَّبِعْ مَا أُوحِيَ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ لَا إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ وَأَعْرِضْ عَنِ الْمُشْرِكِينَ ۝ وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ مَا أَشْرَكُوا ﴾ [الأنعام : ١٠٦، ١٠٧] فبين له أن شركهم بمشيئته والاحتجاج بالقدر علي الاستمرار في المعصية هذا حرام لا يجوز ؛ لأن الله قال : ﴿ سَيَقُولُ الَّذِينَ أَشْرَكُوا لَوْ شَاءَ اللَّهُ مَا أَشْرَكْنَا وَلَا آبَاؤُنَا وَلَا حَرَّمْنَا مِن شَيْءٍ كَذَٰلِكَ كَذَّبَ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ حَتَّىٰ ذَاقُوا بَأْسَنَا ﴾ [الأنعام : ١٤٨] لكن الاحتجاج بالقدر في موضعه هذا لا بأس به ، فإن النبي – عليه الصلاة والسلام – دخل ذات ليلة على علي بن أبي طالب وفاطمة بنت محمد – عليه الصلاة والسلام – فوجدهما نائمين ، فقال لهما : « ما منعكما أن تقوما ؟ » يعني تقوما تتهجدان ، فقال علي : يا رسول الله إن أنفسنا بيد الله لو شاء أن نقوم لقمنا ، فخرج النبي عليه الصلاة والسلام وهو يضرب على فخذيه ويقول : ﴿ وَكَانَ الْإِنسَانُ أَكْثَرَ شَيْءٍ جَدَلًا ﴾ [(١)] [الكهف : ٥٤] .

هذا جدال لكن احتجاج علي بن أبي طالب في محلِّه ، لأن النائم ليس عليه حرج فهو ما ترك القيام وهو مستيقظ قال رسول الله ﷺ : « رفع القلم عن ثلاثة » [(٢)] ، ولا يُبعد أن الرسول – عليه الصلاة والسلام – أراد أن يختبر علي بن أبي طالب : ماذا يقول في الجواب ؟ وسواء كان ذلك أم لم يكن . فاحتجاج علي بالقَدَرِ هنا حجة ، وذلك لأنه أمر ليس باختياره : هل النائم يستطيع أن يستقيظ إذا لم يوقظه الله ؟ .. لا ، إذن هو حجة .

فالاحتجاج بالقدر ممنوع إذا أراد الإنسان أن يستمر على المعصية ليدفع اللوم عن نفسه ، نقول مثلًا : يا فلان صل مع الجماعة ، تقول : والله لو هداني الله لصليت ، فهذا ليس بصحيح ، يُقال لآخر : أقلع عن حلق اللحية ، يقول : لو هداني الله لأقلعت ، وأقلع عن الدخان ، يقول : لو هداني الله لأقلعت ، فهذا ليس بصحيح ؛ لأن هذا يحتج بالقدر ليستمر في المعصية والمخالفة .

لكن إن وقع الإنسان في خطأ وتاب إلى الله ، وأناب إلى الله ، وندم وقال : إن هذا الشيء مقدر علي ، ولكن استغفر الله وأتوب إليه ، نقول : هذا صحيح ، إن تاب واحتج بالقدر فليس هناك مانع .

* * *

---

(١) انظر الحديث بنصه فيما أخرجه البخاري في الاعتصام (٧٣٤٧) ، ومسلم في صلاة المسافرين (٢٠٦) ، والنسائي في السنن (٣/٢٠٥) ، وأحمد في مسنده (١/٢٧٧) .

(٢) أخرجه أبو داود في الحدود (٤٤٠١) ، وأحمد في مسنده (١/١٤٠) ، والترمذي في السنن (١٤٢٣) ، وابن ماجه في الطلاق (٢٠٤١) .

١٠١ - السابع : عنه أنَّ رسول اللَّه ﷺ قال : « حُجِبَتِ النَّارُ بِالشَّهَواتِ ، وحُجِبَت الجَنَّةُ بِالمَكَارِهِ » (١) متفقٌ عليه . وفي رواية لمسلم : « حُفَّت » بَدلَ « حُجِبَتْ » وهُوَ بمَعْنَاه ، أَي : بينَهُ وبَينَهَا هذَا الحِجَابُ ، فَإذا فَعَلَهُ دَخَلَهَا .

الشرح

قال المؤلف - رحمه اللَّه تعالى - فيما نقله عن أبي هريرة ﷺ أن رسول اللَّه ﷺ قال : « حفت النار بالشهوات » - وفي لفظ : « حجبت » - « وحفت الجنة بالمكاره » - وفي لفظ : « حجبت الجنة بالمكارة » - يعني أحيطت بها ، فالنار قد أحيطت بالشهوات ، والجنة قد أحطيت بالمكاره . والشهوات : هي ما تميل إليه النفس من غير تعقل ولا تبصر ولا مراعاة لدين ولا مراعاة لمروءة .

فالزنا - والعياذ باللَّه - شهوة الفرج ، تميل إليها النفس كثيرًا ، فإذا هتك الإنسان هذا الحجاب ؛ فإنه سيكون سببًا لدخوله النار .

وكذلك شرب الخمر تهواه النفس وتميل إليه ، ولهذا جعل الشارع له عقوبة رادعة بالجلد ، فإذا هتك الإنسان هذا الحجاب وشرب الخمر أداه ذلك إلى النار والعياذ بالله .

وكذلك حب المال شهوة من شهوات النفس ، فإذا سرق الإنسان بدافع شهوة حب جمع المال ، فلرغبة أن يستولي على المال الذي ترغبه نفسه ، فإذا سرق ؛ فقد هتك هذا الحجاب ، فيصل إلى النار والعياذ باللَّه .

ومن ذلك : الغش من أجل أن يزيد ثمن السلعة ، هذا تهواه النفس فيفعله الإنسان ، فيهتك الحجاب الذي بينه وبين النار ، فيدخل النار .

الاستطالة على الناس والعلو عليهم والترفع عليهم ، كل إنسان يحب هذا وتهواه النفس ، فإذا فعله الإنسان ؛ فقد هتك الحجاب الذي بينه وبين النار ، فيصل إلى النار والعياذ بالله .

ولكن ما دواء هذه الشهوة التي تميل إليها النفس الأمارة بالسوء ؟ دواؤها ما بعدها قال : « وحفت الجنة بالمكاره » - أو حجبت بالمكاره - يعني أحيطت بما تكره النفوس ؛ لأن الباطل محبوب للنفس الأمارة بالسوء ، والحق مكروه لها ، فإذا تجاوز الإنسان هذا المكروه وأكره نفسه الأماره بالسوء على فعل الواجبات وعلى ترك المحرمات ، فحينئذ يصل إلى الجنة .

ولهذا تجد الإنسان يستثقل الصلوات مثلًا ، ولا سيما في أيام الشتاء وأيام البرد ، ولا سيما إذا كان في الإنسان نوم كثير بعد تعب وجهد ، فتجد الصلاة ثقيلة عليه ، ويكره أن يقوم يصلي ويترك الفراش اللين الدفيء ، ولكن إن هو كسر هذا الحاجب وقام بهذا المكروه وصل إلى الجنة .

(١) أخرجه البخاري في الرقاق (٦٤٨٧) ، ومسلم بنحوه في الجنة وصفة نعيمها (١) ، وأحمد في مسنده (٢/ ٢٦٠) ، والترمذي في السنن (٢٥٥٩) .

وكذلك النفس الأمارة بالسوء تدعو صاحبها إلى الزنا ، والزنا شهوة وتحبه النفس الأمارة بالسوء ، لكن إذا عقلها صاحبها وأكرهها على تجنب هذه الشهوة ؛ فهذا كره له ، ولكن هو الذي يوصله إلى الجنة ؛ لأن الجنة حفت بالمكاره .

وأيضًا الجهاد في سبيل الله مكروه إلي النفس ﴿ كُتِبَ عَلَيْكُمُ ٱلْقِتَالُ وَهُوَ كُرْهٌ لَّكُمْ ۖ وَعَسَىٰٓ أَن تَكْرَهُوا۟ شَيْـًٔا وَهُوَ خَيْرٌ لَّكُمْ ۖ وَعَسَىٰٓ أَن تُحِبُّوا۟ شَيْـًٔا وَهُوَ شَرٌّ لَّكُمْ ۗ وَٱللَّهُ يَعْلَمُ وَأَنتُمْ لَا تَعْلَمُونَ ﴾ [البقرة : ٢١٦] ، فإذا كره الإنسان هذا الحجاب ؛ كان ذلك سببًا لدخول الجنة ، واستمع إلى قول الله تعالى : ﴿ وَلَا تَحْسَبَنَّ ٱلَّذِينَ قُتِلُوا۟ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ أَمْوَٰتًۢا ۚ بَلْ أَحْيَآءٌ عِندَ رَبِّهِمْ يُرْزَقُونَ ﴿١٦٩﴾ فَرِحِينَ بِمَآ ءَاتَىٰهُمُ ٱللَّهُ مِن فَضْلِهِۦ وَيَسْتَبْشِرُونَ بِٱلَّذِينَ لَمْ يَلْحَقُوا۟ بِهِم مِّنْ خَلْفِهِمْ أَلَّا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴿١٧٠﴾ ۞ يَسْتَبْشِرُونَ بِنِعْمَةٍ مِّنَ ٱللَّهِ وَفَضْلٍ وَأَنَّ ٱللَّهَ لَا يُضِيعُ أَجْرَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴾ [آل عمران : ١٦٩ - ١٧١] فإذا كسر الإنسان هذا المكروه وصل إلى الجنة .

كذلك الأمر بالمعروف ، والنهي عن المنكر شديد على النفوس شاق عليها ، وكل إنسان يتهاون فيه ، ويكرهه ، يقول : ما عليَّ بالناس . أتعب نفسي معهم وأتعبهم معي ؟! ولكنه إذا كسر هذا المكروه وأمر بالمعروف ، ونهى عن المنكر ؛ فإن هذا سبب لدخول الجنة ، وهلم جرًّا ، كل الأشياء التي أمر الله بها مكروهه للنفوس ، لكن أكره نفسك عليها حتى تدخل الجنة .

فاجتناب المحرمات مكروه إلى النفوس وشديد عليها ، لا سيما مع قوة الداعي ، فإذا أكرهت نفسك على ترك هذه المحرمات ؛ فهذا من أسباب دخوله الجنة ، فلو أن رجلًا شابًّا أعزب في بلاد كفر وحرية ، فيها يفعل الإنسان ما شاء ، وأمامه من النساء الجميلات فتيات شابات وهو شاب أعزب فلا شك أنه سيعاني مشقة عظيمة في ترك الزنا ؛ لأنه متيسر له ، وأسبابه كثيرة ، لكن إذا أكره نفسه على تركها صار هذا سببًا لدخوله الجنة .

واستمع إلى قول النبي - عليه الصلاة والسلام - : « سبعة يظلهم الله في ظله يوم لا ظل إلا ظله » [1] أي يوم القيامة حيث تدنو الشمس الحارة العظيمة ، التي نحس بحرارتها الآن وبيننا وبينها آلاف السنين ، هذه الشمس تدنو يوم القيامة حتى تكون على رؤوس الخلائق بمقدار ميل ، قال بعض العلماء الميل : المكحلة ، والمكحلة صغيرة أصغر من الإصبع ، وقال بعضهم : ميل المسافة ، وأيًّا كان الميل ، فالشمس قريبة من الرؤوس ، لكن هناك أناس يظلهم الله في ظله يوم لا ظل إلا ظله - أسأل الله أن يجعلني وإياكم ممن يظله الله .

يظلهم الله : يعني يخلق لهم ما يظلهم يوم لا ظل إلا ظله ، وليس في ذلك اليوم بناء ولا شجر ولا جبال تظلل وليس هناك إلا ظل رب العالمين . هذا الظل يظل الله فيه من شاء من عباده ، ومنهم هؤلاء السبعة الذين ذكرهم الرسول - عليه الصلاة والسلام - في قوله : « سبعة يظلهم الله في ظله يوم لا ظل إلا ظله » .

إمام عادل : وليس المقصود بالإمام العادل أنه يحكم لأقاربه وغيرهم على حد سواء ، فهذا من

---

(١) أخرجه البخاري في الزكاة (١٤٢٣) ، ومسلم في الزكاة (٩١) ، والترمذي في السنن (٢٣٩١) ، وأحمد في مسنده (٤٣٩/٢) .

معنى العدل ، لكن الإمام العادل الذي يطبق شريعة الله في كل شيء ، في الحكم في الناس ، وفي الحكم بين الناس ، هذا هو الإمام العادل . ولو فرضنا إمام عادل يعدل بين الناس في الحكم لكن لا يطبق فيهم شرع الله فليس بعادل ، العادل الذي يحكم بين الناس وفي الناس بحكم الله ﷻ .

« وشاب نشأ في طاعة الله ، ورجل قلبه معلق بالمساجد ، ورجلان تحابا في الله اجتمعا عليه وتفرقا عليه ، ورجل دعته امرأة ذات منصب وجمال » ، وهذا هو الشاهد ، فالمرأة ذات منصب يعنى شريفة ليست دنيئة ، وذات جمال ، والجمال يدعو النفس إلى التطلع إلى المرأة . « فقال : إني أخاف الله » فالرجل شاب وفيه شهوة وأسباب الزنا قائمة ، والموانع معدومة ، ولكن هناك مانع واحد وهو خوف الله ﷻ « فقال : إني أخاف الله » فكان هذا من الذين يظلهم الله في ظله يوم لاظل إلاظله .

والسادس : « رجلٌ تصدق بصدقة فأخفاها حتى لا تعلم شماله ما تنفق يمينه » من شدة إخلاصه ، والسابع : « رجل ذكر الله خاليًا ففاضت عيناه » أي فاضت عيناه شوقًا إلى ربه ﷻ ، وفاضت عيناه خوفًا من ربه ، وكان خاليًا ليس عنده أحد ؛ خالي القلب من الدنيا فليس فيه هواجس ، بل خالي إلا من ذكر الله ، فذكر الله في هذه الخلوة القلبية والخلوة المكانية ففاضت عيناه . فكان هذا ممن يظلهم الله في ظله يوم لا ظل إلا ظله .

والمهم أن النار حجبت بالشهوات ، والجنة حجبت بالمكاره ، فجاهد نفسك على ما يحب الله وإن كَرِهْتَ ، واعلم علم إنسان مجرب أنك إذا أكرهت نفسك على طاعة الله ؛ أحببت الطاعة وألفتها ، وصرت بعد ما كنت تكرهها تأبى نفسك إذا أردت أن تتخلف عنها .

ونحن نجد بعض الناس يكره أن يصلي مع الجماعة ، ويثقل عليه ذلك عندما يبدأ في فعله ، لكن إذا به بعد فترة تكون الصلاة مع الجماعة قرة عينه ، ولو تأمره ألا يصلي لا يطيعك ، فأنت عود نفسك وأكرهها أول الأمر ، وستلين لك فيما بعد وتنقاد . أسأل الله أن يعينني وإياكم على ذكره وشكره وحسن عبادته .

* * *

١٠٢ – الثامن : عن أبي عبد الله حُذَيفَةَ بنِ اليمانِ ﵄ قال : صَلَّيتُ مَعَ النَّبيِّ ﷺ ذَاتَ لَيلَةٍ ، فَافْتَتَحَ البقرَة ، فَقُلْت يَرْكَع عِندَ المائَةِ ، ثمَّ مَضى ، فَقُلْتُ يُصَلِّي بهَا في رَكعَةٍ ، فَمَضَى ، فَقُلْت : يَرْكَع بهَا ، ثُمَّ افْتتحَ النِّسَاء ، فَقَرأَهَا ، ثمَّ افْتتحَ آلَ عِمْرانَ فَقرأَهَا ، يَقرأُ مُتَرَسِّلًا إذَا مَرَّ بآيةٍ فِيها تَسْبيحٌ سَبَّحَ ، وَإذَا مَرَّ بِسُؤَال سَأَلَ ، وَإذَا مَرَّ بِتَعَوُّذٍ تَعَوَّذَ ، ثمَّ رَكعَ فَجَعَل يَقُول : « سُبْحَانَ رَبِّيَ العَظِيم » فَكَانَ رُكُوعُه نَحْوًا مِنْ قِيَامِهِ ثمَّ قالَ : « سَمعَ اللهُ لِمَنْ حَمدَه ، رَبَّنَا لَكَ الحَمْد » ثمَّ قَامَ قِيامًا طَوِيلًا قريبًا مِمَّا رَكَعَ ، ثمَّ سَجَدَ فَقَالَ : « سُبْحَانَ رَبِّيَ الأَعْلَى » فَكَانَ سُجُوده قَرِيبًا مِنْ قِيَامِهِ [١] . رواه مسلم

(١) أخرجه مسلم في صلاة المسافرين (٢٠٣) قوله « مترسلًا » أي مرتلًا بتبيين الحروف وأداء حقها .

الشرح

قال المؤلف - رحمه الله تعالى - فيما نقله عن حذيفة بن اليمان ﷺ أنه صلى مع النبي ﷺ ذات ليلة - يعني في ليلة من الليالي ، وكان النبي ﷺ أحيانًا يصلي معه بعض أصحابه ، فمرة صلى معه حذيفة ، ومرة صلى معه ابن مسعود ﷺ ، ومرة صلى معه ابن عباس ﷺ ، وكان النبي - عليه الصلاة والسلام - يصلي في الليل وحده ؛ لأن صلاة الليل لا تشرع فيها الجماعة إلا في رمضان ، لكن لا بأس أن تقام الجماعة فيها أحيانًا كما في هذا الحديث ، يقول : « فافتتح سورة البقرة ، فقلت « يركع عند المائة » فقرأ السورة كاملة ، فظن أنه يركع بها ؛ أي أنه إذا أكمل سورة البقرة ركع ، ولكنه مضى ﷺ فقرأ سورة النساء كاملة ، فقال حذيفة : يركع بها ، ولكنه مضى فقرأ سورة آل عمران كاملة في ركعة واحدة ، يقرأ مترسلًا غير مستعجل ، إذا مر بآية تسبيح سبح ، وإذا مر بآية سؤال سأل ، وإذا مر بآية تعوذ تعوذ .

فجمع - عليه الصلاة والسلام - بين القراءة وبين الذكر وبين الدعاء وبين التفكر ؛ لأن الذي يسأل عند السؤال ويتعوذ عند التعوذ ويسبح عند التسبيح ، لا شك أنه يتأمل قراءته ويتفكر فيها ، فيكون هذا القيام روضة من رياض الذكر ، قراءة وتسبيحًا ودعاءً وتفكرًا ، والنبي - عليه الصلاة والسلام - في هذا كله لم يركع . فهذه السور الثلاث : البقرة والنساء وآل عمران أكثر من خمسة أجزاء ، فتدبر إذا كان الإنسان يقرأها بترسل ، ويستعيذ عند آية الوعيد ويسأل عند آية الرحمة ، ويسبح عند آية التسبيح . كم تكون المدة ؟ لا شك أنها تكون طويلة ، ولهذا كان - عليه الصلاة والسلام - يقوم حتى تتورم قدماه وتتفطر .

حتى إن ابن مسعود وهو شاب لما صلى معه ليلة من الليالي يقول : أطال النبي ﷺ القيام حتى هممت بأمر سوء ، قال : بما هممت ؟ قال : هممت أن أجلس وأدعه [1] ، عجز أن يصبر من طول القيام .

ثم إن النبي - عليه الصلاة والسلام - ركع بعد أن أتم السور الثلاث ، فقال : « سبحان ربي العظيم » وأطال الركوع نحوًا من قيامه ، ثم رفع من ركوعه وأطال القيام بعد الركوع وقال : « سمع الله لمن حمده ربنا ولك الحمد » حتى كان قيامه نحوًا من ركوعه ، ثم سجد ﷺ فقال : « سبحان ربي الأعلى » وأطال السجود حتى كان سجوده نحوًا من قيامه .

وهكذا كان - عليه الصلاة والسلام - يصلي فيجعل الصلاة متناسبة ؛ إذا أطال القيام ، أطال الركوع ، والسجود ، والقيام الذي بعد الركوع ، والجلوس الذي بين السجدتين ، وإذا خفف القراءة ؛ خفف الركوع والسجود ، والقيام ؛ من أجل أن تكون الصلاة متناسبة ، وهذا فعله - صلوات الله وسلامه عليه - في الفرض وفي النفل أيضًا ، فكان ﷺ يجعل صلاته متناسبة .

وفي هذا الحديث عدة فوائد :

الفائدة الأولى : وهي التي ساق المؤلف الحديث من أجلها : أن النبي ﷺ كان يعمل عمل المجاهد الذي يجاهد نفسه على الطاعة ؛ لأنه يعمل هذا العمل الشاق ابتغاء وجه الله ورضوانه ، كما قال الله

---

(١) سبق تخريجه .

تعالى في وصف النبي ﷺ وصحبه : ﴿ تَرَىٰهُمْ رُكَّعًا سُجَّدًا يَبْتَغُونَ فَضْلًا مِّنَ ٱللَّهِ وَرِضْوَٰنًا ﴾ [الفتح : ٢٩] .

ومنها جواز إقامة الجماعة في صلاة الليل ، لكن هذا ليس دائمًا ، إنما يُفعل أحيانًا في غير رمضان ، أما في رمضان فإن من السنة أن يقوم الناس في جماعة .

ومنها : أنه ينبغي للإنسان في صلاة الليل إذا مرَّ بآية رحمة أن يقف ويسأل ، مثل لو مر بذكر الجنة يقف ويقول : اللهم اجعلني من أهلها ، اللهم إني أسألك الجنة ، وإذا مر بآية وعيد يقف يقول : أعوذ بالله من ذلك ، أعوذ بالله من النار ، وإذا مر بآية تسبيح يعني تعظيم لله ﷻ يقف ويسبح الله ويعظمه ، هذا في صلاة الليل ، أما في صلاة الفريضة لا بأس أن يفعل هذا ولكنه ليس بسنة ، إن فعله فإنه لا يُنهى عنه ، وإن ترك فإنه لا يُؤمر به [١] . بخلاف صلاة الليل ؛ فإن الأفضل أن يفعل ذلك ، أي يتعوذ عند آية الوعيد ويسأل عند آية الرحمة ويسبح عند آية التسبيح .

ومن فوائد هذا الحديث : جواز تقديم السور بعضها على بعض ؛ فإن النبي ﷺ قدم سورة النساء على سورة آل عمران ، والترتيب أن سورة آل عمران مقدمة على سورة النساء ، ولكن هذا - والله أعلم - كان قبل السنة الأخيرة ، فإن السنة الأخيرة كان النبي ﷺ يقدم سورة آل عمران علي سورة النساء ، ولهذا رتبها الصحابة ﷺ على هذا الترتيب ، أي أن آل عمران قبل سورة النساء ، وكان النبي - عليه الصلاة والسلام - يقرن بين البقرة وآل عمران في مثل قوله - عليه الصلاة والسلام - : « اقرأوا الزهراوين البقرة وآل عمران فإنهما يأتيان يوم القيامة كأنهما غمامتان ، أو غيايتان أو فِرْقان من طير صوافٍّ تحاجان عن صاحبهما يوم القيامة » [٢] فالمهم أن الترتيب في الأخير كان تقديم سورة آل عمران على سورة النساء .

ومن فوائد هذا الحديث : أن رسول الله ﷺ كان يسبح ويكرر التسبيح ؛ لأن حذيفة قال : كان يقول : « سبحان ربي العظيم » وكان يطيل ، ويقول : « سبحان ربي الأعلى » وذكر أنه يطيل ، ولم يذكر شيئًا آخر ، فدل هذا على أنك مهما كررت من التسبيح في الركوع والسجود ؛ فإنه سنة ، ولكن مع هذا كان النبي - عليه الصلاة والسلام - يقول في ركوعه وفي سجوده ويكثر من هذا القول : « سبحانك اللهم وبحمدك اللهم اغفر لي » [٣] وكان يقول أيضًا : « سبوح قدوس رب الملائكة والروح » [٤] فكل ما ورد عن النبي ﷺ من ذكر ودعاء فإنه يسن للإنسان أن يقوله في صلاته . نسأل الله تعالى أن يرزقنا وإياكم اتباع رسوله ﷺ ظاهرًا وباطنًا ، وأن يتولانا وإياكم في الدنيا والآخرة إنه جواد كريم .

* * *

---

(١) ذهب الشافعية والحنابلة في المعتمد في مذهبهم إلى جواز الدعاء في الصلاة بغير المأثور ، والمأثور من الدعاء أفضل أما الحنفية وبعض الحنابلة فقد ذهبوا إلى عدم جواز الدعاء بما ليس بمأثور ، وأنه يفسد الصلاة ؛ لأنه من كلام الآدميين (انظر المغني ٥٤٨/١ - ٥٤٩ ، مغني المحتاج ١٧٦/١ ، البناية ٢٤٥/٢ ، فقه الكتاب والسنة ٥٦٠/١ - ٥٦١) .

(٢) أخرجه مسلم في صلاة المسافرين (٢٥٢) ، قوله « فرقان » أي جماعتان .

(٣) أخرجه البخاري في تفسير القرآن (٤٩٦٧) ، ومسلم في الصلاة (٢١٧) ، وأحمد في مسنده (٣٨٨/١) .

(٤) أخرجه مسلم في صلاة المسافرين (٢٢٣) ، وأبو داود في الصلاة (٨٧٢) ، والنسائي في السنن (١٩١/٢) .

١٠٣ - التاسع : عن ابن مسعودٍ ﷺ قال : صَلَّيت مَعَ النَّبيِّ ﷺ لَيلَةً ، فَأَطَالَ القِيَامَ حَتَّى هَمَمْت بِأَمْرِ سُوءٍ ! قيل : وَمَا هَمَمْت بِهِ ؟ قالَ : هَمَمْت أَنْ أَجْلِسَ وَأدعه [١] . متفقٌ عليه .

١٠٤ - العاشر : عن أنس ﷺ عن رسول اللّه ﷺ قال : « يَتْبَع المَيتَ ثلاثَةٌ : أَهْلُهُ وَمَالُه وَعَمَلُه ، فَيَرْجع اثْنَانِ وَيَبْقَى وَاحِدٌ : يَرْجعُ أَهْلُهُ وَمَالُه ، وَيَبْقَى عَمَلُهُ » [٢] متفقٌ عليه

الشرح

قال المؤلف رحمه الله فيما نقله عن عبد اللّه بن مسعود ﷺ وكان ﷺ أحد الذين يخدمون رسول اللّه ﷺ . صاحب وسادته وسواكه ﷺ فصلى مع النبي ﷺ ذات ليلة ، فقام النبي ﷺ فأطال القيام ، وقد سبق من حديث عائشة : أنه كان ﷺ يقوم حتى تتفطر قدماه ، أو حتى تتورم . تتفطر أحيانًا وتتورم أحيانًا ، من طول القيام .

وصح من حديث حذيفة : أنه قرأ في ركعة واحدة بثلاث سور من طوال السور ، البقرة ، والنساء، وآل عمران .

وكذلك ابن مسعود ﷺ صلى معه ذات ليلة فأطال النبي ﷺ القيام فهم بأمر سوء يعني بأمر ليس يسر المرء فعله ، قال : بما هممت يا أبا عبد الرحمن ؟ قال هممت أن أجلس وأدعه ، يعني أجلس وأدعه قائمًا ، لأن ابن مسعود تعب وأعيا مع أنه شاب ، والنبي - عليه الصلاة والسلام - لم يتعب ؛ لأنه - عليه الصلاة والسلام - كان أشدُّ الناس عبادة لله ﷻ وأتقاهم لله ، ففي هذا دليل على أنه من السنة أن يقوم الإنسان في الليل ويطيل القيام ، وأنه إذا فعل ذلك فهو مقتد برسول اللّه ﷺ .

ولكن اعلم أنك إذا أطلت القيام ، فإن السنة أن تطيل الركوع ، والسجود ، والجلوس بين السجدتين ، والوقوف بعد الركوع ، فإن من سنة الرسول - عليه الصلاة والسلام - أنه كان يجعل صلاته متناسبة ؛ إذا أطال القيام أطال بقية الأركان ، وإذا خفف القيام خفف بقية الأركان .

ثم ذكر المؤلف رحمه الله حديث أنس ﷺ أن النبي ﷺ قال : « يتبع الميت ثلاثة : ماله ، وأهله ، وعمله ، فيرجع اثنان ، ويبقى واحد » صدق النبي ﷺ . الإنسان إذا مات تبعه المشيعون له ، فيتبعه أهله يشيعونه إلى المقبرة ، وما أعجب الحياة الدنيا وأخسها ، وما أدناها ، يتولى دفنك من أنت أحب الناس إليه ؛ يدفنونك ويبعدونك عنهم ، ولو أنهم أعطوا أجرة على أن تبقى جسدًا بينهم ما رضوا ، فأقرب الناس إليك ومن أنت أحب الناس إليهم ، هم الذين يتولون دفنك ؛ يتبعونك ويشيعونك .

« ويتبعه ماله » : أي عبيده وخدمه المماليك له ، وهذا يمثل الرجل الغني الذي له عبيد وخدم مماليك ، يتبعونه ، ويتبعه « عمله » معه فيرجع اثنان ويدعونه وحده ، ولكن يبقى معه عمله ، نسأل اللّه أن يجعل عملنا وإياكم صالحًا ؛ فيبقى عمله عنده أنيسه في قبره ينفرد به إلى يوم القيامة .

---

(١) أخرجه البخاري في التهجد (١١٣٥) ، ومسلم في صلاة المسافرين (٢٠٤) .

(٢) أخرجه البخاري في الرقاق (٦٥١٤) ، ومسلم في الزهد (٥) .

وفي هذا الحديث : دليل على أن الدنيا - كل زينة الحياة الدنيا ترجع ، ولا تبقى معك في قبرك ، المال ، والبنون ، زينة الحياة الدنيا ترجع ، من الذي يبقى ؟ فقط العمل ، فعليك يا أخي أن تحرص على الصاحب الذي يبقى ولا ينصرف مع من ينصرف ، وعليك أن تجتهد حتى يكون عملك عملًا صالحًا يؤنسك في قبرك إذا انفردت به عن الأحباب والأهل والأولاد .

ومناسبة هذا الحديث للباب ظاهرة ؛ لأن كثرة العمل توجب مجاهدة النفس ، فإن الإنسان يجاهد نفسه على الأعمال الصالحة التي تبقى بعد موته ، نسأل الله لنا ولكم حسن الخاتمة والعاقبة ، وأن يتولانا بعنايته ورعايته . إنه جواد كريم .

* * *

١٠٥ - الحادي عشر : عن ابن مسعود ﷺ قال : قال النبي ﷺ : « الجَنَّةُ أَقْرَبُ إِلى أَحَدِكُمْ مَنْ شِرَاكِ نَعْله ، وَالنَّارُ مِثْلُ ذَلِكَ » [1] رواه البخاري .

الشرح

قال المؤلف - رحمه الله تعالى - في باب المجاهدة فيما نقله عن عبد الله بن مسعود ﷺ أن النبي ﷺ قال : « الجنة أقرب إلى أحدكم من شراك نعله ، والنار مثل ذلك » هذا الحديث يتضمن ترغيبًا وترهيبًا ، يتضمن ترغيبًا في الجملة الأولى وهو قوله كلمة « الجنة أقرب إلى أحدكم من شراك نعله » وشراك النعل هو السير الذي يكون على ظهر القدم ، وهو قريب من الإنسان جدًّا ويضرب به المثل في القرب ، وذلك لأنه قد تكون الكلمة الواحدة ، سببًا في دخول الجنة ؛ فقد يتكلم الإنسان بالكلمة الواحدة من رضوان الله ﷻ لا يظن أنها تبلغ ما بلغت ، فإذا هي توصله إلى جنة النعيم .

ومع ذلك فإن الحديث أعم من هذا ؛ فإن كثرة الطاعات واجتناب المحرمات من أسباب دخول الجنة وهو يسير على من يسره الله عليه ، فأنت تجد المؤمن الذي شرح الله صدره للإسلام يصلي براحة وطمائينة وانشراح صدر ومحبة للصلاة ، ويزكي كذلك ، ويصوم كذلك ، ويحج كذلك ، ويفعل الخير كذلك ، فهو يسير عليه سهل قريب منه ، وتجده يتجنب ما حرمه الله عليه من الأقوال والأفعال وهو يسير عليه .

وأما - والعياذ بالله - من قد ضاق بالإسلام ذرعًا ، وصار الإسلام ثقيلًا عليه ؛ فإنه يستثقل الطاعات ، ويستثقل اجتناب المحرمات ، ولا تصير الجنة أقرب إليه من شراك نعله .

وكذلك النار ، وهي الجملة الثانية في الحديث وهي التي فيها التحذير ، يقول النبي - عليه الصلاة والسلام - : « والنار مثل ذلك » أي أقرب إلى أحدنا من شراك نعله ، فإن الإنسان ربما يتكلم بالكلمة لا يلقي لها بالًا وهي من سخط الله فيهوي بها في النار كذا وكذا من السنين ؛ وهو لا يدري وما أكثر الكلمات التي يتكلم بها الإنسان غير مبال بها ، وغير مهتم بمدلولها ، فترديه في نار جهنم ، نسأل الله العافية .

ألم تروا إلى قصة المنافقين الذين كانوا مع النبي ﷺ في غزوة تبوك حيث كانوا يتحدثون فيما

(١) أخرجه البخاري في الرقاق (٦٤٨٨) ، وأحمد في مسنده (١/٣٧٨ ، ٤١٣) ، والبيهقي في السنن (٣/٣٦٨) .

بينهم يقولون : ما رأينا مثل قرائنا هؤلاء أرغب بطونًا ولا أكذب ألسنًا ولا أجبن عند اللقاء [١] ؛ يعنون بذلك النبي ﷺ وأصحابه ، يعني أنهم واسعو البطون من كثرة الأكل ، وليس لهم هم إلا الأكل ، « ولا أكذب ألسنًا » يعني : أنهم يتكلمون بالكذب « ولا أجبن عند اللقاء » أي أنهم يخافون لقاء العدو ولا يثبتون ، بل يفرون ويهربون . هكذا يقول المنافقون في الرسول ﷺ وأصحابه .

وإذا تأملت وجدت أن هذا ينطبق على المنافقين تمامًا لا على المؤمنين ، فالمنافقون من أشدِّ الناس حرصًا على الحياة ، والمنافقون من أكذب الناس ألسنًا ، والمنافقون من أجبن الناس عند اللقاء . فهذا الوصف حقيقته في هؤلاء المنافقين .

ومع ذلك يقول الله ﷻ : ﴿ وَلَئِن سَأَلْتَهُمْ لَيَقُولُنَّ إِنَّمَا كُنَّا نَخُوضُ وَنَلْعَبُ ﴾ [التوبة : ٦٥] يعني ما كنا نقصد الكلام ، إنما هو خوض في الكلام ولعب ، فقال الله ﷻ : ﴿ قُلْ ﴾ يعني : قل يا محمد ﴿ وَلَئِن سَأَلْتَهُمْ لَيَقُولُنَّ إِنَّمَا كُنَّا نَخُوضُ وَنَلْعَبُ قُلْ أَبِاللَّهِ وَآيَاتِهِ وَرَسُولِهِ كُنتُمْ تَسْتَهْزِئُونَ ۝ لَا تَعْتَذِرُوا قَدْ كَفَرْتُم بَعْدَ إِيمَانِكُمْ إِن نَّعْفُ عَن طَائِفَةٍ مِّنكُمْ نُعَذِّبْ طَائِفَةً بِأَنَّهُمْ كَانُوا مُجْرِمِينَ ﴾ [التوبة : ٦٥، ٦٦] فبين الله ﷻ أن هؤلاء كفروا بعد إيمانهم باستهزائهم بالله وآياته ورسوله ، ولهذا يجب على الإنسان أن يقيد منطقه وأن يحفظ لسانه حتى لا يذل فيهلك ، نسأل الله لنا ولكم الثبات على الحق والسلامة من الإثم .

* * *

١٠٦ - الثاني عشر : عن أبي فِراس رَبِيعَةَ بنِ كَعْبِ الأَسْلَمِيِّ خَادِمِ رسول اللَّه ﷺ ، وَمِنْ أَهْلِ الصفَّةِ رضي الله عنه قال : « كُنْتُ أَبِيتُ مَعَ رسول اللَّه ﷺ ، فآتيه بِوَضوئِهِ ، وَحَاجَتِهِ فَقَالَ : « سَلْني » فَقُلْت : أَسْأَلُكَ مُرَافَقَتَكَ في الجَنَّةِ . فَقَالَ : « أَوَ غَيرَ ذَلِكَ ؟ » قُلْت : هُوَ ذَاكَ ، قال : « فَأَعِنِّي عَلى نَفْسِكَ بِكَثْرَةِ السُّجُودِ » [٢] رواه مسلم .

الشرح

قال المؤلف - رحمه الله تعالى - فيما نقل عن ربيعة بن مالك الأسلمي رضي الله عنه ، وكان خادمًا لرسول الله ﷺ والذين يخدمون النبي ﷺ من الأحرار عدد ، منهم ربيعة بن مالك ، ومنهم ابن مسعود ، ولهم الشرف بخدمة رسول الله ﷺ ، وكان من أهل الصفة ؛ وأهل الصفة رجال مهاجرون هاجروا إلى المدينة وليس لهم مأوى ، فوطَّنهم النبي - عليه الصلاة والسلام - في صُفَّةٍ في المسجد النبوي ، وكانوا أحيانًا يبلغون الثمانين ، وأحيانًا دون ذلك ، وكان الصحابة رضي الله عنهم يأتونهم بالطعام واللبن وغيره مما يتصدقون به عليهم .

فكان ربيعة بن مالك رضي الله عنه يخدم النبي ﷺ وكان يأتيه بوضوئه وحاجته ، الوَضوء بالفتح الماء الذي يتوضأ به ، والوُضوء بالضم فعل الوضوء ، وأما الحاجة فلم يبينها ، ولكن المراد كل ما يحتاجه النبي - عليه الصلاة والسلام - يأتي به إليه .

---

(١) ودليل ذلك ما رواه البخاري في الرقاق (٦٤٧٧) ، ومسلم في الزهد (٤٩ ، ٥٠) ، وأحمد في مسنده (٣٣٤/٢) .

(٢) أخرجه مسلم في الصلاة (٢٢٦) .

فقال له ذات يوم : سل ، من أجل أن يكافئه النبي – عليه الصلاة والسلام – على خدمته إياه ؛ لأن النبي ﷺ أكرم الخلق ، وكان يقول : « من صنع إليكم معروفًا فكافئوه » [١] فأراد أن يكافئه ، فقال له : سل ، يعني اسأل ما بدا لك ، وقد يتوقع الإنسان أن هذا الرجل سيسأل مالًا ، ولكن همته كانت عالية ، قال : « أسألك مرافقتك في الجنة » كما كنت ، يعني كأنه يقول كما كنت مرافقًا لك في الدنيا ، أسألك مرافقتك في الجنة ، قال : « أو غير ذلك ؟ » يعني أو تسأل غير ذلك مما يمكن أن أقوم به ، قال : « هو ذاك » يعني لا أسأل إلا ذاك ، قال النبي ﷺ : « فأعني على نفسك بكثرة السجود » .
وهذا هو الشاهد أن الرسول ﷺ قال : أعني على نفسك بكثرة السجود ، وكثرة السجود تستلزم كثرة الركوع ، وكثرة الركوع تستلزم كثرة القيام ؛ لأن كل صلاة في كل ركعة منها ركوع وسجودان ، فإذا كثر السجود كثر الركوع وكثر القيام ، وذكر السجود دون غيره ؛ لأن السجود أفضل هيئة للمصلي ، فإن أقرب ما يكون العبد من ربه وهو ساجد ، وإن كان المصلي قريبًا من الله قائمًا كان أو راكعًا أو ساجدًا أو قاعدًا ، لكن أقرب ما يكون من ربه وهو ساجد .

وفي هذا دليل على فضل السجود .

واختلف أهل العلم هل الأفضل إطالة القيام أم إطالة الركوع والسجود ؟ فمنهم من قال : الأفضل إطالة القيام ، ومنهم من قال : الأفضل إطالة الركوع والسجود ، والصحيح أن الأفضل أن تكون الصلاة متناسبة ، وإلا فإن القيام بلا شك أطول من الركوع والسجود في حد ذاته ، لكن ينبغي إذا أطال القيام أن يطيل الركوع والسجود ، وإذا قصر القيام أن يقصر الركوع والسجود .

وفي هذا : دليل على أن الصلاة مهما أكثرت منها فهو خير ، إلا أنه يستثنى من ذلك أوقات النهي ، وأوقات النهي هي من طلوع الفجر إلى ارتفاع الشمس مقدار رمح ، وعند قيامها في منتصف النهار حتى تزول ، ومن صلاة العصر إلى الغروب ، فإن هذه الأوقات الثلاثة لا يجوز للإنسان أن يصلي فيها صلاة تطوع ، إلا إذا كان لها سبب ، كتحية المسجد ، وسنة الوضوء وما أشبه ذلك .

وفي الحديث : دليل على جواز استخدام الرجل الحر ، وأن ذلك لا يعد من المسألة المذمومة ، فلو أنك قلت لشخص من الناس ممن يقومون بخدمتك : أعطني كذا . أعطني كذا ، فلا بأس ، وكذلك لو قلت لصاحب المنزل أعطني ماءً ، صب لي فنجان قهوة فلا بأس ؛ لأن هذا لا يُعد من السؤال المذموم ، بل هذا من تمام الضيافة ، وقد جرت العادة بمثله .

وفيه : دليل أيضًا على أن الرسول ﷺ لا يملك أن يدخل أحدًا الجنة ، ولهذا لم يضمن لهذ الرجل أن يعطيه مطلوبه ، ولكنه قال له : « فأعني على نفسك بكثرة السجود » ، فإذا قام بكثرة السجود التي أوصاه بها رسول الله ﷺ ، فإنه حري بأن يكون مرافقًا للرسول ﷺ في الجنة .

---

(١) أخرجه أبو داود في الزكاة (١٦٧٢ ، ٥١٠٩) ، وأحمد في مسنده (٦٨/٢) ، والنسائي في السنن (٣٥٨/١) ، والحاكم في المستدرك (٤١٢/١) .

١٠٧ - الثالث عشر : عن أبي عبد الله - وَيُقَال : أَبُو عَبْدِ الرَّحْمَنِ - ثَوبَانَ مَولى رسول الله ﷺ قال : سَمِعْت رسول الله ﷺ يقول : « عَليكَ بِكَثْرَةِ السُّجُودِ ؛ فَإِنَّكَ لَنْ تَسْجُد للّهِ سَجْدَةً إلا رَفَعَكَ اللّه بهَا دَرَجَةً ، وَحَط عَنْكَ بهَا خَطِيئَةً »[١] رواه مسلم .

١٠٨ - الرابع عشر : عن أبي صَفْوَانَ عبد الله بن بُسْرِ الأَسْلَمِيِّ ﷺ قال : قال رسول الله ﷺ : « خَير النَّاسِ مَنْ طَالَ عُمُره وَحَسُنَ عَمَلُه »[٢] رواه الترمذي ، وقال : حديثٌ حسنٌ .

« بُسْر » : بضم الباء وبالسين المهملة .

الشرح

قال المؤلف - رحمه الله تعالى - فيما نقله عن ثوبان مولى رسول الله ﷺ ، أنه قال : سمعت رسول الله ﷺ يقول : « عليك بكثرة السجود » عليك يعني الزم كثرة السجود ، « فإنك لن تسجد لله سجدة ؛ إلا رفعك الله بها درجة ، وحط عنك بها خطيئة » ؛ وهذا كالحديث السابق حديث ربيعة بن مالك الأسلمي ، أنه قال للنبي ﷺ : أسألك مرافقتك في الجنة ، قال : « فأعني على نفسك بكثرة السجود » . ففيه دليل على أنه ينبغي للإنسان أن يكثر من السجود ، وقد سبق لنا أن كثرة السجود تستلزم كثرة الركوع وكثرة القيام والقعود ؛ لأن كل ركعة فيها سجودان وفيها ركوع واحد ، ولا يمكن أن تسجد في الركعة الواحدة ثلاث سجدات أو أربعًا ، إذن كثرة السجود تستلزم كثرة الركوع والقيام والقعود .

ثم بين النبي ﷺ : ماذا يحصل للإنسان من الأجر فيما إذا سجد .. ؟ وهو أنه يحصل له فائدتان عظيمتان : الفائدة الأولى : أن الله يرفعه بها درجة ، يعني منزلة عنده وفي قلوب الناس ، وكذلك في عملك الصالح يرفعك الله به درجة .

والثانية : يحط عنك بها خطيئة ، والإنسان يحصل له الكمال بزوال ما يكره وحصول ما يحب ، فرفع الدرجات مما يحبه الإنسان ، والخطايا مما يكره الإنسان ، فإذا رفع له درجة وحط عنه بها خطيئة ، فقد حصل على مطلوبه ونجا من مرهوبه .

أما حديث عبد الله بن بسر ، قال : إن النبي ﷺ قال : « خير الناس من طال عمره ، وحسن عمله » . وهذا خير الناس لأن الإنسان كلما طال عمره في طاعة الله زاد قربًا إلى الله ، وزاد رفعة في الآخرة ؛ لأن كل عمل يعمله فيما زاد فيه عمره فهو يقربه إلى ربه ﷻ ، فخير الناس من وُفق لهذين الأمرين .

أما طول العمر : فإنه من الله وليس للإنسان فيه تصرف ؛ لأن الأعمار بيد الله ﷻ ، وأما حسن العمل : فإن بإمكان الإنسان أن يحسن عمله ؛ لأن الله تعالى جعل له عقلًا وأنزل الكتب وأرسل الرسل ، وبين المحجة وأقام الحجة ، فكل إنسان يستطيع أن يعمل عملًا صالحًا ، على أن الإنسان إذا عمل عملًا

---

(١) أخرجه مسلم في الصلاة (٢٢٥) ، وابن ماجه في إقامة الصلاة (١٤٢٢) ، وأحمد في مسنده (٥/٢٧٦) .
(٢) أخرجه الترمذي في الزهد (٢٣٢٩) وله شاهد من حديث أبي بكرة عند الترمذي أيضًا في جامعه في الزهد (٢٣٣٠) ، وأحمد في مسنده (٥/٤٠ ، ٤٣) .

صالحًا ؛ فإن النبي ﷺ أخبر أن بعض الأعمال الصالحة سبب لطول العمر وذلك مثل صلة الرحم . قال النبي - عليه الصلاة والسلام - : « من أحبَّ أن يبسط له في رزقه ، ويُنسأ له في أثره ؛ فليصل رحمه » (١) وصلة الرحم من أسباب طول العمر ، فإذا كان خير الناس من طال عمره وحسن عمله ، فإنه ينبغي للإنسان أن يسأل الله دائمًا أن يجعله ممن طال عمره وحسن عمله ، من أجل أن يكون من خير الناس .

وفي هذا : دليل على أن مجرد طوله العمر ليس خيرًا للإنسان إلا إذا حسن عمله ؛ لأنه أحيانًا يكون طول العمر شرًا للإنسان وضررًا عليه ، كما قال الله تبارك وتعالى : ﴿ وَلَا يَحْسَبَنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ أَنَّمَا نُمْلِي لَهُمْ خَيْرٌ لِّأَنفُسِهِمْۚ إِنَّمَا نُمْلِي لَهُمْ لِيَزْدَادُوٓاْ إِثْمًاۚ وَلَهُمْ عَذَابٌ مُّهِينٌ ﴾ [آل عمران : ١٧٨] ، فهؤلاء الكفار يملي الله لهم - أي يمدهم بالرزق والعافية وطول العمر والبنين والزوجات ، لا لخير لهم ، ولكنه شر لهم - والعياذ بالله ؛ لأنهم سوف يزدادون بذلك إثمًا .

ومن ثم كره بعض العلماء أن يُدعى للإنسان بطول البقاء ، قال : لا تقل ، أطال الله بقاءك إلا مقيدًا . قل : أطال الله بقاءك على طاعته ؛ لأن طول البقاء قد يكون شرًا للإنسان . نسأل الله أن يجعلنا وإياكم ممن طال عمره وحسن عمله ، وحسنت خاتمته وعاقبته ، إنه جواد كريم .

* * *

١٠٩ - الخامس عشر : عن أنس ﷺ قال : غَابَ عَمِّي أَنَسُ بنُ النَّضْرِ ﷺ عن قتال بَدْرٍ ، فقال : يا رسول الله غِبْتُ عَن أوَّل قتال قَاتَلْتَ المُشْرِكينَ ، لَئِن اللَّهُ أَشْهَدَني قِتَالَ المُشرِكِينَ لَيُرِيَنَّ اللَّهُ مَا أَصْنَعُ ، فَلَمَّا كَانَ يَومُ أُحُدٍ انْكَشَفَ المُسْلِمُونَ ، فَقالَ : اللَّهُمَّ أَعْتَذِرُ إلَيكَ مِمَّا صَنَعَ هؤلاءِ - يَعْني أَصْحابه - وَأَبْرأُ إِلَيْكَ مِمَّا صَنَعَ هؤُلاءِ - يَعْني المُشْرِكينَ - ثُمَّ تَقَدَّمَ فَاسْتَقْبَلَهُ سَعْدُ بْنُ مُعاذٍ . فَقالَ : يَا سَعْدُ بْنَ مُعاذٍ الجَنَّةُ وَرَبِّ النَّضْرِ ، إِنِّي أَجِدُ رِيحَهَا مِنْ دُونِ أُحُدٍ . قال سَعْدٌ : فَمَا اسْتَطَعْتُ يا رَسولَ اللَّهِ مَا صَنَعَ ! قال أنسٌ : فَوَجَدْنَا بِهِ بِضْعًا وَثَمانِينَ ضَرْبَةً بِالسَّيف ، أَو طَعْنَةً بِرُمْحٍ ، أَو رَمْيَةً بِسَهْمٍ ، وَوَجَدْنَاهُ قَدْ قُتِلَ وَمَثَّلَ بِهِ المشْرِكُونَ فَمَا عَرَفَهُ أَحَدٌ إلا أُخْتُهُ بِبَنَانِهِ . قال أنس : كُنَّا نَرَى أَو نَظُنُّ أَنَّ هذِهِ الآيَة نَزَلَتْ فيهِ وَفي أَشْبَاهِهِ : ﴿ مِّنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ رِجَالٌ صَدَقُواْ مَا عَٰهَدُواْ ٱللَّهَ عَلَيْهِ ﴾ [الأحزاب : ٢٣] إلى آخرها (٢) . متفقٌ عليه .

قوله : « لَيُرِيَنَّ اللَّهُ » رُوي بضم الياء وكسر الراء ، أي : لَيُظْهِرَنَّ اللَّهُ ذلِكَ للنَّاسِ ، وَرُوِيَ بفتحهما ، ومعناه ظاهر ، والله أعلم .

الشرح

قال المؤلف - رحمه الله تعالى - فيما نقله عن أنس بن مالك ﷺ ، عن عمه أنس بن النضر ﷺ ، أن أنسًا لم يكن مع الرسول ﷺ - يعني أنس بن النضر - في بدر ، وذلك لأن غزوة بدر خرج إليها

(١) أخرجه البخاري في الأدب (٥٩٨٦) ، ومسلم في البر والصلة (٢١) ، والبيهقي في السنن (٢٧/٧) .

(٢) أخرجه البخاري في الجهاد (٢٨٠٥) ، ومسلم في الإمارة (١٤٨) قوله « أعتذر إليك مما صنع هؤلاء » أي المسلمين من الفرار ، قوله « من دون أحد » أي من مكان أقرب منه ، قوله « ببنانه » أي بأطراف أصابعه .

النبي ﷺ وهو لا يريد القتال ، وإنما يريد عير قريش وليس معه إلا ثلاثمائة وبضع عشر رجلًا ، معهم سبعون بعيرًا وفرسان يتعاقبون عليها ، وقد تخلف عنها كثير من الصحابة ؛ لأنها ليست غزوة ، ولم يدع إليها أحد وإنما خرج إليها الخفاف من الناس .

قال أنس بن النضر للنبي - عليه الصلاة والسلام - يبين له أن لم يكن معه في أول قتال قاتل فيه المشركين ، وقال : لئن أدركت قتالًا لأرين الله ما أصنع .

فلما كانت أحد ، وهي بعد غزوة بدر بسنة وشهر ، خرج الناس وقاتلوا مع النبي ﷺ ، وصارت الدائرة في أول النهار للمسلمين ، ولكن لما تخلف الرماة عن الموقع الذي جعلهم النبي ﷺ فيه ونزلوا من الجبل ، كرَّ فرسان المشركين على المسلمين من خلفهم ، واختلفوا بهم ، وانكشف المسلمون ، وصارت الهزيمة ، لما انكشف المسلمون ، تقدم أنس بن النضر رضي الله عنه وقال : « اللهم إني أعتذر إليك مما صنع هؤلاء ، يعني أصحابه وأبرأ إليك مما صنع هؤلاء يعني المشركين » . ثم تقدم رضي الله عنه فاستقبله سعد بن معاذ فسأله إلى أين ؟ قال : يا سعد ، إني لأجد ريح الجنة دون أحد ، وهذا وجدان حقيقي ليس تخيلًا أو توهمًا ولكن من كرامة الله ، هذا الرجل شم رائحة الجنة قبل أن يستشهد رضي الله عنه من أجل أن يقدم ولا يحجم ، فتقدم فقاتل فقُتل رضي الله عنه ، استشهد ووجد فيه بضع وثمانون ؛ ما بين ضربة بسيف أو برمح أو بسهم ، حتى إنه قد تمزق جلده ، فلم يعرفه أحد إلا أخته ، ولم تعرفه إلا ببنانه رضي الله عنه .

فكان المسلمون يرون أن الله قد أنزل فيه هذه الآية : ﴿ مِّنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ رِجَالٌ صَدَقُوا۟ مَا عَـٰهَدُوا۟ ٱللَّهَ عَلَيْهِ فَمِنْهُم مَّن قَضَىٰ نَحْبَهُۥ وَمِنْهُم مَّن يَنتَظِرُ وَمَا بَدَّلُوا۟ تَبْدِيلًا ﴾ [الأحزاب : ٢٣] ولا شك أن هذا وأمثاله رضي الله عنهم يدخلون دخولًا أوليًا في هذه الآية ؛ فإنهم صدقوا ما عاهدوا الله عليه ، حيث قال أنس : « والله ليرين الله ما أصنع » ففعل ، فصنع صنعًا لا يصنعه أحد إلا من منَّ الله عليه بمثله حتى استشهد .

ففي هذا الحديث : دليل شاهد للباب ، وهو مجاهدة الإنسان نفسه على طاعة الله ، فإن أنس بن النضر جاهد نفسه هذا الجهاد العظيم ، حتى تقدم يقاتل أعداء الله بعد أن انكشف المسلمون وصارت الهزيمة حتى قتل شهيدًا رضي الله عنه .

* * *

١١٠ - السادس عشر : عن أبي مسعودٍ عُقْبَةَ بن عمرو الأنصاريِّ البدريِّ رضي الله عنه قال : لَمَّا نَزَلتْ آيَةُ الصَّدَقَةِ كُنَّا نُحَامِلُ عَلى ظُهُورِنَا . فَجَاءَ رَجُلٌ فَتَصدَّقَ بِشَيءٍ كَثيرٍ فَقَالوا : مُراءٍ ، وجَاءَ رَجُلٌ آخَرُ فَتَصدَّقَ بصَاعٍ فقالُوا : إنَّ اللَّهَ لَغَنيٌّ عَنْ صاعِ هذَا ! فَنَزَلَتْ ﴿ ٱلَّذِينَ يَلْمِزُونَ ٱلْمُطَّوِّعِينَ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ فِى ٱلصَّدَقَـٰتِ وَٱلَّذِينَ لَا يَجِدُونَ إِلَّا جُهْدَهُمْ ﴾ الآية [التوبة : ٧٩] (١) . متفقٌ عليه .

« ونُحَامِلُ » بضم النون ، وبالحاءِ المهملة : أي يَحْمِلُ أَحَدُنَا على ظَهْرِهِ بالأُجْرَةِ ، وَيَتَصَدَّقُ بها .

---

(١) أخرجه البخاري في الزكاة (١٤١٥) ، ومسلم في الزكاة (٧٢) ، قوله « مراء » من المراءاة وهي العمل ليراه الناس فيكتسب الغرض الدنيوي الزائل ، قوله ﴿ إِلَّا جُهْدَهُمْ ﴾ أي طاقاتهم .

الشرح

قال المؤلف - رحمه اللَّه تعالى - نقلًا عن أبي مسعود بن عمرو ﷺ قال : لما نزلت آية الصدقة : يعني الآية التي فيها الحث على الصدقة ، والصدقة هي أن يتبرع الإنسان بماله للفقراء ابتغاء وجه اللَّه ، وسميت صدقة ؛ لأن بذل المال لله ﷻ دليل على صدق الإيمان باللَّه ، فإن المال من الأمور المحبوبة للنفوس ، قال اللَّه تعالى : ﴿ وَتُحِبُّونَ ٱلْمَالَ حُبًّا جَمًّا ﴾ [الفجر : ٢٠] جمًّا : أي كثيرًا عظيمًا ، وحيث إن المحبوب لا يبذل إلا لمن هو أحب منه ، فإذا بذله الإنسان ابتغاء وجه اللَّه ؛ كان ذلك دليلًا على صدق الإيمان .

فلما نزلت هذه الآية جعل الصحابة ﷺ يبادرون ويسارعون في بذل الصدقات إلى رسول اللَّه ﷺ ، وهذه هي عادتهم أنهم إذا نزلت الآيات بالأوامر بادروها وامتثلوها ، وإذا نزلت بالنواهي بادروا بتركها ، ولهذا لما نزلت آية الخمر التي فيها تحريم الخمر ، وبلغت قومًا من الأنصار ، وكان الخمر بين أيديهم يشربون قبل أن يُحرَّم ، فمن حين ما سمعوا الخبر أقلعوا عن الخمر ، ثم خرجوا بالأواني يصبونها في الأسواق حتى جرت الأسواق في الخمر .

وهذا هو الواجب على كل مؤمن إذا بلغه عن اللَّه ورسوله شيء أن يبادر بما يجب عليه ؛ من امتثال هذا الأمر أو اجتناب هذا النهي .

وكذلك هنا : فإن الصحابة ﷺ بدأوا يتحاملون الصدقة ، كل واحد يحمل بقدرته من الصدقة إلى رسول اللَّه ﷺ ، فجاء رجل بصدقة كثيرة وجاء رجل بصدقة قليلة ، فكان المنافقون إذا جاء الرجل بالصدقة الكثيرة . قالوا : هذا مراء - والعياذ باللَّه - ما قصد به وجه اللَّه . وإذا جاء الرجل بالصدقة القليلة قالوا : إن اللَّه غني عنه ، وجاء رجل بصاع فقالوا : إن اللَّه غني عن صاعك هذا .

وهؤلاء هم المنافقون ، والمنافقون هم الذين يظهرون خلاف ما يبطنون ، ويظهرون الشماتة بالمؤمنين دائمًا ، جعلوا أكبر همهم وأعذب مقال لهم ، وألذ مقال على أسماعهم ، أن يسمعوا ويقولوا ما فيه سب المسلمين والمؤمنين والعياذ بالله ؛ لأنهم منافقون ، وهم العدو ، كما قال اللَّه ﷻ .

فهؤلاء صاروا إذا جاء رجل بكثير قالوا : هذا مراء ، وإن جاء بقليل قالوا : إن اللَّه غني عن صاعك ولا ينفعك ، فأنزل اللَّه ﷻ : ﴿ ٱلَّذِينَ يَلْمِزُونَ ٱلْمُطَّوِّعِينَ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ فِى ٱلصَّدَقَٰتِ وَٱلَّذِينَ لَا يَجِدُونَ إِلَّا جُهْدَهُمْ ﴾ [التوبة : ٧٩] ويلمزون : يعني يعيبون ، والمطوعين : هم المتصدقين ﴿ وَٱلَّذِينَ لَا يَجِدُونَ إِلَّا جُهْدَهُمْ ﴾ و ﴿ ٱلَّذِينَ ﴾ هذه معطوفة علي قوله ﴿ ٱلْمُطَّوِّعِينَ ﴾ يعني ، ويلمزون الذين لا يجدون إلا جهدهم ، فهم يلمزون هؤلاء وهؤلاء ﴿ فَيَسْخَرُونَ مِنْهُمْ سَخِرَ ٱللَّهُ مِنْهُمْ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴾ [التوبة : ٧٩] ، فهم سخروا بالمؤمنين فسخر اللَّه منهم والعياذ بالله .

ففي هذا : دليلٌ على حرص الصحابة على استباق الخير ، ومجاهدتهم أنفسهم على ذلك .

وفي هذا : دليلٌ أيضًا على أن اللَّه ﷻ يدافع عن المؤمنين ، وانظر كيف أنزل اللَّه آية في كتاب اللَّه مدافعة عن المؤمنين الذين كان هؤلاء المنافقون يلمزونهم .

وفيه : دليلٌ على شدة العداوة من المنافقين للمؤمنين ، وأن المؤمنين لا يسلمون منهم ، إن عملوا كثيرًا سبوهم ، وإن عملوا قليلًا سبوهم ، ولكن الأمر ليس إليهم ، بل إلى الله ﷻ ، ولهذا سخر الله منهم ، وتوعدهم بالعذاب الأليم في قوله : ﴿ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴾ .

أما حكم المسألة هذه : فإن الله تعالى قال في كتابه : ﴿ فَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْرًا يَرَهُۥ ۝ وَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ شَرًّا يَرَهُۥ ﴾ [الزلزلة : ٧، ٨] . القليل والكثير من الخير سيراه الإنسان ، ويجازى به ، والقليل والكثير من الشر سيراه الإنسان ، ويُجازى عليه ، وصح عن النبي ﷺ أن الإنسان إذا تصدق بعدل تمرة - أي لا يعادلها - من كسب طيب - ولا يقبل الله إلا الطيب - فإن الله تعالى يأخذها بيمينه فيربيها كما يربِّي أحدكم فلوَّه حتى تكون مثل الجبل » [(١)] .

وقارن بين حبة من التمر وبين الجبل . لا نسبة ، الجبل أعظم بكثير ، فالله ﷻ يجزي الإنسان على ما عمل من خير قل أو كثر ، ولكن احرص على أن تكون نيتك خالصة لله ، لا تريد بذلك جزاءً ولا شكورًا من غير الله ، واحرص على أن تكون متبعًا في ذلك رسول الله ﷺ .

* * *

١١١ - السابعَ عشر : عن سعيد بن عبد العزيز ، عن رَبيعة بن يزيد ، عن أبي إدريس الخَولاني ، عن أبي ذَرٍّ جُنْدُبِ بن جُنَادَةَ ﷺ عن النَّبيِّ ﷺ فيما يَرْوي عَنِ اللَّه تبارك وتعالى أنه قال : « يا عِبادِي إِنِّي حَرَّمْتُ الظُّلْمَ عَلى نَفْسِي وَجَعَلْتُهُ بَينكمْ مُحرَّمًا فَلا تَظَالموا ، يَا عِبَادِي كُلُّكُمْ ضَالٌّ إلا مَنْ هَدَيْتُهُ ، فَاسْتَهْدُوني أَهْدِكُمْ ، يَا عِبَادي كُلُّكُمْ جَائِعٌ إلا مَنْ أَطْعَمْتُهُ فَاسْتَطْعمُوني أطعِمْكُم ، يَا عبَادِي كُلُّكُمْ عَارٍ إلا مَنْ كَسَوتُهُ ، فَاسْتَكْسُوني أَكْسُكُمْ ، يَا عِبَادِي إِنَّكُمْ تُخْطِئُونَ باللَّيلِ وَالنَّهَارِ وَأَنَا أَغْفِرُ الذنوبَ جَميعًا ، فَاسْتَغْفِروني أَغْفِرْ لَكُمْ ، يَا عِبادِي إِنَّكُمْ لَنْ تَبْلُغُوا ضُرِّي فَتَضُرُّوني ، وَلَنْ تَبْلُغُوا نَفْعِي فَتَنْفَعُوني ، يَا عِبَادِي لَو أَنَّ أَوَّلَكُم وَآخِرَكُمْ ، وَإِنْسَكُمْ وَجِنَّكُمْ كَانُوا عَلى أَتْقَى قَلْب رَجُلٍ وَاحِدٍ منْكُمْ مَا زَادَ ذلِكَ في مُلْكِي شَيئًا ، يَا عِبَادي لَو أَنَّ أَوَّلَكُمْ وَآخِرَكُمْ وَإِنْسَكُمْ وَجِنَّكُمْ كانوا عَلى أَفْجَرِ قَلْب رَجُلٍ وَاحِدٍ مِنْكُمْ مَا نَقَصَ ذلِكَ مِنْ مُلْكِي شَيئًا ، يَا عِبَادِي لَو أَنَّ أَوَّلَكُمْ وَآخِرَكُمْ وَإِنْسَكُمْ وَجِنَّكُم قَامُوا في صَعِيد وَاحِد ، فَسَأَلُوني فَأَعْطَيتُ كُلَّ إِنْسَانٍ مَسْأَلَتَهُ ، مَا نَقَصَ ذلكَ مِمَّا عندي إلا كَمَا يَنْقُصُ المِخْيَطُ إِذَا أُدْخِلَ البحرَ ، يَا عِبَادِي إِنَّما هِي أَعْمَالُكُمْ أُحْصِيهَا لَكُمْ ، ثُمَّ أُوَفِّيكُمْ إِيَّاهَا ، فَمَنْ وَجَدَ خَيرًا فَلْيَحْمَدِ اللَّهَ ، ومَنْ وَجَدَ غَيرَ ذلِكَ فَلَا يَلُومَنَّ إلا نَفْسَهُ » . قَال سعيدٌ : كان أبو إدريس إذا حدَّثَ بهذا الحديثِ جَثَا عَلى رُكبتيه [(٢)] . رواه مسلم . وروينا عن الإمام أحمد بن حنبل ﷺ قال : ليس

---

(١) انظر نص الحديث في البخاري في التوحيد (٧٤٣٠) ، ومسلم في الزكاة (٦٤) ، وأحمد في مسنده (٢/٣٣١) ، والبيهقي في السنن (٤/١٧٧) ، قوله « فلوه » قال أهل اللغة : الفِلو : المهر ، سمي بذلك لأنه فلى عن أمه ، أي فصل وعزل ، وفيه لغتان فصيحتان فلو بفتح الفاء ، وفلو لكسر الفاء .

(٢) أخرجه مسلم في البر والصلة (٥٥) قوله « كلكم ضال إلا من هديته » قال المازري : ظاهر هذا أنهم خلقوا على =

لأهل الشام حديث أَشرف من هذا الحديث .

الشرح

قال المؤلف - رحمه اللّه تعالى - فيما نقله عن أبي ذر الغفاري ﷺ في باب المجاهدة ، عن النبي ﷺ أنه قال فيما يرويه عن ربه تبارك وتعالى ، يعني أن الرسول - عليه الصلاة والسلام - حدث عن اللّه أنه قال ... إلى آخره ، وهذا يسمى عند أهل العلم بالحديث القدسي أو الحديث الإلهي ، أما ما كان من حديث النبي ﷺ ، فإنه يسمى بالحديث النبوي .

وهذا الحديث القدسي يقول اللّه تعالى فيه : « يا عبادي إني حرمت الظلم على نفسي وجعلته بينكم محرمًا فلا تظالموا » يقول جل وعلا : « إني حرمت الظلم على نفسي » أي ألا أظلم أحدًا لا بزيادة سيئات لم يعملها ، ولا بنقص حسنات عملها ، بل هو سبحانه وتعالى حكم عدل محسن ، فحكمه وثوابه لعباده دائرين بين أمرين ؟ بين فضل وعدل ، فضل لمن عمل الحسنات ، وعدل لمن عمل السيئات ، وليس هناك شيء ثالث وهو الظلم .

أما الحسنات : فإنه سبحانه وتعالى يجازي الحسنة بعشر أمثالها ، من يعمل حسنة يثاب بعشر حسنات ، أما السيئة فبسيئة واحدة فقط ، قال اللّه تعالى في سورة الأنعام - وهي مكية - : ﴿ مَن جَآءَ بِٱلْحَسَنَةِ فَلَهُۥ عَشْرُ أَمْثَالِهَا ۖ وَمَن جَآءَ بِٱلسَّيِّئَةِ فَلَا يُجْزَىٰٓ إِلَّا مِثْلَهَا وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ ﴾ [الأنعام : ١٦٠] ، لا يظلمون بنقص ثواب الحسنات ، ولا يظلمون بزيادة جزاء السيئات ، بل ربنا ﷻ يقول ﴿ وَمَن يَعْمَلْ مِنَ ٱلصَّٰلِحَٰتِ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلَا يَخَافُ ظُلْمًا وَلَا هَضْمًا ﴾ [طه : ١١٢] ﴿ ظُلْمًا ﴾ بزيادة في سيئاته ﴿ وَلَا هَضْمًا ﴾ بنقص من حسناته .

وفي قوله تعالى : « إني حرمت الظلم على نفسي » دليل على أنه - جل وعلا - يحرم على نفسه ويوجب على نفسه ، فمما أوجب على نفسه الرحمة ، قال اللّه تعالى : ﴿ كَتَبَ رَبُّكُمْ عَلَىٰ نَفْسِهِ ٱلرَّحْمَةَ ﴾ [الأنعام : ٥٤] ، ومما حرم على نفسه الظلم ، وذلك لأنه فعال لما يريد يحكم بما يشاء ، فكما أنه يوجب على عباده ويحرم عليها ، يوجب على نفسه ويحرم عليها جل وعلا ؛ لأن له الحكم التام المطلق .

وقوله تعالى : « وجعلته بينكم محرمًا فلا تظالموا » أي لا يظلم بعضكم بعضًا . والجعل هنا هو الجعل الشرعي ، وذلك لأن الجعل الذي أضافه اللّه إلى نفسه إما أن يكون كونيًا مثل قوله تعالى : ﴿ وَجَعَلْنَا ٱلَّيْلَ لِبَاسًا ۝ وَجَعَلْنَا ٱلنَّهَارَ مَعَاشًا ﴾ [النبأ : ١٠، ١١] ، وإما أن يكون شرعيًا مثل قوله تعالى : ﴿ مَا جَعَلَ ٱللَّهُ مِنۢ بَحِيرَةٍ وَلَا سَآئِبَةٍ وَلَا وَصِيلَةٍ وَلَا حَامٍ ﴾ [المائدة : ١٠٣] ﴿ مَا جَعَلَ ﴾ أي ما شرع ، وإلا فقد جعل ذلك كونًا ؛ لأن العرب كانوا يفعلون هذا ، ومثل هذا الحديث « جعلته بينكم محرمًا » أي جعلته جعلًا شرعيًا لا كونيًا ؛ لأن الظلم يقع .

= الضلال إلا من هداه اللّه تعالى . وفي الحديث المشهور « كل مولود يولد على الفطرة » فقد يكون المراد بالأول وصفهم بما كانوا عليه قبل مبعث النبي ﷺ ، وأنهم لو تركوا وما في طباعة من إيثار الشهوات والراحة وإهمال النظر لضلوا ، قوله « في صعيد واحد » أي أرض واحدة ومقام واحد . قوله « المخيط » أي الإبرة .

وقوله « جعلته بينكم محرمًا » الظلم بالنسبة للعباد فيما بينهم يكون في ثلاثة أشياء بيَّنها رسول اللَّه ﷺ في قوله وهو يخطب الناس في حجة الوداع : « إن دماءكم وأموالكم ، وأعراضكم ، عليكم حرام كحرمة يومكم هذا ، في شهركم هذا ، في بلدكم هذا ، ألا هل بلغت ؟ » قالوا : نعم ، قال : « اللهم فاشهد » [1] . فهذه ثلاثة أشياء : الدماء ، والأموال ، والأعراض .

فالظلم فيما بين البشر حرام في الدماء ، فلا يجوز لأحد أن يعتدي على دم أحد ، لا على دم تفوت به النفس وهو القتل ، ولا على دم يحصل به النقص ، كدم الجروح وكسر العظام وما أشبهها ، كل هذا حرام لا يجوز .

واعلم أن كسر عظم الميت ككسره حيًا ، كما جاء ذلك عن النبي – عليه الصلاة والسلام [2] – فالميت محترم لا يجوز أن يؤخذ من أعضائه شيء ، ولا أن يُكسر من أعضائه شيء ؛ لأنه أمانة وسوف يُبعث بكامله يوم القيامة ، وإذا كان كذلك فلا يجوز أن تأخذ منه شيئًا .

ولهذا نص فقهاء الحنابلة – رحمهم اللَّه – على أنه لا يجوز أن يؤخذ من الميت شيء من أعضائه ، ولو أوصى به ، وذلك لأن الميت محترم ، كما أن الحي محترم [3] . فإذا أخذنا من الميت عضوًا أو كسرنا منه عظمًا كان ذلك جناية عليه ، وكان اعتداءً عليه ، وكنا آثمين بذلك .

والميت نفسه لا يستطيع أن يتبرع بشيء من أعضائه لأن أعضاءه أمانة عنده أمانة لا يحل له أن يفرط فيها ، ولهذا قال اللَّه تعالى : ﴿ وَلَا تَقْتُلُوٓا۟ أَنفُسَكُمْ ﴾ وفسرها عمرو بن العاص رضي الله عنه بالإنسان إذا كان عليه جنابة وكان في البرد وخاف إن اغتسل أن يتضرر ، جعل عمرو بن العاص هذا داخلًا في الآية ، وذلك حين كان عمرو بن العاص رضي الله عنه في سرية وأجنب وكانت الليلة باردة فتيمم وصلى بأصحابه ، فلما رجعوا إلى الرسول – عليه الصلاة والسلام – وبلغه الخبر ، قال لعمرو : « أصليت بأصحابك وأنت جُنب ؟ » يعني لم تغتسل ، قال : يا رسول اللَّه إني ذكرت قول اللَّه تعالى : ﴿ وَلَا تَقْتُلُوٓا۟ أَنفُسَكُمْ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ بِكُمْ رَحِيمًا ﴾ [النساء : ٢٩] وخفت البرد فتيممت ، فضحك النبي ﷺ وأقره على فعله [4] . وعلى استدلاله بالآية ، لم يقل إن الآية لم تدل على هذا .

فإذن كل شيء يضر أبداننا أويفوت منها شيئًا فإنه لا يحل لنا أن نفعله ، لقوله تعالى : ﴿ وَلَا تَقْتُلُوٓا۟ أَنفُسَكُمْ ﴾ فما حُرِّم علينا أن نتناول الدخان وغيره من الأشياء الضارة ، إلا من أجل حماية البدن ، فالبدن محترم ، فقول الرسول ﷺ : « دماؤكم » يشمل الدم الذي يهلك به الإنسان وهو القتل ، والدم

---

(١) أخرجه البخاري في العلم (٦٧) ، ومسلم في القسامة (٢٩ ، ٣٠) ، وابن ماجه في السنن (٣٠٥٨) ، والترمذي في السنن (٢١٥٩) ، وأحمد في مسنده (٣٧/٥) .

(٢) ودليل ذلك ما أخرجه أبو داود في الجنائز (٣٢٠٧) ، والبيهقي في السنن (٥٨/٤) .

(٣) وقد استدلوا على ذلك بما أخرجه ابن ماجه في السنن (١٦١٦) ، وأحمد في مسنده (١٠٥/٦) « كسر عظم الميت ككسره حيًا » (انظر المغني ٥١١/٢ ، والمجموع ٤٨٤/٥) .

(٤) أخرجه أبو داود في الطهارة (٣٣٤) .

الذي بدون ذلك ، وهو الجرح أو كسر العظم أو ما أشبه ذلك .

أما قوله تعالى : ﴿ أَمْوَالَكُمْ ﴾ فإن الأموال قد حرم اللَّه ﷻ على بعضنا أن يأخذ من مال أخيه بغير حق بأي نوع من الأنواع ؛ سواء أخذه غصبًا بأن يأخذه بالقوة ، أو أخذه سرقةً ، أو اختطافًا ، أو خيانة ، أو غشًّا ، أو كذبًا . بأي نوع من هذه الأنواع فإنه حرام عليه .

وعلى هذا فالذين يبيعون على الناس بالغش فإن كل مال يدخل عليهم من زيادة في الثمن بسبب الغش فإنه حرام ، فالذين يغشون في البيع أو في الشراء يرتكبون محظورين :

المحظور الأول : العدوان على إخوانهم المسلمين بأخذ أموالهم بغير حق .

والمحظور الثاني : أنهم ينالون تبرؤ النبي ﷺ منهم ، وبئس البضاعة بضاعة يلتحق فيها صاحبها بالبراءة من رسول اللَّه ﷺ . قال النبي ﷺ فيما صح عنه « مَنْ غَشَّ فَلَيسَ مِنَّا » [(١)] .

ومن ذلك : ما يفعله بعض الجيران حيث تجده يدخل المراسيم على جاره من أجل أن تزيد أرضه ، وقد ثبت عن النبي ﷺ أن من اقتطع من الأرض شبرًا بغير حق ؛ فإنه يطوقه يوم القيامة من سبع أرضين [(٢)] يكون يوم القيامة في عنقه طوق من سبع أرضين - والعياذ بالله - يحمله في يوم المحشر ، وهذا من الظلم .

ومن الظلم أيضًا : أن يكون لشخص على شخص دراهم ثم ينكر الذي عليه الحق ، ويقول : ليس لك عندي شيء ، فهذا من أكل المال بالباطل ، حتى لو فُرِض أنه تحاكم إلى القاضي مع خصمه وغلبه عند القاضي ؛ فإنه لا يغلبه عند اللَّه ، قال النبي - عليه الصلاة والسلام - : « إنكم تختصمون إلي ، ولعل بعضكم أن يكون ألحن بحجته من بعض فأقضي له ، وإنما أقضي بنحو ما أسمع ، فمن قضيت له بشيء من حق أخيه ؛ فإنما أقتطع له جمرة من نار ، فليستقل أو ليستكثر » [(٣)] فلا تظن أنك إن غلبت خصمك عند القاضي وكنت مبطلًا تسلم بهذا في الآخرة . أبدًا ؛ لأن القاضي إنما يقضي بنحو ما يسمع ولا يعلم الغيب ، ولكن علام الغيوب - جل وعلا - هو الذي يحاسبك يوم القيامة .

وكذلك أيضًا : من أكل الأموال أن يدعي شخص على آخر ما ليس له ، ويقيم على ذلك البينة بالشهادة الزور ويُحكم له بذلك ، فإن هذا من أكل المال بالباطل والأمثلة على ذلك كثيرة ولكنها كلها محرمة إن لم تكن بحق ، ولهذا قال ﷻ : « فلا تظالموا » .

أما الأعراض : فهي أيضًا حرام ، فلا يحل للإنسان أن يقع في عرض أخيه ، فيغتابه في المجالس أو يسبه ، فإن ذلك من كبائر الذنوب . قال اللَّه ﷻ : ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱجْتَنِبُواْ كَثِيرًا مِّنَ ٱلظَّنِّ إِنَّ بَعْضَ ٱلظَّنِّ إِثْمٌ وَلَا تَجَسَّسُواْ وَلَا يَغْتَب بَّعْضُكُم بَعْضًا ﴾ [الحجرات : ١٢] انظر للترتيب ﴿ ٱجْتَنِبُواْ كَثِيرًا مِّنَ ٱلظَّنِّ ﴾ فإذا

---

(١) أخرجه مسلم في الإيمان (١٠١) ، والترمذي في السنن (١٣/٥) ، وأحمد في مسنده (٤٩٨/٣) .

(٢) انظر الحديث بنصه في البخاري في بدء الخلق (٣١٩٨) ، ومسلم في المساقاة (١٣٧) ، وأحمد في مسنده (٤٣٢/٢) .

(٣) أخرجه البخاري في الشهادات (٢٦٨٠) ، ومسلم في الأقضية (٤) ، والترمذي في السنن (١٣٣٩) ، والنسائي في السنن (٢٤٧/٨) .

ظن الإنسان بأخيه شيئًا تجسس عليه ، ولهذا قال : ﴿ وَلَا تَجَسَّسُواْ ﴾ فإذا تجسس صارِ يغتابه ، ولهذا قال في الثالثة : ﴿ وَلَا يَغْتَب بَّعْضُكُم بَعْضًاۚ ﴾ ، ثم قال تعالى : ﴿ أَيُحِبُّ أَحَدُكُمْ أَن يَأْكُلَ لَحْمَ أَخِيهِ مَيْتًا ﴾ الجواب لا . لا يحب بل يكره ، ولهذا قال : ﴿ فَكَرِهْتُمُوهُۚ ﴾ . قال بعض المفسرين : إذا كان يوم القيامة فإنه يؤتى بالرجل الذي اغتابه الشخص يمثل له بصورة إنسان ميت ، ثم يقال له : كل من لحمه ويكره على ذلك ، وهو يكرهه ، لكن يُكره على هذا عقوبة له والعياذ بالله (١) .

فالغيبة - وهي انتهاك عرض أخيك - محرمة ، وقد روى أبو داود أن النبي ﷺ مر ليلة عُرج به بقوم لهم أظفار من نُحاس يخمشون بها وجوههم وصدورهم ، يعني يكرون الوجوه والصدور بهذه الأظفار التي من النحاس ، فقال : « يا جبريل من هؤلاء ؟ » قال : هؤلاء الذين يأكلون لحوم الناس ويقعون في أعراضهم (٢) . نعوذ بالله .

ثم إن الإنسان إذا انتهك عرض أخيه فإن أخاه يأخذ في الآخرة من حسناته ، ولهذا يُذكر أن بعض السلف قيل له : إن فلانًا يغتابك ، فقال : مؤكد ؟ قال : نعم اغتابك ، فصنع هدية له ثم بعث بها إليه ، فاستغرب الرجل كيف يغتابه ويرسل له هدية ، قال : نعم إنك أهديت إلى حسنات والحسنات تبقى ، وأنا أهديت إليك هدية تذهب في الدنيا ، فهذه مكافأة على هديتك لي . انظر فقه السلف ﷺ .

فالحاصل أن الغيبه حرام ومن كبائر الذنوب ، ولا سيما إذا كانت الغيبة في ولاة الأمور من الأمراء أو العلماء ، فإن غيبة هؤلاء أشد من غيبة سائر الناس ؛ لأن غيبة العلماء تقلل من شأن العلم الذي في صدورهم ، والذي يُعَلِّمونه الناس ، فلا يقبل الناس ما يُعطونه من العلم وهذا ضرر على الدين ، وغيبة الأمراء تقلل من هيبة الناس لهم فيتمردون عليهم ، وإذا تمرد الناس على الأمراء فلا تسأل عن الفوضى :

لا يصلح الناس فوضى لا سراة لهم ولا سراة إذا جهالهم سادوا

فنسأل اللَّه أن يحمينا وإياكم مما يغضبه إنه جواد كريم .

ثم قال اللَّه تعالى : « يا عبادي كلكم ضال إلا من هديته ، فاستهدوني أهدكم » ضال : يعني تائهًا . أي لا يعرف الحق ، وضال : يعني غاويًا لا يقبل الحق ، فالناس في الضلال قسمان :

قسم تائه : لا يعرف الحق مثل النصارى ؛ فإن النصارى ضالون تائهون لا يعرفون الحق إلا بعد أن بُعث النبي ﷺ ؛ فإنهم عرفوا الحق لكنهم استكبروا عنه ، فلم يكن بينهم وبين اليهود فرق في أنهم علموا الحق ولم يتبعوه .

وقسم غاوٍ : أي اختار الغي عن الرشد بعد أن علم بالرشد ، وهؤلاء مثل اليهود ، فإن اليهود عرفوا الحق ولكنهم لم يقبلوه ، بل ومن ذلك قوله تبارك وتعالى : ﴿ وَأَمَّا ثَمُودُ فَهَدَيْنَٰهُمْ فَٱسْتَحَبُّواْ ٱلْعَمَىٰ عَلَى ٱلْهُدَىٰ ﴾[فصلت : ١٧] هداهم اللَّه وبيَّن لهم ودلهم لكنهم استحبوا العمى على الهدى ، واستحبوا الغي

---

(١) تفسير ابن كثير (ص ١٧٥٠) تفسير الآية (١٢) من سورة الحجرات . طبعة دار ابن حزم .
(٢) انظر الحديث في أبي داود في الأدب (٤٨٧٨) .

على الرشد ، فالناس كلهم ضالون إلا من هداه الله .

لكن ما هي هداية القسم الأول وهو الضال الذي لم يعرف الحق ؟ هداية القسم الأول : أن يبين الله لهم الحق ويدلهم عليه ، وهذه الهداية حق على الله . حق على الله أوجبه الله على نفسه ، فكل الخلق قد هداهم الله بهذا المعنى . يعني بمعنى البيان ، قال الله تعالى : ﴿ إِنَّ عَلَيْنَا لَلْهُدَىٰ ﴾ [الليل : ١٢] وقال تعالى : ﴿ شَهْرُ رَمَضَانَ ٱلَّذِىٓ أُنزِلَ فِيهِ ٱلْقُرْءَانُ هُدًى لِّلنَّاسِ ﴾ [البقرة : ١٨٥] هدى للناس عمومًا .

ولكن الهداية الثانية وهي هداية التوفيق لقبول الحق هذه هي التي يختص الله بها من يشاء من عباده ، فالهداية هدايتان : هداية بيان الحق ، وهذه عامة لكل أحد ، وقد أوجبها الله على نفسه ، وبين لعباده الحق من الباطل ، وهداية توفيق لقبول الحق والعمل به ، تصديقًا للخبر وقيامًا بالطلب ، وهذه خاصة يختص الله بها من يشاء من عباده . والناس في هذا الباب ينقسمون إلى أقسام :

القسم الأول : من هُدي الهدايتين ، أي عَلَّمَهُ الله ووفقه للحق وقبوله .

والقسم الثاني : من حُرِمَ الهدايتين ؛ فليس عنده علم ، وليس له عبادة .

والقسم الثالث : من هُدي بالدلالة والإرشاد ولكنه لم يهد هداية التوفيق ، وهذا شر الأقسام والعياذ بالله .

والمهم : أن الله ﷻ يقول : « كلكم ضال » أي كلكم لا يعرف الحق . أو كلكم لا يقبل الحق ، إلا من هديته « فاستهدوني أهدكم » يعني اطلبوا الهداية مني ، فإذا طلبتموها فإنني أجيبكم وأهديكم إلى الحق ، ولهذا جاء الجواب في « استهدوني أهدكم » وكأنه جواب شرط ، يتحقق المشروط عند وجود الشرط ، ودليل هذا أن الفعل جُزم « استهدوني أهدكم » فمتى طلبت الهداية من الله بصدق وافتقار إليه وإلحاح ، فإن الله يهديك .

ولكن أكثرنا مُعْرِضٌ عن هذا ، فأكثرنا قائم بالعبادة لكن على العادة ، وعلى ما يفعل الناس ، لا كأننا مفتقرون إلى الله ﷻ في طلب الهداية ، فالذي يليق بنا أن نسأل الله دائمًا الهداية ، والإنسان في كل صلاة يقول : رب اغفر لي وارحمني واهدني ، بل إنه في الصلاة يقول على سبيل الركنية : ﴿ ٱهْدِنَا ٱلصِّرَٰطَ ٱلْمُسْتَقِيمَ ۝ صِرَٰطَ ٱلَّذِينَ أَنْعَمْتَ عَلَيْهِمْ ﴾ ولكن أين القلوب الواعية ؟! إن أكثر المصلين يقرأ هذه الآية وتمر عليه مَرَّ الطيف ، أي مَرَّ الغيم الذي يجري بدون ماء وبدون شيء . ما ينتبه لها .

والذي يليق بنا : أن ننتبه ، وأن نعلم أننا مفتقرون إلى الله ﷻ في الهداية ، سواء الهداية العلمية أو الهداية العملية ؛ أي هداية الإرشاد والدلالة ، أوهداية التوفيق ، فلا بد أن نسأل الله دائمًا الهداية .

« فاستهدوني أهدكم » وربما تشمل هذه الهداية الطريق الحسي كما تشمل الطريق المعنوي ، فالهداية للطريق المعنوي هي الهداية إلى دين الله ، والهداية للطريق الحسي كأن تكون في أرضه قد ضللت الطريق وضعت ، فإنك تسأل الله الهداية ، ولهذا قال الله عن موسى عليه السلام ﴿ وَلَمَّا تَوَجَّهَ تِلْقَآءَ مَدْيَنَ قَالَ عَسَىٰ رَبِّىٓ أَن يَهْدِيَنِى سَوَآءَ ٱلسَّبِيلِ ﴾ [القصص : ٢٢] أي السبيل المستوي الموصل للمقصود

بدون تعب ، وقد جُرب هذا ، فإن الإنسان إذا ضاع في البر فإنه يلجأ إلى الله تعالى ويقول : رب اهدني سواء السبيل ، أو عسى ربي أن يهديني سواء السبيل ، وذلك لأننا محتاجون إلى الله في الهدايتين ؛ هداية الطريق الحسي ، كما أننا محتاجون إلى الله في الهداية إلى الطريق المعنوي .

ثم قال ﷺ فيما يرويه عن ربه : « يا عبادي كلكم جائع إلا من أطعمته ، فاستطعموني أطعمكم ، يا عبادي كلكم عار إلا من كسوته ، فاستكسوني أكسكم » هاتان الجملتان الخاصتان بالجوع والعري ذكرهما الله ﷻ بعد أن ذكر الهداية ؛ لأن الهداية فيها غذاء القلب في العلم والإيمان ، والجوارح بالعمل الصالح .

وأما الطعام والشراب والكسوة فهي غذاء البدن ؛ لأن البدن لا يستقيم إلا بالطعام ، ولا يستتر إلا بالكسوة ، ولهذا قال : « يا عبادي كلكم جائع إلا من أطعمته ، فاستطعموني أطعمكم » وصدق ربنا ﷻ ؛ كلنا جائع إلا من أطعمه الله ، ولولا أن الله تعالى يسر لنا ما يكون به طعامنا لهلكنا ، يقول الله تعالى - مبينًا ذلك في سورة الواقعة - : ﴿ أَفَرَءَيْتُم مَّا تَحْرُثُونَ ۝ ءَأَنتُمْ تَزْرَعُونَهُۥٓ أَمْ نَحْنُ ٱلزَّٰرِعُونَ ﴾ [الواقعة : ٦٣، ٦٤] .

والجواب بل أنت يا ربنا الذي زرعته ؛ لأن الله يقول : ﴿ لَوْ نَشَآءُ لَجَعَلْنَٰهُ حُطَٰمًا فَظَلْتُمْ تَفَكَّهُونَ ۝ إِنَّا لَمُغْرَمُونَ ۝ بَلْ نَحْنُ مَحْرُومُونَ ﴾ [الواقعة : ٦٥ - ٦٧] وتأمل كيف قال تعالى : ﴿ لَوْ نَشَآءُ لَجَعَلْنَٰهُ حُطَٰمًا ﴾ ولم يقل لو نشاء ما أنبتناه ؛ لأنه إذا ثبت وشاهده الناس تعلقت قلوبهم به ، فإذا جُعل حطامًا بعد أن تعلقت به القلوب ؛ صار ذلك أشد نكاية ، ولهذا قال تعالى : ﴿ لَوْ نَشَآءُ لَجَعَلْنَٰهُ حُطَٰمًا ﴾ ولم يقل لو نشاء ما أنبتناه .

﴿ أَفَرَءَيْتُمُ ٱلْمَآءَ ٱلَّذِى تَشْرَبُونَ ۝ ءَأَنتُمْ أَنزَلْتُمُوهُ مِنَ ٱلْمُزْنِ ﴾ [الواقعة : ٦٨، ٦٩] يعني من السحاب ﴿ أَمْ نَحْنُ ٱلْمُنزِلُونَ ﴾ لأن الماء الذي نشرب من السحاب ، ينزله الله ﷻ على الأرض فيسلكه ينابيع ، يدخله في الأرض ويجري فيما تحت الأرض كالأنهار ، ثم يستخرج بالأدوات التي سخرها الله ﷻ للناس في كل وقت بحسبه ، وهذا من حكمة الله ﷻ أن استودع الماء في بطن الأرض ، ولو بقى على ظهر الأرض لفسد ، وأفسد الهواء وأهلك المواشي ، بل وأهلك الآدميين من رائحته ونتنه ، ولكن الله ﷻ بحكمته ورحمته جعل هذه الأرض تشربه وتسلكه ينابيع فيها ، حتى تأتي حاجة الناس إليه فيحفرونه فيصلون إليه .

﴿ أَفَرَءَيْتُمُ ٱلْمَآءَ ٱلَّذِى تَشْرَبُونَ ۝ ءَأَنتُمْ أَنزَلْتُمُوهُ مِنَ ٱلْمُزْنِ أَمْ نَحْنُ ٱلْمُنزِلُونَ ﴾ والله هو الذي أنزله ﷻ ، ولو اجتمع الناس كلهم على أن ينزلوا قطرة من السماء ما استطاعوا إلى ذلك سبيلًا ، ولكن الله ﷻ هو الذي ينزله بقدرته ورحمته ، إذن نحن لا نُطعم شيئًا من طعام أو مأكول ولا من مشروب إلا بالله ﷻ ، ولهذا قال : « كلكم جائع إلا من أطعمته فاستطعموني أطعمكم » .

واستطعام الله ﷻ يكون بالقول وبالفعل ؛ فبالقول : بأن نسأل الله ﷻ أن يطعمنا ، وأن يرزقنا .

وأما بالفعل : فله جهتان :

الجهة الأولى : العمل الصالح ، فإن العمل الصالح سبب لكثرة الأرزاق وسعتها ، قال الله ﷻ ﴿ وَلَوْ أَنَّ أَهْلَ ٱلْقُرَىٰٓ ءَامَنُوا۟ وَٱتَّقَوْا۟ لَفَتَحْنَا عَلَيْهِم بَرَكَٰتٍ مِّنَ ٱلسَّمَآءِ وَٱلْأَرْضِ وَلَٰكِن كَذَّبُوا۟ فَأَخَذْنَٰهُم بِمَا كَانُوا۟

يَكْسِبُونَ ﴾ [الأعراف : ٩٦] وقال تعالى : ﴿ وَلَوْ أَنَّ أَهْلَ ٱلْكِتَٰبِ ءَامَنُواْ وَٱتَّقَوْاْ لَكَفَّرْنَا عَنْهُمْ سَيِّـَٔاتِهِمْ وَلَأَدْخَلْنَٰهُمْ جَنَّٰتِ ٱلنَّعِيمِ ۝ وَلَوْ أَنَّهُمْ أَقَامُواْ ٱلتَّوْرَىٰةَ وَٱلْإِنجِيلَ وَمَآ أُنزِلَ إِلَيْهِم مِّن رَّبِّهِمْ لَأَكَلُواْ مِن فَوْقِهِمْ وَمِن تَحْتِ أَرْجُلِهِم ﴾ [المائدة : ٦٥، ٦٦] ﴿ مِن فَوْقِهِمْ ﴾ أي من ثمار الأشجار ، ﴿ وَمِن تَحْتِ أَرْجُلِهِم ﴾ أي من الزروع ، فالمهم أن هذا من أسباب إطعام الله .

الجهة الثانية : **من جهتي الاستطعام بالفعل** : أن نحرث الأرض ، ونحفر الآبار ونستخرج المياه ، ونزرع الحبوب ، ونغرس الأشجار ، وما أشبه ذلك . فالاستطعام إذن يكون بالقول ، ويكون بالفعل . والفعل له جهتان : الجهة الأولى : العمل الصالح ، والجهة الثانية : الأسباب الحسية المادية ، كالحرث وحفر الآبار وما أشبه ذلك .

وقوله جل ذكره : « فاستطعموني أطعمكم » هذا جواب شرط مقدر ، أو جواب الأمر الذي كان في الشرط ، يعني إنك إذا استطعمت الله فإن الله يطعمك ، ولكن استطعام الله ﷻ يحتاج إلى أمر مهم وهو حسن الظن بالله - جل وعلا - أي إن تحسن الظن بربك أنك إذا استطعمته أطعمك ، أما أن تدعو الله وأنت غافل لاه ، أو تفعل الأسباب وأنت معتمد على قوتك لا على ربك ، فإنك قد تكون مخذولًا والعياذ بالله ، ولكن استطعم الله وأخلص له وحده في ذلك .

« يا عبادي كلكم عار إلا من كسوته ، فاستكسوني أكسكم » « كلكم عار إلا من كسوته » وذلك لأن الإنسان يخرج من بطن أمه ليس عليه ثياب ، بل يخرج مجردًا لا ثياب ، ولا شعر يكسوه ، كما يكون في الحيوان ، وهذا من حكمة الله ﷻ . فمن حكمته تعالى أن جعلنا نخرج بادية أبشارنا ، بادية جلودنا ، حتى نعرف أننا محتاجون إلى كسوة تستر عوراتنا حسًّا ، كما أننا محتاجون إلى عمل صالح يستر عوراتنا معنى ؛ لأن التقوى لباس كما قال تعالى : ﴿ وَلِبَاسُ ٱلتَّقْوَىٰ ذَٰلِكَ خَيْرٌ ﴾ [الأعراف : ٢٦] فأنت انظر في نفسك تجد أنك محتاج إلى الكسوة الحسية لأنك عار ، كذلك أيضًا محتاج إلى الكسوة المعنوية - وهي العمل الصالح - حتى لا تكون عاريًا ، ولهذا ذكر بعض العابرين للرؤيا أن الإنسان إذا رأى نفسه في المنام عاريًا ؛ فإنه يحتاج إلي كثرة الاستغفار ؛ لأن هذا دليل على نقصان تقواه ، فإن التقوى لباس .

وعلى كل حال فنحن عراة إلا بكسوة الله ﷻ ، وقد سخر الله لنا من الكسوة ما نكسو به أبداننا - ولله الحمد - من أصناف اللباس المتنوعة ، لا سيما في البلاد الغنية التي ابتلاها الله ﷻ بالمال ، فإن المال في الحقيقة فتنة يخشى على الأمة منه ، كما قال محمد ﷺ : « والله ما الفقر أخشى عليكم ، وإنما أخشى عليكم أن تفتح عليكم الدنيا فتنافسوها كما تنافسها من قبلكم فتهلككم كما أهلكتهم »[1] فالمال ابتلاء يحتاج إلى صبر على أداء ما يجب فيه ، وإلى شكر على ما يجب له .

وعلى كل حال أقول إن الله ﷻ مَنَّ علينا باللباس ، ولولا أن الله يسره لنا ما تيسر ، ولو أنك نظرت

---

(١) أخرجه البخاري في المغازي (٤٠١٥) باختلاف يسير في اللفظ ، ومسلم في الزهد (٦) ، والترمذي في السنن (٢٤٦٢) ، وأحمد في مسنده (٤/١٣٧) .

في الخلق في وقتك الآن وتأملت لوجدت كما سمعنا من يبيتون عراة ، ليس على أبدانهم ما يسترهم ، ربما يسترون السوءة بالأشجار ونحوها ، وليس عليهم ما يسترهم دون ذلك ، فمن الذي سترك ومنَّ عليك ؟ هو اللَّه ، ولهذا قال ﷻ : « يا عبادي كلكم عار إلا من كسوته ، فاستكسوني أكسكم » .

ونقول في قوله : « فاستكسوني أكسكم » كما قلنا في قوله : « استطعموني أطعمكم » يعني أن الاستكساء يكون بالقول ويكون بالفعل .

أما الذي بالقول : فبأن تسأل اللَّه ﷻ أن يكسوك ، وإذا سألت اللَّه أن يكسو بدنك حسًّا ، فاسأل اللَّه أن يكسو عورتك المعنوية بالتوفيق إلى طاعته .

وأما الاستكساء بالفعل : فعلى وجهين :

الوجه الأول : بالأعمال الصالحة .

والوجه الثاني : بفعل الأسباب الحسية التي تكون بها الكسوة ؛ من إحداث المعامل ، والمصانع ، وغير ذلك .

وفي الربط بين الطعام والكسوة والهداية مناسبة ؛ لأن الطعام في الحقيقة كسوة البدن باطنًا ؛ لأن الجوع والعطش معناه خلو المعدة من الطعام والشراب ، وهذا تعري لها ، والكسوة ستر البدن ظاهرًا ، والهداية الستر المهم المقصود وهو ستر القلوب والنفوس من عيوب الذنوب .

ثم قال تعالى : « يا عبادى إنكم تخطئون بالليل والنهار وأنا أغفر الذنوب جميعًا ، فاستغفروني أغفر لكم » هذا أيضًا من تمام نعمة اللَّه على العبد ، أنه جل وعلا يعرض عليه أن يستغفر إلى اللَّه ويتوب إليه مع أنه يقول : « إنكم تخطئون بالليل والنهار وأنا أغفر الذنوب جميعًا » أي جميع الذنوب من الشرك والكفر والكبائر والصغائر كلها يغفرها اللَّه ، ولكن بعد أن يستغفر الإنسان ربه ، ولهذا قال : « فاستغفروني أغفر لكم » أي اطلبوا مني المغفرة حتى أغفر لكم . ولكن طلب المغفرة ليس مجرد أن يقول الإنسان : اللهم اغفر لي ، بل لا بد من توبة صادقة يتوب بها الإنسان إلى اللَّه ﷻ ، والتوبة الصادقة هي التي تجمع خمسة شروط :

الشرط الأول : أن يكون الإنسان مخلصًا فيها لله ﷻ لا يحمله على التوبة مراءاة الناس ، ولا تسميعهم ، ولا أن يتقرب إليهم بشيء ، وإنما يقصد بالتوبة الرجوع إلى اللَّه حقيقة ، والإخلاص شرط في كل عمل ، ومن جملة الأعمال الصالحة : التوبة إلى اللَّه ﷻ ، كما قال تعالى : ﴿ وَتُوبُوٓاْ إِلَى ٱللَّهِ جَمِيعًا أَيُّهَ ٱلْمُؤْمِنُونَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ﴾ [النور : ٣١] .

والشرط الثاني : أن يندم الإنسان على ما وقع منه من الذنب ، يعني أن يحزن ويتأسف ويعرف أنه ارتكب خطأً حتى يندم عليه ، أما أن يكون ارتكاب الخطأ وعدمه عنده على حد سواء ؛ فهذه ليست بتوبة ، بل لا بد من أن يندم بقلبه ندمًا يتمنى أنه لم يقع منه هذا الذنب .

والشرط الثالث : أن يقلع عن الذنب ، فلا توبه مع الإصرار على الذنوب ، كما قال تعالى :

﴿وَلَمْ يُصِرُّوا۟ عَلَىٰ مَا فَعَلُوا۟ وَهُمْ يَعْلَمُونَ﴾ [آل عمران: ١٣٥] أما أن يقول إنه تائب من الذنب وهو مصر عليه، فإنه كاذب مستهزئ بالله ﷻ، فمثلًا لو قال أتوب إلى الله من الغيبة، ولكنه كلما جلس مجلسًا اغتاب عباد الله؛ فإنه كاذب في توبته، ولو قال: أتوب إلى الله من الربا ولكنه مصر عليه، يبيع بالربا ويشتري بالربا فهو كاذب في توبته، ولو قال: أتوب إلى الله من استماع الأغاني ولكنه مصرٌ على ذلك فهو كاذب في توبته، ولو قال: أتوب إلى الله من معصية الرسول ﷺ في إعفاء اللحية وكان يحلقها وهو يقول أتوب إلى الله من حلقها فإنه كاذب، وهكذا جميع المعاصي إذا كان الإنسان مصرًا عليها فإن دعواه التوبة كذب، ولا تقبل توبته.

ومن التخلي عن الذنب والإقلاع عنه: أن يرد المظالم إلى أهلها إذا كانت المعصية في حقوق العباد، فإن كانت في أخذ مال فليرد المال إلى من أخذه منه، فإن كان قد مات فليرده إلى ورثته، فإن تعذر عليه أن يعرف الورثة، أو نسي الرجل، أو ذهب الرجل إلى مكان لا يمكن العثور عليه مثل أن يكون أجنبيًا فيرجع إلى بلده ولا يدري أين هو، ففي هذه الحال يخرج ما عليه صدقة ينويها لصاحب المال الذي يطلبه.

وإذا كان الذنب في غيبة وكان المغتاب قد علم أن هذا الرجل قد اغتابه؛ فلا بد أن يذهب إلى المغتاب ويتحلل منه، وينبغي للمغتاب إذا جاءه أخوه يعتذر إليه أن يقبل وأن يسامح عنه، فإذا جاء إليك أخوك معتذرًا مقرًا بالذنب فاعف عنه واصفح ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلْمُحْسِنِينَ﴾ [المائدة: ١٣] ولكن إذا لم يقبل أن يتسامح عن غيبته إلا بشيء من المال فأعطه المال، أعطه من المال حتى يقتنع ويحللك.

كذلك إذا كانت المعصية مسابَّة بينك وبين أحد حتى ضربته مثلًا، فإن التوبة من ذلك أن تذهب إليه وتستسمح منه، وتقول: ها أنا أمامك اضربني كما ضربتك، حتى يصفح عنك، المهم أن من الإقلاع عن المعصية إذا كانت لآدمي أن تتحلل منه، سواء كانت مظلمة مال، أو بدن، أو عرض.

الشرط الرابع: أن يعزم على ألا يعود في المستقبل، فإن تاب وأقلع عن الذنب لكن في قلبه أنه إذا حانت الفرصة عاد إلى ذنبه؛ فإن ذلك لا يقبل منه، فهذه توبة لاعب، فلا بد أن يعزم، فإذا عزم ثم قدر أن نفسه سولت له بعد ذلك وفعل المعصية؛ فإن ذلك لا ينقص التوبة السابقة، لكن يحتاج إلى توبه جديدة من الذنب مرة ثانية.

الشرط الخامس: أن تكون التوبة في الوقت الذي تقبل فيه، فإن فات الأوان لم تنفع التوبة، ويفوت الأوان: إذا حضر الإنسان الموت. فإذا حضره الموت فلا توبة ولو تاب لم تنفعه، لقول الله تعالى: ﴿وَلَيْسَتِ ٱلتَّوْبَةُ لِلَّذِينَ يَعْمَلُونَ ٱلسَّيِّـَٔاتِ حَتَّىٰٓ إِذَا حَضَرَ أَحَدَهُمُ ٱلْمَوْتُ قَالَ إِنِّى تُبْتُ ٱلْـَٰٔنَ﴾ [النساء: ١٨] الآن لا فائدة فيها، ولهذا لما أغرق فرعون قال: ﴿ءَامَنتُ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا ٱلَّذِىٓ ءَامَنَتْ بِهِۦ بَنُوٓا۟ إِسْرَٰٓءِيلَ وَأَنَا۠ مِنَ ٱلْمُسْلِمِينَ﴾ فقيل له ﴿ءَآلْـَٰٔنَ﴾ يعني أتقول هذا الآن ﴿وَقَدْ عَصَيْتَ قَبْلُ وَكُنتَ مِنَ ٱلْمُفْسِدِينَ﴾ [يونس: ٩١] فات الأوان، ولهذا يجب على الإنسان أن يبادر بالتوبة، لأنه لا يدري متى يفجأه الموت، كم من إنسان مات بغتة ومفاجأه، فليتب إلى الله قبل أن يفوت الأوان.

وكذلك يفوت أوان التوبة إذا طلعت الشمس من مغربها [١] ، فإن النبي - عليه الصلاة والسلام - أخبر أن الشمس الآن تدور بإذن الله على الأرض ، وإذا غابت سجدت تحت عرش الرحمن ﷻ ، واستأذنت الله فإن أُذِنَ لها استمرت في سيرها ، وإلا قيل ارجعي من حيث جئت فترجع بإذن الله وأمره ، فتطلع على الناس من المغرب فحينئذ يؤمن جميع الناس [٢] ، وكل الناس يتوبون ويرجعون إلى الله ، ولكن ذلك لا ينفعهم ، قال الله تعالى : ﴿ هَلۡ يَنظُرُونَ إِلَّآ أَن تَأۡتِيَهُمُ ٱلۡمَلَٰٓئِكَةُ ﴾ يعني : عند الموت ﴿ أَوۡ يَأۡتِيَ رَبُّكَ ﴾ يعني : يوم القيامة للحساب ﴿ أَوۡ يَأۡتِيَ بَعۡضُ ءَايَٰتِ رَبِّكَۗ ﴾ يعني : طلوع الشمس من مغربها ﴿ يَوۡمَ يَأۡتِي بَعۡضُ ءَايَٰتِ رَبِّكَ لَا يَنفَعُ نَفۡسًا إِيمَٰنُهَا لَمۡ تَكُنۡ ءَامَنَتۡ مِن قَبۡلُ أَوۡ كَسَبَتۡ فِيٓ إِيمَٰنِهَا خَيۡرٗاۗ ﴾ [الأنعام : ١٥٨] .

هذه خمسة شروط للتوبة لا تقبل إلا بها ، فعليك يا أخي أن تبادر بالتوبة إلى الله والرجوع إليه ما دمت في زمن الإمهال ، قبل أن يفوتك ذلك ، واعلم أنك إذا تبت إلى الله توبة نصوحة فإن الله يتوب عليك ، وربما يرفعك إلى منزلة أعلى من منزلتك ، انظر إلى آدم أبيك حيث نهاه الله عن الأكل من الشجرة فعصى ربه بوسوسة الشيطان له ، قال الله تعالى : ﴿ وَعَصَىٰٓ ءَادَمُ رَبَّهُۥ فَغَوَىٰ ۝١٢١ ثُمَّ ٱجۡتَبَٰهُ رَبُّهُۥ فَتَابَ عَلَيۡهِ وَهَدَىٰ ﴾ [طه : ١٢١، ١٢٢] لما تاب نال الاجتباء . واجتباه الله وصار في منزلة أعلى من قبل أن يعصى ربه ؛ لأن المعصية أحدثت له خجلًا وحياءً من الله ، وإنابة ورجوعًا إليه ، فصارت حاله أعلى حالًا من قبل .

واعلم أن الله أشد فرحًا بتوبة عبده المؤمن من رجل كان على راحلته وعليها طعامه وشرابه في أرض فلاة ، ما فيها أحد فأضاع الناقة وطلبها فلم يجدها ، فنام تحت شجرة ينتظر الموت ، فإذا بخطام ناقته متعلق بالشجرة ، قد جاء الله بها ، فأخذ بخطامها وقال من شدة الفرح : « اللهم أنت عبدي وأنا ربك ، أخطأ من شدة الفرح » [٣] أراد أن يقول : اللهم أنت ربي وأنا عبدك ، ولكن أخطأ من شدة الفرح ؛ لأن الإنسان إذا اشتد فرحه لا يدري ما يقول ، كما أنه إذا اشتد غضبه لا يدري مايقول ، فالله بتوبة عبده المؤمن أشد فرحًا من فرح هذا بناقته .

وقوله جل ذكره : « يا عبادي إنكم لم تبلغوا نفعي فتنفعوني ، ولن تبلغوا ضري فتضروني » يعني أنه تبارك وتعالى غني عن العباد ، لا ينتفع بطاعتهم ولا تضره معصيتهم ؛ فإنه ﷻ قال في كتابه : ﴿ وَمَا خَلَقۡتُ ٱلۡجِنَّ وَٱلۡإِنسَ إِلَّا لِيَعۡبُدُونِ ۝٥٦ مَآ أُرِيدُ مِنۡهُم مِّن رِّزۡقٖ وَمَآ أُرِيدُ أَن يُطۡعِمُونِ ۝٥٧ إِنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلرَّزَّاقُ ذُو ٱلۡقُوَّةِ ٱلۡمَتِينُ ﴾ [الذاريات : ٥٦- ٥٨] فالله ﷻ لا ينتفع بأحد ولا يتضرر بأحد لأنه غني عن الخلق جل وعلا ، وإنما خلق الخلق لحكمة أرادها تبارك وتعالى ، خلقهم لعبادته ، ثم إنه وعد الطائعين بالثواب ، وتوعد العاصين بالعقاب حكمة منه ؛ لأنه خلق الجنة والنار ، وقال لكل منكما عليَّ ملؤها ، فالنار لا بد أن تملأ ، والجنة لا بد أن تملأ ، كما قال ﷻ : ﴿ وَلِذَٰلِكَ خَلَقَهُمۡۗ وَتَمَّتۡ كَلِمَةُ رَبِّكَ لَأَمۡلَأَنَّ جَهَنَّمَ مِنَ

---

(١) انظر الحديث الدال على ذلك في البخاري في تفسير القرآن (٤٦٣٥) ، ومسلم في التوبة (٣١) ، وأحمد في مسنده (٢/١٦٤ ، ٢٠١) .

(٢) انظر نص الحديث فيما أخرجه البخاري في تفسير القرآن (٤٨٠٢) .

(٣) انظر الحديث بنصه في البخاري في الدعوات (٦٣٠٩) ، ومسلم في التوبة (٣ ، ٤) ، وأحمد في مسنده (٢/٣١٦) .

﴿ٱلْجِنَّةِ وَٱلنَّاسِ أَجْمَعِينَ﴾ [هود: ١١٩] إذن فالله تعالى لن تنفعه طاعة الطائعين، ولن تضره معصية العاصين، ولن يبلغ أحد ضرره مهما كان، ولهذا قال فيما بعد هذه الجملة: «لو أن أولكم، وآخركم، وإنسكم، وجنكم، كانوا على أتقى قلب رجل واحد منكم؛ ما زاد ذلك في ملكي شيئًا». لو أن أول الخلق وآخرهم وإنسهم وجنهم كانوا متقين، على أتقى قلب رجل واحد، ما زاد ذلك في ملك الله شيئًا؛ لأن الملك ملكه لا للطائعين ولا للعاصين.

كذلك أيضًا يقول - جل وعلا -: «يا عبادي لو أن أولكم، وآخركم، وإنسكم، وجنكم، كانوا على أفجر قلب رجل واحد منكم؛ ما نقص ذلك من ملكي شيئًا» لو كان الناس كلهم من جن وإنس وأولهم وآخرهم، لو كانوا كلهم فجارًا وعلى أفجر قلب رجل، فإن ذلك لا ينقص من ملك الله شيئًا، قال الله تعالى: ﴿إِن تَكْفُرُوا۟ فَإِنَّ ٱللَّهَ غَنِىٌّ عَنكُمْ ۖ وَلَا يَرْضَىٰ لِعِبَادِهِ ٱلْكُفْرَ ۖ وَإِن تَشْكُرُوا۟ يَرْضَهُ لَكُمْ ۗ﴾ [الزمر: ٧] فالله - جل وعلا - لا ينقص ملكه بمعصية العصاة، ولا يزيد بطاعة الطائعين، هو ملك الله على كل حال.

ففي هذه الجُمَل الثلاث: دليل على غنى الله ﷻ، وكمال سلطانه، وأنه لا يتضرر بأحد ولا ينتفع بأحد؛ لأنه غني عن كل أحد.

ثم قال تعالى: «يا عبادي لو أن أولكم، وآخركم، وإنسكم، وجنكم، قاموا في صعيد واحد فسألوني فأعطيت كل إنسان مسألته؛ ما نقص ذلك مما عندي إلا كما ينقص المخيط إذا أدخل البحر» هذه الجملة تدل على سعة ملك الله ﷻ، وعلى كمال غناه تبارك وتعالى، لو أن الأولين والآخرين، والإنس والجن، قاموا كلهم في صعيد واحد فسألوا الله ما تبلغه نفوسهم، من أي مسألة وإن عظمت، فأعطى الله كل إنسان ما سأل، بل أعطى الله كل سائل ما سأل؛ فإن ذلك لا ينقص من ملك الله شيئًا؛ لأن الله جواد، واجد، عظيم الغنى، واسع العطاء ﷻ.

«إلا كما ينقص المخيط إذا أدخل البحر» اغمس المخيط في البحر وانظر ماذا ينقص البحر؟ إنه لا يُنْقِصُ البحر شيئًا، ولا يأخذ المخيط من البحر شيئًا يمكن أن ينسب إليه، وذلك لأنه ﷻ واسع الغني، جواد ماجد كريم ﷻ:

«يا عبادي إنما هي أعمالكم أحصيها لكم ثم أوفيكم إياها» ومعنى «إنما هي أن أعمالكم»: أي الشأن كله أن الإنسان بعمله، يحصي الله أعماله، ثم إذا كان يوم القيامة وفَّاه إياها ﴿فَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْرًا يَرَهُۥ ۝ وَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ شَرًّا يَرَهُۥ﴾ [الزلزلة: ٧، ٨].

«فمن وجد خيرًا فليحمد الله، ومن وجد غير ذلك فلا يلومن إلا نفسه» لأنه هو الذي أخطأ، وهو الذي منع نفسه الخير، أما إذا وجد خيرًا فليحمد الله؛ لأن الله هو الذي منَّ عليه أولًا وآخرًا، منَّ عليه أولًا بالعمل، ثم منَّ عليه ثانيًا بالجزاء الوافر ﴿مَن جَآءَ بِٱلْحَسَنَةِ فَلَهُۥ عَشْرُ أَمْثَالِهَا ۖ وَمَن جَآءَ بِٱلسَّيِّئَةِ فَلَا يُجْزَىٰٓ إِلَّا مِثْلَهَا﴾ [الأنعام: ١٦٠] فهذا الحديث حديث عظيم، تناوله العلماء بالشرح واستنباط الفوائد والأحكام منه، وممن أفرد له مؤلفًا شيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله، فإنه شرح هذا الحديث في كتاب مستقل، فعلى الإنسان أن يتدبر هذا الحديث ويتأمله، ولا سيما الجملة الأخيرة منه، وهي أن الإنسان

يجزى بعمله ؛ إن خيرًا فخير وإن شَرًّا فشر ، وهذا هو وجه وضع المؤلف لهذا الحديث في باب المجاهدة ، أن الإنسان ينبغي له أن يجاهد نفسه وأن يعمل الخير حتى يجد ما عند اللَّه خيرا وأعظم أَجْرًا .

* * *

١٢ - باب الحث على الازدياد من الخير في أواخر العمر

قال اللَّه تعالى : ﴿ أَوَلَمْ نُعَمِّرْكُم مَّا يَتَذَكَّرُ فِيهِ مَن تَذَكَّرَ وَجَآءَكُمُ ٱلنَّذِيرُ ﴾ [فاطر : ٣٧] قال ابن عباس وَالمُحَقِّقُونَ . مَعناهُ : أوَ لَمْ نُعَمِّرْكُمْ سِتِّينَ سَنَةً ؟ وَيُؤَيِّدُهُ الحديثُ الذي سنذكُره إن شاء اللَّه تعالى ، وقيل : معناه ثماني عَشرَةَ سَنَةً . وقيلَ : أربعين سَنَةً . قَالَهُ الحسن والكلْبي وَمَسْرُوقٌ ، ونقلَ عن ابن عباس أيضًا . ونَقَلوا : أن أهْلَ المدِينَةِ كانوا إذا بلغ أحَدُهُمْ أربعِينَ سَنَةً تَفَرَّغ لِلعبادَةِ . وقيل : هو البُلوغ .

وقوله تعالى : ﴿ وَجَآءَكُمُ ٱلنَّذِيرُ ﴾ قال ابن عباس والجمهور : هو النبي ﷺ . وقيل : الشيب . قاله عِكْرمَة ، وابن عُيَينة ، وغيرهما . واللَّه أعلم .

الشرح

قال المؤلف - رحمه اللَّه تعالى - : باب الحث على الازدياد من الخير في أواخر العمر : اعلم أن المدار على آخر العمر ، كما قال النبي ﷺ : « إن الرجل ليعمل بعمل أهل الجنة حتى ما يبقى بينه وبينها إلا ذراع ، فيسبق عليه الكتاب ، فيعمل بعمل أهل النار ؛ فيدخلها ، وإن أحدكم ليعمل بعمل أهل النار ، حتى ما يكون بينه وبينها إلا ذراع ، فيسبق عليه الكتاب ، فيعمل بعمل أهل الجنة ؛ فيدخلها » (١) ولهذا كان من الدعاء المأثور : « اللهم اجعل خير عمري آخره ، وخير عملي خواتمه » (٢) وصح عن النبي - عليه الصلاة والسلام - أن : « من كان آخر كلامه من الدنيا لا إله إلا اللَّه دخل الجنة » (٣) .

فالذي ينبغي للإنسان كلما طال به العمر أن يكثر من الأعمال الصالحة ، كما أنه ينبغي للشاب أيضًا أن يكثر من الأعمال الصالحة ؛ لأن الإنسان لا يدري متى يموت ، قد يموت في شبابه ، وقد يؤخر موته ، لكن لا شك أن من تقدم به السن فهو أقرب إلى الموت من الشاب ؛ لأنه أنهى العمر .

ثم ساق المؤلف قول اللَّه تعالى : ﴿ أَوَلَمْ نُعَمِّرْكُم مَّا يَتَذَكَّرُ ﴾ ﴿ مَّا ﴾ نكره موصوفة أي : أو لم نعمركم عمرًا يتذكر فيه من تذكر ﴿ وَجَآءَكُمُ ٱلنَّذِيرُ ﴾ وهذا العمر اختلف المفسرون فيه ، فقيل : هو ستون سنة ، وقيل : ثمانية عشر سنة ، وقيل : أربعون سنة ، وقيل : البلوغ ، والآية عامة ، عُمِّروا عُمْرًا لهم فيه فرصة يتذكر فيه من يتذكر ، وهذا يختلف باختلاف الأحوال ؛ فقد يكون الإنسان يتذكر في أقل من ثمانية عشر سنة ، وقد لا يتذكر إلا بعد ذلك ، حسب ما يأتيه من النذر والآيات ، وما يكون حوله من البيئة الصالحة ، أو غير الصالحة .

---

(١) أخرجه أحمد في مسنده (٤١٤/١) بلفظه ، وبنحوه البخاري في القدر (٦٥٩٤) ، ومسلم في القدر (١) .
(٢) ذكره الهيثمي في مجمع الزوائد (١١٠/١٠) .
(٣) أخرجه أبو داود في الجنائز (٣١١٦) ، وأحمد في مسنده (٢٣٣/٥) .

المهم : أنه يقال لهم توبيخًا : ﴿ أَوَلَمْ نُعَمِّرْكُم مَّا يَتَذَكَّرُ فِيهِ مَن تَذَكَّرَ ﴾ وفي هذا دليل على أنه كلما طال بالإنسان العمر ، كان أولى بالتذكر .

وأما قوله تعالى : ﴿ وَجَاءَكُمُ النَّذِيرُ ﴾ فالصحيح أن المراد بالنذير النبي ، وهو اسم جنس يشمل رسول الله ﷺ ، ويشمل الرسل الذين من قبله ، كلهم نُذُر عليهم الصلاة والسلام .

فالواجب على الإنسان أن يحرص في آخر عمره ، على الإكثار من طاعة الله ، ولا سيما ما أوجب الله عليه ، وأن يكثر من الاستغفار والحمد ، كما قال الله تعالى لنبيه ﷺ : ﴿ إِذَا جَاءَ نَصْرُ اللَّهِ وَالْفَتْحُ ۝ وَرَأَيْتَ النَّاسَ يَدْخُلُونَ فِي دِينِ اللَّهِ أَفْوَاجًا ۝ فَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ وَاسْتَغْفِرْهُ إِنَّهُ كَانَ تَوَّابًا ﴾ [النصر : ١-٣] هذه السورة يقال إنها آخر سورة نزلت على النبي ﷺ ، وفيها قصة عجيبة ، حيث كان الأنصار ﷺ يقولون لأمير المؤمنين عمر بن الخطاب : لماذا تدنى عبد الله بن عباس وهو من الشباب ولا تدني شبابنا ؟ وكان عمر ﷺ ينزل الناس منازلهم في العلم والدين ، كل من كان أعلم وأدين فهو إلى - أمير المؤمنين - عمر أقرب ، وهكذا ينبغي للإنسان أن يكون تقديمه حسب ما عند الإنسان من العلم والدين ، القرابة لهم حق ولا شك ، لكن العلم والدين أعظم ما يكون قربة إلى الإنسان من غيره .

والمهم : أن الأنصار قالوا لأمير المؤمنين عمر ﷺ : لماذا تدني عبد الله بن عباس ولا تدني شبابنا؟ فقال لهم : أمهلوني ، ثم جمعهم ذات يوم ، وقال لهم : ماذا تقولون في قول الله تعالى : ﴿ إِذَا جَاءَ نَصْرُ اللَّهِ وَالْفَتْحُ ۝ وَرَأَيْتَ النَّاسَ يَدْخُلُونَ فِي دِينِ اللَّهِ أَفْوَاجًا ۝ فَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ وَاسْتَغْفِرْهُ إِنَّهُ كَانَ تَوَّابًا ﴾ ؟ قالوا يقول إن الله قال للرسول ﷺ : إذا جاء النصر وفتحت مكة ، فسبح بحمد الله واستغفره لأنه كان توابًا ، يعني فسروها بظاهرها ، فقال : ما تقول يا ابن عباس ؟ ، قال : أقول إن هذه السورة نعي رسول الله ﷺ يعني أنها تدل على أن أجله قد اقترب ، ففهم هذا الفهم العجيب ﷺ ، يعني إذا جاء النصر والفتح فقد أديت ما عليك ، اختم عمرك بالاستغفار والتسبيح بحمد الله ﷻ[1] ، قالت عائشة ﷺ كان النبي ﷺ بعد إذ أنزلت عليه هذه السورة ، كان يكثر أن يقول في ركوعه وسجوده : « سبحانك اللهم ربنا وبحمدك ، اللهم اغفر لي »[2] فأكثر منها في الركوع والسجود ، كما كان النبي ﷺ يفعل .

* * *

وأَمَّا الأحاديث :

١١٢ - فالأوَّل : عن أبي هريرة ﷺ عن النبيِّ ﷺ قال : « أَعْذَرَ اللَّهُ إلى امْرِئٍ أَخَّرَ أَجَلَهُ حتى بَلَغَ سِتِّينَ سَنَةً »[3] رواه البخاري .

قال العلماء : معناه : لَمْ يَتْرُكْ له عُذْرًا إذْ أَمْهَلَهُ هذِهِ المُدَّةَ . يُقال : أَعْذَرَ الرَّجُل : إذا بَلَغَ الغَايَةَ في العُذْرِ .

---

(١) انظر الحديث بنصه في البخاري تفسير القرآن (٤٩٧٠) .

(٢) أخرجه البخاري في تفسير القرآن (٤٩٦٨) ومسلم في الصلاة (٢١٧) وأحمد في مسنده (١/٣٨٨) .

(٣) أخرجه البخاري في الرقاق (٦٤١٩) .

الشرح

قال المؤلف - رحمه الله تعالى - فيما نقله عن أبي هريرة ﷺ أن النبي ﷺ قال : «أعذر الله تعالى إلى امرئ أخَّر أجله حتى بلغ ستين سنة » والمعنى أن الله ﷻ إذا عمَّر الإنسان حتى بلغ ستين سنة فقد أقام عليه الحجة ونفى عنه العذر ، لأن ستين سنة يبقي الله الإنسان إليها ؛ يعرف من آيات الله ما يعرف ، ولا سيما إذا كان ناشئًا في بلد إسلامي ، لا شك أن هذا يؤدي إلى قطع حجته إذا لاقى الله ﷻ ؛ لأنه لا عذر له ، فلو أنه مثلًا قُصِرَ في عمره إلى خمسة عشر سنة أو إلى عشرين سنة ، لكان قد يكَون له عذر في أنه لم يتمهل ولم يتدبر الآيات ، ولكنه إذا أبقاه إلى ستين سنة ؛ فإنه لا عذر له ، قد قامَتْ عليه الحجة ، مع أن الحجة تقوم على الإنسان من حين أن يبلغ ، فإنه يدخل في التكليف ولا يعذر بالجهل .

فإن الواجب على المرء أن يتعلم من شريعة الله ما يحتاج إليه ، مثلًا إذا أراد أن يتوضأ : لابد أن يعرف كيف يتوضأ . إذا أراد أن يصلي : لابد أن يعرف كيف يصلي ، إذا صار عنده مال ، لابد أن يعرف ما مقدار النصاب ، وما مقدار الواجب ، وما أشبه ذلك . إذا أراد أن يصوم : لابد أن يعرف كيف يصوم ، وما هي المفطرات ، وإذا أراد أن يحج أو يعتمر : يجب أن يعرف كيف يحج ، وكيف يعتمر ، وما هي مَحْظُورَات الإحرام . إذا كان من الباعة الذين يبيعون ويشترون بالذهب مَثَلًا : لابد أن يعرف الربا ، وأقسام الربا ، وما الواجب في بيع الذهب بالذهب ، أو بيع الذهب بالفضة ، وهكذا ، إذا كان ممن يبيع الطعام لا بد أن يعرف كيف يبيع الطعام ، ولا بد أن يعرف ما هو الغش الذي يمكن أن يكون ، وهكذا .

والمهم : أن الإنسان إذا بلغ الستين سنة فقد قامت عليه الحجة التامة ، وليس له عذر ، وكل إنسان بحسبه ، كل إنسان يجب عليه أن يتعلم من الشريعة ما يحتاج إليه ؛ في الصلاة والزكاة والصيام والحج والبيوع والأوقاف وغيرها ، حسب ما يحتاج إليه .

وفي هذا الحديث : دليل على أن الله ﷻ له الحجة على عباده ، وذلك أن الله أعطاهم عقولًا ، وأعطاهم أفهامًا ، وأرسل إليهم رُسُلًا ، وجعل من الرسالات ما هو خالد إلى يوم القيامة ، وهي رسالة النبي ﷺ ؛ فإن الرسالات السابقة محدودة ، حيث إن كل نبي يبعث إلى قومه خاصة ، ومحدودة في الزمن ؛ حيث إن كل رسول يأتي بنسخ ما قبله ، إذا كانت الأمة التي أرسل إليها الرسولان واحدة .

أما هذه الأمة : فقد أرسل الله إليها مُحَمَّدًا ﷺ وجعله خاتم الأنبياء ، وجعل آيته العظيمة الباقية هذا القرآن العظيم ، فإن آيات الأنبياء تموت بموتهم ، ولا تبقى بعد موتهم إلا ذكرى ، أما محمد ﷺ فإن آيته هذا القرآن العظيم باقية إلى يوم القيامة ، كما قال تعالى : ﴿ وَقَالُوا۟ لَوْلَآ أُنزِلَ عَلَيْهِ ءَايَٰتٌ مِّن رَّبِّهِۦ ۖ قُلْ إِنَّمَا ٱلْءَايَٰتُ عِندَ ٱللَّهِ وَإِنَّمَآ أَنَا۠ نَذِيرٌ مُّبِينٌ ۝٥٠ أَوَلَمْ يَكْفِهِمْ أَنَّآ أَنزَلْنَا عَلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ يُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ ﴾ [العنكبوت : ٥٠، ٥١] فالكتاب كاف عن كل آية لمن تدبره ، وتعقله ، وعرف معانيه ، وانتفع بِأَخْبَارِهِ ، واتعظ بقصصه ، فإنه يغني عن كل شيء من الآيات .

لكن الذي يجعلنا لا نحس بهذه الآيات العظيمة : أننا لا نقرأ القرآن على وجه نتدبره ، ونتعظ بما

فيه ، كثير من المسلمين إن لم يكن أكثر المسلمين يتلون الكتاب للتبرك والأجر فقط ، ولكن الذي يجب أن يكون هو أن نقرأ القرآن لنتدبره ونتعظ بما فيه ، ﴿ كِتَٰبٌ أَنزَلْنَٰهُ إِلَيْكَ مُبَٰرَكٌ ﴾ هذا الأجر ﴿ لِّيَدَّبَّرُوٓا۟ ءَايَٰتِهِۦ ﴾ هذه هي الثمرة ، ﴿ وَلِيَتَذَكَّرَ أُو۟لُوا۟ ٱلْأَلْبَٰبِ ﴾ [ص: ٢٩] .

* * *

١١٣ - الثاني : عن ابن عباس رضي الله عنهما قال : كان عمر رضي الله عنه يُدْخِلُني مَعَ أَشْيَاخ بَدْرٍ ، فَكَأَنَّ بَعْضَهُمْ وَجَدَ في نَفْسِهِ ، فَقَالَ : لِمَ يُدْخِلُ هذَا معنا وَلَنَا أَبْنَاءٌ مِثْلُه !؟ فقال عمر : إنَّه مَنْ حَيث عَلِمْتُمْ ! فَدَعاني ذَاتَ يَومٍ فَأَدْخلَني مَعَهُمْ ، فما رَأَيت أنَّه دعاني يَومَئِذٍ إلا لِيُرِيَهُمْ ، قال : ما تقولون في قول اللَّه تعالى : ﴿ إِذَا جَآءَ نَصْرُ ٱللَّهِ وَٱلْفَتْحُ ﴾ ؟ [النصر: ١] فقال بعضهم : أُمِرْنَا نَحْمَدُ اللَّه وَنَسْتَغْفِره إذَا نَصَرَنا وَفَتَحَ عَلَينَا . وَسَكَت بعضُهُمْ فلم يَقُل شَيْئًا . فقال لي : أَكَذلك تقول يا ابن عباس ؟ فقلت : لا . قال : فما تقول ؟ قلت : هُو أَجَلُ رسول اللَّه صلى الله عليه وسلم أَعْلَمَه له قال : ﴿ إِذَا جَآءَ نَصْرُ ٱللَّهِ وَٱلْفَتْحُ ﴾ وذلك علامة أَجَلِك ﴿ فَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ وَٱسْتَغْفِرْهُ إِنَّهُۥ كَانَ تَوَّابًۢا ﴾ [النصر: ٣] فقال عمر رضي الله عنه : ما أَعْلَمُ منها إلا ما تَقُول [1] . رواه البخاري .

١١٤ - الثالث : عن عائشة رضي الله عنها قالت : ما صَلَّى رسول اللَّه صلى الله عليه وسلم صلاةً بَعْدَ أَنْ نَزَلَتْ عَلَيه ﴿ إِذَا جَآءَ نَصْرُ ٱللَّهِ وَٱلْفَتْحُ ﴾ إلا يقول فيها : « سُبْحَانَكَ رَبَّنَا وَبِحَمْدِكَ ، اللَّهُمَّ اغْفِرْ لي » [2] متفقٌ عليه .

وفي رواية في « الصحيحين » عنها : كان رسول اللَّه صلى الله عليه وسلم يُكْثِر أَنْ يَقُولَ في رُكُوعِه وسُجُودِهِ : « سُبْحَانَكَ اللَّهُمَّ رَبَّنَا وَبِحَمْدِكَ ، اللَّهُمَّ اغْفِرْ لي » يَتَأَوَّل القُرآنَ .

معنى « يَتَأَوَّل القُرآنَ » أي : يَعْمَل مَا أُمِرَ بِهِ في القُرآنِ في قولِهِ تعالى : ﴿ فَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ وَٱسْتَغْفِرْهُ ﴾ .

وفي رواية لمسلم : كان رسول اللَّه صلى الله عليه وسلم يُكْثِر أَنْ يَقُولَ قَبْل أَنْ يَمُوتَ : « سُبْحَانَكَ اللَّهُمَّ وبحَمْدكَ ، أَسْتَغْفِركَ وَأَتُوب إلَيكَ » . قالت عائشة : قلت : يا رسول اللَّه ما هذِهِ الكَلِمَات الَّتي أَرَاكَ أَحْدَثْتَها تقولها ؟ قال : « جُعِلَتْ لي علامةٌ في أُمَّتي إذَا رَأَيتُها قُلْتُها ﴿ إِذَا جَآءَ نَصْرُ ٱللَّهِ وَٱلْفَتْحُ ﴾ إلى آخر السورة » .

وفي رواية له : كان رسول اللَّه صلى الله عليه وسلم يُكْثِر مِنْ قَول : « سُبْحَانَ اللَّهِ وبِحَمْدِهِ . أَسْتَغْفِرُ اللَّهَ وَأَتُوب إلَيهِ » . قالت : قلت : يا رسول اللَّه ! أَرَاكَ تُكْثِرُ مِنْ قَولِ : سُبْحَان اللَّه وَبِحَمْدِهِ ، أَسْتَغْفِرُ اللَّهَ وَأَتُوبُ إلَيهِ ؟ فقال : « أَخْبَرني رَبِّي أَنِّي سَأَرَى عَلامَةً في أُمَّتي فإذا رَأَيتُها أَكْثَرتُ مِنْ قَولِ : سُبحَانَ اللَّه وبحَمْدِهِ ، أَسْتَغْفِرُ اللَّه وَأَتُوبُ إلَيهِ ، فَقَدْ رَأَيتُها : ﴿ إِذَا جَآءَ نَصْرُ ٱللَّهِ وَٱلْفَتْحُ ﴾ فَتْحُ مَكَّةَ ،

---

(١) أخرجه البخاري في تفسير القرآن (٤٩٧٠) ، قوله « وجد » أي غضب ، قوله « إنه من حيث علمتم » أي من بيت النبوة ومنبع العلوم ومصدر الآراء السديدة .

(٢) أخرجه البخاري في التفسير (٤٩٦٧) ومسلم في الصلاة (٢١٧ ، ٢١٨ ، ٢١٩ ، ٢٢٠) .

﴿وَرَأَيْتَ ٱلنَّاسَ يَدْخُلُونَ فِي دِينِ ٱللَّهِ أَفْوَاجًا ۝ فَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ وَٱسْتَغْفِرْهُ إِنَّهُۥ كَانَ تَوَّابًۢا﴾ »[1] .

١١٥ - الرابع : عن أنس ﷺ قال : إنَّ اللَّه عَزَّ وَجَلَّ تَابَعَ الوَحْيَ عَلى رسول اللَّه ﷺ قَبْلَ وَفَاتِهِ ، حَتَّى تُوُفِّي أَكْثَرَ مَا كَانَ الوَحْيُ [2] . متفقٌ عليه .

١١٦ - الخامس : عن جابر ﷺ قال : قال رسول اللَّه ﷺ : « يُبْعَثُ كُلُّ عَبْدٍ عَلى مَا مَاتَ عَلَيهِ »[3] رواه مسلم .

الشرح

ذكر المؤلف - رحمه اللَّه تعالى - فيما نقله عن عبد اللَّه بن عباس ﷺ أن عمر بن الخطاب كان يدخله في أشياخ بدر ، وكان من سيرة عمر وهديه ﷺ أنه يشاور الناس ذوي الرأي فيما يشكل عليه ، كما قال اللَّه تعالى لنبيه ﷺ : ﴿ وَشَاوِرْهُمْ فِي ٱلْأَمْرِ ﴾ [آل عمران : ١٥٩] والشورى الشرعية ليست تكوين مجلس للشورى حتى يكون مشاركًا في الحكم ، ولكن الشورى الشرعية أن وليَّ الأمر إذا أشكل عليه أمر من الأمور جمع الناس له من ذوي الرأي والأمانة من أجل أن يستشيرهم في القضية الواقعة ، فكان من هدي عمر ﷺ ومن سنته المشكورة ، وسعيه الحميد أنه يشاور الناس ، يجمعهم ليستشيرهم في الأمور الشرعية والأمور السياسية ، وغير ذلك ، وكان يدخل مع أشياخ بدر أي مع كبار الصحابة ﷺ عبد اللَّه بن عباس ، وكان صغير السن بالنسبة لهؤلاء ، فوجدوا في أنفسهم : كيف يدخل عبد اللَّه بن عباس ﷺ مع أشياخ القوم ولهم أبناء مثله ولا يدخلهم .

فأراد عمر ﷺ أن يريهم مكانة عبد اللَّه بن عباس ﷺ من العلم والذكاء والفطنة ، فجمعهم ودعاه ، فعرض عليهم هذه السورة ﴿ إِذَا جَآءَ نَصْرُ ٱللَّهِ وَٱلْفَتْحُ ۝ وَرَأَيْتَ ٱلنَّاسَ يَدْخُلُونَ فِي دِينِ ٱللَّهِ أَفْوَاجًا ۝ فَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ وَٱسْتَغْفِرْهُ إِنَّهُۥ كَانَ تَوَّابًۢا ﴾ [الفتح : ١-٣] فانقسموا إلى قسمين لما سألهم عنها « ما تقولون فيها ؟» قسم سكت ، وقسم قال : إن اللَّه أمرنا إذا جاءنا النصر والفتح ، أن نستغفر لذنوبنا ، وأن نحمده ونسبح بحمده ، ولكن عمر ﷺ أراد أن يعرف ما مغزى هذه السورة ، ولم يرد أن يعرف معناها التركيبي من حيث الألفاظ والكلمات . فسأل ابن عباس ﷺ قال : ما تقول في هذه السورة ؟ قال : « هو أجل رسول اللَّه ﷺ » يعني علامة قرب أجله ، أعطاه اللَّه إياه ﴿ إِذَا جَآءَ نَصْرُ ٱللَّهِ وَٱلْفَتْحُ ﴾ يعني فتح مكة ، فإن ذلك علامة أجلك ﴿فَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ وَٱسْتَغْفِرْهُ إِنَّهُۥ كَانَ تَوَّابًۢا﴾ فقال : « ما أعلم فيها إلا ما علمت » وظهر بذلك فضل عبد اللَّه بن عباس ﷺ . وفي هذا إشارة إلى أنه ينبغي للإنسان أن يفطن لمغزى الآيات الكريمة ، فإن المعنى الظاهر الذي يفهم من الكلمات والتركيبات هذا أمر

---

(١) أخرجه مسلم في الصلاة (٢١٧ ، ٢١٨ ، ٢١٩ ، ٢٢٠) ، قوله : ﴿ أَفْوَاجًا ﴾ أي جماعات ، والحديث لم يقم الشارح رحمه الله بشرحه .

(٢) أخرجه البخاري في فضائل القرآن (٤٩٨٢) ، ومسلم في التفسير (٢) ، والحديث لم يقم الشارح رحمه الله بشرحه .

(٣) أخرجه مسلم في الجنة وصفة نعيمها (٨٣) ، والإمام أحمد في مسنده (٣/٣٣١ ، ٣٦٦) ، والحديث لم يقم الشارح رحمه الله بشرحه .

قد يكون سهلًا ، لكن مغزى الآيات الذي أراده اللّٰه تعالى هو الذي يخفى على كثير من الناس ، ويحتاج إلى فهم يؤتيه اللّٰه تعالى من يشاء .

وقوله تبارك وتعالى : ﴿ فَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ ﴾ أي : سبح اللّٰه مصحوبًا بالحمد ، فالباء هنا للمصاحبة ، وذلك لأنه إذا كان التسبيح مَصْحُوبًا بالحمد فإنه به يتحقق الكمال ؛ لأن الكمال لا يتحقق إلا بانتفاء العيوب ، وثبوت صفات الكمال ، فانتفاء العيوب مأخوذ من قوله : سبحانك ، لأن التسبيح معناه التنزيه عن كل نقص وعيب ، وثبوت الكمالات مأخوذ من قوله : وبحمدك ؛ لأن الحمد هو وصف المحمود بالصفات الكاملة ، وليس هو الثناء كما هو مشهور عند كثير من العلماء ، إذ قالوا : الحمد هو الثناء على اللّٰه بالجميل ، وبعضهم يقول : بالجميل الاختياري وما أشبه ذلك ، والدليل على ذلك الحديث القدسي حديث أبي هريرة ﷺ ، أن النبي ﷺ قال : « إن اللّٰه قال : قسمت الصلاة بيني وبين عبدي نصفين » يعني الفاتحة « فإذا قال : ﴿ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴾ قال : حمدني عبدي ، فإذا قال : ﴿ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ ﴾ قال : أثنى عليَّ عبدي »[1] ففرق بين الحمد والثناء . والمهم أن الإنسان إذا جمع بين التسبيح والحمد ، فقد جمع بين إثبات الكمال لله ونفي النقائص عنه .

أما قوله : ﴿ وَٱسْتَغْفِرْهُ ﴾ فمعناه : اطلب منه المغفرة ، والمغفرة هي التجاوز عن الذنب والستر ، يعني المغفرة تجمع بين ستر الذنب والتجاوز عنه ، وذلك من مدلول اشتقاقها ؛ فإنها مأخوذة من المغفر وهو ما يوضع على الرأس عند الحرب ليقي السهام ، فهو واقٍ وساتر .

وأما قوله : ﴿ إِنَّهُۥ كَانَ تَوَّابًا ﴾ ففيه أن اللّٰه ﷻ موصوف بكثرة التوبة لقوله : ﴿ تَوَّابًا ﴾ ، وهي صيغة مبالغة لكثرة من يتوب اللّٰه عليه . واللّٰه ﷻ تواب على عبده توبة سابقة لتوبته ، وتوبة لاحقة لها ، كما قال تعالى ﴿ ثُمَّ تَابَ عَلَيْهِمْ لِيَتُوبُوٓا۟ ﴾ [التوبة : ١١٨] فالتوبة السابقة : أن يوفق اللّٰه العبد للتوبة ، والتوبة اللاحقة : أن يقبل اللّٰه منه التوبة إذا تاب إليه :

وللتوبة شروط خمسة :

الأول : الإخلاص لله ﷻ في التوبة . والثاني : الندم على ما حصل منه من الذنب .

والثالث : الإقلاع عنه في الحال . والرابع : العزم على ألا يعود .

والخامس : أن تكون التوبة في الوقت الذي تقبل فيه ، فإن كانت التوبة في الوقت الذي لا تقبل فيه فإنها لا تنفع ، فإذا تاب الإنسان عند حضور أجله لم ينتفع بهذه التوبة ، لقوله تعالى : ﴿ وَلَيْسَتِ ٱلتَّوْبَةُ لِلَّذِينَ يَعْمَلُونَ ٱلسَّيِّـَٔاتِ حَتَّىٰٓ إِذَا حَضَرَ أَحَدَهُمُ ٱلْمَوْتُ قَالَ إِنِّى تُبْتُ ٱلْـَٰٔنَ ﴾ [النساء : ١٨] الآن لا تنفع التوبة ، ولهذا لم ينتفع فرعون بتوبته حين أدركه الغرق ، قيل له : ﴿ ءَآلْـَٰٔنَ وَقَدْ عَصَيْتَ قَبْلُ وَكُنتَ مِنَ ٱلْمُفْسِدِينَ ﴾ [يونس : ٩١] ومما لا تقبل فيه التوبة أيضًا : إذا طلعت الشمس من مغربها ، فإن الناس يؤمنون ولكن : ﴿ لَا يَنفَعُ نَفْسًا إِيمَٰنُهَا لَمْ تَكُنْ ءَامَنَتْ مِن قَبْلُ أَوْ كَسَبَتْ فِىٓ إِيمَٰنِهَا خَيْرًا ﴾ [الأنعام : ١٥٨] .

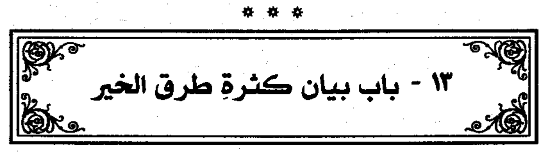
وينبغي للإنسان أن يكثر من هذا الذكر في الركوع والسجود : « سبحانك اللّٰهم ربنا وبحمدك ،

---

(١) أخرجه مسلم في الصلاة (٣٨) ، والترمذي في السنن (٢٩٥٣) .

اللَّهم اغفر لي » (١) . فإنه جامع بين الذكر والدعاء ، وكان النبي ﷺ يكثر أن يقوله في ركوعه وسجوده بعد نزول هذه السورة .

* * *



١٣ - باب بيان كثرةِ طرق الخير

قال اللَّه تعالى : ﴿ وَمَا تَفْعَلُوا مِنْ خَيْرٍ فَإِنَّ اللَّهَ بِهِ عَلِيمٌ ﴾ [البقرة: ٢١٥] .

وقال اللَّه تعالى : ﴿ وَمَا تَفْعَلُوا مِنْ خَيْرٍ يَعْلَمْهُ اللَّهُ ﴾ [البقرة: ١٩٧] وقال تعالى : ﴿ فَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْرًا يَرَهُ ﴾ [الزلزلة: ٧] وقال تعالى : ﴿ مَنْ عَمِلَ صَالِحًا فَلِنَفْسِهِ ﴾ [الجاثية: ١٥] (٢) والآيات في الباب كثيرةٌ .

الشرح

قال المؤلف - رحمه اللَّه تعالى - : (باب بيان كثرة طرق الخير) ، الخير له طرق كثيرة ، وهذا من فضل اللَّه ﷻ على عباده ، من أجل أن تتنوع لهم الفضائل ، والأجور ، والثواب الكثير ، وأصول هذه الطرق ثلاثة : إما جهد بدني ، وإما بذل مالي ، وإما مركب من هذا وهذا ، هذه أصول طرق الخير .

أما الجهد البدني : فهو أعمال البدن ؛ مثل : الصلاة ، والصيام ، والجهاد ، وما أشبه ذلك .

وأما البذل المالي : فمثل : الزكوات ، والصدقات ، والنفقات ، وما أشبه ذلك .

وأما المركب : فمثل : الجهاد في سبيل اللَّه بالسلاح ؛ فإنه يكون بالمال ويكون بالنفس ، ولكن أنواع هذه الأصول كثيرة جدًّا ، من أجل أن تتنوع للعباد الطاعات ، حتى لا يملوا لو كان الخير طَرِيقًا واحدًا لَـمَلَّ الناس من ذلك وسئموا ، ولما حصل الابتلاء ، ولكن إذا تنوع كان ذلك أرفق بالناس ، وأشد في الابتلاء .

قال اللَّه تعالى في هذا الباب : ﴿ فَاسْتَبِقُوا الْخَيْرَاتِ ﴾ [البقرة: ١٤٨] وقال تعالى : ﴿ إِنَّهُمْ كَانُوا يُسَارِعُونَ فِي الْخَيْرَاتِ ﴾ [الأنبياء: ٩٠] وهذا يدل على أن الخيرات ليست خيرًا واحدًا ، بل طرق كثيرة .

ثم ذكر المؤلف آيات تشير إلى أن الخير له طرق ، قال اللَّه تعالى : ﴿ وَمَا تَفْعَلُوا مِنْ خَيْرٍ يَعْلَمْهُ اللَّهُ ﴾ [البقرة: ١٩٧] ﴿ وَمَا تَفْعَلُوا مِنْ خَيْرٍ فَإِنَّ اللَّهَ بِهِ عَلِيمٌ ﴾ [البقرة: ٢١٥] ﴿ فَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْرًا يَرَهُ ﴾ [الزلزلة: ٧] والآيات في هذا كثيرة ، تدل على أن الخيرات ليست صنفًا واحدًا ، أو فردًا واحدًا ، أو جنسًا واحدًا .

ويدل لما قلنا : أن من الناس من تجده يألف الصلاة فتجده كثير الصلوات ، ومنهم من يألف قراءة

---

(١) سبق تخريجه .

(٢) قوله : ﴿ من عمل صالحًا ﴾ أي من تقرب إلى اللَّه بأعمال البر والخير ، قوله : ﴿ فلنفسه ﴾ أي أن هذه الأعمال لن تعود إلا على فاعلها فقط .

القرآن فتجده كثيرًا يقرأ القرآن ، ومنهم من يألف الذكر والتسبيح والتحميد وما أشبه ذلك ، فتجده يفعل ذلك كثيرًا ، ومنهم الكريم الطليق اليد الذي يحب بذل المال فتجده دائمًا يتصدق ، ودائمًا ينفق على أهله ويوسع عليهم في غير إسراف .

ومنهم من يرغب العلم وطلب العلم الذي هو في وقتنا هذا قد يكون أفضل أعمال البدن « لأن الناس في الوقت الحاضر في عصرنا هذا محتاجون إلى العلم الشرعي » لغلبة الجهل وكثرة المتعاملين ، الذين يدَّعُونَ أنهم علماء وليس عندهم من العلم إلا بضاعة مزجاة ، فنحن في حاجة إلى طلبة علم يكون عندهم علم راسخ ثابت مبني على الكتاب والسنة ، من أجل أن يردوا هذه الفوضى التي أصبحت منتشرة في القرى والبلدان ، كل إنسان عنده حديث أو حديثان عن رسول الله ﷺ يتصدى للفتيا ، ويتهاون بها ، وكأنه شيخ الإسلام ابن تيمية ، أو الإمام أحمد محمد بن إدريس الشافعي أو غيرهم من الأئمة ، وهذا ينذر بخطر عظيم إن لم يتدارك الله الأمة بعلماء راسخين ، عندهم علم قوي وحجة قوية .

ولهذا نرى أن طلب العلم اليوم أفضل الأعمال المتعدية للخلق ، أفضل من الصدقة ، وأفضل من الجهاد ، بل هو جهاد في الحقيقة ، لأن الله ﷻ جعله عديلًا للجهاد في سبيل الله ، وليس الجهاد الذي يشوبه ما يشوبه من الشبهات ، ويشك الناس في صدق نية المجاهدين ، لا الجهاد الحقيقي الذي تعلم علم اليقين أن المجاهدين يجاهدون لتكون كلمة الله هي العليا ، فتجدهم مثلًا يطبقون هذا المبدأ في أنفسهم قبل أن يجاهدوا غيرهم ، فالجهاد الحقيقي في سبيل الله الذي يقاتل فيه المقاتلون لتكون كلمة الله هي العليا يعادله طلب العلم الشرعي ، ودليل ذلك قول الله تعالى : ﴿ وَمَا كَانَ الْمُؤْمِنُونَ لِيَنفِرُوا كَافَّةً ﴾ يعني ما كان ليذهبوا إلى الجهاد جميعًا ﴿ فَلَوْلَا نَفَرَ مِن كُلِّ فِرْقَةٍ مِّنْهُمْ طَائِفَةٌ ﴾ يعني وقعدت طائفة ، وإنما قعدوا ﴿ لِّيَتَفَقَّهُوا فِي الدِّينِ وَلِيُنذِرُوا قَوْمَهُمْ إِذَا رَجَعُوا إِلَيْهِمْ لَعَلَّهُمْ يَحْذَرُونَ ﴾ [التوبة : ١٢٢] فجعل الله طلب العلم معادلًا للجهاد في سبيل الله ، الجهاد الحق الذي يعلم بقرائن الأحوال وحال المجاهدين أنهم يريدون أن تكون كلمة الله هي العليا .

فالمهم : أن طرق الخير كثيرة ، وأفضلها فيما أرى بعد الفرائض التي فرضها الله هو طلب العلم الشرعي ؛ لأننا اليوم في ضرورة إليه ، لقد سمعنا وجاءنا استفتاء عن شخص يقول : من صلى في مساجد البلد الفلاني فإنها لا تصح صلاته ؛ لأن الذين تبرعوا لهذه المساجد فيهم كذا وكذا ، ومن صلى على حسب الأذان فإنه لا تصح صلاته ؛ لأنه مبني على توقيت وليس على رؤية الشمس ، والرسول ﷺ يقول : « وقت الظهر إذا زالت الشمس وكان ظل الرجل كطوله ما لم يحضر العصر » (١) ، أما الآن الأوقات مكتوبة في أوراق والناس يمشون عليها ، هؤلاء كلهم لا تصح صلاتهم ، يعني كل المسلمين على زعمه لا تصح صلاتهم ، ومثل هذه البلبلة .

والمشكلة : أن مثل هذا يقال إنه رجل عنده شيء من العلم ، لكن علم الأوراق الذي يعطى الإنسان فيه

---

(١) أخرجه مسلم في المساجد (١٧٣) ، والبيهقي في السنن (١/٣٦٥) .

بطاقة تشهد بأنه متخرج من كذا وكذا ، فالحاصل أنه لا بد للأمة الإسلامية من علماء راسخون في العلم ، أما أن تبقى الأمور هكذا فوضى ؛ فإنهم على خطر عظيم ، ولا يستقيم للناس دين ، ولا تطمئن قلوبهم ، ويصير كل واحد تحت شجرة يفتي ، وكل واحد تحت سقف يفتي ، وكل واحد على قمة جبل يفتي ، وهذا ليس بصحيح ، لا بد من علماء عندهم علم راسخ ثابت ، مبني على الكتاب والسنة وعلى العقل والحكمة .

* * *

وأما الأحاديث فكثيرة جدًا ، وهي غير منحصرة ، فنذكر طرفًا منها :

١١٧ - الأوَّل : عن أبي ذرٍ جُنْدبِ بنِ جُنادَة ﷺ قال : قلت : يا رسول اللَّه ، أَيُّ الأَعْمَالِ أَفْضَلُ ؟ قال : « الإيمانُ باللَّهِ ، وَالجهَادُ في سَبِيلِهِ » . قُلْتُ : أَيُّ الرِّقَابِ أَفْضَلُ ؟ قال : « أَنْفَسُهَا عِنْدَ أَهْلِهَا ، وَأَكْثَرُهَا ثَمَنًا » . قُلْتُ : فَإِنْ لَمْ أَفْعَلْ ؟ قال : « تُعِينُ صَانِعًا ، أَو تَصْنَعُ لأَخْرَقَ » . قُلْتُ : يا رَسول اللَّهِ ، أَرَأَيتَ إِنْ ضَعُفْتُ عَنْ بَعْضِ العَمَلِ ؟ قال : « تَكُفُّ شَرَّكَ عَنِ النَّاسِ ؛ فَإنها صَدَقَةٌ مِنْكَ عَلى نَفْسِكَ » (١) . متفقٌ عليه .

« الصَّانِعُ » بالصَّاد المهملة هذَا هو المشهور ، وَرُويَ « ضَائعًا » بالمعجمة : أَي ذَا ضَيَاعٍ مِنْ فَقْرٍ أَو عِيَالٍ ، ونحْو ذلكَ « وَالأَخْرَقُ » : الَّذي لا يُتقن مَا يُحَاولُ فِعْلَهُ .

الشرح

قال المؤلف - رحمه اللَّه تعالى - في باب كثرة طرق الخير ، فيما نقله عن أبي ذر ﷺ ، أنه سأل النبي ﷺ أي العمل أفضل ؟ قال : « الإيمان باللَّه ، والجهاد في سبيله » ، والصحابة ﷺ يسألون النبي ﷺ عن أفضل الأعمال من أجل أن يقوموا بها ، وليسوا كمن بعدهم ، فإن من بعدهم ربما يسألون عن أفضل الأعمال ولكن لا يعملون ، أما الصحابة فإنهم يعملون ، فهذا ابن مسعود ﷺ سأل النبي ﷺ : أي العمل أحب إلى اللَّه ؟ قال : « الصلاة على وقتها » . قلت : ثم أي ؟ قال : « بر الوالدين » قلت : ثم أي ؟ قال : « الجهاد في سبيل اللَّه » . وهذا أيضًا أبو ذر يسأل النبي ﷺ عن أفضل الأعمال فبين له النبي ﷺ أن أفضل الأعمال « إيمان باللَّه ، وجهاد في سبيله » ثم سأله عن الرقاب : أيُّ الرقاب أفضل ؟ والمراد بالرقاب المماليك ، يعني ما هو الأفضل في إعتاق الرقاب ؟ فقال : « أنفسها عند أهلها وأكثرها ثمنًا » وأنفسها عند أهلها : يعني أحبها عند أهلها ، وأكثرها ثمنًا : أي أغلاها ثمنًا ، فيجتمع في هذه الرقبة النفاسة وكثرة الثمن ، ومثل هذا لا يبذله إلا إنسان عنده قوة إيمان .

ومثال ذلك : إذا كان عند رجل عبيد ومنهم واحد يحبه ؛ لأنه قائم بأعماله ، ولأنه خفيف النفس ، ونافع لسيده ، وهو كذلك أيضًا أغلى العبيد عنده ثمنًا ، فإذا سأل أيما أفضل أعتق هذا أو ما بعده أو ما دونه ؟ قلنا : أن تعتق هذا ، لأن هذا أنفس الرقاب عندك ، وأغلاها ثمنًا ، وقد قال النبي ﷺ في الرقاب : أغلاها ثمنًا وأنفسها عند أهلها ، وهذا كقوله تعالى : ﴿ لَن تَنَالُوا۟ ٱلْبِرَّ حَتَّىٰ تُنفِقُوا۟ مِمَّا تُحِبُّونَ ﴾ [آل عمران : ٩٢] .

(١) أخرجه البخاري في العتق (٢٥١٨) ، ومسلم في الإيمان (١٣٦) ، وأحمد في مسنده (٢/ ٣٣٠ ، ٣٨٨ ، ٥٣١) .

وكان ابن عمر رضي الله عنهما إذا أعجبه شيء من ماله تصدق به ، اتباعًا لهذه الآية .

وجاء أبو طلحة رضي الله عنه حين نزلت هذه الآية ﴿ لَن تَنَالُواْ ٱلْبِرَّ حَتَّىٰ تُنفِقُواْ مِمَّا تُحِبُّونَ ﴾ جاء إلى النبي صلى الله عليه وسلم فقال : إن الله أنزل قوله : ﴿ لَن تَنَالُواْ ٱلْبِرَّ حَتَّىٰ تُنفِقُواْ مِمَّا تُحِبُّونَ ﴾ وإن أحب مالي إليَّ بيرحاء ، - وبيرحاء بستان نظيف قريب من مسجد النبي صلى الله عليه وسلم - كان النبي صلى الله عليه وسلم يأتي إليه ويشرب من ماء فيه طيب عذب ، وهذا يكون غاليًا عند صاحبه فقال أبو طلحة : وإن أحب مالي إليَّ بيرحاء ، وإني أجعلها صدقة لله ورسوله ، فضعها يا رسول الله حيث شئت ، فقال النبي صلى الله عليه وسلم : « بخ . بخ » . يعني يتعجب ويقول « مال رابح ، مال رابح » ثم قال : « أرى أن تجعلها في الأقربين » فقسمها أبو طلحة في قرابته [1] ، والشاهد أن الصحابة يتبادرون الخيرات .

ثم سأله أبو ذر إن لم يجد ، يعني رقبة بهذا المعنى ؛ أنفسها عند أهلها وأغلاها ثمنًا ، قال : « تعين صانعًا ، أو تصنع لأخرق » يعني تصنع لإنسان معروفًا أو تعين أخرق ، ما يعرف ، فتساعده وتعينه ، فهذا أيضًا صدقة ومن الأعمال الصالحة .

قال فإن لم أفعل قال : « تكف شرك عن الناس فإنها صدقة منك على نفسك » وهذا أدنى ما يكون أن يكف الإنسان شره عن غيره ، فيسلم الناس منه .

* * *

١١٨ - الثاني : عن أبي ذرٍّ أَيضًا رضي الله عنه أَنَّ رَسُولَ اللَّه صلى الله عليه وسلم قال : « يُصْبِحُ عَلَى كُلِّ سُلَامَى مِنْ أَحَدِكُمْ صَدَقَةٌ ، فَكُلُّ تَسْبِيحَةٍ صَدَقَةٌ ، وَكُلُّ تَحْمِيدَةٍ صَدَقَةٌ ، وَكُلُّ تَهْلِيلَةٍ صَدَقَةٌ ، وَكُلُّ تَكْبِيرَةٍ صَدَقَةٌ ، وَأَمْرٌ بالمَعْرُوفِ صَدَقَةٌ ، وَنَهْيٌ عَنِ المُنْكَرِ صَدَقَةٌ ، وَيُجْزِئُ مِنْ ذلِكَ رَكْعَتَانِ يَرْكَعُهُما مِنَ الضُّحَى » [2] رواه مسلم .

« السُّلامَى » بضم السين المهملة وتخفيف اللام وفتح الميم : المَفْصِلُ .

الشرح

قال المؤلف رحمه الله فيما نقله عن أبي ذر رضي الله عنه ، أن النبي صلى الله عليه وسلم قال : « يصبح على كل سلامى من أحدكم صدقة » السُّلامى : هي العظام ، أو مفاصل العظام ، يعني أنه يصبح كل يوم على كل واحد من الناس صدقة في كل عضو من أعضائه ، في كل مفصل من مفاصله ، قالوا : والبدن فيه ثلاثمائة وستون مفصلًا ما بين صغير وكبير ، فيصبح على كل إنسان كل يوم ثلاثمائة وستون صدقة .

ولكن هذه الصدقات ليست صدقات مالية ، بل هي عامة ، كل أبواب الخير صدقة ، كل تهليلة صدقة ، وكل تكبيرة صدقة ، وكل تسبيحة صدقة ، وكل تحميدة صدقة ، وأمر بالمعروف صدقة ، ونهي عن المنكر صدقة ، كل شيء يقرب إلى الله عز وجل من قول أو فعل فإنه صدقة ، حتى إن النبي

(١) أخرجه البخاري في الزكاة (١٤٦١) ، ومسلم في الزكاة (٤٢) ، وأحمد في مسنده (١٤١/٣) .

(٢) أخرجه مسلم في صلاة المسافرين (٨٤) ، وأبو داود في الصلاة (١٢٨٦) ، والبيهقي في السنن (٤٧/٣) .

ﷺ قال : « إنك إذا أعنت الرجل في دابته وحملته عليها ، أو رفعت له عليها متاعه فهو صدقة »[١] . كل شيء صدقة ، قراءة القرآن صدقة ، طلب العلم صدقة ، وحينئذ تكثر الصدقات ، ويمكن أن يأتي الإنسان بما عليه من الصدقات وهي ثلاثمائة وستون صدقة .

ثم قال : « ويجزئ من ذلك » يعني عن ذلك « ركعتان يركعهما من الضحى » يعني أنك إذا صليت من الضحى ركعتين أجزأت عن كل الصدقات التي عليك ، وهذا من تيسير اللَّه ﷻ على العباد .

وفي هذا الحديث : دليل على أن الصدقة تطلق على ما ليس بمال .

وفيه أيضًا : دليل على أن ركعتي الضحى سنة ، سنة كل يوم ؛ لأنه إذا كان كل يوم عليك صدقة على كل عضو من أعضائك ، وكانت الركعتان تجزئ ، فهذا يقتضي أن صلاة الضحى سنة كل يوم ، من أجل أن تقضي الصدقات التي عليك .

قال أهل العلم : وسنة الضحى يبتدئ وقتها من ارتفاع الشمس قدر رمح ، يعني حوالي ربع إلى ثلث ساعة بعد الطلوع ، إلى قبيل الزوال ، أي إلى قبل الزوال بعشر دقائق[٢] ، كل هذا وقت لصلاة الضحى ، في أي وقت فيه تصلي ركعتي الضحى ، فإنه يجزئ ، لكن الأفضل أن تكون في آخر الوقت ، لقول النبي ﷺ : « صلاة الأوابين حين ترمض الفصال »[٣] ، يعني حين تقوم الفصال من الرمضاء لشدة حرارتها ، ولهذا قال العلماء : إن تأخير ركعتي الضحى إلى آخر الوقت أفضل من تقديمها ، كما كان النبي ﷺ يستحب أن تؤخر صلاة الضحى إلى آخر الوقت إلا مع المشقة[٤] .

فالحاصل : أن الإنسان قد فتح اللَّه له أبواب طرق الخير كثيرة ، وكل شيء يفعله الإنسان من هذه الطرق ، فإن الحسنة بعشرة أمثالها إلى سبعمائة ضعف إلى أضعاف كثيرة .

* * *

١١٩ - الثَّالثُ عَنْهُ قال : قال النبي ﷺ : « عُرِضَتْ عَلَيَّ أَعْمَالُ أُمَّتي ، حَسَنُهَا وَسَيِّئُهَا ، فَوَجَدْتُ في مَحَاسِنِ أَعْمَالِهَا : الأذَى يُمَاطُ عَنِ الطَّرِيقِ ، وَوَجَدْتُ في مَسَاوِئ أَعْمَالِهَا ، النُّخَاعَةُ تَكُونُ في المَسْجِدِ لَا تُدْفَنُ »[٥] رواه مسلم .

الشرح

قال المؤلف رحمه الله فيما نقله عن أبي ذر رضي الله عنه ، أن النبي ﷺ قال : « عرضت على أعمال أمتي -حسنها وسيئها » « عرضت عليَّ » يعني : بلِّغت عنها ، وبينت لي ، والذي بينها له هو اللَّه ﷻ ؛ لأن اللَّه ﷻ

---

(١) انظر في ذلك ما أخرجه البخاري في الجهاد (٢٩٨٩) .
(٢) انظر المغني (٢/١٣١-٢) ، وبدائع الصنائع (١/٢٩٤) ، والمجموع (٤/٣٥ ، ٣٦) .
(٣) أخرجه مسلم في صلاة المسافرين (١٤٣) ، وأحمد في مسنده (٤/٣٦٦) ، والبيهقي في السنن (٣/٤٩) .
(٤) راجع ذلك في المغني (٢/١٣٢) ، والمجموع (٤/٣٥ ، ٣٦) .
(٥) أخرجه مسلم في المساجد (٥٧) ، وأحمد في مسنده (٥/١٨٠) ، والبيهقي في السنن (٢/٢٩١) .

هو الذي يحلل ويحرم ويوجب ، فعرض اللّٰه ﷻ على نبينا محمد ﷺ المحاسن والمساوئ من أعمال الأمة ، فوجد من محاسنها : الأذى يماط عن الطريق ، ويماط : يعني يزال ، والأذى : ما يؤذي المارة ؛ من شوك ، وأعواد ، وأحجار ، وزجاج ، وأرواث ، وغير ذلك . كل ما يؤذي فإماطته من محاسن الأعمال .

وقد بين النبي - عليه الصلاة والسلام - أن إماطة الأذى عن الطريق صدقة ، فهو من محاسن الأعمال ، وفيه ثواب الصدقة ، وبين النبي ﷺ : « أن الإيمان بضع وسبعون شعبة ، أعلاها قول لا إله إلا اللّٰه ، وأدناها إماطة الأذى عن الطريق ، والحياء شعبة من الإيمان » [1] . فإذا وجدتَ في الطريق أذى فأمطته فإن هذا من محاسن أعمالك ، وهو صدقة لك ، وهو من خصال الإيمان ، وشعب الإيمان .

وإذا كان هذا من المحاسن ومن الصدقات ، فإن وضع الأذى في طريق المسلمين من مساوئ الأعمال ، فهؤلاء الناس الذين يلقون القشور؛ قشور البطيخ أو البرتقال أو الموز أو غيرها في الأسواق في ممرات الناس ، لا شك أنهم إذا آذوا المسلمين فإنهم مأزورون ، قال اللّٰه تعالى : ﴿ وَالَّذِينَ يُؤْذُونَ الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ بِغَيْرِ مَا اكْتَسَبُوا فَقَدِ احْتَمَلُوا بُهْتَانًا وَإِثْمًا مُّبِينًا ﴾ [الأحزاب : ٥٨] قال العلماء : ولو زلق به حيوان ، أو إنسان فانكسر ، فعلى من وضعه ضمانه ، يضمنه بالدية أو بما دون الدية إذا كان لا يحتمل الدية ، المهم أن هذا من أذية المسلمين [2] .

ومن ذلك أيضًا : ما يفعله بعض الناس من إراقة المياه في الأسواق فتؤذي الناس ، وربما تمر السيارات من عندها ، فتفسد على الإنسان ثيابه ، وربما يكون فيها فساد لا شك للأسفلت ، لأن الأسفلت كلما أتى عليه الماء وتكرر فإنه يذوب ويفسد .

فالمهم أننا مع الأسف الشديد ونحن أمة مسلمة لا نبالي بهذه الأمور وكأنها لا شيء ، يلقي الإنسان الأذى في الأسواق ولا يهتم بذلك ، يكسر الزجاجات في الأسواق ولا يهتم بذلك ، الأعواد يلقيها لا يهتم بذلك ، حجر يضعه لا يهتم بذلك ، إذن يستحب لنا كلما رأينا ما يؤذي أن نزيله عن الطريق ؛ لأن ذلك صدقة ، ومن محاسن الأعمال .

ثم قال : « ووجدت في مساوئ أعمالها النخاعة تكون في المسجد لا تدفن » النخاعة يعني : النخامة ، وسميت بذلك ؛ لأنها تخرج من النخاع ، النخامة تكون في المسجد لا تدفن ، لأن المسجد في عهد الرسول ﷺ مفروش بالحصى الصغار ، فالنخامة تدفن في التراب ، أما عندنا الآن فليس هناك تراب ، ولكن إذا وجدت فإنها تحك بالمنديل حتى تذهب ، واعلم أن النخامة في المسجد حرام ، فمن تنخم في المسجد فقد أثم ، لقول النبي ﷺ : « البزاق في المسجد خطيئة » [3] فأثبت النبي ﷺ أنها

---

(١) وذلك في الحديث الذي أخرجه البخاري في الإيمان (٩) ، ومسلم في الإيمان (٥٨) ، والترمذي في السنن (٢٦١٤) ، وأحمد في مسنده (٢/٤١٤) .

(٢) انظر ذلك في تفسير القرطبي (١٤/٢٢٠) ، والمغني مع الشرح الكبير (٩/٥٨٢) .

(٣) أخرجه البخاري في الصلاة (٤١٥) ، ومسلم في المساجد (٥٥) ، والترمذي في الصلاة (٥٧٢) ، وأحمد في مسنده (٢/٢٣٢) .

خطيئة وكفارتها دفنها ، يعني إذا فعلها الإنسان وأراد أن يتوب فليدفنها ، لكن في عهدنا فليحكها بمنديل أو نحوه حتى تزول .

وإذا كان هذا في النخاعة فما بالك بما هو أعظم منها ، مثل ما كان فيما مضى ، حيث يدخل الإنسان المسجد بحذائه ولم يقلبها ويفتش فيها ، ويكون فيها الروث الذي ينزل إلى المسجد فيتلوث به ؟ فأنت اعتبر بالنخامة ما هو مثلها في أذية المسجد ، أو أعظم منها .

ومن ذلك أيضًا : أن بعض الناس تكون معه المناديل الخفيفة ، ثم يتنخع فيها ويرمي بها في أرض المسجد ، هذا أذى ، ولا شك أن النفوس تتقزز إذا رأت مثل ذلك ، فكيف إذا كان ذلك في بيت من بيوت اللَّه ، فإذا تنخعت في المنديل فضعه في جيبك حتى تخرج فترمي به فيما أعد لذلك ، على ألا تؤذي به أحدًا .

* * *

١٢٠ - الرابع عنه : أنَّ ناسًا قالوا : يا رسُول اللَّه ، ذَهَبَ أَهْلُ الدُّثُورِ بالأُجُور ؛ يُصَلُّونَ كَمَا نُصَلِّي ، وَيَصُومُونَ كَمَا نَصُومُ ، وَيَتَصَدَّقُونَ بِفُضُول أَمْوَالِهِمْ ، قال : « أَوَ لَيسَ قَدْ جَعَلَ اللَّهُ لَكُمْ مَا تَصَّدَّقُونَ بِهِ : إنَّ بِكُلِّ تَسْبِيحَةٍ صَدَقَةً ، وَكُلِّ تَكْبِيرَةٍ صدقةً ، وكلِّ تَحْمِيدَة صدقةً ، وكلِّ تَهْلِيلَةٍ صدقةً ، وَأَمْرٌ بالمعْرُوفِ صدقةٌ ، ونَهْيٌ عَنِ المُنْكَرِ صدقةٌ ، وفي بُضْعِ أَحَدِكُمْ صدقةٌ » قالوا : يا رسُولَ اللَّهِ أَيَأتي أَحَدُنَا شَهْوَتَهُ ، وَيَكُونُ لهُ فيها أَجْرٌ ؟! قال : « أَرَأَيتُمْ لَو وَضَعَهَا في حَرَامٍ أَكَانَ عَلَيهِ فيها وِزْرٌ ؟ فكذلكَ إذا وضَعَهَا في الحَلالِ كانَ لَهُ أَجْرٌ » [(١)] . رواه مسلم .

« الدُّثُورَ » بالثاء المثلثة : الأموالُ ، واحدُها : دَثْرٌ .

١٢١ - الخامس : عنه قال : قال لي النبيُّ ﷺ : « لَا تَحْقِرَنَّ مِنَ المَعْرُوفِ شَيئًا وَلَو أَنْ تَلْقَى أَخَاكَ بِوَجْهٍ طَلِيقٍ » [(٢)] . رواه مسلم .

١٢٢ - السادس : عن أبي هريرة رضي الله عنه قال : قال رسُولُ اللَّهِ ﷺ : « كُلُّ سُلامَى مِنَ النَّاسِ عَلَيهِ صَدَقَةٌ كُلَّ يَومٍ تَطْلُعُ فيه الشَّمْسُ : تَعْدِلُ بَينَ الاثْنَينِ صَدَقَةٌ ، وَتُعِينُ الرَّجُلَ في دَابَّتِهِ فَتَحْمِلُهُ عَلَيهَا أَو تَرْفَعُ لَهُ عَلَيهَا مَتَاعَهُ صدقةٌ ، والكلمَة الطَّيِّبَة صَدَقَةٌ ، وَبِكُلِّ خَطْوَةٍ تَمْشِيها إلى الصَّلاةِ صَدَقَةٌ ، وتُمِيطُ الأذَى عَنِ الطَّرِيقِ صَدَقَةٌ » متفقٌ عليه .

ورواه مسلم أيضًا من رواية عائشة رضي الله عنها قالت : قال رسُول اللَّه ﷺ : « إنَّهُ خُلِقَ كُلُّ إنْسَانٍ مِنْ بَني آدَمَ عَلَى سِتِّينَ وثلاثمائَةِ مَفْصِلٍ ، فَمَنْ كَبَّرَ اللَّهَ ، وَحَمدَ اللَّه ، وَهَلَّلَ اللَّهَ ، وَسَبَّحَ اللَّهَ ، واسْتَغْفَرَ

---

(١) أخرجه مسلم في الزكاة (٥٣) ، وأحمد في مسنده (١٦٧/٥) ، قوله « بضع » أي خرج أو جماع .

(٢) أخرجه مسلم في البر والصلة (١٤٤) ، قوله : « لا تحقرن » أي لا تستقل ، قوله « بوجه طليق » وفي رواية « طلق » بإسكان اللام وكسرها : أي بوجه ضاحك مستبشر سهل منبسط ، والحديث لم يقم الشارح رحمه الله بشرحه .

اللَّهَ ، وَعَزَلَ حَجَرًا عَنْ طَرِيقِ النَّاسِ ، أو شوكة أو عظمًا عن طريق الناس ، أو أَمَرَ بِمَعْرُوفٍ أو نهى عَنْ مُنْكَرٍ ، عَدَدَ السِّتِّينَ وَالثَّلاثمائَةِ ، فَإِنَّهُ يُمْسِي يَوْمَئِذٍ وَقَدْ زَحْزَحَ نَفْسَهُ عَنِ النَّارِ »[1] .

الشرح

قال المؤلف - رحمه اللّه تعالى - فيما نقله عن أبي ذر ﷺ ، أن ناسًا قالوا : « يا رسول اللّه ذهب أهل الدثور بالأجور » يعني استأثروا بالأجور وأخذوها عنا ، وأهل الدثور يعني : أهل الأموال « يصلون كما نصلي ، ويصومون كما نصوم ، ويتصدقون بفضول أموالهم » يعني فنحن وهم سواء في الصلاة وفي الصيام ، ولكنهم يفضلوننا بالتصدق بفضول أموالهم ، أي بما أعطاهم اللّه تعالى من فضل المال ، يعني ولا نتصدق .

وهذا كما جاء في الحديث الآخر عن فقراء المهاجرين ، قالوا : « ويعتقون ولا نعتق »[2] فانظروا إلى الهمم العالية من الصحابة ﷺ ؛ يغبطون إخوانهم بما أنعم اللّه عليهم من الأموال التي يتصدقون بها ويعتقون منها ، ليسوا يقولون عندهم فضول أموال ، يركبون بها المراكب الفخمة ، ويسكنون القصور المشيدة ، ويلبثون الثياب الجميلة ، وذلك لأنهم قوم يريدون ما هو خير وأبقى وهو الآخرة ، قال اللّه ﷻ ﴿ بَلْ تُؤْثِرُونَ الْحَيَوٰةَ الدُّنْيَا ۝ وَالْآخِرَةُ خَيْرٌ وَأَبْقَىٰ ﴾ [الأعلى : ١٦- ١٧] وقال اللّه تعالى لنبيه ﷺ : ﴿ وَلَلْآخِرَةُ خَيْرٌ لَكَ مِنَ الْأُولَىٰ ﴾ [الضحى : ٤] . فهم اشتكوا إلى الرسول - عليه الصلاة والسلام - شكوى غبطة ، لا شكوى حسد ، ولا اعتراض على اللّه ﷻ ، ولكن يطلبون فضلًا يتميزون به عمن أغناهم اللّه فتصدقوا بفضول أموالهم .

فقال النبي ﷺ : « أو ليس قد جعل اللّه لكم ما تصدقون به ؟ » يعني إذا فاتتكم الصدقة بالمال فهناك الصدقة بالأعمال الصالحة « إن بكل تسبيحة صدقة وكل تكبيرة صدقة ، وكل تحميدة صدقة ، وكل تهليلة صدقة ، وأمر بالمعروف صدقة ، ونهي عن المنكر صدقة » وقد سبق الكلام على الأربع الأولى فيما سبق .

أما قوله ﷺ : « أمرٌ بالمعروف صدقة ، ونهي عن المنكر صدقة » فإن الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر من أفضل الصدقات ؛ لأن هذا هو الذي فضل اللّه به هذه الأمة على غيرها ، فقال تعالى : ﴿ كُنتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ تَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَتَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنكَرِ وَتُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ ﴾ [آل عمران : ١١٠] ولكن لا بد للأمر بالمعروف والنهي عن المنكر من شروط :

الشرط الأول : أن يكون الآمر الناهي عَالِمًا بحكم الشرع ، فإن كان جاهلًا ؛ فإنه لا يجوز أن يتكلم ، لأن الآمر بالمعروف والناهي عن المنكر يأمر بما يعتقد الناس أنه شرع اللّه ، وليس له أن يتكلم في شرع اللّه إلا بما يعلم ؛ لأن اللّه حرم ذلك بنصّ القرآن فقال تعالى : ﴿ قُلْ إِنَّمَا حَرَّمَ رَبِّيَ الْفَوَاحِشَ مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَمَا بَطَنَ وَالْإِثْمَ وَالْبَغْيَ بِغَيْرِ الْحَقِّ وَأَن تُشْرِكُوا بِاللَّهِ مَا لَمْ يُنَزِّلْ بِهِ سُلْطَانًا وَأَن تَقُولُوا عَلَى اللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ ﴾ [الأعراف : ٣٣] فمن منكرات الأمور : أن يتكلم الإنسان عن الشيء يقول : إنه معروف وهو لا يدري

---

(١) أخرجه البخاري في الصلح (٢٧٠٧) ومسلم في الزكاة (٥٦) ، وقوله « تعين الرجل » أي تساعده على الركوب ، والحديث لم يقم الشارح ﷺ بشرحه .

(٢) أخرجه مسلم في المساجد (١٤٢) .

أنه معروف ، أو يقول : إنه منكر وهو لا يدري أنه منكر .

الشرط الثاني : أن يكون عالمًا بأن المخاطب قد ترك المأمور أو فعل المحظور ، فإن كان لا يدري ، فإنه لا يجوز له أن يفعل ؛ لأنه حينئذ يكون قد قفا ما ليس له به علم ، وقد قال اللَّه تعالى : ﴿ وَلَا تَقْفُ مَا لَيْسَ لَكَ بِهِۦ عِلْمٌ ۚ إِنَّ ٱلسَّمْعَ وَٱلْبَصَرَ وَٱلْفُؤَادَ كُلُّ أُوْلَـٰٓئِكَ كَانَ عَنْهُ مَسْـُٔولًا ﴾ [الإسراء : ٣٦] .

بعض الناس الذين عندهم غيرة وحرص على الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر ، يتسرع فينكر من غير أن يعلم الحال التي عليها المخاطب . مثلًا يجد إنسانًا معه امرأة في السوق ، فيتكلم في ذلك مع الرجل . لماذا تمشي مع المرأة ؟ وهو لا يدري أنه محرم لها . هذا خطأ عظيم ، إذا كنت في شك ، فاسأله قبل أن تتكلم . أما إذا لم يكن هناك قرائن توجب الشكَّ في هذا الرجل ؛ فلا تتكلم . ما أكثر الناس الذين يصطحبون نساءهم في الأسواق . وانظر إلى حال النبي – عليه الصلاة والسلام – كيف يعامل الناس في هذه المسألة .

دخل رجل يوم الجمعة والنبي ﷺ يخطب ، فجلس فقال له النبي ﷺ « أصليت ؟ » قال : لا . قال : « قم فصل ركعتين وتجوز فيهما » [1] ما قال له : لماذا تقعد ؟ لأن الإنسان إذا دخل المسجد يُنهى أن يجلس قبل أن يصلي ركعتين ، ففي أي وقت تدخل المسجد ، في الصباح ، في المساء ، بعد العصر ، بعد المغرب ، بعد الفجر ، لا تجلس حتى تصلي ركعتين ، فهذا الرجل جاء وجلس ، لكن هناك احتمال أنه صلى قبل أن يجلس ، والنبي ﷺ لم يره ، ولهذا قال له : « أصليت ؟ » قال : لا ، قال : « قم فصل ركعتين وتجوز فيهما » يعني خفف . فهنا لم يأمره أن يقوم فيصلي حتى سأله ، وهذه هي الحكمة .

الشرط الثالث : أن لا يترتب عن النهي عن المنكر ما هو أنكر منه ، فإن ترتب على ذلك ما هو أنكر منه ؛ فإنه لا يجوز من باب درء أعلى المفسدتين بأدناهما . فلو فرض أن شخصًا وجدناه على منكر كأن يشرب الدخان مثلًا ، ولو نهيناه عن شرب الدخان ذهب يشرب الخمر ، فإننا لا ننهاه إذا كنا نعلم أن هذا الرجل سيقدم على ما هو أعظم فإننا لا ننهاه عن شرب الدخان عندئذ . لماذا ؟ لأن شرب الدخان أهون من شرب الخمر ، ودليل هذه المسألة قول اللَّه تعالى : ﴿ وَلَا تَسُبُّوا۟ ٱلَّذِينَ يَدْعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ فَيَسُبُّوا۟ ٱللَّهَ عَدْوًۢا بِغَيْرِ عِلْمٍ ﴾ [الأنعام : ١٠٨] فسب آلهة المشركين مصلحة مشروعة ، لكن إذا ترتب عليها سب اللَّه ﷻ ، وهو أهل للثناء والمجد ؛ فإنه يُنهى عنه . ولهذا قال الرسول– عليه الصلاة والسلام – : « لعن اللَّه من لعن والديه » [2] وقال ﷺ : « من الكبائر شتم الرجل والديه » . قالوا : يا رسول اللَّه وهل يشتم الرجل والديه ؟ قال : « نعم ، يسب أبا الرجل فيسبَّ أباه ، ويسبُّ أمه فيسبّ أمه » [3] .

فالحاصل : أنه لا بد أن لا يؤدي الإنكار إلى ما هو أنكر من المنكر ؟ درءًا لأعلى المفسدتين بأدناهما .

ثم إنه يجب على الآمر بالمعروف والناهي عن المنكر أن ينوي بهذا إصلاح الخلق . لا الانتصار عليهم ؛ لأن من الناس من يأمر بالمعروف وينهى عن المنكر لينفذ سلطته وينتصر لنفسه ، وهذا نقص

(١) أخرجه البخاري في الجمعة (٩٣٠) ، ومسلم في الجمعة (٥٤) بنحوه ، وأحمد في مسنده (٣٦٣/٣) .
(٢) أخرجه مسلم في الأضاحي (٤٣ ، ٤٤) ، وأحمد في مسنده (١٠٨/١) .
(٣) أخرجه مسلم في الإيمان (١٤٦) ، وأحمد في مسنده (١٦٤/٢) ، والترمذي في السنن (١٩٠٢) .

كبير . قد يحصل فيه خير من درء المنكر وفعل المعروف ، ولكنه نقص كبير بالنسبة لهذا الشخص ؛ فأنت إذا أمرت بالمعروف ونهيت عن المنكر ، فَانْوِ بقلبك أنك تريد إصلاح الخلق لا أنك تتسلط عليهم وتنتصر عليهم ، حتى تؤجر ويجعل اللَّه في أمرك ونهيك بركة .

ثم قال النبي ﷺ : « وفي بُضْع أحدكم صدقة » يعني أن الرجل إذا أتي امرأته ، فإن في ذلك صدقة - قالوا : يا رسول اللَّه : أيأتي أحدنا شهوته ويكون له فيها أجر ؟ قال : « أرأيتم لو وضعها في الحرام ، أكان عليه فيها وزر ؟ » يعني لو زنى ووضع الشهوة في الحرام ، هل يكون عليه وزر ؟ قالوا : نعم ، قال : « فكذلك إذا وضعها في الحلال كان له أجر » والحمد لله . ومعنى ذلك : أن الرجل إذا استغنى بالحلال عن الحرام ، كان له بهذا الاستغناء أجر .

ومن ذلك أيضًا : إذا أكل الإنسان طعامًا ؛ فإنه ينال شهوته بالأكل والشرب ، ومع ذلك لكونه يستغني به عن الحرام ؛ فإنه يكتب له به أجر . ولهذا قال النبي - عليه الصلاة والسلام - لسعد بن أبي وقاص : « واعلم أنك لن تنفق نفقة تبتغي بها وجه اللَّه إلا أجرت عليها ، حتى ما تجعل في فم امرأتك »[1] مع أن ما يجعله الإنسان في فم امرأته أمر لا بد منه ، إذ أن المرأة تقول : أنفق عليَّ أو طلقني ، وتخصمه في ذلك ، تغلبه إذا لم ينفق مع قدرته على الإنفاق ، فلها الحق في أن تفسخ النكاح . ومع ذلك إذا أنفق عليها يبتغي بذلك وجه اللَّه ، فإن اللَّه تعالى يؤجره على ذلك .

وفي حديث أبي ذر ﷺ تنبيه على ما يسميه الفقهاء قياس العكس : وهو إثبات نقيض حكم الأصل في ضد الأصل لمفارقة العلة ، فهنا العلة في كون الإنسان يؤجر إذا أتى أهله ، هو أنه وضع شهوته في حلال ، نقيض هذه العلة : إذا وضع شهوته في حرام ؛ فإنه يعاقب على ذلك ، وهذا هو ما يسمى عند العلماء بقياس العكس ، لأن القياس أنواع : قياس علة ، وقياس دلالة ، وقياس شبه ، وقياس عكس . والله الموفق .

* * *

١٢٣ - السابع : عنه عن النَّبيِّ ﷺ قال : « مَنْ غَدَا إلى المسْجِدِ أو رَاحَ ، أَعَدَّ اللَّهُ لَهُ في الجَنَّةِ نُزُلًا كُلَّمَا غَدَا أو رَاحَ »[2] متفقٌ عليه . « النُّزُلُ » : القُوتُ والرِّزْقُ وَمَا يُهَيَّأُ للضَّيفِ .

١٢٤ - الثامن : عنه قال : قال رسول اللَّه ﷺ : « يَا نِسَاءَ المُسْلِمَاتِ لَا تَحْقِرَنَّ جَارَةٌ لِجَارَتِهَا وَلَو فِرْسِنَ شَاةٍ »[3] متفقٌ عليه . قال الجوهري : الفِرْسِنُ مِنَ البَعِيرِ : كالحافِرِ مِنَ الدَّابَّةِ ، قال : ورُبَّما

---

(١) أخرجه البخاري في الجنائز (١٢٩٥) .

(٢) أخرجه البخاري في الأذان (٦٦٢) ، ومسلم في المساجد (٢٨٥) .

(٣) أخرجه البخاري في الهبة (٢٥٦٦) ، ومسلم في الزكاة (٩٠) ، وأحمد في مسنده (٢/٢٦٤ ، ٣٠٧ ، ٤٣٢) ، والبيهقي في السنن (٤/١٧٧) ، قوله : « لا تحقرن جارة لجارتها ولو فرسن شاة » النهي هنا للمعطية المهدية ، والمعنى : لا تمتنع جارة من الصدقة والهدية لجارتها ؛ لاستقلالها واحتقارها الموجود عندها ، بل تجود بما تيسر لها مهما كان قليلًا ، فهو خير من العدم .

اسْتُعِيرَ في الشَّاةِ .

١٢٥ - التاسع : عنه عن النبي ﷺ قال : « الإيمانُ بِضْعٌ وَسَبْعُونَ - أو بِضْعٌ وسِتُّونَ - شُعْبَةً ؛ فَأَفْضَلُهَا قَوْلُ لا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ ، وأدْنَاهَا إِمَاطَةُ الأَذَى عَنِ الطَّرِيقِ ، وَالحَيَاءُ شُعْبَةٌ مِنَ الإيمانِ » [(١)] متفقٌ عليه . « البِضْعُ » من ثلاثة إلى تسعةٍ ، بكسر الباء وقد تُفْتَحُ . « وَالشُّعْبَةُ » : القطْعة .

الشرح

هذه الأحاديث الثلاثة التي نقلها المؤلف رحمه الله عن أبي هريرة رضي الله عنه عن النبي ﷺ .

أما الأول : فهو أنه ﷺ قال : « من غدا إلى المسجد أو راح ، أعد الله له في الجنة نزلًا كلما غدا أو راح » غدا : بمعنى ذهب غدوة أي ذهب أول النهار ، وذلك مثل أن يذهب إلى المسجد لصلاة الفجر . راح : الرواح يطلق على بعد الزوال ، مثل الذهاب إلى صلاة الظهر أو العصر ، وقد يطلق الرواح على مجرد الذهاب ، كما في قول النبي - عليه الصلاة والسلام - في حديث أبي هريرة : « من اغتسل يوم الجمعة ثم راح في الساعة الأولى .... إلى آخر الحديث » [(٢)] فإن معنى « راح في الساعة الأولى » : أي ذهب إلى المسجد في الساعة الأولى ، لكن إذا ذُكرت الغدوة مع الرواح ، صارت الغدوة أول النهار والرواح آخر النهار .

وظاهر الحديث أن من غدا إلى المسجد أو راح ، سواء غدا للصلاة ، أو لطلب علم ، أو لغير ذلك من مقاصد الخير ؛ أن الله يكتب له في الجنة نزلًا . والنُّزل : ما يقدَّم للضيف من طعام ونحوه على وجه الإكرام ، أي أن الله تعالى يُعد لهذا الرجل الذي ذهب إلى المسجد صباحًا أو مساءً ، يُعد له في الجنة نُزلًا إكرامًا له .

ففي هذا الحديث إثبات هذا الجزاء العظيم لمن ذهب إلى المسجد أول النهار أو آخره . وفيه بيان فضل الله عز وجل على العبد ، حيث يعطيه على مثل هذه الأعمال اليسيرة هذا الثواب الجزيل .

وأما حديثه الثاني : فهو قول النبي ﷺ : « لا تحقرن جارة لجارتها ولو فرسن شاة » فالرسول - عليه الصلاة والسلام - في هذا الحديث حثٌّ على الهدية للجار ولو شيئًا قليلًا ، قال : « ولو فرسن شاة » الفرسن ما يكون في ظلف الشاة ، وهو شيء بسيط زهيد ، كأن النبي - عليه الصلاة والسلام - يقول : « لا تحقرن من المعروف شيئًا ولو قلَّ » .

وقد جاء عنه - عليه الصلاة والسلام - أنه قال : « إذا طبخت مرقة فأكثر ماءها ، وتعاهد جيرانك » [(٣)] . حتى المرق إذا أعطيته جيرانك هدية ، فإنك تثاب على ذلك . كذلك أيضًا لا تحقرن شيئًا ولو أن تلقى أخاك بوجه طلق ، فإن هذا من المعروف . إذا لم تلق أخاك بوجه عبوس مكفهر بل بوجه منطلق منشرح ، فإن هذا من الخير ومن المعروف ؛ لأن أخاك إذا واجهته بهذه المواجهة يدخل عليه السرور

(١) أخرجه البخاري في الإيمان (٩) ، ومسلم في الإيمان (٥٨) .

(٢) أخرجه البخاري في الأذان (٦٦٢) ، ومسلم في المساجد (٢٨٥) ، وأحمد في المسند (٥٠٩/٢) .

(٣) أخرجه مسلم في البر والصلة (١٤٢) ، والدارمي في السنن (١٠٨/٢) .

ويفرح ، وكل شيء يُدخل السرور على أخيك المسلم فإنه خير وأجر ، وكل شيء تغيظ به الكافر فإنه خير وأجر . قال اللَّه تعالى ﴿ وَلَا يَطَـُٔونَ مَوْطِئًا يَغِيظُ ٱلْكُفَّارَ وَلَا يَنَالُونَ مِنْ عَدُوٍّ نَّيْلًا إِلَّا كُتِبَ لَهُم بِهِۦ عَمَلٌ صَـٰلِحٌ ﴾ [التوبة : ١٢٠] .

أما الحديث الثالث : فهو قول النبي – عليه الصلاة والسلام – : « الإيمان بضع وسبعون – أو بضع وستون شعبة ، فأفضلها قول : لا إله إلا اللَّه ، وأدناها إماطة الأذى عن الطريق ، والحياء شعبة من الإيمان » فهذا الحديث بيَّنَ فيه الرسول – عليه الصلاة والسلام – أن الإيمان ليس خصلة واحدة أو شعبة واحدة ، ولكنه شعب كثيرة ؛ « بضع وسبعون » يعني من ثلاث وسبعين إلى تسع وسبعين ، « أو بضع وستون شعبة » ولكن أفضلها كلمة واحدة : وهي لا إله إلا اللَّه ، هذه الكلمة لو وزنت بها السموات والأرض لرجحت بها ، لأنها كلمة الإخلاص ، وكلمة التوحيد ، الكلمة التي أسأل اللَّه أن يختم لي ولكم بها ، من كانت آخر كلامه من الدنيا دخل الجنة . هذه الكلمة هي أفضل شعب الإيمان ، « وأدناها إماطة الأذى عن الطريق » يعني إزالة الأذى عن الطريق ، وهو كل ما يؤذي المارين ، من حجر ، أو شوك ، أو زجاج ، أو خرق أو غير ذلك ، كل ما يؤذي المارين إذا أزلته فإن ذلك من الإيمان .

« والحياء شعبةٌ من الإيمان » . وفي حديث آخر : « الحياء من الإيمان » (١) . والحياء : حالة نفسية تعتري الإنسان عند فعل ما يُخجل منه ، وهي صفة حميدة كانت خلق النبي – عليه الصلاة والسلام – ، فكان من خلقه – عليه الصلاة والسلام – الحياء ، حتى إنه كان أكثر حياء من العذراء في خِدْرها (٢) عليه الصلاة والسلام ، إلا أنه كان لا يستحي من الحق .

فالحياء صفة محمودة ، لكن الحق لا يُستحى منه ، فإن اللَّه يقول : ﴿ وَٱللَّهُ لَا يَسْتَحْىِۦ مِنَ ٱلْحَقِّ ﴾ [الأحزاب : ٥٣] وقال تعالى : ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَسْتَحْىِۦٓ أَن يَضْرِبَ مَثَلًا مَّا بَعُوضَةً فَمَا فَوْقَهَا ﴾ [البقرة : ٢٦] الحق لا يُستَحيَ منه ، ولكن ما سوى الحق ؛ فإن من الأخلاق الحميدة أن تكون حييًا . ضد ذلك من لا يستحيي ، فلا يبالي بما فعل ، ولا يبالي بما قال . ولهذا جاء في الحديث : « إن مما أدرك الناس من النبوة الأولى : إذا لم تستح فاصنع ما شئت » (٣) .

* * *

١٢٦ – العاشر : عنه أن رسول اللَّه ﷺ قال : « بَينَمَا رَجُلٌ يَمْشي بطَريقٍ اشْتَدَّ عَلَيهِ العَطَشُ ، فَوَجَدَ بئْرًا فَنَزَلَ فيها فَشَربَ ، ثُمَّ خَرَجَ فإذا كَلْبٌ يَلْهَث يَأْكُلُ الثَّرَى مِنَ العَطَش ، فقال الرَّجُل : لَقَدْ بَلَغ هذَا الكَلْبَ مِنَ العَطَش مِثْلُ الَّذي كَانَ قَدْ بَلَغ مِنِّي ، فَنَزَلَ البِئْرَ فَملأَ خُفَّه مَاءً ثُمَّ أَمْسَكه بِفيه ، حَتَّى رَقِيَ فَسَقَى الكَلْبَ ، فَشَكَرَ اللَّهُ لَهُ فَغَفَرَ لَهُ » قالُوا : يا رسول اللَّه إنَّ لَنَا في البَهَائِمِ أجْرًا ؟ فَقَالَ : « في كُلِّ كَبِدٍ رَطْبَةٍ أَجْرٌ » متفقٌ عليه .

---

(١) أخرجه مسلم في الإيمان (٥٩) ، والترمذي في السنن (٢٠٠٩) ، وأحمد في مسنده (٩/٢) .

(٢) ويدل على ذلك ما أخرجه البخاري في المناقب (٣٥٦٢) ، ومسلم في الفضائل (٦٧) ، وأحمد في مسنده (٧١/٣) .

(٣) أخرجه البخاري في الأدب (٦١٢٠) ، وأحمد في مسنده (١٢١/٤) ، والبيهقي في السنن (١٩٢/١٠) .

وفي رواية للبخاري : « فَشَكَرَ اللَّهُ لَهُ فَغَفَرَ لَه ، فَأَدْخَلَه الجَنَّةَ » وفي روايةٍ لَهُمَا : « بَينَما كَلْبٌ يُطيف بِرَكِيَّةٍ قَدْ كَادَ يَقْتُلُه العَطَش إذْ رَأَتْه بَغِيٌّ مِنْ بَغَايَا بَني إسْرَائيلَ ، فَنَزَعَتْ مُوقَهَا فَاسْتَقَتْ لَهُ بِهِ ، فَسَقَتْهُ فَغُفِرَ لَهَا بِهِ » (١) .

« المُوقُ » : الخُفُّ . « وَيُطِيفُ » : يدُورُ حَولَ « رَكِيَّةٍ » وَهِيَ البِئْرُ .

الشرح

ذكر المؤلف - رحمه اللَّه تعالى - في باب كثرة طرق الخيرات هذه القصة الغريبة التي رواها أبو هريرة ﷺ عن النبي ﷺ : أنه بينما رجل يمشي في الطريق مسافرًا ، أصابه العطش ، فنزل بئرًا فشرب منها ، وانتهى عطشه ، فلما خرج وإذا بكلب يأكل الثرى من العطش ، يعني يأكل الطين المبتل الرطب ، يأكله منَ العطش ، من أجل أن يمصَّ ما فيه من الماء من شدة عطشه ، فقال الرجل : واللّه لقد أصاب هذا الكلب من العطش ما أصابني ، أو بلغ بهذا الكلب من العطش ما بلغ بي . ثم نزل البئر وملأ خفه ماءً . الخفُّ : ما يلبس على الرِّجْل من جلود ونحوها ، فملأه ماءً فأمسكه بفيه ، وجعل يصعد بيديه حتى صَعد من البئر ، فسقى الكلب ، فلما سقى الكلب شكر اللّه له ذلك العمل ، وغفر له ، وأدخله الجنة بسببه .

وهذا مصداق قول النبي - عليه الصلاة والسلام - « الجنة أقرب إلى أحدكم من شراك نعله » (٢) عمل يسير شكر اللّه به عامل هذا العمل ، وغفر له الذنوب ، وأدخله الجنة .

ولما حدَّث ﷺ الصحابة بهذا الحديث ، وكانوا ﷺ أشد الناس حرصًا على العلم ، لا من أجل أن يعلموا فقط ، ولكن من أجل أن يعلموا فيعملوا . سألوا النبي - عليه الصلاة والسلام - « قالوا : يا رسول اللّه إن لنا في البهائم أجرًا ؟ قال : في كل ذات كبدٍ رطبة أجر » لأن هذا كلب من البهائم ، فكيف يكون لهذا الرجل الذي سقاه هذا الأجر العظيم ؟ فاستغربوا ذلك ولهذا سألوا النبي ﷺ فقال : « في كل ذات كبدٍ رطبة أجر » الكبد الرطبة تحتاج إلى الماء ؛ لأنه لولا الماء ليبست وهلك الحيوان .

إذًا نأخذ من هذا قاعدة ، وهي أن الرسول - عليه الصلاة والسلام - اذا قصَّ علينا قصة من بني إسرائيل فذلك من أجل أن نعتبر بها وأن نأخذ منها عظة وعبرة ، وهذا كما قال اللّه ﷻ : ﴿ لَقَدْ كَانَ فِي قَصَصِهِمْ عِبْرَةٌ لِّأُوْلِي ٱلْأَلْبَٰبِۗ ﴾ [يوسف : ١١١] .

وفي رواية أخرى ، ولعلها قصة أخرى : أن امرأة بغيًا من بغايا بني إسرائيل ، بغيًا من البغايا : يعني أنها تمارس الزنا - والعياذ باللّه - رأت كلبًا يطوف بركيَّة ، يعني يدور عليها عطشان ، لكن لا يمكن أن يصل إلى الماء . لأن الركية هي بئر ، فنزعت موقها يعني الخفَّ الذي تلبسه واستقت له به من هذا البئر فغفر اللّه لها ، وهذه هي القصة الثانية .

فدل هذا على أن البهائم فيها أجر . كل بهيمة أحسنت لها بسقي ، أو إطعام ، أو وقاية من حر ،

---

(١) أخرجه البخاري في الأدب (٦٠٠٩) ، ومسلم في السلام (١٥٣) ، وأحمد في مسنده (٥١٧/٢) ، والبيهقي في السنن (١٨٥/٤) .

(٢) سبق تخريجه .

أو وقاية من برد ، سواء كانت لك أو لغيرك من بني آدم ، أو كانت من السوائم ، فإن لك في ذلك أجرًا عند الله ﷻ ، هذا وهن بهائم فكيف بالآدميين ؟ اذا أحسنت إلى الآدميين كان أشد وأكثر أجرًا . ولهذا قال النبي - عليه الصلاة والسلام - : « من سقى مسلمًا على ظمأ ؛ سقاه الله من الرحيق المختوم » [١] يعني لو كان ولدك الصغير وقف عند البرادة يقول لك : اسقني ماء وأسقيته وهو ظمآن ، فقد سقيت مسلمًا على ظمأ ، فإن الله يسقيك من الرحيق المختوم . أجر كثير ولله الحمد غنائم ، ولكن أين القابل لهذه الغنائم ؟ أين الذي يخلص النية ويحتسب الأجر على الله ﷻ ؟ فأوصيك يا أخي ونفسي أن تحرص دائمًا على اغتنام الأعمال بالنية الصالحة حتى تدّخر لك عند الله ذخرًا يوم القيامة ، فكم من عمل صغير أصبح بالنية كبيرًا ! وكم من عمل كبير أصبح بالغفلة صغيرًا ! .

* * *

١٢٧ - الحَادِي عَشَرَ : عَنْهُ عن النبي ﷺ قال : « لَقَد رَأَيتُ رَجُلًا يَتَقَلَّبُ فِي الجَنَّةِ فِي شَجَرَةٍ قَطَعَهَا مِنْ ظهر الطَّرِيقِ كَانَت تؤذِي المُسْلِمِينَ » . رواه مسلم .

وفي رواية له : « مَرَّ رَجُلٌ بِغُصْنِ شَجَرَةٍ عَلَى ظَهْرِ طَرِيقٍ فَقَالَ : وَاللَّهِ لأُنَحِّيَنَّ هذَا عَنِ المُسْلِمِين لا يُؤذِيهِمْ ، فَأُدْخِلَ الجَنَّةَ » .

وفي رواية لهُمَا : « بَينَمَا رَجُلٌ يَمْشي بِطَرِيقٍ وَجَدَ غُصْنَ شَوكٍ عَلَى الطَّرِيقِ ، فَأَخَّرَهُ فَشَكَرَ اللَّهُ لَهُ ، فَغَفَرَ لَهُ » [٢] .

الشرح

قال المؤلف - رحمه الله تعالى - فيما نقله عن أبي هريرة ﷺ عن النبي ﷺ أنه قال : « لقد رأيت رجلًا يتقلّب في الجنة في شجرة قطعها من ظهر الطريق ، كانت تؤذي المسلمين » . وفي الرواية الأخرى : أنه دخل الجنة وغفر الله له بسبب غصن أزاله عن طريق المسلمين وسواء كان هذا الغصن من فوق يؤذيهم من عند رءوسهم ، أو من أسفل يؤذيهم من جهة أرجلهم . المهم أنه غصن شوك يؤذي المسلمين ، فأزاله عن الطريق ، أبعده ونحّاه ، فشكر الله له ذلك وأدخله الجنة ، مع أن هذا الغصن إذا آذى المسلمين فإنما يؤذيهم في أبدانهم ، ومع ذلك غفر الله لهذا الرجل وأدخله الجنة .

ففيه دليل على فضيلة إزالة الأذى عن الطريق ، وأنه سبب لدخول الجنة .

وفيه أيضًا دليل على أن الجنة موجودة الآن ؛ لأن النبي ﷺ رأى هذا الرجل يتقلّب فيها ، وهذا أمر دلّ عليه الكتاب والسنة ، وأجمع عليه أهل السنة والجماعة ؛ أن الجنة موجودة الآن ، ولهذا قال الله تعالى : ﴿ وَسَارِعُوٓا۟ إِلَىٰ مَغْفِرَةٍ مِّن رَّبِّكُمْ وَجَنَّةٍ عَرْضُهَا ٱلسَّمَٰوَٰتُ وَٱلْأَرْضُ أُعِدَّتْ لِلْمُتَّقِينَ ﴾ [آل عمران : ١٣٣] ﴿ أُعِدَّتْ ﴾ يعني هيئت . وهذا دليل على أنها موجودة الآن ، كما أن النار أيضًا موجودة الآن ، ولا

(١) أخرجه الترمذي في صفة القيامة (٢٤٤٩) ، وأحمد في مسنده (٣/ ١٣) كلاهما بلفظ « أيما مؤمن سقى مؤمنًا » .
(٢) أخرجه مسلم في البر والصلة (١٢٧ ، ١٢٨ ، ١٢٩) .

تفنيان أبدًا ، خلقهما الله ﷻ للبقاء لا فناء لهما ، ومن دخلهما لا يفنى أيضًا ، فمن كان من أهل الجنة كان خالدًا مخلدًا فيها أبد الآبدين . ومن كان من أهل النار دخلها خالدًا مخلدًا فيها أبد الآبدين .

وفي هذا الحديث : دليل على أن من أزال عن المسلمين الأذى ؛ فله هذا الثواب العظيم في أمر حسي ، فكيف بالأمر المعنوي ؟ هناك بعض الناس - والعياذ بالله - أهل شر وبلاء ، وأفكار خبيثة ، وأخلاق سيئة ، يصدُّون الناس عن دين الله ، فإزالة هؤلاء عن طريق المسلمين أفضل بكثير وأعظم أجرًا عند الله . فإذا أزيل أذى هؤلاء ، إذا كانوا أصحاب أفكار خبيثة سيئة إلحادية ، يُردُّ عليها ، وتُبطل أفكارهم .

فإن لم يُجْدِ ذلك شيئًا قُطعت أعناقهم ؛ لأن الله يقول في كتابه العزيز : ﴿ إِنَّمَا جَزَٰٓؤُاْ ٱلَّذِينَ يُحَارِبُونَ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ وَيَسۡعَوۡنَ فِي ٱلۡأَرۡضِ فَسَادًا أَن يُقَتَّلُوٓاْ أَوۡ يُصَلَّبُوٓاْ أَوۡ تُقَطَّعَ أَيۡدِيهِمۡ وَأَرۡجُلُهُم مِّنۡ خِلَٰفٍ أَوۡ يُنفَوۡاْ مِنَ ٱلۡأَرۡضِۚ ﴾ [المائدة : ٣٣] وَ « أو » هنا يقول بعض العلماء إنها للتنويع [١] ، يعني أنهم يُقتلون ويُصلبون وتُقطع أيديهم وأرجلهم من خلاف وينفوا من الأرض ، حسب جريمتهم .

وقال بعض أهل العلم : بل « أو » هنا للتخيير ، أي أن ولي الأمر مخيَّر : إن شاء قتلهم وصلبهم ، وإن شاء قطع أيديهم وأرجلهم من خلاف ، وإن شاء نفاهم من الأرض ، حسب ما يرى فيه المصلحة ، وهذا القول قول جيد جدًّا - أعني أن تكون « أو » هنا للتخيير [٢] لأنه ربما يكون هذا الإنسان جرمه ظاهر سهل ، ولكنه على المدى البعيد يكون صعبًا ، ويكون مضلًّا للأمة .

والواجب على ولاة الأمور أن يزيلوا الأذى عن طريق المسلمين ، أي أن يزيلوا كلَّ داعية إلى شر ، أو إلى إلحاد ، أو إلى مجون ، أو إلى فسوق ، بحيث يُمنع من نشر ما يريد من أيِّ شيء كان من الشر والفساد ، هذا هو الواجب .

ولكن لا شك أن ولاة الأمور الذين وَلَّاهم الله على المسلمين في بعضهم تقصير ، وفي بعضهم تهاون ، يتهاونوا بالأمر في أوله حتى ينمو ويزداد ، وحينئذ يعجزون عن صده وكَفِّه . فالواجب أن يقابل الشر من أول أمره بقطع دابره ، حتى لا ينتشر ولا يضل الناس به .

المهم : أن إزالة الأذى عن الطريق ؛ الطريق الحسي طريق الأقدام ، والطريق المعنوي طريق القلوب ، والعمل على إزالة الأذى عن هذا الطريق وهذا الطريق كلُّه مما يقرب إلى الله . وإزالة الأذى عن طريق القلوب والعمل الصالح أعظم أجرًا وأشد إلحاحًا من إزالة الأذى عن طريق الأقدام .

* * *

١٢٨ - الثَّاني عَشَرَ : عَنْهُ قَالَ : قَالَ رسول الله ﷺ : « مَنْ تَوَضَّأَ فَأَحْسَنَ الوُضُوءَ ، ثُمَّ أَتَى الجُمُعَةَ ، فَاسْتَمَعَ وَأَنْصَتَ ، غُفِرَ لَهُ مَا بَيْنَهُ وَبَيْنَ الجُمُعَةِ وَزِيَادَةُ ثَلاثَةِ أَيَّامٍ ، وَمَنْ مَسَّ الحَصَا فَقَدْ لَغَا » [٣] رواه مسلم .

---

(١) قال الشافعي : أو في جميع القرآن للتخيير إلا في هذه الآية (انظر : إعراب القرآن ٢/٢٢١) وهو قول أكثر اللغويين .

(٢) وهو قول مالك حيث قال : الإمام مخير في إقامة أي الحدود (انظر : زاد المسير ٢/٣٤٥) .

(٣) أخرجه مسلم في الجمعة (٢٧) ، وأحمد في مسنده (١/١٩ ، ٥٧ ، ٦٦) .

الشرح

نقل المؤلف - رحمه الله تعالى - فيما رواه عن أبي هريرة ﷺ أن النبي ﷺ قال: « مَنْ تَوَضَأَ فَأَحْسَنَ الوُضُوءَ ثُمَّ أَتَى الجُمُعَةَ فَاسْتَمَعَ وأَنْصَتَ؛ غُفِرَ لَهُ مَا بَيْنَهُ وَبَيْنَ الجُمُعَةِ وَزِيَادَةُ ثَلاثَةِ أَيَّامٍ، ومَنْ مَسَّ الحَصَا فَقَدْ لَغَا » في هذا الحديث دليل على أن الحضور إلى الجمعة بعد أن يحسن الإنسان وضوءه، ثم يستمع إلى الخطيب وهو يخطب وينصت؛ فإنه يُغفر له ما بين الجمعة إلى الجمعة وفضل ثلاثة أيام، وهذا عمل يسير ليس فيه مشقة على الإنسان؛ أن يتوضأ ويحضر إلى الجمعة، وينصت لخطبة الإمام حتى يفرغ.

وقوله في هذا الحديث: « من توضأ » لا يعارض ما ثبت في الصحيحين وغيرهما عن أبي سعيد الخدري ﷺ، أن النبي ﷺ قال: « غسل الجمعة واجب على كل محتلم »[1] فإن هذا الحديث الثاني فيه زيادة على الحديث الأول، فيؤخذ بها. كما أنه أيضًا أصح منه. فإنه أخرجه الأئمة السبعة، وهذا لم يخرجه إلا مسلم، فيجب أولًا على من أراد حضور الجمعة، أن يغتسل وجوبًا، فإن لم يفعل كان آثمًا، ولكن الجمعة تصح؛ لأن هذا الغسل ليس عن جنابة حتى نقول إن الجمعة لا تصح، بل هو غسل واجب كغيره من الواجبات، إذا تركه الإنسان أثم، وإن فعله أثيب.

ويدل على أنه ليس شرطًا لصحة الصلاة وأنما هو واجب؛ أن أمير المؤمنين عثمان بن عفان دخل ذات يوم وأمير المؤمنين عمر بن الخطاب يخطب الناس يوم الجمعة فسأله أمير المؤمنين عمر لماذا تأخر؟ فقال: والله يا أمير المؤمنين ما زدت على أن توضأت ثم أتيت، يعني كأنه شُغل ﷺ ولم يتمكن من الحضور مبكرًا. قال: ما زدت على أن توضأت ثم أتيت، فقال عمر وهو على المنبر والناس يسمعون: والوضوء أيضًا، وقد قال النبي ﷺ « إذا أتى أحدكم الجمعة فليغتسل » يعني كيف تقتصر على الوضوء وقد قال النبي ﷺ « إذا أتى أحدكم الجمعة فليغتسل » !؟[2] فأمر من أتى الجمعة بالاغتسال ولكن لم يقل: له اذهب فاغتسل، لأنه لو ذهب واغتسل، فربما تفوته الجمعة التي من أجلها وجب الغسل فيضيع الأصل إلى الفرع.

فالحاصل: أن هذا الحديث الذي ساقه المؤلف وإن كان يدل على عدم وجوب الاغتسال، لكن هناك أحاديث أخرى تدل على وجوب الاغتسال[3].

وفي هذا الحديث دليل على فضيلة الاستماع إلى الخطبة والإنصات. الاستماع: أن يرعاها بسمعه، والإنصات: أن لا يتكلم. هذا هو الفرق بين الاستماع والإنصات. فيستمع الإنسان ويتابع بسمعه كلام الخطيب ولا يتكلم. وقد ثبت عن النبي - عليه الصلاة والسلام - : « أن من يتكلم يوم الجمعة والإمام

---

(١) أخرجه البخاري في الجمعة (٨٩٥)، ومسلم في الجمعة (٧)، وأبو داود في الطهارة (٣٤١).

(٢) أخرجه البخاري في الجمعة (٨٧٨).

(٣) قال أكثر أهل العلم: بأن الغسل يوم الجمعة ليس واجبًا، وهو قول الحنفية والشافعية والحنابلة والمالكية، وقال به الثوري والأوزاعي وابن المنذر، قال ابن عبد البر: أجمع علماء المسلمين قديمًا وحديثًا على أن غسل الجمعة ليس بفرض، وحكي رواية عن أحمد أنه واجب وروي ذلك عن أبي هريرة، وبه قال أهل الظاهر (انظر المغني ٣٥١/٢، المجموع ٥٤٥/٤، المحلى ٧٥/٥، بدائع الصنائع ٢٦٩/١، بداية المجتهد ١٤٢/١).

يخطب كمثل الحمار يحمل أسفارًا »[(١)] . والحمار أبلد الحيوانات ، يحمل أسفارًا يعني : كتبًا . ولكنه لا ينتفع بالكتب إذا حملها ؟ ووجه الشبه بينهما : أن هذا الذي حضر لم ينتفع بالخطبة لأنه تكلم ، وقال ﷺ والذي يقول له : أنصت يعني : يسكته ، فقد لغا ، ومعنى لغا أي : فاته أجر الجمعة ، فالمسألة إذن خطيرة .

ولهذا قال هنا : « ومَن مسَّ الحصا فقد لغا » وقد كان في عهد الرسول ﷺ يفرش المسجد بالحصبة وهي الحصى الصغار مثل العدس ، أو أكبر قليلًا ، أو أقل ، يفرش بها بدل الفرش التي نفرشها الآن ، فكان بعض الناس ربما يعبث بالحصا ، يحركها بيده ، أو يمسحها بيده ، أو ما أشبه ذلك ، فقال ﷺ : « من مسَّ الحصا فقد لغا » ، لأن مسَّ الحصا يلهيه عن الاستماع للخطبة ، ومن لغا فلا جمعة له ، يعني يحرم ثواب الجمعة التي فضلت بها هذه الأمة عن غيرها .

وإذا كان هذا في مس الحصا ، فكذلك أيضًا الذي يعبث بغير مسِّ الحصا ، الذي يعبث بتحريك القلم أو الساعة أو المروحة التي يحركها ويلفها دون حاجة ، أو الذي يعبث بالسواك يريد أن يتسوك والإمام يخطب إلا لحاجة ، كأن يجيئه النوم أو النعاس فأخذ يتسوك ليطرد النعاس عنه ، فهذا لا بأس به ؛ لأن من مصلحته استماع الخطبة . وقد سئلنا عن الرجل يكتب ما يستمعه في الخطبة ، لأن بعض الناس ينسى فيقول : أنا كلما مرت علي جملة مفيدة أكتبها ، هل يجوز أم لا ؟ فالظاهر أنه لا يجوز ؛ لأن هذا إذا اشتغل بالكتابة تلهَّى عما يأتي بعدها ؛ لأن الإنسان ليس له قلبان . فإذا كان يشتغل بالكتابة تلهَّى عما يقوله الخطيب أثناء كتابته لما سبق ، ولكن الحمد لله الآن قد جعل اللّٰه للناس ما يريحهم ، حيث جاءت هذه الأشرطة وهذه المسجلات . فبإمكانك أن تحضر المسجل وتسجل الخطبة في راحة ، وتستمع إليها في بيتك أو في سيارتك على أي وضع كنت .

* * *

١٢٩ – الثَّالثَ عَشَرَ : عَنْهُ أن رسول اللّٰه ﷺ قال : « إذَا تَوضَأَ العَبْدُ المُسْلِمُ – أو المُؤْمِنُ – فَغَسَلَ وَجْهَهُ خَرَجَ مِنْ وَجْهِهِ كُلُّ خَطِيئَةٍ نَظَرَ إلَيهَا بِعَينهِ مَعَ المَاء ، أو مَعَ آخِرِ قَطْرِ المَاءِ ، فإذَا غَسَلَ يَدَيهِ خَرَجَ مِنْ يَدَيه كُلُّ خَطِيئَةٍ كَانَ بَطَشَتْهَا يَدَاهُ مَعَ المَاءِ ، أو مَعَ آخِرِ قَطْرِ المَاءِ ، فَإذَا غَسَلَ رِجْلَيهِ خَرَجَتْ كُلُّ خَطِيئَةٍ مَشَتْهَا رِجْلاهُ مَعَ المَاءِ ، أَو مَعَ آخِرِ قَطْرِ المَاءِ ؛ حَتَّى يَخْرُجَ نَقِيًّا مِنَ الذُّنُوبِ »[(٢)] رَوَاهُ مُسْلِم .

الشرح

ذكر المؤلف رَحِمَهُ اللَّهُ فيما نقله عن أبي هريرة رضي الله عنه في فضائل الوضوء أن رسول اللّٰه ﷺ قال : « إذَا تَوضَأَ العَبْدُ المُسْلِمُ – أو المُؤْمِنُ – فَغَسَلَ وَجْهَهُ خَرَجَ مِنْ وَجْهِهِ كُلُّ خَطِيئَةٍ نَظَرَ إلَيهَا بِعَينهِ مَعَ المَاء ، أَو مَعَ آخِرِ قَطْرِ المَاءِ ، فإذَا غَسَلَ يَدَيه خَرَجَ مِنْ يَدَيهِ كُلُّ خَطِيئَةٍ كَانَ بَطَشَتْهَا يَدَاهُ مَعَ المَاءِ ، أَو مَعَ آخِرِ قَطْرِ المَاءِ ، فإذا غسل رِجْلَيهِ خَرَجَتْ كُلُّ خَطِيئَةٍ مَشَتْهَا رِجْلاهُ مَعَ المَاءِ ، أَو مَعَ آخِرِ قَطْرِ المَاءِ ؛ حَتَّى يَخْرُجَ

(١) أخرج ذلك أحمد في مسنده (٢٣٠/١) ، والمنذري في الترغيب والترهيب (٥٠٥/١) .
(٢) أخرجه مسلم في الطهارة (٣٢) ، وأحمد في مسنده (٣٠٢/٢) ، والبيهقي في السنن (٨١/١) .

نَقِيًّا مِنَ الذُّنُوبِ » . والوضوء أمر الله به في كتابه في قوله تعالى : ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِذَا قُمْتُمْ إِلَى ٱلصَّلَوٰةِ فَٱغْسِلُواْ وُجُوهَكُمْ وَأَيْدِيَكُمْ إِلَى ٱلْمَرَافِقِ وَٱمْسَحُواْ بِرُءُوسِكُمْ وَأَرْجُلَكُمْ إِلَى ٱلْكَعْبَيْنِ ﴾ [المائدة : ٦] .

هذا الوضوء تُطَهَّر فيه هذه الأعضاء الأربعة ؛ الوجه ، واليدان ، والرأس ، والرجلان ، وهذا التطهير يكون تطهيرًا حسيًّا ، ويكون تطهيرًا معنويًّا . أما كونه تطهيرًا حسيًّا فظاهر ؛ لأن الإنسان يغسل وجهه ، ويديه ورجليه ، ويمسح الرأس ، وكان الرأس بصدد أن يُغسل كما تُغسل بقية الأعضاء ، ولكن الله خفف في الرأس ، لأن الرأس يكون فيه الشعر ، والرأس هو أعلى البدن ، فلو غسل الرأس ولا سيما إذا كان فيه الشعر ، لكان في هذا مشقة على الناس ، ولا سيما في أيام الشتاء ، ولكن من رحمة الله ﷻ أن جعل فرض الرأس المسح فقط ، فإذا توضأ الإنسان لا شك أنه يطهر أعضاء الوضوء تطهيرًا حسيًّا ، وهو يدل على كمال الإسلام ، حيث فرض على معتنقيه أن يطهروا هذه الأعضاء التي هي غالبًا ظاهرة بارزة .

أما الطهارة المعنوية وهي التي ينبغي أن يقصدها المسلم : فهي تطهيره من الذنوب ، فإذا غسل وجهه ؛ خرجت كل خطايا نظر إليها بعينيه . وذكْر العين - والله أعلم - إنما هو على سبيل التمثيل ، وإلا فالأنف قد يخطئ ، والفم قد يخطئ ؛ فقد يتكلم الإنسان بكلام حرام ، وقد يشم أشياء ليس له حق أن يشمها ، ولكن ذَكرَ العين ؛ لأن أكثر ما يكون الخطأ في النظر ؛ فلذلك إذا غسل الإنسان وجهه بالوضوء خرجت خطايا عينيه ، فإذا غسل يديه خرجت خطايا يديه ، فإذا غسل رجليه خرجت خطايا رجليه ، حتى يكون نقيًّا من الذنوب . ولهذا قال الله تعالى حين ذكر الوضوء والغسل والتيمم : ﴿ مَا يُرِيدُ ٱللَّهُ لِيَجْعَلَ عَلَيْكُم مِّنْ حَرَجٍ وَلَٰكِن يُرِيدُ لِيُطَهِّرَكُمْ ﴾ يعني ظاهرًا وباطنًا ، حسًّا ومعنىً : ﴿ وَلِيُتِمَّ نِعْمَتَهُۥ عَلَيْكُمْ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴾ [المائدة : ٦] فينبغي للإنسان إذا توضأ أن يستشعر بهذا المعنى أن وضوءه يكون تكفيرًا لخطيئاته ، حتى يكون بهذا الوضوء محتسبًا الأجر على الله ﷻ .

* * *

١٣٠ - الرَّابعَ عَشَرَ : عنه عن رسول الله ﷺ قال : « الصَّلَوَاتُ الخَمْسُ ، وَالجُمُعَةُ إِلَى الجُمُعَةِ ، وَرَمَضَانُ إِلَى رَمَضَانَ ؛ مُكَفِّرَاتٌ لِمَا بَيْنَهُنَّ إِذَا اجْتُنِبَت الكَبَائِرُ » [(١)] رواه مسلم .

١٣١ - الخَامسَ عَشَرَ : عنه قال : قال رسول الله ﷺ : « أَلا أَدُلُّكُم عَلَى مَا يَمْحُو اللَّهُ بِهِ الخَطَايَا ، وَيَرْفَعُ بِهِ الدَّرجَاتِ ؟ » قالوا : بَلَى يَا رَسُولَ اللَّهِ ، قال : « إِسْبَاغُ الوُضوءِ عَلَى المَكَارِهِ ، وَكَثْرَةُ الخُطَا إِلَى المَسَاجِدِ ، وَانْتِظَارُ الصَّلاة بَعْد الصَّلاةِ ، فَذلِكُمُ الرِّبَاطُ » [(٢)] رَوَاهُ مُسْلِمٌ .

الشرح

قال المؤلف - رحمه الله تعالى - فيما نقله عن أبي هريرة رضي الله عنه أن النبي ﷺ قال : « الصلوات الخمس ،

---

(١) أخرجه مسلم في الطهارة (١٦) .

(٢) أخرجه مسلم في الطهارة (٤١) ، والترمذي في الطهارة (٥١) ، والبيهقي في السنن (٦٢/٣) ، قوله : « إسباغ الوضوء » قيل فيه أيضًا : هو استيعاب أعضائه بالغسل والمسح مع استيفاء آدابه ومكملاتها ، قوله « على المكاره » أي مع المشقة والألم .

والجمعة إلى الجمعة ، ورمضان إلى رمضان ، مكفرات لما بينهن إذا اجتنبت الكبائر » يعني أن الصلوات الخمس تكفر الخطايا من بين صلاة الفجر إلى الظهر ، ومن الظهر إلى العصر ، ومن العصر إلى المغرب ، ومن المغرب إلى العشاء ، ومن العشاء إلى الفجر . فإذا عمل الإنسان سيئة وأتقن هذه الصلوات الخمس ؛ فإنها تمحو الخطايا ، لكن قال : « إذا اجتُنبت الكبائر » يعني إذا اجتنبت كبائر الذنوب .

وكبائر الذنوب هي : كلُّ ذنب رتب عليه الشارع عقوبة خاصة ، فكل ذنب لعن النبي ﷺ فاعلَه فهو من كبائر الذنوب ، كل شيء فيه حدٌّ في الدنيا كالزنا ، أو وعيد في الآخرة كأكل الربا ، أو فيه نفي إيمان مثل : « لا يؤمن أحدكم حتى يحبُّ لأخيه ما يحبُّ لنفسه » [١] ، أو فيه براءة منه مثل « من غشنا فليس منا » [٢] ، أوما أشبه لك فهو من كبائر الذنوب ..

واختلف العلماء - رحمهم الله - في قوله ﷺ : « إذا اجتنبت الكبائر » : هل معني الحديث أن الصغائر تكفر اذا اجتنبت الكبائر ، إنها لا تكفر إلا بشرطين وهما : الصلوات الخمس ، واجتناب الكبائر ، أو أن معنى الحديث أنها كفارة لما بينهن إلا الكبائر لاتكفرها ، وعلى هذا فيكون لتكفير السيئات الصغائر شرط واحد هو إقامة هذه الصلوات الخمس ، أو الجمعة إلى الجمعة ، أو رمضان إلي رمضان ، وهذا هو المتبادر - والله أعلم - أن المعنى : أن الصلوات الخمس تكفر ما بينها إلا الكبائر فلا تكفرها ، وكذلك الجمعة إلى الجمعة ، وكذلك رمضان إلى رمضان ، وذلك لأن لكبائر لابد لها من توبة خاصة ، فإذا لم يتب توبة خاصة ؛ فإن الأعمال الصالحة لا تكفرها ، بل لابد من توبة خاصة .

أما حديث أبي هريرة الثاني : فهو أن النبي - عليه الصلاة والسلام - عرض على أصحابة عرضًا ، يعلم النبي ﷺ ما سيقولون في جوابه ، ولكن هذا من حسن تعليمه - عليه الصلاة والسلام - أنه أحيانًا يعرض المسائل عرضًا ، حتى ينتبه الإنسان لذلك ، ويعرف ماذا سيُلقى إليه . قال : « ألا أدلكم ما يمحو الله به الخطايا ، ويرفع به الدرجات ؟ » يعرض عليهم هذا العرض ، ومن المعلوم أنهم سيقولون : نعم يا رسول الله أخبرنا ، ولكنه - عليه الصلاة والسلام - اتخذ هذه الصيغة وهذا الأسلوب من أجل أن ينتبهوا إلى ما سيلقى إليهم ، قالوا : بلى يا رسول الله ، يعني أخبرنا فإننا نودُّ أن تخبرنا بما يرفع به الدرجات ويمحو به الخطايا ، قال : « إسباغ الوضوء على المكاره ، وكثرة الخطا إلى المساجد ، وانتظار الصلاة بعد الصلاة » . هذه ثلاثة أشياء :

أولًا : إسباغ الوضوء على المكاره ، يعني إتمام الوضوء في أيام الشتاء ، لأن أيام الشتاء يكون الماء فيها باردًا . وإتمام الوضوء يعني إسباغه فيحصل بذلك مشقة على النفس ، فإذا أسبغ الإنسان وضوءه مع هذه المشقة ، دلَّ هذا على كمال الإيمان فيرفع الله بذلك درجات العبد ، ويحط عنه خطيئة ، .. هذه واحدة .

ثانيًا : كثرة الخطا إلى المساجد ، يعني أن يقصد الإنسان المساجد وذلك في الصلوات الخمس ولو بَعُد المسجد ، فإنه كلما بَعُد المسجد عن البيت ازدادت حسنات الإنسان ، فإن الإنسان إذا توضأ في

---

(١) أخرجه البخاري في الإيمان (١٣) ، ومسلم في الإيمان (٧١) ، والترمذي في السنن (٢٥١٥) ، وأحمد في مسنده (١٧٦/٣) .
(٢) أخرجه مسلم في الإيمان (١٦٤) ، وأحمد في مسنده (٤٩٨/٣) ، والدارمي في السنن (٢٤٨/٢) .

بيته وأسبغ الوضوء ، ثم خرج منه إلى المسجد لا يخرجه إلا الصلاة ، لم يخْطُ خطوة واحدة إلا رفع الله له بها درجة ، وحطَّ عنه بها خطيئة .

ثالثًا : انتظار الصلاة بعد الصلاة ، يعني أن الإنسان من شدة شوقه إلى الصلوات ، كلما فرغ من صلاة ، فإذا قلبه متعلق بالصلاة الأخرى ينتظرها ، فإن هذا يدل على إيمانه ومحبته وشوقه لهذه الصلوات العظيمة ، التي قال عنها رسول الله ﷺ : « وجعلت قرة عيني في الصلاة » [(١)] . فإذا كان ينتظر الصلاة بعد الصلاة ، فإن هذا مما يرفع الله به الدرجات ، ويكفر به الخطايا والسيئات .

هذان الحديثان ذكرهما المؤلف في باب كثرة طرق الخير ؛ لأن هذه - ولله الحمد - طرق متعددة من الخير؛ الصلوات الخمس ، الجمعة إلى الجمعة ، رمضان إلى رمضان ، كثرة الخطا إلى المساجد ، إسباغ الوضوء على المكاره ، انتظار الصلاة بعد الصلاة .

وقوله ﷺ : « فذلكم الرباط » أصل الرباط : الإقامة على جهاد العدو بالحرب وارتباط الخيل وإعدادها ، وهذا من أعظم الأعمال ، فلذلك شبه به ما ذكر من الأفعال الصالحة والعبادة في هذا الحديث ، أي أن المواظبة على الطهارة والصلاة والعبادة كالجهاد في سبيل الله . وقيل : إن الرباط ههنا اسم لما يربط به الشيء ، والمعنى : أن هذه الخلال تربط صاحبها عن المعاصي وتكفُّه عنها .

* * *

١٣٢ - السَّادسَ عَشَرَ : عن أبي موسى الأشْعَرِيِّ ﷺ قال : قال رسول الله ﷺ : « مَنْ صَلَّى البَرْدَينِ دَخَلَ الجَنَّةَ » [(٢)] متفقٌ عليه . « البَرْدَانِ » الصُّبْحُ وَالعَصْرُ .

١٣٣ - السَّابعَ عَشَرَ : عنه قال : قال رسول الله ﷺ : « إذَا مَرِضَ العَبْدُ أو سَافَرَ كُتِبَ لَهُ مِثْلُ مَا كَانَ يَعْمَلُ مُقِيمًا صَحِيحًا » [(٣)] رواه البخاري .

الشرح

نقل المؤلف - رحمه الله تعالى - عن أبي موسى الأشعري ﷺ أن النبي ﷺ قال : « من صلى البردين دخل الجنة » البردان : هما صلاة الفجر وصلاة العصر ، وذلك لأن صلاة الفجر تقع في أبرد ما يكون من الليل ، وصلاة العصر تقع في أبرد ما يكون من النهار بعد الزوال ، من صلاهما دخل الجنة ، يعني أن المحافظة على هاتين الصلاتين وإقامتهما من أسباب دخول الجنة .

وقد ثبت عن النبي - عليه الصلاة والسلام - أنه نظر إلى القمر ليلة فقال : « إنكم سترون ربكم كما ترون هذا القمر ، لا تضامون في رؤيته ، فإن استطعتم ألا تغلبوا على صلاة قبل طلوع الشمس وقبل

---

(١) أخرجه النسائي (٦٢/٧) ، وأحمد في مسنده (٢٨٥/٣) ، والحاكم في المستدرك (١٦٠/٢) .

(٢) أخرجه البخار في مواقيت الصلاة (٥٧٤) ، ومسلم في المساجد (٢١٥) ، وأحمد في مسنده (٨٠/٤) ، والبيهقي في السنن (٤٦٦/١) .

(٣) أخرجه البخاري في الجهاد والسير (٢٩٩٦) ، وأحمد في مسنده (٤١٠/٤) ، والبيهقي في السنن (٣٧٤/٣) .

غروبها فافعلوا »[١] فقال ﷺ : « إنكم سترون ربكم كما ترون هذا القمر » هذا فيه تشبيه الرؤيا بالرؤيا ، وليس المعنى تشبيه المرئي بالمرئي ؛ لأن الله ليس كمثله شيء ، ولكنكم ترونه رؤية حقيقية مؤكدة كما يرى الإنسان القمر ليلة البدر ، وإلا فإن الله ﷻ ، أجل وأعظم من أن يشابهه شيء من مخلوقاته .

ثم قال النبي ﷺ في آخر هذا الحديث « فإن استطعتم ألا تُغلبوا على صلاة قبل طلوع الشمس وقبل غروبها فافعلوا » يعني بالتي قبل طلوع الشمس : الفجر ، والتي قبل غروبها العصر ، فهاتان الصلاتان هما أفضل الصلوات ، وأفضلهما صلاة العصر ؛ لأنها هي الصلاة الوسطى التي قال الله تعالى عنها : ﴿ حَٰفِظُواْ عَلَى ٱلصَّلَوَٰتِ وَٱلصَّلَوٰةِ ٱلْوُسْطَىٰ وَقُومُواْ لِلَّهِ قَٰنِتِينَ ﴾[٢] [البقرة : ٢٣٨] .

وقد صح عن النبي ﷺ أنه قال في غزوة الأحزاب : « ملأ الله بيوتهم وقبورهم نارًا كما شغلونا عن الصلاة الوسطى صلاة العصر »[٣] وهذا نص صريح من رسول الله ﷺ أنَّ الصلاة الوسطى هي صلاة العصر . وقوله – عليه الصلاة والسلام – : « من صلى البردين » المراد من صلاهما على الوجه الذي أمر به ، وذلك بأن يأتي بهما في الوقت ، وإذا كان من أصحاب الجماعة كالرجال ، فليأت بهما مع الجماعة ؛ لأن الجماعة واجبة ، ولا يحل لرجل أن يدع صلاة الجماعة في المسجد وهو قادر عليها .

أما حديثه الثاني : فهو أن النبي ﷺ قال : « إذا مرض العبد أو سافر كُتب له مثل ما كان يعمل مقيمًا صحيحًا » يعني أن الإنسان إذا كان من عادته أن يعمل عملًا صالحًا ، ثم مرض فلم يقدر عليه ؛ فإنه يكتب له الأجر كاملًا والحمد لله على نعمه .

إذا كنت مثلًا من عادتك أن تصلي مع الجماعة ، ثم مرضت ولم تستطع أن تصلي مع الجماعة ؛ فكأنك تصلي معهم ، يكتب لك سبعة وعشرون درجة ، ولو سافرت وكان من عادتك وأنت مقيم في البلد أن تصلي نوافل ، وأن تقرأ قرآنًا ، وأن تسبح وتهلل وتكبر ، ولكنك لما سافرت انشغلت بالسفر عن هذا ؛ فإنه يكتب لك ما كنت تعمله في البلد مقيمًا . مثلًا لو سافرت وصليت وقتك في البر ليس معك أحد ؛ فإنه يكتب لك أجر صلاة الجماعة كاملًا ، إذا كنت في حال الإقامة تصلي مع الجماعة .

وفي هذا تنبيه على أنه ينبغي للعاقل ما دام في حال الصحة والفراغ ، أن يحرص على الأعمال الصالحة ، حتى إذا عجز عنها لمرض أو شغل ؛ كتبت له كاملة . اغتنم الصحة ، اغتنم الفراغ ، اعمل صالحًا حتى إذا شُغلت عنه بمرض أو غيره ، كُتب لك كاملًا ولله الحمد ، ولهذا قال النبي ﷺ : « نعمتان مغبون فيهما كثير من الناس : الصحة ، والفراغ »[٤] . وقال ابن عمر : « وخذ من صحتك

---

(١) أخرجه البخاري في التوحيد (٧٤٣٤) ، ومسلم في المساجد (٢١١) ، وأبو داود في السنن (٤٧٢٩) ، والترمذي في السنن (٢٥٥٤) .

(٢) قوله ﴿ قَٰنِتِينَ ﴾ أي مطيعين لله خاضعين .

(٣) أخرجه البخاري في الجهاد والسير (٢٩٣١) ، ومسلم في المساجد (٢٠٢ ، ٢٠٥) ، وأحمد في مسنده (١/٧٩) ، وابن ماجه في السنن (٦٨٤) .

(٤) أخرجه البخاري في الرقاق (٦٤١٢) ، والترمذي في السنن (٢٣٠٤) ، وابن ماجه في السنن (٤١٧٠) .

لمرضك ، ومن حياتك لموتك »[١] هكذا جاء في حديث ابن عمر ، فهو إما من قوله ، وإما من قول النبي - عليه الصلاة والسلام - أن الإنسان ينبغي له في حال الصحة أن يَغتنم الفرصة ، حتى إذا مرض كُتب له عمله في الصحة ، وأن يحرص مادام مقيمًا على كثرة الأعمال الصالحة ، حتى إذا سافر كُتب له ما كان يعمل في الإقامة . نسأل اللّه أن يخلص لنا ولكم النية ويصلح لنا ولكم العمل .

* * *

١٣٤ - الثَّامنَ عَشَرَ : عَنْ جَابِرٍ ﷺ قال : قال رسول اللّه ﷺ : « كُلُّ مَعْرُوفٍ صَدَقَة »[٢] رواه البخاري ، ورواه مسلم مِن رواية حُذَيفَةَ ﷺ .

الشرح

قال المؤلف - رحمه اللّه تعالى - فيما نقله في باب كثرة طرق الخيرات ، عن جابر بن عبد اللّه ﷺ ، أن النبي ﷺ قال : « كلُّ معروفٍ صدقة » المعروف ما يتعارف الناس على حسنه ، أو ما عرف في الشرع حسنه إن كان مما يتعبد به لله ، فهو ما عرف في الشرع حسنه ، وإن كان مما يتعامل به الناس ؛ فهو مما تعارف الناس على حسنه ، وفي هذا الحديث : « كل معروف » يشمل هذا وهذا ، فكل عمل تتعبد به إلى اللّه فإنه صدقة ، كما ورد في حديث سابق « كلُّ تسبيحة صدقة ، وكل تهليلة صدقة ، وكل تحميدة صدقة ، أو أمر بالمعروف صدقة ، ونهي عن المنكر صدقة »[٣] .

وأما ما يتعارف الناس على حسنه : فهو أيضًا ما يتعلق بالمعاملة بين الناس ، فكل ما تعارف الناس على حسنه فهو معروف ، مثل : الإحسان إلى الخلق بالمال ، أو بالجاه ، أو بغير ذلك من أنواع الإحسان . ومن ذلك : أن تلقى أخاك بوجه طلق لا بوجه عبوس ، وأن تلين له القول ، وأن تدخل عليه السرور ، ولهذا قال العلماء - رحمهم اللّه - : إن من الخير إذا عاد الإنسان مريضًا ، أن يدخل عليه السرور ويقول : أنت في عافية وإن كان الأمر على خلاف ما قال بأن كان مرضه شديدًا ، يقول ذلك ناويًا أنه في عافية أحسن ممن هو دونه ؛ لأن إدخال السرور على المريض سببٌ للشفاء . ولهذا تجد أن الإنسان إذا كان مريضًا مرضًا عاديًا صغيرًا ، إذا قال له الإنسان : إن هذا شيء بسيط هينٌ لا يضر ، سُرَّ بذلك ونسي المرض ، ونسيان المرض سبب لشفائه ، وكون الإنسان يعلق قلبه بالمرض فذلك سبب لبقائه . وأضرب لكم مثلًا لذلك برجل فيه جرح ، تجد أنه إذا تلهى بحاجة أخرى لا يحسُّ بألم الجرح ، لكن إذا تفرغ ولم يشتغل بشيء ؛ تذكر هذا الجرح وآلمه وربما أحس بأنه سيموت منه .

انظر مثلًا إلى الحمالين الذين يحملون الأشياء على السيارات وينزلونها ، أحيانًا يسقط على قدمه شيء فيجرحه ، ولكنه ما دام يحمل تلك الحمالات التي يحملها على ظهره تجده لا يشعر بالجرح ولا

(١) أخرجه البخاري في الرقاق (٦٤١٦) .
(٢) أخرجه البخاري في الأدب (٦٠٢١) ، ومسلم في الزكاة (٥٢) .
(٣) سبق تخريجه .

يحس بألمه حتى إذا فرغ أحس به وتألم .

إذن غفلة المريض عن المرض ، وإدخال السرور عليه ، وتأميله بأن الله ﷻ سيشفيه ؛ فهذا خير ينسيه المرض ، وربما كان سببًا للشفاء .

إذن كل معروف صدقة . لو أن أحدًا يجلس إلى جنبك ورأيته محترًّا يتصبب العرق من جبينه ، فروحت عليه بالمروحة ؛ فإنه لك صدقة ، لأنه معروف . لو قابلت الضيوف بالانبساط وتعجيل الضيافة لهم وما أشبه ذلك فهذا صدقة .

انظر إلى إبراهيم – عليه الصلاة والسلام – لما جاءته الملائكة ضيوفًا ماذا صنع ؟ قالوا : سلامًا . قال : سلام . قال العلماء : وقول إبراهيم سلام أبلغ من قول الملائكة سلامًا ؛ لأن قول الملائكة « سلامًا » يعني نسلم سلامًا ، وهو جملة فعلية تدل على التجدد والحدوث . وقول إبراهيم : « سلام » جملة إسمية تدل على الثبوت والاستمرار فهو أبلغ (١) . وماذا صنع عليه الصلاة والسلام ؟ راغ إلى أهله فجاء بعجل سمين .

﴿ فَرَاغَ ﴾ : قال العلماء : معناه انسرق مسرعًا بخُفية ، وهذا من حسن الضيافة . ذهب مسرعًا لئلا يمنعوه ، أو يقولوا : انتظر ما نريد شيئًا ﴿ فَرَاغَ إِلَىٰٓ أَهْلِهِۦ فَجَآءَ بِعِجْلٍ سَمِينٍ ﴾ [الذاريات : ٢٦] وفي الآية الأخرى : ﴿ بِعِجْلٍ حَنِيذٍ ﴾ [هود : ٦٩] حنيذ : يعني مشويًّا ، ومعلوم أن اللحم المشوي أطعم من اللحم المطبوخ ، لأن طعمه يكون باقيًا فيه ، ﴿ فَجَآءَ بِعِجْلٍ ﴾ والعلماء يقولون : إن العجل من أفضل أنواع اللحم ؛ لأن لحمه لينًا ولذيذًا ، ثم قال تعالى : ﴿ فَقَرَّبَهُۥٓ إِلَيْهِمْ ﴾ ما وضعه في مكان بعيد وقال لهم : اذهبوا إلى مكان الطعام ، فهذا ليس من المروءة ، وإنما قربه إليهم .

ثم قال : ﴿ أَلَا تَأْكُلُونَ ﴾ ولم يقل لهم : كلوا . و ﴿ أَلَا ﴾ أداة عرض ، يعني عرض عليهم الأكل ولم يأمرهم . ولكن الملائكة ما أكلوا ، لأن الملائكة لا يأكلون ، الملائكة ما لهم أجواف ، ما لهم كروش ولا أمعاء ولا أكباد ، خلقهم الله – من نور – جسدًا واحدًا جثة واحدة ، لا يأكلون ولا يشربون ولا يبولون ولا يتغوطون : ﴿ يُسَبِّحُونَ ٱلَّيْلَ وَٱلنَّهَارَ لَا يَفْتُرُونَ ﴾ [الأنبياء : ٢٠] دائمًا يقولون : سبحان الله ، سبحان الله ، فلم يأكلوا ، لهذا السبب . ﴿ فَأَوْجَسَ مِنْهُمْ خِيفَةً ﴾ لأنهم لم يأكلوا . فمن عادة العرب أن الضيف إذا لم يأكل فقد تأبَّط شرًّا . ولهذا فمن عادتنا إلى الآن أنه إذا جاء الضيف ولم يأكل قالوا : مالح ، يعني ذق من طعامنا ، فإذا لم يمالح قالوا : إن هذا الرجل قد نوى بنا شرًّا ، فنكرهم إبراهيم – عليه الصلاة والسلام – على ذلك وأوجس منهم خيفة ﴿ قَالُوا۟ لَا تَخَفْ ﴾ ثم بينوا له الأمر ﴿ قَالُوا۟ لَا تَخَفْ وَبَشَّرُوهُ بِغُلَٰمٍ عَلِيمٍ ﴾ [الذاريات : ٢٨] وكان قد كبر وكانت امرأته قد كبرت ﴿ فَأَقْبَلَتِ ٱمْرَأَتُهُۥ ﴾ لما سمعت البشرى ﴿ فِى صَرَّةٍ ﴾ أي في صيحة ، ﴿ فَصَكَّتْ وَجْهَهَا ﴾ عجبًا ، ﴿ وَقَالَتْ عَجُوزٌ عَقِيمٌ ﴾ ، يعني : ألد وأنا عجوز عقيم ؟! قالت الملائكة : ﴿ كَذَٰلِكِ قَالَ رَبُّكِ ﴾ ، الرب ﷻ يفعل مايشاء ، إذا أراد شيئًا قال له كن فيكون .

ثم قال تعالى ﴿ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلْحَكِيمُ ٱلْعَلِيمُ ﴾ [الذاريات : ٣٠] . وهنا قدم الحكيم على العليم ، وفي آيات

(١) تفسير ابن كثير (ص : ١٧٦٦) . ط ابن حزم .

كثيرة يُقدم العليم على الحكيم ، والسبب أن هذه المسألة أي كونها تلد وهي عجوز خرجت عن نظائرها ، مالها نظير إلا نادرًا ، فبدأ بالحكيم الدال على الحكمة ، يعني أن اللَّه حكيم أن تلدي وأنت عجوز .

المهم : أن إبراهيم - عليه الصلاة والسلام - قد ضرب المثل في حسن الضيافة ، وحسن الضيافة من المعروف ، وكل معروف صدقة كما أخبر الصادق المصدوق عليه الصلاة والسلام ..

* * *

١٣٥ - التَّاسعَ عَشَرَ : عَنْهُ قال : قال رسول اللَّه ﷺ : « مَا مِنْ مُسْلِمٍ يَغْرِسُ غَرْسًا إلا كَانَ مَا أُكِلَ مِنْهُ لَهُ صَدَقَةٌ ، وَمَا سُرِقَ مِنْه لَه صَدَقَة ، ولا يَرْزَؤُهُ أَحَدٌ إلا كَانَ لَه صَدَقَةٌ » رواه مسلم .

وفي رواية له : « فَلا يَغْرِسُ المُسْلِمُ غَرْسًا ، فَيَأكُلَ مِنْه إنْسَانٌ وَلا دَابَّةٌ وَلا طَيرٌ إلا كَانَ لَه صَدَقَةً إِلَى يَومِ القِيَامَة » .

وفي رواية له : « لا يَغْرِسُ مُسْلِمٌ غرْسًا ، وَلا يَزْرَعُ زَرْعًا ، فَيَأْكُلَ مِنْه إنْسَانٌ وَلادَابَّةٌ وَلا شَيءٌ إلا كَانَتْ لَه صَدَقَة » [1] وَرَوَيَاه جَميعًا مِنْ رواية أَنسٍ ﷺ . قولُهُ : « يَرْزَؤه » أَي : يَنْقُصُهُ .

الشرح

قال المؤلف - رحمه اللَّه تعالى - في باب كثرة طرق الخيرات ما نقله عن جابر بن عبد اللَّه ﷺ ، أن النبي ﷺ ذكر فيمن غرس غرسًا ، فأكل منه شيء ، من إنسان ، أو حيوان ، أو طير ، أو غير ذلك ، أو نَقَصَ ؛ أي سُرق منه ؛ فإنه له بذلك صدقة . ففي هذا الحديث حثٌّ على الزرع ، وعلى الغرس ، وأن الزرع والغرس فيه الخير الكثير ، فيه مصلحة في الدين ، ومصلحة في الدنيا .

أما مصلحة الدنيا : فما يحصل فيه من إنتاج ، ومصلحة الغرس والزرع ليست كمصلحة الدراهم والنقود ؛ لأن الزرع والغرس ينفع نفس الزارع والغارس ، وينفع البلد كله ، كل الناس ينتفعون منه ، بشراء الثمر ، وشراء الحب ، والأكل منه ، ويكون في هذا نموٌّ للمجتمع وتكثير لخيراته ، بخلاف الدراهم التي توضع في الصناديق ولا ينتفع بها أحد .

أما المنافع الدينية : فإنه إن أكل منه طير ؛ عصفور ، أو حمامة ، أو دجاجة ، أو غيرها ولو حبَّة واحدة ؛ فإنه له صدقة ، سواء شاء ذلك أم لم يشأ ، حتى لو فُرض أن الإنسان حين زرع أو حين غرس لم يكن بباله هذا الأمر ؛ فإنه إذا أكل منه كان له صدقة .

أعجب من ذلك لو سرق منه سارق ، كما لو جاء شخص مثلًا إلى نخل وسرق منه تمرًا ؛ فإن له في ذلك أجرًا ، مع أني لو علمت بهذا السارق لشكوته إلى المحكمة ، ومع ذلك فإن اللَّه تعالى يكتب له بهذه السرقة صدقة إلى يوم القيامة .

كذلك أيضًا إذا أكل من هذا الزرع دواب الأرض وهوامها كان لصاحبه صدقة . ففي هذا

---

(١) أخرجه البخاري في الأدب (٦٠١٢) ، ومسلم في المساقاة (٧ ، ٨ ، ١٠) .

الحديث : دلالة واضحة على حثّ النبي - عليه الصلاة والسلام - على الزرع وعلى الغرس ، لما فيه من المصلحة الدينية والمصالح الدنيوية .

وفيه : دليل على كثرة طرق الخير ، وأن ما انتفع به الناس من الخير ، فإن لصاحبه أجرًا وله فيه الخير ، سواء نوى أو لم ينو ، وهذا كقوله تعالى : ﴿ لَّا خَيْرَ فِي كَثِيرٍ مِّن نَّجْوَاهُمْ إِلَّا مَنْ أَمَرَ بِصَدَقَةٍ أَوْ مَعْرُوفٍ أَوْ إِصْلَاحٍ بَيْنَ النَّاسِ ۚ وَمَن يَفْعَلْ ذَٰلِكَ ابْتِغَاءَ مَرْضَاتِ اللَّهِ فَسَوْفَ نُؤْتِيهِ أَجْرًا عَظِيمًا ﴾ [النساء: ١١٤] فذكر الله ﷻ أن هذه الأشياء فيها خير سواء نويت أو لم تنوِ . من أمر بصدقة أو أصلح بين الناس فهو خير ومعروف . نوى أم لم ينو ، فإن نوى بذلك ابتغاء وجه الله . فإن الله يقول : ﴿ فَسَوْفَ نُؤْتِيهِ أَجْرًا عَظِيمًا ﴾ . وفي هذا : دليل على أن المصالح والمنافع إذا انتفع الناس بها ، كانت خيرًا لصاحبها وإن لم ينو . فإن نوى زاد خيرًا على خير ، وآتاه الله تعالى من فضله أجرًا عظيمًا . أسأل الله العظيم أن يمنَّ علي وعليكم بالإخلاص والمتابعة للرسول ﷺ إنه جواد كريم .

* * *

١٣٦ - العشْرُونَ : عَنْهُ قالَ : أَرَادَ بَنُو سَلِمَةَ أن ينتقلُوا قُربَ المَسجِدِ فَبَلَغَ ذلكَ رسولَ اللَّه ﷺ ، فَقَالَ لَهُمْ : « إِنَّهُ قَدْ بَلَغَنِي أَنَّكُمْ تُرِيدُونَ أَنْ تَنتقلوا قُرْبَ المَسْجِدِ ؟ » فَقَالُوا : نَعَمْ يَا رسول اللّهِ ، قَدْ أَرَدْنَا ذلكَ ، فَقَالَ : « بَنِي سَلِمَةَ دِيَارَكُمْ ، تُكْتَبُ آثارُكُمْ ، دِيَارَكُمْ ، تُكْتَبْ آثارَكُمْ » [(١)] رواه مسلم .

وفي رواية : « إنَّ بِكُلِّ خَطْوَةٍ دَرَجَةً » رَوَاهُ مُسْلِمٌ . وَرَوَاهُ البُخَارِيُّ أيضًا بمَعْنَاهُ مِنْ رِوَايَةِ أَنَسٍ ﷺ . و « بَنُو سَلِمَةَ » بكسر اللام : قبيلة معروفة من الأنصار ﷺ ، و « آثارُهُمْ » خُطَاهُمْ .

الشرح

قال المؤلف - رحمه الله تعالى - فيما نقله عن جابر بن عبد الله ﷺ قال : أراد بنو سلمة أن يقربوا من المسجد ، ينتقلوا من ديارهم ومحلاتهم حتى يكونوا قرب مسجد النبي ﷺ ، من أجل أن يدركوا الصلوات معه ويتلقوا من علمه ، فبلغ ذلك النبي ﷺ فسألهم ، قال : « إنّه قَدْ بَلَغَنِي أَنَّكم تُرِيدُونَ أن تَنْتَقِلُوا قُرْبَ المَسْجِدِ ؟ » قالوا : نعم يارسول الله قد أردنا ذلك . فقال رسول الله ﷺ : « دِيَارَكُمْ تكتب أثاركم » قالها مرتين ، وبيَّن لهم أن لهم بكل خطوة حسنة أو درجة .

ففي هذا الحديث : دليل على أنه إذا مشى الإنسان إلى المسجد ؛ فإنه لا يخطو خطوة إلا رفع له بها درجة ، وقد جاء ذلك مفسّرًا في حديث أبي هريرة ﷺ ، أن النبي ﷺ قال : « من توضأ فأسبغ الوضوء ، ثم خرج من بيته إلى المسجد ، لا يخرجه إلا الصلاة ، لم يخطُ خطوة إلا رفع الله له بها درجة ، وحطَّ عنه بها خطيئة » [(٢)] فيكتب له شيئان ، الأول : أنه يرفع له بها درجة . والثاني : أنه يحط

---

(١) أخرجه مسلم في المساجد (٢٨١) ، والبخاري في الأذان (٦٥٥ ، ٦٥٦) ، وأحمد في مسنده (٣/٣٣٢) ، قوله : « دِيَارَكُمْ » منصوب على الإغراء والتقدير : الزموا دياركم .

(٢) أخرجه البخاري في الصلاة (٤٧٧) بلفظ : « فإن أحدكم إذا توضأ فأحسن وأتى المسجد » .

بها عنه خطيئة . هذا إذا توضأ في بيته وأسبغ الوضوء سواء كان ذلك قليلًا . يعني سواء كانت الخطوات قليلة أم كثيرة ، فإنه يُكتب له بكل خطوة شيئان : يُرفع بها درجة ، ويحطُّ عنه بها خطيئة .

وفي هذا الحديث : دليل على أنه إذا نُقل للإنسان شيء عن أحد ، فإنه يتثبت قبل أن يحكم بالشيء ، ولهذا سأل النبي ﷺ بني سلمة قبل أن يقول لهم شيئًا ، قال : بلغني أنكم تريدون كذا وكذا . قالوا : نعم . فيؤخذ منه ما ذكرت ؛ أنه ينبغي للإنسان إذا نقل له شيء عن أحد أن يتثبت قبل أن يحكم بمقتضى الشيء الذي نُقل له ، حتى يكون إنسانًا رزينًا ثقيلًا معتبرًا ، أما كونه يصدق بكل ما نُقل ؛ فإنه يفوته بذلك الشيء الكثير ، ويحصل له ضرر عظيم بل الإنسان ينبغي عليه أن يتثبت .

وفي هذا الحديث أيضًا : دليل على كثرة طرق الخيرات ، وأن منها المشي إلى المساجد ، وهو كما سبق مما يرفع اللّٰه به الدرجات ، ويحط به الخطايا ، فإن كثرة الخطا إلى المساجد سبب لمغفرة الذنوب ، وتكفير السيئات ، ورفعة الدرجات .

* * *

١٣٧ – الحَادي وَالعشْرونَ : عَنْ أبي المُنْذِر أُبَيِّ بن كعب ﷺ قال : كَانَ رَجُلٌ لا أعْلَمُ رَجُلًا أَبْعَدَ مِنَ المَسْجِد مِنْهُ ، وَكَانَ لا تُخْطِئُهُ صَلاةٌ فَقِيلَ لَهُ – أَو فَقُلْتُ لَهُ – : لَو اشْتَرَيتَ حِمَارًا تَرْكَبُهُ في الظَّلْمَاءِ ، وَفي الرَّمْضَاءِ ؟ فَقَالَ : مَا يَسُرُّنِي أَنَّ مَنْزِلِي إلَى جَنْبِ المَسْجِد ، إنِّي أُرِيدُ أنْ يُكْتَبَ لِي مَمْشَايَ إلَى المَسْجِدِ ، وَرُجُوعِي إذَا رَجَعْتُ إلَى أَهْلِي ، فَقَالَ رسول اللّٰه ﷺ : « قَد جَمَعَ اللّٰهُ لَكَ ذلِكَ كُلَّهُ » رواه مسلم .

وفي رواية : « إنَّ لَكَ مَا احْتَسَبْتَ » [١] . « الرَّمْضَاءُ » : الأَرْضُ الَّتي أَصَابَهَا الحَرُّ الشَّديدُ .

١٣٨ – الثَّاني وَالعشْرُون : عَنْ أبي محمد عبد اللّٰه بن عمرو بن العاص ﷺ قال : قال رسول اللّٰه ﷺ : « أَربَعُونَ خَصْلَةً أَعْلاهَا مَنِيحَةُ العَنْزِ ، مَا مِنْ عَامِلٍ يَعْمَل بِخَصْلَةٍ مِنْهَا رَجَاءَ ثَوَابِهَا وَتَصْدِيقَ مَوعُودِهَا إلا أَدْخَلَهُ اللّٰهُ بِهَا الجَنَّةَ » [٢] رواه البخاري .

« المَنِيحَة » : أنْ يُعْطِيَهُ إيَّاهَا لِيَأْكُلَ لَبَنَهَا ثُم يَردُّهَا إلَيهِ .

الشرح

هذان الحديثان يتعلقان بما قبلهما قبله من الأحاديث الدالة على كثرة طرق الخير ، وأن طرق الخير كثيرة ، ومنها الذهاب إلى المساجد ، وكذلك الرجوع منها ، إذا احتسب الإنسان ذلك عند اللّٰه تعالى ، فهذا الحديث الذي ذكره المؤلف رحمه الله في قصة الرجل الذي كان له بيتٌ بعيد عن المسجد ، وكان

---

(١) أخرجه مسلم في المساجد (٢٧٨) ، قوله « لا تخطئه صلاة » أي لا تفوته .

(٢) أخرجه البخاري في الهبة (٢٦٣١) ، وأبو داود في الزكاة (١٦٨٣) ، قوله « العنز » واحدة المعز والجمع أعنز وعنوز وعناز ، والحديث لم يقم الشارح رحمه الله بشرحه .

يأتي إلى المسجد من بيته من بُعد يحتسب الأجر على الله ، قادمًا إلى المسجد وراجعًا منه . فقال له بعض الناس : لو اشتريت حمارًا تركبه في الظلماء والرمضاء ، يعني في الليل حين الظلام ، في صلاة العشاء وصلاة الفجر ، أو في الرمضاء أي في أيام الحرّ الشديد ، ولا سيما في الحجاز ، فإن جوها حار . فقال ﷺ : « ما يسرني أن بيتي إلى جنب المسجد » يعني أنه مسرور بأن بيته بعيدٌ عن المسجد ، يأتي إلى المسجد بخطى ، ويرجع منه بخطى ، وهو لا يسره أن يكون بيته قريبًا من المسجد ؛ لأنه لو كان قريبًا لم تكتب له تلك الخطى ، وبيّن أنه يحتسب أجره على الله ﷻ ، قادمًا إلى المسجد وراجعًا منه . فقال ﷺ : « إن له ما احتسب » .

ففي هذا : دليل على أن كثرة الخطى إلى المساجد من طرق الخير ، وأن الإنسان إذا احتسب الأجر على الله كتب الله له الأجر حال مجيئه إلى المسجد وحال رجوعه منه .

ولا شك أن للنية أثرًا كبيرًا في صحة الأعمال ، وأثرًا كبيرًا في ثوابها ، وكم من شخصين يصليان جميعًا بعضهما إلى جنب بعض ، ومع ذلك يكون بينهما في قدر الثواب مثل ما بين السماء والأرض ، وذلك بصلاح النية وحسن العمل ، فكلما كان الإنسان أصدق إخلاصًا لله وأقوى اتباعًا لرسول الله ﷺ ، كان أكثر أجرًا ، وأعظم مثوبة عند الله ﷻ .

* * *

١٣٩ - الثَّالِثُ وَالعِشْرُونَ : عَنْ عَدِيِّ بنِ حَاتِمٍ ﷺ قال : سَمِعْتُ النَّبيَّ ﷺ يقول : « اتَّقُوا النَّارَ وَلَو بِشِقِّ تَمْرَةٍ » متفقٌ عليه .

وفي رواية لهما عنه قال : قال رسول الله ﷺ : « مَا مِنْكُمْ مِنْ أَحَدٍ إلا سَيُكَلِّمُه رَبُّه لَيسَ بَينَهُ وَبَينه تَرْجُمَانٌ ، فَيَنْظُر أَيْمَنَ مِنْهُ فَلا يَرَى إلا مَا قَدَّمَ ، وَيَنْظُر أَشْأَمَ مِنْهُ فَلا يَرَى إلا مَا قَدَّمَ ، وَيَنْظُر بَينَ يَدَيه فَلا يَرَى إلا النَّارَ تِلْقَاءَ وَجْهِهِ ، فاتَّقُوا النَّار وَلَو بِشِقِّ تَمْرَةٍ ، فَمَنْ لَمْ يَجدْ فَبِكَلِمَةٍ طَيِّبَةٍ » (١) .

الشرح

هذا الحديث في بيان شيء من طرق الخيرات ؛ لأن طرق الخيرات - ولله الحمد - كثيرة ، شرعها الله لعباده ليصلوا بها إلى غاية المقاصد ، فمن ذلك الصدقة ، فإن الصدقة كما صح عن النبي ﷺ : «تطفئ الخطيئة كما يطفئ الماء النار » (٢) يعني كما لو أنك صببت ماء على النار انطفأت ، فكذلك الصدقة تطفئ الخطيئة .

ثم ذكر المؤلف هذا الحديث الذي بين فيه أن الله ﷻ سيكلم كلَّ إنسان على حدة يوم القيامة . قال الله تعالى : ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلْإِنسَٰنُ إِنَّكَ كَادِحٌ إِلَىٰ رَبِّكَ كَدْحًا فَمُلَٰقِيهِ ﴾ [الانشقاق : ٦] يعني سوف تلاقي ربك ويحاسبك على

---

(١) أخرجه البخاري في الزكاة (١٤١٧) ، ومسلم في الزكاة (٦٧ ، ٦٨) ، قوله : « بشق » أي بنصف ، قوله : «أشأم منه » أي في الجانب الأيسر .

(٢) أخرجه الترمذي في الصلاة (٦١٤) ، وابن ماجه في السنن (٤٢١٠) ، وأحمد في مسنده (٣٩٩/٣) .

هذا الكدح ، أي الكد والتعب الذي عملت ، ولكن ذلك بشرى للمؤمنين كما قال اللّٰه تعالى : ﴿ وَاتَّقُوا اللَّهَ وَاعْلَمُوا أَنَّكُم مُّلَاقُوهُ وَبَشِّرِ الْمُؤْمِنِينَ ﴾ [البقرة : ٢٢٣] الحمد للّٰه . المؤمن إذا لاقى ربه فإنه على خير .

ولهذا قال النبي ﷺ هنا في الحديث : « ما منكم من أحد إلا سيكلمه ربه ، ليس بينه وبينه تَرْجمان » يعني يكلمه اللّٰه يوم القيامة بدون مترجم . يكلم اللّٰه كلَّ عبد مؤمن ، فيقرره بذنوبه ، يقول له : عملت كذا وكذا في يوم كذا وكذا ، فإذا أقر بها وظن أنه قد هلك ، قال : « إني قد سترتها عليك في الدنيا ، وأنا أغفرها لك اليوم » فكم من ذنوب علينا سترها اللّٰه ﷻ لا يعلمها إلا هو ، فإذا كان يوم القيامة أتم علينا النعمة ، بمغفرتها وعدم العقوبة عليها ولله الحمد . ثم قال « فينظر أيمن منه » يعني عن يمينه « فلا يرى إلا ما قدم وينظر أشأم منه » أي على يساره « فلا يرى إلا ما قدم ، وينظر بين يديه فلا يرى إلا النار تلقاء وجهه » قال النبي – عليه الصلاة والسلام – : « فاتقوا النار ولو بشق تمرة » يعني : ولو بنصف تمرة أو أقل .

ففي هذا الحديث : دليل على كلام اللّٰه ﷻ ، وأنه ﷻ يتكلم بكلام مسموع مفهوم ، لا يحتاج إلى ترجمة ، يعرفه المخاطب به .

وفيه : دليل على أن الصدقة لو قلَّت ، فإنَّها تنجي من النار ، لقوله : « اتقوا النار ولو بشق تمرة » قال : « فإن لم يجد فبكلمة طيبة » يعني إن لم يجد شق تمرة فليتق النار بكلمة طيبة . والكلمة الطيبة تشمل قراءة القرآن ، فإن أطيب الكلمات القرآن الكريم . وكذلك تشمل التسبيح والتهليل ، وكذلك تشمل الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر ، وتشمل تعليم العلم وتعلم العلم ، وتشمل كذلك كل ما يتقرب به الإنسان إلى ربه من القول ، يعني إذا لم تجد شق تمرة ؛ فإنك تتقي النار ولو بكلمة طيبة . فهذا من طرق الخير وبيان كثرتها ويسرها ، فالحمد لله أن شق التمرة تنجي من النار ، وأن الكلمة الطيبة تنجي من النار . نسأل اللّٰه أن ينجينا وإياكم من النار .

* * *

١٤٠ – الرَّابع وَالعشْرونَ : عَنْ أَنسٍ ﷺ قال : قال رسولُ اللّٰه ﷺ : « إنَّ اللّٰه لَيَرْضَى عَن العَبْدِ أنْ يَأْكُلَ الأَكْلَةَ فَيَحْمَدَه عَلَيهَا ، أو يَشْرَبَ الشَّرْبَة فَيَحْمَدَهُ عَلَيهَا » [1] رواه مسلم .

الشرح

قال المؤلف – رحمه اللّٰه تعالى – فيما نقله عن أنس بن مالك ﷺ ، أن النبي ﷺ قال : « إن اللّٰه ليرضى عن العبد أن يأكل الأكلة فيحمده عليها ، أو يشرب الشربة فيحمده عليها » وفسر المؤلف رحمه الله الأكلة بأنها الغَدْوَةَ أو العشوة ، أي الغداء أو العشاء .

ففي هذا دليل على أن رضى اللّٰه ﷻ قد يُنال بأدنى سبب ، قد يُنال بهذا السبب اليسير ولله الحمد . يرضى اللّٰه عن الإنسان إذا انتهى من الأكل قال : الحمد لله ، وإذا انتهى من الشرب قال : الحمد للّٰه ، ذلك أن للأكل والشرب آدابًا فعلية وآدابًا قولية .

---

(١) أخرجه مسلم في الذكر والدعاء (٨٩) ، وأحمد في مسنده (٣/١٠٠ ، ١١٧) ، والترمذي في الأطعمة (١٨١٦) .

أما الأداب الفعلية : فأن يأكل باليمين ويشرب باليمين ، ولا يحل له أن يأكل بشماله أو يشرب بشماله ، فإن هذا حرام على القول الراجح ، لأن النبي ﷺ نهى أن يأكل الرجل بشماله أو يشرب بشماله ، وأخبر أن الشيطان يأكل بشماله ويشرب بشماله (١) . وأكل رجل بشماله عنده فقال : كل بيمينك ، قال : لا أستطيع فقال : « لا استطعت » فما استطاع الرجل بعد ذلك أن يرفع يده اليمنى إلى فمه (٢) . عوقب بهذا والعياذ بالله .

أما الآداب القولية : فأن يسمي عند الأكل ، يقول : باسم الله ، والصحيح أن التسمية عند الأكل أو الشرب واجبة (٣) ، وأن الإنسان يأثم إذا لم يسم الله عند أكله أو شربه ؛ لأنه إذا لم يفعل : يعني لم يسم عند الأكل والشرب ؛ فإن الشيطان يأكل معه ويشرب معه .

ولهذا يجب على الإنسان إذا أراد أن يأكل أن يسمي الله ، وإذا نسي أن يسمي في أول الطعام ثم ذَكَر في أثنائه فليقل : باسم الله أوله وآخره ، وكذلك إذا نسي أحد أن يسمي فذُكِّر ، لأن النبي ﷺ ذَكَّرَ عمر بن أبي سلمة وهو ربيبه ابن زوجته أم سلمة رضي الله عنها ، حينما تقدم للأكل فأكل ، فقال له النبي ﷺ : « ياغلام سم الله وكل بيمينك وكل مما يليك » (٤) . وهذا فيه : دليل على أن التسمية إذا كانوا جماعة تكون من كل واحد ، فكل واحد يسمي ولا يكفي أن يسمي واحد عن الجميع ، بل كل إنسان يسمي لنفسه .

والتسمية : عند الأكل والشرب من الآداب القولية ، وهي واجبة لا يحل لأحد أن يدعها .

أما عند الانتهاء : فمن الآداب : أن يحمد الله على هذه النعمة حيث يسر له هذا الأكل ، مع أنه لا أحد غيره يستطيع أن ييسره ، كما قال تعالى : ﴿ أَفَرَءَيْتُم مَّا تَحْرُثُونَ ۝ ءَأَنتُمْ تَزْرَعُونَهُۥٓ أَمْ نَحْنُ ٱلزَّٰرِعُونَ ﴾ [الواقعة : ٦٣، ٦٤] ﴿ أَفَرَءَيْتُمُ ٱلْمَآءَ ٱلَّذِى تَشْرَبُونَ ۝ ءَأَنتُمْ أَنزَلْتُمُوهُ مِنَ ٱلْمُزْنِ أَمْ نَحْنُ ٱلْمُنزِلُونَ ﴾ [الواقعة : ٦٨، ٦٩] لولا أن الله عز وجل نمى هذا الزرع حتى كمل ، وتيسر حتى وصل بين يديك ، لعجزت عنه . وكذلك الماء لولا أن الله يسره فأنزله من المزن وسلكه ينابيع في الأرض حتى استخرجته ؛ لما حصل لك هذا ، ولهذا قال في الزرع : ﴿ لَوْ نَشَآءُ لَجَعَلْنَٰهُ حُطَٰمًا فَظَلْتُمْ تَفَكَّهُونَ ﴾ [الواقعة : ٦٥] وقال في الماء : ﴿ لَوْ نَشَآءُ جَعَلْنَٰهُ أُجَاجًا فَلَوْلَا تَشْكُرُونَ ﴾ [الواقعة : ٧٠] فلهذا كان من شكر نعمة الله عليك بهذا الأكل والشرب أن تحمد الله إذا انتهيت من الشرب أو من الأكل ، ويكون هذا سببًا لرضى الله عنك .

وقوله : « الأكلة » فسرها المؤلف بقوله : الغَدْوة أو العشوة ، يعني وليست الردة ، ليس كلما أكلت ردة قلت : الحمد لله ، أو كلما أكلت تمرة قلت الحمد لله ، السنة أن تقول اذا انتهيت نهائيًا ، وذكر أن الإمام أحمد رحمه الله كان يأكل ويحمد على كل ردة ، فقيل له في ذلك فقال : أكل وحمد خير من

---

(١) انظر ذلك فيما أخرجه مسلم في الأشربة (١٠٦) ، الترمذي في السنن (١٧٩٩) ، وأحمد في مسنده (٨٠/٢) .

(٢) انظر نص الحديث في مسلم في الأشربة (١٠٧) ، وأحمد في مسنده (٤٦/٤) ، والدارمي في السنن (٩٧/٢) والبيهقي في السنن (٢٧٧/٧) .

(٣) ويدل على ذلك ما أخرجه الترمذي في السنن (١٨٥٨) ، وابن ماجه في السنن (٣٢٦٤) ، وأحمد في مسنده (٢٠٨/٦) .

(٤) أخرجه البخاري في الأطعمة (٥٣٧٦) ، ومسلم في الأشربة (١٠٨) ، وابن ماجه في السنن (٣٢٦٧) .

أكل وسكوت ، ولكن لا شك أن خير الهدي هدي محمد ﷺ ، وأن الأنسان اذا حمد الله في آخر أكله أو آخر شربه كفى ، ولكن إن رأى مصلحة في الحمد - يذكر غيره أو ما أشبه ذلك - فأرجو ألا يكون في هذا بأس ، كما فعله الإمام أحمد رَحِمَهُ اللَّهُ .

* * *

١٤١ - الخَامِسُ والعشْرُونَ : عَنْ أَبِيْ مُوْسَى ﷺ ، عَنِ النَّبِيِّ ﷺ قَالَ : « عَلَى كُلِّ مُسْلِمٍ صَدَقَةٌ » قالَ : أَرَأَيْتَ إنْ لَمْ يَجِدْ ؟ قالَ : « يَعْمَل بِيَدَيْهِ فَيَنْفَع نَفْسَه وَيَتَصَدَّق » . قال : أَرَأَيْتَ إنْ لَمْ يَسْتطِعْ ؟ قالَ : « يُعِينُ ذَا الحَاجَةِ المَلْهُوفَ » قالَ : أرَأَيْتَ إنْ لَمْ يَسْتَطِعْ ؟ قالَ : « يَأْمُرُ بِالمَعْرُوفِ أَوِ الخَيْرِ » قالَ : أَرَأَيْتَ إنْ لَمْ يَفْعَلْ ؟ قالَ : « يُمْسِكُ عَنِ الشَّرِّ ؛ فَإِنَّهَا صَدَقَةٌ » (١) متفقٌ عليه .

الشرح

نقل المؤلف رَحِمَهُ اللَّهُ عن أبي موسى الأشعري ﷺ أن النبي ﷺ قال : « على كل مسلم صدقة » ، وقد مرَّ علينا مثل هذا التعبير من رسول الله ﷺ ، بل أعم منه ، حيث قال « على كل سلامى من الناس صدقة ، كل يوم تطلع فيه الشمس » (٢) ، والسلامى هي مفاصل العظام ، وهذا يدل على أن لله ﷻ علينا صدقة كل يوم ، هذه الصدقة متنوعة ؛ إما أن تكون تسبيحة ، أو تكبيرة ، أو تهليلة ، أو أمرًا بمعروف ، أو نهيًا عن منكر ، أو أن تعين الملهوف ، المهم أن طرق الخيرات كثيرة . ولكن النفس الأمارة بالسوء تثبط الإنسان عن الخير ، وإذا همَّ بشيء فتحت له بابًا غيره ، ثم اذا همَّ به فتحت له بابًا آخر حتى يضيع عليه الوقت ، ويخسر وقته ولا يستفيد منه شيئًا .

ولهذا ينبغي للإنسان أن يبادر ويسارع في الخير ، كلما فُتِحَ له باب من الخير ، فليسارعْ إليه لقوله تعالى : ﴿ فَٱسْتَبِقُواْ ٱلْخَيْرَٰتِ ﴾ [المائدة : ٤٨] ولأن الإنسان إذا انفتح له باب الخير أول مرة ثم لم يفعل ؛ فإنه يوشك أن يؤخره الله ﷻ ، وفي الحديث عن النبي ﷺ أنه قال : « لا يزال قوم يتأخرون حتى يؤخرهم الله » (٣) .

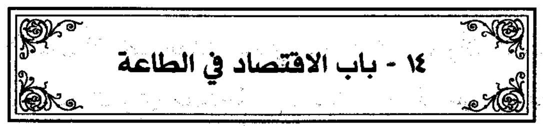
فالمهم : أنه ينبغي للإنسان العاقل الحازم المؤمن أن ينتهز سبل الخير ، وأن يحرص غاية الحرص على أن يأخذ من كل باب منها بنصيب حتى يكون ممن سارع في الخيرات ، وحتى ينال ثمرات هذه الأعمال الصالحة ، نسأل الله أنْ يعيننا وإياكم على ذكره وحسن عبادته إنه جواد كريم .

* * *

(١) أخرجه البخاري في الأدب (٦٠٢٢) ، ومسلم في الزكاة (٥٥) ، وأحمد في مسنده (٣٩٥/٤ ، ٤١١) ، قوله « أرأيت » أي أخبرني ما حكم من لم يجد ما يتصدق به ، قوله : « الملهوف » أي المضطر والمتحسر .

(٢) سبق تخرجه .

(٣) أخرجه مسلم في الصلاة (٣٠) ، وابن ماجه في السنن (٩٧٨) ، وأحمد في مسنده (٣٤/٣) .



١٤ - باب الاقتصاد في الطاعة

قال الله تعالى : ﴿ طه ۝ مَآ أَنزَلْنَا عَلَيْكَ ٱلْقُرْءَانَ لِتَشْقَىٰٓ ﴾ [طه : ١، ٢] وقال تعالى : ﴿ يُرِيدُ ٱللَّهُ بِكُمُ ٱلْيُسْرَ وَلَا يُرِيدُ بِكُمُ ٱلْعُسْرَ ﴾ [البقرة : ١٨٥] .

الشرح

لما ذكر المؤلف رَحِمَهُ ٱللَّهُ في الباب السابق كثرة طرق الخير ، بيّن في هذا الباب أنه ينبغي للإنسان أن يقتصد في الطاعة ، فقال « باب الاقتصاد في الطاعة » والاقتصاد : هو أن يكون الإنسان وسطًا بين الغلو والتفريط ، لأن هذا هو المطلوب من الإنسان في جميع أحواله ؛ أن يكون دائرًا في وسط بين الغلو والتفريط ، قال الله تعالى : ﴿ وَٱلَّذِينَ إِذَآ أَنفَقُواْ لَمْ يُسْرِفُواْ وَلَمْ يَقْتُرُواْ وَكَانَ بَيْنَ ذَٰلِكَ قَوَامًا ﴾ (1) [الفرقان : ٦٧] .

وهكذا الطاعة ينبغي أن تقتصد فيها ، بل يجب عليك أن تقتصد فيها ؛ فلا تكلف نفسك ما لا تطيق ؛ لأن النبي ﷺ لما بلغه خبر الثلاثة الذين قال أحدهم : إني لا أتزوج النساء ، وقال الثاني : أصوم ولا أفطر ، وقال الثالث : أقوم ولا أنام ، خطب - عليه الصلاة والسلام - وقال : « ما بال أقوام يقولون كذا وكذا ، إني أصلي وأنام ، وأصوم وأفطر ، وأتزوج النساء ، فمن رغب عن سنتي فليس مني » (2) ، فتبرأ النبي ﷺ ممن رغب عن سنته ، وكلف نفسه مالا تطيق .

ثم استشهد المؤلف بقوله تعالى : ﴿ طه ۝ مَآ أَنزَلْنَا عَلَيْكَ ٱلْقُرْءَانَ لِتَشْقَىٰٓ ﴾ [طه : ١، ٢] ﴿ طه ﴾ هذان حرفان من حروف الهجاء ، أحدهما طاء والثاني هاء ، وليست اسما من أسماء النبي ﷺ ، كما زعمه بعضهم ، بل هي من الحروف الهجائية التي ابتدأ الله بها في بعض السور الكريمة من كتابه العزيز ، وهي حروف ليس لها معنى ؛ لأن القرآن نزل باللغة العربية ، واللغة العربية لا تجعل للحروف الهجائية معنًى ، بل لا يكون لها معنى إلا إذا ركبت وكانت كلمة . ولكن لها مغزى عظيم ، هذا المغزى العظيم هو التحدي الظاهر لهؤلاء المكذبين للرسول - عليه الصلاة والسلام - هؤلاء المكذبون للرسول ﷺ عجزوا أن يأتوا بشيء مثل القرآن ؛ لا بسورة ، ولا بعشر سور ، ولا بآية ، ومع هذا فإن هذا القرآن الذي أعجزهم لم يأت بحروف غريبة لم يكونوا يعرفونها بل أتى بالحروف التي يركبون منها كلامهم .

ولهذا لا تكاد تجد سورة ابتدأت بهذه الحروف إلا وجدت بعدها ذكر القرآن ، في سورة البقرة ﴿ الٓمٓ ۝ ذَٰلِكَ ٱلْكِتَٰبُ لَا رَيْبَ فِيهِ ﴾ ، وفي سورة آل عمران ﴿ الٓمٓ ۝ ٱللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ٱلْحَىُّ ٱلْقَيُّومُ ۝ نَزَّلَ عَلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ بِٱلْحَقِّ ﴾ ، وفي سورة الأعراف ﴿ الٓمٓصٓ ۝ كِتَٰبٌ أُنزِلَ إِلَيْكَ فَلَا يَكُن فِى صَدْرِكَ حَرَجٌ ﴾ ، وفي سورة يونس ﴿ الٓر تِلْكَ ءَايَٰتُ ٱلْكِتَٰبِ ٱلْحَكِيمِ ﴾ ، وهكذا نجد بعد كل حروف هجائية في بداية السورة

---

(١) قوله : ﴿ يَقْتُرُواْ ﴾ أي لم يضيقوا تضييق الشحيح ، قوله ﴿ قَوَامًا ﴾ أي وسطًا .

(٢) أخرجه النسائي في السنن (٦/٦٠) بلفظه ، والبخاري في النكاح (٥٠٦٣) ، ومسلم في النكاح (٦) ، والترمذي في السنن (١٢١٤) ، ومعنى « فمن رغب عن سنتي » أي من تركها إعراضًا عنها ، غير معتقد لها على ما هي عليه .

يأتي ذكر القرآن ، وذلك إشارة إلى أن هذا القرآن كان من هذه الحروف التي يتركب منها كلام العرب ومع ذلك أعجز العرب ، هذا هو الصحيح في معنى المراد من هذه الحروف الهجائية .

وقوله ﷻ : ﴿ مَآ أَنزَلْنَا عَلَيْكَ ٱلْقُرْءَانَ لِتَشْقَىٰٓ ﴾ يعني : ما أنزل الله على النبي ﷺ هذا القرآن لينال الشقاء به ، ولكن لينال السعادة والخير والفلاح في الدنيا والآخرة ، كما قال الله ﷻ في هذه السورة نفسها : ﴿ قَالَ ٱهْبِطَا مِنْهَا جَمِيعًۢا ۖ بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ ۖ فَإِمَّا يَأْتِيَنَّكُم مِّنِّى هُدًى فَمَنِ ٱتَّبَعَ هُدَاىَ فَلَا يَضِلُّ وَلَا يَشْقَىٰ ﴿١٢٣﴾ وَمَنْ أَعْرَضَ عَن ذِكْرِى فَإِنَّ لَهُۥ مَعِيشَةً ضَنكًا وَنَحْشُرُهُۥ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ أَعْمَىٰ ﴿١٢٤﴾ قَالَ رَبِّ لِمَ حَشَرْتَنِىٓ أَعْمَىٰ وَقَدْ كُنتُ بَصِيرًا ﴿١٢٥﴾ قَالَ كَذَٰلِكَ أَتَتْكَ ءَايَٰتُنَا فَنَسِيتَهَا ۖ وَكَذَٰلِكَ ٱلْيَوْمَ تُنسَىٰ ﴿١٢٦﴾ وَكَذَٰلِكَ نَجْزِى مَنْ أَسْرَفَ وَلَمْ يُؤْمِنۢ بِـَٔايَٰتِ رَبِّهِۦ ۚ وَلَعَذَابُ ٱلْءَاخِرَةِ أَشَدُّ وَأَبْقَىٰٓ ﴾ (١) [طه : ١٢٣ - ١٢٧] ﴿ مَآ أَنزَلْنَا عَلَيْكَ ٱلْقُرْءَانَ لِتَشْقَىٰٓ ﴾ ولكن لتسعد في الدنيا والآخرة ، ولهذا لما كانت الأمة الإسلامية أمة القرآن تتمسك به وتهتدي بهديه ، صارت لها الكرامة والعزة والرفعة على جميع الأمم ، ففتحوا مشارق الأرض ومغاربها ، ولما تخلفت عن العمل بهذا القرآن تخلف عنها من العزة والنصر والكرامة بقدر ما تخلفت به من العمل بهذا القرآن .

ثم ساق المؤلف آية أخرى وهي قول الله تعالى : ﴿ يُرِيدُ ٱللَّهُ بِكُمُ ٱلْيُسْرَ وَلَا يُرِيدُ بِكُمُ ٱلْعُسْرَ ﴾ [البقرة : ١٨٥] يعني : أن الله يريد بنا فيما شرع لنا التيسير ، وهذه الآية نزلت في آيات الصيام حتى لا يظن الظان أنه أنزل على الناس للمشقة والتعب ، فبين الله تعالى أنه يريد بنا اليسر ولا يريد بنا العسر ، ولهذا من سافر لم يجب عليه الصوم ، ويقضي من أيام أخر (٢) ، ومن مرض لم يجب عليه الصوم ، ويقضي من أيام أخر (٣) ، فهذا من التيسير ﴿ يُرِيدُ ٱللَّهُ بِكُمُ ٱلْيُسْرَ وَلَا يُرِيدُ بِكُمُ ٱلْعُسْرَ ﴾ .

ولهذا كان هذا الدين الإسلامي - ولله الحمد - دين السماحة واليسر والخير والسهولة ، أسأل الله أن يرزقني وإياكم التمسك به والوفاة عليه وملاقاة ربنا عليه .

* * *

١٤٢ - وعن عائشة رضي الله عنها أن النبي ﷺ دَخَلَ عَلَيْهَا وَعِنْدَهَا امْرَأَةٌ قال : « مَنْ هذهِ ؟ » قالت : هذه فُلانَة تَذكُرُ مِن صَلاتهَا قالَ : « مهْ ، عَلَيْكُمْ بِمَا تُطِيقُونَ ، فَوَاللهِ لا يَمَلُّ اللهُ حَتَّى تَمَلُّوا » وَكَانَ

(١) قوله ﴿ مَعِيشَةً ضَنكًا ﴾ أي معيشة ضيقة شديدة ، فلا طمأنينة ولا انشراح لصدره ، فهو في قلق وحيرة وشك .

(٢) هذا هو ما عليه إجماع الفقهاء ولكنهم اختلفوا فيما إذا كان ذلك رخصة أم فرضًا ، فقال الشافعية والحنابلة : أن الإفطار أفضل لأنه عزيمة والصيام رخصة ، وقال الحنفية والمالكية : إن الصوم أفضل فهو عزيمة والإفطار رخصة ، وقال الظاهرية : إن الإفطار في حق المسافر فرض سواء كان ذلك في سفر طاعة أو معصية وإن صام فصومه باطل (انظر المغني ٣/١٥٠ ، وبداية المجتهد ١/٢٩٦ ، الهداية ١/١٢٦ ، مغني المحتاج ١/٤٣٧ ، فقه الكتاب والسنة ١/١٦٣ - ١٦٥ ، المحلى ٦/٢٤٣) .

(٣) ذكر الفقهاء أن للمريض أن يفطر إذا كان الصوم يزيد من مرضه وإن تحمل الصوم وهو مريض كُرِهَ له ذلك ، وهو ما أجمع عليه أهل العلم من المسلمين وأما مستوى المرض الذي يباح فيه الإفطار ، فللعلماء فيه قولان : الأول : أنه المرض الذي يؤول إلى المشقة والضرر ، أو الذي يتأخر بسببه الشفاء ، وهذا ما ذهب إليه أكثر أهل العلم ، والثاني : أنه كل ما يطلق عليه اسم المرض سواء كان هينًا أو شديدًا ، وهو قول الظاهرية ، ومحمد بن سيرين (انظر المغني ٣/١٤٧ ، الهداية ١/١٢٦ ، مغني المحتاج ١/٤٣٧ ، المحلى ٦/١٨٥ ، بداية المجتهد ١/٢٩٧) .

أَحَبُّ الدِّينِ إِلَيْهِ ما دَاوَمَ صَاحِبُهُ عليه [١] . متفقٌ عليه .

« وَمَهْ » كَلِمَة نَهْي وَزَجْر . وَمَعْنى « لا يَملُّ اللَّهُ » أي : لا يَقْطَعُ ثَوَابَه عَنْكُم وَجَزَاءَ أَعْمَالِكُمْ ، ويُعَامِلُكُمْ مُعَامَلَةَ المَالِّ حَتَّى تَمَلُّوا فَتَتْرُكُوا ، فَيَنْبَغِي لَكُمْ أَنْ تَأْخُذُوا مَا تُطِيقُونَ الدَّوامَ عَلَيْهِ لِيَدُومَ ثَوابُهُ لَكُمْ وَفَضْلُه عَلَيْكُمْ .

الشرح

ذكر المؤلف – رحمه اللَّه تعالى – فيما نقله عن عائشة ﵂ ، في باب الاقتصاد في الطاعة ، أن النبي ﷺ دخل عليها وعندها امرأة ، فقال : « من هذه ؟ » قالت : فلانة ، وذكرت من صلاتها ، يعني أنها تصلي كثيرًا ، فقال النبي ﷺ : « مَهْ » ، و « مه » تعني أمر بالكف ، فهي عند النحويين اسم فعل بمعنى اكفف ، وصه : بمعنى اسكت .

والمعنى : أن الرسول – عليه الصلاة والسلام – أمر هذه المرأة أن تكف عن عملها الكثير ، الذي قد يشق عليها وتعجز عنه في المستقبل فلا تديمه ، ثم إن النبي – عليه الصلاة والسلام – أمرنا أن نأخذ من العمل بما نطيق ، فقال : « عليكم بالعمل بما تطيقون » يعني : لا تكلفوا أنفسكم وتجهدوها ، فإن الإنسان إذا أجهد نفسه ، وكلف نفسه ، ملت وكلت ، ثم انحسرت وانقطعت .

وذكرت عائشة أن النبي ﷺ كان أحب الدين إليه أدومه ، أي ماداوم عليه صاحبه ، يعني أن العمل وإن قل إذا داومت عليه ، كان ذلك أحسن لك ، لأنك تفعل العمل براحة ، وتتركه وأنت ترغب فيه ، لا تتركه وأنت تمل منه ؛ ولهذا قال النبي – عليه الصلاة والسلام – : « فواللّه لا يمل اللّه حتى تملوا » ، يعني أن اللّه ﷿ يعطيكم من الثواب بقدر عملكم مهما داومتم ، فإن اللّه تعالى يثيبكم عليه .

وهذا الملل الذي يفهم من ظاهر الحديث ، أن اللّه يتصف به ليس كمللنا نحن ؛ لأن مللنا نحن ملل تعب وكسل ، وأما ملل اللّه ﷿ : فإنه صفة يختص به جل وعلا ، والله ﷻ لا يلحقه تعب ولا يلحقه كسل ، قال تعالى : ﴿ وَلَقَدْ خَلَقْنَا ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا فِى سِتَّةِ أَيَّامٍ وَمَا مَسَّنَا مِن لُّغُوبٍ ﴾ [ق : ٣٨] هذه السموات العظيمة والأرض وما بينهما خلقها اللّه تعالى في ستة أيام : الأحد والاثنين والثلاثاء والأربعاء والخميس والجمعة ، قال ﴿ وَمَا مَسَّنَا مِن لُّغُوبٍ ﴾ يعني : ما تعبنا بخلقها في هذه المدة الوجيزة مع عظمها .

ففي هذا الحديث فوائد منها : أن الانسان ينبغي له إذا رأى عند أهله أحدًا أن يسأل : من هو ؟ لأنه قد يكون هذا الداخل على الأهل ممن لا يرغب في دخوله ، فإن من النساء من تأتي إلى أهل البيت تحدثهم بأحاديث يأثمون بها من الغيبة وغيرها ، وربما تدخل امرأة – بحسن نية أو بغير حسن نية – تسأل عن البيت ، عما يفعل الزوج ، وعما يأتي به في بيته ، وعما يفعل الابن ، ثم إذا ذكر لها ذلك ظلت تذكر ذلك بازدراء وتسخط ، حتى تفسد المرأةَ على زوجها ، فلذلك ينبغي للإنسان إذا وجد عند أهله أحدًا أن

---

(١) أخرجه البخاري في الإيمان (٤٣) ، ومسلم في صلاة المسافرين (٢٢١) .

يسأل عنهم من هؤلاء ؟ كما سأل النبي - عليه الصلاة والسلام - عائشة عن المرأة التي عندها .

وفيه أيضًا : أنه ينبغي للإنسان أن لا يجهد نفسه بالطاعة ، وكثرة العمل ؛ فإنه إذا فعل هذا مل ، ثم ترك ، وكونه يبقى على العمل ولو قليلًا مستمرًا عليه أفضل ، وقد بلغ النبي ﷺ أن عبد الله بن عمرو بن العاص رضي الله عنهما قال : لأصومن النهار ، ولأقومن الليل ما عشت ، قال ذلك رغبة في الخير ، فبلغ ذلك النبي - عليه الصلاة والسلام - فقال له : « أنت الذي قلت ذلك ؟ » قال : نعم يارسول الله ، قال : « إنك لا تطيق ذلك » ثم أمره أن يصوم من كل شهر ثلاثة أيام ، فقال : إني أطيق أكثر من ذلك ، فأمره أن يصوم يومًا ويفطر يومين ، فقال : أطيق أكثر من ذلك ، فقال : « صم يومًا وأفطر يومًا » قال : إني أطيق أكثر من ذلك ، قال : لا أكثر من ذلك ، هذا صيام داود . وكَبِرَ عبد الله بن عمرو وصار يشق عليه أن يصوم يومًا ويترك يومًا ، فقال : ليتني قبلت رخصة النبي ﷺ ، ثم صار يصوم خمسة عشر يومًا سردًا ، ويفطر خمسة عشريومًا سردًا [١] .

ففي هذا دليل على أن الإنسان ينبغي له أن يعمل العبادة على وجه مقتصد ، لا غلو ولا تفريط ، حتى يتمكن من الاستمرار عليها ، وأحب العمل إلى الله أدومه وإن قل .

* * *

١٤٣ - وعن أنسٍ رضي الله عنه قال : جَاءَ ثَلاثَةُ رَهْطٍ إلَى بُيُوتِ أَزْوَاجِ النَّبيِّ ﷺ ، يَسْأَلُونَ عَنْ عِبَادَةِ النبيِّ ﷺ ، فَلَمَّا أُخْبِرُوا كأَنَّهُمْ تَقَالُّوهَا وَقالُوا : أيْنَ نَحْنُ مِنَ النبيِّ ﷺ قَدْ غُفِرَ لَهُ ما تَقَدَّمَ مِنْ ذَنْبِهِ ومَا تَأَخَّرَ ؟ . قالَ أَحَدُهُمْ : أَمَّا أَنَا فأُصَلِّي اللَّيْلَ أبدًا ، وَقالَ الآخَرُ : وَأَنَا أَصُومُ الدَّهْرَ ولا أُفْطِر ، وَقَالَ الآخَرُ : وَأَنا أَعْتَزِلُ النِّسَاءَ فَلا أَتَزَوَّج أَبَدًا ، فَجَاءَ رسول اللهِ ﷺ إلَيْهِمْ فقال : « أَنْتُمُ الَّذِينَ قُلْتُمْ كَذَا وَكَذَا ؟! أَمَا واللهِ إنِّي لأَخْشَاكُمْ للهِ وَأَتْقَاكُمْ لَه ؛ لكنِّي أَصُومُ وَأُفْطِرُ ، وَأُصَلِّي وَأَرْقُدُ ، وَأَتَزَوَّجُ النِّسَاءَ ، فَمَنْ رَغِبَ عَنْ سُنَّتِي فلَيْسَ مِنِّي » [٢] . متفقٌ عليه .

الشرح

قال المؤلف - رحمه الله تعالى - فيما نقله عن عائشة رضي الله عنها في باب الاقتصاد في العبادة : أن ثلاثة نفر جاءوا إلى بيوت النبي ﷺ يسألون زوجاته عن عمله الذي يعمله في بيته ، وذلك لأن عمل النبي ﷺ إما ظاهر يعرفه الناس كلهم ؛ كالذي يفعله في المسجد ، أو في السوق ، أو في مجتمعاته مع أصحابه ، فهذا ظاهر يعرفه غالب الصحابة الذين في المدينة ، وإما أن يكون سرًا لا يعرفه إلا مَن في بيته ، أو مَن كانوا من خدمه مثل عبد الله بن مسعود ، وأنس بن مالك وغيرهما .

فجاء هؤلاء النفر الثلاثة إلى بيوت أزواج النبي ﷺ يسألونهم كيف كانت عبادته في السر ، يعني في بيته فأُخبروا بذلك ، فكأنهم تقالوها ؛ لأن النبي - عليه الصلاة والسلام - كان يصوم ويفطر ، وكان

(١) أخرجه البخاري في الصوم (١٩٧٦) ، ومسلم في الصيام (١٩١ ، ١٩٢) .

(٢) أخرجه البخاري في النكاح (٥٠٦٣) ، ومسلم في النكاح (٥) .

يقوم ويرقد ، وكان يتزوج النساء - عليه الصلاة والسلام - ويستمتع بهن ، فكأنهم تقالوا هذا العمل ؛ لأن معهم نشاط ﷺ على حب الخير ، ولكن النشاط ليس مقياسًا ، المقياس ما جاء به الشرع ..

فجاء النبي ﷺ ، فقال : أنتم قلتم كذا وكذا ، قالوا : نعم ، لأن أحدهم قال : أصلي الليل ولا أرقد ، والثاني قال : أصوم النهار أبدًا ولا أفطر ، والثالث قال : اعتزل النساء فلا أتزوج أبدًا ، فأقروا على أنفسهم بأنهم قالوا ذلك .

ولا شك أن هذا الذي قالوا خلاف الشرع ؛ لأن هذا فيه إشقاقًا على النفس وإتعابًا لها ؛ يبقى الإنسان لا يرقد أبدًا ، كل الدهر يصلي ! هذا لا شك أنه مشق على النفس ومتعب لها ، وأنه داع إلى الملل ، وبالتالي إلى كراهة العبادة ، لأن الإنسان إذا مَلَّ الشيء كرهه .

كذلك الذي قال : أصوم أبدًا ، يبقى صيفًا وشتاء صائمًا ! هذا لا شك أنه مشقة .

والثالث قال : أعتزل النساء ولا أتزوج أبدًا ، هذا أيضًا يشق على الإنسان ، لا سيما الشباب يشق عليه أن يدع النكاح ، ثم إن التبتل وعدم النكاح منهي عنه ، قال عثمان بن مظعون : كان النبي ﷺ ينهانا عن التبتل شديدًا ، ولو أذن لنا لاختصينا [1] .

والمهم : أن هذه العبادة التي أرادها هؤلاء ﷺ كانت شاقة ، وهي خلاف السنة ، ولكن النبي - عليه الصلاة والسلام - سألهم واستقرهم : هل قالوا ذلك ؟ قالوا : نعم ، قال : « أما والله إني لأخشاكم لله وأتقاكم له ، لكني أصوم وأفطر ، وأصلي وأرقد ، وأتزوج النساء ، فمن رغب عن سنتي فليس مني » يعني مَنْ رغب عن طريقتي واتخذ عبادة أشد ، فإنه ليس مني .

ففي هذا دليل على أنه ينبغي للإنسان أن يقتصد في العبادة ، بل ينبغي له أن يقتصد في جميع أموره ؛ لأنه إن قصر فاته خير كثير ، وإن شدد ؛ فإنه سوف يكل ويعجز ويرجع ولهذا ينبغي للإنسان أن يكون في أعماله كلها مقتصدًا .

ولهذا جاء في الحديث « إن المنبتَّ لا أرضًا قطع ، ولا ظهرًا أبقى » [2] والمنبت الذي يمشي ليلًا ونهارًا دائمًا ، هذا لا أرضًا قطع ولا ظهرًا أبقى ، بل يتعب ظهره ، وبالتالي يتعب ويحسر ويقعد .

فالاقتصاد في العبادة من سنن النبي ﷺ ، فلا ينبغي لك أيها العبد أن تشق على نفسك ، وامش في أمورك رويدًا رويدًا ، وكما سبق في الحديث الذي قبل : « إن أحب العمل إلى اللّٰه أدومه وإن قل » فعليك بالراحة ، لا تقصر ولا تزد ، فإن خير الهدي هدي النبي ﷺ ، جعلني اللّٰه وإياكم من متبعي هديه الذين يمشون على طريقته وسنته .

* * *

---

(١) انظر الحديث بنصه في البخاري في النكاح (٥٠٧٤) ، ومسلم في النكاح (٦ - ٨) ، وأحمد في مسنده (٣/١٥٨) .
(٢) أخرجه البيهقي في السنن (١/١٩) ، وابن حجر في فتح الباري (١١/٢٩٧) ، والألباني في الضعيفة (شرح حديث رقم ٨) .

١٤٤ - وعن ابن مسعودٍ ﷺ أن النبي ﷺ قال : « هَلَكَ المُتَنَطِّعُونَ » قالَهَا ثَلاثًا [١] رواه مسلم .

« المُتَنَطِّعُونَ » : المُتَعَمِّقُونَ المُشَدِّدُونَ في غَيْرِ مَوْضِعِ التَّشْدِيدِ .

الشرح

قال المؤلف - رحمه الله تعالى - فيما نقله عن عبد الله بن مسعود ﷺ أن النبي ﷺ قال : « هلك المتنطعون . هلك المتنطعون » . هلك المتنطعون ، الهلاك : ضد البقاء ، يعني أنهم تلفوا وخسروا ، والمتنطعون : هم المتشددون في أمورهم الدينية والدنيوية ، ولهذا جاء في الحديث : « لا تشددوا فيشدد الله عليكم » [٢] .

وانظر إلى قصة بني إسرائيل حين قتلوا قتيلًا فادَّارؤوا فيه وتنازعوا حتى كادت الفتنة أن تسود بينهم ، فقال لهم موسى - عليه الصلاة والسلام - ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ يَأْمُرُكُمْ أَن تَذْبَحُواْ بَقَرَةً ﴾ [البقرة: ٦٧] يعني وتأخذوا جزءًا منها فتضربوا به القتيل ، فيخبركم من الذي قتله ، فقالوا له : ﴿ أَتَتَّخِذُنَا هُزُوًا ﴾ لو أنهم استسلموا وسلموا لأمر الله وذبحوا أيَّ بقرة كانت ، لحصل مقصودهم ، لكنهم تعنتوا فهلكوا ، ﴿ قَالُواْ ٱدْعُ لَنَا رَبَّكَ يُبَيِّن لَّنَا مَا هِيَ ﴾ ثم قالوا ﴿ ٱدْعُ لَنَا رَبَّكَ يُبَيِّن لَّنَا مَا لَوْنُهَا ﴾ ثم قالوا : ادع لنا ربك يبين لنا ما هي وما عملها ، وبعد أن شدد عليهم ذبحوها وماكادوا يفعلون .

كذلك أيضًا من التشديد في العبادة ، أن يشدد الإنسان على نفسه في الصلاة ، أو في الصوم ، أو في غير ذلك مما يسَّره الله عليه ؛ فإنه إذا شدد على نفسه فيما يسره الله عليه فهو هالك .

ومن ذلك : ما يفعله بعض المرضى ولا سيما في رمضان حيث يكون الله قد أباح له الفطر وهو مريض ويحتاج إلى الأكل والشرب ، ولكنه يشدد على نفسه فيبقى صائمًا ، فهذا أيضًا نقول : إنه ينطبق عليه الحديث : « هلك المتنطعون » .

ومن ذلك : ما يفعله بعض الطلبة المجتهدين في باب التوحيد ؛ حيث تجدهم إذا مرت بهم آيات صفات الرب ﷻ جعلوا ينقبون عنها ، ويسألون أسئلة ما كلفوا بها ، ولا درج عليها سلف الأمة ؛ من الصحابة والتابعين وأئمة الهدى من بعدهم ، فتجد الواحد ينقب عن أشياء ليست من الأمور التي كلف بها تنطعًا وتشدقًا ، فنحن نقول لهؤلاء : إن يسعكم ما وسع الصحابة ﷺ فأمسكوا ، وإن لم يسعكم فلا وسَّع الله عليكم ، وثقوا بأنكم ستقعون في شدة وفي حرج وفي قلق . ومثال ذلك : أن بعض الناس يقول : إن الله ﷻ له أصابع ، كما جاء في الحديث الصحيح : « إن قلوب بني آدم كلها بين أصبعين من أصابع الرحمن كقلب واحد يصرفه حيث يشاء » [٣] فيأتي هذا المتنطع ، فيبحث كم عدد هذه الأصابع ؟ وهل لها أنامل ؟ وكم أناملها ؟ وما أشبه ذلك .

---

(١) أخرجه مسلم في العلم (٧) ، والطبراني في الكبير (١٠/٢١٦) .

(٢) أخرجه أبو داود في السنن (٤٩٠٤) بلفظ : « لا تشددوا على أنفسكم فيشدد عليكم » .

(٣) أخرجه مسلم في القدر (١٧) ، وأحمد في مسنده (٢/١٦٨) .

كذلك مثلًا : « ينزل ربنا إلى السماء الدنيا كل ليلة حين يبقى الثلث الآخر »[١] ، يقول : كيف ينزل؟ ولم ثلث الليل ؟ وثلث الليل يدور على الأرض كلها ، معنى هذا أنه نازل دائمًا ، وما أشبه ذلك من الكلام الذي لا يؤجرون عليه ، ولا يحمدون ، بل هم إلى الإثم أقرب منهم إلى السلامة ، وهم إلى الذم أقرب منهم إلى المدح .

هذه المسائل التي لم يكلف بها الإنسان ، وهي من مسائل الغيب ، ولم يسأل عنها من هو خير منه ، وأحرص منه على معرفة اللَّه بأسمائه وصفاته ، يجب عليه أن يمسك عنها ، وأن يقول : سمعنا وأطعنا وصدقنا ، وآمنا ، أما أن يبحث أشياء دقيقة ما لها فائدة ؛ فإن هذا لاشك أنه من التنطع .

ومن ذلك أيضا : ما يفعله بعض الطلبة من إدخال الاحتمالات العقلية في الدلائل اللفظية ؛ فتجده يقول : يحتمل كذا ويحتمل كذا ، حتى تضيع فائدة النص ، وحتى يبقى النص كله مرجوحًا لا يستفاد منه ، فهذا غلط ، والواجب الأخذ بظاهر النصوص وطرح هذه الاحتمالات العقلية ، فإننا لو سلطنا الاحتمالات العقلية على الأدلة اللفظية في كتاب اللَّه وسنة رسوله ﷺ ، ما بقي لنا حديث واحد أو آية واحدة يستدل بها الإنسان ، ولأورد عليها كل شيء ، والأمور العقلية هذه قد تكون وهميات وخيالات من الشيطان ، يلقيها في قلب الإنسان حتى يزعزع عقيدته وإيمانه والعياذ باللَّه .

ومن ذلك أيضًا : ما يفعله بعض المتشددين في الوضوء حيث تجده مثلًا : يتوضأ ثلاثًا أو أربعًا أو خمسًا أو سبعًا أو أكثر وهو في عافية من ذلك . يذكر أن ابن عباس رضي الله عنهما كان يتوضأ ، فإذا وجهة الأرض التي تحته ، ليس فيها إلا نقط من الماء ، من قلة ما يستعمل من الماء[٢] ، وبعض الناس تجده يشدد في الماء فيشدد اللَّه عليه ، فإنه إذا استرسل مع هذا الوساوس ما كفاه أربع أو خمس ولا ست ولا أكثر من ذلك ، فيسترسل معه الشيطان حتى يخرج عن طوره .

أيضًا في الاغتسال من الجنابة ، تجد البعض يتعب تعبًا عظيمًا عند الاغتسال في إدخال الماء في أذنيه ، وفي إدخال الماء في منخريه ، وكل هذا داخل في قول الرسول – عليه الصلاة والسلام – : « هلك المتنطعون . هلك المتنطعون . هلك المتنطعون » فكل من شدد على نفسه في أمر قد وسع اللَّه له فيه ؛ فإنه يدخل في هذا الحديث .

* * *

١٤٥ – عن أبي هريرة رضي الله عنه عن النبي ﷺ قال : « إنَّ الدِّينَ يُسْرٌ ، وَلَنْ يُشَادَّ الدِّينُ إلا غَلَبَه ، فَسَدِّدُوا وَقَارِبُوا وَأَبْشِرُوا ، وَاسْتَعِينُوا بِالغَدْوَةِ وَالرَّوْحَةِ وَشَيءٍ مِنَ الدُّلْجَةِ » رواه البخاري .

---

(١) أخرجه البخاري في التهجد (١١٤٥) ، ومسلم في صلاة المسافرين (١٦٨) ، وأبو داود في الصلاة (١٣١٥) .

(٢) جعل الفقهاء من سنن الوضوء الاعتدال في استعمال الماء وهو ألا يسرف المتوضئ في وضوئه ولا يقتر ، وأيما واحد من الاثنين يُعتبَر مكروهًا لمجانبته الحق . (انظر بدائع الصنائع ١/٢٣ ، الأم ١/٢٨ ، أسهل المدارك ١/٣٢ ، المحلى ٢/٧٢ ، فقه الكتاب والسنة ٤/١٩٣٨) .

وفي رواية له : « سَدِّدُوا وَقَارِبُوا وَاغْدوا وَرُوحُوا ، وَشَيءٌ مِنَ الدُّلْجَةِ القَصْدَ القَصْدَ تَبْلُغُوا » (١) .

قوله : « الدِّينُ » هُوَ مَرْفُوعٌ عَلَى ما لَمْ يُسَمَّ فَاعِلُه . وَرُوِيَ مَنْصُوبًا ، وَرُوِيَ : « لَنْ يُشَادَّ الدِّينَ أَحَدٌ » . وقوله ﷺ : « إلا غَلَبَهُ » : أيْ : غَلَبَه الدِّينُ وَعَجَزَ ذلكَ الْمُشَادُّ عَنْ مُقَاوَمَةِ الدِّينِ لِكَثْرَة طُرُقِهِ . « وَالغَدْوَةُ » سَيْرُ أَوَّل النَّهَارِ . « والرَّوْحَةُ » : آخِرُ النَّهَارِ . « والدُّلجة » : آخر الليل وهذا استعارة وتمثيل ، ومعناهُ : استعينوا على طاعة اللَّه ﷻ بالأعمال في وقت نَشَاطِكُمْ ، وفراغ قُلُوبكُمْ بحيث تَسْتَلذُّونَ العبَادَةَ ولا تَسْأَمُون وتبلغون مَقْصُودَكُمْ كما أن المسافر الحَاذِق يسير في هذه الأوقات ويستريح هو ودابته في غيرها ، فَيَصِلُ المقصودُ بِغَيْرِ تَعَبٍ ، واللَّه أعلم .

الشرح

ساق المؤلف رحمه الله في باب القصد في العبادة حديث أبي هريرة رضي الله عنه ، أن النبي ﷺ قال : « إنَّ الدِّينَ يُسْرٌ » يعني أن الدين الذي بعث به اللَّه محمدًا ﷺ ، والذي يدين به العباد ربهم ويتعبدون له به يسر ، كما قال ﷻ ﴿ يُرِيدُ ٱللَّهُ بِكُمُ ٱلْيُسْرَ وَلَا يُرِيدُ بِكُمُ ٱلْعُسْرَ ﴾ [البقرة: ١٨٥] وقال تعالى حين ذكر أمره بالوضوء والغسل من الجنابة والتيمم – عند العدم أو المرض – قال : ﴿ مَا يُرِيدُ ٱللَّهُ لِيَجْعَلَ عَلَيْكُم مِّنْ حَرَجٍ ﴾ [المائدة : ٦] وقال تعالى : ﴿ وَجَٰهِدُواْ فِى ٱللَّهِ حَقَّ جِهَادِهِۦ ۚ هُوَ ٱجْتَبَىٰكُمْ وَمَا جَعَلَ عَلَيْكُمْ فِى ٱلدِّينِ مِنْ حَرَجٍ ۚ ﴾ [الحج : ٧٨] . فالنصوص كلها تدل على أن هذا الدين يسر ، وهو كذلك .

ولو تفكر الإنسان في العبادات اليومية لوجد الصلاة خمس صلوات ميسرة موزعة في أوقات ، يتقدمها الطهر ؛ طهر للبدن وطهر للقلب ، فيتوضأ الإنسان عند كل صلاة ، ويقول : « أشهد ألا إله إلا اللَّه وأشهد أن محمدًا عبده ورسوله ، اللَّهم اجعلني من التوابين واجعلني من المتطهرين » (٢) . فيطهر بدنه أولًا ثم يطهر قلبه بالتوحيد ثانيًا ، ثم يصلي . ولو تفكرت أيضًا في الزكاة ، وهي الركن الثالث من أركان الإسلام ، تجد أنها سهلة ، فأنَّها لا تجب إلا في الأموال النامية ، أو ما في حكمها ، ولا تجب في كل مال ، بل في الأموال النامية التي تنمو وتزيد كالتجارة ، أو ما في حكمها كالذهب والفضة وإن كان لا يزيد ، أما ما يستعمله الإنسان في بيته ، وفي مركوبه ، فقد قال النبي – عليه الصلاة والسلام – : « ليس على المسلم في عبده ولا فرسه صدقة » (٣) جميع أواني البيت وفرش البيت والسيارات وغيرها مما يستعمله الإنسان لخاصة نفسه ، فإنه ليس فيه زكاة .

ثم الزكاة الواجبة يسيرة جدًّا ؛ فهي ربع العشر ، يعني واحدًا من أربعين ، وهذا أيضًا يسير ، ثم إذا

---

(١) أخرجه البخاري في الإيمان (٣٩) ، قوله « فسددوا » أي الزموا السداد ، وهو التوسط من غير إفراط ولا تفريط ، قوله « القصدَ » منصوب على الإغراء ، والمقصود : الزموا التوسط من غير إفراط ولا تفريط .

(٢) أخرجه الترمذي في الطهارة (٥٥) ، وأحمد في مسنده (٢٦٥/٣ ، ١٤٥/٤ ، ١٤٦) .

(٣) أخرجه البخاري في الزكاة (١٤٦٣) ، ومسلم في الزكاة (٨ ، ٩) ، والنسائي في السنن (٣٥/٥) ، وأحمد في مسنده (٢٤٩/٢) .

أديت الزكاة فإنها لن تنقص مالك ، كما قال النبي - عليه الصلاة والسلام - : « ما نقصت صدقة من مال » [1] ، بل تجعل فيه البركة وتنميه وتزكيه وتطهره .

وانظر إلى الصوم فهو أيضًا يسير ، فليس كل السنة ولا نصف السنة ولا ربع السنة ، بل شهر واحد من اثني عشر شهرًا ، وفوق ذلك فهو ميسر ، إذا مرضت فأفطر ، إذا سافرت فأفطر ، إذا كنت لا تستطيع الصوم في كل دهرك فأطعم عن كل يوم مسكينًا .

والحج أيضًا ميسر ، قال تعالى : ﴿ وَلِلَّهِ عَلَى ٱلنَّاسِ حِجُّ ٱلْبَيْتِ مَنِ ٱسْتَطَاعَ إِلَيْهِ سَبِيلًا ﴾ [آل عمران : ٩٧] ومن لم يستطع إن كان غنيًا بماله أناب من يحج عنه ، وإن كان غير غني بماله ولا بدنه سقط عنه الحج .

والحاصل أن الدين يسر ؛ يسر في أصل التشريع ، ويسر فيما إذا طرأ ما يوجب الحاجة إلى التيسير ، قال النبي - عليه الصلاة والسلام - لعمران بن حصين : « صل قائمًا ، فإن لم تستطع فقاعدًا ، فإن لم تستطع فعلى جنب » [2] فالدين يسر .

ثم قال النبي ﷺ : « ولن يشاد الدين أحد إلا غلبه » يعني لن يطلب أحد التشدد في الدين إلا غلب وهزم ، وَكَلَّ ومَلَّ وتعب ، ثم استحسر فترك ، هذا معنى قوله : « لن يشاد الدين أحد إلا غلبه » يعني أنك إذا شددت الدين وطلبت الشدة ، فسوف يغلبك الدين ، وسوف تهلك ، كما قال النبي ﷺ في الحديث السابق ، « هلك المتنطعون » .

ثم قال - عليه الصلاة والسلام - : « فسددوا ، وقاربوا ، وأبشروا » ، سدد : افعل الشيء على وجه السداد والإصابة ، فإن لم يتيسر فقارب ، ولهذا قال : « وقاربوا » والواو هنا بمعنى « أو » ، يعني سددوا إن أمكن وإن لم يمكن فالمقاربة ، « وأبشروا » يعني أبشروا أنكم إذا سددتم وأصبتم ، أو قاربتم ، فأبشروا بالثواب الجزيل والخير والمعونة من الله ﷻ ، وهذا يستعمله النبي - عليه الصلاة والسلام - كثيرًا حيث يبشر أصحابه بما يسرهم ، ولهذا ينبغي للإنسان أن يحرص على إدخال السرور على إخوانه ما استطاع بالبشارة والبشاشة وغير ذلك .

ومن ذلك : أن النبي - عليه الصلاة والسلام - لما حدث أصحابه بأن الله تعالى يقول يوم القيامة : « يا آدم ، فيقول : لبيك وسعديك ، فيقول : أخرج من ذريتك بعث النار » أو قال « بعثًا إلى النار ، قال : يارب ما بعث النار ؟ قال : من كل ألف تسعمائة وتسعة وتسعون من بني آدم كلهم من أهل النار ، وواحد في الجنة » ، عظم ذلك على الصحابة وقالوا : يارسول الله أينا ذلك الواحد ؟ قال : « أبشروا فإنكم في أمتين ما كانتا في شيء إلا كثرتاه يأجوج ومأجوج » ثم قال : « إني لأرجو أن تكونوا ربع أهل الجنة ، ثلث أهل الجنة ، شطر أهل الجنة » حتى كبر الصحابة فرحًا بذلك [3] ، فهنا قال النبي ﷺ : « أبشروا » .

---

(١) أخرجه مسلم في البر والصلة (٦٩) ، وأحمد في مسنده (٢/٢٣٥) ، والترمذي في السنن (٢٠٢٩) .

(٢) أخرجه البخاري في تقصير الصلاة (١١١٧) ، وأبو داود في الصلاة (٩٥٢) ، والترمذي في الصلاة (٣٧٢) .

(٣) أخرجه البخاري في أحاديث الأنبياء (٣٣٤٨) .

وهكذا ينبغي للإنسان أن يستعمل البُشْرى لإخوانه ما استطاع ولكن أحيانًا يكون الإنذار خيرًا للأخ المسلم ، فقد يكون أخوك المسلم في جانب تفريط في واجب ، أو انتهاك لمحرم فيكون من المصلحة أن تنذره وتخوفه ، فالإنسان ينبغي له أن يستعمل الحكمة ، ولكن يغلب جانب البشرى ، فلو جاءك رجل مثلًا وقال : إنه أسرف على نفسه ، وفعل معاصٍ كبيرة ، وسأل هل له من توبة ؟ فينبغي لك أن تقول : نعم أبشر ، إذا تبت تاب اللَّه عليك ، فتدخل عليه السرور ، وتدخل عليه الأمل حتى لا ييأس من رحمة اللَّه ﷻ .

الحاصل : أن الرسول - عليه الصلاة والسلام - حثهم أن : « سددوا وقاربوا ، وأبشروا ، واستعينوا بالغدوة والروحة ، وشيء من الدلجة » ، « والقصد القصد تبلغوا » . ومعناه استعينوا في أطراف النهار ؛ أوله وآخره وشيء من الليل . « والقصد القصد تبلغوا » : هذا يحتمل أن الرسول ﷺ أراد أن يضرب مثلًا للسفر المعنوي بالسفر الحسي ، فإن الإنسان المسافر حسًا ينبغي له أن يكون سيره في أول النهار وفي آخر النهار وفي شيء من الليل ؛ لأن ذلك هو الوقت المريح للراحلة وللمسافر ، ويحتمل أنه أراد بذلك : أن أول النهار وآخره محلُّ التسبيحِ ، كما قال تعالى : ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱذْكُرُوا۟ ٱللَّهَ ذِكْرًا كَثِيرًا ۝ وَسَبِّحُوهُ بُكْرَةً وَأَصِيلًا ﴾ [الأحزاب : ٤١] وكذلك الليل محل القيام .

على كل حال إن الرسول - عليه الصلاة والسلام - أمرنا ألا نجعل أوقاتنا كلها دأبًا في العبادة ؛ لأن ذلك سيؤدي إلى الملل والاستحسار والتعب والترك في النهاية .

* * *

١٤٦ - وَعَنْ أَنَسٍ ﷺ قَالَ : دَخَلَ النَّبِيُّ ﷺ الْمَسْجِدَ فَإِذَا حَبْلٌ مَمْدُودٌ بين الساريتين فقال : « مَا هَذَا الحَبْلُ ؟ » قَالُوا : هَذَا حَبْلٌ لِزَيْنَبَ ، فَإِذَا فَتَرَتْ تَعَلَّقَتْ بِهِ . فَقَالَ النَّبِيُّ ﷺ : « حُلُّوهُ ، لِيُصلِّ أَحَدُكُمْ نَشَاطَهُ ، فَإِذَا فَتَرَ فَلْيَرْقُدْ » (١) متفقٌ عليه .

الشرح

ذكر المؤلف رحمه الله فيما نقله أنس بن مالك ﷺ عن النبي ﷺ أنه دخل المسجد - يعني المسجد النبوي - فإذا حبل مربوط بين ساريتين ، أي : بين عمودين ، فقال : « ما هذا ؟ » قالوا : هذا حبل لزينب تربطه فإذا تعبت من الصلاة تعلقت به من أجل أن تنشط ، فقال النبي ﷺ : « حلُّوه » أي أخروه وأزيلوه ، ثم قال : « لِيُصَلِّ أَحَدُكُمْ نَشَاطَهُ فإِذَا تَعِبَ فَلْيَرْقُدْ » .

ففي هذا : دليل على أنه لا ينبغي للإنسان أن يتعمق وأن يتنطع في العبادة ، وأن يكلف نفسه ما لا يطيق ، وأن يصلي مادام نشيطًا ، فإذا تعب فليرقد ولينم ؛ لأنه إذا صلى مع التعب تشوش فكره وسئم ومل وربما كره العبادة ، وربما ذهب ليدعو لنفسه فإذا به يدعو عليها ، فلو سجد وأصابه النعاس ربما أراد أن يقول رب اغفر لي ، قال : رب لا تغفر لي ؛ لأنه نائم ، فلهذا أمر النبي - عليه الصلاة

---

(١) أخرجه البخاري في التهجد (١١٥٠) ، ومسلم في صلاة المسافرين (٢١٩) ، وأحمد في مسنده (٢٥٦/٣) ، وابن ماجه في إقامة الصلاة (١٣٧١) .

والسلام - بحل هذا الحبل ، وأمرنا أن يصلي الإنسان نشاطه ، فإذا تعب فليرقد .

وهذا وإن ورد في الصلاة فإنه يشمل جميع الأعمال ، فلا تكلف نفسك ما لا تطيق ، بل عامل نفسك بالرفق واللين ، ولا تتعجل في الأمور ، فالأمور ربما تتأخر لحكمة يريدها الله ﷻ ، ولا تقل : إني أريد أن أتعب نفسي ، بل انتظر وأعط نفسك حقها ثم بعد ذلك يحصل لك المقصود .

ومن ذلك أيضًا : ما يفعله بعض الطلبة حيث يطالع في دروسه وهو نعسان ، فيتعب نفسه ولا يحصل شيئًا ، لأن الذي يراجع وهو نعسان لا يستفيد ، وإن ظن أنه يستفيد فإنه لا شيء ، ولهذا ينبغي على الإنسان إذا أصابه النعاس وهو يراجع كتبًا - سواء كتبًا منهجية أو غير ذلك - ينبغي له أن يغلق الكتاب ، وأن ينام ويستريح .

وهذا يعم جميع الأوقات حتى ولو بعد صلاة الفجر أو بعد صلاة العصر طالما أراد أن يرقد ويستريح فلا حرج ، فكلما أتاك النوم فنم ، وكلما صرت نشيطًا فاعمل ﴿ فَإِذَا فَرَغْتَ فَانصَبْ ۝ وَإِلَىٰ رَبِّكَ فَارْغَب ﴾ [1] [الشرح : ٧، ٨] كل الأمور اجعلها بالتيسير إلا ما فرض الله عليك ، فلابد أن يكون في الوقت المحدد له . وأما الأمور التطوعية ؛ فالأمر فيها واسع ، فلا تتعب نفسك في شيء .

* * *

١٤٧ - وَعَنْ عَائِشَةَ رضي الله عنها أَنَّ رَسُولَ اللَّه ﷺ قَالَ : « إِذَا نَعَسَ أَحَدُكُمْ وَهُوَ يُصَلِّي ، فَلْيَرْقُدْ حَتَّى يَذْهَبَ عَنْهُ النَّوم ، فَإِنَّ أَحَدَكُمْ إِذَا صَلَّى وَهُو نَاعِسٌ لا يَدْرِي لَعَلَّهُ يَذْهَبُ يَسْتَغْفِرُ فيسبُّ نَفْسَهُ » [2] متفقٌ عليه .

الشرح

ذكر المؤلف رحمه الله فيما نقله عن عائشة رضي الله عنها أن رسول الله ﷺ قال : « إذا نعس أحدكم وهو يصلي ، فليرقد حتى يذهب عنه النوم » . النعاس هو فترةٌ في الحواس يكون نتيجة غلبة النوم ، فلا يستطيع الإنسان معه أن يتحكم في حواسه ، ولذلك أرشد النبي ﷺ من غلب عليه النعاس وهو يصلي أن ينصرف من صلاته ، ولا يصلي وهو ناعس ، ثم علل ذلك بقوله : « فإن أحدكم إذا صلى وهو ناعس لا يدري لعله يذهب يستغفر فيسب نفسه » بدل أن يقول : اللهم اغفر لي ذنبي أو ما أذنبت ، يذهب يسب نفسه بهذا الذنب الذي أراد أن يستغفر الله منه ، وكذلك ربما أراد أن يسأل الله الجنة فيسأله النار ، وربما أراد أن يسأل الهداية فيسأل ربه الضلالة وهكذا ، ولهذا أمره النبي ﷺ أن يرقد .

ومن حكَم ذلك : أن الإنسان لنفسه عليه حق ، فإذا أجبر نفسه على فعل العبادة مع المشقة فإنه يكون قد ظلم نفسه ، فأنت يا أخي لا تفرط فتقصر ولا تفرط فتزيد .

---

(١) قوله : ﴿ فَانصَبْ ﴾ أي اجتهد في العبادة ، إذا فرغ من عبادة أتبعها بأخرى ، والنصب هو التعب ، وقوله ﴿ فَارْغَب ﴾ أي : اجعل ضراعتك ورغبتك إلى ربك .

(٢) أخرجه مسلم في الوضوء (٢١٢) ، ومسلم في الصلاة (٢٢٢) ، وأحمد في مسنده (٢٠٢/٦) .

١٤٨ - وعن أَبِي عَبْدِ اللَّهِ جابر بن سَمُرَةَ رضي الله عنهما قال: «كنت أُصَلِّي مَعَ النَّبِيِّ ﷺ الصَّلَوَاتِ، فَكَانَتْ صَلَاتُهُ قَصْدًا وَخُطْبَتُهُ قَصْدًا»(١) رَوَاهُ مُسْلِمٌ.

قولُهُ «قَصْدًا»: أَي بَيْنَ الطُّولِ والقِصَرِ.

الشرح

أما حديث جابر بن سمرة رضي الله عنهما، فقد قال: «إنه صلى مع النبي ﷺ»، والظاهر أنه يريد الجمعة، «فكانت صلاته قصدًا، وخطبته قصدًا» والقصد: معناه التوسط، الذي ليس فيه تخفيف مخل ولا تثقيل ممل، وقد ثبت عن النبي - عليه الصلاة والسلام - أنه قال: «إن طول صلاة الرجل وقصر خطبته مئنة من فقهه»(٢) أي علامة على فقهه ودليل عليه، والذي يؤخذ من هذين الحديثين أنه لا ينبغي للإنسان أن يحمل نفسه ويشق عليها في العبادة، وإنما يأخذ ما يطيق.

* * *

١٤٩ - وَعَنْ أَبِي جُحَيْفَةَ وَهْبِ بنِ عَبْدِ اللَّهِ رضي الله عنه قال: «آخَى النَّبِيُّ ﷺ بين سَلْمَانَ وأبي الدَّرْدَاء، فَزَارَ سَلْمَانُ أَبَا الدَّرْدَاءِ، فرأى أُمَّ الدَّرْدَاء مُتَبَذِّلَةً، فقال: مَا شَأْنُكِ؟ قالت: أَخُوكَ أَبُو الدَّرْدَاءِ لَيْسَ لَهُ حَاجَةٌ فِي الدُّنْيَا، فَجَاءَ أَبُو الدَّرْدَاء فصنع له طعامًا، فَقَالَ لَهُ: كُلْ فَإِنِّي صَائِمٌ، قَالَ: مَا أنا بآكِلٍ حَتَّى تَأْكُلَ، فَأَكَلَ، فَلَمَّا كَانَ اللَّيْلُ ذَهَبَ أَبُو الدَّرْدَاء يَقُومُ، فَقَالَ لَهُ: نَمْ، فَنَامَ، ثم ذَهَبَ يَقُومُ، فَقَالَ لَهُ: نَمْ، فَلَمَّا كَانَ من آخِرِ اللَّيْلِ قالَ سَلْمَانُ: قُم الآنَ: فَصَلَّيَا جَمِيعًا، فقال له سَلْمَانُ: إِنَّ لِرَبِّكَ عَلَيْكَ حَقًّا، وَإِنَّ لنفسكَ عَلَيْكَ حَقًّا، وَلأَهْلِكَ عَلَيْكَ حَقًّا، فَأَعْطِ كُلَّ ذِي حَقٍّ حَقَّه، فَأَتَى النبيَّ ﷺ فَذَكَرَ ذلكَ له. فقالَ النبيُّ ﷺ. «صَدَقَ سَلْمَان»(٣) رَوَاهُ البُخَارِيُّ.

١٥٠ - وَعَنْ أَبِي مُحَمَّدٍ عَبْدِ اللَّهِ بنِ عَمْرِو بن العاصِ رضي الله عنهما قال: أُخْبِرَ النبي ﷺ أَنِّي أَقُول: وَاللَّهِ لأصومَنَّ النَّهَارَ، ولأَقُومَنَّ اللَّيْلَ مَا عِشْتُ، فَقَالَ رسولُ اللَّهِ ﷺ: «أَنْتَ الَّذي تَقُولُ ذَلِكَ؟» فَقُلْت له: قَدْ قُلْتُه بأَبِي أَنْتَ وأُمِّي يَا رَسُولَ اللَّهِ. قَالَ: «فَإِنَّكَ لا تَسْتَطِيع ذلكَ، فَصمْ وَأَفْطر، وَنَمْ وَقُمْ، وَصُمْ منَ الشَّهْرِ ثَلاثَةَ أَيَّامٍ؛ فَإِنَّ الحَسَنَةَ بِعَشْرِ أَمْثَالها، وَذلكَ مثْلُ صِيَامِ الدَّهْر» قُلْت: فَإِنِّي أُطيق أَفْضَلَ منْ ذلك، قَالَ: «فَصمْ يَوْمًا وَأفطرْ يَوْمين»، قلت: فإني أطيق أَفْضَلَ منْ ذلكَ، قَالَ: «فَصمْ يَوْمًا وأَفْطرْ يومًا، فَذلكَ صِيَام دَاودَ ﷺ، وَهُوَ أَعْدَل الصِّيام». وَفي روايةٍ: «هو أَفْضَلُ الصِّيَام» فَقُلْتُ: فَإِنِّي أُطيقُ أَفْضَلَ منْ ذلكَ. فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «لا أَفْضَلَ مِنْ ذَلِكَ» ولأَنْ أَكُونَ قَبلْتُ الثَّلاثَةَ الأَيَّامِ الَّتي قال رَسُولُ اللَّهِ ﷺ أَحَبُّ إِلَيَّ منْ أَهْلي وَمَالي.

---

(١) أخرجه مسلم في الجمعة (٤٢).

(٢) أخرجه مسلم في الجمعة (٤٨)، وأحمد في مسنده (٤/٢٦٣)، والبيهقي في السنن (٣/٢٠٨).

(٣) أخرجه البخاري في الصوم (١٩٦٨).

وفي رواية : « أَلَمْ أُخْبَرْ أَنَّكَ تَصومُ النَّهارَ وَتَقُومُ اللَّيْل ؟ » قلت : بَلَى يَا رَسول اللَّهِ ، قَالَ : « فَلا تَفْعَل : صُمْ وَأَفْطِرْ ، وَنَمْ وَقُمْ ؛ فإِنَّ لجَسدِكَ عَلَيْكَ حقًّا ، وَإنّ لعَيْنيْكَ عَلَيْكَ حقًّا ، وَإنَّ لزَوجك عَلَيْكَ حقًّا ، وَإنَّ لزَوْركَ عَلَيْكَ حقًّا ، وَإنَّ بحَسْبكَ أَنْ تَصُومَ في كُلِّ شَهْر ثَلاثَةَ أيَام ، فَإنَّ لَكَ بكُلِّ حَسَنةٍ عَشْرَ أَمْثَالِهَا ، فَإنَّ ذلكَ صِيَامُ الدَّهْرِ » فَشَدَّدْتُ فَشُدِّدَ عَلَيَّ ، قُلْت : يا رسول اللَّهِ إنِّي أجِدُ قوَّة ، قال : « صُمْ صِيامَ نَبيِّ اللَّهِ دَاوُدَ ولا تَزدْ عَلَيْهِ » قلت : وَمَا كَانَ صِيَامَ داودَ ؟ قال : « نِصْفُ الدَّهْرِ » فَكَانَ عَبْدُ اللَّهِ يقول بَعْد مَا كَبِر : يَالَيْتَنِي قَبلْتُ رُخصة رسول اللَّه ﷺ .

وفي روايةٍ : « أَلَمْ أُخْبَرْ أَنَّكَ تَصُومُ الدَّهْر ، وَتَقْرأُ القُرآنَ كُلَّ لَيْلَةٍ ؟ » فَقُلْتُ : بلَى يا رسول اللَّه ؛ وَلَمْ أُرِدْ بذلِكَ إلا الخيْرَ ، قَالَ : « فَصُمْ صَوْمَ نَبي اللَّه دَاودَ ؛ فَإنَّه كَانَ أَعْبَدَ النَّاسِ ، وَاقْرأ القُرْآنَ في كُلِّ شَهْرٍ » قُلْت : يَا نَبيَّ اللَّهِ إنِّي أُطِيق أَفْضَلَ مِنْ ذلِكَ ؟ قَالَ : « فَاقْرَأْهُ في كُلِّ عِشْرِينَ » قُلْتُ : يَا نبيَّ اللَّهِ إنِّي أطِيقِ أَفْضَل مِنْ ذلِكَ ؟ قَالَ : « فَاقْرَأه في كُلِّ عَشْر » قُلْت : يَا نبيَّ اللَّهِ إنِّي أُطِيق أَفْضلَ مِنْ ذلِكَ ؟ قالَ : « فَاقْرَأه في كُلِّ سَبْعٍ وَلا تَزِدْ عَلَى ذلِكَ » فَشَدَّدْتُ فَشُدِّدَ عَلَيَّ ، وَقَالَ لي النَّبيُّ ﷺ : « إنَّكَ لا تَدْرِي لَعَلَّكَ يَطُولُ بِكَ عُمُرٌ » قَالَ : فَصِرْت إلَىَ الَّذِي قَال لي النَّبيُّ ﷺ ، فَلَمَّا كَبِرْتُ وَدِدْت أنِّي كُنْت قَبِلْتُ رخْصَةَ نَبيِّ اللَّهِ ﷺ .

وفي رواية : « وَإنَّ لِوَلَدِكَ عَلَيْكَ حَقًّا » وفي رواية : « لا صَامَ مَنْ صَامَ الأَبَدَ » ثلاثًا . وفي رواية : « أَحَبُّ الصِّيَام إلَى اللَّه تَعَالَى صِيَامُ دَاوُدَ ، وَأَحبُّ الصَّلاةِ إلَى اللَّهِ تَعَالَى صَلاةُ دَاوُدَ : كَانَ يَنَامُ نِصْفَ اللَّيْلِ ، وَيَقُومُ ثُلُثَهُ ، وَيَنَامُ سُدُسَهُ ، وَكَانَ يَصُومُ يَوْمًا وَيُفْطِرُ يَوْمًا ، وَلا يَفِرُّ إذَا لاقَى » .

وفي رواية قَالَ : أَنْكَحَنِي أَبِي امْرَأَةً ذَاتَ حَسَب ، وَكَانَ يَتَعَاهَدُ كَنَّتَهُ - أي : امْرَأَةَ وَلَده - فَيَسْأَلُهَا عَنْ بَعْلِهَا ، فَتَقُولُ لَهُ : نِعْمَ الرَّجُلُ مِنْ رجُلٍ لَمْ يَطَأْ لَنَا فِراشًا وَلَمْ يُفَتِّشْ لَنَا كَنَفًا مُنذُ أَتَيْناهُ . فَلَمَّا طَالَ ذلِكَ عليه ذَكَر ذلِكَ للنبيِّ ﷺ . فَقَالَ : « القَني به » فَلَقيتُهُ بَعْد ذلك فَقَالَ : « كَيْفَ تَصُومُ ؟ » قُلْتُ : كُلَّ يَوْم ، قال : « وَكَيْفَ تَخْتِمُ ؟ » قلتُ : كُلَّ لَيْلَةٍ ، وَذَكَرَ نَحْوَ ما سَبَقَ ، وَكَانَ يَقْرَأُ عَلَى بَعْض أَهْلِه السُّبُعَ الَّذي يَقْرَؤُهُ ، يَعْرِضُهُ مِنَ النهار ليَكُونَ أَخفَّ عَلَيْهِ باللَّيْلِ ، وإِذَا أَرَادَ أَنْ يَتَقَوَّى أَفْطَرَ أَيَّامًا وَأَحْصَى وَصَامَ مِثْلَهُنَّ كَرَاهِيَةَ أَنْ يَترُكَ شيئًا فَارَقَ عَلَيه النَّبي ﷺ [1] .

كُلُّ هذِهِ الرِّوايات صَحِيحَةٌ مُعْظَمُهَا في الصَحيحَيْنِ وَقَليلٌ مِنْهَا في أَحَدِهِمَا .

---

(١) هذا الحديث لم يقم الشارح رحمه الله بنحوه والحديث أخرجه البخاري في الصوم (١٩٧٦ ، ١٩٧٧ ، ١٩٧٨ ، ١٩٧٩) ومسلم في الصيام (١٨١) ، قوله : « لزورك » أي لضيفك ، قوله : « إذا لاقى » أي إذا لاقى العدو ، قوله : « كنّته » الكنة : امرأة ابن الرجل وامرأة أخيه وهي هنا امرأة ولده ، قوله : « رجل لم يطأ لنا فراشًا » كناية عن المضاجعة ، قوله : « ولم يكشف لنا كنفًا » أي سترًا وذلك تعبير منها عن امتناعه عن جماعها .

الشرح

قال المؤلف - رحمه الله تعالى - فيما رواه عن أبي جحيفة وهب بن عبد الله : أن النبي ﷺ آخى بين سلمان وأبي الدرداء رضي الله عنهما جميعًا ، آخى بينهما : أي عقد بينهما عقد أخوة ، وذلك أن المهاجرين حين قدموا المدينة آخى النبي ﷺ بينهم وبين الأنصار ، الذين تبوءوا الدار والإيمان من قبلهم ، فكان المهاجرون في هذا العقد للأنصار بمنزلة الأخوة ، حتى إنهم كانوا يتوارثون بهذا حتى أنزل الله عز وجل : ﴿ وَأُولُوا الْأَرْحَامِ بَعْضُهُمْ أَوْلَىٰ بِبَعْضٍ فِي كِتَابِ اللَّهِ ﴾ [الأنفال: ٧٥] .

فجاء سلمان ذات يوم ، ودخل على دار أخيه أبي الدرداء رضي الله عنه ، فوجد امرأته أم الدرداء ، يعني : ليست عليها ثياب المرأة ذات الزوج ، بل عليها ثياب ليست جميلة ، فقال لها : ما شأنك ؟ قالت : إن أخاك أبا الدرداء ليس له شيء من الدنيا ، يعني : أنه معرض عن الدنيا وعن الأهل وعن الأكل وعن كل شيء . ثم إن أبا الدرداء لما جاء صنع لسلمان طعامًا ، فقدمه إليه وقال : كل فإني صائم ، فقال له : كل وأفطر ولا تصم ، لأنه علم من حاله - بواسطة كلام زوجته - أنه يصوم دائمًا ، وأنه معرض عن الدنيا وعن الأكل وغيره ، فأكل ، ثم نام ، فقام ليصلي فقال له سلمان : نم ، فنام ، ثم قام ليصلي ، فقال : نم ، ولما كان في آخر الليل قام سلمان رضي الله عنه وصليا جميعًا .

وقوله : « صليا جميعًا » : ظاهره أنهما صليا جماعة ، ويحتمل أنهما صليا جميعًا في الزمن وكل يصلي وحده ، وهذه المسألة وأعني الصلاة جماعة في صلاة الليل جائزة ، لكن لا تفعل دائمًا ولكن تفعل أحيانًا ، فقد صلى النبي ﷺ صلاة الليل جماعة مع ابن عباس رضي الله عنهما [1] ، ومع حذيفة بن اليمان [2] ، ومع عبد الله بن مسعود [3] ، ولكن العلماء يقولون إن هذا يفعل أحيانًا ولا دائمًا .

ثم قال له سلمان : « إن لنفسك عليك حقًّا ، وإن لأهلك عليك حقًّا ، وإن لربك عليك حقًّا . فأعط كل ذي حق حقه » . وهذا القول الذي قاله سلمان هو القول الذي قاله النبي - عليه الصلاة والسلام - لعبدِ الله بن عمرو بن العاص رضي الله عنهما ؛ ففي هذا دليل على أن الإنسان لا ينبغي له أن يكلف نفسه بالصيام والقيام ، وإنما يصلي ويقوم على وجه يحصل به الخير ، ويزول به التعب والمشقة والعناء .

* * *

١٥١ - وعن أبي رِبْعِيٍّ حَنْظَلَةَ بنِ الرَّبِيعِ الأُسَيِّدِيِّ الكَاتِبِ أَحَدُ كُتَّابِ رسول الله ﷺ قال : لَقِيَنِي أبو بَكْرٍ رضي الله عنه فقال : كَيْفَ أَنْتَ يا حَنْظَلَةُ ؟ قُلْتُ : نَافَقَ حَنْظَلَةُ ! قالَ : سُبْحَانَ اللهِ مَا تَقُول ؟! قُلْتُ : نكُونُ عِنْدَ رسول الله ﷺ يُذَكِّرُنا بالجَنَّةِ وَالنَّار كَأَنَّا رَأْي عَيْنٍ ، فَإِذَا خَرَجْنَا مِنْ عِنْد رسول الله ﷺ عَافَسْنَا الأَزْوَاجَ وَالأَوْلادَ وَالضَّيْعَات نَسينا كَثِيرًا . قال أَبُو بَكْر رضي الله عنه : فَوَاللهِ إِنَّا لَنَلْقَى مِثْلَ هَذَا ،

---

(١) انظر ذلك فيما أخرجه البخاري في التهجد (١١٢٠) .
(٢) ودليل ذلك ما أخرجه البخاري في التهجد (١١٣٦) .
(٣) ويدل على ذلك ما أخرجه البخاري في التهجد (١١٣٥) .

فانْطَلَقْتُ أنا وَأَبو بَكْرٍ حَتى دخَلْنا عَلَى رسول اللَّه ﷺ . فقُلْتُ : نافَقَ حَنْظَلَةُ يا رسول اللَّه ! فقالَ رسولُ اللَّه ﷺ : « وَمَا ذَاكَ ؟ » قُلْتُ : يا رسول اللَّهِ نَكُونُ عِنْدَكَ تُذَكِّرنا بالنَّارِ وَالجَنَّةِ كأنَّا رَأْيَ العَيْنِ ، فَإِذَا خَرَجْنا مِنْ عِنْدِكَ عَافَسْنَا الأَزْوَاجَ وَالأَوْلادَ والضَّيْعَاتِ نَسِينَا كَثِيرًا . فقال رسول اللَّه ﷺ : « وَالَّذي نَفْسِي بِيَده ! لَوْ تَدُومُونَ عَلَى مَا تكُونُونَ عِنْدِي وَفي الذِّكْر لصَافَحَتْكُمُ الملائِكَةُ عَلَى فُرُشِكُمْ وَفي طُرقِكُمْ ، وَلكِنْ يَا حَنْظَلَةُ سَاعَةً وسَاعَةً » ثلاثَ مَرَّاتٍ (١) ، رواه مسلم .

قولُهُ : « ربْعِيٌّ » بِكَسْر الرَّاءِ . « وَالأُسَيِّدِي » بَضَمِّ الهَمْزَةِ وَفَتْحِ السِّينِ وَبَعْدَها يَاءٌ مَكْسُورَةٌ مُشَدَّدَةٌ ، وَقَوْلُهُ : « عَافَسْنَا » هُوَ بِالعَيْنِ وَالسِّين المُهْمَلَتَيْنِ ، أَيْ : عَالَجْنَا وَلاعَبْنا . « وَالضَّيْعَاتُ » : المعايشُ .

الشرح

قال المؤلف رحمه الله فيما نقله عن حنظلة الكاتب أحد كتاب الوحي لرسول اللَّه ﷺ ، أنه قال : « لقيني أبو بكر رضي الله عنه فقلت : نافق حنظلة » يعني نفسه ، ومعنى نافق : يعني صار من المنافقين ، قال ذلك ظنًّا منه رضي الله عنه أن ما فعله نفاق ، فقال أبو بكر : « وكذلك كنا إذا كنا عند النبي ﷺ يذكرنا بالجنة والنار حتى كأنَّا رأيَ عين » يعني : كأنا نرى الجنة والنار رأي عين من قوة اليقين ، حيث يخبرهم بذلك ﷺ ، وما أخبر به النبي ﷺ كالمشاهد بل قد يكون أعظم ؛ لأنه خبر من أصدق الخلق - صلوات اللَّه وسلامه عليه - وأعلم الخلق باللَّه . « فإذا خرجنا من عندك عافسنا الأزواج والأولاد والضيعات » يعني لهونا معهم ونسينا ما كنا عليه عند النبي ﷺ ، فقال أبو بكر عن نفسه أنه يصيبه كذلك ، ثم ذهبا إلى النبي ﷺ ، فلما وصلا إليه قال حنظلة : « نافق حنظلة يا رسول اللَّه ، قال : وما ذاك ؟ » فأخبره بأنهم إذا كانوا عند النبي ﷺ فحدثهم عن الجنة والنار ، أخذهم من اليقين كأنهم يرونها رأي العين ، ولكن إذا خرجوا عافسوا الأهل والأولاد والضيعات وتلهوا بهم نسوا كثيرًا . فقال النبي - عليه الصلاة والسلام - : « والذي نفسي بيده ! لو تكونون على ما تكونون عليه عندي لصافحتكم الملائكة على فرشكم وفي طرقكم » أي : من شدة اليقين تصافحكم إكرامًا لكم وتثبيتًا لكم ؛ لأنه كلما زاد يقين العبد ، فإن اللَّه سبحانه وتعالى يثبته ويقويه ، كما قال تعالى : ﴿ وَالَّذِينَ اهْتَدَوْا زَادَهُمْ هُدًى وَآتَاهُمْ تَقْوَاهُمْ ﴾ [محمد : ١٧] « ولكن يا حنظلة ساعة وساعة . ساعة وساعة . ساعة وساعة » يعني ساعة للرب عز وجل وساعة مع الأهل والأولاد ، وساعة للنفس حتى يعطي الإنسان لنفسه راحتها ، ويعطي ذوي الحقوق حقوقهم .

وهذا من عدل الشريعة الإسلامية وكمالها ؛ أن اللَّه عز وجل له حق فيُعطى حَقُّهُ عز وجل ، وكذلك للنفس حق فتُعطى حَقُّهَا ، وللأهل حق فيُعطَوْنَ حقوقُهم ، وللزوار والضيوف حق فيعطون حقوقهم ، حتى يقوم الإنسان بجميع الحقوق التي عليه على وجه الراحة ، ويتعبد للَّه عز وجل براحة ؛ لأن الإنسان إذا أثقل على نفسه وشدد عليها مل وتعب ، وأضاع حقوقًا كثيرة .

---

(١) أخرجه مسلم في التوبة (١٢) ، والترمذي في القيامة (٢٥١٤) .

وهذا كما يكون في العبادة وفي حقوق النفس والأهل والضيف يكون كذلك أيضًا في العلوم ، فإذا طلب الإنسان العلم ورأى في نفسه مللًا في مراجعة كتابٍ ما ، فلينتقل إلى كتاب آخر ، وإذا رأى من نفسه مللًا من دراسة فن معين ؛ فإنه ينتقل إلى دراسة فن آخر ، وهكذا يريح نفسه ، ويحصل علمًا كثيرًا . أما إذا أكره نفسه على الشيء ؛ حصل له من الملل والتعب ما يجعله يسأم وينصرف ، إلا ما شاء اللَّه ؛ فإن بعض الناس يكره نفسه على المراجعة والمطالعة والبحث مع التعب ، ثم يأخذ على ذلك ويكون هذا أمرًا دائمًا له ، ويكون ديدنًا له ، حتى إنه إذا فقد هذا الشيء ضاق صدره ، واللَّه يؤتي فضله من يشاء ، واللَّه ذو الفضل العظيم .

* * *

١٥٢ - وعَنَ ابنِ عبَّاسٍ رضي الله عنهما قَالَ : بَيْنَمَا النَّبيُّ ﷺ يَخْطُبُ إذَا هُوَ بِرَجُلٍ قَائِم ، فَسَأَلَ عَنْهُ فَقَالُوا : أَبُو إسْرَائِيلَ نَذَرَ أَنْ يَقُومَ في الشَّمْسِ وَلا يَقْعُدَ ، وَلا يَسْتَظِلَّ وَلا يَتَكَلَّمَ ، وَيَصومَ ، فَقَالَ النَّبيُّ ﷺ : « مُرُوهُ فَلْيَتَكَلَّمْ ، وَلْيَسْتَظِلَّ ، وَلْيَقْعُدْ ، وَلْيُتِمَّ صَوْمَهُ » [١] رواه البخاري .

الشرح

ذكر المؤلف رحمه الله في باب الاقتصاد في العبادة هذا الحديث الذي نذر فيه رجلٌ - يقال له : أبو إسرائيل - أن يقوم في الشمس ولا يقعد ، وأن يصمت ولا يتكلم وأن يصوم ، وكان النبي ﷺ يخطب فرأى هذا الرجل قائمًا في الشمس ، فسأل عنه فأُخبر عن قصته ، فقال النبي ﷺ : مروه فليقعد وليستظل ، وليتكلم ، وليتم صومه .

وهذا النذر كان قد تضمن أشياء محبوبة إلى اللَّه عز وجل وأشياء غير محبوبة ، أما المحبوبة إلى اللَّه : فهي الصوم ؛ لأن الصوم عبادة ، والنبي ﷺ قال : « من نذر أن يطيع اللَّه فليطعه » [٢] ، وأما وقوفه قائمًا في الشمس من غير أن يستظل ، وكونه لا يتكلم فهذا غير محبوب إلى اللَّه عز وجل ، فلهذا أمر النبي ﷺ هذا الرجل أن يترك ما نذر . وليعلم أن النذر أصله مكروه ، بل قال بعض العلماء إنه محرم ، وإنه لا يجوز للإنسان أن ينذر [٣] ، لأن الإنسان إذا نذر كلف نفسه ما لم يكلفه اللَّه ، ولهذا نهى النبي ﷺ عن النذر ، وقال : « إنه لا يأتي بخير ، وإنما يستخرج به من البخيل » [٤] ، ولكن إذا قدر أن الإنسان نذر فالنذر أقسام : قسم حكمه حكم اليمين ، وقسم آخر نذر معصية ، وقسم ثالث نذر طاعة .

أما الذي حكمه حكم اليمين : فهو الذي قصد الإنسان به تأكيد الشيء ؛ نفيًا أو إثباتًا ، أو تصديقًا ، أو تأكيدًا ، ومثاله : إذا قيل للرجل أخبرتنا بكذا وكذا ولكنك لم تصدق ، فقال : إن كنت كاذبًا فلله

---

(١) أخرجه البخاري في الأيمان والنذور (٦٧٠٤) ، وأبو داود في الأيمان والنذور (٣٣٠٠) .

(٢) أخرجه البخاري في الأيمان والنذور (٦٧٠٠) .

(٣) سبق الحديث عن رأي الفقهاء في هذا الموضوع فليرجع إليه .

(٤) سبق تخريجه .

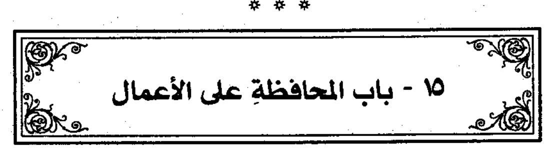
عليَّ نذر أن أصوم سنة ، فلاشك أن غرضه من ذلك أن يؤكد قوله ليصدقه الناس ، هذا حكمه حكم اليمين ؛ لأنه قصد بذلك تأكيد ما قال ، وكذلك أيضًا إذا قصد الحث مثل أن يقول : إن لم أفعل كذا فلله عليَّ نذر أن أصوم سنة ، فهذا أيضًا قصد الحث وأن يفعل ما ذكر ، حكمه حكم اليمين أيضًا ، ودليل هذا قول النبي ﷺ : « إنما الأعمال بالنيات وإنما لكل امرئ ما نوى » (١) ، وهذا نوى اليمين فله ما نوى .

أما القسم الثاني : فهو المحرم ، فالمحرم إذا نذره الإنسان يحرم عليه الوفاء به ، مثل أن يقول : للَّه عليه نذر أن يشرب الخمر ، فهذا نذر محرم فلا يحل له أن يشرب الخمر ، ولكن عليه كفارة يمين على القول الراجح ، وإن كان بعض العلماء قال : إنه لا شيء عليه ؛ لأنه نذر غير منعقد (٢) ، ولكن الصحيح أنه نذر منعقد ، ولكن لا يجوز الوفاء به (٣) . ومثل ذلك أن تقوم المرأة للَّه عليها نذر أن تصوم أيام حيضها فهذا حرام ، ولا يجوز أن تصوم أيام الحيض ، وعليها كفارة يمين .

أما القسم الثالث : فهو نذر الطاعة ، أن ينذر الإنسان نذر طاعة ، مثل أن يقول : للَّه علي نذر أن أصوم الأيام البيض ؛ وهي الثالث عشر والرابع عشر والخامس عشر ، فليزمه أن يوفي بنذره ، لقول النبي ﷺ : « من نذر أن يطيع اللَّه فليطعه » أو يقول : للَّه عليَّ نذر أن أصلي ركعتين في الضحى ؛ فليزمه أن يوفي بنذره لأنه طاعة ، وقد قال النبي ﷺ : « من نذر أن يطيع اللَّه فليطعه » .

فإن اشتمل نذره على طاعة وغير طاعة ، وجب أن يوفي بالطاعة ، أما غير الطاعة فلا يوف ، ويكفر كفارة يمين ، مثل قصة هذا الرجل حيث نذر أن يقوم في الشمس وألا يستظل ، وألا يتكلم وأن يصوم ، فأمره النبي ﷺ أن يصوم لأنه طاعة ، ولكنه قال في القيام وعدم الاستظلال وعدم الكلام : « مروه فليستظل ، وليقعد ، وليتكلم » وكثير من الناس اليوم إذا استبعد الأمر أو أشفق عليه ينذر ؛ فمثلًا : إذا مرض له إنسان قال : للَّه علي نذر إن شفى اللَّه مريضي لأفعلن كذا وكذا ، فهذا منهي عنه ، إما نهي كراهة أو نهي تحريم ، أسأل اللَّه العافية لمريضك بدون نذر ، لكن لو فرضنا أنه نذر إن شفى اللَّه مريضه أن يفعل كذا وكذا فشفاه اللَّه ، وجب عليه أن يوفي بالنذر .

* * *



١٥ - باب المحافظةِ على الأعمال

قال اللَّهُ تعَالَى : ﴿ أَلَمْ يَأْنِ لِلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ أَن تَخْشَعَ قُلُوبُهُمْ لِذِكْرِ ٱللَّهِ وَمَا نَزَلَ مِنَ ٱلْحَقِّ وَلَا يَكُونُواْ كَٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلْكِتَٰبَ مِن قَبْلُ فَطَالَ عَلَيْهِمُ ٱلْأَمَدُ فَقَسَتْ قُلُوبُهُمْ ﴾ [الحديد : ١٦] . وقال تعالى : ﴿ وَقَفَّيْنَا بِعِيسَى ٱبْنِ مَرْيَمَ وَءَاتَيْنَٰهُ ٱلْإِنجِيلَ وَجَعَلْنَا فِى قُلُوبِ ٱلَّذِينَ ٱتَّبَعُوهُ رَأْفَةً وَرَحْمَةً وَرَهْبَانِيَّةً ٱبْتَدَعُوهَا مَا كَتَبْنَٰهَا عَلَيْهِمْ إِلَّا ٱبْتِغَآءَ

(١) سبق تخريجه .

(٢) وهذا هو قول الحنفية (انظر بدائع الصنائع ٣/١٨ ، ١٩) .

(٣) وهذا الذي عليه جمهور الشافعية والمالكية والحنابلة . (انظر الأم ٧/٧٣ ، المغني ٨/٧١٢ ، والمدونة ٢/٢٩) .

رِضْوَٰنِ ٱللَّهِ فَمَا رَعَوْهَا حَقَّ رِعَايَتِهَا ﴾ [الحديد : ٢٧] وقال اللهِ تعالى : ﴿ وَلَا تَكُونُوا۟ كَٱلَّتِى نَقَضَتْ غَزْلَهَا مِنۢ بَعْدِ قُوَّةٍ أَنكَٰثًا ﴾ [النحل : ٩٢] وقال اللهِ تعالى : ﴿ وَٱعْبُدْ رَبَّكَ حَتَّىٰ يَأْتِيَكَ ٱلْيَقِينُ ﴾ [1] [الحجر : ٩٩] .

وَأَمَّا الأَحَادِيثُ : فَمِنْهَا حَدِيثُ عَائِشَةَ رَضِيَ اللهُ عَنْهَا : وَكَانَ أَحَبُّ الدِّينِ إِلَيْهِ مَا داوم صَاحِبُهُ عَلَيْهِ . وَقَدْ سَبَقَ فِي البَابِ قَبْلَهُ .

الشرح

قال المؤلف رحمه الله : (باب المحافظة على الأعمال) يعني : الأعمال الصالحة . لما ذكر رحمه الله باب الاقتصاد في الطاعة ، وأن الإنسان ينبغي له أن يكون متمشيًا على هدي النبي ﷺ أعقبه بهذا الباب الذي فيه المحافظة على الطاعة ، وذلك أن كثيرًا من الناس ربما يكون نشيطًا مقبلًا على الخير فيجتهد ، ولكنه بعد ذلك يفتر ثم يتقاعس ويتهاون .

وهذا يجري كثيرًا للشباب ؛ لأن الشاب يكون عنده اندفاع قوي أو تأخر شديد ؛ إذ أن غالب تصرفات الشباب إنما تكون مبنية على العاطفة دون التعقل ، فتجد الواحد منهم يندفع ويشتد في العبادة ، ثم يعجز أو يتكاسل فيتأخر ، ولهذا ينبغي للإنسان كما نبه المؤلف رحمه الله أن يكون مقتصدًا في الطاعة غير منجرف ، وأن يكون محافظًا عليها ؛ لأن المحافظة على الطاعة دليل على الرغبة فيها ، وأحب العمل إلى الله أدومه وإن قل [2] ، فإن حافظ الإنسان على عبادته واستمر عليها كان هذا دليلًا على محبته وعلى رغبته في الخير .

وقد ذكر المؤلف عدة آيات منها قوله تعالى : ﴿ وَلَا تَكُونُوا۟ كَٱلَّتِى نَقَضَتْ غَزْلَهَا مِنۢ بَعْدِ قُوَّةٍ أَنكَٰثًا ﴾ [النحل : ٩٢] امرأة تغزل فغزلت غزلًا جيدًا قويًا متينًا ثم بعد ذلك ذهبت تنقضه أنكاثًا حتى لا يبقى منه شيء ، كذلك بعض الناس يشتد في العبادة ويزيد ثم بعد ذلك ينقضها فيدعها .

وكذلك ذكر رحمه الله عن بني إسرائيل قول الله عز وجل : ﴿ وَجَعَلْنَا فِى قُلُوبِ ٱلَّذِينَ ٱتَّبَعُوهُ رَأْفَةً وَرَحْمَةً وَرَهْبَانِيَّةً ٱبْتَدَعُوهَا مَا كَتَبْنَٰهَا عَلَيْهِمْ إِلَّا ٱبْتِغَآءَ رِضْوَٰنِ ٱللَّهِ فَمَا رَعَوْهَا حَقَّ رِعَايَتِهَا ﴾ [الحديد : ٧] أي : ما استمروا عليها ولا رعوها ، ولكنهم أهملوها ، وقال تعالى : ﴿ وَلَا يَكُونُوا۟ كَٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْكِتَٰبَ مِن قَبْلُ فَطَالَ عَلَيْهِمُ ٱلْأَمَدُ فَقَسَتْ قُلُوبُهُمْ ﴾ [الحديد : ١٦] يعني : طال عليهم الأمد – أي الزمن – بالأعمال فقست قلوبهم وتركوا الأعمال والعياذ بالله . فالمهم أن الإنسان ينبغي له أن يحافظ على العمل ، وألا يتكاسل وألا يدعه ، حتى يستمر على ما هو عليه .

---

(١) قوله : ﴿ أَلَمْ يَأْنِ ﴾ أي ألم يحن ، قوله : ﴿ تَخْشَعَ ﴾ أي تلين ، قوله : ﴿ كَٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْكِتَٰبَ ﴾ هم اليهود والنصارى ، قوله : ﴿ ٱلْأَمَدُ ﴾ أي الزمه ، قوله : ﴿ فَقَسَتْ قُلُوبُهُمْ ﴾ أي لم تلن لذكر الله ، قوله : ﴿ وَقَفَّيْنَا ﴾ أي أتبعنا ، قوله : ﴿ رَأْفَةً ﴾ أي الرقة الشديدة في القلوب ، قوله : ﴿ وَرَهْبَانِيَّةً ٱبْتَدَعُوهَا ﴾ هي رفضهم النساء واتخاذهم الصوامع أماكن لإقامتهم ، قوله : ﴿ مَا كَتَبْنَٰهَا ﴾ أي ما أمرناهم بذلك ، قوله : ﴿ ٱبْتِغَآءَ رِضْوَٰنِ ٱللَّهِ ﴾ أي امتثالًا لأمره واجتنابًا لنواهيه ، قوله : ﴿ نَقَضَتْ ﴾ أي أفسدت ، قوله : ﴿ أَنكَٰثًا ﴾ أي : أنقاضًا ، وكل شيءٍ نقض بعد الفتل فهو أنكاث ، قوله : ﴿ ٱلْيَقِينُ ﴾ أي : الموت .

(٢) وذلك لما رواه مسلم في الصيام (١٧٧) ، وأحمد في مسنده (٦/١٩٩) .

وإذا كان هذا في العبادة ؛ فهو أيضًا في أمور العادة ، فينبغي ألا يكون للإنسان كل ساعة وجهة ، وكل ساعة له فكر ، بل يستمر ويبقى على ما هو عليه ما لم يتبين الخطأ ، فإن تبين الخطأ فلا يقر الإنسان نفسه على خطأ ، لكن ما دام الأمر لم يتبين فيه الخطأ ؛ فإن بقاءه على ما هو عليه أحسن ، وأدل على ثباته ؛ وعلى أنه رجل لا يخطو خطوة إلا عرف أين يضع قدمه وأين ينزع قدمه .

وبعض الناس لا يهتم بأمور العادة ، فتجد كل يوم له فكرة ، وكل يوم له نظر ، هذا يفوت عليه الوقت ولا تستقر نفسه على شيء ، ولهذا يُروَى عن عمر بن الخطاب ﷺ ، أنه قال : من بورك له في شيء فليلزمه [١] . كلمة عظيمة ، يعني إذا بورك لك في أي شيء كائنًا ما يكون فالزمه ولا تخرج عنه مرة هنا ومرة هنا ، فيضيع عليك الوقت ولا تبني شيئًا ، نسأل اللّٰه أن يثبتنا وإياكم على الحق ، وأن يجعلنا من دعاة الحق وأنصاره .

* * *

١٥٣ - وعن عمر بنِ الخطاب ﷺ قال : قال رسول اللّٰه ﷺ : « مَنْ نَامَ عَنْ حِزْبه مِنَ اللَّيْل ، أَوْ عَنْ شَيْءٍ مِنْهُ فقَرَأَه مَا بَيْنَ صَلاةِ الفَجْرِ وَصَلاةِ الظهْرِ : كُتِبَ لَهُ كأَنَّمَا قَرَأَهُ مِنَ اللَّيْل» [٢] رواه مسلم .

الشرح

قال المؤلف - رحمه اللّٰه تعالى - فيما نقله عن أمير المؤمنين عمر بن الخطاب ﷺ أن النبي ﷺ قال : «من نام عن حزبه من الليل أو عن شيء منه فقرأه ما بين صلاة الفجر وصلاة الظهر » يعني فكأنما صلاه في ليلته .

هذا فيه دليل على أن الإنسان ينبغي له إذا كان يعتاد شيئًا من العبادة أن يحافظ عليها ، ولو بعد ذهاب وقتها .

والحزب : هو الجزء من الشيء ، ومنه أحزاب القرآن ، ومنه أيضًا الأحزاب من الناس ، يعني الطوائف منهم ، فإذا كان الإنسان لديه عادة يصليها في الليل ولكنه نام عنها ، أو عن شيء منها فقضاه فيما بين صلاة الفجر وصلاة الظهر ؛ فكأنما صلاه في ليلته ، ولكن إذا كان يوتر في الليل ؛ فإنه إذا قضاه في النهار لا يوتر ولكنه يشفع الوتر ، أي يزيده ركعة فإذا كان من عادته أن يوتر بثلاث ركعات فليقض أربعًا ، وإذا كان من عادته أن يوتر بخمس فليقض ستًّا ، وإذا كان من عادته أن يوتر بسبع فليقض ثماني وهكذا .

ودليل ذلك : حديث عائشة ﷺ : أن النبي ﷺ كان إذا غالبه نوم أو وجع من الليل صلى من

---

(١) ذكره العجلوني في كشف الخفاء(٣١٥/٢ ، ٣٢٩) ، والقاري في الأسرار المرفوعة(٣٣٧) ، وعزاه إلى ابن ماجه عن أنس ، ولم أعثر عليه فهذا ابن ماجه في السنن .

(٢) أخرجه مسلم في صلاة المسافرين(١٤٣) ، والترمذي في الصلاة(٥٨١) ، وأبو داود في الصلاة(١٣١٣) والبيهقي في السنن(٤٨٤/٢ ، ٤٨٥) .

النهار ثنتي عشرة ركعة [١] . وفيه تقييد النبي ﷺ القضاء فيما بين صلاة الفجر وصلاة الظهر ، وحيث هناك أحاديث تدل على أن صلاة الفجر لا صلاة بعدها حتى تطلع الشمس ، ولا بعد طلوع الشمس حتى ترتفع قيد رمح فيقيد عموم هذا الحديث ، الذي ذكره المؤلف بخصوص الحديث الذي ذكرناه ، وأن القضاء يكون من بعد ارتفاع الشمس قيد رمح ، وقد يقال بأنه لا يقيد ؛ لأن القضاء متى ذكره الإنسان قضاه لعموم قول النبي ﷺ : « من نام عن صلاة أو نسيها ، فليصلها إذا ذكرها ، لا كفارة له إلا ذلك » [٢] .

ويؤخذ من الحديث الذي ذكره المؤلف أنه ينبغي للإنسان المداومة على فعل الخير ، وألا يدع ما نسيه إذا كان يمكن قضاؤه ، أما ما لا يمكن قضاؤه ؛ فإنه إذا نسيه سقط ، مثل سنة دخول المسجد التي تسمى تحية المسجد إذا دخل الإنسان المسجد ونسي وجلس وطالت المدة ؛ فإنه لا يقضيها ، لأن هذه الصلاة سنة مقيدة بسبب ، فإذا تأخرت عنه سقطت سنتها ، وهكذا كل ما قيد بسبب فإنه إذا زال سببه لا يقضى إلا أن يكون واجبًا من الواجبات ؛ كالصلاة المفروضة ، وأما ما قيد بوقت ؛ فإنه يقضى إذا فات ؛ كالسنن الرواتب إذا نسي الإنسان صلاتها حتى خرج الوقت فإنه يقضيها بعد الوقت ، كما ثبت ذلك عن النبي ﷺ .

وكذلك لو فات الإنسان صيام ثلاثة الأيام من الشهر - الأيام البيض - فإنه يقضيها بعد ذلك ، وإن كان صيامها واسعًا فتجوز في أول الشهر وفي وسطه وفي آخره ، لكن الأفضل في أيام البيض ، الثالث عشر والرابع عشر والخامس عشر .

* * *

١٥٤ - وعن عبدِ اللَّه بن عمرو بن العاص رضي الله عنهما قال : قال لي رسُولُ اللَّه ﷺ : « يَا عَبْدَ اللَّهِ لا تَكُنْ مِثْلَ فُلانٍ ، كَانَ يَقُومُ اللَّيلَ فَتَرَكَ قِيَامَ اللَّيل » [٣] متفقٌ عليه .

١٥٥ - وعن عائشة رضي الله عنها قالت : كَانَ رَسُولُ اللَّه ﷺ إذَا فاتَتْهُ الصَّلاةُ مِنَ اللَّيلِ مِنْ وَجَعٍ أَو غَيرِه ، صَلَّى مِنَ النَّهَارِ ثِنْتَي عَشرَةَ رَكْعَةً » [٤] رواه مسلم .

الشرح

قال المؤلف - رحمه اللَّه تعالى - فيما رواه عن عبد اللَّه بن عمرو بن العاص ، رضي الله عنهما أن النبي ﷺ قال له : « يا عَبْدَ اللَّه بن عمرو لا تكن مثل فلان ، كان يقوم من الليل فترك قيام الليل » ساق المؤلف هذا الحديث في باب الاستقامة على الطاعة ودوامها وأن الإنسان لا يقطعها .

---

(١) أخرجه مسلم في صلاة المسافرين (١٣٩) ، وأحمد في مسنده (١٠٩/٦) ، والبخاري في مواقيت الصلاة (٥٩٧) .
(٢) أخرجه مسلم في صلاة المسافرين (٣١٥) كلاهما بلفظ « من نسي صلاة » ، والترمذي في الصلاة (١٧٨) ، وأحمد في مسنده (٢٤٣/٣) .
(٣) أخرجه البخاري في التهجد (١١٥٢) ، ومسلم في الصيام (١٨٥) .
(٤) أخرجه مسلم في صلاة المسافرين (١٤٠) ، والبيهقي في السنن (٤٨٥/٢) .

وقد أوصى النبي - عليه الصلاة والسلام - عبد اللَّه بن عمرو ألا يكون مثل فلان ، ويحتمل هذا الإبهام أن يكون من النبي - عليه الصلاة والسلام - ، وأن النبي - عليه الصلاة والسلام - أحب ألا يذكر اسم الرجل ، ويحتمل أنه من عبد اللَّه بن عمرو أبهمه لئلا يطلع عليه الرواة ، ويحتمل أنه من الراوي بعد عبد اللَّه بن عمرو . وأيًّا كان ففيه دليل على أن المهم من الأمور والقضايا هو القضية نفسها ، دون ذكر الأشخاص ، ولهذا كان من هدي النبي ﷺ أنه إذا أراد أن ينهى عن شيء فإنه لا يذكر الأشخاص ، وإنما يقول : « ما بال أقوام يفعلون كذا وكذا » [١] وما أشبه ذلك .

وترك اسم الشخص فيه فائدتان عظيمتان ، الفائدة الأولى : الستر على هذا الشخص ، والثانية : أن هذا الشخص ربما تتغير حاله فلا يستحق الحكم الذي يحكم عليه في الوقت الحاضر ؛ لأن القلوب بيد اللَّه ، فمثلًا هب أنني رأيت رجلًا على فسق فإذَا ذكرت اسمه فقلت لشخص : لا تكن مثل فلان يسرق أو يزني أو يشرب الخمر ، فربما تتغير حال هذا الرجل ويستقيم ويعبد اللَّه فلا يستحق الحكم الذي ذكرته من قبل ، فلهذا كان الإبهام في هذه الأمور أولى وأحسن ، لما فيه من الستر ؛ ولما فيه من الاحتياط إذا تغيرت حال الشخص .

وفي قوله - عليه الصلاة والسلام - : « كان يقوم من الليل فترك قيام الليل » التحذير من كون الإنسان يعمل العمل الصالح ثم يدعه ، فإن هذا قد ينبئ عن رغبة عن الخير ، وكراهة له ، وهذا خطر عظيم ، وإن كان الإنسان قد يترك الشيء لعذر ، فإذا تركه لعذر فإن كان مما يمكن قضاؤه قضاه ، وإن كان مما لا يمكن قضاؤه فإن اللَّه تعالى يعفو عنه ، وقد ثبت عن النبي ﷺ أن من مرض أو سافر كتب له ما كان يعمل صحيحًا مقيمًا [٢] ، وكذلك إذا تركه لعذر فإنه يقضيه .

ففي حديث عائشة الذي ساقه المؤلف أن النبي ﷺ كان إذا ترك صلاة الليل من وجع أو غيره ، صلى من النهار ثنتي عشرة ركعة ، لأنه ﷺ يوتر بإحدى عشرة ركعة ، فإذا قضى الليل ولم يوتر لنوم أو لِشَبَهِهِ ؛ فإنه يقضي هذه الصلاة ، لكن لما فات وقت الوتر صار المشروع أن يجعله شفعًا ، وبناء على ذلك فمن كان يوتر بثلاث ونام على وتره فليصلِّ في النهار أربعًا ، وإذا كان يوتر بخمس فليصل ستًّا ، وإن كان يوتر بسبع فليصل ثماني ، وإن كان يوتر بتسع فليصل عشرًا ، وإن كان يوتر بإحدى عشرة ركعة فليصل اثنتي عشرة ركعة ، كما كان النبي ﷺ يفعله .

وفي هذا : دليل على أن العبادة المؤقتة إذا فاتت عن وقتها لعذر فإنها تقضى ، أما العبادة المربوطة بسبب ؛ فإنه إذا زال سببها لا تقضى ، ومن ذلك : سنة الوضوء مثلًا ؛ إذا توضأ الإنسان ؛ فإن من السنة أن يصلي ركعتين ، فإذا نسي ولم يذكر إلا بعد مدة طويلة سقطت عنه ، وكذلك إذا دخل المسجد وجلس ناسيًا ، ولم يذكر إلا بعد مدة طويلة ؛ فإن تحية المسجد تسقط عنه ؛ لأن المقرون بسبب لابد أن يكون مواليًا للسبب ، فإن فصل بينهما سقط .

---

(١) ومن أمثلة ذلك ما أخرجه البخاري في الصلاة (٤٥٦) والأذان (٧٥٠) والاعتصام (٧٣٠١) ، ومسلم في العتق (٨) ، والنكاح (٥) ، والحدود (٢١) .

(٢) سبق تخريجه .

١٦ - باب الأمر بالمحافظة على السُّنة وآدابها

قال اللَّهُ تعالى : ﴿ وَمَآ ءَاتَىٰكُمُ ٱلرَّسُولُ فَخُذُوهُ وَمَا نَهَىٰكُمْ عَنْهُ فَٱنتَهُوا۟ ﴾ [الحشر : ٧] ، وقال تعالى : ﴿ وَمَا يَنطِقُ عَنِ ٱلْهَوَىٰٓ ۝ إِنْ هُوَ إِلَّا وَحْىٌ يُوحَىٰ ﴾ [النجم : ٣، ٤] ، وقال تعالى : ﴿ قُلْ إِن كُنتُمْ تُحِبُّونَ ٱللَّهَ فَٱتَّبِعُونِى يُحْبِبْكُمُ ٱللَّهُ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ ﴾ [آل عمران : ٣١] وقال تعالى : ﴿ لَّقَدْ كَانَ لَكُمْ فِى رَسُولِ ٱللَّهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ لِّمَن كَانَ يَرْجُوا۟ ٱللَّهَ وَٱلْيَوْمَ ٱلْءَاخِرَ ﴾ [الأحزاب : ٢١] ، وقال تعالى : ﴿ فَلَا وَرَبِّكَ لَا يُؤْمِنُونَ حَتَّىٰ يُحَكِّمُوكَ فِيمَا شَجَرَ بَيْنَهُمْ ثُمَّ لَا يَجِدُوا۟ فِىٓ أَنفُسِهِمْ حَرَجًا مِّمَّا قَضَيْتَ وَيُسَلِّمُوا۟ تَسْلِيمًا ﴾ [النساء : ٦٥] ، وقال تعالى : ﴿ فَإِن تَنَٰزَعْتُمْ فِى شَىْءٍ فَرُدُّوهُ إِلَى ٱللَّهِ وَٱلرَّسُولِ ﴾ [النساء : ٥٩] ، قال العُلَماءُ : مَعْنَاهُ إِلَى الكِتَاب وَالسُّنَّةِ . وقال تعالى : ﴿ مَّن يُطِعِ ٱلرَّسُولَ فَقَدْ أَطَاعَ ٱللَّهَ ﴾ [النساء : ٨٠] ، وقال تعالى : ﴿ وَإِنَّكَ لَتَهْدِىٓ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴾ [الشورى : ٥٢] ، وقال تعالى : ﴿ فَلْيَحْذَرِ ٱلَّذِينَ يُخَالِفُونَ عَنْ أَمْرِهِۦٓ أَن تُصِيبَهُمْ فِتْنَةٌ أَوْ يُصِيبَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴾ [النور : ٦٣] ، وقال تعالى : ﴿ وَٱذْكُرْنَ مَا يُتْلَىٰ فِى بُيُوتِكُنَّ مِنْ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ وَٱلْحِكْمَةِ ﴾ [الأحزاب : ٣٤] (١) والآياتُ في البَاب كَثِيرَةٌ .

الشرح

ذكر المؤلف - رحمه اللّه تعالى - : (باب الأمر بالمحافظة على السنة وآدابها) والسنة : يراد بها سنة الرسول ﷺ ، وهي طريقته التي كان عليها في عباداته وأخلاقه ومعاملاته ، فهي أقواله ﷺ وأفعاله وإقراراته . هذه هي السنة . ويطلق الفقهاء السنة على العمل الذي يترجح فعله على تركه ، وهو الذي يثاب على فعله ، ولا يُعاقب على تركه . ولا شك أن الرسول - عليه الصلاة والسلام - بعثه اللّه تعالى بالهدى ودين الحق . الهدى : هو العلم النافع . ودين الحق : هو العمل الصالح . فلا بد من علم ، ولا بد من عمل ، ولا يمكن أن يحافظ الإنسان على سنة الرسول ﷺ إلا بعد أن يعلمها ، وعليه فيكون الأمر بالمحافظة على السنة أمرًا بالعلم وطلب العلم . وطلب العلم ينقسم إلى ثلاثة أقسام : فرض عين ، وفرض كفاية ، وسنة .

أما فرض العين : فهو علم ما تتوقف العبادة عليه . يعني العلم الذي لا يسع المسلم جهله ، مثل : العلم بالوضوء ، بالصلاة ، بالزكاة ، بالصيام ، بالحج وما أشبه ذلك . فالذي لا يسع المسلم جهله إن تعلمه يكون فرض عين . ولهذا مثلًا نوجب على هذا الشخص أن يتعلم أحكام الزكاة ؛ لأنه ذو مال ، ولا نوجب على الآخر أن يتعلم أحكام الزكاة ؛ لأنه ليس ذا مال . كذلك الحج : نوجب على هذا أن يتعلم أحكام الحج ؛ لأنه سوف يحج ، ولا نوجب على الآخر أن يتعلمها ؛ لأنه ليس بحاج .

أما فرض الكفاية : فهو العلم الذي تُحفظ به الشريعة ، يعني هو العلم الذي لو تُرك لضاعت

---

(١) قوله ﴿ وَمَآ ءَاتَىٰكُمُ ٱلرَّسُولُ ﴾ أي ما أعطاكم من الفيء وغيره ، قوله ﴿ وَمَا يَنطِقُ عَنِ ٱلْهَوَىٰٓ ﴾ أي لا يأتيكم بما يقوله من عند نفسه . قوله ﴿ يُحْبِبْكُمُ ٱللَّهُ ﴾ أي يثيبكم على هذا الحب الذي أحببتموه . قوله ﴿ أُسْوَةٌ ﴾ أي اقتداء به . قوله ﴿ يَرْجُوا۟ ٱللَّهَ ﴾ أي يخافه . قوله ﴿ وَٱلْيَوْمَ ٱلْءَاخِرَ ﴾ أي يوم القيامة . قوله ﴿ تَنَٰزَعْتُمْ ﴾ أي اختلفتم . قوله ﴿ فَرُدُّوهُ إِلَى ٱللَّهِ وَٱلرَّسُولِ ﴾ أي إلى حكم اللّه ورسوله ؛ أي إلى الكتاب والسنة . قوله ﴿ لَتَهْدِىٓ ﴾ أي لتدعو . قوله ﴿ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴾ أي طريق الإسلام . قوله ﴿ فِتْنَةٌ ﴾ أي محنة أو مصيبة في الدنيا . قوله ﴿ وَٱلْحِكْمَةِ ﴾ أي السنة .

الشريعة ، فهذا فرض كفاية ، إذا قام به من يكفي سقط عن الباقين ، فإذا قُدِّر أن واحدًا في البلد قد قام بالواجب في هذا الأمر وتعلم ، وصار يفتي ويدرِّس ، ويعلم الناس في هذه الحال ؛ صار طلب العلم في حق غيره سنة ، وهو القسم الثالث .

إذن طالب العلم يدور أجره بين أجر السنة ، وأجر فرض الكفاية ، وأجر فرض العين . والمهم أنه لايمكن أن نحافظ على السنة وآدابها إلا بعد معرفة السنة وآدابها .

ثم ذكر المؤلف آيات من كتاب الله ﷻ ، منها قوله تعالى : ﴿ قُلْ إِن كُنتُمْ تُحِبُّونَ ٱللَّهَ فَٱتَّبِعُونِي يُحْبِبْكُمُ ٱللَّهُ ﴾ [آل عمران : ٣١] ، هذه الآية يسميها بعض العلماء آية المحنة ، أي آية الامتحان ؛ لأن الله تعالى امتحن قومًا ادعوا أنهم يحبون الله ، قالوا : نحن نحب الله ، دعوة يسيرة ، لكن على المدعي البينة ، قال الله تعالى : ﴿ قُلْ إِن كُنتُمْ تُحِبُّونَ ٱللَّهَ فَٱتَّبِعُونِي ﴾ فمن ادعى محبة الله ، ولا يتبع الرسول - عليه الصلاة والسلام - فليس صادقًا . بل هو كاذب ، فعلامة محبة الله ﷻ ، أن تتبع رسوله ﷺ .

واعلم أنه بقدر تخلفك عن متابعة الرسول ﷺ يكون نقص محبتك لله ، وما نتيجة متابعة الرسول ﷺ ؟ جاء ذلك في الآية نفسها ﴿ يُحْبِبْكُمُ ٱللَّهُ ﴾ وهذه الثمرة أن الله يحبك ، لا أن تدعي محبة الله . فإذا أحبك الله ، فإنه لن يحبك إلا إذا أتيت ما يحبُّ ، فليس الشأن أن يقول الشخص : أنا أحب الله ، ولكن الشأن كل الشأن أن يكون الله ﷻ يحبه . نسأل الله ﷻ أن نكون من أحبابه . وهذا هو الشأن .

وإذا أحب الله الشخص ، يسر الله له أمور دينه ودنياه ، وورد في الحديث : « إن الله إذا أحبَّ شخصًا نادى جبريل : إني أحب فلانًا فأحبه ، فيحبه جبريل ، ثم ينادي في أهل السماوات : إن الله يحب فلانًا فأحبوه ، فيحبه أهل السماوات ، ثم يُوضع له القبول في الأرض » [(١)] فيحبه أهل الأرض ، ويقبلونه ، ويكون إمامًا لهم ، إذًا محبة الله هي الغاية ، ولكنها غاية لمن كان متبعًا للرسول ﷺ ، غاية لمن كان يحب الرسول ﷺ .

وذكر المؤلف قوله تعالى : ﴿ وَمَآ ءَاتَىٰكُمُ ٱلرَّسُولُ فَخُذُوهُ وَمَا نَهَىٰكُمْ عَنْهُ فَٱنتَهُوا۟ ﴾ [الحشر : ٧] وهذه الآية في سياق قسمة الفيء ، يعني المال الذي يؤخذ من الكفار . يقول الله ﷻ : ﴿ وَمَآ ءَاتَىٰكُمُ ٱلرَّسُولُ ﴾ يعني ما أعطاكم من المال فخذوه ولا تردوه ، ﴿ وَمَا نَهَىٰكُمْ عَنْهُ فَٱنتَهُوا۟ ﴾ أي لا تأخذوه . ولهذا بعث الرسول - عليه الصلاة والسلام - عمر بن الخطاب رضي الله عنه على الصدقة في سنة من السنوات ، فلما رجع أعطاه ، فقال : يا رسول الله ، تصدَّق به على من هو أفقر مني ، فقال النبي ﷺ : « ما جاءك من هذا المال ، وأنت غير مشرف ولا سائل فخذه ، وما لا فلا تتبعه نفسك » [(٢)] فما أعطانا الرسول ﷺ فإننا نأخذه ، وما نهانا عنه فإننا لا نأخذه .

---

(١) أخرجه البخاري في التوحيد (٧٤٨٥) ، ومسلم في البر والصلة (١٥٧) ، وأحمد في مسنده (٤١٣/٢) .

(٢) أخرجه البخاري في الأحكام (٧١٦٤) ، ومسلم في الزكاة (١١٠) ، والنسائي في السنن (١٠٤/٥) ، وأحمد في مسنده (١٧/١) .

وهذه الآية وإن كانت في سياق قسمة الفيء ، فإنها كذلك بالنسبة للأحكام الشرعية ، فما أحله النبي ﷺ لنا فإننا نقبله ونعمل به على أنه حلال ، وما نهانا عنه فإننا ننتهي عنه ، ونتركه ولا نتعرض له ، فهي وإن كانت في سياق الفيء فهي عامة تشمل هذا وهذا .

ثم ذكر أيضًا قوله تعالى ﴿ لَقَدْ كَانَ لَكُمْ فِيهِمْ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ لِّمَن كَانَ يَرْجُوا۟ ٱللَّهَ وَٱلْيَوْمَ ٱلْـَٔاخِرَ ﴾ يعني بالأسوة : القدوة . والحسنة : ضد السيئة ، والنبي - عليه الصلاة والسلام - هو أسوتنا وقدوتنا ، ولنا فيه أسوة حسنة ، وكل شيء نتأسى فيه برسول الله ﷺ فإنه خير وحسن . ويشمل قوله تعالى : ﴿ لَقَدْ كَانَ لَكُمْ فِيهِمْ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ ﴾ معنيين :

المعنى الأول : وهو أن كل ما يفعله فهو حسن ، فالتأسي به حسن .

الثاني : إننا مأمورون بأن نتأسى به أسوة حسنة ، لا نزيد على ما شرع ولا ننقص عنه ، لأن الزيادة أو النقص ضد الحسن ، ولكننا مأمورون بأن نتأسى به .

وأخذ العلماء من هذه الآية : أن أفعال النبي ﷺ حُجة يُحتج بها ويقتدي به فيها ، إلا ما قام الدليل على أنه خاصٌّ به ، فما قام الدليل على أنه خاص به فهو مختص به ، مثل قوله تعالى : ﴿ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِىُّ إِنَّآ أَحْلَلْنَا لَكَ أَزْوَٰجَكَ ٱلَّـٰتِىٓ ءَاتَيْتَ أُجُورَهُنَّ وَمَا مَلَكَتْ يَمِينُكَ مِمَّآ أَفَآءَ ٱللَّهُ عَلَيْكَ ﴾ إلى أن قال ﴿ وَٱمْرَأَةً مُّؤْمِنَةً إِن وَهَبَتْ نَفْسَهَا لِلنَّبِىِّ إِنْ أَرَادَ ٱلنَّبِىُّ أَن يَسْتَنكِحَهَا خَالِصَةً لَّكَ مِن دُونِ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴾ [الأحزاب : ٥٠] ، فما كان من خصائصه فهو من خصائصه .

ومن ذلك أيضًا : الوصال في الصوم ، أي أن يسرد الإنسان صوم يومين بلا فطر ، فإن النبي ﷺ نهى عنه . قالوا يا رسول الله ، إنك تواصل ، يعني فكيف تنهانا ؟ فقال : « لست كهيئتكم ، إني أُطعم وأُسقى » (١) وفي لفظ : « إني أبيتُ عند ربي يطعمني ويسقيني » (٢) يعني يطعمه الله ويسقيه بما يمده به من ذكره وتعلق قلبه به حتى ينسى الأكل والشرب ولا يحس بألم الجوع . ونحن نعلم الآن أن الرجل لو شغل بأمر من أمور الدنيا نسي الأكل والشرب ، حتى أن الشعراء يتمثلون بهذا بقولهم لها .

أحاديث من ذكراك تشغلها ... عن الشراب وتلهيها عن الزاد

يعني أن أحاديثها بك إذا قامت تتحدث ؛ ألهاها ذلك عن الشراب وعن الزاد ؛ فالنبي - عليه الصلاة والسلام - من قوة تعلقه بربه ، إذا قام من الليل يتهجد ، فإن الله تعالى يعطيه قوة ، بما يحصل له من الذكر ، تكفيه عن الأكل والشرب . أما نحن فلسنا كهيئته ، ولهذا منع الوصال ، وبين أنه من خصائصه ﷺ .

* * *

وقال تعالى : ﴿ فَلَا وَرَبِّكَ لَا يُؤْمِنُونَ حَتَّىٰ يُحَكِّمُوكَ فِيمَا شَجَرَ بَيْنَهُمْ ثُمَّ لَا يَجِدُوا۟ فِىٓ أَنفُسِهِمْ حَرَجًا مِّمَّا قَضَيْتَ وَيُسَلِّمُوا۟ تَسْلِيمًا ﴾ [النساء : ٦٥] .

---

(١) أخرجه - بلفظه - مسلم في الصيام (٥٥) ، والدارمي في السنن (٢/٨) ، وأحمد في مسنده (٢/١٠٢) .
(٢) أخرجه بلفظه أحمد في مسنده (٢/٢٨١) ، والدارمي في السنن (٢/٨) .

الشرح

ثم ساق المؤلف - رحمه الله تعالى - فيما ساقه من الآيات الدالة على المحافظة على السنة وآدابها قوله تعالى : ﴿ فَلَا وَرَبِّكَ لَا يُؤْمِنُونَ حَتَّىٰ يُحَكِّمُوكَ فِيمَا شَجَرَ بَيْنَهُمْ ثُمَّ لَا يَجِدُوا فِي أَنفُسِهِمْ حَرَجًا مِّمَّا قَضَيْتَ وَيُسَلِّمُوا تَسْلِيمًا ﴾ هذه الآية لها صلة بما قبلها ، وهي قوله تعالى : ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا أَطِيعُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ وَأُولِي الْأَمْرِ مِنكُمْ ۖ فَإِن تَنَازَعْتُمْ فِي شَيْءٍ فَرُدُّوهُ إِلَى اللَّهِ وَالرَّسُولِ إِن كُنتُمْ تُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ ۚ ذَٰلِكَ خَيْرٌ وَأَحْسَنُ تَأْوِيلًا ﴾ [النساء: ٥٩] فأمر الله تعالى بطاعته ، وبطاعة رسوله وبطاعة أولي الأمر منا .

وأولو الأمر يشمل العلماء والأمراء ؛ لأن العلماء ولاة أمورنا في بيان دين الله ، والأمراء ولاة أمورنا في تنفيذ شريعة الله ، ولا يستقيم العلماء إلا بالأمراء ، ولا الأمراء إلا بالعلماء . فالأمراء عليهم أن يرجعوا إلى العلماء ليستبينوا منهم شريعة الله . والعلماء عليهم أن ينصحوا الأمراء ، وأن يخوفوهم بالله ، وأن يعظوهم حتى يطبقوا شريعة الله في عباد الله عز وجل .

ثم قال : ﴿ فَإِن تَنَازَعْتُمْ فِي شَيْءٍ فَرُدُّوهُ إِلَى اللَّهِ وَالرَّسُولِ ﴾ يعني إن اختلفتم في شيء من الأشياء ، فليس قول بعضكم حجة على الآخر ، ولكن هناك حكم الله عز وجل ورسوله ﷺ فعليكم بالرجوع إلى حكم الله تعالى وحكم رسوله ﷺ .

أما الرجوع إلى الله : فهو الرجوع إلى كتابه ، إلى القرآن العظيم .

وأما الرجوع إلى رسول الله ﷺ : فهو الرجوع إلى سنته ﷺ إن كان حيًا بمراجعته شخصيًا ، وإن كان ميتًا فبما صحّ من سنته ﷺ ، ﴿ إِن كُنتُمْ تُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ ﴾ وهذا حثٌّ على الرجوع إلى الله ورسوله ، وأن الرجوع إلى الله ورسوله من مقتضيات الإيمان . ﴿ ذَٰلِكَ خَيْرٌ وَأَحْسَنُ تَأْوِيلًا ﴾ يعني أحسن عاقبة ، فالرجوع إلى الله ورسوله خير للأمة وأحسن عاقبة ، مهما ظن الظان أن الرجوع إلى الكتاب والسنة قد يُعجز الناس ، وقد لا يطيقون ذلك فهذا ظن خاطئ لا قيمة له . فبعض الناس يظنون أن الرجوع إلى الإسلام الذي كان في صدر هذه الأمة لا يتناسب مع الوقت الحاضر - والعياذ بالله - ولم يعلم هؤلاء أن الإسلام حاكم وليس محكومًا عليه ، وأن الإسلام لا يتغير باختلاف الأزمان أو الأماكن أو الأشخاص ، الإسلام هو الإسلام ، فإن كنا نؤمن بالله واليوم الآخر ، فلنرجع إلى الكتاب والسنة ﴿ ذَٰلِكَ خَيْرٌ وَأَحْسَنُ تَأْوِيلًا ﴾ أي أحسن مآلًا وعاقبة .

ثم قال تعالى : ﴿ أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ يَزْعُمُونَ أَنَّهُمْ آمَنُوا بِمَا أُنزِلَ إِلَيْكَ وَمَا أُنزِلَ مِن قَبْلِكَ يُرِيدُونَ أَن يَتَحَاكَمُوا إِلَى الطَّاغُوتِ وَقَدْ أُمِرُوا أَن يَكْفُرُوا بِهِ ﴾ [النساء: ٦٠] ، الاستفهام هنا للتعجيب - يعني ألا تتعجب من قوم ، يزعمون أنهم آمنوا بما أنزل عليك ، وبما أنزل من قبلك ، ولكنهم لا يريدون التحاكم إلى الله ورسوله ، إنما يريدون أن يتحاكموا إلى الطاغوت ، وهو كل ما خالف شريعة الله .

ومن هؤلاء القوم ما ابتلى الله به المسلمين من بعض الحكام الذين يريدون أن يرجعوا في الحكم بين الناس إلى قوانين ضالة بعيدة عن الشريعة ، وضعها فلان وفلان من كفار وملاحدة ، لا يعلمون عن

الإسلام شيئًا ، وهم أيضًا في عصر قد تختلف العصور عنه ، وفي أمة قد تختلف عنها الأمم الأخرى .

لكن - مع الأسف - فإن بعض الذين استعمرهم الكفار من البلاد الإسلامية ، أخذوا هذه القوانين ، وصاروا يطبقونها على الشعب الإسلامي ، غير مبالين امتعاض الشعب منها ، وغير مبالين بمخالفتها لكتاب الله وسنة رسوله ، وهم يزعمون أنهم آمنوا بالله ورسوله ، كيف ذلك ؟ وهم يريدون أن يتحاكموا إلى الطاغوت و قد أمروا أن يكفروا به ، أمروا أمرًا من الله أن يكفروا بالطاغوت ، ومع ذلك يريدون أن يكون التحاكم إلى الطاغوت ، ﴿ وَيُرِيدُ ٱلشَّيْطَٰنُ أَن يُضِلَّهُمْ ضَلَٰلًۢا بَعِيدًا ﴾ [النساء : ٦٠] يريد الشيطان أن يضلهم عن دين الله ضلالًا بعيدًا ليس قريبًا ؛ لأن من حكّم غير شريعة الله قد ضل أعظم الضلال ، وأبعد الضلال .

قال الله ﷻ : ﴿ وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ تَعَالَوْا۟ إِلَىٰ مَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ وَإِلَى ٱلرَّسُولِ رَأَيْتَ ٱلْمُنَٰفِقِينَ يَصُدُّونَ عَنكَ صُدُودًا ﴾ [النساء : ٦١] أي إذا قيل لهم : تعالوا إلى ما أنزل الله وهو القرآن ، وإلى الرسول ، وعند ذلك رأيت المنافقين يصدون عنك صدودًا ، ولم يقل : رأيتهم ، لأجل أن يبين أن هؤلاء منافقون . فأظهر في موضع الإضمار ، وهذه فائدة . ولأجل أن يشمل هؤلاء وغيرهم من المنافقين ؛ فإن المنافق - والعياذ بالله - إذا دُعي إلى الله ورسوله أعرض وصدَّ .

﴿ فَكَيْفَ إِذَآ أَصَٰبَتْهُم مُّصِيبَةٌۢ بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيهِمْ ثُمَّ جَآءُوكَ يَحْلِفُونَ بِٱللَّهِ إِنْ أَرَدْنَآ إِلَّآ إِحْسَٰنًا وَتَوْفِيقًا ﴾ [النساء : ٦٢] . يعني كيف حالهم إذا أصابتهم مصيبة ، وكشفت عوراتهم واطلع عليها ، ثم جاءوك يحلفون بالله وهم كاذبون : ﴿ إِنْ أَرَدْنَآ إِلَّآ إِحْسَٰنًا وَتَوْفِيقًا ﴾ يعني ما أردنا إلا الإحسان والتوفيق بين الشريعة وبين القوانين الوضعية ، ولا يمكن أن يكون هناك توفيق بين حكم الله وحكم الطاغوت أبدًا ، حكم الطاغوت لو فُرض أنه وافق حكم الله لكان حكمًا لله لا للطاغوت ، ولهذا ليس في القوانين الوضعية من المسائل النافعة ؛ فإنها قد سبق إليها الشرع الإسلامي ؛ ولهذا قال : ﴿ أُو۟لَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ يَعْلَمُ ٱللَّهُ مَا فِى قُلُوبِهِمْ فَأَعْرِضْ عَنْهُمْ وَعِظْهُمْ وَقُل لَّهُمْ فِىٓ أَنفُسِهِمْ قَوْلًۢا بَلِيغًا ﴾ [النساء : ٦٣] ، يعني هؤلاء هم الذين يعلم الله ما في قلوبهم ، وإن أظهروا للناس أنهم يؤمنون بالله ، وأنهم يريدون الإحسان والتوفيق بين الأحكام الشرعية والأحكام القانونية ، هؤلاء هم الذين يعلم الله ما في قلوبهم ، وماذا أرادوا لأمتهم ، ﴿ فَأَعْرِضْ عَنْهُمْ ﴾ ، وهذا الأمر بالإعراض عنهم تهديدًا لهم ﴿ وَقُل لَّهُمْ فِىٓ أَنفُسِهِمْ قَوْلًۢا بَلِيغًا ﴾ أي قل لهم قولًا بليغًا يصل إلى أنفسهم ليتعظوا به .

ثم قال : ﴿ وَمَآ أَرْسَلْنَا مِن رَّسُولٍ إِلَّا لِيُطَاعَ بِإِذْنِ ٱللَّهِ ﴾ [النساء : ٦٤] . يعني ما أرسلنا الرسل لتُقرأ أقوالهم ويتركون ، بل ما أرسلت الرسل إلا ليُطاعوا ، وإلا فلا فائدة من إرسالهم ؛ فالرسالة معناها ومقتضاها أن الرسول يُطاع : ﴿ وَمَآ أَرْسَلْنَا مِن رَّسُولٍ إِلَّا لِيُطَاعَ بِإِذْنِ ٱللَّهِ ﴾ ، ﴿ وَلَوْ أَنَّهُمْ إِذ ظَّلَمُوٓا۟ أَنفُسَهُمْ جَآءُوكَ فَٱسْتَغْفَرُوا۟ ٱللَّهَ وَٱسْتَغْفَرَ لَهُمُ ٱلرَّسُولُ لَوَجَدُوا۟ ٱللَّهَ تَوَّابًا رَّحِيمًا ﴾ [النساء : ٦٤] يعني لو أنهم إذ ظلموا أنفسهم بما أضمروه في نفوسهم من الباطل ، جاءوك فاستغفروا الله : يعني طلبوا من الله المغفرة ، واستغفرت لهم أنت ، لوجدوا الله توابًا رحيمًا ، ولكنهم - والعياذ بالله - بقوا على نفاقهم ، وعلى عنادهم .

وهذه الآية استدل بها دعاة القبور ؛ الذين يدعون القبور ويستغفرونها ، حيث قالوا : لأن الله قال لنبيه - عليه الصلاة والسلام - : ﴿وَلَوْ أَنَّهُمْ إِذ ظَّلَمُوٓا۟ أَنفُسَهُمْ جَآءُوكَ فَٱسْتَغْفَرُوا۟ ٱللَّهَ وَٱسْتَغْفَرَ لَهُمُ ٱلرَّسُولُ لَوَجَدُوا۟ ٱللَّهَ تَوَّابًا رَّحِيمًا﴾ فأنت إذا أذنبت ، فاذهب إلى قبر النبي - عليه الصلاة والسلام - ، واسغفر الله ليستغفر لك الرسول . ولكن هؤلاء ضلوا ضلالًا بعيدًا ؛ لأن الآية صريحة قال : ﴿إِذ ظَّلَمُوٓا۟ أَنفُسَهُمْ﴾ ولم يقل : إذا ظلموا أنفسهم جاءوك . فهي تتحدث عن شيء مضى وانقضى ، يقول : لو أنهم إذ ظلموا أنفسهم بما أحدثوا ، ثم جاءوك في حياتك ، واستغفر لهم الرسول ، لوجدوا الله توابًا رحيمًا . أما بعد موت الرسول - عليه الصلاة والسلام - ؛ فإنه لا يمكن أن يستغفر الرسول ﷺ لأحد ؛ لأنه انقطع عمله كما قال الرسول - عليه الصلاة والسلام - : « إذا مات الإنسان انقطع عمله إلا من ثلاثة : إلا من صدقة جارية ، أو علم ينتفع به ، أو ولد صالح يدعو له »(١) . فعمل النبي ﷺ نفسه بعد موته لا يمكن ، لكنه ﷺ يكتب له أجر كل ما عملته الأمة ، كل ما عملنا من خير وعمل صالح من فرائض ونوافل ، فإنه يكتب أجره للرسول - عليه الصلاة والسلام - ، لأنه هو الذي علَّمنا ، فهذا داخل في قوله : « وعلم ينتفع به » .

الحاصل : أنه لا دلالة في هذه الآية على ما زعمه هؤلاء الداعون لقبر النبي عليه الصلاة والسلام .

ثم ذكر المؤلف رحمه الله قوله تعالى : ﴿فَلَا وَرَبِّكَ لَا يُؤْمِنُونَ حَتَّىٰ يُحَكِّمُوكَ فِيمَا شَجَرَ بَيْنَهُمْ ثُمَّ لَا يَجِدُوا۟ فِىٓ أَنفُسِهِمْ حَرَجًا مِّمَّا قَضَيْتَ وَيُسَلِّمُوا۟ تَسْلِيمًا﴾ هذه الآية ذكرها الله عز وجل عقب قوله تعالى : ﴿وَمَآ أَرْسَلْنَا مِن رَّسُولٍ إِلَّا لِيُطَاعَ بِإِذْنِ ٱللَّهِ ۚ وَلَوْ أَنَّهُمْ إِذ ظَّلَمُوٓا۟ أَنفُسَهُمْ جَآءُوكَ فَٱسْتَغْفَرُوا۟ ٱللَّهَ وَٱسْتَغْفَرَ لَهُمُ ٱلرَّسُولُ لَوَجَدُوا۟ ٱللَّهَ تَوَّابًا رَّحِيمًا﴾ ﴿فَلَا وَرَبِّكَ لَا يُؤْمِنُونَ﴾ وهذه الآية فيها إقسام من الله عز وجل بربوبيته لمحمد ﷺ ، الدالة على عنايته به ﷺ عناية خاصة ؛ وذلك لأن الربوبية هنا ربوبية خاصة . ولله عز وجل على خلقه ربوبيتان : ربوبية عامة لكل أحد ، مثل قوله تعالى : ﴿ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ [الفاتحة : ٢] ، وربوبية خاصة لمن اختصه من عباده مثل هذه الآية : ﴿فَلَا وَرَبِّكَ لَا يُؤْمِنُونَ حَتَّىٰ يُحَكِّمُوكَ فِيمَا شَجَرَ بَيْنَهُمْ﴾ . وقد اجتمع النوعان في قوله تعالى عن سحرة آل فرعون : ﴿قَالُوٓا۟ ءَامَنَّا بِرَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ۝١٢١ رَبِّ مُوسَىٰ وَهَٰرُونَ﴾ [الأعراف : ١٢١، ١٢٢] فـ ﴿رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ عامة ، و ﴿رَبِّ مُوسَىٰ وَهَٰرُونَ﴾ خاصة .

والربوبية الخاصة تقتضي عناية خاصة من الله عز وجل ، فأقسم الله - سبحانه بحمده - بربوبيته لعبده محمد ﷺ قسمًا مؤكدًا بلا في قوله : ﴿فَلَا وَرَبِّكَ﴾ و « لا » هذه يراد بها التوكيد ، ولو قال : فوربك لا يؤمنون لتم الكلام ، ولكنه أتى بلا للتوكيد ، كقوله تعالى : ﴿لَآ أُقْسِمُ بِيَوْمِ ٱلْقِيَٰمَةِ﴾ [القيامة : ١] ليس المراد النفي أن الله لا يقسم بيوم القيامة ، بل المراد التوكيد فهي هنا للتوكيد والتنبيه . ﴿فَلَا وَرَبِّكَ لَا يُؤْمِنُونَ حَتَّىٰ يُحَكِّمُوكَ فِيمَا شَجَرَ بَيْنَهُمْ﴾ أي يجعلونك حكمًا فيما حصل بينهم من النزاع ؛ لأن معنى ﴿شَجَرَ﴾ أي حصل من النزاع ، وحتى يجعلونك أنت الحكم فيما حصل بينهم من النزاع ، في أمور الدين ، وفي أمور الدنيا .

---

(١) سبق تخريجه .

ففي أمور الدين : لو تنازع رجلان في حكم مسألة شرعية فقال أحدهما : هي حرام ، وقال الثاني : هي حلال ؛ فالتحاكم إلى الرسول - عليه الصلاة والسلام - ؛ فلا يؤمن أحد منهما أي من المتشاجرين إلا إذا حكَّم رسول اللَّه ﷺ . ولو تنازع الناس في أمر دنيوي بينهم ، كما حصل بين الزبير بن العوام رضي الله عنه وجاره الأنصاري ، حين تحاكما إلى رسول اللَّه ﷺ في ماء الوادي ، فحكم بينهما ؛ فهذا تحاكم في أمور الدين والدنيا ، المهم أنه لا يؤمن أحد حتى يكون تحاكمه في أمور الدين والدنيا إلى رسول اللَّه ﷺ .

ثم إن الإيمان المادي هنا ، إن كان الإنسان لا يرضى بحكم الرسول ﷺ مطلقًا فهو نفي للإيمان من أصله ؛ لأن من لا يرضى بحكم الرسول ﷺ مطلقًا كافر - والعياذ باللَّه - ، خارج عن الإسلام ، وإن كان عدم الرضا بالحكم في مسألة خاصة ، وعصى فيها ؛ فإنها إن لم تكن مكفرة فإنه لا يكفر ، وقوله ﷻ : ﴿ حَتَّىٰ يُحَكِّمُوكَ ﴾ . لو قال قائل : كيف يكون تحكيم الرسول ﷺ بعد موته ؟ فالجواب : أن نقول : يكون تحكيمه بعد موته بتحكيم سنته ﷺ ، انتبه فهذه واحدة : ﴿ لَا يُؤْمِنُونَ حَتَّىٰ يُحَكِّمُوكَ فِيمَا شَجَرَ بَيْنَهُمْ ﴾ .

الشيء الثاني : ﴿ ثُمَّ لَا يَجِدُوا فِي أَنفُسِهِمْ حَرَجًا مِّمَّا قَضَيْتَ ﴾ يعني أن الإنسان قد يحكم الكتاب والسنة ، ولكن يكون في قلبه حرج ، يعني ما يطمئن أو ما يرضى إلا رغمًا عنه ، فلا بد من أن لا يجد الإنسان في نفسه حرجًا مما قضى اللَّه ورسوله .

الشيء الثالث : ﴿ وَيُسَلِّمُوا تَسْلِيمًا ﴾ أي ينقادوا انقيادًا تامًّا ، ليس فيه تأخر ولا تقهقر ، فهذه شروط ثلاثة لا يتم الإيمان إلا بها .

أولًا : تحكيم الرسول ﷺ . والثاني : ألا يجد الإنسان حرجًا مما قضى به .

والثالث : أن يسلم تسليمًا تامًّا بالغًا .

وبناء على هذا نقول : إن الذين يحكمون القوانين الآن ، ويتركون وراءهم كتاب اللَّه وسنة رسوله ﷺ ما هم بمؤمنين ، ليسوا بمؤمنين ، لقول اللَّه تعالى : ﴿ فَلَا وَرَبِّكَ لَا يُؤْمِنُونَ حَتَّىٰ يُحَكِّمُوكَ فِيمَا شَجَرَ بَيْنَهُمْ ﴾ ، ولقوله : ﴿ وَمَن لَّمْ يَحْكُم بِمَا أَنزَلَ اللَّهُ فَأُولَٰئِكَ هُمُ الْكَافِرُونَ ﴾ [المائدة : ٤٤] ، وهؤلاء المحكمون للقوانين لا يحكمونها في قضية معينة خالفوا فيها الكتاب والسنة ، لهوى أو لظلم ، ولكنهم استبدلوا الدين بهذه القوانين ، جعلوا هذا القانون يحلُّ محلَّ شريعة اللَّه ، وهذا كفر حتى لو صلوا وصاموا وتصدقوا وحجوا ؛ فهم كفار ما داموا عدلوا عن حكم اللَّه - وهم يعلمون بحكم اللَّه - إلى هذه القوانين المخالفة له . ﴿ فَلَا وَرَبِّكَ لَا يُؤْمِنُونَ حَتَّىٰ يُحَكِّمُوكَ فِيمَا شَجَرَ بَيْنَهُمْ ثُمَّ لَا يَجِدُوا فِي أَنفُسِهِمْ حَرَجًا مِّمَّا قَضَيْتَ وَيُسَلِّمُوا تَسْلِيمًا ﴾ فلا تستغرب إذا قلنا : إن من استبدل شريعة اللَّه بغيرها من القوانين فإنه يكفر ولو صام وصلى ؛ لأن الكفر ببعض الكتاب كفر بالكتاب كله ، فالشرع لا يتبعض ، إما أن تؤمن به جميعًا ، وإما أن تكفر به جميعًا ، وإذا آمنت ببعض وكفرت ببعض ؛ فأنت كافر بالجميع ؛ لأن حالك تقول : إنك لا تؤمن بما يخالف هواك . وأما ما خالف هواك فلا تؤمن به . هذا هو الكفر . فأنت بذلك اتبعت الهوى ، واتخذت هواك إلهًا من دون اللَّه .

فالحاصل : أن المسألة خطيرة جدًا ، من أخطر ما يكون بالنسبة لحكام المسلمين اليوم ؛ فإنهم قد وضعوا قوانين تخالف الشريعة وهم يعرفون الشريعة ، ولكن وضعوها - والعياذ بالله - تبعًا لأعداء الله من الكفرة الذين سنُّوا هذه القوانين ومشى الناس عليها ، والعجب أنه لقصور علم هؤلاء وضعف دينهم ، أنهم يعلمون أن واضع القانون هو فلان ابن فلان من الكفار ، في عصر قد اختلفت العصور عنه من مئات السنين ، ثم هو في مكان يختلف عن مكان الأمة الإسلامية ، ثم هو في شعب يختلف عن الأمة الإسلامية ، ومع ذلك يفرضون هذه القوانين على الأمة الإسلامية ولا يرجعون إلى كتاب الله ولا إلى سنة رسول الله ﷺ ، فأين الإسلام؟ وأين الإيمان؟ وأين التصديق برسالة محمد ﷺ وأنه رسول للناس كافة ؟ وأين التصديق بعموم رسالته وأنها عامة في كل شيء ؟ .

كثير من الجهلة يظنون أن الشريعة خاصة بالعبادة التي بينك وبين الله ﷻ فقط ، أو في الأحوال الشخصية من نكاح وميراث وما يشبه ذلك ، وهم أخطؤوا في هذا الظن ، الشريعة عامة في كل شيء ، وإذا شئت أن يتبين لك هذا ، فاسأل ما هي أطول آية في كتاب الله ؟ سيقال لك : إن أطول آية هي : آية الدَّين : ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِذَا تَدَايَنتُم بِدَيۡنٍ ... ﴾ [البقرة : ٢٨٢] ، كلها في المعاملات ، فكيف نقول : إن الشرع الإسلامي خاص بالعبادة أو بالأحوال الشخصية . هذا جهل وضلال ، إن كان عن عمد ؛ فهو ضلال واستكبار ، وإن كان عن جهل ؛ فهو قصور ويجب أن يتعلم الإنسان ويعرف .

المهم : أن الإنسان لا يمكن أن يؤمن إلا بثلاثة شروط : الأول : تحكيم النبي ﷺ ، والثاني : ألا يجد في صدره حرجًا ولا يضيق صدره بما قضى النبي - عليه الصلاة والسلام - ، والثالث : يسلم تسليمًا، وينقاد انقيادًا تامًّا . فبهذه الشروط الثلاثة يكون مؤمنًا ، وإن لم تتم فإما أن يخرج من الإيمان مطلقًا وإما أن يكون ناقص الإيمان . والله الموفق .

* * *

وقال الله تعالى : ﴿ مَّن يُطِعِ ٱلرَّسُولَ فَقَدۡ أَطَاعَ ٱللَّهَۖ ﴾ [سورة النساء : ٨٠] ، وقال تعالى : ﴿ وَإِنَّكَ لَتَهۡدِيٓ إِلَىٰ صِرَٰطٖ مُّسۡتَقِيمٖ ﴾ [الشورى : ٥٢] ، وقال تعالى : ﴿ فَلۡيَحۡذَرِ ٱلَّذِينَ يُخَالِفُونَ عَنۡ أَمۡرِهِۦٓ أَن تُصِيبَهُمۡ فِتۡنَةٌ أَوۡ يُصِيبَهُمۡ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴾ [النور : ٦٣] ، وقال تعالى : ﴿ وَٱذۡكُرۡنَ مَا يُتۡلَىٰ فِي بُيُوتِكُنَّ مِنۡ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ وَٱلۡحِكۡمَةِۚ ﴾ [الأحزاب : ٣٤] والآيات في الباب كثيرة .

الشرح

ثم نقل المؤلف - رحمه الله تعالى - في سياق الآيات في باب الأمر بالمحافظة على السنة وآدابها قوله تعالى : ﴿ مَّن يُطِعِ ٱلرَّسُولَ فَقَدۡ أَطَاعَ ٱللَّهَۖ ﴾ من يطع الرسول محمدًا ﷺ فقد أطاع الله .

والطاعة : موافقة الأمر ، سواء كان ذلك في فعل المأمور أو ترك المحذور ، فإذا قيل طاعة ومعصية ؛ فالطاعة لفعل المأمور ، والمعصية لفعل المحذور .

أما إذا قيل طاعة على سبيل الإطلاق ؛ فإنها تشمل الأوامر والنواهي ، يعني أن امتثال الأوامر طاعة ،

واجتناب النواهي طاعة ، فالذي يطيع النبي ﷺ في أمره ونهيه ، أي إذا أمره امتثل وإذا نهاه اجتنب ؛ فإنه يكون مطيعًا لله ﷻ ، هذا منطوق الآية ومفهومها ، أن من يعص الرسول فقد عصى الله .

وفي هذه الآية : دليل على أن ما ثبت في السنة ؛ فإنه كالذي ثبت في القرآن ، أي أنه من شريعة الله ويجب التمسك به ، ولا يجوز لأحد أن يفرق بين الكتاب والسنة ، ولقد أخبر النبي - عليه الصلاة والسلام - محذرًا حينما قال : « لا ألفين أحدكم متكئًا على أريكته ، يأتيه الأمر من عندي فيقول : لا ندري ما وجدنا في كتاب الله اتبعناه » (١) يعني إنه يحذِّر من أنه ربما يأتي زمان على الناس يقولون : لا نتبع إلا ما في القرآن ، أما ما في السنة فلا نأخذ به .

وهذا أمر قد وقع بالفعل ، فوُجِدَ من الملاحدة من يقول : لا نقبل السنة ، لا نقبل إلا القرآن ، والحقيقة أنهم كذبة ، فإنهم لم يقبلوا لا السنة ولا القرآن ؛ لأن القرآن يدل على وجوب اتباع السنة ، وإن ما جاء في السنة كالذي جاء في القرآن ، لكن هم يموهون على العامة ويقولون : إن السنة ما دامت ليست قرآنًا يتلى ويتواتر بين المسلمين ، فإن ما فيها قابل للشك ، وقابل للنسيان ، وقابل للوهم وما أشبه ذلك .

ثم ذكر المؤلف قوله تعالى : ﴿ فَلْيَحْذَرِ ٱلَّذِينَ يُخَالِفُونَ عَنْ أَمْرِهِۦٓ أَن تُصِيبَهُمْ فِتْنَةٌ أَوْ يُصِيبَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴾ [النور : ٦٣] ، هذا تحذير من الله ﷻ للذين يخالفون عن أمر الرسول ﷺ ، يعني يرغبون عن أمره فيخالفونه ، ولهذا لم يقل يخالفون أمره . وإنما قال : ﴿ يُخَالِفُونَ عَنْ أَمْرِهِۦٓ ﴾ أي يرغبون عنه فيخالفونه ، حذرهم من أن تصيبهم فتنة أو يصيبهم عذاب أليم ، قال الإمام أحمد : أتدري ما الفتنة ؟ الفتنة الشرك لعله إذا ردَّ بعض قوله أن يقع في قلبه شيء من الزيغ فيهلك - والعياذ بالله - أي أنه إذا ردَّ شيئًا من كلام الرسول - عليه الصلاة والسلام - فربما يقع في قلبه شيء من الزيغ فيهلك . يهلك ليس هلاكًا بدنيًا ، بل هلاكًا دينيًا . والهلاك الديني أشدُّ من الهلاك البدني . الهلاك البدني مآل كلِّ حيٍّ ، طالت به الحياة أم قصرت ، لكن الهلاك الديني خسارة في الدنيا والآخرة - والعياذ بالله - . وقوله : ﴿ أَوْ يُصِيبَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴾ يعني أنهم يُعاقبون قبل أن تحل بهم الفتنة ، نسأل الله العافية ، ففي هذا ، دليل على وجوب قبول أمر النبي ﷺ ، وأن الذي يخالف عنه مهدد بهذه العقوبة ﴿ أَن تُصِيبَهُمْ فِتْنَةٌ أَوْ يُصِيبَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴾ .

ثم نقل المؤلف - رحمه الله تعالى - فيما ذكره من الآيات التي صدر بها باب المحافظة على اتباع السنة وآدابها قوله تعالى : ﴿ وَإِنَّكَ لَتَهْدِىٓ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴿٥٢﴾ صِرَٰطِ ٱللَّهِ ٱلَّذِى لَهُۥ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ ﴾ والخطاب هنا للنبي ﷺ أخبره الله ﷻ أنه يهدي إلى صراط مستقيم يعني يدل إليه ويبينه للناس والصراط المستقيم بينه الله في قوله : ﴿ صِرَٰطِ ٱللَّهِ ﴾ يعني الصراط الذي نصبه الله تعالى لعباده ، وهو شريعته ، وأضافه الله إلى نفسه ؛ لأنه هو الذي نصبه ، ولأنه يوصل إليه ، كما أنه أضافه في سورة الفاتحة إلى الذين أنعم الله عليهم ؛ لأنهم هم الذين يسلكونه .

---

(١) أخرجه أبو داود في السنة (٤٦٠٥) ، والترمذي في العلم (٢٢٦٣) ، وابن ماجه في المقدمة (١٣) ، والحاكم في المستدرك (١/١٠٨) .

فالنبي - عليه الصلاة والسلام - يهدي الناس إلى الصراط، ويدلهم عليه، ويهديهم إليه ويرغبهم في سلوكه، ويحذرهم من مخالفته، وهكذا من خلفه من أمته من العلماء الربانيين؛ فإنهم يدعون إلى الصراط المستقيم، صراط الله، فإذا قال قائل: ما الجمع بين هذه الآية: ﴿ وَإِنَّكَ لَتَهْدِيٓ إِلَىٰ صِرَٰطٖ مُّسْتَقِيمٖ ﴾ وبين قوله تعالى: ﴿ إِنَّكَ لَا تَهْدِي مَنْ أَحْبَبْتَ ﴾ [القصص: ٥٦]؟ فإن هذه الآية نزلت حين اغتم النبي ﷺ لعمه أبي طالب، وكان عمه أبو طالب مشركًا، ولكنه كان يدافع عنه، ويرفع منزلته، ويذب عنه، ويقول فيه المدائح والقصائد العظيمة، لكن حُرم خير الإسلام - والعياذ بالله - ومات على الكفر فلما حضرته الوفاة، كان عنده النبي ﷺ ورجلان من قريش، فكان النبي ﷺ يقول له: «يا عم قل لا إله إلا الله؛ كلمة أحاجُّ لك بها عند الله» فإذا همَّ أن يقولها قال له الرجلان من قريش أترغب عن ملة عبد المطلب، يعني ملة الشرك، والعياذ بالله، فكان آخر ما قال: إنه على ملة عبد المطلب [1]، ومات كافرًا.

قال النبي - عليه الصلاة والسلام -: «إنه شفع فيه عند الله فأصبح في ضحضاح من نار، وعليه نعلان من نار، يغلي منهما دماغه» [2]. نعلان في أسفل بدنه يغلي منهما دماغه، فما بالك بما هو دون الدماغ - والعياذ بالله - قال النبي ﷺ: «نعم هو في ضحضاح من نار، ولولا أنا لكان في الدرك الأسفل من النار» [3]. يعني لولا شفاعتي فيه، لأنه ذب عن دين الإسلام، وحمى النبي ﷺ، لكان في الدرك الأسفل من النار. فهنا يقول: ﴿ إِنَّكَ لَا تَهْدِي مَنْ أَحْبَبْتَ ﴾ وفي الآية التي ذكرها المؤلف يقول: ﴿ وَإِنَّكَ لَتَهْدِيٓ إِلَىٰ صِرَٰطٖ مُّسْتَقِيمٖ ﴾ قال أهل العلم: والجمع بينهما أن الآية التي فيها إثبات الهداية يراد بها هداية الدلالة، يعني أنك تدلُّ الخلق، وليس كل من دلَّ على الصراط اهتدى، وأما الهداية التي نفى الله عن رسوله - عليه الصلاة والسلام - حيث قال: ﴿ إِنَّكَ لَا تَهْدِي مَنْ أَحْبَبْتَ ﴾ فهي هداية التوفيق، لا أحد يستطيع أن يوفق أحدًا للحق، ولو كان أباه، أو ابنه، أو عمه، أو أمه، أو خاله، أو جدته أبدًا، ﴿ مَن يُضْلِلِ ٱللَّهُ فَلَا هَادِيَ لَهُۥ ﴾. ولكن علينا أن ندعو عباد الله إلى دين الله، وأن نرغبهم فيه، وأن نبينه لهم، ثم إن اهتدوا فلنا ولهم، وإن لم يهتدوا فلنا وعليهم. قال الله تعالى: ﴿ طسٓمٓ ۝١ تِلْكَ ءَايَٰتُ ٱلْكِتَٰبِ ٱلْمُبِينِ ۝٢ لَعَلَّكَ بَٰخِعٞ نَّفْسَكَ أَلَّا يَكُونُواْ مُؤْمِنِينَ ﴾ [الشعراء: ١-٣] يعني لعلك تهلك نفسك بالهم والغم، إذا لم يكونوا مؤمنين، فلا تفعل، إن الهداية بيد الله، بل أدِّ ما عليك وقد برئت ذمتك.

ثم ختم المؤلف الآيات بقول الله تعالى: ﴿ وَٱذْكُرْنَ مَا يُتْلَىٰ فِي بُيُوتِكُنَّ مِنْ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ وَٱلْحِكْمَةِۚ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ لَطِيفًا خَبِيرًا ﴾ [الأحزاب: ٣٤]، الخطاب لزوجات النبي ﷺ الطاهرات المطهرات الطيبات، هؤلاء

(١) انظر الحديث بنصه في البخاري في الجنائز (١٣٦٠)، ومسلم في الإيمان (٣٩) والرجلان هما: أبو جهل وعبد الله بن أبي أمية بن المغيرة.

(٢) انظر الحديث بنصه في البخاري في الرقاق (٦٥٦٤)، ومسلم في الإيمان (٣٦٠)، وأحمد في مسنده (٢٠٦/١) وقوله: «ضحضاح» هو مارق من الماء على وجه الأرض إلى نحو الكعبين.

(٣) أخرجه البخاري في الأدب (٦٢٠٨)، ومسلم في الإيمان (٣٥٧) وقوله «الدرك» قال أهل اللغة: في الدرك لغتان فصيحتان مشهورتان. فتح الراء وإسكانها. أما معناه فقال أهل اللغة والمعاني وجماهير المفسرين: الدرك الأسفل قعر جهنم، وأقصى أسفلها قالوا: ولجهنم أدراك فكل طبقة من أطباقها تسمى دركًا.

النسوة هن أطهر زوجات على وجه الأرض منذ خلق آدم . وقد حاول المنافقون أن يدنسوا فراش رسول الله ﷺ ، وذلك في قصة الإفك التي نسجوا خيوطها ورموا بها الصديقة بنت الصديق رضي الله عنهما ، حيث اتهموها بما هي بريئة منه ، فأنزل الله في براءتها عشر آيات في كتابه تتلى إلى يوم القيامة ، فقال تعالى : ﴿إِنَّ الَّذِينَ جَاءُو بِالْإِفْكِ عُصْبَةٌ مِّنكُمْ لَا تَحْسَبُوهُ شَرًّا لَّكُم﴾ إلى قوله تعالى : ﴿وَالَّذِي تَوَلَّىٰ كِبْرَهُ مِنْهُمْ لَهُ عَذَابٌ عَظِيمٌ﴾ [النور : ١١] ، فنساء النبي - عليه الصلاة والسلام - يُتلى في بيوتهن من آيات الله والحكمة ما يتلى ، يتلوه النبي - عليه الصلاة والسلام - وهن أيضًا يتلونه ، فيقول ﷻ : اذكرن هذا ، اذكرن ما يُتلى في البيوت ، والتزمن بالسنة ، وقمن بما يجب ؛ لأن الذي يتلى في بيته الكتاب والحكمة ، لا شك أنه قد حصل على خير كثير ، وعلم غزير ، وإنه مسؤول عن هذا العلم ، فكل من آتاه الله علمًا وحكمة ، فإنه مسؤول عنه أكثر ممن جهل ، نسأل الله أن يوفقنا وإياكم إلى العلم والحكمة . إنه جواد كريم .

* * *

١٥٦ - فالأوَّلُ : عَنْ أبي هُرَيرَةَ رضي الله عنه عن النبي ﷺ قال : دَعُوني ما تَرَكْتُكُمْ : إِنَّمَا أَهْلَكَ مَنْ كَانَ قَبْلَكُمْ كَثْرَةُ سُؤَالِهِمْ ، واخْتِلافُهُمْ عَلَى أَنْبيائِهِمْ ، فَإِذَا نَهَيْتُكُمْ عَنْ شَيءٍ فاجْتَنِبُوهُ ، وَإِذَا أَمَرْتُكُمْ بأَمْرٍ فَأْتُوا مِنْهُ ما اسْتَطَعْتُمْ (١) متفقٌ عليه .

الشرح

قال المؤلف رحمه الله فيما نقله عن أبي هريرة رضي الله عنه أن النَّبيَّ ﷺ قال : « دعوني - أو ذروني - ما تركتكم » قاله النبي - عليه الصلاة والسلام - لأن بعض الصحابة من حرصهم على العلم ومعرفة السنة ، كانوا يسألون النبي ﷺ عن أشياء قد لا تكون حرامًا فتُحَرَّم من أجل مسألتهم ، أو قد لا تكون واجبة ، فتجب من أجل مسألتهم ، فلهذا أمرهم النبي ﷺ أن يدعوه ، أن يتركوا ما تركه ما دام لم يأمرهم ولم ينهاهم ، فليحمدوا الله على العافية .

ثم علل ذلك بقوله : « فإنما أهلك من كان قبلكم ؛ كثرة مسائلهم واختلافهم على أنبيائهم» يعني أن الذين من قبلنا أكثروا المسائل على الأنبياء ، فشُدِّدَ عليهم كما شددوا على أنفسهم ثم اختلفوا على أنبيائهم أيضًا ، فليتهم لما سألوا فأجيبوا قاموا بما يلزمهم ، ولكنهم اختلفوا على الأنبياء .

والاختلاف على الأنبياء يعني مخالفتهم ، وهنا مثال جاء به القرآن مصداقًا لقول النبي ﷺ هذا ، اختلف بنو إسرائيل في قتيل قُتل بينهم ، فادعت كل قبيلة أن الأخرى هي التي قتلته ، وادارؤوا فيها ، وتنازعوا فيها ، ورفعوا الأمر إلى نبيهم موسى - عليه الصلاة والسلام - فقال لهم : « ﴿إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُكُمْ أَن تَذْبَحُوا بَقَرَةً﴾ [البقرة : ٦٧] ، أمرهم الله أن يذبحوا بقرة ، ويأخذوا عضوًا من أعضائها ، ويضربوا به القتيل الذي قتل ، فإذا فعلوا ذلك فسيخبرهم عن قاتله الذي قتله . فقالوا له : ﴿أَتَتَّخِذُنَا هُزُوًا﴾ [البقرة : ٦٧] .

---

(١) أخرجه البخاري في الاعتصام (٧٢٨٨) ، ومسلم في الحج (٤١٢) ، وأحمد في مسنده (٢/٣١٣) ، والبيهقي في السنن (١/٣٨٨) ، وفي رواية مسلم وأحمد والبيهقي « ذروني » .

المعنى : أتضحك علينا ؟ وما صلة البقرة برجل قتل ؟ وكيف يحيا القتيل بعد موته ؟ وهذا من جبروت بني إسرائيل وعنادهم ، ورجوعهم إلى العقول دون النصوص ، هؤلاء رجعوا إلى عقولهم الوهمية دون النص ، ولو أخذوا بالنص لسلموا من هذا ﴿ قَالَ أَعُوذُ بِٱللَّهِ أَنْ أَكُونَ مِنَ ٱلْجَٰهِلِينَ ﴾ [البقرة: ٦٧] لأن الذي يسخر بالناس جاهل معتد عليهم ، والجهل هنا بمعنى العدوان ، أعوذ بالله أن أكون من الجاهلين . فلما رأوا أنه صادق ، وهو صادق - عليه الصلاة والسلام - ﴿ قَالُوا۟ ٱدْعُ لَنَا رَبَّكَ يُبَيِّن لَّنَا مَا هِىَ ﴾ [البقرة: ٦٨] لو أنهم أخذوا أي بقرة من السوق وذبحوها لحصل المقصود ، لكن تعنتوا ، وتشددوا فشدد الله عليهم ﴿ قَالُوا۟ ٱدْعُ لَنَا رَبَّكَ يُبَيِّن لَّنَا مَا هِىَ قَالَ إِنَّهُۥ يَقُولُ إِنَّهَا بَقَرَةٌ لَّا فَارِضٌ وَلَا بِكْرٌ ﴾ [البقرة: ٦٨] ﴿ لَّا فَارِضٌ ﴾ يعني لا طاعن في السن كبيرة ﴿ وَلَا بِكْرٌ ﴾ يعني : صغيرة ، ﴿ عَوَانٌۢ بَيْنَ ذَٰلِكَ فَٱفْعَلُوا۟ مَا تُؤْمَرُونَ ﴾ [البقرة: ٦٨] أمرهم أن يفعلوا ، وهذا تأكيد للأمر السابق ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ يَأْمُرُكُمْ أَن تَذْبَحُوا۟ بَقَرَةً ﴾ [البقرة: ٦٧] .

لكنهم أبوا ، ﴿ قَالُوا۟ ٱدْعُ لَنَا رَبَّكَ يُبَيِّن لَّنَا مَا لَوْنُهَا ﴾ [البقرة: ٦٩] عرفنا سنَّها فأخبرنا ما هو لونها ، ﴿ قَالَ إِنَّهُۥ يَقُولُ إِنَّهَا بَقَرَةٌ صَفْرَآءُ فَاقِعٌ لَّوْنُهَا تَسُرُّ ٱلنَّٰظِرِينَ ﴾ [البقرة: ٦٩] شُدد عليهم مرة ثانية ، لو ذبحوا أي بقرة ﴿ لَّا فَارِضٌ وَلَا بِكْرٌ عَوَانٌۢ بَيْنَ ذَٰلِكَ ﴾ لكفى ، لكن تشددوا فشدد عليهم من يجد بقرة على هذه الصفة ؟ صفراء فاقع لونها تسر الناظرين ، لونها جميل صافٍ بيِّن . ومع ذلك ما امتثلوا : ﴿ قَالُوا۟ ٱدْعُ لَنَا رَبَّكَ يُبَيِّن لَّنَا مَا هِىَ ﴾ [البقرة: ٧٠] يعني ما عملها ؟ ﴿ إِنَّ ٱلْبَقَرَ تَشَٰبَهَ عَلَيْنَا وَإِنَّآ إِن شَآءَ ٱللَّهُ لَمُهْتَدُونَ ۝ قَالَ إِنَّهُۥ يَقُولُ إِنَّهَا بَقَرَةٌ لَّا ذَلُولٌ تُثِيرُ ٱلْأَرْضَ وَلَا تَسْقِى ٱلْحَرْثَ مُسَلَّمَةٌ لَّا شِيَةَ فِيهَا ﴾ [البقرة: ٧٠، ٧١] ليس فيها عيب ﴿ قَالُوا۟ ٱلْـَٰٔنَ جِئْتَ بِٱلْحَقِّ ﴾ [البقرة: ٧١] أعوذ بالله من الضلال ، وتحكم بالعقول على النصوص هذا قد جاء بالحق من قبل ، لكن أهواءهم وعقولهم أنكرت ذلك . ﴿ قَالُوا۟ ٱلْـَٰٔنَ جِئْتَ بِٱلْحَقِّ فَذَبَحُوهَا وَمَا كَادُوا۟ يَفْعَلُونَ ﴾ [البقرة: ٧١] يعني ما قاربوا أن يفعلوا ، ولكن بالإلحاح والمساءلات فعلوا .

ثم أخذوا جزءًا منها . فضربوا به القتيل فأحياه الله ، ثم قال : الذي قتلني فلان . وانتهت المشكلة . المهم أن كثرة السؤال للأنبياء قد تسبب شدة الأمر على الأمة .

ومن ذلك : ما وقع للنبي - عليه الصلاة والسلام - في قصة الأقرع بن حابس . الأقرع بن حابس من بني تميم . قال النبي ﷺ : « إن الله قد فرض عليكم الحج فحجوا » فَرْض الحج مرة ومادام لم يطلب منا أن نكرر فيكفي مرة واحدة ، فقال الأقرع : أفي كل عام يا رسول الله ؟ فهذا السؤال في غير محله . قال : « لو قلت نعم لوجبت ولما استطعتم ، ذروني ما تركتكم ، فإنما أهلك من قبلكم : كثرة مسائلهم ، واختلافهم على أنبيائهم » (١) .

هذا أيضًا من التشديد ، ففي عهد النبي ﷺ لا ينبغي أن يُسأل عن شيء مسكوت عنه ، ولهذا قال : « ذروني ما تركتكم ، فإنما أهلك الذين من قبلكم كثرة مسائلهم واختلافهم على أنبيائهم » . أما في عهدنا وبعد انقطاع الوحي بموت النبي ﷺ فاسأل ، اسأل عن كل شيء تحتاج إليه ؛ لأن الأمر

---

(١) أخرجه مسلم في الحج (٤١٢) ، والنسائي في السنن (٥/ ١١٠) ، وأحمد في مسنده (٢/ ٥٠٨) .

مستقر الآن وليس هناك زيادة ولا نقص ، لكن في عهد التشريع يمكن أن يزاد ويمكن أن يُنقص ، وبعض العوام يفهم من قوله تعالى : ﴿ لَا تَسْئَلُوا عَنْ أَشْيَاءَ إِن تُبْدَ لَكُمْ تَسُؤْكُمْ ﴾ [المائدة : ١٠١] ، وقوله ﷺ : « ذروني ما تركتكم ... » يفهم من ذلك فهمًا خاطئًا . فتجده يفعل الحرام ، ويترك الواجب ولا يسأل ويستدل بهذه الأدلة وتلك النصوص ويزين له الشيطان ذلك والعياذ بالله .

فالواجب على الإنسان أن يتفقه في دين الله . قال النبي – عليه الصلاة والسلام – : « من يرد الله به خيرًا يفقهه في الدين » (١) .

ثم قال ﷺ : « وإذا نهيتكم عن شيء فاجتنبوه ، وإذا أمرتكم بأمر فأتوا منه ما استطعتم » فعمم في النهي وخصَّ في الأمر .

أما في النهي فقال : « ما نهيتكم عن شيء فاجتنبوه » . أي شيء ينهانا عنه الرسول – عليه الصلاة والسلام – فإننا نتجنبه ، وذلك لأن المنهي عنه متروك ، فالنهي أمر بالترك ، والترك ليس فيه مشقة . كلُّ إنسان يستطيع أن يترك وليس عليه مشقة ولا ضرر ، فما نهانا عنه فإننا نتجنبه ، إلا أن هذا مقيد بالضرورة ، فإذا اضطر الإنسان إلى شيء محرم ، وكان لا يجد سواه ، وتندفع به ضرورته ، فإنه حلال ، لقول الله تعالى : ﴿ وَقَدْ فَصَّلَ لَكُم مَّا حَرَّمَ عَلَيْكُمْ إِلَّا مَا اضْطُرِرْتُمْ إِلَيْهِ ﴾ [الأنعام : ١١٩] ، ولقوله تعالى : ﴿ حُرِّمَتْ عَلَيْكُمُ الْمَيْتَةُ وَالدَّمُ وَلَحْمُ الْخِنزِيرِ ... ﴾ إلى قوله : ﴿ فَمَنِ اضْطُرَّ فِي مَخْمَصَةٍ غَيْرَ مُتَجَانِفٍ لِّإِثْمٍ فَإِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴾ [المائدة : ٣] .

فيكون قول الرسول ﷺ : « ما نهيتكم عن شيء فاجتنبوه » يكون مقيدًا بحال الضرورة ، يعني أنه إذا وجدت ضرورة إلى شيء محرم صار هذا المحرم حلالًا بشرطين :

الشرط الأول : أن لا تندفع ضرورته بسواه .

والشرط الثاني : أن يكون مزيلًا للضرورة .

وبهذين القيدين نعرف أنه لا ضرورة إلى دواء محرم ، يعني لو كان هناك دواء ولكنه حرام ؛ فإنه لا ضرورة إليه .

فلو قال قائل : أنا أريد أن أشرب دمًا استشفي به ، كما يدعي بعض الناس أنه إذا شرب من دم الذئب شفي من بعض الأمراض ، نقول : هذا لا يجوز .

أولًا : لكون الإنسان ربما يُشفى من غير هذا المحرم ؛ إما من الله ، وإما بدعاء ، وإما بقراءة ، وإما بدواء آخر مباح .

وثانيا : أنه ليس يقينًا إذا تداوى بالدواء يشفى ، فما أكثر الذين يتداوون ولا يُشفون ، بخلاف من كان جائعًا وليس عنده إلا ميتة ، أو لحم خنزير ، أو لحم حمار ؛ فإنه يجوز أن يؤكل في هذه الحالة ، لأننا نعلم أن ضرورته تندفع بذلك ، بخلاف الدواء .

(١) سبق تخريجه .

وأما قوله – عليه الصلاة والسلام – : « وإذا أمرتكم بأمر فأتوا منه ما استطعتم » . فهذا يوافق قول الله ﷻ : ﴿ فَاتَّقُوا اللَّهَ مَا اسْتَطَعْتُمْ ﴾ [التغابن: ١٦] يعني إذا أمرنا بأمر ؛ فإننا نأتي منه ما استطعنا ، وما لا نستطيعه يسقط عنا ، مثلًا أمرنا بأن نصلي الفرض قيامًا ، فإذا لم نستطع صلينا جلوسًا ، وإذا لم نستطع صلينا على جنب ، كما قال ﷺ لعمران بن حصين : « صل قائمًا ، فإن لم تستطع فقاعدًا ، فإن لم تستطع فعلى جنب » [١] .

وتأمل قوله : « إذا أمرتكم بأمر ، فأتوا منه ما استطعتم » بخلاف النهي ؛ لأن الأمر فعل وإيجاب ، قد يكون شاقًا على النفس ولا يستطيع الإنسان أن يقوم به . فلهذا قيده بقوله : « فأتوا منه ما استطعتم » ، ومع ذلك فإن هذا الأمر مقيد بقيد آخر ، وهو أن لا يوجد مانع يمنع ، فإذا وُجد مانع يمنع ، فهذا يدخل في قوله : « فأتوا منه ما استطعتم » . ولهذا قال العلماء : (لا واجب مع عجز ، ولا محرم مع الضرورة) . والشاهد من هذا الحديث قول النبي ﷺ : « ما نهيتكم عنه فاجتنبوه ، وما أمرتكم به فأتوا منه ما استطعتم » فإن هذا يدخل في المحافظة على السنة وآدابها .

وأما ما سكت عنه النبي ﷺ ، فهو عفو ، المسكوت عنه معفو عنه ، وهذا من رحمة الله . فالأشياء إما مأمور بها ، أو منهي عنها ، أو مسكوت عنها ، فما سكت عنه الله ورسوله ؛ فإنه عفو لا يلزمنا فعله ولا تركه ، والله الموفق .

* * *

١٥٧ – الثَّاني : عَنْ أَبي نَجيح العِرْبَاضِ بْن سَارِيَة ﷺ قال : « وَعَظَنَا رسول الله ﷺ مَوعِظَةً بليغَةً وَجِلَتْ مِنْهَا القُلوب وَذَرَفَتْ مِنْهَا العُيُون » فقُلنَا : يا رَسول اللهِ كأنَّهَا مَوعِظَةُ مُوَدِّعٍ فَأَوصِنَا . قالَ : « أُوصِيكُمْ بِتَقْوَى اللهِ ، وَالسَّمْعِ وَالطَّاعَةِ وَإِنْ تَأَمَّر عَلَيكُمْ عَبْدٌ ، وَإِنَّهُ مَنْ يَعِشْ مِنْكُمْ فَسَيرَى اخْتِلافًا كَثِيرًا ، فَعَلَيكُمْ بسُنَّتِي وَسُنَّةِ الخُلَفَاءِ الرَّاشِدينَ المَهْدِيِّينَ ، عضُّوا عَلَيهَا بالنَّواجِذِ ، وَإِيَّاكُمْ ومُحْدثَاتِ الأُمُورِ ؛ فَإِنَّ كُلَّ بِدْعَةٍ ضلالَةٌ » [٢] رواه أبو داود ، والترمذي وقال : حديث حسن صحيح .

« النَّواجِذُ » بالذال المعجمةِ : الأنيَابُ ، وقيلَ : الأَضْرَاسُ .

١٥٨ – الثَّالِثُ : عَنْ أَبي هريرة ﷺ أن رسول الله ﷺ قالَ : « كُلُّ أُمَّتي يَدْخُلونَ الجَنَّةَ إلا مَنْ أَبَى » . قِيلَ : وَمَنْ يَأبَى يا رسول اللهِ ؟ قال : « مَنْ أَطَاعني دَخَلَ الجَنَّةَ ، وَمَنْ عَصَاني فَقَدْ أَبَى » [٣] رواه البخاري .

١٥٩ – الرَّابعُ : عن أبي مسلم ، وقيلَ : أبي إيَاسٍ سَلَمَةَ بْنِ عَمْرو بْنِ الأَكْوَعِ ﷺ أَنَّ رَجُلًا أَكَلَ عنْدَ رسول الله ﷺ بِشِمَالِهِ فقال : « كُلْ بِيَمينِكَ » قال : لا أَسْتَطِيعُ . قالَ : « لا اسْتَطَعْتَ » ما مَنَعَهُ

---

(١) أخرجه البخاري في تقصير الصلاة (١١١٧) ، وأبو داود في الصلاة (٩٥٢) ، والترمذي في الصلاة (٣٧٢) .

(٢) أخرجه أبو داود في السنة (٤٦٠٧) ، والترمذي في العلم (٢٦٧٦) ، وأحمد في مسنده (١٢٦/٤ ، ١٢٧) ، والبيهقي في السنن (١١٤/١٠) .

(٣) أخرجه البخاري في الاعتصام (٧٢٨٠) . والحديث لم يقم الشارح ﷺ بشرحه .

إلا الكبْرُ ، فَمَا رَفَعَهَا إِلَى فِيهِ [١] . رواه مسلم .

الشرح

قال المؤلف - رحمه الله تعالى - فيما نقله في باب الأمر بالمحافظة على السنة وآدابها ، عن العرباض ابن سارية ﷺ قال : « وَعَظَنَا رَسُولُ اللَّه ﷺ موعظةً بليغةً وجلت منها القلوب ، وذرفت منها العيون » . وهذا من دأبه ﷺ أنه كان يعظ الناس أحيانًا على وجه راتب ، كما في يوم الجمعة ، خطب يوم الجمعة ، وخطب العيدين . وأحيانًا على وجه عارض ، إذا وُجد سبب يقتضي الموعظة ، قام - عليه الصلاة والسلام - فوعظ الناس ؛ ومن ذلك : موعظته ﷺ بعد صلاة الكسوف ؛ فإنه خطب ووعظ موعظة عظيمة بليغة ، من أحب أن يرجع إليها فعليه بكتاب زاد المعاد لابن القيم رحمه الله .

أما هنا فيقول : « وعظنا موعظة بليغة ، وجلت منها القلوب ، وذرفت منها العيون » . « وجلت » : يعني خافت . وذرفت العيون من البكاء ، فأثرت فيهم تأثيرًا بالغًا ، حتى قالوا : « يا رسول اللَّه كأنها موعظة مودِّع فأوصنا » لأن المودِّع إذا أراد المغادرة ، فإنه يعظ من خلفه بالمواعظ البليغة التي تكون ذكرى لهم فلا ينسونها ، ولهذا تجد الإنسان إذا وعظ عند فراق لسفر أو غيره ، فإن الموعظة تمكث في قلب الموعوظ ، وتبقى ، لهذا قالوا : كأنها موعظة مودع فأوصنا .

فقال ﷺ : «أوصيكم بتقوى اللَّه » وهذه الوصية هي التي أوصى بها اللَّه عز وجل عباده ، كما قال تعالى : ﴿ وَلَقَدْ وَصَّيْنَا الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ مِن قَبْلِكُمْ وَإِيَّاكُمْ أَنِ اتَّقُوا اللَّهَ ﴾ [النساء : ١٣١] ، والتقوى كلمة جامعة من أجمع الكلمات الشرعية ، ومعناها : اتخاذ وقاية من عذاب اللَّه ، أن يتخذ الإنسان وقاية من عذاب اللَّه ، ولا يكون هذا إلا بفعل الأوامر واجتناب النواهي ، ولا يكون فعل الأوامر واجتناب النواهي إلا بعلم الأوامر والنواهي . إذًا فلابد من علم ، ولابد من عمل ، فإذا اجتمع للإنسان العلم والعمل ؛ نال بذلك خشية اللَّه ، وحصلت له التقوى . فتقوى اللَّه إذًا : أن يتخذ الإنسان وقاية من عذابه ، بفعل أوامره ، واجتناب نواهيه ، ولا وصول إلى ذلك إلا بالعلم . وليس المراد بالعلم أن يكون الإنسان بحرًا . لا . المراد به : العلم بما يتعين عليه من أوامر اللَّه . والناس يختلفون في ذلك : فمثلًا من عنده مال يجب أن يعلم أحكام الزكاة ، ومن قدر على الحج ؛ وجب عليه أن يعلم أحكام الحج ، وغيرهم لا يجب عليهم ، فالعلوم الشرعية فرض كفاية إلا ما تعين على العبد فعله ، فإنَّ علمه يكون فرض عين .

قال ﷺ : «أوصيكم بتقوى اللَّه ، والسمع والطاعة ، وإن تأمَّر عليكم عبدٌ حبشي » . السمع والطاعة يعني لولي الأمر ، وإن تأمر عليكم عبد حبشي ، سواء كانت إمرته عامة ، كالرئيس الأعلى في الدولة ، أو خاصة كأمير بلدة ، أو أمير قبيلة وما أشبه ذلك ، وقد أخطأ من ظن أن قوله : «وإن تأمّر عليكم عبد حبشي » أن المراد بهم الأمراء الذين دون الولي الأعظم الذي يسميه الفقهاء الإمام الأعظم ؛ لأن الإمارة في الشرع تشمل الإمارة العظمى ، وهي الإمامة وما دونها كإمارة البلدان ،

---

(١) أخرجه مسلم في الأشربة(١٧) ، والإمام أحمد في مسنده(٤/٤٥) ، والحديث لم يقم الشارح رحمه الله بشرحه .

والمقاطعات والقبائل وما أشبه ذلك . ودليل هذا أن المسلمين منذ تولى عمر بن الخطاب ﷺ كانوا يسمون الخليفة : أمير المؤمنين ، فيجعلونه أميرًا . وهذا لا شك فيه ، ثم يسمى أيضًا إمامًا ؛ لأنه السلطان الأعظم ، ويسمى سلطانًا . لكن الذي عليه الصحابة أنهم يسمونه أمير المؤمنين .

وقوله : « وإن تأمر عليكم عبد حبشي » يعني حتى ولو لم يكن من العرب ، لو كان من الحبشة وتولى وجعل اللّه له السلطة ؛ فإن الواجب السمع والطاعة له ، لأنه صار أميرًا . ولو قلنا بعدم السمع والطاعة له ، لأصبح الناس فوضى ، كل يعتدي على الآخر ، وكل يضيع حقوق الآخرين . وقوله : « السمع والطاعة » هذا الإطلاق مقيد ، مقيد بما قيده به النبي ﷺ حيث قال : « إنما الطاعة في المعروف »[1] ثلاث مرات ، يعني فيما يقره الشرع ، وأما ما ينكره الشرع ، فلا طاعة لأحد فيه ، حتى لو كان الأب أو الأم أو الأمير العام أو الخاص ، فإنه لا طاعة له . فمثلًا لو أمر ولي الأمر بأن لا يصلي الجنود ، قلنا : لا سمع ولا طاعة ؛ لأن الصلاة فريضة ، فرضها اللّه على العباد وعليك أنت أيضًا ، أنت أول من يصلي ، وأنت أول من تفرض عليه الصلاة ، فلا سمع ولا طاعة . لو أمرهم بشيء محرم ، كحلق اللحى مثلًا . قلنا : لا سمع ولا طاعة ، نحن لا نطيعك ، نحن نطيع النبي ﷺ الذي قال : « أعفوا اللحى ، وحفوا الشوارب »[2] .

وهكذا كل ما أمر به وليُّ الأمر ، إذا كان معصية لله ؛ فإنه لا سمع له ولا طاعة ، يجب أن يُعصى علنًا ولا يهتم به ؛ لأن مَنْ عصى اللّه وأمر العباد بمعصية اللّه ، فإنه لا حق له في السمع والطاعة . لكن يجب أن يُطاع في غير هذا . يعني ليس معنى ذلك أنه إذا أمر بمعصية تسقط طاعته مطلقًا . لا . إنما تسقط طاعته في هذا الأمر المعين الذي هو معصية لله . أما ما سوى ذلك ؛ فإنه تجب طاعته ، وقد ظن بعضُ الناس أنها لا تجب طاعة ولي الأمر إلا فيما أمر اللّه به ، وهذا خطأ ؛ لأن ما أمر اللّه به فإنه يجب علينا أن ننفذه ونفعله ، سواء أمرنا به وليُّ الأمر أم لا .

فالأحوال ثلاثة: إما أن يكون ما أمر به ولي الأمر مأمورًا به شرعًا ، كما لو أمر بالصلاة مع الجماعة مثلًا ؛ فهذا يجب امتثاله لأمر اللّه ورسوله ولأمر ولي الأمر .

وإما أن يأمر ولي الأمر بمعصية اللّه ، من ترك واجب أو فعل محرم ، فهذا لا طاعة له ولا سمع .

وإما أن يأمر الناس بما ليس فيه أمر شرعي ولا معصية شرعية ، فهذا تجب طاعته فيه ؛ لأن اللّه قال : ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ أَطِيعُواْ ٱللَّهَ وَأَطِيعُواْ ٱلرَّسُولَ وَأُوْلِي ٱلۡأَمۡرِ مِنكُمۡۖ ﴾ [النساء : ٥٩] فطاعة ولي الأمر من غير معصية طاعة لله ولرسوله . واللّه الموفق .

ثم قال ﷺ : « فإنه من يعش منكم ، فسيرى اختلافًا كثيرًا » يعني أن من سيعيش منكم ويُمدُّ له في عمره ، فسيرى اختلافًا كثيرًا ؛ اختلافًا كثيرًا في الولاية ، واختلافًا كثيرًا في الرأي ، واختلافًا كثيرًا

---

(١) أخرجه البخاري في أخبار الآحاد (٧٢٥٧) ، ومسلم في الإمارة (٣٩ ، ٤٠) ، وأحمد في مسنده (١/١٢٤) .

(٢) أخرجه البخاري في اللباس (٥٨٩٢) ، ومسلم في الطهارة (٥٤) كلاهما بلفظ : « أحفوا الشوارب وأعفو اللحي » ، وأحمد في مسنده (٢/٥٢) بلفظه .

في العمل ، واختلافًا كثيرًا في حال الناس عمومًا ، وفي حال بعض الأفراد خصوصًا ، وهذا الذي وقع ؛ فإن الصحابة ﷺ لم ينقرضوا حتى حصلت الفتن العظيمة ، منها : مقتل عثمان ﷺ ، وعليّ بن أبي طالب ﷺ ، وقبلهما مقتل عمر بن الخطاب ﷺ ، وغير ذلك من الفتن المعروفة في كتب التاريخ .

والذي يجب علينا نحن إزاء هذه الفتن ، أن نُمسك عما شَجَرَ بين الصحابة ، وألا نخوض فيه ، وألا نتكلم فيه ؛ لأنه كما قال عمر بن العزيز رحمه الله : هذه دماء طهر اللَّه سيوفنا منها ، فيجب أن نطهّر ألسنتنا منها . وصدق ﷺ فما فائدة أن ننبش عما جرى بين علي بن أبي طالب وعائشة ﷺ ، أو بين علي ومعاوية من الحروب التي مضت وانقضت ، ذكْر هذه الحروب وتذكرها لا يزيدنا إلا ضلالًا ؛ لأننا في هذه الحال نحقد على بعض الصحابة ، ونغلو في بعض ، كما فعلت الرافضة حين غلو في آل البيت ، فزعموا أنهم يوالون آل البيت ، وإنَّ آلَ البيتِ لبرآءٌ من غُلُوِهِم . وأولُ من تبرأ من غلوهم عليٌّ بن أبي طالب ﷺ ؛ فإن السبئية أتباع عبد اللَّه بن سبأ ، وهو أول من سن الرفض في هذه الأمة ، وكان يهوديًا أظهر الإسلام ليفسد الإسلام ، كما قال شيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله وهو العالم الذي سبر حال القوم وعرفها ، قال : إن عبد اللَّه بن سبأ يهودي دخل في الإسلام ليفسده ، كما دخل بولس في دين النصارى ليفسده ، هذا الرجل أعني عبد اللَّه بن سبأ عليه من اللَّه ما تولاه تظاهر بأنه يحب آل البيت ، ويدافع عنهم ، ويدافع عن علي بن أبي طالب ، حتى أنه قام بين يدي علي بن أبي طالب يقول له : أنت اللَّه حقًا ، قاتله اللَّه ، لكن علي بن أبي طالب ﷺ أمر بالأخدود يعني بالحفر فحُفرت ، ثم مُلئت حطبًا ، ثم دعا بأتباع هذا الرجل فأوقد فيهم النار ، أحرقهم بالنار ؛ لأن ذنبهم عظيم والعياذ باللَّه ، ويُقال : إن عبد اللَّه بن سبأ أفلت منه وهرب إلى مصر . واللَّه أعلم .

قال ابن عباس ﷺ حينما بلغه الخبر : إن علي بن أبي طالب أصاب في قتلهم ، لقول النبي ﷺ : « من بدَّل دينه فاقتلوه » وهؤلاء بدلوا دينهم ولكنه أخطأ في إحراقهم بالنار ، لأن النبي ﷺ قال : « لا تعذبوا بعذاب اللَّه » [١] فبلغ ذلك علي بن أبي طالب فقال : ويح ابن عباس إنه لبحَّاث عن الهنات يعني عن العيب كأنه ﷺ استصوب ما قال عبد اللَّه بن عباس .

المهم أنني أقول : إن من مذهب أهل السنة والجماعة أن نسكت عما شجر بين الصحابة فلا نتكلم فيه ، نعرض بقلوبنا وألسنتنا عما جرى بينهم ، ونقول كلهم مجتهدون ، المصيب منهم له أجران ، والمخطئ منهم له أجر واحد ، و ﴿ تِلْكَ أُمَّةٌ قَدْ خَلَتْ لَهَا مَا كَسَبَتْ وَلَكُم مَّا كَسَبْتُمْ وَلَا تُسْأَلُونَ عَمَّا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴾ لو قرأ إنسان التاريخ حول هذه الأمور لوجد العجب العُجاب ، وجد من ينتصر لبني أمية ويقدح في علي بن أبي طالب وآل النبي ، ووجد من يغلو في علي بن أبي طالب وآل النبي ويقدح قدحًا عظيمًا في بني أمية ؛ لأن التاريخ يخضع للسياسة .

لذا يجب علينا نحن فيما يتعلق بالتاريخ ألا نتعجل في الحكم ؛ لأن التاريخ يكون فيه كذب ،

---

(١) انظر الحديث في البخاري في استتابة المرتدين (٦٩٢٢) ، والترمذي في الحدود (١٤٥٨) ، وأحمد في مسنده (٢١٧/١ ، ٢٢٠) .

ويكون فيه هوى ، وتغيير للحقائق ، يُنشر غير ما يكون ويُحذف ما يكون ، كل هذا تبعًا للسياسة ، ولكن على كلِّ حال ما جرى بين الصحابة ﷺ يجب علينا أن نكف عنه . كما هو مذهب أهل السنة والجماعة ، حتى لا يكون في قلوبنا غل على أحد منهم . نحبُّهم كلهم ونسأل الله أن يميتنا على حبهم ، نحبهم كلهم ونقول : ﴿ رَبَّنَا ٱغْفِرْ لَنَا وَلِإِخْوَٰنِنَا ٱلَّذِينَ سَبَقُونَا بِٱلْإِيمَٰنِ وَلَا تَجْعَلْ فِى قُلُوبِنَا غِلًّا لِّلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ رَبَّنَآ إِنَّكَ رَءُوفٌ رَّحِيمٌ ﴾ .

المهم : أن النبي ﷺ وهو الصادق المصدوق قال : «وإنه من يعش منكم فسيرى اختلافًا كثيرًا » وهذا هو الذي وقع وكان . ولكن هل هذه الجملة تنزل على كل زمان ، بمعنى أن كل من عاش من الناس فسوف يرى التغير ، أو أن هذا خاص بمن خاطبهم الرسول - عليه الصلاة والسلام - ؟ . نقول : إنه ينطبق على كل زمن ، فالذين عمَّروا منا يجدون الاختلاف العظيم بين أول حياتهم وآخر حياتهم ، فمن عاش ومُدَّ له في العمر رأى التغير العظيم في الناس ، رأى التغير لأنه كما قال الرسول - عليه الصلاة والسلام - : «من يعش منكم فسيرى اختلافًا كثيرًا » . ثم حثَّ النبي ﷺ عند هذا الاختلاف على لزوم سنة واحدة ، فقال : «عليكم بسنتي وسنة الخلفاء الراشدين المهديين عَضُّوا عليها بالنواجذ » ( ) .

فالرسول ﷺ أمرنا عندما نرى هذا الاختلاف أن نلزم سنته ، فقوله : «عليكم بسنتي » يعني الزموها . وكلمة : «عليكم » يقول علماء النحو : إنها جار ومجرور تحول إلى فعل الأمر ، يعني الزموا سنتي .

وسنته - عليه الصلاة والسلام - هي : طريقته التي يمشي عليها ، عقيدة ، وخلقًا ، وعملًا ، وعبادة ، وغير ذلك ، نلزم سنته ، ونجعل التحاكم إليها ، كما قال الله تعالى :﴿ فَلَا وَرَبِّكَ لَا يُؤْمِنُونَ حَتَّىٰ يُحَكِّمُوكَ فِيمَا شَجَرَ بَيْنَهُمْ ثُمَّ لَا يَجِدُوا۟ فِىٓ أَنفُسِهِمْ حَرَجًا مِّمَّا قَضَيْتَ وَيُسَلِّمُوا۟ تَسْلِيمًا ﴾ [النساء: ٦٥] فسنة النبي - عليه الصلاة والسلام - هي سبيل النجاة لمن أراد الله نجاته من الخلافات والبدع ، وهي - ولله الحمد - موجودة في كتب أهل العلم الذين ألفوا في السنة ، مثل الصحيحين للبخاري ومسلم ، والسنن والمسانيد وغيرها مما ألفه أهل العلم ، وحفظوا به سنة رسول الله ﷺ .

وقوله : «وسنة الخلفاء الراشدين المهديين » . والخلفاء جمع خليفة : وهم الذين خلفوا النبي ﷺ في أمته علمًا وعملًا ودعوةً وجهادًا وسياسيةً ، وعلى رأسهم الخلفاء الراشدون الأربعة ؛ أبو بكر ، وعمر ، وعثمان ، وعلي ﷺ ، وألحقنا بهم في جنات النعيم . هؤلاء الخلفاء الأربعة ومن بعدهم من خلفاء الأمة ، الذين خلفوا النبي ﷺ في أمته ، هم الذين أمرنا باتباع سنتهم ، ولكن ليُعلم أن سنة هؤلاء الخلفاء تأتي بعد سنة الرسول - عليه الصلاة والسلام - فلو تعارضت سنة خليفة من الخلفاء مع سنة محمد ﷺ ؛ فإن الحكم لسنة محمد ﷺ لا لغيرها ؛ لأنها - أعني سنة الخلفاء - تابعة لسنة النبي ﷺ .

( ) أخرجه الترمذي في السنن(٢٦٧٦) ، وابن ماجه في المقدمة(٤٢) ، وأحمد في مسنده(١٢٦/٤ ، ١٢٧) ، والبيهقي في السنن(١١٤/١٠) .

أقول هذا ؛ لأنه قد جرى نقاش بين طالبين من طلبة العلم في صلاة التراويح ، أحدهما يقول : السنة أن تكون ثلاثًا وعشرين ركعة . والثاني يقول : السنة أن تكون ثلاث عشرة ركعة ، أو إحدى عشرة ركعة . فقال الأول للثاني : هذه سنة الخليفة عمر بن الخطاب أنها ثلاثا وعشرين ، وقد أمرنا باتباع سنة الخلفاء الراشدين . يريد أن يعارض بهذا سنة الرسول ﷺ ، فقال الآخر : سنة النبي ﷺ مقدمة ، هذا إن صح عن عمر أنها ثلاث وعشرون ، مع أن الذي صحَّ عن عمر بأصح إسناد رواه مالك في الموطأ أنه أمر تميمًا الداري وأبيَّ بن كعب أن يقوما للناس بإحدى عشر ركعة [1] ، لا بثلاث وعشرين هذا الذي صح عنه ﷺ [2] . على كل حال لا يمكن أن نعارض سنة الرسول - عليه الصلاة والسلام - بسنة أحد من الناس ، لا الخلفاء ولا غيرهم ، وما خالف سنة الرسول ﷺ من أقوال الخلفاء ، فإنه يُعتذر عنه ولا يُحتج به ، ولا يُجعل حجة على سنة الرسول ﷺ .

المهم : أن سنة الخلفاء تأتي بعد سنة الرسول ﷺ . قال ابن عباس ﵄ : يوشك أن تنزل عليكم حجارة من السماء ، أقول : قال رسول اللَّه ، وتقولون : قال أبو بكر وعمر !! هذا وهما أبو بكر وعمر ، فكيف بمن عارض قول الرسول ﷺ بقول مَنْ دون أبي بكر وعمر بمراحل ؟ .

يوجد بعض الناس إذا قيل له : هذه هي السنة قال : لكن قال العالم الفلاني كذا وكذا ، من المقلدين المتعصبين . لكن من احتج بقول عالم وهو لا يدري عن السنة فهذا لا بأس به ، لأن التقليد لمن لا يعلم بنفسه جائز ولا بأس به .

ثم قال النبي ﷺ : « تمسكوا بها » أي تمسكوا بسنتي وسنة الخلفاء الراشدين ، و « عضوا عليها بالنواجذ » ، والنواجذ أقصى الأضراس ، وهو كناية عن شدة التمسك ، فإذا تمسك الإنسان بيديه بالشيء وعَضَّ عليه بأقصى أسنانه ، فإنه يكون ذلك أشد تمسكًا مما لو أمسكه بيد واحدة ، أو بيدين بدون عض ، فهذا يدل على أن النبي ﷺ أمرنا أن نتمسك أشد التمسك بسنته وسنة الخلفاء الراشدين المهديين من بعده عليه الصلاة والسلام .

ثم قال النبي ﷺ بعد أن أمر باتباع سنته وسنة الخلفاء الراشدين المهديين ، وحث على التمسك بها ، والعض عليها بالنواجذ قال : « وإياكم ومحدثات الأمور » . إياكم ومحدثات الأمور ، يعني أحذركم من محدثات الأمور ، أي من الأمور المحدثة ، وهذه الإضافة من باب إضافة الصفة إلى موصوفها ، والأمور المحدثة يعني بها صلوات اللَّه وسلامه عليه : المحدثات في دين اللَّه . وذلك لأن الأصل فيما يدين به الإنسان ربه ، ويتقرب به إليه ، الأصل فيه المنع والتحريم ، حتى يقوم دليل على

---

(١) أخرجه مالك في الموطأ الصلاة في رمضان (٤) .

(٢) ذهب كثير من العلماء أن عدد التراويح عشرون ركعة بعشر تسليمات غير الوتر ، وذلك خمس ترويحات ، والترويحة أربع ركعات بتسليمتين ، وهو قول الحنفية والشافعية والحنابلة ، وقال به الثوري وقد ذهب جمهور الفقهاء إلى أن عدد ركعات التراويح ثمان ركعات يعقبها ثلاث ركعات للوتر . (انظر مالك في الموطأ : الصلاة في رمضان (٣ - ٦) وبدائع الصنائع (٤٢٧/٢) المجموع (٣٨/٤ ، ٣٩) الهداية (٤٢٧/١) وفقه الكتاب والسنة (٣٠٦٣/٥ ، ٣٠٦٤) .

أنه مشروع . ولهذا أنكر الله ﷻ على من يحللون ويحرمون بأهوائهم فقال تعالى : ﴿ وَلَا تَقُولُوا لِمَا تَصِفُ أَلْسِنَتُكُمُ الْكَذِبَ هَٰذَا حَلَالٌ وَهَٰذَا حَرَامٌ لِّتَفْتَرُوا عَلَى اللَّهِ الْكَذِبَ ﴾ [النحل : ١١٦] . وأنكر على من شرع في دينه ما لم يأذن به فقال : ﴿ أَمْ لَهُمْ شُرَكَاءُ شَرَعُوا لَهُم مِّنَ الدِّينِ مَا لَمْ يَأْذَن بِهِ اللَّهُ ﴾ [الشورى : ٢١] ، وقال : ﴿ قُلْ آللَّهُ أَذِنَ لَكُمْ أَمْ عَلَى اللَّهِ تَفْتَرُونَ ﴾ [يونس : ٥٩] .

أما الأمور العادية وأمور الدنيا : فهذه لا يُنكر على محدثاتها إلا إذا كان قد نُصَّ على تحريمه ، أو كان داخلًا في قاعدة عامة تدل على التحريم ، فمثلًا السيارات والدبابات وما أشبهها ، لا نقول إن هذه محدثة لم توجد في عهد الرسول ﷺ ، فلا يجوز استعمالها ؛ لأن هذه من الأمور الدنيوية ، الثياب وأنواعها ، لا نقول : لا تلبس إلا ما كان يلبسه الصحابة ، البس ما شئت مما أحل الله لك ؛ لأن الأصل الحل ، إلا ما نص الشرع على تحريمه ، كتحريم الحرير والذهب على الرجال ، وتحريم ما فيه الصورة وما أشبه ذلك .

فقوله - صلوات الله وسلامه عليه - : « إياكم ومحدثات الأمور » يعني في دين الله ، وفيما يتعبد به الإنسان لربه ، ثم قال : « فإن كل بدعة ضلالة » يعني أن كل بدعة في دين الله فهي ضلالة ، وإن ظن صاحبها أنها خير ، وأنها هدى ؛ فإنها ضلالة لا تزيد من الله إلا بُعدًا .

وقوله - صلوات الله وسلامه عليه - : « كل بدعة ضلالة » يشمل ما كان مبتدعًا في أصله ، وما كان مبتدعًا في وصفه . فمثلًا لو أن أحدًا أراد أن يذكر الله بأذكار معينة بصفتها أو عددها ، بدون سنة ثابتة عن رسول الله ﷺ ، فإنا ننكر عليه ولا ننكر أصل الذكر ، ولكن ننكر ترتيبه على صفة معينة بدون دليل ، فإن قال قائل : ما تقولون في قول عمر رضي الله عنه حين أمر أبيَّ بن كعب وتميمًا الداريَّ رضي الله عنهما أن يقوما بالناس في رمضان في تراويحهم ، وأن يجتمع الناس على إمام واحد بعد أن كانوا أوزاعًا ، فخرج ذات ليلة والناس خلف إمامهم فقال : نعمت البدعة هذه [١] ، فأثنى عليها ووصفها بأنها بدعة ، والرسول - عليه الصلاة والسلام - يقول : « كل بدعة ضلالة » ؟ .

قلنا : إن هذه البدعة ليست بدعة مبتدأة ، لكنها بدعة نسبية ، وذلك لأن النبي ﷺ صلَّى بأصحابه ثلاث ليال أو أربع ليال في رمضان ، يقوم بهم ، ثم تخلَّف في الثالثة أو الرابعة ، وقال : « إني خشيت أن تفرض عليكم » [٢] فصار الاجتماع على إمام واحد في قيام رمضان سنة سنها النبي ﷺ، ولكن تركها خوفًا من أن تفرض علينا . ثم بقيت الحال على ما هي عليه ، يصلي الرجلان والثلاثة والواحد على حدة في خلافة أبي بكر وفي أول خلافة عمر ، ثم جمع الناس على إمام واحد ، فصار هذا الجمع بدعة بالنسبة لتركه في آخر حياة الرسول - عليه الصلاة والسلام - وفي عهد أبي بكر ، وفي أول خلافة عمر ، فهذه بدعة نسبية وإن شئت فقل : إنها بدعة إضافية ، يعني بالنسبة لترك الناس لها هذه المدة آخر حياة الرسول ﷺ ، وخلافة أبي بكر وأول خلافة عمر . ثم إنه بعد ذلك

---

(١) انظر الحديث في البخاري في صلاة التراويح (٢٠١٠)، والبيهقي في السنن (٤٩٣/٢)، ومالك في الموطأ الصلاة في رمضان (٣).

(٢) أخرجه البخاري في صلاة التراويح (٢٠١٢)، ومسلم في صلاة المسافرين (١٧٧).

استأنف هذه الصلاة ، وإلا فلا شك أن قول الرسول ﷺ : « كل بدعة ضلالة » عام ، وهو صادر من أفصح الخلق وأنصح الخلق - عليه الصلاة والسلام - وهو كلام واضح ، كل بدعة مهما استحسنها مبتدعها ، فإنها ضلالة والله الموفق .

* * *

١٦٠ - الخَامِسُ : عَنْ أبي عبد الله النُّعْمَانِ بْن بَشِيرٍ رضي الله عنهما : قال : سَمِعْتُ رسول الله ﷺ يقولُ : « لَتُسَوُّنَّ صُفُوفَكُمْ أو لَيُخَالِفَنَّ اللَّهُ بَينَ وُجُوهِكُمْ » متفقٌ عليه .

وفي رواية لمسلم : كانَ رسولُ اللَّه ﷺ يُسَوِّي صُفُوفَنَا حَتَّى كأَنَّمَا يُسَوِّي بهَا الْقِدَاحَ ، حَتَّى إذَا رَأى أنَّا قَدْ عقَلْنَا عَنْهُ ، ثُمَّ خَرَجَ يَومًا ، فقامَ حَتَّى كَادَ أنْ يُكَبِّرَ ، فَرأى رَجُلًا بَادِيًا صَدْرُهُ فَقَالَ : « عبَادَ اللَّه لَتُسَوُّنَّ صُفوفكُمْ أو لَيُخَالِفَنَّ اللَّه بَين وُجُوهِكُمْ » [(١)] .

الشرح

قال المؤلف - رحمه الله تعالى - فيما نقله عن النعمان بن بشير رضي الله عنهما ، أن النبي ﷺ قال : «لتسون صفوفكم ، أو ليخالفنَّ اللَّه بين وجوهكم » .

الجملة الأولى : مؤكدة بثلاثة مؤكدات ؛ بالقسم المقدر ، واللام «لتسون » و نون التوكيد ، «أو ليخالفن اللَّه بين وجوهكم » يعني إن لم تُسَوَّ الصفوف ، خالف اللَّه بين وجوهكم ، وهذه الجملة أيضًا مؤكدة بثلاثة مؤكدات : بالقسم ، واللام ، والنون .

واختلف العلماء - رحمهم اللَّه - في معنى ، مخالفة الوجه . فقال بعضهم : إن المعنى أن اللَّه يخالف بين وجوههم مخالفةً حسية ، بحيث يلوي الرقبة ، حتى يكون وجه هذا مخالف لوجه هذا ، واللَّه على كل شيء قدير ، فهو عز وجل قلب بعض بني آدم قردة ، قال لهم : ﴿ كُونُوا قِرَدَةً ﴾ فكانوا قردة ، فهو قادر على أن يلوي رقبة إنسان حتى يكون وجهه من عند ظهره ، وهذه عقوبة حسية .

وقال بعض العلماء : بل المراد بالمخالفة المخالفة المعنوية ، يعني مخالفة القلوب ؛ لأن القلب له اتجاه ، فإذا اتفقت القلوب على وجهة واحدة حصل في هذا الخير الكثير ، وإذا اختلفت تفرقت الأمة . فالمراد بالمخالفة مخالفة القلوب ، وهذا التفسير أصحُّ ؛ لأنه قد ورد في بعض الألفاظ : «أو ليخالفن اللَّه بين قلوبكم » .

وعلى هذا فيكون المراد بقوله : « أو لَيُخَالِفَنَّ اللَّهُ بَيَنَ وُجُوهِكُمْ » أي بين وجهات نظركم ، وذلك باختلاف القلوب ، وعلى كل حال ففي هذا : دليل علي وجوب تسوية الصفوف ، وأنه يجب على المأمومين أن تسوَّى صفوفهم ، وأنهم إن لم يفعلوا ذلك ، فقد عرضوا أنفسهم لعقوبة اللَّه والعياذ باللَّه .

---

(١) أخرجه البخاري في الأذان (٧١٧) ، ومسلم في الصلاة (١٢٨) ، وأبو داود في الصلاة (٦٦٣) ، والترمذي في الصلاة (٢٢٧) ، وأحمد في مسنده (٤/٢٧١ ، ٢٧٢) ، قوله « كأنما يسوِّي بها القداح » القِداح : خشب السهام ، والمقصود المبالغة في تسويتها حتى إنها لشدة استوائها واعتدالها يمكن أن يقوم بها السهام ، قوله « قد عقلنا عنه » أي فهمنا ما يقول .

وهذا القول : أعني وجوب تسوية الصفّ هو الصحيح ، والواجب على الأئمة أن ينظروا في الصفّ ، فإذا وجدوا فيه اعوجاجًا أو تقدُّمًا أو تأخرًا ، نبهوا على ذلك ، وكان النبي ﷺ أحيانًا يمشي على الصفوف يسويها بيده الكريمة - عليه الصلاة والسلام - من أول الصف لآخره [١] ، ولما كثر الناس في زمن الخلفاء ، أمر عمر بن الخطاب ﷺ رجلًا يسوي الصفوف إذا أقيمت الصلاة ، فإذا جاء وقال إنها قد استوت كبَّر للصلاة ، وكذلك فعل عثمان ﷺ ، كان قد وكَّل رجلًا يسوي صفوف الناس ، فإذا جاء وقال قد استوت كبر . وهذا يدل على اعتناء النبي ﷺ والخلفاء الراشدين بتسوية الصفّ .

ولكن مع الأسف الآن تجد المأمومين لا يبالون بالتسوية ، يتقدم إنسان ويتأخر إنسان ولا يبالي ، وربما يكون مستويًا مع أخيه في أول الركعة ، ثم عند السجود يحصل من الاندفاع تقدم أو تأخر ، ولا يساوون الصفَّ في الركعة الثانية ، بل يبقون على ما هم عليه ، وهذا خطأ ، فالمهم أنه يجب تسوية الصفَّ .

فإذا قال قائل : إذا كان هناك إمام ومأموم فقط ، فهل يتقدم الإمام قليلًا أو يساوي المأموم ؟ الجواب أنه يساوي المأموم ؛ لأنه إذا كان إمام ومأموم ، فالصف واحد لا يمكن أن يكون الإمام خلف المأموم وحده بل هم صف واحد والصف الواحد يسوى فيه ، خلافًا لما قاله بعض أهل العلم إنه يتقدم الإمام قليلًا لأن هذا لا دليل عليه ، بل الدليل على خلافه ، وهو أن يسَوَّى بين الإمام والمأموم إذا كانا اثنين [٢] .

ثم قال في رواية : كان النبي ﷺ يسوي صفوفنا كأنما يسوي بها القِداح [٣] ، والقداح : هي ريشُ السهم ، وكانوا يسوونها تمامًا ، بحيث لايتقدم شيء على شيء مثل مشط البندق ، يكون مستويًا ، فكان يسوي الصفوف كأنما يسوي بها القداح ، حتى إذا رأى أنا قد عقلنا عنه يعني فهمنا وعرفنا أن التسوية لابد منها ، خرج ذات يوم فرأى رجلًا باديًا صدره ، فقال : « عباد الله ، لتسون صفوفكم أو ليخالفن الله بين وجوهكم » فدل هذا على سبب قول الرسول ﷺ : « لتسون صفوفكم » لأن سببه أنه رأى رجلًا باديًا صدره فقط يعني ظاهرًا صدره قليلًا من على الصف ، فدل ذلك على أن من هدي النبي ﷺ ، أنه يتفقد الصف ، وأنه يتوعد من يتقدم على الصف بهذا الوعيد : « لتسون صفوفكم أو ليخالفن الله بين وجوهكم » .

فعلينا أن نبين هذه المسألة لأئمة المساجد وكذلك للمأمومين حتى ينتبهوا لهذا الأمر الخطير ويعتنوا بشأن تسوية الصف .

* * *

١٦١ - السَّادِسُ : عن أبي موسى ﷺ قال : احْتَرَق بَيتٌ بالمَدِينَة عَلَى أهْلِهِ مِنَ اللَّيل ، فَلَما حُدِّثَ رسولُ اللَّه ﷺ بِشَأنِهِمْ قال : « إن هذِهِ النَّار عَدُوٌّ لكُمْ ، فَإذَا نِمْتُمْ فَأَطْفِئُوهَا عَنْكُمْ » [٤] متفقٌ عليه .

---

(١) انظر في ذلك ما أخرجه مسلم في الصلاة (١٢٢) ، وابن ماجه في السنن (٩٧٦) ، والدارمي في السنن (١/٢٩٠) ، والبيهقي في السنن (٣/٩٧) .

(٢) راجع ذلك في بداية المجتهد (١/١٥٠) ، وشرح فتح القدير (١/٣٥٧) ، والمجموع (٤/٢٩٨) .

(٣) أخرجه مسلم في الصلاة (١٢٨) ، وأحمد في مسنده (٤/٢٧٢) ، وأبو داود في الصلاة (٦٦٥) .

(٤) أخرجه البخاري في الاستئذان (٦٢٩٤) ، ومسلم في الأشربة (١٠١) .

الشرح

ذكر المؤلف في باب الحث على اتباع السنة وآدابها هذا الحديث الذي وقع في عهد النبي ﷺ، أن قومًا احترق عليهم بيتهم في الليل، فبلغ ذلك النبي ﷺ فقال: « إن هذه النار عدوٌّ لكم، فإذا نمتم فأطفئوها عنكم ».

هذه النار التي خلقها اللَّه ﷻ وأنشأ شجرتها، امتنَّ اللَّه بها على عباده فقال ﷻ: ﴿ أَفَرَءَيْتُمُ ٱلنَّارَ ٱلَّتِى تُورُونَ ۝ ءَأَنتُمْ أَنشَأْتُمْ شَجَرَتَهَآ أَمْ نَحْنُ ٱلْمُنشِـُٔونَ ﴾ [الواقعة: ٧١، ٧٢]. والجواب: بل أنت يا ربنا الذي أنشأتها: ﴿ نَحْنُ جَعَلْنَٰهَا تَذْكِرَةً وَمَتَٰعًا لِّلْمُقْوِينَ ﴾ [الواقعة: ٧٣]، تذكرة يتذكر الإنسان بها جهنم، فإن هذه النار جزء من ستين جزءًا من نار جهنم [١]، كل نار الدنيا الشديدة الحرارة والخفيفة، كلها جزء من ستين جزءًا من نار جهنم، أعاذني اللَّه وإياكم منها.

وجعلها اللَّه تذكرة حتى إن بعض السلف كان إذا همَّ بمعصية ذهب إلى النار ووضع أصبعه عليها يعني يقول لنفسه: اذكري هذه الحرارة حتى لا تتجرأ نفسه على المعصية التي هي سبب لدخول النار. نسأل اللَّه العافية.

ومع هذا يقول تعالى: ﴿ وَمَتَٰعًا لِّلْمُقْوِينَ ﴾ يعني جعلناها متاعًا للمسافرين وغيرهم من المحتاجين إليها، يتمتعون بها، ويستدفئون بها في الشتاء، ويسخنون بها مياههم، ويطبخون عليها أطعمتهم، ففيها فوائد ومنافع، ولكن قد تكون مضرة كما قال النبي ﷺ في هذا الحديث: « إِنَّ هَٰذِهِ النَّارَ عَدُوٌّ لَكُمْ » فهي عدو إذا لم يحسن الإنسان ضبطها وقيدها، وصارت عدوًّا إذا فرط فيها أو تعدى، فرط فيها بأن لم يبعد ما تكون سببًا لاشتعاله، أو تعدى فيها بأن أوقدها حول ما يشتعل سريعًا، كالبنزين والغاز، وما أشبه ذلك فإنها تكون عدوًّا للإنسان.

وفي هذا: دليل على أن الإنسان ينبغي أن يتخذ الاحتياط في الأمور التي يُخشى شرها، ولهذا أمر الإنسان عند النوم أن يطفئ النار ولا يقول هذه سهلة أنا آمن من ذلك، ربما يظن هذا الظن ولكن يحدث ما لا يخطر على باله.

ومن ذلك أيضًا: صمامات الغاز التي حدثت في عصرنا الحاضر، فصمامات الغاز، يجب على الإنسان أن يتفقدها، لئلا يكون فيها شيء من التسريب فتملأ الجو من الغاز، فإذا أشعل النار احترق المكان كلُّه.

ومن ذلك أيضًا: أفياش الكهرباء، ينبغي على الإنسان أن يكون حريصًا منها ومتفقدًا لها، وأن يكون الذي يركبها شخصًا عارفًا مهندسًا حتى لا تركب على وجه الخطأ فيحصل بذلك الاحتراق، إما احتراقًا كليًّا للبيت كله أو لجزء منه. المهم أن الإنسان يجب عليه الاحتراز من كل ما يخشى ضرره.

وإذا كان هذا في نارالدنيا، فكذلك يجب أن يحترس مما يكون سببًا لعذاب النار في الآخرة، من

---

(١) ويدل على ذلك ما أخرجه البخاري في بدء الخلق (٣٢٦٥)، والترمذي في السنن (٢٥٨٩)، وأحمد في مسنده.

أسباب المعاصي ، ووسائلها ، وذرائعها ، ولهذا قال أهل العلم - رحمهم اللّٰه - : إن الوسائل لها أحكام المقاصد ، وإن الذرائع يجب أن تسدَّ إذا كانت ذريعة إلى محرم ، خشية من الوقوع في الهلاك .

* * *

١٦٢ - السَّابعُ : عَنْهُ قال : قال رسول اللّٰه ﷺ : « إنَّ مَثَلَ مَا بَعَثَني اللّٰه بِهِ مِنَ الهُدَى وَالعِلْم كَمَثَلِ غَيثٍ أَصَابَ أَرْضًا فَكَانَتْ مِنها طَائِفَةٌ طَيبةٌ ، قَبلَتِ المَاءَ فَأَنْبَتَتِ الكَلأَ وَالعُشْبَ الكَثِيرَ ، وَكَانَ مِنْهَا أَجَادِبُ أَمْسَكَتِ المَاءَ ، فَنَفَعَ اللّٰهُ بها النَّاسَ فَشَرِبُوا مِنْهَا وَسَقَوا وَزَرَعُوا . وَأَصابَ طَائِفَةً مِنْهَا أُخْرَى ، إِنَّمَا هِيَ قِيعَانٌ لا تُمْسِكُ مَاءً وَلا تُنْبِتُ كلأً . فذلكَ مَثَل مَنْ فَقُهَ في دِين اللّٰه ، ونَفَعه بما بعَثني اللّٰه به ، فَعَلِمَ وَعَلَّمَ ، وَمَثَلُ مَنْ لَمْ يَرْفَع بِذلِكَ رَأْسًا ، وَلَمْ يَقْبَلْ هُدَى اللّٰهِ الَّذي أُرسِلْتُ بِهِ » [1] متفقٌ عليه .

« فَقُهَ » بضم القَافِ عَلَى المَشْهُورِ ، وَقيلَ : بكَسْرِهَا ، أي : صَارَ فَقِيهًا .

الشرح

ذكر المؤلف - رحمه اللّٰه تعالى - فيما نقله عن أبي موسى الأشعري ﷺ في هذا المثل الذي ضربه النبي ﷺ قال : « مَثَل مَا بَعثني اللّٰه بِهِ مِنَ الهُدَى وَالْعِلْم : كَمَثَلِ غَيثٍ أَصَابَ أَرْضًا » الغيث : يعني المطر ، فكانت هذه الأرض ثلاثة أقسام : قسم رياض : قبلت الماء ، وأنبتت العشب الكثير والزرع ، فانتفع الناس بها . وقسم آخر قيعان : أمسكت الماء وانتفع الناس به ، فاستقوا منه ورووا منه . والقسم الثالث أرض سبخة : ابتلعت الماء ولم تنبت الكلأ .

فهكذا الناس بالنسبة لما بعث اللّٰه به النبي ﷺ من العلم والهدى ، منهم من فقه في دين اللّٰه ، فعلم وعلَّم ، وانتفع الناس بعلمه ، وانتفع هو بعلمه ، وهذا كمثل الأرض التي أنبتت العشب والكلأ فأكل الناس منها ، وأكلت منها مواشيه .

والقسم الثاني : في قوم حملوا الهدى ، ولكن لم يفقهوا في هذا الهدى شيئًا ، بمعنى أنهم كانوا رواةً للعلم والحديث ، لكن ليس عندهم فقه ، فهؤلاء مثلهم مثل الأرض التي حفظت الماء ، واستقى الناس منه ، وشربوا منه ، لكن الأرض نفسها لم تنبت شيئًا ؛ لأن هؤلاء يروون أحاديث وينقلونها ، ولكن ليس عندهم فيها فقه وفهم .

والقسم الثالث : من لم يرفع بما جاء به النبي ﷺ من العلم والهدى رأسًا ، وأعرض عنه ، ولم يبالِ به ، فهذا لم ينتفع بما جاء به النبي - عليه الصلاة والسلام - ولم ينفع غيره ، فمثله كمثل الأرض التي ابتلعت الماء ولم تنبت شيئًا .

وفي هذا الحديث : دليل على أن من فقه في دين اللّٰه ، وعلم من سنة رسول اللّٰه ﷺ ما يعلم فإنه خير

---

(١) أخرجه البخاري في العلم (٧٩) ، ومسلم في الفضائل (١٥) ، وأحمد في مسنده (٣٩٩/٤) ، قوله « طائفة » أي قطعة ، قوله « أجادب » جمع أجدب وهي الأرض التي لا تنبت ، قوله « قيعان » جمع قاع وهي الأرض التي لا نبات فيها . وقيل : المستوية ، قوله « لم يرفع بذلك رأسًا » كناية عن عدم الانتفاع بعلمه وعلم غيره وعدم العمل به .

الأقسام ؛ لأنه علم وفقه لينتفع وينفع الناس ، ويليه من علم ولكن لم يفقه ، يعني روى الحديث وحمله لكن لم يفقه منه شيئًا ، وإنما هو راويه فقط ، هذا يأتي في المرتبة الثانية في الفضل بالنسبة لأهل العلم والإيمان .
والقسم الثالث لا خير فيه ، رجل أصابه ما أصابه من العلم والهدى الذي جاء به النبي - عليه الصلاة والسلام - ولكنه لم يرفع به رأسًا ، ولم ينتفع به ، ولم يعلمه الناس ، فكان - والعياذ بالله - كمثل الأرض السبخة التي ابتلعت الماء ولم تنبت شيئًا للناس ، ولم يبق الماء على سطحها حتى ينتفع الناس به .

وفي هذا الحديث : دليل على حسن تعليم الرسول - عليه الصلاة والسلام - وذلك بضرب الأمثال ، لأن ضرب الأمثال الحسية يقرب المعاني العقلية ، أي ما يدرك بالعقل يقربه ما يدرك بالحس ، وهذا مشاهد فإن كثيرًا من الناس لا يفهم فإذا ضربت له مثلًا محسوسًا فهم وانتفع ، ولهذا قال الله تعالى : ﴿ وَتِلْكَ ٱلْأَمْثَٰلُ نَضْرِبُهَا لِلنَّاسِ ۖ وَمَا يَعْقِلُهَآ إِلَّا ٱلْعَٰلِمُونَ ﴾ [العنكبوت : ٤٣] وقال تعالى : ﴿ وَلَقَدْ ضَرَبْنَا لِلنَّاسِ فِي هَٰذَا ٱلْقُرْءَانِ مِن كُلِّ مَثَلٍ ﴾ [الروم: ٥٨] فضرب الأمثال من أحسن طرق التعليم ووسائله .

* * *

١٦٣ - الثَّامِنُ : عن جابرٍ ﷺ قال : قال رسولُ اللَّه ﷺ : « مَثَلِي وَمَثَلُكُمْ كَمَثَلِ رجُلٍ أوقَدَ نَارًا فَجَعَلَ الجَنَادِبُ وَالفَرَاشُ يَقَعْنَ فيهَا وَهُوَ يَذُبُّهُنَّ عَنْهَا وَأَنَا آخذٌ بحُجَزِكُمْ عَنِ النَّارِ ، وَأَنْتُمْ تَفَلَّتُونَ منْ يَدَيَّ »[1] رواه مسلم .

« الجَنَادِبُ » : نَحْوُ الجَرَاد وَالفَرَاش ، هذَا هُوَ المَعْرُوفُ الذي يَقَعُ في النَّار . « وَالحُجَزُ » : جَمْعُ حُجْزَةٍ ، وَهِيَ مَعْقِدُ الإزَار وَالسَّرَاويل .

الشرح

قال المؤلف - رحمه الله تعالى - فيما نقله عن جابر ﷺ ، عن النبي ﷺ أنه قال : « مَثَلِي ومَثَلُكُمْ كَمَثَلِ رَجُلٍ أوقَدَ نَارًا » أراد النبي - عليه الصلاة والسلام - بهذا المثل أن يبين حاله مع أمته - عليه الصلاة والسلام - وذكر أن هذه الحال كحال رجل في برية ، أوقد نارًا ، فجعل الجنادب والفراش يقعن فيها . الجنادب : نوع من الجراد ، أما الفراش فمعروف . « يقعن فيها » لأن هذه هي عادة الفراش والجنادب والحشرات الصغيرة ، إذا أوقد إنسان نارًا في البر ؛ فإنها تأوي إلى هذا الضوء .
قال : « وأنا آخذ بحجزكم » يعني لأمنعكم من الوقوع فيها ، ولكنكم تفلتون من يدي .

ففي هذا : دليل على حرص النبي ﷺ على حماية أمته من النار ، وأنه يأخذ بحجزها ويشدها حتى لا تقع في هذه النار ، ولكننا نفلت من ذلك ونأبى إلا الورود - نسأل الله أن يعاملنا بعفوه .

---

(١) أخرجه مسلم في الفضائل (١٩) ، وأحمد في مسنده (٣/٣٩٢) ، قوله « تفلتون » روي بوجهين « تَفَلَّتُون » والآخرة « تُفْلِتُونَ » وكلا الوجهين صحيح ، والمعنى : أنه ﷺ يشبه تساقط المخالفين والجاهلين في نار الآخرة بسبب المعاصي والشهوات ، وحرصهم على الوقوع منها - مع منعهم إياهم وقبضه على مواضع المنع منهم - بتساقط الفراش في نار الدنيا لهوله وضعف تمييزه ، وكلاهما حريص على هلاك نفسه ، ساع في ذلك لجهله .

فالإنسان ينبغي له أن ينقاد لسنة النبي ﷺ ، وأن يكون لها طوعًا ؛ لأن الرسول ﷺ إنما يدل على الخير واتقاء الشر ، كالذي يأخذ بحجزة غيره ، يأخذ بها حتى لا يقع في النار ؛ لأن الرسول عليه الصلاة والسلام كما وصفه الله في كتابه : ﴿ لَقَدْ جَآءَكُمْ رَسُولٌ مِّنْ أَنفُسِكُمْ عَزِيزٌ عَلَيْهِ مَا عَنِتُّمْ حَرِيصٌ عَلَيْكُم بِالْمُؤْمِنِينَ رَءُوفٌ رَّحِيمٌ ﴾ [التوبة : ١٢٨] صلوات الله وسلامه عليه .

ومن فوائد هذا الحديث : أنه ينبغي للإنسان بل يجب أن يتبع سنة الرسول ﷺ في كل ما أمر به ، وفي كل ما نهى عنه ، وفي كل ما فعله ، وفي كل ما تركه يلتزم بذلك ، ويعتقد أنه الإمام المتبوع . لكن من المعلوم أن من الشريعة ما هو واجب يأثم الإنسان بتركه ، وما هو محرم يأثم بفعله ، ومنها ما هو مستحب إن فعله فهو خير وأجر ، وإن تركه فلا إثم عليه . وكذلك من الشريعة ما هو مكروه كراهة تنزيه ، إن تركه الإنسان فهو خير له ، وإن فعله فلا حرج عليه ، لكن المهم أن تلتزم بالسنة عمومًا ، وأن تعتقد أن إمامك ومتبوعك هو محمد ﷺ وأنه ليس هناك سبيل إلى النجاة إلا باتباعه ، والسير في طريقه ، والتمسك بهديه .

ومن فوائد هذا الحديث : بيان عظم حقِّ النبي ﷺ على أمته ، وأنه كان لا يألو جهدًا في منعها وصدها عن كل ما يضرها في دينها ودنياها .

وبناءً على ذلك ، فإذا رأيت نهى النبي ﷺ عن شيء ، فاعلم أن فعله شرٌّ ولا تقل هل هو للكراهة أم هو للتحريم ، اترك ما نهى عنه سواء كان للكراهة أو للتحريم ، ولا تعرض نفسك للمساءلة ؛ لأن الأصل في نهي الرسول ﷺ أنه للتحريم ، إلا إذا قام دليل على أنه للكراهة التنزيهية .

وكذلك إذا أمر بشيء فلا تقل هذا واجب أو غير واجب ، افعل ما أمر به فهو خير لك ، إن كان واجبًا فقد أبرأت ذمتك ، وحصلت على الأجر ، وإن كان مستحبًا فقد حصلت على الأجر ، وكنت متبعًا تمام الاتباع للرسول ﷺ ، نسأل الله أن يرزقنا وإياكم اتباعه ظاهرًا وباطنًا .

* * *

١٦٤ - التَّاسعُ : عَنْهُ أَنَّ رسول الله ﷺ ، أَمَرَ بِلَعْقِ الأَصَابعِ وَالصَّحْفَةِ وَقَالَ : « إنَّكُم لا تَدْرُون في أَيِّهَا البَركَةُ » رواه مسلم .

وفي رواية لَهُ : « إذَا وَقَعَتْ لُقْمَةُ أَحَدِكُمْ ، فَلْيَأْخُذْهَا فَلْيُمِطْ مَا كَانَ بِهَا مِنْ أَذًى ، وَلْيَأْكُلْهَا ، وَلا يَدَعْهَا لِلشَّيطانِ ، وَلَا يَمْسَحْ يَدَهِ بالمِنْدِيلِ حَتَّى يَلْعَقَ أَصَابِعَهُ ، فإنَّهُ لا يَدْرِي في أيِّ طَعَامِهِ البَرَكَةُ » .

وفي روايةٍ لَهُ : « إنَّ الشَّيطَانَ يَحْضُرُ أَحَدَكم عِنْدَ كُلِّ شيءٍ مِنْ شأنه حَتَّى يَحْضُرَهُ عِنْدَ طَعَامِهِ ، فَإِذَا سَقَطَتْ مِنْ أَحدِكُمْ اللُّقْمَةُ فَلْيُمِطْ ما كَانَ بِهَا مِنْ أَذًى فليأكلها ، ولا يَدَعْها لِلشَّيطَانِ » [1] .

---

(١) أخرجه مسلم في الأشربة (١٣٣ ، ١٣٤ ، ١٣٥) ، قوله « الصحفة » هي الوعاء ، قوله « فليمط » أي فلينحِهِ .

الشرح

ذكر المؤلف - رحمه الله تعالى - فيما نقله عن جابر بن عبد الله رضي الله عنهما عن النبي ﷺ في آداب من آداب الأكل ، منها : أن الإنسان إذا فرغ من أكله فإنه يلعق الصحفة ويلعق أصابعه ، يعني يلحسها حتى لايبقى فيها أثر الطعام ، فإنكم لا تدرون في أيِّ طعامكم البركة ، فهذان أدبان :

الأول : لعق الصحفة ، والثاني : لعق الأصابع ، والنبي - عليه الصلاة والسلام - لا يأمر أمته بشيء إلا وفيه الخير والبركة . ولهذا قال الأطباء : إنَّ في لعق الأصابع من بعد الطعام فائدة وهو تيسير الهضم ؛ لأن الأنامل هذه فيها مادة تفرزها عند اللعق بعد الطعام تيسر الهضم ، ونحن نقول هذا من باب معرفة حكمة الشرع فيما يأمر به ، وإلا فالأصل أننا نلعقها امتثالًا لأمر النبي ﷺ ، وكثير من الناس لا يفهمون هذه السنة ، تجده ينتهي من الطعام وحافته التي حوله كلها طعام ، تجده أيضًا يذهب ويغسل دون أن يلعق أصابعه ، والنبي - عليه الصلاة والسلام - نهى أن يمسح الإنسان يديه بالمنديل حتى يلعق وينظفها من الطعام ثم بعد ذلك يمسح بالمنديل ، ثم بعد ذلك يغسلها إذا شاء .

كذلك أيضًا من آداب الأكل : أن الإنسان إذا سقطت لقمته على الأرض فإنه لا يدعها ؛ لأن الشيطان يحضر للإنسان في جميع شؤونه ، كلِّ شؤونك : من أكل ، وشرب ، وجماع ، أي شيء يحضره الشيطان ، فإذا لم تسمِّ الله عند الأكل شاركك في الأكل ، وصار يأكل معك ، ولهذا تنزع البركة من الطعام إذا لم يسم عليه ، وإذا سميت الله على الطعام ، ثم سقطت اللقمة ، يعني طاحت من يدك ؛ فإن الشيطان يأخذها ، ولكن لا يأخذها ونحن ننظر ؛ لأن هذا شيء غيبي لا نشاهده ، ولكننا علمناه بخبر الصادق المصدوق - عليه الصلاة والسلام - يأخذها الشيطان فيأكلها ، وإن بقيت أمامنا حسًّا ، لكنه يأكلها غيبًا ، هذه من الأمور الغيبية التي يجب أن نصدق بها . ولكن رسول الله ﷺ دلنا على الخير فقال : « فليأخذها وليمط ما بها من أذى ، وليأكلها ، ولا يدعها للشيطان » خذها وأمط ما بها من أذى من تراب أو عيدان أو غير ذلك ثم كلها ولاتدعها للشيطان . والإنسان إذا فعل هذا امتثالًا لأمر النبي ﷺ وتواضعًا لله عز وجل وحرمانًا للشيطان من أكلها ، حصل على هذه الفوائد الثلاثة : الامتثال لأمر النبي ﷺ ، والتواضع ، وحرمان الشيطان من أكلها . هذه فوائد ثلاث ومع ذلك فإن أكثر الناس إذا سقطت اللقمة على السفرة أو على سماط نظيف تركها وهذا خلاف السنة .

وفي هذا الحديث من الفوائد : أنه لا ينبغي للإنسان أن يأكل طعامًا فيه أذى ؛ لأن نفسك عندك أمانة ، لا تأكل شيئًا فيه أذى ، من عيدان أو شوك أو ما أشبه ذلك وعليه فإننا نذكر الذين يأكلون السَّمك أن يحتاطوا لأنفسهم ؛ لأن السمك لها عظام دقيقة مثل الإبر ، إذا لم يحترز الإنسان منها ، فربما تدخل إلى بطنه وتجرح معدته أو أمعاءه وهو لا يشعر .

* * *

١٦٥ - العَاشِرُ : عن ابنِ عَبَّاسٍ رضي الله عنهما : قال : قَامَ فينَا رسُول اللَّه ﷺ بمَوعِظَةٍ فقال : « يَا أيُّها النَّاس

إنَّكُم مَحْشورُونَ إلى اللَّهِ تَعَالى حُفَاةً عُرَاةً غُرلًا ﴿ كَمَا بَدَأْنَآ أَوَّلَ خَلْقٍ نُّعِيدُهُۥ وَعْدًا عَلَيْنَآ ۚ إِنَّا كُنَّا فَـٰعِلِينَ ﴾ [الأنبياء: ١٠٤] ألا وإنَّ أوَّلَ الخلائقِ يُكْسى يومَ القيامة إبراهيمُ ﷺ ألا وإنَّهُ سَيُجاء بِرجَال مِنْ أمَّتي ، فَيُؤْخَذُ بِهِمْ ذَات الشِّمالِ ، فأقولُ : يَاربِّ أَصْحابي ، فيُقالُ : إنَّكَ لا تَدْري مَا أَحْدَثُوا بَعْدَكَ ، فأقُولُ كَمَا قَالَ العَبْدُ الصَّالحُ : ﴿ وَكُنتُ عَلَيْهِمْ شَهِيدًا مَّا دُمْتُ فِيهِمْ ﴾ إلى قوله : ﴿ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ﴾ [المائدة: ١١٧، ١١٨] فيُقَالُ لي : إنَّهُمْ لَمْ يَزَالُوا مُرْتَدِّين عَلَى أَعْقَابِهِمْ مُنْذُ فَارَقْتَهُمْ » [١] . متفقٌ عليه .

« غُرْلًا » أيْ : غَيرَ مَخْتُونِينَ .

الشرح

قال المؤلف رحمه الله فيما نقله عن ابن عباس رضي الله عنهما قال : « قام فينا رسول الله ﷺ خطيبًا : وكان من عادة النبي ﷺ ، بل من هدي النبي – عليه الصلاة والسلام – أنه كان يخطب أصحابه الخطب الراتبة والخطب العارضة .

أما الخطب الراتبة : فمثل خطبة الجمعة ، خطبة العيد ، خطبة الاستسقاء ، خطبة الكسوف . هذه خطب راتبة ، كلَّما وُجد سببها خطب – عليه الصلاة والسلام – في الجمعة يخطب خطبتين قبل الصلاة ، وفي العيد خطبة واحدة بعد الصلاة ، وكذلك في الاستسقاء ، وفي الكسوف خطبة واحدة بعد الصلاة .

أما الخطب العارضة : فإنها تكون إذا وجد سبب عارض فيقوم النبي – عليه الصلاة والسلام – خطيبًا يخطب الناس .

فمن ذلك : أن رجلًا بعثه النبي – عليه الصلاة والسلام – على الصدقة ، يعني عاملًا على الصدقة يأخذها من أهلها ، فرجع إلى المدينة ومعه إبل فقال : هذه لكم ، وهذه أهديت إليَّ . فخطب النبي – عليه الصلاة والسلام – وقال : « ما بال أحدكم نستعمله على العمل ، فيرجع ويقول : هذا لكم وهذا أهدي لي ، فهلا جلس في بيت أبيه وأمه فينظر أيهدى له أم لا ؟ » [٢] .

وصدق النبي – عليه الصلاة والسلام – أنه لم يُهد لهذا العامل الذي هو تابع للدولة إلا من أجل أنه عامل ، لو كانوا يريدون أن يهدوا إليه لشخصه ، لأهدوا إليه في بيت أبيه وأمه .

ومن هذا الحديث : نعرف عظيم قبح الرشوة ، وأنها من عظائم الأمور التي أدت إلى أن يقوم النبي – عليه الصلاة والسلام – خطيبًا يخطب في الناس ، ويحذرهم من هذا العمل ؛ لأنه إذا فشا في قوم الرشوة هلكوا ، وصار كل واحد منهم لا يقول الحقَّ ، ولا يحكم بالحق ، ولا يقوم بالعدل إلا إذا رُشِي والعياذ بالله . والرشوة ملعون آخذها ، وملعون معطيها [٣] ، إلا إذا كان الآخذ يمنع حق الناس

---

(١) أخرجه البخاري في أحاديث الأنبياء (٣٣٤٩) ، ومسلم في الجنة وصفة نعيمها (٥٨) ، والترمذي في تفسير القرآن (٣١٦٧) .

(٢) انظر ذلك فيما أخرجه البخاري في الأحكام (٧١٧٤) ، ومسلم في الإمارة (٢٦) كلاهما بلفظ : « ما بال عامل أبعثه فيقول » .

(٣) ويدل لذلك ما أخرجه أحمد في مسنده (٢/٣٨٧) ، والحاكم في المستدرك (٤/١٠٣) .

إلا برشوة ، فحينئذ تكون اللعنة على هذا الآخذ لا على المعطي ، لأن المعطي إنما يريد أن يستخلص حقَّه ، ولا سبيل إلى ذلك إلا بدفع الرشوة ، فهو معذور (١) . كما يوجد - والعياذ بالله - الآن في بعض المسؤولين في الدول الإسلامية من لا يمكن أن يقضي مصالح الناس إلا بهذه الرشوة - والعياذ بالله - فيكون آكلًا للمال بالباطل ، معرضًا نفسه للعن . نسأل الله العافية . والواجب على من ولاه الله عملًا ، أن يقوم به بالعدل ، وأن يقوم بالواجب فيه بحسب المستطاع .

ومن ذلك أيضًا : أن بَريرة - وهي أمَة لجماعة من الأنصار - كاتبها أهلُها على تسع أواقٍ من الفضة ، فجاءت إلى أم المؤمنين عائشة رضي الله عنها تستعينها - تطلب منها العون - لتقضي كتابتها ، فقالت : إن شاء أهلكِ أن أعدَّها لهم ، يعني أنقدها نقدًا ، ويكون ولاؤك لي فعلت ، فذهبت بَريرة إلى أهلها ، يعني أسيادها ، فقالت لهم ذلك . فقالوا : لا . الولاء لنا . فرجعت بريرةُ إلى عائشة رضي الله عنها وأخبرتها بأن أهلها قالوا : لا بد أن يكون الولاء لنا . فقال النبي - عليه الصلاة والسلام - : «خذيها واشترطي لهم الولاء ، فإنما الولاء لمن أعْتَقَ » فأخذتها واشترطت الولاء لهم ، ثم خطب الناس - عليه الصلاة والسلام - وقال : « ما بال أقوام يشترطون شروطًا ليست في كتاب الله ، ما كان من شرط ليس في كتاب الله فهو باطل ، وإن كان مائة شرط ، قضاء الله حق ، وشرط الله أوثق ، وإنما الولاء لمن أعتق » (٢) .

ومن ذلك أيضًا : أن امرأة من بني مخزوم كانت تستعير المتاع ، تقول للناس : أعيروني شيئًا ، فيعيرونها المتاع ؛ القدْر والقربة وما أشبه ذلك من متاع البيت ، ثم بعد ذلك تقول : ما أعَرتموني شيئًا !! تجحد ذلك ، فأمر النبي ﷺ أن تُقطع يدُها ، لأنها سارقة ، فهذه سرقة ، فاهتمت قريش لهذا الأمر ؛ كيف تقطع يد مخزومية من بني مخزوم ، من كبار قبائل العرب ، فطلبوا من يشفع إلى النبي - عليه الصلاة والسلام - فأرسلوا أسامةَ بن زيد بن حارثة رضي الله عنهما ؛ لأن النبي ﷺ كان يحبه ويحب أباه فكلَّم النبي ﷺ في شأن تلك المرأة يشفع لها ، فقال النبي - عليه الصلاة والسلام - : «أتشفع في حدٍّ من حدود الله ؟ » يقوله منكرًا عليه ؛ لأن حدود الله ليس فيها شفاعة ، فإذا وصلت للسلطان فلعن الله الشافع والمشفع له . ثم قام في الناس يخطب ، فقال : «ألا وإن من كان قبلكم كانوا إذا سرق فيهم الشريف تركوه ، وإذا سرق فيهم الضعيفُ أقاموا عليه الحد » . وأخبر أن هذا هو الذي أهلك الأمم السابقة . ثم قال - عليه الصلاة والسلام - : « وايمُ الله - يعني أحلف بالله - لو أن فاطمة بنت محمد سرقت لقطعت يدها » (٣) فهل هذه المخزومية أفضل وأشرف أم فاطمة بنت محمد ؟ فاطمة أفضل منها ، ومع ذلك يقول - عليه الصلاة والسلام - : «لو أن فاطمة بنت محمد سرقت ، لقطعت يدها » .

فهذه من الخطب العارضة ، فكان - صلوات الله وسلامه عليه - من هديه أنه يخطب الناس لأمور راتبة ، ولأمور عارضة ، وسبق لنا حديث العرباض بن سارية قال : خطبنا رسول الله ﷺ خطبة

---

(١) راجع ذلك في المغني مع الشرح الكبير (١٦٧/٣) .

(٢) أخرجه البخاري في الشروط (٢٧٢٩) ، ومسلم في العتق (٨) .

(٣) أخرجه البخاري في الحدود (٦٧٨٨) ، ومسلم في الحدود (٩ ، ١٠) .

بليغة، وجلت منها القلوب، وذرفت منها العيون [١].

والخلاصة: أنه يستفاد من هذا الحديث أنه ينبغي للإنسان، من قاضٍ، أو مفتٍ، أو عالمٍ، أو داعية، أن يخطب الناس في الأمور العارضة التي يحتاجون فيها إلي بيان الحق، وفي الأمور الراتبة، مثل: الجمعة، والعيدين، والاستسقاء، والكسوف كما مرَّ، وهذا من هدي رسول الله ﷺ وحسن تبليغه؛ لأن الشيء إذا جاء في وقته عند حاجته صار له قبول أكثر.

وقد نقل المؤلف رحمه الله عن ابن عباس رضي الله عنهما، أن النبي ﷺ قام فيهم خطيبًا، وهذه من خطبه العارضة ﷺ، فقد قام فيهم خطيبًا وقال: «إنكم محشورون يوم القيامة حفاة عراة غرلًا». محشورون: يعني مجموعة في صعيد واحد، ليس فيه جبال، وليس فيه أودية، ولا بناء، ولا أشجار، يُسمعهم الداعي، ويَنْفُذهم البصر. يعني لو دعاهم داعٍ لأسمعهم جميعًا؛ لأنه ليس هناك ما يحول بينهم وبين إسماعهم، وينفذهم البصر أي يدركهم جميعًا.

«حفاة عراة غرلًا». وفي رواية: «بُهْمًا». «حفاة»: ليس عليهم نعال، ولا خفاف، ولا ما يقوون به أرجلهم. «عراة»: ليس عليهم كسوة، بادية أبشارهم. «غرلًا»: يعني غير مختونين. والختان هو: قطع الجلدة التي تكون على الحشفة، وتقطع من أجل تمام الطهارة كما سنبينه إن شاء الله. «بُهْمًا»: قال العلماء بهمًا: أي ليس معهم مال، فيكون الإنسان مجردًا من كل شيء، ثم استدل لذلك بقوله تعالى: ﴿ كَمَا بَدَأْنَآ أَوَّلَ خَلْقٍ نُّعِيدُهُۥ وَعْدًا عَلَيْنَآ إِنَّا كُنَّا فَٰعِلِينَ ﴾ [الأنبياء: ١٠٤] يعني أن الله يحشرهم كما بدأهم أول خلق، يخرجون من بطون الأرض كما خرجوا من بطون أمهاتهم، حفاة عراة غرلًا؛ ﴿ كَمَا بَدَأْنَآ أَوَّلَ خَلْقٍ نُّعِيدُهُۥ ﴾. ثم قال عز وجل: ﴿ وَعْدًا عَلَيْنَآ ﴾ أي مؤكدًا، أكدَّه الله على نفسه؛ لأن هذا المقام يقتضي التوكيد، فإن من البشر من كذَّب بالحشر - والعياذ بالله - وقال: ﴿ إِنْ هِىَ إِلَّا حَيَاتُنَا ٱلدُّنْيَا نَمُوتُ وَنَحْيَا وَمَا نَحْنُ بِمَبْعُوثِينَ ﴾ [المؤمنون: ٣٧] فقال الله عز وجل: ﴿ وَعْدًا عَلَيْنَآ إِنَّا كُنَّا فَٰعِلِينَ ﴾.

حدث النبي - عليه الصلاة والسلام - بهذا الحديث، فقالت عائشة رضي الله عنها: واسوءتاه. الرجال والنساء ينظر بعضهم إلى بعض؟ فقال النبي ﷺ: «يا عائشة الأمر أعظم من أن يهمهم ذلك» [٢]. الأمر عظيم، ما ينظر أحد لأحد ﴿ يَوْمَ يَفِرُّ ٱلْمَرْءُ مِنْ أَخِيهِ ۝٣٤ وَأُمِّهِۦ وَأَبِيهِ ۝٣٥ وَصَٰحِبَتِهِۦ وَبَنِيهِ ۝٣٦ لِكُلِّ ٱمْرِئٍ مِّنْهُمْ يَوْمَئِذٍ شَأْنٌ يُغْنِيهِ ﴾ [عبس: ٣٤-٣٧].

حتى الرسل - عليهم الصلاة والسلام - عند عبور الصراط دعاؤهم: «اللَّهم سلم، اللَّهم سلم» [٣] لا يدري أحد أينجو أم لا. الأمر عظيم، ولهذا قال النبي - عليه الصلاة والسلام -: الأمر أعظم من أن يهمهم ذلك. ثم قال: «ألا وإن أول من يكسى إبراهيم» إبراهيم الخليل - عليه الصلاة

---

(١) سبق تخريجه.

(٢) أخرجه البخاري في الرقاق (٦٥٢٧)، ومسلم في الجنة وصفة نعيمها (٥٦).

(٣) أخرجه أحمد في مسنده (١٧/٣، ٢٦).

والسلام - هو أول من يكسى يوم القيامة . وهذه الخصيصة لا تدلُّ على التفضيل المطلق ، وأنه أفضل من نبينا محمد - عليه الصلاة والسلام - لأن محمدًا ﷺ أفضل الأنبياء والرسل ، سيد ولد آدم يوم القيامة ، لا يؤذن لأحد يشفع للخلائق يوم القيامة ، إلا محمد - عليه الصلاة والسلام - كما في قوله تعالى : ﴿ عَسَىٰٓ أَن يَبْعَثَكَ رَبُّكَ مَقَامًا مَّحْمُودًا ﴾ [الإسراء: ٧٩] لكن قد يخصُّ اللّه بعض الأنبياء بشيء لا يخصُّ به الآخر ، مثل قوله تعالى : ﴿ يَٰمُوسَىٰٓ إِنِّى ٱصْطَفَيْتُكَ عَلَى ٱلنَّاسِ بِرِسَٰلَٰتِى وَبِكَلَٰمِى ﴾ [الأعراف: ١٤٤] . فالرسالات كانت موجودة في غيره ، لكن في وقته كان هو الرسول لبني إسرائيل .

كذلك أيضًا قد يخصُّ اللّه أحدًا من الأنبياء أو غيرهم بخصيصة يتميز بها عن غيره ، ولا يوجب ذلك الفضل المطلق .

« ألا وإن أول من يكسى إبراهيم » - عليه الصلاة والسلام - ولا يقال : لماذا كان أول من يكسى ؟ لأن الفضائل لا يسأل عنها ، كما قال اللّه تعالى : ﴿ ذَٰلِكَ فَضْلُ ٱللَّهِ يُؤْتِيهِ مَن يَشَآءُ ۚ وَٱللَّهُ ذُو ٱلْفَضْلِ ٱلْعَظِيمِ ﴾ [الحديد: ٢١] لا يسأل عنها ؛ لأن الإنسان قد يصل فيها إلى نتيجة وقد لا يصل ، فكما أن اللّه تعالى فضل بني آدم بعضهم على بعض في الرزق ، وفي كمال الأخلاق والآداب ، وكذلك فضل بعضهم على بعض في العلم ، وكذلك في البدن والفكر وغير ذلك ، فاللّه تعالى يؤتي فضله من يشاء .

وفي هذا الحديث : دليل على أن الناس يكسون بعد أن يخرجون حفاة عراة غرلًا . ولكن بأي طريق يكسون ؟ لا نعلم ذلك ، ليس هناك خياطون ، ولا هناك ثياب تُفصَّل . فاللّه أعلم بكيفية ذلك .

وفي هذا الحديث : إشارة إلى الختان في قوله : « غُرلًا » فالأغرل هو الذي بقيت عليه جلدة الحشفة أي لم يختن . والختان اختلف العلماء في وجوبه ، فمنهم من قال : إنه واجب على الذكور والإناث ، وأنه يجب أن تختن البنت كما يختن الولد .

ومن العلماء من قال : إنه لا يجب الختان لا على الرجال ولا على النساء ، وأن الختان من الفطرة المستحبة ، وليس من الفطرة الواجبة .

ومنهم من توسط بين القولين فقال : الختان واجب في حق الذكور ، وسنة في حق الإناث ، وهذا القول أوسط الأقوال وأعدلها (١) ، فإنه واجب في حق الرجال ، لأن الرجل إذا بقيت هذه الجلدة فوق حشفته ، فإنها ستكون مَجْمَعًا للبول ، فيكون في ذلك تلويث للرجل ، وربما يحدث إثر هذا التهابات فيما بين الجلدة والحشفة ، ويتضرر الإنسان . فالصحيح أن الختان واجب على الذكور ، وسنة في حق الإناث ، وهذا أعدل الأقوال وأحسنها .

---

(١) ذهب إلى وجوب الختان في حق الرجال : الشافعية وقال ابن عطاء وهو قول أحمد وبعض المالكية . وعن أبي حنيفة قولان : واجب . وقيل : سنة . وذهب أكثر أهل العلم وبعض الشافعية إلى أنه ليس بواجب وهو في حق الذكور آكد منه في حق النساء ، أو يكون في حق الرجال الندب وفي حق النساء للإباحة (انظر : المغني مع الشرح الكبير ١/١٠٠ ، فقه الكتاب والسنة ٥/٣٠٠) .

ثم ذكر النبي ﷺ أنه يؤتى برجال من أمته فيؤخذ بهم ذات الشمال ، أي إلى طريق أهل النار والعياذ بالله . فيقول النبي ﷺ : « أصحابي » أي يشفع إلى الله ﷻ فيهم ، فيقال له : « إنك لا تدري ما أحدثوا بعدك » فيقول النبي ﷺ كما قال العبد الصالح ، يعني به عيسى ابن مريم حين يقول يوم القيامة إذا قال الله تعالى له : ﴿ ءَأَنتَ قُلْتَ لِلنَّاسِ ٱتَّخِذُونِى وَأُمِّىَ إِلَٰهَيْنِ مِن دُونِ ٱللَّهِ ﴾ [المائدة : ١١٦] كما يزعم النصارى الذين يقولون : إنهم متبعون له ﴿ قَالَ سُبْحَٰنَكَ مَا يَكُونُ لِىٓ أَنْ أَقُولَ مَا لَيْسَ لِى بِحَقٍّ ﴾ [المائدة : ١١٦] لأن الألوهية ليست حقًّا لأحد إلا لله رب العالمين . ثم يقول : ﴿ إِن كُنتُ قُلْتُهُۥ فَقَدْ عَلِمْتَهُۥ تَعْلَمُ مَا فِى نَفْسِى وَلَآ أَعْلَمُ مَا فِى نَفْسِكَ إِنَّكَ أَنتَ عَلَّٰمُ ٱلْغُيُوبِ ۝ مَا قُلْتُ لَهُمْ إِلَّا مَآ أَمَرْتَنِى بِهِۦٓ أَنِ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ رَبِّى وَرَبَّكُمْ وَكُنتُ عَلَيْهِمْ شَهِيدًا مَّا دُمْتُ فِيهِمْ فَلَمَّا تَوَفَّيْتَنِى كُنتَ أَنتَ ٱلرَّقِيبَ عَلَيْهِمْ وَأَنتَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ شَهِيدٌ ﴾ [المائدة : ١١٦، ١١٧] .

فإذا قيل للنبي ﷺ يوم القيامة : « إنك لا تدري ماذا أحدثوا بعدك » قال كما قال عيسى ابن مريم : ﴿ وَكُنتُ عَلَيْهِمْ شَهِيدًا مَّا دُمْتُ فِيهِمْ فَلَمَّا تَوَفَّيْتَنِى كُنتَ أَنتَ ٱلرَّقِيبَ عَلَيْهِمْ وَأَنتَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ شَهِيدٌ ﴾ .

ثم يقال للرسول – عليه الصلاة والسلام – : « إنهم لم يزالوا مرتدين على أعقابهم منذ فارقتهم » فيقول النبي – عليه الصلاة والسلام – : « سحقًا سحقًا » .

قوله : « إنهم لم يزالوا مرتدين على أعقابهم منذ فارقتهم » . تمسك به الرافضة الذين قالوا : إن الصحابة كلُّهم ارتدوا عن الإسلام – والعياذ بالله ، ومنهم أبو بكر ، وعمر ، وعثمان . أما علي وآل البيت فهم لم يرتدوا . ولا شك أنهم في هذا كاذبون ، وأن الخلفاء الأربعة كلهم لم يحصُل منهم ردة بإجماع المسلمين ، وكذلك عامة أصحاب النبي – عليه الصلاة والسلام – لم يحصل منهم ردة بإجماع المسلمين . إلا قوم من الأعراب لما مات النبي – عليه الصلاة والسلام – افتتنوا ، وارتدوا على أدبارهم ، ومنعوا الزكاة ، حتى قاتلهم الخليفة الراشد أبو بكر ﷺ ، وعاد أكثرهم إلى الإسلام .

ولكن الرافضة من شدة حنقهم وبغضهم لأصحاب النبي ﷺ ، تمسكوا بظاهر هذا الحديث .

أما أهل السنة والجماعة فقالوا : إن هذا الحديث عامٌّ يراد به الخاص ، وما أكثر العام الذي يراد به الخاص . فقوله : « أصحابي » يعني ليسوا كلهم ، بل الذين ارتدوا على أدبارهم ؛ لأن هكذا قيل للرسول – عليه الصلاة والسلام – : « إنهم لم يزالوا مرتدين على أعقابهم منذ فارقتهم » . ومعلوم أن الخلفاء الراشدين ، وعامة أصحاب النبي – عليه الصلاة والسلام – لم يرتدوا بالإجماع ، ولو قدِّر أنهم ارتدوا لم يبقَ لنا ثقة بالشريعة . ولهذا كان الطعن في الصحابة يتضمن الطعن في شريعة الله ، ويتضمن الطعن في رسول الله ﷺ ، ويتضمن الطعن بالله رب العالمين .

الذين يطعنون في الصحابة تضمن طعنهم أربعة محاذير ومنكرات عظيمة والعياذ بالله : الطعن في الصحابة ، والطعن في الشريعة ، والطعن في النبي ﷺ ، والطعن في رب العالمين تبارك وتعالى ، لكنهم قوم لا يفقهون ﴿ صُمٌّۢ بُكْمٌ عُمْىٌ فَهُمْ لَا يَعْقِلُونَ ﴾ [البقرة : ١٧١] .

أما كونه طعنًا في الشريعة : فلأن الذين نقلوا إلينا الشريعة هم الصحابة ، وإذا كانوا مرتدين ،

والشريعة جاءت من طريقهم ؛ فإنها لا تقبل ، لأن الكافر لا يقبل خبره ، بل الفاسق أيضًا كما قال تعالى : ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِن جَآءَكُمۡ فَاسِقُۢ بِنَبَإٖ فَتَبَيَّنُوٓاْ ﴾ [الحجرات : ٦] .

وأما كونه طعنًا برسول الله ﷺ : فيقال : إذا كان أصحاب النبي بهذه المثابة من الكفر والفسوق ، فهو طعن بالرسول ﷺ ؛ لأن القرين على دين قرينه ، وكل إنسان يعاب بقرينه إذا كان قرينه سيئًا . يقال : فلان ليس فيه خير ؛ لأن قرناءه فلان وفلان وفلان من أهل الشر . فالطعن في الأصحاب طعن بالمصاحب .

وأما كونه طعنًا بالله رب العالمين فظاهر جدًا : أن يجعل أفضل الرسالات وأهمها وأحسنها على يد هذا الرجل الذي هؤلاء أصحابه ، وأيضًا أن يجعل أصحاب هذا النبي الذين هو أفضل الأنبياء - صلوات الله وسلامه عليه - مثل هؤلاء الأصحاب ، الذين زعمت الرافضة أنهم ارتدوا على أدبارهم . ولهذا نعتقد أن هذه فرية عظيمة على الصحابة رضي الله عنهم ، وعدوان على الله ورسوله وشريعة الله ، ولا شك أننا نكن الحبَّ لجميع أصحاب النبي ﷺ ، ولآل النبي ﷺ المؤمنين ، ونرى أن لآله المؤمنين حقين : حقُّ الإيمان ، وحق قربهم من رسول الله ﷺ قال تعالى : ﴿ قُل لَّآ أَسۡـَٔلُكُمۡ عَلَيۡهِ أَجۡرًا إِلَّا ٱلۡمَوَدَّةَ فِي ٱلۡقُرۡبَىٰۗ ﴾ [الشورى : ٢٣] يعني إلا أن تودوا قرابتي على أحد التفاسير [١] . والتفسير الآخر لقوله تعالى : ﴿ إِلَّا ٱلۡمَوَدَّةَ فِي ٱلۡقُرۡبَىٰۗ ﴾ أي إلا أن تودوني لقرابتي منكم [٢] .

وعلى كل حال فهذا الحديث ليس فيه مطمع للرافضة في القدح في أصحاب النبي ﷺ ؛ لأنه لا يصدق إلا على من ارتدوا ، أما من بقوا على الإسلام ، وأجمع المسلمون على هدايتهم ودرايتهم ؛ فإنهم لا يدخلون في هذا الحديث . ويقال : إن الذي خصص هذا الحديث إجماع المسلمين على أن الصحابة لم يرتدوا ، وإنما ارتدت طائفة قاتلهم أبو بكر الصديق رضي الله عنه ، ورجع أكثرهم إلى الإسلام .

* * *

١٦٦ - الحَادي عَشَرَ : عَن أَبي سعيدِ عبد الله بن مُغَفَّلٍ رضي الله عنه قال : نَهى رسولُ الله ﷺ عَن الخَذفِ وقالَ : « إنَّهُ لا يَقْتُلُ الصَّيد ، وَلا يَنْكأُ العَدُوَّ ، وَإنَّهُ يَفْقَأُ العَينَ ، وَيَكسِر السنَّ » متفقٌ عليه .

وفي رواية : أَنَّ قرِيبًا لابْن مُغَفَّل خَذَفَ ، فَنَهَاهُ وقال : إن رسول الله ﷺ نَهى عن الخَذفِ وَقالَ : « إنَّهَا لا تَصيدُ صَيدًا » ثُمَّ عادَ فقالَ : أُحَدِّثُكَ أَن رسول الله ﷺ نَهى عَنْهُ ، ثُمَّ عُدتَ تَخذِفُ !؟ لا أُكَلِّمُكَ أَبَدًا [٣] .

الشرح

قال المؤلف - رحمه الله تعالى - فيما نقله عن عبد الله بن مغفل رضي الله عنه ، أن النبي ﷺ نهى عن الخذف ، وقال : « إنه لا يقتل صيدًا » وفي لفظ : « لا يصيد صيدًا » « ولا ينكأ عدوًّا ، وإنما يفقأ العين ويكسر السن » .

---

(١) وهو قول علي بن الحسين وسعيد بن جبير والسدي (زاد المسير ٧/٢٨٤) .

(٢) وهو قول ابن عباس وعكرمة ومجاهد (انظر زاد المسير ٧/٢٨٤) .

(٣) أخرجه البخاري في الأدب (٦٢٢٠) ، ومسلم في الصيد والذبائح (٥٤ ، ٥٥) ، وابن ماجه في الصيد (٣٢٢٦) .

والخذف : قال العلماء : معناه أن يضع الإنسان حصاة بين السبابة والإبهام ، فيضع على الإبهام حصاة ويدفعها بالسبابة ، أو يضع على السبابة ويدفعها بالإبهام . وقد نهى عنه النبي ﷺ ، وعلل ذلك بأنه يفقأ العين ويكسر السن إذا أصابه ، ولا يصيد الصيد ؛ لأنه ليس له نفوذ ، ولا ينكأ العدو ، يعني لا يدفع العَدو ؛ لأن العدو إنما ينكأ بالسهام لا بهذه الحصاة الصغيرة .

ثم إن قريبًا له خرج بخذف ، فنهاه عن الخذف وأخبره بنهي النبي ﷺ عنه ، ثم إنه رآه مرة ثانية يخذف فقال له : « أخبرتك أن النبي ﷺ نهى عن الخذف ، فجعلت تخذف !! لا أكلمك أبدًا » فهجره ، لأنه خالف نهي النبي ﷺ .

وهذا كما فعل عبد اللّه بن عمر في أحد أبنائه ، حين حدَّث ابن عمر أن النبي ﷺ قال : « لا تمنعوا إماءكم المساجد » . فقال أحد أبنائه وهو بلال بن عبد اللّه بن عمر : « واللّه لنمنعن » . لأن النساء تغيرت بعد عهد النبي ﷺ ، والناس تغيروا ، فقال بلال : « واللّه لنمنعهن » . فأقبل عليه أبوه عبد اللّه بن عمر ، وجعل يسبه سبًا عظيمًا ، ما سبَّه مثله قط ، وقال : أحدثك عن رسول اللّه ﷺ وتقول : واللّه لنمنعهن . ثم هجره حتى مات ، لم يكلمه [1] ، فدل هذا على عظم تعظيم السلف الصالح لاتباع السنة .

فهذا عبد اللّه بن مغفل أقسم أن لا يكلم قريبه لأنه خذف ، وقد نهى النبي ﷺ عن الخذف . وهذا ابن عمر هجر ابنه حتى مات ، لأنه قال : « واللّه لنمنعهن » مع أن الرسول ﷺ أذن لهنَّ ، وهكذا يجب على كل مؤمن أن يعظم سنة النبي عليه الصلاة والسلام .

ولكن إذا قال قائل : هل مثل هذا الأمر يوجب الهجر وقد نهى النبي ﷺ عن هجر المؤمن فوق ثلاث ؟ .

فالجواب عن هذا : أن هذين الصحابيين - وأمثالهما ممن فعل مثل فعليهما - فعلا ذلك من باب التعزير ، ورأيا في هذا تعزيرًا لهذين الرجلين ، وإلا فالأصل أن المؤمن إذا فعل ذنبًا وتاب منه ، فإنه يُغفر له ما سلف ، حتى الكفار إذا تابوا غفر اللّه لهم ما سبق . قال اللّه تعالى : ﴿ قُل لِّلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ إِن يَنتَهُواْ يُغْفَرْ لَهُم مَّا قَدْ سَلَفَ ﴾ [الأنفال : ٣٨] كل ما مضى .

ولكن نظرًا لأن هذين الصحابيين رضي الله عنهما ، أرادا أن يعزرا من خالف أمر النبي - عليه الصلاة والسلام - إما بقوله ، وإما بفعله ، ولو عن اجتهاد ؛ لأن بلال بن عبد اللّه بن عمر ، إنما قال ذلك عن اجتهاد ، لكن لا ينبغي للإنسان أن يعارض قول الرسول هذه المعارضة الظاهرة ، ولو أنه قال مثلًا : لعل النبي ﷺ أذن لهنَّ في زمن كانت النيات فيه سليمة ، والأعمال مستقيمة ، وتغيرت الأحوال بعد ذلك ، وأتى بالكلام على هذا الوجه ، لكان أهون .

ولهذا قالت عائشة رضي الله عنها : لو أن رأى النبي ﷺ ما صنع النساء من بعده لمنعهن - يعني من المساجد - كما منعت بنو إسرائيل نساءها [2] . ولكن على كل حال ما فعله عبد اللّه بن المغفل ،

---

(١) انظر الحديث - بنصه - في مسلم في الصلاة (١٣٥) . (٢) انظر الحديث - بنصه - في مسلم في الصلاة (١٤٤) .

وعبد الله بن عمر ﷺ ، يدل على تعظيم السنة ، وأن الإنسان يجب أن يقول لحكم الله ورسوله : سمعنا وأطعنا .

* * *

١٦٧ - وعن عابِس بنِ ربيعةَ قال : رَأَيتُ عُمَرَ بنَ الخطّاب ﷺ يُقَبِّلُ الحَجَرَ - يَعْني الأَسْوَدَ - وَيَقُولُ : إني أَعْلَمُ أنّكَ حجَرٌ مَا تَنْفَعُ وَلا تَضُرُّ ، وَلَولا أنّي رَأَيتُ رَسُولَ اللّه ﷺ يُقَبِّلُكَ مَا قَبَّلْتُكَ [١] . متفقٌ عليه .

الشرح

هذا الحديث الذي ذكره المؤلف رحمه الله عن عمر بن الخطاب ﷺ في باب الأمر باتباع السنة وآدابها ، فقد كان ﷺ يطوف بالبيت ، فقبّل الحجر الأسود . والحجر كما نعلم حجر من الأرض ، جعل في هذا الركن ، وشرع الله ﷻ لعباده أن يقبلوه ؛ لكمال الذل والعبودية ، ولهذا قال عمر حين قبله : « إني لأعلم أنك حجر لا تضر ولا تنفع » . وصدق ﷺ ، فإن الأحجار لا تضر ولا تنفع . الضرر والنفع بيد الله ﷻ كما قال تعالى : ﴿ قُلْ مَنۢ بِيَدِهِۦ مَلَكُوتُ كُلِّ شَيْءٍ وَهُوَ يُجِيرُ وَلَا يُجَارُ عَلَيْهِ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ ۝ سَيَقُولُونَ لِلَّهِ ﴾ [المؤمنون : ٨٨، ٨٩] . ولكن بيّن ﷺ أن تقبيله إياه لمجرد اتباع النبي ﷺ ، فقال : « ولولا أني رأيت رسول الله ﷺ يقبلك ما قبلتك » يعني فأنا أقبلك اتباعًا للسنة ، لا رجاءً للنفع ، أو خوف الضرر ، ولكن لأن النبي ﷺ فعل ذلك . ولهذا لا يشرع أن يقبل شيء من الكعبة المشرفة إلا الحجر الأسود فقط ، أما الركن اليماني فيستلم ، يعني يمسح ولا يُقبّل . الحجر الأسود أفضل شيء أن يستلمه الإنسان ويقبله ، يمسحه بيده اليمنى ويقبله ، فإن لم يمكن استلمه وقبل يده ، فإن لم يمكن أشار إليه بشيء معه أو بيده ، ولكن لا يقبل ما أشار به ؛ لأن هذا الذي أشار به لم يمسَّ الحجر حتى يقبله .

أما الركن اليماني : فليس فيه إلا استلام فقط ، ويكون الاستلام باليد اليمنى . ونرى بعض الجهال يستلم باليد اليسرى ، واليد اليسرى كما قال أهل العلم : لا تستعمل إلا في الأذى ، في القذر والنجاسات وما أشبهها ، أما أن تعظم بها شعائر الله فلا . لكن أكثر الناس جُهَّال لا يدرون لماذا استلموا هذا الحجر ؟

ثم إن بقية الأركان : الركن الشامي ، والعراقي ، يعني الشمالي الشرقي والشمالي الغربي ، هذان الركنان لا يقبلان ولا يُمسحان ، وذلك لأنهما ليسا على قواعد إبراهيم [٢] ، وذلك أن قريشًا لما أرادوا بناء الكعبة ، قالوا : لن نبنيها إلا بمالٍ طيب ، لا نبنيها بأموال الربا ، وانظر كيف عظم الله بيته حتى على أيدي الكفار ، فجمعوا المال الطيب ، فلم يكفِ لبنائها على قواعد إبراهيم ، ثم فكروا من أي جانب

---

(١) أخرجه البخاري في الحج (١٥٩٧) ، ومسلم في الحج (٢٥١) ، وأبو داود في مناسك الحج (١٨٧٣) .

(٢) راجع ذلك كله في : المغني (٣/٣٧٠ - ٣٧٢) ، الأم (٢/١٨٦ - ١٨٨) ، بدائع الصنائع (٢/١٤٦) ، شرح فتح القدير (٢/٤٤٨) .

ينقصونها . قالوا : ننقصها من الشمال ؛ لأن الجانب اليماني الجنوبي فيه الحجر الأسود ، ولا يمكن أن ننقصها من جانب الحجر الأسود ، فنقصوها من هناك ، فلم تكن على قواعد إبراهيم ، ولذلك لم يقبّل النبي - عليه الصلاة والسلام - ولم يمسح الركن الشمالي الشرقي ولا الركن الشمالي الغربي .

ولما طاف معاويةُ ﷺ ذات سنة ، وكان معه عبد الله بن عباس ﷺ ، جعل معاوية يمسح الأركان الأربعة ؛ الحجر الأسود ، والركن اليماني ، والشمالي ، والغربي . فقال له ابن عباس : كيف تمسح الركنين الشماليين ، والنبي - عليه الصلاة السلام - لم يمسح إلا الركن اليماني والحجر الأسود ؟ فقال معاوية : إنه ليس شيء من البيت مهجورًا . يعني البيت كله يحترم ويعظم ، فقال ابن عباس ﷺ - وهو أفقه من معاوية - قال : « لقد كان لكم في رسول الله أسوة حسنة » . وما رأيت النبي ﷺ يمسح إلا الركنين اليمانيين ، يعني ركن الحجر والركن اليماني . فقال له معاوية : صدقت ورجع إلى قوله [١] . لأن الخلفاء فيما سبق وإن كانوا كالملوك في الأبهة والعظمة ، لكنهم كانوا يرجعون إلى الحق ، ولهذا رجع معاوية ﷺ إلى الحق ، وقال له : صدقت ، وترك مسح الركنين الشمالي الشرقي والشمالي الغربي .

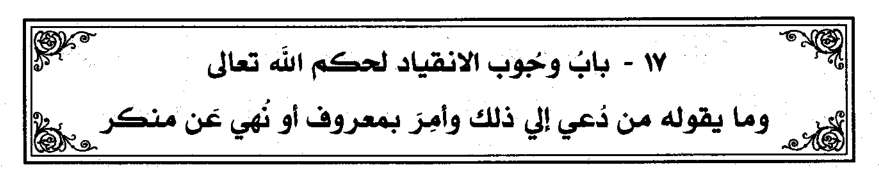
وفي هذا الحديث الذي ذكره المؤلف عن عمر ﷺ : دليل علي جهالة أولئك القوم الذين نشاهدهم ، يقف أحدهم عند الركن اليماني فيمسح بيده ، ويكون معه طفل قد حمله ، فيمسح الطفل بيده يتبرك بالركن ، وكذلك لو تيسر له المسح على الحجر الأسود ، هذا لا شك أنه بدعة ، وأنه نوع من الشرك ، لأن هؤلاء جعلوا ما ليس سببًا سببًا ، والقاعدة : أن كلَّ أحد يجعل شيئًا سببًا لشيء بدون إذن من الشارع فإنه يكون مبتدعًا ، ولهذا يجب على من رأى أحدًا يفعل هذا أن ينصحه ، يقول له : هذا غير مشروع ، هذا بدعة ، حتى لا يظن الناس أن الأحجار تنفع أو تضر ، ثم تتعلق قلوبهم بها في شيء أكبر وأعظم من هذا .

المهم : أن أمير المؤمنين عمر ﷺ بيَّن أنه لا يفعل ذلك إلا اتباعًا لسنة النبي ﷺ ، وإلا فإنه يعلم أنه لا يضر ولا ينفع . وفي هذا : دليل على أن كمال التعبد أن ينقاد الإنسان لله ﷻ ، سواءٌ عرف السبب والحكمة في المشروعية أم لم يعرف . فعلى المؤمن إذا قيل له افعل أن يقول : سمعنا وأطعنا ، إن عرفت الحكمة فهو نورعلى نور ، وإن لم تعرف فالحكمة أمر الله ورسوله . ولهذا قال الله في كتابه : ﴿ وَمَا كَانَ لِمُؤْمِنٍ وَلَا مُؤْمِنَةٍ إِذَا قَضَى ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥٓ أَمْرًا أَن يَكُونَ لَهُمُ ٱلْخِيَرَةُ مِنْ أَمْرِهِمْ ﴾ [الأحزاب : ٣٦] . وسئلت عائشة ﷺ لماذا تقضي الحائض الصوم ولا تقضي الصلاة ، فقالت : كان يصيبنا ذلك فنؤمر بقضاء الصوم ولا نؤمر بقضاء الصلاة [٢] ، كأنها ﷺ تقول : إن وظيفة المؤمن أن يعمل بالشرع ، سواء عرف الحكمة أم لم يعرفها ، وهذا هو الصواب .

---

(١) انظر تلك القصة فيما أخرجه البخاري في الحج (١٦٠٨) ، وأحمد في مسنده (٢١٧/١) .

(٢) أخرجه مسلم في الحيض (٦٨) ، والبخاري في الحيض (٣٢١) ، والدارمي في الوضوء(١٠٢) ، وأحمد في مسنده (٣٢/٦ ، ٩٤) .



١٧ - بابُ وُجوب الانقياد لحكم الله تعالى
وما يقوله من دُعي إلي ذلك وأمِرَ بمعروف أو نُهي عَن منكر

قال اللّٰه تعالى : ﴿ فَلَا وَرَبِّكَ لَا يُؤْمِنُونَ حَتَّىٰ يُحَكِّمُوكَ فِيمَا شَجَرَ بَيْنَهُمْ ثُمَّ لَا يَجِدُوا فِي أَنفُسِهِمْ حَرَجًا مِّمَّا قَضَيْتَ وَيُسَلِّمُوا تَسْلِيمًا ﴾ (١) [النساء : ٦٥] .

وقال اللّٰه تعالى : ﴿ إِنَّمَا كَانَ قَوْلَ الْمُؤْمِنِينَ إِذَا دُعُوا إِلَى اللَّهِ وَرَسُولِهِ لِيَحْكُمَ بَيْنَهُمْ أَن يَقُولُوا سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا وَأُولَٰئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ ﴾ [النور : ٥١] .

وَفِيهِ مِنَ الأَحَادِيث حديث أَبي هُرَيرَة المَذْكُورُ في أَوَّلِ البَابِ قَبْلَهُ وَغَيرُهُ مِنَ الأَحَادِيثِ فيه .

١٦٨ – عن أبي هريرة ﷺ قال : لَمَّا نَزَلَتْ عَلَى رسول اللّٰه ﷺ : ﴿ لِّلَّهِ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ وَإِن تُبْدُوا مَا فِي أَنفُسِكُمْ أَوْ تُخْفُوهُ يُحَاسِبْكُم بِهِ اللَّهُ ﴾ [البقرة : ٢٨٤] اشْتَدَّ ذلِكَ عَلَى أَصْحَابِ رسول اللّٰه ﷺ ، فَأَتَوا رسول اللّٰه ﷺ ، ثُمَّ بَرَكُوا عَلَى الرُّكَب فَقَالُوا : أَي رسولَ اللّٰه ، كُلِّفْنَا مِنَ الأَعْمَال مَا نُطِيقُ : الصَّلاة وَالجِهَادَ وَالصِّيَامَ وَالصَّدَقَةَ ، وَقَدْ أُنْزِلَتْ عَلَيكَ هذِهِ الآيَةُ وَلا نُطِيقُهَا . قال رسول اللّٰه ﷺ : «أَتُرِيدُونَ أَنْ تَقُولُوا كَمَا قَالَ أَهْلُ الكِتَابَيْنِ مِنْ قَبْلِكُمْ : سَمِعْنَا وَعَصَينَا ؟ بَلْ قُولُوا : سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا غُفْرَانَكَ رَبَّنَا وَإِلَيكَ المَصِيرُ » قالوا : سمعنا وأطعنا غفرانك ربنا وإليك المصير . فَلَمَّا اقْتَرَأَهَا القَومُ ، وَذَلَّتْ بهَا أَلسِنَتُهُمْ ، أَنْزَلَ اللّٰهُ تعالَى في إثْرِهَا : ﴿ آمَنَ الرَّسُولُ بِمَا أُنزِلَ إِلَيْهِ مِن رَّبِّهِ وَالْمُؤْمِنُونَ كُلٌّ آمَنَ بِاللَّهِ وَمَلَائِكَتِهِ وَكُتُبِهِ وَرُسُلِهِ لَا نُفَرِّقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِّن رُّسُلِهِ وَقَالُوا سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا غُفْرَانَكَ رَبَّنَا وَإِلَيْكَ الْمَصِيرُ ﴾ فَلَمَّا فَعَلُوا ذلِكَ نَسَخَهَا اللّٰه تعالَى ، فَأَنْزَلَ اللّٰهُ ﷻ : ﴿ لَا يُكَلِّفُ اللَّهُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا لَهَا مَا كَسَبَتْ وَعَلَيْهَا مَا اكْتَسَبَتْ رَبَّنَا لَا تُؤَاخِذْنَا إِن نَّسِينَا أَوْ أَخْطَأْنَا ﴾ قَالَ : نَعَمْ ﴿ رَبَّنَا وَلَا تَحْمِلْ عَلَيْنَا إِصْرًا كَمَا حَمَلْتَهُ عَلَى الَّذِينَ مِن قَبْلِنَا ﴾ قَالَ : نَعَمْ ﴿ رَبَّنَا وَلَا تُحَمِّلْنَا مَا لَا طَاقَةَ لَنَا بِهِ ﴾ قَالَ : نَعَمْ ﴿ وَاعْفُ عَنَّا وَاغْفِرْ لَنَا وَارْحَمْنَا أَنتَ مَوْلَانَا فَانصُرْنَا عَلَى الْقَوْمِ الْكَافِرِينَ ﴾ قَالَ : نَعَمْ (٢) . رواه مسلم .

الشرح

قال المؤلف رحمه الله « باب وجوب الانقياد لحكم اللّٰه تعالى ثم ذكر آيتين سبق الكلام عليهما ،

(١) قوله ﴿ شَجَرَ ﴾ أي اختلط ، قوله ﴿ حَرَجًا ﴾ أي ضيقًا ، قوله ﴿ وَيُسَلِّمُوا ﴾ أي ينقادوا لحكمك .
(٢) أخرجه مسلم في الإيمان (١٩٩) واللفظ له ، والإمام أحمد في مسنده (٤١٢/٢) ، قوله « وذلت » أي انقادت بالاستسلام ، قوله « إصرًا » أي أمرًا يثقل علينا حمله . قوله ﴿ وُسْعَهَا ﴾ أي قدر طاقتها . قوله ﴿ لَهَا مَا كَسَبَتْ ﴾ أي لها ثواب ما عملت من الخير . قوله ﴿ وَعَلَيْهَا مَا اكْتَسَبَتْ ﴾ أي عليها وزر ما فعلت من الشر . قوله ﴿ لَا تُؤَاخِذْنَا ﴾ أي لا تأخذنا بالعقاب . قوله ﴿ مَا لَا طَاقَةَ لَنَا ﴾ ما ليس لنا قوة بتحمله من التكاليف والبلاء . قوله ﴿ أَنتَ مَوْلَانَا ﴾ أي سيدنا . قوله « قال : نعم » القول هنا منسوب إلى اللّٰه ﷻ وقد أورد الطبري في تفسيره للآية (٢٨٤) من سورة البقرة في رواية عن أبي هريرة « قال اللّٰه : نعم » وفي رواية أخرى عن ابن عباس « قال : قد فعلت » .

منهما قوله تعالى : ﴿ فَلَا وَرَبِّكَ لَا يُؤْمِنُونَ حَتَّىٰ يُحَكِّمُوكَ فِيمَا شَجَرَ بَيْنَهُمْ ﴾ .

ثم ذكر حديث أبي هريرة ﷺ أن الصحابة ﷺ لما أنزل الله على نبيه هذه الآية ﴿ وَإِن تُبْدُوا مَا فِي أَنفُسِكُمْ أَوْ تُخْفُوهُ يُحَاسِبْكُم بِهِ اللَّهُ ﴾ [البقرة : ٢٨٤] . كبر ذلك عليهم وشقَّ عليهم ذلك ؛ لأن ما في النفس من الحديث أمر لا ساحل له ، فالشيطان يأتي الإنسان ويحدثه في نفسه بأشياء منكرة عظيمة ، منها ما يتعلق بالأمور الدينية ، ومنها ما يتعلق بالأمور الدنيوية ، ومنها ما يتعلق بالنفس ، ومنها ما يتعلق بالمال . أشياء كثيرة يلقيها الشيطان في قلب الإنسان . والله ﷻ يقول : ﴿ وَإِن تُبْدُوا مَا فِي أَنفُسِكُمْ أَوْ تُخْفُوهُ يُحَاسِبْكُم بِهِ اللَّهُ ﴾ فإذا كان كذلك هلك الناس .

فجاء الصحابة ﷺ إلى النبي ﷺ ، فجثو على ركبهم ، فعلوا ذلك من شدة الأمر . والإنسان إذا نزل به أمر شديد يجثو على ركبتيه ، وقالوا : يا رسول الله إنَّ الله تعالى أمرنا بما نطيق : الصلاة ، والجهاد ، والصيام ، والصدقة ، هذه نطيقها ، نصلي ، نجاهد ، نتصدق ، نصوم . لكنه أنزل هذه الآية : ﴿ وَإِن تُبْدُوا مَا فِي أَنفُسِكُمْ أَوْ تُخْفُوهُ يُحَاسِبْكُم بِهِ اللَّهُ ﴾ . وهذه شديدة عليهم لا أحد يطيق أن يمنع الإنسان نفسه عما تحدثه به من الأمور التي لو حوسب عليها لهلك .

فقال النبي - عليه الصلاة والسلام - : « أتريدون أن تقولوا كما قال أهل الكتابين من قبلكم : سمعنا وعصينا » أهل الكتابين هم اليهود والنصارى . اليهود كتابهم التوراة وهي أشرف الكتب المنزلة بعد القرآن . والنصارى كتابهم الإنجيل وهو متمم للتوراة . واليهود والنصارى عصوا أنبياءهم وقالوا : سمعنا وعصينا ، فهل تريدون أن تكونوا مثلهم ؟ « ولكن قولوا سمعنا وأطعنا غفرانك ربنا وإليك المصير » . وهكذا يجب على المسلم إذا سمع أمر الله ورسوله أن يقول : « سمعنا وأطعنا » ويمتثل بقدر ما يستطيع ، ولا يكلف الله نفسًا إلا وسعها .

كثير من الناس اليوم يأتي إليك يقول : إن الرسول أمر بكذا ، هل هو واجب أو سنة ؟ والواجب أنه إذا أمرك أن تفعل ؛ إن كان واجبًا فقد أبرأت الذمة ، وحصلت خيرًا ، وإن كان مستحبًا فقد حصلت خيرًا أيضًا . أما أن تقول : هو واجب أو مستحب ، وتتوقف عن العمل حتى تعرف ، فهذا لا يكون إلا من إنسان كسول لا يحب الخير ولا الزيادة فيه . أما الإنسان الذي يحبُّ الزيادة في الخير ، فهو إذا علم أمر الله ورسوله قال : سمعنا وأطعنا ثم فعل ، ولا يسأل هو واجب أو مستحب ، إلا إذا خالف ، حينئذ يسأل ، ولهذا لم نعهد ولم نعلم أن الصحابة كانوا إذا أمرهم الرسول ﷺ بأمر قالوا : يا رسول الله أعلى سبيل الوجوب أم على سبيل الاستحباب ؟ ما سمعنا بهذا ، كانوا يقولون : سمعنا وأطعنا ويمشون .

فأنت افعل وليس عليك من كونه مستحبًا أو واجبًا ، ولا يستطيع الإنسان أن يقول : إن هذا الأمر مستحب أو واجب إلا بدليل ، والحجة أن يقول لك المفتي : هكذا أمر الرسول عليه الصلاة والسلام .

ونحن نجد ابن عمر ﷺ لما حدَّث ابنه بلالاً قال : إن الرسول ﷺ قال : «لا تمنعوا نساءكم المساجد » وقد تغيرت الحال بعد وفاة النبي - عليه الصلاة والسلام - قال بلال : « واللّه لنمنعهن » فسبَّه عبد اللّه بن عمر سبًّا شديدًا [١] ، لماذا يقول : واللّه لنمنعهن والرسول يقول لا تمنعونهن ، ثم إنه هجره حتى مات .

وهذا يدل على شدة تعظيم الصحابة لأمر اللّه ورسوله ، أما نحن فنقول هل هذا الأمر واجب أم مستحب ، هذا النهي للتحريم أم للكراهة ، لكن إذا وقع الأمر فلك أن تسأل حينئذ هل أثمت بذلك أم لا ، لأجل أنه إذا قيل لك : إنك آثم تجدد توبتك ، وإذا قيل إنك غيرآثم يستريح قلبك ، أما حين يوجَّه الأمر فلا تسأل عن الاستحباب أو الوجوب ، كما كان أدبُ الصحابة مع الرسول - عليه الصلاة والسلام - يفعلون ما أمر ويتركون ما عنه نهى وزجر .

لكن مع ذلك نحن نبشركم بحديث قال فيه النبي - عليه الصلاة والسلام - : «إن اللّه تجاوز عن أمتي ما حدَّثت به أنفسها ما لم تعمل أو تتكلم » [٢] . الحمد لِلّه ، رفع الحرج ، كلُّ ماحدثت به نفسك ، ولكنك ما ركنت إليه ، ولا عملت ، ولاتكلمت ، فهو معفوٌّ عنه ، حتى ولوكان أكبر من الجبال . فاللّهم لك الحمد .

حتى إن الصحابة قالوا : يا رسول اللّه ، نجد في نفوسنا ما نحبُّ أن تكون حُمَمَةً - يعني فحمة محترقة - ولا نتكلم به قال : «ذاك صريح الإيمان » [٣] يعني ذاك هو الإيمان الخالص ، لأن الشيطان ما يلقي مثل هذه الوساوس في قلب خَرِب ، في قلب فيه شك ، إنما يتسلط الشيطان - أعاذنا اللّه منه - على قلبٍ مؤمن خالص ؛ ليفسده .

ولما قيل لابن عباس أو ابن مسعود : إن اليهود إذا دخلوا في الصلاة لا يوسوسون ، قال : وما يصنع الشيطان بقلبٍ خراب . فاليهود كفار ، قلوبهم خربة ، فالشيطان لا يوسوس لهم عند صلاتهم ؛ لأنها باطلة من أساسها . الشيطان يوسوس للمسلم الذي صلاته صحيحة مقبولة ، ليفسدها ، يأتي للمؤمن صريح الإيمان ليفسد هذا الإيمان الصريح .

ولكن - والحمد لله - من أعطاه اللّه تعالى طبَّ القلوب والأبدان - محمدﷺ - وصف لنا لهذا طبًّا ودواءً ، فأرشد إلى الاستعاذة باللّه والانتهاء [٤] ، فإذا أحسَّ الإنسان بشيء من هذه الوساوس الشيطانية ، فإنه يقول : أعوذ باللّه من الشيطان الرجيم ، ولينته يعرض عنها ولا يلتفت إليها ، امض فيما أنت عليه ، فإذا رأى الشيطان أنه لا سبيل إلى إفساد هذا القلب المؤمن الخالص ، نكص على عقبيه ورجع .

ثم إنهم لما قالوا : سمعنا وأطعنا غفرانك ربنا وإليك المصير ، ولانت لها نفوسهم ، وذلت لها ألسنتهم أنزل اللّه بعدها : ﴿ ءَامَنَ ٱلرَّسُولُ بِمَآ أُنزِلَ إِلَيۡهِ مِن رَّبِّهِۦ وَٱلۡمُؤۡمِنُونَۚ ﴾ يعني والمؤمنون آمنوا ﴿ كُلٌّ

---

(١) أخرجه مسلم (واللفظ له) في الصلاة (١٣٥) أبو عوانه في مسنده باب النهي عن منع النساء (٥٧/٢) .
(٢) أخرجه البخاري في الأيمان والنذور (٦٦٦٤) ، ومسلم في الإيمان واللفظ له (٢٠٢) ، وأبو داود في الطلاق (٢٢٠٩) .
(٣) أخرجه مسلم (واللفظ له) في الإيمان (٢٠٩) ، وأحمد في مسنده (٤٤١/١) .
(٤) أخرجه البخاري في بدء الخلق (٣٢٧٦) (والحديث بمعناه) ، ومسلم في الإيمان (٢١٤) .

ءَامَنَ بِٱللَّهِ وَمَلَٰٓئِكَتِهِۦ وَكُتُبِهِۦ وَرُسُلِهِۦ لَا نُفَرِّقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِّن رُّسُلِهِۦ ۚ وَقَالُوا۟ سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا ۖ غُفْرَانَكَ رَبَّنَا وَإِلَيْكَ ٱلْمَصِيرُ ﴾ [البقرة : ٢٨٥] فبين اللَّه ﷻ في هذه الآية الثناء عليهم وعلى رسوله وعلى المؤمنين ؛ لأنهم قالوا سمعنا وأطعنا غفرانك ربنا وإليك المصير .

ثم أنزل اللَّه ﴿ لَا يُكَلِّفُ ٱللَّهُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا ۚ لَهَا مَا كَسَبَتْ وَعَلَيْهَا مَا ٱكْتَسَبَتْ ﴾ [البقرة : ٢٨٦] فالذي ليس في وسع الإنسان لايكلفه اللَّه به ، ولا حرج عليه فيه ، مثل الوساوس التي تهجم على القلب ، ولكن الإنسان إذا لم يركن إليها ، ولم يصدق بها ، ولم يرفع بها رأسًا فإنها لا تضره ؛ لأن هذه ليست داخلة في وسعه ، واللَّه ﷻ يقول : ﴿ لَا يُكَلِّفُ ٱللَّهُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا ﴾ .

فقد يحدث الشيطان الإنسان في نفسه عن أمور فظيعة عظيمة ، ولكن الإنسان إذا أعرض عنها واستعاذ باللَّه من الشيطان ومنها ، زالت عنه ﴿ رَبَّنَا لَا تُؤَاخِذْنَآ إِن نَّسِينَآ أَوْ أَخْطَأْنَا ﴾ قال : نعم . يعني قال اللَّه : نعم لا أؤاخذكم إن نسيتم أو أخطأتم ﴿ رَبَّنَا وَلَا تَحْمِلْ عَلَيْنَآ إِصْرًا كَمَا حَمَلْتَهُۥ عَلَى ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِنَا ﴾ قال : نعم . ولهذا قال اللَّه تعالى في وصف رسوله محمد ﷺ : ﴿ وَيَضَعُ عَنْهُمْ إِصْرَهُمْ وَٱلْأَغْلَٰلَ ٱلَّتِى كَانَتْ عَلَيْهِمْ ﴾ (١) [الأعراف : ١٥٧] ، ﴿ رَبَّنَا وَلَا تُحَمِّلْنَا مَا لَا طَاقَةَ لَنَا بِهِۦ ﴾ قال اللَّه : نعم .

ولهذا لا يكلف اللَّه تعالى في شرعه ما لايطيقه الإنسان ، بل إذا عجز عن الشيء انتقل إلى بدله إذا كان له بدل ، أو سقط عنه إن لم يكن له بدل ، أما أن يكلف مالا طاقة له به فإن اللَّه تعالى قال هنا : نعم ، يعني لا أحملكم ما لا طاقة لكم به ﴿ وَٱعْفُ عَنَّا وَٱغْفِرْ لَنَا وَٱرْحَمْنَآ ۚ أَنتَ مَوْلَىٰنَا فَٱنصُرْنَا عَلَى ٱلْقَوْمِ ٱلْكَٰفِرِينَ ﴾ [البقرة : ٢٨٦] قال اللَّه : نعم ، فاعف عنا واغفر لنا وارحمنا هذه ثلاث كلمات ، كل كلمة لها معنى ، واعف عنا يعني تقصيرنا في الواجب ، واغفر لنا يعني انتهاكنا للمحرم ، وارحمنا يعني وفقنا للعمل الصالح . فالإنسان إما أن يترك واجبًا أو يفعل محرمًا ، فإن ترك الواجب فإنه يقول : اعف عنا ، أي اعف عنا ما قصرنا فيه من الواجب ، وإن فعل المحرم ، فإنه يقول : اغفر لنا ، يعني ما اقترفنا من الذنوب ، أو يطلب تثبيتًا وتأييدًا وتنشيطًا على الخير في قوله ﴿ وَٱرْحَمْنَآ ﴾ ، فهذه ثلاث كلمات كل كلمة لها معنى .

﴿ وَٱعْفُ عَنَّا وَٱغْفِرْ لَنَا وَٱرْحَمْنَآ ۚ أَنتَ مَوْلَىٰنَا ﴾ أي متولي أمورنا في الدنيا والآخرة ، فتولنا في الدنيا وانصرنا على القوم الكافرين ﴿ فَٱنصُرْنَا عَلَى ٱلْقَوْمِ ٱلْكَٰفِرِينَ ﴾ قد يتبادر للإنسان أن المراد أعداؤنا من الكفار ، ولكنه أعم حتى إنه يتناول الانتصار على الشيطان ؛ لأن الشيطان رأس الكافرين .

إذن نستفيد من هذه الآيات الكريمة الأخيرة أن اللَّه ﷻ لايحملنا ما لا طاقة لنا به ، ولايكلفنا إلا وسعنا ، وأن الوساوس التي تجول في صدورنا إذا لم نركن إليها ولم نطمئن إليها ولم نأخذ بها ، فإنها لا تضر .

---

(١) قوله ﴿ وَيَضَعُ عَنْهُمْ إِصْرَهُمْ وَٱلْأَغْلَٰلَ ٱلَّتِى كَانَتْ عَلَيْهِمْ ﴾ أي يخفف عنهم ما كُلفوه من التكاليف الشاقة التي تشبه الأغلال كالقصاص من القاتل : عمدًا كان القتل أو خطأ ، وكقتل النفس في التوبة .

١٨ - باب النهي عن البِدَع وَمُحدثات الأمور

قال اللَّه تعالى : ﴿ فَمَاذَا بَعْدَ ٱلْحَقِّ إِلَّا ٱلضَّلَٰلُ ﴾ [يونس : ٣٢] وقال تعالى : ﴿ مَّا فَرَّطْنَا فِى ٱلْكِتَٰبِ مِن شَىْءٍ ﴾ [الأنعام : ٣٨] وقال تعالى : ﴿ فَإِن تَنَٰزَعْتُمْ فِى شَىْءٍ فَرُدُّوهُ إِلَى ٱللَّهِ وَٱلرَّسُولِ ﴾ [النساء : ٥٩] أي : الكتاب والسنة . وقال تعالى : ﴿ وَأَنَّ هَٰذَا صِرَٰطِى مُسْتَقِيمًا فَٱتَّبِعُوهُ وَلَا تَتَّبِعُوا۟ ٱلسُّبُلَ فَتَفَرَّقَ بِكُمْ عَن سَبِيلِهِۦ ﴾ (١) [الأنعام : ١٥٣] وقال تعالى : ﴿ قُلْ إِن كُنتُمْ تُحِبُّونَ ٱللَّهَ فَٱتَّبِعُونِى يُحْبِبْكُمُ ٱللَّهُ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ ﴾ [آل عمران : ٣١] والآيات في الباب كثيرة معلومة .

الشرح

قال المؤلف - رحمه اللَّه تعالى - (باب النهي عن البدع ومحدثات الأمور) والبدع هي الأشياء التي يبتدعها الإنسان ، وهذا هو معناها في اللغة العربية ، ومنه قوله تعالى ﴿ بَدِيعُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ﴾ [البقرة : ١١٧] ، أي خالقهما على غير مثال سبق ، يعني لم يسبق لهما نظير ، بل ابتدعهما وأنشأهما أولًا .

والبدعة في الشرع كل من تعبد لله ﷻ بغير ما شرع عقيدة أو قولًا أو فعلًا ، فمن تعبد لله بغير ما شرعه اللَّه من عقيدة أو قول أو فعل فهو مبتدع .

فإذا أحدث الإنسان عقيدة في أسماء اللَّه وصفاته مثلًا فهو مبتدع ، أو قال قولًا لم يشرعه اللَّه ورسوله فهو مبتدع ، أو فعل فعلًا لم يشرعه اللَّه ورسوله فهو مبتدع .

وليعلم أن الإنسان المبتدع يقع في محاذير كثيرة ؛ أولًا : أن ما ابتدعه فهو ضلالة بنص القرآن والسنة ، وذلك أن ما جاء به النبي ﷺ فهو الحق ، وقد قال اللَّه تعالى ﴿ فَمَاذَا بَعْدَ ٱلْحَقِّ إِلَّا ٱلضَّلَٰلُ ﴾ [يونس : ٣٢] ، هذا دليل القرآن ، ودليل السنة قوله ﷺ : « كل بدعة ضلالة » (٢) ، ومعلوم أن المؤمن لا يختار أن يتبع طريق الضالين الذين يتبرأ منهم المصلي في كل صلاة ﴿ ٱهْدِنَا ٱلصِّرَٰطَ ٱلْمُسْتَقِيمَ ۞ صِرَٰطَ ٱلَّذِينَ أَنْعَمْتَ عَلَيْهِمْ غَيْرِ ٱلْمَغْضُوبِ عَلَيْهِمْ وَلَا ٱلضَّآلِّينَ ﴾ [الفاتحة : ٦، ٧] .

ثانيًا : أن في البدعة خروجًا عن اتباع النبي ﷺ ، وقد قال اللَّه تعالى : ﴿ قُلْ إِن كُنتُمْ تُحِبُّونَ ٱللَّهَ فَٱتَّبِعُونِى يُحْبِبْكُمُ ٱللَّهُ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ ﴾ [آل عمران : ٣١] ، فمن ابتدع بدعة يتعبد لله بها فقد خرج عن اتباع النبي ﷺ ، لأن النبي ﷺ لم يشرعها ، فيكون خارجًا عن شرعة اللَّه فيما ابتدعه .

ثالثًا : أن هذه البدعة التي ابتدعها تنافي تحقيق شهادة أن محمدًا رسول اللَّه ، لأن من حقق شهادة

---

(١) قوله ﴿ مَّا فَرَّطْنَا ﴾ أي ما تركنا في الكتاب من شيء إلا وذكرناه والكتاب قيل : اللوح المحفوظ فإنه أثبت فيه ما يقع من الحوادث ، وقيل : أي القرآن أي ما تركنا شيئًا من أمر الدين إلا وقد دَلّلنا عليه في القرآن ، قوله ﴿ صِرَٰطِى ﴾ أي طريقي ، قوله ﴿ وَلَا تَتَّبِعُوا۟ ٱلسُّبُلَ ﴾ أي الأمور المحدثة التي لا ترجع إلى كتاب أو سنة ، وهي البدع والشبهات ، قوله ﴿ عَن سَبِيلِهِۦ ﴾ أي بعيدًا عن دين اللَّه .

(٢) أخرجه مسلم في الصلاة (مثلًا) صلاة الجمعة (٤٣) ، وهنا جزء من حديث ، وابن ماجه في المقدمه (٤٢) ، وأحمد في مسنده (٣/٣١٠) .

أن محمدًا رسول الله فإنه لايخرج عن التعبد بما جاء به ، بل يلتزم شريعته ولا يتجاوزها ولايقصر عنها ، فمن قصر في الشريعة أو زاد فيها فقد قصر في اتباعه ، إما بنقص أو بزيادة ، فحينئذ لا يحقق شهادة أن محمدًا رسول الله .

رابعًا : أن مضمون البدعة الطعن في الإسلام ، فإن الذي يبتدع تتضمن بدعته أن الإسلام لم يكمل ، وأنه كمل الإسلام بهذه البدعة ، وقد قال الله تعالى : ﴿ ٱلْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتْمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي وَرَضِيتُ لَكُمُ ٱلْإِسْلَٰمَ دِينًا ﴾ [المائدة : ٣] فيقال لهذا المبتدع : أنت الآن أتيت بشريعة غير التي كمل عليها الإسلام ، وهذا يتضمن الطعن في الإسلام وإن لم يكن الطعن فيه باللسان ، لكن الطعن فيه هنا بالفعل ، أين رسول الله ﷺ ، ثم أين الصحابة عن هذه العبادة التي ابتدعتها ؟ أهم في جهل منها ؟ أم في تقصير عنها ؟ إذن فهذا يكون طعنًا في الشريعة الإسلامية .

خامسًا : أنه يتضمن الطعن في رسول الله ﷺ وذلك لأن هذه البدعة التي زعمت أنها عبادة إما أن يكون الرسول ﷺ لم يعلم بها ، وحينئذ يكون جاهلًا ، وإما أن يكون قد علم بها ولكنه كتمها وحينئذ يكون كاتمًا للرسالة أو لبعضها ، وهذا خطير جدًّا .

سادسًا : أن البدعة تتضمن تفريق الأمة الإسلامية ؛ لأن الأمة الإسلامية إذا فتح الباب لها في البدع صار هذا يبتدع شيئًا ، وهذا يبتدع شيئًا ، وهذا يبتدع شيئًا كما هو الواقع الآن فتكون الأمة الاسلامية : كل حزب منها بما لديه فرح كما قال تعالى ﴿ كُلُّ حِزْبٍۭ بِمَا لَدَيْهِمْ فَرِحُونَ ﴾ [الروم : ٣٢] كل حزب يقول الحق معي ، والضلال مع الآخر ، وقد قال الله لنبيه ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ فَرَّقُوا۟ دِينَهُمْ وَكَانُوا۟ شِيَعًا لَّسْتَ مِنْهُمْ فِى شَىْءٍ ۚ إِنَّمَآ أَمْرُهُمْ إِلَى ٱللَّهِ ثُمَّ يُنَبِّئُهُم بِمَا كَانُوا۟ يَفْعَلُونَ ﴿١٥٩﴾ مَن جَآءَ بِٱلْحَسَنَةِ فَلَهُۥ عَشْرُ أَمْثَالِهَا ۖ وَمَن جَآءَ بِٱلسَّيِّئَةِ فَلَا يُجْزَىٰٓ إِلَّا مِثْلَهَا وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ ﴾ [الأنعام : ١٥٩، ١٦٠] .

فإذا صار الناس يبتدعون البدع تفرقوا وصار كل واحد يقوله الحق معي ، وفلان ضال مقصر ، ويرميه بالكذب والبهتان وسوء القصد وما أشبه ذلك .

ونضرب لهذا مثلًا بأولئك الذين ابتدعوا عيد ميلاد الرسول - عليه الصلاة والسلام - وصاروا يحتفلون بما يدعون أنه اليوم الذي ولد فيه ، وهو اليوم الثاني عشر من شهر ربيع الأول ، أتدرون ماذا يقولون لمن لا يفعل هذه البدعة ؟ يقولون هؤلاء يبغضون الرسول ويكرهونه ، ولهذا لم يفرحوا بمولده ، ولم يقيموا له احتفالًا ، وما أشبه ذلك فتجدهم يرمون أهل الحق بما هم أحق به منهم .

والحقيقة أن المبتدع بدعته تتضمن أنه يبغض الرسول ﷺ وإن كان يدعي أنه يحبه ، لأنه إذا ابتدع هذه البدعة والرسول - عليه الصلاة والسلام - لم يشرعها للأمة ، فهو كما قلت سابقًا إما جاهل وإما كاتم .

سابعًا : أن البدعة إذا انتشرت في الأمة اضمحلت السنة ؛ لأن الناس يعملون ؛ فإما بخير وإما بشر ، ولهذا قال بعض السلف : ما ابتدع قوم بدعة إلا أضاعوا من السنة مثلها ، يعني أو أشد . فالبدع تؤدي إلي نسيان السنن واضمحلالها بين الأمة الإسلامية .

وقد يبتدع بعض الناس بدعة بنيَّة حسنة ، لكنه يكون قد أحسن في قصده وأساء في فعله ، ولامانع أن يكون القصد حسنًا والفعل سيئًا ، ولكن يجب على من علم أن فعله سيء أن يرجع عن فعله ، وأن يتبع السنة التي جاء بها رسول الله ﷺ .

ومن المفاسد أيضًا : أن المبتدع لا يُحَكِّمُ الكتاب والسنة لأنه يرجع إلى هواه فيحكمه ، وقد قال الله تعالى ﴿ فَإِن تَنَٰزَعۡتُمۡ فِي شَيۡءٖ فَرُدُّوهُ إِلَى ٱللَّهِ وَٱلرَّسُولِ إِن كُنتُمۡ تُؤۡمِنُونَ بِٱللَّهِ وَٱلۡيَوۡمِ ٱلۡأٓخِرِۚ ﴾ [النساء: ٥٩] (إلى الله) أي كتابه ﷻ ، (والرسول) أي : إليه في حياته وإلي سنته بعد وفاته - صلوات الله وسلامه عليه - .

* * *

١٦٩ - عن عائشة رضي الله عنها قالت : قَالَ رسول الله ﷺ : « مَنْ أَحْدَثَ في أمْرنا هَذَا مَا لَيسَ مِنْهُ فَهُوَ رَدٌّ » متفقٌ عليه .

وفي رواية لمسلم : « مَنْ عَمِلَ عَمَلًا لَيسَ عَلَيهِ أَمْرُنَا فَهُوَ ردٌّ » [(١)] .

الشرح

أما حديث عائشة هذا : فهو نصف العلم ، لأن الأعمال إما ظاهرة وإما باطنة ، فالأعمال الباطنة ميزانُها حديث عمر بن الخطاب رضي الله عنه ، وأن النبي ﷺ قال : « إنما الأعمال بالنيات . وإنما لكل امريء ما نوى » [(٢)] ، وميزان الأعمال الظاهرة حديث عائشة هذا « من أحدث في أمرنا هذا ما ليس منه فهو رد » أي : مردود على صاحبه غير مقبول منه .

وقول (أمرنا) المراد به : ديننا وشرعنا ، قال الله تعالى : ﴿ وَكَذَٰلِكَ أَوۡحَيۡنَآ إِلَيۡكَ رُوحٗا مِّنۡ أَمۡرِنَاۚ ﴾ [الشورى: ٥٢] فأمر الله المراد به في هذا الحديث شرع الله ، من أحدث فيه ما ليس منه فهو رد ، في هذا : دليل واضح على أن العبادة إذا لم نعلم أنها من دين الله فهي مردودة ، ويستفاد من هذا : أنه لابد من العلم ، لأن العبادة مشتملة على الشروط والأركان ، أو غلبة الظن إذا كان يكفي عن العلم ، كما في بعض الأشياء ، مثلًا الصلاة إذا شككت في عددها وغلب على ظنك عدد فابْنِ على ما غلب على ظنك ، الطواف بالبيت سبعة أشواط وإذا غلب على ظنك عدد فابن على ما غلب على ظنك ، كذلك الطهارة إذا غلب على ظنك أنك أسبغت الوضوء كفى .

فالمهم : أنه لابد من العلم أو الظن إذا دلت النصوص على كفايته وإلا فالعبادة مردودة . وإذا كانت العبادة مردودة فإنه يحرم على الإنسان أن يتعبد لله بها ، لأنه إذا تعبد لله بعبادة لايرضاها ولم يشرعها لعباده صار كالمستهزئ بالله والعياذ بالله .

---

(١) أخرجه البخاري في الصلح (٢٦٩٧) ، ومسلم في الأقضية (واللفظ له) (١٧) ، وابن ماجه في المقدمة (١٤) ، والإمام أحمد في مسنده (٦/ ٢٤٠) .

(٢) أخرجه البخاري (واللفظ له) في بدء الوحي (١) ، ومسلم في الإمارة (١٥٥) ، والترمذي في فضائل الجهاد (١٦٤٧) ، وأحمد في مسنده (١/ ٢٥) .

حتى إن بعض العلماء قال : إن الإنسان إذا صلى محدثًا متعمدًا خرج من الإسلام ، لأنه مستهزئ ، بخلاف الناسي فإنه لا إثم عليه ويعيد [١] .

وفي اللفظ الثاني « من عمل عملًا ليس عليه أمرنا فهو رد » [٢] وهو أشد من الأول ، لأن قوله « من عمل عملًا ليس عليه أمرنا » يعني لابد أن نعلم بأن كل عمل عملناه عليه أمر اللَّه ورسوله وإلا فهو مردود ، وهو يشمل العبادات ويشمل المعاملات ، ولهذا لو باع الإنسان بيعًا فاسدًا ، أو رهن رهنًا فاسدًا أو أوقف وقفًا فاسدًا ، فكله غير صحيح ومردود على صاحبه ولا ينفذ .

* * *

١٧٠ - وعن جابر ﷺ قال : كان رسولِ اللَّه ﷺ إذَا خَطَبَ احْمَرَّتْ عَيناهُ ، وَعَلا صَوتُهُ ، وَاشْتَدَّ غَضَبُهُ ، حَتَّى كَأَنَّهُ مُنْذِرُ جَيشٍ يَقُولُ : « صَبَّحَكُمْ وَمَسَّاكُمْ » ويَقُولُ : « بُعِثْتُ أَنَا والسَّاعَةُ كَهَاتَيْنِ » وَيَقْرِنُ بَينَ أُصْبُعَيهِ ، السَّبَّابَةِ وَالوُسْطَى ، وَيقُولُ : « أَمَّا بَعْدُ ، فَإِنَّ خَيرَ الحَدِيثِ كِتَابُ اللَّه ، وَخَيرَ الهَدْيِ هَديُ مُحَمَّدٍ ﷺ ، وَشَرَّ الأمُور مُحْدَثَاتُهَا ، وَكُلَّ بِدْعَةٍ ضَلالَةٌ » ثُمَّ يَقُولُ : « أَنَا أَولَى بِكُلِّ مُؤمِنٍ مِنْ نَفْسِهِ ، مَنْ تَرَكَ مَالًا فلأَهْلِهِ ، وَمَنْ تَرَكَ دَينًا أَو ضَيَاعًا فَإلَيَّ وَعَلَيَّ » [٣] رواه مسلمٌ .

وعن العِرْبَاضِ بنِ سَارِيَةَ ﷺ حَدِيثُهُ السَّابِقُ في بَابِ المُحَافَظَةِ عَلَى السُّنَّةِ .

الشرح

نقل المؤلف - رحمه اللَّه تعالى - فيما نقله عن جابر بن عبد اللَّه ﷺ في باب التحذير من البدع ، قال : كان النبي ﷺ (إذا خطب) يعني : يوم الجمعة ، (احمرت عيناه وعلا صوته واشتد غضبه) وإنما كان يفعل هذا لأنَّهُ أقوى في التأثير على السامع ، فكان ﷺ يكون على هذه الحال للمصلحة ، وإلا فإنه من المعلوم أنه ﷺ كان أحسن الناس خلقًا وألينهم عريكة ، لكن لكل مقام مقال فالخطبة ينبغي أن تحرك القلوب ، وتؤثر في النفوس وذلك في موضوعها ، وفي كيفية أدائها .

وكان ﷺ يقول « بعثت أنا والساعة كهاتين » [٤] ويقرن بين السبابة والوسطى ، يعني بين الإصبعين ، السبابة - وهي التي بين الوسطى والإبهام - والوسطى ، وأنت إذا قرنت بينهما وجدتهما متجاورتين ، ووجدت أنه ليس بينهما إلا فرق يسير ، ليس بين الوسطى والسبابة إلا شيء يسير مقدار

---

(١) كل حدث ينقض الطهارة - بعمد أو نسيان - فإنه متى وجد بغلبة أو بإكراه أو بنسيان في الصلاة فهو ينقض الطهارة والصلاة معًا ويلزمه ابتداؤها ، وما ورد سابقًا فهو من كلام الشيخ . (المحلى لابن حزم ١٥٣/٢) .

(٢) هذه الرواية لمسلم في الأقضية (١٨) .

(٣) أخرجه مسلم في الجمعة (٤٣) ، وابن ماجه في المقدمة (٤٥) ، قوله « محدثاتها » أي ما لم يكن في كتاب ولا سنة ولا إجماع ولا أصل له فيها

(٤) أخرجه البخاري في الرقاق (٦٥٠٥) ، ومسلم في الفتن (١٣٥) ، والترمذي في الفتن (٢٢١٤) ، وأحمد في مسنده (١٢٤/٣) .

الظفر أو نصف الظفر ، والمعنى أن أجل الدنيا قريب وأنه ليس ببعيد ، وهذا كما فعل ﷺ ذات يوم حيث خطب الناس في آخر النهار ، والشمس على رؤوس النخل ، فقال : « إنه لم يبق من دنياكم إلا مثل ما بقي من هذا اليوم » (١) .

فإذا كان الأمر كذلك والنبي ﷺ الآن مات له ألف وأربعمائة سنة ولم تقم القيامة دل هذا على أن الدنيا طويلة الأمد ، ولكن ما يقدره بعض الجيولوجين من عمر الدنيا الماضي بملايين الملايين فهذا خرص (٢) ، لا يُصَدَّق ولا يُكَذب ، فهو كأخبار بني إسرائيل ، لأنه ليس لدينا علم من كتاب الله أو سنة رسوله ﷺ في مقدار ما مضى من الدنيا ، ولا في مقدار ما بقى منها على وجه التحديد ، وإنما هو كما ضرب النبي ﷺ هذه الأمثال ، والشيء الذي ليس عليه دليل من كتاب ولا سنة وهو من أخبار ما مضى ، فإنه ليس مقبولًا ، وإنما ينقسم إلى ثلاثة أقسام :

القسم الأول : ما شهد الشرع بصدقه ، فهذا يُقبل لشهادة الشرع به .

والثاني : ما شهد الشرع بكذبه فهذا يُرد لشهادة الشرع بكذبه .

والثالث : ما ليس فيه هذا ولاهذا ، فهذا يتوقف فيه ، إما أن يكون حقًا وإما أن يكون باطلًا ، ويدل لهذا قوله تعالى ﴿ أَلَمْ يَأْتِكُمْ نَبَؤُا الَّذِينَ مِن قَبْلِكُمْ قَوْمِ نُوحٍ وَعَادٍ وَثَمُودَ وَالَّذِينَ مِنْ بَعْدِهِمْ لَا يَعْلَمُهُمْ إِلَّا اللَّهُ ﴾ [إبراهيم : ٩] ، فإذا حَصَرَ العِلْمَ - جل وعلا - في نفسه فإنه لا يتلقى علم هؤلاء إلا من وحيه ﷻ ، لا يعلمهم إلا الله ، فأي أحد يدعي شيئًا فيما مضى مما يتعلق بالبشرية أو بطبيعة الأرض أو الأفلاك أو غيرها فإننا لا نصدقه ولا نكذبه ، بل نقسم ما أخبر به إلى الأقسام الثلاثة السابقة .

أما المستقبل فالمستقبل ينقسم أيضًا إلى :

أولًا : ما أخبر الشرع بوقوعه ، فهذا لابد أن يقع ، مثل أخبار يأجوج ومأجوج ، وأخبار الدجال ، ونزول عيسى بن مريم وأشباه ذلك ، مما ثبت في الكتاب والسنة .

والثاني : مالم يرد به كتاب ولاسنة ، فهذا القول فيه من التخمين والظن ، بل لايجوز لأحد أن يصدقه فيما يستقبل لأنه من علم الغيب ، ولايعلم الغيب إلا الله ﷻ .

فالحاصل : أن النبي - عليه الصلاة والسلام - قال « بعثت أنا والساعة كهاتين » وقارب السبابة والوسطى ، والسبابة هي الإصبع الذي بين الإبهام والوسطى ، وتسمى السبابة لأن الإنسان إذا أراد أن يسبَّ أحدًا أشار إليه بها ، وتسمى السبَّاحة أيضًا لأن الإنسان عند الإشارة إلى تعظيم الله ﷻ يرفعها ، ويشير بها إلي السماء .

ثم يقول « أما بعد فإن خير الحديث كتاب الله ، وخير الهدي هدي محمد ، وشر الأمور محدثاتها ، وكل بدعة ضلالة » ، وقد سبق الكلام علي هذه الجمل .

---

(١) أخرجه الترمذي في الفتن (٢١٩١) ، وأحمد في مسنده (١٩/٣) .
(٢) خرص : كذب ، تخرَّص : تكذب بالباطل .

ثم يقول : « أنا أولى بكل مؤمن من نفسه » كما قال ربه ﷻ ﴿ ٱلنَّبِيُّ أَوۡلَىٰ بِٱلۡمُؤۡمِنِينَ مِنۡ أَنفُسِهِمۡ ﴾ [الأحزاب : ٦] فهو أولى بك من نفسك ، وهو بالمؤمنين رءوف رحيم – عليه الصلاة والسلام – ثم يقول « من ترك مالا فلأهله » يعني من ترك من الأموات مالًا فلأهله ؛ يرثونه حسب ما جاء في كتاب الله وسنة رسوله ، « ومن ترك دينًا أو ضياعًا » ، يعني أولادًا صغارًا يضيعون « فإلي وعلي » ، يعني فأمرهم إلي ، وأنا وليهم ، والدين علي أنا أقضيه ، هكذا كان ﷺ حينما فتح الله عليه .

أما قبل ذلك فكان يؤتى بالرجل ليصلي عليه فيسأل : « هل عليه دين ؟ » إن قالوا نعم وليس له وفاء ترك الصلاة عليه ، فجيء إليه في يوم من الأيام برجل من الأنصار فتقدم ليصلي عليه ، ثم سأل عليه دين ؟ قالوا : نعم ثلاثة دنانير ، فتأخر وقال صلوا على صاحبكم ، فعرف ذلك في وجوه القوم . ثم قام أبو قتادة ﷺ وقال : صلِّ عليه يا رسول الله وعليَّ دينه ، فالتزمهم أبو قتادة ﷺ ، فتقدم النبي ﷺ فصلى [١] .

وفي هذا : دليل على عظم الدين ، وأنه لاينبغي للإنسان أن يستدين إلا إذا دعت الضرورة إلى ذلك ؛ لايستدين لا لزواج ، ولا لبناء بيت ، ولا لكماليات في البيت ، كل هذا من السفه ، يقول الله ﷻ ﴿ وَلۡيَسۡتَعۡفِفِ ٱلَّذِينَ لَا يَجِدُونَ نِكَاحًا حَتَّىٰ يُغۡنِيَهُمُ ٱللَّهُ مِن فَضۡلِهِۦ ﴾ [النور : ٣٣] ، هذا النكاح فما بالك بما هو دونه بكثير ؟! .

وكثير من الجهال يستدين ليشترى مثلًا : فِرَا للدَّرَجِ [٢] أو فراش للساحة أو باب للجراج ينفتح بالكهرباء أوما أشبه ذلك ، مع أنه فقير ، ويأخذه بالدَّين فهو إن اشترى شيئًا بثمن مؤجل فهو دين ، لأن الدَّين عند العلماء كل ما ثبت في الذمة من ثمن بيع أو قرض أو أجرة أو غير ذلك ، فإياكم والديون احذروها فإنها تهلككم ، إلا شيء ضروري فهذا شيء آخر ، لكن ما دمت في غنى لاتستدن .

وكثير من الناس يستدين مثلًا أربعين ألفًا ، فإذا حل الأجل قال : ليس عندي شيء ، فيستدين للأربعين ألفا التي عليه ستين ألفًا ، ثم يستدين السنة التالية ، ثم تتراكم عليه الديون الكثيرة من حيث لا يشعر .

* * *

١٩ - بابٌ فيمَنْ سَنَّ سُنَّةَ حَسَنَة أو سَيِّئَة

قال الله تعالى : ﴿ رَبَّنَا هَبۡ لَنَا مِنۡ أَزۡوَٰجِنَا وَذُرِّيَّٰتِنَا قُرَّةَ أَعۡيُنٖ وَٱجۡعَلۡنَا لِلۡمُتَّقِينَ إِمَامًا ﴾ [الفرقان : ٧٤] وقال تعالى : ﴿ وَجَعَلۡنَٰهُمۡ أَئِمَّةٗ يَهۡدُونَ بِأَمۡرِنَا ﴾ [الأنبياء : ٧٣] .

الشرح

ذكر المؤلف – رحمه الله تعالى – هذا الباب للتحذير من البدع ، وليبين أن من الأشياء ما يكون أصله ثابتًا ، فإذا فعله الإنسان وكان أول من يفعله كان كمن سنه وصار له أجره وأجر من عمل به إلى يوم القيامة .

---

(١) أخرجه البخاري في الحوالات (٢٢٨٩) .

(٢) فراش للدَّرَجِ أو فراش للدُّرْجِ ، الدرج الأولى هى السلم من فدرج بمعنى صعد ، والثانية هى صندوق يدخل في ثنايا المكتب .

وقد سبق لنا أن الدين الإسلامي - ولله الحمد - كامل ، لا يحتاج إلى تكميلٍ ، ولا إلى بدعٍ ، لأن الله تعالى قال : ﴿ ٱلْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتْمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِى وَرَضِيتُ لَكُمُ ٱلْإِسْلَٰمَ دِينًا ﴾ [المائدة : ٣] .

ثم استشهد المؤلف بآيتين من كتاب الله ، أولاهما قوله تعالى : ﴿ وَٱلَّذِينَ يَقُولُونَ رَبَّنَا هَبْ لَنَا مِنْ أَزْوَٰجِنَا وَذُرِّيَّٰتِنَا قُرَّةَ أَعْيُنٍ وَٱجْعَلْنَا لِلْمُتَّقِينَ إِمَامًا ﴾ ، هذا من جملة ما يدعو به عباد الرحمن ، الذين ذكر الله أوصافهم في آخر سورة الفرقان ﴿ وَعِبَادُ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلَّذِينَ يَمْشُونَ عَلَى ٱلْأَرْضِ هَوْنًا ﴾ إلى أن قال ﴿ وَٱلَّذِينَ يَقُولُونَ رَبَّنَا هَبْ لَنَا مِنْ أَزْوَٰجِنَا وَذُرِّيَّٰتِنَا قُرَّةَ أَعْيُنٍ ﴾ [الفرقان : ٦٣- ٧٤] .

(هب لنا) يعني : أعطنا ، و (الأزواج) جمع زوج ، وهو صالح للذكر والأنثى ، فالزوجة تسمى زوجًا ، والزوج الذكر يسمى زوجًا ، ولهذا تجدون في الأحاديث و يمر بكم : وعن عائشة زوج النبي ﷺ ، وهذه هي اللغة الفصحى ، أن المرأة تسمى زوجًا ، لكن أهل الفرائض - رحمهم الله - جعلوا للرجل زوج وللمرأة زوجة ، من أجل التفريق عند قسمة المواريث ، أما في اللغة العربية فالزوج صالح للذكر والأنثى .

فهذا الدعاء ﴿ رَبَّنَا هَبْ لَنَا مِنْ أَزْوَٰجِنَا وَذُرِّيَّٰتِنَا قُرَّةَ أَعْيُنٍ ﴾ كما هو صالح للرجال صالح للنساء أيضًا .

(وقرة العين) في المرأة أنك إذا نظرت إليها سرتك ، وإذا غبت عنها حفظتك في مالك و في ولدك ، وإذا بحثت عنها وجدتها قانتة لله ﴿ فَٱلصَّٰلِحَٰتُ قَٰنِتَٰتٌ حَٰفِظَٰتٌ لِّلْغَيْبِ بِمَا حَفِظَ ٱللَّهُ ﴾ [1] [النساء : ٣٤] ، فهذه تسر زوجها .

وكذلك أيضًا الذرية إذا جعلهم الله تعالى قرة عين للإنسان ، يطيعونه إذا أمر ، وينتهون عما نهاهم عنه ، ويسرونه في كل مناسبة ، ويصلحون ، فهذا من قرة الأعين للمتقين .

والجملة الأخيرة : ﴿ وَٱجْعَلْنَا لِلْمُتَّقِينَ إِمَامًا ﴾ هي الشاهد لهذا الباب ، يعني اجعلنا للمتقين أئمة ، يقتدي بنا المتقون في أفعالنا وأقوالنا ، فيما نفعل وفيما نترك ، فإن المؤمن ولاسيما أهل العلم يقتدي بهم ؛ بأقوالهم وأفعالهم ، ولهذا تجد العامة إذا أمرتهم بشيء أو نهيتهم عن شيء ، قالوا هذا فلان يفعل كذا وكذا ، ممن جعلوه إمامًا لهم .

والأئمة تشمل الأئمة في الدين الذي هو العبادة الخاصة بالإنسان ، والأئمة في الدعوة ، وفي التعلم ، وفي الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر وغير ذلك من شعائر الدين وشرائعه ، اجعلنا للمتقين إمامًا في كل شيء .

أما الآية الثانية فقال تعالى : ﴿ وَجَعَلْنَٰهُمْ أَئِمَّةً يَهْدُونَ بِأَمْرِنَا ﴾ أي صيرناهم أئمة علماء يهدون الناس ، أي : يدلونهم على دين الله بأمر الله ﷻ ، ولكن ليت المؤلف ذكر آخر الآية [2] ، لأن الله بين أنه جعلهم أئمة بسبب ﴿ يَهْدُونَ بِأَمْرِنَا لَمَّا صَبَرُوا۟ ۖ وَكَانُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَا يُوقِنُونَ ﴾ [السجدة : ٢٤] لما صبروا على

---

(١) في هذه الآية تفصيل لحال النساء تحت رياسة الرجل ، فالنساء الصالحات مطيعات لله ولأزواجهن ، قائمات بما عليهن من حقوق ، يحفظن أنفسهن عن الفاحشة وأموال أزواجهن عن التبذير كما أنهن يحفظن ما يجرى بينهن وبين أزواجهن فلا يفشينه .

(٢) يلاحظ أن النووي يتحدث عن آية الأنبياء ، على حين يتحدث الشيخ هنا عن آية السجدة ، فليسا آية واحدة ، بل هما آيتان .

طاعة اللَّه ، وصبروا عن معصية اللَّه ، وصبروا على أقدار اللَّه ؛ صبروا على طاعة اللَّه ففعلوا ما أمر ، وصبروا عن معصية اللَّه فتركوا ما نهى عنه ، وصبروا على أقدار اللَّه التي تأتيهم من أجل دعوتهم إلى الحق وأمرهم بالمعروف ونهيهم عن المنكر ، لأن الإنسان إذا نصب نفسه داعية للحق آمرًا بالمعروف وناهيًا عن المنكر ، فلابد أن يصيبه من الأذى ما يصيبه ، لأن أكثر الذين يكرهون الحق سوف يكونون أعداء له فليصبر ، وكذلك أقدار اللَّه التي تأتي بدون هذا أيضًا يصبرون عليها .

﴿ لَمَّا صَبَرُواْ وَكَانُواْ بِـَٔايَٰتِنَا يُوقِنُونَ ﴾ يوقنون بما أخبر اللَّه به ، ويوقنون بالجزاء الذي يحصل لهم في فعل الأوامر وترك النواهي ، وفي الدعوة إلى اللَّه ، وفي الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر ، أي أنهم يعملون وهم يوقنون بالجزاء ، وهذه نقطة ينبغي لنا أن ننتبه لها ، أن نعمل ونحن نوقن بالجزاء ، وكثير من الناس يعملون ؛ يصلون ويصومون ويتصدقون بناءً على أن هذا أمر اللَّه ، وهذا طيب ولاشك أنه خير ، لكن ينبغي أن تدرك وأن تستحضر بأنك إنما تفعل هذا رجاء الثواب . وخوف العقاب ، حتى تكون موقنًا بالآخرة .

وقد أخذ شيخ الإسلام رَحِمَهُ ٱللَّهُ من هذه الآية عبارة طيبة ، فقال : بالصبر واليقين تنال الإمامة في الدين [١] . أخذها من قوله تعالى : ﴿ لَمَّا صَبَرُواْ وَكَانُواْ بِـَٔايَٰتِنَا يُوقِنُونَ ﴾ فبالصبر واليقين تنال الإمامة في الدين . أسأل اللَّه أن يجعلني وإياكم أئمة في دين اللَّه ، هداة لعباد اللَّه مهتدين ، إنه جواد كريم .

* * *

١٧١ - عَنْ أبي عَمْرو ، جَرير بن عبدِ اللَّه ﷺ ، قال : « كُنَّا في صَدْرِ النَّهَارِ عِنْدَ رسول اللَّه ﷺ ، فَجَاءَهُ قَومٌ عُرَاةٌ مُجْتَابِي النِّمَار ، أَو العَبَاء ، مُتَقَلِّدِي السُّيُوفِ ، عَامَّتُهُمْ مِنْ مُضَرَ ، بَلْ كُلُّهُمْ مِنْ مُضَرَ ، فَتَمَعَّرَ وَجْهُ رسول اللَّه ﷺ ؛ لِمَا رأى بهِمْ مِنَ الفَاقَة ، فَدَخَلَ ثُم خَرجَ ، فَأَمَرَ بلالًا فَأَذَّنَ وَأَقَامَ ، فَصَلَّى ثُمَّ خَطَبَ ، فَقَالَ : ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱتَّقُواْ رَبَّكُمُ ٱلَّذِى خَلَقَكُم مِّن نَّفْسٍ وَٰحِدَةٍ ﴾ إلى آخر الآية : ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَلَيْكُمْ رَقِيبًا ﴾ ، والآية الأُخرى التي في آخِر الحَشْرِ : ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَلْتَنظُرْ نَفْسٌ مَّا قَدَّمَتْ لِغَدٍ ﴾ تَصَدَّقَ رَجُلٌ مِنْ دِينَارِهِ مِنْ دِرْهَمِهِ مِنْ ثَوبِهِ ، مِنْ صَاعِ بُرِّهِ ، مِنْ صَاع تَمْرِهِ ، حَتَّى قَالَ : وَلَو بشِقِّ تَمْرَةٍ » فَجَاءَ رَجُلٌ مِنَ الأَنْصَار بِصُرَّةٍ كَادَت كَفُّهُ تعْجز عَنهَا ، بَل قَدْ عَجَزَت ، ثُمَّ تَتَابَعَ النَّاسُ حَتَّى رَأَيتُ كَومَيْنِ مِنْ طَعَامٍ وَثِيَاب ، حَتَّى رَأَيتُ وَجْهَ رسول اللَّه ﷺ يَتَهَلَّلُ كَأَنَّهُ مُذْهَبَةٌ ، فقال رسول اللَّه ﷺ : « مَنْ سَنَّ في الإسْلام سُنةً حَسَنَةً فَلَهُ أَجْرُها ، وأَجْرُ مَنْ عَمِلَ بِهَا مِنْ بَعْدِهِ مِنْ غَيرِ أَنْ يَنْقُصَ مِنْ أُجورِهِمْ شَيء ، وَمَنْ سَنَّ في الإسْلامِ سُنَّةً سَيِّئَةً كَانَ عَلَيهِ وِزْرُهَا ووزر مَنْ عَمِلَ بِهَا مِنْ بَعْدِهِ مِنْ غَير أَنْ يَنْقُصَ مِنْ أَوزَارِهِمْ شَيءٌ » [٢] رواه مسلم .

قَولُهُ « مُجْتَابِي النِّمَار » هُوَ بالجيمِ وبعد الأَلِفِ باءٌ مُوَحَّدَةٌ . والنِّمارُ : جَمْعُ نَمِرَةٍ ، وَهِيَ : كِسَاءٌ مِنْ صُوفٍ مُخطَّط ، وَمَعْنَى « مُجْتَابِيهَا » أي : لابِسِيهَا قَدْ خَرَقُوهَا في رُؤوسِهم . « وَالجَوبُ » : القَطْعُ ،

---

(١) انظر مجموع الفتاوى لابن تيمية (١٠/٣٩) .

(٢) أخرجه مسلم في الزكاة (٦٩) واللفظ له ، وأحمد في مسنده (٤/٣٥٩) ، قوله ﴿ رَقِيبًا ﴾ أي حافظًا لأعمالكم .

وَمِنْهُ قَوْلُهُ تَعَالَى : ﴿ وَثَمُودَ ٱلَّذِينَ جَابُواْ ٱلصَّخْرَ بِٱلْوَادِ ﴾ أي : نَحَتُوهُ وَقَطَعُوهُ . وَقولُهُ « تَمَعَّرَ » هو بالعين المهملة ، أي : تَغَيَّرَ . وَقَوْلُهُ : « رَأَيت كَومَينِ » بفتحِ الكافِ وضمِّها ، أي : صُبْرَتَينِ . وَقَولُهُ : « كَأَنَّهُ مُذْهَبَةٌ » هو بالذال المعجمة ، وفتحِ الهاء والباء الموحدة . قَالَهُ القَاضي عِيَاضٌ وَغَيرُهُ . وَصَحَّفَهُ بَعْضُهُمْ فَقَالَ : « مُدْهُنَةٌ » بِدَالٍ مهملةٍ وضم الهاءِ وبالنون ، وَكَذَا ضَبَطَهُ الحُمَيدِيُّ ، وَالصَّحيحُ المَشْهُورُ هُوَ الأَوَّلُ . وَالمُرَادُ بِهِ عَلَى الوجهَينِ : الصَّفَاءُ والاسْتِنَارة .

١٧٢ - وعن ابن مسعودٍ ﷺ أن النَّبيَّ ﷺ قال : « ليس مِنْ نَفْسٍ تُقْتَلُ ظُلْمًا إلا كَان عَلَى ابْنِ آدم الأَوَّلِ كِفْل مِنْ دمِهَا ؛ لأَنَّهُ كَان أول مَنْ سَنَّ القَتْلَ »(١) متفقٌ عليه .

الشرح

ذكر المؤلف رَحِمَهُ اللَّهُ في باب من سن في الإسلام سنة حسنة فله أجرها وأجر من عمل بها حديث جرير بن عبد اللَّه البجلي ﷺ ، وهو حديث عظيم يتبين منه حرص النبي ﷺ وشفقته على أمته - صلوات اللَّه وسلامه عليه - فبينما هم مع رسول اللَّه ﷺ في أول النهار إذا جاء قوم عامتهم من مضر أو كلهم من مضر ، مجتابي النمار ، متقلدي السيوف ﷺ ، يعني أن الإنسان ليس عليه إلا ثوبه قد اجتابه يستتر به عورته ، وقد ربطه على رقبته ، ومعهم السيوف استعدادًا لما يؤمرون به من الجهاد ﷺ .

فتمعر وجه النبي ﷺ يعني تغير وتلون لما رأى فيهم من الحاجة ، وهم من مضر ، من أشراف قبائل العرب ، وقد بلغت بهم الحاجة إلى هذا الحال ، ثم دخل بيته ثم خرج ثم أمر بلالا فأذن ثم صلى ثم خطب الناس - عليه الصلاة والسلام - فحمد اللَّه ﷺ كما هي عادته ، ثم قرأ قول اللَّه تعالى ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱتَّقُواْ رَبَّكُمُ ٱلَّذِى خَلَقَكُم مِّن نَّفْسٍ وَٰحِدَةٍ وَخَلَقَ مِنْهَا زَوْجَهَا وَبَثَّ مِنْهُمَا رِجَالًا كَثِيرًا وَنِسَآءً وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ ٱلَّذِى تَسَآءَلُونَ بِهِۦ وَٱلْأَرْحَامَ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَلَيْكُمْ رَقِيبًا ﴾ [النساء : ١] وقوله تعالى ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَلْتَنظُرْ نَفْسٌ مَّا قَدَّمَتْ لِغَدٍ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ إِنَّ ٱللَّهَ خَبِيرٌۢ بِمَا تَعْمَلُونَ ﴾ [الحشر : ١٨] .

ثم حث على الصدقة ، فقال « تصدق رجل بديناره تصدق بدرهمه ، تصدق بثوبه ، تصدق بصاع بره ، تصدق بصاع تمره ، حتى ذكر ولو شق تمرة » وكان الصحابة ﷺ أحرص الناس على الخير ، وأسرعهم إليه ، وأشدهم مسابقة ، فخرجوا إلى بيوتهم فجاءوا بالصدقات ، حتى جاء رجل بصرة معه في يده كادت تعجز يده عن حملها ، بل قد عجزت من فضة ثم وضعها بين يدي الرسول عليه الصلاة والسلام .

ثم رأى - : أي جرير راوي الحديث - كومين من الطعام والثياب وغيرها قد جمع في المسجد ، فصار وجه النبي - عليه الصلاة والسلام - بعد أن تمعر ، ضار يتهلهل كأنه مذهبة ، يعني من شدة بريقه ولمعانه وسروره عليه الصلاة والسلام لما حصل من هذه المسابقة التي فيها سد حاجة هؤلاء الفقراء ، ثم قال ﷺ :

(١) أخرجه البخاري في الاعتصام (٧٣٢١) ، ومسلم في القسامة (٢٧) ، قوله « كفل » أي نصيب ، هذا الحديث لم يقم الشارح - رحمه اللَّه تعالى - بالتعليق عليه لأن معناه وضحه في شرح الحديث قبله .

« مَنْ سَنَّ فِي الإِسْلامِ سُنَّةً حَسَنَةً فَلَهُ أَجْرُهَا ، وَأَجْرُ مَنْ عَمِلَ بِهَا مَنْ غَيرِ أَنْ يَنْقُصَ مِنْ أُجُورِهِمْ شَيءٌ وَمَنْ سَنَّ سُنَّةً سَيِّئَةً كَانَ عَلَيهِ وِزْرُهَا وِوِزْرُ مَنْ عَمِلَ بِهَا مِنْ غَيرِ أَنْ يَنْقُصَ مِنْ أَوزَارِهِمْ شَيءٌ » .

والمراد بالسنة في قوله ﷺ « من سن في الإسلام سنة حسنة » ابتدأ العمل بسنة ، وليس من أحدث ، لأن من أحدث في الإسلام وما ليس منه فهو رد وليس بحسن ، لكن المراد بمن سنها أي صار أول من عمل بها ؛ كهذا الرجل الذي جاء بالصدقةِ ﷺ ، فدل هذا على أن الإنسان إذا وفق لسن سنة حسنة في الإسلام ، سواء بادر إليها أو أحياها بعد أن أميتت .

وذلك لأن السنة في الإسلام ثلاثة أقسام :

سنة سيئة : وهي البدعة ، فهي سيئة وإن استحسنها من سنها ، لقول النبي ﷺ « كل بدعة ضلالة »[1] .

وسنة حسنة : وهي على نوعين :

النوع الأول : أن تكون السنة مشروعة ثم يترك العمل بها ثم يجددها من يجددها ، مثل قيام رمضان بإمام ، فإن النبي ﷺ شرع لأمته في أول الأمر الصلاة بإمام في قيام رمضان ، ثم تخلف خشية أن تفرض على الأمة ، ثم تُرك الأمر في آخر حياة النبي ﷺ ، وفي عهد أبي بكر ﷺ وفي أول خلافة عمر ، ثم رأى عمر ﷺ أن يجمع الناس على إمام واحد ففعل ، فهو ﷺ قد سنَّ في الإسلام سنة حسنة ، لأنه أحيا سنة كانت قد تُركت .

والنوع الثاني : من السنن الحسنة أن يكون الإنسان أول من يبادر إليها ، مثل حال الرجل الذي بادر بالصدقة حتى تتابع الناس ووافقوه على ما فعل .

فالحاصل أن من سنَّ في الإسلام سنة حسنة ، ولاسنة حسنة إلا ما جاء به الشرع فله أجرها وأجر من عمل بها من بعده .

وقد أخذ هذا الحديث : أولئك القوم الذين يبتدعون في دين اللّٰه ما ليس منه ، فيبتدعون أذكارًا ويبتدعون صلوات ما أنزل اللّٰه بها من سلطان ، ثم يقولون هذه سنة حسنة ، نقول : لا ، كل بدعة ضلالة وكلها سيئة ، وليس في البدع من حسن ، لكن المراد في الحديث من سابق إليها وأسرع ، كما هو ظاهر السبب، في الحديث ، أو من أحياها بعد أن أميتت فهذا له أجرها وأجر من عمل بها .

وفي هذا الحديث : الترغيب في فعل السنن التي أميتت وتُركت وهُجرت ، فإنه يكتب لمن أحياها أجرها وأجر من عمل بها ، وفيه التحذير من السنن السيئة ، وأن من سنَّ سنة سيئة فعليه وزرها ، ووزر من عمل بها إلى يوم القيامة ، حتى لو كانت في أول الأمر سهلة ثم توسعت ، فإن عليه وزر هذا التوسع ، مثل لو أن أحدًا من الناس رخص لأحد في شيء من المباح الذي يكون ذريعة واضحة إلي المحرم وقريبًا ، فإنه إذا توسع الأمر بسبب ما أفتى به الناس فإن عليه الوزر ، ووزر من عمل بها إلي يوم القيامة نعم ، لو كان الشيء مباحًا ولا يخشى منه أن يكون ذريعة إلي محرم ، فلا بأس للإنسان أن يبينه للناس ، كما

---

(١) أخرجه مسلم في الجمعة (٤٣) وقد سبق تخريجه قريبًا .

لوكان الناس يظنون أن هذا الشيء محرم وليس بمحرم ، ثم يبينه للناس من أجل أن يتبين الحق ، ولكن لايخشى عاقبته فهذا لابأس به ، أما شيء تُخشى عاقبته ، فإنه يكون عليه وزره ووزر من عمل به .

* * *

٢٠ - باب الدّلالة على خير والدعاء إلى هدى أو ضلالة

قال تعالى : ﴿ وَٱدْعُ إِلَىٰ رَبِّكَ ﴾ [القصص : ٨٧] . وقال تعالى : ﴿ ٱدْعُ إِلَىٰ سَبِيلِ رَبِّكَ بِٱلْحِكْمَةِ وَٱلْمَوْعِظَةِ ٱلْحَسَنَةِ ﴾ [النحل : ١٢٥] وقال تعالى : ﴿ وَتَعَاوَنُوا۟ عَلَى ٱلْبِرِّ وَٱلتَّقْوَىٰ ﴾ (١) [المائدة : ٢] .

الشرح

قال المؤلف - رحمه الله تعالى - : (باب الدلالة على الخير والدعوة إليه) الدلالة على الخير يعني أن يبين الإنسان للناس الخير الذي ينتفعون به في أمور دينهم ودنياهم ، ومن دلَّ على خير فهو كفاعله (٢) ، وأما الدعوة إليه فهي أخص من الدلالة ، لأن الإنسان قد يدل فيبين ولايدعو ، فإذا دعا كان هذا أكمل وأفضل ، والإنسان مأمور بالدعوة إلى الخير أي الدعوة إلى الله ﷻ ، كما قال تعالى ﴿ وَٱدْعُ إِلَىٰ رَبِّكَ ﴾ وآخر الآية : ﴿ إِنَّكَ لَعَلَىٰ هُدًى مُّسْتَقِيمٍ ﴾ [الحج : ٦٧] .

وقال تعالى : ﴿ ٱدْعُ إِلَىٰ سَبِيلِ رَبِّكَ بِٱلْحِكْمَةِ وَٱلْمَوْعِظَةِ ٱلْحَسَنَةِ وَجَٰدِلْهُم بِٱلَّتِى هِىَ أَحْسَنُ ﴾ [النحل : ١٢٥]
وقال تعالى : ﴿ وَلْتَكُن مِّنكُمْ أُمَّةٌ يَدْعُونَ إِلَى ٱلْخَيْرِ وَيَأْمُرُونَ بِٱلْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ ٱلْمُنكَرِ ۚ وَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ ۝ وَلَا تَكُونُوا۟ كَٱلَّذِينَ تَفَرَّقُوا۟ وَٱخْتَلَفُوا۟ مِنۢ بَعْدِ مَا جَآءَهُمُ ٱلْبَيِّنَٰتُ ۚ وَأُو۟لَٰٓئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ ﴾ [آل عمران : ١٠٤، ١٠٥] .

فهذه الآيات وأمثالها كلها تدل على أن الإنسان ينبغي له أن يكون داعيًا إلي الله ، ولكن لا يمكن أن تتم الدعوة إلا بعلم الإنسان بما يدعو إليه ، لأن الجاهل قد يدعو إلي شيء يظنه حقًا وهو باطل ، وقد ينهى عن شيء يظنه باطلًا وهو حق ، فلابد من العلم أولًا فيتعلم الإنسان ما يدعو إليه .

وسواء كان عالمًا متبحرًا فاهمًا في جميع أبواب العلم ، أوكان عالمًا في نفس المسألة التي يدعو إليها ، يعني ليس بشرط أن يكون الإنسان عالمًا متبحرًا في كل شيء ، بل لنفرض أنك تريد أن تدعو الناس إلى إقام الصلاة ، فإذا فقهت أحكام الصلاة وعرفتها جيدًا فادعوا إليها وإن كنت لا تعرف غيرها من أبواب العلم ، لقول النبي ﷺ « بلغوا عني ولو آية » (٣) .

ولكن لا يجوز أن تدعو بلا علم أبدًا لأن ذلك فيه خطر ؛ خطر عليك أنت وخطر على غيرك ، أما خطره عليك فلأن الله حرم عليك أن تقول على الله ما لاتعلم ، قال الله تعالى : ﴿ قُلْ إِنَّمَا حَرَّمَ رَبِّىَ ٱلْفَوَٰحِشَ مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَمَا بَطَنَ وَٱلْإِثْمَ وَٱلْبَغْىَ بِغَيْرِ ٱلْحَقِّ وَأَن تُشْرِكُوا۟ بِٱللَّهِ مَا لَمْ يُنَزِّلْ بِهِۦ سُلْطَٰنًا وَأَن تَقُولُوا۟ عَلَى

---

(١) قوله ﴿ سَبِيلِ رَبِّكَ ﴾ أي دين ربك ، قوله ﴿ بِٱلْحِكْمَةِ ﴾ أي : القرآن . قوله ﴿ وَٱلْمَوْعِظَةِ ٱلْحَسَنَةِ ﴾ أي : القول الحسن الطيب .
(٢) هذا معنى حديث أخرجه الطبراني في الكبير (٢٢٧/١٧) ، والهيثمي في مجمع الزوائد (١٦٦/١) .
(٣) أخرجه البخاري (واللفظ له) في أحاديث الأنبياء (٣٤٦١) ، والترمذي في العلم (٢٦٦٩) ، وأحمد في مسنده (١٥٩/٢) .

اللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ ﴾ (١) [الأعراف: ٣٣] ، وقال تعالى : ﴿ وَلَا تَقْفُ مَا لَيْسَ لَكَ بِهِۦ عِلْمٌ ﴾ ، أي : لا تتبع ما ليس لك به علم ، فإنك مسؤول عن ذلك ، ﴿ إِنَّ ٱلسَّمْعَ وَٱلْبَصَرَ وَٱلْفُؤَادَ كُلُّ أُوْلَٰٓئِكَ كَانَ عَنْهُ مَسْـُٔولًا ﴾ [الإسراء: ٣٦] .

ولابد أيضًا من أن يكون الإنسان حكيمًا في دعوته ، ينزل الأشياء في منازلها ، ويضعها في مواضعها ، فيدعو الإنسان المقبل إلي الله ﷻ بما يناسبه ، ويدعو الإنسان المعرض بما يناسبه ، ويدعو الإنسان الجاهل بما يناسبه ، كل أناس لهم دعوة خاصة حسب ما يليق بحالهم ، ودليل هذا : أن رسول الله ﷺ لما بعث معاذًا إلى اليمن قال له : « إنك تأتي قومًا أهل كتاب » (٢) فأعلمه بحالهم من أجل أن يستعد لهم وأن ينزلهم منزلتهم ، لأنهم إذا كانوا أهل كتاب صار عندهم من الجدل بما عندهم من العلم ما ليس عند غيرهم ، فالمشركون جهال ضلال لكن أهل الكتاب عندهم علم ، يحتاجون إلى استعداد تام ، وأيضًا يجابهون بما يليق بهم ، لأنهم يرون أنفسهم أهل كتاب وأهل علم، فيحتاج الأمر إلى أن يراعوا في كيفية الدعوة ، ولهذا قال له إنك ستأتي قومًا أهل كتاب .

ولنضرب لهذا مثلًا واقعيًا ، لو أن رجلًا جاهلًا تكلم وهو يصلي ، يحسب أن الكلام لا يضر ، فهذا لا نوبخه ولا ننهره ولا نشدد عليه ، بل نقول له إذا فرغ من صلاته : إن هذه الصلاة لا يصلح فيها شيء من كلام الناس ، إنما هي التسبيح والتكبير وقراءة القرآن (٣) ، لكن لو علمنا أن شخصًا يعلم أن الكلام في الصلاة حرام ويبطلها ، لكنه إنسان مستهتر - والعياذ بالله - يتكلم ولا يبالي فهذا نخاطبه بما يليق به ونشدد عليه وننهره ، فلكل مقام مقال .

ولهذا قال تعالى ﴿ ٱدْعُ إِلَىٰ سَبِيلِ رَبِّكَ بِٱلْحِكْمَةِ ﴾ والحكمة أن تضع الأشياء في مواضعها ، وتنزل الناس في منازلها ، لا تخاطب الناس بخطاب واحد ، ولا تدعوهم بكيفية واحدة ، بل اجعل لكل إنسان ما يليق به .

فلابد أن يكون الإنسان على علم بحال من يدعوه ، لأن المدعو له حالات : إما أن يكون جاهلًا ، أو معاندًا مستكبرًا ، أو يكون قابلًا للحق ولكنه قد خفي عليه مجتهدًا متأولًا ، فلكل إنسان ما يليق به .

ثم ذكر المؤلف قول الله تعالى : ﴿ ٱدْعُ إِلَىٰ سَبِيلِ رَبِّكَ بِٱلْحِكْمَةِ وَٱلْمَوْعِظَةِ ٱلْحَسَنَةِ ۖ وَجَٰدِلْهُم بِٱلَّتِى هِىَ أَحْسَنُ ﴾ وسبيل الله هي دينه وشريعته التي شرعها الله لعباده ، وأضافها إلي نفسه لسببين :

السبب الأول : أنه هو الذي وضعها ﷻ للعباد ، ودلهم عليها . والثاني : أنها موصلة إليه ، فلا شيء يوصل إلى الله إلا سبيل الله التي شرعها لعباده على ألسنة رسله صلوات الله وسلامه عليهم .

وقوله : ﴿ بِٱلْحِكْمَةِ وَٱلْمَوْعِظَةِ ﴾ الحكمة قال العلماء : إنها من الإحكام ، وهو الإتقان ، وإتقان الشيء أن يضعه الإنسان في موضعه ، فهي وضع الأشياء في مواضعها ، وأما الموعظة فهي التذكير

(١) ﴿ ٱلْفَوَٰحِشَ ﴾ : المعاصي المستقبحة من قولٍ أو فعلٍ ، ﴿ وَٱلْإِثْمَ ﴾ : جميع المعاصي التي توجب الإثم ، ﴿ وَٱلْبَغْىَ ﴾ الظلم والتعدي على الناس .

(٢) أخرجه البخاري في الزكاة (١٤٥٨) ، ومسلم - واللفظ له - في الإيمان (٢٩) ، وأبو داود في الزكاة (١٥٨٤) .

(٣) هذا معنى حديث أخرجه مسلم في المساجد (٣٣) ، وأحمد في مسنده (٥/٤٤٧) .

المقرون بالترغيب أو الترهيب ، فإذا كان الإنسان معه شيء من الإعراض فإنه يُوعظ ويُنصح .

فإن لم يُفد فيه ذلك فيقول تعالى : ﴿ وَجَٰدِلْهُم بِٱلَّتِى هِىَ أَحْسَنُ ﴾ إذا كان الإنسان عنده شيء من المجادلة فيجادل ، والمجادلة بالتي هي أحسن أي من حيث المشافهة ، فلا تشدد عليه ولا تخفف عنه ، انظر ما هوأحسن ، بالتي هي أحسن أيضًا من حيث الأسلوب ، والإقناع وذكر الأدلة التي يمكن أن يقتنع بها ، لأن من الناس من يقتنع بالأدلة الشرعية أكثر مما يقتنع بالأدلة العقلية ، وهذا هو الذي عنده إيمان قوي .

ومن الناس من يكون بالعكس لا يقتنع بالأدلة الشرعية إلا إذا ثبت ذلك عنده بالأدلة العقلية ، فتجده يعتمد على الأدلة العقلية أكثر مما يعتمد على الأدلة الشرعية ، بل ولا يقتنع بالأدلة الشرعية إلا حيث تؤيدها عنده الأدلة العقلية ، وهذا النوع من الناس يخشى عليه من الزيغ والعياذ بالله ؛ إذا كان لا يقبل الحق إلا بما عقله بعقله الفاسد فهذا خطر عليه ، ولهذا كان أقوى الناس إيمانًا أعظمهم إذعانًا للشرع أي : للكتاب والسنة ، فإذا رأيت من نفسك الإذعان للكتاب والسنة والقبول والانقياد فهذا يبشر بخير ، وإذا رأيت من نفسك القلق على الأحكام الشرعية إلا حيث تكون مؤيدة عندك بالأدلة العقلية فاعلم أن في قلبك مرضًا ، لقوله تعالى ﴿ وَمَا كَانَ لِمُؤْمِنٍ وَلَا مُؤْمِنَةٍ إِذَا قَضَى ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥٓ أَمْرًا أَن يَكُونَ لَهُمُ ٱلْخِيَرَةُ مِنْ أَمْرِهِمْ ﴾ [الأحزاب : ٣٦] . بحيث لا يمكن أن يختاروا شيئًا سوى ما قضاه الله ورسوله ، ﴿ وَمَن يَعْصِ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ فَقَدْ ضَلَّ ضَلَٰلًا مُّبِينًا ﴾ [الأحزاب : ٣٦] .

وقوله ﴿ وَجَٰدِلْهُم بِٱلَّتِى هِىَ أَحْسَنُ ﴾ وجاء في آية العنكبوت ﴿ وَلَا تُجَٰدِلُوٓا۟ أَهْلَ ٱلْكِتَٰبِ إِلَّا بِٱلَّتِى هِىَ أَحْسَنُ إِلَّا ٱلَّذِينَ ظَلَمُوا۟ مِنْهُمْ ﴾ [العنكبوت : ٤٦] . فهؤلاء لا تلينوا معهم إذا كانوا ظالمين ، فقاتلوهم بالسيف حتى يعطوا الجزية عن يد وهم صاغرون ، وعلى هذا فتكون المراتب أربعة : الحكمة ، الموعظة ، المجادلة بالآتي هي أحسن ، المجالدة بالسيوف لمن كان ظالمًا .

* * *

وقال تعالى : ﴿ وَلْتَكُن مِّنكُمْ أُمَّةٌ يَدْعُونَ إِلَى ٱلْخَيْرِ ﴾ [آل عمران : ١٠٤] .

١٧٣ - وعن أبي مسعودٍ عُقْبَةَ بْن عَمْرو الأَنْصَاريِّ البَدْريِّ ﷺ قال : قال رسول الله ﷺ : « مَنْ دَلَّ عَلَى خَيرٍ فَلَهُ مِثْلُ أجْرِ فَاعِلِهِ » (١) رَوَاهُ مُسْلِمٌ .

الشرح

بقي من الآيات التي ذكرها المؤلف في باب الدلالة على الخير ، قوله تعالى : ﴿ وَلْتَكُن مِّنكُمْ أُمَّةٌ يَدْعُونَ إِلَى ٱلْخَيْرِ وَيَأْمُرُونَ بِٱلْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ ٱلْمُنكَرِ ۚ وَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ ﴾ [آل عمران : ١٠٤] ، هذا أمر من الله ﷻ بأن يكون منا هذه الأمة ، والأمة بمعنى الطائفة ، وترد الأمة في القرآن الكريم على أربعة معانٍ ، أمة بمعنى الطائفة ، وأمة بمعنى الملة ، وأمة بمعنى السنين ، وأمة بمعنى الإيمان ، فمن الطائفة هذه

(١) أخرجه مسلم في الإمارة (١٣٣) ، وأبو داود في الأدب (٥١٣٩) ، وأحمد في مسنده (١٢٠/٤) .

الآية ﴿ وَلْتَكُن مِّنكُمْ أُمَّةٌ ﴾ أي : طائفة ﴿ يَدْعُونَ إِلَى الْخَيْرِ وَيَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ ﴾ إلي آخره .

والأمة بمعنى الدين مثل قوله تعالى : ﴿ وَإِنَّ هَٰذِهِۦٓ أُمَّتُكُمْ أُمَّةً وَٰحِدَةً ﴾ [المؤمنون : ٥٢] أي دينكم دين واحد .

والأمة بمعنى السنين مثل قوله تعالى : ﴿ وَقَالَ الَّذِي نَجَا مِنْهُمَا وَادَّكَرَ بَعْدَ أُمَّةٍ ﴾ [يوسف : ٤٥] ، أي بعد زمن .

والأمة بمعنى الإيمان مثل قوله تعالى : ﴿ إِنَّ إِبْرَٰهِيمَ كَانَ أُمَّةً قَانِتًا ﴾ [النحل: ١٢٠] .

فقوله هنا ﴿ وَلْتَكُن مِّنكُمْ أُمَّةٌ يَدْعُونَ إِلَى الْخَيْرِ ﴾ اللام في قوله « ولتكن » للأمر ، ومن في قوله « منكم » فيها قولان لأهل العلم ، منهم من قال : إنها للتبعيض ، ومنهم من قال : إنها لبيان الجنس ، فعلى القول الأول يكون الأمر هنا أمرًا كفائيًا ، أي : أنه إذا قام به من يكفي سقط عن الباقين ، لأنه قال ﴿ وَلْتَكُن مِّنكُمْ ﴾ يعني بعض منكم يدعون إلى الخير ، وعلي القول الثاني يكون الأمر أمرًا عينيًا وهو أنه يجب على كل واحد أن يكرس جهوده لهذا الأمر .. يدعون إلى الخير ، ويأمرون بالمعروف وينهون عن المنكر .

والدعوة إلى الخير تشمل كل شيء فيه مصلحة للناس في معاشهم ومعادهم ؛ لأن الخير كما يكون في عمل الآخرة يكون في عملِ الدنيا ، كما قال الله تعالى : ﴿ رَبَّنَآ ءَاتِنَا فِي الدُّنْيَا حَسَنَةً وَفِي الْآخِرَةِ حَسَنَةً ﴾ [البقرة: ٢٠١] ، وما ينفع الناس من الأمور الدنيوية فهو خير ، ولهذا سمى الله ﷻ المال خيرًا ، فقال : ﴿ وَإِنَّهُۥ لِحُبِّ الْخَيْرِ لَشَدِيدٌ ﴾ [العاديات : ٨] ، ﴿ وَيَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنكَرِ ﴾ [آل عمران : ١٠٤] المعروف ما عرفه الشرع وأقره ، والمنكر ما أنكره ونهى عنه ، فإذن يكون الأمر بالمعروف هو الأمر بطاعة الله ، والنهي عن المنكر هو النهي عن معصية الله ، فهم يأمرون بالمعروف وينهون عن المنكر .

ولكن لابد للأمر بالمعروف والنهي عن المنكر من شروط هي :

الشرط الأول : أن يكون الآمر أو الناهي عالمًا بأن هذا معروف يأمر به ، وهذا منكر ينهي عنه ، فإن لم يكن عالمًا فإنه لا يجوز أن يأمر وينهى ، لقوله تعالى ﴿ وَلَا تَقْفُ مَا لَيْسَ لَكَ بِهِۦ عِلْمٌ ۚ إِنَّ السَّمْعَ وَالْبَصَرَ وَالْفُؤَادَ كُلُّ أُولَٰٓئِكَ كَانَ عَنْهُ مَسْـُٔولًا ﴾ [الإسراء: ٣٦] ، والتحريم والتحليل لايكون بحسب العاطفة ، لأنه لو كان بحسب العاطفة والهوى لوجدنا من الناس من يكره كل شيء يستغربه ، حتى لو حصل شيء ينفع الناس ، وهو مستغرب له قال : هذا منكر ، ومن الناس من هو بالعكس يتهاون ويرى أن كل شيء معروف ، فالمعروف والمنكر أمرهما إلي الشارع .

ويُذكر لي أنه كان بعض الناس أول ما ظهرت السيارات يقولون إن الحج على السيارة ربع حجة ، ومقتضى هذا أن الإنسان لا يؤدي الفرض إلا بأربع حجج ، يعني كل واحدة ربع ، ما تكون واحدة كاملة إلا بأربع مرات فقال بعض الناس ونحن نذكر هذا ونحن صغار : إذن الحج على الطائرات بمقتضى قياسهم يكون ثمن حج ، أو عُشر على كل حال بعض الناس إذا استغرب شيئًا قال هذا منكر .

كذلك أول ما ظهرت مكبرات الصوت أنكرها بعض الناس ، وقال إن هذا منكر ، كيف نؤدي الصلاه أو الخطبة بهذه الأبواق التي تشبه بوق اليهود ؟ ومن العلماء المحققين كشيخنا عبد الرحمن السعدي رحمه الله قال : إن هذه من نعمة الله ؛ أن الله يسر لعباده ما يوصل أصوات الحق إلى الخلق ،

وأن مثل هذه كمثل نظارات العين ، فالعين إذا ضعف النظر تحتاج إلى تقوية بلبس النظارات ، فهل نقول لا تلبس النظارات لأنها تقوي النظر وتكبر الصغير ؟ لا ، لا نقول هكذا .

فالحاصل أن المعروف والمنكر أمرهما إلى الله ورسوله ، لا إلى ذوق الإنسان ، أو هوى الإنسان ، أو فكر الإنسان .

إذن لابد أن يكون الإنسان عالما بأن هذا معروف وهذا منكر ، هذا معروف يأمر به ، وهذا منكر ينهى عنه ، ولكن ما الطريق إلى معرفة ذلك ؟ الطريق إلى معرفة ذلك الكتاب والسنة فقط ، أو إجماع الأمة ، أو القياس الصحيح ، وإجماع الأمة والقياس الصحيح كلاهما مستند إلى الكتاب والسنة ، ولولا الكتاب والسنة ما عرفنا أن الإجماع حجة وأن القياس حجة .

والشرط الثاني : أن يعلم بوقوع المنكر من الشخص المدعو ، أو بتركه للمعروف ، فإن كان لا يعلم فإنه لا يرجم الناس بالغيب ، مثال ذلك لو أن رجلًا دخل المسجد وجلس ، فإن الذي تقتضيه الحكمة أن يسأله : لماذا جلس ولم يصل ؟ ولاينهاه أو يزجره ، بدليل أن النبي ﷺ كان يخطب الناس يوم الجمعة فدخل رجل فجلس ، فقال له : « أصليت ؟ » قال : لا . قال : « قم فصل ركعتين »[1] ، فلم يزجره حين ترك الصلاة لأنه يحتمل أن يكون صلى والنبي - عليه الصلاة والسلام - لم يره .

كذلك أيضا إذا رأيت شخصًا يأكل في نهار رمضان أو يشرب في نهار رمضان ، فلا تزجره ، بل اسأله ربما يكون له عذر في ترك الصيام . قل له : لماذا لم تصم ؟ فقد يكون مسافرًا ، وقد يكون مريضًا مرضا يحتاج معه إلى شرب الماء بكثرة ؛ مثل أوجاع الكلى تحتاج إلى شرب ماء كثير ، ولو كان الإنسان صحيحا فيما يظهر للناس ، فالمهم أنه لابد أن تعرف أنه ترك المعروف حتى تأمره به ، ولابد أيضا أن تعرف أنه وقع في المنكر حتى تنهاه عنه ؛ لأنه قد لا يكون واقعًا في المنكر وأنت تظنه واقعًا .

مثال ذلك : إذا رأيت رجلًا في سيارة ومعه امرأة فهناك احتمال أن المرأة أجنبية منه وهناك احتمال أن تكون المرأة من محارمه ، أو أنها زوجته إذا لاتنكر عليه ، حتى تعلم أنه فعل منكرًا ، وذلك بقرائن الأحوال ، لو فرضنا مثلًا أن الإنسان رأى ريبة من هذا الشخص لكونه أهلًا لسوء الظن ، ورأى حركات ، والإنسان العاقل البصير يعرف ، فهذا ربما نقول يتوجه ويسأل : من هذه المرأة التي معك ؟ أو لماذا تحمل امرأة في سيارتك ليست من محارمك ؟ ولكن ليس ذلك لمجرد أن ترى رجلا يمشي مع امرأة أو حاملًا امرأة في سيارته تنكر عليه وأنت لا تدري هل هذا منكر أم لا ؟

والمهم : أنه لابد من العلم بأن هذا معروف وهذا منكر ، ولابد من العلم أن هذا ترك المعروف وفعل المنكر .

الشرط الثالث . أن لا يتحول المنكر إذا نهى عنه إلى أنكر منه وأعظم . مثال ذلك لو رأينا شخصا يشرب الدخان ، فشرب الدخان حرام لا شك ومنكر يجب إنكاره ، لكننا لو أنكرنا عليه لتحول إلى

---

(١) أخرجه البخاري في الجمعة (٩٣١) ، ومسلم - واللفظ له - في الجمعة (٥٥) .

شرب الخمر ، يعني أنه ذهب إلي الخمارين وشرب الخمر فهنا لا ننهاه عن منكره الأول لأن منكره الأول أهون ، وارتكاب أهون المفسدتين واجب إذا كان لابد من ارتكاب العليا .

ودليل هذا : الشرط قول اللّه ﷻ ﴿ وَلَا تَسُبُّوا۟ ٱلَّذِينَ يَدْعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ فَيَسُبُّوا۟ ٱللَّهَ عَدْوًۢا بِغَيْرِ عِلْمٍ ﴾ [الأنعام : ١٠٨] ، فسب آلهة المشركين من الأمور المطلوبة شرعا ، ويجب علينا أن نسب آلهة المشركين ، وأن نسب أعياد الكفار ، وأن نحذر منها ، وأن لا نرضى بها ، وأن نبصر إخواننا الجهال السفهاء بأنه لا يجوز مشاركة الكفار في أعيادهم ، لأن الرضا بالكفر يخشى أن يوقع صاحبه في الكفر والعياذ باللّه ، هل ترضى أن شعائر الكفر تقام وتشارك فيها ؟ لا يرضى بهذا أحد من المسلمين ، لهذا قال ابن القيم رَحِمَهُ اللَّهُ وهو من تلاميذ شيخ الإسلام البارزين قال : إن الذي يشارك هؤلاء في أعيادهم ، ويهنئهم فيها ، إن لم يكن أتى الكفر فإنه قد فعل محرمًا بلاشك ، وصدق رَحِمَهُ اللَّهُ ، ولهذا يجب علينا أن نحذر إخواننا المسلمين من مشاركة الكفار في أعيادهم ، لأن مشاركتهم في أعيادهم أو تهنئتهم فيها ، مثل قول : عيد مبارك ، أو هنأك اللّه بالعيد – وما أشبه ذلك – لا شك أنه رضا بشعائر الكفر والعياذ باللّه .

أقول : إن سب آلهة المشركين وشعائر المشركين وغيرهم من الكفار الكتابيين أمر مطلوب شرعًا ، ولكن إذا كان يؤدي إلى شيء أعظم منه نكرًا فإنه ينهى عنه ، يقول اللّه ﷻ ﴿ وَلَا تَسُبُّوا۟ ٱلَّذِينَ يَدْعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ ﴾ أو يعني الأصنام لا تسبوها ﴿ فَيَسُبُّوا۟ ٱللَّهَ عَدْوًۢا بِغَيْرِ عِلْمٍ ﴾ يعني إنكم إذا سببتم آلهتهم سبوا إلهكم ، وهو اللّه ﷻ ، ﴿ عَدْوًۢا بِغَيْرِ عِلْمٍ ﴾ هو يعني : عدوانًا منهم بغير علم ، أما أنتم إذا سببتم آلهة المشركين فإنه بعدل وعلم ، لكن سبهم لإلهكم عدوان بلا علم ، فأنتم لا تسبوهم فيسبوا اللّه .

إذن نأخذ من هذه الآيات الكريمة أنه إذا كان نهي الإنسان عن منكر ما يوقع الناس فيما هو أنكر منه ، فإن الواجب الصمت ، الصمت حتى يأتي اليوم الذي يتمكن فيه من النهي عن المنكر ليتحول إلي معروف .

ويذكر أن شيخ الإسلام ابن تَيمِيَة رَحِمَهُ اللَّهُ مرَّ في الشام على قوم من التتار – والتتار أمة معروفة سلطها اللّه على المسلمين في سنة من السنوات ، وحصل بهم فتنة كبيرة عظيمة – ومعه صاحب له ، مرَّ شيخ الإسلام ابن تَيمِيَة بقوم منهم يشربون الخمر فسكت وما نهاهم ، فقال له صاحبه : لماذا لم تنه عن هذا المنكر ؟ قال له إن نهيناهم عن هذا الشيء لذهبوا يفسدون نساء المسلمين بالزنى ، يَسْتَبِيحُون أموالهم ، وربما يقتلونهم ، وشرب الخمر أهون ، وهذا من فقهه رَحِمَهُ اللَّهُ ورضي عنه ، أن الإنسان إذا كان يخشى أن يزول المنكر ويتحول إلي أنكر منه فإن الواجب الصمت .

ومن آداب الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر – وليست من شروط الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر أن يكون الإنسان أول فاعل للمعروف وأول منته عن المنكر ، بمعنى أنه لا يأمر بالمعروف ثم لا يفعله ، أو لا ينه عن المنكر ثم يقع فيه ؛ لأن هذا داخل في قوله تعالى : ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لِمَ تَقُولُونَ مَا لَا تَفْعَلُونَ ۝ كَبُرَ مَقْتًا عِندَ ٱللَّهِ أَن تَقُولُوا۟ مَا لَا تَفْعَلُونَ ﴾ [1] [ ] ، وفي

---

(١) ﴿ كَبُرَ مَقْتًا ﴾ عظم بغضًا ، وبشع كرهًا لكم عند اللّه قولكم ما لا تفعلون .

الحديث الصحيح : « إنه يؤتى بالرجل يوم القيامة ، فيلقى في النار حتى تندلق أقتاب بطنه » ، أقتاب بطنه : يعني أمعاءه ، وتندلق : يعني تتفجر . « فيدور عليها كما يدور الحمار على رحاه ، فيجتمع إليه أهل النار ويقولون له مالك يا فلان ، ألست تأمرنا بالمعروف وتنهانا عن المنكر . فيقول كنت آمركم بالمعروف ولا آتيه وكنت أنهاكم عن المنكر وآتيه » [١] ، فيقول ما لا يفعل والعياذ بالله . فمن آداب الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر أن يكون الإنسان أول ممتثل للأمر ، وأول منته عن النهي .

ذكر أن ابن الجوزي الواعظ المشهور وهو من أصحاب الإمام أحمد يعني ممن يقلدون الإمام أحمد ، وكان واعظًا مشهورًا بالوعظ ، يوضع له كرسي يوم الجمعة ويلقي المواعظ ، ويحضره مئات الآلاف ، وكان من شدة تأثيره على القلوب أن بعض الحاضرين يصعق ويموت ، فجاءه ذات يوم عبد رقيق ، فقال له يا سيدي ، إن سيدي يتعبني ، ويشق علي ، ويأمرني بأشياء ما أطيقها ، فلعلك تعظ الناس وتحثهم على العتق فيعتقني ، فقال : نعم أفعل فبقى جمعة أو جمعتين أو ما شاء الله ، ولم يتكلم عن العتق بشيء .

ثم تكلم يوما من الأيام عن العتق فأثر ذلك في نفوس الناس فأعتق الرجل عبده ، فجاء إليه العبد ، وقال له : يا سيدي ، أنا قلت لك تكلم عن العتق منذ زمن ، ولم تتكلم إلا الآن ! قال : نعم ؛ لأني لست أملك عبدًا فأعتقه ، ولا أحب أن أحث على العتق وأنا ما عتقت - سبحان الله - فلما منَّ اللّه عَلَيَّ بعبد وأعتقته صار لي مجال أن أتكلم في العتق .

فالحاصل : أن هذا من آداب الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر ، ونسأل اللّه أن يجعلنا وإياكم من الداعين إلى الخير الآمرين بالمعروف والناهين عن المنكر ، إنه جواد كريم .

* * *

١٧٤ - وعن أبي هريرة ﷺ أنَّ رسولَ اللّه ﷺ قالَ : « مَنْ دَعَا إِلَى هُدًى كَانَ لَهُ مِنَ الأَجْرِ مِثْلُ أُجُورِ مَنْ تَبِعَهُ لا يَنْقُصُ ذلِكَ مِنْ أُجُورِهِمْ شَيئًا ، وَمَنْ دَعَا إِلَى ضَلالَةٍ كَانَ عَلَيهِ مِنَ الإِثْمِ مِثْلُ آثام مَنْ تَبِعَهُ لا يَنْقُصُ ذلِكَ مِنْ آثامِهِمْ شَيئًا » [٢] رواه مسلم .

١٧٥ - وعن أبي العبَّاس سَهْل بن سعدِ السَّاعِدِيِّ ﷺ ، أن رسول اللّه ﷺ قال يَومَ خَيبَرَ : « لأعْطِين الرَّايَةَ غَدًا رَجُلًا يَفْتَحُ اللّهُ عَلَى يَدَيهِ ، يُحِبُّ اللّهَ وَرَسُولَهُ ، وَيُحِبُّهُ اللّهُ وَرَسُولُهُ » فَبَاتَ النَّاسُ يَدُوكُون لَيلَتَهُمْ أَيُّهُمْ يُعْطَاهَا . فَلَمَّا أَصْبَحَ النَّاسُ غَدَوا عَلَى رسول اللّه ﷺ : كُلُّهُمْ يَرْجُو أَنْ يُعْطَاهَا ، فقال : « أينَ عَلي بن أبي طالبِ ؟ » فَقيلَ : يا رسول اللّه هُوَ يَشْتَكِي عَينَيه ، قال : « فَأَرْسِلُوا إِلَيهِ » فَأُتِيَ بِهِ ، فَبَصَقَ رسولُ اللّه ﷺ في عَينَيهِ ، وَدَعَا لَهُ . فَبَرأَ حتى كَأَنْ لَمْ يَكُن بِهِ وَجَعٌ ، فَأَعْطَاهُ الرَّايَةَ ،

---

(١) أخرجه البخاري في بدء الخلق (٣٢٦٧) ، ومسلم في الزهد (٥١) ، وذلك باختلاف في اللفظ ، وأحمد في مسنده (٥/٢٠٥ ، ٢٠٦) .

(٢) أخرجه مسلم - واللفظ له - في العلم (١٦) ، والترمذي في العلم (٢٦٧٤) ، وابن ماجه في المقدمة (٢٠٦) ، والإمام أحمد في مسنده (٢/٣٩٧) .

فقال عليٌّ ﷺ : يا رَسول اللّه أُقَاتِلُهُمْ حتى يَكُونوا مِثْلَنا ؟ فقال : «انْفُذ على رِسْلِك حتى تَنْزِلَ بسَاحَتِهِمْ ، ثُمَّ ادْعُهُمْ إِلَى الإِسْلامِ ، وَأَخْبِرْهُمْ بِمَا يَجبُ عَلَيهِمْ مِنْ حَقِّ اللَّه تَعَالَى فِيهِ ، فَواللَّهِ لأَنْ يَهْدِيَ اللَّهُ بِكَ رَجُلًا وَاحِدًا خَيرٌ لَكَ مِنْ حُمْرِ النَّعَم »[1] متفقٌ عليه .

قوله « يَدُوكُونَ » أي يَخُوضُونَ وَيَتَحدَّثُونَ ، قَوْلُهُ : « رِسْلِكَ » بكسر الراءِ وَبفَتْحِهَا لُغَتَانِ ، وَالكَسْرُ أَفْصحُ .

الشرح

قال المؤلف – رحمه اللّه تعالى – فيما نقله عن أبي هريرة ﷺ ، أن النبي ﷺ قال : « مَنْ دعا إلى هُدًى كان لَه مِنَ الأجرِ مِثل أُجورِ مَنْ تبعه لا يَنْقُصُ ذلك من أُجورِهِم شيئًا » من دعا إلى هدى ، يعني : بَيَّنَهُ للناس ودعاهم إليه ، مثل أن يبين للناس أن ركعتي الضحى سنة ، وأنه ينبغي للإنسان أن يصلي ركعتين في الضحي ، ثم تبعه الناس وصاروا يصلون الضحى ، فإن له مثل أجورهم من غير أن ينقص من أجورهم شيئًا ، لأن فضل اللّه واسع .

أو قال للناس مثلًا : اجعلوا آخر صلاتكم بالليل وترًا[2] ، ولا تناموا إلا على وتر إلا من طمع أن يقوم من آخر الليل فليجعل وتره في آخر الليل ، فتبعه ناس على ذلك فإن له مثل أجرهم ، يعني : كلما أوتر واحد هداه اللّه على يده فله مثل أجره ، وكذلك بقية الأعمال الصالحة .

« ومَنْ دَعَا إِلَى ضَلالَةٍ كَانَ عَلَيهِ مِنَ الإِثْمِ مِثْلُ آثام مَنْ تَبِعه لا يَنْقُص ذلك من آثامهم شيئًا » ، أي : إذا دعا إلى وزر وإلي ما فيه الإثم ، مثل أن يدعو الناس إلى لهو أو باطل أو غناء أو ربا أو غير ذلك من المحارم ، فإن كل إنسان تأثر بدعوته فإنه يُكتب له مثل أوزارهم ؛ لأنه دعا الى الوزر والعياذ باللّه .

واعلم أن الدعوة إلى الهدى والدعوة إلى الوزر تكون بالقول ؛ كما لو قال : افعل كذا . افعل كذا ، وتكون بالفعل خصوصًا مِنَ الذين يَقتدِى بهم من الناس ، فإنه إذا كان يُقتدى به ثم فعل شيئًا فكأنه دعا الناس إلى فعله ، ولهذا يَحْتَجُونَ بفعله ويقولون : فعل فلان كذا وهو جائز ، أو ترك كذا وهو جائز .

فالمهم : أن من دعا إلى هدى كان له مثل أجر من اتبعه ، ومن دعا إلى ضلالة كان عليه مثل وزر من اتبعه .

وفي هذا دليل على أن المتسبب كالمباشر ؛ المتسبب للشيء كالمباشر له ، فهذا الذي دعا إلى الهدى تسبب فكان له مثل أجر من فعله ، والذي دعا إلى السوء أو إلى الوزر تسبب فكان عليه مثل وزر من اتبعه .

وقد أخذ العلماء الفقهاء – رحمهم اللّه – من ذلك قاعدة : بأن السبب كالمباشرة ، لكن إذا اجتمع سبب ومباشرة أحالوا الضمان على المباشرة ، لأنها أمس بالإتلاف .

أما حديث أبي العباس سهل بن سعد ﷺ ، أن النبي ﷺ قال يوم خيبر : « لأعطين الراية غدًا رجلًا

(١) أخرجه البخاري في الجهاد (٣٠٠٩) ، ومسلم – واللفظ له – في فضائل الصحابة (٣٤) .

(٢) هذا معنى حديث ، وقد أخرجه البخاري في الوتر (٩٩٨) ، ومسلم في صلاة المسافرين (١٥١) ، وأحمد في مسنده (٢/ ٢٠) .

يَفْتح اللَّهُ عَلَى يَدَيهِ ، يُحب اللَّه ورسولَه ويُحبُّه اللَّه ورَسُولُه » وهذا يتضمن بشرى عامة وبشرى خاصة ، أما العامة فهي قوله يفتح اللَّه على يديه ، وأما الخاصة فهي قوله يحب اللَّه وَرَسُولَهُ ويُحبُّه اللَّه ورسولُه .

وخيبر مزارع وحصون لليهود ، كانت نحو مائة ميل في الشمال الغربي من المدينة ، وسكنها اليهود كما سكن طائفة منهم المدينة نفسها ، لأن اليهود يقرؤون في التوراة أنه سيبعث نبي ، وسيكون مهاجره إلى المدينة ، وتسمى في العهد القديم يثرب ، لكنه نهى عن تسميتها يثرب ، وأنه سيهاجر إلى المدينة وسيقاتل وينتصر على أعدائه ، فعلموا أن هذا حق وذهبوا إلى المدينة وسكنوها ، وسكنوا خيبر ، وكانوا يظنون أن هذا النبي سيكون من بني إسرائيل ، فلما بُعث من بني إسماعيل من العرب حسدوهم ، وكفروا به والعياذ باللَّه ، بعد أن كانوا يعرفونه كما يعرفون أبناءهم ، ﴿ فَلَمَّا جَآءَهُم مَّا عَرَفُواْ كَفَرُواْ بِهِۦ ﴾ [البقرة: ٩٨] وقالوا : ليس هذا هو النبي الذي بُشِّرنا به .

وحصل منهم ما حصل من العهد مع النبي – عليه الصلاة والسلام – ثم الخيانة ، وكانوا في المدينة ثلاث قبائل : بنو قينقاع ، وبنو النضير ، وبنو قريظة ، وكلهم عاهد النبي – عليه الصلاة والسلام – ولكنهم نقضوا العهد كلهم .

فهزمهم اللَّه – والحمد للَّه – على يد النبي ﷺ ، وكان آخرهم بني قريظة الذين حَكَمَ فيهم سعد بن معاذ رضي الله عنه بأن تُقتل مقاتلتهم ، وتُسبى نساؤهم وذريتهم ، وتغنم أموالهم ، وكانوا سبعمائة ، فأمرالنبي ﷺ بقتلهم فحصدوهم عن آخرهم [1] ، وهكذا اليهود أهل غدر وخيانة ونقض للعهود ، منذ بُعث فيهم موسى – عليه الصلاة والسلام – إلي يومنا هذا وإلى يوم القيامة ، هم أغدر الناس بالعهد ، وأخونهم بالأمانة ، ولذلك لا يوثق منهم أبدًا ؛ لا صرفًا ولا عدلًا ، ومن وثق بهم ، أو وثق منهم ، فإنه في الحقيقة لم يعرف سيرتهم منذ عهد قديم .

المهم : أن خيبر كانت حصون ومزارع لهم وغزاهم النبي – عليه الصلاة والسلام – وفتح اللَّه على يديه .

فقال النبي ﷺ : « لأُعْطِينَّ الرَّاية غدًا رجلًا يفتح اللَّه عَلَى يَدَيه ، يُحِبُّ اللَّه ورَسُولَهُ ويُحِبُّه اللَّهُ وَرَسُولُه » وهذان منقبتان عظيمتان .

الأولى : أن يفتح اللَّه على يديه ؛ لأن من فتح اللَّه على يديه نال خيرًا كثيرًا ، فإنه إن هدى اللَّه به رجلًا واحدًا ، كان خيرًا له من حمر النعم : يعني من الإبل الحمر ، وإنما خص الإبل الحمر لأنها أغلى الأموال عند العرب . الثانية : يحب اللَّه ورسوله ، ويحبه اللَّه ورسوله ، وفي ذلك فضل لعلي بن أبي طالب رضي الله عنه ؛ لأن الناس في تلك الليلة جعلوا يدوكون ، يعني : يخوضون ويتكلمون : من هذا الرجل ؟

فلما أصبح النبي ﷺ قال : « أين علي بن أبي طالب ؟ » فقيل هو يشتكي عينيه ، يعني أن عينيه توجعه ويشتكيها ، فدعا به فأُتي به ، فبصق في عينيه ودعا له فبرئ كأن لم يكن به وجع ، وهذه من آيات اللَّه عز وجل ، فليس هناك قطرة ولا كي ، وإنما هو ريق النبي ﷺ ودعاؤه .

---

(١) هذا جزء من حديث وقد سبق تخريجه .

وفي هذا الحديث : دليل على أنه يجوز للناس أن يتحدثوا في الأمر ليتفرسوا فيمن يصيبه ؟ لأن الصحابة صاروا في تلك الليلة يدوكون ليلتهم : من يحصل هذا ؟ وكل واحد يقول : لعله أنا .

وفيه أيضا : دليل على أن الإنسان قد يهبه اللّٰه تعالى من الفضائل ما لم يخطر له على بال ، فعليٌّ ليس حاضرًا ، وربما لا يكون عنده علم بأصل المسألة ، ومع ذلك جعل اللّٰه له هذه المنقبة ، ففي هذا : دليل على أن الإنسان قد يحرم الشيءِ مع ترقبه له ، وقد يُعطى الشيء مع عدم خطورته على باله .

« فأعطاه الراية » ، الراية يعني : العلم ، والعلم الذي يكون علمًا على القوم في حال الجهاد ، لأن الناس في الجهاد يقسمون ؛ هؤلاء إلى جانب وهؤلاء إلى جانب ، وهذه القبيلة وهذه القبيلة ، أو هذا الجنس من الناس كالمهاجرين مثلًا والأنصار ، كل له راية أي علم يدل عليه .

فقال علي ﷺ : يا رسول اللّٰه ، أقاتلهم حتى يكونوا مثلنا ؛ يعني : أقاتلهم حتى يكونوا مسلمين ، أم ماذا ؟ فقال له النبي ﷺ : « أنفذ على رسلك حتى تنزل بساحتهم » ولم يقل له : قاتلهم حتى يكونوا مثلنا ، وذلك لأن الكفار لا يقاتلون على الإسلام ويرغمون عليه ، وإنما يقاتلون ليذلوا لأحكام الإسلام ، فإن أسلموا فلهم وإن كفروا فعليهم ، ولكن يذلوا لأحكام الإسلام فيعطون الجزية عن يد وهم صاغرون أو يدخلون في الإسلام .

وقد اختلف العلماء - رحمهم اللّٰه - : هل هذا خاص بأهل الكتاب أي مقاتلتهم حتى يعطوا الجزية - أو أنه عام لجميع الكفار ؟ فأكثر العلماء يقولون : إن الذي يُقاتَل حتى يعطي الجزية أو يسلم هم أهل الكتاب : اليهود والنصارى ، وأما غيرهم فيقاتلون حتى يسلموا ، ولا يُقبَل منهم إلا الإسلام ، واستدلوا بقوله تعالى : ﴿ قَٰتِلُوا۟ ٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَلَا بِٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِ وَلَا يُحَرِّمُونَ مَا حَرَّمَ ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥ وَلَا يَدِينُونَ دِينَ ٱلْحَقِّ مِنَ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْكِتَٰبَ حَتَّىٰ يُعْطُوا۟ ٱلْجِزْيَةَ عَن يَدٍ وَهُمْ صَٰغِرُونَ ﴾ [1] [التوبة : ٢٩] فقال : قاتلوهم ﴿ حَتَّىٰ يُعْطُوا۟ ٱلْجِزْيَةَ ﴾ .

والصحيح أنه عام : ودليل ذلك أن النبي ﷺ أخذ الجزية من مجوس هجر وهم ليسوا أهل كتاب كما أخرجه البخاري [2] ، ودليل آخر : حديث بريدة بن الحصيب الذي أخرجه مسلم ، أن النبي ﷺ كان إذا أمَّر أميرًا على جيش أو سرية أوصاه ومن معه من المسلمين خيرًا [3] ، وذكر في الحديث أنه يدعوهم إلى الإسلام ، فإن أبوا فالجزية ، فإن أبوا يقاتلهم ، والصحيح أن هذا عام . ولذلك لم يقل النبي ﷺ - لعلي حين سأله أقاتلهم حتى يكونوا مثلنا - : نعم قاتلهم حتى يكونوا مثلنا ، وإنما أرشده أن يفعل ما أمره به وأن يمشي على رسله ، حتى ينزل بساحتهم .

قوله « على رسلك » أي لا تمشي عَجِلًا ، فتتعب أنت وتُتْعِبُ الجيش ويتعب من معك ، ولكن على

---

(١) قوله ﴿ حَتَّىٰ يُعْطُوا۟ ٱلْجِزْيَةَ ﴾ الخراج المقدر على رؤوسهم وذلك مقابل تكفل الدولة بحماية نفس الذمي وماله وعرضه ودينه ولا يكلف حربًا ولا يدفع للدولة زكاةً ، قوله : ﴿ عَن يَدٍ ﴾ عن قدرة (بمالا يشق عليه) أو عن قهر وقوة . قوله : ﴿ وَهُمْ صَٰغِرُونَ ﴾ خاضعون لحكم الدولة .

(٢) أخرجه البخاري في الجزية (٣١٥٧) .

(٣) أخرجه مسلم في الجهاد (٣) .

رسلك حتى تنزل بساحتهم أي بجانبهم ، « ثم ادعهم إلى الإسلام » ، قوله ﷺ : « ثم ادعهم إلى الإسلام وأخبرهم بما يجب عليهم من حَقِّ اللَّه فيه » فأمره ﷺ بأمرين : **الأمر الأول** : الدعوة إلى الإسلام ، بأن يقل لهم : أسلموا ، إذا كانوا يعرفون معنى الإسلام ويكفي ذلك ، وإن كانوا لا يعرفونه ، فإنه يبين لهم أن الإسلام شهادة ألا إله إلا اللَّه ، وأن محمدًا رسول اللَّه ، وإقام الصلاة وإيتاء الزكاة وحج البيت .

الأمر الثاني : قال : « وأخبرهم بما يجب عليهم من حق اللَّه تعالى فيه » ، وهو السمع والطاعة لأوامر اللَّه ورسوله ، لأجل أن يكون الداخل في الإسلام داخلًا على بصيرة ، لأن بعض الناس يدخل في الإسلام على أنه دين ولكن لا يدري ما هو ؟ ثم إذا بينت له الشرائع ، ارتد - والعياذ باللَّه - فصار كفره الثاني أعظم من كفره الأول ، لأن الردة لا يقر عليها صاحبها ، بل يقال له : إما أن ترجع لما خرجت منه . وإما أن نقتلك .

ولهذا ينبغي لنا في هذا العصر لما كثر الكفار بيننا من نصارى وبوذيين ومشركين وغيرهم ، إذا دعوناهم إلى الإسلام أن نبين لهم الإسلام أولًا ، ونشرحه شرحًا يتبين فيه الأمر ، حتى يدخلوا على بصيرة ، لا نكتفي بقولنا : أسلموا فقط ، لأنهم لا يعرفون ما يجب عليهم من حق اللَّه تعالى في الإسلام ، فإذا دخلوا على بصيرة صار لنا العذر فيما بعد ، إذا ارتدوا أن نطلب منهم الرجوع إلى الإسلام أو نقتلهم ، أما إن بُيِّن لهم إجمالًا هكذا ، فإنها دعوة قاصرة ، والدليل على هذا حديث سهل بن سعد ﷺ الذي نشرحه .

وفي هذا الحديث ، في قوله ﷺ : « فَوَاللَّه لأن يهدي اللَّه بك رَجلًا واحدًا خيرٌ لك مِنْ حُمْرِ النَّعَم » يهديه : أي يوفقه بسببك إلى الإسلام فإنه خير لك من حمر النعم يعني من الإبل الحمر ، وذلك لأن الإبل الحمر عند العرب كانت من أنفس الأموال ، إن لم تكن أنفس الأموال ، ففعل ﷺ ونزل بساحتهم ، ودعاهم إلى الإسلام ولكنهم لم يسلموا .

ثم في النهاية كانت الغلبة - ولله الحمد - للمسلمين ، ففتح اللَّه على يدي علي بن أبي طالب ، والقصة مشهورة في كتب المغازي والسير ، لكن الشاهد من هذا الحديث ، أنه أمرهم أن يدعوهم إلى الإسلام ، وأن يخبرهم بما يجب عليهم من حق اللَّه تعالى فيه .

وفي هذا الحديث من الفوائد : ظهور آية من آيات النبي ﷺ وهي أنه لما بصق في عيني علي بن أبي طالب برئ حتى كأن لم يكن به وجع ، وفيه أيضًا آية أخرى ، وهو قوله : يفتح اللَّه على يديه وهو خبر غيبي ، ومع ذلك فتح اللَّه على يديه ، وفيه أيضًا من الفوائد : أنه ينبغي نصب الرايات في الجهاد ، وهي الأعلام ، وأن يُجعل لكل قوم راية معينة يعرفون بها كما سبقت الإشارة إليه .

وفيه أيضًا من الفوائد تحري الإنسان للخير والسبق إليه ؛ لأن الصحابة جعلوا في تلك الليلة يدوكون ليلتهم ، « يدوكون ليلتهم » يعني : يدوكون في ليلتهم ، فهي منصوبة على الظرفية ، يعنى أنهم يبحثون من يكون ؟

وفيه أيضا : أن الإنسان قد يعطى الشيء من غيرأن يخطر له على بال . وأنه يحرم من كان متوقعًا أن يناله هذا الشيء ، لأن علي بن أبي طالب كان مريضًا في عينيه ، ولا أظن أنه يخطر بباله أن رسول اللَّه ﷺ سيعطيه الراية ، ومع ذلك أدركها ، فَفَضْلُ اللَّه تعالى يؤتيه من يشاء ، واللَّه الموفق .

١٧٦ - وعن أنس ﷺ أنَّ فتىً مِنْ أَسْلَمَ قال : يا رَسُولَ اللَّهِ إنِّي أُرِيدُ الغَزْوَ وليس مَعِي مَا أَتجهَّز بِهِ ؟ قَالَ : « ائْتِ فُلانًا فإنه قَدْ كانَ تَجَهَّزَ فَمَرِضَ » فَأَتَاهُ فقال : إنَّ رسولَ اللَّه ﷺ يُقرئكَ السَّلامَ وَيَقُولُ : أَعْطِني الذِي تَجَهَّزْتَ بِهِ ، فقال : يَا فُلانَةُ أَعْطِيه الَّذي تجهزْتُ بِهِ ، ولا تَحْبِسِي مِنْه شَيئًا ، فَواللَّهِ لا تحبِسِينَ مِنْه شَيئًا فَيُبَارَكَ لَكَ فِيهِ [١] . رواه مسلم .

الشرح

هذا الحديث الذي ذكره المؤلف فيه : الدلالة على الخير ، فإن رجلًا جاء إلى النبي ﷺ يطلب منه أن يتجهز إلى الغزو ، فأرشده النبي ﷺ ودله على رجل كان قد تجهز براحلته وما يلزمه لسفره ولكنه مرض ، فلم يتمكن من الخروج إلى الجهاد ، فجاء الرجل إلى صاحبه الذي كان قد تجهز ، فأخبره بما قال النبي ﷺ ، فقال الرجل لامرأته : أخرجي ما تجهزت به ولا تحبسي منه شيئًا ، فوالله لا تحبسين منه فيُبارك لنا فيه .

ففي هذا : دليل على أن الإنسان إذا دل أحدًا على الخير فإنه يثاب على ذلك ، وقد سبق أنه « من دلَّ على خير فله مثل أجر فاعله » [٢] .

وفيه : دليل أيضًا على أن من أراد عملًا صالحًا فحبسه عنه مرض ، فإنه ينبغي أن يدفع ما بذله لهذا العمل الصالح إلى من يقوم به حتى يكتب له الأجر كاملًا ، لأن الإنسان إذا مرض وقد أراد العمل وتجهز له ، ولكن حال بينه وبينه مرضه ، فإنه يكتب له الأجر كاملًا ولله الحمد ، قال الله تعالى ﴿وَمَن يَخْرُجْ مِنۢ بَيْتِهِۦ مُهَاجِرًا إِلَى ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ ثُمَّ يُدْرِكْهُ ٱلْمَوْتُ فَقَدْ وَقَعَ أَجْرُهُۥ عَلَى ٱللَّهِ﴾ [النساء : ١٠٠] وفيه : دليل أيضا من كلام الصحابة ﷺ ، أن الإنسان إذا بذل الشيء في الخير فإن الأفضل أن ينفذه ، فمثلًا لو أردت أن تتصدق بمال ، وعزلت المال الذي تريد أن تتصدق به أو تبذله في مسجد ، أو في جمعية . خيرية أو ما أشبه ذلك ، فلك الخيار أن ترجع عما فعلت ، لأنه مادام الشيء لم يبلغ محله فهو بيدك ، ولكن الأفضل أن تنفذه ولا ترجع فيما أردت من أجل أن تكون من السبَّاقين إلى الخير ، والله الموفق .

* * *

٢١ - باب التعاون على البرّ والتقوى

قال الله تعالى : ﴿وَتَعَاوَنُوا۟ عَلَى ٱلْبِرِّ وَٱلتَّقْوَىٰ﴾ [المائدة : ٢] وقال تعالى : ﴿وَٱلْعَصْرِ ۝ إِنَّ ٱلْإِنسَٰنَ لَفِى خُسْرٍ ۝ إِلَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ وَتَوَاصَوْا۟ بِٱلْحَقِّ وَتَوَاصَوْا۟ بِٱلصَّبْرِ﴾ [العصر : ١ - ٣] .

قال الإمام الشافعي رَحِمَهُ اللَّهُ كلامًا معناه : إن الناس أو أكثرهم في غفلة عَنْ تَدَبُّرِ هَذِهِ السُّورَةِ .

---

(١) أخرجه مسلم في الإمارة (١٣٤) ، قوله « ما أتجهز به » من عدة القتال من سلاح وغيره ، قوله « ولا تحبسي » أي : لا تؤخري .

(٢) أخرجه مسلم في الإمارة (١٣٣) .

الشرح

قال المؤلف - رحمه الله تعالى - : (باب التعاون على البر والتقوى) والتعاون معناه التساعد ، وأن يعين الناس بعضهم بعضًا على البر والتقوى ، فالبر : فعل الخير ، والتقوى : اتقاء الشر .

وذلك أن الناس يعملون على وجهين ؛ على ما فيه الخير ، وعلى ما فيه الشر ، فأما ما فيه الخير فالتعاون عليه أن تساعد صاحبك على هذا الفعل وتيسر له الأمر ؛ سواء كان هذا يتعلق بك أو مما يتعلق بغيرك ، وأما الشر فالتعاون فيه بأن تحذر منه ، وأن تمنع منه ما استطعت ، وأن تشير على من أراد أن يفعله بتركه وهكذا ، فالبر : فعل الخير ، والتعاون عليه ، والتساعد عليه ، وتيسيره للناس ، والتقوى : اتقاء الشر ، والتعاون عليه بأن تحول بين الناس وبين فعل الشر ، وأن تحذرهم منه ؛ حتى تكون الأمة أمة واحدة .

والأمر في قوله : ﴿ وَتَعَاوَنُوا ﴾ أمر إيجاب فيما يجب ، واستحباب فيما يستحب ، وكذلك في التقوى أمر إيجاب فيما يحرم ، وأمر استحباب فيما يكره .

وأما الدليل الثاني : في التعاون على البر والتقوى ، فهو ما ذكره المؤلف رحمه الله من سياق سورة العصر ، حيث قال الله تعالى : ﴿ وَالْعَصْرِ ۝ إِنَّ الْإِنسَانَ لَفِي خُسْرٍ ۝ إِلَّا الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ وَتَوَاصَوْا بِالْحَقِّ وَتَوَاصَوْا بِالصَّبْرِ ﴾ فأقسم الله تعالى بالعصر الذي هو الزمن ، وإنما أقسم الله تعالى به لأن الزمن هو وعاء الأعمال والناس فيه ، منهم من يملؤه خيرًا ومنهم من يملؤه شرًا ، فأقسم بالعصر لمناسبة المقسم به للمقسم عليه ، وهو أعمال العباد فقال ﴿ إِنَّ الْإِنسَانَ لَفِي خُسْرٍ ﴾ الإنسان عام ؛ يشمل كل إنسان ، من مؤمن وكافر ، وعدل وفاسق ، وذكر وأنثى ، كل الإنسان في خسر ، خاسر كل عمله ، خسران عليه ، تعب في الدنيا وعدم فائدة في الآخرة .

إلا من جمع هذه الأوصاف الأربعة ﴿ إِلَّا الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ وَتَوَاصَوْا بِالْحَقِّ وَتَوَاصَوْا بِالصَّبْرِ ﴾ فأصلحوا أنفسهم بالإيمان والعمل الصالح ، وأصلحوا غيرهم بالتواصي بالحق والتواصي بالصبر .

فالإيمان يكون بالإيمان بكل ما يجب الإيمان به ، مما أخبر به الله ورسوله ، وقد بينه الرسول ﷺ في قوله « الإيمان أن تؤمن بالله وملائكته ، وكتبه ، ورسله ، واليوم الآخر والقدر خيره وشره »[1] ستة أركان .

وأما عمل الصالحات : فهو كل ما يقرب إلى الله ، ولا يكون العمل صالحًا إلا بشرطين ، هما الإخلاص لله عز وجل ، والمتابعة لرسوله .

الإخلاص لله : بمعنى ألا تقصد بعملك مراءاة عباد الله ، لا تقصد إلا وجه الله والدار الآخرة .

وأما المتابعة : فهي المتابعة للرسول ﷺ بحيث لا تأت ببدعة ، لأن البدعة وإن أخلص الإنسان فيها مردودة : « من عمل عملًا ليس عليه أمرنا فهو رد »[2] ، والعبادة التي فيها الاتباع ، ولكن فيها رياء

---

(١) أخرجه مسلم في الإيمان (١) وأحمد في مسنده (٣١٩/١) .

(٢) سبق تخريج هذا الحديث رقم (١٦٩) .

مردودة أيضًا ، لقوله تعالى : « أنا أغنى الشركاء عن الشرك ، من عمل عملًا أشرك فيه معي غيري تركته وشركه »[(١)] وهو حديث قدسي .

وأما قوله ﴿ وَتَوَاصَوْا بِالْحَقِّ ﴾ يعني : أن بعضهم يوصي بعضهم بالحق ، وهو ما جاءت به الرسل ، وتواصوا بالصبر عليه ؛ لأن النفس تحتاج إلى صبر لفعل الطاعات وترك المحرمات .

قال الشافعي رَحِمَهُ اللَّهُ : لو لم ينزل الله على عباده سورة غير هذه السورة لكفتهم . لأنها جامعة مانعة . نسأل الله تعالى أن يجعلني وإياكم من المؤمنين العاملين الصالحات ، المتواصين بالحق ، المتواصين بالصبر .

* * *

١٧٧ - عن أبي عبدِ الرحمنِ زيدِ بن خالدِ الجُهَنيِ رضي الله عنه قالَ : قالَ رَسُولُ اللَّه صلى الله عليه وسلم : « مَنْ جَهَّزَ غَازِيًا في سَبيلِ اللَّه فَقَدْ غَزَا ، وَمَنْ خَلَفَ غَازِيًا في أَهْلِهِ بِخَيرٍ فَقَدْ غَزَا »[(٢)] متفقٌ عليه .

١٧٨ - وعن أبي سعيدِ الخُدْرِيِّ رضي الله عنه أَنَّ رَسُولَ اللَّه صلى الله عليه وسلم ، بَعَثَ بَعْثًا إلى بني لِحْيَانَ مِنْ هُذَيلٍ فقالَ : « لِيَنْبَعِثْ مِنْ كُلِّ رَجُلَينِ أَحَدُهُمَا وَالأجرُ بَينَهُمَا »[(٣)] رواه مسلمٌ .

الشرح

ذكر المؤلف رَحِمَهُ اللَّهُ - في هذا - باب التعاون على البر والتقوى - ما ثبت عن النبي صلى الله عليه وسلم في قوله : « من جَهَّزَ غازيًا في سبيل الله فقد غزا ، ومن خَلَف غازيًا في أهله بخير فقد غزا » وهذا من التعاون على البر والتقوى ، إذا جهز الإنسان غازيًا ، يعني براحلته ومتاعه وسلاحه ، ثلاثة أشياء : الراحلة والمتاع والسلاح ، إذا جهزه بذلك فقد غزا ، أي كتب له أجر الغازي ، لأنه أعانه على الخير .

وكذلك من خلفه في أهله بخير فقد غزا ، يعني لو أن الغازي أراد أن يغزو ، ولكنه أشكل عليه أهله من يكون عند حاجاتهم ، فانتدب رجلًا من المسلمين ، وقال : أنا أخلفك في أهلك بخير ، فإن هذا الذي خلفه يكون له أجر الغازي ، أجر الغازي لأنه أعانه .

إذًا فإعانة الغازي تكون على وجهين : الأول : أن يعينه في رحله ومتاعه وسلاحه ، والثاني : أن يعينه في كونه خلف عنه في أهله ؛ لأن هذا من أكبر العون ، فإن كثيرًا من الناس يشكل عليه من يكون عند أهله يقوم بحاجاتهم ، فإذا قام هذا الرجل بحاجة أهله وخلفه فيهم بخير فقد غزا .

ومن ذلك : ما جرى لعلي بن أبي طالب رضي الله عنه ، حين خلفه رسول الله صلى الله عليه وسلم في غزو تبوك ، خلفه في أهله ، فقال : يا رسول الله ، أتدعني مع النساء والصبيان ؟! فقال له : « أما ترضى أن تكون مني

---

(١) أخرجه مسلم في الزهد والرقائق (٤٦) .

(٢) أخرجه البخاري في الجهاد (٢٨٤٣) ، ومسلم - واللفظ له - في الإمارة (١٣٥) ، والترمذي في فضائل الجهاد (١٦٢٨ ، ١٦٣١) والنسائي في سننه (٤٦/٦) ، قوله « خلف غازيًا في أهله » أي قام على قضاء حوائجهم .

(٣) أخرجه مسلم في الإمارة (١٣٧) ، والإمام أحمد في مسنده (٤٩/٣) ، والبيهقي في سننه (٤٠/٩) .

بمنزلة هارون من موسى إلا أنه لا نبي بعدي »[1] يعني أن أخلفك في أهلي ، كما خلف موسى هارون في قومه ، حينما ذهب إلى ميقات ربه .

ويؤخذ من هذا أن كل من أعان شخصًا في طاعة الله فله مثل أجره ، فإذا أعنت طالب علم في شراء الكتب له ، أو تأمين السكن ، أو النفقة ، أو ما أشبه ذلك ، فإن لك أجرًا ، أي : مثل أجره ، من غير أن ينقص من أجره شيئًا ، وهكذا أيضًا لو أعنت مصليًا على تسهيل مهمته في صلاته في مكانه وثيابه ، أو في وضوئه ، في أي شيء فإنه يكتب لك في ذلك أجر .

فالقاعدة العامة : أن من أعان شخصًا في طاعات من طاعة الله كان له مثل أجره ، من غير أن ينقص من أجره شيئًا .

* * *

١٧٩ - وعن ابنِ عباسٍ ﷺ أنَّ رسول اللّه ﷺ لَقِيَ رَكْبًا بالرَّوحَاءِ فقال : « مَنِ القَومُ ؟ » قَالُوا : المُسْلِمُونَ ، فَقَالُوا : مَنْ أَنْتَ ؟ قال : « رسول اللّه » فَرَفَعَتْ إِلَيهِ امْرَأَةٌ صَبيًّا فَقَالَتْ : أَلِهذَا حَجٌّ ؟ قال : « نَعَمْ ، وَلَكِ أَجْرٌ »[2] رَوَاهُ مُسْلِمٌ .

الشرح

قال المؤلف - رحمه الله تعالى - فيما نقله عن عبد الله بن عباس ﷺ ، أن النبي ﷺ لقى ركبًا بالروحاء ، والروحاء مكان بين مكة والمدينة ، وكان هذا في حجة الوداع ، فقال لهم : من القوم ؟ قالوا : المسلمون ، فمن أنت ؟ قال : أنا رسول الله ﷺ ، فرفعت إليه امرأة صبيًا ، فقالت : ألهذا حج ؟ قال : « نعم ، ولك أجر » رواه مسلم ، ففي هذا الحديث من الفوائد : ما ساقه المؤلف من أجله ، وهو أن من أعان شخصًا على طاعة فله أجر ، لأن هذه المرأة سوف تقوم برعاية ولدها إذا أحرم وفي الطواف ، وفي السعي ، وفي الوقوف ، وغير ذلك ، قال : له حج ، ولك أجر .

وهذا كالذي سبق فيمن جهز غازيًا أو خلفه في أهله فإنه يكون له أجر الغازي .

وفي هذا الحديث من الفوائد : أن الإنسان ينبغي له أن يسأل عمن يجهله إذا دعت الحاجة إلى ذلك ، لأن الرسول ﷺ سأل : « من القوم ؟ » يخشى أن يكونوا من العدو فيخونوا أو يغدروا ، أما إذا لم تَدعُ الحاجة إلى ذلك فلا حاجة أن تسأل عن الشخص ، فتقول : من أنت ؛ لأن هذا قد يكون داخلًا فيما لا يعنيك ، من حسن إسلام المرء تركه ما لا يعنيه[3] ، لكن إذا دعت الحاجة فاسأل حتى تكون على بينة من الأمر وعلى بصيرة .

---

(١) أخرجه البخاري - واللفظ له - في فضائل أصحاب النبي (٣٧٠٦) ، ومسلم في فضائل الصحابة (٣٠) .

(٢) أخرجه مسلم في الحج (٤٠٩) ، وأبو داود في مناسك الحج (١٧٣٦) ، قوله « ركبًا » الركب أصحاب الإبل خاصة . وأصله أن يستعمل في عشرة فما دونها .

(٣) هذا معنى حديث ، وقد أخرجه الترمذي في الزهد (٢٣١٧) ، وأحمد في مسنده (٢٠١/١) .

وفي هذا الحديث : دليل على أن وصف الإنسان نفسه بالصفات الحميدة إذا لم يقصد الفخر وإنما يقصد التعريف لا بأس به ، لأن هؤلاء الصحابة لما سئلوا : من أنتم ؟ قالوا : مسلمون ، والإسلام – لاشك أنه – وصف مدح ، لكن إذا أخبر الإنسان به عن نفسه ، فقال : أنا مسلم ، أنا مؤمن لمجرد الخبر لا من أجل الافتخار فإن ذلك لا بأس به ، وكذلك لو قاله على سبيل التحدث بنعمة ، فلو قال : الحمد للَّه الذي جعلني من المسلمين ، وما أشبه ذلك فإنه لا بأس به ، بل يكون محمودًا إذا لم يحصل فيه محظور .

ومن فوائد هذا الحديث : أن الإنسان إذا وصف نفسه بصفة هي فيه بدون فخر ، فإنه لا يعد هذا من باب مدح النفس وتزكية النفس الذي نهى اللَّه عنه في قوله ﴿ فَلَا تُزَكُّوٓاْ أَنفُسَكُمْۖ هُوَ أَعْلَمُ بِمَنِ ٱتَّقَىٰٓ ﴾ [النجم : ٣٢] .

وفيه : دليل أيضًا على أن الإنسان ينبغي له أن يغتنم وجود العالِم ، لأن هؤلاء القوم لما أخبرهم رسول اللَّه ﷺ : أنه رسول اللَّه ، جعلوا يسألونه ، فينبغي للإنسان أن يغتنم فرصة وجود العالِم من أجل أن يسأله عما يشكل عليه .

ومن فوائده أيضًا : أن الصبي إذا حج له وليه فله أجرٌ ، والحج يكون للصبي لا للولي ، وقد اشتهر عند عامة الناس أن الصبي يكون حجة لوالديه ، وهذا لا أصل له ، بل حج الصبي له ، لقول النبي ﷺ ، لما قالت المرأة : ألهذا حج قال : « نعم ، ولك أجر » ، فالحج له ، وليعلم أن الصبي بل كل من دون البلوغ يكتب له الأجر ولا يكتب عليه الوزر .

واستدل بعض العلماء بقوله : « نعم له حج » أنه إذا أحرم الصبي لزمه جميع لوازم الحج ، يلزمه الطواف ، والسعي ، والوقوف بعرفة ، والمبيت بمزدلفة ومنى ، ورمي الجمرات ، يفعل ما يقدر عليه ، وما لا يقدر عليه يفعل عنه ، إلا الطواف والسعي فإنه يطاف ويسعى به .

وقال بعض أهل العلم : لا بأس أن يتحلل الصبي ولو بدون سبب ، لأنه قد رفع عنه القلم ، وليس بمكلف ، ولا يقال : إن نفل الحج كفرضه ، لا يجوز الخروج منه ، وهذا الصبي متنفل فلا يجوز له أن يخرج لأن أصل الصبي من غير المكلفين ، فلا تلزمه بشيء ، وهو غير مكلف ، وهذا مذهب أبي حنيفة رحمه الله أن الصبي لا يلزم بإتمام الحج ، ولا بواجبات الحج ، ولا باجتناب محذوراته ، وأن ما جاء منه قُبِلَ ، وما تخلف لا يُسأل عنه ، وهذا يقع كثيرًا من الناس الآن ، حيث يحرمون بصبيانهم ، ثم يتعب الصبي ، ويأبي أن يكمل ويخلع إحرامه ، فعلى مذهب جمهور العلماء لابد أن نلزمه بالإتمام ، وعلى مذهب أبي حنيفة وهو الذي مال إليه صاحب الفروع رحمه الله ، من أصحاب الإمام أحمد ، ومن تلاميذ شيخ الإسلام ابن تيمية ، أنه لا يلزم ؛ لأنه ليس أهلًا للتكليف .

وفي هذا الحديث أيضًا : ما يدل على أن الصبي وإن كان غير مميز فإنه يصح منه الحج ولكن كيف تصح نيته وهو غير مميز ؟ قال العلماء : ينوي عنه وليه بقلبه أنه أدخله في الإحرام ، ويفعل وليه كل ما يعجز عنه .

وفي هذه المناسبة نود أن نبين هل يجب على من دخل في الحج أن ينوي الطواف بنية مستقلة

والسعي بنية مستقلة والرمي كذلك ، أمْ لا يشترط ؟

هذه المسألة فيها خلاف بين العلماء : من العلماء من قال : إذا أحرم الإنسان بالحج وطاف وسعى على النية الأولى ، يعني : لم يجدد نيته عند الطواف ولا عند السعي ، فإن حجه صحيح ، قال تعليلًا لقوله : إن الطواف والسعي والوقوف والرمي والمبيت كلها أجزاء من عبادة فتكفي النية الأولى ، كما أن الإنسان إذا صلى ونوى عند الدخول في الصلاة أنه دخل في الصلاة ، فإنه لا يلزمه أن ينوي الركوع ولا السجود ولا القيام ولا القعود لأنها أجزاء من العبادة ، فكذلك الحج .

وهذا القول ينبغي أن يؤتى به عند الضرورة ، يعني : لو جاءك مستفت يقول : أنا دخلت المسجد الحرام وطفت ، وفي تلك الساعة لم تكن عندي نية ، فهنا ينبغي أن يفتي بأنه لا شيء عليه ، وأن طوافه صحيح ، أما عند السعي فينبغي أن يقال : إنك إذا نويت أحسن ، وهو على كلٍّ لابد أن ينوي الطواف ، ولكن أحيانًا يغيب عن ذهنه أنه طواف الركن أو طواف التطوع وما أشبه ذلك .

* * *

١٨٠ - وعَنْ أَبي موسى الأشْعَرِيِّ ﷺ عن النبيِّ ﷺ أنَّهُ قال : « الخَازِنُ المُسْلِمُ الأمينُ الَّذِي يُنَفِّذُ ما أُمِرَ بِهِ ، فَيُعْطِيهِ كامِلًا مُوَفَّرًا ، طَيِّبَةً بِهِ نَفْسُهُ إلى الَّذِي أُمِرَ لَهُ بِهِ أَحَدُ المُتَصدِّقِينَ »[١] متفقٌ عليه .

وفي روايةٍ : « الَّذي يُعْطِي مَا أُمِرَ بِهِ » وضَبَطُوا « المُتَصدِّقَينِ » بفتح القاف مع كسر النون على التَّثْنِيَةِ ، وعَكْسُهُ عَلى الجَمْعِ وَكلاهُمَا صَحِيحٌ .

الشرح

قال المؤلف - رحمه اللَّه تعالى - فيما نقله عن أبي موسى الأشعري ﷺ ، أن النبي ﷺ ، قال : « الخَازِنُ المُسْلِمُ الأمينُ الَّذِي يُنَفِّذُ ما أُمِرَ بِهِ ، فَيُعْطِيهِ كامِلًا مُوَفَّرًا ، طَيِّبَةً بِهِ نَفْسُهُ إلى الَّذِي أُمِرَ لَهُ بِهِ أَحَدُ المُتَصدِّقِينَ » متفق عليه . الخازن مبتدأ وأحد المتصدقين خبر ، يعني أن الخازن الذي جمع هذه الأوصاف الأربعة : المسلم ، الأمين ، الذي ينفذ ما أمر به ، طيبة بها نفسه .

الوصف الأول : فهو مسلم احترازًا من الكافر ، فالخازن إذا كان كافرًا وإن كان أمينًا وينفذ ما أُمر به ليس له أجر ، لأن الكفار لا أجر لهم في الآخرة فيما عملوا من الخير ، قال اللَّه تعالى : ﴿ وَقَدِمْنَآ إِلَىٰ مَا عَمِلُواْ مِنْ عَمَلٍ فَجَعَلْنَٰهُ هَبَآءً مَّنثُورًا ﴾ [الفرقان : ٢٣] وقال تعالى : ﴿ وَمَن يَرْتَدِدْ مِنكُمْ عَن دِينِهِۦ فَيَمُتْ وَهُوَ كَافِرٌ فَأُوْلَٰٓئِكَ حَبِطَتْ أَعْمَٰلُهُمْ فِى ٱلدُّنْيَا وَٱلْءَاخِرَةِ ۖ وَأُوْلَٰٓئِكَ أَصْحَٰبُ ٱلنَّارِ ۖ هُمْ فِيهَا خَٰلِدُونَ ﴾[٢] [البقرة : ٢١٧] أما إذا عمل خيرًا ثم أسلم فإن يسلم على ما أسلف من خير يُعطى أجرُهُ .

---

(١) أخرجه البخاري بنحوه في الإجارة (٧٩) ، ومسلم في الزكاة (١٠٢٣) ، والإمام أحمد في مسنده (٣٩٤/٤) ، ورواية « الذي يعطي ما أمر به » هذه رواية لمسلم ، ولأحمد في المسند ، قوله « الخازن » أي لمال غيره بإذنه .

(٢) قوله : ﴿ هَبَآءً مَّنثُورًا ﴾ الهباء مثل ذرات التراب الصغيرة التي لا تُرى بالعين إلا من خلال أشعة الشمس الداخلة من كوة أو من نافذة . والمنثور : المفرق لا يمكن جمعه ، قوله : ﴿ حَبِطَتْ ﴾ فسدت وبطلت .

الوصف الثاني : الأمين يعني الذي أدى ما اؤتمن عليه ، فحفظ المال ، ولم يفسده ، ولم يغز فيه ، ولم يتعد فيه .

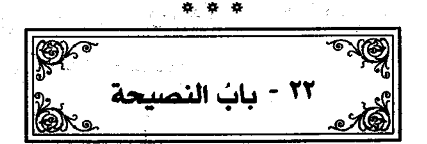
الوصف الثالث : الذي ينفذ ما أمر به : يعني يفعله ؛ لأن من الناس من يكون أمينًا لكنه متكاسل ، فهذا أمين ومنفذ يفعل ما أمر به ، فيجمع بين القوة والأمانة .

الوصف الرابع : أن تكون طيبة به نفسه ، إذا نفذ وأعطى ما أمر به أعطاه وهو طيبة به نفسه ، يعني لايمن على المعطي ، أو يظهر أن له فضلًا عليه ، بل يعطيه طيبة به نفسه ، هذا يكون أحد المتصدقين مع أنه لم يدفع من ماله فلسًا واحدًا .

مثال ذلك : إذا كان عند رجل مال ، وكان أمين الصندوق - صندوق المال - مسلمًا أمينًا ، ينفذ ما أمره به ، ويعطيه صاحبه طيبة به نفسه ، فإذا قال لهم صاحب الصندوق : يا فلان أعط هذا الفقير عشرة آلاف ريال . فأعطاه على الوصف الذي قال النبي ﷺ فإنه يكون كالذي تصدق بعشرة آلاف ريال ، من غير أن ينقص من أجر المتصدق شيئًا ، ولكنه فضل من الله ﷻ .

ففي هذا الحديث : دليل على فضل الأمانة ، وعلى فضل التنفيذ فيما وُكل فيه وعدم التفريط فيه ، ودليل على أن التعاون على البر والتقوى يكتب لمن أعان مثل ما يكتب لمن فعل ، وهذا فضل الله يؤتيه من يشاء .

* * *



٢٢ - باب النصيحة

قال تعالى : ﴿ إِنَّمَا ٱلْمُؤْمِنُونَ إِخْوَةٌ ﴾ [الحجرات : ١٠] وقال تعالى : إخبارًا عن نوح ﷺ : ﴿ وَأَنصَحُ لَكُمْ ﴾ [الأعراف : ٦٢] وَعَنْ هُودٍ ﷺ : ﴿ وَأَنَا لَكُمْ نَاصِحٌ أَمِينٌ ﴾ [1] [الأعراف : ٦٨] .

الشرح

قال المؤلف - رحمه الله تعالى - (باب النصيحة) النصيحة : هي بذل النصح للغير ، والنصح معناه أن الشخص يحب لأخيه الخير ، ويدعوه إليه ، ويبينه له ، ويرغبه فيه ، وقد جعل النبي ﷺ الدين النصيحة ، فقال : « الدين النصيحة » ثلاث مرات ، قالوا : لمن يا رسول الله ؟ قال : « لله ولكتابه ولرسوله ولأئمة المسلمين وعامتهم » [2] وضد النصيحة المكر والغش والخيانة والخديعة .

ثم صدر المؤلف هذا الباب بثلاث آيات .

الآية الأولى : قوله تعالى : ﴿ إِنَّمَا ٱلْمُؤْمِنُونَ إِخْوَةٌ ﴾ وإذا ثبتت هذه الجملة بالمؤمنين ، أي : إذا تحققت فيهم واتصفوا بها ، فإنه لابد أن تكون هذه الأخوة مثمرة للنصيحة .

---

(١) قوله تعالى : ﴿ وَأَنصَحُ لَكُمْ ﴾ أي : أدلكم على طريق رشدكم ، قوله تعالى : ﴿ أَمِينٌ ﴾ أي : ثقة على ما اؤتمن عليه .

(٢) أخرجه مسلم - واللفظ له - في الإيمان (٩٥) ، والترمذي في البر والصلة (١٩٢٦) ، وأحمد في مسنده (٢٩٧/٢) .

والواجب على المؤمنين أن يكونوا كما قال الله ﷻ : ﴿ إِنَّمَا ٱلْمُؤْمِنُونَ إِخْوَةٌ ﴾ وهم إخوة في الدين ، والأخوة في الدين أقوى من الأخوة في النسب ، بل إن الأخوة في النسب مع عدم الدين ليست بشيء ، ولهذا قال الله ﷻ لنوح لما قال : ﴿ إِنَّ ٱبْنِى مِنْ أَهْلِى وَإِنَّ وَعْدَكَ ٱلْحَقُّ ﴾ قال تعالى : ﴿ إِنَّهُۥ لَيْسَ مِنْ أَهْلِكَ ۖ إِنَّهُۥ عَمَلٌ غَيْرُ صَٰلِحٍ ۖ ﴾ [هود: ٤٦] أما المؤمنون فإنهم وإن تباعدت أقطارهم وتباينت لغاتهم ، فإنهم إخوة مهما كان ، والأخ لابد أن يكون ناصحًا لأخيه ، مبديًا له الخير ، مبينًا ذلك له داعيًا له .

أما الآية الثانية : فهي قول نوح ، وهو أول الرسل ، يقول لقومه حين دعاهم إلى الله تعالى ﴿ وَأَنصَحُ لَكُمْ وَأَعْلَمُ مِنَ ٱللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ ﴾ يعني لست بغاشٍّ لكم ، ولا خادع ، ولا غادر ، ولكني ناصح .

أما الآية الثالثة : فقول الله تعالى : عن هود ﴿ وَأَنَا۠ لَكُمْ نَاصِحٌ أَمِينٌ ﴾ .

وعلى كل حال يجب على المرء أن يكون لإخوانه من الناصحين مبديًا لهم الخير داعيًا لهم إليه حتى يحقق بذلك الأخوة الإيمانية .

* * *

وأما الأحاديث :

١٨١ – فَالأَوَّلُ : عن أبي رُقَيَّةَ تَمِيم بنِ أوسٍ الدَّارِيِّ ﷺ أَنَّ النَّبيَّ ﷺ قال : « الدِّينُ النَّصِيحَةُ » قُلْنَا : لِمَنْ ؟ قَالَ : « للّهِ ، وَلِكِتَابِهِ ، ولِرَسُولِهِ ، وَلأَئمةِ المُسْلِمِينَ ، وَعَامَّتِهِم » (١) رَوَاهُ مُسْلِمٌ .

الشرح

ذكر المؤلف – رحمه الله تعالى – : في (باب النصيحة) ثلاثة أحاديث : الحديث الأول عن تميم بن أوس الداري ﷺ ، أن النبي ﷺ قال : « الدين النصيحة ، الدين النصيحة ، الدين النصيحة » ، كررها ثلاثًا ﷺ لأجل أن ينتبه المخاطب والسامع حتى يتلقى ما يقوله النبي ﷺ بانتباه ، قلنا : لمن يا رسول الله ؟ قال : « لله ولكتابه ولرسوله ولأئمة المسلمين وعامتهم » خمسة أشياء هي محل النصيحة :

والنصيحة لله ﷻ تكون بالإخلاص لله تعالى ، والتعبد له محبة وتعظيمًا ، لأن الله ﷻ يتعبد له العبد محبة ، فيقوم بأوامره طلبًا للوصول إلى محبته ﷻ وتعظيمًا ، فينتهي عند محارمه خوفًا منه ﷻ .

ومن النصيحة لله : أن يكون الإنسان دائمًا ذاكرًا لربه ، بقلبه ولسانه وجوارحه ، أما القلب فإنه لا حدود لذكره ، والإنسان يستطيع أن يذكر الله بقلبه على كل حال ، وفي كل ما يشاء ، وفي كل ما يسمع ، لأن في كل شيء لله تعالى آية تدل على وحدانيته وعظمته وسلطانه ، يفكر في خلق السموات والأرض ، يفكر في الليل والنهار ، يفكر في آيات الله من الشمس والقمر والنجوم والجبال والشجر والدواب وغير ذلك ، فيحدث هذا ذكرًا لله ﷻ في قلبه .

---

(١) أخرجه مسلم – اللفظ له – في الإيمان (٩٥) ، والترمذي في البر والصلة (١٩٢٦) ، والإمام أحمد في مسنده (٢/٢٩٧) .

من النصيحة للَّه : أن تكون غيرته للَّه فيغار للَّه عَجَلًا إذا انتهكت محارمه [١] ، كما كان النبي ﷺ هكذا فإنه - عليه الصلاة والسلام - كان لا ينتقم لنفسه أبدًا ، مهما قال الناس فيه لا ينتقم لنفسه ، ولكنه إذا انتهكت محارم اللَّه صار أشد الناس انتقامًا ممن ينتهك حرمات اللَّه تعالى ، فيغار الإنسان على ربه ؛ فلا يسمع أحدًا يسب اللَّه أو يشتم اللَّه أو يستهزء باللَّه إلا غار من ذلك ، حتى إذا كان له أن يقتله قتله ، لأن هذا من النصيحة للَّه عَجَلًا .

ومن النصيحة للَّه : أن يذب عن دين اللَّه تعالى الذي شرعه لعباده ، فيبطل كيد الكائدين ، ويرد على الملحدين الذين يعرضون الدين وكأنه قيود ، تقيد الناس عن حرياتهم ، والحقيقة أنها قيود حرية ، لأن الإنسان يتقيد للَّه عَجَلًا ، وباللَّه ، وفي دين اللَّه ، من لم يتقيد بهذا تقيد للشيطان ، وفي خطوات الشيطان ، لأن النفس همامة دائمًا ، فلا تسكن نفس أحد أبدًا ، بل لابد أن تكون لها همم في أي شيء ؛ إما في خير ، وإما في شر .

وما أحسن قول ابن القيم رَحِمَهُ اللَّهُ في النونية ، حيث قال :

هربوا من الرق الذي خُلِقُوا له   وبلوا برق النفس والشيطان

هربوا من الرق الذي خُلِقُوا له . ما هو الرق الذي خلقنا له ؟ عبادة اللَّه . قال تعالى : ﴿ وَمَا خَلَقْتُ ٱلْجِنَّ وَٱلْإِنسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ ﴾ [الذاريات : ٥٦] لكنهم هربوا من هذا الرق الذي هو كمال الحرية وكمال السعادة إلى رق النفس والشيطان .

والنفس - نعوذ باللَّه من شرها - تسترق الإنسان وتملي عليه الهوى فيكون خاضعًا لهواها ، وإذا غلب الهوى زال العقل ، وكما قال الشاعر :

سكران سكر هوى وسكر مدامة   فمتى إفاقة من به سُكْران ؟

يصف شخصًا يشرب الخمر - والعياذ باللَّه - فيقول إنه فيه سكران ، سكر الهوى وسكر المدامة ، فمتى إفاقة مَنْ به سكران ؟ وواضح أن هذا لا ترجى له إفاقة .

فالحاصل : أن الإنسان يتعبد للَّه عَجَلًا لا للنفس ولا للشيطان ، حتى يتحرر من القيود التي تضره ولا تنفعه .

ومن النصيحة للَّه عَجَلًا : أن يكون باثًا دين اللَّه في عباد اللَّه ، لأن هذا مقام الرسل كلهم ، فهم دعاة إلى اللَّه يدعون الناس إلى اللَّه عَجَلًا ، كما قال اللَّه تعالى عنهم : ﴿ وَلَقَدْ بَعَثْنَا فِى كُلِّ أُمَّةٍ رَّسُولًا أَنِ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ وَٱجْتَنِبُوا۟ ٱلطَّـٰغُوتَ ۖ فَمِنْهُم مَّنْ هَدَى ٱللَّهُ وَمِنْهُم مَّنْ حَقَّتْ عَلَيْهِ ٱلضَّلَـٰلَةُ ۚ ﴾ [٢] [النحل : ٣٦] وقوله تعالى : ﴿ فَمِنْهُم ﴾ أي من الأمة التي بعث فيها الرسول . نسأل اللَّه تعالى أن

---

(١) هذا معنى حديث ولفظه « إن اللَّه يغار ، وإن المؤمن يغار ... » وقد أخرجه مسلم في التوبة (٣٦) ، وأحمد في مسنده (٢/٥٢٠) .

(٢) ﴿ ٱلطَّـٰغُوتَ ﴾ كل متعد ، وكل معبود من دون اللَّه ، قوله : ﴿ حَقَّتْ ﴾ ثبت ووجبت ، قوله : ﴿ ٱلضَّلَـٰلَةُ ﴾ الضلال هو الكفر بكل أنواعه .

يهدينا وإياكم صراطه المستقيم .

ثم قال ﷺ « ولكتابه » يعني أيضًا من الدين النصيحة لكتاب الله ﷻ ، وهذا يشمل كتاب الله الذي نزل على محمد ﷺ ، والذي أُنزل من قبل ، والنصيحة لهذه الكتب بتصديق أخبارها ، أي أن ما أخبرتْ به يجب أن نصدقه .

أما بالنسبة للقرآن فظاهر ، لأن القرآن - ولله الحمد - نُقل بالتواتر من عهد النبي ﷺ إلى يومنا هذا وإلى أن يرفعه الله ﷻ في آخر الزمان ، يقرأه الصغير والكبير ، وأما الكتب السابقة فإنها قد حرفت وغيرت وبدلت ، لكن ما صح منها فإنه يجب تصديق خبره واعتقاد صحة حكمه ، لكننا لسنا متعبدين بأحكام الكتب السابقة إلا بدليل من شرعنا .

ومن النصيحة لكتاب الله : أن يدافع الإنسان عنه ، يدافع مَنْ حَرَّفه تَحْرِيفًا لفظيًا ، أو تحريفًا معنويًا ، أو من زعم أن فيه نقصًا ، أو أن فيه زيادة ، فالرافضة مثلًا يدّعون أن القرآن فيه نقص ، وأن القرآن الذي نزل على محمد أكثر من هذا الموجود بين أيدي المسلمين . فخالفوا بذلك إجماع المسلمين ، والقرآن - ولله الحمد - لم ينقص منه شيء ، ومن زعم أنه قد نقص منه شيء فقد كذَّب قوله تعالى : ﴿ إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا ٱلذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُۥ لَحَٰفِظُونَ ﴾ [الحجر: ٩] فالله ﷻ تكفَّلَ بحفظه ، من ادعى أنه قد نُقص حرفًا واحدًا أو اختزل منه فقد كذَّب الله ﷻ ، فعليه أن يتوب ويرجع إلى الله من هذه الردة .

ومن النصيحة لكتاب الله : أن ينشر الإنسان معناه بين المسلمين ؛ المعنى الصحيح الموافق لظاهره ، بحيث لا يكون فيه تحريف ولا تغيير ، فإذا جلس مجلسًا فإن من الخير والنصيحة لكتاب الله أن يأتي بآية من كتاب الله ﷻ يبينها للناس ، ويوضح معناها ، ولا سيما الآيات التي تكثر قراءتها بين المسلمين ؛ مثل الفاتحة ، فإن الفاتحة كما نعلم جميعًا ركن من أركان الصلاة في كل ركعة ؛ للإمام والمأموم والمنفرد ، فيحتاج الناس إلى معرفتها ، فإذا فسرها بين يدي الناس وبيَّنها لهم فإن هذا من النصيحة لكتاب الله ﷻ .

ومن النصيحة لكتاب الله : أن تؤمن بأن الله تعالى تكلم بهذا القرآن حقيقة ، وأنه كلامه ﷻ ؛ الحرف والمعنى ، ليس الكلام الحروف دون المعاني ، ولا المعاني دون الحروف ، بل إنه كلام الله لفظًا ومعنىً تكلم به وتلقاه منه جبريل ثم نزل به على محمد ﷺ ، وقد قال الله تعالى : ﴿ وَإِنَّهُۥ لَتَنزِيلُ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿١٩٢﴾ نَزَلَ بِهِ ٱلرُّوحُ ٱلْأَمِينُ ﴿١٩٣﴾ عَلَىٰ قَلْبِكَ لِتَكُونَ مِنَ ٱلْمُنذِرِينَ ﴿١٩٤﴾ بِلِسَانٍ عَرَبِيٍّ مُّبِينٍ ﴾ [الشعراء: ١٩٢- ١٩٥] وتأمل كيف قال : على قلبك مع أن الرسول ﷺ يسمعه بأذنيه ، ولكن الأذن إن لم يصل مسموعها إلى القلب فإنه لا يستقر في النفس ، فلا يستقر في النفس إلا ما وصل إلى القلب عن طريق الأذن ، أو عن طريق الرؤيا بالعين ، أو المس باليد ، أو الشم بالأنف ، أو الذوق بالفم فالمهم : القرار وهو القلب ، ولهذا قال ﴿ عَلَىٰ قَلْبِكَ لِتَكُونَ مِنَ ٱلْمُنذِرِينَ ﴾ وعلى هذا فليس من النصيحة الخوض في الكلام على القرآن : هل هو كلام الله حقيقة أو ليس بكلام الله حقيقة ؟ أو أن يقول إنه خلق من مخلوقات الله ، أو ما أشبه ذلك ، بل من النصيحة أن تؤمن بأنه كلام الله حقًّا اللفظ والمعنى .

ومن النصيحة لكتاب اللَّه تعالى : أن يقوم الإنسان باحترام هذا القرآن العظيم ، فمن ذلك أن لا يمس القرآن إلا وهو طاهر من الحدثين ؛ الأصغر والأكبر ، لقول النبي ﷺ « لا يمسّ القرآن إلا طاهر »[١] أو من وراء حائل ، لأن مَنْ مسه من وراء حائل فإنه لم يمسه في الواقع ، وينبغي - لا على سبيل الوجوب - أن لا يقرأ القرآن ولو عن ظهر قلب إلا متطهرًا ، لأن هذا من احترام القرآن .

ومن النصيحة لكتاب اللَّه ﷻ : أن لا تضعه في موضع يمتهن فيه ، ويكون وضعه فيه امتهانًا له ، كمحل القاذورات وما أشبه ذلك ، ولهذا يجب الحذر مما يصنعه بعض الصبيان إذا انتهوا من الدروس في مدارسهم ، ألقوا مقرراتهم والتي من بينها الأجزاء من المصحف في الطرقات وفي الزبالة أو ما أشبه ذلك والعياذ باللَّه .

وأما وضع المصحف على الأرض الطاهرة الطيبة ، فإن هذا لا بأس به ولا حرج فيه ، لأن هذا ليس فيه امتهان للقرآن ، ولا إهانة له ، وهو يقع كثيرًا من الناس إذا كان يصلي ويقرأ من المصحف وأراد السجود يضعه بين يديه ، فهذا لا يعد امتهانًا ولا إهانة للمصحف فلا بأس به واللَّه أعلم .

وأما الثالثة : فقال النبي ﷺ : « ولرسوله » . والنصيحة لرسول اللَّه ﷺ تتضمن أشياء :

الأول : الإيمان التام برسالته وأن اللَّه تعالى أرسله إلى جميع الخلق ؛ عربهم وعجمهم ، بل إنسهم وجنهم ، قال اللَّه تعالى ﴿ وَأَرْسَلْنَاكَ لِلنَّاسِ رَسُولًا ﴾ [النساء : ٧٩] ، وقال تعالى ﴿ تَبَارَكَ الَّذِي نَزَّلَ الْفُرْقَانَ عَلَىٰ عَبْدِهِ لِيَكُونَ لِلْعَالَمِينَ نَذِيرًا ﴾ [الفرقان : ١] وقال تعالى ﴿ وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلَّا رَحْمَةً لِّلْعَالَمِينَ ﴾ [الأنبياء : ١٠٧] والآيات في هذه كثيرة ، فيؤمن بأن محمدًا رسول اللَّه إلى جميع الخلق من جنٍ وإنس .

ومن النصيحة لرسول اللَّه ﷺ : تصديق خبره : وأنه صادق مصدوق ، صادق فيما يخبر به ، مصدوق فيما أخبر به من الوحي ، فما كُذِب ولا كَذَب ﷺ .

ومن النصيحة لرسول اللَّه ﷺ : صدق الاتباع له ، بحيث لا تتجاوز شريعته ولا تنقص عنها ، فتجعله إمامك في جميع العبادات ، فإن الرسول ﷺ هو إمام هذه الأمة وهو متبوعها ، ولا يحل لأحد أن يتبع سواه ، إلا إن كان واسطة بينه وبين الرسول ، بحيث يكون عنده من علم السنة ما ليس عندك ، فحينئذ لا حرج أن تتبع هذا الرجل بشرط أن تكون معتقدًا بأنه واسطة بينك وبين الشريعة ، لا أنه مستقل ، لأنه لا أحد يستقل بالتشريع إلا الرسول ﷺ ، أما من سواه فهو مبلغ عن الرسول ﷺ ، كما قال الرسول ﷺ « بلغوا عني ولو آية »[٢] .

ومن النصيحة لرسول اللَّه ﷺ : الذب عن شريعته وحمايتها ، فالذب عنها بأن لا ينتقصها أحد ،

---

(١) أخرجه مالك في الموطأ في القرآن (١) ، والهيثمي في مجمع الزوائد (٢٧٦/١) ، والهندي في كنز العمال (٢٨٣٠) ، وهذا الحديث له طرق ومعظمها لا يخلو من ضعف ولكنه ضعف يسير ، فالعلة فيه تكمن في إرسال الحديث أو سوء الحفظ فقد قال ابن عبد البر : لا خلاف عن مالك في إرسال هذا الحديث .

(٢) أخرجه البخاري في أحاديث الأنبياء (٣٤٦١) ، والترمذي في العلم (٢٦٦٩) ، وأحمد في مسنده (١٥٩/٢) .

والذب عنها بأن لا يزيد فيها أحد ما ليس منها ، فتحارب أهل البدع القولية والفعلية والعقدية ، لأن البدع كلها باب واحد ، كلها حقل واحد ، كلها ضلالة ، كما قال الرسول ﷺ « كل بدعة ضلالة » (١) لا يستثنى من هذا بدعة قولية ولا فعلية ولا عقدية ، كل ما خالف هدي النبي ﷺ وما جاء به في العقيدة أو في القول أو في العمل فهو بدعة .

فمن النصيحة لرسول اللّه ﷺ أن تحارب أهل البدع بمثل ما يحاربون به السنة ؛ إن حاربوا بالقول فبالقول ، وإن حاربوا بالفعل فبالفعل ، جزاء وفاقًا ، لأن هذا من النصيحة لرسول اللّه ﷺ .

ومن النصيحة للنبي ﷺ : احترام أصحابه وتعظيمهم ومحبتهم لأن صحب الإنسان لاشك أنهم خاصته من الناس وأخص الناس به ، ولهذا كان الصحابة ﷺ خير القرون ؛ لأنهم أصحاب رسول اللّه ﷺ ، فمن سب الصحابة ، أو أبغضهم ، أو لمزهم ، أو أشار إلى شيء يبهتهم فيه ، فإنه لم ينصح للرسول ﷺ وإن زعم أنه ناصح للرسول فهو كاذب ، كيف تسب أصحاب الرسول ﷺ وتبغضهم وأنت تحب الرسول وتنصح له ؟ وقد جاء عن النبي ﷺ « المرء على دين خليله فلينظر أحدكم من يخالل » (٢) فإذا كان أصحاب الرسول ﷺ يسبهم الساب المفتري الكذاب فإنه في الحقيقة قد سَبَّ الرسول ﷺ ، ولم ينصح له ، بل هو في الحقيقة قدح في الشريعة ، لأن حملة الشريعة إلينا هم الصحابة ، فإذا كانوا أهلًا للسب والقدح لم يوثق بالشريعة ، لأن نقلتها أهل ذم وقدح ، بل إن سبَّ الصحابة سبٌّ للّه ﷻ - نسأل اللّه العافية - وقدح في حكمته أن يختار لنبيه ﷺ ولحمل دينه من هم أهلٌ للذم والقدح ، إذن من النصيحة للرسول ﷺ محبة أصحابه واحترامهم وتعظيمهم ، فهذا من الدين ، فصار النصح لرسول اللّه ﷺ يتضمن هذه الأمور كلها .

الرابع : قال ﷺ « ولأئمة المسلمين » الأئمة جمع إمام ، والمراد بالإمام من يُقْتدى به ويؤتمر بأمره ، وينقسم إلى قسمين : إمامة في الدين وإمامة في السلطة .

فالإمامة في الدين : هي بيدي العلماء ، فالعلماء هم أئمة الدين الذين يقودون الناس لكتاب اللّه ويهدونهم إليه ويدلونهم على شريعة اللّه ، قال اللّه تبارك وتعالى في دعاء عباد الرحمن ﴿ رَبَّنَا هَبْ لَنَا مِنْ أَزْوَاجِنَا وَذُرِّيَّاتِنَا قُرَّةَ أَعْيُنٍ وَاجْعَلْنَا لِلْمُتَّقِينَ إِمَامًا ﴾ (٣) [الفرقان : ٧٤] فهؤلاء ما سألوا اللّه إمامة السلطة والإمارة ، بل سألوا اللّه إمامة الدين ، لأن عباد الرحمن لا يريدون السلطة على الناس ولا يطلبون الإمارة ، بل قد قال الرسول ﷺ لعبد الرحمن بن سمرة رضي الله عنه : « لا تسأل الإمارة فإنك إن أُوتيتها عن مسألة وكلت إليها وإن أوتيتها عن غير مسألة أعنت عليها » (٤) لكنهم يسألون إمامة الدين ، التي قال اللّه عنها ﴿ وَجَعَلْنَا مِنْهُمْ أَئِمَّةً يَهْدُونَ بِأَمْرِنَا لَمَّا صَبَرُوا وَكَانُوا بِآيَاتِنَا يُوقِنُونَ ﴾ [السجدة : ٢٤] فقال ﷻ : ﴿ أَئِمَّةً يَهْدُونَ بِأَمْرِنَا ﴾ .

---

(١) أخرجه مسلم في الجمعة (٤٣) ، وقد سبق تخريجه .

(٢) أخرجه أبو داود في الأدب (٤٨٣٣) ، والترمذي في الزهد (٢٣٧٨) ، وأحمد في مسنده (٢/٣٠٣) .

(٣) قوله : ﴿ قُرَّةَ أَعْيُنٍ ﴾ : أسباب سرور وفرح ، قوله : ﴿ إِمَامًا ﴾ : حجة وقدوة في الخير .

(٤) أخرجه البخاري في الأيمان والنذور (٦٦٢٢) ، ومسلم - واللفظ له - في الإيمان (١٩) .

والنصح لأئمة المسلمين أي : إمامة الدين والعلم ، هو أن الإنسان يحرص على تلقي ما عندهم من العلم ، فإنهم الواسطة بين الرسول ﷺ وبين أمته فيحرص على تلقي العلم عنهم بكل وسيلة .

والوسائل في وقتنا - ولله الحمد - كثرت ؛ من كتابة وتسجيل وتلقٍ وغير ذلك ، فالوسائل - والحمد لله - كثيرة ، فليحرص على تلقي العلم من العلماء ، وليكن تلقيه على وجه التأني لا على وجه التسرع ، لأن الإنسان إذا تسرع في تلقي العلم فربما يتلقاه على غير ما ألقاه إليه شيخه ، وقد أدب الله النبي ﷺ هذا الأدب ، فقال تعالى ﴿ لَا تُحَرِّكْ بِهِۦ لِسَانَكَ لِتَعْجَلَ بِهِۦٓ ﴿١٦﴾ إِنَّ عَلَيْنَا جَمْعَهُۥ وَقُرْءَانَهُۥ ﴿١٧﴾ فَإِذَا قَرَأْنَٰهُ فَٱتَّبِعْ قُرْءَانَهُۥ ﴾ [القيامة : ١٦- ١٨] لأن النبي ﷺ كان يبادر جبريل إذا ألقى عليه القرآن فيقرأ ، فقال الله تعالى : ﴿ لَا تُحَرِّكْ بِهِۦ لِسَانَكَ لِتَعْجَلَ بِهِۦٓ ﴾ يعني : اسكتْ لا تحرك اللسان ولا سرًّا حتى ينتهي جبريل من القراءة ، ثم بعد ذلك اقرأه .

﴿ ثُمَّ إِنَّ عَلَيْنَا بَيَانَهُۥ ﴾ [القيامة : ١٩] تكفَّل الرب ﷻ ببيانه يعني أنك لن تنساه ، مع أن المتوقع أن الإنسان إذا سكت حتى ينتهي الملقي مِن إلقائه ربما ينسى بعض الجمل ، لكن قال الله ﷻ : ﴿ ثُمَّ إِنَّ عَلَيْنَا بَيَانَهُۥ ﴾ .

ومن النصح أيضا لعلماء المسلمين : أن لا يتتبع الإنسان عوراتهم ، وزلاتهم ، وما يخطؤون فيه ، لأنهم غير معصومين ، قد يزلون وقد يخطؤون ، وكل ابن آدم خطاء وخير الخطائين التوابون [١] ، ولا سيما من يتلقى العلم فإنه يجب أن يكون أبلغ الناس في تحمل الأخطاء التي يخطئ بها شيخه ، وينبهه عليها ، فكم من إنسان انتفع من تلاميذه ؛ ينبهونه على بعض الشيء ؛ على الخطأ العلمي أو على الخطأ العملي ، وعلى أخطاء كثيرة ، لأن الإنسان بشر .

لكن الشيء المهم أن لا يكون حريصًا على تلقي الزلات ، فإنه جاء في الحديث « يا معشر من آمن بلسانه ولم يدخل في قلبه ، لا تؤذوا المسلمين ولا تتبعوا عوراتهم ، فإنه من تتبع عورة أخيه فضحه الله ولو في بيت أمه » [٢] ، هذا وهم مسلمون عامة فكيف بالعلماء ؟ .

إن الذين يلتقطون زلات العلماء ليشيعوها ليسوا مسيئين للعلماء شخصيًا وحسب ، بل مسيؤون شخصيًا ، ومسيؤون إلى علمهم الذي يحملونه ، ومسيؤون إلى الشريعة التي تتلقى من جهتهم ، لأن العلماء إذا لم يثق الناس فيهم ، وإذا اطلعوا على عوراتهم التي قد لا تكون عورات إلا على حسب نظر هذا المغرض ، فإنهم تقلُّ ثقتهم بالعلماء وبما عندهم من العلم ، فيكون في هذا جناية على الشرع الذي يحملونه من سنة الرسول عليه الصلاة والسلام .

لذلك من نصيحتك لأئمة المسلمين من أهل العلم : أن تدافع عن عوراتهم ، وأن تسترها ما استطعت ، وأن لا تسكت بل ، نبه العالِم ، وابحث معه واسأله ، ربما يُنقل عنه أشياء غير صحيحة ، وقد نقل عنا وعن غيرنا أشياء غير صحيحة لكن الناس - نسأل الله العافية - إذا كان لهم هوى

---

(١) هذا معنى حديث ، وقد أخرجه الترمذي في صفة القيامة (٢٤٩٩) .

(٢) أخرجه الترمذي في البر والصلة (٢٠٣٢) ، وأبو داود في الأدب (٤٨٨٠) ، وأحمد في مسنده (٤/٤٢٤) ، وهذا الحديث مروي بالمعنى .

وأحبوا شيئًا وعرفوا أحدًا من أهل العلم يقبل الناس قوله ، نسبوه لهذا العالم ، ثم إذا سألت نفس الذي نُسِبَ إليه القول ، قال : أبدًا ما قلت كذا ، وقد يخطئ السائل مثلًا في صيغة السؤال ، فيجيب العالم على قدر السؤال ويفهمه السائل على حسب ما في نفسه هو ، فيحصل الخطأ ، وقد يجيب العالم بالصواب بعد فهم السؤال لكن يفهمه السائل على غير وجهه فيخطئ في النقل .

وعلى كل حال من النصيحة لأئمة المسلمين : في العلم والدين أن لا يتتبع الإنسان عوراتهم ، بل يلتمس العذر لهم ، لا مانع من أن يتصل بهم ، فإذا أراد التأكد من شيء سمعه ويرى أنه خطأ ، فإذا اتصل به ربما بَيَّنَ له ، وربما يشرح له شيئًا لا يعرفه ويظن أنه أخطأ فيه ، وربما قد خفي عليه شيء فتنبهه أنت ، وتكون مشكورًا على هذا ، وقد قال أول إمام في الدين والسلطة في هذه الأمة بعد الرسول ﷺ ، أبو بكر ﷺ . حيث خطب أول خطبة ، قال للناس وهو يخاطبهم يتحدث عن نفسه : إن اعوججت فأقيموني . وذلك لأن الإنسان بشر .

فقوِّم أخاك ولا سيما أهل العلم ؛ لأن العالم خطره عظيم ، الخطر الزللي ، والخطر الرفيع ، لأن كلمة الخطر تكون للعلو والنزول ، فهو خطره عظيم ، إن أصاب هدى اللَّه على يده خلقًا كثيرًا ، وإن أَخْطَأَ ضل على يده خلق كثير ، فزلة العالم من أعظم الزلات (١) .

ولهذا أقول : يجب أن نحمي أعراض علمائنا ، وأن نداقع عنهم وأن نلتمس العذر لأخطائهم ، ولا يمنع هذا أن نتصل بهم ، وأن نسألهم ، وأن نبحث معهم ، وأن نناقشهم حتى نكون مخلصين ناصحين لأئمة المسلمين .

النوع الثاني من أئمة المسلمين : أئمة السلطة وهم الأمراء ، والأمراء في الغالب أكثر خطأ من العلماء ، لأنه لسلطته قد تأخذه العزة بالإثم ، فيريد أن يفرض سلطته على الصواب والخطأ ، فالغالب من أئمة المسلمين في السلطة وهم الأمراء أن الخطأ فيهم أكثر من العلماء إلا ما شاء اللَّه .

والنصيحة لهم : هي أن تكف عن مساوئهم ، وأن لا تنشرها بين الناس ، وأن نبذل لهم النصيحة ما استطعنا ، بالمباشرة إذا كنا نستطيع أن نباشرهم ، أو بالكتابة إذا كنا لا نستطيع ، أو بالاتصال بمن يتصل بهم إذا كنا لا نستطيع الكتابة ، لأنه أحيانًا ما يستطيع الإنسان لهم الكتابة ، ولو كتب لم تصل إلى المسؤول ، فيتصل بأحد يتصل بالمسؤول وينبهه ، فهذا من النصح .

أما نشر مساوئهم فليس به عدوان شخصي عليهم فقط ، بل هو عدوان شخصي عليهم وعلى الأمة جميعًا ، لأن الأمة إذا امتلأت صدورها من الحقد على ولاة أمورها عصت الولاة ، ونابذتهم ، وحينئذ تحصل الفوضى ويسود الخوف ويزول الأمن ، فإذا بقيت هيبة ولاة الأمور في الصدور صار لهم هيبة ، وحميت أوامرهم ونظمهم التي لا تخالف الشريعة .

فالمهم : أن أئمة المسلمين تشمل النوعين ، أئمة الدين وهم العلماء وأئمة السلطان وهم الأمراء ، وإن

---

(١) هذا معنى حديث وقد أخرجه الدارمي في المقدمة (٢١٩) باب (٢٣) ولفظه «هل تعرف ما يهدم الإسلام .. » .

شئت فقل أئمة البيان وأئمة السلطان ، أئمة البيان وهم العلماء الذين يبينون للناس ، وأئمة السلطان وهم الأمراء الذين ينفذون شريعة الله بقوة السلطان ، إذن أئمة المسلمين سواء أئمة العلم والبيان أو أئمة القوة والسلطان يجب علينا أن نناصحهم وأن نحرص على بذل النصيحة لهم ، في الدفاع عنهم وستر معايبهم ، وعلى أن نكون معهم إذا أخطؤوا في بيان ذلك الخطأ لهم بيننا وبينهم ، لأنه ربما نعتقد أن هذا العالم مخطئ أو أن هذا الأمير مخطئ وإذا ناقشناه تبيَّن لنا أنه غير مخطئ ، كما يقع هذا كثيرًا .

كذلك أيضا : ربما تنقل لنا هذه الأشياء عن العالم أو عن الأمير على غير وجهها ، إمَّا لسوء القصد من الناقل ، لأن بعض الناس - والعياذ بالله - يحب تشهير السوء بالعلماء وبالأمراء ، فيكون سيئ القصد ينقل عليهم ما لم يقولوا ، وينسب إليهم ما لا يفعلون ، فلابد إذا سمعنا عن عالم أو عن أمير ما نرى أنه أخطأ لابد في تمام النصيحة من الاتصال به ومناقشته وبيان الأمر وتبينه حتى نكون على بصيرة .

أما آخر الحديث فيقول : (وعامتهم) يعني النصح لعامة المسلمين ، وقدم الأئمة على العامة ؛ لأن الأئمة إذا صلحوا صلحت العامة ؛ فإذا صلح الأمراء صلحت العامة ، وإذا صلح العلماء صلحت العامة ؛ لذلك بدأ بهم ، وليُعلم أن أئمة المسلمين لا يراد بهم الأئمة الذين لهم الإمامة العظمى ، ولكن يراد به ما هو أعم ، فكل من له إمرة ولو في مدرسة فإنه يعتبر من أئمة المسلمين إذا نوصح وصلح ، صلح من تحت يده .

والنصيحة لعامة المسلمين : بأن تحب لهم ما تحب لنفسك ، وأن ترشدهم إلى الخير ، وأن تهديهم إلى الحق إذا ضلوا عنه ، وأن تذكرهم به إذا نسوه ، وأن تجعلهم لك بمنزلة الإخوة ، لأن الرسول ﷺ قال « المسلم أخو المسلم » [(١)] ، وقال : « المؤمن للمؤمن كالبنيان يشد بعضه بعضًا » [(٢)] ، وقال : « مثل المؤمنين في توادهم وتراحمهم وتعاطفهم كمثل الجسد الواحد إذا اشتكى منه عضو تداعى له سائر الجسد بالحمى والسهر » [(٣)] فأنت إذا أحسست بألم في أطرف شيء من أعضائك ، فإن هذا الألم يسري على جميع البدن ، كذلك ينبغي أن تكون للمسلمين هكذا إذا اشتكى أحد من المسلمين فكأنما الأمر يرجع إليك أنت .

وليُعلم أن النصيحة هي مخاطبة الإنسان سرًّا بينك وبينه ، لأنك إذا نصحته سرًّا بينك وبينه أثرت في نفسه ، وعلم أنك ناصح ، لكن إذا تكلمت أمام الناس عليه فإنه قد تأخذه العزة بالإثم فلا يقبل النصيحة ، وقد يظن أنك إنما تريد الانتقام منه وتوبيخه وحط منزلته بين الناس فلا يقبل ، لكن إذا كان السر بينك وبينه صار لها ميزانٌ كبيرٌ عنده وقيمة ، وقبل منك .

* * *

---

(١) هذا جزء من حديث ، وقد أخرجه البخاري في المظالم (٢٤٤٢) ، ومسلم في البر والصلة (٥٨) ، وأحمد في مسنده (٢/٢٧٧) .

(٢) أخرجه البخاري - واللفظ له - في الأدب (٦٠٢٦) ، ومسلم في البر والصلة (٦٥) .

(٣) أخرجه البخاري في الأدب (٦٠١١) ومسلم - واللفظ له - وبدون كلمة : الواحد في البر والصلة (٦٦) .

١٨٢ - الثَّاني : عَنْ جَرِير بْن عبد اللَّه ﷺ قال : بَايَعْتُ رَسُولَ اللَّه ﷺ عَلى إقَامِ الصَّلاة ، وإيتَاءِ الزَّكاةِ ، وَالنُّصْحِ لكُلِّ مُسْلِمٍ (١) . متفقٌ عليه .

١٨٣ - الثَّالِثُ : عَن أَنَس ﷺ عن النَّبيِّ ﷺ قال : « لا يُؤمِنُ أحَدُكُم حَتَّى يُحِبَّ لأخِيهِ مَا يُحِبُّ لِنَفْسِهِ » (٢) متفقٌ عليه .

الشرح

قال المؤلف رَحِمَهُ اللَّهُ عن جرير بن عبد اللَّه البجلي قال : بايعت النبي ﷺ على إقام الصلاة ، وإيتاء الزكاة والنصح لكل مسلم ؛ هذه ثلاثة أشياء حق محض للَّه ، وحق للآدمي محض ، وحق مشترك ، أما الحق المحض للَّه فهو قوله : إقام الصلاة .

ومعنى إقام الصلاة : أن يأتي بها الإنسان مستقيمًا على الوجه المطلوب ، فيحافظ عليها في أوقاتها ويقوم بأركانها ، وواجباتها ، وشروطها ، ويتمم ذلك ، بمستحباتها .

ومن هذا : بالنسبة للرجال إقامة الصلاة في المساجد مع الجماعة ، فإن هذا من إقامة الصلاة ، ومن تخلف عن الجماعة بلا عذر فهو آثم ، بل هو عن بعض العلماء كشيخ الإسلام ابن تيمية رَحِمَهُ اللَّهُ إذا صلى بدون عذر مع غير الجماعة فصلاته باطلة مردودة عليه ، لا تقبل منه ، ولكن الجمهور على أنها تصح مع الإثم ، وهذا هو الصحيح ، فمن ترك صلاة الجماعة بلا عذر فصلاته صحيحة ولكنه آثم ، وهذا هو القول الراجح وهو المشهور من مذهب الإمام أحمد ، وهو الذي عليه جمهور من قالوا بوجوب صلاة الجماعة .

ومن إقامة الصلاة : الخشوع فيها ، والخشوع هو حضور القلب وتأمله بما يقوله المصلي وما يفعله ، وهو أمر مهم ؛ لأن الصلاة بلا خشوع كالجسد بلا روح ، فأنت إذا صليت وقلبك يدور في كل واد فإنك تصلي حركات بدنية فقط ، فإذا كان قلبك حاضرًا تشعر كأنك بين يدي اللَّه عَزَّ وَجَلَّ ، تناجيه بكلامه وتتقرب إليه بذكره ودعائه ، فهذا هو لب الصلاة وروحها .

وأما قوله : إيتاء الزكاة يعني : إعطاءها لمستحقيها ، وهذه جامعة بين حق اللَّه وحق العباد ، أما كونها حقًّا للَّه فلأن اللَّه فرض على عباده الزكاة وجعلها من أركان الإسلام ، وأما كونها حقًّا للآدمي فلما فيها من قضاء حوائج المحتاجين ، وغير ذلك من المصالح المعلومة في معرفة أهل الزكاة .

وأما قوله : « النصح لكل مسلم » فهذا هو الشاهد من الحديث للباب ، أي أن ينصح لكل مسلم ؛ قريب أو بعيد ، صغير أو كبير ، ذكر أو أنثى .

---

(١) أخرجه البخاري في الإيمان (٥٧) ، ومسلم في الإيمان (٩٧) .

(٢) أخرجه البخاري في الإيمان (١٣) ، ومسلم في الإيمان (٤٥) ، والترمذي في صفة القيامة (٢٥١٥) والإمام أحمد في مسنده (١٧٦/٣) .

وكيفية النصح لكل مسلم هي كما ذكره في حديث أنس بعد « لا يؤمن أحدكم حتى يحب لأخيه ما يحب لنفسه » **هذه هي النصيحة أن تحب لإخوانك ما تحب لنفسك ، بحيث يسرك ما يسرهم ويسوءك ما يسوءهم ، وتعاملهم بما تحب أن يعاملوك به ، وهذا الباب واسع كبير جدًّا .**

فنفى النبي – عليه الصلاة والسلام – الإيمان عمن لا يحب لأخيه ما يحب لنفسه في كل شيء ، ونفي الإيمان : قال العلماء المراد به نفي الإيمان الكامل ، يعني لا يكمل إيمانك حتى تحب لأخيك ما تحب لنفسك ، وليس المراد انتفاء الإيمان بالكلية .

ويذكر أن جرير بن عبد الله البجلي ﷺ حين بايع النبي – عليه الصلاة والسلام – على النصح لكل مسلم ، أنه اشترى فرسًا من شخص بدراهم فلما اشتراه وذهب به وجد أنه يساوي أكثر ، فرجع إلى البائع وقال له : إن فرسك يساوي أكثر ، فأعطاه ما يرى أنها قيمته ، فانصرف وجرب الفرس فإذا به يجده يساوي أكثر مما أعطاه أخيرًا ، فرجع إليه وقال له : إن فرسك يساوي أكثر فأعطاه ما يرى أنها قيمته ، وكذلك مرة ثالثة حتى بلغ من مائتي درهم إلى ثماني مائة درهم ، لأنه بايع الرسول ﷺ على النصح لكل مسلم ، وإذا بايع النبي ﷺ أحدًا على شيء لا يختص به فهو عام لجميع الناس ، كل الناس مبايعون الرسول – عليه الصلاة والسلام – على النصح لكل مسلم ، بل على إقام الصلاة ، وإيتاء الزكاة ، وإسداء النصح لكل مسلم ، والمبايعة هنا بمعنى المعاهدة ؛ لأن المبايعة تطلق على البيع والشراء ، وتطلق على المعاهدة ، كما قال تعالى : ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ يُبَايِعُونَكَ إِنَّمَا يُبَايِعُونَ ٱللَّهَ ﴾ [الفتح : ١٠] ، وسميت مبايعة لأن كلًّا من المتبايعين يمد باعه إلى الآخر ، يعني يده من أجل أن يمسك بيد الآخر ، ويقول : بايعتك على كذا وكذا .

* * *

٢٣ - باب الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر

قال اللَّه تعالى : ﴿ وَلْتَكُن مِّنكُمْ أُمَّةٌ يَدْعُونَ إِلَى ٱلْخَيْرِ وَيَأْمُرُونَ بِٱلْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ ٱلْمُنكَرِ ۚ وَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ ﴾ [آل عمران : ١٠٤] وقال تعالى : ﴿ كُنتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ تَأْمُرُونَ بِٱلْمَعْرُوفِ وَتَنْهَوْنَ عَنِ ٱلْمُنكَرِ ﴾ [آل عمران : ١١٠] وقال تعالى : ﴿ خُذِ ٱلْعَفْوَ وَأْمُرْ بِٱلْعُرْفِ وَأَعْرِضْ عَنِ ٱلْجَٰهِلِينَ ﴾ [الأعراف : ١٩٩] وقال تعالى : ﴿ وَٱلْمُؤْمِنُونَ وَٱلْمُؤْمِنَٰتُ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَآءُ بَعْضٍ ۚ يَأْمُرُونَ بِٱلْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ ٱلْمُنكَرِ ﴾ [التوبة : ٧١] وقال تعالى : ﴿ لُعِنَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ مِنۢ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ عَلَىٰ لِسَانِ دَاوُۥدَ وَعِيسَى ٱبْنِ مَرْيَمَ ۚ ذَٰلِكَ بِمَا عَصَوا۟ وَّكَانُوا۟ يَعْتَدُونَ ۝٧٨ كَانُوا۟ لَا يَتَنَاهَوْنَ عَن مُّنكَرٍ فَعَلُوهُ ۚ لَبِئْسَ مَا كَانُوا۟ يَفْعَلُونَ ﴾ [1] [المائدة : ٧٨- ٧٩] .

---

(١) قوله : ﴿ يَدْعُونَ ﴾ أي : يأمرون الناس ، قوله : ﴿ ٱلْمُفْلِحُونَ ﴾ أي : الظافرون ، قوله : ﴿ أَوْلِيَآءُ بَعْضٍ ﴾ أي أنصار يتعاونون على العبادة ، قوله : ﴿ لُعِنَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ مِنۢ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ ﴾ هم أصحاب السبت الذين جاء ذكرهم في سورة الأعراف ، قوله : ﴿ لَا يَتَنَاهَوْنَ ﴾ أي لا ينهى بعضهم بعضا .

الشرح

قال المؤلف - رحمه الله تعالى - : (باب الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر) فالمعروف : كل ما عرفه الشرع وأقره من العبادات القولية والفعلية الظاهرة والباطنة ، والمنكر : كل ما أنكره الشرع ومنعه من أنواع المعاصي ، من الكفر ، والفسوق ، والعصيان ، والكذب ، والغيبة ، والنميمة ، وغير ذلك .

والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر ، فرض كفاية ، إذا قام به من يكفي حصل المقصود ، وإذا لم يقم به من يكفي وجب على جميع المسلمين ، كما قال الله تعالى : ﴿ وَلْتَكُن مِّنكُمْ أُمَّةٌ يَدْعُونَ إِلَى ٱلْخَيْرِ وَيَأْمُرُونَ بِٱلْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ ٱلْمُنكَرِ ﴾ فبدأ بالدعوة إلى الخير ، ثم ثنى بالأمر بالمعروف . والنهي عن المنكر ، وذلك لأن الدعوة إلى الخير قبل الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر ، والدعوة إلى الخير هي بيان الخير للناس ، بأن يدعوهم إلى الصلاة وإلى الزكاة وإلى الحج وإلى الصيام وإلى بر الوالدين وإلى صلة الأرحام وما أشبه ذلك ، ثم بعد هذا يأتي دور الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر ، فيأمر يقول : صَلِّ ، إما على سبيل العموم أو على سبيل الخصوص ، بأن يمسك برجل متهاون بالصلاة ويقول : صَلِّ .

* * *

١٨٤ - فالأوَّلُ : عن أبي سعيدٍ الخُدْرِيِّ ﷺ قالَ : سَمِعْتُ رسُول اللهِ ﷺ يَقولُ : « مَنْ رَأَى مِنْكُم مُنْكَرًا فَلْيُغَيِّرْهُ بِيَدِهِ ، فَإِنْ لَمْ يَسْتَطِعْ فَبِلِسَانِهِ ، فَإِنْ لَمْ يَسْتَطِعْ فَبِقَلْبِهِ وَذلِكَ أَضْعفُ الإِيمانِ » [1] رواه مسلم .

الشرح

وهناك مرحلة أخرى وهي التغيير الذي قال فيه الرسول عليه الصلاة والسلام « من رأى منكم منكرًا فليغيره بيده » ولم يقل : فَلْيَنْهَ عنه لأن هذه مرحلة فوق النهي ، « فإن لم يستطع فَبِلِسَانِهِ وإن لم يستطع فبقلبه » [2] اللسان هو مرحلة النهي عن المنكر ، إذا كان الإنسان لا يستطيع أن يتكلم فإنه ينكر بقلبه ، بكراهته وبغضه لهذا المنكر .

والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر يحتاج إلى أمور :

الأمر الأول : أن يكون الإنسان عالمًا بالمعروف والمنكر ، فإن لم يكن عالمًا بالمعروف فإنه لا يجوز أن يأمر به ، لأنه قد يأمر بأمر يظنه معروفًا وهو منكر ولا يدري ، فلابد أن يكون عالمًا أن هذا من المعروف الذي شرعه الله ورسوله ، ولابد أن يكون عالمًا بالمنكر ، أي عالمًا بأن هذا منكر فإن لم يكن عالمًا بذلك فلا ينه عنه ، لأنه قد ينهي عن شيء هو معروف فيترك المعروف بسببه ، أو ينهى عن شيء وهو مباح فيضيق على عباد الله ، بمنعهم مما أباح الله لهم ، فلابد أن يكون عالمًا بأن هذا منكر ، وقد يتسرع كثير من إخواننا الغيورين ، فينهون عن أمور مباحة يظنونها منكرًا فيضيقون على عباد الله .

---

(١) أخرجه مسلم في الإيمان (٧٨) ، والترمذي في الفتن (٢١٧٢) ، والإمام أحمد في مسنده (٣/٢٠ ، ٤٩ ، ٥٢) ، قوله « فبقلبه » أي : ينكره ؛ بأن يكره ذلك ، ويعزم أن لو قدر على إزالته بقولٍ أو فعلٍ فَعَل .

(٢) أخرجه مسلم في الإيمان (٧٨) ، والترمذي في الفتن (٢١٧٢) ، وأحمد في مسنده (٣/٢٠) .

فالواجب أن لا تأمر بشيء إلا وأنت تدري أنه معروف ، وأن لا تنهَ عن شيء إلا وأنت تدري أنه منكر .

الأمر الثاني : أن تعلم بأن هذا الرجل تارك للمعروف أو فاعل للمنكر ، ولا تأخذ الناس بالتهمة أو بالظن ، فإن اللَّه تعالى يقول : ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱجْتَنِبُوا۟ كَثِيرًا مِّنَ ٱلظَّنِّ إِنَّ بَعْضَ ٱلظَّنِّ إِثْمٌ ۖ وَلَا تَجَسَّسُوا۟ ﴾ (١) [الحجرات : ١٢] ، فإذا رأيت شخصًا لا يصلي معك في المسجد ، فلا يلزم من ذلك أنه لا يصلي في مسجد آخر ، بل قد يكون يصلي في مسجد آخر ، وقد يكون معذورًا ، فلا تذهب من أجل أن تنكر عليه حتى تعلم أنه يتخفف بلا عذر .

نعم : لا بأس أن تذهب وتسأله ، وتقول : يا فلان ، نحن نفقدك في المسجد ، لا بأس عليك ، أما أن تنكر ، أو أشد من ذلك أن تتكلم به في المجالس ، فهذا لا يجوز ، لأنك لا تدري ؛ ربما يكون يصلي في مسجد آخر ، أو يكون معذورًا .

ولهذا كان النبي - عليه الصلاة والسلام - يستفهم أولًا قبل أن يأمر ، فإنه ثبت في صحيح مسلم أن رجلًا دخل يوم الجمعة والنبي ﷺ يخطب ، فجلس ولم يصل تحية المسجد ، فقال النبي ﷺ : « أصليت » ؟ قال : لا ، قال : « قُم فَصَلِّ ركعتين » (٢) ، ولم يأمره أن يصلي ركعتين حتى سأله : هل صلى أم لا ؟ مع أن ظاهر الحال أنه رجل دخل وجلس ولم يصل ، ولكن الرسول - عليه الصلاة والسلام - خاف أن يكون قد صلى وهو لم يشعر به ، فقال : أصليت ؟ فقال : لا ، قال : قم فصل ركعتين .

كذلك في المنكر لا يجوز أن تنكر على شخص إلا إذا علمت أنه وقع في المنكر ، فإذا رأيت مع شخص امرأة في سيارة مثلًا ، فإنه لا يجوز أن تتكلم عليه أو على المرأة ، لأنه ربما أن تكون هذه المرأة من محارمه ؛ زوجة أو أم أو أخت أو ما أشبه ذلك ، حتى تعلم أنه قد أركب معه امرأة ليست من محارمه ، وأمثال هذا كثير ، المهم أنه لابد من علم الإنسان أن هذا معروف ليأمر به ، أو منكر لينهى عنه ، ولابد أن يعلم - أيضًا - أن الذي وجه إليه الأمر أو النهي قد وقع في أمر يحتاج إلى أمر فيه أو نهي عنه .

ثم إن الذي ينبغي للآمر بالمعروف والناهي عن المنكر أن يكون رفيقًا بأمره رفيقًا في نهيه ، لأنه إذا كان رفيقًا أعطاه اللَّه ﷻ مالا يُعطى على العنف ، كما قال النبي - عليه الصلاة والسلام - : « إن اللَّه يعطي على الرفق مالا يعطي عن العنف » (٣) فأنت إذا عنفت على من تنصح ربما ينفر ، وتأخذه العزة بالإثم ، ولا ينقاد لك ، ولكن إذا جئته بالتي هي أحسن فإنه ينتفع .

ويذْكر أنه رجلًا من أهل الحسبة - يعني من الذين يأمرون بالمعروف وينهون عن المنكر - في زمان مضى قديمًا مرَّ على شخص يسنى على إبله - أي يستخرج لها الماء من البئر عند آذان المغرب ، وعادة الناس الذين يسنون أن يحدوا بالإبل ، يعني : يُنشد شعرًا من أجل أن تخف الإبل - سبحان اللَّه -

---

(١) قوله : ﴿ كَثِيرًا مِّنَ ٱلظَّنِّ ﴾ هو ظن السوء بأهل الخير قوله : ﴿ بَعْضَ ٱلظَّنِّ ﴾ ظن السوء بالآخرين دون دليل ، قوله : ﴿ وَلَا تَجَسَّسُوا۟ ﴾ لا تتبعوا شؤون الناس الخاصة بهم مما قد يتضمن عورة من عوراتهم .

(٢) أخرجه البخاري في الجمعة (٩٣١) ، ومسلم - اللفظ له - في الجمعة (٥٥) .

(٣) هذا جزء من حديث ، وقد أخرجه مسلم في البر والصلة (٧٧) .

تطرب لنشيد الشعر فجاء هذا الرجل ومعه غيره ، وتكلم على هذا بكلام قبيح على العامل الذي يسني ، والعامل متعب من الشغل وضاقت عليه نفسه فضرب الرجل بالمسوقة - المسوقة عصا طويلة متينة - فشرد الرجل وذهب إلى المسجد والتقى بالشيخ - عالم من العلماء من أحفاد الشيخ محمد بن عبد الوهاب رحمه الله - وقال إني فعلت كذا وكذا وإن الرجل ضربني بالمسوقة .

فلما كان من اليوم الثاني ذهب الشيخ بنفسه إلى المكان قبل غروب الشمس ، وتوضأ ووضع مشلحه [1] على خشبة حول منحاة .

ثم أذن المغرب فوقف كأنه يريد أن يأخذ المشلح ، فقال له : يا فلان يا أخي جزاك اللَّه خيرًا ، أنت تطلب الخير في العمل هذا ، وأنت على خير ، لكن الآن أذن ، لو أنك تذهب وتصلي المغرب وترجع ما فاتك شيء . الكلام اللين هين ، قال له : جزاك اللَّه خيرًا مَرَّ علي رجلٌ أمس جلفٌ وقام ينتهرني ، وقال لي : أنت فيك ما فيك ، وما ملكت نفسي حتى ضربته بالمسوقة ، قال : الأمر لا يحتاج إلى ضرب ، أنت عاقل . تكلم معه بكلام لين فأسند المسوقة (العصا التي يضرب بها الإبل) ثم ذهب يصلي بانقياد .

وكان هذا لأن الأول عامله بالعنف ، والثاني عامله بالرفق ، ونحن وإن لم تحصل هذه القضية فلدينا كلام الرسول ﷺ ، يقول : « إن اللَّه يعطي على الرفق ما لا يعطي على العنف » [2] ويقول ﷺ : « ما كان الرفق في شيء إلا زانه وما ينزع من شيء إلا شانه » [3] فعلى الآمر أن يحرص على أن يكون أمره ونهيه رفيقًا .

الشرط الثالث : أن لا يزول المنكر إلى ما هو أعظم منه ، فإن كان هذا المنكر لو نهينا عنه زال إلى ما هو أعظم منه ، فإنه لا يجوز أن ننهى عنه ، درءًا لكبرى المفسدتين بصغراهما . لأنه إذا تعارض عندنا مفسدتان وكانت إحداهما أكبر من الأخرى ، فإننا نتقي الكبرى بالصغرى .

مثال ذلك : لو أن رجلًا يشرب الدخان أمامك فأردت أن تنهاه وتقيمه من المجلس ، ولكنك تعرف أنك لو فعلت لذهب يجلس مع السكارى ، ومعلوم أن شرب الخمر أعظم من شرب الدخان ، فهنا لا ننهاه بل نعالجه بالتي هي أحسن لئلا يؤول الأمر إلى ما هو أنكر وأعظم .

ويُذكر أن شيخ الإسلام ابن تيمية - رحمة اللَّه عليه - مَرَّ بقوم في الشام من التتار ووجدهم يشربون الخمر ، وكان معه صاحب له ، فمَرَّ بهم شيخ الإسلام ولم ينههم ، فقال له صاحبه لماذا لم تنههم ؟ قال : لو نهيناهم لذهبوا يهتكون أعراض المسلمين وينهبون أموالهم ، وهذا أعظم من شربهم الخمر ، فتركهم مخافة أن يفعلوا ما هو أنكر وأعظم وهذا لا شك أنه من فقهه رحمه الله .

فالمهم أنه يشترط لوجوب الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر أن لا يتضمن ذلك ما هو أكبر ضررًا وأعظم إثمًا ، فإن تضمن ذلك فإن الواجب دفع أعلى المفسدتين بأدناهما ، ودفع أكبرهما بأصغرهما ، وهذه قاعدة مشهورة معروفة عند العلماء .

---

(١) مشلحه : أي ثيابه . (٢) سبق تخريجه .

(٣) أخرجه مسلم في البر والصلة (٧٨) ، وأحمد في مسنده (٥٨/٦) .

الشرط الرابع : اختلف العلماء - رحمهم اللَّه - في اشتراط أن يكون الآمر والناهي فاعلًا لما أمر به تاركًا لما نهى عنه ، والصحيح أنه لا يشترط ، وأنه يأمر بالمعروف وينهى عن المنكر ، ولو كان لا يفعل المعروف ولا يتجنب المنكر ، فإن ذنبه عليه ، لكن يجب أن يأمر وينهى ، لأنه إذا ترك الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر لكونه لا يفعل المأمور ولا يترك المحظور ، لأضاف ذنبًا إلى ذنبه ، لذا فإنه يجب عليه أن يأمر بالمعروف وينهى عن المنكر وإن كان يفعل المنكر ويترك المعروف .

ولكن في الغالب بمقتضى الطبيعة الفطرية أن الإنسان لا يأمر الناس بشيء لا يفعله ، بل يستحي ، ويخجل ، ولا ينهى الناس عن شيء يفعله . لكن الواجب أن يأمر بما أمر به الشرع وإن كان لا يفعله ، وأن ينهى عما نهى عنه الشرع وإن كان لا يتجنبه ، لأن كل واحد منهما واجب منفصل عن الآخر ، وهما غير متلازمين .

ثم إنه ينبغي للآمر بالمعروف ، والناهي عن المنكر أن يقصد بذلك إصلاح الخلق ، وإقامة شرع اللَّه ، لا أن يقصد الانتقام من العاصي ، أو الانتصار لنفسه ، فإنه إذا نوى هذه النية لم ينزل اللَّه البركة في أمره ولا في نهيه ، بل يكون كالطبيب يريد معالجة الناس ودفع البلاء عنهم ، فينوي بأمره أولًا : إقامة شرع اللَّه ، وثانيًا : إصلاح خلق اللَّه ، وكذلك نهيه ، حتى يكون مصلحًا وصالحًا ، نسأل اللَّه أن يجعلني وإياكم من الهداة المهتدين المصلحين الصالحين إنه جواد كريم .

وفي ختام الآية يقول اللَّه ﷻ ﴿ وَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡمُفۡلِحُونَ ﴾ ﴿ وَأُوْلَٰٓئِكَ ﴾ المشار إليهم تلك الأمة التي تأمر بالمعروف ، وتنهى عن المنكر ، والمفلح : هو الذي فاز بمطلوبه ونجا من مرهوبه .

وهنا قال : ﴿ وَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡمُفۡلِحُونَ ﴾ وهذه الجملة تفيد عند أهل العلم باللغة العربية تفيد الحصر ، أي أن الفلاح إنما يكون لهؤلاء الذين يأمرون بالمعروف وينهون عن المنكر ، ويدعون إلى الخير .

ثم قال ﷻ بعدها ﴿ وَلَا تَكُونُواْ كَٱلَّذِينَ تَفَرَّقُواْ وَٱخۡتَلَفُواْ مِنۢ بَعۡدِ مَا جَآءَهُمُ ٱلۡبَيِّنَٰتُۚ ﴾ [آل عمران : ١٠٥] ، والنهي عن التفرق بعد ذكر الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر يدل على أن ترك الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر سبب للتفرق ، وذلك أن الناس إذا كانت لهم مشارب متعددة مختلفة تفرقوا ، فهذا يعمل طاعة وهذا يعمل معصية ، وهذا يسكر وهذا يصلي وما أشبه ذلك ، فتتفرق الأمة ، ويكون لكل طائفة مشرب ، ولهذا قال : ﴿ وَلَا تَكُونُواْ كَٱلَّذِينَ تَفَرَّقُواْ ﴾ .

إذن لا يجمع الأمة إلا الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر ، فلو أن الأمة أمرت بالمعروف ونهت عن المنكر ، وتحاكمت إلى الكتاب والسنة ، ما تفرقت أبدًا ، ولحصل لهم الأمن ، ولكان لهم أمن أشد من كل أمن . كما قال اللَّه تعالى : ﴿ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَلَمۡ يَلۡبِسُوٓاْ إِيمَٰنَهُم بِظُلۡمٍ أُوْلَٰٓئِكَ لَهُمُ ٱلۡأَمۡنُ وَهُم مُّهۡتَدُونَ ﴾ [(١)] [الأنعام : ٨٢] الدول الآن الكبرى والصغرى كلها تكرس الجهود الكبيرة الجبارة لحفظ الأمن ، ولكن كثيرًا من المسلمين غفلوا عن هذه الآية ، الأمن التام موجود في هاتين الكلمتين : ﴿ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَلَمۡ يَلۡبِسُوٓاْ إِيمَٰنَهُم

---

(١) قوله تعالى : ﴿ وَلَمۡ يَلۡبِسُوٓاْ ﴾ أي : لم يخلطوا ، قوله تعالى : ﴿ بِظُلۡمٍ ﴾ أي : بشرك .

بِظُلْمٍ ﴾ إذا تحقق الإيمان في الشعب ، ولم يلبس إيمانه بظلم ، فحينئذٍ يحصل له الأمن .

وأضرب مثلًا قريبًا للأفهام بعيدًا للأزمان ، في صدر هذه الأمة المباركة كان أكبر مسؤول فيها ينام وحده في المسجد ، ويمشي في السوق وحده ، لا يخاف إلا الله ، عمر بن الخطاب ﷺ يكون الحصبة في المسجد وينام عليها ، ليس عنده حارس ولا يحتاج لأحد يحرسه ؛ لا في السوق ولا في بيته ولا في المسجد ، لأن الإيمان الخالص لم يُلبس بظلم ، أي : لم يخلط بظلم كان في ذلك الوقت ، فكان الناس آمنين .

ثم ذهب عهد الخلفاء الراشدين وجاء عهد بنو أمية ، وصار في أمراء بني أمية من حاد عن سبيل الخلفاء الراشدين ، فحصل الاضطراب ، وحصلت الفتن ، وقامت الخوارج ، وحصل الشر .

ثم جاء عهد عمر بن عبد العزيز رحمه الله فاستتب الأمن ، وصاروا يسافرون ويذهبون ويجيئون وهم آمنون ، ولكن الله عز وجل من حكمته لم يُمد له في الخلافة ، فكانت خلافته سنتين وأشهرًا . فالمهم أن الأمن كل الأمن ليس بكثرة الجنود ، ولا بقوة السلاح ، ولا بقوة الملاحظة والمراقبة ، ولكن الأمن في هذين الأمرين فقط ﴿ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَلَمْ يَلْبِسُوٓا۟ إِيمَـٰنَهُم بِظُلْمٍ أُو۟لَـٰٓئِكَ لَهُمُ ٱلْأَمْنُ وَهُم مُّهْتَدُونَ ﴾ [الأنعام : ٨٢] .

ثم ذكر المؤلف رحمه الله في سياق الآيات قول الله تعالى ﴿ وَٱلْمُؤْمِنُونَ وَٱلْمُؤْمِنَـٰتُ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَآءُ بَعْضٍ يَأْمُرُونَ بِٱلْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ ٱلْمُنكَرِ وَيُقِيمُونَ ٱلصَّلَوٰةَ وَيُؤْتُونَ ٱلزَّكَوٰةَ وَيُطِيعُونَ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥٓ أُو۟لَـٰٓئِكَ سَيَرْحَمُهُمُ ٱللَّهُ إِنَّ ٱللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴾ [التوبة : ٧١] ، المؤمنون والمؤمنات بعضهم أولياء بعض ، كل واحد يتولى الثاني ، ينصره ويساعده ، وانظر إلى هذه الآية في المؤمنين حيث قال ﴿ وَٱلْمُؤْمِنُونَ وَٱلْمُؤْمِنَـٰتُ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَآءُ بَعْضٍ ﴾ وفي المنافقين قال : ﴿ ٱلْمُنَـٰفِقُونَ وَٱلْمُنَـٰفِقَـٰتُ بَعْضُهُم مِّنۢ بَعْضٍ ﴾ [التوبة : ٦٧] وليسوا أولياء بعض ، بل المؤمن هو ولي أخيه ، يأمرون بالمعروف وينهون عن المنكر .

وفي هذه الآية دليل على أن وظيفة الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر ليست خاصة بالرجال ، بل حتى النساء عليهن أن يأمرن بالمعروف وينهين عن المنكر ، ولكن في حقول النساء ، ليس في مجامع الرجال وفي أسواق الرجال ، لكن في حقول النساء ومجتمعات النساء ؛ في أيام العرس ، وفي أيام الدراسة وما أشبه ذلك ، إذا رأت المرأة منكرًا تنهى عنه ، وإذا رأت تفريطًا في واجب تأمر به ؛ لأن الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر على كل مؤمن ومؤمنة ﴿ يَأْمُرُونَ بِٱلْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ ٱلْمُنكَرِ وَيُقِيمُونَ ٱلصَّلَوٰةَ وَيُؤْتُونَ ٱلزَّكَوٰةَ وَيُطِيعُونَ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥٓ أُو۟لَـٰٓئِكَ سَيَرْحَمُهُمُ ٱللَّهُ إِنَّ ٱللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴾ [التوبة : ٧١] نسأل الله أن يعمنا وإياكم برحمته ومغفرته .

ذكر رحمه الله هذه الآية ﴿ لُعِنَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ مِنۢ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ عَلَىٰ لِسَانِ دَاوُۥدَ وَعِيسَى ٱبْنِ مَرْيَمَ ذَٰلِكَ بِمَا عَصَوا۟ وَّكَانُوا۟ يَعْتَدُونَ ﴾ [المائدة : ٧٨] اللعن هو الطرد والإبعاد من رحمة الله والعياذ بالله ، ولا يستحقه إلا من فعل كبيرة من كبائر الذنوب .

وبنو إسرائيل هم بنو يعقوب بن إسحاق بن إبراهيم ، فإسرائيل هذا لقب ليعقوب بن إسحاق بن إبراهيم ، إبراهيم له ولدان : إسماعيل وإسحاق . إسماعيل هو الولد الأكبر وهو الذي أمره الله بذبحه ،

أمره الله أن يذبحه ثم مَنَّ الله عليهما جميعًا برفع هذا الأمر ، ونسخه ، وفداه الله ﷻ بذبح عظيم ، وأما إسحاق وهو الولد الثاني لإبراهيم وهو من زوجته ، وأما إسماعيل فهو من سريته هاجر رضي الله عنها ، بنو إسرائيل هم من نسل يعقوب بن إسحاق ، وأرسل الله لهم الرسل الكثيرة ، وكان منهم المعتدون الذين يقتلون الأنبياء بغير حق ، والعياذ بالله .

وكانوا أيضًا لا ينهون عن منكر فعلوه ، بل يرى بعضهم المنكر ولا ينهى عنه ، وقصة القرية التي كانت حاضرة البحر مشهورة معلومة في القرآن الكريم ، وهم قوم من اليهود حرم الله عليهم الصيد من البحر يوم السبت ، فكان في يوم السبت تأتي الحيتان شرعًا على وجه الماء من كثرتها ، ويوم لا يسبتون لا تأتيهم ، فطال عليهم الأمد ، فقالوا : لابد أن نتخذ حيلة نتوصل بها إلى الصيد ، فقالوا : نضع شباكًا في البحر ، فإذا جاءت الحيتان يوم السبت مسكتها الشباك ، فإذا كان يوم الأحد أخذناها ، ففعلوا ذلك ، فكان منهم من يعظون وينهون عن هذا المنكر ، وقوم ساكتين ، وقوم فاعلين ، فعاقبهم الله ﷻ وقال : ﴿ كُونُوا قِرَدَةً خَاسِئِينَ ﴾ [البقرة : ٦٥] ، فكانوا - والعياذ بالله - قردة ، بنو آدم انقلبوا قردة خاسئين أذلة .

والشاهد من هذا : أن فيهم قومًا لم يعظوا ولم يقوموا بما أوجب الله عليهم من النهي عن المنكر ، فكانوا ممن دخلوا في هذه اللعنة ، ولهذا قال تعالى : ﴿ لُعِنَ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ بَنِي إِسْرَائِيلَ عَلَى لِسَانِ دَاوُدَ وَعِيسَى ابْنِ مَرْيَمَ ذَلِكَ بِمَا عَصَوْا وَكَانُوا يَعْتَدُونَ ﴾ وداود متأخر عن موسى بكثير ، وعيسى بن مريم كذلك ، فهذان النبيان لعنا الذين لا يتناهون عن منكر فعلوه ، وقد حكى ذلك عنهما مقرًا ذلك ، فصار (من لا يتناهي عن المنكر من الملعونين) والعياذ بالله .

وفي هذا : دليل على وجوب النهي عن المنكر ، وعلى أن تركه سبب اللعن والطرد عن رحمة الله .

* * *

وقال تعالى : ﴿ وَقُلِ الْحَقُّ مِنْ رَبِّكُمْ فَمَنْ شَاءَ فَلْيُؤْمِنْ وَمَنْ شَاءَ فَلْيَكْفُرْ ﴾ [الكهف : ٢٩] وقال تعالى : ﴿ فَاصْدَعْ بِمَا تُؤْمَرُ ﴾ [الحجر : ٩٤] وقال تعالى : ﴿ أَنْجَيْنَا الَّذِينَ يَنْهَوْنَ عَنِ السُّوءِ وَأَخَذْنَا الَّذِينَ ظَلَمُوا بِعَذَابٍ بَئِيسٍ بِمَا كَانُوا يَفْسُقُونَ ﴾ (١) [الأعراف : ١٦٥] والآيات في الباب كثيرة معلومة .

الشرح

ثم قال المؤلف رحمه الله فيما ساقه من الآيات ﴿ وَقُلِ الْحَقُّ مِنْ رَبِّكُمْ فَمَنْ شَاءَ فَلْيُؤْمِنْ وَمَنْ شَاءَ فَلْيَكْفُرْ ﴾ [الكهف : ٢٩] الحق من الله ﷻ ، من الرب الذي خلق الخلق ، والذي له الحق في أن يوجب على عباده ما شاء ، الحق منه فيجب علينا قبوله .

﴿ فَمَنْ شَاءَ فَلْيُؤْمِنْ وَمَنْ شَاءَ فَلْيَكْفُرْ ﴾ هذه الجملة ليست للتخيير ، وأن الإنسان مخير إن شاء آمن وإن شاء كفر ، ولكنها للتهديد ، والدليل على هذا آخر الآية ، وهو قوله تعالى : ﴿ أَعْتَدْنَا لِلظَّالِمِينَ نَارًا

---

(١) قوله ﷺ : ﴿ فَاصْدَعْ ﴾ أي : اجهر بدعوتك ، قوله تعالى : ﴿ وَأَخَذْنَا ﴾ أي : أهلكنا .

أَحَاطَ بِهِمْ سُرَادِقُهَاۚ وَإِن يَسْتَغِيثُواْ يُغَاثُواْ بِمَآءٍ كَٱلْمُهْلِ يَشْوِى ٱلْوُجُوهَۚ بِئْسَ ٱلشَّرَابُ وَسَآءَتْ مُرْتَفَقًا ﴾ (١) [الكهف: ٢٩] فمن شاء فليؤمن فله الثواب الجزيل، ومن شاء فليكفر فعليه العقاب الأليم، ويكون من الظالمين كما قال تعالى: ﴿ وَٱلْكَٰفِرُونَ هُمُ ٱلظَّٰلِمُونَ ﴾ [البقرة: ٢٥٤]، ففي هذا تهديد لمن لم يؤمن بالله ﷻ، وأن الحق بيِّن وظاهر جاء به محمد - عليه الصلاة والسلام - من رب العالمين، فمن اهتدى فقد وفق، نسأل الله لنا ولكم الهداية، ومن ضل - والعياذ بالله - فقد خزي. والله المستعان.

ثم قال المؤلف - رحمه الله تعالى - فيما ذكره من الآيات الدالة على وجوب الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، ساق - رحمه الله تعالى - قوله ﷻ: ﴿ فَٱصْدَعْ بِمَا تُؤْمَرُ وَأَعْرِضْ عَنِ ٱلْمُشْرِكِينَ ﴾، والخطاب هنا للنبي ﷺ، وليُعلم أن الخطاب الموجه للرسول ﷺ ينقسم إلى قسمين:

قسم خاص به، وقسم له ولأمته، والأصل أنه له ولأمته، لأن لأمته أسوة حسنة فيه - عليه الصلاة والسلام - لكن إذا وُجدتْ قرينة تدل على أن الخطاب للرسول - عليه الصلاة والسلام - كان خاصًّا به، مثل قوله تعالى: ﴿ أَلَمْ نَشْرَحْ لَكَ صَدْرَكَ ﴾ [الشرح: ١] ومثل قوله تعالى: ﴿ وَٱلضُّحَىٰ ۝ وَٱلَّيْلِ إِذَا سَجَىٰ ۝ مَا وَدَّعَكَ رَبُّكَ ﴾ (٢) [الضحى: ١-٣] فهذا خاص بالرسول عليه الصلاة والسلام.

أما مثل قوله تعالى: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِىُّ لِمَ تُحَرِّمُ مَآ أَحَلَّ ٱللَّهُ لَكَۖ ﴾ [التحريم: ١] فهذا له ولأمته، ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِىُّ إِذَا طَلَّقْتُمُ ٱلنِّسَآءَ فَطَلِّقُوهُنَّ لِعِدَّتِهِنَّ ﴾ [الطلاق: ١]، فهذا له ولأمته، ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلرَّسُولُ بَلِّغْ مَآ أُنزِلَ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَۖ ﴾ [المائدة: ٦٧] فهذا له ولأمته، لقوله ﷺ «بلغوا عني» (٣).

فهنا يقول الله ﷻ لرسوله ﴿ فَٱصْدَعْ بِمَا تُؤْمَرُ ﴾ يعني: أظهر ما تؤمر به وبَيِّنْهُ، ولا تأخذك في الله لومة لائم، وهذا له ولأمته، كل الأمة يجب عليها أن تصدع بما أمرها الله به؛ تأمر به الناس، وأن تصدع بما نهى الله عنه؛ تنهى عنه الناس، لأن النهي عن الشيء أمر بتركه.

﴿ فَٱصْدَعْ بِمَا تُؤْمَرُ وَأَعْرِضْ عَنِ ٱلْمُشْرِكِينَ ﴾ يعني: لا تهتم بهم، في حالهم ولا فيما يأتي من أذاهم، يعني لا تحزن لعدم إيمانهم كما قال الله تعالى ﴿ فَلَعَلَّكَ بَٰخِعٌ نَّفْسَكَ عَلَىٰٓ ءَاثَٰرِهِمْ إِن لَّمْ يُؤْمِنُواْ بِهَٰذَا ٱلْحَدِيثِ أَسَفًا ﴾ (٤) [الكهف: ٦].

﴿ لَعَلَّكَ بَٰخِعٌ نَّفْسَكَ أَلَّا يَكُونُواْ مُؤْمِنِينَ ﴾ [الشعراء: ٣] يعني لعلك مهلك نفسك إذا لم يؤمنوا بك، يعني: لا تبالي بهم، بل أعرض عنهم فيما يحصل منهم من أذى، فإن العاقبة لك، وفعلًا صارت

---

(١) قوله تعالى: ﴿ أَحَاطَ بِهِمْ سُرَادِقُهَاۚ ﴾ أحاط بهم عذابٌ كأنه سرادق أو خيمة ضربت عليهم، قوله تعالى: ﴿ كَٱلْمُهْلِ ﴾ كعكر الزيت المغلي أو كالمذاب من المعادن، قوله تعالى: ﴿ وَسَآءَتْ مُرْتَفَقًا ﴾ ساءت النار متكأ أو مقرًّا.

(٢) قوله تعالى: ﴿ وَٱلضُّحَىٰ ﴾ أقسم بوقت ارتفاع الشمس، قوله تعالى: ﴿ سَجَىٰ ﴾ سكن الناس فيه للراحة، قوله تعالى: ﴿ مَا وَدَّعَكَ رَبُّكَ ﴾ ما أبغضك ولا كرهك.

(٣) أخرجه البخاري في أحاديث الأنبياء (٣٤٦١)، والترمذي في العلم (٢٦٦٩)، وأحمد في مسنده (٢/١٥٩).

(٤) قوله تعالى: ﴿ بَٰخِعٌ نَّفْسَكَ ﴾ قاتلها ومهلكها من شدة الغم، قوله تعالى: ﴿ عَلَىٰٓ ءَاثَٰرِهِمْ ﴾ أي من بعد توليهم عن الإيمان، قوله تعالى: ﴿ أَسَفًا ﴾ حزنًا عليهم أو غيظًا عليهم أو غضبًا.

العاقبة للرسول - عليه الصلاة والسلام - صبر وظفر .

فإنه - عليه الصلاة والسلام - خرج من مكة مهاجرًا مختفيًا ، يخشى على نفسه ، قد جعلت قريش لمن يأتي به وبصاحبه أبي بكر مائتين من الإبل ، عن كل واحدة مائة ، ولكن الله تعالى أنجاهما ، وبعد مضي سنوات قليلة رجع النبي - عليه الصلاة والسلام - فاتحًا مكة ظافرًا مظفرًا ، كانت له المنة على الملأ من قريش ، حتى وقف على باب الكعبة ، يقول « يا معشر قريش ما ترون أني فاعل بكم ؟ »[1] كلهم تحت أذلة ، قالوا : خيرًا . أخ كريم وابن أخ كريم ، قال : « فإني أقول لكم كما قال يوسف لإخوته لا تثريب عليكم اليوم ، يغفر الله لكم وهو أرحم الراحمين ، اذهبوا فأنتم الطلقاء » فمنَّ عليهم - عليه الصلاة والسلام - بعد أن كان قادرًا عليهم .

فالحاصل : أن قوله تعالى : ﴿ وَأَعْرِضْ عَنِ ٱلْمُشْرِكِينَ ﴾ يشمل أمرين ؛ أعرض عن المشركين لا تهتم بحالهم إذا لم يؤمنوا ولا تحزن عليهم ، وأعرض عن المشركين فيما يحصل لك من أذى ، فإنه سوف تكون العاقبة لك وهذا هو الواقع ، ولهذا قال بعد الآية نفسها ﴿ إِنَّا كَفَيْنَٰكَ ٱلْمُسْتَهْزِءِينَ ﴿٩٥﴾ ٱلَّذِينَ يَجْعَلُونَ مَعَ ٱللَّهِ إِلَٰهًا ءَاخَرَ فَسَوْفَ يَعْلَمُونَ ﴿٩٦﴾ وَلَقَدْ نَعْلَمُ أَنَّكَ يَضِيقُ صَدْرُكَ بِمَا يَقُولُونَ ﴿٩٧﴾ فَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ وَكُن مِّنَ ٱلسَّٰجِدِينَ ﴾ [الحجر : ٩٥ - ٩٨] .

وتأمل كيف أمر الله تعالى بتسبيحه بحمده بعد أن قال : ﴿ وَلَقَدْ نَعْلَمُ أَنَّكَ يَضِيقُ صَدْرُكَ بِمَا يَقُولُونَ ﴾ لأن المقام هنا مقام يحتاج إلى تنزيه الرب ﷻ وحمده ، من هذه الضائقة التي تصيب النبي - عليه الصلاة والسلام - من قريش ، يعني نزهه عن كل ما لا يليق به ، واعلم أنَّ مَا أجراه جل وعلا فهو في غاية الحكمة ، وهو كذلك ، فإنه صار في غاية الحكمة وفي غاية الرحمة التي يُحمد عليهما ﷻ .

ثم قال في آخر ما ساقه من الآيات قال الله ﷻ : ﴿ فَلَمَّا نَسُواْ مَا ذُكِّرُواْ بِهِۦٓ أَنجَيْنَا ٱلَّذِينَ يَنْهَوْنَ عَنِ ٱلسُّوٓءِ وَأَخَذْنَا ٱلَّذِينَ ظَلَمُواْ بِعَذَابٍۭ بَـِٔيسٍۭ بِمَا كَانُواْ يَفْسُقُونَ ﴾ [الأعراف : ١٦٥] ، هذه هي قصة القرية التي أشرنا إليها قبل وهي قرية على البحر حرم الله عليهم أن يصطادوا السمك في يوم السبت ، وابتلاهم ﷻ فصار السمك يوم السبت يأتي بكثرة شرعًا على سطح الماء ، وفي غير يوم السبت لا يرونها ، فطال عليهم الأمد فتحيلوا بحيلة لم تنفعهم شيئًا ، فوضعوا شبكًا في يوم الجمعة فإذا جاء يوم السبت وقع الحيتان في هذا الشبك ، فإذا صار يوم الأحد أخذوا هذه الحيتان .

فكان النكال من الله ﷻ أن قال لهم : ﴿ كُونُواْ قِرَدَةً خَٰسِـِٔينَ ﴾ قال لهم قولًا قدريًا : كونوا قردة خاسئين ، فأصبحوا قردة ، ولو قال : كونوا حميرًا لكانوا حميرًا لكن قال : كونوا قردة ، لأن القرد أشبه ما يكون بالإنسان ، وفعلهم الخبيث أشبه بالحلال لأنه حيلة ، فالذي يراهم ظاهريًا يقول : ما صادوا يوم السبت بل وضعوا الشبك يوم الجمعة وأخذوها يوم الأحد ، فصورة ذلك صورة حلال لكنه حرام ، فصارت العقوبة مناسبة تمامًا للعمل .

وفي هذا : قاعدة ذكرها الله ﷻ في كتابه أن الجزاء من جنس العمل ، فقال ﴿ فَكُلًّا أَخَذْنَا بِذَنۢبِهِۦ ﴾ [العنكبوت : ٤٠] ، كل إنسان يؤخذ بمثل جريمته ، فهؤلاء قيل لهم كونو قردة خاسئين فأصبحوا قردة

---

(١) ذكر ذلك ابن سعد في الطبقات الكبرى (٢/١٤١ ، ١٤٢) .

يتعاونون - والعياذ بالله - في الأسواق .

وعلى الجانب الآخر قال تعالى : ﴿ وَأَنجَيْنَا ٱلَّذِينَ يَنْهَوْنَ عَنِ ٱلسُّوٓءِ ﴾ [الأعراف : ١٦٥] وذلك حيث كانوا قد انقسموا ثلاثة أقسام : قسم فعل الحيلة ، وقسم سكت ، وقسم نهى ، وكان الذين سكتوا يقولون للذين ينهون عن السوء ﴿ لِمَ تَعِظُونَ قَوْمًا ٱللَّهُ مُهْلِكُهُمْ أَوْ مُعَذِّبُهُمْ عَذَابًا شَدِيدًا ﴾ [الأعراف : ١٦٤] يعني : اتركوهم ، هؤلاء هالكين ، لا تعظوهم ، ما تنفع فيهم الموعظة ، قالوا ﴿ مَعْذِرَةً إِلَىٰ رَبِّكُمْ وَلَعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ ﴾ [الأعراف : ١٦٤] يعني : دعونا نستفيد فائدتين المعذرة إلى الله بأن يكون لنا عذر عند الله ﷻ ، ولعلهم يتقون ، كما قال الله تعالى في فرعون : ﴿ فَقُولَا لَهُۥ قَوْلًا لَّيِّنًا لَّعَلَّهُۥ يَتَذَكَّرُ أَوْ يَخْشَىٰ ﴾ [طه : ٤٤] ، فهنا قال : ﴿ وَلَعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ ﴾ ولكن سكت الله ﷻ عن هذه الطائفة الثالثة .

قال تعالى : ﴿ أَنجَيْنَا ٱلَّذِينَ يَنْهَوْنَ عَنِ ٱلسُّوٓءِ وَأَخَذْنَا ٱلَّذِينَ ظَلَمُوا۟ بِعَذَابٍۭ بَـِٔيسٍۭ بِمَا كَانُوا۟ يَفْسُقُونَ ﴾ [الأعراف : ١٦٥] فاختلف العلماء : هل الطائفة الساكتة أُخذت بالعذاب أم أنها نجت ، والذي ينبغي أن نسكت كما سكت الله ، نقول أما التي نهت فقد نجت ، وأما التي وقعت في الحرام فقد هلكت وأخذت بالعذاب ، وأما الساكتة فقد سكت الله عنها ويسعنا ما في كتاب الله ﷻ .

* * *

١٨٥ - الثاني : عن ابن مسْعُودٍ ﷺ أنَّ رسول الله ﷺ قال : « مَا مِنْ نَبيٍّ بَعَثَهُ اللَّه في أُمَّةٍ قَبْلي إلا كان لَه مِنْ أُمَّتِهِ حَواريُّون وَأَصْحابٌ يَأْخُذُون بسُنَّتِهِ ويَقْتَدُون بِأَمْرِهِ ، ثُمَّ إنها تخْلُفُ مِنْ بَعْدِهِمْ خُلُوفٌ يَقُولُونَ مَا لَا يَفْعَلُونَ ، وَيفْعَلُون مَا لَا يُؤْمَرون ، فَمَنْ جَاهَدهُم بِيَدِهِ فَهُو مُؤمِنٌ ، ومَنْ جَاهَدهُمْ بِقَلْبِهِ فَهُو مُؤْمِنٌ ، ومَنْ جَاهَدهُمْ بِلِسَانِهِ فهُو مُؤْمِنٌ ، وليس وراء ذلِكَ مِن الإيمانِ حَبَّةُ خَرْدلٍ » [١] رواه مسلم .

١٨٦ - الثالثُ : عن أبي الوليدِ عُبادَةَ بن الصَّامِتَ ﷺ قال : « بَايَعْنَا رسول الله ﷺ عَلى السَّمْعِ والطَّاعَةِ في العُسْرِ وَاليُسْرِ ، وَالمَنْشَطِ وَالمكرَهِ ، وَعَلى أَثَرَةٍ عَلَينَا ، وَعَلَى أَنْ لَا نُنَازِعَ الأَمْرَ أَهْلَهُ إلا أَنْ تَروا كُفْرًا بَوَاحًا عِندَكُمْ مِنَ اللَّهِ تعالى فيه بُرْهَانٌ ، وَعَلَى أَنْ نَقُولَ بالحَقِّ أينَمَا كُنَّا لَا نَخافَ في اللَّه لَومَةَ لائم » [٢] متفقٌ عليه .

« المَنْشَط والمكْره » بِفَتْحِ ميميهما : أَي : في السَّهْلِ والصَّعْبِ . « والأثَرَةُ » : الاختصاص

(١) أخرجه مسلم في الإيمان (٨٠) ، والإمام أحمد في مسنده (٤٥٨/١) ، والبيهقي في سننه (٩٠/١٠) . قوله « حواريون » أي خلصاء الأنبياء وأصفياؤهم وقيل : أنصارهم ، وقيل : المجاهدون . وقيل : المختصون المفضلون والذين يصلحون للخلافة بعدهم ، قوله : « إنها تخلف » الضمير في إنها للشأن . وتخلف أي تحدث ، والخلوف جمع خُلْف بتسكين اللام وهو الخالف بشرٍّ . وأما بفتح اللام « خلَف » فهو الخالف بخير . وذلك الأشهر ، قوله « وليس وراء ذلك من الإيمان حبة خردل » أي ليس بعد كراهة المنكر بالقلب حبة خردل وكنى بها عن نهاية القلة ، فالرضا بالكفر كفرٌ ، والرضا بالمعاصي نقصان من الإيمان ، والحديث لم يقم الشارح - رحمه الله تعالى - بشرحه .

(٢) أخرجه البخاري في الأحكام (٧١٩٩ ، ٧١٢٠) ، ومسلم - واللفظ له - في الإمارة (٤١) ، قوله « برهان » أي : دليلٌ واضح .

بالمُشْتَرِكِ ، وقَدْ سَبَقَ بَيَانُها . « بَوَاحًا » بفَتْحِ البَاءِ المُوَحَّدَة بَعْدَهَا وَاوٌ ثمّ أَلفٌ ثُمَّ حاءٌ مُهْمَلَةٌ : أي ظَاهِرًا لا يَحْتَمِلُ تأْوِيلًا .

الشرح

قال – رحمه اللَّه تعالى – فيما نقله عن عبادة بن الصامت ﷺ ، قال بايَعْنَا رسول اللَّه ﷺ ، أو (بايَعَنا) رسول اللَّه ﷺ ، على السمع والطاعة في العسر واليسر والمنشط والمكره وعلى أثرة علينا . (بايعنا) أي بايع الصحابة ﷺ الرسول ﷺ على السمع والطاعة ، يعني لمن ولاه اللَّه الأمر ، لأن اللَّه تعالى قال ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ أَطِيعُواْ ٱللَّهَ وَأَطِيعُواْ ٱلرَّسُولَ وَأُوْلِي ٱلْأَمْرِ مِنكُمْۖ ﴾ [النساء : ٥٩] .

وقد سبق لنا بيان مَنْ هم أولو الأمر ، وذكرنا أنهم طائفتان ؛ العلماء والأمراء ، كلهم ولاة أمور ، لكن العلماء أولياء أمر في العلم والبيان ، وأما الأمراء فهم أولياء أمر في التنفيذ والسلطان .

يقول : بايعناه على السمع والطاعة ، ويستثنى من هذا معصية اللَّه ﷻ فلا يبايع عليها أحد ، لأنه لا طاعة لمخلوق في معصية الخالق [(١)] ، ولهذا قال أبو بكر ﷺ حين تولى الخلافة ، قال : « أطيعوني ما أطعت اللَّه ورسوله ، فإذا عصيت اللَّه ورسوله فلا طاعة لي عليكم » . فإذا أمر ولي الأمر بمعصية من المعاصي فإنه لا يجوز لأحد أن يسمع له أو يطيع ، لأن ملك الملوك رب العالمين ﷻ ، ولا يمكن أن يُعصى رب العالمين لطاعة من هو مملوك مربوب ؛ لأن كل من سوى اللَّه فإنهم مملوكون للَّه ﷻ ، فكيف يقدم الإنسان طاعتهم على طاعة اللَّه ؟! إذن يستثنى من قوله : « السمع والطاعة » ما دلت عليه النصوص من أنه لا طاعة لمخلوق في معصية الخالق .

وقوله : في العسر واليسر يعني سواء كنا معسرين في المال أو كنا موسرين ، يجب علينا جميعًا أغنيائنا وفقرائنا أن نطيع ولاة أمورنا ونسمع لهم ، وكذلك في منشطنا ومكرهنا ، يعني سواء كنا كارهين لذلك لكونهم أمروا بما لا نهواه ولا نريده ، أو كنا نشيطين في ذلك ، لكونهم أمروا بما يلائمنا ويوافقنا . المهم أن نسمع ونطيع في كل حال إلا ما استثني فيما سبق .

قال : « وأثرة علينا » . أثرة يعني استئثارًا علينا ، يعني لو كان ولاة الأمر يستأثرون على الرعية بالمال أو غيره ، مما يرفهون به أنفسهم ويحرمون من ولاهم اللَّه عليهم ، فإنه يجب علينا السمع والطاعة ، لا نقول : أنتم أكلتم الأموال ، وأفسدتموها ، وبذرتموها . فلا نطيعكم بل نقول : سمعًا وطاعة للَّه رب العالمين ، ولو كان لكم استئثار علينا ، ولو كنا نحن لا نسكن إلا الأكواخ ، ولا نفترش إلا الخلق من الفرش ، وأنتم تسكنون القصور ، وتتمتعون بأفضل الفرش . لا يهمنا هذا ، لأن هذا كله متاع الدنيا وستزولون عنه ، أو يزول عنكم ، إما هذا أو هذا ، أما نحن فعلينا السمع والطاعة ، ولو وجدنا من يستأثر علينا من ولاة الأمور .

---

(١) أخرجه أحمد في مسنده (١٣١/١) ، والطبراني في المعجم الكبير (١٦٥/١٨) ، والهندي في كنز العمال (١٤٤٠١) .

وقد قال النبي – عليه الصلاة والسلام – في حديث آخر : « اسمع وأطع وإن ضرب ظهرك وأخذ مالك »[(١)] واعلم أنك سوف تقتص منه يوم القيامة ، من حسناته فإن بقي من حسناته شيء وإلا أخذ من سيئات من ظلمهم ، ثم طرح عليه ثم طرح في النار والعياذ بالله[(٢)] . الأمر مضبوط ومحكم لا يضيع على الله شيء .

ثم قال « وألا ننازع الأمر أهله » يعني لا ننازع ولاة الأمور ما ولاهم الله علينا ، لنأخذ الإمرة منهم ، فإن هذه المنازعة توجب شرًّا كثيرًا ، وفتنًا عظيمة ، وتفرقًا بين المسلمين ، ولم يدم للأمة الإسلامية إلا منازعة الأمر أهله ، من عهد عثمان ﷺ إلى يومنا هذا ، ما أفسد الناس إلا منازعة الأمر أهله .

قال « إلا أن تروا كفرًا بواحًا ، عندكم فيه من الله برهان » ثلاثة شروط ، إذا رأينا هذا وتحت الشروط الثلاثة فحينئذ ننازع الأمر أهله ، ونحاول إزالتهم عن ولاية الأمر ، لكن بشروط بثلاثة :

الأول : أن تروا ، فلابد من علم ، مجرد الظن لا يجوز الخروج على الأئمة ، لابد أن نعلم .

الثاني : أن نعلم كفرًا لا فسقًا . الفسوق مهما فسق ولاة الأمور لا يجوز الخروج عليهم ؛ لو شربوا الخمر ، لو زنوا ، لو ظلموا الناس ، لا يجوز الخروج عليهم ، لكن إذا رأينا كفرًا صريحًا يكون بواحًا .

الثالث : الكفر البواح ، وهذا معناه الكفر الصريح ، والبواح الشيء البيِّن الظاهر ، فأما ما يحتمل التأويل فلا يجوز الخروج عليهم ، يعني لو قدرنا أنهم فعلوا شيئًا نرى أنه كفر ، لكن فيه احتمال أنه ليس بكفر ، فإنه لا يجوز أن ننازعهم أو نخرج عليهم ونولهم ما تولوا .

لكن إذا كان بواحًا صريحًا مثل : لو أن ولي من ولاة الأمور قال لشعبه : إن الخمر حلال . اشربوا ما شئتم ، وإن اللواط حلال تلوطوا بمن شئتم ، وإن الزنى حلال ازنوا بمن شئتم ، فهذا كفر بواح ما فيه إشكال ، هذا يجب على الرعية أن يزيلوه بكل وسيلة ولو بالقتل ، لأن هذا كفر بواح .

الشرط الرابع : عندكم فيه من الله برهان ، يعني عندنا دليل قاطع على أن هذا كفر ، فإن كان الدليل ضعيفًا في ثبوته ، أو ضعيفًا في دلالته ، فإنه لا يجوز الخروج عليهم ، لأن الخروج فيه شرٌّ كثير جدًّا ومفاسد عظيمة .

فهذه إن شئتم فقولوا ثلاثة شروط ، وإن شئتم فقولوا أربعة : أن تروا كفرًا بواحًا عندكم فيه من الله برهان هذه أربعة شروط .

وإذا رأينا هذا مثلًا فلا تجوز المنازعة حتى تكون لدينا قدرة على إزاحته ، فإن لم يكن لدينا قدرة فلا تجوز المنازعة ، لأنه ربما إذا نازعنا وليس عندنا قدرة يقضي على البقية الصالحة ، وتتم سيطرته .

فهذه الشروط شروط للجواز أو للوجوب – وجوب الخروج على ولي الأمر – لكن بشرط أن

---

(١) هذا جزء من حديث ، ولفظه « يكون بعدى أئمة لا يهتدون بهداى .. » وقد أخرجه مسلم في الإمارة (٥٢) .

(٢) هذا معنى حديث ولفظه « أتدرون من المفلس ... » ، وقد أخرجه مسلم في البر والصلة (٥٩) ، والترمذي في صفة القيامة (٢٤١٨) .

يكون لدينا قدرة ، فإن لم يكن لدينا قدرة فلا يجوز الخروج ، لأن هذا من إلقاء النفس في التهلكة . أي فائدة إذا خرجنا على هذا الولي الذي رأينا عنده كفرًا بواحًا عندنا فيه من اللَّه برهان ، ونحن لا نخرج إليه بسكين المطبخ ، وهو معه الدبابات والرشاشات ؟! لا فائدة ، ومعنى هذا أننا خرجنا لنقتل أنفسنا ، نعم لابد أن نتحيل بكل حيلة على القضاء عليه وعلى حكمه ، لكن بالشروط الأربعة التي ذكرها النبي - عليه الصلاة والسلام - : « أن تروا كفرا بواحا عندكم فيه من اللَّه برهان » . عرفنا فيما سبق حق ولاة الأمر على الرعية ، ولكن بقي أن نقول : فما حق الناس على ولاة الأمر ؟

حق الناس على ولاة الأمر أن يعدلوا فيهم ، وأن يتقوا اللَّه تعالى فيهم ، وأن لا يشقوا عليهم ، وأن لا يولوا عليهم من يجدون خيرًا منه ، فإن النبي ﷺ قال : « اللهم من ولي من أمر أمتي شيئًا فشق عليهم فاشقق عليه » [(١)] دعاء من الرسول - عليه الصلاة والسلام - : أن من ولي من أمور المسلمين شيئًا صغيرًا كان أم كبيرًا وشق عليهم ، قال : « فاشقق عليه » وما ظنك بشخص شق اللَّه عليه والعياذ باللَّه ، إنه سوف يخسر وينحط ، وأخبر النبي - عليه الصلاة والسلام - أنه : « ما من أمير يلي أمر المسلمين ثم لا يجهد لهم وينصح إلا لم يدخل معهم الجنة » [(٢)] لأنه يجب على الأمير أن ينصح للرعية ، ويختار لها الأصلح ، وأن يولي على الأمور أهلها ، بدون أي مراعاة ، يَنْظر لمصلحة العباد فيولي عليهم من هو أولى بهم .

والولايات تختلف ، فإمام المسجد مثلًا ، أولى الناس به من هو أقرأ لكتاب اللَّه ، والأمور الأخرى كالجهاد أولى الناس بها من هو أعلم بالجهاد ، وهلم جرًّا . المهم أنه يجب على ولي المسلمين أن يولي على المسلمين خيارهم ، ولا يجوز أن يولي على الناس أحدًا وفيهم من هو خير منه ، لأن هذا خيانة .

وكذلك أخبر النبي - عليه الصلاة والسلام - أنه : « ما من عبد يسترعيه اللَّه رعية ، يموت يوم يموت وهو غاشٌ لرعيته إلا حرم اللَّه عليه الجنة » [(٣)] والعياذ باللَّه .

فولاة الأمور عليهم حقوق عظيمة لمن ولاهم اللَّه عليهم ، كما أن على المولَّى عليهم حقوقًا عظيمة يجب عليهم أن يقوموا بها لولاة الأمر ، فلا يعصونهم حتى وإن استأثر ولاة الأمور بشيء ، فإن الواجب لهم السمع والطاعة في المنشط والمكره والعسر واليسر ، إلا إذا كان ذلك في معصية اللَّه ، يعني : لو أمروا بمعصية اللَّه ، فإنه لا يجوز أن يأمروا بمعصية اللَّه ، ولا يجوز لأحد أن يطيعهم في معصية اللَّه .

وأما قول بعض الناس السفهاء : إنه لا تجب علينا طاعة ولاة الأمور إلا إذا استقاموا استقامة تامة ، فهذا خطأ وهذا غلط وهذا ليس من الشرع في شيء ، بل هذا من مذهب الخوارج ، الذين يريدون من ولاة الأمور أن يستقيموا على أمر اللَّه في كل شيء ، وهذا لم يحصل من زمن فقد تغيرت الأمور .

ويذكر أن أحد ملوك بني أمية سمع أن أناسًا يتكلمون فيه وفي خلافته ، فجمع أشراف الناس

---

(١) هذا جزء من حديث ، وقد أخرجه مسلم في الإمارة (١٨) ، وأحمد في مسنده (٩٣/٦) .

(٢) أخرجه مسلم - واللفظ له - في الإمارة (٢٢) .

(٣) أخرجه البخاري في الأحكام (٧١٥٠) ومسلم - واللفظ له - في الإمارة (٢١) .

ووجهائهم وتكلم فيهم ، وقال لهم : إنكم تريدون منا أن نكون مثل أبي بكر وعمر ؟ قالوا : نعم ، أنت خليفة وهم خلفاء ، قال : كونوا أنتم مثل رجال أبي بكر وعمر ، نكن نحن مثل أبي بكر وعمر ، وهذا جواب عظيم ، فالناس إذا تغيروا لابد أن يغير اللّه ولاتهم ، كما تكونون يُولّى عليكم . أما أن يريد الناس من الولاة أن يكونوا مثل الخلفاء وهم أبعد ما يكونون عن رجال الخلفاء ، هذا غير صحيح ، واللّه حكيم ﷻ ﴿ وَكَذَٰلِكَ نُوَلِّي بَعْضَ ٱلظَّٰلِمِينَ بَعْضًا بِمَا كَانُوا۟ يَكْسِبُونَ ﴾ [الأنعام : ١٢٩] .

وذكروا أن رجلًا من الخوارج الذين خرجوا على عليّ بن أبي طالب جاءوا إلى علي ، فقال له : يا علي ، ما بال الناس قد تغيروا عليك ولم يتغيروا على أبي بكر وعمر ، قال : لأن رجال أبي بكر وعمر أنا وأمثالي ، ورجالي أنت وأمثالك وهذا كلام جيد ، يعني أنك ما فيك خير ولذلك تغير الناس علينا ، لكن في عهد أبي بكر وعمر رجالهم مثل علي بن أبي طالب وعثمان بن عفان وغيرهم من الصحابة الفضلاء ، فلم يتغيروا على ولاتهم .

فالحاصل : أنه يجب علينا أن نسمع ونطيع لولاة أمورنا في كل شيء ، إلا في معصية الخالق ، لأن معصية الخالق ليس لهم أن يأمروا الناس بها ، فلما لم يكن لهم أن يأمروا الناس بها ، لم يكن للناس عليهم طاعة في معصية اللّه ﷻ .

وكذلك أيضًا يجب على الرعية أن ينصحوا لولي الأمر ، ولا يكذبوا عليه ولا يخدعوه ولا يغشوه ، ومع الأسف الناس اليوم عندهم كذب وتحايل على أنظمة الدولة ، ورشاوى وغير ذلك مما لا يليق بالعاقل فضلًا عن المسلم ، إذا كانت الدول الكافرة تعاقب من يأخذ الرشوة ولو كان من أكبر الناس ، فالذي يعاقب الذي يأخذ الرشوة هو اللّهُ ﷻ ، نحن نؤمن باللّه وما جاء على لسان رسوله ﷺ ، وإذا كان النبي ﷺ « لعن الراشي والمرتشي »[1] فعقوبة اللّه أشد من عقوبة الآدميين ، ومع ذلك نجد الرشوة مع الأسف موجودة في جميع قطاعات الدولة إلا أن يشاء اللّه .

وكذلك تجد الكذب والدجل من الناس على الحكومة ، مثل أن يأتي المزارع يدخل زرع غيره باسمه وهو كاذب ، ولكن من أجل مصلحة ومن أجل أن يأكل بها ، أحيانًا قد تكون الدولة قد استلمت الحب ، ولم يبق إلا الدراهم عند الدولة ، فيأتي الإنسان ويبيعها على آخر ، يبيع دراهم بدراهم مع التفاضل ومع تأخير القبض ، إلى غير ذلك من المعاصي التي يرتكبها الشعب ، ثم يريدون من ولاتهم أن يكونوا مثل أبي بكر وعمر ، فهذا ليس بصحيح .

ومن الأمور التي يهملها كثير من الناس : أنهم لا يحترمون أعراض ولاة الأمور ، تجد فاكهة مجالسهم - نسأل اللّه العافية وأن يتوب علينا وعليهم - أن يتكلموا في أعراض ولاة الأمور ، لو كان هذا الكلام مجديًا وتصلح به الحال لقلنا : لا بأس وهذا طيب ، لكن هذا لا يجدي ، ولا تصلح به الحال ، وإنما يوغر الصدور على ولاة الأمور ، سواء كانوا من العلماء أو الأمراء .

---

(١) أخرجه الترمذي في الأحكام (١٣٣٧) ، وابن ماجه في الأحكام (٢٣١٣) ، وأحمد في مسنده (١٦٤/٢) .

تجد الآن بعض الناس همه إذا جلس في المجلس ما يستأنس إلا إذا مسك عالم من العلماء أو وزير من الوزراء أو أمير من الأمراءولا من فوقه ليتكلم في عرضه ، وهذا غير صحيح ، ولو كان هذا الكلام يجدي لكنا أول من يشجع عليه ، ولقلنا : لا بأس ، المنكر يجب أن يزال ، والخطأ يجب أن يصحح ، لكنه لا يجدي ، إنما يوغر الصدور ، ويكره ولاة الأمور إلى الناس ، ويكره العلماء إلى الناس ولا يحصل فيه فائدة .

وقد قال النبي - عليه الصلاة والسلام - كلمة جامعة مانعة - جزاه اللّه عن أمته خيرًا - : « من كان يؤمن باللّه واليوم الآخر فليقل خيرًا أو ليصمت » [١] والعجب أن بعض الناس - من أهل الدين - لو أردت أن تتكلم في شخص عادي من الناس قالوا لا تغتبه هذا حرام ، لكن لو تكلمت في واحد من ولاة الأمور تكيّف [٢] ، مع أنه في غير ولاة الأمور ما يرضى أن يتكلم أحد في عرض أحد عنده ، لكن في ولاة الأمور يرى أن هذا لا بأس به .

وهذه مسألة مرض بها كثير من الناس ، وأنا اعتبرها مرض - نسأل اللّه أن يعافينا وإياكم من هذا الداء - ابتُلي به كثير من الناس .

ولو أن الناس كفوا ألسنتهم ونصحوا لولاة أمورهم ، ولا أقول : اسكت على الخطأ ، لكن اكتب لولاة الأمور ، اكتب كتاب إن وصل فهذا هو المطلوب ، وإذا انتفعوا به فهذا أحسن ، وإذا لم ينتفعوا به فالإثم عليهم ، إذا كان خطأ صحيحًا ، وإذا لم يصل إليهم فالإثم على مَنْ مَنَعَهُ عنهم . قوله ﷺ فيما بايعوا عليه النبي ﷺ « وأن نقول بالحق أينما كنا » يعني أن نقوم بالحق الذي هو دين الإسلام وشرائعه العظام أينما كنا ، يعني في أي مكان ؛ سواء في البلد ، أو في البر ، أو في البحر ، أو في أي مكان ، وسواء في بلاد الكفر ، أو في بلاد الإسلام ، نقوم بالحق أينما كنا ، لا تأخذنا في اللّه لومة لائم ، يعني لا يهمنا إذا لامنا أحد في دين اللّه ، لأننا نقوم بالحق .

فمثلًا : لو أراد الإنسان أن يطبق سنة يستنكرها العامة ، فإن هذا الاستنكار لا يمنع الإنسان من أن يقوم بهذه السنة ، ولنضرب لهذا مثلًا - تسوية الصفوف في صلاة الجماعة ؛ أكثر العوام يستنكر إذا قال : الإمام استووا ، وجعل ينظر إليهم ، ويقول تقدم يا فلان ، تأخر يا فلان ، أو تأخر الإمام عن الدخول في الصلاة حتى تستوي الصفوف يستنكرون هذا ، ويغضبون منه ، حتى إن بعضهم قيل له مرة من المرات : يا فلان تأخر إنك متقدم ، فقال من الغضب والزعل : إن شئت طلعت من المسجد كله وخَلَّيتُهُ لك ، فمثل هذا لا ينبغي للإنسان أن تأخذه لومة لائم في اللّه ، بل يصبر ويمرن الناس على السنة ، والناس إذا تمرنوا على السنة أخذوا عليها وهانت عليهم ، لكن إذا رأى أن هؤلاء العوام جفاة جدًّا ، ففي هذه الحال ينبغي أن يعلمهم أولًا ، حتى تستقر نفوسهم ، وتألف السنة إذا طبقت ، فيحصل بذلك الخير .

ومن ذلك أيضًا : أن العامة يستنكرون سجود السهو بعد السلام ، ومعلوم أن السنة وردت به إذا

---

(١) أخرجه البخاري في الأدب (٦٠١٨) ، ومسلم في الإيمان (٧٤) - واللفظ له - وابن ماجه في الفتن (٣٩٧١) .
(٢) تكيف : تكيف الشيء صار على كيفية من الكيفيات ، والمقصود أن ذلك أعجبه .

كان السهو عن زيادة ، أو عن شك مترجح به أحد الطرفين فإنه يُسجد بعد السلام لا قبل السلام ، هذه هي السنة حتى إن شيخ الإسلام ابن تيمية رَحِمَهُ اللَّهُ قال : إنه يجب أن يسجد بعد السلام إذا كان السجود بعد السلام ، وقبل السلام إذا كان السجود قبله ، يعني لم يجعل هذا على سبيل الأفضلية بل على سبيل الوجوب .

سجد أحد الأئمة بعد السلام لسهو سهاه في صلاته ؛ زاد أوشك شكًّا مترجحًا فيه وبنى على الراجح ، فسجد بعد السلام ، فلما سجد بعد السلام ثار عليه العامة - : وما هذا الدين الجديد ؟ هذا غلط ، قال رجل من الناس فقلت لهم : هذا حديث الرسول - عليه الصلاة والسلام - سلم الرسول - عليه الصلاة والسلام - من ركعتين ، ثم أخبروه فأكمل صلاته ثم سلم ثم سجد للسهو بعد السلام[1] ، قالوا : أبدًا ، ولا نقبل ، قيل : من ترضون من العلماء ؟ قالوا نرضى فلانًا وفلانًا . فلما ذهبوا إليه قال : لهم هذا صحيح ، وهذا هو السنة فبعض الأئمة يأنف أن يسجد بعد السلام وهو يعلم أن السنة أن السجود بعد السلام خوفًا من ألسنة العامة ، وهذا خلاف ما بايع النبي - عليه الصلاة والسلام - أصحابه عليه ، قم بالحق ولا تخف في اللّه لومة لائم .

كذلك أيضًا : فيما يتعلق بالصدق في المعاملة ؛ بعض الناس إذا أخبر الإنسان بما عليه الأمر بحسب الواقع ، قالوا : هذه وساوس ، وليس بلازم أن أعلم الناس بكل شيء ، مثلًا عيب في السلعة ، قالوا هذا سهل والناس يرضونه ، والواجب أن الإنسان يتقي اللّه عَزَّ وَجَلَّ ويقوم بالعدل ويقوم باللازم ، ولا تأخذه في اللّه لومة لائم ، ولكن كما قلت أولًا إذا كان عند عامة جفاة ، فالأحسن أن يبلغهم الشرع قبل أن يطبق ، من أجل أن تهدأ نفوسهم ، وإذا طُبق الشرع بعد ذلك إذا هم قد حصل عندهم علم منه ، ولم يحصل منهم نفور .

* * *

١٨٧ - الرَّابع : عن النعمانِ بنِ بَشيرٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا عن النبي ﷺ قال : « مَثَل القَائِم في حُدودِ اللّهِ ، وَالوَاقِعِ فيها كمثلِ قومٍ استَهَمُوا عَلى سفِينَةٍ ، فَصَارَ بَعْضهُمْ أعْلاهَا وَبَعْضُهُمْ أسْفَلَهَا ، وَكَانَ الَّذِينَ في أسْفَلِهَا إذَا اسْتَقَوا مِنَ الماءِ مَرُّوا عَلى مَنْ فَوقَهُمْ ، فَقَالُوا : لَو أنَّا خَرَقْنَا في نَصِيبنَا خَرقًا وَلَمْ نُؤذِ مَنْ فَوقَنَا ، فَإنْ تَرَكُوهُمْ وَمَا أرادُوا هَلَكُوا جَميعًا ، وإنْ أخَذُوا عَلى أيدِيهِمْ نَجوا وَنَجُوا جَميعًا »[2] رواه البخاري .

---

(١) هذا معنى حديث ولفظه « أن رسول اللّه ﷺ سها فسلم في الركعتين .. » وقد أخرجه ابن ماجه في إقامة الصلاة (١٢١٣) .

(٢) أخرجه البخاري في الشركة (٢٤٩٣) ، والإمام أحمد في مسنده (٢٦٩/٤) ، والبيهقي في سننه (٢٨٨/١٠) .
قوله ﷺ : « وإن أخذوا على أيديهم » أي : منعوهم .

الشرح

قال المؤلف – رحمه الله تعالى – فيما نقله عن النعمان بن بشير الأنصاري ﭬ ، في باب الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر ، عن النبي ﷺ أنه قال : « مثل القائم في حدود الله والواقع فيها » القائم فيها يعني : الذي استقام على دين الله ، فقام بالواجب ، وترك المحرم ، والواقع فيها أي : في حدود الله ، أي الفاعل للمحرم أو التارك للواجب ، كمثل قوم استهموا على سفينة يعني ضربوا سهمًا ، وهو ما يسمى بالقرعة ، أيهم يكون الأعلى ؟ ، « فصار بعضهم أعلاها ، وبعضهم أسفلها وكان الذين في أسفلها إذا استقوا الماء » يعني إذا طلبوا الماء ليشربوا منه « مروا على من فوقهم » يعني الذين في أعلاها ، لأن الماء لا يقدر عليه إلا من فوق ، « فقالوا : لو خرقنا في نصيبنا » يعني لو نخرق خرقًا في مكاننا نستقي منه ، حتى لا نؤذي من فوقنا ، هكذا قدروا وأرادوا .

قال النبي – عليه الصلاة والسلام – : « فإن تركوهم وما أرادوا هلكوا جميعًا » لأنهم إذا خرقوا خرقًا في أسفل السفينة دخل الماء ، ثم أغرق السفينة ، « وإن أخذوا على أيديهم » ومنعوهم من ذلك « نجوا ونجوا جميعًا » ، يعني : نجا هؤلاء وهؤلاء .

وهذا المثل الذي ضربه النبي ﷺ هو من الأمثلة التي لها مغزى عظيم ومعنى عال ، فالناس في دين الله كالذين في سفينة في لجة النهر فهم تتقاذفهم الأمواج ، ولابد أن يكون بعضهم إذا كانوا كثيرين في الأسفل وبعضهم في الأعلى ، حتى تتوازن حمولة السفينة ، وحتى لا يضيق بعضهم على بعض ، وفيه أن هذه السفينة المشتركة بين هؤلاء القوم إذا أراد أحد منهم أن يخربها ، فإنه لابد أن يمسكوا على يديه ، وأن يأخذوا على يديه ، لينجوا جميعًا ، فإن لم يفعلوا هلكوا جميعا ، هكذا دين الله ، إذا أخذ العقلاء وأهل العلم والدين على الجهال والسفهاء نجوا جميعًا ، وإن تركوهم وما أرادوا هلكوا جميعًا ، كما قال الله تعالى : ﴿ وَٱتَّقُواْ فِتْنَةً لَّا تُصِيبَنَّ ٱلَّذِينَ ظَلَمُواْ مِنكُمْ خَآصَّةً ﴾ (١) [الأنفال : ٢٥] .

وفي هذا المثل دليل : على أنه ينبغي لمعلم الناس أن يضرب لهم الأمثال ، ليقرب لهم المعقول بصورة المحسوس ، قال الله تعالى : ﴿ وَتِلْكَ ٱلْأَمْثَـٰلُ نَضْرِبُهَا لِلنَّاسِ ۖ وَمَا يَعْقِلُهَآ إِلَّا ٱلْعَـٰلِمُونَ ﴾ [العنكبوت : ٤٣] . وكم من إنسان تشرح له المعنى شرحًا كثيرًا وتردده عليه فلا يفهم ، فإذا ضربت له مثلًا بشيء محسوس يعرفه ، فَهِم .

وانظر إلى المثل العجيب الذي ضربه النبي ﷺ لرجل من الأعراب ، صاحب بادية إبل جاء إلى النبي ﷺ يقول : يا رسول الله إن زوجتي ولدت غلامًا أسود ، يعني وأنا أبيض والمرأة بيضاء . من أين جاءنا هذا الأسود ؟ فقال النبي ﷺ « هل لك من إبل ؟ » قال : نعم . قال « ما ألوانها ؟ » قال : حمر . قال : « هل فيها من أورق ؟ » – يعني أسود ببياض . قال : نعم . قال : « من أين جاءها

---

(١) قوله تعالى : ﴿ وَٱتَّقُواْ فِتْنَةً ﴾ أي : تجنبوا بلاءً وعذابًا .

ذلك ؟ » قال : لعله نزعه عرق ، يعني ربما يكون له أجداد أو جدات سابقة لونها هكذا ، فنزعه هذا العرق ، قال : « فابنك هذا لعله نزعه عرق » [١] ، يمكن واحد من أجداده أو جداته أو أخواله أو آبائه لونه أسود فجاء الولد عليه ، فاقتنع الأعرابي تمام الاقتناع ، لو جاءه النبي - عليه الصلاة والسلام - يشرح له شرحًا فهو أعرابي لا يعرف ، لكن أتاه بمثال من حياته التي يعيشها ، فانطلق وهو مقتنع .

وهكذا ينبغي لطالب العلم ، بل ينبغي للمعلم أن يقرب المعاني المعقولة لأذهان الناس بضرب الأمثال المحسوسة ، كما فعل النبي ﷺ :

وفي هذا الحديث : إثبات القرعة وأنها جائزة . وقد وردت الآيات والأحاديث بالقرعة في موضعين من كتاب الله ، وفي ستة مواضع من سنة الرسول ﷺ أما الموضعين من كتاب الله وكلكم يقرأهما والحمد لله : الموضع الأول في سورة آل عمران ﴿ وَمَا كُنتَ لَدَيْهِمْ إِذْ يُلْقُونَ أَقْلَامَهُمْ أَيُّهُمْ يَكْفُلُ مَرْيَمَ وَمَا كُنتَ لَدَيْهِمْ إِذْ يَخْتَصِمُونَ ﴾ [آل عمران : ٤٤] ، الموضع الثاني في سورة الصافات ﴿ وَإِنَّ يُونُسَ لَمِنَ الْمُرْسَلِينَ ۝ إِذْ أَبَقَ إِلَى الْفُلْكِ الْمَشْحُونِ ۝ فَسَاهَمَ فَكَانَ مِنَ الْمُدْحَضِينَ ۝ فَالْتَقَمَهُ الْحُوتُ وَهُوَ مُلِيمٌ ۝ فَلَوْلَا أَنَّهُ كَانَ مِنَ الْمُسَبِّحِينَ ۝ لَلَبِثَ فِي بَطْنِهِ إِلَى يَوْمِ يُبْعَثُونَ ﴾ [٢] [الصافات : ١٣٩- ١٤٤] .

يونس أحد الأنبياء ركب مع قوم في سفينة فضاقت بهم ، وقالوا : إن بقينا كلنا على ظهرها هلكنا وغرقت ، لابد أن ننزل بعضنا في البحر . فمن ننزل ؟ أول راكب أم أكبر راكب . أم أكبر بدنًا ؟ فعملوا قرعة ، فصارت القرعة على جماعة منهم يونس ، لأن الآية تقول : ﴿ فَسَاهَمَ فَكَانَ مِنَ الْمُدْحَضِينَ ﴾ إذن معه ناس ، نزلوهم ، والذين معه الله أعلم بهم لا نعرف ماذا صار لهم .

أما هو فالتقمه حوت عظيم ، أي ابتلعه بلعًا دون أن يعلكه [٣] فصار في بطن الحوت ، فنادى في الظلمات : ﴿ أَن لَّا إِلَٰهَ إِلَّا أَنتَ سُبْحَانَكَ إِنِّي كُنتُ مِنَ الظَّالِمِينَ ﴾ فلفظه الحوت على سيف البحر ، وأنبت الله عليه شجرة من يقطين ، (يقطين) قال العلماء : قرع النجد . قرْع النجد لين ، وأوراقه لينة كالإبريسم ، ومن خصائصه أنه لا يقع عليه الذباب فأنبت الله عليه شجرة من يقطين حتى ترعرع بعد أن بقي في بطن الحوت ، ثم أنجاه الله ﷻ .

المهم : أن القرعة من الأمور المشروعة الثابتة بالكتاب والسنة ، وقد ذكر ابن رجب رحمه الله في كتابه القواعد الفقهية ، ذكر قاعدة في الأشياء التي تستعمل فيها القرعة ، من أول الفقه إلى آخره .

* * *

---

(١) أخرجه البخاري في الطلاق (٥٣٠٥) ، ومسلم في اللعان (٢٠) ، والترمذي في الولاء والهبة (٢١٢٨) .

(٢) قوله تعالى : ﴿ لَدَيْهِمْ ﴾ عند أحبار بيت القدس ، قوله تعالى : ﴿ يُلْقُونَ أَقْلَامَهُمْ ﴾ يطرحون سهامهم للاقتراع بها ، قوله تعالى : ﴿ أَبَقَ ﴾ هرب من سيده ترك قومه ، وهاجر دون إذن ربه ، قوله تعالى : ﴿ الْفُلْكِ ﴾ السفينة ، قوله تعالى : ﴿ الْمَشْحُونِ ﴾ المملوء ، قوله تعالى : ﴿ فَسَاهَمَ ﴾ عمل قرعة مع من في السفينة ، قوله تعالى : ﴿ الْمُدْحَضِينَ ﴾ المغلوبين في القرعة (نصيبه أن يلقى في الماء) ، قوله تعالى : ﴿ فَالْتَقَمَهُ الْحُوتُ ﴾ ابتلعه .

(٣) يعلكه : أي يمضغه .

١٨٨ - الخامِسُ : عَنْ أُمِّ المُؤْمِنين أُمِّ سَلَمَةَ هِنْدِ بنتِ أَبي أُمَيَّة حُذيفَة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا عن النبي ﷺ أنه قال : « إِنَّه يُسْتَعْمَلُ عَلَيكُم أُمَرَاءُ فَتَعْرِفُونَ وَتُنْكِرُونَ ، فَمَنْ كَرِهَ فَقَدْ بَرِئَ ، وَمَنْ أَنْكَرَ فَقَدْ سَلِمَ ، ولكِنْ مَنْ رَضِيَ وَتَابَعَ » قالوا : يَا رَسُولَ اللَّهِ ألا نُقَاتِلُهُمْ ؟ قَالَ : « لا ، مَا أَقَامُوا فِيكُمُ الصَّلاة »[1] رواه مسلم .

مَعْنَاهُ : مَنْ كَرِهَ بقَلْبِهِ وَلَمْ يَسْتَطِعْ إِنْكَارًا بِيَدٍ وَلا لِسَانٍ فَقَدْ بَرِئَ مِنَ الإِثمِ ، وَأَدَّى وَظِيفَتَهُ ، وَمَنْ أَنْكَرَ بحسَبِ طَاقَتِهِ فَقَدْ سَلِمَ مِنْ هذِهِ المَعْصِيَةِ ، وَمَنْ رَضِيَ بِفِعْلِهِمْ وَتَابَعَهُمْ ، فَهُوَ العَاصِي .

الشرح

وفي هذا الحديث : الذي ذكره المؤلف ، أخبر - عليه الصلاة والسلام - (أنه يُستعمل علينا أمراء) يعني يولون علينا من قبل ولي الأمر ، (فتعرفون وتنكرون) ، يعني أنهم لا يقيمون حدود اللَّه ، ولا يستقيمون على أمر اللَّه ، تعرفون منهم وتنكرون ، وهم أمراء لولي الأمر الذي له البيعة ، (فمن كره فقد برئ ، ومن أنكر فقد سلم) ، (ولكن من رضي وتابع) يعني أنه يهلك كما هلكوا . ثم سألوا النبي ﷺ : ألا نقاتلهم ؟ قال : « لا ، ما أقاموا فيكم الصلاة » .

فدل هذا على أنهم - أي الأمراء - إذا رأينا منهم ما ننكر ، فإننا نكره ذلك ، وننكر عليهم ، فإن اهتدوا ، فلنا ولهم ، وإن لم يهتدوا فلنا وعليهم ، وأنه لا يجوز أن نقاتل الأمراء الذين نرى منهم المنكر ، لأن مقاتلتهم فيها شَرٌّ كثير ، ويفوت بها خير كثير ، لأنهم إذا قوتلوا أو نوبذوا لم يزدهم ذلك إلا شرًّا ، فإنهم أمراء يرون أنفسهم فوق الناس ، فإذا نابذهم الناس أو قاتلوهم ازداد شرهم ، إلا أن النبي ﷺ شرط ذلك بشرط ، قال : « ما أقاموا فيكم الصلاة » . فدل ذلك على أنه إذا لم يقيموا الصلاة فإننا نقاتلهم .

وفي هذا الحديث دليل : على أن ترك الصلاة كفر ، وذلك لأنه لا يجوز قتال ولاة الأمور إلا إذا رأينا كفرًا بواحًا عندنا فيه من اللَّه برهان ، فإذا أذن لنا النبي ﷺ أن نقاتلهم إذا لم يقيموا الصلاة ، دل ذلك على أن ترك الصلاة كفر بواح عندنا فيه من اللَّه برهان .

وهذا هو القول الحق ؛ أن تارك الصلاة تركًا مطلقًا ، لا يصلي مع الجماعة ولا في بيته كافر كفرًا مخرجًا عن الملة ، ولم يرد عن النبي ﷺ أن تارك الصلاة في الجنة ، أو أنه مؤمن ، أو أنه ناج من النار ، أو ما أشبه ذلك .

فالواجب إبقاء النصوص على عمومها في كفر تارك الصلاة ، ولم يأت أحد بحجة تدل على أنه لا يكفر ، إلا حججًا لا تنفعهم ، لأنها تنقسم إلى خمسة أقسام :

---

(١) أخرجه مسلم في الإمارة (٦٣) ، قوله « فمن كره فقد برئ » أي : من كره ذلك المنكر فقد برئ عن إثمه وعقوبته .

١ - إما أنه ليس فيها دليل أصلًا .

٢ - وإما أنها مقيدة بوصف لا يمكن معه ترك الصلاة .

٣ - وإما أنها مقيدة بحال يعذر فيه ترك الصلاة .

٤ - وإما أنها عامة خُصّت بنصوص ترك الصلاة .

٥ - وإما أنها ضعيفة .

فهذه خمسة أقسام : لا تخلو أدلة من قال إنه لا يكفر منها أبدًا .

فالصواب : الذي لا شكَّ فيه عندي : أن تارك الصلاة كافر كفرًا مخرجًا عن الملة ، وأنه أشد كفرًا من اليهود والنصارى ، لأن اليهود والنصارى يُقرّون على دينهم ، أما هو فلا يُقر ، لأنه مرتد ، يستتاب فإن تاب وإلا قتل .

* * *

١٨٩ - السَّادِسُ : عَن أمِّ المؤمنين أُمِّ الحكَم زَينَب بنْتِ جَحْش رضي الله عنها أنَّ النَّبيَّ ﷺ دَخلَ عَلَيهَا فَزِعًا يَقولُ : « لا إله إلا اللَّهُ ، وَيلٌ لِلْعَرَبِ مِنْ شَرٍّ قد اقْتَرَبَ ، فُتِحَ اليَومَ مِن رَدْمِ يأْجُوجَ ومَأْجُوجَ مِثْلُ هذِهِ » وَحَلَّقَ بأُصْبُعَيه الإبْهَامِ وَالَّتي تَلِيها . فَقُلْتُ : يَا رسول اللَّهِ أَنَهْلِكُ وَفِينَا الصَّالِحُونَ ؟ قال : « نَعَمْ إذَا كَثُرَ الخَبَثُ »(١) متفقٌ عليه .

الشرح

قال المؤلف رحمه الله فيما نقله عن أم المؤمنين زينب بنت جحش رضي الله عنها أن النبي ﷺ دخل عليها محمرًّا وجهُه يقول : « لا إله إلا اللَّه ويلٌ للعرب ، من شر قد اقترب » دخل عليها بهذه الصفة ، متغير اللون ، محمر الوجه يقول : « لا إله إلا اللَّه » تحقيقًا للتوحيد وتثبيتًا له ، لأن التوحيد هو القاعدة الذي تبنى عليها جميع الشريعة . قال اللَّه تعالى : ﴿ وَمَا خَلَقْتُ ٱلْجِنَّ وَٱلْإِنسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ ﴾ [الذاريات : ٥٦] ، وقال تعالى : ﴿ وَمَآ أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ مِن رَّسُولٍ إِلَّا نُوحِىٓ إِلَيْهِ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّآ أَنَا۠ فَٱعْبُدُونِ ﴾ [الأنبياء : ٢٥] .

فتوحيد اللَّه بالعبادة ، والمحبة ، والتعظيم ، والإنابة ، والتوكل ، والاستعانة ، والخشية ، وغير ذلك ، هو أساس الملة .

ولهذا قال النبي - عليه الصلاة والسلام - : « لا إله إلا اللَّه » في هذه الحال التي كان فيها فزعًا متغير اللون ، تثبيتًا للتوحيد وتطمينًا للقلوب . ثم حذر العرب فقال : « ويل للعرب من شر قد اقترب» . وحذر العرب لأن العرب هم حاملو لواء الإسلام ، فاللَّه تعالى بعث محمدًا ﷺ - في

(١) أخرجه البخاري في الفتن (٧١٣٥) ، ومسلم - واللفظ له - في الفتن (٢) ، والإمام أحمد في مسنده (٤٢٨/٦) ، والترمذي في الفتن (٢١٨٧) ، قوله « إذا كثر الخبث » فسره الجمهور بالفسوق والفجور ، وقيل بالزنا خاصة ، وقيل أولاد الزنا ، والظاهر أنه المعاصي مطلقًا ، قوله « الإبهام » الأصبع الغليظة الخامسة من أصابع اليد والرجل .

الأميين - في العرب : ﴿ يَتْلُوا۟ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتِهِۦ وَيُزَكِّيهِمْ وَيُعَلِّمُهُمُ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْحِكْمَةَ وَإِن كَانُوا۟ مِن قَبْلُ لَفِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ ۝ وَءَاخَرِينَ مِنْهُمْ لَمَّا يَلْحَقُوا۟ بِهِمْ ۚ وَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ﴾ [الجمعة: ٢، ٣] فبين النبي - عليه الصلاة والسلام - هذا الوعيد للعرب ، لأنهم حاملو لواء الإسلام .

وقوله ﷺ : « من شرٍّ قد اقترب » الشر هو الذي يحصل بيأجوج ومأجوج ، ولهذا فسره بذلك فقال : « فُتِحَ اليومَ مِنْ رَدْمِ يَأْجُوجَ وَمَأْجُوجَ مِثْلُ هَذِه » وأشار بالسبابة والإبهام ، يعني أنه جزء ضعيف ومع ذلك فإنه يهدِّد العرب .

فالعرب الذين حملوا لواء الإسلام من عهد الرسول - عليه الصلاة والسلام - إلى يومنا هذا ، مُهدَّدون من قبل يأجوج ومأجوج المفسدين في الأرض ، كما حكى تعالى عن ذي القرنين أنه قيل له : ﴿ إِنَّ يَأْجُوجَ وَمَأْجُوجَ مُفْسِدُونَ فِى ٱلْأَرْضِ ﴾ [الكهف: ٩٤] فهم أهل الشر وأهل الفساد . ثم قالت زينب : يا رسول الله أنهلك وفينا الصالحون ؟ قال : « نعم إذا كَثُـرَ الخبث » الصالح لا يهلك وإنما هو سالمٌ ناج ، لكن إذا كثر الخبث هلك الصالحون ؛ لقوله تعالى : ﴿ وَٱتَّقُوا۟ فِتْنَةً لَّا تُصِيبَنَّ ٱلَّذِينَ ظَلَمُوا۟ مِنكُمْ خَآصَّةً ۖ وَٱعْلَمُوٓا۟ أَنَّ ٱللَّهَ شَدِيدُ ٱلْعِقَابِ ﴾ [الأنفال: ٢٥] والخبث هنا يراد به شيئان : الأول : الأعمال الخبيثة ، والثاني : البشر الخبيث .

فإذا كثرت الأعمال الخبيثة السيئة في المجتمع ولو كانوا مسلمين فإنهم عرضوا أنفسهم للهلاك . وإذا كثر فيهم الكفار فقد عرضوا أنفسهم للهلاك أيضًا . ولهذا حذر النبي - عليه الصلاة والسلام - من بقاء اليهود والنصارى والمشركين في جزيرة العرب حذر من ذلك فقال : « أخرجوا اليهود والنصارى من جزيرة العرب » (١) .

وقال في مرض موته : « أخرجوا المشركين من جزيرة العرب » (٢) .

وقال في آخر حياته : « لئن عشتُ لأخرجن اليهود والنصارى من جزيرة العرب » (٣) .

أو قال : « لأخرجن اليهود والنصارى من جزيرة العرب حتى لا أدع فيها إلا مسلمًا » (٤) هكذا صحّ عنه - عليه الصلاة والسلام - ومع الأسف الشديد الآن تجد الناس كأنما يتسابقون إلى جلب اليهود والنصارى والوثنيين إلى بلادنا للعمالة ، ويدعي بعضهم أنهم أحسن من المسلمين . نعوذ بالله من الخذلان وانتكاس الفطرة .

هكذا يلعب الشيطان بعقول بعض الناس حتى يفضل الكافر على المؤمن ، والله ﷻ يقول : ﴿ وَلَعَبْدٌ مُّؤْمِنٌ خَيْرٌ مِّن مُّشْرِكٍ وَلَوْ أَعْجَبَكُمْ ۗ أُو۟لَٰٓئِكَ يَدْعُونَ إِلَى ٱلنَّارِ ۖ وَٱللَّهُ يَدْعُوٓا۟ إِلَى ٱلْجَنَّةِ وَٱلْمَغْفِرَةِ بِإِذْنِهِۦ

---

(١) هذا الحديث متفق عليه بلفظ « أخرجوا المشركين من جزيرة العرب » البخاري في الجزية (٣١٦٨) ومسلم في الوصية (٢٠) .

(٢) سبق تخريجه .

(٣) أخرجه أحمد في مسنده (٣٢/١) ، والهندي في كنز العمال (١١٥٠٢) .

(٤) أخرجه مسلم في الجهاد والسير (٦٣) .

﴿وَيُبَيِّنُ ءَايَٰتِهِۦ لِلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ﴾ [البقرة: ٢٢١] فالحذر الحذر من استجلاب اليهود والنصارى والوثنيين من البوذيين وغيرهم إلى هذه الجزيرة ، لأنها جزيرة إسلام منها بدأ وإليها يعود . فكيف نجعل هؤلاء الخبث بين أظهرنا ، وفي أولادنا ، وفي أهلنا وفي مجتمعنا . هذا مؤذنٌ بالهلاك ولابد .

ولهذا من تأمل أحوالنا اليوم وقارن بينها وبين أحوالنا بالأمس ، وجد الفرق الكبير ، ولولا الناشئة الطيبة التي منَّ اللَّه عليها بالالتزام ، والتي نسأل اللَّه أن يثبتها عليه ، لولا هذا لرأيت شرًّا كثيرًا ، ولكن لعل اللَّه أن يرحمنا بعفوه ، ثم بهؤلاء الشباب الصالح الذين لهم نهضة طيبة أدام اللَّه عليهم فضله ، وأعاذنا وإياهم من الشيطان الرجيم .

* * *

١٩٠ - السَّابعُ : عَنْ أبي سَعيد الخُدْرِيِّ ﷺ عن النبيِّ ﷺ قال : « إيَّاكُم وَالجُلُوسَ في الطُّرُقَاتِ » فَقَالُوا : يَا رَسولَ اللَّه مَا لَنَا مِنْ مَجَالِسنَا بُدٌّ ، نَتَحَدَّثُ فِيهَا ! فقال رسول اللَّه ﷺ : « فَإِذَا أَبَيتُمْ إلا المَجْلِسَ فَأَعْطُوا الطَّرِيقَ حَقَّهُ » قالوا : وَمَا حَقُّ الطَّرِيقِ يَا رسولَ اللَّه ؟ قال : « غَضُّ البَصَرِ ، وَكَفُّ الأذى ، وَرَدُّ السَّلامِ ، وَالأَمْرُ بالمَعْرُوفِ ، والنَّهيُ عَنِ المُنْكَرِ » (١) متفقٌ عليه .

الشرح

قال المؤلف رحمه الله فيما نقله عن أبي سعيد الخدري ﷺ ، أن النبي ﷺ قال : « إياكم والجلوس في الطرقات » هذه الصيغة صيغة تحذير ، يعني : أحذركم من الجلوس على الطرقات ، وذلك لأن الجلوس على الطرقات يؤدي إلى كشف عورات الناس ؛ الذاهب والراجع ، وإلى النظر فيما يحملونه من الأغراض التي قد تكون خاصة مما لا يحبون أن يطلع عليها أحد ، وربما يفضي أيضًا إلى الكلام والغيبة فيمن يمر ، إذا مرَّ من عند هؤلاء الجالسين أحد أخذوا يتكلمون في عرضه .

المهم أن الجلوس على الطرقات يؤدي إلى مفاسد ، ولكن لما قال : « إياكم والجلوس في الطرقات » وحذرهم . قالوا : يا رسول اللَّه ما لنا من مجالسنا بدٌّ ، يعني : أننا نجلس نتحدث ، ويأنس بعضنا ببعض، ويألف بعضنا بعضًا ، ويحصل في ذلك خير . لأن كل واحد منا يعرف أحوال الآخر .

فلما رأى النبي - عليه الصلاة والسلام - أنهم مصمِّمون على الجلوس قال : « فإن أبيتم إلا المجلس فأعطوا الطريق حقه » ولم يشدِّد عليهم - عليه الصلاة والسلام - ولم يمنعهم من هذه المجالس التي يتحدث بعضهم فيه إلى بعض ، ويألف بعضهم بعضًا ، ويأنس بعضهم ببعض ، لم يشق عليهم في هذا ، وكان - عليه الصلاة والسلام - من صفته بالمؤمنين رءوف رحيم فقال : « إن أبيتم إلا المجلس » يعني إلا الجلوس « فأعطوا الطريق حقه » قالوا : وما حقه يا رسول اللَّه ؟ قال : « غضُّ

---

(١) أخرجه البخاري في المظالم (٢٤٦٥) ، ومسلم - واللفظ له - في اللباس (١١٤) ، والإمام أحمد في مسنده (٣/٣٦) ، قوله « بد » أي : عِوَض ، قوله ﷺ « غض البصر » أي كفه عن النظر إلى المحرمات .

البصر ، وكفُّ الأذى ، وردُّ السلام ، والأمرُ بالمعروف ، والنهي عن المنكر » خمسة أشياء :

أولًا : غضُّ البصر : أن تغضوا أبصاركم عمن يمر ، سواء كان رجلًا أو امرأة ، لأن المرأة يجب غضّ الإنسان من بصره عنها . والرجل كذلك ، تغضُّ البصر عنه ، لا تُحِدّ البصر فيه حتى تعرف ما معه . وكان الناس في السابق يأتي الرجلُ بأغراض البيت يوميًا فيحملها في يده ، ثم إذا مرَّ بهؤلاء شاهدوها ، وقالوا : ما الذي معه ؟ وما أشبه ذلك ، وكانوا إلى وقت غير بعيد إذا مرَّ الرجل ومعه اللحم لأهل بيته صاروا يتحدثون : فلان قد أتى اليوم بلحم لأهله ، فلان أتى بكذا ، فلان أتى بكذا ، فلهذا أمر النبي ﷺ أصحابه بغض البصر .

ثانيًا : كفُّ الأذى : أي كفُّ الأذى القولي والفعلي . أما الأذى القولي فبأن يتكلموا على الإنسان إذا مرَّ ، أو يتحدثوا فيه بعد ذلك بالغيبة والنميمة .

والأذى الفعلي : بأن يضايقوه في الطريق ، بحيث يملأون الطريق حتى يؤذوا المارة ، ولا يحصل المرور إلا بتعب ومشقة .

ثالثًا : ردُّ السلام : إذا سلم أحد فردوا عليه السلام ، هذا من حق الطريق ، لأن السنة أن المارَّ يسلم على الجالس ، فإذا كانت السنة أن يسلم المار على الجالس فإذا سلم فردوا السلام .

رابعًا : الأمر بالمعروف : فالمعروف هو كلُّ ما أمر اللّٰه تعالى به أو أمر به رسول اللّٰه ﷺ ؛ فإنك تأمر به ، فإذا رأيتم أحدًا مقصرًا سواء كان من المارين أو من غيرهم فأمروه بالمعروف ، وحثُّوه على الخير وزينوه له ورغبوه فيه .

خامسًا : النهي عن المنكر : فإذا رأيتم أحدًا مرَّ وهو يفعل المنكر ، مثل أن يمر وهو يشرب الدخان أو ما أشبه ذلك من المنكرات ، فانهوه عن ذلك ، فهذا حق الطريق .

ففي هذا الحديث يُحَذّر النبي ﷺ المسلمين من الجلوس على الطرقات ، فإن كان لابد من ذلك ، فإنه يجب أن يعطي الطريق حقَّه .

وحق الطريق خمسة أمور ؛ بينها النبي - عليه الصلاة والسلام - وهي : « غضُّ البصر ، وكف الأذى ، وردُّ السلام ، والأمر بالمعروف ، والنهي عن المنكر » . هذه حقوق الطريق لمن كان جالسًا فيه كما بينها النبي ﷺ . واللّٰه الموفق .

* * *

١٩١ - الثَّامِنُ : عن ابن عباسٍ رضي الله عنهما أن رسول اللّٰه ﷺ رَأى خاتَمًا مَنْ ذَهَبٍ في يَدِ رَجُلٍ ، فَنَزَعهُ فَطَرَحَهُ وَقَالَ : « يَعْمِدُ أَحَدُكُم إِلَى جَمْرَةٍ مِنْ نَارٍ فَيَجْعَلُهَا في يَدِهِ ! » فَقِيلَ لِلرَّجُلِ بَعْدَمَا ذَهَبَ رسول اللّٰه ﷺ : خُذْ خَاتَمَكَ ، انْتَفِعْ بِهِ . قَالَ : لا وَاللّٰهِ لا آخُذُهُ أَبَدًا وَقَدْ طَرَحَهُ رسول الله ﷺ [1] . رواه مسلم .

---

(١) أخرجه مسلم في اللباس (٥٢) ، والبيهقي في سننه (٤٢٤/٢) ، قوله « طرحه » أي : ألقاه .

الشرح

قال المؤلف - رحمه الله تعالى - فيما نقله عن عبد الله بن عباس رضي الله عنهما ، أن النبي ﷺ رأى رجلًا وفي يده خاتم من ذهب ، فنزعه النبي ﷺ من يده ، وطرحه في الأرض ، وقال : « يعمد أحدكم إلى جمرة من نار فيجعلها في يده » فلما ذهب النبي ﷺ قيل : للرجل : خذ خاتمك انتفع به ، قال : والله لا آخذ خاتمًا طرحه النبيّ ﷺ .

أتى المؤلف رحمه الله بهذا الحديث في باب : « الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر » لأن فيه تغيير المنكر باليد ، فإن لباس الرجل الذهب محرم ومنكر ، كما قال النبي - عليه الصلاة والسلام - : في الذهب والحرير : « أنهما أحلا لنساء أمتي وحرما على ذكورها » [1] .

فلا يجوز للرجل أن يلبس خاتمًا من ذهب ، ولا أن يلبس قلادة من ذهب ، ولا أن يلبس ثيابًا فيها أزرَّةٌ من ذهب ولا غير ذلك ، يجب أن يتجنب الذهب كله ، وذلك أن الذهب إنما يلبسه من يحتاج إلى الزينة والتجمل ، كالمرأة تتجمل لزوجها حتى يرغب فيها . قال الله عز وجل : ﴿ أَوَمَن يُنَشَّؤُا۟ فِى ٱلْحِلْيَةِ وَهُوَ فِى ٱلْخِصَامِ غَيْرُ مُبِينٍ ﴾ [2] [الزخرف : ١٨] يعني : النساء . النساء ينشأن في الحلية ويُربَّيْنَ عليها ﴿ وَهُوَ فِى ٱلْخِصَامِ غَيْرُ مُبِينٍ ﴾ أي عَيِيَّة لا تُفصح .

على كل حال : الذهب يحتاج إليه النساء للتجمل للأزواج ، والرجل ليس بحاجة إلى ذلك . الرجل يُتَجَمَّلُ له ولا يتجمَّلُ لغيره ، اللهمّ إلا الرجل فيما بينه وبين زوجه ، كلٌّ يتجمل للآخر ، لما في ذلك من الإلفة ، ولكن مهما كان ، فإن الرجل لا يجوز له أن يلبس الذهب بأي حال من الأحوال .

وأما لباس الفضة فلا بأس به ، يجوز أن يلبس الرجل خاتمًا من فضة ، ولكن بشرط أن لا يكون هناك عقيدة في ذلك ، كما يفعله بعض الناس الذين اعتادوا عادات النصارى في مسألة الدِّبلة التي يلبسها البعض عند الزواج .

الدبلة ، يقولون : إن النصارى إذا أراد الرجل منهم أن يتزوج ، جاء إليه القسيس - بمنزلة العالم عند المسلمين - وأخذ الخاتم ووضعه في أصابعه : إصبع بعد إصبع ، حتى ينتهي إلى ما يريد ثم يقول : هذا الرباط بينك وبين زوجتك ، فإذا لبس الرجل هذه الدبلة معتقدًا ذلك فهو تشبه بالنصارى ، مصحوب بعقيدة باطلة ، فلا يجوز حينئذ للرجل أن يلبس هذه الدبلة .

أما لو لبس خاتمًا عاديًا بغير عقيدة ، فإن هذا لا بأس به .

وليس التختم من الأمور المستحبة ، بل هو من الأمور التي إذا دعت الحاجة إليها فعلت وإلا فلا

---

(١) أخرجه الترمذي في اللباس (١٧٢٠) ، والنسائي في سننه (٥١٤٨) .

(٢) قوله تعالى : ﴿ أَوَمَن يُنَشَّؤُا۟ فِى ٱلْحِلْيَةِ ﴾ : أَوَ يجعلون لله مَنْ يُربى في الزينة والنِّعمة (البنات) ، قوله تعالى : ﴿ فِى ٱلْخِصَامِ ﴾ : المخاصمة والمجادلة ، قوله تعالى : ﴿ غَيْرُ مُبِينٍ ﴾ : غير مظهر للحجة لضعفه عن ذلك .

تفعل ، بدليل أن الرسول - عليه الصلاة والسلام - كان لا يلبس الخاتم . لكنه لما قيل له : إن الملوك والرؤساء لا يقبلون الكتاب إلا بختم ، اتخذ خاتمًا نقش في فصِّه : « محمد رسول اللَّه » حتى إذا انتهى من الكتاب ختمه بهذا الخاتم [١] .

وفي هذا الحديث : دليل على استعمال الشدة في تغيير المنكر إذا دعت الحاجة إلى ذلك ، لأن النبي ﷺ لم يقل له : إن الذهب حرام فلا تلبسه ، أو فاخلعه ، بل هو بنفسه خلعه وطرحه في الأرض .

ومعلوم أن هناك فرقًا بين الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر ، وبين تغيير المنكر ، لأن تغيير المنكر يكون من ذي سلطة قادر ، مثل الأمير ومن جعل له تغييره ، ومثل الرجل في أهل بيته ، والمرأة في بيتها وما أشبه ذلك . فهذا له السلطة أن يغير بيده ، فإن لم يستطع فبلسانه ، فإن لم يستطع فبقلبه .

أما الأمر : فهو واجب بكلِّ حال ، الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر واجب بكل حال ، لأنه ليس فيه تغيير ، بل فيه أمر بالخير ونهي عن الشر ، وفيه أيضًا دعوة إلى الخير والمعروف وإلى ترك المنكر ، فهذه ثلاث مراتب : دعوة ، وأمر ونهي ، وتغيير .

أما الدعوة : فمثل أن يقوم الرجل خطيبًا في الناس ، يعظهم ويذكرهم ويدعوهم إلى الهدى .

وأما الأمر : فأن يأمر أمرًا موجهًا إلى شخص معين ، أو إلى طائفة معينة . يا فلان احرص على الصلاة ، اترك الكذب ، اترك الغيبة وما أشبه ذلك .

أما التغيير : فأن يغير هذا الشيء ، يزيله من المنكر إلى المعروف ، كما صنع النبي ﷺ حين نزع الخاتم من صاحبه نزعًا ، وطرحه على الأرض طرحًا .

وفيه أيضًا : دليل على جواز إتلاف ما يكون به المنكر ؛ لأن الرسول - عليه الصلاة والسلام - طرحه لما نزعه من يده ولم يقل له : خذه وأعطه أهلك مثلًا ، ولهذا كان من فقه هذا الرجل أنه لما قيل له : خذ خاتمك ، قال : لا آخذ خاتمًا طرحه النبي ﷺ ، لأنه فهم أن هذا من باب التعزير وإتلافه عليه ، لأنه حصلت به المعصية ، والشيء الذي تحصل به المعصية أو ترك الواجب ، لا حرج على الإنسان أن يتلفه انتقامًا من نفسه بنفسه ، كما فعل نبي اللَّه سليمان - عليه الصلاة والسلام - حين عُرضت عليه الخيل الجياد ، ولهى بها حتى غربت الشمس ، فاشتغل بها عن صلاة العصر ففاتته ، ثم دعا بها - عليه الصلاة والسلام - وجعل يضربها ، يعقرها ويقطع أعناقها ، كما قال تعالى : ﴿ فَطَفِقَ مَسْحًا بِٱلسُّوقِ وَٱلْأَعْنَاقِ ﴾ [٢] [ص: ٣٣] أتلفها انتقامًا من نفسه ، لرضى اللَّه ﷻ .

فإذا رأى الإنسان أن شيئًا من ماله ألهاه عن طاعة اللَّه ، وأراد أن يتلفه انتقامًا من نفسه وتعزيرًا لها ،

---

(١) أخرجه البخاري في اللباس والزينة (٥٨٧٢) ، ومسلم في اللباس (٥٨) .

(٢) قوله تعالى : ﴿ فَطَفِقَ مَسْحًا بِٱلسُّوقِ ﴾ فشرع سليمان ﵇ يقطع سوقها وأعناقها بالسيف قربانًا للَّه وتصدق بلحمها .

فإن ذلك لا بأس به .

وفي هذا الحديث : دليل على أن لبس الذهب موجب للعذاب بالنار والعياذ بالله ؛ لقوله – عليه الصلاة والسلام – : « يعمد أحدكم إلى جمرة من نار فيضعها في يده » . فإن الرسول ﷺ جعل هذا جمرة من نار ، يعني يُعذب بها يوم القيامة ، وهو عذاب جزئي أي على بعض البدن ، على الجزء الذي حصلت به المخالفة . ونظيره قوله ﷺ فيمن جرَّ ثوبه أسفل من الكعبين قال : « ما أسفل من الكعبين ففي النار » [١] ونظيره أيضًا حين قصَّر الصحابة في غسل أرجلهم ، فقال النبي ﷺ : « ويلٌ للأعقاب من النار » [٢] .

فهذه ثلاثة نصوص من السنة كلها فيها إثبات أن العذاب بالنار قد يكون على جزء معين من البدن .

وفي القرآن أيضًا من ذلك كقوله تعالى : ﴿ يَوْمَ يُحْمَىٰ عَلَيْهَا فِي نَارِ جَهَنَّمَ فَتُكْوَىٰ بِهَا جِبَاهُهُمْ وَجُنُوبُهُمْ وَظُهُورُهُمْ ﴾ [التوبة : ٣٥] مواضع معينة ، فالعذاب كما يكون عامًّا على جميع البدن ، قد يكون خاصًّا ببعض أجزائه وهو ما حصلت به المخالفة .

ومن فوائد هذا الحديث أيضًا : بيان كمال صدق الصحابة في إيمانهم ، فإن هذا الرجل لما قيل له : خذ خاتمك انتفع به . قال : لا آخذ خاتمًا طرحه النبي – عليه الصلاة والسلام – وذلك من كمال إيمانه رضي الله عنه . ولو كان ضعيف الإيمان ، لأخذه وانتفع به ؛ ببيع أو بإعطائه أهله أو ما أشبه ذلك .

ومن فوائد هذا الحديث أيضًا : أن الإنسان يستعمل الحكمة في تغيير المنكر ، فهذا الرجل كما ترون استعمل معه النبي – عليه الصلاة والسلام – شيئًا من الشدة . لكن الأعرابي الذي بال في المسجد لم يستعمل معه النبي – عليه الصلاة والسلام – الشدة [٣] ، ولعل ذلك لأن هذا الذي لبس خاتم الذهب علم النبي – عليه الصلاة والسلام – أنه كان عالمًا بالحكم والتحريم ولكنه متساهل ، بخلاف الأعرابي ، فإنه كان جاهلًا لا يعرف ، جاء ووجد هذه الفسحة في المسجد ، فجعل يبول ، يحسب نفسه أنه في البر !! ولما قام إليه الناس يزجرونه ، نهاهم النبي ﷺ عن ذلك .

وكذلك استعمل النبي ﷺ اللين مع معاوية بن الحكم السلمي حين تكلم في الصلاة ، وكذلك مع الرجل الذي جامع زوجته في نهار رمضان ، فلكلٍّ مقام مقال .

---

(١) أخرجه البخاري في اللباس (٥٧٨٧) ، وأحمد في مسنده (٢/٤١٠) .

(٢) أخرجه البخاري في فضل العلم (٦٠) ، ومسلم في الطهارة (٢٦) ، والترمذي في الطهارة (٤١) ، وأحمد في مسنده (٢/١٩٣) .

(٣) الحديث أخرجه البخاري في الوضوء (٢٢٠) ، ومسلم في الطهارة (٩٨) ، وابن ماجه في الطهارة (٥٣٠) ، وأحمد في مسنده (٣/١١٤) .

فعليك يا أخي المسلم أن تستعمل الحكمة في كل ما تفعل وكل ما تقول ، فإن الله تعالى يقول في كتابه : ﴿ يُؤْتِي الْحِكْمَةَ مَن يَشَاءُ وَمَن يُؤْتَ الْحِكْمَةَ فَقَدْ أُوتِيَ خَيْرًا كَثِيرًا وَمَا يَذَّكَّرُ إِلَّا أُولُوا الْأَلْبَابِ ﴾ [البقرة : ٢٦٩] نسأل الله أن يجعلنا ممن أوتي الحكمة ونال بها خير كثيرًا .

* * *

١٩٢ - التَّاسع : عَنْ أبي سَعيدِ الحَسَنِ البَصْريِّ أنَّ عَائِذَ بن عَمْرو رضي الله عنه دَخَلَ عَلَى عُبيدِ اللَّه ابْنِ زيَادٍ فَقَالَ : أي بُنيَّ إنِّي سَمِعتُ رسول اللَّه ﷺ يَقُولُ : « إنَّ شَرَّ الرِّعَاءِ الحُطَمَةُ » فَإيَّاكَ أَنْ تَكُونَ مِنْهُمْ . فَقَالَ لَهُ : اجْلِسْ فَإنَّمَا أنتَ مِنْ نُخَالَةِ أصْحَابِ مُحَمَّدٍ ﷺ ، فقالَ : وَهَلْ كَانَتْ لَهُمْ نُخَالَةٌ ؟ ، إنَّمَا كَانَتِ النُّخَالَةُ بَعْدَهُمْ وَفي غَيرِهِمْ ! [(١)] رواه مسلم .

١٩٣ - العَاشرُ : عَنْ حُذَيفَةَ رضي الله عنه عن النبي ﷺ قال : « وَالَّذِي نَفْسِي بِيَدِهِ لَتَأْمُرُنَّ بالمَعْرُوف ، وَلَتَنْهَوُنَّ عَنِ المُنْكَرِ ، أو لَيُوشِكَنَّ اللَّه أنْ يَبْعَثَ عَلَيكُمْ عِقَابًا مِنْهُ ، ثُمَّ تَدْعُونَهُ فلا يُسْتَجابُ لَكُمْ » [(٢)] رواه الترمذي وقال : حديثٌ حسنٌ .

الشرح

قال المؤلف - رحمه اللّه تعالى - فيما نقله عن حذيفة بن اليمان رضي الله عنه ، أن رسول اللّه ﷺ قال : « والذي نفسي بيده لتأمرن بالمعروف ولتنهون عن المنكر أو ليوشكن اللّه أن ينزل عليكم عقابًا ثم تدعونه فلا يستجاب لكم » .

قوله - عليه الصلاة والسلام - : « والذي نفسي بيده » هذا قسم ، يقسم فيه النبي ﷺ باللّه ، لأنه هو الذي أنْفُس العباد بيده جل وعلا ، يهديها إن شاء ، ويضلها إن شاء ، ويميتها إن شاء ، ويبقيها إن شاء ، فالأنفس بيد اللّه هدايةً وضلالة ، وإحياءً وإماتة ، كما قال اللّه تبارك وتعالى ﴿ وَنَفْسٍ وَمَا سَوَّاهَا ۝ فَأَلْهَمَهَا فُجُورَهَا وَتَقْوَاهَا ﴾ [الشمس : ٧ ، ٨] فالأنفس بيد اللّه وحده ، ولهذا أقسم النبي ﷺ ، وكان يقسم كثيرًا بهذا القسم : « والذي نفسي بيده » وأحيانًا يقول : « والذي نفسُ محمد بيده » لأن نفس محمد ﷺ أطيبُ الأنفس ، فأقسم بها لكونها أطيب الأنفس .

ثم ذكر المقسم عليه ، وهو أن نقوم بالأمر بالمعروف والنهي عن المنكر ، أو يعمنا اللّه بعقاب من عنده حتى ندعُوه فلا يستجيب لنا . نسأل اللّه العافية .

وقد سبق لنا عدة أحاديث كلها تدل على وجوب الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر ، والتحذير من

---

(١) أخرجه مسلم في الإمارة (٢٣) ، والبيهقي في سننه (١٦١/٨) ، قوله : « الرعاء » جمع راع ، قوله : « الحطمة » أي العنيف في رعيته لا يرفق بها في سوقها ومرعاها ، بل يحطمها في ذلك وفي سقيها ، ويزحم بعضها ببعض بحيث يؤذيها ويحطمها ، قوله : « نخالة » يعني لست من فضلائهم وعلمائهم وأهل المراتب منهم ، بل من سقطهم ، والنخالة هنا استعارة من نخالة الدقيق وهي قشوره ، والحديث لم يقم الشارح - رحمه اللّه تعالى - بشرحه .

(٢) أخرجه الترمذي في الفتن (٢١٦٩) ، والإمام أحمد في مسنده (٣٨٩/٥) ، والطبراني في الكبير (١٨٠/١٠) .

عدمه ، فالواجب علينا جميعًا أن نأمر بالمعروف ، فإذا رأينا أخًا لنا قد قصّر في واجب أمرناه به وحذرناه من المخالفة ، وإذا رأينا أخًا لنا قد أتى منكرًا نهيناه عنه وحذرناه من ذلك ، حتى نكون أمة واحدة ، لأننا إذا تفرقنا وصار كل واحد منا له مشرب ، حصل بيننا من النزاع والفرقة والاختلاف ما يحصل ، فإذا اجتمعنا كلنا على الحقِّ حصل لنا الخير والسعادة والفلاح .

وفي هذا الحديث : دليل على جواز القسم بدون أن يُستقسم الإنسان ، أي جواز القسم دون أن يُطلب من الإنسان أن يقسم ، ولكن هذا لا ينبغي إلا في الأمور التي لها أهمية ولها شأن ، فهذه يقسم عليها الإنسان ، أما الشيء الذي ليس له أهمية ولا شأن ، فلا ينبغي أن تحلف عليه إلا إذا استحلفت للتوكيد فلا بأس .

فالأمر بالمعروف والنهي عن المنكر من أهم واجبات الدين وفروضه ، حتى أن بعض العلماء عدَّه ركنًا سادسًا من أركان الإسلام . والصحيح أنه ليس ركنًا سادسًا ، وإنما هو من أوجب الواجبات . والأمة إذا لم تقم بهذا الواجب ، فإنها سوف تتفرق وتتمزق ، يكون كل قوم لهم منهاج يسيرون عليه، ولكنهم إذا أمروا بالمعروف ونهوا عن المنكر ، اتفق منهاجهم وصاروا أمةً واحدة كما أمرهم اللَّه بذلك : ﴿ كُنتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ تَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَتَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنكَرِ وَتُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ ﴾ [آل عمران : ١١٠] ﴿ وَلْتَكُن مِّنكُمْ أُمَّةٌ يَدْعُونَ إِلَى الْخَيْرِ وَيَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنكَرِ وَأُولَٰئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ ﴿١٠٤﴾ وَلَا تَكُونُوا كَالَّذِينَ تَفَرَّقُوا وَاخْتَلَفُوا مِن بَعْدِ مَا جَاءَهُمُ الْبَيِّنَاتُ وَأُولَٰئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ ﴾ (١) [آل عمران : ١٠٤، ١٠٥] .

ولكن على الآمر بالمعروف والناهي عن المنكر أن يلاحظ مسألة مهمة ، وهي أن يكون قصده بذلك إصلاح أخيه ، لا الانتقام منه والاستئثار عليه ، لأنه ربما إذا قصد الانتقام منه والاستئثار عليه يُعجب بنفسه وبعمله ، ويحقر أخاه ، وربما يستبعد أن يرحمه اللَّه ، ويقول : هذا بعيد من رحمة اللَّه ، ثم بعد يحبط عمله . كما جاء ذلك في الحديث الذي صحّ عن النبي ﷺ ، أن رجلًا قال لرجل آخر مسرف على نفسه : « واللَّه لا يغفر اللَّه لفلان » فقال اللَّه ﷻ : « من ذا الذي يتألى عليَّ أن لا أغفر لفلان ، وقد غفرتُ له وأبطلت عمَلَكَ » (٢) .

فانظر إلى هذا الرجل ؛ تكلم بكلمة أوبقت دنياه وآخرته ، هلك كلُّ عمله وسعيه ، لأنه حمله إعجابه بنفسه ، واحتقاره لأخيه ، واستبعاده رحمة اللَّه على أن يقول هذه المقالة ، فحصل بذلك أن أوبقت هذه الكلمة دنياه وآخرته .

فالمهم : أنه يجب على الآمر بالمعروف والناهي عن المنكر أن يستحضر هذا المعنى ، أن لا يكون قصده الانتصار لنفسه أو الانتقام من أخيه ، بل يكون كالطبيب المخلص الذي قصده دواء هذا

---

(١) قوله تعالى : ﴿ كُنتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ ﴾ كنتم كذلك في تقدير اللَّه تعالى وحكمه ، قوله تعالى : ﴿ الْبَيِّنَاتُ ﴾ أي : البراهين الواضحات .

(٢) أخرجه مسلم – بزيادة (فإني قد) – في البر والصلة (١٣٧) ، قوله : « يتألى » : يُقسم .

المريض ، الذي مرض بالمنكر فيعمل على أن يعالجه معالجة تقيه شر هذا المنكر ، أو ترك واجبًا فيعالجه معالجةً تحمله على فعل الواجب . وإذا علم اللَّه من نيته الإخلاص ، جعل في سعيه بركة ، وهدى به من شاء من عباده ، فحصل على خير كثير ، وحصل منه خير عظيم . واللَّه الموفق .

* * *

١٩٤ - الحَادي عَشَرَ : عَنْ أبي سَعِيدِ الخُدرِيِّ ﷺ عن النبي ﷺ قال : « أَفْضَلُ الجَهَادِ كَلِمَة عَدْلٍ عنْدَ سُلْطَانٍ جَائِرٍ » [1] رواه أبو داود ، والتِّرمِذيُّ وقال : حديثٌ حسنٌ .

الشرح

قال المؤلف رحمه الله فيما نقله عن أبي سعيد الخدري ﷺ عن النبي ﷺ قال : « أفضل الجهاد كلمة عدلٍ عند سلطان جائر » .

فللسلطان بطانتان : بطانة السوء ، وبطانة الخير .

بطانة السوء : تنظر ماذا يريد السلطان ، ثم تزينه له وتقول : هذا هو الحق ، هذا هو الطيب ، وأحسنت وأفدت ، ولو كان - والعياذ باللَّه - من أجْوَرِ ما يكون ، تفعل ذلك مداهنة للسلاطين وطلبًا للدنيا .

أما بطانة الحق : فإنها تنظر ما يرضي اللَّه ورسوله ، وتدل الحاكم عليه ، هذه هي البطانة الحسنة .

كلمة الباطل عند سلطان جائر ، هذه - والعياذ باللَّه - ضد الجهاد .

وكلمة الباطل عند سلطان جائر ، تكون بأن ينظر المتكلم ماذا يريد السلطان فيتكلم به عنده ويزينه له .

وقول كلمة الحق عند سلطان جائر من أعظم الجهاد . وقال : « عند سلطان جائر » لأن السلطان العادل ، كلمة الحق عنده لا تضر قائلها ، لأنه يقبل ، أما الجائر فقد ينتقم من صاحبها ويؤذيه .

فالآن عندنا أربع أحوال :

١ - كلمة حق عند سلطان عادل ، وهذه سهلة .

٢ - كلمة باطل عند سلطان عادل ، وهذه خطيرة ، لأنك قد تفتن السلطان العادل بكلمتك ، بما تزينه له من الزخارف .

٣ - كلمة حق عند سلطان جائر ، وهذه أفضل الجهاد .

٤ - كلمة باطل عند سلطان جائر ، وهذه أقبح ما يكون .

فهذه أقسام أربعة ، لكن أفضلها كلمة الحق عند السلطان الجائر . نسأل اللَّه أن يجعلنا ممن يقول

---

(١) أخرجه أبو داود في الملاحم (٤٣٤٤) ، والترمذي بنحوه في الفتن (٢١٧٤) ، وابن ماجه في الفتن (٤٠١١) .

الحق - ظاهرًا وباطنًا - على نفسه وعلى غيره .

* * *

١٩٥ - الثَّاني عَشَرَ : عَنْ أبي عبد اللَّه طارق بن شهَاب البَجَليِّ الأَحْمَسِيِّ ﷺ أَنَّ رَجُلًا سَأَلَ النَّبيَّ ﷺ ، وَقَدْ وَضَعَ رِجْلَه في الغَرْزِ : أَيُّ الجِهَادِ أَفْضَل ؟ قَالَ : « كَلِمَةُ حَقٍّ عِنْدَ سُلْطَانٍ جائِر » [١] رواه النسائي بإسنادٍ صحيح .

« الغَرْز » بغَيْنٍ مُعْجَمَةٍ مَفْتُوحَةٍ ثُمَّ رَاءٍ سَاكِنَةٍ ثُمَّ زَايٍ ، وَهوَ رِكَابُ كَورِ الجَمَلِ إذَا كَانَ مِنْ جِلْدٍ أَو خَشَب ، وَقِيلَ : لا يخْتَص بِجِلْدٍ وَخَشَبٍ .

١٩٦ - الثَّالثَ عَشَرَ : عن ابنِ مَسْعُودٍ ﷺ قال : قال رسول اللَّه ﷺ : « إنَّ أَوَّلَ مَا دَخَلَ النَّقْصُ عَلَى بَنِي إسْرَائِيلَ أَنَّه كَانَ الرَّجُلُ يَلْقَى الرَّجُلَ فَيَقُولُ : يَا هذا اتَّقِ اللَّهَ وَدعْ مَا تَصْنَعُ ؛ فَإِنَّهُ لا يَحِلُّ لَكَ ، ثُمَّ يَلْقَاهُ مِن الغَد وهُو عَلَى حَالِهِ ، فَلا يَمْنَعُهُ ذلِكَ أَنْ يَكُونَ أَكِيلَهُ وَشَرِيبَهُ وقَعِيدهُ ، فَلَمَّا فَعَلُوا ذلِكَ ضَرَبَ اللَّه قُلُوبَ بَعْضِهِمْ ببعض » ثُمَّ قال : ﴿ لُعِنَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ مِنۢ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ عَلَىٰ لِسَانِ دَاوُۥدَ وَعِيسَى ٱبْنِ مَرْيَمَ ۚ ذَٰلِكَ بِمَا عَصَوا۟ وَّكَانُوا۟ يَعْتَدُونَ ۝٧٨ كَانُوا۟ لَا يَتَنَاهَوْنَ عَن مُّنكَرٍ فَعَلُوهُ ۚ لَبِئْسَ مَا كَانُوا۟ يَفْعَلُونَ ۝٧٩ تَرَىٰ كَثِيرًا مِّنْهُمْ يَتَوَلَّوْنَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ ۚ لَبِئْسَ مَا قَدَّمَتْ لَهُمْ أَنفُسُهُمْ ﴾ إلى قوله : ﴿ فَٰسِقُونَ ﴾ [المائدة : ٧٨- ٨١] ثُمَّ قَالَ : « كَلَّا ، واللَّهِ لَتَأْمُرُنَّ بالمعْرُوفِ ، وَلَتَنْهَوُنَّ عَنِ المُنْكَرِ ، ولَتَأْخُذُنَّ عَلَى يَدِ الظَّالِمِ ، وَلَتَأْطِرُنَّهُ عَلَى الحَقِّ أَطْرًا ، وَلَتَقْصُرُنَّهُ عَلَى الحَقِّ قَصْرًا ، أو لَيَضْرِبَنَّ اللَّه بِقُلُوبِ بَعْضِكُمْ عَلَى بَعْضٍ ، ثُمَّ لَيَلْعَنَنَّكُمْ كَمَا لَعَنَهُمْ » رواه أبو داود ، والترمذي وقال : حديث حسن .

هَذا لفظ أبي داود ، وَلفظ الترمذي : قال رَسُولُ اللَّه ﷺ : « لَمَّا وَقَعَتْ بَنُو إسْرَائيلَ في المَعَاصِي نَهَتْهُمْ عُلَمَاؤُهَمْ فَلَمْ يَنتَهُوا ، فَجَالَسُوهُمْ في مَجَالِسِهِمْ وَوَاكَلُوهُمْ وَشَارَبُوهُمْ ، فَضَرَبَ اللَّه قُلُوبَ بَعْضِهِمْ بِبَعْضٍ ، وَلَعَنَهُمْ عَلَى لِسَانِ دَاوُدَ وَعيسَى ابنِ مَرْيَمَ ذلِكَ بما عَصَوا وَكَانُوا يَعْتَدُونَ » فَجَلَسَ رسول اللَّه ﷺ ، وكَانَ مُتَّكِئًا فَقَالَ : « لا وَالَّذي نَفْسي بِيَدِهِ حَتَّى تَأْطِرُوهُمْ عَلَى الحَقِّ أَطْرًا » [٢] .

قَوْلُهُ : « تَأْطِرُوهم » أَي تَعْطِفُوهُمْ . « ولْتَقْصُرُنَّهُ » أَي : لَتَحْبِسُنَّهُ .

---

(١) أخرجه النسائي في سننه (٤٢٠٩) ، والحديث روي بنحوه في سنن ابن ماجه من حديث أبي أمامة في الفتن (٤٠١٢) ، والحديث بنفس المعنى السابق فلم يعلق عليه الشارح - رحمه اللَّه تعالى .

(٢) أخرجه أبو داود في الملاحم (٤٣٣٦) ، والترمذي في التفسير (٣٠٤٨) ، والبيهقي في سننه (٩٣/١٠) ، وقوله « ولتقصرنه » إلى آخر الحديث زيادة في رواية أبي داود ، قوله « ليلعنكم » اللعنة أي : الطرد والإبعاد عن رحمة اللَّه ، والحديث لم يقم الشارح - رحمه اللَّه تعالى - بشرحه .

١٩٧ - الرَّابعَ عَشَرَ : عن أبي بَكرٍ الصِّدِّيق ﷺ قال : يَا أَيُّها النَّاسُ إنَّكُمْ لَتَقرؤُونَ هذه الآية : ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ عَلَيۡكُمۡ أَنفُسَكُمۡۖ لَا يَضُرُّكُم مَّن ضَلَّ إِذَا ٱهۡتَدَيۡتُمۡۚ ﴾ [المائدة : ١٠٥] وإني سَمِعت رسول اللَّه ﷺ ، يقُولُ : « إنَّ النَّاسَ إذَا رَأَوُا الظَّالِمَ فَلَمْ يَأْخُذُوا عَلَى يَدَيهِ أَوشَكَ أَنْ يَعُمَّهُمُ اللَّه بِعِقَابٍ مِنهُ » (١) رواه أبو داود ، والترمذي ، والنسائي بأسانيد صحيحةٍ .

الشرح

قال المؤلف - رحمه اللَّه تعالى - فيما نقله عن أبي بكر الصديق ﷺ قال : أما بعد أيها الناس ، فإنكم تقرؤون هذه الآية : ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ عَلَيۡكُمۡ أَنفُسَكُمۡۖ لَا يَضُرُّكُم مَّن ضَلَّ إِذَا ٱهۡتَدَيۡتُمۡۚ ﴾ [المائدة : ١٠٥] وهذه الآية ظاهرها أن الإنسان إذا اهتدى بنفسه فإنه لا يضره ضلالُ الناس ، لأنه استقام بنفسه ، فإذا استقام بنفسه فشأن أجره على اللَّه ﷻ . فقد يفسرها بعض الناس ويفهم منها معنى فاسدًا ، يظن أن هذا هو المراد بالآية الكريمة وليس كذلك ، فإن اللَّه اشترط لكون من ضلّ لا يضرنا أن نهتدي فقال : ﴿ لَا يَضُرُّكُم مَّن ضَلَّ إِذَا ٱهۡتَدَيۡتُمۡۚ ﴾ .

ومن الاهتداء : أن نأمر بالمعروف وننهى عن المنكر ، فإذا كان هذا من الاهتداء ، فلابد أن نَسْلم من الضرر ، وذلك بالأمر بالمعروف والنهي عن المنكر ، ولهذا قال ﷺ : وإني سمعت النبيَّ ﷺ يقول : « إن الناس إذا رأوا المنكر فلم يغيروه ، أو فلم يأخذوا على يد الظالم ، أوشك أن يعمهم اللَّه بعقابٍ من عنده » يعني : أنهم يضرهم من ضلّ ، إذا كانوا يرون الضال ولا يأمرونه بالمعروف ، ولا ينهونه عن المنكر ، فإنه يوشك أن يعمهم اللَّه بالعقاب ؛ الفاعل والغافل ، الفاعل للمنكر والغافل الذي لم يَنْه عن المنكر .

وفي هذا دليل على أنه يجب على الإنسان العناية بفهم كتاب اللَّه ﷻ ، حتى لا يفهمه على غير ما أراد اللَّه ، وأن الناس قد يظنون المعنى على خلاف ما أراد اللَّه في كتابه ، فيضلوا بتفسير القرآن ، ولهذا جاء في الحديث الوعيد على من قال في القرآن برأيه ، أي فسره بما يرى ويهوى ، لا بمقتضى اللغة العربية والشريعة الإسلامية ، فإذا فسر الإنسان القرآن بهواه ورأيه فليتبوأ مقعده من النار (٢) .

أما من فسره بمقتضى اللغة العربية ، وهو ممن يعرف اللغة العربية ، فهذا لا إثم عليه ، لأن القرآن نزل باللسان العربي ، فيفسر بما يدل عليه . وكذلك إذا كانت الكلمات قد نقلت من المعنى اللغوي إلى المعنى الشرعي ، وفسرها بمعناها الشرعي فلا حرج عليه .

---

(١) أخرجه أبو داود في الملاحم (٤٣٣٨) ، والترمذي في الفتن (٢١٦٩) ، وابن ماجه في الفتن (٤٠٠٥) ، قوله « فلم يأخذوا على يديه » أي بأن يمنعوه من ذلك باليد إن قدروا وإلا فباللسان ، فإن عجزوا بأن خافوا على نفس محرمة أو مال أو أن يقع المنكر عليه في منكر أشد مما أراد فعله فلا حرج عليهم .

(٢) الحديث أخرجه الترمذي في تفسير القرآن (٢٩٥٠) ، وأحمد في مسنده (٢٣٣/١) .

فالمهم أنه يجب على الإنسان أن يكون فاهمًا لمراد الله ﷻ في كتابه ، وكذلك لمراد النبي ﷺ في سنته ، حتى لا يفسرهما إلا بما أراد الله ورسوله . والله الموفق .

* * *

٢٤ - باب تغليظ عقوبة من أمر بمعروف أو نهى عن منكر وَخالَفَ قولُه فِعلَه

قال الله تعالى : ﴿ أَتَأْمُرُونَ ٱلنَّاسَ بِٱلْبِرِّ وَتَنسَوْنَ أَنفُسَكُمْ وَأَنتُمْ تَتْلُونَ ٱلْكِتَٰبَ ۚ أَفَلَا تَعْقِلُونَ ﴾ [البقرة : ٤٤] وقال تعالى : ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لِمَ تَقُولُونَ مَا لَا تَفْعَلُونَ ۝ كَبُرَ مَقْتًا عِندَ ٱللَّهِ أَن تَقُولُوا۟ مَا لَا تَفْعَلُونَ ﴾ [الصف : ٢، ٣] وقال تعالى إخبارًا عَنْ شُعَيبٍ ﷺ : ﴿ وَمَآ أُرِيدُ أَنْ أُخَالِفَكُمْ إِلَىٰ مَآ أَنْهَىٰكُمْ عَنْهُ ۚ ﴾ (١) [هود : ٨٨] .

الشرح

قال المؤلف - رحمه الله تعالى - : باب تغليظ عقوبة من أمر بمعروف أو نهى عن منكر وخالف فعله قوله . لما كان الباب الذي قبله في وجوب الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر ، كان المناسب ذكر هذا الباب في تغليظ عقوبة من أمر بمعروف ولم يفعله ، أو نهى عن منكر وفعله - والعياذ بالله - وذلك أن مَنْ هذه حاله ، لا يكون صادقًا في أمره ونهيه لأنه لو كان صادقًا في أمره ، معتقدًا أن ما أمر به معروف ، وأنه نافع ، لكان هوأول من يفعله لو كان عاقلًا . وكذلك لو نهى عن منكر ، وهو يعتقد أنه ضار ، وأن فعله إثم ، لكان أول من يتركه لو كان عاقلًا . فإذا أمر بمعروف ولم يفعله ، أو نهى عن منكر وفعله ، علم أن قوله هذا ليس مبنيًا على عقيدة والعياذ بالله .

ولهذا أنكر الله على من فعل ذلك فقال تعالى : ﴿ أَتَأْمُرُونَ ٱلنَّاسَ بِٱلْبِرِّ وَتَنسَوْنَ أَنفُسَكُمْ وَأَنتُمْ تَتْلُونَ ٱلْكِتَٰبَ ۚ أَفَلَا تَعْقِلُونَ ﴾ [البقرة : ٤٤] . والاستفهام هنا للإنكار ، يعني : كيف تأمرون الناس بالبر وتنسون أنفسكم فلا تفعلونه ، وأنتم تتلون الكتاب وتعرفون البر من غير البر : أفلا تعقلون ؟! وهذا الاستفهام للتوبيخ ؛ يقول لهم : كيف يقع منكم هذا الشيء ؟ أين عقولكم لو كنتم صادقين ؟

مثال ذلك : رجل يأمر بترك الناس للربا ، ولكنه يتعامل به أو يفعل ما هو أعظم منه . فهو يقول للناس مثلًا : لا تأخذوا الربا في معاملات البنوك ، ثم يذهب هو فيأخذ الربا بالحيلة والمكر والخداع ، ولم يعلم أن ما وقع هو فيه من الحيلة والمكر والخداع ، أكبر ذنبًا ، وأعظم إثمًا ، ممن أتى الأمر على وجهه .

ولهذا قال أيوب السختياني رحمه الله في أهل الحيل والمكر : « إنهم يخادعون الله كما يخادعون

---

(١) قوله تعالى : ﴿ بِٱلْبِرِّ ﴾ هو فعل الخيرات ، قوله تعالى : ﴿ تَتْلُونَ ٱلْكِتَٰبَ ۚ ﴾ أي تقرؤون التوراة والإنجيل وتعلمون أحكامها .

الصبيان ، لو أنهم أتوا الأمر على وجهه لكان أهون » . وصدق رحمه الله .

كذلك أيضًا رجل يأمر الناس بالصلاة ، ولكنه هو نفسه لا يصلي !! فكيف يكون هذا ؟ كيف تأمر بالصلاة ، وترى أنها معروف ، ثم لا تصلي ؟ هل هذ من العقل ؟ ليس من العقل فضلًا عن أن يكون من الدين ، فهو مخالف للعقل ، وسفه في الدين . نسأل الله العافية .

وقال الله تعالى : ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لِمَ تَقُولُونَ مَا لَا تَفْعَلُونَ ۝ كَبُرَ مَقْتًا عِندَ ٱللَّهِ أَن تَقُولُواْ مَا لَا تَفْعَلُونَ ﴾ [الصف : ٢، ٣] ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ﴾ خاطبهم بالإيمان ، لأن مقتضى الإيمان ألا يفعل الإنسان هذا ، وألا يقول ما لا يفعل ، ثم وبَّخهم بقوله : ﴿ لِمَ تَقُولُونَ مَا لَا تَفْعَلُونَ ﴾ . ثم بين أن هذا الفعل مكروه عند الله ، مُبْغَضٌ لديه أشدَّ البغض ، فقال : ﴿ كَبُرَ مَقْتًا عِندَ ٱللَّهِ أَن تَقُولُواْ مَا لَا تَفْعَلُونَ ﴾ . والمقت . قال العلماء : هو أشدُّ البغض فاللَّه تعالى يبغض الرجل الذي هذه حاله ؛ يقول ما لا يفعل . وبين الله عز وجل لعباده أن ذلك مما يبغضه من أجل أن يتعدوا عنه ، لأن المؤمن حقًّا يبتعد عما نهى الله عنه .

وقال عن شعيب : ﴿ وَمَآ أُرِيدُ أَنْ أُخَالِفَكُمْ إِلَىٰ مَآ أَنْهَىٰكُمْ عَنْهُ ﴾ [هود : ٨٨] يعني أنه يقول لقومه : لا يمكن أن أنهاكم عن الشرك ، وأنهاكم عن نقص المكيال والميزان وأنا أفعله ، لا يمكن أبدًا ، لأن الرسل عليهم السلام هم أنصح الخلق للخلق ، وهم أشدُّ الناس تعظيمًا لله ، وامتثالًا لأمره واجتنابًا لنهيه ، فلا يمكن أن يخالفهم إلى ما ينهاهم عنه فيفعله .

وفي هذا : دليل على أن الإنسان الذي يفعل ما ينهى عنه ، أو يترك ما أمر به ، مخالف لطريقة الرسل - عليهم الصلاة والسلام - لأنهم لا يمكن أن يخالفوا الناس إلى ما ينهونهم عنه . وستأتي الأحاديث إن شاء الله في بيان عقوبة من ترك ما أمر به أو فعل ما نهى عنه والله الموفق .

* * *

١٩٨ - وعن أبي زَيدٍ أسَامَةَ بن زيدِ بن حَارِثَةَ رضي الله عنهما قال : سَمِعْتُ رسول الله صلى الله عليه وسلم ، يَقُولُ : « يُؤْتَى بالرَّجلِ يومَ القِيامَةِ فيُلْقَى في النَّار ، فَتَنْدَلِقُ أَقْتَابُ بَطْنِهِ ، فَيَدُورُ بِهَا كَمَا يَدُورُ الحِمَارُ في الرَّحَا ، فَيَجْتَمِعُ إلَيهِ أَهْل النَّار فَيَقُولُونَ : يَا فُلانُ مَالَكَ ؟ أَلَمْ تَكُ تَأْمُرُ بالمَعْرُوفِ وَتَنْهَى عَنِ المُنْكَر ؟ فَيَقُولُ : بَلَى ، كُنْتُ آمُرُ بالمَعْرُوفِ وَلا آتيه ، وَأَنْهى عن المُنْكَرِ وَآتِيهِ »[(١)] متفق عليه .

قولُهُ : « تنْدَلِقُ » هُوَ بالدَّالِ المهملةِ ، وَمَعْنَاهُ تَخْرُجُ . وَ « الأَقتَابُ » : الأَمْعَاءُ ، وَاحِدُهَا قِتْبٌ .

الشرح

قال المؤلف - رحمه الله تعالى - فيما نقله عن أسامة بن زيد رضي الله عنهما أن النبي صلى الله عليه وسلم قال : « يؤتى

---

(١) أخرجه البخاري في بدء الخلق (٣٢٦٧) ، ومسلم - واللفظ له - في الزهد (٥١) ، قوله « الرحا » الأداة التي يطحن بها .

بالرجل يوم القيامة فيلقى في النار فتندلق أقتاب بطنه ، فيدور بها كما يدور الحمار في الرَّحا ، فيجتمع عليه أهل النار فيقولون : يا فلان مالك ؟ ألم تك تأمر بالمعروف وتنهى عن المنكر ؟ فيقول : بلى كنت آمر بالمعروف ولا آتيه وأنهى عن المنكر وآتيه » **فهذا الحديث فيه التحذير الشديد من الرجل الذي يأمر بالمعروف ، وينهى عن المنكر ويخالف قوله فعله .**

يقول : « يؤتى بالرجل يوم القيامة » **أي تأتي به الملائكة ، فيلقى في النار إلقاءً ، لا يدخلها برفق ، ولكنه يُلقى فيها كما يُلقى الحجر في اليمِّ ، فتندلق أقتاب بطنه ، يعني : أمعاءه ، الأقتاب : جمع قتب وهو المعي ، ومعنى تندلق : تخرج من بطنه من شدة الإلقاء - والعياذ بالله - .**

« فيدور بها كما يدور الحمار في الرحا » **وهذا التشبيه للتقبيح ، شبهه بالحمار الذي يدور على الرحا ، وصفة ذلك : أنه في المطاحن القديمة قبل أن توجد هذه الآلات والمعدات الحديدية ، كان يُجعل حجران كبيران وينقشان فيما بينهما أي ينقَّران ، ويوضع للأعلى منهما فتحة تدخل منها الحبوب ، وفيها خشبة تربط بمتن الحمار ، ثم يستدير على الرحا ، وفي استدارته تَطْحَنُ الرحا .**

فهذا الرجل الذي يلقى في النار يدور على أمعائه - والعياذ بالله - كما يدور الحمار على رحاه ، فيجتمع إليه أهل النار ، فيقولون له : مالك ؟ أي شيء جاء بك إلى هنا ، وأنت تأمر بالمعروف وتنهى عن المنكر ؟ فيقول مقرًّا على نفسه : « كنت آمر بالمعروف ولا آتيه » **يقول للناس : صلّوا ولا يصلي . ويقول لهم : زكوا أموالكم ولا يزكي . ويقول : بروا الوالدين ، ولا يبرّ والديه . وهكذا يأمر بالمعروف ولكنه لا يأتيه .**

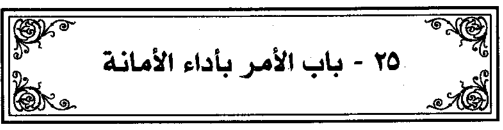
« وأنهى عن المنكر وآتيه » **يقول للناس : لا تغتابوا الناس ، لا تأكلوا الربا ، لا تغشوا في البيع ، لا تسيؤوا العشرة ، لا تسيؤوا الجيرة وما أشبه ذلك من الأشياء المحرمة التي ينهى عنها ، ولكنه يأتيها والعياذ بالله ، يبيع بالربا ، ويغش ، ويسيء العشرة ، ويسيء إلى الجيران وغير هذا ، فهو بذلك يأمر بالمعروف ولا يأتيه ، وينهى عن المنكر ويأتيه - نسأل الله العافية - فيعذب هذا العذاب ويخزى هذا الخزي .**

فالواجب على المرء أن يبدأ بنفسه فيأمرها بالمعروف وينهاها عن المنكر ، لأن أعظم الناس حقًّا عليك بعد رسول الله ﷺ نفسك .

ابدأ بنفسِك فانهها عن غيِّها ... فإذا انتهت عنه فأنت حكيم

ابدأ بها ثم حاول نصح إخوانك ، وأمرهم بالمعروف ، وانههم عن المنكر ، لتكون صالحًا مصلحًا . نسأل الله أن يجعلني وإياكم من الصالحين المصلحين إنه جواد كريم .

* * *



٢٥ - باب الأمر بأداء الأمانة

قال الله تعالى : ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ يَأْمُرُكُمْ أَن تُؤَدُّوا۟ ٱلْأَمَـٰنَـٰتِ إِلَىٰٓ أَهْلِهَا ﴾ [النساء: ٥٨] .

الشرح

قال المؤلف رَحِمَهُ ٱللَّهُ : باب الأمر بأداء الأمانة .

الأمانة : تطلق على معان متعددة ، منها ما ائتمنه الله على عباده من العبادات التي كلفهم بها ، فإنها أمانة ائتمن الله عليها العباد .

ومنها : الأمانة المالية ، وهي الودائع التي تُعطى للإنسان ليحفظها لأهلها ، وكذلك الأموال الأخرى التي تكون بيد الإنسان ، لمصلحته أو مصلحته ومصلحة مالكها ، وذلك أن الأمانة التي بيد الإنسان ؛ إما أن تكون لمصلحة مالكها ، أو لمصحلة من هي بيده ، أو لمصلحتهما جميعًا .

فأما الأول : فالوديعة ؛ الوديعة تجعلها عند شخص ، تقول مثلًا : هذه ساعتي عندك احفظها لي ، أو هذه دراهم احفظها لي وما أشبه ذلك ، فهذه وديعة المودع ، فهي بقيت عنده لمصلحة مالكها .

وأما التي لمصلحة من هي بيده فالعاريَّة : يعطيك شخص شيئًا يعيرك إياه ؛ من إناء ، أو فراش ، أو ساعة ، أو سيارة ، فهذه بقيت في يدك لمصلحتك .

وأما التي لمصلحة مالكها ومن هي بيده : فالعينُ المستأجَرةَ ، فهذه مصلحتها للجميع ؛ استأجرتَ مني سيارة ، وأخذتَها ، فأنت تنتفع بها في قضاء حاجاتك ، وأنا أنتفع بالأجرة . وكذلك البيت والدكان وما أشبه ذلك . كل هذه من الأمانات .

ومن الأمانة أيضًا : أمانة الولاية وهي أعظمها مسؤوليةً - الولاية العامة والولايات الخاصة - فالسلطان مثلًا الرئيس الأعلى في الدولة ، أمين على الأمة كلها ، على مصالحها الدينية ومصالحها الدنيوية ، على أموالها التي تكون في بيت المال ، لا يبذرها ،ولا ينفقها في غير مصلحة المسلمين وما أشبه ذلك .

وهناك أمانات أخرى دونها ، كأمانة الوزير مثلًا في وزارته ، وأمانة الأمير في منطقته ، وأمانة القاضي في عمله ، وأمانة الإنسان في أهله . المهم أن الأمانة باب واسع جدًّا . وأصلها أمران :

أمانة في حقوق الله : وهي أمانة العبد في عبادات الله عَزَّ وَجَلَّ .

وأمانة في حقوق البشر : وهي كثيرة جدًّا ، وقد أشرنا إلى شيء منها ، وكلها يُؤمر الإنسان بأدائها : ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ يَأْمُرُكُمْ أَن تُؤَدُّوا۟ ٱلْأَمَـٰنَـٰتِ إِلَىٰٓ أَهْلِهَا ﴾ [النساء: ٥٨] تأمل هذه الصيغة : « إن الله يأمركم » صيغة قوة ، وسلطان ، لم يقل : أدُّوا الأمانة ، ولم يقل : إني آمركم ولكن قال : « إن الله يأمركم » يأمركم بألوهيته العظيمة ، يأمركم أن تؤدوا الأمانات إلى أهلها ، فأقام الخطاب مقام الغائب تعظيمًا لهذا المقام ، ولهذا الأمر .

وهذا كقول السلطان - ولله المثل الأعلى - : إن الأمير يأمركم ، إن الملك يأمركم ، فهذا أبلغ وأقوى من قوله : إني آمركم كما قال ذلك علماءُ البلاغة .

« أن تؤدوا الأمانات إلى أهلها » . ومن لازم الأمراء بأداء الأمانة إلى أهلها ؛ الأمر بحفظها ؛ لأنه لا يمكن أداؤها إلى أهلها إلا بحفظها . وحفظها ألا يتعدى فيها ولا يفرط ، بل يحفظها حفظًا تامًّا ليس فيه تعدٍّ ولا تفريط ، حتى يؤديها إلى أهلها .

وأداء **الأمانة من علامات الإيمان** ، فكلما وجدتَ الإنسان أمينًا فيما يؤتمن عليه ، مؤديًا له على الوجه الأكمل ، فاعلم أنه قوي الإيمان .وكلما وجدته خائنًا فاعلم أنه ضعيف الإيمان .

ومن الأمانات : ما يكون بين الرجل وصاحبه من الأمور الخاصة التي لا يجب أن يطلع عليها أحد ، فإنه لا يجوز لصاحبه أن يخبر بها .

فلو استأمنك على حديث حدثك به ، وقال لك : هذا أمانة ، فإنه لا يحلُّ لك أن تخبر به أحدًا من الناس ، ولو كان أقرب الناس إليك . سواء أوصاك بأن لا تخبرَ بهِ أحدًا ، أو عُلم من قرائن الأحوال أنه لا يحبُّ أن يطَّلع عليه أحد . ولهذا قال العلماء : إذا حدثك الرجلُ بحديث والتفت فهذه أمانة [١] . لماذا ؟ لأن كونه يلتفت ، فإنه يخشى بذلك أن يسمع أحدٌ ، إذن فهو لا يحبُّ أن يطلع عليه أحد ، فإذا ائتمنك الإنسان على حديث ، فإنه لا يجوز لك أن تفشيه .

ومن ذلك أيضًا : ما يكون بين الرجل وبين زوجته من الأشياء الخاصة ، فإن شر الناس منزلة عند الله تعالى يوم القيامة ، الرجل يفضي إلى امرأته وتفضي إليه ، ثم يروح ينشر سرها ، ويتحدث بما جرى بينهما [٢] ، فلا يجوز للإنسان أن يتحدث بما جرى بينه وبين زوجته .

وكثير من الشباب السفهاء يتفكهون في المجالس بذكر تلك الخصوصيات ، يقول الواحد منهم : فعلت بامرأتي كذا وكذا ، من الأمور التي لا تحب هي أن يطلع عليها أحد . وكذلك كل إنسان عاقل له ذوقٌ سليم ، لا يحب أن يطلع أحد على ما جرى بينه وبين زوجته .

إذن علينا أن نحافظ على الأمانات ، وأول شيء أن نحافظ على الأمانات التي بيننا وبين ربنا ، لأن حق ربنا أعظم الحقوق علينا ، ثم بعد ذلك ما يكون من حقوق الخلق ، الأقرب فالأقرب . والله الموفق .

* * *

وقال تعالى : ﴿ إِنَّا عَرَضْنَا ٱلْأَمَانَةَ عَلَى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَٱلْجِبَالِ فَأَبَيْنَ أَن يَحْمِلْنَهَا وَأَشْفَقْنَ مِنْهَا وَحَمَلَهَا ٱلْإِنسَٰنُ إِنَّهُۥ كَانَ ظَلُومًا جَهُولًا ﴾ [الأحزاب : ٧٢] .

---

(١) انظر في ذلك سنن أبي داود (٤٨٦٨) ، وسنن الترمذي (١٩٥٩) ، ومسند الإمام أحمد (٣/٣٥٢ ، ٣٨٠) .

(٢) انظر الحديث في سنن أبي داود (٤٨٧٠) ، ومسند الإمام أحمد (٣/٦٩) ، والإفضاء إلى المرأة أي مباشرتها (عون المعبود ١٣/٢٢٦) .

الشرح

سبق الكلام على أن الأمانات شاملة لحقوق اللَّه وحقوق العباد ، وأنها أنواع كثيرة ، وذكرنا ما تيسّر منها ، وتكلمنا عن قوله ﷻ ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ يَأْمُرُكُمْ أَن تُؤَدُّوا۟ ٱلْأَمَـٰنَـٰتِ إِلَىٰٓ أَهْلِهَا ﴾ ثم قال تعالى في الآية نفسها : ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ نِعِمَّا يَعِظُكُم بِهِۦٓ ﴾ فأثنى اللَّه ﷻ على ما يعظنا به من الأوامر والنواهي ، من الأوامر التي يريد منا فعلها ، والنواهي التي يريد منا تركها . ثم ختم الآية بقوله : ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ سَمِيعًۢا بَصِيرًا ﴾ [النساء : ٥٨] سميعًا لما تقولون ، بصيرًا بما تفعلون ، وخَتْم الآية بهذين الاسمين الكريمين المتضمنين لشامل سمع اللَّه وبصره ، يقتضي التهديد ، فهو يهدِّد ﷻ مَنْ لم يقم بأداء الأمانات إلى أهلها .

ثم ذكر المؤلف رَحِمَهُ ٱللَّهُ قوله تعالى : ﴿ إِنَّا عَرَضْنَا ٱلْأَمَانَةَ عَلَى ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَٱلْجِبَالِ فَأَبَيْنَ أَن يَحْمِلْنَهَا وَأَشْفَقْنَ مِنْهَا وَحَمَلَهَا ٱلْإِنسَـٰنُ ۖ إِنَّهُۥ كَانَ ظَلُومًا جَهُولًا ﴾ [الأحزاب : ٧٢] عرض اللَّه الأمانة وهي التكليف والإلزام بما يجب ، عرضها على السموات والأرض والجبال ، ولكنها أبت أن تحملها ، لما فيها من المشقة ، ولخشية هذه الثلاثة : السموات والأرض والجبال من إضاعتها .

فإذا قال قائل : كيف يعرض اللَّه الأمانة على السموات والأرض والجبال ، وهي جماد ليس لها عقل ولا تشعر ؟! . فالجواب : أن كلَّ جماد فهو بالنسبة للَّه ﷻ عاقل يفهم ويمتثل . أرأيت إلى قوله تعالى فيما أخبر به النبي ﷺ : « إن اللَّه تعالى لما خلق القلم قال له : اكتب » . فخاطب اللَّه القلم وهو جماد ، وردَّ عليه القلم قال : « وماذا أكتب ؟ » لأن الأمر مجمل ، ولا يمكن الامتثال للأمر المجمل إلا ببيانه ، قال : « اكتب ما هو كائن إلى يوم القيامة »[١] . فكتب القلم بأمر اللَّه ما هو كائن إلى يوم القيامة . هذا أمر وتكليف وإلزام .

فهنا بين اللَّه ﷻ أنه عرض الأمانة على السموات والأرض والجبال ، فأبت أن تحملها .

وقال تعالى : ﴿ ثُمَّ ٱسْتَوَىٰٓ إِلَى ٱلسَّمَآءِ وَهِىَ دُخَانٌ فَقَالَ لَهَا وَلِلْأَرْضِ ٱئْتِيَا طَوْعًا أَوْ كَرْهًا قَالَتَآ أَتَيْنَا طَآئِعِينَ ﴾[٢] [فصلت : ١١] . فخاطبهما بالأمر وقال : ائتيا طوعًا أو كرهًا ، فقالتا : أتينا طائعين . ففهمت السموات والأرض خطاب اللَّه ، وامتثلتا وقالتا : أتينا طائعين . وعصاة بني آدم يقولون : سمعنا وعصينا .

الأمانة حملها الإنسان . وكيف حملها ؟

حملها بأمرين : العقل ، والرسل . العقل الذي أعطاه اللَّه ﷻ ، وفضله به على كثير ممن خلق تفضيلًا . والرسل الذين أرسلهم اللَّه ﷻ للإنسان ، وبينوا له الحق من الضلال ، فلم يبق له عذر . ولكن مع ذلك وصف الإنسان بأنه ظلوم جهول ، فاختلف العلماء : هل « الإنسان » هنا عام ، أم خاصّ بالكافر ؟ فقال بعض العلماء : إنّه خاص بالكافر ، فهو الظلوم الجهول . أما المؤمن فهو ذو عدل وعلم وحكمة ورشد . وقال بعض العلماء : بل هو عام والمراد الإنسان بحسب طبيعته ، أما المؤمن فإن

---

(١) أخرجه أبو داود في سننه (٤٧٠٠)، والترمذي (٢١٥٥)، والإمام أحمد في مسنده (٣١٧/٥).

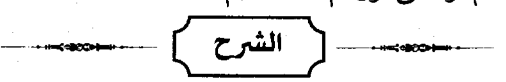
(٢) وهي دخان : مكونة مما يشبه الدخان . صفوة البيان لمعاني القرآن (٦٠٥).

اللّه منَّ عليه بالهداية ، فيكون مستثنى من هذا وأيًّا كان فمن قام بالأمانة انتفى عنه وصف الظلم والجهالة التي في قول اللّه تعالى : ﴿ وَحَمَلَهَا ٱلْإِنسَٰنُ إِنَّهُۥ كَانَ ظَلُومًا جَهُولًا ﴾ [الأحزاب : ٧٢] .

* * *

١٩٩ – عن أبي هريرة ﷺ أن رسول اللّه ﷺ قال : « آيَةُ المُنَافِقِ ثَلاثٌ : إِذَا حَدَّثَ كَذَبَ ، وَإِذَا وَعَدَ أَخْلَفَ ، وإِذَا اؤْتُمِنَ خَانَ » متفقٌ عليه .

وفي رواية : « وَإِنْ صَامَ وَصَلَّى وَزَعَمَ أَنَّهُ مُسْلِمٌ » (١) .



الشرح

قال المؤلف – رحمه اللّه تعالى – فيما نقله عن أبي هريرة ﷺ أن النبي ﷺ قال : « آية المنافق ثلاث : إذا حدّث كذب ، وإذا وعد أخلف ، وإذا اؤتمن خان وإن صام وصلى وزعم أنه مسلم » .

الآية : يعني العلامة ، كما قال تعالى : ﴿ أَوَلَمْ يَكُن لَّهُمْ ءَايَةً أَن يَعْلَمَهُۥ عُلَمَٰٓؤُا۟ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ ﴾ [الشعراء : ١٩٧] يعني أو لم يكن لهم علامة على صدق ما جاء به النبي ﷺ ، وصحة شريعته وأن هذا القرآن حق : ﴿ أَن يَعْلَمَهُۥ عُلَمَٰٓؤُا۟ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ ﴾ ، ويعلمون أنه هو الذي بشّر به عيسى – عليه الصلاة والسلام – وكذلك قوله تعالى : ﴿ وَءَايَةٌ لَّهُمْ أَنَّا حَمَلْنَا ذُرِّيَّتَهُمْ فِى ٱلْفُلْكِ ٱلْمَشْحُونِ ﴾ (٢) [يس : ٤١] . آية يعني علامة . فعلامة المنافق ثلاث .

والمنافق هو الذي يُسرُّ الشرَّ ويُظهر الخير . ومن ذلك : أن يُسِرَّ الكفر ويظهر الإسلام . وأصله مأخوذ من نافقاء اليربوع . اليربوع : أو الذي نسميه الجربوع ، يَحْفرُ له حجرًا في الأرض ويفتحُ له بابًا ، ثم يحفر في أقصى الجُحر خرقًا للخروج ، لكنه خرق خفي لا يُعلم به ، بحيث إذا حجره أحد من عند الباب ، ضرب هذا الخرق الذي في الأسفل برأسه ثم هرب منه . فالمنافق يظهر الخير ويبطن الشر ، يظهر الإسلام ويبطن الكفر .

وقد برز النفاق في عهد النبي ﷺ بعد غزوة بدر ، لما قُتل صناديد (٣) قريش في بدر ، وصارت الغلبةُ للمسلمين ، ظهر النفاق ، فأظهر هؤلاء المنافقون أنهم مسلمون وهم كفار ، كما قال تعالى : ﴿ وَإِذَا لَقُوا۟ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ قَالُوٓا۟ ءَامَنَّا وَإِذَا خَلَوْا۟ إِلَىٰ شَيَٰطِينِهِمْ قَالُوٓا۟ إِنَّا مَعَكُمْ إِنَّمَا نَحْنُ مُسْتَهْزِءُونَ ﴾ [البقرة : ١٤] قال اللّه تعالى : ﴿ ٱللَّهُ يَسْتَهْزِئُ بِهِمْ وَيَمُدُّهُمْ فِى طُغْيَٰنِهِمْ يَعْمَهُونَ ﴾ [البقرة : ١٥] وقال عنهم أيضًا : ﴿ إِذَا جَآءَكَ ٱلْمُنَٰفِقُونَ قَالُوا۟ نَشْهَدُ إِنَّكَ لَرَسُولُ ٱللَّهِ ﴾ يؤكدون كلامهم بالشهادة و « بإن » و « اللام » فقال اللّه تعالى : ﴿ وَٱللَّهُ يَعْلَمُ إِنَّكَ لَرَسُولُهُۥ وَٱللَّهُ يَشْهَدُ إِنَّ ٱلْمُنَٰفِقِينَ لَكَٰذِبُونَ ﴾ (٤) [المنافقون : ١] .

---

(١) أخرجه البخاري في الإيمان (٣٣) ، ومسلم في الإيمان (١٠٧) ، والإمام أحمد في مسنده (٣٥٧/٢) ، والرواية الثانية أخرجها مسلم في الإيمان (١٠٩) .

(٢) أي حملنا أولادهم صغارًا وكبارًا في السفن المملوءة دون أن يلحقهم أذى وتمكينًا للكبار منهم من وسائل العيش وأهمها التجارات . انظر صفوة البيان لمعاني القرآن ص (٥٦١) .

(٣) صناديد : جمع صنديد وهو الشديد . المعجم الوسيط (٤٥٤/١) .

(٤) أي كاذبون في قولهم « نشهد إنك لرسول اللّه » لأنهم أضمروا خلاف ما أظهروا . وحقيقة الإيمان أن يواطئ القلب اللسان فمن أخبر عن شيء وهو يضمر خلافه فهو كاذب . صفوة البيان لمعاني القرآن ص (٧٢٥) .

فشهد شهادةً أقوى منها بأنهم لكاذبون في قولهم : « نشهد إنك لرسول اللّٰه » لا في أن محمدًا رسول اللّٰه ولهذا استدرك فقال : ﴿ وَٱللَّهُ يَعْلَمُ إِنَّكَ لَرَسُولُهُۥ وَٱللَّهُ يَشْهَدُ إِنَّ ٱلْمُنَٰفِقِينَ لَكَٰذِبُونَ ﴾ [المنافقون : ١] .

المنافق له علامات ، يعرفها الذي أعطاه اللّٰه فراسة [١] ونورًا في قلبه يعرف المنافق من تَتَبُّعِ أحواله .

وهناك علامات ظاهرة لا تحتاج إلى فراسة ؛ منها هذه الثلاثة التي بيَّنَهَا النبي ﷺ « إذا حدث كذب » يقول مثلًا : فلان فعل كذا وكذا ، فإذا بحثت وجدته كذب ، وهذا الشخص لم يفعل شيئًا ، فإذا رأيت الإنسان يكذب فاعلم أن في قلبه شعبةً من النفاق .

« الثاني إذا وعد أخلف » يعدك ولكن يخلف ، يقول لك مثلًا سآتي إليك في الساعة السابعة صباحًا ولكن لا يأتي ، أو يقول : سآتي إليك غدًا بعد صلاة الظهر ولكن لا يأتي . يقول : أعطيك كذا وكذا ، ولا يعطيك ، فهو كما قال النبي ﷺ « إذا وعد أخلف » ، والمؤمن إذا وعد وَفَى ، كما قال اللّٰه تعالى : ﴿ وَٱلْمُوفُونَ بِعَهْدِهِمْ إِذَا عَٰهَدُوا۟ ﴾ [البقرة : ١٧٧] لكن المنافق يعدُك ويغرك [٢] ، فإذا وجدت الرجل يغدر كثيرًا بما يعد ، ولا يفي ، فاعلم أن في قلبه شعبة من النفاق ، والعياذ باللّٰه .

الثالث « إذا اؤتمن خان » وهذا الشاهد من هذا الحديث بالباب ، فالمنافق إذا ائتمنته على مال خانك ، وإذا ائتمنته على سرٍّ بينك وبينه خانك ، وإذا ائتمنته على أهلك خانك ، وإذا ائتمنته على بيع أو شراء خانك . كلما ائتمنته على شيء يخونك والعياذ باللّٰه ، يدلُّ ذلك على أن في قلبه شعبة من النفاق .

وأخبر النبي ﷺ بهذا الخبر لأمرين :

الأمر الأول : أن نحذر من هذه الصفات الذميمة ، لأنها من علامات النفاق ، ويخشى أن يكون هذا النفاق العملي مؤديًا إلى نفاق في الاعتقاد ، والعياذ باللّٰه ، فيكون الإنسان منافقًا نفاقًا اعتقاديًا فيخرج من الإسلام وهو لا يشعر ، فأخبرنا الرسول - عليه الصلاة والسلام - لنحذر من ذلك .

الأمر الثاني : لنحذر من يتصف بهذه الصفات ، ونعلم أنه منافق يخدعنا ويلعب بنا ، ويغرنا بحلاوة لفظه وحسن قوله ، إذن عكس ذلك يكون من علامات الإيمان . فالمؤمن إذا وعد أوفى . المؤمن إذا اؤتمن أدى الأمانة على وجهها ، هذا هو المؤمن وكذلك إذا حدّث كان صادقًا في حديث مخبرًا بما هو الواقع فعلًا .

ومن الأسف فإن قومًا من السفهاء عندنا إذا وعدته بوعد يقول : « وعد إنجليزي أم وعد عربي » يعني أن الإنجليز هم الذين يوفون بالوعد ، هذا بلاشك أنه سفه وغرور بهؤلاء الكفرة ، الإنجليز فيهم مسلمون ومؤمنون ولكن جملتهم كفار ، ووفاؤهم بالوعد لا يبتغون به وجهَ اللّٰه ، لكن يبتغون به أن يحسنوا صورتهم عند الناس ليغتر الناس بهم .

---

(١) فِراسة : الفِراسة المهارة في تعرف بواطن الأمور من ظواهرها المعجم الوسيط (٧٠٦/٢) .

(٢) أي يخدعك ويُطْمِعُكَ بالباطل . المعجم الوسيط (٦٧٢/٢) .

المؤمن في الحقيقة هو الذي يفي تمامًا ، ولهذا إذا أردت أن تتأكد فقل لصاحبك : تعدني وعد مؤمن أو وعد منافق ؟ هذا هو الصواب ، فمن أوفى بالوعد فهو مؤمن ، ومن أخلف الوعد كان فيه من خصال النفاق .

* * *

٢٠٠ - وعن حُذَيفَةَ بنِ اليَمَانِ ﷺ قال : حدثنا رسول اللَّه ﷺ حَدِيثَينِ قَدْ رَأَيتُ أَحَدَهُمَا ، وَأَنَا أَنْتَظِرُ الآخَرَ : حَدَّثَنَا أَنَّ الأَمَانَةَ نَزَلَتْ فِي جَذْرِ قُلُوبِ الرِّجَال ، ثُمَّ نزل القُرآنُ فَعَلِمُوا مِنَ القُرآن ، وَعَلِمُوا مِنَ السُّنَّةِ ، ثُمّ حَدَّثَنَا عَنْ رَفْعِ الأَمَانَةِ فَقَالَ : « يَنَامُ الرَّجل النَّومَةَ فَتُقْبَضُ الأَمَانَةُ مِنْ قَلْبِهِ ، فَيَظَلُّ أَثَرُهَا مِثلَ الوَكْتِ ، ثُمّ يَنَامُ النَّومَةَ فَتُقْبضُ الأَمَانَةُ مِنْ قَلْبهِ ، فَيَظَلُّ أَثَرُهَا مِثْلَ أَثَر المجْلِ ، كَجَمَرٍ دَحْرَجْتَهُ عَلَى رِجْلِكَ ، فَنَفِطَ فَتَرَاهُ مُنْتَبِرًا وَلَيسَ فِيه شيء » ثُمَّ أَخَذَ حَصَاةً فَدَحْرَجَهُ عَلَى رِجلِهِ « فَيُصْبِحُ النَّاسُ يَتَبَايَعُونَ ، فَلا يَكَادُ أَحَدٌ يُؤَدِّي الأَمَانَةَ حَتَّى يُقَالَ : إنَّ في بَني فُلانٍ رَجُلًا أَمِينًا ، حَتَّى يُقَالَ لِلرَّجُلِ : مَا أَجْلَدَهُ ، مَا أَظْرَفَهُ ، مَا أَعْقَلَهُ ! وَمَا في قَلْبِهِ مِثْقَالُ حَبَّةٍ مِنْ خَرْدَلٍ مِنْ إيمَانٍ . وَلَقَدْ أَتَى عَلَيَّ زَمَانٌ وَمَا أُبَالِي أَيّكُمْ بَايَعْتُ ، لَئِنْ كَانَ مُسْلِمًا ليرُدَّنَّهُ عَلَيَّ دِينُهُ ، وَلَئِنْ كَانَ نَصْرَانِيًّا أَو يَهُودِيًّا لَيَرُدَّنَّهُ عَلَيَّ سَاعِيهِ ، وَأَمَّا اليَومَ فَمَا كُنْتُ أُبَايعُ مِنْكُمْ إلا فُلانًا وَفُلانًا » [1] متفقٌ عليه .

قوله : « جَذْرُ » بِفتحِ الجيم وَإسْكَانِ الذَّالِ المُعجَمَةِ : وَهوَ أَصْلُ الشيء و « الوَكْتُ » بالتَّاءِ المُثَنَّاة مِنْ فَوق : الأَثَرُ اليَسِيرُ . « وَالمجْلُ » بفتح الميم وإسكان الجيم ، وَهُوَ تَنَفُّطٌ في اليَدِ وَنَحْوِها مِنْ أَثَرِ عَمَلٍ وَغَيرِهِ . قوله : « مُنْتَبِرًا » : مُرْتَفِعًا . قوله : « سَاعِيهِ » : الوَالي عَلَيه .

الشرح

قال المؤلف - رحمه اللَّه تعالى - فيما نقله عن حذيفة بن اليمان ﷺ ، قال : حدثنا رسول اللَّه ﷺ حديثين قد رأيت أحدهما وأنا أنتظر الآخر وكان النبي ﷺ يحدث أصحابه بما يراه مناسبًا ، والنبي - عليه الصلاة والسلام - إذا حدث أحدًا بشيء ، فإنه حديث له وللأمة إلى يوم القيامة وحذيفة بن اليمان ﷺ يقال له صاحب السرّ ، لأن النبي ﷺ حدثه عن قوم من المنافقين ، علمهم النبي ﷺ فأخبر بهم حذيفة ، وكانوا نحو ثلاثة عشر رجلًا ، سماهم بأسمائهم .

وكان عمر بن الخطاب ﷺ لشدة خوفه من اللَّه ، يلتقي بحذيفة فيقول : أنشدك اللَّه هل سمَّاني لك رسول اللَّه ﷺ مع من سماهم من المنافقين ؟ هذا وهو عمر بن الخطاب ﷺ ، الذي هو أفضل هذه الأمة بعد نبيها وأبي بكر ﷺ أجمعين ، فهو الثاني بعد الرسول - عليه الصلاة والسلام - في هذه الأمة ، وله من اليقين والمقامات العظيمة ما هو معلوم ، حتى قال النبي - عليه الصلاة والسلام - : « قد كان يكون في الأمم قبلكم محدَّثون ، فإن يكن في أمتي منهم أحد ،

---

(١) أخرجه البخاري في الرقاق (٦٤٩٧) ، ومسلم في الإيمان (٢٣) ، والترمذي في الفتن (٢١٧٩) .

فإن عمر بن الخطاب منهم »[(١)] يعني إن كان فيكم أحد ملهم للصواب فهو عمر ، يمدحه ويثني عليه لموافقته للصواب . وإيمانه ﷺ معروف مشهور ومع ذلك يقول : « أنشدك اللَّه هل سماني لك رسول اللَّه مع من سماهم من المنافقين ؟ فيقول حذيفة : لا ولا أزكي بعدك أحدًا »[(٢)] .

فذكر ﷺ ما حدثه به النبي ﷺ من نزع الأمانة من قلوب الرجال ، فقوله ﷺ : « إن الأمانة نزلت في جذْر قلوب الرجال » يعني في أصلها ، ثم أنزل عليهم من القرآن والسنة ما يثبت ويؤيد هذا الأصل ، فجاء القرآن والسنة مؤيدًا للفطرة التي فطر الناس عليها ، وعلموا من كتاب اللَّه تعالى وسنة نبيه ﷺ فازدادوا بذلك إيمانًا وثباتًا وأداءً للأمانة .

ولكن أخبر بالحديث الثاني أن هذه الأمانة سوف تنزع من قلوب الرجال والعياذ باللَّه ، تنزع فيصبح الناس يتحدثون أن في بني فلان رجلٌ أمين ، يعني أنك لا تكاد تجد في القبيلة رجلًا واحدًا أمينًا ، والباقي كلهم على خيانة ، لم يؤدوا الأمانة .

ولقد شاهد الناس اليوم مصداق هذا الحديث عن رسول اللَّه ﷺ ، فإنك تستعرض الناس رجلًا رجلًا حتى تبلغ إلى حدِّ المائة أو المئات ، لا تجد الرجل الأمين الذي أدى الأمانة كما ينبغي في حق اللَّه ولا في حق الناس . قد تجد رجلًا أمينًا في حق اللَّه ، يؤدي الصلاة ، يؤدي الزكاة ، يصوم ، يحج ، يذكر اللَّه كثيرًا ، يسبح ، لكنه في المال ليس أمينًا ، إن وكل إليه عملٌ حكومي فرَّط ، وصار لا يأتي للدوام إلا متأخرًا ، ويخرج قبل انتهاء الوقت ، ويضيع الأيام الكثيرة في أشغاله الخاصة ، ولا يبالي ، مع أنك تجده في مقدمة الناس في المساجد ، وفي الصدقات ، وفي الصيام ، وفي الحج ، لكنه ليس أمينًا من جهة أخرى .

كذلك تجد الرجل يقيم الصلاة ، ويصوم ، ويحج ، ويتصدق ، لكنه ليس أمينًا في وظيفته ، يعرف أنه لا يجوز للموظف أن يتاجر أو يفتح محل تجارة ، ولكنه لا يبالي ، ويفتح محل تجارة ، إما باسمه صريحًا ، أو باسم مستعار ، وإما برجل أجنبي يجعله في هذا الدكان وما أشبه ذلك . فيكذب ، ويخون الدولة ، ويأكل المال بالباطل ، وهذا الذي يأكله من الحرام مانع لإجابة دعوته والعياذ باللَّه .

قال النبي - عليه الصلاة والسلام - : « إن اللَّه طيبٌ لا يقبل إلا طيبًا ، وإن اللَّه أمر المؤمنين بما أمر به المرسلين ، فقال تعالى : ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ كُلُوا۟ مِن طَيِّبَٰتِ مَا رَزَقْنَٰكُمْ وَٱشْكُرُوا۟ لِلَّهِ إِن كُنتُمْ إِيَّاهُ تَعْبُدُونَ ﴾ [البقرة : ١٧٢] وقال تعالى : ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلرُّسُلُ كُلُوا۟ مِنَ ٱلطَّيِّبَٰتِ وَٱعْمَلُوا۟ صَٰلِحًا ۖ إِنِّى بِمَا تَعْمَلُونَ عَلِيمٌ ﴾ [المؤمنون : ٥١] . ثم ذكر الرجل « يطيل السفر ، أشعث أغبر يمدُّ يديه إلى السماء : يا رب يا رب ومطعمه حرام ، ومشربه حرام ، وغُذِّي بالحرام ، فأنى يُستجاب لذلك »[(٣)] .

يقول النبي ﷺ : « أنى يستجاب لذلك » بعيد أن يستجيب اللَّه لهذا الرجل ، الذي هو أشعث أغبر ، يمدُّ يديه للسماء : يا رب يا رب ، ومع ذلك يبعد أن اللَّه يستجيب له ، لأنه يأكل الحرام . هذا

---

(١) أخرجه البخاري في فضائل أصحاب النبي (٣٦٨٩) ، ومسلم - واللفظ له - في فضائل الصحابة (٢٣) .
(٢) انظره بنحوه في كنز العمال (١٣/٣٤٤) .
(٣) أخرجه مسلم في الزكاة (٦٥) ، والإمام أحمد في مسنده (٢/٣٢٨) .

الذي يكون موظفًا بمقتضى عهد الوظيفة فإنه يمنع من مزاولة التجارة [١] ، فكلُّ كسب كسبه من هذه التجارة فهو حرام عليه ، سحت - والعياذ بالله - نقول لمثل هذا : أنت الآن بالخيار ؛ إن شئت أن تبقي على الوظيفة فاترك التجارة ، وإن رأيت أن التجارة أنسب لك وأكثر فائدة فاترك الوظيفة .

قال الله تعالى : ﴿ أَوْفُوا بِالْعُقُودِ ﴾ [المائدة : ١] ﴿ وَأَوْفُوا بِالْعَهْدِ إِنَّ الْعَهْدَ كَانَ مَسْئُولًا ﴾ [الإسراء : ٣٤] يتعلل بعض الناس فيقول كيف تمنعوني من التجارة وهناك وزراء يتاجرون بالأراضي وعندهم شركات كبيرة ، فنقول : إذا ضل الناس لم يكن ضلالهم هدى ، وإذا كانوا هم ضالين ظالمين بما صنعوا فلا تضل أنت . فإذا قال مثلًا : هذه النظم جاءت من تحت أيديهم ، هم الذين شرعوها فكيف يخالفونها ؟ نقول : حسابهم على الله سيكونون هم أول من يحزن ويتحسر على ما صنعوا يوم القيامة ، حيث لا مال عندهم يَفْدون به أنفسهم ، ولا خدم ولا حراس يحجزون عنهم ، ولا نسب ولا قرابة تنفعهم . فأنت لا تتخذ من مخالفات الناس دليلًا وسلمًا لمعصية الله ، ولكن عليك بالوفاء بما عاهدت غيرك عليه ، وإن كان غيرك يخالف ذلك فليس لك أن تخالفه أنت .

* * *

٢٠١ - وعن حُذَيفةَ ، وأبي هريرة رضي الله عنهما قالا : قال رسول الله ﷺ : « يَجْمَعُ اللَّهُ ، تَبَارَكَ وَتَعَالَى ، النَّاسَ ، فَيَقُومُ الْمُؤْمِنُونَ حَتَّى تُزْلَفَ لَهُمُ الجَنَّةُ ، فَيَأْتُونَ آدمَ - صَلَوَاتُ اللَّهِ عَلَيهِ - فَيَقُولُونَ : يَا أَبَانَا اسْتَفْتِح لَنَا الجَنَّةَ ، فَيَقُولُ : وَهَلْ أَخرجَكم مِنَ الجَنَّة إلا خَطِيئةُ أَبِيكُمْ ! لَسْتُ بِصَاحِبِ ذلِكَ ، اذْهَبُوا إِلَى ابْنِي إبْرَاهِيمَ خَلِيلِ اللَّهِ ، قال : فَيَأْتُون إبْرَاهِيمَ ، فَيَقولُ إبْرَاهِيمُ : لَسْتُ بصَاحِبِ ذلِكَ إِنَّما كُنْتُ خَلِيلًا مِنْ وَرَاءَ وَرَاءَ ، اعْمَدُوا إِلَى مُوسَى الَّذي كَلَّمَهُ اللَّه تَكْلِيمًا ، فَيَأْتُونَ مُوسَى ، فَيقولُ : لَسْتُ بصَاحِبِ ذلِكَ ، اذْهَبُوا إِلَى عِيسَى كَلِمَةِ اللَّهِ وَرُوحِه . فَيَقُولُ عِيسَى : لَسْتُ بِصَاحِب ذلِكَ . فَيَأْتُونَ مُحَمَّدًا ﷺ فَيَقُومُ فَيُؤْذَنُ لَهُ ، وَتُرْسَلُ الأَمَانَةُ والرَّحِمُ فَيَقُومَان جَنَبَتي الصِّرَاط يَمِينًا وَشِمَالًا ، فَيمُرُّ أَوَّلُكُمْ كالْبَرْقِ » قُلْتُ : بأَبِي وَأُمِّي ، أَيُّ شَيءٍ كَمَرِّ البَرْقِ ؟ قال : « أَلَمْ تَرَوا كَيفَ يَمُرُّ وَيَرْجِعُ في طَرْفَةِ عَينٍ ؟ ثُم كَمَرِّ الرِّيحِ ، ثُمَّ كَمَرِّ الطَّيرِ ، وشدِّ الرِّجال تَجْرِي بِهِمْ أَعْمَالُهُمْ ، وَنَبِيُّكُم قَائِمٌ عَلى الصِّرَاطِ يقُول : رَبِّ سَلِّمْ سَلِّمْ ، حتى تعجز أَعمَالُ العبادِ ، حَتَّى يَجيءِ الرَّجُلُ لا يَسْتَطِيعُ السَّيرَ إلا زَحْفًا ، وَفي حَافَتَي الصِّرَاطِ كَلاليبُ مُعَلَّقَةٌ مَأْمُورَةٌ بأخْذِ مَنْ أُمِرتَ بِهِ ، فَمَخْدُوشٌ نَاجٍ ، وَمُكَرْدَسٌ في النَّار » وَالَّذي نَفْسُ أبي هُرَيرَةَ بِيَدِهِ إنَّ قَعْرَ جَهَنَّم لَسَبْعُونَ خَرِيفًا [٢] . رواه مسلم .

---

(١) أي من الوقت المخصص لأداء وظيفته ، كما يمنع منعًا باتًّا من استغلال وظيفته في الترويج لتجارته ، التَّربُّحُ منها .

(٢) أخرجه مسلم في الإيمان (٣٢٩) ، قوله « حتى تُزْلَف » أي تقرَّب ، قوله « استفتح لنا » أي اسأل الله فتحها لنا لندخلها ، قوله « حتى تعجز أعمال العباد » أي تضعف أعمالهم الصالحة عن المرور بهم فيبطئون في السير ، قوله « كلاليب » جمع كَلُّوب : خشبة في رأسها عقافة حديد وقد تكون حديدًا كلها ، وقيل : يعلق عليها اللحم ويرسل في التنور ، قوله « مكردس » معناه كون الأشياء بعضها على بعض ، وتكردست الدابة في مشيها إذا ركب بعضها على بعض ، قوله « إن قعر جهنم لسبعون خريفًا » أي مسافته مسير سبعين خريفًا .

قوله : « وَرَاءَ وَرَاءَ » هُو بالفَتْحِ فيهمَا . وَقيلَ : بالضَّمِّ بلا تَنْوين ، وَمَعْنَاهُ : لَسْتُ بِتِلْكَ الدَّرَجَة الرَّفيعَةِ ، وَهِي كَلِمَةٌ تُذْكَرُ عَلَى سَبِيل التَّوَاضُع . وَقَدْ بَسَطْتُ مَعْنَاهَا في شَرْحِ صَحيح مسلم ، والله أعلم .

الشرح

قال المؤلف رَحِمَهُ اللهُ فيما نقله عن حذيفة ، وأبي هريرة رضي الله عنهما في حديث الشفاعة . وذلك أن النبي ﷺ وعده ربُّه أن يبعثه مقامًا محمودًا فقال جل وعلا : ﴿ وَمِنَ ٱلَّيۡلِ فَتَهَجَّدۡ بِهِۦ نَافِلَةً لَّكَ عَسَىٰٓ أَن يَبۡعَثَكَ رَبُّكَ مَقَامًا مَّحۡمُودًا ﴾ [الإسراء : ٧٩] وإذا جاءت « عسى » من الله فهي واجبة ، بخلاف عسى من الخلق ، فإنها للترجي . فإذا قلت : عسى الله أن يهديني ، عسى الله أن يغفر لي ، عسى الله أن يرحمني ، فهذا رجاء . أما إذا قال الله « عسى » فهذا وعد . لذلك قالوا : « عسى من الله واجبة » مثل قوله تعالى : ﴿ فَأُوْلَٰٓئِكَ عَسَى ٱللَّهُ أَن يَعۡفُوَ عَنۡهُمۡۚ ﴾ [النساء : ٩٩] وقوله : ﴿ فَعَسَى ٱللَّهُ أَن يَأۡتِيَ بِٱلۡفَتۡحِ أَوۡ أَمۡرٖ مِّنۡ عِندِهِۦ ﴾ [المائدة : ٥٢] وما أشبه ذلك .

فالله عَزَّ وَجَلَّ وعد نبيه ﷺ أن يبعثه مقامًا محمودًا ، أي مقامًا يحمده فيه الأولون والآخرون ، وذلك من عدة أوجه منها حديث الشفاعة (١) ، فإن الناس يُبعثون يوم القيامة حفاة عراة غرلًا ، حفاة لا يلبسون النعال ، وعراة ليس عليهم ثياب ، وغرلًا أي غير مختونين ، يعني أن ما قطع منهم في الدنيا أثناء الختان سيعود إليهم يوم القيامة كما قال تعالى : ﴿ كَمَا بَدَأۡنَآ أَوَّلَ خَلۡقٖ نُّعِيدُهُۥۚ ﴾ [الأنبياء : ١٠٤] .

فيجمع الله الخلائق ، والشمس فوقهم قدر ميل ، أهوال عظيمة ، يشاهدون الجبال تمرُّ مرَّ السحاب ، تكون هباءً منثورًا فيلحقهم من الهم والغم ما لا يطيقون ، فيقول بعضهم لبعض : ألا تطلبون من يشفع لنا عند الله ، فيذهبون إلى آدم ويطلبونه لشفاعة ، فيذكر خطيئته التي وقعت منه .

والخطيئة التي وقعت منه أن الله تعالى قال له ولزوجه حين أسكنهما الجنة : ﴿ وَكُلَا مِنۡهَا رَغَدًا حَيۡثُ شِئۡتُمَا وَلَا تَقۡرَبَا هَٰذِهِ ٱلشَّجَرَةَ فَتَكُونَا مِنَ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴾ [البقرة : ٣٥] شجرة عينها الله عَزَّ وَجَلَّ وليس لنا في معرفة نوعها كبير فائدة ، ولهذا فنحن لا نعرف نوع هذه الشجرة ، هل هي من شجر الزيتون ، أم من الحنطة ، أم من العنب ، أم من النخل ، لا ندري ، فالواجب أن نبهمها كما أبهمها الله عَزَّ وَجَلَّ ، ولو كان لنا في تعيينها فائدة لبينها الله عَزَّ وَجَلَّ .

فقال عَزَّ وَجَلَّ لآدم وحواء : ﴿ وَلَا تَقۡرَبَا هَٰذِهِ ٱلشَّجَرَةَ فَتَكُونَا مِنَ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴾ فأتاهما الشيطان فوسوس لهما ودلاهما بغرور (٢) وقاسمهما إني لكما لمن الناصحين ، وهكذا يفعل في بني آدم ، يغرهم ويغريهم ويوسوس لهم ويقسم لهم أنّي ناصح وهو كذوب .

فالشاهد من حديثنا : أن آدم عَلَيْهِ السَّلَامُ تذكر خطيئته هو وزوجته ؛ وهي أكلهما من الشجرة التي

---

(١) انظر البخاري في التفسير (٤٧١٢) ومسلم في الإيمان (٣٢٧) .

(٢) أي فأنزلهما عن رتبة الطاعة إلى رتبة المعصية بما غرهما به من القسم ، من التدلية وهي إرسال الشيء من أعلى إلى أسفل ومنه دلّى الدلْوَ في البئر . والغرور : إظهار النصح مع إبطان الغش . انظر صفوة البيان لمعاني القرآن ص (٢٠١) .

حظرها الله عليهما ؛ ولكنه تاب إلى الله تعالى من ذلك ، فأمره الله سبحانه أن يهبط هو وزوجته إلى الأرض فهبطا وكانت منهما هذه الذرية ، فمنهم الشهداء والرسل والأنبياء والصالحون ، ومنهم غير ذلك من أهل الفساد والكفر والنفاق والإلحاد والضلال .

فعندما يذهب الناس إلى آدم عليه السلام في هذا الموقف العظيم يوم القيامة يعتذر عن مساعدتهم ويتذكر خطيئته التي أخرجته من الجنة .

أما القصة التي تروى عن ابن عباس رضي الله عنهما في سبب خروج آدم وحواء من الجنة ، وأن حواء حملت فجاءها الشيطان فقال : سميا الولد عبد الحارث ، أو لأجعلن له قرنًا ، فيخرج من بطنك فيشقه فأبيا أن يطيعا ، فجاءهم في المرة الثانية ، فأبيا أن يطيعا ، فجاءهم في المرة الثالثة فأدركهما حب الولد فسمياه عبد الحارث . وجعل ذلك تفسيرًا لقوله تعالى : ﴿ هُوَ ٱلَّذِى خَلَقَكُم مِّن نَّفْسٍ وَٰحِدَةٍ وَجَعَلَ مِنْهَا زَوْجَهَا لِيَسْكُنَ إِلَيْهَا ۖ فَلَمَّا تَغَشَّىٰهَا حَمَلَتْ حَمْلًا خَفِيفًا فَمَرَّتْ بِهِۦ ۖ فَلَمَّآ أَثْقَلَت دَّعَوَا ٱللَّهَ رَبَّهُمَا لَئِنْ ءَاتَيْتَنَا صَٰلِحًا لَّنَكُونَنَّ مِنَ ٱلشَّٰكِرِينَ ﴿١٨٩﴾ فَلَمَّآ ءَاتَىٰهُمَا صَٰلِحًا جَعَلَا لَهُۥ شُرَكَآءَ فِيمَآ ءَاتَىٰهُمَا ۚ فَتَعَٰلَى ٱللَّهُ عَمَّا يُشْرِكُونَ ﴾ [الأعراف : ١٨٩، ١٩٠] فإن هذه القصة قصة مكذوبة ليست بصحيحة ، وحتى إن صحت عن ابن عباس فإنه رضي الله عنه ممن عرفوا بالأخذ من بني إسرائيل ، فتكون هذه القصة من الإسرائيليات (١) .

فنحن نعلم من خلال حديث الشفاعة وما تقرر من عصمة الأنبياء أن هذا الفعل لا يصح من آدم أبدًا ، لأنه شرك ، والشرك لا يقع من الأنبياء .

يعتذر آدم عن الشفاعة فيأتي الناس نوحًا عليه السلام وهو أول رسول أرسله الله إلى الأرض ، فيخاطبه الناس بهذه المنقبة فيقولون له : أنت أول رسول بعثه الله إلى الأرض اشفع لنا عند ربك فيعتذر لأنه سأل ربه ما ليس له به علم وذلك حين قال : ﴿ رَبِّ إِنَّ ٱبْنِى مِنْ أَهْلِى وَإِنَّ وَعْدَكَ ٱلْحَقُّ وَأَنتَ أَحْكَمُ ٱلْحَٰكِمِينَ ﴾ [هود : ٤٥] .

وكان لنوح وَلَدٌ كافر به . وَلَدُ رسولٍ ، ولكنه كفر بالرسول والعياذ بالله ، لأن النسب لا ينفع الإنسان . فابن العالم لا يأتي عالمًا ، بل قد يكون جاهلًا ، وكذلك ابن العابد لا يأتي عابدًا ، قد يكون فاسقًا فاجرًا ، ابن الرسول قد لا يكون مؤمنًا بل هذا ابن نوح عليه السلام أحد أبنائه كان كافرًا . كان أبوه يقول : ﴿ يَٰبُنَىَّ ٱرْكَب مَّعَنَا وَلَا تَكُن مَّعَ ٱلْكَٰفِرِينَ ﴾ [هود : ٤٢] فيجيبه قائلًا ﴿ قَالَ سَـَٔاوِىٓ إِلَىٰ جَبَلٍ يَعْصِمُنِى مِنَ ٱلْمَآءِ ۚ قَالَ لَا عَاصِمَ ٱلْيَوْمَ مِنْ أَمْرِ ٱللَّهِ إِلَّا مَن رَّحِمَ ۚ وَحَالَ بَيْنَهُمَا ٱلْمَوْجُ فَكَانَ مِنَ ٱلْمُغْرَقِينَ ﴾ [هود : ٤٣] .

فيعتذر نوح بأنه سأل ما ليس له به علم ، والشافع لابد أن لا يكون بينه وبين المشفوع إليه جفوة ، لأن الشافع إذا كان بينه وبين المشفوع إليه جفوة ، فكيف يكون شافعًا . الشافع لابد أن يكون بينه وبين المشفوع إليه صلة قوية لا يخدشها شيء ، مع أن نوحًا عليه السلام غفر الله له ، وآدم غفر الله له ،

---

(١) أورد هذه القصة الطبري في تفسيره (٦/١٩٤) ، والسيوطي في الدر (٣/٦٢٥) ، ابن كثير في تفسير الآية (١٨٩، ١٩٠) من سورة الأعراف .

اجتباه ربُّه فتاب ، فغفر اللَّه له ، ولكن لكمال مرتبتهم وعلو مقامهم ، جعلوا هذا الذنب الذي غُفر لهم مانعًا من الشفاعة ، كل هذا تعظيمًا للَّه ﷻ ، وحياء منه ، وخجلًا منه .

ثم يأتون إلى إبراهيم خليل اللَّه ﷻ ، فيعتذر ويقول : إنه كذب في ذات اللَّه ثلاث كذبات ، وهذه الكذبات التي كذبها ليست كذبًا في الواقع ، لأنه - عليه الصلاة والسلام - قد تأوَّل فيها ، والتأول ليس بكذب [١] ، لكن لشدة تعظيمه للَّه ﷻ ، رأى أن هذا مانع للشفاعة أي من أن يتقدم للشفاعة لأحد .

ثم يأتون موسى ويقولون له : إن اللَّه كلمك ، وكتب لك التوراة بيده ، فيعتذر بأنه قَتَلَ نفسًا لم يؤمر بقتلها ، وذلك أن موسى - عليه الصلاة والسلام - كان من أشد الرجال وأقواهم ، فمر ذات يوم برجلين يقتتلان ، هذا من شيعته ، يعني من بني إسرائيل ، وهذا من عدوه يعني من آل فرعون من القبط ، فاستغاثه الذي من شيعته على الذي من عدوِّه ، يعني طلب منه أن يغيثه وأن يعينه على هذا الرجل ، فوكزه [٢] موسى أي وكز الذي من عدوه فقضى عليه أي أهلكه ومات بوكزة واحدة ، لأنه كان قويًّا شديدًا - عليه الصلاة والسلام - فقال : ﴿ هَٰذَا مِنْ عَمَلِ ٱلشَّيْطَٰنِ إِنَّهُۥ عَدُوٌّ مُّضِلٌّ مُّبِينٌ ﴾ [القصص : ١٥] .

وفي الصباح وجد صاحبه الذي كان بالأمس وجده يتنازع مع شخص آخر ، قال تعالى : ﴿ فَإِذَا ٱلَّذِى ٱسْتَنصَرَهُۥ بِٱلْأَمْسِ يَسْتَصْرِخُهُۥ [٣] قَالَ لَهُۥ مُوسَىٰٓ إِنَّكَ لَغَوِىٌّ مُّبِينٌ ﴾ [القصص : ١٨] يعني بالأمس كنت تنازع رجلا واليوم تنازع آخر فهمَّ موسى أن يبطش بالذي هو عدو لهما فقال له الإسرائيلي : ﴿ أَتُرِيدُ أَن تَقْتُلَنِى كَمَا قَتَلْتَ نَفْسًۢا بِٱلْأَمْسِ ﴾ [القصص : ١٩] وكان الناس يحسسون من الذي قتل الرجل بالأمس ، ففطن لذلك الفرعوني ، فأخبر الناس أن موسى قاتله ، فالشاهد من ذلك أن موسى عليه السلام يعتذر إلى الخلق يوم القيامة لأنه قتل نفسًا لم يؤمر بقتلها .

ثم يذهبون إلى عيسى ويقولون له : أنت كلمة اللَّه وروحه ، كلمة اللَّه : يعني أنك خُلقت بكلمة اللَّه ، وروحه ، أي : أنك روح من أرواح اللَّه ﷻ التي خلقها ، فيعتذر ولكنه لا يذكر ذنبًا ، أو لا

---

(١) انظر الحديث في البخاري في أحاديث الأنبياء (٣٣٥٨) ، ومسلم في الفضائل (١٥٤) . والثلاث كذبات هي قوله : ﴿ إِنِّى سَقِيمٌ ﴾ وقوله : ﴿ بَلْ فَعَلَهُۥ كَبِيرُهُمْ هَٰذَا ﴾ وقوله في سارة : هي أختي . والتأوُّل المذكور هو قوله ﴿ إِنِّى سَقِيمٌ ﴾ : ذكر أن قومه كانوا أهل تنجيم ، فرأى نجمًا قد طلع ، فعصب رأسه وقال : إني مطعون ، وكان قومه يهربون من الطاعون ، فأراد أن يتركوه في بيت آلهتهم ، ويخرجوا عنه ؛ ليخالفهم إليها فيكسره . انظر تفسير الطبري (٨٣/١٢) .
- قوله ﴿ بَلْ فَعَلَهُۥ كَبِيرُهُمْ هَٰذَا ﴾ عند تكسيره الآلهة قال ابن جرير : وغير مستحيل أن يكون اللَّه أذن لخليله في ذلك ؛ ليقرع قومه به ، ويحتج به عليهم ، وتعرّفهم موضع خطئهم وسوء نظرهم لأنفسهم ، كما قال مؤذن يوسف لإخوته : ﴿ أَيَّتُهَا ٱلْعِيرُ إِنَّكُمْ لَسَٰرِقُونَ ﴾ ولم يكونوا سرقوا شيئًا . انظر تفسير الطبري (٥٤/١٠) .
- قوله هي أختي (كان هذا القول لجبار من الجبابرة قد سأله عنها) انظر ذلك في الحديث (٣٣٥٨) من صحيح البخاري .

(٢) وكزه : ضربه بجمع يده على ذقنه . (انظر المعجم الوسيط ١٠٩٦/٢) .

(٣) يستصرخه : يستغيث به من قبطي آخر بصوت مرتفع [صفوة البيان لمعاني القرآن ص ٤٩٢] .

يذكر شيئًا يعتذر به ، فيُحيلُهم إلى النَّبيِّ ﷺ ، فيقول : اذهبوا إلى محمد ، عبد غفر اللَّه له ما تقدم من ذنبه وما تأخر ، فيأتون إلى النبي ﷺ فيقوم فيؤذن له ، فيشفع . يشفع في الناس حتى يُقضى بينهم .

وفي هذا الحديث الذي ذكره المؤلف رحمه الله : أنَّ الأمانة والرحم تقفان على جانبي الصراط . والصراط : جسر ممدود على متن جهنم . واختلف العلماء في هذا الجسر ، هل هو جسر واسع أو هو جسر ضيق ، ففي بعض الروايات أنه أدقُّ من الشعر وأحدُّ من السيف ، ولكن الناس يعبرون عليه ، واللَّه على كل شيء قدير .

وعلى هذا الجسر كلاليب تخطف الناس بأعمالهم ، فمن الناس من يُخطف فيلقى في النار ، ومنهم من يمرُّ سريعًا كلمح البرق ، ومنهم من يمر كركاب الإبل أو كالريح حسب درجاتهم وأعمالهم ، تجري بهم أعمالهم ، كل من كان في هذه الدنيا أسرع إلى التزام صراط اللَّه عز وجل واتباع شريعته ، كان على هذا الصراط أسرع مرورًا ، ومن كان متباطئًا عن الشرع في الدنيا ، كان سيره هناك بطيئًا ، ودعاء الرسل يومئذ : اللهم سلِّمْ سلِّمْ كلٌّ يخاف على نفسه ، لأن الأمر ليس بهين ، الأمر شديد . الناس فيه أشد ما يكون خوفًا ووجلًا حتى يعبر المسلمون هذا الصراط إلى الجنة ومن الناس من يكردس في نار جهنم ويعذَّب على حسب عمله .

أما الكفار الخُلَّص فإنهم لا يصعدون هذا الصراط ولا يمرون عليه ، بل يذهب بهم إلى جهنم قبل أن يصعدوا هذا الصراط ، ويذهب بهم إلى جهنم وردًا ، إنما يصعده المؤمنون فقط ، لكن من كان له ذنوب لم تغفر فإنه قد يقع في نار جهنم ، ويعذب بحسب أعماله واللَّه أعلم .

* * *

٢٠٢ - وعن أبي خُبَيبٍ - بضم الخاء المعجمة - عبدِ اللَّه بنِ الزبَيرِ رضي الله عنهما قال : لَمَّا وَقَفَ الزبَيرُ يَومَ الجَمَلِ دَعَاني فَقُمْتُ إِلَى جَنْبِهِ ، فَقَالَ : يَا بُنَيَّ إِنَّهُ لا يُقْتَلُ اليَومَ إلا ظَالِمٌ أَوْ مَظْلُومٌ ، وَإِنِّي لا أُرَاني إلا سأُقْتَلُ اليَومَ مَظْلُومًا ، وَإِنَّ مِنْ أَكْبَرِ هَمِّي لَدَيني ، أَفَتَرى دَينُنَا يُبْقي مِنْ مَالنَا شَيئًا ؟ ثُمَّ قَالَ : يَا بُنَيَّ بِعْ مَالَنَا وَاقْضِ دَيني ، وَأَوصَى بالثُّلُثِ وَثُلُثِهِ لِبَنِيهِ - يَعْني لبَني عَبْدِ اللَّه بن الزبير - ثُلُثُ الثُّلُثِ . قَالَ : فَإِنْ فَضَلَ مِنْ مَالِنَا بَعْدَ قَضَاءِ الدَّينِ شيء فَثُلُثُهُ لِبَنِيكَ ، قال هشامٌ : وكانَ بَعْضُ وَلَدِ عَبْد اللَّه قَدْ وازى بَعْضَ بَني الزبَيرِ خُبيب وَعَبَّادٍ ، وَلَهُ يَومَئِذٍ تسْعَةُ بَنِينَ وَتِسْعُ بَنَاتٍ . قَالَ عَبْدُ اللَّه : فَجَعَلَ يُوصِيني بِدَيْنِهِ وَيَقُولُ : يَا بُنَيَّ إِنْ عَجَزْتَ عَنْ شَيءٍ مِنْهُ فَاسْتَعِنْ عَلَيهِ بمَولايَ . قَالَ : فَوَاللَّهِ مَا دَرَيتُ مَا أَرَادَ حَتَّى قُلْتُ : يَا أَبَتِ مَنْ مَولاكَ ؟ قَالَ : اللَّه ، قال : فَوَاللَّهِ مَا وَقَعْتُ في كُرْبَةٍ مِنْ دَينِهِ إلا قُلْتُ : يَا مَولَى الزبَيرِ اقْضِ عَنْهُ دَينَهُ ، فَيَقْضِيَهُ . قَالَ : فَقُتِلَ الزُّبَيرُ وَلَمْ يَدَعْ دِينَارًا وَلا دِرْهَمًا إلا أَرَضِينَ ، مِنْهَا الغَابَةُ وَإِحْدَى عَشَرَةَ دَارًا بالمَدِينَةِ ، وَدَارَينِ بالبَصْرَةِ ، وَدَارًا بالكُوفَة ، ودَارًا بِمِصْرَ . قال : وَإِنَّمَا كَانَ دَينُهُ الَّذي كَانَ عَلَيهِ أَنَّ الرَّجُلَ كَانَ يَأْتِيهِ بالمال ، فَيَسْتَودِعُهُ إيَّاهُ ، فَيَقُولُ الزُّبَيرُ : لا وَلكِنْ هُوَ سَلَفٌ إِنِّي أَخْشَى عَلَيهِ الضَّيعَةَ ، وَمَا وَلِيَ إِمَارَةً قَطُّ وَلا جِبَايَةً ولا خَرَاجًا وَلا شَيئًا إلا أَنْ يَكُونَ في غَزْوٍ مَعَ رسول اللَّه

ﷺ ، أو مَعَ أبي بَكْرٍ وَعُمَرَ وَعُثْمَانَ ﷺ ، قَالَ عَبْدُ اللَّه : فَحَسَبْتُ مَا كَانَ عَلَيهِ مِنَ الدَّينِ فَوَجَدْتُهُ أَلْفَي أَلْفٍ وَمِائَتَي أَلْفٍ ! فَلَقِيَ حَكِيمُ بنِ حِزام عَبْدَ اللَّهِ بْنَ الزُّبَيرِ فَقَالَ : يَا ابْنَ أَخِي كَمْ عَلَى أَخِي مِنَ الدَّينِ ؟ فَكَتَمْتُهُ وَقُلْتُ : مائةُ ألفٍ . فَقَالَ حكيمٌ : وَاللَّهِ مَا أَرَى أَمْوَالَكُمْ تَسعُ هذِهِ ! فَقَالَ عَبْدُ اللَّهِ : أَرَأَيْتَكَ إِنْ كَانَتْ أَلْفَي أَلْفٍ وَمَائَتَي ألفٍ ؟ قَالَ : مَا أَرَاكم تُطِيقُونَ هَذا ، فَإِنْ عَجَزْتُمْ عَنْ شَيْءٍ مِنْهُ فَاسْتَعِينُوا بي . قَالَ : وَكَانَ الزُّبَيرُ قَدِ اشْتَرَى الغَابَةَ بِسَبْعِينَ ومِائَة أَلفٍ ، فَبَاعَهَا عَبْدُ اللَّه بألفِ ألفٍ وسِتِّمِائَةِ أَلف ، ثُمَّ قَامَ فقال : مَنْ كَانَ لَهُ على الزُّبَيرِ شَيءٌ فَلْيُوافِنَا بِالغَابَةِ ، فَأَتَاهُ عَبْدُ اللَّهِ بْنِ جَعْفَرٍ ، وَكَانَ لَهُ على الزُّبَيرِ أَرْبَعْمِائَةِ ألفٍ ، فَقَالَ لعَبْدِ اللَّه : إِنْ شِئْتُمْ تَرَكْتُهَا لَكُمْ ؟ قَالَ عَبْدُ اللَّه : لا ، قال : فَإِنْ شِئْتُمْ جَعَلْتُمُوهَا فِيمَا تُؤَخِّرُونَ إِنْ أَخَّرْتُمْ ، فقال عَبْدُ اللَّه : لا ، قال : فَاقْطَعُوا لي قِطْعَةً ، قال عَبْدُ اللَّه : لَكَ مِنْ ههُنا إلى ههُنا . فَبَاعَ عَبْدُ اللَّهِ مِنْهَا ، فَقَضَى عَنْهُ دَينَه ، وَأَوفاهُ وَبَقِيَ مِنْهَا أَرْبَعَةُ أَسْهُمٍ وَنِصْفٌ ، فَقَدِمَ عَلَى مُعَاوِيَةَ وَعِنْدَهُ عَمْرُو بْنُ عُثْمَانَ ، وَالمُنْذِرُ بْنُ الزُّبير ، وَابْن زَمْعَةَ فقال لَهُ مُعَاوِيَةُ : كَمْ قُوِّمَتِ الغَابَةُ ؟ قال : كُلُّ سَهْمٍ بِمائَةِ أَلْفٍ قال : كَمْ بَقِيَ مِنْهَا ؟ قَالَ : أَرْبَعَةُ أسهُم ونصْفٌ ، فقال المنذرُ بن الزُّبيرِ : قَدْ أَخَذْتُ مِنْهَا سَهْمًا بِمائَةِ أَلفٍ ، قال عَمْرُو بْنُ عُثْمان : قَدْ أَخَذْتُ مِنْهَا سَهْمًا بِمائَةِ أَلْفٍ . وقال ابن زَمْعَةَ : قَدْ أَخَذْتُ سَهْمًا بِمائَةِ أَلفٍ ، فَقَالَ مُعَاوِيَةُ : كَمْ بَقِيَ مِنْهَا ؟ قال : سَهْمٌ ونصْفُ سَهْم ، قَالَ : قَدْ أَخَذْتُهُ بخَمْسِينَ ومائَةِ أَلْفٍ . قَالَ : وبَاعَ عَبْدُ اللَّهِ بْنُ جَعْفَرٍ نَصِيبَهُ مِنْ مُعَاوِيَةَ بِستِّمائَةِ أَلفٍ . فَلَمَّا فَرغَ ابْنُ الزُّبَيرِ مِنْ قَضاءِ دَيْنِهِ قَالَ بَنُو الزُّبَيرِ : اقْسِمْ بَيْنَنَا مِيراثَنَا . قَالَ : واللَّهِ لا أَقْسِمُ بَيْنَكُمْ حَتَّى أُنَادِيَ بالمَوسِمِ أَرْبَع سِنِين : أَلا مَنْ كَانَ لَهُ عَلَى الزُّبَيرِ دَينٌ فَلْيَأْتِنَا فَلْنَقْضِهِ . فَجَعَلَ كُلَّ سَنَةٍ يُنَادِي في المَوسِم ، فَلَمَّا مَضى أَرْبَعُ سِنِينَ قَسم بَيْنَهُمْ وَدَفَعَ الثلُث . وكَان للزُّبَيرِ أَرْبَعُ نِسْوةٍ ، فَأَصاب كُلَّ امْرأَةٍ أَلْفُ أَلْفٍ ومائتا ألفٍ ، فَجَمِيعُ مَالِهِ خَمسُونَ ألف ألفٍ ومِائَتَا أَلف [١] . رواه البخاري .

* * *

٢٦ - باب تحريم الظلم والأمر بردّ المظالم

قال اللَّه تعالى : ﴿ مَا لِلظَّالِمِينَ مِنْ حَمِيمٍ وَلَا شَفِيعٍ يُطَاعُ ﴾ [غافر : ١٨] وقال تعالى : ﴿ وَمَا لِلظَّالِمِينَ مِن نَّصِيرٍ ﴾ [٢] [الحج : ٧١] .

وأَمَّا الأَحَاديثُ فَمِنْهَا حَدِيثُ أَبِي ذرٍّ ﷺ المُتَقَدِّمُ في آخِرِ بابِ المُجَاهَدَةِ [٣] .

---

(١) أخرجه البخاري في فرض الخمس (٣١٢٩) مع اختلاف في بعض الألفاظ . قوله « ولم يدع » أي ولم يترك . قوله « أخشى عليه الضيعة » أي الضياع . قوله « جِباية » الجباية : استخراج الأموال من مظانها والحديث لم يقم الشارح - رحمه اللَّه تعالى - بشرحه .

(٢) قوله ﴿ حَمِيمٍ ﴾ أي : قريب مشفق [صفوة البيان ص ٥٩٧] .

(٣) انظر الحديث رقم ١١١ .

٢٠٣ - وعن جابر ﷺ أن رسول الله ﷺ قال : « اتَّقُوا الظُّلْمَ ؛ فَإِنَّ الظُّلْمَ ظُلُمَاتٌ يَوم القِيَامَةِ ، واتَّقُوا الشُّحَّ ؛ فَإِنَّ الشُّحَّ أَهْلَكَ مَنْ كَانَ قَبْلَكُمْ ؛ حَمَلَهُمْ عَلَى أَنْ سَفَكُوا دِمَاءَهُمْ وَاسْتَحَلُّوا مَحَارِمَهُمْ » (١) رواه مسلم .

الشرح

قال المؤلف - رحمه الله تعالى - : باب تحريم الظلم والأمر برد المظالم ، يعني إلى أهلها . هذا الباب يشتمل على أمرين : الأمر الأول : تحريم الظلم . والأمر الثاني : وجوب ردِّ المظالم . واعلم أن الظلم هو النقص . قال الله تعالى : ﴿ كِلْتَا الْجَنَّتَيْنِ آتَتْ أُكُلَهَا وَلَمْ تَظْلِم مِّنْهُ شَيْئًا ﴾ [الكهف : ٣٣] يعني لم تنقص منه شيئًا . والنقص إما أن يكون بالتجرؤ على ما لا يجوز للإنسان ، وإما بالتفريط فيما يجب عليه . وبذلك يدور الظلم على هذين الأمرين ، إما ترك واجب ، وإما فعل محرم .

والظلم نوعان : ظلم يتعلق بحقوق الله ﷻ ، وظلم يتعلق بحقوق العباد ، وأعظمهما المتعلق بحقوق الله والإشراك به ، فإن النبي ﷺ سئل : أي الذنب أعظم ؟ فقال : « أن تجعل لله ندًّا وهو خلقك » (٢) ويليه الظلم في الكبائر ، ثم الظلم في الصغائر .

أما في حقوق الله : فالظلم يدور على ثلاثة أشياء ، بينها النبي ﷺ في خطبة الوداع ، فقال : « إن دماءكم وأموالكم وأعراضكم حرام عليكم ، كحرمة يومكم هذا ، في بلدكم هذا في شهركم هذا » (٣) الظلم في النفس هو الظلم في الدماء ، يكون بأن يعتدي الإنسان على حق غيره ، بسفك الدماء أو الجروح أو ما أشبه ذلك ، الظلم في الأموال بأن يعتدي الإنسان ويظلم غيره في الأموال ، إما بعدم بذل الواجب ، وإما بإتيان محرم ، وإما بأن يمتنع من واجب عليه ، وإما بأن يفعل شيئًا محرمًا في مال غيره . وأما الظلم في الأعراض ، فيشمل الاعتداء على الغير بالزنا ، واللواط والقذف ، وما أشبه ذلك .

وكل الظلم بأنواعه محرم ، ولن يجد الظالم مَنْ ينصره أمام الله تعالى ، قال الله تعالى : ﴿ مَا لِلظَّالِمِينَ مِنْ حَمِيمٍ وَلَا شَفِيعٍ يُطَاعُ ﴾ أي أنه يوم القيامة ، لا يجد الظالم حميمًا أي صديقًا ينجيه من عذاب الله ، ولا يجد شفيعًا يشفع له فيطاع ، لأنه منبوذ بظلمه وغُشْمه (٤) وعدوانه ، وقال تعالى : ﴿ وَمَا لِلظَّالِمِينَ مِنْ أَنصَارٍ ﴾ [البقرة : ٢٧٠] يعني لا يجدون أنصارًا ينصرونهم ويخرجونهم من عذاب الله ﷻ في ذلك اليوم .

ثم ذكر المؤلف رحمه الله حديث جابر بن عبد الله ﷺ أن النبي ﷺ قال : « اتقوا الظلم » ، اتقوا : يعني : احذروا ، والظلم هو كما سبق أن بينا يكون في حق الله ويكون في حق العباد ، فقوله ﷺ :

---

(١) أخرجه مسلم في البر والصلة (٥٦) .

(٢) أخرجه البخاري في الأدب (٦٠٠١) واللفظ له ومسلم في الإيمان (١٤١) .

(٣) أخرجه البخاري في العلم (٦٧) ومسلم في القسامة (٢٩) واللفظ له وفيه (فإن) .

(٤) الغَشْم : أشدُّ الظلم . المعجم الوسيط (٦٧٧/٢) .

« اتقوا الظلم » أي : لا تظلموا أحدًا ، لا أنفسكم ولا غيركم ، « فإن الظلم ظلمات يوم القيامة » ويوم القيامة ليس هناك نور إلا مَنْ أنار اللَّه تعالى له ، وأما من لم يجعل اللَّه له نورًا فما له من نور . الإنسان إن كان مسلمًا فله نور بقدر إسلامه ، ولكن إن كان ظالمًا ، فَقَدَ مِنْ هذا النور بمقدار ما حصل من الظلم ، لقوله ﷺ : « اتقوا الظلم ، فإن الظلم ظلماتٌ يوم القيامة » .

ومن الظلم : مَطْل الغني يعني أن لا يوفي الإنسان ما عليه وهو غني به ، لقوله ﷺ : « مَطْل الغني ظُلم »[1] وما أكثر الذين يماطلون في حقوق الناس ، يأتي إليه صاحب الحق فيقول : يا فلان أعطني حقي فيقول : غدًا ، فيأتيه من غد فيقول : بعد غد وهكذا ، فإن هذا الظلم يكون ظلمات يوم القيامة على صاحبه .

« واتقوا الشحَّ » الشحُّ : الحرص على المال ، « فإنه أهلك من كان قبلكم » لأن الحرص على المال - نسأل اللَّه السلامة - يوجب للإنسان أن يكسب المال من أي وجه كان ، من حلال أو حرام ، بل قال النبي - عليه الصلاة والسلام - « حملهم » أي حمل من كان قبلنا « على أن سفكوا دماءهم واستحلوا محارمهم » يسفك الشحيح الدماء إذا لم يتوصل إلى طمعه إلا بالدماء ، كما هو الواقع عند أهل الشحِّ ، يقطعون الطريق على المسلمين ، ويقتلون الرجل ، ويأخذون متاعه ، ويأخذون بعيره ، وكذلك أيضًا يعتدون على الناس في داخل بيوتهم ، ويهتكون حُجُبَ بيوتهم ، فيأخذون المال بالقوة والغلبة .

فحذر النبي ﷺ من أمرين : من الظلم ومن الشحِّ . فالظلم هو الاعتداء على الغير ، والشح هو الطمع فيما عند الغير . فكل ذلك حرام ، ولهذا قال اللَّه تعالى في كتابه : ﴿ وَمَن يُوقَ شُحَّ نَفْسِهِۦ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ ﴾ [الحشر : ٩] فدلت الآية على أن من لم يوق شح نفسه فلا فلاح له . المفلح من وقاه اللَّه شحَّ نفسه . نسأل اللَّه أن يعيذنا وإياكم من الظلم ، وأن يقينا شح أنفسنا وشرورها .

* * *

٢٠٤ - وعن أبي هريرة رضي الله عنه أن رسول اللَّه ﷺ قال : « لَتُؤَدُّنَّ الحُقُوقَ إِلَى أَهْلِهَا يَوْمَ القِيَامَةِ حَتَّى يُقَادَ للشَّاةِ الجَلْحَاءِ مِنَ الشَّاةِ القَرْنَاءِ »[2] رواه مسلم .

الشرح

نقل المؤلف - رحمه اللَّه تعالى - فيما نقله عن أبي هريرة رضي الله عنه أن النبي ﷺ قال : « لتؤدنَّ الحقوق إلى أهلها يوم القيامة حتى يُقادَ للشاة الجلحاءِ من الشاةِ القرناء » .

ففي هذا الحديث : أقسم النبي ﷺ وهو الصادق المصدق بغير قسم . أقسم أن الحقوق ستؤدى إلى

(١) أخرجه البخاري في الاستقراض (٢٤٠٠) ، والحوالات (٢٢٨٧ ، ٢٢٨٨) ، ومسلم في المساقاة (٣٣) ، والترمذي في سننه (١٣٠٨ ، ١٣٠٩) .

(٢) أخرجه مسلم في البر والصلة (٦٠) ، والإمام أحمد في مسنده (٢/٢٣٥) ، والترمذي في صفة القيامة (٢٤٢٠) .

أهلها يوم القيامة ، ولا يضيع لأحد حقٌّ . الحق الذي لك إن لم تستوفه في الدنيا استوفيته في الآخرة ، حتى إنه يُقْتَصُّ للشاة الجلحاء من الشاة القرناء . الجلحاء : التي ليس لها قرن . والقرناء : التي لها قرن . والغالب أن التي لها قرن إذا ناطحت الجلحاء التي ليس لها قرن تؤذيها أكثر . فإذا كان يوم القيامة قضى الله بين هاتين الشاتين واقتص للشاة الجلحاء من الشاة القرناء . هذا وهنّ بهائم لا يعقلن ولا يفهمن . لكن الله ﷻ حكم عدل ، أراد أن يُري عباده كمال عدله حتى في البهائم العجم ، فكيف ببني آدم !!

وفي هذا الحديث : دليل على أن البهائم تُحشر يوم القيامة ، كذلك تُحشر الدوابُّ ، وكل ما فيه روحٌ يحشر يوم القيامة . قال الله تعالى : ﴿ وَمَا مِن دَآبَّةٍ فِي ٱلْأَرْضِ وَلَا طَٰٓئِرٍ يَطِيرُ بِجَنَاحَيْهِ إِلَّآ أُمَمٌ أَمْثَالُكُم ﴾ [الأنعام : ٣٨] أمم كثيرة ، أمة الذرِّ ، أُمَّة الطيور ، أمة السباع ، أمة الحيّات وهكذا ﴿ إِلَّآ أُمَمٌ أَمْثَالُكُم مَّا فَرَّطْنَا فِي ٱلْكِتَٰبِ مِن شَيْءٍ ثُمَّ إِلَىٰ رَبِّهِمْ يُحْشَرُونَ ﴾ [الأنعام : ٣٨] .

وكلُّ شيء مكتوب ، حتى أعمال البهائم والحشرات مكتوبة في اللوح المحفوظ ﴿ مَّا فَرَّطْنَا فِي ٱلْكِتَٰبِ مِن شَيْءٍ ثُمَّ إِلَىٰ رَبِّهِمْ يُحْشَرُونَ ﴾ [الأنعام : ٣٨] على كل حال ففي يوم القيامة يُقتص للمظلوم من الظالم ويؤخذ من حسنات الظالم فتضاف إلى حسنات المظلوم ، إلا إذا نفدت حسناته ؛ فيؤخذ من سيئات المظلوم فتطرح عليه . قال النبي – عليه الصلاة والسلام – « أتدرون ما المفلس ؟ » قالوا : المفلس من لا درهم له ولا متاع . قال : « المفلس من أمتي من يأتي يوم القيامة بصلاة وصيام وزكاة ، فيأتي قد شتم هذا ، وقذف هذا ، وأكل مال هذا ، وسفك دم هذا ، وضرب هذا ، فيُعطى هذا من حسناته وهذا من حسناته ، فإن فنيت حسناته قبل أن يُقضى ما عليه أُخِذَ من خطاياهم فطُرحت عليه ، ثم طرح في النار »(١) .

لابد أن يقتص للمظلوم من الظالم ، ولكن إذا أخذ المظلوم بحقه في الدنيا ، فدعا على الظالم بقدر مظلمته واستجاب الله دعاءه فيه ، فقد اقتصَّ لنفسه قبل أن يموت ، لأن النبي ﷺ قال لمعاذ : « واتق دعوة المظلوم فإنه ليس بينها وبين الله حجاب »(٢) . فإذا دعا المظلوم على ظالمه في الدنيا واستجيب لدعائه فقد اقتصّ منه في الدنيا أما إذا سكت فلم يدع عليه ولم يعف عنه ، فإنه يُقتصُّ له منه يوم القيامة .

* * *

٢٠٥ – وعن ابن عمر ﵄ قال : كُنَّا نَتَحدَّثُ عَنْ حَجَّةِ الوَدَاعِ ، وَالنَّبيُّ ﷺ بَينَ أظْهرِنَا ، وَلا نَدْري مَا حَجَّةُ الوَدَاعِ ، حَتَّى حَمِدَ اللَّهَ رسولُ اللَّه ﷺ ، وَأثْنَى عَلَيه ، ثُمَّ ذَكَرَ المَسيحَ الدَّجَّالَ فَأَطْنَبَ في ذِكْرِهِ ، وَقَالَ : « مَا بَعَثَ اللَّهُ مِنْ نَبيٍّ إلا أنْذَرَهُ أُمَّتَهُ : أَنْذَرَهُ نُوح والنَّبِيُّون مِنْ بَعْدِهِ ، وَإنَّهُ إنْ يَخْرُجْ فِيكُمْ فَمَا خَفِيَ عَلَيكُمْ مِنْ شَأْنِهِ فَلَيس يَخْفَى عَلَيكُمْ ، إنَّ رَبَّكُمْ لَيسَ بِأَعْوَرَ ، وَإنَّهُ أعْوَرُ عَينِ اليُمْنَى ، كَأَنَّ عَينَهُ عِنَبَةٌ طَافِيَةٌ . ألا إنَّ اللَّه حَرَّمَ عَلَيكُمْ دمَاءَكُم وَأمْوالَكُم ، كَحُرمَةِ يَومِكُمْ هذَا ، في بلدكُمْ هذَا ، في شَهْرِكُمْ هذا ، ألا هَلْ بَلَّغْتُ ؟ » قَالُوا : نَعَمْ ، قال : « اللَّهُمَّ اشْهَدْ – ثَلاثًا – وَيلَكُمْ ، أَو

(١) أخرجه مسلم في البر والصلة (٥٩) – بلفظه – ، والإمام أحمد في مسنده (٣٠٣/٢) .
(٢) أخرجه البخاري في الزكاة (١٤٩٦) ، ومسلم في الإيمان (٢٩) – واللفظ له – .

ويحَكُمْ ، انْظُرُوا : لا تَرْجِعُوا بَعْدي كُفَّارًا يضْرِبُ بَعْضُكُمْ رِقَابَ بَعْضٍ » (١) رواه البخاري ، وروى مسلم بعضه .

الشرح

قال المؤلف - رحمه الله تعالى - فيما نقله عن عبد الله بن عمر رضي الله عنهما قال : كنا نقول والنبي ﷺ حي : ما حَجَّةُ الوداع ؟ وحجةُ الوداع هي الحجة التي حجَّها النبي ﷺ في السنة العاشرة من الهجرة ، وودَّع الناس فيها وقال : « لعلى لا ألقاكم بعد عامي هذا » ولم يحجّ النبيُّ ﷺ بعد الهجرة إلا هذه المرة فقط ، وقد ذُكر أنه حجَّ قبل الهجرة مرتين ، ولكن الظاهر والله أعلم أنه حجَّ أكثر ، لأنه كان هناك في مكة ، وكان يخرج في الموسم يدعو الناس والقبائل إلى دين الله عز وجل فيبعد أنه يخرج ولا يحجّ . وعلى كل حال الذي يهمنا أنه ﷺ حجَّ في آخر عمره في السنة العاشرة من الهجرة ، ولم يحج قبلها بعد هجرته ، وذلك لأن مكة كانت بأيدي المشركين إلى السنة الثامنة من الهجرة ، ففتحها النبي ﷺ في رمضان في السنة الثامنة ، ثم خرج بعد ذلك إلى الطائف ، وغزا ثقيفًا وحصلت غزوة الطائف المشهورة ، ثم رجع بعد هذا ونزل في الجعرانة ، وأتى بعمرة ليلًا ، ولم يطلع عليه كثير من الناس ، ثم عاد إلى المدينة ، هذا في السنة الثامنة .

وفي السنة التاسعة كانت الوفود تردُ إلى النبي ﷺ من كل ناحية ، فبقي في المدينة ، ليتلقى الوفود ، حتى لا يثقل عليهم بطلبه ، حتى إذا جاء الوفود إلى المدينة وجدوا النبي ﷺ ولم يتعبوا في طلبه ويلحقونه يمينًا وشمالًا ، فلم يحجّ في السنة التاسعة لتلقي الوفود هذا من وجه .

ومن وجه آخر : في السنة التاسعة حجَّ مع المسلمين المشركون لأنهم لم يُمنعوا من دخول مكة ، ثم مُنعوا من دخول مكة ، وأنزل الله تعالى : ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِنَّمَا ٱلْمُشْرِكُونَ نَجَسٌ فَلَا يَقْرَبُواْ ٱلْمَسْجِدَ ٱلْحَرَامَ بَعْدَ عَامِهِمْ هَٰذَا ﴾ [التوبة : ٢٨] ، وأذن مؤذن رسول الله ﷺ بأن لا يحجَّ بعد العام مشرك ، ولا يطوف بالبيت عريان (٢) . وكان أمير الناس في تلك الحجة - أعني حجة سنة تسع - أبا بكر رضي الله عنه ، ثم أردفه النبي ﷺ بعلي بن أبي طالب في السنة العاشرة ، وأعلن النبي ﷺ أنه سيحجُّ ، وقدم المدينة بشرٌ كثير يقدَّرون نحو مائة ألف ، والمسلمون كلهم مائة وأربعة وعشرون ألفًا ، أي لم يتخلف من المسلمين إلا القليل ، فحجوا مع النبي ﷺ هذه الحجة التي سميت « حجة الوداع » ، لأن النبي ﷺ ودَّع الناس فيها بقوله : « لعلي لا ألقاكم بعد عامي هذا » فصار الأمر كذلك ، فإنه تُوفي بعد رجوعه من المدينة في ربيع الأول ، أي بعد حجه . فمضى محرم وصفر واثنا عشر يومًا من ربيع الأول صلوات الله وسلامه عليه .

---

(١) أخرجه البخاري في المغازي (٤٤٠٢ ، ٤٤٠٣) ، وروى مسلم بعضه في الفتن (١٠٠) .
(٢) انظر البخاري في الحج (١٦٢٢) ، ومسلم في الحج (٤٣٥) .

كان ﷺ في حجة الوداع يخطب الناس . خطبهم في عرفة ، وخطبهم في منى ، فذكر المسيح الدجال ، وعظَّم من شأنه ، وحذر منه تحذيرًا بالغًا . وفعل ذلك أيضًا في المدينة ، ذكر الدجال وحذَّر منه ، وبالغ في شأنه ، حتى قال الصحابة : كنا نظنُّ أنه في أفراخ النخل أي قد جاء ودخل ، من شدة قول النبي ﷺ فيه ، ثم أخبر - عليه الصلاة والسلام - أنه ما من نبي إلا أنذره قومه ، فكل الأنبياء ينذرون قومهم من الدجال ، يخوفونهم ويعظمون شأنه عندهم .

وإنما كانوا ينذرون قومهم الدجال مع أن الله يعلم أنه لن يكون إلا في آخر الدنيا ، من أجل الاهتمام به ، وبيان خطورته ، وأن جميع الملل تحذر منه ، لأن هذا الدجال - وقانا الله وإياكم فِتْنَتَهُ وأمثاله - هذا الدجال يأتي إلى الناس ، يدعوهم إلى أن يعبدوه ، ويقول : أنا ربكم ، وإن شئتم أريتكم أني ربكم ، فيأمر السماء يقول لها : أمطري فتُمطر ، ويأمر الأرض فيقول لها : أنبتي فتنبت ، أما إذا عَصَوا أَمَرَ الأرض فأملحت والسماء فقحطت ، وأصبح الناس ممحلين . هذا لا شك أنه خطر عظيم ، لا سيما في البادية التي لا تعرف إلا الماء والمرعى ، فيتبعه أناسٌ كثيرون إلا من عصم الله .

ومع هذا فله علامات بينة تدل على أنه كذاب .

منها : أنه مكتوب بين عينيه كافر (ك . ف . ر) [1] يقرأها المؤمن فقط وإن كان لا يعرف القراءة ، ويعجز عنها الكافر وإن كان يقرأ ، لأن هذه الكتابة ليست كتابة عادية ، إنما هي كتابة إلهية من الله ﷻ .

ومن علاماته : أنه أعور العين اليمنى ، والرب ﷻ ليس بأعور ، الرب ﷻ كامل الصفات ، ليس في صفاته نقص بوجه من الوجوه . أما هذا فإنه أعور ، عينه اليمنى كأنها عنبة طافية . وهذه علامة حسية واضحة كلٌّ يعرفها .

فإن قال قائل : إذا كان فيه هذه العلامة الحسية فكيف يُفتن الناس به ؟ نقول : إن الله قال في كتابه : ﴿ وَمَا تُغْنِي ٱلْآيَٰتُ وَٱلنُّذُرُ عَن قَوْمٍ لَّا يُؤْمِنُونَ ﴾ [يونس : ١٠١] الذين أضلهم الله لا تنفعهم علامات الضلال تحذيرًا ، ولا علامات الهدى تبشيرًا ، ولا يستفيدون من آيات الله ودلائل وحدانيته وألوهيته ، وإن كانت العلامات ظاهرة .

ثم بين الرسول ﷺ أن هذه العلامات لا تخفى على أحد ، وبين في حديث آخر أنه إن خرج والنبي ﷺ فيهم فهو حجيجه دونهم يحجّه النبي ﷺ ويكشف زيغه وضلاله قال : « وإن يخرج ولست فيكم فامرؤ حجيجُ نفسه والله خليفتي على كلِّ مسلم » [2] فوكَّل الله ﷻ .

فالحاصل : أن الرسول - عليه الصلاة والسلام - حذر من الدجال تحذيرًا بالغًا ، وأخبر أن الدجال الأكبر يخرج في آخر الزمان ، ويبقى في الأرض أربعين يومًا فقط ، ولكن اليوم الأول كسنة « اثنا عشر شهرًا » تبقى الشمس في أوج السماء ستة أشهر من المشرق إلى المغرب ما تغيب هذه الفترة الطويلة ،

---

(١) انظر البخاري في الفتن (٧١٣١) ، ومسلم في الإيمان (٢٧٠) .

(٢) أخرجه مسلم في الفتن (١١٠) ، وأبو داود في سننه (٤٣٢١) والإمام أحمد في مسنده (٤/١٨١) .

وتبقى غائبة ليلًا ستة أشهر ، هذا أول يوم . واليوم الثاني كشهر ، والثالث كجمعة ، وبقية الأيام كسائر الأيام سبعة وثلاثون يومًا كسائر الأيام .

لما حدث النبي ﷺ الصحابة بهذا الحديث . لم يستشكلوا كيف تبقى الشمس سنة كاملة ما تدور على الأرض ، وهي تدور عليها في كل أربع وعشرين ساعة فقدرة الله فوق ذلك ، وأن الله على كل شيء قدير . والصحابة لا يسألون في الغالب عن المسائل الكونية والقدرية ، لأنهم يعلمون قدرة الله ﷻ ، لكن يسألون عن الأمور التي تهمهم ، وهي الأمور الشرعية ، فلما حدَّثهم بأن اليوم الأول كسنة : قالوا : يا رسول الله اليوم الذي كسنة . هل تكفينا فيه صلاة واحدة ؟ قال : « لا اقدروا له قدره » [١] يعني قدروا ما بين الصلاتين وصلوا .

مثلا إذا طلع الصبح نصلي الصبح ، إذا انقضى الوقت ما بين الصبح والزوال صلينا الظهر ، حتى لو كانت الشمس في أول المشرق ، وهي تكون أول المشرق ، لأنها تبقى ستة أشهر كاملة ، فيقدرون له قدره ، إذن نصلي في اليوم الأول صلاة سنة ، والصيام نصوم شهرًا ، ونقدِّر للصوم ، والزكاة كذلك وهذا ربما يلغز بها فيقال : « مال لم يمض عليه إلا يوم وجبت فيه الزكاة » .

كذلك اليوم الثاني نقدِّر فيه صلاة شهر ، والثالث صلاة أسبوع ، وبعده تعود الأيام كما هي ، وفي إلهام الله للصحابة أن يسألوا هذا السؤال عبرة ، لأنه يوجد الآن في شمالي الأرض وجنوبي الأرض ، يوجد أناسٌ تغيب عنهم الشمس ستة أشهر ، وتطلع عليهم ستة أشهر ، لولا هذا الحديث لأشكل على الناس ، كيف يصلي هؤلاء ، وكيف يصومون ، لكن الآن نطبّق هذا الحديث على حال هؤلاء فنقول : هؤلاء الذين تكون الشمس عندهم ستة أشهر كاملة يقدرون للصلاة وقتها ، كما أرشد النبي ﷺ الصحابة في أيام الدجال .

* * *

٢٠٦ – وعن عائشة رضي الله عنها أن رسول الله ﷺ قال : « مَنْ ظَلَمَ قِيدَ شِبْرٍ مِنَ الأَرْضِ طُوِّقَهُ مِنْ سَبْعِ أَرَضِينَ » [٢] متفقٌ عليه .

٢٠٧ – وعن أبي موسى رضي الله عنه قال : قال رسول الله ﷺ : « إنَّ اللَّهَ لَيُمْلي لِلظَّالِمِ فَإذَا أَخَذَهُ لَمْ يُفْلِتْهُ ثُمَّ قَرَأَ : ﴿ وَكَذَٰلِكَ أَخْذُ رَبِّكَ إِذَآ أَخَذَ ٱلْقُرَىٰ وَهِىَ ظَٰلِمَةٌ إِنَّ أَخْذَهُۥٓ أَلِيمٌ شَدِيدٌ ﴾ [هود : ١٠٢] [٣] متفقٌ عليه .

---

(١) أخرجه مسلم في الفتن (١١٠) ، وأبو داود في سننه (٤٣٢١) ، والإمام أحمد في مسنده (١٨١/٤) .
(٢) أخرجه البخاري في المظالم (٢٤٥٣) ، ومسلم في المساقاة (١٤٢) .
(٣) أخرجه البخاري في التفسير (٤٦٨٦) ، ومسلم – واللفظ له – في البر والصلة (٦١) ، قوله « لم يفلته » أي : لم يطلقه ولم ينفلت منه .

الشرح

نقل المؤلف عن عائشة رضي الله عنها أن النبي ﷺ قال : « من ظَلَمَ من الأرض قيد شبر طُوِّقه يوم القيامة من سبع أرضين » هذا الحديث يتناول نوعًا من أنواع الظلم وهو الظلم في الأراضي . وظلم الأراضي من أكبر الكبائر ، لأن النبي ﷺ « لعن من غيَّر منار الأرض »[1] . قال العلماء : منار الأرض حدودها ، لأنه مأخوذ من « المنور » وهو العلامة ، فإذا غير الإنسان من هذه الأرض ، بأن أدخل شيئًا من هذه الأرض إلى أرض غيره ، فإنه ملعون على لسان النبي ﷺ . واللعنة : الطرد والإبعاد عن رحمة الله .

وثمةَ عقوبة أخرى ، وهو ما ذكره في هذا الحديث ؛ أنه إذا ظلم قَيد شبر طُوقه يوم القيامة من سبع أرضين ، لأن الأرضين سبع ، كما جاءت به السنة صريحًا ، وكما ذكره الله تعالى في القرآن إشارة في قوله تعالى : ﴿ ٱللَّهُ ٱلَّذِى خَلَقَ سَبْعَ سَمَٰوَٰتٍ وَمِنَ ٱلْأَرْضِ مِثْلَهُنَّ ﴾ [الطلاق : ١٢] ومعلوم أن المماثلة ها هنا ليست في الكيفية ، لأن بين السماء والأرض من الفرق كما بينهما من المسافة ، السماء أكبر بكثير من الأرض ، وأوسع ، وأعظم . قال الله تعالى : ﴿ وَٱلسَّمَآءَ بَنَيْنَٰهَا بِأَيْي۟دٍ ﴾ [الذاريات : ٤٧] أي بقوة ، وقال تعالى : ﴿ وَبَنَيْنَا فَوْقَكُمْ سَبْعًا شِدَادًا ﴾ [النبأ : ١٢] أي قوية .

فالإنسان إذا ظلم قيد شبر من الأرض فإنه يطوق من سبع أرضين يوم القيامة ، أي : يجعل له طوقًا في عنقه والعياذ بالله ، يحمله أمام الناس أمام العالم ، يخزى به يوم القيامة . وقوله : « قيد شبر من الأرض » ليس هذا على سبيل القيد ، بل هو على سبيل المبالغة يعني ، فإن ظلم ما دونه طُوِّقه أيضًا ، لكن العرب يذكرون مثل هذا للمبالغة ، يعني ولو كان شيئًا قليلًا فإنه سيطوقه يوم القيامة .

وفي هذا الحديث : دليل على أن مَنْ ملك الأرض ملك قعرها إلى الأرض السابعة ، فليس لأحد أن يضع نفقًا تحت أرضه إلا بإذنه ، يعني لو فرض أن لك أرضًا مسافتها ثلاثة أمتار بين أرض لجارك ، فأراد جارك أن يفتح نفقًا بين الأرضين ويمرّ من تحت أرضك ، فليس له الحقُّ في ذلك ، لأنك تملك الأرض وما تحتها إلى الأرض السابعة ، كما أن الهواء لك إلى السماء ، فلا أحد يستطيع أن يبني على أرضك سقفًا إلا بإذنك . ولهذا قال العلماء : الهواء تابع القرار ، والقرار ثابت إلى الأرض السابعة ، فالإنسان له من فوق ومن تحت ، لا أحد عليه يتجرأ .

قال أهل العلم : ولو كان عند جارك شجرة ، فامتدت أغصانها إلى أرضك ، وصار الغصن إلى أرضك ، فإن الجار يلويه عن أرضك ، وإن لم يمكن ليُّه فإنه يقطع ، إلا بإذن منك وإقرار ، لأن الهواء لك وهو تابع للقرار .

أما حديث أبي موسى الأشعري رضي الله عنه : فقد قال النبي ﷺ : « إن الله ليملي للظالم فإذا أخذه لم يفلته » ، يملي له : يعني يُمهل له حتى يتمادى في ظلمه والعياذ بالله ، فلا يعجِّل له العقوبة ، وهذا من البلاء نسأل الله أن يعيذنا وإياكم . فمن الاستدراج أن يُملي للإنسان في ظلمه ، فلا يعاقب له سريعًا

---

(١) انظر الحديث في صحيح مسلم في الأضاحي (٤٣ - ٤٥) ، ومسند الإمام أحمد (١٠٨/١ ، ١١٨ ، ١٥٣) .

حتى يتكدس على الإنسان المظالم ، فإذا أخذه الله لم يفلته ، أخذه أخذ عزيز مقتدر . ثم قرأ النبي ﷺ ﴿ وَكَذَٰلِكَ أَخْذُ رَبِّكَ إِذَآ أَخَذَ ٱلْقُرَىٰ وَهِىَ ظَٰلِمَةٌ إِنَّ أَخْذَهُۥٓ أَلِيمٌ شَدِيدٌ ﴾ [هود : ١٠٢] .

فعلى الإنسان الظالم أن لا يغتر بنفسه ولا بإملاء الله له ، فإن ذلك مصيبة فوق مصيبته لأن الإنسان إذا عوقب بالظلم عاجلًا ، فربما يتذكر ويتعظ ويدع الظلم ، لكن إذا أملي له واكتسب آثامًا أو ازداد ظلمًا ، ازدادت عقوبته والعياذ بالله فيؤخذ على غرة ، حتى إذا أخذه الله لم يفلته ، نسأل الله أن يرزقنا وإياكم الاعتبار بآياته ، وأن يعيذنا وإياكم من ظلم أنفسنا ومن ظلم غيرنا إنه جواد كريم .

* * *

٢٠٨ - وعن مُعَاذٍ ﷺ قال : بَعَثَنِي رسول الله ﷺ فقال : « إِنَّكَ تَأْتِي قَوْمًا مِنْ أَهْلِ الكِتَابِ ، فادْعُهُمْ إِلَى شَهَادَةِ أَنْ لا إِلهَ إلا الله ، وَأَنِّي رسول الله ، فَإِنْ هُمْ أَطَاعُوا لِذلِكَ ، فَأَعْلِمْهُمْ أَنَّ الله قَدِ افْتَرَضَ عَلَيهِم خَمْسَ صَلَوَاتٍ في كُلِّ يَومٍ وَلَيلَةٍ ، فَإِنْ هُمْ أَطَاعُوا لِذلِكَ ، فَأَعْلِمْهُمْ أَنَّ الله قَدِ افْتَرَضَ عَلَيهِمْ صَدقَةً تُؤْخَذُ مِنْ أَغْنِيَائِهِمْ فَتُرَدُّ عَلَى فُقَرَائِهِمْ ، فَإِنْ هُمْ أَطَاعُوا لِذلك ، فَإِيَّاكَ وَكَرائِمَ أَمْوَالِهِمْ ، وَاتَّقِ دَعْوَةَ المَظْلُومِ ؛ فَإِنَّهُ لَيسَ بينَهَا وَبَينَ اللهِ حِجَابٌ » [1] متفقٌ عليه .

الشرح

قال المؤلف - رحمه الله تعالى - فيما نقله من حديث معاذ بن جبل ﷺ قال : بعثني رسول الله ﷺ إلى اليمن ، وكانت بعثته إياه في ربيع من السنة العاشرة من الهجرة ، بعثه ﷺ إلى اليمن ، وكانوا أهل كتاب ، وقال له : « إنك تأتي قومًا من أهل الكتاب » أخبره بحالهم لكي يكون مستعدًّا لهم ، لأن الذي يجادل أهل الكتاب لابد أن يكون معه من الحجة أكثر وأقوى مما عند المشرك ، لأن المشرك جاهل ، والذي هو من أهل الكتاب عنده علم ، وأيضًا أعْلَمَه بحالهم ، لينزلهم منزلتهم ، فيجادلهم بالتي هي أحسن .

ثم وجهه - عليه الصلاة والسلام - في أن أول ما يدعوهم إليه : التوحيد والرسالة ، قال له : « ادعهم إلى شهادة أن لا إله إلا الله وأني رسول الله » أن يشهدوا أن لا إله إلا الله أي لا معبود بحق إلا الله ﷻ ، فهو المستحقُّ للعبادة ، وما عداه فلا يستحق للعبادة ، بل عبادته باطلة ، كما قال تعالى : ﴿ ذَٰلِكَ بِأَنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلْحَقُّ وَأَنَّ مَا يَدْعُونَ مِن دُونِهِ ٱلْبَٰطِلُ وَأَنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلْعَلِىُّ ٱلْكَبِيرُ ﴾ [لقمان : ٣٠] « وأني رسول الله » ، يعني مرسَلَهُ الذي أرسله إلى الإنس والجن ، وختم به الرسالات ، ومن لم يؤمن به فإنه من أهل النار .

ثم قال له : « فإن هم أطاعوا لذلك » يعني شهدوا أن لا إله إلا الله ، وأن محمدًا رسول الله « فأعلمهم أن الله افترض عليهم خمس صلوات في كلِّ يوم وليلة » وهي الظهر ، والعصر ، والمغرب ، والعشاء ، والفجر ، لا يجب شيء من الصلوات اليومية إلا هذه الخمس ، فالسنن الرواتب ليست

(١) أخرجه البخاري في الزكاة (١٤٩٦) ، ومسلم - واللفظ له - في الإيمان (٢٩) .

بواجبة ، والوتر ليس بواجب ، وصلاة الضحى ليست بواجبة ، وأما صلاة العيد والكسوف فإن الراجح هو القول بوجوبهما ، وذلك لأمرٍ عارض له سببٌ يختصُّ به .

ثم قال له : « فإن هم أطاعوا لذلك فأعلمهم أن اللَّه افترض عليهم صدقة تؤخذ من أغنيائهم فتردّ في فقرائهم » وهذه هي الزكاة . الزكاة صدقة واجبة في المال تؤخذ من الغني وترد في الفقير . والغني هنا من يملك نصابًا زكويًا ، وليس الغني هنا الذي يملك المال الكثير ، بل من يملك نصابًا فهو الغني ، ولو لم يكن عنده إلا نصابًا واحدًا ، فإنه غني . وقوله : « وتردُّ في فقرائهم » أي تصرف في فقراء البلد ، لأن فقراء البلد أحقّ من تصرف إليهم صدقات أهل البلد .

ولهذا يخطئ قوم يرسلون صدقاتهم إلى بلاد بعيدة ، وفي بلادهم مَن هو محتاج ، فإن ذلك حرام عليهم ، لأن النبي ﷺ قال : « تؤخذ من أغنيائهم فتردُّ في فقرائهم » ولأن الأقربين أولى بالمعروف ، ولأن المقربين يعرفون المال الذي عندك ، ويعرفون أنك غني ، فإذا لم ينتفعوا بمالك فإنه سيقع في قلوبهم من العداوة والبغضاء ، ما تكون أنت السبب فيه ، ربما إذا رأوا أنك تخرج صدقةً إلى بلاد بعيدة وهم محتاجون ، ربما يعتدون عليك ، ويفسدون أموالك ، ولهذا كان من الحكمة أنه ما دام في أهل بلدك مَنْ هو في حاجة أن لا تصرف صدقتك إلى غيره .

ثم قال له ﷺ : « فإن هم أطاعوا لذلك » يعني انقادوا ووافقوا ، « فإياك وكرائم أموالهم » يعني لا تأخذ من أموالهم الطيب ، ولكن خذ المتوسط ، لا تظلم ولا تُظلم « واتق دعوة المظلوم » يعني أنك أخذت من نفائس أموالهم ، فإنك ظالم لهم ، وربما يدعون عليك ، فاتق دعوتهم ، « فإنه ليس بينها وبين اللَّه حجاب » تصعد إلى اللَّه تعالى ، ويستجيبها ، وهذا هو الشاهد من هذا الحديث في الباب الذي ذكره المؤلف فيه ، أن الإنسان يجب عليه أن يتقي دعوة المظلوم .

ويستفاد من هذا الحديث فوائد كثيرة : منها ما يتعلق بهذا الباب ، ومنها ما يتعلق بغيره ، فينبغي أن نعلم أولًا أن الكتاب والسنة نزلا ليحكما بين الناس فيما اختلفوا فيه ، والأحكام الشرعية من الألفاظ ، مما دلت عليه منطوقًا ومفهومًا وإشارة . واللَّه ﷻ يفضل بعض الناس على بعض في فهم كتابه وسنة رسوله ﷺ . ولهذا لما سأل أبو جُحَيفة عليَّ بن أبي طالب رضي الله عنه : هل عهد إليكم رسولُ اللَّه ﷺ شيئًا للَّهِ ؟ قال : لا إلا فهمًا يؤتيه اللَّه تعالى من شاء في كتاب اللَّه وما في هذه الصحيفة وبين له ما في تلك الصحيفة فقال : « العقل ، وفكاك الأسير ، وأن لا يُقتل مسلمٌ بكافر » [1] الشاهد قوله إلا فهمًا يؤتيه اللَّه من شاء في كتاب اللَّه .

فالناس يختلفون ، والذي ينبغي لطالب العلم خاصة ، أن يحرص على استنباط الفوائد والأحكام من نصوص الكتاب والسنة ، لأنها هي المورد المعين ، فاستنباط الأحكام منهما بمنزلة الرجل يردُ على الماء فيستسقي منه في إنائه فمقلٌّ ومكثر .

---

(١) أخرجه البخاري في العلم (١١١) ، والترمذي في سننه (١٤١٢) وقال : حديث حسن صحيح .

وهذا الحديث العظيم الذي بين فيه معاذ بن جبل ﷺ بماذا بعثه النبي ﷺ إلى أهل اليمن فيه فوائد كثيرة منها : أولًا : وجوب بعث الدعاة إلى الله ، وهذا من خصائص ولي الأمر ، يجب على ولي أمر المسلمين أن يبعث الدعاة إلى الله في كل مكان ، كل مكان يحتاج إلى الدعوة ، فإن على ولي أمر المسلمين أن يبعث من يدعو الناس إلى دين الله ﷻ ، لأن هذا دأب النبي ﷺ وهديه أن يبعث الرسل يدعون إلى الله ﷻ .

ومنها : أنه ينبغي أن يُذكر للمبعوث حال المبعوث إليه ، حتى يتأهب لهم ، وينزلهم منازلهم ، لئلا يأتيهم على غرة ، فيوردون عليه من الشبهات ما ينقطع به ، ويكون في هذا مضرة عظيمة على الدعوة . فينبغي على الداعي أن يكون على أُهْبَةٍ واستعداد لما يلقيه إليه المدعوون ، حتى لا يأتيه الأمر على غرة (١) ، فيعجز وينقطع وحينئذٍ يكون في ذلك ضررٌ على الدعوة .

ومنها : أن أول ما يدعى إليه الناس : شهادة أن لا إله إلا الله وأن محمدًا رسول الله وذلك قبل كل شيء . لا تقل للكفار مثلًا إذا أتيت لتدعوهم : اتركوا الخمر ، اتركوا الزنا ، اتركوا الربا ، هذا غلط أصِّل الأصلَ أولًا ، ثم فرِّع الفروع . فأول ما تدعو : أن تدعو إلى التوحيد والرسالة ؛ أن يشهدوا أن لا إله إلا الله وأن محمدًا رسول الله ثم بعد ذلك عليك ببقية أركان الدين الأهم فالأهم .

ومنها : أنه إذا كان المدعوُّ فاهمًا للخطاب ، فلا يحتاج إلى شرح ، فإنه قال : « أن تدعوهم إلى أن يشهدوا أن لا إله إلا الله » ولم يشرحها لهم ، لأنهم يعرفون معناها ، لسانهم لسانٌ عربي ، لكن لو كنا نخاطب بذلك من لا يعرف المعنى ، وجب أن نُفهمه المعنى ؛ لأنه إذا لم يفهم المعنى لم يستفد من اللفظ ، ولهذا لم يُرسل الله تعالى رسولًا إلا بلسان قومه ولغتهم ، حتى يبين لهم ، فمثلًا إذا كنا نخاطب شخصًا لا يعرف معني لا إله إلا الله ، فلابد أن نشرحها له ، ونقول : معنى لا إله إلا الله : أي لا معبود حقٌّ إلا الله ، كلُّ ما عبد من دون الله فهو باطل ، كما قال تعالى : ﴿ ذَٰلِكَ بِأَنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلْحَقُّ وَأَنَّ مَا يَدْعُونَ مِن دُونِهِ ٱلْبَٰطِلُ وَأَنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلْعَلِيُّ ٱلْكَبِيرُ ﴾ [لقمان : ٣٠] .

كذلك أيضًا : « أن محمدًا رسول الله » لا يكفي أن يقولها الإنسان بلسانه أو يسمعها بأذنه ، دون أن يفقهها بقلبه ، فيبيِّن له معنى أن محمدًا رسول الله ، فيقال مثلًا : محمد هو ذلك الرجل الذي بعثه الله ﷻ من بني هاشم ، بعثه ليخرج الناس من الظلمات إلى النور ، أرسله بالهدى ودين الحق ، فبين للناس كلَّ خير ، ودعاهم إليه ، وبيَّن لهم كلَّ شر وحذرهم منه ، وهو رسول الله الذي يجب أن يصدَّق فيما أخبر ، ويطاع فيما أمر ، ويُترك ما عنه نهى وزجر .

ويبين له أيضًا ، بأنه رسول وليس بربٍّ ، وليس بكذاب ، بل هو عبدٌ لا يُعبد ، ورسول لا يُكذَّب صلوات الله وسلامه عليه .

ويبين له أيضًا أن هاتين الشهادتين هما مفتاح الإسلام ، ولهذا لا تصح أي عبادة إلا بشهادة أن لا

(١) الغرة : غفلة في اليقظة . المعجم الوسيط (٦٧٣/٢) .

إله إلا اللَّه وأن محمدًا رسول اللَّه .

ومن فوائد هذا الحديث : أن أهم شيء بعد الشهادتين هي الصلاة ، لأن النبي ﷺ قال : « فإن هم أطاعوك لذلك فأعلمهم أن اللَّه افترض عليهم خمس صلوات في اليوم والليلة » .

ومن فوائده : أن الوتر ليس بواجب ، لأن النبي ﷺ لم يذكره ، ولم يذكر إلا خمس صلوات فقط ، وهذا القول هو القول الراجح من أقوال أهل العلم . ومن العلماء من قال : إن الوتر واجب ، ومنهم من فصَّل وقال : من كان له وِرْدٌ من الليل وقيام من الليل ، فالوتر عليه واجب ، ومن لا فلا .

والصحيح أنه ليس بواجب مطلقًا ، لأنه لو كان واجبا لبينه الرسول ﷺ .

ومن فوائد هذا الحديث : أن الزكاة واجبة وهي فرض من فروض الإسلام ، وهي الركن الثالث من أركان الإسلام ، والثاني بعد الشهادتين . ولهذا قال : « أعلمهم أن اللَّه قد افترض عليهم صدقة في أموالهم تؤخذ من أغنيائهم » .

ومن فوائد هذا الحديث : أن الزكاة واجبة في المال لا في الذمة . لكن الصحيح أنها واجبة في المال ، ولها تعلّق بالذمة ، ويتفرع على هذا فوائد منها :

لو قلنا إنها واجبة في الذمة لسقطت الزكاة على من عليه دين ، لأن محل الدين الذمة ، وإذا قلنا محل الزكاة الذمة ، وكان عليه ألف وبيده ألف ، لم تجب عليه الزكاة ، لأن الحقين تعارضا والصحيح أنها واجبة في المال لقوله تعالى : ﴿ خُذْ مِنْ أَمْوَٰلِهِمْ صَدَقَةً ... ﴾ [التوبة : ١٠٣] وقال في هذا الحديث : « أعلمهم أن اللَّه قد افترض عليهم صدقة في أموالهم » لكن لها تعلق بالذمة ، بمعنى أنها إذا وجبت وفرط الإنسان فيها فإنه يضمن .

ومن فوائد هذا الحديث أيضًا : أن الزكاة لا تجب على الفقير ، لقوله : « من أغنيائهم فتردُّ في فقرائهم » ولكن من هو الغني ؟ أهو الذي يملك ملايين ؟ الغني في هذا الباب هو الذي يملك نصابًا ( ) . إذا ملك الإنسان نصابًا فهو غني تجب عليه الزكاة ، وإن كان قد يكون فقيرًا من وجه آخر ، لكنه غني من حيث وجوب الزكاة عليه .

ومن فوائد هذا الحديث : أن الزكاة تصرف في فقراء البلد ؛ لقوله : « فتردُّ في فقرائهم » ولا تُخرج عن البلد إلا لسبب ، أما ما دام في البلد مستحقون ، فإنهم أولى من غيرهم . وقد حرَّم بعض العلماء إخراج الزكاة عن البلد إذا كان فيهم مستحقون ، واستدل بهذا الحديث ، وبأن فقراء البلد تتعلَّق أنفسُهم بما عند أغنيائهم ، وبأن الأغنياء إذا صرفوها إلى خارج البلد ربما يعتدي الفقراء عليهم ويقولون :

( ) اشترط الإسلام أن يبلغ المال مقدارًا معينًا (النصاب) لتجب فيه الزكاة . فقد جاءت الأحاديث عن رسول اللَّه ﷺ بإعفاء ما دون الخمس من الإبل ، والأربعين من الغنم ، فليس فيهما زكاة ، وكذلك ما دون مائتي درهم من النقود الفضية (الورق) وما دون خمسة أوسق من الحبوب والثمار والحاصلات الزراعية . انظر فقه الزكاة للدكتور / يوسف القرضاوي (١/١٤٩) .

حرمتمونا من حقنا ، فيتسلطون عليهم بالنهب والإفساد ، ولا شك أنه من الخطأ أن يخرج الإنسان زكاة ماله إلى البلاد البعيدة ، مع وجود مستحق في بلده ، لأن الأقرب أولى بالمعروف . والمراد بالصدقة في هذا الحديث هي الزكاة ، وهي بذل النصيب الذي أوجبه اللّٰه تعالى في الأموال الزكوية .

وسميت صدقة لأن بذل المال دليل على صدق باذله ، فإن المال محبوب إلى النفوس ، كما قال اللّٰه تعالى : ﴿ وَتُحِبُّونَ ٱلْمَالَ حُبًّا جَمًّا ﴾ [1] [الفجر : ٢٠] والإنسان لا يبذل المحبوب إلا لما هو أحب منه ، فإذا كان هذا الرجل أو المرأة بذل المال مع حبه له ، دل ذلك على أنه يحب ما عند اللّٰه أكثر من حبه لماله ، وهو دليل على صدق الإيمان ، وفي قوله : « تؤخذ من أغنيائهم فترد على فقرائهم » دليل على أن لولي الأمر أن يأخذ الزكاة من أهلها ويصرفها في مصارفها ، وأنه إذا فعل ذلك برئت الذمة .

ولكن لو قال قائل أنا لا آمن أن يتلاعب بها من يأخذها ثم يصرفها في غير مصرفها ، نقل له أنت إذا أديت ما عليك فقد برئت ذمتك سواء صُرِفت في مصارفها أو لم تصرف ، لكن قال الإمام أحمد : إذا رأى أن الإمام لا يصرفها في مصرفها ، فلا يعطه إلا إذا طلب منه ذلك ، وألزمه به ، وحينئذ تبرأ ذمته ، وبناء على هذا فلا بأس أن يخفي الإنسان شيئًا من ماله إذا كان الذي يأخذها لا يصرفها في مصارفها ، لأجل أن يؤدي هو نفسه الزكاة الواجبة عليه .

وإذا قدر أن ولي الأمر أخذ أكثر مما يجب فإن ذلك ظلم لا يحل لولي الأمر ، أما صاحب المال فعليه السمع والطاعة ، لقول النبي ﷺ : « تسمع وتطيع للأمير وإن ضرب ظهرك وأخذ مالك فاسمع وأطع » [2] .

وإذا قدر أن ولي الأمر أخذ دون الواجب ، وجب على صاحب المال أن يخرج البقية ، ولا يقول إنه أخذ مني وبرئت الذمة ، لأنه إذا كانت الزكاة ألفًا وأخذ ثمانمائة فعليك أن تكمل المائتين فتخرجها .

من فوائد هذا الحديث : أنه يجوز صرف الزكاة في صنف واحد من أصناف الزكاة ، وأصناف الزكاة ثمانية : الفقراء والمساكين ، والعاملين عليها ، والمؤلفة قلوبهم ، وفي الرقاب ، والغارمين ، وفي سبيل اللّٰه ، وابن السبيل ، فإذا أداها المزكي إلى صنف من هذه الأصناف أجزأ ، بل إذا أداها إلى فرد في نوع من هذه الأنواع أجزأ . مثل لو أعطى مُزَكٍّ زكاته كلها فقيرًا واحدًا فلا حرج ، فلو قدر مثلًا أن شخصًا عليه مائة ألف ريال دينًا ، وزكاتك مائة ألف ريال وقضيت دينه كله فإن ذمتك تبرأ بهذا .

وعليه فيكون معنى قوله تعالى : ﴿ إِنَّمَا ٱلصَّدَقَـٰتُ لِلْفُقَرَآءِ ﴾ بيان المصارف فقط ، ولا يجب أن تعطي كل الأصناف الثمانية ، ولا يجب أن تعطي ثلاثة من كل صنف ، بل إذا أديتها لواحد من صنف واحد أجزأ ذلك كما في هذا الحديث .

ويستفاد منه : أن الزكاة تصرف في بلدها أي : في بلد المال ، وقد سبق ذكر ذلك وبيان أنه لا يجوز أن تخرج الزكاة عن البلد الذي فيه المال ، إلا إذا كان هناك مصلحة أو حاجة أكثر ، وأما ما دام فيه

---

(١) جمًّا : أي كثيرًا مع حرصٍ وشَرَهٍ . انظر صفوة البيان لمعاني القرآن (ص ٨٠٤) .

(٢) أخرجه مسلم في الإمارة (٥٢) .

مستحقون فلا يخرجها ، بل يؤد الزكاة في نفس البلد .

وفي الحديث أيضًا : دليل على تحريم الظلم وأنه لا يجوز للساعي على الزكاة أن يأخذ أكثر من الواجب ، ولهذا حذر النبي ﷺ معاذًا ، فقال له : « إياك وكرائم أموالهم » والكرائم : جمع كريمة وهي الحسنة المرغوبة .

وفيه : دليل على أن دعوة المظلوم مستجابة لقوله : « فإنه ليس بينها وبين اللَّه حجاب » .

وفيه : دليل على أنه يجب على الإنسان أن يتقي الظلم ويخاف من دعوة المظلوم ؛ لأن الرسول ﷺ أمر بذلك ، قال : « اتق دعوة المظلوم فإنه ليس بينها وبين اللَّه حجاب » .

* * *

٢١٠ - وعن أبي هُرَيرَةَ رضي الله عنه عن النَّبي ﷺ قال : « مَنْ كَانَتْ عِندَه مَظْلِمَةٌ لأَخِيهِ ، مِنْ عِرْضِهِ أو مِنْ شَيءٍ ، فَلْيَتَحَلَّلْه مِنْه اليَومَ قَبْلَ أَنْ لا يَكُونَ دِينَارٌ وَلا دِرْهَمٌ ، إنْ كَانَ لَهُ عَمَلٌ صَالِحٌ أُخِذَ مِنْهُ بِقَدرِ مَظْلمَتِهِ ، وَإنْ لَمْ يَكُنْ لَهُ حَسَنَاتٌ أُخِذَ مِنْ سَيِّئَاتِ صَاحِبِهِ فَحُمِلَ عَلَيهِ » [1] رواه البخاري .

الشرح

قال المؤلف رحمه الله فيما نقله عن أبي هريرة رضي الله عنه ، أن النبي ﷺ قال : من كان عنده مظلمة لأخيه ؛ من عرضه أو غيره فليتحلله منه اليوم - يعني في الدنيا - قبل ألا يكون دينار ولا درهم ، وذلك يوم القيامة ، فإنه في الدنيا يمكن أن يتحلل الإنسان من المظالم التي عليها بأدائها إلى أهلها ، أو استحلالهم منها ، لكن في الآخرة ليس هناك شيء إلا الأعمال الصالحة ، فإذا كان يوم القيامة اقتص من الظالم للمظلوم من حسناته ؛ يؤخذ من حسناته التي هي رأس ماله في ذلك اليوم ، فإن بقي منه شيء وإلا أخذ من سيئات المظلوم وحملت على الظالم والعياذ باللَّه ، فازداد بذلك سيئات إلى سيئاته .

وظاهر هذا الحديث : أنه يجب على الإنسان أن يتحلل من ظلم أخيه حتى في العرض ، سواء علم أم لم يعلم ، وذلك أن المظالم إما أن تكون بالنفس ، أو بالمال ، أو بالعرض ، لقول النبي ﷺ : « إن دماءكم وأموالكم وأعراضكم حرام عليكم » [2] .

فإن كانت بالنفس مثل أن يكون قد جنى عليه ، أو ضربه حتى جرحه ، أو قطع عضوًا من أعضائه أو قتل له قتيلًا ، فإنه يتحلل منه بأن يمكن صاحب الحق من القصاص ، أو من بذل الذمة ، إذا لم يكن القصاص ، أو اختيرت الدية .

أما إن كانت في المال فإنه يعطيه ماله ، إذا كان عنده مال لأحد ، فالواجب أن يعطيه صاحبه ، فإن غاب عنه ولم يعرف مكانه وأيس منه فإنه يتصدق به عنه ، واللَّه تعالى يعلم ويؤدي إلى صاحب

---

(١) أخرجه البخاري في المظالم (٢٤٤٦) ، قوله « فليتحلله » أي : ليسأله أن يجعله في حلٍّ من قِبَله . يقال : تحللته واستحللته إذا سألته أن يجعلك في حلٍّ . ومعناه أن يترك مظلمته ويقطع دعواه .

(٢) أخرجه البخاري في العلم (٦٧) ، ومسلم في القسامة (٢٩) ، وفيه (فإن) .

الحق حقه ، وإن كان قد مات - أي : صاحب الحق - فإنه يوصله إلى ورثته ، لأن المال بعد الموت ينتقل إلى الورثة ، فلابد أن يسلمه للورثة ، فإن لم يعلمهم بأن جهلهم ولم يدر عنهم تصدق به عنهم ، والله تعالى يعلمهم ويعطيهم حقهم .

أما إن كانت في العرض مثل أن يكون قد سبَّ شخصًا في مجالس أو اغتابه ، فلابد أن يتحلل منه إذا كان قد علم بأنه سبه ، فيذهب إليه ، ويقول أنا فعلت كذا وفعلت كذا ، وأنا جئتك معتذرًا ، فإن عذره فهذا من نعمة الله على الجميع ، لأن الله يقول : ﴿ فَمَنْ عَفَا وَأَصْلَحَ فَأَجْرُهُۥ عَلَى ٱللَّهِ إِنَّهُۥ لَا يُحِبُّ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴾ [الشورى : ٤٠] وإن لم يعف فليعطه مالًا ، يشبعه من المال حتى يحلله ، فإن أبى فإن الله تعالى إذا علم أن توبة الظالم توبة حقيقية ، فإنه ﷻ يرضي المظلوم يوم القيامة .

وقال بعض العلماء في مسألة العرض : إن كان المظلوم لم يعلم فلا حاجة أن يعلمه ، مثل أن يكون قد سبه في مجلس من المجالس ، وتاب فإنه لا حاجة أن يعلمه ، ولكن يستغفر له ويدعو له ، ويثني عليه بالخير في المجالس التي كان يسبه فيها ، وبذلك يتحلل منه .

والمهم أن الأمر خطير ، وحقوق الناس لابد أن تعطى لهم ، إما في الدنيا وإما في الآخرة .

* * *

٢١١ - وعن عبد الله بن عَمْرو بن العَاص رضي الله عنهما عن النَّبيِّ ﷺ قال : «المُسْلِمُ مَنْ سَلِمَ المُسْلِمُونَ مِنْ لِسَانِهِ وَيَدِهِ ، وَالمُهَاجِرُ مَنْ هَجَرَ مَا نَهَى اللَّهُ عَنْهُ » (١) متفقٌ عليه .

الشرح

قال المؤلف رحمه الله فيما رواه عن عبد الله بن عمرو بن العاص رضي الله عنهما : أن النبي ﷺ قال : « المسلم من سلم المسلمون من لسانه ويده ، والمهاجر من هجر ما نهى الله عنه » .

والمسلم يطلق على معان كثيرة ، منها المستسلم ، فالمستسلم لغيره يقال له مسلم ، ومنه على أحد التفسيرين قوله تعالى : ﴿ قَالَتِ ٱلْأَعْرَابُ ءَامَنَّا قُل لَّمْ تُؤْمِنُوا۟ وَلَٰكِن قُولُوٓا۟ أَسْلَمْنَا ﴾ [الحجرات : ١٤] أي قولوا استسلمنا ، ولم نقاتلكم ، والقول الثاني في الآية إن المراد بالإسلام ، الإسلام لله ﷻ وهو الصحيح .

والمعنى الثاني : يطلق الإسلام على الأصول الخمسة التي بينها النبي ﷺ لجبريل حين سأله عن الإسلام ، فقال : « أن تشهد ألا إله إلا الله وأن محمدًا رسول الله ، وتقيم الصلاة ، وتؤتي الزكاة ، وتصوم رمضان ، وتحج البيت » (٢) .

ويطلق الإسلام على السلامة ، يعني أن يسلم الناس من شره ، فيقال أسلم بمعنى دخل في السلم أي المسالمة للناس ، بحيث لا يؤذي الناس ، ومنه هذا الحديث : « المسلم من سلم المسلمون من لسانه

---

(١) أخرجه البخاري في الإيمان (١٠) ومسلم في الإيمان (٦٤) وأبو داود في سننه (٢٨٤٩) .
(٢) الحديث أخرجه البخاري في التفسير (٤٤٤٧) ومسلم في الإيمان (١) واللفظ له .

ويده » . سلم المسلمون من لسانه فلا يسبهم ، ولا يلعنهم ، ولا يغتابهم ، ولا ينم بينهم ، ولا يسعى بينهم بأي نوع من أنواع الشر والفساد ، فهو قد كف لسانه ، وكف اللسان من أشد ما يكون على الإنسان ، وهو من الأمور التي تصعب على المرء وربما يستسهل إطلاق لسانه .

ولهذا قال النبي - عليه الصلاة والسلام - لمعاذ بن جبل : « أفلا أخبرك بملاك ذلك كله ؟ » قلت : بلى يا رسول الله ، فأخذ بلسان نفسه وقال : « كف عليك هذا » ، قلت يا رسول الله : وإنا لمؤاخذون بما نتكلم به ، يعني هل نؤاخذ بالكلام ؟ فقال : « ثكلتك أمك يا معاذ ، وهل يكب الناس في النار على وجوههم أو قال على مناخرهم إلا حصائد ألسنتهم » [١] .

فاللسان من أشد الجوارح خطرًا على الإنسان ، ولهذا إذا أصبح الإنسان فإن الجوارح : اليدين والرجلين والعينين كل الجوارح تكفر اللسان ، وكذلك أيضًا الفرج ، لأن الفرج فيه شهوة النكاح ، واللسان فيه شهوة الكلام ، وقل من سلم من هاتين الشهوتين .

فالمسلم من سلم المسلمون من لسانه ، أي : كف عنهم ؛ لا يذكرهم إلا بخير ، ولا يسب ، ولا يغتاب ، ولاينم ، ولا يحرش بين الناس ، فهو رجل مسالم ، إذا سمع السوء حفظ لسانه ، وليس كما يفعل بعض الناس - والعياذ بالله - إذا سمع السوء في أخيه المسلم طار به فرحًا وطار به في البلاد نشرًا وإذاعة ، فإن هذا ليس بمسلم .

الثاني : من سلم المسلمون من يده ، فلا يعتدي عليهم بالضرب ، أو الجرح ، أو أخذ المال ، أو ما أشبه ذلك ، قد كف يده لا يأخذ إلا ما يستحقه شرعًا ، ولا يعتدي على أحد ، فإذا اجتمع للإنسان سلامة الناس من يده ومن لسانه ، فهذا هو المسلم .

وعلم من هذا الحديث : أن من لم يسلم الناس من لسانه أو يده ، فليس بمسلم ، فمن كان ليس له هم إلا القيل والقال في عباد الله ، وأكل لحومهم وأعراضهم ، فهذا ليس بمسلم ، وكذلك كان ليس له هم إلا الاعتداء على الناس بالضرب ، وأخذ المال ، وغير ذلك مما يتعلق باليد ، فإنه ليس بمسلم .

هكذا أخبر النبي - عليه الصلاة والسلام - وليس إخبار النبي ﷺ لمجرد أن نعلم به فقط ، بل لنعلم به ونعمل به ، وإلا فما الفائدة من كلام لا يعمل به ، إذن فاحرص إن كنت تريد الإسلام حقًّا على أن يسلم الناس من لسانك ويدك ، حتى تكون مسلمًا حقًّا ، أسأل الله أن يكفينا ويكف عنا ، ويعافنا ويعفو عنا ، إنه جواد كريم .

* * *

٢١٢ - وعنه رضي الله عنه قال : كَانَ عَلَى ثَقَل النَّبيِّ ﷺ رَجُلٌ يُقَالُ لَهُ كِرْكِرَةُ ، فَمَاتَ ، فَقال رسول الله ﷺ : « هُوَ في النَّارِ » فَذَهَبُوا يَنْظُرُونَ إلَيهِ فَوَجَدُوا عَبَاءَةً قَدْ غَلَّهَا [٢] . رواه البخاري .

---

(١) أخرجه الترمذي في سننه (٢٦١٦) وابن ماجه (٣٩٧٣) .

(٢) رواه البخاري في الجهاد (٣٠٧٤) ، والإمام أحمد في مسنده (٢/١٦٠) ، وابن ماجه في الجهاد (٢٨٤٩) ، قوله « قد غلَّها » الغلول هنا الخيانة في المغنم .

٢١٣ - وعن أبي بَكْرَةَ نُفَيعِ بنِ الحارثِ ﷺ عنِ النبي ﷺ قال: « إنَّ الزَّمَانَ قَدِ اسْتَدارَ كَهَيئَتِهِ يَومَ خَلَقَ اللَّهُ السَّمواتِ وَالأرضَ: السَّنَةُ اثْنَا عَشَرَ شَهرًا، مِنهَا أربَعَةٌ حُرُم: ثَلاثٌ مُتَوالِيَاتٌ: ذُو القَعْدة، وَذُو الحِجَّةِ، وَالمحَرَّم، وَرَجَبُ مُضَرَ الَّذي بَينَ جُمَادَى وَشَعْبَانَ، أيُّ شَهْرٍ هذا؟» قُلْنَا: اللَّهُ وَرَسُولُهُ أَعْلَمُ، فَسَكَتَ حَتَّى ظَنَنَّا أَنَّهُ سَيُسَمِّيه بغَيرِ اسْمِهِ، قال: « أَلَيسَ ذَا الحجَّةِ؟» قُلْنَا: بَلَى. قال: « فَأَيُّ بَلَدٍ هذا؟» قُلْنَا: اللَّهُ وَرَسُولُهُ أعْلَمُ، فَسَكَتَ حَتَّى ظَنَنَّا أَنَّهُ سَيُسَمِّيه بغَيرِ اسْمِهِ. قال: «أَلَيسَ البَلْدَةَ؟» قُلْنَا: بَلَى. قال: « فَأيّ يوم هذا؟» قُلْنَا: اللَّهُ وَرَسُولُهُ أَعْلَم، فَسَكَتَ حَتَّى ظَنَنَّا أَنَّه سَيُسَمِّيهِ بغَيرِ اسمِهِ. قال: «أَلَيسَ يَومَ النَّحْر؟» قُلْنَا: بَلَى. قال: « فَإِنَّ دِمَاءَكُم وَأَمْوَالَكُمْ وَأَعْرَاضَكُمْ عَلَيكُمْ حَرَامٌ، كَحُرْمَةِ يَومِكُمْ هذَا، في بَلَدِكُمْ هذَا، في شَهرِكم هذَا، وَسَتَلْقَونَ رَبَّكُمْ فَيَسْأَلُكُمْ عَنْ أَعْمَالِكُمْ، ألا فَلا تَرْجعُوا بَعْدِي كُفَّارًا يَضْرِبُ بَعْضكُمْ رِقَابَ بِعْضٍ، أَلا لِيُبَلِّغِ الشَّاهِدُ الغائِبَ، فَلَعَلَّ بعضَ مَنْ يَبْلُغُه أَنْ يَكُونَ أَوعى لَهُ مِنْ بَعْضِ مَنْ سَمِعَه» ثُمَّ قال: «أَلا هَلْ بَلَّغْت، ألا هَلْ بلَّغْتُ؟» قُلْنَا: نَعَمْ. قال: « اللَّهُمَّ اشْهَدْ »[1] متفقٌ عليه.

الشرح

قال المؤلف - رحمه اللَّه تعالى - فيما نقله عن أبي بكرة نفيل بن الحارث ﷺ، أن النبي ﷺ خطبهم يوم النحر، وذلك في حجة الوداع، فأخبرهم - عليه الصلاة والسلام - أن الزمان قد استدار كهيئته يوم خلق اللَّه السموات والأرض، يعني أن الزمان وإن كان قد غير وبدل فيه لما كانوا يفعلون في الجاهلية، حيث كانوا يفعلون النسيء فيحلون الحرام ويحرمون الحلال، يعني يجعلون الأشهر الحرم في أشهر أخرى، فيحلون الشهر الحرام، ويحرمون الشهر الحلال، ولكن صادف في تلك السنة أن النسيء صار موافقًا لما شرعه اللَّه ﷻ في الأشهر الحرم.

ثم بين - عليه الصلاة والسلام - أن عدة الشهور اثنا عشر شهرًا، وهي: المحرم، وصفر، وربيع الأول، وربيع الثاني، وجمادى الأولى، وجمادى الثانية، ورجب، وشعبان، ورمضان، وشوال، وذو القعدة، وذو الحجة. هذه هي الأشهر الاثنا عشر شهرًا، التي جعلها اللَّه أشهرًا لعباده منذ خلق السموات والأرض، كانوا في الجاهلية يحلون المحرم، ويحرمون صفر.

وبين - عليه الصلاة والسلام - أن هذه الاثنا عشر شهرًا منها أربعة حرم، ثلاثة متوالية وواحد منفرد و الثلاثة المتوالية هي: ذو القعدة، وذو الحجة، والمحرم، جعلها اللَّه تعالى أشهرًا محرمة، يحرم

---

(١) أخرجه البخاري في المغازي (٤٤٠٦) ومسلم في القسامة (٢٩) باختلاف يسير، والإمام أحمد بنحوه في مسنده (٥/٣٧)، قوله « إن الزمان قد استدار كهيئته » قال العلماء: معناه أنهم كانوا في الجاهلية يتمسكون بملة إبراهيم في تحريم الأشهر الحرم، وكان يشق عليهم تأخير القتال ثلاثة أشهر متواليات. فكانوا إذا احتاجوا إلى القتال أخروا تحريم المحرم إلى الشهر الذي بعده - وهو صفر - ثم يؤخرونه في السنة الأخرى إلى شهر آخر وهكذا حتى اختلط عليهم الأمر. وصادفت حجة الوداع تحريمهم لشهر المحرم حيث عاد إلى موضعه مطابقًا للشرع.

فيها القتال ، ولا يعتدي فيها أحد على أحد ، لأن هذه الأشهر هي أشهر سير الناس إلى حج بيت الله ، فجعلها الله ﷻ محرمة لئلا يقع القتال في هذه الأشهر والناس سائرون إلى بيت الله الحرام ، وهذه من حكمة الله ﷻ .

والصحيح أن القتال ما زال محرمًا ، وأنه لم ينسخ إلى الآن ، وأنه يحرم ابتداء القتال فيها ، يقول النبي - عليه الصلاة والسلام - : « ورجب مضر الذي بين جمادى وشعبان » وهو الشهر الرابع ، وكانوا في الجاهلية يؤدون العمرة فيه فيجعلون شهر رجب للعمرة والأشهر الثلاثة للحج ، فصار هذا الشهر محرمًا يحرم فيه القتال ، كما يحرم في ذي القعدة ، وذي الحجة والمحرم .

إذن الأشهر السنوية - التي جعلها الله لعباده - اثنا عشر شهرًا منها أربعة حرم ، كما في القرآن الكريم ذي القعدة وذي الحجة ، والمحرم ورجب .

ثم سألهم النبي - عليه الصلاة والسلام - : «أي شهر هذا ؟ وأي بلد هذا ؟ » وأي يوم هذا ؟ سألهم عن ذلك من أجل استحضار هممهم ، وانتباههم لأن الأمر أمر عظيم ، فسألهم : «أي شهر هذا ؟ » قالوا الله ورسوله أعلم ، لأنهم استبعدوا أن يسأل النبي ﷺ عن الشهر وهو معروف أنه ذو الحجة ، ولكن من أدبهم ﷺ أنهم لم يقولوا هذا شهر ذي الحجة ، لأن الأمر معلوم ، بل من أدبهم أنهم قالوا : الله ورسوله أعلم .

ثم سكت لأجل أن الإنسان إذا تكلم ثم سكت انتبه الناس : ما الذي أسكته ؟ وهذه طريقة متبعة في الإلقاء ، أن الإنسان إذا رأى من الناس الذين حوله عدم إنصات يسكت حتى ينتبهوا ، لأن الكلام إذاكان مسترسلًا فقد يحصل للسامع غفلة ، لكن إذا توقف فإنهم سينتبهون لماذا وقف ؟!

وسكت النبي - عليه الصلاة والسلام - يقول أبو بكر حتى ظننا أنه سيسميه بغير اسمه ، ثم قال : « أليس ذا الحجة ؟ » قالوا : بلى ، ثم قال - عليه الصلاة والسلام - : « أي بلد هذا ؟ » قالوا الله ورسوله أعلم ، هم يعلمون أنه مكة لكن لأدبهم واحترامهم لرسول الله ﷺ ، لم يقولوا هذا شيء معلوم يا رسول الله . كيف تسأل عنه ؟ بل قالوا الله ورسوله أعلم . ثم سكت حتى ظننوا أنه سيسميه بغير اسمه ، فقال : « أليس البلدة ؟ » والبلدة اسم من أسماء مكة . ثم قال : « أي يوم هذا ؟ » قالوا : الله ورسوله أعلم ، مثل ما قالوا في الأول ، قال : « أليس يوم النحر ؟ » قالوا : بلى يا رسول الله ، وهم يعلمون أن مكة حرام ، وأن شهر ذي الحجة حرام ، وأن يوم النحر حرام يعني كلها حرم محترمة .

فقال - عليه الصلاة والسلام - : « إن دماءكم وأموالكم وأعراضكم عليكم حرام كحرمة يومكم هذا في بلدكم هذا في شهركم هذا » فأكد - عليه الصلاة والسلام - تحريم هذه الثلاثة : الدماء والأموال والأعراض ، فكلها محرمة . والدماء تشمل النفوس وما دونها ، والأموال تشمل القليل والكثير ، والأعراض تشمل الزنا واللواط والقذف ، وربما تشمل الغيبة والسب والشتم . فهذه الأشياء الثلاثة حرام على المسلم أن ينتهكها من أخيه المسلم .

« فلا يحل دم امرئ مسلم إلا بإحدى ثلاثة » : الثيب الزاني ، والنفس بالنفس ، والتارك لدينه

المفارق للجماعة [١] .

الأموال أيضًا حرام ، فلا يحل مال امرئ مسلم إلا بطيب نفسه منه ، وقال تعالى : ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَأْكُلُوا أَمْوَالَكُمْ بَيْنَكُمْ بِالْبَاطِلِ إِلَّا أَنْ تَكُونَ تِجَارَةً عَنْ تَرَاضٍ مِنْكُمْ ﴾ [النساء: ٢٩] .

والأعراض أيضًا محترمة ، لا يحل للمسلم أن يغتاب أخاه ، أو أن يقذفه ، بل إن القاذف إذا قذف شخصًا عفيفًا بعيدًا عن التهمة ، وقال : يا زاني ، أو أنت زاني ، أو أنت لوطي ، أو ما أشبه ذلك ، فإما أن يأتي بأربعة شهداء يشهدون على الزنا صريحًا ، وإلا فإن هذا القاذف يعاقب بثلاث عقوبات .

العقوبة الأولى : أن يجلد ثمانين جلدة ، والعقوبة الثانية : ألا تقبل له شهادة أبدًا كلما شهد عن القاضي ترد شهادته ، سواء شهد بالأموال ، أو شهد بالدماء ، أو شهد برؤية الهلال ، أو شهد بأي شيء آخر يرفض القاضي شهادته ويردها [٢] ، والعقوبة الثالثة : الفسق أن يكون فاسقًا بعد أن كان عدلًا ، فلا يزوج ابنته ولا أخته ولا يتقدم إمامًا في المسلمين عند كثير من العلماء ، ولا يولي أي ولاية لأنه صار فاسقًا ، هذه عقوبة من يرمي شخصًا بالزنا أو باللواط .

إلا أن يأتي بأربعة شهداء ، قال اللّه تعالى : ﴿ لَوْلَا جَاءُوا عَلَيْهِ بِأَرْبَعَةِ شُهَدَاءَ فَإِذْ لَمْ يَأْتُوا بِالشُّهَدَاءِ فَأُولَئِكَ عِنْدَ اللَّهِ هُمُ الْكَاذِبُونَ ﴾ [النور: ١٣] حتى لو فرض أن هذا الرجل من أصدق الناس ولم يأتِ بالأربعة شهداء ، فإنه يجلد ثمانين جلدة .

ولهذا شهد أربعة من الرجال ، على رجل بأنه زنى عند عمر بن الخطاب ، فجاء بهم عمر فسألهم ، قال للأول تشهد أنه زنى ؟ قال : نعم ، قال تشهد أنك رأيت ذكره في فرجها غائبًا كما يغيب المرود في المكحلة ؟ قال : نعم ، فجاء بالثاني ، قال نعم ، فجاء بالثالث : قال نعم ، فجاء بالرابع فتوقف ، قال أنا لا أشهد بالزنا ، لكني رأيت أمرًا منكرًا ، قال رأيت رجلًا على امرأة يتحرك كتحرك المجامع لكن لا أشهد ، فجلد الثلاثة الأولين على ثمانين جلدة ، لأنه تبين أنهم كذبة وأطلق الرابع .

فالأعراض من أشد الأشياء حرمة ، ولهذا كما سمعتم قال اللّه تعالى : ﴿ وَالَّذِينَ يَرْمُونَ الْمُحْصَنَاتِ ثُمَّ لَمْ يَأْتُوا بِأَرْبَعَةِ شُهَدَاءَ فَاجْلِدُوهُمْ ثَمَانِينَ جَلْدَةً ﴾ [النور: ٤] هذه هي العقوبة الأولى ﴿ وَلَا تَقْبَلُوا لَهُمْ شَهَادَةً أَبَدًا ﴾ وهذه هي الثانية ﴿ وَأُولَئِكَ هُمُ الْفَاسِقُونَ ﴾ [النور: ٤] وهذه هي الثالثة ﴿ إِلَّا الَّذِينَ تَابُوا مِنْ بَعْدِ ذَلِكَ وَأَصْلَحُوا فَإِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ ﴾ [النور: ٥] يعني لا يكونون فساقًا ، لكن بشرط التوبة والإصلاح ، ما يكفي أن يقول أنا تائب حتى ننظر هل الرجل أصلح أم لم يصلح ؟

إذن جدير بمن كانت هذه حاله أن يؤكده النبي ﷺ في هذه الخطبة العظيمة ، في مشهد الصحابة ، في يوم النحر في منى ، يقول - عليه الصلاة والسلام - : « إن دماءكم وأموالكم

---

(١) انظر الأحاديث الدالة على ذلك من صحيح البخاري في الديات (٦٨٧٨) ، ومسلم في القسامة (٢٥) والترمذي في سننه (١٤٠٢) .

(٢) جاء ذلك في سورة النور آية (٤) .

وأعراضكم عليكم حرام كحرمة يومكم هذا في بلدكم هذا في شهركم هذا » .

ثم قال : « ألا لا ترجعوا بعدي كفارًا يضرب بعضكم رقاب بعض » لأن المسلمين لو صاروا يضرب بعضهم رقاب بعض صاروا كفارًا ، لأنه لا يستحل دم المسلم إلا الكافر ، فالمسلم لا يمكن أن يشهر السلاح على أخيه ، لكن لا أحد يشهر السلاح على المسلم إلا الكافر ، ولهذا وصف النبي - عليه الصلاة والسلام - المسلمين إذا اقتتلوا بأنهم كفار فقال : « ألا فلا ترجعوا بعدي كفارًا ، يضرب بعضكم رقاب بعض » .

وهذه المسألة بحسب النصوص فيها تفصيل ؛ إن قاتل المسلم مستحلا لقتله بغير إذن شرعي فهو كافر كفرًا مخرجًا عن الملة ، وإن قاتله بتأويل ، أو لقصد رئاسة ، أو لقصد سلطان فهذا لا يكفر كفر ردة ، ولكنه كفر دون كفر ، ودليل ذلك قوله تعالى : ﴿ وَإِن طَآئِفَتَانِ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ٱقْتَتَلُوا۟ فَأَصْلِحُوا۟ بَيْنَهُمَا ۖ فَإِنۢ بَغَتْ إِحْدَىٰهُمَا عَلَى ٱلْأُخْرَىٰ فَقَـٰتِلُوا۟ ٱلَّتِى تَبْغِى حَتَّىٰ تَفِىٓءَ إِلَىٰٓ أَمْرِ ٱللَّهِ ۚ فَإِن فَآءَتْ فَأَصْلِحُوا۟ بَيْنَهُمَا بِٱلْعَدْلِ وَأَقْسِطُوٓا۟ ۖ إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلْمُقْسِطِينَ ۝ إِنَّمَا ٱلْمُؤْمِنُونَ إِخْوَةٌ فَأَصْلِحُوا۟ بَيْنَ أَخَوَيْكُمْ ﴾ [الحجرات : ٩، ١٠] وهذا هو الجمع بين هذه الآية وبين الحديث ، فيقال : إن تقاتل المسلمون مستحلًّا كل واحد دم أخيه فهو كافر كفرًا مخرجًا عن الملة ، وإن كان لرئاسة أو عصبية أو حمية أو ما أشبه ذلك ، فإنه لا يكفر كفر رِدة ، بل يكون كفره كفرًا دون كفر ، وعليه أن يتوب ويستغفر .

ثم قال - عليه الصلاة والسلام - : « ألا هل بلغت ؟ ألا هل بلغت ؟ » يسأل الصحابة ﷺ . قالوا : نعم ، أي : بلغت ، فتأمل كيف يقرر النبي - عليه الصلاة والسلام - أنه بلغ في المواطن العظيمة الكثيرة الجمع ، في عرفة خطبهم - عليه الصلاة والسلام - قال : « ألا هل بلغت ؟ » قالوا نعم ، فجعل يرفع أصبعه إلى السماء وينكتها إلى الناس ، يقول : اللهم اشهد عليهم أنني بلغتهم ، وكذلك أشهد ربه على أنه بلغ أمته وأقروا بذلك في يوم النحر .

ونحن نَشْهَد ونُشْهِد الله وملائكته ومن سمعنا من خلقه أن النبي ﷺ بلغ البلاغ المبين ، وأنه بلغ الأمانة وأدى الرسالة ونصح الأمة ، فما ترك خيرًا إلا ودل أمته عليه ، ولا شرًّا إلا وحذرهم منه ، وأنه ترك أمته على المحجة البيضاء ، وأنه ما بقي شيء من أمور الدين أو الدنيا تحتاجه الأمة إلا بينه - عليه الصلاة والسلام - ولكن الخطأ ممن يبلغه الخبر ، فهو الذي قد يكون قاصرًا في فهمه ، وقد يكون له نية سيئة فيحرم الصواب ، وقد يكون هناك أسباب أخرى ، وإلا فالرسول - عليه الصلاة والسلام - بلغ بلاغًا تامًّا كاملًا .

والصحابة ﷺ بلغوا جميع ما سمعوه منه - عليه الصلاة والسلام - ما كتموا من سنته شيئًا ، وبلغوا ما جاء به من الوحي ، ولم يكتموا منه شيئًا ، فجاءت الشريعة ولله الحمد كاملة من كل وجه ، بلغها النبي ﷺ عن ربه ثم بلغها الصحابة ﷺ ، ثم التابعون عمن قبلهم وهكذا إلى يومنا هذا ولله الحمد .

ثم أمر - عليه الصلاة والسلام - أن يبلغ الشاهد الغائب ، يعني يبلغ من شهده وسمع خطبته أن يبلغ باقي الأمة ، وأخبر - عليه الصلاة والسلام - أنه ربما يكون مبلغ أوعى للحديث من سامع ، وهذه الوصية من الرسول - عليه الصلاة والسلام - وصية لمن حضر في ذلك اليوم ، ووصية لمن سمع حديثه

إلى يوم القيامة ، فعلينا إذا سمعنا حديثًا عن الرسول - عليه الصلاة والسلام - أن نبلغه إلى الأمة .

ونحن محملون بأن نبلغ ، ومنهيون بأن نكون كاليهود ؛ الذين حملوا التوراة ثم لم يحملوها ، وقد وصفهم الله بأبشع وصف ، فقال : ﴿ مَثَلُ ٱلَّذِينَ حُمِّلُوا۟ ٱلتَّوْرَىٰةَ ثُمَّ لَمْ يَحْمِلُوهَا كَمَثَلِ ٱلْحِمَارِ يَحْمِلُ أَسْفَارًۢا ﴾ [الجمعة : ٥] فالحمار إذا حمل أسفارًا - يعني كتبًا - فإنه لا ينتفع منها ، إذا كان الحمار يحمل أسفارًا لا ينتفع منها ، فالذي يحمل القرآن أو السنة ولا ينتفع منها كمثل الحمار يحمل أسفارًا . نسأل الله أن يرزقني وإياكم العلم النافع والعمل الصالح .

ويستفاد من هذا الحديث : تحذير النبي - عليه الصلاة والسلام - أمته من قتال بعضهم بعضًا ، ولكن مع الأسف أنه وقع بينهم السيف ، وصارت الفتن منذ عهد عثمان بن عفان ﷺ إلى يومنا هذا ، وما زالت الفتن قائمة بين الناس ، لكن أحيانًا تشتعل اشتعالًا واسعًا ، وأحيانًا تكون في مناطق معينة .

ولكن الواجب على المسلم أن يتقي دم أخيه ما استطاع ، نعم إذا بلي الإنسان بنفسه وصيل [١] عليه يريد الصائل نفسه أو ماله أو حرمته ، فله أن يدافع عن نفسه ، ولكن بالأسهل فالأسهل ، فإن لم يندفع الصائل إلا بالقتل قتله ، فإن قتله فالصائل في النار ، وإن قُتل الدافع فهو شهيد ، كما جاء ذلك عن النبي ﷺ [٢] .

وفي هذا الحديث تحذير من أعراض المسلمين ، وأنه لا يجوز للمسلم أن ينتهك عرض أخيه ، لا صادقًا ولا كاذبًا ، لأنه إن كان صادقًا فقد اغتابه وإن كان كاذبًا فقد بهته ، وأنت إذا رأيت من أخيك شيئًا تنتقده فيه في عباداته أو في أخلاقه أو في معاملاته ، فعليك بنصيحته ، فهذه من واجبه عليك ، وتنصحه فيما بينك وبينه مشافهة أو مكاتبة ، وبهذا تبرئ ذمتك .

لكن هنا شيء لابد منه ؛ وهو أنك إذا أردت أن تناصحه بالمكاتبة فلابد أن تذكر اسمك ، ولا تخاف ولا تكن جبانًا ، اذكر وقل من فلان إلى أخيه فلان ابن فلان ... السلام عليكم ورحمة الله وبركاته وبعد ... فأنا أنتقد عليك كذا وكذا وكذا ، من أجل أنه إذا عرف اسمك دعاك أو أتى إليك وناقشك في الأمر .

أما أن تكون جبانًا ، ترمي من وراء جدار ، فهذا لا يليق بالمسلم ، وليس هذا بنصح ، لأنك ستبقى حاملًا عليه في قلبك فيما تراه أنه أخطأ فيه ، وهو سيبقى ويستمر على ما هو فيه ، لأن الذي كتب له بالنصيحة ليس أمامه حتى يشرح له وجهة نظره ، ويستفسر منه عن وجهة نظره هو الآخر ، فيبقى الشر على ما هو عليه ، والخطأ على ما هو عليه .

لكن إذا كتب اسمه كان مشكورًا على هذا ، وكان بإمكان المكتوب إليه المنصوح أن يخاطبه ، وأن يبين له ما عنده ، حتى يقتنع أحد الرجلين بما عند الآخر .

---

(١) صال عليه صولًا وصولانًا : سطا عليه ليقهره المعجم الوسيط (٢/٥٤٩) .

(٢) سبق تخريجه .

٢١٤ - وعن أبي أُمَامَةَ إيَاسِ بنِ ثَعْلَبَةَ الحَارِثِيِّ ﷺ أَن رسول اللّٰه ﷺ قال: «مَن اقْتَطَعَ حَقَّ امْرِئٍ مُسْلِمٍ بِيَمِينِهِ فَقَدْ أَوجَبَ اللّٰهُ لَهُ النَّارَ، وَحَرَّمَ عَلَيهِ الجَنَّةَ» فقال رَجُلٌ: وَإِنْ كَانَ شَيئًا يَسِيرًا يا رسولَ اللّٰهِ؟ فقال: «وَإِنْ قَضِيبًا مِنْ أَرَاكٍ»[١] رواه مسلم.

٢١٥ - وعن عَدِي بن عُمَيرَةَ ﷺ قال: سَمِعْت رسول اللّٰه ﷺ يَقُول: «مَنِ اسْتَعْمَلْنَاهُ مِنْكُمْ عَلَى عَمَلٍ، فَكَتَمَنَا مِخْيَطًا فَمَا فَوقَهُ، كَانَ غُلُولا يَأْتِي بِهِ يَومَ القِيَامَةِ» فَقَامَ إِلَيهِ رَجُلٌ أَسْوَدُ مِنَ الأَنْصَارِ، كَأَنِّي أَنظُرُ إِلَيهِ، فقال: يا رسول اللّٰهِ اقْبَلْ عَنِّي عَمَلَك، قال: «وَمَا لَكَ؟» قال: سمِعْتُكَ تقولُ كَذَا وَكَذَا، قال: «وَأَنَا أَقُولُهُ الآنَ: مَنِ اسْتَعْمَلْنَاهُ عَلَى عَمَلٍ فَلْيَجِئْ بقَلِيلِه وَكَثِيرِهِ، فَمَا أُوتِيَ مِنْهُ أَخَذَ، وَمَا نُهِيَ عَنْهُ انْتَهَى»[٢] رواه مسلم.

٢١٦ - وعن عمر بن الخطاب ﷺ قال: لَمَّا كَانَ يَومُ خَيبَرَ أَقْبَل نَفَرٌ مِنْ أَصْحَابِ النَّبيِّ ﷺ فَقَالُوا: فُلانٌ شَهِيدٌ، وفُلانٌ شَهِيدٌ، حَتَّى مَرُّوا عَلَى رَجُلٍ فقالوا: فُلانٌ شَهِيدٌ. فقال النبيُّ ﷺ: «كَلَّا إِنِّي رَأَيتُهُ في النَّارِ في بُرْدَةٍ غَلَّهَا - أَو عَبَاءَةٍ -»[٣] رواه مسلم.

٢١٧ - وعن أبي قَتَادَةَ الحارث بن رِبْعِيٍّ ﷺ عن رسول اللّٰه ﷺ أَنَّهُ قَامَ فِيهِمْ، فَذَكَرَ لَهُمْ أَنَّ الجِهَادَ في سَبيلِ اللّٰه، وَالإيمَانَ باللّٰهِ أَفْضَلُ الأَعْمَال، فَقَامَ رَجُلٌ فقال: يا رسول اللّٰه أَرَأَيتَ إِنْ قُتِلْتُ في سَبيلِ اللّٰه، تُكَفَّرُ عَنِّي خَطَايَاي؟ فَقَالَ لَهُ رسول اللّٰه ﷺ: «نَعَمْ إِنْ قُتِلْتَ في سَبيلِ اللّٰه وَأَنْتَ صَابِرٌ مُحْتَسِبٌ، مُقْبِلٌ غَيرُ مُدْبرٍ» ثُمَّ قال رسول اللّٰه ﷺ: «كَيفَ قُلْتَ؟» قال: أَرَأَيتَ إِنْ قُتِلْتُ في سَبيلِ اللّٰه، أَتُكَفَّرُ عَنِّي خَطَايَايَ؟ فقال رسول اللّٰه ﷺ: «نَعَمْ وَأَنْت صَابِرٌ مُحْتَسِبٌ، مُقْبِلٌ غَيرُ مُدْبِرٍ، إلا الدَّينَ فَإِنَّ جِبْرِيلَ قال لي ذلِكَ»[٤] رواه مسلم..

الشرح

قال المؤلف رَحِمَهُ اللّٰهُ في بيان فضيلة الجهاد في سبيل اللّٰه والشهادة، فالجهاد في سبيل اللّٰه ذروة سنام الإسلام، كما أخبر بذلك النبي ﷺ، والشهادة في سبيل اللّٰه تكفر كل شيء إلا الدين، وكذلك إذا غل الإنسان شيئًا مما غنمه فإنه لا يقال له شهيد.

والبردة نوع من الثياب، والعباءة معروفة، غلّها: يعني كتمها، غنمها من أموال الكفار وقت

---

(١) أخرجه مسلم في الإيمان (١٨٢)، والنسائي في سننه (٢٤٦/٨)، قوله «من أراك» الأراك: شجر معروف يستاك بأعواده.

(٢) أخرجه مسلم في الإمارة (٣٠)، والإمام أحمد في مسنده (١٩٢/٤)، والبيهقي في سننه (١٥٨/٤)، قوله «مخيطًا» المخيط الإبرة، قوله «غلولًا» الغلول: الخيانة في المغنم وغيره والحديث لم يتناوله الشارح - رحمه اللّٰه تعالى - بشرح.

(٣) أخرجه مسلم في الإيمان (١٨٢). محتسب: أي مخلصٌ عملَكَ لوجه اللّٰه تعالى راجيًا ثوابه ورضاه وعطاءه.

(٤) أخرجه مسلم في الإمارة (١١٧)، والترمذي في سننه (١٧١٢).

القتال ، فكتمها يريد أن يختص بها لنفسه فعذُب بها في نار جهنم ، وانتفت عنه هذه الصفة العظيمة وهي الشهادة ، لأن النبي ﷺ قال : « كلا » يعني ليس بشهيد لأنه غلَّ هذا الشيء البسيط ، فأحبط جهاده وصار في النار ، قال الله تعالى : ﴿ وَمَا كَانَ لِنَبِيٍّ أَن يَغُلَّ وَمَن يَغْلُلْ يَأْتِ بِمَا غَلَّ يَوْمَ الْقِيَامَةِ ﴾ [آل عمران : ١٦١] ففي هذا دليل على أنه لا ينبغي لنا أن نحكم على شخص بأنه شهيد ، وإن قتل في معركة بين المسلمين والكفار ، لا نقول فلان شهيد لاحتمال أن يكون غل شيئًا من الغنائم أو الفيء ولو غل قرشًا واحدًا ، ولو مسمارًا زال عنه اسم الشهادة ، وكذلك لاحتمال أن تكون نيته غير صواب ، بأن ينوي بذلك الحمية أو أن يُرى مكانه .

ولهذا سئل النبي – عليه الصلاة والسلام – عن الرجل يقاتل شجاعة ، ويقاتل حمية ، ويقاتل ليرى مكانه . أي ذلك في سبيل الله ؟ قال « من قاتل لتكون كلمة الله هي العليا فهو في سبيل الله »(١) ، والنية أمر باطني في القلب لا يعلمه إلا الله .

ولهذا قال النبي – عليه الصلاة والسلام – : « ما من مكلوم يكلم في سبيل الله » ، أي ما من مجروح يجرح في سبيل الله ، « والله أعلم بمن يكلم في سبيله » ، قد نظن أنه يقاتل في سبيل الله ونحن لا نعلم ، والله أعلم بمن يكلم في سبيله ، « إلا جاء يوم القيامة وجرحه يثعب(٢) دمًا اللون لون الدم والريح ريح المسك »(٣) .

ولهذا ترجم البخاري رحمه الله في صحيحه قال : باب لا يقال فلان شهيد ، يعني لا تعين وتقول فلان شهيد إلا إذا عينه الرسول – عليه الصلاة والسلام – أو ذكر عند الرسول ﷺ وأقره ، فحينئذ يحكم بشهادته بعينه ، وإلا فلا تشهد لشخص بعينه .

ونحن الآن في عصرنا هذا أصبح لقب الشهادة سهلًا ويسيرًا ، كل يعطى هذا الوسام ، حتى لو قتل ونحن نعلم أنه قتل حمية وعصبية ونعلم عن حاله بأنه ليس بذاك الرجل المؤمن ، ومع ذلك يقولون : فلان شهيد ، استشهد فلان .

وقد نهى عمر رضي الله عنه أنه يقال : فلان شهيد ، قال إنكم تقولون : فلان شهيد ، فلان قتل في سبيل الله ، ولعله يكون كذا وكذا ، يعني : غل ، ولكن قولوا : من قتل في سبيل الله أو مات فهو شهيد . عمم ، أما قول فلان شهيد ، وإن كان في المعركة يتشحط بدمه ، فلا تقل شهيدًا ، علمه عند الله ، قد يكون في قلبه شيء لا نعلمه . ثم نحن شهدنا أو لم نشهد إن كان شهيدًا عند الله فهو شهيد ، وإن لم نقل إنه شهيد ، وإن لم يكن شهيد عند الله فليس بشهيد وإن قلنا إنه شهيد ، إذن نقول : نرجو أن يكون فلان شهيدًا ، أو نقول عمومًا : من قتل في سبيل الله فهو شهيد وما أشبه ذلك .

أما الحديث الثاني ففيه : دليل على أن الشهادة إذا قاتل الإنسان في سبيل الله صابرًا محتسبًا مقبلًا

---

(١) أخرجه البخاري في الجهاد (٢٨١٠) ومسلم في الإمارة (١٤٩ ، ١٥٠ ، ١٥١) ، والترمذي في سننه (١٦٤٦) .

(٢) قوله يثعب : انثعب الماء والدم ونحوهما أي انفجر . انظر المعجم الوسيط (١/١٠٠) .

(٣) أخرجه مسلم في الإمارة (١٠٥) .

غير مدبر ، فإن ذلك يكفر عنه خطيئاته وسيئاته إلا الدين ، إذا كان عليه دين فإنه لا يسقط بالشهادة ، لأنه حق آدمي ، وحق الآدمي لابد من وفائه .

وفي هذا : دليل على عظم الدَّين ، وأنه لا ينبغي للإنسان أن يتساهل به ، ومع الأسف أننا في عصرنا الآن يتساهل الكثير منا في الدين ، فتجد البعض يشتري الشيء وهو ليس في حاجة إليه ، بل هو من الأمور الكمالية ، يشتريه في ذمته بالتقسيط أو ما أشبه ذلك ، ولا يهمه هذا الأمر .

وقد تجد إنسانًا فقيرًا يشتري سيارة بثمانين ألفًا أو يزيد ، وهو يمكنه أن يشتري سيارة بعشرين ألفًا ، كل هذا من قلة الفقه في الدين ، وضعف اليقين ، احرص على ألا تأخذ شيئًا بالتقسيط وإن دعتك الضرورة إلى ذلك ، فاقتصر على أقل ما يمكن لك الاقتصار عليه بعيدًا عن الدين . نسأل الله أن يحمينا وإياكم مما يغضبه ، وأن يقضي عنا وعنكم دينه ودين عباده .

* * *

٢١٨ - وعن أبي هريرة ﷺ أن رسول الله ﷺ قال : « أَتَدْرُونَ مَا الـمُفْلِسُ ؟ » قَالُوا : الـمُفْلِسُ فِينَا مَنْ لا دِرْهَمَ لَهُ وَلا مَتَاعَ ، فقال : إنَّ الـمُفْلِسَ مِنْ أُمَّتِي مَنْ يَأْتِي يَومَ القِيَامَةِ بِصَلاةٍ وَصِيَامٍ وَزَكَاةٍ ، وَيَأْتِي قَدْ شَتَمَ هذَا ، وَقَذَفَ هذَا ، وَأَكَلَ مَالَ هذَا ، وَسَفَكَ دَمَ هذَا ، وَضَرَبَ هذَا ، فَيُعْطَى هذَا مِنْ حَسَنَاتِهِ ، وَهذَا مِنْ حَسَنَاتِهِ ، فَإنْ فَنِيَتْ حَسَنَاتُهُ قَبْلَ أَنْ يَقْضِيَ مَا عَلَيهِ ، أُخِذَ مِنْ خَطَايَاهُمْ فَطُرِحَتْ عَلَيهِ ، ثُمَّ طُرِحَ في النَّارِ »[1] رواه مسلم .

الشرح

قال المؤلف رحمه الله فيما نقله عن أبي هريرة ﷺ أن النبي ﷺ قال : « أتدرون ما المفلس ؟ » الاستفهام هنا للاستعلام الذي يراد به الإخبار ، لأن المستفهم تارة يستفهم عن جهل ولا يدري فيسأل غيره ، وتارة يستفهم لتنبيه المخاطب لما يلقى إليه ، أو لتقرير الحكم ، فمثال الثاني قول النبي ﷺ وقد سئل عن بيع الرطب بالتمر : أينقص إذا جف ؟ يعني الرطب ، قالوا : نعم ، فنهى عن ذلك[2] .

أما في هذا الحديث فسيخبر الصحابة عن أمر لا يعلمونه ، أو لا يعلمون مراد النبي ﷺ به ، قال : «أتدرون من المفلس ؟ » قالوا يا رسول الله ، المفلس فينا من لا درهم عنده ولا متاع ، يعني ليس عنده نقود ولا عنده متاع ، أي : أعيان من المال ، أي أن المفلس يعني الفقير ، وهذا هو المعروف من المفلس بين الناس ، فإذا قالوا من المفلس ؟ يعني الذي ليس عنده فلوس ، ولا عنده متاع ، بل هو فقير .

فقال النبي ﷺ : «المفلس من يأتي يوم القيامة بصلاة وصيام وزكاة » ، وفي رواية «من يأتي بحسنات مثل الجبال » ، أي : يأتي بحسنات عظيمة ، فهو عنده ثروة من الحسنات لكنه يأتي وقد

---

(١) أخرجه مسلم في البر والصلة(٥٩) ، والترمذي في صفة القيامة(٢٤١٨) ، قوله «متاعُ » ما ينتفع به من عروض الدنيا قليلها وكثيرها ، قوله «سفك » أي : أهرق .

(٢) أخرجه أبو داود في سننه(٣٣٥٩) والترمذي في سننه(١٢٢٥) .

شتم هذا ، وضرب هذا ، وأخذ مال هذا ، وسفك دم هذا ، أي اعتدى على الناس بأنواع الاعتداء ، والناس يريدون أخذ حقهم ، ما لا يأخذونه في الدنيا يأخذونه في الآخرة ، فيقتص لهم منه ؛ فيأخذ هذا من حسناته ، وهذا من حسناته ، وهذا من حسناته بالعدل والقصاص بالحق ، فإن فنيت حسناته أخذ من سيئاتهم فطرحت عليه ثم طرح في النار ، والعياذ بالله .

تنقضي حسناته ، ثواب الصلاة ينتهي ، وثواب الزكاة ينتهي ، وثواب الصيام ينتهي ، كل ما عنده من حسنات ينتهي ، فيؤخذ من سيئاتهم ويطرح عليه ، ثم يطرح في النار والعياذ بالله .

وصدق النبي ﷺ فإن هذا هو المفلس حقًا ، أما مفلس الدنيا فإن الدنيا تأتي وتذهب ، ربما يكون الإنسان فقيرًا فيمسي غنيًا ، أو بالعكس ، لكن الإفلاس كل الإفلاس أن يفلس الإنسان من حسناته التي تعب عليها ، وكانت أمامه يوم القيامة يشاهدها ، ثم تؤخذ منه لفلان وفلان .

وفي هذا : التحذير من العدوان على الخلق ، وأنه يجب على الإنسان أن يؤدي ما للناس في حياته قبل مماته ، حتى يكون القصاص في الدنيا مما يستطيع ، أما في الآخرة فليس هناك درهم ولا دينار حتى يفدي نفسه ، ليس فيه إلا الحسنات ، يقول الرسول ﷺ : « فيأخذ هذا من حسناته وهذا من حسناته فإذا فنيت حسناته قبل أن يقضي ما عليه أخذ من خطاياهم فطرحت عليه ثم طرح في النار » .

ولكن هذا الحديث لا يعني أنه يخلد في النار ، بل يعذب بقدر ما حصل عليه من سيئات الغير التي طرحت عليه ، ثم بعد ذلك مآله إلى الجنة ، لأن المؤمن لا يخلد في النار ، والنار حرها شديد ، لا يصبر الإنسان على النار ولو للحظة واحدة ، هذا على نار الدنيا فضلًا عن نار الآخرة ، أجارني الله وإياكم منها .

* * *

٢١٩ - وعن أُمِّ سَلَمَةَ رضي الله عنها ، أن رسول الله ﷺ قال : « إِنَّمَا أَنَا بَشَرٌ ، وَإِنَّكُمْ تَخْتَصِمُونَ إِلَيَّ ، وَلَعَلَّ بَعْضَكُمْ أَنْ يَكُونَ أَلْحَنَ بِحُجَّتِهِ مِنْ بَعْضٍ ، فَأَقْضِيَ لَهُ بِنَحْوِ ما أَسْمَعُ ، فَمَنْ قَضَيْتُ لَهُ بِحَقِّ أَخِيهِ فَإِنَّمَا أَقْطَعُ لَهُ قِطْعَةً مِنَ النَّارِ » [1] متفقٌ عليه .

الشرح

ذكر المؤلف رحمه الله في باب تحريم الظلم ، ووجوب رد المظالم إلى أهلها عن أم سلمة رضي الله عنها ، أن النبي ﷺ قال : « إنما أنا بشر مثلكم وإنكم تختصمون إلي ، ولعل بعضكم أن يكون ألحن بحجته من بعض فأقضي له بنحو ما أسمع ، فمن قضيت له بحق أخيه فإنما أقطع له قطعة من النار » .

ففي هذا الحديث : دليل على أن الرسول ﷺ بشر مثلنا ، ليس ملاكًا من الملائكة ، بل هو بشر يعتريه ما يعتري البشر بمقتضى الطبيعة البشرية ، فهو ﷺ يجوع ويعطش ، ويبرد ويحتر ، وينام ويستيقظ ، ويأكل ويشرب ، ويذكر وينسى ، ويعلم ويجهل بعض الشيء كالبشر تمامًا يقول ﷺ :

---

(١) أخرجه البخاري في الأحكام (٧١٦٩) ، ومسلم في الأقضية (٤) وفيه (أقطع له به) .

« إنما أنا بشر مثلكم » .

وهكذا أمره الله ﷻ أن يعلن للملأ فيقول ﴿ قُلْ إِنَّمَآ أَنَا۠ بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ يُوحَىٰٓ إِلَىَّ أَنَّمَآ إِلَٰهُكُمْ إِلَٰهٌ وَٰحِدٌ ﴾ [الكهف: ١١٠] فلست إلهًا يعبد ولا ربًّا ينفع ويضر ، بل - عليه الصلاة والسلام - لا يملك لنفسه نفعًا ولا ضرًّا .

وبهذا تنقطع جميع شبه الذين يتعلقون بالرسول ﷺ ممن يدعونه ، أو يعبدونه ، أو يؤملونه لكشف الضر ، أو يؤملونه لجلب الخير ، فإنه - عليه الصلاة والسلام - لا يملك ذلك ﴿ قُلْ إِنِّى لَآ أَمْلِكُ لَكُمْ ضَرًّا وَلَا رَشَدًا ۝ قُلْ إِنِّى لَن يُجِيرَنِى مِنَ ٱللَّهِ أَحَدٌ وَلَنْ أَجِدَ مِن دُونِهِۦ مُلْتَحَدًا (١) ۝ إِلَّا بَلَٰغًا مِّنَ ٱللَّهِ وَرِسَٰلَٰتِهِۦ ﴾ [الجن: ٢١-٢٣] لو أراد الله أن يصيبني بسوء ما أجارني منه أحد .

وفي قوله : « إنما أنا بشر مثلكم » تمهيد لقوله « وإنكم تختصمون إلي » يعني فإذا كنت بشرًا مثلكم فإني لا أعلم من المحق منكم ومن المبطل « تختصمون إلي » : يعني تحاكمون إلي في الخصومة ، فيكون بعضكم ألحن من البعض الآخر في الحجة ، أي أفصح وأقوى كلامًا ، يقال فلان حجيج وفلان ذو جدل ، يقوى على غيره في الحجة ، كما قال الله تعالى : ﴿ فَقَالَ أَكْفِلْنِيهَا وَعَزَّنِى فِى ٱلْخِطَابِ ﴾ [ص: ٢٣] أي غلبني في الخطاب والمخاصمة ، فهكذا هنا ألحن يعني أبين وأفصح وأظهر .

وهذا مشاهد فقد تجد اثنين يتحاكمان إلى القاضي ؛ أحدهما يكون عنده لسان وعنده بيان وحجة وقوة جدل ، والثاني دون ذلك وإن كان الحكم معه ، فيحكم القاضي للأول ، ولهذا قال : « فأقضي لك بنحوه ما أسمع » . وفي قوله : « فأقضي له بنحو ما أسمع » فسحة كبيرة للقضاة ، وأنهم لا يكلفون بشيء غاب عنهم ، بل يقضون حسب البيانات التي بين أيديهم ، فإن أخطأوا فلهم أجر ، وإن أصابوا فلهم أجران ، ولا يكلفون ما وراء ذلك ، بل ولا يحل لهم أن يحكموا بخلاف الظاهر ، لأنهم لو حكموا بخلاف الظاهر لأدى ذلك إلى الفوضى ، وأدى ذلك إلى الاشتباه وإلى التهمة ، ولقيل : القاضي يحكم بخلاف الظاهر لسبب من الأسباب .

لهذا كان الواجب على القاضي أن يحكم بالظاهر ، والباطن يتولاه الله ﷻ ، فلو ادعى شخص على آخر بمائة ريال وأتى المدعي بشهود اثنين فعلى القاضي أن يحكم بثبوت المائة في ذمة المدعى عليه ، وإن كان يشتبه في الشهود ، إلا أنه في حال الاشتباه يجب أن يتحرى ، لكن إذا لم يوجد قدح ظاهر فإنه يجب عليه أن يحكم ، وإن غلب على ظنه أن الأمر بخلاف ذلك ، لقوله : « فأقضي له بنحو ما اسمع » .

ولكن النبي ﷺ توعد من قضى له بغير حق ، فقال : « فمن قضيت له بحق أخيه فإنما أقطع له قطعة من النار » يعني أن حكم الحاكم لا يبيح الحرام ، فلو أن الحاكم حكم للمبطل بمقتضى ظاهر الدعوى ، فإن ذلك لا يحل له ما حكم له به ، بل إنه يزداد إثمًا لأنه توصل إلى الباطل بطريق باطلة ،

(١) قوله ملتحدًا : أي ملجأً يُرْكنُ إليه [انظر صفوة البيان لمعاني القرآن (ص ٧٥٥)] .

فيكون أعظم ممن أخذه بغير هذه الطريق .

وفي هذا الحديث : التحذير الشديد من حكم الحاكم بغير ما بين يديه من الوثائق ، مهما كان الأمر ، ولو كان أقرب قريب لك ، واختلف العلماء - رحمهم الله - : هل يجوز للحاكم أن يحكم بعلمه أم لا ؟ فقيل لا يجوز ؛ لأنه قال : فأقضي له بنحو ما أسمع ، ولأنه لو قضى بعلمه لأدى ذلك إلى التهمة ، لأنه - العلم - ليس شيئًا ظاهرًا يعرفه الناس حتى يحكم له به ، وقال بعض العلماء : بل يحكم بعلمه ، وقال آخرون بل يتوقف إذا وصلت البينة إلى ما يخالف علمه .

والأصح أنه لا يحكم بعلمه إلا في مسائل خاصة ، ومثال ذلك إذا حكم بعلمه بمقتضى حجة المتخاصمين في مجلس الحكم ؛ فمثلًا إذا تحاكم إليه شخصان فأقر أحدهما بالحق ، ثم مع المداولة والأخذ والرد أنكر ما أقر به أولًا ، فهنا للقاضي أن يحكم بعلمه لأنه علمه في مجلس الحكم .

ومثال آخر : إذا كان الأمر مشتهرًا ، مثل أن يشتهر أن هذا الملك وقف عام للمسلمين أو يشتهر أنه ملك فلان ويشتهر ذلك بين الناس ، فهنا له أن يحكم بعلمه لأن التهمة في هذه الحال منتفية ، ولا يتهم القاضي بشيء ، ولا يمكن أن يتجرأ أحد للحكم بعلمه وهو خاطئ بناء على أنه أمر مشهور .

والقول الصحيح في هذا هو التفصيل ، وإلا فإن الواجب أن يكون القضاء على حسب الظاهر لا على حسب علم القاضي .

وإذا جاء الشيء على خلاف علمه تحول المسألة إلى قاضي آخر ويكون هو شاهد من الشهود ، مثل أن يدعي شخص على آخر بمائة ريال فينكر المدعى عليه والقاضي عنده علم بثبوت المائة على المدعي عليه ، فلا يحكم هنا بعلمه ولا يحكم بخلاف علمه ، بل يقول : أحولها على قاضي آخر وأنا لك أيها المدعي شاهد ، فتحول القضية إلى قاض آخر ، ثم يكون القاضي هذا شاهدًا ، فيحكم بيمين المدعي وشهادة القاضي .

* * *

٢٢٠ - وعن ابن عمر رضي الله عنهما قال : قال رسول الله ﷺ : « لَنْ يَزَالَ المُؤْمِنُ في فُسْحَةٍ مِنْ دِينِهِ مَا لَمْ يُصِبْ دَمًا حَرَامًا »[١] رواه البخاري .

الشرح

قال المؤلف - رحمه الله تعالى - في باب تحريم الظلم ، ووجوب التحلل منه ، قال فيما نقله عن عبد الله بن عمر رضي الله عنهما أن رسول الله ﷺ قال : « لا يزال المؤمن في فسحة من دينه ما لم يصب دمًا حرامًا » ، « لن يزال المؤمن في فسحة » : أي في سعة من دينه ، « ما لم يصب دمًا حرامًا » يعني مالم يقتل مؤمنًا أو ذميًا أو معاهدًا أو مستأمنًا ، فهذه هي الدماء المحرمة ، وهي أربعة أصناف : دم المسلم ، ودم الذمي ودم المعاهد ، ودم المستأمن ، وأشدها وأعظمها دم المؤمن ، أما الكافر الحربي فهذا دمه غير حرام ، فإذا أصاب

(١) أخرجه البخاري في الديات (٦٨٦٢) ، والإمام أحمد في مسنده (٩٤/٢) .

الإنسان دمًا حرامًا فإنه يضيق عليه دينه ، أي : إن صدره يضيق به حتى يخرج منه - والعياذ بالله - ويموت كافرًا .

وهذا هو السر في قوله تعالى : ﴿ وَمَن يَقْتُلْ مُؤْمِنًا مُّتَعَمِّدًا فَجَزَآؤُهُۥ جَهَنَّمُ خَٰلِدًا فِيهَا وَغَضِبَ ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَلَعَنَهُۥ وَأَعَدَّ لَهُۥ عَذَابًا عَظِيمًا ﴾ [النساء : ٩٣] فهذه خمس عقوبات والعياذ بالله : جهنم ، خالدًا فيها ، وغضب الله عليه ، ولعنه ، وأعدَّ له عذابًا عظيمًا لمن قتل مؤمنًا متعمدًا ، لأنه إذا قتل مؤمنًا متعمدًا فقد أصاب دمًا حرامًا ، فيضيق عليه دينه ، ويضيق به صدره ، حتى ينسلخ من دينه بالكلية ، ويكون من أهل النار المخلدين فيها .

وفي هذا : دليل على أن إصابة الدم الحرام من كبائر الذنوب ، ولاشك في هذا ، فإن قتل النفس التي حرم الله بغير حق من كبائر الذنوب .

ولكن إذا تاب الإنسان من هذا القتل فهل تصح توبته ؟

جمهور العلماء على أن توبته تصح لعموم قوله تعالى : ﴿ وَٱلَّذِينَ لَا يَدْعُونَ مَعَ ٱللَّهِ إِلَٰهًا ءَاخَرَ وَلَا يَقْتُلُونَ ٱلنَّفْسَ ٱلَّتِى حَرَّمَ ٱللَّهُ إِلَّا بِٱلْحَقِّ وَلَا يَزْنُونَ ۚ وَمَن يَفْعَلْ ذَٰلِكَ يَلْقَ أَثَامًا (١) ﴿٦٨﴾ يُضَٰعَفْ لَهُ ٱلْعَذَابُ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ وَيَخْلُدْ فِيهِۦ مُهَانًا ﴿٦٩﴾ إِلَّا مَن تَابَ وَءَامَنَ وَعَمِلَ عَمَلًا صَٰلِحًا ﴾ [الفرقان : ٦٨ - ٧٠] فهنا نص على أن من تاب من قتل النفس التي حرم الله إلا بالحق ، وآمن وعمل عملًا صالحًا ، فإن الله يتوب عليه .

وقال تعالى : ﴿ قُلْ يَٰعِبَادِىَ ٱلَّذِينَ أَسْرَفُوا۟ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ لَا تَقْنَطُوا۟ (٢) مِن رَّحْمَةِ ٱللَّهِ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ يَغْفِرُ ٱلذُّنُوبَ جَمِيعًا ۚ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلْغَفُورُ ٱلرَّحِيمُ ﴾ [الزمر : ٥٣] .

ولكن بماذا تكون التوبة ؟ قتل المؤمن عمدًا يتعلق به ثلاثة حقوق : الحق الأول : حق الله ، الحق الثاني : حق المقتول ، الحق الثالث : حق أولياء المقتول .

أما حق الله : فإذا تاب منه تاب الله عليه ، ولا شك في هذا ، وأما حق المقتول : فالمقتول حقه عنده ، وهو قد قتل الآن ولا يمكن التحلل منه في الدنيا ، ولكن هل توبته تقضي أن يتحمل الله عنه حق المقتول فيؤديه عنه أم لابد من أخذه بالاقتصاص منه يوم القيامة ؟

هذا محل نظر ؛ فمن العلماء من قال : إن حق المقتول لا يسقط بالتوبة ، لأن من شروط التوبة رد المظالم إلى أهلها ، والمقتول لا يمكن رد مظلمته إليه لأنه قتل ، فلابد أن يقتص من قاتله يوم القيامة ، ولكن ظاهر الآيات الكريمة التي ذكرناها في سورة الفرقان يقتضي أن الله يتوب عليه توبة تامة ، وأن الله جل وعلا إذا علم من عبده صدق التوبة فإنه يتحمل عنه حق أخيه المقتول .

أما الحق الثالث : فهو حق أولياء المقتول ، وهذا لابد من التخلص منه ، لأنه يمكن للإنسان أن يتخلص منه ، وذلك بأن يسلم نفسه إليهم ويقول لهم : أنا قتلت صاحبكم فافعلوا ما شئتم وحينئذ

---

(١) ﴿ يَلْقَ أَثَامًا ﴾ : أي جزاء الإثم وهو العقوبة . [صفوة البياة (ص ٤٦٨)] .

(٢) ﴿ لَا تَقْنَطُوا۟ ﴾ : أي لا تيأسوا . [صفوة البيان (ص ٥٩١)] .

يخيرون بين أمور أربعة : إما أن يعفوا عنه مجانًا ، وإما أن يقتلوه قصاصًا ، وإما أن يأخذوا الدية منه ، وإما أن يصالحوه مصالحة على أقل من الدية أو على الدية ، وهذا جائز بالاتفاق .

فإن لم يسقط حقهم إلا بأكثر من الدية ففيه خلاف بين أهل العلم ؛ منهم من يقول : لا بأس أن يصالحوا على أكثر من الدية لأن الحق لهم ، فإن شاءوا قالوا نقتل وإن شاءوا قالوا : لا نعفو إلا بعشر ديات ، وهذا هو المشهور من مذهب الإمام أحمد رحمه الله ، أنه يجوز المصالحة عن القصاص بأكثر من الدية ، والتعليل هو ما ذكرنا من أن الحق لهم ، أي لأولياء المقتول فلهم أن يمتنعوا عن إسقاطه إلا بما تطيب به نفوسهم من المال .

إذن نقول توبة القاتل عمدًا تصح للآية التي ذكرناها ، من سورة الفرقان وهي خاصة في القتل ، وللآية الثانية العامة ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ يَغۡفِرُ ٱلذُّنُوبَ جَمِيعًاۚ ﴾ [الزمر : ٥٣] .

وهذا الحديث يدل على عظم قتل النفس ، وأنه من أكبر الكبائر - والعياذ بالله - وأن القاتل عمدًا يخشى أن يسلب دينه .

* * *

٢٢١ - وعن خَولَةَ بِنْتِ عَامِرٍ الأَنْصَارِيَّةِ ، وَهِيَ امْرَأَةُ حَمْزَةَ (رضي الله عنه وعنها) قالت : سَمِعْتُ رسول الله ﷺ يَقُولُ : « إِنَّ رِجَالًا يَتَخَوَّضُونَ في مَالِ اللَّه بِغَيرِ حَقٍّ ، فَلَهُمُ النَّارُ يومَ القِيَامَةِ »[1] رواه البخاري .

الشرح

قال المؤلف رحمه الله فيما نقله عن خولة زوجة حمزة بن عبد المطلب رضي الله عنه ، أن النبي ﷺ قال : « إن رجالًا يتخوضون في مال الله بغير حق ، فلهم النار يوم القيامة » هذا أيضًا مما يدل على تحريم الظلم في الأموال الذي هو خلاف العدل .

وفي قوله : « يتخوضون » دليل على أنهم يتصرفون تصرفًا طائشًا غير مبني على أصول شرعية ، فيفسدون الأموال ببذلها فيما يضر ، مثل من يبذل أمواله في الدخان ، أو في المخدرات ، أو في شرب الخمور أو ما أشبه ذلك ، وكذلك أيضًا يتخوضون فيها بالسرقات والغصب وما أشبه ذلك ، وكذلك يتخوضون فيها بالدعاوى الباطلة ، كأن يدعي ما ليس له وهو كاذب وما أشبه هذا .

فالمهم : أن كل من يتصرف تصرفًا غير شرعي في المال - سواء ماله أو مال غيره - فإن له النار - والعياذ بالله - يوم القيامة إلا أن يتوب ، فيرد المظالم إلى أهلها ، ويتوب مما يبذل ماله فيه من الحرام ؛ كالدخان والخمر وما أشبه ذلك ، فإن من تاب تاب الله عليه ، لقول الله تعالى : ﴿ قُلۡ يَٰعِبَادِيَ ٱلَّذِينَ أَسۡرَفُواْ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمۡ لَا تَقۡنَطُواْ مِن رَّحۡمَةِ ٱللَّهِۚ إِنَّ ٱللَّهَ يَغۡفِرُ ٱلذُّنُوبَ جَمِيعًاۚ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلۡغَفُورُ ٱلرَّحِيمُ ۝٥٣ وَأَنِيبُوٓاْ[2]

---

(١) أخرجه البخاري في فرض الخمس (٣١١٨) ، والإمام أحمد في مسنده (٦/ ٤١٠) قوله « يتخوضون » أي : يتفرقون .

(٢) ﴿ وَأَنِيبُوٓاْ إِلَىٰ رَبِّكُمۡ ﴾ : أي ارجعوا إليه بالتوبة . [صفوة البيان (٥٩٠)] .

﴿إِلَىٰ رَبِّكُمْ وَأَسْلِمُوا لَهُ مِن قَبْلِ أَن يَأْتِيَكُمُ الْعَذَابُ ثُمَّ لَا تُنصَرُونَ ۝ وَاتَّبِعُوا أَحْسَنَ مَا أُنزِلَ إِلَيْكُم مِّن رَّبِّكُم مِّن قَبْلِ أَن يَأْتِيَكُمُ الْعَذَابُ بَغْتَةً (١) وَأَنتُمْ لَا تَشْعُرُونَ ۝ أَن تَقُولَ نَفْسٌ يَا حَسْرَتَىٰ عَلَىٰ مَا فَرَّطتُ فِي جَنبِ اللَّهِ وَإِن كُنتُ لَمِنَ السَّاخِرِينَ (٢) ۝ أَوْ تَقُولَ لَوْ أَنَّ اللَّهَ هَدَانِي لَكُنتُ مِنَ الْمُتَّقِينَ ۝ أَوْ تَقُولَ حِينَ تَرَى الْعَذَابَ لَوْ أَنَّ لِي كَرَّةً (٣) فَأَكُونَ مِنَ الْمُحْسِنِينَ ۝ بَلَىٰ قَدْ جَاءَتْكَ آيَاتِي فَكَذَّبْتَ بِهَا وَاسْتَكْبَرْتَ وَكُنتَ مِنَ الْكَافِرِينَ﴾ [الزمر: ٥٣-٥٩].

وفي هذا الحديث تحذير من بذل المال في غير ما ينفع والتخوض فيه ؛ لأن المال جعله اللّٰه قيامًا للناس تقوم به مصالح دينهم ودنياهم ، فإذا بذله في غير مصلحة كان من المتخوضين في مال اللّٰه بغير حق .

* * *

٢٧ - باب تعظيم حرمات المسلمين وبيان حقوقهم والشفقة عليهم ورحمتهم

قال اللّٰه تعالى : ﴿وَمَن يُعَظِّمْ حُرُمَاتِ اللَّهِ فَهُوَ خَيْرٌ لَّهُ عِندَ رَبِّهِ﴾ [الحج: ٣٠] وقال اللّٰه تعالى : ﴿وَمَن يُعَظِّمْ شَعَائِرَ اللَّهِ فَإِنَّهَا مِن تَقْوَى الْقُلُوبِ﴾ [الحج: ٣٢] وقال تعالى : ﴿وَاخْفِضْ جَنَاحَكَ لِلْمُؤْمِنِينَ﴾ [الحجر: ٨٨] وقال تعالى : ﴿مَن قَتَلَ نَفْسًا بِغَيْرِ نَفْسٍ أَوْ فَسَادٍ فِي الْأَرْضِ فَكَأَنَّمَا قَتَلَ النَّاسَ جَمِيعًا وَمَنْ أَحْيَاهَا فَكَأَنَّمَا أَحْيَا النَّاسَ جَمِيعًا﴾ [المائدة: ٣٢] .

الشرح

قال المؤلف - رحمه اللّٰه تعالى - (باب تعظيم حرمات المسلمين وبيان حقوقهم والشفقة عليهم ورحمتهم) ، فالمسلم له حق على أخيه المسلم بل له حقوق متعددة ، بينها النبي ﷺ في مواضع كثيرة : منها إذا لقيه فليسلم عليه . يُلقي عليه السلام ، يقول : السلام عليك أو السلام عليكم ، ولا يحل له أن يهجر أخاه فوق ثلاث يلتقيان فيعرض هذا ويعرض هذا ، وخيرهما الذي يبدأ بالسلام (٤) .

ولكن لك أن تهجره لمدة ثلاثة أيام ، إذا رأيت في هذا مصلحة ، ولك أن تهجره أكثر إذا رأيته على معصية أصر عليها ولم يتب منها ، فرأيت أن هجره يحمله على التوبة ، ولهذا كان القول

---

(١) بغتة : أي فجأة . [صفوة البيان (٥٩١)] .

(٢) المعنى : أي كراهة أن تقول نفس يا حسرتي وندامتي بسبب تفريطي وتقصيري في طاعة اللّٰه أو في حقه تعالى . وأصل الجنب والجانب الجهة المحسوسة وأطلق على الطاعة مجازًا حيث شُبهت بالجهة بجامع التعلق في كلٍّ بصاحبه ، فالطاعة لها تعلق باللّٰه كما أن الجهة لها تعلق بصاحبه . [صفوة البيان (ص ٥٩٢ ، ٥٩٣)] .

(٣) كرة : أي رجعة إلى الدنيا . [صفوة البيان (٥٩٣)] .

(٤) انظر الحديث الدال على ذلك في البخاري في الاستئذان (٦٢٣٧) ، ومسلم في البر والصلة (٢٣ ، ٢٥) ، وأبو داود في سننه (٤٩١١ ، ٤٩١٤) .

الصحيح في الهجر أنهم رخصوا فيه في خلال ثلاثة أيام ، وما زاد على ذلك فينظر فيه للمصلحة ؛ إن كان فيه خير فليفعل ، وإلا فلا ، حتى لو جهر بالمعصية ، فإذا لم يكن في هجره مصلحة فلا تهجره .

ثم ساق المؤلف عدة آيات منها قوله تعالى : ﴿ وَمَن يُعَظِّمْ حُرُمَٰتِ ٱللَّهِ فَهُوَ خَيْرٌ لَّهُۥ عِندَ رَبِّهِۦ ﴾ [الحج : ٣٠] من يعظم حرماته : أي ما جعله محترمًا من الأماكن أو الأزمان أو الأشخاص ، فالذي يعظم حرمات الله فهو خير له عند ربه ، ومن كان يكره أو يشق عليه تعظيم هذا المكان كالحرمين مثلا والمساجد ، أو الزمان كالأشهر الحرم ذو القعدة وذو الحجة والمحرم ورجب وما أشبه ذلك ، فليحمل على نفسه وليكرهها على التعظيم .

ومن ذلك : تعظيم إخوانه المسلمين ، وتنزيلهم منزلتهم ، فإن المسلم لا يحل له أن يحقر أخاه المسلم ، قال النبي - عليه الصلاة والسلام - : « بحسب امرئ من الشر أن يحقر أخاه المسلم »[1] . بحسب : الباء هنا زائدة والمعنى : حسبه من الشر أن يحقر أخاه المسلم بقلبه ، أو أن يعتدي فوق ذلك بلسانه أو بيده على أخيه المسلم ، فإن ذلك حسبه من الإثم والعياذ بالله ، وكذلك أيضًا تعظيم ما حرمه الله ﷻ في المعاهدات التي تكون بين المسلمين وبين الكفار ، فإنه لا يحل لأحد أن ينقض عهدًا بينه وبين غيره من الكفار .

ولكن المعاهدون ينقسمون إلى ثلاثة أقسام :

قسم : أتموا عهدهم فهؤلاء نتمم عهدهم .

وقسم آخر : خانوا أو نقضوا قال تعالى : ﴿ فَمَا ٱسْتَقَٰمُواْ لَكُمْ فَٱسْتَقِيمُواْ لَهُمْ إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلْمُتَّقِينَ ﴾ [التوبة : ٧] فهؤلاء ينتقض عهدهم كما فعلت قريش في الصلح الذي جرى بينها وبين النبي ﷺ في الحديبية ، فإنهم وضعوا الحرب بينهم عشر سنين ، ولكن قريشًا نقضوا العهد فهؤلاء ينتقض عهدهم ، ولا يكون بيننا وبينهم عهد ، وهؤلاء قال الله فيهم : ﴿ أَلَا تُقَٰتِلُونَ قَوْمًا نَّكَثُوٓاْ أَيْمَٰنَهُمْ وَهَمُّواْ بِإِخْرَاجِ ٱلرَّسُولِ وَهُم بَدَءُوكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ ﴾ [التوبة : ١٣] .

والقسم الثالث : من لم ينقض العهد لكن نخاف منه أن ينتقض العهد ، فهؤلاء نخبرهم بألا عهد بيننا وبينهم ، كما قال تعالى : ﴿ وَإِمَّا تَخَافَنَّ مِن قَوْمٍ خِيَانَةً فَٱنۢبِذْ إِلَيْهِمْ عَلَىٰ سَوَآءٍ[2] إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ ٱلْخَآئِنِينَ ﴾ [الأنفال : ٥٨] .

فهذه من حرمات الله ﷻ ، وكل شيء جعله الله محترمًا من زمان أو مكان أو عيان فهو من حرمات الله ﷻ ، فإن الواجب على المسلم أن يحترمه ، ولهذا قال تعالى : ﴿ وَمَن يُعَظِّمْ حُرُمَٰتِ ٱللَّهِ فَهُوَ خَيْرٌ لَّهُۥ عِندَ رَبِّهِۦ ﴾ [الحج : ٣٠] ، وقال : ﴿ وَمَن يُعَظِّمْ شَعَٰٓئِرَ ٱللَّهِ فَإِنَّهَا مِن تَقْوَى ٱلْقُلُوبِ ﴾

---

(١) أخرجه مسلم في البر والصلة (٣٢) وأبو داود بنحوه في سننه (٤٨٨٢) .

(٢) ﴿ فَٱنۢبِذْ إِلَيْهِمْ ﴾ أي اطرح إليهم عهدهم ، ﴿ عَلَىٰ سَوَآءٍ ﴾ أي على طريق مستوٍ ظاهر بإعلامك إياهم بنبذك عهدهم قبل محاربتهم .

[الحج: ٣٢] الشعائر: العبادات الظاهرة سواء كانت كبيرة أم صغيرة؛ مثل الطواف بالبيت، والسعي بين الصفا والمروة، والأذان والإقامة وغيرهما من شعائر الإسلام، فإنها إذا عظمها الإنسان كان ذلك دليلًا على تقواه، فإن التقوى هي التي تحمل العبد على تعظيم الشعائر.

أما الآية الثالثة: فهي قوله تعالى: ﴿وَٱخْفِضْ جَنَاحَكَ لِلْمُؤْمِنِينَ﴾ [الحجر: ٨٨] وفي الآية الأخرى: ﴿لِمَنِ ٱتَّبَعَكَ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾ [الشعراء: ٢١٥] والمعنى تذلل لهم ولِنْ لهم في المقال والفعال؛ لأن المؤمن مع أخيه المؤمن رحيم به، شفيق به، كما قال الله تعالى في وصف النبي ﷺ ومن معه: ﴿أَشِدَّآءُ عَلَى ٱلْكُفَّارِ رُحَمَآءُ بَيْنَهُمْ﴾ [الفتح: ٢٩].

وفي قوله: ﴿وَٱخْفِضْ جَنَاحَكَ لِمَنِ ٱتَّبَعَكَ﴾ دليل على أن الإنسان مأمور بالتواضع لإخوانه وإن كان رفيع المنزلة، كما يرتفع الطير بجناحه، فإنه وإن كان رفيع المنزلة فليخفض جناحه وليتذلل وليتطامن لإخوانه، وليعلم أن من تواضع لله رفعه الله ﷻ، والإنسان ربما يقول لو تواضعت للفقير وكلمت الفقير، أو تواضعت للصغير وكلمته أو ما أشبه ذلك، فربما يكون في هذا وضع لي، وتنزيل من رتبتي، ولكن هذا من وساوس الشيطان، فالشيطان يدخل على الإنسان في كل شيء، قال تعالى عنه: ﴿فَبِمَآ أَغْوَيْتَنِي لَأَقْعُدَنَّ لَهُمْ صِرَٰطَكَ ٱلْمُسْتَقِيمَ (١) ۝ ثُمَّ لَءَاتِيَنَّهُم مِّنۢ بَيْنِ أَيْدِيهِمْ وَمِنْ خَلْفِهِمْ وَعَنْ أَيْمَٰنِهِمْ وَعَن شَمَآئِلِهِمْ وَلَا تَجِدُ أَكْثَرَهُمْ شَٰكِرِينَ﴾ [الأعراف: ١٦، ١٧].

فالشيطان يأتي الإنسان ويقول له: كيف تتواضع لهذا الفقير؟ كيف تتواضع لهذا الصغير؟ كيف تكلم فلانًا؟ كيف تمشي مع فلان؟ ولكن مَنْ تواضع لله رفعه الله ﷻ، حتى وإن كان عالمًا أو كبيرًا أو غنيًا، فإنه ينبغي أن يتواضع لمن كان مؤمنًا، أما من كان كافرًا فإن الإنسان لا يجوز له أن يخفض جناحه له، لكن يجب عليه أن يخضع للحق بدعوته إلى الدين، ولا يستنكف عنه ويستكبر فلا يدعوه، بل يدعوه ولكن بعزة وكرامة، دون إهانة له فهذا معنى قوله ﴿وَٱخْفِضْ جَنَاحَكَ لِلْمُؤْمِنِينَ﴾ [الحجر: ٨٨].

وفي الآية الثانية: ﴿وَٱخْفِضْ جَنَاحَكَ لِمَنِ ٱتَّبَعَكَ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾ [الشعراء: ٢١٥]، فهذه وظيفة المسلم مع إخوانه، أن يكون هينًا لينًا بالقول وبالفعل، لأن هذا مما يوجب المودة والألفة بين الناس، وهذه الألفة والمودة أمر مطلوب للشرع، ولهذا نهى النبي عليه الصلاة والسلام عن كل ما يوجب العداوة والبغضاء، مثل البيع على بيع المسلم، والسوم على سوم المسلم (٢)، وغير ذلك مما هو معروف لكثير من الناس - والله الموفق.

* * *

وقال تعالى: ﴿مَن قَتَلَ نَفْسًۢا بِغَيْرِ نَفْسٍ أَوْ فَسَادٍ فِي ٱلْأَرْضِ فَكَأَنَّمَا قَتَلَ ٱلنَّاسَ جَمِيعًا﴾ [المائدة: ٣٢].

---

(١) المعنى: فأقسم بإغوائك إياي لأقعدنَّ لهم على طريق الحق لأصدهم عنها.

(٢) انظر الحديث في البخاري في الشروط (٢٧٢٣، ٢٧٢٧)، ومسلم في النكاح (٣٨، ٤٩، ٥١، ٥٤، ٥٥)، والإمام أحمد في مسنده (٢/٣٩٤، ٤١١).

٢٢٢ - وعن أبي موسى ﷺ قال : قال رسول الله ﷺ : « المُؤمنُ للمُؤمنِ كالبُنيانِ يَشُدُّ بعْضُهُ بَعْضًا » وَشَبَّكَ بينَ أَصابِعِهِ (١) . متفقٌ عليه .

الشرح

سبق ذكر عدة آيات في بيان تعظيم حُرمات المسلمين ، والرفق بهم ، والإحسان إليهم ، ومن جملة الآيات التي فيها بيان تعظيم حرمة المسلم قوله تعالى : ﴿ مَن قَتَلَ نَفْسًا بِغَيْرِ نَفْسٍ أَوْ فَسَادٍ فِي ٱلْأَرْضِ فَكَأَنَّمَا قَتَلَ ٱلنَّاسَ جَمِيعًا وَمَنْ أَحْيَاهَا فَكَأَنَّمَآ أَحْيَا ٱلنَّاسَ جَمِيعًا ﴾ [المائدة : ٣٢] بيّن الله في هذه الآية أن من قتل نفسًا بغير نفس أو فساد في الأرض فكأنما قتل الناس جميعًا ، لأن حرمة المسلمين واحدة ، ومن انتهك حرمة شخص من المسلمين ، فكأنما انتهك حرمة جميع المسلمين . كما أن من كذَّب رسولًا واحدًا من الرسل ، فكأنما كذب جميع الرسل . ولهذا اقرأ قوله تعالى ﴿ كَذَّبَتْ قَوْمُ نُوحٍ ٱلْمُرْسَلِينَ ﴾ [الشعراء : ١٠٥] ، مع أنهم لم يكذبوا إلا واحدًا ، فإنه لم يبعث رسول قبل نوح ، وما بعد نوح لم يدركه قومه ، لكن من كذب رسولًا واحدًا فكأنما كذب جميع الرسل ، ومن قتل نفسًا محرمة ، فكأنما قتل الناس جميعًا ، لأن حرمة المسلمين واحدة ، ومن أحياها - أي : سعى في إحيائها وإنقاذها من هلكة - فكأنما أحيا الناس جميعًا .

وإحياؤها وإنقاذها من الهلكة تارة يكون من هلكة لا قبل للإنسان بها فتكون من الله ، مثل أن يشبَّ حريق في بيت رجل ، فتحاول إنقاذه فهذا إحياء للنفس . وأما القسم الثاني : فهو ما للإنسان فيه قبل ، مثل أن يحاول رجل العدوان على شخص ليقتله ، فتحول بينه وبينه وتحميه من القتل ، فأنت الآن أحييت نفسًا . ومن فعل ذلك فكأنما أحيا الناس جميعًا ، لأن إحياء شخص مسلم كإحياء جميع الناس .

وقوله ﷻ : ﴿ بِغَيْرِ نَفْسٍ ﴾ يستفاد منه أن من قتل نفسًا بنفس فهو معذور ولا حرج عليه . قال الله تعالى : ﴿ وَكَتَبْنَا عَلَيْهِمْ فِيهَآ أَنَّ ٱلنَّفْسَ بِٱلنَّفْسِ ﴾ [المائدة : ٤٥] فإذا قتل شخصًا بحق أي بنفس أخرى فلا لوم عليه ولا إثم ، ويرث القاتل من المقتول إذا قتله بحق ، ولا يرث القاتل من المقتول إذا قتله بغير حق .

ولنضرب لهذا مثلًا بثلاثة إخوة قتل الكبير منهم الصغير عمدًا فالذي يرث الصغير أخوه الأوسط ، وأخوه الكبير لا يرثه لأنه قتله بغير حق . ثم طالب الأوسط بدم أخيه الصغير ، فقتل أخاه الكبير قصاصًا ، فهل يرث الأوسط من أخيه الكبير وهو قاتله ؟ نعم يرث لأنه قتله بحق . والكبير الذي قتل الصغير لا يرث ، لأنه قتله بغير حق .

فالقتل بحق لا لوم فيه وليس له أثر ، لأنه قصاص ، والله تعالى يقول : ﴿ وَلَكُمْ فِي ٱلْقِصَاصِ حَيَوٰةٌ يَٰٓأُوْلِي ٱلْأَلْبَٰبِ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ ﴾ (٢) [البقرة : ١٧٩] .

وقوله ﷻ : ﴿ أَوْ فَسَادٍ فِي ٱلْأَرْضِ ﴾ والفساد في الأرض ليس معناه أن يسلط الإنسان الحفَّار فيهدم بيتًا ولو كان ذلك بغير حق . فهذا وإن كان فسادًا ، لكن لا يحل به دم مسلم ، الفساد في الأرض إنما

---

(١) أخرجه البخاري في المظالم (٢٤٤٦) ، ومسلم في البر والصلة (٦٥) ، والترمذي في البر والصلة (١٩٢٨) .
(٢) المعنى : أن من همَّ بالقتل إذا علم أنه إذا قَتلَ اقتُصَّ منه ارتدع وانكفَّ .

يكون بنشر الأفكار السيئة ، أو العقائد الخبيثة ، أو قطع الطريق ، أو ترويج المخدرات أو ما أشبه ذلك ، هذا هو الفساد في الأرض . فمن أفسد في الأرض على هذا الوجه فدمه هدر حلال ، يُقتل لأنه ساعٍ في الأرض بالفساد .

بل إن الله قال في نفس السورة : ﴿ إِنَّمَا جَزَٰٓؤُاْ ٱلَّذِينَ يُحَارِبُونَ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ وَيَسْعَوْنَ فِى ٱلْأَرْضِ فَسَادًا أَن يُقَتَّلُوٓاْ أَوْ يُصَلَّبُوٓاْ أَوْ تُقَطَّعَ أَيْدِيهِمْ وَأَرْجُلُهُم مِّنْ خِلَٰفٍ أَوْ يُنفَوْاْ مِنَ ٱلْأَرْضِ ﴾ [المائدة : ٣٣] على حسب جريمتهم ، إن كانت كبيرة فبالقتل ، وإن كانت دونها فبالصلب ، وإن كانت دونها فتقطّع أيديهم وأرجلهم من خلاف ، تقطع اليد اليمنى والرجل اليسرى ، وإن كان دون ذلك فينفوا من الأرض ، إما بالحبس مدى الحياة . كما قال بذلك بعض أهل العلم ، وإما بالطرد عن المدن كما قاله آخرون ، لكن إذا كان لا يندفع شرهم بطردهم من المدن حبسوا إلى الموت .

فالحاصل : أن من قتل نفسًا لإفسادها في الأرض فلا لوم عليه ، بل إن قتل النفس التي تسعى للإفساد واجب ، وقتل النفس بالنفس مباح إلا على رأي الإمام مالك رحمه الله وشيخ الإسلام ابن تيمية ، فإن قتل الغيلة واجب فيه القصاص ، يعني من غافل شخصًا فقتله فإنه يقتل حتى ولو عفا أولياء المقتول ، لأن الغيلة شر وفساد ، لا يمكن التخلص منها .

مثلًا يجيء إنسان لشخص أثناء نومه فيقتله ، فهذا يقتل على كل حال ، حتى ولو قال أولياء المقتول : عفونا عنه ولا نبغي شيئًا ، هذا رأي الإمام مالك وشيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله ، وهو القول الحق ، أنه إذا قتل إنسان غيلة فلابد من قتل القاتل ولا خيار لأولياء المقتول في ذلك .

فالحاصل : أن الله بين في هذه الآية أن قتل نفس واحدة بغير نفس أو فساد في الأرض كقتل جميع الناس ، وإحياء نفس واحدة كإحياء جميع الناس ، وهذا يدل على عظم القتل ، ولو أن إنسانًا أحصى كم قتل من بني آدم بغير حق لم يقدر ، ومع ذلك فكل نفس تقتل فعلى ابن آدم الأول الذي قتل أخاه كِفْل منها ، وعليه من إثمه نصيب .

وابن آدم الذي قتل أخاه ، قتله حسدًا ، حيث كان أول ما جاء آدم من الأبناء اثنين من بني آدم ، أول ما جاء آدم من الأبناء . في أول بطن . وقد قربا قربانًا ، قربة إلى الله ، فتقبل الله من واحد ولم يتقبل من الآخر ، فقال الثاني - الذي لم يتقبل الله منه - لأخيه : لأقتلنك ، لماذا يتقبل الله منك ولا يتقبل مني ؟ حسده على فضل الله تعالى عليه ، فقال له ربه : ﴿ إِنَّمَا يَتَقَبَّلُ ٱللَّهُ مِنَ ٱلْمُتَّقِينَ ﴾ [المائدة : ٢٧] يعني : اتق الله ويقبل الله منك ، لكن من توعد أخاه بالقتل فليس بمتق لله . في النهاية قتله والعياذ بالله ﴿ فَطَوَّعَتْ لَهُۥ نَفْسُهُۥ قَتْلَ أَخِيهِ فَقَتَلَهُۥ فَأَصْبَحَ مِنَ ٱلْخَٰسِرِينَ ﴾ [المائدة : ٣٠] ، خسر - والعياذ بالله - بهذه الفعلة الشنيعة التي أقدم عليها .

ويقال : إنه بقي يحمل أخاه الذي قتله أربعين يومًا على ظهره ، ما يدري ماذا يفعل به ، لأن القبور ما عرفت في ذاك الوقت ، فبعث الله غرابًا يبحث في الأرض ، يعني بأظفاره ليريه كيف يواري سوءة أخيه ، وقيل إن غرابين اقتتلا فقتل أحدهما الآخر ، فحفر أحدهما للثاني فدونه . فاقتدى به هذا القاتل

ودفن أخاه ، وهذا من العجائب أن تكون الغربان هي التي علمت بني آدم الدفن .

فالحاصل أن كل نفس تقتل بغير حق فعلى القاتل الأول من إثمها نصيب والعياذ بالله . وهكذا أيضًا من سنَّ القتل بعد أمن الناس وصار يغتال الناس وما أشبه ذلك ، وتجرأ الناس على هذا من أجل فعله ، فإن عليه من الإثم نصيبًا ، لأنه هو الذي كان سببًا في هذا ومن سن سنة سيئة فعليه وزرها ووزر من عمل بها إلى يوم الدين . نسأل الله أن يجعلنا وإياكم من دعاة الخير وفاعليه إنه جواد كريم .

* * *

٢٢٣ - وعنه قال : قال رسول الله ﷺ : « مَنْ مَرَّ في شَيْءٍ مِنْ مَسَاجِدِنَا ، أَو أَسْوَاقِنَا ، وَمَعَهُ نَبْلٌ فَلْيُمْسِكْ ، أو لِيَقْبِضْ عَلَى نصَالِهَا [١] بِكَفِّه أَنْ يُصِيبَ أَحدًا مِنَ المُسْلِمينَ مِنْهَا بِشَيءٍ » [٢] متفقٌ عليه .

٢٢٤ - وعن النُّعْمَانِ بن بَشِيرٍ رضي الله عنهما قال : قال رسول الله ﷺ : « مَثَلُ المُؤْمِنِينَ في تَوَادِّهِمْ وَتَرَاحُمِهِمْ وَتَعَاطُفِهِمْ ، مَثَلُ الجَسَدِ إِذَا اشْتَكَى مِنْهُ عُضْوٌ تَدَاعَى لَهُ سَائِرُ الجَسَدِ بالسهَرِ وَالحُمَّى » [٣] متفقٌ عليه .

٢٢٥ - وعن أبي هُرَيرَةَ رضي الله عنه قال : قَبَّلَ النَّبيُّ ﷺ الحَسَنَ بْن عَليٍّ رضي الله عنهما وَعِنْدَهُ الأَقْرَعُ بنُ حَابِسٍ ، فقال الأَقْرَعُ : إنَّ لِي عَشَرَةً مِنَ الوَلَدِ مَا قَبَّلْتُ مِنْهُم أَحَدًا . فَنَظَرَ إِلَيهِ رسول الله ﷺ فقال : « مَنْ لا يَرْحَمْ لا يُرْحَمْ » [٤] متفقٌ عليه .

الشرح

ذكر المؤلف رحمه الله جملة من أحاديث الرفق بالمسلمين ، منها حديث أبي موسى الأشعري رضي الله عنه ، أن النبي ﷺ قال : « من مرَّ في شيء من مساجدنا أو أسواقنا ومعه نبل فليمسك أو ليقبض على نصالها بكفه » النبل : السهام االتي يُرمى بها ، وأطرافها تكون دائمًا دقيقة تنفذ فيما تصيبه من المرمى ، فإذا أمسك الإنسان بها وقى الناس شرها . وإذا تركها هكذا فربما تؤذي أحدًا من الناس ، ربما يأتي أحدٌ بسرعة فتخدشه ، أو يمر الرجل الذي يمسك بها وهي مفتوحة غير ممسكة فتخدشهم أيضًا .

ومثل ذلك أيضًا العصي ، إذا كان معك عصًا فامسكها طولًا ، يعني اجعل رأسها إلى السماء ولا تجعلها عرضًا ، لأنك إذا جعلتها عرضًا آذيت الناس الذين وراءك ، وربما تؤذي الذين أمامك .

ومثله الشمسية أيضًا ؛ إذا كان معك شمسية وأنت في السوق فارفعها ، لئلا تؤذي الناس .

---

(١) النصل : حديدة الرمح والسهم والسكين .

(٢) أخرجه البخاري في الصلاة (٤٥٢) ، ومسلم في البر والصلة (١٢٣ ، ١٢٤) بألفاظ مختلفة .

(٣) أخرجه البخاري في الأدب (٦٠١١) بلفظ « ترى المؤمنين » ، ومسلم في البر والصلة (٨٦) ورواه الإمام أحمد في مسنده (٢٧٠/٤) ، قوله « بالسهر والحمى » أما بالسهر فلأن الألم يمنع النوم ، وأما الحمى فلأن فقد النوم يثيرها ، والحديث لم يُشر إليه الشارح (رحمه الله تعالى) .

(٤) أخرجه البخاري في الأدب (٥٩٩٧) ومسلم في الفضائل (٦٥) والإمام أحمد في مسنده (٢٤١/٢) ، والبيهقي في سننه (٦٩/٤) .

فكل شيء يؤذي المسلمين أو يُخشى من أذيته فإنه يتجنبه الإنسان ، لأن أذية المسلمين ليست بالهينة . قال الله تعالى ﴿ وَٱلَّذِينَ يُؤْذُونَ ٱلْمُؤْمِنِينَ وَٱلْمُؤْمِنَٰتِ بِغَيْرِ مَا ٱكْتَسَبُوا۟ فَقَدِ ٱحْتَمَلُوا۟ بُهْتَٰنًا وَإِثْمًا مُّبِينًا ﴾ [الأحزاب : ٥٨] .

ومن الأحاديث التي ذكرها المصنف حديث أبي هريرة ﷺ ، أن النبي ﷺ قبّل الحسن بن علي بن أبي طالب وكان عنده الأقرع بن حابس . والحسن بن عليّ بن أبي طالب هو ابن فاطمة بنت رسول الله ﷺ ، فجده من أمه رسول الله ﷺ ، وأبوه علي بن أبي طالب ابن عم النبي ﷺ ، وكان النبي ﷺ يحب الحسن والحسين لأنهما سبطاه ، ويفضل الحسن على الحسين .

فالحسن قال فيه النبي ﷺ : « إن ابني هذا سيد ، ولعلَّ الله أن يصلح به بين فئتين من المسلمين »[1] فكان الأمر كما قال النبي ﷺ ، لما حصلت الفتنة في زمن معاوية ، وآلت الخلافة إلى الحسن بعد أبيه علي بن أبي طالب ﷺ ، تنازل عنها ﷺ لمعاوية بن أبي سفيان حقنًا لدماء المسلمين ، لأنه يعلم أن في الناس أشرار ، وأنهم ربما يأتون إليه ويغرونه كما فعلوا بأخيه الحسين بن علي ﷺ ، غرّه أهل العراق وحصل ما حصل من المقتلة العظيمة في كربلاء وقتل الحسين .

أما الحسن ﷺ فإنه تنازل عن الخلافة لمعاوية بن أبي سفيان ، فصار ذلك مصداقًا لقول النبي ﷺ « ولعل الله أن يصلح به بين فئتين من المسلمين » .

كان عند النبي ﷺ الأقرع بن حابس من زعماء بني تميم ، والغالب أن أهل البادية وأشباههم يكون فيهم جفاء ، فقبّل النبي ﷺ الحسن ، فقال الأقرع : إن لي عشرة من الولد ما قبلتُ واحدًا منهم – أعوذ بالله من قلب قاسٍ ما يقبّلهم ولو كانوا صغارًا – فنظر إليه النبي ﷺ وقال : « من لا يرحم لا يُرحم » يعني : أن الذي لا يرحم عباد الله لا يرحمه الله . ويُفهم من هذا أن من رحم عباد الله رَحِمَهُ اللهُ ، وهو كذلك فقد قال النبي ﷺ « الراحمون يرحمهم الرحمن »[2] .

ففي هذا : دليل على أنه ينبغي للإنسان أن يستعمل الرحمة في معاملة الصغار ونحوهم ، وأنه ينبغي للإنسان أن يقبّل أبناءه ، وأبناء بناته ، وأبناء أبنائه ، يقبّلهم رحمة بهم ، واقتداءً برسول الله ﷺ ، أما ما يفعله بعض الناس من الجفاء والغلظة بالنسبة للصبيان ، فتجده لا يمكن صبيه من أن يحضر إلى مجلسه ، ولا أن يمكن صبيّه من أن يطلب منه شيئًا ، وإذا رآه عند الرجال انتهره فهذا خلاف السنة وخلاف الرحمة .

كان النبي – عليه الصلاة والسلام – يصلي بالناس إحدى صلاتي العشي ، إما العصر وإما الظهر ، فجاءته بنت بنته أُمامة ، فكان النبي ﷺ يحملها وهو يصلي بالناس ؛ إذا قام حملها ، وإذا سجد وضعها[3] . أين هذا الخُلُق من أخلاقنا اليوم ؟ الآن لو يجد الإنسان صبيًّا في المسجد أخرجه ، فضلًا

---

(١) أخرجه البخاري في الفتن (٧١٠٩) ، وأبو داود في سننه (٢٦٦٢) .

(٢) أخرجه أبو داود في سننه (٤٩٤١) ، والترمذي في سننه (١٩٢٤) ، والإمام أحمد في مسنده (٢/١٦٠) .

(٣) انظر الحديث في البخاري في الصلاة (٥١٦) ، ومسلم في المساجد (٤١) ، وأبو داود في سننه (٩١٧) .

عن كونه يحمله في الصلاة .

وكان النبي ﷺ يومًا من الأيام ساجدًا ، فجاءه الحسن أو الحسين فركب عليه . أي جعله راحلة ، فأطال النبي ﷺ السجود ، فلما سلم قال : « إن ابني ارتحلني وإني كرهت أن أقوم حتى يقضي نهمته »[1] .

وكان ﷺ يخطب الناس يومًا على المنبر ، فأقبل الحسن والحسين وعليهما ثوبان جديدان يعثران بهما ، فنزل النبي ﷺ وحملهما بين يديه ، وقال : صدق الله ﴿ إِنَّمَآ أَمْوَٰلُكُمْ وَأَوْلَٰدُكُمْ فِتْنَةٌ ﴾ [التغابن : ١٥] « نظرت إلى هذين الصبيين يمشيان يعثران فلم أصبر »[2] يعني فما طابت نفسه حتى نزل وحملهما . ففي هذا كله وأمثاله : دليل على أنه ينبغي للإنسان أن يرحم الصغار ، ويلطف بهم ، وأن ذلك سبب لرحمة الله ﷻ ، نسأل الله أن يعمنا وإياكم برحمته ولطفه وإحسانه .

* * *

٢٢٦ – وعن عائشة رضي الله عنها قالت : قَدِمَ نَاسٌ مِنَ الأَعْرَابِ عَلَى رسول الله ﷺ ، فقالوا : أَتُقَبِّلُونَ صِبْيَانَكُمْ ؟ فقال : « نَعَمْ » قالوا : لكِنَّا والله مَا نُقَبِّلُ ! فقال رسول الله ﷺ : « أَوَ أَمْلِكُ إنْ كَانَ اللهُ نَزَعَ مِنْ قُلُوبِكُمُ الرَّحْمَةَ ؟ »[3] متفقٌ عليه .

٢٢٧ – وعن جرير بن عبد الله رضي الله عنه قال : قال رسول الله ﷺ : « مَنْ لا يَرْحَمِ النَّاسَ لا يَرْحَمْهُ اللهُ »[4] متفقٌ عليه .

٢٢٨ – وعن أبي هُريرة رضي الله عنه أنَّ رسول الله ﷺ قال : « إذا صلى أحَدُكُمْ للنَّاس فَلْيُخَفِّفْ ؛ فَإنَّ فِيهِمُ الضَّعِيفَ والسَّقِيمَ وَالكَبِيرَ . وَإذَا صَلَّى أَحَدُكُمْ لِنَفْسِهِ ، فَلْيُطَوِّلْ مَا شاءَ »[5] متفقٌ عليه . وفي روايةٍ : « وَذا الحَاجَةِ » .

الشرح

قال المؤلف – رحمه الله تعالى – فيما نقله عن عائشة رضي الله عنها : قالت : جاء قوم من الأعراب إلى النبي ﷺ فسألوا : هل تقبلون صبيانكم ؟ قال النبي ﷺ : « نعم ».. والأعراب كما نعلم جميعًا جفاة ، وعندهم غلظة وشدة ولا سيما رعاة الإبل منهم ، فإن عندهم من الغلظة والشدة ما يجعل قلوبهم كالحجارة . نسأل الله العافية ، قالوا : إنا لسنا نقبل صبياننا ، فقال النبي – عليه الصلاة والسلام – : « أو أملك إن كان الله نزع من قلوبكم الرحمة » يعني لا أملك لكم شيئًا إذا نزع الله الرحمة من قلوبكم .

وفي هذا : دليل على تقبيل الصبيان شفقة عليهم ، ورقة لهم ، ورحمة بهم .

---

(١) أخرجه بنحوه أحمد في مسنده (٣/٤٩٤) ، (٦/٩٩) ، والنسائي في سننه (٢/٢٢٩ ، ٢٣٠) حديث (١١٤١) .

(٢) أخرجه الترمذي في سننه (٣٧٧٤) .

(٣) أخرجه البخاري في الأدب (٥٩٩٨) ، ومسلم – واللفظ له – في الفضائل (٦٤) .

(٤) أخرجه البخاري في التوحيد (٧٣٧٦) ، ومسلم في الفضائل (٦٦) واللفظ له والإمام أحمد في مسنده (٤/٣٥٨) .

(٥) أخرجه البخاري في الأذان (٧٠٣) – واللفظ له – ، ومسلم في الصلاة (١٨٣) ، وأبو داود في الصلاة (٧٩٤ ، ٧٩٥) .

وفيه : دليل على أن اللّه تعالى قد أنزل في قلب الإنسان الرحمة ، وإذا أنزل اللّه في قلب الإنسان الرحمة فإنه يرحم غيره . وإذا رحم غيره رحمه اللّه ﷻ ، كما في الحديث الثاني حديث عائشة رضي الله عنها أن النبي ﷺ قال : « من لا يرحم الناس لا يرحمه اللّه » نسأل اللّه العافية .

الذي لا يرحم الناس لا يرحمه اللّه ﷻ ، والمراد بالناس : الناس الذين هم أهل للرحمة كالمؤمنين وأهل الذمة ومَنْ شابههم ، وأما الكفار الحربيون فإنهم لا يُرحمون ، بل يقتلون لأن اللّه تعالى قال في وصف النبي ﷺ وأصحابه : ﴿ أَشِدَّآءُ عَلَى ٱلْكُفَّارِ رُحَمَآءُ بَيْنَهُمْ ﴾ [الفتح : ٢٩] وقال تعالى للنبي ﷺ : ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ جَٰهِدِ ٱلْكُفَّارَ وَٱلْمُنَٰفِقِينَ وَٱغْلُظْ عَلَيْهِمْ ۚ وَمَأْوَىٰهُمْ جَهَنَّمُ ۖ وَبِئْسَ ٱلْمَصِيرُ ﴾ [التوبة : ٧٣] ، ذكر اللّه تعالى هذه الآية في سورتين من القرآن الكريم بهذا اللفظ نفسه : ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ جَٰهِدِ ٱلْكُفَّارَ وَٱلْمُنَٰفِقِينَ وَٱغْلُظْ عَلَيْهِمْ ۚ وَمَأْوَىٰهُمْ جَهَنَّمُ ۖ وَبِئْسَ ٱلْمَصِيرُ ﴾ ذكرها اللّه في سورة التوبة وفي سورة التحريم ، وقال تعالى : ﴿ وَلَا يَطَـُٔونَ مَوْطِئًا [1] يَغِيظُ ٱلْكُفَّارَ وَلَا يَنَالُونَ مِنْ عَدُوٍّ نَّيْلًا إِلَّا كُتِبَ لَهُم بِهِۦ عَمَلٌ صَٰلِحٌ ﴾ [التوبة : ١٢٠] .

وكذلك أيضًا رحمة الدواب والبهائم فإنها من علامات رحمة اللّه ﷻ للإنسان ، لأنه إذا رقَّ قلب المرء رحم كل شيء ذي روح ، وإذا رحم كل شيء ذي روح رحمه اللّه . قيل : يا رسول اللّه ، ألنا في البهائم أجر ؟ قال : « نعم في كل كبد رطبةٍ أجر » [2] .

ومن الشفقة والرحمة بالمؤمنين أنه إذا كان الإنسان إمامًا لهم ، فإنه لا ينبغي له أن يطيل عليهم في الصلاة . ولهذا قال النبي - عليه الصلاة والسلام - : « إذا صلى أحدكم للناس فليخفف ، فإن فيهم الضعيف والسقيم وذا الحاجة والكبير » وفي رواية « وذا الحاجة » يعني من ورائه أهل الأعذار الذين يحتاجون إلى التخفيف ، والمراد بالتخفيف ما وافق سنة النبي ﷺ ، هذا هو التخفيف وليس المراد بالتخفيف ما وافق أهواء الناس ، حتى صار الإمام يركض في صلاته ولا يطمئن ، قال أنس بن مالك رضي الله عنه : ما صليت وراء إمام قطُّ أخفَّ صلاة ولا أتم صلاة من النبي ﷺ ، ومع ذلك فكان يقرأ في فجر الجمعة « الم تنزيل السجدة » كاملة في الركعة الأولى . ﴿ هَلْ أَتَىٰ عَلَى ٱلْإِنسَٰنِ ﴾ كاملة في الركعة الثانية ، وكان يقرأ بسورة الدخان في المغرب ، ويقرأ فيها بالمرسلات ، ويقرأ فيها بالطور ، وربما قرأ فيها بالأعراف ، ومع هذا فهي خفيفة ، قال أنس رضي الله عنه : ما صليت وراء إمام قط أخف صلاة ولا أتم صلاة من النبي ﷺ [3] .

وليس هذا الحديث حجة للذين يريدون من الأئمة أن يخففوا تخفيفًا ينقص الأجر ويخالف السنة . ثم اعلم أنه قد يكون التخفيف عارضًا طارئًا ، مثل ما كان النبي ﷺ يفعل ، كان يدخل في الصلاة وهو يريد أن يطيل فيها ، فيسمع بكاء الصبي فيوجز مخافة أن تفتتن أمه [4] . فإذا حصل

---

(١) ﴿ وَلَا يَطَـُٔونَ مَوْطِئًا ﴾ : أي ولا يدوسون مكانًا .

(٢) أخرجه البخاري في المساقاة (٢٣٦٣) ، ومسلم في السلام (١٥٣) .

(٣) أخرجه البخاري في الأذان (٧٠٨) ، ومسلم في الصلاة (١٩٠) .

(٤) انظر الحديث في البخاري في الأذان (٧٠٨) ، ومسلم في الصلاة (١٩٢) .

طارئ يوجب أن يخفف الإنسان صلاته فليخفف ، لكن على وجه لا يُخِل بالواجب .

فالتخفيف نوعان : تخفيف دائم : وهو ما وافق سنة النبي ﷺ . وتخفيف طارئ : يكون أخفَّ ، وهو ما دعت إليه الحاجة ، وهو أيضًا من السنة ، فإن النبي ﷺ كان إذا سمع بكاء الصبي خفف الصلاة حتى لا تفتتن أمه ، والمهم أنه ينبغي للإنسان مراعاة أحوال الناس ورحمتهم .

* * *

٢٢٩ - وعن عَائشَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا قَالَتْ : إنْ كَانَ رسول اللَّه ﷺ لَيَدَعُ العَمَلَ ، وَهُوَ يُحِبُّ أَنْ يَعْمَلَ بِهِ ، خَشْيَةَ أَنْ يَعْمَلَ بِهِ النَّاسُ فَيُفْرَضَ عَلَيهِمْ » [١] متفقٌ عليه .

٢٣٠ - وَعَنْهَا رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا قَالَتْ : نَهَاهُمُ النَّبِيُّ ﷺ عَنِ الوِصَالِ رَحْمَةً لَهُمْ ، فقالوا : إنَّكَ تُوَاصِلُ ؟ قال : « إنِّي لَسْتُ كَهَيْئَتِكُمْ ، إنِّي أَبِيتُ يُطْعِمُنِي رَبِّي وَيَسْقِينِي » [٢] متفقٌ عليه .

مَعْنَاهُ : يَجْعَلُ فِيَّ قُوَّةَ مَنْ أَكَلَ وَشَرِبَ .

الشرح

قال المؤلف - رحمه اللَّه تعالى - فيما نقله عن عائشة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا في باب الرفق بالمسلمين والشفقة عليهم ، قالت عائشة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا : (إن كان النبي ﷺ ليدع العمل ، وهو يحب أن يعمل به ؛ خشية أن يعمل به الناس فيفرض عليهم) . قولها : (إن كان) « إن » هذه مخففة من الثقيلة ، وأصلها « إنّ » ، ويقول النحويون : إن اسمها محذوف ويسمونه ضمير الشأن ، وجملة (كان ليدع) خبرها . فالجملة هنا ثبوتية وليست سلبية . والمعنى أن النبي ﷺ كان يترك العمل وهو يحب أن يفعله ، لئلا يعمل به الناس ، فيفرض عليهم ، فيشق عليهم .

ومن ذلك : ما فعله في رمضان - عليه الصلاة والسلام - صلى في رمضان ذات ليلة ، فعلم به أناس من الصحابة ، فاجتمعوا إليه وصلوا معه ، وفي الليلة الثانية صلوا أكثر ، وفي الثالثة أكثر وأكثر ، ثم ترك الصلاة في المسجد ، فقال - عليه الصلاة والسلام - : « أما بعد ، فإنه لم يَخْفَ علي مكانكم » يعني ما جرى منهم من الاجتماع « ولكني كرهت أن تفرض عليكم فتعجزوا عنها » [٣] فترك هذا القيام جماعة خوفًا من أن تفرض على الأمة ، وهذا من شفقته ، وكان يقول : « لولا أن أشق على أمتي لفعلت كذا وكذا أو لأمرت بكذا وكذا » مثل قوله : « لولا أن أشق على أمتي لأمرتهم بالسواك عند كل صلاة » [٤] .

ومثله : قوله ﷺ حين تأخر في صلاة العشاء حتى ذهب عامة الليل ، فقال : « إنه لَوَقْتُها » يعني آخر الوقت . ثم قال : « لولا أن أشق على أمتي » فهو - عليه الصلاة والسلام - كان يدع العمل

---

(١) أخرجه البخاري في التهجد (١١٢٨) ، ومسلم في صلاة المسافرين (٧٧) .

(٢) أخرجه البخاري بنحوه في الصوم (١٩٦٧) ، ومسلم في الصيام (٥٧ ، ٦١) .

(٣) أخرجه البخاري - واللفظ له - في الجمعة (٩٢٤) ، ومسلم في صلاة المسافرين (١٧٨) ، والإمام أحمد في مسنده (٦/١٦٩) .

(٤) أخرجه البخاري في الجمعة (٨٨٧) ، ومسلم - واللفظ له - في الطهارة (٤٢) .

ويدع الأمر بالعمل ، خوفًا من أن يشق على الأمة .

ومن ذلك أيضًا : ما روته عائشة رضي الله عنها أنه نهاهم عن الوصال رحمة بهم ، يعني نهى الصحابة عن الوصال ، والوصال يعني أن يصل الإنسان يومين فأكثر في الصيام من غير فطر ، يعني يصوم الليل والنهار يومين أو ثلاثة أو أكثر ، فنهاهم النبي ﷺ عن ذلك ، ولكنهم رضي الله عنهم فهموا أنه نهاهم رحمة بهم لا كراهة للعمل ، فواصلوا ثم واصلوا حتى هلَّ شهر شوال ، فقال ﷺ : « لو تأخر الهلال لزدتكم »[1] يعني لأبقيتكم تواصلون قال ذلك تنكيلًا لهم ، حتى يعرفوا ألم الجوع والعطش ، ويكفوا عن الوصال من أنفسهم .

المهم : أنه نهاهم عن الوصال رحمة بهم . فقالوا إنك تواصل ونحن نقتدي بك . فقال « إني لست كهيئتكم إني أبيت يطعمني ربي ويسقيني » يعني أنه - عليه الصلاة والسلام - ليس كالأمة ، بل هو يبيت عند ربه يطعمه ويسقيه ، ومعنى ذلك أنه - عليه الصلاة والسلام - يتهجد بالليل ، ويخلو بالله عز وجل ، بذكره ، وقراءة كلامه ، وغير ذلك مما يغنيه عن الأكل والشرب ، لأن الإنسان إذا اشتغل بالشيء نسي الأكل والشرب ، خصوصًا إذا كان الشيء مما يحبه ويرضاه ، ولهذا قال الشاعر في محبوبته :

لها أحاديث من ذكراك تشغلها عن الشراب وتلهيها عن الزاد

يعني أنها إذا قعدت تتحدث عن هذا الرجل تكثر من ذكره حتى يلهيها ذلك عن الطعام والشراب ، وهو أمر واقع واضح . حتى إن الإنسان قد يكون في الأشغال يشتغل بها ، فيلهو عن الأكل والشرب ، مثل طالب العلم الذي يكون منهومًا بالعلم شغوفًا به ، ربما يبقى في مكتبته يطالع من الصباح إلى المساء فينسى الأكل والشرب ، ينسى الغداء والعشاء ، وربما ينسى النوم . وكذلك طالب الدنيا منهوم لا يشبع ، ربما يبقى في دفاتره وحساباته فينشغل عن الأكل والشرب .

ويذكر أن رجلًا غنيًا كان يشتغل بحساباته وبكتاباته وماله وله زوجة ، وكان له جار فقير متزوج ، وكانوا يشعرون بأن هذا الجار الفقير يعاشر زوجته بالمعروف ، فغارت زوجة الغني ، لأن الغني غافل عنها ، فقالت له : ألا تنظر إلى جارنا يعاشر زوجته بالمعروف ، ويستأنس مع أهله ، ففطن الرجل الغني لهذا ، فدعا الرجل الفقير وقال له : إنك رجل فقير تحتاج إلى المال ، وأنا سأعطيك مالًا تتجر به ، فأعطاه المال يتجر به ، فانشغل به الفقير عن أهله ، وصار لا يعاشرهم ولا يؤانسهم ، فصار مثل التاجر .

فالحاصل : أن الإنسان إذا انشغل بالشيء المحبوب إليه أنساه كلَّ شيء ، ولهذا قال النبي - عليه الصلاة والسلام - : « إني أبيت يطعمني ربي ويسقيني » فلست كهيئتكم ، وما زعمه بعض أهل العلم من أن المراد بالإطعام والإسقاء ، الإطعام من الجنة والإسقاء من الجنة فليس بصحيح ، لأنه لو طعم طعامًا حسيًا وشرب شرابًا حسيًا ، لم يكن واصلًا ، وإنما المراد بالطعام والسقي ما يشتغل به ﷺ من ذكر الله بقلبه ولسانه وجوارحه ، فصلوات الله وسلامه عليه وعلى آله وأصحابه ومن تبعهم بإحسان إلى يوم الدين .

* * *

(١) أخرجه البخاري في الاعتصام (٧٢٩٩) ، ومسلم في الصيام (٥٧) .

٢٣١ - وعن أبي قَتَادَةَ الحَارِثِ بن ربْعِيٍّ ﷺ قال : قال رسول الله ﷺ : «إِنِّي لأَقُومُ إِلَى الصَّلاةِ ، وَأُرِيدُ أَنْ أُطَوِّلَ فِيهَا فَأَسْمَعَ بُكَاءَ الصَّبِيِّ ، فَأَتَجَوَّزَ في صَلاتِي كَرَاهِيَةَ أَنْ أَشُقَّ عَلَى أُمِّهِ »(١) رواه البخاري .

٢٣٢ - وعن جُنْدُبِ بن عبد الله ﷺ قال : قال رسول الله ﷺ : « مَنْ صَلَّى صَلاة الصُّبْحِ فَهُوَ في ذِمةِ الله فَلا يَطْلُبَنَّكُمُ الله مِنْ ذِمَّتِهِ بِشَيءٍ ، فَإِنَّهُ من يَطْلُبْهُ مِنْ ذِمَّتِهِ بِشَيء يُدرِكْهُ ، ثُمَّ يَكُبُّهُ عَلَى وَجْهِهِ في نار جَهَنَّم »(٢) رواه مسلم .

الشرح

ذكر المؤلف - رحمه الله تعالى - في باب الرفق بالمسلمين فيما نقله عن أبي قتادة الحارث بن ربعي الأنصاري ﷺ عن النبي ﷺ أنه قال : « إني لأقوم إلى الصلاة وأريد أن أطول فيها فأسمع بكاء الصبي فأتجوَّز كراهية أن أشقَّ على أمه » هذا الحديث من النماذج التي تدل على رحمة النبي ﷺ بأمته ، كما وصفه الله تعالى به في قوله : ﴿ لَقَدْ جَآءَكُمْ رَسُولٌ مِّنْ أَنفُسِكُمْ عَزِيزٌ عَلَيْهِ مَا عَنِتُّمْ حَرِيصٌ عَلَيْكُم بِٱلْمُؤْمِنِينَ رَءُوفٌ رَّحِيمٌ ﴾(٣) [التوبة : ١٢٨] ، فهو يدخل في صلاة الجماعة يريد أن يطيل فيها ، والمراد الإطالة النسبية ، ليست الإطالة الزائدة عن ما كان يفعله من قبل ، فإذا سمع بكاء الصبي أوجَزَ وخفف مخافة أن يشق على أمه ، لأن أمه إذا سمعت بكاءه فإنه يشق عليها أن تسمع بكاء ابنها ، وربما يشغلها كثيرًا عن الصلاة ، فيخفف - عليه الصلاة والسلام - لأجل ذلك .

ففي هذا الحديث فوائد منها :

أولًا : رحمة النبي ﷺ بأمته وشفقته عليها .

ثانيًا : جواز حضور النساء إلى المساجد ليصلين مع الجماعة ، وهذا مالم تخرج المرأة على وجه لا يجوز ، مثل أن تخرج متعطرة أو متبرجة ، فإن ذلك لا يجوز ، لأن النبي ﷺ قال : « أيما امرأة أصابت بخورًا فلا تشهد معنا صلاة العشاء »(٤) .

ثالثًا : جواز إدخال الصبيان للمسجد ، هذا إذا كان صبيُّها معها ، وإن كان خارج المسجد قريبًا منه فليس فيه دلالة ، ولكنه يصعب أن تسمع المرأة بكاء صبيِّها في البيت وهي في المسجد ، فالظاهر أن صبيانهنَّ كانوا معهن ، فيكون فيه دليل على جواز إدخال الصبيان المساجد ، لكن بشرط أن لا يحصل

---

(١) أخرجه البخاري في الأذان (٧٠٧) ، والإمام أحمد في مسنده (٣٠٥/٥) ، قوله « فأتجوّز » أي أخفّف .

(٢) أخرجه مسلم في المساجد (٢٦٢) ، والإمام أحمد في مسنده (٢١٣/٤) وقوله « في ذمة الله » قيل : الذمة هنا الضمان . وقيل : الأمان ، قوله « فإنه من يطلبه من ذمته بشيء يدركه » الضمير في (فإنه) للشأن والضمير المستتر في (من يطلبه) لله والضمير البارز لـ (من ذمته بشيء يدركه) يعني : من يطلبه الله للمؤاخذة بما فرط في حقه والقيام بعهده يدركه الله ؛ إذ لا يفوت منه هارب .

(٣) عزيز عليه ما عنتم : شديد وشاقٌّ عليه عنتكم لكونه بعضًا منكم .

(٤) أخرجه مسلم في الصلاة (١٤٣) .

منهم أذية لا على المسجد ولا على المصلين ، فإن كان يخشى منهم أذية على المسجد كتلويثه بالبول والنجاسة ، فإنهم يمنعون ، وكذلك إذا كان يخشى منهم التشويش على الناس بالصراخ والركض والجلبة ، فإنهم يمنعون أيضًا . أما إذا لم يكن منهم بأس فإنه لابأس بأن يؤتى بهم إلى المساجد .

وأما حديث : « جنبوا مساجدكم صبيانكم ومجانينكم » فهو ضعيف [١] .

رابعًا : أنه يجوز للمصلي أن يسمع ما حوله ولا يلزمه أن يسدَّ أذنيه ، بل له أن يسمع ، لكن إن كان ما حوله يشوش عليه إذا سمعه فلا يصلينّ حوله ، وإنما يبعد كما لو أراد الإنسان أن يصلي في المسجد وحوله حلقة ذكر ، أو حلقة قرآن ، ويخشى أن يشوشوا عليه إذا دنا منهم ، فليبعد . وأما إذا لم يشوشوا فلا بأس أن يسمع ، بخلاف الاستماع فإن المصلي لا يستمع إلا إلى قراءة الإمام .

وعلى هذا إذا كنت تصلي وجاء القارئ يقرأ حديثًا أو موعظة ، فلا تشدَّ سمعك إليه ، لا تستمع إليه ، ولا تجعل تركيزك معه ، أما إذا سمعته ولكنك ماضٍ في صلاتك لم تهتم به ولم تلتفت إليه فلا بأس .

خامسًا : ومن فوائد هذا الحديث أنه يجوز للمصلي أن يغير نيته من تطويل إلى تقصير أو بالعكس ، إذا وجد سببًا لذلك ، لأن النبي ﷺ كان يدخل في الصلاة ناويًا أن يطيلها فيوجز لما ذكره من السبب .

ثم ذكر المؤلف رحمه الله حديث جندب بن عبد الله رضي الله عنه أن النبي ﷺ قال : « من صلى الفجر فهو في ذمة اللّه » الفجر هي الصلاة الأولى عند بعض العلماء . وعند بعض العلماء أن الصلاة الأولى هي صلاة الظهر ، ولكن الأصح أن الصلاة الأولى هي صلاة الفجر ، والثانية : الظهر ، والثالثة : العصر ، وهي الوسطى ، والرابعة : المغرب ، والخامسة : العشاء .

وصلاة الفجر تأتي وكثير من الناس نيام ، ولهذا يتكاسل عنها المنافقون . كما قال النبي ﷺ : «أثقل الصلاة على المنافقين صلاة العشاء وصلاة الفجر ، ولو يعلمون ما فيهما لأتوهما ولو حبوًا » [٢] .

وهي وصلاة العصر أفضل الصلوات الخمس لقول النبي ﷺ « من صلى البردين دخل الجنة » [٣] والبردان هما : الفجر والعصر ، لأن الفجر براد الليل والعصر براد النهار ، وقوله : « من صلى الفجر » ظاهره من صلى في جماعة أو غير جماعة .

وقوله : « فهو في ذمة اللّه » أي في عهده ، يعني أنه دخل في عهد اللّه فكأنه معاهد للّه عز وجل أن لا يصيبه أحد بسوء ، ولهذا قال - عليه الصلاة والسلام - : « فلا يطلبنكم اللّه من ذمته بشيء » يعني لا يترك عهده على مَنْ صلى الفجر ، لأنه في ذمة اللّه وفي عهده ، فإياكم أن يطلبكم اللّه تعالى من ذمته بشيء ، « فإنه من يطلبه من ذمته بشيء يدركه ، ثم يكبه على وجهه في نار جهنم » .

ففي هذا : دليل على أنه يجب احترام المسلمين الذين صدَّقوا إسلامهم بصلاة الفجر ، لأن صلاة

---

(١) أخرجه ابن ماجه في سننه (٧٥٠) ، وذكره الهيثمي في مجمع الزوائد (٢/٢٩) .

(٢) أخرجه بنحوه البخاري في الأذان (٦٥٧) ، ومسلم في المساجد (٢٥٢) ، وأخرجه - بلفظه - الإمام أحمد في مسنده (٢/٤٢٤) .

(٣) أخرجه البخاري في المواقيت (٥٧٤) ، ومسلم في المساجد (٢١٥) ، والإمام أحمد في مسنده (٤/٨٠) .

الفجر لا يصليها إلا مؤمن ، فالمنافقون لا يشهدون الجماعة ولا يصلون الفجر أبدًا ، لأنهم إنما يصلون مراءاةً للناس ، فإذا لم يكن الناس ينتبهون لهم ، فإنهم لا يصلون .

والفجر في عهد النبي ﷺ ليست كالفجر في يومنا ، بل كان الليل في عهد النبي ﷺ ليلًا حالكًا لا يُرى الناس فيه ، فيأتي الإنسان ويذهب وهو لا يُعرف ، لكن الآن ليلنا - والحمد لله - كنهارنا بما أنعم الله علينا به من هذه الإضاءة بالكهرباء ، لكن في عهد النبي ﷺ لظلمة الليل وعدم وضوح الرؤية ، كان المنافقون لا يصلون الفجر والعشاء جماعة . والمهم أن هذا الحديث يدل على وجوب احترام المسلمين الذين برهنوا على إسلامهم بصلاة الفجر وأنه لا يجوز لأحد أن يعتدي عليهم .

* * *

٢٣٣ - وعن ابنِ عمر رضي الله عنهما أنَّ رسول اللَّه ﷺ قال : « المُسْلِمُ أَخُو المُسْلِم ، لا يَظْلِمُهُ ، وَلا يُسْلِمُهُ ، مَنْ كَانَ فِي حَاجَةِ أَخِيهِ كَانَ اللَّه فِي حَاجَتِهِ ، وَمَنْ فَرَّجَ عَنْ مُسْلِمٍ كُرْبَةً فَرَّجَ اللَّهُ عَنْهُ بِهَا كُرْبَةً مَنْ كُرَبِ يَومِ القِيَامَةِ ، وَمَنْ سَتَرَ مُسْلِمًا سَتَرَهُ اللَّهُ يَومَ القِيامَةِ » (١) متفقٌ عليه .

الشرح

قال المؤلف - رحمه الله تعالى - فيما نقله عن عبد الله بن عمر رضي الله عنهما أن النبي ﷺ قال : « المسلم أخو المسلم » يعني في الدين ، كما قال الله تبارك وتعالى : ﴿ فَأَصْبَحْتُم بِنِعْمَتِهِۦٓ إِخْوَٰنًا ﴾ [آل عمران : ١٠٣] وقال الله تعالى : ﴿ فَإِن لَّمْ تَعْلَمُوٓا۟ ءَابَآءَهُمْ فَإِخْوَٰنُكُمْ فِى ٱلدِّينِ وَمَوَٰلِيكُمْ ﴾ (٢) [الأحزاب : ٥] ، وهذه الأخوة هي أوثق الأخوات ، أوثق من أخوة النسب ، فإن أخوة النسب قد يتخلف مقتضاها ، فيكون أخوك من النسب عدوًّا لك كارهًا لك ، وذلك يكون في الدنيا وفي الآخرة . قال الله تعالى : ﴿ ٱلْأَخِلَّآءُ يَوْمَئِذٍۭ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ إِلَّا ٱلْمُتَّقِينَ ﴾ (٣) [الزخرف : ٦٧] .

أما أخوة الدين فإنها أخوة ثابتة راسخة في الدنيا وفي الآخرة . تنفع الإنسان في حياته وبعد مماته ، لكن هذه الأخوة لا يترتب عليها ما يترتب على أخوة النسب من التوارث ووجوب النفقة وما أشبه ذلك .

ثم قال : « لا يظلمه ولا يسلمه » لا يظلمه لا في ماله ، ولا في بدنه ، ولا في عرضه ، ولا في أهله ، يعني : لا يظلمه بأي نوع من الظلم « ولا يسلمه » يعني : لا يسلمه لمن يظلمه ، فهو يدافع عنه ويحميه من شره ، فهو جامع بين أمرين - **الأمر الأول** : أنه لا يظلمه . **والأمر الثاني** : أنه لا يسلمه لمن يظلمه ، بل يدافع عنه :

ولهذا قال العلماء - رحمهم الله - : يجب على الإنسان أن يدافع عن أخيه في عرضه وبدنه وماله .

---

(١) أخرجه البخاري في المظالم (٢٤٤٢) ، ومسلم في البر والصلة (٥٨) ، وأبو داود في الأدب (٤٨٩٣) .

(٢) ﴿ فَإِخْوَٰنُكُمْ فِى ٱلدِّينِ وَمَوَٰلِيكُمْ ﴾ : أي أولياؤكم فيه ، فادعوهم بالأخوة والمولوية وقولوا للواحد منهم : أخي ومولاي ، ولذا قيل لسالم بعد نزول الآية : سالم مولى أبي حذيفة ، وكان قد تبناه قبلُ .

(٣) الأخلاء : أي الأصدقاء الأحباب في الدنيا .

في عرضه : يعني إذا سمع أحدًا يسبه ويغتابه ، يجب عليه أن يدافع عنه . وكذلك أيضًا في بدنه : إذا أراد أحد أن يعتدي على أخيك المسلم وأنت قادر على دفعه ، وجب عليك أن تدافع عنه ، وكذلك في ماله : لو أراد أحد أن يأخذ ماله ، فإنه يجب عليك أن تدافع عنه .

ثم قال - عليه الصلاة والسلام - : « من كان في حاجة أخيه كان اللَّه في حاجته » يعني أنك إذا كنت في حاجة أخيك تقضيها وتساعده عليها ، فإن اللَّه تعالى يساعدك في حاجتك ويعينك عليها جزاءً وفاقًا .

ويُفهم من ذلك : أن الإنسان إذا ظلم أخاه ، فإن أخوته ناقصة ، وإذا أسلمه إلى من يظلمه فإن أخوته ناقصة ، وإذا لم يكن في حاجته ، فإن هذا يفوته الخير العظيم ، وهو كون اللَّه تعالى في حاجته .

ثم قال : « ومن فرج عن مسلم كربة من كرب الدنيا فرج اللَّه عنه كربة من كرب يوم القيامة » الكرب ما يضيق على الإنسان ويشق عليه ، ويجد له في نفسه همًّا وغمًّا ، فإذا فرّجت عن أخيك هذه الكربة فرج اللَّه عنك كربة من كرب يوم القيامة .

وتفريج الكربات يكون في أمور متعددة : إن كانت كربة مالية فبإعطائه المال الذي تزول به الكربة ، وإن كانت كربة معنوية فبالحرص على ردِّ معنويته ورد اعتباره حتى تزول عنه الكربة ، وإذا كانت كربة هم وغم فبأن توسع عليه وتنفس له ، وتبين له أن الأمور لا تدوم ، وأن دوام الحال من المحال ، وتبين له ما في هذا من الأجر والثواب العظيم ، حتى تهوّن عليه الكربة .

« ومن ستر مسلمًا ستره اللَّه في الدنيا والآخرة » ، ستر يعني غطى عيبه ولم يبينه ، فإن اللَّه يستره في الدنيا والآخرة ، وهذا ليس على إطلاقه فهناك نصوص تدل على أنه غير مطلق ، فالستر قد يكون مأمورًا به محمودًا ، وقد يكون حرامًا ، فإذا رأينا شخصًا على معصية ، وهو رجل شرير منهمك في المعاصي ، لا يزيده الستر إلا طغيانًا ، فإننا لا نستره ، بل نبلغ عنه حتى يُردع ردعًا يحصل به المقصود . أما إذا لم تبدر منه بوادر سيئة ، ولكن حصلت منه هفوة ، فإن من المستحب أن تستره ولا تبينه لأحد ، لا للجهات المسؤولة ولا لغيرها ، فإذا سترته ستر اللَّه عليك في الدنيا والآخرة .

ومن ذلك أيضًا : أن تستر عنه العيب الخَلْقي ، إذا كان فيه عيب في خلقته كجروح مؤثرة في جلده أو برص [١] أو بهق [٢] أو ما أشبه ذلك ، وهو يتستر ويحب ألا يطلع عليه الناس فإنك تستره ، إذا سترته سترك اللَّه في الدنيا والآخرة . وكذلك إذا كان سيئ الخلق لكنه يتظاهر للناس بأنه حسن الخلق وواسع الصدر ، وأنت تعرف عنه خلاف ذلك ، فاستره فمن ستر مسلمًا ستره اللَّه في الدنيا والآخرة . فالستر كما قلت بالنسبة للأعمال السيئة التي يقوم بها الإنسان ينقسم إلى قسمين : قسم : يكون من شخص منهمك في المعاصي مستهتر ، فهذا لا نستر عليه . وقسم آخر : حصل منه هفوة ، فهذا هو الذي نستر عليه . أما الأمور الأخرى فالستر فيها أكمل وأفضل . واللَّه المستعان .

---

(١) البرص : بياض يصيب الجلد .

(٢) البهق : داء يذهب بلون الجلد فتظهر فيه بُقَعٌ بيضٌ .

٢٣٤ - وعن أبي هريرة ﷺ قال : قال رسول الله ﷺ : « المُسْلِمُ أَخُو المُسْلِمِ لا يَخُونُه وَلا يَكْذِبُهُ وَلا يَخْذُلُهُ ، كُلُّ المُسْلِمِ عَلَى المُسْلِمِ حَرَامٌ : عِرْضُهُ وَمَالُه وَدَمُهُ ، التَّقْوَى هَهُنَا ، بِحَسبِ امْرِئٍ مِنَ الشَّرِّ أَنْ يَحْقِرَ أَخَاهُ المسلم » (١) ، رواه الترمذيُّ وقال : حديث حسن .

الشرح

قال المؤلف - رحمه الله تعالى - فيما نقله عن أبي هريرة ﷺ أن النبي ﷺ قال : « المسلم أخو المسلم » وقد تقدم الكلام على هذه الجملة . وأن هذه الأخوة أخوة الإيمان ، وأنها أقوى رابطة ، وأوثق من أخوة النسب ، وبينا وجه ذلك فيما سبق .

وبيَّن هنا في هذا الحديث أنه « لا يظلمه ولا يخونه ولا يكذبه » لا يخونه يعني : لا يغدر به في محل الائتمان ، إذا ائتمنه على شيء ، أو على مال ، أو على سرٍّ ، أو على غير ذلك فإنه لا يخونه ، والخيانة هي الغدر بالشخص في موضع الائتمان ولا يجوز لأحد أن يخون أخاه المسلم حتى وإن خانه ، يعني وإن خانك أخوك المسلم فلا تخنه لقول النبي ﷺ : « أدِّ الأمانة إلى من ائتمنك ولا تخن من خانك » (٢) فلو فرضنا أن شخصًا خانك في مال ؛ بأن أقرضته مالًا أي سلفته ، ثم أنكر بعد ذلك وقال لم تقرضني شيئًا ، فإنه لا يحل لك أن تخونه فتقترض منه ثم تنكره ، بل أدِّ إليه أمانته واسأل الله الحق الذي لك ، لقوله - عليه الصلاة والسلام - : « ولا تخن من خانك » .

كذلك أيضًا : لا يكذبه أي لا يحدثه بكذب . والكذب حرام ، وكلما كانت آثاره أسوأ كان أشد إثمًا . وليس في الكذب شيء حلالًا ، وأما ما ادعاه بعض العامة حيث يقولون إن الكذب نوعان : أسود وأبيض ، فالحرام هو الأسود ، والحلال هو الأبيض ، فجوابه : أن الكذب كله أسود ، ليس فيه شيء أبيض : لكن يتضاعف إثمه بحسب ما يترتب عليه ، فإذا كان يترتب عليه أكل مال المسلم ، أو غرر على مسلم ، صار أشد إثمًا . وإذا كان لا يترتب عليه أي شيء من الأضرار ، فإنه أخف ولكنه حرام .

لكن ورد عن النبي ﷺ « أنه رخَّص في الكذب عند الإصلاح بين الناس ، وفي الحرب ، وفي حديث الرجل امرأته ، وحديثها إياه » (٣) .

ولكن كثيرًا من العلماء قال : إن المراد بالكذب في هذا الحديث ليس الكذب الصريح ، وإنما هو التورية ، والتورية تسمى كذبًا ، كما قال إبراهيم - عليه الصلاة والسلام - حين يأتي الناس له يوم القيامة ليشفع لهم : إنه كذب ثلاث كذبات ، وهو لم يكذب ولكنه ورَّى تورية ، يعني أظهر للمخاطب شيئًا غير الذي يريده هو فبعض العلماء يقول : إن هذا الحديث الذي فيه أن الكذب يجوز

---

(١) أخرجه الترمذي في البر والصلة (١٩٢٧) .

(٢) أخرجه أبو داود في سننه (٣٥٣٤) ، والترمذي (١٢٦٤) ، والإمام أحمد في مسنده (٣/٤١٤) .

(٣) الترمذي في البر (١٩٣٩) ، والإمام أحمد في مسنده (٦/٤٥٤) .

في هذه الأشياء الثلاثة ، يراد به كذب التورية لا الكذب الصريح ، وعلى هذا فلا يستثنى من الكذب شيء ، وكل الكذب حرام ، ثم اعلم أن الكذب يحار فيه الإنسان ويعجز عن معالجته كما قيل :

لي حيلةٌ في من ينم وليس في الكذابِ حيلة
من كان يخلق ما يقولُ فحيلتي فيه قليلة

الذي ينمُّ والذي يلقي النميمة بين الناس ، لي فيه حيلة أي يمكن أن أحتال وأتخلص منه ومن شره ، لكن الذي يكذب يقول فعلت وفعلت وهو كاذب ، ليس لي فيه حيلة إذا كان يخلق ما يقول وما شاء قاله ، فهذا مشكل ليس لي فيه حيلة ، ولهذا قال هنا : « ولا يكذبه » .

وفي لفظ : « ولا يحقره » يعني لا يحتقره ولا يستصغره ، حتى وإن كان أكبر منه سنًّا ، وإن كان أكثر منه مالًا ، وإن كان أغزر منه علمًا فلا يحقره .

واحتقار الناس من الكبر - والعياذ بالله - قال النبي ﷺ : « الكبر بطر الحق وغمط الناس » (١) بطر الحق يعني : ردُّه ، وغمط الناس يعني احتقارهم وازدراءهم ، فالمسلم يرى أخاه بعين الإكبار ويحترمه ويعظمه . والعامة يقولون : احترم الناس يحترموك ، واحتقر الناس يحتقروك . يعني من رأى الناس بعين الاحتقار رأوه بعين الاحتقار ، ومن رآهم بعين الإكبار والإجلال ، رأوه بعين الإكبار والإجلال ، وهذا شيء مشاهد .

ولهذا تجد الرجل المتواضع الليِّنَ الهيِّنَ محترمًا عند الناس كلهم ، لا أحد يكرهه ، ولا أحد يسبه . والإنسان الشامخ بأنفه المستكبر المحتقر لغيره ، تجده مكروهًا مذمومًا عند الناس ، ولولا حاجة الناس إليه إذا كانوا يحتاجون إليه ما كلمه أحد . لأنهم يحتقرونه .

ثم قال - عليه الصلاة والسلام - : « التقوى ههنا » أشار إلى صدره ثلاث مرات ، يعني أن التقوى في القلب ، فإذا اتقى القلب اتقت الجوارح ، وإذا لم يتق القلب لم تتق الجوارح ، وهذا كقوله ﷺ : « ألا وإن في الجسد مضغة (٢) إذا صلحت صلح الجسد كله ، وإذا فسدت فسد الجسد كله ألا وهي القلب» (٣) فإذا كان في قلب الإنسان تقوى للّه ﷻ وخوفٌ منه وخشية له ، استقامت أعماله الظاهرة ، لأن الأعمال الظاهرة تتبع القلب .

وقد مثّل بعض العلماء ومنهم أبو هريرة ﷺ القلب بالملك المطاع مع جنوده ، فالملك المطاع مع جنوده إذا أمرهم بشيء أطاعوه ، ولكن بعض العلماء قال : إن هذا المثال أنقص من قول النبي ﷺ : « إذا صلحت صلح الجسد كله » وذلك لأن الملك مع جنوده وإن كان مطاعًا فإنهم لا يصلحون بصلاحه ، لكن القلب إذا صَلُحَ صَلُحَ الجسدُ ، وإذا اتقى اتقى الجسد .

واعلم أن من الناس من يجادل بالباطل بهذا الحديث ، فإذا أمرته بمعروف ، أو نهيته عن منكر ،

---

(١) أخرجه مسلم في الإيمان (١٤٧) .

(٢) المضغة : القطعة التي تمضغ من لحم وغيره .

(٣) أخرجه البخاري في الإيمان (٥٢) ، ومسلم في المساقاة (١٠٧) .

قال : التقوى ههنا . تقول له لا تحلق لحيتك ، فحلق اللحية حرام ، وحلق اللحية من هدي المجوس والمشركين ، وإعفاء اللحية من هدي النبيين والمرسلين وأولياء الله الصالحين ، إذا قلت له هذا قال : التقوى ههنا . التقوى ههنا . نقول له : كذبت وإنه ليس في قلبك تقوى ، لو كان في قلبك تقوى لاتقيت الله ، لأن القلب إذا اتقى اتقت الجوارح ، وإذا انهمك في معصية الله انهمكت الجوارح .

وفي قوله : « التقوى ههنا » وإشارته إلى صدره دليل على أن العقل في القلب الذي في الصدر ، وهذا هو المطابق للقرآن تمامًا ، قال الله تعالى : ﴿ أَفَلَمْ يَسِيرُواْ فِي ٱلْأَرْضِ فَتَكُونَ لَهُمْ قُلُوبٌ يَعْقِلُونَ بِهَآ أَوْ ءَاذَانٌ يَسْمَعُونَ بِهَا فَإِنَّهَا لَا تَعْمَى ٱلْأَبْصَٰرُ وَلَٰكِن تَعْمَى ٱلْقُلُوبُ ٱلَّتِي فِي ٱلصُّدُورِ ﴾ [الحج: ٤٦] ، فقال : ﴿ قُلُوبٌ يَعْقِلُونَ بِهَآ ﴾ ثم قال : ﴿ تَعْمَى ٱلْقُلُوبُ ٱلَّتِي فِي ٱلصُّدُورِ ﴾ .

وليس القلبُ هم المخُّ كما يظنه بعض الجهال ، فالعقل في القلب ، ولكن المخ لا شك أن له أثرًا في أعمال العبد ، في حركاته ، وفي سكناته ، لكنهم قالوا إن المخ مثل الخادم ، يهيئ الأشياء ويطبخها ، ثم يبعث بها إلى القلب ، ثم يصدر القلب الأوامر على المخ من أجل أن المخ يدبر الأعصاب وبقية الجسم فيكون هذا المخ خادمًا للقلب عند تصدير الأشياء إليه واستصدارها منه ، فالأشياء تمر من القلب ذاهبة وآتية إلى المخ ، والمخ هو الذي يحرك البدن ، ولذلك إذا اختل المخُّ اختل كل شيء .

ثم قال ﷺ : « بحسب امرئ من الشر أن يحقر أخاه المسلم » يعني : لو لم يكن من الشر للمسلم إلا أن يحقر أخاه ويستصغره ويستذله ، لكان كافيًا في الإثم والعياذ بالله ، وفي هذا التحريم أعظم زاجر من احتقار أخيك المسلم ، وأن الواجب عليك أن تحترمه وتعظمه بما فيه من الإسلام والإيمان .

ثم قال ﷺ : « كل المسلم على المسلم حرام دمه وماله وعرضه » : « كل المسلم على المسلم حرام دمه » فلا يعتدى على المسلم بقتل أو جرح أو غير ذلك « وماله » فلا يؤخذ ماله ، لا غصبًا ، ولا سرقة ، ولا خيانة ، ولا دعوى ما ليس له ، ولا غير ذلك بأي طريق ، فلا يحل لك أن تأخذ مال أخيك بغير حق فإنه حرام عليك .

« وعرضه » بأن لا تنتهك عرضه ، وتتكلم فيه بين الناس ، سواء كنت صادقًا فيما تقول أو كاذبًا ، لأن النبي ﷺ لما سئل عن الغيبة فقال : « ذكرك أخاك بما يكره » قالوا : يا رسول الله ، أرأيت إن كان في أخي ما أقول ؟ قال : « إن كان فيه ما تقول فقد اغتبته وإن لم يكن فيه ما تقول فقد بهته » فالواجب على المسلم أن يحترم أخاه في ماله وعرضه ودمه كما قال ﷺ : « كل المسلم على المسلم حرام : دمه ، وماله ، وعرضه » .

* * *

٢٣٥ – وعنه قال : قال رسول الله ﷺ : « لا تَحَاسَدُوا ، ولا تَنَاجَشُوا ، وَلا تَبَاغَضُوا ، وَلا تَدَابَرُوا ، وَلا يَبِعْ بَعْضُكُمْ عَلَى بَيعِ بَعْضٍ ، وَكُونُوا عِبَادَ اللَّهِ إِخْوَانًا . المُسْلِمُ أخو المُسْلِمِ : لا يَظْلِمُه ، وَلا يَحْقِرُهُ ، وَلا يَخْذُلُهُ . التَّقْوَى ههنَا – وَيُشِيرُ إِلَى صَدْرِهِ ثَلاثَ مَرَّاتٍ – بِحَسْبِ امْرِئٍ مِنَ الشَّرِّ أَنْ

يَحْقِرَ أَخَاهُ الْمُسْلِمَ . كُلُّ الْمُسْلِمِ عَلَى الْمُسْلِمِ حَرَامٌ : دَمُهُ ، وَمَالُهُ ، وَعِرْضه »[(١)] رواه مسلم .

« النَّجْش » : أَنْ يَزِيدَ فِي ثَمَنِ سِلْعَةٍ يُنَادى عَلَيهَا فِي السُّوقِ وَنَحوِهِ ، وَلا رَغْبَةَ لَه فِي شِرَائِهَا بَلْ يَقْصِد أَنْ يَغُرَّ غَيرَهُ ، وَهذَا حَرَامٌ . « وَالتَّدَابُرُ » : أَنْ يُعْرِضَ عَنِ الإِنْسَانِ وَيَهْجُرهُ وَيَجْعَلَهُ كَالشَّيءِ الَّذِي وَرَاءَ الظهر وَالدُّبُرِ .

الشرح

قال المؤلف – رحمه اللّه تعالى – فيما نقله عن أبي هريرة ﷺ أن النبي ﷺ قال : « لا تحاسدوا » أي لا يحسد بعضكم بعضا . والحسد أن يكره الإنسان ما أنعم اللّه به على غيره . هذا هو الحسد ، ومثاله : أن تكره أن اللّه أنعم على هذا الرجل بالمال ، أو بالبنين ، أو بالزوجة ، أو بالعلم ، أو بالعبادة ، أو بغير ذلك من النعم ، سواء تمنيت أن تزول أم لم تتمن .

وإن كان بعض العلماء يقول : إن الحسد أن يتمنى زوال نعمة اللّه على غيره ، لكن هذا أخبثه وأشده ، وإلا فمجرد كراهة الإنسان أن ينعم اللّه على الشخص فهو حسد . والحسد من خصال اليهود ، فمن حسد فهو متشبه بهم والعياذ باللّه ، قال اللّه تعالى : ﴿ وَدَّ كَثِيرٌ مِّنْ أَهْلِ ٱلْكِتَٰبِ لَوْ يَرُدُّونَكُم مِّنۢ بَعْدِ إِيمَٰنِكُمْ كُفَّارًا حَسَدًا مِّنْ عِندِ أَنفُسِهِم ﴾ [البقرة : ١٠٩] وقال تعالى فيهم : ﴿ أَمْ يَحْسُدُونَ ٱلنَّاسَ عَلَىٰ مَآ ءَاتَىٰهُمُ ٱللَّهُ مِن فَضْلِهِۦ ۖ فَقَدْ ءَاتَيْنَآ ءَالَ إِبْرَٰهِيمَ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْحِكْمَةَ وَءَاتَيْنَٰهُم مُّلْكًا عَظِيمًا ﴾ [النساء : ٥٤] ولا فرق بين أن تكره ما أنعم اللّه به على غيرك ليعود هذا الشيء إليك ، أو ليرتفع عن أخيك وإن لم يعد إليك .

واعلم أن في الحسد مفاسد كثيرة :

منها : أنه تشبه باليهود أخبث عباد اللّه وأخس عباد اللّه ، الذين جعل اللّه منهم القردة والخنازير وعبدة الطاغوت .

ومنها : أن فيه دليل على خبث نفس الحاسد ، وأنه لا يحبُّ لإخوانه ما يحب لنفسه ، لأن مَنْ أحبَّ لإخوانه ما يحبُّ لنفسه لم يحسد الناس على شيء ، بل يفرح إذا أنعم اللّه على غيره بنعمة ويقول : اللهم آتني مثلها ، كما قال اللّه تعالى : ﴿ وَلَا تَتَمَنَّوْا۟ مَا فَضَّلَ ٱللَّهُ بِهِۦ بَعْضَكُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ ۚ لِّلرِّجَالِ نَصِيبٌ مِّمَّا ٱكْتَسَبُوا۟ ۖ وَلِلنِّسَآءِ نَصِيبٌ مِّمَّا ٱكْتَسَبْنَ ۚ وَسْـَٔلُوا۟ ٱللَّهَ مِن فَضْلِهِۦٓ ﴾ [النساء : ٣٢] .

ومنها : أن فيه اعتراضًا على قدر اللّه ﷻ وقضائه ، وإلا فمن الذي أنعم على هذا الرجل ؟ اللّه ﷻ ، فإذا كرهت ذلك فقد كرهت قضاء اللّه وقدره ، ومعلوم أن الإنسان إذا كره قضاء اللّه وقدره فإنه على خطر في دينه – نسأل اللّه العافية – لأنه يريد أن يزاحم ربَّ الأرباب جلَّ وعلا في تدبيره وتقديره .

ومن مفاسد الحسد : أنه كلما أنعم اللّه على عباده نعمة التهبت نار الحسد في قلبه ، فصار دائمًا في حسرة ودائمًا في غمٍّ ، لأن نعم اللّه على العباد لا تحصى ، وهو رجل خبيث كلما أنعم اللّه على عبده

---

(١) أخرجه مسلم في البر والصلة (٣٢) ، والإمام أحمد في مسنده (٢/٢٧٧) .

نعمة على ذلك الحسد في قلبه حتى يحرقه .

ومن مفاسد الحسد : أنه يأكل الحسنات كما تأكل النار الحطب كما قال ﷺ : « إياكم والحسد ، فإنه يأكل الحسنات كما تأكل النار الحطب »(١) .

ومن مفاسده : أنه يعرقل الإنسان عن السعي في الأشياء النافعة ، لأنه دائمًا يفكر ويكون في غم ؛ كيف جاء هذا الرجلَ مالٌ ؟ كيف جاءه علم ؟ كيف جاءه ولد ؟ كيف جاءه زوجة وما أشبه ذلك ، فتجده دائمًا متحسرًا منطويًا على نفسه ، ليس له هم إلا تتبع نعم اللّه على العباد واغتمامه بها نسأل اللّه العافية .

ومن مفاسد الحسد : أنه ينبئ عن نفس شريرة ضيقة ، لا تحب الخير ، وإنما هي نفس أنانية تريد أن يكون كلّ شيء لها .

ومن مفاسد الحسد أيضًا : أنه لا يمكن أن يغير شيئًا مما قضاه اللّه ﷻ أبدًا ، مهما عملت ، ومهما كرهت ، ومهما سعيت لإخوانك في إزالة نعم اللّه عليهم ، فإنك لا تستطيع شيئًا .

ومن مفاسده : أنه ربما يترقى بالإنسان إلى أن يصل إلى درجة العائن ، والعائن الذي تسميه النحوت يعين الناس ، لأن العائن أصله أن نفسه شريرة حاسدة حاقدة ، إذا رأى ما يعجبه انطلق من هذه النفس الخبيثة مثل السهم حتى يصيب بالعين ، فالإنسان إذا حسد وصار فيه نوع من الحسد ، فإنه يترقى به الأمر حتى يكون من أهل العيون الذين يؤذون الناس بأعينهم ، ولاشك أن العائن عليه من الوبال والنقمة بقدر ما ضرَّ العباد . إن ضرهم بأموالهم فعليه من ذلك إثم أو بأبدانهم أو بمجتمعهم ، ولهذا ذهب كثير من أهل العلم إلى تضمين العائن كل ما أتلف ، يعني إذا نحت أحدًا وأتلف شيئًا من ماله أو أولاده أو غيرهم ، فإنه يضمن ، كما أنهم قالوا : إن من اشتهر بذلك ، فإنه يجب أن يُحبس إلا أن يتوب ، يحبس اتقاء شره ، لأنه يؤذي الناس ويضرهم ، فيحبس كفًّا لشره .

ومن مفاسد الحسد : أنه يؤدي إلى تفريق المسلمين لأن الحاسد مكروه عند الناس مبغض ، والإنسان الطيب القلب الذي يحب لإخوانه ما يحبه لنفسه ، تجده محبوبًا من الناس ، الكلُّ يحبه . ولهذا دائمًا نقول : واللّه فلان هذا طيب ما في قلبه حسد ، وفلان رجل خبيث حسود وحقود وما أشبه ذلك .

فهذه عشر مفاسد كلها في الحسد ، وبهذا نعرف حكمة النبي ﷺ حيث قال : « لا تحاسدوا » أي : لا يحسد بعضكم بعضا ، فإن قال قائل : ربما يجد الإنسان في نفسه أنه يحبُّ أن يتقدم على غيره في الخير ، فهل هذا من الحسد ؟ فالجواب أن ذلك ليس من الحسد بل هذا من التنافس في الخيرات ، قال اللّه تعالى : ﴿ لِمِثْلِ هَٰذَا فَلْيَعْمَلِ ٱلْعَٰمِلُونَ ﴾ [الصافات : ٦١] ، وقال تعالى : ﴿ وَفِى ذَٰلِكَ فَلْيَتَنَافَسِ ٱلْمُتَنَٰفِسُونَ ﴾ [المطففين : ٢٦] فإذا أحبَّ الإنسان أن يتقدم على غيره في الخير ، فهذا ليس من الحسد في شيء ،الحسد أن يكره الخير لغيره .

واعلم أن للحسد علامات : منها أن الحاسد يحبُّ دائمًا أن يخفي فضائل غيره ، فإذا كان إنسان ذو

(١) أخرجه أبو داود في سننه (٤٩٠٣) .

مال ، ينفق ماله في الخير من صدقات ، وبناء مساجد ، وإصلاح طرق ، وشراء كتب يوقفها على طلبة العلم وغير ذلك ، فتجد هذا الرجل الحسود إذا تحدث الناس على هذا المحسن يسكت وكأنه لم يسمع شيئًا ، هذا لاشك أن عنده حسدًا ، لأن الذي يحب الخير يحبُّ نشر الخير للغير ، فإذا رأيت الرجل إذا تكلم عن أهل الخير بإنصاف وأثنى عليهم وقال هذا فيه خير وهذا محسن ، وهذا كريم ، فهذا يدل على طيب قلبه وسلامته من الحسد . نسأل اللَّه أن يعيذنا وإياكم من الحسد ومن منكرات الأخلاق والأعمال .

أما قوله : « ولا تناجشوا » فالنجش هو أن يزيد في السلعة على أخيه وهو لا يريد شراءها ، وإنما يريد أن يضرّ المشتري أو ينفع البائع أو الأمرين جميعًا .

مثال ذلك : عرضت سلعة في السوق فصار الناس يتزايدون فيها ، فقام رجل فجعل يزيد فيها وهو لا يريد الشراء ، تسام بمائة فقال بمائة وعشرة وهو لا يريد أن يشتري ، ولكنه يريد أن يزيد الثمن على المشتري ، أو يريد أن ينفع البائع فيزيد الثمن له أو الأمرين جميعًا ، فهذا حرام ولا يجوز لما فيه من العدوان . أما إذا زاد الإنسان في الثمن عن رغبة في السلعة ولكن لما ارتفعت قيمتها تركها فهذا لا بأس به ، فإن كثيرًا من الناس يزيد في السلعة لأنه يرى أنها رخيصة ، فإذا زادت قيمتها تركها فهذا ليس عليه بأس . كما أن من الناس من يزيد السلعة يريدها ويزيد في ثمنها حتى تخرج عن قيمتها كثيرًا .

فالناس على زيادتهم في السلعة على ثلاثة أقسام :

القسم الأول : نجش وهو حرام ، الثاني : يزيد فيها لأنه يرى أنها رخيصة ، وأنها ستكسبه ، وليس له قصد في عين السلعة ولا يريدها بعينها ، لكن لما رأى أنها رخيصة وأنها ستكسبه جعل يزيد ، فلما ارتفعت قيمتها تركها فهذا أيضًا لا بأس به . الثالث : أن يكون له غرض في السلعة ، يريد أن يشتري هذه السلعة ، فيزيد حتى يطيب خاطره ويظفر بها ، فهذا أيضًا لا بأس به .

وقوله ﷺ : « ولا تباغضوا » أي لا يبغض بعضكم بعضًا ، وهذا بالنسبة للمؤمنين بعضهم مع بعض ، فلا يجوز للإنسان أن يُبغض أخاه أي : يكرهه في قلبه ؛ لأنه أخوه ، ولكن لو كان هذا الأخ من العصاة الفسقة ، فإنه يجوز لك أن تبغضه من أجل فسقه ، لا تبغضه بغضًا مطلقًا ، لكن أبغضه على ما فيه من المعصية ، وأحبه على ما فيه من الإيمان .

ومن المعلوم أننا لو وجدنا رجلًا مسلمًا يشرب الخمر ويشرب الدخان ويجر ثوبه خيلاء ، فإننا لا نبغضه كما نبغض الكافر ، فمن أبغضه كما يبغض الكافر فقد انقلب على وجهه ، كيف تسوي بين مؤمن عاصٍ فاسق ، وبين الكافر ؟ هذا خطأ عظيم . ربما بعض الناس يكره المؤمن الذي عنده هذا الفسق أكثر مما يكره الكافر ، وهذا - والعياذ باللَّه - من انقلاب الفطرة ، فالمؤمن مهما كان خير من الكافر .

فأنت أبغِضْهُ على ما فيه من المعصية وأَحِبَّه على ما معه من الإيمان ، فإن قلت : كيف يجتمع حب وكراهية في شيء واحد ؟ فالجواب : أنه يمكن أن يجتمع حب وكراهية في شيء واحد ، أرأيت لو أن الطبيب وصف لك دواءً مرًّا منتن الرائحة ، ولكنه قال أشربه وتشفى بإذن اللَّه ، فإنك لا تحب هذا

الدواء على سبيل الإطلاق لأنه مر وخبيث الرائحة ، ولكنك تحبه من جهة أنه سبب للشفاء ، وتكرهه لما فيه من الرائحة الخبيثة والطعم المر .

هكذا المؤمن العاصي ، لا تكرهه بالمرة ، بل تحبه على ما معه من الإيمان وتكرهه على ما معه من المعاصي . ثم إن كراهتك إياه لا توجب أن تعرض عن نصيحته ، بأن تقول : أنا ما أتحمل أن أواجه هذا الرجل لأني أكره منظره ، بل اغصب نفسك واتصل به وانصحه ، ولعل اللّٰه أن ينفعه على يديك ولا تيأس ، كم من إنسان استبعد الإنسان أن يهديه اللّٰه فهداه اللّٰه ﷻ .

والأمثلة على هذا كثيرة في وقتنا الحاضر وفيما سبق ؛ في وقتنا الحاضر يوجد أناس فسقة يسَّر اللّٰه لهم من يدعوهم إلى الحق فاهتدوا ، وصاروا أحسن من الذي دعاهم ، وفيما سبق من الزمان أمثلة كثيرة ، فهذا خالد بن الوليد رضي الله عنه كان سيفًا مسلولًا على المسلمين ، ومواقفه في أحد مشهورة حيث كرَّهو وفرسان من قريش على المسلمين من عند الجبل ، وحصل ما حصل من الهزيمة ثم هداه اللّٰه تعالى . وعمر بن الخطاب رضي الله عنه كان من أكره الناس لما جاء به الرسول - عليه الصلاة والسلام - فهداه اللّٰه وكان من أولياء اللّٰه ، فكان الثاني في هذه الأمة .

لذلك فلا تيأس ، ولا تقل إنني لا أطيق هذا الرجل لا منظرًا ولا مسمعًا ، ولا يمكن أن أذهب إليه ، بل اذهب ولا تيأس فالقلوب بيد اللّٰه ﷻ ، نسأل اللّٰه أن يهدينا وإياكم صراطه المستقيم .

فإن قال قائل : البغضاء هي انفعال في النفس ، والأشياء الانفعالية قد لا يطيقها الإنسان كالحب مثلًا ، لا يملك الإنسان أن يحب شخصًا أو أن يقلل من محبته أو أن يزيد في محبته إلا بأسباب ، ولهذا قال النبي - عليه الصلاة والسلام - وهو يقسم بين زوجاته : « اللهم هذا قسمي فيما أملك فلا تلمني فيما تملك ولا أملك »[(١)] يعني في المحبة ، ومن المعلوم أن الرسول - عليه الصلاة والسلام - كان يحب عائشة رضي الله عنها أكثر من غيرها من زوجاته ، لكن هذا بغير اختيار .

فإذا قال قائل : الغضب انفعال لا يمكن للإنسان أن يسيطر عليه .

فالجواب : الانفعال يحصل بفعل ، فأنت مثلًا لا تحب شخصًا إلا لأسباب : إيمانه ، نفعة للخلق ، حسن خلقه ، خدمته لك ، أو غيرها من الأشياء الكثيرة ، تذكر هذه الأسباب فتحبه ، ولا تكره شخصًا إلا لسبب ، تذكر الأسباب التي توجب الكراهة فتكرهه ، لكن مع ذلك ينبغي للإنسان أن يعرض عن الأسباب التي توجب البغضاء مع أخيه ، لأن النبي ﷺ قال : « لا تباغضوا » .

لكن أقول : إن البغضاء لها أسباب ، والمحبة لها أسباب ، فإذا أعرضت عن أسباب البغضاء وتناسيتها وغفلت عنها زالت بإذن اللّٰه ، وهذا هو الذي أراده النبي - عليه الصلاة والسلام - بقوله : « لا تباغضوا » ، وهو نظير قوله للرجل الذي قال يا رسول اللّٰه : أوصني ، قال : « لا تغضب » ، قال : أوصني ، قال : « لا تغضب » ، قال : أوصني ، قال : « لا تغضب » ردد مرارًا قال : « لا

---

(١) أخرجه أبو داود في سننه (٢١٣٤) ، والإمام أحمد في مسنده (٦/١٤٤) .

تغضب »(١) .

قد يقول الإنسان : إن الغضب جمرة يلقيها الشيطان في قلب ابن آدم ، كما جاء في الحديث (٢) ، فلا سبيل له إلى إخماده ، ونقول : بل له سبيل ، افعل الأسباب التي تخفف الغضب حتى يزول عنك الغضب .

قال : « ولا تدابروا » فهل المراد ألا يولي بعضكم دبر بعض من التدابر الحسي ؟ بمعنى مثلًا أن تجلس وتخلي الناس وراءك في المجالس . نعم هذا من المدابرة ، ومن المدابرة أيضًا المقاطعة في الكلام حين يتكلم أخوك معك وأنت قد صددت عنه ، أو إذا تكلم وليت وخليته ، فهذا من التدابر ، وهذا التدابر حسي .

وهناك تدابر معنوي ، وهو اختلاف الرأي ، بحيث يكون كل واحد منا له رأي مخالف للآخر ، وهذا التدابر في الرأي أيضًا نهى عنه الرسول - عليه الصلاة والسلام - .

وعندي : أن من التدابر ما يفعله بعض الإخوة إذا سلم من الصلاة تقدم على الصف مقدار شبر أو نحوه ، فهذا فيه من نوع من التدابر ، ولهذا شكا إليَّ بعض الناس هذه الحال ، قال : بعض الناس إذا سلمنا تقدم قليلًا ثم يحول بيني وبين الإمام ، لا سيما إذا كان هناك درس فإنه يحول بيني وبين مشاهدة الإمام ، ومعلوم أن الإنسان إذا كان يرى المدرس كان أنبه له وأقرب للفهم والإدراك ، فبعض الناس يكره هذا الشيء ، لذا أيضًا ينبغي للإنسان أن يكون ذا بصيرة وفطنة فلا تتقدم على إخوانك وتلقيهم وراءك ، إذا كان بودك أن تتوسع فقم وتقدم بعيدًا واجلس إذا كنت في الصف الأول ، وإن كنت في الصف الثاني تأخر ، أما أن تتقدم على الناس وتبقي لهم ظهرك فهذا فيه نوع من سوء الأدب ، وفيه نوع من التدابر .

فينبغي في هذه المسألة وفي غيرها أن يتفطن الإنسان لغيره ، بل لا يكون أنانيًا يفعل فقط ما طرأ على باله فعلُه ، دون مراعاة للناس ودون حذر من فعل ما ينتقد عليه .

أما الجملة الخامسة فهي قوله : « ولا يبع بعضكم على بيع بعض » لا يبع بعضكم على بيع بعض لأن هذا يؤدي إلى الكراهية والعداوة والبغضاء . ومثال بيع الإنسان على أخيه أن يذهب لمن اشترى سلعة من شخص بمائة فيقول أن أعطيك مثلها بثمانين ، أو أعيطك أحسن منها بمائة فيرجع المشتري ويفسخ العقد الأول ويعقد مع الثاني ، ففي هذا عدوان ظاهر على حق البائع الأول ، وهذا العدوان يوجب العداوة والبغضاء بين المسلمين .

ومثل ذلك الشراء على شرائه ، مثل : أن يذهب إلى شخص باع سلعة بمائة فيقول له أنا أشتريها منك بمائة وعشرين ، فيذهب البائع ويفسخ العقد ويبيع على الثاني ، فهذا أيضًا حرام لأنه بمعنى البيع على البيع .

ولكن هل هذا خاص في زمن الخيار أو عام ؟ .

الحديث عام : أنه لا يحل لك أن تبيع على بيع أخيك سواء في زمن الخيار أو لا ، وقال بعض

(١) أخرجه البخاري في الأدب (٦١١٦) ، والترمذي في سننه (٢٠٢٠) .
(٢) انظر الحديث في سنن الترمذي (٢١٩١) ، وانظر مسند الإمام أحمد (١٩/٣) .

العلماء : إنه محمول على ما إذا كان ذلك في زمن الخيار ، لأنه إذا انتهى زمن الخيار فإنه لا يستطيع أن يفسخ العقد ، ومثال ذلك رجل باع على شخص سيارة بعشرة آلاف ريال ، وجعل له الخيار ثلاثة أيام ، فذهب شخص إلى المشتري وقال : أنا أعطيك أحسن منها بعشرة آلاف ريال يسهل على المشتري أن يذهب للبائع ويقول فسخت العقد ، أو يذهب شخص إلى البائع يقول : سمعت أنك بعت سيارتك على فلان بعشرة آلاف ريال ، أنا أعطيك أحد عشر ألفًا فيفسخ البيع ويرد ويبيعها على الثاني .

أما إذا كان بعد انتهاء المدة : فقال بعض العلماء : أنه لا بأس ، يعني بعد أن باعه وجعل له الخيار ثلاثة أيام وانتهت الأيام الثلاثة فلا بأس أن يذهب إلى الشخص الذي اشتراها ويقول : أن أعطيك مثلها بأقل ، أو أحسن منها بالثمن الذي اشتريت به . وعللوا ذلك بأنه لا يمكن حينئذ أن يفسخ البيع لانتهاء زمن الخيار .

ولكن ظاهر الحديث العموم ؛ لأنه وإن كان لا يمكنه أن يفسخ البيع لانتهاء زمن الخيار فإنه قد يحاول أن يوجد مفسدًا للعقد ، أو على الأقل يندم على شرائه ، ويعتقد أن البائع غبنه [١] وأنه لعب عليه ، فيحدث له بذلك العداوة والبغضاء ، وهذا مع قرب المدة أما إذا طالت المدة فلا بأس بها ؛ لأنه إذا طالت المدة فإنه من المتعذر أو المتعسر كثيرًا أن يفسخ العقد .

والحاصل : أن لدينا ثلاث حالات :

الحال الأولى : أن يكون البيع أو الشراء على أخيه في زمن الخيار ، فلاشك في أنه حرام ، **والحال الثانية** : أن يكون بعد انتهاء زمن الخيار بمدة قريبة ، ففيه خلاف بين العلماء والصحيح أنه حرام ، **والحال الثالثة** : أن يكون بعد زمن بعيد ، كشهر أو شهرين أو أكثر ، فهذا لا بأس به ، ولا حرج فيه ، لأن الناس يتبادلون السلع فيما بينهم على هذا الوجه ، وعلى وجوه أخرى .

ومثل ذلك : الإجارة على إجارته ، مثل أن يذهب شخص إلى آخر استأجر بيتًا من إنسان السنة بألف ريال ، وقال له أنا عندي لك أحسن منه بثمانمائة ريال ، فهذا حرام لأنه عدوان كالبيع على بيعه .
ومثل ذلك أيضًا السوم [٢] على سومه ، وقد جاء صريحًا فيما رواه مسلم [٣] ، ويسوم على سومه كما إذا سام شخص سلعة من آخر ، وركن إليه صاحب السلعة ، ولم يبق إلا العقد ، مثل أن يقول بعها علي بألف فيركن إليه البائع ، ولكن لم يتم العقد ، بل يجزم أن يبيع عليه ، فيأتي إنسان آخر ويقول أنا أعطيك بها ألفًا ومائة فإن هذا لا يجوز . لأن النبي ﷺ قال : « لا يسم على سوم أخيه » .

ومثل ذلك أيضًا : في النكاح ، إذا خطب شخص من آخر فلا يحل لأحد أن يخطب على خطبته ، لقول النبي ﷺ : « ولا يخطب على خطبة أخيه » [٤] وكل هذا احترامًا لحقوق المسلمين بعضهم على بعض ، فلا يحل للإنسان أن يعتدي على حق إخوانه ؛ لا بيع ولا شراء ولا إجارة ولا سوم ولا نكاح ولا غير ذلك من الحقوق .

بقي الكلام على قوله – عليه الصلاة والسلام – : « التقوى ههنا » ويشير إلى صدره ، وقد سبق لنا أن

---

(١) غبنه : غبنه في البيع أي غَلَبَهُ ونقصه . (٢) السوم هنا : المغالاة .
(٣ ، ٤) انظر صحيح مسلم في النكاح (٣٨) .

المعنى أن التقوى في القلب ، فإذا اتقى القلب اتقت الجوارح ، وإذا زاغ القلب [١] زاغت الجوارح - والعياذ بالله - قال تعالى : ﴿ ذَٰلِكَ أَدْنَىٰٓ أَن يَأْتُوا۟ بِٱلشَّهَٰدَةِ عَلَىٰ وَجْهِهَآ أَوْ يَخَافُوٓا۟ أَن تُرَدَّ أَيْمَٰنٌۢ بَعْدَ أَيْمَٰنِهِمْ ۗ وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ وَٱسْمَعُوا۟ ۗ وَٱللَّهُ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلْفَٰسِقِينَ ﴾ [المائدة : ١٠٨] .

واعلم أن زيغ القلب لا يكون إلا بسبب الإنسان ، فإذا كان الإنسان يريد الشر ولا يريد الخير فإنه يزيغ قلبه والعياذ بالله ، ودليل هذا قوله تعالى : ﴿ فَلَمَّا زَاغُوٓا۟ أَزَاغَ ٱللَّهُ قُلُوبَهُمْ ﴾ ، وقوله تعالى : ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِىُّ قُل لِّمَن فِىٓ أَيْدِيكُم مِّنَ ٱلْأَسْرَىٰٓ إِن يَعْلَمِ ٱللَّهُ فِى قُلُوبِكُمْ خَيْرًا يُؤْتِكُمْ خَيْرًا مِّمَّآ أُخِذَ مِنكُمْ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ۗ وَٱللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴾ [الأنفال : ٧٠] .

فإذا علم الله من العبد نية صالحة وإرادة للخير يسر الله له ذلك وأعانه عليه ، قال الله تعالى : ﴿ فَأَمَّا مَنْ أَعْطَىٰ وَٱتَّقَىٰ ۝ وَصَدَّقَ بِٱلْحُسْنَىٰ ۝ فَسَنُيَسِّرُهُۥ لِلْيُسْرَىٰ ﴾ [الليل : ٥-٧] .

وقوله - عليه الصلاة والسلام - : « بحسب امرئ من الشر أن يحقر أخاه المسلم » يعني لو يكن للإنسان من الشر إلا أن يحقر أخاه المسلم لكان كافيًا ، وهذا يدل على كثرة إثم من حقر إخوانه المسلمين ، لأن الواجب على المسلم أن يعظم إخوانه المسلمين ويكبرهم ويعتقد لهم منزلة في قلبه ، وأما احتقارهم وازدراؤهم [٢] فإن في ذلك من الإثم ما يكفي - نسأل الله السلامة .

ثم قال ﷺ : « كل المسلم على المسلم حرام دمه وماله وعرضه » . يعني أن المسلم حرام على المسلم في هذه الأمور الثلاثة ، أي في كل شيء ؛ لأن هذه الأمور الثلاثة تتضمن كل شيء ، الدم : كالقتل والجراح وما أشبهها ، والعرض : كالغيبة ، والمال : كأكل المال ، وأكل المال له طرق كثيرة : منها السرقة ، ومنها الغصب - وهو أخذ المال قهرًا - ، ومنها أن يجحده ما عليه من الدَّين لغيره ، ومنها أن يدعي ما ليس له ، وغير ذلك ، وكل هذه أشياء حرام ، ويجب على المسلم أن يحترم أخاه في ماله ودمه وعرضه .

* * *

٢٣٦ - وعن أنسٍ رضي الله عنه عن النبي ﷺ قال : « لا يُؤمِنُ أَحَدُكُمْ حَتَّى يُحِبَّ لأَخِيهِ مَا يُحِبُّ لِنَفْسِهِ » [٣] متفقٌ عليه .

٢٣٧ - وعنه قال : قال رسول الله ﷺ : « انْصُرْ أَخَاكَ ظَالِمًا أَو مظْلُومًا » فَقَالَ رَجُلٌ : يَا رسول الله أَنْصُرُهُ إِذَا كَانَ مَظْلُومًا أَرأيتَ إِنْ كَانَ ظَالِمًا كَيفَ أَنْصُرُهُ ؟ قال : « تَحْجُزُهُ - أَو تَمْنَعُهُ - مِنَ الظُّلْمِ فَإِنَّ ذلِكَ نَصْرُهُ » [٤] رواه البخاري .

---

(١) زاغ القلب : مال عن الهدى والقصد. (٢) ازدراؤهم : احتقارهم وانتقاصهم .

(٣) أخرجه البخاري في الإيمان (١٣) ، ومسلم في الإيمان (٧١) ، والترمذي في صفة القيامة (٢٥١٥) .

(٤) أخرجه البخاري في المظالم (٢٤٤٤) ، والترمذي بنحوه في الفتن (٢٢٥٥) ، والإمام أحمد في مسنده (٣/٩٩) .

الشرح

ذكر المؤلف - رحمه الله تعالى - فيما نقله عن أنس بن مالك ﷺ، أن النبي ﷺ قال: «لا يؤمن أحدكم حتى يحب لأخيه ما يحب لنفسه» لا يؤمن: يعني لا يكون مؤمنًا حقًّا تام الإيمان إلا بهذا الشرط؛ أن يحب لأخيه ما يحب لنفسه من الخير، وما يحب لنفسه من ترك الشر، يعني ويكره لأخيه ما يكره لنفسه، هذا هو المؤمن حقًّا، وإذا كان الإنسان يعامل إخوانه هذه المعاملة فإنه لا يمكن أن يغشهم أو يخونهم، ولا يكذب عليهم، ولا يعتدي عليهم، كما أنه لا يحب أن يُفعل به مثل ذلك.

وهذا الحديث: يدل على أن من كره لأخيه ما يحبه لنفسه، أو أحب لأخيه ما يكرهه لنفسه فليس بمؤمن، يعني ليس بمؤمن كامل الإيمان.

ويدل على أن ذلك من كبائر الذنوب إذا أحببت لأخيك ما تكره لنفسك أو كرهت له ما تحب لنفسك.

وعلى هذا فيجب عليك أخي المسلم أن تربي نفسك على هذا، على أن تحب لإخوانك ما تحب لنفسك حتى تحقق الإيمان، وصح عن النبي ﷺ أنه قال: «من أحب أن يزحزح عن النار ويُدخل الجنة، فلتأته منيته [1] وهو يؤمن بالله واليوم الآخر ويحب أن يأتي إلى الناس ما يؤتى إليه» [2] الأول: حق الله، والثاني حق العباد، تأتيك المنية وأنت تؤمن بالله وباليوم الآخر - نسأل الله أن يجعلنا وإياكم كذلك - وأن تحب أن يأتي لأخيك ما تحب أن يُؤتى إليك.

وأما حديث أنس الثاني من قول النبي ﷺ: «انصر أخاك ظالمًا أو مظلومًا» النصر بمعنى الدفاع عن الغير أي دفع ما يضره، انصر أخاك أي: ادفع ما يضره، سواء كان ظالمًا أو مظلوما، فقال رجل: يا رسول الله، أرأيت إن كان ظالمًا فكيف أنصره؟ ولم يقل: فلا أنصره، بل قال: كيف أنصره؟ يعني سأنصره ولكن أخبرني كيف أنصره، قال: «تحجزه - أو قال: «تمنعه - من الظلم فإن ذلك نصره»، فإذا رأيت هذا الرجل يريد أن يعتدي على الناس فتمنعه فهذا نصره أي: بأن تمنعه، أما إذا كان مظلومًا فنصره أن تدفع عنه الظالم.

وفي هذا دليل على وجوب نصرة المظلوم، وعلى وجوب نصر الظالم على هذا الوجه الذي ذكره النبي ﷺ.

* * *

٢٣٨ - وعن أبي هريرة ﷺ أنَّ رسول الله ﷺ قال: «حَقُّ المُسلم عَلَى المُسْلِمِ خَمسٌ: رَدُّ السَّلامِ، وَعِيَادَةُ المَرِيضِ، وَاتِّبَاعُ الجَنَائِزِ، وإجَابَةُ الدَّعْوَةِ، وَتَشْمِيتُ العَاطِسِ» متفقٌ عليه.

---

(١) منيته: موته.

(٢) أخرجه مسلم في الإمارة (٤٦)، والإمام أحمد في مسنده (١٩٢/٢).

وفي رواية لمسلم : « حَقُّ المُسْلِمِ سِتٌّ : إذَا لَقِيتَهُ فَسَلِّمْ عَلَيهِ ، وَإِذَا دَعَاكَ فَأَجِبْهُ ، وَإِذَا اسْتَنْصَحَكَ فَانْصَحْ لَهُ ، وإذَا عَطس فَحَمِدَ اللَّهَ فَشَمِّتْهُ ، وَإِذَا مَرِضَ فَعُدْهُ ، وَإِذَا مَات فَاتْبَعْهُ » [١] .

الشرح

ذكر المؤلف – رحمه الله تعالى – هنا ما نقله عن أبي هريرة ﷺ في بيان حقوق المسلم على أخيه ، وحقوق المسلم على أخيه كثيرة ، لكن النبي ﷺ أحيانًا يذكر أشياء معينة من أشياء كثيرة عناية بها واحتفاءً بها ، فمن ذلك ما ذكره أبو هريرة ﷺ عن رسول الله ﷺ أنه قال : « حق المسلم على المسلم خمس : رد السلام » يعني إذا سلم عليك فرد عليه ، وفي الحديث الثاني « حق المسلم على المسلم ست : إذا لقيته فسلم عليه » .

فهذان أمران : ابتداء السلام المأخوذ من قوله « إذا لقيته فسلم عليه » ، ورد السلام المأخوذ من قوله « رد السلام » ، فابتداء السلام سنة مؤكدة ، وإذا كان الحامل لتركه الهجر كان حرامًا فيما زاد على ثلاثة أيام ، أما في الثلاثة أيام فأقل فلا بأس أن تهجره ، ومن المعلوم أن الإنسان لن يهجر أخاه إلا لسبب ، فأجاز النبي – عليه الصلاة والسلام – للمسلم أن يهجر أخاه ثلاثة أيام فأقل ، لأن الإنسان بشر ، فقد يكون في النفوس شيء ، ولا يتحمل المرء أن يسلم عليه ، أو أن يرد السلام ، فرُخص له ثلاثة أيام فأقل .

وابتداء السلام يكون من الصغير على الكبير ، ومن الماشي على القاعد ، ومن الراكب على الماشي ، كل بحسبه وصيغة السلام المشروعة أن يقول الإنسان : السلام عليك ، أو السلام عليكم ، كلاهما جائز ، والرد المشروع أن يقول : عليك السلام ، أو : وعليكم السلام .

بهذا يتضح لنا أن النبي ﷺ بين أن من الحقوق التي للمسلم على أخيه : السلام ردًّا وابتداءً .

وحكم السلام : أن ابتداءه سنة ورده فرض ، فرض عين على من قُصد به ، وفرض كفاية إذا قُصد به جماعة ، فإنه يجزئ رد أحدهم ، والسلام حسنة من الحسنات إذا قام به الإنسان فله عشر أمثاله ، لأن الحسنة بعشر أمثالها ، يعني إذا سلمت على أخيك وقلت السلام عليك فلك عشر حسنات أجرًا باقيًا تجده أحوج ما تكون إليه .

ونحن نعلم أنه لو قيل لشخص كلما لقيت أحدًا فسلمت عليه فلك بكل تسليمة درهم واحد ، لوجدت الإنسان يطلب الناس ليسلم عليهم ابتغاء هذا الدرهم الواحد ، مع أن الدرهم الواحد يفنى ويزول ، والأجر والثواب الباقي نجدنا – عاملنا الله وإياكم بعفوه – فاترين فيه ، متهاونين به .

فالذي ينبغي لك كلما لقيك أحد من إخوانك المسلمين أن تسلم عليه ، أما غير المسلم فلا تسلم عليه ، لأن النبي ﷺ قال « لاتبدءوا اليهود ولا النصارى بالسلام ، فإذا لقيتم أحدهم في طريق فاضطروه إلى

---

(١) أخرجه البخاري في الجنائز (١٢٤٠) – واللفظ له – ، ومسلم بنحوه في السلام (٤ ، ٥) .

أضيقه »(١) فاليهودي والنصراني والمشرك والملحد والمرتد كالذي لا يصلي ، والمبتدع بدعة يكفر بها ، كل هؤلاء لا يحل ابتداء السلام عليهم ، ولو كانوا أقرب الناس إليك ، لكن إذا سلموا فرد عليهم بمثل ما سلموا به ، إذا قالوا : أهلًا ومرحبًا ، فقل : أهلًا ومرحبًا ، وإذا قالوا : السلام عليكم قل : وعليكم السلام ، وإذا شككت هل هو يقول : السلام عليكم ، أو يقول : السام عليكم ، فقل : وعليكم .

بل إذا لم تتيقن أنه قال : السلام عليكم باللام فقل : وعليكم ، وذلك أن اليهود كانوا يمرون بالنبي ﷺ وأصحابه فيسلمون عليه لكن يقولون : السام عليكم يدغمونها ، والسام يعني : الموت ، فقال النبي ﷺ : « إن اليهود إذا سلموا عليكم يقول أحدهم : السام عليكم . فقل : عليك »(٢) أي إن كانوا يدعون لنا بالسلام فعليهم السلام ، وإن كانوا يدعون علينا بالموت فعليهم الموت ، وهذا من العدل ﴿ وَإِذَا حُيِّيتُم بِتَحِيَّةٍ فَحَيُّوا۟ بِأَحْسَنَ مِنْهَآ أَوْ رُدُّوهَآ ﴾ [النساء : ٨٦] فهذا من العدل ، ولهذا ذكر ابن القيم رحمه الله في كتابه : « أحكام أهل الذمة » أنهم إذا قالوا : السلام عليكم بكلام بيّن فلك أن تقول : عليكم السلام .

وأما أهل المعاصي : فإن كان في هجرهم فائدة فاهجرهم ، والفائدة أن يقلعوا عن معصيتهم ، وإن لم يكن في هجرهم فائدة فهجرهم حرام ، لأنهم من المؤمنين ، وإذا كانوا من المؤمنين فقد قال النبي - عليه الصلاة والسلام - : « لا يحل لمسلم أن يهجر أخاه فوق ثلاث ، يلتقيان فيعرض هذا ويعرض هذا وخيرهما الذي يبدأ بالسلام »(٣) ، أما إذا كان يفيد ، بحيث يرتدعون عن المعصية وينتهون عنها فهجرهم مطلوب ، إما واجب وإما مستحب .

وانظر إلى ما حصل من فائدة هجر كعب بن مالك رضي الله عنه وصاحبيه ؛ حين تخلفوا عن غزوة تبوك فخُلفوا عن قبول عذرهم ، انظر ماذا حصل لهم من قوة الإيمان والصبر على ما حصل ، وانتظار الفرج من الله عز وجل ما نالوا به ما هو من أعظم المثوبات ، نالوا به كلام رب العالمين الذي يُقرأ في الليل والنهار من كل مسلم حتى في الصلوات . مَن من الناس يثنى عليه في الصلوات الفريضة والنافلة ؟! ﴿ وَعَلَى ٱلثَّلَٰثَةِ ٱلَّذِينَ خُلِّفُوا۟ حَتَّىٰٓ إِذَا ضَاقَتْ عَلَيْهِمُ ٱلْأَرْضُ بِمَا رَحُبَتْ وَضَاقَتْ عَلَيْهِمْ أَنفُسُهُمْ وَظَنُّوٓا۟ أَن لَّا مَلْجَأَ مِنَ ٱللَّهِ إِلَّآ إِلَيْهِ ثُمَّ تَابَ عَلَيْهِمْ لِيَتُوبُوٓا۟ إِنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلتَّوَّابُ ٱلرَّحِيمُ ﴾(٤) [التوبة : ١١٨] ، وهذا نص ، وإن كانوا لم يذكروا بأسمائهم ، لكن ذكروا بوصف لا ينطبق على من سواهم .

وأما ما ذهب إليه كثير من المفسرين في قوله تعالى : ﴿ وَمَا لِأَحَدٍ عِندَهُۥ مِن نِّعْمَةٍ تُجْزَىٰٓ ۝ إِلَّا ٱبْتِغَآءَ وَجْهِ رَبِّهِ ٱلْأَعْلَىٰ ۝ وَلَسَوْفَ يَرْضَىٰ ﴾ [الليل : ١٩- ٢١] بأن هذا هو أبو بكر فهذا ليس كالنص الخاص لهؤلاء الثلاثة ، ولذلك لا نعلم أن أحدًا من الصحابة أُثني عليه بهذا النص مثل ما أُثني على هؤلاء الثلاثة .

---

(١) أخرجه مسلم في السلام (١٣) ، والترمذي بنحوه أيضًا في سننه (١٦٠٢ ، ٢٧٠٠) ، وأحمد في مسنده (٢/٢٦٦) .

(٢) أخرجه البخاري في الاستئذان (٦٢٥٨) ومسلم في السلام (٨) والإمام أحمد في مسنده (٢/٥٨) كما أخرجه البخاري في استتابة المرتدين (٦٩٢٦) بلفظ « إذا سلم عليكم أهل الكتاب فقولوا : وعليكم » .

(٣) أخرجه البخاري في الاستئذان (٦٢٣٧) ومسلم في البر والصلة (٢٥) واللفظ له .

(٤) ﴿ بِمَا رَحُبَتْ ﴾ : أي مع سعتها .

وقد هجرهم النبي - عليه الصلاة والسلام - [١] أربعين ليلة لا يكلمهم ، وأمر الناس أن لا يكلموهم فلم يكلمهم أحد ، وبعد تمام الأربعين أمرهم أن يعتزلوا نساءهم ، ولما جاء الرسول إلى كعب بن مالك - الرسول الذي أرسله النبي ﷺ بأن يعتزل امرأته - قال له كعب - : أأطلقها ؟ - يعني فأنا مستعد - أم ماذا ؟ قال الرسول : لا أدري ، إن النبي ﷺ أمرك أن تعتزل امرأتك ولا أدري ، فانظر كيف كان هذا الامتثال العظيم مع هذه المحنة العظيمة التي لا ترد على قلب فينجو منها إلا من عصمه الله ﷻ .

فالمهم أن الهجر إذا كان ينفع في تقليل المعصية ، أو التوبة منها فإنه مطلوب ؛ إما على سبيل الوجوب أو على سبيل الاستحباب ، أما إذا كان لا ينفع وإنما يزيد العاصي عتوًّا ونفورًا من أهل الخير فلا تهجره ، لأن الإنسان مهما كان عنده من المعاصي وهو مسلم فهو مؤمن ، لكنه ناقص الإيمان .

أما الحق الثاني : فهو عيادة المريض : المريض إذا مَرض وانقطع في بيته فإن له حقًّا على إخوانه المسلمين أن يعودوه ويذكروه ما ينبغي أن يذكروه به ، من التوبة والوصية وكثرة الذكر والاستغفار وقراءة القرآن وغير ذلك من الأعمال الصالحة ، وكذلك يدعون له بالشفاء ؛ مثل أن يقولوا : لا بأس طهور [٢] إن شاء الله وما أشبه ذلك .

وعيادة المريض فرض كفاية ، لابد أن يعود المسلمون أخاهم وإذا عاده واحد منهم حصلت به الكفاية ، وقد تكون فرض عين إذا كان المريض من الأقارب ، وعُدْت عيادته من الصلة ، فإن صلة الأرحام واجبة فتكون فرض عين .

واعلم أن العلماء - رحمهم الله - ذكروا لعيادة المريض آدابًا منها : ألا يكثر العائد للمريض محادثته بالسؤال عن حاله وعن نومه وأكله وشربه وما أشبه ذلك ، إلا إذا كان يأنس بهذا ويُسر به ، أما إذا كان يتضجر ولا يحب أن يكثر أحد الكلام معه كما هو حال بعض المرضى ، فإنك لا تتبع معه الكلام ولا تضجره بالمساءلات .

لذلك قالوا : ينبغي ألا يكثر المقام عنده ويطيل ، لأنه قد يكون له حاجة مع أهله أو في نفسه ، ولا يحب أن يطيل الجلوس عنده أحدٌ ، لكن إذا علمت أنه يستأنس بهذا ويفرح ، فإنك تنظر ما فيه المصلحة .

قالوا : ينبغي أيضًا ألا يزوره في الأوقات التي يكون الغالب فيها النوم والراحة كالقيلولة والليل وما أشبه هذا ، لأن ذلك يضجره وينكد عليه ، بل يكون بكرة وعشيًّا حسب ما تقتضيه الحال .

قالوا : ولا ينبغي أيضًا أن يكثر من عيادته ، بحيث يأتيه صباحًا ومساءً ، إلا إذا اقتضت الحاجة ذلك .

---

(١) انظر حديث (٢١) من هذا الكتاب .

(٢) انظر الحديث في صحيح البخاري في التوحيد (٧٤٧٠) والمرضى (٥٦٥٦) وطهور خبر مبتدأ محذوف أي : هو طَهور لك من ذنوبك أي : مطهِّره .

والحاصل أن العائد للمريض ينبغي أن يراعي المصلحة في كل ما يكون مع المريض وفي كل ما يترك ، ثم إنه إذا كان المرض مما يُعلم أن له دواءً معينًا فينبغي أن تذكر له هذا الدواء ، لأن الدواء مباح بل هو سنة إذا رُجي نفعه وغلب على الظن ، لأن النبي ﷺ قال : « تداووا ولا تداووا بحرام »[١] .

وكذلك ينبغي أن يسأله كيف يصلي ؟ لأن كثيرًا من المرضى يجهل هل يصلي بالماء أو بالتيمم ؟ وهل يصلي كل صلاة في وقتها أو يجمع ؟ لأن هذا أمر مهم قد يخفى على بعض المرضى .

حتى إن بعض المرضى يظنون أنه إذا جاز لهم الجمع جاز لهم القصر وهم في بلادهم ، وهذه من الأشياء التي يجب التنبه لها ، نعم إذا كان المريض مسافرًا إلى مستشفى في غير بلده فله أن يقصر ويجمع ، أما إذا كان في بلده فلا يقصر ، لكن إن شق عليه أن يصلي كل صلاة في وقتها فله الجمع ولو كان في بلده ، لكنه جمع بلا قصر ، لأن الجمع والقصر لا يتلازمان ؛ قد يشرع القصر دون الجمع ، وقد يشرع الجمع دون القصر ، وقد يشرعان جميعًا ، فالمسافر الذي يشق عليه أن يصلي كل صلاة في وقتها بحيث يكون قد جد به السير يُشرع له الجمع والقصر ، والمسافر المقيم يشرع له القصر دون الجمع ، وإن جمع فلا بأس .

أما الحق الثالث : فهو : اتباع الجنائز وتشييعها ، فإن من حق المسلم على أخيه أن يتبع جنازته من بيته إلى المصلى - سواء في المسجد ، أو في مكان آخر - إلى المقبرة ، وقد ثبت عن النبي ﷺ أنه قال : « من شهد الجنازة حتى يُصلي عليها فله قيراط ، ومن شهدها حتى تدفن فله قيراطان » . قيل : وما القيراطان ؟ قال : « مثل الجبلين العظيمين »[٢] وفي رواية : « أصغرهما مثل أحد »[٣] وهذا فضل عظيم وأجر كبير .

ولما بلغ عبد اللّٰه بن عمر رضي الله عنهما هذا الحديث قال : لقد فرطنا في قراريط كثيرة ، ثم صار بعد ذلك لا يرى جنازة إلا تبعها رضي الله عنه لأن هذه غنيمة !! غنيمة أن يحصل الإنسان مثل الجبلين العظيمين في عمل يسير ، وهذا الأجر متى يلقاه ؟ يلقاه في يوم هو أحوج ما يكون إليه ؛ في يوم ليس عنده درهم ، ولا دينار ولا متاع ، ولا قرابة ، ولا زوجة تنفعه يوم القيامة ، إلا العمل الصالح ، فهو إذا تبع الجنازة حتى يصلي عليها ، ثم حتى تدفن ، فله قيراطان مثل الجبلين العظيمين أصغرهما مثل أحد .

وينبغي لمن اتبع الجنازة أن يكون خاشعًا ، مفكرًا في مآله[٤] ، يقول لنفسه : يا نفسي أنت مآلك كمآل هذا الذي فوق أعناقنا ، عن قريب أو بعيد ، وربما يكون عن قريب ، ويتذكر هذا الرحيل ، يتذكر أن أقرب الناس إليه وأولى الناس به ، وأشفق الناس عليه ، من يسلمه إلى حفرته ويدفنه ويرمسه

---

(١) أخرجه أبو داود في سننه (٣٨٧٤) ، والبيهقي في الكبرى (١٠/٥) .

(٢) أخرجه البخاري في الجنائز (١٣٢٥) ، ومسلم - واللفظ له - في الجنائز (٥٢) .

(٣) أخرجه مسلم في الجنائز (٥٣) ، والإمام أحمد في مسنده (٤٠١/٢) .

(٤) مآله : مرجعه وما هو صائر إليه .

ويتخلى عنه ، وأقرب الناس إليك الذي يحملك إلى مدفنك ثم ينصرف عنك ويدعك في هذا اللحد وحيدًا بأعمالك ، إن خيرًا فخير وإن شرًّا فشر ، ولهذا قال العلماء : يكره للإنسان المتبع للجنازة أن يتحدث في شيء من أمور الدنيا ، أو أن يتبسم ويضحك .

وكذلك أيضًا إذا وصلت إلى المقبرة ، وجلست تنتظر دفنها ، فينبغي أن تفكر في مآلك ، وأنك سوف ينتظر دفنك كما انتظر دفن هذا الرجل ، وإذا كان حولك أناس وحدثتهم بما حدث به النبي ﷺ أصحابه ، حينما خرج في جنازة رجل من الأنصار ، فانتهى إلى القبر ولمَّا يُلحَد ، فجلس - عليه الصلاة والسلام - وحوله أصحابه ، وفي يده مخصرة ، أي : عود ينكت به الأرض ، يعتبر - عليه الصلاة والسلام - يفكر ويحدث أصحابه بما يكون عند الاحتضار ، وعند الدفن ، حتى يكون جامعًا بين الموعظة وبين تشييع الجنازة (١) .

ولكن ليست هذه الموعظة كما يفعله بعض إخواننا الآن في بعض المحلات ؛ حيث يقوم الرجل خطيبًا يعظ الناس ، فإن هذا ليس معروفًا في عهد النبي - عليه الصلاة والسلام - ولا عهد أصحابه ، لكن لما جلس النبي ﷺ ينتظر لحد هذا الميت وجلس أصحابه حدثهم حديث المجالس بما ينفعهم وبما يناسب .

وكذلك كان - عليه الصلاة والسلام - حاضرًا دفن إحدى بناته ، وكان على شفير القبر وعيناه تدمعان ، فقال - عليه الصلاة والسلام - : « ما منكم من أحد إلا وقد كتب مقعده من النار ومقعده من الجنة » قالوا يا رسول الله أفلا ندع العمل ونتكل على ما كتب لنا ؟ قال : « لا ، اعملوا فكل ميسر لما خلق له ، أما أهل السعادة فييسرون لعمل أهل السعادة وأما أهل الشقاوة فييسرون لعمل أهل الشقاوة » ثم قرأ قوله تعالى : ﴿ فَأَمَّا مَنْ أَعْطَىٰ وَاتَّقَىٰ ۞ وَصَدَّقَ بِالْحُسْنَىٰ ۞ فَسَنُيَسِّرُهُ لِلْيُسْرَىٰ ۞ وَأَمَّا مَنْ بَخِلَ وَاسْتَغْنَىٰ ۞ وَكَذَّبَ بِالْحُسْنَىٰ ۞ فَسَنُيَسِّرُهُ لِلْعُسْرَىٰ ﴾ (٢) [الليل : ٥ - ١٠] ، نسأل الله أن يجعلنا وإياكم من أهل السعادة ، الذين يسروا لليسرى وجنبوا العسرى .

فإذا شرعوا في الدفن فينبغي للإنسان أن يشارك في الدفن ؛ بأن يحثوَ بيديه ثلاث حثيات ثم ينصرف ، وإن شاء شارك إلى انتهاء الدفن ، فإذا فرغوا من دفنه وقف عليه ، وإذا كان مطاعًا كالعالم ، قال للناس : استغفروا لأخيكم واسألوا له التثبيت فإنه الآن يسأل ، فإن النبي ﷺ إذا فرغ من دفن الميت وقف عليه وقال : « استغفروا لأخيكم واسألوا له التثبيت فإنه الآن يسأل » (٣) الآن حين فُرغ من دفنه وانتهى الناس منه وسلموه لعالم الآخرة يأتيه عالم الآخرة ؛ يأتيه ملكان يسألانه عن ربه ودينه ونبيه ، فيجيب المؤمن قائلًا : ربي الله ، وديني الإسلام ، ونبيي محمد - أسأل الله أن يجعلني وإياكم ممن يجيب بهذا الجواب .

---

(١) انظر الحديث في سنن أبي داود (٤٧٥٣) .
(٢) أخرجه البخاري بنحوه في التفسير (٤٩٤٥ ، ٤٩٤٦ ، ٤٩٤٧ ، ٤٩٤٨) ، ومسلم في القدر (٦) .
(٣) أخرجه أبو داود في سننه (٣٢٢١) .

أما غير المؤمن المرتاب الشاك ، فيقول : ها ها لا أدري ، سمعت الناس يقولون شيئًا فقلته ، يعني : ولم يصل الإيمان إلى قلبه - والعياذ باللَّه ، فينبغي لك أن تقف بعد انتهاء الدفن وتقول : اللهم اغفر له ، اللهم ثبته ، اللهم اغفر له ، اللهم ثبته ، اللهم اغفر له . اللهم ثبته ؛ لأن النبي ﷺ كان إذا دعا دعا ثلاثًا [١] . فتدعو ثلاثًا ثم تنصرف ولا حاجة إلى إطالة الوقوف .

وإذا انصرف الناس عن الميت حتى إنه ليسمع قرع نعالهم وهم ينصرفون عنه ، يسمع قرع النعال ، أي ضربه بالأرض وهم ينصرفون عنه ، جاءه ملكان : فأجلساه وسألاه عن ربه ودينه ونبيه ، ويجلسانه في القبر ، وإن كان القبر ضيقًا لكنه يجلس ، كما أن النائم الآن يرى نفسه أنه قائم ، وأنه ماشٍ ، وأنه قاعد ، وهو ملتحف في فراشه لم يتحرك منه ، لأن أحوال البرزخ أبلغ من أحوال الدنيا وأعظم ، ففيه أشياء لا تنطبق على أحوال الدنيا ، فها هو الميت المؤمن يفسح له في قبره مد البصر ، والمقبرة كلها ليست بشيء ، فهي ليست مد البصر ، لكن أحوال الآخرة لا تقاس بأحوال الدنيا ، وواجبنا فيما جاء في كتاب اللَّه أو صح عن رسول اللَّه ﷺ من أمور الآخرة ، أن نقول : سمعنا وصدقنا ، وآمنا ، وكل من عند ربنا ، واللَّه على كل شيء قدير .

الحق الرابع : إجابة الدعوة : فمن حق المسلم على أخيه إذا دعاه أن يجيبه ، والإجابة إلى الدعوة مشروعة بلا خلاف بين العلماء فيما نعلم ، إذا كان الداعي مسلمًا ، ولم يكن مجاهرًا بالمعصية ، ولم تكن الدعوة مشتملة على معصية لا يستطيع إزالتها ، ولكنها لا تجب عند جمهور العلماء إلا في دعوة العرس ؛ إذا دعاه الزوج أول مرة في اليوم الأول فإن الإجابة واجبة إذا عيَّنه بالشروط السابقة التي ذكرناها .

فإن كان الداعي غير مسلم فلا تجب الإجابة ، بل ولا تشرع الإجابة إلا إذا كان في ذلك مصلحة ، فإذا كان في ذلك مصلحة كرجاء إسلامه والتأليف فلا بأس بإجابة غير المسلم ، لأن النبي ﷺ أجاب دعوة يهودي دعاه في المدينة .

وإن كان الداعي مسلمًا مجاهرًا بالمعصية كحلق اللحية مثلًا ، أو شرب الدخان علنًا في الأسواق ، أو غير ذلك من المحرمات ، فإن إجابته ليست بواجبة ، ولكن إن كان في إجابته مصلحة أجابه ، وإن كان ليست في إجابته مصلحة نظرت ؛ فإن كان في عدم إجابته مصلحة بحيث إذا رأى نفسه بأنه قد هُجر ، وأن الناس لا يجيبون دعوته تاب وأناب ، فلا تجب دعوته لعل اللَّه يهديه ، وإن كان فلا فائدة من ذلك فأنت بالخيار ؛ إن شئت فأجب وإن شئت فلا تجب .

وإذا كان في الدعوة منكر فإن كان الإنسان قادرًا على التغيير وجبت عليه الإجابة ، من وجهين : **الوجه الأول** : إزالة المنكر ، **والوجه الثاني** : إجابة دعوة أخيه ، إذا كان في العرس ، وكان ذلك في أول

---

(١) انظر صحيح مسلم في الجهاد والسير (١٠٧) .

يوم ، وأما إذا كان منكر في الدعوة لا تستطيع تغييره كما لو كان في الدعوة شرب الدخان ، أو شيشة ، أو كان هناك أغاني محرمة فإنه لا يجوز لك أن تجيب .

قال أهل العلم : إلا إذا كان المنكر في محل آخر ، وأنت تجيب إلى محل ليس فيه منكر ، وكان الداعي من أقاربك الذين لو تركت إجابتهم لعد ذلك قطيعة ، فلا بأس بالإجابة في هذه الحال ، وإن كان الهجر يترتب عليه ترك هذه المعصية فاهجره ، يعني مثلًا لو دعاك قريبك وأنت تعلم أنه سيكون في الدعوة محرَّم ، وقلت له : أنا لا أجيبك إلا بشرط ألا يكون في الدعوة محرم ، وقبل بذلك فأجب ، وأما إن أصر على وجود المحرم فلا تجب ، لأن حضور المحرم ولو مع كراهة الإنسان له بقلبه يكون فيه الإنسان مشاركًا للفاعل ، لقول اللّه تعالى : ﴿ وَقَدْ نَزَّلَ عَلَيْكُمْ فِي الْكِتَابِ أَنْ إِذَا سَمِعْتُمْ آيَاتِ اللَّهِ يُكْفَرُ بِهَا وَيُسْتَهْزَأُ بِهَا فَلَا تَقْعُدُوا مَعَهُمْ حَتَّى يَخُوضُوا فِي حَدِيثٍ غَيْرِهِ إِنَّكُمْ إِذًا مِثْلُهُمْ ﴾ [النساء : ١٤٠] هذا حكم إجابة الدعوة .

فهذه الحقوق التي بيَّنها النبي ﷺ كلها إذا قام بها الناس بعضهم مع بعض ، حصل بذلك الألفة والمودة وزال ما في القلوب والنفوس من الضغائن والأحقاد .

والحق الخامس : **تشميت العاطس** : يعني أن من حقوق المسلم على المسلم أن يشمته إذا عطس ، هكذا في الرواية الأولى التي أخرجها البخاري ومسلم ، وفي الرواية الثانية التي أخرجها مسلم : « إذا عطس فحمد اللّه فشمته » فقيد ذلك بما إذا حمد اللّه .

فإذا عطس الرجل وحمد اللّه وسمعته فشمته ، يعني : قل : يرحمك اللّه ، فإذا قلت : يرحمك اللّه ، وجب عليه أن يقول : يهديكم اللّه ويصلح بالكم ، هكذا جاء الحديث عن النبي - عليه الصلاة والسلام - أنه يقول في الجواب : « يهديكم اللّه ويصلح بالكم » (١) .

لكن هل تشميت العاطس إذا حمد فرض عين أو فرض كفاية ؟ يعني : هل يكفي واحد من الجماعة إذا شمته عن الجماعة ، أم لابد على كل من سمعه أن يشمته ؟ والجواب : أنه ذهب بعض العلماء إلى أن التشميت فرض كفاية ؛ فإذا كنا جماعة وعطس رجل وقال : الحمد للّه ، فقال أحدنا له : يرحمك اللّه ، كفى .

وقال بعض العلماء : بل تشميته فرض عين على كل من سمعه ، لأن النبي ﷺ قال : « كان حقًّا على كل من سمعه أن يقول : يرحمك اللّه » وظاهر هذا أنه فرض عين ، فعلى هذا كل من سمعه يقول له : يرحمك اللّه ، ويقول له : يهديكم اللّه ويصلح بالكم ، ويكفي منه رد واحد على الجميع ، إذا نواه للجميع كفى .

فإن عطس ولم يحمد اللّه فلا تقل : يرحمك اللّه ، تعزيرًا له على عدم حمده للّه ﷻ ، يعني كما أنه لم يحمد اللّه فاحرمه هذا الدعاء ، فلا تقل له : يرحمك اللّه .

---

(١) أخرجه البخاري في الأدب (٦٢٢٤) ، وأبو داود في الأدب (٥٠٣٣) .

ثم هل تذكره وتقول وقل الحمد لله أو لا تذكره ؟

والجواب : من المعلوم أنه يحتمل أنه قد ترك الحمد تهاونًا ، ويحتمل أنه تركه نسيانًا ، فإن كان تركه نسيانًا فذكره وقل له : احمد الله ، وإن كان تركه تهاونًا فلا تذكره ، ولكن أين لي العلم بذلك ؟ وكيف أعلم أنه نسيان أو أنه تهاون ؟ ظاهر الحديث « فحمد الله » ، فإذا لم يحمد لا تشمته ولا تذكره مطلقًا .

ولكن يمكنك فيما بعد أن تعلمه وتقول له : إن الإنسان إذا عطس فإنه يحمد الله على هذا العطاس ، لأن العطاس من الله ، والتثاؤب من الشيطان ، العطاس دليل على نشاط جسم الإنسان ، ولهذا يجد الإنسان بعد العطاس خفة .

ثم إن التشميت بقول : يرحمك الله ، مقيد بثلاث ؛ إذا شمته ثلاث مرات يعني عطس فحمد الله ، فقلت : يرحمك الله ، ثم عطس فحمد الله ، فقلت : يرحمك الله ، ثم عطس فحمد الله ، فقلت : يرحمك الله ، ثم عطس الرابعة فقل : عافاك الله ، إنك مزكوم . تدعو له بالعافية وتبين أنه مزكوم ؛ لئلا يقول : لماذا لا تقول : يرحمك الله كما كنت بالأول تقول : يرحمك الله ، فتبين العلة حين تقول : إنك مزكوم .

وفي هذا : تنبيه له على أن يحاول الاحتراز مما يزيد الزكام ، وإلا فإن الزكام في الغالب لا دواء له إذا أصاب الإنسان ، وأنه لا يذهب عنه حتى ينتهي منه . لكن من أسباب تخفيف هذا الزكام عدم التعرض للهواء البارد ، وعدم شرب الماء البارد ، وعدم التعرض للبراد بعد الدفء ، والإنسان طبيب نفسه .

ثم إن ما يقول بعض العامة إذا قلت له : يرحمك الله ، حيث يقول : يهدينا ويهديكم الله ، فهذا ليس بصحيح ، لأن الرجل دعا لك أنت فقال : يرحمك الله ، فكيف تقول : يهدينا ويهديكم الله فتدعو لنفسك قبله ، نعم لو قال يرحمنا ويرحمك الله ، فقل يهدينا ويهديكم الله ، لكن هو قال يرحمك الله كما أمر ، فأنت أجبه كما أمرت ؛ فقل : يهديكم الله ويصلح بالكم .

وذكر أن اليهود كانوا يتعاطسون عند النبي - عليه الصلاة والسلام - يتعاطسون يعني : يتكلفون العطاس - من أجل أن يقول لهم : يرحمكم الله ، لأنهم يعلمون أنه نبي وأن دعاءه بالرحمة قد ينفعهم ، ولكنه لا ينفعهم ، لأن الكفار لو دعوت لهم بالرحمة لا ينفعهم ذلك ، ولا يحل لك أن تدعو لهم بالرحمة إذا ماتوا ولا بالمغفرة [1] ، لقول الله تعالى : ﴿ مَا كَانَ لِلنَّبِيِّ وَالَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ أَن يَسْتَغْفِرُوا۟ لِلْمُشْرِكِينَ وَلَوْ كَانُوٓا۟ أُو۟لِى قُرْبَىٰ مِنۢ بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُمْ أَصْحَـٰبُ ٱلْجَحِيمِ ﴾ [التوبة : ١١٣] .

فإن قيل : أليس إبراهيم استغفر لأبيه ، وإبراهيم على الحنيفية وعلى التوحيد ، والجواب يتضح في

---

(١) انظر الحديث في سنن أبي داود (٥٠٣٨) ، والترمذي في سننه (٢٧٣٩) .

قول اللَّه تعالى : ﴿ وَمَا كَانَ ٱسْتِغْفَارُ إِبْرَٰهِيمَ لِأَبِيهِ إِلَّا عَن مَّوْعِدَةٍ وَعَدَهَآ إِيَّاهُ فَلَمَّا تَبَيَّنَ لَهُۥٓ أَنَّهُۥ عَدُوٌّ لِّلَّهِ تَبَرَّأَ مِنْهُ إِنَّ إِبْرَٰهِيمَ لَأَوَّٰهٌ حَلِيمٌ ﴾ [التوبة : ١١٤] .

* * *

٢٣٩ – وعن أبي عُمَارَةَ البَرَاءِ بن عازبٍ ﷺ قال : أَمَرَنَا رسول اللَّه ﷺ بسبْعٍ ، وَنَهَانَا عَنْ سَبْعٍ : أَمَرَنَا بعِيَادَةِ المَرِيضِ ، وَاتِّبَاعِ الجنَازَةِ ، وَتَشْمِيتِ العَاطِسِ ، وَإبْرَارِ المُقْسِم ، وَنصْرِ المَظْلُومِ ، وَإجَابَةِ الدَّاعِي ، وَإفْشَاءِ السَّلامِ . وَنَهَانَا عَنْ خَوَاتِيم – أَو تَخَتُّم – بِالذَّهَبِ ، وَعَنْ شُرْبٍ بِالفِضَّةِ ، وَعَنِ المَيَاثِرِ الحُمْرِ ، وَعَنِ القَسِّيِّ ، وَعَنْ لُبْسِ الحَرِيرِ وَالإسْتَبْرَقِ وَالدِّيبَاجِ [١] . متفقٌ عليه .

وفي روايةٍ : وَإنْشَادِ الضَّالَّةِ في السَّبْعِ الأُوَلِ [٢] .

« المَيَاثِرِ » بيَاءٍ مُثَنَّاةٍ قَبْلَ الأَلِفِ ، وَثَاءٍ مُثَلَّثَةٍ بَعْدَهَا ، وَهِي جَمْعُ مِيثَرَةٍ ، وَهِيَ شَيءٌ يُتَّخَذُ مِنْ حَرير وَيُحْشَى قُطْنًا أَو غيرَهُ ، وَيُجْعَلُ فِي السَّرْجِ وَكُورِ البَعِيرِ يَجْلِسُ عَلَيهِ الرَّاكِبُ . « القَسِّيُّ » بفتح القاف وكسرِ السينِ المهملة المشدّدةِ : وَهِيَ ثِيَابٌ تُنْسَجُ مِنْ حَرِيرٍ وَكَتَّانٍ مُخْتَلِطَينِ . « وَإنْشَادُ الضَّالَّة » : تَعْرِيفُهَا .

الشرح

ذكر المؤلف ﷺ في بيان حقوق المسلم على أخيه حديث البراء بن عازب ﷺ ، أن النبي ﷺ « أمرنا بسَبْعٍ ونَهَانَا عن سَبْعٍ » ، وقد تقدم الكلام على خمسة من هذه الأمور التي أمر بها رسول اللَّه ﷺ في هذا الحديث ، تقدم الكلام عليها في الحديث السابق فلا حاجة إلى إعادتها ، وفي هذا الحديث من الزيادة على ما سبق قوله « نصر المظلوم » .

الحق السادس : من حقوق المسلم على أخيه المسلم « نصر المظلوم » : يعني دفع الظلم عنه ، سواء كان ظلمه في المال أو في العرض أو في النفس ، فيجب على المسلم أن ينصر أخاه المسلم ، ولقد قال الرسول – عليه الصلاة والسلام – « انصر أخاك ظالماً أو مظلومًا » [٣] قالوا : يا رسول اللَّه ، هذا المظلوم – يعني ندفع عنه الظلم – فكيف نصر الظالم ؟! قال : « تمنعه من الظلم ، فإن ذلك نصره » [٤] ، لأن الظالم قد غلبته نفسه حتى ظلم فتنصره أنت على نفسه حتى تمنعه من الظلم .

فإذا رأيت شخصًا يظلم جاره بالإساءة إليه وعدم المبالاة به ، فإنه يجب عليك أن تنصر هذا وهذا ؛ الظالم والمظلوم ، فتذهب إلى الظالم ، الجار الذي أخل بحقوق جاره ، وتنصحه وتبين له ما

---

(١) أخرجه البخاري في الجنائز (١٢٣٩) ، ومسلم – واللفظ له – في اللباس (٣) .

(٢) أخرجه البخاري في الجنائز (١٢٣٩) مسلم في اللباس (٣) .

(٣) انظر الحديث (٢٣٧) وشرحه وتخريجه .

(٤) انظر الهامش السابق .

في إساءة الجوار من الإثم والعقوبة ، وما في حسن الجوار من الأجر والمثوبة ، وتكرر عليه حتى يهديه الله فيرتدع ، وتنصر المظلوم الجار وتقول له : أنا سوف أنصح جارك وأكلمه ، فإن هداه الله فهذا هو المطلوب ، وإن لم يهتد فأخبرني حتى نكون أنا وأنت عند القاضي أو الحاكم سواءً نتعاون على دفع ظلم هذا الظالم .

وكذلك إذا وجدت شخصًا جحد لأخيه حقًّا تدري أنه جحده ، وأن لأخيه عليه هذا الحق ، فتذهب إلى هذا الظالم الذي جحد حق أخيه وتنصحه وتبين له ما في أكل المال بالباطل من العقوبة ، وأنه لاخير في أكل المال بالباطل لا في الدنيا ولا في الآخرة ، بل هو شر ، حتى يؤدي ما عليه . وتذهب إلى صاحب الحق وتقول له : أنا معك واصبر ها نحن ننصحه ، ها نحن نوبخه ، وهكذا بقية المظالم تنصر أخاك ظالمًا أو مظلومًا . والظالم نصرك إياه أن تمنعه عن الظلم .

الحق السابع : إبرار القسم : يعني إذا أقسم عليك أخوك بشيء فبرَّه ووافقه على ما قسم عليه ، فإذا حلف قال : والله لتفعلن كذا وكذا ، فإن من حقه عليك أن تبرَّ بيمينه وأن توافقه ، إلا إذا كان في ذلك ضرر عليك ، مثل لو حلف عليك أن تخبره عما في بيتك من الأشياء التي لا تحب أن يطلع عليها أحد فلا تخبره ، لأنه معتد ، لكونه يطلب منك أن تبين له ما كان سرًّا عندك ، وإذا كان معتديًا فإن المعتدي جزاؤه أن يُترك ولا يوافق على اعتدائه .

لكن إذا لم يكن عدوان وحلف عليك فإن من حقه أن تبر بيمينه ، وتعطيه ما حلف عليه ، إلا إذا كان معصية ، فإذا كان معصية فلا تجبه ، مثل لو أقسم عليك أن تعطيه دراهم يشتري بها دخانًا ، فهذا لا يلزمك ، بل لا يجوز لك أن توافقه لأنك تعينه على الإثم والعدوان .

أو كان في ذلك ضرر عليك كما مثلنا بمن حلف عليك أن تخبره بما في سر البيت من الأمور التي لا تحب أن يطلع عليها أحد .

أو حلف عليك بشيء يضرك ، مثل أن يحلف عليك بشيء يضرك إذا وافقته عليه ، كأن يقول أبوك مثلًا : والله لا تحج البيت ، والحج واجب عليك ، فإنك لا تطعه ؛ لأن في هذا تركًا للواجب ، ولا طاعة لمخلوق في معصية الخالق ، أو حلف عليك ألا تزور أمك وقد طلقها ، وصار بينه وبينها مشاكل فكرهها ، فقال لك : والله لا تذهب إلى أمك ، فهذا لا تطعه ، وذلك لأنه آثم بكونه يحول بينك وبين صلة الرحم ، وصلة الرحم واجبة ، وبر الوالدين واجب ، فلا تطعه .

ومن ذلك أيضًا : إذا حلف ألا تزور أحدًا من إخوانك أو أعمامك أو أقاربك فلا تطعه ، ولا تبرَّ يمينه ولو كان أباك ، لأن صلة الرحم واجبة ، ولا يحل له أن يحلف مثل هذا الحلف ، وصلة الرحم إذا قام بها الإنسان فإن الله تعالى يصله ، فقد تعهد الله للرحم أن يصل من وصلها وأن يقطع من قطعها [1] ، فإذا

---

(١) انظر الأحاديث الدالة على ذلك في البخاري في الأدب (٥٩٨٧ ، ٥٩٨٨ ، ٥٩٨٩) ، ومسلم في البر والصلة (١٣ ، ١٦) .

انتفت الموانع فإن الأولى أن تبرّ بهن .

وها هنا مسألة : وهي أنه ربما يحلف هو وتحلف أنت ، وهذا يقع كثيرًا في الضيف إذا نزل عليك ، قال : والله ما تذبح لي ، فتحلف أنت وتقول : والله لأذبح لك ، فهنا من الذي يبرّ ، الأول أم الثاني ؟ يبرّ الأول لأن حقه ثابت ، ونقول للثاني صاحب البيت الذي حلف أن يذبح ، نقول : لا تذبح وكفر عن يمينك ، لأن الأول أحق بالبر وأسبق .

وهنا مسألة : يجب أن يتفطن لها أيضًا في هذا الأمر : وهو أن بعض السفهاء إذا نزل به ضيف ، طلق الضيف أن لا يذبح له ؛ قال : علي الطلاق من امرأتي أو من نسائي إن كان له أكثر من امرأة أن لا تذبح لي ، فيقول صاحب البيت : وأنا علي الطلاق أن أذبح لك ، وهذا غلط ، قال النبي - عليه الصلاة والسلام - « من كان حالفًا فليحلف بالله أو ليصمت » (١) أما الطلاق فلا ، ما ذنب المرأة حتى تطلقها !؟ وهو من الخطأ العظيم .

وأقول لكم : إن المفتين اليوم - وأنا منهم - نفتي بأن الإنسان إذا أراد بذلك التهديد أو التأكيد فإنه لا طلاق ، وعليه كفارة يمين ، يعني أن حكمه حكم اليمين ، ولكني أقول لكم : إن أكثر أهل العلم ، ومنهم أصحاب المذاهب الأربعة على أن هذا طلاق وعلى أنه إذا لم يف بما قال طلقت امرأته ، فالمسألة خطيرة ، لا تظنوا أن الناس إذا أفتوا بالأمر السهل أن المسألة سهلة ، بل هي خطيرة جدًّا ، إذا كان أصحاب المذاهب الأربعة : المالكي والشافعي والحنفي والحنبلي كلهم يرون أن مثل هذا يكون طلاقًا ، وأنه إذا طلق ألا تذبح وذبحت طلقت زوجته ، وإذا طلقت أن تذبح ولم تذبح طلقت زوجتك ، وهذه المذاهب الأربعة ليست بهينة ، والخلاف في هذا ليس بهين ، فلا تستهينوا بهذا الأمر ، فهو خطير جدًّا .

وأنت الآن مثلًا إذا رجعت إلى زوجتك وكانت هذه آخر طلقة ، فأنت تطؤها على المذاهب الأربعة وطئًا حرامًا . وعلى القول أنه يمين تكفر عن يمينك وتحل لك ، فالمسألة خطيرة للغاية ، لذلك يجب علينا أن نتناهى عنها ، وألا نقول إذا حصل اذهب لابن باز أو لابن عثيمين أو الثاني أو الثالث فهذا ما ينفعك ، فهناك علماء أجلاء أكبر منهم يرون أن هذا طلاق ، وأنه إذا كان هذا آخر طلقة ، فإن المرأة تبين بها ، ولا تحل لزوجها إلا بعد زوج آخر . أقول هذا من أجل ألا تتهاونوا في هذا الأمر ، فهذا الأمر خطير جدًّا ، فمن كان حالفًا فليحلف بالله ، يقول : والله .

ثم إني أشير عليكم بأمر هام ؛ أنك إذا حلفت على يمين فقل : إن شاء الله ولو لم يسمعها صاحبك ، قل : إن شاء ، وإن لم يسمعها صاحبك ؛ لأنك إذا قلت إن شاء الله يسر الله لك الأمر حتى تبرّ بيمينك ، وإذا قُدر أنه ما حصل الذي تريد فلا كفارة عليك ، وهذه فائدة عظيمة .

فلو قلت لواحد مثلًا : والله ما تذبح لي ، ثم قلت بينك وبين نفسك : إن شاء الله - بينك وبين

---

(١) أخرجه البخاري في الأيمان والنذور (٦٦٤٦) ، ومسلم في الأيمان (٣) ، والإمام أحمد في مسنده (٢/٥٢٠) .

نفسك - ثم ذبح فلا عليك شيء ولا عليك كفارة يمين ، وكذلك أيضا بالعكس ، لو قلت واللَّه لأذبح ، ثم قلت - بينك وبين نفسك - : إن شاء اللَّه ، وهو ما سمع صاحبك ، فإنه إذا لم تذبح ليس عليك كفارة ، لقول النبي ﷺ : « من حلف على يمين ، فقال : إن شاء اللَّه لم يحنث » [١] وهذه فائدة عظيمة اجعلها على لسانك دائمًا ، اجعل الاستثناء بإن « شاء اللَّه » على لسانك دائمًا ، حتى يكون فيه فائدتان : الفائدة الأولى : أن تُيسر لك الأمور . والفائدة الثانية : أنك إذا حنثت ما يلزمك الكفارة .

السبع التي نهى عنها - عليه الصلاة والسلام - في حديث البراء ، فمنها التختم بالذهب ، والتختم بالذهب خاص بالرجال ، فالرجل لا يحل له أن يلبس الذهب وأن يتختم بالذهب ، ولا أن يلبس سوارًا من ذهب ، ولا أن يلبس قلادة من ذهب ، ولا أن يلبس خرصًا [٢] من ذهب ، ولا أن يلبس على رأسه شيئًا من الذهب ، كل الذهب حرام على الرجل ، لأن النبي ﷺ قال في رجل رأى عليه خاتمًا من ذهب ، قال : « يعمد أحدكم إلى جمرة من نار فيجعلها في أصبعه أو قال في يده » [٣] ثم نزع النبي ﷺ الخاتم فرمى به ، فلما انصرف النبي ﷺ قالوا للرجل خذ خاتمك ، انتفع به ، قال : واللَّه لا آخذ خاتمًا طرحه النبي ﷺ . وقال - عليه الصلاة والسلام - في حديث علي بن أبي طالب في شأن الذهب والحرير - : « إن هذين حرام على ذكور أمتي حل لإناثهم » [٤] .

وأما تختم المرأة بالذهب فلا بأس به ولا حرج فيه ، فيجوز لهن التختم بالذهب والتسور به ، وأن يلبسن ما شئن منه ، إلا إذا بلغ حد الإسراف ، فإن الإسراف لا يحل لقول اللَّه تعالى : ﴿ وَلَا تُسْرِفُوٓاْ إِنَّهُۥ لَا يُحِبُّ ٱلْمُسْرِفِينَ ﴾ [الأعراف : ٣١] .

وقد حكى بعض العلماء : إجماع أهل العلم على جواز لباس المرأة للخاتم والسوار ونحوهما ، وأما الأحاديث الواردة في النهي عن الذهب المحلق للنساء فهي أحاديث إما ضعيفة ، وإما شاذة تُرك العمل بها ، وتواترت الأحاديث الكثيرة التي فيها إقرار النبي ﷺ النساء على لبس المحلق من الأسورة ، وكذلك من الخواتم .

ولكن يجب على المرأة إذا كان عندها ما يبلغ النصاب من الحلي من الذهب أداء زكاته ؛ بأن تقومه كل سنة بما يساويه وتخرج منه ربع العشر ، لأن النبي ﷺ رأى امرأة وفي يد ابنتها مسكتان غليظتان من الذهب ، يعني سوارين غليظين ، فقال : « أتؤدين زكاة هذا ؟ » قالت : لا . قال : « أيسرك أن يسورك اللَّه بهما سوارين من نار يوم القيامة » فخلعتهما وأعطتهما النبي ﷺ وقالت : هما للَّه ورسوله [٥] .

---

(١) أخرجه الترمذي في سننه (١٥٣٢) بلفظه ، وأبو داود في سننه (٣٢٦٢) .
(٢) خِرصًا من ذهب : الخِرص : الحلقة من الذهب أو الفضة وأيضًا القرط بحبة واحدة .
(٣) أخرجه مسلم في اللباس (٥٢) ، والبيهقي في الكبرى (٢/٤٢٤) .
(٤) أخرجه الترمذي في سننه (١٧٢٠) بنحوه ، وابن ماجه في سننه (٣٥٩٥) بلفظه .
(٥) أخرجه أبو داود في الزكاة (١٥٦٣) ، والنسائي في سننه (٢٤٧٩) .

ونهى أيضًا في هذا الحديث : « عن الشرب في آنية الفضة » يعني : نهانا أن نشرب في آنية الفضة ، سواء كان الشراب ماءً أو لبنًا أو مرقًا أو غير ذلك .

وسواء كان الشارب رجلًا أو امرأة ؛ لأن تحريم الأواني من الذهب والفضة شامل للرجال والنساء ، ولا فرق بين الفضة الخالصة وبين المموه بالفضة ، كل ذلك حرام .

وأما آنية الذهب : فهي أشدُّ وأشد ، وقد ثبت النهي عنها عن النبي ﷺ حيث قال : « لا تشربوا في آنية الذهب والفضة ولا تأكلوا في صحافها ، فإنها لهم في الدنيا ولكم في الآخرة »[1] .

أما المياثر الحمر : فهي مثل المخدة ، يجعل في حشوها قطن ويجعل على هذا القطن خرقة من الحرير ، وتربط في سرج الفرس أو في كور البعير من أجل أن يجلس عليها الراكب فيستريح .

وكذلك القسي وغيرها ، فإنها كلها من أنواع الحرير ، وهي حرام على الرجال ، لأنه لا يجوز للرجل أن يلبس الحرير ، ولا أن يجلس عليه ، ولا أن يفترشه ، ولا أن يلتحفه .

وأما المرأة : فيجوز لها لبس الحرير ، لأنها محتاجة إلى الزينة والتجمل كما قال اللَّه تعالى : ﴿ أَوَمَن يُنَشَّؤُا فِي ٱلْحِلْيَةِ وَهُوَ فِي ٱلْخِصَامِ غَيْرُ مُبِينٍ ﴾ يعني : أو من يُرَفَّه في الحلية ، وهو في الخصام غير مبين - كمن ليس كذلك وهم الرجال ، فالرجال لا يرفهون في الحلية ولا يُنشَّئون فيها ، لأنهم مستغنون ببطولتهم ورجولتهم عن التزين والتجمل بهذه الأشياء .

وأما افتراش المرأة للحرير والتحافها به وجلوسها عليه : فقد اختلف فيه العلماء ، منهم من منع وحرم واستدل بعموم هذا الحديث ؛ وأن الرسول - عليه الصلاة والسلام - نهى عن المياثر الحمر وشبهها ، وقال إن المرأة يباح لها أن تلبس الحرير لاحتياجها إليه ، أما أن تفترشه فلا حاجة لها إلى أن تفترش الحرير ، وهذا القول أقرب من القول بالحلِّ مطلقًا أي بحلِّ الحرير للنساء مطلقًا ؛ لأن الحكم يدور مع علَّته وجودًا وعدمًا .

بقي الكلام على قوله : « وإنشاد الضالة » يعني مما أمرهم به إنشاد الضالة ، يعني أن الإنسان إذا وجد ضالة وجب عليه إنشادها ، أي : طلب من هي له ، والضالة هي ما ضاع من البهائم .

وقد قسم العلماء - رحمهم اللَّه - الضالة إلى قسمين :

الأول : قسم يمتنع من الذئاب ونحوها من صغار السباع ، فهذا لا يجوز التقاطه ولا إيواؤه ، ومن آوى ضالة فهو ضال ، مثل الإبل ، أو ما يمتنع بطيرانه مثل الطيور كالصقور والحمام وشبهها ، أو ما يمتنع بعدوه كالظباء ونحوها .

فالذي يمتنع من صغار السباع كالذئاب وشبهها ثلاثة أنواع : ما يمتنع من السباع لكبر جثته وقوته مثل الإبل ، وما يمتنع من السباع لطيرانه كالصقور والحمام ، وما يمتنع من السباع لعدوه وسرعة سعيه كالظباء .

فهذه لا يجوز للإنسان أن يلتقطها ، ولا يجوز له أن يؤويها بل يطردها من إبله ، ويطردها من

---

(١) أخرجه البخاري - واللفظ له - في الأطعمة (٥٤٢٦) ، ومسلم في اللباس (٥) وليس فيه (ولكم في الآخرة) .

حمامه إذا أوت إلى حمامه ؛ فإن النبي ﷺ سُئل عن ضالة الإبل فقال : « مالك ولها ؛ معها سقاؤها وحذاؤها ، ترد الماء وتأكل الشجر حتى يلقاها ربها » (١) معها سقاؤها : يعني بطنها تملؤه ماءً ، وحذاؤها : يعني خفها تمشي عليه ، ترد الماء وتأكل الشجر حتى يجدها ربها .

فلا يجوز لك أن تؤوي هذه الضالة ولا أن تلتقطها ، ولو كنت تريد الخير ، اللهم إلا إذا كنت في أرض قُطاع طريق تخشى أن يأخذوها ويضيِّعوها على صاحبها ، فلا بأس أن تأخذها حينئذٍ ، أو إذا كنت تعرف صاحبها فتأخذها لتردها عليه ، فهذا لا بأس به .

الثاني : ما لا يمتنع من صغار السباع يعني الذي يعجز أن يفكَّ نفسه مثل الغنم أو الماعز أو الشياه أو ما أشبه ذلك ، فإنك تأخذها ، كما قال النبي - عليه الصلاة والسلام - : « هي لك أو لأخيك أو للذئب » (٢) ، ولكن يجب عليك أن تبحث عن صاحبها .

وقوله : « هي لك » يعني إن لم تجد صاحبها ، « أو لأخيك » يعني صاحبها إذا عرفته ، « أو للذئب » إذا لم يجدها أحد أكلها الذئب .

فهذه تُؤخذ ويُبحث عن صاحبها ، فإذا تمت السنة ولم يُوجد صاحبها فهي لمن وجدها .

وإنشاد الضالة له معنيان :

المعنى الأول : ما ذكرنا وهذا واجب على الإنسان .

المعنى الثاني : منهيٌّ عنه وذلك مثل ما يقع في المساجد ، وهو أن يطلب الإنسان الضالة فيه ، مثل أن يقول : من عينّ كذا وكذا ؟ أو : يا أيها الناس قد ضاع لي كذا وكذا فمن وجدها ؟ .

فهذا لا يجوز في المسجد ، قال النبي - عليه الصلاة والسلام - : « من سمع رجلًا ينشد ضالة في المسجد فليقل : لا ردَّها اللَّه عليك ؛ فإن المساجد لم تُبن لهذا » (٣) .

إنسان يقف في المسجد ويقول يا جماعة ، من عيَّن لي شاة ؟ من عين لي عنزة ؟ من عينّ لي كذا ؟ فهذا حرام ، والمساجد ما بنيت لهذا ، ونحن مأمورون أن ندعو اللَّه عليه ، فنقول : لا ردَّها اللَّه عليك ، كما أننا إذا سمعنا شخصًا يبيع ويشتري في المسجد فإننا نقول : لا أربح اللَّه تجارتَك ؛ لأن المساجد لم تُبن للبيع والشراء .

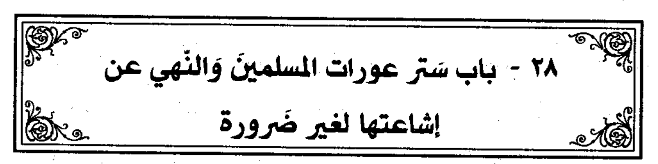
فهذه الأوامر التي أمر بها النبي - صلى اللَّه عليه وعلى آله وصحبه وسلم - كلها خير ، والنواهي التي نهى عنها كلها شرٌّ ، لأن قاعدة الشريعة تأمر بالمصالح وتنهى عن المفاسد ، وإذا اجتمع في الشيء مفسدة ومصلحة غُلِّب الأقوى منهما والأكثر ، فإن كان الأكثر المصلحة غُلِّبت ، وإن كانت المفسدة غُلِّبت ، وإن تساوى الأمران غُلِّبت المفسدة ؛ لأن درء المفاسد أولى من جلب المصالح .

---

(١) أخرجه البخاري في المساقاة (٢٣٧٢) ، ومسلم في اللقطة (١) .

(٢) البخاري في المساقاة (٢٣٧٢) .

(٣) أخرجه مسلم في المساجد (٧٩) ، والإمام أحمد في مسنده (٣٤٩/٢) .



٢٨ - باب ستر عورات المسلمين والنهي عن إشاعتها لغير ضرورة

قال الله تعالى : ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ يُحِبُّونَ أَن تَشِيعَ ٱلْفَٰحِشَةُ فِى ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ فِى ٱلدُّنْيَا وَٱلْءَاخِرَةِ ﴾ (١) [النور : ١٩] .

الشرح

قال المؤلف رحمه الله : باب ستر عوارت المسلمين والنهي عن إشاعتها . العورة هنا هي العورة المعنوية ؛ **لأن العورة نوعان** : عورة حسية وعورة معنوية .

فالعورة الحسية : هي ما يحرم النظر إليه كالقبل والدبر ، وما أشبه ذلك مما هو معروف في الفقه .

والعورة المعنوية : وهي العيب والسوء الخلقي أو العملي .

ولاشك أن الإنسان كما وصفه الله عز وجل في قوله : ﴿ إِنَّا عَرَضْنَا ٱلْأَمَانَةَ عَلَى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَٱلْجِبَالِ فَأَبَيْنَ أَن يَحْمِلْنَهَا وَأَشْفَقْنَ مِنْهَا وَحَمَلَهَا ٱلْإِنسَٰنُ إِنَّهُۥ كَانَ ظَلُومًا جَهُولًا ﴾ (٢) [الأحزاب : ٧٢] .

فالإنسان موصوف بهذين الوصفين : **الظلم** ، **والجهل** ؛ فإما أن يرتكب الخطأ عن عمد فيكون ظالمًا ، وإما أن يرتكب الخطأ عن جهل فيكون جهولًا ، هذه حال الإنسان إلا من عصم الله عز وجل ووفقه للعلم والعدل ، فإنه يمشي بالحق ويهدي إلى الحق .

وإذا كان الإنسان من طبيعته التقصير والنقص والعيب ، فإن الواجب على المسلم نحو أخيه أن يستر عورته ولا يُشيعها إلا من ضرورة (٣) فإذا دعت الضرورة إلى ذلك فلابد منه ، لكن بدون ضرورة فالأولى والأفضل أن يستر عورة أخيه ، لأن الإنسان بشر ربما يخطئ عن شهوة - يعني عن إرادة سيئة - أو عن شبهة ، حيث يشتبه عليه الحق فيقول بالباطل أو يعمل به . والمؤمن مأمور بأن يستر عورة أخيه .

هب أنك رأيت رجلًا على كذب وغش في البيع والشراء ، فلا تفضحه بين الناس ، بل انصحه واستر عليه ، فإن توّفق واهتدى وترك ما هو عليه كان ذلك هو المراد ، وإلا وجب عليك أن تبين أمره للناس لئلا يغتروا به .

وهب أنك وجدت إنسانًا مُبتلى بالنظر إلى النساء ، ولا يغض بصره ، فاستر عليه ، وانصحه وبين

---

(١) قوله ﴿ تَشِيعَ ﴾ أي تفشو ، قوله : ﴿ ٱلْفَٰحِشَةُ ﴾ أي الفعل القبيح .

(٢) قوله ﴿ ٱلْأَمَانَةَ ﴾ : الصفات التي ميز الله بها الإنسان عن غيره فكانت منشأ تكليفه ليتميز من يشكره عليها . قوله ﴿ فَأَبَيْنَ أَن يَحْمِلْنَهَا ﴾ : امتنعن عن حملها .

(٣) هذا معنى حديث ولفظه « من ستر عورة أخيه المسلم ستر الله عورته .. » ، وقد أخرجه ابن ماجه في الحدود (٢٥٤٦) ، وأحمد في مسنده (٢/٢٧٤) .

له أن هذا سهم من سهام إبليس ، لأن النظر - والعياذ بالله - سهم من سهام إبليس يصيب به قلب العبد (١) ، فإن كان عنده مناعة اعتصم بالله من هذا السهم الذي ألقاه الشيطان في قلبه ، وإن لم يكن عنده مناعة أصابه السهم ، وتدرّج به إلى أن يصل إلى الفحشاء والمنكر والعياذ بالله .

فما دام الستر ممكنًا ، ولم يكن في الكشف عن عورة أخيك مصلحة راجحة أو ضرورة ملحة ، فاستر عليه ولا تفضحه .

ثم استدل المؤلف رحمه الله بقول الله تعالى : ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ يُحِبُّونَ أَن تَشِيعَ ٱلْفَٰحِشَةُ فِى ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ فِى ٱلدُّنْيَا وَٱلْءَاخِرَةِ ﴾ [النور : ١٩] . هؤلاء الذين يحبون أن تشيع ، فكيف بمن أشاع الفاحشة والعياذ بالله ؟!.

ومحبة شيوع الفاحشة في الذين آمنوا معنيان :

المعنى الأول : محبة شيوع الفاحشة في المجتمع المسلم ، ومن ذلك مَنْ يبثون الأفلام الخليعة ، والصحف الخبيثة الداعرة ، فإن هؤلاء لاشك أنهم يحبون أن تشيع الفاحشة في المجتمع المسلم ، ويريدون أن يفتتن المسلم في دينه بسبب ما يشاع من هذه المجلات الخليعة الفاسدة والأفلام الخليعة الفاسدة أو ما أشبه ذلك .

وكذلك تمكين هؤلاء مع القدرة على منعهم ، داخل في محبة أن تشيع الفاحشة في الذين آمنوا ، فالذي يقدر على منع هذه المجلات وهذه الأفلام الخليعة ، ويمكّن من شيوعها في المجتمع المسلم ، هو ممن يحب أن تشيع الفاحشة في الذين آمنوا ﴿ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ فِى ٱلدُّنْيَا وَٱلْءَاخِرَةِ ﴾ أي : عذاب مؤلم في الدنيا والآخرة .

المعنى الثاني : محبة أن تشيع الفاحشة في شخص معين ، وليس في المجتمع الإسلامي كله ، فهذا أيضًا له عذاب أليم في الدنيا والآخرة ، فمن أحب أن تشيع الفاحشة في زيد من الناس لسبب ما ، هذا أيضًا له عذاب أليم في الدنيا والآخرة ، لاسيما فيمن نزلت الآية في سياق الدفع عنه ، وهي أم المؤمنين عائشة رضي الله عنها .

لأن هذه الآية في سياق آيات الإفك ، والإفك هو الكذب الذي افتراه من يكرهون النبي - صلى الله عليه وعلى آله وصحبه وسلم - ومن يحبون أن يتدنّس فراشه ، ومن يحبون أن يُعيَّر بأهله ، من المنافقين وأمثالهم .

وقضية الإفك مشهورة (٢) ، وهي أن النبي - صلى الله عليه وعلى آله وسلم - كان إذا أراد سفرًا أقرع بين نسائه ، وذلك من عدله - عليه الصلاة والسلم - فأيتهن خرج سهمها خرج بها . فأقرع بين نسائه ذات سفر فخرج السهم لعائشة فخرج بها .

وفي أثناء رجوعهم عرّسوا في الطريق ، يعني ناموا في آخر الليل ، فلما ناموا احتاجت عائشة رضي الله عنها أن تبرز لتقضي حاجتها ، فأمر النبي صلى الله عليه وسلم بالرحيل في آخر الليل ، فجاء القوم فحموا هودجها ، ولم يشعروا

---

(١) هذا معنى حديث ولفظه « النظرة سهم من سهام إبليس مسمومة » ، وقد أخرجه الحاكم في المستدرك (٣١٤/٤) ، والسيوطي في الدر المنثور (٤١/٥) .

(٢) حادثة الأفك أخرجها البخاري في المغازي (٤١٤١) ، ومسلم في التوبة (٥٦) .

أنها ليست فيه لأنها كانت صغيرة ما أخذها اللحم ، فقد تزوجها النبي ﷺ ولها ست سنين ، ودخل عليها ولها تسع سنين ، ومات عنها ولها ثماني عشرة سنة ، فحملوا الهودج ، وظنوا أنها فيه ثم ساروا .

ولما رجعت لم تجد القوم في مكانهم ، ولكن من عقلها وذكائها لم تذهب يمينًا وشمالًا تطلبهم ، بل بقيت في مكانها وقالت سيفقدوني ويرجعون إلى مكاني .

ولما طلعت الشمس إذا برجل يقال له صفوان بن المعطّل ، وكان من قوم إذا ناموا لم يستيقظوا ، كما هو حال بعض الناس الذين إذا ناموا لا يستيقظون ، حتى ولو علت الأصوات من حوله . فكان صفوان من جملة هؤلاء القوم ، فكان إذا نام تعمق في النوم فلا يمكن أن يستيقظ إلا إذا أيقظه الله ﷻ كأنه ميت .

فلما استيقظ وجاء وإذا أم المؤمنين عائشة رضي الله عنها وحدها في مكان في البر - وكان يعرفها قبل أن ينزل الحجاب - فما كان منه إلا أن أناخ بعيره ، ولم يكلمها بكلمة . والسبب في أنه لم يتكلم هو احترامه لفراش رسول الله ﷺ ، فلم يرد أن يتكلم مع أهله بغيبته ﷺ ، فأناخ البعير ووضع يده على ركبة البعير ولم يقل اركبي ، ولا تكلم بشيء ، فركبت ثم ذهب بها يقودها ، وما نظر إليها رضي الله عنه ولا كلّمها كلمة واحدة .

ولما أقبل على القوم ضُحًى قد ارتفع النهار ، فرح المنافقون أعظم فرح أن يجدوا مدخلًا للطعن في رسول الله ﷺ ، فاتهموا الرجل بالعفاف الرزان الطاهرة النقية - فراش رسول الله ﷺ - اتهموه بها وصاروا يشيعون الفاحشة بأن هذا الرجل فعل ما فعل ، وسقط في ذلك أيضًا ثلاثة من الصحابة الـخُلّص وقعوا فيما وقع فيه المنافقون : مسطح بن أثاثة ابن خالة أبي بكر ، وحسان بن ثابت رضي الله عنهما ، وحمنة بنت جحش .

فصارت ضجة ، وصار الناس يتكلمون : ما هذا ؟ وكيف يكون ؟ من مشتبه عليه الأمر ، ومن منكرٍ غاية الإنكار . وقالوا : لا يمكن أن يتدنّس فراش رسول الله ﷺ لأنه أطهر الفرش على وجه الأرض .

وأراد الله بعزته وقدرته وحكمته أن تمرض عائشة رضي الله عنها وبقيت حبيسة البيت لا تخرج ، وكان النبي ﷺ من عادته إذا عادها في مرضها سأل وتكلّم ، أما في ذلك الوقت فكان - عليه الصلاة والسلام - لا يتكلم ، يأتي ويدخل ويقول : « كيف تيكم ؟ » أي كيف هذه ، ثم ينصرف ، وقد استنكرت ذلك منه رضي الله عنها ، ولكنها ما كان يخطر ببالها أن أحدًا يتكلم في عرضها وفيما فيه دنس فراش رسول الله ﷺ .

فقد أشاع المنافقون هذه الفرية لا كراهة لعائشة رضي الله عنها لذاتها ؛ فإنهم يكرهون كل المؤمنين ؛ وإنما بغضًا لرسول الله ﷺ ومحبة لإيذائه والانتقام منه ، قاتلهم الله أنى يؤفكون !!.

ولكن الله تعالى أنزل في هذه القصة عشر آيات من القرآن ابتدأها بقوله : ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ جَآءُو بِٱلْإِفْكِ

---

(١) قوله ﴿ بِٱلْإِفْكِ ﴾ أقبح الكذب وأفحشه والمراد به أفِكَ به على السيدة عائشة رضي الله عنها وقد أنزل الله في براءتها قرآنًا يتلى . قوله ﴿ عُصْبَةٌ مِّنكُمْ ﴾ جماعة منكم . قوله ﴿ وَٱلَّذِى تَوَلَّىٰ كِبْرَهُۥ ﴾ تحمّل معظمة (هو عبد الله بن أبي بن سلول رأس المنافقين) .

عُصْبَةٌ مِّنكُمْ لَا تَحْسَبُوهُ شَرًّا لَّكُم بَلْ هُوَ خَيْرٌ لَّكُمْ لِكُلِّ ٱمْرِئٍ مِّنْهُم مَّا ٱكْتَسَبَ مِنَ ٱلْإِثْمِ وَٱلَّذِى تَوَلَّىٰ كِبْرَهُۥ مِنْهُمْ لَهُۥ عَذَابٌ عَظِيمٌ ﴾ [النور: ١١] ، والذي تولّى كبره هو رأس المنافقين عبد الله ابن أبيّ المنافق ، فإنه هو الذي كان يشيع الخبر .

لكنه خبيث لا يشيعه بلفظه صريح فيقول مثلًا إن فلانًا زنى بفلانة ، لكنه يشيع ذلك بالتعريض والتلميح ؛ لأن المنافقين جبناء يتسترون ولا يصرحون بما في نفوسهم ، فيقول ﷻ : ﴿ وَٱلَّذِى تَوَلَّىٰ كِبْرَهُۥ مِنْهُمْ لَهُۥ عَذَابٌ عَظِيمٌ ۝ لَّوْلَآ إِذْ سَمِعْتُمُوهُ ظَنَّ ٱلْمُؤْمِنُونَ وَٱلْمُؤْمِنَٰتُ بِأَنفُسِهِمْ خَيْرًا وَقَالُوا۟ هَٰذَآ إِفْكٌ مُّبِينٌ ﴾ [النور: ١١- ١٢] .

وفي هذا توبيخ من الله ﷻ للذين تكلموا في هذا الأمر ، يقول هلا إذ سمعتوه ظن المؤمنون والمؤمنات بأنفسهم خيرًا ، وذلك أن أم المؤمنين أمهم فكيف يظنون بها ما لا يليق ، وكان الواجب عليهم لما سمعوا هذا الخبر أن يظنوا بأنفسهم خيرًا ويتبرءوا منه وممن قاله .

﴿ لَّوْلَا جَآءُو عَلَيْهِ بِأَرْبَعَةِ شُهَدَآءَ فَإِذْ لَمْ يَأْتُوا۟ بِٱلشُّهَدَآءِ فَأُو۟لَٰٓئِكَ عِندَ ٱللَّهِ هُمُ ٱلْكَٰذِبُونَ ﴾ [النور: ١٣] يعني هلا جاءوا عليه بأربعة شهداء يشهدون على هذا الأمر .

﴿ فَإِذْ لَمْ يَأْتُوا۟ بِٱلشُّهَدَآءِ فَأُو۟لَٰٓئِكَ عِندَ ٱللَّهِ هُمُ ٱلْكَٰذِبُونَ ﴾ ولو صدقوا ، ولهذا لو أن شخصًا شاهد إنسانًا يزني ، وجاء إلى القاضي وقال أنا أشهد أن فلانًا يزني ، قلنا : هات أربعة شهداء ، فإذا لم يأت بأربعة شهداء جلدناه ثمانين جلدة ، فإن جاء برجل ثان ، معه جلدناهم كل واحد ثمانين جلدة ، وثالث أيضًا نجلد كل واحد منهم ثمانين جلدة .

فمثلًا : لو جاءنا ثلاثة يشهدون بأنهم رأوا فلانًا يزني بفلانة ، ولم يثبت ذلك ، فإننا نجلد كل واحد ثمانين جلدة ، ولهذا قال تعالى : ﴿ لَّوْلَا جَآءُو عَلَيْهِ بِأَرْبَعَةِ شُهَدَآءَ فَإِذْ لَمْ يَأْتُوا۟ بِٱلشُّهَدَآءِ فَأُو۟لَٰٓئِكَ عِندَ ٱللَّهِ هُمُ ٱلْكَٰذِبُونَ ۝ وَلَوْلَا فَضْلُ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُۥ فِى ٱلدُّنْيَا وَٱلْءَاخِرَةِ لَمَسَّكُمْ فِى مَآ أَفَضْتُمْ فِيهِ عَذَابٌ عَظِيمٌ ﴾ [النور: ١٣- ١٤] لولا الفضل والرحمة من الله لأصابكم فيما أفضتم فيه العقاب المذكور ، وفي قوله : ﴿ أَفَضْتُمْ فِيهِ ﴾ دليل على أن الحديث انتشر وفاض واستفاض واشتهر ؛ لأنه أمر جلل عظيم خطير ، والعادة جرت بأن الأمور الكبيرة تنتشر بسرعة وتملأ البيوت ، وتملأ الأفواه والآذان ﴿ وَلَوْلَا فَضْلُ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُۥ فِى ٱلدُّنْيَا وَٱلْءَاخِرَةِ لَمَسَّكُمْ فِى مَآ أَفَضْتُمْ فِيهِ عَذَابٌ عَظِيمٌ ۝ إِذْ تَلَقَّوْنَهُۥ بِأَلْسِنَتِكُمْ وَتَقُولُونَ بِأَفْوَاهِكُم مَّا لَيْسَ لَكُم بِهِۦ عِلْمٌ وَتَحْسَبُونَهُۥ هَيِّنًا وَهُوَ عِندَ ٱللَّهِ عَظِيمٌ ﴾ [النور: ١٤- ١٥] .

﴿ إِذْ تَلَقَّوْنَهُۥ بِأَلْسِنَتِكُمْ ﴾ من غير رويَّة ، ومن غير بينة ، ومن غير يقين ، ﴿ وَتَقُولُونَ بِأَفْوَاهِكُم مَّا لَيْسَ لَكُم بِهِۦ عِلْمٌ وَتَحْسَبُونَهُۥ هَيِّنًا وَهُوَ عِندَ ٱللَّهِ عَظِيمٌ ﴾ لأنه قذف لأطهر امرأة على وجه الأرض ، وهي وصاحباتها زوجات رسول الله ﷺ ، فالأمر صعب وعظيم .

وفي ذلك أيضًا تعريض [من المنافقين] برسول الله ﷺ ؛ لأن الله تعالى يقول : ﴿ ٱلْخَبِيثَٰتُ لِلْخَبِيثِينَ وَٱلْخَبِيثُونَ لِلْخَبِيثَٰتِ وَٱلطَّيِّبَٰتُ لِلطَّيِّبِينَ وَٱلطَّيِّبُونَ لِلطَّيِّبَٰتِ ﴾ [النور: ٢٦] .

فإذا كانت عائشة أم المؤمنين زوج رسول الله ﷺ ويحصل منها هذا الأمر - وحاشاها منه - فإن ذلك يدل على خبث زوجها - والعياذ بالله - لأن الخبيثات للخبيثين، ولكنها رضي الله عنها طيبة وزوجها طيب، فزوجها محمد رسول الله - صلى الله عليه وعلى آله وسلم - وهي الصديقة بنت الصديث رضي الله عنهما وعن أبيها.

ولهذا يقول تعالى: ﴿ وَتَحْسَبُونَهُ هَيِّنًا وَهُوَ عِندَ اللَّهِ عَظِيمٌ ﴾ ثم قال تعالى: ﴿ وَلَوْلَا إِذْ سَمِعْتُمُوهُ ﴾ يعني هلا إذ سمعتموه ﴿ قُلْتُم مَّا يَكُونُ لَنَا أَن نَّتَكَلَّمَ بِهَٰذَا سُبْحَانَكَ هَٰذَا بُهْتَانٌ عَظِيمٌ ﴾ [النور: ١٦]. وهذا هو الواجب عليك؛ أن تنزه الله أن يقع مثل هذا من زوج النبي ﷺ، ولهذا قال: ﴿ سُبْحَانَكَ هَٰذَا بُهْتَانٌ عَظِيمٌ ﴾.

وتأمل كيف جاءت هذه الكلمة التي تتضمن تنزيه الله عز وجل، إذ أنه لا يليق بحكمة الله ورحمته وفضله وإحسانه أن يقع مثل هذا من زوج رسول الله ﷺ، ثم قال تعالى: ﴿ يَعِظُكُمُ اللَّهُ أَن تَعُودُوا لِمِثْلِهِ أَبَدًا إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ﴾ [النور: ١٧] يعني لا تعودوا لمثل هذا أبدًا إن كنتم مؤمنين.

ثم قال تعالى: ﴿ وَيُبَيِّنُ اللَّهُ لَكُمُ الْآيَاتِ وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ ﴾ [النور: ١٨] والحمد لله على بيانه، ولهذا أجمع العلماء على أنَّ مَنْ رمى أم المؤمنين عائشة رضي الله عنها بما جاء في حديث الإفك فإنه كافر مرتد، كافر كالذي يسجد للصنم، فإن تاب وأكذب نفسه، وإلا قتل كافرًا؛ لأنه كذب القرآن.

على أن الصحيح أن من رمى زوجة من زوجات الرسول ﷺ بمثل هذا فإنه كافر، لأنه متنقص لرسول الله ﷺ، كل من رمى زوجة من زوجات الرسول بما برأ الله منه عائشة فإنه يكون كافرًا مرتدًا، يجب أن يستتاب فإن تاب وإلا قتل بالسيف، وألقيت جيفته في حفرة من الأرض، بدون تغسيل، ولا تكفين، ولا صلاة، لأن الأمر خطير.

ثم قال عز وجل: ﴿ إِنَّ الَّذِينَ يُحِبُّونَ أَن تَشِيعَ الْفَاحِشَةُ فِي الَّذِينَ آمَنُوا لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ وَاللَّهُ يَعْلَمُ وَأَنتُمْ لَا تَعْلَمُونَ ۝ وَلَوْلَا فَضْلُ اللَّهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُ وَأَنَّ اللَّهَ رَءُوفٌ رَّحِيمٌ ﴾ [النور: ١٩- ٢٠].

وسبق أن أشرنا إلى أن ثلاثة من الصحابة الخلَّص تورطوا في هذه القضية، وهم: حسان بن ثابت رضي الله عنه، ومسطح بن أثاثة - وهو ابن خالة أبي بكر - وحمنة بنت جحش أخت زينت بنت جحش، وزينت بنت جحش زوج الرسول - عليه الصلاة والسلام - وضرة عائشة، ومع ذلك حماها الله، لكن أختها تورطت، ولما أنزل الله براءتها أمر النبي ﷺ أن يحدَّ هؤلاء الثلاث حدَّ القذف، فجلد كل واحد منهم ثمانين جلدة.

أما المنافقون فلم يقم النبي ﷺ عليهم الحد، واختلف العلماء في ذلك:

فقيل: لأن المنافقين ما كانوا يجزمون وإنما يقولون: يقال، أو: يذكر، أو: سمعنا، أو ما أشبه ذلك.

وقيل: لأن المنافق ليس أهلًا للتطهير فالحدُّ طهرة للمحدود، وهؤلاء المنافقون ليسوا بأهل للتطهير، ولهذا لم يجلدهم الرسول - عليه الصلاة والسلام - لأنه لو جلدهم لطهرهم من دنس هذا الشيء، لكنهم ليسوا أهلًا للتطهير فهم في الدرك الأسفل من النار، فتركهم، وذنوبهم، فليس فيهم خير. وقيل غير ذلك.

وعلى كل حال فإن هذه القصة قصة عظيمة ، فيها عبر كثيرة .

* * *

٢٤٠ – وعن أبي هريرة ﷺ عن النبي ﷺ قال : « لا يَسْتُرُ عَبْدٌ عَبْدًا في الدُّنْيَا إلا سَتَرَهُ اللَّهُ يَوْمَ القِيَامَةِ » [(١)] رواه مسلم .

الشرح

قال المؤلف – رحمه الله تعالى – فيما نقله عن أبي هريرة ﷺ أن النبي ﷺ قال : « لا يستر عبد عبدًا في الدنيا إلا ستره الله تعالى يوم القيامة » .

الستر يعني الإخفاء ، وقد سبق لنا أن الستر ليس محمودًا على كل حال ، وليس مذمومًا على كل حال ، فهو نوعان :

النوع الأول : ستر محمود ويكون في حق الإنسان المستقيم ، الذي لم يعهد منه فاحشة ، ولم يحدث منه عدوان إلا نادرًا ، فهذا ينبغي أن يستر وينصح ويبين له أنه على خطأ ، فهذا الستر محمود .

والنوع الثاني : ستر شخص مستهتر متهاون في الأمور معتد على عباد الله شرير ، فهذا لا يستر ، بل المشروع أن يبين أمره لولاة الأمر حتى يردعوه عما هو عليه ، وحتى يكون نكالًا لغيره .

فالستر يتبع المصالح ؛ فإذا كانت المصلحة في الستر فهو أولى ، وإن كانت المصلحة في الكشف فهو أولى ، وإن تردد الإنسان بين هذا وهذا فالستر أولى .

* * *

٢٤١ – وعنه قال : سمعت رسول الله ﷺ يقول : « كُلُّ أُمَّتِي مُعَافى إلا المُجَاهِرِينَ ، وَإنَّ مِنَ المُجَاهَرَةِ أَنْ يَعْمَلَ الرَّجُل بِاللَّيلِ عَمَلًا ، ثُمَّ يُصْبِحُ وَقدْ سَتَرَهُ اللَّهُ عَلَيهِ فَيقُولُ : يَا فُلانُ عَمِلْتُ البَارِحَةَ كَذَا وَكَذَا ، وَقَدْ بَاتَ يَسْتُرُهُ رَبُّهُ ، وَيُصْبِحُ يَكْشِفُ سِتْرَ اللَّهِ عنه » [(١)] متفقٌ عليه .

الشرح

ذكر المؤلف – رحمه الله تعالى – فيما نقله عن أبي هريرة ﷺ أن النبي – صلى الله عليه وآله وسلم – قال : « كل أمتي معافي إلا المجاهرين » . يعني بكل الأمة أمة الإجابة الذين استجابوا للرسول ﷺ ، معافى : يعني قد عافاهم الله ﷻ ، إلا المجاهرين : والمجاهرون هم الذين يجاهرون بمعصية الله ﷻ ، وهم ينقسمون إلى قسمين :

الأول : أن يعمل المعصية وهو مجاهر بها ، فيعملها أمام الناس ، وهم ينظرون إليه ، وهذا لاشك أنه غير معافى وهو من المجاهرين ؛ لأنه جر على نفسه الويل ، وجره على نفسه الويل ، وجره على غيره أيضًا .

أما جره على نفسه ، فلأنه ظلم نفسه حيث عصى الله ورسوله ، وكل إنسان يعصي الله ورسوله ،

(١) أخرجه البخاري في الأدب (٦٠٦٩) بلفظ « وإن من المجانة » ، ومسلم في الزهد (٥٢) بلفظ « وإن من الإجهار » .

فإنه ظالم لنفسه ، قال الله تعالى : ﴿ وَمَا ظَلَمُونَا وَلَٰكِن كَانُوٓاْ أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ ﴾ [البقرة : ٥٧] ، والنفس أمانة عندك يجب عليك أن ترعاها حق رعايتها ، وكما أنه لو كان لك ماشية فإنك تتخير لها المراعي الطيبة ، وتبعدها عن المراعي الخبيثة الضارة ، فكذلك نفسك يجب عليك أن تتحرى لها المراتع الطيبة ، وهي الأعمال الصالحة ، وأن تبعدها عن المراتع الخبيثة وهي الأعمال السيئة .

وأما جره على غيره ، فلأن الناس إذا رأوه قد عمل المعصية هانت في نفوسهم ، وفعلوا مثله ، وصار - والعياذ بالله - من الأئمة الذين يدعون إلى النار ، كما قال الله تعالى عن آل فرعون : ﴿ وَجَعَلْنَٰهُمْ أَئِمَّةً يَدْعُونَ إِلَى ٱلنَّارِ ۖ وَيَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ لَا يُنصَرُونَ ﴾ [القصص : ٤١] .

وقال النبي - عليه الصلاة والسلام - : « من سن في الإسلام سنة فعليه وزرها ووزر من عمل بها إلى يوم القيامة »[١] . فهذا نوع من المجاهرة ، ولم يذكره النبي ﷺ ؛ لأنه واضح ، لكنه ذكر أمرًا آخر قد يخفى على بعض الناس فقال :

ومن المجاهرة : أن يعمل الإنسان العمل السيئ في الليل فَيستره الله عليه ، يعمل العمل في بيته فيستره الله عليه ولا يطلع عليه أحد ، ولو تاب فيما بينه وبين ربه لكان خيرًا له ، ولكنه إذا قام في الصباح واختلط بالناس قال : عملت البارحة كذا ، وعملت كذا وعملت كذا ، فهذا ليس معافى ، هذا - والعياذ بالله - قد ستر الله عليه فأصبح يفضح نفسه .

وهذا الذي يفعله بعض الناس أيضًا يكون له أسباب :

السبب الأول : أن يكون الإنسان غافلًا سليمًا لا يهتم بشيء ، فتجده يعمل السيئة ثم يتحدث بها عن طيب قلب لا عن خبث قصد .

والسبب الثاني : أن يتحدث بها تبجُّحًا بالمعاصي واستهتارًا بعظمة الخالق ، فيصبحون يتحدثون بالمعاصي متبجحين بها كأنما نالوا غنيمة ، فهؤلاء - والعياذ بالله - شر الأقسام .

ويوجد من الناس من يفعل هذا مع أصحابه ، يعني أنه يتحدث به مع أصحابه فيحدثهم بأمر خفي لا ينبغي أن يذكر لأحد ، لكنه لا يهتم بهذا الأمر فهذا ليس من المعافين ، لأنه من المجاهرين .

والحاصل أنه ينبغي للإنسان أن يتستر بستر الله ﷻ ، وأن يحمد الله على العافية ، وأن يتوب فيما بينه وبين ربه من المعاصي التي قام بها ، وإذا تاب إلى الله ، ستره الله في الدنيا والآخرة .

* * *

٢٤٢ - وعنه عن النبي ﷺ قال : « إِذَا زَنَتِ الأَمَة فَتَبَيَّنَ زِنَاها فَلْيَجْلِدْهَا الحَدَّ ، وَلا يُثَرِّبْ عَلَيهَا ، ثُمَّ إنْ زَنَتِ الثَّانِيَةَ فَلْيَجْلِدْهَا الحَدَّ وَلا يثَرِّبْ عَلَيهَا ، ثُمَّ إنْ زَنَتِ الثَّالِثَةَ فَلْيَبِعْهَا وَلَو بِحَبْلٍ مِنْ شَعَرٍ »[٢] متفقٌ عليه . « التَّثْرِيبُ » : التَّوبيخُ .

---

(١) أخرجه مسلم بنحوه في الزكاة (٦٩) ، وأحمد في مسنده (٣٥٧/٤) .

(٢) أخرجه البخاري رقم (٢٥٥٥) ، ومسلم - مع اختلاف في اللفظ - في الحدود (٣٠) .

الشرح

ذكر المؤلف - رحمه الله تعالى - فيما نقله عن أبي هريرة ﷺ أن النبي ﷺ قال: « إذا زنت أمة أحدكم فليجلدها الحد ولا يثرب ».

والأمة: هي المملوكة التي تباع وتشترى، فإذا زنت فليجلدها الحدَّ، وحدُّ الأمة نصف حدِّ الحرة، كما قال تعالى: ﴿ فَإِذَآ أُحْصِنَّ فَإِنْ أَتَيْنَ بِفَٰحِشَةٍ فَعَلَيْهِنَّ نِصْفُ مَا عَلَى ٱلْمُحْصَنَٰتِ مِنَ ٱلْعَذَابِ ﴾ [النساء: ٢٥].

والحرة إذا كانت بكرًا وَزَنَتْ تجلد مائة جلدة وتغرب سنة، والأمة نصف ذلك يعني خمسين جلدة، وأما تغريبها ففي ذلك قولان للعلماء: منهم من قال تغرب نِصْفُ سنة.

ومنهم من قال إنها تغرب؛ لأنه قد تعلق بها حقُّ السيد.

ثم إن زنت الثانية فليجلدها الحد ولا يثرِّب، ثم إن زنت يعني في الثالثة أو الرابعة فليبعها ولو بحبل من شعر، يعني ولا يقيها لأنه لا خير فيها.

ففي هذا دليل على أن السيد يقيم الحد على مملوكه، وأما غير السيد فلا يقيم الحد.

* * *

٢٤٣ - وعنه قال: أُتِيَ النَّبِيُّ ﷺ بِرَجُلٍ قَدْ شَرِبَ خَمْرًا قال: « اضْرِبُوهُ » قال أَبُو هُرَيْرَةَ: فَمِنَّا الضَّارِبُ بِيَدِهِ، وَالضَّارِبُ بِنَعْلِهِ، وَالضَّارِبُ بِثَوبِهِ. فَلَمَّا انْصَرَفَ قَالَ بَعْضُ القَوْمِ: أَخْزَاكَ اللَّه، قال: « لا تَقُولُوا هكَذَا، لا تُعِينُوا عَلَيهِ الشَّيطَانَ » [1] رواه البخاري.

الشرح

نقل المؤلف رحمه الله عن أبي هريرة ﷺ قال: « أتي النبي ﷺ برجل قد شرب خمرًا ».

والخمر: هي كل ما خامر العقل من أي شراب كان؛ سواء كان مما اعتيد شربه أم لا؛ وسواء كان من عصير العنب أو التمر أو الشعير أو البر أو غير ذلك من أنواع العصائر التي تسكر، فالمدار كلُّه على الإسكار، وما أسكر كثيره فقليله حرام.

ولذلك فلما جاء إلى النبي ﷺ هذا الشارب للخمر قال: « اضربوه ».

فقال أبو هريرة: فمنا الضارب بيده، ومنا الضارب بسوطه، ومنا الضارب بنعله، ولم يحدد لهم النبي ﷺ عددًا معينًا، فلما انصرف بعضهم قال له رجل: أخزاك الله، فقال النبي ﷺ: « لا تعينوا عليه الشيطان » لأن الخزي معناه العار والذلُّ، فأنت إذا قلت لرجل: أخزاك الله، فإنك قد دعوت الله عليه بما يذله ويفضحه، فتعين عليه الشيطان.

---

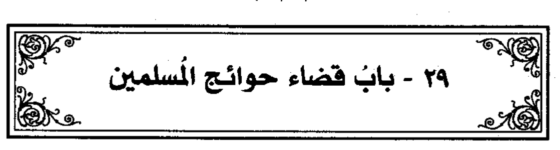
(١) أخرجه البخاري في الحدود (٦٧٧٧)، قوله « أخزاك » أي فضحك وأهانك.

وفي هذا الحديث : دليل على أن عقوبة الخمر ليس لها حدٌّ معين ، ولهذا لم يحدّ لهم النبي ﷺ حدًّا ، كلٌّ يضرب بما تيسر ، من يضرب بيده ، ومن يضرب بطرف ثوبه ، ومن يضرب بعصاه ، ومن يضرب بنعله ، لم يحدّ فيها حدًّا ، وبقي الأمر كذلك .

وفي عهد أبي بكر صارت تقدّر بنحو أربعين ، وفي عهد عمر كثر الناس الذين دخلوا في الإسلام ، ومنهم من دخل عن غير رغبة ، فكثر شرب الخمر في عهد عمر رضي الله عنه ، فلما رأى الناس قد أكثروا فيها استشار الصحابة فقال عبد الرحمن بن عوف رضي الله عنه أخف الحدود ثمانون وهو حدُّ القذف ، فرفع عمر رضي الله عنه عقوبة شارب الخمر إلى ثمانين جلدة .

ففي هذا : دليل على أن الإنسان إذا فعل ذنبًا وعوقب عليه في الدنيا ، فإنه لا ينبغي لنا أن ندعو عليه بالخزي والعار ، بل نسأل اللّه له الهداية ، ونسأل اللّه له المغفرة .

* * *



٢٩ - بابُ قضاء حوائج المُسلمين

قال اللّه تعالى : ﴿ وَٱفۡعَلُواْ ٱلۡخَيۡرَ لَعَلَّكُمۡ تُفۡلِحُونَ ﴾ [الحج : ٧٧] .

٢٤٤ - وعن ابن عمر رضي الله عنهما أن رسول اللّه ﷺ قال : « المُسْلِمُ أَخُو المُسْلِمِ لا يَظْلِمه ولا يُسْلِمُهُ . مَنْ كَانَ في حَاجَةِ أَخيهِ كَانَ اللّهُ في حَاجَتِهِ ، وَمَنْ فَرَّجَ عَنْ مُسْلِم كُرْبَةً فَرَّجَ اللّه عَنْهُ بهَا كُرْبَةً مِنْ كُرَب يَوم القِيَامَة ، وَمَنْ سَتَرَ مُسْلِمًا سَتَرَهُ اللّهُ يَومَ القِيَامَةِ » (١) متفقٌ عليه .

٢٤٥ - وعن أبي هُريرَة رضي الله عنه عن النبي ﷺ قالَ : « مَن نَفَّسَ عَنْ مُؤْمِنٍ كُرْبَةً مِنْ كُرَبِ الدُّنْيَا ، نَفَّسَ اللّه عَنْهُ كُرْبَةً مِنْ كُرَبِ يَومِ القِيَامَةِ ، وَمَنْ يَسَّرَ عَلَى مُعْسِرٍ يَسَّرَ اللّه عَلَيهِ في الدُّنْيَا وَالآخِرَةِ ، وَمَنْ سَتَرَ مُسْلِمًا سَتَرَهُ اللّه في الدُّنْيَا وَالآخِرَةِ ، وَاللّه في عَونِ العَبدِ مَا كَانَ العَبدُ في عَونِ أَخِيهِ ، وَمَنْ سَلَكَ طَرِيقًا يَلْتَمسُ فِيهِ عِلْمًا ؛ سَهَّلَ اللّه لَهُ طَرِيقًا إلَى الجَنَّةِ . وَمَا اجْتَمَعَ قَومٌ في بَيتٍ مِنْ بُيُوتِ اللّهِ تَعَالَى يَتْلُونَ كِتَابَ اللّهِ ، وَيَتَدَارَسُونَهُ بَينَهُمْ إلا نَزَلَتْ عَلَيهِمُ السَّكِينَةُ ، وَغَشيتْهُمُ الرَّحْمَةُ ، وَحَفَّتْهمُ الملائِكَةُ ، وَذَكَرَهُمُ اللّه فِيمَنْ عِنْدَهُ ، وَمَنْ بَطَّأَ بِهِ عَمَلُهُ لَمْ يُسرِعْ بِهِ نَسَبُهُ » (٢) رواه مسلم .

---

(١) أخرجه البخاري في المظالم (٢٤٤٢) ، ومسلم في البر والصلة (٥٨) ، وأبو داود في الأدب (٤٨٩٣) بلفظ «فإن اللّه في حاجتك » قوله « كربة » أي شدة .

(٢) أخرجه مسلم في الذكر والدعاء (٣٨) . قوله « ومن يسر على معسر » أي بإبراء أو هبة أو نظرة إلى ميسرة بنفسه أو وساطته قوله « وغشيتهم » أي عمتهم قوله : «ومن بطأ به عمله لم يسرع به نسبه » أي ومن قصر به عمله لفقد بعض شروط الصحة والكمال لم يلحق برتب أصحاب الأعمال الكاملة .

الشرح

قال المؤلف – رحمه الله تعالى – : باب قضاء حوائج المسلمين .

الحوائج : ما يحتاجه الإنسان ليكمل به أموره ، وأما الضروريات فهي ما يضطر إليه الإنسان ليدفع به ضررًا ، ودفع الضرورات واجب ؛ فإنه يجب على الإنسان إذا رأى أخاه في ضرورة أن يدفع ضرورته ؛ فإذا رآه في ضرورة إلى الطعام أو إلى الشراب أو إلى التدفئة ، أو إلى التبردة ، وجب عليه أن يقضي حاجته ، ووجب عليه أن يزيل ضرورته ويرفعها .

حتى إن أهل العلم يقولون : لو اضطر الإنسان إلى طعام في يدِ شخص أو إلى شرابه ، والشخص الذي بيده الطعام أو الشراب غير مضطر إلى هذا الطعام أو الشراب ، ومنعه بعد طلبه ، ومات هذا المضطر ، فإنه يضمن ؛ لأنه فرط في إنقاذ أخيه من هلكة .

أما إذا كان الأمر حاجيًا وليس ضروريًا ، فإن الأفضل أن تعين أخاك على حاجته ، وأن تيسرها له ما لم تكن الحاجة فيها مضرته ، فإن كانت الحاجة فيها مضرته فلا تعنه ؛ لأن الله يقول : ﴿ وَلَا تَعَاوَنُوا۟ عَلَى ٱلْإِثْمِ وَٱلْعُدْوَٰنِ ﴾ [المائدة : ٢] .

فلو فرض أن شخصًا احتاج إلى شرب دخان ، وطلب منك أن تعينه بدفع القيمة له أو شرائه له أو ما أشبه ذلك ، فإنه لا يحل لك أن تعينه ولو كان محتاجًا ، حتى لو رأيته ضائقًا يريد أن يشرب الدخان فلا تعنه ، لقول الله تعالى : ﴿ وَلَا تَعَاوَنُوا۟ عَلَى ٱلْإِثْمِ وَٱلْعُدْوَٰنِ ﴾ حتى لو كان أباك ، فإنك لا تعينه على هذا ، حتى لو غضب عليك إذا لم تأت به فليغضب ؛ لأنه غضب في غير موضع الغضب ، بل إنك إذا امتنعت من أن تأتي لأبيك بما يضره ، فإنك تكون بارًّا به ، ولا تكون عاقًّا له ، لأن هذا هو الإحسان ؛ فأعظم الإحسان أن تمنع أباك مما يضره ، قال النبي – عليه الصلاة والسلام – : « انصر أخاك ظالمًا أو مظلومًا » قالوا : يا رسول الله : كيف ننصره إذا كان ظالمًا . قال : « تمنعه من الظلم ، فذلك نصرك إياه » [1] .

وعلى هذا فإن ما ذكره المؤلف في باب قضاء حوائج المسلمين يريد بذلك الحوائج المباحة ، فإنه ينبغي لك أن تعين أخاك عليها ، فإن الله في عونك ما كنت في عون أخيك .

ثم ذكر المؤلف أحاديث مر الكلام عليها فلا حاجة إلى إعادتها ، إلا أن فيها بعض الجمل تحتاج إلى كلام ؛ منها قوله : « من يسرَّ على معسر ، يسرَّ الله عليه في الدنيا والآخرة » فإذا رأيت معسرًا ، ويسرت عليه الأمر يسر الله عليك في الدنيا والآخرة ، مثل أن ترى شخصًا ليس بيده ما يشتري لأهله من طعام وشراب ، لكن ليس عنده ضرورة ، فأنت إذا يسرت عليه يسر الله عليك في الدنيا والآخرة .

ومن ذلك أيضًا : إذا كنت تطلب شخصًا معسرًا ، فإنه يجب عليك أن تيسر عليه وجوبًا ، لقوله

(١) أخرجه البخاري بنحوه في المظالم (٢٤٤٤) ، وأحمد في مسنده (٩٩/٣) .

تعالى : ﴿ وَإِن كَانَ ذُو عُسْرَةٍ فَنَظِرَةٌ إِلَىٰ مَيْسَرَةٍ ﴾ [البقرة : ٢٨٠] وقد قال العلماء – رحمهم الله – : من كان له غريم معسر فإنه يحرم عليه أن يطلب منه الدين ، أو أن يطالبه به ، أو أن يرفع أمره إلى الحاكم ، بل يجب عليه إنظاره .

ويوجد بعض الناس – والعياذ بالله – ممن لا يخافون الله ، ولا يرحمون عباد الله ، يطالبون المعسرين ، ويضيقون عليهم ، ويرفعونهم إلى الجهات المسؤولة فيحبسون ويؤذون ويمنعون من أهلهم ومن ديارهم ، كلُّ هذا بسبب الظلم ، وإن كان الواجب على القاضي إذا ثبت عنده إعسار الشخص ، فواجب عليه أن يرفع الظلم عنه ، وأن يقول لغرمائه : ليس لكم شيء .

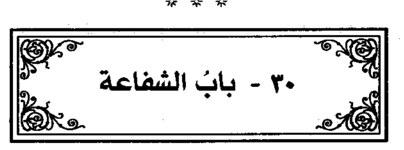
ثم إن بعض الناس – والعياذ بالله – إذا كان لهم غريم معسر يحتال عليه بأن يدينه مرة أخرى بربًا ، فيقول مثلًا : اشتر مني السلعة الفلانية بزيادة على ثمنها وأوفني ، أو يتفق مع شخص ثالث يقول : اذهب تَدَيَّن من فلان وأوفني ، وهكذا حتى يصبح هذا المسكين بين يدي هذين الظالمين كالكرة بين يدي الصبي يلعب بها والعياذ بالله .

والمهم : أن عليكم إذا رأيتم شخصًا ، يطالب معسرًا أن تبينوا له أنه آثم ، وأن ذلك حرام عليه ، وأنه يجب عليه إنظاره لقول الله تعالى : ﴿ وَإِن كَانَ ذُو عُسْرَةٍ فَنَظِرَةٌ إِلَىٰ مَيْسَرَةٍ ﴾ [البقرة : ٢٨٠] وأنه إذا ضيق على أخيه المسلم ، فإنه يوشك أن يضيق الله عليه في الدنيا أو في الآخرة ، أو في الدنيا والآخرة معًا ، ويوشك أن يعجل له بالعقوبة ، ومن العقوبة أن يستمر في مطالبة هذا المعسر وهو معسر ؛ لأنه كلما طالبه ازداد إثمًا .

وعلى العكس من ذلك ، فإنه يوجد بعض الناس – والعياذ بالله – يماطلون بالحقوق التي عليهم ، مع قدرتهم على وفائهم ، فتجده يأتيه صاحب الحق فيقول : غدًا ، وإذا أتاه في غدٍ ؛ وهكذا ، وقد ثبت عن النبي ﷺ أنه قال : « مَطْل الغنيِّ ظلم » (١) .

وإذا كان ظلمًا فإن أي ساعة أو لحظة تمضي وهو قادر على وفاء دينه فإنه لا يزداد بها إلا إثمًا ، نسأل الله لنا ولكم السلامة والعافية .

* * *



٣٠ - باب الشفاعة

قال الله تعالى : ﴿ مَن يَشْفَعْ شَفَٰعَةً حَسَنَةً يَكُن لَّهُۥ نَصِيبٌ مِّنْهَا ﴾ (٢) [النساء : ٨٥] .

٢٤٦ – وعن أبي موسى الأشعري ﷺ قال : كان النبي ﷺ إذا أتاهُ طَالِبُ حَاجَةٍ أَقْبَلَ عَلَى

---

(١) أخرجه البخاري في الاستقراض (٢٤٠٠) ، ومسلم في المساقاة (٣٣) ، وأحمد في مسنده (٢/٧١) .

(٢) قوله ﴿ مَن يَشْفَعْ شَفَٰعَةً حَسَنَةً ﴾ أي من يسعى في أمر فيترتب عليه خير كان له نصيب من ذلك .

جُلَسَائِهِ فقال : « اشفعُوا تُؤْجَرُوا وَيَقضِي اللَّه عَلَى لِسَانِ نَبيِّهِ مَا أَحبَّ » متفقٌ عليه .

وفي رواية : « مَا شَاءَ » [١] .

٢٤٧ – وعن ابن عباس رضي الله عنهما في قصَّةِ بَرِيرَةَ وَزَوجهَا . قال : قال لَهَا النَّبيُّ ﷺ : « لَو رَاجَعْتِهِ ؟ » قَالَتْ : يَا رَسُولَ اللَّه تَأْمُرُنِي ؟ قال : « إِنَّمَا أَشْفَعُ » قَالَتْ : لا حَاجَةَ لي فِيهِ [٢] . رواه البخاري .

الشرح

قال المؤلف – رحمه اللَّه تعالى – : باب الشفاعة . والشفاعة : هي التوسط للغير ؛ لجلب منفعة أو دفع مضرة .

مثال الأول : أن تتوسط لشخص عند آخر في أن يساعده في أمر من الأمور .

ومثال الثاني : أن تشفع لشخص عند آخر في أن يسامحه ويعفو عن مظلمته ، حتى يندفع عنه الضرر .

ومثال ذلك في الآخرة ؛ أن النبي ﷺ يشفع في أهل الموقف ليُقضى بينهم ، حين يصيبهم من الكرب والغم ما لا يطيقون [٣] ، فهذه شفاعة في دفع مضرة .

ومثالها في جلب منفعة ؛ أن النبي ﷺ يشفع في أهل الجنة أن يدخلوا الجنة [٤] .

والمراد بالشفاعة في كلام المؤلف : الشفاعة في الدنيا ؛ وهي أن يشفع الإنسان لشخص عند آخر ؛ يتوسط له لجلب المنفعة له أو دفع المضرة عنه .

والشفاعة أقسام :

القسم الأول : شفاعة محرمة لا تجوز ، وهي أن يشفع لشخص وجب عليه الحدُّ بعد أن يصل إلى الإمام ، فإن هذه شفاعة محرمة لا تجوز ؛ مثال ذلك : رجل وجب عليه حدٌّ في قطع يده للسرقة ، فلما وصلت إلى الإمام أو نائب الإمام ، أراد إنسان أن يشفع لهذا السارق أن لا تقطع يده ، فهذا حرام أنكره النبي – عليه الصلاة والسلام – إنكارًا عظيمًا .

وذلك حينما أمر النبي – صلى اللَّه عليه وآله وسلم – أن تقطع يد المرأة المخزومية ، امرأة من بني مخزوم من أشراف قبائل العرب ، كانت تستعير الشيء ثم تجحده ، أي : تستعيره لتنتفع به ثم تنكر

---

(١) أخرجه البخاري في الزكاة (١٤٣٢) ، ومسلم في البر والصلة (١٤٥) ، وفيه « اشفعوا فلتؤجروا » . قوله : « ويقضى اللَّه على لسان نبيه ما أحب » أي : ما أراد مما سبق في علم اللَّه الأزلي من وقوع الأمر وحصوله أو عدمه .

(٢) أخرجه البخاري في الطلاق (٥٢٨٣) .

(٣) هذا حديث ولفظه « يجمع اللَّه المؤمنين يوم القيامة فيقولون لو استشفعنا .. » . وقد أخرجه البخاري في التوحيد (٧٤١٠) ، ومسلم في الإيمان (٣٢٢) .

(٤) هذا حديث ولفظه « أنا أول الناس يشفع في الجنة .. » . وقد أخرجه مسلم في الإيمان (٣٣٠) ، والدارمي في المقدمة (٤٨) .

بعد ذلك أنها استعارت شيئًا ، فأمر النبي - صلى اللَّه عليه وآله وسلم - بقطع يدها فاهتمت لذلك قريش ، قالوا : امرأة من بني مخزوم تقطع يدها ؟ هذا عار كبير ، من يشفع لنا إلى رسول اللَّه - صلى اللَّه عليه وآله وسلم - فرأوا أن أقرب الناس لذلك أسامة بن زيد بن حارثة .

وأسامة بن زيد ابن مولى رسول اللَّه ﷺ ، لأن زيد بن حارثة عبدٌ أهدته إلى رسول اللَّه ﷺ خديجة ، ثم أعتقه وكان يحبه - عليه الصلاة والسلام - ويحب ابنه أسامة ، فذهب أسامة إلى النبي ﷺ يشفع لهذه المرأة ألا تقطع يدها ، فقال النبي - عليه الصلاة والسلام - : « أتشفع في حد من حدود اللَّه ؟ » قال ذلك إنكارًا عليه ، ثم قام فخطب الناس وقال : « أيها الناس إنما أهلك من كان قبلكم ؛ أنهم كانوا إذا سرق فيهم الشريف تركوه وإذا سرق فيهم الضعيف أقاموا عليه الحد ، وايم اللَّه - يعني : أقسم باللَّه - لو أن فاطمة بنت محمد سرقت لقطعتُ يدها » [1] .

وهذه المرأة المخزومية دون فاطمة شرفًا ونسبًا ، ومع ذلك فإنه ﷺ قال : « لو أن فاطمة بنت محمد سرقت لقطعتُ يدها » ليسدّ باب الشفاعة والوساطة في الحدود إذا بلغت الإمام .

وقال - عليه الصلاة والسلام - : « من حالت شفاعته دون حدٍّ من حدود اللَّه فقد ضادَّ اللَّه في أمره » [2] .

وقال ﷺ : « إذا بلغت الحدود السلطان فلعن اللَّه الشافع والمشفع » [3] .

ولما سرق رداء صفوان بن أمية وكان قد توسده في المسجد ، فجاء رجل فسرقه ، فأمر النبي ﷺ أن تقطع يد السارق - انظر ماذا سرق ؟ سرق رداء ، فأمر النبي ﷺ أن تقطع يده - فقال : يا رسول اللَّه ، أنا لا أريد ردائي ، يعني أنه رحم هذا السارق وشفع فيه أن لا تقطع يده ، فقال النبي - صلى اللَّه عليه وآله وسلم - : « هلا كان ذلك قبل أن تأتيني به » [4] .

يعني لو عفوت عنه قبل أن تأتيني به لكان ذلك لك ، لكن إذا بلغت الحدود السلطان فلابد من تنفيذها ، وتحرم فيها الشفاعة .

القسم الثاني : أن يشفع في شيء محرم ، مثل أن يشفع لإنسان معتدٍ على أخيه ، أعرف مثلًا أن هذا الرجل يريد أن يخطب امرأة مخطوبة ، والمرأة المخطوبة لا يحل لأحد خطبتها ، فذهب رجل ثانٍ إلى شخص ، وقال : يا فلان أحب أن تشفع لي عند والد هذه المرأة يزوجنيها ، وهو يعلم أنها مخطوبة ، فهنا لا يحل له أن يشفع ؛ لأن هذه شفاعة في محرم .

والشفاعة في المحرم تعاون على الإثم والعدوان ، وقد قال اللَّه تعالى : ﴿ وَتَعَاوَنُوا۟ عَلَى ٱلْبِرِّ وَٱلتَّقْوَىٰ

---

(١) أخرجه البخاري في فضائل الصحابة (٣٧٣٣) ، ومسلم - واللفظ له - في الحدود (٨) .

(٢) أخرجه أبو داود في الأقضية (٣٥٩٧) بدون لفظ « في أمره » ، والحاكم في المستدرك (٢٧/٢) ، وأحمد في مسنده (٧٠/٢) .

(٣) أخرجه مالك في الحدود (٢٩) بلفظ « إذا بلغت به السلطان .. » .

(٤) أخرجه أبو داود في الحدود (٤٣٩٤) ، وابن ماجه في الحدود (٢٥٩٥) ، والنسائي في الحدود (٤٨٧٨) .

﴿وَلَا تَعَاوَنُوا عَلَى الْإِثْمِ وَالْعُدْوَانِ﴾ [المائدة: ٢].

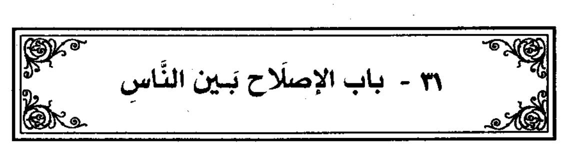
ومن ذلك أيضًا أن يأتي رجل لشخص فيقول: يا فلان أنا أريد أن أشتري دخانًا من فلان وقد سُمتُه بكذا وكذا، وأبى عليَّ إلا بكذا وكذا أكثر مما سمتهُ به، فأرجوك أن تشفع لي عنده ليبيعه عليَّ بهذا السعر الرخيص، فهنا لا تجوز الشفاعة؛ لأن هذه إعانة على الإثم والعدوان.

القسم الثالث: الشفاعة في شيء مباح وهذه لا بأس بها، ويكون للإنسان فيها أجرٌ، مثل أن يأتي شخص لآخر فيسومُ منه بيتًا ويقول له: هذا الثمن قليل، فيذهب السائم إلى شخص ثالث، ويقول: يا فلان اشفع لي عند صاحب البيت، لعله يبيعه عليَّ، فيذهب ويشفع له، فهذا جائز، بل هو مأجور على ذلك، ولهذا كان النبي ﷺ إذا أتاه صاحب حاجة التفت إلى أصحابه وقال: «اشفعوا تؤجروا ويقضي اللَّه على لسان نبيه ما شاء» أو «ما أحب» فهنا يأمر - عليه الصلاة والسلام - أصحابه بأن يشفعوا لصاحب الحاجة.

ومثل ذلك أيضًا لو وجب لك حق على شخص ورأيت أنك إذا تنازلت عنه هكذا ربما استخفَّ بك في المستقبل وانتهك حرمتك، فهنا لا حرج أن تقول مثلًا لبعض الناس: اشفعوا له عندي؛ حتى تظهر أنت بمظهر القوي ولا تجبن أمامه ويحصل المقصود.

المهم أن الشفاعة في غير أمر محرم من الإحسان إلى الغير كما قال تعالى: ﴿مَّن يَشْفَعْ شَفَاعَةً حَسَنَةً يَكُن لَّهُ نَصِيبٌ مِّنْهَا﴾ [النساء: ٨٥].

* * *



٣١ - باب الإصلاح بين النَّاس

قال اللَّه تعالى: ﴿لَّا خَيْرَ فِي كَثِيرٍ مِّن نَّجْوَاهُمْ إِلَّا مَنْ أَمَرَ بِصَدَقَةٍ أَوْ مَعْرُوفٍ أَوْ إِصْلَاحٍ بَيْنَ النَّاسِ﴾ [النساء: ١١٤] وقال تعالى: ﴿وَالصُّلْحُ خَيْرٌ﴾ [النساء: ١٢٨] وقال تعالى: ﴿فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَصْلِحُوا ذَاتَ بَيْنِكُمْ﴾ [الأنفال: ١] وقال تعالى: ﴿إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ إِخْوَةٌ فَأَصْلِحُوا بَيْنَ أَخَوَيْكُمْ﴾ [الحجرات: ١٠].

الشرح

قال المؤلف - رحمه اللَّه تعالى -: باب الإصلاح بين الناس. الإصلاح بين الناس هو أن يكون بين شخصين معاداة وبغضاء، فيأتي رجل موفَّق فيصلح بينهما، ويزيل ما بينهما من العداوة والبغضاء، وكلما كان الرجلان أقرب صلة بينهما من بعض، فإن الصلح بينهما أوكد، يعني أن الصلح بين الأب وابنه أفضل من الصلح بين الرجل وصاحبه، والصلح بين الأخ وأخيه أفضل من الصلح بين العم وابن أخيه، وهكذا كلما كانت القطيعة أعظم كان الصلح بين المتباغضين وبين المتقاطعين أكمل وأفضل وأوكد.

واعلم أن الصلح بين الناس من أفضل الأعمال الصالحة ، قال الله ﷻ : ﴿ لَّا خَيْرَ فِي كَثِيرٍ مِّن نَّجْوَىٰهُمْ إِلَّا مَنْ أَمَرَ بِصَدَقَةٍ أَوْ مَعْرُوفٍ أَوْ إِصْلَٰحٍ بَيْنَ ٱلنَّاسِ ﴾ أي : إلا نجوى من أمر بصدقة .

والنجوى : الكلام الخفي بين الرجل وصاحبه ، فأكثر المناجاة بين الناس لا خير فيها إلا من أمر بصدقة أو معروف .

والمعروف : كل ما أمر به الشرع ، يعني أمر بخير .

أو إصلاح بين الناس : بين الرجل وصاحبه مفسدة ، فيأتي شخص موفَّق فيصلح بينهما ، ويزيل ما بين الرجل وصاحبه من العداوة والبغضاء .

ثم قال تعالى : ﴿ وَمَن يَفْعَلْ ذَٰلِكَ ٱبْتِغَآءَ مَرْضَاتِ ٱللَّهِ فَسَوْفَ نُؤْتِيهِ أَجْرًا عَظِيمًا ﴾ [النساء : ١١٤] فبين سبحانه في هذه الآية أن الخير حاصل فيمن أمر بصدقة أو معروف أو إصلاح بين الناس ، فهذا خير حاصل لاشك فيه ، أما الثواب فقال : ﴿ وَمَن يَفْعَلْ ذَٰلِكَ ٱبْتِغَآءَ مَرْضَاتِ ٱللَّهِ فَسَوْفَ نُؤْتِيهِ أَجْرًا عَظِيمًا ﴾ .

فأنت - يا أخي المسلم - إذا رأيت بين شخصين عداوة وبغضاء وكراهة ، فاحرص على أن تسعى بينهما بالصلح حتى لو خسرت شيئًا من مالك فإنه مخلوف عليك .

ثم اعلم أن الصلح يجوز فيه التورية أي : أن تقول لشخص : إن فلانًا لم يتكلم فيك بشيء ، إن فلانًا يحبُّ أهل الخير وما أشبه ذلك ، أو تقول : فلان يحبك إن كنت من أهل الخير ، وتضمر في نفسك جملة « إن كنت من أهل الخير » لأجل أن تخرج من الكذب .

وقال الله ﷻ : ﴿ وَإِنِ ٱمْرَأَةٌ خَافَتْ مِنۢ بَعْلِهَا نُشُوزًا أَوْ إِعْرَاضًا فَلَا جُنَاحَ عَلَيْهِمَآ أَن يُصْلِحَا بَيْنَهُمَا صُلْحًا وَٱلصُّلْحُ خَيْرٌ ﴾ (١) [النساء : ١٢٨] . هذه جملة عامة « الصلح خير » في جميع الأمور .

ثم قال تعالى : ﴿ وَأُحْضِرَتِ ٱلْأَنفُسُ ٱلشُّحَّ ﴾ [النساء : ١٢٨] إشارة إلى أن الإنسان ينبغي له عند الإصلاح أن يتنازل عما في نفسه ، وأن لا يتبع نفسه ؛ لأنه إذا اتبع نفسه فإن النفس شحيحة ، ربما يريد الإنسان أن يأخذ بحقه كاملًا ، وإذا أراد الإنسان أن يأخذ بحقه كاملًا فإن الصلح يتعذر ؛ لأنك إذا أردت أن تأخذ بحقك كاملًا ، وأراد صاحبك أن يأخذ بحقه كاملًا ، لم يكن إصلاحًا ، لكن إذا تنازل كل واحد منكما عما يريد وغلب شُحَّ نفسه ، فإنه يحصل الخير ، ويحصل الصلح ، وهذا هو الفائدة من قوله تعالى : ﴿ وَأُحْضِرَتِ ٱلْأَنفُسُ ٱلشُّحَّ ﴾ بعد قوله : ﴿ وَٱلصُّلْحُ خَيْرٌ ﴾ ، وقال تعالى : ﴿ وَإِن طَآئِفَتَانِ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ٱقْتَتَلُوا۟ فَأَصْلِحُوا۟ بَيْنَهُمَا ﴾ [الحجرات : ٩] فأمر الله ﷻ بالإصلاح بين المتقاتلين من المؤمنين .

المهم أن الإصلاح كله خير ، فعليك يا أخي المسلم إذا رأيت شخصين متنازعين متباغضين متعادين ؛ أن تصلح بينهما ، لتنال الخير الكثير ، وابتغ في ذلك وجه الله ، حتى يحصل لك الخير الكثير ، كما قال تعالى : ﴿ وَمَن يَفْعَلْ ذَٰلِكَ ٱبْتِغَآءَ مَرْضَاتِ ٱللَّهِ فَسَوْفَ نُؤْتِيهِ أَجْرًا عَظِيمًا ﴾ [النساء : ١١٤] .

أسأل الله أن يجعلني وإياكم من الصالحين المصلحين .

---

(١) قوله : ﴿ بَعْلِهَا ﴾ أي : زوجها ، وقوله : ﴿ نُشُوزًا ﴾ تجافيا وسوء معاملة .

٢٤٨ - وعن أبي هريرة ﷺ قال : قال رسول الله ﷺ : « كُلُّ سُلاَمى مِنَ النَّاسِ عَلَيهِ صَدَقَةٌ ، كُلَّ يَومٍ تَطْلُعُ فِيهِ الشَّمْسُ : تَعْدِلُ بَينَ الاثْنَينِ صَدَقَةٌ ، وَتُعينُ الرَّجُلَ في دَابَّتِهِ فَتَحْمِلُهُ عَلَيهَا ، أو تَرْفَعُ لَهُ عَلَيهَا مَتَاعَهُ صَدَقَةٌ ، وَالْكَلِمَةُ الطَّيِّبَةُ صَدَقَةٌ ، وَبِكُلِّ خَطْوَةٍ تَمْشِيهَا إلَى الصَّلاةِ صَدَقَةٌ ، وَتُمِيطُ الأَذَى عَنِ الطَّرِيقِ صَدَقَةٌ » [١] متفقٌ عليه . ومعنى « تَعْدِلُ بَينَهُمَا » : تُصْلِحُ بَينَهُمَا بالعَدْلِ .

الشرح

سبق لنا ما ذكره المؤلف من الآية الكريمة الدالة على فضيلة الإصلاح بين الناس ، ثم ذكر حديث أبي هريرة ﷺ أن النبي ﷺ قال : « يصبح على كل سلامي من الناس صدقة كل يوم تطلع فيه الشمس » ، والسُّلامي هي العظام والمفاصل ؛ يعني كل يوم تطلع الشمس فعلى كل مفصل من مفاصلك صدقة .

قال العلماء من أهل الفقه والحديث : وعدد السلامي في كل إنسان ثلاثمائة وستون عضوًا أو مفصلاً ، فعلى كل واحد من الناس أن يتصدق كل يوم تطلع فيه الشمس بثلاثمائة وستين صدقة ، ولكن الصدقة لا تختص بالمال ، بل كل ما يقرب إلى الله فهو صدقة بالمعنى العام ؛ لأن فعله يدل على صدق صاحبه في طلب رضوان الله ﷻ .

ثم بيَّن ﷺ هذه الصدقة فقال : « تعدل بين اثنين صدقة » يعني : رجلان يتخاصمان إليك فتعدل بينهما ؛ تحكم بينهما بالعدل ، وكل ما وافق الشرع فهو عدل ، وكل ما خالف الشرع فهو ظلم وجور .

وعلى هذا فنقول : هذه القوانين التي يحكم بها بعض الناس وهي مخالفة لشريعة الله ليست عدلًا ، بل هي جور وظلم وباطل ، ومن حكم بها معتقدًا أنها مثل حكم الله أو أحسن منه ، فإنه كافر مرتد عن دين الله ؛ لأنه كذَّب قول الله تعالى : ﴿ وَمَنْ أَحْسَنُ مِنَ اللَّهِ حُكْمًا لِقَوْمٍ يُوقِنُونَ ﴾ [المائدة : ٥٠] يعني : لا أحد أحسن من الله حكمًا ، لكن لا يفهم هذا إلا من يوقن ، أما الذي أعمى الله بصيرته ، فإنه لا يدري بل قد يزيِّن له سوء عمله فيراه حسنًا والعياذ بالله .

ومن العدل بين اثنين : العدل بينهما بالصلح ، لأن الحاكم بين الاثنين سواءٌ كان متطوعًا أو من قبل ولي الأمر ، قد لا يتبين له وجه الصواب مع أحد الطرفين ، فإذا لم يتبين له فلا سبيل له إلا بالإصلاح ، فيصلح بينهما بقدر ما يستطيع .

وقد سبق لنا أنه صلح مع المشاحة ، يعني أن الإنسان إذا أراد أن يعامل أخاه بالمشاحة ، فإنه لا يمكن الصلح ، كما قال تعالى : ﴿ وَالصُّلْحُ خَيْرٌ وَأُحْضِرَتِ الْأَنفُسُ الشُّحَّ ﴾ [النساء : ١٢٨] يشير إلى أن الصلح ينبغي للإنسان أن يبعد فيه عن الشحِّ ، وأن لا يطالب بكامل حقه ؛ لأنه إن طالب بكامل حقه ، طالب الآخر بكامل حقه ولم يحصل بينهما صلح بل لابد أن يتنازل كل واحد منهم عن بعض حقه .

فإذا لم يمكن الحكم بين الناس بالحق ، بل اشتبه على الإنسان إما من حيث الدليل ، أو من حيث

(١) أخرجه البخاري في الجهاد والسير (٢٩٨٩) ، ومسلم - واللفظ له - في الزكاة (٥٦) .

حال المتخاصمين ، فليس هناك إلا السعي بينهما بالصلح .

قال - عليه الصلاة والسلام - : « تعدل بين اثنين صدقة ، وتعين الرجل في دابته فتحمله عليها أو ترفع له عليها متاعًا صدقة » .

هذا أيضا من الصدقات ؛ أن تعين الرجل في دابته فتحمله عليها إذا كان لا يستطيع أن يركبها بنفسه ، أو تحمل له عليها متاعه ، تساعده على حمل المتاع على الدابة فهذا صدقة ، وتميط الأذى عن الطريق صدقة ؛ يعني إذا رأيت ما يؤلم المشاة فأمطته أي أزلته فهذه صدقة ، سواء كان حجرًا ، أم زجاجًا ، أم قشر بطيخ ، أم ثيابًا يلتوي بعضها على بعض ، أو ما أشبه ذلك .

المهم : كل ما يؤذي فأزله عن الطريق ، فإنك بذلك تكون متصدقًا ، وإذا كان إماطة الأذى عن الطريق صدقة ، فإن إلقاء الأذي في الطريق سيئة .

ومن ذلك من يلقون قمامتهم في وسط الشارع ، أو يتركون المياه تجري في الأسواق فتؤذي الناس ، مع أن في ترك المياه مفسدة أخرى ، وهي استنفاد الماء ؛ لأن الماء مخزون في الأرض ، قال اللّٰه تعالى : ﴿ وَأَرْسَلْنَا ٱلرِّيَـٰحَ لَوَٰقِحَ فَأَنزَلْنَا مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَأَسْقَيْنَـٰكُمُوهُ وَمَآ أَنتُمْ لَهُۥ بِخَـٰزِنِينَ ﴾ [الحجر : ٢٢] والمخزون ينفد .

ولهذا نرى أن الذي يترك المياه ويسرف في صرفها ولا يبالي في ضياعها مسيء إلى كل الأمة ؛ لأن الماء مشترك ، فإذا أسأت في تصريفه وأنفقته ولم تبالِ به كنت مسرفًا ، واللّٰه لا يحب المسرفين ، وكنت مسيئًا لتهديد الأمة في نقص مائها أو زواله ، وهذا ضرر عام .

المهم : أن الذين يلقون في الأسواق ومسار الناس ما يؤذيهم هم مسيئون ، والذين يزيلون ذلك هم متصدقون ومحسنون .

« وتميط الأذى عن الطريق صدقة ، والكلمة الطيبة صدقة » ، وهذه - وللّٰه الحمد - من أعم ما يكون . والكلمة الطيبة تنقسم إلى قسمين : طيبة بذاتها ، طيبة بغاياتها .

أما الطيبة بذاتها : كالذكر : لا إله إلا اللّٰه ، اللّٰه أكبر ، الحمد للّٰه ، ولا حول ولا قوة إلا باللّٰه ، وأفضل الذكر قراءة القرآن .

وأما الكلمة الطيبة في غايتها : فهي الكلمة المباحة كالتحدث مع الناس ، إذا قصدت بهذا إيناسهم وإدخال السرور عليهم ، فإن هذا الكلام وإن لم يكن طيبًا بذاته لكنه طيبٌ في غاياته ، في إدخال السرور على إخوانك ، وإدخالُ السرور على إخوانك مما يقربك إلى اللّٰه ﷻ ، فالكلمة الطيبة صدقة وهذا مِن أعم ما يكون .

ثم قال : « وفي كل خطوة تخطوها إلى الصلاة صدقة » .

كل خطوة : خَطْوة - بالفتح - يعني خطوة واحدة تخطوها إلى الصلاة ففيها صدقة . عدّ الخطى من بيتك إلى المسجد تجدها كثيرة ، ومع ذلك فكل خطوة فهي صدقة لك ، إذا خرجت من بيتك مسبغًا الوضوء ، لا يخرجك من بيتك إلى المسجد إلا الصلاة ، فإن كل خطوة صدقة ، وكل خطوة

تخطوها يرفع الله لك بها درجة ، ويحطُّ عنك بها خطيئة . وهذا فضل عظيم .

أسبغ الوضوء في بيتك ، واخرج إلى المسجد ، لا يخرجك إلا الصلاة ، وأبشر بثلاث فوائد : الأولى : صدقة ، والثانية : رفع درجة ، والثالثة : حطُّ خطيئة .

كل هذا من نعم الله ﷻ .

* * *

٢٤٩ - وعن أُمِّ كُلْثُومٍ بنتِ عُقْبَةَ بن أبي مُعَيطٍ رضي الله عنها قالت : سمِعْتُ رسول الله ﷺ يَقُولُ : « لَيسَ الْكَذَّابُ الَّذِي يُصْلِحُ بَينَ النَّاسِ فَيَنمِي خَيرًا ، أو يَقُولُ خَيرًا » متفقٌ عليه .

وفي رواية مسلم زيادة ، قالت : وَلَمْ أَسْمَعْهُ يُرَخِّصُ في شَيءٍ مِما يَقُولُهُ النَّاسُ إلَّا في ثَلاثٍ ، تَعْنِي : الحَرْبَ ، والإِصْلاحَ بينَ النَّاسِ ، وَحَديثَ الرَّجُلِ امْرَأَتَهُ ، وَحَدِيثَ الْمَرْأَةِ زَوجَهَا [١] .

الشرح

هذا الحديث الذي ذكره المؤلف حديث أم كلثوم بنت عقبة بن أبي معيط رضي الله عنها ، أن النبي ﷺ قال : « ليس الكذاب الذي يصلح بين الناس فينمي خيرًا أو يقول خيرًا » فالإنسان إذا قصد الإصلاح بين الناس وقال للشخص : إن فلانًا يثني عليك ويمدحك ويدعو لك وما أشبه ذلك من الكلمات ، فإن ذلك لا بأس به .

وقد اختلف العلماء في هذه المسألة ، هل المراد أن يكذب الإنسان كذبًا صريحًا ، أو أن المراد أن يورِّي ، بمعنى أن يظهر للمخاطب غير الواقع ، لكنه له وجه صحيح ، كأن يعني بقوله مثلًا : فلان يثني عليك أي على جنسك وأمثالك من المسلمين ، فإن كل إنسان يثني علي المسلمين من غير تخصيص .

أو يريد بقوله : إنه يدعو لك ؛ أنه من عباد الله ، والإنسان يدعو لكل عبد صالح في كل صلاة ، كما قال النبي - عليه الصلاة والسلام - : « إنكم إذا قلتم ذلك » - يعني قلتم ذلك - يعني قلتم السلام علينا وعلى عباد الله الصالحين - « فقد سلمتم على كل عبد صالح في السماء والأرض » [٢] .

وقال بعضهم : إن التورية تُعد كذبًا ؛ لأنها خلاف الواقع ، وإن كان المتكلم قد نوى بها معنى صحيحًا ، واستدلوا على ذلك بقول النبي ﷺ : « إن إبراهيم - عليه الصلاة والسلام - يعتذر عن

---

(١) أخرجه البخاري في الصلح (٢٦٩٢) ، ومسلم في البر والصلة (١٠) . قوله « فينمي خيرًا » أي يبلِّغ خيرًا ويرفع خيرًا ، قوله « يرخص » من الترخيص ضد الحظر قوله « الحرب » كأن يقول لأعداء الدين : لنا جيش كبير يأتينا أو غير ذلك مما فيه مصلحة عامة للمسلمين فيجوز ارتكاب الكذب ؛ لعظم النفع ، قوله « والإصلاح بين الناس » كأن يقوله له : فلان - يعني عدوه - يحبك ويثني عليك خيرًا ؛ رغبة في الإصلاح بينهما ، قوله « وحديث الرجل امرأته وحديث المرأة زوجها » كأن يقول لها : لا أحد أحب إليَّ منك . فهذا الكذب جائز لعظم المصلحة .

(٢) أخرجه البخاري في العمل في الصلاة (١٢٠٢) ، ومسلم في الصلاة (٥٥) .

الشفاعة بأنه كذب ثلاث كذبات في ذات الله »(١) وهو لم يكذب - عليه الصلاة والسلام - ولكنه ورَّى .

وعلى كل حال فالإنسان المصلح ينبغي له أن يتحرز من الكذب ، وإذا كان ولابد فليتأول ، ليكون بذلك مورِّيًا ، والإنسان إذا كان موريًا فلا إثم عليه فيما بينه وبين الله ، والتورية جائزة عند المصلحة .

أما اللفظ الثاني : ففيه زيادة عن الإصلاح بين الناس ، وهو الكذب في الحرب .

والكذب في الحرب هو أيضًا نوع من التورية مثل أن يقول للعدو : إن ورائي جنودًا عظيمة وما أشبه ذلك من الأشياء التي يرهب بها الأعداء .

وتنقسم التورية في الحرب إلى قسمين :

قسم في اللفظ ، وقسم في الفعل ، مثل ما فعل القعقاع بن عمرو رضي الله عنه في إحدى الغزوات ، فإنه أراد أن يرهب العدو فصار يأتي بالجيش في الصباح ثم يغادر المكان ثم يأتي به في صباح يوم آخر وكأنه مدد جديد جاء ليساعد المحاربين المجاهدين ، فيتوهم العدو أن هذا مدد جديد جاء ليساعد المحاربين المجاهدين ، فيتوهم العدو أن هذا مدد جديد فيرهب ويخاف ، وهذا جائز للمصلحة .

أما المسألة الثالثة : فهي أن يحدث الرجل زوجته وتحدث المرأة زوجها ، وهذا أيضًا من باب التورية ، مثل أن يقول لها : إنك من أحبِّ الناس إليَّ ، وإني أرغب في مثلك ، وما أشبه ذلك من الكلمات التي توجب الألفة والمحبة بينهما .

ولكن مع هذا لا ينبغي فيما بين الزوجين أن يكثر الإنسان من هذا الأمر ؛ لأن المرأة إذا عثرت على شيء يخالف ما حدثها به ، فإنه ربما تنعكس الحال وتكرهه أكثر مما كان يتوقع ، وكذلك المرأة مع الرجل .

* * *

٢٥٠ - وعن عائشة رضي الله عنها قالت : سمِع رسول الله ﷺ صَوتَ خُصُومٍ بالْبَابِ عَالِيةً أَصْوَاتُهُمَا ، وإذا أَحَدُهُمَا يَسْتَوضِعُ الآخَرَ وَيسْتَرْفِقُهُ في شَيءٍ ، وَهُو يَقُولُ : واللَّهِ لا أَفْعَلُ ، فَخَرَجَ عَلَيهِمَا رسولُ اللَّه ﷺ فقال : « أَيْنَ الْـمُتَأَلِّي عَلَى اللَّهِ لا يَفْعَلُ المَعْرُوفَ ؟ » فقال : أَنَا يَا رسولَ اللَّهِ ، فَلَهُ أَيُّ ذلِكَ أَحَبَّ (٢) . متفقٌ عليه .

معنى « يَسْتَوضِعُهُ » : يَسْأَلُهُ أَنْ يَضَعَ عَنْهُ بَعْضَ دَيْنِهِ . « وَيَسْتَرْفِقُهُ » : يَسْأَلُهُ الرِّفْقَ . « وَالْمُتَأَلِّي » : الحَالِفُ .

---

(١) هذا الحديث مروي بالمعنى وقد أخرجه البخاري في الأنبياء (٣٣٥٧) ، ومسلم في الفضائل (١٥٤) .

(٢) أخرجه البخاري في الصلح (٢٧٠٥) ، ومسلم في المساقاة (١٩) . قوله « فله أي ذلك أحب » هذا من جملة مقول المتألي ؛ أي : فلخصمي ما أحب من الوضع أو الرفق .

الشرح

هذا الحديث ذكره المؤلف رَحِمَهُ اللَّهُ في بيان الصلح بين اثنين متنازعين فإذا رأى شخص رجلين يتنازعان في شيء وأصلح بينهما ، فله أسوة برسول اللَّه ﷺ ، وقد فعل خيرًا كثيرًا ، كما سبق الكلام فيه على قول اللَّه تعالى : ﴿ لَّا خَيْرَ فِي كَثِيرٍ مِّن نَّجْوَاهُمْ إِلَّا مَنْ أَمَرَ بِصَدَقَةٍ أَوْ مَعْرُوفٍ أَوْ إِصْلَاحٍ بَيْنَ النَّاسِ ۚ وَمَن يَفْعَلْ ذَٰلِكَ ابْتِغَاءَ مَرْضَاتِ اللَّهِ فَسَوْفَ نُؤْتِيهِ أَجْرًا عَظِيمًا ﴾ [النساء: ١١٤] .

فالنبي ﷺ لما سمع نزاع رجلين وقد علت أصواتهما ، خرج إليهما ﷺ لينظر ماذا عندهما .

وفيه : دليل على أنه لا حرج على الإنسان أن يتدخل في النزاع بين اثنين ، إذا لم يكن ذلك سرًّا بينهما ؛ لأن هذين الرجلين قد أعلنا ذلك ، وكانا يتكلمان بصوت مرتفع ، أما لو كان الأمر بين اثنين على وجه السر والإخفاء ، فلا يجوز للإنسان أن يتدخل بينهما ؛ لأن في ذلك إحراجًا لهما ، فإن إخفاءهما للشيء يدل على أنهما لا يحبان أن يطلع عليه أحدٌ من الناس ، فإذا أقحمت نفسك في الدخول بينهما أحرجتهما وضيقت عليهما ، وربما تأخذهما العزة بالإثم فلا يصطلحان .

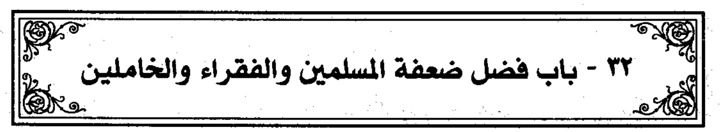
والمهم : أنه ينبغي للإنسان أن يكون أداة خير ، وأن يحرص على الإصلاح بين الناس وإزالة العداوة والضغائن حتى ينال خيرًا كثيرًا .

٢٥١ - وعن أبي العباس سهل بن سعدٍ السَّاعِدِيِّ رضي الله عنه أَن رسول اللَّه ﷺ بَلَغَهُ أَنَّ بَني عَمْرو ابن عَوفٍ كَانَ بينَهُمْ شَرٌّ فَخَرَجَ رسولُ اللَّه ﷺ يُصْلِحُ بينَهُمْ في أُنَاسٍ مَعَه ، فَحُبِسَ رسول اللَّه ﷺ وَحَانَتِ الصَّلاةُ ، فَجَاءَ بلالٌ إلى أَبي بكْر رضي الله عنهما فقال : يَا أَبَا بَكْرٍ إِنَّ رسول اللَّه ﷺ قَدْ حُبِسَ ، وَحَانَتِ الصَّلاةُ ، فَهَل لك أَنْ تَؤُمَّ النَّاس؟ قال : نَعَمْ إنْ شِئْتَ ، فَأَقَامَ بِلالٌ الصَّلاةَ ، وَتَقَدَّمَ أَبو بَكْرٍ فَكَبَّرَ وَكَبَّرَ النَّاسُ ، وَجَاء رسول اللَّه ﷺ يَمْشِي في الصُّفُوفِ حَتَّى قَامَ في الصَّفِّ ، فَأَخَذَ النَّاسُ في التَّصْفِيقِ ، وَكَانَ أَبُو بَكْر رضي الله عنه لا يَلْتَفِتُ في صلاتِهِ ، فَلَمَّا أَكْثَرَ النَّاسُ التَّصْفِيقَ الْتَفَتَ ، فَإِذَا رسول اللَّه ﷺ ، فَأَشَارَ إِلَيهِ رسول اللَّه ﷺ ، فَرَفَعَ أَبُو بَكْر رضي الله عنه يَدَهُ فَحَمِدَ اللَّهَ ، ورَجَعَ الْقَهْقَرَى ورَاءهُ حَتَّى قَامَ في الصَّفِّ ، فَتَقَدَّمَ رسول اللَّه ﷺ ، فَصَلَّى للنَّاسِ ، فَلَمَّا فَرَغَ أَقْبَلَ على النَّاسِ فقال : « أَيُّهَا النَّاسُ مَا لكُمْ حِينَ نَابَكُمْ شَيءٌ في الصَّلاةِ أَخَذْتُمْ في التَّصْفِيقِ ؟! إِنَّمَا التَّصْفِيقُ للنِّساءِ . مَنْ نَابَهُ شَيءٌ في صَلاتِهِ فَلْيَقُلْ : سُبْحَانَ اللَّه ؛ فَإِنَّهُ لا يَسْمَعُهُ أَحَدٌ حِينَ يَقُولُ : سُبْحَانَ اللَّه ، إِلَّا الْتَفَتَ . يَا أَبا بَكْر ، مَا مَنَعَكَ أَنْ تُصَلِّيَ بِالنَّاس حِينَ أَشَرْتُ إِلَيكَ ؟ » فقال أَبُو بَكْر : مَا كَانَ يَنْبَغِي لابْنِ أَبِي قُحافَةَ أَنْ يصَلِّيَ بِالنَّاسِ بَينَ يَدَي رسول اللَّه ﷺ [١] . متفقٌ عليه .

معنى « حُبِسَ » : أَمْسَكوهُ لِيُضيفُوه .

---

(١) أخرجه البخاري في السهو (١٢٣٤) ، ومسلم في الصلاة (١٠٣) . قوله « القهقرى » أي يمشي إلى خلفه ، قوله « وراءه » بالنصب على الحال تأكيد ، وفعل ذلك ؛ لئلا يستدبر القبلة فتبطل صلاته ، وقوله « نابكم شيء » أي أصابكم ، والشيء المراد هنا هو إرادتهم تنبيه الصديق على مجيء النبي ﷺ ، والحديث لم يقم الشارح - رحمه اللَّه تعالى - بشرحه .



٣٢ - باب فضل ضعفة المسلمين والفقراء والخاملين

قال اللّه تعالى : ﴿ وَٱصْبِرْ نَفْسَكَ مَعَ ٱلَّذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُم بِٱلْغَدَوٰةِ وَٱلْعَشِيِّ يُرِيدُونَ وَجْهَهُۥ وَلَا تَعْدُ عَيْنَاكَ عَنْهُمْ ﴾ [الكهف : ٢٨] .

الشرح

قال - رحمه اللّه تعالى - : باب فضل ضعفاء المسلمين وفقرائهم والخاملين منهم .

المراد بهذا الباب ؛ تسلية من قدَّر اللّه عليه أن يكون ضعيفًا في بدنه ، أو ضعيفًا في عقله ، أو ضعيفًا في ماله ، أو ضعيفًا في جاهه أو غير ذلك مما يعدُّه الناس ضعفًا ، فإن اللّه ﷻ قد يجعل الإنسان ضعيفًا من وجه لكنه قويٌّ عند اللّه ﷻ ، يحبه اللّه ويكرمه ، وينزله المنازل العالية ، وهذا هو المهم .

المهم أن تكون قويًّا عند اللّه ﷻ ، وجيهًا عنده ، ذا شرفٍ يكرمك اللّه به .

ثم ذكر قول اللّه تعالى مخاطبًا نبيه ﷺ في قوله : ﴿ وَٱصْبِرْ نَفْسَكَ مَعَ ٱلَّذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُم بِٱلْغَدَوٰةِ وَٱلْعَشِيِّ ﴾ [الكهف : ٢٨] . اصبر نفسك أي احبسها مع هؤلاء القوم الذين يدعون اللّه بالغداة : أول النهار ، والعشي : آخر النهار ، والمراد بالدعاء هنا : دعاء المسألة ، ودعاء العبادة .

فإن دعاء المسألة يعتبر دعاء ؛ كقوله تعالى في الحديث القدسي : « من يدعوني فأستجيب له »(١) .

وقال تعالى : ﴿ وَقَالَ رَبُّكُمُ ٱدْعُونِىٓ أَسْتَجِبْ لَكُمْ ﴾ [غافر : ٦٠] .

ودعاء عبادة : وهو أن يتعبد الإنسان لربه بما شرعه ؛ لأن العابد يدعو بلسان الحال ، ولسان المقال .

فالصلاة مثلًا عبادة تشتمل على قراءة القرآن ، وذكر اللّه ، وتسبيحه ، ودعائه أيضًا ، والصوم عبادة ، وإن كان في جوهره ليس فيه دعاء ، ولكن الإنسان لم يصم إلا رجاء ثواب اللّه ، وخوف عقاب اللّه ، فهو دعاء بلسان الحال .

وقد تكون العبادة دعاءً محضًا يدعو الإنسان ربه بدعاء فيكون عابدًا له ، وإن كان مجرد دعاء ؛ لأن الدعاء يعني افتقار الإنسان إلى اللّه ، وإحسان ظنه به ، ورجاءه ، والخوف من عقابه .

فقوله تعالى : ﴿ وَٱصْبِرْ نَفْسَكَ مَعَ ٱلَّذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُم ﴾ ، يدعون ربهم : أي يسألونه حاجاتهم ، ويعبدونه ؛ لأن العابد داعٍ بلسان الحال ، بالغداة : أول النهار ، والعشي : آخر النهار ، ولعل المراد بذلك : يدعون ربهم دائمًا ، لكنهم يخصّون الغداة والعشي بدعائه الخاص ، ﴿ يُرِيدُونَ وَجْهَهُۥ ﴾ يعني :

---

(١) هذا جزء من حديث ، وقد أخرجه البخاري في التهجد (١١٤٥) ، ومسلم في صلاة المسافرين (١٦٨) .

لا يريدون عرضًا من الدنيا ، إنما يريدون وجه الله عَزَّوَجَلَّ .

﴿ وَلَا تَعْدُ عَيْنَاكَ عَنْهُمْ ﴾ يعني : لا تتجاوز عيناك إلى غيرهم ، بل كن دائمًا ناظرًا إليهم ، وكن معهم في دعائهم وعبادتهم وغير ذلك ، وهذا كقوله تعالى : ﴿ وَلَا تَمُدَّنَّ عَيْنَيْكَ إِلَىٰ مَا مَتَّعْنَا بِهِۦٓ أَزْوَٰجًا مِّنْهُمْ زَهْرَةَ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا لِنَفْتِنَهُمْ فِيهِ ۚ وَرِزْقُ رَبِّكَ خَيْرٌ وَأَبْقَىٰ ﴾ [طه : ١٣١] (١) فقوله تعالى : ﴿ وَلَا تَعْدُ عَيْنَاكَ عَنْهُمْ ﴾ يعني اجعل عينيك دائمًا فيهم .

وقوله تعالى : ﴿ وَلَا تَمُدَّنَّ عَيْنَيْكَ إِلَىٰ مَا مَتَّعْنَا بِهِۦٓ أَزْوَٰجًا مِّنْهُمْ زَهْرَةَ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا ﴾ أي لا تنظر إلى أهل الدنيا وما مُتعوا به من النعيم ، ومن المراكب ، والملابس ، والمساكن ، وغير ذلك .

فكلُّ هذا زهرة الدنيا ، والزهرة آخر مآلها الذبول واليبس والزوال ، وهي أسرع أوراق الشجرة ذبولًا وزوالًا ، ولهذا قال : زهرة ، وهي زهرة حسنة في رونقها وجمالها وريحها - إن كانت ذات ريح - لكنها سريعة الذبول ، وهكذا الدنيا ، زهرة تذبل سريعًا ، نسأل الله أن يجعل لنا حظًّا ونصيبًا في الآخرة .

يقول : ﴿ لِنَفْتِنَهُمْ فِيهِ ۚ وَرِزْقُ رَبِّكَ خَيْرٌ وَأَبْقَىٰ ﴾ ، أي رزق الله بالطاعة ، كما قال تعالى : ﴿ وَأْمُرْ أَهْلَكَ بِٱلصَّلَوٰةِ وَٱصْطَبِرْ عَلَيْهَا ۖ لَا نَسْـَٔلُكَ رِزْقًا ۖ نَّحْنُ نَرْزُقُكَ ۗ وَٱلْعَٰقِبَةُ لِلتَّقْوَىٰ ﴾ [طه : ١٣٢] .

وكان النبي ﷺ إذا رأى شيئًا يعجبه من الدنيا قال : « اللهم إن العيش عيش الآخرة » (٢) كلمتان عظيمتان ، فالإنسان إذا نظر إلى الدنيا ربما تعجبه فيلهو عن طاعة الله ، فينبغي أن يذكر نعيم الآخرة عند ذلك ، ويقارن بينه وبين هذا النعيم الدنيوي الزائل ، ثم يوطن نفسه ويرغبها في هذا النعيم الأخروي الذي لا ينقطع ، ويقول : « اللهم إن العيش عيش الآخرة » .

وصدق الرسول ﷺ فعيش الدنيا - مهما كان - زائل ، ومهما كان ، فمحفوف بالحزن ، ومحفوف بالآفات ، ومحفوف بالنقص ، وكما يقول الشاعر في شعره الحكيم :

لا طيبَ للعيش مادامت منغصةً لذاته بادكارِ الموت والهرم

والعيش مآله أحد أمرين :

إما الهرم : حتى يعود الإنسان إلى سن الطفولة ، والضعف البدني مع الضعف العقلي ، ويكون عالة حتى على أهله فإنهم يملونه .

وإما الموت : فكيف يطيب العيش للإنسان العاقل ؟ ولولا أنه يؤمل ما في الآخرة ، وما يرجوه من ثواب الآخرة ، لكانت حياته عبثًا .

---

(١) قوله ﴿ وَلَا تَمُدَّنَّ عَيْنَيْكَ إِلَىٰ ﴾ لا تشغل نفسك بـ ...... قوله ﴿ أَزْوَٰجًا مِّنْهُمْ ﴾ أصنافًا من الكفار . قوله : ﴿ لِنَفْتِنَهُمْ فِيهِ ﴾ لنجعله لهم فتنة وابتلاء .

(٢) هذا جزء من حديث ، وقد أخرجه البخاري في الجهاد والسير (٢٨٣٤) ومسلم في الجهاد والسير (١٢٦، ١٢٧) .

على كلٍّ حال أمر الله نبيّه ﷺ أن يصبر نفسه مع هؤلاء الذين يدعون الله بالغداة والعشي يريدون وجهه ، والآية ليست أمرًا خاصًّا بالضعفاء ، وإن كان سبب النزول هكذا ، لكن العبرة بالعموم . الذين يدعون الله ويعبدونه سواء كانوا ضعفاء أم أقوياء ، فقراء أم أغنياء كن معهم دائمًا .

لكن الغالب أن الملأ والأشراف يكونون أبعد عن الدين من الضعفاء والمستضعفين ، ولهذا تجد الذين يكذبون الرسل هم الملأ ، قال الملأ من قوم صالح : ﴿ قَالَ ٱلْمَلَأُ ٱلَّذِينَ ٱسْتَكْبَرُوا۟ مِن قَوْمِهِۦ لِلَّذِينَ ٱسْتُضْعِفُوا۟ لِمَنْ ءَامَنَ مِنْهُمْ أَتَعْلَمُونَ أَنَّ صَٰلِحًا مُّرْسَلٌ مِّن رَّبِّهِۦ ﴾ [الأعراف : ٧٥] فنسأل الله أن يجعلنا وإياكم من أهل الحق ودعاة الحق وأنصاره . إنه جواد كريم .

* * *

٢٥٢ - عن حَارِثَة بْنِ وَهْبٍ ﷺ قال : سمعت رسول الله ﷺ يقولُ : « أَلا أُخْبِرُكُمْ بِأَهْلِ الجَنَّةِ ؟ كُلُّ ضعِيفٍ مُتَضَعفٍ ، لَو أَقْسَمَ عَلَى اللَّه لأَبَرَّهُ . ألا أُخْبِرُكُمْ بِأَهْلِ النَّارِ ؟ كُلُّ عُتُلٍّ جَوَّاظٍ مُسْتَكْبِرٍ »(١) متفقٌ عليه .

« الْعُتُلُّ » : الْغَلِيظُ الجَافِي . « وَالجَوَّاظُ » بفتح الجيم وتشديدِ الواو وبالظاءِ المعجمة : وَهُوَ الجَمُوعُ المَنُوعُ ، وَقيلَ : الضَّخْمُ المُخْتَالُ في مِشْيَتِهِ ، وَقيلَ : الْقَصِيرُ الْبَطِينُ .

الشرح

ذكر المؤلف - رحمه الله تعالى - : فيما نقله عن حارثة بن وهب ﷺ في باب ضعفاء المسلمين وأذلائهم أن النبي ﷺ قال : « ألا أخبركم بأهل الجنة ؛ كلّ ضعيف متضعِّف لو أقسم على الله لأبرّه » يعني هذه من علامات أهل الجنة ؛ أن الإنسان يكون ضعيفًا متضعفًا ، أي لا يهتم بمنصبه أو جاهه ، أو يسعى إلى علوّ المنازل في الدنيا ، ولكنه ضعيفٌ في نفسه متضعف ، يميل إلى الخمول وإلى عدم الظهور ؛ لأنه يرى أن المهم أن يكون له جاه عند الله ﷻ ، لا أن يكون شريفًا في قومه أو ذا عظمةٍ فيهم ، ولكن همه كله هو أن يكون عند الله ﷻ ذا منزلةٍ كبيرة عاليةٍ .

ولذلك تجد أهل الآخرة لا يهتمون بما يفوتهم من الدنيا ؛ إن جاءهم من الدنيا شيء قبلوه ، وإن فاتهم شيء لم يهتموا به ؛ لأنهم يرون أن ما شاء الله كان ، وما لم يشأ لم يكن ، وأن الأمور بيد الله ، وأن تغيير الحال من المحال ، وأنه لا يمكن رفع ما وقع ولا دفع ما قدر إلا بالأسباب الشرعية التي جعلها الله تعالى سببًا .

وقوله : « لو أقسم على الله لأبره » يعني لو حلف على شيء ليَسَّر الله له أمره ، حتى يحقق له ما حلف عليه ، وهذا كثيرًا ما يقع ؛ أن يحلف الإنسان على شيء ثقة بالله ﷻ ، ورجاء لثوابه فيبرُّ الله

---

(١) البخاري في التفسير (٤٩١٨) - واللفظ له - ومسلم في الجنة وصفة نعيمها (٤٦) ، والترمذي في صفة جهنم (٢٦٠٥) قوله « لو أقسم على الله لأبره » أي : لو حلف يمينًا طمعًا في كرم الله بإبراره لأبره بحصول ذلك .

قسمه ، وأما الحالف على الله تعاليًا وتحجرًا لرحمته ، فإن هذا يخذل والعياذ بالله .

وها هنا مثلان :

المثل الأول : أن الربيعَ بنت النضر رضي الله عنها وهي من الأنصار ، كسرت ثنية جارية من الأنصار ، فرفعوا الأمر إلى رسول الله ﷺ فأمر النبي ﷺ أن تُكسر ثنية الربيّع ، لقول الله تعالى : ﴿ وَكَتَبْنَا عَلَيْهِمْ فِيهَآ أَنَّ ٱلنَّفْسَ بِٱلنَّفْسِ ﴾ إلى قوله : ﴿ وَٱلسِّنَّ بِٱلسِّنِّ ﴾ [المائدة : ٤٥] فقال أخوها أنس بن النضر : والله يا رسول الله لا تكسر ثنية الربيع ، فقال : « يا أنس كتاب الله القصاص » فقال : والله لا تكسر ثنية الربيع .

أقسم بهذا ليس ردًا لحكم الله ورسوله ، ولكنه يحاول بقدر ما يستطيع أن يتكلم مع أهلها حتى يعفوا ويأخذوا الدية ، أو يعفوا مجانًا دون دية ، كأنه واثق من موافقتهم ، لا ردًّا لحكم الله ورسوله ، فيسَّر الله ﷻ فعفا أهل الجارية عن القصاص ، فقال النبي ﷺ : « إن من عباد الله من لو أقسم على الله لأبره » (١) .

وهنا لاشك أن الحامل لأنس بن النضر هو قوة رجائه بالله ﷻ ، وأن الله سييسِّر من الأسباب ما يمنع كسر ثنية أخته الربيع .

أما المثل الثاني : الذي أقسم على الله تأليًا وتعارضًا وترفعًا فإن الله يخيب آماله ، ومثال ذلك الرجل الذي كان مطيعًا لله ﷻ عابدًا ، يمر على رجل عاصٍ ، كلما مرَّ عليه وجده على المعصية ، فقال : والله لا يغفر الله لفلان ، حمله على ذلك الإعجاب بنفسه ، والتحجر بفضل الله ورحمته ، واستبعاد رحمة الله ﷻ من عباده .

فقال الله تعالى : « من ذا الذي يتألى عليَّ - أي يحلف عليَّ - ألا أغفر لفلان . قد غفرت له ، وأحبطت عملك » (٢) ، فانظر الفرق بين هذا وهذا .

فقال الرسول ﷺ : « إن من عباد الله » فمن هنا للتبعيض ، « إن من عباد الله من لو أقسم على الله لأبره » ، وذلك فيمن أقسم على الله ثقة به ورجاء لما عند الله ﷻ .

ثم قال ﷺ : « ألا أخبركم بأهل النار ، كل عتل جواظ مستكبر » ؛ هذه علامات أهل النار ، عتل : يعني أنه غليظ جاف ، قلبه حجر - والعياذ بالله - كالحجارة أو أشد قسوة . « جواظ مستكبر » الجواظ فيه تفاسير متعددة ، قيل إنه الجموع المنوع ، يعني الذي يجمع المال ويمنع ما يجب فيه .

والظاهر أن الجواظ هو الرجل الذي لا يصبر ، فجواظ يعني : أنه جزوع لا يصبر على شيء ، ويرى أنه في قمةٍ أعلى من أن يمسه شيء .

ومن ذلك : قصة الرجل الذي كان مع الرسول ﷺ في غزوة ، وكان شجاعًا لا يدع شاذة ولا فاذة

---

(١) أخرجه البخاري في الصلح (٢٧٠٣) ، ومسلم في القسامة (٢٤) .
(٢) أخرجه مسلم في البر والصلة (١٣٧) .

للعدو إلا قضى عليها ، فقال النبي ﷺ : « إن هذا من أهل النار » فعظم ذلك على الصحابة ، وقالوا كيف يكون هذا من أهل النار وهو بهذه المثابة ؟ ثم قال رجل : والله لألزمنه يعني لألازمنه حتى أنظر ماذا يكون حاله ، فلزمه فأصاب هذا الرجلَ الشجاعَ سهمٌ من العدو ، فعجز عن الصبر وجزع ثم أخذ بذبابة سيفه فوضعه في صدره ثم اتكأ عليه حتى خرج السيف من ظهره - والعياذ بالله - فقتل نفسه .

فجاء الرجل للرسول ﷺ ، فقال : يا رسول الله أشهد أنك لرسول الله ، قال : « وبم ؟ » قال لأن الرجل الذي قلت إنه من أهل النار ، فعل كذا وكذا ، فقال النبي ﷺ : « إن الرجل ليعمل بعمل أهل الجنة فيما يبدو للناس وهو من أهل النار »[1] فانظر إلى هذا الرجل جزع وعجز أن يتحمل فقتل نفسه .

فالجواظ هو الجزوع الذي لا يصبر ، دائمًا في أنين وحزن وهمٍّ وغمٍّ ، معترضًا على القضاء والقدر ، لا يخضع له ، ولا يرضى بالله ربًّا .

وأما المستكبر : فهو الذي جمع بين وصفين : غمط الناس ، وبطر الحق ؛ لأن النبي ﷺ قال : « الكبر بطر الحق وغمط الناس » وبطر الحق : يعني رده ، وغمط الناس : يعني احتقارهم ، فهو في نفسه عالٍ على الحق ، وعالٍ على الخلق ، لا يلين للحق ولا يرحم الخلق والعياذ بالله .

فهذه علامات أهل النار . نسأل الله أن يعيذنا وإياكم من النار ، وأن يدخلنا وإياكم الجنة . إنه جواد كريم .

* * *

٢٥٣ - وعن أبي العباس سهل بن سعدٍ الساعِديِّ ﷺ قال : مَرَّ رَجُلٌ على النبيِّ ﷺ ، فقال لرَجُلٍ عَنْدَهُ جَالِسٍ : « مَا رَأْيُكَ في هذَا ؟ » فَقَالَ : رَجُلٌ مِنْ أَشْرَافِ النَّاسِ ، هذا وَاللَّهِ حَرِيٌّ إنْ خَطَبَ أَنْ يُنْكَحَ ، وَإنْ شَفَعَ أَنْ يُشَفَّعَ . فَسَكَتَ رسولُ الله ﷺ ، ثُمَّ مَرَّ رَجُلٌ آخَرُ ، فقال له رسول الله ﷺ : « مَا رَأْيُكَ في هذَا ؟ » فقال : يا رسول الله هذا رَجُلٌ مِنْ فُقَراءِ المُسْلِمِينَ ، هذَا حَرِيٌّ إنْ خَطَبَ أَنْ لا يُنْكَحَ ، وَإِنْ شَفَعَ أَنْ لا يُشَفَّعَ ، وَإِنْ قَالَ أَنْ لا يُسْمَعَ لِقَولِهِ . فقال رسول الله ﷺ : « هذَا خَيرٌ مِنْ مِلءِ الأَرْضِ مِثْلِ هذا »[1] متفقٌ عليه .

قوله : « حَرِيٌّ » هو بفتحِ الحاءِ وكسر الراءِ وتشديد الياءِ : أي حَقِيقٌ . وقوله : « شَفَعَ » بفتح الفاءِ .

الشرح

ذكر المؤلف - رحمه الله تعالى - فيما نقله عن سهل بن سعد الساعدي ﷺ ، قال : مرَّ رجل

---

(١) أخرجه البخاري - وله تكملة - في الجهاد والسير (٢٨٩٨) ، ومسلم في الإيمان (١٧٩) .
(٢) أخرجه البخاري في الرقاق (٦٤٤٧) ، والطبراني في الكبير (٢٠٨/٦) .
قوله « أشراف الناس » أي : سادتهم . قوله « أن ينكح » أي : يُزوَّج . وليس الحديث عند مسلم ، كما تدل عليه عبارة المصنف رحمه الله .

عند رسول الله ﷺ ، فقال لرجل : « ما تقول في هذا ؟ » قال : رجلٌ من أشراف الناس ، حريٌّ إن خطب أن ينكح ، وإن شفع أن يشفع ، ثم مر رجل آخر ، فسأل عنه فقال : هذا رجلٌ من ضعفاء المسلمين ، حريٌّ إن خطب ألا ينكح ، وإن شفع ألا يشفع ، وإن قال ألا يسمع لقوله .

فهذان رجلان أحدهما من أشراف القوم ، وممن له كلمة فيهم ، وممن يجاب إذا خطب ، ويُسمع إذا قال ، والثاني بالعكس رجلٌ من ضعفاء الناس ليس له قيمة ، إن خطب فلا يجاب ، وإن شفع فلا يشفع ، وإن قال فلا يسمع .

فقال النبي ﷺ : « هذا خيرٌ من ملء الأرض مثل هذا » ، أي خير عند الله ﷻ من ملء الأرض من مثل هذا الرجل الذي له شرف وجاه في قومه ؛ لأن الله سبحانه وتعالى ليس ينظر إلى الشرف ، والجاه ، والنسب والمال ، والصورة ، واللباس ، والمركوب ، والمسكون ، وإنما ينظر إلى القلب والعمل ، فإذا صلح القلب فيما بينه وبين الله ﷻ ، وأناب إلى الله ، وصار ذاكرًا لله تعالى خائفًا منه ، مخبتًا إليه ، عاملًا بما يرضي الله ﷻ ، فهذا هو الكريم عند الله ، وهذا هو الوجيه عنده ، وهذا هو الذي لو أقسم على الله لأبره .

فيؤخذ من هذا فائدة عظيمة وهي أن الرجل قد يكون ذا منزلة عالية في الدنيا ،ولكنه ليس له قدر عند الله ، وقد يكون في الدنيا ذا مرتبةٍ منحطة ، وليس له قيمة عند الناس ، وهو عند الله خيرٌ من كثير ممن سواه - نسأل الله تعالى أن يجعلنا وإياكم من الوجهاء عنده ، وأن يجعل لنا ولكم عنده منزلة عالية ، مع النبيين والصديقين والشهداء والصالحين .

* * *

٢٥٤ - وعن أبي سعيد الخدري رضي الله عنه عن النبي ﷺ قال : « احْتَجَّتِ الجَنَّةُ وَالنَّارُ ، فقالتِ النَّارُ : فِيَّ الجَبَّارُونَ وَالمُتَكَبِّرُونَ ، وَقَالَتِ الجَنَّةُ : فِيَّ ضُعَفَاءُ النَّاسِ وَمَسَاكِينهمْ ، فَقضى اللَّهُ بَيْنَهُمَا : إنَّكِ الجَنَّةُ رَحْمَتِي أَرْحَمُ بِكِ مَنْ أَشَاءُ ، وَإنَّكِ النَّارُ عَذَابِي أُعَذِّبُ بِكِ مَنْ أشاءُ ، وَلِكِلَيكُمَا عَلَيَّ مِلْؤُهَا »[٢] رواه مسلم .

الشرح

ذكر المؤلف - رحمه الله تعالى - فيما نقله عن أبي سعيد الخدري رضي الله عنه ، أن النبي ﷺ : « احتجت الجنة والنار » يعني تحاجا فيما بينهما ، كل واحدة تدلي بحجتها ، وهذا من الأمور الغيبية التي يجب علينا أن نؤمن بها حتى وإن استبعدتها العقول وحار الإنسان ، وقال : كيف تتحاج الجنة والنار وهما جمادان ؟!

فإننا نقول إن الله ﷻ على كل شيء قدير وقد أخبر الله ﷻ أن الأرض يوم القيامة تحدث أخبارها بما أوحى الله إليها به ، فإذا أمر الله شيئًا بأمر فإن هذا المأمور سيستجيب على كل حال ،

---

(١) أخرجه مسلم في الجنة وصفة نعيمها (٣٦) .

الأيدي يوم القيامة والألسن والأرجل والجلود كلها تشهد ، مع أنها جماد ، وتشهد على صاحبها مع أنها أقرب الناس إليه ؛ لأن اللَّه سبحانه وتعالى على كل شيء قدير .

فالجنة احتجت على النار ، والنار احتجت على الجنة . النار احتجت بأن فيها الجبارين والمتكبرين .

الجبارون أصحاب الغلظة والقسوة ، والمتكبرون أصحاب الترفع والعلو ، الذين يغمطون الناس ويردون الحق ، كما قال النبي ﷺ في الكبر : « إنه بطر الحق وغمط الناس »[1] .

فأهل الجبروت وأهل الكبرياء هم أهل النار - والعياذ باللَّه - وربما يكون صاحب النار لين الجانب للناس ، حسن الأخلاق ، لكنه جبارٌ بالنسبة للحق ، مستكبر عن الحق ، فلا ينفعه لين جانبه وعطفه على الناس ، بل هو موصوف بالجبروت والكبرياء ولو كان لين الجانب للناس ، لأنه تجبر واستكبر عن الحق .

أما الجنة فقالت : إن فيها ضعفاء الناس وفقراء الناس . فهم في الغالب الذين يلينون للحق ، وينقادون له ، وأما أهل الكبرياء والجبروت ، ففي الغالب أنهم لا ينقادون .

فقضى اللَّه ﷻ بينهما قال : « إنك الجنة رحمتي أرحم بك من أشاء » وقال للنار : « إنك النار عذابي أعذب بك من أشاء » إنك الجنة رحمتي : يعني أنها الدار التي نشأت من رحمة اللَّه ، وليست رحمته التي هي صفته ؛ لأن رحمته التي هي صفته وصف قائم به ، لكن الرحمة هنا مخلوق ، أنت رحمتي يعني خلقك برحمتي ، أرحم بك من أشاء .

وقال للنار : أنت عذابي أعذب بك من أشاء كقوله تعالى : ﴿ يُعَذِّبُ مَن يَشَآءُ وَيَرۡحَمُ مَن يَشَآءُ ﴾ [العنكبوت : ٢١] فأهل الجنة هم أهل رحمة اللَّه - نسأل اللَّه أن يجعلني وإياك منهم - وأهل النار هم أهل عذاب اللَّه .

ثم قال ﷻ : « ولكليكما عَلَيَّ ملؤها » تكفل ﷻ وأوجب على نفسه أن يملأ الجنة ويملأ ، وفضل اللَّه ﷻ ورحمته أوسع من غضبه ، فإنه إذا كان يوم القيامة ألقى من يلقى في النار ، وهي تقول هل من مزيد ، يعني أعطوني . أعطوني . زيدوا . فيضع اللَّه عليها رجله ، وفي لفظ عليها قدمه ، فينزوي بعضها على بعض ، ينضم بعضها إلى بعض من أثر وضع الرب ﷻ عليها قدمه ، وتقول : قط قط ، يعني كفاية كفاية ، وهذا ملؤها .

أما الجنة فإن الجنة واسعة ، عرضها السموات والأرض يدخلها أهلها ويبقى فيها فضل زائد على أهلها ، فينشئ اللَّه تعالى لها أقوامًا فيدخلهم الجنة بفضله ورحمته[2] ، لأن اللَّه تكفل لها بملئها .

ففي هذا : دليل على أن الفقراء والضعفاء هم أهل الجنة ؛ لأنهم الغالب هم الذين ينقادون للحق ،

---

(١) أخرجه مسلم بنحوه في الإيمان (١٤٧) .

(٢) هذا معنى حديث ولفظه « ولا تزال الجنة تفضل حتى ينشئ اللَّه لها خلقًا فيسكنهم فضل الجنة .. » وقد أخرجه البخاري في التوحيد (٧٣٨٤) بلفظه ، ومسلم في الجنة (٣٨) .

وأن الجبارين المتكبرين هم أهل النار .

والعياذ بالله ؛ لأنهم مستكبرون على الحق وجبارون . لا تلين قلوبهم لذكر الله ، ولا لعباد الله . نسأل الله لنا ولكم السلامة والعافية .

* * *

٢٥٥ - وعن أبي هريرة ﷺ عن رسول الله ﷺ قال : « إِنَّهُ لَيَأْتِي الرَّجُلُ السَّمِينُ الْعَظِيمُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ لا يَزِنُ عِنْدَ اللَّهِ جَنَاحَ بَعُوضَةٍ »(١) متفقٌ عَلَيه .

الشرح

ذكر المؤلف - رحمه الله تعالى - فيما نقله عن أبي هريرة ﷺ ، عن النبي ﷺ أنه قال : « إنه ليأتي الرجل السمين العظيم يوم القيامة لا يزن عند الله جناح بعوضة » ذكر المؤلف هذا الحديث في باب المستضعفين والفقراء من المسلمين ؛ وذلك لأن الغالب أن السمنة إنما تأتي من البطنة أي من كثرة الأكل ، وكثرة الأكل تدل على كثرة المال والغنى ، والغالب على الأغنياء البطر ، والأشر ، وكفر النعمة ، حتى إنهم يوم القيامة يكونون بهذه المثابة ، يؤتى بالرجل العظيم السمين يعني كثير اللحم والشحم . عظيم كبير الجسم لا يزن عند الله يوم القيامة جناح بعوضة ، والبعوضة معروفة من أشد الحيوانات امتهانًا وأهونها وأضعفها ، وجناحها كذلك .

وفي هذا الحديث : إثبات الوزن يوم القيامة ، وقد دل على ذلك كتاب الله ﷻ ، قال الله تعالى : ﴿ وَنَضَعُ ٱلْمَوَٰزِينَ ٱلْقِسْطَ لِيَوْمِ ٱلْقِيَٰمَةِ فَلَا تُظْلَمُ نَفْسٌ شَيْـًٔا ۖ وَإِن كَانَ مِثْقَالَ حَبَّةٍ مِّنْ خَرْدَلٍ أَتَيْنَا بِهَا ۗ وَكَفَىٰ بِنَا حَٰسِبِينَ ﴾(٢) [الأنبياء : ٤٧] .

وقال جل وعلا : ﴿ فَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْرًا يَرَهُۥ ۝ وَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ شَرًّا يَرَهُۥ ﴾ [الزلزلة : ٧، ٨] . وقال النبي ﷺ : « اتقوا النار ولو بشق تمرة »(٣) .

فالوزن يوم القيامة وزن عدل ليس فيه ظلم ، يجازى فيه الإنسان على حسب ما عنده من الحسنات والسيئات . وقال أهل العلم فمن رجحت سيئاته على حسناته استحق أن يعذب في النار ، ومن تساوت حسناته وسيئاته كان من أهل الأعراف ، الذين يكونون بين الجنة والنار لمدة ، على حسب ما يشاء الله ﷻ ، وفي النهاية يدخلون الجنة .

ثم إن الوزن وزن حسي بميزان له كفتان ، توضع في إحداهما السيئات وفي الأخرى الحسنات ،

---

(١) أخرجه البخاري في التفسير (٤٧٢٩) ، ومسلم في صفات المنافقين (١٨) . قوله « لا يزن عند الله جناح بعوضة » أي لا يعدله ، والمقصود أنه لا قدر له عنده .

(٢) قوله ﴿ ٱلْقِسْطَ ﴾ ذوات العدل في محاسبة الناس . قوله ﴿ مِثْقَالَ حَبَّةٍ مِّنْ خَرْدَلٍ ﴾ أي وزن أقل شيء (كناية عن كمال إحاطة علم الله) .

(٣) أخرجه البخاري في الأدب (٦٠٢٣) ، ومسلم في الزكاة (٦٨) .

وتثقل الحسنات وتخف السيئات إذا كانت الحسنات أكثر ، والعكس بالعكس .

ثم ما الذي يوزن ؟ ظاهر هذا الحديث أن الذي يوزن الإنسان ، وأنه يخف ويثقل بحسب أعماله .

وقال بعض العلماء : بل الذي يوزن صحائف الأعمال ، توضع صحائف السيئات في كفة ، وصحائف الحسنات في كفة ، وما رجح فالعمل عليه .

وقيل : بل الذي يوزن العمل ؛ لأن اللّه تعالى قال : ﴿ فَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْرًا يَرَهُۥ ﴾ [الزلزلة : ٧] فجعل الوزن للعمل ، وقال تعالى : ﴿ وَإِن كَانَ مِثْقَالَ حَبَّةٍ مِّنْ خَرْدَلٍ أَتَيْنَا بِهَا وَكَفَىٰ بِنَا حَٰسِبِينَ ﴾ [الأنبياء : ٤٧] وقال النبي ﷺ : « كلمتان خفيفتان على اللسان ، ثقيلتان في الميزان ، حبيبتان إلى الرحمن : سبحان اللّه وبحمده ، سبحان اللّه العظيم » (١) ، فقوله ﷺ : « كلمتان ثقيلتان في الميزان » يدل على أن الذي يوزن هو العمل ، وهذا هو ظاهر القرآن الكريم وظاهر السنة ، وربما يوزن هذا وهذا ، أي توزن الأعمال وتوزن صحائف الأعمال .

وفي هذا الحديث : التحذير من كون الإنسان لا يهتم إلا بنفسه أي بتنعيم جسده ، والذي ينبغي للعاقل أن يهتم بتنعيم قلبه ، ونعيم قلب الإنسان بالفطرة وهي التزام دين اللّه ﷻ ، وإذا نَعُم القلب نَعُم البدن ولا عكس . وقد ينعم البدن ويؤتى الإنسان من الدنيا ما يؤتى من زهرتها ، ولكن قلبه في جحيم والعياذ باللّه .

وإذا شئت أن تتبين هذا فاقرأ قوله تعالى : ﴿ مَنْ عَمِلَ صَٰلِحًا مِّن ذَكَرٍ أَوْ أُنثَىٰ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلَنُحْيِيَنَّهُۥ حَيَوٰةً طَيِّبَةً وَلَنَجْزِيَنَّهُمْ أَجْرَهُم بِأَحْسَنِ مَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴾ [النحل : ٩٧] لم يقل فلننعمن أبدانهم ، بل قال فلنحيينه حياة طيبة وذلك بما يجعل اللّه في قلوبهم من الأنس ، وانشراح الصدر ، وطمأنينة القلب وغير ذلك ، حتى إن بعض السلف قال : لو يعلم الملوك وأبناء الملوك ما نحن فيه لجالدونا عليه بالسيوف : يعني من انشراح الصدر ونور القلب والطمأنينة والسكون .

أسأل اللّه أن يشرح قلبي وقلوبكم للإسلام ، وينورها بالعلم والإيمان إنه جواد كريم .

* * *

٢٥٦ - وعنه أَنَّ امْرَأَةً سَوداءَ كَانَتْ تَقُمُّ المَسْجِدَ ، أَو شَابًّا ، فَفَقَدَهَا رَسُولُ اللّهِ ﷺ ، فَسَأَلَ عَنْهَا ، أو عَنْهُ ، فقالوا : مَاتَ . قال : « أَفَلا كُنْتُمْ آذَنْتُمُونِي » فَكَأَنَّهُمْ صَغَّرُوا أَمْرَهَا ، أَو أَمْرَهُ ، فقال : « دُلُّونِي عَلَى قَبرِهِ » فَدَلُّوهُ فَصَلَّى عَلَيهَا ، ثُمَّ قال : « إِنَّ هذِهِ القُبُورَ مَمْلُوءَةٌ ظُلْمَةً عَلَى أَهْلِهَا ، وَإِنَّ اللّهَ تعالى يُنَوِّرُهَا لَهُمْ بصَلاتِي عَلَيهِمْ » (٢) متفقٌ عليه .

قوله : « تَقُمُّ » هو بفتح التَّاءِ وَضَمِّ القَافِ : أَي تَكْنُسُ . « وَالْقُمَامَةُ » : الْكُنَاسَةُ . « وَآذَنْتُمونِي »

---

(١) أخرجه البخاري في الأيمان والنذور (٦٦٨٢) ، ومسلم في الذكر والدعاء (٣١) ، والترمذي في الدعوات (٣٤٦٧) ، وأحمد في مسنده (٢/٢٣٢) .

(٢) أخرجه البخاري في الجنائز (١٣٣٧) ، ومسلم - واللفظ له - في الجنائز (٧١) .

بِمَدِّ الهَمْزَةِ : أَي أَعْلَمْتُمُونِي .

الشرح

ذكر المؤلف - رحمه اللّه تعالى - فيما نقله عن أبي هريرة ﷺ أن امرأة سوداء كان تقم المسجد أو شابًا ، وأكثر الروايات على أنها امرأة سوداء ، كانت تقم المسجد : يعني تنظفه وتزيل القمامة ، فماتت في الليل فصغر الصحابة ﷺ شأنها ، وقالوا : لا حاجة إلى أن نخبر النبي ﷺ في هذا الليل ، فدفنوها ، ففقدها النبي ﷺ فقالوا : إنها ماتت ، فقال : « أفلا كنتم آذنتموني » يعني أعلمتموني حين ماتت ، ثم قال : « دلوني على قبرها » فدلوه ، فصلى عليها ، ثم قال ﷺ : « إن هذه القبور مملوءة ظلمة على أهلها وإن اللّه ينورها لهم بصلاتي عليهم » .

ففي هذا الحديث عدة فوائد :

منها : أن النبي ﷺ إنما يعظم الناس بحسب أعمالهم ، وما قدموا به من طاعة اللّه وعبادته .

ومن الفوائد : جواز تولي المرأة لتنظيف المسجد ، وأنه لا يحجر ذلك على الرجال فقط ، بل كل من احتسب ونظف المسجد فله أجره ؛ سواء باشرته المرأة ، أو استأجرت من يقم المسجد على حسابها .

ومن فوائد هذا الحديث : مشروعية تنظيف المساجد ، وإزالة القمامة عنها ، وقد قال النبي ﷺ : « عرضت عليَّ أجور أمتي حتى القذاة يخرجها الرجل من المسجد » (١) ، والقذاة : الشيء الصغير ، يخرجه من المسجد فإنه يؤجر عليه .

وفي حديث عائشة ﷺ أن النبي ﷺ أمر ببناء المساجد في الدور ، وأن تنظف وتطيب ، فالمساجد بيوت اللّه ينبغي العناية بها وتنظيفها ، ولكن لا ينبغي زخرفتها وتنقيشها بما يوجب أن يلهو المصلون بما فيه من الزخرفة ، فإن النبي ﷺ قال : « لتزخرفنها - يعني المساجد - كما زخرفها اليهود والنصارى » (٢) .

ومن فوائد هذا الحديث : أن النبي ﷺ لا يعلم الغيب ، ولهذا قال : « دلوني على قبرها » ، فإذا كان لا يعلم الشيء المحسوس فالغائب من باب أولى ، فهو ﷺ لا يعلم الغيب ، وقد قال اللّه له : ﴿ قُل لَّآ أَقُولُ لَكُمْ عِندِى خَزَآئِنُ ٱللَّهِ وَلَآ أَعْلَمُ ٱلْغَيْبَ وَلَآ أَقُولُ لَكُمْ إِنِّى مَلَكٌ إِنْ أَتَّبِعُ إِلَّا مَا يُوحَىٰٓ إِلَىَّ ﴾ [الأنعام : ٥٠] وقال له : ﴿ قُل لَّآ أَمْلِكُ لِنَفْسِى نَفْعًا وَلَا ضَرًّا إِلَّا مَا شَآءَ ٱللَّهُ وَلَوْ كُنتُ أَعْلَمُ ٱلْغَيْبَ لَٱسْتَكْثَرْتُ مِنَ ٱلْخَيْرِ وَمَا مَسَّنِىَ ٱلسُّوٓءُ إِنْ أَنَا۠ إِلَّا نَذِيرٌ وَبَشِيرٌ لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ﴾ [الأعراف : ١٨٨] .

ومن فوائد هذا الحديث : مشروعية الصلاة على القبر لمن لم يصل عليه قبل الدفن ؛ لأن النبي ﷺ خرج فصلى على القبر حيث لم يُصلِّ عليها قبل الدفن ، ولكن هذا مشروع لمن مات في عهدك وفي عصرك ، أما

(١) أخرجه الترمذي في فضائل القرآن وقال : غريب (٢٩١٦) ، وأبو داود في الصلاة (٤٦١) .

(٢) أخرجه البخاري في الصلاة باب بنيان المسجد وهو - عنده - معلّق عن ابن عباس وقد وصله أبو داود في الصلاة (٤٤٨) .

من مات سابقًا فلا يشرع أن تصلي عليه ، ولهذا لا يشرع لنا أن نصلي على النبي ﷺ على قبره ، أو على قبر أبي بكر ، أو عمر ، أو عثمان ، أو غيرهم من الصحابة ، أو غيرهم من العلماء والأئمة .

وإنما تشرع الصلاة لمن مات في عهدك فمثلًا إذا مات إنسان قبل ثلاثين سنة وعمرك ثلاثون سنة فإنك لا تصلي عليه صلاة الميت ؛ لأنه مات قبل أن تخلق وقبل أن تكون من أهل الصلاة ، أما من مات وأنت قد كنت من أهل الصلاة من قريب أو أحد تحب أن تصلي عليه فلا بأس .

فلو فرض أن رجلًا مات قبل سنة أو سنتين ، وأحببت أن تصلي على قبره وأنت لم تصل عليه من قبل فلا بأس .

ومن فوائد هذا الحديث : حسن رعاية النبي ﷺ لأمته ، وأنه كان يتفقدهم ويسأل عنهم ، فلا يشتغل بالكبير عن الصغير ؛ كل ما يهم المسليمن فإنه يسأل عنه ﷺ .

ومن فوائد هذا الحديث : جواز سؤال المرء مالا تكون به منّة في الغالب ؛ لأن الرسول ﷺ قال : « دلوني على قبرها » وهذا سؤال ، لكن مثل هذا السؤال ليس فيه منّة ، بخلاف سؤال المال فإن سؤال المال محرم ، يعني لا يجوز أن تسأل شخصًا مالًا وتقول أعطني عشرة ريالات أو مائة ريال ، إلا عند الضرورة . أما سؤال غير المال مما لا يكون فيه منّة في الغالب فإن هذا لا بأس به ، ولعل هذا مخصّص لما كان الرسول ﷺ يبايع أصحابه عليه حيث كان يبايعهم ألا يسألوا الناس شيئًا .

وربما يؤخذ من هذا الحديث : جواز إعادة الصلاة على الجنازة ، لمن صلى عليها من قبل إذا وجد جماعة ؛ لأن الظاهر أن الذين خرجوا مع النبي ﷺ صلوا معه ، وعلى هذا فتشرع إعادة صلاة الجماعة إذا صلى عليها جماعة آخرون مرة ثانية .

وإلى هذا ذهب بعض أهل العلم ، وقالوا : إنه كما أن صلاة الفريضة تعاد إذا صليتها ثم أدركتها مع جماعة أخرى ، فكذلك صلاة الجنازة ، وبناءً على ذلك لو أن أحدًا صلى على جنازة في المسجد ، ثم خرجوا بها للمقبرة ، ثم أقام أناس يصلون عليها جماعة ، فإنه لا حرج ولا كراهة في أن تدخل في الجماعة الآخرين فتعيد الصلاة ؛ لأن إعادة الصلاة هنا لها سبب ، ليست مجرد تكرار بل لها سبب ، وهو وجود الجماعة الأخرى .

فإذا قال قائل : إذا صليتُ على القبر فأين أقف ؟ فالجواب أنك تقف وراءه تجعله بينك وبين القبلة ، كما هو الشأن فيما إذا صليت عليه قبل الدفن .

* * *

٢٥٧ – وعنه قال : قال رسول اللّه ﷺ : « رُبَّ أَشْعَثَ أَغْبَرَ مَدْفُوعٍ بالأَبْوَابِ لَو أَقْسَمَ عَلَى اللّه لأَبَرَّهُ »[١] رواه مسلم .

---

(١) أخرجه مسلم في البر والصلة (١٣٨) .

٢٥٨ - وعن أُسَامَةَ رضي الله عنه عن النبي ﷺ قال : « قُمْتُ عَلَى بَابِ الْجَنَّةِ ؛ فَإِذَا عَامَّةُ مَنْ دَخَلَهَا الْمَسَاكِينُ ، وَأَصْحَابُ الجَدِّ مَحبوسُونَ ، غَيرَ أَنَّ أَصْحَابَ النَّارِ قَدْ أُمِرَ بِهِمْ إِلَى النَّارِ . وَقُمْتُ عَلَى بَابِ النَّارِ ؛ فَإِذَا عَامَّةُ مَنْ دَخَلَهَا النِّسَاءُ » (١) متفقٌ عليه .

« وَالجَدُّ » بفتح الجيم : الحَظُّ والغِنَى . وقوله : « مَحْبُوسُونَ » أَي : لَمْ يُؤْذَنْ لَهُمْ بَعْدُ فِي دُخُولِ الجَنَّةِ .

الشرح

ذكر المؤلف - رحمه اللَّه تعالى - فيما نقله عن أبي هريرة رضي الله عنه إن رسول اللَّه ﷺ قال : « رُبَّ أشعث أغبر مدفوع بالأبواب لو أقسم على اللَّه لأبره » وأشعث من صفات الشعر ، وشعره أشعث يعني : ليس له ما يدهن به الشعر ، ولا ما يرجله ، وليس يهتم بمظهره ، وأغبر يعني أغبر اللون ، أغبر الثياب وذلك لشدة فقره .

« مدفوع بالأبواب » : يعني ليس له جاه ، إذا جاء إلى الناس يستأذن لا يأذنون له ، بل يدفعونه بالباب ، أي إذا فتح صاحب البيت ووجد هذا الرجل دفع الباب في وجهه ؛ لأنه ليس له قيمة عند الناس .

لكن هذا الرجل له قيمة عند رب العالمين ، لو أقسم على اللَّه لأبره ، لو قال : واللَّه لا يكون كذا لم يكن ، واللَّه ليكونن كذا لكان . لو أقسم على اللَّه لأبره ، لكرمه عند اللَّه عز وجل ومنزلته .

لكن بأي شيء يحصل هذا ؟ فربما يكون رجل أشعث أغبر مدفوع بالأبواب لو أقسم على اللَّه ما أبره ، ورب أشعث أغبر مدفوع بالأبواب لو أقسم على اللَّه لأبره . فما هو الميزان ؟

الميزان تقوى اللَّه عز وجل ، كما قال تعالى : ﴿ إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِندَ اللَّهِ أَتْقَنكُمْ ﴾ [الحجرات : ١٣] فمن كان أتقى للَّه فهو أكرم عند اللَّه ، ييسر اللَّه له الأمر ، يجيب دعاءه ، ويكشف ضره ، ويبر قسمه .

وهذا الذي أقسم على اللَّه لن يقسم بظلم لأحد ، ولن يجترئ على اللَّه في ملكه ، ولكنه يقسم على اللَّه فيما يرضي اللَّه ثقة باللَّه عز وجل ، أو في أمور مباحة ثقة باللَّه عز وجل .

وقد مرَّ علينا في قصة الربيع بنت النضر وأخيها أنس بن النضر ؛ فإن الربيع كسرت ثنية جارية من الأنصار ، فاحتكموا إلى الرسول ﷺ ، فأمر النبي ﷺ أن تكسر ثنية الربيع لأنها كسرت ثنية الجارية الأنثى ، فقال أخوها أنس : يا رسول اللَّه ، تكسر ثنية الربيع ؟ قال : « نعم ، كتاب اللَّه القصاص ، السن بالسن » ، قال : واللَّه لا تكسر ثنية الربيع ، قال ذلك ثقة باللَّه عز وجل ، ورجاءً لتيسيره وتسهيله .

فأقسم هذا القسم ، ليس ردًّا لحكم الرسول . كلا ، ولكن ثقة باللَّه عز وجل ، فهدى اللَّه أهل الجارية ورضوا بالدية أو عفوا ، فقال النبي ﷺ : « إن من عباد اللَّه من لو أقسم على اللَّه لأبره » (٢) ، لأنه

---

(١) أخرجه البخاري - واللفظ له - في النكاح (٥١٩٦) ، ومسلم في الذكر والدعاء (٩٣) .

(٢) سبق تخريجه .

يقسم على الله في شيء يرضاه الله ﷻ ، إحسانًا في ظنه بالله ﷻ .

أما من أقسم على الله تألِّيًا على الله ، واستكبارًا على عباد الله ، وإعجابًا بنفسه ، فهذا لا يبر الله قسمه ؛ لأنه ظالم ، ومن ذلك قصة الرجل العابد الذي كان يمر برجل مسرف على نفسه ، فقال : والله لا يغفر الله لفلان ، أقسم أن الله لا يغفر له ، لماذا يقسم ؟ هل المغفرة بيده ؟ هل الرحمة بيده ؟ فقال الله جل وعلا : « من ذا الذي يتألى عليَّ ألا أغفر لفلان ؟ » استفهام إنكار « قد غفرت له وأبطلت عملك » [(١)] ؛ نتيجة سيئة - والعياذ بالله - لم يبر الله بقسمه ، بل أحبط عمله لأنه قال ذلك إعجابًا بعمله ، وإعجابًا بنفسه ، واستكبارًا على عباد الله ﷻ .

أما حديث أسامة بن زيد ، أن النبي ﷺ يقول : « قمت على باب الجنة فإذا عامة من دخلها المساكين » ، يعني أكثرهم ؛ أكثر من يدخل الجنة الفقراء ؛ لأن الفقراء في الغالب أقرب إلى العبادة والخشية لله من الأغنياء ، ﴿ كَلَّآ إِنَّ ٱلْإِنسَٰنَ لَيَطْغَىٰٓ ۝ أَن رَّءَاهُ ٱسْتَغْنَىٰٓ ﴾ [العلق : ٦ ، ٧] والغني يرى أنه مستغن بماله ، فهو أقل تعبدًا من الفقير ، وإن كان من الأغنياء من يعبد الله أكثر من الفقراء ، لكن الغالب .

« **وأصحاب الجد محبوسون** » يعني : أصحاب الحظ والغنى محبوسون لم يدخلوا الجنة بعد ؛ الفقراء يدخلون الجنة قبل الأغنياء ، « **غير أن أصحاب النار قد أمر بهم إلى النار** » .

فقسم الرسول ﷺ الناس إلى أقسام ثلاثة : أهل النار : دخلوا النار - أعاذنا الله وإياكم منها - والفقراء : دخلوا الجنة ، والأغنياء : من المؤمنين موقوفون محبوسون ، إلى أن يشاء الله .

أما أهل النار فأخبر الرسول ﷺ وهو الصادق المصدوق أن عامَّة من دخلها النساء ؛ أكثر من يدخل النار النساء ؛ لأنهن أصحاب فتنة ، ولهذا قال لهن الرسول ﷺ يوم عيد من الأعياد : « **يا معشر النساء ، تصدقن ، ولو من حُليكن فإنكن أكثر أهل النار** » ، قالوا : يا رسول الله لم ؟ قال « **لأنكن تكثرن اللعن وتَكفرن العشير** » [(٢)] ، تكثرن اللعن : أي السب والشتم ؛ فلسانهن سليط ، وكيدهن عظيم ، وتكفرن العشير : أي المعاشر وهو الزوج ، لو أحسن إليها الدهر كله ، ثم رأت سيئة واحدة ، قالت : ما رأيت خيرًا قط ، تكفر النعمة ولا تقر بها .

في هذا الحديث : دليل على أنه يجب على الإنسان أن يحترز من فتنة الغنى ، فإن الغنى قد يُطغي ، وقد يؤدي بصاحبه إلى الأشر ، والبطر ، ورد الحق ، وغمط الناس ، فاحذر نعمتين : الغنى والصحة والفراغ أيضًا سببٌ للفتنة ، فالثلاث هذه : الغنى والصحة والفراغ ، هذه مما يغبن فيها كثيرٌ من الناس « نعمتان مغبون فيهما كثيرٌ من الناس الصحة والفراغ » [(٣)] ، والفراغ في الغالب يأتي من الغنى ؛ لأن الغني منكف عن كل شيء ومتفرغ ، نسأل الله أن يعيذنا وإياكم من فتنة المحيا والممات

---

(١) سبق تخرجه .

(٢) أخرجه البخاري في الزكاة (١٤٦٢) ، ومسلم في الإيمان (١٣٢) ، وذلك بألفاظ مختلفة .

(٣) أخرجه البخاري في الرقاق (٦٤١٢) ، والترمذي في الزهد (٢٣٠٤) ، وأحمد في مسنده (١/٢٥٨) .

وفتنة المسيح الدجال .

* * *

٢٥٩ - وعن أبي هريرة ﷺ عن النبي ﷺ قال : « لَمْ يَتَكلَّمْ في المَهْدِ إلا ثَلاثَةٌ : عيسى ابْنُ مَرْيَمَ ، وَصَاحِب جُريج ، وَكَانَ جُرَيجٌ رَجُلًا عَابدًا ، فاتَّخَذَ صَومَعَةً فكَانَ فِيهَا ، فَأَتَتْهُ أُمُّهُ وَهُوَ يُصَلِّي فَقَالَتْ : يَا جُريجُ ، فقال : يَا رَبِّ ، أُمِّي وَصَلاتِي ، فَأَقْبَلَ عَلَى صَلاتِهِ فَانْصَرفَتْ . فَلَمَّا كَانَ مِنَ الغَدِ أَتَتْهُ وهُوَ يُصَلِّي ، فَقَالَتْ : يَا جُرَيجُ ، فقال : أَي رَبِّ ، أُمِّي وصَلاتِي . فَأَقْبَلَ عَلَى صَلاتِهِ ، فَلَمَّا كَانَ مِنَ الغَدِ أَتَتْهُ وَهُوَ يُصَلِّي فَقَالَتْ : يَا جُرَيجُ ، فقال : أَي رَبِّ ، أُمِّي وَصَلاتِي ، فَأَقْبَلَ عَلَى صَلاتِهِ ، فَقَالَت : اللَّهُمَّ لا تُمِتْهُ حَتَّى يَنْظُرَ إلى وُجُوهِ المُومِسَاتِ . فَتَذَاكَرَ بَنو إِسْرَائِيلَ جُرِيجًا وَعِبَادَتَهُ ، وَكَانَتِ امْرَأَةٌ بَغِيٌّ يُتَمثَّلُ بِحُسنِهَا ، فَقَالَتْ : إنْ شِئْتُمْ لأَفْتِنَنَّهُ ، فَتَعَرضَتْ لَهُ ، فَلَمْ يَلْتَفِتْ إِلَيهَا ، فَأَتَتْ رَاعِيًا كَانَ يَأْوِي إِلَى صَومَعَتِهِ ، فَأَمْكَنَتْهُ مِنْ نَفْسِهَا فَوَقَعَ عَلَيهَا . فَحَمَلتْ ، فَلَمَّا وَلَدتْ قَالَتْ : هُوَ مِنْ جُرَيجٍ ، فَأَتَوهُ فَاسْتَنْزَلُوهُ وَهَدَمُوا صَومَعَتَهُ ، وَجَعَلُوا يَضْرِبُونَهُ ، فقال : مَا شأنُكُم ؟ قالوا : زَنَيتَ بهذِهِ البَغِيِّ فَوَلَدَتْ مِنْكَ . قال : أَيْنَ الصَّبِيُّ ؟ فَجَاؤُوا بِهِ فقال : دَعُونِي حَتَّى أُصَلِّيَ ، فَصَلَّى ، فَلَمَّا انْصرفَ أَتَى الصَّبيَّ فَطَعَنَ فِي بَطْنِهِ وقالَ : يَا غُلامُ مَنْ أَبُوكَ ؟ قال : فُلانٌ الرَّاعِي ، فَأَقْبَلُوا عَلَى جُرَيجٍ يُقَبِّلُونَهُ وَيَتَمَسَّحُونَ بِهِ وَقَالُوا : نَبْنِي لَكَ صَومَعَتَكَ مِنْ ذَهَب ، قال : لا ، أَعِيدُوهَا مِنْ طِينٍ كَمَا كَانَتْ ، فَفَعَلُوا . وَبَينَا صَبِيٌّ يَرْضَعُ مِنْ أُمِّهِ ، فَمَرَّ رَجُلٌ رَاكِبٌ عَلَى دابَّةٍ فَارِهَةٍ وَشَارَةٍ حَسَنَةٍ ، فقالت أُمُّهُ : اللَّهُمَّ اجْعَل ابْنِي مثْلَ هذَا ، فَتَرَكَ الثَّدْيَ وأَقْبَلَ إِلَيهِ فَنَظَرَ إِلَيهِ فقال : اللَّهُمَّ لا تَجْعَلْنِي مِثْلَهُ ، ثُمَّ أَقْبَلَ عَلَى ثَدْيِهِ فَجَعَلَ يَرْتَضِعُ » فَكَأَنِّي أَنْظُرُ إِلَى رسول الله ﷺ وَهُوَ يَحْكِي ارْتِضَاعَهُ بِأُصْبُعِه السَّبَّابَةِ في فِيهِ ، فَجَعَلَ يَمُصُّهَا ، قال : « وَمَرُّوا بِجَارِيَةٍ وَهُمْ يَضْرِبُونَهَا ، وَيَقُولُونَ : زَنَيتِ ، سَرَقْتِ ، وَهِيَ تَقُولُ : حَسْبِيَ اللَّهُ وَنِعْمَ الوَكِيلُ . فقالت أُمُّهُ : اللَّهُمَّ لا تَجْعَل ابْنِي مِثْلَهَا ، فَتَرَكَ الرضَاعَ وَنَظَرَ إليهَا فقال : اللَّهُمَّ اجْعَلْنِي مِثْلَهَا ، فَهُنالكَ تَرَاجَعَا الحَدِيثَ فقالت : مَرَّ رَجُلٌ حَسَنُ الهَيئَةِ فَقُلْتُ : اللَّهُمَّ اجْعَلِ ابْنِي مِثْلَهُ فَقُلْتَ : اللَّهُمَّ لا تَجْعَلْنِي مِثْلَهُ ، وَمَرُّوا بهذِهِ الأَمَةِ وَهُمْ يَضْرِبُونَهَا وَيَقُولُونَ : زَنَيت ، سَرَقْتِ ، فَقُلْتُ : اللَّهُمَّ لا تَجْعَل ابْنِي مِثْلَهَا فَقُلْتَ : اللَّهُمَّ اجْعَلْنِي مِثْلَهَا ؟! قالَ : إنَّ ذلِكَ الرَّجُلَ كَانَ جَبَّارًا فَقُلْتُ : اللَّهُمَّ لَا تَجْعَلْنِي مِثْلَهُ ، وإنَّ هَذهِ يَقُولُونَ لَهَا : زَنَيتِ ولَمْ تَزْنِ ، وسَرَقتِ وَلَمْ تَسْرِقْ ، فَقُلْتُ : اللَّهُمَّ اجْعَلْني مِثْلَهَا »[1] متفقٌ عليه .

« وَالمومِسَاتُ » بضَمِّ الميمِ الأُولَى ، وإسكانِ الواو وكسرِ الميم الثانيةِ وبالسين المهملَة ، وَهُنَّ

---

(١) أخرجه البخاري في أحاديث الأنبياء (٣٤٣٦) ، ومسلم - واللفظ له - في البر والصلة (٨) قوله « صومعة » الصومعة البناء المرتفع المحدد أعلاه . قوله « بغي يتمثل بحسنها » أي زانية يضرب بحسنها المثل لانفرادها به . قوله « راعيًا كان يأوي إلى صومعته » أي : صومعة جريح .

الزَّوَانِي . وَالمُومِسَةُ : الزَّانِيَةُ . وقوله : « دَابَّةٌ فَارِهَةٌ » بِالْفَاءِ : أي حَاذِقَةٌ نَفِيسَةٌ . « وَالشَّارَةُ » بِالشِّينِ المُعْجَمَةِ وَتَخْفِيفِ الرَّاءِ : وَهِيَ الجَمَالُ الظَّاهِرُ فِي الهَيْئَةِ وَالمَلْبَسِ . وَمَعْنَى « تَرَاجعا الحديثَ » أي : حَدَّثَتِ الصَّبِيَّ وَحَدَّثَهَا ، واللَّه أعلم .

الشرح

ذكر المؤلف – رحمه اللَّه تعالى – فيما نقله عن أبي هريرة رضي الله عنه عن نبينا ﷺ أنه قال : « لم يتكلم في المهد إلا ثلاثة » .

أولًا : عيسى ابن مريم عليه السلام ، وعيسى ابن مريم آخر أنبياء بني إسرائيل ، بل آخر الأنبياء قبل محمد ﷺ ، فإنه لم يكن بينه وبين النبي ﷺ نبي ، كما قال اللَّه تعالى : ﴿ وَإِذْ قَالَ عِيسَى ٱبْنُ مَرْيَمَ يَٰبَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ إِنِّى رَسُولُ ٱللَّهِ إِلَيْكُم مُّصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَىَّ مِنَ ٱلتَّوْرَىٰةِ وَمُبَشِّرًۢا بِرَسُولٍ يَأْتِى مِنۢ بَعْدِى ٱسْمُهُۥٓ أَحْمَدُ ﴾ [الصف : ٦] فليس بين محمد ﷺ وبين عيسى بن مريم نبي .

وأما ما يذكر عند المؤرخين من وجود أنبياء في العرب كخالد بن سنان ، فهذا كذب ولا صحة له .

وعيسى ابن مريم كان آية من آيات اللَّه عز وجل ، كما قال تعالى : ﴿ وَجَعَلْنَا ٱبْنَ مَرْيَمَ وَأُمَّهُۥٓ ءَايَةً وَءَاوَيْنَٰهُمَآ إِلَىٰ رَبْوَةٍ ذَاتِ قَرَارٍ وَمَعِينٍ ﴾ [المؤمنون : ٥٠] كان آية في منشئه ، وآية في وضعه .

أما في منشئه : فإن أمه مريم رضي الله عنها حملت به من غير أب ، حيث أرسل اللَّه عز وجل جبريل إليها فتمثل لها بشرًا سويًّا ، ونفخ في فرجها فحملت بعيسى عليه السلام .

واللَّه على كل شيء قدير ، فالقادر على أن يخلق الولد من المني قادر على أن يخلقه من هذه النفخة ، كما قال تعالى : ﴿ إِنَّ مَثَلَ عِيسَىٰ عِندَ ٱللَّهِ كَمَثَلِ ءَادَمَ خَلَقَهُۥ مِن تُرَابٍ ثُمَّ قَالَ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ ﴾ [آل عمران : ٥٩] .

لا يستعصي على قدرة اللَّه شيء ، إذا أراد شيئًا قال له : كن فكان ، فحملت وولدت ، وقيل : أنه لم يبق في بطنها كما تبقى الأجنة ، ولكنها حملته وشب سريعًا ، ثم وضعته .

وكان آية في وضعه ، حيث جاء مريم المخاض إلى جذع النخلة ، فقالت : ﴿ يَٰلَيْتَنِى مِتُّ قَبْلَ هَٰذَا وَكُنتُ نَسْيًا مَّنسِيًّا ﴾ [مريم : ٢٣] هي لم تتمن الموت لكنها تمنت أنه لم يأتها هذا الشيء حتى الموت ﴿ فَنَادَىٰهَا مِن تَحْتِهَآ أَلَّا تَحْزَنِى قَدْ جَعَلَ رَبُّكِ تَحْتَكِ سَرِيًّا ﴾ [مريم : ٢٤] أي : عين تمشي تحت النخلة .

ثم قال : ﴿ وَهُزِّىٓ إِلَيْكِ بِجِذْعِ ٱلنَّخْلَةِ تُسَٰقِطْ عَلَيْكِ رُطَبًا جَنِيًّا ﴾ [مريم : ٢٥] تهز الجذع وهي امرأة قد أتاها المخاض ، فتتساقط من هزها الرطب ، رطبًا جنيًّا لا يفسد إذا وقع على الأرض ، وهذا خلاف العادة ؛ فالعادة أن المرأة عند النفاس تكون ضعيفة . والعادة عند هز النخلة ألا تهز من أسفل ، بل تهز من فوق ، فمن الجذع لا تهتز لو هزها الإنسان . والعادة أيضًا أن الرطب إذا سقط فإنه يسقط على الأرض ويتمزق ، لكن اللَّه قال : ﴿ وَهُزِّىٓ إِلَيْكِ بِجِذْعِ ٱلنَّخْلَةِ تُسَٰقِطْ عَلَيْكِ رُطَبًا جَنِيًّا ۝ فَكُلِى وَٱشْرَبِى وَقَرِّى عَيْنًا ﴾ ، اللَّه أكبر ! من آيات اللَّه عز وجل . اللَّه على كل شيء قدير .

ولما وضعت الولد أتت به قومها تحمله ، تحمل طفلًا وهي لم تتزوج ، فقالوا لها يعرضونها بالبغاء ، ﴿ يَٰٓأُخْتَ هَٰرُونَ مَا كَانَ أَبُوكِ ٱمْرَأَ سَوْءٍ وَمَا كَانَتْ أُمُّكِ بَغِيًّا ﴾ يعني كأنهم يقولون من أين جاءك الزنى - نسأل الله العافية - وأبوك ليس امرأ سوء وأمك ليست بغية ، وفي هذا إشارة إلى أن الإنسان إذا زنى فقد يبتلى نسله بالزنى - والعياذ بالله - كما جاء في الحديث في الأثر : « من زنى زني أهله » [1] .

فهؤلاء قالوا : ما كان أبوك امرأ سوء وما كانت أمك بغيًا ، فألهمها الله ﷻ فأشارت إلى الطفل ، أشارت إليه فكأنهم سخروا بها ، قالوا كيف نكلم من كان في المهد صبيًا ؟ هذا غير معقول !.

ولكنه التفت إليهم وقال هذا الكلام البليغ العجيب . قال : ﴿ إِنِّي عَبْدُ ٱللَّهِ ءَاتَىٰنِيَ ٱلْكِتَٰبَ وَجَعَلَنِي نَبِيًّا ۝ وَجَعَلَنِي مُبَارَكًا أَيْنَ مَا كُنتُ وَأَوْصَٰنِي بِٱلصَّلَوٰةِ وَٱلزَّكَوٰةِ مَا دُمْتُ حَيًّا ۝ وَبَرًّۢا بِوَٰلِدَتِي وَلَمْ يَجْعَلْنِي جَبَّارًا شَقِيًّا ۝ وَٱلسَّلَٰمُ عَلَيَّ يَوْمَ وُلِدتُّ وَيَوْمَ أَمُوتُ وَيَوْمَ أُبْعَثُ حَيًّا ﴾ [مريم : ٣٠- ٣٣] سبع جُمَل - الله أكبر ! - من طفل في المهد .

ولكن لا تتعجب فإن قدرة الله فوق كل شيء ، أليست جلودنا وأيدينا وأرجلنا وألسنتنا يوم القيامة تشهد علينا بما فعلنا ؟ بلى : تشهد . أليست الأرض تحدث أخبارها بأن ربك أوحى لها ؟ الأرض تشهد بما عملت عليها من قول أو فعل ﴿ يَوْمَئِذٍ تُحَدِّثُ أَخْبَارَهَا ۝ بِأَنَّ رَبَّكَ أَوْحَىٰ لَهَا ﴾ [الزلزلة : ٤، ٥] .

إذًا هذا كلام عيسى بن مريم ، تكلم بهذه الكلمات العظيمة ؛ سبع جمل وهو في المهد .

أما الثاني : فهو صاحب جريج ، وجريج رجل عابد ، انعزل عن الناس ، والعزلة خيرٌ إذا كان في الخلطة شر ، أما إذا لم يكن في الخلطة شر فالاختلاط بالناس أفضل ، قال النبي ﷺ : « المؤمن الذي يخالط الناس ويصبر على أذاهم خيرٌ من المؤمن الذي لا يخالطهم ولا يصبر على أذاهم » [2] .

لكن إذا كانت الخلطة ضررًا عليك في دينك ، فانج بدينك ، كما قال النبي ﷺ : « يوشك أن يكون خير مال الرجل غنمٌ يتّبع بها شعف الجبال ومواقع القطر » [3] يعني يفر بدينه من الفتن .

فهنا جريج انعزل عن الناس ، وبنى صومعة - يعني مكانًا يتعبد فيه لله ﷻ - فجاءته أمه ذات يوم وهو يصلي فنادته ، فقال في نفسه : أي ربي أمي وصلاتي : هل أجيب أمي وأقطع الصلاة أو أستمر في صلاتي ؟ فمضى في صلاته .

---

(١) هذا الحديث موضوع رواه ابن عدي (٢/١٥) ، وأبو نعيم في أخبار أصبهان (٢٧٨/١) ، بلفظ « ما زنى عبد قط فأدمن على الزنا إلا ابتلي في أهل بيته » . عن إسحاق بن نجيح عن ابن جريج عن عطاء عن ابن عباس مرفوعًا ، وقال ابن عدي : إسحاق بن نجيح بيِّن الأمر في الضعفاء وهو ممن يضع الحديث . ومما يؤيد بطلان هذا الحديث تنافيه مع الأصل المقرر في القرآن ﴿ وَأَن لَّيْسَ لِلْإِنسَٰنِ إِلَّا مَا سَعَىٰ ﴾ سلسلة الأحاديث الضعيفة والموضوعة (١٥٤/٢) رقم (٧٢٣) .

(٢) أخرجه الترمذي في القيامة (٢٥٠٧) ، وابن ماجة في الفتن (٤٠٣٢) ، وأحمد في مسنده (٤٣/٢) .

(٣) أخرجه البخاري بنحوه في الإيمان (١٩) ، وابن ماجه في الفتن (٣٩٨٠) ، وأحمد في مسنده (٦/٣) .

وجاءته مرة ثانية ، وقالت له مثل الأولى ، فقال مثل ما قال ، ثم استمر في صلاته ، فجاءته مرة ثالثة فدعته ، فقال مثل ما قال ثم استمر في صلاته ، فأدركها الغضب ، وقالت : اللهم لا تمته حتى ينظر في وجوه المومسات أي : الزواني ؛ حتى ينظر في وجوه الزواني والعياذ باللّٰه .

والإنسان إذا نظر في وجوه الزواني افتتن ؛ لأن نظر الرجل إلى المرأة فتنة . فكيف إذا كانت والعياذ باللّٰه زانية بغية ؟! فأشد فتنة ؛ لأنه ينظر إليها على أنها تمكنه من نفسها فيفتتن ، فدعت عليه أمه بذلك .

يستفاد من هذه الجملة من هذا الحديث أن الوالدين إذا ناداك وأنت تصلي ، فإن الواجب إجابتهما ، لكن بشرط ألا تكون الصلاة فريضة ، فإن كانت فريضة فلا يجوز أن تجيبهما ، لكن إذا كانت نافلة فأجبهما .

إلا إذا كانا ممن يقدرون الأمور قدرها ، وأنهما إذا علما أنك في صلاة عذراك فهنا أشر إليهما بأنك في صلاة ؛ إما بالنحنحة ، أو بقول سبحان اللّٰه ، أو برفع صوتك في آية تقرؤها أو دعاء تدعو به ، حتى يشعر المنادي بأنك في صلاة ، فإذا علمت أن هذين الأبوين الأم والأب عندهما مرونة ؛ يعذرانك إذا كنت تصلي ألا تجيب ، فنبههم على أنك تصلي .

فمثلًا إذا جاءك أبوك وأنت تصلي سنة الفجر ، قال : يا فلان ؛ وأنت تصلي ، فإن كان أبوك رجلًا مرنًا يعذرك فتنحنح له ، أو قل سبحان اللّٰه ، أو ارفع صوتك بالقراءة أو بالدعاء أو بالذكر الذي أنت فيه ، حتى يعذرك ..

وإن كان من الآخرين الذين لا يعذرون ، ويريدون أن يكون قولهم هو الأعلى فاقطع صلاتك وكلمهم ، وكذلك يقال في الأم .

أما الفريضة : فلا تقطعها لأحد ، إلا عند الضرورة ، كما لو رأيت شخصًا تخشى أن يقع في هكلة ؛ في بئر ، أو في بحر ، أو في نار ، فهنا اقطع صلاتك للضرورة ، وأما لغير ذلك فلا يجوز قطع الفريضة .

ويستفاد من هذه القطعة : أن دعاء الوالد إذا كان بحق فإنه حريٌّ بالإجابة ، فدعاء الوالد ولو كان على ولده إذا كان بحق فهو حري أن يجيبه اللّٰه ، ولهذا ينبغي لك أن تحترس غاية الاحتراس من دعاء الوالدين ، حتى لا تعرض نفسك لقبول اللّٰه دعاءهما فتخسر .

وفي الحديث أيضًا : دليل على أن الشفقة التي أودعها اللّٰه في الوالدين ، قد يوجد ما يرفع هذه الشفقة ؛ لأن هذه الدعوة من هذه المرأة عظيمة ؛ أن تدعو على ولدها أن لا يموت حتى ينظر في وجوه المومسات ، لكن شدة الغضب - والعياذ باللّٰه - أوجب بها أن تدعو بهذا الدعاء .

وذكرنا أن أمه لما نادته ثلاثًا وهو يصلي فيقبل على صلاته وتنصرف ، دعت عليه في الثالثة فقالت : اللهم لا تمته حتى ينظر في وجوه المومسات . فتكلم فيه بنو إسرائيل وفي عبادته ، فقالت امرأة منهم : أنا أكفيكم وأفتنه إن شئتم .

وفي قصته من الفوائد غير ما سبق : أن الإنسان إذا تعرف إلى اللّٰه تعالى في الرخاء عرفه في الشدة ،

فإن هذا الرجل كان عابدًا يتعبد لله ﷻ ، فلما وقع في الشدة العظيمة ، أنجاه الله منها . لما جاء إليه هؤلاء الذين كادوا له هذا الكيد العظيم ، ذهبت هده المرأة إلى جريج لتفتنه لكنه لم يلتفت إليها ، فإذا راعي غنم يرعاها ثم يأوي إلى صومعة هذا الرجل ، فذهبت إلى الراعي فزنى بها - والعياذ بالله - فحملت منه .

ثم قالوا : إن هذا الولد ولد زنى من جريج . رموه بهذه الفاحشة العظيمة ، فأقبلوا عليه يضربونه وأخرجوه من صومعته وهدموها ، فطلب منهم أن يأتوا بالغلام الذي من الراعي ، فلما أتوا به ، ضرب في بطنه ، وقال : من أبوك ؟ - وهو في المهد - فقال : أبي فلان ، يعني ذلك الراعي .

فأقبلوا إلى جريج يقبلونه ويتمسحون به ، وقالوا له : هل تريد أن نبني لك صومعتك من ذهب ؛ لأنهم هدموها ظلمًا ، قال : لا ، ردوها على ما كانت عليه من الطين ، فبنوها له .

ففي هذه القصة: أن هذا الصبي تكلم وهو في المهد ، وقال : إن أباه فلان الراعي ، واستدل بعض العلماء من هذا الحديث على أن ولد الزنى يلحق الزاني ؛ لأن جريج قال : من أبوك ؟ قال : أبي فلان الراعي ، وقد قصها النبي ﷺ علينا للعبرة ، فإذا لم ينازع الزاني في الولد واستلحق الولد فإنه يلحقه ، وإلى هذا ذهب طائفة يسيرة من أهل العلم .

وأكثر العلماء على أن ولد الزنى لا يلحق الزاني ، لقول النبي ﷺ: « الولد للفراش وللعاهر الحجر» (١) .

ولكن الذين قالوا بلحوقه قالوا : هذا إذا كان له منازع ، كصاحب الفراش ، فإن الولد لصاحب الفراش ، وأما إذا لم يكن له منازع واستلحقه فإنه يلحقه ؛ لأنه ولده قدرًا ، فإن هذا الولد لاشك أنه خلق من ماء الزاني فهو ولده قدرًا ، ولم يكن له أب شرعي ينازعه ، وعلى هذا فليحق به .

قالوا : وهذا أولى من ضياع نسب هذا الولد ؛ لأنه إذا لم يكن له أب ضاع نسبه ، وصار ينسب إلى أمه .

وفي هذا الحديث: دليل على صبر هذا الرجل - جريج - حيث إنه لم ينتقم لنفسه ، ولم يكلفهم شططًا فيبنون له صومعته من ذهب ، وإنما رضي بما كان رضي به أولًا من القناعة وأن تبنى من الطين .

أما الثالث: الذي تكلم في المهد ، فهو هذا الصبي الذي مع أمه يرضع ، فمر رجل على فرس فارهة وعلى شارة حسنة ، وهو من أكابر القوم وأشراف القوم ، فقالت أم الصبي : اللهم اجعل ابني هذا مثله ، فترك الصبي الثدي وأقبل على أمه بعد أن نظر إلى هذا الرجل ، فقال : اللهم لا تجعلني مثله .

وحكى النبي ﷺ ارتضاع هذا الطفل من ثدي أمه بأن وضع إصبعه السبابة في فمه يمص ، تحقيقًا للأمر ﷺ .

فقال : اللهم لا تجعلني مثله ، ثم أقبلوا بجارية ؛ امرأة يضربونها ويقولون لها : زنيت ، سرقت ؛

---

(١) أخرجه البخاري في البيوع (٢٠٥٣) ، ومسلم في الرضاع (٣٦) ، وأحمد في مسنده (٢٥/١)

وهي تقول : حسبنا اللَّه ونعم الوكيل ، فقالت المرأة - أم الصبي - وهي ترضعه : اللهم لا تجعل ابني مثلها ، فأطلق الثدي ، وجعل ينظر إليها ، وقال : اللهم اجعلني مثلها .

فتراجع الحديث مع أمه ؛ طفل قام يتكلم معها ، قالت : إنني مررت أو مر بي هذا الرجل ذو الهيئة الحسنة فقلتُ : اللهم اجعل ابني مثله ، فقلت أنت : اللهم لا تجعلني مثله ، فقال : نعم ؛ هذا رجل كان جبارًا عنيدًا فسألتُ اللَّه ألا يجعلني مثله .

أما المرأة فإنهم يقولون : زنيت وسرقت ، وهي تقول : حسبي اللَّه ونعم الوكيل ، فقلت : اللهم اجعلني مثلها . أي اجعلني طاهرًا من الزنى والسرقة مفوضًا أمري إلى اللَّه ، في قولها : حسبي اللَّه ونعم الوكيل .

وفي هذا : آية من آيات اللَّه ؛ أن يكون هذا الصبي يشعر وينظر ويتأمل ويفكر ، وعنده شيء من العلم ؛ يقول : هذا كان جبارًا عنيدًا . وهو طفل ، وقال لهذه المرأة : اللهم اجعلني مثلها ؛ علم أنها مظلومة وأنها بريئة مما اتهمت به ، وعلم أنها فوضت أمرها إلى اللَّه ﷻ ، فهذا أيضًا من آيات اللَّه أن يكون عند هذا الصبي شيء من العلم .

والحاصل أن اللَّه سبحانه وتعالى على كل شيء قدير ؛ فقد يحصل من الأمور المخالفة للعادة ما يكون آية من آياته إما تأييدًا لرسوله أو تأييدًا لأحد من أوليائه .

* * *

٣٣ - باب مُلاطفة اليتيم والبنات وسائر الضَّعَفَة والمساكين والمنكسرين والإحسان إليهم والشفقة عليهم والتواضع معهم ، وخفض الجناح لهم

قال اللَّه تعالى : ﴿ وَٱخْفِضْ جَنَاحَكَ لِلْمُؤْمِنِينَ ﴾ [الحجر : ٨٨] وقال تعالى : ﴿ وَٱصْبِرْ نَفْسَكَ مَعَ ٱلَّذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُم بِٱلْغَدَوٰةِ وَٱلْعَشِيِّ يُرِيدُونَ وَجْهَهُۥ وَلَا تَعْدُ عَيْنَاكَ عَنْهُمْ تُرِيدُ زِينَةَ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا ﴾ [الكهف : ٢٨] وقال تعالى : ﴿ فَأَمَّا ٱلْيَتِيمَ فَلَا تَقْهَرْ ۝ وَأَمَّا ٱلسَّآئِلَ فَلَا تَنْهَرْ ﴾ [الضحى : ٩ ، ١٠] وقال تعالى : ﴿ أَرَءَيْتَ ٱلَّذِى يُكَذِّبُ بِٱلدِّينِ ۝ فَذَٰلِكَ ٱلَّذِى يَدُعُّ ٱلْيَتِيمَ ۝ وَلَا يَحُضُّ عَلَىٰ طَعَامِ ٱلْمِسْكِينِ ﴾ [الماعون : ١ - ٣] .

الشرح

قال المؤلف - رحمه اللَّه تعالى - : باب ملاطفة اليتامى والضعفة والبنات ، ونحوهم ممن هم محل الشفقة والرحمة ؛ وذلك أن دين الإسلام دين الرحمة والعطف والإحسان ، وقد حث اللَّه ﷻ على الإحسان في عدة آيات من كتابه ، وبين ﷺ أنه يحب المحسنين ، والذين هم في حاجة إلى الإحسان يكون الإحسان إليهم أفضل وأكمل ؛ فمنهم اليتامى .

واليتيم : هو الصغير الذي مات أبوه قبل بلوغه ؛ سواء كان ذكرًا أو أنثى ، ولا عبرة بوفاة الأم ، يعني أن اليتيم هو الصغير الذي مات أبوه قبل بلوغه وإن كان له أم ، وأما من ماتت أمه وأبوه موجود

فليس بيتيم ، خلافًا لما يفهمه عوام الناس ؛ حيث يظنون أن اليتيم هو الذي ماتت أمه وليس كذلك ، بل اليتيم هو الذي مات أبوه .

ويُسمى يتيمًا ليتمه ، واليتم هو الانفراد ؛ لأن هذا الصغير انفرد عن كاسب ، وهو صغير لا يستطيع الكسب . وقد أوصى اللّه ﷻ في عدة آيات باليتامى ، وجعل لهم حقًّا خاصًا ؛ لأن اليتيم قد انكسر قلبه بموت أبيه ، فهو محل للعطف والرحمة ؛ قال اللّه ﷻ : ﴿ وَلْيَخْشَ الَّذِينَ لَوْ تَرَكُوا مِنْ خَلْفِهِمْ ذُرِّيَّةً ضِعَافًا خَافُوا عَلَيْهِمْ فَلْيَتَّقُوا اللَّهَ وَلْيَقُولُوا قَوْلًا سَدِيدًا ﴾ [النساء: ٩] .

وكذلك البنات والنساء محل العطف والشفقة والرحمة لأنهن ضعيفات ؛ ضعيفات في العقل ، وفي العزيمة ، وفي كل شيء ، فالرجال أقوى من الناس في الأبدان والعقول والأفكار والعزيمة وغير ذلك ، ولهذا قال اللّه ﷻ : ﴿ الرِّجَالُ قَوَّامُونَ عَلَى النِّسَاءِ بِمَا فَضَّلَ اللَّهُ بَعْضَهُمْ عَلَى بَعْضٍ ﴾ [النساء: ٣٤] .

كذلك أيضًا المنكسرين ؛ يعني الذين أصابهم شيء فانكسروا من أجله ، وليس هو كسر العظم بل كسر القلب ، يعني مثلًا أصابته جائحة اجتاحت ماله ، ، أو مات أهله أو مات صديق له فانكسر قلبه ، والمهم أن المنكسر ينبغي ملاطفته ، ولهذا شرعت تعزية من مات له ميت إذا أصيب بموته ؛ يُعزى ويلاطف ويُبين له أن هذا أمر اللّه ، وأن اللّه سبحانه وتعالى إذا قضى أمرًا فإنما يقول له كن فيكون وما أشبه ذلك .

وكذلك ينبعي خفض الجناح لهم ولين الجانب ، قال اللّه تعالى : ﴿ وَاخْفِضْ جَنَاحَكَ لِلْمُؤْمِنِينَ ﴾ [الحجر: ٨٨] اخفض جناحك يعني : تطامن لهم وتهاون لهم ، وقال : ﴿ وَاخْفِضْ جَنَاحَكَ ﴾ يعني : حتى لو شمخت نفسك وارتفعت في الهواء كما يرتفع الطير فاخفض جناحك ، ولو كان عندك من المال ولك من الجاه والرئاسة ما يجعلك تتعالى على الخلق ، وتطير كما يطير الطير في الجو فاخفض الجناح ، اخفض الجناح حتى يكونوا فوقك ، ﴿ لِمَنِ اتَّبَعَكَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ ﴾ [الشعراء: ٢١٥] وهذا أمر للرسول - عليه الصلاة والسلام - وهو أمر للأمة كلها .

فيجب على الإنسان أن يكون لين الجانب لإخوانه المؤمنين ، ويجب عليه أيضًا أنه كلما رأى إنسانًا أتبع لرسول اللّه ﷺ فليخفض له جناحه أكثر ؛ لأن المتبع للرسول - عليه الصلاة والسلام - أهل لأن يُتواضع له ، وأن يكرم ، وأن يعزز ، لا لأنه فلان ابن فلان لكن لأنه اتبع الرسول - عليه الصلاة والسلام - ولأن كل من اتبع الرسول - عليه الصلاة والسلام - فهو حبيبنا وهو أخونا وهو صديقنا وهو صاحبنا ، وكل من كان أبعد عن اتباع الرسول فإننا نبتعد عنه بقدر ابتعاده عن اتباع الرسول ، هكذا المؤمن يجب أن يكون خافضًا جناحه لكل من اتبع الرسول - عليه الصلاة والسلام - اخفض جناحك لمن اتبعك من المؤمنين .

وقال اللّه تعالى لرسوله : ﴿ وَاصْبِرْ نَفْسَكَ مَعَ الَّذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُم بِالْغَدَاةِ وَالْعَشِيِّ يُرِيدُونَ وَجْهَهُ وَلَا تَعْدُ عَيْنَاكَ عَنْهُمْ تُرِيدُ زِينَةَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا ﴾ [الكهف: ٢٨] ، فاصبر نفسك : احبسها مع هؤلاء القوم السادة الكرماء الشرفاء ، الذين يدعون ربهم بالغداة والعشي : يعني صباحًا ومساءً ، ولا رياء ولا

سمعة ، ولكنهم يريدون وجهه . يريدون وجه الله عَجَلَّ في دعائهم له وعبادتهم له وذكرهم له وتسبيحهم له .

﴿ وَلَا تَعْدُ عَيْنَاكَ عَنْهُمْ تُرِيدُ زِينَةَ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا ﴾ يعني : لا تبعد عنهم واجعلهم يرونك ، لا تعد دائمًا عنهم عيناك : أي لا تتجاوز عيناك عنهم تريد زينة الحياة الدنيا .

فمثلًا إذا كان هناك رجلان ؛ أحدهما مقبل على طاعة الله يدعو ربه بالغداة والعشي ، ويقيم الصلاة ، ويؤتي الزكاة ، ويصوم ، ويحسن إلى الناس ، وآخر غني كبير عنده أموال وقصور وسيارات وخدم ، أيهم أحق أن نصبر أنفسنا معه ؟ الأول أحق أن نصبر أنفسنا معه ، وأن نجالسه ، وأن نخالطه وأن لا نتعداه نريد زينة الحياة الدنيا .

الحياة كلها ليست بشيء بل عرض زائل ، وما فيها من النعيم أو من السرور فإنه محفوف بالأحزان والتنكيد ، ما من فرح في الدنيا إلا ويتلوه الترح (١) والحزن . قال - أظنه - ابن مسعود ﷺ : ما ملئ بيت فرحًا إلا ملئ حزنًا وترحًا ، وصدق ﷺ : لو لم يكن من ذلك إلا أنهم سيموتون تباعًا واحدًا بعد الثاني ، كلما مات واحد حزنوا عليه ، فتكون هذه الأفراح والمسرات تنقلب إلى أحزان وأتراح ، فالدنيا كلها ليست بشيء .

إذًا لا تعد عيناك عنهم تريد زينة الحياة الدنيا ، بل كن معهم وكن ناصرًا لهم ، ولا يهمنك ما متعنا به أحدًا من الدنيا ، وهذا كقوله عَجَلَّ : ﴿ وَلَا تَمُدَّنَّ عَيْنَيْكَ إِلَىٰ مَا مَتَّعْنَا بِهِۦٓ أَزْوَٰجًا مِّنْهُمْ زَهْرَةَ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا لِنَفْتِنَهُمْ فِيهِ ۚ وَرِزْقُ رَبِّكَ خَيْرٌ وَأَبْقَىٰ ﴿١٣١﴾ وَأْمُرْ أَهْلَكَ بِٱلصَّلَوٰةِ وَٱصْطَبِرْ عَلَيْهَا ۖ لَا نَسْـَٔلُكَ رِزْقًا ۖ نَّحْنُ نَرْزُقُكَ ۗ وَٱلْعَـٰقِبَةُ لِلتَّقْوَىٰ ﴾ (٢) [طه: ١٣١، ١٣٢] ، أسأل الله أن يحسن لي ولكم العاقبة ، وأن يجعل العاقبة لنا ولإخواننا المسلمين حميدة .

* * *

وقال تعالى : ﴿ فَأَمَّا ٱلْيَتِيمَ فَلَا تَقْهَرْ ﴿٩﴾ وَأَمَّا ٱلسَّآئِلَ فَلَا تَنْهَرْ ﴾ [الضحى: ٩، ١٠] .

الشرح

ذكر المؤلف - رحمه الله تعالى - فيما ساقه من الآيات الكريمة في باب الحنو على الفقراء واليتامى والمساكين وما أشبههم ، قال : وقول الله تعالى : ﴿ أَلَمْ يَجِدْكَ يَتِيمًا فَـَٔاوَىٰ ﴿٦﴾ وَوَجَدَكَ ضَآلًّا فَهَدَىٰ ﴿٧﴾ وَوَجَدَكَ عَآئِلًا فَأَغْنَىٰ ﴿٨﴾ فَأَمَّا ٱلْيَتِيمَ فَلَا تَقْهَرْ ﴿٩﴾ وَأَمَّا ٱلسَّآئِلَ فَلَا تَنْهَرْ ﴿١٠﴾ وَأَمَّا بِنِعْمَةِ رَبِّكَ فَحَدِّثْ ﴾ [الضحى: ٦- ١١] الخطاب في قوله : ﴿ أَلَمْ يَجِدْكَ ﴾ للنبي ﷺ . يقرر الله تعالى في هذه الآيات أن الرسول ﷺ كان يتيمًا ، فإنه - عليه الصلاة والسلام - عاش من غير أم ولا أب ، فكفله جده عبد المطلب ، ثم مات وهو في السنة

---

(١) الترح : الحزن وقلة الخير ، أترحه أي أحزنه .

(٢) قوله ﴿ وَلَا تَمُدَّنَّ عَيْنَيْكَ إِلَىٰ .. ﴾ لا تشغل نفسك بـ ... قوله ﴿ أَزْوَٰجًا مِّنْهُمْ ﴾ أصنافًا من الكفار وعباد الدنيا . قوله ﴿ لِنَفْتِنَهُمْ فِيهِ ﴾ لنجعله لهم فتنة وابتلاء قوله ﴿ وَٱصْطَبِرْ عَلَيْهَا ﴾ اصبر بقوة وداوم عليها في أوقاتها .

الثامنة من عمره ﷺ ثم كلفه عمه أبو طالب .

فكان يتيمًا وكان ﷺ يرعى الغنم لأهل مكة على قراريط ، يعني على شيء يسير من الدراهم ؛ لأنه ما من نبي بعثه اللَّه إلا ورعى الغنم (١) ، فكل الأنبياء الذين أرسلوا أول أمرهم كانوا رعاة غنم ، من أجل أن يعرفوا ويتمرنوا على الرعاية وحسن الولاية ، واختار اللَّه لهم أن تكون رعيتهم غنمًا ؛ لأن راعي الغنم يكون عليه السكينة والرأفة والرحمة ؛ لأنه يرعى مواشي ضعيفة بخلاف رعاة الإبل ، رعاة الإبل أكثر ما يكون فيهم الجفاء والغلظة لأن الإبل كذلك غليظة قوية جبارة .

فنشأ ﷺ يتيمًا ثم إن اللَّه سبحانه وتعالى أكرمه فيسر له زوجة صالحة ، وهي أم المؤمنين خديجة رضي الله عنها ؛ تزوجها وله خمس وعشرون من العمر ولها أربعون سنة ، وكانت حكيمة عاقلة صالحة ، رزقه اللَّه منها أولاده كلهم من بنين وبنات إلا إبراهيم فإنه كان من سريته مارية القبطية ، المهم أن اللَّه يسرها له وقامت بشئونه ، ولم يتزوج سواها ﷺ حتى ماتت .

أكرمه اللَّه ﷻ بالنبوة فكان أول ما بدئ بالوحي أن يرى الرؤيا في المنام ، فإذا رأى الرؤيا في المنام جاءت مثل فلق الصبح في يومها بينة واضحة (٢) ؛ لأن الرؤيا الصالحة جزء من ستة وأربعين جزءًا من النبوة (٣) ، فدعا إلى اللَّه وبشر وأنذر وتبعه الناس ، وكان هذا اليتيم الذي يرعى الغنم كان إمامًا لأمة هي أعظم الأمم ، وكان راعيًا لهم - عليه الصلاة والسلام - راعيًا للبشر ولهذه الأمة العظيمة .

قال : ﴿ أَلَمْ يَجِدْكَ يَتِيمًا فَآوَىٰ ﴾ آواك اللَّه بعد يتمك ، ويسر لك من يقوم بشئونك حتى ترعرعت ، وكبرت ، ومنَّ اللَّه عليك بالرسالة العظمى .

﴿ وَوَجَدَكَ ضَالًّا فَهَدَىٰ ﴾ وجدك ضالًّا : يعني غير عالم ، كما قال اللَّه تعالى : ﴿ وَمَا كُنتَ تَتْلُوا۟ مِن قَبْلِهِۦ مِن كِتَـٰبٍ وَلَا تَخُطُّهُۥ بِيَمِينِكَ ﴾ [العنكبوت : ٤٨] ، وقال : ﴿ وَعَلَّمَكَ مَا لَمْ تَكُن تَعْلَمُ وَكَانَ فَضْلُ ٱللَّهِ عَلَيْكَ عَظِيمًا ﴾ [النساء : ١١٣] ، وقال اللَّه تعالى : ﴿ مَا كُنتَ تَدْرِى مَا ٱلْكِتَـٰبُ وَلَا ٱلْإِيمَـٰنُ ﴾ [الشورى : ٥٢] ، ولكن صار بهذا الكتاب العظيم عالمًا كامل الإيمان - عليه الصلاة والسلام - ﴿ وَوَجَدَكَ ضَآلًّا ﴾ أي غير عالم ولكنه هداك . بماذا هداه ؟ هداه اللَّه بالقرآن .

﴿ وَوَجَدَكَ عَآئِلًا ﴾ يعني فقيرًا ﴿ فَأَغْنَىٰ ﴾ أغناك ، وفتح اللَّه عليك الفتوح حتى كان يقسم ويعطي الناس ، وقد أعطى ذات يوم رجلًا غنمًا بين جبلين ، وكان يعطي عطاء من لا يخشى الفاقة - عليه

---

(١) هذا معنى حديث ولفظه « ما بعث اللَّه نبيًا إلا رعى الغنم .. » ، وقد أخرجه البخاري في الإجارة (٢٢٦٢) ، ومالك في الاستئذان (١٨) ، وأحمد في مسنده (٣/٣٢٦) .

(٢) هذا معنى حديث ولفظه « أول ما بدئ به رسول اللَّه ﷺ من الوحي الرؤيا الصالحة ... » ، وقد أخرجه البخاري في بدء الوحي (٣) ، ومسلم في الصلاة (٢٠٧) .

(٣) وهذا معنى حديث ولفظه « الرؤيا الحسنة من الرجل الصالح جزء من ستة وأربعين جزءًا من النبوة » . وقد أخرجه البخاري في التعبير (٦٩٨٣) ، ومسلم في الرؤيا (٦) .

الصلاة والسلام - [١] .

ثم تأملوا قوله تعالى : ﴿ أَلَمْ يَجِدْكَ يَتِيمًا فَآوَىٰ ﴾ ما قال : فآواك ، بل قال : ﴿ فَآوَىٰ ﴾ ﴿ وَوَجَدَكَ ضَالًّا فَهَدَىٰ ﴾ ولم يقل : فهداك ﴿ وَوَجَدَكَ عَائِلًا فَأَغْنَىٰ ﴾ ولم يقل فأغناك . لماذا ؟ لمناسبتين ؛ إحداهما لفظية ، والثانية معنوية .

أما اللفظية : فلأجل أن تتناسب رؤوس الآيات لقوله تعالى : ﴿ وَالضُّحَىٰ ۝ وَاللَّيْلِ إِذَا سَجَىٰ ۝ مَا وَدَّعَكَ رَبُّكَ وَمَا قَلَىٰ ۝ وَلَلْآخِرَةُ خَيْرٌ لَّكَ مِنَ الْأُولَىٰ ۝ وَلَسَوْفَ يُعْطِيكَ رَبُّكَ فَتَرْضَىٰ ﴾ [الضحى : ١ - ٥] كل آخر الآيات ألف ، فقوله : ﴿ أَلَمْ يَجِدْكَ يَتِيمًا فَآوَىٰ ﴾ لو قال فآواك اختلف اللفظ ، ووجدك ضالًا فهداك اختلف اللفظ ، ووجدك عائلًا فأغناك اختلف اللفظ ، لكن جعل الآيات كلها على فواصل حرف واحد .

المناسبة الثانية معنوية : وهي أعظم ، ﴿ أَلَمْ يَجِدْكَ يَتِيمًا فَآوَىٰ ﴾ هل آواه اللَّه وحده أو آواه وآوى أمته ، والجواب : الثاني ، آواه اللَّه وآوى على يديه أممًا لا يحصيهم إلا اللَّه ﷻ ، ﴿ وَوَجَدَكَ ضَالًّا فَهَدَىٰ ﴾ ، هل هداه وحده ؟ لا ، هدى به أممًا عظيمة إلى يوم القيامة ، ﴿ وَوَجَدَكَ عَائِلًا فَأَغْنَىٰ ﴾ . هل أغناه اللَّه وحده ؟ لا ؛ أغناه اللَّه وأغنى به . كم حصل للأمة الإسلامية من الفتوحات العظيمة . ﴿ وَعَدَكُمُ اللَّهُ مَغَانِمَ كَثِيرَةً تَأْخُذُونَهَا فَعَجَّلَ لَكُمْ هَٰذِهِ ﴾ [الفتح : ٢٠] ، فأغناهم اللَّه ﷻ بمحمد ﷺ .

إذًا ﴿ أَلَمْ يَجِدْكَ يَتِيمًا ﴾ فآواك وآوى بك ، ووجدك ضالًّا فهداك وهدى بك ، ووجدك عائلًا فأغناك وأغنى بك ، هكذا حال الرسول - عليه الصلاة والسلام - .

ثم قال : ﴿ فَأَمَّا الْيَتِيمَ فَلَا تَقْهَرْ ﴾ اذكر نفسك حين حين كنت يتيمًا ، فلا تقهر اليتيم ، بل يسر له أمره ؛ إذا صاح فسكته ، وإذا غضب فأرضه ، وإذا تعب فخفف عليه ، وهكذا .

﴿ فَأَمَّا الْيَتِيمَ فَلَا تَقْهَرْ ۝ وَأَمَّا السَّائِلَ فَلَا تَنْهَرْ ﴾ السائل : يظهر من سياق الآيات أنه سائل المال الذي يقول أعطني مالًا ، فلا تنهره ؛ لأنه قال ﴿ وَوَجَدَكَ عَائِلًا فَأَغْنَىٰ ﴾ ، فلما أغناك لا تنهر السائل . تذكر حالك حينما كنت فقيرًا ، ولا تنهر السائل .

ويحتمل أن يراد بالسائل سائل المال وسائل العلم ، حتى الذي يسأل العلم لا تنهره . بل الذي يسأل العلم القه بانشراح صدر ؛ لأنه لولا أنه محتاج ولولا أن عنده خوف اللَّه ﷻ ما جاء يسأل ، فلا تنهره ، اللهم إلا من تعنت فهذا لا حرج أن تنهره . لو كنت تخبره ثم يقول لكل شيء : لماذا هذا حرام؟ ولماذا هذا حلال ؟ لماذا حرم اللَّه الربا وأحل البيع ؟ لماذا حرم اللَّه الأم من الرضاع ؟ وأشياء كثيرة من قبيل هذا . فهذا الذي يتعنت انهره ولا حرج أن تغضب عليه .

كما فعل الرسول - عليه الصلاة والسلام - حين تشاجر رجل من الأنصار والزبير بين العوام ، في الوادي حيث يأتي السيل ، وكان الزبير رضي الله عنه حائطه قبل حائط الأنصاري فتنازعا ؛ الأنصاري يقول

---

(١) هذا معنى حديث ولفظه « ما سئل رسول اللَّه ﷺ على الإسلام شيئًا إلا أعطاه .. » ، وقد أخرجه مسلم في الفضائل (٥٧) ، وأحمد في مسنده (١٠٨/٣) .

للزبير : لا تحبس الماء عني والزبير يقول : أنا أعلى فأنا أحق ، فتشاجرا وتخاصموا عند الرسول - عليه الصلاة والسلام - فقال النبي ﷺ : « اسقِ يا زبير ثم أرسله إلى جارك » ، وهذا حكم . فقال : أن كان ابن عمتك يا رسول اللّه ! كلمة ... لكن الغضب حمله عليها والعياذ باللّه ، والزبير بن العوام بن صفية بنت عبد المطلب عمة الرسول - عليه الصلاة والسلام . قال : أن كان ابن عمتك يا رسول اللّه ، فغضب الرسول ﷺ وقال : « اسق يا زبير حتى يصل إلى الجدر ثم أرسله إلى جارك » (١) .

فالحاصل أن السائل للعلم لا تنهره ، بل تلقه بصدر رحب وعلمه حتى يفهم ، خصوصًا في وقتنا الآن ، فكثير من الناس الآن يسألك وقلبه ليس معك . تجبه بالسؤال ثم يفهمه خطأ ، ثم يذهب يقول للناس أفتاني العالم الفلاني بكذا وكذا ، ولهذا ينبعي ألا تطلق الإنسان الذي يسألك حتى تعرف أنه عرف .

﴿ وَأَمَّا بِنِعْمَةِ رَبِّكَ فَحَدِّثْ ﴾ نعمة اللّه عليك حدث بها ، قل الحمد للّه ؛ رزقني اللّه علمًا ، رزقني اللّه مالًا ، رزقني اللّه ولدًا وما أشبه ذلك .

والتحديث بنعمة اللّه نوعان : تحديث باللسان ، وتحديث بالأركان .

تحديث باللسان : كأن تقول : أنعم اللّه عليَّ ؛ كنت فقيرًا فأغناني اللّه ، كنت ما أعرف فعلمني اللّه ، وما أشبه ذلك .

والتحديث بالأركان : أن تُري أثر نعمة اللّه عليك ، فإن كنت غنيًا فلا تلبس ثياب الفقراء بل البس ثيابًا تليق بك ، وكذلك في المنزل ، وكذلك في المركوب ، في كل شيء دع الناس يعرفون نعمة اللّه عليك ، فإن هذا من التحديث بنعمة اللّه ﷻ ، ومن التحديث بنعمة اللّه ﷻ إذا كنت قد أعطاك اللّه علمًا أن تحدث الناس به ، وتعلم الناس ؛ لأن الناس محتاجون . وفقني اللّه والمسلمين لما يحب ويرضى .

* * *

وقال تعالى : ﴿ أَرَءَيْتَ ٱلَّذِى يُكَذِّبُ بِٱلدِّينِ ۝١ فَذَٰلِكَ ٱلَّذِى يَدُعُّ ٱلْيَتِيمَ ۝٢ وَلَا يَحُضُّ عَلَىٰ طَعَامِ ٱلْمِسْكِينِ ﴾ [الماعون: ١ - ٣] .

الشرح

ذكر المؤلف - رحمه اللّه تعالى - في سياق الآيات التي فيها الحث على الرفق باليتامى ونحوهم من الضعفاء ، قال : وقال تعالى : ﴿ أَرَءَيْتَ ٱلَّذِى يُكَذِّبُ بِٱلدِّينِ ۝١ فَذَٰلِكَ ٱلَّذِى يَدُعُّ ٱلْيَتِيمَ ۝٢ وَلَا يَحُضُّ عَلَىٰ طَعَامِ ٱلْمِسْكِينِ ﴾ .

﴿ أَرَءَيْتَ ﴾ ؛ يقول العلماء : إن معناه أخبرني ، يعني أخبرني عن حال هذا الرجل وماذا تكون . والدين : الجزاء ؛ يعني يكذب بالجزاء وباليوم الآخر ولا يصدق به ، وعلامة ذلك أنه يدع اليتيم يعني :

---

(١) أخرجه البخاري في المساقاة (٢٣٥٩ ، ٢٣٦٠) - باختلاف في اللفظ - ، وكذلك مسلم في الفضائل (١٢٩) .

يدفعه بعنف وشدة ولا يرحمه .

﴿ وَلَا يَحُضُّ عَلَىٰ طَعَامِ ٱلْمِسْكِينِ ﴾ أي : لا يحث الناس على طعام المسكين ، وهو بنفسه لا يفعله أيضًا ، ولا يُطعم المساكين ، فحال هذا - والعياذ باللَّه - أسوأ حال ؛ لأنه لو كان يؤمن بيوم الدين حقيقة لرحم من أوصى اللَّه برحمتهم ، وحض على طعام المساكين .

وفي سورة الفجر يقول اللَّه تعالى : ﴿ كَلَّا ۖ بَل لَّا تُكْرِمُونَ ٱلْيَتِيمَ ۝ وَلَا تَحَٰٓضُّونَ عَلَىٰ طَعَامِ ٱلْمِسْكِينِ ﴾ [الفجر : ١٧، ١٨] وهذه أبلغ مما في سورة الماعون لأنه قال : ﴿ لَّا تُكْرِمُونَ ٱلْيَتِيمَ ﴾ وإكرامه أكثر من الوقوف بدون إكرام ولا إهانة ، فاليتيم يجب أن يكرم .

وتأمل قوله : ﴿ كَلَّا ۖ بَل لَّا تُكْرِمُونَ ٱلْيَتِيمَ ۝ وَلَا تَحَٰٓضُّونَ عَلَىٰ طَعَامِ ٱلْمِسْكِينِ ﴾ فالمسكين حظه الإطعام ودفع حاجته ، أما اليتيم فالإكرام . فإن كان غنيًا فإنه يكرم ليتمه ولا يطعم لغناه ، وإن كان فقيرًا - أي اليتيم - فإنه يكرم ليتمه ويطعم لفقره ، ولكن أكثر الناس لا يبالون لهذا الشيء .

واعلم أن الرفق بالضعفاء واليتامى والصغار يجعل في القلب رحمة ولينًا وعطفًا وإنابة إلى اللَّه عَزَّوَجَلَّ، لا يدركها إلا من جرب ذلك ، فالذي ينبغي لك أن ترحم الصغار وترحم الأيتام وترحم الفقراء ، حتى يكون في قلبك العطب والحنان والرحمة و « إنما يرحم اللَّه من عباده الرحماء » [(١)] . نسأل اللَّه أن يعمنا والمسلمين برحمته وفضله ، إنه كريم جواد .

* * *

٢٦٠ - وعن سعد بن أبي وَقَّاصٍ رضي الله عنه قال : كُنَّا مَعَ النَّبيِّ صلى الله عليه وسلم سِتَّةَ نَفَرٍ ، فقال المُشْرِكُونَ للنَّبيِّ صلى الله عليه وسلم : اطْرُدْ هؤُلاءِ لا يَجْتَرِئُونَ عَلَينَا ، وَكُنْتُ أنا وَابْنُ مَسْعُودٍ وَرَجُلٌ مِنْ هُذَيلٍ وَبلالٌ وَرَجُلان لَسْتُ أُسَمِّيهِمَا ، فَوَقَعَ في نَفْسِ رسول اللَّه صلى الله عليه وسلم مَا شَاءَ اللَّه أَنْ يَقَعَ ، فَحَدَّثَ نَفْسَهُ ، فَأَنْزَلَ اللَّهُ تعالى : ﴿ وَلَا تَطْرُدِ ٱلَّذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُم بِٱلْغَدَوٰةِ وَٱلْعَشِيِّ يُرِيدُونَ وَجْهَهُۥ ﴾ [الأنعام : ٥٢] [(٢)] رواه مسلم .

الشرح

ذكر المؤلف - رحمه اللَّه تعالى - فيما نقله عن سعد بن أبي وقاص رضي الله عنه ، قال : « كُنَّا مَعَ النَّبيِّ صلى الله عليه وسلم سِتَّة نَفَرٍ » وهذا في أول الإسلام في مكة ؛ لأن سعد بن أبي وقاص رضي الله عنه من السابقين إلى الإسلام ؛ أسلم وأسلم معه جماعة .

ومن المعلوم أن من أول الناس إسلامًا أبا بكر رضي الله عنه ، بعد خديجة وورقة بن نوفل ، وكان هؤلاء النفر ستة منهم ابن مسعود رضي الله عنه ، وكان راعي غنم فقيرًا ، وكذلك بلال بن رباح وكان عبدًا مملوكًا ،

(١) هذا جزء من حديث ، وقد أخرجه البخاري في الجنائز (١٢٨٤) ، ومسلم في الجنائز (١١) .

(٢) أخرجه مسلم في فضائل الصحابة (٤٦) ، قوله ﴿ لا يجترئون ﴾ أي : لا يحصل منهم الجرأة قوله ﴿ بِٱلْغَدَوٰةِ ﴾ أي في أول النهار قوله ﴿ وَٱلْعَشِيِّ ﴾ أي : في آخر النهار .

وكانوا مع الرسول - عليه الصلاة والسلام - يجلسون إليه ويستمعون له وينتفعون بما عنده . وكان المشركون العظماء في أنفسهم ، يجلسون إلى النبي ﷺ فقالوا له : اطرد عنا هؤلاء ، قالوا هذا احتقارًا لهؤلاء الذين يجلسون مع النبي ﷺ .

فوقع في نفس النبي ﷺ ما وقع وفكر في الأمر ، فأنزل الله تعالى : ﴿ وَلَا تَطْرُدِ ٱلَّذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُم بِٱلْغَدَوٰةِ وَٱلْعَشِيِّ يُرِيدُونَ وَجْهَهُۥ ﴾ [الأنعام: ٥٢] نهاه الله ﷻ أن يطرد هؤلاء وإن كانوا فقراء ، وإن لم يكن لهم قيمة في المجتمع ، لكن لهم قيمة عند الله ؛ لأنهم يدعون الله بالغداة والعشي ، يعني صباحًا ومساءً ، يدعونه دعاء مسألة فيسألونه رضوانه والجنة ، ويستعيذون به من النار .

ويدعونه دعاء عبادة فيعبدون الله ، وعبادة الله تشتمل على الدعاء ، ففي الصلاة مثلًا يقول الإنسان : رب اغفر لي ، ربنا آتنا في الدنيا حسنة وفي الآخرة حسنة . السلام علينا وعلى عباد الله الصالحين ، وما أشبه ذلك ، ثم إن العابد أيضًا إنما يعبد لنيل رضا الله ﷻ .

وفي قوله : ﴿ يُرِيدُونَ وَجْهَهُۥ ﴾ تنبيه على الإخلاص وأن الإخلاص له أثر كبير في قبول الأعمال ورفعة العمال عند الله ﷻ ، فكلما كان الإنسان في عمله أخلص كان أرضى لله وأكثر لثوابه ، وكم من إنسان يصلي وإلى جانبه آخر يصلي معه الصلاة ، ويكون بينهما من الرفعة عند الله والثواب والجزاء كما بين السماء والأرض ، وذلك لإخلاص النية عند أحدهما دون الآخر .

فالواجب على الإنسان أن يحرص غاية الحرص على إخلاص نيته في عبادته ، وألا يقصد بعبادته شيئًا من أمور الدنيا ؛ لا يقصد إلا رضا الله وثوابه حتى ينال بذلك الرفعة في الدنيا والآخرة .

قال الله تعالى في آخر الآية : ﴿ مَا عَلَيْكَ مِنْ حِسَابِهِم مِّن شَيْءٍ وَمَا مِنْ حِسَابِكَ عَلَيْهِم مِّن شَيْءٍ فَتَطْرُدَهُمْ ﴾ يعني ليس عليك شيء منهم ، ولا عليهم شيء منك ، حساب الجميع على الله ، وكلٌّ يجازي بعمله .

﴿ فَتَطْرُدَهُمْ فَتَكُونَ مِنَ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴾ [الأنعام: ٥٢] ، الفاء هذه التي في ﴿ فَتَكُونَ ﴾ تعود على قوله ﴿ فَتَطْرُدَهُمْ ﴾ لا على قوله : ﴿ مَا عَلَيْكَ ﴾ فعندنا هنا في الآية فاءان ، الفاء الأولى : ﴿ فَتَطْرُدَهُمْ ﴾ وهذه مرتبة على قوله : ﴿ مَا عَلَيْكَ مِنْ حِسَابِهِم مِّن شَيْءٍ وَمَا مِنْ حِسَابِكَ عَلَيْهِم مِّن شَيْءٍ ﴾ ، ﴿ فَتَكُونَ مِنَ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴾ مرتبة على قوله : ﴿ وَلَا تَطْرُدِ ٱلَّذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُم بِٱلْغَدَوٰةِ وَٱلْعَشِيِّ ﴾ يعني : فإن طردتهم فإنك من الظالمين .

ويستفاد من هذا الحديث : أن الإنسان ينبغي له أن يكون جلساؤه من أهل الخير الذين يدعون الله صباحًا ومساءً يريدون وجهه ، وألا يهتم بالجلوس مع الأكابر ، والأشراف ، والأمراء والوزراء ، والحكام ، بل لا ينبغي أن يجلس إلى هؤلاء إلا أن يكون في ذلك مصلحة ، فإن كان في ذلك مصلحة ؛ مثل أن يريد أن يأمرهم بمعروف ، أو ينهاهم عن منكر ، أو يبين لهم ما خفي عليهم من حال الأمة ، فهذا طيب وفيه خير .

أما مجرد الأنس بمجالستهم ، ونيل الجاه بأن جلس مع الأكابر ، أو مع الوزراء ، أو مع الأمراء ، أو مع ولاة الأمر ، فهذا غرض لا يحمد عليه العبد ، إنما يحمد على الجلوس مع من كان أتقى لله ؛ من

غني وفقير ، وحقير وشريف . المدار كله على رضا الله ﷻ ، وعلى محبة من أحب الله .

وقد ذاق طعم الإيمان من والى من والاه الله ، وعادى من عاداه الله ، وأحب في الله ، وأبغض في الله ، نسأل الله أن يجعلنا وإياكم كذلك ، وأن يهب لنا منه رحمة إنه هو الوهاب ، وصلى الله على نبينا محمد وعلى آله وصحبه أجمعين .

* * *

٢٦١ - وعن أبي هُبَيرَةَ عَائِذِ بن عَمْرو المُزَنِيّ وَهُوَ مِنْ أَهْلِ بَيعَةِ الرِّضْوَانِ ﷺ ، أَنَّ أَبَا سُفْيَانَ أَتَى عَلَى سَلْمَانَ وَصُهَيبٍ وَبلال في نَفَرٍ فقالوا : مَا أَخَذَتْ سُيُوفُ اللَّه مِنْ عَدُوِّ اللَّهِ مَأْخَذَهَا ، فقال أبو بَكْرٍ ﷺ : أَتَقُولُونَ هذَا لِشَيخِ قُرَيشٍ وَسَيِّدِهِمْ ؟ ، فَأَتَى النَّبِيَّ ﷺ ، فَأَخْبَرَهُ ، فقال : « يَا أَبا بَكْرٍ لَعَلَّكَ أَغْضَبْتَهُمْ ؟ لَئِنْ كُنْتَ أَغْضَبْتَهُمْ لَقَدْ أَغْضَبْتَ رَبَّكَ » فَأَتَاهُمْ فقال : يَا إِخْوَتَاهُ آغْضَبْتُكُمْ ؟ قالوا : لا ، يَغفِرُ اللَّهُ لَكَ يَا أُخَيَّ [1] . رواه مسلم .

قولُهُ « مَأْخَذَهَا » أَي : لَمْ تَسْتَوفِ حَقَّهَا مِنْهُ . وقولُهُ : « يَا أُخَيَّ » رُوي بفتحِ الهمزةِ وكسر الخاءِ وتخفيفِ الياءِ ، ورُوِي بضم الهمزة وفتحِ الخاء وتشديد الياءِ .

الشرح

ذكر المؤلف - رحمه الله تعالى - فيما نقله في قضية الضعفاء والمساكين ، وأنه تجب ملاطفتهم والرفق بهم والإحسان إليهم ، أن أبا سفيان مر بسلمان وصهيب وبلال ، وهؤلاء الثلاثة كلهم من الموالي ، صهيب الرومي وبلال الحبشي وسلمان الفارسي ، فمر بهم فقالوا : ما أخذت سيوف الله من عدو الله مأخذها يعني يريدون أنهم لم يشفوا أنفسهم مما فعل بهم أسيادهم من قريش ، الذين كانوا يعذبونهم ويؤذونهم في دين الله ﷻ ، فكأن أبا بكر ﷺ لامهم على ذلك ، وقال : أتقولون لسيد قريش مثل هذا الكلام .

ثم إن أبا بكر أخبر النبي ﷺ بذلك ، فقال له : « لئن كنت أغضبتهم لقد أغضبت ربك » ، يعني أغضبت هؤلاء النفر - مع أنهم من الموالي وليسوا بشيء في عداد الناس وأشرافهم - لئن كنت أغضبتهم لقد أغضبت ربك ، فذهب أبو بكر ﷺ إلى هؤلاء النفر وسألهم : آغضبتكم ؟ فقالوا : لا ، قال : يا إخوتاه ، آغضبتكم ؟ قالوا : لا ، يغفر الله لك يا أبا بكر .

فدل هذا على أنه لا يجوز للإنسان أن يترفع على الفقراء والمساكين ، ومن ليس لهم قيمة في المجتمع ؛ لأن القيمة الحقيقية هي قيمة الإنسان عند الله ، كما قال الله تعالى : ﴿ إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِندَ اللَّهِ أَتْقَاكُمْ ﴾ [الحجرات : ١٣] والذي ينبغي للإنسان أن يخفض جناحه للمؤمنين ولو كانوا غير ذي جاه ؛

---

(١) أخرجه مسلم في فضائل الصحابة (١٧٠) ، قولهم « لا ، يغفر الله لك يا أخي » روي عن أبي بكر أنه نهى عن مثل هذه الصيغة ، أي نهى عن أن تقول قبل الدعاء : لا فتصير صورته صورة نفي الدعاء . وقال البعض : قل : لا ، ويغفر الله لك .

لأن هذا هو الذي أمر الله به نبيه ﷺ حيث قال : ﴿ لَا تَمُدَّنَّ عَيْنَيْكَ إِلَىٰ مَا مَتَّعْنَا بِهِۦٓ أَزْوَٰجًا مِّنْهُمْ وَلَا تَحْزَنْ عَلَيْهِمْ وَٱخْفِضْ جَنَاحَكَ لِلْمُؤْمِنِينَ ﴾ [الحجر : ٨٨] .

وفي هذا : دليل على ورع أبي بكر ﷺ ، وعلى حرصه على إبراء ذمته ، وأن الإنسان ينبغي له بل يجب عليه إذا اعتدى على أحد بقول أو فعل أو بأخذ مال أو سب أو شتم أن يستحله في الدنيا ، قبل أن يأخذ ذلك منه في الآخرة ؛ لأن الإنسان إذا لم يأخذ حقه في الدنيا فإنه يأخذه يوم القيامة ، ويأخذه من أشرف شيء وأعز شيء على الإنسان ، يأخذه من الحسنات ؛ من الأعمال الصالحة التي هو في حاجة إليها في ذلك المكان .

قال النبي – عليه الصلاة والسلام – : « ماذا تعدون المفلس فيكم ؟ » قالوا : من ليس له درهم ولا دينار أو قالوا : ولا متاع . فقال : المفلس من يأتي يوم القيامة بحسنات أمثال الجبال ، فيأتي وقد ضرب هذا ، وشتم هذا ، وأخذ مال هذا ، فيأخذ هذا من حسناته ، وهذا من حسناته ، فإن بقي من حسناته شيء وإلا أُخذ من سيئاتهم فطرح عليه ثم طرح في النار [(١)] .

* * *

٢٦٢ – وعن سهل بن سعدٍ ﷺ قال : قال رسول الله ﷺ : « أَنَا وَكَافِلُ الْيَتِيمِ فِي الْجَنَّةِ هكَذَا وَأَشَارَ بِالسَّبَّابَةِ وَالوُسْطَى ، وَفَرَّجَ بَيْنَهُمَا » [(٢)] . رواه البخاري .

وَ « كَافِلُ اليَتِيم » : القَائِمُ بِأُمُورِهِ .

٢٦٣ – وعن أبي هريرة ﷺ قال : قال رسول الله ﷺ : « كَافِلُ الْيَتِيمِ لَهُ أَو لِغَيرِهِ أَنَا وَهُوَ كَهَاتَينِ فِي الْجَنَّةِ » وَأَشَارَ الرَّاوِي وَهُوَ مَالِكُ بن أَنسٍ بالسَّبَّابَةِ وَالوُسْطى [(٣)] . رواه مسلم .

وقوله ﷺ : « الْيَتِيمُ لَهُ أو لِغَيرِهِ » مَعْنَاهُ : قَرِيبُهُ ، أَو الأَجْنَبِيُّ مِنْهُ ، فَالقَرِيبُ مِثْلُ أَنْ تَكْفُلَهُ أُمُّهُ أَو جَدُّهُ أَو أَخُوهُ أَو غَيرُهُمْ مِنْ قَرابَتِهِ ، واللَّهُ أَعْلَمُ .

٢٦٤ – وعنه قال : قال رسول الله ﷺ : « لَيسَ المِسْكِينُ الَّذِي تَرُدُّهُ التَّمْرَةُ وَالتَّمْرَتَانِ ، وَلا اللُّقْمَةُ وَاللُّقْمَتَانِ ؛ إِنَّمَا المِسْكِينُ الَّذِي يَتَعَفَّفُ » متفقٌ عليه .

وفي رواية في « الصحيحين » : « لَيسَ المِسْكِينُ الَّذِي يَطُوفُ عَلَى النَّاسِ تَرُدُّهُ اللُّقْمَةُ وَاللُّقْمَتَان ، وَالتَّمْرَةُ وَالتَّمْرتَانِ ؛ وَلكِنَّ المِسْكِينَ الَّذِي لا يَجِدُ غِنًى يُغْنِيه ، وَلا يُفْطَنُ بِهِ فَيُتَصَدَّقَ عَلَيهِ ، وَلا يَقُومُ فَيَسْأَلَ النَّاسَ » [(٤)] .

---

(١) هذا الحديث مروي بالمعنى ، وقد أخرجه مسلم في البر (٦٠) ، وأحمد في مسنده (٣٠٣/٢) ، والترمذي في صفة القيامة (٢٤١٨) .

(٢) أخرجه البخاري في الطلاق (٥٣٠٤) . (٣) أخرجه مسلم في الزهد (٤٢ .

(٤) أخرجه البخاري في التفسير (٤٥٣٩) بزيادة « ولا قبل : اللقمتان » ، ومسلم في الزكاة (١٠٢) بلفظ المتعفف .

الشرح

ذكر المؤلف – رحمه الله تعالى – فيما نقله عن سعد بن أبي وقاص ﷺ عن النبي ﷺ أنه قال : « أنا وكافل اليتيم في الجنة هكذا » وأشار بالسبابة والوسطى ، يعني بالأصبع السبابة والوسطى ؛ والأصبع السبابة هي التي بين الوسطى والإبهام ، وتسمى السبابة ؛ لأن الإنسان يشير بها عند السب ، فإذا سب شخصًا قال هذا وأشار بها .

وتسمى السباحة لأن الإنسان يشير بها أيضًا عند التسبيح ، ولهذا يشير الإنسان بها في صلاته إذا جلس بين السجدتين ودعا : رب اغفر لي وارحمني ؛ كلما دعا رفعها ، يشير إلى الله ﷻ ؛ لأن الله في السماء جل وعلا ، وكذلك أيضًا يشير بها في التشهد إذا دعا : السلام عليك أيها النبي ، السلام علينا ، اللهم صل على محمد ، اللهم بارك على محمد ، في كل جملة دعائية يشير بها إشارة إلى علو الله تعالى وتوحيده .

وفرج بينهما – عليه الصلاة والسلام – يعني قارن بينهما وفرج ، يعني أن كافل اليتيم مع النبي – عليه الصلاة والسلام – في الجنة قريب منه ، وفي هذا حث على كفالة اليتيم ، وكفالة اليتيم هي القيام بما يصلحه في دينه ودنياه ؛ بما يصلحه في دينه من التربية والتوجيه والتعليم وما أشبه ذلك ، وما يصلحه في دنياه من الطعام والشراب والمسكن .

واليتيم حده البلوغ ، فإذا بلغ الصبي زال عنه اليتم ، وإذا كان قبل البلوغ فهو يتيم ؛ هذا إن مات أبوه ، وأما إذا ماتت أمه دون أبيه فإنه ليس بيتيم .

وكذلك الحديث الذي بعده فيه أيضًا : ثواب من قام بشئون اليتيم وإصلاحه .

أما الحديث الثالث : فإن الرسول – عليه الصلاة والسلام – يقول : « ليس المسكين الذي ترده التمرة والتمرتان ، ولا اللقمة واللقمتان ، إنما المسكين الذي يتعفف » . يعني المسكين ؛ ليس (الشحاذ) الذي (يشحذ) الناس ، ترده اللقمة واللقمتان : يعني إذا أعطيته لقمة أو لقمتين أو تمرة أو تمرتين ردته ، بل المسكين حقيقة هو الذي يتعفف كما قال تعالى : ﴿ يَحْسَبُهُمُ ٱلْجَاهِلُ أَغْنِيَآءَ مِنَ ٱلتَّعَفُّفِ ﴾ [البقرة : ٢٧٣] هذا هو المسكين حقيقة ؛ لأن يسأل فيُعطى ولا يتفطن له فيعطى . كما يقول العامة : عافٌ كاف ، ما يدرى عنه ، هذا هو المسكين الذي ينبغي للناس تفقده وإصلاح حاله ، والحنو عليه ، والعطف عليه .

وفي هذا إشارة إلى أنه ينبغي للمسكين أن يصبر وأن ينتظر الفرج من الله ، أن لا يتكفف الناس أعطوه أو منعوه ؛ لأن الإنسان إذا علق قلبه بالخلق وكل إليهم ، كما جاء في الحديث : « من تعلق شيئًا وكل إليه » [1] وإذا وكلت إلى الخلق نسيت الخالق ، بل اجعل أمرك إلى الله ﷻ ، وعلق رجاءك وخوفك وتوكلك واعتمادك على الله ﷻ فإنه يكفيك : ﴿ وَمَن يَتَوَكَّلْ عَلَى ٱللَّهِ فَهُوَ حَسْبُهُۥٓ إِنَّ ٱللَّهَ بَٰلِغُ

---

(١) أخرجه البخاري – واللفظ له – في الزكاة (١٤٧٩) ، ومسلم في الزكاة (١٠١) .

أَمْرِهِۦ﴾ [الطلاق : ٣] ، كل ما أمر الله ﷻ به فهو بالغك ، لا يمنعه شيء ولا يرده شيء .

فالمسكين يجب عليه الصبر ، ويجب عليه أن يمتنع عن سؤال الناس لا يسأل إلا عند الضرورة القصوى ؛ إذا حلت له الميتة حل له السؤال ، أما قبل ذلك ما دام يمكن أن يتعفف ولو أن يأكل كسرة من خبز أو شقة من تمرة فلا يسأل ، ولا يزال الإنسان يسأل الناس ، ثم يسأل الناس ، ثم يسأل الناس حتى يأتي يوم القيامة وما في وجهه مزعة لحم [(١)] .

وليحذر الإنسان من التشبه ببعض الذين يترددون على الناس يسألونهم وهم أغنياء ؛ الذين إذا ماتوا وجد عندهم الآلاف ، توجد عنده الآلاف من الذهب والفضة والدراهم القديمة والأوراق .

وهم إذا رأيتهم قلت : إن هؤلاء أفقر الناس ، ثم هم يؤذون الناس بالسؤال ، أو يسألون الناس وهم ليس عندهم شيء لكن يريدون أن يجعلوا بيوتهم كبيوت الأغنياء ، وسياراتهم كسيارات الأغنياء ، ولباسهم كلباس الأغنياء فهذا سفه : « المتشبع بما لم يعط كلابس ثوبي زور » [(٢)] اقتنع بما أعطاك الله ؛ إن كنت فقيرًا فعلى حسب حالك .

أما أن تقلد الأغنياء وتقول : أنا أريد سيارة فخمة ، وأريد بيتًا فارهًا ، وأريد فرشًا ، ثم تذهب تسأل الناس سواء سألتهم مباشرة قبل أن تشتري هذه الأشياء التي أردت ، أو تشتريها ثم تذهب تقول : أنا علي دين وما أشبه ذلك هذا خطأ عظيم ، اقتصر على ما عندك ، وعلى ما أعطاك ربك ﷻ، واسأل الله أن يرزقك رزقًا لا يطغيك ، رزقًا يغنيك عن الخلق وكفى . نسأل الله لنا ولكم التوفيق والسلامة .

* * *

٢٦٥ - وعنه عن النبي ﷺ : « السَّاعِي عَلَى الأَرْمَلَةِ وَالمِسْكِين كَالـمُجَاهِدِ في سَبِيلِ اللَّه » وَأَحْسَبُهُ قال : « وَكَالقَائِمِ الَّذي لا يَفتُرُ ، وَكَالصَّائِمِ الَّذي لا يُفطِرُ » [(٣)] متفقٌ عليه .

الشرح

ذكر المؤلف رحمه الله في هذا الباب : باب الرفق باليتامى والمستضعفين والفقراء ونحوهم ، قول رسول الله ﷺ : « الساعي على الأرملة والمسكين كالمجاهد في سبيل الله » وأحسبه قال : « وكالقائم الذي لا يفتر وكالصائم الذي لا يفطر » ، والساعي عليهم هو الذي يقوم بمصالحهم ومئونتهم وما يلزمهم .

والأرامل : هم الذين لا عائل لهم سواء كانوا ذكورًا أو إناثًا ، والمساكين : هم الفقراء ، ومن هذا

---

(١) أخرجه الترمذي في الطب (٢٠٧٢) ، والنسائي في التحريم (٤٠٧٩) ، وأحمد في مسنده (٣١١/٤) .
(٢) أخرجه البخاري في النكاح (٥٢١٩) ، ومسلم في اللباس (١٢٧) .
(٣) أخرجه البخاري في النفقات (٥٣٥٣) ، ومسلم بدون كلمة « الذي » في الزهد (٤١) قوله « كالقائم » أي : بالتهجد . قوله : « الذي لا يفتر وكالصائم الذي لا يفطر » المقصود ملازمة العبادة ليلًا ونهارًا .

قيام الإنسان على عائلته وسعيه عليهم ، على العائلة الذين لا يكتسبون ، فإن الساعي عليهم والقائم بمئونتهم ساعٍ على أرملة ومساكين ، فيكون مستحقًّا لهذا الوعد ويكون كالمجاهد في سبيل اللَّه ، أو كالقائم الذي لا يفتر وكالصائم الذي لا يفطر .

وفي هذا دليل على جهل أولئك القوم الذين يذهبون يمينًا وشمالًا ويدعون عوائلهم في بيوتهم مع النساء ، ولا يكون لهم عائل فيضيعون ؛ لأنهم يحتاجون إلى الإنفاق ويحتاجون إلى الرعاية وإلى غير ذلك ، وتجدهم يذهبون يتجولون في القرى وربما في المدن أيضًا ، بدون أن يكون هناك ضرورة ، ولكن شيء في نفوسهم ، يظنون أن هذا أفضل من البقاء في أهليهم بتأديبهم وتربيتهم .

وهذا ظن خطأ ، فإن بقاءهم في أهلهم ، وتوجيه أولادهم من ذكور وإناث ، وزوجاتهم ومن يتعلق بهم أفضل من كونهم يخرجون يزعمون أنهم يرشدون الناس وهم يتركون عوائلهم الذين هم أحق من غيرهم بنصيحتهم وإرشادهم ، ولهذا قال اللَّه تعالى : ﴿ وَأَنذِرْ عَشِيرَتَكَ ٱلْأَقْرَبِينَ ﴾ [الشعراء : ٢١٤] فبدأ بعشيرته الأقربين قبل كل أحد .

أما الذي يذهب إلى الدعوة إلى اللَّه يومًا أو يومين أو ما أشبه ذلك ، وهو عائد إلى أهله عن قرب فهذا لا يضره ، وهو على خير - لكن كلامنا في قوم يذهبون أربعة أشهر ، أو خمسة أشهر ، أو سنة - عن عوائلهم ؛ يتركونهم للأهواء والرياح تعصف بهم ، فهؤلاء لاشك أن هذا من قصور فقههم في دين اللَّه ﷻ .

وقد قال النبي عليه الصلاة والسلام : « من يرد اللَّه به خيرًا يفقهه في الدين »[1] فالفقيه في الدين هو الذي يعرف الأمور ، ويحسب لها ، ويعرف كيف تؤتى البيوت من أبوابها ، حتى يقوم بما يجب عليه .

* * *

٢٦٦ - وعنه عن النبي ﷺ قال : « شَرُّ الطَّعَامِ طَعَامُ الوَلِيمَة ؛ يُمْنَعُهَا مَنْ يَأْتِيهَا ، وَيُدْعَى إِلَيهَا مَنْ يَأْبَاهَا ، وَمَنْ لَمْ يُجِبِ الدَّعْوَةَ فَقَدْ عَصَى اللَّه وَرَسُولَهُ »[2] رواه مسلم .

وفي رواية في « الصحيحين » عن أبي هريرة من قوله : « بِئْسَ الطَّعَامُ طَعَامُ الوَلِيمَةِ ؛ يُدْعَى إِلَيهَا الأَغْنِيَاءُ ، وَيُتْرَكُ الفُقَرَاءُ »[3] .

الشرح

ذكر المؤلف - رحمه اللَّه تعالى - فيما نقله عن أبي هريرة ﷺ أن النبي ﷺ قال : « شر الطعام

---

(١) أخرجه البخاري في العلم (٧١) ، ومسلم في الزكاة (٩٨) .

(٢) أخرجه مسلم في النكاح (١١٠) .

(٣) أخرجه البخاري في النكاح (٥١٧٧) ، ومسلم - واللفظ له - مع تغيير كلمة الفقراء بـ « المساكين » في النكاح (١٠٧) .

طعام الوليمة يمنعها من يأتيها ويدعى إليها من يأباها ومن لم يجب الدعوة فقد عصى الله ورسوله » .

قوله عليه الصلاة والسلام : « شر الطعام طعام الوليمة » يحتمل أن يكون المراد بالوليمة هنا وليمة العرس ، ويحتمل أن يكون أعم ، وأن المراد بالوليمة كل ما دعي إلى الاجتماع إليه من عرس أو غيره ، وسيأتي بيان ذلك في الأحكام إن شاء الله .

ثم فسر هذه الوليمة التي طعامها شر الطعام وهي التي يدعى إليها من يأباها ويمنعها من يأتيها ، يعني يدعى إليها الأغنياء ، والغني لا يحرص على الحضور إذا دعي ؛ لأنه مستغنٍ بماله ، ويمنع منها الفقراء ؛ والفقير هو الذي إذا دعي أجاب ، فهذه الوليمة ليست وليمة مقربة إلى الله ؛ لأنه لا يدعى إليها من هم أحق بها وهم الفقراء ، بل يدعى إليها الأغنياء .

أما الوليمة من حيث هي - ولا سيما وليمة العرس - فإنها سنة مؤكدة ، قال النبي ﷺ لعبد الرحمن بن عوف : « أولم ولو بشاة » [1] فأمره بالوليمة ، قال : « ولو بشاة » يعني ولو بشيء قليل ، والشاة قليلة بالنسبة لعبد الرحمن بن عوف ﷺ لأنه من الأغنياء .

وقوله عليه الصلاة والسلام : « ومن لم يجب فقد عصى الله ورسوله » يدل على أن إجابة دعوة الوليمة واجبة ؛ لأنه لا شيء يكون معصية بتركه إلا وهو واجب ، ولكن لابد فيها من شروط :

الشرط الأول : أن يكون الداعي مسلمًا ؛ فإن لم يكن مسلما لم تجب الإجابة ، ولكن تجوز الإجابة لاسيما إذا كان في هذا مصلحة ، يعني لو دعاك كافر إلى وليمة عرسه فلا بأس أن تجيب ، لاسيما إن كان في ذلك مصلحة كتأليفه إلى الإسلام ، وقد ثبت عن النبي ﷺ أن يهوديًا دعاه في المدينة ، فأجابه ، وجعل له خبزًا من الشعير وإهالة سنخة [2] ؛ يعني ودكًا قديمًا متغيرًا .

وأما اشتراط العدالة : يعني اشتراط أن يكون الداعي عدلًا فليس بشرط ، فتجوز إجابة دعوة الفاسق ، إذا دعاك ، مثل أن يدعوك إنسان قليل الصلاة مع الجماعة ، أو حليق اللحية أو شارب دخان ، فأجبه كما تجيب من كان سالمًا من ذلك .

لكن إن كان عدم الإجابة يفضي إلى مصلحة بحيث يخجل هذا الداعي ويترك المعصية التي كان يعتادها حيث الناس لا يجيبون دعوته ، فلا تجب دعوته من أجل مصلحته أما إذا كان لا يستفيد سواء أجبته أو لم تجبه ، فأجب الدعوة ؛ لأنه مسلم .

الشرط الثاني : أن يكون ماله حلالًا ؛ فإن كان ماله حرامًا كالذي يكتسب ماله بالربا ؛ فإنه لا تجب إجابته ؛ لأن ماله حرام ، والذي ماله حرام ينبغي للإنسان أن يتورع عن أكل ماله ، ولكنه ليس

---

(١) أخرجه البخاري في النكاح (٥١٦٦) ، ومسلم في النكاح (٨٠) ، وأحمد في مسنده (٣/١٦٥) .
(٢) أخرجه البخاري في البيوع (٢٠٦٩) .

بحرام ، يعني : لا يحرم عليك أن تأكل من مال من كسبه حرام ؛ لأن النبي ﷺ أكل من طعام اليهود وهم يأكلون الربا ؛ يأخذونه ويتعاملون به . لكن الورع أن لا تأكل ممن ماله حرام .

أما إذا كان في ماله حرام يعني ماله مختلط ؛ يتجر تجارة حلالًا ويكتسب كسبًا محرمًا فلا بأس من إجابته ، ولا تتورع عن ماله ؛ لأنه لا يسلم كثير من الناس اليوم من أن يكون في ماله حرام ، فمن الناس من يغش فيكتسب من حرام ، ومنهم من يرابي في بعض الأشياء ، ومنهم الموظفون ، وكثير من الموظفين لا يقومون بواجب وظيفتهم ، فتجده يتأخر عن الدوام أو يتقدم فيخرج قبل وقت انتهاء الدوام ، وهذا ليس راتبه حلالًا ، بل إنه يأكل من الحرام بقدر ما نقص من عمل الوظيفة ؛ لأنه ملتزم بالعقد مع الحكومة مثلًا أنه يقوم بوظيفته من كذا وكذا ، فلو فتشت الناس اليوم لوجدت كثيرًا منهم يكون في ماله دخن من الحرام .

الشرط الثالث : ألا يكون في الدعوة منكر ، فإن كان في الدعوة منكر فإنه لا تجب الإجابة ، مثل لو علمت أنهم سيأتون بمغنيين ، أو عندهم (شيش) يشربها الحاضرون ، أو عندهم شراب دخان فلا تجب إلا إذا كنت قادرًا على تغيير هذا المنكر ، فإنه يجب عليك الحضور لسببين :

السبب الأول : إزالة المنكر ، والسبب الثاني : إجابة الدعوة .

أما إذا كنت ستحضر ولكن لا تستطيع تغيير المنكر فإن حضورك حرام .

الشرط الرابع : أن يُعيِّن المدعو ، ومعنى يعينه أن يقول : يا فلان ، أدعوك إلى حضور وليمة العرس ؛ فإن لم يعينه بأن دعا دعوة عامة في مجلس فقال : يا جماعة عندنا حفل زواج ، ووليمة عرس فاحضروا ، فإنه لا يجب عليك أن تحضر ؛ لأنه دعا دعوة عامة وما نص عليك .

فلابد أن يعينه فإن لم يعينه فإنها لا تجب ، ثم إنه ينبغي للإنسان أن يجيب كل دعوة ؛ لأن من حق المسلم على أخيه أن يجيب دعوته ، إلا إذا كان في امتناعه مصلحة راجحة فليتبع المصلحة .

* * *

٢٦٧ - وعن أنس رضي الله عنه عن النبي ﷺ قال : « مَنْ عَالَ جَارِيَتَيـنِ حَتَّى تَبْلُغَا جَاءَ يَوْمَ القِيَامَةِ أَنَا وَهُوَ كَهَاتَيْنِ » وَضَمَّ أَصَابِعَهُ [١] . رواه مسلم .

« جَارِيَتَيـنِ » أي : بِنْتَيـنِ .

الشرح

أما هذا الحديث ففيه : فضل عول الإنسان للبنات ، وذلك أن البنت قاصرة ضعيفة مهينة ، والغالب أن أهلها لا يأبهون بها ، ولا يهتمون بها ؛ فلذلك قال النبي ﷺ : « من عال جارتين حتى

---

(١) أخرجه مسلم في البر والصلة (١٤٩) .

تبلغا جاء يوم القيامة أنا وهو كهاتين » وضَمَّ أصبعيه السبابة والوسطى ، والمعنى أنه يكون رفيقًا لرسول الله ﷺ في الجنة إذا عال الجاريتين ؛ يعني الأنثيين من بنات أو أخوات أو غيرهما ، أي أنه يكون مع النبي ﷺ في الجنة .

والعولِ في الغالب يكون بالقيام بمئونة البدن ؛ من الكسوة والطعام والشراب والسكن والفراش ونحو ذلك ، وكذلك يكون في غذاء الروح ؛ بالتعليم والتهذيب والتوجيه والأمر بالخير والنهي عن الشر وما إلى ذلك .

ويُؤخذ من هذا الحديث ومما قبله أيضًا : أنه ينبغي للإنسان أن يهتم بالأمور التي تقربه إلى الله لا بالأمور الشكليات ، أو مراعاة ما ينفع في الدنيا فقط ، بل يلاحظ هذا ويلاحظ ما ينفع في الآخرة أكثر وأكثر .

وقوله : « حتى تبلغا » يعني : حتى تصلا سن البلوغ ؛ وهو خمس عشرة سنة ، أو غير ذلك من علامات البلوغ في المرأة .

وعلامات البلوغ في المرأة أربع وهي :

الأولى : تمام خمس عشرة سنة . الثانية : نبات العانة . الثالثة : الاحتلام .

الرابعة : الحيض . فإذا حاضت ولو كان لها أقل من خمس عشرة سنة فهي بالغ .

* * *

٢٦٨ – وعن عائشة رضي الله عنها قالت : دَخَلَتْ عَليَّ امْرَأَةٌ وَمَعَهَا ابْنَتَانِ لَهَا تَسْأَلُ ، فَلَمْ تَجِدْ عِنْدِي شَيْئًا غَيرَ تَمْرَةٍ واحِدَةٍ ، فَأَعْطَيتُهَا إيَّاهَا فَقَسَمَتْهَا بَينَ ابْنَتَيهَا وَلَمْ تَأْكُلْ مِنْهَا ، ثُمَّ قَامَتْ فَخَرَجَت ، فَدَخَلَ النَّبِيُّ ﷺ عَلَينَا ، فَأَخْبَرْتُهُ فقال : « مَنِ ابْتُلِيَ مِنْ هذِهِ البَنَاتِ بِشَيءٍ فَأَحْسَنَ إِلَيهِنَّ ؛ كُنَّ لَهُ سِتْرًا من النَّارِ » (١) متفقٌ عليه .

الشرح

ذكر المؤلف – رحمه الله تعالى – عن عائشة رضي الله عنها قصة عجيبة غريبة ، قالت : « دخلت على امرأة ومعها ابنتان لها تسأل » . وذلك لأنها فقيرة ، قالت : فلم تجد عندي إلا تمرة واحدة – بيت من بيوت النبي – عليه الصلاة والسلام – لا توجد فيه إلا تمرة واحدة ! – قالت : « فأعطيتها إياها فقسمتها بين ابنتيها » نصفين وأعطت واحدة نصف التمرة وأعطت الأخرى نصف التمرة الآخر ، ولم تأكل منها شيئًا .

فدخل النبي ﷺ على عائشة فأخبرته بتلك القصة العجيبة الغريبة ، فقال النبي ﷺ : « من ابتلي بشيء من هذه البنات فأحسن إليهن كن له سترًا من النار » وقوله ﷺ : « من ابتلي » ليس المراد به هنا بلوى الشر ، لكن المراد : من قُدر له ، كما قال الله تعالى : ﴿ كُلُّ نَفْسٍ ذَآئِقَةُ ٱلْمَوْتِ وَنَبْلُوكُم بِٱلشَّرِّ

(١) أخرجه البخاري في الزكاة (١٤١٨) بلفظ « دخلت امرأة ومعها ابنتان .. » ، ومسلم في البر والصلة (١٤٧) .

وَٱلْخَيْرِ فِتْنَةً وَإِلَيْنَا تُرْجَعُونَ ﴾[1] [الأنبياء: ٣٥] ، يعني من قدر له ابنتان فأحسن إليهما كن له سترًا من النار يوم القيامة ، يعني أن اللَّه تعالى يحجبه عن النار بإحسانه إلى البنات ؛ لأن البنت ضعيفة لا تستطيع التكسب ، والذي يكتسب هو الرجل ، قال اللَّه تعالى : ﴿ ٱلرِّجَالُ قَوَّٰمُونَ عَلَى ٱلنِّسَآءِ بِمَا فَضَّلَ ٱللَّهُ بَعْضَهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ وَبِمَآ أَنفَقُواْ مِنْ أَمْوَٰلِهِمْ ﴾ [النساء: ٣٤] .

فالذي ينفق على العائلة ويكتسب هو الرجل ، أما المرأة فإنما شأنها في البيت ، تقيمه وتصلحه لزوجها وتؤدب أولادها ، وليست المرأة للوظائف والتكسب إلا عند الغرب الكفرة ومن كان على شاكلتهم ، ممن اغتر بهم فقلدهم وجعل المرأة مثل الرجل في الاكتساب وفي التجارة وفي المكاتب ، حتى صار الناس يختلطون بعضهم ببعض ، وكلما كانت المرأة أجمل كانت أحظى بالوظيفة الراقية عند الغرب ومن شاكلهم ومن شابههم !.

ونحن - وللَّه الحمد في بلادنا هذه - نسأل اللَّه أن يديم علينا هذه النعمة - قد منعت الحكومة حسب ما قرأنا من كتاباتها أن يتوظف النساء لا في القطاع العام ولا في القطاع الخاص إلا فيما يتعلق بالنساء ؛ مثل مدارس البنات وشبهها . لكن نسأل اللَّه الثبات ، وأن يزيدها من فضله ، وأن يمنعها مما عليه الأمم اليوم من هذا الاختلاط الضار .

ومما ورد في هذا الحديث من العبر :

أولًا : بيت من بيوت رسول اللَّه ﷺ ومن أشرف بيوته ، فيه أحب نسائه إليه ، لا يوجد به إلا تمرة واحدة ، ونحن الآن في بلدنا هذا يقدم للإنسان عند الأكل خمسة أصناف شتى ، فلماذا فتحت علينا الدنيا وأغلقت عليهم ؟! ألكوننا أحب إلى اللَّه منهم ؟! لا واللَّه هم أحب إلى اللَّه منا ، ولكن فضل اللَّه يؤتيه من يشاء ، ونحن ابتلينا بهذه النعم ، فصارت هذه النعم عند كثير من الناس اليوم سببًا للشر والفساد والأشر والبطر ، حتى فسقوا - والعياذ باللَّه - ويخشى علينا من عقوبة اللَّه ﷻ بسبب أن كثيرًا منا بطروا هذه النعم وكفروها ، وجعلوها عونًا على معاصي اللَّه سبحانه وتعالى - نسأل اللَّه السلامة .

ثانيًا : وفيه أيضًا ما كان عليه الصحابة ﭫ من الإيثار ، فإن عائشة ليس عندها إلا تمرة ومع ذلك آثرت بها هذه المسكينة ، ونحن الآن عندنا أموال كثيرة ويأتي السائل ونرده .

لكن المشكلة في الحقيقة في رد السائل أن كثيرًا من السائلين كاذبون ؛ يسأل وهو أغنى من المسؤول ، وكم من إنسان سأل ويسأل الناس ويلحف في المسألة فإذا مات وجدت عندهم دراهم الفضة والذهب الأحمر والأوراق الكثيرة من النقود ! وهذا هو الذي يجعل الإنسان لا يتشجع على إعطاء كل سائل ، من أجل الكذب والخداع ، حيث يظهرون بمظهر العجزة والمعتوهين والفقراء وهم كاذبون .

ثالثًا : وفي الحديث أيضًا من العبر أن الصحابة ﭫ يوجد فيهم الفقير كما يوجد فيهم الغني ، قال

---

(١) قوله : ﴿ وَنَبْلُوكُم ﴾ نختبركم مع علمنا بحالكم . قوله : ﴿ فِتْنَةً ﴾ ابتلاءً .

الله تعالى : ﴿ أَهُمْ يَقْسِمُونَ رَحْمَتَ رَبِّكَ نَحْنُ قَسَمْنَا بَيْنَهُم مَّعِيشَتَهُمْ فِي الْحَيَوٰةِ الدُّنْيَا وَرَفَعْنَا بَعْضَهُمْ فَوْقَ بَعْضٍ دَرَجَٰتٍ لِّيَتَّخِذَ بَعْضُهُم بَعْضًا سُخْرِيًّا ﴾ [الزخرف : ٣٢] ، ولولا هذا التفاوت ما اتخذ بعضنا بعضًا سخريًّا ، ولو كنا على حد سواء واحتاج الإنسان منا مثلًا لعمل ما كالبناء ، فجاء إلى الآخر فقال : أريدك أن تبني لي بيتًا ، فقال : ما أبني ، أنا مثلك ، أنا غني ، فإذا أردنا أن نصنع بابًا ، قال الآخر : ما أصنع ، أنا غني مثلك ؛ فهذا التفاوت جعل الناس يخدم بعضهم بعضًا :

الناس للناس من بدو وحاضرةٍ بعضٌ لبعض وإن لم يشعروا خدمُ

حتى التاجر الغني صاحب المليارات يخدم الفقير . كيف ؟! يورد الأطعمة والأشربة والأكسية ومواد البناء وغيرها ؛ يجلبها للفقير فينتفع بها ، فكل الناس بعضهم يحتاج لبعض ، ويخدم بعضهم بعضًا ؛ ذلك حكمة من الله ﷻ .

رابعًا : وفي هذا الحديث أيضًا : دليل على فضل من أحسن إلى البنات بالمال ، والكسوة ، وطيب الخاطر ، ومراعاة أنفسهن ؛ لأنهن عاجزات قاصرات .

خامسًا : وفيه ما أشرنا إليه أولًا من أن الذي يكلف بالنفقة وينفق هم الرجال ، أما النساء فللبيوت ولمصالح البيوت ، وكذلك للمصالح التي لا يقوم بها إلا النساء كمدارس البنات .

أما أن يجعلن موظفات مع الرجال في مكتب واحد ، أو سكرتيرات كما يوجد في كثير من بلاد المسلمين ، فإن هذا لاشك خطأ عظيم ، وشر عظيم ، وقد قال النبي - عليه الصلاة والسلام - : « خير صفوف الرجال أولها وشرها آخرها ، وخير صفوف النساء آخرها وشرها أولها » [1] وذلك لأن أولها قريب من الرجال فصار شرًّا ، وآخرها بعيد عن الرجال فصار خيرًا . فانظر كيف نُدب للمرأة أن تتأخر وتبتعد عن الإمام ، كل ذلك من أجل البعد عن الرجال ، نسأل الله أن يحمينا وإخواننا المسلمين من أسباب سخطه وعقابه .

* * *

٢٦٩ - وعن عائشة ﵂ قالت : جَاءتني مِسْكِينَةٌ تَحْمِلُ ابْنَتَيْن لها ، فَأَطْعَمْتُهَا ثلاثَ تَمَرَاتٍ ، فَأَعْطَتْ كُلَّ وَاحِدَةٍ مِنْهُمَا تَمْرَةً وَرَفَعَتْ إلى فِيهَا تَمْرَةً لتَأْكُلَهَا ، فَاسْتَطْعَمَتْهَا ابْنَتَاهَا ، فَشَقَّت التَّمْرَةَ الَّتي كَانَتْ تُرِيدُ أَنْ تَأْكُلَهَا بَينَهُمَا ، فَأَعْجَبَنِي شَأْنُهَا ، فَذَكَرْتُ الَّذي صَنَعَتْ لرسول الله ﷺ فقال : « إنَّ الله قَدْ أَوجَبَ لَها بِهَا الجَنَّة ، أَو أَعْتَقَهَا بِهَا مِنَ النَّارِ » [2] رواه مسلم .

٢٧٠ - وعن أبي شُرَيْحٍ خُوَيلِدِ بْن عَمْرو الخُزَاعِيّ ﵁ قال : قال النبي ﷺ : « اللَّهُمَّ إنِّي أُحَرِّجُ

---

(١) أخرجه مسلم في الصلاة (١٣٢) ، وأبو داود في الصلاة (٦٧٨) ، والترمذي في الصلاة (٢٢٤) ، وأحمد في مسنده (٢/٢٤٧) .

(٢) أخرجه مسلم في البر والصلة (١٤٨) ، والإمام أحمد في مسنده (٦/٩٢) قوله « فاستطعمتها ابنتاها » أي طلبتا منها أن تطعمها إياهما .

حَقَّ الضعيفين : اليَتِيمِ ، وَالمَرْأَة » (١) حديث حسن رواه النسائي بإسنادٍ جيدٍ .

ومعنى : « أُحَرِّجُ » : أُلحِقُ الحَرَجَ ، وَهُو الإثْمُ بِمَنْ ضَيَّعَ حَقَّهُمَا ، وَأُحَذِّرُ مِنْ ذلِكَ تَحْذِيرًا بَلِيغا ، وَأَزجُرُ عَنْهُ زَجْرًا أَكِيدًا .

٢٧١ - وعن مُصْعبِ بنِ سعد بن أبي وَقَّاصٍ ﷺ قال : رَأَى سَعْدٌ أَنَّ لَهُ فَضْلًا عَلَى مَنْ دُونَهُ ، فقال النبيُّ ﷺ : « هَلْ تُنْصَرُونَ وَتُرْزَقُونَ إلا بِضُعَفَائِكُمْ » (٢) رواه البخاري هكَذَا مُرْسَلًا ، فإنَّ مُصْعَبَ بن سعدٍ تَابِعِيٌّ ، ورواه الحافِظُ أبو بكر البَرْقَاني في صحيحه مُتَّصِلًا عن مُصْعَب عن أبيه ﷺ .

٢٧٢ - وعن أبي الدَّرْدَاءِ عُوَيمرٍ ﷺ قال : سمِعْتُ رسول اللّه ﷺ يقول : «ابْغُونِي الضُّعَفَاءَ ، فَإنَّمَا تُنْصَرُونَ ، وَتُرْزَقُونَ بضُعَفَائِكُمْ » (٣) رواه أبو داود بإسناد جيد .

الشرح

هذه الأحاديث كلها تدل على مضمون ما سبق من الرفق بالضعفاء واليتامى والبنات وما أشبه ذلك ، وفي حديث عائشة الأول قصة كحديثها السابق ، ولكن الحديث السابق أن عائشة ﷺ أعطتها تمرة واحدة فشقتها بين ابنتيها .

أما هذا الحديث فأعطتها ثلاث تمرات ، فأعطت إحدى البنتين واحدة ، والثانية التمرة الأخرى ، ثم رفعت الثالثة إلى فيها لتأكلها ، فاستطعمتاها - يعني أن البنتين نظرتا إلى التمرة التي رفعتها الأم - فلم تطعمها الأم بل شقتها بينهما نصفين ، فأكلت كل بنت تمرة ونصفًا والأم لم تأكل شيئًا . فذكرت ذلك للرسول ﷺ وأخبرته بما صنعت المرأة ، فقال : « إن اللّه أوجب لها بها الجنة أو أعتقها بها من النار » يعني لأنها لما رحمتهما هذه الرحمة العظيمة أوجب اللّه لها بذلك الجنة .

فدل ذلك على أن ملاطفة الصبيان والرحمة بهم من أسباب دخول الجنة والنجاة من النار نسأل اللّه أن يكتب لنا ولكم ذلك .

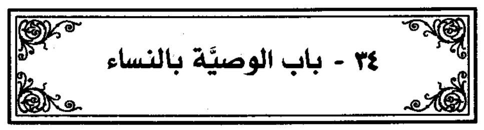
وفي الأحاديث الثلاثة التالية لهذا الحديث ما يدل على أن الضعفاء سبب للنصر وسبب للرزق ، فإذا حنا عليهم الإنسان وعطف عليهم وآتاهم مما آتاه اللّه ﷻ كان ذلك سببًا للنصر على الأعداء ، وكان سببًا للرزق ؛ لأن اللّه تعالى أخبر أنه إذا أنفق الإنسان لربه نفقة فإن اللّه تعالى يخلفها عليه . قال اللّه تعالى : ﴿ وَمَآ أَنفَقْتُم مِّن شَيْءٍ فَهُوَ يُخْلِفُهُۥ وَهُوَ خَيْرُ ٱلرَّٰزِقِينَ ﴾ [سبأ : ٣٩] ، يخلفه أي : يأتي بخلفه وبدله .

* * *

(١) أخرجه الإمام أحمد في مسنده (٢/٤٣٩) ، وابن ماجه في الأدب (٣٦٧٨) .

(٢) أخرجه البخاري في الجهاد (٢٨٩٦) .

(٣) أخرجه أبو داود في الجهاد (٢٥٩٤) ، والبيهقي في سننه (٣/٣٤٥) ، قوله « ابغوني » أي : اطلبوا لي ، قوله « الضعفاء » أي : صعاليك المسلمين أستعين بهم .



٣٤ - باب الوصيَّة بالنساء

قال اللَّه تعالى : ﴿ وَعَاشِرُوهُنَّ بِالْمَعْرُوفِ ﴾ [النساء: ١٩] وقال تعالى : ﴿ وَلَن تَسْتَطِيعُوٓاْ أَن تَعْدِلُواْ بَيْنَ النِّسَآءِ وَلَوْ حَرَصْتُمْ فَلَا تَمِيلُواْ كُلَّ الْمَيْلِ فَتَذَرُوهَا كَالْمُعَلَّقَةِ وَإِن تُصْلِحُواْ وَتَتَّقُواْ فَإِنَّ اللَّهَ كَانَ غَفُورًا رَّحِيمًا ﴾ (١) [النساء: ١٢٩] .

الشرح

قال المؤلف - رحمه اللَّه تعالى - : باب الوصية بالنساء ، يعني الوصية على أن يرفق بهم الإنسان وأن يتقي اللَّه تعالى فيهن ؛ لأنهن قاصرات يحتجن إلى من يَجْبرهن ويكملهن ، كما قال اللَّه تعالى : ﴿ الرِّجَالُ قَوَّامُونَ عَلَى النِّسَآءِ بِمَا فَضَّلَ اللَّهُ بَعْضَهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ ﴾ [النساء: ٣٤] .

ثم استدل المؤلف - رحمه اللَّه تعالى - بقول اللَّه تعالى : ﴿ وَعَاشِرُوهُنَّ بِالْمَعْرُوفِ ﴾ يعني عاشروا النساء بالمعروف .

والمعاشرة : معناها المصاحبة والمعاملة ؛ فيعاملها الإنسان بالمعروف ويصاحبها كذلك .

والمعروف : ما عرفه الشرع وأقره واطرد به العرف ، والعبرة بما أقره الشرع ، فإذا أقر الشرع شيئًا فهو المعروف ، وإذا أنكر شيئًا فهو المنكر ولو عرفه الناس .

وقال تعالى : ﴿ وَلَن تَسْتَطِيعُوٓاْ أَن تَعْدِلُواْ بَيْنَ النِّسَآءِ وَلَوْ حَرَصْتُمْ ﴾ [النساء: ١٢٩] وهذا الخطاب لمن كان عنده زوجتان فأكثر ، يبين اللَّه عَجَّلَ أن الإنسان لا يستطيع أن يعدل بين النساء ولو حرص ؛ لأن هناك أشياء تكون بغير اختيار الإنسان ؛ كالمودة والميل وما أشبه ذلك ، مما يكون في القلب .

أما ما يكون بالبدن : فإنه يمكن العدل فيه ؛ كالعدل في النفقة ، والعدل في المعاملة بأن يقسم لهذه ليلتها وهذه ليلتها ، والكسوة وغير ذلك ، فهذا يمكن ، لكن ما في القلب لا يمكن أن يعدل الإنسان فيه ؛ لأنه بغير اختياره .

ولهذا قال اللَّه تعالى : ﴿ فَلَا تَمِيلُواْ كُلَّ الْمَيْلِ فَتَذَرُوهَا ﴾ أي : تذروا المرأة التي ملتم عنها ﴿ كَالْمُعَلَّقَةِ ﴾ أي : بين السماء والأرض ، ليس لها قرار ؛ لأن المرأة إذا رأت أن زوجها مال مع ضرتها تعبت تعبًا عظيمًا ، واشتعل قلبها ، فصارت كالمعلقة بين السماء والأرض ليس لها قرار .

ثم قال : ﴿ وَإِن تُصْلِحُواْ وَتَتَّقُواْ فَإِنَّ اللَّهَ كَانَ غَفُورًا رَّحِيمًا ﴾ يعني : إن تسلكوا سبيل الإصلاح وتقوى اللَّه عَجَّلَ ﴿ فَإِنَّ اللَّهَ كَانَ غَفُورًا رَّحِيمًا ﴾ يعني : يغفر لكم مالا تستطيعونه ، ولكنه

(١) قوله ﴿ وَعَاشِرُوهُنَّ ﴾ أي علموهن الفرائض والسنن ، وذلك بحسن الخلق معهن ومع أبنائكم ، قوله ﴿ تَعْدِلُواْ ﴾ أي : تسووا ، قوله ﴿ كُلَّ الْمَيْلِ ﴾ هو تعمد الإساءة ومنعها يومها ونفقتها ، قوله ﴿ فَتَذَرُوهَا ﴾ أي : تتركوها ، قوله ﴿ كَالْمُعَلَّقَةِ ﴾ أي : لا هي أيم ولا هي ذات زوج .

يؤاخذكم بما تستطيعون .

وهاتان الآيتان وغيرهما من نصوص الكتاب والسنة كلها تدل على الرفق بالمرأة وملاحظتها ومعاشرتها بالتي هي أحسن ، وأن الإنسان لا يطلب منها حقه كاملًا ؛ لأنه لا يمكن أن تأتي به على وجه الكمال فليعف وليصفح .

* * *

٢٧٣ - وعن أبي هريرة ﷺ قال : قال رسول الله ﷺ : « اسْتَوْصُوا بِالنِّسَاءِ خَيرًا ، فَإنَّ المَرْأَةَ خُلِقَتْ مِنْ ضِلَعٍ ، وَإنَّ أَعْوَجَ مَا في الضِّلَعِ أعلاهُ ، فَإنْ ذَهَبْتَ تُقِيمُهُ كَسَرْتَهُ ، وَإنْ تَرَكْتَهُ ، لَمْ يَزَلْ أَعْوَجَ ، فَاسْتَوْصُوا بِالنِّسَاءِ »[1] متفقٌ عليه .

وفي رواية في « الصحيحين » : « المَرْأَةُ كَالضِّلَعِ إنْ أَقَمْتَهَا كَسَرْتَهَا ، وَإنِ اسْتَمتَعْتَ بِهَا ، اسْتَمْتَعْتَ وفِيهَا عَوَجٌ »[2] .

وفي رواية لمسلم : « إنَّ المَرْأَةَ خُلِقَتْ مِنْ ضِلَعٍ ، لَنْ تَسْتَقِيمَ لَكَ عَلَى طَرِيقَةٍ ، فَإنْ اسْتَمْتَعْتَ بِهَا اسْتَمْتَعْتَ بِهَا وَفِيهَا عَوَجٌ ، وَإنْ ذَهَبْتَ تُقِيمهَا كَسَرْتَهَا ، وَكَسْرُهَا طَلاقُهَا »[3] .

قولُهُ : « عَوَجٌ » هو بفتحِ العينِ والواوِ .

الشرح

ذكر المؤلف - رحمه الله تعالى - فيما نقله عن أبي هريرة ﷺ في معاشرة النساء أن النبي ﷺ قال : « استوصوا بالنساء خيرًا » يعني اقبلوا هذه الوصيلة التي أوصيكم بها ، وذلك أن تفعلوا خيرًا مع النساء ؛ لأن النساء قاصرات في العقول ، وقاصرات في الدين ، وقاصرات في التفكير ، وقاصرات في جميع شئونهن ، فإنهن خلقن من ضلع .

وذلك أن آدم - عليه الصلاة والسلام - خلقه الله من غير أب ولا أم ، بل خلقه من تراب ثم قال له : كن فيكون ، ولما أراد الله تعالى أن يبث منه هذه الخليقة ، خلق منه زوجه ، فخلقها من ضلعه الأعوج ، فخلقت من الضلع الأعوج ، والضلع الأعوج إن استمتعت به استمتعت به وفيه العوج ، وإن ذهبت تقيمه انكسر .

---

(١) أخرجه البخاري في أحاديث الأنبياء (٣٣٣١) مع استبدال كلمة ما بـ (شيء) ، ومسلم في الرضاع (٦٠) . قوله « من ضلع » بكسر الضاد وفتح اللام ، ويجوز تسكينها . قيل : فيه إشارة إلى أن حواء خلقت من ضلع آدم الأيسر ، وقيل : من ضلعه القصير ، قوله : « وإن أعوج ما في الضلع أعلاه » قيل : فيه إشارة إلى أن أعوج ما في المرأة لسانها ، وقيل : يعني : أنها خلقت من أعوج أجزاء الضلع فلا يتهيأ الانتفاع بها إلا بالصبر على تعوجها ، قوله : «استمتعت بها » أي لقضاء الوطر وطلب الولد الصالح والإعفاف .

(٢) أخرجه البخاري - واللفظ له - (مع زيادة كلمة : بها قبل : وفيها عوج) في النكاح (٥١٨٤) ، ومسلم في الرضاع (٦٥) .

(٣) هذه رواية مسلم مع تغيير (وفيها الكلمة بها) في الرضاع (٥٩) .

فهذه المرأة أيضًا إن استمتع بها الإنسان استمتع بها على عوج ، فيرضى بما تيسر ، وإن أراد أن تستقيم فإنها لن تستقيم ، ولن يتمكن من ذلك ، فهي وإن استقامت في دينها فلن تستقيم فيما تقضيه طبيعتها ، ولا تكون لزوجها على ما يريد في كل شيء ، بل لابد من مخالفة ولابد من تقصير ، مع القصور الذي فيها .

فهي قاصرة بمقتضى جبلتها وطبيعتها ، ومقصرة أيضًا ، فإن ذهبت تقيمها كسرتها وكسرها طلاقها ، يعني معنى ذلك أنك إن حاولت أن تستقيم لك على ما تريد فلا يمكن ذلك ، وحينئذ تسأم منها وتطلقها ، فكسرها طلاقها .

وفي هذا : توجيه من رسول الله ﷺ إلى معاشرة الإنسان لأهله ، وأنه ينبغي أن يأخذ منهم العفو وما تيسر ، كما قال تعالى : ﴿ خُذِ ٱلْعَفْوَ ﴾ يعني ما عفي وسهل من أخلاق الناس ﴿ وَأْمُرْ بِٱلْعُرْفِ وَأَعْرِضْ عَنِ ٱلْجَٰهِلِينَ ﴾ [الأعراف : ١٩٩] .

ولا يمكن أن تجد امرأة مهما كان الأمر سالمة من العيب مائة بالمائة ، أو مواتية للزوج مائة بالمائة ، ولكن كما أرشد النبي - عليه الصلاة والسلام - استمتع بها على ما فيها من العوج .

وأيضًا إن كرهت منها خلقًا رضيت منها خلقًا آخر [1] ، فقابل هذا بهذا مع الصبر ، وقد قال الله تعالى : ﴿ فَإِن كَرِهْتُمُوهُنَّ فَعَسَىٰٓ أَن تَكْرَهُوا۟ شَيْـًٔا وَيَجْعَلَ ٱللَّهُ فِيهِ خَيْرًا كَثِيرًا ﴾ [النساء : ١٩] .

* * *

٢٧٤ - وعن عبد الله بن زَمْعَةَ ﷺ أنه سَمِعَ النبيَّ ﷺ يَخْطُبُ ، وَذَكَرَ النَّاقَةَ وَالَّذِي عَقَرَهَا ، فقال رسول الله ﷺ : « ﴿ إِذِ ٱنۢبَعَثَ أَشْقَىٰهَا ﴾ انبَعَثَ لَهَا رَجُلٌ عَزِيزٌ ، عَارِمٌ مَنِيعٌ في رَهْطِهِ » ثُمَّ ذَكَرَ النِّسَاءَ ، فَوَعَظَ فِيهِنَّ ، فَقَالَ : « يَعْمِدُ أَحَدُكُمْ فَيَجْلِدُ امْرَأَتَهُ جَلْدَ العَبْدِ فَلَعَلَّهُ يُضَاجِعُهَا مِنْ آخِرِ يَومِهِ » ثُمَّ وَعظَهُمْ في ضَحِكِهِمْ مِنَ الضَّرْطَةِ وقال : « لِمَ يَضْحَكُ أَحَدُكُمْ مِمَّا يَفْعَلُ ؟ » [2] متفقٌ عليه .

« وَالعَارِمُ » بالعين المهملةِ والراءِ : هُوَ الشِّرِّيرُ المُفْسِد ، وقولُهُ : « انْبَعَثَ » ، أَي : قَام بِسُرْعَةٍ .

الشرح

ذكر المؤلف - رحمه الله تعالى - فيما نقله عن عبد الله بن زمعة ﷺ أنه سمع النبي ﷺ يخطب على ناقته ، وكان - عليه الصلاة والسلام - خطبه على نوعين : نوع راتب ونوع عارض ؛ فالخطب الراتبة : كخطب يوم الجمعة وخطب العيدين والاستسقاء والكسوف وما أشبه ذلك ، والخطب العارضة : هي التي يكون لها سبب ، فيقوم النبي ﷺ فيخطب الناس ويعظهم ويبين لهم ؛ وأحيانًا يخطب على

(١) هذا معنى حديث ولفظه « ولا يفرك مؤمن مؤمنة إن كره منها خلقًا ... » ، وقد أخرجه أحمد في مسنده (٣٢٩/٢) .

(٢) أخرجه البخاري - واللفظ له - وإضافة الفاء في (فيجلد) في تفسير القرآن (٤٩٤٢) ، ومسلم في الجنة (٤٩٠) ، قوله « الناقة » أي : التي كانت معجزة لسيدنا صالح ﷺ ، قوله « أشقاها » أي : أشقى قبيلة ثمود قوله « عزيز » أي : قوي ذو منعة . قوله « رهطه » أي : قومه وجماعته .

المنبر ، وأحيانًا يخطب قائمًا على الأرض ، وأحيانًا يخطب على ناقته ، وأحيانًا يخطب معتمدًا على بعض أصحابه ، حسب ما تقتضيه الحال في وقتها ؛ لأن الرسول - عليه الصلاة والسلام - من هديه أنه لا يتكلف ؛ فلا يطلب المعدوم ، ولا يرد الموجود إذا لم يكن في ذلك تقصير في الشرع ، أو تجاوز فيه .

فكان ﷺ يخطب وسمعه عبد الله بن زمعة ، ومن جملة ما خطب أنه قال : « يعمد أحدكم فيجلد امرأته جلد العبد » يعني يجلدها جلد شخص كأنه لا علاقة بينه وبينها ، وكأنها عنده عبد أسير (عان) وهذا لا يليق ؛ لأن علاقة الرجل مع أهله علاقة خاصة ينبغي أن تكون مبنية على المحبة والألفة والبعد عن الفحشاء القولية والفعلية .

أما أن يجلدها كما يجلد العبد ثم في آخر اليوم يضاجعها . كيف تضاجعها في آخر اليوم وتستمتع بها محبة وتلذذًا وشهوة وأنت قد جلدتها جلد العبد ؟! فهذا تناقض ، ولهذا عتب النبي - عليه الصلاة والسلام - على هذا العمل ؛ فإنه لا ينبغي أن يقع هذا الشيء من الإنسان ، وصدق النبي - عليه الصلاة والسلام - فإن هذا لا يليق بالعاقل فضلًا عن المؤمن .

ثم تحدث أيضًا عن شيء آخر وهو الضحك من الضرطة ، يعني إذا ضرط الإنسان وخرجت الريح من دبره ولها صوت ضحكوا ، فقال ﷺ واعظًا لهم في ذلك : « لم يضحك أحدكم مما يفعل ؟ » .

ألست أنت تضرط كما يضرط هذا الرجل ؟ بلى ، إذا كان كذلك فلماذا تضحك ؟ فالإنسان إنما يضحك ويتعجب من شيء لا يقع منه ؛ فإنه لا ينبغي أن يضحك منه ، ولهذا عاتب النبي ﷺ من يضحكون من الضرطة ، لأن هذا شيء يخرج منهم ، وهو عادة عند كثير من الناس .

كثير من الناس في بعض الأعراف لا يبالون إذا ضرط أحدهم وإلى جنبه إخوانه ولا يحتشمون من ذلك أبدًا ، ويرون أنها من جنس العطاس أو السعال أو ما أشبه ذلك . ولكن في بعض الأعراف ينتقدون هذا .

لكن كونك تضحك وتُخْجِل صاحبك ، فهذا مما لا ينبغي .

وفي هذا إشارة إلى أن الإنسان لا ينبغي له أن يعيب غيره فيما يفعله هو بنفسه ، إذا كنت لا تعيبه بنفسك فكيف تعيبه بإخوانك ؟!.

وبهذه المناسبة أود أن أنبه على مسألة شائعة عند العامة : فإنه من المعلوم أن لحم الإبل إذا أكل منه الإنسان وهو متوضئ انتقض وضوؤه ، ووجب عليه أن يتوضأ إذا أراد الصلاة ، سواء أكله نيئًا أو مطبوخًا ، وسواء كان هبرًا ، أو كبدًا ، أو مصرانًا ، أو كرشًا ، أو قلبًا ، أو رئة ، كل ما حملت البعير فإن أكله ناقض للوضوء ؛ لأن النبي ﷺ لم يستثنِ شيئًا وإنما قال : « توضئوا من لحوم الإبل » [١] ، وسئل أنتوضأ من لحوم الإبل فقال : « نعم » ، قال : من لحوم الغنم ؟ فقال : « إن شئت » [٢] ؛ لحم

---

(١) أخرجه أبو داود في الطهارة (١٨٤) ، والترمذي في الطهارة (٨١) ، وأحمد في مسنده (٢٨٨/٤) .
(٢) أخرجه مسلم في الحيض (٩٧) .

الغنم لا ينقض الوضوء ، لحم البقر لا ينقض الوضوء ، لحم الخيل لا ينقض الوضوء ، لكن لحم الإبل ينقض الوضوء ؛ إذا أكلته نيئًا أو مطبوخًا وجب عليك أن تتوضأ .

فأما شرب لبنها ، فإن الصحيح أنه ليس بناقض للوضوء ؛ لأن النبي ﷺ لما أمر العرنيين أن يخرجوا إلى إبل الصدقة ، ويشربوا من أبوالها وألبانها لم يأمرهم بالوضوء ، ولو كان واجبًا لأمرهم به ، فإن توضأت فهو أحسن ، أما الوجوب فلا .

وكذلك المرق لا يجب الوضوء منه ، وإن توضأت فهو أحسن ، أما اللحم فلابد ، وكذلك الشحم فلابد من الوضوء منه .

يقول بعض الناس إن السبب أن الرسول ﷺ كان في وليمة وكان لحمها لحم إبل ، وأنه خرجت ريح من بعض الحاضرين ولا يدري من ، فقال الرسول ﷺ : « من أكل لحم إبل فليتوضأ » فقام جميعهم يتوضئون .

وجعلوا هذا السبب في أن الإنسان يتوضأ من لحم الإبل ، وهذا حديث باطل لا أصل له ، وإنما الرسول ﷺ أمر بالوضوء من لحم الإبل لحكمة يعلمها الله ، قد نعلمها نحن ، وقد لا نعلمها ، المهم نحن علينا أن نقول : سمعنا وأطعنا ، أمرنا الرسول ﷺ أن نتوضأ من لحوم الإبل إذا أكلنا منها فسمعًا وطاعة .

* * *

٢٧٥ - وعن أبي هريرة ؓ قال : قال رسول الله ﷺ : « لا يَفْرَكْ مُؤْمِنٌ مُؤْمِنَةً ؛ إنْ كَرِهَ مِنْهَا خُلُقًا رَضِيَ مِنْهَا آخَرَ » أَو قَالَ : « غَيرَهُ » [1] رواه مسلم .

وقولُهُ : « يَفْرَكْ » هو بفتحِ الياءِ وإسكانِ الفاءِ وفتحِ الراءِ معناه : يُبْغِضُ ، يقالُ : فَرِكَتِ المَرْأَةُ زَوجَهَا ، وَفَرِكَهَا زَوجُهَا ، بكسر الراءِ ، يفْرَكُهَا بفتحِها : أي : أَبْغَضَهَا ، والله أعلم .

الشرح

ذكر المؤلف فيما نقله عن أبي هريرة ؓ أن النبي ﷺ قال : « لا يفرك مؤمن مؤمنة ، إن كره منها خُلُقًا رضي منها آخر » ، الفرك : يعني البغضاء والعداوة ، يعني : لا يعادي المؤمن المؤمنة كزوجته مثلًا لا يعاديها ويبغضها إذا رأى منها ما يكرهه من الأخلاق ؛ وذلك لأن الإنسان يجب عليه القيام بالعدل ، وأن يراعي المعامل له بما تقتضيه حاله ، والعدل أن يوازن بين السيئات والحسنات ، وينظر أيهما أكثر وأيهما أعظم وقعًا فيغلب ما كان أكثر وما كان أشد تأثيرًا ؛ لأن هذا هو العدل .

﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ كُونُواْ قَوَّٰمِينَ لِلَّهِ شُهَدَآءَ بِٱلْقِسْطِۖ وَلَا يَجْرِمَنَّكُمْ شَنَـَٔانُ قَوْمٍ عَلَىٰٓ أَلَّا تَعْدِلُواْ ﴾ [المائدة : ٨] يعني لا يحملكم بعضهم على عدم العدل ، اعدلوا ولو كنتم تبغضونه ، ولهذا لما بعث

---

(١) أخرجه مسلم في الرضاع (٦١) ، والإمام أحمد في مسنده (٢/٣٢٩) .

النبي ﷺ عبد الله بن رواحة إلى أهل خيبر ليخرص [1] عليهم ثمر النخل ، وكان النبي ﷺ قد عامل أهل خيبر حين فتحها على أن يكفوه المئونة ، ويقوموا بإصلاح النخيل والزرع ولهم النصف .

فكان يبعث عليهم من يخرص عليهم الثمرة ، فبعث إليهم عبد الله بن رواحة فخرصها عليهم ، ثم قال لهم : يا معشر اليهود أنتم أبغض الخلق إليّ ، قتلتم أنبياء الله ﷺ ، وكذبتم على الله ، وليس يحملني بغضي إياكم على أن أحيف عليكم ، قد خرصت عشرين ألف وسق من تمر ، فإن شئتم فلكم ، وإن أبيتم فلي ، فقالوا : بهذا قامت السموات والأرض » [2] .

فالشاهد : أن الرسول ﷺ أمر أن يكون الإنسان حاكمًا بالعدل وبالقسط ، فقال : « لا يفرك مؤمن مؤمنة » يعني : لا يبغضها لأخلاقها ، إن كره منها خلقًا رضي منها خلقًا آخر .

إذا أساءت مثلًا في ردِّها عليك مرة ، لكنها أحسنت إليك مرات ، أساءت ليلة لكنها أحسنت ليالي ، أساءت في معاملة الأولاد مرة ، لكن أحسنت كثيرًا .. وهكذا .

فأنت إذا أساءت إليك زوجتك لا تنظر إلى الإساءة في الوقت الحاضر ، ولكن انظر إلى الماضي وانظر إلى للمستقبل واحكم بالعدل .

وهذا الذي ذكره النبي ﷺ في المرأة يكون في غيرها أيضًا ممن يكون بينك وبينه معاملة أو صداقة أو ما أشبه ذلك . إذا أساء إليك يومًا من الدهر فلا تنس إحسانه إليك مرة أخرى وقارن بين هذا وهذا ، وإذا غلب الإحسان على الإساءة فالحكم للإحسان ، وإن غلبت الإساءة على الإحسان فانظر ؛ إن كان أهلًا للعفو فاعف عنه ، ومن عفا وأصلح فأجره على الله ، وإن لم يكن أهلًا للعفو فخذ بحقك وأنت غير ملوم إذا أخذت بحقك ، لكن انظر للمصلحة .

فالحاصل : أن الإنسان ينبغي له أن يعامل من بينه وبينه صلة من زوجية أو صداقة أو معاملة ، في بيع أو شراء أو غيره ، أن يعامله بالعدل إذا كره منه خلقًا أو أساء إليه في معاملة ، أن ينظر للجوانب الأخرى الحسنة حتى يقارن بين هذا وهذا ، فإن هذا هو العدل الذي أمر الله به ورسوله كما قال تعالى : ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ يَأۡمُرُ بِٱلۡعَدۡلِ وَٱلۡإِحۡسَٰنِ وَإِيتَآيِٕ ذِي ٱلۡقُرۡبَىٰ وَيَنۡهَىٰ عَنِ ٱلۡفَحۡشَآءِ وَٱلۡمُنكَرِ وَٱلۡبَغۡيِۚ يَعِظُكُمۡ لَعَلَّكُمۡ تَذَكَّرُونَ ﴾ [النحل : ٩٠] .

* * *

٢٧٦ – وعن عَمْرِو بن الأحْوَصِ الجُشَمِيِّ ﷺ أنَّهُ سَمِعَ النَّبِيَّ ﷺ في حَجَّةِ الوَدَاعِ يقُولُ بَعْدَ أنْ حَمِدَ اللَّه تعالى ، وأثْنَى عليه وذَكَّرَ وَوَعَظَ ، ثُمَّ قال : « ألا وَاسْتَوْصُوا بالنِّسَاءِ خَيرًا ؛ فَإنَّمَا هُنَّ عَوَان عِنْدَكُمْ ، لَيسَ تَمْلِكُونَ مِنْهُنَّ شَيئًا غيرَ ذلِكَ إلا أنْ يَأْتِينَ بِفَاحِشَةٍ مُبَيِّنَةٍ ، فإن فَعَلْنَ فَاهْجُرُوهُنَّ في

---

(١) ليخرص : أي ليحزره ويقدره بالظن : يقال خرص النخل والكرم : حزر ما عليه من الرطب تمرًا ومن العنب زبيبًا .

(٢) هذا الحديث أخرجه الإمام أحمد – واللفظ له – في مسنده (٣/٣٦٧) ، وأبو دواد في البيوع (٣٤١٠) .

المَضَاجِعِ ، وَاضْرِبُوهُنَّ ضَرْبًا غَيرَ مُبَرِّحٍ ، فإنْ أَطَعْنَكُمْ فَلا تَبْغُوا عَلَيهِنَّ سَبيلًا ، أَلا إنَّ لَكُمْ عَلَى نسَائِكُمْ حَقًّا ، وَلِنِسَائِكُمْ عَلَيكُمْ حَقًّا ، فَحَقُّكُمْ عَلَيهِنَّ : أن لا يُوطِئْنَ فُرُشَكُمْ مَنْ تَكْرَهُونَ ، وَلا يَأْذَنَّ في بُيُوتِكُمْ لِمَنْ تَكرَهُونَ ، أَلا وَحَقُّهُنَّ عَلَيكُمْ : أَنْ تُحْسِنُوا إلَيهِنَّ فِي كِسْوَتِهِنَّ وَطَعَامِهِنَّ » (١) رواه الترمذي وقال : حديث حسن صحيح .

قوله ﷺ : « عَوَانٍ » أي : أسيرَاتٌ جَمْعَ عَانِيَةٍ ، بِالعَينِ المُهْمَلَةِ ، وَهِيَ الأَسِيرَةُ ، وَالعَانِي : الأسِيرُ. شَبَّهَ رسول اللّه ﷺ المَرأَةَ في دُخُولِهَا تَحْتَ حُكْمِ الزَّوجِ بالأسِيرِ « وَالضَّرْبُ المُبَرِّحُ » : هُوَ الشَّاقُّ الشَّدِيدُ ، وقوله ﷺ : « فَلا تَبْغُوا عَلَيهِنَّ سَبيلًا » أي : لا تَطْلُبُوا طَرِيقًا تَحْتَجُّونَ بِهِ عَلَيهِنَّ وَتُؤْذُونَهُنَّ بِهِ ، واللّه أعلم .

الشرح

ذكر المؤلف رحمه الله فيما نقله عن عمرو بن الأحوص الجشمي رضي الله عنه أنه سمع النبي ﷺ في خطبة الوداع يخطب ، وكان ذلك في عرفه ؛ لأن النبي ﷺ في حجة الوداع قدم مكة يوم الأحد الرابع من ذي الحجة ، وبقي فيها إلى يوم الخميس الثامن من ذي الحجة .

وخرج ضحى يوم الخميس إلى منى ، فصلى بها الظهر والعصر والمغرب والعشاء والفجر ، فلما طلعت الشمس ، صار إلى عرفة ، فنزل بنمرة وهي مكان معروف قبل عرفة وليست من عرفة ، ثم زالت الشمس وحلت صلاة الظهر ، فأمر أن تُرَحَّل له ناقته فرحِّلت له وركب ، حتى أتى بطن الوادي - بطن عرنة - وهو شعب عظيم يحدُّ عرفة من الناحية الغربية إلى الناحية الشمالية ، فنزل ثم خطب الناس ﷺ خطبة عظيمة بليغة .

ثم قال فيها من جملة ما قال موصيًا أمته بالنساء : « استوصوا بالنساء خيرًا ، فإنما هنَّ عوان عندكم » العواني جمع عانية ، وهي الأسيرة ، يعني : أن الزوجة عند زوجها بمنزلة الأسير عند من أسره ، لأنه يملكها ، وإذا كان يملكها فهي كالأسير عنده ، ثم بين ﷺ أنه لاحق لنا أن نضربهن إلا إذا أتين بفاحشة مبينة ، والفاحشة هنا عصيان الزوج ، بدليل قوله : ﴿ فَإِنْ أَطَعْنَكُمْ فَلَا تَبْغُوا۟ عَلَيْهِنَّ سَبِيلًا ﴾ [النساء : ٣٤] يعني : إن أهملت الزوجة في حق زوجها عليها فإنه يعظها أولًا ، ثم يهجرها في المضجع فلا ينام معها ، ثم يضربها ضربًا غير مبرح إن هي استمرت على العصيان .

هذه مراتب تأديب المرأة إذا أتت بفاحشة مبينة ، وهي عصيان الزوج فيما يجب له : ﴿ فَإِنْ أَطَعْنَكُمْ فَلَا تَبْغُوا۟ عَلَيْهِنَّ سَبِيلًا ﴾ [النساء : ٣٤] يعني : لا تضربوهن ولا تقصروا في حقهن ؛ لأنهن قمن بالواجب .

ثم بين ﷺ الحق الذي لهن والذي عليهن ، فقال : « لكم عليهن ألا يوطئن فرشكم أحدًا تكرهونه »

---

(١) أخرجه الترمذي - واللفظ له - مع اختلاف في عبارة « فحقكم عليهن أن لا » إلى « فأما حقكم على نسائكم فلا » وذلك في الرضاع (١١٦٣) ، وابن ماجه في النكاح (١٨٥١) ، قوله « المضاجع » هي أماكن نوم الرجل والمرأة .

يعني : لا يجعلن أحدًا يدخل عليهن على فراش النوم أو غيره وأنت تكره أن يجلس على فراش بيتك ، وكأن هذا - والعلم عند الله - ضرب مثل ، والمعنى أن لا يكرمن أحدًا تكرهونه ؛ هذا من المضادة لكم أن يكرمن من تكرهونه بإجلاسه على الفرش أو تقديم الطعام له ، أو ما أشبه ذلك .

وأن لا يأذنَّ في بيوتكم لمن تكرهون ، يعني : لا يدخلن أحدًا البيت وأنت تكره أن يدخل ، حتى لو كانت أمها أو أباها ، فلا يحل لها أن تدخل أمها أو أباها ، أو أختها ، أو أخاها ، أو عمها أو خالها ، أو عمتها أو خالتها إلى بيت زوجها إذا كان يكره ذلك .

وإنما نبهت على هذا لأن بعض النساء - والعياذ بالله - شر ، شر حتى على ابنتها ، إذا رأت حياة ابنتها مستقرة وسعيدة مع زوجها أصابتها الغيرة - والعياذ بالله - وهي الأم ! - ثم حاولت أن تفسد ما بين ابنتها وزوجها ، فللزوج أن يمنع هذه الأم من دخول بيته ، له أن يقول لزوجته : لا تدخل بيتي ، له أن يمنعها شرعًا ، وله أن يمنع زوجته من الذهاب إليها لأنها نمامة تفسد ، وقد قال النبي ﷺ : « لا يدخل الجنة قتات »[1] أي نمام .

ثم قال ﷺ : « ولهن عليكم رزقهن وكسوتهن بالمعروف » .

فالزوج هو الذي ينفق على زوجته حتى لو كانت غنية ، ولو كانت موظفة ، فليس له حق في وظيفتها ولا في راتبها ، ليس له قرش واحد كله لها ، وتلزمه بأن ينفق عليها ؛ إذا قال : كيف أنفق عليك وأنت غنية ، ولك راتب كراتبي ؟ تقول : يلزمك الإنفاق عليها وإن كانت كذلك ، فإن أَبيت فللحاكم القاضي أن يفسخ النكاح غصبًا من الزوج ؛ وذلك لأنه ملتزم بنفقتها .

الحاصل أن خطبة حجة الوداع خطبة عظيمة قرر فيها النبي ﷺ شيئًا كثيرًا من أصول الدين ومن الحقوق ، حتى قال ﷺ من جملة ما قال : « ألا وإن ربا الجاهلية موضوع تحت قدميَّ » ؛ كانوا في الجاهلية - نسأل الله العافية - إذا حل الدين على الفقير قالوا له : إما أن تربي وإما أن تقضي : تقضي يعني : توفينا ، تربي يعني : نزيد عليك الدين حتى يصبح أضعافًا مضاعفة .

فقال ﷺ في حجة الوداع حاكمًا ومشرعًا : « إن ربا الجاهلية موضوع تحت قدميّ هاتين » يعني تحت رجلي ليس له قائمة ، ثم قال : « وأول ربًا أضع ربا العباس بن عبد المطلب »[2] .

الله أكبر ، قوة عظيمة في تنفيذ أحكام الله ، وعدل قائم ، « أول ربًا أضع ربا العباس » ، العباس عم الرسول ﷺ ؛ فلا محاباة لأحد لقرابته ولا لنسبه ولا لسلطانه .

لو كان النبي ﷺ رجلًا من أهل الدنيا لحابى عمه ، ولأبقى رباه على ما هو عليه ، لكن الرسول ﷺ

---

(١) أخرجه البخاري في الأدب (٦٠٥٦) ، ومسلم في الإيمان (١٦٩) ، قوله « قتات » القتات : هو النمَّام يقال نمَّ الحديث ينِمه وينُمه نمًّا فالنميمة نقل كلام الناس بعضهم إلى بعض على جهة الإفساد بينهم .

(٢) هذا جزء من حديث ، وقد أخرجه مسلم في الحج (١٢١٨) بلفظ « ألاكل شيء من أمر الجاهلية تحت قدمي موضوع .. » .

الذي هو غاية الخلق في العدل يقول : « أول ربًا أضع ربا العباس بن عبد المطلب » ، فإنه موضوع كله ، فليس لأحد ممن عليه الربا أن يوفيه ، فهو ساقط كأن لم يكن ؛ ليس للعباس إلا رأس ماله فقط .

وهذا كقوله ﷺ حينما جاء الناس يشفعون في امرأة من بني مخزوم كانت تستعير المتاع وتجحده ، تستعير المتاع كالقدر والفرش وغيره ، ثم إنها بعد أن تأخذ هذا المتاع كانت تنكر أنها أخذت شيئًا ، فأمر النبي ﷺ أن تقطع يدها ؛ لأنها سارقة .

فأهم قريشًا شأنها لأنها امرأة من بني مخزوم - إحدى قبائل قريش الكبرى - وقدموا أسامة بن زيد يشفع عند النبي ﷺ .

وأسامة هو ابن عتيق الرسول ﷺ زيد بن حارثة ؛ عبد أهدته خديجة للرسول ﷺ فأعتقه ثم جاء بأسامة ، وكان النبي ﷺ يحبهما - أسامة وأباه زيدًا - فقالوا لأسامة : اشفع عند الرسول ﷺ .

فلما جاء يشفع أنكر عليه النبي ﷺ ، وقال : « أتشفع في حد من حدود اللّه » . أنكر عليه إنكار توبيخ .

ثم قام فخطب الناس وقال لهم كلامًا خالدًا عظيمًا : « أيها الناس إنما أهلك من كان قبلكم ، أنهم كانوا إذا سرق فيهم الشريف تركوه ، وإذا سرق فيهم الضعيف أقاموا عليه الحد » .

والضعيف أحق بالعفو إن كان هناك تفريق ومحاباة ، ولكن وللّه الحمد ليس هناك تفريق ولا محاباة في إقامة حدود اللّه . ثم قال النبي ﷺ : « وايم اللّه ، لو أن فاطمة بنت محمد سرقت لقطعت يدها »[1] وهي أشرف من المخزومية نسبًا وقدرًا ودينًا ، وهي بلاشك أفضل من المخزومية ؛ لأنها سيدة نساء أهل الجنة رضي الله عنها .

وقوله ﷺ : « وايم اللّه » حلف وإن لم يستحلف ، لتأكيد هذا الحكم وبيان أهميته « لو أن فاطمة» وهي أشرف من هذه المخزومية « بنت محمد » أشرف البشر « سرقت لقطعت يدها » ليقطع كل الحجج والوساطات والشفاعات ، وهذا يدل على كمال عدله ﷺ .

المهم : أن الرسول ﷺ خطب في حجة الوداع خطبة عظيمة بين فيها كثيرًا من أحكام الإسلام وآدابه ، وقد قام بشرح هذه الخطبة الشيخ العلامة عبد اللّه بن محمد بن حميد - رحمة اللّه عليه - رئيس القضاة في هذه المملكة في زمنه ، شرحها شرحًا موجزًا لكنه مفيد ، فمن أحب فليرجع إليه .

* * *

٢٧٧ - وعن مُعَاوِيَة بن حَيدَةَ رضي الله عنه قال : قلت : يا رسولَ اللّه مَا حَقُّ زَوجَةِ أَحدِنَا عَلَيهِ ؟ قال : «أَنْ تُطْعِمَهَا إذَا طَعِمْتَ ، وَتَكْسُوَهَا إذَا اكْتَسيتَ ، وَلا تَضْرِب الوَجْهَ ، وَلا تُقَبِّحْ ، وَلا تَهْجُرْ إلا في

---

(١) أخرجه البخاري في الحدود (٦٧٨٨) ، ومسلم - واللفظ له - في الحدود (٨) باختلاف : « من كان قبلكم » إلى « الذين قبلكم » .

البَيتِ »[١] حديثٌ حسن رواه أبو داود وقال : معنى « لا تُقَبِّحْ » أي : لا تَقُلْ قَبَّحَكِ اللَّهُ .

٢٧٨ - وعن أبي هريرة ﷺ قال : قال رسول الله ﷺ : « أَكملُ المُؤمِنِينَ إيمَانًا أَحْسَنُهُمْ خُلُقًا ، وَخِيَارُكُمْ خِيَارُكُمْ لِنِسَائِهِمْ »[٢] رواه الترمذي وقال : حديثٌ حسنٌ صحيحٌ .

الشرح

ذكر المؤلف رحمه الله فيما نقل عن معاوية بن حيدة ﷺ أنه سأل النبي ﷺ ما حق امرأة أحدنا عليه ، والصحابة ﷺ كانوا إذا سألوا النبي ﷺ فإنما يسألونه ليعملوا لا ليعلموا فقط ، خلافًا لما عليه كثير من الناس اليوم يسألون ليعلموا ثم لا يعمل إلا قليل منهم ؛ وذلك أن الإنسان إذا علم من شريعة اللَّه ما علم كان حجة له أو عليه : إن عمل به فهو حجة له يوم القيامة ، وإن لم يعمل به كان حجة عليه يؤاخذ به .

وما أكثر ما كان الصحابة يسألون النبي ﷺ عن أمور دينهم ، ففي القرآن مسائل كثيرة : ﴿ يَسْئَلُونَكَ مَاذَا يُنفِقُونَ ﴾ [البقرة: ٢١٥] ، ﴿ وَيَسْئَلُونَكَ عَنِ الْيَتَامَىٰ ﴾ [البقرة: ٢٢٠] ، ﴿ وَيَسْئَلُونَكَ عَنِ الْمَحِيضِ ﴾ [البقرة: ٢٢٢] ، ﴿ يَسْئَلُونَكَ عَنِ الْأَهِلَّةِ ﴾[٣] [البقرة: ١٨٩] ؛ كلها أسئلة يريد بها الصحابة ﷺ أن يعلموا منها حكم اللَّه ثم يطبقوه في أنفسهم وفي أهليهم .

وهنا سأله معاوية : ما حق امرأة أحدنا عليه ؟ قال : « أن تطعمها إذا طعمت وتكسوها إذا اكتسيت » يعني لا تخص نفسك بالكسوة دونها ولا بالطعام دونها ، بل هي شريكة لك يجب عليك أن تنفق عليها كما تنفق على نفسك ، حتى إن كثيرًا من العلماء يقول : إذا لم ينفق الرجل على زوجته وطالبت بالفسخ عند القاضي فللقاضي أن يفسخ النكاح ؛ لأنه قصر بحقها الواجب لها .

قال : « ولا تضرب الوجه ولا تُقبِّح » فلا تضربها إلا لسبب وإذا ضربتها فاجتنب الوجه وليكن ضربًا غير مبرح .

وقد سبق لنا أن الإنسان إذا رأى من امرأته نشوزًا وترفُّعًا عليه ، وأنها لا تقوم بحقه وعظها أولًا ، ثم هجرها في المضجع ، ثم ضربها ضربًا غير مُبرح ، فإذا حق له أن يضربها لوجود السبب ؛ فإنه لا يضرب الوجه .

---

(١) أخرجه أبو دواد في النكاح (٢١٤٢) ، والبيهقي في سننه (٣٠٥/٧) قوله « ولا تهجر إلا في البيت » أي : لا تتحول عنها ولا تحولها إلى دار أخرى ؛ لقوله تعالى : ﴿ وَاهْجُرُوهُنَّ فِي الْمَضَاجِعِ ﴾ .

(٢) أخرجه الترمذي في الرضاع (١١٦٢) بزيادة في آخره : « خلقًا » . وأبو داود في السنة (٤٦٨٢) وليس في حديثه « وخياركم خياركم لنسائهم » .

(٣) قوله ﴿ عَنِ الْمَحِيضِ ﴾ أي : عن حكم مواقعة المرأة أثناء الحيض ، قوله ﴿ الْأَهِلَّةِ ﴾ هي جمع هلال أي يسألونك يا محمد عن الهلال لِمَ يبدو دقيقًا مثل الخيط ثم يعظم ثم يستدير ثم ينقص ويدق حتى يعود كما كان فقل لهم إنها أوقات لعباداتكم .

وكذلك غير الزوجة لا يُضرب على الوجه ، فالابن إذا أخطأ لا يُضرب على الوجه ؛ لأن الوجه أشرف ما في الإنسان ، وهو واجهة البدن كله ، فإذا ضُرب كان أذل للإنسان مما لو ضُرب غير وجهه ، يعني يُضرب الرجل مع كتفه ، مع عضده ، مع ظهره ؛ فلا يرى بذلك أنه استذل كما لو ضربته على وجهه ، ولهذا نهي عن ضرب الوجه وعن تقبيح الوجه .

قوله : « لا تقبح » يعني لا تقل : أنت قبيحة ، أو قبح اللّه وجهك ، ويشمل النهي عن التقبيح : النهي عن التقبيح الحسي والمعنوي ، فلا يقبحها مثل أن يقول : أنت من قبيلة رديئة أو من عائلة سيئة أو غير ذلك .

كل هذا من التقبيح الذي نهى اللّه عنه ، قال : « ولا تهجر إلا في البيت » يعني إذا وجد سبب الهجر فلا تهجرها علنًا وتظهر للناس أنك هجرتها .

اهجرها في البيت ؛ لأنه ربما تهجرها اليوم وتتصالح معها في الغد فتكون حالكما مستورة ، لكن إذا ظهرت حالكما للناس بأن قمت بنشر ذلك والتحديث به كان هذا خطأ ، اهجرها في البيت ، ولا يطلع على هجرك أحد ، حتى إذا اصطلحت معها رجع كل شيء على ما يرام ، دون أن يطلع عليه أحد من الناس .

أما الحديث الثاني : حديث أبي هريرة ﷺ ، فإنه حديث عظيم ، قال فيه النبي ﷺ : « أكمل الناس إيمانًا أحسنهم خلقًا » .

الإيمان يتفاوت ويتفاضل كما قال اللّه تعالى : ﴿ وَيَزْدَادَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِيمَٰنًا ﴾ [المدثر : ٣١] وليس الناس في الإيمان سواء ؛ من الناس من يؤمن بالغيب وكأنه يشاهده شهود عيان ، يؤمن بيوم القيامة وكأنه الآن في تلك الساعات ، يؤمن بالجنة وكأنها ماثلة أمامه ، يؤمن بالنار وكأنه يراها بعينه ، يؤمن إيمانًا حقيقيًا مطمئنًا لا يخالطه شك .

ومن الناس من يكون مزعزع الإيمان - نسأل اللّه العافية - كما قال تعالى : ﴿ وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يَعْبُدُ ٱللَّهَ عَلَىٰ حَرْفٍ ﴾ [الحج : ١١] يعني على طرف ﴿ فَإِنْ أَصَابَهُۥ خَيْرٌ ﴾ يعني إن لم يواجه أحدًا يشككه في الدين ، ولم يواجه إلا صلحاء يعينونه ﴿ ٱطْمَأَنَّ بِهِۦ ﴾ أي ركن إليه .

﴿ وَإِنْ أَصَابَتْهُ فِتْنَةٌ ٱنقَلَبَ عَلَىٰ وَجْهِهِۦ خَسِرَ ٱلدُّنْيَا وَٱلْءَاخِرَةَ ﴾ [الحج : ١١] إن أصابته فتنة في بدنه ، أو ماله ، أو أهله انقلب على وجهه واعترض على القضاء والقدر ، وتسخط وهلك - والعياذ باللّه - ﴿ خَسِرَ ٱلدُّنْيَا وَٱلْءَاخِرَةَ ﴾ .

فأكمل المؤمنين إيمانًا أحسنهم خلقًا ، وفي هذا حث عظيم على حسن الخلق ، حسن الخلق مع اللّه وحسن الخلق مع الناس .

أما حسن الخلق مع اللّه : فأن يرضى الإنسان بشريعته ، وينقاد إليها مسلمًا راضيًا ، مطمئنًا بها ، سواء كان أمرًا يأمر به ، أو نهيًا ينهى عنه .

وأن يرضى الإنسان بقدر الله ﷻ ، ويكون الذي قدر الله عليه مما يسوءه كالذي قدر الله عليه مما يسره ، فيقول : يا رب كل شيء من عندك ، فأنا راضٍ بك ربًّا ، إن أعطيتني ما يسرني شكرت ، وإن أصابني ما يسوءني صبرت ، فيرضى بالله ، قضاءً وقدرًا ، وأمرًا وشرعًا ؛ هذا حسن الخلق مع الله .

أما حسن الخلق مع الناس : فظاهر ، فكفُّ الأذى وبذلُ الندى ، والصبر عليهم وعلى أذاهم ، هذا من حسن الخلق مع الناس ؛ أن تعاملهم بهذه المعاملة تكفّ أذاك عنهم ، وتبذل نداك . الندى يعني العطاء ، سواء كان مالًا أو جاهًا أو غير ذلك ، وكذلك تصبر على البلاء منهم ، فإذا كنت كذلك كنت أكمل الناس إيمانًا .

ثم قال النبي ﷺ : « خيركم خيركم لأهله وأنا خيركم لأهلي » (١) فخير الناس هو خيرهم لأهله ، لأن الأقربين أولى بالمعروف فإذا كان فيك خير فليكن أهلك هم أول المستفيدين من هذا الخير .

وهذا عكس ما يفعله بعض الناس اليوم ، تجده سيئ الخلق مع أهله ، حسن الخلق مع غيرهم ، وهذا خطأ عظيم ؛ أهلك أحق بإحسان الخلق ؛ أحسن الخلق معهم ؛ لأنهم هم الذين معك ليلًا ونهارًا ، سرًّا وعلانية ، إن أصابك شيء أصيبوا معك ، وإن سررت سروا معك ، وإن حزنت حزنوا معك ، فلتكن معاملتك معهم خيرًا من معاملتك مع الأجانب ، فخير الناس خيرهم لأهله .

نسأل الله أن يكمل لي وللمسلمين الإيمان ، وأن يجعلنا خير عباد الله في أهلينا ومن لهم حق علينا .

* * *

٢٧٩ - وعن إياس بن عبد الله بن أبي ذُبابٍ ﷺ قال : قال رسول الله ﷺ : « لا تَضْرِبُوا إِمَاءَ اللَّه » فَجَاءَ عُمَرُ ﷺ إلى رسول الله ﷺ ، فَقَالَ : ذَئِرْنَ النِّسَاءُ عَلَى أَزْوَاجِهِنَّ ، فَرَخَّصَ في ضَرْبِهِنَّ ، فَأَطَافَ بآلِ رسول الله ﷺ نَساءٌ كثيرٌ يَشْكُونَ أَزْوَاجَهُنَّ ، فقال رسول الله ﷺ : « لَقَدْ أَطَافَ بِآلِ بَيتِ مُحَمَّدٍ نساءٌ كَثير يَشْكُونَ أَزْوَاجَهُنَّ ، لَيسَ أُولئِكَ بخِيَارِكُمْ » (٢) رواه أبو داود بإسنادٍ صحيح .

قوله : « ذَئِرْنَ » هُوَ بذَال مُعْجَمَةٍ مَفْتُوحَةٍ ثُمَّ هَمْزَةٍ مَكْسُورَةٍ ثُمَّ رَاءٍ سَاكِنَةٍ ثُمَّ نُونٍ : أَي : اجْتَرأْنَ ، قوله : « أَطَافَ » أَي : أَحَاطَ .

٢٨٠ - وعن عبد الله بن عمرو بن العاص ﷺ أن رسول الله ﷺ قال : « الدُّنْيَا مَتَاعٌ ، وَخَيرُ مَتَاعِهَا المَرْأَةُ الصَّالِحَةُ » (٣) رواه مسلم .

---

(١) أخرجه الترمذي في المناقب (٣٨٩٥) ، وابن ماجه في النكاح (١٩٧٧) .

(٢) أخرجه أبو داود في النكاح (٢١٤٦) - واللفظ له - ولكن بدون كلمة « بيت » بعد « آل » وابن ماجه في سننه في النكاح (١٩٨٥) قوله « بآل بيت محمد » المقصود به هنا نساء النبي ﷺ . قوله « ليس أولئك بخياركم » أي الضاربون لأزواجهم .

(٣) أخرجه مسلم في الرضاع (٦٤) .

الشرح

ذكر - رحمه الله تعالى - فيما نقله فيما يتعلق بأمر النساء ، أن النبي ﷺ قال : « لا تضربوا إماء الله » ، يريد بذلك النساء ، فيقال أمة الله كما يقال عبد الله ، ويقال إماء الله كما يقال عباد الله ، ومن ذلك الحديث الصحيح « لا تمنعوا إماء الله مساجد الله » (١) .

نهاهم عن ضرب النساء ، فكفوا عن ذلك ؛ لأن الصحابة ﷺ كانوا من الطراز الأول والجيل المفضَّل ، الذين إذا دعوا إلى الله ورسوله قالوا سمعنا ، وأطعنا فكفوا عن ضرب النساء .

والنساء قاصرات عقل وناقصات دين . فلما نهى النبي ﷺ عن ضربهن ، اجترأن على أزواجهن ، كما قال عمر بن الخطاب ﷺ : يا رسول الله إن النساء ذئرن على أزواجهن ، يعني اجترأن وتعالين على الرجال ، فلما سمع النبي ﷺ ما قال عمر أجاز ضربهن ، فأفرط الرجال في ذلك وجعلوا يضربونهن حتى وإن لم يكن ذلك من حقهم ، فطافت النساء بآل النبي ﷺ ، أي ببيوته ، وجعلن يتجمعن حول بيوت النبي ﷺ يشكون أزواجهن .

فقال النبي ﷺ يخاطب الناس يخبرهم بأن هؤلاء الذين يضربون أزواجهن ليسوا بخيارهم ، أي ليسوا بخيار الرجال ، وهذا كقوله : « خيركم خيركم لأهله » فدل هذا على أن الإنسان يُفْرِط ولا يُفَرِّط في ضرب أهله ؛ إن وجد سببًا يقتضي الضرب فلا بأس .

وقد بين الله ﷻ مراتب ذلك في كتابه فقال : ﴿ وَٱلَّٰتِي تَخَافُونَ نُشُوزَهُنَّ فَعِظُوهُنَّ وَٱهْجُرُوهُنَّ فِي ٱلْمَضَاجِعِ وَٱضْرِبُوهُنَّ ﴾ [النساء : ٣٤] المرتبة الثالثة : الضرب ، وإذا ضربوهن فليضربوهن ضربًا غير مبرح .

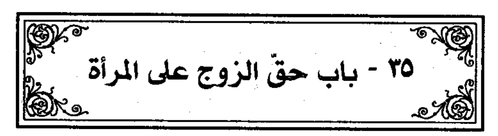
ثم ذكر المؤلف حديث عبد الله بن عمرو بن العاص أن النبي ﷺ قال : « الدنيا متاع ، وخير متاعها المرأة الصالحة » فقوله ﷺ : « الدنيا متاع » يعني شيء يتمتع به ، كما يتمتع المسافر بزاده ثم ينتهي ، وخير متاعها المرأة الصالحة ؛ إذا وفق الإنسان لامرأة صالحة في دينها وعقلها فهذا خير متاع الدنيا ؛ لأنها تحفظه في سره وماله وولده .

وإذا كانت صالحة في العقل أيضًا ، فإنها تدبر له التدبير الحسن في بيته وفي تربية أولادها ، إن نظر إليها سرته ، وإن غاب عنها حفظته ، وإن وكل إليها أمره لم تخنه ، فهذه المرأة هي خير متاع الدنيا .

ولهذا قال النبي ﷺ : « تنكح المرأة لأربع ؛ لمالها وحسبها وجمالها ودينها ، فاظفر بذات الدين تربت يداك » (٢) ، يعني عليك بها ، فإنها خير من يتزوجه الإنسان ؛ فذات الدين وإن كانت غير جميلة الصورة ، لكن يجملها خلقها ودينها ، فاظفر بذات الذين تربت يداك .

* * *

(١) أخرجه البخاري في الجمعة (٩٠٠) ، ومسلم في الصلاة (١٣٦) ، وأحمد في مسنده (٢/١٦،٣٦) .
(٢) أخرجه البخاري - واللفظ له - مع إضافة « اللام » إلى كلمة : « وحسبها ، ودينها » قوله « تربت يداك » هذه الكلمة جارية على ألسنة العرب يريدون بها الدعاء على المخاطب والمراد بها الحث والتحريض .



٣٥ - باب حقّ الزوج على المرأة

قال الله تعالى : ﴿ ٱلرِّجَالُ قَوَّٰمُونَ عَلَى ٱلنِّسَآءِ بِمَا فَضَّلَ ٱللَّهُ بَعْضَهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ وَبِمَآ أَنفَقُواْ مِنْ أَمْوَٰلِهِمْۚ فَٱلصَّٰلِحَٰتُ قَٰنِتَٰتٌ حَٰفِظَٰتٌ لِّلْغَيْبِ بِمَا حَفِظَ ٱللَّهُۚ ﴾ (١) [النساء : ٣٤] .

وَأَمَّا الأَحَادِيثُ : فَمِنْهَا حَدِيثُ عَمْرو بن الأَحْوَصِ السَّابق في البَاب قَبْلَهُ .

٢٨١ - وعن أَبي هريرة رضي الله عنه قال : قال رسول اللَّه ﷺ : « إِذَا دَعَا الرَّجُلُ امْرَأَتَهُ إِلَى فِرَاشِهِ فَلَمْ تأْتِهِ فَبَاتَ غَضْبَانَ عَلَيهَا لَعَنَتْهَا المَلائِكَةُ حَتَّى تُصْبِحَ » (٢) متفقٌ عليه .

وفي رواية لهما : « إذا بَاتَتِ المَرْأَةُ هَاجِرَةً فِرَاش زَوجِهَا لَعَنَتْها المَلاَئِكَةُ حَتَّى تُصْبِحَ » (٣) .

وفي رواية قال رسول اللَّه ﷺ : « والَّذِي نَفْسِي بيَدِهِ مَا مِنْ رَجُلٍ يَدْعُو امْرَأَتَهُ إِلَى فِرَاشِهِ فَتَأْبَى عَلَيهِ إلا كانَ الَّذِي فِي السَّمَاءِ سَاخِطًا عَلَيهَا حَتَّى يَرضَى عَنْهَا » (٤) .

الشرح

قال المؤلف - رحمه اللَّه تعالى - : باب حق الزوج على المرأة . لما ذكر رحمه الله حقوق الزوجة على زوجها ، ذكر حقوق الزوج على زوجته ، ثم استدل بقول اللَّه تعالى : ﴿ ٱلرِّجَالُ قَوَّٰمُونَ عَلَى ٱلنِّسَآءِ بِمَا فَضَّلَ ٱللَّهُ بَعْضَهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ وَبِمَآ أَنفَقُواْ مِنْ أَمْوَٰلِهِمْۚ فَٱلصَّٰلِحَٰتُ قَٰنِتَٰتٌ حَٰفِظَٰتٌ لِّلْغَيْبِ بِمَا حَفِظَ ٱللَّهُۚ ﴾ .

قوله تعالى : ﴿ ٱلرِّجَالُ قَوَّٰمُونَ عَلَى ٱلنِّسَآءِ ﴾ : يعني أن الرجل هو القيم الذي له الأمر على المرأة ، يدبرها ويوجهها ويأمرها فتطيع ، إلا إذا أمرها بمعصية اللَّه فلا سمع له ولا طاعة ؛ لأنه لا طاعة لمخلوق في معصية (٥) الخالق مهما كان هذا المخلوق .

وفي هذا : دليل على سفه أولئك الكفار من الغربيين وغير الغربيين ، الذين صاروا أذنابًا للغرب يقدسون المرأة أكثر من تقديس الرجل ؛ لأنهم يتبعون أولئك الأراذل من الكفار الذين لم يعرفوا لصاحب الفضل فضله ، فتجدهم مثلًا في مخاطباتهم يقدمون المرأة على الرجل فيقول أحدهم : أيها السيدات والسادة ، وتجد المرأة في المكان الأعلى عندهم والرجل دونها .

---

(١) قوله : ﴿ بِمَا فَضَّلَ ٱللَّهُ بَعْضَهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ ﴾ أي سبب تفضيله الرجال على النساء بكمال العقل وحسن التدبير ومزيد القوة في الأعمال والطاعات . قوله ﴿ حَٰفِظَٰتٌ لِّلْغَيْبِ ﴾ أي للسر أو للطفل الذي هو من الرجل في أرحامهن .

(٢) أخرجه البخاري في بدء الخلق (٣٢٣٧) ، ومسلم - واللفظ له - في النكاح (١٢٢) .

(٣) أخرجه البخاري في النكاح (٥١٩٤) ، ومسلم - واللفظ له - في النكاح (١٢٠) .

(٤) هذه رواية لمسلم مع اختلاف لفظ : فراشه إلى فراشها وقد أخرجه مسلم في النكاح (١٢١) .

(٥) هذا حديث ذكره السيوطي في الدر المنثور (١٧٧/٢) .

ولكن هذا ليس بغريب على قوم يقدسون كلابهم ، حتى إنهم يشترون الكلب بالآلاف ويخصصون له من الصابون وآلات التطهير وغير ذلك ما يضحك السفهاء فضلًا عن العقلاء ، مع أن الكلب نجس العين ، لا يطهر أبدًا .

فالحاصل أن الرجال هم القوامون على النساء ﴿ بِمَا فَضَّلَ ٱللَّهُ بَعْضَهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ وَبِمَآ أَنفَقُواْ مِنْ أَمْوَٰلِهِمْ ﴾ وهذا وجه آخر للقوامة على النساء ، وهو أن الرجل هو الذي ينفق على المرأة ، وهو المطالب بذلك ، وهو صاحب البيت ، وليست المرأة هي التي تنفق .

وهذا إشارة إلى أن أصحاب الكسب الذين يكسبون ويعملون هم الرجال ، أما المرأة فصناعتها بيتها ، تبقى في بيتها تصلح أحوال زوجها ، وأحوال أولادها ، وأحوال البيت ، هذه وظيفتها ، أما أن تشارك الرجال بالكسب وطلب الرزق ثم بالتالي تكون هي المنفقة عليه ؛ فهذا خلاف الفطرة وخلاف الشريعة ، فاللَّه تعالى يقول : ﴿ وَبِمَآ أَنفَقُواْ مِنْ أَمْوَٰلِهِمْ ﴾ فصاحب الإنفاق هو الرجل .

قال تعالى : ﴿ فَٱلصَّٰلِحَٰتُ قَٰنِتَٰتٌ حَٰفِظَٰتٌ لِّلْغَيْبِ بِمَا حَفِظَ ٱللَّهُ ﴾ فالصالحات قانتات أي : مديمات للطاعة ، الصالحة تفنت ليس معناها : الدعاء بالقنوت ، بل القنوت دوام الطاعة كما قال تعالى : ﴿ وَقُومُواْ لِلَّهِ قَٰنِتِينَ ﴾ [البقرة : ٢٣٨] أي مديمين لطاعته ﴿ قَٰنِتَٰتٌ حَٰفِظَٰتٌ لِّلْغَيْبِ بِمَا حَفِظَ ٱللَّهُ ﴾ يعني يحفظن سر الرجل وغيبته وما يكون داخل جدرانه من الأمور الخاصة ، وتحفظه بما حفظ اللَّه ، أي بما أمر اللَّه تعالى بحفظه فهذه هي الصالحة ، فعليك بالمرأة الصالحة ؛ لأنها خيرٌ لك من امرأة جميلة ليست بصالحة .

ثم ذكر المؤلف رَحِمَهُ اللَّهُ حديث أبي هريرة رضي الله عنه أن النبي ﷺ قال : « إذا دعا الرجل امرأته إلى فراشه فأبت عليه لعنتها الملائكة حتى تصبح » .

ولعن الملائكة يعني أنها تدعو على هذه المرأة باللعنة ، واللعنة هي الطرد والإبعاد عن رحمة اللَّه ، فإذا دعاها إلى فراشه ليستمتع بها بما أذن اللَّه له فيه فأبت أن تجيء ، فإنها تلعنها الملائكة – والعياذ باللَّه – أي تدعو عليها باللعنة إلى أن تصبح .

واللفظ الثاني : أنها إذا هجرت فراش زوجها ، فإن اللَّه تعالى يغضب عليها حتى يرضى عنها الزوج ، وهذا أشد من الأول ؛ لأن اللَّه ﷻ إذا سخط فإن سخطه أعظم من لعنة الإنسان ، نسأل اللَّه العافية .

ودليل ذلك : أن اللَّه تعالى ذكر في آية اللعان أنه إذا لاعن الرجل يقول : ﴿ أَنَّ لَعْنَتَ ٱللَّهِ عَلَيْهِ إِن كَانَ مِنَ ٱلْكَٰذِبِينَ ﴾ [النور : ٧] وهي إذا لاعنت تقول : ﴿ أَنَّ غَضَبَ ٱللَّهِ عَلَيْهَآ إِن كَانَ مِنَ ٱلصَّٰدِقِينَ ﴾ [النور : ٩] وهذا يدل على أن الغضب أشد .

وأيضًا قال في الحديث : « إلا كان الذي في السماء ساخطًا عليها حتى يرضى عنها » أي الزوج ، وهناك قال : « حتى تصبح » ، أما هنا فعلقه برضى الزوج ، وهذا قد يكون أقل ، وقد يكون أكثر

يعني ربما يرضى الزوج عنها قبل طلوع الفجر وربما لا يرضى إلا بعد يومٍ أو يومين ، المهم مادام الزوج ساخطًا عليها فالله ﷻ ساخطٌ عليها .

وفي هذا : دليل على عظم حق الزوج على زوجته ، ولكن هذا في حق الزوج القائم بحق الزوجة ، أما إذا نشز ولم يقم بحقها ، فلها الحق أن تقتصَّ منه وألا تعطيه حقه كاملًا ، لقول الله تعالى : ﴿ الشَّهْرُ الْحَرَامُ بِالشَّهْرِ الْحَرَامِ وَالْحُرُمَاتُ قِصَاصٌ فَمَنِ اعْتَدَىٰ عَلَيْكُمْ فَاعْتَدُوا عَلَيْهِ بِمِثْلِ مَا اعْتَدَىٰ عَلَيْكُمْ ﴾ [البقرة : ١٩٤] ، ولقوله تعالى : ﴿ وَإِنْ عَاقَبْتُمْ فَعَاقِبُوا بِمِثْلِ مَا عُوقِبْتُم بِهِ ﴾ [النحل : ١٢٦] .

لكن إذا كان الزوج مستقيمًا قائمًا بحقها فنشزت هي وضيعت حقه فهذا جزاؤها إذا دعاها إلى فراشه فأبت أن تأتي .

والحاصل : أن هذه الألفاظ التي وردت في هذا الحديث هي مطلقة ، لكنها مقيدة بكونه قائمًا بحقها ، أما إذا لم يَقمْ بحقها فلها أن تقتص منه وأن تمنعه من حقه مثل ما منعها من حقها ، لقوله تعالى : ﴿ فَمَنِ اعْتَدَىٰ عَلَيْكُمْ فَاعْتَدُوا عَلَيْهِ بِمِثْلِ مَا اعْتَدَىٰ عَلَيْكُمْ ﴾ ، قوله : ﴿ وَإِنْ عَاقَبْتُمْ فَعَاقِبُوا بِمِثْلِ مَا عُوقِبْتُم بِهِ ﴾ .

وفي هذا الحديث : دليل صريح لما ذهب إليه أهل السنة والجماعة وسلف الأمة من أن الله ﷻ في السماء هو نفسه جل وعلا ، فوق عرشه ، فوق سبع سموات ، وليس المراد بقوله في السماء في ملكه في السماء ، بل هذا تحريفٌ للكلم في مواضعه .

وتحريف الكلم عن مواضعه من صفات اليهود - والعياذ بالله - الذين حرفوا التوراة عن مواضعها ، وعما أراد الله بها ، فإن ملك الله ﷻ في السماء وفي الأرض ، كما قال تعالى : ﴿ وَلِلَّهِ مُلْكُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ ﴾ [آل عمران : ١٨٩] ، وقال أيضًا : ﴿ قُلْ مَنْ بِيَدِهِ مَلَكُوتُ كُلِّ شَيْءٍ وَهُوَ يُجِيرُ وَلَا يُجَارُ عَلَيْهِ ﴾ [المؤمنون : ٨٨] ، وقال أيضًا : ﴿ لَهُ مَقَالِيدُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ ﴾ [الشورى : ١٢] .

كل السموات والأرض بيد الله ﷻ ، كلها ملك الله ، ولكن المراد أنه هو نفسه ﷻ فوق سماواته على العرش استوى ، ولذلك نجد أن المسألة فطرية لا تحتاج إلى دراسة وتعب حتى يقر الإنسان أن الله في السماء ، بمجرد الفطرة يرفع الإنسان يديه إلى ربه إذا دعا ويتجه قلبه إلى السماء ، واليد ترفع أيضًا نحو السماء .

بل حتى البهائم ترفع إلى السماء ، حدثني أحد الأساتذة في الجماعة عندنا عن شخص اتصل عليه من القاهرة إبان الزلزلة التي أصابت مصر يقول : إنه قبل الزلزلة بدقائق ، هاجت الحيوانات في مقرها الذي يسمونه : « حديقة الحيوانات » هاجت هياجًا عظيمًا ثم بدأت ترفع رأسها إلى السماء ، سبحان الله ، بهائم تعرف أن الله في السماء ، وأوادم من بني آدم ينكرون أن الله في السماء والعياذ بالله ، فالبهائم تدري وتعرف .

نحن نشاهد بعض الحشرات إذا طردتها أو آذيتها وقفت ثم رفعت قوائمها إلى السماء ، نشاهدها

مشاهدة ، فهذا يدل على أن كون الله ﷻ في السماء أمر فطري لا يحتاج إلى دليل أو تعب أو عنت ، حتى الذين ينكرون أن الله في السماء - نسأل الله لنا ولهم الهداية - لو جاءوا يدعون أين يرفعون أيديهم ؟ .. إلى السماء ، فسبحان الله ! أفعالهم تكذب عقيدتهم ، هذه العقيدة الباطلة الفاسدة التي يخشى عليهم من الكفر بها .

وهذه جارية ، أمة مملوكة في عهد النبي ﷺ ، أراد سيدها أن يعتقها ، فقال له النبي ﷺ : « ادعها » ، فجاءت الجارية ، فقال لها النبي ﷺ : « أين الله ؟ » قالت : الله في السماء . قال : « من أنا » قالت : أنت رسول الله قال لسيدها : « اعتقها فإنها مؤمنة » [1] .

وسبحان الله ، إن هؤلاء الذين يعتقدون أن الله ليس في السماء ، يقولون من قال إن الله في السماء فهو كافر والعياذ بالله نسأل الله لنا ولهم الهداية .

المهم : أن من عقيدتنا التي ندين الله بها أن الله ﷻ فوق كل شيء وهو القاهر فوق عباده ، وأنه على العرش استوى ، وأن العرش على السموات مثل القبة ، كأنه قبة أي خيمة مضروبة على السموات والأرض ، والسموات والأرض بالنسبة للعرش ليست بشيء .

وجاء في بعض الآثار : أن السموات السبع والأرضين السبع بالنسبة للكرسي كحلقة ألقيت في فلاة من الأرض ، حلقة الدرع حلقة ضيقة ما يدخل فيها مفتاح ، إذا ألقيت في فلاة من الأرض ماذا تشغل من مساحة هذه الفلاة ؟ لا شيء .

قال : « وإن فضل العرش على الكرسي ، كفضل الفلاة على هذه الحلقة » [2] ، إذًا الله أكبر من كل شيء ، ولهذا قال الله ﷻ : ﴿ وَسِعَ كُرۡسِيُّهُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضَۖ ﴾ يعني : أحاط بها فما بالك بالرب ﷻ .

فالرب ﷻ فوق كل شيء ، هذه عقيدتنا التي نسأل الله تعالى أن نموت عليها ونبعث عليها ، هذه العقيدة التي يعتقدها أهل السنة والجماعة بالاتفاق .

* * *

٢٨٢ - وعن أبي هريرة ﷺ أيضًا أن رسول الله ﷺ قال : « لا يَحِلُّ لامْرَأَةٍ أنْ تَصُومَ وَزَوجُهَا شَاهِدٌ إلا بِإِذْنِهِ ، وَلا تَأْذَنَ فِي بَيْتِهِ إلا بإِذنهِ » [3] متفقٌ عليه . وهذا لفظ البخاري .

الشرح

قال المؤلف - رحمه الله تعالى - فيما نقله عن أبي هريرة ﷺ : إن النبي ﷺ قال : « لا يحل لامرأةٍ أن تصوم وزوجها شاهد إلا بإذنه ، ولا تأذن في بيته إلا بإذنه » .

---

(١) أخرجه مسلم في المساجد (٣٣) .

(٢) هذا الأثر ذكره الألباني في السلسلة الصحيحة رقم (١٠٩) تحت عنوان : من عظمة العرش والكرسي .

(٣) أخرجه البخاري - واللفظ له - مع اختلاف كلمة « لامرأة » إلى « للمرأة » في النكاح (٥١٩٥) ، ومسلم في الزكاة (٨٤) .

هذا من حقوق الزوج على زوجته ، أنه لا يحل لها أن تصوم إلا بإذنه مادام حاضرًا في البلد ، أما إذا كان غائبًا فلها أن تصوم ما شاءت ، لكن إذا كان في البلد فلا تصوم .

وظاهر الحديث أنها لا تصوم فرضًا ولا نفلًا إلا بإذنه ، أما النفل فواضح أنها لا تصوم إلا بإذنه ؛ لأن حق الزوج عليها واجب والنفل تطوع لا تأثم بتركه ، وحق الزوج تأثم بتركه ، وذلك أن الزوج ربما يحتاج إلى أن يستمتع بها ، فإذا كانت صائمة وأراد الاستمتاع بها صار في نفسه حرج ، وإلا فله أن يستمتع بها ويجامعها وهي صائمة صوم تطوع إذا لم يأذن فيه من قبل ولو أفسد صومها ولا إثم عليه .

لكن من المعلوم أنه سيكون في نفسه حرج ، ولهذا قال النبي ﷺ : « لا يحل لامرأةٍ أن تصوم وزوجها شاهد إلا بإذنه » .

أما صيام الفرض فإن كان قد بقي من السنة مدة أكثر مما يجب عليها ، فلا يحل لها أن تصوم إلا بإذن زوجها إذا كان شاهدًا ، يعني مثلًا عليها عشرة أيام من رمضان ، وهي الآن في رجب ، وقالت : أريد أن أصوم القضاء ، نقول : لا تصومي القضاء إلا بإذن الزوج ؛ لأن معك سعة من الوقت ، أما إذا كان بقي من شعبان عشرة أيام فلها أن تصوم وإن لم يأذن ؛ لأنه يلا يحل للإنسان الذي عليه قضاء من رمضان أن يؤخره إلى رمضان الثاني ، وحينئذٍ تكون فاعلة لشيءٍ واجب فرض في الدين ، وهذا لا يشترط فيه إذن الزوج ولا غيره .

فصوم المرأة فيه تفصيل : أما التطوع فلا يجوز إلا بإذن الزوج ، وأما الفرض فإن كان الوقت متسعًا ، فإنه لا يجوز إلا بإذن الزوج ، وإن كان لا يسع إلا مقدار ما عليها من الصوم ، فإنه لا يشترط إذن الزوج ، هذا إذا كان حاضرًا ، أما إذا كان غائبًا فلها أن تصوم .

وهل مثل ذلك الصلاة ؟ يحتمل أن تكون الصلاة مثل الصوم ، وأنها لا تتطوع في الصلاة إلا بإذنه ، ويحتمل أن لا تكون مثل الصوم ؛ لأن وقت الصلاة قصير بخلاف الصوم ، الصوم كل النهار ، والصلاة ليست كذلك ، الصلاة ركعتان إذا كانت تطوعًا ، والفريضة معروف أنه لا يشترط إذنه .

والظاهر : أن الصلاة ليست كالصوم ، فلها أن تصلي ولو كان زوجها حاضرًا ، إلا أن يمنعها فيقول : أنا محتاج إلى استمتاع ، لا تصلين الضحى مثلًا ، لا تتهجدين الليلة .

على أنه لا يجوز للزوج أن يحرم زوجته الخير ، إلا إذا كان هناك حاجة بأن غلبت عليه الشهوة ، ولا يتمكن من الصبر ، وإلا فعليه أن يكون عونًا لها على طاعة اللَّه ، وعلى فعل الخير ؛ لأنه يكون مأجورًا بذلك كما أنها مأجورة أيضًا على الخير .

وأما إدخال أحد بيته بغير إذنه فظاهر . فلا يجوز أن تُدخل أحدًا بيته إلا بإذنه ، لكن الإذن في إدخال البيت نوعان :

الإذن الأول : إذن العرف : يعني جرى به العرف مثل دخول امرأة الجيران والقريبات والصاحبات والزميلات وما أشبه ذلك ، هذا جرى العرف به ، وأن الزوج يأذن به ، فلها أن تدخل هؤلاء إلا إذا

منع وقال : لا تدخل عليك فلانة ، فهنا يجب المنع ، ويجب أن لا تدخل .

والإذن الثاني : إذن لفظي ، بأن يقول لها : أدخلي من شئتِ ولا حرج عليكِ إلا من رأيتِ منه مضرة فلا تدخليه ، فيتقيد الأمر بإذنه .

وفي هذا : دليل على أن الزوج يتحكم في بيته أن يمنع حتى أم الزوجة إذا شاء أن يمنعها ، وحتى أختها وخالتها وعمتها ، لكنه لا يمنعها من هؤلاء إلا إذا كان هناك ضرر عليه وعلى بيته ؛ لأن بعض النساء - والعياذ بالله - لا يكون فيها خير ، تكون ضررًا على ابنتها وزوجها ، تأتي إلى ابنتها وتحقنها من العداوة والبغضاء بينها وبين الزوج ، حتى تكره زوجها ، ومثل هذه الأم لا ينبغي أن تُترك مع ابنتها لأنها تفسدها على زوجها ، فهي كالسحرة الذين يتعلمون ما يفرقون به بين المرء وزوجه .

* * *

٢٨٣ - وعن ابن عمر رضي الله عنهما عن النبي ﷺ قال : « كُلُّكُمْ رَاعٍ وَكُلُّكُمْ مَسْؤُولٌ عَنْ رَعِيَّتِهِ ، وَالأَمِيرُ رَاعٍ ، وَالرَّجُلُ رَاعٍ عَلَى أَهْلِ بَيتِهِ ؛ وَالمَرْأَةُ رَاعِيَةٌ عَلَى بَيتِ زَوجِها وَوَلَدِهِ ، فَكُلُّكُمْ رَاعٍ ، وَكُلُّكُمْ مَسْؤُولٌ عَنْ رَعِيَّتِهِ » [(١)] متفقٌ عليه .

٢٨٤ - وعن أَبي عَلِي طلق بن علي رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال : « إِذَا دَعَا الرَّجُلُ زَوجَتَهُ لِحَاجَتِهِ فَلْتَأْتِهِ وَإِنْ كَانَت عَلَى التَّنُّور » [(٢)] رواه الترمذي والنسائي وقال الترمذي : حديث حسن صحيح .

٢٨٥ - وعن أَبي هريرة رضي الله عنه عن النبي ﷺ قال : « لَو كُنْتُ آمِرًا أَحَدًا أَنْ يَسْجُدَ لأَحَدٍ لأَمَرْتُ المَرْأَةَ أَنْ تَسْجُدَ لِزَوجِهَا » [(٣)] رواه الترمذي وقال : حديث حسن صحيح .

٢٨٦ - وعن أُمِّ سَلَمَة رضي الله عنها قالت : قال رسول الله ﷺ : « أَيُّمَا امْرَأَةٍ مَاتَتْ ، وَزَوجُهَا عَنْهَا رَاضٍ دَخَلَتِ الجَنَّة » [(٤)] رواه الترمذي وقال : حديث حسن .

الشرح

قال المؤلف - رحمه الله تعالى - فيما نقله عن عبد الله بن عمر رضي الله عنهما : إن النبي ﷺ قال : « كلكم راعٍ ، وكلكم مسؤول عن رعيته » .

الخطاب للأمة جميعًا يبين فيه الرسول ﷺ أن كل إنسان راعٍ ومسؤول عن رعيته . والراعي هو

(١) أخرجه البخاري في الجمعة (٨٩٣) - بألفاظ مختلفة - ، ومسلم كذلك في الإمارة (٢٠) .
(٢) أخرجه الترمذي في الرضاع (١١٦٠) ، وابن حبان (١٢٩٥) قوله « لحاجته » أي : لما يريده الرجل من زوجته من أمور زوجية ، قوله « التَّنُّور » : الفرن الذي يخبز فيه .
(٣) أخرجه الترمذي في الرضاع (١١٥٩) .
(٤) أخرجه الترمذي في الرضاع (١١٦١) ، وابن ماجة في النكاح (١٨٥٤) .

الذي يقوم على الشيء ويرعى مصالحه فيهيئها له ، ويرعى مفاسده فيجنبه إياها ، كراعي الغنم ينظر ويبحث عن المكان المربع [١] حتى يذهب بالغنم إليه ، وينظر في المكان المجدب فلا يتركها في هذا المكان .

هكذا بنوا آدم كل إنسان راع ، وكلٌّ مسؤول عن رعيته ، فالأمير راع ومسؤول عن رعيته . والأمراء يختلفون في نفوذهم وفي مناطق أعمالهم ، قد يكون هذا الأمير أميرًا على قرية صغيرة ، فتكون مسؤوليته صغيرة ، وقد يكون أميرًا على مدينة كبيرة فتكون مسؤوليته كبيرة ، وقد يكون مسؤولًا عن أمة كالأمير الذي ليس فوقه أمير في منطقته ، كالملك مثلًا هنا ، وكالرؤساء في البلاد الأخرى ، وكأمراء المؤمنين في عهد عمر ابن الخطاب وعثمان بن عفان وعلي بن أبي طالب ، وكالخلفاء في زمن بني أمية وبني العباس وغيرهم .

المهم أن الرعاة تتنوع رعيتهم أو تتنوع رعايتهم ما بين مسؤولية كبيرة واسعة ، ومسؤولية صغيرة ، ولهذا قال : « الأمير راعٍ » يعني هو مسؤول عن رعيته ، الرجل راع لكن رعيته محصورة ؛ هو راع في أهل بيته ، في زوجته ، في ابنه ، في بنته ، في أخته ، في عمته ، في خالته ، كل من في بيته ، وهو راع في أهل بيته ومسؤول عن رعيته ، يجب عليه أن يرعاهم أحسن رعاية ؛ لأنه مسؤول عنهم .

كذلك المرأة راعية في بيت زوجها ومسؤولة عن رعيتها ، يجب عليها أن تنصح في البيت ، في الطبخ ، في القهوة ، في الشاي ، في الفرش ، لا تطبخ أكثر من اللازم ، ولا تسوي الشاي أكثر مما يحتاج إليه ؛ يجب عليها أن تكون امرأةً مقتصدة ؛ فإن الاقتصاد نصف المعيشة ، غير مفرطة فيما ينبغي .

مسؤولة أيضًا عن أولادها في إصلاحهم وإصلاح أحوالهم وشؤونهم ، كإلباسهم الثياب ، وخلعهم الثياب غير النظيفة ، وتغيير فراشهم الذي ينامون عليه ، وتغطيتهم في الشتاء وهكذا مسؤولة عن كل هذا ، مسؤولة عن الطبخ وإحسانه ونضجه ، وهكذا مسؤولة عن كل ما في البيت .

كذلك العبد مسؤول وراع في مال سيده ، ومسؤول عن رعيته ، يجب عليه أن يحفظ مال سيده ، وأن يتصرف فيه بما هو أحسن ، وألا يفرط فيه ، وألا يتعدى الحدود وهكذا ، فكلكم راع ، وكلكم مسؤول عن رعيته .

أما بقية الأحاديث التي ساقها المؤلف ؛ فكلها أحاديث تحتاج إلى نظر في صحتها ، لكن مجمل ما تدل عليه عظم حق الزوج على زوجته ، وأن حق الزوج على زوجته عظيم ، يجب عليها أن تقوم به ، كما يجب عليه أن يقوم بحقها ، كما قال تعالى : ﴿ وَلَهُنَّ مِثْلُ ٱلَّذِى عَلَيْهِنَّ بِٱلْمَعْرُوفِ ﴾ [البقرة : ٢٢٨] وهذا من المساواة والعدل في الحقوق والواجبات التي تمتاز به شريعتنا الإسلامية .

* * *

(١) المكان المربع : الكثير الماء .

٢٨٧ - وعن معاذ بن جبلٍ ﷺ عن النبي ﷺ قال : « لا تُؤْذِي امْرَأَةٌ زَوجَهَا في الدُّنْيَا إلا قَالَت زَوجَتُهُ مِنَ الحُورِ العِينِ : لا تُؤذِيهِ قَاتَلَكِ اللَّه ! فَإنَّما هُوَ عِنْدَكِ دَخيلٌ يُوشِكُ أنْ يُفَارِقَكِ إلَيْنَا »[١] رواه الترمذيُّ وقال : حديث حسن .

٢٨٨ - وعن أسامَة بن زيد ﷺ عن النبي ﷺ قال : « مَا تَرَكْتُ بَعْدِي فِتْنَةً هِيَ أَضَرُّ عَلَى الرِّجَالِ مِنَ النِّسَاءِ »[٢] متفقٌ عليه .

الشرح

قال المؤلف - رحمه اللَّه تعالى - في نقله عن أسامة بن زيد ﷺ : إن النبي ﷺ قال : « ما تركت بعدي فتنة هي أضر على الرجال من النساء » .

والمعنى أن النبي ﷺ يخبر بأنه ما ترك فتنة أضر على الرجال من النساء ، وذلك أن الناس كما قال اللَّه تعالى : ﴿ زُيِّنَ لِلنَّاسِ حُبُّ الشَّهَوَاتِ مِنَ النِّسَاءِ وَالْبَنِينَ وَالْقَنَاطِيرِ الْمُقَنطَرَةِ مِنَ الذَّهَبِ وَالْفِضَّةِ وَالْخَيْلِ الْمُسَوَّمَةِ وَالْأَنْعَامِ وَالْحَرْثِ ﴾[٣] [آل عمران: ١٤] .

كل هذه مما زين للناس في دنياهم ، وصار سببًا لفتنتهم فيها ، لكن أشدها فتنة النساء ، ولهذا بدأ اللَّه بها ، فقال : ﴿ زُيِّنَ لِلنَّاسِ حُبُّ الشَّهَوَاتِ مِنَ النِّسَاءِ ﴾ .

وإخبار النبي ﷺ بذلك يريد به الحذر من فتنة النساء ، وأن يكون الناس منها على حذر ؛ لأن الإنسان بشر إذا عرضت عليه الفتن ، فإنه يخشى عليه منها .

ويستفاد منه ؛ سد كل طريق يوجب الفتنة بالمرأة ، فكل طريق يوجب الفتنة بالمرأة فإن الواجب على المسلمين سده ، ولذلك وجب على المرأة أن تحتجب عن الرجال الأجانب ، فتغطي وجهها ، وكذلك تغطي يديها ورجليها عند كثير من أهل العلم ، ويجب عليها كذلك أن تبتعد عن الاختلاط بالرجال ؛ لأن الاختلاط بالرجال فتنة وسبب للشر من الجانبين ، من جانب الرجال ومن جانب النساء .

ولهذا قال النبي ﷺ : « خير صفوف الرجال أولها وشرها آخرها ، وخير صفوف النساء آخرها وشرها أولها »[٤] وما ذلك إلا من أجل بعد المرأة عن الرجال ، فكلما بعدت فهو خير وأفضل .

وقد كان النبي ﷺ يأمر النساء أن يخرجن إلى صلاة العيد ، ولكنهن لا يختلطن مع الرجال ، بل يكون لهن موضع خاص ، حتى إن النبي ﷺ كان إذا خطب الرجال وانتهى من خطبتهم ، نزل

---

(١) أخرجه الترمذي في الرضاع (١١٧٤) ، وابن ماجه في سننه في النكاح (٢٠١٤) ، وفيه (أوشك) . قوله «دخيل» أي : ضيف ونزيل ، والحديث لم يقم الشارح - رحمه اللَّه تعالى - بشرحه .

(٢) أخرجه البخاري في النكاح (٥٠٩٦) ، ومسلم - واللفظ له - في الذكر والدعاء (٩٧) ، قوله «فتنة» أي : محنة وابتلاء .

(٣) قوله ﴿ وَالْقَنَاطِيرِ ﴾ جمع قنطار (المال الكثير) ، قوله ﴿ الْمُقَنطَرَةِ ﴾ المضاعفة ، قوله ﴿ الْمُسَوَّمَةِ ﴾ المعلَّمة .

(٤) أخرجه مسلم في الصلاة (١٣٢) ، وأبو داود في الصلاة (٦٧٨) ، والترمذي في الصلاة (٢٢٤) .

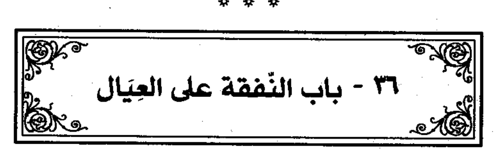
فذهب إلى النساء فوعظهن وذكرهن ، وهذا يدل على أن النساء كنَّ في مكان منعزل عن الرجال .

وكان هذا والعصر عصر قوة في الدين وبعد عن الفواحش ، فكيف بعصرنا هذا ؟

فإن الواجب توقي فتنة النساء بكل ما يستطاع ، ولا ينبغي أن يغرنا ما يدعو إليه أهل الشر والفساد من المقلدين للكفار ، من الدعوة إلى اختلاط المرأة بالرجال ؛ فإن ذلك من وحي الشيطان والعياذ بالله ، هو الذي يزين ذلك في قلوبهم ، وإلا فلا شك أن الأمم التي كانت تقدم النساء وتجعلهن مع الرجال مختلطات ، لاشك أنها اليوم في ويلات عظيمة من هذا الأمر ، يتمنون الخلاص منه فلا يستطيعون .

ولكن - مع الأسف - فإن بعض الناس منا ومن أبنائنا ومن أبناء جلدتنا يدعون إلى التحلل من مكارم الأخلاق ، وإلى جلب الفتن إلى بلادنا ، عن طريق التوسع في خروج المرأة ، واختلاطها بالرجال ، ومحاولة توظيفهن مع الرجال جنبًا إلى جنب ، نسأل الله تعالى أن يعصمنا والمسلمين من الشر والفتن إنه جواد كريم .

* * *



٣٦ - باب النفقة على العِيَال

قال الله تعالى : ﴿ وَعَلَى الْمَوْلُودِ لَهُ رِزْقُهُنَّ وَكِسْوَتُهُنَّ بِالْمَعْرُوفِ ﴾ [البقرة : ٢٣٣] وقال تعالى : ﴿ لِيُنفِقْ ذُو سَعَةٍ مِّن سَعَتِهِ وَمَن قُدِرَ عَلَيْهِ رِزْقُهُ فَلْيُنفِقْ مِمَّا آتَاهُ اللَّهُ لَا يُكَلِّفُ اللَّهُ نَفْسًا إِلَّا مَا آتَاهَا ﴾ [الطلاق : ٧] وقال تعالى : ﴿ وَمَا أَنفَقْتُم مِّن شَيْءٍ فَهُوَ يُخْلِفُهُ ﴾ (١) [سبأ : ٣٩] .

الشرح

قال المؤلف - رحمه الله تعالى - : باب النفقه على العيال .

العيال : هم الذين يعولهم الإنسان من زوجة أو قريب أو مملوك ، وقد سبق الكلام على حقوق الزوجة ، أما الأقارب فلهم حق ، قال الله تعالى : ﴿ وَاعْبُدُوا اللَّهَ وَلَا تُشْرِكُوا بِهِ شَيْئًا وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَانًا وَبِذِي الْقُرْبَىٰ ﴾ [النساء : ٣٦] .

فالقريب له حق في أن ينفق عليه ، يعني أن تبذل له من الطعام والشراب والكسوة والسكنى ما يقوم بكفايته ، كما قال تعالى : ﴿ وَعَلَى الْمَوْلُودِ لَهُ رِزْقُهُنَّ وَكِسْوَتُهُنَّ بِالْمَعْرُوفِ ﴾ المولود له هو الأب ، عليه أن ينفق على أولاده وعلى زوجاته ، وعلى من أرضعت ولده ولو كانت في غير حباله ؛ لأنه قال : ﴿ وَعَلَى الْمَوْلُودِ لَهُ رِزْقُهُنَّ وَكِسْوَتُهُنَّ بِالْمَعْرُوفِ ﴾ من أجل الإرضاع ، أما إذا كانت في حباله فلها النفقة من أجل الزوجية .

---

(١) قوله ﴿ ذُو سَعَةٍ ﴾ أي : صاحب مال . قوله ﴿ قُدِرَ عَلَيْهِ ﴾ أي : ضيق عليه .

وقوله : ﴿ وَعَلَى ٱلْمَوْلُودِ لَهُۥ ﴾ يشمل الأب الأدنى والأب الأعلى ، كالجد ومن فوقه ، فعليه أن ينفق على أولاد أولاده ، وإن نزلوا .

لكن يشترط لذلك شروط :

الشرط الأول : أن يكون المنفق قادرًا على الإنفاق ، فإن كان عاجزًا فإنه لا يجب عليه الإنفاق ، لقوله تعالى : ﴿ لِيُنفِقْ ذُو سَعَةٍ مِّن سَعَتِهِۦ وَمَن قُدِرَ عَلَيْهِ رِزْقُهُۥ فَلْيُنفِقْ مِمَّآ ءَاتَىٰهُ ٱللَّهُ لَا يُكَلِّفُ ٱللَّهُ نَفْسًا إِلَّا مَآ ءَاتَىٰهَا ﴾ أي إلا ما أعطاها ، ﴿ سَيَجْعَلُ ٱللَّهُ بَعْدَ عُسْرٍ يُسْرًا ﴾ [الطلاق : ٧] .

الشرط الثاني : أن يكون المنفَقُ عليه عاجزًا عن الإنفاق على نفسه ، فإن كان قادرًا على الإنفاق على نفسه فنفسه أولى ، ولا يجب على أحد أن ينفق عليه ؛ لأنه مستغن ، وإذا كان مستغنيًا ، فإنه لا يستحق أن ينفق عليه .

الشرط الثالث : أن يكون المنفَقُ وارثًا للمنفِقِ عليه لقوله تعالى : ﴿ وَعَلَى ٱلْوَارِثِ مِثْلُ ذَٰلِكَ ﴾ [البقرة : ٢٣٣] ، فإن كان قريبًا لا يرث ، فإنه لا يجب عليه الإنفاق .

فإذا تمت الشروط الثلاثة ؛ فإنه يجب على القريب أن ينفق على قريبه ما يحتاج إليه ؛ من طعام ، وشراب ، ولباس ، ومسكن ، ونكاح ، وإن كان قادرًا على بعض الشيء دون بعض ، وجب على القريب الوارث أن يكمل ما نقص لعموم قوله تعالى : ﴿ وَعَلَى ٱلْوَارِثِ مِثْلُ ذَٰلِكَ ﴾ .

ثم ذكر المؤلف ثلاث آيات ، الآية الأولى قول الله تبارك وتعالى : ﴿ وَعَلَى ٱلْمَوْلُودِ لَهُۥ رِزْقُهُنَّ وَكِسْوَتُهُنَّ بِٱلْمَعْرُوفِ ﴾ ، والآية الثانية : ﴿ لِيُنفِقْ ذُو سَعَةٍ مِّن سَعَتِهِۦ وَمَن قُدِرَ عَلَيْهِ رِزْقُهُۥ فَلْيُنفِقْ مِمَّآ ءَاتَىٰهُ ٱللَّهُ ﴾ ، والآية الثالثة قوله تعالى : ﴿ وَمَآ أَنفَقْتُم مِّن شَىْءٍ فَهُوَ يُخْلِفُهُۥ وَهُوَ خَيْرُ ٱلرَّٰزِقِينَ ﴾ .

فقوله : ﴿ وَمَآ أَنفَقْتُم مِّن شَىْءٍ ﴾ أي شيء قد أنفقتموه لله ﷻ ﴿ فَهُوَ يُخْلِفُهُۥ ﴾ ، أي يعطيكم خُلفه وبدله وهو خير الرازقين .

* * *

٢٨٩ - وعن أبي هريرة ﷺ قال : قال رسول الله ﷺ : « دِينَارٌ أَنْفَقْتَهُ في سَبِيلِ اللَّه ، وَدِينَارٌ أَنفَقْتَهُ في رَقَبَةٍ ، وَدِينَارٌ تصَدَّقْتَ بِهِ عَلَى مِسْكِين ، وَدِينَارٌ أَنفَقْتَهُ عَلَى أَهْلِكَ ، أَعْظَمُهَا أَجْرًا الَّذِي أَنْفَقْتَهُ عَلَى أَهْلكَ » (١) رواه مسلم .

٢٩٠ - وعن أَبي عبد اللَّه - وَيُقَالُ له : أبو عبدِ الرَّحمنِ - ثَوبَانَ بن بُجْدُد مَولَى رسول اللّه ﷺ قال : قال رسول اللّه ﷺ : « أَفْضَلُ دِينَارٍ يُنْفِقُهُ الرَّجُلُ : دِينَارٌ يُنْفِقُهُ عَلَى عِيَالِهِ ، وَدينَارٌ يُنْفِقُهُ عَلَى دَابَّته في سَبيل اللَّه ، وَدِينَارٌ يُنْفِقُهُ عَلَى أَصْحَابه في سَبيل اللَّهِ » (٢) رواه مسلم .

---

(١) أخرجه مسلم في الزكاة (٣٩) قوله « أنفقته في رقبة » أي : في تحرير رقبة من الرق .

(٢) أخرجه مسلم - واللفظ له - في الزكاة (٣٨) ، وابن ماجه في الجهاد (٢٧٦٠) بلفظ « دينار ينفق على فرس » ، قوله « على عياله » أي من يعوله ويلزمه مؤنته من نحو زوجة وخادم وولد .

٢٩١ – وعن أُمِّ سَلَمَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا قالَتْ : قلتُ : يا رسولَ اللَّه ، هَلْ لي أَجْرٌ في بَني أبي سَلَمَةَ أَنْ أُنْفِقَ عَلَيهِمْ ، وَلَسْتُ بِتَارِكَتِهِمْ هكَذَا وهَكَذَا ؛ إنَّما هُمْ بَنِيَّ ؟ فقال : « نَعَمْ لَكِ أَجْرُ مَا أَنْفَقْتِ عَلَيهِمْ » (١) متفقٌ عليه .

٢٩٢ – وعن سعدِ بن أَبي وَقَّاصٍ رضي الله عنه في حديثِهِ الطَّويلِ الذي قَدَّمْنَاهُ في أَوَّلِ الكِتَابِ في بَابِ النيَّةِ أنَّ رسول اللَّه صلى الله عليه وسلم قال له : « وَإِنَّكَ لَنْ تُنْفِقَ نَفَقَةً تَبْتَغِي بِهَا وجهَ اللَّهِ إلا أُجِرْتَ بها حَتَّى مَا تَجْعَلُ في في امرَأَتِكَ » (٢) متفقٌ عليه .

٢٩٣ – وعن أَبي مَسْعُودٍ البَدْرِيِّ رضي الله عنه عن النبي صلى الله عليه وسلم قال : « إِذَا أَنْفَقَ الرَّجُلُ عَلَى أَهْلِهِ نَفَقَةً يَحْتَسِبُهَا فَهِيَ لَهُ صَدَقَةٌ » (٣) متفقٌ عليه .

٢٩٤ – وعن عبد اللَّه بن عمرو بن العاص رضي الله عنهما قال : قال رسول اللَّه صلى الله عليه وسلم : « كَفَى بِالْمَرْءِ إِثْمًا أَنْ يُضَيِّعَ مَنْ يَقُوتُ » حديثٌ صحيحٌ رواه أبو داود وغيره .

ورواه مسلم في صحيحه بمَعْنَاهُ قال : « كَفَى بالمرءِ إثْمًا أن يَحْبِس عَمَّنْ يَمْلِكُ قُوتَهُ » (٤) .

٢٩٥ – وعن أبي هريرة رضي الله عنه أَن النبي صلى الله عليه وسلم قال : « مَا مِنْ يَوم يُصْبِحُ العِبادُ فِيهِ إلا مَلَكَانِ يَنْزِلانِ ، فَيَقُولُ أَحَدُهُمَا : اللَّهُمَّ أَعْطِ مُنْفِقًا خَلَفًا ، وَيَقُولُ الآخَرُ : اللَّهُمَّ أَعْطِ مُمْسِكًا تَلَفًا » (٥) متفقٌ عليه .

٢٩٦ – وعنه عن النبي صلى الله عليه وسلم قال : « اليَدُ العُلْيَا خَيرٌ مِنَ اليَدِ السُّفْلَى وَابْدَأْ بِمَنْ تَعُولُ ، وَخَيرُ الصَّدَقَةِ مَا كَانَ عَنْ ظَهْرِ غِنىً ، وَمَنْ يَسْتَعْفِفْ يُعِفَّهُ اللَّهُ ، وَمَنْ يَسْتَغْنِ يُغْنِهِ اللَّهُ » (٦) رواه البخاري .

---

(١) أخرجه البخاري – واللفظ له – في النفقات (٥٣٦٩) ، ومسلم في الزكاة (٤٧) ، والإمام أحمد في مسنده (٢٩٣/٦) قوله « هكذا وهكذا » أي يتفرقون لطلب القوت يمينًا وشمالاً .

(٢) أخرجه البخاري – واللفظ له – في الجنائز (١٢٩٥) ، ومسلم في الوصية (٥) ، قوله « في فِي امرأتك » أي : في فمها .

(٣) أخرجه البخاري في الإيمان (٥٥) ، ومسلم في الزكاة (٤٨) ، قوله « يحتسبها » أي : يقصد بها وجه اللَّه والتقرب إليه .

(٤) أخرجه أبو داود – واللفظ له – في الزكاة (١٦٩٢) ، والإمام أحمد في مسنده (١٦٠/٢) ، قوله « يضيع من يقوت » أي : يمنع من تلزمه نفقته من زوجة ، وولد ويعطي غيرهم ولو صدقة .

(٥) هذه رواية مسلم في الزكاة (٤٠) .

(٦) أخرجه البخاري في الزكاة (١٤٤٢) ، ومسلم في الزكاة (٥٧) ، قوله « أعط منفقًا خلفًا » الإنفاق هنا في الطاعات ومكارم الأخلاق وعلى العيال .. وغير ذلك مما لا يسمى سرفًا ، والإمساك المذموم هو الإمساك عن هذا .

(٧) أخرجه البخاري في الزكاة (١٤٢٧) ، قوله « اليد العليا » أي : اليد المنفقة ، قوله « عن ظهر غنًى » أي : أفضلها ما وقع عن عدم احتياجه إلى المتصدق به لنفسه وأهله وعياله ، قوله « ومن يستعفف » أي : عن السؤال وعن المال الحرام ، قوله « يعفه اللَّه » أي : بالغنى أو بقناعة النفس .

الشرح

هذه الأحايث التي ذكرها المؤلف في باب النفقة على الأهل ، كلها تدل على فضيلة الإنفاق على الأهل ، وأنه أفضل من الإنفاق في سبيل الله ، وأفضل من الإنفاق في الرقاب ، وأفضل من الإنفاق على المساكين ؛ وذلك لأن الأهل ممن ألزمك الله بهم ، وأوجب عليك نفقتهم ، فالإنفاق عليهم فرض عين ، والإنفاق على من سواهم فرض كفاية ، وفرض العين أفضل من فرض الكفاية .

وقد يكون الإنفاق على من سواهم على وجه التطوع ، والفرض أفضل من التطوع ، لقول الله تعالى في الحديث القدسي : « ما تقربُ إليَّ عبدي بشيء أحَبُّ إليَّ مما افترضته عليه »(1) .

لكن الشيطان يرغب الإنسان في التطوع ويزهده في الواجب ، فتجده مثلًا يحرص على الصدقة ويدع الواجب ، يتصدق على مسكين أو ما أشبه ذلك ويدع الواجب لأهله ، يتصدق على مسكين أو نحوه ويدع الواجب لنفسه ، كقضاء الدين مثلًا ، تجده مدينًا يطالبه صاحب الدين بدينه وهو لا يوفي ، ويذهب يتصدق على المساكين وربما يذهب للعمرة أو لحج التطوع وما أشبه ذلك ويدع الواجب ، وهذا خلاف الشرع وخلاف الحكمة ، فهو سفه في العقل وضلال في الشرع .

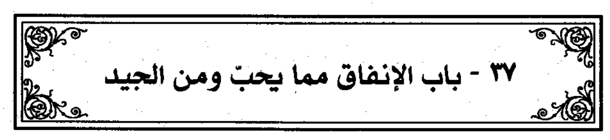
والواجب على المسلم أن يبدأ بالواجب الذي هو محتم عليه ، ثم بعد ذلك ما أراد من التطوع بشرط ألا تكون مسرفًا ولا مقترًا ، فتخرج عن سبيل الاعتدال لقول الله تعالى في وصف عباد الرحمن : ﴿ وَالَّذِينَ إِذَآ أَنفَقُواْ لَمْ يُسْرِفُواْ وَلَمْ يَقْتُرُواْ وَكَانَ بَيْنَ ذَٰلِكَ قَوَامًا ﴾ [الفرقان : ٦٧] يعني لا إقتار ولا إسراف ، بل قوامًا ، ولم يقل بين ذلك فقط ، بل : بين ذلك قوامًا ، قد يكون الأفضل أن تزيد أو تنقص أو بين ذلك بالوسط .

على كل حال هذه الأحاديث كلها تدل على أنه يجب على الإنسان أن ينفق على من عليه نفقته ، وأن إنفاقه على مَنْ عليه نفقته أفضل من الإنقاق على الغير .

وفي هذه الأحاديث : أيضًا التهديد والوعيد على من ضيع عمن يملك قوته ، وهو شامل للإنسان وغير الإنسان ، فالإنسان يملك الأَرِقَّة مثلًا ، ويملك المواشي من إبل وبقر وغنم فهو آثم إذا ضيع من يلزمه قوته من آدميين أو غير آدميين ، « كفى بالمرء إثمًا أن يحبس عمن يملك قوتهم » ، واللفظ الثاني في غير مسلم : « كفى بالمرء إثمًا أن يضيع من يقوت » ، وفي هذا : دليل على وجوب رعاية مَنْ ألزمك الله بالإنفاق عليه .

* * *

(١) أخرجه البخاري بلفظ « افترضت عليه » في الرقاق (٦٥٠٢) .



٣٧ - باب الإنفاق مما يحبّ ومن الجيد

قال اللّه تعالى : ﴿ لَن تَنَالُواْ ٱلْبِرَّ حَتَّىٰ تُنفِقُواْ مِمَّا تُحِبُّونَ ﴾ [آل عمران : ٩٢] وقال تعالى : ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ أَنفِقُواْ مِن طَيِّبَٰتِ مَا كَسَبْتُمْ وَمِمَّآ أَخْرَجْنَا لَكُم مِّنَ ٱلْأَرْضِ وَلَا تَيَمَّمُواْ ٱلْخَبِيثَ مِنْهُ تُنفِقُونَ ﴾ (١) [البقرة : ٢٦٧] .

٢٩٧ - عن أنس ﷺ قال : كَانَ أَبُو طَلْحَةَ ﷺ أَكْثَرَ الأَنْصَار بِالمَدِينَةِ مَالًا مِنْ نَخْلٍ ، وَكَانَ أَحَبُّ أَمْوَالِهِ إِلَيهِ بَيرَحَاء ، وَكَانَت مُسْتَقْبِلَةَ المسْجد ، وَكَانَ رسول اللّه ﷺ يَدْخُلُهَا وَيَشْرَبُ مِنْ مَاءٍ فِيهَا طَيِّب ، قَالَ أَنَسٌ : فَلَمَّا نَزَلَتْ هذِهِ الآيَةُ : ﴿ لَن تَنَالُواْ ٱلْبِرَّ حَتَّىٰ تُنفِقُواْ مِمَّا تُحِبُّونَ ﴾ قام أبو طَلْحَةَ إلى رسول اللّه ﷺ فقال : يا رسول اللّه إنَّ اللّه تَعَالَى أَنْزَلَ عَلَيكَ : ﴿ لَن تَنَالُواْ ٱلْبِرَّ حَتَّىٰ تُنفِقُواْ مِمَّا تُحِبُّونَ ﴾ وَإنَّ أَحَبَّ مَالي إلَيَّ بيرَحَاءُ ، وَإِنَّهَا صَدَقَةٌ للّه تَعَالَى أَرْجُو بِرَّهَا وَذُخْرَهَا عِنْدَ اللّه تعالى ، فَضَعْهَا يا رسول اللّه حَيثُ أَرَاكَ اللّه ، فقال رسول اللّه ﷺ : « بَخ ! ذلِكَ مَالٌ رَابحٌ ، ذلِكَ مَالٌ رَابحٌ ، وَقَدْ سَمِعْتُ مَا قُلْتَ ، وَإنِّي أَرَى أَنْ تَجْعَلَها في الأَقْرَبِينَ » فقال أبو طَلْحَةَ : أَفْعَلُ يا رسول اللّه ، فَقَسَمَهَا أبو طَلْحَةَ في أَقَارِبِهِ ، وَبَني عَمِّهِ (٢) . متفقٌ عليه .

قولُهُ ﷺ : « مَالٌ رَابحٌ » رُوِيَ في الصحيحين « رَابحٌ » و « رَايحٌ » بالباءِ الموحدة وبالياء المثناةِ ، أَي : رَايحٌ عَلَيكَ نَفْعُهُ ، و « بيرَحَاءُ » حَدِيقَةُ نَخْلٍ ، وروي بكسرِ الباءِ وَفتحِها .

الشرح

قال المؤلف - رحمه اللّه تعالى - : باب الإنفاق مما يحب ومن الجيد .

لما ذكر رحمه الله وجوب الإنفاق على الزوجة وعلى الأقارب ، ذكر أنه ينبغي للإنسان أن يكون ذا همة عالية ، وأن ينفق من أطيب ماله ومما يحب من ماله ، وهناك فرق بين الأطيب وبين الذي يحب ، الغالب أن الإنسان لا يحب إلا أطيب ماله ، لكن أحيانًا يتعلق قلبه بشيء من ماله وليس أطيب ماله فإذا أنفق من الطيب الذي هو محبوب لعامة الناس ومما يحبه هو بنفسه وإن لم يكن من الطيب ، كان ذلك دليلًا على أنه صادقٌ فيما عامل اللّه به .

ولهذا سميت الصدقة صدقة لدلالتها على صدق باذِلِها ، فالإنسان ينبغي له أن ينفق من أطايب ماله ، وينبغي له أن ينفق مما يحب ، حتى يصدق في تقديم ما يحبه اللّه ﷻ على ما تهواه نفسه .

---

(١) قوله ﴿ طَيِّبَٰتِ ﴾ حلال أو خيار ما تحبون . قوله ﴿ وَلَا تَيَمَّمُواْ ﴾ لا تقصدوا .

(٢) أخرجه البخاري - واللفظ له - في الزكاة (١٤٦١) ، ومسلم في الزكاة (٤٢) ، والإمام أحمد في مسنده (١٤١/٣) ، قوله « بخ » بإسكان الخاء وتنوينها مكسورة معناه تعظيم الأمر وتفخيمه ، قوله « برها وذخرها » أي لا أريد ثمرتها الدنيوية العاجلة الفانية ، وإنما أطلب مثوبتها الأخروية الآجلة الباقية .

ثم استدل المؤلف - رحمه الله تعالى - بآيتين من كتاب الله ، فقال : قال الله تعالى : ﴿ لَن تَنَالُوا۟ ٱلْبِرَّ حَتَّىٰ تُنفِقُوا۟ مِمَّا تُحِبُّونَ ﴾ البر يعني : الخير الكثير ، ومنه سمي البر للخلاء الواسع ، فالبر هو الخير الكثير ، يعني لن تنال الخير ولن تنال رتبة الأبرار حتى تنفق مما تحبُّ .

والمال كله محبوب لكن بعضه أشدُّ محبة من بعض ، فإذا أنفقت مما تحب كان ذلك دليلًا على أنك صادق ، ثم نلت بذلك مرتبة الأبرار .

وقال تعالى : ﴿ وَلَا تَيَمَّمُوا۟ ٱلْخَبِيثَ مِنْهُ تُنفِقُونَ وَلَسْتُم بِـَٔاخِذِيهِ إِلَّآ أَن تُغْمِضُوا۟ فِيهِ ﴾ [البقرة : ٢٦٧] الخبيث من كل شيء بحسبه ، فالخبيث من المال يطلق على الرديء ، ويطلق على الكسب الرديء ، ويطلق على الحرام .

فمن إطلاقه على الرديء قوله تعالى : ﴿ وَلَا تَيَمَّمُوا۟ ٱلْخَبِيثَ مِنْهُ تُنفِقُونَ وَلَسْتُم بِـَٔاخِذِيهِ إِلَّآ أَن تُغْمِضُوا۟ فِيهِ ﴾ هذا بقية الآية التي أولها : ﴿ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ أَنفِقُوا۟ مِن طَيِّبَـٰتِ مَا كَسَبْتُمْ وَمِمَّآ أَخْرَجْنَا لَكُم مِّنَ ٱلْأَرْضِ ﴾ والخارج من الأرض منه الطيب ومنه الرديء ، قال : ﴿ وَلَا تَيَمَّمُوا۟ ٱلْخَبِيثَ ﴾ أي : لا تقصدوا الخبيث وهو الرديء تنفقون فيه ﴿ وَلَسْتُم بِـَٔاخِذِيهِ إِلَّآ أَن تُغْمِضُوا۟ فِيهِ ﴾ يعني : لو كان الحق لكم ما أخذتم الرديء إلا على إغماض وعلى كره ، فكيف ترضون لغيركم أن تعطوه الرديء وأنتم تأبون أن تأخذوه ؟! .

وهذا من باب الاستدلال على الإنسان بما يُقر به ويعترف به ؛ لأنه لا يرضى أن يأخذ الرديء بدلًا من الطيب فكيف يرضى أن يعطي الرديء بدلًا من الطيب ؟! .

فالخبيث بمعنى الرديء ، ومن ذلك أيضًا تسمية النبي ﷺ البصل والكراث الشجرة الخبيثة (١) ؛ لأنها رديئة منتنة كريهة ، حتى إن الإنسان إذا أكل منها ، وبقيت رائحتها في فمه فإنه يحرم عليه أن يدخل المسجد ، لا للصلاة ولا لغير الصلاة ؛ لأن المسجد معمور بالملائكة فإذا دخل المسجد آذى الملائكة ، والملائكة طيبون ، والطيبون للطيبات ، تكره الخبائث من الأعمال والأعيان ، فإذا دخلت المسجد وأنت ذو رائحة كريهة آذيت الملائكة .

وكان الرجل في عهد الرسول ﷺ إذا دخل المسجد وقد أكل كراثًا أو بصلًا طردوه طردًا إلى البقيع ، والبقيع تعرفون المسافة بينه وبين المسجد النبوي وأنها بعيدة ، يطرد إلى البقيع ولا يقرب المسجد .

وللأسف أن بعض الناس - نسأل الله لنا ولهم الهداية والعصمة - يشرب الدخان والشيشة ويأتي إلى المسجد ورائحة الدخان والشيشة في فمه أو على ثيابه ، مع أن هذه رائحة كريهة كل يكرهها ، حتى إن بعض الناس لا يستطيع أن يصلي جَنْبَ مثل هؤلاء ، وهؤلاء يحرم عليهم أن يدخلوا المسجد والروائح الكريهة بفيهم .

---

(١) هذا معنى حديث ، ولفظه « من أكل من هذه الشجرة الخبيثة شيئًا .. » ، وقد أخرجه مسلم في المساجد (٧٦) ، وأحمد في مسنده (٤٢٩/٢) .

وكذلك من به إصنان ، والإصنان رائحة كريهة تفوح من إبطيه ، أو تفوح من أذنيه ، أو تفوح من رأسه وتؤذي ، فإنه لا يجوز أن يصلي مادامت الرائحة المؤذية فيه ، لا يجوز أن يدخل المسجد بل يبتعد .

والحمد للَّه ، فإن هذه من المصائب والبلاوي ، فإذا ابتلي بمثل هذا لا يقول كيف أحرم نفسي المسجد ، فهذا من اللَّه ﷻ ، فاحرم نفسك المسجد ولا تؤذي الناس والملائكة ، وحاول بقدر ما تستطيع أن تتخلص من هذه الرائحة ؛ إما بالتنظيف التام ، أو بأن تضع رائحة طيبة تغطي الرائحة الكريهة ، وبهذا يمكن أن تعالج هذه الروائح فلا يشم منك إلا الرائحة الطيبة .

ومن إطلاق الخبيث على الكسب الرديء قول النبي ﷺ : « كسب الحجام خبيث »[1] الحجام الذي يخرج الدم بالحجامة ، هذا كسبه خبيث ، يعني رديء ، وليس المراد أنه حرام ، قال ابن عباس ﷺ وعن أبيه : لو كان كسب الحجام حرامًا ما أعطاه النبي ﷺ أجرته ، فقد احتجم النبي ﷺ ، وأعطى الحجام أجره ، ولو كانت حرامًا ما أعطاه ؛ لأن الرسول لا يقر على الحرام ولا يعين على الحرام ، لكن هذا من باب أنه كسب رديءٌ دنيء ينبغي للإنسان أن يتنزه عنه ، وأن يحجم الناس إذا احتاجوا إلى حجامته تبرعًا وتطوعًا .

ومن إطلاق الخبيث على المحرم قوله تعالى في وصف النبي ﷺ : ﴿ وَيُحِلُّ لَهُمُ ٱلطَّيِّبَٰتِ وَيُحَرِّمُ عَلَيۡهِمُ ٱلۡخَبَٰٓئِثَ ﴾ [الأعراف : ١٥٧] يعني يحرم عليهم الخبائث وهي ضد الطيبات ، مثل : الميتة ، لحم الخنزير ، المنخنقة ، الخمر ، وما أشبه ذلك .

ومعنى الآية : أنه لا يحرم إلا الخبائث ، وليس معناها أن كل خبيث يحرمه ؛ لأننا عرفنا الآن أن الخبيث يطلق على أوصاف متعددة ، لكن المعنى أنه ﷺ لا يحرم إلا الخبائث .

فالحاصل : أن اللَّه ﷻ نهى أن يقصد الإنسان الرديء من ماله فيتصدق به ، وحثَّ على أن ينفق مما يحب ومما هو خير .

ثم ذكر المؤلف حديث أبي طلحة زوج أم أنس ﷺ ، وأبو طلحة أكثر الأنصار حقلًا يعني أكثرهم مزارع ، وكان له بستان فيه ماء طيب مستقبل المسجد - أي مسجد الرسول ﷺ - يعني أن المسجد في قبلة هذا البستان ، وكان فيه ماء طيب عذب ، يأتيه النبي ﷺ ويشرب منه .

فلما نزل قوله تعالى : ﴿ لَن تَنَالُواْ ٱلۡبِرَّ حَتَّىٰ تُنفِقُواْ مِمَّا تُحِبُّونَۚ ﴾ [آل عمران ٩٢] بادر ﷺ وسابق وسارع وجاء إلى النبي ﷺ وقال : يا رسول اللَّه ، إن اللَّه تعالى أنزل قوله : ﴿ لَن تَنَالُواْ ٱلۡبِرَّ حَتَّىٰ تُنفِقُواْ مِمَّا تُحِبُّونَۚ ﴾ وإن أحب أموالي إليَّ بيرحاء - وهذا اسم ذلك البستان - وإني أضعها : يعني بين يديك صدقة ، إلى اللَّه ورسوله : يعني تصرفها إلى اللَّه ورسوله ، فقال النبي ﷺ متعجبًا : « بخٍ بخٍ » كلمة تعجب ، يعني : ما أعظم هذه الهمة ، وما أعلاها « ذاك مال رابح ، ذاك مال رابح » .

وصدق الرسول ﷺ فهذا المال رابح ، فكم من حسنة يربح هذا المال إذا كانت الحسنة بعشر

---

(١) أخرجه مسلم في المساقاة (٤١) ، والترمذي في البيوع (١٢٧٥) .

أمثالها إلى سبعمائة ضعف إلى أضعاف كثيرة ؟ صدق النبي ﷺ : « ذاك مال رابح ذاك مال رابح .. أرى أن تجعلها في الأقربين » أرى أن تجعلها في الأقربين : أي أقاربك ، ففعل ﷺ ، وقسمها في أقاربه وبني عمه .

وسيأتي إن شاء الله على بعض ما يستفاد من هذا الحديث ، لكن تعجبوا كيف كانت مبادرة الصحابة ﷺ ، ومسارعتهم إلى الخير ، وكان ابن عمر إذا أعجبه شيء في ماله وتعلقت به نفسه تصدق به ، لأجل أن يربحه ويلقاه فيما أمامه .

لكن ما تتمسك به فهو إما زائل عنك وإما أن تزول عنه أنت ، ولابد من أحد الأمرين ، إما أن يتلف أو تتلف أنت ، لكن الذي تقدمه هو الذي يبقى ، نسأل الله أن يعيننا والمسلمين على أنفسنا ويعيذنا من البخل والشح .

والحقيقة : أن مالك الحقيقي هو ما تقدمه ، وقد ذبح آل النبي ﷺ شاة وتصدقوا بها إلا كتفها ، فقدم النبي ﷺ وقال : « ما بقي منها ؟ » قالت عائشة رضي الله عنها : ما بقي منها إلا كتفها . يعني أنها تصدَّقت بها كلها إلا كتفها ، فقال النبي ﷺ : « بقي كلُّها غير كتفها » [1] ، والمعنى أن الذي أكلتم هو الذي ذهب ، وأما ما تصدقتم به فهو الذي بقي لكم .

فالحاصل : أن الصحابة وذوي الهمم العالية هم الذين يعرفون قدر الدنيا وقدر المال ، وأن ما قدموه هو الباقي ، وما أبقوه هو الفاني ، نسأل الله أن يعيذنا والمسلمين من الشح والبخل والجبن والكسل .

* * *

٣٨ - باب وجوب أمر أهله وأولاده المميزين وسائر من في رعيته بطاعة الله تعالى ونهيهم عن المخالفة ، وتأديبهم ، ومنعهم من ارتكاب مَنْهِيٍّ عنه

قال الله تعالى : ﴿ وَأْمُرْ أَهْلَكَ بِٱلصَّلَوٰةِ وَٱصْطَبِرْ عَلَيْهَا ﴾ [طه : ١٣٢] وقال تعالى : ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ قُوٓا۟ أَنفُسَكُمْ وَأَهْلِيكُمْ نَارًا ﴾ [2] [التحريم : ٦] .

٢٩٨ - عن أبي هريرة رضي الله عنه قال : أخذ الحسن بن علي رضي الله عنهما تَمْرَةً مِنْ تَمْرِ الصَّدقَةِ فَجَعَلَهَا في فِيهِ ، فقال رسول اللَّهِ ﷺ : « كَخْ كَخْ ، ارْمِ بِهَا ، أَمَا عَلِمْتَ أَنَّا لا نَأْكُلُ الصَّدَقَةَ !؟ » [3] متفقٌ عليه .

وفي رواية « أَنَّا لا تَحِلُّ لَنَا الصَّدَقَةُ » [4] وقوله : « كَخْ كَخْ » يُقَالُ بإِسْكَانِ الخَاءِ ، وَيُقَالُ بكَسْرِهَا مَعَ التَّنْوِينِ ، وهيَ كَلِمَةُ زَجْرٍ للصَّبيِّ عَنْ المُسْتَقْذَرَاتِ ، وكَانَ الحَسَنُ رضي الله عنه صَبِيًّا .

(١) أخرجه الترمذي في صفة القيامة (٢٤٧٠) .
(٢) قوله ﴿ وَٱصْطَبِرْ ﴾ أي كن واسع الصبر . قوله ﴿ قُوٓا۟ أَنفُسَكُمْ ﴾ أي احفظوا أنفسكم .
(٣) أخرجه البخاري في الزكاة (١٤٩١) ، ومسلم - واللفظ له - في الزكاة (١٦١) .
(٤) هذه رواية ثانية لمسلم في الزكاة (١٦١) .

الشرح

قال المؤلف رحمه الله : باب وجوب أمر أهله وأولاده المميزين وسائر من في رعيته بطاعة الله تعالى ، ونهيهم عن المخالفة ، وتأديبهم ، ومنعهم من ارتكاب منهي عنه .

ووجه المناسبة أن المؤلف رحمه الله ، لما ذكر ما يجب للأهل من غذاء الجسم ، ذكر لهم ما يجب من غذاء الروح على أبيهم ومن له ولاية عليهم ، وأولى ما يؤمر به وأوجب وأفضل هي الصلاة ، كما قال الله تعالى لنبيه محمد ﷺ : ﴿ وَأْمُرْ أَهْلَكَ بِالصَّلَوٰةِ وَاصْطَبِرْ عَلَيْهَا لَا نَسْـَٔلُكَ رِزْقًا نَّحْنُ نَرْزُقُكَ وَالْعَٰقِبَةُ لِلتَّقْوَىٰ ﴾ [طه : ١٣٢] فأمره أن يأمر أهله بالصلاة .

والأهل كل من في البيت ؛ من زوجة ، وابن ، وبنت ، وعمة ، وخالة ، وأم ، كل من في البيت أهل ، أمره أن يأمرهم بالصلاة ، وأمره أن يصطبر عليهم يعني يحض نفسه على الصبر ، ولهذا جاءت التاء التي فيها زيادة البنية وفيها زيادة المعنى اصطبر ؛ لأن أصلها اصتبر عليها .

وذكر الله عن إسماعيل أبي محمد ﷺ ، إذ أنه أحد أجداده ، أنه كان يأمر أهله بالصلاة والزكاة ، وكان عند ربه مرضيًا ، فالإنسان مسؤول عن أهله ، مسؤول عن تربيتهم ، حتى ولو كانوا صغارًا إذا كانوا مميزين ، أما غير المميز فإنه يؤمر بما يتحمله عقله .

ثم ذكر حديث الحسن بن علي بن أبي طالب رضي الله عنهما أنه أخذ تمرةً من الصدقة فجعلها في فيه ، فقال النبي ﷺ : « كخ كخ » يعني أنها لا تصلح لك ، ثم أمره أن يخرجها من فيه ، وقال : إننا لا تحل لنا الصدقة .

فالصدقة لا تحل لآل محمد ؛ وذلك لأنهم أشرف الناس ، والصدقات والزكوات أوساخ الناس ، ولا يتناسب لأشراف الناس أن يأخذوا أوساخ الناس ، كما قال النبي ﷺ لعمه العباس بن عبد المطلب رضي الله عنه : « إنا آل محمد لا تحل لنا الصدقة ؛ إنما هي أوساخ الناس »[1] .

ففي هذا : دليل على أن الإنسان يجب عليه أن يؤدب أولاده عن فعل المحرم ، كما يجب عليه أن يؤدبهم على فعل الواجب .

* * *

٢٩٩ - وعن أبي حَفْصٍ عُمَرَ بن أبي سَلَمَةَ عبد الله بن عبدِ الأسدِ رَبيبِ رسول الله ﷺ قال : كُنْت غُلامًا في حجْرِ رسول الله ﷺ وَكَانَتْ يَدِي تَطِيشُ في الصَّحْفَةِ ، فقال لي رسول الله ﷺ : « يَا غُلامُ سَمِّ الله تعالى ، وَكُلْ بِيَمِينِكَ ، وَكُلْ مِمَّا يَلِيكَ » فَمَا زَالَتْ تِلْكَ طِعْمَتِي بَعْدُ[2] . متفقٌ عليه . « وَتَطِيشُ » : تَدُورُ في نَوَاحِي الصَّحْفَةِ .

---

(١) أخرجه مسلم في الزكاة (١٦٨) ، وأبو داود في الخراج والإمارة (٢٩٨٥) .

(٢) أخرجه البخاري في الأطعمة (٥٣٧٦) ، ومسلم في الأشربة (١٠٨) ، وابن ماجه في الأطعمة (٣٢٦٧) . وقوله « الصحفة » إناء كالقصعة وقيل : هي القصعة المستطيلة . قوله « فمازالت تلك طِعمتي بعدُ » : أي صفة أكلي بعد ذلك الأمر .

الشرح

ذكر المؤلف - رحمه الله تعالى - فيما نقله عن عمر بن أبي سلمة ﷺ، وكان ربيب النبي ﷺ؛ لأنه ابن زوجته أم سلمة رضي الله عنها، أنه كان مع النبي ﷺ في طعام يأكل فجعلت يده تطيش في الصحفة، يعني تذهب يمينًا وشمالًا، فقال له النبي ﷺ: «يا غلام، سم الله، وكل بيمينك وكل مما يليك» فهذه ثلاثة آداب علمها النبي ﷺ هذا الغلام وهي:

أولًا: قال «سم الله»، وهذا عند الأكل.

فعند ابتداء الأكل يجب أن يقول الإنسان بسم الله، ولا يحل له أن يتركها؛ لأنه إذا تركها شاركه الشيطان في أكله؛ أعدى عدو له يشاركه في الأكل إذا لم يقل بسم الله، ولو زاد: الرحمن الرحيم فلا بأس؛ لأن قول الرسول ﷺ: «سم الله»: يعني اذكر اسم الله.

والتسمية الكاملة هي أن يقول الإنسان: بسم الله الرحمن الرحيم كما ابتدأ الله بها كتابه، وكما أرسل بها سليمان ﷺ ﴿إِنَّهُۥ مِن سُلَيْمَٰنَ وَإِنَّهُۥ بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ﴾ [النمل: ٣٠] فإن اقتصرت على قول بسم الله فلا حرج، وإن زدت الرحمن الرحيم فلا حرج، الأمر في هذا واسع.

وأما التسمية على الذبيحة فهي شرط من شروط التذكية، إذا لم تسم على الذبيحة فهي حرام ميتة، كأنما ماتت بغير ذبح.

ولكن العلماء يقولون: لا ينبغي أن يقول: بسم الله الرحمن الرحيم؛ لأنه الآن يريد أن يذبحها، فالفعل ينافي القول بالنسبة لهذه الذبيحة؛ لأنها ستذبح. هكذا علل بعض العلماء، ولكن لو قالها أيضًا فلا حرج [١].

الأدب الثاني: قوله: «وكل بيمينك»: وهذا أمر على سبيل الوجوب، فيجب على الإنسان أن يأكل بيمينه وأن يشرب بيمينه؛ لأن النبي ﷺ نهى أن يأكل الإنسان بشماله أو أن يشرب بشماله، وقال: «إن الشيطان يفعل هذا» [٢]، فإن الشيطان يأكل بشماله ويشرب بشماله، وقد نهينا عن اتباع خطوات الشيطان، قال الله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَتَّبِعُواْ خُطُوَٰتِ ٱلشَّيْطَٰنِۚ وَمَن يَتَّبِعْ خُطُوَٰتِ ٱلشَّيْطَٰنِ فَإِنَّهُۥ يَأْمُرُ بِٱلْفَحْشَآءِ وَٱلْمُنكَرِۚ﴾ [النور: ٢١].

ولهذا كان القول الراجح وجوب الأكل باليمين، ووجوب الشرب باليمين، وأن الأكل بالشمال

---

(١) مذهب الشافعية أن التسمية مستحبة عند الذبح والرمي إلى الصيد فلو تركها عمدًا أو سهوًا حلت الذبيحة، ولكن تركها عمدًا مكروه على الصحيح.

أما الحنفية: إن ترك التسمية عمدًا يحرم به أكل الصيد والمذبوح، والمسلم والكتابي في ذلك سواء، وإن ترك ناسيًا لم يحرم.

والمالكية والحنابلة: إن متروك التسمية عمدًا لا يحل أكله. الوسيط في المذهب (٧/١٤٤).

(٢) هذا معنى حديث ولفظه «إذا أكل أحدكم فليأكل بيمينه ..» وقد أخرجه مسلم في الأشربة (١٠٥)، وأبو داود في الأطعمة (٣٧٧٦).

أو الشرب بالشمال حرام ، ثم إن الأكل بالشمال والشرب بالشمال مع كونه من هدي الشيطان فهو أيضًا من هدي الكفار ؛ لأن الكفار يأكلون بشمائلهم ويشربون بشمائلهم .

ثم إن بعض الناس إذا كان على الأكل وأراد أن يشرب فإنه يمسك الكأس باليسار ويشرب ، ويقول أخشى أن تتلوث الكأس إذا شربت باليمين ، فنقول : لتتلوث ، فإنها إذا تلوثت فإنما تتلوث بطعام ، ولم تتلوث ببول ولا غائط . تلوثت بطعام ثم تغسل .

وبإمكانك أن تمسك الكأس من الأسفل بين إبهامك والسبابة ، وتجعلها كالحلقة ولا يتلوث منه إلا شيء يسير ، ولا عذر لأحد بالشرب بالشمال من أجل هذا ؛ لأن المسألة على سبيل التحريم ، والحرام لا يجوز إلا عند الضرورة ، والضرورة مثل أن تكون اليد اليمنى شلاء ، لا يمكن أن يرفعها إلى فيه ، أو مكسورة لا يمكن أن يرفعها إلى فيه ، فهذه ضرورة ، أو تكون متجرحة لا يمكن أن يأكل بها أو يشرب .

المهم : إذا كان هناك ضرورة فلا بأس باليسار ، وإلا فلا يحل للمسلم أن يأكل باليسار ولا أن يشرب باليسار .

الأدب الثالث : قوله : « وكل مما يليك » : يعني لا تأكل من حافة غيرك ، بل كل من الذي يليك ؛ لأنك إذا اعتديت على حافة غيرك فهذا سوء أدب ، فكل من الذي يليك .

إلا إذا كان الطعام أنواعًا ، مثل أن يكون هناك لحم في غير الذي يليك فلا بأس أن تأكل ، أو يكون هناك قرع ، أو ما أشبه ذلك مما يقصد ، فلا بأس أن تأكل من الذي لا يليك ؛ لأن أنس بن مالك ﷺ قال : أكلت مع النبي ﷺ : « فكان يتتبع الدبَّاء من حوالي القصعة » [1] ، الدبَّاء : القرع ، يتتبعه يعني يَلْقُطُه من على الصحفة ليأكله ، هذا لا بأس به .

وفي هذا الحديث من الفوائد : أنه يجب على الإنسان أن يؤدب أولاده على كيفية الأكل والشرب ، وعلى ما ينبغي أن يقول في الأكل والشرب ، كما فعل النبي ﷺ في ربيبه .

وفي هذا : حسن خلق النبي ﷺ وتعليمه ؛ لأنه لم يزجر هذا الغلام حين جعلت يده تطيش في الصحفة ، ولكن علمه برفق ، وناداه برفق : يا غلام سم الله ، وكل بيمينك .

وليعلم أن تعليم الصغار لمثل هذه الآداب لا ينسى ، يعني أن الطفل لا ينسى إذا علمته وهو صغير ، لكن إذا كبر ربما ينسى إذا علمته ، وربما يتمرد عليك بعض الشيء إذا كبر ، لكن مادام صغيرًا وعلمته يكون أكثر إقبالًا ، ومن اتقى الله في أولاده اتقوا الله فيه ، ومن ضيع حق أولاده ضيعوا حقه إذا احتاج إليهم .

* * *

(١) أخرجه البخاري في الأطعمة (٥٣٧٩) ، ومسلم في الأشربة (١٤٤) .

٣٠٠ - وعن ابن عمر رضي الله عنهما قال : سمعت رسول الله ﷺ يقول : « كُلُّكُمْ رَاعٍ ، وَكُلُّكُمْ مَسْؤُولٌ عَنْ رَعِيَّتِه ، الإِمَامُ رَاعٍ وَمَسْؤُولٌ عَنْ رَعِيتِهِ ، والرَّجُلُ رَاعٍ في أَهْلِهِ وَمَسْؤُولٌ عَنْ رَعِيَّتِهِ ، وَالمَرْأَةُ رَاعِيَةٌ في بَيتِ زَوجِهَا وَمَسْؤولَةٌ عَنْ رَعِيَّتِهَا ، وَالخَادِمُ رَاعٍ في مَالِ سَيِّدِهِ وَمسْؤُول عَنْ رَعِيَّتِهِ ، فكُلُّكُم رَاعٍ وَمَسْؤولٌ عَنْ رَعِيَّتِهِ » [١] متفقٌ عليه .

٣٠١ - وعن عمرو بن شُعَيب ، عن أبيه ، عن جَدِّهِ رضي الله عنه قال : قال رسول الله ﷺ : « مُرُوا أولادَكُمْ بِالصَّلاةِ وَهُمْ أَبْنَاءُ سَبْعِ سِنِينَ ، وَاضْرِبُوهُمْ عَلَيهَا وَهُمْ أَبْنَاءُ عَشْرٍ ، وَفَرِّقُوا بَينَهُمْ في المَضَاجِعِ » [٢] حديثٌ حسنٌ رواه أبو داود بإسنادٍ حسنٍ .

٣٠٢ - وعن أبي ثُرَيَّةَ سَبْرَةَ بنِ مَعْبَدٍ الجُهَنِيِّ رضي الله عنه قال : قال رسول الله ﷺ : « عَلِّمُوا الصَّبيَّ الصَّلاَةَ لِسَبْعِ سِنِينَ ، وَاضْرِبُوهُ عَلَيهَا ابن عَشْرِ سِنِينَ » [٣] حديثٌ حسنٌ رواه أبو داود ، والترمذي وقال : حديث حسن . وَلَفْظُ أبي دَاوُدَ : « مُرُوا الصَّبيَّ بِالصَّلاةِ إِذَا بلغ سَبْعَ سِنِينَ » .

الشرح

ذكر المؤلف - رحمه الله تعالى - فيما نقله عن عمرو بن شعيب عن أبيه عن جده أن رسول الله ﷺ قال : « مروا أولادكم بالصلاة وهم أبناء سبع سنين ، واضربوهم عليها وهم أبناء عشر » وهو حديث حسن له شاهد من حديث سبرة بن معبد الجهني رضي الله عنه ، وهذا من حقوق الأولاد على آبائهم ؛ أن يأمروهم بالصلاة إذا بلغوا سبع سنوات ، وأن يضربوهم عليها أي على التفريط فيها وإضاعتها إذا بلغوا عشر سنين ، ولكن بشرط أن يكونوا ذوي عقل .

فإن بلغوا سبع سنين أو عشر سنين وهم لا يعقلون ، يعني فيهم جنون فإنهم لا يؤمرون بشيء ولا يضربون على شيء ، لكن يمنعون من الإفساد ؛ سواء في البيت أو خارج البيت .

قوله : « اضربوهم عليها وهم أبناء عشر سنين » : المراد الضرب الذي يحصل به التأديب بلا ضرر ، فلا يجوز للأب أن يضرب أولاده ضربًا مبرحًا ، ولا يجوز أن يضربهم ضربًا مكررًا لا حاجة إليه ، بل إذا احتاج إليه مثل ألا يقوم الولد للصلاة إلا بالضرب فإنه يضربه ضربًا غير مبرح ، بل ضربًا معتادًا ؛ لأن النبي ﷺ إنما أمر بضربهم لا لإيلامهم ولكن لتأديبهم وتقويمهم .

وفي هذا الحديث : إشارة إلى أن ما ذهب إليه بعض المتأخرين ممن يدعون أنهم أصحاب تربية من أن الصغار لا يضربون في المدارس إذا أهملوا ، ففي هذا الحديث الرد عليهم ، وهو دليل على بطلان فكرتهم ، وأنها غير صحيحة ؛ لأن بعض الصغار لا ينفعهم الكلام في الغالب ، ولكن الضرب ينفعهم

---

(١) أخرجه البخاري في الوصايا (٢٧٥١) ، ومسلم في الإمارة (٢٠) ، وكذلك الإمام أحمد في مسنده (٢/١٢١) ، والحديث لم يقم الشارح - رحمه الله تعالى - بشرحه .

(٢) أخرجه أبو داود في الصلاة (٤٩٥) قوله « المضاجع » أي أماكن النوم .

(٣) أخرجه أبو داود في الصلاة (٤٩٤) ، والترمذي في أبواب الصلاة (٤٠٧) .

أكثر ، فلو أنهم تركوا بدون ضرب لضيعوا الواجب عليهم ، وفرطوا في الدروس وأهملوا ، فلابد من ضربهم ليعتادوا النظام ، ويقوموا بما ينبغي أن يقوموا به ، وإلا لصارت المسألة فوضى .

إلا أنه كما قلنا لابد أن يكون الضرب للتأديب لا للإيلام والإيجاع ، فيضرب ضربًا يليق بحاله ، ضربًا غير مبرح ، لا يفعل كما يفعل بعض المعلمين في الزمن السابق ؛ يضرب الضرب العظيم الموجع ، ولا يهمل كما يدعي هؤلاء المربون الذين هم من أبعد الناس عن التربية ، لا يقال لهم شيء ؛ لأن الصبي لا يمتثل ولا يعرف ، لكن الضرب يؤدبه .

* * *

٣٩ - باب حَقّ الجار والوصيّة به

قال اللَّه تعالى : ﴿ وَٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ وَلَا تُشْرِكُوا۟ بِهِۦ شَيْـًٔا ۖ وَبِٱلْوَٰلِدَيْنِ إِحْسَـٰنًا وَبِذِى ٱلْقُرْبَىٰ وَٱلْيَتَـٰمَىٰ وَٱلْمَسَـٰكِينِ وَٱلْجَارِ ذِى ٱلْقُرْبَىٰ وَٱلْجَارِ ٱلْجُنُبِ وَٱلصَّاحِبِ بِٱلْجَنۢبِ وَٱبْنِ ٱلسَّبِيلِ وَمَا مَلَكَتْ أَيْمَـٰنُكُمْ ۗ ﴾ [النساء : ٣٦] .

٣٠٣ - وعن ابنِ عُمَرَ وعائشة رضي الله عنهما قالا : قال رسول اللَّه ﷺ : « مَا زَالَ جِبْرِيلُ يُوصِينِي بِالجَارِ حَتَّى ظَنَنْتُ أَنَّهُ سَيُوَرِّثُهُ » (١) متفقٌ عليه .

٣٠٤ - وعن أبي ذرٍّ رضي الله عنه قال : قال رسول اللَّه ﷺ : « يَا أَبَا ذرٍّ إذا طَبَخْتَ مرقَةً ، فَأَكْثِرْ مَاءَهَا ، وَتَعَاهَدْ جِيرَانَكَ » (٢) رواه مسلم .

وفي رواية له عن أبي ذرٍّ قال : إن خليلي ﷺ أَوصَاني : « إذا طَبَخْتَ مَرَقًا فَأَكْثِرْ مَاءَهُ ، ثُمَّ انْظُرْ أَهْلَ بَيتٍ مِنْ جِيرَانِكَ ، فَأَصِبْهُمْ مِنْهَا بِمَعْرُوفٍ » (٣) .

٣٠٥ - عن أبي هريرة رضي الله عنه أن النبي ﷺ قال : « واللَّهِ لا يُؤمِنُ ، وَاللَّهِ لا يُؤمِنُ ، واللَّهِ لا يُؤمِنُ ! » قِيلَ : مَنْ يا رسول اللَّه ؟ قال : « الَّذي لا يَأْمَنُ جَارُهُ بِوَائِقَهُ ! » متفقٌ عليه .

وفي رواية لمسلمٍ : « لا يَدْخُلُ الجَنَّةَ مَنْ لا يَأْمَنُ جَارُهُ بَوَائِقَهُ » (٤) .

« البَوَائِقُ » الغَوَائِل وَالشُّرُورُ .

٣٠٦ - وعنه قال : قال رسولِ اللَّه ﷺ : « يَا نِسَاءَ المُسْلِماتِ لا تَحْقِرَنَّ جَارةٌ لِجَارَتِها وَلَو فِرْسِنَ شَاةٍ » (٥) متفقٌ عليه .

---

(١) أخرجه البخاري في الأدب (٦٠١٤) ، ومسلم في البر والصلة (١٤١) ، وأبو داود بنحوه في الأدب (٥١٥١) .

(٢) أخرجه مسلم في البر والصلة (١٤٢) . (٣) أخرجه مسلم في البر والصلة (١٤٣) .

(٤) أخرجه البخاري في الأدب (٦٠١٦) ، ومسلم في الإيمان (٧٣) ، والإمام أحمد بنحوه في مسنده (٢٨٨/٢) .

(٥) أخرجه البخاري في الأدب (٦٠١٧) ، ومسلم في الزكاة (٩٠) ، والإمام أحمد في مسنده (٢٦٤/٢) .

٣٠٧ - وعنه أن رسول اللَّه ﷺ قال : « لا يَمْنَعْ جَارٌ جَارَهُ أَنْ يَغْرِزَ خَشَبَةً في جِدَارِهِ » ثُمَّ يَقُولُ أَبو هريرة : مَالي أَرَاكُمْ عَنْهَا مُعْرِضِينَ ! واللَّهِ لأَرْمِيَنَّ بِها بَينَ أَكْتَافِكُمْ [١] . متفقٌ عليه .

رُوِي « خَشَبهُ » بالإضَافَةِ والجَمْعِ ، وَرُوِي « خَشَبَةً » بالتَّنْوِينِ عَلى الإفْرَادِ . وقوله : « مالي أَرَاكُمْ عَنْهَا مُعْرِضينَ » : يَعْني عَنْ هذِهِ السُّنَّةِ .

الشرح

قال المؤلف - رحمه اللَّه تعالى - : باب حق الجار والوصية به ، الجار : هو الملاصق لك في بيتك والقريب من ذلك ، وقد وردت بعض الآثار بما يدل على أن الجار أربعون دارًا من كل جانب ، ولاشك أن الملاصق للبيت جار ، وأما ما وراء ذلك فإن صحت الأخبار بذلك عن النبي ﷺ فالحق ما جاءت به ، وإلا فإنه يرجع في ذلك إلى العرف ، فما عده الناس جوارًا فهو جوار .

ثم ذكر المؤلف - رحمه اللَّه تعالى - آية سورة النساء : ﴿ وَٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ وَلَا تُشْرِكُوا۟ بِهِۦ شَيْـًٔا ۖ وَبِٱلْوَٰلِدَيْنِ إِحْسَٰنًا وَبِذِى ٱلْقُرْبَىٰ وَٱلْيَتَٰمَىٰ وَٱلْمَسَٰكِينِ وَٱلْجَارِ ذِى ٱلْقُرْبَىٰ وَٱلْجَارِ ٱلْجُنُبِ ﴾ الجار ذي القربى : يعني الجار القريب ، والجار الجنب : يعني الجار البعيد الأجنبي منك .

قال أهل العلم : والجيران ثلاثة :

١ - جار قريب مسلم ، فله حق الجوار والقرابة والإسلام .

٢ - وجار مسلم غير قريب ، فله حق الجوار والإسلام .

٣ - وجار كافر ، فله حق الجوار ، وإن كان قريبًا فله حق القرابة أيضًا .

فهؤلاء الجيران لهم حقوق ؛ حقوق واجبة وحقوق يجب تركها .

ثم ذكر المؤلف رحمه الله خمسة أحاديث ، عن ابن عمر ، وعن أبي ذر ، وعن أبي هريرة ، أما حديث ابن عمر : ففيه : أن النبي ﷺ قال : « مازال جبريل يوصيني بالجار حتى ظننت أنه سيورثه » أي سينزل الوحي بتوريثه ، وليس المعنى أن جبريل يشرِّع توريثه ؛ لأن جبريل ليس له حق في ذلك ، لكن المعنى أنه سينزل الوحي الذي يأتي به جبريل بتوريث الجار ، وذلك من شدة إيصاء جبريل به النبيَّ ﷺ .

وأما حديث أبي ذر : ففيه : أن على الإنسان إذا وسع اللَّه عليه برزق ، أن يصيب منه جاره بعض الشيء بالمعروف ، حيث قال ﷺ : « إذا طبخت مرقة فأكثر ماءها ، وتعاهد جيرانك » ، أكثر ماءها يعني زدها في الماء لتكثر وتوزع على جيرانك منها ، والمرقة عادة تكون من اللحم أو من غيره مما يؤتدم به ، وهكذا أيضًا إذا كان عندك طعام غير المرق ، أو شراب كفضل اللبن مثلًا ، وما أشبهه ينبغي لك أن تعاهد جيرانك به ؛ لأن لهم حقًّا عليك .

وأما أحاديث أبي هريرة : ففيها أن النبي ﷺ أقسم ثلاث مرات فقال : « واللَّه لا يؤمن ، واللَّه لا

---

(١) أخرجه البخاري في المظالم (٢٤٦٣) - واللفظ له - ، ومسلم في المساقاة (١٣٦) ، والإمام أحمد في مسنده (٣/ ٤٨٠) .

يؤمن ، واللَّه لا يؤمن » قالوا : من يا رسول اللَّه ؟ قال : « من لا يأمن جاره بوائقه » يعني غدره وخيانته وظلمه وعدوانه ، فالذي لا يأمن جاره من ذلك ليس بمؤمن ، وإذا كان يفعل ذلك ويوقعه فعلًا فهو أشد .

وفي هذا : دليل على تحريم العدوان على الجار ؛ سواء كان ذلك بالقول أو بالفعل ، أما بالقول فأن يسمع منه ما يزعجه ويقلقه ، كالذين يفتحون الرداديو أو التلفزيون أو غيرهما مما يسمع فيزعج الجيران ، فإن هذا لا يحل له ، حتى لو فتحه على كتاب اللَّه وهو مما يزعج الجيران بصوته فإنه معتد عليهم ، ولا يحل له أن يفعل ذلك .

وأما بالفعل فيكون بإلقاء الكناسة حول بابه ، والتضييق عليه عند مداخل بابه ، أو بالدق ، أو ما أشبه ذلك مما يضره ، ومن هذا أيضًا إذا كان له نخلة أو شجرة حول جدار جاره فكان يسقيها حتى يؤذي جاره بهذا السقي ، فإن ذلك من بوائق الجار فلا يحل له .

إذن يحرم على الجار أن يؤذي جاره بأي شيء ، فإن فعل فإنه ليس بمؤمن ، والمعنى أنه ليس متصفًا بصفات المؤمنين في هذه المسألة التي خالف بها الحق .

وأما ما ذكره في حديث أبي هريرة أن النبي ﷺ قال : « لا يمنع جار جاره أن يغرز خشبة في جداره » يعني إذا كان جارك يريد أن يسقف بيته ووضع الخشب على الجدار ؛ فإنه لا يحل لك منعه ؛ لأن وضع الخشب على الجدار لا يضر ، بل يزيده قوة ، ويمنع السيل منه ، ولا سيما فيها سبق حيث كان البناء من اللبن ، فإن الخشب يمنع هطول المطر على الجدار فيحميه ، وهو أيضًا يشده ويقويه ، ففيه مصلحة للجار وفيه مصلحة للجدار ، فلا يحل للجار أن يمنع جاره من وضع الخشب على جداره ، وإن فعل ومنع فإنه يجبر على أن يوضع الخشب رغمًا عن أنفه .

ولهذا قال أبو هريرة : ما لي أراكم عنها معرضين ، واللَّه لأرمين بها بين أكتافكم ، يعني من لم يمكن من وضع الخشب على جداره وضعناه على متن جسده بين أكتافه ، وهذا قاله ﷺ حينما كان أميرًا على المدينة في زمن مروان بن الحكم .

وهذا نظير ما قاله - أمير المؤمنين - عمر بن الخطاب في المشاجرة التي جرت بين محمد بن مسلمة وجاره ، حيث أراد أن يجري الماء إلى بستانه وحال بينه وبينه بستان جاره ، فمنعه الجار من أن يجري الماء من على أرضه ، فترافعا إلى عمر ، فقال : واللَّه لئن منعته لأجرينه على بطنك ، وألزمه أن يجري الماء ؛ لأن إجراء الماء ليس فيه ضرر ؛ لأن كل بستان زرع فإذا جرى الماء الساقي ، انتفعت الأرض وانتفع ما حول الساقي من الزرع وانتفع الجار ، نعم لو كان الجار يريد أن يبنيها بناءً وقال لا أريد أن يجري الماء على الأرض فله المنع ، أما إذا كان يريد أن يزرعها فالماء لا يزيده إلا خيرًا [1] .

وبناءً على هذا فتجب مراعاة حقوق الجيران فيجب الإحسان إليهم بقدر الإمكان ويحرم الاعتداء عليهم بأي عدوان ، وفي الحديث عن النبي ﷺ أنه قال : « من كان يؤمن باللَّه واليوم الآخر فليحسن إلى جاره » [2] .

---

(١) انظر موطأ الإمام مالك (٢/٧٤٦) في الأقضية (٣٣) .

(٢) انظر صحيح مسلم في الإيمان (٧٦ ، ٧٧) .

٣٠٨ - وعنه أن رسول الله ﷺ قال : « مَنْ كَانَ يُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَاليَومِ الآخِرِ ؛ فَلا يُؤْذِ جَارَهُ ، وَمَنْ كَانَ يُؤْمِنُ بِاللَّهِ واليَومِ الآخِرِ ؛ فَلْيُكرِمْ ضَيفَهُ ، وَمَنْ كَانَ يُؤمِن بِاللَّهِ وَاليَومِ الآخِرِ ؛ فَلْيَقُلْ خَيرًا أو لِيَسْكُتْ » (١) متفقٌ عليه .

٣٠٩ - وعن أبي شُرَيح الخُزاعِيِّ ﷺ أنَّ النبيَّ ﷺ قال : « مَنْ كانَ يُؤْمِنُ باللَّهِ واليَومِ الآخِرِ ؛ فلْيُحسِنْ إلى جَارِهِ ، ومَنْ كَانَ يؤمِنُ باللَّهِ واليَومِ الآخِرِ ؛ فَلْيُكْرِمْ ضيفَهُ ، وَمَنْ كَانَ يُؤْمِنُ بِاللَّهِ واليَومِ الآخِرِ ، فَلْيَقُلْ خَيرًا أَو لِيَسْكُتْ » (٢) رواه مسلم بهذا اللفظ ، وروى البخاري بعضه .

٣١٠ - وعن عائشة ﷺ قالت : قلت : يا رسول اللَّه إنَّ لي جَارَينِ ، فَإلى أَيِّهِمَا أُهْدِي ؟ قال : « إلى أَقْرَبِهِمَا مِنْكِ بَابًا » (٣) رواه البخاري .

٣١١ - وعن عبدِ اللَّه بن عمر ﷺ قال : قال رسول اللَّه ﷺ : « خَيرُ الأَصْحَاب عِنْدِ اللَّه تعالى خَيرُهُمْ لِصَاحِبه ، وخَيرُ الجِيرَانِ عِندَ اللَّهِ تعالى خيرُهم لجارِهِ » (٤) رواه الترمذي وقال : حديث حسن .

* * *

٤٠ - بابُ برّ الوالدين وصلة الأرحام

قال اللَّه تعالى : ﴿ وَاعْبُدُوا اللَّهَ وَلَا تُشْرِكُوا بِهِ شَيْئًا وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَانًا وَبِذِي الْقُرْبَى وَالْيَتَامَى وَالْمَسَاكِينِ وَالْجَارِ ذِي الْقُرْبَى وَالْجَارِ الْجُنُبِ (٥) وَالصَّاحِبِ بِالْجَنْبِ (٦) وَابْنِ السَّبِيلِ وَمَا مَلَكَتْ أَيْمَانُكُمْ ﴾ [النساء : ٣٦] وقال تعالى : ﴿ وَاتَّقُوا اللَّهَ الَّذِي تَسَاءَلُونَ (٧) بِهِ وَالْأَرْحَامَ ﴾ [النساء : ١] وقال تعالى : ﴿ وَالَّذِينَ يَصِلُونَ مَا أَمَرَ اللَّهُ بِهِ أَنْ يُوصَلَ ﴾ الآية [الرعد : ٢١] وقال تعالى : ﴿ وَوَصَّيْنَا الْإِنْسَانَ بِوَالِدَيْهِ حُسْنًا ﴾ [العنكبوت : ٨] وقال تعالى : ﴿ وَقَضَى رَبُّكَ أَلَّا تَعْبُدُوا إِلَّا إِيَّاهُ وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَانًا إِمَّا يَبْلُغَنَّ عِنْدَكَ الْكِبَرَ أَحَدُهُمَا أَوْ كِلَاهُمَا فَلَا تَقُلْ لَهُمَا أُفٍّ وَلَا تَنْهَرْهُمَا (٨) وَقُلْ لَهُمَا قَوْلًا كَرِيمًا ۝ وَاخْفِضْ لَهُمَا جَنَاحَ الذُّلِّ مِنَ الرَّحْمَةِ وَقُلْ رَبِّ ارْحَمْهُمَا كَمَا رَبَّيَانِي صَغِيرًا ﴾ [الإسراء : ٢٣، ٢٤] وقال تعالى : ﴿ وَوَصَّيْنَا الْإِنْسَانَ بِوَالِدَيْهِ حَمَلَتْهُ أُمُّهُ وَهْنًا عَلَى وَهْنٍ وَفِصَالُهُ (٩) فِي عَامَيْنِ أَنِ اشْكُرْ لِي وَلِوَالِدَيْكَ ﴾ [لقمان : ١٤] .

٣١٢ - عن أبي عبد الرحمن عبد اللَّه بن مسعود ﷺ قال : سألت النبي ﷺ : أي العمل أحب

---

(١) أخرجه البخاري في الأدب (٦٠١٨) ، ومسلم في الإيمان (٧٥) ، والحديث لم يقم الشارح - رحمه اللَّه تعالى - بالتعليق عليه .

(٢) أخرجه مسلم في الإيمان (٧٧) ، روى البخاري بعضه في الرقاق (٦٤٧٦) ، والحديث لم يقم الشارح - رحمه اللَّه تعالى - بالتعليق عليه .

(٣) أخرجه البخاري في الهبة (٢٥٩٥) ، والإمام أحمد في مسنده (٢٣٩/٦) والبيهقي في سننه (٢٧٥/٦) .

(٤) أخرجه الترمذي في البر والصلة (١٩٤٤) ، والإمام أحمد في مسنده (١٨٦/٢) ، والحديث لم يقم الشارح - رحمه اللَّه تعالى - بالتعليق عليه

(٥) أي البعيد مكانًا ، وقيل : هو الذي لا قرابة في النسب بينه وبين جاره ويقابله الجار ذو القربى .

(٦) أي الرفيق في أمر حسن كتعلم وتجارة وسفر وصناعة ، يصحبك فيها ويكون في جنبك وجوارك .

(٧) تساءلون : تتعاقدون وتتعاهدون . (٨) لا تنهرهما : لا تزجرهما . (٩) وفصاله : وفطامه .

إلى الله تعالى ؟ قال : « الصلاةُ على وقتِها » ، قلت : ثم أيٌّ ؟ قال : « برُّ الوالدين » ، قلت : ثم أيٌّ ؟ قال : « الجهاد في سبيل الله » (١) متفق عليه .

٣١٣ - وعن أبي هريرة ﷺ قال : قال رسول الله ﷺ : « لا يَجْزِي وَلَدٌ وَالِدًا إلا أنْ يَجِدَهُ مَمْلُوكًا ، فَيَشْتَرِيَهُ ، فَيَعْتِقَهُ » (٢) رواه مسلم .

الشرح

قال المؤلف - رحمه الله تعالى - : باب الوالدين وصلة الأرحام . الوالدان هما الأب والأم ، وعبر بالبر اتباعًا لما جاء في النص ، وعبر عن صلة الأرحام بالصلة لأنه هكذا جاء أيضًا بالنص ، والأرحام هم القرابة .

وبر الوالدين من أفضل الأعمال ، بل هو الحق الثاني بعد حق الله ورسوله .

وذكر المؤلف رحمه الله ، آيات كثيرة في هذا المعنى كقوله تعالى : ﴿ وَاعْبُدُوا اللَّهَ وَلَا تُشْرِكُوا بِهِ شَيْئًا وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَانًا ﴾ ، قوله تعالى : ﴿ وَقَضَىٰ رَبُّكَ أَلَّا تَعْبُدُوا إِلَّا إِيَّاهُ وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَانًا ﴾ ، وقوله تعالى : ﴿ وَوَصَّيْنَا الْإِنسَانَ بِوَالِدَيْهِ حُسْنًا ﴾ ، قوله تعالى : ﴿ وَوَصَّيْنَا الْإِنسَانَ بِوَالِدَيْهِ حَمَلَتْهُ أُمُّهُ وَهْنًا عَلَىٰ وَهْنٍ وَفِصَالُهُ فِي عَامَيْنِ أَنِ اشْكُرْ لِي وَلِوَالِدَيْكَ إِلَيَّ الْمَصِيرُ ﴾ ، وقوله تعالى : ﴿ إِمَّا يَبْلُغَنَّ عِندَكَ الْكِبَرَ أَحَدُهُمَا أَوْ كِلَاهُمَا فَلَا تَقُل لَّهُمَا أُفٍّ وَلَا تَنْهَرْهُمَا وَقُل لَّهُمَا قَوْلًا كَرِيمًا ۝ وَاخْفِضْ لَهُمَا جَنَاحَ الذُّلِّ مِنَ الرَّحْمَةِ وَقُل رَّبِّ ارْحَمْهُمَا كَمَا رَبَّيَانِي صَغِيرًا ﴾ .

وكل هذه الآيات وغيرها تدل على عظم حق الوالدين ، وقد بين الله ﷻ حال الأم ، وأنها تحمل ولدها وهنًا على وهن : أي ضعفًا على ضعف ، من حين أن تحمل به إلى أن تضعه وهي في ضعف ومشقة وعناء ، وكذلك عند الوضع ، كما قال تعالى : ﴿ وَوَصَّيْنَا الْإِنسَانَ بِوَالِدَيْهِ إِحْسَانًا حَمَلَتْهُ أُمُّهُ كُرْهًا وَوَضَعَتْهُ كُرْهًا ﴾ [الأحقاف : ١٥] كل هذا البيان سبب حقها العظيم .

ثم ذكر الله أشد حالة يكون عليها الوالدان فقال تعالى : ﴿ إِمَّا يَبْلُغَنَّ عِندَكَ الْكِبَرَ أَحَدُهُمَا أَوْ كِلَاهُمَا فَلَا تَقُل لَّهُمَا أُفٍّ ﴾ ؛ لأن الوالدين إذا بلغا الكبر ضعفت نفوسهما ، وصارا عالة على الولد ، ومع ذلك يقول : ﴿ فَلَا تَقُل لَّهُمَا أُفٍّ ﴾ يعني لا تقل إني متضجر منكما ، بل عاملهما باللطف والإحسان والرفق ، ولا تنهرهما إذا تكلما ، وقل لهما قولًا كريمًا : يعني رد عليهما ردًا جميلًا لعظم الحق .

ثم ذكر حديث ابن مسعود ﷺ أن النبي ﷺ قال حين سأله عبد الله بن مسعود : أي العمل أحب إلى الله ؟ قال : « الصلاة على وقتها » قلت : ثم أي ؟ قال : « بر الوالدين » ، قلت : ثم أي ؟ قال : « الجهاد في سبيل الله » .

فجعل النبي ﷺ مرتبة البر بالوالدين مقدمة على مرتبة الجهاد في سبيل الله ، قال : ولو استزدته لزادني .

وفي هذا : دليل على فضل بر الوالدين .

---

(١) أخرجه البخاري - واللفظ له - في مواقيت الصلاة (٥٢٧) ، ومسلم في الإيمان (١٣٩) ، والإمام أحمد في مسنده (١/٤٠٩،٤١٠) .

(٢) أخرجه مسلم في العتق (٢٥) ، وأبو داود في الأدب (٥١٣٧) ، والترمذي في البر والصلة (١٩٠٦) .

فإن قال قائل : ما هو البر ؟ قلنا : هو الإحسان إليهما ؛ بالقول ، والفعل ، والمال بقدر المستطاع ، اتقوا الله ما استطعتم ، وضد ذلك العقوق .

ثم ذكر الحديث الثاني وهو قول الرسول ﷺ : « لا يجزي ولد والدًا إلا أن يجده مملوكًا فيشتريه فيعتقه » يعني : يعتقه بشرائه ؛ لأنه فك أباه من رق العبودية للإنسان ، وهذا الحديث : لا يدل على أن من ملك أباه لا يعتق عليه ، بل نقول : إن معناه إلا أن يشتريه فيعتقه ، أي فيعتقه بشرائه ؛ لأن الإنسان إذا ملك أباه عتق عليه بمجرد الملك ، ولا يحتاج إلى أن يقول عتقته ، وكذلك إذا ملك أمه تعتق بمجرد الملك ، ولا يحتاج إلى أن يقول عتقتها .

* * *

٣١٤ - وعنه أيضًا ﷺ أن رسول الله ﷺ قال : « مَنْ كَانَ يُؤْمِنُ باللَّهِ واليَومِ الآخِرِ ، فَلْيُكرِمْ ضَيفَهُ ، وَمَنْ كانَ يُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَاليَومِ الآخِرِ ، فَلْيَصِلْ رَحِمَهُ ، وَمَنْ كَانَ يُؤْمِنُ بِاللَّهِ واليومِ الآخِرِ ، فَلْيَقُلْ خَيرًا أَو لِيَصْمُتْ » [١] متفقٌ عليه .

٣١٥ - وعنه قال : قال رسول اللَّه ﷺ : « إنَّ اللَّه تَعَالَى خَلَق الخَلْقَ حَتَّى إذا فَرَغَ مِنْهُمْ قَامَتِ الرَّحِمُ ، فَقَالَتْ : هذا مَقَامُ العَائِذِ بِكَ مِنَ القَطِيعَةِ ، قال : نَعَمْ ، أمَا تَرْضِينَ أَنْ أَصِلَ مَنْ وَصَلكِ ، وَأَقْطَعَ مَنْ قَطَعَكِ ؟ قالت : بَلَى ، قال : فَذلِكَ لَكِ » ثم قال رسول اللَّه ﷺ : « اقْرَؤُوا إنْ شِئْتُمْ : ﴿ فَهَلْ عَسَيْتُمْ إِن تَوَلَّيْتُمْ أَن تُفْسِدُوا فِي الْأَرْضِ وَتُقَطِّعُوا أَرْحَامَكُمْ ۝ أُولَٰئِكَ الَّذِينَ لَعَنَهُمُ اللَّهُ فَأَصَمَّهُمْ وَأَعْمَىٰ أَبْصَارَهُمْ ﴾ » . [محمد : ٢٢، ٢٣] متفقٌ عليه .

وفي رواية للبخاري : فقال اللَّه تعالى : « مَنْ وَصَلَكِ وَصَلْتُهُ ، وَمَنْ قَطَعَكِ قَطَعْتُهُ » [٢] .

٣١٦ - وعنه ﷺ قال : جَاءَ رَجُلٌ إلى رسول اللَّه ﷺ فقال : يا رسول اللَّه مَنْ أَحَقُّ النَّاس بحُسْنِ صَحَابَتِي ؟ قال : « أُمُّكَ » قال : ثُمَّ مَنْ ؟ قال : « أُمُّكَ » قال : ثُمَّ مَنْ ؟ قال : « أُمُّكَ » قال : ثُمَّ مَنْ ؟ قال : « أَبُوكَ » [٣] متفقٌ عليه .

وفي رواية : يا رسول اللَّه ، مَنْ أَحَقُّ بِحُسْنِ الصُّحْبَة ؟ قال : « أُمُّكَ ، ثُمَّ أُمُّكَ ، ثُمَّ أُمُّكَ ، ثُمَّ أَبَاكَ ، ثُمَّ أَدْنَاكَ أَدْنَاكَ » [٤] .

« وَالصَّحَابَةُ » بمعنى : الصُّحْبَةِ . وقوله : « ثُمَّ أَبَاكَ » هكذا هو منصوب بفعلٍ محذوفٍ ، أَي : ثم بِرَّ أَباك وفي رواية : « ثُمَّ أَبُوكَ » وهذا واضِح .

---

(١) أخرجه البخاري في الأدب (٦٠١٨) ، ومسلم في الإيمان (٧٤) والحديث لم يقم الشارح - رحمه الله تعالى - بالتعليق عليه .

(٢) أخرجه البخاري في التوحيد (٧٥٠٢) وفيه أن قرأ إلى ﴿ وَتُقَطِّعُوا أَرْحَامَكُمْ ﴾ ، ومسلم - واللفظ له - في البر والصلة (١٦) وفيه أنه قرأ إلى ﴿ أَفَلَا يَتَدَبَّرُونَ الْقُرْآنَ أَمْ عَلَىٰ قُلُوبٍ أَقْفَالُهَا ﴾ ، والرواية الثانية أخرجها البخاري في الأدب (٥٩٨٩) .

(٣) أخرجه البخاري في الأدب (٥٩٧١) ، ومسلم في البر والصلة (١) .

(٤) والرواية الثانية أخرجه مسلم - واللفظ له - في البر والصلة (٢) . والرواية فيه - بحسب النسخ التي بين أيدينا - ثم أبوك .

الشرح

هذان الحديثان في بيان فضل صلة الرحم ، والرحم سبق لنا أنهم هم الأقارب ، وصلتهم بما جرى به العرف واتبعه الناس ؛ لأنه لم يبين في الكتاب ولا السنة نوعها ولا جنسها ولا مقدارها ؛ لأن النبي ﷺ لم يقيده بشيء معين ؛ فلم يقيده بأن يأكلوا معك ، أو يشربوا معك ، أو يكتسوا معك ، أو يسكنوا معك ، بل أطلق ، ولذلك يرجع فيها للعرف ، فما جرى به العرف أنه صلة فهو الصلة ، وما تعارف عليه الناس أنه قطيعة فهو قطيعة ، هذا هو الأصل .

نعم ، لو فرض أن الأعراف فسدت ، وصار الناس لا يبالون بالقطيعة ، وصارت القطيعة عندهم صلة فلا عبرة بهذا العرف ؛ لأن هذا العرف ليس عرفًا إسلاميًا ، فإن الدول الكافرة الآن لا تتلاءم أسرها ، ولا يعرف بعضهم بعضًا ، حتى إن الإنسان إذا شب ولده وكبر صار مثله مثل الرجل الأجنبي الذي لا يعرف أن له أبًا ؛ لأنهم لا يعرفون صلة الأرحام ، ولا يعرفون حسن الجوار ، وكل أمورهم فوضى فاسدة ؛ لأن الكفر دمرهم تدميرًا والعياذ بالله ، لكن كلامنا عن المجتمع المسلم المحافظ ، فما عده الناس صلة فهو صلة ، وما عدوه قطيعة فهو قطيعة .

وفي حديث أبي هريرة الأول : أن الله ﷻ تكفَّل للرحم بأن يصل من وصلها ويقطع من قطعها ، وفي هذا : حث وترغيب في صلة الرحم ، فإذا أردت أن يصلك الله - وكل إنسان يريد أن يصله ربه - فصل رحمك ، وإذا أردت أن يقطعك الله فقطع رحمك ، جزاءً وفاقًا ، وكلما كان الإنسان لرحمه أوصل كان الله له أوصل ، وكلما قصر جاءه من الثواب بقدر ما عمل ، لا يظلم الله أحدًا .

وذكر المؤلف - رحمه الله تعالى - قوله سبحانه : ﴿ فَهَلْ عَسَيْتُمْ إِن تَوَلَّيْتُمْ أَن تُفْسِدُوا فِي الْأَرْضِ وَتُقَطِّعُوا أَرْحَامَكُمْ ﴿٢٢﴾ أُولَٰئِكَ الَّذِينَ لَعَنَهُمُ اللَّهُ فَأَصَمَّهُمْ وَأَعْمَىٰ أَبْصَارَهُمْ ﴾ فبين سبحانه وتعالى أن الذين يفسدون في الأرض ويقطعون أرحامهم ملعونون - والعياذ بالله - أي : مطرودون ومبعدون عن رحمة الله ، وقد أصمهم الله ؛ أي جعلهم لا يسمعون الحق ولو سمعوا ما انتفعوا به ، وأعمى أبصارهم ؛ فلا يرون الحق ، ولو رأوه لم ينتفعوا به ، فسد عنهم طرق الخير ؛ لأن السمع والبصر يوصل المعلومات إلى القلب ، فإذا انسد الطريق لم يصل إلى القلب خير والعياذ بالله .

وقد ذكر أهل العلم من جملة الصلة النفقة على الأقارب : فقالوا : إن الإنسان إذا كان له أقارب فقراء وهو غني وهو وارث لهم ، فإنه يلزمه النفقة عليهم ، كالأخ الشقيق مع أخيه الشقيق ، إذا كان الأخ هذا يرثه لو مات فإنه يجب على الوارث أن ينفق على أخيه مادام غنيًا ، وأخوه فقيرًا عاجزًا عن التكسب ، فإن هذا من جملة الصلة .

وقالوا أيضًا : إن من جملة الإنفاق أنه إذا احتاج إلى النكاح فإنه يزوجه ؛ لأن إعفاف الإنسان من أشد الحاجات .

وعلى هذا : فإذا كان للإنسان أخ شقيق ولا يرثه إلا أخوه ، وأخوه غني وهو فقير عاجز عن

التكسب ، وجب عليه أن ينفق عليه طعامًا وشرابًا وكسوة ومسكنًا ومركوبًا إذا كان يحتاجه ، وأن يزوجه أيضًا إذا احتاج إلى النكاح ؛ لأن الإعفاف من أشد الحاجات فيدخل في صلة الرحم .

وهذه الأمور يجب على الإنسان إذا كان لا يعلم عنها شيئًا أن يسأل أهل العلم حتى يدلوه على الحق ، لقوله تعالى : ﴿ وَمَآ أَرْسَلْنَا قَبْلَكَ إِلَّا رِجَالًا نُّوحِىٓ إِلَيْهِمْ فَسْـَٔلُوٓاْ أَهْلَ ٱلذِّكْرِ إِن كُنتُمْ لَا تَعْلَمُونَ ﴾ [الأنبياء: ٧] .

والحديث الثاني : في بيان أحق الناس بحسن صحبة الإنسان ، فبين النبي ﷺ أن أحق الناس بذلك الأم ، فأعيد عليه السؤال فقال : أمك مرة ثانية ، كرر ذلك ثلاث مرات ، ثم بعد ذلك الأب ؛ لأن الأم حصل عليها من العناء والمشقة للولد ما لم يحصل لغيرها ؛ حملته أمه وهنًا على وهن ، حملته كرهًا ووضعته كرهًا ، وفي الليل تمهده وتهدئه حتى ينام ، وإذا أتاه ما يؤلمه لم تنم تلك الليلة حتى ينام .

ثم إنها تفديه بنفسها بالتدفئة عند البرد ، والتبريد عند الحر وغير ذلك ، فهي أشد عناية من الأب بالطفل ، ولذلك كان حقها مضاعفًا ثلاث مرات على حق الأب .

ثم إنها أيضًا ضعيفة ، أنثى لا تأخذ بحقها ، فلهذا أوصى بها النبي ﷺ ثلاث مرات ، وأوصى بالأب مرة واحدة ، وفي ذلك الحث على أن يحسن الإنسان صحبه أمه ، وصحبة أبيه أيضًا بقدر المستطاع . أعاننا الله والمسلمين على ذلك .

وفق الله الجميع لما فيه الخير والصلاح ، ووصلنا والمسلمين بفضله وإحسانه .

* * *

٣١٧ - وعنه عن النبي ﷺ قال : « رَغِمَ أَنْفُ ، ثُمَّ رَغِمَ أَنْفُ ، ثُمَّ رَغِمَ أَنْفُ ؛ مَنْ أَدْرَكَ أَبَوَيهِ عِنْدَ الكِبَرِ ، أَحَدَهُمَا أو كِلَيهِمَا ، فَلَمْ يَدْخُلِ الجَنَّةَ » (١) رواه مسلم .

٣١٨ - وعنه ﷺ أن رجلًا قال : يا رسول الله إنَّ لي قَرَابَةً أَصِلُهُمْ وَيَقْطَعُونِي ، وَأُحْسِنُ إِلَيهِمْ وَيُسِيئُونَ إِلَيَّ ، وَأَحْلُمُ عَنْهُمْ وَيَجْهَلُونَ عَلَيَّ (٢) ، فقال : « لَئِنْ كُنْتَ كَمَا قُلْتَ ، فَكَأَنَّمَا تُسِفُّهُمُ المَلَّ ، وَلا يَزَالُ مَعَكَ مِنَ اللهِ ظَهِيرٌ عَلَيهِم مَا دُمْتَ عَلَى ذَلِكَ » (٣) رواه مسلم .

« وَتُسِفُّهُمْ » بضم التاء وكسر السين المهملةِ وتشديدِ الفاءِ « وَالمَلُّ » بفتح الميم ، وتشديد اللام وهو الرَّمادُ الحَارُّ : أي كَأَنَّمَا تُطْعِمُهُمُ الرَّمَادَ الحَارَّ وَهُوَ تَشْبِيهٌ لِمَا يَلْحَقُهُمْ مِنَ الإِثْمِ بِمَا يَلْحَقُ آكِلَ الرَّمَادِ الحَارِّ مِنَ الأَلمِ ، ولا شَيءَ عَلَى هذا المُحْسِنِ إِلَيهِمْ ، لكِنْ يَنَالُهم إِثْمٌ عَظِيمٌ بِتَقْصِيرِهِم في حَقِّهِ ، وإِدْخَالِهِم الأَذَى عَلَيهِ ، والله أعلم .

٣١٩ - وعن أَنسٍ ﷺ أن رسول الله ﷺ قال : « مَنْ أَحَبَّ أَنْ يُبْسَطَ له في رِزقِهِ ، وَيُنْسَأَ لَهُ في

---

(١) يجهلون عليَّ : يسيئون . والجهل هنا : القبيح من القول .

(٢) أخرجه البخاري في الأدب (٥٩٧١) ومسلم في البر والصلة (١ ، ٢) والحديث لم يقم الشارح - رحمه الله تعالى - بشرحه .

(٣) أخرجه مسلم في البر والصلة (٢٢) ، والإمام أحمد بنحوه في مسنده (٢/٣٠٠) .

أثره ، فَلْيَصِلْ رحِمَهُ »[١] متفقٌ عليه . ومَعْنى « يُنسَأَ لَهُ في أَثَرِهِ » : أي : يُؤَخَّرَ له في أجلِهِ وعُمُرِهِ .

٣٢٠ - وعنه قال : كَانَ أبو طَلْحَةَ أَكْثَرَ الأنْصَارِ بالمَدِينَةِ مَالاً مِنْ نَخْلٍ ، وَكَانَ أَحبُّ أَمْوَالِهِ إلَيه بيرَحَاءَ ، وكَانَتْ مُسْتَقْبِلَةَ المَسْجِدِ ، وكَانَ رسول اللَّه ﷺ يَدْخُلُهَا ، وَيَشْرَبُ مِنْ مَاءٍ فيها طَيِّب ، فَلَمَّا نَزَلَتْ هذِهِ الآيَةُ : ﴿ لَن تَنَالُواْ ٱلْبِرَّ حَتَّىٰ تُنفِقُواْ مِمَّا تُحِبُّونَ ﴾ [آل عمران : ٩٢] قَامَ أبو طَلْحَةَ إلى رسول اللَّه ﷺ فقال : يا رسولَ اللَّه إنَّ اللَّه تَبَارَكَ وتعالى يقول : ﴿ لَن تَنَالُواْ ٱلْبِرَّ حَتَّىٰ تُنفِقُواْ مِمَّا تُحِبُّونَ ﴾ وَإِنَّ أحبَّ مَالي إلَيَّ بَيرَحَاءُ ، وإنَّهَا صَدَقَةٌ للَّهِ تعالى ، أَرْجُو بِرَّهَا وذُخْرَهَا عِنْدَ اللَّه تعالى ، فضَعْهَا يا رسول اللَّه حَيثُ أَرَاكَ اللَّه . فقال رسول اللَّه ﷺ : « بَخٍ ! ذلِكَ مَالٌ رَابحٌ ، ذلِكَ مَالٌ رَابحٌ ! وقَدْ سَمِعْتُ ما قُلْتَ ، وَإنِّي أرَى أَنْ تَجْعَلَهَا في الأَقْرَبِينَ » فَقَالَ أَبُو طَلْحَةَ : أَفْعَلُ يا رسول اللَّه ، فَقَسَمَهَا أَبُو طَلْحَةَ في أَقَارِبِهِ وبَني عَمِّهِ[٢] . متفقٌ عليه .

وَسَبَقَ بَيَانُ أَلفَاظِهِ في : بَابِ الإنْفَاقِ مِمَّا يُحِب .

٣٢١ - وعن عبد اللَّه بن عمرو بن العاص رضي الله عنهما قال : أَقْبَلَ رَجُلٌ إلى نَبِيِّ اللَّه ﷺ ، فقال : أُبَايِعُكَ عَلى الهِجْرَةِ والجِهَادِ أَبْتَغِي الأَجْرَ مِنَ اللَّه تعالى . قال : « فَهَلْ لَكَ مِنْ وَالِدَيكَ أَحَدٌ حَيٌّ ؟ » قال : نَعَمْ بَلْ كِلاهُمَا . قال : « فَتَبْتَغِي الأجْرَ مِنَ اللَّهِ تعالى ؟ » قال : نَعَمْ. قال : « فَارْجِعْ إلى وَالِدَيكَ ، فَأَحْسِنْ صُحْبَتَهُمَا » متفقٌ عليه . وهذا لَفْظُ مسلِم .

وفي روايةٍ لَهُمَا : جَاءَ رَجُلٌ فَاسْتَأْذَنَهُ في الجِهَادِ فقال « أحَيٌّ وَالِدَاكَ ؟ » قال : نَعَمْ ، قال : « فَفِيهِمَا فَجَاهِدْ »[٣] .

٣٢٢ - وعنه عن النبي ﷺ قال : « لَيسَ الوَاصِلُ بِالْمُكَافِئِ وَلكِنَّ الوَاصِلَ الَّذي إذا قَطَعَتْ رَحِمُهُ وَصَلَهَا »[٤] رواه البخاري . وَ « قَطَعَتْ » بِفَتْحِ القَافِ وَالطَّاءِ . وَ « رَحِمُهُ » مَرْفُوعٌ .

٣٢٣ - وعن عائشة قالت : قال رسول اللَّه ﷺ : « الرَّحِمُ مُعَلَّقَةٌ بِالعَرْشِ تَقُولُ : مَنْ وَصَلَني وَصَلَهُ اللَّه ، وَمَن قَطَعَني قَطَعَهُ اللَّه »[٥] متفقٌ عليه .

الشرح

هذه الأحاديث في بيان فضيلة صلة الرحم ، أن الإنسان الواصل ليس المكافئ الذي إذا وصله أقاربه وصلهم ، ولكن الواصل هو الذي إذا قطعت رحمه وصلها ، فتكون صلته للَّه لا مكافأة لعباد اللَّه ، ولا من أجل أن ينال بذلك مدحًا عند الناس ، قال النبي ﷺ : « ليس الواصل بالمكافئ » يعني بالذي إذا وصله أقاربه وصلهم مكافأة لهم ، وإنما الواصل الذي إذا قطعت رحمه وصلها .

---

(١) أخرجه البخاري في الأدب (٥٩٨٦) ، ومسلم في البر والصلة (٢١) .

(٢) انظر حديث ٢٩٧ ص ٦٧٩ .

(٣) أخرجه مسلم في البر والصلة (٦) ، وأخرج الرواية الثانية البخاري في الجهاد (٣٠٠٤) ، ومسلم في البر والصلة (٥) .

(٤) أخرجه البخاري في الأدب (٥٩٩١) ، وأبو داود في سننه (١٦٩٧) ، والترمذي في سننه (١٩٠٨) .

(٥) أخرجه البخاري في الأدب (٥٩٨٩) ، ومسلم - واللفظ له - في البر والصلة (١٧) .

وكذلك أيضًا في هذه الأحاديث : أن الرحم متعلقة بالعرش ، تقول : من وصلني وصله الله ومن قطعني قطعه الله ، وهذا يحتمل أن يكون خبرًا وأن يكون دعاءً ، يعني يحتمل أن الرحم تخبر بهذا أو تدعو الله ﷻ به ، وعلى كل حال فهو دليل على عظم شأن الرحم وصلتها ، وأنها تحت العرش تدعو بهذا الدعاء ، أو تخبر بهذا الخبر .

ثم ذكر المؤلف حديث الرجل الذي كان يحسن إلى قرابته فيسيئون إليه ويصلهم فيقطعونه ، فقال النبي ﷺ : « لئن كنت » : يعني كما تقول « فكأنما تسفهم المَلَّ » والمل : هو الرماد الحار ، وتسفهم : يعني تجعله في أفواههم ، والمعنى : أنك كأنما ترغمهم بهذا الرماد الحار عقوبة لهم ، « ولا يزال لك من الله عليهم ظهير » يعني عون عليهم ما دمت على ذلك ، أي تصلهم وهم يقطعونك .

فكل هذه الأحاديث وما شابهها تدل على أنه يجب على الإنسان أن يصل رحمه وأقاربه بقدر ما يستطيع ، وبقدر ما جرى به العرف ، ويحذر من قطيعة الرحم .

* * *

٣٢٤ - وعن أُمِّ المُؤمِنِينَ مَيمُونَةَ بِنْتِ الحَارِثِ رضي الله عنها أَنَّهَا أَعْتَقَتْ وَلِيدَةً وَلَمْ تَسْتأذِنِ النَّبيَّ ﷺ ، فَلَمَّا كَانَ يَومُهَا الَّذي يَدُورُ عَلَيهَا فِيه ، قالت : أَشَعَرْتَ يا رسول الله أَنِّي أَعْتَقْتُ وَلِيدَتي ؟ قال : « أَوَ فَعَلْتِ ؟ » قالت : نَعَمْ . قال : « أما إنَّكِ لو أَعْطَيتِهَا أَخْوالَكِ كان أَعْظَمَ لأَجْرِكِ »[(١)] متفقٌ عليه .

٣٢٥ - وعن أَسْمَاءَ بنْتِ أَبي بَكْرٍ الصِّدِّيقِ رضي الله عنهما قالت : قَدِمَتْ عَلَيَّ أُمِّي وهي مشركةٌ في عهد رسول الله ﷺ ، فاستفتيت رسول الله ﷺ ، قلت : قَدِمَتْ علي أمِّي وَهِي راغبَةٌ ، أَفَأَصِلُ أُمِّي ؟ قال : « نَعَمْ صِلي أُمَّكِ »[(٢)] متفقٌ عليه .

وقولُهَا : « رَاغِبَةٌ » ، أَي : طَامِعَةٌ عِندِي تَسْأَلُني شَيئًا ، قِيلَ : كَانَتْ أُمُّهَا مِنَ النَّسَبِ . وَقِيلَ : مِن الرَّضَاعَةِ والصحيحُ الأَولُ .

٣٢٦ - وعن زينَبَ الثَّقَفِيَّةِ امْرأَةِ عبدِ اللَّهِ بن مسعودٍ (رضي الله عنه وعنها) قالت : قال رسول الله ﷺ : « تصَدَّقْنَ يَا مَعْشَرَ النِّسَاءِ وَلَو مِنْ حُلِيِّكُنَّ » قالت : فَرَجَعتُ إلى عبدِ اللَّهِ بن مسعودٍ فقلت له : إنَّكَ رَجُلٌ خفيفُ ذَاتِ اليدِ ، وَإنَّ رسول الله ﷺ قد أَمَرَنا بِالصَّدَقةِ فَأْتِهِ ، فاسأَلْهُ ، فَإِن كَانَ ذلك يُجْزئُ عَنِّي وَإلا صَرَفْتَهَا إلى غيرِكُمْ . فقال عبدُ اللَّهِ : بَلِ ائتِيهِ أَنتِ ، فانْطَلَقْتُ ، فَإذَا امْرَأَةٌ مِنَ الأَنْصارِ بِبَاب رسول الله ﷺ حَاجَتي حَاجَتُهَا ، وَكَانَ رسول الله ﷺ قد أُلقِيَتْ عَلَيهِ المَهَابَةُ ، فَخَرجَ عَلَينَا بلالٌ ، فَقُلنَا له : ائتِ رسول الله ﷺ فَأَخْبِرْهُ أَنَّ امرأَتَينِ بِالبَابِ تَسأَلانِكَ : أَتُجْزئُ الصَّدَقَةُ عَنْهُمَا على أَزْوَاجِهمَا وَعلى أَيتَام في حُجُورِهِمَا[(٣)] ؟ وَلا تُخْبِرْهُ مَنْ نحن ، فَدَخَلَ بِلالٌ على رسول الله ﷺ ، فَسَأَلَهُ ، فقال لهُ رسول اللَّه

---

(١) أخرجه البخاري في الهبة (٢٥٩٢) ، ومسلم في الزكاة (٤٤) ، والبيهقي في سننه (٥٩/٦) ، والحديث لم يقم الشارح - رحمه الله تعالى - بشرحه .

(٢) أخرجه البخاري في الهبة (٢٦٢٠) واللفظ له ، ومسلم في الزكاة (٥٠) ، والإمام أحمد بنحوه في مسنده (٣٤٤/٣ ، ٣٤٧) .

(٣) حجورهما : كنفهما ورعايتهما .

ﷺ : « من هُمَا ؟ » قَالَ : امْرَأَةٌ مِنَ الأَنْصارِ وَزَيْنَبُ . فقال رسول الله ﷺ : « أَيُّ الزَّيَانِبِ هِيَ ؟ » قال : امْرَأَةُ عبدِ الله ، فقال رسول الله ﷺ : « لَهُمَا أَجْرَانِ : أَجْرُ القَرَابَةِ ، وَأَجْرُ الصَّدَقَةِ » (١) متفقٌ عليه .

الشرح

قال المؤلف فيما نقله عن أسماء بنت أبي بكر - رضي الله عنها وعن أبيها - : إن أمها قدمت عليها المدينة وهي راغبة فاستفتت النبي ﷺ هل تصلها أم لا ؟ وقالت : يا رسول الله ، إن أمي قدمت وهي راغبة أفأصلها ؟ فأمرها أن تصلها .

وقولها وهي راغبة ، قال بعض العلماء معناه : وهي راغبة في الإسلام ؛ فيكون الأمر بصلتها من أجل تأليفها على الإسلام ، وقيل : بل معنى قولها وهي راغبة ، أي راغبة في أن أَصِلَها ، ومتطلعة إلى ذلك ، فأمرها النبي ﷺ أن تصلها ، وهذا هو الأقرب أنها جاءت تتشوق وتتطلع إلى أن تعطيها ابنتها ما شاء الله .

ففي هذا : دليل على أن الإنسان يصل أقاربه ولو كانوا على غير الإسلام ؛ لأن لهم حق القرابة ، ويدل لهذا قوله تعالى في سورة لقمان : ﴿ وَإِن جَٰهَدَاكَ عَلَىٰٓ أَن تُشْرِكَ بِى مَا لَيْسَ لَكَ بِهِۦ عِلْمٌ فَلَا تُطِعْهُمَا وَصَاحِبْهُمَا فِى ٱلدُّنْيَا مَعْرُوفًا ﴾ [لقمان : ١٥] يعني إن أمرك والداك وألحا في الطلب على أن تشرك بالله فلا تطعمها ؛ لأنه لا طاعة لمخلوق في معصية الخالق ، ولكن صاحبهما في الدنيا معروفًا ، أي أعطهم من الدنيا ما يجب لهم من الصلة ، ولو كانا كافرين أو فاسقين ؛ لأن لهما حق القرابة .

وهذا الحديث : يدل على ما دلت عليه الآية ، وهو أن النبي ﷺ أمر أسماء بنت أبي بكر - رضي الله عنها وعن أبيها - أن تصل أمها مع أنها كافرة .

ثم إن صلة الأقارب بالصدقة يحصل بها أجران ؛ أجر الصدقة وأجر الصلة ، ودليل ذلك : حديث زينب بنت مسعود الثقفية امرأة عبد الله بن مسعود رضي الله عنه أن النبي ﷺ أمر النساء بالصدقة ، فرجعت إلى بيتها وكان زوجها عبد الله بن مسعود خفيف ذات اليد ، يعني أنه ليس عنده مال ، فأخبرته ، فطلب منها أن تتصدق عليه ، وعلى أيتامٍ كانوا في حاجتها ، ولكنه أشكل عليها الأمر (٢) فذهبت إلى رسول الله ﷺ تستفتيه ، فلما وصلت إلى بيته وجدت عنده امرأةً من الأنصار ، حاجتها كحاجة زينب ، تريد أن تسأل النبي ﷺ أن تتصدق على زوجها ، ومَنْ في بيتها .

فخرج بلال وكان النبي ﷺ قد أعطاه الله المهابة العظيمة ، كل من رآه هابه ، لكنه من خالطه معاشرةً أحبه وزالت عنه الهيبة ، لكن أول ما يراه الإنسان يهابه هيبة عظيمة ، فإذا خالطه وعاشره أحبه وألفه ﷺ ؛ فخرج بلال فسألهما عن حاجتهما فأخبرتاه أنهما يسألان النبي ﷺ : هل تجوز الصدقة على أزواجهما ومن في بيتهما ؟ ولكنهما قالتا له : لا تخبر الرسول ﷺ من هما ؛ أحبتا أن تختفيا .

فدخل بلال على النبي ﷺ وأخبره ، وقال إن بالباب امرأتين حاجتهما كذا وكذا ، فقال : من

---

(١) أخرجه البخاري في الزكاة (١٤٦٦) بطريق آخر مع اختلاف في اللفظ ، ومسلم في الزكاة (٤٥ ، ٤٦) بطريقتين مختلفتين ورواية البخاري إحداهما .

(٢) أشكل عليها الأمر : التبس .

هما ؟ وحينئذٍ وقع بلال بين أمرين بين أمانة ائتمنتاه عليها المرأتان ؛ حيث قالتا : لا تخبره مَنْ نحن ، ولكن الرسول قال مَنْ هما ؟ قال : امرأة من الأنصار ، وزينب .

فقال : « أي الزيانب ؟ » حيث اسم زينب كثير ، فقال : امرأة عبد اللَّه وكان عبد اللَّه بن مسعود خادمًا للرسول ﷺ يدخل بيته حتى بلا استئذان ، وقد عرف النبي ﷺ أهله وعرف حاله .

وهو إنما أخبره مع قولهما له : لا تخبره لأن طاعة النبي ﷺ واجبة مقدمة على طاعة كل أحد .

فقال : إن صدقتهما على هؤلاء صدقة وصلة ، يعني فيها أجران : أجر الصدقة وأجر الصلة ؛ فدل ذلك على أنه يجوز للإنسان أن يتصدق على أولاده عند الحاجة ، ويتصدق على زوجته ، وكذلك الزوجة تتصدق على زوجها ، وأن ذلك عليهم صدقة وصلة .

أما الزكاة فإن كان مما يجب على الإنسان أن يدفعه فإنه لا يصح أن يدفع إليهم الزكاة لو كانت الزكاة لدفع حاجتهما من نفقة ، وهو ممن تجب عليه النفقة وماله يحتمل ، فإنه لا يجوز له أن يعطيهما من الزكاة ، أما إذا كان ممن لا يجب عليه ، كما إن قضى دينًا عن أبيه أو عن ابنه أو زوجته ، أو قضت دينًا على زوجها فإن ذلك لا بأس به إذا كان المدين حيًا ، أما إذا كان المدين ميتًا فلا يقضي عنه تبرعًا ، أو من التركة ، ولا يقضي عنه من الزكاة .

* * *

٣٢٧ - وعن أَبي سُفْيَانَ صَخْر بن حَرْبٍ ﷺ في حَدِيثِهِ الطَّويل في قِصَّةِ هِرَقلَ أَنَّ هِرَقْلَ قال لأبي سُفْيَان : فَمَاذَا يَأْمُرُكُمْ بِهِ ؟ - يَعْني النبيَّ ﷺ - قال : قلت : يقولُ : « اعْبُدُوا اللَّه وَحْدَهُ ، ولا تُشرِكُوا بِهِ شَيْئًا ، واتْرُكُوا ما يَقُولُ آباؤُكُم ، ويَأْمُرُنَا بالصَّلاةِ والصِّدْقِ ، والعَفَافِ ، والصِّلَةِ » (١) متفقٌ عليه .

٣٢٨ - وعن أبي ذرّ ﷺ قال : قال رسول اللَّه ﷺ : « إِنَّكُمْ سَتَفْتَحُونَ أَرْضًا يُذْكَرُ فِيها القِيراطُ » (٢) .

وفي روايةٍ : « سَتَفْتَحُونَ مصْرَ ، وهِيَ أَرْضٌ يُسَمَّى فِيها القِيرَاطُ ، فَاسْتَوصُوا بِأَهْلِهَا خَيرًا ؛ فَإِنَّ لهمْ ذِمَّةً وَرَحِمًا » (٣) .

وفي روايةٍ : « فإذا افْتَتَحْتُمُوهَا فَأَحْسِنُوا إلى أَهْلِهَا ؛ فَإِنَّ لَهُمْ ذِمَّةً وَرَحِمًا » أَو قال : « ذِمَّةً وَصِهرًا » (٤) رواه مسلم .

قال العُلَمَاءُ : الرَّحِمُ التَّي لَهُمْ كَونُ هَاجَرَ أُمِّ إسْمَاعِيلَ ﷺ مِنْهُمْ ، « والصِّهْرُ » : كَونَ مَارِيَّة أمّ

(١) العفاف : الكف عن المحارم ، أخرجه البخاري في بدء الوحي (٧) ، ومسلم في الجهاد (٧٤) .

(٢) أخرجه مسلم في فضائل الصحابة (٢٢٦) القيراط : قال العلماء : جزء من أجزاء الدينار والدرهم ، وكان هذا اللفظ مستعملًا بين أهل مصر .

(٣) أخرجه مسلم في فضائل الصحابة (٢٢٧) .

(٤) أخرجه مسلم في فضائل الصحابة (٢٢٧) وفيه (فتحتموها) ، والإمام أحمد في مسنده (١٧٤/٥) .

إبْراهِيمَ ابنِ رسول اللَّه ﷺ مِنهم .

٣٢٩ - وعن أبي هريرة رضي الله عنه قال : لما نزَلَتْ هذِهِ الآيَةُ : ﴿ وَأَنذِرْ عَشِيرَتَكَ ٱلْأَقْرَبِينَ ﴾ [الشعراء : ٢١٤] دَعَا رسول اللَّه ﷺ قُرَيْشًا ، فَاجْتَمَعُوا فَعَمَّ ، وخَصَّ وقال : « يَا بَني عَبْدِ شَمْسٍ ! يَا بَني كَعْبِ بنِ لُؤَيٍّ ! أَنقِذُوا أَنْفُسَكُمْ مِنَ النَّارِ ، يَا بَني مُرَّةَ بنِ كَعْب ! أَنْقِذُوا أَنْفُسَكُمْ مِنَ النَّارِ ، يَا بَني عَبْدِ مَنَافٍ ! أَنْقِذُوا أَنْفُسَكُمْ مِنَ النَّارِ ، يَا بَني هاشِمَ ! أَنْقِذُوا أَنْفُسَكُمْ مِنَ النَّارِ ، يَا بَني عَبْدِ المُطَّلِب ! أَنْقِذُوا أَنْفُسَكُمْ مِن النَّارِ ، يَا فَاطِمَةُ ! أَنْقِذي نَفْسَكِ مِنَ النار ؛ فَإني لا أَمْلِكُ لَكُمْ مِنَ اللَّهِ شَيئًا غيرَ أَنَّ لكُمْ رَحِمًا سَأَبُلُّهَا بِبِلالِهَا » [1] رواه مسلم .

قوله ﷺ « بِبِلالِهَا » هو بفتح الباءِ الثَّانِيةِ وَكَسرِهَا « وَالبِلالُ » : المَاءُ . ومعنى الحديث : سَأَصِلُهَا ، شَبَّه قَطيعَتَهَا بالحَرَارَةِ تُطْفَأُ بالمَاءِ وَهذه تُبَرَّدُ بالصِّلة .

٣٣٠ - وعن أبي عبد اللَّه عمرو بن العاص رضي الله عنهما قال : سمعتُ رسول اللَّه ﷺ جهارًا غيرَ سِرٍّ يَقولُ : « إنَّ آلَ بَني فُلان لَيسُوا بأَوليائي ، إنما وَليِّيَ [2] اللَّهُ وصالح المؤْمِنين ، وَلكِنْ لَهُمْ رَحِمٌ أَبُلُّها بِبلالِهَا » [3] متفقٌ عليه . واللَّفظُ للبخاري .

الشرح

هذه الأحاديث التي ساقها المؤلف رحمه الله كلها تدل على أهمية صلة الرحم ، أي صلة القرابة وصدَّرها بحديث أبي سفيان صخر بن حرب حين وفد ومعه قومٌ من قريش على هرقل ، وكان قد وفد على هرقل قبل أن يسلم رضي الله عنه ؛ لأنه أسلم عام الفتح .

وأما قدومه إلى هرقل فكان بعد صلح الحديبية ، ولما سمع بهم هرقل وكان رجلًا عاقلًا ، عنده علمٌ من الكتاب ، وعنده علمٌ بمبعث النبي ﷺ وبما يدعو إليه ؛ لأن صفة النبي - صلى اللَّه عليه وآله وسلم - موجودة في التوراة والإنجيل ، كما قال اللَّه تبارك وتعالى : ﴿ ٱلنَّبِيَّ ٱلْأُمِّيَّ ٱلَّذِى يَجِدُونَهُۥ مَكْتُوبًا عِندَهُمْ فِى ٱلتَّوْرَىٰةِ وَٱلْإِنجِيلِ ﴾ [الأعراف : ١٥٧] مكتوبًا بصفته ومعروفًا ، حتى إنهم يعرفونه كما يعرفون أبناءهم لا يَشكون فيهم .

فلما قدم هؤلاء الجماعة من العرب من مبعث النبي ﷺ ، من الحجاز دعاهم يسألهم عن حال النبي ﷺ ، وعما يأمر به ، وعما ينهى عنه ، وعن كيفية أصحابه ، ومعاملتهم له ، إلى غير ذلك مما سألهم عنه ، وقد ذكره البخاري مطولًا في صحيحه ، وكان من جملة ما سألهم عنه : ماذا يأمر به ؟ قالوا : كان يأمرنا بالصلة والصدق والعفاف .

الصلة يعني : صلة الرحم ، والصدق : الخبر الصحيح المطابق للواقع ، والعفاف عن الزنى ، وعما في أيدي الناس من الأموال وكذلك الأعراض .

---

(١) أخرجه مسلم في الإيمان (٣٤٨) ، وفيه أن نداء بني عبد شمس بعد نداء بني مرة بن كعب .

(٢) قوله « إنماولِيي » أي ناصري والذي أتولاه في جميع الأمر .

(٣) أخرجه البخاري في الأدب (٥٩٩٠) واللفظ له ، ومسلم في الإيمان (٣٦٦) .

ثم إنه لما ذكر لهم ما ذكر قال له : إن كان ما تقوله حقًّا فسيملك ما تحت قدمي هاتين ، يقول ذلك وهو أحد الرئيسين في الدولتين الكبيرتين الروم والفرس .

يقول ذلك وهو ملك له مملكة كبيرة عظيمة ، لكنه يعلم أن ما جاء به النبي ﷺ حق ، وأنه هو الصواب المطابق للفطرة ولمصالح الخلق ، كان يأمر بالصدق والعفاف والصلة ، أي صلة الأرحام .

ثم ذكر المؤلف رَحِمَهُ اللَّهُ ، أحاديث في هذا المعنى ، أي في صلة الأرحام ، ومنها أن النبي ﷺ لما أنزل اللَّه عليه : ﴿ وَأَنذِرْ عَشِيرَتَكَ الْأَقْرَبِينَ ﴾ [الشعراء: ٢١٤] جمع قريشًا ، وعمم وخصص وقال : « يا بني فلان ، يا بني فلان ، يا بني فلان » يعدُّهم أفخاذًا أفخاذًا [١] حتى وصل إلى ابنته فاطمة ، قال : « يا فاطمة ، أنقذي نفسك من النار ؛ فإني لا أملك لَكِ من اللَّه شيئًا » وهذا من الصلة .

وبين أن لهم رحمًا سيبلها ببلالها ، أي سيبلها بالماء ؛ وذلك لأن قطيعة الرحم نار والماء يطفئ النار ، وقطيعة الرحم موت والماء به الحياة ، كما قال تعالى : ﴿ وَجَعَلْنَا مِنَ الْمَاءِ كُلَّ شَيْءٍ حَيٍّ ﴾ [الأنبياء: ٣٠] فشبه الرسول ﷺ صلة الرحم بالماء الذي يُبلُّ به الشيء .

وكذلك أيضًا من الأحاديث التي ساقها المؤلف رَحِمَهُ اللَّهُ أن النبي ﷺ قال : « إن آل بني فلان ليسوا بأوليائي » وذلك لأنهم كفار .

والواجب على المؤمن أن يتبرأ من ولاية الكافرين ، كما قال اللَّه تعالى : ﴿ قَدْ كَانَتْ لَكُمْ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ فِي إِبْرَاهِيمَ وَالَّذِينَ مَعَهُ إِذْ قَالُوا لِقَوْمِهِمْ إِنَّا بُرَآءُ مِنكُمْ وَمِمَّا تَعْبُدُونَ مِن دُونِ اللَّهِ كَفَرْنَا بِكُمْ وَبَدَا بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمُ الْعَدَاوَةُ وَالْبَغْضَاءُ أَبَدًا حَتَّى تُؤْمِنُوا بِاللَّهِ وَحْدَهُ ﴾ [الممتحنة: ٤] فتبرأ منهم مع قرابتهم له .

قال : « ولكن لهم رحم أبُلُّها ببلالها » يعني سأعطيها حقها من الصلة ، وإن كانوا كفارًا .

وهذا يدل على أن القريب له حق الصلة وإن كان كافرًا ، لكن ليس له الولاية ، فلا يوالَى ولا يُناصَرُ لما عليه من الباطل .

ثم ذكر أيضًا من الأحاديث أن النبي ﷺ أخبر الصحابة بأنهم سيفتحون مصر ، وأوصى بأهلها خيرًا ، وقال : « إن لهم رحمًا وصهرًا » وذلك أن هاجر أم إسماعيل سرية إبراهيم الخليل - عليه الصلاة والسلام - كانت من مصر ، ولهذا قال : « إن لهم ذمة ورحمًا » ؛ لأنهم أخوال إسماعيل ، وإسماعيل هو أبو العرب المستعربة كلها .

فدل ذلك على أن الرحم لها صلة ولو كانت بعيدة . ما دمت تعرف أن هؤلاء من قبيلتك فلهم الصلة ولو كان بعداء .

ودل أيضًا على أن صلة القرابة من جهة الأم كصلة القرابة من جهة الأب .

* * *

(١) أي دعاهم فَخِذًا فَخِذًا : والفَخِذ العشيرة .

٣٣١ - وعن أبي أيُّوبَ خالدِ بن زيدٍ الأنصاري ﷺ أن رجلًا قال : يا رسولَ اللَّه ! أَخْبِرْني بِعَمَلٍ يُدْخِلُني الجَنَّةَ ، وَيُبَاعِدُني مِنَ النَّارِ . فقال النبيُّ ﷺ : « تَعبدُ اللَّه وَلا تُشرِكُ بِهِ شَيْئًا ، وَتُقِيمُ الصَّلاةَ ، وَتُؤتي الزَّكَاةَ ، وَتَصِلُ الرَّحِمَ » [1] متفقٌ عليه .

٣٣٢ - وعن سَلْمَانَ بنِ عامرٍ ﷺ عن النبي ﷺ قال : « إذا أَفْطَرَ أَحَدُكُمْ ، فَلْيُفْطِرْ عَلى تَمْرٍ ؛ فَإِنَّهُ بَرَكَةٌ ، فَإِنْ لَمْ يَجِدْ تَمْرًا ، فَالماءُ ؛ فَإِنَّهُ طَهُورٌ » وقال : « الصَّدَقَةُ عَلى المِسْكِينِ صَدَقَةٌ ، وَعَلى ذِي الرَّحِمِ ثِنْتَانِ : صَدَقَةٌ ، وَصِلَةٌ » [2] . رواه الترمذي وقال : حديث حسن .

٣٣٣ - وعن ابن عمرَ ﷺ قال : كَانَتْ تَحتي امْرَأَةٌ ، وَكُنْتُ أُحِبُّها ، وَكَانَ عُمَرُ يَكْرَهُهَا ، فقال لي : طَلِّقْهَا ، فَأَبَيتُ ، فَأَتى عُمَرُ ﷺ النبيَّ ﷺ ، فَذَكَرَ ذلكَ لَهُ ، فقال النبيُّ ﷺ : « طَلِّقْهَا » [3] رواه أبو داود ، والترمذي وقال : حديث حسن صحيح .

٣٣٤ - وعن أبي الدَّرْدَاء ﷺ أن رَجُلًا أَتَاهُ فقال : إنَّ لي امْرَأَةً وَإنَّ أُمّي تَأْمُرُني بطَلاقِها ؟ فقال : سَمِعْتُ رسول اللَّه ﷺ يقولُ : « الوَالِدُ أَوسَطُ أَبْوَابِ الجَنَّةِ ، فَإِنْ شِئْتَ ، فَأَضِعْ ذلِكَ البَابَ ، أَوِ احْفَظْهُ » [4] رواه الترمذي وقال : حديثٌ حسنٌ صحيح .

٣٣٥ - وعن البَرَاءِ بن عازِبٍ ﷺ عن النبي ﷺ قال : « الخَالَةُ بِمَنْزِلَةِ الأُمِّ » [5] رواه الترمذي وقال : حديثٌ حسن صحيح .

وفي الباب أَحاديث كَثيرة في الصحيح مشهورة ، منها حديث أصحابِ الغارِ ، وحديث جُرَيجٍ وَقَدْ سبقَا ، وَأحادِيثُ مشهورة في الصحيح حَذَفْتُهَا اخْتِصَارًا ، وَمِنْ أَهَمِّهَا حديثُ عَمْرِو بن عَبَسَةَ ﷺ الطَّويلُ المُشْتَمِلُ عَلى جُمَلٍ كثيرة مِنْ قَوَاعِدِ الإسْلامِ وآدابِهِ ، وَسأَذْكُرُهُ بِتَمامِهِ إن شَاءَ اللَّه تعالى في باب الرَّجَاء ، قال فيه : دَخَلْتُ عَلى النبيِّ ﷺ بِمَكَّةَ - يَعْني في أَوَّلِ النُّبُوَّةِ - فقلتُ له : مَا أَنْتَ ؟ قال : « نَبِيٌّ » فقلتُ : وَمَا نَبِيٌّ ؟ قال : « أَرْسَلَني اللَّه تعالى » فقلتُ : بِأَيِّ شَيءٍ أَرْسَلَكَ ؟ قال : « أَرْسَلَني بصلَةِ الأَرْحَامِ ، وَكَسْرِ الأَوْثَانِ ، وَأَنْ يُوَحَّدَ اللَّه لا يُشْرَكُ بِهِ شَيءٌ » وذَكَرَ تَمَامَ الحديث [6] . واللَّه أعلم .

الشرح

هذه الأحاديث في بيان صلة الرحم وبر الوالدين .

منها حديث خالد بن زيد الأنصاري : أنه سأل النبي ﷺ عن عمل يدخله الجنة ويباعده من النار ،

---

(١) أخرجه - بنحوه - البخاري في الزكاة (١٣٩٦) ، ومسلم في الإيمان (١٤) .

(٢) أخرجه الترمذي في سننه (٦٥٨) ، وابن ماجه في الصيام (١٦٩٩) .

(٣) أخرجه أبو داود في سننه (٥١٣٨) ، وأخرجه - بنحوه - الترمذي في سننه (١١٨٩) .

(٤) أخرجه الترمذي في البر والصلة (١٩٠٠) ، والإمام أحمد في مسنده (٤٤٥/٦) ، وليس فيه (فإن شئت) .

(٥) أخرجه الترمذي في البر والصلة (١٩٠٤) . (٦) أخرجه مسلم في صلاة المسافرين (٢٩٤) .

فقال له : « تعبد اللّه ولا تشرك به شيئًا ، وتقيم الصلاة ، وتؤتي الزكاة وتصل الرحم » . والشاهد هنا حيث قال : « تصل الرحم » ، فجعل النبي ﷺ صلة الرحم من الأسباب التي تدخل الإنسان الجنة وتباعده عن النار .

ولاشك أن كل إنسان يسعى إلى هذا الكسب العظيم ؛ أن ينجو من النار ويدخل الجنة ، فإن من زحزح عن النار وأدخل الجنة فقد فاز ، وكل مسلم يسعى إلى ذلك ، وهذا يحصل بهذه الأمور الأربعة .

الأول : تعبد اللّه ولا تشرك به شيئًا ، لا شركًا أصغر ولا شركًا أكبر .

والثاني : تقيم الصلاة ، وتأتي بها كاملة في أوقاتها مع الجماعة إن كنت رجلًا ، ودون الجماعة إن كانت امرأة .

والثالث : تؤتي الزكاة ؛ بأن تؤدي ما أوجب اللّه عليك من الزكاة في مالك إلى مستحقه .

والرابع : تصل الرحم ؛ بأن تؤتيهم حقهم بالصلة حسب ما يتعارف الناس ، فما أعده الناس صلة فهو صلة ، وما لم يعدوه صلة فليس بصلةٍ ، إلا إذا كان الإنسان في مجتمع لا يبالون بالقرابات ، ولا يهتمون بها ، فالعبرة بالصلة نفسها المعتبرة شرعًا .

ثم ذكر حديث سلمان بن عامر الضبي ، في الإفطار على التمر ، فإن لم يجد فعلى ماء ، وأن الصدقة على الفقير صدقة ، وعلى ذي القرابة ثنتان ؛ صدقة وصلة .

ولهذا قال العلماء : إذا اجتمع فقيران أحدهما من قرابتك والثاني من غير قرابتك ، فالذي من قرابتك أولى ؛ لأنه أحق بالصلة .

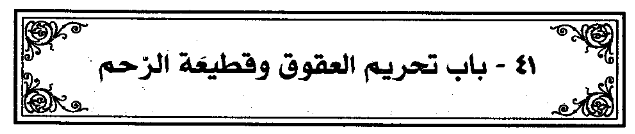
ثم ذكر حديث عبد اللّه بن عمر رضي الله عنهما ، أنه كان له امرأة يحبها ، فأمره أبوه أن يطلقها ، لكنه أبى ذلك ؛ لأنه يحبها ، فذكر عمر ذلك للنبي ﷺ ، فأمر ابن عمر بطلاقها .

وكذلك الحديث الآخر في امرأة كانت تأمر ابنها بطلاق زوجته فبين النبي ﷺ أن صلة الرحم أو بر الوالدين سبب لدخول الجنة ، وهو إشارة إلى أنه إذا بر والدته بطلاق زوجته كان ذلك سببًا لدخول الجنة .

ولكن ليس كل والد يأمر ابنه بطلاق زوجته تجب طاعته ؛ فإن رجلًا سأل الإمام أحمد بن حنبل رحمه الله ، قال : إن أبي يقول : طلق امرأتك ، وأنا أحبها ، قال : لا تطلقها ، قال : أليس النبي ﷺ قد أمر ابن عمر أن يطلق زوجته لما أمره عمر ، فقال له الإمام أحمد : وهل أبوك عمر ؟ لأن عمر نعلم علم اليقين أنه لن يأمر عبد اللّه بطلاق زوجته إلا لسبب شرعي ، وقد يكون ابن عمر لم يعلمه ؛ لأنه من المستحيل أن عمر يأمر ابنه بطلاق زوجته ليفرق بينه وبين زوجته بدون سبب شرعي . فهذا بعيد .

وعلى هذا فإذا أمر أبوك أو أمك بأن تطلق امرأتك ، وأنت تحبها ، ولم تجد عليها مأخذًا شرعيًا ، فلا تطلقها ؛ لأن هذه من الحاجات الخاصة التي لا يتدخل أحدٌ فيها بين الإنسان وبين زوجته .

* * *



٤١ - باب تحريم العقوق وقطيعة الرحم

قال الله تعالى : ﴿ فَهَلْ عَسَيْتُمْ إِن تَوَلَّيْتُمْ أَن تُفْسِدُوا فِي الْأَرْضِ وَتُقَطِّعُوا أَرْحَامَكُمْ ۝ أُولَٰئِكَ الَّذِينَ لَعَنَهُمُ اللَّهُ فَأَصَمَّهُمْ وَأَعْمَىٰ أَبْصَارَهُمْ ﴾ [محمد: ٢٢، ٢٣] وقال تعالى : ﴿ وَالَّذِينَ يَنقُضُونَ عَهْدَ اللَّهِ مِن بَعْدِ مِيثَاقِهِ وَيَقْطَعُونَ مَا أَمَرَ اللَّهُ بِهِ أَن يُوصَلَ وَيُفْسِدُونَ فِي الْأَرْضِ ۙ أُولَٰئِكَ لَهُمُ اللَّعْنَةُ وَلَهُمْ سُوءُ الدَّارِ ﴾ [الرعد: ٢٥] وقال تعالى : ﴿ وَقَضَىٰ رَبُّكَ أَلَّا تَعْبُدُوا إِلَّا إِيَّاهُ وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَانًا ۚ إِمَّا يَبْلُغَنَّ عِندَكَ الْكِبَرَ أَحَدُهُمَا أَوْ كِلَاهُمَا فَلَا تَقُل لَّهُمَا أُفٍّ وَلَا تَنْهَرْهُمَا وَقُل لَّهُمَا قَوْلًا كَرِيمًا ۝ وَاخْفِضْ لَهُمَا جَنَاحَ الذُّلِّ مِنَ الرَّحْمَةِ وَقُل رَّبِّ ارْحَمْهُمَا كَمَا رَبَّيَانِي صَغِيرًا ﴾ [الإسراء: ٢٣، ٢٤] .

٣٣٦ - وعن أَبي بكْرَةَ نُفَيعِ بن الحارثِ ﷺ قال : قال رسول الله ﷺ : « أَلا أُنَبِّئُكُمْ بِأَكْبَرِ الكَبَائِرِ ؟ » - ثلاثًا - قُلْنا : بَلَى يا رسول الله : قال : « الإشْرَاكُ باللهِ ، وَعُقُوقُ الوَالِدَيْنِ » وَكَانَ مُتَّكِئًا فَجَلَسَ ، فقال : « أَلا وَقَولُ الزُّورِ وَشَهَادَةُ الزُّورِ » فَمَا زَالَ يُكَرِّرُهَا حَتَّى قُلْنَا : لَيتَهُ سَكَتَ [١] . متفقٌ عليه .

الشرح

قال المؤلف - رحمه الله تعالى - : باب تحريم العقوق وقطيعة الأرحام .

العقوق بالنسبة للوالدين ، وقطيعة الأرحام بالنسبة للأقارب غير الوالدين .

والعقوق : مأخوذ من العق وهو القطع ، ومنه سميت العقيقة التي تذبح عن المولود في اليوم السابع؛ لأنها تعق : يعني تقطع رقبتها عن الذبح .

والعقوق من كبائر الذنوب لثبوت الوعيد عليه من الكتاب والسنة وكذلك قطيعة الرحم . قال الله تعالى : ﴿ فَهَلْ عَسَيْتُمْ إِن تَوَلَّيْتُمْ أَن تُفْسِدُوا فِي الْأَرْضِ وَتُقَطِّعُوا أَرْحَامَكُمْ ۝ أُولَٰئِكَ الَّذِينَ لَعَنَهُمُ اللَّهُ فَأَصَمَّهُمْ وَأَعْمَىٰ أَبْصَارَهُمْ ﴾ يعني أنكم إذا توليتم أفسدتم في الأرض ، وقطعتم الرحم وحقت عليكم اللعنة .

﴿ وَأَعْمَىٰ أَبْصَارَهُمْ ﴾ المراد بالأبصار هنا البصيرة وليس بصر العين ، والمراد أن الله تعالى يعمي بصيرة الإنسان - والعياذ بالله - حتى يرى الباطل حقًّا والحق باطلًا .

وهذه عقوبة أخروية ودنيوية :

أما الأخروية : فقوله : ﴿ أُولَٰئِكَ الَّذِينَ لَعَنَهُمُ اللَّهُ ﴾ .

وأما الدنيوية : فقوله ﴿ فَأَصَمَّهُمْ ﴾ ، يعني أصم آذانهم عن سماع الحق والانتفاع به ، ﴿ وَأَعْمَىٰ

---

(١) أخرجه - بنحوه - البخاري في الشهادات (٢٦٥٤) ، ومسلم في الإيمان (١٤٣) ، باختلاف يسير والإمام أحمد في مسنده (٥/٣٦) .

أَبۡصَٰرَهُمۡ ﴾ ، عن رؤية الحق والانتفاع به .

وقال اللَّه تعالى : ﴿ وَٱلَّذِينَ يَنقُضُونَ عَهۡدَ ٱللَّهِ مِنۢ بَعۡدِ مِيثَٰقِهِۦ وَيَقۡطَعُونَ مَآ أَمَرَ ٱللَّهُ بِهِۦٓ أَن يُوصَلَ وَيُفۡسِدُونَ فِي ٱلۡأَرۡضِ أُوْلَٰٓئِكَ لَهُمُ ٱللَّعۡنَةُ وَلَهُمۡ سُوٓءُ ٱلدَّارِ ﴾ ، ميثاق العهد : توكيده ، فينقضون العهد ، ويقطعون ما أمر اللَّه به أن يوصل من القرابات وغيرهم ، ويفسدون في الأرض بكثرة المعاصي ﴿ أُوْلَٰٓئِكَ لَهُمُ ٱللَّعۡنَةُ ﴾ واللعنة تعني : الطرد والإبعاد عن رحمة اللَّه ، ﴿ وَلَهُمۡ سُوٓءُ ٱلدَّارِ ﴾ أي سوء العاقبة .

وقال اللَّه تبارك وتعالى : ﴿ وَبِٱلۡوَٰلِدَيۡنِ إِحۡسَٰنًاۚ إِمَّا يَبۡلُغَنَّ عِندَكَ ٱلۡكِبَرَ أَحَدُهُمَآ أَوۡ كِلَاهُمَا فَلَا تَقُل لَّهُمَآ أُفّٖ وَلَا تَنۡهَرۡهُمَا وَقُل لَّهُمَا قَوۡلٗا كَرِيمٗا ٢٣ وَٱخۡفِضۡ لَهُمَا جَنَاحَ ٱلذُّلِّ مِنَ ٱلرَّحۡمَةِ وَقُل رَّبِّ ٱرۡحَمۡهُمَا كَمَا رَبَّيَانِي صَغِيرٗا ﴾ .

فأمر اللَّه بالإحسان إلى الوالدين ، وقال : إن بلغا عندك الكبر أحدهما أو كلاهما ، إما الأم أو الأب أو الأم والأب جميعًا فزجرت منهم ؛ لأن الإنسان إذا كبر قد يصل إلى الهرم وأرذل العمر فيتعب ، فقال حتى في هذا الحال ﴿ فَلَا تَقُل لَّهُمَآ أُفّٖ ﴾ أي لا تقل : إني متضجر منكما ﴿ وَلَا تَنۡهَرۡهُمَا ﴾ أي عند القول ، ﴿ وَقُل لَّهُمَا قَوۡلٗا كَرِيمٗا ﴾ يعني طيبًا حسنًا يدخل السرور عليهما ، ويزيل عنهما الكآبة والحزن ، ﴿ وَٱخۡفِضۡ لَهُمَا جَنَاحَ ٱلذُّلِّ مِنَ ٱلرَّحۡمَةِ ﴾ يعني تذلل لهما مهما بلغت من علو المنزلة ، كما تعلو الطيور ، فاخفض لهما جناح الذل ، وتذلل لهما رحمة بهما ، ﴿ وَقُل رَّبِّ ٱرۡحَمۡهُمَا كَمَا رَبَّيَانِي صَغِيرٗا ﴾ فارحمهما أنت ، وادعُ اللَّه أن يرحمهما .

هذا هو الذي أمر اللَّه به بالنسبة للوالدين في حالة الكبر ، وأما في حال الشباب ؛ فإن الوالد في الغالب يكون مستغنيًا عن ولده ولا يهمه .

ثم ذكر المؤلف حديث أبي بكرة ﷺ ، أن النبي ﷺ قال : « ألا أنبئكم بأكبر الكبائر ؟ » - ثلاثًا - قلنا : بلى يا رسول اللَّه ، قال : « الإشراك باللَّه ، وعقوق الوالدين » ، هذا من أكبر الكبائر .

فالإشراك باللَّه كبيرة في حق اللَّه ، وعقوق الوالدين كبيرة في حق من هم أحق الناس بالولاية والرعاية ، وهما الوالدان .

وكان ﷺ متكئًا فجلس أي معتمدًا على يده ، فجلس واستقام في جلسته وقال : « ألا وقول الزور وشهادة الزور » .

هذا أيضًا من أكبر الكبائر وإنما جلس النبي ﷺ عند هذا لأن هذا ضرره عظيم ، وعاقبته وخيمة .

وقول الزور يعني الكذب ، وشهادة الزور أي الذي يشهد بالكذب والعياذ باللَّه ، وما أرخص شهادة الزور اليوم عند كثير من الناس ، يظن الشاهد أنه أحسن إلى من شهد له ، ولكنه أساء إلى نفسه ، وأساء إلى من شهد له ، وأساء إلى من شهد عليه .

أما إساءته إلى نفسه فلأنه أتى كبيرةً من كبائر الذنوب والعياذ باللَّه ، بل من أكبر الكبائر ، وأما كونه أساء إلى المشهود له فلأنه سلطه على ما لا يستحق وأكله الباطل ، وأما إساءته إلى المشهود عليه

فظاهر ؛ فإنه ظلمه واعتدى عليه ، ولهذا كانت شهادة الزور من أكبر الكبائر والعياذ بالله .

ولا تظن أنك إذا شهدت لأحد زورًا أنك محسن إليه ، لا والله ... بل أنت مسيء إليه ، وللأسف فكثير من الناس الآن يشهد عند الحكومة في المسائل بأن فلان هو المستحق ، ويلبسون على الحكومة[١] ، ويستعيرون أسماء ليست بصحيحة ، كل هذا من أجل أن ينالوا شيئًا من الدنيا ، لكنهم خسروا الدنيا والآخرة بهذا الكذب والعياذ بالله .

وهذا الحديث يوجب للعاقل الحذر من هذه الأمور الأربعة : الإشراك بالله ، وعقوق الوالدين ، وقول الزور ، وشهادة الزور .

* * *

٣٣٧ – وعن عبد اللَّهِ بنِ عمرو بن العاص رضي الله عنهما عن النبي ﷺ قال : « الكَبَائِرُ : الإِشْرَاكُ بِاللَّهِ ، وَعُقُوقُ الوَالِدَينِ ، وَقَتْلُ النَّفْسِ . وَاليَمِين الغَمُوسُ »[٢] رواه البخاري .

« اليَمِينُ الغَمُوسُ » الَّتي يَحْلِفُهَا كَاذِبًا عَامِدًا ، سُمِّيتْ غَمُوسًا ؛ لأَنَّهَا تَغْمِسُ الحَالِفَ في الإِثْمِ .

٣٣٨ – وعنه أن رسول اللَّه ﷺ قال : « مِن الكَبَائِرِ : شَتْمُ الرَّجُلِ وَالِدَيهِ ! » قالوا : يا رسول اللَّه وَهَلْ يَشْتِم الرَّجُلُ وَالِدَيهِ ؟! قال : « نَعَمْ ؛ يَسُبُّ أبا الرَّجُلِ ؛ فيسبُّ أَبَاه ، وَيَسُبُّ أُمَّهُ ؛ فَيَسُبُّ أُمَّهُ »[٣] متفقٌ عليه .

وفي روايةٍ : « إنَّ منْ أَكْبَرِ الكَبَائِرِ أَنْ يَلْعَنَ الرَّجُلُ وَالِدَيهِ ! » قِيلَ : يا رسول اللَّه ! كَيفَ يَلْعَنُ الرَّجُلُ والِدَيهِ ؟! قال : « يَسُبُّ أَبَا الرَّجُل ؛ فَيَسُبُّ أَبَاهُ ، وَيَسبُّ أُمَّهُ ؛ فَيَسُبُّ أُمَّهُ »[٤] .

٣٣٩ – وعن أَبي محمدٍ جُبيرِ بنِ مُطْعِمٍ رضي الله عنه أَن رسول اللَّه ﷺ قال : « لا يَدْخُلُ الجَنَّةَ قَاطِعٌ » قال سفيانُ في روايتِه : يَعْني : قَاطِع رَحِمٍ[٥] . متفقٌ عليه .

٣٤٠ – وعن أَبي عِيسى المُغِيرَةِ بن شُعْبَةَ رضي الله عنه عن النبي ﷺ قال : « إنَّ اللَّهَ تَعَالَى حَرَّمَ عَلَيكُمْ عُقُوقَ الأُمَّهَاتِ ، ومَنْعًا وهاتِ ، وَوَأْدَ البَنَاتِ ، وكَرِهَ لكمْ قِيلَ وقَالَ ، وكَثْرَةَ السُّؤالِ ، وإِضَاعَةَ المَالِ »[٦] متفقٌ عليه .

قولُهُ : « مَنْعًا » مَعْنَاهُ : مَنْعُ ما وَجبَ عَلَيهِ ، وَ « هَاتِ » : طَلَبُ مَا لَيسَ لَهُ ، وَ « وَأْدَ البَنَاتِ » مَعْنَاهُ : دَفْنُهُنَّ في الحَيَاةِ ، وَ « قِيلَ وقَالَ » مَعْنَاهُ : الحديثُ بكُلِّ مَا يَسْمَعُهُ ، فَيَقُولُ : قِيلَ كَذَا ، وقَالَ فُلانٌ كَذَا مِمَّا لا يَعْلَمُ صِحَّتَهُ وَلا يَظُنُّهَا ، وكَفَى بالمرءِ كَذبًا أَنْ يُحَدِّثَ بكُلِّ مَا سَمِعَ . وَ « إِضَاعَةَ

---

(١) أي يدلسون عليها . (٢) أخرجه البخاري في الأيمان والنذور (٦٦٧٥) .
(٣) أخرجه مسلم في الإيمان (١٤٦) . (٤) أخرجه البخاري في الأدب (٥٩٧٣) .
(٥) أخرجه البخاري في الأدب (٥٩٨٤) ، ومسلم في البر والصلة (١٨) .
(٦) أخرجه البخاري – واللفظ له – في الأدب (٥٩٧٥) وفيه (وَمَنَعَ) ، ومسلم بنحوه في الأقضية (١٢) .

المَال » : تَبْذِيرُهُ وَصَرْفُهُ فِي غَيرِ الوجُوهِ المأْذُونِ فِيهَا من مقَاصِدِ الآخِرَةِ والدُّنيَا ، وتَرْكُ حِفْظِه مَعَ إمْكَانِ الحِفْظِ . و « كَثرَةُ السُّؤالِ » : الإلحَاحُ فِيمَا لا حَاجَةَ إلَيهِ .

وفي البَابِ أَحادِيثُ سَبَقَتْ في البَابِ قَبْلَهُ كَحَدِيثِ : « وأَقْطَعُ مَنْ قَطَعَكِ » وحديث : « مَنْ قَطَعَني قَطَعَهُ اللَّه » .

الشرح

هذه الأحاديث كلها تدل على تحريم قطيعة الرحم وعقوق الوالدين ، وقد سبق لها نظائر ، ومما فيه زيادة عما سبق حديث عبد اللَّه بن عمرو بن العاص ﵄ أن النبي ﷺ قال : « من الكبائر شتم الرجل والديه » يعني : سبهما ولعنهما كما جاء ذلك في رواية أخرى : « لعن اللَّه من لعن والديه » قالوا : يا رسول اللَّه ، كيف يشتم الرجل والديه ؟ لأن هذا أمر مستغرب ، وأمر بعيد .

قال : « نعم ، يسب أبا الرجل فيسب أباه ، ويسب أمه فيسب أمه » .

وذلك تحذير من أن يكون الإنسان سببًا في شتم والديه بأن يأتي إلى شخص فيشتم والدي الشخص ، فيقابله الشخص الآخر بالمثل ويشتم والديه ، ولا يعني ذلك أنه يجوز للثاني أن يشتم والدي الرجل ؛ لأنه لا تزر وازرة وزر أخرى ، ولكنه في العادة والطبيعة أن الإنسان يجازي غيره بمثل ما فعل به ، فإذا سبه سبه .

وذلك كما قال تعالى : ﴿ وَلَا تَسُبُّوا الَّذِينَ يَدْعُونَ مِن دُونِ اللَّهِ فَيَسُبُّوا اللَّهَ عَدْوًا (١) بِغَيْرِ عِلْمٍ ﴾ [الأنعام : ١٠٨] لذلك لما كان سببًا في سب والديه كان عليه إثم ذلك .

ثم ذكر المؤلف حديث المغيرة بن شعبة ﵁ أن النبي ﷺ قال : « إن اللَّه تعالى حرم عليكم عقوق الأمهات ومنعًا وهات ، ووأد البنات » الشاهد من هذا الحديث قوله : « عقوق الأمهات » وهو قطع ما يجب لهن من البر ، وأما وأد البنات : فهو دفنهن أحياء ، وذلك لأنهم في الجاهلية كانوا يكرهون البنات ، ويعيبون بقاء البنت عند الرجل ، ويقولون : إن بقاء البنت عند الرجل مسبة له .

فكانوا - والعياذ باللَّه - يأتون بالبنت فيحفرون لها حفرة ويدفنونها وهي حية . قال اللَّه تعالى : ﴿ وَإِذَا الْمَوْءُودَةُ سُئِلَتْ ۞ بِأَيِّ ذَنبٍ قُتِلَتْ ﴾ [التكوير : ٨، ٩] فحرم اللَّه ذلك ، وهو لاشك من أكبر الكبائر ، وإذا كان قتل الأجنبي المؤمن سببًا للخلود في النار كما قال تعالى : ﴿ وَمَن يَقْتُلْ مُؤْمِنًا مُّتَعَمِّدًا فَجَزَاؤُهُ جَهَنَّمُ خَالِدًا فِيهَا وَغَضِبَ اللَّهُ عَلَيْهِ وَلَعَنَهُ وَأَعَدَّ لَهُ عَذَابًا عَظِيمًا ﴾ [النساء : ٩٣] ، فالقرابة أشد وأشد .

« ومنعًا وهات » يعني أن يكون الإنسان جموعًا منوعًا ؛ يمنع ما يجب عليه بذله من المال ، ويطلب ما ليس له ، فهات : يعني أعطوني المال ، ومنعًا : أي يمنع ما يجب عليه ، فإن هذا أيضًا مما

---

(١) عدوًا : اعتداءً وظلمًا .

حرمه الله ﷻ ؛ لأنه لا يجوز للإنسان أن يمنع ما يجب عليه بذله من المال ، ولا يجوز أن يسأل ما لا يستحق ، فكلاهما حرام ، ولهذا قال : « إن الله تعالى حرم عليكم عقوق الأمهات ، ومنعًا وهات » .

« وكره لكم قيل وقال ، وكثرة السؤال ، وإضاعة المال » ، كره وحرم ليس بينهما فرق ؛ لأن الكراهة في لسان الشارع معناها التحريم . ولكنَّ هذا والله أعلم من باب اختلاف التعبير فقط .

« كره لكم قيل وقال » يعني نقل الكلام ، وكثرة ما يتكلم الإنسان ويثرثر به ، وأن يكون ليس له هم إلا الكلام في الناس ، قالوا كذا وقيل كذا ، ولاسيما إذا كان هذا في أعراض أهل العلم وأعراض ولاة الأمور ، فإنه يكون أشد وأشد كراهة عند الله ﷻ .

والإنسان المؤمن هو الذي لا يقول إلا خيرًا كما قال النبي - عليه الصلاة والسلام - : « من كان يؤمن بالله واليوم الآخر فليقل خيرًا أو ليصمت » [(١)] .

وكثرة السؤال يحتمل أن يكون المراد السؤال عن العلم ، ويحتمل أن يكون المراد السؤال عن المال .

أما الأول : وهو كثرة السؤال عن العلم فهذا إنما يكره إذا كان الإنسان لا يريد إلا إعنات المسؤول ، والإشقاق عليه ، وإدخال السآمة والملل عليه ، أما إذا كان يريد العلم فإنه لا ينهى عن ذلك ، ولا يكره ذلك ، وقد كان عبد الله بن عباس رضي الله عنهما كثير السؤال ، فقد قيل له : بم أدركت العلم ؟ قال : أدركت العلم بلسانٍ سؤول ، وقلبٍ عقول ، وبدن غير ملول .

لكن إذا كان قصد السائل الإشقاق على المسؤول والإعنات عليه ، وإلحاق السآمة به ، أو تلقط زلاته لعله يزل فيكون في ذلك قدحٌ فيه ، فإن هذا هو المكروه .

وأما الثاني : وهو سؤال المال فإن كثرة السؤال قد تلحق الإنسان بأصحاب الشح والطمع ، ولهذا لا يجوز للإنسان سؤال المال إلا عند الحاجة ، أو إذا كان يرى أن المسؤول يمن عليه أن يسأله ، كما لو كان صديقًا لك قوي الصداقة ، قريبًا جدًّا ، فسألته حاجة وأنت تعرف أنه يكون بذلك ممنونًا ، فهذا لا بأس به ، أما إذا كان الأمر على خلاف ذلك فلا يجوز أن تسأل إلا عند الضرورة .

وأما إضاعة المال فهو بذل الإنسان له في غير فائدة لا دينية ولا دنيوية ؛ لأن الله تعالى قال : ﴿ وَلَا تُؤْتُوا۟ ٱلسُّفَهَآءَ أَمْوَٰلَكُمُ ٱلَّتِى جَعَلَ ٱللَّهُ لَكُمْ قِيَٰمًا ﴾ [النساء : ٥] فالمال قيام للناس ؛ تقوم به مصالح دينهم ودنياهم ، فإذا بذله الإنسان في غير ذلك فهذا إضاعة له ، وأقبح من ذلك أن يبذله في محرم ، فيرتكب في هذا محظورين :

المحظور الأول : إضاعة المال .

والمحظور الثاني : ارتكاب المحرم .

---

(١) أخرجه البخاري في الرقاق (٦٤٧٥) ، ومسلم في الإيمان (٤٧) واللقطة (١٤) ، والترمذي في سننه (١٩٦٧، ٢٥٠٠) .

فالأموال يجب أن يحافظ عليها الإنسان ، وألا يضيعها وألا يبذلها إلا فيما فيه مصلحة له دينية أو دنيوية .

* * *

٤٢ - بابُ برّ أصدقاء الأب والأمّ والأقارب والزوجة وسائر من يُندَبُ إكرامه

٣٤١ - عن ابنِ عمر رضي الله عنهما أن النبي ﷺ قال : « إن أَبَرَّ البِرِّ أنْ يَصِلَ الرَّجُلُ وُدَّ أَبِيهِ » [(١)] .

٣٤٢ - وعن عبدِ الله بن دينارٍ عن عبدِ الله بنِ عمرَ رضي الله عنهما : أَنَّ رَجُلًا مِنَ الأَعْرَابِ لَقِيَهُ بِطَرِيقِ مَكَّةَ ، فَسَلَّمَ عَلَيهِ عَبْدُ اللَّهِ بْنُ عُمَرَ ، وحَمَلَهُ على حِمَارٍ كَانَ يَرْكَبُهُ ، وَأَعْطَاهُ عِمَامَةً كَانَتْ على رَأْسِهِ ، قال ابنُ دِينَارٍ ، فقُلْنَا لَهُ : أَصْلَحَكَ اللَّهُ إِنَّهُمُ الأَعْرَابُ وهُمْ يَرْضَونَ بِاليَسِيرِ ، فقال عبدُ اللهِ بنُ عمر : إنَّ أَبَا هذا كَانَ وُدًّا لعُمَرَ بن الخطاب رضي الله عنه وإنِّي سَمِعْتُ رسول اللَّه ﷺ يقول : « إنَّ أَبَرَّ البِرِّ صِلَةُ الرَّجُلِ أَهْلَ وُدِّ أَبِيهِ » [(٢)] .

وفي روايةٍ عن ابن دينار عن ابن عُمَرَ : أَنَّهُ كَانَ إِذَا خَرَجَ إلى مَكَّةَ كَانَ لَهُ حِمارٌ يَتَرَوَّحُ عَلَيهِ إذا مَلَّ رُكُوبَ الرَّاحِلة وعِمَامَةٌ يشُدُّ بها رَأْسَهُ ، فَبَينَا هُوَ يَومًا على ذِلكَ الحِمَار إِذْ مَرَّ بِهِ أَعْرَابيٌّ ، فقال : أَلَسْتَ ابنَ فُلانِ ابن فُلانٍ ؟ قال : بَلَى . فَأَعْطَاهُ الحِمَارَ ، فقال : ارْكَبْ هذا ، وأَعْطَاهُ العمامَةَ وقال : اشْدُدْ بِهَا رَأْسَكَ ، فقال لَهُ بَعْضُ أَصْحَابِهِ : غَفَرَ اللَّه لَكَ أَعْطَيتَ هذَا الأَعْرابِيَّ حِمَارًا كُنْتَ تَرَوَّحُ عَلَيهِ ، وعِمَامَةً كُنْت تَشُدُّ بِها رَأْسَكَ ؟ فقال : إنِّي سِمِعْتُ رسول اللَّه ﷺ يَقُولُ : « إنَّ مِنْ أَبَرِّ البِرِّ أَنْ يَصِلَ الرَّجُلُ أَهْلَ وُدِّ أَبِيهِ بَعْدَ أَنْ يُوَلِّيَ » [(٣)] وإنَّ أَبَاهُ كَانَ صَدِيقًا لِعُمَرَ رضي الله عنه ، روى هذِهِ الرِّوَايَاتِ كُلَّهَا مسلم .

الشرح

لما ذكر المؤلف رحمه الله أحكام بر الوالدين وصلة الأرحام ذكر أيضًا أحكام صلة من يصل الوالدين والأرحام ، وذلك للعلاقة التي بينهم وبين أقاربه أو بينهم وبين والديه ، ثم ذكر حديث ابن عمر رضي الله عنهما وهي قصة غريبة - كان ابن عمر رضي الله عنه إذا خرج إلى مكة حاجًا يكون معه حمار يتروح عليه إذا مل الركوب على الراحلة - أي على البعير - فيستريح على هذا الحمار ثم يركب الراحلة .

وفي يوم من الأيام لقيه أعرابي فسأله ابن عمر : أنت فلان بن فلان ؟ قال : نعم ، فنزل عن الحمار

---

(١) أخرجه مسلم في البر والصلة (١٢) ، والإمام أحمد في مسنده (٢/٩٧) .

(٢) أخرجه مسلم في البر والصلة (١١) ، والترمذي في سننه (١٩٠٣) .

(٣) أخرجه مسلم في البر والصلة (١٣) .

وقال : خذ هذا اركب عليه ، وأعطاه عمامة كان قد شد بها رأسه وقال لهذا الأعرابي : اشدد رأسك بهذا .

فقيل لعبد الله بن عمر : أصلحك الله أو غفر الله لك ! إنهم لأعراب ، والأعراب يرضون بدون ذلك ، يعنون : كيف تنزل أنت عن الحمار تمشي على قدميك ، وتعطيه عمامتك التي تشد بها رأسك ، وهو أعرابي يرضى بأقل من ذلك .

فقال : إني سمعت النبي ﷺ يقول : « إن أبر البر صلة الرجل أهل ود أبيه » يعني : إن أبر البر أنه إذا مات أبو الرجل أو أمه أو أحد من أقاربه أن تبر أهل وده ، يعني ليس صديقه فقط بل حتى أقارب صديقه .

وإن أبا هذا كان صديقًا لعمر أي لعمر بن الخطاب أبيه ، فلما كان صديقًا لأبيه فأكرمه برًّا بأبيه عمر رضي الله عنه .

وفي هذا الحديث : دليل على امتثال الصحابة ، ورغبتهم في الخير ومسارعتهم إليه ؛ لأن ابن عمر استفاد من هذا الحديث فائدة عظيمة ، فإنه فعل هذا الإكرام بهذا الأعرابي من أجل أن أباه كان صديقًا لعمر ، فما ظنك لو رأى الرجل الذي كان صديقًا لعمر ؟ لأكرمه أكثر وأكثر .

فيستفاد من هذا الحديث : أنه إذا كان لأبيك أو أمك أحد بينهم وبينه وُدٌّ فأكرمْه ، كذلك إذا كان هناك نسوة صديقات لأمك فأكرم هؤلاء النسوة ، وإذا كان رجال أصدقاء لأبيك فأكرم هؤلاء الرجال ، فإن هذا من البر .

وفي هذا الحديث أيضًا : سعة رحمة الله عز وجل حيث إن البر بابه واسع لا يختص بالوالد والأم فقط ، بل حتى أصدقاء الوالد وأصدقاء الأم ، إذا أحسنت إليهم فإنما بررت والديك فتثاب ثواب البار بوالديه .

وهذه من نعمة الله عز وجل ، أن وسع على عباده أبواب الخير وكثرها لهم ، حتى يلجوا [1] فيها من كل جانب نسأل الله تعالى أن يجعلنا والمسلمين من البررة ، إنه جواد كريم وصلى الله وسلم على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه أجمعين .

* * *

٣٤٣ - وعن أبي أُسَيدٍ - بضم الهمزة وفتح السين - مالك بن رَبِيعَةَ السَّاعِدِيِّ رضي الله عنه قال : بَينَا نَحْنُ جُلوسٌ عِنْدَ رسول الله ﷺ إذ جَاءَهُ رَجُلٌ مِنْ بَني سَلِمَةَ فقال : يا رسولَ اللَّهِ هَلْ بَقي مِنْ برِّ أَبَوَيَّ شَيءٌ أَبَرُّهُمَا بِهِ بَعْدَ مَوتِهِمَا ؟ فقال : « نَعَمْ ، الصَّلاةُ عَلَيهِمَا ، وَالاسْتِغْفَارُ لَهُمَا ، وَإنْفَاذُ عَهْدِهِمَا مِنْ بَعْدِهِمَا ، وصِلَةَ الرَّحِمِ الَّتي لا تُوصَلُ إلا بِهِمَا ، وَإكْرَامُ صدِيقِهما » [2] رواه أبو داود .

٣٤٤ - وعن عائشةَ رضي الله عنها قالت : مَا غِرْتُ عَلى أحَدٍ مِنْ نِسَاءِ النبي ﷺ مَا غِرْتُ عَلى خديجة رضي الله عنها ، وَمَا رأَيْتُهَا قَطُّ ، وَلكنْ كَانَ يُكثِرُ ذِكْرَهَا ، وَرُبَّمَا ذَبحَ الشَّاةَ ، ثُمَّ يُقَطِّعُهَا أَعْضَاءً ، ثُمَّ يبْعَثُهَا

---

(١) يلجوا : أي يدخلوا .

(٢) أخرجه أبو داود في سننه (٥١٤٢) .

في صَدَائِقِ خَدِيجَةَ ، فَرُبَّمَا قلتُ لَهُ : كَأَنْ لَمْ يَكُنْ في الدُّنْيَا إلا خَدِيجَةُ ! فيقولُ : « إِنَّهَا كَانَتْ وَكَانَتْ ، وَكَانَ لي مِنْهَا وَلَدٌ » متفقٌ عليه [١] .

وفي روايةٍ : وإنْ كَانَ لَيَذْبَحُ الشَّاءَ ، فَيُهْدِي في خَلائِلِهَا مِنْهَا مَا يَسَعُهُنَّ [٢] .

وفي روايةٍ : كَانَ إِذَا ذَبَحَ الشَّاةَ يَقُولُ : « أَرْسِلُوا بهَا إلى أَصْدِقَاءِ خَدِيجَةَ » [٣] .

وفي رواية قالت : اسْتَأْذَنَتْ هَالَةُ بِنْتُ خُوَيْلِدٍ أُخْتُ خَدِيجَةَ عَلى رسول الله ﷺ ، فَعَرَفَ اسْتِئْذَانَ خديجَةَ ، فَارْتَاحَ لِذلِكَ فقالَ : « اللَّهُمَّ هَالَةُ بِنْتُ خُوَيْلِدٍ » [٤] .

قولُهَا : « فَارْتَاحَ » هو بالحاء ، وفي الجَمْعِ بين الصحيحين لِلْحُمَيدِي : « فَارْتَاعَ » بِالعينِ ومعناه : اهْتَمَّ به .

الشرح

كذلك أيضًا يبقى من البر بعد موت الوالدين ما ذكره النبي ﷺ حين سئل : هل بقي من بر أبوي شيءٌ أبرهما به بعد موتهما ؟ قال ﷺ : « نعم ، الصلاة عليهما » يعني الدعاء لهما ، وليس المراد صلاة الجنازة ، بل المراد الدعاء .

فالصلاة هنا بمعنى الدعاء وهي كقوله تعالى : ﴿ خُذْ مِنْ أَمْوَٰلِهِمْ صَدَقَةً تُطَهِّرُهُمْ وَتُزَكِّيهِم بِهَا وَصَلِّ عَلَيْهِمْ ﴾ [التوبة : ١٠٣] وكان النبي ﷺ إذا أتته الصدقة قال : اللهم صل على آل فلان ، كما قال عبد الله بن أبي أوفى أنه أتى بصدقة قومه إلى النبي ﷺ فقال : « اللهم صل على آل أبي أوفى » [٥] ، فدعا لهم بالصلاة عليهم .

فقول النبي ﷺ هنا : « الصلاة عليهما » يعني الدعاء لهما بالصلاة ، فيقول اللهم صل على أبوي ، أو يدعو لهم بدخول الجنة والنجاة من النار وما أشبه ذلك .

الثاني : « الاستغفار لهما » وهو أن يستغفر الإنسان لوالديه ، وأما « إنفاذ عهدهما » يعني إنفاذ وصيتهما .

فهذه خمسة أشياء : الصلاة عليهما ، والاستغفار لهما ، وإكرام صديقهما ، وإنفاذ عهدهما ، وصلة الرحم التي لا صلة لك إلا بهما، هذه من بر الوالدين .

---

(١) أخرجه البخاري في مناقب الأمصار (٣٨١٨) .

(٢) أخرجه البخاري في مناقب الأنصار (٣٨١٦) واللفظ له ، ومسلم في فضائل الصحابة (٧٤) ، خلائلها : جمع خليل وهو الصديق .

(٣) أخرجه مسلم في فضائل الصحابة (٧٥) .

(٤) أخرجه البخاري في مناقب الأنصار (٣٨٢١) ، ومسلم في فضائل الصحابة (٧٨) واللفظ له .

(٥) أخرجه البخاري في الدعوات (٦٣٥٩) ، ومسلم في الزكاة (١٧٦) ، والإمام أحمد في مسنده (٣٥٣/٤ ، ٣٥٥ ، ٣٨١) .

أما الصدقة لهما ، أو قراءة القرآن لهما ، أو الصلاة - بأن يصلي الإنسان ركعتين ويقول : لوالدي - فهذا لم يأمر به النبي ﷺ ولا أرشد إليه ، بل قال : « إذا مات الإنسان انقطع عمله إلا من ثلاث : صدقة جارية ، وعلم ينتفع به ، وولد صالح يدعو له »[1] ولم يقل : ولد صالح يتصدق له ، أو يصلي له ، أو يحج له ، أو يعتمر له ، بل قال : يدعو له فالدعاء خيرٌ من العمل الصالح للوالدين .

لكن لو فعل الإنسان ونوى بهذا العمل لوالديه لا بأس به ؛ لأن الرسول ﷺ لم يمنع سعد بن عبادة من أن يتصدق لأمه بل أذن له[2] ، ولا الرجل الذي قال : يا رسول الله ، إن أمي افتلتت نفسها ، ولو تكلمت لتصدقت[3] .

فهذه خمسة أشياء من بر الوالدين بعد موتهما .

ثم ذكر المؤلف رحمه الله حديث عائشة رضي الله عنها ، أنها قالت : ما غرت على أحد من نساء النبي ﷺ ما غرت على خديجة رضي الله عنها ، والغيرة : انفعال يكون في الإنسان ؛ يحب أن يختص صاحبه به دون غيره ، ولهذا سميت غيرة ؛ لأنه يكره أن يكون الغير حبيبًا لحبيبه ، والنساء الضرات هن أشد بني آدم غيرة .

وعائشة رضي الله عنها كانت حبيبة رسول الله ﷺ ، ولم يحبَّ أحدًا مثلها في حياته بعد خديجة ، وكان - عليه الصلاة والسلام - يحب خديجة ؛ لأنها أم أولاده - إلا إبراهيم فمن مارية - ولأنها وازرته[4] وساعدته في أول البعثة ، وواسته في مالها ، فلذلك كان لا ينساها .

فكان في المدينة إذا ذبح شاةً أخذ من لحمها وأهداه إلى صديقات خديجة رضي الله عنها ، ولم تصبر عائشة رضي الله عنها على ذلك ، قالت : يا رسول الله ، كأن لم يكن في الدنيا إلا خديجة .

قال : « إنها كانت وكانت » ، يعني كانت تفعل كذا ، وتفعل كذا ، وذكر من خصالها رضي الله عنها .

« وكان لي منها ولد » حيث كل أولاده ؛ أربع بنات وثلاثة أولاد كلهم منها إلا ولدًا واحدًا هو إبراهيم رضي الله عنه ، فإنه كان من مارية القبطية التي أهداها إليه ملك القبط ، فأولاده كلهم من خديجة فلذلك قال إنها كانت وكانت ، وكان لي منها ولد .

ويستفاد من هذا الحديث : أن إكرام صديق الإنسان بعد موته يعتبر إكرامًا له ، وبرًّا به ، سواء كان من الوالدين ، أو من الأزواج ، أو من الأصدقاء ، أو من الأقارب ، فإن إكرام صديق الميت يعتبر إكرامًا له .

* * *

٣٤٥ - وعن أَنس بن مالكٍ رضي الله عنه قال : خرَجْتُ مَعَ جَرِيرِ بن عبدِ اللَّه البَجَليِّ رضي الله عنه في سفَرٍ ، فَكَانَ يَخْدُمُني فقلتُ لَهُ : لا تَفْعَلْ ، فقال : إنِّي قَدْ رَأَيتُ الأَنْصَارَ تَصْنَعُ برَسُول اللَّه ﷺ شَيئًا آليتُ عَلى

---

(١) أخرجه مسلم في الوصية (١٤) ، والترمذي في سننه (١٣٧٦) واللفظ له .
(٢) انظر البخاري في الوصايا (٢٧٦٢) .
(٣) انظر البخاري في الوصايا (٢٧٦٠) ، ومسلم في الوصية (١٢، ١٣) .
(٤) وازرته : أي أعانته وقوّته .

نَفْسِي أَنْ لا أَصْحَبَ أَحَدًا مِنْهُمْ إلا خَدَمْتُهُ [١] . متفقٌ عليه .

الشرح

ذكر المؤلف رحمه الله في بقية أحاديث بر أصدقاء الأب والأم والأقارب والزوجة حديث جرير بن عبد الله البجلي رضي الله عنه أنه كان في سفر فجعل يخدم رفقته وهم من الأنصار ، فقيل له في ذلك ، يعني : كيف تخدمهم وأنت صاحب رسول الله ﷺ ؟! .

فقال : إني رأيت الأنصار تصنع برسول الله ﷺ شيئًا ؛ آليت على نفسي ألا أصحب أحدًا منهم إلا خدمته ، يعني : حلفت .

وهذا من إكرام من يكرم النبي ﷺ ، فإكرام أصحاب الرجل إكرام للرجل ، واحترامهم احترام له ، ولهذا جعل رضي الله عنه إكرام هؤلاء من إكرام النبي ﷺ .

* * *

٤٣ - باب إكرام أهل بيت رسول الله ﷺ وبيان فضلهم

قال الله تعالى : ﴿ إِنَّمَا يُرِيدُ اللَّهُ لِيُذْهِبَ عَنكُمُ الرِّجْسَ أَهْلَ الْبَيْتِ وَيُطَهِّرَكُمْ تَطْهِيرًا ﴾ [الأحزاب : ٣٣] وقال تعالى : ﴿ وَمَن يُعَظِّمْ شَعَائِرَ اللَّهِ فَإِنَّهَا مِن تَقْوَى الْقُلُوبِ ﴾ [٢] [الحج : ٣٢] .

الشرح

قال المؤلف رحمه الله : باب إكرام أهل بيت رسول الله ﷺ وبيان فضلهم وأهل بيت الرسول ﷺ : ينقسمون إلى قسمين :

قسم كفار فهؤلاء ليسوا من أهل بيته وإن كانوا أقارب له في النسب ، لكنهم ليسوا من أهل بيته ؛ لأن الله قال لنوح - عليه الصلاة والسلام - حين قال : ﴿ فَقَالَ رَبِّ إِنَّ ابْنِي مِنْ أَهْلِي ﴾ ، وكان ابنه كافرًا فقال الله له : ﴿ إِنَّهُ لَيْسَ مِنْ أَهْلِكَ ﴾ [هود : ٤٦] .

فالكفار من أقارب الرسول ﷺ ليسوا من أهل بيته ، وإن كانوا أقارب له نسبًا .

لكنِ المؤمنونَ من قرابته هم أهل بيته ، ومنهم أيضًا زوجاته ، فإن زوجاته رضي الله عنهن من آل بيته ، كما قال الله تعالى في سياق نساء أمهات المؤمنين : ﴿ يَا نِسَاءَ النَّبِيِّ لَسْتُنَّ كَأَحَدٍ مِّنَ النِّسَاءِ إِنِ اتَّقَيْتُنَّ فَلَا تَخْضَعْنَ بِالْقَوْلِ فَيَطْمَعَ الَّذِي فِي قَلْبِهِ مَرَضٌ وَقُلْنَ قَوْلًا مَّعْرُوفًا ۝ وَقَرْنَ فِي بُيُوتِكُنَّ وَلَا تَبَرَّجْنَ تَبَرُّجَ الْجَاهِلِيَّةِ الْأُولَىٰ وَأَقِمْنَ الصَّلَاةَ وَآتِينَ الزَّكَاةَ وَأَطِعْنَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ إِنَّمَا يُرِيدُ اللَّهُ لِيُذْهِبَ عَنكُمُ

---

(١) أخرجه مسلم في فضائل الصحابة (١٨١) واللفظ له ، والبخاري في الجهاد والسير (٢٨٨٨) .

(٢) أي الزمنها ، فلا تخرجن لغير حاجة مشروعة .

﴿ٱلرِّجۡسَ أَهۡلَ ٱلۡبَيۡتِ وَيُطَهِّرَكُمۡ تَطۡهِيرٗا﴾ [الأحزاب: ٣٢، ٣٣].

وهذا نص صريح واضح جدًّا بأن زوجات الرسول ﷺ من آل بيته، خلافًا للرافضة الذين قالوا: إن زوجات الرسول ﷺ ليسوا من أهل بيته، وهذا غير صحيح، فزوجاته من أهل بيته بلا شك.

ولأهل بيت الرسول ﷺ المؤمنين حقان: حق الإيمان، وحق القرابة من الرسول ﷺ.

وزوجات الرسول ﷺ أمهات المؤمنين، كما قال تعالى في كتابه ﴿ٱلنَّبِيُّ أَوۡلَىٰ بِٱلۡمُؤۡمِنِينَ مِنۡ أَنفُسِهِمۡۖ وَأَزۡوَٰجُهُۥٓ أُمَّهَٰتُهُمۡۗ﴾ [الأحزاب: ٦].

فأزواج الرسول ﷺ أمهات للمؤمنين، وهذا بالإجماع، فمن قال: إن عائشة رضي الله عنها ليست أمًّا لي فليس من المؤمنين؛ لأن الله قال: ﴿ٱلنَّبِيُّ أَوۡلَىٰ بِٱلۡمُؤۡمِنِينَ مِنۡ أَنفُسِهِمۡۖ وَأَزۡوَٰجُهُۥٓ أُمَّهَٰتُهُمۡۗ﴾ فمن قال إن عائشة رضي الله عنها ليست أمًّا للمؤمنين، فهو ليس بمؤمن؛ لا مؤمن بالقرآن ولا بالرسول ﷺ.

وعجبًا لهؤلاء؛ يقدحون في عائشة ويسبونها ويبغضونها وهي أحب زوجات الرسول ﷺ إلى الرسول ﷺ، لا يحب أحدًا من نسائه مثلما يحبها، كما صح ذلك عنه في البخاري أنه قيل: يا رسول الله، من أحب الناسِ إليك؟ قال: «عائشة». قالوا: فمن الرجال؟ قال: «أبوها»[1] أبو بكر رضي الله عنه.

وهؤلاء القوم يكرهون عائشة ويسبونها ويلعنونها، وهي أقرب نساء الرسول إليه، فكيف يقال: إن هؤلاء يحبون الرسول؟ وكيف يقال: إن هؤلاء يحبون آل الرسول؟ ولكنها دعاوى كاذبة لا أساس لها من الصحة.

فالواجب علينا احترام آل بيت الرسول ﷺ من قرابته المؤمنين، ومن زوجاته أمهات المؤمنين، كلهم آل بيته ولهم حق.

ثم ذكر المؤلف الآية التي سقناها الآن ﴿إِنَّمَا يُرِيدُ ٱللَّهُ لِيُذۡهِبَ عَنكُمُ ٱلرِّجۡسَ أَهۡلَ ٱلۡبَيۡتِ وَيُطَهِّرَكُمۡ تَطۡهِيرٗا﴾، نقاء وطهارة، ﴿إِنَّمَا يُرِيدُ ٱللَّهُ لِيُذۡهِبَ عَنكُمُ ٱلرِّجۡسَ﴾ أي النجس المعنوي، ﴿وَيُطَهِّرَكُمۡ تَطۡهِيرٗا﴾ بعد إزالة النجاسة. والتطهر: تخلية وتحلية، وقوله ﴿تَطۡهِيرٗا﴾ هذا مصدر مؤكد لما سبق، يدل على أنها طهارة كاملة.

ولهذا من رمى واحدةً من نساء الرسول ﷺ بالزنى - والعياذ بالله - فإنه كافر حتى لو كانت غير عائشة.

عائشة، الذي يرميها بما برأها الله منه كافر مكذب لله، يحل دمه وماله، وأما الذي يرمي سواها بالزنى فالصحيح من أقوال أهل العلم أنه كافر أيضًا؛ لأن هذا أعظم قدح برسول الله ﷺ، أن يكون فراشه ممن يزنين والعياذ بالله، وقد قال الله تعالى ﴿ٱلۡخَبِيثَٰتُ لِلۡخَبِيثِينَ وَٱلۡخَبِيثُونَ لِلۡخَبِيثَٰتِۖ﴾ [النور: ٢٦].

فمن رمى واحدة من زوجات الرسول ﷺ بالزنا فقد جعل النبي ﷺ - وحاشاه من ذلك - جعله خبيثًا - نعوذ بالله؛ لأن الله يقول: ﴿ٱلۡخَبِيثَٰتُ لِلۡخَبِيثِينَ﴾ وبهذا يعرف أن المسألة خطيرة وعظيمة،

(١) أخرجه البخاري في فضائل الصحابة (٣٦٦٢)، ومسلم في فضائل الصحابة (٨)، والإمام أحمد في مسنده (٤/٢٠٣).

وأن الواجب علينا أن نُكِنَّ المحبة الصادقة لجميع آل بيت الرسول ﷺ ؛ نسائه كلهن والمؤمنين من قرابته .

* * *

٣٤٦ - وعن يزيد بن حَيَّانَ قال : انْطَلَقْتُ أَنَا وَحُصَيْنُ بْنُ سَبْرَةَ ، وَعَمْرُو بْنُ مُسْلِمٍ إِلَى زَيْدِ بْنِ أَرْقَمَ ﷺ فَلَمَّا جَلَسْنَا إِلَيْهِ قال له حُصَيْنٌ : لَقَدْ لَقِيتَ يا زَيْدُ خَيرًا كثيرًا ، رَأَيتَ رسولَ اللَّه ﷺ ، وسَمِعْتَ حَدِيثَهُ ، وَغَزَوتَ مَعَهُ ، وَصَلَّيتَ خَلْفَهُ ؛ لَقَدْ لَقِيتَ يَا زَيدُ خَيرًا كثيرًا ، حدِّثْنَا يَا زَيدُ مَا سَمِعْتَ مِنْ رسول اللَّه ﷺ ، قال : يَا ابْنَ أخِي وَاللَّهِ لَقَدْ كَبرتْ سِنِّي ، وقَدُمَ عَهْدِي ، وَنَسِيتُ بعْضَ الَّذِي كُنْتُ أَعِي مِنْ رسول اللَّه ﷺ ، فَمَا حدَّثْتُكُمْ فَاقْبَلُوا ، وَمَا لا فَلا تُكَلِّفُونِيهِ ، ثُمَّ قال : قامَ رسول اللَّه ﷺ يومًا فِينَا خَطِيبًا بِمَاءٍ يُدْعَى خُمًّا بَيـنَ مَكَّةَ وَالمَدِينَةِ ، فَحَمِدَ اللَّه ، وَأَثْنى عَلَيه ، وَوَعَظَ ، وَذَكَّرَ ، ثُمَّ قالَ : « أَمَّا بَعْدُ : أَلا أَيُّهَا النَّاسُ ، فَإِنَّمَا أَنا بَشَرٌ يُوشِكُ أَنْ يَأْتِيَ رسولُ ربي فَأُجِيبَ ، وَأَنَا تَارِكٌ فِيكُمْ ثَقَلَيـنِ : أَوَّلُهُمَا كِتَابُ اللَّهِ ، فِيهِ الهُدَى وَالنُّورُ ، فَخُذُوا بِكِتَابِ اللَّه ، وَاسْتَمْسِكُوا به » فَحَثَّ عَلَى كِتَابِ اللَّه ، ورَغَّبَ فِيهِ ثُمَّ قَالَ : « وَأَهْلُ بَيْتِي ؛ أُذَكِّرُكُمُ اللَّهَ فِي أَهْلِ بَيْتِي ، أُذَكِّرُكُمُ اللَّهَ فِي أَهْلِ بَيْتِي » فَقَالَ لَهُ حُصَيْنٌ : وَمَنْ أَهْلُ بَيْتِهِ يَا زَيْدُ ؟ ، أَلَيسَ نِسَاؤُهُ مِنْ أَهْلِ بَيْتِهِ ؟ قالَ : نِسَاؤُهُ مِنْ أَهْلِ بَيتِهِ ، وَلكِنْ أَهْلُ بَيْتِهِ مَنْ حُرِمَ الصَّدَقَةَ بَعْدَهُ ، قَالَ : وَمَنْ هُمْ ؟ قَالَ : هُمْ آلُ عَلِيٍّ ، وَآلُ عَقِيلٍ ، وَآلُ جَعْفَرٍ ، وَآلُ عَبَّاسٍ ، قَالَ : كُلُّ هَؤُلاءِ حُرِمَ الصَّدَقَةَ ؟ قَالَ : نَعَمْ . رواه مسلم .

وفي روايةٍ : « أَلا وَإِنِّي تَارِكٌ فِيكُمْ ثَقَلَين : أَحَدُهُمَا كِتَابُ اللَّه وَهُوَ حَبْلُ اللَّه ، مَنِ اتَّبَعَه كَانَ عَلى الهُدَى ، وَمَنْ تَرَكَهُ كَانَ عَلى ضَلالَةٍ »(١) .

٣٤٧ - وعَنِ ابنِ عُمَرَ ﷺ عن أبي بَكْرٍ الصِّدِّيق ﷺ مَوقُوفًا عَلَيهِ أَنَّهُ قَالَ : ارْقُبُوا مُحَمَّدًا ﷺ فِي أَهْلِ بَيْتِهِ(٢) . رواه البخاري .

مَعْنَى « ارْقُبُو » رَاعُوهُ وَاحْتَرِمُوه وَأَكْرِمُوهُ ، واللَّه أعلم .

الشرح

هذا الحديث وهذا الأثر في بيان حق آل النبي ﷺ ، وقد سبق أن آل بيته هم زوجاته ومن كان مؤمنًا من قرابته ، من آل علي وآل عقيل وآل جعفر وآل العباس ، وهم الذين تحرم عليهم الصدقة ؛ لأن النبي ﷺ قال لعمه العباس وقد سأله من الصدقة ، قال : « إن هذه [الصدقات إنما هي] أوساخ الناس وإنها لا تحل [لمحمد ولا] لآل محمد(٣) » .

وآل محمد لهم خصائص ليست لغيرهم ، ففي باب الفيء لهم حق يختصون به ، كما قال تعالى :

---

(١) أخرج الروايتين الإمام مسلم في فضائل الصحابة : الأولى برقم (٣٦) ، والثانية (٣٧) .
(٢) أخرجه البخاري في فضائل أصحاب النبي (٣٧٥١) .
(٣) أخرجه مسلم في الزكاة (١٦٨) ، وأبو داود في الإمارة (٢٠) .

﴿ وَٱعۡلَمُوٓاْ أَنَّمَا غَنِمۡتُم مِّن شَيۡءٖ فَأَنَّ لِلَّهِ خُمُسَهُۥ وَلِلرَّسُولِ وَلِذِي ٱلۡقُرۡبَىٰ ﴾ [الأنفال : ٤١] يعني قرابة النبي ﷺ .

ولهم كرامة وشرف وسيادة ، فلا تحل لهم الصدقة ولا الزكاة الواجبة ؛ لأنها أوساخ الناس ، كما قال تعالى ﴿ خُذۡ مِنۡ أَمۡوَٰلِهِمۡ صَدَقَةٗ تُطَهِّرُهُمۡ ﴾ [التوبة : ١٠٣] فلا يحل لهم الصدقة ؛ فهم أشرف وأعلى من أن تحل لهم الصدقة ، لكن يُعطونَ بدلها من الخمس .

ثم بَيَّنَ في حديث زيد بن أرقم أن النبي ﷺ قال يوم غديرخم ؛ وهو غدير بين مكة والمدينة ، نزل فيه النبي ﷺ ، ووعد وذكَّر ، وحث على القرآن ، وبَيَّنَ أن فيه الشفاء والنور ، ثم حث على أهل بيته ، فقال : « أذكركم اللّه في أهل بيتي ، أذكركم اللّه في أهل بيتي ، أذكركم اللّه في أهل بيتي » .

ولم يقل : إن أهل بيته معصومون ، وإن أقوالهم كالقرآن يجب أن يعمل بها ، كما تدَّعيه الرافضة ، فإنهم ليسوا معصومين ، بل هم يخطؤون كما يخطئ غيرهم ، ويصيبون كما يصيب غيرهم ، ولكن لهم حق قرابة النبي ﷺ كما سبق .

وقوله : « أذكركم اللّه في أهل بيتي » : يعني اعرفوا لهم حقهم ، ولا تظلموهم ، ولا تعتدوا عليهم ، هذا من باب التوكيد ، وإلا فكل إنسان مؤمن له حقٌّ على أخيه ، لا يحق له أن يعتدي عليه ، ولا أن يظلمه ، لكن لآل النبي ﷺ حق زائد على حقوق غيرهم من المسلمين .

وإذا كان هذا في حق آل النبي ﷺ فما بالك بحق الرسول ﷺ ؟

حق الرسول ﷺ أعظم الحقوق بعد حق اللّه ؛ يجب أن يقدم على النفس والولد والأهل وعلى جميع الناس ، في المحبة والتعظيم وقبول هديه وسنته ﷺ ، فهو مقدم على كل أحد ﷺ (١) . نسأل اللّه أن يجعلنا والمسلمين من أتباعه ظاهرًا وباطنًا .

* * *

٤٤ - باب توقير العلماء والكبار وأهل الفضل وتقديمهم على غيرهم ، ورفع مجالسهم ، وإظهار مرتبتهم

قال اللّه تعالى : ﴿ قُلۡ هَلۡ يَسۡتَوِي ٱلَّذِينَ يَعۡلَمُونَ وَٱلَّذِينَ لَا يَعۡلَمُونَۗ إِنَّمَا يَتَذَكَّرُ أُوْلُواْ ٱلۡأَلۡبَٰبِ ﴾ (٢) [الزمر : ٩] .

٣٤٨ - وعن أبي مسعود عُقبة بن عمرو البدري الأنصاري رضي الله عنه قال : قال رسول اللّه ﷺ : « يَؤُمُّ القومَ أَقرَؤُهُمْ لِكِتَابِ اللّهِ ، فإنْ كانُوا في القِرَاءةِ سَوَاءً ؛ فَأَعْلَمُهُمْ بِالسُّنَّةِ ، فَإِنْ كَانُوا في السُّنَّةِ سَوَاءً ؛ فَأَقْدَمُهُمْ هِجْرَةً ، فَإِنْ كَانُوا في الهِجْرَةِ سَوَاءً ؛ فَأَقْدَمُهُمْ سِنًّا ، وَلا يَؤُمَّنَّ الرَّجُلُ الرَّجُلَ في سُلْطَانِهِ ، وَلا يَقْعُدْ في بَيْتِهِ عَلى تَكْرِمَتِهِ إلا بِإذْنِهِ » (٣) رواه مسلم .

---

(١) انظر البخاري في الإيمان (١٥) ، ومسلم في الإيمان (٧٠) ، والإمام أحمد في مسنده (٣/٢٠٧) .

(٢) أولو الألباب : أصحاب العقول .

(٣) أخرجه مسلم في المساجد (٢٩٠) .

وفي روايةٍ لَهُ : « فَأَقْدَمُهُمْ سِلْمًا » [١] بَدَلَ « سِنًّا » : أَو إِسْلامًا .

وفي رواية : « يَؤُم القَومَ أَقْرَؤُهُم لِكِتَابِ اللَّه ، وأَقْدَمُهُمْ قِرَاءَةً ؛ فَإِنْ كَانَتْ قِرَاءَتُهُمْ سَوَاءً ؛ فَيَؤُمُّهُمْ أَقْدَمُهُمْ هِجْرَةً ، فَإِنْ كَانُوا في الهِجْرَةِ سَوَاءً ؛ فَلْيَؤُمَّهُمْ أَكْبَرُهُمْ سِنًّا » [٢] .

وَالمُرَادُ « بِسُلْطَانِهِ » مَحَلُّ ولايَتِهِ ، أَو الموضِعُ الَّذي يَخْتَصُّ به « وَتَكْرِمَتُهُ » بفتحِ التاءِ وكسر الراءِ : وَهيَ مَا يَنْفَرِدُ بِهِ مِنْ فِرَاشٍ وَسرير وَنَحْوِهِمَا .

٣٤٩ - وعنه قال : كان رسول اللَّه ﷺ يَمْسَحُ مَنَاكِبَنَا في الصَّلاةِ وَيَقُولُ : « اسْتَوُوا وَلا تَخْتَلِفُوا ، فَتَخْتَلِفَ قُلُوبُكُمْ ، لِيَلِنِي مِنْكُمْ أُولُو الأحْلامِ وَالنُّهَى ، ثُمَّ الَّذِينَ يَلُونَهَمْ » [٣] رواه مسلم .

وقوله ﷺ : « لِيَلِني » هو بتخفيف النُّون وَلَيس قَبْلَها يَاءٌ ، وَرُوِي بتشديد النُّونِ مَعَ ياء قَبْلَهَا . « وَالنُّهَى » : العُقُولُ : « وَأُولُو الأحْلام » هُمُ البَالِغُونَ ، وَقيلَ : أَهْلُ الحِلْمِ وَالفَضْلِ .

الشرح

قال المؤلف - رحمه اللَّه تعالى - : باب توقير العلماء ، وأهل الفضل ، وتقديمهم على غيرهم ، ورفع مجالسهم ، وإظهار مرتبتهم ، يعني وما يتعلق بهذا من المعاني الجليلة .

المؤلف رحمه الله يريد بالعلماء علماء الشريعة الذين هم ورثة النبي ﷺ ، فإن العلماء ورثة الأنبياء ؛ لأن الأنبياء لم يورثوا درهمًا ولا دينارًا ، فإن النبي ﷺ توفي عن بنته فاطمة وعمه العباس لم يرثوا شيئًا ؛ لأن الأنبياء لا يورِّثون إنما ورَّثوا العلم [٤] .

فالعلم شريعة اللَّه فمن أخذ بالعلم أخذ بحظ وافر من ميراث العلماء .

وإذا كان الأنبياء لهم حق التبجيل والتعظيم والتكريم ، فلمن ورثهم نصيب من ذلك ، أن يبجل ويعظم ويكرم ، فلهذا عقد المؤلف رحمه الله لهذه المسألة العظيمة بابًا لأنها مسألة عظيمة ومهمة .

وبتوقير العلماء توقر الشريعة ؛ لأنهم حاملوها ، وبإهانة العلماء تهان الشريعة ؛ لأن العلماء إذا ذلوا وسقطوا أمام أعين الناس ، ذلت الشريعة التي يحملونها ، ولم يبق لها قيمة عند الناس ، وصار كل إنسان يحتقرهم ، ويزدريهم فتضيع الشريعة .

كما أن ولاة الأمر من الأمراء والسلاطين يجب احترامهم وتوقيرهم وتعظيمهم وطاعتهم ، حسب ما جاءت به الشريعة ؛ لأنهم إذا احتُقِروا أمام الناس ، وأذلوا ، وهُوِّنَ أمرهم ؛ ضاع الأمن وصارت البلاد فوضى ، ولم يكن للسلطان قوة ولا نفوذ .

فهذا الصنفان من الناس : العلماء والأمراء ، إذا احتُقِروا أمام الناس فسدت الشريعة ، وفسد

(١) أخرجه مسلم في المساجد (٢٩٠) . (٢) أخرجه مسلم في المساجد (١٩١) .

(٣) أخرجه مسلم في الصلاة (١٢٢) .

(٤) انظر الحديث الدال على ذلك في سنن أبي داود في العلم (٣٦٤١) ، والترمذي في العلم (٢٦٨٢) .

الأمن ، وضاعت الأمور ، وصار كل إنسان يرى أنه هو العالم ، وكل إنسان يرى أنه الأمير ، فضاعت الشريعة وضاعت البلاد ، ولهذا أمر اللّٰه تعالى بطاعة ولاة الأمور من العلماء والأمراء ، فقال : ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ أَطِيعُواْ ٱللَّهَ وَأَطِيعُواْ ٱلرَّسُولَ وَأُوْلِي ٱلۡأَمۡرِ مِنكُمۡۖ ﴾ [النساء : ٥٩] .

ونضرب لكم مثلًا إذا لم يعظم العلماء والأمراء ، فإن الناس إذا سمعوا من العالم شيئًا قالوا : هذا هين ، قال فلان خلاف ذلك .

أو قالوا : هذا هين هو يعرف ونحن نعرف ، كما سمعنا عن بعض السفهاء الجهال ، أنهم إذا جودلوا في مسألة من مسائل العلم ، وقيل لهم : هذا قول الإمام أحمد بن حنبل ، أو هذا قول الشافعي ، أو قول مالك ، أو قول أبي حنيفة ، أو قول سفيان ، أو ما أشبه ذلك قال : نعم ، هم رجال ونحن رجال ، لكن فرق بين رجولة هؤلاء ورجولة هؤلاء ، من أنت حتى تصادم بقولك وسوء فهمك وقصور علمك وتقصيرك في الاجتهاد وحتى تجعل نفسك ندًّا لهؤلاء الأئمة رحمهم اللّٰه ؟

فإذا استهان الناس بالعلماء لقال كل واحد : أنا العالم ، أنا النحرير [(١)] ، أنا الفهامة ، أنا العلامة ، أنا البحر الذي لا ساحل له ، ولَمَا بقي عالمٌ ولصار كلٌّ يتكلم بما شاء ، ويفتي بما شاء ، ولتمزقت الشريعة بسبب هذا الذي يحصل من بعض السفهاء .

وكذلك الأمراء ، إذا قيل لواحد مثلًا : أَمَر الولي بكذا وكذا ، قال : لا طاعة له ؛ لأنه مخل بكذا ومخل بكذا ، وأقول : إنه إذا أخل بكذا وكذا ، فذنبه عليه ، وأنت مأمور بالسمع والطاعة ، حتى وإن شربوا الخمور وحتى إن عانقوا الزمور ، وغير ذلك ما لم نر كفرًا بواحًا عندنا فيه من اللّٰه برهان ، وإلا فطاعتهم واجبة ؛ ولو فسقوا ، ولو عتوا ، ولو ظلموا [(٢)] .

وقد قال النبي ﷺ : « تسمع وتطيع للأمير ، وإن ضرب ظهرك وأخذ مالك فاسمع وأطع » [(٣)] . وقال لأصحابه فيما إذا أخل الأمراء بواجبهم ، قال : « اسمعوا وأطيعوا فإنما عليكم ما حملتم وعليهم ما حملوا » [(٤)] .

أما مَن يريد أن تكون أمراؤنا كأبي بكر وعمر وعثمان وعلي ، فهذا لا يمكن ، لكن نحن مثل الرعية في ذلك الوقت ، ولنكن نحن صحابة أو مثل الصحابة حتى يكون ولاة الأمور مثل خلفاء الصحابة .

أما والشعب كما نعلم الآن ؛ أكثرهم مفرط في الواجبات ، وكثير منتهك للحرمات ، ثم يريدون أن يولي اللّٰه عليهم خلفاء راشدين ، فهذا بعيد ، لكن نحن علينا أن نسمع ونطيع ، وإن كانوا هم أنفسهم مقصرين فتقصيرهم هذا عليهم . عليهم ما حملوا وعلينا ما حملنا .

---

(١) النحرير : العالم الحاذق في علمه .

(٢) انظر الحديث الآمر بذلك في صحيح البخاري في الفتن (٧٠٥٣) ، ومسلم في الإمارة (٣١ - ٤٢) .

(٣) أخرجه مسلم في الإمارة (٥٢) .

(٤) أخرجه مسلم في الإمارة (٤٩ ، ٥٠) .

فإذا لم يوقر العلماء ولم يوقر الأمراء ضاع الدين والدنيا . نسأل الله العافية .

ثم استدل المؤلف بقوله تعالى : ﴿ قُلْ هَلْ يَسْتَوِى ٱلَّذِينَ يَعْلَمُونَ وَٱلَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ ﴾ [الزمر : ٩] ﴿ قُلْ هَلْ يَسْتَوِى ﴾ : يعني لا يستوي الذين يعلمون والذين لا يعلمون ؛ لأن الجاهل متصف بصفة ذم ، والعالم متصف بصفة مدح ، ولهذا لو تعير أدنى واحد من العامة وتقول له : أنت جاهل ، غضب وأنكر ذلك ، مما يدل على أن الجهل عيب مذموم ، كلٌّ ينفر منه ، والعلم خير ، ولا يستوي الذين يعلمون والذين لا يعلمون في أي حال من الأحوال .

العالم يعبد الله على بصيرة ، يعرف كيف يتوضأ ، وكيف يصلي ، وكيف يزكي ، وكيف يصوم ، وكيف يحج ، وكيف يبر والديه ، وكيف يصل رحمه .

العالم يهدي الناس ﴿ أَوَ مَن كَانَ مَيْتًا فَأَحْيَيْنَٰهُ وَجَعَلْنَا لَهُۥ نُورًا يَمْشِى بِهِۦ فِى ٱلنَّاسِ كَمَن مَّثَلُهُۥ فِى ٱلظُّلُمَٰتِ لَيْسَ بِخَارِجٍ مِّنْهَا ﴾ [الأنعام : ١٢٢] لا يمكن أن يكون هذا مثل هذا ، فالعالم نور يُهتدى به ، ويرفع الله به ، والجاهل عالة على غيره ، لا ينفع نفسه ولا غيره ، بل إن أفتى بجهل ضر نفسه وضر غيره ، فلا يستوي الذين يعلمون والذين لا يعلمون [١] .

ثم استدل المؤلف بحديث عقبة بن عامر أن النبي ﷺ قال : « يؤم القوم أقرؤهم لكتاب الله » ، يعني يكون إمامًا فيهم أقرؤهم لكتاب الله « فإن كانوا في القراءة سواء فأعلمهم بالسُّنَّة فإن كانوا بالسُّنَّة سواء فأقدمهم هجرة فإن كانوا في الهجرة سواء فأقدمهم سلمًا » أي إسلامًا ، وفي لفظ سِنًّا أي أكبرهم سِنًّا .

وهذا يدل : على أن صاحب العلم مقدمٌ على غيره ؛ يقدم العالم بكتاب الله ثم العالم بسنة رسول الله ﷺ ، ولا يقدم من القوم في الأمور الدينية إلا خيرهم وأفضلهم .

وهذا يدل : على تقديم الأفضل فالأفضل في الإمامة ، وهذا في غير الإمام الراتب ، أما الإمام الراتب فهو الإمام وإن كان في الناس من هو أقرأ منه ؛ لقول النبي ﷺ في الحديث : « ولا يؤمن الرجل الرجل في سلطانه » وإمام المسجد الراتب سلطان في مسجده ، حتى إن بعض العلماء يقول : لو أن أحدًا تقدم وصلى بجماعة المسجد بدون إذن الإمام فصلاتهم باطلة ، وعليهم أن يعيدوا ؛ لأن النبي ﷺ نهى عن هذه الإمامة والنهي يقتضي الفساد .

* * *

٣٥٠ - وعن عبد الله بن مسعودٍ ﷺ قال : قال رسول الله ﷺ : « لِيَلِنِي مِنْكُمْ أُولُو الأَحْلام

---

(١) رأى أن الآية تتحدث عن كل كافر ومؤمن . وقيل إن المراد بهذا المثل رجلان : عمر بن الخطاب حيث كان قبل إسلامه ميتًا فأحياه الله بإسلامه ، وجعل له نورًا يمشي به في الناس ، وقيل عمار بن ياسر . والذي في الظلمات ليس بخارج منها هو أبو جهل عمرو بن هشام لعنه الله ، انظر تفسير ابن كثير (١٧٢/٢) وتفسير الطبري (٥/٣٠-٣٢) ، وتفسير القرطبي (٧٨/٧) .

وَالنُّهَى ، ثُمَّ الَّذِينَ يَلُونَهُمْ » ثلاثًا « وَإِيَّاكُمْ وَهَيشَاتِ الأَسْوَاقِ » [١] رواه مسلم [٢] .

٣٥١ - وعن أَبي يَحْيَى - وقيلَ : أَبي مُحَمَّدٍ سَهْلِ بن أبي حَثْمَة - بفتح الحاءِ المهملة وإسكان الثاءِ المثلثةِ - الأنصاري ﷺ قال : انْطَلَقَ عَبْدُ اللَّهِ بن سَهْلٍ وَمُحَيِّصَةُ بْنُ مَسْعُودٍ إلى خَيبَرَ وَهِيَ يَومَئِذٍ صُلْحٌ [٣] ، فَتَفَرَّقَا ، فأتَى مُحَيِّصَةُ إلى عبدِ اللَّهِ بنِ سهلٍ وهو يَتَشَحَّطُ [٤] في دَمِهِ قَتِيلًا ، فَدَفَنَهُ ، ثُمَّ قَدِمَ المَدِينَةَ فَانْطَلَقَ عَبْدُ الرحمنِ بْنُ سَهْلٍ وَمُحَيِّصَة وَحُوَيِّصَةُ ابْنَا مَسْعُودٍ إلى النَّبي ﷺ ، فَذَهَبَ عَبْدُ الرَّحمنِ يَتَكَلَّمُ فقال : « كَبِّرْ كَبِّرْ » وَهُوَ أَحْدَثُ القوم ، فَسَكَتَ ، فَتَكَلَّمَا فقال : « أَتَحْلِفُونَ وَتَسْتَحِقُّونَ قَاتِلَكُمْ ؟ » وَذَكَرَ تَمامَ الحَدِيث [٥] . متفقٌ عليه .

وقوله ﷺ : « كَبِّرْ كَبِّرْ » مَعْنَاهُ : يَتَكَلَّمُ الأَكْبَرُ .

٣٥٢ - وعن جابرٍ ﷺ أنَّ النبي ﷺ كَانَ يَجْمَعُ بَينَ الرَّجُلَينِ مِنْ قَتْلَى أُحُدٍ ، يَعْني في القَبْرِ ، ثُمَّ يقُولُ : « أَيُّهُمَا أَكْثَرُ أَخْذًا لِلْقُرْآنِ ؟ [٦] » فَإِذَا أُشِيرَ لَهُ إلى أحَدِهِمَا قَدَّمَهُ في اللَّحد [٧] . رواه البخاري [٨] .

٣٥٣ - وعن ابن عمر ﷺ أنَّ النبي ﷺ قال : « أَرَانِي في المَنَامِ أَتَسَوَّكُ بِسِوَاكٍ ، فَجَاءَني رَجلانِ ، أَحَدُهُمَا أَكْبَرُ مِنَ الآخَرِ ، فَنَاوَلْتُ السِّوَاكَ الأَصْغَرَ ، فقِيلَ لي : كَبِّرْ ، فَدَفَعْتُهُ إلى الأَكْبَرِ مِنْهُمَا » [٩] رواه مسلم مُسْنَدًا والبخاري تعليقًا .

٣٥٤ - وعن أَبي موسى ﷺ قال : قال رسول اللَّه ﷺ : « إنَّ مِنْ إجْلالِ اللَّهِ تعالى [١٠] إكْرَامَ ذِي الشَّيبَةِ المُسْلِمِ [١١] ، وَحَامِلِ القُرْآنِ غَيرِ الغَالي فِيهِ [١٢] وَالجَافي عَنْهُ [١٣] ، وإكْرَامَ ذِي السُّلْطَانِ المُقْسِطِ » [١٤] حديثٌ حسنٌ رواه أبو داود .

---

(١) أخرجه مسلم في الصلاة (١٢٣) ، والترمذي في الصلاة (٢٢٨) ، والإمام أحمد في مسنده (٤٥٧/١) ، وفيه (وهوشات الأسواق) .

(٢) أي ما يكون فيها من الاختلاط والمنازعة والخصومات وارتفاع الأصوات واللغط والفتن . والهوشة والهيشة بمعنًى .

(٣) أي بعد فتحها وإقرار أهلها عليها صلحًا . (٤) أي يتخبط ويضطرب .

(٥) أخرجه البخاري في الجزية (٣١٧٣) واللفظ له ، ومسلم في القسامة (١) .

(٦) أي أكثر حفظًا . (٧) قدمه في اللحد أي إلى جهة القبلة من غيره .

(٨) أخرجه البخاري في الجنائز (١٣٥٣) .

(٩) أخرجه البخاري في الوضوء (٢٤٦) واللفظ له ، ومسلم في الزهد (٧٠) .

(١٠) أي من تعظيمه وتبجيله .

(١١) أي تعظيم الشيخ الكبير في الإسلام بتوقيره والشفقة عليه .

(١٢) الغلو : التشديد ومجاوزة الحد ، يعني غير المتجاوز الحد في العمل به وتتبع ما خفي واشتبه عليه من معانيه وفي حدود قراءته ومخارج حروفه . (١٣) أي العادل .

(١٤) أخرجه أبو داود في الأدب (٤٨٤٣) والبيهقي في سننه (١٦٣/٨) .

٣٥٥ - وعن عَمْرو بن شُعَيبٍ ، عن أبيه ، عن جده ﷺ قال : قال رسول اللَّه ﷺ : « لَيسَ مِنَّا مَنْ لَمْ يَرْحَمْ صَغِيرَنا ، وَيَعْرِفْ شَرَفَ كبِيرِنَا »(١) حديثٌ صحيحٌ رواه أبو داود والترمذي ، وقال الترمذي : حديثٌ حسنٌ صحيحٌ .

وفي رواية أبي داود : « حقَّ كَبيرِنَا » .

٣٥٦ - وعن ميمونِ بن أَبي شَبِيبٍ رحمه الله أن عَائِشَةَ رضي الله عنها مَرَّ بها سَائِلٌ ، فَأَعْطَتْهُ كِسْرَةً ، وَمَرَّ بهَا رَجُلٌ عَلَيهِ ثِيَابٌ وَهيئَةٌ ، فَأَقْعَدَتْهُ ، فَأَكَلَ فَقِيلَ لهَا في ذلكَ ؟ فقالت : قال رسول اللَّه ﷺ : « أَنْزِلُوا النَّاسَ مَنَازِلَهُمْ » رواه أبو داود . لكِنْ قال : مَيمُون لَمْ يُدْرِك عائِشَةَ .

وقَدْ ذَكَرَهُ مُسْلمٌ في أَوَّلِ صَحيحهِ تَعْلِيقًا فقال : وَذُكِرَ عَنْ عائِشَةَ رضي الله عنها قالت : أَمرنا رسول اللَّه ﷺ أَنْ نُنْزِلَ النَّاس مَنَازِلَهُمْ ، وَذكَرَهُ الحَاكِمُ أَبو عبدِ اللَّهِ في كِتابِهِ « مَعْرِفَة علُومِ الحدِيث »(٢) وقال : هو حديثٌ صحيح .

٣٥٧ - وعن ابن عباس رضي الله عنهما قال : قَدِم عُيَينَةُ بْنُ حِصْنٍ ، فَنَزَلَ عَلى ابْن أَخِيهِ الحُرِّ بْن قَيسٍ ، وَكَانَ مِنَ النَّفَرِ الَّذِينَ يُدْنيهِم عُمَرُ ﷺ ، وَكَانَ القُرَّاءُ أَصْحَابَ مَجْلِس عُمَرَ وَمُشاوَرَتِهِ ، كُهُولًا كَانُوا أَو شُبَّانًا ، فقال عُيَينَةُ لابْنِ أَخِيهِ : يا ابْنَ أَخِي لَكَ وَجهٌ عِنْدَ هذَا الأَمِيرِ ، فَاسْتَأْذِنْ لي عَلَيه ، فَاسْتَأْذَنَ لَهُ ، فَأَذِنَ لَهُ عُمَرُ ﷺ ، فلما دَخَلَ قال : هِي يَا ابْنَ الخَطَّاب : فَوَاللَّه مَا تُعْطِينَا الجَزْل ، وَلا تَحْكُمُ فِينَا بِالعَدْلِ ، فَغَضِبَ عُمَرُ ﷺ حَتَّى هَمَّ أَنْ يُوقِعَ بِهِ ، فقال لَهُ الحُرُّ : يَا أَمِيرَ المُؤْمِنِينَ إِنَّ اللَّه تعالى قال لِنَبيِّهِ ﷺ : ﴿ خُذِ ٱلْعَفْوَ وَأْمُرْ بِٱلْعُرْفِ وَأَعْرِضْ عَنِ ٱلْجَٰهِلِينَ ﴾ وإن هذا مِنَ الجَاهِلِينَ . واللَّهِ مَا جَاوَزَهَا عُمَرُ حِينَ تَلاهَا عَلَيهِ ، وَكَانَ وَقَّافًا عِنْدَ كِتَابِ اللَّه تعالى(٣) . رواه البخاري .

٣٥٨ - وعن أبي سعيدٍ سَمُرَةَ بن جُنْدبٍ ﷺ قال : لَقَدْ كُنْتُ على عَهْدِ رسول اللَّه ﷺ غُلامًا ، فَكُنْتُ أَحْفَظُ عَنْهُ ، فَمَا يَمْنَعُني مِنَ القَولِ إلا أَنَّ ههُنَا رِجَالًا هُمَ أَسَنُّ مِنِّي(٤) . متفقٌ عليه .

---

(١) أخرجه أبو داود في الأدب (٤٩٤٣) والترمذي في البر والصلة (١٩٢٠) واللفظ للترمذي ، قوله « ويعرف شرف كبيرنا » أي بما يستحقه من التعظيم والتبجيل .

(٢) أخرجه أبو داود في الأدب (٤٨٤٢) . قوله « فأعطته كسرة » بكسر الكاف وسكون المهملة . وهي هنا القطعة المكسورة من الخبز ، قوله « عليه ثياب وهيئة » المراد حالهُ حسنة . قوله « فقيل لها في ذلك » أي لعائشة ، والمعنى قيل لها : لم فرقت بينهما حيث أعطيت الأول كسرة وأقعدت الثاني وأطعمتيه ؟ .

(٣) أخرجه البخاري في التفسير (٤٦٤٢) . قوله « يدنيهم » أي يقربهم ، قوله « فاستأذن لي عليه » أي اسأل لي منه الإذن في الدخول عليه ، قوله « هي » بكسر الهاء وسكون التحتية : كلمة تهديد ، وقيل : ضمير وثَم محذوف ، أي : هي داهية . قوله « فوالله ما تعطينا الجزل » أي ما يجزل لنا من العطاء ، وأصل الجزل : ما عظم من الحطب ، قوله « يوقع به شيئا » أي من العقوبة .

(٤) أخرجه مسلم في الجنائز (٩٦٤) ، قوله « فما يمنعني من القول » أي من التحديث .

٣٥٩ - وعن أنس ﷺ قال : قال رسول الله ﷺ : « مَا أَكْرَمَ شَابٌّ شَيخًا لِسِنِّهِ إلا قَيَّضَ اللَّهُ لَهُ مَنْ يُكْرِمُهُ عِنْدَ سِنِّه » [1] رواه الترمذي وقال : حديث غريب .

الشرح

هذه الأحاديث فيها الإشارة إلى ما سبق عن المؤلف رحمه الله بإكرام أهل العلم وأهل الفضل الكبير ، فمن ذلك حديث عبد الله بن مسعود ﷺ أن النبي ﷺ قال : « لِيَلِني منكم أولو الأحلام والنهى ثم الذين يلونهم » قال ذلك ثلاثًا ، « وإياكم وهيشات الأسواق » وفي قوله : ليلني منكم ، اللام لام الأمر ، والمعنى أنه في الصلاة ينبغي أن يتقدم أولو الأحلام والنهى .

وأولو الأحلام : يعني الذين بلغوا الحلم وهم البالغون ، والنهى جمع نهية وهي العقل ، يعني العقلاء ، فالذي يجب أن يتقدم في الصلاة العاقلون البالغون ؛ لأن ذلك أقرب إلى فهم ما يقوله النبي ﷺ أو ما يفعله ، من الصغار ونحوهم ، فلهذا حث النبي ﷺ أن يتقدم هؤلاء حتى يلوا الإمام .

وليس معنى الحديث لا يلني إلا أولو الأحلام والنهى ، بحيث نطرد الصبيان عن الصف الأول ، فإن هذا لا يجوز . فلا يجوز طرد الصبيان عن الصف الأول إلا أن يحدث منهم أذية ، فإن لم يحدث منهم أذية فإن من سبق إلى ما لم يسبق إليه أحد أحق به .

وهناك فرق بين أن تكون العبارة النبوية لا يلني إلا أولو الأحلام ، وبين قوله : ليلني أولو الأحلام ، فالثانية تحث الكبار العقلاء على التقدم ، والأولى لو قدر أنها نص الحديث لكان ينهى أن يلي الإمام من ليس بالغًا ، أو ليس عاقلًا .

ولهذا نقول : إن أولئك الذين يطردون الصبيان عن الصف الأول أخطأوا من جهة أنهم منعوا ذوي الحقوق حقوقهم ؛ فإن النبي ﷺ قال : « من سبق إلى ما لم يسبق إليه مسلم فهو له » [2] .

ومن جهة أخرى أنهم يُكرِّهون الصبيان المساجد ، وهذا يؤدي إلى أن ينفر الصبي عن المسجد إذا كان يطرد عنه .

ومنها : أن هذه لا تزال في نفسه عقدة من الذي طرده ، فتجده يكرهه ويكره ذكره ، فمن أجل هذه المفاسد نقول لا تطردوا الصبيان من أوائل الصفوف .

ثم إننا لو طردناهم من أوائل الصفوف حصل منهم لعب ، لو كانوا كلهم في صف واحد كما يقوله من يقوله من أهل العلم ، لحصل منهم من اللعب ما يوجب اضطراب المسجد ، واضطراب أهل المسجد ، ولكن إذا كانوا مع الناس في الصف الأول ومتفرقين فإن ذلك أسلم من الفوضى التي تحصل بكونهم يجتمعون في صف واحد .

---

(١) أخرجه الترمذي في البر والصلة (٢٠٢٢) ، قوله « قيض » أي هيأ وسير .

(٢) أخرجه أبو داود في سننه (٣٠٧١) ، وأشار الألباني في إرواء الغليل (٦/٩ ، ١١) إلى ضعفه .

وقوله ﷺ : « ليلني منكم أولو الأحلام والنهى » يستفاد منه أن الدنو من الإمام له شأن مطلوب ، ولهذا قال ليلني أي يكون هو الذي يليني .

وعلى هذا نقول : إذا كان يمين الصف بعيدًا ، وأيسر الصف أقرب منه بشكل واضح ، فإن الصف الأيسر أفضل من الأيمن ، من أجل دنوه من الإمام ؛ ولأنه لما كان الناس في أول الأمر إذا كان إمامهم واثنان معه ، فإنهما يكونونا عن يمينه واحد ، وعن شماله واحد ، ولا يكون كلاهما عن اليمين ، فدل هذا على مراعاة الدنو من الإمام ، وتوسط الإمام من المأمومين .

ولكن هذا الأمر أي كون الإمام واثنان معه يكونان في صف واحد ، هذا نسخ ، وصار الإمام إذا كان معه اثنان يصفان خلفه ، ولكن كونه - حين كان مشروعًا - يجعل أحدهما عن اليمين والثاني عن اليسار ؛ يدل على أنه ليس الأيمن أفضل مطلقًا ، بل الأفضل من الأيسر إذا كان مقاربًا أو مثله ، أما إذا تميز بميزة بينة فاليسار مع الدنو من الإمام أفضل .

وفي حديث الرؤيا التي رآها الرسول ﷺ ، أنه كان ﷺ يتسوك بسواك فجاءه رجلان فأراد أن يعطيه الأصغر ، فقيل له : كبر كبر . فيه دليل أيضًا على اعتبار الكبر ، وأنه يقدم الأكبر في إعطاء الشيء .

ومن ذلك إذا قدمت الطعام مثلًا أو القهوة أو الشاي فلا تبدأ باليمين ، بل ابدأ بالأكبر الذي أمامك ؛ لأن النبي ﷺ لما أراد أن يعطيه الأصغر قيل له كبر ، ومعلوم أنه لو كان الأصغر هو الأيسر ما ذهب الرسول ﷺ يعطيه إياه ، فالظاهر أنه أعطى الأيمن من أجل التيامن ، لكن قيل له : كبر يعني : أعطه الأكبر ، فهذا إذا كان الناس أمامك تبدأ بالكبير ، لا تبدأ باليمين ، أما إذا كانوا جالسين عن اليمين وعن الشمال فابدأ باليمين .

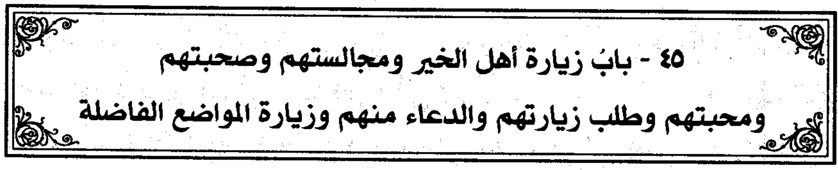
وبهذا يجمع بين الأدلة الدالة على اعتبار التكبير أي مراعاة الكبير ، وعلى اعتبار الأيمن ، أي مراعاة الأيمن ، فنقول إذا كانت القصة كما جاء عن النبي ﷺ أنه كان معه إناء يشرب منه ، وعلى يساره الأشياخ وعلى يمينه غلام ، فقال النبي ﷺ للغلام : « أتأذن لي أن أعطي هؤلاء » فقال الغلام : لا والله ، لا أوثر بنصيبي منك أحدًا . فأعطاه رسول الله ﷺ [1] . فإذا كان هكذا فأعطه من على يمينك ، أما الذين أمامك فابدأ بالكبير ، كما تدل عليه السنة ، وهذا هو وجه الجمع بينهما .

ثم إن الإنسان إذا أعطى الشراب الكبير فمن يعطي بعده ؟ هل يعطي الذي على يمين الكبير ويكون عن يسار الصابِّ ، أم الذي عن يمين الصابِّ ؟

نقول : يبدأ بالذي عن يمين الصاب وإن كان على يسار الكبير ؛ لأننا إذا اعتبرنا التيامن بعد مراعاة الكبر ، فالذي عن يمينك هو الذي عن يسار مقابلك فتبدأ به ، ما لم يسمح بعضهم لبعض ، ويقول أعطه فلانًا .. أعطه فلانًا ؛ فالحق لهم ، ولهم أن يسقطوه .

* * *

(١) أخرجه البخاري في الشرب والمساقاة (٢٣٥١) ، ومسلم في الأشربة (١٢٧) .



٤٥ - بابُ زيارة أهل الخير ومجالستهم وصحبتهم ومحبتهم وطلب زيارتهم والدعاء منهم وزيارة المواضع الفاضلة

قال اللَّه تعالى : ﴿ وَإِذْ قَالَ مُوسَىٰ لِفَتَىٰهُ [١] لَآ أَبْرَحُ [٢] حَتَّىٰٓ أَبْلُغَ مَجْمَعَ ٱلْبَحْرَيْنِ أَوْ أَمْضِىَ حُقُبًا ﴾ [٣] إلى قوله تعالى : ﴿ قَالَ لَهُۥ مُوسَىٰ هَلْ أَتَّبِعُكَ عَلَىٰٓ أَن تُعَلِّمَنِ مِمَّا عُلِّمْتَ رُشْدًا ﴾ [٤] [الكهف : ٦٠- ٦٦] .

وقال تعالى : ﴿ وَٱصْبِرْ نَفْسَكَ مَعَ ٱلَّذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُم بِٱلْغَدَوٰةِ وَٱلْعَشِىِّ يُرِيدُونَ وَجْهَهُۥ ﴾ [الكهف : ٢٨] .

الشرح

ذكر المؤلف - رحمه اللَّه تعالى - باب زيارة أهل الخير ومحبتهم وصحبتهم وطلب الزيارة منهم .

أهل الخير هم أهل العلم والإيمان والصلاح ، و محبتهم واجبة ، لأن أوثق عرى الإيمان : الحب في اللَّه والبغض في اللَّه ، فإذا كان الإنسان محبته تابعة لمحبة اللَّه ، وبغضه تابع لبغض اللَّه ، فهذا هو الذي ينال ولاية اللَّه ﷻ .

وأهل الخير إذا جالستهم فأنت على خير ، لأن النبي ﷺ مثَّل الجليس الصالح بحامل المسك ، إما أن يحذيك يعني يعطيك ، وإما أن يبيعك ، يعني يبيع عليك ، وإما أن تجد منه رائحة طيبة [٥] .

وكذلك ينبغي أن تطلب منهم أن يزوروك ويأتوا إليك لما في مجيئهم إليك من الخير .

ثم ذكر المؤلف قصة موسى عليه السلام مع الخضر فإن موسى قال لفتاه : ﴿ لَآ أَبْرَحُ حَتَّىٰٓ أَبْلُغَ مَجْمَعَ ٱلْبَحْرَيْنِ أَوْ أَمْضِىَ حُقُبًا ﴾ [الكهف : ٦٠] لأن اللَّه أخبره بأن له عبدً من عباد اللَّه أتاه اللَّه رحمة منه وعلمه من لدنه علمًا ، فذهب موسى يطلب هذا الرجل حتى لقيه ، وذكر اللَّه تعالى قصتهما مبسوطة في سورة الكهف وسيأتي الكلام عليها إن شاء اللَّه .

* * *

٣٦٠ - وعن أنسٍ رضي الله عنه قال : قال أبو بكر لعمر رضي الله عنهما بَعْدَ وَفَاةِ رسول اللَّه ﷺ : انْطَلِقْ بِنَا إلى أُمِّ أَيْمَنَ رضي الله عنها نَزُورُهَا كَمَا كَانَ رسول اللَّه ﷺ يَزُورُهَا ، فَلَمَّا انْتَهيَا إِلَيهَا ، بَكَتْ ، فَقَالا لَهَا : مَا يُبْكِيكِ ؟ أَمَا تَعْلَمِينَ أَنَّ مَا عِنْدَ اللَّه خَيرٌ لِرَسُولِ اللَّه ﷺ ؟ فقالت : إِنِّي لا أَبْكِي أَنِّي لا أَعْلَمُ أَنَّ مَا عِنْدَ اللَّه تعالى خَيرٌ لرسول اللَّه ﷺ ، وَلكِنْ أَبْكِي أَنَّ الوَحْيَ قَدِ انْقَطَعَ مِنَ السَّمَاء ، فَهَيَّجَتْهُمَا عَلى البُكَاءِ، فَجَعَلا يَبْكِيَانِ مَعَهَا [٦] . رواه مسلم .

---

(١) هو يوشع بن نون .
(٢) أي لا أزال أسير .
(٣) أي زمنًا طويلا .
(٤) أي هدًى ومعرفة .
(٥) انظر الحديث في البخاري في الذبائح (٥٥٣٤) ، ومسلم في البر والصلة (١٤٦) .
(٦) أخرجه مسلم في فضائل الصحابة (١٠٣) .

٣٦١ - وعن أبي هريرة ﷺ عن النبي ﷺ : « أَنَّ رَجُلًا زَارَ أَخًا لَهُ فِي قَرْيَةٍ أُخْرَى ، فَأَرْصَدَ اللّه تعالى عَلَى مَدْرَجَتِهِ مَلَكًا ، فلَمَّا أَتَى عَلَيهِ قال : أَينَ تُرِيدُ ؟ قال : أُرِيدُ أَخًا لي في هذِهِ القَرْيَةِ . قال : هَلْ لَكَ عَلَيهِ مِنْ نِعْمَةٍ تَرُبُّهَا عَلَيهِ ؟ قال : لا ، غَيرَ أَنِّي أَحْبَبْتُهُ في اللّهِ تعالى ، قال : فَإِنِّي رسول اللّه إِلَيكَ بِأَنَّ اللّه قَدْ أَحَبَّكَ كَمَا أَحْبَبْتَهُ فِيه » [١] رواه مسلم .

يقال : « أَرْصَدَه » لِكذَا : إذَا وَكَّلَهُ بِحِفْظِهِ ، و « المَدْرَجَةُ » بفتحِ الميمِ والراءِ : الطَّرِيقُ ، ومعنى « تَرُبُّهَا » تَقُومُ بهَا ، وَتَسْعَى في صَلاحِهَا .

٣٦٢ - وعنه قال : قال رسول اللّه ﷺ : « مَنْ عَادَ مَرِيضًا أَو زَارَ أَخًا لَهُ في اللّه [٢] ؛ نَادَاه مُنَادٍ : بِأَنْ طِبْتَ ، وَطَابَ مَمْشَاكَ ، وَتَبَوَّأْتَ مِنَ الجَنَّةِ مَنْزِلًا » [٣] رواه الترمذي وقال : حديثٌ حسنٌ ، وفي بعض النسخ غريبٌ .

٣٦٣ - وعن أَبِي موسى الأشعَرِيِّ ﷺ أن النَّبي ﷺ قال : « إِنَّمَا مَثَلُ الجَلِيسِ الصَّالِحِ وَجَلِيسِ السُّوءِ ، كَحَامِلِ المِسْكِ ، وَنَافِخِ الكِيرِ [٤] ، فَحَامِلُ المِسْكِ ، إِمَّا أَنْ يُحْذِيكَ ، وَإِمَّا أَنْ تَبْتَاعَ مِنْهُ ، وَإِمَّا أَنْ تَجِدَ مِنْهُ رِيحًا طَيِّبَةً ، وَنَافِخُ الكِيرِ ، إِمَّا أَنْ يُحْرِقَ ثِيَابَكَ ، وَإِمَّا أَنْ تَجِدَ مِنْهُ رِيحًا مُنْتِنَةً » [٥] متفقٌ عليه .

« يُحْذِيكَ » يُعْطِيكَ .

الشرح

هذه الأحاديث في بيان فضل زيارة الإخوان بعضهم لبعض والمحبة في اللّه ﷻ .

ففي الحديث الأول : في قصة الرجلين من الصحابة ﷺ ، زارا امرأة كان النبي ﷺ يزورها . فزاراها من أجل زيارة النبي ﷺ إياها . فلما جلسا عندها بكت ، فقالا لها : ما يبكيك ؟ أما تعلمين أن ما عند اللّه ﷻ خير لرسوله ، يعني خير من الدنيا .

فقالت إني لا أبكي لذلك ولكن لانقطاع الوحي ، لأن النبي ﷺ لما مات انقطع الوحي ، بعد رسول اللّه ﷺ ولهذا أكمل اللّه شريعته قبل أن يُتوفَّى ، فقال تعالى : ﴿ ٱلْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتْمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي وَرَضِيتُ لَكُمُ ٱلْإِسْلَٰمَ دِينًا ﴾ [المائدة : ٣] فجعلا يبكيان لأنها ذكرتهما بما كانا قد نسياه .

وأما الأحاديث الأخرى : ففيها أيضًا : فضل الزيارة للّه ﷻ ، وأن اللّه ﷻ يثيب من زار أخاه أو عاده في مرضه ، فيقال له : طبت وطاب ممشاك . ويقال لمن زار أخاه لغير أمر دنيوي ولكن لمحبته في اللّه : إن اللّه أحبك كما أحببته فيه .

---

(١) أخرجه مسلم في البر والصلة (٣٨) .

(٢) أي مخلصًا في ذلك للّه سبحانه .

(٣) أخرجه الترمذي في البر والصلة (٢٠٠٨) وقال هذا حديث حسن غريب .

(٤) الكير : جهاز من جلد أو نحوه يستخدمه الحداد وغيره للنفخ في النار لإذكائها والجمع : أكيار وكِيَرَة .

(٥) أخرجه البخاري في الذبائح (٥٥٣٤) ، ومسلم في البر والصلة (١٤٦) .

والزيارة لها فوائد : منها هذه الأجر العظيم ، العظيم ، ومنها أنها تؤلف القلوب ، وتجمع الناس ، وتذكّر الناسي ، وتنبه الغافل ، وتُعلِّم الجاهل ، وفيها مصالح كثيرة يعرفها من جربها .

وأما عيادة المريض : ففيها كذلك أيضًا من الصالح والمنافع الشيء الكثير ، وقد سبق لنا أنها من حقوق المسلم على المسلم . أن يعوده إذا مرض [١] ، ويذكره بالله ﷻ ، بالتوبة والوصية وغير ذلك مما يستفيد منه . فهذه الأحاديث وأشباهها كلها تدل على أنه ينبغي للإنسان أن يفعل ما فيه المودة والمحبة لإخوانه ، من زيارة وعيادة واجتماع وغير ذلك .

* * *

٣٦٤ - وعن أبي هريرة ﷺ عن النبي ﷺ قال : « تُنْكَحُ المرْأَةُ لأَرْبَعٍ : لِمَالِهَا ، وَلِحَسَبِهَا [٢] ، وَلِجَمَالِهَا ، وَلِدِينِهَا ، فَاظْفَرْ بِذَاتِ الدِّينِ تَرِبَتْ يَدَاكَ [٣] » [٤] متفقٌ عليه .

ومعناه : أَنَّ النَّاس يَقصِدُونَ في العَادةِ مِنَ المرْأَةِ هذِهِ الخِصَال الأَرْبَعَ ، فَاحْرِصْ أَنْتَ عَلى ذَاتِ الدِّين ، وَاظْفَرْ بِها ، وَاحْرِصْ عَلى صُحْبَتِها .

٣٦٥ - وعن ابن عباس ﷺ قال : قال النبيُّ ﷺ لِجبْرِيلَ : « مَا يَمْنَعُكَ أَنْ تَزُورَنَا أَكْثَرَ مِمَّا تَزُورنَا ؟ » فنزلت : ﴿ وَمَا نَتَنَزَّلُ إِلَّا بِأَمْرِ رَبِّكَ لَهُ مَا بَيْنَ أَيْدِينَا وَمَا خَلْفَنَا وَمَا بَيْنَ ذَٰلِكَ ﴾ [٥] رواه البخاري

٣٦٦ - وعنْ أَبي سعيدِ الخُدْرِيِّ ﷺ عن النبي ﷺ قال : « لا تُصَاحِبْ إلا مُؤْمِنًا ، وَلا يَأْكُلْ طَعَامَكَ إلا تَقِيٌّ » [٦] . رواه أبو داود ، والترمذي بِإسْنَادٍ لا بأس بِهِ .

٣٦٧ - وعن أبي هريرةَ ﷺ أن النبي ﷺ قال : « الرَّجُلُ عَلى دِينِ خَلِيلِهِ ، فَلْيَنْظُرْ أَحَدُكُم مَنْ يُخَالِلُ » [٧] . رواه أبو داود ، والترمذي بإسنادٍ صحيح ، وقال الترمذي : حديث حسنٌ .

٣٦٨ - وعن أبي موسى الأشعَرِيِّ ﷺ أن النبي ﷺ قال : « المَرْءُ مَعَ مَنْ أَحَبَّ » متفقٌ عليه .
وفي رواية قال : قِيلَ للنَّبيِّ ﷺ : الرَّجُلُ يُحِبُّ القَومَ وَلَمَّا يَلْحَقْ بِهِمْ ؟ قال : « المَرْءُ مَعَ مَنْ أَحَبَّ » [٨] .

---

(١) انظر كتاب عيادة المريض من هذا الكتاب .

(٢) الحسب : شرف الأصل أو ما يعده المرء من مناقبه أو من شرف آبائه .

(٣) تربت يداك : ترب الرجل إذا افتقر ، أي لصق بالتراب ، وهذه الكلمة جارية على ألسنة العرب لا يريدون بها الدعاء على المخاطب ولا وقوع الأمر به ، والمراد بها الحث والتحريض . وقيل : معناه : افتقرت إن لم تفعل ما أرشدتك إليه .

(٤) أخرجه البخاري في النكاح (٥٠٩٠) ، ومسلم في الرضاع (٥٣) والبيهقي في سننه (٧/٧٩) .

(٥) أخرجه البخاري في تفسير القرآن (٤٧٣١) .

(٦) أبو داود في الأدب (٤٨٣٢) ، والترمذي في الزهد (٢٣٩٥) .

(٧) أخرجه أبو داود في الأدب (٤٨٣٣) ، والترمذي في الزهد (٢١٧٨) وفيه (المراد) .

(٨) أخرجه البخاري في الأدب (٦١٧٠) ، ومسلم في البر والصلة (١٦٥) ، وأبو داود في الأدب (٥١٢٧) .

الشرح

ذكر المؤلف رحمه الله فيما نقله عن أبي هريرة رضي الله عنه عن النبي ﷺ أنه قال : « تنكح المرأة لأربع : لمالها ، وحسبها ، وجمالها ، ودينها . فاظفر بذات الدين » .

يعني أن الأغراض التي تنكح من أجلها المرأة في الغالب تنحصر في هذه الأربع :

المال : من أجل أن ينتفع به الزوج ، والحسب : يعني أن تكون من قبيلة شريفة ، من أجل أن يرتفع بها الزوج ، والجمال : من أجل أن يتمتع بها الزوج ، والدين : من أجل أن تعينه على دينه ، وتحفظ أمانته وترعى أولاده .

قال النبي ﷺ : « فاظفر بذات الدين تربت يداك » يعني تمسك بها واحرص عليها ، وحث على ذلك بقوله ﷺ : « تربت يداك » . وهذه الكلمة تقال عند العرب للحث على الشيء .

ثم ذكر المؤلف أيضًا حديث جبريل أن النبي ﷺ قال : « ألا تزورنا أكثر مما تزورنا فنزلت : ﴿ وَمَا نَتَنَزَّلُ إِلَّا بِأَمْرِ رَبِّكَ لَهُ مَا بَيْنَ أَيْدِينَا وَمَا خَلْفَنَا وَمَا بَيْنَ ذَٰلِكَ وَمَا كَانَ رَبُّكَ نَسِيًّا ﴾ [مريم : ٦٤] .

ففي هذا الحديث : طلب زيارة أهل الخير إلى بيتك . فتطلب منهم أن يزوروك من أجل أن تنتفع بصحبتهم .

وكذلك في حديث أبي هريرة صحبة المرأة الدينة تعينك على دين الله .

وقد سبق أيضًا أن مثل الجليس الصالح كحامل المسك ، إما أن يحذيك يعني يعطيك منه ، أو يبيعك ، أو تجد منه رائحة طيبة (١) .

ثم ذكر المؤلف أحاديث بهذا المعنى ، مثل ما يروى عن النبي ﷺ أنه قال : « المرء على دين خليله . فلينظر أحدكم من يخالل » يعني : أن الإنسان يكون في الدين وكذلك في الخلق على قدر من يصاحب ، فلينظر من يصاحب ، فإن صاحب أهل الخير صار منهم ، وإن صاحب سواهم صار مثلهم .

فالحاصل : أن هذه الأحاديث وأمثالها كلها تدل على أنه ينبغي للإنسان أن يصطحب الأخيار ، وأن يزورهم ويزوروه ، ويطلب منهم الزيارة لما في ذلك من الخير والفوائد العظيمة .

* * *

٣٦٩ - وعن أنس رضي الله عنه أن أعرابيًا قال لرسول الله ﷺ : مَتَى السَّاعَةُ ؟ قال رسول الله ﷺ : « مَا أَعْدَدْتَ لَهَا ؟ » قال : حُبُّ اللهِ ورسولِهِ قال : « أَنْتَ مَعَ مَنْ أَحْبَبْتَ » (٢) . متفقٌ عليه ، وهذا لفظ

---

(١) انظر الحديث (٣٦٣) من هذا الكتاب .

(٢) أخرجه البخاري في فضائل أصحاب النبي (٣٦٨٨) ، ومسلم في البر والصلة (١٦١) واللفظ له ، والإمام أحمد في مسنده (٣/١٧٢ ، ١٧٣) .

مسلم .

وفي روايةٍ لهما : مَا أَعْدَدْتُ لَهَا مِنْ كَثِيرِ صَومٍ ، وَلا صَلاةٍ ، وَلا صَدقَةٍ وَلكِنِّي أُحِبُّ اللَّه وَرَسُولَهُ [١] .

٣٧٠ – وعن ابنِ مسعودٍ ﷺ قال : جاءَ رَجُلٌ إلى رسول اللَّه ﷺ فقال : يا رسول اللَّه كَيفَ تَقُولُ في رَجُلٍ أَحبَّ قَومًا وَلَمْ يَلْحَقْ بِهِمْ ؟ فقال رسول اللَّه ﷺ : «المَرْءُ مَعَ مَنْ أَحَبَّ » [٢] متفقٌ عليه .

٣٧١ – وعن أبي هُريرة ﷺ عن النبي ﷺ قال : « النَّاسُ مَعَادِنٌ [٣] كَمَعَادِنِ الذَّهَبِ وَالفِضَّةِ ، خِيَارُهُمْ في الجَاهِلِيَّةِ خِيَارُهُمْ في الإِسْلامِ إِذَا فَقُهوا ، وَالأَرْوَاحُ جُنودٌ مُجنَّدَةٌ [٤] ، فَمَا تَعَارَفَ [٥] مِنْهَا ائْتَلَفَ ، وَمَا تَنَاكَرَ مِنْهَا اخْتَلَفَ » [٦] رواه مسلم .

وروى البخاري قوله : « الأَرْوَاحُ » إلخ من رواية عائشة ﷺ .

٣٧٢ – وعن أُسَيرِ بن عَمْرٍو – وَيُقَالُ : ابْنُ جابِرٍ « وهو بضم الهمزة وفتح السين المهملة » – قال : كَانَ عُمَرُ بْنُ الخَطَّابِ ﷺ إذ أَتَى عَلَيهِ أَمْدَادُ أَهْلِ اليمن سَأَلَهُمْ : أَفِيكُمْ أُوَيسُ بْنُ عَامِرٍ ؟ حَتَّى أتى عَلَى أُوَيسٍ ﷺ فقال له : أَنْتَ أُوَيسُ بْنُ عامِرٍ ؟ قال : نَعَمْ ، قال : مِنْ مُرَادٍ ثُمَّ مِنْ قَرَنٍ؟ قال : نَعَمْ ، قال : فَكَانَ بك بَرَصٌ فَبَرَأْتَ منه إلا موضعَ درهم ؟ . قال : نعم ، قال : لك والدة ؟ قال : نعم ، قال : سَمِعْتُ رسول اللَّه ﷺ يقول : «يَأْتِي عَلَيكُمْ أُوَيسُ بْنُ عَامِرٍ مَعَ أَمْدَادِ أَهْلِ اليَمَنِ مِنْ مُرَادٍ ، ثُمَّ مِنْ قَرَنٍ ، كَانَ بِهِ بَرَصٌ فَبَرَأَ مِنْهُ إلا مَوضعَ دِرْهَمٍ ، لَهُ وَالِدَةٌ هُوَ بِها بَرٌّ ، لَو أَقْسَمَ على اللَّه لأَبَرَّهُ ، فَإِنِ اسْتَطَعْتَ أَنْ يَسْتَغْفِرَ لَكَ فَافْعَلْ » فَاسْتَغْفِرْ لي ، فَاسْتَغْفَرَ لَهُ ، فقال له عُمَرُ : أَينَ تُرِيدُ ؟ قال : الكُوفَةَ ، قال : أَلَا أَكْتُبُ لَكَ إلى عَامِلِهَا ؟ قال : أَكُونُ في غَبْرَاءِ النَّاسِ أَحبُّ إِلَيَّ ، فَلَمَّا كَانَ مِنَ العَامِ المُقْبِلِ حَجَّ رَجُلٌ مِنْ أَشْرَافِهِمْ ، فَوَافَى عُمَرَ ، فَسَأَلَهُ عَنْ أُوَيسٍ ، فقال : تَركْتُهُ رَثَّ البَيتِ قليلَ المَتَاعِ ، قال : سَمِعْتُ رسول اللَّه ﷺ يقول : « يَأْتِي عَلَيكُمْ أُوَيسُ بْنُ عَامِرٍ مَعَ أَمْدَادٍ مَنْ أَهْلِ اليَمَنِ مِنْ مُرادٍ ، ثُمَّ مِنْ قَرَنٍ ، كَانَ بِهِ بَرَصٌ فَبَرَأَ مِنْهُ إلا مَوضِعَ دِرْهَمٍ ، لَهُ وَالِدَةٌ هُوَ بِها بَرٌّ ، لَو أَقْسَمَ عَلى اللَّه لأَبَرَّهُ ،

---

(١) أخرجه البخاري في الأدب (٦١٧١) ، ومسلم في البر والصلة (١٦٤) واللفظ له .

(٢) أخرجه البخاري في الأدب (٦١٦٩) ، ومسلم في البر والصلة (١٦٥) .

(٣) معادن : أي أصول للخير والشر بحسب ما جعلهم اللَّه مستعدين له .

(٤) أي جموع مجتمعة وأنواع مختلفة .

(٥) أخرجه مسلم في البر والصلة (١٦٠) ، والإمام أحمد في مسنده (٥٣٩/٢) ، ورواية عائشة ﷺ المشار إليها رواها البخاري في أحاديث الأنبياء (٣٣٣٦) ، والإمام أحمد في مسنده (٢٩٥/٢) .

(٦) أما تعارفها فهو لأمر جعلها اللَّه عليه . وقيل : إنها موافقة صفاتها التي جعلها اللَّه عليها وتناسبها في شيمها ، وقيل : أنها خلقت مجتمعة ثم فرقت في أجسادها ، فمن وافقه في شيمه ألفه ، ومن باعده نافره وخالفه .

فَإِنِ اسْتَطَعْتَ أَنْ يَسْتَغْفِرَ لَكَ ، فَافْعَلْ » فَأَتَى أُوَيْسًا ، فقال : اسْتَغْفِرْ لي ، قال : أَنْتَ أَحْدَثُ عَهْدًا بِسَفَرٍ صَالِحٍ ، فَاسْتَغْفِرْ لي .. قال : لَقِيتَ عُمَرَ ؟ قال : نَعَمْ ، فَاسْتَغْفَرَ لَهُ ، فَفَطِنَ لَهُ النَّاسُ ، فَانْطَلَقَ عَلَى وَجْهِهِ (١) . رواه مسلم .

وفي روايةٍ لمسلم أيضًا عن أُسَير بن جابر رضي الله عنه أَنَّ أهلَ الكُوفَةِ وَفَدُوا عَلَى عُمَرَ رضي الله عنه وَفِيهم رَجُلٌ مِمَّنْ كَانَ يَسْخَرُ بِأُوَيسٍ ، فقال عُمَرُ : هَلْ هاهُنَا أَحَدٌ مِنَ القَرَنِيِّينَ ؟ فَجَاءَ ذلكَ الرَّجُلُ ، فقالَ عُمَرُ : إِنَّ رسول اللّه ﷺ قد قال : « إِنَّ رَجُلًا يَأْتِيكُمْ مِنَ اليَمَنِ يُقَالُ لَهُ : أُوَيسٌ ، لا يَدَعُ بِاليَمَنِ غيرَ أُمٍّ لَهُ ، قَدْ كَانَ بِهِ بَيَاضٌ فَدعا اللّه تعالى ، فَأَذْهَبَهُ إلا مَوضِعَ الدِّينارِ أَوِ الدِّرْهَمِ ، فَمَنْ لَقِيَهُ مِنْكُمْ ، فَلْيَسْتَغْفِرْ لَكُمْ » (٢) .

وفي روايةٍ له عَن عمر رضي الله عنه قال : إِنّي سَمِعْت رسول اللّه ﷺ يقول : « إِنَّ خَيرَ التَّابِعِينَ رَجُلٌ يُقَالُ لَهُ : أُوَيسٌ ، ولَهُ وَالدَةٌ وكانَ بِهِ بَيَاضٌ ، فَمُروه ، فَلْيَسْتَغْفِرْ لكُمْ » (٣) .

قوله : « غَبْراءِ النَّاسِ » بفتح الغين المعجمة ، وإسكان الباءِ وبالمدِّ ، وهم فُقَرَاؤُهُم وَصَعَالِيكُهُمْ وَمَنْ لا يُعْرَف عَينُه مِنْ أَخْلَاطِهِمْ « وَالأَمْداد » جَمْع مَدَدٍ وَهُمُ الأَعْوَان وَالنَّاصِرُونَ الَّذِينَ كَانُوا يُمِدُّونَ المُسْلِمِينَ في الجِهَاد .

٣٧٣ - وعن عمر بن الخطاب رضي الله عنه قال : اسْتَأْذَنْتُ النَّبِيَّ ﷺ في العُمْرَةِ ، فَأَذِنَ لي ، وقال : « لا تَنْسَنَا يَا أُخَيَّ مِنْ دُعَائِكَ » فقال كَلِمَةً مَا يَسُرُّنِي أَنَّ لي بِهَا الدُّنْيَا .

وفي روايةٍ قال : « أَشْرِكْنَا يَا أُخَيَّ في دُعَائِكَ » (٤) .

حديثٌ صحيحٌ رَواه أبو داود ، والترمذي وقال : حديثٌ حسنٌ صحيحٌ .

٣٧٤ - وعن ابن عُمَرَ رضي الله عنهما قال : كَانَ النَّبِيُّ ﷺ يَزُورُ قُبَاءَ رَاكِبًا وَمَاشِيًا ، فَيُصَلِّي فِيهِ رَكْعَتَيْنِ ، متفقٌ عليه (٥) .

وفي روايةٍ : « كان النَّبِيُّ ﷺ يَأْتِي مَسْجِدَ قُبَاءَ كُلَّ سَبْتٍ رَاكِبًا وَمَاشِيًا ، وَكَانَ ابْنُ عُمَرَ يَفْعَلُهُ » (٦) .

---

(١) أخرجه مسلم في فضائل الصحابة (٢٢٥) ، وأمداد أهل اليمن هم الغزاة الذين يمدون جيوش الإسلام في الغزو وواحدهم مدد . وغبراء الناس أي ضعافهم وصعاليكهم وأخلاطهم الذين لايؤبه لهم .

(٢) أخرجه مسلم في فضائل الصحابة (٢٢٣) .

(٣) أخرجه مسلم في فضائل الصحابة (٢٢٤) .

(٤) أخرجه أبو داود في الصلاة (١٤٩٨) ، والترمذي في الدعوات (٣٥٦٢) ، والبيهقي في السنن (٥/٢٥١) .

(٥) أخرجه البخاري في فضل الصلاة في مسجد مكة والمدينة (١١٩٣ ، ١١٩٤) ، ومسلم في الحج (٥١٥) .

(٦) أخرجه مسلم في الحج (٥٢٠) .

الشرح

هذه الأحاديث تتعلق بالباب الذي ذكره المؤلف ، من أنه ينبغي إكرام العلماء وتوقيرهم واحترامهم ومصاحبة أهل الخير والصلاح وزيارتهم ودعوتهم للزيارة وما أشبه ذلك . ففي الحديث الأول عن أنس بن مالك ﷺ أن أعرابيًا قال : يا رسول الله : متى الساعة ، فقال له النبي ﷺ : « ماذا أعددت لها ، » قال : حب الله ورسوله .

ففي هذا الحديث : دليل على أنه ليس الشأن - كل الشأن - أن يسأل الإنسان متى يموت ؟ أو بأي أرض يموت ؟ ولكن على أي حال يموت ؟ هل يموت على خاتمة حسنة ؟ أو على خاتمة سيئة ؟ ولهذا قال : « ماذا أعددت لها ؟ » يعني لا تسأل عنها فإنها ستأتي .

قال تعالى : ﴿ يَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلسَّاعَةِ أَيَّانَ مُرْسَىٰهَا ﴾ [النازعات : ٤٢] ، وقال تعالى : ﴿ يَسْـَٔلُكَ ٱلنَّاسُ عَنِ ٱلسَّاعَةِ قُلْ إِنَّمَا عِلْمُهَا عِندَ ٱللَّهِ وَمَا يُدْرِيكَ لَعَلَّ ٱلسَّاعَةَ تَكُونُ قَرِيبًا ﴾ [الأحزاب : ٦٣] ، وقال تعالى : ﴿ وَمَا يُدْرِيكَ لَعَلَّ ٱلسَّاعَةَ قَرِيبٌ ﴾ [الشورى : ١٧] .

لكن الشأن ماذا أعددت لها ؟ هل عملت ؟ هل أنبت إلى ربك ؟ هل تبت من ذنبك ؟ هذا هو المهم .

وكذلك حديث ابن مسعود وما ذكره المؤلف بعده من فضل محبة الله ورسوله ﷺ ، وأن الإنسان إذا أحبَّ قومًا كان منهم . قال النبي ﷺ : « المرء مع من أحب » .

قال أنس : فما فرحنا بعد الإسلام بشيء فرحنا بهذا الحديث ، فأنا أحب الله ورسوله . أحب رسول الله ﷺ ، وأحب أبا بكر وعمر ، فالمرء مع مَنْ أحب ، لأنه إذا أحب قومًا فإنه يألفهم ، ويتقرب منهم ، ويتخلق بأخلاقهم ، ويقتدي بأفعالهم ، كما هي طبيعة البشر .

وأما حديث عمر بن الخطاب ﷺ أنه أراد أن يعتمر فقال له النبي ﷺ : « لا تنسنا يا أخي من دعائك - أو أشركنا - يا أخي في دعائك » ، فهذا حديثٌ ضعيف وإن صححه المؤلف ، فإن المؤلف رحمه الله له منهجه الذي منه أنه إذا كان الحديث في فضائل الأعمال فإنه يتساهل في الحكم عليه والعمل به .

وهذا وإن كان يصدر عن حسن نية ، لكن الواجب اتباع الحق ، فالصحيح صحيح ، والضعيف ضعيف ، وفضائل الأعمال تدرك بغير تصحيح الأحاديث الضعيفة .

نعم أمر النبي - عليه الصلاة والسلام - من رأى أويسًا القرني أو القرني أن يطلب منه الدعاء . لكن هذا خاص به ، لأنه كان رجلًا بارًّا بأمه ، وأراد الله ﷻ أن يرفع ذكره في هذه الدنيا قبل جزاء الآخرة .

ولهذا لم يأمر النبي - عليه الصلاة والسلام - بأن يطلبَ أحدٌ من أحدٍ أن يدعو له ، مع

أن هناك من هو أفضل من أويس ، فأبو بكر أفضل من أويس بلا شك ، وغيره من الصحابة أفضل منه من حيث الصحبة ، وما أمر النبي - عليه الصلاة والسلام - أحدًا أن يطلب الدعاء من أحد .

فالصواب أنه لا ينبغي أن يطلب أحدٌ الدعاء من غيره ولو كان رجلًا صالحًا ، وذلك لأن هذا ليس من هدي النبي ﷺ ولا من هدي خلفائه الراشدين ، أما إذا كان الدعاء عامًّا ، يعني تريد أن تطلب من هذا الرجل الصالح أن يدعو بدعاء عام ، كأن تطلب منه أن يدعو اللّه تعالى بالغيث أو برفع الفتن عن الناس أو ما أشبه ذلك ، فلا بأس ، لأن هذا لمصلحة غيرك ، كما لو سألت المال للفقير ، فإنك لا تلام على هذا ولا تُذم .

وكذلك النبي - عليه الصلاة والسلام - فإن سؤال الصحابة له من خصوصياته ، يسألونه أن يدعو اللّه لهم ، كما قال الرجل حين حدث النبي ﷺ عن السبعين ألفًا الذين يدخلون الجنة بغير حساب ولا عذاب ، فقام عكاشة بن محصن قال : ادع اللّه أن يجعلني منهم . قال : « أنت منهم » ثم قام رجل آخر فقال ﷺ : « سبقك بها عكاشة »[1] .

وكما قالت المرأة التي كانت تصرع ، حيث طلبت من النبي ﷺ أن يدعو اللّه لها . فقال : « إن شئت دعوت اللّه لك وإن شئت صبرت ولك الجنة » . فقالت : أصبر ولكن أدع اللّه أن لا تنكشف عوزتي[2] .

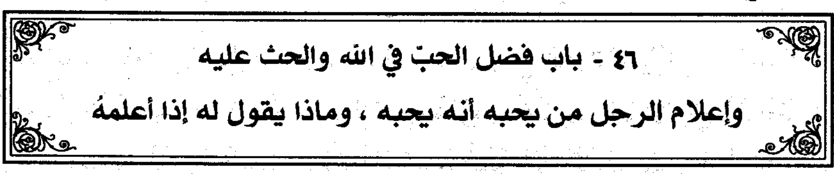
فالحاصل أن الرسول - عليه الصلاة والسلام - من خصوصياته أن يُسأل الدعاء ، أما غيره فلا .

نعم لو أراد الإنسان أن يسأل من غيره الدعاء وقصده مصلحة الغير ، يعني يريد أن اللّه يثيب هذا الرجل على دعوته لأخيه ، أو أن اللّه تعالى يستجيب دعوته ، لأنه إذا دعا الإنسان لأخيه بظهر الغيب قال الملك : آمين ولك بمثله ، فالأعمال بالنيات . هذا ما نوى ذلك لمصلحة نفسه خاصة بل لمصلحة نفسه ومصلحة أخيه الذي طلب منه الدعاء ، فالأعمال بالنيات . أما المصلحة الخاصة فهذا كما قال الشافعي رحمه الله يدخل في المسألة المذمومة ، وقد بايع النبي ﷺ أصحابه على أن لا يسألوا الناس شيئًا .

* * *

(١) انظر الحديث في صحيح البخاري في الرقاق (٦٥٤١) ، ومسلم الإيمان (٣٧١) .

(٢) سبق تخريجه .



٤٦ - باب فضل الحبّ في الله والحث عليه وإعلام الرجل من يحبه أنه يحبه ، وماذا يقول له إذا أعلمه

قال اللّه تعالى : ﴿ مُّحَمَّدٌ رَّسُولُ اللَّهِ وَالَّذِينَ مَعَهُۥ أَشِدَّآءُ عَلَى الْكُفَّارِ رُحَمَآءُ بَيْنَهُمْ ﴾ [الفتح : ٢٩] إلى آخرِ السورة . وقال تعالى : ﴿ وَالَّذِينَ تَبَوَّءُو الدَّارَ وَالْإِيمَٰنَ مِن قَبْلِهِمْ يُحِبُّونَ مَنْ هَاجَرَ إِلَيْهِمْ ﴾ [الحشر : ٩] .

٣٧٥ – وعن أنسٍ ﷺ عن النبي ﷺ قال : « ثَلاثٌ مَنْ كُنَّ فِيهِ وَجَدَ بهن حَلاوَةَ الإيمانِ : أَنْ يَكُونَ اللّهُ وَرَسُولُهُ أَحَبَّ إِلَيهِ مِمَّا سِواهُمَا ، وَأَنْ يُحِبَّ المرْءِ لا يُحِبُّهُ إلا للّهِ ، وَأَنْ يَكْرَهَ أَنْ يَعُودَ في الكُفْر بَعْدَ أَنْ أَنْقَذَهُ اللّه مِنْهُ ، كَمَا يَكْرَهُ أَنْ يُقْذَفَ في النَّارِ » (١) متفقٌ عليه .

٣٧٦ – وعن أبي هريرة ﷺ عن النبي ﷺ قال : « سَبْعَةٌ يُظِلُّهُمُ اللّه في ظِلِّهِ يومَ لا ظِلَّ إلا ظِلُّهُ : إمَامٌ عَادِلٌ ، وشَابٌّ نَشأ في عِبادَةِ اللّه عَزَّ وَجَلَّ ، وَرَجُلٌ قَلْبُهُ مُعَلَّقٌ بِالمَسَاجِدِ ، وَرَجُلانِ تَحَابَّا في اللّهِ اجْتَمَعَا عَلَيه ، وَتَفَرَّقَا عَلَيهِ ، وَرَجُلٌ دَعَتْهُ امْرَأَةٌ ذَاتُ حُسْنٍ وَجَمَالٍ ، فقال : إنِّي أخافُ اللّه ، وَرَجُلٌ تَصَدَّقَ بِصَدَقَةٍ ، فَأَخْفَاهَا حَتَّى لا تعْلَمَ شِمالُهُ ما تُنْفِقُ يَمِينُهُ ، وَرَجُلٌ ذَكَرَ اللّه خَالِيًا فَفَاضَتْ عَيناهُ » (٢) متفقٌ عليه .

الشرح

قال المؤلف – رحمه اللّه تعالى – : باب فضل الحب في اللّه والبغض فيه ، وإعلام الرجل من يحبه ، وما يقول له إذا أعلمه .

هذه أربعة أمور ، بيّن المؤلف رحمه الله الأدلة الدالة عليها .

فذكر رحمه الله قول اللّه تعالى : ﴿ مُّحَمَّدٌ رَّسُولُ اللَّهِ وَالَّذِينَ مَعَهُۥ أَشِدَّآءُ عَلَى الْكُفَّارِ رُحَمَآءُ بَيْنَهُمْ ﴾ محمد رسول اللّه ، والذين معه هم أصحابه ، أشداء على الكفار ، أقوياء على الكفار ، رحماء بينهم ، يعني يرحم بعضهم بعضًا .

﴿ تَرَىٰهُمْ رُكَّعًا سُجَّدًا يَبْتَغُونَ فَضْلًا مِّنَ اللَّهِ وَرِضْوَٰنًا ﴾ ، يعني تنظر إليهم في حال الصلاة تجدهم ركعًا سجدًا ، خضوعًا للّه عز وجل وتقربًا إليه ، لا يريدون شيئًا من الدنيا ، ولكنهم يبتغون فضلًا من اللّه ورضوانًا من اللّه : هو الثواب ، والرضوان : هو رضا اللّه عنهم .

﴿ سِيمَاهُمْ فِى وُجُوهِهِم مِّنْ أَثَرِ السُّجُودِ ﴾ يعني علامتهم في وجوههم من أثر السجود ، وهذه «السيما » هي نور الوجه . نور وجوههم من سجودهم للّه عز وجل . وليست العلامة التي تكون في الجبهة ، وهذه العلامة ربما تكون دليلًا على كثرة السجود ، ولكن العلامة الحقيقية هي نور الوجه .

﴿ سِيمَاهُمْ فِى وُجُوهِهِم مِّنْ أَثَرِ السُّجُودِ ذَٰلِكَ مَثَلُهُمْ فِى التَّوْرَىٰةِ ﴾ يعني ذلك صفتهم في التوراة ، فإن

---

(١) أخرجه البخاري في الإيمان (١٦) ، ومسلم في الإيمان (٦٧) واللفظ له وفيه (أن يكون) .

(٢) أخرجه البخاري في الزكاة (١٤٢٣) واللفظ له فيه (ذات منصب) ، ومسلم في الزكاة (٩١) .

الله ﷺ نوّه بهذه الأمة وبرسولها ﷺ ، وذكر صفاتهم في التوراة والإنجيل ، كما قال الله تعالى ﴿ ٱلَّذِى يَجِدُونَهُۥ مَكۡتُوبًا عِندَهُمۡ فِى ٱلتَّوۡرَىٰةِ وَٱلۡإِنجِيلِ يَأۡمُرُهُم بِٱلۡمَعۡرُوفِ وَيَنۡهَىٰهُمۡ عَنِ ٱلۡمُنكَرِ وَيُحِلُّ لَهُمُ ٱلطَّيِّبَٰتِ وَيُحَرِّمُ عَلَيۡهِمُ ٱلۡخَبَٰٓئِثَ وَيَضَعُ عَنۡهُمۡ إِصۡرَهُمۡ وَٱلۡأَغۡلَٰلَ ٱلَّتِى كَانَتۡ عَلَيۡهِمۡۚ ﴾ (1)[الأعراف : ١٥٧] .

﴿ وَمَثَلُهُمۡ فِى ٱلۡإِنجِيلِ كَزَرۡعٍ أَخۡرَجَ شَطۡـَٔهُۥ فَـَٔازَرَهُۥ فَٱسۡتَغۡلَظَ فَٱسۡتَوَىٰ عَلَىٰ سُوقِهِۦ يُعۡجِبُ ٱلزُّرَّاعَ لِيَغِيظَ بِهِمُ ٱلۡكُفَّارَۗ ﴾ يعني : مثلهم كمثل الزرع ، ﴿ أَخۡرَجَ شَطۡـَٔهُۥ ﴾ يعني : الغصن الثاني غير الغصن الأم ﴿ فَـَٔازَرَهُۥ ﴾ يعني شدّده وقوّاه ، ﴿ فَٱسۡتَوَىٰ عَلَىٰ سُوقِهِۦ ﴾ قام وعانق الأصل ، ﴿ يُعۡجِبُ ٱلزُّرَّاعَ ﴾ يعني أهل الخبرة والزرع يعجبهم مثل هذا الزرع القوي ، إذا كان له شطأ مؤازر له ، ومقوٍّ له .

﴿ لِيَغِيظَ بِهِمُ ٱلۡكُفَّارَۗ ﴾ أي يغيظ الله بهم الكفار من بني آدم ، ﴿ وَعَدَ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ مِنۡهُم مَّغۡفِرَةً وَأَجۡرًا عَظِيمَۢا ﴾ ، مغفرة للذنوب وأجرًا عظيمًا على الحسنات .

وقال تعالى : ﴿ وَٱلَّذِينَ تَبَوَّءُو ٱلدَّارَ وَٱلۡإِيمَٰنَ مِن قَبۡلِهِمۡ يُحِبُّونَ مَنۡ هَاجَرَ إِلَيۡهِمۡ وَلَا يَجِدُونَ فِى صُدُورِهِمۡ حَاجَةً مِّمَّآ أُوتُواْ ﴾ [الحشر : ٩] هؤلاء الأنصار ﷺ وأرضاهم ، ﴿ تَبَوَّءُو ٱلدَّارَ ﴾ المدينة ، أي سكنوها ﴿ مِن قَبۡلِهِمۡ ﴾ من قبل المهاجرين ، وحققوا الإيمان من قبل أن يهاجر إليهم المؤمنون ، لأن الإيمان دخل في المدينة قبل الهجرة ، ﴿ تَبَوَّءُو ٱلدَّارَ ﴾ سكنوها ، ﴿ وَٱلۡإِيمَٰنَ ﴾ حققوا الإيمان ﴿ مِن قَبۡلِهِمۡ ﴾ من قبل المهاجرين .

﴿ يُحِبُّونَ مَنۡ هَاجَرَ إِلَيۡهِمۡ ﴾ لأنهم إخوانهم ولهذا لما هاجروا آخى النبي ﷺ بينهم . أي جعلهم إخوانًا ، حتى إن الواحد من الأنصار كان يتنازل عن نصف ماله لأخيه المهاجري ، ﴿ وَلَا يَجِدُونَ فِى صُدُورِهِمۡ حَاجَةً مِّمَّآ أُوتُواْ ﴾ يعني لا يجدون في صدورهم حسدًا مما أوتي المهاجرين من الفضل والولاية والنصرة لرسول الله ﷺ .

﴿ وَيُؤۡثِرُونَ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمۡ ﴾ أي يقدمون غيرهم على أنفسهم . ﴿ وَلَوۡ كَانَ بِهِمۡ خَصَاصَةٌۚ ﴾ أي ولو كانوا جياعًا ، فإنهم كانوا يجيعون أنفسهم ليشبع إخوانهم المهاجرين ﷺ وأرضاهم . ﴿ وَمَن يُوقَ شُحَّ نَفۡسِهِۦ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡمُفۡلِحُونَ ﴾ يعني من يقيه الله شح نفسه ، يكون كريمًا ، يبسط المال ويبذل ، ويحب أخاه ، فأولئك هم المفلحون .

﴿ وَٱلَّذِينَ جَآءُو مِنۢ بَعۡدِهِمۡ ﴾ من بعد هؤلاء وهم التابعون إلى يوم القيامة ﴿ يَقُولُونَ رَبَّنَا ٱغۡفِرۡ لَنَا وَلِإِخۡوَٰنِنَا ٱلَّذِينَ سَبَقُونَا بِٱلۡإِيمَٰنِ ﴾ [الحشر : ١٠] هؤلاء الذين جاءوا من بعدهم هم تبع لهم ، قد ﷺ كما قال تعالى : ﴿ وَٱلسَّٰبِقُونَ ٱلۡأَوَّلُونَ مِنَ ٱلۡمُهَٰجِرِينَ وَٱلۡأَنصَارِ وَٱلَّذِينَ ٱتَّبَعُوهُم بِإِحۡسَٰنٍ رَّضِىَ ٱللَّهُ عَنۡهُمۡ وَرَضُواْ عَنۡهُ ﴾ [التوبة : ١٠٠] .

وهذه الآيات الثلاث ﴿ لِلۡفُقَرَآءِ ٱلۡمُهَٰجِرِينَ ﴾ ﴿ وَٱلَّذِينَ تَبَوَّءُو ٱلدَّارَ وَٱلۡإِيمَٰنَ مِن قَبۡلِهِمۡ ﴾ ﴿ وَٱلَّذِينَ

---

(١) « الإصر » في الأصل : الثقل الذي يأصر صاحبه ، أي يحبسه عن الحراك ، والأغلال : جمع غُلٍّ وهو الحديدة التي تجمع يد الأسير إلى عنقه . والمعنى هنا أنه يخفف عنهم ما أُلزموا العملَ به من تكاليف شاقةٍ شديدة في التوراة ، كقطع موضع النجاسة من الثوب ، وإحراق الغنائم ، وتحريم السبت ، وتعين القصاص في القتل مطلقًا دون شرع الدية ، ونحو ذلك .

﴿ جَآءُو مِنۢ بَعۡدِهِمۡ ﴾ آيات تبين من يستحق الفيء من بيت المال ، والذين يستحقون الفيء هم هؤلاء الأصناف الثلاثة ، منهم الذين جاءوا من بعدهم يقولون : ربنا اغفر لنا ولإخواننا الذين سبقونا بالإيمان .

سئل الإمام مالك رَحِمَهُ ٱللَّهُ : هل يعطي الرافضة من الفيء ؟ قال : لا يعطون من الفيء ؛ لأن الرافضة لا يقولون : ربنا اغفر لنا ولإخواننا الذين سبقونا بالإيمان ؛ لأن الرافضة يرون الصحابة إلا نفرًا قليلًا يرونهم كلهم كفارًا والعياذ بالله ، حتى أبو بكر وعمر ، يرون أنهما كافران ، وأنهما ماتا على النفاق ، وأنهما ارتدا بعد موت النبي عليه الصلاة والسلام . نسأل الله العافية .

ولهذا قال الإمام مالك : لا يستحقون من الفيء شيئًا ؛ لأنهم لا يقولون ربنا اغفر لنا ولإخواننا الذين سبقونا بالإيمان ، ولكن يخصُّون الرحمة والمغفرة أو سؤال المغفرة والرحمة لمن يرون أنهم لم يرتدوا ، وهو نفر قليل من آل البيت واثنان أو ثلاثة أو عشرة من غيرهم .

فالشاهد من هذه الآية قوله : ﴿ يُحِبُّونَ مَنۡ هَاجَرَ إِلَيۡهِمۡ ﴾ يعني من المؤمنين ، وهذا حب في الله ، وإلا فإن الأنصار من الأوس والخزرج ، ليس بينهم وبين المهاجرين نسب . ليسوا من قريش ، لكن الأخوة الإيمانية هي التي جمعت بينهم وصاروا إخوانًا لهم . والأخوة الإيمانية هي أوثق عرى الإيمان ، أوثق عرى الإيمان هي الحب في الله والبغض في الله .

ثم ذكر المؤلف حديث أنس بن مالك رضي الله عنه أن النبي صلى الله عليه وسلم قال : « ثلاث من كن فيه وجد بهن حلاوة الإيمان » من كن فيه : يعني من اتصف بهن ، « وجد بهن » يعني بسببهن ، « حلاوة الإيمان » ليست حلاوة السكر والعسل ، وإنما هي حلاوة أعظم من كل حلاوة . حلاوة يجدها الإنسان في قلبه ، ولذة عظيمة لا يساويها شيء ، يجد انشراحًا في صدره ، رغبة في الخير ، حبًّا لأهل الخير . حلاوة لا يعرفها إلا من ذاقها بعد أن حُرمها .

« أن يكون الله ورسوله أحب إليه مما سواهما » وهنا قال : أن يكون الله ورسوله أحب إليه مما سواهما ، ولم يقل : ثم رسوله ؛ لأن محبة الرسول - عليه الصلاة والسلام - هنا تابعة وتابعة من محبة الله سبحانه وتعالى .

فالإنسان يحب الرسول بقدر ما يحب الله ، كلما كان لله أحب ، كان للرسول صلى الله عليه وسلم أحبّ .

لكن مع الأسف إن بعض الناس يحبُّ الرسول مع الله ولايحب الرسول لله .

انتبهوا لهذا الفرق . يحب الرسول - مع الله - ولا يحب الرسول لله . كيف ؟ تجده يحب الرسول أكثر من محبته لله ، وهذا نوع من الشرك . أنت تحب الرسول لله ، لأنه رسول الله ، والمحبة في الأصل والأم محبة الله عز وجل ، ولكن هؤلاء الذين غلوا في رسول صلى الله عليه وسلم ، يحبون الرسول مع الله لا يحبونه لله ، أي يجعلونه شريكًا لله في المحبة ، بل يحبه أعظم من محبة الله . تجده إذا ذكر الرسول صلى الله عليه وسلم اقشعر جلده من المحبة والتعظيم ، لكن إذا ذكر الله إذا هو بارد لا يتأثر .

هل هذه محبة نافعة للإنسان ؟ لا تنفعه ، هذه محبة شركية ، عليك أن تحب الله ورسوله ، وأن

تكون محبتك للرسول ﷺ نابعة من محبة اللَّه وتابعة لمحبة اللَّه [(١)] ، « أن يكون اللَّه ورسوله أحبَّ إليه مما سواهما ، وأن يحبَّ المرء لا يحبه إلا للَّهِ » هذا الشاهد . تحب المرء لا تحبه إلا للَّه . لا تحبه لقرابة ، ولا لمال ، ولا لجاه ، ولالشيء من الدنيا ، إنما تحبه للَّه .

أما محبة القرابة فهي محبة طبيعية . كلٌّ يحب قريبه محبة طبيعية ، حتى البهائم تحب أولادها ، تجد الأم من البهائم والحشرات تحبُّ أولادها حتى يكبروا ويستقلوا بأنفسهم ، ثم تبدأ في طردهم .

وإذا كان عندك هرة انظر إليها كيف تحنو على أولادها وتحملهم في أيام البرد ، تدخلهم في الدفء ، وتمسكهم بأسنانها ، لكن لاتؤثر فيهم شيئًا ، لأنها تمسكهم إمساك رحمة ، حتى إذا فطموا واستقلوا بأنفسهم ، بدأت تطردهم ، فاللَّه يلقي في قلبها الرحمة ماداموا محتاجين إليها ، ثم بعد ذلك يكونون مثل غيرهم .

فالشاهد : أن محبة القرابة محبة طبيعية ، لكن إذا كان قريبك من عباد اللَّه الصالحين ، فأحببته فوق المحبة الطبيعية فأنت أحببته للَّه . « أن يحب المرء لا يحبه إلا للَّه ، وأن يكره أن يعود في الكفر بعد أن أنقذه اللَّه منه ، كما يكره أن يقذف في النار » يعني يكره أن يرجع في الكفر بعد إذ أنقذه اللَّه منه .

وهذه ظاهرة فيمن كان كافرًا ثم أسلم ، لكن من ولد في الإسلام فيكره أن يكون في الكفر بعد أن منَّ اللَّه عليه بالإسلام كما يكره أن يقذف في النار ، يعني أنه لو قُذف في النار لكان أهون عليه من أن يعودَ كافرًا بعد إسلامه ، وهذا والحمد للَّه حال كثير من المؤمنين ، كثير من المؤمنين لو قيل له : تكفر أو نلقيك من أعلى شاهق في البلد أو نحرقك لقال : احرقوني . ألقوني من أعلى شاهق ولا أرتد من بعد إسلامي .

والمراد الردة الحقيقية التي تكون في القلب ، أما من أكره على الكفر فكفر ظاهرًا لا باطنًا ، بل قلبه مطمئن بالإيمان فهذا لايضره لقوله تعالى : ﴿ مَن كَفَرَ بِٱللَّهِ مِنۢ بَعۡدِ إِيمَٰنِهِۦٓ إِلَّا مَنۡ أُكۡرِهَ وَقَلۡبُهُۥ مُطۡمَئِنُّۢ بِٱلۡإِيمَٰنِ وَلَٰكِن مَّن شَرَحَ بِٱلۡكُفۡرِ صَدۡرٗا فَعَلَيۡهِمۡ غَضَبٞ مِّنَ ٱللَّهِ وَلَهُمۡ عَذَابٌ عَظِيمٞ ۝١٠٦ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمُ ٱسۡتَحَبُّواْ ٱلۡحَيَوٰةَ ٱلدُّنۡيَا عَلَى ٱلۡأٓخِرَةِ ﴾ [النحل : ١٠٦، ١٠٧] ، لما قيل لهم : نقتلكم أو اكفروا ، فباعوا الآخرة بالدنيا ، وكفروا ليبقوا ، فاستحبوا الدنيا على الآخرة ، وأن اللَّه لا يهدي القوم الكافرين . نسأل اللَّه لنا ولكم الهداية .

وأن يكره أن يرجع في الكفر بعد أن أنقذه اللَّه منه كما يكره أن يقذف في النار .

ثم ذكر المؤلف - رحمه اللَّه تعالى - حديث أبي هريرة ﷺ أن النبي ﷺ قال : « سبعة يظلهم اللَّه في ظله يوم لا ظل إلا ظله : إمام عادل ، وشاب نشأ في عباده اللَّه ، ورجل قلبه معلَّق بالمساجد ، ورجلان تحابَّا في اللَّه ، اجتمعا عليه وتفرقا عليه ، ورجل دعته امرأة ذات حسن وجمال ، فقال إني

---

(١) انظر في ذلك الحديث الذي أخرجه الترمذي في سننه (٣٧٨٩) ، والحاكم في المستدرك (١٤٩/٣) ونصه أنه ﷺ قال : « أحبوا اللَّه لما يغذوكم به من نعمة ، وأحبوني لحبِّ اللَّه وأحبوا أهل بيتي لحبي » واللفظ للحاكم وقال : صحيح الإسناد ولم يخرجاه .

أخاف الله ، ورجل تصدق بصدقة فأخفاها حتى لا تعلم شماله ما تنفق يمينه ، ورجل ذكر الله خاليًا ففاضت عيناه » فهؤلاء سبعة وليس المراد بالسبعة العدد ، يعني أنهم سبعة أنفار فقط ، ولكنهم سبعة أصناف ؛ لأنهم قد يكونون عددًا لا يحصيهم إلا الله ﷻ .

ونحن لا نتكلم على ما ساق المؤلف الحديث من أجله ، لأن هذا سبق لنا وقد شرحناه فيما مضى ، ولكن نتكلم على مسألة ضلَّ فيها كثير من الجهال ، وهي قوله : « سبعة يظلهم الله في ظله يوم لا ظل إلا ظله » حيث توهموا - جهلًا منهم - أن هذا ظل الله نفسه ، وأن الله تعالى يظلمهم من الشمس بذاته ﷻ ، وهذا فهم خاطئ منكر ، يقوله بعض المتعالمين الذين يقولون : إن مذهب أهل السنة إجراء النصوص على ظاهرها فيقال أين الظاهر ؟ ! وكيف يكون ظاهر الحديث وأن الربَّ جل وعلا يظلهم من الشمس ؟ !

فإن هذا يقتضي أن تكون الشمس فوق الله ﷻ ، وهذا شيء منكر لا أحد يقول به من أهل السنة(لكن مشكلات الناس ولاسيما في هذا العصر ؛ أن الإنسان إذا فهم لم يعرف التطبيق) وإذا فهم مسألة ظنَّ أنه أحاط بكل شيء علمًا .

والواجب على الإنسان أن يعرف قدر نفسه ، وألا يتكلم - لاسيما في باب الصفات - إلا بما يعلم من كتاب الله وسنة رسوله ﷺ وكلام الأئمة .

فمعنى « يوم لا ظل إلا ظله » . أو « يظلهم الله في ظله » يعني : الظل الذي لا يقدر أحد عليه في ذلك الوقت ؛ لأنه في ذلك الوقت لا بناء يبني ، ولا شجر يغرس ، ولا رمالٌ تقام ولا أحجار تُصفُّ ، ولا شيء من هذا . قال الله ﷻ : ﴿ وَيَسْأَلُونَكَ عَنِ الْجِبَالِ فَقُلْ يَنسِفُهَا رَبِّي نَسْفًا ۝ فَيَذَرُهَا قَاعًا صَفْصَفًا[1] ۝ لَّا تَرَىٰ فِيهَا عِوَجًا وَلَا أَمْتًا ﴾[2] [طه: ١٠٥- ١٠٧] .

ولايظل الخلائق من الشمس شيء ، لابناء ولاشجر ولاحجر ، ولاغير ذلك . لكن الله ﷻ يخلق شيئًا يظلل به من شاء من عباده ، يوم لاظل إلاظله ، هذا هو معنى الحديث ، ولايجوز أن يكون له معنى سوى هذا .

والشاهد من الحديث لهذا الباب قوله : « رجلان تحابا في الله اجتمعا عليه وتفرقا عليه » يعني : أنهما جرت بينهما محبة ، لكنها محبة في الله ، لا في مال ، ولاجاه ، ولانسب ، ولا أي شيء ، إنما هو محبة الله ﷻ ، رآه قائمًا بطاعة الله ، متجنبًا لمحارم الله ، فأحبه من أجل ذلك ، فهذا هو الذي يدخل في هذا الحديث : « تحابًا في الله » .

وقوله : « اجتمعا عليه وتفرقا عليه » يعني اجتمعا عليه في الدنيا وبقيت المحبة بينهما حتى فرق بينهما الموت تفرقًا وهما على ذلك .

---

(١) ﴿ صَفْصَفًا ﴾ : أي ملساء ؛ كأجزاءها صف واحد من كل جهة .
(٢) ﴿ لَّا تَرَىٰ فِيهَا عِوَجًا ﴾ : أي مكانًا منخفضًا ،﴿ وَلَا أَمْتًا ﴾ : أي مكانًا مرتفعًا . بل تراها مستوية .

وفي هذا إشارة إلى أن المتحابين في الله لا يقطع محبتهم في الله شيء من أمور الدنيا ، وإنما هم متحابون في الله لايفرقهم إلا الموت ، حتى لو أن بعضهم أخطأ على بعض ، أو قصّر في حق بعض ، فإن هذا لا يهمهم ؛ لأنه إنما أحبه لله ﷻ ، ولكنه يصحح خطأه ويبين تقصيره ؛ لأن هذا من تمام النصحية ، فنسأل الله أن يجعلنا والمسلمين من المتحابين فيه ، المتعاونين على البر والتقوي إنه جواد كريم .

* * *

٣٧٧ - وعنه قال : قال رسول الله ﷺ : « إن الله تعالى يقولُ يَومَ القِيامَةِ : أينَ المُتَحابّونَ بجَلالي [١] ؟ اليَومَ أُظِلُّهُمْ في ظِلّي يَومَ لا ظِلَّ إلا ظِلّي » [٢] رواه مسلم .

٣٧٨ - وعنه قال : قال رسول الله ﷺ : « وَالَّذِي نَفْسِي بِيَدِهِ لا تَدْخُلُوا الجَنَّةَ حَتَّى تُؤْمِنُوا ، وَلا تؤمِنُوا حَتَّى تَحَابُّوا ، أَوَلا أَدُلُّكُمْ عَلى شَيءٍ إذَا فَعَلْتُمُوهُ تَحَابَبْتُمْ ؟ أَفْشُوا السَّلامَ بينكم » [٣] رواه مسلم .

٣٧٩ - وعنه عن النبي ﷺ : « أَنَّ رَجُلًا زَارَ أَخًا لَهُ في قَرْيَةٍ أُخْرَى ، فَأَرْصَدَ اللَّهُ لَهُ عَلى مَدْرَجَتِهِ مَلَكًا » وذكر الحديث إلى قوله : « إنَّ اللَّهَ قَدْ أَحبَّكَ كَمَا أَحْبَبْتَهُ فِيهِ » [٤] رواه مسلم . وقد سبق بالباب قبله .

٣٨٠ - وعن البَرَاء بن عَازِبٍ ﷺ عن النبي ﷺ أنه قال في الأَنْصَارِ : « لا يُحِبُّهُمْ إلا مُؤْمِنٌ ، وَلا يُبْغِضُهُمْ إلا مُنَافِقٌ ، مَنْ أَحَبَّهُمْ أَحَبَّهُ اللَّه ، وَمَنْ أَبْغَضَهُمْ أَبْغَضَهُ اللَّه » [٥] متفقٌ عليه .

٣٨١ - وعن مُعَاذٍ ﷺ قال : سمِعتُ رسول الله ﷺ يقول : « قَالَ اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ : المُتَحَابُّونَ في جَلالي ، لَهُمْ مَنَابِرُ مِنْ نُورٍ يَغبِطُهُمُ النَّبِيُّونَ وَالشُّهَدَاءُ » [٦] . رواه الترمذي وقال : حديثٌ حسنٌ صحيحٌ .

٣٨٢ - وعن أبي إدريس الخَوْلاني ﷺ قَالَ : دَخَلْتُ مسجِدَ دِمَشْقَ ، فَإذَا فَتىً بَرّاقُ الثَّنَايَا [٧] وَإذَا النَّاسُ مَعهُ ، فَإذَا اخْتَلَفُوا في شَيءٍ ، أَسْنَدُوهُ إلَيه ، وَصَدَرُوا عَنْ رَأيِهِ ، فَسَأَلْتُ عَنْهُ ، فَقِيلَ : هذَا مُعَاذُ بْنُ جَبَلٍ ﷺ ، فَلَمَّا كَانَ مِنَ الغَدِ ، هَجَّرْتُ ، فَوَجَدْتُهُ قَدْ سَبَقَني بالتَّهْجِيرِ ، وَوَجَدْتُهُ يُصَلّي ، فَانْتَظَرْتُهُ حَتَّى قَضى صَلاتَهُ ، ثُمَّ جِئْتُهُ مِنْ قِبَلِ وَجْهِهِ ، فَسَلَّمْتُ عَلَيهِ ، ثُمَّ قُلْتُ : وَاللَّهِ إنِّي لأُحِبُّكَ للَّه ، فَقَالَ : آللَّهِ ؟

---

(١) أي بعظمتي وطاعتي ، لا للدنيا . (٢) أخرجه مسلم في البر والصلة (٣٧) .

(٣) أخرجه مسلم في الإيمان (٩٤) ، والإمام أحمد في مسنده (٢/٤٧٧) .

(٤) أخرجه مسلم في البر والصلة (٣٨) .

(٥) أخرجه البخاري في مناقب الأنصار (٣٧٨٣) ومسلم في الإيمان (١٢٩) ، والحديث لم يقم الشارح - رحمه الله تعالى - بشرحه .

(٦) أخرجه الترمذي في الزهد (٢٣٩٠) ، والحديث لم يقم الشارح - رحمه الله تعالى - بشرحه ، قوله « يغبطهم النبيون » الغبطة تمنّي مثل ما للغير من الخير من غير زواله عن صاحبه ، ولا يلزم من ذلك أن يكون المتحابون في الله أفضل من الأنبياء ؛ فقد يكون لك مائة فرس من العتاق وترى لأخيك فرسًا فتشتهي شراءه أو شراء مثله . ويجوز أنه لم يقصد معنى الغبطة أصلًا وإنما أراد بيان فضلهم عند الله فقط .

(٧) براق الثنايا : أي أبيض الثغر حسنه ، وقيل : كثير التبسم .

فَقُلْتُ : اللَّه ، فقال : آللَّهِ ؟ فَقُلْتُ : أَللَّهِ ، فَأَخَذَني بِحُبْوَةِ رِدَائي [١] ، فَجبذني إِلَيهِ ، فَقالَ : أَبْشِرْ ، فَإِنِّي سَمِعْتُ رسول اللَّه ﷺ يقول : « قال اللَّه تعالى : وَجَبَتْ مَحَبَّتي لِلْمُتَحَابِّينَ فيَّ ، والمُتَجالِسينَ فيَّ ، وَالمُتَزَاوِرِينَ فيَّ ، وَالمتَبَاذِلِينَ فيَّ » [٢] حديث صحيح رواه مالكٍ في المُوَطَّأ بإسنادِهِ الصَّحيح [٣] .

قَوْلُهُ « هَجَّرْتُ » أي بَكَّرْتُ ، وَهُوَ بتشديد الجيم . قوله : « آللَّهِ : فَقُلْتُ : أَللَّهِ » الأَوَّلُ بهمزةٍ ممدودةٍ للاستفهام ، والثاني بلا مدٍّ .

٣٨٣ – عن أَبي كَرِيمَةَ المِقْدَادِ بْن مَعْدِ يكَرِبَ ﷺ عن النبي ﷺ قال : « إذا أَحَبَّ الرَّجُلُ أَخَاهُ ، فَلْيُخْبِرْه أَنَّهُ يُحِبُّهُ » [٤] رواه أبو داود ، والترمذي وقال : حديثٌ حسنٌ .

٣٨٤ – وعن مُعَاذٍ ﷺ ، أَنَّ رسول اللَّه ﷺ ، أَخَذَ بِيَدِهِ وقال : « يَا مُعَاذُ ، واللَّهِ إِنِّي لأُحِبُّك ، ثُمَّ أُوصِيكَ يَا مُعَاذُ : لا تَدَعَنَّ في دُبُرِ كُلِّ صَلاةٍ تَقُولُ : اللَّهُمَّ أَعِنِّي عَلى ذِكْرِكَ وَشُكْرِكَ ، وَحُسْنِ عِبَادَتِكَ » [٥] . حديث صحيحٌ ، رواه أبو داود والنسائي بإسناد صحيح .

٣٨٥ – وعن أنس ﷺ أَنَّ رَجُلًا كَانَ عِنْدَ النَّبيِّ ﷺ ، فَمَرَّ رَجُلٌ بِهِ ، فَقال : يا رسولَ اللَّهِ إِنِّي لأُحِبُّ هذَا ، فقال له النَّبيُّ ﷺ : « أَأَعْلَمْتَهُ ؟ » قَالَ : لا : قَالَ : « أَعْلِمْهُ » فَلَحِقَهُ ، فَقالَ : إِنِّي أُحِبُّكَ في اللَّه ، فقالَ : أَحَبَّكَ الَّذِي أَحْبَبْتَني لَهُ [٦] . رواه أبو داود بإسنادٍ صحيح .

الشرح

هذه الأحاديث كلها في بيان المحبة وأن الإنسان ينبغي له أن يكون حبه للَّه وفي اللَّه ، وفي هذا الحديث الذي ذكره المؤلف رحمه الله حيث قال النبي ﷺ : « والذي نفسي بيده لا تدخلوا الجنة حتى تؤمنوا . ولا تؤمنوا حتى تحابوا . أولا أدلُّكم على شيءٍ إذا فعلتموه تحاببتم . أفشوا السلام بينكم » .

ففي هذا : الدليل على أن المحبة من كمال الإيمان ، وأنه لا يُكمل إيمان العبد حتى يحب أخاه ، وأن من أسباب المحبة أن يفشي الإنسان السلام بين إخوانه ، أي يظهره ويعلنه ، ويسلم على من لقيه من المؤمنين ، سواء عرفه أو لم يعرفه ، فإن هذا من أسباب المحبة ، ولذلك إذا مر بك رجل وسلم عليك أحببته ، وإذا أعرض كرهته ولو كان أقرب الناس إليك .

فالذي يجب على الإنسان ؛ أن يسعى لكل سبب يوجب المودة والمحبة بين المسلمين ؛ لأنه ليس

---

(١) بحبوة ردائي : أي مجتمع ثوبه يحتبى به ، وملتقى طرفيه في صدره .

(٢) والمتباذلين فيَّ : أي الباذلين أموالهم وأنفسهم في القيام على طاعة اللَّه وجهاد أعدائه .

(٣) أخرجه مالك في الموطأ في الشعر (٢/٩٥٣) والإمام أحمد في مسنده (٥/٢٣٣) وفي الموطأ تكرر الاستفهام : فقال : اللَّه ؟ فقلت اللَّه . ثلاث مرات .

(٤) أخرجه أبو داود في الأدب (٥١٢٤) .

(٥) أخرجه أبو داود في سننه (١٥٢٢) ، والنسائي في سننه (٣/٥٣) (١٣٠٣) .

(٦) أخرجه أبو داود في سننه في الأدب (٥١٢٥) ، والإمام أحمد في مسنده (٣/١٥٠) ، وصححه الحاكم في المستدرك (٤/١٧١) .

من المعقول ولا من العادة أن يتعاون الإنسان مع شخص لايحبه ، ولايمكن التعاون على الخير والتعاون على البر والتقوى إلا بالمحبة ، ولهذا كانت المحبة في الله من كمال الإيمان .

وفي حديث معاذ ﷺ إخبار النبي ﷺ أنه يحبه ، وقوله لأنس لما قال له : إني أحب هذا الرجل . قال له : «أأعلمته ؟ » فدل هذا على أنه من السنة إذا أحببت شخصًا أن تقول : إني أحبك ، وذلك لما في هذه الكلمة من إلقاء المحبة في قلبه ؛ لأن الإنسان إذا علم أنك تحبه أحبك مع أن القلوب لها تعارف وتآلف وإن لم تنطق الألسن .

وكما قال النبي – عليه الصلاة والسلام – : «الأرواح جنود مجندة ما تعارف منها ائتلف وما تناكر منها اختلف »(١) لكن إذا قال الإنسان بلسانه فإن هذا يزيده محبة في القلب فتقول : إني أحبك في الله .

وفي قوله – عليه الصلاة والسلام – : «لاتدعن أن تقول في دبر كل صلاة » يعني في آخر كل صلاة ؛ لأن دبر الشيء من الشيء كدبر الحيوان ، وقد ورد هذا الحديث بلفظ واضح يدل على أن الإنسان يقولها قبل أن يسلِّم فيقول قبل السلام : « اللهم أعني على ذكرك وعلى شكرك وعلى حسن عبادتك » .

* * *

٤٧ - باب عَلَامات حبّ الله تعالى للعَبْد والحثّ على التخلق بها والسعي في تحصيلها

قال تعالى : ﴿ قُلْ إِن كُنتُمْ تُحِبُّونَ ٱللَّهَ فَٱتَّبِعُونِي يُحْبِبْكُمُ ٱللَّهُ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ وَٱللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴾ [آل عمران : ٣١] ﴿ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مَن يَرْتَدَّ مِنكُمْ (٢) عَن دِينِهِۦ فَسَوْفَ يَأْتِى ٱللَّهُ بِقَوْمٍ يُحِبُّهُمْ وَيُحِبُّونَهُۥٓ أَذِلَّةٍ عَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ (٣) أَعِزَّةٍ عَلَى ٱلْكَـٰفِرِينَ (٤) يُجَـٰهِدُونَ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ وَلَا يَخَافُونَ لَوْمَةَ لَآئِمٍ ذَٰلِكَ فَضْلُ ٱللَّهِ يُؤْتِيهِ مَن يَشَآءُ وَٱللَّهُ وَٰسِعٌ عَلِيمٌ ﴾ [المائدة : ٥٤] .

٣٨٦ – وعن أبي هريرة ﷺ قال : قال رسول الله ﷺ : « إنَّ اللَّه تعالى قال : مَنْ عَادَى لي وَلِيًا ، فَقَدْ آذَنْتُهُ بالحَرْبِ ، ومَا تَقَرَّبَ إليَّ عَبْدِي بِشَيءٍ أَحبَّ إليَّ مِمَّا افْتَرَضْتُ عَلَيهِ ، وَمَا يَزَالُ عَبْدِي يَتَقرَّبُ إلَيَّ بِالنَّوافِلِ حَتَّى أُحِبَّهُ ، فإذا أَحْبَبْتُهُ ، كُنتُ سَمْعَهُ الَّذِي يَسْمَعُ بِهِ ، وبَصَرَهُ الَّذِي يُبْصِرُ بِهِ ، ويَدَهُ الَّتي يَبْطِشُ بِها ، وَرِجْلَهُ الَّتي يَمْشِي بِها ، وإنْ سَأَلَني أَعْطَيتُهُ ، وَلَئِن اسْتَعَاذَني ، لأُعِيذَنَّه »(٥) رواه البخاري .

معنى « آذَنْتُهُ » : أَعْلَمْتُهُ بِأَنِّي مُحَارِبٌ له . وقوله : « اسْتَعَاذَني » روي بالباءِ وروي بالنون .

٣٨٧ – وعنه عن النبي ﷺ قال : « إذا أَحَبَّ اللَّه تعالى العَبْدَ ، نَادَى جِبْرِيلَ : إنَّ اللَّهَ تعالى

---

(١) انظر الحديث ٣٧١ .
(٢) أي يعود إلى الكفر .
(٣) أي شداد متغلبون .
(٤) أي عطفاء رحماء حافظين .
(٥) أخرجه البخاري في الرقاق(٦٥٠٢) وفيه(لأعطين) ، والبيهقي في سنن(٢١٩/١٠) وفيه(فقدبارزني بالحرب) .

يُحِبُّ فُلانًا ، فَأَحْبِبْهُ ، فَيُحبهُ جِبْريلُ ، فَيُنَادي في أَهْلِ السَماءِ : إنَّ اللَّه يُحِبُّ فُلانًا ، فَأَحِبّوهُ ، فَيُحِبُّهُ أَهْلُ السَّمَاءِ ، ثُمَّ يُوضَعُ له القَبُولُ في الأَرْضِ » متفقٌ عليه [١] .

وفي رواية لمسلم : قال رسول اللَّه ﷺ : « إنَّ اللَّهَ تعالى إذا أَحَبَّ عَبْدًا دَعَا جِبْريلَ ، فقال : إنِّي أُحِبُّ فُلانًا فَأَحْبِبْهُ ، فَيُحِبهُ جِبْريلُ ، ثُمَّ يُنَادِي في السَّمَاءِ ، فَيَقُولُ : إنَّ اللَّه يُحِبُّ فُلانًا ، فَأَحِبُّوهُ ، فَيُحبهُ أَهْلُ السَّمَاء ، ثُمَّ يُوضَعُ له القَبُولُ في الأَرْضِ ، وإذا أَبْغَضَ عَبْدًا دَعا جِبْريلَ ، فَيَقولُ : إنِّي أُبْغِضُ فُلانًا ، فَأَبْغِضْهُ ، فَيُبْغِضُهُ جِبْريلُ ، ثُمَّ يُنَادِي في أَهْلِ السَّمَاءِ ، إنَّ اللَّهَ يُبْغِضُ فُلانًا ، فَأَبْغِضُوهُ ، فَيُبغِضُهُ أَهْلُ السَّماءِ ، ثُمَّ تُوضَعُ له البَغْضَاءُ في الأَرْضِ » [٢] .

٣٨٨ - وعن عائشة رضي الله عنها أن رسول اللَّه ﷺ بَعَثَ رَجُلًا عَلى سَرِيَّةٍ ، فَكَانَ يَقْرَأ لأَصْحَابِهِ في صلاتِهِمْ ، فَيَخْتِمُ بـ ﴿ قُلْ هُوَ ٱللَّهُ أَحَدٌ ﴾ فَلَمَّا رَجَعُوا ، ذَكَرُوا ذلكِ لرسول اللَّه ﷺ ، فقال : « سَلُوهُ لأَيِّ شَيءٍ يَصْنَعُ ذلكَ ؟ » فَسَأَلوهُ ، فَقَالَ : لأَنَّهَا صِفَةُ الرَّحْمن ، فَأَنَا أُحِبُّ أنْ أَقْرَأَ بِها . فقال رسول اللَّه ﷺ : « أَخْبِرُوهُ أَنَّ اللَّه تعالى يُحِبُّهُ » [٣] متفقٌ عليه .

الشرح

قال المؤلف - رحمه اللَّه تعالى - : باب علامات حبُّ اللَّه تعالى للعبد ، يعني علامة أن اللَّه يحب العبد ؛ لأن لكل شيء علامة ، ومحبة اللَّه للعبد لها علامة ؛ منها كون الإنسان متبعًا لرسول اللَّه ﷺ ، فإنه كلما كان الإنسان لرسول اللَّه ﷺ أتبع ، كان للَّه أطوع ، وكان أحب إلى اللَّه تعالى .

واستشهد المؤلف رحمه الله لذلك بقوله تعالى : ﴿ قُلْ إِن كُنتُمْ تُحِبُّونَ ٱللَّهَ فَٱتَّبِعُونِى يُحْبِبْكُمُ ٱللَّهُ ﴾ يعني إن كنتم صادقين في أنكم تحبون اللَّه فأروني علامة ذلك : اتبعوني يحببكم اللَّه .

وهذه الآية تسمى عند السلف آية الامتحان ، يمتحن بها من ادعى محبة اللَّه ، فينظر إذا كان يتبع الرسول - عليه الصلاة والسلام - فهذا دليل على صدق دعواه .

وإذا أحب اللَّه أحبه اللَّه عز وجل ، لهذا قال : ﴿ فَٱتَّبِعُونِى يُحْبِبْكُمُ ٱللَّهُ ﴾ وهذه ثمرة جليلة ؛ أن اللَّه تعالى يحبك ؛ لأن اللَّه تعالى إذا أحبك نلت بذلك سعادة الدنيا والآخرة .

ثم ذكر المؤلف حديث أبي هريرة رضي الله عنه أن النبي ﷺ قال : « من عادى لي وليًا فقد آذنته بالحرب » من عادى لي وليًا : يعني صار عدوًا لوليٍّ من أوليائي ، فإنني أعلن عليه الحرب ، يكون حربًا للَّه . الذي يكون عدوًا لأحد من أولياء اللَّه فهو حربٌ للَّه والعياذ باللَّه مثل أكل الربا ﴿ فَإِن لَّمْ تَفْعَلُوا۟ فَأْذَنُوا۟

---

(١) أخرجه البخاري في بدء الخلق (٣٢٠٩) بلفظ الرواية الأولى ، ومسلم في البر والصلة (١٥٧) .

(٢) قوله « ثم يوضع له القبول في الأرض » المراد بالقبول الحب في قلوب أهل الدين والخير ، والرضا به واستطابة ذكره في حال غيبته .

(٣) أخرجه البخاري في التوحيد (٧٣٧٥) ، ومسلم في صلاة المسافرين (٢٦٣) واللفظ له .

بِحَرْبٍ مِّنَ ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ ﴾ [البقرة: ٢٧٩] .

ولكن من هو ولي اللّٰه ؟ ولي اللّٰه بيّنه ﷻ في قوله : ﴿ أَلَآ إِنَّ أَوْلِيَآءَ ٱللَّهِ لَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ۝ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَكَانُوا۟ يَتَّقُونَ ﴾ [يونس: ٦٢، ٦٣] .

هؤلاء هم أولياء اللّٰه فمن كان مؤمنًا تقيًا كان للّٰه وليًا ، هذه هي الولاية ، وليست الولاية أن يخشوشن الإنسان في لباسه ، أو أن يترهبن أمام الناس ، أو أن يخنع رأسه .

بل الولاية الإيمان والتقوى ﴿ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَكَانُوا۟ يَتَّقُونَ ﴾ فمن عادى هؤلاء فإنه حرب للّٰه والعياذ باللّٰه .

ثم قال اللّٰه ﷻ في الحديث القدسي : « وما تقرب إليَّ عبدي بشيء أحب إليَّ مما افترضت عليه » يعني : أحبُّ ما يحب اللّٰه الفرائضُ . فالظهر أحب إلى اللّٰه من راتبة الظهر ، والمغرب أحبُّ إلى اللّٰه من راتبة المغرب ، والعشاء أحبُّ إلى اللّٰه من راتبة العشاء ، والفجر أحبُّ إلى اللّٰه من راتبة الفجر ، والصلاة المفروضة أحبُّ إلى اللّٰهِ من قيام الليل ، كل الفرائض أحبُّ إلى اللّٰه من النوافل ، والزكاة أحب إلى اللّٰه من الصدقة ، وحج الفريضة أحب إلى اللّٰه من حج التطوع ، كلُّ ما كان أوجب فهو أحبُّ إلى اللّٰه ﷻ .

« وما تقرب إليَّ عبدي بشيء أحب إليَّ مما افترضته عليه ولا يزال عبدي يتقرب إليّ بالنوافل حتى أحبه » ، وفي هذا إشارة إلى أن من أسباب محبة اللّٰه أن تكثر من النوافل ومن التطوع ؛ نوافل الصلاة ، نوافل الصدقة ، نوافل الصوم ، نوافل الحج ، وغير ذلك من النوافل .

فلا يزال العبد يتقرب إلى اللّٰه بالنوافل حتى يحبه اللّٰه ، فإذا أحبه اللّٰه كان سمعه الذي يسمع به ، وبصره الذي يبصر به ، ويده التي يبطش بها ، ورجله التي يمشي بها ، ولئن سأله ليعطينه ، ولئن استعاذه ليعيذنه .

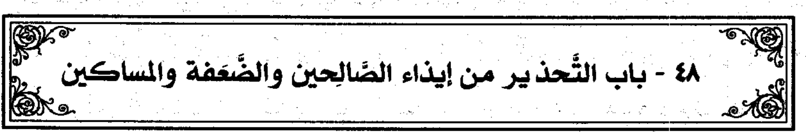
« كنت سمعه » يعني أنني أسدده في سمعه ، فلا يسمع إلا ما يرضي اللّٰه ، « وبصره » أسدده في بصره ، فلا يبصر إلا ما يحب اللّٰه . « ويده التي يبطش بها » فلا يعمل بيده إلا ما يرضي اللّٰه ، « ورجله التي يمشي بها » فلا يمشي برجله إلا لما يرضي اللّٰه ﷻ ، فيكون مسددًا في أقواله وفي أفعاله .

« ولئن سألني لأعطينه » هذه من ثمرات النوافل ومحبة اللّٰه ﷻ ؛ أنه إذا سأل اللّٰه أعطاه ، « ولئن استعاذني » يعني استجار بي مما يخاف من شره « لأعيذنه » فهذه من علامة محبة اللّٰه ؛ أن يسدّد الإنسان في أقواله وأفعاله ، فإذا سُدِّد دلّ ذلك على أن اللّٰه يحبه : ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ وَقُولُوا۟ قَوْلًا سَدِيدًا ۝ يُصْلِحْ لَكُمْ أَعْمَٰلَكُمْ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ ﴾ [الأحزاب: ٧٠، ٧١] .

وذكر أيضًا أحاديث أخرى : في بيان محبة اللّٰه ﷻ وأن اللّٰه تعالى إذا أحبَّ شخصًا نادى جبريل ، وجبريل أشرف الملائكة ، كما أن محمدًا ﷺ أشرف البشر . « نادى جبريل إني أحب فلانًا فأحببه ، فيحبه جبريل ، فينادي في أهل السماء : إن اللّٰه يحب فلانًا فأحبوه ، فيحبه أهل السماء ، ثم يوضع له القبول في الأرض » فيحبه أهل الأرض .

وإذا أبغض الله أحدًا - والعياذ بالله - نادى جبريل : إني أبغض فلانًا فأبغضْهُ ، فيبغضه جبريل ، ثم ينادي في أهل السماء : إن الله يبغض فلانًا فأبغضوه ، فيبغضه أهل السماء ، ثم يوضع له البغضاء في الأرض والعياذ بالله ، فيبغضه أهل الأرض ، وهذا أيضًا من علامات محبة الله ؛ أن يوضع للإنسان القبول في الأرض ، بأن يكون مقبولًا لدى الناس ، محبوبًا إليهم ، فإن هذا من علامات محبة الله تعالى للعبد . نسأل الله تعالى أن يجعلنا والمسلمين من أحبابه وأوليائه .

* * *



٤٨ - باب التَّحذير من إيذاء الصَّالِحين والضَّعَفة والمساكين

قال الله تعالى : ﴿ وَٱلَّذِينَ يُؤْذُونَ ٱلْمُؤْمِنِينَ وَٱلْمُؤْمِنَٰتِ بِغَيْرِ مَا ٱكْتَسَبُواْ فَقَدِ ٱحْتَمَلُواْ بُهْتَٰنًا (١) وَإِثْمًا مُّبِينًا ﴾ [الأحزاب : ٥٨] .

وقال تعالى : ﴿ فَأَمَّا ٱلْيَتِيمَ فَلَا تَقْهَرْ ۝ وَأَمَّا ٱلسَّآئِلَ فَلَا تَنْهَرْ ﴾ (٢) [الضحى : ٩، ١٠] .

وأما الأحاديث ، فكثيرة منها :

حديث أبي هريرة ﷺ في الباب قبل هذا : « مَنْ عَادَى لِي وَلِيًّا فَقَدْ آذَنْتُهُ بِالحَرْبِ » (٣) .

ومنها حديث سعد بن أبي وقاص ﷺ السابق في « باب ملاطفة اليتيمِ » وقوله ﷺ : « يَا أَبَا بَكْرٍ لَئِنْ كُنْتَ أَغْضَبْتَهُم ، لَقَدْ أَغْضبْتَ رَبَّكَ » (٤) .

٣٨٩ - وعن جُنْدُبِ بنِ عبد الله ﷺ قال : قال رسول الله ﷺ : « مَنْ صَلَّى صَلاةَ الصُّبْحِ ؛ فَهُوَ في ذِمَّةِ اللَّه ، فَلا يَطْلُبَنَّكُمُ اللَّهُ مِنْ ذِمَّتِهِ بِشَيْءٍ ؛ فَإِنَّهُ مَنْ يَطْلُبْهُ مِنْ ذِمَّتِهِ بِشَيْءٍ ، يُدْرِكْهُ ، ثُمَّ يَكُبَّهُ عَلَى وَجْهِهِ في نَارِ جَهَنَّمَ » (٥) رواه مسلم .

الشرح

قال المؤلف - رحمه الله تعالى - باب التحذير من إيذاء المسلمين والضعفاء والمساكين ونحوهم ، ثم ساق المؤلف قول الله تعالى : ﴿ وَٱلَّذِينَ يُؤْذُونَ ٱلْمُؤْمِنِينَ وَٱلْمُؤْمِنَٰتِ بِغَيْرِ مَا ٱكْتَسَبُواْ فَقَدِ ٱحْتَمَلُواْ بُهْتَٰنًا وَإِثْمًا مُّبِينًا ﴾ .

والأذية : هي أن تحاول أن تؤذي الشخص بما يتألم منه قلبيًا ، أو بما يتألم منه بدنيًا ؛ سواء كان

---

(١) بهتانًا : فعلا شنيعًا ، أو كذبًا فظيعًا .

(٢) فلا تنهر : أي لا تزجره ولا تغلظ له القول ، بل اسعفه بما يطلبه ما استطعت .

(٣) انظر الحديث السابق .

(٤) انظر صحيح مسلم في فضائل الصحابة (١٧٠) وفيه (لعلك أغضبتهم) بعد النداء ، ومسند الإمام أحمد (٥/٦٤) .

(٥) أخرجه مسلم في المساجد (٢٦٢) .

ذلك بالسب ، أو بالشتم ، أو باختلاق الأشياء عليه ، أو بمحاولة حسده ، أوغير ذلك من الأشياء التي يتأذي بها المسلم .

وهذا كله حرام ؛ لأن الله ﷻ بيَّن أن الذين يؤذون المؤمنين والمؤمنات بغير ما اكتسبوا فقد احتملوا بهتانًا وإثمًا مبينًا .

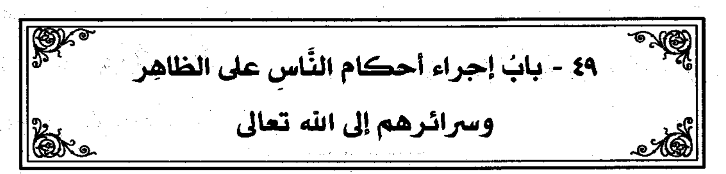
وفهم من الآية الكريمة أن من آذى المؤمنين بما اكتسبوا فإنه ليس عليه شيء ، مثل إقامة الحد على المجرم ، تغريم الظالم ، وما أشبه ذلك ، فهذا وإن كان فيه أذية ، لكنها بكسبه ، فقد قال الله تعالى : ﴿ ٱلزَّانِيَةُ وَٱلزَّانِى فَٱجْلِدُوا۟ كُلَّ وَٰحِدٍ مِّنْهُمَا مِا۟ئَةَ جَلْدَةٍ ۖ وَلَا تَأْخُذْكُم بِهِمَا رَأْفَةٌ فِى دِينِ ٱللَّهِ إِن كُنتُمْ تُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِ ۖ ﴾ [النور : ٢] .

ولاحرج في أن يؤذي الإنسان شخصًا بسبب كسبه هو وجنايته على نفسه ، فإن ذلك لا يؤثر عليه شيئًا .

ثم أشار المؤلف إلى أحاديث تدل على التحذير من أذية المؤمنين ، ومنها ما سبق من حديث أبي هريرة ﷺ أن الله قال : « من عادى لي وليًا فقد آذنته بالحرب » فالذي يعادي أحدًا من أولياء الله فإن الله تعالى يعلن عليه الحرب ، ومن كان حربًا لله تعالى فهو خاسر بلاشك .

قال أهل العلم : وأنواع الأذى كثيرة ، منها أن يؤذي جاره ، ومنها أن يؤذي صاحبه ، ومنها أن يؤذي من كان معه في عمل من الأعمال - وإن لم يكن بينهم صداقة - بالمضايقة وما أشبه ذلك ، وكل هذا حرام والواجب على المسلم الحذر منه .

* * *



٤٩ - بابُ إجراء أحكام النَّاسِ على الظاهِر وسرائرهم إلى الله تعالى

قال الله تعالى : ﴿ فَإِن تَابُوا۟ وَأَقَامُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتَوُا۟ ٱلزَّكَوٰةَ فَخَلُّوا۟ سَبِيلَهُمْ ۚ ﴾(١) [التوبة : ٥] .

٣٩٠ - وعن ابن عمر ﷺ أن رسول الله ﷺ قال : « أُمِرْتُ أَنْ أُقَاتِلَ النَّاسَ حَتَّى يَشْهَدُوا أَنْ لا إله إلا اللَّه ، وَأَنَّ مُحَمَّدًا رسولُ اللَّه ، وَيُقِيمُوا الصَّلاةَ ، وِيُؤْتُوا الزَّكاةَ ، فَإِذَا فَعَلُوا ذلِكَ عَصَمُوا مِنِّي دِمَاءَهُمْ وَأَمْوَالَهُمْ إلا بِحَقِّ الإِسْلامِ ، وَحِسابُهُمْ عَلى اللَّه تعالى » (٢) متفقٌ عليه .

٣٩١ - وعن أبي عبدِ اللَّه طَارِقِ بن أُشَيم ﷺ قال : سمعتُ رسول اللَّه ﷺ يَقُولُ : « مَن قال : لا إلهَ إلا اللَّهُ ، وكَفَرَ بمَا يُعْبَدُ مِنْ دُونِ اللَّهِ ، حَرُمَ مَالُهُ وَدَمُهُ ، وَحِسابُهُ عَلَى اللَّه تعالى » (٣) رواه مسلم .

---

(١) أي دعوهم ولا تتعرضوا لهم .

(٢) أخرجه البخاري في الإيمان (٢٥) ، ومسلم في الإيمان (٣٦) وفيه (إلابحقها) .

(٣) أخرجه مسلم في الإيمان (٣٧) .

٣٩٢ - وعن أبي مَعْبَدٍ المِقْدَادِ بْنِ الأسْوَدِ ﷺ قال : قلت لرسول الله ﷺ : أرأيتَ إنْ لَقِيتُ رَجُلًا مِنَ الكُفَّارِ ، فاقْتَتَلْنا ، فَضَرَبَ إحْدَى يَدَيَّ بِالسَّيفِ ، فقطَعَها ، ثُمَّ لاذَ مِنِّي بِشَجَرَةٍ ، فقال : أَسْلَمْتُ للّهِ ، أأَقْتُلُهُ يا رسول اللّه بَعْدَ أَنْ قالها ؟ فَقالَ : « لاَ تَقْتُلْهُ » فَقُلْتُ : يا رَسُولَ اللّهِ ! قَطَعَ إحْدَى يَدَيَّ ، ثُمَّ قال ذلِكَ بَعْدَ مَا قَطَعَهَا ؟! فقال : « لا تَقْتُلْهُ ، فَإِنْ قَتَلْتَهُ ، فَإِنَّهُ بِمَنْزِلَتِكَ قبلَ أَنْ تَقْتُلَهُ ، وَإِنَّكَ بِمَنْزِلَتِهِ قبْلَ أنْ يقُولَ كَلِمَتَهُ الّتي قال » (١) متفقٌ عليه .

ومعنى : « إنَّهُ بِمَنْزِلَتِكَ » أي : مَعْصُومُ الدَّمِ مَحْكُومٌ بِإسْلامِهِ ، ومعنى « إنَّكَ بِمَنْزِلَته » أي : مُبَاحُ الدَّمِ بِالقَصَاص لِوَرَثَتِهِ ، لا أنَّهُ بِمَنْزِلَتِهِ في الكُفْرِ ، واللّه أعلم .

٣٩٣ - وعن أُسَامَةَ بنِ زَيدٍ ﷺ قال : بَعَثَنَا رسول اللّه ﷺ ، إلى الحُرَقَةِ مِنْ جُهَينَةَ ، فَصَبَّحْنا القَومَ عَلَى مِياهِهِمْ ، وَلحِقْتُ أنا وَرَجُلٌ مِنَ الأَنْصارِ رَجُلًا مِنْهُمْ ، فَلَمَّا غَشِيناهُ (٢) قال : لا إلَهَ إلا اللّهُ ، فَكَفَّ عَنْهُ الأنْصارِيُّ ، وَطَعَنْتُهُ بِرُمْحِي حَتَّى قَتَلْتُهُ ، فَلَمَّا قَدِمنا المَدِينَةَ ، بَلَغَ ذِلكَ النَّبيَّ ﷺ فقال لي : « يَا أُسَامَةُ أَقَتَلْتَهُ بَعْدَ ما قالَ : لا إله إلا اللّهُ ؟ » قلتُ : يا رسولَ اللّه إنَّما كَانَ مُتَعَوِّذًا ، فَقالَ : « أقَتَلْتَهُ بَعْدَ مَا قَالَ لا إلهَ إلا اللّهُ ؟! » فَمَا زَالَ يُكَرِّرُها عَلَيَّ حَتَّى تَمَنَّيتُ أنِّي لَمْ أكُنْ أَسْلَمْتُ قَبْلَ ذلِكَ اليَومِ . متفقٌ عليه (٣) .

وفي روايةٍ : فَقَالَ رسول اللّه ﷺ : « أَقَالَ : لا إلهَ إلا اللّهُ وَقَتَلْتَهُ ؟! قلتُ : يا رسول اللّه ، إنَّما قَالَهَا خَوفًا مِنَ السِّلاحِ ، قال : « أَفَلا شَقَقْتَ عَنْ قَلْبِهِ حَتَّى تَعْلَم أَقَالَها أَمْ لا ؟! » فَمَا زَالَ يُكَرِّرُهَا حَتَّى تَمَنَّيتُ أنِّي أَسْلَمْتُ يَومَئِذٍ (٤) .

« الحُرَقَةُ » بضم الحاء المهملة وفتح الراءِ : بَطْنٌ مِنْ جُهَينَةَ القَبِيلَةِ المَعْرُوفَةِ ، وقوله : « مُتَعَوِّذًا » . أي : مُعْتَصِمًا بِهَا مِنَ القَتْلِ لا مُعْتَقِدًا لهَا .

الشرح

قال المؤلف - رحمه اللّه تعالى - : باب حمل الناس على ظواهرهم ، وأن يكل الإنسان سرائرهم إلى اللّه ﷻ .

أولًا : اعلم أن العبرة في الدنيا بما في الظواهر ؛ اللسان والجوارح . وأن العبرة في الآخرة بما في السرائر بالقلب .

فالإنسان يوم القيامة يحاسب على ما في قلبه ، وفي الدنيا على ما في لسانه وجوارحه ، قال اللّه تبارك وتعالى : ﴿ إِنَّهُۥ عَلَىٰ رَجْعِهِۦ لَقَادِرٌ ۝ يَوْمَ تُبْلَى ٱلسَّرَآئِرُ ﴾ [الطارق : ٨، ٩] ، تختبر السرائر والقلوب . وقال

(١) أخرجه البخاري في الديات (٦٨٦٥) ، ومسلم في الإيمان (١٥٥) واللفظ له مع اختلاف يسير والإمام أحمد في مسنده (٤/٦) .

(٢) غَشِيناهُ : أي أتيناه أو لحقناه .

(٣) أخرجه البخاري في المغازي (٤٢٦٩) ، ومسلم في الإيمان (١٥٩) .

(٤) أخرجه الإمام مسلم في الإيمان (١٥٨) ، والإمام أحمد في مسنده (٤٣٩/٤) و (٢٠٧/٥) .

تعالى : ﴿ أَفَلَا يَعْلَمُ إِذَا بُعْثِرَ مَا فِي ٱلْقُبُورِ ۞ وَحُصِّلَ مَا فِي ٱلصُّدُورِ ۞ إِنَّ رَبَّهُم بِهِمْ يَوْمَئِذٍ لَّخَبِيرٌ ﴾ [العاديات : ٩ - ١١] .

فاحرص ياأخي على طهارة قلبك قبل طهارة جوارحك . كم من إنسان يصلي ، ويصوم ، ويتصدق ، ويحج ، لكن قلبه فاسد .

وهاهم الخوارج حدّث عنهم النبي - عليه الصلاة والسلام - أنهم يصلون ، ويصومون ، ويتصدقون ، ويقرؤون القرآن ، ويقومون الليل ، ويبكون ، ويتهجدون ، ويحقر الصحابي صلاته عند صلاتهم ، لكن قال النبي - عليه الصلاة والسلام - : « لا يجاوز إيمانهم حناجرهم » (١) لايدخل الإيمان قلوبهم .

مع أنهم صالحو الظواهر ، لكن ما نفعهم . فلا تغتر بصلاح جوارحك ، وانظر قبل كل شيء إلى قلبك ، أسأل اللّه أن يصلح قلبي وقلوبكم . فإن أهم شيء هو القلب .

رُفع رجل إلى الرسول - عليه الصلاة والسلام - قد شرب الخمر فجلده ، ثمَّ رفع إليه مرة أخرى فجلده ، فسبّه رجل من الصحابة ، وقال : لعنه اللّه ، ما أكثر ما يؤتى به إلى الرسول عليه الصلاة والسلام .

فقال له الرسول ﷺ : « لا تلعنه ؛ فإنه يحب اللّه ورسوله » (٢) فالأصل فيه أنه مسلم ، وفي قلبه محبة اللّه ورسوله ، فالأصل هو القلب ، ولهذا قال اللّه تعالى : ﴿ أُولَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ لَمْ يُرِدِ ٱللَّهُ أَن يُطَهِّرَ قُلُوبَهُمْ ﴾ [المائدة : ٤١] .

أما في الدنيا بالنسبة لنا مع غيرنا ، فالواجب إجراء الناس على ظواهرهم ؛ لأننا لانعلم الغيب ، ولانعلم ما في القلوب ، ولا يكلف اللّه نفسًا إلا وسعها ، وقد قال النبي - عليه الصلاة والسلام - : « إنما أقضي بنحو ما أسمع » (٣) .

ولسنا مكلفين بأن نبحث عما في قلوب الناس ، ولهذا قال اللّه تعالى : ﴿ فَإِن تَابُوا وَأَقَامُوا ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتَوُا ٱلزَّكَوٰةَ فَخَلُّوا سَبِيلَهُمْ إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴾ [التوبة : ٥] ، يعني المشركين إن تابوا وأقاموا الصلاة وآتوا الزكاة ؛ فخلوا سبيلهم وأمرهم إلى اللّه ، إن اللّه غفور رحيم .

وقال النبي - عليه الصلاة والسلام - فيما رواه ابن عمر رضي الله عنهما : « أمرت أن أقاتل الناس حتى يشهدوا أن لا إله إلا اللّه ، وأن محمدًا رسول اللّه ، ويقيموا الصلاة ، ويؤتوا الزكاة ، فإذا فعلوا ذلك عصموا مني دماءهم وأموالهم ، إلا بحق الإسلام وحسابهم على اللّه تعالى » .

وبذلك يكون العمل بالظواهر ؛ فإذا شهد إنسان أن لا إله إلا اللّه ، وأن محمدًا رسول اللّه ، وأقام الصلاة ، وآتى الزكاة ، عصم دمه وماله ، وحسابه على اللّه ؛ فليس لنا إلا الظاهر .

---

(١) انظر الحديث في صحيح البخاري في استتابة المرتدين (٦٩٣٠) .
(٢) انظر الحديث صحيح البخاري في الحدود (٦٧٨٠) .
(٣) سبق تخريجه .

وكذلك أيضًا من قال : لا إله إلا الله حرم دمه وماله ، هكذا قال النبي - عليه الصلاة والسلام - [١] ، ثم ذكر المؤلف حديثين عجيبين فيهما قصتان عجيبتان .

الأولى : حديث المقداد بن الأسود ﷺ ، قال : يا رسول الله ، إن لقيت رجلًا من المشركين ، فقاتلته ، فضربني بالسيف حتى قطع يدي ، ثم لاذ مني بشجرة ، ثم قال : أشهد أن لا إله إلا الله . أفأقتله ؟

قال : « لاتقتله » وهو مشرك قطع يد رجل مسلم ، ولاذ بالشجرة ، وقال : أشهد أن لا إله إلا الله . قال : أأقتله ؟

قال « لاتقتله » فإن قتلته فأنت مثله قبل أن يقول هذه الكلمة ، يعني تكون كافرًا .

مع العلم بأني أنا وأنتم ، نظن أن هذا الرجل قال : أشهد أن لا إله إلا الله خوفًا من القتل ، ومع ذلك يقول : لاتقتله ، فعصم دمه وماله .

وفي هذا الحديث أيضًا دليل على أن ما أتلفه الكفار من أموال المسلمين وما جنوه على المسلمين غير مضمون . يعني الكافر لو أتلف شيئًا للمسلمين ، أو قتل نفسًا لا يضمن إذا أسلم ، فالإسلام يمحو ما قبله .

القصة الثانية : بعث النبي ﷺ أسامة بن زيد في سرية إلى الحُرَقة من جهينة ، فلما وصلوا إلى القوم وغشوهم ، هرب من المشركين رجل ، فلحقه أسامة ورجل من الأنصار يتبعانه يريدان قتله فلما أدركاه قال : لا إله إلا الله ، أما الأنصاري فكان أفقه من أسامة ، فكفَّ عنه ، تركه لما قال : لا إله إلا الله . وأما أسامة فقتله .

فلما رجعوا إلى المدينة وبلغ ذلك النبي ﷺ قال لأسامة : « أقتلته بعد أن قال لا إله إلا الله » . قال : نعم يارسول الله ؛ إنما قال ذلك يتعوذ من القتل ، يستجير بها من القتل ، قال : « أقتلته بعد أن قال لا إله إلا الله » قال : نعم ، قالها يتعوذ من القتل . كرر ذلك عليه ، حتى قال له في رواية لمسلم : « ما تصنع بلا إله إلا الله إذا جاءتك يوم القيامة ؟ » .

يقول أسامة ﷺ : حتى تمنيتُ أني لم أكن أسلمت قبل هذا اليوم ؛ لأنه لو كان كافرًا ثم أسلم عفا الله عنه ، لكن الآن فعل هذا الفعل وهو مسلم ، فهذا مشكل جدًّا على أسامة .

والرسول ﷺ يكرر : « أقتلته بعد أن قال لا إله إلا الله » . « ما تصنع بلا إله إلا الله إذا جاءتك يوم القيامة ؟ » . مع العلم بأن الذي يغلب على الظن ما فهمه أسامة ؛ أنه قالها متعوذًا من القتل ، يستجير بها من القتل ، لكن مع ذلك إذا قال لا إله إلا الله انتهى الأمر ويجب الكف عنه ، ويعصم بذلك دمه وماله ، وإن كان قالها متعوذًا أو قالها نفاقًا ، حسابه على الله .

فهذا دليل على أننا نحمل الناس في الدنيا على ظواهرهم ، وأما ما في القلوب فموعده يوم القيامة ، تنكشف السرائر ، ويُحصَّل ما في الضمائر ، ولهذا علينا أيها الإخوة أن نطهر قلوبنا قبل كل شيء ثم جوارحنا .

---

(١) انظر الحديث (٣٩١) من هذا الكتاب .

أما بالنسبة لمعاملتنا لغيرنا ، فعلينا أن نعامل غيرنا بالظاهر .

واسمع إلى قول الرسول ﷺ : « إنكم تختصمون إليَّ » يعني تخاصمون مخاصمات بينكم « ولعل بعضكم أن يكون ألحن بحجته من بعض » يعني أفصح وأقوى دعوى « فأقضي له بنحو ما أسمع ، فمن اقتطعت له من حق أخيه شيئًا فإنما أقتطع له جمرةً من نار ، فليستقل أو ليستكثر » [١] .

فحمل النبي - عليه الصلاة والسلام - الأمر في الخصومة على الظاهر ، لكن وراءك النار إذا كنت كاذبًا في دعواك ، وأنك أخذت القاضي بلسانك وبشهادة الزور ، فإنما يقتطع لك جمرة من النار فاستقل أو استكثر .

وخلاصة ما تقدم : أن الإنسان يعامل في الدنيا على الظاهر ، وأما يوم القيامة فعلى الباطن .

فعلينا نحن أن نعامل غيرنا بما يظهر لنا من حاله ، وأمره إلى اللَّه ، وعلينا نحن أنفسنا أن نطهر قلوبنا ، لايكون فيها شيء ؛ لايكون فيها بلاء ؛ كبر ، حقد ، حسد ، شرك ، شك ، نسأل اللَّه أن يعيذنا من هذه الأخلاق ، فإن هذا خطير جدًّا .

نسأل اللَّه أن يهدينا وإياكم لأحسن الأخلاق والأعمال ، لايهدي لأحسنها إلا هو ، وأن يجنبنا سيئات الأخلاق والأعمال ، لايجنبنا إياها إلا هو .

* * *

٣٩٤ - وعن جُنْدُب بنِ عبد اللَّه ﷺ أنَّ رسول اللَّه ﷺ ، بَعَثَ بعثًا مِنَ المُسْلِمينَ إلى قَومٍ مِنَ المُشْرِكينَ ، وَأَنَّهُمُ التَقَوا ، فكانَ رَجُلٌ مِنَ المُشْرِكِينَ إذا شاءَ أَنْ يَقْصِدَ إلى رَجُلٍ مِنَ المُسْلِمِينَ قَصَدَ لَهُ فَقَتَلَهُ ، وأنَّ رجُلًا مِنَ المُسْلِمِينَ قَصَدَ فَقَتَلَهُ ، وَكُنَّا نَتَحدَّثُ أَنَّهُ أُسامَةُ بْنُ زَيدٍ ، فَلَمَّا رَفَعَ السَّيفَ ، قال : لا إله إلا اللَّهُ ، فَقَتَلَهُ ، فَجاءَ البَشِيرُ إلى رسول اللَّه ﷺ ، فَسَأَلَهُ ، وَأَخْبَرَهُ ، حَتَّى أَخْبَرَهُ خَبَرَ الرَّجُلِ كَيفَ صَنَعَ ، فَدَعَاهُ فَسأَلَهُ ، فقال : « لِمَ قَتَلْتَهُ ؟ » فَقَالَ : يا رسولَ اللَّهِ أَوجَعَ في المُسْلِمِينَ ، وَقَتَلَ فُلانًا وفُلانًا - وسمَّى له نَفرًا - وَإِنِّي حَمَلْتُ عَلَيهِ ، فَلَمَّا رَأَى السَّيفَ قال : لا إلهَ إلا اللَّهُ . قال رسول اللَّه ﷺ : « أَقَتَلْتَهُ ؟ » قالَ : نَعَمْ ، قال : « فَكَيفَ تصْنَعُ بِلا إلهَ إلا اللَّهُ ، إذا جاءَتْ يَومَ القِيامَةِ ؟ » قالَ : يا رسولَ اللَّه اسْتَغْفِرْ لي . قال : « وكيفَ تَصْنَعُ بِلا إلهَ إلا اللَّهُ إذا جَاءَتْ يَومَ القِيامَةِ ؟ » فَجَعَل لا يَزِيدُ على أَنْ يَقُولَ : « كَيفَ تَصْنَعُ بِلا إلهَ إلا اللَّهُ إذا جاءَتْ يَومَ القِيامَةِ » [٢] رواه مسلم .

٣٩٥ - وعن عبد اللَّه بن عُتْبَةَ بنِ مسعودٍ قال : سَمِعْتُ عُمَرَ بْنَ الخَطَّابِ ﷺ يقولُ : « إنَّ نَاسًا كَانُوا يُؤخَذُونَ بِالوَحْيِ في عَهْدِ رسول اللَّه ﷺ ، وإنَّ الوَحْيَ قَدِ انْقَطَعَ ، وإنَّما نأْخُذُكُمُ الآنَ بما ظَهَرَ لَنَا مِنْ أَعْمَالِكُمْ ، فَمَنْ أَظْهَرَ لَنَا خَيرًا ، أَمَّنَّاهُ وقَرَّبْنَاهُ ، ولَيسَ لنا مِنْ سَرِيرَتِهِ شَيءٌ ، اللَّهُ يُحاسِبُهُ في

---

(١) سبق تخريجه .

(٢) أخرجه مسلم في الإيمان (١٦٠) ، والحديث لم يُشِر إليه الشارح - رحمه اللَّه تعالى - أثناء شرحه ؛ لأنه بنفس معنى الحديث السابق مباشرة .

سَرِيرَتِهِ ، وَمَنْ أَظْهَرَ لَنَا سُوءًا ، لَمْ نَأْمَنْهُ ، وَلَمْ نُصَدِّقْهُ وإنْ قالَ : إنَّ سَرِيرَتَه حَسَنَةٌ » [(١)] رواه البخاري .

الشرح

قال المؤلف فيما نقله عن أمير المؤمنين عمر بن الخطاب من رواية عبد الله بن عتبة بن مسعود ؛ عمه عبد الله بن مسعود - الصحابي الجليل - ﷺ ؛ أن عمر بن الخطاب ﷺ قال : إنا نعلم يعني : عمن أسر سريرة باطلة في وقت الوحي بما ينزل من الوحي ؛ لأن أناسًا في عهد الرسول - عليه الصلاة والسلام - كانوا منافقين ، يظهرون الخير ويبطنون الشر ، ولكن الله تعالى كان يفضحهم بما ينزل من الوحي على رسوله ﷺ يفضحهم لا بأسمائهم ، ولكن بأوصافهم التي تحدد أعيانهم .

والحكمة من ذكرهم بالأوصاف دون الأعيان ؛ أن ذلك يكون للعموم ، يعني لكل من اتصف بهذه الصفات ، مثل قوله تعالى : ﴿ وَمِنْهُم مَّنْ عَـٰهَدَ ٱللَّهَ لَئِنْ ءَاتَىٰنَا مِن فَضْلِهِۦ لَنَصَّدَّقَنَّ وَلَنَكُونَنَّ مِنَ ٱلصَّـٰلِحِينَ ﴿٧٥﴾ فَلَمَّآ ءَاتَىٰهُم مِّن فَضْلِهِۦ بَخِلُواْ بِهِۦ وَتَوَلَّواْ وَّهُم مُّعْرِضُونَ ﴿٧٦﴾ فَأَعْقَبَهُمْ نِفَاقًا فِى قُلُوبِهِمْ إِلَىٰ يَوْمِ يَلْقَوْنَهُۥ بِمَآ أَخْلَفُواْ ٱللَّهَ مَا وَعَدُوهُ وَبِمَا كَانُواْ يَكْذِبُونَ ﴾ [التوبة : ٧٥ - ٧٧] .

ومثل قوله تعالى : ﴿ وَمِنْهُم مَّن يَلْمِزُكَ [(٢)] فِى ٱلصَّدَقَـٰتِ فَإِنْ أُعْطُواْ مِنْهَا رَضُواْ وَإِن لَّمْ يُعْطَوْاْ مِنْهَآ إِذَا هُمْ يَسْخَطُونَ ﴾ [التوبة : ٥٨] .

ومثل قوله : ﴿ ٱلَّذِينَ يَلْمِزُونَ ٱلْمُطَّوِّعِينَ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ فِى ٱلصَّدَقَـٰتِ وَٱلَّذِينَ لَا يَجِدُونَ إِلَّا جُهْدَهُمْ فَيَسْخَرُونَ مِنْهُمْ سَخِرَ ٱللَّهُ مِنْهُمْ ﴾ [التوبة : ٧٩] .

وهذا كثير في سورة التوبة التي سماها بعض السلف : الفاضحة ، لأنها فضحت المنافقين .

لكن لما انقطع الوحي صار الناس لايعلمون مَنِ المنافقُ ؛ لأن النفاق في القلب والعياذ بالله .

يقول ﷺ : من أظهر لنا خيرًا أخذناه بما أظهر لنا ، وإن أسر سريرةً يعني سيئة ، ومن أظهر لنا شرًا ، فإننا نأخذ بشره ولو أضمر ضميرةً طيبة ؛ لأننا نحن لا نكلف إلا بالظاهر ، وهذا من نعمة الله ﷻ علينا ؛ ألا نحكم إلا بالظاهر ؛ لأن الحكم على الباطن من الأمور الشاقة ، والله ﷻ لايكلف نفسًا إلا وسعها .

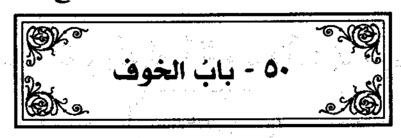
فمن أبدى خيرًا عاملناه بخيره الذي أبداه لنا ، ومن أبدى شرًا عاملناه بشره الذي أبداه لنا ، وليس لنا من نيته مسؤولية ، والنية موكولة إلى ربِّ العالمين ﷻ ، الذي يعلم ما توسوس به نفس الإنسان .

* * *

---

(١) أخرجه البخاري في الشهادات (٢٦٤١).

(٢) أي ومنهم من يعيبك ويطعن عليك في قسمة أموال الزكاة ، أو فيها وفي قسمة الغنائم ، من اللمز وهو العيب ، ولمزه : أي أعابه .



٥٠ - باب الخوف

قال الله تعالى : ﴿ وَإِيَّىٰ فَٱرْهَبُونِ ﴾ (١) [البقرة : ٤٠] وقال تعالى : ﴿ إِنَّ بَطْشَ (٢) رَبِّكَ لَشَدِيدٌ ﴾ [البروج : ١٢] وقال تعالى : ﴿ وَكَذَٰلِكَ أَخْذُ رَبِّكَ إِذَآ أَخَذَ ٱلْقُرَىٰ وَهِىَ ظَٰلِمَةٌ إِنَّ أَخْذَهُۥٓ أَلِيمٌ شَدِيدٌ ۝ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَةً لِّمَنْ خَافَ عَذَابَ ٱلْءَاخِرَةِ ذَٰلِكَ يَوْمٌ مَّجْمُوعٌ لَّهُ ٱلنَّاسُ وَذَٰلِكَ يَوْمٌ مَّشْهُودٌ (٣) ۝ وَمَا نُؤَخِّرُهُۥٓ إِلَّا لِأَجَلٍ مَّعْدُودٍ ۝ يَوْمَ يَأْتِ لَا تَكَلَّمُ نَفْسٌ إِلَّا بِإِذْنِهِۦ فَمِنْهُمْ شَقِىٌّ وَسَعِيدٌ ۝ فَأَمَّا ٱلَّذِينَ شَقُوا۟ فَفِى ٱلنَّارِ لَهُمْ فِيهَا زَفِيرٌ وَشَهِيقٌ ﴾ (٤) [هود : ١٠٢- ١٠٦] وقال تعالى : ﴿ وَيُحَذِّرُكُمُ ٱللَّهُ نَفْسَهُۥ ﴾ [آل عمران : ٢٨] وقال تعالى : ﴿ يَوْمَ يَفِرُّ ٱلْمَرْءُ مِنْ أَخِيهِ ۝ وَأُمِّهِۦ وَأَبِيهِ ۝ وَصَٰحِبَتِهِۦ وَبَنِيهِ ۝ لِكُلِّ ٱمْرِئٍ مِّنْهُمْ يَوْمَئِذٍ شَأْنٌ يُغْنِيهِ ﴾ [عبس : ٣٤- ٣٧] وقال تعالى : ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱتَّقُوا۟ رَبَّكُمْ إِنَّ زَلْزَلَةَ ٱلسَّاعَةِ شَىْءٌ (٥) عَظِيمٌ ۝ يَوْمَ تَرَوْنَهَا تَذْهَلُ (٦) كُلُّ مُرْضِعَةٍ عَمَّآ أَرْضَعَتْ وَتَضَعُ كُلُّ ذَاتِ حَمْلٍ حَمْلَهَا وَتَرَى ٱلنَّاسَ سُكَٰرَىٰ وَمَا هُم بِسُكَٰرَىٰ وَلَٰكِنَّ عَذَابَ ٱللَّهِ شَدِيدٌ ﴾ [الحج : ١، ٢] ، وقال تعالى : ﴿ وَلِمَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِۦ جَنَّتَانِ ﴾ [الرحمن : ٤٦] الآيات . وقال تعالى : ﴿ وَأَقْبَلَ بَعْضُهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ يَتَسَآءَلُونَ ۝ قَالُوٓا۟ إِنَّا كُنَّا قَبْلُ فِىٓ أَهْلِنَا مُشْفِقِينَ (٧) ۝ فَمَنَّ ٱللَّهُ عَلَيْنَا وَوَقَىٰنَا عَذَابَ ٱلسَّمُومِ (٨) ۝ إِنَّا كُنَّا مِن قَبْلُ نَدْعُوهُ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلْبَرُّ (٩) ٱلرَّحِيمُ ﴾ [الطور : ٢٥- ٢٨] والآيات في الباب كثيرة جدًّا معلوماتٌ ، والغرضُ الإشارةُ إلى بعضها وقد حَصَلَ .

الشرح

قال المؤلف رَحِمَهُ اللهُ : باب الخوف ، الخوف ممن ؟ الخوف من الله عَزَّ وَجَلَّ ؛ لأن الذي يعبد الله يجب أن يكون خائفًا راجيًا ؛ إن نظر إلى ذنوبه وكثرة أعماله السيئة خاف ، إن نظر إلى أعماله الصالحة وأنه قد يشوبها شيء من العُجب والإدلال على الله خاف ، إن نظر إلى أعماله الصالحة وأنه قد ينالها شيء من الرياء خاف ، وإن نظر إلى عفو الله ، ومغفرته ، وكرمه ، وحمله ، ورحمته رجا ؛ فيكون دائرًا بين الخوف والرجاء .

قال الله تعالى : ﴿ وَٱلَّذِينَ يُؤْتُونَ مَآ ءَاتَوا۟ ﴾ يعني يعطون ما أعطوا من الأعمال الصالحة ﴿ وَّقُلُوبُهُمْ وَجِلَةٌ ﴾ خائفة أن لا تقبل منهم ﴿ أَنَّهُمْ إِلَىٰ رَبِّهِمْ رَٰجِعُونَ ﴾ [المؤمنون : ٦٠] فينبغي بل يجب أن يكون سير الإنسان إلى الله عَزَّ وَجَلَّ دائرًا بين الخوف والرجاء ، لكن أيهما يغلِّب ؟ هل يغلِّب الرجاء ؟ أو يغلب

---

(١) أي فخافون .

(٢) البطش : الأخذ بشدة وعنف .

(٣) يوم مشهود : أي يشهده أهل السماء والأرض .

(٤) من أمارات الساعة ما يحدث في الأرض من الزلزلة الشديدة التي أخبر الله عنها بأنها شيء عظيم الأهوال ويعقبها طلوع الشمس من مغربها .

(٥) أي : شراطها وعلاماتها .

(٦) تذهل : أي تنسى وتترك .

(٧) مشفقين : أي خائفين من عصيان الله .

(٨) عذاب السموم : أي عذاب النار التي تنفذ إلى المسام .

(٩) البر : أي المحسن .

الخوف ؟ أو يجعلهما سواء ؟

قال الإمام أحمد رَحِمَهُ ٱللَّهُ : ينبغي أن يكون خوفه ورجاؤه واحدًا ، فأيهما غلب هلك صاحبه ، لأنه إن غلب جانبُ الرجاء صار من الآمنين من عذاب اللّه ، وإن غلب جانب الخوف صار من القانطين من رحمة اللّهِ ، وكلاهما سيئ ، فينبغي أن يكون خوفه ورجاؤه واحدًا .

ثم ذكر المؤلف رَحِمَهُ ٱللَّهُ آيات في سياق باب الخوف ، سبق بعضها ، ومنها قوله تعالى : ﴿ وَيُحَذِّرُكُمُ ٱللَّهُ نَفْسَهُۥ ﴾ [آل عمران : ٢٨] يعني أن اللّه عَزَّ وَجَلَّ يحذرنا من نفسه أن يعاقبنا على معاصينا وذنوبنا ، وقال تعالى : ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱتَّقُواْ رَبَّكُمْۚ إِنَّ زَلْزَلَةَ ٱلسَّاعَةِ شَىْءٌ عَظِيمٌ ۝ يَوْمَ تَرَوْنَهَا تَذْهَلُ كُلُّ مُرْضِعَةٍ عَمَّآ أَرْضَعَتْ وَتَضَعُ كُلُّ ذَاتِ حَمْلٍ حَمْلَهَا وَتَرَى ٱلنَّاسَ سُكَٰرَىٰ وَمَا هُم بِسُكَٰرَىٰ وَلَٰكِنَّ عَذَابَ ٱللَّهِ شَدِيدٌ ﴾ [الحج : ١، ٢] .

هذا أيضًا فيه أن الإنسان يجب أن يخاف هذا اليوم العظيم ، الذي قال اللّه عنه : ﴿ يَوْمَ تَرَوْنَهَا تَذْهَلُ كُلُّ مُرْضِعَةٍ عَمَّآ أَرْضَعَتْ ﴾ يعني من شدة ما ترى من الأهوال ومن الأفزاع .

﴿ وَتَضَعُ كُلُّ ذَاتِ حَمْلٍ حَمْلَهَا وَتَرَى ٱلنَّاسَ سُكَٰرَىٰ وَمَا هُم بِسُكَٰرَىٰ ﴾ يعني مشدوهين ، ليس عندهم عقول ، ولكنهم ليسوا بسكارى . ﴿ وَمَا هُم بِسُكَٰرَىٰ وَلَٰكِنَّ عَذَابَ ٱللَّهِ شَدِيدٌ ﴾ .

وقال اللّه تبارك وتعالى : ﴿ يَوْمَ يَفِرُّ ٱلْمَرْءُ مِنْ أَخِيهِ ﴾ وسبق الكلام عليها .

وقال تعالى : ﴿ وَلِمَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِۦ جَنَّتَانِ ﴾ إلى آخر السورة ، أي : من خاف المقام بين يدي اللّه عَزَّ وَجَلَّ فإنه سوف يقوم بطاعته ، ويخشى من عقاب ، فله جنتان ، وفي أثناء الآيات يقول : ﴿ وَمِن دُونِهِمَا جَنَّتَانِ ﴾ [الرحمن : ٦٢] فهذه أربع جنات لمن خاف مقام اللّه عَزَّ وَجَلَّ ، ولكن الناس فيها على درجات . نسأل اللّه أن يجعلنا والمسلمين من أهلها بمنه وكرمه .

وأما الأحاديث فكثيرة جدًّا ، فنذكر منها طرفًا وباللّه التوفيق .

* * *

٣٩٦ - عن ابنِ مسعودٍ رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ قال : حدثنا رسول اللّه ﷺ ، وهو الصَّادِقُ المصدوقُ : « إنَّ أَحَدَكُمْ يُجْمَعُ خَلْقُه في بَطْنِ أُمِّهِ أَرْبَعينَ يومًا نُطْفَةً ، ثمَّ يَكُونُ عَلَقَةً مِثْلَ ذلِكَ ، ثُمَّ يَكُونُ مُضْغَةً مِثْلَ ذلِكَ ، ثُمَّ يُرْسَلُ المَلَكُ ، فَيَنْفُخُ فيهِ الروحَ ، وَيُؤمَرُ بأَرْبَعِ كَلِماتٍ : بِكَتْبِ رِزْقِهِ ، وأَجلِهِ ، وَعَمَلِهِ ، وَشَقيٌّ أَو سَعِيد ، فَوالَّذي لا إلهَ غَيرُهُ إنَّ أَحَدَكُمْ لَيَعْمَلُ بِعَمَلِ أَهْلِ الجَنَّةِ حَتَّى ما يَكُونُ بَينَهُ وَبينَهَا إلا ذِراعٌ ، فَيَسْبقُ عَلَيهِ الكِتَابُ ، فَيَعْمَلُ بِعَمَلِ أَهْلِ النَّارِ ، فَيَدْخُلُها ، وَإنَّ أَحَدَكُمْ لَيَعْمَلُ بِعَمَلِ أَهْلِ النَّارِ حَتَّى مَا يَكُونُ بَينَهُ وَبَينَهَا إلا ذِرَاعٌ ، فَيَسْبقُ عَلَيهِ الكِتابُ فَيَعْملُ بِعَمَلِ أَهْلِ الجَنَّةِ فَيَدْخُلُهَا » (١) متفقٌ عليه .

---

(١) أخرجه - بنحوه - البخاري في كتاب بدء الخلق (٣٢٠٨) ، ومسلم في القدر (١) ، والإمام أحمد في مسنده (٣٨٢/١) ، والترمذي في القدر (٢١٣٧) .

الشرح

ذكر المؤلف - رحمه الله تعالى - في باب الخوف والتحذير من الأمن من مكر الله ، قال فيما نقله عن عبد الله بن مسعود ﷺ ، أن النبي ﷺ قال : « إن أحدكم يجمع خلقه في بطن أمه أربعين يومًا نطفة ، ثم يكون علقة مثل ذلك ، ثم يكون مضغة مثل ذلك ، ثم يرسل إليه الملك ، فينفخ فيه الروح ويؤمر بأربع كلمات : بكتب رزقه وأجله عمله وشقي أم سعيد فو الذي لا إله غيره إن أحدكم ليعمل بعمل أهل الجنة حتى ما يكون بينه وبينها إلا ذراع ، فيسبق عليه الكتاب ، فيعمل بعمل أهل النار فيدخلها . وإن أحدكم ليعمل بعمل أهل النار ، حتى ما يكون بينه وبينها إلا ذراع فيسبق عليه الكتاب ، فيعمل بعمل أهل الجنة فيدخلها » .

قوله ﷺ : حدثنا رسول الله ﷺ ، وهو الصادق المصدوق ، يعني الصادق فيما يقول ، المصدوق فيما يوحى إليه من الوحي ، وفيما يقال له من الوحي ، فهو صادق لا يخبر إلا بالصدق ، مصدوق لا ينبأ إلا بالصدق صلوات الله وسلامه عليه .

وإنما قدم هذه المقدمة ؛ لأنه سيخبر عن أمر غيبي باطن يحدث في ظلمات ثلاث : « إن أحدكم يجمع خلقه في بطن أمه أربعين يومًا نطفة » إذا جامع الرجل امرأته ، وألقى في رحمها الماء بقي أربعين يومًا وهو نطفة على ما هو عليه ، ماء ، لكنه يتغير شيئًا فشيئًا ، يميل إلى الحمرة ، حتى يتم عليه أربعون يومًا .

فإذا تم عليه أربعون يومًا ، إذا هو قد استكمل الحُمرة وصار قطعة دم علقة ، فيمضي عليه أربعون يومًا أخرى وهو علقة ، يعني قطعة دم ، لكنها جامدة . ولكنه يثخن ويغلظ شيئًا فشيئًا ، حتى يتم له ثمانون يومًا .

فإذا تم له ثمانون يومًا فإذا ، إذا هو مضغة ؛ قطعة لحم ، هذه المضغة قال الله تعالى فيها : ﴿ مُّخَلَّقَةٖ وَغَيۡرِ مُخَلَّقَةٖ ﴾ [الحج : ٥] فتبقى أربعين يومًا ، تخلق من واحد وثمانين يومًا إلى مائة وعشرين يومًا ، ولا يتبين فيها الخلق تبينًا ظاهرًا إلا إذا تم لها تسعون يومًا في الغالب .

فإذا مضى عليها أبعون يومًا وهي مضغة ، أرسل الله إليها الملك الموكَّل بالأرحام ؛ لأن الله ﷻ يقول : ﴿ وَمَا يَعۡلَمُ جُنُودَ رَبِّكَ إِلَّا هُوَۚ ﴾ [المدثر : ٣١] ، فالملائكة جنود الله ﷻ ، وكل منهم موكَّل بشيء . منهم الموكل بالأرحام ، ومنهم الموكل بالنفوس يقبضها ، ومنهم الموكل بالأعمال يكتبها ، ومنهم الموكل بالأبدان يحفظها ،وظائف عظيمة للملائكة ، أمرهم الله ﷻ بها .

فيأتي ملك الأرحام إلى كل رحم ، فينفخ فيه الروح بإذن الله ﷻ ، وهذه الروح لا يعلمه إلا رب العالمين . قال الله تعالى : ﴿ وَيَسۡـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلرُّوحِۖ قُلِ ٱلرُّوحُ مِنۡ أَمۡرِ رَبِّي وَمَآ أُوتِيتُم مِّنَ ٱلۡعِلۡمِ إِلَّا قَلِيلٗا ﴾ [الإسراء : ٨٥] ، ينفخها في هذا البدن ، الذي هو قطعة لحم في الرحم ، ليس فيها حراك ولا إحساس ولا شيء ، فإذا نفخ هذه الروح دخلت في هذا البدن ، فتسير فيه كما تسير الجمرة في الفحمة بإذن الله ، أو الطين في المدر [1] اليابس ، فتدب في هذا الجسد حتى تدخل في الجسد كله ، فيكون إنسانًا ، ويتحرك ، وتحس الأم بتحركه بعد مائة وعشرين يومًا ، وحينئذ يكون إنسانًا ، أما قبل هذا فهو ليس بشيء .

---

(١) المدر : الطين اللزج المتماسك .

ولو سقط الجنين قبل تمام مائة وعشرين يومًا ، فليس له حكم من جهة الصلاة عليه ، بل يؤخذ ويدفن في أي حفرة من الأرض ، ولا يصلي عليه .

أما إذا تم مائة وعشرين يومًا ، يعني أربعة أشهر ، حينئذ صار إنسانًا ، فإذا سقط بعد فإنه يغسل ، ويكفن ، ويصلى عليه ، ولو كان قدر اليد ، فإنه يصلى عليه ، ويدفن في مقابر المسلمين إن كان مسلمًا .

وإن كان من أولاد النصارى ، يعني أمه وأبوه من النصارى ، فلا يدفن في مقابر المسلمين ، بل يخرج ويدفن بدون تغسيل ولا تكفين ؟ لأنه وإن كان طفلًا ، فإن الرسول سُئل عن أولاد المشركين فقال : « هم منهم » (١) .

المهم أنه أذا تم له أربعة أشهر يغسل (٢) ، ويكفَّن ، ويصلى عليه ، ويدفن في مقابر المسلمين ، ويسمى ، ويُعقُّ عنه على الأرجح ليشفع لوالديه يوم القيامة لأنه يبعث يوم القيامة .

قال النبي - عليه الصلاة والسلام - : « ويؤمر » يعني الملك « بأربع » كلمات : بكتب رزقه ، وأجله ، وعمله ، وشقي أم سعيد » .

فيكتب رزقه : وكتب الرزق يعني : هو قليل ، أم كثير ؟ ومتى يأتيه ؟ وهل ينتقص أم لا ينتقص ؟ المهم أنه يكتب كامًلا .

ويكتب أجله أيضًا : في أي يوم ؟ وفي أي مكان ؟ وفي أي ساعة ؟ وفي أي لحظة ؟ وعن بُعد أم عن قُرب ؟ وبأي سبب من الأسباب موته ؟ والمهم أنه يكتب كامًلا .

ويكتب عمله : هل هو صالح ، أم سيئ ، أم نافع ، أم قاصر على الشخص نفسه ؟ والمهم يكتب كل أعماله .

ويكتب مآله : وما أدراك ما المآل ؟ فيكتب هل شقي أم سعيد ؟ ﴿ فَأَمَّا ٱلَّذِينَ شَقُوا۟ فَفِى ٱلنَّارِ لَهُمْ فِيهَا زَفِيرٌ وَشَهِيقٌ ۝ خَـٰلِدِينَ فِيهَا مَا دَامَتِ ٱلسَّمَـٰوَٰتُ وَٱلْأَرْضُ (٣) إِلَّا مَا شَآءَ رَبُّكَ ۚ إِنَّ رَبَّكَ فَعَّالٌ لِّمَا يُرِيدُ ۝ ۞ وَأَمَّا ٱلَّذِينَ سُعِدُوا۟ فَفِى ٱلْجَنَّةِ خَـٰلِدِينَ فِيهَا مَا دَامَتِ ٱلسَّمَـٰوَٰتُ وَٱلْأَرْضُ إِلَّا مَا شَآءَ رَبُّكَ ۖ عَطَآءً غَيْرَ مَجْذُوذٍ ﴾ [هود : ١٠٦-١٠٨] .

كل هذا يكتب . لكن أين يكتب ؟ وردت آثار أنه يكتب في جبينه على جبهته .

فإن قال قائل : كيف تتسع الجبهة لكتابة هذه الأشياء كلها ؟

قلنا : لا تسأل عن أمور الغيب . ومَنْ أنت حتى تسأل عن أمور الغيب ؟ قل آمنت بالله وصدقت بالله وبرسوله ، ولا تسأل : كيف ؟

وقد وقع الآن في وقتنا ما يشهد لمثل هذا - كمبيوتر قدر اليد يكتب به الإنسان آلاف الكلمات ،

---

(١) أخرجه البخاري في الجهاد (٣٠١٢) واللفظ له ، ومسلم في الجهاد (٢٦) .

(٢) هذا هو رأي الإمام أحمد والشافعي في القديم وقال الحسن وإبراهيم والحكم وحماد والشافعي في الأم : لا يُصلى عليه . ورأى الحنفية أنه إذا ولد ميتًا لا يغسل ، وروي عن محمد وأبي يوسف أنه يغسل ويكفن ولا يصلى عليه . انظر المجموع شرح المهذب (٢٠٩/٥) وبدائع الصنائع (٤٤٧/١) والمغنى والشرح الكبير (٣٩٣/٢) .

(٣) أي غير مقطوع عنهم .

وهو من صنع البشر . فما بالك بصنع الله عَجَلَّلَ .

والمهم : أن هذا من المسائل التي يخبر بها الرسول - عليه الصلاة والسلام - وأنت لا تدركها بحسك ، فإن الواجب عليك أن تصدق وتسلم ، لأنك لو لم تصدق وتسلم إلا بما تدركه بحسك لم تكن مؤمنًا ، وما كنت مؤمنًا بالغيب ، فالذي يؤمن بالغيب هو الذي يقبل كل ما جاء عن الله ورسوله ، ويقول : آمنت بالله ورسوله وصدقت .

قال : « فوالذي لا إله غيره إن أحدكم ليعمل بعمل أهل الجنة حتى ما يكون بينه وبينها إلا ذراع ، فيسبق عليه الكتاب فيعمل بعمل أهل النار فيدخلها » . ولكن أبشروا فإن هذا الحديث مقيد ، بأنه لا يعمل بعمل أهل الجنة فيما يبدو للناس وهو من أهل النار ، وأما الذي يعمل بعمل أهل الجنة بقلب وإخلاص فإن الله لا يخذله عَجَلَّلَ ، والله أكرم من العبد ، فإذا عملت بعمل أهل الجنة بإخلاص - نسأل الله أن يجعلنا والمسلمين منهم - فإن الله لا يخذلك ، لكن فيما يبدو للناس .

والدليل على هذا القيد ما ثبت في صحيح البخاري ، أن رجلًا كان مع النبي ﷺ في غزوة ، وكان شجاعًا مقدامًا ، لا يترك للعدو شاذة ولا فاذة إلا قضى عليها ، فتعجب الناس منه ؛ ومن شجاعته ، ومن إقدامه ، فقال النبي ﷺ ذات يوم : « إنه من أهل النار » أعوذ بالله ، هذا الشجاع الذي يفتك بالعدو من أهل النار ؟ فكبُر ذلك على المسلمين ، وعظُم عليهم ، وخافوا ، كيف يصير هذا من أهل النار ؟

فقال رجل : والله لألزمنه ؛ أتابعه وأراقبه ؛ لأرى نهايته كيف تكون ؟ فمشى معه ، وفي أثناء القتال أصاب هذا الرجل الشجاع السهم فجزع ، فأخذ بسيفه فسلَّه ، فوضعه في صدره ، واتكأ عليه حتى خرج من ظهره ، قتل نفسه جزعًا ، فجاء الرجل إلى النبي ﷺ وقال : يا رسول الله أشهد أن لا إله إلا الله وأنك رسول الله . قال : وبِمَ ؟

قال : الرجل الذي قلت إنه من أهل النار . حصل له كذا وكذا .

فقال النبي ﷺ : « إن الرجل ليعمل بعمل أهل الجنة فيما يبدو للناس » الحمد لله على هذا القيد ، يعمل فيما يبدو للناس بعمل أهل الجنة وهو من أهل النار ، يظنون أنه صالح ، ولكن في قلبه فساد ، وهو من أهل النار [1] .

قال في حديث ابن مسعود : « وإن أحدكم ليعمل بعمل أهل النار حتى ما يكون بينه وبينها إلا ذراع ، فيسبق عليه الكتاب ، فيعمل بعمل أهل الجنة فيدخلها » هذا عكس الأول .

الأول : وجدنا له شاهدًا في الواقع وهي قصة هذا الرجل .

وهذا أيضًا له شاهد في الواقع ، يعمل بعمل أهل النار حتى ما يكون بينه وبينها إلا ذراع فيعمل بعمل أهل الجنة فيدخلها . وقع هذا في عهد الرسول ﷺ ، رجل يقال له : الأُصَيرم من بني عبد الأشهل ، كافر منابذ للدعوة الإلهية ، ضد المسلمين ، فلما كان في غزوة أحد ، وخرج الناس من المدينة يغزون ، ألقى الله

---

(١) انظر الحديث في البخاري في الجهاد (٢٨٩٨) ، ومسلم في الإيمان (١٧٩) .

في قلبه الإسلام ، فأسلم وخرج يجاهد .

فلما حصل ما حصل على المسلمين ، وقُتل منهم من قُتل ، وذهب الناس ينظرون في قتلاهم ، فوجدوا الأصيرم ، فقال له قومه : ما الذي جاء بك ؛ فقد عهدناك ضد هذه الدعوة ، أَحَدَبٌ [(١)] على قومك ، يعني عصبية ، أم رغبة في الإسلام ؟ قال : بل رغبة في الإسلام ، وأقرئوا الرسول ﷺ مني السلام ، وأخبروه أني أشهد أن لا إله إلا الله وأن محمدًا رسول الله ، ثم مات ، فأخبروا بذلك النبي ﷺ وأظنه قال : « إنه لمن أهل الجنة » [(٢)] .

فهذا الرجل أمضى عمره كله في الكفر ، ضد الإسلام ، وضد المسلمين ، وكان خاتمته هذه الخاتمة ، عمل بعمل أهل النار ، حتى لم يكن بينه وبينها إلا ذراع ، فسبق عليه الكتاب ، فعمل بعمل أهل الجنة ، فكان من أهل الجنة .

ساق المؤلف هذا الحديث من أجل أن نخاف وأن نرجو ، نخاف على أنفسنا من الفتنة ، ولهذا ينبغي للإنسان أن يسأل الله دائمًا الثبات : اللهم ثبتني بالقول الثابت ، وكان النبي عليه الصلاة والسلام يقول : « اللهم مقلب القلوب ، ثبت قلبي على دينك » « اللهم مصرف القلوب ، صرف قلبي إلى طاعتك » [(٣)] هذا وهو النبي ﷺ .

وأيضًا نأخذ من هذا الحديث : ألَّا نيأس ، ولا نيأس من شخص نجده على الكفر أو على الفسق ، ربما يهديه الله في آخر لحظة ، ويموت على الإسلام . نسأل الله أن يثبتنا بالقول الثابت في الحياة الدنيا وفي الآخرة ، وأن يتوفانا على الإيمان بمنّه وكرمه .

* * *

٣٩٧ – وعنه قال : قال رسول الله ﷺ : « يُؤْتَى بِجَهَنَّمَ يَومَئِذٍ لَهَا سَبْعُونَ أَلْفَ زِمَامٍ [(٤)] ، مَعَ كُلِّ زِمَامٍ سَبْعُونَ أَلْفَ مَلَكٍ يَجرُّونَهَا » [(٥)] رواه مسلم .

٣٩٨ – وعن النُّعْمَانِ بنِ بَشِيرٍ رضي الله عنهما قال : سمِعْتُ رسول الله ﷺ يقول : « إنَّ أَهْوَنَ أَهْلِ النَّار عَذَابًا يَومَ القِيَامَةِ لَرَجُلٌ يُوضَعُ في أَخْمَصِ قَدَمَيهِ [(٦)] جَمْرَتَانِ يَغْلي مِنْهُمَا دِمَاغُهُ ، مَا يَرَى أَنَّ أَحَدًا أَشَدُّ مِنْه عَذَابًا ، وَإِنَّه لأَهْوَنُهُمْ عَذَابًا » [(٧)] متفقٌ عليه .

---

(١) أخرجه أحمد في مسنده (٤٢٩/٥) ، والهيثمي في مجمع الزوائد (٣٦٣/٩) .

(٢) انظر سنن أبي داود (٢٥٣٧) ، ومسند الإمام أحمد (٤٢٨/٥ ، ٤٢٩) .

(٣) انظر صحيح مسلم في القدر (١٧) ، والإمام أحمد في مسنده (١٦٨/٢) .

(٤) سبعون ألف زمام : الزمام : ما يجعل في أنف البعير ، فيحتمل أن يكون ذلك على حقيقته ، ويحتمل أن يكون تمثيلًا لعظمها وكبرها ، بحيث إنها تحتاج إلى كل هذه الأزمّة والملائكة في الإتيان بها .

(٥) أخرجه مسلم في الجنة وصفة نعيمها (٢٩) .

(٦) أخمص قدميه : الأخمص باطن القدم الذي يتجافى عن الأرض .

(٧) أخرجه بنحوه البخاري في الرقاق (٦٥٦٢) ، ومسلم في الإيمان (٣٦٢ ، ٣٦٣ ، ٣٦٤) .

٣٩٩ – وعن سَمُرَةَ بنِ جُنْدُبٍ ﷺ أن نبيَّ اللَّه ﷺ قال : « مِنْهُمْ مَنْ تَأْخُذُهُ النَّارُ إلى كَعْبَيهِ ، وَمِنْهُمْ مَنْ تَأْخُذُهُ إلى رُكْبَتَيهِ ، وَمِنْهُمْ مَنْ تَأْخُذُه إلى حُجْزَتِهِ ، وَمِنْهُمْ مَنْ تَأْخُذُهُ إلى تَرْقُوَتِهِ »[١] رواه مسلم[٢] .

« الحُجْزَةُ » : مَعْقِدُ الإزارِ تحْتَ السُّرَّةِ ، و « التَّرْقُوَةُ » بفتحِ التاءِ وضم القاف : هِيَ العَظْمُ الَّذِي عِنْدَ ثُغْرَةِ النَّحْرِ ، وللإنْسَانِ تَرْقُوَتَانِ في النَّحْرِ .

٤٠٠ – وعن ابن عمر ﷺ أن رسول اللَّه ﷺ ، قال : « يَقُومُ النَّاسُ لِرَبِّ العَالَمِينَ حَتَّى يَغِيبَ أَحَدُهُمْ في رَشْحِهِ إلى أَنْصَافِ أُذُنَيه »[٣] متفقٌ عليه . و « الرَّشْحُ » العَرَقُ .

٤٠١ – وعن أنس ﷺ ، قال : خَطَبَنا رسول اللَّه ﷺ خُطْبَةً ما سَمِعْتُ مِثْلَهَا قَطُّ ، فقال : « لَو تَعْلَمُونَ مَا أَعْلَمُ لَضَحِكْتُم قَلِيلًا ولَبَكَيتُمْ كَثِيرًا » فَغَطَّى أَصْحَابُ رسول اللَّه ﷺ وجُوهَهُمْ ، وَلهُمْ خَنِينٌ . متفقٌ عليه .

وفي رواية : بَلَغ رسول اللَّه ﷺ عَنْ أَصْحَابِهِ شيءٌ فَخَطَبَ ، فقال : « عُرِضَتْ عَلَيَّ الجَنَّةُ وَالنَّارُ ، فَلَمْ أَرَ كَاليَومِ في الخَيرِ وَالشَّرِّ ، ولَو تَعْلَمُونَ ما أَعْلَمُ لضحِكْتُمْ قَلِيلًا ، وَلَبَكَيتُمْ كَثِيرًا » فَمَا أَتَى عَلى أَصْحَابِ رسول اللَّه ﷺ يَومٌ أَشَدُّ مِنْهُ ، غَطَّوا رُؤُوسَهُمْ وَلَهُمْ خَنِينٌ[٤] .

« الخَنِينُ » بِالخاءِ المعجمة : هُوَ البُكَاءُ مَعَ غُنَّةٍ وَانْتِشَاقِ الصَّوتِ مِنَ الأَنْفِ .

الشرح

هذه الأحاديث التي ذكرها المؤلف رحمه الله ، كلها أحاديث تفيد الخوف من يوم القيامة ومن عذاب النار ، فذكر أحاديث منها : أنه يؤتى يوم القيامة بجهنم ، لها سبعون ألف زمام ، سبعون ألف ملك يجرونها ، وهذا يدل على عظمة هذه النار – نسأل اللَّه أن يعيذنا والمسلمين منها ، ومن هول ذلك اليوم – لأن اللَّه تعالى جعل سبعين ألف ملك مع كل زمام من سبعين ألف زمام يجرون بها جهنم والعياذ باللَّه . فهذا العدد الكبير من الملائكة يدل على أن الأمر عظيم والخطر جسيم .

وبيَّن النبي ﷺ أن أهون أهل النار عذابًا ، من يوضع في قدميه جمرتان من نار يغلي منهما دماغه . وهو يرى أنه أشدُّ الناس عذابًا ، وإنه لأهونهم ؛ لأنه لو رأى غيره لهان عليه الأمر ، وتسلى به ، ولكنه يري أنه أشد الناس عذابًا والعياذ باللَّه ، فحينئذٍ يتضجر ويزداد بلاءً والعياذ باللَّه ومرضًا نفسيًا ، ولذلك ذكر النبي ﷺ هذا الحديث تحذيرًا لأمته من عذاب النار .

---

(١) تأخذه : تصل إليه .
(٢) أخرجه مسلم في الجنة وصفة نعيمها (٣٣) .
(٣) أخرجه البخاري في التفسير (٤٩٣٨) ، ومسلم في الجنة وصفة نعيمها (٦٠) .
(٤) أخرجه البخاري في تفسير القرآن (٤٦٢١) ، ومسلم في الفضائل (١٣٤) .

وذكر أيضًا أن من الناس من تبلغ النار إلى كعبيه ، وإلى ركبتيه ، وإلى حُجْزته .

وذكر أيضًا أن الناس في يوم القيامة يبلغ العرق منهم إلى الكعبين ، وإلى الركبتين ، والحقوين (١) ، ومن الناس من يلجمه العرق .

فالأمر خطير ، فيجب علينا جميعًا أن نحذر من أهوال هذا اليوم ، وأن نخاف الله ﷻ ، فنقوم بما أوجب علينا ، وندع ما حرم علينا . نسأل الله أن يعيننا والمسلمين على ذلك بمنّه وكرمه .

* * *

٤٠٢ - وعن المِقْدَادِ ؓ قال : سمعتُ رسول الله ﷺ يَقُولُ : « تُدْنَى الشَّمْسُ يَومَ القِيَامَةِ مِنَ الخَلْقِ حَتَّى تَكُونَ مِنْهُمْ كمِقْدَارِ مِيلٍ » قَالَ سُلَيمُ بْن عَامِرٍ الرَّاوِي عَنْ المِقْدَادِ : فَوَاللهِ مَا أَدْرِي ما يَعْني بِالمِيلِ ، أَمَسَافَةَ الأَرضِ أَمِ المِيلَ الَّذي تُكْتَحَلُ بِهِ العَينُ ؟ « فَيَكُونُ النَّاسُ عَلى قَدْرِ أَعْمَالِهِمْ في العَرَقِ ، فَمِنْهُمْ مَنْ يَكُونُ إلى كَعْبَيهِ ، وَمِنْهُمْ مَنْ يَكُونُ إِلى رُكْبَتَيهِ ، وَمِنْهُمْ مَنْ يَكُونُ إِلى حِقْوَيهِ ، ومِنْهُمْ مَنْ يُلْجِمُهُ العَرَقُ إلجامًا » (٢) وَأَشَار رسول الله ﷺ بِيَدِهِ إِلى فِيهِ (٣) . رواه مسلم .

٤٠٣ - وعن أبي هريرة ؓ أنَّ رسول الله ﷺ ، قال : « يَعْرَقُ النَّاسُ يَومَ القِيَامَةِ حَتَّى يَذْهَبَ عَرَقُهُمْ في الأَرْضِ سَبْعِينَ ذِرَاعًا ، وَيُلْجِمُهُمْ حَتَّى يَبْلُغَ آذَانَهمْ » (٤) متفقٌ عليه .

ومعنى « يَذْهَبُ في الأَرْضِ » : ينزل ويغوص .

٤٠٤ - وعنه قال : كنا مع رسول الله ﷺ ، إذْ سَمِعَ وَجْبَةً (٥) فقال : « هَلْ تَدْرُونَ ما هذا؟ » قلْنَا : اللهُ وَرَسُولُهُ أَعْلَمُ . قال : هذا حَجَرٌ رُمِيَ بِهِ في النَّارِ مُنْذُ سَبْعِينَ خَرِيفًا فَهُوَ يَهْوِي في النَّارِ الآنَ حَتَّى انْتَهَى إلى قَعْرِهَا ، فَسَمِعْتُمْ وَجْبَتَهَا » (٦) رواه مسلم .

٤٠٥ - وعن عَدِيِّ بنِ حَاتِمٍ ؓ قال : قال رسول الله ﷺ : « مَا مِنْكُمْ مِنْ أَحَدٍ إلا سَيُكَلِّمُهُ رَبُّهُ لَيسَ بَينَهُ وَبَينَهُ تَرْجُمَانٌ (٧) ، فَيَنْظُرُ أَيمَنَ مِنْهُ ، فَلا يَرَى إلا ما قَدَّمَ ، وَيَنْظُرُ أَشْأَمَ مِنْهُ ، فَلا يَرى

---

(١) الحقو : معقد الإزار . والمراد هنا ما يحاذي ذلك الموضع من جنبيه .

(٢) يلجمه العرق إلجامًا : أي يصل إلى فيه فيكون له بمنزلة اللجام من الحيوانات .

(٣) أخرجه مسلم في الجنة وصفة نعيمها (٦٢) .

(٤) أخرجه البخاري في الرقاق (٦٥٣٢) ، واللفظ ومسلم في الجنة وصفة نعيمها (٦١) .

(٥) وجبة : سقطة يقال : وجب الحائط ونحوه : سقط .

(٦) أخرجه مسلم في الجنة وصفة نعيمها (٣١) .

(٧) ترجمان : ترجمة الكلام أي بيانها وإيضاحها واسم الفاعل ترجمان ، وفيه لغاتٌ ترتيبها حسب الأفضلية : تَرجُمان - تُرجُمان - تَرجَمان .

إلا ما قَدَّم ، وَيَنْظُرُ بَينَ يَدَيهِ ، فَلا يَرَى إلا النَّارَ تِلْقَاءَ (١) وَجْهِهِ ، فاتَّقُوا النَّارَ (٢) وَلَو بِشِقِّ تَمْرَةٍ » (٣) متفقٌ عليه .

٤٠٦ - وعن أبي ذرٍّ ﷺ قال : قال رسول اللَّه ﷺ : « إنِّي أَرَى مَا لا تَرَونَ ، وأسمع ما لا تسمعون ، أَطَّتِ السَّمَاءُ وَحُقَّ لَهَا أَنْ تَئِطَّ ، مَا فِيهَا مَوضِعُ أَرْبَعِ أَصَابعَ إلا وَمَلَكٌ واضِعٌ جَبْهَتَهُ سَاجِدًا للَّهِ تَعَالى ، واللَّه لَو تَعْلَمُونَ مَا أَعْلَمُ ، لَضَحِكْتم قَلِيلًا ، وَلَبَكَيتُم كَثِيرًا ، وَمَا تَلَذَّذْتُم بالنِّسَاءِ عَلى الفُرُشِ ، وَلَخَرَجْتُمْ إلى الصُّعُدَاتِ تَجْأَرُونَ إلى اللَّه تعالى » رواه الترمذي وقال : حديثٌ حسنٌ (٤) .

وَ « أَطَّتْ » بفتح الهمزة وتشديد الطاءِ ، وَ « تَئِطُّ » بفتح التاءِ وبعدها همزة مكسورة ، وَالأَطِيطُ : صَوتُ الرَّحْلِ وَالقَتَبِ وَشِبْهِهِما ، وَمَعْنَاهُ : أَنَّ كَثْرَةَ مَنْ في السَّمَاءِ مِنَ المَلائِكَةِ العَابِدينَ قَدْ أَثْقَلَتْهَا حَتَّى أَطَّتْ .

وَ « الصُّعُدَات » بضم الصاد والعين : الطُّرُقَاتُ . ومعنى « تَجْأَرُونَ » : تَسْتَغِيثُون .

٤٠٧ - وعن أَبي بَرْزَةَ - براءٍ ثم زاي - نَضْلَةَ بنِ عُبَيدِ الأَسْلَمِيِّ ﷺ قال : قال رسول اللَّه ﷺ : « لا تَزُولُ قَدَمَا عَبْدٍ (٥) حَتَّى يُسْأَلَ عَنْ عُمْرِهِ فيم أَفْنَاهُ ، وَعَنْ عِلْمِهِ فِيمَ فَعَلَ فِيهِ ، وَعَنْ مَالِهِ مِنْ أَينَ اكْتَسَبَهُ ، وَفِيمَ أَنْفَقَهُ ، وَعَن جِسْمِهِ فِيمَ أَبْلاهُ » (٦) رواه الترمذي وقال : حديث حسن صحيح (٧) .

الشرح

هذه الأحاديث التي ذكرها المؤلف رحمه الله ، كلها تدل على عظم يوم القيامة ، وأن على المؤمن أن يخاف من هذا اليوم العظيم .

ذكر أحاديث فيها دنوّ الشمس من الخلائق بقدر ميل ، قال سليم بن عامر الراوي عن المقداد : لا أدري أيريد بذلك مسافة الأرض ، أم ميل المكحلة ؟ وكلاهما قريب ، وإذا كانت الشمس في أوجها في الدنيا وبعدها عنا بهذه الحرارة ، فكيف إذا كانت بهذا القرب ؟ ! .

ولكن هذه الشمس ينجو منها من شاء اللَّه ، فإن اللَّه تعالى يظل أقوامًا بظله يوم لاظل إلا ظله ، منهم من سبق ذكره وهم : السبعة الذين يظلهم اللَّه في ظله يوم لاظل إلا ظله : إمام عادل ، وشاب نشأ في طاعة اللَّه ، ورجل قلبه معلق بالمساجد ، ورجلان تحابا في اللَّه اجتمعا عليه وتفرقا عليه ، ورجل دعته امرأة ذات منصب وجمال فقال : إني أخاف اللَّه ، ورجل تصدَّق بصدقة فأخفاها حتى

(١) تلقاء : أي قباله .

(٢) اتقوا النار : أي اجعلوا صالح أعمالكم وقاية لكم منها .

(٣) أخرجه البخاري في التوحيد (٧٥١٢) ، ومسلم في الزكاة (٦٧) واللفظ له ، ورواه بنحوه الإمام أحمد في مسنده (٤/٢٥٦) .

(٤) أخرجه الترمذي في الزهد (٢٣١٢) ، وابن ماجه في الزهد (٤١٩٠) ، أحمد في مسنده (٥/١٧٣) .

(٥) لاتزول قدما عبد : أي عن موقفه للحساب إلى جنة أو نار .

(٦) وعن جسمه فيما أبلاه : في طاعة اللَّه أم في سواه ؟ (٧) أخرجه الترمذي في صفة القيامة (٢٤١٧) .

لاتعلم شماله ما تنفق يمينه ، ورجل ذكر الله خاليًا ففاضت عيناه [١] .

وكذلك من أنظر معسرًا ، أو وضع عنه [٢] ، المهم أن هناك أناسًا ينجون من حرِّ هذه الشمس ، فيظلهم الله في ظله يوم لا ظل إلا ظله .

وذكر أحاديث العرق ، وأن الناس يعرقون حتى يبلغ العرق من الأرض سبعين ذراعًا ، وحتى يلجم بعضهم إلجامًا ، وبعضهم يصلُ إلى كعبيه ، وبعضهم إلى ركبتيه ، وبعضهم إلى حقويه ، يختلف الناس حسب أعمالهم في هذا العرق . وذكر أيضًا أحاديث أخرى ، فيها التحذير من نار جهنم ، نسأل الله لنا وللمسلمين السلامة منها .

والحاصل : أن الإنسان إذا قرأ هذه الأحاديث وغيرها مما لم يذكره المؤلف ، فإن المؤمن يخاف ويحذر ، وليس بين الإنسان وبين هذا إلا أن ينتهي أجله في الدنيا ، ثم ينتقل إلى دار الجزاء ؛ لأنه ينتهي العمل . أحسن الله لنا وللمسلمين الخاتمة .

* * *

٤٠٨ - وعن أبي هريرة ﷺ قال : قرأ رسولُ اللهِ ﷺ : ﴿ يَوْمَئِذٍ تُحَدِّثُ أَخْبَارَهَا ﴾ ثم قال : « أَتَدْرُونَ مَا أَخْبَارُهَا ؟ » قالوا : اللَّهُ وَرَسُولُهُ أَعْلَمُ . قال « فَإِنَّ أَخْبَارَها أَنْ تَشْهَدَ عَلى كُلِّ عَبْدٍ أَوْ أَمَةٍ بِمَا عَمِلَ عَلى ظَهْرِهَا تَقُولُ : عَمِلْتَ كَذا وَكَذَا في يَومِ كَذَا وَكَذَا ، فَهٰذِهِ أَخْبَارُهَا » [٣] رواه التِّرمِذِي وقال : حديثٌ حسنٌ .

٤٠٩ - وعن أَبي سعيدِ الخُدْرِيِّ ﷺ قال : قال رسول الله ﷺ : « كَيفَ أَنْعَمُ وَصَاحِب القَرْنِ قَدِ التَقَمَ القَرْنَ ، وَاسْتَمَعَ الإِذْنَ مَتَى يُؤمَرُ بالنَّفْخِ فَيَنْفُخُ » فَكَأَنَّ ذٰلِكَ ثَقُلَ عَلى أَصْحَابِ رسول الله ﷺ ، فقال لَهُمْ : « قُولُوا : حَسْبُنَا اللَّهُ وَنِعْمَ الوَكِيلُ » [٤] رواه الترمذي وقال : حديثٌ حسنٌ .

٤١٠ - وعن أبي هريرة ﷺ قال : قال رسول الله ﷺ : « مَنْ خَافَ أَدْلَجَ ، وَمَنْ أَدْلَجَ بَلَغ المَنْزِلَ [٥] . أَلَا إِنَّ سِلْعَةَ اللَّهِ غَالِيَةٌ ، أَلَا إِنَّ سِلْعَةَ اللَّهِ الجَنَّةُ » [٦] رواه الترمذي وقال : حديثٌ حسنٌ .

---

(١) انظر الحديث (٣٧٦) .

(٢) انظر الحديث في صحيح البخاري في البيوع (٢٠٧٧) ، ومسلم في الزهد (٧٤) .

(٣) هذا الحديث لم يقم الشارح رحمه الله بشرحه ، والحديث أخرجه الترمذي في تفسير القرآن (٣٣٥٣) ، والإمام أحمد في مسنده (٣٧٤/٢) .

(٤) هذا الحديث لم يقم الشارح رحمه الله بشرحه ، والحديث أخرجه الترمذي في صفة القيامة (٢٤٣١) ، والإمام أحمد في مسنده بنحوه (٣٢٦/١) . قوله « صاحب القرن » أي الصور ويعني الملك الموكل به وهو إسرافيل ، قوله « التقم القرن » أي وضع فاهه عليه .

(٥) ومن أدلج بلغ المنزل : الذي يأمن فيه البيات . قيل : إن هذا مثل طالب الآخرة وكون الشيطان على طريقة يأمن الرجل منه بالطاعة والصبر . وقيل : من خاف الله فليهرب من المعاصي إلى طاعته تعالى .

(٦) أخرجه الترمذي في صفة القيامة (٢٤٥٠) .

« وَأَدْلَجَ » بإسكان الدَّال ، ومعناه : سَارَ مِنْ أَوَّلِ اللَّيلِ ، وَالمُرَادُ : التَّشْمِيرُ في الطَّاعَة . والله أعلم .

٤١١ - وعن عائشة رضي الله عنها قالت : سمعتُ رسول الله ﷺ ، يقول : « يُحْشَرُ النَّاسُ يَومَ القِيَامَةِ حُفَاةً عُراةً غُرْلًا » قُلْتُ : يا رسولَ الله ! الرِّجَالُ وَالنِّسَاءُ جَميعًا يَنْظُرُ بَعْضُهُمْ إلى بَعضٍ !؟ قال : « يَا عَائِشَةُ الأَمرُ أَشَدُّ من أَنْ يُهِمَّهُم ذٰلِكَ » .

وفي رواية : « الأَمْرُ أَهَمُّ مِن أَن يَنْظُرَ بَعضُهُم إلى بَعْضٍ » [1] متفقٌ عليه .

« غُرْلًا » بِضَمِّ الغَينِ المُعْجَمةِ ، أي : غَيرَ مختُونِينَ .

الشرح

قال المؤلف - رحمه الله تعالى - في باب الخوف ، عن أبي هريرة رضي الله عنه أن النبي ﷺ قال : « من خاف أدلج ، ومن أدلج بلغ المنزل » أدلج يعني مشى في الدلجة ، وهي أول الليل « ومن أدلج بلغ المنزل » ؛ لأنه إذا سار في أول الليل ، فهو يدل على اهتمامه في المسير ، وأنه جاد فيه ، ومن كان كذلك بلغ المنزلة : « ألا وإن سلعة الله غالية ، ألا وإن سلعة الله الجنة » . السلعة : يعني التي يعرضها الإنسان للبيع ، والجنة قد عرضها الله عز وجل لعباده ليشتروها . قال الله تعالى : ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ ٱشْتَرَىٰ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ أَنفُسَهُمْ وَأَمْوَٰلَهُم بِأَنَّ لَهُمُ ٱلْجَنَّةَ ۚ يُقَٰتِلُونَ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ فَيَقْتُلُونَ وَيُقْتَلُونَ ۖ وَعْدًا عَلَيْهِ حَقًّا فِى ٱلتَّوْرَىٰةِ وَٱلْإِنجِيلِ وَٱلْقُرْءَانِ ۚ وَمَنْ أَوْفَىٰ بِعَهْدِهِۦ مِنَ ٱللَّهِ ۚ فَٱسْتَبْشِرُوا۟ بِبَيْعِكُمُ ٱلَّذِى بَايَعْتُم بِهِۦ ۚ وَذَٰلِكَ هُوَ ٱلْفَوْزُ ٱلْعَظِيمُ ﴾ [التوبة : ١١١] .

فمن خاف : يعني من كان في قلبه خوف لله ، عمل العمل الصالح الذي ينجيه مما يخاف .

وأما حديث عائشة رضي الله عنها : قالت : سمعت النبي ﷺ يقول : « يُحشر الناس » يعني يجمعون يوم القيامة « حفاة » ليس لهم نعال « عراة » ليس عليهم ثياب « غرلًا » غير مختونين .

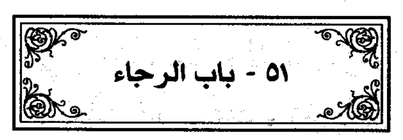
فالناس يخرجون من قبورهم كيوم ولدتهم أمهاتهم يعني في كمال الخلقة ، كما قال تعالى : ﴿ يَوْمَ نَطْوِى ٱلسَّمَآءَ كَطَىِّ ٱلسِّجِلِّ لِلْكُتُبِ ۚ كَمَا بَدَأْنَآ أَوَّلَ خَلْقٍ نُّعِيدُهُۥ ﴾ [الأنبياء : ١٠٤] ، فقالت عائشة رضي الله عنها : « يارسول الله ، الرجال والنساء » يعني عراة ينظر بعضهم إلى بعض . قال : « الأمر أهم أو أشدُّ من أن يهمهم ذلك ، أو من أن ينظر بعضهم إلى بعض » أي إن الأمر عظيم جدًّا ، لا ينظر أحدٌ إلى أحد ﴿ لِكُلِّ ٱمْرِئٍ مِّنْهُمْ يَوْمَئِذٍ شَأْنٌ يُغْنِيهِ ﴾ [عبس : ٣٧] .

نسأل الله تعالى أن ينجينا والمسلمين من عذاب النار ، وأن يجعلنا وإياكم ممن يخافه ويرجوه .

* * *

---

(١) أخرجه بنحوه البخاري في الرقاق (٦٥٢٧) ، وأخرج مسلم الرواية الثانية بلفظها في الجنة وصفة نعيمها (٥٦) واللفظ له .



٥١ - باب الرجاء

قال اللَّه تعالى : ﴿ قُلْ يَٰعِبَادِيَ ٱلَّذِينَ أَسْرَفُوا۟ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ [(١)] لَا تَقْنَطُوا۟ [(٢)] مِن رَّحْمَةِ ٱللَّهِ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ يَغْفِرُ ٱلذُّنُوبَ جَمِيعًا ۚ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلْغَفُورُ ٱلرَّحِيمُ ﴾ [الزمر : ٥٣] وقال تعالى : ﴿ وَهَلْ نُجَٰزِىٓ إِلَّا ٱلْكَفُورَ ﴾ [سبأ : ١٧] وقال تعالى : ﴿ إِنَّا قَدْ أُوحِىَ إِلَيْنَآ أَنَّ ٱلْعَذَابَ عَلَىٰ مَن كَذَّبَ وَتَوَلَّىٰ ﴾ [طه : ٤٨] وقال تعالى : ﴿ وَرَحْمَتِى وَسِعَتْ كُلَّ شَىْءٍ ﴾ [الأعراف : ١٥٦] .

٤١٢ - وعن عُبادةَ بن الصامتِ ﷺ قال : قال رسول اللَّه ﷺ : « مَنْ شَهِدَ أَنْ لا إله إلا اللَّهُ وَحْدَهُ لاَ شَرِيكَ لَهُ ، وَأَنَّ مُحَمَّدًا عَبْدُهُ وَرَسُولُهُ ، وَأَنَّ عِيسى عَبْدُ اللَّهِ وَرَسُولُهُ ، وَكَلِمَتُهُ أَلْقاها إلى مَرْيَمَ وَرُوحٌ منْهُ ، والجَنَّةَ حَقٌّ ، وَالنَّارَ حَقٌّ ؛ أَدْخَلَهُ اللَّهُ الجَنَّةَ على ما كانَ مِنَ العَمَلِ » متفقٌ عليه .

وفي روايةٍ لمسلم : « مَنْ شَهِدَ أَنْ لا إلهَ إلا اللَّهُ ، وَأَنَّ مُحَمَّدًا رسولُ اللَّهِ ، حَرَّمَ اللَّهُ عَلَيهِ النَّارَ » [(٣)] .

٤١٣ - وعن أبي ذرٍّ ﷺ قال : قال النبيُّ ﷺ : « يقول اللَّهُ عزَّ وجَلَّ : مَنْ جاءَ بِالحَسَنَةِ ، فَلَهُ عَشرُ أَمْثالِها أَو أَزِيدُ ، وَمَنْ جاءَ بِالسَّيِّئَةِ ، فَجَزاءُ سَيِّئَة سَيِّئَة مثْلُها أَو أَغْفِرُ . وَمَنْ تَقَرَّبَ مِنِّي شِبْرًا تَقَرَّبْتُ مِنْهُ ذِراعًا ، وَمَنْ تقرَّبَ مِنِّي ذِراعًا تَقَرَّبْتُ مِنْهُ باعًا ، وَمَنْ أَتاني يَمْشي أَتَيتُهُ هَرْوَلَةً ، وَمَنْ لَقِيَني بِقُرَابِ الأَرْضِ خَطِيئَةً لا يُشْرِكُ بي شَيئًا لَقِيتُهُ بِمِثْلِها مَغْفِرَةً » [(٤)] رواه مسلم .

معنى الحديث : « مَنْ تَقَرَّبَ » إِلَيَّ بطاعَتي « تقَرَّبْتُ » إِلَيهِ بِرَحْمَتي ، وَإِنْ زادَ زِدْتُ ، « فَإِنْ أَتاني يَمْشي » وَأَسْرَعَ في طاعَتي « أَتَيتُهُ هَرْوَلَةً » أَي : صَبَبْتُ عَلَيهِ الرَّحْمَةَ ، وَسَبَقْتُهُ بها ، وَلَمْ أُحوِجْهُ إِلى المَشْيِ الكَثِيرِ في الوُصُولِ إلى المَقْصُودِ ، « وَقُرابُ الأَرْضِ » بضمِّ القافِ ويُقال بكسرها ، والضمُّ أصحُّ وأشهر ، ومعناه : ما يُقارِبُ مِلأَها ، واللَّهُ أعلم .

٤١٤ - وعن جابر ﷺ قالَ : جَاءَ أَعْرابيٌّ إلى النبيِّ ﷺ فقال : يا رَسُولَ اللَّهِ ، ما المُوجِبَتانِ [(٥)] ؟ فَقالَ : « مَنْ مَاتَ لاَ يُشْرِكُ بِاللَّهِ شَيئًا دَخَلَ الجَنَّةَ ، وَمَنْ مَاتَ يُشْرِكُ بِهِ شَيئًا دَخَلَ النَّارَ » [(٦)] رواه مسلم .

---

(١) ﴿ أَسْرَفُوا۟ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ ﴾ : أي أفرطوا في الجناية عليها .

(٢) ﴿ لَا تَقْنَطُوا۟ ﴾ : لا تيأسوا .

(٣) أخرجه البخاري في أحاديث الأنبياء (٣٤٣٥) بلفظ الرواية الأولى ، وأخرج الثانية مسلم في الإيمان (٤٧) والترمذي في سننه (٢٦٣٨) .

(٤) أخرجه مسلم في الذكر والدعاء (٢٢) .

(٥) الموجبتان : الخصلة الموجبة للجنة والخصلة الموجبة للنار .

(٦) أخرجه مسلم في الإيمان (١٥١) .

٤١٥ - وَعن أَنَسٍ ﷺ أَنَّ النَّبِيَّ ﷺ ، ومُعاذٌ رديفُهُ على الرَّحْلِ قالَ : « يا مُعاذُ » قال : لَبَّيكَ يا رَسُولَ اللّهِ وَسَعْدَيكَ ، قالَ : « يَا مُعاذُ » قالَ : لَبَّيكَ يا رَسُولَ اللّهِ وَسَعْدَيكَ . قالَ : « يَا مُعاذُ » قال : لَبَّيكَ يا رَسُولَ اللّه وَسَعْدَيكَ - ثلاثًا - قالَ : « ما مِنْ عَبْدٍ يَشْهَدُ أَنْ لا إلهَ إلا اللّهُ ، وأَنَّ مُحَمدًا عَبْدُهُ وَرَسُولُهُ صِدْقًا مِنْ قَلْبِهِ ؛ إلا حَرَّمَهُ اللّهُ عَلى النَّارِ » قالَ : يَا رَسُولَ اللّه أَفَلا أُخْبِرُ بها النَّاسَ فَيَسْتَبْشِرُوا ؟ قال : « إِذًا يَتَّكِلُوا » فَأَخْبَرَ بها مُعاذٌ عِنْدَ مَوتِهِ تَأَثُّمًا [1] . متفقٌ عليه .

وقوله : « تَأَثُّمًا » أي : خَوفًا مِنَ الإثمِ في كَتْمِ هذا العِلْمِ .

الشرح

لما ذكر المؤلف رحمه الله باب الخوف ذكر باب الرجاء ، وكأنه رحمه الله يغلب جانب الخوف ، أو يقول : إذا رأيت الخوف قد غلب عليك ، فافتح باب الرجاء .

ثم ذكر المؤلف آيات وأحاديث ، منها قول اللّه تعالى ﴿ قُلْ يَٰعِبَادِىَ ٱلَّذِينَ أَسْرَفُوا۟ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ لَا تَقْنَطُوا۟ مِن رَّحْمَةِ ٱللَّهِ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ يَغْفِرُ ٱلذُّنُوبَ جَمِيعًا ﴾ [الزمر : ٥٣] هذه الآية نزلت في التائبين ، فإن من تاب تاب اللّه عليه وإن عظم ذنبه ، كما قال اللّه تعالى : ﴿ وَٱلَّذِينَ لَا يَدْعُونَ مَعَ ٱللَّهِ إِلَٰهًا ءَاخَرَ وَلَا يَقْتُلُونَ ٱلنَّفْسَ ٱلَّتِى حَرَّمَ ٱللَّهُ إِلَّا بِٱلْحَقِّ وَلَا يَزْنُونَ ۚ وَمَن يَفْعَلْ ذَٰلِكَ يَلْقَ أَثَامًا [2] ﴿٦٨﴾ يُضَٰعَفْ لَهُ ٱلْعَذَابُ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ وَيَخْلُدْ فِيهِۦ مُهَانًا ﴿٦٩﴾ إِلَّا مَن تَابَ وَءَامَنَ وَعَمِلَ عَمَلًا صَٰلِحًا فَأُو۟لَٰٓئِكَ يُبَدِّلُ ٱللَّهُ سَيِّـَٔاتِهِمْ حَسَنَٰتٍ ۗ وَكَانَ ٱللَّهُ غَفُورًا رَّحِيمًا ﴾ [الفرقان : ٦٨- ٧٠] . فمن تاب من أي ذنب ، فإن اللّه يتوب عليه مهما عظم ذنبه ، لكن إن كانت المعصية في أمر يتعلق بالمخلوقين ، فلا بد من إيفائهم حقهم في الدنيا قبل الآخرة ، حتى تصح توبتك .

أما غير التائبين ، فقد قال اللّه تعالى : ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَغْفِرُ أَن يُشْرَكَ بِهِۦ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَٰلِكَ لِمَن يَشَآءُ ﴾ [النساء : ٤٨] فغير التائبين أن كان عملهم كفرًا ؛ فإنه لا يغفر ، إن كان سوى الكفر ، فإنه تحت المشيئة ، وإن شاء اللّه عذب عليه ، وإن شاء غفر له . لكن إن كان من الصغائر ، فإن الصغائر تكفر باجتناب الكبائر ، وببعض الأعمال الصالحة .

ثم ذكر المؤلف أحاديث متعددة في هذا الباب ، وكلها أحاديث توجب للإنسان قوة الرجاء باللّه عز وجل ، حتى يلاقي الإنسان ربه وهو يرجو رحمته ، ويغلبها على جانب الخوف .

وفيها أحاديث مطلقة مقيدة بنصوص أخرى ، مثل ما ذكره رحمه الله في أن من لقي اللّه عز وجل لا يشرك به شيئًا دخل الجنة ، ومن لقيه يشرك به شيئًا دخل النار . المراد بهذا : الشرك وكذلك الكفر ، ككفر الجحود والاستكبار وما أشبه ذلك ؛ فإنه داخل في الشرك الذي لا يغفر . نسأل اللّه أن يجعلنا

---

(١) أخرجه البخاري في العلم (١٢٨) ، ومسلم في الإيمان (٥٣) واللفظ له ، وليس فيه كلمة (صدقًا) .

(٢) ﴿ أَثَامًا ﴾ أي : جزاء الإثم .

ممن يرجون رحمته ويخافون عذابه .

* * *

٤١٦ - وعَنْ أَبِي هريرةَ - أَو أَبي سَعيدِ الخُدْرِيِّ ﷺ شَكَّ الرَّاوِي ، وَلا يَضُرُّ الشَّكُّ في عَيْنِ الصَّحَابِيِّ ؛ لأنهم كُلَّهُمْ عُدُولٌ - قال : لما كانَ غَزْوَةُ تَبُوكَ ، أصابَ الناسَ مَجَاعَةٌ ، فَقَالُوا : يا رَسُولَ اللّهِ لَو أَذِنْتَ لَنَا فَنَحَرْنَا نَوَاضِحَنا ، فَأَكَلْنا وَادَّهَنَّا ؟ فَقالَ رسول اللّه ﷺ : « افْعَلُوا » فَجاءَ عُمَرُ ﷺ فقالَ : يا رَسُولَ اللّهِ إنْ فَعَلْتَ ، قَلَّ الظَّهْرُ ، وَلكِنِ ادْعُهُمْ بفَضْلِ أَزْوَادِهِمْ ، ثُمَّ ادْعُ اللّهَ لهُمْ عَلَيها بِالبَرَكَةِ لَعَلَّ اللّهَ أَنْ يَجْعَلَ في ذِلكَ البَرَكَةَ . فَقَالَ رَسُولُ اللّهِ ﷺ : « نَعَمْ » فَدَعَا بِنِطَعٍ فَبَسَطَهُ ، ثُمَّ دَعَا بِفَضْلِ أَزْوَادِهِمْ ، فَجَعَلَ الرَّجُلُ يجيءُ بكَفِّ ذُرَةٍ ، ويجيءُ الآخَرُ بِكَفِّ تمرٍ ، ويجيءُ الآخَرُ بكِسرَةٍ حَتى اجْتَمَعَ عَلى النِّطْعِ مِنْ ذِلكَ شَيءٌ يَسِيرٌ ، فَدَعَا رسول اللّه ﷺ بِالبَرَكَةِ ، ثُمَّ قالَ : « خُذُوا في أوعِيَتِكُمْ » فَأَخَذُوا في أَوعِيَتهِمْ حتى ما تَرَكُوا في العَسْكَرِ وِعَاء إلا مَلَؤُوهُ ، وَأَكَلُوا حَتَّى شَبِعُوا وَفَضَلَ فَضْلَةٌ ، فقالَ رسول اللّه ﷺ : « أَشْهَدُ أَنْ لا إلهَ إلا اللّهُ ، وأَنِّي رَسُولُ اللّهِ ، لاَ يَلْقَى اللّهَ بهما عَبْدٌ غَيرُ شاكٍّ ، فَيُحْجَبَ عَنِ الجَنَّةِ » [١] . رواه مسلم .

٤١٧ - وَعَنْ عِتْبَانَ بن مالكٍ ﷺ وهو مِمَّنْ شَهِدَ بَدْرًا ، قالَ : كُنْتُ أُصَلِّي لِقَومِي بَنِي سالمٍ ، وَكَانَ يَحُولُ بَيني وَبَينَهُم وادٍ إذا جاءتِ الأَمْطَارُ ، فَيَشُقُّ عَلَيَّ اجْتِيَازُهُ قِبَلَ مَسْجِدِهِمْ ، فَجِئْتُ رسول اللّه ﷺ ، فقلتُ له : إنِّي أَنْكَرتُ بَصَرِي [٢] ، وَإنَّ الوَادِيَ الَّذِي بَيني وَبَينَ قَومي يَسِيلُ إذا جَاءتِ الأَمْطارُ ، فَيَشُقُّ عَلَيَّ اجْتِيازُهُ ، فَوَدِدْتُ أَنَّكَ تأتي ، فَتُصَلِّي في بَيتي مَكانًا أَتَّخِذُهُ مُصَلَّى ، فقال رسول اللّه ﷺ : « سَأَفْعَلُ » . فَغَدا عليَّ رَسُولُ اللّهِ ، وأَبُو بَكْرٍ ﷺ بَعْدَ ما اشْتَدَّ النَّهارُ ، وَاسْتَأْذَنَ رسول اللّه ﷺ ، فَأَذِنْتُ لهُ ، فَلَمْ يَجْلِسْ حتى قالَ : « أينَ تُحِبُّ أَنْ أُصَلِّيَ مِنْ بَيتِكَ ؟ » فَأَشَرْتُ لَهُ إلى المكانِ الَّذي أُحِبُّ أَنْ يُصَلِّيَ فيه ، فَقَامَ رسول اللّه ﷺ ، فَكَبَّرَ وَصَفَفْنَا وراءهُ ، فَصَلَّى رَكعَتَينِ ، ثُمَّ سَلَّمَ وَسَلَّمْنَا حِينَ سَلَّمَ ، فَحَبَسْتُهُ عَلى خَزِيرَةٍ تُصْنَعُ لَهُ ، فَسَمِعَ أَهْلُ الدَّارِ أَنَّ رسول اللّه ﷺ في بَيتي ، فَثَابَ رجالٌ منهمْ حَتَّى كَثُرَ الرِّجالُ في البَيتِ ، فَقالَ رَجُلٌ : مَا فَعَلَ مَالِكٌ لا أَرَاهُ ؟! فَقالَ رَجُلٌ : ذلِكَ مُنافِقٌ لاَ يُحِبُّ اللّهَ ورَسُولَهُ ، فقالَ رسول اللّه ﷺ : « لاَ تَقُلْ ذلِكَ ، أَلَا تَرَاه قالَ : لا إله إلا اللّهُ

---

(١) هذا الحديث لم يقم الشارح رحمه الله بشرحه ، والحديث أخرجه مسلم في الإيمان (٤٥) ، قوله « نواضحنا » النواضح من الإبل : التي يُستقى عليها ، قوله « وادهنا » أي اتخذنا دهنًا من شحومها لارتفقنا بذلك ، أو لكان خيرًا أو صوابًا ، قوله « الظهر » المراد الدواب ، قوله « بفضل أزوادهم » أي باقيه ، وزاد المسافر : طعامه المتخذ لسفره ، قوله « بِنِطَعٍ » النِّطع بساط متخذ من أديم ، والجمع أنطاع ، وكانت تتخذ بين يدي الملوك والأمراء إذا أرادوا قتل أحد صبرًا لصيانة المجلس من الدم .

(٢) قوله « أنكرت بصري » وردت في بعض الروايات : « أصابني في بصري بعض الشيء » وفي بعضها « ساء بصري » وفي بعضها « وأنا رجل ضرير البصر » وفي رواية لمسلم « أنه عمي فأرسل » وقرب ابن حجر بين هذه الروايات بقوله : (أطلق عليه عمي لقربه منه ومشاركته له في فوات بعض ما كان يعهده في حال الصحة) انظر فتح البارى (١/ ٥٢٠) .

يَبْتَغِي لذلِكَ وَجْهَ اللَّهِ تَعالى ؟! » . فَقَالَ : اللَّهُ وَرَسُولُهُ أَعْلَمُ ، أَمَّا نَحْنُ فَوَاللَّهِ ما نَرَى وُدَّهُ ، وَلا حَدِيثَهُ إلا إلى المُنَافِقِينَ ! فقالَ رسول اللَّه ﷺ : « فَإِنَّ اللَّهَ قَدْ حَرَّمَ على النَّارِ مَنْ قَالَ : لا إلهَ إلا اللَّه يَبْتَغِي بِذلِكَ وَجْهَ اللَّهِ » [١] متفقٌ عليه .

و « عِتْبان » بكسر العين المهملة ، وإسكان التاء المُثَنَّاةِ فَوقُ وبَعْدَهَا باءٌ مُوَحَّدَةٌ . و« الخَزِيرَةُ » بالخاءِ المُعْجَمَةِ ، وَالزَّايِ : هي دَقِيقٌ يُطْبَخُ بِشَحْمٍ . وقوله : « ثَابَ رِجَالٌ » بالثَّاءِ المُثَلَّثَةِ ، أَي : جَاءوا وَاجْتَمَعُوا .

الشرح

قال المؤلف - رحمه اللَّه تعالى - فيما نقله عن عتبان بن مالك ﷺ ،وكان يؤم قومه بني سالم ، « وكان بينه » أي بين بيته وبين قومه « وادٍ » يعني شعيب يجري فيه السيل فإذا جاء السيل شق عليه عبوره . وأضف إلى ذلك أن بصره ضعف ، فصار يشق عليه مرتين ، من جهة المشي ، ومن جهة البصر والنظر . فجاء فأخبر النبي ﷺ بذلك وطلب منه أن يأتي إلى بيته ليصلي في مكان من البيت ، يتخذه عتبان مصلي يصلي فيه ، وإن لم يكن مسجدًا . فقال النبي ﷺ : « سأفعل » ثم خرج هو وأبو بكر ﷺ حين اشتد النهار ، وكان أبو بكر رفيقه حضرًا وسفرًا ، لا يفارقه ، كثيرًا ما يكون معه ، وكثيرًا ما يقول الرسول - عليه الصلاة والسلام - : « جئت أنا وأبو بكر وعمر ، ذهبت أنا وأبو بكر وعمر ، رجعت أنا وأبو بكر وعمر » [٢] ، فهما صاحباه ووزيراه ﷺ ، صاحباه في الدنيا ، وصاحباه في البرزخ ، هؤلاء الثلاثة يقومون للَّه رب العالمين من مكان واحد ، من البيت الذي دفن فيه الرسول - عليه الصلاة والسلام - والذي أصبح الآن في قرارة المسجد النبوي .

انظر إلى الحكمة : اختار اللَّه ﷻ أن يكون البيت الذي دفن فيه الرسول داخل المسجد ، ليقوم هؤلاء الثلاثة يوم القيامة من وسط المسجد ، مسجد النبي - عليه الصلاة والسلام - وعلى هذا لا تكره شيئًا اختاره اللَّه ، قد يختار اللَّه شيئًا فيه مصلحة عظيمة لا تدري عنها أنت ، كره الناس أن يكون بيت الرسول الذي دفن فيه في وسط المسجد ، وقالوا : هذا شبهة لعباد القبور الذين ينون المساجد على المقابر . ولكن ليس في ذلك شبهة ؛ لأن المسجد لم ين على القبر ، وإنما امتدَّ المسجد وبقي القبر في البيت مستقلا عن المسجد ، ليس فيه حجة لأي إنسان إلا رجُلا مبطِّلا ، يقول كما قال إبليس : ﴿ أَنَا۠ خَيْرٌ مِّنْهُ خَلَقْتَنِى مِن نَّارٍ وَخَلَقْتَهُۥ مِن طِينٍ ﴾ [الأعراف : ١٢] لكن انظر الحكمة ، أن يكون خروجهم يوم القيامة من مكان واحد ، من جوف المسجد النبوي ، سبحان اللَّه العظيم ! حكمة تغيب عن كثير من الناس . المهم أن النبي ﷺ خرج حين اشتد النهار ، يعني حين ارتفعت الشمس إلى دار بني مالك ، فاستأذن ، فأذن له ، فدخل ولم يجلس ، بل قال : « أين تحب أن أصلي ؟ » لأنه جاء لغرض ، فأحب أن يبدأ بالغرض الذي جاء من أجله قبل أي شيء ، وهذا من الحكمة ، أنك إذا أردت

---

(١) أخرجه البخاري بنحوه في الصلاة (٤٢٥) ، ومسلم في المساجد (٢٦٣) .

(٢) ويدل لذلك ما رواه : البخاري في فضائل أصحاب النبي ﷺ (٣٦٧٧) .

شيئًا لا تعرج إلى غيره حتى تنتهي منه من أجل أن تضبط الوقت ويبارك لك فيه .

كثير من الناس تضيع عليه الأوقات بسبب أنه يتلقف الأشياء . وأضرب لهذا مثلًا : هب أنك تريد أن تراجع مسألة من مسائل العلم في كتاب من الكتب ، تقرأ الفهرس ، لأجل أن تعرف أين مكان هذه المسألة ، ثم تمر بك مسألة فتقول : أريد أن أطلع على هذه المسألة . ثم تطلع على الأخرى ، ويفوتك المقصود الذي من أجله راجعت هذا الكتاب . لكن ابدأ أولًا بما أردت قبل أي شيء ، ثم بعد ذلك ما زاد فهو فضل . فصلى النبي ﷺ بالمكان ، وصلوا معه جماعة ؛ لأن هذه جماعة عارضة لا دائمة .

ثم لما فرغ من صلاته ، إذا هو قد أعد له طعامًا زهيدًا ، فسمع أهل الدار . الدار هو ما نسميه عندنا بالحي والحارة ، سمع أهل الدار أن الرسول ﷺ عند عتبان بن مالك ، فثاب إليه أناس ، يعني اجتمعوا يريدون أن يهتدوا بالنبي - عليه الصلاة والسلام - ويسمعوا من قوله ، ويأخذوا من سنته ، فاجتمعوا فقالوا : أين فلان ؟ قالوا : ذاك منافق . ذاك منافق . فأنكر النبي ﷺ على من قال ذلك وقال : « لا تقل ذلك ، ألا تراه قال لا إله إلا اللَّه يبتغي بذلك وجه اللَّه ؟ » .

فقال الرجل : اللَّه ورسوله أعلم ؛ لأن من قال : لا إله إلا اللَّه يبتغي بذلك وجه اللَّه فهو مؤمن ليس منافقًا ، والمنافق يقولها رياءً وسمعة ، لا تدخل قلبه والعياذ باللَّه ، أما من قالها يبتغي بها وجه اللَّه فإنه مؤمن بها ، مصدق ، تدخل قلبه .

ثم إن النبي ﷺ قال : « إن اللَّه حرم على النار من قال لا إله إلا اللَّه ، يبتغي بذلك وجه اللَّه » . فكل من قالها يبتغي وجه اللَّه فإن اللَّه يحرمه على النار لماذا ؟ لأنه إذا قالها يبتغي بها وجه اللَّه ؛ فإنه سيقوم بمقتضاها ، ويعمل بما تقتضيه هذه الكلمة العظيمة ، من أداء الواجب ، وترك المحرم ، والإنسان إذا أدى الواجب وترك المحرم ، أحل الحلال ، وحرم الحرام ، وقام بالفرائض ، واجتنب النواهي ، فإن هذا من أهل الجنة ، يدخل الجنة ويحرم اللَّه عليه النار .

وليس في هذا الحديث دليل على أن تارك الصلاة لا يكفر ؛ لأننا نعلم علم اليقين ، مثل الشمس ، أن من قال لا إله إلا اللَّه يبتغي بذلك وجه اللَّه لا يمكن أن يترك الصلاة . هذا محال ، فالذي يقول : أنا أقول لا إله إلا اللَّه أبتغي بذلك وجه اللَّه ، وهو لا يصلي ؛ فهو من أكذب الكاذبين . لو كان يبتغي وجه اللَّه ما ترك الصلاة ، التي هي أعظم أركان الإسلام بعد الشهادتين .

وفي هذا الحديث فوائد :

منها : أن من كانت حاله مثل حال عتبان بن مالك ، فإنه معذور بترك الجماعة وله أن يصلي في بيته ، مثل أن يكون بينه وبين المسجد وادٍ لا يستطيع العبور معه ، فإنه معذور .

ومنها : جواز قول الإنسان سأفعل في المستقبل ، إذا قال ستأتينا غدًا ، قال : سآتيك ، وإن لم يقل إن شاء اللَّه . فإن قال قائل : ما الجمع بين هذا وبين قوله تعالى : ﴿ وَلَا تَقُولَنَّ لِشَاْىءٍ إِنِّي فَاعِلٌ ذَٰلِكَ

غَدًا ۝ إِلَّآ أَن يَشَآءَ ٱللَّهُ ﴾ [الكهف: ٢٣، ٢٤] ، لشيء: عام سواء من فعل الله أو من فعلك ؟ .

قلنا : إن الذي يقول سآتيك غدًا له نيتان :

النية الأولى : أن يقول هذا جازمًا بالفعل ، فهذا لا يقوله إلا أن يقول إن شاء الله ؛ لأنه لا يدري أيأتي عليه الغد أم لا ، ولا يدري هل إذا أتى عليه الغد يكون قادرًا ، يحول بينه وبينه مانع أو لا .

النية الثانية : إذا قال : سأفعل ، يريد أن يخبر عما في قلبه من الجزم دون أن يقصد الفعل ، فهذا لا بأس به ؛ لأنه يتكلم عن شيء حاضر ، مثل لو قيل : هل ستسافر مكة ، قلت : نعم سأسافر . تريد أن تخبر عما في قلبك من الجزم ، هذا شيء حاضر حاصل ، أما إن أردت الفعل ، أنك ستفعل يعني سيقع منك هذا ؛ فهذا لا تقل فيه سأفعل إلا مقرونًا بمشيئة الله .

ومنها : أن الإنسان يعذر بترك الجماعة فيها إذا كان بينه وبين المسجد ما يشق عليه من وحل أو ماء أو غيره ، وقد كان من هدي النبي ﷺ أنه كان ينادي مناديه في الليلة المطيرة (١) ، أن صلوا في رحالكم ، يعني في أماكنكم . وذلك من أجل أن لا يشق على الناس ، فإما إذا كان ماء بلا مشقة وبلا دحر ووحل ، فإنه لا يعذر الإنسان بترك الجماعة (٢) .

ومن فوائد حديث عتبان بن مالك رضي الله عنه : أن المصلي في بيته لا يصلي إلا فيه ، فليس بمسجد ، سواء حَجَّره أو لم يُحَجِّره .

وعلى هذا فلا تثبت له أحكام المسجد ، فيجوز للإنسان أن يبقى فيه وهو جنب ، وإذا جلس فيه لا يلزمه تحية المسجد فكل أحكام المساجد لا تثبت له ، وإذا أراد أن يعتكف فيه لم يصح اعتكافه . حتى لو كانت امرأة ولها مسجد في بيتها ، فإنها لا تعتكف فيه .

ومن فوائد حديثه رضي الله عنه : أنه يجوز أن تقام الجماعة في النوافل لكن ليس دائمًا بل أحيانًا ، فإن النبي ﷺ لما أراه عتبان المكان الذي يصلي فيه تقدم وصلى بهم ركعتين وصلوا خلفه ، فإذا صلى الإنسان الراتبة مثلا أو سنة الضحى ، إذا صلاها جماعة ، فلا بأس أحيانًا .

وثبت عنه ﷺ أنه صلى معه ابن عباس رضي الله عنهما (٣) صلاة الليل ، وصلى معه ابن مسعود (٤) ، وصلى معه حذيفة (٥) ، لكن ليس دائمًا .فصلاة الجماعة نفلًا أحيانًا لا بأس بها .

(١) انظر البخاري في الأذان (٦٣٢ ، ٦٦٦) ، ومسلم في صلاة المسافرين (٢٢، ٢٤) .
(٢) انظر : مسلم في المساجد (٢٥٥) .
(٣) انظر البخاري في الوضوء (١٨٣) ، ومسلم في صلاة المسافرين (١٨٢) ، وأبو داود في سننه (١٣٦٤) .
(٤) انظر البخاري في التهجد (١١٣٥) ، ومسلم في صلاة المسافرين وقصرها (٢٠٤) ، وأحمد في مسنده (٣٨٥/١) .
(٥) انظر مسلم في صلاة المسافرين (٢٠٣) ، وأبو داود في السنن (٨٧٤) والإمام أحمد في مسنده (٣٩٨/٥) .

ومن فوائد هذا الحديث : أنه لا بأس أن يتخذ الإنسان مصلى يعتاد الصلاة فيه في بيته ، ولا يقال : إن هذا مثل اتخاذ مكان معين في المسجد لا يصلى إلا فيه ، فإن هذا منهي عنه ، يعني ينهى الإنسان أن يتخذ في المسجد مكانًا لا يصلى فيه ، مثل أنه لا يصلي النافلة لا تحية المسجد ولا غيرها إلا فيه ، فإن النبي ﷺ نهى عن استيطان كاستيطان البعير [١] ، يعني عن اتخاذ موطنٍ كأعطان الإبل ، تأوي إليه وتبيت فيه .

ومنها : أنه يجب على الإنسان أن يحبس لسانه عن الكلام في الناس ، بنفاق ، أو كفر ، أو فسق ، إلا ما دعت الحاجة إليه ؛ فإنه لابد أن يبينه ؛ لأن النبي ﷺ لما قال رجل عن مالك : إنه منافق ، قال : « لا تقل هكذا ، أما علمت أنه قال : لا إله إلا اللّٰه يبتغي بذلك وجه اللّٰه » .

لكن هذا متى يحصل أن يشهد الرسول - عليه الصلاة والسلام - لرجل بالإخلاص ، هو ليس بحاصل بعد موت الرسول - عليه الصلاة والسلام - إنما ليس لنا إلا الظاهر، فمن ظهر لنا من حالة الصلاح وجب علينا أن نحكم له بالصلاح ، وألا نغتابه ولا نسبه .

ومن فوائد هذا الحديث : محبة الصحابة لرسول اللّٰه ﷺ والجلوس إليه ؛ لأنهم لما علموا أنه عند عتبان ابن مالك ثابوا إليه ، واجتمعوا عنده ، ليتعلموا منه ، وينالهم من بركة علمه - عليه الصلاة والسلام .

ومنها : ما سبق أن أشرنا إليه أن الإنسان يبدأ بالشغل الذي يريد قبل كل شيء ؛ لأن النبي ﷺ صلى في المكان قبل أن ينظر إلى ما صنع له من الطعام .

ومن فوائده أيضًا : أن الرسول - عليه الصلاة والسلام - كان على جانب كبير من التواضع ؛ لأنه لما انتهى من الصلاة ، يقول عتبان : حبسته على (خزيرة) نوع من الطعام ليس بذاك الجيد . حبسه : يعني قال له : انتظر حتى ينتهي الطعام ، ويقدمه إلى رسول اللّٰه ﷺ ، وهذا لا شك أن فيه تواضعًا من رسول اللّٰه ﷺ .

ومنها : وهي من أكبر فوائد هذا الحديث . أن من قال لا إله إلا اللّٰه يبتغي بذلك وجه اللّٰه ، فأن اللّٰه يحرم عليه النار « فإن اللّٰه حرم على النار من قال لا إله إلا اللّٰه يبتغي بذلك وجه اللّٰه » يعني يطلب وجه اللّٰه . ومعلوم أن الذي يقول هذا طالبًا وجه اللّٰه فسيفعل كل شيء يقربه إلى اللّٰه ، من فروض ونوافل ، فلا يكون في هذا دليل للكسالى والمهملين ، يقولون : نحن نقول لا إله إلا اللّٰه نبتغي بذلك وجه اللّٰه . نقول : لو كنتم صادقين ما أهملتم العبادات الواجبة عليكم .

* * *

٤١٨ - وعن عمرَ بنِ الخطَّابِ ﷺ قال : قَدِمَ رسول اللّٰه ﷺ ، بسَبْيٍ ، فَإذا امْرَأَةٌ مِنَ السَّبْيِ تَسْعَى ، إذْ وَجدتْ صَبيًا في السَّبْيِ أَخَذَتْهُ ، فَأَلْزَقَتْهُ بِبَطْنِها ، فَأَرْضَعَتْهُ ، فقال رسول اللّٰه ﷺ : « أترونَ هذِهِ المرْأَةَ

(١) انظر أبو داود في الصلاة (٨٤٠) ، وابن ماجه في إقامة الصلاة (١٤٢٩) ، وأحمد في مسنده (٢/ ٣٢٨) .

طارِحَةً وَلَدَهَا في النَّارِ؟ » قُلْنَا : لا وَاللَّهِ . فَقَالَ : « للَّهُ أَرْحَمُ بِعِبادِهِ مِنْ هذِهِ بِوَلَدِها » [١] متفقٌ عليه .

٤١٩ - وعن أبي هريرة ﷺ قال : قال رسول اللَّه ﷺ : « لـمَّا خَلَقَ اللَّهُ الـخَلْقَ ، كَتَبَ في كِتَابٍ ، فَهُوَ عِنْدَهُ فَوقَ العَرْشِ : إنَّ رَحْمَتي تَغْلِبُ غَضَبي » . وفي روايةٍ : « غَلَبَتْ غَضَبي » وفي روايةٍ « سَبَقَتْ غَضَبي » [٢] متفقٌ عليه .

٤٢٠ - وعنه قال : سمِعْتُ رسول اللَّه ﷺ : يقول : « جَعَلَ اللَّهُ الرَّحْمَةَ مِائَةَ جُزْءٍ ، فَأَمْسَكَ عِنْدَهُ تِسْعَةً وتِسعينَ ، وَأَنْزَلَ في الأرْضِ جُزْءًا واحِدًا ، فَمِنْ ذِلكَ الجُزْءِ يَتَراحَمُ الخَلائِقُ حَتَّى تَرْفَعَ الدَّابَّةُ حَافِرَها عَنْ وَلَدِهَا خَشْيَةَ أَنْ تُصِيبَهُ » [٣] .

وفي روايةٍ : « إنَّ للَّهِ تَعَالى مِائَةَ رَحْمَةٍ أَنْزَلَ مِنْهَا رَحْمَةً وَاحِدَةً بَينَ الجِنِّ والإنْسِ وَالبَهائِمِ وَالهَوَامِّ [٤] ، فَبِهَا يَتَعاطَفُونَ ، وبهَا يَتَراحَمُونَ ، وبهَا تَعْطِفُ الوَحْشُ عَلى وَلَدِها ، وَأَخَّرَ اللَّهُ تَعَالى تِسْعًا وتِسْعِينَ رَحْمَةً يَرْحَمُ بها عِبَادَهُ يَومَ القِيَامَةِ » متفقٌ عليه [٥] .

ورواه مسلم أيضًا من روايةِ سَلْمَان الفَارِسيِّ ﷺ قالَ : قالَ رسول اللَّه ﷺ : « إنَّ للَّهِ تَعَالى مِائَةَ رَحْمَةٍ فَمِنْها رَحْمَةٌ يَتَراحَمُ بها الخَلْقُ بَينَهُمْ ، وَتِسْعٌ وَتِسْعُونَ لِيَومِ القِيامَةِ » [٦] .

وفي رواية : « إنَّ اللَّهَ تَعَالى خَلَقَ يَومَ خَلَقَ السَّماواتِ والأَرْضَ مِائَةَ رَحْمَةٍ كُلُّ رَحْمَةٍ طِبَاقُ ما بَينَ السَّماءِ إلى الأرْضِ [٧] ، فَجَعَلَ مِنها في الأَرْضِ رَحْمَةً ، فِبهَا تَعْطِفُ الوَالِدَةُ عَلى وَلَدِهَا ، وَالوَحْشُ وَالطَّيرُ بَعْضُها عَلى بَعْضٍ ، فَإذَا كانَ يَومُ القِيَامَةِ ، أَكْمَلَهَا بِهذِهِ الرَّحْمَةِ » [٨] .

٤٢١ - وعنه عن النبي ﷺ ، فيما يَحكِي عَنْ رَبِّهِ ، تَبَارَكَ وَتَعَالى ، قال : « أَذنَبَ عَبْدٌ ذَنبًا ، فقالَ : اللَّهُمَّ اغفِرْ لي ذَنبي ، فقالَ اللَّهُ تَبَارَكَ وتعالى : أَذنب عبدي ذَنبًا ، فَعَلِمَ أَنَّ لَهُ رَبًّا يَغفِرُ الذَّنبَ ، وَيَأْخُذُ بالذَّنبِ ، ثُمَّ عَادَ فَأَذْنَبَ ، فقال : أَي رَبِّ اغفِرْ لي ذَنبي ، فقال تبارك وتعالى : أَذْنَبَ عَبْدِي ذَنْبًا ، فَعلِمَ أَنَّ لَهُ رَبًّا يَغفِرُ الذَّنبَ ، وَيَأْخُذُ بالذَّنْبِ ، ثُمَّ عَادَ فَأَذْنَبَ ، فقال : أَي رَبِّ اغفِرْ لي ذَنبي ، فقال تَبَارَكَ وتَعَالى : أَذْنبَ عَبدِي ذنبًا ، فَعَلِمَ أَنَّ لَهُ رَبًّا يَغْفِرُ الذَّنبَ ، وَيَأْخُذُ بِالذَّنب ، قَد غَفَرْتُ لِعَبدِي فَلْيَفْعَلْ مَا شَاءَ » [٩] متفقٌ عليه .

---

(١) أخرجه بنحوه البخاري في الأدب (٥٩٩٩) ومسلم في التوبة (٢٢) .

(٢) أخرجه مسلم في التوبة (١٤) واللفظ له ، والبخاري في التوحيد (٧٤٠٤) ، والإمام أحمد في مسنده (٢/٢٦٠) .

(٣) أخرجه البخاري في الأدب (٦٠٠٠) ، ومسلم في التوبة (١٧) .

(٤) الهوام : جمع هامة وهي الدابة وكل ذي سم يقتل سمه .

(٥) أخرجه مسلم في التوبة (١٩) .

(٦) أخرجه مسلم في التوبة (٢١) .

(٧) أي ما يملأ ذلك لو كان جسمًا من كبره وعظمه .

(٨) أخرجه مسلم في التوبة (٢١) .

(٩) هذا الحديث لم يذكره الشارح - رحمه اللَّه - والحديث أخرجه البخاري في التوحيد (٧٥٠٧) ، ومسلم في التوبة (٣٠) بلفظ (فليعمل ما شاء) ، والإمام أحمد في مسنده (٢/٤٩٢) وفيه (اعمل ما شئت قد غفرت لك) . قوله « يأخذ بالذنب » أي يعاقب .

وقوله تعالى : « فليفعل ما شاء » أي : مَا دَامَ يفْعَلُ هكَذا ، يُذْنِبُ وَيَتُوبُ أَغفِرُ لَهُ ؛ فَإِنَّ التَّوبَةَ تَهْدِمُ ما قَبْلَهَا .

٤٢٢ - وعنه قال : قال رسول اللَّه ﷺ : « وَالَّذي نَفْسِي بِيَدِهِ لَو لَمْ تُذْنِبُوا ، لَذَهَبَ اللَّه بِكُمْ [١] ، وَلَجَاءَ بقوم يُذْنِبُونَ ، فَيَسْتَغْفِرُونَ اللَّه تعالى ، فَيَغْفِرُ لَهُمْ » [٢] رواه مسلم .

٤٢٣ - وعن أبي أَيُّوبَ خَالِدِ بنِ زيد ﷺ قال : سمعتُ رسول اللَّه ﷺ ، يقول : « لَولا أَنَّكُمْ تُذنِبُونَ ، لخَلَقَ اللَّهُ خَلقًا يُذنِبُونَ ، فَيَسْتَغْفِرُونَ ، فَيَغْفِرُ لَهُمْ » [٣] رواه مسلم .

٤٢٤ - وعن أبي هريرة ﷺ قال : كُنَّا قُعودًا مَعَ رسول اللَّه ﷺ ، مَعَنا أَبُو بكْر وَعُمَرُ ﷺ في نَفرٍ ، فَقَامَ رسول اللَّه ﷺ مِنْ بَينِ أَظْهرِنَا [٤] ، فَأَبْطَأَ عَلَينا ، فَخَشِينَا أَنْ يُقْتَطَعَ دُونَنَا [٥] ، فَفَزِعْنَا ، فَقُمْنَا ، فَكُنْتُ أَوَّلَ مَنْ فَزِعَ ، فَخَرَجتُ أَبْتَغِي [٦] رسول اللَّه ﷺ ، حَتَّى أَتَيتُ حَائِطًا [٧] للأَنْصَارِ - وذَكَرَ الحَدِيثَ بطُوله إلى قوله : فقال رسول اللَّه ﷺ : « اذْهبْ فَمَنْ لَقِيتَ وَرَاء هذَا الحَائِطِ يَشهَدُ أَنْ لا إله إلا اللَّه ، مُسْتَيقِنًا بِهَا قَلْبُهُ فَبَشِّرْهُ بِالجَنَّةِ » [٨] رواه مسلم .

٤٢٥ - وعن عبد اللَّه بن عَمْرو بن العاص ﷺ أن النبي ﷺ تَلا قَولَ اللَّهِ ﷻ في إبراهيم ﷺ : ﴿ رَبِّ إِنَّهُنَّ أَضْلَلْنَ كَثِيرًا مِّنَ ٱلنَّاسِۖ فَمَن تَبِعَنِي فَإِنَّهُۥ مِنِّيۖ ﴾ [إبراهيم : ٣٦] ، وَقولَ عيسى ﷺ : ﴿ إِن تُعَذِّبْهُمْ فَإِنَّهُمْ عِبَادُكَۖ وَإِن تَغْفِرْ لَهُمْ فَإِنَّكَ أَنتَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ﴾ [المائدة : ١١٨] ، فَرَفَعَ يَدَيه وقال : « اللَّهُمَّ أُمَّتِي أُمَّتِي » وَبَكَى ، فقال اللَّه ﷻ : « يَا جبريلُ اذْهَبْ إلى مُحَمَّدٍ وَرَبُّكَ أَعْلَمُ ، فَسَلْهُ ما يُبْكِيهِ ؟ » فَأَتَاهُ جبريلُ ، فَأَخبَرَهُ رسولُ اللَّه ﷺ بمَا قال وَهو أَعْلَمُ ، فقال اللَّهُ تعالى : « يا جِبريلُ اذهَب إلى مُحَمَّد فَقُل : إنَّا سَنُرضِيكَ في أُمَّتِكَ ولا نَسُوؤُكَ [٩] » [١٠] رواه مسلم .

الشرح

هذه الأحاديث في باب الرجاء ، ذكرها المؤلف ﷺ وهي كثيرة جدًّا منها : أن اللَّه ﷻ أرحم بعباده من الوالدة بولدها ، دليل ذلك قصة هذه المرأة التي كانت في السبي فرأت صبيًّا ، فأخذته وألصقته على صدرها وأرضعته . فقال النبي ﷺ : «أترون هذه المرأة طارحة ولدها في النار ؟ » . قالوا : لا . قال : «فاللَّه أرحم بعباده من هذه بولدها » .

---

(١) أي أفناكم من الدنيا .
(٢) أخرجه مسلم في التوبة (١١) .
(٣) أخرجه مسلم في التوبة (٩) وفيه (يذنبون يغفر لهم) وله شاهد في جامع الترمذي بسند آخر في الدعوات (٣٥٣٩) ورواه أحمد في مسنده (٥/٤١٤) .
(٤) بين أظهرنا : أي بيننا .
(٥) فخشينا أن تقتطع دوننا : أي يصاب بمكروه من عدو .
(٦) أبتغي : أطلب .
(٧) حائطًا : بستانًا .
(٨) أخرجه مسلم في الأيمان (٥٢) .
(٩) ولا نسوؤك : نرضيك ولا ندخل عليك خزيًا ، بل ننجي الجميع .
(١٠) أخرجه مسلم في الأيمان (٣٤٦) .

وهذا من تمام رحمته ﷺ .

وآيات ذلك كثيرة ، منها : هذه النعم التي تترى علينا ، وأعظمها نعمة الإسلام ، فإن الله تعالى أضل عن الإسلام أممًا ، وهدى عباده المؤمنين لذلك ، وهي أكبر النعم .

ومنها : أن الله أرسل الرسل إلى الخلق مبشرين و منذرين ، لئلا يكون للناس حجة بعد الرسل [(١)] .

وكذلك ذكر المؤلف الأحاديث التي فيها أن رحمة الله سبقت غضبه ، ولهذا يعرض الله ﷻ على المذنبين أن يستغفروا ربهم ، حتى يغفر لهم ، ولو شاء لأهلكهم ولم يرغبهم في التوبة ، ﴿ وَلَوْ يُؤَاخِذُ اللَّهُ النَّاسَ بِمَا كَسَبُوا مَا تَرَكَ عَلَىٰ ظَهْرِهَا مِن دَابَّةٍ وَلَٰكِن يُؤَخِّرُهُمْ إِلَىٰ أَجَلٍ مُّسَمًّى ﴾ [فاطر : ٤٥] ، ولهذا قال في الحديث الذي رواه مسلم ، قال : « لو لم تذنبوا لذهب الله بكم ، ولجاء بقوم يذنبون ، فيستغفرون الله ، فيغفر لهم » .

وهذا ترغيب في أن الإنسان إذا أذنب ، فليستغفر الله ، فإنه إذا استغفر الله ﷻ بنية صادقة ، وقلب مؤمن ، فإن الله تعالى يغفر له ، ﴿ قُلْ يَا عِبَادِيَ الَّذِينَ أَسْرَفُوا عَلَىٰ أَنفُسِهِمْ [(٢)] لَا تَقْنَطُوا مِن رَّحْمَةِ اللَّهِ ۚ إِنَّ اللَّهَ يَغْفِرُ الذُّنُوبَ جَمِيعًا ۚ إِنَّهُ هُوَ الْغَفُورُ الرَّحِيمُ ﴾ [الزمر : ٥٣] .

ومنها : أن النبي ﷺ لما تلا قول إبراهيم – عليه الصلاة والسلام – في الأصنام ﴿ رَبِّ إِنَّهُنَّ أَضْلَلْنَ كَثِيرًا مِّنَ النَّاسِ ۖ فَمَن تَبِعَنِي فَإِنَّهُ مِنِّي ۖ وَمَنْ عَصَانِي فَإِنَّكَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴾ [إبراهيم : ٣٦] ، وقول عيسى : ﴿ إِن تُعَذِّبْهُمْ فَإِنَّهُمْ عِبَادُكَ ۖ وَإِن تَغْفِرْ لَهُمْ فَإِنَّكَ أَنتَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ ﴾ [المائدة : ١١٨] ، رفع ﷺ يديه وبكى ، وقال : « يارب أمتي أمتي » . فقال الله ﷺ لجبريل : « اذهب إلى محمد فقل إنا سنرضيك في أمتك ولا نسوؤك » .

وقد أرضاه ﷻ في أمته ، بأن جعل لهذه الأمة أجرها مضاعفًا ، كما جاء في الحديث الصحيح : إن مثل هذه الأمة مع من سبقها ، كمثل رجل استأجر أجراء ، من أول النهار إلى الظهر ، فأعطاهم على دينار دينار ، واستأجر أجراء من الظهر إلى العصر وأعطاهم على دينار دينار ، واستأجر أجراء من العصر إلى الغروب وأعطاهم على دينارين دينارين ، فاحتج الأولون وقالوا : وكيف تعطينا على دينار دينار ونحن أكثر منهم عملًا وتعطي هؤلاء على دينارين دينارين . فقال لهم الذي استأجرهم : هل ظلمتكم شيئًا ، قالوا : لا [(٣)] .

إذًا لا لوم عليه في ذلك ، ففضل الله على هذه الأمة كثير .

وقد أرضاه الله في أمته ولله الحمد من عدة وجوه ، منها كثرة الأجر ، وأنهم الآخرون السابقون يوم القيامة ، وأنها فضلت بفضائل كثيرة ، مثل قوله – عليه الصلاة والسلام – : « أعطيت خمسًا لم يعطهن أحد من الأنبياء قبلي : نصرت بالرعب مسيرة شهر ، وجعلت لي الأرض مسجدًا وطهورًا ،

---

(١) تصديقًا لقول الحق تبارك وتعالى : ﴿ رُّسُلًا مُّبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَ لِئَلَّا يَكُونَ لِلنَّاسِ عَلَى اللَّهِ حُجَّةٌ بَعْدَ الرُّسُلِ ﴾ [النساء : ١٦٥] .

(٢) ﴿ أَسْرَفُوا عَلَىٰ أَنفُسِهِمْ ﴾ : أي أفرطوا في المعاصي جانين على أنفسهم بارتكابها والقنوط : لا تقنطوا أي لا تيأسوا .

(٣) انظر البخاري في الإجارة (٢٢٦٨) .

وأحلت لي الغنائم ولم تحل لأحد قبلي »[١] .

فهذه الخصائص له ولأمته - عليه الصلاة والسلام - فالحاصل أن هذه الأحاديث التي ذكرها المؤلف رَحِمَهُ ٱللَّهُ ، كلها أحاديث رجاء ، تحملُ الإنسان على أن يعمل العمل الصالح ، يرجو بذلك ثواب اللّه ومغفرته .

* * *

٤٢٦ - وعن مُعَاذِ بنِ جَبَل رضي الله عنه قال : كُنتُ رِدْفَ النبيِّ ﷺ على حمارٍ فقال : « يَا مُعَاذ هَل تَدري مَا حَقُّ اللّه عَلى عِبَادِهِ ، ومَا حَقُّ العِبادِ عَلى اللّه ؟ » قلت : اللّهُ وَرَسُولُهُ أَعْلَمُ . قال : « فَإِنَّ حَقَّ اللّهِ عَلى العِبَاد أَنْ يَعْبُدُوه ، وَلا يُشرِكُوا بِهِ شَيْئًا ، وَحقَّ العِبَادِ عَلى اللّهِ أَنْ لا يُعَذِّبَ مَنْ لا يُشرِكُ بِهِ شَيْئًا » ، فقلتُ : يا رسولَ اللّهِ أَفَلا أُبَشِّرُ النَّاسَ؟ قال : « لا تُبَشِّرْهُم فَيَتَّكِلُوا »[٢] متفقٌ عليه .

٤٢٧ - وعنِ البَرَاءِ بن عازبٍ رضي الله عنهما عن النبي ﷺ قال : « المُسلِم إذَا سُئِلَ في القَبْرِ يَشهَدُ أَن لاَ إلَهَ إلا اللّه ، وَأَنَّ مُحَمَّدًا رسولُ اللّه ، فَذلِكَ قولُه تعالى : ﴿ يُثَبِّتُ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ بِٱلْقَوْلِ ٱلثَّابِتِ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَفِى ٱلْـَٔاخِرَةِ ﴾ » [إبراهيم : ٢٧][٣] متفقٌ عليه .

٤٢٨ - وعن أنسٍ رضي الله عنه عن رسول اللّه ﷺ ، قال : « إِنَّ الكَافِرَ إِذَا عَمِلَ حَسَنَةً ، أُطعِمَ بِهَا طُعمةً مِنَ الدُّنيا ، وَأَمَّا المُؤمِنُ ، فَإِنَّ اللّه تعالى يَدَّخِرُ لَهُ حَسَنَاتِهِ في الآخِرَةِ ، وَيُعْقِبُهُ رِزْقًا في الدُّنْيَا عَلى طَاعَتِهِ »[٤] . وفي روايةٍ : « إنَّ اللّه لا يَظْلِمُ مُؤْمِنًا حَسَنَةً[٥] يُعْطَى بِهَا في الدُّنْيَا ، وَيُجزَى بِهَا في الآخِرَةِ ، وَأَمَّا الكَافِرُ ، فَيُطْعَمُ بِحَسَنَاتِ مَا عَمِلَ لِلّهِ تعالى في الدُّنْيَا حَتَّى إِذَا أَفْضَى إِلى الآخِرَةِ[٦] ، لَم يَكُنْ لَهُ حَسَنَةٌ يُجْزَى بِهَا »[٧] رواه مسلم .

٤٢٩ - وعن جابرٍ رضي الله عنه قال : قَالَ رسول اللّه ﷺ : « مَثَلُ الصَّلَوَاتِ الخَمْسِ كَمَثَلِ نَهَرٍ جَارٍ غَمْرٍ عَلى بَابِ أَحَدِكُمْ يَغْتَسِلُ مِنْهُ كُلَّ يَومٍ خَمْسَ مَرَّاتٍ »[٨] رواه مسلم . « الغَمْرُ » الكَثِيرُ .

٤٣٠ - وعن ابن عباسٍ رضي الله عنهما سمعتُ رسول اللّه ﷺ ، يقول : « مَا مِنْ رَجُلٍ مُسلمٍ يَمُوتُ فَيَقُومُ عَلى جِنَازَتِهِ أربَعُونَ رَجُلًا لا يُشرِكُونَ باللّهِ شَيْئًا إلا شَفَّعَهُمُ اللّه فيهِ »[٩] رواه مسلم .

---

(١) أخرجه البخاري في التيمم (٣٣٥) ، ومسلم في المساجد (٣) .

(٢) أخرجه البخاري في الاستئذان (٦٢٦٧) واللفظ له ، ومسلم في الإيمان (٤٩) .

(٣) أخرجه البخاري في تفسير القرآن (٤٦٩٩) واللفظ له ، ومسلم في الجنة (٧٣) .

(٤) أخرجه مسلم في صفات المنافقين (٥٧) .

(٥) أي لا يترك مجازاته بشيء من حسناته .

(٦) أي إذا صار إليها .

(٧) أخرجه مسلم في صفات المنافقين (٥٦) ، والإمام أحمد في مسنده (٣/١٢٣ ، ٢٨٣) .

(٨) أخرجه مسلم في المساجد (٢٨٤) ، والإمام أحمد في مسنده (٢/٤٢٦) ، قوله « على باب أحدكم » إشارة إلى قربه وسهولة تناوله .

(٩) أخرجه مسلم في الجنائز (٥٩) ، والبيهقي في السنن (٣/١٨١) .

٤٣١ - وعن ابنِ مسعودٍ ﷺ قال : كُنَّا مَعَ رسول اللَّه ﷺ في قُبَّةٍ نَحوًا مِنْ أَرْبَعينَ ، فقال : « أَتَرضَونَ أَنْ تكُونُوا رُبُعَ أَهْلِ الجَنَّةِ ؟ » قُلْنَا : نَعَم . قال : « أَتَرضَونَ أَنْ تكونوا ثُلُثَ أهل الجنة ؟ » قلنا : نَعَمْ . قال : « وَالَّذي نفسُ مُحَمَّدٍ بيَده إنِّي لأرجو أن تَكُونُوا نصفَ أَهْلِ الجَنَّةِ ؛ وذَلِكَ أَنَّ الجَنَّةَ لا يَدخُلُهَا إلا نَفْسٌ مُسْلِمَةٌ ، وَمَا أَنتُم في أَهْلِ الشِّركِ إلا كَالشَّعْرَةِ البَيضَاءِ في جلدِ الثَّورِ الأسودِ ، أَو كَالشَّعْرَة السَّودَاءِ في جلدِ الثَّورِ الأَحمرِ » [١] متفقٌ عليه .

٤٣٢ - وعن أبي موسى الأشعري ﷺ قال : قال رسول اللَّه ﷺ : « إِذَا كَانَ يَومُ القِيَامَةِ دَفَعَ اللَّهُ إلى كُلِّ مُسْلِمٍ يَهُودِيًّا أَو نَصرَانِيًّا فَيَقُولُ : هذَا فِكَاكُكَ مِنَ النَّارِ » [٢] .

وفي روايةٍ عنهُ عن النبي ﷺ قال : « يَجِيءُ يَومَ القِيَامَةِ نَاسٌ مِنَ المُسْلِمِينَ بِذُنُوبٍ أَمْثَالِ الجِبَالِ يَغْفِرُهَا اللَّهُ لَهُم » [٣] رواه مسلم .

قوله : « دَفَعَ اللَّه إلى كُلِّ مُسْلِمٍ يهودِيًّا أَو نَصرَانِيًّا فَيَقُولُ : هذَا فِكَاكُكَ مِنَ النَّارِ » مَعْنَاهُ : مَا جَاءَ في حديث أبي هريرة ﷺ : « لِكُلِّ أَحَدٍ مَنزِلٌ في الجَنَّةِ ، ومَنزلٌ في النَّار ، فالمُؤْمِنُ إذَا دَخَلَ الجَنَّةَ خَلَفَهُ الكَافِرُ في النَّار ؛ لأَنَّهُ مُسْتحَقٌّ لِذلِكَ بِكُفْرِهِ » .

ومَعنى « فِكَاكُكَ » : أَنَّكَ كُنْتَ مُعَرَّضًا لِدُخُولِ النَّارِ وهَذَا فِكَاكُكَ ؛ لأَنَّ اللَّه تعالى قَدَّرَ لِلنَّار عَدَدًا يَمْلؤهَا ، فَإِذَا دَخَلَهَا الكُفَّارُ بِذُنُوبِهْم وكُفْرِهِم ، صَارُوا في مَعنى الفِكَاكِ لِلمُسلِمِينَ . واللَّه أعلم .

٤٣٣ - وعن ابنِ عمرَ ﷺ قال : سمِعتُ رسول اللَّه ﷺ يقول : يُدْنَى [٤] المُؤْمِنُ يَومَ القِيَامَةِ مِن رَبِّهِ حتَّى يَضَعَ كَنَفَهُ عَلَيهِ ، فَيُقَرِّرُهُ بِذُنُوبه ، فيقولُ : أَتعرفُ ذَنبَ كَذَا ؟ أَتعرفُ ذَنبَ كَذَا ؟ فيقول : رَبِّ أَعْرِفُ ، قال : فَإِنِّي قَد سَتَرتُهَا عَلَيكَ في الدُّنيَا ، وَأَنَا أَغْفِرُها لَكَ اليَومَ ، فيُعطَى صَحِيفَةَ حَسَنَاته » [٥] متفقٌ عليه . « كَنَفُهُ » : سَتْرُهُ وَرَحْمَتُهُ .

الشرح

هذه الأحاديث المتعددة كلها في باب الرجاء ، ولكن الرجاء لابد أن يكون له عمل ينى عليه .

أما الرجاء من دون عمل ينى عليه ، فإنه تمنٍّ لايستفيد منه العبد ، ولهذا جاء في الحديث : «الكيس من دان نفسه وعمل لما بعد الموت ، والعاجز من أتبع نفسه هواها وتمنى على الله الأماني » [٦] . فلابد من عمل يتحقق به الرجاء .

---

(١) أخرجه البخاري في الرقاق (٦٥٢٨) ، ومسلم في الإيمان (٣٧٧) واللفظ له ، والترمذي في صفة الجنة (٢٥٤٧) .

(٢) أخرجه مسلم في التوبة (٤٩) . (٣) أخرجه مسلم في التوبة (٥١) .

(٤) يدني : أي يقرب والقرب هنا قرب مكانة لا قرب مكان .

(٥) أخرجه البخاري في تفسير القرآن (٤٦٨٥) واللفظ له ، ومسلم في التوبة (٥٢) .

(٦) أخرجه الترمذي في صفة القيامة (٢٤٥٩) ، وابن ماجه في الزهد (٤٢٦٠) ، أحمد في مسنده (١٢٤/٤) .

ذكر المؤلف رحمه الله حديث معاذ بن جبل ، أنه كان رديف النبي ﷺ على حمار . فقال له : «أتدري ما حق اللَّه على العباد ، وما حق العباد على اللَّه ؟ » قال اللَّه ورسوله أعلم .

وهذا من آداب طالب العلم ، إذا سئل عن شيء ، أن يقول اللَّه أعلم ، و لا يتكلم فيما لا يعلم .

قال : « حق اللَّه على عباده أن يعبدوه ولا يشركوا به شيئًا ، وحق العباد على اللَّه ألا يعذب من لا يشرك به شيئًا » .

يعني أن لا يعذب من عبده وهو لا يشرك به شيئًا ؛ لأن نفي الشرك يدل على الإخلاص والتوحيد ، ولا إخلاص وتوحيد إلا بعبادة .

فقلت : يا رسول اللَّه ، أفلا أبشر الناس ؟ فقال : « لا تبشرهم فيتكلوا » . يعني لا تبشرهم فيتكلوا على ما يجب ، ولا يقوموا بما ينبغي أن يقوموا به من النوافل ، ولكن معاذًا رضي الله عنه أخبر بها عند موته تأثمًا . يعني خوفًا من إثم كتمان العلم فأخبر بها .

ولكن قول الرسول : « لا تبشرهم فيتكلوا » فيه إنذار من الاتكال على هذا ، وأن الإنسان يجب أن يعلم أنه لابد من عبادة .

وكذلك الأحاديث التي ذكرها المؤلف كلها في سياق الرجاء . منها : أن المؤمن يُسأل في القبر ، فيشهد أن لا إله إلا اللَّه وأن محمدًا رسول اللَّه . قال النبي ﷺ بأن هذا هو القول الثابت الذي قال اللَّه فيه : ﴿ يُثَبِّتُ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ بِٱلْقَوْلِ ٱلثَّابِتِ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَفِى ٱلْءَاخِرَةِ ﴾ [إبراهيم : ٢٧] شهادة أن لا إله إلا اللَّه وأن محمدًا رسول اللَّه . والميت في قبره يُسأل عن ثلاث : من ربك ؟ وما دينك ؟ ومن نبيك ؟ فيقول : ربي اللَّه ، وديني الإسلام ، ونبيِّي محمد ﷺ (١) .

وكذلك أيضًا : ما ذكره رحمه الله من صفة محاسبة العبد المؤمن ، أن اللَّه عز وجل يأتي يوم القيامة ، فيخلو بعبده المؤمن ، ويضع عليه كنفه يعني ستره ، ويقول : فعلت كذا وفعلت كذا ، ويقرره بالذنوب ، فإذا أقر قال : « كنت سترتها عليك في الدنيا ، وأنا أغفرها لك اليوم . فيعطي كتاب حسناته باليمين » .

ومن ذلك أيضًا : أن المؤمنين كل واحد منهم يعطى يهوديًا أو نصرانيًا يوم القيامة ، ويقال : « هذا فكاكك من النار » يعني هذا يكون بدلك في النار ، وأما أنت فقد نجوت . فنحن يوم القيامة إن شاء اللَّه تعالى كل واحد منا يجعل بيده يهودي أو نصراني يلقى في النار بدلًا عنه ، يكون فكاكًا له من النار .

ولا يلزم من هذا أن يكون اليهود والنصارى على قدر المسلمين ، فالكفار أكثر من المسلمين بكثير ، من اليهود والنصارى والمشركين وغيرهم ؛ لأن بني آدم تسعمائة وتسعة وتسعون كلهم في النار وواحد في الجنة .

---

(١) سبق تخريجه .

وذكر المؤلف أيضًا حديثًا : أن الرسول - عليه الصلاة والسلام - عرض على الصحابة . فقال : « أترضون أن تكونوا ربع أهل الجنة ؟ أترضون أن تكونوا ثلث أهل الجنة ؟ » قالوا : نعم ، قال : « إني لأرجوا أن تكونوا نصف أهل الجنة » يعني نصف أهل الجنة من هذه الأمة ، والنصف الباقي من بقية الأمم كلها ، وهذا يدل على كثرة هذه الأمة ؛ لأنها آخر الأمم ، وهي التي ستبقى إلى يوم القيامة .

وقد جاء في السنن والمسند ، أن صفوف أهل الجنة مائة وعشرون ، منها ثمانون من هذه الأمة(١) ، فتكون هذه الأمة ثلثي أهل الجنة ، وهذا من رحمة الله ﷻ ومن فضل الرسول - عليه الصلاة والسلام ؛ لأن الرسول ﷺ يعطي أجر كل من عمل بسنته وشريعته .

* * *

٤٣٤ - وعن ابن مسعودٍ ﷺ أَنَّ رَجُلًا أَصَابَ مِن امْرَأَةٍ قبلَةً ، فَأَتَى النَّبيَّ ﷺ فأخبره ، فأنزل الله تعالى : ﴿ وَأَقِمِ ٱلصَّلَوٰةَ طَرَفَيِ ٱلنَّهَارِ وَزُلَفًا مِّنَ ٱلَّيۡلِۚ (٢) إِنَّ ٱلۡحَسَنَٰتِ يُذۡهِبۡنَ ٱلسَّيِّـَٔاتِۚ ﴾ [هود : ١١٤] فقال الرجل : أَلِيَ هذَا يا رسولَ اللَّه ؟ قال : « لجمِيع أُمَّتي كُلِّهِمْ » (٣) متفقٌ عليه .

٤٣٥ - وعن أَنسٍ ﷺ قال : جَاءَ رَجُلٌ إلى النبيِّ ﷺ فقال : يا رسولَ اللَّهِ أَصَبْتُ حدًّا ، فَأَقِمْهُ عَلَيَّ ، وَحَضَرَتِ الصَّلاةُ ، فَصَلَّى مَعَ رسول اللَّه ﷺ ، فَلَمَّا قَضَى الصَّلاةَ قال : يا رسول اللَّه ، إِنِّي أَصبْتُ حدًّا ، فأَقِمْ فيَّ كتَابَ اللَّهِ . قال : « هَلْ حَضَرْتَ مَعَنَا الصَّلاةَ ؟ » قال : نَعم . قال « قد غُفِرَ لَكَ » (٤) متفقٌ عليه .

وقوله : « أَصَبْتُ حَدًّا » معناه : مَعْصِيَةً تُوجِبُ التَّعْزِير ، وَليسَ المُرَادُ الحَدَّ الشَّرْعِيَّ الحَقِيقِيَّ كَحَدِّ الزِّنَا والخمر وَغَيرِهِمَا ؛ فإِنَّ هذِهِ الحدودَ لا تَسْقُطُ بِالصلاةِ ، ولا يجوزُ للإمام تَرْكُهَا .

٤٣٦ - وعنه قال : قال رسول اللَّه ﷺ : « إن اللَّه لَيَرْضَى عن العَبْدِ أَنْ يَأْكُلَ الأَكْلَةَ فَيَحْمَدَهُ عَلَيها ، أَو يَشْرَبَ الشَّرْبَةَ فَيَحْمَدَهُ عَلَيها »(٥) رواه مسلم .

« الأَكْلَةُ » بفتح الهمزة وهي المرةُ الواحدةُ مِنَ الأَكْلِ كَالغَدْوَةِ والعَشْوَةِ ، واللَّه أعلم .

٤٣٧ - وعن أبي موسى ﷺ عن النبي ﷺ قال : « إِنَّ اللَّه تعالى يَبْسُطُ يَدَهُ بالليْلِ لِيَتُوبَ مُسِيءُ النَّهَارِ ، وَيَبْسُطُ يَدهُ (٦) بِالنهارِ لِيَتُوبَ مُسِيءُ اللَّيلِ حتى تطْلُعَ الشمسُ مِنْ مَغْرِبها » (٧) رواه مسلم .

---

(١) انظر سنن الترمذي (٢٥٤٦) ، وابن ماجه في سننه (٤٢٨٩) ، ومسند أحمد (٣٤٧/٥) ، ومستدرك الحاكم (٨٢/١) .

(٢) ﴿ طَرَفَيِ ٱلنَّهَارِ ﴾ أي الغداة والعشي ؛ أي الصبح والظهر والعصر . ﴿ وَزُلَفًا مِّنَ ٱلَّيۡلِ ﴾ أي طائفة من أوله ، أي المغرب والعشاء .

(٣) أخرجه البخاري في مواقيت الصلاة (٥٢٦) واللفظ له ، ومسلم في التوبة (٣٩) ، والإمام أحمد في مسنده (٤٣٠/١) .

(٤) أخرجه مسلم في التوبة (٤٤) - واللفظ له - والبخاري في المحاربين من أهل الكفر والردة (٦٨٢٣) .

(٥) أخرجه مسلم في الذكر والدعاء (٨٩) ، والترمذي في الأطعمة (١٨١٦) ، وأحمد في مسنده (١١٧/٣) .

(٦) يبسط يده : قال المازري : المراد قبول التوبة ، وإنما جاء لفظ بسط اليد ؛ لأن العرب إذا رضي أحدهم عن شيء بسط يده لقبوله ، وإذا كرهه قبضها عنه ، فخوطبوا بأمر حسي يفهمونه وهو مجاز .

(٧) أخرجه مسلم في التوبة (٣١) ، أحمد في مسنده (٣٩٥/٤) ، والبيهقي في السنن (١٣٦/٨ ، ١٨٨/١٠) .

٤٣٨ - وعن أبي نجيحٍ عمرو بن عَبَسَةَ - بفتحِ العينِ والباء - السُّلمِيِّ ﷺ قال: كنتُ وَأَنَا في الجَاهِلِيَّةِ أَظُنُّ أَنَّ النَاسَ عَلى ضَلالَةٍ، وأَنَّهُمْ لَيسُوا على شيءٍ، وَهُمْ يَعْبُدُونَ الأَوثَانَ، فَسَمِعْتُ بِرَجُلٍ بِمَكَّةَ يُخْبِرُ أَخْبارًا، فَقَعَدْتُ عَلى راحِلتَي، فَقَدِمْتُ عَلَيهِ، فإذا رسول اللَّه ﷺ مُسْتَخْفِيًا، جُرَآءُ عليهِ قَومُهُ، فَتَلَطَّفْتُ حَتَّى دَخَلْتُ عَلَيهِ بِمَكَّةَ، فقلتُ له: ما أَنتَ؟ قال: «أَنَا نَبِيٌّ» قلتُ: وما نبيٌّ؟ قال: «أَرْسَلَني اللَّهُ» قلت: وبأَيِّ شَيءٍ أَرْسلَكَ؟ قال: «أَرْسَلَني بِصَلِةِ الأَرْحام، وكَسْرِ الأَوثانِ، وَأَنْ يُوَحَّدَ اللَّهُ لا يُشْرَكُ بِهِ شَيءٌ» قلت: فَمَنْ مَعَكَ عَلى هذَا؟ قال: «حُرٌّ وَعَبْدٌ» ومعهُ يَومئِذٍ أبو بكرٍ وبلالٌ ﷺ قلت: إنِّي مُتَّبِعُكَ، قال: «إِنَّكَ لَنْ تَستَطِيعَ ذلِكَ يَومَكَ هذَا، أَلا تَرَى حَالي وحالَ النَّاسِ؟! وَلكن ارْجِعْ إِلى أَهْلِكَ فَإِذا سَمِعْتَ بي قد ظَهَرْتُ [١] فَأْتِني» قال: فَذَهَبْتُ إِلى أهلي وَقَدِمَ رسول اللَّه ﷺ المدينَةَ، وكنتُ في أَهْلِي، فَجَعَلْتُ أَتَخَبَّرُ الأَخْبَارَ [٢]، وَأَسْأَلُ النَّاسَ حينَ قَدمَ المدينَةَ حتَّى قَدِم نَفَرٌ مِنْ أَهْلِي المدينَةَ، فقلتُ: مَا فَعَلَ هذَا الرَّجُلُ الذي قَدِمَ المدينةَ؟ فقالوا: النَّاسُ إِليهِ سِرَاعٌ، وَقَدْ أَرَادَ قَومُه قَتْلَهُ فَلَمْ يَستطِيعُوا ذلِكَ، فقَدِمْتُ المَدِينَةَ، فَدَخَلتُ عليهِ، فقلتُ: يا رسولَ اللَّه أَتَعْرِفُني؟ قال: «نَعم أَنتَ الَّذي لَقِيتَني بمكَّةَ» قال: فقلتُ: يا رسولَ اللَّه أَخْبِرْني عمَّا عَلَّمَكَ اللَّهُ وَأَجْهَلُهُ، أخبِرْني عَن الصَّلاةِ؟ قال: «صَلِّ صلاةَ الصُّبحِ، ثُمَّ اقْصُرْ عَنِ الصَّلاةِ حَتَّى تَرْتَفعَ الشَّمْسُ قِيدَ رُمْحٍ؛ فَإِنَّهَا تَطْلُعُ حينَ تَطْلُعُ بينَ قَرْنَي شيطَانٍ، وَحِينَئذٍ يَسْجُد لها الكُفَّارُ، ثُمَّ صَلِّ؛ فَإِنَّ الصَّلاةَ مشهودةٌ مَحْضُورَةٌ [٣]، حتى يستَقِلَّ الظِّلُّ بالرُّمحِ [٤]، ثُمَّ اقْصُر عن الصَّلاةِ؛ فإنه حينئذٍ تُسْجَرُ جَهَنَّمُ [٥]، فإذا أقبلَ الفَيءُ فصَلِّ؛ فإنَّ الصَّلاةَ مَشهودةٌ مَحضورة حتى تُصَلِّيَ العصرَ، ثم اقصُر عن الصلاةِ حتى تَغْرُبَ الشمسُ؛ فإنها تَغْرُبُ بين قَرنَي شيطانٍ، وحينئذٍ يسجدُ لها الكُفَّارُ» قال: فقلت: يا نَبِيَّ اللَّه، فالوضوء حدِّثني عنه. فقال: «ما مِنْكُم رجُلٌ يُقَرِّبُ وَضُوءهُ، فَيَتَمَضْمَضُ ويسْتَنْشِقُ فَيَنْتَثِرُ، إلا خَرَّتْ خطايَا وجهِهِ وفيهِ وخَياشِيمِهِ، ثم إذا غَسَلَ وجهَهُ كما أَمَرَهُ اللَّهُ، إلا خرَّت خطايا وجهِهِ مِنْ أطرافِ لحيتِهِ مع الماءِ، ثم يغسِلُ يَدَيهِ إلى المِرفَقَينِ، إلا خرَّت خَطَايَا يديه من أنامِلِهِ مع الماءِ، ثم يَمسحُ رَأْسَهُ، إلا خَرَّتْ خَطَايا رَأسِهِ مِنْ أَطْرافِ شَعْرِهِ مَعَ الماء، ثُمَّ يَغْسِلُ قَدَمَيهِ إلى الكَعْبَينِ، إلا خَرَّتْ خطايا رِجْلَيه من أنامِلِهِ [٦] مع الماء، فإن هو قامَ فصلَّى، فحمِدَ اللَّه تعالى، وأَثْنَى عليه وَمَجَّدَهُ بالذي هو له أَهلٌ، وفرَّغَ قلبه للَّهِ تعالى، إلا انصَرفَ من خطيئَتِه كَهَيئَتِهِ يومَ ولدَتْهُ أُمُّهُ».

فحدَّث عَمرُو بن عبَسَةَ بهذَا الحديثِ أَبَا أُمامَة صاحِبَ رسول اللَّه، فقال له أبو أُمَامَة: يا عَمْرُو بن

---

(١) ظهرت: ظهر ظهورًا: تبين وبرز، وظهر على عدوه أي غلبه.
(٢) أتخبر الأخبار: أي أسأل عنها و أتسمعها.
(٣) مشهودة محضورة: أي تشهدها وتحضرها الملائكة.
(٤) حتى يستقل الظل بالرمح: أي يقوم مقابلة جهة الشمال ليس مائلًا إلى المشرق ولا إلى المغرب.
(٥) أي يوقد عليها إيقادًا بليغًا.
(٦) أناملة: أي أطراف أصابعه.

عَبَسَةَ ، انظرْ ما تقولُ ! في مقامٍ واحِدٍ يُعْطَى هذَا الرَّجُلُ ؟ فقال عَمْرو : يا أبا أمامَةَ لقَدْ كبرَتْ سِني ، ورَقَّ عظمِي ، واقْتَربَ أَجَلي ، وما بي حَاجَةٌ أنْ أَكْذِبَ على اللَّه تعالى ، ولا على رسول اللَّه ﷺ ، لو لم أَسْمَعْهُ مِن رسول اللَّه ﷺ ، إلا مَرَّةً أَو مَرَّتَينِ أَو ثلاثًا ، حتَّى عَدَّ سبعَ مَرَّاتٍ ، ما حَدَّثْتُ أَبدًا بِهِ ، ولكنِّي سمِعتُهُ أكثر من ذلك [١] . رواه مسلم .

قوله : « جُرَآءُ عليهِ قومُه » : هو بِجِيمٍ مضمومة وبالمدِّ على وزنَ عُلماءَ ، أَي : جاسِرونَ مُستطِيلونَ غيرُ هائبينَ . هذِهِ الرواية المشهورةُ ، ورواه الحُمَيدِي وغيرُهُ : « حراءٌ » بكسر الحاء المهملة ، وقال : معناه : غِضابٌ ذَوُو غَمٍّ وهمٍّ ، قد عِيلَ صبرُهُمْ به ، حتى أَثَّرَ في أجسامِهِمْ ، من قولهم : حَرَى جِسمُهُ يَحْرَى ، إذا نَقَصَ مِنْ أَلمٍ أَو غمٍّ ونَحوهِ ، والصَّحيحُ أَنَّهُ بالجيم . قوله ﷺ : « بين قَرنَي شيطانٍ » أَي : ناحيتي رأسِهِ ، والمرادُ التَّمثيلُ ، معناهُ : أَنه حينئذٍ يَتَحرَّكُ الشيطانُ وشيعتُه ، ويَتَسَلَّطونَ . وقوله : « يُقَرِّبُ وَضوءَه » معناه : يُحْضِرُ الماءَ الذي يَتَوَضَّأُ به . وقوله : « إلا خَرَّتْ خطايا » هو بالخاء المعجمة : أَي سقَطَت ، ورواه بَعضُهُم « جرَتْ » بالجيم ، والصحيح بالخاءِ ، وهو روايةُ الجُمهور . وقوله : « فَيَنْتَثِرُ » أَي : يَسْتَخرجُ ما في أَنفه مِن أذى ، والنَّثرَةُ : طرَفُ الأنفِ .

الشرح

هذه الأحاديث التي ساقها المؤلف رحمه الله كلها أيضًا فيها من الرجاء ما فيها ، فمن ذلك أن الصلوات الخمس تكفر السيئات التي قبلها ، كما في قصة الرجل الذي أصاب من امرأة قبلة ، والذي أصاب حدًّا وطلب من النبي ﷺ أن يقيمه عليه ، فإن الصلاة هي أفضل أعمال البدن وهي تذهب السيئات ، قال اللَّه وتعالى : ﴿ وَأَقِمِ ٱلصَّلَوٰةَ طَرَفَيِ ٱلنَّهَارِ وَزُلَفًا مِّنَ ٱلَّيْلِۚ إِنَّ ٱلْحَسَنَٰتِ يُذْهِبْنَ ٱلسَّيِّـَٔاتِۚ ﴾ [هود : ١١٤] .

ولكن لابد أن تكون الصلاة على الوجه الذي يرضاه اللَّه عز وجل ، كما جاء في حديث عمرو بن عبسة أن لها أوقاتًا محددة ، وهناك أوقات ينهى الإنسان أن يصلي فيها .

ثم أرشد النبي ﷺ عمرو بن عبسة إلى صفة الوضوء الصحيحة ، لأن الإنسان إذا توضأ على هذه الصفة خرجت خطاياه ، وإذا صلى وقد فرغ قلبه للَّه كفر اللَّه عنه . فلابد من ملاحظة هذا القيد ؛ لأن من الناس من يصلي ولكنه ينصرف من صلاته ماكتب له إلا عشرها أو أقل ؛ لأن قلبه غافل وليس في صلاة بل كأنه يبيع ويشتري أو يعمل أعمالًا أخرى حتى تنتهي الصلاة .

ومن وساوس الشيطان : أن الإنسان يصلي فإذا كبر للصلاة انفتحت عليه الهواجس من كل مكان ، فإذا سلم زالت عنه ، مما يدل على أن هذا من الشيطان ، يريد أن يخرب عليه صلاته حتى يحرم من هذا الأجر العظيم .

وفي حديث عمرو بن عبسة فوائد كثيرة منها : أن النبي ﷺ بدأ غريبًا خائفًا متخفيًا عليه السلام ، جاءه

(١) أخرجه مسلم في صلاة المسافرين (٢٩٤) .

عمرو بن عبسة وقد رأى ما عليه أهل الجاهلية وأنهم ليسوا على شيء ، فصار يتطلب الدين الصحيح الموافق للفطرة ، حتى سمع بالنبي ﷺ في مكة فجاء إليه ، فوجده مستخفيًا في بيته ، لم يتبعه إلا حر و عبد - أبو بكر وبلال - لم يتبعه أحد ، وفي هذا : دليل على أن أبا بكر رضي الله عنه أول من آمن بالرسول - عليه الصلاة والسلام - ثم آمن بعده من الأحرار علي بن أبي طالب رضي الله عنه .

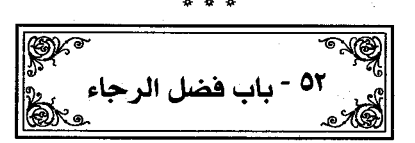
ومن حكمة النبي ﷺ أنه قال لعمرو : «إنك لن تستطيع ذلك يومك هذا ، ألا ترى حالي وحال الناس ؟ ولكن اذهب إلى أهلك فإذا سمعت بي قد ظهرت فأتني » فذهب وأتى إليه بعد ثلاثة عشر سنة في المدينة ، وأخبره أنه يعرفه لم ينس طوال هذه المدة .

ثم أخبره مما يجب عليه لله عز وجل من حقوق ، وبين له أن الإنسان إذا توضأ وأحسن الوضوء خرجت خطاياه من جميع أعضائه ، وأنه إذا صلى فإن هذه الصلاة تكفر عنه ، فضل ذلك على أن فضل الله عز وجل أوسع من غضبه ، وأن رحمته سبقت غضبه . نسأل الله أن يرحمنا وإياكم برحمته إنه جواد كريم .

* * *

٤٣٩ - وعن أبي موسى الأشعري رضي الله عنه عن النبي ﷺ قال : « إذا أراد اللَّهُ تعالى رحمةَ أُمَّةٍ قَبضَ نبيَّهَا قبلَها ، فجعَلَهُ لها فرطًا وسلَفًا بين يَدَيها ، وإذا أراد هَلكَةَ أُمَّةٍ ، عذَّبها ونبيُّهَا حَيٌّ ، فَأَهْلَكَهَا وهوَ حَيٌّ ينظُرُ ، فأَقَرَّ عينَهُ بِهَلاكِهَا حين كذَّبوهُ وعَصَوا أَمْرَهُ » (1) رواه مسلم .

* * *



٥٢ - باب فضل الرجاء

قال الله تعالى إخبارًا عن العبد الصالح : ﴿ وَأُفَوِّضُ أَمْرِيٓ (2) إِلَى ٱللَّهِۚ إِنَّ ٱللَّهَ بَصِيرُۢ بِٱلْعِبَادِ ۝٤٤ فَوَقَىٰهُ ٱللَّهُ سَيِّـَٔاتِ مَا مَكَرُواْۖ ﴾ (3) [غافر : ٤٤، ٤٥] .

٤٤٠ - وعن أبي هريرة رضي الله عنه عن رسول الله ﷺ أنَّهُ قال : « قال اللَّهُ عز وجل : أَنَا عِندَ ظَنِّ عَبْدي بي (4) وأنا مَعَهُ حَيثُ يَذْكُرُني - واللَّهِ للَّهُ أَفْرَحُ بتوبَةِ عَبْدِهِ مِنْ أَحَدِكُم يَجدُ ضَالَّتَهُ بالفَلاةِ - وَمَنْ تَقَرَّبَ إِلَيَّ شبْرًا ، تَقَرَّبْتُ إِلَيهِ ذراعًا ، وَمَنْ تَقَرَّبَ إِلَيَّ ذِراعًا ، تَقَربْتُ إليه بَاعًا ، وإذا أَقْبَلَ إِلَيَّ يَمْشي ، أَقبَلتُ إِلَيه أُهَرْوِلُ » (5) متفقٌ عليه ، وهذا لفظ إحدى رِوايات مسلم (6) . تقدَّم شرحُهُ في الباب قبله .

---

(1) هذا الحديث لم يقم الشارح رحمه الله بشرحه ، والحديث أخرجه مسلم في الفضائل (٢٤) ، قوله « فرطا » أي أنه شفيع يتقدم ، قوله « سلفًا » هو المقدَّم .

(2) ﴿ وَأُفَوِّضُ أَمْرِيٓ ﴾ : أي أسلمه .

(3) ﴿ سَيِّـَٔاتِ مَا مَكَرُواْۖ ﴾ : أي شدائد مكرهم .

(4) أنا عند ظن عبدي بي : قيل : معناه بالغفران ، إذا استغفر والقبول إذا تاب والإجابة إذا دعا ، وقيل : المراد الرجاء وتأميل العفو وهو الأصح .

(5) الهرولة : الإسراع بين العدو والمشي .

(6) أخرجه البخاري في التوحيد (٧٤٠٥) ، ومسلم في التوبة (١) واللفظ له .

وروي في الصحيحين : « وأنا معه حينَ يَذْكُرُني » بالنون ، وفي هذه الرواية « حَيثُ » بالثاء وكلاهما صحيح .

٤٤١ - وعن جابرِ بنِ عبدِ اللَّهِ رضي الله عنهما أنَّهُ سَمِعَ النبيَّ ﷺ قبْلَ موتِهِ بثلاثَةِ أيَّامٍ يقولُ : « لَا يُموتَنَّ أحَدُكُم إلا وَهُوَ يُحْسِنُ الظَّنَّ باللَّهِ عز وجل (١) » (٢) رواه مسلم .

٤٤٢ - وعن أنسٍ رضي الله عنه قال : سمعتُ رسول اللَّه ﷺ يقول : « قال اللَّه تعالى : يَا ابْنَ آدَمَ ، إنَّكَ مَا دَعَوتَني وَرَجَوتَني غَفَرْتُ لَكَ عَلي مَا كَانَ مِنكَ وَلا أُبَالي ، يَا ابْنَ آدَمَ ، لَو بَلَغتْ ذُنُوبُكَ عَنَانَ السماءِ ، ثم اسْتَغْفَرتَني غَفرتُ لَكَ ولا أُبالي ، يَا ابْنَ آدَمَ ، إنَّكَ لو أَتيتَني بِقُرابِ الأرضِ خطايا ، ثُمَّ لَقيتَني لا تُشرِكُ بي شَيئًا ، لأَتيتُكَ بِقُرابِهَا مَغْفِرَةً » (٣) رواه الترمذي . وقال : حديث حسن .

« عَنَانُ السماءِ » بفتح العين ، قيل : هو مَا عَنَّ لَكَ منها ، أَي : ظَهَرَ إذَا رَفَعْتَ رَأسَكَ ، وقيلَ : هو السَّحَابُ . و « قُرَابُ الأرض » بضم القاف ، وقيلَ بكسرِها ، والضم أصح وأشهر ، وهو : ما يُقارِبُ ملأَهَا ، واللَّه أعلم .

الشرح

قال المؤلف - رحمه اللَّه تعالى - : باب فضل الرجاء ، لما ذكر رحمه الله النصوص الدالة على الرجاء وعلى سعة فضل اللَّه وكرمه ، ذكر فضل الرجاء ، والإنسان ينبغي له أن يكون طامعًا في فضل اللَّه عز وجل راجيًا ما عنده .

ثم ذكر قول العبد الصالح وهو الرجل المؤمن من آل فرعون الذي يكتم إيمانه ، وكان ناصحًا لقومه ، يناصحهم ويبين لهم بالبراهين ما هم عليه من الباطل ، وما عليه موسى من الحق ، وفي النهاية قال لهم : ﴿ فَسَتَذْكُرُونَ مَآ أَقُولُ لَكُمْ ۚ وَأُفَوِّضُ أَمْرِىٓ إِلَى ٱللَّهِ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ بَصِيرٌۢ بِٱلْعِبَادِ ﴾ [غافر : ٤٤] ، ﴿ وَأُفَوِّضُ أَمْرِىٓ إِلَى ٱللَّهِ ﴾ يعني أجعله مفوضًا إليه ، لا أعتمد على غيره ، ولا أرجو إلا إياه ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ بَصِيرٌۢ بِٱلْعِبَادِ ﴾ ، قال اللَّه تعالى : ﴿ فَوَقَىٰهُ ٱللَّهُ سَيِّـَٔاتِ مَا مَكَرُوا۟ ﴾ أي سيئات مكرهم ﴿ وَحَاقَ بِـَٔالِ فِرْعَوْنَ سُوٓءُ ٱلْعَذَابِ ﴾ [غافر : ٤٥] .

ثم ذكر حديث أبي هريرة أن اللَّه تعالى قال في الحديث القدسي : « أنا عند ظن عبدي بي و أنا معه حيث يذكرني » ، « أنا عند ظن عبدي بي » : يعني أن اللَّه عند ظن عبده به ، إن ظن به خيرًا فله ، وإن ظن به سوى ذلك فله ، ولكن متى يكون العبد محسنًا الظن باللَّه عز وجل ؟ .

يكون كذلك إذا فعل ما يوجب فضل اللَّه ورحمته ، فيعمل الصالحات ويحسن الظن بأن اللَّه

---

(١) أي يظن أنه يعفو عنه ويرحمه .

(٢) أخرجه مسلم في الجنة وصفة نعيمها (٨٢) ، والإمام أحمد في مسنده (٣٢٥/١) .

(٣) أخرجه الترمذي في الدعوات (٣٥٤٠) وفي النسخة التي بين أيدينا لم يقل الترمذي : حديث حسن كما قال المصنف وإنما قال : غريب لا نعرفه إلا من هذا الوجه . وأخرجه أيضًا الإمام أحمد في مسنده (١٥٤/٥) .

تعالى يقبله أما أن يحسن الظن وهو لا يعمل ، فهذا من باب التمني على الله ، و من أتبع نفسه هواها وتمنى على الله الأماني فهو عاجز .

حسن الظن : بأن يوجد من الإنسان عمل يقتضي حسن الظن بالله ﷻ فمثلًا أحسن الظن بالله بأن الله يقبلها منك ، إذا صمت فكذلك ، إذا تصدقت ، إذا عملت عملًا صالحًا أحسن الظن بأن الله تعالى يقبل منك ، أما أن تحسن الظن بالله مع مبارزتك له بالعصيان فهذا دأب العاجزين الذين ليس عندهم رأس مالٍ يرجعون إليه .

ثم ذكر أن الله ﷻ أكرم من عبده ، فإذا تقرب الإنسان إلى الله شبرًا ، تقرب الله منه ذراعًا ، وإن تقرب منه ذراعًا ، تقرب منه باعًا ، وإن أتاه يمشي أتاه يهرول ﷻ فهو أكثر كرمًا و أسرع إجابة من عبده .

هذه الأحاديث و أمثالها مما يؤمن به أهل السنة والجماعة على أنه حق حقيقة لله ﷻ ، لكننا لا ندري كيف تكون هذه الهرولة ، وكيف يكون هذا التقرب ، فهو أمر ترجع كيفيته إلى ﷻ .

ثم ذكر المؤلف أحاديث في هذا المعنى كلها تدل على أنه يجب على الإنسان أن يحسن الظن بالله ﷻ ، ولكن مع فعل الأسباب التي توجب ذلك . نسأل الله أن يوفقنا والمسلمين لما فيه الخير والصلاح في الدنيا والآخرة .

* * *

٥٣ - باب الجمع بين الخوف والرجاء

اعْلَمْ أَنَّ المختَارَ لِلعَبْدِ في حَالِ صِحَّتِهِ أَن يَكُونَ خَائِفًا راجيًا ، وَيكونَ خَوفُهُ ورجاؤُه سواءً ، وفي حال المَرَضِ يُمَحِّضُ الرَّجاءَ . وقواعِدُ الشَّرْعِ مِن نُصُوصِ الكِتابِ وَالسُّنَّةِ وَغَيرِ ذلك مُتَظَاهِرَةٌ على ذلك .

قال الله تعالى : ﴿ فَلَا يَأْمَنُ مَكْرَ ٱللَّهِ إِلَّا ٱلْقَوْمُ ٱلْخَٰسِرُونَ ﴾ [الأعراف : ٩٩] وقال تعالى : ﴿ إِنَّهُۥ لَا يَاْيْـَٔسُ مِن رَّوْحِ ٱللَّهِ إِلَّا ٱلْقَوْمُ ٱلْكَٰفِرُونَ ﴾ [يوسف : ٨٧] وقال تعالى : ﴿ يَوْمَ تَبْيَضُّ وُجُوهٌ وَتَسْوَدُّ وُجُوهٌ ﴾ [آل عمران : ١٠٦] وقال تعالى : ﴿ إِنَّ رَبَّكَ لَسَرِيعُ ٱلْعِقَابِ وَإِنَّهُۥ لَغَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴾ [الأعراف : ١٦٧] . وقال تعالى : ﴿ إِنَّ ٱلْأَبْرَارَ لَفِى نَعِيمٍ ۝ وَإِنَّ ٱلْفُجَّارَ لَفِى جَحِيمٍ ﴾ [الانفطار : ١٣، ١٤] وقال تعالى : ﴿ فَأَمَّا مَن ثَقُلَتْ مَوَٰزِينُهُۥ ۝ فَهُوَ فِى عِيشَةٍ رَّاضِيَةٍ ۝ وَأَمَّا مَنْ خَفَّتْ مَوَٰزِينُهُۥ ۝ فَأُمُّهُۥ هَاوِيَةٌ ﴾[1] [القارعة : ٦- ٩] والآيات في هذا المعنى كثيرة فَيَجْتَمِعُ الخوفُ والرجاءُ في آيتينِ مُقْتَرنَتَينِ أو آيات أو آية .

٤٤٣ – وعن أبي هريرة ﷺ أنَّ رسول الله ﷺ ، قال : « لَو يَعْلَمُ المؤْمِنُ ما عِنْدَ اللهِ مِنَ

(١) ﴿ مَكْرَ ٱللَّهِ ﴾ : أي استدراج الله ﷻ لهم بالنعم ، ﴿ يَاْيْـَٔسُ ﴾ : يقنط ، ﴿ ٱلْأَبْرَارَ ﴾ : المؤمنون الصادقون ، ﴿ نَعِيمٍ ﴾ : الجنة ، ﴿ ٱلْفُجَّارَ ﴾ : الكفار ، ﴿ جَحِيمٍ ﴾ : نار محرقة ، ﴿ ثَقُلَتْ مَوَٰزِينُهُۥ ﴾ : أي رجحت حسناته عن سيئاته ، ﴿ خَفَّتْ مَوَٰزِينُهُۥ ﴾ : أي رجحت سيئاته عن حسناته ، ﴿ فَأُمُّهُۥ ﴾ : أي مسكنه ومأواه ، ﴿ هَاوِيَةٌ ﴾ : أي يهوى فيها الكافر على رأسه في جهنم .

العقُوبَةِ ، ما طَمِعَ بِجَنَّتِه أحَدٌ ، وَلَو يَعْلَمُ الكافِرُ مَا عِنْدَ اللَّهِ مِنَ الرَّحْمَةِ ، مَا قَنِطَ (١) مِنْ جَنَّتِهِ أَحَدٌ » (٢) رواه مسلم .

٤٤٤ - وعن أبي سَعيدٍ الخدريِّ ﷺ أنَّ رسُولَ الله ﷺ قال : « إذا وُضِعَتِ الجنَازَةُ واحْتَمَلَهَا النَّاسُ أوِ الرجالُ عَلى أعْنَاقِهِمْ ، فَإنْ كانَتْ صالِحَةً قالَتْ : قَدِّمُوني قَدِّمُوني (٣) ، وَإنْ كانتْ غَيرَ صالِحَةٍ ، قالَتْ : يا وَيلَها ! أينَ تَذْهَبُونَ بها ؟ يَسْمَعُ صَوتَها كُلُّ شَيءٍ إلا الإنْسانُ ، وَلَو سَمِعَهُ صَعِقَ (٤) » (٥) رواه البخاري .

٥٤٤ - وعن ابنِ مسعودٍ ﷺ قالَ : قالَ رسول اللَّه ﷺ : « الجَنَّةُ أقْرَبُ إلى أحَدِكُمْ مِنْ شِرَاكِ نَعْلِهِ (٦) ، وَالنَّارُ مِثْلُ ذِلكَ » (٧) رواه البخاري .

الشرح

قال المؤلف - رحمه اللَّه تعالى - : باب الجمع بين الخوف والرجاء وتغليب الرجاء في حال المرض .
هذا الباب قد اختلف فيه العلماء ، هل الإنسان يغلب جانب الرجاء أو جانب الخوف ؛ فمنهم من قال : يغلب جانب الرجاء مطلقًا ، ومنهم من قال : يغلب جانب الخوف مطلقًا . ومنهم من قال : ينبغي أن يكون خوفه ورجاؤه سواءً ، لا يغلب هذا على هذا ، ولا هذا على هذا ، لأنه إن غلب جانب الرجاء أمن مكر اللَّه ، وإن غلب جانب الخوف يئس من رحمة اللَّه .

وقال بعضهم : في حال الصحة يجعل رجاءه و خوفه واحدًا كما اختاره النووي رحمه الله في هذا الكتاب ، وفي حال المرض يغلب الرجاء أو يمحضه .

وقال بعض العلماء أيضًا : إذا كان في طاعة فليغلب الرجاء وأن اللَّه يقبل منه ، وإذا كان عند المعصية فليغلب الخوف ، لئلا يقدم على المعصية .

والإنسان يجب عليه أن يكون طبيب نفسه ، إذا رأى من نفسه أنه أمن من مكر اللَّه ، وأنه مقيم على معصية اللَّه ، ومتمن على اللَّه الأماني ؛ فليعدل عن هذه الطريق ، وليسلك طريق الخوف . وإذا رأى أن فيه وسوسة ، وأنه يخاف بلا موجب ؛ فليعدل عن هذا الطريق ، وليغلب جانب الرجاء حتى يعتدل خوفه ورجاءه .

ثم ذكر المؤلف رحمه الله آيات جمع اللَّه فيها ذكر ما يوجب الخوف وذكر ما يوجب الرجاء ، ذكر

---

(١) قنط : أي يئس .
(٢) أخرجه مسلم في التوبة (٢٣) والترمذي في الدعوات (٣٥٤٢) ، والإمام أحمد في مسنده (٣٣٤/٢) .
(٣) أي أسرعوا بي إلى لقاء ربي . (٤) أي هلك .
(٥) أخرجه البخاري في الجنائز (١٣١٤) ، والإمام أحمد في مسنده (٥٨/٣) والبيهقي في السنن (٢١/٤) .
(٦) شراك نعله : الشراك : سير النعل التي تكون على وجهها والجمع شُرُك .
(٧) أخرجه البخاري في الرقاق (٦٤٨٨) ، والإمام أحمد في مسنده (٣٨٧/١ ، ٤١٣) .

فيها أهل الجنة وأهل النار ، وذكر فيها صفته ﷻ وأنه شديد العقاب وأنه غفور رحيم .

وتأمل قوله تعالى : ﴿ ٱعْلَمُوٓا۟ أَنَّ ٱللَّهَ شَدِيدُ ٱلْعِقَابِ وَأَنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ۝ مَّا عَلَى ٱلرَّسُولِ إِلَّا ٱلْبَلَٰغُ ﴾ [المائدة : ٩٨، ٩٩] ، حيث إنه في مقام التهديد والوعيد قدم ذكر شدة العقاب ﴿ ٱعْلَمُوٓا۟ أَنَّ ٱللَّهَ شَدِيدُ ٱلْعِقَابِ وَأَنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴾ .

وفي حالة تحدثه عن نفسه وبيان كمال صفاته قال : ﴿ نَبِّئْ عِبَادِىٓ أَنِّىٓ أَنَا ٱلْغَفُورُ ٱلرَّحِيمُ ۝ وَأَنَّ عَذَابِى هُوَ ٱلْعَذَابُ ٱلْأَلِيمُ ﴾ [الحجر : ٤٩، ٥٠] ، فقدم ذكر المغفرة على ذكر العذاب ؛ لأنه يتحدث عن نفسه ﷻ ، وعن صفاته الكاملة وعن رحمته التي سبقت غضبه .

ثم ذكر المؤلف أحاديث في هذا المعنى تدل على أنه يجب على الإنسان أن يجمع بين الخوف والرجاء ، مثل قول النبي ﷺ « لو يعلم المؤمن ما عند اللَّه من العقوبة ما طمع بجنته أحد » . والمراد لو يعلم علم حقيقة وعلم كيفية ، لا أن المراد لو يعلم علم نظر وخبر ، فإن المؤمن يعلم ما عند اللَّه من العذاب لأهل الكفر والضلال ، لكن حقيقة هذا لا تدرك الآن ، لا يدركها من وقع في ذلك - أعاذنا اللَّه وإياكم من عذابه .

« ولو يعلم الكافر ما عند اللَّه من الرحمة ، ماقنط من جنته أحد » ، والمراد حقيقة ذلك ، وإلا فإن الكافر يعلم أن اللَّه غفور رحيم ، ويعلم معنى المغفرة ، ويعلم معنى الرحمة .

وذكر المؤلف أحاديث في معنى ذلك مثل قوله : « الجنة أقرب إلى أحدكم من شراك نعله والنار مثل ذلك » . شراك النعل يضرب فيه المثل في القرب ؛ لأن الإنسان لابسٌ نعلَه ، فالجنة أقرب إلى أحدنا من شراك نعله ؛ لأنها ربما تحصل للإنسان بكلمة واحدة ، « والنار مثل ذلك » ربما تحدث النار بسبب كلمة يقولها قائل ، مثل الرجل الذي كان يمر على صاحب معصية فينهاه ويزجره ، فلما تعب قال : واللَّه لا يغفر اللَّه لفلان . فقال اللَّه تعالى : « من ذا الذي يتألى علي ألا أغفر لفلان ، فإني قد غفرت له وأحبطت عملك » ، قال أبو هريرة : تكلم بكلمة أوبقت دنياه وآخرته [1] .

فالواجب على الإنسان أن يكون طبيب نفسه في كونه يغلب الخوف أو الرجاء ، إن رأى نفسه تميل إلى الرجاء وإلى التهاون بالواجبات وإلى انتهاك المحرمات استنادًا إلى مغفرة اللَّه ورحمته فليعدل عن هذه الطريق ، وإن رأى أن عنده وسواسًا ، وأن اللَّه لا يقبل منه ؛ فإنه يعدل عن هذا الطريق إلى ما يحصله في الصحة وفي حال المرض .

* * *

(١) أخرجه مسلم في البر والصلة (١٣٧) .

٥٤ - باب فضل البكاء من خشية الله تعالى وشوقًا إليه

قال الله تعالى : ﴿ وَيَخِرُّونَ لِلْأَذْقَانِ يَبْكُونَ وَيَزِيدُهُمْ خُشُوعًا ﴾ [الإسراء: ١٠٩] وقال تعالى : ﴿ أَفَمِنْ هَٰذَا الْحَدِيثِ تَعْجَبُونَ ۝ وَتَضْحَكُونَ وَلَا تَبْكُونَ ﴾ [النجم: ٥٩، ٦٠] .

٤٤٦ - وعَن ابن مَسعودٍ ﷺ قالَ : قال لي النبيُّ ﷺ : « اقْرأْ عليَّ القُرآنَ » قلتُ : يا رسُولَ اللَّه أَقْرَأُ عَلَيكَ ، وَعَلَيكَ أُنْزِلَ ؟! قالَ : « إنِي أُحِبُّ أَنْ أَسْمَعَهُ مِنْ غَيرِي » فقرأتُ عليه سورَةَ النِّسَاءِ ، حتى جئتُ إلى هذِهِ الآية : ﴿ فَكَيْفَ إِذَا جِئْنَا مِن كُلِّ أُمَّةٍ بِشَهِيدٍ وَجِئْنَا بِكَ عَلَىٰ هَٰؤُلَاءِ شَهِيدًا ﴾ [النساء: ٤١] قال : « حَسْبُكَ الآنَ » [١] فَالْتفتُّ إلَيهِ ، فإذا عَيناهُ تَذْرِفانِ [٢] . متفقٌ عليه [٣] .

٤٤٧ - وعن أنسٍ ﷺ قالَ : خَطَبَ رَسُولُ اللهِ ﷺ خُطْبَةً ما سَمِعْتُ مِثْلها قَطُّ ، فقالَ : « لَو تَعْلَمُونَ ما أَعْلَمُ لَضَحِكْتُمْ قَليلًا وَلَبَكَيتُمْ كثيرًا » قال : فَغَطَّى أَصْحَابُ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ وَجُوهَهُمْ ، ولهُمْ خَنِينٌ . متفقٌ عليه [٤] ، وَسَبَقَ بَيَانُهُ في بابِ الخَوفِ .

٤٤٨ - وعن أبي هريرة ﷺ قالَ : قال رسول اللَّه ﷺ : « لا يَلِجُ النَّارَ [٥] رَجُلٌ بَكَى مِنْ خَشْيَةِ اللَّهِ [٦] حَتَّى يَعُودَ اللَّبَنُ في الضَّرْعِ ، وَلا يَجتَمعُ غُبَارٌ في سَبِيلِ اللَّهِ وَدُخانُ جَهَنَّمَ » [٧] رواهُ الترمذي ، وقال : حديثٌ حسنٌ صحيحٌ .

٤٤٩ - وعنه قالَ : قالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ : « سَبْعَةٌ يُظِلُّهُمُ اللَّهُ في ظِلِّهِ يومَ لَا ظِلَّ إلا ظِلُّهُ : إمامٌ عادِلٌ ، وشَابٌّ نَشَأَ في عِبادَةِ اللَّهِ تَعالى ، وَرَجُلٌ قَلبُهُ مُعَلَّقٌ في المَسَاجِدِ ، وَرَجُلانِ تَحَابَّا في اللَّهِ ، اجْتَمَعا عَلَيهِ ، وَتَفرَّقا عَلَيه ، ورَجُلٌ دَعَتْهُ امْرأَةٌ ذاتُ مَنْصِبٍ وجَمَالٍ ، فَقَالَ : إنِّي أَخافُ اللَّهَ ، ورَجُلٌ تَصَدَّقَ بِصَدَقَةٍ فَأَخْفاها حتَّى لَا تَعْلَمَ شِمالُهُ ما تُنْفِقُ يَمِينه ، ورَجُلٌ ذَكَرَ اللَّهَ خالِيًا فَفاضَتْ عَيناهُ » [٨] متفقٌ عليه .

---

(١) حسبك : أي كفاك .
(٢) تذرفان : أي سال دمعها .
(٣) أخرجه البخاري في تفسير القرآن (٤٥٨٢) وليس فيه كلمة (القرآن) ومسلم في صلاة المسافرين (٢٤٧) واللفظ له ، والإمام أحمد في مسنده (٤٣٨/١ ، ٤٣٣) .
(٤) أخرجه البخاري في تفسير القران (٤٦٢١) واللفظ له ، ومسلم في الفضائل (١٣٤) .
(٥) لا يلج : أي لا يدخل .
(٦) خشية اللَّه : أي الخوف منه .
(٧) أخرجه الترمذي في فضائل الجهاد (١٦٣٣) وفي الزهد (٢٣١١) والنسائي في سننه (١٢/٦) .
(٨) أخرجه البخاري في الزكاة (١٤٢٣) ومسلم في الزكاة (٩١) والترمذي في الزهد (٢٣٩١) .

الشرح

قال المؤلف - رحمه الله تعالى - : فضل البكاء من خشية الله ﷻ ، يعني خوفًا منه وشوقًا إليه تبارك وتعالى ، وذلك أن البكاء له أسباب : تارة يكون الخوف ، وتارة يكون الألم ، وتارة يكون الشوق وغير ذلك من الأسباب التي يعرفها الناس . ولكن البكاء من خشية الله إما خوفًا منه ، وإما شوقًا إليه تبارك وتعالى ، فإذا كان البكاء من معصية فعلها الإنسان ، فهذا البكاء سببه الخوف من الله ﷻ ، وإذا كان بعد طاعة فعلها ، كان هذا البكاء شوقًا إلى الله ﷻ .

وذكر المؤلف رحمه الله آيتين ، آية فيها الثناء على الذين يبكون من خشية الله وهي قوله تعالى : ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْعِلْمَ مِن قَبْلِهِۦٓ ﴾ [الإسراء: ١٠٧] أي أوتوا العلم من قبل القرآن ، وهم أهل الكتاب ، ﴿ إِذَا يُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ يَخِرُّونَ لِلْأَذْقَانِ سُجَّدًا ۝ وَيَقُولُونَ سُبْحَٰنَ رَبِّنَآ إِن كَانَ وَعْدُ رَبِّنَا لَمَفْعُولًا ﴾ [الإسراء: ١٠٧، ١٠٨] يعني إن وعد ربنا واقع لا محالة ، فإن هنا للتوكيد . ﴿ وَيَخِرُّونَ لِلْأَذْقَانِ يَبْكُونَ وَيَزِيدُهُمْ خُشُوعًا ﴾ . ﴿ وَيَخِرُّونَ لِلْأَذْقَانِ ﴾ يعني عليها . والمراد المبالغة في السجود ، حتى تكاد أذقانهم تضرب بالأرض من شدة المبالغة في سجودهم . ﴿ وَيَزِيدُهُمْ خُشُوعًا ﴾ خشوعًا في القلب يظهر أثره وعلامته على الجوارح . والآية الثانية قوله تعالى : ﴿ أَفَمِنْ هَٰذَا ٱلْحَدِيثِ تَعْجَبُونَ ۝ وَتَضْحَكُونَ وَلَا تَبْكُونَ ﴾ [النجم: ٥٩، ٦٠] وهذا ذم لهم . أن يضحك الإنسان من القرآن ويعجب منه عجب استنكار وسخرية ولا يبكي منه . والقرآن أعظم واعظ ، يعظ الله به القلوب ، لكنه إذا ورد على قلوب كالحجارة والعياذ بالله فإنها لا تلين ولكنها تزداد صلابة . نسأل الله العافية .

ثم ذكر المؤلف حديث ابن مسعود رضي الله عنه أن النبي ﷺ طلب منه أن يقرأ عليه القرآن ، فقال : يا رسول الله ، كيف أقرؤه عليك وعليك أنزل ؟ ؛ يعني فأنت أعلم به مني ، فكيف أقرؤه عليك ؟ . قال : « إني أحب أن أسمعه من غيري » . هكذا قال النبي عليه الصلاة والسلام ، وفيه دليل على أن الإنسان قد يكون إنصاته لقراءة غيره أخشع لقلبه مما لو قرأ هو ، وهو كذلك أحيانًا ، فأحيانًا إذا سمعت القرآن من غيره خشعت وبكيت ، لكن لو قرأته أنت ما حصلت لك هذه الحال .

فقرأ عليه سورة النساء ، فلما بلغ هذه الآية العظيمة : ﴿ فَكَيْفَ إِذَا جِئْنَا مِن كُلِّ أُمَّةٍۭ بِشَهِيدٍ وَجِئْنَا بِكَ عَلَىٰ هَٰٓؤُلَآءِ شَهِيدًا ﴾ [النساء: ٤١] يعني ماذا تكون حالك ؟! وماذا تكون حالهم ؟! . كيف هنا للاستفهام ، والاستفهام يشد النفس وينبه القلب ﴿ إِذَا جِئْنَا مِن كُلِّ أُمَّةٍۭ بِشَهِيدٍ ﴾ يوم القيامة . والشهداء طائفتان من الناس : الطائفة الأولى : الأنبياء والرسول عليهم الصلاة والسلام كما قال تعالى : ﴿ وَيَكُونَ ٱلرَّسُولُ عَلَيْكُمْ شَهِيدًا ﴾ [البقرة: ١٤٣] .

والثانية : أهل العلم الذين ورثوا الأنبياء ؛ فإنهم شهداء بعد أن يموت الأنبياء ، فالشهداء على الخلق هم العلماء بعد الرسل يشهدون بأن الرسل بلغوا ، ويشهدون على الأمة بأن الرسالة قد بلغتهم ، ويالها

من ميزة عظيمة لأهل العلم ، أن يكونوا هم شهداء اللّٰه في أرضه . يقول : ﴿ فَكَيْفَ إِذَا جِئْنَا مِن كُلِّ أُمَّةٍ بِشَهِيدٍ وَجِئْنَا بِكَ عَلَىٰ هَٰؤُلَاءِ شَهِيدًا ﴾ ، وقد ذكر اللّٰه في سورة الجاثية ﴿ وَتَرَىٰ كُلَّ أُمَّةٍ جَاثِيَةً ﴾ على ركبها ﴿ كُلُّ أُمَّةٍ تُدْعَىٰ إِلَىٰ كِتَٰبِهَا ﴾ كتاب الأعمال ، أو إلى كتابها الذي نزل عليها بالوحي ﴿ ٱلْيَوْمَ تُجْزَوْنَ مَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴾ .

يقول : ﴿ فَكَيْفَ إِذَا جِئْنَا مِن كُلِّ أُمَّةٍ بِشَهِيدٍ وَجِئْنَا بِكَ ﴾ يعني يا محمد ﴿ عَلَىٰ هَٰؤُلَاءِ ﴾ الأمم ﴿ شَهِيدًا ﴾ ماذا تكون الحال . فقال النبي ﷺ له : « حسبك الآن » . قال ابن مسعود : فالتفت إليه فإذا عيناه تذرفان . يبكي – عليه الصلاة والسلام – خوفًا من هذه الحالة الرهيبة العظيمة . ففي هذا دليل على البكاء من سماع القرآن أو عند قراءته .

وذكر المؤلف حديثًا آخر سبق لنا شرحه وهو قول الرسول عليه الصلاة والسلام : « لو تعلمون ما أعلم لضحكتم قليلا ولبكيتم كثيرًا » يعني لو تعلمون ما أعلم من حقائق الأمور التي أخفاها اللّٰه عنكم وعلمها الرسول ﷺ لكنه أخفاها عن الخلق رحمة بهم وعلمها النبي ﷺ ولكنه لم يؤمر بإبلاغها للناس .

ولما قال ﷺ : « لو تعلمون ما أعلم لضحكتم قليلا ولبكيتم كثيرًا » غطى الصحابة وجوههم ولهم خنين . يعني أصوات بكاء . يبكون لأن المرد بقول الرسول عليه الصلاة والسلام « لو تعلمون ما أعلم» التحذير مما علمه – عليه الصلاة والسلام – فجعلوا يبكون ﷺ وأرضاهم ، وهذا يدل على كمال إيمانهم ، وكمال تصديقهم بما أخبر به الرسول ﷺ .

ثم ذكر المؤلف حديث أبي هريرة المشهور ، وقد سبق أيضًا « سبعة يظلهم اللّٰه في ظله يوم لا ظل إلا ظله » وذكر منهم : « رجل ذكر اللّٰه خاليًا ففاضت عيناه » ذكر اللّٰه بأسمائه وصفاته وأفعاله ، وأحكامه وآياته ، ذكر اللّٰه خاليًا ففاضت عيناه ، إما شوقًا إليه ، وإما خوفًا منه ، فهذا من الذين يظلهم اللّٰه في ظله يوم لا ظل إلا ظله . والمراد بالظل هنا : ظل يخلقه اللّٰه ﷻ يوم القيامة يظلل فيه من شاء من عباده ، وليس المراد ظل نفسه جل وعلا ؛ لأن اللّٰه نور السموات والأرض ، ولا يمكن أن يكون اللّٰه ظلًّا من الشمس ، فتكون الشمس فوقه وهو بينها وبين الخلق ، ومن فهم هذا الفهم فهو بليد أبلد من الحمار ؛ لأنه لا يمكن أن يكون اللّٰه ﷻ تحت شيء من مخلوقاته ، فهو العلي الأعلى ، ثم هو نور السماوات والأرض . قال النبي عليه الصلاة والسلام «حجابه» يعني حجاب اللّٰه «النور ، لو كشفه لأحرقت سبحات وجهه ما انتهى إليه بصره من خلقه » [(١)] ، يعني لو كشف هذا الحجاب – والحجب أيضًا من نور ، لكنها نور دون نور البارئ ﷻ لو كشف اللّٰه هذا النور لأحرقت سبحات وجهه يعني بهاؤه وعظمته ونوره ، ما انتهى إليه بصره من خلقه ، وبصره من خلقه ، وبصره ينتهي إلى كل شيء .

---

(١) أخرجه مسلم في الإيمان (٢٩٣) والإمام أحمد في مسنده (٤٠١/٤ ، ٤٠٥) ابن ماجه في سننه (١٩٦) .

والمعنى : لو كشفه لأحرق هذا النور كل شيء ، كيف يكون المراد بالظل ظل الرب ﷻ ؟! لكن كما قلت : فبعض الناس أجهل من الحمار ، لا يدري ما يترتب على قوله الذي يقوله في تفسير كلام الله وكلام رسوله ﷺ ولا يمكن أن يريد الرسول عليه الصلاة والسلام هذا .

حتى الرواية التي وردت في ظل عرشه [١] فيها نظر ؛ لأن المعروف أن العرش أكبر من السماوات والأرض والشمس والقمر والنجوم ، والسماوات السبع والأرضين السبع بالنسبة للكرسي كحلقة ألقيت في فلاة من الأرض ، وفضل العرش على الكرسي كفضل الفلاة على هذه الحلقة [٢] ، فكيف يكون العرش تحت الشمس يظل الناس ؟!

لو صح الحديث لقلنا : ربما يكون طرف العرش مثلًا ، والله ﷻ على كل شيء قدير ، لكن هذه اللفظة في صحتها نظر ، والصواب أنه ظل يخلقه الله في ذلك اليوم ، إما من الغمام أومن غير ذلك ، فالله أعلم به ، لكنه ظل يستر الله به من شاء من عباده من حر الشمس . وإنما قال : « يوم لا ظل إلا ظله » ، لأننا في الدنيا نستظل بالبناء الذي نبنيه ، ونستظل بالأشجار التي تغرس ، ونستظل بسفوح الجبال ، وبالجدران ، وبغير ذلك ، ونستظل بأشياء نحن نصنعها بأيدينا وبأشياء خلقها الله ﷻ .

لكن في الآخرة ليس هناك ظل ، قال الله تعالى : ﴿ وَيَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلْجِبَالِ فَقُلْ يَنسِفُهَا رَبِّى نَسْفًا ﴾ [طه : ١٠٥] كل الجبال تنسف مهما عظمت ، أكبر الجبال وأعظمها تنسف ، تكون رملًا ، هباء منثورًا ، تطير في الجو ﴿ وَتَرَى ٱلْجِبَالَ تَحْسَبُهَا جَامِدَةً وَهِىَ تَمُرُّ مَرَّ ٱلسَّحَابِ ۚ صُنْعَ ٱللَّهِ ٱلَّذِىٓ أَتْقَنَ كُلَّ شَىْءٍ ﴾ [النمل : ٨٨] تطير في الهواء وإن كنت تظنها جامدة لا تتحرك . وقد سمعت بعض الناس المتأخرين يقول ﴿ وَتَرَى ٱلْجِبَالَ تَحْسَبُهَا جَامِدَةً ﴾ يعني في الدنيا ، وأن هذا دليل على أن الأرض تدور ، وعلل ذلك بأن يوم القيامة ليس فيه شيء من الحسبان . وهذا من جهله وعدم معرفته ؛ لأن الله تعالى قال : ﴿ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱتَّقُوا۟ رَبَّكُمْ ۚ إِنَّ زَلْزَلَةَ ٱلسَّاعَةِ شَىْءٌ عَظِيمٌ ۝ يَوْمَ تَرَوْنَهَا تَذْهَلُ كُلُّ مُرْضِعَةٍ عَمَّآ أَرْضَعَتْ وَتَضَعُ كُلُّ ذَاتِ حَمْلٍ حَمْلَهَا وَتَرَى ٱلنَّاسَ سُكَـٰرَىٰ وَمَا هُم بِسُكَـٰرَىٰ ﴾ [الحج : ١، ٢] هذا من يراهم على خلاف الواقع ، فالأمر إذا ذهل الإنسان ولو كان أمامه شيء متيقن ؛ فإنه تضيع حواسه وإدراكاته . المهم أن قوله : « يوم لا ظل إلا ظله » أي إلا الظل الذي يخلقه الله ﷻ ، يظلل به من شاء من عباده . وهذا هو الشاهد .

قوله : « ورجل ذكر الله خاليًا ففاضت عيناه » . فأنت يا أخي إذا ذكرت الله فاذكر ربك خالي القلب ، لا تفكر في شيء ، إن فكرت في شيء لم يحصل لك البكاء من خشية الله أو الشوق إليه ، لأنه لا يمكن أن يبكي الإنسان وقلبه مشغول بشيء آخر ، كيف تبكي شوقًا إلى الله

---

(١) ذكرها البيهقي في الأسماء والصفات ص (٣٧١) .

(٢) سبق تخريجه .

وخوفًا منه ، وقلبك مشغول بغيره ؟! ولهذا قال : « ذكر اللَّه خاليًا » يعني خالي القلب مما سوى اللَّه ﷻ ، خالي الجسم أيضًا ، ليس عنده أحد حتى يكون بكاؤه رياءً وسمعة ، فهو مخلص حاضر القلب ، فهذا أيضًا ممن يظلهم اللَّه في ظله يوم لا ظل إلا ظله . أسأل اللَّه أن يظلني والمسلمين في ظله يوم لا ظل إلا ظله .

* * *

٤٥٠ - وعَن عبدِ اللَّه بنِ الشِّخِّيرِ ﷺ قال : أَتيتُ رسُولَ اللَّهِ ﷺ وهُوَ يُصَلِّي ولِجَوفِهِ أَزِيزٌ [١] كَأَزِيزِ المِرْجَلِ مِنَ البُكاءِ [٢] . حديث صحيح رواه أبو داود ، والتِّرمذي [٣] في الشَمائِلِ بإسنادٍ صحيحٍ .

٤٥١ - وعن أنسٍ ﷺ قالَ : قالَ رسُولُ اللَّهِ ﷺ لأُبَيِّ بن كَعْبٍ ﷺ : « إنَّ اللَّهَ ﷻ أَمَرَني أَنْ أَقْرَأَ عَلَيكَ : ﴿ لَمْ يَكُنِ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا ﴾ قَالَ : وَسَمَّاني ؟ قالَ : « نَعَمْ » فَبَكى أُبَيٌّ [٤] . متفقٌ عليه .

وفي روايةٍ : فَجَعَلَ أُبَيٌّ يَبْكي .

٤٥٢ - وعنهُ قالَ : قالَ أبو بَكْرٍ لعمرَ ﷺ بعدَ وفاةِ رسُولِ اللَّهِ ﷺ : انْطَلِقْ بنا إلى أُمِّ أَيْمَنَ ﷺ نَزُورها كما كانَ رسُولُ اللَّهِ ﷺ يَزُورُها ، فَلَمَّا انْتَهَينا إلَيهَا بَكَتْ ، فقالا لها : ما يُبْكِيك ؟ أَمَا تَعْلَمينَ أَنَّ ما عِنْدَ اللَّهِ تَعالى خَيرٌ لِرَسُولِ اللَّهِ ﷺ !؟ قالَتْ : إني لَا أَبْكِي أنّي لا أَعْلَمُ أَنَّ ما عِنْدَ اللَّهِ خَيرٌ لِرَسُولِ اللَّهِ ﷺ ، ولكِنَّني أَبْكِي أَنَّ الوَحْيَ قَدِ انْقَطَعَ مِنَ السَّماءِ ، فَهَيَّجتْهُما [٥] عَلى البُكاءِ ، فَجَعَلا يَبْكِيانِ مَعَها [٦] . رواه مسلم . وقد سبق في باب زيارَةِ أهل الخير .

٤٥٣ - وعن ابنِ عمر ﷺ قال : لَمَّا اشْتَدَّ بِرَسُولِ اللَّهِ ﷺ وَجَعُهُ ، قيلَ لَهُ في الصَّلاةِ ، فقالَ : « مُرُوا أَبا بَكْرٍ فَلْيُصَلِّ بالنَّاسِ » فقالَتْ عائشَةُ ﷺ : إنَّ أَبا بَكْرٍ رَجُلٌ رَقيقٌ [٧] ، إذا قَرَأَ القُرآنَ غَلَبَهُ البُكاءُ ، فقال : « مُرُوهُ فَلْيُصَلِّ » .

وفي رواية عن عائشَةَ ﷺ قالَتْ : قلتُ : إنَّ أَبا بَكْرٍ إذا قامَ مَقامَكَ لَمْ يسمع النَّاسَ مِنَ

---

(١) أي تنسى وتترك كل امرأة الطفل الذي ألقمته ثديها من شدة كربها ودهشتها .

(٢) أزيز : أي صوت .

(٣) أخرجه أبو داود في البكاء في الصلاة (٩٠٤) والترمذي في الشمائل ص (٢٦٣) والنسائي في سننه (١٣/٣) وأحمد في مسنده (٢٥/٤) والحاكم في المستدرك (٢٦٤/١) وصححه على شرط مسلم .

(٤) أخرجه البخاري في مناقب الأنصار (٣٨٠٩) واللفظ له وليس فيه (أبي) في العبارة الأخيرة ؛ ومسلم في صلاة المسافرين وقصرها (٢٤٥) والإمام أحمد في مسنده (١٣/٣ ، ١٨٥ ، ٢١٨) .

(٥) أي أثرت فيهما مما جعلهما يبكيان بشدة .

(٦) أخرجه مسلم في فضائل الصحابة (١٠٣) .

(٧) أي رقيق القلب .

البُكاءِ[1] . متفقٌ عليه .

٤٥٤ - وعن إبراهيمَ بنِ عبدِ الرَّحمنِ بنِ عوفٍ أَنَّ عبدَ الرَّحمنِ بنَ عَوفٍ ﷺ أُتِي بطَعامٍ وكانَ صائمًا ، فقالَ : قُتِلَ مُصْعَبُ بنُ عُمَيرٍ ﷺ وَهُوَ خَيرٌ مِنِّي ، فَلَمْ يُوجَدْ لَه ما يُكَفَّنُ فيهِ إلا بُرْدَةٌ إنْ غُطِّيَ بها رَأسُهُ بدت رِجْلاهُ ، وإنْ غُطِّيَ بها رِجْلاهُ بَدَا رأسُهُ ، ثُمَّ بسِطَ لَنا مِنَ الدُّنْيا[2] ما بُسِطَ - أَو قالَ : أُعْطِينا مِنَ الدُّنْيا مَا أُعْطِينا - قَدْ خَشِينا أنْ تَكُونَ حَسَنَاتُنا عُجِّلَتْ لنا[3] . ثُمَّ جَعَلَ يَبْكي حتَّى تَرَكَ الطَّعامَ[4] رواه البخاري .

الشرح

هذه الأحاديث التي ذكرها المؤلف في باب البكاء من خشية الله أومن الشوق إليه ﷻ ، ذكر فيها عدة أحاديث ، منها حديث عبد الله بن الشخير ﷺ أنه أتى النبي ﷺ وهو يصلي ولجوفه أزيز كأزيز المرجل من البكاء . المرجل : القدر يغلي على النار وله صوت معروف ، وأزيز صدر النبي ﷺ كان من خشية الله بلا شك ، فهذا بكاء من خشية الله .

وذكر حديث أنس أن النبي ﷺ قال لأبي بن كعب : « إن الله ﷻ أمرني أن أقرأ عليك ﴿ لَمْ يَكُنِ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ مِنْ أَهْلِ ٱلْكِتَٰبِ وَٱلْمُشْرِكِينَ مُنفَكِّينَ ﴾ [البينة : ١] فقال : وسماني لك ؟ قال : « نعم » . فبكى أبي . لكن هذا البكاء يحتمل أن شوقًا إلى الله ﷻ ؛ لأن أمر نبيه ﷺ أن يقرأ هذه السورة على أبي تدل على رفعة أبي بن كعب ﷺ ، ويحتمل أن يكون ذلك من الفرح ، فإنما الإنسان ربما يبكي إذا فرح ، كما أنه يبكي إذا حزن .

ثم ذكر المؤلف ﷺ أحاديث كلها تدل على البكاء بسبب الحزن على ما مضى ، منها حديث أم أيمن ﷺ حين زارها الصحابيان أبو بكر و عمر ، أتيا إليها كما كان النبي ﷺ يزورها ، فلما أتيا بكت فقالا لها : « ما يبكيك ، أما علمت أن ما عند الله خير لرسوله ﷺ ؟ قالت : بلى إني لا أبكي لأن الوحي قد انقطع من السماء » انقطع الوحي « فهيجتهما على البكاء فجعلا يبكيان معها » .

وكذلك حديث عبد الرحمن بن عوف ﷺ حين جيء إليه بالطعام و هو صائم ، والصائم يشتهي الطعام عادة ، ولكنه ﷺ تذكر ما كان عليه الصحابة الأولون ، وهو ﷺ من الصحابة الأولين من المهاجرين ﷺ ، لكنه قال احتقارًا لنفسه : « قتل مصعب بن عمير وهو خير مني » . وكان

---

(١) أخرجه البخاري في الأذان (٦٦٤) ومسلم في الصلاة (٩٤ ، ٩٥) والرواية الثانية : أخرجها بلفظها البخاري في الاعتصام (٧٣٠٣) ومسلم في الأذان (١٠١) .

(٢) المراد وسع الله لنا فيها .

(٣) المراد عُجِّلَ لنا جزاؤها فلا نقدم على ثواب مدخر .

(٤) أخرجه البخاري في الجنائز (١٢٧٤ ، ١٢٧٥) .

مصعب [(١)] رجلًا شابًّا ، كان عند والديه بمكة وكان والداه أغنياء ، وكان يلبسانه من خير لباس الشباب والفتيان ، وقد دللاه دلالًا عظيمًا ، فلما أسلم هجراه وأبعداه ، وهاجر مع النبي ﷺ فكان مع المهاجرين ، وكان عليه ثوب مرقع بعد ما كان في مكة عند أبويه يلبس أحسن الثياب ، ولكنه ترك ذلك كله مهاجرًا إلى الله ورسوله . وأعطاه النبي ﷺ الراية يوم أحد ، فاستشهد ﷺ . وكان معه بردة أي ثوب إذا غطوا به رأسه بدت رجلاه وذلك لقصر الثوب وإن غطوا رجليه بدا رأسه ، فأمر النبي ﷺ أن يستر به رأسه وأن تستر رجلاه بالإذخر ، نبات معروف [(٢)] .

فكان عبد الرحمن بن عوف يذكر حال هذا الرجل ، ثم يقول أنهم قد مضوا وسلموا مما فتح الله به من الدنيا على من بعدهم من المغانم الكثيرة ، كما قال تعالى : ﴿ وَمَغَانِمَ كَثِيرَةً يَأْخُذُونَهَا ﴾ [الفتح : ١٩] . ثم قال عبد الرحمن بن عوف ﷺ : « قد خشينا أن تكون حسناتنا عجلت لنا » لأن الكافر يجزى على حسناته في الدنيا ، وله في الآخرة عذاب النار ، والمؤمن قد يجزى في الدنيا وفي الآخرة ، ولكن جزاء الآخرة هو الأهم . فخشي ﷺ أن تكون حسناتهم قد عجلت لهم في هذه الدنيا ، فبكى خوفًا وفرقًا ، ثم ترك الطعام ﷺ . ففي هذا دليل على البكاء من خشية الله ومخافة عقابه .

* * *

٤٥٥ – وعن أبي أُمامة صُدَيِّ بنِ عجلانَ الباهليِّ ﷺ عن النبي ﷺ قال : « لَيْسَ شيءٌ أَحَبَّ إلى اللهِ تعالى من قَطْرَتَيْنِ وَأَثَرَيْنِ : قَطرةُ دمُوعٍ من خَشْيَةِ اللهِ ، وقَطْرَةُ دَمٍ تُهَرَاقُ في سَبيلِ اللهِ . وَأَمَّا الأَثَرَانِ : فَأَثَرٌ في سَبِيلِ اللهِ تعالى ، وَأَثَرٌ في فَرِيضَةٍ مِنْ فَرائِضِ اللهِ تعالى » [(٣)] رواه الترمذي وقال : حديثٌ حسنٌ .

وفي الباب أحاديثُ كثيرةٌ ، منها :

٤٥٦ – حديث العِرباضِ بنِ ساريةَ ﷺ قال : وَعَظَنَا رسول الله ﷺ مَوْعِظَةً وَجِلَتْ منها القُلُوبُ ، وَذَرَفت منهَا العُيُونُ . [تقدم الحديث برقم : ١٥٧] [(٤)] .

* * *

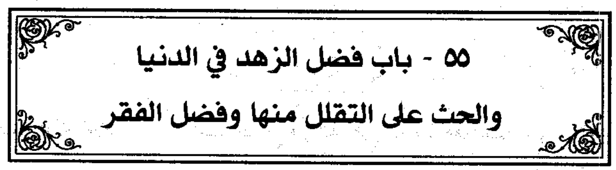
---

(١) انظر ترجمته في الأعلام للزركلي (٢٠٨/٧) وأسد الغابة (٣٦٨/٤) والإصابة (٢٠٨/٩) وسير أعلام النبلاء (١٤٥/١) .

(٢) انظر البخاري في الجنائز (١٢٧٦) ومسلم في الجنائز (٤٦) .

(٣) أخرجه الترمذي في فضائل الجهاد (١٦٦٩) والطبراني في الكبير (٢٨٠/٨) . قوله « أثرين » الأثر ما بقي من الشيء دلالة عليه ، قوله « تهراق » الهاء مفتوحة زائدة ، قوله « أثر في سبيل الله » أي ما يبقى بعد الاندمال من ضربة سيف أو طعنة رمح ، قوله « أثر في فريضة الله تعالى » أي أثر السجود والبلل في أعضاء الوضوء .

(٤) أخرجه أبو داود في السنة (٤٦٠٧) والترمذي في العلم (٢٦٧٦) والإمام أحمد في مسنده (١٢٦/٤ ، ١٢٧) والبيهقي في سننه (١١٤/١٠) . قوله (وجلت) أي خافت وارتعدت .



٥٥ - باب فضل الزهد في الدنيا والحث على التقلل منها وفضل الفقر

قال الله تعالى: ﴿ إِنَّمَا مَثَلُ الْحَيَوٰةِ الدُّنْيَا كَمَآءٍ أَنزَلْنَٰهُ مِنَ السَّمَآءِ فَاخْتَلَطَ بِهِۦ نَبَاتُ الْأَرْضِ مِمَّا يَأْكُلُ النَّاسُ وَالْأَنْعَٰمُ حَتَّىٰٓ إِذَآ أَخَذَتِ الْأَرْضُ زُخْرُفَهَا وَازَّيَّنَتْ وَظَنَّ أَهْلُهَآ أَنَّهُمْ قَٰدِرُونَ عَلَيْهَآ أَتَىٰهَآ أَمْرُنَا لَيْلًا أَوْ نَهَارًا فَجَعَلْنَٰهَا حَصِيدًا كَأَن لَّمْ تَغْنَ بِالْأَمْسِ كَذَٰلِكَ نُفَصِّلُ الْءَايَٰتِ لِقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ ﴾ [يونس: ٢٤].

وقال تعالى: ﴿ وَاضْرِبْ لَهُم مَّثَلَ الْحَيَوٰةِ الدُّنْيَا كَمَآءٍ أَنزَلْنَٰهُ مِنَ السَّمَآءِ فَاخْتَلَطَ بِهِۦ نَبَاتُ الْأَرْضِ فَأَصْبَحَ هَشِيمًا تَذْرُوهُ الرِّيَٰحُ وَكَانَ اللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ مُّقْتَدِرًا ۝ الْمَالُ وَالْبَنُونَ زِينَةُ الْحَيَوٰةِ الدُّنْيَا وَالْبَٰقِيَٰتُ الصَّٰلِحَٰتُ خَيْرٌ عِندَ رَبِّكَ ثَوَابًا وَخَيْرٌ أَمَلًا ﴾ [الكهف: ٤٥، ٤٦].

وقال تعالى: ﴿ اعْلَمُوٓا أَنَّمَا الْحَيَوٰةُ الدُّنْيَا لَعِبٌ وَلَهْوٌ وَزِينَةٌ وَتَفَاخُرٌۢ بَيْنَكُمْ وَتَكَاثُرٌ فِي الْأَمْوَٰلِ وَالْأَوْلَٰدِ كَمَثَلِ غَيْثٍ أَعْجَبَ الْكُفَّارَ نَبَاتُهُۥ ثُمَّ يَهِيجُ فَتَرَىٰهُ مُصْفَرًّا ثُمَّ يَكُونُ حُطَٰمًا وَفِي الْءَاخِرَةِ عَذَابٌ شَدِيدٌ وَمَغْفِرَةٌ مِّنَ اللَّهِ وَرِضْوَٰنٌ وَمَا الْحَيَوٰةُ الدُّنْيَآ إِلَّا مَتَٰعُ الْغُرُورِ ﴾ (١) [الحديد: ٢٠].

وقال تعالى: ﴿ زُيِّنَ لِلنَّاسِ حُبُّ الشَّهَوَٰتِ مِنَ النِّسَآءِ وَالْبَنِينَ وَالْقَنَٰطِيرِ الْمُقَنطَرَةِ مِنَ الذَّهَبِ وَالْفِضَّةِ وَالْخَيْلِ الْمُسَوَّمَةِ وَالْأَنْعَٰمِ وَالْحَرْثِ ذَٰلِكَ مَتَٰعُ الْحَيَوٰةِ الدُّنْيَا وَاللَّهُ عِندَهُۥ حُسْنُ الْمَءَابِ ﴾ [آل عمران: ١٤].

وقال تعالى: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا النَّاسُ إِنَّ وَعْدَ اللَّهِ حَقٌّ فَلَا تَغُرَّنَّكُمُ الْحَيَوٰةُ الدُّنْيَا وَلَا يَغُرَّنَّكُم بِاللَّهِ الْغَرُورُ ﴾ [فاطر: ٥].

وقال تعالى: ﴿ أَلْهَىٰكُمُ التَّكَاثُرُ ۝ حَتَّىٰ زُرْتُمُ الْمَقَابِرَ ۝ كَلَّا سَوْفَ تَعْلَمُونَ ۝ ثُمَّ كَلَّا سَوْفَ تَعْلَمُونَ ۝ كَلَّا لَوْ تَعْلَمُونَ عِلْمَ الْيَقِينِ ﴾ [التكاثر: ١-٥].

وقال تعالى: ﴿ وَمَا هَٰذِهِ الْحَيَوٰةُ الدُّنْيَآ إِلَّا لَهْوٌ وَلَعِبٌ وَإِنَّ الدَّارَ الْءَاخِرَةَ لَهِيَ الْحَيَوَانُ لَوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ ﴾ (٢) [العنكبوت: ٦٤].

---

(١) قوله ﴿ زُخْرُفَهَا ﴾ أي بهجتها. قوله ﴿ وَازَّيَّنَتْ ﴾ أي تزينت الأرض بالزهر. قوله ﴿ قَٰدِرُونَ عَلَيْهَآ ﴾ أي متمكنون من تحصيل ثمارها.
قوله ﴿ أَمْرُنَا ﴾ أي عذابنا. قوله ﴿ لَّمْ تَغْنَ ﴾ أي: تكن. قوله ﴿ نُفَصِّلُ ﴾ أي نبين. قوله ﴿ هَشِيمًا ﴾ أي مكسورًا. قوله ﴿ تَذْرُوهُ ﴾ أي تفرقه. قوله ﴿ مُّقْتَدِرًا ﴾ أي قادرًا. وقوله ﴿ وَالْبَٰقِيَٰتُ الصَّٰلِحَٰتُ ﴾ هي سبحانه الله والحمد لله ولا إله إلا الله والله أكبر والكلام الطيب. قوله ﴿ ثَوَابًا ﴾ أي عائدًا. قوله ﴿ أَمَلًا ﴾ أي رجاءً قوله ﴿ وَلَهْوٌ ﴾ هو صرف الهم عن النفس. قوله ﴿ غَيْثٍ ﴾ أي مطر. وقوله ﴿ يَهِيجُ ﴾ أي ييبس.
قوله ﴿ ثُمَّ يَكُونُ حُطَٰمًا ﴾ أي تبنًا يابسًا متهشما. قوله ﴿ وَرِضْوَٰنٌ ﴾ أي الجنة.
(٢) قوله ﴿ زُيِّنَ ﴾ أي حبب. قوله ﴿ الشَّهَوَٰتِ ﴾ هو ما تشتهيه النفس وتدعو إليه من لعب ولهو. قوله ﴿ وَالْقَنَٰطِيرِ الْمُقَنطَرَةِ ﴾ أي الأموال الكثيرة المجتمعة. قوله ﴿ وَالْخَيْلِ الْمُسَوَّمَةِ ﴾ هي الخيل المعلمة. قوله ﴿ وَالْأَنْعَٰمِ ﴾ هي الإبل والبقر والغنم. قوله ﴿ وَالْحَرْثِ ﴾ أي الزرع. قوله ﴿ الْمَءَابِ ﴾ أي المرجع. قوله ﴿ تَغُرَّنَّكُمُ الْحَيَوٰةُ ﴾ أي يذهلكم التمتع =

الشرح

قال المؤلف - رحمه الله تعالى - : باب فضل الزهد في الدنيا والحث على التقلل منها وفضل الفقر .

الدنيا : هي حياتنا هذه التي نعيش فيها ، وسميت دنيا لسببين :

السبب الأول : أنها أدنى من الآخرة ، لأنها قبلها كما قال تعالى : ﴿ وَلَلْآخِرَةُ خَيْرٌ لَكَ مِنَ الْأُولَى ﴾ [الضحى : ٤] .

والثاني : أنها دنيئة ليست بشيء بالنسبة للآخرة ، كما روى الإمام أحمد رحمه الله من حديث المستورد بن شداد أن النبي ﷺ قال : « لموضع سوط أحدكم في الجنة خير من الدنيا وما فيها » (١) موضع السوط : موضع العصى القصيرة الصغيرة في الجنة خير من الدنيا وما فيها من أولها إلى آخرها ، فهذه هي الدنيا . وذكر المؤلف رحمه الله آيات عديدة كلها تفيد أنه لا ينبغي للعاقل أن يركن إلى الدنيا ، أو يغتر بها ، أو يلهو بها عن الآخرة ، أو تكون مانعًا له من ذكر الله عز وجل ، منها قوله تعالى : ﴿ إِنَّمَا مَثَلُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا كَمَاءٍ أَنْزَلْنَاهُ مِنَ السَّمَاءِ ﴾ يعني المطر ﴿ فَاخْتَلَطَ بِهِ نَبَاتُ الْأَرْضِ ﴾ يعني أنبتت الأرض منه نباتًا متنوعًا مختلطًا متقاربًا ، ليس بينه فجوات ليس فيها نبات ، كل الأرض نباتات بأنواع الأعشاب من كل زوج بهيج ﴿ حَتَّى إِذَا أَخَذَتِ الْأَرْضُ زُخْرُفَهَا وَازَّيَّنَتْ ﴾ أي كملت ﴿ وَظَنَّ أَهْلُهَا أَنَّهُمْ قَادِرُونَ عَلَيْهَا أَتَاهَا أَمْرُنَا لَيْلًا أَوْ نَهَارًا فَجَعَلْنَاهَا حَصِيدًا كَأَنْ لَمْ تَغْنَ بِالْأَمْسِ ﴾ كأن لم تكن .

وهذه هي الحياة الدنيا ، واعتبر ذلك أنت في واقعك ، فكم من أناس عشت معهم عاشوا في هذه الدنيا عيشة راضية ، وفي رفاهية وأنس وأولاد وزوجات وقصور وسيارات ، ثم انتقلوا عنها كأن لم يكونوا بالأمس ، انتقلوا هم عنها ، أو يأتي دنياهم شيء يتلفها ، فكم من إنسان غني عنده أموال عظيمة أصبح فقيرًا يسأل الناس .

فهذه هي الدنيا ، وإنما ضرب الله هذا المثل لئلا نغتر بها ، فقال : ﴿ كَذَلِكَ ﴾ يعني مثل هذا التفصيل والتبيين ﴿ نُفَصِّلُ الْآيَاتِ لِقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ ﴾ لمن عندهم تفكير في الأمور ونظر في العواقب .

ثم قال ﴿ وَاللَّهُ يَدْعُو إِلَى دَارِ السَّلَامِ ﴾ [يونس : ٢٥] أي فرق بين هذه وهذه ، دار السلام هي الجنة . وسميت كذلك ؛ لأنها سالمة من كل كدر ، ومن كل تنغيص ، ومن كل أذى . فإلى أيهما تركن أيها العاقل ؟ لا شك أن العاقل يركن إلى دار السلام ، ولا تهمه دار الفناء والنكد والتنغيص ، فهو سبحانه يدعو كل الخلق إلى دار السلام ﴿ وَيَهْدِي مَنْ يَشَاءُ إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ ﴾ [يونس : ٢٥] .

والهداية مقيدة ، فإنه لم يقل : كل أحد ، ولكن قال : ﴿ وَيَهْدِي مَنْ يَشَاءُ إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ ﴾ فالحقيق والجدير بهداية الله هو من أناب إلى الله عز وجل ، كما قال تعالى ﴿ وَيَهْدِي إِلَيْهِ مَنْ أَنَابَ ﴾ [الرعد : ٢٧] .

= بالحياة الدنيا عن طلب الآخرة والسعي لها . قوله ﴿ الْغَرُورُ ﴾ أي الشيطان قوله ﴿ أَلْهَاكُمُ ﴾ أي شغلكم . قوله ﴿ التَّكَاثُرُ ﴾ أي كثرة الأموال . قوله ﴿ الْحَيَوَانُ ﴾ أي دار الحياة الحقيقي .

(١) أخرجه البخاري في الجهاد (٢٨٩٢) والترمذي في فضائل الجهاد (١٦٤٨) وأحمد في مسنده (٢/٣١٥) .

وقال تعالى : ﴿ فَلَمَّا زَاغُوٓاْ أَزَاغَ ٱللَّهُ قُلُوبَهُمْ ﴾ [الصف : ٥] كل من كان عنده نية طيبة وخالصة لابتغاء وجه اللَّه والدار الآخرة ، فهذا هو الذي يهديه اللَّه ﷻ ، وهو داخل في قوله : ﴿ وَيَهْدِى مَن يَشَآءُ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴾ .

ثم ذكر المؤلف آيات أخرى مثل قوله : ﴿ وَٱضْرِبْ لَهُم مَّثَلَ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا كَمَآءٍ أَنزَلْنَٰهُ مِنَ ٱلسَّمَآءِ فَٱخْتَلَطَ بِهِۦ نَبَاتُ ٱلْأَرْضِ فَأَصْبَحَ هَشِيمًا تَذْرُوهُ ٱلرِّيَٰحُ ﴾ [الكهف : ٤٥] معناه أن الحياة الدنيا كماء نزل على أرض فأنبتت ، فأصبح هشيمًا تذروه الرياح ، يبس وصارت الرياح تطير به ، هكذا أيضًا الدنيا . وقال تعالى : ﴿ ٱعْلَمُوٓاْ أَنَّمَا ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَا لَعِبٌ وَلَهْوٌ وَزِينَةٌ وَتَفَاخُرٌۢ بَيْنَكُمْ وَتَكَاثُرٌ فِى ٱلْأَمْوَٰلِ وَٱلْأَوْلَٰدِ ﴾ [الحديد : ٢٠] .

هذه خمسة أشياء كلها ليس بشيء : لعب ، ولهو ، وزينة ، وتفاخر بينكم ، وتكاثر في الأموال والأولاد ، مثالها : ﴿ كَمَثَلِ غَيْثٍ أَعْجَبَ ٱلْكُفَّارَ نَبَاتُهُۥ ﴾ [الحديد : ٢٠] أعجب الكفار ، لأن الكفار هم الذين يتعلقون بالدنيا وتسبي عقولهم ، فهذا نبات نبت من الغيث فصار الكفار يتعجبون من حسنه ونضارته : ﴿ أَعْجَبَ ٱلْكُفَّارَ نَبَاتُهُۥ ثُمَّ يَهِيجُ فَتَرَىٰهُ مُصْفَرًّا ثُمَّ يَكُونُ حُطَٰمًا ﴾ [الحديد : ٢٠] يزول وينتهي ﴿ وَفِى ٱلْءَاخِرَةِ عَذَابٌ شَدِيدٌ وَمَغْفِرَةٌ مِّنَ ٱللَّهِ وَرِضْوَٰنٌ ﴾ [الحديد : ٢٠] .

فأيهما تريد ؟ هناك عذاب شديد لمن آثر الحياة الدنيا على الآخرة ، وهناك ﴿ مَغْفِرَةٌ مِّنَ ٱللَّهِ وَرِضْوَٰنٌ ﴾ لمن آثر الآخرة على الدنيا . والعاقل إذا قرأ القرآن وتبصر عرف قيمة الدنيا ، وأنها ليست بشيء ، وأنها مزرعة للآخرة ، فانظر ماذا زرعت فيها لآخرتك ؟ إن كنت زرعت خيرًا فأبشر بالحصاد الذي يرضيك ، وإن كان الأمر بالعكس فقد خسرت الدنيا والآخرة . نسأل اللَّه لنا ولكم السلامة والعافية .

* * *

وأمَّا الأحاديث فأكثر مِنْ أنْ تُحْصَر فَنُنَبِّهُ بطرَف منها على ما سواه .

٤٥٧ – عن عمروِ بنِ عوفٍ الأنصاريِّ ﵁ أنَّ رسولَ اللَّهِ ﷺ بَعَثَ أبا عُبيدَة بن الجرَّاح ﵁ إلى البَحْرينِ يَأْتِي بِجِزْيَتِهَا ، فَقَدِمَ بمَالٍ مِنَ البَحْرَينِ ، فَسَمِعَتِ الأنصَارُ بقُدومِ أبي عُبَيدَةَ ، فوافَوا صَلاةَ الفَجْرِ مَعَ رسول اللَّه ﷺ ، فلَمَّا صَلَّى رسول اللَّه ﷺ انْصَرفَ ، فتَعَرَّضُوا لَهُ ، فَتَبَسَّمَ رسول اللَّه ﷺ حِينَ رَآهُمْ ، ثُمَّ قال : « أَظُنُّكم سَمِعْتم أَنَّ أبا عُبَيدَةَ قَدِمَ بشَيءٍ منَ البَحْرينِ ؟ » فقالوا : أَجَل يا رسول اللَّه ، فقال : « أَبْشِرُوا وَأَمِّلُوا ما يَسرُّكُمْ ، فواللَّه ما الفقْرَ أَخْشَى عَلَيكُمْ ، ولكنِّي أَخْشَى أَنْ تُبْسَطَ الدُّنْيا عَلَيكُم كما بُسِطَتْ على مَنْ كَانَ قَبلكُمْ ، فَتَنَافسُوهَا كَمَا تنَافَسُوهَا ، فَتُهْلِكَكُم كَمَا أَهْلَكَتْهُمْ »(١) متفقٌ عليه .

٤٥٨ – وعن أبي سعيدٍ الخدريِّ ﵁ قالَ : جَلَسَ رسول اللَّه ﷺ عَلى المِنْبَرِ ، وَجَلَسْنَا حَولَهُ ، فقال :

---

(١) أخرجه مسلم في الزهد والرقائق (٦) واللفظ له والبخاري في الجزية والموادعة (٣١٥٨) والإمام أحمد في مسنده (٤/١٣٧) وقوله « فتعرضوا له » أي قصدوا له ، قوله « تبسط الدنيا » أي توسع ، قوله « فتنافسوها » التنافس المسابقة إلى الشيء وكراهة أخذ الغير له وهو أول درجات الحسد .

« إنَّ مِمَّا أخافُ عَلَيكُمْ مِنْ بَعْدِي ؛ مَا يُفْتَحُ عَلَيكُمْ مِن زَهْرَةِ الدُّنْيا وزِينَتِهَا »[1] متفقٌ عليه .

٤٥٩ – وعنه أنَّ رسول اللَّه ﷺ ، قال : « إنَّ الدُّنْيا حُلْوَةٌ خَضِرَةٌ ، وَإنَّ اللَّهَ تعالى مُسْتَخْلِفُكُم فِيهَا ، فَيَنْظُرُ كَيفَ تَعْمَلُونَ ، فَاتَّقُوا الدُّنْيا ، وَاتَّقُوا النِّسَاءَ »[2] رواه مسلم .

الشرح

هذه الأحاديث ذكرها المؤلف رحمه الله في باب الزهد في الدنيا والترغيب فيه ، وقد ذكر قبل ذلك آيات متعددة كلها تدل على أن هذه الدنيا بشيء بالنسبة للآخرة ، وأنها ممر ومزرعة للآخرة ، فإن قال قائل: يقال ورع ، ويقال زهد ، فأيهما أعلى ؟ وما الفرق بينهما ؟

فالجواب أن الزهد أعلى من الورع ، والفرق بينهما أن الورع ترك ما يضر ، والزهد ترك ما لا ينفع، فالأشياء ثلاثة أقسام : منها ما يضر في الآخرة ، ومنها ما ينفع ، ومنها ما لا يضر ولا ينفع .

فالورع : أن يدع الإنسان ما يضره في الآخرة ، يعني أن يترك الحرام .

والزهد : أن يدع مالا ينفعه في الآخرة ، فالذي لا ينفعه لا يأخذ به ، والذي ينفعه يأخذ به ، والذي يضره لا يأخذ به من باب أولى ، فكان الزهد أعلى حالاً من الورع ، فكل زاهد ورع ، وليس كل ورع زاهدًا .

ولكن حذر النبي عليه الصلاة والسلام من أن تفتح علينا الدنيا كما فتحت على من كان قبلنا فنهلك كما هلكوا .

لما قدم أبو عبيدة بمال من البحرين ، وسمع الأنصار بذلك ، جاؤوا إلى النبي ﷺ فوافوه في صلاة الفجر ، فلما انصرف من الصلاة تعرضوا له ، فتبسم عليه الصلاة والسلام ؛ يعني ضحك بدون صوت ، تبسم ؛ لأنهم جاؤوا متشوقين للمال .

فقال لهم : « أظنكم سمعتم أن أبا عبيدة قدم بشيء من البحرين ؟ » قالوا : أجل يا رسول اللَّه . يعني سمعنا بذلك وجئنا لننال نصيبنا .

فقال عليه الصلاة والسلام : « أبشروا وأملوا ما يسركم ، فواللَّه ما الفقر أخشى عليكم » فالفقر لا يخشاه علينا النبي ﷺ .

والفقر قد يكون خيرًا للإنسان ، كما جاء في الحديث القدسي الذي يروى عن النبي ﷺ أن اللَّه قال : « إن من عبادي من لو أغنيته لأفسده الغنى » ، أطغاه وأضله عن الآخرة والعياذ باللَّه ففسد ،

---

(١) أخرجه مسلم في الزكاة (١٢٣) واللفظ له و البخاري في الزكاة (١٤٦٥) بلفظ « إني مما أخاف .. » قوله ﴿ زَهْرَةَ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا ﴾ أي متاعها وزينتها .

(٢) أخرجه مسلم في الذكر والدعاء (٩٩) واللفظ له والترمذي في الفتن (٢١٩١) والإمام أحمد في مسنده (٣٦٤/٦) وقوله « إن الدنيا حلوة خضرة » يراد به شيئان : أحدهما الحسن والنضارة ، وثانيهما سرعه الفناء ، قوله « وإن اللَّه مستخلفكم فيها » أي بمنزلة الخلفاء عنه في التصرف فيها فلا تتصرفوا بما لم يأذن لكم به .

« وإن من عبادي من لو أفقرته لأفسده الفقر » (١) .

فقال النبي عليه الصلاة والسلام : « ما الفقر أخشى عليكم » يعني لا أخشى عليكم من الفقر ، لأن الفقير في الغالب أقرب إلى الحق من الغني .

وانظروا إلى الرسل عليهم الصلاة والسلام ؛ من الذي يكذبهم ؟ يكذبهم الملأ الأشرار الأغنياء ، وأكثر من يتبعهم الفقراء ، حتى النبي عليه الصلاة والسلام أكثر من اتبعه الفقراء .

فالفقر لا يخشى منه ، بل الذي يخشى منه أن تبسط الدنيا علينا ، كما قال النبي عليه الصلاة والسلام « ولكن أخشى أن تبسط عليكم الدنيا كما بسطت على من كان قبلكم فتنافسوها كما تنافسوها ، فتهلككم كما أهلكتهم » .

وهذا هو الواقع ، وانظر إلى حالنا نحن لما كان الناس إلى الفقر أقرب ، كانوا للَّه أتقى ، وأخشع ، وأخشى ، ولما كثر المال ، كثر الإعراض عن سبيل اللَّه ، وحصل الطغيان ، وصار الإنسان الآن يتشوف لزهرة الدنيا وزينتها .. سيارة ، بيت ، فرش ، لباس ، يباهي الناس بهذا كله ، ويعرض عما ينفعه في الآخرة .

وصارت الجرائد والصحف وما أشبهها لا تتكلم إلا عن الرفاهية وما يتعلق بالدنيا ، وأعرضوا عن الآخرة ، وفسد الناس إلا من شاء اللَّه .

فالحاصل أن الدنيا إذا فتحت – نسأل اللَّه أن يقينا وإياكم شرها – أنها تجلب الشر وتطغي الناس ﴿ كَلَّآ إِنَّ ٱلْإِنسَٰنَ لَيَطْغَىٰٓ ۝ أَن رَّءَاهُ ٱسْتَغْنَىٰٓ ﴾ (٢) [العلق : ٦، ٧] .

وقد قال فرعون لقومه : ﴿ يَٰقَوْمِ أَلَيْسَ لِى مُلْكُ مِصْرَ وَهَٰذِهِ ٱلْأَنْهَٰرُ تَجْرِى مِن تَحْتِىٓ ﴾ [الزخرف : ٥١] . افتخر بالدنيا ، لذلك فالدنيا خطيرة جدًا .

وفي هذه الأحاديث أيضًا قال النبي عليه الصلاة والسلام : « إن الدنيا حلوة خضرة » حلوة المذاق ، خضرة المنظر ، تجذب وتفتن ، فالشيء إذا كان حلوًا ومنظره طيبًا فإنه يفتن الإنسان ، فالدنيا هكذا حلوة خضرة .

ولكن : « إن اللَّه مستخلفكم فيها فناظر كيف تعملون » يعني جعلكم خلائف فيها ؛ يخلف بعضكم بعضًا ، ويرث بعضكم بعضًا « فينظر كيف تعملون » هل تقدّمون الدنيا أو الآخرة ؟ ، ولهذا قال : « فاتقوا الدنيا واتقوا النساء » .

ولكن إذا أغنى اللَّه الإنسان ، وصار غناه عونًا له على طاعة اللَّه ينفق ماله في الحق ، وفي سبيل اللَّه ، صارت الدنيا خيرًا .

---

(١) أخرجه البيهقي في الأسماء والصفات ص (١٢١) وابن الجوزي في العلل المتناهية (١/ ٣٢) .

(٢) قوله ﴿ كَلَّآ ﴾ حقًا (حرف تنبيه) قوله ﴿ لَيَطْغَىٰٓ ﴾ ليجاوز حدود اللَّه في العصيان . قوله ﴿ أَن رَّءَاهُ ٱسْتَغْنَىٰٓ ﴾ لأجل أنه رأى نفسه صار غنيًا .

ولهذا كان رجل الدنيا الذي ينفق ماله في سبيل الله ، وفي مرضاة الله ﷻ ، في منزلة العالم الذي آتاه الله الحكمة والعلم وصار يعلم الناس .

فهناك فرق بين الذي ينهمك في الدنيا ويعرض عن الآخرة ، وبين الذي يغنيه الله ، ويكون غناه سببًا لسعادته والإنفاق في سبيل الله ﴿ رَبَّنَآ ءَاتِنَا فِى ٱلدُّنْيَا حَسَنَةً وَفِى ٱلْأَخِرَةِ حَسَنَةً وَقِنَا عَذَابَ ٱلنَّارِ ﴾ [البقرة : ٢٠١] .

* * *

٤٦٠ – وعن أنسٍ ﷺ أنَّ النبيَّ ﷺ قال : « اللَّهُمَّ لا عَيشَ إلا عَيشُ الآخِرَةِ » [١] متفقٌ عليه .

٤٦١ – وعنهُ عن رسول الله ﷺ قال : « يَتْبَعُ الميتَ ثَلاثَةٌ : أَهْلُهُ وَمَالُهُ وَعَمَلُهُ ، فَيَرْجِعُ اثْنَانِ ، وَيَبْقَى وَاحِدٌ : يَرْجِعُ أَهْلُهُ وَمَالُهُ ، وَيَبْقَى عَمَلُهُ » [٢] متفقٌ عليه .

٤٦٢ – وعنه قال : قالَ رسول الله ﷺ : « يُؤْتَى بِأَنْعَمِ أَهْلِ الدُّنْيَا مِنْ أَهْلِ النَّارِ يَومَ القِيَامَةِ فَيُصْبَغُ في النَّارِ صَبْغَةً ، ثُمَّ يقَالُ : يا ابْنَ آدَمَ هَلْ رَأَيتَ خيرًا قَطُّ ؟ هَلْ مَرَّ بِكَ نَعيمٌ قَطُّ ؟ فَيَقُولُ : لا واللّه يا رَبُّ . ويُؤْتَى بِأَشَدِّ النَّاسِ بُؤْسًا في الدُّنْيَا مِنْ أَهْلِ الجَنَّةِ ، فَيُصْبَغُ صَبْغَةً في الجَنَّةِ ، فَيُقَالُ لَهُ : يا ابْنَ آدَمَ هَلْ رَأَيتَ بُؤْسًا قَطُّ ، هَلْ مَرَّ بِكَ شِدَّةٌ قَطُّ ؟ فيقولُ : لا وَاللَّهِ ، مَا مَرَّ بِي بُؤْسٌ قَطُّ ، وَلا رَأَيتُ شِدَّةً قَطُّ » [٣] رواه مسلم .

٤٦٣ – وعنِ المُسْتَورد بن شدَّادٍ ﷺ قال : قالَ رسول الله ﷺ : « مَا الدُّنْيَا في الآخِرَةِ إلا مِثْلُ مَا يَجْعَلُ أَحَدُكُمْ أُصْبُعَهُ في اليَمِّ فَلْيَنْظُرْ بِمَ يَرْجِعُ ؟ » [٤] رواه مسلم .

٤٦٤ – وعن جابرٍ ﷺ أنَّ رسول الله ﷺ مَرَّ بالسُّوقِ وَالنَّاسُ كَنَفَتَيهِ ، فَمَرَّ بِجَدْيٍ أَسَكَّ مَيِّتٍ ، فَتَنَاوَلَهُ ، فَأَخَذَ بِأُذُنِهِ ، ثُمَّ قال : « أَيُّكُمْ يُحِبُّ أَنْ يَكُونَ هذَا لَهُ بِدِرْهَمٍ ؟ » فَقالوا : مَا نُحِبُّ أَنَّهُ لَنَا بِشَيءٍ وَمَا نَصْنَعُ بِهِ ؟ ثم قال : « أَتُحِبُّونَ أَنَّهُ لَكُمْ ؟ » قَالُوا : وَاللَّهِ لَو كَانَ حَيًّا كانَ عَيبًا إِنَّهُ أَسَكُّ . فَكَيفَ وهو مَيِّتٌ ؟ فقال : « فَوَاللَّهِ لَلدُّنْيَا أَهْوَنُ عَلى اللَّهِ مِنْ هذا عَلَيكُمْ » [٥] رواه مسلم .

---

(١) أخرجه البخاري في الرقاق (٦٤١٣) ومسلم في الجهاد والسير (١٢٧) قوله « لا عيش إلا عيش الآخرة » أي أنه لا عيش باقٍ ولا عيش مطلوب إلا عيش الآخرة .

(٢) أخرجه البخاري في الرقاق (٦٥١٤) ومسلم في الزهد والرقائق (٥) والترمذي في الزهد (٢٣٧٩) .

(٣) أخرجه مسلم في صفات المنافقين (٥٥) واللفظ له والإمام أحمد في مسنده (٢٠٣/٣) قوله « بأنعم أهل الدنيا » أي بأكثرهم نعمة من لذات الدنيا . قوله « يصبغ » أي يغمس ، قوله « بؤسًا » أي شدة .

(٤) أخرجه مسلم في الجنة وصفة نعيمها (٥٥) واللفظ له والترمذي في الزهد (٢٣٢٣) قوله « ما الدنيا » أي ما مثلها أو ما نعيمها قوله « في اليم » أي في البحر .

(٥) أخرجه مسلم في الزهد (٢) قوله « كنفتيه » أي جانبيه . قوله « بجدي » الجدي ولد المعز ، قوله « أهون على الله » أهون أفعل من الهون وهان يهون هونًا أي ذل وحقر .

الشرح

ذكر المؤلف رحمه الله أحاديث في بيان الزهد في الدنيا ، وأن النعيم هو نعيم الآخرة ، منها : عن أنس بن مالك رضي الله عنه أن النبي ﷺ قال : « اللهم لا عيش إلا عيش الآخرة » يعني العيشة الهنية الراضية الباقية هي عيش الآخرة ، أما الدنيا فإنه مهما طاب عيشها فمآلها للفناء ، وإذا لم يصحبها عمل صالح فإنها خسارة .

ولهذا ذكر في ضمن هذه الأحاديث « أنه يؤتى بأنعم أهل الدنيا في الدنيا » يعني أشدهم نعيمًا في بدنه وثيابه وأهله ومسكنه ومركوبه وغير ذلك ، « فيصبغ في النار صبغة » يعني يُغْمس فيها غمسة واحدة ، ويقال له : « يا ابن آدم هل رأيت خيرًا قط ؟ هل مرَ بك نعيم قط ؟ ، فيقول : لا والله يا ربّ» ، لأنه ينسى كل هذا النعيم ، هذا وهو شيء يسير ، فكيف بمن يكون مخلدًا فيها والعياذ بالله أبد الآبدين .

وذكر أيضًا في حديث جابر أن النبي ﷺ مر في السوق بجدي أَسَك . والجدي من صغار الماعز ، وهو أسكٌ : أي مقطوع الأذنين ، فأخذه النبي عليه الصلاة والسلام ورفعه وقال : « أيكم يحب أن يكون هذا له بدرهم ؟ » قالوا : يا رسول الله ؛ ما نحب أنه لنا بشيء ، وما نصنع به ؟

ثم قال ﷺ : « أتحبون أنه لكم ؟ » . فقالوا : والله لو كان حيًا كان عيبًا أنه أسك ، فكيف وهو ميت ؟ فقال : « فو الله إن الدنيا أهون على الله تعالى من هذا عليكم » .

فهذا جدي ميت لا يساوي شيئًا ، ومع ذلك فالدنيا أهون وأحقر عند الله تعالى من الجدي الأسكّ الميت ، فهي ليست بشيء .

ومع ذلك فإن من عمل فيها عملًا صالحًا صارت مزرعة له في الآخرة، ونال السعادتين ؛ سعادة الدنيا وسعادة الآخرة .

أما من غفل وتغافل وتهاون ومضت الأيام عليه وهو لم يعمل ؛ فإنه يخسر الدنيا والآخرة . قال تعالى ﴿ قُلْ إِنَّ ٱلْخَـٰسِرِينَ ٱلَّذِينَ خَسِرُوٓا۟ أَنفُسَهُمْ وَأَهْلِيهِمْ يَوْمَ ٱلْقِيَـٰمَةِ ۗ أَلَا ذَٰلِكَ هُوَ ٱلْخُسْرَانُ ٱلْمُبِينُ ﴾ [الزمر : ١٥] ، وقال تعالى : ﴿ وَٱلْعَصْرِ ۝ إِنَّ ٱلْإِنسَـٰنَ لَفِى خُسْرٍ ۝ إِلَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّـٰلِحَـٰتِ وَتَوَاصَوْا۟ بِٱلْحَقِّ وَتَوَاصَوْا۟ بِٱلصَّبْرِ ﴾ [1] [العصر : ١ - ٣] .

وكل بني آدم خاسر إلا هؤلاء الذين جمعوا هذه الأوصاف الأربعة : آمنوا ، وعملوا الصالحات ، وتواصوا بالحق ، وتواصوا بالصبر . جعلنا الله والمسلمين منهم .

* * *

٤٦٥ - وعن أبي ذرٍّ رضي الله عنه قال : كُنتُ أَمْشِي مَعَ النبيِّ ﷺ في حَرَّةٍ بالمدينةِ ، فَاسْتَقْبَلَنا أُحُدٌ فقال :

---

(١) قوله ﴿ وَٱلْعَصْرِ ﴾ أقسم الله بصلاة العصر لفضلها ، لأنها الصلاة الوسطى عند الجمهور أو بوقتها . قوله ﴿ إِنَّ ٱلْإِنسَـٰنَ لَفِى خُسْرٍ ﴾ أي : إن جنس الإنسان لا ينفك عن خسران ونقصان في مساعيه وأعماله وعمره . أو أن الكافر لفي خسر . قوله ﴿ إِلَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ﴾ استثناء متصل إذا أريد بالإنسان عامة ومنقطع إذا أريد به خصوص الكافر .

« يا أبَا ذَرٍّ » . قلت : لَبَّيكَ يا رسول اللَّه . فقال : « مَا يَسُرُّنِي أَنَّ عِنْدِي مِثْلَ أُحُدٍ هذا ذَهبًا تَمضِي عَلَيَّ ثَلاثَةُ أيَّامٍ وَعِنْدِي مِنْهُ دِينَارٌ ، إلا شَيءٌ أرْصِدُهُ لِدَينٍ ، إلا أَنْ أَقُولَ بِهِ في عِبَاد اللَّه هكَذَا ، وَهكَذَا ، وَهكَذَا » عن يَمِينِهِ وعن شماله وعن خلفه ، ثم سار فقال : « إنَّ الأكْثَرِينَ هُمُ الأقَلُّونَ يَومَ القيامة إلا مَنْ قَالَ بالمَالِ ، هكَذا وهكَذا ، وهكَذا » عن يمينه ، وعن شمالِهِ ، ومِنْ خَلْفه « وَقَليلٌ مَا هُم » . ثم قال لي : « مَكَانَكَ لا تَبْرَحْ حَتَّى آتيَكَ » . ثم انْطَلَقَ في سَوَادِ اللَّيلِ حتى تَوَارَى ، فسَمِعْتُ صَوتًا قَدِ ارْتَفَعَ ، فَتَخَوَّفْتُ أَنْ يَكُونَ أحَدٌ عَرَض للنَّبيِّ ﷺ فَأَرَدْتُ أنْ آتِيَه فَذَكَرْتُ قوله : « لا تَبْرَحْ حَتَّى آتيَكَ » فلم أَبْرَحْ حَتَّى أتَاني ، فَقُلْتُ : لقد سَمِعْتُ صَوتًا تَخَوَّفْتُ منه ، فَذَكَرْتُ له ، فقال : « وَهَلْ سَمِعْتَهُ ؟ » قلت : نَعَم ، قال : « ذَاكَ جِبريلُ أَتَاني فقال : مَن مات مِنْ أُمَّتِكَ لا يُشرِكُ باللَّهِ شَيئًا دَخلَ الجَنَّةَ » ، قلتُ : وَإنْ زَنَى وَإنْ سَرَقَ ؟ قال : « وَإن زَنَى وَإن سَرَقَ » [(١)] متفقٌ عليه ، وهذا لفظُ البخاري .

٤٦٦ - وعن أبي هريرة رضي الله عنه عنْ رسول اللَّه ﷺ قال : « لو كان لي مِثْلُ أُحُدٍ ذَهَبًا ، لَسَرَّني أَنْ لا تَمُرَّ عَلَيَّ ثَلاثُ لَيَالٍ وَعِندِي منه شَيءٌ إلا شيءٌ أرْصِدُهُ لِدَينٍ » [(٢)] متفقٌ عليه .

٤٦٧ - وعنه قال : قال رسول اللَّه ﷺ : « انْظُرُوا إلى مَنْ هُوَ أَسفَلَ مِنْكُم ولا تَنْظُروا إلى مَنْ هُوَ فَوقَكُم ؛ فَهُوَ أَجْدَرُ أن لا تَزْدَرُوا نعمَةَ اللَّهِ عَلَيكُمْ » متفق عليه ، وهذا لفظ مسلم . وفي رواية البخاري : « إذا نظَرَ أَحدُكُم إلى مَنْ فُضِّلَ عليهِ في المالِ وَالخَلْقِ ، فَلْيَنْظُرْ إلى مَنْ هو أَسفَلُ مِنْهُ » [(٣)] .

٤٦٨ - وعنه عن النبي ﷺ قال : « تَعِس عَبْدُ الدِّينَارِ وَالدِّرْهَمِ وَالقَطِيفَةِ وَالخَمِيصَةِ ، إنْ أُعْطِيَ رضيَ ، وَإنْ لَمْ يُعْطَ لَمْ يَرْضَ » [(٤)] رواه البخاري .

٤٦٩ - وعنه رضي الله عنه قال : لَقَدْ رَأَيتُ سَبْعِين منْ أَهْلِ الصُّفَّةِ ، مَا منْهُمْ رَجُلٌ عليه رداءٌ ، إمَّا إزَارٌ ، وَإمَّا كِسَاءٌ ، قَدْ رَبَطُوا في أعْنَاقِهِمْ ، فَمنْهَا مَا يَبْلُغُ نِصْفَ السَّاقَين ، وَمنْهَا ما يَبْلُغُ الكَعْبَينِ ، فَيَجْمَعُهُ بِيَدِهِ كرَاهِيَةَ أَنْ تُرَى عَورَتُهُ » [(٥)] رواه البخاري .

---

(١) أخرجه البخاري في الرقاق (٦٤٤٤) واللفظ له ومسلم في الزكاة (٣٢) قوله « أرصده لدين » أي أحفظه لأجل وفاء دين ، قوله « إن الأكثرين هم الأقلون » الإكثار المراد به من المال والإقلال من ثواب الآخرة ، قوله « لاتبرح » أي الزم مكانك لا تتركه قوله « توارى » أي غاب شخصه وغاب عن البصر . وقوله « عرض للنبي ﷺ » أي تعرض له بسوء .

(٢) أخرجه البخاري في الرقاق (٦٤٤٥) ومسلم في الزكاة (٣١) .

(٣) أخرجه مسلم في الزهد والرقائق (٩) واللفظ له والبخاري له الرواية الثانية في الرقاق (٦٤٩٠) قوله « أجدر » أي أحق ، قوله « ألا تزدروا » أي ألا تحقروا وتستصغروا . وقوله « الخلق » أي الصورة المدركة بحاسة البصر .

(٤) أخرجه البخاري في الجهاد والسير (٢٨٨٦) . قوله « تعس » أي خر لوجهه والمراد هلك قوله « القطيفة » نوع من الثياب وهو الثوب الذي له خمل ، قوله « الخميصة » الخميصة كساء مربع .

(٥) أخرجه البخاري في الصلاة (٤٤٢) . قوله « أهل الصفة » هم فقراء المهاجرين ومن لم يكن له منزل يسكنه ، كانوا يأوون إلى موضع مظلل بمسجد المدينة يسكنونه ، قوله « رداء » الرداء ما يستر أعالي البدن ، قوله « إزار » الإزار ما يستر أسافل البدن .

٤٧٠ - وعنه قال : قال رسول الله ﷺ : « الدُّنْيَا سِجْنُ المُؤْمِنِ وَجَنَّةُ الكَافِرِ » (١) رواه مسلم .

الشرح

هذه الأحاديث التي ساقها المؤلف رحمه الله ، كلها تدل على الزهد في الدنيا .

فمنها حديث أبي هريرة أن النبي ﷺ قال : « ما يسرني أن عندي مثل أحد هذا ذهبًا تمضي علي ثلاثة أيام وعندي منه دينار ، إلا شيء أرصده لدين إلا أن أقول به في عباد الله هكذا وهكذا وهكذا » عن يمينه وعن شماله ومن خلفه .

وهذا يدل على أن النبي ﷺ كان أزهد الناس في الدنيا ، لأنه لا يريد أن يجمع المال إلا شيئًا يرصده لدين ، وقد توفي ﷺ ودرعه مرهونة عند يهودي في شعير أخذه لأهله (٢) .

ولو كانت الدنيا محبوبة إلى الله عز وجل ما حرم منها نبيه ﷺ « فالدّنْيا ملعونة ملعون ما فيها إلا ذكر الله وما والاه وعالمًا ومتعلمًا » (٣) وما يكون في طاعة الله عز وجل .

ثم ذكر في حديث أبي ذر « أن المكثرين هم المقلون يوم القيامة » يعني المكثرين من الدنيا هم المقلُّون من الأعمال الصالحة يوم القيامة ، وذلك لأن الغالب على من كثر ماله في الدنيا أن يستغني ويتكبر ويعرض عن طاعة الله ، لأن الدنيا تلهيه ، فيكون مكثرًا في الدنيا مقلًّا في الآخرة . وقوله : «إلا من قال بالمال هكذا ، وهكذا ، وهكذا » يعني في المال وصرفه في سبيل الله عز وجل .

وفي حديث أبي ذر : أن من مات لا يشرك بالله شيئًا دخل الجنة وإن زنى وإن سرق ، وهذا لا يعني أن الزنى والسرقة من الأمور السهلة ، بل هي صعبة ، ولهذا استعظمها أبو ذر وقال : وإن زنى وإن سرق ؟ قال : « وإن زنى وإن سرق » .

وذلك لأن من مات على الإيمان وعليه معاص من كبائر الذنوب ؛ فإن الله يقول : ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَغْفِرُ أَن يُشْرَكَ بِهِۦ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَٰلِكَ لِمَن يَشَآءُ ﴾ [النساء : ٤٨، ١١٦] .

قد يعفو الله عنه ولا يعاقبه ، وقد يعاقبه ، ولكن إن عاقبه فمآله إلى الجنة ، لأن كل من كان لا يشرك بالله ولم يأت شيئًا مكفرًا ؛ فإن مآله إلى الجنة .

أما من أتى مكفرًا كالذي لا يصلي والعياذ بالله ، فهذا مخلد في النار ؛ لأنه كافر مرتد حتى لو قال أشهد أن لا إله إلا الله وأشهد أن محمدًا رسول الله ، وآمنت بالله وباليوم الآخر وهو لا يصلي ، فإنه مرتد (٤) ،

---

(١) أخرجه مسلم في الزهد (١) والإمام أحمد في مسنده (٢/١٩٧) والترمذي في الزهد (٢٣٢٤) . قوله «سجن المؤمن » أي بالنسبة لما أعد له من النعيم . قوله « جنة الكافر » أي بالنسبة لما أعد له من العذاب .

(٢) أخرجه البخاري في الجهاد والسير (٢٩١٦) ومسلم في المساقاة (١٢٥) .

(٣) أخرجه الترمذي في الزهد (٢٣٢٢) وابن ماجه في الزهد (٤١١٢) .

(٤) تارك الصلاة إن كان منكرًا لوجوبها فهو كافر بإجماع المسلمين خارج من ملة الإسلام إلا أن يكون قريب عهد بالإسلام ولم يخالط المسلمين مدة يبلغه فيها وجوب الصلاة عليه ، وإن كان تركه تكاسلا مع اعتقاده وجوبها كما هو =

لأن المنافقين كانوا يقولون للرسول عليه الصلاة والسلام : ﴿ نَشْهَدُ إِنَّكَ لَرَسُولُ ٱللَّهِ ﴾ [المنافقون : ١] ، وكانوا يذكرون الله ولكن لا يذكرون الله إلا قليلًا ويصلون ولكن ﴿ إِذَا قَامُوٓا۟ إِلَى ٱلصَّلَوٰةِ قَامُوا۟ كُسَالَىٰ ﴾ [النساء : ١٤٢] ومع ذلك فهم في الدرك الأسفل من النار .

وكذلك الأحاديث التي تلت ما رواه أبو ذر ﷺ ، كلها تدل على الزهد في الدنيا ، وأن الإنسان لا ينبغي أن تتعلق نفسه بها ، وأن تكون الدنيا بيده لا بقلبه ، حتى يقبل بقلبه على الله ﷻ ؛ فإن هذا هو كمال الزهد ، وليس المعنى أنك لا تأخذ شيئًا من الدنيا ، بل خذ من الدنيا ما يحل لك ، ولا تنس نصيبك منها ، ولكن اجعلها في يدك ولا تجعلها في قلبك ، وهذا هو المهم . نسأل الله لنا وللمسلمين العافية والسلامة .

* * *

٤٧١ - وعن ابن عمر ﷺ قال : أخذ رسول الله ﷺ بِمَنْكِبَيَّ ، فقال : « كُنْ في الدُّنْيَا كأنَّكَ غريبٌ ، أَو عَابِرُ سَبيلٍ » .

وَكَانَ ابنُ عمرَ ﷺ يقول : إذَا أَمْسَيتَ ، فَلا تَنْتَظِرِ الصَّبَاحَ ، وَإذَا أَصْبَحْتَ ، فَلا تَنْتَظِرِ المَسَاء ، وَخُذْ منْ صِحَّتِكَ لمَرَضِكَ وَمِنْ حَيَاتِكَ لِمَوْتِكَ (١) . رواه البخاري .

قالوا في شرح هذا الحديث معناه : لا تَرْكَن إلى الدُّنْيَا وَلا تَتَّخِذْهَا وَطَنًا ، وَلا تُحَدِّثْ نَفْسَكَ بِطُولِ البَقَاءِ فيها ، وَلا بالاعتناءِ بهَا ، وَلا تَتَعَلَّقْ مِنْهَا إلا بِمَا يَتَعَلَّقُ بِهِ الغَرِيبُ في غَيرِ وَطَنِهِ ، وَلا تَشْتَغِلْ فِيهَا بِمَا لا يَشْتَغِلُ بِه الغَرِيبُ الَّذي يُرِيدُ الذَّهَابَ إلى أَهْلِهِ . وَباللَّهِ التَّوفِيقُ .

الشرح

ذكر المؤلف رحمه الله في باب الزهد في الدنيا حديث ابن عمر ﷺ قال : أخذ النبي ﷺ بمنكبي ، وأخذ بمنكبه من أجل أن يستعد لما يلقيه عليه فينتبه فقال : « كن في الدُّنْيا كأَنَّكَ غريب أو عابر سبيل » يحتمل أن هذا من باب الشك ، أي أن الراوي شك ، هل قال رسول الله ﷺ الأول أو الثاني .

ويحتمل أنه من باب التنويع يعني كن كالغريب الذي يداخل الناس ولا يهتم بهم ، ولا يعرف بينهم ، أو كأنك عابر سبيل تريد أن تأخذ ما تحتاجه في سفرك وأنت ماش .

= حال كثير من الناس فقد اختلف العلماء فيه ، فذهب مالك والشافعي رحمهما الله والجماهير من السلف والخلف إلى أنه لا يكفر بل يفسق ويستتاب ، فإن تاب وإلا قتلناه حدًّا كالزاني المحصن . وذهب جماعة من السلف إلى أنه يكفر وهو مروي عن علي بن أبي طالب وهو إحدى الروايتين عن أحمد بن حنبل وهو وجه لبعض أصحاب الشافعي ، وذهب أبو حنيفة وجماعة من أهل الكوفة والمزني صاحب الشافعي أنه لا يكفر ولا يقتل بل يعزر ويحبس حتى يصلي صحيح مسلم بشرح النووي (١/٧٠) .

(١) أخرجه البخاري في الرقاق (٦٤١٦) والترمذي في الزهد (٢٣٣٣) وابن ماجه في الزهد (٤١١٤) . قوله « إذا » أمسيت فلا تنتظر الصباح وإذا أصبحت فلا تنتظر المساء المراد انتظر الموت كل وقت واجعله نصب عينيك ، قوله « خذ من صحتك لمرضك » أي أعمالًا صالحة لا تغفل عنها في زمن تمكنت فيه منها .

وهذا التمثيل الذي ذكره النبي ﷺ هو الواقع ؛ لأن الإنسان في هذه الدنيا مسافر ، فالدنيا ليست دار مقر ، بل هي دار ممر ، سريعٌ راكبه لا يفتر ليلًا ولا نهارًا ، فالمسافر ربما ينزل منزلًا فيستريح ، ولكن مسافر الدنيا لا ينزل ، هو دائمًا في سفر ، كل لحظة فإنك تقطع بها شوطًا من هذه الدنيا لتقرب من الآخرة .

فما ظنكم بسفر لا يفتأ صاحبه يمشي ويسير . أليس ينتهي بسرعة ؟ بلى ، ولهذا قال الله ﷻ : ﴿ كَأَنَّهُمْ يَوْمَ يَرَوْنَهَا لَمْ يَلْبَثُوٓا۟ إِلَّا عَشِيَّةً أَوْ ضُحَىٰهَا ﴾ [النازعات : ٤٦] .

والإنسان عليه أن يقيس ما يستقبل من عمره بما مضى ، فالذي مضى كأنه لا شيء ، حتى أَمْسُكَ الأدنى ، كأنك لم تمر به أو كأنه حلم ، وكذلك فما يستقبل من دنياك ، فهو كالذي تقدم ، ولهذا لا ينبغي الركون إلى الدنيا ولا الرضا بها ؛ وكأن الإنسان مخلد فيها .

ولذلك كان ابن عمر رضي الله عنه يقول : « إذا أمسيت فلا تنتظر الصباح ، وإذا أصبت فلا تنتظر المساء ، وخذ من صحتك لمرضك ومن حياتك لموتك » .

* * *

٤٧٢ – وعن أبي العَبَّاسِ سَهْلِ بنِ سَعْدٍ السَّاعديِّ رضي الله عنه قال : جاءَ رَجُلٌ إلى النبيِّ ﷺ ، فقالَ : يا رسولَ اللّٰه دُلَّني عَلى عَمَل إذا عَمِلْتُهُ أحبَّني اللّٰهُ ، وَأَحبَّني النَّاسُ ، فقال : « ازْهَدْ في الدُّنْيا يُحِبَّكَ اللّٰهُ ، وَازْهَدْ فِيمَا عِنْدَ النَّاسِ يُحبك النَّاسُ » [1] حديثٌ حسنٌ رواه ابن مَاجه وغيره بأسانيد حسنةٍ .

٤٧٣ – وعن النُّعْمَانِ بن بَشيرٍ رضي الله عنهما قالَ : ذَكرَ عُمَرُ بْنُ الخَطَّاب رضي الله عنه مَا أَصابَ النَّاسُ مِنَ الدُّنْيا ، فقال : لَقَدْ رَأَيتُ رسول اللّٰهِ ﷺ يَظَلُّ اليومَ يَلْتَوي مَا يَجِدُ مِنَ الدَّقَلِ مَا يَمْلأُ بِهِ بَطْنَهُ [2] . رواه مسلم .

« الدَّقَلُ » بفتح الدال المهملة والقاف : رَدِيءُ التَّمْر .

٤٧٤ – وعن عائشةَ رضي الله عنها قالت : « تُوُفِّيَ رسول اللّٰه ﷺ وَمَا في بَيتي مِنْ شَيءٍ يَأْكُلُهُ ذُو كَبِدٍ إلا شَطْرُ شَعيرٍ في رَفٍّ لي ، فَأَكَلْتُ مِنْهُ حَتَّى طَال عَلَيَّ ، فَكِلْتُهُ فَفَني » [3] متفقٌ عليه .

« شَطْرُ شَعير » أَي : شَيءٌ مِنْ شَعيرٍ ، كذَا فَسَّرَهُ التِّرمذيُّ .

٤٧٥ – وعن عمرِو بنِ الحارِثِ أخِي جُوَيرِيَةَ بنْتِ الحَارِثِ أُمِّ المُؤمنينَ رضي الله عنهما قال : مَا تَركَ رسول اللّٰه ﷺ عِنْدَ مَوتِهِ دِينارًا ، وَلا دِرْهَمًا ، وَلا عَبْدًا ، وَلا أَمَةً ، وَلا شَيئًا إلا بَغْلَتَهُ البَيضَاءَ الَّتي كَانَ يَرْكَبُهَا ، وَسِلاحَهُ ، وَأرْضًا جعَلَهَا لابْنِ السَّبيلِ صدقة » [4] رواه البخاري .

---

(١) هذا الحديث وما بعده حتى حديث رقم ٤٧٥ لم يقم الشارح رحمه الله بشرحها أخرجه ابن ماجه في الزهد (٤١٠٢) والطبراني في الكبير (٦/ ٢٣٧) . قوله « إذا عملته » أي مريدًا به وجه الله تعالى .

(٢) أخرجه مسلم في الزهد (٣٦) .

(٣) أخرجه البخاري في فرض الخمس (٣٠٩٧) ومسلم في الزهد (٢٧) . قولها « ذو كبد » أي حيوان ، وعبر به لأنه من الأجزاء الرئيسية في البدن ، قولها « حتى طال علي » أي داومت على أكله حتى طال ذلك علي ، قولها « ففني » أي حتى فرغ .

(٤) أخرجه البخاري في الوصايا (٢٧٣٩) .

٤٧٦ - وعن خَبَّابِ بنِ الأَرَتِّ ﷺ قال: هَاجَرْنَا مَعَ رسول اللّٰه ﷺ نَلْتَمِسُ وَجْهَ اللّٰهِ تعالى، فَوَقَعَ أَجْرُنَا عَلى اللّٰهِ، فَمِنَّا مَنْ مَاتَ وَلَمْ يَأْكُلْ مِنَ أَجْرِهِ شَيْئًا، مِنْهُمْ مُصْعَبُ بن عُمَيرٍ ﷺ قُتِلَ يَومَ أُحُدٍ، وَتَرَكَ نَمِرَةً، فَكُنَّا إِذَا غَطَّينَا بِهَا رَأْسَهُ، بَدَتْ رِجْلاهُ، وَإِذا غَطَّينا بِها رِجْلَيهِ، بَدَا رَأْسُهُ، فَأَمَرَنَا رسول اللّٰه ﷺ أَنْ نُغَطِّي رَأْسَهُ، وَنَجْعَلَ عَلى رِجْلَيهِ شَيئًا مِنَ الإِذْخِرِ، وَمِنَّا مَنْ أَينَعَتْ لَهُ ثَمَرَتُهُ، فَهُوَ يَهْدِبُهَا [١]. متفقٌ عليه.

« النَّمِرَةُ » كساءٌ مُلَوَّنٌ منْ صُوفٍ. وقوله: « أَيَنَعت » أَي: نَضِجَتْ وَأَدْرَكَتْ. وقوله: « يَهْدِبُهَ » هو بفتح الياءِ وضم الدال وكسرها، لُغَتَان، أَي: يَقْطِفُهَا وَيَجْتَنِيهَا، وَهذِهِ اسْتِعَارَةٌ لِمَا فَتَحَ اللّٰه تَعَالى عَلَيهِمْ مِنَ الدُّنْيَا وَتَمَكَّنُوا فيهَا.

٤٧٧ - وعن سَهْلِ بن سَعْدٍ السَّاعديِّ ﷺ قال: قال رسول اللّٰه ﷺ: « لَو كَانَت الدُّنْيَا تَعِدلُ عِنْدَ اللّٰه جَنَاحَ بَعُوضَةٍ، مَا سَقَى كَافِرًا مِنْهَا شَرْبَةَ مَاءٍ » [٢].

رواه الترمذي وقال: حديث حسن صحيح.

الشرح

هذه الأحاديث كلها تدور على ما سبق من الحث على الزهد في الدنيا، والإقبال على الآخرة.

فذكر المؤلف رحمه الله حديث خباب بن الأرت ﷺ في قصة مصعب بن عمير، وهو من المهاجرين الذين هاجروا للّٰه عز وجل ابتغاء وجهه، وكان شابًا مدللًا من قبل والديه في مكة، ولما أسلم طرده أبواه لأنهما كانا كافرين، فهاجر ﷺ وقتل في أحد في السنة الثالثة من الهجرة، فلم يمض على هجرته إلا ثلاثة أعوام أو أقل، فقتل شهيدًا ﷺ، وكان صاحب الراية، ولم يكن معه شيء إلا بردة، ثوب واحد، إن غطوا به رأسه بدت رجلاه، وإن غطوا به رجليه بدا رأسه، فأمر النبي ﷺ أن يغطى رأسه، ويجعل على رجليه شيء من الإذخر، وهو نبات معروف تأكله البهائم، فأمر النبي ﷺ أن يجعل على رجليه لأجل أن يغطيهما.

قال: « ومنَّا »: يعني المهاجرين « من أينعت له ثمرته » أينعت: يعني استوت وأثمرت « فهو يهدبها » أي يجنيها ويقطفها ويتمتع بها، ويقول ذلك شوقًا إلى العهد الأول، وإلى ما كانوا عليه من زهد قبل أن تفتح عليهم الدنيا فيشتغل بها البعض.

* * *

٤٧٨ - وعن أَبي هُرَيرَةَ ﷺ قال: سمعتُ رسول اللّٰه ﷺ يقول: « أَلَا إِنَّ الدُّنْيَا مَلْعُونَةٌ، مَلْعُونٌ

---

(١) أخرجه البخاري في الجنائز (١٢٧٦) ومسلم في الجنائز (٤٤). قوله « نلتمس » أي نطلب بهجرتنا، قوله « فوقع » أي كتب، قوله « لم يأكل » أي لم يصب، قوله « الإذخر » نبت معروف طيب الرائحة.

(٢) قوله « ما سقى كافرًا منها شربة ماء » أي لهوانه عليه وسقوطه.

مَا فيها ، إلا ذِكْرَ اللَّهِ تَعَالى ، وَمَا وَالاهُ ، وَعالمًا وَمُتَعَلِّمًا »(١) . رواه الترمذي وقال : حديثٌ حسنٌ .

٤٧٩ – وعن عَبْدِ اللَّهِ بنِ مسعودٍ ﷺ قال : قال رسول اللَّه ﷺ : « لا تَتَّخِذُوا الضَّيعَةَ فَتَرْغَبُوا في الدُّنْيا » . رواه التِرمِذي وقال : حديثٌ حسنٌ .

٤٨٠ – وعن عبد اللَّه بنِ عمرو بنِ العاص ﷺ قال : مَرَّ عَلَينَا رسول اللَّه ﷺ ونَحنُ نعالِجُ خُصًّا لَنَا فقال : « ما هذَا ؟ » فَقُلْنَا : قَدْ وَهَى ، فَنَحْنُ نُصْلِحُهُ ، فقال : « ما أَرَى الأَمْرَ إلا أَعْجَلَ مِنْ ذَلِكَ » رواه أبو داود ، والترمذي بإسناد البخاري ومسلم ، وقال الترمذي : حديثٌ حسنٌ صحيحٌ .

٤٨١ – وعن كَعْبِ بن عِياضٍ ﷺ قالَ : سمعتُ رسول اللَّه ﷺ ، يقول : « إنَّ لِكُلِّ أُمَّةٍ فِتْنَة ، وَفِتْنَةُ أُمَّتي المَالُ » رواه الترمِذي وقَالَ : حديثٌ حسنٌ صحيحٌ .

٤٨٢ – وعن أبي عَمْرٍو ، ويقالُ : أبو عبدِ اللهِ ، ويقال : أبُو لَيلى ، عُثْمَان بن عَفَّانَ ﷺ أَنَّ النبيَّ ﷺ قال : « لَيسَ لابْنِ آدَمَ حَقٌّ في سِوى هذِهِ الخِصَالِ : بَيتٌ يَسْكُنُهُ ، وَثَوبٌ يُواري عَورَتَهُ ، وَجِلْفُ الخُبْزِ ، وَالمَاءِ » رواه الترمِذي وقال : حديث صحيح .

٤٨٣ – وعنْ عبد اللَّه بن الشِّخِّير – بكسر الشين والخاء المشدَّدة المعجمتين ﷺ أَنَّهُ قالَ : أتَيتُ النَّبيَّ ﷺ وَهُوَ يَقْرَأُ ﴿ أَلْهَىٰكُمُ ٱلتَّكَاثُرُ ﴾ قال : « يَقُولُ ابنُ آدَم : مَالي ، مَالي ، وَهَل لَكَ يَا ابنَ آدَمَ مِنْ مالِكَ إلا ما أَكَلتَ فَأَفْنَيتَ ، أو لبِسْتَ فَأَبْلَيتَ ، أَو تَصَدَّقْتَ فَأَمْضَيتَ ؟! » رواه مسلم .

الشرح

ذكر المؤلف ﷺ هذه الأحاديث للتحذير من فتنة الدنيا ، فذكر حديث كعب بن عياض ﷺ ، أن رسول اللَّه عليه الصلاة والسلام قال : « إن لكل أمة فتنة ، وفتنة أمتي المال » ، إذا كثر المال عند الناس نسوا الآخرة ، ولهذا نهى ﷺ عن اتخاذ الضياع يعني الحدائق والبساتين ، فإن الإنسان يلهو عما هو أهم منها من أمور الآخرة .

والحاصل أن الإنسان يجب عليه أن يكون زاهدًا في الدنيا راغبًا في الآخرة ، وأن اللَّه إذا رزقه مالًا فيجعله عونًا على طاعة اللَّه ، وليجعل الدنيا في يده لا في قلبه ، حتى يفوز بخيري الدنيا والآخرة ، قال تعالى : ﴿ وَٱلْعَصْرِ ۝ إِنَّ ٱلْإِنسَـٰنَ لَفِى خُسْرٍ ۝ إِلَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّـٰلِحَـٰتِ وَتَوَاصَوْا۟ بِٱلْحَقِّ وَتَوَاصَوْا۟ بِٱلصَّبْرِ﴾ [العصر : ١ - ٣] .

وقرأ النبي ﷺ قوله تعالى : ﴿ أَلْهَىٰكُمُ ٱلتَّكَاثُرُ ۝ حَتَّىٰ زُرْتُمُ ٱلْمَقَابِرَ ﴾ [التكاثر : ١، ٢] ، ألهاكم يعني شغلكم عن المقابر وعن الموت وما بعده ﴿ حَتَّىٰ زُرْتُمُ ٱلْمَقَابِرَ ﴾ أي حتى أصبحتم من أهل القبور بعد موتكم .

ثم قال رسول اللَّه ﷺ : « يقول ابن آدم مالي » يفتخر به « وهل لك يا ابن آدم ، من مالك إلا ما أكلت فأفنيت ، أو لبست فأبليت ، أو تصدقت فأمضيت » ، هكذا قال النبي – عليه الصلاة

(١) أخرجه الترمذي في الزهد (٢٣٢٠) .

والسلام – وهو كذلك ، فالإنسان ما لَه من ماله إلا هذه الأشياء ، إما أن يأكل طعامًا وشرابًا ، وإما أن يلبس من أنواع اللباس ، وإما أن يتصدق ، والباقي له هو ما يتصدق به ، أما ما يأكله وما يلبسه ؛ فإن كان يستعين به على طاعة اللّه كان خيرًا له ، وإن كان يستعين به على معصية اللّه وعلى الأشر والبطر كان محنة عليه والعياذ باللّه .

* * *

٤٨٤ – وعن عبد اللّه بن مُغَفَّلٍ ﷺ قال : قال رَجُلٌ للنَّبيِّ ﷺ : يا رسولَ اللّهِ ، واللّهِ إنِّي لأُحِبُّكَ ، فقال : « انْظُرْ ماذا تَقُولُ ؟ » قال : وَاللّهِ إنِّي لأُحِبُّكَ ، ثَلاثَ مَرَّاتٍ ، فقال : « إنْ كُنْتَ تُحِبُّني فَأَعِدَّ لِلفَقرِ تِجفَافًا ، فإنَّ الفَقرَ أَسْرَعُ إلى من يُحِبُّني مِنَ السَّيلِ إلى مُنْتَهَاهُ » [١] رواه الترمذي وقال : حديث حسن . « التِّجْفَافُ » بكسر التاءِ المثناةِ فوقُ وإسكانِ الجيم وبالفاءِ المكررة ، وَهُوَ شَيْءٌ يُلْبَسُهُ الفَرَسُ ، لِيُتَّقَى بِهِ الأَذَى ، وَقَدْ يَلْبَسُهُ الإنْسَانُ .

٤٨٥ – وعن كَعبِ بنِ مالكٍ ﷺ قال : قال رسول اللّه ﷺ : « مَا ذِئْبَانِ جَائِعانِ أُرْسِلا في غَنَمٍ بِأَفْسَدَ لَها مِنْ حِرْصِ المَرْءِ عَلى المَالِ وَالشَّرَفِ ، لِدِينِهِ » [٢] رواه الترمذي وقال : حديث حسن صحيح .

٤٨٦ – وعن عبد اللّه بن مَسْعُودٍ ﷺ قال : نَامَ رسولُ اللّه ﷺ ، على حَصير ، فَقَامَ وَقَدْ أَثَّرَ في جَنْبِهِ . قُلْنَا : يا رَسُولَ اللّه لو اتَّخَذْنَا لَكَ وِطَاءً ! فقال : « مَا لي وَلِلدُّنْيا ؟ مَا أَنَا في الدُّنْيا إلا كَرَاكِبٍ اسْتَظَلَّ تَحْتَ شَجَرَةٍ ثُمَّ رَاحَ وَتَرَكَهَا » [٣] . رواه الترمذي وقال : حديث حسن صحيح .

٤٨٧ – وعن أَبي هريرة ﷺ قال : قال رسول اللّه ﷺ : « يَدْخُلُ الفُقَراءُ الجَنَّةَ قبلَ الأَغْنِيَاءِ بِخَمْسِمِائَةِ عامٍ » [٤] رواه الترمذي وقال : حديث صحيح .

٤٨٨ – وعن ابنِ عَبَّاسٍ ، وعمرانَ بنِ الحُصَينِ ﷺ عن النبي ﷺ ، قال : «اطَّلَعْتُ في الجَنَّةِ فَرَأَيتُ أَكْثَرَ أَهلِهَا الفُقَرَاءَ ، وَاطَّلَعْتُ في النَّارِ فَرَأَيتُ أَكْثَرَ أَهْلِهَا النِّسَاءَ » [٥] متفقٌ عليه من رواية ابن عباسٍ . ورواه البخاري أَيضًا من روايةِ عمرَانَ بن الحُصَينِ .

٤٨٩ – وعن أُسامةَ بنِ زيدٍ ﷺ عن النبي ﷺ ، قال : « قُمْتُ عَلى بَاب الجَنَّةِ ، فَكَانَ عَامَّةَ مَنْ دَخَلَهَا المَسَاكِينَ . وَأَصحَابُ الجَدِّ محبُوسُونَ ، غيرَ أَنَّ أَصحَابَ النَّارِ قَد أُمِرَ بِهِم إلى النَّارِ » [٦] متفقٌ عليه .

٤٩٠ – وعن أَبي هريرة ﷺ عن النبي ﷺ ، قال : « أَصْدَقُ كَلِمَةٍ قَالَهَا شَاعِرٌ كَلِمَةُ لَبِيدٍ :

* أَلا كُلُّ شيءٍ ما خَلا اللّه بَاطِلُ [٧] * متفقٌ عليه .

---

(١) أخرجه الترمذي في الزهد (٢٣٥٠) . (٢) أخرجه مسلم في الزهد (٣) .
(٣) أخرجه الترمذي في الزهد (٢٣٧٧) وأخرجه بنحوه الإمام أحمد في مسنده (٣٩١/١) .
(٤) أخرجه الإمام أحمد في مسنده (٥١٣/٢) والترمذي في الزهد (٢٣٥٣) .
(٥) أخرجه البخاري في بدء الخلق (٣٢٤١) ومسلم في الذكر والدعاء (٩٤) .
(٦) أخرجه البخاري في النكاح (٥١٩٦) ومسلم في الذكر والدعاء (٩٣) والإمام أحمد في مسنده (٢٠٥/٥) .
(٧) أخرجه البخاري في مناقب الأنصار (٣٨٤١) ومسلم في الشعر (٣) والإمام أحمد في مسنده (٣٣٩/٢) .

الشرح

هذه الأحاديث ذكرها المؤلف - رحمه الله تعالى - في باب الزهد في الدنيا ، منها حديث عبد الله ابن مغفل ﷺ أن رجلًا قال للنبي ﷺ : والله إني لأحبك ، فقال النبي ﷺ : « انظر ماذا تقول ؟ » قال : والله إني لأحبك ، فرددها ثلاثًا ، فقال النبي ﷺ : « إن كنت تحبني فأعد للفقر تجفافًا ، فإن الفقر أسرع إلى من يحبني من السيل إلى منتهاه » لأن السيل إذا كان له منتهى وقد جاء من مرتفع يكون سريعًا .

ولكن هذا الحديث لا يصح عن النبي ﷺ ، لأنه لا ارتباط بين الغنى ومحبة النبي ﷺ ، فكم من إنسان غني يحب الرسول ﷺ ، وكم من إنسان فقير أبغض ما يكون إليه الرسول عليه الصلاة والسلام ، فهذا الحديث لا يصح عن النبي ﷺ .

فعلامة محبة الرسول ﷺ أن يكون الإنسان أشد اتباعًا له ، وأشد تمسكًا بسنته ، كما قال تعالى : ﴿ قُلْ إِن كُنتُمْ تُحِبُّونَ ٱللَّهَ فَٱتَّبِعُونِى يُحْبِبْكُمُ ٱللَّهُ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ ﴾ [آل عمران : ٣١] .

فالميزان هو اتباع الرسول عليه الصلاة والسلام ، ومن كان للرسول أتبع فهو له أحب ، وأما الفقر والغنى فإنه بيد الله ﷻ .

وكذلك أيضًا من الزهد في الدنيا ما كان عليه النبي ﷺ ، من شظف العيش وقلة ذات اليد ، حيث كان ينام على الحصير حتى يؤثر في جنبه ، فيقال له : ألا نجعل لك وطاء ، يعني فراشًا تطؤه وتنام عليه ؟ فقال : « مالي وللدنيا ؟ ، ما أنا في الدنيا إلا كراكب استظل تحت شجرة ثم راح وتركها » .

فالرسول ﷺ ليس له تطلّع إلى الدنيا ، بل كان ينفق ماله كلّه في سبيل الله ، ويعيش عيشة الفقراء .

ثم ذكر المؤلف أحاديث تدل على أن الفقراء يدخلون الجنة قبل الأغنياء ، وأن الفقراء أكثر أهل الجنة ، وذلك لأن الفقراء ليس عندهم ما يطغيهم ، فهم متمسكنون خاضعون .

ولهذا إذا تأملت الآيات وجدت أن الذين يكذبون الرسل هم الملأ الأشراف والأغنياء ، وأن المستضعفين هم الذين يتبعون الرسل ، فلهذا كانوا أكثر أهل الجنة ، وكانوا يدخلون الجنة قبل الأغنياء بتقادير اختلفت فيها الأحاديث عن النبي ﷺ ، ويجمعها أن السير يختلف ، فقد يكون السير في عشرة أيام لشخص مسرع يسيره الآخر في عشرين يومًا مثلًا .

ثم ذكر حديث أبي هريرة عن النبي ﷺ أنه يومًا قال : « أصدق كلمة قالها شاعر ؛ كلمة لبيد « ألا كل شيء ما خلا الله باطل » كل شيء سوى الله فهو باطل ضائع لا ينفع ، وأما ما كان لله فإنه ينفع صاحبه ويبقى له ، ومن ذلك الدنيا فإنها باطل ، كما قال تعالى : ﴿ ٱعْلَمُوٓا۟ أَنَّمَا ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَا لَعِبٌ وَلَهْوٌ وَزِينَةٌ وَتَفَاخُرٌۢ بَيْنَكُمْ وَتَكَاثُرٌ فِى ٱلْأَمْوَٰلِ وَٱلْأَوْلَـٰدِ ﴾ [الحديد : ٢٠] ، إلا ما كان فيها من ذكر الله وطاعته ، فإنه حق وخير .

وفي هذا الحديث إشارة إلى أن الحق يقبل حتى لو كان من الشعراء ، فالحق مقبول من كل أحد جاء به ، حتى لو كان كافرًا وقال بالحق فإنه يقبل منه ، ولو كان شاعرًا أو فاسقًا وقال بالحق فإنه يقبل منه .

وأما من قال بالباطل فقوله مردود ولو كان مسلمًا ؛ يعني العبرة بالمقالات لا بالقائلين ، ولهذا يجب على الإنسان أن ينظر إلى الإنسان من خلال فعله لا من شخصه .

* * *

٥٦ - باب فضل الجوع وخشونة العيش والاقتصار على القليل من المأكول والمشروب والملبوس وغيرها من حظوظ النفس وترك الشهوات

قال الله تعالى : ﴿ فَخَلَفَ مِنۢ بَعۡدِهِمۡ خَلۡفٌ أَضَاعُواْ ٱلصَّلَوٰةَ وَٱتَّبَعُواْ ٱلشَّهَوَٰتِۖ فَسَوۡفَ يَلۡقَوۡنَ غَيًّا ۝ إِلَّا مَن تَابَ وَءَامَنَ وَعَمِلَ صَٰلِحٗا فَأُوْلَٰٓئِكَ يَدۡخُلُونَ ٱلۡجَنَّةَ وَلَا يُظۡلَمُونَ شَيۡـٔٗا ﴾ [مريم : ٥٩، ٦٠] وقال تعالى : ﴿ فَخَرَجَ عَلَىٰ قَوۡمِهِۦ فِي زِينَتِهِۦۖ قَالَ ٱلَّذِينَ يُرِيدُونَ ٱلۡحَيَوٰةَ ٱلدُّنۡيَا يَٰلَيۡتَ لَنَا مِثۡلَ مَآ أُوتِيَ قَٰرُونُ إِنَّهُۥ لَذُو حَظٍّ عَظِيمٖ ۝ وَقَالَ ٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلۡعِلۡمَ وَيۡلَكُمۡ ثَوَابُ ٱللَّهِ خَيۡرٞ لِّمَنۡ ءَامَنَ وَعَمِلَ صَٰلِحٗاۚ ﴾ [القصص : ٧٩، ٨٠] وقال تعالى : ﴿ ثُمَّ لَتُسۡـَٔلُنَّ يَوۡمَئِذٍ عَنِ ٱلنَّعِيمِ ﴾ [التكاثر : ٨] وقال تعالى : ﴿ مَّن كَانَ يُرِيدُ ٱلۡعَاجِلَةَ عَجَّلۡنَا لَهُۥ فِيهَا مَا نَشَآءُ لِمَن نُّرِيدُ ثُمَّ جَعَلۡنَا لَهُۥ جَهَنَّمَ يَصۡلَىٰهَا مَذۡمُومٗا مَّدۡحُورٗا ﴾ (١) [الإسراء : ١٨] .

والآياتُ في الباب كثيرةٌ مَعْلُومَةٌ .

٤٩١ - وعن عائشة رضي الله عنها قالت : مَا شَبعَ آلُ مُحمَّدٍ ﷺ مِنْ خُبْزِ شَعِير يَومَينِ مُتَتَابِعَينِ حَتَّى قُبِضَ . متفقٌ عليه (٢) .

وفي رواية : مَا شَبعَ آلُ مُحمَّد ﷺ مُنْذُ قَدِمَ المَدِينَةَ مِنْ طَعَامِ البُرِّ ثَلاثَ لَيَالٍ تِبَاعًا حَتَّى قُبِضَ (٣) .

٤٩٢ - وعن عُرْوَةَ عَنْ عائشة رضي الله عنها أَنَّها كَانَتْ تَقُولُ : وَاللَّه يَا ابْن أُخْتِي إِنْ كُنَّا لَنَنْظُرُ إلى الهِلال ، ثُمَّ الهِلالِ ، ثم الهلال : ثَلاثَةَ أَهِلَّةٍ في شَهْرَينِ ، وَمَا أُوقِدَ في أَبيَاتِ رسول الله ﷺ نَارٌ . قُلْتُ : يَا خَالةُ فَمَا كَانَ يُعِيشُكُمْ ؟ قالت : الأَسْوَدَانِ : التَّمْرُ وَالمَاءُ ، إلا أَنَّهُ قَدْ كَانَ لرسول الله ﷺ جِيرانٌ مِنَ الأَنْصَارِ ، وَكَانَتْ لَهُمْ مَنَائحُ وكانُوا يُرْسِلُونَ إلى رسول الله مِنْ أَلبَانها فَيَسْقِينَا . متفقٌ عليه (٤) .

٤٩٣ - وعن أبي سعيدٍ المَقْبُرِيِّ عَنْ أبي هُرَيرَةَ رضي الله عنه أنه مَرَّ بِقَوم بَينَ أَيدِيهِمْ شاةٌ مصْلِيَّةٌ ، فَدَعَوهُ فَأَبَى أَنْ يَأْكُلَ ، وقال : خرج رسول اللَّه ﷺ مِنَ الدُّنْيا وَلَمْ يَشْبَعْ مِنْ خُبْزِ الشَّعِيرِ . رواه البخاري (٥) .

---

(١) قوله ﴿ ٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلۡعِلۡمَ ﴾ أي العلم النافع بأحوال الآخرة . قوله ﴿ ثَوَابُ ٱللَّهِ ﴾ أي جزاء الله قوله ﴿ مَذۡمُومٗا ﴾ أي مطرودًا من رحمة الله تعالى .

(٢) أخرجه مسلم في الزهد (٢٢) واللفظ له والبخاري في الأطعمة (٥٤١٦) وابن ماجه في الأطعمة (٣٣٤٤) . قوله « البر » أي القمح .

(٣) هذه رواية البخاري في الأطعمة (٥٤١٦) .

(٤) أخرجه مسلم في الزهد (٢٨) واللفظ له والبخاري في الهبة (٢٥٦٧) قوله « منائح » جمع منيحة وهي الشاة يعطيها صاحبها رجلًا يشرب لبنها ثم يردها إذا انقطع لبنها .

(٥) أخرجه البخاري في الأطعمة (٥٤١٤) .

الشرح

هذا الباب ذكره المؤلف رَحِمَهُ ٱللَّهُ بعد باب الزهد في الدنيا ، يبين فيه أن على الإنسان ألا يكثر من الشهوات في أمور الدنيا ، وأن يقتصر على قدر الحاجة فقط ، كما كان النبي ﷺ يفعل ذلك ، وذكر آيات فيها بيان عاقبة الذين يتبعون الشهوات ويضيعون الصلوات ، فذكر قول الله تعالى : ﴿ فَخَلَفَ مِنۢ بَعۡدِهِمۡ خَلۡفٌ أَضَاعُواْ ٱلصَّلَوٰةَ وَٱتَّبَعُواْ ٱلشَّهَوَٰتِۖ فَسَوۡفَ يَلۡقَوۡنَ غَيًّا ۝ إِلَّا مَن تَابَ وَءَامَنَ وَعَمِلَ صَٰلِحٗا فَأُوْلَٰٓئِكَ يَدۡخُلُونَ ٱلۡجَنَّةَ وَلَا يُظۡلَمُونَ شَيۡـٔٗا ﴾ [مريم : ٥٩، ٦٠] .

قوله تعالى : ﴿ فَخَلَفَ مِنۢ بَعۡدِهِمۡ خَلۡفٌ ﴾ أي من بعد الأنبياء الذين ذكروا قبل هذه الآية ، خلف من بعدهم خلف لم يتبعوا طريقتهم وإنما ﴿ أَضَاعُواْ ٱلصَّلَوٰةَ وَٱتَّبَعُواْ ٱلشَّهَوَٰتِۖ ﴾ .

وإضاعة الصلاة يعني التفريط فيها ؛ في شروطها : كالطهارة ، وستر العورة ، واستقبال القبلة .

وفي أركانها : كالطمأنينة في الركوع ، والسجود ، والقيام ، والقعود .

وفي واجباتها : كسؤال المغفرة بين السجدتين ، والتسبيح في الركوع ، والسجود ، والتشهد الأول ، وما أشبه ذلك .

وأشد من هذا الذين يضيعونها عن وقتها ؛ فلا يصلون إلا بعد خروج الوقت ، فإن هؤلاء إما أن يكون لهم عذر من نوم أو نسيان ، فصلاتهم مقبولة ولو بعد الوقت ، وإما ألا يكون لهم عذر فصلاتهم مردودة لا تقبل منهم ، ولو صلوا ألف مرة .

وقوله : ﴿ وَٱتَّبَعُواْ ٱلشَّهَوَٰتِۖ ﴾ : يعني ليس لهم همٌّ إلا الشهوات ؛ ما تشتهيه بطونهم وفروجهم ، فهم ينعمون أبدانهم ويتبعون ما تتنعم به الأبدان ، ويضيعون الصلاة والعياذ بالله .

ثم قال تعالى مبينًا جزاءهم : ﴿ فَسَوۡفَ يَلۡقَوۡنَ غَيًّا ﴾ وهذا وعيد لهم ؛ لأن الجزاء من جنس العمل ﴿ إِلَّا مَن تَابَ وَءَامَنَ وَعَمِلَ صَٰلِحٗا فَأُوْلَٰٓئِكَ يَدۡخُلُونَ ٱلۡجَنَّةَ وَلَا يُظۡلَمُونَ شَيۡـٔٗا ﴾ .

ثم ذكر المؤلف حديث عائشة رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهَا في بيان عيش النبي ﷺ ، وأنه ما شبع من خبز الشعير ليلتين تباعًا ؛ لقلة ذات يده عليه الصلاة والسلام ، وأنه كان يمضي عليه الشهران في ثلاثة أهلَّة ما يوقد في بيته نار ، وإنما هو الأسودان التمر والماء ، مع أنه ﷺ لو شاء لصارت الجبال معه ذهبًا ، ولكنه ﷺ اقتصر من الدنيا على الضروري منها فقط ، وادخر حظه في الآخرة .

* * *

٤٩٤ - وعن أنسٍ رضي الله عنه قال : لمْ يَأْكُلِ النَّبيُّ ﷺ عَلى خِوانٍ حَتَّى مَات ، وَما أَكَلَ خُبْزًا مرقَّقًا حَتَّى مَاتَ . رواه البخاري . وفي روايةٍ له : وَلا رَأى شَاةً سَمِيطًا بِعَينِه قطُّ [(١)] .

---

(١) أخرجه البخاري في الرقاق (٦٤٥٠) . قوله « خوان » الخوان المائدة ما لم يكن عليها طعام ، قوله « مرققًا » أي محسنًا مليِّنًا ، قوله « سميطًا » السميط هو ما أزيل شعره بماء سخن وشوي بجلده ، ومن هذا الحديث حتى نهاية الحديث رقم ٥٢٣ لم يشرحه الشارح رَحِمَهُ ٱللَّهُ .

٤٩٥ – وعن النُّعْمَانِ بن بشيرٍ رضي الله عنهما قال : لَقَدْ رَأَيتُ نَبِيَّكُمْ ﷺ ، وَمَا يَجِدُ مِنَ الدَّقَلِ ما يَملأُ بِهِ بَطْنَهُ [١] ، رواه مسلم .

« الدَّقَلُ » : تَمْرٌ رَدِيءٌ .

٤٩٦ – وعن سهلِ بنِ سعدٍ رضي الله عنه قال : ما رَأَى رَسُولُ اللَّهِ ﷺ النَّقِيَّ مِنْ حِينَ ابْتَعَثَهُ اللَّهُ تعالى حتَّى قَبَضَهُ اللَّهُ تعالى ، فَقِيلَ لَهُ : هلْ كانَ لكُمْ في عَهْدِ رسول اللَّه ﷺ مَناخِلُ ؟ قالَ : ما رَأَى رسول اللَّه ﷺ مُنْخُلًا مِنْ حِينَ ابْتَعَثَهُ اللَّهُ تعالى حتَّى قَبَضَهُ اللَّهُ تعالى ، فَقِيلَ لهُ : كَيفَ كُنتُمْ تَأْكُلُونَ الشَّعِيرَ غَيرَ مَنْخُولٍ ؟ قالَ : كُنَّا نَطْحَنُهُ ونَنْفُخُهُ ، فَيَطِيرُ ما طارَ ، وما بَقِيَ ثَرَّيناهُ [٢] . رواه البخاري .

قوله « النَّقِيّ » : هو بفتح النون وكسر القاف وتشديد الياء ، وهُوَ الخُبْزُ الحُوَّارَي ، وَهُوَ : الدَّرْمَكُ . قوله : « ثَرَّيناهُ » هُوَ بثاءٍ مُثَلَّثةٍ ، ثُمَّ راءٍ مُشَدَّدَةٍ ، ثُمَّ ياءٍ مُثَنَّاةٍ مِنْ تحت ثمَّ نون ، أي : بَلَّلْناهُ وعَجَنَّاهُ .

٤٩٧ – وعن أبي هريرة رضي الله عنه قال : خَرَجَ رسول اللَّه ﷺ ذات يَوم أَو لَيلَةٍ ، فَإِذا هُوَ بأبي بَكْرٍ وعُمَرَ رضي الله عنهما فقال : « ما أَخْرَجَكُما مِنْ بُيُوتِكُما هذِهِ السَّاعَةَ ؟ » قالا : الجُوعُ يا رَسولَ اللَّهِ . قالَ : « وَأَنا والَّذي نَفْسي بِيَدِهِ ، لأَخْرَجَني الَّذي أَخْرَجَكُما . قُوما » فقاما مَعَهُ ، فَأَتى رَجُلًا مِنَ الأَنْصارِ ، فَإِذا هُوَ لَيسَ في بَيتِهِ ، فَلَمَّا رَأَتْهُ المَرْأَةُ قالَتْ : مَرْحَبًا وَأَهْلًا ، فقال لها رَسُولُ اللَّهِ ﷺ : « أَينَ فُلانٌ ؟ » قالَتْ : ذَهَبَ يَسْتَعْذِبُ لَنا الماءَ ، إِذْ جاءَ الأَنْصارِيُّ ، فَنَظَرَ إلى رَسُولِ اللَّه ﷺ وصَاحِبيهِ ، ثُمَّ قالَ : الحَمْدُ للَّهِ ، ما أَحَدٌ اليَومَ أَكْرَمَ أَضيافًا مِنِّي . فانْطَلَقَ فَجاءَهُمْ بِعِذْقٍ فِيهِ بُسْرٌ وَتَمْرٌ ورُطَبٌ ، فقالَ : كُلُوا ، وَأَخَذَ المُدْيَةَ ، فَقالَ لَهُ رسول اللَّه ﷺ : « إِيَّاكَ وَالحَلُوبَ » فَذَبَحَ لهُمْ ، فَأَكَلُوا مِنَ الشَّاةِ وَمِنْ ذلكَ العِذْقِ وشَرِبُوا . فَلَمَّا أَنْ شَبِعُوا وَرَوُوا قال رسول اللَّه ﷺ لأبي بكرٍ وعُمَرَ رضي الله عنهما : « وَالَّذي نَفْسي بِيَدِهِ ، لَتُسْأَلُنَّ عَنْ هذَا النَّعِيمِ يَومَ القِيامَةِ ، أَخْرَجَكُمْ مِنْ بُيُوتِكُمُ الجُوعُ ، ثُمَّ لَمْ تَرْجِعُوا حتى أَصابَكُمْ هذا النَّعِيمُ » [٣] رواه مسلم .

قَوْلُها : « يَسْتَعْذِبُ » أَي : يَطْلُبُ الماءَ العَذْبَ ، وهُوَ الطَّيِبُ . و « العِذْقُ » بكسر العين وإسكان الذال المعجمة : وَهُو الكِباسَةُ ، وهِيَ الغُصْنُ . و « المُدْيَةُ » بضم الميم وكسرها : هي السِّكِّينُ . و « الحَلُوبُ » ذاتُ اللبَنِ . وَالسؤالُ عَنْ هذا النعيم سُؤالُ تَعْديدِ النِّعَمِ لا سُؤالُ توبيخٍ وتَعْذِيب . واللَّهُ أَعْلَمُ . وهذا الأنصاريُّ الَّذي أَتَوهُ هُوَ أَبُو الهَيثَمِ بنُ التَّيِّهان ، رضي الله عنه كذا جاءَ مُبَيَّنًا في رواية الترمذي وغيره .

٤٩٨ – وعن خالد بن عُمَرَ العَدَوِيِّ قال : خَطَبَنا عُتْبَةُ بنُ غَزْوَانَ ، وكان أَمِيرًا عَلى البَصْرَةِ ، فَحَمِدَ اللَّهَ وأَثْنى عَلَيهِ ، ثُمَّ قَالَ : أَمَّا بَعْدُ ، فَإِنَّ الدُّنْيا قَدْ آذَنَتْ بِصُرْمٍ ، ووَلَّتْ حَذَّاءَ ، وَلَمْ يَبْقَ مِنْها إلا صُبابَةٌ كَصُبَابَةِ الإِناءِ يَتَصابُّها صاحِبُها ، وإِنكُمْ مُنْتَقِلُونَ مِنْهَا إلى دارٍ لا زَوالَ لَهَا ، فانْتَقِلُوا بخَيرِ ما

---

(١) أخرجه مسلم في الزهد (٨٤) والترمذي في الزهد (٢٣٧٢) .

(٢) أخرجه البخاري في الأطعمة (٥٤١٣) والترمذي بنحوه في الزهد (٢٣٦٤) .

(٣) أخرجه مسلم في الأشربة (١٤٠) والطبراني في الكبير (٢٥٧/١٩) .

بحَضْرَتِكُمْ ؛ فَإِنَّهُ قَدْ ذُكِرَ لنا أَنَّ الحَجَرَ يُلْقَى مِنْ شفِير جَهَنَّمَ فَيَهْوِي فِيها سَبْعِينَ عامًا ، لا يُدْرِكُ لهَا قَعْرًا ، واللَّهِ لَتُمْلأَنَّ ... أَفَعَجِبْتُمْ !؟ وَلَقَدْ ذُكِرَ لَنا أَنَّ ما بَينَ مِصْراعَين مِنْ مَصاريعِ الجَنَّةِ مَسِيرَةَ أَرْبَعِينَ عامًا ، وَلَيأْتِيَنَّ عَلَيهِ يَوم وهُوَ كَظِيظٌ مِنَ الزِّحامِ ، وَلَقَدْ رَأَيتُني سابعَ سَبْعَةٍ مَعَ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ ما لَنا طَعامٌ إلا وَرَقُ الشَّجَرِ ، حتى قَرِحَتْ أَشْداقُنا ، فالتَقَطْتُ بُرْدَةً فَشَقَقْتُها بَيني وَبَينَ سَعْدِ بنِ مالك ، فَاتَّزرْتُ بِنِصْفِها ، واتَّزر سَعْدٌ بِنِصفِها ، فَما أَصْبَحَ اليَومَ مِنَّا أَحَدٌ إلا أَصْبَحَ أَمِيرًا عَلى مِصْر مِنَ الأَمْصارِ ، وَإني أَعُوذُ باللَّهِ أَنْ أَكُونَ في نَفْسي عَظِيمًا ، وعِنْدَ اللَّهِ صَغِيرًا [١] . رواه مسلم .

قوله : « آذَنَتْ » هُوَ بَمدِّ الأَلِفِ ، أي : أَعْلَمَتْ . وقوله : « بِصُرْمٍ » : هو بضم الصاد ، أي : بانْقِطاعِها وفَنائِها . وقوله « وَوَلَّتْ حَذَّاءَ » هو بحاءٍ مهملةٍ مفتوحَةٍ ، ثمَّ ذال معجمة مشدَّدة ، ثمَّ أَلف ممدودَة ، أي : سَريعَةً . وَ « الصُّبابَةُ » بضم الصاد المهملة : وهي البَقِيَّةُ اليَسِيرَةُ . وقولُهُ : « يَتَصابُّها » هو بتشديد بالباءِ قبل الهاءِ ، أي : يجْمَعُها . و « الكظِيظُ » الكَثيرُ المُمْتَلئ وقوله : « قَرِحَتْ » هو بفتحِ القاف وكسر الراءِ ، أي : صارَتْ فِيها قُرُوحٌ .

٤٩٩ - وعن أبي موسى الأَشْعَرِيِّ ﷺ قال : أَخْرجَتْ لَنا عائِشَةُ رضي الله عنها كساءً وَإزارًا غَلِيظًا قالَتْ : قُبِضَ رسول اللَّه ﷺ في هذين [٢] . متفقٌ عليه .

٥٠٠ - وعنْ سَعد بن أبي وَقَّاص ﷺ قال : إنِّي لأَوَّلُ العَرَبِ رَمَى بسَهْمٍ في سَبيلِ اللَّه ، وَلَقَدْ كُنا نَغْزُو مَعَ رسول اللَّه ﷺ ما لَنَا طَعامٌ إلا وَرَقُ الحُبْلَةِ ، وَهذا السَّمُرُ حتى إنْ كانَ أَحَدُنا لَيَضَعُ كما تَضَعُ الشاةُ ما لَهُ خَلْطٌ [٣] . متفقٌ عليه .

« الحُبْلَة » بضم الحاء المهملة وإسكان الباءِ الموحدةِ : وهيَ والسَّمُرُ ، نَوعانِ مَعْرُوفانِ مِنْ شَجَرِ البَادِيَةِ .

٥٠١ - وعن أبي هُرَيرَةَ ﷺ قال : قال رسول اللَّه ﷺ : « اللَّهُمَّ اجْعَلْ رِزْقَ آلِ مُحمدٍ قُوتًا » [٤] متفقٌ عليه .

قال أَهْلَ اللغَة وَالغَريبِ : مَعْنَى « قُوتًا » أَي : مَا يَسُدُّ الرَّمَقَ .

٥٠٢ - وعن أبي هُرَيرَةَ ﷺ قال : وَاللَّهِ الذي لا إلَهَ إلا هُوَ ، إنْ كُنْتُ لأَعْتَمِدُ بكَبِدِي عَلى الأَرْضِ مِنْ الجُوعِ ، وَإنْ كُنْتُ لأَشُدُّ الحَجَرَ عَلى بَطْني مِنَ الجُوعِ . وَلَقَدْ قَعَدْتُ يَومًا على طَرِيقِهِمُ الذي يَخْرُجُونَ مِنْهُ ، فَمَرَّ بيَ النبيُّ ﷺ فَتَبَسَّمَ حِينَ رَآني ، وَعَرَفَ مَا في وَجْهِي وَمَا في نفْسِي ، ثُمَّ قال : « أبا

---

(١) أخرجه مسلم في الزهد (١٤) والإمام أحمد في مسنده (١٧٤/٤) . قوله « شفير جهنم » حرفها ، وقيل : حرفها الأعلى ، قوله « مصراعيه » المصراع من الباب الشطر وهما مصراعان .

(٢) أخرجه البخاري في اللباس (٥٨١٨) ومسلم في اللباس (٣٤) .

(٣) أخرجه البخاري في فضائل الصحابة (٣٧٢٨) ومسلم في الزهد (١٢) . قوله « ليضع » كناية عن الغائط ، قوله « كما تضع الشاة » أي من البعر ليبسه وعدم ألفة المعدة له .

(٤) أخرجه البخاري في الرقاق (٦٤٦٠) ومسلم في الزكاة (١٢٦) والإمام أحمد في مسنده (٤٤٦/٢ ، ٤٨١) .

هِرّ » قلت : لبَّيك يا رسول اللَّه ، قال : « الحَقْ » وَمَضى ، فَاتَّبعْتُهُ ، فَدَخَلَ فَاسْتأْذَنَ ، فَأَذِنَ لي فَدَخَلْتُ ، فَوَجَدَ لَبَنًا في قَدَح فقال : « مِنْ أَينَ هذَا اللَّبَنُ ؟ » قالوا : أَهْدَاهُ لكَ فُلانٌ - أَو فُلانَةٌ - قال : « أَبا هِرّ » قلتُ : لَبَّيكَ يا رسول اللَّه ، قال : « الحَقْ إلى أَهْلِ الصُّفَّةِ فَادْعُهُم لي » قال : وَأَهْلُ الصُّفَّةِ أَضيَافُ الإسْلامِ ، لا يأْوُونَ عَلى أَهْلٍ ، وَلا مَالٍ ، وَلا عَلى أَحَدٍ ، وكَانَ إذَا أَتَتْهُ صَدَقَةٌ بَعَثَ بهَا إلَيهِمْ ، وَلَمْ يَتَنَاوَلْ مِنهَا شَيئًا ، وَإذَا أَتَتْهُ هَدِيَّةٌ أَرْسَلَ إلَيهِمْ ، وَأَصَابَ مِنْهَا ، وَأَشْرَكَهُمْ فِيهَا ، فَسَاءَني ذلِكَ فَقُلْتُ : وَمَا هذَا اللَّبَنُ في أَهْلِ الصُّفَّةِ ؟! كُنتُ أَحَقَّ أَنْ أُصِيبَ مِنْ هذَا اللَّبَنِ شَرْبَةً أَتَقوَّى بِهَا ، فَإذا جَاءُوا وَأَمَرَني فَكُنْتُ أَنَا أُعْطِيهِمْ ، وَمَا عَسَى أَنْ يبْلُغَني مِنْ هذا اللَّبَنِ ، وَلَمْ يَكُنْ مِنْ طَاعَةِ اللَّه وَطَاعَةِ رسول اللَّه ﷺ بُدٌّ ، فَأَتَيتُهُمْ فَدَعَوتُهمْ ، فَأَقْبَلُوا وَاسْتأْذَنُوا ، فَأَذِنَ لهُمْ وَأَخَذُوا مَجالسَهُمْ مِنَ البَيتِ قال : « يا أَبا هِرّ » قلتُ : لَبَّيكَ يا رسولَ اللَّهِ ، قال : « خُذْ فَأَعْطِهِمْ » قال : فَأَخَذْتُ القَدَحَ ، فَجَعَلْتُ أُعْطِيهِ الرَّجُلَ فَيَشْرَبُ حَتَّى يَرْوَى ، ثُمَّ يَرُدُّ عَلَيَّ القَدَحَ ، فَأُعطيهِ الرَّجُلَ فَيَشْرَبُ حَتَّى يَرْوَى ، ثمّ يردُّ عليَّ القَدَحَ ، فيشرَبُ حتّى يَرْوى ثُمَّ يَرُدُّ عليَّ القَدَحَ حَتَّى انْتَهَيت إلى النبيِّ ﷺ ، وَقَدْ رَوِيَ القَومُ كُلُّهُمْ ، فَأَخَذَ القَدَحَ فَوَضَعَهُ عَلى يَدِهِ ، فَنَظَرَ إليَّ فَتَبَسَّمَ ، فقال : « أَبا هِرّ » قلتُ : لَبَّيكَ يا رسول اللَّه ، قال : « بَقِيتُ أَنَا وَأَنْت » قلتُ : صَدَقْت يا رسول اللَّه ، قال : « اقْعُدْ فَاشْرَبْ » فَقَعَدْتُ فَشَرِبْتُ : فقال : « اشْرَبْ » فَشَرِبْتُ ، فَمَا زَالَ يَقُولُ : « اشْرَبْ » حَتَّى قُلْتُ : لا وَالَّذي بَعَثَكَ بالحَقّ ما أَجِدُ لَهُ مَسْلكًا ! قال : « فَأَرِني » فَأَعْطَيتُهُ القَدَحَ ، فَحَمِدَ اللَّه تعالى ، وَسَمَّى وَشَرِبَ الفَضْلَةَ »[(١)] رواه البخاري .

٥٠٣ - وعن مُحَمَّدِ بن سِيرين عن أبي هريرة ﷺ قال : لَقَدْ رَأَيتُني وَإنِّي لأَخِرُّ فِيمَا بَينَ مِنْبَرِ رسول اللَّه ﷺ ، إلى حُجْرَةِ عَائِشَةَ ﷺ مَغْشِيًّا عَلَيَّ ، فَيَجِيءِ الجَائي ، فَيَضَعُ رِجْلَهُ عَلى عُنُقي ، وَيَرَى أَنِّي مجْنُونٌ وَمَا بي مِنْ جُنُونٍ ، مَا بي إلا الجُوعُ[(٢)] . رواه البخاري .

٥٠٤ - وعن عائشة ﷺ قَالَتْ : تُوُفِّي رسول اللَّه ﷺ وَدِرْعُهُ مَرْهُونَةٌ عِنْدَ يهودِيّ في ثَلاثِينَ صَاعًا منْ شَعير[(٣)] . متفقٌ عليه .

٥٠٥ - وعن أنسٍ ﷺ قال : رَهنَ النَّبيُّ ﷺ دِرْعَهُ بِشَعِيرٍ ، وَمَشَيتُ إلى النَّبيِّ ﷺ بِخُبْزِ شَعير ، وَإهَالَةٍ سَنِخَةٍ ، وَلَقَدْ سَمِعْتُهُ يَقُولُ : « مَا أَصبَحَ لآل مُحَمَّدٍ صَاعٌ وَلا أَمْسَى » وَإنَّهُم لتسعَةُ أَبيَاتٍ[(٤)] . رواه البخاري .

---

(١) أخرجه البخاري في الرقاق (٦٤٥٢) . قوله « كنت لأعتمد بكبدي على الأرض » أي ألصق بطني بها .

(٢) أخرجه البخاري في الاعتصام بالكتاب والسنة (٧٣٢٤) . قوله « وإني لأخر » أي أسقط ، قوله « مغشيًّا علي » أي مغمى عليّ والإغماء زوال الشعور مع فتور في الأعضاء ، قوله « ويضع رجليه على عنقي » كانت تلك عادتهم بالمجنون حتى يفيق .

(٣) أخرجه البخاري في الجهاد والسير (٢٩١٦) وللحديث روايات كثيرة بنحوه في جامع الترمذي في البيوع (١٢١٤) ومسند الإمام أحمد (٢٣٦/١ ، ٣٠٠ ، ١٠٢/٣ ، ١٣٣ ، ٤٥٣/٦ ، ٤٥٧) .

(٤) أخرجه البخاري في الرهن (٢٥٠٨) بلفظه ، والإمام أحمد في مسنده (٢٣٨/٣) .

« الإهَالَةُ » بكسر الهمزة : الشَّحْمُ الذَّائبُ . وَ « السَّنِخَةُ » بِالنون والخاءِ المعجمة ، وَهيَ : المُتغَيِّرَة .

٥٠٦ - وعن أبي هُرَيرَةَ ﷺ قال : لَقَدْ رَأَيتُ سبعينَ مِنْ أَهْلِ الصُّفَّةِ ، ما مِنْهُم رَجُلٌ عَلَيه رِدَاءٌ ، إمَّا إزارٌ وَإمَّا كِساءٌ ، قَدْ رَبَطُوا في أَعْنَاقِهم مِنهَا ما يَبْلُغُ نِصفَ السَّاقَين ، وَمِنهَا ما يَبلُغُ الكَعْبَين ، فَيَجمَعُهُ بيدِهِ كَرَاهيةَ أَنْ تُرَى عَورَتُهُ [١] . رواه البخاري .

٥٠٧ - وعن عائشة ﷺ قالت : كَانَ فِرَاشُ رسول اللّه ﷺ مِنْ أَدْمٍ حَشْوُهُ لِيفٌ [٢] . رواه البخاري .

٥٠٨ - وعن ابن عمر ﷺ قال : كُنَّا جُلُوسًا مَعَ رسول اللّه ﷺ إذْ جَاءَ رَجُلٌ مِنَ الأَنْصَارِ ، فَسَلَّمَ عَلَيهِ ، ثمَّ أَدبر الأَنْصَارِيُّ ، فقال رسول اللّه ﷺ : « يَا أَخَا الأَنْصَارِ ، كيفَ أَخِي سَعْدُ بنُ عُبَادَةَ ؟ » فقال : صَالِحٌ ، فقال رسول اللّه ﷺ : « مَنْ يَعُودُهُ مِنْكُم ؟ » فَقَامَ وَقُمْنَا مَعَهُ ، وَنَحْنُ بِضْعَةَ عَشَرَ ، ما عَلَينَا نِعَالٌ ، وَلا خِفَافٌ ، وَلا قَلانِسُ ، وَلا قُمُصٌ ، نَمْشي في تلكَ السِّبَاخِ ، حَتَّى جِئْنَاهُ ، فاسْتَأْخَرَ قَوْمُهُ مِنْ حَوله حتَّى دَنَا رسول اللّه ﷺ وأَصْحَابُهُ الَّذينَ معَهُ [٣] . رواه مسلم .

٥٠٩ - وعن عِمْرَان بنِ الحُصَينِ ﷺ عن النبي ﷺ أنه قال : « خَيرُكُمْ قَرني ، ثُمَّ الَّذينَ يلُونَهُم ، ثُمَّ الَّذينَ يَلُونَهُم » قال عِمرانُ : فَمَا أَدري قال النبي ﷺ مَرَّتَين أَو ثلاثًا « ثُمَّ يَكُونُ بَعدَهُمْ قَومٌ يَشهَدُونَ وَلا يُستَشْهَدونَ ، وَيَخُونُونَ وَلا يُؤْتَمَنُون ، وَيَنْذِرُونَ وَلا يُوفُونَ ، وَيَظْهَرُ فِيهِمُ السِّمَنُ » [٤] متفقٌ عليه .

٥١٠ - وعن أبي أُمامة ﷺ قال : قالَ رسول اللّه ﷺ : « يا ابْنَ آدَمَ ! إنَّكَ أَنْ تَبْذُلَ الفَضْلَ خَيرٌ لَكَ ، وَأَن تُمْسِكَهُ شَرٌّ لَكَ ، ولا تُلامُ عَلى كَفَافٍ ، وَابدأْ بِمَنْ تَعُولُ » [٥] رواه الترمذي وقال : حديث حسن صحيح .

٥١١ - وعن عُبَيد اللّه بن مِحْصَنٍ الأَنْصارِيِّ الخَطْميِّ ﷺ قال : قال رسول اللّه ﷺ : « مَنْ

---

(١) أخرجه البخاري في الصلاة (٤٤٢) .

(٢) أخرجه البخاري في الرقاق (٦٤٥٦) والإمام أحمد في مسنده (٧٣/٦) . قوله « من أدم » الأدم جمع أديم وهو الجلد المدبوغ .

(٣) أخرجه مسلم في الجنائز (١٣) قوله « ولا خفاف » جمع خف وهو ما يلبس في الرِّجل من جلدٍ رقيق . قوله « ولا قلانس » جمع قلنسوة وهي لباس للرأس مختلف الأنواع والأشكال . قوله « ولا قمص » جمع قميص وهو الثوب المعروف الملبوس على البدن . قوله « سباخ » السباخ جمع سبخة وهي الأرض التي تعلوها الملوحة ولا تكاد تنبت إلا بعض الشجر .

(٤) أخرجه البخاري في الشهادات (٢٦٥١) ومسلم في فضائل الصحابة (٢١٤) والإمام أحمد في مسنده (٤٣٨ ، ٤١٠/٢ ، ٤٧٩ ، ٤٣٦/٤) والبيهقي في سننه (٧٤/١٠ ، ١٢٣) .

(٥) أخرجه مسلم في الزكاة (٩٧) والترمذي في الزهد (٢٣٤٣) والبيهقي في سننه (٤ / ١٨٢) . قوله « كفاف » أي قدر الحاجة من طعام وشراب وغيره .

أَصبحَ مِنْكُم آمِنًا في سربِهِ ، مُعَافىً في جَسَدِهِ ، عِنْدَهُ قُوتُ يَومِهِ فَكَأَنَّمَا حِيزَتْ لَهُ الدُّنْيَا بِحَذَافِيرِهَا » (١) رواه الترمذي وقال : حديثٌ حسنٌ .

« سِرْبِهِ » بكسر السين المهملة ، أي : نَفْسِهِ ، وَقيلَ : قَومِهِ .

٥١٢ - وعن عبدِ اللَّه بن عمرو بن العاصِ رضي الله عنهما أن رسول اللَّه ﷺ قال : « قَدْ أَفْلَحَ مَنْ أَسلَمَ ، وَكَانَ رِزقُهُ كَفَافًا ، وَقَنَّعَهُ اللَّه بِمَا آتاهُ » (٢) رواه مسلم .

٥١٣ - وعن أبي مُحَمَّدٍ فَضالَةَ بن عُبَيدٍ الأَنْصارِيِّ رضي الله عنه أَنَّهُ سَمِعَ رسول اللَّه ﷺ يَقُولُ : « طُوبَى لِمَنْ هُدِيَ إلى الإسْلامِ ، وَكَانَ عَيشُهُ كَفَافًا ، وَقَنِعَ » (٣) رواه الترمذي وقال : حديث حسن صحيح .

٥١٤ - وعن ابن عباسٍ رضي الله عنهما ، قال : كانَ رسول اللَّه ﷺ يَبيتُ اللَّيالي المُتَتابِعَة طَاوِيًا ، وَأَهْلُهُ لا يَجِدُونَ عَشَاءً ، وَكَان أَكْثَرُ خُبْزِهِمْ خُبزَ الشَّعِيرِ (٤) . رواه الترمذي وقال : حديثٌ حسنٌ صحيح .

٥١٥ - وعن فَضالَةَ بن عُبَيدٍ رضي الله عنه أن رسول اللَّه ﷺ كَانَ إذَا صَلَّى بِالنَّاسِ ، يَخِرُّ رِجَالٌ مِنْ قَامَتهِمْ في الصَّلاةِ مِنَ الخَصَاصَةِ - وَهُمْ أَصْحَابُ الصُّفَّةِ - حَتَّى يَقُولُ الأَعْرَابُ : هَؤُلاءِ مَجَانِينُ ، فَإِذَا صلى رسول اللَّه ﷺ انْصَرَفَ إِلَيهِمْ ، فقال : « لَو تعْلَمُونَ مَا لَكُمْ عِنْدَ اللَّهِ تعالى ، لأَحْبَبْتُمْ أَنْ تَزْدَادُوا فَاقَةً وَحَاجَةً » (٥) رواه الترمذي ، وقال : حديثٌ صحيحٌ ، « الخَصَاصَةُ » : الفَاقَةُ وَالجوعُ الشَّدِيدُ .

٥١٦ - وعن أبي كَرِيمَةَ المِقْدامِ بن مَعْدِ يكَربَ رضي الله عنه قال : سَمِعْتُ رسول اللَّه ﷺ يَقُولُ : « مَا مَلأَ آدَمِيٌّ وِعَاءً شَرًّا مِنْ بَطْنٍ ، بِحَسْبِ ابنِ آدَمَ أُكلات يُقِمْنَ صُلْبَهُ ، فَإِنْ كَانَ لَا مَحَالَةَ ، فَثُلُثٌ لِطَعَامِهِ ، وَثُلُثٌ لِشَرَابِهِ ، وَثُلُثٌ لِنَفَسِهِ » (٦) .

رواه الترمذي وقال : حديث حسن .

« أُكلاتٌ » أَي : لُقَمٌ .

٥١٧ - وعن أَبي أُمَامَةَ إيَاسِ بنِ ثَعْلَبَةَ الأَنْصَارِيِّ الحَارثي رضي الله عنه قال : ذَكَرَ أَصْحَابُ رسول اللَّه ﷺ يَوْمًا عِنْدَهُ الدُّنْيَا ، فقالَ رسول اللَّه ﷺ : « أَلا تَسْمَعُونَ ؟ أَلا تَسْمَعُونَ ؟ إنَّ البَذَاذَةَ مِنَ الإيمَانِ ، إنَّ

---

(١) أخرجه الترمذي في الزهد (٢٣٤٦) وابن ماجه في الزهد (٤١٤١) . قوله « حيزت » أي ضمت وجمعت ، قوله « بحذافيرها » أي بجوانبها ، أي فكأنما أعطي الدنيا بأسرها .

(٢) أخرجه مسلم في الزكاة (١٢٥) والترمذي في الزهد (٢٣٤٨) والإمام أحمد في مسنده (١٦٨/٢ ، ١٧٣) والبيهقي في سننه (١٩٦/٤) . قوله « كفافًا » الكفاف هو الذي لا يفضل عن الشيء ويكون بقدر الحاجة إليه .

(٣) أخرجه الإمام أحمد في مسنده (١٩/٦) والترمذي في الزهد (٢٣٤٩) .

(٤) أخرجه الترمذي في الزهد (٢٣٦٠) وابن ماجه في الأطعمة (٣٣٤٧) والإمام أحمد في مسنده (٢٥٥/١ ، ٣٧٤) .

(٥) أخرجه الترمذي في الزهد (٢٣٦٨) والطبراني في الكبير (٣١٠/١٨ ، ٣١١) . قوله « يخر » أي يسقط .

(٦) أخرجه الترمذي في الزهد (٢٣٨٠) . قوله « بحسب ابن آدم » أي كافيه ، قوله « فإن كان لا محالة ... » المعنى فإن كان لابد من الكثرة على ذلك فليكن أثلاثًا .

البَذَاذَةَ مِنَ الإيمَانِ » يَعْني : التَّقَحُّلَ [1] . رواه أبو داود .

« البَذَاذَةُ » : بِالبَاءِ المُوَحَّدةِ وَالذَالَينِ المُعْجَمَتَينِ ، وَهِيَ رَثَاثَةُ الهَيئَةِ ، وَتَرْكُ فَاخِرِ اللِّبَاسِ . وَأَمَّا « التَّقَحُّل » فَبِالقَافِ وَالحَاءِ ، قال أَهْلُ اللُّغَة : المُتَقَحِّلُ : هُوَ الرَّجُلُ اليَابِسُ الجلد مِنْ خُشُونَةِ العَيشِ ، وَتَرْكِ التَّرَفُّهِ .

٥١٨ - وعن أبي عبد اللَّه جابر بن عبد اللَّه رضي الله عنهما قال : بَعَثَنَا رسول اللَّه ﷺ ، وَأَمَّرَ عَلَينَا أَبَا عُبَيدَةَ رضي الله عنه نَتَلَقَّى عِيرًا لقُرَيشٍ ، وَزَوَّدَنَا جِرَابًا مِنْ تَمْرٍ لَمْ يَجِدْ لَنَا غَيرَهُ ، فَكَانَ أَبُو عُبَيدَةَ يُعْطِينَا تَمْرَةً تَمْرَةً ، فَقِيلَ : كَيفَ كُنْتُمْ تَصْنَعُونَ بِها ؟ قال : نَمَصُّهَا كما يَمَصُّ الصَّبِيُّ ، ثُمَّ نَشْرَبُ عَلَيهَا مِنَ المَاءِ ، فَتَكْفِينَا يومَنَا إلى اللَّيلِ ، وكُنَّا نَضْرِبُ بِعِصِيِّنَا الخَبَطَ ، ثُمَّ نَبُلُّهُ بالمَاءِ فَنَأكُلُهُ . قال : وَانْطَلَقْنَا عَلى سَاحِلِ البَحْرِ ، فَرُفِعَ لَنَا عَلى سَاحِلِ البَحْرِ كَهَيئَةِ الكَثِيبِ الضَّخْم ، فَأَتَينَاهُ فَإذا هِيَ دَابَّةٌ تُدْعَى العَنْبَرَ ، فقال أَبُو عُبَيدَةَ : مَيتَةٌ ، ثُمَّ قال : لا ، بَلْ نَحْنُ رُسُلُ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ وفي سبيلِ اللَّهِ وَقَدِ اضْطُرِرْتُمْ فَكُلُوا ، فَأَقَمنَا عَلَيه شَهْرًا ، وَنَحْنُ ثَلاثُمِائَةٍ ، حَتَّى سَمِنَّا ، وَلَقَدْ رَأَيتُنَا نَغْتَرِفُ مِنْ وَقْبِ عَينِهِ بِالقِلالِ الدُّهْنَ وَنَقْطَعُ مِنْهُ الفِدَرَ كالثَّور أَو كَقَدْرِ الثَّورِ ، وَلَقَدْ أَخَذَ مِنَّا أَبُو عُبَيدَةَ ثَلاثَةَ عَشَرَ رَجُلًا فَأَقْعَدَهُم في وَقْبِ عَينِهِ وَأَخَذَ ضِلْعًا مِنْ أَضلاعِهِ فَأَقَامَهَا ، ثُمَّ رَحَلَ أَعْظَمَ بَعِيرٍ مَعَنَا فَمرَّ مِنْ تَحْتِهَا ، وتَزَوَّدْنَا مِنْ لَحمِهِ وَشائِقَ ، فَلَمَّا قَدِمْنَا المَدِينَةَ أَتَينا رسول اللَّه ﷺ فَذَكَرنَا ذلِكَ له ، فقال : « هُوَ رِزْقٌ أَخْرَجَهُ اللَّهُ لَكُمْ ، فَهَلْ مَعَكُم مِنْ لَحمِهِ شَيءٌ فَتُطعِمُونا ؟ » فَأَرْسَلْنَا إلى رسول اللَّه ﷺ مِنْهُ فَأَكَلَهُ [2] . رواه مسلم .

« الجِرَابُ » : وِعَاءٌ مِنْ جِلْدٍ مَعْرُوفٍ ، وَهُوَ بكَسر الجيم وفتحها ، والكسرُ أَفْصَحُ . قوله : « نَمَصُّهَا » بفتحِ الميم . « والخَبَطُ » وَرَقُ شَجَرٍ مَعْرُوفٍ تَأكُلُهُ الإبلُ . « وَالكَثِيبُ » : التَّلُّ مِنَ الرَّمْلِ . « والوَقْبُ » : بفتحِ الواوِ وإسكان القافِ وبعدها باءٌ موحدةٌ ، وَهُوَ نُقْرَةُ العَينِ . « وَالقِلالُ » الجِرَارُ . « وَالفِدَرُ » بكسر الفاءِ وفتحِ الدال : القِطَعُ . « رَحَلَ البَعِيرَ » بتخفيفِ الحاءِ : أَي جَعَلَ عَلَيهِ الرَّحْلَ . « الوَشائِقُ » بالشينِ المعجمةِ وَالقَاف : اللَّحْمُ الَّذي اقْتُطِعَ لِيُقَدَّدَ مِنه ، واللَّه أعلم .

٥١٩ - وعن أَسْماءَ بنْتِ يَزِيدَ رضي الله عنها قالت : كانَ كُمُّ قَمِيصِ رسول اللَّه ﷺ إلى الرُّصْغِ [3] ، رواه أبو داود ، والترمذي ، وقال : حديث حسن .

« الرُّصغُ » بالصادِ ، وَالرُّسْغُ بالسينِ أيضًا : هوَ المَفْصِلُ بَينَ الكَفِّ والسَّاعِدِ .

٥٢٠ - وعن جابر رضي الله عنه قال : إنَّا كُنَّا يَومَ الخَنْدَقِ نَحْفِرُ ، فَعَرَضَتْ كُدْيَةٌ شَدِيدَةٌ ، فَجَاءُوا إلى النبي ﷺ فقالوا : هذِهِ كُدْيَةٌ عَرَضَتْ في الخَنْدَقِ . فقال : « أَنَا نازلٌ » ثُمَّ قَامَ ، وَبَطْنُهُ مَعْصُوبٌ

---

(١) أخرجه أبو داود في الترجل (٤١٦١) والطبراني في الكبير (١/٢٤٦ ، ٢٤٧) .

(٢) أخرجه مسلم في الصيد والذبائح (١٧) .

(٣) أخرجه أبو داود في اللباس (٤٠٢٧) والترمذي في اللباس (١٧٦٥) .

بِحَجَرٍ، وَلَبِثْنَا ثَلاثَةَ أَيَّامٍ لا نَذُوقُ ذَوَاقًا، فَأَخَذَ النَّبِيُّ ﷺ المِعْوَلَ، فَضَرَبَ، فَعادَ كَثِيبًا أَهْيَلَ، أَو أَهْيَمَ، فقلتُ: يا رسولَ اللَّه ائْذَنْ لي إلى البيتِ، فقلتُ لامْرَأَتي: رأيتُ بالنبيِّ ﷺ شَيْئًا ما في ذلِكَ صَبْرٌ، فَعِنْدَكِ شَيْءٌ؟ فقالت: عِنْدِي شَعِيرٌ وَعَنَاقٌ، فَذَبحْتُ العَنَاقَ وطَحَنْتُ الشَّعِيرَ حَتَّى جَعَلْنَا اللحمَ في البُرْمَةِ، ثُمَّ جِئْتُ النبيَّ ﷺ، وَالعَجِينُ قَدِ انْكَسَرَ، والبُرْمَةُ بَين الأَثَافيِّ قَد كَادَت تَنْضِجُ، فقلتُ: طُعَيِّمٌ لي، فَقُمْ أَنْتَ يا رسولَ اللَّهِ وَرَجُلٌ أَو رَجُلان، قال: «كَمْ هُوَ؟» فَذَكَرْتُ له فقال: «كثيرٌ طيِّبٌ، قُل لَهَا لا تَنْزِعِ البُرْمَةَ، ولا الخُبْزَ مِنَ التَّنُّورِ حَتى آتي» فقال: «قُومُوا» فقام المُهَاجِرُونَ وَالأَنْصَارُ، فَدَخَلْتُ عليها فقلت: وَيحَكِ جاءَ النبي ﷺ وَالمَهاجُرونَ والأَنْصارُ وَمَن مَعَهُم! قالت: هل سَأَلَكَ؟ قلتُ: نعم، قال: «ادْخُلوا وَلا تَضَاغَطُوا» فَجَعَلَ يَكْسِرُ الخُبْزَ، وَيَجْعَلُ عَلَيهِ اللحمَ، وَيُخَمِّرُ البُرْمَةَ والتَّنُّورَ إذا أَخَذَ مِنْهُ، وَيقَرِّبُ إلى أَصْحابِهِ ثُمَّ يَنْزِعُ، فَلَمْ يَزَل يَكْسِرُ وَيَغْرِفُ حَتَّى شَبِعُوا، وَبَقِي مِنه، فقال: «كُلِي هذَا وَأَهدِي، فَإِنَّ النَّاسَ أَصَابَتْهُمْ مَجَاعَةٌ» متفقٌ عليه.

وفي رواية: قال جابر: لمَّا حُفِرَ الخَنْدَقُ رَأَيتُ بالنبيِّ ﷺ خَمَصًا، فَانْكَفَأْتُ إلى امْرَأَتي فقلتُ: هل عِنْدَكِ شَيْءٌ، فإنِّي رَأَيتُ بِرسول اللَّهِ ﷺ خَمَصًا شَدِيدًا؟ فَأَخْرَجَتْ إليَّ جرابًا فِيه صَاعٌ مِنْ شَعِيرٍ، وَلَنَا بُهَيمَةٌ داجِنٌ فَذَبَحْتُهَا، وَطَحَنَت الشَّعِير، فَفَرَغَتْ إلى فَرَاغِي، وَقَطَّعْتُهَا في بُرْمَتِهَا، ثُمَّ وَلَّيتُ إلى رسول اللَّه ﷺ، فَقَالَتْ: لا تَفْضَحْني برسول اللَّه ﷺ وَمَنْ مَعَهُ، فَجِئْتُهُ فَسَارَرْتُهُ فَقُلْتُ: يا رسولَ اللَّه، ذَبحْنا بُهَيمَةً لَنَا، وَطَحَنَتْ صَاعًا مِنْ شَعِيرٍ، فَتَعالَ أَنْتَ وَنَفَرٌ مَعَكَ، فَصَاحَ رسول اللَّه ﷺ فقال: «يَا أَهْلَ الخَنْدَقِ: إنَّ جابرًا قَدْ صَنعَ سُؤْرًا فَحَيَّهلا بكُم» فقال النبيُّ ﷺ: «لا تُنْزِلُنَّ بُرْمَتَكُمْ وَلا تَخْبِزُنَّ عَجِينكُمْ حَتَّى أَجيءِ» فَجِئْتُ، وَجَاءَ النَّبيُّ ﷺ يَقْدُمُ النَّاسَ، حَتَّى جِئْتُ امْرَأَتي فقالَتْ: بِكَ وَبكَ! فقلتُ: قَدْ فَعَلْتُ الَّذي قُلْتِ. فَأَخرَجَتْ عَجِينًا، فَبَسَقَ فِيه وَبَارَكَ، ثُمَّ عَمَدَ إلى بُرْمَتِنا فَبَصَقَ وَبَارَكَ، ثُمَّ قال: «ادْعي خَابِزَةً فَلْتَخْبِزْ مَعَكِ، وَاقدحِي مِنْ بُرْمَتِكُم وَلا تُنْزِلُوها» وَهُمْ أَلْفٌ، فَأُقْسِمُ بِاللَّهِ لأَكَلُوا حَتَّى تَرَكُوهُ وَانحَرفُوا، وإنَّ بُرْمَتَنَا لَتَغِطُّ كَمَا هِيَ، وَإنَّ عَجِينَنَا لَيُخْبَز كَمَا هُوَ[٤].

قَوْلُه: «عَرَضَت كُدْيَةٌ»: بضم الكاف وإسكان الدال وبالياءِ المثناة تحت، وَهي قِطْعَةٌ غَلِيظَةٌ صُلْبَةٌ مِنَ الأَرْضِ لا يَعْمَلُ فِيهَا الفَأْسُ. «وَالكَثِيبُ» أَصْلُهُ تَلُّ الرَّمْلِ، وَالمُرَادُ هُنَا: صَارَتْ تُرَابًا نَاعِمًا، وَهُوَ مَعْنَى «أَهْيَلَ». و «الأَثَافِيُّ»: الأَحْجَارُ الَّتي يَكُونُ عَلَيهَا القِدْرُ. و «تَضَاغَطُوا»: تَزَاحَمُوا. و «المَجَاعَةُ»: الجُوعُ، وهو بفتح الميم. و «الخَمَصُ» بفتح الخاءِ المعجمة والميم: الجُوعُ. و «انْكَفَأْتُ»: انْقَلَبْتُ وَرَجَعْتُ. و «البُهَيمَةُ» بضم الباء: تصغير بَهْمَة، وَهِيَ العَنَاقُ - بفتح العين - و «الدَّاجِنُ»: هِيَ التي أَلِفَتِ البيتَ. و «السُّؤْر»: الطَّعَامُ الَّذي يُدْعَى النَّاسُ إليه، وَهُوَ بالفارسيَّة، و «حَيَّهلا» أي: تَعَالَوا. وَقَولها: «بكَ وبكَ» أي: خَاصَمَتْهُ وَسَبَّتْهُ؛ لأَنَّهَا اعْتَقَدَتْ أَنَّ

---

(١) أخرجه البخاري في المغازي (٤١٠١) ومسلم في الأشربة (١٤١).

الَّذي عندَها لا يَكْفيهم ، فَاسْتَحْيَتْ وَخَفِي عَلَيها مَا أَكْرَمَ اللَّه سُبْحَانَهُ وَتعالى بِهِ نَبيَّهُ ﷺ مِنَ المعجِزَةِ الظَّاهِرَةِ والآيَةِ البَاهِرَةِ . « بَسَقَ » أي : بَصَقَ ، وَيُقالُ أَيضًا : بَزَقَ - ثَلاثُ لُغَات - و « عَمَدَ » بفتحِ الميم : أي : قَصَدَ . و « اقْدَحي » أي : اغرِفي ، وَالمِقْدَحَةُ : المِغْرَفَةُ . و « تَغِطُّ » أي : لِغَلَيَانِهَا صَوتٌ ، واللَّه أعلم .

٥٢١ - وعن أنس ﷺ قال : قال أبو طَلْحَةَ لأُمِّ سُلَيم : قَد سَمِعت صَوتَ رسول اللَّه ﷺ ضَعِيفًا أعرف فِيهِ الجوع ، فهل عندك من شَيءٍ ؟ فقالت : نَعَمْ ، فَأَخْرَجَتْ أَقْرَاصًا مِن شَعيرٍ ، ثُمَّ أَخَذَتْ خِمارًا لَها ، فَلَفَّت الخبزَ بِبَعضِه ، ثُمَّ دَسَّتْهُ تَحْتَ ثوبي وَرَدَّتْني بِبَعضِهِ ، ثُمَّ أَرْسَلَتْني إلى رسول اللَّه ﷺ ، فَذَهبتُ بِهِ ، فَوَجَدْتُ رسول اللَّه ﷺ جَالِسًا في المَسْجِدِ ، وَمَعَهُ النَّاسُ ، فَقُمْتُ عَلَيهِمْ ، فقال لي رسول اللَّه ﷺ : « أَرْسَلَكَ أَبو طَلْحَةَ ؟ » فقلت : نَعَمْ ، فقال : « أَلطعام » فقلت : نعم ، فقال رسول اللَّه ﷺ : « قُومُوا » فَانْطَلَقُوا وَانْطَلَقْتُ بَينَ أَيدِيهم حَتَّى جِئتُ أَبَا طَلْحَةَ فَأَخبرتُهُ ، فقال أَبُو طَلْحَةَ : يَا أُمَّ سُلَيم : قَد جَاءَ رسول اللَّه بالنَّاس وَلَيسَ عِنْدَنَا ما نُطْعِمُهُم؟ فقالت : اللَّهُ وَرَسُولُهُ أَعْلَمُ . فَانطَلَقَ أَبُو طَلْحَةَ حَتَّى لَقِيَ رسول اللَّه ﷺ ، فَأَقْبَلَ رسولُ اللَّه ﷺ مَعَه حَتَّى دَخَلا ، فقال رسولُ اللَّه ﷺ : « هَلُمِّي ما عِنْدَكِ يَا أُمَّ سُلَيم » فَأَتَتْ بِذلكَ الخُبْزِ ، فَأَمرَ بِهِ رسولُ اللَّه ﷺ فَفُتَّ ، وَعَصَرَتْ عَلَيه أُمُّ سُلَيم عُكَّةً فآدَمَتهُ ، ثُمَّ قال فيهِ رسول اللَّه ﷺ ما شَاءَ اللَّهُ أَنْ يَقُولَ ، ثُمَّ قال : « ائذَن لِعَشَرَةٍ » فَأَذِنَ لَهُمْ ، فَأَكَلُوا حَتَّى شَبِعُوا ثُمَّ خَرَجُوا ، ثم قال : « ائذَن لِعَشرةٍ » فَأَذنَ لهم ، فَأَكَلُوا حَتَّى شَبِعُوا ، ثم خَرَجوا ، ثمَّ قال : « ائذَنْ لِعَشَرةٍ » فَأَذِنَ لهُم حتى أكل القَومُ كُلُّهُم وَشَبِعُوا ، وَالقَومُ سَبْعُونَ رَجُلًا أَو ثَمَانُونَ [1] . متفقٌ عليه .

وفي روايةٍ : فما زال يَدخُلُ عَشَرَةٌ وَيَخْرُجُ عَشَرَةٌ ، حتى لم يَبْقَ مِنهم أَحَدٌ إلا دَخَلَ ، فَأَكَلَ حتى شَبِعَ ، ثم هَيَّأَهَا فَإِذَا هِيَ مِثلهَا حِينَ أَكَلُوا مِنها .

وفي رواية : فَأَكَلُوا عَشَرَةً عَشَرَةً ، حتى فَعَلَ ذِلكَ بِثَمانِينَ رَجُلًا ، ثم أَكَلَ النبيُّ ﷺ بعد ذلِكَ وَأَهْلُ البَيت ، وَتَرَكُوا سُؤرًا .

وفي روايةٍ : ثم أَفضَلُوا مَا بَلَغُوا جيرَانُهم .

وفي روايةٍ عن أنسٍ قال : جِئْتُ رسولَ اللَّه ﷺ يومًا ، فَوَجَدتُهُ جَالِسًا مَعَ أَصحابِهِ ، وَقدِ عَصَبَ بَطْنَهُ بِعِصَابَةٍ ، فقلتُ لِبَعضِ أَصحَابِهِ : لم عَصَبَ رسولُ اللَّه ﷺ بَطْنَهُ ؟ فقالوا : مِنَ الجُوعِ ، فَذَهَبْتُ إلى أَبِي طَلْحَةَ ، وَهُوَ زَوجُ أُمِّ سُليم بنتِ مِلحَانَ ، فقلتُ : يَا أَبَتَاه ، قد رَأَيت رسول اللَّه ﷺ عَصَبَ بَطْنَهُ بِعِصَابَةٍ ، فَسَأَلْتُ بَعضَ أَصحَابِهِ ، فقالوا : مِنَ الجُوعِ . فَدَخَلَ أَبُو طَلْحَةَ على أُمِّي فقال : هَل مِن

---

(١) أخرجه البخاري في الأطعمة (٥٤٥٠) ومسلم في الأشربة (١٤٢ ، ١٤٣) . قوله « عُكَّة » : هي وعاء من جلد مستدير مختص بالسمن والعسل وهو بالسمن أخص .

شيءٍ ؟ قالت : نعم ؛ عِنْدِي كِسَرٌ من خُبز وَتَمَراتٌ ، فإنْ جَاءَنَا رسول اللَّه ﷺ وَحْدَهُ أَشْبعناه ، وَإن جَاءَ آخرُ معه قَلَّ عَنهمْ ، وَذَكَرَ تمامَ الحديث .

* * *

٥٧ - باب القناعة والعفافِ والاقتصاد في المعيشة والإنفاق وذم السؤال من غير ضرورة

قال اللَّه تعالى : ﴿ وَمَا مِن دَآبَّةٍ فِي ٱلْأَرْضِ إِلَّا عَلَى ٱللَّهِ رِزْقُهَا ﴾ [هود : ٦] وقال تعالى : ﴿ لِلْفُقَرَآءِ ٱلَّذِينَ أُحْصِرُوا۟ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ لَا يَسْتَطِيعُونَ ضَرْبًا فِى ٱلْأَرْضِ يَحْسَبُهُمُ ٱلْجَاهِلُ أَغْنِيَآءَ مِنَ ٱلتَّعَفُّفِ تَعْرِفُهُم بِسِيمَٰهُمْ لَا يَسْـَٔلُونَ ٱلنَّاسَ إِلْحَافًا ﴾ [البقرة : ٢٧٣] وقال تعالى : ﴿ وَٱلَّذِينَ إِذَآ أَنفَقُوا۟ لَمْ يُسْرِفُوا۟ وَلَمْ يَقْتُرُوا۟ وَكَانَ بَيْنَ ذَٰلِكَ قَوَامًا ﴾ [الفرقان : ٦٧] وقال تعالى : ﴿ وَمَا خَلَقْتُ ٱلْجِنَّ وَٱلْإِنسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ ۝ مَآ أُرِيدُ مِنْهُم مِّن رِّزْقٍ وَمَآ أُرِيدُ أَن يُطْعِمُونِ ﴾ (١) [الذاريات : ٥٦، ٥٧] .

وأما الأحاديثُ ، فَتَقَدَّمَ مُعظَمُهَا في البَابَيْنِ السَّابِقَيْنِ ، ومِمَّا لم يَتَقَدَّم .

٥٢٢ - عن أبي هُرَيرَةَ رضي الله عنه عن النبي ﷺ قال : « لَيسَ الغِنَى عَنْ كَثْرَةِ العَرَضِ ، وَلكِنَّ الغنَى غِنى النَّفسِ » (٢) متفقٌ عليه .

« العَرَضُ » بفتح العين والراءِ : هُوَ المَالُ .

٥٢٣ - وعن عبد اللَّه بن عمرو رضي الله عنهما أن رسول اللَّه ﷺ قال : « قَدْ أَفلَحَ مَنْ أَسلَمَ ، وَرُزِقَ كَفَافًا ، وَقَنَّعَهُ اللَّه بما آتاهُ » (٣) رواه مسلم .

٥٢٤ - وعن حَكيم بن حِزَام رضي الله عنه قال : سألتُ رسول اللَّه فأعطاني ، ثم سَأَلْتُهُ فَأَعطَاني ، ثم سَأَلْتُهُ فَأَعطَاني ، ثم قال : « يا حَكيمُ ، إنَّ هذا المَالَ خَضِرٌ حُلوٌ ، فَمَن أَخَذَهُ بِسَخَاوَةِ نَفسٍ بُورِكَ لَهُ فِيه ، وَمَن أَخَذَهُ بِإشرَافِ نَفْسٍ لَمْ يُبَارَكْ لَهُ فيهِ ، وَكَانَ كَالَّذي يَأْكلُ وَلا يَشْبَعُ ؛ واليَدُ العُليَا خَيرٌ مِنَ اليَدِ السُّفلَى » قال حكيم : فقلتُ : يا رسول اللَّه ، والَّذي بَعَثَكَ بالحَقِّ لا أَرزَأُ أَحَدًا بَعدَكَ شَيئًا حَتَّى أُفَارِقَ الدُّنيا . فَكَانَ أَبُو بكرٍ رضي الله عنه يَدْعُو حَكيمًا لِيعطِيهُ العَطَاءَ ، فَيَأْبَى أَنْ يَقْبَلَ مِنْهُ شَيئًا . ثُمّ إنّ عُمَرَ

---

(١) قوله ﴿ دَآبَّةٍ فِي ٱلْأَرْضِ ﴾ هي كل ما دب على الأرض من جميع الحيوان الذي يحتاج إلى رزق . قوله ﴿ أُحْصِرُوا۟ ﴾ أي حبسوا أنفسهم في الجهاد . قوله ﴿ ضَرْبًا فِى ٱلْأَرْضِ ﴾ ذهابًا بالتجارة لاشتغالهم بالجهاد . قوله ﴿ ٱلتَّعَفُّفِ ﴾ عدم قدرتهم على السؤال . قوله ﴿ بِسِيمَٰهُمْ ﴾ بعلامات السجود . قوله ﴿ إِلْحَافًا ﴾ أي إلحافًا . قوله ﴿ يُسْرِفُوا۟ ﴾ أي يفرطوا حتى يضيعوا حقًا ناجزًا . قوله ﴿ يَقْتُرُوا۟ ﴾ أي يفرطوا في الشح . قوله ﴿ قَوَامًا ﴾ أي وسطًا وعدلًا .

(٢) أخرجه البخاري في الرقاق (٦٤٤٦) ومسلم في الزكاة (١٢٠) والإمام أحمد في مسنده (٢/٢٤٣ ، ٢٦١ ، ٣١٥) .

(٣) إلى نهاية هنا لم يقم الشارح بشرحه وهذا الحديث أخرجه مسلم في الزكاة (١٢٥) والإمام أحمد في مسنده (٢/١٦٨ ، ١٧٣) والبيهقي في سننه (٤/١٩٦) ، الكفاف : الذي ليس فيه فضل عن الكفاية .

ﷺ دَعَاهُ لِيُعطِيهُ ، فَأَبَى أَن يَقْبَلَهُ . فقال : يا مَعْشَرَ المُسْلمِينَ ، أُشْهِدُكُم عَلى حَكيمِ أَني أَعْرِضُ عَلَيه حَقَّهُ الَّذي قَسَمَهُ اللَّهُ لهُ في هذا الفيءِ فيأبى أَنْ يأخُذَهُ . فَلَمْ يرزأْ حكيمٌ أَحَدًا مِنَ النَّاس بَعْدَ النَّبيِّ ﷺ حتى تُوُفِّيَ [(١)] . متفقٌ عليه .

« يَرْزَأُ » براءٍ ثم زايٍ ثم همزةٍ ، أَي : لَم يَأخُذْ مِن أَحَدٍ شَيئًا ، وَأصلُ الرُّزْءِ : النُّقصَانُ ، أَي : لَم يَنْقُصْ أَحَدًا شَيئًا بالأخذِ مِنهُ . و « إِشْرَافُ النَّفسِ » : تَطَلُّعُهَا وطَمَعُهَا بالشَّيءِ . و « سَخَاوَةُ النَّفس » : هِيَ عَدَمُ الإِشرَاف إلى الشَّيءِ ، والطَّمَع فيه ، والمُبَالاةِ بِهِ والشَّرَهِ .

٥٢٥ - وعن أبي بُردَةَ عن أبي موسى الأشعَريِّ ﷺ قال : خَرَجْنا مَعَ رسول اللَّه ﷺ في غَزَاةٍ ، ونحن سِتَّةُ نَفَرٍ بَينَنَا بَعِيرٌ نَعْتَقِبُهُ ، فَنَقِبَتْ أَقْدامُنا وَنَقِبَتْ قَدَمِي ، وَسَقَطَتْ أَظْفاري ، فَكُنَّا نَلُفُّ عَلَى أَرْجُلِنا الخِرَقَ ، فَسُمِّيَتْ غَزْوَةَ ذَاتِ الرِّقاعِ لما كُنَّا نَعْصِبُ على أَرجُلنا من الخِرَقِ .

قالَ أبو بُرْدَةَ : فَحَدَّثَ أبو مُوسَى بهذا الحَدِيثِ ، ثُمَّ كَرِهَ ذلك ، وقَالَ : ما كَنتُ أَصْنَعُ بأَنْ أذكُرَهُ ! قال : كأَنَّهُ كَرِه أَنْ يكونَ شيئًا مِنْ عَملِهِ أَفْشاهُ [(٢)] . متفقٌ عليه .

٥٢٦ - وعن عمرو بن تَغْلِبَ - بفتح التاءِ المثناةِ فوقُ وإسكان الغين المعجمةِ وكسرِ اللَّام - ﷺ أَنَّ رسول اللَّه ﷺ أُتِيَ بمالٍ أَو سَبيٍ فقَسَّمَهُ ، فَأَعْطَى رجالًا ، وتَرَكَ رِجالًا ، فَبَلَغهُ أَنَّ الَّذِينَ تَرَكَ عَتَبُوا ، فَحَمِدَ اللَّه ، ثُمَّ أَثْنَى عَلَيه ، ثُمَّ قالَ : « أَمَّا بَعْد ، فَوَاللَّهِ إِنِّي لأُعْطِي الرَّجُلَ وَأَدَعُ الرَّجُلَ ، والَّذِي أَدَعُ أَحَبُّ إليَّ مِنَ الَّذِي أُعْطِي ، وَلكِنِّي إِنَّما أُعْطِي أَقْوامًا لِما أَرَى في قُلُوبِهِمْ مِنَ الجَزَعِ والهَلَعِ ، وأَكِلُ أَقْوامًا إلى ما جَعَلَ اللَّهُ في قُلُوبِهِمْ مِنَ الغِنَى والخَيرِ ، مِنْهُمْ عَمْرُو بنُ تَغْلِبَ » قال عَمْرُو بنُ تَغْلِبَ : فَوَاللَّهِ ما أُحِبُّ أَنَّ لي بِكَلِمَةِ رسول اللَّه ﷺ حُمْرَ النَّعَم [(٣)] . رواه البخاري .

« الهَلَعُ » هُوَ أَشَدُّ الجَزَعِ ، وقِيلَ : الضَّجَرُ .

٥٢٧ - وعنْ حَكيمِ بنِ حِزامٍ ﷺ أَنَّ النبيَّ ﷺ قالَ : « اليَدُ العُلْيا خَيرٌ مِنَ اليَدِ السُّفْلى ، وابْدَأْ بمَنْ تَعُولُ ، وخَيرُ الصَّدَقَةِ عَنْ ظَهْرِ غِنى ، وَمَنْ يَسْتَعْفِفْ يُعِفَّهُ اللَّهُ ، وَمَنْ يَسْتَغْنِ يُغْنِهِ اللَّهُ» [(٤)] متفقٌ عليه . وهذَا لفظ البخاري ، ولفظ مسلم أخصر .

٥٢٨ - وعن أَبي سُفْيَانَ صَخْر بن حَرْبٍ ﷺ قال : قال رسول اللَّه ﷺ : لا تُلْحِفُوا في المسْأَلةِ ،

---

(١) أخرجه البخاري في الوصايا (٢٧٥٠) واللفظ له ومسلم في الزكاة (٩٦) .

(٢) هذا الحديث لم يقم الشارح رحمه اللَّه بشرحه ، والحديث أخرجه البخاري في المغازي (٤١٢٨) ومسلم في الجهاد والسير (١٤٩) . قوله « نعتقبه » أي يركبه كل واحد منا نوبة ، قوله « فنقبت » أي قرحت من الحفاء .

(٣) هذا الحديث لم يقم الشارح رحمه اللَّه بشرحه ، والحديث أخرجه البخاري في التوحيد (٧٥٣٥) .

(٤) أخرجه البخاري في الزكاة (١٤٢٧) واللفظ له ومسلم في الزكاة (٩٥) قوله « اليد العليا » أي المنفقة ، قوله «اليد السفلى » أي السائلة .

فَوَاللَّهِ لا يَسْأَلُني أَحَدٌ مِنْكُم شَيْئًا ، فَتُخرِجَ لَهُ مَسْأَلَتُهُ مِنِّي شَيْئًا وَأَنا لَهُ كارِهٌ ، فَيُبَارَكَ لَهُ فيما أَعْطَيْتُهُ »(١) رواه مسلم .

٥٢٩ - وعن أبي عبدِ الرحمنِ عَوف بن مالك الأشْجَعِيِّ ﷺ قالَ : كُنَّا عِنْدَ رَسُولِ اللَّه ﷺ تِسْعَةً أَو ثمانيةً أَو سَبْعَةً ، فَقَالَ : « أَلا تُبَايِعُونَ رسولَ اللَّه ﷺ » وكُنَّا حَديثي عَهْدٍ بِبَيعَةٍ ، فَقُلْنا : قَدْ بَايَعْنَاكَ يا رسُولَ اللَّهِ . ثُمَّ قال : « أَلا تُبَايِعُونَ رَسُولَ اللَّهِ » فَبَسَطْنا أَيدينا وَقُلْنا : قَدْ بايَعْناكَ يا رَسُولَ اللَّهِ ، فَعَلامَ نُبَايِعُكَ ؟ قال : « على أَنْ تَعْبُدُوا اللَّه ولا تُشرِكُوا بِهِ شَيْئًا ، والصَّلَوَاتِ الخَمْسِ ، وَتُطِيعُوا » وأَسَرَّ كلمَةً خَفِيَّةً : « وَلا تَسْأَلُوا النَّاس شَيْئًا » فَلَقَدْ رَأَيتُ بَعْضَ أُولئِكَ النَّفَرِ يسْقُطُ سَوطُ أَحدِهِمْ فَمَا يَسْأَل أَحَدًا يُنَاوِلُهُ إِيّاهُ (٢) . رواه مسلم .

٥٣٠ - وعن ابنِ عمر ﷺ أَنَّ النبيَّ ﷺ قال : « لاَ تَزَالُ المَسْأَلَةُ بِأَحَدِكُمْ حَتَّى يَلْقى اللَّه تعالى ولَيسَ في وَجْهِهِ مُزْعَةُ لَحْمٍ » (٣) متفقٌ عليه .

« المُزْعَةُ » بضم الميمِ وإسكانِ الزاي وبالعينِ المهملة : القِطْعَة .


الشرح

قال المؤلف - رحمه اللَّه تعالى - فيما نقله عن حكيم بن حزام ﷺ أنه سأل النبي ﷺ فأعطاه ؛ أي سأله مالًا فأعطاه ، ثم سأله فأعطاه ، ثم سأله فأعطاه .

وكان من هدي النبي ﷺ وكرمه وحسن خلقه أنه لا يرد سائلًا سأله شيئًا ، فما سئل شيئًا على الإسلام إلا أعطاه - عليه الصلاة والسلام - ثم قال لحكيم : « إن هذا المال خضر حلو » خضر يسر الناظرين ، حلو يسر الذائقين ، فطلبه النفس وتحرص عليه .

« فمن أخذه بسخاوة نفس بورك له فيه ، ومن أخذه بإشراف نفس لم يبارك له فيه » ، فكيف بمن أخذه بسؤال ؟ يكون أبعد وأبعد ، ولهذا قال النبي - عليه الصلاة والسلام - لعمر بن الخطاب : « ما جاءك من هذا المال وأنت غير مشرف ولا سائل فخذه ، وما لا فلا تتبعه نفسك » (٤) . يعني ما جاءك بإشراف نفس وتطلع وتشوف فلا تأخذه ، وما جاءك بسؤال فلا تأخذه .

ثم قال النبي - عليه الصلاة والسلام - لحكيم بن حزام : « اليد العليا خير من اليد السفلى » : اليد العليا هي يد المعطي ، واليد السفلى هي يد الآخذ ، فالمعطي يده خير من يد الآخذ ؛ لأن المعطي فوق الآخذ ، فيده هي العليا كما قال النبي ﷺ .

(١) أخرجه مسلم في الزكاة (٩٩) واللفظ له والإمام أحمد في مسنده (٤/٩٨) . قوله « لا تلحفوا في المسألة » أي لا تلحوا فيها .

(٢) هذا الحديث لم يقم الشارح ﷺ بشرحه أخرجه مسلم في الزكاة (١٠٨) .

(٣) أخرجه مسلم في الزكاة (١٠٣) واللفظ له والبخاري في الزكاة (١٤٧٤) .

(٤) أخرجه البخاري في الأحكام (٧١٦٣ ، ٧١٦٤) ومسلم في الزكاة (١١١) .

فأقسم حكيم بن حزام رضي الله عنه بالذي بعث النبيَّ ﷺ بالحق ألا يسأل أحدًا بعده شيئًا، فقال: « يا رسول اللّه، والذي بعثك بالحق لا أرزأ أحدًا بعدك شيئًا حتى أفارق الدنيا ».

فتوفي الرسول عليه الصلاة والسلام، وتولى الخلافة أبو بكر رضي الله عنه، فكان يعطيه العطاء فلا يقبله، ثم توفي أبو بكر، فتولى عمر فدعاه ليعطيه، فأبى، فاشتشهد عمر عليه، فقال: اشهدوا أني أعطيه من بيت مال المسلمين فلا يقبله، قال ذلك رضي الله عنه لئلا يكون له حجة على عمر يوم القيامة بين يدي اللّه، وليتبرأ من عهدته أمام الناس، ولكن مع ذلك أصر حكيم رضي الله عنه ألا يأخذ منه شيئًا حتى توفي.

وفي اللفظ الآخر الذي ساقه المؤلف أن الرسول ﷺ قال: « اليد العليا خير من اليد السفلى، وابدأ بمن تعول » فالإنسان يبدأ بمن يعول، يعني بمن يلزمه نفقته، فالإنفاق على الأهل أفضل من الصدقة على الفقراء؛ لأن الإنفاق على الأهل صدقة وصلة وكفاف وعفاف، فكان ذلك أولى، والإنفاق على نفسك أولى من الإنفاق على غيرك، كما جاء في الحديث « ابدأ بنفسك فتصدقّ عليها، فإن فضل شيء فلأهلك »[1].

وذكر المؤلف حديث عبد اللّه بن عمر رضي الله عنهما أن النبي ﷺ قال: « لا تزال المسألة بأحدكم حتى يلقى اللّه وليس في وجهة مزعة لحم ». يأتي وليس عليه إلا عظام تلوح أمام الناس يوم القيامة. نسأل اللّه العافية.

وهذا وعيد شديد يدل على تحريم كثرة السؤال، ولهذا قال العلماء: لا يحل لأحد أن يسأل شيئًا إلا عند الضرورة، إذا اضطر الإنسان فلا بأس أن يسأل، أما أن يسأل للأمور الكمالية لأجل أن يسابق الناس فيما يجعله في بيته، فإن هذا لا شك في تحريمه، ولا يحل له أن يأخذ شيئًا، حتى الزكاة ولو أعطيها فلا يأخذ لإنفاقها في الأمور الكماليات التي لا يريد منها إلا أن يساوق الناس ويماريهم و أما الشيء الضروري فلا بأس به. واللّه أعلم.

* * *

٥٣١ - وعنه أنَّ رسُولَ اللّهِ ﷺ قال وهو على المِنْبَرِ، وَذَكَرَ الصَّدَقَةَ والتَّعَفُّفَ عَن المَسْأَلَةِ: « اليَد العُلْيَا خَيرٌ مَنَ اليَدِ السُّفْلَى واليَدُ العُلَيا هِيَ المُنْفِقَة، وَالسُّفلى هِيَ السَّائِلَة »[2] متفقٌ عليه.

٥٣٢ - وعن أبي هُريرة رضي الله عنه قال: قال رسول اللّه ﷺ: « مَنْ سَأَلَ النَّاسَ تَكَثُّرًا فَإِنَّما يَسْأَل جَمْرًا، فَلْيَسْتَقِلَّ أو لِيَسْتَكْثِرْ »[3] رواه مسلم.

٥٣٣ - وعن سَمُرَةَ بنِ جُنْدبٍ رضي الله عنه قال: قال رسُول اللّهِ ﷺ: « إنَّ المَسأَلَةَ كَدٌّ يَكُدُّ بها الرَّجُلُ

---

(١) أخرجه مسلم واللفظ له في الزكاة (٤١) والنسائي في البيوع (٢٥٤٦).

(٢) هذا الحديث لم يقم الشارح رحمه الله بشرحه، والحديث أخرجه البخاري في الزكاة (١٤٢٩) ومسلم في الزكاة (٩٤).

(٣) أخرجه مسلم بلفظ « من سأل الناس أموالهم تكثرًا ..» في الزكاة (١٠٥) وابن ماجه في الزكاة (١٨٣٨) والإمام أحمد في مسنده (٢٣١/٢). قوله تكثرًا أي ليكثر ماله مما يجتمع عنده، قوله « يسأل جمرًا » أي يجلب لنفسه نارًا.

وَجْهَهُ ، إِلَّا أَنْ يَسأَلَ الرَّجُلُ سُلْطانًا أو في أَمْرٍ لابُدَّ مِنْهُ » [١] رواهُ الترمذي وقال : حديث حسن صحيح . « الكَدُّ » الخَدشُ وَنحوهُ .

٥٣٤ – وعن ابنِ مسعودٍ ﷺ قال : قال رسُولُ اللّهِ ﷺ : « مَنْ أَصابَتْهُ فَاقَةٌ فَأَنْزَلَهَا بِالنَّاسِ لَمْ تُسَدَّ فَاقَتُهُ ، وَمَنْ أَنْزَلَها باللّهِ ، فَيُوشِكُ اللّهُ لَهُ بِرزقٍ عاجِلٍ أَو آجِلٍ » [٢] رواهُ أبو داود ، والترمذي وقال : حديث حسن .

« يُوشكُ » بكسر الشين : أي يُسِرعُ .

٥٣٥ – وعَنْ ثَوبانَ ﷺ قال : قال رسُولُ اللّهِ ﷺ : « مَنْ يَتَكَفَّلُ لي أنْ لا يَسأَلَ النَّاسَ شَيْئًا ، وأَتَكَفَّلُ له بالجنة ؟ » فقلت : أنا . فكان لا يسأل أحدًا شيئًا [٣] ، رواه أبو داود بإسنادٍ صحيحٍ .

٥٣٦ – وعن أبي بشْرٍ قَبيصَةَ بنِ المُخَارِقِ ﷺ قال : تَحَمَّلْتُ حَمَالَةً فَأَتَيتُ رَسُولَ اللّهِ ﷺ أَسْأَلُهُ فيها ، فقال : « أَقِمْ حتى تأْتِيَنا الصَّدَقَةُ فَنَأْمُرَ لكَ بها » ثُمَّ قالَ : « ياقَبيصَةُ إِنَّ المسأَلَةَ لا تَحِلُّ إلا لأَحَدِ ثَلاثَةٍ : رَجُلٌ تَحَمَّلَ حمالَةً ، فَحَلَّتْ لَهُ المَسْأَلَةُ حَتَّى يُصيبَهَا ، ثُمَّ يُمْسِكُ . وَرَجَلٌ أَصابَتْهُ جَائِحَةٌ اجْتَاحَتْ مالَهُ ، فَحَلَّتْ لَهُ المَسأَلَةُ حتَّى يُصيب قِوامًا مِنْ عَيشٍ ، أَو قال : سِدادًا مِنْ عَيش ، ورَجُلٌ أَصابَتْهُ فاقَةٌ ، حتى يَقولَ ثَلاثَةٌ مِنْ ذَوي الحِجَى مِنْ قَومِهِ : لَقَدْ أَصابَتْ فُلانًا فاقَةٌ ، فَحَلَّتْ لَهُ المَسأَلَةُ حتَّى يُصِيب قِوامًا مِنْ عَيشٍ – أَو قالَ : سِدادًا مِنْ عَيشٍ – فَمَا سِواهُنَّ مِنَ المَسأَلَةِ ياقَبِيصَةُ سُحْتٌ ، يأكُلُها صَاحِبُها سُحْتًا » [٤] رواهُ مسلم .

« الحَمَالَةُ » بفتح الحاءِ : أَنْ يَقَعَ قِتالٌ وَنحُوهُ بَين فَرِيقَينِ ، فَيُصلِحُ إنسانٌ بَينَهُم عَلى مالٍ يَتَحَمَّلُهُ ويَلْتَزِمُهُ عَلى نفسه . و « الجائِحَةُ » : الآفَةُ تُصيبُ مالَ الإنسان . و « القِوَامُ » بكسر : القاف وفتحها : هُوَ ما يقومُ بِهِ أَمْرُ الإنْسانِ مِنْ مَالٍ ونحوِهِ . و « السِّدادُ » بكسر السين : مَا يَسُدُّ حاجَةَ المُعْوِزِ ويَكْفِيهِ ، و « الفَاقَةُ » : الفَقْرُ . و « الحِجَى » : العقلُ .

٥٣٧ – وعن أبي هريرة ﷺ أَنَّ رسول اللّه ﷺ قال : « لَيسَ المسْكِينُ الَّذِي يَطُوفُ عَلى النَّاسِ تَرُدُّهُ اللُّقْمَةُ واللُّقْمَتانِ ، وَالتَّمْرَةُ والتَّمْرَتانِ ، وَلكِنَّ المِسْكِينَ الَّذِي لَا يَجِدُ غِنىً يُغْنِيهِ ، وَلَا يُفْطَنُ لَهُ ، فَيُتَصَدَّقَ عَلَيهِ ، وَلاَ يَقُومُ فَيَسْأَلَ النَّاسَ » [٥] متفقٌ عليه .

---

(١) أخرجه الترمذي في الزكاة (٦٨١) واللفظ له وأبو داود في الزكاة (١٦٣٩) .

(٢) أخرجه أبو داود في الزكاة (١٦٤٥) والترمذي في الزهد (٢٣٢٦) والإمام أحمد في مسنده (١/٤٠٧) . قوله « فأنزلها بالناس » أي طلب رفعها عنه بإعانتهم له .

(٣) أخرجه أبو داود في الزكاة (١٦٤٣) والإمام أحمد في مسنده (٥/٢٧٦) .

(٤) أخرجه مسلم في الزكاة (١٠٩) واللفظ له وأبو داود في الزكاة (١٦٤٠) والإمام أحمد في مسنده (٥/٦٠) قوله « تحملت حمالة » الحمالة هي المال الذي يتحمله الإنسان أي يستدينه ويدفعه في إصلاح ذات البين كالإصلاح بين قبيلتين .

(٥) أخرجه البخاري في الزكاة (١٤٧٩) ومسلم في الزكاة (١٠١) . قوله « ولا يفطن له » لتصبره وكتم حاله وما هو فيه .

الشرح

هذه الأحاديث في بيان وعيد من سأل الناس أموالهم بغير ضرورة . ففي حديث أبي هريرة أن النبي ﷺ قال : « من سأل الناس أموالهم تكثرًا ، فإنما يسأل جمرًا فليستقل أو ليستكثر » يعني من سأل الناس أموالهم ليكثر بها ماله ، فإنما يسأل جمرًا فليستقل أو ليستكثر ، إن استكثر زاد الجمر عليه ، وإن استقل قلَّ الجمر عليه ، وإن ترك سلم من الجمر ، ففي هذا دليل على أن سؤال الناس بلا حاجة من كبائر الذنوب .

ثم ذكر أحاديث منها أن من أنزل حاجته وفاقته بالناس فإنه لا تقضى حاجته ؛ لأن من تعلق شيئًا وكل إليه ، ومن وكل إلى النَّاس أمره ، فإنه خائب لا تقضى حاجته ، ويستمر دائمًا يسأل ولا يشبع ، ومن أنزلها باللَّه واعتمد على اللَّه وتوكل عليه ، وفعل الأسباب التي أمر بها ، فإنه يوشك أن تقضى حاجته ؛ لأن اللَّه ﷻ يقول : ﴿ وَمَن يَتَوَكَّلْ عَلَى ٱللَّهِ فَهُوَ حَسْبُهُۥٓ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ بَٰلِغُ أَمْرِهِۦ ﴾ [الطلاق : ٣] .

وذكر حديث قبيصة أنه جاء يسأل النبي ﷺ في حمالة تحملها ، فأمره أن يقيم عنده حتى تأتيه الصدقة فيأمر له بها ، وذكر ﷺ أن المسألة لا تحل إلا لواحد من ثلاثة :

رجل تحمل حمالة ، يعني التزم في ذمته لإصلاح ذات البين ، فهذا يعطى وله أن يسأل حتى يصيبها ، ثم يمسك ولا يسأل .

ورجل آخر أصابته جائحة اجتاحت ماله ، كنار وغرق وعدو وغير ذلك ، فيسأل حتى يصيب قوامًا من عيش .

والثالث : رجل كان غنيًّا فافتقر بدون سبب ظاهر ، وبدون جائحة معلومة ، فهذا له أن يسأل ، لكن لا يعطى حتى يشهد ثلاثة من أهل العقول من قومه بأنه أصابته فاقة ، فيعطى بقدر ما أصابه من الفقر .

فهؤلاء الثلاثة هم الذين تحل لهم المسألة وما سوى ذلك فإن الرسول ﷺ قال : « وما سواهن من المسألة يا قبيصة ، سحت يأكلها صاحبها سحتًا » .

والسحت هو الحرام وسمي سحتًا ؛ لأنه يسحت بركة المال وربما يسحت المال كله ، فيكون عليه آفات وغرامات تسحت ماله من أصله .

* * *

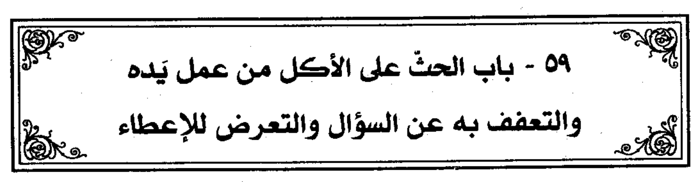
٥٨ - بابُ جَوازِ الأخذِ من غير مَسألة ولا تطلُّع إليه

٥٣٨ - عَنْ سالمِ بنِ عبدِ اللَّهِ بن عُمَرَ ، عَنْ أبيه عبدِ اللَّهِ بنِ عُمَرَ ، عَنْ عُمَرَ ﷺ قال : كان رسول اللَّه ﷺ يُعْطِيني العَطَاءَ ، فَأَقُولُ : أَعطِهِ مَنْ هُو أَفْقَرُ إليه مِني ، فقال : « خذْهُ ، إذَا جاءَكَ مِن هذَا المَالِ شيءٌ وَأَنتَ غَيرُ مُشْرِفٍ وَلا سَائِلٍ ، فَخُذْهُ فَتَموَّلْهُ فَإنْ شِئتَ كُلْهُ ، وإِنْ شِئْتَ تَصَدَّقْ بِهِ ،

وَمَا لا ، فَلا تُتْبِعْهُ نَفْسَكَ » قال سَالِمٌ : فَكَانَ عَبدُ اللَّه لا يَسأَلُ أَحَدًا شَيْئًا ، وَلا يَرُدُّ شَيْئًا أُعْطِيَهُ [١] . متفقٌ عليه .

« مشرفٌ » بالشين المعجمة : أي : مُتَطَلِّعٌ إلَيه .

* * *



٥٩ - باب الحث على الأكل من عمل يَده والتعفف به عن السؤال والتعرض للإعطاء

قال اللَّه تعالى : ﴿ فَإِذَا قُضِيَتِ ٱلصَّلَوٰةُ فَٱنتَشِرُواْ فِى ٱلْأَرْضِ وَٱبْتَغُواْ مِن فَضْلِ ٱللَّهِ ﴾ [٢] [الجمعة : ١٠] .

٥٣٩ - عن أبي عَبْدِ اللَّهِ الزُّبَير بنِ العَوَّام ﷺ قالَ : قالَ رسول اللَّه ﷺ : « لأَنْ يَأْخُذَ أَحَدُكُمْ أَحْبُلَهُ ثُمَّ يَأْتِيَ الجَبَلَ ، فَيَأْتيَ بحُزْمَةٍ مِنْ حَطَب عَلى ظَهْرِهِ فَيَبِيعَهَا ، فَيَكُفَّ اللَّه بها وَجْهَهُ ، خَيرٌ لَهُ مِنْ أن يسأَلَ النَّاسَ ، أعطَوهُ أو مَنَعُوهُ » [٣] رواه البخاري .

٥٤٠ - وعن أبي هُريرة ﷺ قالَ : قالَ رسولُ اللَّه ﷺ : « لأَنْ يَحْتَطِبَ أَحَدُكُم حُزمَةً عَلى ظَهرِه ، خَيرٌ لَهُ من أَنْ يَسأَلَ أَحَدًا فَيُعْطِيَهُ أَو يَمنَعَهُ » [٤] متفقٌ عليه .

٥٤١ - وعنه عن النبي ﷺ قال : « كانَ دَاوُدُ ﷺ لا يَأْكُل إلا مِن عَمَلِ يَدِهِ » [٥] رواه البخاري .

٥٤٢ - وعنه أن رسول اللَّه ﷺ قال : « كانَ زَكَرِيَّا عليه السلامُ نجَّارًا » [٦] رواه مسلم .

٥٤٣ - وعن المِقْدَامِ بن مَعْدِ يكَرِبَ ﷺ عن النبي ﷺ قال : « مَا أَكَلَ أَحَدٌ طَعَامًا قَطُّ خَيرًا مِن أن يَأْكُلَ مِن عَمَلِ يَدِهِ ، وَإنَّ نَبيَّ اللَّه دَاوُد ﷺ كان يَأْكُل مِن عَمَلِ يَدِهِ » [٧] رواه البخاري .

الشرح

قال المؤلف - رحمه اللَّه تعالى - : باب جواز الأخذ من غير مسألة ولا تطلّع إليه .

---

(١) أخرجه البخاري في الزكاة (١٤٧٣) ومسلم في الزكاة (١١١) والنسائي في سننه (٢٦٠٨) وأحمد في مسنده (١٧/١) . قوله « فتموله » أي اتخذه مالاً ، قوله « ومالا » أي : وأي مال لا يجيئك على الحال المذكورة وأنت مشرف أو سائل .

(٢) قوله « فانتشروا » أي تفرقوا لقضاء حوائجكم . قوله ﴿ فَضْلِ ٱللَّهِ ﴾ أي رزق اللَّه .

(٣) أخرجه البخاري في الزكاة (١٤٧١) والإمام أحمد في مسنده (١٦٧/١) قوله « أحبُله » جمع حبل ، قوله « فيكف الله بها وجهه » أي يمنعه اللَّه بها من الحاجة .

(٤) أخرجه البخاري في الزكاة (١٤٧٠) ومسلم في الزكاة (١٠٧) .

(٥) أخرجه البخاري في البيوع (٢٠٧٣) .

(٦) أخرجه مسلم في الفضائل (١٦٩) والإمام أحمد في مسنده (٢٩٦/٢ ، ٤٠٥) .

(٧) أخرجه البخاري في البيوع (٢٠٧٢) .

يعني أن الإنسان لا ينبغي له أن يعلق نفسه بالمال فيتطلع إليه أو يسأل ؛ لأن ذلك يؤدي إلى ألا يكون له هم إلا الدنيا ، والإنسان إنما خلق في الدنيا من أجل الآخرة . قال تعالى : ﴿ وَمَا خَلَقْتُ ٱلْجِنَّ وَٱلْإِنسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ ﴾ [الذاريات : ٥٦] ، وقال تعالى : ﴿ بَلْ تُؤْثِرُونَ ٱلْحَيَوٰةَ ٱلدُّنْيَا ۝ وَٱلْآخِرَةُ خَيْرٌ وَأَبْقَىٰٓ ﴾ [الأعلى ١٦، ١٧] .

فلا ينبغي للإنسان أن يعلق نفسه بالمال أو يهتم به . إن جاءه من غير تعب ولا سؤال ولا استشراف نفس فيقبله ، وإلا فلا .

ثم ذكر حديث عمر بن الخطاب ﷺ . أن النبي ﷺ كان يعطيه العطاء فيقول : أعطيه من هو أفقر مني فيقول له الرسول - عليه الصلاة والسلام - : « خذه ؛ إذا جاءك من المال شيء وأنت غير مشرف ولا سائل فخذه ، فتموّله فإن شئت كله ، وإن شئت تصدقّ به وما لا فلا تتبعه نفسك » .

فكان ابن عمر ﷺ لا يسأل أحدًا شيئًا ، وإذا جاءه شيء من غير سؤال قبله ، وهذا غاية ما يكون من الأدب ، ألا تذل نفسك بالسؤال ، ولا تستشرف للمال وتعلق قلبك به .

وإذا أعطاك أحد شيئًا فاقبله ؛ لأن رد العطية والهدية قد يحمل من أعطاك على كراهيتك فيقول : هذا الرجل مستكبر ، هذا الرجل متغطرس ، وما أشبه ذلك .

فالذي ينبغي أن من أعطاك بغير مسألة تقبل منه ، إلا إذا كان الإنسان يخشى ممن أعطاه أن يمن به عليه في المستقبل فيقول : أنا أعطيتك ، أنا فعلت معك كذا وكذا وما أشبه ذلك ، فهنا يرده ؛ لأنه إذا خشي أن يقطع المعطي رقبته بالمنة عليه في المستقبل فليحم نفسه من هذا .

ثم ذكر المؤلف باب الحث على الأكل من عمل يده ، وذكر الآيات والأحاديث التي تبين فضيلة أن يأكل الإنسان من عمل يده ويتعفف عن السؤال ، وأن يكتسب ويتجر .

فذكر قول اللّه تعالى : ﴿ هُوَ ٱلَّذِى جَعَلَ لَكُمُ ٱلْأَرْضَ ذَلُولًا فَٱمْشُوا۟ فِى مَنَاكِبِهَا ﴾ [الملك : ١٥] أي في أنحائها : ﴿ وَكُلُوا۟ مِن رِّزْقِهِۦ ﴾ أي ابتغوا الرزق من فضل اللّه ﷻ .

وقال اللّه تعالى ﴿ فَإِذَا قُضِيَتِ ٱلصَّلَوٰةُ فَٱنتَشِرُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ وَٱبْتَغُوا۟ مِن فَضْلِ ٱللَّهِ وَٱذْكُرُوا۟ ٱللَّهَ كَثِيرًا لَّعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ﴾ [الجمعة : ١٠] .

ولكن لا ينسيك ابتغاؤك من فضل اللّه ذكر ربك ، ولهذا قال : ﴿ وَٱبْتَغُوا۟ مِن فَضْلِ ٱللَّهِ وَٱذْكُرُوا۟ ٱللَّهَ كَثِيرًا لَّعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ﴾ [الجمعة : ١٠] .

ثم ذكر رَحِمَهُ ٱللَّهُ ما ثبت في صحيح البخاري ، أن داود عليه السلام كان يأكل من كسب يده ، وكان داود يصنع الدروع كما قال تعالى : ﴿ وَعَلَّمْنَٰهُ صَنْعَةَ لَبُوسٍ لَّكُمْ لِتُحْصِنَكُم مِّنۢ بَأْسِكُمْ ۖ فَهَلْ أَنتُمْ شَٰكِرُونَ ﴾ [الأنبياء : ٨٠] . فكان حدادًا . أما زكريا فكان نجارًا يعمل ويأخذ الأجرة على ذلك .

وهذا يدل على أن العمل والمهنة ليست نقصًا ؛ لأن الأنبياء عليهم الصلاة والسلام كانوا يمارسونها ، ولا شك أن هذا خير من سؤال الناس ، حتى أن الرسول عليه الصلاة والسلام قال : « لأن

يأخذ أحدكم حزمة من حطب على ظهره فيبيعها » يعني ويأخذ ما كسب منها : « خير له من أن يسأل الناس أعطوه أو منعوه » .

ولا شك أن هذا هو الخلق النبيل ؛ ألا يخضع الإنسان لأحد ، ولا يذل له ، بل يأكل من كسب يده ، من تجارته أو صناعته أو حرثه . قال تعالى : ﴿ وَءَاخَرُونَ يَضْرِبُونَ فِى ٱلْأَرْضِ يَبْتَغُونَ مِن فَضْلِ ٱللَّهِ ﴾ (١) [المزمل : ٢٠] .

* * *

٦٠ - باب الكرم والجود والإنفاق في وجوه الخير ثقة بالله تعالى

قال الله تعالى : ﴿ وَمَآ أَنفَقْتُم مِّن شَىْءٍ فَهُوَ يُخْلِفُهُۥ ﴾ [سبأ : ٣٩] وقال تعالى : ﴿ وَمَا تُنفِقُوا۟ مِنْ خَيْرٍ فَلِأَنفُسِكُمْ ۚ وَمَا تُنفِقُونَ إِلَّا ٱبْتِغَآءَ وَجْهِ ٱللَّهِ ۚ وَمَا تُنفِقُوا۟ مِنْ خَيْرٍ يُوَفَّ إِلَيْكُمْ وَأَنتُمْ لَا تُظْلَمُونَ ﴾ [البقرة : ٢٧٢] وقال تعالى : ﴿ وَمَا تُنفِقُوا۟ مِنْ خَيْرٍ فَإِنَّ ٱللَّهَ بِهِۦ عَلِيمٌ ﴾ (٢) [البقرة : ٢٧٣] .

٥٤٤ - وعَنِ ابنِ مسعودٍ ﷺ عن النبي ﷺ قال : « لا حَسَدَ إلا في اثْنَتَيْنِ : رَجُلٌ آتاهُ اللَّهُ مَالًا ، فَسَلَّطَه عَلى هَلَكَتِهِ في الحَقِّ ، وَرَجُلٌ آتاه اللَّهُ حِكْمَةً ، فَهُوَ يَقْضِي بِهَا وَيُعَلِّمُها » (٣) متفقٌ عليه .

معناه : يَنْبَغِي أَن لا يُغْبطَ أَحَدٌ إلَّا على إحدَى هَاتَيْنِ الخَصْلَتَيْنِ .

٥٤٥ - وعنه قالَ : قالَ رسول اللَّه ﷺ : « أَيُّكُم مَالُ وَارِثِهِ أَحَبُّ إليه مِن مَالِهِ ؟ » قالُوا : يا رَسولَ اللَّه ، مَا مِنَّا أَحَدٌ إلا مَالُه أَحَبُّ إليه ، قال : « فَإن مَالَه ما قَدَّمَ ، وَمَالَ وَارِثِهِ ما أَخَّرَ » (٤) رواه البخاري .

٥٤٦ - وعَن عدِيِّ بنِ حاتمٍ ﷺ أن رسولَ اللَّه ﷺ قَالَ : « اتَّقُوا النَّارَ وَلَو بِشِقِّ تَمرَةٍ » (٥) متفقٌ عليه .

٥٤٧ - وعن جابرٍ ﷺ قال : ما سُئِلَ رسول اللَّه ﷺ شيئًا قَطُّ فقالَ : لا (٦) . متفقٌ عليه .

٥٤٨ - وعن أبي هُريرة ﷺ قال : قال رسول اللَّه ﷺ : « مَا مِن يَوم يُصبحُ العِبَادُ فِيهِ إلا مَلَكَانِ يَنْزلانِ ، فَيَقُولُ أَحَدُهما : اللَّهُمَّ أَعطِ مُنْفِقًا خلَفًا ، وَيَقُولُ الآخرُ : اللَّهُمَّ أَعطِ مُمْسِكًا تَلَفًا » (٧) متفقٌ عليه .

---

(١) قوله ﴿ يَضْرِبُونَ فِى ٱلْأَرْضِ ﴾ يسافر للتجارة وغيرها . قوله ﴿ يَبْتَغُونَ ﴾ يطلبون .

(٢) قوله ﴿ يُخْلِفُهُۥ ﴾ أي يعوضه في الدارين . قوله ﴿ ٱبْتِغَآءَ وَجْهِ ٱللَّهِ ﴾ أي مرضاة اللَّه تعالى .

(٣) أخرجه مسلم واللفظ له في صلاة المسافرين (٢٦٨) والبخاري في العلم (٧٣) وقوله « هلكته » أي إنفاقه .

(٤) أخرجه البخاري في الرقاق (٦٤٤٢) قوله « فإن ماله ما قدم » أي : بأن تصدق أو أكل أو لبس .

(٥) أخرجه البخاري في الزكاة (١٤١٧) ومسلم في الزكاة (٦٧) قوله « اتقوا النار » أي اتخذوا بينكم وبينها وقاية من صالح الأعمال .

(٦) أخرجه مسلم في الفضائل (٥٦) واللفظ له والبخاري في الأدب (٦٠٣٤) .

(٧) أخرجه البخاري في الزكاة (١٤٤٢) ومسلم في الزكاة (٥٧) .

٥٤٩ - وعنه أن رسول الله ﷺ قال : « قالَ اللَّهُ تعالى : أَنفِقْ يا ابْنَ آدَمَ يُنْفَقْ عَلَيكَ »[(١)] متفقٌ عليه .

الشرح

قال المؤلف - رحمه الله تعالى - : باب الكرم والجود والإنفاق في وجوه الخير ثقة بالله تعالى .

المال الذي أعطاه الله بني آدم ، أعطاهم إياه فتنة ، ليبلوهم ؛ هل يحسنون التصرف فيه أم لا .

قال الله تعالى : ﴿ إِنَّمَآ أَمْوَٰلُكُمْ وَأَوْلَٰدُكُمْ فِتْنَةٌۚ وَٱللَّهُ عِندَهُۥٓ أَجْرٌ عَظِيمٌ ﴾ [التغابن : ١٥] ، فمن الناس من ينفقه في شهواته المحرمة ، وفي لذائذه التي لا تزيده من الله إلا بعدًا ، فهذا يكون ماله وبالًا عليه والعياذ بالله .

ومن الناس من ينفقه ابتغاء وجه الله فيما يقربه إلى الله على حسب شريعة الله ، فهذا ماله خير له .

ومن الناس من يبذل ماله في غير فائدة ، ليس في شيء محرم ولا في شيء مشروع ، فهذا ماله ضائع عليه ، وقد نهى النبي ﷺ عن إضاعة المال[(٢)] .

وينبغي للإنسان إذا بذل ماله فيما يرضي الله أن يكون واثقًا بوعد الله سبحانه وتعالى حيث قال في كتابه : ﴿ وَمَآ أَنفَقْتُم مِّن شَيْءٍ فَهُوَ يُخْلِفُهُۥۖ وَهُوَ خَيْرُ ٱلرَّٰزِقِينَ ﴾ [سبأ : ٣٩] ، ﴿ فَهُوَ يُخْلِفُهُۥۖ ﴾ أي يعطيكم خلفًا عنه .

وليس معناه فهو يَخْلُفهُ ، إذ لو كان المراد فهو يَخلُفه ، لكان معني الآية : أن الله يكون خليفة ، وليس الأمر كذلك ، بل فهو يُخلِفه أي يعطيكم خلفًا عنه .

ومنه الحديث : « اللهم أجرني في مصيبتي وأخلف لي خيرًا منها »[(٣)] . ولا تقل واخلُف لي خيرًا منها ، بل وأخلف أي ارزقني خلفًا عنها خيرًا منها .

فالله وعد في كتابه أن ما أنفقه الإنسان فإن الله يخلفه عليه ، يعطيه خلفًا عنه ، وهذا يفسره قول الرسول عليه الصلاة والسلام في الأحاديث التي ساقها المؤلف مثل قوله ﷺ : « ما من يوم يصبح العباد فيه إلا ملكان ينزلان ، فيقول أحدهما : اللهم أعط منفقًا خَلَفًا ، ويقول الآخر : اللهم أعط ممسكًا تلفًا » يعني أتلف ماله .

والمراد بذلك من يمسك عما أوجب الله عليه من بذل المال فيه ، وليس كل ممسك يُدعى عليه ، بل الذي يمسك ماله عن إنفاقه فيما أوجب الله ، فهو الذي تدعو عليه الملائكة بأن الله يتلفه ويتلف ماله .

والتلف نوعان : تلف حسي وتلف معنوي .

---

(١) أخرجه البخاري في النفقات (٥٣٥٢) ومسلم في الزكاة (٦٨) وهو عند البخاري ومسلم بلفظ « أَنفق يا ابن آدم أنفق عليك » .

(٢) هذا جزء من حديث أخرجه البخاري في الاستقراض (٢٤٠٨) .

(٣) أخرجه مسلم في الجنائز (٣) وأحمد في مسنده (٢٧/٤) .

١ - التلف الحسي : أن يتلف المال نفسه ، بأن يأتيه آفة تحرقه أو يسرق أو ما أشبه ذلك .

٢ - والتلف المعنوي : أن تنزع بركته ، بحيث لا يستفيد الإنسان منه في حياته ، ومنه ما ذكره النبي عليه الصلاة والسلام حيث قال لأصحابه : « أيكم مال وارثه أحب إليه من ماله ؟ » قالوا : يا رسول الله ، ما منا أحد إلا وماله أحب إليه .

فمالك أحب إليك من مال زيد وعمرو وخالد ، ولو كان من ورثتك ، قال : « فإن ماله ما قدم ومال وارثه ما أخّر » .

وهذه حكمة عظيمة ممن أوتي جوامع الكلم ﷺ ، فمالك الذي تقدمه لله ﷻ تجده أمامك يوم القيامة ، ومال الوارث ما يبقى بعدك من مالك فينتفع به ويأكله الوارث ، فهو مال وارثك على الحقيقة . فأنفق مالك فيما يرضي الله ، وإذا أنفقت فإن الله يخلفه وينفق عليك ، كما قال رسول الله ﷺ : « قال الله تعالى : أنفق يا ابن آدم ينفق عليك » .

وهذه الأحاديث كلها وكذلك الآيات تدل على أنه ينبغي للإنسان أن يبذل ماله حسب ما شرع الله ﷻ ، كما جاء في الحديث الذي صدّر به المؤلف هذا الباب ؛ أن الرسول ﷺ قال : « لا حسد إلا في اثنتين » يعني لا غبطة ، ولا أحد يغبط على ما أعطاه الله ﷻ من مال وغيره إلا في اثنتين فقط :

الأولى : رجل أعطاه الله مالاً ، فسلطه على هلكته في الحق ، صار لا يبذله إلا فيما يرضي الله ، هذا يحسد لأنك الآن تجد التجار يختلفون ، منهم من ينفق أمواله في سبيل الله ؛ في الخيرات ، في أعمال البر ، إعانة فقير ، بناء مساجد ، بناء مدارس ، طبع كتب ، إعانة على الجهاد ، وما أشبه ذلك . فهذا سلط على هلكته في الحق .

ومنهم من يسلطه على هلكته في اللذائذ المحرمة والعياذ بالله ، يسافر إلى الخارج فيزني ، ويشرب الخمر ، ويلعب القمار ، ويتلف ماله فيما يغضب الرب ﷻ ، فالذي سلطه الله على هلكة ماله في الحق يغبط ، لأن الغالب أن الذي يستغني يبطر ويمرح ويفسق فإذا رؤي أن هذا الرجل الذي أعطاه الله المال ينفقه في سبيل الله فهو يغبط .

والثانية : رجل آتاه الله الحكمة يعني العلم ، الحكمة هنا العلم كما قال الله تعالى : ﴿ وَأَنزَلَ ٱللَّهُ عَلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْحِكْمَةَ وَعَلَّمَكَ مَا لَمْ تَكُن تَعْلَمُ ﴾ [النساء : ١١٣] ، « فهو يقضي بها ويعلمها » يقضي بها في نفسه وفي أهله ، وفي من تحاكم عنده ، ويعلمها الناس أيضًا ، لا يقتصر على أن يأتيه الناس فيقول إذا جاءوني حكمت وقضيت ، بل يقضي ويعلم ، ويبدأ الناس بذلك ، فهذا لا شك أنه مغبوط على ما آتاه الله من الحكمة .

والناس في الحكمة ينقسمون إلى أقسام :

قسم آتاه الله الحكمة فبخل بها حتى على نفسه ، لم ينتفع بها في نفسه ، ولم يعمل بطاعة الله ، ولم ينته عن معصية الله ، فهذا خاسر والعياذ بالله ، وهذا يشبه اليهود الذين عملوا الحق واستكبروا عنه .

وقسم آخر آتاه الله الحكمة فعمل بها في نفسه ، لكن لم ينفع بها عباد الله ، وهذا خير من الذي

قبله ، لكنه ناقص .

وقسم آخر أعطاه اللَّه الحكمة فقضى بها وعمل بها في نفسه وعلمها الناس ، فهذا خير الأقسام .

وهناك قسم رابع لم يؤت الحكمة إطلاقًا فهو جاهل ، وهذا حرم خيرًا كثيرًا ، لكنه أحسن حالًا ممن أوتي الحكمة ولم يعمل بها ؛ لأن هذا يرجى إذا علم أن يتعلم ويعمل ، بخلاف الذي أعطاه اللَّه العلم ، وكان علمه وبالًا عليه والعياذ باللَّه .

* * *

٥٥٠ - وعنْ عبد اللَّهِ بن عَمْرِو بنِ العَاصِ ﵄ أنَّ رَجُلًا سَأَلَ رسول اللَّه ﷺ : أَيُّ الإسلامِ خيرٌ؟ قال : « تُطْعِمُ الطَّعَامَ ، وَتَقْرأُ السَّلامَ عَلى مَنْ عَرَفتَ وَمَنْ لم تَعْرِفْ » [١] متفقٌ عليه .

٥٥١ - وعنه قال : قالَ رسول اللَّه ﷺ : « أَرْبَعونَ خَصلَةً أَعلاهَا مَنيحَةُ العَنْزِ ما مِن عَامِلٍ يَعْمَلُ بخَصلَةٍ منها رَجَاءَ ثَوَابِهَا وَتَصْدِيقَ مُوعُودِهَا إلا أَدْخَلَهُ اللَّهُ تعالى بهَا الجَنَّةَ » [٢] رواه البخاري . وقدْ سبقَ بيانُ هذا الحديث في باب بَيَان كَثْرَةِ طُرق الخَيرِ .

٥٥٢ - وعن أبي أُمَامَةَ صُدَيِّ بنِ عَجْلانَ ﵁ قال : قالَ رسول اللَّه ﷺ : « يَا ابْنَ آدَمَ إنَّكَ أَن تَبْذُلَ الفَضْلَ خيرٌ لكَ ، وأن تُمسِكَهُ شَرٌّ لَكَ ، وَلا تُلامُ عَلى كَفافٍ ، وَابْدأْ بِمَنْ تَعُولُ ، واليَدُ العُلْيَا خيرٌ مِنَ اليَدِ السُّفْلَى » [٣] رواه مسلم .

٥٥٣ - وعن أنسٍ ﵁ قال : ما سُئِلَ رسول اللَّه ﷺ عَلى الإسْلامِ شَيئًا إلا أَعْطاه ، وَلَقَدْ جَاءَه رجُلٌ ، فَأَعطَاه غَنَمًا بَينَ جَبَلَينِ ، فَرَجَعَ إلى قَومِهِ فَقَالَ : يَا قَومِ أَسْلِمُوا ، فَإنَّ مُحَمَّدًا يُعْطِي عَطَاءَ مَنْ لا يَخْشَى الفَقْرَ ، وَإنْ كَانَ الرَّجُلُ لَيُسْلِمُ مَا يُرِيدُ إلا الدُّنْيَا ، فَمَا يَلْبَثُ إلا يَسِيرًا حَتَّى يَكُونَ الإسْلامُ أَحَبَّ إلَيه منَ الدُّنْيَا ، وَمَا عَلَيها [٤] . رواه مسلم .

٥٥٤ - وعن عُمَرَ ﵁ قال : قَسَمَ رسول اللَّه ﷺ قَسْمًا فَقُلْتُ : يا رسولَ اللَّهِ لَغَيرُ هؤُلاءِ كَانُوا أَحَقَّ بِهِ مِنْهُم ؟ قال : « إنَّهُمْ خَيَّرُوني أن يسألوني بالفحش أو يُبَخِّلُوني ، وَلَستُ بِبَاخِلٍ » [٥] رواه مسلم .

---

(١) هذا الحديث لم يقم الشارح ﵀ بشرحه ، وأخرجه البخاري في النفقات (٥٣٥٢) ومسلم في الزكاة (٣٦) .

(٢) هذا الحديث لم يقم الشارح ﵀ بشرحه ، وأخرجه البخاري في الإيمان (١٢) ومسلم في الإيمان (٦٣) وأبو داود في الأدب (٥١٩٤) .

(٣) هذا الحديث لم يقم الشارح ﵀ بشرحه ، وأخرجه البخاري في الهبة (٢٦٣١) . قوله « منيحة العنز » المنيحة عند العرب على وجهين : - إعطاء الرجل صاحبه نحو شاة صلة . - إعطاء الرجل صاحبه شاة أو ناقة ينتفع بحلبها ثم يردها وهذا هو المراد هنا .

(٤) أخرجه مسلم في الفضائل (٥٨) . قوله « فأعطاه غنمًا بين جبلين » أي كثيرة تملأ ما بين جبلين .

(٥) هذا الحديث لم يقم الشارح ﵀ بشرحه ، وأخرجه مسلم في الزكاة (١٢٧) . قوله « إنهم خيروني » أي ألحوا علي في المسألة لضعف إيمانهم وألجأوني بمقتضى حالهم إلى السؤال بالفحش أو نسبتي إلى البخل ولست بباخل ولا ينبغي احتمال واحد من الأمرين .

٥٥٥ – وعن جُبَيرِ بنِ مُطعِمٍ ﷺ أنه قال : بينَمَا هُوَ يَسيرُ مَعَ النَّبي ﷺ مَقْفَلَهُ مِن حُنَينٍ ، فَعَلِقَهُ الأَعْرَابُ يَسْأَلُونَهُ ، حَتَّى اضْطَرُّوهُ إلى سَمُرَةٍ ، فَخَطِفَتْ رِدَاءَهُ ، فَوَقَفَ النَّبيُّ ﷺ فقال : « أَعْطُوني رِدَائي ، فَلَو كَانَ لي عَدَدُ هذِهِ العِضَاهِ نَعَمًا ، لَقَسَمْتُهُ بَينَكُمْ ، ثم لا تجِدُوني بَخِيلًا وَلا كَذَّابًا وَلا جَبَانًا » [1] رواه البخاري .

« مَقْفَلَهُ » : أي : حَال رُجُوعِهِ . و « السَّمُرَةُ » : شَجَرَةٌ . وَ « العِضَاهُ » : شَجَرٌ لَهُ شَوكٌ .

٥٥٦ – وعن أبي هُريرة ﷺ أنَّ رسول اللَّه ﷺ قال : « مَا نَقَصَت صَدَقَةٌ مِنْ مَالٍ ، وما زَادَ اللَّهُ عَبْدًا بِعَفْوٍ إلا عِزًّا ، وَما تَوَاضَعَ أَحَدٌ للّه إلا رَفَعَهُ اللَّه ﷻ » [2] رواه مسلم .

الشرح

ذكر المؤلف – رحمه اللَّه تعالى – : عن أنس بن مالك ﷺ قال : ما سئل رسول اللَّه ﷺ شيئًا على الإسلام إلا أعطاه ؛ لأنه ﷺ كان أكرم الناس ، وكان يبذل ماله فيما يقرب إلى اللَّه ﷻ .

ومن ذلك أنه ﷺ إذا سأله شخص على الإسلام يعني على التأليف على الإسلام والرغبة فيه إلا أعطاه ، مهما كان هذا الشيء ، حتى إنه سأله أعرابي فأعطاه غنمًا بين جبلين ، أي أنها غنم كثيرة أعطاه إياها الرسول عليه الصلاة والسلام لما يرجو من الخير لهذا الرجل ولمن وراءه .

ولذلك ذهب هذا الرجل إلى قومه فقال : يا قوم أسلموا ، فإن محمدًا يعطي عطاء من لا يخشى الفقر – عليه الصلاة والسلام – يعني يعطي عطاءً جزيلًا ، عطاء من لا يخشى الفقر ، فانظر إلى العطاء كيف أثّر في هذا الرجل هذا التأثير العظيم ، حتى أصبح داعية إلى الإسلام .

وهو إنما سأل طمعًا كغيره من الأعراب ، فالأعراب أهل طمع ، يحبون المال ويسألونه ، ولكنه لما أعطاه الرسول عليه الصلاة والسلام هذا العطاء الجزيل صار داعية إلى الإسلام ، فقال : يا قوم أسلموا . ولم يقل : أسلموا تدخلوا الجنة وتنجوا من النار ، بل قال : أسلموا ؛ فإن محمدًا يعطي عطاء من لا يخشى الفقر . يعني سيعطيكم ويكثر .

ولكنهم إذا أسلموا من أجل المال ، فإنهم لا يلبثون يسيرًا إلا ويصير الإسلام أحب شيء إليهم ، أحب من الدنيا وما فيها ، ولهذا كان الرسول عليه الصلاة والسلام يعطي الرجل تأليفًا له على الإسلام حتى يسلم ، وإن كانت نيته للمال ، إلا أنه إذا دخل في الإسلام وتعلم محاسن الإسلام وقر الإيمان في قلبه [3] .

ويؤخذ من هذا الحديث وأمثاله : أنه لا ينبغي لنا أن نبتعد عن أهل الكفر وعن أهل الفسوق ، وأن ندعهم للشياطين تلعب بهم ، بل نؤلفهم ، ونجذبهم إلينا بالمال واللين وحسن الخلق حتى يألفوا الإسلام ، فهاهو الرسول عليه الصلاة والسلام يعطي الكفار ، يعطيهم حتى من الفيء .

---

(١) هذا الحديث لم يقم الشارح ﷺ بشرحه ، الحديث أخرجه البخاري في الجهاد والسير (٢٨٢١) والإمام أحمد في مسنده (٨٢/٤) والطبراني في الكبير (١٣٥/٢ ، ١٣٦) .

(٢) أخرجه مسلم في البر والصلة (٦٩) والإمام أحمد في مسنده (٢٣٥/٢ ، ٣٨٦) .

(٣) إذا حدث ذلك فإنه لا يعطى من سهم المؤلفة قلوبهم .

بل إن اللَّه جعل لهم حظًا من الزكاة ، نعطيهم لنؤلفهم على الإسلام ، حتى يدخلوا في دين اللَّه ، والإنسان قد يسلم للدنيا ، ولكن إذا ذاق طعم الإسلام رغب فيه ، حتى يكون أحب شيء إليه .

قال بعض أهل العلم : طلبنا العلم لغير اللَّه فأبى أن يكون إلا للَّه ، فالأعمال الصالحة لابد أن تربي صاحبها على الإخلاص للَّه، والمتابعة للرسول عليه الصلاة والسلام .

وإذا كان هذا دأب الإسلام فيمن يعطى على الإسلام ويؤلف ، فإنه ينبغي لنا أن ننظر إلى هذا نظرة جدية ، فنعطي من كان كافرًا إذا وجدنا فيه قربًا من الإسلام ، ونهاديه ونحسن له الخلق ، فإذا اهتدى فلئن يهدي اللَّه بك رجلًا واحدًا خير لك من حمر النعم (٢) .

وهكذا أيضًا الفساق هادِهِم ، انصحهم باللين ، وبالتي هي أحسن ، ولا تقل : أنا أبغضهم للَّه ، أبغضهم للَّه وأدعهم إلى اللَّه ، بغضك إياهم للَّه لا يمنعك أن تدعوهم إلى اللَّه بل ادعهم إلى اللَّه وإن كنت تكرههم ، فلعلهم يكونون من أحبابك في اللَّه يومًا من الأيام .

ثم ذكر المؤلف الحديث الآخر أن الرسول عليه الصلاة السلام قال : « ما نقصت صدقة من مال » إذا تصدق الإنسان فإن الشيطان يقول له : إذا تصدقت نقص مالك ، عندك مائة ريال إذا تصدقت بعشرة لم يكن عندك إلا تسعون ، إذًا نقص المال فلا تتصدق ، كلما تصدقت ينقص مالك .

ولكن من لا ينطق عن الهوى يقول : « ما نقصت صدقة من مال » ، قد تنقصه كمًا ، لكنها تزيده كيفًا وبركة ، وربما هذه العشرة يأتي بدلها مائة ، كما قال تعالى : ﴿ وَمَآ أَنفَقْتُم مِّن شَيْءٍ فَهُوَ يُخْلِفُهُۥ ﴾ [سبأ: ٣٩] . أي يجعل لكم خلفًا عنه عاجلًا ، وأجرًا وثوابًا آجلًا . قال تعالى : ﴿ مَّثَلُ ٱلَّذِينَ يُنفِقُونَ أَمْوَٰلَهُمْ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ كَمَثَلِ حَبَّةٍ أَنۢبَتَتْ سَبْعَ سَنَابِلَ فِي كُلِّ سُنۢبُلَةٍ مِّاْئَةُ حَبَّةٍ ﴾ [البقرة: ٢٦١] .

وقد كان النبي ﷺ أجود الناس وكان أكرم الناس ، وكان أجود ما يكون في رمضان حين يلقاه جبريل فيدارسه القرآن ، فلرسول اللَّه ﷺ أجود بالخير من الريح المرسلة (٣) .

الريح المرسلة التي أمرها اللَّه وأرسلها فهي عاصفة سريعة ، ومع ذلك فالرسول عليه الصلاة والسلام أسرع بالخير في رمضان من هذه الريح المرسلة ، فينبغي لنا أن نكثر من الصدقة والإحسان وخصوصًا في رمضان ، فنكثر من الصدقات والزكوات وبذل المعروف وإغاثة الملهوف وغير ذلك من أنواع البر والصلة .

ويزيد العامة على قوله ﷺ : « ما نقصت صدقة من مال » قولهم : بل تزده بل تزده . وهذه لا صحة لها ، فلم تصح عن الرسول عليه الصلاة والسلام ، وإنما الذي صح عنه ﷺ قوله : « ما نقصت صدقة من مال » .

والزيادة التي تحصل بذل الصدقة : إما كمية ، وإما كيفية .

مثال الكمية : أن اللَّه تعالى يفتح لك بابًا من الرزق ما كان في حسابك .

---

(٢) أخرجه البخاري في الجهاد والسير (٣٠٠٩) وأحمد في مسنده (٥/٢٣٨) .

(٣) انظر صحيح البخاري في بدء الوحي (٦) ومسلم في الفضائل (٤٨) .

والكيفية : أن ينزل اللّه لك البركة فيما بقي من مالك .

ثم قال ﷺ : « وما زاد اللّه عبدًا بعفو إلا عزًّا » ، إذا جنى عليك أحد وظلمك في مالك ، أو في بدنك ، أو في أهلك ، أو في حق من حقوقك ، فإن النفس شحيحة تأبى إلا أن تنتقم منه ، وأن تأخذ بحقك ، وهذا لك . قال تعالى : ﴿ فَمَنِ ٱعْتَدَىٰ عَلَيْكُمْ فَٱعْتَدُواْ عَلَيْهِ بِمِثْلِ مَا ٱعْتَدَىٰ عَلَيْكُمْ ﴾ [البقرة : ١٩٤] ، وقال تعالى : ﴿ وَإِنْ عَاقَبْتُمْ فَعَاقِبُواْ بِمِثْلِ مَا عُوقِبْتُم بِهِۦ ﴾ [النحل : ١٢٦] .

ولا يلام الإنسان على ذلك ، لكن إذا هم بالعفو وحدث نفسه بالعفو قالت له نفسه الأمارة بالسوء : إن هذا ذل وضعف ، كيف تعفو عن شخص جنى عليك أو اعتدى عليك ؟!

وهنا يقول الرسول - عليه الصلاة والسلام - : « وما زاد اللّه عبدًا بعفو إلا عزًّا » والعز ضد الذل ، وما تحدثك به نفسك أنك إذا عفوت فقد ذللت أمام من اعتدى عليك ، فهذا من خداع النفس الأمارة بالسوء ونهيها عن الخير ، فإن اللّه تعالى يثبك على عفوك هذا عزًّا ورفعة في الدنيا والآخرة .

ثم قال ﷺ : « وما تواضع أحد لله إلا رفعه » . والتواضع من هذا الباب أيضًا ، فبعض الناس تراه متكبرًا ويظن أنه إذا تواضع للناس نزل ، ولكن الأمر بالعكس ، إذا تواضعت للناس فإنك تتواضع للّه أولًا ، ومن تواضع للّه يرفعه ويعلي شأنه .

وقوله : « تواضع للّه » لها معنيان :

المعنى الأول : أن تتواضع للّه بالعبادة وتخضع وتنقاد لأمر اللّه .

المعنى الثاني : أن تتواضع لعباد اللّه من أجل اللّه ، وكلاهما سبب لرفعة ، سواء تواضعت للّه بامتثال أمره واجتناب نهيه وذللت له وعبدته أو تواضعت لعباد اللّه من أجل اللّه لا خوفًا منهم ، ولا مداراة لهم ، ولا طلبًا لمال أو غيره ، إنما تتواضع من أجل اللّه عز وجل ، فإن اللّه تعالى يرفعك في الدنيا وفي الآخرة .

فهذه الأحاديث كلها تدل على فضل الصدقة والتبرع ، وبذل المعروف والإحسان إلى الغير ، وأن ذلك من خلق النبي ﷺ .

* * *

٥٥٧ - وعن أبي كَبشَةَ عُمرَ بنِ سَعدِ الأَنماريِّ ﷺ أنه سمعَ رسول اللّه ﷺ يَقُولُ : « ثَلاثَةٌ أُقْسِمُ عَلَيهِنَّ وَأُحدِّثُكم حَدِيثًا فاحْفَظُوهُ : مَا نَقَصَ مَالُ عَبدٍ من صَدَقَةٍ ، وَلا ظُلِمَ عَبْدٌ مَظْلِمَةً صَبَرَ عَلَيهَا إلا زَادَهُ اللّه عِزًّا ، وَلا فَتَحَ عَبْدٌ بَابَ مَسأَلَةٍ إلا فَتَحَ اللّه عَلَيهِ بَابَ فَقْرٍ - أَو كَلِمَةً نَحْوَهَا - وأُحدِّثُكم حَدِيثًا فاحْفَظُوهُ » قال : « إنَّمَا الدُّنْيَا لأَرْبَعَةِ نَفَرٍ :

عَبدٍ رَزَقَه اللّه مَالًا وَعِلْمًا ، فَهُوَ يَتَّقي فِيهِ رَبَّهُ ، وَيَصِلُ فيهِ رَحِمَهُ ، وَيَعْلَمُ للّهِ فيهِ حَقًّا ، فَهذَا بِأَفضل المَنَازِل .

وَعَبْدٍ رَزَقَهُ اللَّه عِلْمًا ، وَلَمْ يَرْزُقْهُ مَالًا ، فَهُوَ صَادِقُ النِّيَّةِ يَقُولُ : لَو أَنَّ لي مَالًا لَعَمِلْتُ بِعَمَلِ فُلانٍ ، فَهُوَ بِنِيَّتِه ، فأَجْرُهُمَا سَوَاءٌ .

وَعَبدٍ رَزَقَهُ اللَّهُ مَالًا ، وَلَمْ يَرْزُقْهُ عِلْمًا ، فَهُوَ يَخْبِطُ في مالِهِ بِغَيرِ علمٍ ، لا يَتَّقي فِيهِ رَبَّهُ ، وَلا يَصِلُ فِيهِ رَحِمَهُ ، وَلا يَعلَمُ للّهِ فِيهِ حَقًّا ، فَهذَا بأَخبث المَنَازِلِ .

وَعَبْدٍ لَمْ يَرْزُقْهُ اللَّه مَالًا وَلا عِلْمًا ، فَهُوَ يَقُولُ : لَو أَنَّ لي مَالًا لَعَمِلْتُ فِيهِ بَعَمَلِ فُلانٍ ، فَهُوَ نِيَّتُهُ ، فوِزْرُهُما سَوَاءٌ »[1] رواه الترمذي وقال : حديث حسن صحيح .

٥٥٨ - وعن عائشة رضي الله عنها أنَّهُمْ ذَبَحُوا شَاةً ، فقالَ النبيُّ ﷺ : « مَا بَقِيَ مِنْها ؟ » قالت : ما بقي مِنها إلا كَتِفُها ، قال : « بَقِي كُلُّهَا غيرَ كَتِفِهَا »[2] رواه الترمذي وقال : حديث صحيح .

ومعناه : تَصَدَّقُوا بها إلا كَتِفَهَا فقال : بَقِيَتْ لَنَا في الآخِرَةِ إلا كَتِفَهَا .

٥٥٩ - وعن أسماءَ بنتِ أبي بكرِ الصديق رضي الله عنهما قالت : قال لي رسولُ اللَّه ﷺ : « لا تُوكِي فَيُوكَى عَلَيكِ » .

وفي روايةٍ « أَنفِقِي ، أَو انْفَحِي ، أَوِ انْضحِي ، وَلا تُحْصي فَيُحصي اللَّهُ عَلَيكِ ، وَلا تُوعِي فَيُوعِي اللَّه عَلَيكِ »[3] متفقٌ عليه .

وَ « انْفَحِي » بالحاءِ المهملة : وهو بمعنى « أَنفِقِي » وكذلك : « انْضحِي » .

٥٦٠ - وعن أبي هريرة رضي الله عنه أنه سمع رسول اللَّه ﷺ يَقُولُ : « مَثَلُ البَخِيلِ والمنْفِقِ ، كَمَثَلِ رَجُلَينِ عَلَيهِمَا جُنَّتَانِ مِن حَدِيدٍ مِن ثُدِيِّهِمَا إلى تَرَاقِيهِمَا ، فَأَمَّا المُنْفِقُ ، فَلا يُنْفِقُ إلا سَبَغَتْ ، أَو وَفَرَتْ على جلدِهِ حتى تُخْفِيَ بَنَانَهُ ، وَتَعْفُوَ أَثَرهُ ، وَأَمَّا البَخِيلُ ، فَلا يُرِيدُ أَنْ يُنْفِقَ شَيْئًا إلا لَزِقَتْ كُلُّ حَلْقَةٍ مَكَانَهَا ، فَهُوَ يُوَسِّعُهَا فَلا تَتَّسِعُ »[4] متفقٌ عليه .

وَ « الجُنَّةُ » الدِّرعُ ، وَمَعنَاهُ : أَن المُنْفِقَ كُلَّمَا أَنْفَقَ سَبَغَتْ ، وَطَالَتْ حتى تجُرَّ وَرَاءَهُ ، وتُخْفِي رِجْلَيهِ وأَثَرَ مَشيهِ وخُطُوَاتِهِ .

---

(١) من هذا الحديث حتى نهاية الحديث رقم (٥٦٢) لم يقم الشارح رحمه الله بشرحها ، وقد ذكرناها إتمامًا للفائدة ، مع شرح مفردات ألفاظها ، وهذا الحديث أخرجه الترمذي في الزهد (٢٣٢٥) . قوله « ولا فتح عبد باب مسألة » أي لينال بذلك الغنى تكثرًا من أموال الناس.

(٢) أخرجه الترمذي في صفة القيامة (٢٤٧٠) .

(٣) أخرجه البخاري في الزكاة (١٤٣٣) ومسلم في الزكاة (٨٨) . قوله « لا توكي » أي لا تدخري وتشدي ما عندك وتمنعي ما في يدك ، قوله « فيوكي اللَّه عليك » أي فيقطع عليك مادة الرزق ، قوله « تحصي » أي تمسكي المال وتدخريه ، قوله « توعي » أي تمنعي ما فضل عنك عمن هو محتاج إليه .

(٤) أخرجه البخاري في الجهاد والسير (٢٧١٩) ، ومسلم في الزكاة (٧٥) ، والإمام أحمد في مسنده (٢٥٦/٢) . قوله « ثديِّهما » جمع ثدي ، قوله « تراقيهما » جمع تُرقوة وهي العظم الذي بين ثغرة النحر والعاتق من الجانبين ، قوله « بنانه » أي مفاصل الأصبع .

٥٦١ - وعنه قال : قالَ رسول اللَّه ﷺ : « مَنْ تَصدَّقَ بِعَدْلِ تَمْرَةٍ مِن كَسْبٍ طَيِّبٍ ، ولا يَقْبَلُ اللَّهُ إلا الطَّيبَ ؛ فَإنَّ اللَّهَ يَقْبَلُهَا بِيَمِينِهِ ، ثُمَّ يُرَبِّيها لصَاحِبِهَا كما يُرَبِّي أحَدُكُم فَلُوَّهُ حتَّى تكونَ مثلَ الجبلِ » (١) متفقٌ عليه .

« الفَلُوّ » بفتحِ الفاء وضَمِّ اللام وتشديد الواو ، ويقال أيضًا : بكسر الفاء وإسكان اللام وتخفيف الواو : وهو المُهْرُ .

٥٦٢ - وعنه عن النبي ﷺ قال : « بَينَمَا رَجُلٌ يَمْشِي بِفَلاةٍ مِن الأرضِ ، فَسَمِعَ صَوتًا في سَحَابَةٍ : اسقِ حَدِيقَةَ فُلانٍ ، فَتَنَحَّى ذلِكَ السَّحَابُ فَأَفْرَغَ مَاءَهُ في حَرَّةٍ ، فإذا شَرْجَةٌ مِن تلكَ الشِّراجِ قَدِ اسْتَوعَبَتْ ذلِكَ الماءَ كُلَّهُ ، فَتَتَبعَ المَاءَ ، فإذا رَجُلٌ قَائمٌ في حَدِيقَتِهِ يُحَوِّلُ الماءَ بِمِسْحَاتِهِ ، فقال له : يَا عَبْدَ اللَّهِ ما اسْمُكَ ؟ قال : فُلانٌ - للاسْمِ الَّذي سَمِعَ في السَّحَابةِ - فقال له : يا عبْدَ اللَّهِ لِمَ تَسْأَلُني عَنِ اسْمِي ؟ فَقَالَ : إنِّي سَمِعْتُ صَوتًا في السَّحَابِ الذي هذا مَاؤُهُ يقُولُ : اسقِ حَدِيقَةَ فُلانٍ لاسمِكَ ، فما تَصْنَعُ فِيها ؟ فقال : أما إذْ قُلْتَ هذَا ، فإنِّي أَنْظُرُ إلى ما يخْرُجُ مِنْهَا ، فَأَتَصدَّقُ بثُلُثِه ، وآكُلُ أَنَا وعِيالي ثُلُثًا ، وأَرُدُّ فِيها ثُلُثَهُ » (٢) . رواه مسلم .

« الحَرَّةُ » الأَرضُ المُلَبَّسَةُ حِجَارَةً سَودَاءَ . « والشَّرجَةُ » بفتح الشين المعجمة وإسكان الراءِ وبالجيم : هيَ مَسِيلُ الماءِ .

* * *

٦١ - بابُ النَّهي عنِ البخل والشح

قال اللَّه تعالى : ﴿ وَأَمَّا مَنۢ بَخِلَ وَٱسْتَغْنَىٰ ۝ وَكَذَّبَ بِٱلْحُسْنَىٰ ۝ فَسَنُيَسِّرُهُۥ لِلْعُسْرَىٰ ۝ وَمَا يُغْنِى عَنْهُ مَالُهُۥٓ إِذَا تَرَدَّىٰٓ ﴾ [الليل : ٨- ١١] وقال تعالى : ﴿ وَمَن يُوقَ شُحَّ نَفْسِهِۦ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ ﴾ (٣) [التغابن : ١٦] .

الشرح

ذكر المؤلف رحمه الله في كتابه رياض الصالحين باب النهي عن البخل والشح .

والبخل : هو منع ما يجب وما ينبغي بذله .

---

(١) الحديث أخرجه البخاري في الزكاة (١٤١٠) ومسلم في الزكاة (٦٤) والإمام أحمد في مسنده (٢/٣٣١) والبيهقي في سننه (٤/١٧٧ ، ١٩٠) . قوله « بعدل ثمرة » أي بقيمتها .

(٢) أخرجه مسلم في الزهد (٤٥) والإمام أحمد في مسنده (٦/٢٩٦) . قوله « فتنحى » أي قصد ، قوله « بمسحاته » سحا الطين يسحيه ويسحوه سحوًا ؛ أي قشره وجرفه ، والمسحاة : ما سُحِيَ به .

(٣) قوله تعالى : ﴿ وَٱسْتَغْنَىٰ ﴾ أي استغنى بالدنيا عن الآخرة . قوله تعالى : ﴿ لِلْعُسْرَىٰ ﴾ أي إلى الشدة المؤدية إلى الآخرة . قوله تعالى : ﴿ تَرَدَّىٰٓ ﴾ أي هلك وسقط في جهنم . قوله تعالى : ﴿ شُحَّ نَفْسِهِۦ ﴾ هو شح النفس وهو الفقر الذي لا يذهبه غنى المال بل يزيده .

والشح : هو الطمع فيما ليس عنده ، وهو أشد من البخل ؛ لأن الشحيح يطمع فيما عند الناس ويمنع ما عنده مما أوجب الله عليه من زكاة ونفقات ، ومما ينبغي بذله فيما تقتضيه المروءة .

وكلاهما - أعني البخل والشح - خلقان ذميمان ، فإن الله ﷻ ذم من يبخلون ويأمرون الناس بالبخل ، فقال : ﴿ وَمَن يُوقَ شُحَّ نَفْسِهِۦ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ ﴾ [التغابن: ١٦] .

ثم استدل المؤلف رحمه الله بآيتين من كتاب الله :

الآية الأولى : وهي في البخل ، وهي قوله تعالى : ﴿ وَأَمَّا مَنۢ بَخِلَ وَٱسْتَغْنَىٰ ۝ وَكَذَّبَ بِٱلْحُسْنَىٰ ۝ فَسَنُيَسِّرُهُۥ لِلْعُسْرَىٰ ۝ وَمَا يُغْنِى عَنْهُ مَالُهُۥٓ إِذَا تَرَدَّىٰٓ ﴾ [الليل: ٨- ١١] . وهذه الآيات قسيم الآيات التي قبلها ، وهي قوله تعالى : ﴿ فَأَمَّا مَنْ أَعْطَىٰ وَٱتَّقَىٰ ۝ وَصَدَّقَ بِٱلْحُسْنَىٰ ۝ فَسَنُيَسِّرُهُۥ لِلْيُسْرَىٰ ﴾ [الليل: ٥- ٧] .

فالإنسان المصدق بالحق المعطي لما يجب إعطاؤه وبذله من علم ، ومال وجاه ، المتقي لله ﷻ ، هذا ييسرُ لليسرى ، أي ييسره الله تعالى لأيسر الطرق في الدنيا والآخرة .

وقد أجاب النبي ﷺ أصحابه حينما حدثهم فقال : « ما منكم من أحد إلا وقد كتب مقعده من الجنة ومن النار » . يعني أنه أمر مفروغ منه - قالوا : « يا رسول الله ، أفلا نتكل وندع العمل ؟ يعني نتكل على ما كتب لنا وندع العمل . قال : « لا ، اعملوا فكل ميسر لما خلق له »[1] . ثم قرأ قوله تعالى : ﴿ فَأَمَّا مَنْ أَعْطَىٰ وَٱتَّقَىٰ ۝ وَصَدَّقَ بِٱلْحُسْنَىٰ ۝ فَسَنُيَسِّرُهُۥ لِلْيُسْرَىٰ ۝ وَأَمَّا مَنۢ بَخِلَ وَٱسْتَغْنَىٰ ۝ وَكَذَّبَ بِٱلْحُسْنَىٰ ۝ فَسَنُيَسِّرُهُۥ لِلْعُسْرَىٰ ﴾ .

فأنت فكّر في نفسك ، هل عندك تصديق وإعطاء وبذل لما يجب بذله وتقوى لله ﷻ ، فإنك موفق ميسر لليسرى ، والعكس بالعكس .

الشاهد من هذه الآية في الباب ، قوله : ﴿ وَأَمَّا مَنۢ بَخِلَ وَٱسْتَغْنَىٰ ﴾ بخل بما يجب بذله من مال أو جاه أو علم .

ومن ذلك : ما جاء في الحديث عن النبي عليه الصلاة والسلام أنه قال : « البخيل من إذا ذكرت عنده لم يصل على »[2] عليه الصلاة والسلم . وهذا بخل بما يجب على الإنسان إذا سمع ذكر نبيه عليه الصلاة والسلام الذي هداه الله على يديه . وكان الأولى به والأجدر أن يبادر بالصلاة والسلام عليه .

وقوله : ﴿ وَٱسْتَغْنَىٰ ﴾ أي استغنى بنفسه وزعم أنه مستغن عن رحمة الله والعياذ بالله ، فلا يعمل ولا يستقيم على أمر الله .

﴿ وَكَذَّبَ بِٱلْحُسْنَىٰ ﴾ أي كذب بالكلمة الحسنى وهي قول الحق ، وهي ما جاء في كتاب الله وسنة رسوله ﷺ .

﴿ فَسَنُيَسِّرُهُۥ لِلْعُسْرَىٰ ﴾ تعسر عليه الأمور التي تسهل على المتقي ، فلا تسهل عليه الطاعات ، يجد

---

(١) أخرجه البخاري في القدر (٦٦٠٥) ، ومسلم في القدر (٦) .

(٢) أخرجه الترمذي في الدعوات (٣٥٤٦) ، وأحمد في مسنده (١/ ٢٠١) .

الطاعات ثقيلة ؛ الصلاة ثقيلة ، والصدقة ثقيلة ، والصيام ثقيل ، والحج ثقيل ، كل شيء متعسر عنده .

﴿ وَمَا يُغْنِي عَنْهُ مَالُهُۥٓ إِذَا تَرَدَّىٰٓ ﴾ يعني أي شيء يغني عنه ماله إذا هلك ؟ والجواب أنه لا يغني عنه شيئًا ، فهذا المال الذي بخل به لا يحميه من عذاب اللَّه وعقابه ولا يغني عنه شيئًا .

وأما الآية الثَّانية : فهي في الشح ، وهي قوله تعالى : ﴿ وَمَن يُوقَ شُحَّ نَفْسِهِۦ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ ﴾ يعني من يقيه اللَّه شح نفسه فلا يطمع فيما ليس له فهذا هو المفلح .

* * *

٥٦٣ – وعن جابر ﷺ أنَّ رسول اللَّه ﷺ قالَ : « اتَّقُوا الظُّلْمَ ، فَإِنَّ الظُّلْمَ ظُلُمَاتٌ يَومَ القِيامَةِ ، واتَّقُوا الشُّحَّ ، فَإِنَّ الشُّحَّ أَهْلَكَ مَنْ كَانَ قَبْلَكُمْ ، حَمَلَهُم على أن سَفَكُوا دِمَاءَهم واستَحَلُّوا مَحَارِمَهُم » [1] رواه مسلم .

الشرح

قال المؤلف رحمه الله في كتاب رياض الصالحين في باب النهي عن البخل والشح فيما رواه جابر ﷺ أن النبي ﷺ قال : « اتقوا الظلم فإن الظلم ظلمات يوم القيامة » اتقوا الظلم بمعنى احذروه ، واتخذوا وقاية منه وابتعدوا عنه .

والظلم : هو العدوان على الغير ، وأعظم الظلم وأشده الشرك باللَّه عز وجل . قال اللَّه تعالى : ﴿ إِنَّ ٱلشِّرْكَ لَظُلْمٌ عَظِيمٌ ﴾ [لقمان : ١٣] .

ويشمل الظلم ظلم العباد ، وهو نوعان : ظلم بترك الواجب لهم ، وظلم بالعدوان عليهم بأخذ أو بانتهاك حرماتهم .

فمثال الأول : ما ذكره النبي عليه الصلاة والسلام في قوله : « مطل الغني ظلم » [2] يعني مماطلة الإنسان الذي عليه دين عن الوفاء وهو غني قادر على الوفاء ظلم ، وهو منع ما يجب ؛ لأن الواجب على الإنسان أن يبادر بالوفاء إذا كان له قدرة ، ولا يحل له أن يؤخر ، فإن أخر الوفاء وهو قادر عليه كان ظالمًا والعياذ باللَّه .

والظلم ظلمات يوم القيامة ، وكل ساعة أو لحظة تمضي على المماطل فإنه لا يزداد بها إلا إثمًا والعياذ باللَّه ، وربما يعسر اللَّه عليه أمره فلا يستطيع الوفاء إما بخلًا وإما إعدامًا ، لأن اللَّه تعالى يقول : ﴿ وَمَن يَتَّقِ ٱللَّهَ يَجْعَل لَّهُۥ مِنْ أَمْرِهِۦ يُسْرًا ﴾ [الطلاق : ٤] .

---

(١) أخرجه مسلم في البر والصلة (٥٦) . قوله « أهلك من كان قبلكم » أي من بني إسرائيل ، قوله « سفكوا دماءهم » أي أراقوها وقتل بعضهم بعضًا ، قوله « واستحلوا محارمهم » أي ما حرم اللَّه عليهم من الشحوم فباعوه واحتالوا لولوج السمك إلى ما حفروه يوم السبت ليدخل في حوزهم فيبيعوه بعد فيوقعهم ذلك في الشح .

(٢) أخرجه البخاري في الاستقراض (٢٤٠٠) ومسلم في المساقاة (٣٣) .

فمفهوم الآية أن من لا يتقي الله لا يجعل له من أمره يسرًا ، ولذلك يجب على الإنسان القادر أن يبادر بالوفاء إذا طلبه صاحبه ، أو أجله وانتهى الأجل .

ومن الظلم أيضًا : اقتطاع شيء من الأرض . قال النبي - عليه الصلاة والسلام - : « من اقتطع شبرًا من الأرض ظلمًا طُوقه يوم القيامة من سبع أرضين » (١) .

ومن الظلم : الاعتداء على الناس في أعراضهم بالغيبة أو النميمة أو ما أشبه ذلك ، فإن الغيبة : ذكرك أخاك بما يكره في غيبته ، فإن كان في حضرته فهو سب وشتم ، فإذا ظلم الناس بالغيبة بأن قال : فلان طويل . فلان قصير . فلان سيئ الخلق . فلان فيه كذا ، فهذه غيبة وظلم يحاسب عليها يوم القيامة .

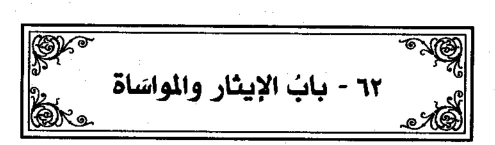
وكذلك أيضًا إذا جحد ما يجب عليه جحودًا ، بأن كان لفلان عليه حق ، فيقول : ليس له علي حق ويكتم ، فإن هذا ظلم ، لأنه إذا كانت المماطلة ظلمًا فهذا أظلم ، كمن جحد شيئًا واجبًا عليه ، فإنه ظالم .

وعلى كل حال ؛ اتقوا الظلم بجميع أنواعه ، فإن الظلم ظلمات يوم القيامة ، يكون على صاحبه والعياذ بالله ظلمات بحسب الظلم الذي وقع منه ؛ الكبير ظلماته كبيرة ، والكثير ظلماته كثيرة كل شيء بحسبه ، قال تعالى : ﴿ وَنَضَعُ ٱلْمَوَٰزِينَ ٱلْقِسْطَ لِيَوْمِ ٱلْقِيَٰمَةِ فَلَا تُظْلَمُ نَفْسٌ شَيْـًٔا ۖ وَإِن كَانَ مِثْقَالَ حَبَّةٍ مِّنْ خَرْدَلٍ أَتَيْنَا بِهَا ۗ وَكَفَىٰ بِنَا حَٰسِبِينَ ﴾ (٢) [الأنبياء : ٤٧] .

وفي هذا دليل على أن الظلم من كبائر الذنوب ؛ لأنه لا وعيد إلا على كبيرة من كبائر الذنوب ، فظلم العباد وظلم الخالق ﷻ رب العباد ؛ كله من كبائر الذنوب .

ثم قال ﷺ : « واتقوا الشح » يعني الطمع في حقوق الغير . اتقوه : أي احذروا منه ، واجتنبوه « فإنه أهلك من كان قبلكم » يعني من الأمم « حملهم على أن سفكوا دماءهم واستحلوا محارمهم » فكان هلاكهم بذلك والعياذ بالله .

* * *



٦٢ - باب الإيثار والمواساة

قال الله تعالى : ﴿ وَيُؤْثِرُونَ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ وَلَوْ كَانَ بِهِمْ خَصَاصَةٌ ﴾ [الحشر : ٩] .

وقال تعالى : ﴿ وَيُطْعِمُونَ ٱلطَّعَامَ عَلَىٰ حُبِّهِۦ مِسْكِينًا وَيَتِيمًا وَأَسِيرًا ﴾ (٣) [الدهر : ٨] إلى آخرِ الآياتِ .

---

(١) أخرجه البخاري في بدء الخلق (٣١٩٨) ومسلم في المساقاة (١٤٢) .

(٢) قوله تعالى : ﴿ ٱلْقِسْطَ ﴾ ذوات العدل في محاسبة الناس . قوله تعالى : ﴿ مِثْقَالَ حَبَّةٍ مِّنْ خَرْدَلٍ ﴾ وزن أقل شيء (كناية عن كمال إحاطة علم الله بدقائق الأشياء) .

(٣) قوله تعالى : ﴿ وَيُؤْثِرُونَ ﴾ أي يقدمون على أنفسهم ، قوله تعالى : ﴿ خَصَاصَةٌ ﴾ أي حاجة إلى ما عندهم .

الشرح

باب الإيثار والمواساة . ذكر المؤلف هذا الباب عقب باب النهي عن البخل والشح لأنهما متضادان ، فالإيثار أن يقدم الإنسان غيره على نفسه ، والمواساة أن يواسي غيره بنفسه ، والإيثار أفضل ولكن ليعلم أن الإيثار ينقسم إلى ثلاثة أقسام : الأول : ممنوع ، والثاني : مكروه أو مباح ، والثالث : مباح .

القسم الأول : وهو الممنوع ، وهو أن تؤثر غيرك بما يجب عليك شرعًا فإنه لا يجوز أن تقدم غيرك فيما يجب عليك شرعًا .

ومثاله : إذا كان معك ماء يكفي لوضوء رجل واحد ، وأنت لست على وضوء ، وهناك صاحب لك ليس على وضوء والماء لك ، لكن إما أن يتوضأ به صاحبك وتتيمم أنت ، أو تتوضأ أنت ويتيمم صاحبك ، ففي هذه الحال لا يجوز أن تعطيه الماء وتتيمم أنت ؛ لأنك واجد للماء ، والماء في ملكك ، ولا يجوز العدول عن الماء إلى التيمم إلا لعادم .

فالإيثار في الواجبات الشرعية حرام ، ولا يحل ؛ لأنه يستلزم إسقاط الواجب عليك .

القسم الثاني : وهو المكروه أو المباح : فهو الإيثار في الأمور المستحبة ، وقد كرهه بعض أهل العلم وأباحه بعضهم ، لكن تركه أولى لا شك إلا لمصلحة .

ومثاله : أن تؤثر غيرك في الصف الأول الذي أنت فيه ، مثل أن تكون أنت في الصف الأول في الصلاة ، فيدخل إنسان فتقوم عن مكانك وتؤثره به ، فقد كره أهل العلم هذا ، وقالوا : إن هذا دليل على أن الإنسان يرغب عن الخير ، والرغبة عن الخير مكروهة ، إذ كيف تقدم غيرك إلى مكان فاضل أنت أحق به منه ؟!

وقال بعض العلماء : تركه أولى إلا إذا كان فيه مصلحة ، كما لو كان أبوك وتخشى أن يقع في قلبه شيء عليك فتؤثره بمكانك الفاضل ، فهذا لا بأس به .

القسم الثالث : وهو المباح : وهذا المباح قد يكون مستحبًا ، وذلك أن تؤثر غيرك في أمر غير تعبدي ، أي تؤثر غيرك وتقدمه على نفسك في أمر غير تعبدي .

ومثاله : أن يكون معك طعام وأنت جائع ، وصاحب لك جائع مثلك ، ففي هذه الحال إذا آثرته فإنك محمود على الإيثار ، لقول الله تبارك وتعالى في وصف الأنصار : ﴿ وَالَّذِينَ تَبَوَّءُو الدَّارَ وَالْإِيمَٰنَ مِن قَبْلِهِمْ يُحِبُّونَ مَنْ هَاجَرَ إِلَيْهِمْ وَلَا يَجِدُونَ فِي صُدُورِهِمْ حَاجَةً مِّمَّآ أُوتُوا وَيُؤْثِرُونَ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ وَلَوْ كَانَ بِهِمْ خَصَاصَةٌ ﴾ [الحشر: ٩] .

ووجه إيثارهم على أنفسهم أن المهاجرين لما قدموا المدينة تلقاهم الأنصار بالإكرام والاحترام والإيثار بالمال ، حتى أن بعضهم يقول لأخيه المهاجري : إن شئت أن أتنازل عن إحدي زوجتي لك فعلت ؛ يعني يطلقها فيتزوجها المهاجريّ بعد مضي عدتها . وهذا من شدة إيثارهم ﷺ لإخوانهم المهاجرين .

وقال تعالى : ﴿ وَيُطْعِمُونَ ٱلطَّعَامَ عَلَىٰ حُبِّهِۦ مِسْكِينًا وَيَتِيمًا وَأَسِيرًا ﴾ [الإنسان : ٨] . يعني يطعمون الطعام وهم يحبونه مسكينًا ويتيمًا وأسيرًا ، ويتركون أنفسهم ، هذا أيضًا من باب الإيثار .

* * *

٥٦٤ - وعن أبي هُريرة ﷺ قال : جَاءَ رَجُلٌ إلى النَّبيِّ ﷺ فقال : إنِّي مَجْهُودٌ ، فَأَرسَلَ إلى بعض نِسائِهِ ، فَقَالت : والَّذي بَعَثَكَ بِالحَقِّ ما عِنْدِي إلا مَاءٌ ، ثم أَرسَلَ إلى أُخرَى ، فَقَالَتْ مِثْلَ ذلِكَ ، حَتَّى قُلْنَ كُلُّهنَّ مِثلَ ذلِكَ : لا والَّذِي بَعَثَكَ بِالحَقِّ ما عِنْدِي إلا مَاءٌ . فقال النبيُّ ﷺ : « من يُضِيفُ هذَا اللَيلَةَ ؟ » فقال رَجُلٌ مِن الأَنْصار : أَنَا يَا رسُولَ اللَّهِ ، فَانْطَلَقَ بِهِ إلى رَحْلِهِ ، فَقَالَ لامْرَأَتِهِ : أَكرِمِي ضَيفَ رسول اللَّه ﷺ .

وفي روايةٍ قال لامرَأَتِهِ : هل عِندَكِ شَيءٌ ؟ فَقَالَتْ : لا ، إلا قُوتَ صِبياني . قال : عَلِّليهم بِشَيءٍ ، وإذا أَرَادُوا العَشَاءَ ، فَنَوِّمِيهم ، وإِذَا دَخَلَ ضَيفُنَا ، فَأَطفِئِي السِّرَاجَ ، وأَرِيهِ أَنَّا نأْكل ، فَقَعَدُوا وأَكَلَ الضيْفُ وبَاتَا طَاوِيَين ، فَلَمَّا أَصْبَح ، غَدَا على النَّبيِّ ﷺ : فقَالَ : « لَقَد عَجِبَ اللَّه مِن صَنِيعِكُمَا بضيفكما الليلة » [١] متفق عليه .

الشرح

ذكر المؤلف - رحمه اللَّه تعالى - في باب الإيثار والمواساة هذا الحديث العظيم العجيب ؛ الذي يبين حال رسول اللَّه ﷺ وأصحابه حيث جاءه رجل فقال : يا رسول اللَّه ﷺ « إني مجهود » يعني مجهد من الفقر والجوع ، وهو ضيف على رسول اللَّه ﷺ ، فأرسل النبي ﷺ إلى زوجاته واحدة تلو الأخرى يسألها هل عندها شيء ، فكانت كلّ واحدة تقول : « لا والذي بعثك بالحق ما عندي إلا الماء » .

تسعة أبيات للرسول - عليه الصلاة والسلام - ليس فيها إلا الماء ، مع أن النبي ﷺ لو شاء أن يسيّر اللَّه الجبال معه ذهبًا لسارت ، لكنه - عليه الصلاة والسلام - كان أزهد الناس في الدنيا ، كل بيوته التسعة ليس فيها شيء إلا الماء .

فقال النبي - عليه الصلاة والسلام - : « من يضيف هذا الليلة » يعني هذا الضيف .

فقال رجل من الأنصار : « أنا يا رسول اللَّه » أنا أضيفه . « فذهب بالرجل إلى رحله ، وقال لامرأته هل عندك شيء ؟ قالت : لا ؛ إلا طعام صبياني » يعني ليس عندها في البيت إلا العشاء لهم تلك الليلة فقط . فقال : « أكرمي ضيف رسول اللَّه ﷺ » وأمرها أن تشغل أولادها وتلهيهم .

---

(١) أخرجه مسلم في الأشربة (١٧٢) واللفظ له والبخاري في مناقب الأنصار (٣٧٩٨) قوله « إني مجهود » أي أصابني الجهد والمشقة والحاجة وسوء العيش والجوع ، وقوله « فعلليهم بشيء » محمول على أن الصبيان لم يكونوا محتاجين للأكل ، وإنما تطلبه أنفسهم على عادة الصبيان من غير جوع يضر ، إذ لو كانوا بحال يضرهم فيها الجوع لكان إطعامهم واجبًا مقدمًا على الضيافة ، قوله « طاويين » أي خاليا البطن جائعين لم يأكلا .

حتى إذا جاء وقت الطعام نومتهم ، فأطفأت المصباح ، وأرت الضيف أنهم يأكلون معه ففعلت ، هدأت الصبيان وعللتهم ونومتهم ، فناموا على غير عشاء ، ثم إن العشاء لما قدم أطفأت المصباح وأرت الضيف أنها تأكل هي وزوجها ، وهما لا يأكلان ، فشبع الضيف وباتا طاويين ، يعني غير متعشيين إكرامًا لضيف الرسول ﷺ .

ثم إنه أصبح فغدا إلى رسول اللّه ﷺ فأخبره الرسول عليه الصلاة والسلام أن اللّه قد عجب من صنيعهما تلك الليلة ، والعجب هنا عجب استحسان ، استحسن اللّه ﷻ صنيعهما تلك الليلة .

ففي هذا الحديث من الفوائد ما يلي :

أولًا : بيان حال رسول اللّه ﷺ وما كان عليه من شظف العيش وقلة ذات اليد ، مع أنه عليه الصلاة والسلام أكرم الخلق على اللّه ، ولوكانت الدنيا تساوي عند اللّه شيئًا ، لكان أبر الناس بها وأحقهم رسول اللّه ﷺ ، ولكنها لا تساوي شيئًا .

قال ابن القيم رحمه الله :

لو ساوت الدنيا جناح بعوضة لم يسق منها الرب ذا الكفران

لكنها واللّه أحقر عنده من ذا الجناح القاصر الطيران

أحقر من جناح البعوضة عند اللّه ؛ فليست بشيء .

ثانيًا : حسن أدب الصحابة مع النبي ﷺ ، فإن هذا الأنصاري رضي الله عنه قال لزوجته : « أكرمي ضيف رسول اللّه ﷺ » فلم يقل : أكرمي ضيفنا مع أن الذي أضافه في الحقيقة هو هذا الرجل ، لكنه أضافه نيابة عن الرسول عليه الصلاة والسلام ، فجعله ضيفًا لرسول اللّه ﷺ .

ثالثًا : أنه يجوز عرض الضيافة على الناس ، ولا يعد هذا من المسألة المذمومة ، أولًا ؛ لأنه لم يعين ، فلم يقل : يا فلان ضيفّ هذا الرجل حتى نقول : إنه أحرجه ، وإنما هو على سبيل العموم ، فيجوز للإنسان مثلًا إذا نزل به ضيف وكان مشغولًا ، أو ليس عنده ما يضيفه به ، أن يقول لمن حوله : من يضيفّ هذا الرجل ؟ ولا حرج في ذلك .

رابعًا : الإيثار العظيم من هذا الرجل الأنصاري ، حيث بات هو وزوجته وصبيته من غير عشاء إكرامًا لهذا الضيف الذي نزل ضيفًا على رسول اللّه ﷺ .

خامسًا : ومن فوائد هذا الحديث أنه ينبغي للإنسان ألا يشعر ضيفه أنه مَانٌّ عليه ، أو أن الضيف مضيق عليه ، ومحرج له ، لأن الرجل أمر بإطفاء المصباح حتى لا يظن الضيف أنه ضيق عليه وحرمهم العشاء ، وهذا مأخوذ من أدب الخليل إبراهيم عليه السلام حين نزلت به الملائكة ضيوفًا ﴿ فَرَاغَ إِلَىٰٓ أَهْلِهِۦ فَجَآءَ بِعِجْلٍ سَمِينٍ ﴾ [الذاريات : ٢٦] مشوي ، لكنه راغ إلى أهله ، أي ذهب بسرعة وخفية لئلا يخجل الضيف .

سادسًا : ومن فوائد هذا الحديث أيضًا أنه يجوز للإنسان أن يؤثر الضيف ونحوه على عائلته ،

وهذا في الأحوال النادرة العارضة ، وإلا فقد قال النبي ﷺ : « ابدأ بنفسك ثم بمن تعول »[١] .

ولكن إذا عرضت مثل هذه الأحوال فلا حرج على الإنسان أن يقدم الضيف أو نحوه ممن يجب عليه إكرامه .

ومن تأمل الرسول - عليه الصلاة والسلام - وهديه وهدي أصحابه ، وجد فيها من مكارم الأخلاق ومعالي الآداب ما لو سار الناس عليه لنالوا بذلك رفعة الدنيا والآخرة . وفقنا اللّه وإياكم لما فيه الخير في الدنيا والآخرة .

* * *

٥٦٥ - وعنه قال : قال رسولُ اللّه ﷺ : « طَعَامُ الاثْنَينِ كَافِي الثَّلاثَة ، وطَعَامُ الثَّلاثَة كافي الأربَعَة » متفق عليه[٢] .

وفي روايةٍ لمسلم عن جابرٍ ﷺ عن النبي ﷺ قال : « طَعَامُ الوَاحِد يَكفِي الاثْنَينِ ، وطَعَامُ الاثْنَينِ يَكْفي الأَرْبَعَةَ ، وطَعَامُ الأَرْبَعَةِ يَكفي الثَّمَانِيَةَ »[٣] .

٥٦٦ - وعن أبي سَعيدٍ الخُدريِّ ﷺ قال : بينَمَا نَحْنُ في سَفَر مَعَ النَّبيِّ ﷺ إذ جاء رَجُلٌ عَلى رَاحِلَةٍ لَهُ ، فَجَعَلَ يَصرِفُ بَصَرَهُ يَمِينًا وَشِمَالاً ، فَقَالَ رسولُ اللّه ﷺ : « مَنْ كَانَ مَعَهُ فَضْلُ ظَهرٍ فَليَعُد به عَلى مَنْ لا ظَهْرَ لَهُ ، وَمَنْ كانَ لَهُ فَضْلٌ مِن زَادٍ ، فَلْيَعُد بِهِ عَلى مَن لا زَادَ لَهُ » فَذَكَرَ مِنْ أَصْنَافِ المَالِ مَا ذَكَرَ حَتَّى رَأَينا أَنَّهُ لا حَقَّ لأَحَدٍ مِنَّا في فَضْلٍ[٤] ، رواه مسلم .

٥٦٧ - وعن سَهلِ بنِ سعدٍ ﷺ أَنَّ امرأَةً جاءَت إلى رسول اللّه ﷺ بِبُردَةٍ مَنْسُوجَةٍ ، فقالت : نَسَجتها بِيَدَيَّ لأَكْسُوَكَها ، فَأَخَذَهَا النَّبيُّ ﷺ مُحتاجًا إلَيها ، فَخَرَجَ إلَينا وَإِنَّهَا لإزارُهُ ، فقال فُلانٌ : اكسُنِيهَا مَا أَحسَنَها ! فَقَالَ : « نَعَمْ » فَجَلَسَ النَّبيُّ ﷺ في المَجلِسِ ، ثُمَّ رَجَعَ فَطَوَاهَا ، ثُمَّ أَرسَلَ بِهَا إلَيهِ ، فَقَالَ لَهُ القَومُ : ما أَحسنتَ ! لَبِسَهَا النَّبِيُّ ﷺ مُحتاجًا إليها ، ثُمَّ سَأَلتَهُ ، وَعَلِمتَ أَنَّهُ لا يَرُدُّ سَائِلًا ، فَقَالَ : إنِّي وَاللّهِ ما سَأَلْتُهُ لأَلبَسهَا ، إنَّمَا سَأَلْتُهُ لِتَكُونَ كَفَنِي . قال سَهلٌ : فَكانت كَفَنَهُ[٥] . رواه البخاري .

الشرح

ذكر المؤلف رحمه الله هذه الأحاديث في باب الإيثار وهي حديث أبي هريرة وجابر وأبي سعيد .

---

(١) أخرجه مسلم في الزكاة (٤١) ، والنسائي في سننه (٢٥٤٦) .

(٢) أخرجه البخاري في الأطعمة (٥٣٩٢) ، ومسلم في الأشربة (١٧٨) ، والإمام أحمد في مسنده (٢/٢٤٤) .

(٣) أخرجه مسلم في الأشربة (١٧٩) .

(٤) أخرجه مسلم في اللقطة (١٨) . قوله « فضل ظهر » أي زيادة ما يركب على ظهره من الدواب وخصه اللغويون بالإبل ، قوله « فليعدْ بِهِ » عاد فلان بمعروفه إذا أحسن ثم زاد ، قوله « زاد » زاد المسافر هو الطعام المعد لسفره .

(٥) أخرجه البخاري في البيوع (٢٠٩٣) .

ففي الحديثين الأولين ، بين النبي ﷺ أن طعام الواحد يكفي الاثنين ، وأن طعام الاثنين يكفي الأربعة ، وأن طعام الأربعة يكفي الثمانية ، وهذا حث منه عليه الصلاة والسلام على الإيثار ، يعني أنك لو أتيت بطعامك الذي قدَّرتَ أنه يكفيك ، وجاء رجل آخر فلا تبخل وتقول : هذا طعامي وحدي ، بل أعطه منه حتى يكون كافيًا للاثنين .

وكذلك لو جاء اثنان بطعامهما ، ثم جاءهما اثنان ، فلا يبخلان به ويقولان هذا طعامنا ، بل يطعمانهما ؛ فإن طعامهما يكفيهما ويكفي الاثنين ، وهكذا الأربعة مع الثمانية .

وإنما ذكر الرسول - عليه الصلاة والسلام - هذا من أجل أن يجود الإنسان بفضل طعامه على أخيه .

وكذلك أيضًا حديث أبي سعيد ، في قصة الرجل الذي جاء إلى النبي ﷺ على رحل له ، فجعل يلتفت يمينًا وشمالًا ، وكأن النبي ﷺ فهم أن الرجل محتاج ، فقال - عليه الصلاة والسلام - : « من كان له فضل ظهر فليعد به على من لا ظهر له ، ومن كان له فضل زاد فليعد به على من لا زاد له » .

وذكر أنواعًا ولم يعين فيقول : « من كان له فضل زاد » مثلًا لئلا يخجل الرجل ، بل قال : « من كان له فضل ظهر » ، والرجل لا يحتاج إلى الظهر ؛ لأنه كان على راحلته ، لكن هذا من حسن خطاب النبي ﷺ .

يقول الراوي : « حتى ظننا أنه لا حق لأحد منا في فضل » يعني أن الإنسان يبذل كل ما عنده حتى لا يبقى معه فضل ، يعني من الطعام والشراب والرحل وغير ذلك ، وهذا كله من باب الإيثار .

وأما الحديث الرابع حديث سهل بن سعد ، فإن امرأة جاءت وأهدت إلى النبي ﷺ بردة ، وكان ﷺ لا يرد الهدية ، بل يقبل الهدية ويثيب عليها صلوات الله وسلامه عليه ، وهذا من كرمه وحسن خلقه ، فتقدم رجل إليه ، فقال : ما أحسن هذه ، وطلبها من النبي ﷺ ، ففعل الرسول - عليه الصلاة والسلام - خلعها وطواها ، وأعطاه إياها .

فقيل للرجل : كيف تطلبها من النبي ﷺ وأنت تعلم أنه لا يردُّ سائلًا ؟ فقال : والله ما طلبتها لألبسها ، ولكن لتكون كفني ، فأبقاها عنده فصارت كفنه ، ففي هذا إيثار النبي ﷺ على نفسه ولأنه آثر هذا الرجل بهذه البردة التي كان محتاجًا إليها ؛ لأنه لبسها بالفعل ، مما يدل على شدة احتياجه إليها .

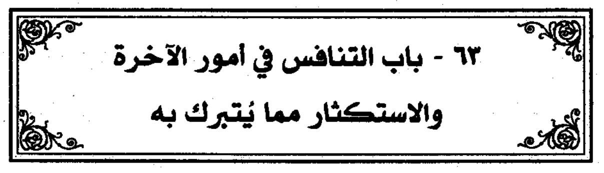
* * *

٥٦٨ - وعن أبي موسى ﷺ قال : قال رسول الله ﷺ : « إنَّ الأَشْعَرِيِّينَ إذَا أَرمَلُوا في الغَزْوِ ، أَو قَلَّ طَعَامُ عِيَالِهِم بالمَدِينَةِ ، جَمَعُوا ما كَانَ عِندَهُم في ثَوبٍ وَاحِدٍ ، ثمَّ اقتَسَمُوهُ بَينَهُم في إنَاءٍ وَاحِدٍ بالسَّوِيَّةِ فَهُم مِنِّي وَأَنَا منهُم » [1] متفقٌ عليه .

« أَرمَلُوا » : فَرَغَ زَادُهُم ، أَو قَارَبَ الفَرَاغَ .

* * *

(١) أخرجه البخاري في الشركة (٢٤٨٦) ومسلم في فضائل الصحابة (١٦٧) .



٦٣ - باب التنافس في أمور الآخرة والاستكثار مما يُتبرك به

قال اللّه تعالى : ﴿ وَفِي ذَٰلِكَ فَلْيَتَنَافَسِ الْمُتَنَافِسُونَ ﴾ (١) [المطففين : ٢٦] .

٥٦٩ - وعن سهلِ بنِ سعدٍ ﷺ أن رسول اللّه ﷺ أُتِيَ بِشَرَابٍ ، فَشَرِبَ مِنْهُ ، وَعَن يَمِينِه غُلامٌ ، وَعَنْ يَسَارِهِ الأَشْيَاخُ ، فقال لِلْغُلامِ : « أَتَأْذَنُ لي أَنْ أُعطِيَ هَؤُلاءِ ؟ » فَقَالَ الغُلامُ : لا وَاللّهِ يا رسُولَ اللّهِ لا أُوثِرُ بِنَصيبي مِنْكَ أَحَدًا ، فتَلَّهُ رسول اللّه ﷺ في يَدِهِ (٢) . متفقٌ عليه .

الشرح

ذكر المؤلف رحمه الله في آخر باب فضل الإيثار ، حديث أبي موسى الأشعري ﷺ ، وأصحابه الذين هم من الأشعريين من أهل اليمن ، كانوا يتساعدون في أمورهم ، فإذا أتاهم شيء من المال جمعوه ثم اقتسموه بينهم بالسوية . قال النبي ﷺ : « فهم مني وأنا منهم » قال ذلك تشجيعًا لما يفعلونه .

وهذا الحديث أصل في الجمعيات التعاونية التي يفعلها بعض الناس اليوم ، تجتمع القبيلة على أن يضعوا صندوقًا يجمعون فيها ما تيسر من المال ؛ إما بالنسبة وإما بالاجتهاد والترشيح ، فيتفقون مثلًا على أن كل واحد منهم يدفع اثنين في المائة من راتبه أو من كسبه أو ما أشبه ذلك ، ويكون هذا الصندوق معدًّا للجوائح والنكبات التي تحصل على واحد منهم .

فهذا أصله حديث أبي موسى ﷺ ، فإذا جمع الناس صندوقًا على هذا النحو ليتساعدوا فيه على نكبات الزمان من الحوادث وغيرها ، فإن لذلك أصلًا في السنة ، وهو من الأمور المشروعة .

ولكن ينبغي أن نعلم أن هذا الصندوق قد يكون لمن يقع عليه الحادث ، وقد يكون لمن يقع منه الحادث .

أما الأول : فأن يوضع الصندوق للناس لمساعدة الناس الذين يحصل عليهم جوائح ؛ مثل جوائح تتلف زروعهم ومواشيهم ، أو أمطار تهدم بيوتهم ، أو حوادث تحدث على سياراتهم من غيرهم ، فيحتاجون إلى المساعدة ؛ فهذا طيب ولا إشكال فيه .

أما الثاني : فهو للحوادث التي تقع من الشخص ، فإذا فعل شخص حادثًا إذا دعس (٣) أحدًا أو ما أشبه ذلك ، فينبغي أن ينظر في هذا الأمر لأننا إذا وضعنا صندوقًا لهذا فإن السفهاء قد يتهورون ، ولا يهمهم أن تقع الحوادث منهم ، فإذا قدر أننا وضعنا صندوقًا لهذا الشيء فليكن ذلك بعد الدراسة ؛

---

(١) قوله تعالى : ﴿ وَفِي ذَٰلِكَ ﴾ وفي الأسباب المواصلة إلى ذلك النعيم . قوله تعالى : ﴿ فَلْيَتَنَافَسِ ﴾ فليتسابق .
(٢) أخرجه البخاري في المظالم (٢٤٥١) ومسلم في الأشربة (١٢٧) والإمام أحمد في مسنده (٥/٣٣٣) . قوله « بنصيبي منك » أي من أثر بركتك وفيضك ، فلم يكن عدم الإيثار كونه شرابًا وإنما لحلول أثر بركة النبي ﷺ وفضله .
(٣) دعس : طعن ودعسه : داسه دوسًا شديدًا (المعجم الوسيط ١/٢٩٥) .

دراسة ما حصل من الشخص دراسة عميقة ، وأنه لم يحصل منه تهور ولم يحصل منه تفريط ، وإلا فلا ينبغي أن توضع الصناديق لمساعدة هؤلاء السفهاء الذين يومًا يد عسون شخصًا ، ويومًا يصدمون سيارة وما أشبه ذلك ، وربما يقع ذلك عن حال غير مرضية كسكر ، أو عن حال يفرط فيها الإنسان كالنوم مثلًا .

المهم أن هذه الصناديق تكون على وجهين :

الوجه الأول : مساعدة من يحصل عليه الحادث ، فهذا طيب ولا إشكال فيه .

والوجه الثاني : أن يكون ممن يحصل منه الحادث ، فهذا إن وضع ولا أحبذ أن يوضع ، لكن إن وضع - فإنه يجب التحرز والتثبت من كون هذا الرجل الذي حصل منه الحادث لم يحصل منه تفريط ولا تعدٍّ .

ثم إن هذا المال الذي يوضع في الصندوق ليس فيه زكاة مهما بلغ من القدر ، وذلك لأنه ليس له مالك ، ومن شروط وجوب الزكاة أن يكون المال له مالك ، وهذا الصندوق ليس له مالك ، بل من حصل عليه حادث فإنه يساعد منه ، وأما أصحاب الصندوق الذين وضعوا هذه الفلوس فيه فإنهم لا يملكون نقدها ، لأنهم قد أخرجوها من أموالهم للمساعدة ، وعلى هذا فلا يكون فيها زكاة .

ثم هاهنا مسألة يسأل عنها الكثير من الناس ، وهي : أنه يجتمع أناس من الموظفين مثلًا ، ويقولون : سنخصم من كل راتب من رواتب هؤلاء النفر ألف ريال على كل واحد ، أو عشرة في المائة من راتبه ، يعني إما بالنسبة أو بالتعيين ، ونعطيها واحدًا منا ، وفي الشهر الثاني نعطيها الثاني ، وفي الشهر الثالث نعطيها الثالث ، وفي الشهر الرابع نعطيها الرابع ، حتى تدور عليهم ثم ترجع للأول المرة الثانية ، فبعض الناس يسأل عن ذلك .

والجواب على هذا أن نقول : إن هذا صحيح ولا بأس به ، وليس فيه حرج ، ومن توهم أنه من باب القرض الذي جر نفعًا فقد وهم ، لأني إذا سلفتُ هؤلاء الإخوان الذين معي شيئًا فأنا لا آخذ أكثر مما أعطيت ، وكونهم يقولون سوف يرجع إليه مال كثير نقول : نعم ، ولكن لم يرجع إليه أكثر مما أعطى ، فغاية ما فيه أنه سلف بشرط أن يوفي وليس في هذا شيء .

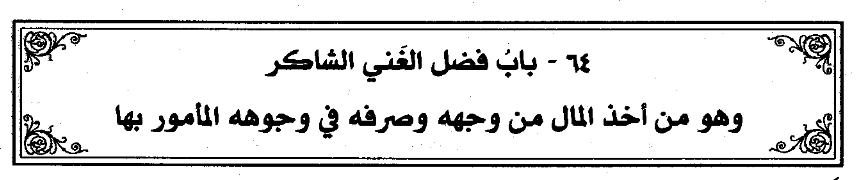
فهذا وهم من بعض طلبة العلم الذين يظنون أن هذا من باب الربا ؛ لأنه ليس فيه ربا إطلاقًا ، بل هو من باب التساعد والتعاون ، وكثيرًا من يحتاج بعض الناس إلى أموال حاضرة تفك مشاكله ، ويسلم من أن يذهب إلى أحد يتدين منه ويربي عليه ، أو يذهب إلى بنك يأخذ منه بالربا أو ما أشبه ذلك ، فهذه مصلحة وليس فيها مفسدة بأي وجه من الوجوه .

* * *

٥٧٠ - وعنْ أبي هريرة ﷺ عن النبي ﷺ قالَ : « بَينَا أَيُّوبُ ﷺ يَغتَسِلُ عُريَانًا ، فَخَرَّ عَلَيهِ جَرَادٌ مِن ذَهَب ، فَجَعَل أَيُّوبُ يَحثي في ثَوبِهِ ، فَنَادَاهُ رَبُّهُ ﷻ : يَا أَيُّوبُ ، أَلَم أَكُنْ أَغْنَيتُكَ عَمَّا

تَرَى ؟! قال : بَلَى وَعِزَّتِكَ ، وَلَكِنْ لا غِنَى بِي عَنْ بَرَكَتِكَ » (١) رواه البخاري .

* * *



٦٤ - بابُ فضل الغَني الشاكر
وهو من أخذ المال من وجهه وصرفه في وجوهه المأمور بها

قال الله تعالى : ﴿ فَأَمَّا مَنْ أَعْطَىٰ وَاتَّقَىٰ ۝ وَصَدَّقَ بِالْحُسْنَىٰ ۝ فَسَنُيَسِّرُهُ لِلْيُسْرَىٰ ﴾ [الليل : ٥-٧] .

وقال الله تعالى : ﴿ وَسَيُجَنَّبُهَا الْأَتْقَى ۝ الَّذِي يُؤْتِي مَالَهُ يَتَزَكَّىٰ ۝ وَمَا لِأَحَدٍ عِندَهُ مِن نِّعْمَةٍ تُجْزَىٰ ۝ إِلَّا ابْتِغَاءَ وَجْهِ رَبِّهِ الْأَعْلَىٰ ۝ وَلَسَوْفَ يَرْضَىٰ ﴾ [الليل : ١٧-٢١] .

وقال تعالى : ﴿ إِن تُبْدُوا الصَّدَقَاتِ فَنِعِمَّا هِيَ ۖ وَإِن تُخْفُوهَا وَتُؤْتُوهَا الْفُقَرَاءَ فَهُوَ خَيْرٌ لَّكُمْ ۚ وَيُكَفِّرُ عَنكُم مِّن سَيِّئَاتِكُمْ ۗ وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ ﴾ [البقرة : ٢٧١] .

وقال تعالى : ﴿ لَن تَنَالُوا الْبِرَّ حَتَّىٰ تُنفِقُوا مِمَّا تُحِبُّونَ ۚ وَمَا تُنفِقُوا مِن شَيْءٍ فَإِنَّ اللَّهَ بِهِ عَلِيمٌ ﴾ (٢) [آل‌عمران : ٩٢] والآيات في فضلِ الإنفاقِ في الطاعات كثيرةٌ مَعْلُومَةٌ .

الشرح

قال المؤلف - رحمه اللّٰه تعالى - : باب فضل الشاكر ، وهو الذي يأخذ المال بحقه ويصرفه في حقه .

فالغني هو الذي أعطاه اللّٰه ﷻ ما يستغني به عن غيره من مال أو علم أو جاه أو غير ذلك ، وإن كان الأكثر استعمالاً أن الغني هو الذي أعطاه اللّٰه المال الذي يستغني به عن غيره .

واللّٰه ﷻ يبتلي عباده بالمال يعني بالغنى وبالفقر ، فمن الناس من لو أغناه اللّٰه لأفسده الغنى ، ومن الناس من لو أفقره اللّٰه لأفسده الفقر (٣) ، واللّٰه ﷻ يعطي كل أحد بحسب ما تقتضيه الحكمة ﴿ كُلُّ نَفْسٍ ذَائِقَةُ الْمَوْتِ ۗ وَنَبْلُوكُم بِالشَّرِّ وَالْخَيْرِ فِتْنَةً ۖ وَإِلَيْنَا تُرْجَعُونَ ﴾ [الأنبياء : ٣٥] .

وإذا أعطى اللّٰه الإنسان المال فإنه ينقسم إلى قسمين :

القسم الأول : من يعطيه اللّٰه المال يكتسبه من طريق حرام ، كالمرابي والكذاب والغشاش في البيع والشراء ومن أكل أموال الناس بالباطل وغير ذلك ، فهذا غناه لا ينفعه لأنه غني في الدنيا ، ولكنه فقير والعياذ باللّٰه في الدنيا والآخرة .

إذ إن هذا الشيء الذي دخل عليه من هذا الوجه سوف يعاقب عليه يوم القيامة ، وأعظمه الربا ، فإن

---

(١) هذا الحديث لم يقم الشارح ﷺ بشرحه ، والحديث أخرجه البخاري في الغسل (٢٧٩) والإمام أحمد في مسنده (٢/٣١٤) .

(٢) قوله ﴿ وَاتَّقَىٰ ﴾ أي ابتعد عن المحارم . قوله ﴿ بِالْحُسْنَىٰ ﴾ الإسلام . قوله ﴿ فَسَنُيَسِّرُهُ ﴾ نهيئه . قوله ﴿ لِلْيُسْرَىٰ ﴾ أي الجنة في الدار الآخرة . قوله ﴿ الْأَتْقَى ﴾ شديد الخوف من اللّٰه (يتقي كلَّ ما يغضب اللّٰه) ، قوله ﴿ فَنِعِمَّا هِيَ ﴾ فنعم شيئًا إظهارُ الصدقات .

(٣) هذا الحديث وقد أخرجه البيهقي في الأسماء والصفات ص (١٢١) وابن الجوزي في العلل المتناهية (١/٣٢) .

الله ﷻ يقول في كتابه : ﴿ ٱلَّذِينَ يَأْكُلُونَ ٱلرِّبَوٰاْ لَا يَقُومُونَ إِلَّا كَمَا يَقُومُ ٱلَّذِى يَتَخَبَّطُهُ ٱلشَّيْطَٰنُ مِنَ ٱلْمَسِّ ۚ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ قَالُوٓاْ إِنَّمَا ٱلْبَيْعُ مِثْلُ ٱلرِّبَوٰاْ ۗ وَأَحَلَّ ٱللَّهُ ٱلْبَيْعَ وَحَرَّمَ ٱلرِّبَوٰاْ ۚ فَمَن جَآءَهُۥ مَوْعِظَةٌ مِّن رَّبِّهِۦ فَٱنتَهَىٰ فَلَهُۥ مَا سَلَفَ وَأَمْرُهُۥٓ إِلَى ٱللَّهِ ۖ وَمَنْ عَادَ فَأُوْلَٰٓئِكَ أَصْحَٰبُ ٱلنَّارِ ۖ هُمْ فِيهَا خَٰلِدُونَ ﴾ [البقرة : ٢٧٥] ، ويقول الله تبارك وتعالى : ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَذَرُواْ مَا بَقِىَ مِنَ ٱلرِّبَوٰٓاْ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ۝ فَإِن لَّمْ تَفْعَلُواْ فَأْذَنُواْ بِحَرْبٍ مِّنَ ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ ۖ وَإِن تُبْتُمْ فَلَكُمْ رُءُوسُ أَمْوَٰلِكُمْ لَا تَظْلِمُونَ وَلَا تُظْلَمُونَ ﴾ [البقرة : ٢٧٨- ٢٧٩] .

القسم الثاني من الأغنياء : من أغناه الله بمال لكن عن طريق الحلال ، يبيع بالبيان والنصح والصدق ، ويأخذ كذلك ، ولا يكتسب إلا المال الحلال ، فهذا هو الذي ينفعه غناه ، لأن من كان كذلك فالغالب أن الله يوفقه لصرفه فيما ينفع .

فهذا هو الغني الشاكر الذي يأخذ المال بحقه ، ويصرفه في حقه على الوجه الذي شرعه الله له .

ثم ذكر المؤلف رحمه الله آيات في هذا المعنى ، فذكر قول الله ﷻ : ﴿ فَأَمَّا مَنْ أَعْطَىٰ وَٱتَّقَىٰ ۝ وَصَدَّقَ بِٱلْحُسْنَىٰ ۝ فَسَنُيَسِّرُهُۥ لِلْيُسْرَىٰ ﴾ [الليل : ٥- ٧] . أعطى بذل المال في وجهه ، واتقى الله ﷻ في بذله وفي جمعه ، فهذا ييسر لليسرى .

وقال سبحانه : ﴿ وَأَمَّا مَنۢ بَخِلَ وَٱسْتَغْنَىٰ ۝ وَكَذَّبَ بِٱلْحُسْنَىٰ ۝ فَسَنُيَسِّرُهُۥ لِلْعُسْرَىٰ ۝ وَمَا يُغْنِى عَنْهُ مَالُهُۥٓ إِذَا تَرَدَّىٰٓ ۝ إِنَّ عَلَيْنَا لَلْهُدَىٰ ﴾ [الليل : ٨- ١٢] .

وقال تعالى : ﴿ وَسَيُجَنَّبُهَا ﴾ يعني النار ﴿ ٱلْأَتْقَى ۝ ٱلَّذِى يُؤْتِى مَالَهُۥ يَتَزَكَّىٰ ۝ وَمَا لِأَحَدٍ عِندَهُۥ مِن نِّعْمَةٍ تُجْزَىٰٓ ۝ إِلَّا ٱبْتِغَآءَ وَجْهِ رَبِّهِ ٱلْأَعْلَىٰ ۝ وَلَسَوْفَ يَرْضَىٰ ﴾ يعني على وجه يتزكى به ، وعلى وجه يقربه إلى الله ﷻ .

﴿ وَمَا لِأَحَدٍ عِندَهُۥ مِن نِّعْمَةٍ تُجْزَىٰٓ ﴾ يعني ليس يعطي المال من باب المكافآت على قضاء مصالحه الشخصية ، ولكنه يعطي المال لله ، ولهذا قال : ﴿ إِلَّا ٱبْتِغَآءَ وَجْهِ رَبِّهِ ٱلْأَعْلَىٰ ﴾ فهو يعطي المال ابتغاء وجه ربه الأعلى ﴿ وَلَسَوْفَ يَرْضَىٰ ﴾ بما يجازيه الله به .

فعلى المؤمن إذا أغناه الله ﷻ أن يكون شاكرًا لله قائمًا بما أوجب الله عليه من بذل المال في حقه على الوجه الذي يرضي الله ﷻ .

* * *

٥٧١ - وعن عبدِ الله بن مسعودٍ رضي الله عنه قال : قال رسول الله ﷺ : « لا حَسَد إلا في اثْنَتين : رجُلٌ آتاهُ الله مَالًا ، فَسلَّطَهُ على هَلَكتِهِ في الحَقِّ ، ورجُلٌ آتاه الله حِكْمَةً فهُو يقضِي بها ويُعَلِّمُها »(١) متفقٌ عليه وتقدم شرحه قريبًا .

٥٧٢ - وعن ابنِ عمر رضي الله عنهما عن النبي ﷺ قال : « لا حَسَد إلا في اثْنَتَين : رجُلٌ آتاهُ اللهُ القُرآنَ ، فهو يقُومُ بِهِ آناءَ اللَّيلِ وآناءَ النَّهارِ ، ورَجُلٌ آتاهُ الله مَالًا ، فهوَ يُنْفِقهُ آناءَ اللَّيلِ وَآناءَ النَّهارِ »(٢) متفقٌ عليه .

(١) أخرجه مسلم واللفظ له في صلاة المسافرين (٢٦٨) والبخاري في العلم (٧٣) وقوله « هلكته » أي إنفاقه .
(٢) أخرجه مسلم في صلاة المسافرين (٢٦٦) واللفظ له والبخاري في التوحيد (٧٥٢٩) .

« الآنَاءُ » : السَّاعَاتُ .

٥٧٣ - وعن أبي هُريرة ﷺ أنَّ فُقَرَاءَ المهَاجِرينَ أتَوا رسول الله ﷺ ، فَقَالوا : ذَهَبَ أَهلُ الدُّثُورِ بِالدَّرجاتِ العُلَى ، والنَّعِيمِ المُقيم ، فَقَالَ : « ومَا ذَاكَ ؟ » فَقَالُوا : يُصَلُّونَ كمَا نُصَلِّي ، وَيصُومُونَ كما نَصُومُ ، وَيَتَصَدَّقُونَ ولَا نَتَصَدَّقُ ، ويَعتِقُونَ ولا نَعتِقُ ، فقال رسول الله ﷺ : «أَفَلا أُعَلِّمُكُمْ شَيْئًا تُدرِكُونَ بِهِ مَنْ سَبَقَكُمْ ، وتَسْبِقُونَ بِهِ مَنْ بَعْدَكُمْ ، وَلاَ يَكُونُ أَحَدٌ أَفْضَلَ مِنْكُم إلا مَنْ صَنَعَ مِثْلَ ما صَنَعْتُم ؟ » قالوا : بَلَى يا رسولَ اللَّه ، قَالَ : «تُسبِّحُونَ ، وتَحمَدُونَ ، وتُكَبِّرُونَ ، دُبُرَ كُلِّ صَلاةٍ ثلاثًا وثَلاثينَ مَرَّةً » فَرَجَعَ فُقَرَاءُ المُهَاجِرِينَ إلى رسول اللَّه ﷺ ، فَقَالُوا : سمِعَ إخْوَانُنَا أَهْلُ الأَمَوالِ بِمَا فَعَلْنَا ، فَفَعَلوا مِثْلَهُ ؟ فَقَالَ رسول اللَّه ﷺ : « ذلِكَ فَضْلُ اللَّهِ يُؤْتِيهِ مَن يَشَاءُ » [1] متفقٌ عليه وهذا لفظ روايةِ مسلم .

« الدُّثُورُ » : الأموالُ الكَثِيرَةُ ، واللَّه أعلم .

الشرح

ذكر المؤلف رَحِمَهُ ٱللَّهُ أحاديث في بيان الذين ينفقون أموالهم ويجودون بها في سبيل اللَّه ، ففي حديث عبد اللَّه بن مسعود وعبد اللَّه بن عمر رضي الله عنهم بيان أنه لا حسد إلا في اثنتين ، يعني لا أحد يُغبط غبطة حقيقة إلا هذان الصنفان .

الأول : من آتاه اللَّه العلم وهو الحكمة ، فكان يعمل بها ويعلمها الناس ، فهذا هو الذي يغبط ، لأنك إذا قارنت بين حال هذا الرجل وحال الجاهل عرفت الفرق بينهما ؛ الجاهل يعبد اللَّه على جهل ، ولا يعرف من شريعة اللَّه إلا ما فعله الناس ، فتجده يتبع الناس على الصواب والخطأ ، وهذا نقص كبير في عبادة الرجل ؛ لأن الإنسان إذا عبد اللَّه على غير بصيرة صارت عبادته ناقصة .

كذلك إذا قارنت بين رجل آتاه اللَّه العلم ولكنه لم يعمل به ورجل آتاه اللَّه العلم فعمل به وعلمه الناس ، تجد الفرق العظيم بين هذا وهذا ، فالذي يغبط حقيقة هو الذي آتاه العلم فعمل به وعلمه الناس .

والثاني : رجل آتاه اللَّه مالًا فهو ينفقه في سبيل اللَّه ، في كل ما يرضي اللَّه ليلًا ونهارًا ، فهذا هو الذي يغبط ، أما من آتاه اللَّه المال ولكنه لم ينفقه في مرضاة اللَّه ، فلا غبطة فيه ، ولا يغبط على ما أوتي ؛ لأن هذا المال إن انتفع به انتفع به في الدنيا فقط ، لأنه لا ينفقه للَّه ولا في سبيل اللَّه .

وكذلك إذا كان رجل فقير لم يؤت مالًا فهو أيضًا لا يغبط ، فلا يغبط من ذوي المال إلا من آتاه اللَّه مالًا فسلطه على هلكته في الحق ، فيما يرضي اللَّه عَزَّ وَجَلَّ .

ثم ذكر حديث أبي هريرة رضي الله عنه حين جاء فقراء المهاجرين إلى رسول اللَّه ﷺ فقالوا : « يا رسول اللَّه ، ذهب أهل الدثور بالأجور » جمع أجر « بالدرجات العلى والنعيم المقيم » . قال : « وما ذاك ؟ »

(١) أخرجه البخاري في الدعوات (٦٣٢٩) ، ومسلم في المساجد ومواضع الصلاة (١٤٢) .

قالوا : « يصلون كما نصلي ، ويصومون كما نصوم ، ويتصدقون ولا نتصدق ، ويعتقون ولا نعتق » يعني فهم أفضل منا ، لأن اللَّه منَّ عليهم بالمال فبذلوه في طاعة اللَّه ، وفيما يرضي اللَّه .

فقال - عليه الصلاة والسلام - : « أفلا أعلمكم شيئًا تدركون به من سبقكم ، وتسبقون من بعدكم ، ولا يكون أحد أفضل منكم إلا من صنع مثل ما صنعتم ؟ » فقالوا : « بلى يا رسول اللَّه » ، قال : « تسبحون وتحمدون وتكبرون ، دبر كل صلاة ثلاثًا وثلاثين مرة » .

يعني تقولون : سبحان اللَّه ثلاثًا وثلاثين ، والحمد للَّه ثلاثًا وثلاثين ، واللَّه أكبر ثلاثًا وثلاثين ، فصاروا يفعلون ذلك ، ولكن الأغنياء سمعوا بهذا فصاروا يقولونه ؛ يسبحون ويكبرون ويحمدون ثلاثًا وثلاثين دبر كل صلاة .

فرجع الفقراء مرة ثانية إلى النبي - عليه الصلاة والسلام - وقالوا : « يا رسول اللَّه ، سمع إخواننا أهل الأموال بما صنعنا فصنعوا مثله » ، فقال عليه الصلاة والسلام : ﴿ ذَٰلِكَ فَضْلُ ٱللَّهِ يُؤْتِيهِ مَن يَشَآءُ ﴾ يعني أن اللَّه ﷻ أغناهم وأعطاهم المال فبذلوه في طاعة اللَّه ، وهذا فضل اللَّه .

وفي هذا دليل على أن الصحابة ﷺ كانوا يتسابقون إلى الخير ، فالأغنياء لما سمعوا بما أرشد إليه النبي - عليه الصلاة والسلام - الفقراء بادروا إليه وفعلوه ، والفقراء جاءوا يشكون أنهم لا يستطيعون فعل بعض العبادات المالية لقلة ذات أيديهم ، فأرشدهم النبي ﷺ لما يدركون به من سبق ، ويسبقون به من بعدهم .

ففعلوا ذلك إلا أنهم أتوا مرة أخرى يشكون أن إخوانهم الأغنياء لما سمعوا بذلك بادروا بفعله ، فقال لهم عليه الصلاة والسلام : « ذلك فضل اللَّه يؤتيه من يشاء » .

والخلاصة : أنه يجب على الإنسان إذا آتاه اللَّه المال أن يبذله فيما يرضي اللَّه ، فإن هذا هو الذي يحسد ، يعني يغبط ما آتاه اللَّه من المال .

* * *

٦٥ - باب ذكر الموت وقصر الأمل

قال اللَّه تعالى : ﴿ كُلُّ نَفْسٍ ذَآئِقَةُ ٱلْمَوْتِۗ وَإِنَّمَا تُوَفَّوْنَ أُجُورَكُمْ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِۖ فَمَن زُحْزِحَ عَنِ ٱلنَّارِ وَأُدْخِلَ ٱلْجَنَّةَ فَقَدْ فَازَۗ وَمَا ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَآ إِلَّا مَتَٰعُ ٱلْغُرُورِ ﴾ [آل عمران: ١٨٥] .

الشرح

قال المؤلف النووي رَحِمَهُ ٱللَّهُ في رياض الصالحين : باب ذكر الموت وقصر الأمل ، هذا الباب يذكر فيه المؤلف رَحِمَهُ ٱللَّهُ أنه يجب على العاقل أن يتذكر الموت وأن يقصر الأمل في الدنيا ، وليس الأمل في ثواب اللَّه ﷻ وما عنده من الثواب الجزيل لمن عمل صالحاً .

لكن المراد أنك لا تطل الأمل في الدنيا ، فكم من إنسان أمّل أملًا بعيدًا فإذا الأجل يفجؤه ؟! وكم

من إنسان يُقدّر ويفكر سيفعل ويفعل ويفعل ، فإذا به قد انتهى أجله وترك ما أمله ، وانقطع حبل الأمل ، وحضر الأجل ؟!

فالذي ينبغي للإنسان العاقل كلما رأى من نفسه طموحًا إلى الدنيا وانشغالًا بها واغترارًا بها أن يتذكر الموت ، ويتذكر حال الآخرة ، لأن هذا هو المآل المتيقن ، وما يؤمله الإنسان في الدنيا فقد يحصل وقد لا يحصل ﴿ مَّن كَانَ يُرِيدُ ٱلْعَاجِلَةَ عَجَّلْنَا لَهُۥ فِيهَا مَا نَشَآءُ ﴾ [الإسراء: ١٨] ، لا ما يشاء هو ، بل ما يشاء الله ﷻ : ﴿ مَا نَشَآءُ لِمَن نُّرِيدُ ثُمَّ جَعَلْنَا لَهُۥ جَهَنَّمَ يَصْلَىٰهَا مَذْمُومًا مَّدْحُورًا ۝ وَمَنْ أَرَادَ ٱلْـَٔاخِرَةَ وَسَعَىٰ لَهَا سَعْيَهَا وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَأُو۟لَـٰٓئِكَ كَانَ سَعْيُهُم مَّشْكُورًا ﴾ [الإسراء: ١٨، ١٩] .

ثم ذكر الآيات ومنها قوله تعالى : ﴿ كُلُّ نَفْسٍ ذَآئِقَةُ ٱلْمَوْتِ ۗ وَإِنَّمَا تُوَفَّوْنَ أُجُورَكُمْ يَوْمَ ٱلْقِيَـٰمَةِ ۖ ﴾ [آل عمران: ١٨٥] . فكل نفس منفوسة من بني آدم وغير بني آدم ذائقة الموت ، لابد أن تذوق الموت ، وعبر بقوله : ذائقة ؛ لأن الموت يكون له مذاق مر يكرهه كل إنسان .

لكن المؤمن إذا حضره أجله وبشر بما عند الله ﷻ أحبَّ لقاء الله ولا يكره الموت حينئذ ، قال تعالى : ﴿ وَإِنَّمَا تُوَفَّوْنَ أُجُورَكُمْ يَوْمَ ٱلْقِيَـٰمَةِ ۖ ﴾ أي تعطونها وافية كاملة يوم القيامة .

وإن أوتي الإنسان أجره في الدنيا فإنه ليس هذا هو الأجر فقط ، بل الأجر الوافي الكامل الذي به يستوفي الإنسان كل أجره يكون يوم القيامة ، وإلا فإن المؤمن قد يثاب على أعماله الصالحة في الدنيا ، لكن ليس هو الأجر الكامل الذي فيه التوفية الكاملة ، لأن هذه إنما تكون يوم القيامة ﴿ فَمَن زُحْزِحَ عَنِ ٱلنَّارِ ﴾ زحزح يعني أبعد عن النار ﴿ وَأُدْخِلَ ٱلْجَنَّةَ فَقَدْ فَازَ ۗ ﴾ لأنه نجى من المكروه وحصل له المطلوب ، نجى من المكروه وهو دخول النار ، وحصل له المطلوب وهو دخول الجنة ، وهذا هو الفوز العظيم الذي لا فوز مثله .

﴿ وَمَا ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَآ إِلَّا مَتَـٰعُ ٱلْغُرُورِ ﴾ [الحديد: ٢٠] . صدق الله ﷻ ؛ الدنيا متاع الغرور يعني متاع ليس دائمًا ، بل كما يكون للمسافر متاع يصل به إلى منتهى سفره ، ومع ذلك فهي متاع غرور تغر الإنسان ، تزدان له وتزدهر وتكتحل وتتحسن وتكون كأحسن شيء ، ولكنها تغره .

كلما كثرت الدنيا وتشبث الإنسان بها بَعُدَ من الآخرة ، ولهذا قال النبي - عليه الصلاة والسلام - : « والله ما الفقر أخشى عليكم ، وإنما أخشى عليكم أن تفتح عليكم الدنيا كما فتحت على من كان قبلكم ، فتنافسوها كما تنافسوها فتهلككم كما أهلكتهم » (١) .

ولهذا نجد الإنسان أحيانًا يكون في حال الضيق أو الوسط خيرًا منه في حال الغنى ، لأنه يغره الغنى ويطغيه والعياذ بالله ، ولهذا قال : ﴿ وَمَا ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَآ إِلَّا مَتَـٰعُ ٱلْغُرُورِ ﴾ يعني فلا تغتروا بها ، وعليكم بالآخرة التي إذا زحزح فيها الإنسان عن النار وأدخل الجنة ، فإنه بذلك يفوز فوزًا لا فوز مثله .

* * *

وقال تعالى : ﴿ وَمَا تَدْرِى نَفْسٌ مَّاذَا تَكْسِبُ غَدًا ۖ وَمَا تَدْرِى نَفْسٌۢ بِأَىِّ أَرْضٍ تَمُوتُ ۚ ﴾ [لقمان: ٣٤] .

(١) أخرجه البخاري في الرقاق (٦٤٢٥) ومسلم في الزهد (٦) .

وقال تعالى : ﴿ فَإِذَا جَآءَ أَجَلُهُمْ لَا يَسْتَـْٔخِرُونَ سَاعَةً وَلَا يَسْتَقْدِمُونَ ﴾ [النحل: ٦١] .

الشرح

ذكر المؤلف - رحمه الله تعالى - في باب ذكر الموت وقصر الأمل فيما ساقه من آيات الله ﷻ ، ذكر قوله تعالى : ﴿ وَمَا تَدْرِى نَفْسٌ مَّاذَا تَكْسِبُ غَدًا وَمَا تَدْرِى نَفْسٌ بِأَىِّ أَرْضٍ تَمُوتُ ﴾ وهذه إحدى مفاتح الغيب التي لا يعلمها إلا الله ﷻ .

قال الله تعالى : ﴿ وَعِندَهُۥ مَفَاتِحُ ٱلْغَيْبِ لَا يَعْلَمُهَآ إِلَّا هُوَ ﴾ [الأنعام: ٥٩] ومفاتح الغيب هي الخمس المذكورة في قوله تعالى : ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ عِندَهُۥ عِلْمُ ٱلسَّاعَةِ وَيُنَزِّلُ ٱلْغَيْثَ وَيَعْلَمُ مَا فِى ٱلْأَرْحَامِ وَمَا تَدْرِى نَفْسٌ مَّاذَا تَكْسِبُ غَدًا وَمَا تَدْرِى نَفْسٌ بِأَىِّ أَرْضٍ تَمُوتُ ﴾ [لقمان: ٣٤] .

فهذه الخمس لا يعملها إلا الله ﷻ ، فعلم الساعة لا يعلمه أحد ، حتى إن جبريل وهو أشرف الملائكة سأل رسول الله ﷺ وهو أعلم البشر فقال : « أخبرني عن الساعة . قال : ما المسئول عنها بأعلم من السائل » [١] . فلا يعلمها إلا الله ﷻ .

﴿ وَيُنَزِّلُ ٱلْغَيْثَ ﴾ والمنزل للغيث يعلم متى ينزل ، فهو ﷻ هو الذي يعلم متى ينزل الغيث وهو الذي ينزله ، والغيث هو المطر الذي يحصل به نبات الأرض وزوال الشدة .

وليس كل مطر يسمى غيثًا ، فإن المطر أحيانًا لا يجعل الله فيه بركة فلا تنبت به الأرض ، كما قال النبي - عليه الصلاة والسلام - « ليس السنة ألا تمطروا » يعني ليس الجدب ألا تمطروا « بل السنة أن تمطروا ولا تنبت الأرض شيئًا » [٢] .

وهذا يقع أحيانًا ، فأحيانًا تكثر الأمطار ولا يجعل الله تعالى فيها بركة ، فلا تنبت الأرض ولا تحيا ، وهذا الحديث الذي سقته في صحيح مسلم : « إنما السنة أن تمطروا فلا تنبت الأرض شيئًا » .

فالذي ينزل الغيث هو الله ، والمنزل له عالم متى ينزل ، وأما ما نسمعه في الإذاعات من أنه يُتوقع مطر في المكان الفلاني وما أشبه ذلك ، فهو ظن بحسب ما يتبادر من احتمال المطر بمقياس الجو ، وهي مقاييس دقيقة يعرفون بها هل الجو متهيِّئ للمطر أو لا ، ومع ذلك فهم يخطؤون كثيرًا ، فلا يعلم متى ينزل المطر إلا الله ﷻ .

﴿ وَيَعْلَمُ مَا فِى ٱلْأَرْحَامِ ﴾ لا يعلم ما في الأرحام إلا الله ، والأجنة التي في الأرحام لها أحوال ، منها ما يعلم إذا وجد ولو كان الإنسان في بطن أمه ، ومنها ما لا يعلم أبدًا ، فكونه ذكرًا أو أنثى يعلم وهو في بطن أمه ، ولكنه لا يعلم إلا إذا خلق الله تعالى فيه علامات الذكورة أو علامات الأنوثة .

وأما متى يولد ، وهل يولد حيًا أو ميتًا ، وهل يبقى في الدنيا طويلًا أو لا يبقى إلا مدة قصيرة ، وهل يكون عمله صالحًا ، أو عمله سيئًا ، وهل يُختم له بالسعادة أو بالشقاوة ، وهل يبسط له في الرزق أو يُقدر عليه زرقه ، فكل هذا لا يعلمه إلا الله .

(١) أخرجه البخاري في الإيمان (٥٠) ومسلم في الإيمان (١) .

(٢) أخرجه مسلم في الفتن (٤٤) .

﴿ وَمَا تَدْرِي نَفْسٌ مَّاذَا تَكْسِبُ غَدًا ﴾ يعني ماذا تكسب في المستقبل ؟ فلا تدري نفس ماذا تكسب ، هل تكسب خيرًا أو تكسب شرًّا ، أو تموت قبل غد ، أو يأتي غد وفيه ما يمنع العمل ، وما أشبه ذلك ؟ فالإنسان يظل يقول : سأفعل كذا ، سأفعل كذا ، لكنه قد لا يفعل ، فهو لا يعلم ماذا يكسب غدًا علمًا يقينيًّا ، ولكنه يقدر وقد تختلف الأمور .

﴿ وَمَا تَدْرِي نَفْسٌ بِأَيِّ أَرْضٍ تَمُوتُ ﴾ ، لا يدري الإنسان بأي أرضٍ يموت ، هل يموت بأرضه ، أو بأرض بعيدة عنها ، أو قريبة منها ، أو يموت في البحر ، أو يموت في الجو ؟ لا يدري ، ولا يعلم ذلك إلا اللّٰه .

فإذا كنت لا تدري بأي أرض تموت ، وأنت يمكنك أن تذهب يمينًا وشمالًا ، فكذلك لا تعلم متى تموت ، لا تدري في أي وقت تموت ، هل ستموت في الصباح ، في المساء ، في الليل ، في وسط النهار ، في الشهر القريب ، في الشهر البعيد ؟ لا تدري متى تموت ولا بأي أرض تموت .

فإذا كنت كذلك فأقصر الأمل ، لا تمد الأمل طويلًا ، لا تقل : أنا شاب وسوف أبقى زمانًا طويلًا ، فكم من شابّ مات في شبابه ، وكم من شيخ عَمَّرَ ، ولا تقل : إني صحيح البدن والموت بعيد ، كم من إنسان مرض بمرض يهلكه بسرعة ، وكم من إنسان حصل عليه حادث ، وكم من إنسان مات بغتة ، لذلك لا ينبغي للإنسان أن يطيل الأمل ، بل عليه أن يعمل ، وللدنيا عملها وللآخرة عملها ، فيسعى للآخرة سعيها بإيمانٍ باللّٰه ﷻ واتكال عليه .

فقد قال تعالى : ﴿ فَإِذَا جَآءَ أَجَلُهُمْ لَا يَسْتَـْٔخِرُونَ سَاعَةً وَلَا يَسْتَقْدِمُونَ ﴾ إذا جاء أجل الإنسان لا يمكن أن يتأخر دقيقة واحدة ولا يمكن أن يتقدم ، بل هو بأجل معدود محدود ، لا يتقدم عليه ولا يتأخر فلماذا تجعل الأمل طويلًا ؟

فالإنسان لا يعلم متى يموت ، ولا يعلم بأي أرض يموت ، وقد حدثني أحد إخواني الثقات قال : إنهم كانوا في سفر الحج على الإبل ، وكان معهم رجل معه أمه يمرضها ، فتأخر عن القوم في آخر الليل ، فارتحل الناس ومشوا وبقي مع أمه يمرضها ، ولما أصبح وسار خلف القوم لم يدركهم ، ولم يدر إلى أين اتجهوا ؛ لأنهم في مكة .

يقول : فسلك طريقًا بين هذه الجبال ، فإذا هو واقف على بيت من الشعر فيه عدد من الناس قليلين ، فسألهم أين طريق نجد ؟ قالوا : أنت بعيد عن الطريق ، لكن نوخ البعير واجلس استرح ثم نحن نوصلك ، يقول : فنزل فنوخ البعير وأنزل أمه ، يقول : فما هي إلا أن اضطجعت على هذه الأرض فقبض اللّٰه روحها ، كيف جاء من القصيم إلى مكة مع الحجاج ، وأراد اللّٰه أن يتيه هذا الرجل حتى ينزل بهذا المكان ، لا يعلم هذا إلا اللّٰه ﷻ .

وكذلك أيضًا في الزمن ، كم بلغنا من أناس تأخروا قليلًا فجاءهم حادث فماتوا به ، ولو تقدموا قليلًا لسلموا منه ، كل هذا لأن اللّٰه تعالى قد قدر كل شيء بأجل محدود ، فالإنسان يجب عليه أن يحتاط لنفسه ، وألا يطيل الأمل ، وأن يعمل للآخرة ، وكأنه يموت قريبًا لأجل أن يستعد لها ، فهذه

الآيات كلها تدل على أن الإنسان يجب عليه أن يقصر الأمل وأن يستعد للآخرة .

* * *

قال تعالى : ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تُلۡهِكُمۡ أَمۡوَٰلُكُمۡ وَلَآ أَوۡلَٰدُكُمۡ عَن ذِكۡرِ ٱللَّهِۚ وَمَن يَفۡعَلۡ ذَٰلِكَ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡخَٰسِرُونَ ۞ وَأَنفِقُواْ مِن مَّا رَزَقۡنَٰكُم مِّن قَبۡلِ أَن يَأۡتِيَ أَحَدَكُمُ ٱلۡمَوۡتُ فَيَقُولَ رَبِّ لَوۡلَآ أَخَّرۡتَنِيٓ إِلَىٰٓ أَجَلٖ قَرِيبٖ فَأَصَّدَّقَ وَأَكُن مِّنَ ٱلصَّٰلِحِينَ ۞ وَلَن يُؤَخِّرَ ٱللَّهُ نَفۡسًا إِذَا جَآءَ أَجَلُهَاۚ وَٱللَّهُ خَبِيرُۢ بِمَا تَعۡمَلُونَ ﴾ [المنافقون : ٩- ١١] .

وقال تعالى : ﴿ حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءَ أَحَدَهُمُ ٱلۡمَوۡتُ قَالَ رَبِّ ٱرۡجِعُونِ ۞ لَعَلِّيٓ أَعۡمَلُ صَٰلِحٗا فِيمَا تَرَكۡتُۚ كَلَّآۚ إِنَّهَا كَلِمَةٌ هُوَ قَآئِلُهَاۖ وَمِن وَرَآئِهِم بَرۡزَخٌ إِلَىٰ يَوۡمِ يُبۡعَثُونَ ۞ فَإِذَا نُفِخَ فِي ٱلصُّورِ فَلَآ أَنسَابَ بَيۡنَهُمۡ يَوۡمَئِذٖ وَلَا يَتَسَآءَلُونَ ۞ فَمَن ثَقُلَتۡ مَوَٰزِينُهُۥ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡمُفۡلِحُونَ ۞ وَمَنۡ خَفَّتۡ مَوَٰزِينُهُۥ فَأُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ خَسِرُوٓاْ أَنفُسَهُمۡ فِي جَهَنَّمَ خَٰلِدُونَ ۞ تَلۡفَحُ وُجُوهَهُمُ ٱلنَّارُ وَهُمۡ فِيهَا كَٰلِحُونَ ۞ أَلَمۡ تَكُنۡ ءَايَٰتِي تُتۡلَىٰ عَلَيۡكُمۡ فَكُنتُم بِهَا تُكَذِّبُونَ ۞ قَالُواْ رَبَّنَا غَلَبَتۡ عَلَيۡنَا شِقۡوَتُنَا وَكُنَّا قَوۡمٗا ضَآلِّينَ ۞ رَبَّنَآ أَخۡرِجۡنَا مِنۡهَا فَإِنۡ عُدۡنَا فَإِنَّا ظَٰلِمُونَ ۞ قَالَ ٱخۡسَـُٔواْ فِيهَا وَلَا تُكَلِّمُونِ ۞ إِنَّهُۥ كَانَ فَرِيقٞ مِّنۡ عِبَادِي يَقُولُونَ رَبَّنَآ ءَامَنَّا فَٱغۡفِرۡ لَنَا وَٱرۡحَمۡنَا وَأَنتَ خَيۡرُ ٱلرَّٰحِمِينَ ۞ فَٱتَّخَذۡتُمُوهُمۡ سِخۡرِيًّا حَتَّىٰٓ أَنسَوۡكُمۡ ذِكۡرِي وَكُنتُم مِّنۡهُمۡ تَضۡحَكُونَ ۞ إِنِّي جَزَيۡتُهُمُ ٱلۡيَوۡمَ بِمَا صَبَرُوٓاْ أَنَّهُمۡ هُمُ ٱلۡفَآئِزُونَ ۞ قَٰلَ كَمۡ لَبِثۡتُمۡ فِي ٱلۡأَرۡضِ عَدَدَ سِنِينَ ۞ قَالُواْ لَبِثۡنَا يَوۡمًا أَوۡ بَعۡضَ يَوۡمٖ فَسۡـَٔلِ ٱلۡعَآدِّينَ ۞ قَٰلَ إِن لَّبِثۡتُمۡ إِلَّا قَلِيلٗاۖ لَّوۡ أَنَّكُمۡ كُنتُمۡ تَعۡلَمُونَ ۞ أَفَحَسِبۡتُمۡ أَنَّمَا خَلَقۡنَٰكُمۡ عَبَثٗا وَأَنَّكُمۡ إِلَيۡنَا لَا تُرۡجَعُونَ ﴾ [المؤمنون : ٩٩- ١١٥] .

الشرح

ذكر المؤلف رَحِمَهُ ٱللَّهُ في كتابه رياض الصالحين في باب ذكر الموت وقصر الأمل قوله تعالى : ﴿ وَأَنفِقُواْ مِن مَّا رَزَقۡنَٰكُم مِّن قَبۡلِ أَن يَأۡتِيَ أَحَدَكُمُ ٱلۡمَوۡتُ فَيَقُولَ رَبِّ لَوۡلَآ أَخَّرۡتَنِيٓ إِلَىٰٓ أَجَلٖ قَرِيبٖ فَأَصَّدَّقَ وَأَكُن مِّنَ ٱلصَّٰلِحِينَ ﴾ .

أمر اللَّه بالإنفاق مما رزقنا ، أي مما أعطانا ، وحذرنا مما لابد منه ﴿ مِّن قَبۡلِ أَن يَأۡتِيَ أَحَدَكُمُ ٱلۡمَوۡتُ ﴾ وحينئذ يندم الإنسان على عدم الإنفاق ويقول : ﴿ رَبِّ لَوۡلَآ أَخَّرۡتَنِيٓ إِلَىٰٓ أَجَلٖ قَرِيبٖ ﴾ يتمنى أن اللَّه يؤخره إلى أجل قريب ﴿ فَأَصَّدَّقَ وَأَكُن مِّنَ ٱلصَّٰلِحِينَ ﴾ يعني فبسبب تأخيرك إياي أتصدق وأكن من الصالحين .

قال اللَّه عَزَّ وَجَلَّ : ﴿ وَلَن يُؤَخِّرَ ٱللَّهُ نَفۡسًا إِذَا جَآءَ أَجَلُهَاۚ وَٱللَّهُ خَبِيرُۢ بِمَا تَعۡمَلُونَ ﴾ . إذا جاء الأجل لا يمكن أن يتأخر الإنسان لحظة واحدة ، بل لابد أن يموت في المدة التي عينها اللَّه عَزَّ وَجَلَّ على حسب ما تقتضيه حكمته .

فمن الناس من يطول بقاؤه في الدنيا ، ومن الناس من يقصر ، كما أن من الناس من يكثر رزقه ، ومنهم من يقل ، ومنهم من يكثر علمه ، ومنهم من يقل ، ومنهم من يقوى فهمه ، ومنهم من يضعف ، ومنهم من يكون طويلًا ، ومنهم من يكون قصيرًا ، فاللَّه عَزَّ وَجَلَّ خلق عباده متفاوتين في كل شيء .

وقال اللَّه عَزَّ وَجَلَّ : ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تُلۡهِكُمۡ أَمۡوَٰلُكُمۡ وَلَآ أَوۡلَٰدُكُمۡ عَن ذِكۡرِ ٱللَّهِۚ وَمَن يَفۡعَلۡ ذَٰلِكَ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡخَٰسِرُونَ ﴾ . نهى اللَّه تعالى أن تلهينا أموالنا وأولادنا عن ذكر اللَّه ، وبين أن من ألهته هذه الأشياء عن ذكر اللَّه فهو خاسر مهما ربح ... لو ربح أموالًا كثيرة ، وكان عنده بنون ، وكان

عنده أهل ، ولكنه قد تلهى بهم عن ذكر الله فإنه خاسر .

فالرابح من اشتغل بذكر الله ﷻ . وذكر الله ليس هو قول لا إله إلا الله فقط ، بل كل قول يقرب إلى الله فهو ذكر له وكل فعل يقرب إلى الله فهو ذكر له ، كما قال تعالى : ﴿ وَأَقِمِ ٱلصَّلَوٰةَ إِنَّ ٱلصَّلَوٰةَ تَنۡهَىٰ عَنِ ٱلۡفَحۡشَآءِ وَٱلۡمُنكَرِۗ وَلَذِكۡرُ ٱللَّهِ أَكۡبَرُۗ وَٱللَّهُ يَعۡلَمُ مَا تَصۡنَعُونَ ﴾ [العنكبوت : ٤٥] .

ولأن الإنسان إذا قال قولًا يتقرب به إلى الله ، أو فعل فعلًا يتقرب به إلى الله ، فهو حين النية ذاكر لله ﷻ ، فذكر الله يشمل كل قول أو فعل يقرب إليه .

قال : ﴿ حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءَ أَحَدَهُمُ ٱلۡمَوۡتُ قَالَ رَبِّ ٱرۡجِعُونِ ۝ لَعَلِّيٓ أَعۡمَلُ صَٰلِحٗا فِيمَا تَرَكۡتُۚ ﴾ فقوله : ﴿ حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءَ أَحَدَهُمُ ٱلۡمَوۡتُ ﴾ أي إذا جاء أحد المكذبين للرسل ﴿ قَالَ رَبِّ ٱرۡجِعُونِ ﴾ ارجعون إلى الدنيا ﴿لَعَلِّيٓ أَعۡمَلُ صَٰلِحٗا فِيمَا تَرَكۡتُۚ ﴾ .

ولم يقل : لعلي أتمتع في قصورها وحبورها ونسائها وغير ذلك ، بل قال : ﴿ لَعَلِّيٓ أَعۡمَلُ صَٰلِحٗا فِيمَا تَرَكۡتُۚ ﴾ ، أي فيما تركت من المال الذي بخلت به حتى أنفقه في سبيل الله .

قال الله تعالى : ﴿ كَلَّآۚ ﴾ يعني لا رجوع ولا يمكن الرجوع ؛ لأنه إذا جاء الأجل ﴿ فَلَا يَسۡتَـٔۡخِرُونَ سَاعَةٗ وَلَا يَسۡتَقۡدِمُونَ ﴾ [يونس : ٤٩] .

ثم قال : ﴿ إِنَّهَا كَلِمَةٌ هُوَ قَآئِلُهَاۖ ﴾ هذه الكلمة يؤكد الله ﷻ أنه يقولها وهي قوله : ﴿ رَبِّ ٱرۡجِعُونِ ۝ لَعَلِّيٓ أَعۡمَلُ صَٰلِحٗا فِيمَا تَرَكۡتُۚ ﴾ ، ﴿ وَمِن وَرَآئِهِم بَرۡزَخٌ إِلَىٰ يَوۡمِ يُبۡعَثُونَ ﴾ يعني من أمام هؤلاء الذين حضرتهم الوفاة ﴿ بَرۡزَخٌ إِلَىٰ يَوۡمِ يُبۡعَثُونَ ﴾ .

والبرزخ : هو الفاصل بين الدنيا وبين قيام الساعة ، سواء كان الإنسان مدفونًا في الأرض أو على ظهر الأرض تأكله السباع وتتلفه الرياح ، أو كان في قاع البحار ؛ كل هذا يسمى برزخًا ﴿ إِلَىٰ يَوۡمِ يُبۡعَثُونَ ﴾ يعني يخرجون من القبور لله ﷻ في يوم القيامة .

﴿ فَإِذَا نُفِخَ فِي ٱلصُّورِ ﴾ وذلك عند قيام الساعة ﴿ فَلَآ أَنسَابَ بَيۡنَهُمۡ يَوۡمَئِذٖ وَلَا يَتَسَآءَلُونَ ﴾ . والنفخ في الصور مرتان :

النفخة الأولى : يكون فيها الفزع والصعق يعني الموت ، فينفخ إسرافيل في الصور نفخة يكون لها صوت عظيم مزعج جدًّا ، فيفزع الناس ثم يموتون كلهم إلا ما شاء الله .

والنفخة الثانية : ينفخ في الصور فتخرج الأرواح من الصور وتعود إلى أجسادها ، وهذه التي يكون بها الحياة الأبدية التي لا موت بعدها .

﴿ فَلَآ أَنسَابَ بَيۡنَهُمۡ يَوۡمَئِذٖ وَلَا يَتَسَآءَلُونَ ﴾ يعني بعد أن يبعثوا من قبورهم لا تنفعهم الأنساب والقرابات ﴿ وَلَا يَتَسَآءَلُونَ ﴾ لا يسأل بعضهم عن بعض ، بل إن الله تعالى يقول : ﴿ يَوۡمَ يَفِرُّ ٱلۡمَرۡءُ مِنۡ أَخِيهِ ۝ وَأُمِّهِۦ وَأَبِيهِ ۝ وَصَٰحِبَتِهِۦ وَبَنِيهِ ۝ لِكُلِّ ٱمۡرِيٕٖ مِّنۡهُمۡ يَوۡمَئِذٖ شَأۡنٞ يُغۡنِيهِ ﴾ [عبس : ٣٤-٣٧] .

فالأنساب في ذلك الوقت لا تنفع ، والقرابات لا يتساءلون عن بعضهم ، بينما في الدنيا يسأل بعضهم عن بعض ، ما الذي حصل لهذا ماذا فعل فلان ؟ أما في الآخرة فـ ﴿ لِكُلِّ ٱمْرِيٍٕ مِّنْهُمْ يَوْمَئِذٍ شَأْنٌ يُغْنِيهِ ﴾ [عبس : ٣٧] .

قال تعالى : ﴿ فَمَن ثَقُلَتْ مَوَٰزِينُهُۥ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ ﴾ [الأعراف : ٨] ، فينقسم الناس في ذلك اليوم إلى قسمين : قسم تثقل موازينه فهذا مفلح فائز بما يحب ناج مما يكره .

والموازين : جمع ميزان ، وقد وردت في الكتاب والسنة مجموعة ومفردة ، فقال اللّٰه تعالى هنا : ﴿ فَمَن ثَقُلَتْ مَوَٰزِينُهُۥ ﴾ ، وقال النبي ﷺ : « كلمتان حبيبتان إلى الرحمن خفيفتان على اللسان ثقيلتان في الميزان : سبحان اللّٰه وبحمده ، سبحان اللّٰه العظيم » (١) ، فقال : في الميزان ولم يقل : في الموازين ، فجمعت مرة وأفردت أخرى ، وذلك لكثرة ما يوزن ، فلكثرة ما يوزن جمعت ، ولكون الميزان واحدًا ليس فيه ظلم ولا بخس أفردت .

وأما الذي يوزن فقد قال بعض العلماء : إن الذي يوزن هو العمل ، وقال بعض العلماء : الذي يوزن صحائف العمل .

وقال بعض العلماء : الذي يوزن العامل نفسه ، وذلك لأن كلًّا منها جاءت به أحاديث .

أما الذين يقولون إن الذي يوزن هو العمل ، فاستدلوا بقوله تعالى : ﴿ فَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْرًا يَرَهُۥ ۝ وَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ شَرًّا يَرَهُۥ ﴾ [الزلزلة : ٧، ٨] ، فجعل الوزن للعمل ، ويقول النبي - عليه الصلاة والسلام - : « كلمتان حبيبتان إلى الرحمن ، خفيفتان على اللسان ، ثقيلتان في الميزان» . فجعل الثقل للكلمتين وهما العمل .

والذين قالوا : إن الذي يوزن صحائف العمل استدلوا بحديث صاحب البطاقة ، الذي يأتي يوم القيامة فيمدّ له سجل يعني أوراقًا كثيرة مد البصر كلها سيئات ، حتى إذا رأى أنه قد هلك قال اللّٰه له : « إن لك عندنا حسنة فيؤتى ببطاقة فيها لا إله إلا اللّٰه » قالها من قلبه فتوضع البطاقة في كفة ، وتلك السجلات في كفة ، فترجح البطاقة بها (٢) ، فهذا يدل على أن الذي يوزن هو صحائف العمل .

وأما الذين قالوا إن الذي يوزن هو العامل نفسه ، فاستدلوا بقوله تعالى : ﴿ فَلَا نُقِيمُ لَهُمْ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ وَزْنًا ﴾ [الكهف : ١٠٥] .

وبأن النبي ﷺ قال حين ضحك الناس على عبد اللّٰه بن مسعود ﷺ ، وكان ﷺ نحيفًا ، فقام إلى شجرة أراك في ريح شديدة ، فجعلت الريح تهزه هزًّا ، فضحك الناس من ذلك ، فقال النبي ﷺ : « أتضحكون - أو قال ﷺ أتعجبون - من دقة ساقيه ، والذي نفسي بيده إنهما في الميزان لأثقل من جبل أحد » (٣) وهذا يدل على أن الذي يوزن هو العامل نفسه .

---

(١) أخرجه البخاري في التوحيد (٧٥٦٣) واللفظ له ، ومسلم في الذكر والدعاء (٣١) .
(٢) أخرجه الترمذي في الإيمان (٢٦٣٩) ، وابن ماجه في الزهد (٤٣٠٠) .
(٣) أخرجه أحمد في مسنده (١/٤٢٠ ، ٤٢١) .

والمهم أنه يوم القيامة توزن الأعمال أو صحائف الأعمال أو العمال ، ﴿ فَمَن ثَقُلَتْ مَوَٰزِينُهُۥ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ ۝ وَمَنْ خَفَّتْ مَوَٰزِينُهُۥ فَأُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ خَسِرُوٓاْ أَنفُسَهُمْ فِى جَهَنَّمَ خَٰلِدُونَ ﴾ .

وقوله ﷻ ﴿ فَأُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ خَسِرُوٓاْ أَنفُسَهُمْ ﴾ إنما قال خسروا أنفسهم ، لأنهم أخرجوا إلى الدنيا وجاءتهم الرسل وبينت لهم الحق ، ولكنهم - والعياذ بالله - عاندوا واستكبروا فخسروا أنفسهم ولم يستفيدوا من وجودهم في الدنيا شيئًا ، قال الله تعالى : ﴿ قُلْ إِنَّ ٱلْخَٰسِرِينَ ٱلَّذِينَ خَسِرُوٓاْ أَنفُسَهُمْ وَأَهْلِيهِمْ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ ۗ أَلَا ذَٰلِكَ هُوَ ٱلْخُسْرَانُ ٱلْمُبِينُ ﴾ [الزمر: ١٥] .

ثم قال تعالى مبينًا أنهم كما يعذبون بدنيًا ، فإنهم يعذبون قلبيًا ، فيقرعون ويوبخون فيقال لهم : ﴿ أَلَمْ تَكُنْ ءَايَٰتِى تُتْلَىٰ عَلَيْكُمْ فَكُنتُم بِهَا تُكَذِّبُونَ ﴾ فقد تليت عليهم آيات الله ، وبينت لهم ، وجاءتهم الرسل بالحق ، ولكنهم كفروا والعياذ بالله ، وكذبوا بهذه الآيات .

قالوا في الجواب : ﴿ رَبَّنَا غَلَبَتْ عَلَيْنَا شِقْوَتُنَا وَكُنَّا قَوْمًا ضَآلِّينَ ۝ رَبَّنَآ أَخْرِجْنَا مِنْهَا فَإِنْ عُدْنَا ﴾ يعني إن عدنا إلى التكذيب ﴿ فَإِنَّا ظَٰلِمُونَ ﴾ ، فيقرون - والعياذ بالله - بأن الشقاوة غلبت عليهم وأنهم ضلوا الضلال المبين الذي أوصلهم إلى هذه النار ، نسأل الله أن يعيذنا وإياكم منها .

قال الله تعالى : ﴿ ٱخْسَـُٔواْ فِيهَا وَلَا تُكَلِّمُونِ ﴾ أي ابقوا فيها أذلاء صاغرين ، ﴿ وَلَا تُكَلِّمُونِ ﴾ وهذا أشد ما يكون عليهم والعياذ بالله أن يوبخهم الله هذا التوبيخ فيقول : ﴿ ٱخْسَـُٔواْ فِيهَا وَلَا تُكَلِّمُونِ ﴾ فإنهم لو كلموا الله لن يستجيب لهم ، لأنه قضى عليهم بالخلود في النار .

ثم قال تعالى مبينًا حالهم مع أوليائه : ﴿ إِنَّهُۥ كَانَ فَرِيقٌ مِّنْ عِبَادِى يَقُولُونَ رَبَّنَآ ءَامَنَّا فَٱغْفِرْ لَنَا وَٱرْحَمْنَا وَأَنتَ خَيْرُ ٱلرَّٰحِمِينَ ﴾ ، وهؤلاء المؤمنون بالله ورسله يقولون : ﴿ رَبَّنَآ ءَامَنَّا ﴾ أي آمنا بك وبرسلك وبما جاءوا به من الحق ﴿ فَٱغْفِرْ لَنَا وَٱرْحَمْنَا ﴾ اغفر لنا ذنوبنا حتى لا ندخل النار ، وارحمنا بالقبول حتى ندخل الجنة .

﴿ وَأَنتَ خَيْرُ ٱلرَّٰحِمِينَ ﴾ فلا أحد أرحم بعباد الله من ربهم ﷻ . قال النبي - عليه الصلاة والسلام - : « لله بعباده أرحم من الوالدة بولدها »[1] .

﴿ فَٱتَّخَذْتُمُوهُمْ سِخْرِيًّا حَتَّىٰٓ أَنسَوْكُمْ ذِكْرِى وَكُنتُم مِّنْهُمْ تَضْحَكُونَ ﴾ يعني أنكم تسخرون بهؤلاء المؤمنين الذين يؤمنون بالله ويسألونه المغفرة والرحمة ، فكنتم تسخرون منهم وتستهزئون بهم ، ﴿ حَتَّىٰٓ أَنسَوْكُمْ ذِكْرِى ﴾ أي حتى كانت سخريتكم بهم واستهزاؤكم بهم منسية لكم ذكري .

﴿ وَكُنتُم مِّنْهُمْ تَضْحَكُونَ ﴾ يعني في الدنيا كانوا يضحكون بالمؤمنين ويستهزئون بهم .

ولكن الله قال في سورة المطففين : ﴿ فَٱلْيَوْمَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مِنَ ٱلْكُفَّارِ يَضْحَكُونَ ﴾ [المطففين: ٣٤] ، وهذا الضحك الذي لا بكاء بعده ، أما ضحك الكفار من المسلمين في الدنيا ، فإنه سيعقبه البكاء الدائم والعياذ بالله .

---

(١) أخرجه مسلم في التوبة (٢٢) .

﴿ إِنِّي جَزَيْتُهُمُ الْيَوْمَ بِمَا صَبَرُوا أَنَّهُمْ هُمُ الْفَائِزُونَ ﴾ يعني جزى الله تعالى المؤمنين بما صبروا على طاعة الله ، وصبروا عن معصيته ، وصبروا على أقداره ﴿ أَنَّهُمْ هُمُ الْفَائِزُونَ ﴾ الذين فازوا بهذا اليوم فأدركوا المطلوب ونجوا من المرهوب ، وإنما ذكر الله هذا لهؤلاء المكذبين زيادة في حسرتهم وندامتهم ، كأنه يقول ﷻ : لو كنتم مثلهم لنلتم هذا الثواب ، فيزدادون بذلك حسرة إلى حسرتهم والعياذ بالله .

كيف أصبح حال هؤلاء الذين كانوا يسخرون بهم في الدنيا ويضحكون منهم ؟ وكيف كان حالهم وهم في نار جهنم ؟

﴿ قَالَ كَمْ لَبِثْتُمْ فِي الْأَرْضِ عَدَدَ سِنِينَ ۝ قَالُوا لَبِثْنَا يَوْمًا أَوْ بَعْضَ يَوْمٍ فَاسْأَلِ الْعَادِّينَ ﴾ انظر : جاءتهم الرسل وعمروا عمرًا يتذكر فيه من تذكر ، ولكنهم والعياذ بالله لم ينتفعوا بهذا ، ورأوا أنهم كأنما لبثوا ساعة أو بعض ساعة ﴿ قَالُوا لَبِثْنَا يَوْمًا أَوْ بَعْضَ يَوْمٍ فَاسْأَلِ الْعَادِّينَ ﴾ اسأل العادين منا ، فإننا لا نرى أننا لبثنا إلا يومًا أو بعض يوم .

قال الله تعالى : ﴿ قَالَ إِنْ لَبِثْتُمْ إِلَّا قَلِيلًا ﴾ يعني : ما لبثتم إلا قليلًا في الدنيا وآل بكم الأمر إلى الآخرة التي تبقون فيها أبد الآبدين معذبين . ﴿ قَالَ إِنْ لَبِثْتُمْ إِلَّا قَلِيلًا لَوْ أَنَّكُمْ كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ ﴾ يعني لو أنكم كنتم من ذوي العلم لعلمتم مقدار تكذيبكم للرسل ومقدار أعمالكم التي خسرتموها .

﴿ أَفَحَسِبْتُمْ أَنَّمَا خَلَقْنَاكُمْ عَبَثًا ﴾ يعني : أتظنون أننا ﴿ خَلَقْنَاكُمْ عَبَثًا وَأَنَّكُمْ إِلَيْنَا لَا تُرْجَعُونَ ﴾ هم ظنوا كذلك ، ظنوا هذا الظن ، ولكن الله وبخهم على هذا الظن ، هل من حكمة الله أن ينشئ هذه الخليقة ، ويرسل إليها الرسل ، وينزل عليها الكتب ثم تكون النهاية الموت والفناء بدون بعث أو رجوع ؟ هذا لا يمكن ، لكن هذا ظن الذين كفروا ﴿ فَوَيْلٌ لِلَّذِينَ كَفَرُوا مِنَ النَّارِ ﴾ [ص: ٢٧] .

ثم قال تعالى : ﴿ فَتَعَالَى اللَّهُ الْمَلِكُ الْحَقُّ لَا إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ رَبُّ الْعَرْشِ الْكَرِيمِ ﴾ تعالى : يعني ترفع ﷻ عن كل نقص وعن كل سوء وعلا بذاته فوق عرشه ﷻ ، ﴿ فَتَعَالَى اللَّهُ الْمَلِكُ الْحَقُّ ﴾ الملك يعني ذو الملك والسلطان والعظمة ، الحق : الذي كان ملكه وملكوته حقًّا وليس بباطل .

﴿ لَا إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ﴾ أي لا معبود حق إلا الله ﷻ ، ﴿ رَبُّ الْعَرْشِ الْكَرِيمِ ۝ وَمَنْ يَدْعُ مَعَ اللَّهِ إِلَٰهًا آخَرَ لَا بُرْهَانَ لَهُ بِهِ ﴾ إلى آخر السورة .

فهذه الآيات تبين أن الإنسان يجب عليه أن ينتهز فرصة العمر وألا يخسر عمره كما خسره هؤلاء ، لأنه سوف يبعث ويجازى ويحاسب على عمله .

* * *

وقال تعالى : ﴿ أَلَمْ يَأْنِ لِلَّذِينَ آمَنُوا أَنْ تَخْشَعَ قُلُوبُهُمْ لِذِكْرِ اللَّهِ وَمَا نَزَلَ مِنَ الْحَقِّ وَلَا يَكُونُوا كَالَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ مِنْ قَبْلُ فَطَالَ عَلَيْهِمُ الْأَمَدُ فَقَسَتْ قُلُوبُهُمْ وَكَثِيرٌ مِنْهُمْ فَاسِقُونَ ﴾ (١) [الحديد: ١٦] والآيات في الباب

(١) قوله تعالى : ﴿ أَلَمْ يَأْنِ لِلَّذِينَ آمَنُوا ﴾ أي : ألم يحِنْ لهم .. ؟ قوله تعالى : ﴿ لِذِكْرِ اللَّهِ ﴾ عند تذكر حساب الله وجزائه قوله تعالى : ﴿ كَالَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ ﴾ اليهود والنصارى ، قوله تعالى : ﴿ الْأَمَدُ ﴾ الأجل أو الزمان بينهم وبين أنبيائهم .

كثيرة معلومة .

٥٧٤ - وعن ابن عمر رضي الله عنهما قال : أَخَذَ رسول الله ﷺ بِمَنكِبِي فَقَالَ : « كُنْ في الدُّنيا كَأَنَّكَ غَرِيبٌ أَو عَابِرُ سَبِيلٍ » .

وَكَانَ ابْنُ عُمَرَ رضي الله عنهما يقول : « إذا أَمَسيت ، فَلا تَنْتَظِرِ الصَّبَاحَ ، وَإِذَا أَصْبَحْتَ ، فَلا تَنْتَظِرِ المَسَاءَ ، وَخُذ مِن صِحَّتِكَ لِمَرَضِك ، وَمِن حَيَاتِكَ لِموتِكَ » [1] رواه البخاري .

الشرح

ذكر المؤلف رحمه الله في باب ذكر الموت وقصر الأمل . قوله تعالى : ﴿ أَلَمْ يَأْنِ لِلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ أَن تَخْشَعَ قُلُوبُهُمْ لِذِكْرِ ٱللَّهِ ﴾ ، يعني ألم يأت الوقت الذي تخشع فيه قلوب المؤمنين لذكر الله عز وجل ؟

والخشوع : معناه الخضوع والذل ﴿ لِذِكْرِ ٱللَّهِ ﴾ يعني عند ذكره ، فإن المؤمنين ﴿ ٱلَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ ٱللَّهُ وَجِلَتْ قُلُوبُهُمْ وَإِذَا تُلِيَتْ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتُهُۥ زَادَتْهُمْ إِيمَٰنًا وَعَلَىٰ رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ ﴾ [الأنفال : ٢] .

وقوله : ﴿ لِذِكْرِ ٱللَّهِ ﴾ أي لتذكر الله وعظمته ، ﴿ وَمَا نَزَلَ مِنَ ٱلْحَقِّ ﴾ أي ويخشعون لما نزل من الحق ، وهو ما كان في كتاب الله عز وجل ؛ فإن هذا الكتاب جاء بالحق ، والنبي ﷺ الذي نزل عليه هذا الكتاب جاء بالحق ، فيحق للمؤمن أن يخشع قلبه لذكر الله وما نزل من الحق .

قال : ﴿ وَلَا يَكُونُوا۟ كَٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْكِتَٰبَ مِن قَبْلُ فَطَالَ عَلَيْهِمُ ٱلْأَمَدُ فَقَسَتْ قُلُوبُهُمْ ﴾ ، يعني : ولا يكونوا كالذين أوتوا الكتاب من قبل وهم اليهود والنصارى ، فاليهود أوتوا التوراة ، والنصارى أوتوا الإنجيل ، ومع ذلك فإن اليهود كفروا بالإنجيل ، والنصارى كفروا بالقرآن ، فصار الكل كفارًا ، ولذلك كان اليهود قبل بعثة النبي ﷺ مغضوبًا عليهم ، لأنهم علموا الحق وهو ما جاء به عيسى ، ولكنهم استكبروا عنه وأعرضوا عنه .

أما بعد بعثة الرسول - عليه الصلاة والسلام - فكان اليهود والنصارى كلهم مغضوبًا عليهم ، وذلك لأن النصارى علموا الحق فهم يعرفون النبي ﷺ كما يعرفون أبناءهم ، ومع ذلك استكبروا عنه ، فكانوا كلهم مغضوبًا عليهم ، لأن القاعدة في المغضوب عليهم أنهم الذين علموا الحق ولم يعملوا به كاليهود والنصارى بعد بعثة الرسول - عليه الصلاة والسلام - .

هؤلاء الذين أوتوا الكتاب ﴿ فَطَالَ عَلَيْهِمُ ٱلْأَمَدُ ﴾ أي الوقت ﴿ فَقَسَتْ قُلُوبُهُمْ ﴾ ؛ لأن النبي ﷺ بعث بعد عيسى بستمائة سنة ، وهي فترة طويلة انحرف فيها من انحرف من أهل الكتاب ، ولم يبق على الأرض من أهل الحق إلا بقايا يسيرة من أهل الكتاب ، ولهذا قال : ﴿ وَكَثِيرٌ مِّنْهُمْ فَٰسِقُونَ ﴾ ولم يقل : أكثرهم فاسقون ، ولم يقل : كلهم فاسقون ، فكثير منهم فاسقون خارجون عن الحق .

فحذر الله عز وجل ونهى أن نكون كهؤلاء الذين أوتوا الكتاب ﴿ فَطَالَ عَلَيْهِمُ ٱلْأَمَدُ فَقَسَتْ قُلُوبُهُمْ ﴾ .

---

(١) أخرجه البخاري في الرقاق (٦٤١٦) .

وإذا نظرت إلى الأمة الإسلامية ، وجدت أنها ارتكبت ما ارتكبه الذين أوتوا الكتاب من قبل . فإن الأمة الإسلامية في هذه العصور التي طال فيها الأمد من بعثة الرسول ﷺ ، قست قلوب كثير منهم وفسق كثير منهم ، واستولى على المسلمين من ليس أهلًا للولاية لفسقه بل ومروقه عن الإسلام ، فإن الذين لا يحكمون بكتاب الله ولا سنة رسول الله ﷺ ، ويرون أن الحكم بالقوانين أفضل من حكم الله ورسوله كفار بلا شك ومرتدون عن الإسلام [١] .

ولكن الله ﷻ يبلو الناس بعضهم ببعض ، وإذا صبر المؤمن واحتسب وانتظر الفرج من الله ﷻ ، وعمل الأسباب التي توصل إلى المقصود يسر الله له الأمر .

فالمهم : أن الله نهانا أن نكون كالذين أوتوا الكتاب من قبل فقست قلوبهم ، ولكن صار الكثير منا في الوقت الحاضر متشبهًا بهؤلاء الذين قست قلوبهم ، وكثير من هؤلاء أيضًا فسقوا عن أمر الله ، وخرجوا عن طاعة الله .

- ثم قال المؤلف : والآيات في هذا المعنى كثيرة معلومة .

وأما الأحاديث : فمنها حديث عبد الله بن عمر رضي الله عنهما قال : « أخذ النبي ﷺ بمنكبي » يعني أمسك به ، والمنكب هو أعلى الكتف ، أخذ به من أجل أن ينتبه ابن عمر لما سيلقي إليه الرسول - عليه الصلاة والسلام - من القول .

وهذا من حسن تعليم الرسول - عليه الصلاة والسلام - ، فإنه - عليه الصلاة والسلام - كان إذا تكلم اتخذ الأسباب التي توجب انتباه المخاطب ، إما بالفعل كما هنا ، وإما بالقول كما في قوله : « ألا أنبئكم بأكبر الكبائر ؟ قالوا : بلى يا رسول الله » [٢] .

ثم قال النبي ﷺ لابن عمر : « كن في الدنيا كأنك غريب أو عابر سبيل » سبحان الله ! أعطى الله نبيه جوامع الكلم ، هاتان الكلمتان يمكن أن تكونا نبراسًا يسير الإنسان عليه في حياته « كن في الدنيا كأنك غريب أو عابر سبيل » .

والفرق بينهما : أن عابر السبيل ماشٍ يمر بالقرية وهو ماشٍ منها . وأما الغريب فهو مقيم فيها حتى يرتحل عنها ، يقيم فيها يومين ، أو ثلاثة ، أو عشرة ، أو شهرًا ، وكل منهما لم يتخذ القرية التي هو فيها وطنًا وسكنًا وقرارًا .

---

(١) من لم يحكم بما أنزل الله ردًا للقرآن ، وجحدًا لقول الرسول ﷺ فهو كافر ، قاله ابن عباس ومجاهد . قال ابن مسعود والحسن في تفسير آية ﴿ وَمَن لَّمْ يَحْكُم بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ فَأُولَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْكَٰفِرُونَ ﴾ [المائدة : ٤٤] هي عامة في كل من لم يحكم بما أنزل الله من المسلمين واليهود والكفار أي معتقدًا ذلك ومستحلا له ، فأما من فعل ذلك وهو معتقد أنه راكب محرم فهو من فساق المسلمين وأمره إلى الله تعالى إن شاء عذبه وإن شاء غفر له ، وقال ابن عباس في رواية : (ومن لم يحكم بما أنزل الله فقد فعل فعلًا يضاهي أفعال الكفار . وقيل : أي ومن لم يحكم بجميع ما أنزل الله فهو كافر ، فأما من حكم بالتوحيد ولم يحكم ببعض الشرائع فلا يدخل في هذه الآية (القرطبي : تفسير سورة المائدة الآية ٤٤) .

(٢) أخرجه البخاري في الأدب (٥٩٧٦) ، ومسلم في الإيمان (١٤٣) .

فيقول الرسول - عليه الصلاة والسلام - : كن في الدنيا كهذا الرجل ، إما غريب أو عابر سبيل .

فالغريب وعابر السبيل لا يستوطن ، يريد أن يذهب إلى أهله وإلى بلده ، لو أن الإنسان عامل نفسه في هذه الدنيا بهذه المعاملة لكان دائمًا مشمرًا للآخرة ، لا يريد إلا الآخرة ، ولا يكون أمام عينيه إلا الآخرة حتى يسير إليها سيرًا يصل به إلى مطلوبه .

وكان ابن عمر يقول : « إذا أصبحت فلا تنتظر المساء ، وإذا أمسيت فلا تنتظر الصباح » المعنى لا تأمل أنك إذا أصبحت أمسيت ، وإذا أمسيت أصبحت ، فكم من إنسان أصبح ولم يمس ! وكم من إنسان أمسى ولم يصبح ! وكم من إنسان لبس ثوبه ولم يُخْلِعْهُ إلا الغاسل ! وكم من إنسان خرج من أهله قد هيأوا له غداءه أو عشاءه ولم يأكله ! وكم من إنسان نام ولم يقم من فراشه ! المهم أن الإنسان لا ينبغي له أن يطيل الأمل بل يكون حذرًا حاذقًا حازمًا كيسًا ، هذا معنى قوله : « إذا أصبحت فلا تنتظر المساء ، وإذا أمسيت فلا تنتظر الصباح » .

« وخذ من صحتك لمرضك ومن حياتك لموتك » الإنسان الصحيح منشرح الصدر ، منبسط النفس ، واسع الفكر ، عنده سعة في الوقت والصحة ، لكن ما أكثر الذين يضيعون هذا ، لأنه يأمل أن هذه الصحة سوف تبقى وتدوم ، وأنه سوف تطول به الدنيا ، فتجده قد ضيع هذه الصحة .

فابن عمر ﷺ يقول : « خذ من صحتك لمرضك » المرض تضيق به النفس ، ويتعب به الجسم ، وتضيق عليه الدنيا ولا يستطيع أن يعمل العمل الذي يعمله في حال الصحة ، فليأخذ من صحته لمرضه ، ومن حياته لموته ، قس ما بين حياتك وموتك أيهما أطول ؟ لاشك أن الحياة لا تنسب للموت ، كم للرسول - عليه الصلاة والسلام - ميتًا ؟ كم لمن قبله ؟ وحياتهم قليلة بالنسبة لموتهم ، فكيف إلى الآخرة .

ولهذا ينبغي للإنسان أن يأخذ من حياته - ما دام اللَّه قد أحياه - لموته إذا عجز عن العمل ، لأن النبي ﷺ قال : « إذا مات الإنسان انقطع عمله إلا من ثلاثة : صدقة جارية ، أو علم ينتفع به ، أو ولد صالح يدعو له » [(١)] فخذ من حياتك لموتك .

* * *

٥٧٥ - وعنه أنَّ رسول اللَّه ﷺ قالَ : « ما حَقُّ امْرِئٍ مُسلِمٍ ، لَهُ شَيءٌ يُوصي فِيهِ ، يَبِيتُ لَيلَتَينِ إلا وَوَصِيَّتُهُ مَكْتُوبَةٌ عِندَهُ » [(٢)] متفقٌ عليه ، هذَا لفظ البخاري .

وفي رواية لمسلم « يَبِيتُ ثَلاثَ لَيَالٍ » قال ابن عمر : مَا مَرَّتْ عَلَيَّ لَيلَةٌ مُنذُ سَمِعتُ رسول اللَّه ﷺ قال ذلِكَ إلا وَعِنْدِي وَصِيَّتي [(٣)] .

---

(١) أخرجه مسلم في الوصية (١٤) ، وأبو داود في الوصايا (٢٨٨٠) ، وأحمد في مسنده (٢/٣٧٢) .
(٢) أخرجه البخاري في الوصايا (٢٧٣٨) ، ومسلم في الوصية (١) .
(٣) أخرجه مسلم في الوصية (٤) .

الشرح

ثم ذكر المؤلف رحمه الله حديث ابن عمر رضي الله عنهما أن النبي ﷺ قال: «ما حق امرئ مسلم له شيء يوصي فيه يبيت ليلتين إلا وصيته مكتوبة عنده» يعني ما حقه أن يبيت ليلتين إلا وقد كتب وصيته التي يريد أن يوصي بها، وكان ابن عمر رضي الله عنه منذ سمع هذا الكلام من رسول الله ﷺ لا يبيت ليلة إلا وقد كتب وصيته.

والوصية: معناها العهد، وهي أن يعهد الإنسان بعد موته لشخص في تصريف شيء من ماله، أو يعهد لشخص بالنظر على أولاده الصغار، أو يعهد لشخص في أي شيء من الأعمال التي يملكها بعد موته فيوصي به، هذه هي الوصية.

مثل أن يكتب الرجل: وصيتي إلى فلان بن فلان بالنظر على أولادي الصغار. وصيتي إلى فلان ابن فلان بتفريق ثلث مالي أو ربعه أو خمسه في سبيل الله. وصيتي إلى فلان في أن ينتفع بما خلفت من عقار أو غيره أو ما أشبه ذلك.

المهم أن الوصية هي العهد، عهد الإنسان بعد موته إلى شخص بشيء يملكه.

والوصية أنواع: واجبة، ومحرمة، وجائزة.

أولًا: الوصية الواجبة: وهي أن يوصي الإنسان بما عليه من الحقوق الواجبة، لئلا يجحدها الورثة، لا سيما إذا لم يكن عليها بينة.

مثل أن يكون على الإنسان دين أو حق لغيره، فيجب أن يوصي به لا سيما إذا لم يكن فيه بينة، لأنه إذا لم يوص به فإن الورثة قد ينكرونه، والورثة لا يلزمون أن يصدّقوا كل من جاء من الناس وقال: إن لي على ميتكم كذا وكذا، لا يلزمهم أن يصدقوا، فإذا لم يوص الميت بذلك، فإنه ربما يكون ضائعًا، فمن عليه دين يعني حق في ذمته لأحد، فإنه يجب عليه أن يوصي به.

كذلك أيضًا يجب أن يوصي لأقاربه غير الوارثين بما تيسر لقول الله تعالى: ﴿كُتِبَ عَلَيْكُمْ إِذَا حَضَرَ أَحَدَكُمُ الْمَوْتُ إِن تَرَكَ خَيْرًا﴾ [البقرة: ١٨٠] يعني مالًا كثيرًا ﴿الْوَصِيَّةُ﴾ هذه نائب الفاعل ﴿لِلْوَالِدَيْنِ وَالْأَقْرَبِينَ﴾ فخرج من الوالدين والأقربين من كانوا ورثة، فإن الورثة لا يوصى لهم، وبقيت الآية محكمة فيما عدا الوارثين.

هكذا دلالة الآية، وبها فسرها ابن عباس رضي الله عنهما، وذهب إلى ذلك كثير من أهل العلم، أن الإنسان يجب أن يوصي إذا كان عنده مال كثير بما تيسير لأقاربه غير الوارثين، أما الوارث فلا يجوز أن يوصى له، لأن حقه من الإرث يكفيه، فهذان أمران تجب فيهما الوصية:

الأول: إذا كان عليه دين يعني حقًّا للناس.

والثاني: إذا ترك مالًا كثيرًا، فإنه يلزمه أن يوصي لأقاربه من غير الوارثين.

ثانيًا: الوصية المحرمة: وهي محرمة إذا أوصى لأحد من الورثة، مثل أن يوصي لولده الكبير بشيء

من بين سائر الورثة ، أو يوصي لزوجته بشيء من بين سائر الورثة ، فإن هذا حرام عليه ، حتى ولو قدر أن الزوجة كانت تخدمه في حياته وتطيعه وتحترمه ، وأراد أن يكافئها فإنه لا يحل له أن يوصي لها بشيء ، وكذلك إذا كان أحد أولاده يبر به ويخدمه ويسعى في ماله ، فأراد أن يوصي له بشيء ، فإن ذلك حرام عليه [١] .

وكذلك ما يفعله بعض الناس إذا كان له أولاد عدة وزوّج الكبير أوصى للصغار بمثل المال الذي زوج به الكبير ، فإن هذا حرام أيضًا ، لأن التزويج دفع حاجة كالأكل والشرب ، فمن احتاج إليه من الأولاد وعند أبيهم قدرة وجب عليه أن يزوجه ، ومن لم يحتج إليه فإنه لا يحل له أن يعطيه شيئًا مثل ما أعطى أخاه الذي احتاج للزواج .

وهذه مسألة تخفى على كثير من الناس حتى على طلبة العلم ، يظنون أنك إذا زوجت ولدك ، فإنك يجب أن توصي للأولاد الصغار بمثل ما زوجته به ، وهذا ليس بصحيح ، فالوصية للوارث لا تجوز مطلقًا .

فإن قدر أن أحدًا جاهلًا وأوصى لأحد الورثة بشيء ، فإنه يرجع إلى الورثة بعد موته ، إن شاءوا نفذوا الوصية ، وإن شاءوا ردوها .

ثالثًا : الوصية المباحة : فهي أن يوصي الإنسان بشيء من ماله لا يتجاوز الثلث ، لأن تجاوز الثلث ممنوع ، لكن ما دون الثلث أنت حر فيه ، ولك أن توصي فيه لمن شئت إلا الورثة .

ولكن هل الأفضل الثلث أو الربع أو ما دون ذلك ؟ نقول : أكثر شيء الثلث لا تزد عليه ، وما دون الثلث فهو أفضل منه ، ولهذا قال ابن عباس رضي الله عنهما : لو أن الناس غضوا من الثلث إلى الربع ، فإن النبي ﷺ قال لسعد بن أبي وقاص : « الثلث والثلث كثير » [٢] وكان أبو بكر رضي الله عنه أوصى بخمس ماله . وقال : « أرضى بما رضي الله لنفسه » فأوصى بخمس ماله . وهذا أحسن ما يكون .

وليت أن طلبة العلم والذين يكتبون الوصايا ينبهون الموصين على أن الأفضل الوصية بالخمس لا بالثلث ، وقد شاع عند الناس الثلث دائمًا ، وهذا الحد الأعلى الذي حده الرسول - عليه الصلاة والسلام - وما دونه أفضل منه ، فالربع أفضل من الثلث ، والخمس أفضل من الربع .

وإذا كان الورثة محتاجين فترك الوصية أولى ؛ لأنهم أحق من غيرهم . قال النبي - عليه الصلاة والسلام - : « إنك أن تذر ورثتك أغنياء خير من أن تذرهم عالة يتكففون الناس » ، فإذا كان الورثة الذين يرثونك تعرف أن حالهم ، وسط والمال شحيح عندهم ، وأنهم إلى الفقر أقرب ، فالأفضل ألا توصي .

ففي هذا الحديث : إشارة إلى أن الإنسان يوصي ، ولكن الوصية تنقسم إلى أقسام كما أشرنا ؛

---

(١) هذا معنى حديث وقد أخرجه البخاري في الهبة (٢٥٨٦) ولفظه : « أكل ولدك نحلت مثله » ومسلم في الهبات (٩ ، ١٠) .

(٢) أخرجه البخاري في الوصايا (٢٧٣٨) ومسلم في الوصية (٥) .

منها واجبة ، ومنها محرمة ، ومنها مباحة .

فالواجبة : أن يوصي الإنسان بما عليه من الحقوق الواجبة لئلا يجحدها الورثة ، فيضيع حق من هي له ، لا سيما إذا لم يكن عليها بينة . وكذلك وصية من ترك مالًا كثيرًا لأقاربه الذين لا يرثون بدون تقدير ، على ألا تزيد على الثلث .

والمحرمة : نوعان أيضًا : أن تكون لأحد من الورثة ، وأن تكون زائدة على الثلث .

والمباحة : ما سوى ذلك ، ولكن الأفضل أن تكون من الخمس فأقل ، وإن زاد إلى الربع فلا بأس ، وإلى الثلث فلا بأس ، ولا يزيد على الثلث .

وفي حديث ابن عمر رضي الله عنهما : العمل بالكتابة ، لقوله ﷺ : « إلا ووصيته مكتوبة عنده » فدل هذا على وجوب العمل بالكتابة .

وفي قوله : « مكتوبة » اسم مفعول ، إشارة إلى أنه لا فرق بين أن يكون هو كاتبها أو غيره ممن تثبت الوصية بكتابتهم ، فلابد أن تكون الكتابة معلومة ؛ إما بخط الموصي نفسه ، أو بخط شخص معتمد ، وأما إذا كانت بخط مجهول فلا عبرة بها ولا عمل عليها .

وفي قوله : « عنده » إشارة إلى أنه ينبغي أن يحتفظ الإنسان بالوثائق وألا يسلط عليها أحدًا ، بل تكون عنده في شيء محفوظ محرز كالصندوق وغيره ؛ لأنه إذا أهملها فربما تضيع منه ، أو يسلط عليها أحد يأخذها ويتلفها أو ما أشبه ذلك .

المهم : في هذا الاعتناء بالوصية ، وأن يحتفظ بها الإنسان حتى لا تضيع .

وفيه أيضًا : سرعة امتثال الصحابة لأمر النبي ﷺ ؛ ولذلك قال ابن عمر رضي الله عنهما بعد ما سمع هذا الحديث من النبي ﷺ : « ما مرت علي ليلة منذ سمعت النبي ﷺ يقول هذا إلا ووصيتي مكتوبة عندي » . فالذي ينبغي للإنسان أن يهتم بهذا الأمر حتى لا يفجأه الموت ، وهو قد أضاع نفسه ، وأضاع حق غيره .

* * *

٥٧٦ - وعنِ أنس رضي الله عنه قال : خَطَّ النَّبِيُّ ﷺ خُطُوطًا فقال : « هذَا الإنسَانُ ، وَهذَا أَجَلُهُ ، فَبَيْنَمَا هُوَ كَذلِكَ إذ جَاءَ الخَطُّ الأَقْرَب » [١] رواه البخاري .

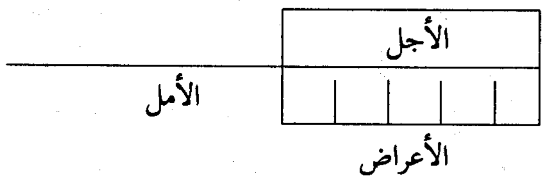
٥٧٧ - وعنِ ابنِ مسعُودٍ رضي الله عنه قال : خَطَّ النَّبِيُّ ﷺ خطًّا مُرَبَّعًا ، وخَطَّ خطًّا في الوَسَطِ خَارِجًا مِنْهُ ، وَخَطَّ خُطَطًا صِغَارًا إلى هذَا الَّذي في الوَسَطِ مِنْ جَانِبِه الَّذي في الوَسَط ، فَقَالَ : « هذَا الإِنسَانُ ، وَهذَا أَجَلُهُ مُحِيطًا بِه - أَو قَد أَحَاطَ بِهِ - وَهذَا الَّذِي هُوَ خَارِجٌ أَمَلُهُ ، وَهذِهِ الخُطَطُ الصِّغَارُ الأَعْرَاضُ ، فَإِن أَخْطَأَهُ هذَا ، نَهَشَهُ هذَا ، وَإِنْ أَخْطَأَهُ هذَا ، نَهَشَهُ هذَا » [٢] رواه البخاري . وَهذِهِ

---

(١) هذا الحديث لم يقم الشارح رحمه الله بشرحه ، والحديث أخرجه البخاري في الرقاق (٦٤١٨) .

(٢) هذا الحديث لم يقم الشارح رحمه الله بشرحه ، والحديث أخرجه البخاري في الرقاق (٦٤١٧) .

صُورتُهُ :



٥٧٨ - وعن أبي هريرة ﷺ أنَّ رسول اللَّه ﷺ قال : « بَادِرُوا بالأعْمال سبْعًا ، هَل تَنْتَظِرُونَ إِلَّا فَقْرًا مُنْسِيًا ، أَو غِنىً مُطغِيًا ، أَو مَرَضًا مُفْسِدًا ، أَو هَرَمًا مُفَنِّدًا ، أو مَوتًا مُجْهِزًا ، أَوِ الدَّجَّالَ ، فَشَرُّ غائِبٍ يُنْتَظَرُ ، أَو السَّاعَةَ وَالسَّاعَةُ أَدْهَى وأَمَرُّ ؟! » [1] رواه الترمذي وقال : حديثٌ حسنٌ .

الشرح

هذا الحديث ذكره المؤلف رحمه الله في باب ذكر الموت وقصر الأمل ، عن أبي هريرة ﷺ أن النبي ﷺ قال : « بادروا بالأعمال سبعًا » يعني اعملوا قبل أن تصيبكم هذه السبع التي ذكرها النبي ﷺ ، فبادروا بها .

ثم ذكر هذه السبع وأنها :

إما « فقرًا منسيًا » بأن يصاب الإنسان بفقر ينسيه ذكر ربه ، لأن الفقر أعاذنا اللَّه وإياكم منه شر درع يلبسه العبد ، فإنه إذا كان فقيرًا يحتاج إلى أكل وشرب ولباس وسكن وزوجة ، فلا يجد من ذلك شيئًا ، فتضيق عليه الأرض بما رحبت ، ويذهب يتطلب ليحصل على شيء من ذلك فينسى ذكر اللَّه عز وجل ، ولا يتمكن من أداء العبادة على وجهها .

وكذلك يفوته كثير من العبادات التي تستوجب أو التي تستلزم الغنى ، كالزكاة ، والصدقات ، والعتق ، والحج ، والإنفاق ، في سبيل اللَّه ، وما أشبه ذلك .

« أو غنى مطغيًا » بأن يغني اللَّه الإنسان ويفتح عليه من الدنيا فيطغى بذلك ، ويرى أنه استغنى عن ربه عز وجل ، فلا يقوم بما أوجب اللَّه عليه ، ولا ينتهي عما نهاه اللَّه عنه . قال اللَّه تعالى : ﴿ كَلَّآ إِنَّ ٱلْإِنسَٰنَ لَيَطْغَىٰٓ ۝ أَن رَّءَاهُ ٱسْتَغْنَىٰٓ ﴾ [العلق : ٦ ، ٧] .

كذلك « أو مرضًا مفسدًا » مرض يفسد على الإنسان حياته ، لأن الإنسان ما دام في صحة فهو في نشاط وانشراح صدر ، والدنيا أمامه مفتوحة ، فإذا مرض ضعف البدن ، وضعفت النفس وضاقت ، وصار الإنسان دائمًا في هَمٍّ وغَمٍّ فتفسد عليه حياته .

كذلك أيضًا الهرم المفند : « أو هرمًا مفندًا » يعني كبرًا يفند قوته ويحطمها ، كما قال تعالى : ﴿ ٱللَّهُ ٱلَّذِى خَلَقَكُم مِّن ضَعْفٍ ثُمَّ جَعَلَ مِنۢ بَعْدِ ضَعْفٍ قُوَّةً ثُمَّ جَعَلَ مِنۢ بَعْدِ قُوَّةٍ ضَعْفًا وَشَيْبَةً ۚ يَخْلُقُ مَا يَشَآءُ ۖ

(١) أخرجه الترمذي في الزهد (٢٣٠٦) .

﴿وَهُوَ ٱلْعَلِيمُ ٱلْقَدِيرُ﴾ [الروم: ٥٤] .

فالإنسان ما دام نشيطًا شابًّا يعمل العبادة بنشاط ، يتوضأ بنشاط ، يصلي بنشاط ، يذهب إلى العلم بنشاط ، لكن إذا كبر فهو كما قال الله ﷻ عن زكريا ﴿رَبِّ إِنِّي وَهَنَ ٱلْعَظْمُ مِنِّي وَٱشْتَعَلَ ٱلرَّأْسُ شَيْبًا﴾ [مريم: ٤] أي ضعف العظم ، والعظم هو الهيكل الذي ينبني عليه الجسم ، فيضعف وتضعف القوة ولا يستطيع أن يفعل ما كان يفعله في حال الشباب ، كما قال الشاعر :

ألا ليت الشباب يعود يومًا فأخبره بما فعل المشيب

« أو موتًا مجهزًا » هذا أيضًا ما يُنتظر ، وإذا مات الإنسان انقطع عمله ، ولم يتمكن من العمل .

« مجهزًا » سريعًا ، وكم من إنسان مات من حيث لا يظن أنه لا يموت ، كم من إنسان مات وهو في شبابه وصحته .. في حوادث احتراق ، أو انقلاب سيارة ، أو سقوط جدار عليه ، أو سكتة قلبية ، أشياء كثيرة يموت الإنسان بسببها ولو كان شابًّا .

فبادر هذا لأنك لا تدري ربما تموت وأنت تخاطب أهلك ، أو تموت وأنت على فراشك ، أو تموت وأنت على غدائك ، أو تموت وأنت في سيارتك ، أو في سفرك ، إذًا بادر .

ومن ذلك أيضًا : قوله : « أو الدجال ؛ فشر غائب ينتظر » يعني أو تنتظرون الدجال ، وهو الرجل الخبيث الكذاب المموه الذي يبعث في آخر الزمان يدعو الناس إلى عبادته ويوهمهم ، فيفتتن به الخلق إلا من شاء الله .

وهذا أُمِرْنَا أن نستعيذ بالله منه في كل صلاة ، قال النبي – عليه الصلاة والسلام – : « إذا تشهد أحدكم التشهد الأخير فليقل : اللهم إني أعوذ بك من عذاب جهنم ، ومن عذاب القبر ، ومن فتنة المحيا والممات ، ومن فتنة المسيح الدجال » (١) .

والمسيح الدجال رجل من بني آدم . لكنه أعور خبيث كافر متمرد ، وقد كتب بين عينيه كافر ، يقرؤه المؤمن ولو كان غير قارئ ، ولا يقرؤه الكافر ولو كان قارئًا .

وهذه آية من آيات الله ﷻ .

وهذا الدجال يدعو الناس إلى عبادته فيقول : أنا ربكم ، فإن أطاعوه أدخلهم جنته وإن عصوه أدخلهم ناره ، لكن ما هي جنته وناره ؟ قال النبي – عليه الصلاة والسلام – : « إنه يجيء معه بمثال الجنة والنار ، فالتي يقول إنها الجنة هي النار » (٢) .

لكنه يوهم الناس ويموه عليهم فيحسبون أن هذا الذي أطاعه أدخله الجنة ، وأن هذا الذي عصاه أدخله النار ، والحقيقة بخلاف ذلك .

---

(١) أخرجه البخاري في الجنائز (١٣٧٧) ومسلم في المساجد (١٢٨) .
(٢) أخرجه البخاري في أحاديث الأنبياء (٣٣٣٨) ومسلم في الفتن (١٠٩) .

كذلك يأتي إلى القوم في البادية ، يأتي إليهم ممحلين ، ليس في ضروع مواشيهم لبن ، ولا في أرضهم نبات ، فيدعوهم ، فيقول : أنا ربكم ، فيستجيبون له ، فيأمر السماء فتمطر ، يقول للسماء أمطري ؛ فتمطر ، ويأمر الأرض فتنبت ، يقول : يا أرض أنبتي ، ؛ فتنبت ، فيصبحون على أخصب ما يكون ، ترجع إليهم مواشيهم أسبغ ما يكون ضروعًا ؛ ضروعها مملوءة ، وأطول ما يكون ذرى ؛ أسنمتها رفيعة من الشبع والسمن ، فيبقون على عبادته ، فيسعدون في الدنيا مدة يسيرة ، ولكنهم في الحقيقة خسروا الدنيا والآخرة ؛ لأنهم اتخذوا الدجال ربًّا من دون اللَّه .

فالدجال يقول عنه الرسول ﷺ : إنه « شر غائب ينتظر » . أعاذنا اللَّه وإياكم من فتنته .

ثم قال : « أو الساعة » يعني أو تنتظرون الساعة ، أي قيام الساعة ، ﴿ وَٱلسَّاعَةُ أَدْهَىٰ وَأَمَرُّ ﴾ يعني أشد داهية وأمر مذاقًا ، قال اللَّه تبارك وتعالى : ﴿ بَلِ ٱلسَّاعَةُ مَوْعِدُهُمْ وَٱلسَّاعَةُ أَدْهَىٰ وَأَمَرُّ ﴾ [القمر : ٤٦] .

والحاصل : أن الإنسان لن يخرج عن هذه السبع . وهذه السبعة كلها تعيقه عن العمل ، فعليه أن يبادر ، ما دام في صحة ، ونشاط ، وشباب ، وفراغ ، وأمن ، قبل أن يفوته ذلك كله فيندم حيث لا ينفع الندم .

* * *

٥٧٩ - وعنه قالَ : قالَ رسول اللَّه ﷺ : « أَكثِرُوا ذِكْرَ هَاذِمِ اللَّذَّاتِ » يَعني المَوتَ [(١)] ، رواه الترمذي وقال : حديثٌ حسنٌ .

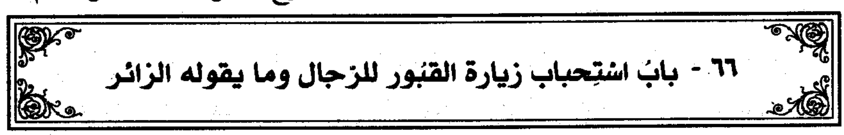
٥٨٠ - وعن أُبيِّ بنِ كعبٍ ﷺ : كانَ رسول اللَّه ﷺ إذا ذَهَبَ ثُلُثُ اللَّيلِ : قامَ فقالَ : « يا أيها النَّاسُ اذْكُرُوا اللَّه ، جاءَتِ الرَّاجِفَةُ ، تَتْبَعُها الرَّادِفَةُ ، جاءَ الموتُ بما فِيهِ ، جاءَ الموتُ بما فِيهِ » قلتُ : يا رَسُولَ اللَّهِ إِنِّي أُكْثِرُ الصَّلاةَ عَلَيكَ ، فَكَمْ أَجْعَلُ لكَ مِن صَلاتي ؟ قال : « ما شِئْتَ » قُلْتُ : الرُّبُعَ ؟ قال : « ما شِئْتَ ، فَإنْ زِدْتَ فَهُوَ خيرٌ لكَ » قُلْتُ : فَالنِّصْفَ ؟ قالَ : « ما شِئْتَ ، فإنْ زِدْتَ فهو خَيرٌ لك » قُلْتُ : فَالثّلثَين ؟ قالَ : ما شِئْتَ فَإنْ زدْتَ فَهُوَ خَيرٌ لكَ » قُلْتُ : أَجْعَلُ لكَ صَلاتي كُلَّها ؟ قالَ : « إِذًا تُكْفى هَمَّكَ ، ويُغْفَرَ لكَ ذَنْبُكَ » [(٢)] رواهُ الترمذي وقال : حديث حسن .

* * *

---

(١) هذا الحديث لم يقم الشارح ﷺ بشرحه وقد أخرجه الترمذي في الزهد (٢٣٠٧) ، قوله « هاذم اللذات) أي قاطعها .

(٢) هذا الحديث لم يقم الشارح ﷺ بشرحه وقد أخرجه الترمذي في صفة القيامة (٢٤٥٧) ، قوله « الراجفة » أي النفخة الأولى التي تضطرب عندها وتتحرك الجبال ، قوله « الرادفة » أي في الواقعة التي تردف الأولى وهي النفخة الثانية .



٦٦ - بابُ استِحباب زيارة القبُور للرّجال وما يقوله الزائر

٥٨١ - عن بُرَيدةَ ﷺ، قال : قال رسُولُ اللهِ ﷺ : « كُنْتُ نَهَيْتُكُم عَنْ زِيارَةِ القُبُورِ فَزُورُوها »(١) رواه مسلم .

٥٨٢ - وعن عَائشَةَ ﷺ، قالت : كان رسُولُ اللهِ ﷺ كُلَّما كانَ لَيلَتها مِنْ رسول الله ﷺ يخْرُجُ مِنْ آخِرِ اللَّيْلِ إلى البَقِيعِ ، فَيَقُولُ : السَّلامُ عَلَيكُمْ دَارَ قَوْمٍ مؤمنين ، وَأَتاكُمْ ما تُوعَدُونَ ، غَدًا مُؤَجَّلُونَ ، وإنَّا إنْ شَاءَ اللهُ بِكُمْ لاحِقُونَ ، اللَّهُمَّ اغْفِرْ لأهْلِ بَقِيعِ الغَرْقَدِ »(٢) رواهُ مسلم .

الشرح

قال المؤلف ﷺ في كتاب رياض الصالحين : باب استحباب زيارة القبور للرجال وما يقوله الزائر .

زيارة القبور : أي الخروج إليها امتثالًا واتباعًا لرسول الله ﷺ . والقبور هي دور الأموات ، وذلك أن الإنسان له أربعة دور :

الدار الأولى : في بطن أمه . والثانية : الدنيا . والثالثة : القبور .

والرابعة : الآخرة وهي المقر وهي النهاية والغاية - جعلنا الله من الفائزين فيها .

هذه الدار - أعني دار القبور - كان النبي ﷺ نهى عن زيارتها ؛ خوفًا من الشرك بأهل القبور ، لأن الناس كانوا حديثي عهد بجاهلية ، فنهى عنها رسول الله ﷺ سدًّا لذرائع الشرك ؛ لأن الشرك لما كان أمره عظيمًا سدّ النبي ﷺ كل ذريعة وكل باب يوصل إليه .

وكلما كانت المعصية عظيمة كانت وسائلها أشد منعًا . الزنا مثلًا فاحشة ، فوسائله من النظر والخلوة وما أشبه ذلك محرمة .

وكذلك فإن الشرك أعظم الظلم ، كما سئل النبي ﷺ : أي الذنب أعظم ؟ قال : « أن تجعل لله ندًّا وهو خلقك »(٣) .

فلما كان الناس يعظمون القبور ، نهاهم النبي ﷺ عن ذلك ، فلما استقر الإيمان في قلوبهم أذن لهم فقال : « كنت نهيتكم عن زيارة القبور ، فزوروها فإنها تذكرُ الآخرة » .

فرفع النبي ﷺ النهي وأباح الزيارة ، بل رغب فيها لقوله : « فإنها تذكر الآخرة » . والذي يذكر الآخرة ينبغي للإنسان أن يعمل به ، لأن القلب إذا نسي الآخرة غفل واشتغل بالدنيا ، فأضاع الدنيا والآخرة ؛ لأن من أضاع الآخرة فقد أضاع الدنيا والآخرة .

---

(١) أخرجه الترمذي في الجنائز (١٠٥٤) واللفظ له ومسلم في الجنائز (١٠٦) بلفظ « نهيتكم عن زيارة القبور » .

(٢) أخرجه مسلم في الجنائز (١٠٢) .

(٣) أخرجه البخاري في الأدب (٦٠٠١) ، ومسلم في الإيمان (١٤١) .

فينبغي أن نزور القبور ؛ ولكن نزورها لنفعها أو للانتفاع بها ؟ نزورها لنفعها ، لندعوا للأموات لا لندعوهم ، فيخرج الإنسان ويسلم على القبور ، كما فعل النبي ﷺ . وقالت عائشة : إن النبي ﷺ إذا كان عندها ، خرج من آخر الليل فسلم على أهل البقيع وقال : « السلام عليكم دار قوم مؤمنين وأتاكم ما توعدون ، غدًا مؤجلون ، وإنا إن شاء الله بكم لا حقون » .

ثم يقول : « اللهم اغفر لأهل بقيع الغرقد » : بقيع الغرقد هو مقبرة أهل المدينة ، وهذه الدعوة يرجى أن تشمل من كان من أهل بقيع الغرقد إلى يوم القيامة ، ويحتمل أن يراد بهم أهل بقيع الغرقد الذين كانوا أهله في عهد الرسول - عليه الصلاة والسلام - فقط ، فلا يشمل من يأتي بعدهم .

ولكن من كان من أهل الرحمة فهو من أهل الرحمة ، سواء حصلت له هذه الدعوة أم لم تحصل ، ومن كان من أهل الشقاء فإنه لا تشمله هذه الدعوة ولا ينتفع بها .

المهم : أن الإنسان ينبغي له أن يزور القبور في كل وقت ، في الليل ، في النهار ، في الصباح ، في المساء ، في يوم الجمعة ، في غير يوم الجمعة ، ليس لها وقت محدد ، وكلما غفل قلبك واندمجت نفسك في الحياة الدنيا ، فاخرج إلى القبور ، وتفكر في هؤلاء القوم الذين كانوا بالأمس مثلك على الأرض يأكلون ويشربون ويتمتعون ، والآن أين ذهبوا ؟ صاروا مرتهنين بأعمالهم ، لم ينفعهم إلا ما قدموا ، كما أخبر بذلك النبي - عليه الصلاة والسلام - حيث قال : « يتبع الميت ثلاثة : ماله وأهله وعمله ، فيرجع اثنان ويبقى واحد ، يرجع أهله وماله ويبقى عمله » [1] .

ففكر في هؤلاء القوم ، ثم سلم عليهم : « السلام عليكم دار قوم مؤمنين » والظاهر - والله أعلم - أنهم يردون السلام ، لأنه يسلم عليهم بصيغة الخطاب « السلام عليكم » ويحتمل أن يراد بذلك السلام مجرد الدعاء فقط ، سواء سمعوا أم لم يسمعوا ، أجابوا أم لم يجيبوا .

فعلى كل حال على الإنسان أن يدعو لهم ويقول مقررًا المصير الحتمي : « وإنا إن شاء الله بكم لاحقون » . إن شاء الله هذه تعود إلى وقت اللحوق وليس إلى اللحوق ، لأن اللحوق متيقن ، والمتيقن لا يقيد بالمشيئة لكن تعود إلى وقت اللحوق ، لأن كل واحد منا لا يدري متى يلحق ، فيكون معنى قوله : « وإنا إن شاء الله بكم لاحقون » أي وإنا متى شاء الله بكم لا حقون ، كقوله تعالى : ﴿ ثُمَّ إِذَا شَآءَ أَنشَرَهُۥ ۝ كَلَّا لَمَّا يَقْضِ مَآ أَمَرَهُۥ ﴾ [عبس : ٢٢، ٢٣] .

ثم يدعو لهم بالدعاء الذي جاءت به السنة ، فإن لم يعرف شيئًا منه ، دعا بما تيسر : اللهم اغفر لهم ، اللهم ارحمهم ، اللهم لا تحرمنا أجرهم ، ولا تفتنا بعدهم ، واغفر لنا ولهم ، ثم ينصرف . هكذا كان الرسول - عليه الصلاة والسلام - يزور المقبرة .

وأما ما يفعله بعض الجهال من البقاء هناك ، والتمرغ على التراب ، والطواف بالقبر وما أشبه ذلك ، فكله أمر منكر وبدعة محظورة ، فإن اعتقد أن هؤلاء الأموات ينفعون أو يضرون كان مشركًا

---

(١) أخرجه البخاري في الرقاق (٦٥١٤) ومسلم في الزهد والرقائق (٥) .

والعياذ بالله خارجًا عن الإسلام ، لأن هؤلاء الأموات لا ينفعون ولا يضرون ، لا يستطعون الدعاء لك ، ولا يشفعون لك إلا بإذن الله .

وليس هذا وقت الشفاعة أيضًا ، وقت الشفاعة يوم القيامة ، فلا ينفعك شيء منهم إذا دعوتهم أو سألتهم الشفاعة أو قضاء الحاجات وتفريج الكربات .

فالواجب على إخواننا الذين يوجد مثل هذا في بلادهم أن ينصحوا هؤلاء الجهال ، وأن يبينوا لهم أن الأموات لا ينفعونهم ، حتى الرسول - عليه الصلاة والسلام - ما ينفع الناس وهو ميت ، وكان الصحابة ﷺ إذا أصابهم الجدب في عهد الرسول ﷺ وفي حياته جاءوا إليه وقالوا : استسق الله لنا ، فيستسقي الله لهم .

لكن لما مات ما جاء الصحابة إلى قبره يقولون : ادع الله أن يسقينا ، وقبره إلى جانب المسجد ليس بعيدًا ، لكن لما أجدبت الأرض في عهد عمر ، وحصل القحط قال : اللهم إنا كنا نستسقي إليك بنبينا فتسقينا ، أي أنهم كانوا يسألون الرسول أن يدعو لهم بالسقيا فيسقون ، وإنا نتوسل إليك بعم نبينا فاسقنا ، ثم يقوم العباس فيدعو الله (١) .

ولم يقل : يا رسول الله ، ادع الله أن يسقينا ، ادع الله أن يرفع عنا القحط ، لأنه ﷺ يعلم أن ذلك غير ممكن ، والإنسان إذا مات انقطع عمله ، ولا يمكن أن يعمل أي عمل كما قال الرسول - عليه الصلاة والسلام - : « إذا مات الإنسان انقطع عمله إلا من ثلاث » (٢) ، فلا يستطيع الميت أن يستغفر لك ولا أن يدعو لك ؛ لأنه انقطع عن العمل .

فالحاصل : أن زيارة القبور لمنفعة أهل القبور لا لمنفعة الزائر ، إلا فيما يناله من الأجر عند الله ﷻ ، أما أن ينتفع بهم بزيارته إياهم فلا . لكن ينتفع بالأجر الذي يحصل له ، وينتفع بالموعظة التي تحصل لقلبه إذا وفقه الله تعالى للاتعاظ .

* * *

٥٨٣ - وعن بُرَيدَةَ ﷺ قال : كَانَ النَّبيُّ ﷺ يُعَلِّمُهُمْ إذا خَرَجُوا إلى المقابر أَنْ يَقُولَ قَائِلُهُم : « السَّلامُ عَلَيكُمْ أَهْلَ الدِّيارِ مِنْ المُؤْمِنِينَ والمُسْلِمِينَ وإنَّا إنْ شاءَ اللَّهُ بِكُمْ لَاحِقُونَ ، أَسْأَلُ اللَّه لَنَا ولَكُمُ العافِيَةَ » (٣) رواه مسلم .

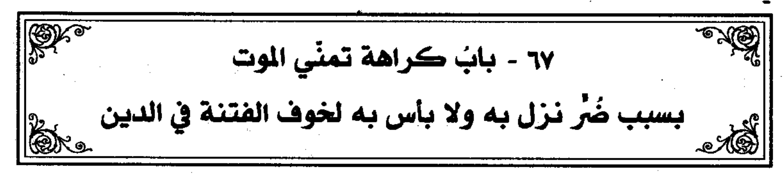
٥٨٤ - وعن ابنِ عَبَّاسٍ ﷺ ، قال : مَرَّ رسُولُ اللَّهِ ﷺ بقُبُورٍ بالمدينَةِ فَأَقْبَلَ عَلَيهِمْ بوَجْهِهِ فقالَ : « السَّلامُ عَلَيكُمْ يا أَهْلَ القُبُورِ ، يَغْفِرُ اللَّهُ لَنا ولَكُمْ ، أَنْتُم سَلَفُنا ، ونحْنُ بالأَثَرِ » (٤) رواهُ الترمذي وقال : حديث حسن .

---

(١) أخرجه البخاري في الاستسقاء (١٠١٠) . (٢) سبق تخريجه .

(٣) هذا الحديث لم يشرحه الشارح رحمه الله ، وقد أخرجه مسلم في الجنائز (١٠٤) ، وابن ماجه في الجنائز (١٥٤٧) .

(٤) هذا الحديث لم يشرحه الشارح رحمه الله ، وقد أخرجه الترمذي في الجنائز (١٠٥٣) .



٦٧ - بابُ كراهة تمنّي الموت بسبب ضُرّ نزل به ولا بأس به لخوف الفتنة في الدين

٥٨٥ - عَنْ أبي هُريرة ﷺ أنَّ رسول اللَّه ﷺ قالَ : « لا يتَمنّ أحدُكُم الموتَ إما مُحسنًا ، فَلَعَلَّهُ يَزْدادُ ، وَإمَّا مُسِيئًا فَلَعَلَّهُ يَسْتَعْتِبُ »[١] متفقٌ عليه وَهذَا لفظ البخاري .

وفي روايةٍ لمسلم عن أبي هُرَيرَة ﷺ عن رسول اللَّه ﷺ قال : « لا يَتَمَنَّ أَحَدُكُمُ المَوتَ ، وَلا يَدْعُ بِهِ مِنْ قَبْلِ أنْ يَأتِيَهُ ، إنَّهُ إذا ماتَ انْقَطَعَ عَمَلُهُ ، وَإنَّهُ لا يَزِيدُ المُؤْمِنَ عُمُرُهُ إلا خيرًا »[٢] .

الشرح

قال المؤلف - رحمه اللَّه تعالى - : باب كراهية تمني الموت لضر نزل به . يعني من مرض أو نحوه ، وأما إذا كان لخوف فتنة في الدين فلا بأس بتمني الموت ، هكذا قال المؤلف رحمه الله ، فالإنسان إذا نزل به الضر فلا يتمن الموت ؛ فإن هذا خطأ وسفه في العقل ، وضلال في الدين .

أما كونه سفهًا في العقل ؛ فلأن الإنسان إذا بقي في حياته ، فإما محسنًا فيزداد ، وإما مسيئًا فيستعتب ويتوب إلى اللَّه ﷻ ، وكونه يموت فإنه لا يدري ، فلعله يموت على أسوأ خاتمة والعياذ باللَّه ، لهذا نقول : لا تفعل فإن هذا سفه في العقل .

أما كونه ضلالًا في الدين فلأنه ارتكاب لما نهى عنه النبي ﷺ ، ولهذا قال - عليه الصلاة والسلام - : « لا يتمن أحدكم الموت » والنهي هنا للتحريم ، لأن تمني الموت فيه شيء من عدم الرضا بقضاء اللَّه ، والمؤمن يجب عليه الصبر ، إذا أصابته الضراء ، فإذا صبر على الضراء نال شيئين مهمين :

الأول : تكفير الخطايا ، فإن الإنسان لا يصيبه هَمٌّ ولا غَمٌّ ولا أذى ولا شيء إلا كَفَّرَ اللَّه به عنه حتى الشوكة يشاكها ؛ فإنه يُكَفَّرُ بها عنه .

الثاني : إذا وفق لاحتساب الأجر من اللَّه وصبر يبتغي بذلك وجه اللَّه ، فإنه يثاب ، وقد قال اللَّه تعالى : ﴿ إِنَّمَا يُوَفَّى ٱلصَّٰبِرُونَ أَجْرَهُم بِغَيْرِ حِسَابٍ ﴾ [الزمر: ١٠] .

أما كونه يتمنى الموت : فهذا يدل على أنه غير صابر على ما قضى اللَّه ﷻ ولا راضٍ به ، وبيَّنَ الرسول - عليه الصلاة والسلام - أنه إما أن يكون من المحسنين ، فيزداد في بقاء حياته عملًا صالحًا .

ومن المعلوم أن التسبيحة الواحدة في صحيفة الإنسان خير من الدنيا وما فيها ؛ لأن الدنيا وما فيها تذهب وتزول ، والتسبيح والعمل الصالح يبقى ، قال اللَّه ﷻ : ﴿ ٱلْمَالُ وَٱلْبَنُونَ زِينَةُ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَٱلْبَٰقِيَٰتُ ٱلصَّٰلِحَٰتُ خَيْرٌ عِندَ رَبِّكَ ثَوَابًا وَخَيْرٌ أَمَلًا ﴾[٣] [الكهف: ٤٦] . فأنت إذا بقيت ولو على أذى ولو

---

(١) أخرجه البخاري في المرضى (٥٦٧٣) ومسلم في الذكر والدعاء (١٠) .

(٢) أخرجه مسلم في الذكر والدعاء (١٣) .

(٣) قوله ﴿ وَٱلْبَٰقِيَٰتُ ٱلصَّٰلِحَٰتُ ﴾ كل عبادة يقصد بها وجه اللَّه . قيل الباقيات الصالحات هي الصلوات الخمس ، =

على ضرر ؛ فإنك ربما تزداد حسنات .

وإما مسيئًا قد عمل سيئًا ، فلعله يستعتب أي يطلب من اللّٰه العتبى أي الرضا والعذر ، فيموت وقد تاب من سيئاته ، فلا تتمنَّ الموت لأن الأمر كله مقضي ، وربما يكون في بقائك خير لك أو خير لك ولغيرك ، فلا تتمن الموت ، بل اصبر واحتسب ، فإن اللّٰه سيجعل بعد عسر يسرًا .

* * *

٥٨٦ - وعن أنس ﷺ قال : قالَ رسُولُ اللّٰهِ ﷺ : « لا يَتَمَنَّيَنَّ أَحَدُكُمُ الموتَ لِضُرٍّ أَصابَهُ ، فَإِنْ كانَ لابُدَّ فاعِلًا ، فَلْيَقُلْ : اللَّهُمَّ أَحْيِني ما كانَتِ الحَيَاةُ خَيرًا لي ، وتَوَفَّني إذا كانَتِ الوَفاةُ خَيرًا لي »[١] متفقٌ عليه .

٥٨٧ - وعَنْ قَيسِ بنِ أبي حازمٍ قالَ : دَخَلْنا عَلى خَبَّابِ بن الأَرَتِّ ﷺ نَعُودُهُ وقَدِ اكْتَوى سَبْعَ كَيَّاتٍ فقال : إنَّ أَصْحابَنا الَّذِينَ سَلَفُوا مَضَوا ، ولمْ تَنْقُصْهُمُ الدُّنْيا ، وإنَّا أَصَبْنَا ما لا نجدُ لَهُ مَوضِعًا إلا التراب ، ولَولا أَنَّ النَّبيَّ ﷺ نهانَا أَنْ نَدْعُوَ بالمَوتِ لَدَعَوتُ بِهِ ، ثُمَّ أَتَينَاهُ مَرَّةً أُخرى وهُوَ يَبْني حائِطًا لهُ ، فقال : إنَّ المُسْلِمَ لَيُؤْجَرُ في كُلِّ شيءٍ يُنْفِقُهُ إلَّا في شَيءٍ يَجْعَلُهُ في هذَا الترابِ[٢] . متفقٌ عليه ، هذا لفظ رواية البخاري .

الشرح

ذكر المؤلف - رحمه اللّٰه تعالى - في باب كراهة تمني الموت لضر نزل به إلا أن يكون لفتنة في الدين : عن أنس بن مالك ﷺ أن النبي ﷺ قال : « لا يتمنينَّ أحدكم الموت لضرٍّ أصابه » مثل أن يصاب الإنسان بمرض شديد ، أو بفقر شديد ،أو بدين متعب ، فيقول : اللهم أمتني حتى أستريح من هذه الدنيا ، فإن هذا حرام ولا يجوز ، لأنه لو مات فإنه لن يستريح ، ربما ينتقل من عذاب الدنيا إلى عذاب في الآخرة أشد وأشد .

ولهذا نهى النبي - عليه الصلاة والسلام - أن تتمنى الموت للضر الذي ينزل بك ، ولكن قابل هذه المصائب بالصبر والاحتساب وانتظار الفرج ، واعلم أن دوام الحال من المحال ، واللّٰه ﷻ يقدر الليل والنهار ، ويخلف الأمور على وجه لا يحتسبه الإنسان ولا يظنه ، لأن اللّٰه إذا أراد شيئًا فإنما يقول له : كن . فيكون ، لا تتمن الموت لضر نزل بك .

أما ما يتعلق بفتنة الدين ، إذا افتتن الناس في دينهم وأصابتهم فتنة ؛ إما في زخارف الدنيا أو غيرها من الفتن ، أو أفكار فاسدة ، أو ديانات منحرفة أو غير ذلك ، فهذا أيضًا لا يتمنى بسببه الإنسان الموت ، ولكن يقول : اللهم اقبضني إليك غير مفتون ، فيسأل اللّٰه أن يثبته وأن يقبضه إليه غير مفتون .

= وقيل : هي سبحان اللّٰه والحمد للّٰه ولا إله إلا اللّٰه ، واللّٰه أكبر ولا حول ولا قوة إلا باللّٰه .

(١) أخرجه البخاري في المرضى (٥٦٧١) ومسلم في الذكر والدعاء (١٠) والإمام أحمد في مسنده (٣/١٠٣) .

(٢) أخرجه البخاري في المرضى (٥٦٧٢) ومسلم في الذكر والدعاء (١٢) .

وإلا فليصبر ؛ لأنه ربما يكون بقاؤه مع هذه الفتن خيرًا للمسلمين يدافع عنهم ويناضل ، ويساعد المسلمين ويقوي ظهورهم ، لكن يقول : اللهم إن أردت بعبادك فتنة ، فاقبضني إليك غير مفتون .

قال النبي - عليه الصلاة والسلام - : « فإن كان لابد فاعلًا فليقل : اللهم أحيني ما كانت الحياة خيرًا لي ، وتوفني إذا كانت الوفاة خيرًا لي » ؛ فأنت لا تدري وجه الخير في ذلك ، فاجعل الأمر إلى الله : « اللهم أحيني ما كانت الحياة خيرًا لي » يعني إذا كانت . « وتوفني إذا كانت الوفاة خيرًا لي » .

فإذا دعوت الله بهذا الدعاء ، فإن الله ﷻ يستجيب دعاءك .

وفي هذا الحديث : دليل على جواز الشرط في الدعاء ، أن تشترط على الله ﷻ في الدعاء ، وقد جاء ذلك في نصوص أخرى ؛ مثل آية اللعان فإن الزوج يقول في الخامسة : إن لعنة الله عليه إن كان من الكاذبين ، وهي تقول في الخامسة : إن غضب الله عليها إن كان من الصادقين . فالشرط في الدعاء لا بأس به .

ثم ذكر المؤلف حديث قيس بن حازم حين دخلوا على خباب بن الأرت رضي الله عنه وهو من الصحابة الأجلاء ، دخلوا يعودونه بعد أن فتحت الدنيا على المسلمين .

والمسلمون كانوا في العهد الأول فقراء ، ولكن الله أغناهم بالغنائم الكثيرة التي غنموها من الكفار بإذن الله ، كما قال تعالى : ﴿ وَعَدَكُمُ اللَّهُ مَغَانِمَ كَثِيرَةً تَأْخُذُونَهَا ﴾ [الفتح : ٢٠] وقال : ﴿ وَمَغَانِمَ كَثِيرَةً يَأْخُذُونَهَا ﴾ [الفتح : ١٩] .

فلما فتح الله على المسلمين كثرت الأموال عندهم ، فزادت ونمت فحصل لبعضهم ترف ، وصار بعضهم إذا قدم له الغداء أو العشاء يبكي على ما كانوا عليه من ضحالة العيش وقلة ذات اليد .

دخلوا على خباب بن الأرت رضي الله عنه وهو مريض وقد اكتوى سبع كيات .

والكي أحد الأدوية النافعة بإذن الله ، ثلاثة أشياء نص عليها الرسول - عليه الصلاة والسلام - وبين أنها بها الشفاء بإذن الله : « الكي والحجامة والعسل » [1] ؛ هذه الثلاثة من أنفع ما يكون بإذن الله ﷻ ، وهناك بعض العلل ما ينفع فيها إلا الكي ، فمثلًا ذات الجنب ، وهو داء يصيب الرئة فتتجلط وتلصق بالصدر ويموت الإنسان منها إلا أن يشفيه الله ﷻ بأسباب .

هذا النوع من الأمراض لا ينفع فيه إلا الكي ، كم من مريض يصاب بذات الجنب يذهب إلى الأطباء ويعطونه الإبر والأدوية وغيرها ولا ينفع ، فإذا كُوِيَ برئ بإذن الله .

كذلك هناك أشياء تصيب الأمعاء تسمى عند أطباء العرب الطير ؛ لأنها تتفرق في الجسد ، هذه أيضًا لا ينفع فيها إلا الكي ، مهما أعطيت المريض من الأدوية لا ينفع فيها إلا الكي .

---

(١) هذا معنى حديث وقد أخرجه البخاري في الطب (٥٦٨١) ولفظه « الشفاء في ثلاثة : في شرطة محجم ، أو شربة عسل ، أو كية بنار ... » وعند ابن ماجه في الطب (٣٤٩١) .

هناك أيضًا شيء ثالث يسمى عند الناس الحبة ، ورم يظهر في الفم أو في الحلق ، وإذا انفجر هلك الإنسان ، هذا أيضًا لا ينفع فيه إلا الكي ، وأشياء كثيرة ما ينفع فيها إلا الكي .

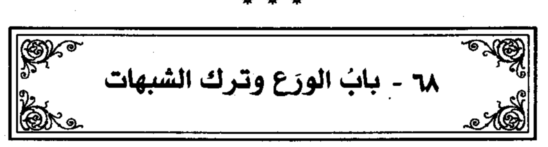
خباب بن الأرت ﷺ كوي سبع كيات ، ثم جاءه أصحابه يعودونه فأخبرهم أن النبي ﷺ قال : « إن الإنسان يؤجر على كل شيء أنفقه إلا في شيء يجعله في التراب » يعني في البناء ، لأن البناء إذا اقتصر الإنسان على ما يكفيه ، فإنه لا يحتاج إلى كبير نفقة . يبني له حجرة تكفيه هو وعائلته كما كان الرسول ﷺ وهو أشرف الخلق ، كانت بيوته حُجَرًا ، لكل زوجة من زوجاته حجرة ، ليس فيها أكثر من ذلك ، وعند قضاء الحاجة يخرجون إلى الخلاء ويقضون حاجتهم فيه .

لكن تتطور الناس ، ومن علامات الساعة : أن ترى الحفاة العراة العالة - يعني الفقراء - يتطاولون في البنيان [1] ؛ في علوه في السماء أو في تذويقه وتحسينه ، فهذا المال الذي يجعل في البناء لا يؤجر الإنسان عليه ، اللهم إلا بناء يجعله للفقراء يسكنونه ، أو يجعل غلته في سبيل الله أو ما أشبه ذلك ، فهذا يؤجر عليه ، لكن بناء يسكنه ، هذا ليس فيه أجر ، بل ربما إذا زاد الإنسان فيه حصل له وزر ، مثل ما يفعل بعض الفقراء الآن .

الآن عندنا فقراء يستدين الإنسان منهم إلى عشر سنين أو خمسةعشر وإن طال الأجل إلى عشرين سنة ، من أجل أن يرصع بنيانه بالأحجار الجميلة ، أو من أجل أن يضع له أقواسًا أو شرفات ، وهو مسكين يعمل هذا العمل المنهي عنه ويستدين على نفسه الديون الكثيرة .

وأما البنيان الذي يكون على حسب العادة ، وليس فيه تفاخر ولا سرف ولا استدانة من أحد ، فهذا لا بأس به وليس فيه إثم إن شاء الله .

* * *



٦٨ - باب الورع وترك الشبهات

قال الله تعالى : ﴿ وَتَحْسَبُونَهُ هَيِّنًا وَهُوَ عِندَ ٱللَّهِ عَظِيمٌ ﴾ [النور: ١٥] وقال تعالى : ﴿ إِنَّ رَبَّكَ لَبِٱلْمِرْصَادِ ﴾ [2] [الفجر: ١٤] .

الشرح

قال المؤلف رَحِمَهُ ٱللَّهُ : باب الورع وترك الشبهات .

الورع والزهد يشتبه معناهما عند كثير من الناس ، لكن الفرق بينهما كما قال ابن القيم رَحِمَهُ ٱللَّهُ في كتاب الروح : الورع ترك ما يضر في الآخرة ، والزهد ترك مالا ينفع ، فمقام الزهد أعلى من مقام الورع ، لأن الورع أن يترك الإنسان ما يضر ، والزهد ، أن يترك الإنسان مالا ينفع ، لأن الأشياء ثلاثة أقسام : ضار ، ونافع ، وما ليس بضار ولا نافع .

---

(١) هذا معنى حديث وهو جزء من حديث طويل أخرجه مسلم في الإيمان (٥) ، والترمذي في الإيمان (٢٦١٠) .
(٢) قوله ﴿ هَيِّنًا ﴾ أي سهلًا ، قوله ﴿ لَبِٱلْمِرْصَادِ ﴾ أي يرقب أعمالهم ويجازيهم عليها .

فالزاهد يترك شيئين من هذا ؛ يترك الضار ، ويترك ما ليس بنافع ولا ضار ، ويفعل ما هو نافع .

والورِعُ يترك شيئًا واحدًا منهما وهو ما كان ضارًّا ، ويفعل النافع ويفعل الشيء الذي ليس فيه نفع ولا ضرر .

وبهذا صارت منزلة الزاهد أرفع من منزلة الورع ، وربما يطلق أحدهما على الآخر ؛ فالورع ترك ما يضر ، ومن ذلك ترك الأشياء المشتبهة ؛ المشتبهة في حكمها ، والمشتبهة في حقيقتها ، فالأول: اشتباه في الحكم ، والثاني : اشتباه في الحال ، فالإنسان الورع هو الذي إذا اشتبه عليه الأمر تركه إن كان اشتباهًا في تحريمه ، وفعله إن كان اشتباهًا في وجوبه لئلا يأثم بالترك .

ثم إن المؤلف رَحِمَهُ اللَّهُ ذكر آيتين في هذا الباب ، ذكر قوله تعالى : ﴿ وَتَحْسَبُونَهُۥ هَيِّنًا وَهُوَ عِندَ ٱللَّهِ عَظِيمٌ ﴾ .

﴿ وَتَحْسَبُونَهُۥ ﴾ : الضمير يعود على ما تلقاه الناس من الحديث الإفك الكذب في حق أم المؤمنين عائشة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا [1] ، وذلك أن عائشة أم المؤمنين رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا : كانت زوج النبي ﷺ ، وكان المنافقون يتربصون بالنبي ﷺ أن يشوهوا سمعته ، ويدنسوا عرضه ، فحصلت غزوة من الغزوات ، فلما قفل النبي ﷺ راجعًا منها نام في أثناء الطريق ، وكان لنساء النبي ﷺ رجال يساعدون في ترحيلهن .

فلما كان في آخر الليل ذهبت عائشة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا لقضاء حاجتها ، فجاء الذين يحملون الهودج الذي تركب فيه فحملوه على البعير وشدوه عليه ، وظنوا أنها بداخله ؛ لأنها كانت في ذلك الوقت صغيرة السن خفيفة الوزن .

ثم سار الركب ، فلما رجعت عائشة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا إلى المكان وجدت الناس قد رحلوا ، فكان من ذكائها وثبات جأشها وطمأنينتها أن بقيت في المكان ، ما ذهبت تتجول يمينًا وشمالًا ، لأنها لو ذهبت ربما ضاعت وضيعوها ، لكنها بقيت في مكانها ، وكان رجل من خيار الصحابة يقال له : صفوان بن المعطل نائمًا ، وكان من قوم إذا ناموا لم يستيقظوا إلا إذا شبعوا من النوم ، فلو أيقظت أحدهم قبل أن يأخذ كفايته من النوم لم يستيقظ .

فاستيقظ صفوان رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ فوجد الناس قد رحلوا ، ورأى هذا الشبح ؛ هذا السواد ، فأقبل إليها ، فإذا هي عائشة أم المؤمنين رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا ، وكان يعرفها قبل أن ينزل الحجاب ، فماذا صنع هذا الرجل ؟

أناخ البعير ، ولم يتكلم بأي كلمة احترامًا لفراش رسول اللَّه ﷺ ، لا يريد أن يتكلم مع زوجته في مثل هذا المكان ، أناخ البعير ، ووضع رجله على ساق البعير ، فركبت عائشة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا ، فأخذ الزمام وجعل يقود البعير ، ليجعل عائشة خلفه .

فلما أقبل على القوم تكلم المنافقون ، ورأوا في ذلك فرصة ، وقالوا في أم المؤمنين ما هم فيه كاذبون ؛ امرأة في سفر مع رجل تتأخر عن القوم ، فصاروا يتكلمون في عرض عائشة ، وهم لا يريدون عرض عائشة ، لا تهمهم فتاة عند زوجها ، الذي يهمهم تدنيس فراش رسول اللَّه ﷺ : ﴿ قَـٰتَلَهُمُ ٱللَّهُ

(١) حديث الإفك أخرجه البخاري في المغازي (٤١٤١) ، ومسلم في التوبة (٥٦) .

أَنَّىٰ يُؤْفَكُونَ ﴾ [التوبة : ٣٠] .

فجعلوا يتكلمون ، وكان من حكمة الله ﷻ أن عائشة لما قدموا المدينة مرضت وبقيت في بيتها ، وكان النبي ﷺ يدخل عليها ، لكنها لم تر منه ما كانت تراه في السابق ، كان يمر ويقول : **كيف تيكم** ؟ يعني : كيف هذه ؟ يسأل هكذا سؤالًا عابرًا ، لا يستقصي في السؤال فيقول مثلًا : كيف هي اليوم ؟ عساها أحسن من أمس ، وما أشبه ذلك ، ولكنه يقول هذه الكلمة ؛ لأن كلام المنافقين قد شاع في المدينة وصار عند بعض المؤمنين تردد ، والرسول - عليه الصلاة والسلام - كان لا يشك في أهله ، ويرى أن الله ﷻ يأبى بحكمته أن يدنس فراش نبيه ﷺ .

ولم يكن ليصدق بهذا أبدًا ، لكن مع كثرة الكلام وكثرة القرع وكثرة الإرجاف ، تردد الرسول ﷺ في الأمر ، وبعد أن مضى نحو شهر خرجت عائشة رضي الله عنها وخالتها أم مسطح بن أثاثة ، خرجت تقضي حاجتها ، وكانوا في هذا الوقت ليس عندهم مراحيض في البيوت ، إذا أراد الواحد أن يقضي حاجته خرج إلى الخلاء وبحث عن مكانٍ مطمئنٍ نازلٍ وقضى فيه حاجته .

فخرجت عائشة مع أم مسطح إلى مكان قضاء الحاجة ، فعثرت أم مسطح ، فقالت : تعس مسطح ، فتعجبت عائشة كيف تقول لرجل من المهاجرين شهد بدرًا تقول فيه : تعس مسطح ، وهو كذلك ابنها ؟ فسألتها عائشة عن سبب قولها ذلك .

فإن تعس معناها : خسر وهلك ، فقالت : أما علمت بكذا وكذا وكذا ، وأخبرتها بقصة الإفك ، وأن مسطحًا كان ممن صدقوا تلك الفرية ، فازدادت عائشة رضي الله عنها مرضًا إلى مرضها ، وصارت تبكي ليلًا ونهارًا لا يرقأ لها دمع ، ولا تهنأ بعيش .

وبينما الأمر كذلك حتى انتهى نفاق المنافقين إلى الرأس ، أنزل الله فيها هذه الآيات الكريمة : ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ جَآءُو بِٱلْإِفْكِ عُصْبَةٌ مِّنكُمْ ﴾ يعني طائفة منكم ﴿ لَا تَحْسَبُوهُ شَرًّا لَّكُم بَلْ هُوَ خَيْرٌ لَّكُمْ ﴾ سبحان الله !! هذا الإفك والرمي بالفاحشة لا نحسبه شرًّا ؟ نعم لا نحسبه شرًّا ، بل هو خير لرسول الله ﷺ وزوجه والمؤمنين ؛ لأنه حصل به من تمحيص الذنوب ورفعة المقامات ، والدفاع عن عرض الرسول - عليه الصلاة والسلام - وفراشه ما هو خير .

﴿ لِكُلِّ ٱمْرِيٍٕ مِّنْهُم مَّا ٱكْتَسَبَ مِنَ ٱلْإِثْمِ ﴾ كل واحد تكلم في هذا الأمر له ما اكتسب من الإثم ﴿ وَٱلَّذِى تَوَلَّىٰ كِبْرَهُۥ مِنْهُمْ لَهُۥ عَذَابٌ عَظِيمٌ ﴾ [النور : ١١] .

أعظمهم إثمًا الذي قاد هذه الفتنة وأوقد نارها والعياذ بالله .

ثم ساق الله تعالى الآيات إلى قوله : ﴿ إِذْ تَلَقَّوْنَهُۥ بِأَلْسِنَتِكُمْ وَتَقُولُونَ بِأَفْوَاهِكُم مَّا لَيْسَ لَكُم بِهِۦ عِلْمٌ وَتَحْسَبُونَهُۥ هَيِّنًا وَهُوَ عِندَ ٱللَّهِ عَظِيمٌ ﴾ [النور : ١٥] .

وكان الورع والتقى ألا يتكلموا في هذا الأمر ، وأن يسألوا أنفسهم : من أين مصدره ؟ من المنافقين الذين هم أكذب الناس .

ولهذا من علامات النفاق الكذب ، استمعوا إلى قول الله ﷻ : ﴿ إِذَا جَآءَكَ ٱلْمُنَٰفِقُونَ قَالُوا۟ نَشْهَدُ إِنَّكَ لَرَسُولُ ٱللَّهِ ﴾ شهادة مؤكدة بإنَّ واللام . قال الله ﷻ : ﴿ وَٱللَّهُ يَعْلَمُ إِنَّكَ لَرَسُولُهُۥ ﴾ حق إنك رسوله ومع ذلك : ﴿ وَٱللَّهُ يَشْهَدُ إِنَّ ٱلْمُنَٰفِقِينَ لَكَٰذِبُونَ ﴾ [المنافقون : ١] .

شهادة بشهادة أيهما أعظم ؛ قولهم : ﴿ نَشْهَدُ إِنَّكَ لَرَسُولُ ٱللَّهِ ﴾ أم قول الله : ﴿ وَٱللَّهُ يَشْهَدُ إِنَّ ٱلْمُنَٰفِقِينَ لَكَٰذِبُونَ ﴾ ؟ لاشك أن قول الله أصدق ، فهو يشهد ﷻ : ﴿ إِنَّ ٱلْمُنَٰفِقِينَ لَكَٰذِبُونَ ﴾ في قولهم ﴿ نَشْهَدُ إِنَّكَ لَرَسُولُ ٱللَّهِ ﴾ .

هذه الفاحشة التي أشيعت مصدرها من المنافقين ، وعلى رأسهم عبد الله بن أبي ابن سلول ، لكن الخبيث ما كان يتكلم صراحة ، يأتي إلى الناس ويقول : أما سمعتم ما قيل في عائشة ، قيل كذا وكذا .

وهناك أناس من المؤمنين تكلموا بهذا صراحة ، منهم مسطح بن أثاثة ، وحسان بن ثابت ﷺ ، وحمنة بنت جحش ، تكلموا ؛ لأنهم بشر ، وأقسم أبو بكر ﷺ ألا ينفق على مسطح بن أثاثة وهو ابن خالته ، لكنه أقسم ألا ينفق عليه ، لا لأنه قال في ابنته ؛ بل قال في رسول الله ﷺ ما لا يليق .

فأنزل الله ﷻ قوله : ﴿ وَلَا يَأْتَلِ أُو۟لُوا۟ ٱلْفَضْلِ مِنكُمْ وَٱلسَّعَةِ أَن يُؤْتُوٓا۟ أُو۟لِى ٱلْقُرْبَىٰ وَٱلْمَسَٰكِينَ وَٱلْمُهَٰجِرِينَ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ ﴾ [النور : ٢٢] .

﴿ وَلَا يَأْتَلِ ﴾ : أي لا يحلف ، والمراد بهذا أبو بكر . ﴿ وَلَا يَأْتَلِ أُو۟لُوا۟ ٱلْفَضْلِ مِنكُمْ وَٱلسَّعَةِ أَن يُؤْتُوٓا۟ أُو۟لِى ٱلْقُرْبَىٰ وَٱلْمَسَٰكِينَ وَٱلْمُهَٰجِرِينَ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ ﴾ يعني بذلك مسطحًا ، فلا ينبغي لأهل الفضل أمثال أبي بكر ﷺ أن يمتنعوا عن الإنفاق على أولي القربى والمساكين والمهاجرين ، وإن هم أخطؤوا في بعض الأمور .

﴿ أَلَا تُحِبُّونَ أَن يَغْفِرَ ٱللَّهُ لَكُمْ ۗ وَٱللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴾ [النور : ٢٢] لما نزلت هذه الآية قال أبو بكر : بلى والله ، نحب أن يغفر الله لنا ، فرد النفقة على مسطح . فامتثل أبو بكر هذا الامتثال العظيم .

ثم أمر النبي ﷺ أن يجلد مسطح وحسان وحمنة ، كل واحد منهم ثمانين جلدة حد القذف ، لكن عبد الله بن أبي ما أمر بجلده ، لأنه خبيث ما كان يصرح ؛ ولأن الحد تطهير للمحدود ، وعبد الله بن أبي ليس أهلًا للطهارة ، لأنه نجس خبيث .

فالحاصل : أن من الورع ألا يتكلم إلا بما يعلم ، وهذا الاستشهاد الذي استشهد به المؤلف ينطبق تمامًا على زماننا الآن ، ما أكثر الذين يتكلمون في ولاة الأمور بغير علم ، ما أكثر الذين يتكلمون في العلماء بغير علم ، ما أكثر الذين يتكلمون في طلبة العلم بغير علم ، ما أكثر الذين يتكلمون في المحسنين من ذوي الأموال بغير علم .

فليس عند أكثر الناس ورع ، يتكلم الإنسان بما جاء على لسانه من غير أن يتحقق ، وهذا من الظلم والعدوان على من تكلم فيه . لما قال الرسول - عليه الصلاة والسلام - في الغيبة إنها : « ذكرك أخاك بما يكره » قالوا : أرأيت إن كان في أخي ما أقول ؟ قال : « إن كان فيه ما تقول فقد اغتبته ،

وإن لم يكن فيه ما تقول فقد بهته »[١] .

* * *

٥٨٨ - وعن النُّعمانِ بن بَشيرٍ رضي الله عنهما قال : سَمِعْتُ رسول اللّه ﷺ يقُولُ : « إنَّ الحَلالَ بيِّنٌ ، وإنَّ الحَرامَ بيِّنٌ ، وبَينَهما مُشْتَبِهاتٌ لا يَعْلَمُهُنَّ كَثيرٌ مِنَ النَّاسِ ، فَمَنِ اتَّقى الشُّبهاتِ ، اسْتَبْرَأَ لِدِينِهِ وعِرْضِهِ ، وَمَنْ وَقَعَ في الشُّبهاتِ ، وَقَعَ في الحَرامِ ، كالرَّاعي يَرْعى حَولَ الحِمَى يُوشِكُ أَنْ يَرْتَعَ فِيهِ ، أَلا وإنَّ لِكُلِّ مَلِكٍ حِمىً ، أَلاَ وَإنَّ حِمَى اللَّهِ مَحارِمُهُ ، أَلا وإنَّ في الجَسَدِ مُضْغَةً ، إذا صَلَحَت صَلَحَ الجَسدُ كُلُّهُ ، وَإذا فَسَدَتْ فَسَدَ الجَسَدُ كُلُّهُ : أَلا وَهيَ القَلْبُ »[٢] متفقٌ عليه . ورَوَياهُ مِنْ طُرُقٍ بأَلْفاظٍ مُتقارِبَةٍ .

الشرح

قال المؤلف رحمه الله فيما نقله عن النعمان بن بشير رضي الله عنه ، أن النبي ﷺ قال : « إن الحلال بين وإن الحرام بين وبينهما مشتبهات لا يعلمهن كثير من الناس » قسم النبي ﷺ الأمور إلى ثلاثة أقسام : حلال بيِّن ، وحرام بيِّن ، ومشتبه .

الحلال البيِّن : كحلِّ بهيمة الأنعام ، والحرام البين كتحريم الميتة والدم ولحم الخنزير ، وكل ما في القرآن من كلمة « أحلَّ » فهو حلال ، ومن كلمة « حرّم » فهو حرام ، فقوله تعالى : ﴿ وَأَحَلَّ ٱللَّهُ ٱلْبَيْعَ ﴾ [البقرة : ٢٧٥] هذا حلال بيِّن ، وقوله تعالى : ﴿ وَحَرَّمَ ٱلرِّبَوٰاْ ﴾ [البقرة : ٢٧٥] هذا حرام بيِّن .

هناك أمور مشتبهات تخفى على الناس ، وأسباب الخفاء كثيرة ، منها ألا يكون النصُّ ثابتًا عند الإنسان فيتردد : هل يصح عن الرسول - عليه الصلاة والسلام - أو لا يصح ، ثم إذا صح قد تشتبه دلالته : هل يدل على كذا أو لا يدل ؟ ثم إذا دلَّ على شيء معين فقد يشتبه : هل له مخصص إن كان عامًّا ؟ هل له مقيد إن كان مطلقًا ؟ ثم إذا تبين قد يشتبه : هل هو باقٍ أو منسوخ .

المهم : أن أسباب الاشتباه كثيرة ، فما هو الطريق إلى حل هذا الاشتباه ؟ الطريق بينه النبي - عليه الصلاة والسلام - فقال : « فمن اتقى الشبهات فقد استبرأ لدينه وعرضه » من اتقاها يعني تجنبها إلى الشيء الواضح البين فقد استبرأ لدينه وعرضه .

« استبرأ لدينه » : حيث سلم من الوقوع في المحرم . ولعرضه : حيث سلم من كلام الناس فيه ، لأنه إذا أخذ الأمور المشتبهة صار عرضة للكلام فيه ، كما إذا أتى الأمور البينة الواضح تحريمها .

ثم ضرب النبي ﷺ مثلًا لذلك بالراعي الذي يرعى الغنم ، أو الإبل ، أو البقر « يرعى حول الحمى » الذي حماه أحد من الناس لا يرعى فيه أحد ، ومعلوم أنه إذا حمي ازدهر وكثر عشبه أو كثر زرعه ، لأن

---

(١) أخرجه مسلم في البر والصلة (٧٠) ، وأبو داود في الأدب (٤٨٧٤) ، والترمذي في البر والصلة (١٩٣٤) .

(٢) أخرجه مسلم في المساقاة (١٠٧) واللفظ له ، والبخاري في الإيمان (٥٢) ، قوله « استبرأ لدينه وعرضه » أي حصل له البراءة لدينه من الذم الشرعي ، وصان عرضه عن كلام الناس ، قوله « الحمى » الحمى ما حمي من الأرض لأجل الدواب ، قوله « مضغة » أي قطعة من اللحم قدر ما يمضغ .

الناس لا ينتهكونه بالرعي ، فالراعي الذي يرعى حول الحمى ، يوشك أن يقع فيه ؛ لأن البهائم إذا رأت الخضرة في هذا المحمي ، ورأت العشب ، فإنها تنطلق إليه وتحتاج إلى ملاحظة ومراقبة كبيرة .

ولو لاحظ الإنسان وراقب ، فإنه قد يغفل ، وقد تغلبه هذه البهائم ، فترتع في هذا الحمى « كالراعي يرعى حول الحمى يوشك أن يقع فيه » .

ثم قال - عليه الصلاة والسلام - : « ألا وإن لكل ملك حمى » وهذا يحتمل أن الرسول ﷺ قال ذلك إقرارًا له ، وأن الملك له أن يحمي مكانًا معينًا يكثر فيه العشب لبهائم المسلمين ؛ وهي البهائم التي تكون في بيت المال ، كإبل الصدقة ، وخيل الجهاد وما أشبه ذلك .

وأما الذي يحمي لنفسه فإن ذلك حرام عليه ، لا يحل لأحد أن يحمي شيئًا من أرض اللَّه يختص بها دون عباد اللَّه ، فإن ذلك حرام عليه ، لأن النبي ﷺ قال : « المسلمون شركاء في ثلاث : في الماء والكلأ والنار » [(١)] .

فالكلأ لا يجوز لأحد أن يحميه فيضع عليه الشبك ، أو يضع عنده جنودًا يمنعون الناس من أن يرعوا فيه ، فهو غصب لهذا المكان ، وإن لم يكن غصبًا خاصًا ؛ لأنه ليس ملكًا لأحد ، لكنه منع بشيء يشترك فيه الناس جميعًا ، فهذا لا يجوز ، ولهذا قال أهل العلم : يجوز للإمام أن يتخذ حمًى مرعًا لدواب المسلمين بشرط ألا يضرهم أيضًا .

فقول الرسول ﷺ : « ألا وإن لكل ملك حمى » يحتمل أنه إقرار ، فإن كان كذلك فالمراد به ما يحميه الملك لدواب المسلمين ؛ كخيول الجهاد ، وإبل الصدقة وما أشبه ذلك .

ويحتمل أنه إخبار بالواقع وإن لم يكن إقرارًا له ، لأن الرسول - عليه الصلاة والسلام - قد يخبر بالشيء الواقع أو الذي سيقع من غير إقرار له ، أخبر النبي - عليه الصلاة والسلام - أننا سنركب سنن اليهود والنصارى . فقال : « لتركبن سنن من كان قبلكم حذو القذة بالقذة ، حتى لو دخلوا جحر ضبٍّ لدخلتموه » . قالوا : يا رسول اللَّه ، اليهود والنصارى ؟ قال : « فمن ؟ » [(٢)] فهذا ليس إقرارًا ولكنه تحذير .

على كل حال فالملك له حمىً يُحْمى سواء بحق أو بغير حق ، فإذا جاء الناس يرعون حول الحمى ؛ حول الأرض المعشبة المخضرة ، فإنهم لا يملكون منع البهائم أن ترتع فيها .

ثم قال - عليه الصلاة والسلام - : « ألا وإن حمى االلَّه محارمه » اللَّه ﷻ أحاط الشريعة بسياج محكم ، حمى كل شيء محرم يضر الناس في دينهم ودنياهم ، وإذا كان الشيء مما تدعو النفوس إليه شدد السياج حوله .

---

(١) أخرجه أبو داود في البيوع (٣٤٧٧) ، وابن ماجه في الرهون (٢٤٧٢) .

(٢) الحديث أخرجه الإمام أحمد في مسنده بلفظ « ليحملن شرار هذه الأمة على سنن الذين خلوا من قبلهم أهل الكتاب حذو القُذة بالقذة » (١٢٥/٤) ، قوله « القُذة » هي ريشة لطائرٍ كالنسر والصقر بعد تسويتها وإعدادها لتركَّبَ في السهم (القذة بالقذة) يضرب بها المثل للشيئين يستويان ولا يتفاوتان .

انظر مثلًا إلى الزنى - والعياذ بالله - الزني سببه قوة الشهوة وضعف الإيمان ، لكن النفوس تدعو إليه ، لأنه جبلة وطبيعة ، فجعل حوله سياجًا يبعد الناس عنه فقال : ﴿ وَلَا تَقْرَبُوا الزِّنَىٰ ﴾ [الإسراء: ٣٢] لم يقل ولا تزنوا ، قال : ﴿ وَلَا تَقْرَبُوا الزِّنَىٰ ﴾ يشمل كل ذريعة توصل إلى الزنى من النظر واللمس والمحادثة وغير ذلك .

كذلك الربا حرمه الله ﷻ ، ولما كانت النفوس تطلبه لما فيه من الفائدة حرم كل ذريعة إليه ، فحرم الحيل على الربا ومنعها ، وهكذا جعل الله ﷻ للمحارم حمى له تمنع الناس من الوقوع فيها .

ثم قال ﷺ : « ألا وإن في الجسد مضغة إذا صلحت صلح الجسد كله وإذا فسدت فسد الجسد كله ألا وهي القلب » . « مضغة » يعني قطعة لحم صغيرة بقدر ما يمضغه الإنسان ، لكن شأنها عظيم ، هي التي تدير الجسد « إذا صلحت صلح الجسد كله وإذا فسدت فسد الجسد كله » ليست العين ، ولا الأنف ، ولا اللسان ، ولا اليد ، ولا الرجل ، ولا الكبد ، ولا غيرها من الأعضاء ، إنما هي القلب ، ولهذا كان الرسول - عليه الصلاة والسلام - يقول : « اللهم مقلب القلوب ثبت قلوبنا على دينك ، اللهم مصرف القلوب صرف قلوبنا إلى طاعتك »[1] .

فالإنسان مدار صلاحه وفساده على القلب . ولهذا عليك أيها المسلم أن تعتني بصلاح قلبك ، فصلاح الظواهر وأعمال الجوارح طيب ، ولكن الشأن كل الشأن في صلاح القلب ، يقول الله عن المنافقين : ﴿ وَإِذَا رَأَيْتَهُمْ تُعْجِبُكَ أَجْسَامُهُمْ وَإِن يَقُولُوا تَسْمَعْ لِقَوْلِهِمْ ﴾ [المنافقون: ٤] ﴿ وَإِذَا رَأَيْتَهُمْ تُعْجِبُكَ أَجْسَامُهُمْ ﴾ من الهيئة الحسنة ، وحسن عمل الجوارح ، وإذا قالوا ، قالوا قولًا تسمع له من حسنه وزخرفته ، لكن قلوبهم خربة والعياذ بالله ، ﴿ كَأَنَّهُمْ خُشُبٌ مُّسَنَّدَةٌ ﴾ [المنافقون: ٤] ليس فيها خير .

فاعتن يا عبد الله ، بصلاح قلبك ، وانظر قلبك هل فيه شيء من الشرك ؟ هل فيه شيء من كراهة ما أنزل الله ؟ هل فيه شيء من كراهة عباد الله الصالحين ؟ هل فيه شيء من الميل إلى الكفار ؟ هل فيه شيء من موالاة الكفار ؟ هل فيه شيء من الحسد ؟ هل فيه شيء من الغل ؟ هل فيه شيء من الحقد ؟ أو غير ذلك من الأمراض العظيمة الكثيرة فإذا كان فيه من ذلك فطهر قلبك من هذا وأصلحه ، فإن المدار عليه .

﴿ أَفَلَا يَعْلَمُ إِذَا بُعْثِرَ مَا فِي الْقُبُورِ ۝ وَحُصِّلَ مَا فِي الصُّدُورِ ﴾ [العاديات: ٩، ١٠] هذا في يوم القيامة ، العمل يكون على الباطن ، في الدنيا العمل على الظاهر ، مالنا إلا ظواهر الناس ، لكن في الآخرة العمل على الباطن ، أصلح الله قلوبنا وقلوبكم .

قال تعالى : ﴿ يَوْمَ تُبْلَى السَّرَائِرُ ﴾ [الطارق: ٩] يعني تختبر البواطن فمن كان من المؤمنين ظهر إيمانه ، ومن كان من أهل النفاق ظهر نفاقه والعياذ بالله .

لذلك أصلح قلبك يا أخي ، لا تكره شريعة الله ، لا تكره عباد الله الصالحين ، لا تكره أي شيء مما أنزل الله ، فإن كراهيتك لشيء مما أنزل الله كفر بالله تعالى ، ودليلٌ على عدم إيمانك ، ودليل على أن الإيمان لم يتمكن من قلبك .

---

(١) أخرجه مسلم في القدر (١٧) بلفظ « اللهم مصرف القلوب ... » ، والترمذي في الدعوات (٣٥٢٢) .

٥٨٩ - وعن أنسٍ ﷺ أنَّ النبيَّ ﷺ وَجَدَ تمْرَةً في الطَّرِيق ، فقالَ : « لَولا أنِّي أخافُ أنْ تكُونَ مِنَ الصَّدَقَةِ لأَكَلْتُها » (١) متفقٌ عليه .

٥٩٠ - وعن النَّوَّاسِ بنِ سَمعانَ ﷺ عن النبي ﷺ قال : « البِرُّ حُسنُ الخُلُق ، وَالإثمُ ما حاكَ في نَفْسِكَ ، وكَرِهْتَ أَنْ يَطَّلِعَ عَلَيهِ النَّاسُ » (٢) رواه مسلم .

٥٩١ - وعن وابصةَ بن معبدٍ ﷺ قال : أَتيتُ رسُولَ اللَّهِ ﷺ فقال : « جئتَ تَسْأَلُ عَنِ البِرِّ ؟ » قلت : نعم ، فقال : « اسْتَفْتِ قَلْبَكَ ، البِرُّ : ما اطْمَأَنَّتْ إلَيهِ النَّفْسُ ، واطمَأَنَّ إلَيهِ القَلْبُ ، والإثمُ ما حاكَ في النَّفْسِ وتَرَدَّدَ في الصَّدْرِ ، وإنْ أَفْتَاكَ النَّاسُ وأَفْتَوكَ » (٣) حديثٌ حسن ، رواهُ أحمدُ والدَّارِميُّ في مُسْنَدَيهما .

الشرح

قال المؤلف - الحافظ النووي - رحمه الله في كتابه رياض الصالحين في باب الورع وترك الشبهات : عن النواس بن سمعان ﷺ أن النبي ﷺ قال : « البر حسن الخلق ، والإثم ما حاك في نفسك وكرهت أن يطلع عليه الناس » .

فقوله - عليه الصلاة والسلام - : « البر حسن الخلق » يعني أن حسن الخلق من البر الداخل في قوله تعالى : ﴿ وَتَعَاوَنُوا عَلَى الْبِرِّ وَالتَّقْوَى ﴾ [المائدة : ٢] .

وحسن الخلق يكون في عبادة الله ، ويكون في معاملة عباد الله .

فحسن الخلق في عبادة الله : أن يتلقى الإنسان أوامر الله بصدر منشرح ، ونفس مطمئنة ، ويفعل ذلك بانقياد تام ، بدون تردد ، وبدون شك ، وبدون تسخط ، يؤدي الصلاة مع الجماعة منقادًا لذلك ، يتوضأ في أيام البرد منقادًا لذلك ، يتصدق بالزكاة من ماله منقادًا لذلك ، يصوم رمضان منقادًا لذلك ، يحج منقادًا لذلك .

وأما في معاملة الناس : بأن يقوم ببر الوالدين ، وصلة الأرحام ، وحسن الجوار ، والنصح بالمعاملة وغير هذا ، وهو منشرح الصدر ، واسع البال ، لا يضيق بذلك ذرعًا ، ولا يتضجر منه ، فإذا علمت من نفسك أنك في هذه الحال ، فإنك من أهل البر .

أما الإثم : فهو أن الإنسان يتردد في الشيء ، ويشك فيه ، ولا ترتاح له نفسه ، وهذا فيمن نفسه مطمئنة راضية ، بشرع الله .

---

(١) هذا الحديث لم يقم الشارح رحمه الله بشرحه ، وقد أخرجه البخاري في البيوع (٢٠٥٥) ، ومسلم في الزكاة (١٦٤) .

(٢) أخرجه مسلم في البر والصلة (١٤) - واللفظ له - ، والإمام أحمد في مسنده (١٨٢/٤) ، قوله « البر » البر بمعنى الصلة واللطف والمبرة وحسن الصحبة والعشرة والطاعة ، وتلك هي مجامع حسن الخلق .

(٣) أخرجه أحمد في مسنده (٢٢٨/٤) ، والدارمي في البيوع (٢٤٦/٢) ، وعند أحمد والدارمي « جئت تسأل عن البر والإثم » ، قوله « وتردد في الصدر » أي لم ينشرح له الصدر .

وأما أهل الفسوق والفجور : فإنهم لا يترددون في الآثام ، تجد الإنسان منهم يفعل المعصية منشرحًا بها صدره - والعياذ بالله ، ولا يبالي بذلك ، لكن صاحب الخير الذي وفق للبر هو الذي يتردد الشيء في نفسه ، ولا تطمئن إليه ، ويحيك في صدره ، فيعلم بذلك أنه إثم .

وموقف الإنسان من هذا أن يدعه ، وأن يتركه إلى شيء تطمئن إليه نفسه ، ولا يكون في صدره حرج منه ، وهذا هو الورع ، ولهذا قال النبي - عليه الصلاة والسلام - : « وإن أفتاك الناس وأفتوك » ، حتى لو أفتاك مفتٍ بأن هذا جائز ، ولكن نفسك لم تطمئن ولم تنشرح إليه فدعه ، فإن هذا من الخير والبر .

إلا إذا علمت أن في نفسك مرضًا من الوسواس والشك والتردد فيما أحل الله ، فلا تلتفت لهذا ، والنبي - عليه الصلاة والسلام - إنما يخاطب الناس ، أو يتكلم على الوجه الذي ليس فيه أمراض ، أي ليس في قلب صاحبه مرض ، فإن البر هو ما أطمأنت إليه نفس صاحب هذا القلب الصحيح ، والإثم ما حاك في صدره وكره أن يطلع عليه الناس .

* * *

٥٩٢ - وعن أبي سِرْوَعَةَ - بكسر السين المهملة وفتحها - عُقْبَةَ بن الحارثِ ﷺ أَنَّهُ تَزَوَّجَ ابْنَةً لأبي إهاب بن عَزيزٍ ، فَأَتَتْهُ امْرأَةٌ فقالَت : إنِّي قَد أَرْضَعْتُ عُقْبَةَ وَالَّتي قَدْ تَزَوَّجَ بها ، فقالَ لَها عُقْبَةُ : ما أَعْلَمُ أَنَّك أَرْضَعْتني ولا أَخْبَرْتني ، فَرَكِبَ إلى رسول اللَّه ﷺ بالمدِينَةِ ، فَسَأَلَهُ ، فقال رسُولُ اللَّه ﷺ : « كَيفَ ، وَقَدْ قِيلَ ؟! » فَفَارَقَهَا عُقْبَةُ وَنَكَحَتْ زَوجًا غَيرَهُ [١] . رواه البخاري .

٥٩٣ - وعن الحَسَنِ بن عليّ ﷺ قال : حَفِظْتُ مِنْ رسول اللَّه ﷺ : « دَعْ ما يَرِيبُك إلى مَا لا يَرِيبُكَ » [٢] رواهُ الترمذي وقال : حديث حسن صحيح .

معناهُ : اتْرُكْ ما تَشُكُّ فيهِ ، وَخُذْ ما لا تَشُكُّ فِيهِ .

الشرح

هذان الحديثان ذكرهما المؤلف رحمه الله في باب الورع وترك الشبهات . فالأول في مسألة الرضاع : حديث عقبة ، والثاني في ترك المتشابه : حديث الحسن بن علي بن أبي طالب ﷺ .

أما الأول : فإن عقبة تزوج امرأة ابن أبي إهاب ، فلما تزوجها جاءت امرأة فقالت إني أرضعته هو والمرأة التي تزوجها ، يعني فيكون أخًا لها من الرضاع ، وأخوها من الرضاع يحرم عليها كما يحرم عليها أخوها من النسب ، لقول النبي ﷺ : « يحرم من الرضاع ما يحرم من النسب » [٣] ولكن لابد لهذا من شروط :

---

(١) أخرجه البخاري في العلم (٨٨) . قوله « كيف وقد قيل) أي كيف يكون اجتماعكما كزوجين وقد قيل إنكما أخوان .

(٢) أخرجه الترمذي في صفة القيامة (٢٥/٨) .

(٣) أخرجه البخاري في الشهادات (٢٦٤٥) ومسلم في الرضاع (١٢) .

الشرط الأول : أن يكون اللبن من آدمية ، فلو اشترك طفلان في الرضاع من شاة أو من بقرة أو من بعير ، فإنهما لا يصيران أخوين ، لأنه لابد أن يكون الرضاع من آدمية لقوله تعالى : ﴿ وَأُمَّهَٰتُكُمُ ٱلَّٰتِيٓ أَرۡضَعۡنَكُمۡ ﴾ [النساء : ٢٣] .

الشرط الثاني : لابد أن يكون الرضاع خمس رضعات فأكثر ، فإن كان مرة واحدة أو مرتين أو ثلاثة مرات أو أربع مرات ، فإنه ليس بشيء ، ولا يؤثر [١] ، فلو أن امرأة أرضعت طفلًا أربع مرات في أربعة أيام كل مرة يشبع ، فإنه لا يكون ابنًا لها ، لأنه لابد من خمس ، ولو أرضعته خمس مرات ولو لم يشبع فإنه تكون أمًّا له ويكون الرضاع محرمًا .

الشرط الثالث : لابد أن يكون في زمن الإرضاع ، وهو ما قبل الفطام في الحولين ، فإن لم يكن في هذا الزمن بأن أرضعته وهو كبير ، فإن ذلك لا يؤثر [٢] ، فلو أن طفلًا له خمس سنوات رضع من امرأة خمس مرات أو عشر مرات ، فإنه لا يكون ابنًا لها من الرضاع ، لأنه ليس في زمن الإرضاع .

فهذه شروط ثلاثة ، وإذا ثبت التحريم فإنه ينتشر إلى المرتضع وذريته فقط ، ولا ينتشر إلى إخوانه وآبائه وأمهاته ، وعلى هذا فيجوز لأخي الطفل الراضع أن يتزوج أخت أخيه من الرضاع ، وأن يتزوج أم أخيه من الرضاع ، لأنه لا تأثير في الرضاع إلا على المرتضع وذريته يعني فروعه .

فأما أصوله وحواشيه : أصوله من آباء وأمهات ، وحواشيه من إخوة ، وأعمام ، وأبنائهم ، وبناتهم ، فإنه لا تأثير لهم في الرضاع ، سواء كان أكبرمنه أو أصغر منه ، وما اشتهر عند العامة من أن إخوته الذين هم أصغر منه يلحقهم حكم الرضاع ، فإنه لا صحة له .

بعض العوام يقول : إذا رضع طفل من امرأة صار ابنًا لها وصار إخوته الذين من بعده أبناءً لها وهذا غير صحيح ، بل جميع إخوته ليس لهم فيها تعلق بوجه من الوجوه .

وأما حديث الحسن بن علي بن أبي طالب ﷺ فإنه سمع النبي ﷺ وحفظ منه هذه الجملة - المفيدة العظيمة التي تعتبر قاعدة في الورع وهي : « دع ما يريبك إلا مالا يريبك » يريبك : أي يحصل لك به ريب وشك ، فدعه ولا تأخذ إلا بما تيقنته أو غلب على ظنك ، إن كان مما يفيد فيه غلبة الظن .

وأما ما شككت فيه فدعه ، وهذا أصل من أصول الورع ، ولهذا رأى النبي ﷺ تمرة في الطريق فلم يأكلها وقال : « لولا أني أخاف أن تكون من الصدقة لأكلتها » [٣] ، وهذا يدخل في هذا الحديث : « دع ما يريبك إلى ما لا يريبك » .

ومن ذلك : ما إذا كان بينك وبين شخص محاسبة ، وحصل زيادة لك من أجل هذه المحاسبة ،

---

(١) مذهب الشافعية أنه لا يحرم إلا خمس رضعات ، وهو مذهب الحنابلة أيضًا . أما الحنفية فقالوا : « يحصل بثلاث رضعات » (الوسيط في المذهب ١٨٣/٦) .

(٢) عند الشافعي لا أثر للرضاع بعد الحولين ، وعند أبي حنيفة « ثلاثون شهرًا » (الوسيط في المذاهب ١٨٢/٦) .

(٣) أخرجه البخاري في اللقطة (٢٤٣١) ، ومسلم في الزكاة (١٦٤) .

وشككت فيها فدعها ، وإذا شك فيها صاحبك وتركها فتصدق بها تخلصًا منها ، أو تجعلها صدقة معلقة ؛ بأن تقول : اللهم إن كانت لي فهي صدقة أتقرب بها إليك ، وإن لم تكن لي فهو مالٌ أتخلص بالصدقة به من عذابه .

والحاصل : أن هذا الحديث حديث عظيم في باب الورع : « دع ما يريبك إلى ما لا يريبك » . ما تشك فيه اتركه وخذ بالشيء الذي لا يلحقك به قلق ولا شك ولا اضطراب .

* * *

٥٩٤ - وعن عائشة رضي الله عنها قالت : كَانَ لأبي بَكْرٍ الصِّدِّيقِ رضي الله عنه غُلامٌ يُخْرِجُ لَهُ الخَرَاجَ ، وكَانَ أَبو بَكْرٍ يَأْكُلُ مِنْ خَرَاجِهِ ، فَجَاءَ يَومًا بِشَيءٍ ، فَأَكَلَ مِنْهُ أبو بَكْرٍ ، فَقَالَ لَهُ الغُلامُ : تَدْرِي مَا هَذَا ؟ فَقَالَ أبو بكرٍ : ومَا هُوَ ؟ قَالَ : كُنتُ تَكَهَّنْتُ لإنسانٍ في الجاهِلِيَّةِ ومَا أُحْسِنُ الكَهَانَةَ إلا أنِّي خَدَعْتُهُ ، فَلَقِيني ، فَأَعْطَاني بِذِلكَ هذا الَّذي أَكلْتَ مِنْهُ ، فَأَدْخَلَ أبو بَكْرٍ يَدَه فَقَاءَ كلَّ شيءٍ في بَطْنِهِ [(١)] ، رواه البخاري .

« الخَرَاجُ » : شَيءٌ يَجْعَلُهُ السَّيِّدُ عَلى عَبْدِهِ يُؤَدِّيهِ إلى السَّيِّد كُلَّ يَومٍ ، وَبَاقي كَسبِهِ يَكُونُ لِلْعَبْدِ .

الشرح

نقل الحافظ النووي رحمه الله في باب الورع وترك الشبهات عن عائشة رضي الله عنها أن غلامًا كان لأبي بكر ، وكان أبو بكر يخارجه أي يدعه يشتغل ويضرب عليه خراجًا معينًا ، يقول : ائتِ لي كل يوم بكذا وكذا وما زاد فهو لك .

وهذه المخارجة جائزة بالنسبة للعبيد ، إذا كان الإنسان عنده عبيد وقال لهم : اذهبوا اشتغلوا وائتوني كل يوم بكذا وكذا من الدراهم وما زاد فهو لكم ؛ فإن هذا جائز ؛ لأن العبيد ملك للسيد ، فما حصلوه فهو له سواء خارجهم على ذلك أم لم يخارجهم .

لكن فائدة المخارجة أن العبد إذا حصل ما اتفق عليه مع سيده فإن له أن يبقى من غير عمل ، يذهب في طلب العلم ، يبقى مستريحًا في بيته أو أن يشتغل ويأخذ ما زاد .

أما بالنسبة للعمال الذين يجلبهم الإنسان إلى البلاد ويقول : اذهبوا وعليكم كل شهر كذا وكذا من الدراهم ، فإن هذا حرام وظلم ومخالف لنظام الدولة ، والعقد على هذا الوجه باطل ، فليس لصاحب العمل شيء مما فرضه على هؤلاء العمال ، لأن العامل ربما يكدح ويتعب ولا يحصل ما فرضه عليه كفيله ، وربما لا يحصل شيئًا أبدًا ، فكان في هذا ظلم .

أما العبيد فهم عبيد الإنسان ، مالهم وما في أيديهم فهو له .

هذا الغلام لأبي بكر كان قد خارجه على شيء معين يأتي به إليه كل يوم ، وفي يوم من الأيام قدم هذا الغلام طعامًا لأبي بكر فأكله فقال : أتدري ما هذا ؟ قال : وما هو ؟ قال : هذا عوض عن أجرة

(١) أخرجه البخاري في مناقب الأنصار (٣٨٤٢) .

كهانة تكهنت بها في الجاهلية وأنا لا أحسن الكهانة ، لكني خدعت الرجل فلقيني فأعطاني إياها .

وعوض الكهانة حرام ، سواء كان الكاهن يحسن صنعة الكهانة أو لا يحسن ؛ لأن النبي - عليه الصلاة والسلام - نهى عن « حُلوان الكاهن » (١) .

فلما قال لأبي بكر هذه المقالة ، أدخل أبو بكر يده في فمه فقاء كل ما أكل ، وأخرجه من بطنه ، لئلا يتغذى بطنه بحرام . وهذا مال حرام ؛ لأنه عوض عن حرام ، وقد قال النبي ﷺ : « إن الله إذا حرم شيئًا حرم ثمنه » (٢) ؛ فالأجرة على فعل الحرام حرام ، ومن ذلك تأجير بعض الناس دكاكينهم على الحلاقين الذين يحلقون اللحى ، فإن هذه الأجرة حرام ولا تحل لصاحب الدكان ، لأنه استؤجر منه لعمل محرم (٣) .

ومن ذلك أيضًا : تأجير البنوك في المحلات ، فإن تأجير البنوك حرام ، لأن البنك معاملته كلها أو غالبها حرام ، وإذا وجد فيه معاملة حلال فهي خلاف الأصل الذي من أجله أنشئ هذا البنك ، فالأصل في إنشاء البنوك أنها للربا ، فإذا أجّر الإنسان بيته أو دكانه للبنك فتعامل فيه بالربا فإن الأجرة حرام ولا تحل لصاحب البيت أو صاحب الدكان .

وكذلك من أجر شخصًا يبيع المجلات الخليعة أو المحتوية على الأفكار الرديئة ومصادمة الشرع ، فإنه لا يجوز تأجير المحلات لمن يبيع هذه المجلات ؛ لأن الله تعالى قال : ﴿ وَلَا تَعَاوَنُوا عَلَى الْإِثْمِ وَالْعُدْوَانِ ﴾ [المائدة : ٢] ، وتأجير المحلات لهؤلاء معونة لهم ، وقال النبي ﷺ : « إن الله إذا حرم شيئًا حرم ثمنه » (٤) .

وفي هذا الحديث : دليل على شدة ورع أبي بكر ﷺ ، فهو جدير بهذا ؛ لأنه الخليفة الأول على هذه الأمة بعد نبيها ﷺ ، ولهذا كان قول أهل السنة والجماعة أن أبا بكر ﷺ أفضل هذه الأمة ، لأنه الخليفة الأول . ولأن الرسول - عليه الصلاة والسلام - قد خطب الناس في مرضه وقال : « إنه ليس من الناس أحدٌ أمنّ عليَّ في نفسه وماله من أبي بكر » ، ثم قال : « ولو كنت متخذًا من أمتي خليلًا لا تخذت أبا بكر ، ولكن خلة الإسلام أفضل » .

والنصوص في هذا كثيرة متواترة ، حتى أمير المؤمنين علي بن أبي طالب القائل بالصدق وبالقسط

---

(١) أخرجه البخاري في البيوع (٢٢٣٧) ومسلم في المساقاة (٣٩) ، قوله « حلوان الكاهن » هو ما يعطاه على كهانته .

(٢) هذا جزء من حديث وقد أخرجه أبو داود في البيوع (٣٤٨٨) والإمام أحمد في مسنده (٢٤٧/١) .

(٣) الذي عليه سائر العلماء أنه لا يجوز للرجل أن يؤجر داره أو دكانه إذا كان ذلك بغرض فعل مُحرَّم كبيع الخمر أو القمار (انظر المغنى ٥٥٠/٥ ، بدائع الصنائع ١٨٩/٤ ، فقه الكتاب والسنة ١٥٤٤/٣ ، ١٥٤٥) . وقد قال ابن قدامة : تجوز إجارة كل عين يمكن أن ينتفع بها منفعة مباحة مع بقائها بحكم الأصل . أما ما لا تجوز إجارته فعلى أقسام أولا : ما لا يمكن الانتفاع به مع بقاء عينه كالمطعوم والمشروب والأزهار . ثانيا : ما منفعته محرمة كالزنا والزمر والنوح والغناء وكتابة شعر محرم وحمل خمر لمن يشربها أو حمل خنزير وميتة لمن يأكلهما . ثالثًا : ما يحرم بيعه لا يجوز إجارته سواءٌ كان مما يقدر على تسليمه كالجمل الشارد والمغصوب من غير غاصبه أو مما تجهل صفته أو مما لا نفع فيه كسباع البهائم التي لا تصلح للصيد ويستثنى من ذلك الحر والوقف وأم الولد والمدبر فإنه يجوز إجارته لكل منها مع حرمة بيعه ولا تجوز إجارة الكلب والخنزير بحال ولا تجوز إجارة ما لا يقدر على تسليم منفعته . هذا هو ما ذكره ابن قدامة في المحرمات للإجارة . انظر المغني مع الشرح الكبير (١٤٣/٦ ، ١٦٠) .

(٤) أخرجه البخاري في الصلاة (٤٦٧) ، ومسلم في فضائل الصحابة (٢) .

والعدل ، كان يقول على منبر الكوفة وقد تواتر ذلك عنه : « خير هذه الأمة بعد نبيها أبو بكر ثم عمر » (١) . هكذا يقول ﷺ ، وقال : « لا أوتى برجل يفضلني على أبي بكر وعمر إلا جلدته حدَّ المفتري » يعني جلد القذف والكذب ، وهذا من تواضعه ﷺ في الحق وقول الصدق .

وفيه رد ظاهر على الروافض الذين يفضلون عليًّا على أبي بكر وعمر ؟ ﷺ ، بل بعضهم يفضل عليًّا على رسول الله ﷺ ويقول : علي أفضل من محمد وأحق بالرسالة ، ولكن جبريل خان الأمانة وانصرف بالرسالة عن علي إلى محمد ، ولاشك أنهم على ضلال بيِّن - والعياذ بالله - نسأل الله لنا ولهم الهداية .

والحاصل : أن أبا بكر ﷺ كان من أهل الورع والزهد والبعد عن المشتبهات ؛ ولذلك فقد قاء كلَّ ما في بطنه بعد أن أكله ؛ حتى لا يتعذى بطنه على شيء جاء من حرام أو من طريق شبهة .

* * *

٥٩٥ - وعن نافِعٍ أنَّ عُمَرَ بنَ الخَطَّاب ﷺ كانَ فَرَضَ للمهاجرينَ الأوَّلِينَ أربعةَ آلافٍ ، وفرض لابنِه ثلاثة آلافٍ وخمسمائة ، فقيل له : هو من المهاجرينَ فَلِمَ نَقَصْتَهُ ؟ فقال : إنَّمَا هَاجَرَ بِهِ أَبُوهُ . يَقُولُ : لَيسَ هُوَ كَمَنْ هَاجَرَ بِنَفْسِهِ (٢) . رواه البخاري .

٥٩٦ - وعن عَطِيَّةَ بنِ عُرْوَةَ السَّعْدِيِّ الصَّحابيِّ ﷺ قالَ : قَالَ رَسُولُ اللَّه ﷺ : « لا يَبْلُغُ العَبْدُ أَنْ يَكُونَ مِنَ المُتَّقِينَ حَتى يَدَعَ ما لا بَأسَ بِهِ ، حَذَرًا لِمَا بِهِ بَأسٌ » (٣) .

رواهُ الترمذي وقال : حديث حسن .

الشرح

قال المؤلف رحمه الله في باب الورع وترك الشبهات فيما نقله عن نافع عن عبد الله بن عمر ﷺ أن - أمير المؤمنين - عمر بن الخطاب فرض للناس أعطياتهم من بيت المال ، فجعل للمهاجرين أربعة آلاف ، وجعل لابنه عبد الله ثلاث آلاف وخمسمائة . وابنه عبد الله مهاجر ، فنقصه عن المهاجرين خمسمائة من أربعة آلاف ، فقيل له : إنه من المهاجرين فلماذا نقصته ؟ قال : « إنه هاجر به أبوه ولم يهاجر هو بنفسه ، وليس من هاجر به أبوه كمن هاجر بنفسه » ، وهذا يدل دلالة عظيمة على شدة ورع أمير المؤمنين عمر بن الخطاب ﷺ . وهكذا يجب على من تولى شيئًا من أمور المسلمين ألا يحابي قريبًا لقرابته ، ولا غنيًّا لغناه ، ولا فقيرًا لفقره ، بل ينزل كل أحد منزلته ، فهذا من الورع والعدل ، ولم يقل عبد الله بن عمر : يا أبت ، أنا مهاجر ولو شئت لبقيت في مكة ، بل وافق على ما فرضه له أبوه .

وأما الحديث الأخير في هذا الباب : فهو أن رسول الله ﷺ قال : « لا يبلغ العبد أن يكون من

---

(١) ذكره الهندي في كنز العمال (٣٢٦٨٤) ، والعقيلي في الضعفاء (٣/١٨١) .

(٢) أخرجه البخاري في مناقب الأنصار (٣٩١٢) وعند البخاري « إنما هاجر به أبواه .. » .

(٣) أخرجه الترمذي في صفة القيامة (٢٤٥١) ، وابن ماجه في الزهد (٤٢١٥) .

المتقين حتى يدع مالا بأس به حذرًا لما به بأس » ، وهذا فيما إذا اشتبه مباح بمحرم ، وتعذر التمييز بينهما ، فإنه من تمام اليقين والتقوى أن تدع الحلال خوفًا من الوقوع في الحرام .

وهذا أمر واجب كما قاله أهل العلم : أنه إذا اشتبه مباح بمحرم وجب اجتناب الجميع ، لأن اجتناب المحرم واجب ، ولا يتم إلا باجتناب المباح ، وما لا يتم الواجب إلا به فهو واجب .

لكن لو اضطر إلى أحدهما فله أن يتحرى في هذه الحال ويأخذ بما غلب على ظنه ، ولنفرض أنه اشتبه طعام غيره بطعام نفسه ، ولكنه مضطر إلى الطعام ، ففي هذه الحال يتحرى ويأكل ما يغلب على ظنه أنه طعامه .

* * *

٦٩ - باب استحباب العزلة عند فسَادِ النّاس والزّمان أو الخوف من فتنة في الدين ووقوع في حرام وشبهات ونحوها

قال الله تعالى : ﴿ فَفِرُّوٓاْ إِلَى ٱللَّهِۖ إِنِّي لَكُم مِّنۡهُ نَذِيرٞ مُّبِينٞ ﴾ [١] [الذاريات : ٥٠] .

٥٩٧ - وعن سعد بن أبي وقَّاص ﷺ قال : سَمِعْت رَسُولَ اللَّهِ ﷺ يَقُول : « إنَّ اللَّهَ يحِبُّ العَبْدَ التَّقِيَّ الغَنِيَّ الخَفِيَّ » [٢] رواه مسلم .

والمراد بـ « الغَنِيّ » : غَنِيُّ النَّفْسِ ، كما سَبَقَ في الحديث الصحيح .

٥٩٨ - وعن أبي سعيد الخُدرِيِّ ﷺ قال : قال رَجُلٌ : أَيُّ النَّاسِ أفضَلُ يا رسُولَ اللَّه ؟ قال : « مُؤْمِنٌ مجاهِدٌ بنَفسِهِ وَمَالِهِ في سبيلِ اللَّه » قال : ثم من ؟ قال : « ثم رَجُلٌ مُعْتَزِلٌ في شِعْبٍ مِن الشِّعَابِ يَعْبُدُ رَبَّهُ » . وفي رواية : « يَتَّقِي اللَّه ، وَيَدَع النَّاسَ مِن شَرِّهِ » [٣] متفقٌ عليه .

٥٩٩ - وعنه قال : قال رسول اللَّه ﷺ : « يُوشِكُ أَنْ يَكُونَ خَيرَ مال المسْلِمِ غَنَمٌ يَتَّبِعُ بهَا شَعَفَ الجِبَالِ ، وَمَوَاقِعَ القَطْرِ . يَفِرُّ بدِينِه من الفِتَنِ » [٤] رواه البخاري .

و « شَعَفَ الجِبَالِ » أعْلاهَا .

الشرح

قال المؤلف - رحمه اللَّه تعالى - : باب استحباب العزلة عند فساد الناس والزمان وخوف الفتنة .

واعلم أن الأفضل هو المؤمن الذي يخالط الناس ويصبر على أذاهم ، هذا أفضل من المؤمن الذي لا

(١) قوله ﴿ فَفِرُّوٓاْ إِلَى ٱللَّهِ ﴾ أي اهربوا من عقاب اللَّه إلى رحمته .

(٢) أخرجه مسلم في الزهد (١١) ، والإمام أحمد في مسنده (١٦٨/١) .

(٣) أخرجه مسلم في الإمارة (١٢٣) - واللفظ له - ، والبخاري في الجهاد والسير (٢٧٨٦) .

(٤) أخرجه البخاري في الإيمان (١٩) ، قوله « ومواقع القطر » أي الغيث ومواقعه هي مواضع الكلأ .

يخالط الناس ولا يصبر على أذاهم [١] ، ولكن أحيانًا تحصل أمور تكون العزلة فيها خيرًا من الاختلاط بالناس ؛ من ذلك إذا خاف الإنسان على نفسه فتنة ، مثل أن يكون في بلد يطالب فيها بأن ينحرف عن دينه ، أو يدعو إلى بدعة ، أو يرى الفسوق الكثير فيها ، أو يخشى على نفسه من الفواحش ، فهنا تكون العزلة خيرًا له . ولهذا أمر الإنسان أن يهاجر من بلد الشرك إلى بلد الإسلام ، ومن بلد الفسوق إلى بلد الاستقامة ، فكذلك إذا تغير الناس والزمان ؛ ولهذا صح عن النبي ﷺ أنه قال : « يوشك أن يكون خير مال الرجل غنم يتبع بها شعف الجبال ومواضع القطر يفر بدينه من الفتن » .

فهذا هو التقسيم ؛ تكون العزلة هي الخير إن كان في الاختلاط شر وفتنة في الدين ، وإلا فالأصل أن الاختلاط هو الخير ، يختلط الإنسان مع الناس فيأمر بالمعروف ، وينهى عن المنكر ، يدعو إلى حق ، يبين السنة الناس ، فهذا خير . لكن إذا عجز عن الصبر وكثرت الفتن ، فالعزلة خير ولو أن يعبد اللَّه على رأس جبل أو في قعر وادٍ . وبين النبي – عليه الصلاة والسلام – صفة الرجل الذي يحبه اللَّه ﷻ فقال : « إن اللَّه يحبُّ العبد التقي الغني الخفي » . « التقى » : الذي يتقي اللَّه ﷻ ، فيقوم بأوامره ، ويجتنب نواهيه ؛ يقوم بأوامره من فعل الصلاة وأدائها في جماعة ، يقوم بأوامره من أداء الزكاة وإعطائها مستحقيها ، يصوم رمضان ، يحج البيت ، يبر والديه ، يصل أرحامه ، يحسن إلى جيرانه ، يحسن إلى اليتامى ، إلى غير ذلك من أنواع التقى والبر وأبواب الخير . « الغني » : الذي استغنى بنفسه عن الناس ، غني باللَّه ﷻ عمن سواه ، لا يسأل الناس شيئًا ، ولا يتعرض للناس بتذلل ، بل هو غني عن الناس ، مستغن بربه ، لا يلتفت إلى غيره . « الخفي » : هو الذي لا يظهر نفسه ، ولا يهتم أن يظهر عند الناس ، أو يشار إليه بالبنان ، أو يتحدث الناس عنه ، تجده من بيته إلى المسجد ، ومن مسجده إلى بيته ، ومن بيته إلى أقاربه وإخوانه ، يخفي نفسه .

ولكن لا يعني ذلك أن الإنسان إذا أعطاه اللَّه علمًا أن يتقوقع في بيته ولا يعلم الناس ، هذا يعارض التقي ، فتعليمه الناس خير من كونه يقبع في بيته ولا ينفع أحدًا بعلمه ، أو يقعد في بيته ولا ينفع الناس بماله .

لكن إذا دار الأمر بين أن يلمع نفسه ويظهر نفسه ويبين نفسه ، وبين أن يخفيها ، فحينئذ يختار الخفاء ، أما إذا كان لابد من إظهار نفسه فلابد أن يظهرها ، وذلك عن طريق نشر علمه في الناس وإقامة دروس العلم وحلقاته في كل مكان ، وكذلك عن طريق الخطابة في يوم الجمعة والعيد وغير ذلك ؛ فهذا مما يحبه اللَّه ﷻ .

* * *

٦٠٠ – وعَنْ أبي هُريرة ﷺ عن النبي ﷺ قال : « مَا بَعَثَ اللَّه نَبيًّا إلا رَعَى الغَنَمَ » فَقَالَ

---

(١) هذا معنى حديث وقد أخرجه ابن ماجه في الفتن (٤٠٣٢) بلفظ « المؤمن الذي يخالط الناس ، ويصبر على أذاهم .. » ، والترمذي في صفة القيامة (٢٥٠٧) .

أصْحَابُه : وَأَنْتَ ؟ قَالَ : « نَعَمْ ، كُنْتُ أَرْعَاهَا عَلى قَرارِيطَ لأَهْلِ مَكَّةَ »[(١)] رواه البخاري .

٦٠١ - وعنه عَنْ رسول اللَّه ﷺ أَنَّهُ قال : « مِنْ خَيرِ مَعَاشِ النَّاسِ لَهُمْ رَجُلٌ مُمْسِكٌ عِنَانَ فَرَسِهِ فِي سَبيلِ اللَّه ، يَطِيرُ عَلى مَتنِهِ ، كُلَّمَا سَمِعَ هَيعَةً أَو فَزْعَةً ، طارَ عَلَيهِ يَبْتَغِي القَتْلَ ، أَو المَوتَ مَظَانَّه ، أَو رَجُلٌ فِي غُنَيمَةٍ فِي رَأسِ شَعَفَةٍ مِن هذِهِ الشَّعَفِ ، أَو بَطنِ وادٍ مِن هذِهِ الأَودِيَةِ ، يُقِيمُ الصَّلاةَ ، وَيُؤْتِي الزَّكَاةَ ، وَيَعْبُدُ رَبَّهُ حَتَّى يَأْتِيَهُ اليَقِينُ ، ليسَ مِنَ النَّاسِ إلا في خَيرٍ »[(٢)] رواه مسلم .

« يَطِيرُ » أي يُسْرِع . « ومَتْنُهُ » : ظَهْرُهُ . « وَالهَيعَةُ » : الصوتُ للحرب . « وَالفَزعَةُ » : نحوهُ . وَ « مَظَانُّ الشَّيءِ » : المواضع التي يُظَنُّ وجودُهُ فيها . « وَالغُنَيمَةُ » - بضم الغين - تصغير الغنم . « وَالشَّعَفَةُ » بفتح الشِّين والعين : هي أعْلى الجَبَل .

الشرح

هذان الحديثان في باب استحباب العزلة عند فساد الناس : الأول : حديث أبي هريرة أن النبي ﷺ قال : « ما بعث اللَّه نبيًّا إلا رعى الغنم » ، يعني ما من نبي من الأنبياء أرسله اللَّه ﷻ إلى عباده إلا رعى الغنم ، قالوا : وأنت ؟ قال : « نعم ، كنت أرعاها على قراريط لأهل مكة » ، حتى النبي - عليه الصلاة والسلام - رعى الغنم . قال العلماء : والحكمة من ذلك أن يتمرن الإنسان على رعاية الخلق وتوجيههم إلى ما فيه الصلاح ، لأن الراعي للغنم تارة يوجهها إلى وادٍ مزهر مخضر ، وتارة إلى وادٍ خلاف ذلك ، وتارة يبقيها واقفة ، فالنبي - عليه الصلاة والسلام - سيرعى الأمة ويوجهها إلى الخير عن علم وهدى وبصيرة ، كالراعي الذي عنده علم بالمراعي الحسنة ، وعنده نصح وتوجيه للغنم إلى ما فيه خيرها ، وما فيه غذاؤها وسقاؤها .

واختيرت الغنم ؛ لأن صاحب الغنم متصف بالسكينة والهدوء والاطمئنان ، بخلاف الإبل ؛ الإبل أصحابها في الغالب عندهم شدة وغلظة ، لأن الإبل كذلك فيها الشدة والغلظة ، فلهذا اختار اللَّه ﷻ لرسله أن يرعوا الغنم ، حتى يتعودوا ويتمرنوا على رعاية الخلق .

فرسول اللَّه ﷺ رعاها على قراريط لأهل مكة ، وموسى - عليه الصلاة والسلام - رعاها مهرًا لابنة صاحب مدين ، فإنه قال : ﴿ قَالَ إِنِّىٓ أُرِيدُ أَنْ أُنكِحَكَ إِحْدَى ٱبْنَتَىَّ هَٰتَيْنِ عَلَىٰٓ أَن تَأْجُرَنِى ثَمَٰنِىَ حِجَجٍۖ فَإِنْ أَتْمَمْتَ عَشْرًا فَمِنْ عِندِكَۖ ﴾ [القصص : ٢٧] .

وأما الحديث الثاني ففيه أيضًا دليل على أن العزلة خير فيكون الإنسان ممسكًا بعنان فرسه ، يطير

(١) أخرجه البخاري في الإجارة (٢٢٦٢) ، قوله « قراريط » : قيل المراد بالقيراط هنا جزء من الدينار والدرهم ، وقيل : اسم مرعى بمكة .

(٢) أخرجه مسلم في الإمارة (١٢٥) ، قوله « من خير معاش الناس » المعاش هو العيش وهو الحياة ، والمقصود واللَّه أعلم : من خير أحوال عيشهم رجل ممسك ، قوله « ممسك عنان فرسه » أي متأهب ومنتظر وواقف بنفسه على الجهاد في سبيل اللَّه ، قوله « حتى يأتيه اليقين » أي حتى يأتيه ملك الموت فيقبض روحه .

عليه كلما سمع هيعة ، فهو بعيد عن الناس يحمي ثغور المسلمين ، مهتم بأمور الجهاد على أتم استعداد للنفور والجهاد كلما سمع هيعة ركب فرسه فطار به ، أي مشى مشيًا مسرعًا .

وكذلك من كان في مكان من الأودية والشعاب منعزلًا عن الناس ، يعبد الله ﷻ ، ليس من الناس إلا في خير ، فهذا فيه خير .

ولكننا سبق أن قلنا إن هذه النصوص تحمل على ما إذا كان في الاختلاط فتنة وشر ، وأما إذا لم يكن فيه فتنة وشر ، فإن المؤمن الذي يخالط الناس ويصبر على أذاهم ، خير من المؤمن الذي لا يخالطهم ولا يصبر على أذاهم (١) .

* * *

٧٠ - بابُ فضل الاختلاط بالناسِ

وحضور جُمَعِهم وجماعاتهم ، ومشاهد الخير ، ومجالس الذكر معهم ، وعيادة مريضهم وحضور جنائزهم ومواساة محتاجهم ، وإرشاد جاهلهم ، وغير ذلك من مصالحهم ، لمن قدر على الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر ، وقمع نفسه عن الإيذاء وصبر على الأذى

اعْلم أن الاخْتِلاط بالنَّاسِ على الوَجْهِ الذي ذَكَرْتُهُ هو المختار الذي كان عليهِ رسول الله ﷺ ، وسائِرُ الأنبياءِ - صلواتُ اللهِ وسلامُه عليهم - وكذلك الخُلفاءُ الرَّاشدونَ ، ومَنْ بعدَهُم منَ الصَّحابةِ والتَّابِعينَ ، ومَنْ بَعدَهُم من عُلَمَاءِ المسلمينَ وأَخْيَارِهم ، وهو مَذْهَبُ أَكْثَرِ التَّابعينَ ومَنْ بعدَهُم ، وَبِهِ قَالَ الشَّافعيُّ وأَحْمَدُ ، وَأَكْثَرُ الفُقَهاءِ ﷺ أجمعين . قال الله تعالى : ﴿ وَتَعَاوَنُوا عَلَى الْبِرِّ وَالتَّقْوَىٰ ﴾ [المائدة : ٢] والآيات في معنى ما ذكرتُه كثيرة معلومة (٢) .

* * *

٧١ - باب التواضع وخفض الجناح للمؤمنين

قال الله تعالى : ﴿ وَاخْفِضْ جَنَاحَكَ لِمَنِ اتَّبَعَكَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ ﴾ [الشعراء : ٢١٥] وقال تعالى : ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا مَن يَرْتَدَّ مِنكُمْ عَن دِينِهِ فَسَوْفَ يَأْتِي اللَّهُ بِقَوْمٍ يُحِبُّهُمْ وَيُحِبُّونَهُ أَذِلَّةٍ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ أَعِزَّةٍ عَلَى الْكَافِرِينَ ﴾ [المائدة : ٥٤] وقال تعالى : ﴿ يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَاكُم مِّن ذَكَرٍ وَأُنثَىٰ وَجَعَلْنَاكُمْ شُعُوبًا وَقَبَائِلَ لِتَعَارَفُوا ۚ إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِندَ اللَّهِ أَتْقَاكُمْ ﴾ [الحجرات : ١٣] وقال تعالى : ﴿ فَلَا تُزَكُّوا أَنفُسَكُمْ ۖ هُوَ أَعْلَمُ بِمَنِ اتَّقَىٰ ﴾ [النجم : ٣٢] وقال تعالى : ﴿ وَنَادَىٰ أَصْحَابُ الْأَعْرَافِ رِجَالًا يَعْرِفُونَهُم بِسِيمَاهُمْ قَالُوا مَا أَغْنَىٰ عَنكُمْ جَمْعُكُمْ وَمَا كُنتُمْ

(١) هذا معنى حديث وقد سبق تخريجه .
(٢) هذا الباب لم يشرحه الشارح ﷺ .

تَسْتَكْبِرُونَ ﴿٤٨﴾ أَهَٰؤُلَاءِ الَّذِينَ أَقْسَمْتُمْ لَا يَنَالُهُمُ اللَّهُ بِرَحْمَةٍ ۚ ادْخُلُوا الْجَنَّةَ لَا خَوْفٌ عَلَيْكُمْ وَلَا أَنتُمْ تَحْزَنُونَ ﴾ (١) [الأعراف: ٤٨، ٤٩] .

الشرح

قال النووي - رحمه الله تعالى - في كتاب رياض الصالحين : باب التواضع وخفض الجناح للمؤمنين .

التواضع : ضد التعالي وهو ألا يرتفع الإنسان ولا يترفع على غيره ، بعلم ولا نسب ولا مال ولا إمارة ولا وزارة ولا غير ذلك ، بل الواجب على المرء أن يخفض جناحه للمؤمنين ، أن يتواضع لهم كما كان أشرف الخلق وأعلاهم منزلة عند الله ؛ رسول الله ﷺ يتواضع للمؤمنين ، حتى إن الصبية لتمسك بيده لتأخذه إلى أي مكان تريد فيقضي حاجتها - عليه الصلاة والسلام - (٢) .

وقوله الله تعالى : ﴿ وَاخْفِضْ جَنَاحَكَ لِلْمُؤْمِنِينَ ﴾ [الحجر: ٨٨] ، وفي آية أخرى : ﴿ لِمَنِ اتَّبَعَكَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ ﴾ .

﴿ وَاخْفِضْ جَنَاحَكَ ﴾ : أي تواضع ؛ وذلك أن المتعالي والمترفع يرى نفسه أنه كالطير يسبح في جو السماء ، فأمر أن يخفض جناحه وينزله للمؤمنين الذين اتبعوا النبي ﷺ .

وعلم من هذا أن الكافر لا يخفض له الجناح وهو كذلك ، بل الكافر ترفَّع عليه واعلُ عليه ، واجعل نفسك في موضع أعلى منه ، لأنك مستمسك بكلمة الله ، وكلمة الله هي العليا .

ولهذا قال الله ﷻ في وصف النبي ﷺ وأصحابه : ﴿ أَشِدَّاءُ عَلَى الْكُفَّارِ رُحَمَاءُ بَيْنَهُمْ ﴾ [الفتح: ٢٩] ، يعني أنهم على الكفار أقوياء ذووا غلظة ، أما فيما بينهم فهم رحماء .

ثم ساق المؤلف الآية الثانية وهي قوله تعالى : ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا مَن يَرْتَدَّ مِنكُمْ عَن دِينِهِ فَسَوْفَ يَأْتِي اللَّهُ بِقَوْمٍ يُحِبُّهُمْ وَيُحِبُّونَهُ أَذِلَّةٍ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ أَعِزَّةٍ عَلَى الْكَافِرِينَ ﴾ ، أي من يرجع منكم عن دينه فيكون كافرًا بعد أن كان مؤمنًا .

وهذا قد يقع من الناس ، أن يكون الإنسان داخلًا في الإسلام عاملًا به ، ثم يزيغه الشيطان - والعياذ بالله - حتى يرتد عن دينه ، فإذا ارتد عن دينه فإنه لا يكون وليًا للمؤمنين ، ولا يكون معينًا للمؤمنين ، ولهذا قال : ﴿ فَسَوْفَ يَأْتِي اللَّهُ بِقَوْمٍ يُحِبُّهُمْ وَيُحِبُّونَهُ ﴾ يعني بقوم مؤمنين ، ﴿ يُحِبُّهُمْ وَيُحِبُّونَهُ ﴾ .

﴿ أَذِلَّةٍ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ أَعِزَّةٍ عَلَى الْكَافِرِينَ ﴾ ، فهم في جانب المؤمنين أذلة لا يترفعون عليهم ، ولا يأخذون بالعزة عليهم ، ولكنهم يذلون لهم ، أما على الكفار فهم أعزة مترفعون ، ولهذا قال النبي -

---

(١) قوله ﴿ يَرْتَدَّ مِنكُمْ ﴾ أي يعود إلى ملة الكفر ، قوله ﴿ أَذِلَّةٍ ﴾ أي رحماء عطفاء ، قوله ﴿ أَعِزَّةٍ ﴾ أي قساة شداد ، قوله ﴿ فَلَا تُزَكُّوا ﴾ أي لا تمدحوا ولا تفتخروا بأنفسكم ، قوله ﴿ بِسِيمَاهُمْ ﴾ أي علاماتهم ، قوله ﴿ مَا أَغْنَىٰ عَنكُمْ ﴾ أي لم ينفعكم ، قوله ﴿ جَمْعُكُمْ ﴾ أي كثرتكم في الدنيا ، قوله ﴿ لَا يَنَالُهُمُ ﴾ أي لا يصيبهم .

(٢) هذا معنى حديث أخرجه البخاري من الأدب (٦٠٧٢) ولفظه : « كانت الأمة من إماء المدينة لتأخذ بيد رسول الله ﷺ فتنطلق به حيث شاءت » .

عليه الصلاة والسلام - : « لا تبدؤوا اليهود والنصارى بالسلام ، وإذا لقيتموهم في طريق فاضطروهم إلى أضيقه »[(١)] إذلالًا لهم ، وخذلانًا لهم ، لأنهم أعدى أعداء لك ، وأعداء لربك ، وأعداء لرسولك ، وأعداء لدينك ، وأعداء لكتاب الله وسنة رسول الله ﷺ .

وفي هذه الآية : دليل على إثبات المحبة من الله ﷻ ، وأن الله يُحب ويُحَب ﴿ فَسَوْفَ يَأْتِي اللَّهُ بِقَوْمٍ يُحِبُّهُمْ وَيُحِبُّونَهُ ﴾ ، وهذا الحب حبٌّ عظيم لا يماثله شيء ، تجد المحب لله ﷻ ترخص عنده الدنيا ، والأهل ، والأموال ، بل والنفس ، فيما يرضي الله ﷻ ، ولهذا يبذل ويعرض رقبته لأعداء الله ، محبة في نصرة الله ﷻ ونصرة دينه ، وهذا دليل على أن الإنسان مقدم ما يحبه الله ورسوله على ما تهواه نفسه .

ومن علامات محبة الله : أن الإنسان يديم ذكر الله ؛ يذكر ربه دائمًا بقلبه ولسانه وجوارحه .

ومنها : أن يحب من أحب الله ﷻ من الأشخاص ، فيحب الرسول ﷺ ، ويحب الخلفاء الراشدين ، ويحب الأئمة ، ويحب من كان في وقته من أهل العلم والصلاح .

ومنها : أن يقوم الإنسان بطاعة الله ، مقدمًا ذلك على هواه ، فإذا أذن المؤذن يقول : حي على الصلاة ، ترك عمله وأقبل إلى الصلاة ، لأنه يحب ما يرضي الله أكثر من محبته ما ترضى به نفسه .

ولمحبة الله علامات كثيرة ، إذا أحب الإنسان ربه فالله ﷻ أسرع إليه حبًا ، لأنه قال ﷺ في الحديث القدسي : « ومن أتاني يمشي أتيته هرولة »[(٢)] ، وإذا أحبه الله فهذا هو المقصود الأعظم .

ولهذا قال تعالى : ﴿ قُلْ إِن كُنتُمْ تُحِبُّونَ اللَّهَ فَاتَّبِعُونِي يُحْبِبْكُمُ اللَّهُ ﴾ [آل عمران : ٣١] ، ولم يقل : فاتبعوني تصدقوا الله ، بل قال : ﴿ يُحْبِبْكُمُ اللَّهُ ﴾ ؛ لأن هذه هي الثمرة أن يحب الربُّ ﷻ عبده ، فإذا أحب عبده نال خيري الدنيا والآخرة . جعلني الله وإياكم من أحبابه .

وفي قوله : ﴿ وَيُحِبُّونَهُ ﴾ دليل على إثبات محبة العبد لربه ، وهذا أمر واضح واقع مشاهد ، يجد الإنسان من قلبه ميلًا إلى ما يرضي الله ، وهذا يدل على أنه يحب الله ﷻ .

والإنسان المؤمن الموفق لهذه الصفة العظيمة ، تجده يحب الله أكثر من نفسه ، أكثر من ولده ، أكثر منه أمه ، أكثر من أبيه ، يحب الله أكثر من كل شيء ، ويحب الشخص ؛ لأنه يحب الله ، ومعلوم أن المحب يحب أحباب حبيبه ، فتجد هذا الرجل لمحبته لله يحب من يحبه الله ﷻ من الأشخاص ، وما يحبه من الأعمال ، وما يحبه من الأقوال .

ثم ذكر المؤلف - رحمه الله تعالى - قوله تعالى : ﴿ يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَاكُم مِّن ذَكَرٍ وَأُنثَىٰ وَجَعَلْنَاكُمْ شُعُوبًا وَقَبَائِلَ لِتَعَارَفُوا إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِندَ اللَّهِ أَتْقَاكُمْ إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌ ﴾ يخاطب الله ﷻ الناس كلهم مبينًا أنه خلقهم من ذكر وأنثى ، أي من هذا الجنس أو من هذا الشخص .

يعني إما أن يكون المراد بالذكر والأنثى آدم وحواء .

---

(١) أخرجه مسلم في السلام (١٣) ، وأبو داود في الأدب (١٣٧) ، والترمذي في السير (١٦٠٢) .

(٢) هذا جزء حديث ، وقد أخرجه البخاري في التوحيد (٧٤٠٥) ، ومسلم في الذكر والدعاء (٢٦٧٥) .

أو أن المراد الجنس أي أن بني آدم خلقوا كلهم من ذكر وأنثى . وهذا هو الغالب ، وهو الأكثر .

وإلا فإن اللَّه خلق آدم من غير أم ولا أب ، خلقه من تراب ، من طين ، من صلصال كالفخار ، ثم نفخ فيه من روحه ، خلق له روحًا فنفخها فيه فصار بشرًا سويًّا .

وخلق اللَّه حواء من أب بلا أم .

وخلق اللَّه عيسى من أم بلا أب .

وخلق اللَّه سائر البشر من أم وأب .

والإنسان أيضًا كما أنه أربعة أنواع من جهة مادة خلقه ، كذلك هو أربعة أنواع من جهة جنس الخلق ، يقول اللَّه ﷻ : ﴿ لِّلَّهِ مُلْكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ يَخْلُقُ مَا يَشَآءُ يَهَبُ لِمَن يَشَآءُ إِنَٰثًا وَيَهَبُ لِمَن يَشَآءُ ٱلذُّكُورَ ۞ أَوْ يُزَوِّجُهُمْ ذُكْرَانًا وَإِنَٰثًا وَيَجْعَلُ مَن يَشَآءُ عَقِيمًا إِنَّهُۥ عَلِيمٌ قَدِيرٌ ﴾ [الشورى : ٤٩، ٥٠] .

هذه أيضًا أربعة أقسام :

﴿ يَهَبُ لِمَن يَشَآءُ إِنَٰثًا ﴾ بلا ذكور ، يعني يوجد بعض الناس يولد له الإناث ولا يولد له ذكور أبدًا ، كل نسله إناث .

﴿ وَيَهَبُ لِمَن يَشَآءُ ٱلذُّكُورَ ﴾ فيكون كل نسله ذكورًا بلا إناث .

﴿ أَوْ يُزَوِّجُهُمْ ذُكْرَانًا وَإِنَٰثًا ﴾ يزوجهم أي يصنفهم ، لأن الزوج يعني الصنف ، كما قال تعالى : ﴿ وَءَاخَرُ مِن شَكْلِهِۦٓ أَزْوَٰجٌ ﴾ [ص : ٥٨] أي أصناف ، وقال : ﴿ ٱحْشُرُوا۟ ٱلَّذِينَ ظَلَمُوا۟ وَأَزْوَٰجَهُمْ ﴾ [الصافات : ٢٢] أي أصنافهم وأشكالهم ، يزوجهم أي يصنفهم ذكرانًا وإناثًا ، هذه ثلاثة أقسام .

القسم الرابع : ﴿ وَيَجْعَلُ مَن يَشَآءُ عَقِيمًا ﴾ لا يولد له لا ذكر ولا أنثى ، لأن اللَّه ﷻ له ملك السموات والأرض يخلق ما يشاء ، لا معقب لحكمه وهو السميع العليم .

يقول جل ذكره : ﴿ وَجَعَلْنَٰكُمْ شُعُوبًا وَقَبَآئِلَ ﴾ ، الشعوب : الطوائف الكبيرة كالعرب والعجم وما أشبه ذلك ، والقبائل : ما دون ذلك ، جمع قبيلة ، فالناس بنو آدم شعوب وقبائل .

شعوب : أمم عظيمة كبيرة ، كما تقول : العرب - بجميع أصنافهم - ، والعجم - بجميع أصنافهم - ، كذلك القبائل دون ذلك ، كما نقول : قريش ، بنو تميم ، وما أشبه ذلك ، هؤلاء القبائل .

﴿ لِتَعَارَفُوٓا۟ ﴾ : هذه هي الحكمة من أن اللَّه جعلنا شعوبًا وقبائل من أجل أن يعرف بعضنا بعضًا ، هذا عربي ، وهذا عجمي ، هذا من بني تميم ، هذا من قريش ، هذا من خزاعة ، وهكذا .

فاللَّه جعل هذه القبائل من أجل أن يعرف بعضنا بعضًا ، لا من أجل أن يفخر بعضنا على بعض ، فيقول : أنا عربي وأنت عجمي ، أنا قبيلي وأنت حضيري ، أنا غني وأنت فقير ، هذا من دعوى الجاهلية - والعياذ باللَّه - لم يجعل اللَّه هؤلاء الأصناف إلا من أجل التعارف فقط ، لا من أجل التفاخر ، ولهذا قال النبي - عليه الصلاة والسلام - : « إن اللَّه أذهب عنكم عُبِّيَّةَ الجاهلية وفخرها

بالآباء ، مؤمن تقيّ ، وفاجر شقي ، أنتم بنو آدم وآدم من تراب » [(١)] .

فالفضل في الإسلام بالتقوى ، أكرمنا عند الله هو الأتقى لله ﷻ ، فمن كان أتقى لله فهو عند الله أكرم .

ولكن يجب أن نعلم أن بعض القبائل أو بعض الشعوب أفضل من بعض ، فالشعب الذي بعث فيه الرسول - عليه الصلاة والسلام - هو أفضل الشعوب ، شعب العرب أفضل الشعوب ؛ لأن الله قال في كتابه : ﴿ ٱللَّهُ أَعْلَمُ حَيْثُ يَجْعَلُ رِسَالَتَهُۥ ﴾ [الأنعام : ١٢٤] .

وقال النبي ﷺ : « الناس معادن خيارهم في الجاهلية خيارهم في الإسلام إذا فقهوا » [(٢)] .

ولا يعني هذا إهدار الجنس البشري بالكلية . لا . لكن التفاخر هو الممنوع ، أما التفاضل فإن الله يفضل بعض الأجناس على بعض ، فالعرب أفضل من غيرهم ، جنس العرب أفضل من جنس العجم ، لكن إذا كان العربي غير متقٍ والعجمي متقيًا ، فالعجمي عند الله أكرم من العربي .

ثم ساق المؤلف الآيات الأخرى : ﴿ فَلَا تُزَكُّوٓا۟ أَنفُسَكُمْ ۖ هُوَ أَعْلَمُ بِمَنِ ٱتَّقَىٰٓ ﴾ لا تزكوها : أي لا تصفوها بالزكاة افتخارًا ، وأما التحدث بنعمة الله على العبد مثل أن يقول القائل : كان مسرفًا على نفسه ، كان منحرفًا ، فهداه الله ووفقه ولزم الاستقامة ؛ تحدثًا بنعمة الله لا تزكية لنفسه ؛ فإن هذا لا بأس به ولا حرج فيه أن يذكر الإنسان نعمة الله عليه في الهداية والتوفيق ، كما أنه لا حرج أن يذكر نعمة الله عليه بالغنى بعد الفقر .

وقوله : ﴿ هُوَ أَعْلَمُ بِمَنِ ٱتَّقَىٰٓ ﴾ هو أي الرب ﷻ ﴿ أَعْلَمُ بِمَنِ ٱتَّقَىٰٓ ﴾ ، وكم من شخصين يقومان بعمل أو يدعان عملًا وبينهما في التقى مثل ما بين السماء والأرض ، ولهذا قال : ﴿ هُوَ أَعْلَمُ بِمَنِ ٱتَّقَىٰٓ ﴾ ؛ تجد الشخصين يصليان كل واحد جنب الآخر ، لكن بين ما في قلوبهما من التقوى مثل ما بين السماء والأرض ، شخصان يتجنبان الفاحشة لكن بينهما في التقوى مثل ما بين السماء والأرض ، ولهذا قال : ﴿ فَلَا تُزَكُّوٓا۟ أَنفُسَكُمْ ۖ هُوَ أَعْلَمُ بِمَنِ ٱتَّقَىٰٓ ﴾ .

ثم ذكر المؤلف آية أخرى وهي قوله تعالى : ﴿ وَنَادَىٰٓ أَصْحَٰبُ ٱلْأَعْرَافِ رِجَالًا يَعْرِفُونَهُم بِسِيمَىٰهُمْ قَالُوا۟ مَآ أَغْنَىٰ عَنكُمْ جَمْعُكُمْ وَمَا كُنتُمْ تَسْتَكْبِرُونَ ﴾ ، أصحاب الأعراف : قوم تساوت حسناتهم وسيئاتهم ، فلا يدخلون الجنة ولا يدخلون النار ، يحشر أهل النار إلى النار ، ويساق المتقون إلى الرحمن وفدًا ، إلى الجنة زمرًا ، فيدخل أهل النار النار ، وأهل الجنة الجنة ، وأصحاب الأعراف في مكان مرتفع .

فالأعراف جمع عرف ، وهو المكان المرتفع ، لكن ليسوا في الجنة وليسوا في النار ، وهم يطلعون إلى هؤلاء وإلى هؤلاء ، وفي النهاية يدخلون الجنة ، لأنه ليس هناك إلا جنة أو نار ، هما الباقيتان أبدًا ، وأما ما سواهما فيزول .

---

(١) أخرجه أبو داود في الأدب (٥١١٦) ، والترمذي في المناقب (٣٩٥٦) ، قوله « عبية » الكِبْر والفخر .

(٢) أخرجه البخاري في المناقب (٣٤٩٦) ، ومسلم في فضائل الصحابة (١٩٩) .

فيقول الله تعالى : ﴿ وَنَادَىٰٓ أَصۡحَٰبُ ٱلۡأَعۡرَافِ رِجَالٗا يَعۡرِفُونَهُم بِسِيمَٰهُمۡ ﴾ أي بعلامتهم معرفة تامة ، ﴿ قَالُواْ مَآ أَغۡنَىٰ عَنكُمۡ جَمۡعُكُمۡ وَمَا كُنتُمۡ تَسۡتَكۡبِرُونَ ﴾ يعني جمعكم المال والأولاد والأهل ، ما أغنى عنكم هؤلاء ، وما أغنى عنكم جمعكم من الناس الذين هم جنودكم ، تجمعونهم إليكم وتستنصرون بهم ، ما أغنوا عنكم شيئًا ، ﴿ وَمَا كُنتُمۡ تَسۡتَكۡبِرُونَ ﴾ يعني وما أغنى عنكم استكباركم على الحق .

﴿ أَهَٰٓؤُلَآءِ ٱلَّذِينَ أَقۡسَمۡتُمۡ لَا يَنَالُهُمُ ٱللَّهُ بِرَحۡمَةٍۚ ﴾ يعني الضعفاء ، وكان الملأ المكذبون للرسل يسخرون من المؤمنين ويقولون : ﴿ أَهَٰٓؤُلَآءِ مَنَّ ٱللَّهُ عَلَيۡهِم مِّنۢ بَيۡنِنَآۗ ﴾ [الأنعام : ٥٣] ، يقولون : أهؤلاء أصحاب الرحمة ؟ أهؤلاء أهل الجنة ؟ يسخرون منهم ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ أَجۡرَمُواْ كَانُواْ مِنَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ يَضۡحَكُونَ ۝٢٩ وَإِذَا مَرُّواْ بِهِمۡ يَتَغَامَزُونَ ۝٣٠ وَإِذَا ٱنقَلَبُوٓاْ إِلَىٰٓ أَهۡلِهِمُ ٱنقَلَبُواْ فَكِهِينَ ﴾ [المطففين : ٢٩- ٣١] .

فيقولون لهم : ﴿ أَهَٰٓؤُلَآءِ ٱلَّذِينَ أَقۡسَمۡتُمۡ لَا يَنَالُهُمُ ٱللَّهُ بِرَحۡمَةٍۚ ٱدۡخُلُواْ ٱلۡجَنَّةَ ﴾ يعني قد قيل لهم : ﴿ ٱدۡخُلُواْ ٱلۡجَنَّةَ لَا خَوۡفٌ عَلَيۡكُمۡ وَلَآ أَنتُمۡ تَحۡزَنُونَ ﴾ .

إذًا تواضعهم للحق واتباعهم الرسل هو الذي بلغهم هذه المنازل العالية ، أما هؤلاء المستكبرون الذين فخروا بما أغناهم الله به من الجمع والمال ؛ فإن ذلك لم يغن عنهم شيئًا ؛ فدل ذلك على فضل التواضع للحق .

* * *

٦٠٢ - وعن عياضِ بن حِمَار ﷺ قال : قال رسول الله ﷺ : « إنَّ اللَّهَ أَوحَى إليَّ أَنْ تَوَاضَعُوا حتى لا يَفْخَرَ أَحَدٌ على أَحَدٍ ، ولا يَبغِيَ أَحَدٌ على أَحَدٍ » [١] رواه مسلم .

٦٠٣ - وعَنْ أبي هريرة ﷺ أن رسول الله ﷺ قال : « ما نَقَصتْ صَدَقَةٌ من مالٍ ، وما زادَ اللَّهُ عَبدًا بِعَفْوٍ إلَّا عِزًّا ، ومَا تَوَاضَعَ أَحَدٌ للَّهِ إلا رَفَعَهُ اللَّهُ » [٢] رواه مسلم .

٦٠٤ - وعن أنسٍ ﷺ أنَّهُ مَرَّ عَلى صِبيانٍ فَسَلَّم عَليهِم وقال : كان النَّبيُّ ﷺ يَفْعَلُهُ [٣] . متفقٌ عليه .

٦٠٥ - وعنه قال : إنْ كانَتِ الأَمَةُ مِن إمَاءِ المَدِينَةِ لتَأْخُذُ بِيَدِ النبيِّ ﷺ ، فَتَنْطِلقُ بِهِ حَيثُ شَاءَتْ [٤] . رواه البخاري .

---

(١) أخرجه مسلم في الجنة وصفة نعيمها (٦٤) - واللفظ له - ، وأبو داود في الأدب (٤٨٩٥) .

(٢) أخرجه مسلم في البر والصلة (٦٩) - واللفظ له - ، والإمام أحمد في مسنده (٢/٢٣٥) ، قوله « ما نقصت صدقة من مال » فيه وجهان : - مباركة الله فيه ، ودفعه المضرات عنه .
- أنه وإن نقصت صورته كان في الثواب المرتب عليه جبرًا لنقصه وزيادة إلى أضعاف كثيرة .

(٣) أخرجه البخاري في الاستئذان (٦٢٤٧) ، ومسلم في السلام (١٤) .

(٤) أخرجه البخاري في الأدب (٦٠٧٢) ، وابن ماجه في الزهد (٤١٧٧) ، قوله « الأمة » أي الجارية الصغيرة .

الشرح

هذه الأحاديث ذكرها المؤلف رَحِمَهُ اللَّهُ في كتاب رياض الصالحين في باب التواضع ؛ فمنها حديث عياض بن حمار رضي الله عنه قال : قال رسول الله ﷺ : « إن الله أوحى إليَّ أن تواضعوا » يعني أن يتواضع كل واحد للآخر ولا يترفع عليه ، بل يجعله مثله أو يكرمه أكثر ، وكان من عادة السلف - رحمهم الله - أن الإنسان منهم يجعل من هو أصغر منه مثل ابنه ، ومن هو أكبر مثل أبيه ، ومن هو مثله مثل أخيه ، فينظر إلى من هو أكبر منه نظرة إكرام وإجلال ، وإلى من هو دونه نظرة إشفاق ورحمة ، وإلى من هو مثله نظرة مساواة ، فلا يبغي أحد على أحد وهذا من الأمور التي يجب على الإنسان أن يتصف بها ، أي بالتواضع لله عَزَّ وَجَلَّ ولإخوانه من المسلمين .

وأما الكافر : فقد أمر الله تعالى بمجاهدته والغلظة عليه وإغاظته وإهانته بقدر المستطاع ، لكن من كان له عهد وذمة فإنه يجب على المسلمين أن يفوا له بعهده وذمته ، وألا يخفروا ذمته ، وألا يؤذوه ما دام له عهد .

ثم ذكر المؤلف حديث أبي هريرة رضي الله عنه أن النبي ﷺ قال : « ما نقصت صدقة من مال » يعني أن الصدقات لا تنقص الأموال كما يتوهمه الإنسان ، وكما يعد به الشيطان ، فإن الشيطان كما قال الله عَزَّ وَجَلَّ : ﴿ ٱلشَّيْطَٰنُ يَعِدُكُمُ ٱلْفَقْرَ وَيَأْمُرُكُم بِٱلْفَحْشَآءِ ﴾ [البقرة : ٢٦٨] .

الفحشاء : كل ما يستفحش من بخل أو غيره ، فهو يعد الإنسان الفقر ، إذا أراد الإنسان أن يتصدق قال : لا تتصدق هذا ينقص مالك ، هذا يجعلك فقيرًا ، لا تتصدق ، أمسك ، ولكن النبي ﷺ أخبرنا بأن الصدقة لا تنقص المال ، فإن قال قائل : كيف لا تنقص المال ، والإنسان إذا كان عنده مائة فتصدق بعشرة صار عنده تسعون ، فيقال : هذا نقص كمٍّ ، ولكنها تزيد في الكيف ، ثم يفتح الله للإنسان أبوابًا من الرزق تردّ عليه ما أنفق ، كما قال الله تعالى : ﴿ وَمَآ أَنفَقْتُم مِّن شَيْءٍ فَهُوَ يُخْلِفُهُۥ وَهُوَ خَيْرُ ٱلرَّٰزِقِينَ ﴾ [سبأ : ٣٩] أي يجعل بدله خلفًا ، فلا تظن أنك إذا تصدقت بعشرة من مائة فصارت تسعين أن ذلك ينقص المال ، بل يزيده بركة ونماءً ، وترزق من حيث لا تحتسب .

« وما زاد الله عبدًا بعفو إلا عزًّا » يعني أن الإنسان إذا عفا عمن ظلمه فقد تقول له نفسه : إن هذا ذل وخضوع وخذلان ، فبين الرسول - عليه الصلاة والسلام - أن الله ما يزيد أحدًا بعفو إلا عزًّا ، فيعزه الله ويرفع من شأنه ، وفي هذا حثّ على العفو ، ولكن العفو مقيد بما إذا كان إصلاحًا لقول الله تعالى : ﴿ فَمَنْ عَفَا وَأَصْلَحَ فَأَجْرُهُۥ عَلَى ٱللَّهِ ﴾ [الشورى : ٤٠] .

أما إذا لم يكن إصلاحًا بل كان إفسادًا ، فإنه لا يؤمر به ، مثال ذلك اعتدى شخص شرير معروف بالعدوان على آخر ، فهل نقول للآخر الذي اعتدُي عليه : اعف عن هذا الشرير ؟ لا نقول : اعف عنه ، لأنه شرير ، إذا عفوت عنه تعدى على غيرك من الغد ، أو عليك أنت أيضًا ، فمثل هذا نقول : الحزم والأفضل أن تأخذه بجريرته ، يعني أن تأخذ حقك منه ، وألا تعفو عنه ، لأن العفو عن أهل

الشر والفساد ليس بإصلاح ، بل لا يزيدهم إلا فسادًا وشرًّا .

فأما إذا كان في العفو خير وإحسان ، وربما يخجل الذي عفوت عنه ولا يتعدى عليك ولا على غيرك فهذا خير .

« وما تواضع أحد للَّه إلا رفعه» هذا الشاهد من الحديث : « ما تواضع أحد للَّه إلا رفعه اللَّه » .

والتواضع للَّه له معنيان :

المعنى الأول : أن تتواضع لدين اللَّه ، فلا تترفع عن الدين ولا تستكبر عنه وعن أداء أحكامه .

والثاني : أن تتواضع لعباد اللَّه من أجل اللَّه ، لا خوفًا منهم ، ولا رجاء لما عندهم ، ولكن للَّه ﷻ .

والمعنيان صحيحان ، فمن تواضع للَّه ؛ رفعه اللَّه ﷻ في الدنيا وفي الآخرة ، وهذا أمر مشاهد ، أن الإنسان المتواضع يكون محل رفعة عند الناس وذكر حسن ، ويحبه الناس ، وانظر إلى تواضع الرسول - عليه الصلاة والسلام - وهو أشرف الخلق ، حيث كانت الأمة من إماء المدينة تأتي إليه ، وتأخذ بيده ، وتذهب به حيث شاءت ليعينها في حاجتها ، هذا وهو أشرف الخلق ، أمة من الإماء تأتي وتأخذ بيده تذهب به حيث شاءت ليقضي حاجتها ، ولا يقول أين تذهبين بي ، أو يقول : اذهبي إلى غيري ، بل كان يذهب معها ويقضي حاجتها ، لكن مع هذا ما زاده اللَّه ﷻ بذلك إلا عزًّا ورفعة صلوات اللَّه وسلامه عليه .

* * *

٦٠٦ - وعن الأَسوَدِ بن يَزيدَ قال : سُئِلَتْ عَائِشَةُ ﵂ : ما كانَ النَّبيُّ ﷺ يَصنَعُ في بَيتِهِ؟ قالت : كان يَكُون في مِهْنَةِ أَهْلِهِ - يَعني : خِدْمَةِ أَهلِهِ - فإذا حَضَرَتِ الصَّلاة ، خَرَجَ إلى الصَّلاةِ [١] . رواه البخاري .

٦٠٧ - وعن أبي رفَاعَةَ تَمِيم بن أُسَيدٍ ﵁ قال : انْتَهيتُ إلى رسول اللَّه ﷺ وهو يَخْطُبُ ، فقلتُ : يا رسولَ اللَّه ، رجُلٌ غَرِيبٌ جاءَ يَسْأَلُ عن دينِهِ لا يَدرِي مَا دِينُهُ ؟ فَأَقْبَلَ عَلَيَّ رسولُ اللَّه ﷺ وتَرَكَ خُطْبَتَهُ حتى انْتَهَى إليَّ ، فَأُتِيَ بِكُرسِيٍّ ، فَقَعَدَ عَلَيهِ ، وَجَعَلَ يُعَلِّمُني مِمَّا عَلَّمَه اللَّه ، ثم أَتَى خُطْبَتَهُ ، فَأَتَمَّ آخرَها [٢] . رواه مسلم .

الشرح

هذه الأحاديث ذكرها الحافظ النووي - رحمه اللَّه تعالى - في بيان تواضع النبي ﷺ ، منها أنه كان يسلم على الصبيان إذا مرَّ عليهم ، يسلم عليهم مع أنهم صبيان غير مكلفين ، واقتدى به أصحابه ﵃ فعن أنس ﵁ أنه كان يمر بالصبيان فيسلم عليهم ، يمر بهم في السوق يلعبون فيسلم عليهم ويقول : إن النبي ﷺ كان يفعله أي كان يسلم على الصبيان إذا مر عليهم ، وهذا من التواضع وحسن الخلق ،

(١) أخرجه البخاري في الأذان (٦٧٦) ، والإمام أحمد في مسنده (٦/١٢٦) .
(٢) أخرجه مسلم في الجمعة (٦٠) .

ومن التربية وحسن التعليم والإرشاد والتوجيه ، لأن الصبيان إذا سلم الإنسان عليهم ، فإنهم يعتادون ذلك ، ويكون ذلك كالغريزة في نفوسهم .

إن الإنسان إذا مر على أحد سلم عليه ، وإذا كان هذا يقع من النبي ﷺ على الصبيان ، فإننا نأسف لقوم يمرون بالكبار البالغين ولا يسلمون عليهم - والعياذ بالله - قد لا يكون ذلك هجرًا أو كراهة ، لكن عدم مبالاة ، عدم اتباع للسنة ، جهل ، غفلة ، وهم وإن كانوا غير آثمين ؛ لأنهم لم يتخذوا ذلك هجرًا ، لكنهم قد فاتهم خير كثير .

فالسنة أن تسلم على كل من لقيت ، وأن تبدأه بالسلام ولو كان أصغر منك ، لأن النبي ﷺ كان يبدأ من لقيه بالسلام ، وهو - عليه الصلاة والسلام - أكبر الناس قدرًا ، ومع ذلك كان يبدأ من لقيه بالسلام .

وأنت إذا بدأت من لقيته بالسلام حصلت على خير كثير ، منه اتباع الرسول ﷺ .

ومنه أنك تكون سببًا لنشر هذه السنة التي ماتت عند كثير من الناس ، ومعلوم أن إحياء السنن يؤجر الإنسان عليه مرتين ، مرة على فعل السنة ، ومرة على إحياء السنة .

ومنه أنك تكون السبب في إجابة هذا الرجل وإجابته فرض كفاية ، فتكون سببًا في إيجاد فرض الكفاية من هذا الرجل .

ولهذا كان ابتداء السلام أفضل من الرد ، وإن كان الرد فرضًا وهذا سنة ، لكن لما كان الفرض ينبني على هذه السنة ، كانت السنة أفضل من هذا الفرض ، لأنه مبني عليها .

وهذه من المسائل التي ألغز بها بعض العلماء وقال : عندنا سنة أفضل من الفريضة ؛ لأنه من المتفق عليه أن الفرض أفضل ، مثلًا صلاة الفجر ركعتان أفضل من راتبتها ركعتين ، لأنها فرض والراتبة سنة ، لكن ابتداء السلام سنة ، ومع ذلك صار أفضل من رده ، لأن رده مبني عليه .

فالمهم : أنه ينبغي لنا إحياء هذه السنة ، أعني إفشاء السلام ، وهو من أسباب المحبة ، ومن كمال الإيمان ، ومن أسباب دخول الجنة ، قال النبي - عليه الصلاة والسلام - : « لا تدخلون الجنة حتى تؤمنوا ، ولا تؤمنوا حتى تحابوا أولا أدلكم على شيء إذا فعلتموه تحاببتم ؟ أفشوا السلام بينكم »[(١)] .

ومن تواضع النبي - عليه الصلاة والسلام - ، أنه كان في بيته في خدمة أهله ، يحلب الشاة ، يخصف النعل ، يخدمهم في بيتهم ، لأن عائشة سئلت ماذا كان النبي ﷺ يصنع في بيته ؟ قالت : « كان في مهنة أهله » يعني في خدمتهم - عليه الصلاة والسلام - .

فمثلًا الإنسان إذا كان في بيته فمن السنة أن يصنع الشاي مثلًا لنفسه ، ويطبخ إذا كان يعرف ، ويغسل ما يحتاج إلى غسله ، كل هذا من السنة ، أنت إذا فعلت ذلك تثاب عليه ثواب سنة ، اقتداء بالرسول - عليه الصلاة والسلام - وتواضعًا لله ﷻ ، ولأن هذا يوجد المحبة بينك وبين أهلك ، إذا شعر

---

(١) أخرجه مسلم في الإيمان (٩٣ ، ٩٤) ، وأحمد في مسنده (٢/٣٩١) .

أهلك أنك تساعدهم في مهنتهم أحبوك وازدادت قيمتك عندهم ، فيكون في هذا مصلحة كبيرة .

ومن تواضع الرسول - عليه الصلاة والسلام - أنه جاءه رجل وهو يخطب الناس فقال : « رجل غريب جاء يسأل عن دينه » فأقبل إليه النبي - عليه الصلاة والسلام - وقطع خطبته ، حتى انتهى إليه ، ثم جيء إليه بكرسي ، فجعل يعلم هذا الرجل ، لأن هذا الرجل جاء مشفقًا محبًا للعلم ، يريد أن يعلم دينه حتى يعمل به ، فأقبل إليه النبي - عليه الصلاة والسلام - وقطع الخطبة ، ثم بعد ذلك أكمل خطبته ، وهذا من تواضع الرسول - عليه الصلاة والسلام - وحسن رعايته .

فإن قال قائل : أليست المصلحة العامة أولى بالمراعاة من المصلحة الخاصة ؟ وحاجة هذا الرجل خاصة ، وهو ﷺ يخطب في الجماعة ؟ قلنا : نعم لو كانت مصلحة العامة تفوت لكان مراعاة المصلحة العامة أولى ، لكن مصلحة العامة لا تفوت ، بل إنهم سيستفيدون مما يعلمه الرسول ﷺ لهذا الرجل الغريب ، والمصلحة العامة لا تفوت .

وهذا الغريب الذي جاء يسأل عن دينه إذا أقبل إليه الرسول - عليه الصلاة والسلام - وعلمه كان في هذا تأليف على الإسلام ، ومحبة للإسلام ، ومحبة للرسول ﷺ ، وهذا من حكمة رسول اللَّه - صلوات اللَّه وسلامه عليه - . وفق اللَّه الجميع لما يحبه ويرضى .

* * *

٦٠٨ - وعن أنسٍ ﷺ أنَّ رسولَ اللَّه ﷺ كان إذا أكَلَ طَعَامًا لَعِقَ أَصَابعَهُ الثَّلاثَ قال : وقال : « إذا سَقَطَتْ لُقْمَةُ أَحَدِكُمْ ، فَلْيُمِطْ عَنْها الأذى ، وليَأكُلْها ، وَلا يَدَعْها للشَيطَان » وَأمَرَ أَنْ تُسْلَتَ القَصْعَةُ قالَ : « فإنَّكُمْ لا تَدْرُونَ في أي طَعَامِكُمْ البَرَكَةُ » [٢] رواه مسلم .

٦٠٩ - وعن أبي هُريرة ﷺ عن النبي ﷺ : قال : « ما بَعَثَ اللَّهُ نَبيًّا إلا رَعَى الغَنَمَ » قالَ أصحابُه : وَأَنْتَ ؟ فقال : « نَعَمْ ؛ كُنْتُ أَرْعَاهَا عَلى قَرَارِيطَ لأَهْلِ مَكَّةَ » [٣] رواه البخاري .

٦١٠ - وعنهُ عن النبي ﷺ قال : « لَو دُعِيتُ إلى كُرَاعٍ أَو ذِرَاعٍ لأَجَبْتُ ، وَلَو أُهْدِيَ إليَّ ذِرَاعٌ أو كُراعٌ لَقَبِلْتُ » [٤] رواه البخاري .

٦١١ - وعن أنسٍ ﷺ قال : كانَتْ نَاقَةُ رسول اللَّه ﷺ العَضباءُ لَا تُسْبَقُ ، أَو لا تَكَادُ تُسْبقُ فَجَاءَ أعْرابيٌّ عَلى قَعُودٍ لَهُ ، فَسَبَقَها ، فَشَقَّ ذلِكَ عَلى المسلمِينَ حَتَّى عَرَفَهُ ، فَقالَ : « حَقٌّ عَلى اللَّهِ أَنْ

---

(١) أخرجه مسلم في الأشربة (١٣٦) ، والإمام أحمد في مسنده (٣/١٠٠) ، وأبو داود في الأطعمة (٣٨٤٥) ، قوله « فليمط » أي فليزل ، قوله « ولا يدعها » أي ولا يتركها ، قوله « تسلت » السلت المسح وتتبع ما فيها من الطعام .

(٢) أخرجه البخاري في الإجارة (٢٢٦٢) ، قوله « قراريط » قيل : المراد بالقيراط هنا جزء من الدينار والدرهم ، وقيل : قراريط : اسم مرعى بمكة .

(٣) أخرجه البخاري في الهبة (٢٥٦٨) ، قوله « كراع أو ذراع » الكراع من الدابة هو ما بين الركبتين إلى الساق . وقد جمع بين الذراع والكراع ليجمع بين الخطير والحقير ؛ لأن الذراع كانت أحب إليه من غيرها والكراع لا قيمة له .

لاَ يَرْتَفِعَ شَيْءٌ مِنَ الدُّنْيا إلا وَضَعَهُ » [(١)] . رواه البخاري .

الشرح

هذه الأحاديث ذكرها الحافظ النووي - رحمه الله تعالى - في باب التواضع ، فمنها حديث أنس بن مالك ﷺ ، أن النبي ﷺ كان إذا فرغ من الأكل لعق أصابعه الثلاث . لعقها : أي لحسها حتى يكون ما بقي من الطعام فيها داخلًا في طعامه الذي أكله من قبل ، وفيه فائدة ذكرها بعض الأطباء ؛ أن الأنامل تفرز عند الأكل شيئًا يعين على هضم الطعام .

فيكون في لعق الأصابع بعد الطعام فائدتان :

فائدة شرعية : وهي الاقتداء بالنبي ﷺ . وفائدة صحية طبية : وهي هذا الإفراز الذي يكون بعد الطعام يعين على الهضم .

والمؤمن لا يجعل همه فيما يتعلق بالصحة البدنية ، أهم شيء عند المؤمن هو اتباع الرسول ﷺ والاقتداء به ، لأن فيه صحة القلب ، وكلما كان الإنسان للرسول ﷺ أتبع كان إيمانه أقوى .

وكذلك قال - عليه الصلاة والسلام - : « إذا سقطت لقمة أحدكم » يعني على الأرض أو على السفرة « فليمط عنها الأذى وليأكلها ، ولا يدعها للشيطان » فإذا سقطت اللقمة أو التمرة أو ما أشبه ذلك على السفرة ، فخذها وأزل ما فيها من الأذى إن كان فيها أذى من تراب وعيدان وكلها ؛ تواضعًا لله ﷻ ، وامتثالًا لأمر النبي ﷺ ، وحرمانًا للشيطان من الأكل معك ، لأنك إذا تركتها أكلها الشيطان .

والشيطان ربما يشارك الإنسان في أكله في مثل هذه المسألة ، وفيما إذا أكل ولم يسم ، فإن الشيطان يشاركه في أكله .

والثالث أمره بإسلات الصحن أو القصعة ، وهو الإناء الذي فيه الطعام ، فإذا انتهيت فأسلته ، بمعنى أن تتبع ما علق فيه من طعام بأصابعك وتلعقها .

فهذا أيضًا من السنة التي غفل عنها كثير من الناس مع الأسف حتى من طلبة العلم أيضًا ، إذا فرغوا من الأكل وجدت الجهة التي تليهم ما زال الأكل باقيًا فيها ، لا يلعقون الصحفة ، وهذا خلاف ما أمر به النبي ﷺ ، ثم بين الرسول - عليه الصلاة والسلام - الحكمة من ذلك فقال : « فإنكم لا تدرون في أي طعامكم البركة » قد تكون البركة من هذا الطعام في هذا الذي سلته [(٢)] من القصعة .

وفي هذا الحديث : حسن تعليم الرسول - عليه الصلاة والسلام - ، وأنه إذا ذكر الحكم ذكر الحكمة منه ؛ لأن ذكر الحكمة مقرونًا بالحكم يفيد فائدتين عظيمتين :

---

(١) أخرجه البخاري في الجهاد والسير (٢٨٧٢) . قوله « العضباء » العضباء اسم لناقة النبي ﷺ وقيل : صفة لها ، قوله « على قَعود له » القَعود هو ما استحق الركوب من الإبل ، وقيل : البكر حتى يركب ، وقيل أنه لا يقال إلا للذكر أما الأنثى فهي قلوص .

(٢) سلته : أي مسحه .

الفائدة الأولى : بيان سمو الشريعة ، وأنها شريعة مبنية على المصالح ، فما من شيء أمر الله به ورسوله ﷺ إلا والمصلحة في وجوده ، وما من شيء نهى الله عنه ورسوله ﷺ إلا والمصلحة في عدمه .

الفائدة الثانية : زيادة اطمئنان النفس ، لأن الإنسان بشر قد يكون عنده إيمان وتسليم بما حكم الله به ورسوله ، لكن إذا ذكرت الحكمة ازداد إيمانًا ، وازداد يقينًا ، ونشط على فعل المأمور أو ترك المحظور .

ثم ذكر المؤلف حديث أنس بن مالك ﷺ ، في قصة الأعرابي الذي جاء بقعود له ، ناقة ليست كبيرة ، أو جمل ليس بكبير ، وكانت ناقة النبي ﷺ العضباء وهي غير القصواء التي حجَّ عليها ، هذه ناقة أخرى ، وكان من هدي الرسول - عليه الصلاة والسلام - أنه يسمي دوابَّه وسلاحه وما أشبه ذلك .

فالعضباء هذه كان الصحابة ﷺ يرون أنها لا تسبق أو لا تكاد تسبق ، فجاء هذا الأعرابي بقعوده[1] فسبق العضباء ، فكأن ذلك شق على الصحابة ﷺ ، فقال النبي ﷺ لما عرف ما في نفوسهم : « حق على الله ألا يرتفع شيء من الدنيا إلا وضعه » .

فكل ارتفاع يكون في الدنيا فإنه لابد أن يؤول إلى انخفاض ، فإن صحب هذا الارتفاع في النفوس وعلو في النفوس ، فإن الوضع إليه أسرع ؛ لأن الوضع يكون عقوبة ، أما إذا لم يصحبه شيء ، فإنه لابد أن يرجع ويوضع ؛ كما قال الله تبارك وتعالى : ﴿ إِنَّمَا مَثَلُ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا كَمَآءٍ أَنزَلْنَٰهُ مِنَ ٱلسَّمَآءِ فَٱخْتَلَطَ بِهِۦ نَبَاتُ ٱلْأَرْضِ مِمَّا يَأْكُلُ ٱلنَّاسُ وَٱلْأَنْعَٰمُ ﴾ [يونس : ٢٤] أي ظهر فيه من كل نوع .

﴿ حَتَّىٰٓ إِذَآ أَخَذَتِ ٱلْأَرْضُ زُخْرُفَهَا وَٱزَّيَّنَتْ وَظَنَّ أَهْلُهَآ أَنَّهُمْ قَٰدِرُونَ عَلَيْهَآ أَتَىٰهَآ أَمْرُنَا لَيْلًا أَوْ نَهَارًا فَجَعَلْنَٰهَا حَصِيدًا كَأَن لَّمْ تَغْنَ بِٱلْأَمْسِ ﴾[2] [يونس : ٢٤] ذهبت كلها . كل هذه الزينة ، وكل هذا النبات الذي اختلط من كل صنف ، كله يزول كأن لم يكن ، وهكذا الدنيا كلها تزول كأن لم تكن ، حتى الإنسان نفسه يبدو صغيرًا ضعيفًا ، ثم يقوى ، فإذا انتهت قوته عاد إلى الضعف والهرم ، ثم إلى الفناء والعدم ، فما من شيء ارتفع من الدنيا إلا وضعه الله ﷻ .

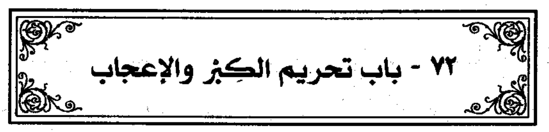
وفي قوله - عليه الصلاة والسلام - : « من الدنيا » دليل على أن ما ارتفع من أمور الآخرة فإنه لا يضعه الله ، فقوله تعالى : ﴿ يَرْفَعِ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مِنكُمْ وَٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْعِلْمَ دَرَجَٰتٍ ﴾ [المجادلة : ١١] فهؤلاء لا يضعهم الله ﷻ ما داموا على وصف العلم والإيمان ، فإنه لا يمكن أن يضعهم الله ﷻ . بل يرفع لهم الذكر ، ويرفع درجاتهم في الآخرة .

* * *

---

(١) والقعود : ما استحق الركوب من الإبل ، وقيل : البكر حتى يركب ، وقيل أنه لا يقال إلا للذكر أما الأنثى فهي قلوص .

(٢) حصيدًا : أي فجعلنا زرعها كالمحصود من أصله بالمناجل .



٧٢ - باب تحريم الكِبْر والإعجاب

قال الله تعالى : ﴿ تِلْكَ الدَّارُ الْآخِرَةُ نَجْعَلُهَا لِلَّذِينَ لَا يُرِيدُونَ عُلُوًّا فِي الْأَرْضِ وَلَا فَسَادًا وَالْعَاقِبَةُ لِلْمُتَّقِينَ ﴾ [القصص : ٨٣] وقال تعالى : ﴿ وَلَا تَمْشِ فِي الْأَرْضِ مَرَحًا إِنَّكَ لَن تَخْرِقَ الْأَرْضَ وَلَن تَبْلُغَ الْجِبَالَ طُولًا ﴾ [الإسراء : ٣٧] وقال تعالى : ﴿ وَلَا تُصَعِّرْ خَدَّكَ لِلنَّاسِ وَلَا تَمْشِ فِي الْأَرْضِ مَرَحًا إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ كُلَّ مُخْتَالٍ فَخُورٍ ﴾ [لقمان : ١٨] ومعنى ﴿ تُصَعِّرْ خَدَّكَ لِلنَّاسِ ﴾ أي : تميله وتعرض بِهِ عَنِ النَّاسِ تكبُّرًا عَلَيهِمْ . والمَرَح : التَّبخْتُر . وقال تعالى : ﴿ إِنَّ قَارُونَ كَانَ مِن قَوْمِ مُوسَىٰ فَبَغَىٰ عَلَيْهِمْ وَآتَيْنَاهُ مِنَ الْكُنُوزِ مَا إِنَّ مَفَاتِحَهُ لَتَنُوءُ بِالْعُصْبَةِ أُولِي الْقُوَّةِ إِذْ قَالَ لَهُ قَوْمُهُ لَا تَفْرَحْ إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ الْفَرِحِينَ ﴾ [القصص : ٧٦] إلى قوله تعالى : ﴿ فَخَسَفْنَا بِهِ وَبِدَارِهِ الْأَرْضَ ﴾ الآيات .

الشرح

قال المؤلف رحمه الله : باب تحريم الكبر والإعجاب .

والكبر : هو الترفع واعتقاد الإنسان نفسه أنه كبير ، وأنه فوق الناس ، وأن له فضلًا عليهم .

والإعجاب : أن يرى الإنسان عمل نفسه فيعجب به ، ويستعظمه ، ويستكثره .

فالإعجاب يكون في العمل ، والكبر يكون في النفس ، وكلاهما خلق مذموم .

والكبر نوعان : كبر على الحق ، وكبر على الخلق ، وقد بينهما النبي ﷺ في قوله : « الكبر بطر الحق وغمط الناس »[1] فبطر الحق يعني رده والإعراض عنه ، وعدم قبوله ، وغمط الناس يعني احتقارهم وازدراءهم ، وألا يرى الناس شيئًا ، ويرى أنه فوقهم .

وقيل لرجل : ماذا ترى الناس ؟ قال : لا أراهم إلا مثل البعوض ، فقيل له : إنهم لا يرونك إلا كذلك .

وقيل لآخر : ما ترى الناس ؟ قال : أرى الناس أعظم مني ، ولهم شأن ، ولهم منزلة ، فقيل له : إنهم يرونك أعظم منهم ، وأن لك شأنًا ومحلًّا .

فأنت إذا رأيت الناس على أي وجه فالناس يرونك بمثل ما تراهم به ، إن رأيتهم في محل الإكرام والإجلال والتعظيم ، ونزلتهم منزلتهم عرفوا لك ذلك ، ورأوك في محل الإجلال والإكرام والتعظيم ، ونزلوك منزلتك ، والعكس بالعكس .

أما بطر الحق : فهو ردُّه ، وألا يقبل الإنسان الحق بل يرفضه ويرده اعتدادًا بنفسه ورأيه ، فيرى - والعياذ بالله - أنه أكبر من الحق ، وعلامة ذلك أن الإنسان يؤتى إليه بالأدلة من الكتاب والسنة ، ويقال : هذا كتاب الله ، هذه سنة رسول الله ، ولكنه لا يقبل ، بل يستمر على رأيه ، فهذا ردُّ الحق والعياذ بالله .

---

(١) أخرجه مسلم في الإيمان (١٤٧) .

وكثير من الناس ينتصر لنفسه ، فإذا قال قولًا لا يمكن أن يتزحزح عنه ، ولو رأى الصواب في خلافه ، ولكن هذا خلاف العقل وخلاف الشرع .

والواجب أن يرجع الإنسان للحق حيثما وجده ، حتى لو خالف قوله فليرجع إليه ، فإن هذا أعز له عند اللَّه ، وأعز له عند الناس ، وأسلم لذمته وأبرأ .

فلا تظن أنك إذا رجعت عن قولك إلى الصواب أن ذلك يضع منزلتك عند الناس ، بل هذا يرفع منزلتك ، ويعرف الناس أنك لا تتبع إلا الحق ، أما الذي يعاند ويبقى على ما هو عليه ويرد الحق ، فهذا متكبر والعياذ باللَّه .

وهذا يقع من بعض الناس والعياذ باللَّه حتى من طلبة العلم ، يتبين له بعد المناقشة وجه الصواب وأن الصواب خلاف ما قاله بالأمس ، ولكنه يبقى على رأيه ، يملي عليه الشيطان أنه إذا رجع استهان الناس به ، وقالوا عنه إنه إمعة كل يوم له قول ، وهذا لا يضر إذا رجعت إلى الصواب ، فليكن قولك اليوم خلاف قولك بالأمس ، فالأئمة الأجلة كان يكون لهم في المسألة الواحدة أقوال متعددة .

وها هو الإمام أحمد رَحِمَهُ ٱللَّهُ إمام أهل السنة ، وأرفع الأئمة من حيث اتباع الدليل وسعة الإطلاع ، نجد أن له في المسألة الواحدة في بعض الأحيان أكثر من أربعة أقوال ، لماذا ؟ لأنه إذا تبين له الدليل رجع إليه ، وهكذا شأن كل إنسان منصف عليه أن يتبع الدليل حيثما كان .

ثم ذكر المؤلف رَحِمَهُ ٱللَّهُ آيات تتعلق بهذا الباب بيَّن فيها رَحِمَهُ ٱللَّهُ أنها كلها تدل على ذم الكبر ، وآخرها الآيات المتعلقة بقارون .

وقارون رجل من بني إسرائيل من قوم موسى ، أعطاه اللَّه ﷻ مالًا كثيرًا ، حتى إن مفاتحه لتنوء بالعصبة أولي القوة ، يعني مفاتيح الخزائن تثقل وتشق على العصبة ، أي الجماعة من الرجال أولي القوة لكثرتها .

﴿ إِذْ قَالَ لَهُۥ قَوْمُهُۥ لَا تَفْرَحْ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ ٱلْفَرِحِينَ ﴾ فإن هذا الرجل بطر والعياذ باللَّه وتكبر ، ولما ذكر بآيات اللَّه ردها واستكبر ﴿ قَالَ إِنَّمَآ أُوتِيتُهُۥ عَلَىٰ عِلْمٍ عِندِىٓ ﴾ ، فأنكر فضل اللَّه عليه ، وقال أنا اكتسبته بنفسي وقوتي وبعلم أدركت به هذا المال .

وكانت النتيجة أن اللَّه خسف به وبداره الأرض ، وزال هو وأملاكه ﴿ فَمَا كَانَ لَهُۥ مِن فِئَةٍ يَنصُرُونَهُۥ مِن دُونِ ٱللَّهِ وَمَا كَانَ مِنَ ٱلْمُنتَصِرِينَ ﴾ ﴿ وَأَصْبَحَ ٱلَّذِينَ تَمَنَّوْا۟ مَكَانَهُۥ بِٱلْأَمْسِ يَقُولُونَ وَيْكَأَنَّ ٱللَّهَ يَبْسُطُ ٱلرِّزْقَ لِمَن يَشَآءُ مِنْ عِبَادِهِۦ وَيَقْدِرُ ۖ لَوْلَآ أَن مَّنَّ ٱللَّهُ عَلَيْنَا لَخَسَفَ بِنَا ۖ ﴾ فتأمل نتيجة الكبر والعياذ باللَّه والعجب والاعتداد بالنفس ، وكيف كان عاقبة ذلك من الهلاك والدمار .

ثم ذكر المؤلف عدة آيات منها قوله تعالى : ﴿ تِلْكَ ٱلدَّارُ ٱلْـَٔاخِرَةُ نَجْعَلُهَا لِلَّذِينَ لَا يُرِيدُونَ عُلُوًّا فِى ٱلْأَرْضِ وَلَا فَسَادًا ۚ وَٱلْعَٰقِبَةُ لِلْمُتَّقِينَ ﴾ الدار الآخرة هي آخر دور بني آدم ، لأن ابن آدم له أربعة دور كلها تنتهي بالآخرة .

الدار الأولى : في بطن أمه .

والدار الثاني : إذا خرج من بطن أمه إلى دار الدنيا .

والدار الثالثة : البرزخ ؛ ما بين موته وقيام الساعة .

والدار الرابعة : الدار الآخرة . وهي النهاية ، وهي القرار ، هذه الدار قال الله تعالى عنها : ﴿ نَجْعَلُهَا لِلَّذِينَ لَا يُرِيدُونَ عُلُوًّا فِي الْأَرْضِ وَلَا فَسَادًا ﴾ لا يريدون التعلي على الحق ، ولا التعلي على الخلق ، وإنما هم متواضعون ، وإذا نفى الله عنهم إرادة العلو والفساد ، فهو من باب أولى ألا يكون منهم علو ولا فساد ، فهم لا يعلون في الأرض ، ولا يفسدون ، ولا يريدون ذلك ، لأن الناس ينقسمون إلى ثلاثة أقسام :

١ - قسم علا وفسد وأفسد ، فهذا اجتمع في حقه الإرادة والفعل .

٢ - وقسم لم يرد الفساد ولا العلو ، فقد انتفى عنه الأمران .

٣ - وقسم ثالث يريد العلو والفساد ولكن لا يقدر عليه . وهذا الثالث بين الأول والثاني ، لكن عليه الوزر ؛ لأنه أراد السوء ، فالدار الآخرة إنما تكون ﴿ لِلَّذِينَ لَا يُرِيدُونَ عُلُوًّا فِي الْأَرْضِ ﴾ أي تعليًا على الحق أو على الخلق ﴿ وَلَا فَسَادًا وَالْعَاقِبَةُ لِلْمُتَّقِينَ ﴾ . فإن قال قائل : ما هو الفساد في الأرض ؟

فالجواب : أن الفساد في الأرض ليس هدم المنازل ولا إحراق الزروع ، بل الفساد في الأرض بالمعاصي ، كما قال أهل العلم - رحمهم الله - في قوله تعالى : ﴿ وَلَا تُفْسِدُوا فِي الْأَرْضِ بَعْدَ إِصْلَاحِهَا ﴾ [الأعراف : ٥٦] أي لا تعصوا الله ؛ لأن المعاصي سبب للفساد .

وقال الله تبارك وتعالى : ﴿ وَلَوْ أَنَّ أَهْلَ الْقُرَىٰ آمَنُوا وَاتَّقَوْا لَفَتَحْنَا عَلَيْهِم بَرَكَاتٍ مِّنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ وَلَٰكِن كَذَّبُوا فَأَخَذْنَاهُم بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ ﴾ [الأعراف : ٩٦] فلم يفتح الله عليهم بركات من السماء ولا من الأرض ، فالفساد في الأرض يكون بالمعاصي نسأل الله العافية .

وقال الله تبارك وتعالى : ﴿ وَلَا تَمْشِ فِي الْأَرْضِ مَرَحًا ﴾ [لقمان : ١٨] يعني لا تمش مرحًا مستكبرًا متبخترًا متعاظمًا في نفسك ﴿ إِنَّكَ لَن تَخْرِقَ الْأَرْضَ وَلَن تَبْلُغَ الْجِبَالَ طُولًا ﴾ [الإسراء : ٣٧] يعني مهما كنت فأنت لا تقدر أن تنزل في الأرض ولا تتباهى حتى تساوي الجبال ، بل إنك أنت أنت . أنت ابن آدم حقير ضعيف ، فكيف تمشي في الأرض مرحًا .

وقال تعالى : ﴿ وَلَا تُصَعِّرْ خَدَّكَ لِلنَّاسِ وَلَا تَمْشِ فِي الْأَرْضِ مَرَحًا إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ كُلَّ مُخْتَالٍ فَخُورٍ ﴾ [لقمان : ١٨] .

تصعير الخد للناس : أن يعرض الإنسان عن الناس ، فتجده والعياذ بالله مستكبرًا لاويًا عنقه ، تحدثه وهو يحدثك وقد صد عنك ، وصعّر خده .

﴿ وَلَا تَمْشِ فِي الْأَرْضِ مَرَحًا ﴾ يعني لا تمش تبخترًا وتعاظمًا وتكبرًا ﴿ إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ كُلَّ مُخْتَالٍ فَخُورٍ ﴾ المختال في هيئته ، والفخور بلسانه وقوله ، فهو بهيئته مختال ؛ في ثيابه ، في ملابسه ، في مظهره ، في مشيته ، فخور بقوله ولسانه ، والله تعالى لا يحب هذا ، إنما يحب المتواضع الغني الخفي التقي . هذا هو الذي يحبه الله ﷻ .

* * *

٦١٢ - وعن عَبدِ اللَّه بن مسعُودٍ ﷺ عن النبي ﷺ قال : « لاَ يَدْخُل الجَنَّةَ مَنْ كان في قَلْبِهِ مِثْقَالُ ذَرَّةٍ مِنْ كِبْرٍ » فقالَ رَجُلٌ : إنَّ الرَّجُلَ يُحِبُّ أنْ يَكُونَ ثَوبُه حَسَنًا ، ونَعْلُهُ حَسَنَةً ؟ قال : « إنَّ اللَّهَ جَمِيلٌ يحِبُّ الجَمَال ؛ الكِبْرُ بَطَرُ الحَقِّ وغَمْطُ النَّاسِ » (١) رواه مسلم .

« بَطَرُ الحَقِّ » : دفْعُهُ وردُّهُ على قائِلِهِ ، « وغَمْطُ النَّاسِ » : احْتِقَارُهُمْ .

٦١٣ - وعنْ سلمةَ بنِ الأكْوعِ ﷺ أنَّ رَجُلًا أَكَلَ عِنْدَ رسول اللَّه ﷺ بِشَمالِهِ ، فقالَ : « كُلْ بيمينكَ » . قالَ : لا أَسْتطيعُ ! قال : « لا اسْتَطَعْتَ » مَا مَنَعَهُ إلا الكِبْرُ . قال : فما رَفَعَهَا إلى فيهِ (٢) . رواه مسلم .

الشرح

ذكر الحافظ النووي رحمه الله في باب تحريم الكبر والعجب ، عن ابن مسعود ﷺ أن النبي ﷺ قال : « لا يدخل الجنة من كان في قلبه مثقال ذرة من كبر » .

وهذا الحديث من أحاديث الوعيد التي يطلقها الرسول ﷺ تنفيرًا عن الشيء ، وإن كانت تحتاج إلى تفصيل حسب الأدلة الشرعية .

فالذي في قلبه كبر ، إما أن يكون كبرًا عن الحق وكراهة له ، فهذا كافر مخلد في النار ولا يدخل الجنة ، لقول اللَّه تعالى : ﴿ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ كَرِهُوا مَا أَنزَلَ اللَّهُ فَأَحْبَطَ أَعْمَالَهُمْ ﴾ (٣) [محمد : ٩] ولا يحبط العمل إلا بالكفر لقوله تعالى : ﴿ وَمَن يَرْتَدِدْ مِنكُمْ عَن دِينِهِ فَيَمُتْ وَهُوَ كَافِرٌ فَأُولَٰئِكَ حَبِطَتْ أَعْمَالُهُمْ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ ۖ وَأُولَٰئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ ۖ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ ﴾ [البقرة : ٢١٧] .

وأما إذا كان كبرًا على الخلق وتعاظمًا على الخلق ، لكنه لم يستكبر عن عباده اللَّه ، فهذا لا يدخل الجنة دخولًا كاملًا مطلقًا لم يسبق بعذاب ، بل لابد من عذاب على ما حصل من كبره وعلوائه على الخلق ثم إذا طهر دخل الجنة .

ولما حدث النبي ﷺ بهذا الحديث قال رجل : يا رسول اللَّه ، الرجل يحب أن يكون ثوبه حسنًا ونعله حسنة . يعني فهل هذا من الكبر ؟ فقال النبي ﷺ : « إن اللَّه جميل يحب الجمال » جميل في ذاته ، جميل في أفعاله ، جميل في صفاته ، كل ما يصدر عن اللَّه ﷻ فإنه جميل وليس بقبيح ، بل حسن ، تستحسنه العقول السليمة ، وتستسيغه النفوس .

وقوله : « يحب الجمال » أي يحب التجمل بمعنى أنه يحب أن يتجمل الإنسان في ثيابه ، وفي نعله ، وفي بدنه ، وفي جميع شؤونه ، لأن التجمل يجذب القلوب إلى الإنسان ، ويحببه إلى الناس ، بخلاف التشوه الذي يكون فيه الإنسان قبيحًا في شعره أو في ثوبه أو في لباسه ، فلهذا قال : « إن اللَّه

---

(١) أخرجه مسلم في الإيمان (١٤٧) .
(٢) أخرجه مسلم في الأشربة (١٠٧) .
(٣) فأحبط أعمالهم : فأبطلها .

جميل يحب الجمال » أي يحب أن يتجمل الإنسان .

وأما الجمال الخَلقي الذي من اللّه ﷻ ، فهذا إلى اللّه ﷻ ، ليس للإنسان فيه حيلة ، وليس له فيه كسب ، وإنما ذكر النبي ﷺ ما للإنسان فيه كسب وهو التجمل .

أما الحديث الثاني : فهو حديث سلمة بن الأكوع رضي الله عنه أن رجلًا أكل عند النبي ﷺ بيده اليسرى ، فقال : « كل بيمينك » قال : « لا أستطيع » . ما منعه إلا الكبر ، فقال النبي ﷺ : « لا استطعت » لأن الرسول ﷺ عرف أنه متكبر ، فقال : « لا استطعت » أي دعا عليه بأن اللّه تعالى يصيبه بأمر لا يستطيع معه رفع يده اليمنى إلى فمه ، فلما قال النبي ﷺ له ذلك أجاب اللّه دعوته فلم يرفعها إلى فمه بعد ذلك ، صارت والعياذ باللّه قائمة كالعصا ، لا يستطيع رفعها ؛ لأنه استكبر على دين اللّه ﷻ .

وفي هذا : دليل على وجوب الأكل باليمين والشرب باليمين ، وأن الأكل باليسار حرام ، يأثم عليه الإنسان ، وكذلك الشرب باليسار حرام ، يأثم عليه الإنسان ، لأنه إذا فعل ذلك أي أكل بشماله أو شرب بشماله شابه الشيطان وأولياء الشيطان ، قال النبي - عليه الصلاة والسلام - : « لا يأكل أحدكم بشماله ولا يشرب بشماله فإن الشيطان يأكل بشماله ويشرب بشماله » [١] .

وإذا نظرنا الآن إلى الكفار ، وجدنا أنهم يأكلون بيسارهم ويشربون بيسارهم ، وعلى هذا فالذي يأكل بشماله أو يشرب بشماله متشبه بالشيطان وأولياء الشيطان .

ويجب على من رآه أن ينكر عليه ، لكن بالتي هي أحسن ، إما أن يُعَرِّض إذا كان يخشى أن يخجل صاحبه أو أن يستنكف [٢] ويستكبر ، فيقول : من الناس من يأكل بشماله أو يشرب بشماله ، وهذا حرام ولا يجوز .

أو إذا كان معه طالب علم سأل طالب العلم وقال له . ما تقول فيمن يأكل بالشمال ويشرب بالشمال ، حتى ينتبه الآخر ، فإن انتبه فهذا المطلوب ، وإن لم ينتبه قيل له - ولو سرًا - لا تأكل بشمالك ولا تشرب بشمالك ، حتى يعلم دين اللّه تعالى وشرعه .

يوجد بعض المترفين يأكل باليمين ويشرب باليمين ، إلا إذا شرب وهو يأكل فإنه يشرب بالشمال ، يدعي أنه لو شرب باليمين لوَّث الكأس ، فيقال له : المسألة ليست هينة وليست على سبيل الاستحباب حتى تقول الأمر هين ، بل أنت إذا شربت بالشمال فأنت عاصٍ لأنه محرم ، والمحرم لا يجوز إلا للضرورة ، ولا ضرورة للشرب بالشمال خوفًا من أن يتلوث الكأس بالطعام .

ثم إنه يمكن أن تمسكه بين الإبهام والسبابة من أسفله وحينئذ لا يتلوث ، والإنسان الذي يريد الخير والحق يسهل عليه فعله ، أما المعاند أو المترف أو الذي يقلد أعداء اللّه من الشيطان وأوليائه ، فهذا له شأن آخر .

* * *

---

(١) أخرجه مسلم في الأشربة(٢٠١٠٦) بلفظ التوكيد(لا يأكلنَّ) (ولا يشربنَّ) ، والترمذي في سننه(١٧٩٩) ، وأحمد في مسنده(٢/٨٠) .

(٢) يستنكف : يأنف ويتكبر .

٦١٤ – وعنْ حَارِثَةَ بن وهْبٍ ﷺ قال : سَمِعْتُ رسول اللَّه ﷺ يقولُ : «ألا أُخْبِرُكُمْ بِأَهْلِ النَّارِ؟ كُلُّ عُتُلٍّ جَوَّاظٍ مُسْتَكْبِرٍ »[١] متفقٌ عليه . وتقَدَّمَ شرحُه في بابِ ضَعفَةِ المسلمين .

٦١٥ – وعن أبي سعيدٍ الخُدريِّ ﷺ عن النبي ﷺ قال : « احْتَجَّتِ الجَنَّةُ والنَّارُ ، فقالتِ النَّارُ : فيَّ الجَبَّارُونَ وَالمُتَكَبِّرُونَ ، وقالَتِ الجنَّةُ : فيَّ ضُعَفَاءُ النَّاسِ ومَسَاكِينُهُمْ . فَقَضَى اللَّهُ بَيْنَهُمَا : إِنَّكِ الجنَّةُ رَحْمَتي ، أَرْحَمُ بك مَنْ أَشَاءُ ، وَإِنَّكِ النَّارُ عَذَابي ، أُعَذِّبُ بِكِ مَنْ أَشَاءُ ، وَلِكِلَيكُما عَليَّ مِلْؤها »[٢] رواه مسلم .

٦١٦ – وعن أبي هُريرة ﷺ أنَّ رسول اللَّه ﷺ قال : « لا يَنْظُرُ اللَّهُ يَومَ القِيَامَةِ إِلى مَنْ جَرَّ إِزارَهُ بَطَرًا »[٣] متفقٌ عليه .

الشرح

هذه أحاديث ساقها رحمه الله في باب تحريم الكبر والعجب ، وقد سبق لنا الكلام على الآيات الواردة في هذا ، وكذلك الكلام على الأحاديث التي ذكرها المؤلف رحمه اللَّه تعالى في هذا الباب .

ثم ذكر المؤلف رحمه الله أن النبي ﷺ قال : « ألا أخبركم بأهل النار » ، وهذا من الأسلوب الذي كان النبي ﷺ يستعمله ، أن يورد الكلام على صيغة الاستفهام ، من أجل أن ينتبه المخاطب ويعي ما يقول ، فهو يقول : « ألا أخبركم » ، الكل سيقول نعم أخبرنا يا رسول اللَّه . قال : « كل عتلٍّ جواظٍ مستكبر » .

العتل : معناها الشديد الغليظ ، ومنه العتلة التي تحفر بها الأرض ، فإنها شديدة غليظة ، فالعتل هو الشديد الغليظ ، والعياذ باللَّه .

الجواظ : يعني أنه فيه زيادة من سوء الأخلاق .

والمستكبر – وهذا هو الشاهد – : هو الذي عنده كبر – والعياذ باللَّه – وغطرسة ، كبر على الحق ، فهو لا يلين للحق أبدًا ، ولا يرحم الخلق والعياذ باللَّه .

هؤلاء هم أهل النار ، أما أهل الجنة فهم الضعفاء المساكين الذين ليس عندهم ما يستكبرون به ، بل هم دائمًا متواضعون ليس عندهم كبرياء ولا غلظة ، لأن المال أحيانًا يفسد صاحبه ، ويحمله على أن يستكبر على الخلق ويردَّ الحق ، كما قال تعالى : ﴿ كَلَّآ إِنَّ ٱلْإِنسَٰنَ لَيَطْغَىٰٓ ۝ أَن رَّءَاهُ ٱسْتَغْنَىٰٓ ﴾[٤] [العلق : ٦، ٧] .

---

(١) أخرجه البخاري في تفسير القرآن (٤٩١٨) ، ومسلم في الجنة وصفة نعيمها (٤٦) .

(٢) أخرجه مسلم في الجنة وصفة نعيمها (٣٦) ، والإمام أحمد في مسنده (٣/٧٩) .

(٣) أخرجه البخاري في اللباس (٥٧٨٨) – واللفظ له – ومسلم في اللباس (٤٨) .

(٤) أي ليجاوز الحد ويستكبر على ربه ويكفر به من أجل رؤية نفسه ذا غنًى وثراء وقوة وقدرة . (صفوة البيان لمعاني القرآن ص ٨١٥) .

وكذلك أيضًا ذكر حديث احتجاج النار والجنة ؛ احتجت النار والجنة ، فقالت النار : إن أهلها هم الجبارون المتكبرون ، وقالت الجنة : إن أهلها هم الضعفاء والمساكين ، فاحتجت كل واحدة منهما على الأخرى .

فحكم اللّه بينهما ﷻ ، وقال في الجنة : « أنتِ رحمتي أرحم بك من أشاء » وقال للنار : « أنت عذابي أعذب بك من أشاء » فصارت النار دار العذاب - والعياذ باللّه - والجنة دار الرحمة ، فهي رحمة اللّه ويسكنها الرحماء من عباده ، كما قال النبي ﷺ : « وإنما يرحم اللّه من عباده الرحماء » [١] .

وقال « ولكل منكما عليَّ ملؤها » فوعد اللّه ﷻ النار ملأها ، ووعد الجنة ملأها ، وهو لا يخلف الميعاد ﷻ .

ولكن أتدرون ماذا تكون العاقبة ؟ تكون العاقبة - كما ثبتت بها الأحاديث الصحيحة - أن النار لا يزال يلقى فيها ، وهي تقول « هل من مزيد » كما قال تعالى : ﴿ يَوْمَ نَقُولُ لِجَهَنَّمَ هَلِ ٱمْتَلَأْتِ وَتَقُولُ هَلْ مِن مَّزِيدٍ ﴾ [ق : ٣٠] يعني تطلب الزيادة ؛ لأنها لم تمتلئ ، فيضع الرب ﷻ عليها قدمه ، فينزوي بعضها إلى بعض أن ينضم بعضها إلى بعض وتقول : « قطِ قطِ » [٢] أي حسبي ، حسبي ، لا أريد زيادة فصارت تملأ بهذه الطريقة .

أما الجنة : فإن الجنة ﴿ عَرْضُهَا ٱلسَّمَٰوَٰتُ وَٱلْأَرْضُ ﴾ [آل عمران : ١٣٣] ويسكنها أولياء اللّه ، جعلني اللّه وإياكم منهم ، ويسكنها أهلها ، ويبقى فيها فضل ، يعني مكان ليس فيه أحد ، فينشئ اللّه لها أقوامًا فيدخلهم الجنة برحمته [٣] .

وهذه هي النتيجة ؛ امتلأت النار بعدل اللّه ﷻ ، وامتلأت الجنة بفضل اللّه تعالى ورحمته .

ثم ذكر المؤلف رَحِمَهُ ٱللَّهُ حديثًا في الإنسان المسبل ، فقال - عليه الصلاة والسلام - : « لا ينظر اللّه إلى من جرَّ ثوبه خُيَلاء » وهذه مسألة خطيرة وذلك أن الرجل منهي عن أن ينزل ثوبه أو سرواله أو مشلحه أو إزاره عن الكعب ، لابد أن يكون من الكعب ؛ فما فوق ، فمن نزل عن الكعب ؛ فإن فعله هذا من الكبائر والعياذ باللّه .

لأنه إن نزل كبرًا وخيلاء فإنه لا ينظر اللّه إليه يوم القيامة ، ولا يكلمه ، ولا يزكيه ، وله عذاب أليم ، وإن كان نزل لغير ذلك كأن يكون طويلًا ولم يلاحظه ، فإنه ثبت عن النبي ﷺ أنه قال : « ما أسفل من الكعبين من الإزار ففي النار » [٤] .

فكانت العقوبة حاصلة على كل حال فيما نزل عن الكعبين ، لكن إن كان بطرًا وخيلاء فالعقوبة

---

(١) أخرجه البخاري في الجنائز (١٢٨٤) ، ومسلم في الجنائز (١١) .
(٢) انظر الحديث في صحيح البخاري في كتاب التفسير (٤٨٥٠) ، وصحيح مسلم في الجنة (٣٨) .
(٣) انظر الحديث الدال على ذلك في البخاري في التفسير (٤٨٥٠) ، ومسلم في الجنة (٣٨ ، ٣٩) .
(٤) أخرجه البخاري في اللباس (٥٧٨٧) .

أعظم ؛ لا يكلم اللَّه صاحبه يوم القيامة ، ولا ينظر إليه ، ولا يزكيه ، وله عذاب أليم ، وإن كان غير خيلاء ، فإنه يعذب بالنار والعياذ باللَّه .

فإذا قال قائل : ما هي السنة ؟ قلنا السنة من الكعب إلى نصف الساق هذه هي السنة ، نصف الساق سنة ، وما دونه سنة ، وما كان إلى الكعبين فهو سنة ، لأن هذا هو لبس النبي ﷺ وأصحابه ، فإنهم كانوا لا يتجاوز لباسهم الكعبين ، ولكن يكون إلى نصف الساق أو يرتفع قليلًا ، وما بين ذلك كله من السنة .

* * *

٦١٧ - وعنه قال : قالَ رسُولُ اللَّه ﷺ : « ثَلاثَةٌ لاَ يُكَلمُهُمُ اللَّهُ يَومَ القِيَامَةِ ، وَلا يُزَكِّيهِمْ ، وَلا يَنْظُرُ إلَيهِمْ ، وَلَهُمْ عذابٌ أَلِيمٌ : شَيخٌ زانٍ ، وَمَلِكٌ كَذَّابٌ ، وَعَائِلٌ مُسْتَكْبِرٌ » [(١)] رواه مسلم .

٦١٨ - وعنه قال : قال رسول اللَّه ﷺ : « قالَ اللَّهُ ﷻ : العزُّ إزاري ، والكِبْرياءُ رِدَائي ، فَمَنْ يُنازِعُني عَذَّبْتُه » [(٢)] . رواه مسلم .

٦١٩ - وعَنْهُ أنَّ رسول اللَّه ﷺ قال : « بَينَما رَجُلٌ يَمْشي في حُلَّةٍ [(٣)] تُعْجِبُه نَفْسُه ، مُرَجِّلٌ رَأْسَه ، يَخْتَالُ في مِشْيَتِهِ ، إذْ خَسَفَ اللَّهُ بِهِ ، فهو يَتَجَلْجَلُ في الأَرْضِ إلى يَومِ القِيَامَةِ » [(٤)] متفقٌ عليه .

« مُرَجِّلٌ رَأسَهُ » ، أي : مُمَشِّطُهُ . « يَتَجَلْجَلُ » بالجيمين ، أي : يَغُوصُ وَيَنْزِلُ .

الشرح

هذه الأحاديث ساقها النووي رحمه الله في باب تحريم الكبر والإعجاب ، فذكر عن أبي هريرة رضي الله عنه أن النبي ﷺ قال : « ثلاثة لا يكلمهم اللَّه يوم القيامة ، ولا يزكيهم ، ولا ينظر إليهم » .

ثلاثة : يعني ثلاثة أصناف ، وليس المراد ثلاثة رجال ، بل قد يكونون آلافًا من الناس ، لكن المراد ثلاثة أصناف . وهكذا كلما جاءت كلمة ثلاثة أو سبعة أو ما أشبه ذلك فالمراد أصنافًا لا أفرادًا .

فهؤلاء الثلاثة لا يكلمهم اللَّه يوم القيامة ، ولا ينظر إليهم ولا يزكيهم ، ولهم عذاب أليم .

الأول : شيخ زانٍ : يعني رجلًا كبيرًا مسنًا زنى ، فهذا لا يكلمه اللَّه يوم القيامة ، ولا ينظر إليه ، ولا يزكيه ، وله عذاب أليم ؛ وذلك لأن الشيخ ليس هناك شهوة تجبره على أن يفعل هذا الفعل .

---

(١) أخرجه مسلم في الإيمان (١٧٢) ، والإمام أحمد في مسنده (٤٨٠/٢) .

(٢) أخرجه مسلم في البر والصلة (١٣٦) بلفظه « العز إزاره والكبرياء رداؤه » قال النووي في شرح صحيح مسلم (١٧٣/١٦) : وفيه محذوف تقديره : قال اللَّه تعالى : « ومن ينازعني ... » وأخرجه الإمام أحمد في مسنده (٢٤٨/٢) ، وأبو داود في سننه (٤٠٩٠) ، وابن ماجه في سننه (٤١٧٤) الثلاثة بلفظ « الكبرياء ردائي والعزة إزاري » وفي مسند أحمد « ألقيه في النار » ، وفي سنن أبي داود « قذفته » وفي سنن ابن ماجه « ألقيته » .

(٣) حلة : الثوب الجيد الجديد غليظًا أو رقيقًا .

(٤) أخرجه البخاري في اللباس (٥٧٨٩) ، ومسلم في اللباس بنحوه (٤٩) ، والإمام أحمد في مسنده بنحوه (٤٦٧/٢) .

فالشاب قد يكون عنده شهوة ويعجز أن يملك نفسه ، لكن الشيخ قد بردت شهوته وزالت أو نقصت كثيرًا ، فكونه يزني هذا يدل على أنه والعياذ بالله - سيئ للغاية ، لأنه فعل الفاحشة من غير سبب قوي يدفعه إليها .

والزنى كله فاحشة سواء من الشاب أو من الشيخ ، لكنه من الشيخ أشد وأعظم - والعياذ بالله - إلا أن هذا الحديث مقيد بما ثبت في الصحيحين أن من أتى شيئًا من هذه القاذورات ، وأقيم عليه الحد في الدنيا ، فإن الله تعالى لا يجمع عليه عقوبتين [1] ، بل يزول عنه ذلك ، ويكون الحد تطهيرًا له .

الثاني : ملك كذَّاب ، وكذاب هذه صيغة مبالغة أي كثير الكذب ؛ وذلك لأن الملك لا يحتاج إلى أن يكذب ، كلمته هي العليا بين الناس ، فلا حاجة إلى أن يكذب ، فإذا كذب صار يعد الناس ولكن لا يوفي ، يقول سأفعل كذا ولكن لا يفعل ، سأترك كذا ولكن لا يترك ، ويحدث الناس يلعب بعقولهم ويكذب عليهم ، فهذا - والعياذ بالله - داخل في هذا الوعيد ، لا يكلمه الله يوم القيامة ولا ينظر إليه ولا يزكيه وله عذاب أليم .

والكذب حرام من الملك وغير الملك ، لكنه من الملك أعظم وأشد ؛ لأنه لا حاجة إلى أن يكذب ، كلمته بين الناس هي العليا فيجب عليه أن يكن صريحًا ، إذا كان يريد الشيء يوافق عليه ويفعل ، وإذا كان لا يريده يرفضه ولا يفعل ، الواحد من الرعية قد يحتاج إلى الكذب فيكذب ، ولكن الملك لا يحتاج .

والكذب حرام ، ومن صفات المنافقين - والعياذ بالله - فإن المنافق إذا حدث كذب [2] ، ولا يجوز لأحد أن يكذب مطلقًا ، وقول بعض العامة إن الكذب إذا كان لا يقطع مُحلًّا من حلاله فلا بأس به ، هذه قاعدة شيطانية ، ليس لها أساس من الصحة ولا من الدين ، والصواب أن الكذب حرام بكل حال .

الثالث : عائل مستكبر ، وهذا هو الشاهد من الحديث ، عائل يعني فقيرًا ، مستكبر يعني يتكبر على الناس - والعياذ بالله - فإن هذا العائل الفقير ليس عنده ما يوجب الكبر ، فالغني ربما يخدعه غناه ويغره ، فيتكبر على عباد الله ، أو يتكبر عن الحق ، لكن الفقير : حشف وسوء كيلة [3] ، ما دام فقيرًا فكيف يستكبر ؟! فالعائل المستكبر هذا لا يكلمه الله يوم القيامة ولا ينظر إليه ولا يزكيه وله عذاب أليم .

والكبر حرام من الغني ومن الفقير ، لكنه من الفقير أشد ، ولهذا تجد الناس إذا رأوا غنيًّا متواضعًا استغربوا ذلك منه ، واستعظموا ذلك منه ، ورأوا أن هذا الغني في غاية الخلق النبيل ، لكن لو يجدون فقيرًا متواضعًا لكان من سائر الناس ، لأن الفقر يوجب للإنسان أن يتواضع ، لأنه لأي شيء يستكبر !؟

فإذا جاء إنسان والعياذ بالله عائل فقير يستكبر على الخلق ، أو يستكبر عن الحق ، فليس هناك ما

---

(١) انظر الحديث الدال على ذلك في البخاري في الحدود (٦٧٨٤) ، ومسلم في الحدود (٤١ - ٤٤) .

(٢) انظر الحديث في البخاري في الوصايا (٢٧٤٩) ، ومسلم في الإيمان (١٠٧) .

(٣) مثلٌ من الأمثال أورده ابن منظور في لسان العرب ، والحشف أردأ التمر ، وهو ما لم يُنْوِ ، فإذا يبس صَلُبَ وفسد ، وهو لا طعم له ولا لحاء ولا حلاوة . لسان العرب (ص ٨٨٧) .

يوجب الكبرياء في حقه ، فيكون - والعياذ بالله - داخلًا في هذا الحديث .

ثم ذكر المؤلف رحمه الله فيما ساقه من الأدلة على تحريم الكبر والإعجاب ، وأنه من كبائر الذنوب ، عن أبي هريرة رضي الله عنه أن النبي ﷺ قال : « العز إزاري والكبرياء ردائي فمن ينازعني عذبته »(١) .

هذا من الأحاديث القدسية التي يرويها النبي ﷺ عن الله ، وهي ليست في مرتبة القرآن ، فالقرآن له أحكام تخصه ، منها أنه معجزٌ للبشر عن أن يأتوا بمثله ، أو بعشر سورٍ منه ، أو بسورةٍ أو بحديث مثله ، وأنه لا يجوز للجنب أن يقرأ القرآن ، وأن الصلاة تصح إذا قرأ المصلي من القرآن ، بل تجب القراءة بالفاتحة ، أما الأحاديث القدسية فليست كذلك .

ثم القرآن محفوظ لا يزاد فيه ولا ينقص ، ولا يُروى بالمعنى ، وليس فيه شيء ضعيف .

أما الأحاديث القدسية : فإنها تروى بالمعنى ، وفيها أحاديث ضعيفة ، وفيها أحاديث مكذوبة على الرسول ﷺ ليست بصحيحة وهو كثير ، فالمهم أنها ليست في منزلة القرآن إلا أنه يقال إن النبي ﷺ يرويه عن ربه .

فالله تعالى يقول : « العز إزاري والكبرياء ردائي » وهذا من الأحاديث التي تمر كما جاءت عن النبي ﷺ ، ولا يتعرض لمعناها بتحريف أو تكييف ، وإنما يقال هكذا ، قال الله تعالى فيما رواه النبي ﷺ عنه : فمن نازع الله في عزته وأراد أن يتخذ سلطانًا كسلطان الله ، أو نازع الله في كبريائه وتكبر على عباد الله ، فإن الله يعذبه ، يعذبه على ما صنع ونازع الله تعالى فيما يختص به .

ثم ذكر المؤلف رحمه الله حديث أبي هريرة الآخر ، عن رسول الله ﷺ أنه قال : « بينما رجل يمشي في حلة ، تعجبه نفسه ، مرجلٌ رأسه ، يختال في مشيته » أي عنده من الخيلاء والكبرياء والغطرسة ما عنده « إذ خسف الله به » أي خسف به الأرض « فهو يتجلجل في الأرض إلى يوم القيامة » يعني انهارت به الأرض وانغمس فيها واندفن ، فهو يتجلجل فيها إلى يوم القيامة ؛ لأنه - والعياذ بالله - لما صار عنده هذا الكبرياء وهذا التيه(٢) وهذا الإعجاب خسف به .

وهذا نظير قارون الذي ذكره المؤلف رحمه الله في صدر الباب ، فإن قارون خرج على قومه في زينته ﴿ قَالَ ٱلَّذِينَ يُرِيدُونَ ٱلْحَيَوٰةَ ٱلدُّنْيَا يَٰلَيْتَ لَنَا مِثْلَ مَآ أُوتِىَ قَٰرُونُ إِنَّهُۥ لَذُو حَظٍّ عَظِيمٍ ۝ وَقَالَ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْعِلْمَ وَيْلَكُمْ ثَوَابُ ٱللَّهِ خَيْرٌ لِّمَنْ ءَامَنَ وَعَمِلَ صَٰلِحًا وَلَا يُلَقَّىٰهَآ إِلَّا ٱلصَّٰبِرُونَ ۝ فَخَسَفْنَا بِهِۦ وَبِدَارِهِ ٱلْأَرْضَ فَمَا كَانَ لَهُۥ مِن فِئَةٍ يَنصُرُونَهُۥ مِن دُونِ ٱللَّهِ وَمَا كَانَ مِنَ ٱلْمُنتَصِرِينَ ﴾ [القصص : ٧٩- ٨١] .

وقوله : « يتجلجل في الأرض » يحتمل أنه يتجلجل وهو حي حياةً دنيوية ، فيبقى هكذا معذبًا إلى يوم القيامة ، معذبًا وهو في جوف الأرض وهو حي ، فيتعذب كما يتعذب الأحياء ، ويحتمل أنه لما

---

(١) أخرجه مسلم في البر والصلة (١٣٦) بلفظه « العز إزاره والكبرياء رداؤه » قال النووي في شرح صحيح مسلم (١٧٣/١٦) : (وفيه محذوف تقديره : قال الله تعالى : « ومن ينازعني ... » ، وأخرجه الإمام أحمد في مسنده (٢٤٨/٢) ، وأبو داود في سننه (٤٠٩٠) ، وابن ماجه في سننه (٤١٧٤) الثلاثة بلفظ « الكبرياء ردائي والعزة إزاري » ، وفي مسند أحمد « ألقيه في النار » ، وفي سنن أبي داود « قذفته » ، وفي سنن ابن ماجه « ألقيته » .

(٢) التيه : التكبر .

اندفن مات ، كما هي سنة الله ﷻ ، مات ولكن مع ذلك يتجلجل في الأرض وهو ميت ، فيكون تجلجله هذا تجلجلًا برزخيًا (١) لا تُعلم كيفيته ، والله أعلم . المهم أن هذا جزاؤه والعياذ بالله .

وفي هذا وما قبله وما يأتي بعده : دليل على تحريم الكبر وتحريم الإعجاب ، وأن الإنسان يجب أن يعرف قدر نفسه وينزلها منزلتها .

* * *

٦٢٠ - وعن سَلَمةَ بن الأكْوعِ ﷺ قال : قال رسول الله ﷺ : « لا يَزَالُ الرَّجُلُ يَذْهَبُ بِنَفْسِهِ حَتَّى يُكْتَبَ في الجَبَّارِينَ ، فَيُصِيبَهُ مَا أَصَابَهُمْ » (٢) رواهُ الترمذي وقالَ : حديث حسن .

« يَذْهَبُ بِنفسِهِ » أي يَرْتَفِعُ وَيَتَكَبَّرُ .



الشرح

في هذا الحديث الأخير في هذا الباب أن النبي ﷺ حذر الإنسان من أن يعجب بنفسه ، فلا يزال في نفسه يترفع ويتعاظم حتى يكتب من الجبارين ، فيصيبه ما أصابهم .

والجبارون - والعياذ بالله - لو لم يكن من عقوبتهم إلا قول الله تبارك وتعالى : ﴿ كَذَٰلِكَ يَطْبَعُ ٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ قَلْبِ مُتَكَبِّرٍ جَبَّارٍ ﴾ [غافر : ٣٥] لكان عظيمًا . فالجبار - والعياذ بالله - يُطبع على قلبه ، حتى لا يصل إليه الخير ، ولا ينتهي عن الشر .

وخلاصة هذا الباب أنه يدور على شيئين :

الأول : تحريم الكبر وأنه من كبائر الذنوب .

والثاني : تحريم الإعجاب ، إعجاب الإنسان بنفسه ، فإنه أيضًا من المحرمات ، وربما يكون سببًا لحبوط العمل إذا أعجب الإنسان بعبادته ، أو قراءته القرآن ، أو غير ذلك ، ربما يحبط أجره وهو لا يعلم .

* * *

٧٣ - بابُ حسْن الخلُق

قال الله تعالى : ﴿ وَإِنَّكَ لَعَلَىٰ خُلُقٍ عَظِيمٍ ﴾ [القلم : ٤] وقال تعالى : ﴿ وَٱلْكَٰظِمِينَ ٱلْغَيْظَ وَٱلْعَافِينَ عَنِ ٱلنَّاسِ ﴾ [آل عمران : ١٣٤] .

٦٢١ - وعن أنسٍ ﷺ قالَ : كانَ رسُولُ اللهِ ﷺ أَحْسَنَ النَّاسِ خُلُقًا (٣) . متفقٌ عليه .

---

(١) برزخيًا : البرزخ : ما بين الموت والبعث ، فمن مات فقد دخل البرزخ .

(٢) أخرجه الترمذي في البر والصلة (٢٠٠٠) .

(٣) أخرجه البخاري في الأدب (٦٠٣٣) ، ومسلم في الآداب (٣٠) .

الشرح

قال الحافظ النووي رحمه الله باب حسن الخلق ، يعني باب الحس عليه ، وفضيلته ، وبيان من اتصف به من عباد الله ، وحسن الخلق يكون مع الله ويكون مع عباد الله .

أما حسن الخلق مع الله : فهو الرضا بحكمه شرعًا وقدرًا ، وتلقي ذلك بالانشراح وعدم التضجر ، وعدم الأسى والحزن ، فإذا قدر الله على المسلم شيئًا يكرهه رضي بذلك واستسلم وصبر ، وقال بلسانه وقلبه رضي بالله ربًّا ، وإذا حكم الله عليه بحكم شرعي رضي واستسلم ، وانقاد لشريعة الله عز وجل بصدر منشرح ونفس مطمئنة ، فهذا حسن الخلق مع الله عز وجل .

أما مع الخَلق : فبحسن الخُلق معهم بما قاله بعض العلماء ؛ كف الأذى ، وبذل الندى ، وطلاقه الوجه .

كف الأذى : بألا يؤذي الناس لا بلسانه ولا بجوارحه .

وبذل الندى : يعني العطاء ، فيبذل العطاء من مال وعلم وجاه وغير ذلك .

وطلاقة الوجه : بأن يلاقي الناس بوجه منطلق ، ليس بعبوس ولا مصعرٍ خده ، وهذا هو حسن الخلق .

ولا شك أن الذي يفعل هذا ؛ فيكف الأذى ، ويبذل الندى ، ويجعل وجهه منطلقًا ؛ لاشك أنه سيصبر على أذى الناس أيضًا ، فإن الصبر على أذى الناس لاشك أنه من حسن الخلق ؛ فإن من الناس من يؤذي أخاه ، وربما يعتدي عليه بما يضره ؛ بأكل ماله ، أو جحد حق له ، أو ما أشبه ذلك ، فيصبر ويحتسب الأجر من الله تعالى ، والعاقبة للمتقين ، وهذا كله من حسن الخلق مع الناس .

ثم صدَّر المؤلف رحمه الله هذا الباب بقوله تعالى مخاطبًا نبيه صلى الله عليه وسلم : ﴿ وَإِنَّكَ لَعَلَىٰ خُلُقٍ عَظِيمٍ ﴾ [القلم : ٤] وهذا معطوف على جواب القسم ﴿ نٓ ۚ وَٱلْقَلَمِ وَمَا يَسْطُرُونَ ۝ مَآ أَنتَ بِنِعْمَةِ رَبِّكَ بِمَجْنُونٍ ۝ وَإِنَّ لَكَ لَأَجْرًا غَيْرَ مَمْنُونٍ ۝ وَإِنَّكَ لَعَلَىٰ خُلُقٍ عَظِيمٍ ﴾ [القلم : ١- ٤] .

﴿ وَإِنَّكَ ﴾ : يعني يا محمد ﴿ لَعَلَىٰ خُلُقٍ عَظِيمٍ ﴾ لم يتخلق أحد بِمِثْلِه ، في كل شيء ؛ خلق مع الله ، خلق مع عباد الله ، في الشجاعة والكرم وحسن المعاملة ، وفي كل شيء ، وكان – عليه الصلاة والسلام – خلقه القرآن يتأدب بآدابه ؛ يمتثل أوامره ويجتنبُ نواهيه .

ثم ساق المؤلف جزءًا من آية آل عمران في قوله : ﴿ وَٱلْكَٰظِمِينَ ٱلْغَيْظَ وَٱلْعَافِينَ عَنِ ٱلنَّاسِ ﴾ [آل عمران : ١٣٤] وهذه صفات المتقين الذين أعد الله لهم الجنة ، كما قال تعالى : ﴿ وَسَارِعُوٓا۟ إِلَىٰ مَغْفِرَةٍ مِّن رَّبِّكُمْ وَجَنَّةٍ عَرْضُهَا ٱلسَّمَٰوَٰتُ وَٱلْأَرْضُ أُعِدَّتْ لِلْمُتَّقِينَ ۝ ٱلَّذِينَ يُنفِقُونَ فِى ٱلسَّرَّآءِ وَٱلضَّرَّآءِ وَٱلْكَٰظِمِينَ ٱلْغَيْظَ وَٱلْعَافِينَ عَنِ ٱلنَّاسِ ۗ وَٱللَّهُ يُحِبُّ ٱلْمُحْسِنِينَ ﴾ [آل عمران : ١٣٣، ١٣٤] .

﴿ وَٱلْكَٰظِمِينَ ٱلْغَيْظَ ﴾ يعني الذين يكتمون غضبهم ، فإذا غضب ؛ ملك نفسه ، وكظم غيظه ، ولم يتعد على أحدٍ بموجب هذا الغضب .

﴿ وَٱلْعَافِينَ عَنِ ٱلنَّاسِ ﴾ إذا أساءوا إليهم ، ﴿ وَٱللَّهُ يُحِبُّ ٱلْمُحْسِنِينَ ﴾ فإن من الإحسان أن تعفو عمن ظلمك ، ولكن العفو له محل ؛ إن كان المعتدي أهلًا للعفو فالعفو محمود ، وإن لم يكن أهلًا للعفو فإن العفو ليس بمحمود ؛ لأن اللَّه تعالى قال في كتابه : ﴿ فَمَنْ عَفَا وَأَصْلَحَ فَأَجْرُهُۥ عَلَى ٱللَّهِ ﴾ [الشورى : ٤٠] .

فلو أن رجلًا اعتدى عليك بضربك ، أو أخذ مالك ، أو إهانتك ، أو ما أشبه ذلك ، فهل الأفضل أن تعفو عنه أم لا ؟

نقول : في هذا تفصيل : إن كان الرجل شريرًا ، سيئًا ، إذا عفوت عنه ازداد في الاعتداء عليك وعلى غيرك ، فلا تعف عنه ، خذ حقك منه بيدك ، إلا أن تكون تحت ولاية شرعية فترفع الأمر إلى من له الولاية الشرعية ، وإلا فتأخذه بيدك ما لم يترتب على ذلك ضرر أكبر .

والمهم أنه إذا كان الرجل المعتدي سيئًا شريرًا فهذا ليس أهلًا للعفو فلا يُعف عنه ، بل الأفضل أن تأخذ بحقك ؛ لأن اللَّه يقول : ﴿ فَمَنْ عَفَا وَأَصْلَحَ ﴾ ، والعفو في مثل هذه الحال ليس بإصلاح .

أما إذا كان الرجل حسن الخلق ، لكن بدرت منه هذه الإساءة ، فالأفضل العفو عنه ﴿ فَمَنْ عَفَا وَأَصْلَحَ فَأَجْرُهُۥ عَلَى ٱللَّهِ ﴾ .

والنفس ربما تأمرك أن تأخذ بحقك ، ولكن كما قلت إذا كان الإنسان أهلًا للعفو ؛ فالأفضل أن تعفو عنه وإلا فلا .

* * *

٦٢٢ - وعنه قال : مَا مَسِسْتُ دِيباجًا [١] وَلا حَرِيرًا أَلْيَنَ مِنْ كَفِّ رسول اللَّه ﷺ ، وَلَا شَمَمْتُ رائحةً قَطُّ أَطْيبَ مِنْ رَائحةِ رسول اللَّه ﷺ ، وَلَقَدْ خَدَمْتُ رسول اللَّه ﷺ عَشْرَ سِنينَ ، فمَا قالَ لي قَطُّ : أُفٍّ ، وَلا قالَ لِشَيءٍ فَعَلْتُهُ : لِمَ فَعَلْتَهُ ؟ ولا لِشَيءٍ لَمْ أَفْعَلْهُ : أَلا فَعَلْتَ كذَا ؟ [٢] متفقٌ عليه .

٦٢٣ - وعن الصَّعب بن جَثَّامَةَ ﷺ قال : أَهْدَيتُ رسُولَ اللَّهِ ﷺ حِمارًا وَحْشِيًّا ، فرَدَّهُ عَلي ، فلمَّا رأى مَا في وَجْهي قالَ : « إنَّا لَمْ نَرُدَّهُ عَلَيكَ إلا أَنَّا حرُمٌ » [٣] . متفقٌ عليه .

الشرح

ذكر المؤلف - الحافظ النووي - رَحِمَهُ اللَّهُ في باب حسن الخلق ما نقله عن أنس بن مالك ﷺ قال : ما مسست حريرًا ولا ديباجًا ألين من يدي رسول اللَّه ﷺ .

وكان أنس بن مالك ﷺ قد خدم النبي ﷺ عشر سنين ؛ جاءت به أمه حين قدم النبي ﷺ المدينة ، فقالت : يا رسول اللَّه ، هذا أنس بن مالك يخدمك ، فقبل ﷺ أن يخدمه ، ودعا له أن يبارك اللَّه

---

(١) الديباج : ثوب سداه ولحمته إبريسم وهو الحرير . وقيل : هو معرب .
(٢) أخرجه البخاري في المناقب (٣٥٦١) ، ومسلم في الفضائل (٨١ ، ٨٢) .
(٣) أخرجه البخاري في الهبة (٢٥٧٣) ، ومسلم في الحج (٥٠) واللفظ له .

له في ماله وولده ، فبارك اللَّه له في ماله وولده [١] ، حتى قيل إنه كان له بستان يثمر في السنة مرتين ، من بركة المال الذي دعا له رسول اللَّه ﷺ به ، أما أولاده من صلبه فبلغوا مائة وعشرين ولدًا ، كل هذا ببركة دعوة النبي ﷺ .

يقول إنه ما مس ديباجًا ولا حريرًا ألين من يد رسول اللَّه ﷺ ، فكانت يده ﷺ لينة إذا مسها الإنسان فإذا هي لينة .

وكما ألان اللَّه يده فقد آلان اللَّه ﷻ قلبه ، قال اللَّه تعالى : ﴿ فَبِمَا رَحْمَةٍ مِّنَ ٱللَّهِ لِنتَ لَهُمْ ﴾ يعني صرت لينًا لهم ﴿ وَلَوْ كُنتَ فَظًّا غَلِيظَ ٱلْقَلْبِ لَٱنفَضُّوا۟ مِنْ حَوْلِكَ ۖ فَٱعْفُ عَنْهُمْ وَٱسْتَغْفِرْ لَهُمْ وَشَاوِرْهُمْ فِى ٱلْأَمْرِ ۖ فَإِذَا عَزَمْتَ فَتَوَكَّلْ عَلَى ٱللَّهِ ۚ ﴾ [آل عمران : ١٥٩] .

وكذلك أيضًا رائحته ﷺ ، ما شم طيبًا قط أحسن من رائحة النبي ﷺ ، وكان - عليه الصلاة والسلام - طيب الريح كثير استعمال الطيب ، قال : « حبب إليَّ من دنياكم النساء والطيب ، وجعلت قرة عيني في الصلاة » [٢] هو نفسه طيب ﷺ ، حتى كان الناس يتبادرون إلى أخذ عرقه ﷺ من حسنه وطيبه ، ويتبركون بعرقه ؛ لأن من خصائص الرسول ﷺ أننا نتبرك بعرقه وبريقه وبثيابه [٣] ، أما غير الرسول فلا يتبرك بعرقه ولا بثيابه ولا بريقه .

يقول : ولقد خدمت النبي ﷺ عشر سنين ، فما قال لي أفٍّ قط ، يعني ما تضجر منه أبدًا ، عشر سنوات يخدمه ما تضجر منه ، والواحد منا إذا خدمه أحد أو صاحبه أحد لمدة أسبوع أو نحوه لابد أن يجد منه تضجرًا ، لكن الرسول ﷺ عشر سنوات وهذا الرجل يخدمه ، ومع ذلك ما قال له أفٍّ قط .

ولا قال لشيءٍ فعلته لما فعلت كذا ؟ حتى الأشياء التي يفعلها أنس اجتهادًا منه ما كان الرسول ﷺ يؤنبه أو يوبخه أو يقول لما فعلت كذا ، مع أنه خادم ، وكذلك ما قال لشيء لم أفعله لِمَ لَمْ تفعل كذا وكذا ؟ فكان - عليه الصلاة والسلام - يعامله بما أرشده اللَّه ﷻ إليه في قوله : ﴿ خُذِ ٱلْعَفْوَ وَأْمُرْ بِٱلْعُرْفِ وَأَعْرِضْ عَنِ ٱلْجَـٰهِلِينَ ﴾ [الأعراف : ١٩٩] .

أتدرون ما العفو ؟ ما عفا من أخلاق الناس وما تيسر ، يعني خذ من الناس ما تيسر ، ولا تريد أن يكون الناس لك على ما تريد في كل شيء ، من أراد أن يكون الناس له على ما يريد في كل شيء فاته كل شيء ، ولكن خذ ما تيسر ، عامل الناس بما إن جاءك قبلت وإن فاتك لم تغضب ، ولهذا قال : ما قال لشيء لم أفعله لِمَ لَمْ تفعل كذا وكذا ، وهذا من حسن خلقه - عليه الصلاة والسلام - .

ومن حسن خلقه ﷺ : أنه كان لا يداهن الناس في دين اللَّه ، ولا يفوته أن يطيب قلوبهم ،

---

(١) انظر صحيح البخاري في الدعوات (٦٣٣٤) ومسلم في فضائل الصحابة (١٤١ - ١٤٣) .

(٢) أخرجه النسائي في سننه (٣٩٣٩) ومسند أحمد (١٢٨/٣) .

(٣) انظر في بركة العرق : صحيح البخاري في الاستئذان (٦٢٨١) ومسلم في الفضائل (٨٣ ، ٨٥) ومسند أحمد (١٣٦/٣) وفي بركة الريق : البخاري في مناقب الأنصار (٣٩٦٠) ومسند أحمد (١٨١/٣) وفي بركة الثياب : صحيح البخاري في الأدب (٦٠٣٦) .

فالصعب بن جثامة ﷺ مرَّ به النبي ﷺ ، والنبي ﷺ محرم ، وكان الصعب بن جثامة عدَّاءً راميًا ، عداءً : يعني سَبوقًا ، راميًا : يعني يجيد الرمي .

فلما نزل به النبي ﷺ ضيفًا رأى أنه لا أحد أكرم ضيفًا منه ، فذهب يصيد للرسول ﷺ صيدًا ، فصاد له حمارًا وحشيًا وكان في الجزيرة العربية في ذلك الوقت كثير من الصيد ، لكنها قلَّت . صاد له حمارًا وحشيًا وجاء به إليه فرده النبي ﷺ فصعب ذلك على الصعب ؛ كيف يرد النبي ﷺ هديته؟ فتغير وجهه ، فلما رأى ما في وجهه طيب قلبه وقال : « إنا لم نرده عليك إلا أنا حُرم » يعني محرمون ، والمحرم لا يأكل من الصيد الذي صيد من أجله .

فلو أن محرمًا مر بك وأنت في بلدك وهو محرم وصدت له صيدًا أو ذبحت له صيدًا عندك ؛ فإنه لا يحل له أن يأكل منه ؛ وذلك لأنه ممنوع من أكل ما صيد من أجله ، أما إذا لم تصده من أجله ؛ فالصحيح أنه حلال له .

ولهذا أكل النبي ﷺ من الصيد الذي صاده أبو قتادة ﷺ [1] ؛ لأن أبا قتادة لم يصده من أجل الرسول ﷺ ، وهذا أحسن ما قيل في هذه المسألة ، أنه إذا صيد الصيد من أجل المحرم كان حرامًا عليه ، وإن صاده الإنسان لنفسه وأطعم منه المحرم فلا بأس .

على أن بعض العلماء قال [2] : إن المحرم لا يأكل من الصيد مطلقًا ؛ صِيدَ من أجله أم لم يصد ، قالوا : لأن حديث الصعب بن جثامة متأخر عن حديث أبي قتادة ، فإن حديث أبي قتادة كان في غزوة الحديبية في السنة السادسة ، وحديث الصعب بن جثامة في حجة الوداع في السنة العاشرة ، ويؤخذ بالآخر فالآخر .

ولكن القاعدة الأصولية الحديثية تأبى هذا القول ؛ لأنه لا يصار إلى النسخ إلا إذا تعذر الجمع ، فإذا أمكن فلا نسخ ، والجمع هنا ممكن ، وهو أن يقال : إن صِيدَ لأجل المُحرم فحرام ، وإن صاده الإنسان لنفسه وأطعم منه المحرم فلا بأس .

ويؤيد هذا حديث جابر بن عبد اللَّه ﷺ أن النبي ﷺ قال : « صيد البر حلالٌ لكم ما لم تصيدوه أو يصد لكم » [3] ، وهذا تفصيل واضح ؛ « ما لم تصيدوه أو يصد لكم » .

الحاصل : أن هذا الحديث ؛ حديث الصعب بن جثامة ﷺ فيه فائدتان عظيمتان :

الأولى : أن النبي ﷺ لا يداهن أحدًا في دين اللَّه ، وإلا لكان قبل الهدية من الصعب ، وسكت إرضاءً له ومداهنة له ، لكنه - عليه الصلاة والسلام - لا يمكن أن يفعل هذا .

الثانية : أنه ينبغي للإنسان أن يجبر خاطر أخيه إذا فعل معه ما لا يحب ، ويبين السبب ؛ لأجل أن تطيب نفسه ، ويطمئن قلبه ؛ فإن هذا من هدي النبي ﷺ .

---

(١) انظر الحديث في البخاري (١٨٢٤) ومسلم في الحج (٦٠) .

(٢) هذا هو رأي الإمام مالك انظر : بداية المجتهد (٨١١/٢) ، وأسهل المدارك (٤٨٨/١) .

(٣) أخرجه أبو داود في سننه (١٨٥١) والترمذي في سننه (٨٤٦) .

٦٢٤ – وعنِ النّواسِ بنِ سمعانَ ﷺ قال : سألتُ رسُولَ اللّهِ ﷺ عن البرِّ والإثمِ ، فقالَ : « البِرُّ حُسْن الخُلُقِ ، والإثْمُ مَا حَاكَ في نَفْسِكَ ، وكَرِهْتَ أنْ يَطَّلِعَ عَلَيهِ النَّاسُ » (١) رواه مسلم .

٦٢٥ – وعن عبد اللّه بن عمرو بن العاص ﷺ قال : لم يكن رسول اللّه ﷺ فَاحِشًا ، ولا مُتَفَحِّشًا . وكان يَقُولُ : « إنَّ مِن خيارِكُم أَحْسَنَكُم أَخْلاقًا » (٢) متفقٌ عليه .

٦٢٦ – وعن أبي الدرداءِ ﷺ أن النبيَّ ﷺ قالَ : « ما من شَيءٍ أَثْقَلُ في ميزَانِ المُؤْمِنِ يَومَ القِيَامَةِ من حُسْنِ الخُلُقِ ، وإنَّ اللّهَ يُبْغِضُ الفَاحِشَ البَذِيَّ » (٣) رواه الترمذي وقال : حديث حسن صحيح .

« البَذِيُّ » : هو الَّذي يَتَكَلَّم بالفُحشِ ، ورديءِ الكلامِ .

الشرح

هذه الأحاديث ساقها النووي ﷺ في باب حسن الخلق وقد سبق شيء من هذه الأحاديث .

أما حديث النواس بن سمعان ﷺ : أن النبي ﷺ قال : « البر حسن الخلق » ، وقد تقدم شرح هذه الجملة ، وبينا أن حسن الخلق يحصل فيه الخير الكثير ؛ لأن البر هو الخير الكثير .

وأما الإثم : فقال هو : « ما حاك في نفسك ، وكرهت أن يطلع عليه الناس » يعني بما حاك في النفس : ما لم تطمئن إليه نفسك ، بل ترددت فيه ، وكرهت أن يطلع عليه الناس .

ولكن هذا خطاب للمؤمن ، أما الفاسق : فإن الإثم لا يحيك في صدره ، ولا يهمه أن يطلع عليه الناس ، بل يجاهر به ولا يبالي ، لكن المؤمن لكون اللّه ﷻ قد أعطاه نورًا في قلبه ، إذا هم بالإثم حاك في صدره ، وتردد فيه ، وكره أن يطلع عليه الناس ، فهذا الميزان إنما هو في حق المؤمنين .

أما الفاسقون : فإنهم لا يهمهم أن يطلع الناس على آثامهم ، ولا تحيك الآثام في صدروهم ؛ بل يفعلونها والعياذ باللّه بانطلاق وانشراح ؛ لأن اللّه ﷻ يقول : ﴿ أَفَمَن زُيِّنَ لَهُۥ سُوٓءُ عَمَلِهِۦ فَرَءَاهُ حَسَنًاۖ فَإِنَّ ٱللَّهَ يُضِلُّ مَن يَشَآءُ وَيَهۡدِي مَن يَشَآءُۖ ﴾ [فاطر : ٨] .

فقد يزين للإنسان سوء العمل فينشرح له صدره ، مثل ما نرى من أهل الفسق الذين يشربون الخمر ، وتنشرح صدورهم له ، والذين يتعاملون بالربا وتنشرح صدورهم لذلك ، والذين يتعودون العهر والزنا وتنشرح صدورهم لذلك ، ولا يبالون بهذا ، بل ربما إذا فعلوا ذلك سرًا ذهبوا يشيعونه ويعلنونه ، مثل ما يوجد من بعض الفساق إذا ذهبوا إلى البلاد الخارجية الماجنة الفاجرة ورجعوا ، قاموا يتحدثون فعلت كذا وفعلت كذا ، يعني أنهم زنوا – والعياذ باللّه – وشربوا الخمر وما أشبه ذلك .

---

(١) أخرجه مسلم في البر والصلة (١٥) ، والترمذي في الزهد (٢٣٨٩) ، والإمام أحمد في مسنده (١٨٢/٤) .

(٢) أخرجه البخاري في المناقب (٣٥٥٩) ، ومسلم في الفضائل (٦٨) .

(٣) أخرجه أبو داود في الأدب (٤٧٩٩) ، والترمذي في البر والصلة (٢٠٠٢) .

وفي هذه الأحاديث بيان صفة الرسول ﷺ وأنه لم يكن فاحشًا ولا متفحشًا ، يعني أنه ﷺ بعيد عن الفحش طبعًا وكسبًا ، فلم يكن فاحشًا في نفسه ولا في غريزته بل هو لين سهل ، ولم يكن متفحشًا أي متطبع بالفحشاء ، بل كان ﷺ أبعد الناس عن الفحش في مقاله وفي فعاله ﷺ .

وفيه أيضًا الحث على حسن الخلق ، وأنه من أثقل ما يكون في الميزان يوم القيامة ، وهذا من باب الترغيب فيه ، فعليك يا أخي المسلم أن تحسن خلقك مع الله ﷻ ؛ في تلقي أحكامه الكونية والشرعية ، بصدرٍ منشرح منقاد راضٍ مستسلم ، وكذلك مع عباد الله فإن الله تعالى يحب المحسنين .

* * *

٦٢٧ - وعن أبي هُريرة ﷺ قال : سُئِلَ رسول الله ﷺ عَن أَكثر مَا يُدْخِلُ النَّاسَ الجَنَّةَ ؟ قال : « تَقْوَى اللَّهِ ، وَحُسنُ الخُلُقِ » وَسُئِلَ عَن أَكثرِ مَا يُدْخِلُ النَّاسَ النَّارَ ، فَقَالَ : « الفَمُ ، والفَرْجُ » (١) . رواه الترمذي وقال : حديث حسن صحيح .

٦٢٨ - وعنه قال : قال رسول الله ﷺ : « أَكْمَلُ المُؤْمِنِينَ إِيمَانًا أَحسَنُهُم خُلُقًا ، وَخِيَارُكُم خِيَارُكُمْ لِنِسَائِهِمْ » (٢) . رواه الترمذي وقال : حديث حسن صحيح .

الشرح

هذه الأحاديث في بيان فضل حسن الخلق ، ومنها : عن أبي هريرة ﷺ أن النبي ﷺ سئل : ما أكثر ما يدخل الناس الجنة ؟ يعني ما هو الشيء الذي يكون سببًا لدخول الجنة كثيرًا ؟ فقال : « تقوى الله ، وحسن الخلق » .

تقوى الله تعالى ، وهذه كلمة جامعة لفعل ما أمر الله به وترك ما نهى الله عنه ، فأن تفعل ما أمرك الله به وأن تدع ما نهاك عنه ، هذه هي التقوى ؛ لأن التقوى مأخوذة من الوقاية ، وهي أن يتخذ الإنسان ما يقيه من عذاب الله ، ولا شيء يقي من عذاب الله إلا فعل الأوامر واجتناب النواهي .

وأكثر ما يدخل الناس النار الفم ، والفرج .

الفم : يعني بذلك قول اللسان ؛ فإن الإنسان قد يقول كلمة لا يُلقي لها بالًا يهوي بها في النار سبعين خريفًا (٣) ، والعياذ بالله أي سبعين سنة ، ولهذا قال النبي ﷺ لمعاذ بن جبل : « أفلا أخبرك بملاك ذلك كله ؟ » قلت : بلى يا رسول الله ، فأخذ بلسان نفسه وقال : « كف عليك هذا » . قلت : يا رسول الله ، وإنا لمؤاخذون بما نتكلم به ؟ يعني هل نؤاخذ بالكلام ؟ قال : « ثكلتك أمك يا معاذ ، وهل يكب الناس في النار على وجوههم - أو قال : على مناخرهم - إلا حصائد ألسنتهم » (٤) .

ولما كان عمل اللسان سهلًا صار إطلاقه سهلًا ؛ لأن الكلام لا يتعب به الإنسان ، ليس كعمل اليد ، وعمل

---

(١) أخرجه الترمذي في البر والصلة (٢٠٠٤) .

(٢) أخرجه الترمذي في الرضاع (١١٦٢) والإمام أحمد في مسنده (٢/٢٥٠ ، ٤٧٢) .

(٣) انظر الحديث في البخاري في الرقاق (٦٤٧٨) ومسلم في الزهد (٥٠) .

(٤) أخرجه الترمذي في سننه (٢٦١٦) وابن ماجه في سننه (٣٩٧٣) .

الرجل ، وعمل العين ، يتعب فيه الإنسان . فعمل اللسان لا يتعب فيه الإنسان ، فتجده يتكلم كثيرًا بأشياء تضره ؛ كالغيبة والنميمة ، واللعن ، والسب ، والشتم ، وهو لا يشعر بذلك ، فيكتسب بهذا آثامًا كثيرة .

أما الفرج : فالمراد به الزنا ، وأخبث منه اللواط ، فإن ذلك أيضًا تدعو النفس إليه كثيرًا - ولا سيما من الشباب - فتهوي بالإنسان وتدرِّجه حتى يقع في الفاحشة وهو لا يعلم .

ولهذا سد النبي ﷺ كل باب يكون سببًا لهذه الفاحشة ، فمنع من خلو الرجل بالمرأة [١] ، ومنع المرأة من كشف وجهها أمام الرجال الأجانب [٢] ، ونهى المرأة أن تخضع بالقول فيطمع الذي في قلبه مرض [٣] ، إلى غير ذلك من السياج المنيع الذي جعله النبي ﷺ حائلًا دون فعل هذه الفاحشة ؛ لأن هذه الفاحشة تدعو إليها النفس ، فهذا أكثر ما يدخل الناس النار : أعمال اللسان ، وأعمال الفرج ، نسأل الله الحماية .

ثم ذكر أيضًا من فضائل حسن الخلق أن أحسن الناس أخلاقًا هم أكمل الناس إيمانًا ، قال النبي ﷺ : « أكمل المؤمنين إيمانًا أحسنهم خلقًا » وفي هذا دليل على أن الإيمان يتفاوت ، وأن الناس يختلفون فيه ، فبعضهم في الإيمان أكمل من بعض بناء على الأعمال ، وكلما كان الإنسان أحسن خلقًا كان أكمل إيمانًا ، وهذا حث واضح على أن الإنسان ينبغي له أن يكون حسن الخلق بقدر ما يستطيع .

قال : « وخياركم خياركم لنسائهم » المراد خيركم خيركم لأهله كما جاء ذلك في السنن أن النبي ﷺ قال : « خيركم خيركم لأهله ، وأنا خيركم لأهلي » [٤] فينبغي للإنسان أن يكون مع أهله خير صاحب ، وخير محب ، وخير مربي ؛ لأن الأهل أحق بحسن خلقك من غيرهم . فابدأ بالأقرب فالأقرب .

على العكس من ذلك حال بعض الناس اليوم وقبل اليوم ؛ تجده مع الناس حسن الخلق ، لكن مع أهله سيئ الخلق والعياذ بالله ، وهذا خلاف هدي النبي ﷺ ، والصواب أن تكون مع أهلك حسن الخلق ومع غيرهم أيضًا ، لكن هم أولى بحسن الخلق من غيرهم .

ولهذا لما سئلت عائشة : ماذا كان النبي ﷺ يصنع في بيته ؟ قالت : كان في مهنة أهله [٥] . أي يساعدهم على مهمات البيت ، حتى إنه ﷺ كان يحلب الشاة لأهله ، ويخصف نعله ، ويرقع ثوبه [٦] ، وهكذا ينبغي للإنسان مع أهله أن يكون من خير الأصحاب لهم .

---

(١) انظر البخاري في النكاح (٥٢٣٣) ، والجهاد والسير (٣٠٠٦) ومسلم في الحج (٤٢٤) ومسند أحمد (١/ ١٨) .

(٢) كما قال تعالى : ﴿ وَقُل لِّلْمُؤْمِنَاتِ يَغْضُضْنَ مِنْ أَبْصَارِهِنَّ وَيَحْفَظْنَ فُرُوجَهُنَّ وَلَا يُبْدِينَ زِينَتَهُنَّ إِلَّا مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَلْيَضْرِبْنَ بِخُمُرِهِنَّ عَلَىٰ جُيُوبِهِنَّ وَلَا يُبْدِينَ زِينَتَهُنَّ إِلَّا لِبُعُولَتِهِنَّ أَوْ آبَائِهِنَّ أَوْ آبَاءِ بُعُولَتِهِنَّ أَوْ أَبْنَائِهِنَّ أَوْ أَبْنَاءِ بُعُولَتِهِنَّ أَوْ إِخْوَانِهِنَّ أَوْ بَنِي إِخْوَانِهِنَّ أَوْ بَنِي أَخَوَاتِهِنَّ أَوْ نِسَائِهِنَّ أَوْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُهُنَّ أَوِ التَّابِعِينَ غَيْرِ أُولِي الْإِرْبَةِ مِنَ الرِّجَالِ أَوِ الطِّفْلِ الَّذِينَ لَمْ يَظْهَرُوا عَلَىٰ عَوْرَاتِ النِّسَاءِ وَلَا يَضْرِبْنَ بِأَرْجُلِهِنَّ لِيُعْلَمَ مَا يُخْفِينَ مِن زِينَتِهِنَّ وَتُوبُوا إِلَى اللَّهِ جَمِيعًا أَيُّهَ الْمُؤْمِنُونَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ﴾ [النور : ٣١] .

(٣) كما قال تعالى : ﴿ فَلَا تَخْضَعْنَ بِالْقَوْلِ فَيَطْمَعَ الَّذِي فِي قَلْبِهِ مَرَضٌ ﴾ [الأحزاب : ٣٢] .

(٤) أخرجه الترمذي في سننه (٣٨٩٥) وابن ماجه في سننه (١٩٧٧) .

(٥) أخرجه البخاري في الأدب (٦٠٣٩) والترمذي في سننه (٢٤٨٩) والإمام أحمد في مسنده (٦/ ٤٩) .

(٦) انظر البخاري في الأذان (٦٧٦) والترمذي في القيامة (٢٤٨٩) وأحمد في مسنده (٦/ ٤٩) .

٦٢٩ - وعن عائشة رضي الله عنها قالت : سمعتُ رسول اللَّه ﷺ يقول : « إنَّ المُؤْمِنَ لَيُدْرِكُ بِحُسْنِ خُلُقِهِ دَرَجَةَ الصَّائِمِ القَائِمِ »(١) رواه أبو داود .

٦٣٠ - وعن أبي أُمَامَةَ الباهِلي ﷺ قال : قال رسول اللَّه ﷺ : « أَنَا زَعِيمٌ ببيتٍ في ربَضِ الجنَّةِ لمنْ تَرَكَ المِرَاءَ ، وَإن كان مُحِقًّا ، وَببيتٍ في وَسَطِ الجنةِ لمن تَرَكَ الكذِبَ ، وَإن كَانَ مازحًا ، وببيتٍ في أعلى الجَنَّةِ لمن حَسُنَ خُلُقُهُ »(٢) حديث صحيح ، رواه أبو داود بإسناد صحيح .

« الزَّعِيمُ » : الضَّامِنُ .

٦٣١ - وعن جابر ﷺ أن رسول اللَّه ﷺ قال : « إنَّ مِنْ أَحَبِّكُم إليَّ ، وَأَقرَبكُم مِنِّي مَجلسًا يَومَ القِيامَةِ ، أَحَاسِنَكُم أخلاقًا . وإنَّ أبغَضَكُم إليَّ ، وَأَبْعَدَكُم مِنِّي يَومَ القِيامَةِ ، الثَّرْثَارُونَ ، وَالمُتَشَدِّقُونَ ، وَالمُتَفَيهِقُونَ » قالوا : يا رسول اللَّه قَدْ عَلِمْنَا الثَّرْثَارُونَ وَالمُتَشَدِّقُونَ فَمَا المُتَفَيهِقُونَ ؟ قال : « المُتَكَبِّرُونَ »(٣) رواه الترمذي وقال : حديث حسن .

« الثَّرْثَارُ » : هُوَ كثيرُ الكَلامِ تكلُّفًا . « وَالمُتَشَدِّقُ » المُتَطاوِلُ عَلى النَّاسِ بِكَلامِهِ ، ويَتَكَلَّمُ بِمَلءِ فيه تَفَاصُحًا وتَعْظِيمًا لِكَلامِهِ ، « وَالمُتَفَيهِقُ » : أَصلُهُ مِنَ الفَهْقِ ، وَهُوَ الامْتِلاءُ ، وَهُوَ الَّذي يَمْلأُ فَمَهُ بِالْكَلامِ ، وَيَتَوسَّعُ فيه ، وَيُغْرِبُ بِهِ تَكَبُّرًا وَارتِفَاعًا ، وَإظْهَارًا للفضيلَةِ عَلى غَيرِهِ .

وروى التِّرمذيُّ عن عبد اللَّه بن المباركِ رحمه الله في تَفْسِيرِ حُسْنِ الخُلُقِ قال : هُوَ طَلاقَةُ الوَجه ، وَبَذْلُ المَعرُوف ، وكَفُّ الأَذَى(٤) .

الشرح

هنا ذكر المؤلف رحمه الله أحاديث متعددة في بيان حسن الخلق ، وأن من أقرب الناس إلى رسول اللَّه ﷺ أحاسنهم أخلاقًا ، فكلما كنت أحسن خلقًا كنت أقرب إلى اللَّه ورسوله من غيرك ، وأبعد الناس منزلة من رسول اللَّه ﷺ الثرثارون ، والمتشدقون ، والمتفيهقون .

الثرثارون : الذين يكثرون الكلام ويأخذون المجالس عن الناس ، فإذا جلس في المجلس أخذ الكلام عن غيره ، وصار كأن لم يكن في المجلس إلا هو ؛ يتكلم ولا يدع غيره يتكلم ، وهذا لاشك أنه نوع من الكبرياء .

---

(١) هذا الحديث لم يقم الشارح رحمه الله بشرحه ، أخرجه الإمام أحمد في مسنده (٩٠/٦) وأبو داود في الأدب (٤٧٩٨) ، والمعنى : أن يبلغ أعلى الدرجات ؛ لأن أعلى درجات الليل درجات القائم المتهجد ، وأعلى درجات النهار درجات الصائم في حر الهواجر .

(٢) أخرجه أبو داود في الأدب (٤٨٠٠) والبيهقي في سننه (٢٤١/١٠) ، قوله « في رَبَض الجنة » أي ما حولها خارجًا عنها تشبيهًا بالأبنية التي تكون حول المدن وتحت القلاع ، قوله « المراء » أي الجدال كسرًا لنفسه ؛ كيلا يرفع نفسه على خصمه بظهور فضله .

(٣) أخرجه الترمذي في البر والصلة (٢٠١٨) .

(٤) انظر سنن الترمذي في البر والصلة (٢٠٠٥) وفيه : « هو بسط الوجه » بدلًا من « طلاقه الوجه » .

لكن لو فرضنا أن أهل المجلس فوضوه وقالوا : أعطنا نصيحة ، أعطنا موعظة ، فتكلم ، فلا حرج ، إنما في الكلام العادي ، كونك تملك المجلس ولا تدع أحدًا يتكلم ، حتى إن بعض الناس يحب أن يتكلم لكن لا يستطيع أن يتكلم ، يخشى من مقاطعة هذا الرجل الذي ملك المجلس بكلامه .

كذلك أيضًا المتشدقون ، والمتشدق : هو الذي يملء شدقيه ، تجده يتكلم وكأنه أفصح العرب تكبرًا وتبخترًا ، ومن ذلك من يتكلم باللغة العربية أمام العامة ، فإن العامة لا يعرفون اللغة العربية ، لو تكلمت بينهم باللغة العربية لعدوا ذلك من باب التشدق في الكلام والتنطع [١] ، أما إذا كنت تدرس لطلبة فينبغي أن تتكلم باللغة العربية ، لأجل أن تمرنهم على اللغة العربية وعلى النطق بها ، أما العامة الذين لا يعرفون فلا ينبغي أن تتكلم بينهم باللغة العربية ، بل تكلم معهم بلغتهم التي يعرفون ، ولا تغرب في الكلمات ، يعني لا تأتي بكلمات غريبة تشكل عليهم ، فإن ذلك من التشدق في الكلام .

أما المتفيهقون : فقد وصفهم النبي ﷺ بالمتكبرين ، المتكبر الذي يتكبر على الناس ويتفيهق ، وإذا قام يمشي كأنه يمشي على ورق من تكبره وغطرسته ، فإن هذا لاشك خلق ذميم ، ويجب على الإنسان أن يحذر منه ؛ لأن الإنسان بشر ، فينبغي أن يعرف قدر نفسه ، حتى لو أنعم اللّه عليه بمال ، أو أنعم اللّه عليه بعلم ، أو أنعم اللّه عليه بجاه ، ينبغي أن يتواضع ، وتواضع هؤلاء الذين أنعم اللّه عليهم بالمال والعلم والجاه أفضل من تواضع غيرهم ، ممن لا يكون كذلك .

ولهذا جاء في الحديث : من الذين لا يكلمهم اللّه ولا ينظر إليهم ولا يزكيهم : « عائل مستكبر » [٢] ، لأن العائل لا داعي لا ستكباره ، والعائل هو الفقير ، فهؤلاء الذين منَّ اللّه عليهم بالعلم والمال والجاه كلما تواضعوا صاروا أفضل ممن تواضع من غيرهم الذين لم يمن اللّه عليهم بذلك .

فينبغي لكل من أعطاه اللّه نعمة أن يزداد شكرًا للّه ، وتواضعًا للحق ، وتواضعًا للخلق ، وفقني اللّه والمسلمين لأحاسن الأخلاق والأعمال ، وجنبنا والمسلمين سيئات الأخلاق والأعمال إنه جواد كريم .

* * *

٧٤ - بابُ الحلم والأناة والرفق

قال اللّه تعالى : ﴿ وَٱلْكَـٰظِمِينَ ٱلْغَيْظَ وَٱلْعَافِينَ عَنِ ٱلنَّاسِ ۗ وَٱللَّهُ يُحِبُّ ٱلْمُحْسِنِينَ ﴾ [آل عمران : ١٣٤] وقال تعالى : ﴿ خُذِ ٱلْعَفْوَ وَأْمُرْ بِٱلْعُرْفِ وَأَعْرِضْ عَنِ ٱلْجَـٰهِلِينَ ﴾ [الأعراف : ١٩٩] وقال تعالى : ﴿ وَلَا تَسْتَوِى ٱلْحَسَنَةُ وَلَا ٱلسَّيِّئَةُ ۚ ٱدْفَعْ بِٱلَّتِى هِىَ أَحْسَنُ فَإِذَا ٱلَّذِى بَيْنَكَ وَبَيْنَهُۥ عَدَٰوَةٌ كَأَنَّهُۥ وَلِىٌّ حَمِيمٌ [٣] ﴿٣٤﴾ وَمَا يُلَقَّىٰهَآ إِلَّا ٱلَّذِينَ صَبَرُوا۟ وَمَا يُلَقَّىٰهَآ إِلَّا ذُو حَظٍّ عَظِيمٍ ﴾ [فصلت : ٣٤، ٣٥] وقال تعالى : ﴿ وَلَمَن صَبَرَ

---

(١) تنطَّع في كلامه أي تفصح فيه وتعمق . المعجم الوسيط (٩٦٨/٢) .

(٢) أخرجه مسلم في الإيمان (١٧٢) والإمام أحمد في مسنده (٤٨٠/٢) .

(٣) ﴿ وَلِىٌّ حَمِيمٌ ﴾ أي صديق شفيق .

وَغَفَرَ إِنَّ ذَٰلِكَ لَمِنْ عَزْمِ ٱلْأُمُورِ ﴾ [الشورى : ٤٣] .

الشرح

ذكر المؤلف - رحمه الله تعالى - : الحلم ، والأناة ، والرفق .

هذه ثلاثة أمور متقاربة : الحلم ، والأناة ، والرفق .

أما الحلم : فهو أن يملك الإنسان نفسه عند الغضب ، إذا حصل غضب وهو قادر فإنه يحلم ، ولا يعاقب ، ولا يعجل بالعقوبة .

وأما الأناة : فهو التأني في الأمور ، وعدم العجلة ، وألا يأخذ الإنسان الأمور بظاهرها فيتعجل ، ويحكم على الشيء قبل أن يتأنى فيه وينظر .

وأما الرفق : فهو معاملة الناس بالرفق والهون ، حتى وإن استحقوا ما يستحقون من العقوبة والنكال فإنه يرفق بهم .

ولكن هذا فيما إذا كان الإنسان الذي يرفق به محلًّا للرفق ، أما إذا لم يكن محلًّا للرفق ؛ فإن الله ﷻ قال : ﴿ ٱلزَّانِيَةُ وَٱلزَّانِى فَٱجْلِدُوا۟ كُلَّ وَٰحِدٍ مِّنْهُمَا مِا۟ئَةَ جَلْدَةٍ ۖ وَلَا تَأْخُذْكُم بِهِمَا رَأْفَةٌ فِى دِينِ ٱللَّهِ إِن كُنتُمْ تُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِ ۖ وَلْيَشْهَدْ عَذَابَهُمَا طَآئِفَةٌ مِّنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴾ [النور : ٢] .

ثم ساق المؤلف آيات ؛ الآية الأولى قول الله تعالى : ﴿ وَٱلْكَٰظِمِينَ ٱلْغَيْظَ وَٱلْعَافِينَ عَنِ ٱلنَّاسِ ۗ وَٱللَّهُ يُحِبُّ ٱلْمُحْسِنِينَ ﴾ [آل عمران : ١٣٤] هذه من جملة الأوصاف التي يتصف بها المتقون الذين أعدت لهم الجنة : أنهم إذا غضبوا كظموا الغيظ .

وفي قوله : ﴿ وَٱلْكَٰظِمِينَ ٱلْغَيْظَ ﴾ دليل على أنهم يشق عليهم ذلك ، لكنهم يغلبون أنفسهم فيكظمون غيظهم ، ولهذا قال النبي - عليه الصلاة والسلام - : « ليس الشديد بالصرعة » الصرعة : يعني الذي يصرع الناس إذا صارعوه : « وإنما الشديد الذي يملك نفسه عند الغضب »[1] .

وأما قوله تعالى : ﴿ وَٱلْعَافِينَ عَنِ ٱلنَّاسِ ﴾ فقد سبق الكلام عليه ، وبيان التفصيل فيمن يستحق العفو ومن لا يستحق ، فالإنسان الشرير الذي لا يزداد بالعفو عنه إلا سوءًا وشراسة ومعاندة هذا لا يعفى عنه .

والإنسان الذي هو أهل للعفو . ينبغي للإنسان أن يعفو عنه ، لأن الله يقول : ﴿ فَمَنْ عَفَا وَأَصْلَحَ فَأَجْرُهُۥ عَلَى ٱللَّهِ ﴾ [الشورى : ٤٠] .

وأما الآية الثانية فقوله تعالى : ﴿ خُذِ ٱلْعَفْوَ وَأْمُرْ بِٱلْعُرْفِ وَأَعْرِضْ عَنِ ٱلْجَٰهِلِينَ ﴾ [الأعراف : ١٩٩] قال خذ العفو ولم يقل اعف ولا افعل العفو ، بل قال : ﴿ خُذِ ٱلْعَفْوَ ﴾ والمراد بالعفو هنا ما عفا وسهل من الناس ؛ لأن الناس يعامل بعضهم بعضًا ، فمن أراد من الناس أن يعاملوه على الوجه الذي يحب وعلى

---

(١) أخرجه البخاري في الأدب (٦١١٤) ومسلم في البر والصلة (١٠٧) والإمام أحمد في مسنده (٢/٢٣٦) .

الوجه الأكمل ، فهذا شيء يصعب عليه ويشق عليه ويتعب وراء الناس .

وأما من استرشد بهذه الآية ، وأخذ ما عفا من الناس وما سهل ؛ فما جاء منهم قبله ، وما أضاعوه من حقه تركه ، إلا إذا انتهكت محارم اللّٰه ، فإن هذا هو الذي أرشد اللّٰه إليه ؛ أن نأخذ العفو ، فخذ ما تيسر من أخلاق الناس ومعاملتهم لك ، والباقي أنت صاحب الفضل فيه إذا تركته .

﴿ وَأْمُرْ بِٱلْعُرْفِ ﴾ يعني اؤمر بما يتعارفه الناس ويعرفه الشرع من أمور الخير ، ولا تسكت عن الأمر بالخير إذا كان الناس أخلوا به ، فيما بينك وبينهم . حقك افعل به ما تشاء ، لكن الشيء المعروف ينبغي أن تأمر به .

﴿ وَأَعْرِضْ عَنِ ٱلْجَٰهِلِينَ ﴾ المراد بالجاهل هنا ليس هو الذي لا يعلم الحكم ، بل الجاهل السفيه في التصرف ، كما قال اللّٰه تعالى : ﴿ إِنَّمَا ٱلتَّوْبَةُ عَلَى ٱللَّهِ لِلَّذِينَ يَعْمَلُونَ ٱلسُّوٓءَ بِجَهَٰلَةٍ ﴾ أي بسفاهة ﴿ ثُمَّ يَتُوبُونَ مِن قَرِيبٍ فَأُو۟لَٰٓئِكَ يَتُوبُ ٱللَّهُ عَلَيْهِمْ ﴾ [النساء : ١٧] .

فالجاهلون هنا هم السفهاء الذين يجهلون حقوق الغير ، ويفرطون فيها ، فأعرض عنهم ولا تبال بهم ، وأنت إذا أعرضت عنهم ولم تبالِ بهم ؛ فإنهم سوف يملُّون ويتعبون ، ثم بعد ذلك يرجعون إلى صوابهم ، ولكنك إذا عاندتهم أو خاصمتهم أو أردت منهم أن يعطوك حقك كاملًا ؛ فإنهم ربما بسفههم يعاندونك ولا يأتون بالذي تريد .

فهذه ثلاثة أوامر من اللّٰه ﷻ فيها الخير لو أننا سرنا عليها : ﴿ خُذِ ٱلْعَفْوَ وَأْمُرْ بِٱلْعُرْفِ وَأَعْرِضْ عَنِ ٱلْجَٰهِلِينَ ﴾ [الأعراف : ١٩٩] .

قوله تعالى : ﴿ وَلَمَن صَبَرَ وَغَفَرَ إِنَّ ذَٰلِكَ لَمِنْ عَزْمِ ٱلْأُمُورِ ﴾ [الشورى : ٤٣] ﴿ صَبَرَ ﴾ : يعني على الأذى ، ﴿ وَغَفَرَ ﴾ : يعني تجاوز عنه إذا وقع به ، و ﴿ إِنَّ ذَٰلِكَ لَمِنْ عَزْمِ ٱلْأُمُورِ ﴾ : أي لمن معزومات الأمور ، أي من الأمور التي تدل على عزم الرجل ، وعلى حزمه ، وعلى أنه قادر على نفسه مسيطر عليها ، وذلك لأن الناس ينقسمون إلى أقسام بالنسبة لسيطرتهم على أنفسهم .

فمن الناس من لا يستطيع أن يسيطر على نفسه أبدًا ، ومن الناس من يستطيع لكن بمشقة شديدة ، ومن الناس من يستطيع لكن بسهولة ، يكون قد جبله [1] اللّٰه ﷻ على مكارم الأخلاق ، فيسهل عليه الصبر والغفران .

فالذي يصبر على أذى الناس ويتحمل ويحتسب الأجر من اللّٰه ويغفر لهم ، هذا هو الذي صنع هذا المعزوم من الأمور ، أي من الشئون ، وهذا حث واضح على أنه ينبغي للإنسان أن يصبر ويغفر ، وقد سبق لنا التفصيل في مسألة العفو عن الجناة والمعتدين ، وأنه لا يمدح مطلقًا ولا يذم مطلقًا ، بل ينظر إلى الإصلاح .

* * *

(١) جبله : أي طبعه . المعجم الوسيط (١/ ١١٠) .

٦٣٢ - وَعَن ابنِ عَبَّاسٍ رضي الله عنهما قَالَ : قال رَسُولُ اللَّهِ ﷺ لأَشَجِّ عَبْدِ القَيس : « إنَّ فيك خَصْلَتَينِ يُحِبُّهُمَا اللَّهُ : الحِلْمُ ، وَالأَنَاةُ » (١) رواه مسلم .

٦٣٣ - وعن عائشة رضي الله عنها قالت : قال رسول اللَّه ﷺ : « إنَّ اللهَ رفيقٌ يحِبُّ الرِّفْقَ (٢) في الأَمْرِ كُلِّهِ » (٣) متفقٌ عليه .

٦٣٤ - وعنها أن النبي ﷺ قال : « إنَّ اللَّهَ رفيقٌ يُحِبُّ الرِّفقَ ، وَيُعْطِي عَلى الرِّفق ما لا يُعْطي عَلى العُنفِ وَمَا لا يُعْطِي عَلى ما سِواه » (٤) رواه مسلم .

٦٣٥ - وعنها أن النبيَّ ﷺ قال : « إنَّ الرِّفقَ لا يَكُونُ فِي شَيءٍ إلَّا زَانَهُ ، وَلا يُنْزَعُ مِنْ شَيءٍ إلا شَانَهُ » (٥) رواه مسلم .

الشرح

ذكر المؤلف هنا في سياق الأحاديث ما قاله النبي ﷺ لأشج عبد القيس ، قال له : « إن فيك خصلتين يحبهما اللَّه : الحلم والأناة » .

« الحلم » : عندما يثار الإنسان ويجنى عليه ويعتدى عليه يحلم ، لكنه ليس كالحمار لا يبالي بما فعل به ، يتأثر لكن يكون حليمًا لا يتعجل العقوبة ، حتى إذا صارت العقوبة خيرًا من العفو أخذ بالعقوبة .

« والأناة » : التأني في الأمور وعدم التسرع ، وما أكثر ما يهلك الإنسان ويزل بسبب التعجل في الأمور ، سواء في نقل الأخبار ، أو في الحكم على ما سمع ، أو في غير ذلك .

فمن الناس مثلًا من يتخطف الأخبار بمجرد ما يسمع الخبر يحدث به وينقله ، وقد جاء في الحديث « كفى بالمرء كذبًا أن يحدث بكل ما سمع » (٦) .

ومن الناس من يتسرع في الحكم ، يسمع عن شخص شيئًا من الأشياء ، ويتأكد أنه قاله أو أنه فعله ، ثم يتسرع في الحكم عليه ، أنه أخطأ أو ضل أو ما أشبه ذلك ، وهذا غلط ، التأني في الأمور كله خير .

---

(١) أخرجه مسلم في الإيمان (٢٥) ، والترمذي في البر والصلة (٢٠١١) وأبو داود في الأدب (٥٢٢٥) وفيه « خلتين » .

(٢) الرفق : لين الجانب بالقول والفعل والأخذ بالأسهل وهو ضد العنف .

(٣) أخرجه البخاري في استتابة المرتدين والمعاندين (٦٩٢٧) ومسلم في السلام (١٠) والترمذي في الاستئذان (٢٧٠١) .

(٤) أخرجه مسلم في البر والصلة (٧٧) والبيهقي في سننه (١٠/١٩٣) .

(٥) أخرجه مسلم في البر والصلة (٧٨) والإمام أحمد في مسنده (٦/١٢٥) ، وقوله شانه : أي عابه وقبحه .

(٦) أخرجه مسلم في المقدمة (٥) .

ثم ذكر المؤلف أحاديث عائشة رضي الله عنها الثلاثة في باب الرفق ، وأن الرفق محبوب إلى الله عز وجل ، وأنه ما كان في شيء إلا زانه ، ولا نزع من شيءٍ إلا شانه ، ففيه الحث على أن يكون الإنسان رفيقًا في جميع شئونه ؛ رفيقًا في معاملة أهله ، وفي معاملة إخوانه ، وفي معاملة أصدقائه ، وفي معاملة عامة الناس يرفق بهم ، فإن الله تعالى رفيق يحب الرفق .

ولهذا فإن الإنسان إذا عامل الناس بالرفق يجد لذة وانشراحًا ، وإذا عاملهم بالشدة والعنف ندم ، ثم قال : ليتني لم أفعل ، لكن بعد أن يفوت الأوان ، أما إذا عاملهم بالرفق واللين والأناة انشرح صدره ، ولم يندم على شيء فعله .

وفق الله الجميع لما فيه الخير والصلاح وحسن الأخلاق والآداب .

* * *

٦٣٦ - وعن أبي هريرة رضي الله عنه قال : بَال أَعْرَابِيٌّ في المسجِدِ ، فَقَامَ النَّاسُ إِلَيهِ لِيَقَعُوا فِيهِ [١] ، فقال النبي ﷺ : « دَعُوهُ وَأَرِيقُوا عَلى بَولِهِ سَجْلًا مِنْ مَاءٍ - أَو ذَنُوبًا مِن ماءٍ - فَإِنَّمَا بُعِثتم مُيَسِّرينَ وَلَمْ تُبْعَثُوا مُعَسِّرين » [٢] رواه البخاري .

« السَّجْلُ » بفتح السين المهملة وإسكان الجيم : وَهِيَ الدَّلْو المُمْتَلِئَةُ ماءً ، وَكَذلِكَ الذَّنُوبُ .

الشرح

ساق المؤلف رحمه الله في باب الحلم والأناة والرفق في كتابه رياض الصالحين ، حديث أبي هريرة رضي الله عنه؛ أن أعرابيًا بال في المسجد . أعرابي : يعني بدوي ؛ والبدوي في الغالب لا يعرف أحكام الشرع ؛ لأنه يعيش في البادية في إبله أو في غنمه ، وليس له علم بشريعة الله ، كما قال الله تعالى : ﴿ ٱلْأَعْرَابُ أَشَدُّ كُفْرًا وَنِفَاقًا وَأَجْدَرُ أَلَّا يَعْلَمُوا۟ حُدُودَ مَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ عَلَىٰ رَسُولِهِۦ ﴾ [التوبة : ٩٧] يعني أقرب ألا يعلموا حدود ما أنزل الله على رسوله ؛ لأنهم في باديتهم بعيدون عن الناس وعن العلم والشرع .

فهذا الأعرابي دخل المسجد واحتاج إلى أن يبول ، فبال في طائفة المسجد ، أي تنحى وبال في المسجد ، فهمَّ الناس به أن يقعوا فيه وزجروه ، ولكن النبي ﷺ قال : لهم « دعوه » أي يقضي بوله ، «وأريقوا على بوله سجلًا من ماء ، أو ذنوبًا من ماء ، فإنما بعثتم ميسرين ولم تبعثوا معسرين » فتركه الناس .

فلما قضى بوله صبوا عليه ذنوبًا من الماء ، يعني دلوًا من الماء ، فطهر المحل ، وزال المحذور ، ثم دعا بالأعرابي وقال له : « إن هذه المساجد لا يصلح فيها شيء من الأذى أو القذر ، وإنما هي للصلاة

---

(١) ليقعوا فيه : أي بالسب ونحوه ، والرجل هو ذو الخويصرة اليماني ، وقيل : الأقرع بن حابس .

(٢) أخرجه البخاري في الوضوء (٢٢٠) وفيه (وهريقوا) .

وقراءة القرآن ، والتكبير »[1] كما قال الرسول ﷺ .

ففي هذا الحديث فوائد كثيرة :

منها : العذر بالجهل ، وأن الإنسان الجاهل لا يعامل كما يعامل العالم ؛ لأن العالم معاند ، والجاهل متطلع للعلم فيعذر بجهله ، ولهذا عذره النبي ﷺ ورفق به .

ومنها : أن الشرع يقتضي دفع أعلى المفسدتين بأدناهما ، يعني إذا كان هناك مفسدتان لابد من ارتكاب أحدهما ، فإنه يرتكب الأسهل .

فهنا أمامنا مفسدتان : **الأولى** : استمرار هذا الأعرابي في بوله ، وهذه مفسدة .

والثانية : إقامته من بوله ، وهذه مفسدة أيضًا ، لكن هذه أكبر ؛ لأن هذه يترتب عليها :

أولًا : الضرر على هذا البائل ؛ لأن البائل إذا منع البول المتهيئ للخروج ففي ذلك ضرر ، فربما تتأثر مجاري البول ومسالك البول .

ثانيًا : أنه إذا قام فإما أن يقطع رافعًا ثوبه ، لئلا تصيبه قطرات البول ، وحينئذٍ تكون القطرات منتشرة في المكان ، وربما تأتي على أفخاذه ويبقى مكشوفَ العورة أمام الناس وفي المسجد ، وإما أن يدلي ثوبه ، وحينئذٍ يتلوث الثوب ويتلوث البدن وهذه أيضًا مفسدة ؛ فلهذا ترك النبي ﷺ هذا الرجل يبول حتى انتهى ، ثم أمر بأن يصب عليه ذنوبًا من ماء .

وعلى هذا فيكون لدينا قاعدة : إذا اجتمعت مفسدتان لابد من ارتكاب إحداهما ؛ فإنه يرتكب الأسهل والأخف ، دفعًا للأعلى ، كما أنه إذا اجتمعت مصالح ولا يمكن فعل جميعها ؛ فإنه يؤخذ الأعلى فالأعلى ، ففي المصالح يقدم الأعلى ، وفي المفاسد يقدم الأسهل والأدنى .

ومن فوائد هذا الحديث : وجوب تطهير المسجد وأنه فرض كفاية ، لقول الرسول ﷺ : « أريقوا على بوله سجلًا من ماء » فيجب على من رأى نجاسة في المسجد أن يطهرها بنفسه ، أو يبلغ من هو معني بالمسجد ومسئول عنه حتى يقوم بتطهيرها .

ومنها : اشتراط طهارة مكان المصلى ، فالمصلي يجب عليه أن يطهر ثوبه ، وبدنه ، ومكان صلاته ، لابد من ذلك سواءً أرضًا كانت ، أو فراشًا ، أو غير ذلك ، المهم أنه لابد من طهارة مكان المصلي .

ومنها : أن الأرض يكفي في تطهيرها أن يصب على النجاسة ماء مرة واحدة ، فإذا غمرت بالماء طهرت ، لكن إن كانت النجاسة ذات جرم كالغائط والروث وما أشبهها ؛ فلابد من زوال هذا الجرم ، وبعدها يطهر المحل بصب ماءٍ عليه .

ومنها : أنه لابد من الماء في تطهير النجاسة ، لقوله : « أريقوا على بوله سجلًا من ماء » وأن

---

(١) أخرجه مسلم في الطهارة (١٠٠) وأحمد في مسنده (٣/٩١) .

النجاسة لا تطهر بغير الماء ، وهذا ما عليه أكثر العلماء [١] .

والصحيح أن النجاسة تطهر بكل ما يزيلها من ماء أو بنزين أو غيره ، وإنما أمر النبي ﷺ بصب الماء على مكان البول ؛ لأنه أسرع في تطهير المكان ، وإلا فمن الممكن أن يبقى المكان لا يصب عليه الماء ، ثم مع الرياح والشمس تزول النجاسة ويطهر ، لكن هذا أسرع وأسهل .

ومن المعلوم أنه في عهد الرسول ﷺ لا توجد هذه المزيلات الكيماوية أو البترولية ، فلذلك كانوا يعتمدون في إزالة النجاسة على الماء ، ولكن متى زالت النجاسة طهر المحل بأي مزيل كان ؛ لأن النجاسة عين خبيثة نجسة ، متى زالت عاد المحل إلى طهارته بأي شيءٍ كان .

ولهذا يطهر البول والغائط بالأحجار ؛ يستجمر الإنسان بالحجر ثلاث مرات مع الإنقاء [٢] ويكفي .

وثوب المرأة الذي تجره إذا مر بالنجاسة ثم مر بعد ذلك بأرض طاهرة طهرته ، وكان من عادة النساء في عهد الرسول ﷺ أن المرأة إذا خرجت واتخذت ثوبًا ضافيًا [٣] يستر قدميها ، وينجر من ورائها إلى شبر ، أو شبرين ، أو ذراع ، ولكن لا يزاد على ذراع . هذا في عهد الرسول ﷺ ، عهد النساء الطاهرات في الزمن الطاهر ، فما بالك باليوم ؟!

لكن مع الأسف أن المسلمين اليوم لا ينظرون إلى من سلف من هذه الأمة ، ولكنهم ينظرون إلى من تأخر من هذه الأمة ؛ إلى الخلف الذين قال الله فيهم : ﴿ فَخَلَفَ مِنْ بَعْدِهِمْ خَلْفٌ أَضَاعُوا الصَّلَاةَ وَاتَّبَعُوا الشَّهَوَاتِ فَسَوْفَ يَلْقَوْنَ غَيًّا ﴾ [مريم : ٥٩] .

صرنا ننظر الآن إلى من خلف . بل ننظر إلى ما دون ذلك ؛ ننظر إلى أعدائنا ؛ اليهود والنصارى والمجوس والوثنيين وما أشبه ذلك ، فنقتدي بهم في مثل هذه الألبسة ، فترى النساء الآن كلما جاءت المجلة التي يسمونها البردة ، ذهبن ينظرن إليها ، تذهب المرأة وتفعل مثل ما فعلوا .

وأقول : يجب على أولياء الأمور أن يمنعوا من تداول هذه المجلات ، وهذه البردات بين أيدي النساء؛ لأن المرأة ضعيفة ؛ ضعيفة العقل وضعيفة الدين كما وصفها بهذا الرسول ﷺ : « ما رأيت من ناقصات عقل ودين أذهب للب الرجل الحازم من إحداكن » [٤] فتغتر وتنخدع بهذه المظاهر .

وكثير من الرجال مع الأسف الشديد هم رجال في ثياب رجال وإلا فهم نساء ، التدبير للنساء عليهم ، وهن القوامات عليهم ، عكس ما أمر الله : ﴿ الرِّجَالُ قَوَّامُونَ عَلَى النِّسَاءِ ﴾ ، لكن أصبح

---

(١) قالت الحنفية : أن بقية المائعات غير الماء لا تصلح للوضوء ، ولكن تصلح لإزالة النجاسة الحقيقية كالبول والدم ونحو ذلك . واتفق جمهور العلماء غير الحنفية على عدم جواز التطهير بغير الماء من المائعات . انظر فقه الكتاب والسنة (٢٠٥٩/٤ ، ٢٠٦٠) .

(٢) أي النظافة والنقاء . المعجم الوسيط (٩٨٧/٢) .

(٣) أي سابغًا : طويلًا واسعًا .

(٤) أخرجه البخاري في الزكاة (١٤٦٢) واللفظ له ، ومسلم في الإيمان (١٣٢) .

الآن بين كثير من الناس النساء قوامات على الرجال ، هي التي تدبر الرجل ، وهي التي تلبس ما شاءت ، وتفعل ما شاءت ، ولا تبالي بزوجها ولا بوليها .

فالواجب على الأولياء أن يمنعوا من تداول هذه المجلات التي تأتينا بهذه الأزياء البعيدة عن الزي الإسلامي ، فالنساء في عهد الرسول ﷺ إذا خرجن إلى السوق لبسن ثيابًا طويلة حتى لا تبدو أقدامهن (١) .

وأما في البيوت فكما يقول شيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله : المرأة في بيتها في عهد الرسول عليها لباس يستر من كف اليد إلى كعب الرجل ، وهي في البيت ، ما عندها إلا النساء أو رجال محارم ، ومع ذلك تتستر من الكف إلى الكعب ، فكلها متسترة (٢) .

وبهذا نعرف فساد تصور من تصور قول الرسول ﷺ : « لا تنظر المرأة إلى عورة المرأة » (٣) أن المرأة يجوز لها أن تقتصر في لباسها على لباسٍ يستر ما بين السرة والركبة ، يردن أن تخرج المرأة كاشفة كل بدنها إلا ما بين السرة والركبة ، فمن قال هذا ؟!

إن الرسول ﷺ يخاطب الناظرة لا اللابسة يقول : « لا تنظر المرأة إلى عورة المرأة » ، يعني ربما تكون اللابسة قد كشفت ثوبها لقضاء حاجة من بول أو غائط ، فيقول لا تنظر لعورتها ، لم يقل الرسول ﷺ للمرأة أن تلبس ما يستر ما بين السرة والركبة فقط ، ومن توهم هذا فإنه من وحي الشيطان ، ولننظر كيف كانت النساء في عهد الرسول ﷺ تلبس الثياب ؛ لذلك يجب أن نصحح هذا المفهوم الذي تدندن به كل امرأة ليس عندها فهم ، وليس عندها نظر لمن سبق ، نقول لها هل تظنين أن الشرع الإسلامي يبيح للمرأة أن تخرج بين النساء ليس عليها إلا سروال قصير يستر ما بين السرة والركبة ، فمن قال إن هذا هو الشرع الإسلامي ؟ ومن قال إن هذا هو معنى قول رسول الله ﷺ : « لا تنظر المرأة إلى عورة المرأة » ؟!

والرسول ﷺ قال : « ولا الرجل إلى عورة الرجل » ومع ذلك كان الرجال في عهده يلبسون رداءً وإزارًا ، أو يلبسون قميصًا ، ولا يلبسون إزارًا فقط ؛ حتى أن الرجل الفقير الذي طلب من النبي ﷺ أن يزوجه المرأة التي وهبت نفسها له ولم يردها ، قال : زوجنيها ، قال : « ما معك من صداق ؟ » قال : إزاري ؛ لأنه فقير ، كيف يكون الإزار مهرًا للمرأة إن أعطيتها إياه بقيت بلا إزار ، وإن بقي عليك بقيت بلا مهر ؟! ارجع فالتمس ولو خاتمًا من حديد ، ولكنه لم يجد ، فلم يكونوا وهم رجال يقتصرون على ما بين السرة والركبة أبدًا (٤) .

والحاصل : أن العلم يحتاج إلى فقه ، ويحتاج إلى نظر في حال الصحابة رضي الله عنهم ؛ كيف فهموا النصوص فنطبقها ، حتى دول الغرب الكافرة الآن أكثرهم يلبس ما يستر الصدر والفخذين ، ولم

---

(١) انظر في ذلك سنن ابن ماجه في اللباس (٣٥٨٠) .
(٢) انظر فتاوى ابن تيمية (٣٧١/١٥) .
(٣) انظر صحيح مسلم في الحيض (٧٤) وابن ماجه في سننه (٦٦١) والإمام أحمد في مسنده (٦٣/٣) .
(٤) انظر البخاري في النكاح (٥١٢١) وسنن أبي داود في النكاح (٢١١١) والترمذي في النكاح (١١١٣) .

يفهم أحد من هذا الحديث أن المعنى للمرأة أن تبقى مكشوفة البدن إلا ما بين السرة والركبة ، ما فهم هذا أحدٌ أبدًا .

فالحاصل : أن الرسول ﷺ جعل ذيل المرأة أي طرف ثوبها الذي يمشي على الأرض إذا التقى بنجاسة ثم مرت على أرض طاهرة فإن الطاهر يطهره (١) ، فدل ذلك على أن النجاسة تطهر بكل ما يزيلها من ماء وغيره .

ومن فوائد حديث الأعرابي : حسن خلق الرسول ﷺ ، وتعليمه ، ورفقه ، وأن هذا هو الذي ينبغي لنا إذا دعونا إلى الله ، أو أمرنا بمعروف أو نهينا عن منكر أن نرفق ؛ لأن الرفق يحصل به الخير ، والعنف يحصل به الشر ، ربما إذا عنفت أن يحصل من قبيلك ما يسمونه برد الفعل ولا يقبل منك شيئًا ، يرد الشرع من أجلك ، لكن إذا رفقت وتأنيت فهذا هو الأقرب إلى الإجابة .

ومنها : أن الرسول ﷺ جعل هذه الأمة مبعوثة ، فقال : « فإنما بعثتم » مع أن المبعوث هو ، لكن أمته يجب أن تقوم مقامه في الدعوة إلى دينه ﷺ ، وأن يكون الإنسان كانه المبعوث وكأنه الرسول في تبليغ الشرع ، ولهذا قال الرسول ﷺ : « ليبلغ الشاهد منكم الغائب » (٢) فنحن أمة محمد ﷺ علينا أن نبلغ شرعه إلى جميع الناس ، ولهذا قال : « إنما بعثتم ميسرين ولم تبعثوا معسرين » .

وفي هذا الحديث : أن الرسول ﷺ لما كلم الأعرابي بهذا اللطف واللين ، وقال : « إن هذه المساجد لا يصلح فيها شيءٌ من الأذى والقذر » قال الأعرابي : اللهم ارحمني ومحمدًا ولا ترحم معنا أحدًا (٣) ، انظر كيف انشرح صدره بكلام محمد ﷺ .

أما الجماعة من الصحابة رضي الله عنهم لما أغضبوه وانتهروه رأى - وهو أعرابي لا يعرف - أن الجنة والرحمة تكون له ولمحمد ، وغيرهما لا يرحمون ، وليته قال اللهم ارحمني ومحمدًا وسكت ، بل قال ولا ترحم معنا أحدًا ، فتحجر الرحمة ، لكنه جاهل ، والجاهل له حكمه .

فالحاصل أن الإنسان ينبغي له أن يرفق في الدعوة ، وفي الأمر ، وفي النهي . وجربوا وانظروا أيهما أصلح ، ونحن نعلم علم اليقين أن الأصلح هو الرفق ؛ لأن هذا هو الذي قاله الرسول ﷺ (٤) ، وهو الذي اتبعه في هديه ﷺ .

---

(١) انظر سنن ابن ماجه في الطهارة (٥٣١ ، ٥٣٣) والدارمي (٧٤٥) .

(٢) أخرجه البخاري في العلم (١٠٥) ومسلم في الحج (٤٤٦) والقسامة (٢٩ ، ٣٠) .

(٣) في سنن أبي داود (٣٨٠) والترمذي في الطهارة (١٤٧) وأحمد في مسنده (٢٣٩/٢) وابن ماجه في الطهارة (٥٢٩) والإحسان لابن حبان (٩٨١) أن هذه الكلمة وقعت قبل حادث بول الرجل في المسجد . وأشار ابن حجر في فتح الباري (٤٣٩/١٠) إلى ذلك ذاكرًا رواية ابن ماجه وابن حبان للحديث : ولم نجد ما يدل على أن بول الرجل في المسجد وقع أولًا .

(٤) انظر الأحاديث رقم (٦٣٣ ، ٦٣٤ ، ٦٣٥) .

٦٣٧ - وعن أَنس ﷺ عن النبي ﷺ قال : « يَسِّرُوا وَلا تُعَسِّروا . وَبَشِّرُوا وَلا تُنَفِّرُوا » [١] متفقٌ عليه .

الشرح

هذا الحديث ذكره النووي رحمه الله في باب الحلم والرفق والأناة ، عن أنس بن مالك ﷺ أن النبي ﷺ قال : « يسروا ولا تعسروا ، وبشروا ولا تنفروا » .

هذه أربع جمل : الأولى قوله : « يسروا » يعني اسلكوا ما فيه اليسر والسهولة سواء كان فيما يتعلق بأعمالكم أو معاملاتكم مع غيركم ، ولهذا كان النبي ﷺ من هديه أنه : ما خير بين أمرين إلا اختار أيسرهما مالم يكن إثمًا ، فإن كان إثمًا كان أبعد الناس عنه [٢] .

فأنت اختر الأيسر لك حتى في كل أحوالك ، حتى في العبادات ، وفي المعاملات مع الناس ، وفي كل شيء ؛ لأن اليسر هو الذي يريده الله عَزَّ وَجَلَّ منا ، ويريده بنا : ﴿ يُرِيدُ ٱللَّهُ بِكُمُ ٱلْيُسْرَ وَلَا يُرِيدُ بِكُمُ ٱلْعُسْرَ ﴾ [البقرة : ١٨٥] .

فمثلًا إذا كان لك طريقان إلى المسجد ؛ أحدهما صعب فيه حصى وأحجار وأشواك والثاني سهل ، فالأفضل أن تسلك الأسهل ، وإذا كان هناك ماءان وأنت في الشتاء ، وكان أحدهما باردًا يؤلمك والثاني ساخنًا ترتاح له ، فالأفضل أن تستعمل الساخن لأنه أيسر وأسهل ، وإذا كان يمكن أن تحج على سيارة أو تحج على بعير ، والسيارة أسهل ، فالحج على السيارة أفضل .

فالمهم أنه كل ما كان أيسر فهو أفضل مالم يكن إثمًا ، لأن أم المؤمنين عائشة رضي الله عنها تقول : كان الرسول ﷺ ما خير بين شيئين إلا اختار أيسرهما مالم يكن إثمًا .

أما إذا كان فعل العبادة لا يتأتى إلا بمشقة ، وهذه المشقة لا تسقطها عنك ففعلتها على مشقة ، فهذا أجر يزداد لك ، فإن إسباغ الوضوء على المكاره مما يرفع الله به الدرجات ويكفر به الخطايا ، لكن كون الإنسان يذهب إلى الأصعب مع إمكان الأسهل هذا خلاف الأفضل ، فالأفضل اتباع الأسهل في كل شيء .

وانظر إلى الصوم ، قال فيه الرسول ﷺ : « لا يزال الناس بخير ما عجلوا الفطر » [٣] ، وفي حديث آخر « وأخروا السحور » [٤] لماذا ؟ لأن تأخير السحور أقوى على الصوم مما لو تقدم ، والمبادرة

---

(١) أخرجه البخاري في العلم (٦٩) ومسلم بنحوه في الجهاد والسير (٦) وأبو داود في الأدب (٤٨٣٥) .

(٢) انظر صحيح البخاري في المناقب (٣٥٦٠) والأدب (٦١٢٦) ومسلم في الفضائل (٧٧) وأبو داود في الأدب (٤) .

(٣) أخرجه البخاري في الصوم (١٩٥٧) ومسلم في الصيام (٤٨) .

(٤) ما جاء في الكتب الصحاح يؤكد هذا المعنى وينظر في ذلك البخاري في الصوم (١٩٢٠ ، ١٩٢١) أما هذه الرواية فأخرجها عبد الرزاق في مصنفه (٧٦١٥) ، والهيثمي في مجمع الزوائد (٣/١٥٥) .

بالفطر أسهل وأيسر على النفس لا سيما مع طول النهار وشدة الظمأ .

فهذا وغيره من الشواهد يدل على أن الأيسر أفضل ، فأنت يسر على نفسك .

كذلك أيضًا في مزاولة الأعمال فإذا رأيت أنك إذا سلكت هذا العمل فهو أسهل وأقرب ويحصل به المقصود ، فلا تتعب نفسك في أعمال أخرى أكثر من اللازم وأنت لا تحتاج إليها ، بل افعل ما هو أسهل في كل شيء ، وهذه قاعدة : أن اتباع الأسهل والأيسر هو الأرفق بالنفس والأفضل عند الله .

« ولا تعسروا » يعني لا تسلكوا طرق العسر لا في عبادتكم ، ولا في معاملاتكم ، ولا في غير ذلك ، فإن هذا منهي عنه فلا تعسر ، ولهذا لما رأى النبي ﷺ رجلًا واقفًا في الشمس ، سأل عنه ، قالوا : يا رسول الله ، هو صائم ؛ نذر أن يصوم ويقف في الشمس ، فنهاه وقال له لا تقف في الشمس [1] ؛ لأن هذا فيه عسر على الإنسان ومشقة ، والرسول ﷺ يقول لا تعسر .

« وبشروا » يعني اجعلوا طريقكم دائمًا البشارة ، بشروا أنفسكم وبشروا غيركم ، يعني إذا عملت عملًا فاستبشر وبشر نفسك ، فإذا عملت عملًا صالحاً فبشر نفسك بأنه سيقبل منك إذا اتقيت الله فيه ؛ لأن الله يقول : ﴿ إِنَّمَا يَتَقَبَّلُ ٱللَّهُ مِنَ ٱلْمُتَّقِينَ ﴾ [المائدة : ٢٧] ، وإذا دعوت الله فبشر نفسك أن الله يستجيب لك ؛ لأن الله ﷻ يقول : ﴿ ٱدْعُونِىٓ أَسْتَجِبْ لَكُمْ ﴾ [غافر : ٦٠] .

ولهذا قال بعض السلف : من وفق للدعاء فليبشِّر بالإجابة ؛ لأن الله قال : ﴿ وَقَالَ رَبُّكُمُ ٱدْعُونِىٓ أَسْتَجِبْ لَكُمْ ﴾ [غافر : ٦٠] فأنت بشر نفسك في كل عمل .

وهذا يؤيده أن النبي ﷺ كان يكره الطِّيَرَة ويعجبه الفأل [2] ؛ لأن الإنسان إذا تفاءل نشط واستبشر وحصل له خير ، وإذا تشاءم فإنه يتحسر ، وتضيق نفسه ، ولا يقدم على العمل ، ويعمل وكأنه مكره ، فأنت بشر نفسك ، كذلك بشر غيرك ، فإذا جاءك إنسان ، قال : فعلت كذا وفعلت كذا وهو خائف ، فبشره ، وأدخل عليه السرور .

لا سيما في عيادة المريض ؛ فإذا عدت مريضًا فقل له : أبشر بالخير ، وأنت على خير ، ودوام الحال من المحال ، والإنسان عليه أن يصبر ويحتسب ويؤجر على ذلك ، وما أشبه ذلك ، وبشره قائلًا : أنت اليوم وجهك طيب ، وما أشبه ذلك ؛ لأنك بهذا تدخل عليه السرور ، وتبشره ، فأنت اجعل طريقك هكذا فيما تعامل به نفسك وفيما تعامل به غيرك ، الزم البشارة تدخل السرور على نفسك ، وتدخل السرور على غيرك ، فهذا هو الخير .

« ولا تنفروا » يعني لا تنفروا الناس عن الأعمال الصالحة ، ولا تنفروهم عن الطرق السليمة ، بل شجعوهم عليها ، حتى في العبادات لا تنفروهم .

---

(١) انظر البخاري في الأيمان والنذور (٦٠٠٤) .

(٢) انظر البخاري في الطب (٥٧٠٧) ومسلم في السلام (١٠٢ ، ١٠٧) .

ومن ذلك : أن يطيل الإمام بالجماعة أكثر من السنة ، فإن معاذ بن جبل رضي الله عنه كان إذا صلى مع النبي ﷺ صلاة العشاء ، ذهب إلى قومه فصلى بهم تلك الصلاة ، فدخل يومًا من الأيام في الصلاة ، فشرع في سورة طويلة ، فانصرف رجل وصلى وحده ، فقيل : نافق فلان ، فذهب الرجل للنبي ﷺ ، ثم إن معاذًا أتى إلى رسول الله ﷺ ، فقال له : « أفتان أنت يا معاذ » [١] .

وكذلك الرجل الآخر قال له الرسول ﷺ : « إن منكم منفرين فأيكم أمَّ الناس فليخفف » [٢] .

فالتنفير لا ينبغي ؛ فلا تنفر الناس بل لِنْ لهم ، حتى في الدعوة إلى الله عز وجل لا تدعُهم إلى الله دعوة منفر ، لا تقل إذا رأيت إنسانًا على خطأ : يا فلان أنت خالفت ، أنت عصيت ، أنت فيك ... إلى آخره ، هذا ينفرهم ويزيدهم في التمادي في المعصية ، ولكن ادعهم بهون ولين حتى يألفك ويعرف ما تدعو إليه ، وبذلك تمتثل أمر النبي ﷺ في قوله : « بشروا ولا تنفروا » .

فخذ هذا الحديث أيها الأخ رأس مال لك « يسروا ولا تعسروا ، وبشروا ولا تنفروا » سر إلى الله عز وجل على هذا الأصل ، وعلى هذا الطريق ، وسر مع عباد الله على ذلك تجد الخير كله .

* * *

٦٣٨ - وعن جرير بن عبد الله رضي الله عنه قال : سمعتُ رسول الله ﷺ يَقُولُ : «مَنْ يُحْرَمِ الرِّفْقَ يُحْرَمِ الخَيرَ كُلَّهُ » [٣] رواه مسلم .

٦٣٩ - وعن أبي هريرة رضي الله عنه أَنَّ رَجُلًا قال للنبيِّ ﷺ : أَوصِني قال : « لا تَغْضَبْ » فَرَدَّدَ مِرارًا ، قال : « لا تَغْضَبْ » [٤] . رواه البخاري .

الشرح

ذكر المؤلف رحمه الله حديثًا فيه الأمر بالرفق والحث عليه ، حيث قال النبي ﷺ : « من يحرم الرفق يحرم الخير كله » يعني أن الإنسان إذا حرم الرفق في الأمور فيما يتصرف فيه لنفسه ، وفيما يتصرف فيه مع غيره ، فإنه يحرم الخير كله أي فيما يتصرف فيه ، فإذا تصرف الإنسان بالعنف والشدة فإنه يحرم الخير فيما فعل .

وهذا شيءٌ مجرب ومشاهد أن الإنسان إذا صار يتعامل بالعنف والشدة ؛ فإنه يحرم الخير ولا ينال الخير ، وإذا كان يتعامل بالرفق والحلم والأناة وسعة الصدر ، حصل على خير كثير ، وعلى هذا فينبغي للإنسان الذي يريد الخير أن يكون دائمًا رفيقًا حتى ينال الخير .

---

(١) أخرجه البخاري في الأذان (٧٠٥) ومسلم في الصلاة (١٧٨) .
(٢) أخرجه البخاري في الأذان بنحوه (٧٢) والبيهقي في السنن (١١٥/٣) بلفظه .
(٣) أخرجه مسلم في البر والصلة (٧٤) وأبو داود في سننه (٤٨٠٩) وابن ماجه في السنن (٣٦٨٧) .
(٤) أخرجه البخاري في الأدب (٦١١٦) والإمام أحمد في مسنده (١٧٥/٢ ، ٣٦٢) .

أما حديث أبي هريرة : أن رجلًا قال : يا رسول الله ، أوصني ، قال : « لا تغضب » فردد مرارًا وهو يقول أوصني ، فقال : « لا تغضب » والمعنى : لا تكن سريع الغضب يستثيرك كل شيء ، بل كن مطمئنًا متأنيًا ؛ لأن الغضب جمرة يلقيها الشيطان في قلب الإنسان حتى يغلي القلب ، ولهذا تنتفخ الأوداج ؛ عروق الدم ، وتحمر العين ، ثم ينفعل الإنسان حتى يفعل شيئًا يندم عليه .

وإنما أوصى النبي ﷺ هذا الرجل ألا يغضب دون أن يوصيه بتقوى الله أو بالصلاة أو بالصيام أو ما أشبه ذلك ، لأن حال هذا الرجل تقتضي ذلك ، ولهذا أوصى غيره بغير هذا الشيء ؛ أوصى أبا هريرة أن يصوم ثلاثة أيام من كل شهر ، وأن يوتر قبل أن ينام [١] ، وأوصى أبا الدرداء بمثل ذلك ، أما هذا فأوصاه ألا يغضب ، وأوصاه ألا يغضب لأن النبي ﷺ . علم من حاله أنه غضوب كثير الغضب ، فلذلك قال : « لا تغضب » .

والغضب يحمل الإنسان على أن يقول كلمة الكفر ، أو أن يطلق زوجته ، أو أن يضرب أمه ، أو أن يعق أباه ، كما هو مشاهد ومعلوم ، ثم تجد الإنسان من حين أن يتصرف يبرد ثم يندم ندمًا عظيمًا ، وما أكثر الذين يسألون : غضبت على زوجتي فطلقتها ثلاثًا ، وما أشبه ذلك ، فأنت لا تغضب . لا تغضب ؛ فإن الغضب لا شك أنه يؤثر على الإنسان حتى يتصرف تصرف المجانين .

ولهذا قال بعض العلماء : إن الإنسان إذا غضب غضبًا شديدًا حتى لا يدري ما يقول ؛ فإنه لا عبرة بقوله ، ولا أثر لقوله ؛ إن كان طلاقًا فإن امرأته لا تطلق ، وإن كان دعاءً فإنه لا يستجاب ؛ لأنه يتكلم بدون عقل وبدون تصور . نسأل الله لنا وللمسلمين العافية والسلامة .

* * *

٦٤٠ – وعن أبي يَعلَى شدَّاد بن أوسٍ ؓ عن رسول الله ﷺ قال : « إنَّ اللهَ كَتَبَ الإِحسَانَ عَلى كُلِّ شَيءٍ ، فإذا قَتَلتُم فَأَحسِنُوا القِتْلَة وَإذَا ذَبَحْتُمْ فَأَحْسِنُوا الذِّبْحَةَ ، وَلْيُحِدَّ أَحَدُكُم شَفْرَتَه ، وَليُرِح ذَبِيحَتَهُ » [٢] رواه مسلم .

الشرح

نقل المؤلف ؒ في كتابه رياض الصالحين في باب الحلم والرفق والأناة في سياق الأحاديث الواردة في ذلك ، نقل عن شداد بن أوس ؓ أن النبي ﷺ قال : « إن الله كتب الإحسان على كل شيء ، فإذا فأحسنوا القتلة ، وإذا ذبحتم فأحسنوا الذبحة » .

كتبه على كل شيء : يعني كتب الإحسان في كل شيء ، أي أن الله ﷻ شرع الإحسان في كل شيء ، حتى في القتل ، وحتى في الذبح ، وفي غير ذلك من الأمور . عليك أن تكون محسنًا لما تقوم به .

« فإذا قتلتم فأحسنوا القتلة ، وإذا ذبحتم فأحسنوا الذبحة » . وذلك لأن إزهاق النفوس يكون

---

(١) انظر أبو داود في الصلاة (١٤٢٣) وأحمد في مسنده (٢/٣٢٩) .

(٢) أخرجه مسلم في الصيد والذبائح (٥٧) وأبو داود في الأضاحي (٢٨١٥) والترمذي في الديات (١٤٠٩) .

بالقتل أحيانًا ، وبالذبح أحيانًا .

فالذبح والنحر يكون فيما يحل أي فيما يؤكل ، ويكون النحر للإبل والذبح فيما سواها ، والنحر يكون في أسفل الرقبة مما يلي الصدر ، والذبح يكون في أعلى الرقبة مما يلي الرأس ، ولابد في الذبح والنحر من قطع الودجين ، وهما العرقان الغليظان يجري منهما الدم إلى بقية البدن ؛ لأن النبي ﷺ قال : « ما أنهر الدم وذكر اسم اللَّه عليه فكلوا »[1] .

ولا ينهر الدم إلا قطع الودجين ، فالشرط في حل المذكى أو المنحور أن يقطع الودجان ، أما الحلقوم الذي هو مجرى النفس ، والمريء الذي هو مجرى الطعام ، فقطعهما أكمل في الذبح والنحر ، ولكن ليس ذلك بشرط .

أما القتل فيكون فيما لا يحل أكله ، فيما أمر بقتله ، وفيما أبيح قتله ، ومما أمر بقتله : الفأر ، وكذلك العقرب ، وكذلك الحية ، وكذلك الكلب العقور[2] ، فتقتل هذه الأشياء ، وكذلك كل مؤذٍ فإنه يقتل .

وعند العلماء قاعدة تقول : ما آذى طبعًا قتل شرعًا ، يعني ما كان طبيعته الأذى فإنه يقتل شرعًا ، وما لم يؤذ طبعًا ولكن صار منه أذية فلك قتله ، لكن هذا الأخير مقيد ، فلو آذاك النمل في البيت ، فصار يحفر البيت ويفسده فلك قتله وإن كان منهيًا عنه في الأصل ، لكن إذا آذاك فلك قتله ، وكذلك غيره مما لا يؤذي طبعًا ولكن تعرض منه الأذية فاقتله إذا لم يندفع إلا بالقتل .

فمثلًا إذا أردت أن تقتل فأرة وقتلها مستحب فأحسن القتلة ، اقتلها بما يزهق روحها حالًا ، ولا تؤذها ، ومن أذيتها ما يفعله بعض الناس حيث يضع لها شيئًا لاصقًا تلتصق به ، ثم يدعها تموت جوعًا وعطشًا ، وهذا لا يجوز ، فإذا وضعت هذا اللاصق فلا بد أن تكرر مراجعته ومراقبته ، حتى إذا وجدت فيه شيئًا لاصقًا قتلته .

أما أن تترك هذا اللاصق يومين أو ثلاثة وتقع فيه الفأرة وتموت عطشًا أو جوعًا ، فإنه يخشى عليك أن تدخل النار بذلك ؛ لأن النبي ﷺ قال : « دخلت النار امرأة في هرة حبستها ، حتى ماتت لا هي أطعمتها ولا هي أرسلتها تأكل من خشاش الأرض »[3] .

المهم أن ما يشرع قتله بأقرب ما يكون من إهلاكه وإتلافه ، ومن ذلك الوزغ الذي يسمى السام الأبرص ، ويسمى البرص أيضًا ، اقتله واحرص على أن تقتله بأن يموت في أول مرة ، فهو أفضل وأعظم أجرًا وأيسر له ، وكذلك بقية الأشياء التي تقتل .

ومن ذلك من يقتل قصاصًا ، لكن الذي يقتل قصاصًا فإنه يفعل به كما فعل في المقتول ، ودليل ذلك : أن النبي ﷺ رفع إليه قضية امرأة أتاها يهودي ، وكان معها حلي ، فقتلها وأخذ الحلي ، لكن

---

(١) انظر ذلك في البخاري في بدء الخلق (٣٣١٤) .

(٢) انظر صحيح مسلم في الأضاحي (٢٠) والإمام أحمد في مسنده (١٤٢/٤) .

(٣) روى الشيخ الحديث بمعناه ، والحديث أخرجه البخاري في بدء الخلق (٣٣١٨) ومسلم في البر والصلة (١٣٥) والتوبة (٢٥) .

كيف قتلها ، وضع رأسها على حجر وقتلها بحجر ثان ، فرض رأسها بين حجرين .

فأُتي إليها وفيها رمق من حياة ، فقيل لها : من قتلك ، حتى ذكروا اليهودي فأشارت برأسها أن نعم ، فأخذوا اليهودي فاعترف ، فأمر النبي ﷺ أن يرض برأسه بين حجرين ، فوضع رأسه على حجر ثم ضرب بالحجر الثاني حتى مات [1] ؛ لأن هذا قصاص ، والله ﷻ يقول : ﴿ فَمَنِ ٱعْتَدَىٰ عَلَيْكُمْ فَٱعْتَدُوا۟ عَلَيْهِ بِمِثْلِ مَا ٱعْتَدَىٰ عَلَيْكُمْ ﴾ [البقرة : ١٩٤] .

لكن لو وجب قتله بالحرابة يعني أنه صار يقطع الطريق على الناس ؛ يأخذ الأموال ، ويقتل الناس ، فهذا يقتل ، لكن يقتل بالسيف ، إلا إذا كان قد مثَّل بمن قتله فيمثل به حسبما فعل ، فيفعل به كما فعل .

فإن قال قائل : ما تقولون في الرجل إذا زنا وهو محصن ؛ فإنه يرجم بالحصى ، أي بالحجر الصغير حتى يموت ، وهذا يؤلمه ويؤذيه قبل أن يموت ، فهل يعارض ذلك هذا الحديث ؟

فالجواب : لا . لا يعارضه ؛ لأنه يحمل على أحد أمرين :

الأول : إما أن يراد بإحسان القتلة ما وافق الشرع ، وحينئذ يكون الرجم من إحسان القتلة ؛ لأنه موافق للشرع .

والثاني : إما أن يقال : هذا مستثنى دلت عليه السنة ، بل دل عليه القرآن الذي نسخ لفظه وبقي حكمه ، ودل عليه صريح السنة .

فالزاني المحصن الذي تزوج وجامع زوجته ، إذا زنا والعياذ بالله فإنه يؤتى به ، وتؤخذ حجارة صغيرة أقل من البيضة ومثل التمرة تقريبًا أو أكبر قليلًا ويرجم حتى يموت ، ويتقي المقاتل ؛ يعني لا يضرب في موضع يموت به سريعًا ، بل يضرب على ظهره وبطنه وما أشبه ذلك حتى يموت ؛ لأن هذا هو الواجب .

والحكمة من هذا : أن البدن الذي تلذذ بالشهوة المحرمة ، عمت الشهوة جميع بدنه ، فمن الحكمة أن تعم العقوبة جميع بدنه وهذا من حكمة الله ﷻ .

ثم قال النبي ﷺ : « وليحد أحدكم شفرته » ، اللام هنا للأمر ، ويحد : يعني يجعلها حديدة سريعة القطع ، والشفرة : السكين .

يعني إذا أردت أن تذبح فاذبح بسكين مشحوذة أي مسنونة ، بحيث يكون ذلك أقرب إلى القطع بدون ألم .

« وليرح ذبيحته » هذا أمر زائد على شحذ الشفرة ، وذلك بأن يقطع بقوة ، فيضع السكين ، على الرقبة ثم يجرها بقوة ، حتى يكون ذلك أسرع من كونه يجرها مرتين أو ثلاث ، وبعض الناس يوفقه الله ومن مرة واحدة يقطع الودجين والحلقوم والمريء ؛ لأنه يأخذ السكين بقوة ، وتكون السكين جيدة

---

(١) انظر الحديث في البخاري في الخصومات (٢٤١٣) ومسلم في القسامة (١٧) .

مشحوذة ، فيسهل على الذبيحة أو المنحورة الموت .

ومن إراحة الذبيحة : أن تضع رجلك عل رقبتها ، وتمسك الرأس باليد اليسرى وتذبح باليمني ، وحينئذ تكون مضطجعة على الجنب الأيسر ، ودع القوائم اليدين والرجلين وخلّها تتحرك بسهولة ؛ لأنك إذا أمسكت بها فإن هذا ضغط عليها ، وإذا تركتها تحرك يديها ورجليها كان هذا أيسر لها ، وهناك أيضًا فائدة من ذلك وهي تفريغ الدم بهذه الحركة ؛ لأنه مع الحركة والاضطراب يتفرغ الدم أكثر ، وكلما تفرغ فهو أحسن .

وأما ما يفعله بعض العامة من أنه يأخذها بيدها اليسرى ويلويها على عنقها ، ثم يبرك على قوائمها الثلاث رجل ويمسك بها حتى لا تتحرك أبدًا ؛ فهذا خلاف السنة ، السنة أن تضع الرجل على الرقبة ثم تدع القوائم تتحرك ؛ لأن ذلك أيسر لها وأشد تفريغًا للدم .

فالشاهد من الحديث قوله ﷺ : « إذا قتلتم فأحسنوا القتلة ، وإذا ذبحتم فأحسنوا الذبحة » فإن هذا من الرفق .

ولنتنبه إلى الإنسان إذا قتل بحد ، يعني قتل وهو زان أو قتل قصاصًا ؛ فإنه يصلى عليه ، ويدعى له بالرحمة والعفو مثل سائر المسلمين ، لعل اللّه أن يعفو عنه ويرحمه .

أما من قُتل كافرًا مرتدًا ؛ فإنه لا يدعى له بالرحمة ، ولا يغسل . مثل أن يقتل إنسان لا يصلي ؛ فإنه يقتل مرتدًا كافرًا ، فلا يغسل ولا يكفن ، ولا يصلى عليه ، ولا يدفن مع المسلمين ، ولا يدعى له بالرحمة ، ومن دعا له بالرحمة ؛ فإنه آثم متبع غير سبيل المؤمنين ؛ لقول اللّه تعالى : ﴿ مَا كَانَ لِلنَّبِيِّ وَالَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ أَن يَسْتَغْفِرُوا۟ لِلْمُشْرِكِينَ وَلَوْ كَانُوٓا۟ أُو۟لِى قُرْبَىٰ مِنۢ بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُمْ أَصْحَٰبُ ٱلْجَحِيمِ ﴾ [التوبة : ١١٣] .

* * *

٦٤١ - وعن عائشة رضي الله عنها ، قالت : مَا خُيِّرَ رسول اللّه ﷺ بَيْنَ أَمْرِينِ قَطُّ إلا أَخَذَ أَيْسَرَهُمَا ، مَا لَم يَكُن إثمًا ، فَإن كَانَ إثمًا ، كَانَ أَبعَد النّاسِ مِنْهُ ، وَمَا انتقَمَ رسول اللّه ﷺ لِنَفْسِهِ في شَيءٍ قَطُّ ، إلَّا أَن تُنْتهك حُرمَةُ اللّهِ ، فَيَنْتَقِمَ للّهِ تعالى [1] . متفقٌ عليه .

٦٤٢ - وعن ابن مسعود رضي الله عنه قال : قال رسول اللّه ﷺ : « أَلا أُخْبِرُكُمْ بِمَنْ يَحْرُمُ عَلى النَّارِ - أَو بِمَنْ تَحْرُمُ عَلَيهِ النَّارُ ؟ - تَحْرُمُ عَلى كُلِّ قَرِيبٍ هَيِّنٍ لَيِّنٍ سَهْلٍ » [2] .

* * *

(١) هذا الحديث لم يشرحه الشارح رحمه الله ، وأخرجه البخاري في المناقب (٣٥٦٠) ومسلم في الفضائل (٧٧) ، قوله « إثمًا » أي معصية ، قوله « إلا أن تنتهك حرمة اللّه » انتهاكها بارتكاب المحرمات .

(٢) هذا الحديث لم يشرحه الشارح رحمه الله ، أخرجه الترمذي في صفة القيامة (٢٤٨٨) وابن حبان (١٠٩٧) ، قوله « قريب » أي من الناس بحسن ملاطفته لهم ، قوله « هين » من الهون وهو السكينة والوقار والسهولة ، يقضي حوائجهم ويسهل أمورهم .

٧٥ - باب العفو والإعراض عن الجاهلين

قال اللَّه تعالى : ﴿ خُذِ ٱلْعَفْوَ وَأْمُرْ بِٱلْعُرْفِ وَأَعْرِضْ عَنِ ٱلْجَٰهِلِينَ ﴾ [الأعراف : ١٩٩] .

وقال تعالى : ﴿ فَٱصْفَحِ ٱلصَّفْحَ ٱلْجَمِيلَ ﴾ [الحجر : ٨٥] .

وقال تعالى : ﴿ وَلْيَعْفُواْ وَلْيَصْفَحُوٓاْ أَلَا تُحِبُّونَ أَن يَغْفِرَ ٱللَّهُ لَكُمْ ﴾ [النور : ٢٢] .

وقال تعالى : ﴿ وَٱلْعَافِينَ عَنِ ٱلنَّاسِ وَٱللَّهُ يُحِبُّ ٱلْمُحْسِنِينَ ﴾ [آل‌عمران: ١٣٤] .

وقال تعالى : ﴿ وَلَمَن صَبَرَ وَغَفَرَ إِنَّ ذَٰلِكَ لَمِنْ عَزْمِ ٱلْأُمُورِ ﴾ (١) [الشورى : ٤٣] .

والآيات في الباب كثيرة معلومة .

٦٤٣ - وعن عائشة رضي الله عنها أنها قالت للنبيِّ ﷺ : هل أَتى عَلَيكَ يَومٌ كَانَ أَشَدَّ مِنْ يَومِ أُحُدٍ؟ قال : « لَقَدْ لَقِيتُ مِنْ قَومِكِ (٢) ، وَكَانَ أَشَدُّ مَا لَقِيتُ مِنْهُمْ يَومَ العَقَبَةِ ، إِذْ عَرَضْتُ نفْسِي عَلى ابْنِ عَبْدِ يَاليلَ بنِ عَبْدِ كُلالٍ ، فَلَمْ يُجِبْني إِلى ما أَرَدْتُ ، فَانْطَلَقْتُ وَأَنَا مَهْمومٌ عَلى وَجْهِي ، فَلَمْ أَسْتَفِقْ إِلا وَأَنَا بِقَرن الثَّعَالِبِ ، فَرفعْتُ رَأْسِي ، فَإِذا أَنَا بسَحابَةٍ قَدِ أَظَلَّتني ، فَنَظَرتُ فَإِذا فِيها جبريلُ عليه السلام ، فَنَاداني فقال : إِنَّ اللَّه تعالى قَدِ سَمِعَ قَولَ قَومِكَ لَكَ ، وَما رَدُّوا عَلَيكَ ، وَقَد بعثَ إِلَيكَ مَلَكَ الجبَال لِتَأْمُرَهُ بمَا شِئْتَ فِيهم ، فَنَادَاني مَلَكُ الجبَالِ ، فَسَلَّمَ عَلَيَّ ثُمَّ قال : يَا مُحَمَّدُ إِنَّ اللَّهَ قَد سَمِعَ قَولَ قَومِكَ لَكَ ، وَأَنَا مَلَكُ الجبالِ ، وَقَدْ بَعَثَني رَبِّي إِلَيكَ لِتَأْمُرَني بِأَمْرِكَ فَمَا شئتَ : إِنْ شئْتَ أَطبَقْتُ عَلَيهِمُ الأَخْشَبَين ، فقال النبي ﷺ : بَل أَرْجو أَنْ يُخْرِجَ اللَّهُ مِنْ أَصْلابِهِمْ مَنْ يَعْبُدُ اللَّهَ وَحْدَهُ لا يُشْرِكُ بِه شيئًا » (٣) متفقٌ عليه .

« الأَخْشَبَان » : الجَبَلان المُحِيطَان بمكَّة . والأَخْشَبُ : هو الجبل الغليظ .

الشرح

قال المؤلف النووي : باب العفو والإعراض عن الجاهلين . ثم ساق آيات تكلمنا عليها سابقًا في أبواب سبقت .

ثم ذكر حديث عائشة رضي الله عنها أنها سألت النبي ﷺ : « هل مر عليك يوم كان أشد من يوم أحد ؟ » لأن يوم أحد كان شديدًا على رسول اللَّه ﷺ (٤) .

ويوم أحد كان غزوة غزاها النبي ﷺ حين تجمعت قريش لغزوه ، لينتقموا من النبي ﷺ فيما حصل من قتل زعمائهم في بدر ؛ لأنه قتل في بدر وهي في السنة الثانية من الهجرة - من زعمائهم أناس لهم شرفٌ وجاه في قريش .

---

(١) ﴿ لَمِنْ عَزْمِ ٱلْأُمُورِ ﴾ : أي من الأمور التي ندب إليها .

(٢) أي من قريش . وحذف هنا مفعول (لقيت) والمقصود ما لقيت .

(٣) أخرجه البخاري في بدء الخلق (٣٢٣١) ومسلم في الجهاد والسير (١١١) واللفظ له .

(٤) انظر الأحاديث الواردة في غزوة أحد في البخاري في المغازي من الحديث (٤٠٤١) وحتى (٤٠٨٢) .

وفي شوال من السنة التي تليها ، وهي الثالثة من الهجرة ، اجتمعت قريش فجاءوا إلى المدينة ليغزوا النبي ﷺ ، ولما سمع بهم النبي ﷺ ، استشار أصحابه هل يخرج إليهم ، أم يبقى بالمدينة ؛ فإذا دخلوا المدينة قاتلهم ، فأشار عليه الشباب والذين لم يحضروا بدرًا أن يخرج إليهم ، فخرج إليهم ﷺ في نحو ألف مقاتل .

إلا أنه انخذل نحو ثلث الجيش ؛ لأنهم كانوا منافقين والعياذ بالله ، وقالوا : لو نعلم قتالًا لا تبعناك ، فبقي النبي ﷺ في نحو سبعمائة نفر ، ورتبهم النبي ﷺ أحسن ترتيب في سفح جبل أحد ، وحصل القتال ، وانهزم المشركون في أول النهار ، وبدأ المسلمون يجمعون الغنائم .

وكان النبي ﷺ قد جعل على ثغر الجبل خمسين رجلًا راميًا يحمون ظهور المسلمين ، ولما رأى هؤلاء الرماة أن المسلمين هزموا المشركين وصاروا يجمعون الغنائم ، قالوا : لننزل من الجبل نساعد المسلمين على جمع الغنائم ، هكذا ظنوا ، فذكرهم أميرهم عبد الله بن جبير بما قاله النبي ﷺ ، حيث إن النبي ﷺ لما وضعهم في هذا المكان قال : لا تبرحوا مكانكم ، ولا تتعدوه سواءٌ لنا أو علينا ، لكنهم - عفا الله عنهم - تعجلوا ونزل أكثرهم .

فلما رأى فرسان قريش مكان الرماة خاليًا كروا [١] على المسلمين من الخلف ، ومنهم خالد بن الوليد وعكرمة بن أبي جهل ، اللذان أسلما فيما بعد وصارا فارسين من فوارس المسلمين ، وذلك فضل الله يؤتيه من يشاء . فدخلوا على المسلمين من خلفهم واختلطوا بهم ، واستشهد من المسلمين سبعون رجلًا ، على رأسهم أسد الله وأسد رسوله حمزة بن عبد المطلب عم النبي ﷺ ، وكان النبي ﷺ يحبه ويجله . وحصل للنبي ﷺ ما حصل ؛ ضربوا وجهه وشجوه وصار الدم ينزف على وجهه ، وفاطمة رضي الله عنها تغسل الدم حتى إذا لم يتوقف أحرقت حصيرًا - يعني خصيفًا من سعف النخل - وذرته عليه حتى وقف ، وكسروا رباعيته ﷺ ، وحصل من البلاء ما حصل . حصل بلاء عظيم قال الله تعالى فيه : ﴿ أَوَ لَمَّآ أَصَٰبَتۡكُم مُّصِيبَةٞ قَدۡ أَصَبۡتُم مِّثۡلَيۡهَا قُلۡتُمۡ أَنَّىٰ هَٰذَاۖ قُلۡ هُوَ مِنۡ عِندِ أَنفُسِكُمۡۗ إِنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَيۡءٖ قَدِيرٞ ۝١٦٥ وَمَآ أَصَٰبَكُمۡ يَوۡمَ ٱلۡتَقَى ٱلۡجَمۡعَانِ فَبِإِذۡنِ ٱللَّهِ وَلِيَعۡلَمَ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ ﴾ [آل عمران : ١٦٥، ١٦٦] .

فما دام الأمر بإذنه فهو خير ، وحصل في هذا ما حصل من الشدة على النبي ﷺ وعلى أصحابه ، وحملوا الشهداء إلى المدينة ، ولكن النبي ﷺ أمر أن يردوا إلى مصارعهم إلى المكان الذي استشهدوا فيه ودفنوا هناك ، ليخرجوا يوم القيامة من هذا المكان الذي استشهدوا فيه رضي الله عنهم وأرضاهم .

فقال النبي ﷺ لعائشة لما سألته : هل مر عليك يوم أشد من يوم أحد ؟ قال : « نعم » وذكر لها قصة ذهابه إلى الطائف ؛ لأن النبي ﷺ لما دعا قريشًا في مكة ، ولم يستجيبوا له خرج إلى الطائف ، ليبلغ كلام الله عز وجل ، ودعا أهل الطائف لكن كانوا أسفه من أهل مكة ، حيث اجتمعوا هم وسفهاؤهم ، وصاروا صفين متقابلين في طريق النبي ﷺ ، وجعلوا يرمونه بالحجارة ، يرمونه بالحصى حتى أدموا عقبه ﷺ وخرج مغمومًا مهمومًا .

---

(١) كروا : أي رجعوا . المعجم الوسيط (٨١٣/٢) .

ولم يفق ﷺ إلا وهو في قرن الثعالب ، فأظلته غمامة فرفع رأسه ، فإذا في هذه الغمامة جبريل عليه السلام ، وقال له : هذا ملك الجبال يقرؤك السلام ، فسلم عليه وقال : إن ربي أرسلني إليك ، فإن شئت أن أطبق عليهم - يعني الجبلين - فعلت .

ولكن النبي ﷺ لحلمه وبعد نظره وتأنيه في الأمر قال : لا ؛ لأنه لو أطبق عليهم الجبلين هلكوا ، فقال : « لا ، بل أرجو أن يخرج اللَّه من أصلابهم من يعبد اللَّه وحده لا يشرك به شيئًا » .

وهذا الذي حصل ؛ أن اللَّه قد أخرج من أصلاب هؤلاء المشركين الذين آذوا الرسول ﷺ هذه الأذية العظيمة ، أخرج من أصلابهم من يعبد اللَّه وحده ولا يشرك به شيئًا . فهذا يبين أن الرسول ﷺ حصل له أشد مما حصل له في أحد ، وحصل له أنواع من الأذى لكنه صابر .

ومن أعظم ما كان : أنه كان ذات يوم ساجدًا تحت الكعبة ، يصلي للَّه - والمسجد الحرام لو يجد الإنسان فيه قاتل أبيه ما قتله - فقال بعض السفهاء من قريش والمعتدين منهم : اذهبوا إلى جزور آل فلان فأتوا بسلاها فضعوه على محمد وهو ساجد ، فذهبوا وأتوا بسلا الجذور ، والرسول ﷺ ساجدٌ تحت الكعبة ، فوضعوه على ظهره ، إهانة له وإغاظة له . فبقي الرسول ﷺ ساجدًا حتى جاءت بنته فاطمة رضي الله عنها وألقت السلا عن ظهره ، فقام من السجود ، ولما سلم رفع يديه يدعو اللَّه تعالى على هؤلاء الملأ من قريش [١] .

فالشاهد أن الرسول ﷺ كان يؤذى أشد الأذى ، ومع ذلك يعفو ويصفح ويتأنى ويترجى ، فبلغه اللَّه - وللَّه الحمد - مراده وحصل له النصر المبين المؤزر .

وهكذا ينبغي للإنسان أن يصبر على الأذى ، لا سيما إذا أوذي في اللَّه ؛ فإنه يصبر ويحتسب وينتظر الفرج ، وقد قال النبي ﷺ : « واعلم أن النصر مع الصبر ، وأن الفرج مع الكرب ، وأن مع العسر يسرًا » [٢] .

* * *

٦٤٤ - وعنها قالت : ما ضَرَبَ رسول اللَّه ﷺ شَيئًا قَطُّ بِيَدِهِ ، وَلا امْرَأَة ولا خادِمًا ، إلا أَن يُجَاهِدَ في سَبيل اللَّه ، وما نِيلَ مِنْهُ شَيءٌ قَطُّ فَيَنْتَقِمَ مِنْ صَاحِبِهِ ، إلَّا أنْ يُنْتَهَكَ شَيءٌ مِنْ مَحَارِمِ اللَّهِ [٣] تعالى ، فَيَنْتَقِمَ للَّهِ تعالى [٤] . رواه مسلم .

٦٤٥ - وعن أَنس رضي الله عنه قال : كُنتُ أَمْشِي مَعَ رسول اللَّه ﷺ ، وعليه بُرْدٌ نَجْرَانِيٌّ [٥] غَليظُ الحَاشيَةِ ، فأَدرَكَهُ أَعْرَابِيٌّ ، فَجَبَذَهُ [٦] بِرِدَائِهِ جَبْذَةً شَديدَةً ، فَنَظَرْتُ إلى صَفْحَة [٧] عَاتِقِ [٨] النَّبيِّ

---

(١) انظر الحديث في البخاري في الجهاد (٢٩٣٤) وأحمد في مسنده (٤١٧/١) .
(٢) أخرجه أحمد في مسنده (٣٠٧/١) .
(٣) ينتهك شيء من محارم اللَّه : أي بارتكاب المحرمات .
(٤) أخرجه مسلم في الفضائل (٧٩) .
(٥) كساء يلتحف به ، ونجراني أي منسوب إلى نجران من بلاد همدان من اليمن .
(٦) فجبذه : قيل إنه لغة في جذب . وقيل : إنه مقلوبه .
(٧) صفحة : أي جانب ما .
(٨) عاتق : العاتق ما بين العنق والكتف .

ﷺ ، وَقَد أَثَّرَت بها حَاشيَةُ الرِّدَاءِ مِنْ شِدَّةِ جبذَتِهِ ، ثُمَّ قال : يَا مُحَمَّدُ مُرْ لي مِن مَالِ اللّهِ الَّذي عِندَكَ . فَالتفَتَ إِليهِ ، فَضَحك ، ثُمَّ أَمَرَ لَهُ بِعَطَاءٍ [١] . متفقٌ عليه .

الشرح

هذه الأحاديث ساقها النووي رحمه الله في باب العفو والإعراض عن الجاهلين ، منها حديث عائشة رضي الله عنها أن النبي ﷺ ما ضرب أحدًا ؛ لا خادمًا ولا غيره بيده إلا أن يجاهد في سبيل الله ، وهذا من كرمه ﷺ ؛ أنه لا يضرب أحدًا على شيء من حقوقه هو الخاصة به ؛ لأن له أن يعفو عن حقه ، وله أن يأخذ بحقه .

ولكن إذا انتهكت محارم الله فإنه ﷺ لا يرضى بذلك ، ويكون أشد ما يكون أخذًا بها ، لأنه ﷺ لا يقر أحدًا على ما يغضب الله ﷻ ، وهكذا ينبغي للإنسان أن يحرص على أخذ العفو ، وما عفي من أحوال الناس وأخلاقهم ويعرض عنهم ، إلا إذا انتهكت محارم الله ، فإنه لا يقر أحدًا على ذلك .

ومن الأحاديث التي ساقها قصة هذا الأعرابي ، الذي لحق النبي ﷺ وعليه جبة نجرانية غليظة الحاشية ، فجبذه ، يعني : جذبه جذبًا شديدًا ، حتى أثرت حاشية الجبة في عنق الرسول ﷺ من شدة الجذب ، فالتفت فإذا هو أعرابي يطلب منه عطاءً ، فضحك النبي ﷺ وأمر له بعطاء .

فانظر إلى هذا الخلق الرفيع ؛ لم يوبخه النبي ﷺ ، ولم يضربه ، ولم يكهر [٢] في وجهه ، ولم يعبس ؛ بل ضحك ﷺ ومع هذا أمر له بعطاء ، ونحن لو أن أحدًا فعل بنا هذا الفعل ما أقررناه عليه بل لضاربناه ، وأما الرسول ﷺ الذي قال الله فيه ﴿ وَإِنَّكَ لَعَلَىٰ خُلُقٍ عَظِيمٍ ﴾ [القلم : ٤] فإنه التفت إليه ، وضحك إليه ، وأعطاه العطاء .

وهكذا ينبغي للإنسان أن يكون ذا سعة ، وإذا اشتد الناس أن يسترخي هو .

وسئل معاوية رضي الله عنه بم سست الناس ؟ ؛ وذلك لأن معاوية معروف بالسياسة والحكمة ، فقال : أجعل بيني وبين الناس شعرة ؛ إن جذبوها تبعتهم ، وإن جذبتها تبعوني ، لكن لا تنقطع .

ومعنى كلامه أنه سهل الانقياد ، لأن الشعرة إذا جعلتها بينك وبين صاحبك إذا جذبها أدنى جذب انقطعت ، لكن من حسن سياسته رضي الله عنه كان يسوس الناس بهذه السياسة ؛ إذا رآهم مقبلين استقبلهم ، وإذا رآهم مدبرين تبعهم حتى يتمكن منهم .

فهكذا ينبغي للإنسان أن يكون دائمًا في سياسته رفيقًا حليمًا ، كما كان النبي ﷺ هكذا ، نسأل الله تعالى أن يرزقنا حسن الآداب والأخلاق .

* * *

(١) أخرجه بنحوه البخاري في اللباس (٥٨٠٩) ومسلم في الزكاة (١٢٨) .
(٢) كهر في وجهه أي قهره أو نهاه . المعجم الوسيط (٨٣٤/٢) .

٦٤٦ - وعن ابن مسعود رضي الله عنه قال : كأنِّي أنظُرُ إلى رسول اللَّه ﷺ يَحكِي نَبيًّا مِنَ الأنبياءِ ، صَلَوَاتُ اللَّه وَسَلامُه عَلَيهم ، ضَرَبَهُ قَومُهُ فَأدمَوهُ [١] ، وَهُوَ يَمسَحُ الدَّمَ عَنْ وَجهِهِ ، ويقول : « اللَّهُمَّ اغفِر لِقَومي فَإنَّهُم لا يَعْلَمُونَ » [٢] متفقٌ عليه .

٦٤٧ - وعن أبي هريرة رضي الله عنه أَن رسول اللَّه ﷺ قال : « لَيسَ الشَّديدُ بِالصُّرَعَةِ ، إنَّمَا الشَّدِيدُ الَّذِي يَمْلِكُ نَفْسَهُ عِنْدَ الغَضَبِ » [٣] متفقٌ عليه .

الشرح

ومن الأحاديث التي نقلها النووي رحمه الله في باب العفو والإعراض عن الجاهلين هذا الحديث ، عن ابن مسعود رضي الله عنه قال : كأني انظر إلى النبي ﷺ يحكي نبيًّا من الأنبياء ؛ ضربه قومه حتى أدموا وجهه ، فجعل يمسح الدم عن وجهه ، ويقول : « اللهم اغفر لقومي فإنهم لا يعلمون » .

وهذا من حلم الأنبياء وصبرهم على أذى قومهم ، وكم نال الأنبياء من أذى قومهم ؟! قال اللَّه تعالى : ﴿ وَلَقَدْ كُذِّبَتْ رُسُلٌ مِّن قَبْلِكَ فَصَبَرُواْ عَلَىٰ مَا كُذِّبُواْ وَأُوذُواْ حَتَّىٰٓ أَتَىٰهُمْ نَصْرُنَا ﴾ [الأنعام : ٣٤] .

فهذا النبي ﷺ الذي ضربه قومه حتى أدموا وجهه يقول : « اللهم اغفر لقومي فإنهم لا يعلمون » وكأن هؤلاء القوم كانوا مسلمين ، لكن حصل منهم مغاضبة مع نبيهم ففعلوا هذا معه ، فدعا لهم بالمغفرة ؛ إذ لو كانوا غير مسلمين لكان يدعو لهم بالهداية ، فيقول اللهم اهد قومي ، لكن الظاهر أنهم كانوا مسلمين .

والحق حقه ؛ فله أن يسمح عنه وله أن يتنازل عنه ، ولهذا كان القول الراجح فيمن سب النبي ﷺ ثم تاب أن توبته تقبل ، ولكنه يقتل ، وأما من سب اللَّه ثم تاب فإن توبته تقبل ولا يقتل ، وليس هذا يعني أن سب الرسول ﷺ أعظم من سب اللَّه ، بل سب اللَّه أعظم ، لكن اللَّه قد أخبرنا أنه يعفو عن حقه لمن تاب منه فهذا الرجل تاب فعلمنا أن اللَّه تعالى قد عفا عنه .

أما الرسول ﷺ فهو قد مات ، فإذا سبه أحد فقد امتهن حقه ، فإذا تاب فإن اللَّه يتوب عليه ويغفر له كفره ، الذي كفره بسبب سبه ، ولكن حق الرسول باق فيقتل .

ثم ذكر حديث أبي هريرة رضي الله عنه أن النبي ﷺ قال : « ليس الشديد بالصرعة » يعني ليس القوي الذي يصرع الناس إذا صارعهم ، والمصارعة معروفة وهي من الرياضة النبوية المباحة ، فإن الرسول ﷺ صارع ركانة بن عبد يزيد [٤] ، وكان هذا الرجل لا يصرعه أحد ، فصارعه النبي ﷺ

---

(١) أدموه : أي أجروا دمه بالجراحات .

(٢) أخرجه البخاري في أحاديث الأنبياء (٣٤٧٧) واللفظ له ومسلم في الجهاد والسير (١٠٥) .

(٣) أخرجه البخاري في الأدب (٦١١٤) ومسلم في البر والصلة (١٠٧) والإمام أحمد في مسنده (٢/٢٣٦ ، ٢٦٨ ، ٥١٧) .

(٤) انظر سنن أبي داود (٤٠٧٨) ، وسنن الترمذي (١٧٨٤) .

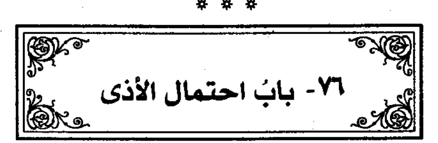
فصرعه النبي ﷺ .

فالصرعة هو الذي إذا صارع الناس صرعهم، وليس هذا هو الشديد حقيقة ، لكن الشديد الذي يصرع غضبه ، فإذا غضب غلب غضبه ، ولهذا قال : « إنما الشديد الذي يملك نفسه عند الغضب » هذا هو الشديد .

وذلك لأن الغضب جمرة يلقيها الشيطان في قلب ابن آدم فيفور دمه ، فإن كان قويًّا ملك نفسه ، وإن كان ضعيفًا غلبه الغضب ، وحينئذ ربما يتكلم بكلام يندم عليه ، أو يفعل فعلًا يندم عليه .

ولهذا قال رجل للرسول ﷺ : أوصني ، قال : « لا تغضب » قال : أوصني ، قال : « لا تغضب » ، قال : أوصني ، قال : « لا تغضب » ، ردد مرارًا وهو يقول : « لا تغضب » [1] لأن الغضب ينتج عنه أحيانًا مفاسد عظيمة ؛ ربما سب الإنسان نفسه ، أو سب دينه ، أو سب ربه ، أو طلق زوجته ، أو كسر إناءه ، أو أحرق ثيابه ، وكثير من الوقائع تصدر من بعض الناس إذا غضبوا ، كأنما صدرت من المجنون .ولهذا كان القول الراجح أن الإنسان إذا غضب حتى لا يملك نفسه ، ثم طلق زوجته ، فإنها لا تطلق [2] ، لأن هذا حصل عن غلبة ليس عن اختيار ، والطلاق عن الغلبة لا يقع كطلاق المكره .

* * *



٧٦- بابُ احتمال الأذى

قال اللّه تعالى :﴿ وَالْكَاظِمِينَ الْغَيْظَ وَالْعَافِينَ عَنِ النَّاسِ وَاللَّهُ يُحِبُّ الْمُحْسِنِينَ ﴾ [آلعمران : ١٣٤] .

وقال تعالى :﴿ وَلَمَن صَبَرَ وَغَفَرَ إِنَّ ذَلِكَ لَمِنْ عَزْمِ الْأُمُورِ ﴾ [الشورى : ٤٣] . وفي الباب : الأحاديث السابقة في الباب قبله .

٦٤٨ - وعن أبي هريرة رضي الله عنه أن رجلًا قال : يا رسولَ اللّه إنَّ لي قَرَابَةً أَصلُهم ويَقْطَعُوني ، وَأُحسِنُ إليهم ويُسِيئونَ إليَّ ، وأحلُمُ عنهم وَيجهَلُونَ عَلَيَّ ! فقال : « لَئِن كُنْتَ كَمَا قُلتَ فَكأَنَّمَا تُسِفُّهُمُ المَلَّ [3] ولا يَزَالُ مَعَكَ منَ اللّهِ تعالى ظَهيرٌ [4] عَلَيهم مَا دُمْتَ عَلى ذلكَ» [5] رواه مسلم . وقد سَبَقَ شَرْحُه في « بَابِ صلة الأرحام» .

---

(١) انظر حديث ٦٣٩ .

(٢) رأي الحنفية هو عدم وقوع طلاق الغضبان المدهوش ورأي الجمهور هو وقوع طلاقه . انظر فقه الكتاب والسنة للدكتور أمير عبد العزيز(٤٢٢/١) .

(٣) أي تجعلهم يطعمون الرماد الحار .

(٤) أي معين .

(٥) أخرجه مسلم في البر والصلة(٢٢) .

الشرح

قال المؤلف - رحمه اللّه تعالى - : باب الصبر على الأذى ، الأذى : هو ما يتأذى به الإنسان من قول أو عمل أو غير ذلك ، والأذى إما يكون في أمر ديني أو أمر دنيوي ، فإذا كان في أمر ديني ، بمعنى أن الرجل يؤذى من أجل دينه ، كان في هذا الصبر على الأذى أسوة بالرسل الكرام صلوات اللّه وسلامه عليهم أجمعين ، لأن اللّه يقول : ﴿ وَلَقَدْ كُذِّبَتْ رُسُلٌ مِّن قَبْلِكَ فَصَبَرُوا۟ عَلَىٰ مَا كُذِّبُوا۟ وَأُوذُوا۟ حَتَّىٰٓ أَتَىٰهُمْ نَصْرُنَا ﴾ [الأنعام : ٣٤] أوذوا حتى أتاهم نصر اللّه ﷻ .

والإنسان إذا كان معه دين ، وكان معه أمرٌ بالمعروف ونهيٌ عن المنكر فلابد أن يؤذى ، ولكن عليه بالصبر ، وإذا صبر فالعاقبة للمتقين ، ويُبتلى المرء على قدر دينه (١) ، فيسلط اللّه عليه من يؤذيه امتحانًا واختبارًا ، كما قال اللّه تعالى : ﴿ وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يَقُولُ ءَامَنَّا بِٱللَّهِ فَإِذَآ أُوذِىَ فِى ٱللَّهِ جَعَلَ فِتْنَةَ ٱلنَّاسِ كَعَذَابِ ٱللَّهِ ﴾ [العنكبوت : ١٠] يعني إذا أوذي في اللّه من جهة دينه وأمره بالمعروف ونهيه عن المنكر ودعوته للخير ، جعل هذه الفتنة كالعذاب ، فنكص على عقبيه والعياذ باللّه .

وهذا كقوله تعالى : ﴿ وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يَعْبُدُ ٱللَّهَ عَلَىٰ حَرْفٍ فَإِنْ أَصَابَهُۥ خَيْرٌ ٱطْمَأَنَّ بِهِۦ وَإِنْ أَصَابَتْهُ فِتْنَةٌ ٱنقَلَبَ عَلَىٰ وَجْهِهِۦ خَسِرَ ٱلدُّنْيَا وَٱلْءَاخِرَةَ ذَٰلِكَ هُوَ ٱلْخُسْرَانُ ٱلْمُبِينُ ﴾ [الحج : ١١] يعني أن بعض الناس يعبد اللّه على حرف ، وليس عنده عباده متمكنة ، فإن أصابه خير ولم تأته فتنة ولا أذية استمر واطمأن ، وإن أصابته فتنة من شبهة أو أذية أو ما أشبه ذلك انقلب على وجهه - والعياذ باللّه - خسر الدنيا والآخرة .

فالواجب الصبر على الأذى في ذات اللّه ﷻ .

واما الأذي فيما يتعلق بأمور الدنيا ومعاملة الناس ، فأنت بالخيار إن شئت فاصبر وإن شئت فخذ بحقك ، والصبر أفضل ، إلا إذا كان في الصبر عدوان واستمر في العدوان ، فالأخذ بحقك أولى .

فلنفرض أن لك جارًا يؤذيك ؛ بأصوات مزعجة ، أو دق الجدار ، أو إيقاف السيارة أمام بيتك ، أو ما أشبه ذلك ، فالحق لك ، وهو لم يؤذك في ذات اللّه ، فإن شئت فاصبر وتحمل وانتظر الفرج ، واللّه ﷻ يجعل لك نصيرًا عليه ، وإن شئت فخذ بحقك ، لقول اللّه تعالى : ﴿ وَلَمَنِ ٱنتَصَرَ بَعْدَ ظُلْمِهِۦ فَأُو۟لَٰٓئِكَ مَا عَلَيْهِم مِّن سَبِيلٍ ﴾ [الشورى : ٤١] ولكن الصبر أفضل مالم يحصل بذلك زيادة عدوان من المعتدي، فحينئذ الأفضل أن يأخذ بحقه ليردعه عن ظلمه .

ثم ذكر المؤلف رحمه الله آيتين سبق الكلام عليهما ؛ قوله تعالى : ﴿ وَٱلْكَٰظِمِينَ ٱلْغَيْظَ وَٱلْعَافِينَ عَنِ ٱلنَّاسِ ﴾ [آل عمران : ١٣٤] وقوله تعالى : ﴿ وَلَمَن صَبَرَ وَغَفَرَ إِنَّ ذَٰلِكَ لَمِنْ عَزْمِ ٱلْأُمُورِ ﴾ [الشورى : ٤٣] وسبق الكلام عليهما .

---

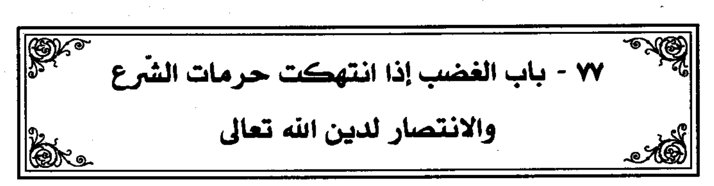
(١) حديث أخرجه الإمام أحمد في مسنده (٨٠/١) بلفظ « يبلى الرجل على قدر دينه » .

ثم ذكر حديث أبي هريرة ﷺ في رجل قال للنبي ﷺ : إن لي قرابة أصلهم ويقطعوني ، وأحسن إليهم ويسيئون إليَّ ، وأحلم عنهم ويجهلون عليَّ ، يعني : فماذا أصنع ؟ فقال النبي ﷺ : « لئن كنت كما قلت فكأنما تسفهم الملل ، ولا يزال معك من اللّٰه تعالى ظهيرٌ عليهم ما دمت على ذلك » يعني ناصر ، فينصرك اللّٰه عليهم ولو في المستقبل .

لأن هؤلاء القرابة والعياذ باللّٰه يصلهم قريبهم لكن يقطعونه ، ويحسن إليهم فيسيئون إليه ، ويحلم عليهم ويعفو ويصفح ولكن يجهلون عليه ويزدادون ، فهؤلاء قال النبي ﷺ : « فكانما تسفهم الملل » ، الملّ : الرماد الحار ، وتسفهم : يعني تلقمهم إياه في أفواهم ، وهو كناية عن أن هذا الرجل منتصر عليهم .

وليس الواصل لرحمه من يكافئ من وصله ، ولكن الواصل حقيقة هو الذي إذا قطعت رحمه وصلها ، فهذا هو الواصل حقًّا [(١)] ، فعلى الإنسان أن يصبر ويحتسب على أذية أقاربه وجيرانه وأصحابه وغيرهم ، فلا يزال من اللّٰه ظهيرٌ عليهم ، وهو الرابح ، وهم الخاسرون ، وفقنا اللّٰه لما فيه الخير والصلاح في الدنيا والآخرة .

* * *



٧٧ - باب الغضب إذا انتهكت حرمات الشّرع والانتصار لدين الله تعالى

قال اللّٰه تعالى : ﴿ وَمَن يُعَظِّمْ حُرُمَٰتِ ٱللَّهِ فَهُوَ خَيْرٌ لَّهُۥ عِندَ رَبِّهِۦ ﴾ [الحج : ٣٠] .

وقال تعالى : ﴿ إِن تَنصُرُوا۟ ٱللَّهَ يَنصُرْكُمْ وَيُثَبِّتْ أَقْدَامَكُمْ ﴾ [محمد : ٧]

وفي الباب حديث عائشة السابق في باب العفو .

٦٤٩ - وعن أبي مسعود عقبة بن عمرو البدريّ ﷺ قال : جَاءَ رَجُلٌ إلى النبيِّ ﷺ فقال : إني لأَتأَخَّر عَن صَلاةِ الصُّبحِ مِن أجْلِ فلانٍ مِمَّا يُطِيل بِنَا ! فَمَا رَأيتُ النَّبيَّ ﷺ غضِبَ في مَوعِظَةٍ قَطُّ أَشَدَّ مِمَّا غَضِبَ يَومئِذٍ ، فقال : « يَا أَيُّهَا النَّاس : إنَّ مِنْكم مُنَفِّرين . فأَيُّكم أَمَّ النَّاسَ فَلْيُوجِز ؛ فإنَّ مِنْ ورائِهِ الكَبيرَ والصَّغِيرَ وذا الحَاجَةِ » [(٢)] متفقٌ عليه .

الشرح

قال الحافظ النووي - رحمه اللّٰه تعالى - في كتابه رياض الصالحين : باب الغضب إذا انتهكت

---

(١) تصديقا للحديث الصحيح « ليس الواصل بالمكافئ ، ولكن الواصل الذي إذا قطعت رحمه وصلها » أخرجه البخاري في الأدب (٥٩٩١) وأبو داود في سننه (١٦٩٧) والترمذي في سننه (١٩٠٨) .

(٢) أخرجه البخاري في الأذان (٧٠٤) واللفظ وفيه (الكبير والضعيف وذا الحاجة) ومسلم في الصلاة (١٨٢) والإمام أحمد في مسنده (٢٧٣/٢) .

حرمات الشرع ، والانتصار لدين الله .

والغضب له عدة أسباب ؛ منها : أن ينتصر الإنسان لنفسه ؛ يفعل أحدٌ معه ما يغضبه فيغضب لينتصر لنفسه ، وهذا الغضب منهيٌّ عنه ، لأن رجلًا سأل النبي ﷺ قال له : أوصني ، قال : « لا تغضب » فردد مرارًا يقول : أوصني ، وهو يقول : « لا تغضب »[(١)] .

والثاني من أسباب الغضب : الغضب لله ﷻ ، بأن يرى الإنسان شخصًا ينتهك حرمات الله فيغضب غيرةً لدين الله ، وحميةً لدين الله فإن هذا محمود ويثاب الإنسان عليه ، لأن الرسول ﷺ كان هذا من سنته ، ولأنه داخل في قوله تعالى : ﴿ وَمَن يُعَظِّمْ حُرُمَٰتِ ٱللَّهِ فَهُوَ خَيْرٌ لَّهُۥ عِندَ رَبِّهِۦ ﴾ [الحج : ٣٠] ﴿ وَمَن يُعَظِّمْ شَعَٰٓئِرَ ٱللَّهِ فَإِنَّهَا مِن تَقْوَى ٱلْقُلُوبِ ﴾ [الحج : ٣٢] فتعظيم شعائر الله وتعظيم حرمات الله أن يجدها الإنسان عظيمة ، وأن يجد امتهانها عظيمًا فيغضب ويثأر لذلك ، حتى يفعل ما أمر به من الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر وغير ذلك .

ثم ذكر المؤلف آية ثانية ، وهي قوله تعالى : ﴿ إِن تَنصُرُوا۟ ٱللَّهَ يَنصُرْكُمْ وَيُثَبِّتْ أَقْدَامَكُمْ ﴾ [محمد : ٧] والمراد بنصر الله نصر دينه ، فإن الله ﷻ بنفسه لا يحتاج إلى نصر ، هو غني عمن سواه ، لكن النصر هنا نصر دين الله بحماية الدين ، والذب عنه ، والغيظ عند انتهاكه ، وغير ذلك من أسباب نصر الشريعة .

ومن هذا الجهاد في سبيل الله ، القتال لتكون كلمة الله هي العليا ، هذا من نصر الله ، وقد وعد الله ﷻ من ينصره بهذين الأمرين : ﴿ يَنصُرْكُمْ وَيُثَبِّتْ أَقْدَامَكُمْ ﴾ ينصركم على من عاداكم ، ويثبت أقدامكم على دينه حتى لا تزولوا ، فتأمل الآن إذا نصرْنا الله مرة أثابنا مرتين ؛ ﴿ يَنصُرْكُمْ وَيُثَبِّتْ أَقْدَامَكُمْ ﴾ .

ثم قال بعدها : ﴿ وَٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ فَتَعْسًا لَّهُمْ وَأَضَلَّ أَعْمَٰلَهُمْ ﴾ [محمد : ٨] يعني أن الكافرين أمام المؤمنين الذين ينصرون الله لهم التعس ، وهو الخسران والذل والهوان ، وأضل أعمالهم يعني يكون تدبيرهم تدميرًا عليهم ، وتكون أعمالهم ضالة لا تنفعهم ولا ينتفعون بها .

ثم ذكر حديث عقبة بن عمرو البدري ﷺ ، أن رجلاً جاء إلى النبي ﷺ وقال : إني لأتأخر عن صلاة الصبح من أجل فلان مما يطيل بنا ، وكان هذا الإمام يطيل بهم إطالة أكثر من السنة ، فغضب النبي ﷺ ، يقول : فما رأيته غضب في موعظة قط أشد مما غضب يومئذ .

وقال : « يأيها الناس إن منكم منفرين فأيكم أم الناس فليوجز » . منفرين يعني ينفرون الناس عن دين الله ، وهذا الرجل لم يقل للناس لا تصلوا صلاة الفجر ، لكنه نفرهم بفعله ؛ بالتطويل الذي هو خارجٌ عن السنة ، فنفر الناس ، وفي هذا إشارة إلى أن كل شيء ينفر الناس عن دينهم - ولو لم يتكلم الإنسان بالتنفير - فإنه يدخل في التنفير عن دين الله .

ولهذا كان الرسول ﷺ يداري في الأمور الشرعية ، فيترك ما هو حسن لدرء ما هو أشد من تركه

---

(١) أخرجه البخاري في الأدب (٦١١٦) والترمذي في سنن (٢٠٢٠) والإمام أحمد في مسنده (١٧٥/٢) .

فتنة وضررًا ، فإنه ﷺ هم أن يبني الكعبة على قواعد إبراهيم ، ولكن خاف من الفتنة فترك ذلك [١] ، وكان يصوم في السفر فإذا رأى أصحابه صائمين - وقد شق عليهم الصوم - أفطر ليسهل عليهم [٢] .

فكون الإنسان يحرص على أن يقبل الناس دين الله بطمأنينة ورضى وإقبال بدون محذور شرعي ، فإن هذا هو الذي كان من هدي الرسول ﷺ .

والشاهد من هذا الحديث : غضب النبي ﷺ من هذا الفعل الذي فعله هذا الإمام ، وفيه أيضًا إشارة إلى أن النبي ﷺ كان يغضب عند الموعظة لانتهاك حرمات الله ، وقد قال جابر ﷺ كان النبي ﷺ إذا خطب يوم الجمعة احمرت عيناه وعلا صوته ، واشتد غضبه ، حتى كأنه منذر جيش يقول صبحكم ومساكم [٣] .

ثم قال ﷺ : « فأيكم أم الناس فليوجز » يعني فليخفف الصلاة ، على حسب ما جاءت به السنة .

« فإن من ورائه الصغير والكبير وذا الحاجة » أي في المأمومين ضعيف البنية ، وضعيف القوة ، وفيهم مريض ، وفيهم ذو حاجة ؛ قد وعد أحدًا يذهب إليه ، أو ينتظر أحدًا ، أو ما أشبه ذلك ، فلا يجوز للإمام أن يثقل بالناس أكثر مما جاءت به السنة .

وأما صلاته بالناس بحسب ما جاء في السنة فليفعل ، غضب من غضب ، ورضي من رضي ، والذي لا ترضيه السنة فلا أرضاه الله ، السنة تتبع ولكن مازاد عليها فلا .

والأئمة في هذه المسألة ينقسمون إلى ثلاثة أقسام :

قسم مُفرِّط : يسرع سرعةً تمنع المأمومين فعل ما يسن ، وهذا مخطئ ، وآثم ، ولم يؤد الأمانة التي عليه .

وقسم مُفرط : أي زائد ، يثقل بالناس وكأنه يصلي لنفسه ، فتجده يثقل القراءة ، والركوع ، والسجود ، والقيام بعد الركوع ، والجلوس بين السجدتين ، وهذا أيضًا مخطئ ، ظالم لنفسه .

والثالث : يصلي بهم كصلاة النبي ﷺ ، فهذا خير الأقسام ، وهو الذي قام بالأمانة على الوجه الأكمل .

* * *

٦٥٠ - وعن عائشة رضي الله عنها قالت : قَدِمَ رسول الله ﷺ مِنْ سَفرٍ ، وقَد سَتَرْتُ سَهوَةً لي بِقِرامٍ فيهِ تَماثيلُ ، فَلمَّا رآهُ رسول الله ﷺ هتكَهُ وتَلَوَّنَ وجهُهُ وَقال : « يَا عَائِشَةُ ، أَشَدُّ النَّاسِ عَذَابًا عِنْدَ اللَّهِ يَومَ القِيَامَةِ الَّذينَ يُضَاهُونَ بِخَلْقِ اللَّهِ » [٤] متفقٌ عليه .

---

(١) انظر البخاري في أحاديث الأنبياء (٣٣٦٨) ومسلم في الحج (٣٩٩) .

(٢) انظر البخاري في الصوم (١٩٤٤) ومسلم في الصيام (٨٨ ، ٩٠) .

(٣) انظر صحيح مسلم في الجمعة (٤٣) .

(٤) أخرجه البخاري في اللباس (٥٩٥٤) ومسلم في اللباس (٩٢) والإمام أحمد في مسنده (٣٦/٦ ، ٨٣ ، ٢١٩) .

« السَّهْوَةُ » : كالصُّفَّة تَكُونُ بين يدي البيت . و « القرام » بكسر القاف : سِتر رقيق ، و« هتكه » : أفسد الصورة التي فيه .

٦٥١ - وعنها : أنَّ قُرَيشًا أهَمَّهُم شَأنُ المَرأة المَخْزُومِيَّةِ التي سَرَقَت فقالوا : من يُكَلِّمُ فيها رسول الله ﷺ ؟ فقالوا : مَن يَجتَرِئُ عَلَيهِ إلا أُسَامَةُ بنُ زيدٍ حِبُّ رسول الله ﷺ ؟ فَكَلَّمَهُ أُسَامَةُ ، فقال رسول الله ﷺ : « أتشفَعُ في حَدٍّ مِن حُدُودِ اللَّهِ تعالى ؟! » ثم قامَ فَاخْتَطَبَ ثم قال : « إنما أَهْلَكَ مَن قَبلَكُم أَنَّهُم كانُوا إذَا سَرَقَ فِيهِمُ الشَّرِيفُ [1] تَرَكُوهُ ، وإذا سَرَقَ فِيهِم الضَّعِيفُ أَقَامُوا عَلَيهِ الحَدَّ ! وَايمُ اللَّه ، لو أَنَّ فاطِمَةَ بنت محمدٍ سَرَقَت لَقَطَعْتُ يَدَهَا » [2] متفقٌ عليه .

الشرح

ثم نقل المؤلف رحمه الله في باب الغضب إذا انتهكت حرمات الشرع - أحاديث عائشة رضي الله عنها ؛ والأول أن النبي ﷺ قدم من سفر فوجدها قد سترت سهوةً لها بقرامٍ فيه تماثيل ، يعني فيه صور ، فهتكه النبي ﷺ ، وأخبر أن أشد الناس عذابًا الذين يضاهئون بخلق الله ، يعني المصورين ، فهم أشد الناس عذابًا ، لأنهم أرادوا أن يضادوا الله سبحانه وتعالى في خلقه ، وفي تصويره .

وكانوا فيما سبق يصورون باليد ؛ لأنه ليس عندهم آلات وأجهزة تلتقط الصورة بدون عمل يدوي ، فكانوا يخططون بأيديهم ، فيأتي الحاذق منهم ويصور صورة بيده ويتقنها لتشابه صورة الله ، ليقال : ما أشد مهارة هذا الرجل ، وما أعرفه ، كيف استطاع أن يقلد خلق الله عز وجل ؟

فهم يريدون بذلك أن يشاركوا الله سبحانه وتعالى في تصوره ، وهو سبحانه وتعالى لا شريك له : ﴿ هُوَ ٱلَّذِى يُصَوِّرُكُمْ فِى ٱلْأَرْحَامِ كَيْفَ يَشَآءُ ﴾ [آل عمران : ٦] ﴿ وَصَوَّرَكُمْ فَأَحْسَنَ صُوَرَكُمْ ﴾ [غافر : ٦٤] ، فهتكه : يعني مزقه - عليه الصلاة والسلام - .

وفي هذا دليل على مشروعية تمزيق الصور التي تصور باليد ؛ لأنه يضاهي بها خلق الله عز وجل ، وإقرار المنكر كفعل المنكر ، وفيه الغضب إذا انتهكت حرمات الله عز وجل ، لأن النبي ﷺ غضب وهتكه .

وأما حديث عائشة رضي الله عنها في قصة المخزومية وهي امرأة من بني مخزوم كانت تستعير المتاع فتجحده ، يعني تأتي للناس تقول : أعرني قدرًا ، أعرني إناءً ، أعرني كذا ، أعرني كذا ، فإذا أعاروها جحدت وقالت : لم آخذ منكم شيئًا ، فأمر النبي ﷺ أن تقطع يدها ؛ لأن هذا نوع من السرقة .

وكانت هذه المرأة من بني مخزوم ، من قبيلة من أشرف قبائل العرب ذات الأهمية والشأن ، فأهم قريشًا شأنها ، وقالوا : كيف تُقطع يد مخزومية ، ثم طلبوا شفيعًا إلى رسول الله ﷺ فقالوا : أسامة

---

(١) الشريف : أي صاحب المال والجاه .

(٢) أخرجه البخاري في الصلاة (٦٧٨٨) ومسلم في الحدود (٨) .

ابن زيد حبّ رسول الله ﷺ . حبّه يعني : محبوبه ، يعني : أنه يحبه .

وأسامة هو ابن زيد بن حارثة ، وزيد بن حارثة كان عبدًا وهبته خديجة للنبي ﷺ فأعتقه ، وأسامة ابنه ، وكان النبي ﷺ يحبهما ، فقالوا : ليس إلا أسامة بن زيد ، فتقدم أسامة بن زيد ﷺ إلى النبي ﷺ ليشفع ، فأنكر عليه وقال : « أتشفع في حدّ من حدود الله ؟ » .

ثم قام فاختطب ، فخطب الناس وقال لهم - عليه الصلاة والسلام - : « إنما أهلك من قبلكم أنهم كانوا إذا سرق فيهم الشريف تركوه ، وإذا سرق فيهم الضعيف أقاموا عليه الحد وايم الله - يعني أقسم بالله - لو أن فاطمة بن محمد سرقت لقطعت يدها » .

والشاهد من هذا : أن الرسول - عليه الصلاة والسلام - غضب لشفاعة أسامة بن زيد في حدّ من حدود الله . فالغضب لله ﷻ محمود ، وأما الغضب للانتقام وحظ النفس فإنه مذموم ، وقد نهى عنه النبي ﷺ حين طلب أحد الصحابة أن يوصيه ، فقال : « لا تغضب » ، قال أوصني ، قال : « لا تغضب » ، قال : أوصني ، قال : « لا تغضب » [١] . فالفرق بين الغضبين ظاهر .

فالغضب لله ولشرائع الله محمود ، وهو من هدي الرسول ﷺ ، ودليل على غيرة الإنسان وعلى محبته لإقامة شريعة الله أما الغضب للنفس فينبغي للإنسان أن يكتمه وأن يحلم ، وإذا أصابه الغضب فليستعذ بالله من الشيطان الرجيم ، وإذا كان قائمًا فليجلس ، وإن كان جالسًا فليضطجع ، كل هذا مما يخفف عنه الغضب والله الموفق .

* * *

٦٥٢ - وعن أنس ﷺ أن النبي ﷺ رَأَى نُخَامَةً [٢] في القبلَةِ ، فشقَّ ذلكَ عَلَيهِ حتَّى رُؤيَ في وَجهه [٣] ، فَقَامَ فَحَكَّهُ بِيَدِهِ فقال : « إن أَحَدكم إذَا قَامَ في صَلاتِهِ فَإِنَّهُ يُنَاجِي رَبَّه ، وإنّ رَبَّهُ بَينَهُ وَبَينَ القِبلَةِ ، فَلا يَبْزُقَنَّ [٤] أَحَدُكم قِبلَ القِبْلَةِ . ولكِن عَنْ يَسَارِهِ ، أَو تَحْتَ قَدَمِهِ » ثُمَّ أَخَذَ طَرَفَ رِدَائِهِ فَبَصَقَ فيهِ ، ثُمَّ رَدَّ بَعْضَهُ عَلى بَعْضٍ فقال : « أَو يَفْعَلُ هكَذَا » [٥] متفقٌ عليه .

وَالأَمرُ بالبُصَاقِ عَنْ يَسَارِهِ أو تَحْتَ قَدَمِهِ هُوَ فِيما إذا كانَ في غَيرِ المَسجِدِ ، فَأَمَّا في المَسجِدِ فَلا يَبصقُ إلا في ثَوبِهِ .

الشرح

هذا الحديث الذي ذكره النووي رحمه الله في باب الغضب إذا انتهكت حرمات الله ﷻ ، أن النبي ﷺ رأى نخامة في القبلة ، أي في قبلة المسجد ، فغضب - عليه الصلاة والسلام - وحكها بيده

---

(١) أخرجه البخاري في الأدب (٦١١٦) والترمذي في سنن (٢٠٢٠) والإمام أحمد في مسنده (١٧٥/٢) .

(٢) أي نخاعة ، وقيل : ما يخرج من الخيشوم . (٣) حتى رؤي في وجهه : أي أثر ذلك .

(٤) البزاق : البصاق .

(٥) أخرجه البخاري في الصلاة (٤٠٥) واللفظ له ومسلم في المساجد (٥٠) .

وقال : « إن أحدكم إذا قام في صلاته فإنه يناجي ربه » يعني إذا كان يصلي فإنه يناجي اللَّه أي يخاطبه ، واللَّه عز وجل يرد عليه .

فقد ثبت في الصحيح أن العبد إذا قال : الحمد للَّه رب العالمين ، أجابه اللَّه فقال : « حمدني عبدي » ، وإذا قال : الرحمن الرحيم ، قال : « أثنى علي عبدي » ، وإذا قال : مالك يوم الدين ، قال : « مجدني عبدي » ، وإذا قال : إياك نعبد وإياك نستعين ، قال : « هذا بيني وبين عبدي نصفين » ، فإذا قال : اهدنا الصراط المستقيم ، قال : « هذا لعبدي ولعبدي ما سأل » (١) .

فأنت تناجي اللَّه عز وجل بكلامه ، وتدعوه سبحانه وتعالى ، وتسبحه ، وتمجده ، وتعظمه . فهو سبحانه وتعالى أمامك بينك وبين القبلة ، وإن كان اللَّه سبحانه وتعالى في السماء فوق عرشه ، فإنه أمامك ، لأنه محيط بكل شيء ﴿ لَيْسَ كَمِثْلِهِۦ شَىْءٌۖ وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْبَصِيرُ ﴾ [الشورى : ١١] .

ثم إن النبي صلى الله عليه وسلم لما ذكر منع التنخم في قبلة الإنسان ذكر الشيء المباح ؛ لأن هذا هو الهدي ، وهذه هي الحكمة ، أنك إذا ذكرت للناس ما هو ممنوع أن تذكر لهم ما هو جائز ، حتى لا تسد الأبواب عليهم . فأمر الإنسان أن يبصق عن يساره ، أو تحت قدمه ، أو في ثوبه ويحك بعضه ببعض ؛ ثلاثة أمور : إما تحت قدمه يبصق ويطأ عليها ، وإما عن يساره ، وهذا والذي قبله متعذر إذا كان الإنسان في المسجد ، لأنه يلوثه ، وقد قال النبي صلى الله عليه وسلم : « البصاقُ في المسجد خطيئة » (٢) ، وإما في ثوبه ، فيبصق في ثوبه ويحك بعضه ببعض .

وفي هذا الحديث : دليل على أن النخامة ليست نجسة ؛ لأن النبي صلى الله عليه وسلم أمر أن يبصق المصلي تحت قدمه أو في ثوبه ، ولو كانت نجسة ما أذن له أن يبصق في ثوبه ، وفيه التعليم بالفعل لقول النبي صلى الله عليه وسلم : أو يقول هكذا ، وبصق في ثوبه وحك بعضه في بعض (٣) .

وفيه أيضًا : إطلاق القول على الفعل في قوله : « أن يقول هكذا » (٤) وهو يريد الفعل .

وفيه أيضًا : أن الإنسان لا حرج عليه أن يبصق أمام الناس ، ولا سيما إذا كان للتعليم .

وفيه أيضًا : أن من المروءة أن لا يُرى في ثوبك شيء يستقذره الناس - لأنه حك بعضها ببعض - لئلا تبقى صورتها في ثوبك ، وإذا رآها الناس تأذوا منك وكرهوك . فالإنسان ينبغي أن يكون نظيفًا في مظهره وفي ثيابه وفي غير ثيابه ، حتى لا يتقزَّز الناس مما يشاهدونه منه .

والشاهد من هذا : أن الرسول صلى الله عليه وسلم تأثر وعُرف في وجهه الكراهية لما رأى النخامة في قبلة المسجد .

* * *

---

(١) انظر الحديث في صحيح مسلم في الصلاة (٣٨) وسنن الترمذي في التفسير (٢٩٥٣) .

(٢) أخرجه البخاري في الجمعة (٤١٥) ومسلم في المساجد (٥٥٢) ، ذكراه بلفظ (البزاق) .

(٣ ، ٤) حكاية الشارح هنا للحديث بالمعنى حيث ورد في صحيح مسلم في المساجد ومواضع الصلاة (٥٣) بلفظ « فليقل هكذا » .

٧٨ - باب أمر وُلاة الأمور بالرفق برعاياهم ونصيحتهم والشفقة عليهم والنهي عن غشهم والتشديد عليهم وإهمال مصالحهم والغفلة عنهم وعن حوائجهم

قال اللّه تعالى : ﴿ وَٱخْفِضْ جَنَاحَكَ لِمَنِ ٱتَّبَعَكَ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴾ [الشعراء : ٢١٥] . وقال تعالى : ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ يَأْمُرُ بِٱلْعَدْلِ وَٱلْإِحْسَـٰنِ وَإِيتَآيِٕ ذِى ٱلْقُرْبَىٰ وَيَنْهَىٰ عَنِ ٱلْفَحْشَآءِ وَٱلْمُنكَرِ وَٱلْبَغْىِ ۚ يَعِظُكُمْ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ ﴾ [النحل : ٩٠] .

٦٥٣ - وعن ابن عمر رضي الله عنهما قال : سمعت رسول اللّه ﷺ يقول : « كُلُّكم رَاعٍ ، وكُلُّكم مَسؤولٌ عَنْ رعيَّتِه : الإمامُ رَاعٍ وَمَسْؤُولٌ عَنْ رَعِيَّتِهِ ، وَالرَّجُلُ رَاعٍ في أَهلِهِ وَمَسؤُولٌ عَنْ رَعِيَّتِهِ ، وَالمرْأَةُ رَاعِيَةٌ في بَيتِ زَوجِهَا وَمَسؤولَةٌ عَنْ رَعِيَّتِها ، وَالخادِمُ رَاعٍ في مالِ سَيِّدِهِ وَمَسؤولٌ عَنْ رَعِيَّتِهِ ، وكُلُّكُم رَاعٍ وَمَسؤُولٌ عَنْ رَعِيَّتِهِ » (١) متفقٌ عليه .

٦٥٤ - وعن أَبي يَعْلى مَعْقل بن يَسَارٍ رضي الله عنه قال : سمعتُ رسول اللّه ﷺ يقول : « ما مِنْ عَبد يَستَرعيهِ اللّهُ رَعيَّةً ، يَمُوتُ يَومَ يَمُوتُ وَهُوَ غَاشٌّ لِرَعِيَّتِهِ ، إلَّا حَرَّمَ اللّه عَلَيهِ الجَنَّةَ » متفقٌ عليه (٢) .

وفي روايةٍ : « فَلَم يَحُطهَا بِنُصْحِه لَمْ يَجِد رَائِحَةَ الجَنَّة » (٣) .

وفي روايةٍ لمسلم : « ما مِن أَمِيرٍ يَلِي أُمورَ المُسلِمِينَ ، ثُمَّ لَا يَجهَدُ لَهُم ويَنْصَحُ لَهُمْ ، إلا لَم يَدخُل مَعَهُمُ الجَنَّةَ » (٤) .

الشرح

هذا الباب عقده المؤلف رحمه الله في كتابه هو باب عظيم مهم يُخاطب به ولاة الأمور ويخاطب به الرعية ولكل منهم على الآخر حق يجب مراعاته .

أما ولاة الأمور : فيجب عليهم الرفق بالرعية ، والإحسان إليهم ، واتباع مصالحهم ، وتولية من هو أهل للولاية ، ودفع الشر عنهم وغير ذلك من مصالحهم ؛ لأنهم مسئولون عنهم أمام اللّه عز وجل .

وأما الرعية : فالواجب عليهم السمع والطاعة في غير المعصية ، والنصح للولاة ، وعدم التشويش عليهم ، وعدم إثارة الناس عليهم ، وطي مساوئهم ، وبيان محاسنهم ؛ لأن المساوئ يمكن أن ينصح فيها الولاة سرًّا بدون أن تُنشر على الناس ؛ لأن نشر مساوئ ولاة الأمور أمام الناس لا يستفاد منه ، بل لا يزيد الأمر إلا شدة ؛ فتحمل صدور الناس الكراهية والبغضاء لولاة الأمور .

---

(١) أخرجه البخاري في الجمعة (٨٩٣) واللفظ له ومسلم في الإمارة (٢٠) والإمام أحمد في مسنده (٣/٥ ، ٥٤) .
(٢) أخرجه البخاري في النكاح (٧١٥٠) ومسلم في الإيمان (١٤٢) .
(٣) أخرجه البخاري في الأحكام (٧١٥٠) .
(٤) أخرجه مسلم في الإيمان (٢٢٩) .

وإذا كره الناس ولاة الأمور وأبغضوهم وتمردوا عليهم ، ورأوا أمرهم بالخير أمرًا بالشر ، ولم يسكتوا عن مساوئهم ، وحصل بذلك إيغار للصدور [(١)] وشر وفساد .

والأمة إذا تفرقت وتمزقت حصلت الفتنة بينها ووقعت ، مثل ما حصل في عهد عثمان بن عفان ﷺ ، حين بدأ الناس يتكلمون فيه ، فأوغروا الصدور عليه ، وحشدوا الناس ضده ، وحصل ما حصل من الفتن والشرور إلى يومنا هذا .

فولاة الأمور لهم حق وعليهم حق .

ثم استدل المؤلف رحمه الله تعالى بآيات من كتاب الله فذكر قول الله تعالى : ﴿ وَٱخْفِضْ جَنَاحَكَ لِمَنِ ٱتَّبَعَكَ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴾ يعني لا تتعالى عليهم ، ولا ترتفع في الجو ، بل اخفض الجناح ، حتى وإن كنت تستطيع أن تطير في الجو فاخفض جناحك لمن اتبعك من المؤمنين .

وأما من خالفك وعصاك فأقم عليه العقوبة اللائقة به ؛ لأن الله تعالى لم يقل اخفض جناحك لكل أحد ، بل قال : ﴿ لِمَنِ ٱتَّبَعَكَ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴾ . وأما المتمردون والعصاة فقد قال الله تعالى : ﴿ إِنَّمَا جَزَٰٓؤُاْ ٱلَّذِينَ يُحَارِبُونَ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ وَيَسْعَوْنَ فِى ٱلْأَرْضِ فَسَادًا أَن يُقَتَّلُوٓاْ أَوْ يُصَلَّبُوٓاْ أَوْ تُقَطَّعَ أَيْدِيهِمْ وَأَرْجُلُهُم مِّنْ خِلَٰفٍ أَوْ يُنفَوْاْ مِنَ ٱلْأَرْضِ ۚ ذَٰلِكَ لَهُمْ خِزْىٌ فِى ٱلدُّنْيَا ۖ وَلَهُمْ فِى ٱلْءَاخِرَةِ عَذَابٌ عَظِيمٌ ﴿٣٣﴾ إِلَّا ٱلَّذِينَ تَابُواْ مِن قَبْلِ أَن تَقْدِرُواْ عَلَيْهِمْ ۖ فَٱعْلَمُوٓاْ أَنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴾ [المائدة : ٣٣ ، ٣٤] ، وقول الله تعالى : ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ يَأْمُرُ بِٱلْعَدْلِ وَٱلْإِحْسَٰنِ وَإِيتَآئِ ذِى ٱلْقُرْبَىٰ وَيَنْهَىٰ عَنِ ٱلْفَحْشَآءِ وَٱلْمُنكَرِ وَٱلْبَغْىِ ۚ يَعِظُكُمْ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ ﴾ [النحل : ٩٠] .

إن الله يأمر بهذه الأمور الثلاثة :

بالعدل وهو واجب ، فيجب على الإنسان أن يقيم العدل في نفسه ، وفي أهله ، وفيمن استرعاه الله عليهم .

فالعدل في نفسه بألا يثقل عليها في غير ما أمر الله ، وأن يراعيها حتى في أمر الخير ، فلا يثقل عليها أو يحملها فوق ما تطيقه . ولهذا لما قال عبد الله بن عمرو بن العاص ﷺ : أصوم ولا أفطر ، وأصلي ولا أنام ، دعاه النبي - عليه الصلاة والسلام - ونهاه عن ذلك وقال : « إن لنفسك عليك حقًّا ، ولربك عليك حقًّا ، ولأهلك عليك حقًّا فأعط كل ذي حق حقه » [(٢)] .

وكذلك يجب العدل في أهل الإنسان ، فمن كان له زوجتان وجب عليه العدل بينهما ، « ومن كان له امرأتان فمال إلى إحداهما جاء يوم القيامة وشقه مائل » [(٣)] .

ويجب العدل بين الأولاد ؛ فإذا أعطيت أحدهم ريالًا ، فأعط الآخر مثله ، وإذا أعطيت الابن ريالين ، فأعط البنت ريالًا ، وإذا أعطيت الابن ريالًا فأعط البنت نصف ريال .

---

(١) أوغر صدر فلان أي أحماه من الغيظ وسعَّره .

(٢) نص الحديث في البخاري في الأدب (٦١٣٤) ومسلم في الصيام (١٩٣) .

(٣) أخرجه الترمذي في النكاح (١١٤١) وابن ماجه في سننه (١٩٦٩) .

حتى إن السلف رحمهم اللّه كانوا يعدلون بين الأولاد في القُبل ؛ فإذا قبَّل الولد الصغير وأخوه عنده قبَّل الولد الثاني ، لئلا يجحف معهم في التقبيل .

وكذلك أيضًا في الكلام ، يجب أن تعدل بينهم ، فلا تتكلم مع أحدهم بكلام خشن ومع الآخر بكلام لين .

وكذلك يجب العدل فيمن ولاك اللّه عليهم ، فلا تحابِ قريبك لأنه قريبك ، ولا الغني لأنه غني ، ولا الفقير لأنه فقير ، ولا الصديق لأنه صديق ، ولا تحاب أحدًا فالناس سواء .

حتى إن العلماء رحمهم اللّه قالوا : يجب العدل بين الخصمين إذا دخلا على القاضي ؛ في لفظه ولحظه وكلامه ومجلسه ودخولهما عليه . لا تنظر لهذا نظرة غضب ولهذا نظرة رضا ، لا تلن الكلام لهذا والثاني بعكسه . لا تقل لأحد : كيف أنت ؟ كيف أهلك ؟ كيف أولادك ؟ والثاني تتركه ، بل اعدل بينهما حتى في هذا .

وكذلك في المجلس لا تجعل أحدهما يجلس على اليمين قريبًا منك والثاني تجعله بعيدًا عنك . بل اجعلهما أمامك على حد سواء .

حتى المؤمن والكافر إذا تخاصما عند القاضي ، يجب أن يعدل بينهما في الكلام والنظر والجلوس و فلا يقل للمسلم : تعال بجواري والكافر يبعده ، بل يجعلهما يجلسان جميعًا أمامه ، فالعدل واجب في كل الأمور[١] .

أما الإحسان فهو فضل زائد على العدل ، ومع ذلك أمر اللّه به لكن أمره بالعدل واجب وأمره بالإحسان سنة وتطوع .

﴿ وَإِيتَآيِ ذِى ٱلْقُرْبَىٰ ﴾ أي إعطاء القريب حقه . فإن القريب له حق ؛ حق الصلة ، فمن وصل رحمه وصله اللّه ، ومن قطع رحمه قطعه اللّه .

﴿ وَيَنْهَىٰ عَنِ ٱلْفَحْشَآءِ وَٱلْمُنكَرِ وَٱلْبَغْيِ ۚ يَعِظُكُمْ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ ﴾ ﴿ وَيَنْهَىٰ عَنِ ٱلْفَحْشَآءِ ﴾ : الفحشاء هي كل ما يُستفحش من الذنوب ، كعقوق الوالدين ، وقطيعة الأرحام ، والزنا ، ونكاح المحارم ، وغير ذلك مما يُستفحش شرعًا وعرفًا ، ﴿ وَٱلْمُنكَرِ ﴾ هو ما ينُكر ، وهو دون الفحشاء كعامة المعاصي . ﴿ وَٱلْبَغْيِ ۚ ﴾ : تجاوز الحد ، وهو الاعتداء على الخلق بأخذ أموالهم ، والاعتداء على دمائهم وأعراضهم ، كل هذا يدخل في البغي .

وبين اللّه ﷻ أنه أمر ونهى ليعظنا ويصلح أحوالنا ، ولهذا قال : ﴿ يَعِظُكُمْ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ ﴾ .

وسبق لنا الكلام على حديث « كلكم راع ومسؤول عن رعيته » ، وأما حديث معقل بن يسار الذي ذكره المؤلف ، فإن فيه التحذير من غش الرعية ، وأنه ما من عبد يسترعيه اللّه على رعيته ثم يموت يوم يموت وهو غاش لرعيته إلا حرم اللّه عليه الجنة ، وأنه إذا لم يحطهم بنصيحته ؛ فإنه لا يدخل معهم الجنة .

---

(١) يراجع في ذلك وصية عمر بن الخطاب إلى أبي موسى الأشعري حينما ولاه القضاء وهي موجودة في : الدارقطني في السنن (٢٠٦/٤ ، ٢٠٧) ، وبدائع الصنائع (٩/٧) ، والأحكام السلطانية ص (٧١ ، ٧٢) وفقه الكتاب والسنة (١٢٦٣/٣ ، ١٢٦٤) .

وهذا يدل على أن ولاة الأمور مسئولون عن الصغيرة والكبيرة ، وعليهم أن ينصحوا لمن ولاهم الله أمرهم ، وأن يبذلوا لهم النصيحة ، وأهمها النصيحة في دين الله ، بالأمر بالمعروف والنهي عن المنكر والدعوة إلى الخير .

ومن النصيحة لهم : أن يسلك بهم الطريق التي فيها صلاحهم في معادهم ومعاشهم ، فيمنع عنهم كل ما يضرهم في دينهم ، يمنع عنهم الأفكار السيئة ، والأخلاق السافلة ، وما يؤدي إلى ذلك من المجلات والصحف وغيرها ؛ ولهذا يجب على ولي الأمر في البيت وهو الرجل في بيته أن يمنع من وجود هذه الأشياء في البيت ؛ الصحف السيئة الفاسدة ، الأفكار المنحرفة ، الأخلاق السافلة .

وكذلك فإن ولي الأمر العام يجب عليه أن يمنع هذه الأشياء ؛ وذلك لأن هذه الأشياء إذا شاعت بين الناس صار المجتمع بهيميًا ؛ لا يهمه إلا إشباع البطن وشهوة الفرج وتحصل الفوضى ، ويزول الأمن ، ويكون الشر والفساد ، فإذا منع ولي الأمر ما يفسد الخلق ، حصل بهذا الخير الكثير .

لو أن كل واحد منا في بيته منع أهله من اقتناء هذه الصحف والمجلات الخليعة الفاسدة ، ومن مشاهدة التمثيليات الفاسدة ، والمسلسلات الخبيثة ، لصلح الناس ؛ لأن الناس هم أفراد الشعب ؛ أنت في بيتك ، والثاني في بيته ، والثالث في بيته ، وهكذا إذا صلحوا صلح كل شيء . نسأل الله أن يصلح ولاة أمورنا وأن يرزقهم البطانة الصالحة .

* * *

٦٥٥ - وعن عائشة رضي الله عنها قالت : سمعت رسول الله ﷺ يقول في بَيتي هذا : « اللَّهُمَّ مَن وَلي من أمر أُمَّتي شَيئًا ، فَشَقَّ عَلَيهم ، فَاشقق عليه ، وَمَن وَلي مِنْ أمر أُمَّتي شَيئًا ، فَرَفَقَ بِهِم ، فَارفق بِهِ » [١] رواه مسلم .

٦٥٦ - وعن أَبي هريرة رضي الله عنه قال : قَالَ رسول الله ﷺ : « كَانَت بَنُو إسرائِيلَ تَسوسُهُمُ الأَنْبِيَاءُ ، كُلَّما هَلَكَ نَبيٌّ خَلَفَهُ نَبِيٌّ ، وَإِنَّهُ لا نَبِي بَعدي ، وَسَيَكُونُ بَعدي خُلَفَاءُ فَيَكثُرونَ » قالوا : يَا رسولَ الله فَمَا تَأْمُرُنَا ؟ قال : « أوفُوا بِبَيعَة الأَوَّل فالأَوَّل ، ثُمَّ أعطُوهُم حَقَّهُم ، وَاسألوا اللَّهَ الَّذي لَكُم ، فَإِنَّ اللَّه سَائِلُهُم عَمَّا استرعَاهُم » [٢] متفق عليه .

الشرح

ذكر المؤلف رحمه الله في باب أمر ولاة الأمور بالرفق واللين ، ورعاية مصالح من استرعاهم الله عليهم في سياق الأحاديث : ما نقله عن عائشة رضي الله عنها ، قالت : سمعت النبي ﷺ في بيتي هذا يقول : «اللهم من ولي من أمر أمتي شيئًا فشق عليهم فاشقق عليه ، ومن ولي من أمر أمتي شيئًا فرفق بهم فارفق به» .

---

(١) أخرجه مسلم في الإمارة (١٩) والبيهقي في الكبرى (٩/ ٤٣ ، ١٠/١٣٦) .

(٢) ذكره النووي بنحو رواية البخاري في أحاديث الأنبياء (٣٤٥٥) ومسلم في الإمارة (٤٤) والبيهقي في السنن (١٤٤/٨) .

وهذا دعاء من النبي ﷺ على من تولى أمور المسلمين الخاصة والعامة ؛ فيقع على الإنسان أن يتولى لأمر بيته ، وعلى مدير المدرسة يتولى أمر المدرسة ، وعلى المدرس يتولى أمر الفصل ، وعلى الإمام يتولى أمر المسجد .

ولهذا قال : « من ولي من أمر أمتي شيئًا » . و « شيئًا » نكرة في سياق الشرط ، وقد ذكر علماء الأصول أن النكرة في سياق الشرط تفيد العموم ؛ أي شيء يكون ، « فرفق بهم فارفق به » ، ولكن ما معنى الرفق ؟

قد يظن بعض الناس أن معنى الرفق أن تأتي للناس على مايشتهون ويريدون ، وليس الأمر كذلك ، بل الرفق أن تسير بالناس حسب أمر اللَّه ورسوله ، وأن تسلك أقرب الطرق وأرفق الطرق بالناس ، ولا تشق عليهم في شيء ليس عليه أمر اللَّه ورسوله ، فإن شققت عليهم في شيء ليس عليه أمر اللَّه ورسوله فإنك تدخل في الطرف الثاني من الحديث ؛ وهو الدعاء عليك بأن يشق اللَّه عليك والعياذ باللَّه .

يشق عليك إما بآفات في بدنك ، أو في قلبك ، أو في صدرك ، أو في أهلك ، أو في غير ذلك ؛ لأن الحديث مطلق « فاشقق عليه » بأي شيء يكون ، وربما لا يظهر للناس المشقة ، قد يكون في قلبه نار تلظى والناس لا يعلمون ، لكن نحن نؤمن بأنه إذا شق على الأمة بما لم ينزل اللَّه به سلطانًا فإنه مستحق لهذه العقوبة من اللَّه تعالى .

أما الحديث الثاني : فإن النبي - عليه الصلاة والسلام - أخبر بأن بني إسرائيل كانت تسوسهم الأنبياء ؛ أي تُبعث فيهم الأنبياء فيصلحون من أحوالهم ، « وإنه لا نبي بعدي » فإن النبي ﷺ خاتم النبيين بالنص والإجماع ، كما قال اللَّه تعالى : ﴿ مَّا كَانَ مُحَمَّدٌ أَبَآ أَحَدٍ مِّن رِّجَالِكُمْ وَلَٰكِن رَّسُولَ ٱللَّهِ وَخَاتَمَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ ﴾ [الأحزاب : ٤٠] .

ولهذا من ادعى النبوة بعده فهو كافر مرتد يجب قتله ، ومن صَدَّق من ادعى النبوة بعده فهو كاذب مرتد يجب قتله إلا أن يتوب ، فالنبي - عليه الصلاة والسلام - هو خاتم الأنبياء ، ولكن جعل اللَّه له خلفاء ؛ خلفاء في العلم ، وخلفاء في السلطة ، والمراد بالخلفاء في هذا الحديث : خلفاء السلطة .

ولهذا قال : « سيكون خلفاء ويكثرون » . قالوا : يا رسول اللَّه فما تأمرنا ؟ يعني : من نَفِي ببيعته ؟ قال : « الأول فالأول » فإذا بايعوا الخليفة وجب عليهم أن يبقوا على بيعتهم ، وأن ينبذوا كل من أراد الخلافة وهو حي ، وأن يعينوا الخليفة في حياته ؛ لأن كل من نازع السلطان ؛ فإنه يجب أن يُقَاتل ؛ حتى تكون الأمة واحدة ، فإن الناس لو تركوا فوضى ، وصار كل من لا يريد هذا السلطان يذهب ويتخذ له حزبًا يقاتل به السلطان فسدت الأمور .

وفي آخر الحديث جمل النبي ﷺ هؤلاء الخلفاء ما عليهم ، وأمرنا نحن أن نوفي لهم بحقهم ، وأن نسأل اللَّه الذي لنا ، لا نقول هؤلاء ظلموا ، هؤلاء جاروا ، هؤلاء لم يقوموا بالعدل ، ثم ننابذهم ولا نطيعهم فيما أمرنا اللَّه به ، لا ؛ هذا لا يجوز ، فيجب أن نوفي لهم بالحق ، وأن نسأل اللَّه الحق

الذي لنا ، كالإنسان الذي له قريب إذا قطعك فصله ، واسأل اللّٰه الذي لك ، أما أن تقول : لا أصل إلا من وصلني ، أو لا أطيع من السلطان إلا من لا يظلم ولا يستأثر بالمال ولا غيره ، فهذا خطأ ، قم أنت بما يجب عليك ، واسأل اللّٰه الذي لك ، وفي قول النبي ﷺ : « تسوسهم الأنبياء » دليل على أن دين اللّٰه – وهو دين الإسلام في كل مكان وفي كل زمان – هو السياسة الحقيقية النافعة ، وليست السياسة التي يفرضها أعداء الإسلام من الكفار .

السياسة حقيقة ما جاء في شرع اللّٰه و ولهذا نقول : إن الإسلام شريعة وسياسة ، ومن فرق بين السياسة والشريعة فقد ضل ؛ ففي الإسلام سياسة الخلق مع اللّٰه وبيان العبادات ، وسياسة الإنسان مع أهله ، ومع جيرانه ، ومع أقاربه و ومع أصحابه ، ومع تلاميذه ، ومع معلميه ، ومع كل أحد ؛ كل له سياسة تخصه ، سياسة مع الأعداء الكفار ، ما بين حربيين ومعاهدين ومستأمنين وذميين .

وكل طائفة قد بين الإسلام حقوقهم ، وأمر أن نسلك بهم كما يجب ، فمثلاً الحربيون نحاربهم ، ودماؤهم حلال لنا ، وأموالهم حلال لنا ، وأراضيهم حلال لنا .

والمستأمنون يجب أن نؤمنهم ، كما قال تعالى : ﴿ وَإِنْ أَحَدٌ مِّنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ٱسْتَجَارَكَ فَأَجِرْهُ حَتَّىٰ يَسْمَعَ كَلَٰمَ ٱللَّهِ ثُمَّ أَبْلِغْهُ مَأْمَنَهُۥ ﴾ [التوبة : ٦] .

والمعاهدون يجب أن نوفي لهم بعهودهم ، ثم أن نطمئن إليهم ، أو نخاف منهم ، أو ينقضوا العهد .

ثلاث حالات كلها مبينة في القرآن ؛ فإن اطمأننا إليهم وجب أن نفي لهم بعهدهم ، وإن خفناهم فقد قال اللّٰه تعالى : ﴿ وَإِمَّا تَخَافَنَّ مِن قَوْمٍ خِيَانَةً فَٱنۢبِذْ إِلَيْهِمْ عَلَىٰ سَوَآءٍ (١) إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ ٱلْخَآئِنِينَ ﴾ [الأنفال : ٥٨] . قل لهم : ما بيننا عهدٌ إذا خفت منهم و ولا تنقض العهد بدون أن تخبرهم .

والثالث هم الذين نقضوا العهد ﴿ فَقَٰتِلُوٓاْ أَئِمَّةَ ٱلْكُفْرِ إِنَّهُمْ لَآ أَيْمَٰنَ لَهُمْ لَعَلَّهُمْ يَنتَهُونَ ﴾ [التوبة : ١٢] ، إذا نقضوا العهد فلا أيمان لهم ولا عهد لهم ، فالمهم أن الدين دين اللّٰه وأن الدين سياسة : سياسة شرعية . سياسة اجتماعية . سياسة مع الأجانب ، ومع المسالمين ، ومع كل أحد .

ومن فصل الدين عن السياسة فقد ضل ؛ فهو بين أمرين : إما جاهل بالدين ولا يعرف ، ويظن أن الدين عبادات بين العبد وربه ، وحقوق شخصية وما أشبه ذلك ؛ يظن أن هذا هو الدين فقط .

أو أنه قد بهره الكفرة وما هم عليه من القوة المادية ، فظن أنهم هم المصيبون .

وأما من عرف الإسلام حق المعرفة ؛ عرف أنه شريعة وسياسة .

* * *

---

(١) أي فاطرح إليهم عهدهم وحاربهم ولكن بطريق مستوٍ ظاهر بأن تعلمهم بنبذك عهدَهم قبل أن تحاربهم ؛ حتى تكون أنت وهم في العلم بنبذ العهد سواء ، فلا يتوهم أحد فيك الغدر ، أما إذا ظهر نقضهم العهدَ ظهورًا مقطوعًا به فلا حاجة إلى إعلامهم بالنبذ .

٦٥٧ - وعن عائِذ بن عمرو ﷺ أَنَّهُ دَخَلَ عَلى عُبَيدِ اللَّهِ بن زِيَادٍ ، فقال له : أي بُنَيَّ ، إنِّي سَمِعتُ رسول اللَّه ﷺ يقول : « إنَّ شَرَّ الرِّعَاءِ الحُطَمَةُ » فَإيَّاكَ أَن تَكُونَ مِنْهُم [1] . متفقٌ عليه .

٦٥٨ - وعن أَبي مَريَمَ الأَزدِيِّ ﷺ أَنه قال لِمُعاوِيَةِ ﷺ : سَمِعتُ رسول اللَّه ﷺ يقول : « منْ وَلَّاهُ اللَّهُ شَيئًا مِن أُمور المُسلمينَ ، فَاحْتَجَبَ دُونَ حَاجَتِهِم وخَلَّتِهِم وفَقرِهِم ؛ احتَجَبَ اللَّه دُونَ حَاجَتِهِ وَخَلَّتِهِ وفَقرِهِ يَومَ القِيامَةِ » فَجَعَلَ مُعَاوِيَة رجُلًا على حَوَائِجِ النَّاسِ [2] . رواه أبو داود ، والترمذي .

الشرح

هذان الحديثان في بيان ما يجب على الرعاة لرعيتهم من الحقوق ، من ذلك قول النبي ﷺ : « إن شرَّ الرعاء الحطمة » « الرعاء » : جمع راعٍ ، « والحطمة » : الذي يحطم الناس ويشق عليهم ويؤذيهم ، فهذا شر الرعاء ، فإذا كان هذا شر الرعاء ؛ فإن خير الرعاء اللين السهل ، الذي يصل إلى مقصوده بدون عنف .

فُيستفاد من هذا الحديث فائدتان :

الفائدة الأولى : أنه لا يجوز للإنسان الذي ولاه اللَّه على أمر من أمور المسلمين أن يكون عنيفًا عليهم و بل يكون رفيقًا بهم .

الفائدة الثانية : وجوب الرفق بمن ولاه اللَّه عليهم بحيث يرفق بهم في قضاء حوائجهم وغير ذلك ، مع كونه يستعمل الحزم والقوة والنشاط ، يعني لا يكون لينًا مع ضعف ولكن لينًا بحزم وقوة ونشاط .

وأما الحديث الثاني : ففيه التحذير من اتخاذ الإنسان الذي يوليه اللَّه تعالى أمرًا من أمور المسلمين حاجبًا يحول دون خلتهم وفقرهم وحاجتهم ، وأن من فعل ذلك ؛ فإن اللَّه تعالى يحول بينه وبين حاجته وخلته وفقره .

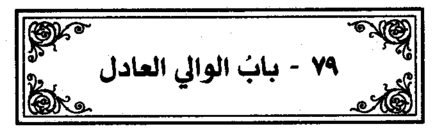
لما حُدث معاوية ﷺ بهذا الحديث اتخذ رجلًا لحوائج الناس يستقبل الناس وينظر في حوائجهم ، ثم يرفعها إلى معاوية ﷺ بعد أن كان أميرًا للمؤمنين .

وهكذا أيضًا من له نوع من الولاية وللناس حاجةٌ عنده ؛ فإنه لا ينبغي أن يحتجب دون حوائجهم ، ولكن له أن يرتب أموره بحيث يجعل لهؤلاء وقتًا ، ولهؤلاء وقتًا ، ولهؤلاء وقتًا ، حتى لا تنفرط عليه الأمور .

* * *

(١) أخرجه مسلم في الإمارة (٢٣) والبيهقي في سنن (١٦١/٨) ولم نجده في صحيح البخاري .

(٢) قوله « خلته » أي محبتة وصداقته (المعجم العربي الأساسي ص : ٤٢١) ، والحديث أخرجه أبو داود في السنن (٢٩٤٨) والترمذي في السنن (١٣٣٢) والحاكم في المستدرك (٩٣/٤) .



٧٩ - باب الوالي العادل

قال الله تعالى : ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ يَأْمُرُ بِٱلْعَدْلِ وَٱلْإِحْسَٰنِ ﴾ [النحل : ٩٠] . وقال تعالى : ﴿ وَأَقْسِطُوٓاْ إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلْمُقْسِطِينَ ﴾ [الحجرات : ٩] .

٦٥٩ - وعن أبي هريرة ﷺ عن النبي ﷺ قال : « سَبْعَةٌ يُظِلُّهُمُ اللَّه في ظِلِّهِ يومَ لا ظِلَّ إلا ظِلُّهُ : إمَامٌ عَادِلٌ ، وشَابٌّ نَشَأَ في عِبَادَةِ اللَّهِ تَعَالى ، وَرَجُلٌ قَلْبُهُ مُعَلَّقٌ في المَسَاجِدِ ، ورَجُلان تَحَابَّا في اللَّه ، اجتَمَعَا عليهِ ، وتَفَرَّقَا عَلَيهِ ، ورَجُلٌ دَعَتهُ امرَأَةٌ ذَاتُ مَنصِبٍ وجَمَالٍ ، فَقَالَ : إنِّي أَخَافُ اللَّهَ ، وَرَجُلٌ تَصَدَّقَ بِصَدَقَةٍ ، فَأَخفَاهَا حَتَّى لا تَعْلَمَ شِمَالُهُ ما تُنْفِقُ يَمِينُهُ ، ورَجُلٌ ذَكَرَ اللَّه خَالِيًا فَفَاضَتْ عَينَاهُ » [١] متفقٌ عليه .

٦٦٠ - وعن عبدِ اللَّه بن عمرِو بن العاص ﷺ قال : قال رسول اللَّه ﷺ : « إنَّ المُقْسِطِينَ عِنْدَ اللَّهِ عَلى مَنَابِرَ مِنْ نُورٍ : الَّذِينَ يَعْدِلُونَ في حُكْمِهِمْ وأَهْلِيهِمْ وَمَا وَلوا » [٢] رواه مسلم .

الشرح

قال النووي - رحمه اللَّه تعالى - في باب الوالي العادل . والوالي هو الذي يتولى أمرًا من أمور المسلمين الخاصة أو العامة ، حتى الرجل في أهل بيته يُعتبر واليًا عليهم لقول النبي ﷺ : « الرجل راع في أهله ومسؤول عن رعيته » والعدل واجب حتى في معاملة الإنسان نفسه ، لقول النبي ﷺ : « إن لنفسك عليك حقًّا ، ولربك عليك حقًّا ، ولأهلك عليك حقًّا ، ولزورك - أي الزائر لك - عليك حقًّا فأعط كل ذي حق حقه » [٣] .

فالعدل واجب في كل شيء ، لكنه في حق ولاة الأمور أوكد وأولى وأعظم ، لأن الظلم إذا وقع من ولاة الأمور حصلت الفوضى والكراهية لهم حيث لم يعدلوا .

لكن نوقفنا نحو الإمام أو نحو الوالي الذي لم يعدل أو ليس بعادل أن نصبر ؛ نصبر على ظلمه وعلى جوره وعلى استئثاره ، حتى أن النبي ﷺ أوصى الأنصار ﷺ وقال لهم : « إنكم ستلقون بعدي أثرة » يعني استئثارًا عليكم « فاصبروا حتى تلقوني على الحوض » [٤] ؛ ذلك لأن منازعة ولي الأمر يحصل بها الشر والفساد الذي هو أعظم من جوره وظلمه ، ومعلوم أن العقل والشرع ينهى عن ارتكاب أشد

---

(١) أخرجه البخاري في الزكاه (١٤٢٣) ومسلم في الزكاة (٩١) والإمام أحمد في مسنده (٤٣٩/٢) .
(٢) أخرجه مسلم في الإمارة (١٨) وفي مسلم زيادة بعد كلمة نور « عن يمين الرحمن ﷻ ، وكلتا يديه يمين » .
(٣) أخرجه البخاري في الأدب (٦١٣٤) ومسلم في الصيام (١١٥٩) وورد الحديث بألفاظ مختلفة ، انظر روايات الحديث قي صحيح البخاري في الصوم (١٩٦٨ ، ١٩٧٤ ، ١٩٧٥) ، والتهجد (١١٥٣) والنكاح (٥١٩٩) والأدب (٦١٣٤ ، ٦١٣٩) وانظر صحيح مسلم في الصيام (١٨٢) وسنن الترمذي (٢٤١٣) .
(٤) أخرجه البخاري في المغازي (٤٣٣٠) ومسلم في الزكاة (١٣٩) .

الضررين ، ويأمر بارتكاب أخف الضررين إذا كان لابد من ارتكاب أحدهما .

ثم ساق المؤلف رحمه الله آيات وأحاديث منها قوله تعالى : ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ يَأْمُرُ بِٱلْعَدْلِ وَٱلْإِحْسَٰنِ ﴾ العدل واجب ، والإحسان فضل وزيادة فهو سنة . وحسبته سيذكر قوله تعالى : ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ أَطِيعُواْ ٱللَّهَ وَأَطِيعُواْ ٱلرَّسُولَ وَأُوْلِى ٱلْأَمْرِ مِنكُمْ ﴾ [النساء: ٥٩] وقوله : ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ يَأْمُرُكُمْ أَن تُؤَدُّواْ ٱلْأَمَٰنَٰتِ إِلَىٰٓ أَهْلِهَا وَإِذَا حَكَمْتُم بَيْنَ ٱلنَّاسِ أَن تَحْكُمُواْ بِٱلْعَدْلِ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ نِعِمَّا يَعِظُكُم بِهِۦٓ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ سَمِيعًۢا بَصِيرًا ﴾ [النساء: ٥٨] .

العدل من الوالي ألا يفرق بين الناس ؛ لا يجور على أحد ، ولا يحابي غنيًا لغناه ، ولا قريبًا لقرابته ، ولا فقيرًا لفقره ، ولكن يحكم بالعدل ، حتى إن العلماء رحمهم الله قالوا : يجب على القاضي أن يستعمل العدل مع الخصمين ، ولو كان أحدهما كافرًا ؛ يعني لو دخل كافر ومسلم على القاضي ، فإن الواجب أن يعدل بينهم في الجلوس والمكالمة والملاحظة بالعين وغير ذلك ؛ لأن المقام حكم يجب فيه العدل ، وإن كان بعض الجهال يقول : لا ، قدم المسلم . نقول : لا يجوز أن نقدم المسلم ؛ لأن المقام مقام محاكمة ومعادلة ، فلابد من العدل في كل شيء .

ثم ذكر حديث أبي هريرة رضي الله عنه أن النبي ﷺ قال : « سبعة يظلهم الله في ظله يوم لا ظل إلا ظله » سبعة يظلهم الله ، وليس هذا على سبيل الحصر ، هناك أناس آخرون يظلهم الله غير هؤلاء ، وقد جمعهم الحافظ ابن حجر في شرح البخاري فزادوا على العشرين (١) .

لكن الرسول - عليه الصلاة والسلام - يتحدث أحيانًا بما يناسب المقام ، فتجده يقول ثلاثة ، أو سبعة ، أو أربعة ، أو ما أشبه ذلك ، مع أن هناك أشياء أخر لم يذكرها ؛ لأنه - عليه الصلاة والسلام - أفصح الخلق وأقواهم بلاغة فيتحدث بما يناسب المقام .

وقوله : « سبعة يظلهم الله في ظله يوم لا ظل إلا ظله » وذلك يوم القيامة ، فإن الناس يحشرون حفاة عراة غرلًا (٢) ليس هناك ظل إلا ظل الله ، أي ظل يخلقه الله عز وجل يظل فيه من يظلهم الله تعالى في ذلك اليوم ؛ لأنه ليس هناك بناء و ولا ظل شجر ، ولا ظل ثياب ، ولا ظل مصنوعات أبدًا ، ليس هناك إلا الظل الذي ييسره الله تعالى للإنسان ، يخلقه جل وعلا ظلًا من عنده ، الله أعلم بكيفيته ، ويظلل الإنسان .

بدأ بالإمام العادل الذي يعدل بين الناس ، وأهم عدل في الإمام : أن يحكم بين الناس بشريعة الله ؛ لأن شريعة الله هي العدل ، وأما من حكم بالقوانين الوضعية المخالفة للشريعة فهو من أشد الولاة جورًا - والعياذ بالله - وأبعد الناس من أن يظله الله في ظله يوم لا ظل إلا ظله ؛ لأنه ليس من العدل أن تحكم بين عباد الله بشريعة غير شريعة الله ، من جعل لك هذا ؟ احكم بين الناس بشريعة ربهم عز وجل، فأعظم العدل أن يحكم الإمام بشريعة الله .

---

(١) انظر فتح الباري لابن حجر (١٤٣/٢ ، ١٤٤) .

(٢) انظر الحديث في البخاري في أحاديث الأنبياء (٣٣٤٩) ومسلم في الجنة وصفة نعيمها (٥٦) .

ومن ذلك أن يأخذ الحق حتى من نفسه ومن أقرب الناس إليه ؛ لقول الله تعالى : ﴿ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ كُونُوا۟ قَوَّٰمِينَ بِٱلْقِسْطِ (١) شُهَدَآءَ لِلَّهِ ﴾[النساء: ١٣٥] .

ومن ذلك أيضًا : ألا يفرق بين قريبه وغيره ، فتجده إذا كان الحق على القريب تهاون في تنفيذه وجعل يسوِّف ويؤخر ، وإذا كان لقريبه على غيره بادر فاقتص منه .

فإن هذا ليس من العدل . والعدل بالنسبة لولي الأمر له فروع كثيرة وأنواع كثيرة لا يتسع المقام الآن لذكرها .

أما الثاني : فهو « شاب نشأ في طاعة الله » ، الشاب صغير السن الذي نشأ في طاعة الله واستمر على ذلك ، هذا أيضًا ممن يظلهم الله في ظله يوم لا ظل إلا ظله ؛ لأنه ليس له صبوة ، والغالب أن الشباب يكون لهم صبوة وميل وانحراف .

ولكن إذا كان هذا الشاب نشأ في طاعة الله ، ولم يكن له ميل ولا انحراف واستمر على هذا ، فإن الله تعالى يظله في ظله يوم لا ظل إلا ظله .

والثالث : « رجلان تحابا في الله اجتمعا عليه وتفرقا عليه » .

« رجلان تحابا في الله » يعني ليس بينهما صلة من نسب أو غيره ، ولكن تحابا في الله . كل واحد منهما رأى أن صاحبه ذو عبادة وطاعة لله عَزَّ وَجَلَّ ، وقيام بما يجب لأهله ولمن له حق عليه ، فرآه على هذه الحال فأحبه .

« اجتمعا عليه وتفرقا عليه » يعني اجتمعا عليه في الدنيا ، وبقيا على ذلك إلى أن ماتا فتفرقا على ذلك ؛ هذان أيضًا ممن يظلهم الله في ظله يوم لا ظل إلا ظله .

والرابع : « رجل قلبه معلق بالمساجد » يعني أنه يألف الصلاة ويحبها ، وكلما فرغ من صلاة إذا هو يتطلع إلى صلاة أخرى .

فالمساجد : أماكن السجود ، سواء بُنيت للصلاة فيها أم لا ، المهم أنه دائمًا يرغب الصلاة ، قلبه معلق بها ؛ كلما فرغ من صلاة تطلع للصلاة الأخرى .

وهذا يدل على قوة صلته بالله عَزَّ وَجَلَّ ؛ لأن الصلاة صلة بين العبد وبين ربه ، فإذا أحبها الإنسان وألفها فهذا يدل على أنه يحب الصلة التي بينه وبين الله ، فيكون ممن يظلهم الله في ظله يوم لا ظل إلا ظله .

والخامس : « رجل دعته امرأة ذات منصب وجمال » يعني دعته لنفسها ليفجر بها ، ولكنه كان قوي العفة ، طاهر العرض « قال : إني أخاف الله » فهو رجل ذو شهوة ، والدعوة التي دعته إليها هذه المرأة تُوجب أن يفعل ؛ لأنها هي التي طلبته ، والمكان خال ليس فيه أحد ، ولكن منعه من ذلك

---

(١) أي مواظبين على إقامة العدل في جميع الأمور .

خوف الله ﷻ . « قال : إني أخاف الله » ، لم يقل : أخشى أن يطلع علينا أحد ، ولم يقل إنه لا رغبة له في الجماع ، ولكن قال : « إني أخاف الله » ، فهذا يظله الله في ظله يوم لا ظل إلى ظله ؛ لكمال عفته .

والسادس : « رجل تصدق بصدقة فأخفاها حتى لا تعلم شماله ما تنفق يمينه » تصدق بصدقة مخلصًا بذلك لله ﷻ ، حتى إنه لو كان أحد على يساره ما علم بذلك من شدة الإخفاء ، فهذا عنده كمال الإخلاص ، فيظله الله تعالى في ظله يوم لا ظل إلا ظله ، وهذا ما لم يكن إظهار الصدقة فيه مصلحة وخير ، فإذا كان في إظهار الصدقة مصلحة وخير كان إظهارها أولى ، لكن إذا لم يكن فيه مصلحة فالإسرار أولى .

والسابع : « رجل ذكر الله خاليًا ففاضت عيناه » ذكر الله خاليًا في مكان لا يطلع عليه أحد ، خاليًا قلبه من التعلق بالدنيا ، فخشع من ذلك وفاضت عيناه . هؤلاء السبعة يظلهم الله في ظله يوم لا ظل إلا ظله ، قد توجد صفتان فأكثر في شخص واحد ، وقد لا يوجد في الإنسان إلا صفة واحدة وهي كافية .

ثم ذكر المؤلف حديث عبد الله بن عمرو بن العاص رضي الله عنهما ، أن النبي ﷺ قال : « المقسطون على منابر من نور يوم القيامة ، الذين يعدلون في أهليهم وما ولوا » يعني أن المقسطين العادلين في أهليهم وفيمن ولاهم الله عليه ، يكونون على منابر من نور يوم القيامة على يمين الله ﷻ .

وهذا دليل على فضل العدل في الأهل ، وكذلك في الأولاد ، وكذلك أيضًا في كل من ولاك الله عليه ، واعدل حتى تكون على منبر من نور عن يمين الله ﷻ يوم القيامة .

* * *

٦٦١ - وعَن عَوفِ بنِ مَالِكٍ رضي الله عنه قال : سَمِعْتُ رسول الله ﷺ يقولُ : « خِيَارُ أَئِمَّتِكُمُ الَّذِينَ تُحِبُّونَهُمْ ويُحِبُّونَكُمْ ، وَتُصَلُّونَ عَلَيهِمْ وَيُصَلُّونَ عَلَيكُمْ ، وَشرَارُ أَئِمَّتِكُمُ الَّذِينَ تُبْغِضُونهُم وَيُبْغِضُونَكُم [١] ، وتَلْعَنُونَهُمْ وَيَلْعَنُونَكُمْ ! » قالَ : قُلْنَا : يا رَسُولَ اللهِ ، أَفَلا نُنَابِذُهُمْ [٢] ؟ قال : « لا ، مَا أَقَامُوا فِيكُمُ الصَّلاةَ ، لا ، مَا أَقَامُوا فيكُمُ الصَّلاةَ » [٣] رواه مسلم .

قوله : « تُصَلُّونَ عَلَيهِمْ » : تَدْعُونَ لَهُمْ .

٦٦٢ - وعنْ عِيَاض بنِ حمارٍ رضي الله عنه قالَ : سَمِعْتُ رَسُولَ اللهِ ﷺ يقولُ : « أَهْلُ الجَنَّةِ ثَلاثَةٌ : ذُو سُلْطان مُقْسِطٌ مُوَفَّقٌ ، ورَجُلٌ رَحِيمٌ رَقِيقُ القَلْبِ لِكُلِّ ذي قُرْبى وَمسْلِمٍ ، وعَفِيفٌ مُتَعَفِّفٌ ذُو عِيال » [٤]

---

(١) تبغضونهم : أي تكرهونهم .

(٢) تنابذهم : تفارقهم وتبغضهم (المعجم العربي الأساسي ص : ١١٦٨) .

(٣) أخرجه مسلم في الإمارة (٦٦) والإمام أحمد في مسنده (٢٤/٦) .

(٤) أخرجه مسلم في الجنة وصفة نعيمها (٦٣) والإمام احمد في مسنده (١٦٢/٤) .

رواه مسلم

الشرح

ذكر النووي رَحِمَهُ اللَّهُ فضل الإمام العادل : عن عوف بن مالك رضي الله عنه أن النبي ﷺ قال : « خيار أئمتكم الذين تحبونهم ويحبونكم ، وتصلون عليهم ويصلون عليكم ، وشرار أئمتكم الذين تبغضونهم ويبغضونكم ، وتلعنونهم ويلعنونكم » الأئمة : يعني ولاة الأمور ، سواء أكان الإمام الكبير في البلد وهو السلطان الأعلى أم كان من دونه .

هؤلاء الأئمة الذين هم ولاة أمورنا ، ينقسمون إلى قسمين : قسم نحبهم ويحبوننا ، فتجدنا ناصحين لهم وهم ناصحون لنا ؛ ولذلك نحبهم ؛ لأنهم يقومون بما أوجب اللَّه عليهم من النصحية لمن ولاهم اللَّه عليه ، ومعلوم أن من قام بواجب النصيحة فإن اللَّه تعالى يحبه ، ثم يحبه أهل الأرض . فهؤلاء الأئمة الذين قاموا بما يجب عليهم محبوبون لدي رعيتهم .

وقوله : « وتصلون عليهم ويصلون عليكم » . الصلاة هنا بمعنى الدعاء ، يعني تدعون لهم ويدعون لكم ، تدعون لهم بأن يهديهم اللَّه ويصلح بطانتهم ، ويوفقهم للعدل إلى غير ذلك من الدعاء الذي يدعى به للسلطان ، وهم يدعون لكم : اللهم أصلح رعيتنا ، اللهم اجعلهم قائمين بأمرك ، وما أشبه ذلك .

أما شرار الأئمة : فهم « الذين تبغضونهم ويبغضونكم » تكرهونهم ؛ لأنهم لم يقوموا بما أوجب اللَّه عليهم من النصيحة للرعية ، وإعطاء الحقوق إلى أهلها ، وإذا فعلوا ذلك فإن الناس يبغضونهم ، فتحصل البغضاء من هؤلاء وهؤلاء ؛ تحصل البغضاء من الرعية للرعاة ؛ لأنهم لم يقوموا بواجبهم ، ثم تحصل البغضاء من الرعاة للرعية ؛ لأن الرعية إذا أبغضت الوالي تمردت عليه وكرهته ، ولم تطع أوامره ولم تتجنب ما نهى عنه ، وحينئذ « تلعنونهم ويلعنونكم » والعياذ باللَّه ؛ يعني يسبونكم وتسبونهم ، أو يدعون عليكم باللعنة وتدعون عليهم باللعنة .

إذًا الأئمة ينقسمون إلى قسمين : قسم وفقوا وقاموا بما يجب عليهم فأحبهم الناس وأحبوا الناس ، وصار كل واحد منهم يدعو للآخر . وقسم آخر بالعكس شرار الأئمة ، يبغضون الناس والناس يبغضونهم ، ويسبون الناس والناس يسبونهم .

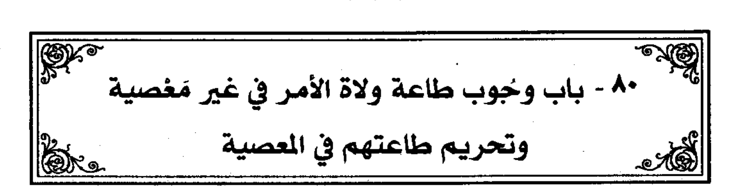
أما حديث عياض بن حمار رضي الله عنه : فهو أن النبي ﷺ قال : « أهل الجنة ثلاثة : ذو سلطان مقسط موفق » وهذا هو الشاهد ؛ يعني صاحب سلطان ، والسلطان يعم السلطة العليا وما دونها . « مقسط » : أي عادل بين من ولاه اللَّه عليهم .« موفق » : أي مهتد لما فيه التوفيق والصلاح ، قد هُدي إلى ما فيه الخير ، فهذا من أصحاب الجنة .

وقد سبق أن الإمام العادل ممن يظلهم اللَّه في ظله يوم لا ظل إلا ظله ، وهذا هو الشاهد من هذا الحديث « ذو سلطان مقسط موفق ، ورجل رحيم رقيق القلب لكل ذي قربى ومسلم » رجل رحيم يرحم عباد اللَّه ، يرحم الفقراء ، يرحم العجزة ، يرحم الصغار ، يرحم كل من يستحق الرحمة ،

«رقيق القلب» ليس قلبه قاسيًا . «لكل ذي قربى ومسلم» ، وأما للكفار فإنه غليظ عليهم . هذا أيضًا من أهل الجنة ، أن يكون الإنسان رقيق القلب يعني فيه لين ، وفيه شفقة على كل ذي قربى ومسلم .

والثالث : «رجل عفيف متعفف ذو عيال» يعني أنه فقير ولكنه متعفف ، لا يسأل الناس شيئًا ، يحسبه الجاهل غنيًا من التعفف . «ذو عيال» أي أنه مع فقره عنده عائلة ، فتجده صابرًا محتسبًا يكد على نفسه ، فربما يأخذ الحبل يحتطب ويأكل منه ، أو يأخذ المخلب يحتش فيأكل منه ، المهم أنه عفيف متعفف ذو عيال ، ولكنه صابر على البلاء ، صابر على عياله ، فهذا من أهل الجنة . نسأل الله أن يجعلنا من أحد هؤلاء الأصناف .

* * *



٨٠ - باب وجوب طاعة ولاة الأمر في غير مَعْصية وتحريم طاعتهم في المعصية

قال الله تعالى : ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ أَطِيعُوا۟ ٱللَّهَ وَأَطِيعُوا۟ ٱلرَّسُولَ وَأُو۟لِى ٱلْأَمْرِ مِنكُمْ ﴾ [النساء : ٥٩] .

٦٦٣ - وعن ابنِ عمر رضي الله عنهما عَن النبيِّ ﷺ قال : «عَلى المَرْءِ المُسْلِم السَّمْعُ والطَّاعَةُ فِيما أَحَبَّ وكَرِهَ ، إلا أَنْ يُؤمَرَ بِمَعْصِيَةٍ ، فَإذَا أُمِرَ بمَعْصِيَةٍ فَلا سَمْعَ وَلا طَاعَةَ» (١) متفقٌ عليه .

٦٦٤ - وعنْه قال : كُنَّا إذا بَايَعْنَا رَسُولَ اللَّهِ ﷺ عَلى السَّمْع والطَّاعَةِ يَقُولُ لَنَا : «فِيما اسْتَطَعْتُمْ» (٢) متفقٌ عليه .

٦٦٥ - وعنهُ قال : سَمِعْتُ رسول الله ﷺ يقول : «مَنْ خَلَعَ يَدًا مِنَ طَاعَةٍ ؛ لَقيَ اللَّهَ يَومَ القِيَامَةِ وَلا حُجَّةَ لَهُ ، وَمَنْ مَاتَ وَلَيسَ في عُنُقِهِ بيعَةٌ ؛ مَاتَ مِيتَةً جَاهِلِيَّةً» رواه مسلم .

وفي رواية له : «وَمَنْ مَاتَ وَهُوَ مُفَارِقٌ للْجَمَاعَةِ ؛ فَإنَّهُ يَمُوتُ مِيتَةً جَاهِلِيةً» (٣) . «المِيتَةُ» بكسر الميم .

الشرح

ذكر المؤلف - رحمه الله تعالى - : وجوب طاعة ولاة الأمور في غير معصية وتحريم طاعتهم في معصية الله . واستدل لذلك بقوله : ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ أَطِيعُوا۟ ٱللَّهَ وَأَطِيعُوا۟ ٱلرَّسُولَ وَأُو۟لِى ٱلْأَمْرِ مِنكُمْ ﴾ .

ولاة الأمور ، ذكر أهل العلم أنهم قسمان : العلماء ، والأمراء .

---

(١) أخرجه مسلم في الإمارة (٣٨) واللفظ له ، والبخاري في الأحكام (٧١٤٤) .

(٢) أخرجه البخاري في الأحكام (٧٢٠٢) ومسلم في الإمارة (٩٠) .

(٣) أخرجه مسلم في الإمارة (٥٨) .

أما العلماء فهم ولاة أمور المسلمين في بيان الشرع ، وتعليم الشرع ، وهداية الخلق إلى الحق ، فهم ولاة أمور في هذا الجانب ، وأما الأمراء : فهم ولاة الأمور في ضبط الأمن وحماية الشريعة وإلزام الناس بها ، فصار لهؤلاء وجهة .

والأصل : العلماء لأن العلماء هم الذين يبينون الشرع ويقولون للأمراء هذا شرع اللّٰه فاعملوا به ، ويلزم الأمراء بذلك ، لكن الأمراء لا طريق لهم إلى علم الشرع إلا عن طريق العلماء ، وهم إذا علموا الشرع نفذوه على الخلق .

والعلماء يؤثرون على من في قلبه إيمان ودين ؛ لأن الذي في قلبه إيمان ودين ينصاع للعلماء ويأخذ بتوجيهاتهم وأمرهم .

والأمراء ينصاع لهم من خاف من سطوتهم وكان عنده ضعف إيمان ، فيخاف من الأمير أكثر مما يخاف من العالم ، وبعضهم يخاف أكثر مما يخاف من اللّٰه والعياذ باللّٰه .

فلذلك كان لابد للأمة الإسلامية من علماء وأمراء ، وكان واجبًا على الأمة الإسلامية أن يطيعوا الأمراء ، ولكن طاعة هؤلاء وهؤلاء تابعة لطاعة اللّٰه لقوله تعالى : ﴿ أَطِيعُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ وَأُولِي الْأَمْرِ مِنكُمْ ﴾ ولم يقل أطيعوا أولي الأمر منكم ؛ لأن طاعة ولاة الأمر تابعة لا مستقلة ، أما طاعة اللّٰه ورسوله فهي مستقلة ، ولهذا أعاد فيها الفعل فقال : أطيعوا وأطيعوا ، أما طاعة ولاة الأمور فهي تابعة ليست مستقلة .

وعلى هذا فإذا أمر ولاة الأمور بمعصية اللّٰه ؛ فإنه لا سمع لهم ولا طاعة ؛ لأن ولاة الأمور فوقهم ولي الأمر الأعلى جل وعلا وهو اللّٰه ، فإذا أمروا بمخالفته فلا سمع لهم ولا طاعة .

أما الأحاديث التي ذكرها المؤلف رحمه الله : فمنها حديث عبد اللّٰه بن عمر رضي الله عنهما ، أن النبي ﷺ قال : « على المرء المسلم السمع والطاعة فيما أحب وفيما كره ، مالم يؤمر بمعصية فإن أمر بمعصية فلا سمع ولا طاعة » .

قوله : « على المرء » : هذه كلمة تدل على الوجوب ، وأنه يجب على المرء المسلم بمقتضى إسلامه أن يسمع لولاة الأمور فيما أحب وفيما كره ، حتى لو أمر بشيء يكرهه ؛ فإنه يجب عليه أن يقوم به ولو كان يرى خلافه ، ولو كان يكره أن ينفذه . فالواجب عليه أن ينفذ ، إلا إذا أمر بمعصية اللّٰه ، فإذا أمر بمعصية اللّٰه فطاعة اللّٰه تعالى فوق كل طاعة ، ولا طاعة لمخلوق في معصية الخالق . وفي هذا دليل على بطلان مسلك من يقول : لا نطيع ولاة الأمور إلا فيما أمرنا اللّٰه به ، يعني إذا أمرونا أن نصلي صلينا ، إذا أمرونا أن نزكي زكينا . أما إذا أمرونا بأمر ليس فيه أمر شرعي ؛ فإنه لا يجب علينا طاعتهم ؛ لأننا لو وجبت علينا طاعتهم لكانوا مشرعين ، فإن هذه نظرة باطلة مخالفة للقرآن والسنة ، لأننا لو قلنا : إننا لا نطيعهم إلا فيما أمرنا اللّٰه ؛ به لم يكن بينهم وبين غيرهم فرق ، كل إنسان يأمر بالمعروف وينهى عن المنكر فإنه يطاع .

ثم نقول : بل نحن قد أمرنا بطاعتهم فيما لم يأمرنا الله ﷻ ؛ إذا لم يكن ذلك منهيًا عنه أو محرمًا ، فإننا نطيعهم حتى في التنظيم إذا نظموا شيئًا من الأعمال ، يجب علينا أن نطيعهم ؛ وذلك أن بطاعتهم يكون امتثال أمر الله ﷻ ، وامتثال أمر رسول الله ﷺ ، وحفظ الأمن ، والبعد عن التمرد على ولاة الأمور ، وعن التفرق ، فإذا قلنا لا نطيعهم إلا في شيء أمرنا به ، فهذا معناه أنه لا طاعة لهم .

هناك بعض الأنظمة : مثلًا تنظم الحكومة أنظمة لا تخالف فيها الشرع ، لكن لم يأت به الشرع بعينه ، فيأتي بعض الناس ويقول : لا نطيع في هذا ، فيقال : بل يجب عليك أن تطيع ، فإن عصيت فإنك آثم مستحق لعقوبة الله ، ومستحق لعقوبة ولاة الأمور . وعلى ولاة الأمور أن يُعَزِّروا مثل هؤلاء الذين يعصون أوامرهم التي يلزمهم أن يقوموا بها ؛ لأنهم إذا عصوا أوامر ولاة الأمور - وقد أمر الله بطاعتهم فيها - فهذا معصية لله . وكل إنسان يعصي الله ؛ فإنه مستحق للتعزير ، يعني : التأديب بما يراه ولي الأمر .

من ذلك مثلًا : أنظمة المرور ؛ فأنظمة المرور مما نظمه ولي الأمر ، وليس فيها معصية ، فإذا خالفها الإنسان فهو عاص وآثم ، مثلًا السير على اليسار ، والسير على اليمين ، والسير في الاتجاه الفلاني ، وفي السير يجب أن يقف إذا كانت الإشارة حمراء وما أشبه ذلك ، كل هذا يجب أن ينفذ وجوبًا ، فمثلًا إذا كانت الإشارة حمراء وجب عليك الوقوف . لا تقل : ما أمرنا الله بذلك ، ولاة الأمور نظموا لك هذا التنظيم وقالوا التزم به ، فإذا تجاوزت فإنك عاص آثم ، لأنك قلت لربك لا سمع ولا طاعة والعياذ بالله . فإن الله يقول : ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ أَطِيعُواْ ٱللَّهَ وَأَطِيعُواْ ٱلرَّسُولَ وَأُوْلِي ٱلۡأَمۡرِ مِنكُمۡۖ ﴾ كذلك أيضًا في التقاطع ، معروف أن الذي في الخط العام هو الذي له الحق أن يتجاوز ، إذا كنت أنت في خط فرعي ووجدت إنسان مقبلًا من الخط العام فلا تتجاوز لأن النظام يقتضي منع ذلك .

وهكذا أيضًا الأنظمة في الإمارة ، والأنظمة في القضاء ، وكل الأنظمة التي لا تخالف الشرع ؛ فإنه يجب علينا أن نطيع ولاة الأمور فيها ، وإلا أصبحت المسألة فوضى ، وكل إنسان له رأي ، وكل إنسان يحكم بما يريد ، وأصبح ولاة الأمور لا قيمة لهم ، بل هم أمراء بلا أمر ، وقضاة بلا قضاء .

فالواجب على الإنسان أن يمتثل لأمر ولاة الأمور إلا فيما كان فيه معصية الله . فلو قالوا لنا مثلًا : لا تخرجوا إلى المساجد لتصلوا الجمعة ، لا تصلوا الجمعة والجماعة ، قلنا لهم : لا سمع ولا طاعة ، ولو قالوا : اظلموا الناس في شيء ، قلنا : لا سمع ولا طاعة . كل شيء أمر به أو نهى عنه الله فإنه لا سمع ولا طاعة لهم في ضده أبدًا .

كذلك لو قالوا مثلًا : احلقوا اللحى - مثل بعض الدول يأمرون رعاياهم بحلق اللحى ولا سيما جنودهم الذين عندهم - لو قالوا : احلقوا اللحى ، قلنا : لا سمع لكم ولا طاعة . وهم آثمون في قولهم لجنودهم : احلقوا اللحى ، وهم بذلك آثمون مضادون لله ورسوله ، منابذون لله ورسوله .

كذلك لو قالوا مثلًا : أنزلوا ثيابكم إلى أسفل من الكعبين ، فإننا نقول : لا ، لا سمع ولا طاعة ، لأن هذا مما حرمه اللَّه وتوعد عليه ، فإذا أمرتمونا بمعصية فإننا لا نسمع لكم ولا نطيع ؛ لأن لنا ولكم ربًّا حكمه فوق حكمنا وحكمكم .

فإذًا أوامر ولاة الأمور تنقسم إلى ثلاثة أقسام :

الأول : أن يأمروا بما أمر اللَّه به ، فهنا تجب طاعتهم لوجهين .

الوجه الأول : أنه مما أمر اللَّه به .

والوجه الثاني مما أمروا به ، كغيرهم من الناس : إذا أمرك شخص بالمعروف وهو واجب ، فالواجب عليك أن تقوم به .

الثاني : أن يأمروا بمعصية اللَّه ، فهنا لا سمع ولا طاعة مهما كان ، وأنت إذا نالك عذاب منهم بسبب هذا فسيُعاقبون عليه هم يوم القيامة .

أولًا : لحق اللَّه ؛ لأن أمرهم بمعصية اللَّه من منابذة للَّه عَجَلَّ .

ثانيًا : لحقك أنت ؛ لأنهم اعتدوا عليك ، وأنت وهم كلكم عبيد اللَّه ، ولا يحل لكم أن تعصوا اللَّه .

الثالث : إذا أمروا بشيء ليس فيه أمر ولا نهي ، فيجب عليك أن تطيعهم وجوبًا ، فإن لم تفعل فأنت آثم ، ولهم الحق أن يعزروك وأن يؤدبوك بما يرون من تعزير وتأديب ؛ لأنك خالفت أمر اللَّه في طاعتهم ، ولهذا قال النبي - عليه الصلاة والسلام - : « على المرء المسلم السمع والطاعة فيما أحب وماكره ، ما لم يؤمر بمعصية ، فإن أمر بمعصية فلا سمع ولا طاعة » .

ثم أشد من ذلك من لا يعتقد للإمام بيعة ؛ من يقول : أنا ما بايعت الإمام ، ولا له بيعة عليَّ ، لأن مضمون هذا الكلام أنه لا سمع له ولا طاعة ولا ولاية ، وهذا أيضًا من الأمر المنكر العظيم ؛ فإن الرسول - عليه الصلاة والسلام - أخبر أن من مات من غير بيعة وليس له إمام فإنه يموت ميتة جاهلية ، يعني ليست ميتة إسلامية ، بل ميتة أهل الجهل والعياذ باللَّه ، وسيجد جزاءه عند اللَّه عَجَلَّ (١) .

فالواجب أن يعتقد الإنسان أن له إمامًا ، وأن له أميرًا يدين له بالطاعة في غير معصية اللَّه ، فإذا قال مثلًا : أنا لن أبايع ، قلنا : البيعة لا تكون في رعاع الناس وعوام الناس ، إنما تكون لأهل الحل والعقد .

ولهذا نقول : هل بايع كل الناس أبا بكر وعمر وعثمان وعلي ؟ هل بايعهم حتى الأطفال والعجوز والمرأة في خدرها ؟ أبدًا ما بايعوهم . ولم يأت أهل مكة يبايعون أبا بكر ، ولا أهل الطائف ولا غيرهم ، إنما بايعه أهل الحل والعقد في المدينة ، وتمت البيعة بذلك . وليست البيعة لازمة لكل واحد أن

---

(١) انظر الحديث في صحيح مسلم في الإمارة (٥٨) والبيهقي في السنن (١٥٦/٨) .

يجيء يبايع ، ولا يمكن لعوام الناس ؛ فعوام الناس تابعون لأهل الحل والعقد ، فإذا تمت البيعة من أهل الحل والعقد صار المُبَايع إمامًا ، وصار ولي أمر تجب طاعته في غير معصية اللّه ، فلو مات إنسان وهو يعتقد أنه ليس له ولي أمر ، وأنه ليست له بيعة ؛ فإنه يموت ميتة جاهلية . نسأل اللّه العافية .

* * *

٦٦٦ - وعَنْ أَنَسٍ ﷺ قال : قالَ رسُولُ اللّهِ ﷺ : « اسْمَعُوا وأَطِيعُوا ، وَإِنِ اسْتُعْمِلَ عَلَيكُمْ عَبْدٌ حَبَشِيٌّ ، كَأَنَّ رَأْسَهُ زَبِيبَةٌ » (١) رواه البخاري .

٦٦٧ - وعن أبي هريرة ﷺ قال : قالَ رسول اللّه ﷺ : « عَليكَ السَّمْعُ وَالطَّاعَةُ في عُسْرِكَ وَيُسْرِكَ ، وَمَنْشَطِكَ وَمَكْرَهِكَ ، وَأَثَرَةٍ عَلَيكَ » (٢) رواه مسلم .

الشرح

ذكر المؤلف - رحمه اللّه تعالى - في سياق الأحاديث الواردة في وجوب طاعة ولاة الأمور .

فقال فيما نقله عن أنس بن مالك ﷺ أن النبي ﷺ قال : « اسمعوا وأطيعوا وإن استعمل عليكم عبد حبشي كأن رأسه زبيبة » « اسمعوا وأطيعوا » : يعني الزموا السمع والطاعة لولاة الأمور ، حتى لو استعمل عليكم عبد حبشي . والنبي ﷺ هنا يخاطب العرب يقول : ولو استعمل عليكم عبد حبشي غير عربي ؛ عبد أصلًا وفرعًا وخلقة ، كأن رأسه زبيبة ؛ لأن شعر الحبشة غير شعر العرب ؛ فالحبشة يكون في رؤوسهم حلق كأنها الزبيب ، وهذا من باب المبالغة في كون هذا العامل عبدًا حبشيًا أصلًا وفرعًا ، وهذا يشمل قوله : « وإن استُعمل » فيشمل الأمير الذي هو أمير السلطان ، وكذلك السلطان .

فلو فُرض أن السلطان غلب الناس واستولى وسيطر وليس من العرب ، بل كان عبدًا حبشيًا ؛ فعلينا أن نسمع ونطيع ؛ لأن العلة واحدة ، وهي أنه إن لم نسمع ونطع حصلت الفوضى ، وزال النظام ، وزال الأمن ، وحل الخوف . فالمهم أن علينا أن نسمع ونطيع لولاة أمورنا إلا إذا أمروا بمعصية .

وكذلك حديث أبي هريرة ﷺ : أن النبي ﷺ قال : « عليك السمع والطاعة في عسرك ويسرك ، ومنشطك ومكرهك ، وأثرة عليك » السمع والطاعة لولاة الأمور في المنشط والمكره ؛ في المنشط : يعني الأمر الذي إذا أمروك به نشطت عليه ؛ لأنه يوافق هواك ، وفي المكره : في الأمر الذي إذا أمروك به لم تكن نشيطًا فيه ؛ لأنك تكرهه ، اسمع في هذا وهذا ، وفي العسر واليسر ،حتى إن كنت غنيًا فأمروك فاسمع ولا تستكبر ؛ لأنك غني ، وإذا كنت فقيرًا فاسمع ولا تقل أسمع وهم أغنياء وأنا

---

(١) أخرجه البخاري في الأحكام (٧١٤٢) والإمام أحمد في مسنده (١١٤/٣) والبيهقي في السنن (١٥٥/٨).
(٢) أخرجه مسلم في الإمارة (٣٥) والإمام أحمد في مسنده (٣٨١/٢ ، ٣٢١).

فقير. اسمع وأطع في أي حال من الأحوال، حتى في الأثرة؛ يعني إذا استأثر ولاة الأمور على الناس، فعليهم أيضًا السمع والطاعة في غير معصية الله عز وجل.

فلو أن ولاة الأمور سكنوا القصور الفخمة، وركبوا السيارات المريحة، ولبسوا أحسن الثياب، وتزوجوا وصار عندهم الإماء، وتنعموا في الدنيا أكبر تنعم، والناس سواهم في بؤس وشقاء وجوع، فعليهم السمع والطاعة؛ لأننا لنا شيء والولاة لهم شيء آخر؛ فنحن علينا السمع والطاعة، وعلى الولاة النصح لنا، وأن يسيروا بنا على هدي رسول الله ﷺ، لكن لا نقول إذا استأثروا علينا وكانت لهم القصور الفخمة والسيارات المريحة والثياب الجميلة وما أشبه ذلك، لا نقول: والله ما يمكن أن نسمع وهم في قصورهم وسياراتهم ونحن في بؤس وحاجة، والواحد منا لا يجد السكن وما أشبه ذلك. هذا حرام علينا، يجب أن نسمع ونطيع حتى في حال الأثرة. وقد قال الرسول - عليه الصلاة والسلام -: «إنكم ستلقون بعدي أثرة فاصبروا حتى تلقوني على الحوض» يقول للأنصار ذلك منذ ألف وأربعمائة سنة، من ذاك الوقت والولاة يستأثرون على الرعية، ومع هذا يقول: «اصبروا حتى تلقوني على الحوض»[1]، فليس استئثار ولاة الأمور بما يستأثرون به مانعًا من السمع والطاعة لهم، الواجب السمع والطاعة في كل ما أمروا به مالم يأمروا بمعصية، نسأل الله أن يصلحنا جميعًا رعية ورعاة وأن يهبنا منه رحمة إنه هو الوهاب.

* * *

٦٦٨ - وعن عبدِ الله بن عمرو رضي الله عنهما قال: كُنَّا مَعَ رسول الله ﷺ في سَفَرٍ، فَنَزَلْنا مَنْزِلًا، فَمِنَّا مَنْ يُصلِحُ خِبَاءَهُ، وَمِنَّا مَنْ يَنْتَضِلُ، وَمِنَّا مَنْ هُوَ في جَشَرِهِ؛ إذْ نَادَى مُنَادِي رسول الله ﷺ: الصَّلاة جامعَةً. فَاجْتَمعْنَا إلى رسول الله ﷺ فقال: «إنَّه لَمْ يَكُنْ نَبيٌّ قَبْلي إلا كَانَ حقًّا عَليهِ أَن يَدلَّ أُمَّتَهُ عَلى خَيرِ مَا يَعْلَمُهُ لهُم، وَيُنْذِرَهُمْ شَرَّ ما يَعْلَمُهُ لهُمْ، وإنَّ أُمَّتَكُمْ هذِهِ جُعِلَ عَافِيَتُهَا في أَوَّلها، وسَيُصِيبُ آخِرَهَا بَلاءٌ وأُمُورٌ تُنْكِرُونَهَا، وتجيءُ فتنٌ يُرَقِّقُ بَعْضُهَا بَعْضًا، وتجيء الفِتْنَةُ فَيَقُولُ المُؤْمِنُ: هذِهِ مُهْلِكَتِي، ثُمَّ تَنْكَشِفُ، وتَجيءُ الفِتْنَةُ فَيَقُولُ المؤمِنُ: هذِهِ هذِهِ، فَمَنْ أَحَبَّ أَنْ يُزَحْزَحَ عَنِ النَّارِ، وَيُدْخَلَ الجَنَّةَ، فَلتَأْتِهِ مَنِيَّتُهُ وَهُو يُؤْمِنُ بِاللهِ وَاليَوم الآخِرِ، وليَأْتِ إلى النَّاسِ الَّذي يُحِبُّ أَنْ يُؤْتى إليه، ومَنْ بَايَعَ إمَامًا فَأعطَاهُ صَفْقَةَ يَدِهِ[2]، وثَمَرَةَ قَلْبِهِ؛ فَلْيُطِعْهُ إنِ اسْتَطَاعَ، فَإنْ جَاءَ آخَرُ يُنَازِعُهُ، فَاضْرِبُوا عُنُقَ الآخَرِ»[3] رواه مسلم.

قَوله: «يَنْتَضِلُ» أي: يُسَابِقُ بالرَّمْي بِالنَّبْلِ وَالنُّشَّابِ. «وَالجَشَرُ» بفتح الجيم والشين المعجمةِ وبالراء: وهيَ الدَّوابُّ التي تَرْعَى وتبيتُ مَكانَها. وقوله: «يُرَقِّقُ بَعضُها بَعْضًا» أي: يُصَيِّرُ بَعْضَهَا

(١) أخرجه البخاري في الإيمان (٢٢١) ومسلم في الزكاة (٤٢).

(٢) الصفقة: ضرب اليد على اليد.

(٣) أخرجه مسلم في الإمارة (٤٦) والإمام أحمد في مسنده (١٩١/٢).

رَقيقًا ، أي : خَفِيفًا لِعِظَمِ ما بَعدَهُ ، فالثَّاني يُرَقِّقُ الأوَّلَ . وقيلَ : مَعَناهُ : يُشَوِّقُ بَعْضُهَا إلى بَعْضٍ بتحْسِينها وتسويلها ، وقِيلَ : يُشْبِهُ بَعضها بَعْضًا .

الشرح

هذا الحديث الذي ذكره المؤلف رحمه الله في باب وجوب طاعة ولاة الأمور . عن ابن عمرو رضي الله عنهما قال : « كنا مع النبي ﷺ في سفر فنزلنا منزلًا ، فنزل الناس فتفرقوا ، منهم من كان يصلح خباءه ، ومنهم من ينتضل ، ومنهم من هو في جشَره » . كالعادة أن الناس إذا نزلوا وهم سفر كلٌّ يشتغل بما يرى أنه لابد من الاشتغال فيه . « فنادى منادي رسول الله ﷺ يقول : الصلاة جامعة » ، وهذا النداء يُنادى به لصلاة الكسوف ، وينادى به إذا أراد الإمام أو الأمير أن يجتمع بالناس ، بدلًا من أن يقول : يأيها الناس هلموا إلى المكان الفلاني . فاجتمع الناس ، فخطبهم النبي - عليه الصلاة والسلام - ، وأخبرهم أنه ما من نبي بعثه الله إلا دل أمته على خير ما يعلمه لهم ، وأنذرهم شر ما يعلمه لهم ؛ كلُّ الأنبياء عليهم الصلاة والسلام كان منهم النصيحة لأقوامهم ، يعلمونهم الخير ويدلونهم عليه ويحثونهم عليه ، ويبينون الشر ويحذرونهم منه . وهكذا يجب على أهل العلم وطلبة العلم أن يبينوا للناس الخير ويحثوهم عليه ، ويبينوا الشر ويحذروهم منه ، لأن علماء هذه الأمة ورثة الأنبياء ، فإن النبي ﷺ ليس بعده نبي ، ختمت النبوة به ، فلم يبق إلا العلماء الذين يتلقون شرعه ودينه ، فيجب عليهم ما يجب على الأنبياء من بيان الخير والحث عليه ودلالة الناس إليه ، وبيان الشر والتحذير منه .

ثم أخبر النبي ﷺ أن هذه الأمة - يعني أمة محمد - جعل الله عافيتها في أولها ، يعني أن أول الأمة في عافية ليس فيها فتن ، ففي عهد النبي - عليه الصلاة والسلام - لم تكن هناك فتن ، وكذلك في عهد أبي بكر وعمر رضي الله عنهما . وحين قتل عمر رضي الله عنه قتله غلام المغيرة ، غلام يقال له : أبو لؤلؤة ، وهو مجوسي خبيث ، كان في قلبه غل على أمير المؤمنين عمر ، فلما تقدم لصلاة الصبح ضربه بخنجر له رأسان ، وقيل : إنه كان مسمومًا ، فضربه حتى قدَّ بطنه رضي الله عنه ، وحُمل وبقي ثلاثة أيام ثم مات رضي الله عنه . ثم إن هذا الرجل الخبيث هرب ، فلحقه الناس فقتل ثلاثة عشر رجلًا ؛ لأن الخنجر الذي معه مقبضه في الوسط وله رأسان ، فهو يقول به هكذا وهكذا ، ويضرب الناس يمينًا وشمالًا ، حتى ألقى عليه أحد الصحابة بساطًا فقتل نفسه والعياذ بالله .

من ذاك الوقت بدأت الفتنة ترفع رأسها ، وأخبر النبي - عليه الصلاة والسلام - في هذا الحديث أنه تأتي فتن يرقق بعضها بعضًا ، أي أن بعضها يجعل ما قبله رقيقًا وسهلًا ، لأن الثانية أعظم من الأولى ، كل واحدة أعظم من الأخرى فترقق ما قبلها ، ولهذا قال : « يرقق بعضها بعضًا » فتجيء الفتنة فيقول المؤمن : « هذه مهلكتي » ؛ لأن أول ما تأتي يستعظمها فيقول : من هنا نهلك .

ثم تأتي الأخرى فترقق الأولى وتكون الأولى سهلة بالنسبة إليها ، فيقول المؤمن : « هذه هذه » ،

يعني هذه التي فيها البلاء كلُّ البلاء ، نسأل اللّٰه أن يعيذنا من الفتن ، ولكن المؤمن يصبر ويحتسب ويلجأ إلى اللّٰه عَزَّ وَجَلَّ ، ويستعيذ باللّٰه من الفتنة ، وفي كل صلاة يقول : « أعوذ باللّٰه من عذاب القبر ، ومن عذاب النار ، ومن فتنة المحيا والممات ، ومن فتنة المسيح الدجال »[١] .

ثم قال النبي - عليه الصلاة والسلام - : « فمن أحب أن يزحزح عن النار ويدخل الجنة ؛ فلتأته منيته وهو يؤمن باللّٰه واليوم الآخر » نسأل اللّٰه أن يميتنا على ذلك ؛ من كان يحب أن يزحزح عن النار ويدخل الجنة - وكلنا يحب ذلك - فلتأته منيته وهو يؤمن باللّٰه واليوم الآخر .

« وليأت إلى الناس ما يحب أن يؤتى إليه » يعني يعامل الناس بما يحب أن يعاملوه به ، فينصح للناس كما ينصح لنفسه ، ويكره للناس ما يكره لنفسه ، فيكون هذا قائمًا بحق اللّٰه ، مؤمنًا باللّٰه واليوم الآخر ، وقائمًا بحق الناس ، لا يعامل الناس إلا بما يحب أن يعاملوه به ، فلا يكذب عليهم ، ولا يغشهم ، ولا يخدعهم ، ولا يحب لهم الشر ، يعني يعامل الناس بما يحب أن يعاملوه به ، فإذا جاء يسأل مثلًا هل هذا حرام أم حلال ؟ قلنا له : هل تحب أن يعاملك الناس بهذا ؟ إذا قال : لا . قلنا له : اتركه سواء كان حلالًا أم حرامًا .

ما دمت لا تحب أن يعاملك الناس به فلا تعامل الناس به ، واجعل هذا ميزانًا بينك وبين الناس في معاملتهم ؛ لا تأت الناس إلا بما تحب أن يؤتى إليك ؛ فتعاملهم باللطف كما تحب أن يعاملوك باللطف واللين ، بحسن الكلام ، بحسن المنطق ، باليسر ، كما تحب أن يفعلوا بك هذا ، هذا الذي يزحزح عن النار ويدخل الجنة . نسأل اللّٰه أن يجعلنا منهم .

* * *

٦٦٩ - وعن أبي هُنَيدَةَ وائِلِ بن حُجْر رضي الله عنه قالَ : سَأَلَ سَلَمَةُ بنُ يَزِيدَ الجُعْفِيُّ رَسُولَ اللّٰهِ ﷺ فقالَ : يَا نَبِيَّ اللّٰهِ ! أَرَأَيتَ إنْ قَامَتْ عَلَينَا أُمَرَاءُ يَسْأَلُونَا حَقَّهُمْ ، وَيَمْنَعُونَا حَقَّنَا ، فَمَا تَأْمُرُونَا ؟ فَأَعْرَضَ عنه ، ثمَّ سَأَلَهُ ، فَقَالَ رَسُولُ اللّٰهِ ﷺ : « اسْمَعُوا وَأَطِيعُوا ، فَإِنَّمَا عَلَيهِمْ ما حُمِّلُوا ، وَعَلَيكُمْ ما حُمِّلْتُمْ »[٢] رواه مسلم .

٦٧٠ - وَعَنْ عَبْدِ اللّٰهِ بنِ مَسْعُودٍ رضي الله عنه قال : قال رسول اللّٰه ﷺ : « إِنَّهَا سَتَكُونُ بَعْدِي أَثَرَةٌ ، وَأُمُورٌ تُنْكِرُونَهَا ! » قالوا : يا رسُولَ اللّٰهِ ، كَيفَ تَأْمُرُ مَنْ أَدْرَكَ مِنَّا ذلكَ ؟ قَالَ : « تُؤَدُّونَ الحَقَّ الَّذِي عَلَيكُمْ ، وَتَسْأَلُونَ اللّٰهَ الَّذِي لَكُمْ »[٣] متفقٌ عليه .

٦٧٢ - وعن ابن عباسٍ رضي الله عنهما أن رسول اللّٰه ﷺ قال : « مَن كَرِه مِن أَمِيرِهِ شَيئًا فَلْيَصبِر ؛ فإنَّهُ مَن

---

(١) انظر الحديث في البخاري في الجنائز (١٣٧٧) .

(٢) أخرجه مسلم في الإمارة (٤٩) والترمذي في الفتن (٢١٩٩) .

(٣) أخرجه البخاري في المناقب (٣٦٠٣) ومسلم في الإمارة (٤٥) .

خَرَجَ مِنَ السُّلطَانِ شِبرًا ؛ مَاتَ مِيتَةً جاهِلِيَّةً »[1] متفقٌ عليه .

الشرح

هذه الأحاديث التي ذكرها المؤلف في باب « طاعة ولي الأمر » فيها دليل على أمور :

أولًا : حديث وائل بن حجر أن النبي ﷺ سئُل عن أمراء يسألون حقهم الذي لهم ، ويمنعون الحق الذي عليهم ؛ سئُل عن هؤلاء الأمراء ماذا نصنع معهم ؟ ، والأمراء هنا يشمل الأمراء الذين هم دون السلطان الأعظم ، ويشمل السلطان الأعظم أيضًا لأنه أمير ، وما من أمير إلا فوقه أمير حتى ينتهي الحكم إلى الله ﷻ .

سئُل عن هؤلاء الأمراء ، أمراء يطلبون حقهم من السمع والطاعة لهم ، ومساعدتهم في الجهاد ، ومساعدتهم في الأمور التي يحتاجون إلى المساعدة فيها ، ولكنهم يمنعون الحق الذي عليهم ؛ لا يؤدون إلى الناس حقهم ، ويظلمونهم ويستأثرون عليهم ، فأعرض النبي ﷺ عنه ، كأنه - عليه الصلاة والسلام - كره هذه المسائل ، وكره أن يفتح هذا الباب ، ولكن أعاد السائل عليه ذلك .

فأمر النبي ﷺ أن نؤدي لهم حقهم ، وأن عليهم ما حُمِّلوا وعلينا ما حُمِّلنا ، فنحن حُمِّلنا السمع والطاعة ، وهم حُملُوا أن يحكموا فينا بالعدل ، وألا يظلموا أحدًا ، وأن يقيمونا حدود الله على عباد الله ، وأن يقيموا شريعة الله في أرض الله ، وأن يجاهدوا أعداء الله ، هذا الذي يجب عليهم ، فإن قاموا به فهذا هو المطلوب ، وإن لم يقوموا به فإننا لا نقول لهم : أنتم لم تؤدوا الحق الذي عليكم فلا نؤدي الذي لكم ، هذا حرام ، يجب أن نؤدي الحق الذي علينا ، فنسمع ونطيع ، ونخرج معهم في الجهاد ، ونصلي وراءهم في الجمع والأعياد وغير ذلك ، ونسأل الله الحق الذي لنا .

وهذا الذي دل عليه هذا الحديث وأقره المؤلف رحمه الله هو مذهب أهل السنة والجماعة ، مذهب السلف الصالح ؛ السمع والطاعة للأمراء وعدم عصيانهم فيما تجب الطاعة فيه ، وعدم إثارة الضغائن عليهم ، وعدم إثارة الأحقاد عليهم ، هذا مذهب أهل السنة والجماعة . حتى الإمام أحمد رحمه الله يضربه السلطان ، يضربه ويجره بالبغال ، يُضرب بالسياط حتى يغمى عليه في الأسواق ، وهو إمام أهل السنة رحمه الله ورضي عنه ، ومع ذلك يدعو للسلطان ويسميه أمير المؤمنين ، حتى إنهم منعوه ذات يوم ، قالوا له : لا تحدث الناس ، فسمع وأطاع ولم يحدث الناس جهرًا ، بدأ يخرج يمينًا وشمالًا ثم يأتيه أصحابه يحدثهم بالحديث[2] .

وكل هذا من أجل ألا ينابذ السلطان ؛ لأنه سبق لنا أنهم قالوا : يا رسول الله أفلا ننابذهم ؟ لما

---

(١) ذكر المؤلف رحمه الله هذا الحديث قبل الحديث رقم (٦٧١) ثم ذكر الحديث (٦٧١) قبل الحديث (٦٧٣) وهذا مخالف لترتيب الإمام النووي لهما في كتابه ، وهذا الحديث أخرجه البخاري في الفتن (٧٠٥٣) ومسلم في الإمارة (٥٦) .

(٢) انظر في ذلك سير أعلام النبلاء (١١/١٩٧ ، ٢٠١ ، ٢٣٨ - ٢٤٥) .

قال : « خير أئمتكم الذين تحبونهم ويحبونكم ، وشر أئمتكم الذين تبغضونهم ويبغضونكم ، وتلعنونهم ويلعنونكم » قالوا : أفلا ننابذهم . قال : « لاما أقاموا فيكم الصلاة . مرتين » [١] . فماداموا يصلون فإننا لا ننابذهم ، بل نسمع ونطيع ونقوم بالحق الذي علينا وهم عليهم ما حُمّلوا .

وفي آخر الأحاديث قال النبي ﷺ : « من رأى من أميره شيئًا يكرهه فليصبر » ليصبر وليتحمل ولا ينابذه ولا يتكلم « فإن من خرج عن الجماعة مات ميتة جاهلية » يعني ليس ميتة الإسلام والعياذ بالله .

وهذا يحتمل معنيين :

الأول : يحتمل أنه يموت ميتة جاهلية بمعنى أنه يزاغ قلبه والعياذ بالله و حتى تكون هذه المعصية سببًا لردته .

الثاني : ويحمل المعنى الآخر أنه يموت ميتة جاهلية ، لأن أهل الجاهلية ليس لهم إمام وليس لهم أمير و بل لهم رؤساء وزعماء لكن ليس لهم ولاية كولاية الإسلام ، فيكون هذا مات ميتة جاهلية .

والمهم أن الواجب أن نسمع ونطيع لولاة الأمر إلا في حال واحدة فإننا لا نطيعهم ؛ إذا أمرونا بمعصية الخالق فإننا لا نطيعهم . لو قالوا : احلقوا لحاكم قلنا : لا سمع ولا طاعة و لو قالوا : نزلوا ثيابكم أو سراويلكم إلى أسفل الكعبين ، قلنا : لا سمع ولا طاعة ، لأن هذه معصية . لو قالوا : لا تقيموا الصلاة جماعة ، قلنا : لا سمع ولا طاعة .

لو قالوا : لا تصوموا رمضان ، قلنا : لا سمع ولا طاعة ، كل معصية لا نطيعهم فيها مهما كان . أما إذا أمروا بشيء ليس معصية وجب علينا أن نطيع .

ثانيًا : لا يجوز لنا أن ننابذ ولاة الأمور .

ثالثًا : لا يجوز لنا أن نتكلم بين العامة فيما يثير الضغائن على ولاة الأمور ، وفيما يسبب البغضاء لهم ، لأن في ذلك مفسدة كبيرة . قد يتراءى للإنسان أن هذه غيرة ، وأن هذا صدع بالحق ؛ والصدع بالحق لا يكون من وراء حجاب ، الصدع بالحق أن يكون ولي الأمر أمامك وتقول له : أنت فعلت كذا وهذا لا يجوز ، تركت هذا ، وهذا واجب .

أما أن تتحدث من وراء حجاب في سب ولي الأمر والتشهير به ، فهذا ليس من الصدع بالحق ، بل هذا من الفساد ، هذا مما يوجب إيغار الصدور وكراهة ولاة الأمور والتمرد عليهم ، وربما يفضي إلى ما هو أكبر إلى الخروج عليهم ونبذ بيعهم والعياذ بالله .

وكل هذه أمور يجب أن نتفطن لها ، ويجب أن نسير فيها على ما سار عليه أهل السنة والجماعة ، ومن أراد أن يعرف ذلك فليقرأ كتب السنة المؤلفة في هذا .

وقد ذكر شيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله في آخر كتاب العقيدة الواسطية – وهي عقيدة مختصرة

---

(١) انظر صحيح مسلم في الإمارة (٦٦) ومسند أحمد (٢٤/٦) .

ولكنها كبيرة جدًا في المعنى - ذكر أن من هدي أهل السنة والجماعة وطريقتهم ، أنهم يدينون بالولاء لولاة الأمور ، وأنهم يرون إقامة الحج والجهاد والأعياد والجمع مع الأمراء أبرارًا كانوا أو فجارًا ، حتى لو كان ولي الأمر فاجرًا فإن أهل السنة والجماعة يرون إقامة الجهاد معه وإقامة الحج وإقامة الجمع وإقامة الأعياد .

إلا إذا رأينا كفرًا بواحًا صريحًا عندنا فيه من اللّه برهان والعياذ باللّه ، فهنا يجب علينا ما استطعنا أن نزيل هذا الحاكم ، وأن نستبدله بخير منه ، أما مجرد المعاصي والاستئثار وغيرها ؛ فإن أهل السنة والجماعة يرون أن ولي الأمر له الولاية حتى مع هذه الأمور كلها ، وأن له السمع والطاعة ، وأنه لا تجوز منابذته ولا إيغار الصدور عليه ، ولا غير ذلك مما يكون فساده أعظم وأعظم .

والشر ليس يُدفع بالشر ؛ ادفع الشر بالخير ، أما أن تدفع الشر بالشر ، فإن كان مثله فلا فائدة ؛ وإن كان أشر منه كما هو الغالب في مثل هذه الأمور ، فإن ذلك مفسدة كبيرة . نسأل اللّه أن يهدي ولاة أمورنا وأن يهدي رعيتنا إلى ما يلزمها ، وأن يوفق الجميع للقيام بما يجب عليه .

* * *

٦٧١ - وعن أبي هريرة ﷺ قال : قال رسول اللّه ﷺ : « مَنْ أَطَاعَنِي فَقَدْ أَطَاعَ اللَّهَ ، وَمَنْ عَصَانِي فَقَدْ عَصَى اللَّهَ ، وَمَنْ يُطِعِ الأَمِيرَ فقَدْ أَطَاعَنِي ، وَمَنْ يَعْصِ الأميرَ فَقَدْ عَصَانِي » [١] متفقٌ عليه .

٦٧٣ - وعن أبي بكرة ﷺ قال : سمعت رسول اللّه ﷺ يقول : « مَن أَهَانَ السُّلْطَانَ أَهَانَهُ اللّه » [٢] رواه الترمذي وقال : حديث حسن .

وفي الباب أحاديث كثيرة في الصحيح ، وقد سبق بعضها في أبواب .

الشرح

هذان الحديثان بقية باب وجوب طاعة ولاة الأمور في غير معصية اللّه ، فعن أبي هريرة ﷺ أن النبي ﷺ قال : « من أطاعني فقد أطاع الّه ، ومن عصاني فقد عصى اللّه ، ومن أطاع الأمير فقد أطاعنى ، ومن يعص الأمير فقد عصاني » .

ففي هذا الحديث بيَّن الرسول ﷺ أن طاعته من طاعة اللّه . قال اللّه تعالى : ﴿ مَّن يُطِعِ ٱلرَّسُولَ فَقَدْ أَطَاعَ ٱللَّهَ ﴾ [النساء: ٨٠] والنبي - عليه الصلاة والسلام - لا يأمر إلا بالوحي ؛ إلا بالشرع الذي شرعه اللّه تعالى له ولأمته ، فإذا أمر بشيء فهو شرع اللّه ﷺ ، فمن أطاعه فقد أطاع اللّه ، ومن عصاه فقد عصى اللّه . الأمير إذا أطاعه الإنسان فقد أطاع الرسول ؛ لأن النبي ﷺ أمر في أكثر من

(١) أخرجه البخاري في الجهاد والسير (٢٩٥٧) واللفظ له ، ومسلم في الإمارة (٣٢) .
(٢) أخرجه الترمذي في الفتن (٢٢٢٤) والإمام أحمد في مسنده (٤٢/٥ ، ٤٩) .

حديث بطاعة ولي الأمر وقال : « اسمع وأطع وإن ضرب ظهرك وأخذ مالك »[١] وقال : « اسمعوا وأطيعوا وإن استعمل عليكم عبد حبشي كأن رأسه زبيبة »[٢] وقال : « على المسلم السمع والطاعة في عسره ويسره ومنشطه ومكرهه »[٣] .

والأحاديث في هذا كثيرة ، فقد أمر بطاعة ولي الأمر ، وإذا أطعت ولي الأمر فقد أطعت الرسول - عليه الصلاة والسلام - ، وإذا أطعت الرسول فقد أطعت الله .

وهذا الحديث وما سبقه وما لم يذكره المؤلف كلها تدل على وجوب طاعة ولاة الأمور إلا في معصية الله ، لما في طاعتهم من الخير والأمن والاستقرار وعدم الفوضى وعدم اتباع الهوى .

أما إذا عُصي ولاة الأمور في أمر تلزم طاعتهم فيه ؛ فإنه تحصل الفوضى ، ويحصل إعجاب كل ذي رأي برأيه ، ويزول الأمن ، وتفسد الأمور ، وتكثر الفتن ، فلهذا يجب علينا أن نسمع ونطيع لولاة أمورنا إلا إذا أمرونا بمعصية ؛ فإذا أمرونا بمعصية الله فربنا وربهم الله له الحكم ، فلا نطيعهم فيها ؛ بل نقول لهم : يجب عليكم أن تتجنبوا معصية الله ، فكيف تأمروننا بها ؟ فلا نسمع لكم ولا نطيع .

وقد سبق لنا أن قلنا : إن ما أمر به ولاة الأمور ينقسم إلى ثلاثة أقسام :

القسم الأول : أن يكون الله قد أمر به ، مثل أن يأمرونا بإقامة الجماعة في المساجد ، وأن يأمرونا بفعل الخير وترك المنكر وما أشبه ذلك ، فهذا واجب من جهتين : أولًا : أنه واجب أصلًا . والثاني : أنه أمر به ولاة الأمور .

القسم الثاني : أن يأمرونا بمعصية الله ، فهذا لا يجوز لنا طاعتهم فيه مهما كان ، مثل أن يقولوا : لا تصلوا جماعة ، احلقوا لحاكم ، أنزلوا ثيابكم إلى أسفل ، اظلموا المسلمين بأخذ المال أو الضرب أو ما أشبه ذلك ، فهذا أمر لا يطاع ولا يحل لنا طاعتهم فيه ، لكن علينا أن نناصحهم وأن نقول : اتقوا الله ، هذا أمر لا يجوز ، لا يحل لكم أن تأمروا عباد الله بمعصية الله .

القسم الثالث : أن يأمرونا بأمر ليس فيه أمر من الله ورسوله بذاته ، وليس فيه نهي بذاته ، فيجب علينا طاعتهم فيه ، كالأنظمة التي يستنونها وهي لا تخالف الشرع ، فإن الواجب علينا طاعتهم فيها واتباع هذه الأنظمة وهذا التقسيم ، فإذا فعل الناس ذلك فإنهم سيجدون الأمن والاستقرار والراحة والطمأنينة ، ويحبون ولاة أمورهم ، ويحبهم ولاة أمورهم .

ثم ذكر المؤلف آخر حديث في هذا الباب ؛ حديث أبي بكرة أن الرسول ﷺ قال : « من أهان السلطان أهانه الله » وإهانة السلطان لها عدة صور : ومنها : إذا فعل السلطان شيئًا لا يراه هذا الإنسان . قال : انظروا ، انظروا ماذا يفعل ؟ يريد أن يهون أمر السلطان على الناس ؛ لأنه إذا هون أمر

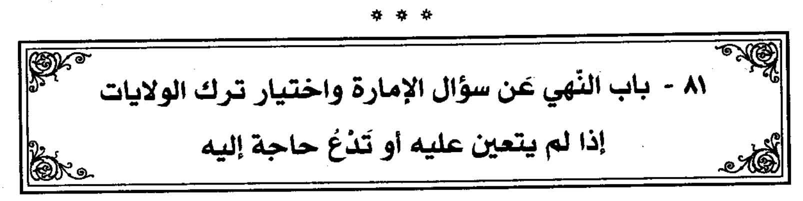
---

(١) أخرجه مسلم في الإمارة (٥٢) .
(٢) أخرجه البخاري في الأحكام (٧١٤٢) .
(٣) أخرجه مسلم في الإمارة (٣٥) ورواها الشيخ بتغيير قليل .

السلطان على الناس استهانوا به ، ولم يمتثلوا أمره ، ولم يجتنبوا نهيه .

ولهذا فإن الذي يهين السلطان بنشر معايبه بين الناس وذمه والتشنيع عليه والتشهير به يكون عرضة لأن يهينه الله ﷻ ، لأنه إذا أهان السلطان بمثل هذه الأمور تمرد الناس عليه فعصوه ، وحينئذ يكون هذا سبب شر فيهينه الله ﷻ . فإن أهانه في الدنيا فقد أدرك عقوبته ، وإن لم يهنه في الدنيا فإنه يستحق أن يهان في الآخرة والعياذ بالله . لأن كلام الرسول ﷺ حق : من أهان السلطان أهانه الله . ومن أعان السلطان أعانه الله ؛ لأنه أعان على خير وعلى بر ، فإذا بينت للناس ما يجب عليهم للسلطان وأعنتهم على طاعته في غير معصية فهذا خير كثير ، بشرط أن يكون إعانة على البر والتقوى وعلى الخير .

* * *



٨١ - باب النّهي عَن سؤال الإمارة واختيار ترك الولايات إذا لم يتعين عليه أو تَدْعُ حاجة إليه

قال الله تعالى : ﴿ تِلْكَ ٱلدَّارُ ٱلْءَاخِرَةُ نَجْعَلُهَا لِلَّذِينَ لَا يُرِيدُونَ عُلُوًّا فِى ٱلْأَرْضِ وَلَا فَسَادًا وَٱلْعَٰقِبَةُ لِلْمُتَّقِينَ ﴾ (١) [القصص : ٨٣] .

٦٧٤ - وعن أبي سعيدٍ عبدِ الرحمن بن سَمُرَةَ ﷺ قال : قال لي رسول الله ﷺ : « يا عَبدَ الرَّحمن بن سَمُرَةَ : لا تَسأَلِ الإمارَةَ ، فَإنَّكَ إن أُعطِيتَهَا عَن غَيرِ مَسأَلَة أُعِنتَ عَلَيها ، وإن أُعطِيتَها عَن مَسأَلَةٍ وُكِلْتَ إلَيها ، وإذا حَلَفتَ عَلى يَمِينٍ ، فَرأَيتَ غَيرها خيرًا مِنهَا ، فَأْتِ الَّذي هُوَ خَيرٌ ، وَكَفِّر عَن يَمِينكَ » (٢) متفقٌ عليه .

الشرح

ذكر المؤلف رَحِمَهُ ٱللَّهُ : (باب النهي عن طلب الإمارة وترك الولايات إلا من حاجة أو مصلحة) .

والإمارة هنا معناها التأمر على الناس والاستيلاء عليهم . وهي كبرى وصغرى .

أما الكبرى : فهي التي تكون إمارة عامة على كل المسلمين ، كإمارة أبي بكر الصديق ﷺ وهو خليفة رسول الله ﷺ ، وكإمارة أمير المؤمنين عمر بن الخطاب ، وعثمان بن عفان ، وعلي بن أبي طالب ، وغيرهم من الخلفاء ، هذه إمارة عامة وسلطة عامة .

---

(١) قوله تعالى : ﴿ عُلُوًّا ﴾ أي تكبرًا ، قوله تعالى : ﴿ وَٱلْعَٰقِبَةُ ﴾ أي الفوز .

(٢) أخرجه البخاري في الأحكام (٧١٤٧) ، ومسلم في الأيمان (١٩) ، ورواه بنحوه أبو داود في الخراج (٢٩٢٩) ، قوله « وُكلت إليها » أي صُرفت إليها ، ومن وكل إلى نفسه هلك .

والصغرى : إمارة خاصة دون ذلك ، تكون إمارة على منطقة من المناطق تشتمل على قرى ومدن ، أو إمارة أخص من ذلك على قرية واحدة أو مدينة واحدة ، وكلها يُنهى الإنسان أن يطلب فيها أن يكون أميرًا ، كما سيأتي في حديث عبد الرحمن بن سمرة ﷺ .

ثم صدر المؤلف - رحمه الله تعالى - هذا الباب بقول الله تعالى : ﴿ تِلْكَ الدَّارُ الْآخِرَةُ نَجْعَلُهَا لِلَّذِينَ لَا يُرِيدُونَ عُلُوًّا فِي الْأَرْضِ وَلَا فَسَادًا وَالْعَاقِبَةُ لِلْمُتَّقِينَ ﴾ يعني الجنة ﴿ نَجْعَلُهَا لِلَّذِينَ لَا يُرِيدُونَ عُلُوًّا فِي الْأَرْضِ ﴾ .

وطلب الإمارة ربما يكون قصد الطالب للإمارة أن يعلو على الناس ، ويملك رقابهم ، ويأمر وينهى ، فيكون قصده سيئًا ، فلا يكون له حظ من الآخرة والعياذ بالله ، ولهذا نُهي عن طلب الإمارة .

وقوله : ﴿ وَلَا فَسَادًا ﴾ أي فسادًا في الأرض بقطع الطريق وسرقة أموال الناس ، والاعتداء ، على أعراضهم وغير ذلك من الفساد ، ﴿ وَالْعَاقِبَةُ لِلْمُتَّقِينَ ﴾ عاقبة الأمر للمتقين ، فإما أن تظهر هذه العاقبة في الدنيا ، وإما أن تكون في الآخرة . فالمتقون هم الذين لهم العاقبة سواء في الدنيا أو في الآخرة أو في الدنيا والآخرة .

ثم ساق المؤلف رحمه الله حديث عبد الرحمن بن سمرة ، أن رسول الله ﷺ قال له : « يا عبد الرحمن بن سمرة » ناداه باسمه واسم أبيه من أجل أن ينتبه لما يُلقي إليه ، لأن الموضوع ليس بالهين . « لا تسأل الإمارة » يعني لا تطلب أن تكون أميرًا . « فإنك إن أُعطيتها عن مسألة » يعني بسبب سؤالك «وكلت إليها ، وإن أعطيتها عن غير مسألة أُعنت عليها » والمعين هو الله .

فإذا أعطيتها بطلب منك وكلك الله إليها وتخلى عنك والعياذ بالله ، وفشلت فيها ولم تنجح ولم تفلح ، وإن أعطيتها عن غير مسألة بل الناس هم الذين اختاروك وهم الذين طلبوك ، فإن الله تعالى يعينك عليها ، يعني فاقبلها وخذها .

وهذا يشبه المال ، فإن الرسول ﷺ قال لعمر : « ما جاءك من هذا المال وأنت غير مشرف ولا سائل فخذه ، ومالا فلا تتبعه نفسك » [(١)] .

ولهذا ينبغي للإنسان الموفق ألا يسأل شيئًا من الوظائف ، فإن رُقي بدون مسألة فهذا هو الأحسن له أن يقبل حينئذ ، أما أن يطلب ويلح ، فإنه يُخشى أن يكون داخلًا في هذا الحديث .

فالورع والاحتياط ألا تطلب شيئًا من ترقية أو انتداب أو غير ذلك ، إن أعطيت فخذ ، وإن لم تعط فالأحسن والأورع والأتقى ألا تطالب ، فكل الدنيا ليست بشيء ، وإذا رزقك الله رزقًا كفافًا لا فتنة فيه ، فهو خير من مال كثير تفتن فيه ، نسأل الله السلامة .

« لا تسأل الإمارة فإنك إن أعطيتها عن مسألة وكلت إليها ، وإن أعطيتها عن غير مسألة أُعنتَ

---

(١) أخرجه البخاري في الأحكام (٧١٦٣ ، ٧١٦٤) ومسلم في الزكاة (١١٠ ، ١١١) .

عليها ، وإذا حلفت على يمين فرأيت غيرها خيرًا منها فكفر عن يمينك وأتِ الذي هو خير » ، يعني إذا حلفت ألا تفعل شيئًا ، ثم تبين لك أن الخير في فعله ، فكفر عن يمينك وافعله ، وإذا حلفت أن تفعل شيئًا ثم بدا لك أن الخير في تركه ، فاتركه وكفر عن يمينك .

وإنما قال له النبي ذلك ، لأنه إذا كان الإنسان أميرًا فحلف على شيء فربما تملي عليه أنفة الإمارة ألا يتحول عن حلفه ، ولكن ينبغي - وإن كان أميرًا - إذا حلف على شيء ورأى الخير في تركه أن يتركه ، أو حلف ألا يفعل شيئًا ورأى الخير في فعله أن يفعله ، وهذا شامل للأمير وغيره .

إذا حلفت على شيء ورأيت أن الخير في خلافه فكفر عن يمينك وافعل الخير . مثال ذلك : رجل حلف ألا يزور قريبه ؛ لأنه صار بينه وبينه شيء فقال : واللَّه لا أزوره ؛ فهذا حلف على قطع الرحم ؛ وصلة الرحم خير من القطيعة ، فنقول : يجب عليك أن تكفر عن يمينك وأن تزور قريبك ، لأن هذا من الصلة والصلة واجبة .

مثال آخر : رجل حلف ألا يكلم أخاه المسلم ويهجره نقول : هذا غلط ، كفر عن يمينك وكلمه .

وهكذا كل شيء تحلف عليه ويكون الخير بخلاف ما حلفت فكفر عن يمينك وافعل الخير ، وهذه قاعدة في كل الأيمان ، ولكن الذي ينبغي للإنسان ألا يتسرع في الحلف ؛ فإن كثيرًا من الناس يتسرعون في الحلف أو في الطلاق أو ما أشبه ذلك ، ويندمون بعد ذلك ، فنقول : لا تتعجل ولا تتسرع ، إذا كنت عازمًا على الشيء فافعله أو اتركه بدون يمين وبدون طلاق ، ثم إن ابتليت بكثرة الحلف فاقرن حلفك بقولك : إن شاء اللَّه ، فإنك إن حلفت وقلت : إن شاء اللَّه ، فأنت في حل حتى لو خالفت ما حلفت عليه فإنه لا يضر .

فلو قلت : واللَّه إن شاء اللَّه لا أفعل هذا الشيء ، ثم فعلته فليس عليك شيء ، لأن من قال في يمينه إن شاء اللَّه ، فلا حنث عليه ، واللَّه الموفق .

* * *

٦٧٥ - وعن أبي ذرٍّ ﷺ قال : قال لي رسول اللَّه ﷺ : « يَا أَبَا ذَرٍّ إنِّي أَرَاكَ ضَعِيفًا ، وَإنِّي أُحِبُّ لكَ ما أُحِبُّ لِنفسي ، لا تَأَمَّرَنَّ عَلى اثْنَينِ وَلا تَوَلَّيَنَّ مالَ يتِيمٍ » [(١)] رواه مسلم .

٦٧٦ - وعنه قال : قلت : يا رسول اللَّه أَلا تَستعمِلُني ؟ فَضَرَبَ بِيَدِهِ عَلى مَنْكِبي ثُمَّ قَالَ : « يَا أَبَا ذَرٍّ إنَّكَ ضَعِيفٌ ، وَإنَّها أَمانَةٌ ، وإنَّها يَومَ القِيَامَةِ خِزْيٌ وَندَامَةٌ ، إلا مَن أَخَذَهَا بِحَقِّهَا ، وَأَدَّى الذي عَلَيهِ فِيها » [(٢)] رواه مسلم .

---

(١) أخرجه مسلم في الإمارة واللفظ له (١٧) ، وأبو داود في الوصايا (٢٨٦٨) ، قوله : « لا تأمرن » أي لا تتأمرن .

(٢) أخرجه مسلم في الإمارة (١٦) ، قوله : « ألا تستعملني » أي ألا تصيرني عاملًا ، قوله : « منكبي » المنكب مجتمع العضد والكتف ، قوله : « خزي » أي فضيحة ، قوله : « بحقها » أي بأن كان متأهلًا لها .

٦٧٧ - وعن أبي هُريرة ﷺ أن رسول اللَّه ﷺ قال : « إنَّكُم سَتَحرِصونَ عَلى الإمارَةِ ، وسَتَكُونُ نَدَامَةً يَومَ القِيامَةِ »[١] رواه البخاري .

الشرح

ذكر الحافظ النووي رَحِمَهُ اللهُ في باب النهي عن سؤال الإمارة ما نقله عن أبي ذر ﷺ أن النبي ﷺ قال له : « إنك امرؤ ضعيف وإني أحب لك ما أحب لنفسي ، فلا تأمرن على اثنين ولا تولين على مال اليتيم » هذه أربع جمل بين الرسول - عليه الصلاة والسلام - لأبي ذرّ فيها ما بيّن :

الأولى : قال له : « إنك امرؤضعيف » ، وهذا القول إذا كان مصارحة أمام الإنسان فلا شك أنه ثقيل على النفس ، وأنه قد يؤثر فيك أن يُقال لك : إنك امرؤ ضعيف ، لكن الأمانة تقتضي هذا ، أن يُصرح للإنسان بوصفه الذي هو عليه ؛ إن كان قويًّا فقوي وإن كان ضعيفًا فضعيف .

هذا هو النصح : « إنك امرؤ ضعيف » ، ولا حرج على الإنسان إذا قال لشخص مثلًا : إن فيك كذا وكذا ، من باب النصيحة لا من باب السب والتعيير ، فالنبي عليه السلام قال : « إنك امرؤ ضعيف » .

الثانية : قال : « وإني أحب لك ما أحب لنفسي » وهذا من حسن خلق النبي - عليه الصلاة والسلام - ، لما كانت الجملة الأولى فيها شيء من الجرح قال : « وإني أحب لك ما أحب لنفسي » يعني لم أقل لك ذلك إلا أني أحب لك ما أحب لنفسي .

الثالثة : « فلا تأمرنّ على اثنين » ، يعني لا تكن أميرًا على اثنين وما زاد فهو من باب أولى .

والمعنى أن النبي ﷺ نهاه أن يكون أميرًا ؛ لأنه ضعيف ، والإمارة تحتاج إلى إنسان قوي أمين ، قوي بحيث تكون له سلطة وكلمة حادة ؛ إذا قَالَ فَعَلَ ، لا يكون ضعيفًا أمام الناس ، لأن الناس إذا استضعفوا الشخص لم يبق له حرمة عندهم ، وتجرأ عليه لكع بن لكع ، وصار الإنسان ليس بشيء ، لكن إذا كان قويًّا حادًّا في ذات اللَّه لا يتجاوز حدود اللَّه ﷻ ، ولا يقصر عن السلطة التي جعلها اللَّه له فهذا هو الأمير حقيقة .

الرابعة : « ولا تولين مال اليتيم » واليتيم هو الذي مات أبوه قبل أن يبلغ . فنهاه الرسول - عليه الصلاة والسلام - أن يتولى على مال اليتيم ؛ لأن مال اليتيم إلى عناية ويحتاج إلى رعاية ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ يَأۡكُلُونَ أَمۡوَٰلَ ٱلۡيَتَٰمَىٰ ظُلۡمًا إِنَّمَا يَأۡكُلُونَ فِي بُطُونِهِمۡ نَارٗاۖ وَسَيَصۡلَوۡنَ سَعِيرٗا ﴾ [النساء : ١٠] ، وأبو ذر ضعيف لا يستطيع أن يرعى هذا المال حق رعايته ؛ فلهذا قال : « ولا تولين مال يتيم » يعني لا تكن وليًا عليه دعه لغيرك .

---

(١) هذا الحديث لم يقم الشارح رَحِمَهُ اللهُ بشرحه ، أخرجه البخاري في الأحكام (٧١٤٨) والإمام أحمد في مسنده (٤٦٧/٢) ، والبيهقي في سننه (١٢٩/٣ ، ٩٥/١٠) .

ففي هذا دليل على أنه يشترط للإمارة أن يكون الإنسان قويًّا وأن يكون أمينًا ، لأن الرسول - عليه الصلاة والسلام - قال : « إنها أمانة » ، فإذا كان قويًّا أمينًا فهذه هي الصفات التي يستحق بها أن يكون أميرًا . فإن كان قويًّا غير أمين ، أو أمينًا غير قوي ، أو ضعيفًا غير أمين ، فهذه الأحوال الثلاثة لا ينبغي أن يكون صاحبها أميرًا .

ولكن يجب أن نعلم أن الأشياء تتقيد بقيد الحاجة ، فإذا لم نجد إلا أميرًا ضعيفًا أو أميرًا غير أمين ، وكان لا يوجد في الساحة أحد تنطبق عليه الأوصاف كاملة ، فإنه يُولى الأمثل فالأمثل ، ولا تُترك الأمور بلا إمارة ، لأن الناس محتاجون إلى أمير ، ومحتاجون إلى قاضٍ ، ومحتاجون إلى من يتولى أمورهم ، فإن أمكن وجود من تتم فيه الشروط فهذا هو الواجب وإن لم يوجد فإنه يُولى الأمثل فالأمثل لقول اللّه تعالى : ﴿ فَاتَّقُوا اللَّهَ مَا اسْتَطَعْتُمْ ﴾ [التغابن : ١٦] .

وتختلف الأنظار فيما إذا كان لدينا رجلان : أحدهما أمين غير قوي ، والثاني قوي غير أمين ، كل منهما معيب من وجه ، لكن في باب الإمارة يفضل القوي وإن كان فيه ضعف في الأمانة ، لأن القوي ربما يكون أمينًا ، لكن الضعيف الذي طبيعته الضعف فإن الطبع لا يتغير ولا يتحول غالبًا .

فإذا كان أمامنا رجلان : أحدهما ضعيف ولكنه أمين ، والثاني قوي لكنه ضعيف في الأمانة ، فإننا نؤمر القوي ؛ لأن هذا أنفع للناس ، فالناس يحتاجون إلى سلطة وإلى قوة ، وإذا لم تكن قوة ولا سيما مع ضعف الدين ضاعت الأمور .

* * *

٨٢ - باب حث السلطان والقاضي وغيرهما من ولاة الأمور على اتخاذ وزير صالح وتحذيرهم من قرناء السوء والقبول منهم

قال اللّه تعالى : ﴿ الْأَخِلَّاءُ يَوْمَئِذٍ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ إِلَّا الْمُتَّقِينَ ﴾ (١) [الزخرف : ٦٧] .

٦٧٨ - عن أبي سعيدٍ وأبي هريرة رضي الله عنهما أن رسول اللّه ﷺ قال : « مَا بَعَثَ اللّه مِن نَبيٍّ ، وَلا استَخْلَفَ مِنْ خَليفَةٍ إلا كَانَتْ لَهُ بِطَانَتَانِ ؛ بِطَانَةٌ تَأمُرُهُ بِالمَعْرُوفِ وَتَحُضُّهُ عليهِ ، وبِطَانَةٌ تَأمُرُهُ بِالشَّرِّ وَتَحُضُّهُ عليهِ ، والمَعْصُومُ من عَصَمَ اللّهُ » (٢) رواه البخاري .

٦٧٩ - وعن عائشة رضي الله عنها قالتْ : قال رسول اللّه ﷺ : « إذا أَرَادَ اللّه بِالأَمِيرِ خَيرًا ، جَعَلَ له وزِيرَ صِدقٍ ، إن نَسِيَ ذَكَّرَهُ ، وإن ذَكَرَ أَعَانَهُ ، وَإذا أَرَادَ بِهِ غَيرَ ذلكَ جَعَلَ له وَزِيرَ سُوءٍ ، إن نَسِي لم

---

(١) قوله تعالى : ﴿ يَوْمَئِذٍ ﴾ أي يوم القيامة .

(٢) أخرجه البخاري في الأحكام (٧١٩٨) ، قوله « بطانتان » بطانة الرجل أولياؤه وأصفياؤه .. وأيضًا صاحب سره . قوله « تحضه » أي تحرضه .

يُذَكِّرْه ، وَإِن ذَكَرَ لم يُعِنْهُ » [١] رواه أبو داود بإسنادٍ جيدٍ على شرط مسلم .

الشرح

قال النووي رَحِمَهُ ٱللَّهُ في : (باب حث القاضي والسلطان وغيرهما من ولاة الأمور على اتخاذ وزير صالح والتحذير من قرناء السوء) ، ثم ذكر المؤلف قول الله تعالى : ﴿ ٱلۡأَخِلَّآءُ يَوۡمَئِذِۭ بَعۡضُهُمۡ لِبَعۡضٍ عَدُوٌّ إِلَّا ٱلۡمُتَّقِينَ ﴾ .

الأخلاء : جمع خليل ، والخليل هو الذي أحبك وتحبه حبًّا عظيمًا ، حتى يتخلل حبه جميع البدن ، وفي ذلك يقول الشاعر :

قد تخللت مسلك الروح مني وبذا سُمي الخليل خليلًا

فإذا صدق الودُّ واشتد فإن أعلى أنواع المحبة هي الخُلة ، ولهذا اتخذ الله إبراهيم خليلًا واتّخذ محمدًا ﷺ خليلًا . ولا نعلم أنه اتخذ خليلًا من خلقه إلا هذين النبيين إبراهيم ومحمدًا صلى الله عليهما وسلم .

ولهذا نقول : من قال : إن إبراهيم خليل الله ، وموسى كليم الله ، ومحمد حبيب الله ، فقد هضم محمدًا ﷺ حقه ؛ لأنه إذا جعله حبيب الله فقط فقد نَزَّل رتبته ؛ بل هو - عليه الصلاة والسلام – أعلى من الحبيب ، فالله تعالى يحب المؤمنين ، ويحب المقسطين ، ويحب المتقين ، فمحبته أوسع ، لكن الخُلة لا تحصل لكل أحد .

فهؤلاء المساكين الجهال يقولون : محمد حبيب الله وإبراهيم خليل الله . سبحان الله ! يقولون ذلك مع أنه يروى أن النبي ﷺ قال : « إن الله اتخذني خليلًا كما اتخذ إبراهيم خليلًا » [٢] ، وقال - عليه الصلاة والسلام – : « لو كنت متخذًا من أمتي خليلًا لاتخذت أبا بكر » [٣] ، ومع هذا سئل أي الرجل أحب إليك ؟ قال : « أبو بكر » [٤] .

ففرق بين الخلة والمحبة ؛ الخلة أعظم من المحبة .

فالأخلاء في الدنيا والأصدقاء في الدنيا هم على صداقتهم ، لكنهم في الآخرة أعداء ، قال تعالى : ﴿ ٱلۡأَخِلَّآءُ يَوۡمَئِذِۭ بَعۡضُهُمۡ لِبَعۡضٍ عَدُوٌّ إِلَّا ٱلۡمُتَّقِينَ ﴾ .

فإن المتقين محبتهم في الله ، والرجلان إذا تحابا في الله – اجتمعا عليه وتفرقا عليه – كانا من السبعة الذين يظلهم الله في ظله يوم لا ظل إلا ظله [٥] ، جعلنا الله منهم .

---

(١) أخرجه أبو داود في الخراج والإمارة والفيء (٢٩٣٢) .

(٢) أخرجه ابن ماجه في المقدمة (١٤١) والحديث في ضعيف الجامع للألباني (١٥٣٠) .

(٣) أخرجه البخاري في الصلاة (٤٦٦ ، ٤٦٧) ومسلم في المساجد (٢٣) .

(٤) أخرجه البخاري في فضائل الصحابة (٣٦٦٢) .

(٥) هذا جزء من حديث ، وقد أخرجه البخاري في الأذان (٦٥٩) بلفظ « سبعة يظلهم الله في ظله .. » ، ومسلم =

ويدل على أن الأخلاء سيكونون أعداءً إلا المتقين قوله تعالى : ﴿ قَالَ ادْخُلُوا فِي أُمَمٍ قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِكُم مِّنَ الْجِنِّ وَالْإِنسِ فِي النَّارِ كُلَّمَا دَخَلَتْ أُمَّةٌ لَّعَنَتْ أُخْتَهَا ﴾ [الأعراف : ٣٨] .

وقال تعالى : ﴿ إِذْ تَبَرَّأَ الَّذِينَ اتُّبِعُوا مِنَ الَّذِينَ اتَّبَعُوا وَرَأَوُا الْعَذَابَ وَتَقَطَّعَتْ بِهِمُ الْأَسْبَابُ ﴾ قال ابن عباس رضي الله عنهما : تقطعت بهم المحبة ، فكانت المحبة بينهما في الدنيا ، وفي الآخرة تتلاشى وتتقطع . ثم إنه يجب أن نعلم أن اللَّه سبحانه وتعالى يبتلي العبد ، فتارة ييسره لأخلاء صدقٍ يدعونه للخير ؛ يأمرونه بالمعروف وينهونه عن المنكر ، ويعينونه على ما يعجز عنه . وتارة يبتلى بقوم خلاف ذلك ، ولهذا جاء في الحديث « المرء على دين خليله فلينظر أحدكم من يخالل »[1] .

وقال – عليه الصلاة والسلام – : « مثل الجليس الصالح كحامل المسك إما أن يبيعك » أي يبيع لك مسكًا « وإما أن يحذيك » أي يعطيك مجانًا « وإما أن تجد منه رائحة طيبة »[2] أما الجليس السوء والعياذ باللَّه ، فإنه « كنافخ الكير ؛ إما أن يحرق ثيابك » بما يتطاير عليك من شرر النار ، « وإما أن تجد منه رائحة كريهة » .

وفي حديث عائشة الذي ساقه المؤلف رحمه الله أن النبي ﷺ قال : « إذا أراد اللَّه بأمير خيرًا جعل له وزير صدق ، إن نسي ذكره وإن ذكر أعانه ، وإذا أراد به غير ذلك جعل له وزير سوءٍ ، إن نسي لم يذكِّره ، وإن ذكر لم يعنه » .

وكذلك أخبر النبي – عليه الصلاة والسلام – أن اللَّه ما بعث من نبي ولا استخلف من خليفة إلا كان له بطانتان ؛ بطانة خير تأمره بالخير وتحثه عليه ، وبطانة سوء تدله على السوء وتأمره به . قال : « والمعصوم من عصمه اللَّهُ » وهذا شيء مشاهد تجد الأمراء بعضهم يكون صالحًا في نفسه ، حريصًا على الخير ، لكن يقيض اللَّه له قرناء سوء – والعياذ باللَّه – فيصدونه عما يريد من الخير ، ويزينون له السوء ويبغضونه لعباد اللَّه .

وتجد بعض الأمراء يكون في نفسه غير صالح ، لكن عنده بطانة خير تدله على الخير وتحثه عليه ، وتدله على ما يوجب المحبة بينه وبين رعيته حتى يستقيم وتصلح حاله ، والمعصوم من عصمه اللَّه .

وإذا كان هذا في الأمراء ففتش نفسك أنت . فأنت بنفسك إذا رأيت من أصحابك أنهم يدلونك على الخير ويعينونك عليه ، وإذا نسيت ذكروك . وإذا جهلت علموك ، فاستمسك بحجزهم وعضّ عليهم بالنواجذ .

= في الزكاة (٩١) .

(١) أخرجه أبو داودفي الأدب (٤٨٣٣) والترمذي في الزهد (٢٣٧٨) .

(٢) أخرجه البخاري في الذبائح (٥٥٣٤) ومسلم في البر والصلة (١٤٦) .

وإذا رأيت من أصحابك من هو مهمل في حقك ولا يبالي - هل هلكت أم بقيت ؟ ، بل ربما يسعى لهلاكك ، فاحذره فإنه السم الناقع والعياذ بالله ، لا تقرب هؤلاء بل ابتعد عنهم ، فر منهم فرارك من الأسد ، والإنسان الموفق هو الذي لا يكون بليدًا كالحجر بل يكون ذكيًا كالزجاجة فإنها صلبة ولكن يُرى ما وراءها من صفاء ، فيكون عنده قوة وصلابة ، لكن عنده يقظة بحيث يعرف - وكأنما يرى بالغيب - ما ينفعه مما يضره ، فيحرص على ما ينفعه ويتجنب ما يضره . نسأل الله لنا وللمسلمين التوفيق .

* * *

٨٣ - باب النّهي عن تولية الإمارة والقضاء وغيرهما من الولايات لمن سألها أو حرص عليها فعرّض بها

٦٨٠ - عن أبي موسى الأَشعَرِيِّ ﷺ قال : دَخَلتُ على النَّبيِّ ﷺ أَنَا وَرَجُلانِ مِن بَني عَمِّي ، فقال أَحَدُهُمَا : يا رسول الله أَمِّرنا عَلَى بَعض مَاوَلَّاكَ اللهُ ﷻ ، وقال الآخرُ مِثلَ ذلكَ ، فقال : « إنَّا وَاللهِ لا نُوَلِّي هذَا العَمَلَ أَحَدًا سَأَلَه ، أَو أَحَدًا حَرَصَ عليهِ » (١) متفقٌ عليه

الشرح

هذا الباب الذي ذكره النووي ﷺ في « رياض الصالحين » : (النهي عن تولية من طلب الإمارة أو حرص عليها) . وقد سبق في حديث عبد الرحمن بن سمرة ﷺ أن النبي ﷺ قال : « لا تسأل الإمارة فإنك إن أعطيتها عن غير مسألة أعنت عليها وإن أعطيتها عن مسألة وكلت إليها » .

كذلك أيضًا لا ينبغي لولي الأمر إذا سأله أحد أن يؤمره على بلد أو على قطعة من الأرض فيها بادية أو ما أشبه ذلك أن يؤمره ، حتى وإن كان الطالب أهلًا لذلك ، لأن النبي ﷺ كما في حديث أبي موسى الذي ذكره المصنف لما سأله الرجلان أن يؤمرهما على بعض ما ولاه الله عليه ، قال : « إنا والله لا نولي هذا الأمر أحدًا سأله أو أحدًا حرص عليه » ؛ يعني لا نولي أحدًا سأل أن يتأمر على شيء وحرص عليه ، وذلك لأن الذي يطلب أو يحرص على ذلك ربما يكون غرضه بهذا أن يجعل لنفسه سلطة لا أن يصلح الخلق ، فلما كان قد يُتهم بهذه التهمة منع النبي ﷺ أن يولى من طلب الإمارة . وقال : « إنا والله لا نولي هذا الأمر أحدًا سأله أو أحدًا حرص عليه » .

وكذلك أيضًا لو أن أحدًا سأل القضاء ؛ فقال لولي الأمر في القضاء كوزير العدل مثلًا : ولِّني القضاء في البلد الفلاني ، فإنه لا يُولَّى ، وأما مَن طلب النقل من بلد إلى بلدٍ أو ما أشبه ذلك فلا يدخل في هذا الحديث ، لأنه قد تولى من قبل ولكنه طلب أن يكون في محل آخر ، إلا إذا علمنا أن

---

(١) أخرجه مسلم في الإمارة واللفظ له (١٤) ، والبخاري في الأحكام (٧١٤٩) .

نيته وقصده هي السلطة على أهل هذه البلدة فإننا نمنعه . فالأعمال بالنيات .

فإن قال قائل : كيف تجيبون عن قول يوسف - عليه الصلاة والسلام - للعزيز : ﴿ ٱجۡعَلۡنِي عَلَىٰ خَزَآئِنِ ٱلۡأَرۡضِۖ إِنِّي حَفِيظٌ عَلِيمٞ ﴾ [يوسف : ٥٥] .

فإننا نجيب بأحد جوابين :

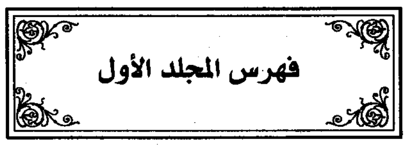
أولًا : إما أن يقال إن شرع من قبلنا إذا خالفه شرعنا فالعمدة على شرعنا ، بناء على القاعدة المعروفة عند الأصوليين « شَرْعُ مَن قَبلنَا شَرْعٌ لنا ما لم يرد شرعنا بخلافه » وقد ورد شرعنا بخلافه : أننا لا نولي الأمر أحدًا طلب الولاية عليه .

ثانيًا : أو يُقال : إن يوسف - عليه الصلاة والسلام - رأى أن المال ضائع وأنه يُفرط فيه ويُلعب فيه ، فأراد أن ينقذ البلاد من هذا التلاعب ، ومثل هذا يكون الغرض منه إزالة سوء التدبير وسوء العمل ، ويكون هذا لا بأس به ، فمثلًا : إذا رأينا أميرًا في ناحية لكنه قد أضاع الإمرة وأفسد الخلق ، فللصالح لهذا الأمر - إذا لم يجد أحدًا غيره - أن يطلب من ولي الأمر أن يوليه على هذه الناحية ، فيقول له : ولني هذه البلدة لأجل دفع الشر الذي فيها ويكون هذا لا بأس به ، متفقًا مع القواعد .

ويحضرني في هذا حديث عثمان بن أبي العاص ، أنه قال للنبي ﷺ : اجعلني إمام قومي ؛ يعني في الصلاة ، فقال : « أنت إمامهم » [(١)] فوليّ الأمر ينظر ما هو السبب في أن هذا الرجل طلب أن يكون أميرًا ، أو طلب أن يكون قاضيًا ، أو طلب أن يكون إمامًا ، ثم يعمل بما يرى أن فيه المصلحة .

* * *

(١) أخرجه أبو داود في الصلاة (٥٣١) وأحمد في مسنده (٢١/٤) .



فهرس المجلد الأول



شرح رياض الصالحين

من كلام سيد المرسلين

للإمام أبي زكريا يحيى بن شرف النووي

المتوفى سنة: ٦٧٦ هـ

شرحه وأملاه

فضيلة الشيخ محمد بن صالح العثيمين

عضو هيئة كبار العلماء وأستاذ في كلية الشريعة بالقصيم

حققه وخرج أحاديثه وشرح غريبه

أحمد عبد الرازق البكري — محمد عادل محمد — محمد عبد اللطيف خلف

بإشراف

أ. د عبد الحميد عبد المنعم مذكور

أستاذ بكلية دار العلوم جامعة القاهرة

المجلد الثاني

دار السلام

للطباعة والنشر والتوزيع والترجمة

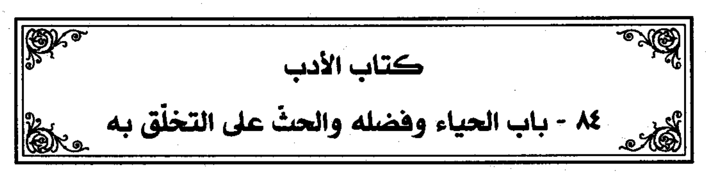
الطبعة الأولى

١٤٢٣هـ - ٢٠٠٢م

دار السلام
للطباعة والنشر والتوزيع والترجمة
ش.م.م

تأسست الدار عام ١٩٧٣م وحصلت على جائزة أفضل ناشر للتراث لثلاثة أعوام متتالية ١٩٩٩م، ٢٠٠٠م، ٢٠٠١م هي عشر الجائزة تتويجًا لعقد ثالث مضى في صناعة النشر

القاهرة - جمهورية مصر العربية
الإدارة : ١٩ شارع عمر لطفي موازٍ لشارع عباس العقاد خلف مكتب مصر للطيران عند الحديقة الدولية وأمام مسجد الشهيد عمرو الشربيني - مدينة نصر
هاتف : ٢٧٠٤٢٨٠ - ٢٧٤١٥٧٨ (٢٠٢ +) فاكس : ٢٧٤١٧٥٠ (٢٠٢ +)
المكتبة : فرع الأزهر : ١٢٠ شارع الأزهر الرئيسي - هاتف : ٥٩٣٢٨٢٠ (٢٠٢ +)
المكتبة : فرع مدينة نصر : ١ شارع الحسن بن علي متفرع من شارع علي أمين امتداد شارع مصطفى النحاس - مدينة نصر - هاتف : ٤٠٥٤٦٤٢ (٢٠٢ +)
بريديًا : ص.ب ١٦١ الغورية الرمز البريدي ١١٦٣٩
البريد الإلكتروني : info@dar-alsalam.com
موقعنا على الإنترنت : www.dar-alsalam.com



كتاب الأدب
٨٤ - باب الحياء وفضله والحثّ على التخلّق به

٦٨١ - عن ابْنِ عُمَرَ رضي الله عنهما أنّ رسول اللَّه ﷺ مَرَّ عَلى رَجُلٍ مِنَ الأَنْصارِ وَهُوَ يَعِظُ أَخاهُ في الحَيَاءِ، فَقَالَ رسول اللَّه ﷺ: « دَعْهُ فَإنَّ الحياءَ مِنَ الإيمانِ » [1] متفقٌ عليه .

٦٨٢ - وعن عِمْرَانَ بن حُصَينٍ رضي الله عنهما قال : قال رسول اللَّه ﷺ : « الحيَاءُ لا يَأْتي إلَّا بخَيرٍ » [2] متفقٌ عليه .

وفي روايةٍ لمسلم : « الحَيَاءُ خَيرٌ كُلُّهُ » أو قَالَ : « الحَيَاءُ كُلُّهُ خَيرٌ » [3] .

الشرح

قال المؤلف النووي رحمه الله في كتابه « رياض الصاحين » : (كتاب باب : الحياء وفضله والحث عليه) .

الأدب : الأخلاق التي يتأدب بها الإنسان ، وله أنواع كثيرة .

منها : الكرم والشجاعة ، وطيب النفس ، وانشراح الصدر ، وطلاقة الوجه ، وغير ذلك كثير .

فالأدب هو عبارة عن أخلاق يتخلق بها الإنسان يمدح عليها ، ومنها الحياء .

والحياء صفة في النفس تحمل الإنسان على فعل ما يُجمل ويزين ، وترك ما يدنس ويشين ، فتجده إذا فعل شيئًا يخالف المروءة استحيا من الناس ، وإذا فعل شيئًا محرمًا استحيا من اللَّه عز وجل ، وإذا ترك واجبًا استحيا من اللَّه ، وإذا ترك ما ينبغي فعله استحيا من الناس .

فالحياء من الإيمان ، ولهذا ذكر ابن عمر رضي الله عنهما أن النبي ﷺ مَرَّ برجل من الأنصار يعظ أخاه في الحياء ، يعني أنه يحثه عليه ويرغِّبه فيه ، فيبينّ النبي - عليه الصلاة والسلام - : أن الحياء من الإيمان .

وقال - عليه الصلاة والسلام - في حديث آخر : « الإيمان بضع وسبعون شعبة ، فأعلاها قول لا إله إلا اللَّه ، وأدناها إماطة الأذى عن الطريق ، والحياء شعبة من الإيمان » [4] .

وإذا كان عند الإنسان حياء وجدتَه يمشي مشيًا مستقيمًا ، ليس بالعجلة التي يذم عليها ، وليس بالتماوت الذي يذم عليه أيضًا ، كذلك إذا تكلم تجده لا يتكلم إلا بالخير وبكلام طيب ، وبأدب ،

(١) أخرجه البخاري في الإيمان والفظ له (٢٤) ، ومسلم في الإيمان (٥٩) ، قوله « يعظ أخاه في الحياء » أي : ينهاه عنه ويقبح له فعله ويزجره عن كثرته ، فنهاه النبي ﷺ عن ذلك .

(٢) أخرجه البخاري في الأدب (٦١١٧) ومسلم في الإيمان (٦٠) .

(٣) أخرجه مسلم في الإيمان (٦١) .

(٤) أخرجه البخاري في الإيمان (٩) ولفظه « الإيمان بضع وستون شعبة .. » ، ومسلم في الإيمان (٥٧) .

وبأسلوب رفيع حسب ما يقدر عليه .

وإذا لم يكن حييًا فإنه يفعل ما شاء ، كما في الحديث الصحيح « إن مما أدرك الناس من كلام النبوة الأولى : إذا لم تستح فاصنع ما شئت » (١) .

وكان النبي ﷺ أشد حياءً من العذراء في خدرها (٢) . العذراء : المرأة التي لم تتزوج ، وعادتها أن تكون حيية ، فالرسول - عليه الصلاة والسلام - أشدّ حياء من العذراء في خدرها ، ولكنه لا يستحيي من الحق ، يتكلم بالحق ويصدع به ولا يبالي بأحد .

أما ما لا تضيع به الحقوق فإنه ﷺ كان أحْيَا الناس . فعليك يا أخي باستعمال الحياء والأدب والتخلق بالأخلاق الطيبة التي تمدح بها بين الناس .

* * *

٦٨٣ - وعن أَبي هُريرة ﷺ أنَّ رسول اللَّه ﷺ قال : « الإيمانُ بِضْعٌ وَسَبْعُونَ ، أَو بِضْعٌ وَسِتُّونَ شُعْبَةً ، فَأَفْضَلُهَا قَولُ : لا إله إلا اللَّهُ ، وَأَدْنَاهَا إمَاطَةُ الأَذَى عَنِ الطَّرِيقِ ، وَالحَيَاءُ شُعْبَةٌ مِنَ الإيمانِ » (٣) متفقٌ عليه .

« البِضْعُ » : بكسر الباءِ ، ويجوز فتحها ، وَهُوَ مِنَ الثَّلاثَةِ إلى العَشَرَةِ « وَالشُّعْبَةُ » : القِطْعَةُ وَالخَصْلَةُ . « وَالإماطَةُ » : الإزَالَةُ . « وَالأذَى » : مَا يُؤْذِي كَحَجَرٍ وَشَوكٍ وَطِينٍ وَرَمَادٍ وَقَذَرٍ ونَحْوِ ذلكَ .

الشرح

قال المؤلف رَحِمَهُ اللَّهُ تعالى فيما نقله عن أبي هريرة ﷺ أن رسول اللَّه ﷺ قال : « الإيمان بضع وسبعون أو بضع وستون شعبة » ؛ شَكٌّ من الراوي هل قال النبي : « بضع وسبعون » ، أو قال : « بضع وستون » ؟ « فأفضلها » وفي لفظ : « فأعلاها قول لا إله إلا اللَّه ، وأدناها إماطة الأذى عن الطريق ، والحياء شعبة من الإيمان » وهذا هو الشاهد لهذا الباب ؛ باب الحياء وفضله .

في هذا الحديث : بيّن الرسول - عليه الصلاة والسلام - أن الإيمان شعب كثيرة ؛ بضع وستون أو بضع وسبعون ، ولم يبيّنها الرسول - عليه الصلاة والسلام - لأجل أن يجتهد الإنسان بنفسه ويتتبع نصوص الكتاب والسنة حتى يجمع هذه الشعب ويعمل بها ، وهذا كثير : أي أنه يكون في القرآن والسنة أشياء مبهمة يُبهمها اللَّه ﷻ من أجل امتحان الخلق ليتبين الحريص من غير الحريص .

فمثلًا : ليلة القدر في العشر الأواخر من رمضان أو في السبع الأواخر من رمضان ، لكن لا تعلم في أي ليلة هي ، من أجل أن يحرص الناس على العمل في كل الليالي رجاء هذه الليلة ، ولو عُلمت

---

(١) أخرجه البخاري في الأدب (٦١٢٠) وأحمد في مسنده (٥/٣٨٣) .

(٢) أخرجه البخاري في الأدب (٦١١٩) ومسلم في الفضائل (٦٧) .

(٣) أخرجه البخاري في الإيمان (٩) ومسلم في الإيمان (٥٨) واللفظ له .

بعينها لاجتهد النَّاس في هذه الليلة عن بقية الليالي .

ومن ذلك : ساعة الإجابة في يوم الجمعة « فيها ساعة لا يوافقها عبد مسلم وهو قائم يصلي يسأل اللَّه إلا أعطاه إياه »[١] هذه أيضًا مبهمة من أجل أن يحرص الناس على التحري والعمل .

كذلك في كل ليلة ساعة إجابة لا يوافقها أحد يدعو اللَّه ﷻ إلا استجاب له .

كذلك أخبر النبي - عليه الصلاة والسلام - : « أن للَّه تسعة وتسعون اسمًا ؛ مائة إلا واحدًا من أحصاها دخل الجنة »[٢] ولم يعدها ، والحديث الوارد في سردها حديث ضعيف[٣] ، لا تقوم به حجة .

وعلى هذا فإن قول النبي ﷺ هنا : « الإيمان بضع وسبعون أو بضع وستون شعبة » ترك تعيينها من أجل أن نحرص نحن على تتبعها في الكتاب والسنة ، حتى نجمع هذه الشعب ، ثم نقوم بالعمل بها ، وهذا من حكمة النبي ﷺ التي آتاه اللَّه تعالى .

يقول الرسول ﷺ عن هذه الشعب : « أفضلها » أو « أعلاها قول لا إله إلا اللَّه » هذه الكلمة العظيمة لو وزنت السموات السبع والأرضين السبع وجميع المخلوقات لرجحت بهن ، لأنها أعظم كلمة ، وهي كلمة التوحيد التي إذا قالها الإنسان صار مسلمًا ، وإذا استكبر عنها صار كافرًا ، فهي الحد الفاصل بين الإيمان والكفر .

ولذلك كانت أعلى شعب الإيمان وأفضلها : « لا إله إلا اللَّه » ؛ أي لا معبود بحق إلا اللَّه ﷻ ، فكل المعبودات من دون اللَّه باطلة إلا اللَّه وحده لا شريك له ، فهو الحق كما قال اللَّه تبارك وتعالى : ﴿ ذَٰلِكَ بِأَنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلْحَقُّ وَأَنَّ مَا يَدْعُونَ مِن دُونِهِۦ هُوَ ٱلْبَٰطِلُ وَأَنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلْعَلِىُّ ٱلْكَبِيرُ ﴾ [الحج : ٦٢] .

والإيمان بهذا التوحيد العظيم - بأنه لا معبود بحق إلا اللَّه - يتضمن الإيمان بأنه لا خالق إلا اللَّه ، ولا رازق إلا اللَّه ، ولا مدبر للخلق إلا اللَّه ولا يملك الضر والنفع إلا اللَّه .

ويتضمن كذلك الإيمان بأسماء اللَّه وصفاته إذ لا يُعبد إلا من عُلم أنه أهل للعبادة ، ولا أهل للعبادة سوى الخالق ﷻ ، لهذا كانت هذه الكلمة أعلى شعب الإيمان وأفضلها : ومن خُتم له بها في الحياة الدنيا فإنه يكون من أهل الجنة ، فإن « من كان آخر كلامه من الدنيا لا إله إلا اللَّه دخل الجنة »[٤] ، نسأل اللَّه أن يختم لنا بها إنه على كل شيء قدير .

« أعلاها قول لا إله إلا اللَّه » ، « وأدناها » يعني : الشيء الهين « إماطة الأذى عن الطريق » ؛

---

(١) أخرجه البخاري في الجمعة (٩٣٥) ، ومسلم في الجمعة (١٣) .

(٢) أخرجه البخاري في الدعوات (٦٤١٠) ، ومسلم في الذكر والدعاء (٥) .

(٣) أخرجه الترمذي في الدعوات (٣٥٠٧) ، والعلة في هذا الحديث تفرد الوليد بن مسلم به ، قال الحاكم : لا أعلم خلافًا عند أهل الحديث أن الوليد أوثق وأحفظ وأجل وأعظم من بشر بن شعيب وعلي بن عياش . (تحفة الأحوذي ٣٩٠/٩) وأخرجه ابن ماجه في الدعاء (٣٨٦١) .

(٤) أخرجه أبو داود في الجنائز (٣١١٦) ، وأحمد في مسنده (٢٣٣/٥) ، والحاكم في المستدرك (٣٥١/١) .

الأذى : ما يؤذي المارة من شوك أو خرق أو خشب أو حجر أو غير ذلك ، فإماطة الأذى عن الطريق من شعب الإيمان ، وهذا يدل على سعة الإيمان وأنه يشمل الأعمال كلها .

« والحياء شعبة من الإيمان » ؛ الحياء إنكسار يكون في القلب ، وخجل لفعل ما لا يستحسنه الناس ، والحياء من اللَّه والحياء من الخلق من الإيمان ، فالحياء من اللَّه يوجب للعبد أن يقوم بطاعة اللَّه ، وأن ينتهي عما نهى اللَّه ، والحياء من الناس يوجب للعبد أن يستعمل المروءة ، وأن يفعل ما يجمله ويزينه عند الناس ، ويتجنب ما يدنسه ويشينه ، فالحياء كله من الإيمان .

وسئل النبي - عليه الصلاة والسلام - عن الإيمان قال : « أن تؤمن باللَّه وملائكته وكتبه ورسله واليوم الآخر والقدر خيره وشره »[1] ، فإذا جمعت هذا الحديث بذاك الحديث الآخر تبين لك أن الإيمان كما ذهب إليه أهل السنة والجماعة يشمل العقيدة ، ويشمل القول ، ويشمل الفعل ؛ فيشمل عمل القلب (عقيدة القلب وعمل القلب) وقول اللسان وعمل الجوارح .

« لا إله إلا اللَّه » : هي قول اللسان ، « إماطة الأذى عن الطريق » : عمل الجوارح ، « الحياء » : عمل القلب ، « الإيمان بملائكته وكتبه » : اعتقاد القلب .

فالإيمان عند أهل السنة والجماعة يتضمن كل هذه الأربعة : اعتقاد القلب ، وعمل القلب ، وقول اللسان ، وعمل الجوارح ، وأدلة ذلك من الكتاب والسنة كثيرة .

في هذا الحديث حث على إماطة الأذى عن الطريق ، لأنه إذا كان من الإيمان فافعله يزدد إيمانك ويكمل ، فإذا وجدت أذىً في طريق ؛ حجرًا أو زجاجًا أو شوكًا أو غير ذلك ، فأزله فإن ذلك من الإيمان ،حتى السيارة إذا جعلتها في وسط الطريق وضيقت على الناس فقد وضعتَ الأذى في طرق الناس ، وإزالة ذلك من الإيمان ، وإذا كان إماطة الأذى عن الطريق من الإيمان ، فوضع الأذى في الطريق من الخسران والعياذ باللَّه ، ومن نقص الإيمان ، ولذلك يجب أن يكون الإنسان حيَّ القلب ، يشعر بشعور الناس .

تجد بعض الناس الآن يوقف السيارة في أي مكان بالطول أو بالعرض ما يهتم ، المكان ضيق أو المكان واسع ما يبالي . ليست هذه خصال المؤمن ، المؤمن هو الذي يكون حيَّ القلب ، يشعر بشعور الناس ، يحب للناس مايحب لنفسه ، كيف تأتي - مثلًا - وتوقف سيارتك في عرض الطريق ولا تبالي بتضييق الطريق على الناس ؟! .

أحيانًا يسدون الطريق يقفون عند باب مسجد جامع وتكون الطريق ضيقًا ،فإذا خرج الناس يوم الجمعة ضيقوا عليهم ، وهذا غلط ، فإماطة الأذى عن الطريق صدقة .

فعلى هذا ينبغي للإنسان أن يقوم بإماطة الأذى عن الطريق ، وإذا كان لا يستطيع كما لو كانت أحجارًا كبيرة أو أكوامًا من الرمل أو ما أشبه ذلك فليبلغ المسئولين ، ليبلغ البلدية مثلًا ؛ لأنها المسئولة عن هذا ، يبلغها حتى يكون ممن تعاونوا على البر والتقوى .

---

(١) أخرجه مسلم في الإيمان (١) واللفظ له ، والبخاري في الإيمان (٥٠) .

الحياء شعبة من الإيمان ، فإذا كان الإنسان حييًا لا يتكلم بما يدنسه عند الناس ، بل تجده وقورًا ساكنًا مطمئنًا ، فهذا من علامة الإيمان . والله الموفق .

* * *

٦٨٤ - وعن أَبي سَعيدٍ الخُدْريِّ ﷺ قال : كان رسول الله ﷺ أَشَدَّ حَيَاءً مِنَ العَذْراءِ في خِدْرِهَا ، فَإذَا رَأى شَيئًا يَكْرهُهُ عَرَفْنَاهُ في وَجْهِهِ [(١)] . متفقٌ عليه .

قال العلماءُ : حَقيقَةُ الحَيَاءِ خُلُقٌ يَبْعَثُ عَلى تَرْكِ القَبيحِ ، ويَمْنَعُ مِنَ التَّقْصِير في حَقِّ ذِي الحَقِّ . وَرَوينا عنْ أَبي القَاسم الجُنَيدِ رَحِمَهُ اللهُ قال : الحَيَاءُ رُؤْيَةُ الآلاءِ - أَي : النِّعَمِ - وَرؤْيَةُ التَّقْصِيرِ ، فيَتَوَلَّدُ بَينَهُمَا حَالَةٌ تُسَمَّى حَيَاء .

الشرح

ثم ذكر النووي رحمه الله في باب الحياء وفضله فيما نقله عن أبي سعيد الخدري ﷺ أن النبي ﷺ « كان أشد حياءً من العذراء في خدرها » . العذراء : هي المرأة التي لم تتزوج وهي أشد النساء حياءً ، لأنها لم تتزوج ولم تعاشر الرجال فتجدها حيية في خدرها ، فرسول الله ﷺ أشد حياءً منها ، ولكنه ﷺ إذا رأى ما يكره عُرف ذلك في وجهه ،يتغير وجهه ، لكن يستحي - عليه الصلاة والسلام - .

وهكذا ينبغي للمؤمن أن يكون حييًا لا يتخبط ، ولا يفعل ما يخجل ، ولا يفعل ما ينتقد عليه ، ولكن إذا سمع مايكره أو رأى ما يكره ، فإنه يتأثر ، وليس من الرجولة أن لا تتأثر بشيء ، لأن الذي لا يتأثر بشيء هو البليد الذي لا يحس ، لكن تتأثر ويمنعك الحياء أن تفعل ما يُنكر ، أو أن تقول ما يُنكر .

ثم إن الحياء لا يجوز أن يمنع الإنسان من السؤال عن دينه فيما يجب عليه ، لأن ترك السؤال عن الدين فيما يجب ليس حياءً ، ولكنه خور ، فالله ﷻ لا يستحي من الحق .

قالت عائشة رضي الله عنها : « نعم النساء نساء الأنصار لم يمنعهن الحياء أن يتفقهن في الدين » [(٢)] فكانت المرأة تأتي تسأل النبي ﷺ عن الشيء الذي يستحي من ذكره الرجال ، فلا بد أن يسأل الإنسان عن دينه ولا يستحي .

ولهذا لما جاء ماعزُ بن مالك ﷺ إلى النبي عليه الصلاة والسلام جاء يقر بالزنا يقول إنه زنى ، فأعرض عنه النبي عليه الصلاة والسلام ، ثم جاء ثانيةً وقال إنه زنى ، فأعرض عنه ، ثم جاء ثالثة وقال إنه زنى ، فأعرض عنه النبي - عليه الصلاة والسلام - يريد أن يتوب فيتوب الله عليه .

فلما جاء الرابعة ناقشه النبي عليه الصلاة والسلام قال : « أبك جنون ؟ » قال : لا يا رسول الله قال : « أتدري ما الزنا ؟ » قال : نعم ، الزنا : أن يأتي الرجل من المرأة حرامًا ما يأتي الرجل من زوجته حلالًا ،

---

(١) أخرجه البخاري في الأدب (٦١٠٢) واللفظ له ومسلم في الفضائل (٦٧) والإمام أحمد في مسنده (٧١/٣ ، ٩١) ، قوله : « من العذراء في خدرها » أي : البكر ، والخِدْر : ستر تجعله البكر في جنب البيت ، والمقصود : أنه أشد حياءً من البكر حال اختلائها بالزوج الذي لم تعرفه قَبْلُ واستحيائها منه .

(٢) أخرجه مسلم في الحيض (٦١) .

فقال له : « أنكتها » [١] ؛ لا يكني ، بل صرح هنا مع أن هذا مما يُستحى منه ، لكن الحق لا يُستحى منه ، قال له : « أنكتها » قال : نعم ، قال : « حتى غاب ذاك منك في ذلك منها كما يغيب المرود في المكحلة والرشاء في البئر ؟ » قال : نعم [٢] . فهذا شيء يُستحى منه ولكن في باب الحق لا يستحي .

جاءت أم سليم إلى رسول الله ﷺ تسأله فقالت : يا رسول الله ، إن الله لا يستحي من الحق ، هل على المرأة من غسل إذا هي احتلمت ؟ قال : « نعم إذا هي رأت الماء » [٣] .

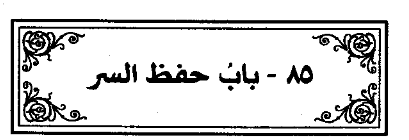
هذا السؤال ربما يخجل منه الرجل أن يسأله ، ولا سيما في المجلس ، لكن أم سليم لم يمنعها الحياء من أن تعرف دينها وتتفقه فيه .

وعلى هذا فالحياء الذي يمنع من السؤال عما يجب السؤال عنه حياء مذموم ، ولا ينبغي أن نسميه حياءً ، بل نقول إن هذا خور وجبن ، وهو من الشيطان ، فاسأل عن دينك ولا تستح .

أما الأشياء التي لا تتعلق بالأمور الواجبة : فالحياء خير من عدم الحياء ، « وإن مما أدرك الناس من كلام النبوة الأولى إذا لم تستح فاصنع ما شئت » [٤] .

ومما يجانب الحياء ما يفعله بعض الناس الآن في الأسواق من الكلام البذيء السيئ ، أو الأفعال السيئة أو ما أشبه ذلك ، فلذلك يجب على الإنسان أن يكون حييًا إلا في أمرٍ يجب عليه معرفته فلا يستحي من الحق .

* * *



٨٥ - باب حفظ السر

قال الله تعالى : ﴿ وَأَوْفُواْ بِالْعَهْدِ إِنَّ الْعَهْدَ كَانَ مَسْئُولًا ﴾ [٥] [الإسراء : ٣٤] .

٦٨٥ - عن أبي سعيدٍ الخُدْريِّ ﷺ قال : قال رسول الله ﷺ : « إنَّ مِنْ أَشَرِّ النَّاسِ عِنْدَ اللَّهِ مَنْزِلَةً يَومَ القِيَامَةِ الرَّجُلَ يُفْضِي إلى المرْأَةِ وتُفْضِي إِلَيهِ ثُمَّ يَنْشُرُ سِرَّهَا » [٦] رواه مسلم .

الشرح

قال الإمام النووي رحمه الله : (باب حفظ السر) .

---

(١) أخرجه البخاري في المحاربين (٦٨٢٤) ، والإمام أحمد في مسنده (١/٢٧٠) .

(٢) أخرجه أبو داود في الحدود (٤٤٢٨) .

(٣) أخرجه البخاري في الأدب (٦٠٩١) ، ومسلم في الحيض (٣٢) .

(٤) أخرجه البخاري في الأدب (٦١٢٠) ، وأحمد في مسنده (٤/١٢١) .

(٥) قوله تعالى : ﴿ بِالْعَهْدِ ﴾ أي بالعقد الذي يعقد الصلح بين أهل الحرب والإسلام . قوله : ﴿ مَسْئُولًا ﴾ أي مسئولًا عنه هل وفيَّ به أم لا ؟ .

(٦) أخرجه مسلم في النكاح (١٢٣) ، قوله « يفضي » من الإفضاء وهو مباشرة البَشَرة وهو كناية عن الجماع وأصل الإفضاء هو الانتهاء .

والسر هو ما يقع خفية بينك وبين صاحبك . ولا يحل لك أن تفشي هذا السر أو أن تبينه لأحد ، سواء قال لك لا تبينه لأحد ، أو علم بالقرينة الفعلية أنه لا يحب أن يطلع عليه أحد ، أو علم بالقرينة الحالية أنه لا يحب أن يطلع عليه أحد .

مثال الأول : اللفظ ؛ أن يحدثك بحديث ثم يقول : لا تخبر أحدًا ، هو معك أمانة .

ومثال الثاني : القرينة الفعلية ؛ أن يحدثك وهو حال تحديثه إياك يلتفت ؛ يخشى أن يكون أحد يسمع ، لأن معنى التفاته أنه لا يحب أن يطّلع عليه أحد .

ومثال الثالث : القرينة الحالية ؛ أن يكون هذا الذي حدثك به أو أخبرك به من الأمور التي يستحي من ذكرها أو يخشى من ذكرها أو ما أشبه ذلك ، فلا يحل لك أن تبين وتفشّي هذا السر .

ثم استدل المؤلف رحمه الله لذلك بقوله تعالى : ﴿ وَأَوْفُوا۟ بِٱلْعَهْدِ إِنَّ ٱلْعَهْدَ كَانَ مَسْـُٔولًا ﴾ : يعني إذا عاهدتم على شيء بلسان الحال أو بلسان المقال ، فإنه يجب عليكم أن توفوا بالعهد ، ومن العهود الشروط التي تقع بين الناس في الشراء والإجارة والاستئجار والرهن وغير ذلك ، فإن هذه الشروط من العهد . وكذلك ما يجري بين المسلمين والكفار من العهد ، فإنه يجب على المسلمين أن يوفوا به .

والمعاهدون من الكفار ، بيّن اللّه في سورة التوبة أنهم ينقسمون إلى ثلاثة أقسام :

قسم لا يزالون يوفون بالعهد ، فهؤلاء يجب أن نوفي عهدهم .

وقسم ثانٍ نقضوا العهد ، فهؤلاء لا عهد بيننا وبينهم ؛ لأنهم نقضوا العهد ، قال تعالى : ﴿ أَلَا تُقَـٰتِلُونَ قَوْمًا نَّكَثُوٓا۟ أَيْمَـٰنَهُمْ وَهَمُّوا۟ بِإِخْرَاجِ ٱلرَّسُولِ وَهُم بَدَءُوكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ ﴾ [التوبة : ١٣] .

وقسم ثالث لم ينقضوا العهد ولم يتبين لنا أنهم سيستمرون في الوفاء به ، بل نخاف منهم أن يخونوا وينقضوا العهد ، فهؤلاء قال اللّه تعالى فيهم : ﴿ وَإِمَّا تَخَافَنَّ مِن قَوْمٍ خِيَانَةً فَٱنۢبِذْ إِلَيْهِمْ عَلَىٰ سَوَآءٍ ﴾ [الأنفال : ٥٨] ، يعني قل لهم لا عهد بيننا وبينكم حتى يكون الأمر صريحًا .

فالمهم أن جميع ما يشترط بين الناس فإنه من العهود ، ومن ذلك التزام الموظفين بأداء عملهم ، فإن الموظف قد التزم بالشروط التي تشترطها الحكومة على الموظفين ؛ من الحضور في أول الدوام وعدم الخروج إلا بعد انتهاء الدوام ، والنصح في العمل ، وما أشبه ذلك مما هو معروف في ديوان الخدمة .

فالواجب الوفاء بهذه العهود وإلا فاترك الوظيفة وكن حرًّا فيما تعمل ، لأن الوظيفة لم تُلزم بها ، بل أنت الذي أتيت وتوظفت ، فيجب أن تلتزم بما تقتضيه شروط هذه الوظيفة من كل شيء ، وإلا فدعها وكن حرًّا فيما تريد ، ولا أحد يحاسبك إلا اللّه عز وجل .

ثم ذكر حديث أبي سعيد الخدري رضي الله عنه أن النبي صلى الله عليه وسلم قال : « إن من أشر الناس منزلة يوم القيامة » أشر : هذه لغة قليلة ؛ لأن اللغة الكثيرة حذف الهمزة ، فخير وشر الأكثر فيهما في اللغة حذف الهمزة ، لا يقال أخير ولا أشر إلا قليلًا ، وإنما يقال خير وشر . قال اللّه تعالى : ﴿ أَصْحَـٰبُ ٱلْجَنَّةِ يَوْمَئِذٍ خَيْرٌ مُّسْتَقَرًّا وَأَحْسَنُ مَقِيلًا ﴾ [الفرقان : ٢٤] ، وقال تعالى : ﴿ فَسَيَعْلَمُونَ مَنْ هُوَ شَرٌّ مَّكَانًا وَأَضْعَفُ

جُنْدًا ﴾ [مريم: ٧٥] ، حَذَفَ الهمزة في خير وشر لكن يأتي ذكرها أحيانًا بناء على الأصل .

فهنا « إن من أشر الناس منزلة يوم القيامة الرجل يفضي إلى المرأة وتفضي إليه » يعني بذلك الزوجة « فيصبح ينشر سرها » أو هي أيضًا تصبح تنشر سره ، فيقول فعلت في امرأتي البارحة كذا وفعلت كذا ، والعياذ بالله ،فالغائب كأنه يشاهد . كأنه بينهما في الفراش ، والعياذ بالله ، يخبره بالشيء السر الذي لا تحب الزوجة أن يطلع عليه أحد .

أو الزوجة كذلك تخبر النساء بأن زوجها يفعل بها كذا وكذا ، وكل هذا حرام ولا يحل وهو من شر الناس منزلة عند الله يوم القيامة .فالواجب أن الأمور السرية في البيوت وفي الفرش وفي غيرها تحفظ وألا يطلع عليها أحد أبدًا . فإن من حفظ سر أخيه حفظ الله سره ، فالجزاء من جنس العمل .

* * *

٦٨٦ - وعن عبدِ الله بن عمر رضي الله عنهما أن عمرَ رضي الله عنه حينَ تَأَيَّمَتْ بِنْتُهُ حَفْصَةُ قال : لَقِيتُ عُثْمَانَ بْنَ عَفَّان رضي الله عنه فَعَرَضْتُ عَلَيهِ حَفْصَةَ فَقلتُ : إنْ شِئْتَ أَنْكَحْتُكَ حَفْصَةَ بِنْتَ عُمَرَ ؟ قال : سَأَنْظُرُ في أَمْرِي . فَلَبِثْتُ لَيَاليَ ، ثُمَّ لَقِيَنِي ، فقال : قَدْ بَدَا لي أَنْ لا أَتَزَوَّجَ يَومي هذا . فَلَقِيتُ أبا بَكْرٍ الصِّدِّيقَ رضي الله عنه فقلتُ : إنْ شِئْتَ أَنْكَحْتُكَ حَفصَة بنْتَ عُمَرَ ، فَصَمَتَ أبو بَكْرٍ رضي الله عنه فَلَمْ يَرْجعْ إليَّ شَيئًا ! فَكُنْتُ عَلَيهِ أَوجَدَ مِنِّي على عُثْمَانَ ، فَلَبِثْتُ لَيَالي ، ثُمَّ خَطَبَهَا النَّبيُّ ﷺ ، فَأَنْكَحْتُهَا إيَّاهُ فَلَقِيني أَبُو بَكْرٍ فقالَ : لَعَلَّكَ وَجَدْتَ عَلَيَّ حِينَ عَرَضْتَ عَلَيَّ حَفْصَةَ فَلَمْ أرْجعْ إلَيكَ شَيئًا ؟ فقلت : نَعَمْ . قال : فَإنَّهُ لَمْ يَمْنَعْني أَنْ أَرْجِعَ إلَيكَ فيمَا عَرَضْتَ عَلَيَّ إلا أَنِّي كُنْتُ عَلِمْتُ أَنَّ النبيَّ ﷺ ذَكَرَهَا ، فَلَمْ أَكُنْ لأُفْشِيَ سِرَّ رسول الله ﷺ وَلَو تَرَكَها النَّبيُّ ﷺ لَقَبِلْتُهَا [١] . رواه البخاري .

قوله : « تَأَيَّمَتْ » أي : صَارَتْ بِلا زَوجٍ ، وَكَانَ زَوجُها تُوُفِّيَ رضي الله عنه . « وَجَدْتَ » : غَضِبْتَ .

٦٨٧ - وعن عائشة رضي الله عنها قالتْ : كُنَّ أَزْوَاجُ النَّبيِّ ﷺ عِنْدَهُ ، فَأَقْبَلَتْ فَاطِمَةُ رضي الله عنها تَمْشِي ، مَا تخطِئُ مِشيَتُهَا مِنْ مِشيَةِ رسول الله ﷺ شَيئًا ، فَلَمَّا رَآها رَحَّبَ بهَا وقال : « مَرْحَبا بابْنَتي » ثُمَّ أَجْلَسَهَا عَنْ يَمِينِهِ أَو عَنْ شِمَالِهِ ، ثُمَّ سَارَّهَا فَبَكَتْ بُكَاءً شَدِيدًا ، فَلَمَّا رَأَى جزَعَهَا ، سَارَّهَا الثَّانِيَةَ فَضَحِكَتْ ، فقلتُ لَهَا : خَصَّكِ رسول الله ﷺ مِنْ بَينِ نِسَائِهِ بالسِّرار ثُمَّ أَنْتِ تَبْكِينَ ! فَلَمَّا قَامَ رسول الله ﷺ سَأَلْتُهَا : مَا قَالَ لكِ رسول الله ﷺ ؟ قالت : مَا كُنْتُ لأُفْشِيَ على رسول الله ﷺ سِرَّهُ . فَلَمَّا تُوُفِّيَ رسول الله ﷺ قلتُ : عَزَمْتُ عَلَيكِ بمَا لي عَلَيكِ مِنَ الحَقِّ ، لَمَا حَدَّثْتِني ما قال لكِ رسولُ الله ﷺ ؟ فقالتْ : أَمَّا الآنَ فَنَعَمْ ، أَمَّا حِينَ سَارَّني في المَرَّةِ الأُولى فَأَخبَرَني « أَنَّ جبْريلَ كَانَ يُعَارِضُهُ القُرآنَ في كُلِّ سَنَةٍ مَرَّةً أَو مرَّتيـنِ ، وَأَنَّهُ عَارَضَهُ الآنَ مَرَّتَيـنِ ، وَإنِّي لا أَرَى الأَجَلَ إلا قَدِ اقْتَرَبَ ، فَاتَّقِي اللَّهَ وَاصْبِري ، فَإنَّهُ نِعْمَ السَّلَفُ أَنَا لكِ » فَبَكَيتُ بُكَائيَ الَّذي رَأيتِ . فَلَمَّا رَأَى جَزَعِي

---

(١) أخرجه البخاري في المغازي (٤٠٠٥) ، قوله « أوجد » أي أشد غضبًا ، قوله « النبي ﷺ ذكرها » أي مريدًا التزوج بها ، قوله « أفشي » أي أظهر .

سَارَّنِي الثَّانِيَةَ ، فقال : «يَا فاطِمَةُ أَمَا تَرْضَيـنَ أَنْ تَكُونِي سَيِّدَةَ نِسَاءِ المُؤمِنِينَ ، أَو سَيِّدَةَ نِسَاءِ هَذِهِ الأُمَّةِ ؟ » فَضَحِكتُ ضَحِكِي الَّذِي رَأَيتِ [١] . متفقٌ عليه . وهذا لفظ مسلم .

٦٨٨ - وعن ثابتٍ عن أنس ﷺ قال : أَتَى عَلَيَّ رسول اللَّه ﷺ وَأَنا أَلْعَبُ مَعَ الغِلْمَانِ ، فَسَلَّمَ عَلَينَا ، فَبَعَثَنِي في حَاجَةٍ ، فَأَبْطَأْتُ عَلَى أُمِّي . فَلَمَّا جِئْتُ قالت : مَا حَبَسَكَ ؟ فقلتُ : بَعَثَنِي رسول اللَّه ﷺ لِحَاجَةٍ ، قالت : مَا حَاجَتُهُ ؟ قلتُ : إِنَّهَا سِرٌّ . قالتْ : لا تُخْبِرَنَّ بِسِرِّ رسول اللَّه ﷺ أَحَدًا ، قال أَنَسٌ : وَاللَّهِ لَو حَدَّثْتُ بِهِ أَحَدًا لَحَدَّثْتُكَ بِهِ يَا ثَابِتُ . رواه مسلم ، وروى البخاري بَعْضَهُ مُخْتَصرًا [٢] .

الشرح

قال المؤلف رحمه الله في باب حفظ السر فيما نقله عن ثابت عن أنس خادم رسول اللَّه ﷺ أن النبي ﷺ مَرَّ به وهو يلعب مع الصبيان فسلم عليهم ، يعني سلم على الصبيان وهم يلعبون - لأن رسول اللَّه ﷺ كان أحسن خلقًا ، فكان يمر بالصبيان فيسلم عليهم - ثم دعا أنس بن مالك ﷺ وأرسله في حاجة .

فأبطأ على أمه - وأمه هي أم سليم امرأة أبي طلحة ، فلما جاء إليها سألته : ما الذي أبطأ بك ؟ ، قال بعثني النبي ﷺ في حاجة ؛ يعني أرسلني بها . قالت : ما حاجته ؟ قال : ما كنت لأخبر بسرِّ رسول اللَّه ﷺ ، فقالت لا تخبرن أحدًا بسرِّ رسول اللَّه ﷺ . قال أنس لثابت : وكان ملازمًا له : لو كنت مخبرًا أحدًا بذلك لأخبرتك به ؛ أي بالحاجة التي أرسله النبي ﷺ بها .

ففي هذا الحديث فوائد :

أولًا : حسن خلق النبي ﷺ وتواضعه الجم - على شرفه ومكانته وجاهه عند اللَّه وعند خلقه - يتواضع حتى يسلم على الصبيان وهم يلعبون في السوق . ومن منا يفعل ذلك إلا من شاء اللَّه .

ثانيًا : من فوائد هذا الحديث أنه يسن للإنسان أن يسلم على من مَرَّ به ولو كان من الصبيان ، لأن السلام دعاء تدعو لأخيك به تقول : السلام عليك . ورده دعاء لك يقول : عليك السلام ، ولأنك إذا سلمت على الصبيان عودتهم التربية الحسنة حتى ينشئوا عليها ويعيشوا عليها ، ويكون لك أجر في كل ما اهتدوا بك فيه ، فكل شيء يَهتدي فيه بك الناسُ من أمور الخير لك فيه أجر .

ثالثًا : جواز إرسال الصبي بالحاجة لكن بشرط أن يكون مأمونًا ، أما إذا كان غير مأمون ؛ بأن يكون الصبي كثير اللعب ولا يهتم بالحوائج فلا تعتمد عليه .

---

(١) أخرجه البخاري في المناقب (٣٦٢٣) ، ومسلم في فضائل الصحابة (٩٨) ، والإمام أحمد في مسنده (٦/٢٨٢) . قوله « سارها » أي أسر إليها القول ، قوله « جزعها » جزع الرجل من باب تعب إذا ضعف متنه عن حمل ما نزل به ولم يجد صبرًا ، قولها : أفشي أي أظهر . قولها « عزمت بما لي عليك » استعارة للقسم أي أقسمت عليك ، قوله « جبريل كان يعارضه القرآن » قيل : إنه كان يقرأ النبي ﷺ من القرآن فيعيده بعينه جبريل ولعل ذلك ليجمع بين مرتين : العرض والأخذ من فم المبلغ .

(٢) أخرجه مسلم باختلاف في اللفظ في فضائل الصحابة (١٤٥) والبخاري مختصرًا في الاستئذان (٦٢٨٩) .

رابعًا : ما ذكره الفقهاء - رحمهم اللَّه - أن الصبي إذا جاءك بحاجة وقال هذه من أبي ، هذه من أمي وما أشبه ذلك ، فلك أن تقبلها وإن كان هو بنفسه لا يملك أن يتبرع من ماله بشيء ، لكن إذا جاءك على أنه مرسل وقال : هذا من أبي ؛ جاءك مثلًا بتمر ، جاءك ببطيخ ، جاءك بثوب ، بأي شيء ، إذا جاءك فاقبله ولا تقل : هذا صبي ربما سرقها ، وربما كذا ، ربما كذا ، أخذًا بالظاهر .

خامسًا : مراعاة الوالدة والأهل ، وأن الإنسان إذا أراد أن يقضي حاجة وخاف أن يبطئ عليهم ، أن يخبرهم إذا لم تفت الحاجة بذلك ؛ يعني إذا خرجت من أهلك فينبغي أن تقول خرجت للجهة الفلانية حتى يطمئنوا ولا تشغل خواطرهم ، والإنسان لا يدري ربما يذهب إلى الجهة الفلانية ويصاب بحادث أو مرض أو غيره ، فإذا لم يكن معلومًا بقي أمره مشكلًا عند أهله ، فينبغي إذا أردت أن تذهب إلى شيء غير معتاد أن تخبرهم بوجهتك ، أما الشيء المعتاد مثل الخروج إلى المسجد وما أشبهه فلا بأس .

مثلًا إذا أردت أن تذهب إلى بلد قريب من بلدك قلت لهم : اليوم أذهب إلى المكان الفلاني . أو تريد أن تذهب في نزهة قل : أذهب اليوم في نزهة ، فأخبرهم حتى يطمئنوا .

سادسًا : أنه لا يجوز للإنسان أن يبدي سر شخص حتى لأمه وأبيه .فلو أن إنسانًا أرسلك في حاجة ، ثم قال لك أبوك : ما الذي أرسلك به ؟ ، لا تخبره ولو كان أباك ، أو قالت أمك : ما الذي أرسلك به ؟ لا تخبرها ولو كانت أمك ، لأن هذا من أسرار الناس ولا يجوز إبداؤها لأحد .

سابعًا : حسن تربية أم سليم لابنها حيث قالت : لا تخبرن أحدًا بسر رسول اللَّه ﷺ وإنما قالت له ذلك - مع أنه لم يخبرها ولم يخبر غيرها - تأييدًا له وتثبيتًا له وإقامة للعذر له ، لأنه أبى أن يخبرها بسر رسول اللَّه ﷺ ، فقالت : لا تخبرن به أحدًا ، كأنها تقول : أنا أوافقك على هذا فاستمسك به .

ثامنًا : إظهار محبة أنس لثابت ؛ لأنه ملازم له ، ولهذا تجده يروي عنه كثيرًا ، ولهذا قال له : لو كنت مخبرًا أحدًا بذلك لأخبرتك ، وهذا يدل على المحبة بين أنس وبين تلميذه ثابت .

وهكذا أيضًا تنبغي أن تكون المودة بين التلاميذ ومعلمهم متبادلة ، لأنه إذا لم يكن بين التلميذ والمعلم مودة فإن التلميذ لا يقبل كل ما قاله معلمه ، وكذلك المعلم لا ينشط لتعليم تلميذه ولا يهتم به كثيرًا ، فإذا صارت المودة بينهم متبادلة حصل بهذا خير كثير .

* * *

٨٦ - باب الوفاء بالعهد وإنجاز الوعد

قال اللَّه تعالى : ﴿ وَأَوْفُوا۟ بِٱلْعَهْدِ ۖ إِنَّ ٱلْعَهْدَ كَانَ مَسْـُٔولًا ﴾ [الإسراء : ٣٤] . وقال تعالى : ﴿ وَأَوْفُوا۟ بِعَهْدِ ٱللَّهِ إِذَا عَٰهَدتُّمْ ﴾ [النحل : ٩١] . وقال تعالى : ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ أَوْفُوا۟ بِٱلْعُقُودِ ۚ ﴾ [المائدة : ١] . وقال تعالى : ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لِمَ تَقُولُونَ مَا لَا تَفْعَلُونَ ۝ كَبُرَ مَقْتًا عِندَ ٱللَّهِ أَن تَقُولُوا۟ مَا لَا

تَفْعَلُونَ ﴾ (١) [الصف: ٢،٣].

الشرح

قال المؤلف - رحمه الله تعالى - : في (باب الوفاء بالعهد وإنجاز الوعد).

العهد : ما يعاهد الإنسان به غيره ، وهو نوعان :

عهد مع الله ﷻ ، فإن الله ﷻ قال في كتابه : ﴿ وَإِذْ أَخَذَ رَبُّكَ مِنْ بَنِي آدَمَ مِن ظُهُورِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ وَأَشْهَدَهُمْ عَلَى أَنفُسِهِمْ أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْ قَالُوا بَلَى شَهِدْنَا ﴾ [الأعراف: ١٧٢] ، فقد أخذ الله العهد على عباده جميعًا أن يعبدوه ولا يشركوا به شيئًا ، لأنه ربهم وخالقهم .

وعهد مع عباد الله ؛ ومنه العهود التي تقع بين الناس ؛ بين الإنسان وبين أخيه المسلم ، بين المسلمين وبين الكفار ، وغير ذلك من العهود المعروفة . فقد أمر الله تعالى بالوفاء بالعهد فقال ﷻ : ﴿ وَأَوْفُوا بِالْعَهْدِ إِنَّ الْعَهْدَ كَانَ مَسْئُولًا ﴾ يعني أن الوفاء بالعهد مسئول عنه الإنسان يوم القيامة ، يُسأل عن عهده هل وفَّى به أم لا ؟

وقال تعالى : ﴿ وَأَوْفُوا بِعَهْدِ اللَّهِ إِذَا عَاهَدتُّمْ ﴾ يعني ولا تخلفوا العهد .

وقال تعالى : ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لِمَ تَقُولُونَ مَا لَا تَفْعَلُونَ ۝ كَبُرَ مَقْتًا عِندَ اللَّهِ أَن تَقُولُوا مَا لَا تَفْعَلُونَ ﴾ والإنسان إذا عاهد ولم يفِ فقد قال مالا يفعل .

فمثلًا : لو قلت لشخص : عاهدتك ألا أخبر بالسر الذي بيني وبينك ، أو عاهدتك ألا أخبر بما صنعتَ في كذا وكذا . ثم نقضتَ وأخبرتَ ، فهذا من القول بما لا تفعل ﴿ لِمَ تَقُولُونَ مَا لَا تَفْعَلُونَ ﴾ .

وقوله : ﴿ كَبُرَ مَقْتًا عِندَ اللَّهِ ﴾ : يعني كبر بغضًا عند الله أن تقولوا ما لا تفعلون ، فإن الله يبغض هذا الشيء ويحب الموفين بالعهد إذا عاهدوا .

* * *

٦٨٩ - عن أبي هريرة رضي الله عنه أنَّ رسول الله ﷺ قال : « آيَةُ المُنَافِقِ ثَلاثٌ : إذا حَدَّثَ كَذَبَ ، وَإذا وَعَدَ أَخلفَ ، وَإذا اؤْتُمِنَ خَانَ » (٢) متفقٌ عليه .

زَادَ في روايةٍ لمسلم : « وَإنْ صَامَ وَصَلَّى وَزَعَمَ أَنَّهُ مسلِمٌ » (٣) .

---

(١) قوله ﷻ ﴿ وَأَوْفُوا بِعَهْدِ اللَّهِ ﴾ نزلت في الوفاء بالعهود والمواثيق والمحافظة على الأيمان المؤكدة لها ، ومنها مبايعتهم الرسول ﷺ على الإسلام ، قوله تعالى : ﴿ أَوْفُوا بِالْعُقُودِ ﴾ بالعهود المؤكدة ، وهي ما ألزمه الله عباده وعقده عليهم من التكاليف ، وما يعقدونه فيما بينهم من عقود المعاملات والأمانات ، قوله تعالى : ﴿ لِمَ تَقُولُونَ مَا لَا تَفْعَلُونَ ﴾ استفهام على جهة الإنكار على أن يقول الإنسان عن نفسه من الخير ما لم يكن قد فعله ، أو ما لا يفعله فهو إما كذبٌ وإما خلفٌ وكلاهما مذموم ، قوله تعالى : ﴿ كَبُرَ مَقْتًا عِندَ اللَّهِ أَن تَقُولُوا مَا لَا تَفْعَلُونَ ﴾ عظم قولكم مالا تفعلون مقتًا عند الله والمقت أشد البغض .

(٢) أخرجه البخاري في الإيمان (٣٣) ومسلم في الإيمان (١٠٧) .

(٣) أخرجه مسلم في الأيمان (١٠٩) .

٦٩٠ - وعن عبدِ اللَّهِ بن عمرو بن العاص ﷺ أنّ رسول اللَّه ﷺ قال : «أَرْبَعٌ مَنْ كُنَّ فِيهِ كَانَ مُنَافِقًا خَالِصًا . وَمَنْ كَانَتَ فِيهِ خَصلَةٌ مِنْهُنَّ كَانَتْ فِيهِ خَصْلَةٌ مِنَ النِّفَاقِ حَتَّى يَدَعَهَا : إذا اؤْتُمِنَ خَانَ ، وَإذا حَدَّثَ كَذَبَ ، وَإذا عَاهَدَ غَدَرَ ، وَإذا خَاصَمَ فَجَرَ » (١) متفقٌ عليه .

٦٩١ - وعن جابر ﷺ قال : قال لي النبي ﷺ : « لَو قَدْ جاءَ مالُ البَحْرَين أَعْطَيتُكَ هكَذا وهكَذَا وَهكَذَا ، فَلَمْ يَجِئْ مَالُ البَحْرَينِ حَتَّى قُبِضَ النبيُّ ﷺ ، فَلَمَّا جَاءَ مَالُ البَحْرَين أَمَرَ أَبُو بَكْرٍ ﷺ فَنَادَى : مَنْ كَانَ لَهُ عِنْدَ رسول اللَّه ﷺ عِدَةٌ أَو دَينٌ فَلْيَأْتِنَا ، فَأَتَيتُهُ وقُلتُ لَهُ : إنَّ النبي ﷺ قال لي كَذَا وَكذَا ، فحَثَى لي حَثْيَةً ، فَعَدَدْتُهَا ، فَإذا هِيَ خَمْسُمِائةٍ ، فقال لي : خُذْ مِثْلَيهَا (٢) . متفقٌ عليه .

الشرح

نقل المؤلف ﷺ في (باب الوفاء بالعهد وإنجاز الوعد) ، عن أبي هريرة ﷺ أن رسول اللَّه ﷺ قال : « آية المنافق ثلاث » آيته يعني علامته ثلاث « إذا حدث كذب ، وإذا وعد أخلف ، وإذا اؤتمن خان » يعني أن هذه من علامات المنافقين .

إذا رأيت الرجل يكذب ، ويخلف إذا وعد ، ويخون إذا اؤتمن فهذه من علامات المنافقين ، لأن أصل المنافق مبني على التورية والستر ، يستر الخبيث ويظهر الطيب ، يستر الكفر ويظهر الإيمان .

والكاذب كذلك يخبر بخلاف الواقع ، والواعد الذي يعد ويخلف كذلك ، وكذلك الذي يخون إذا اؤتمن فهذه علامات النفاق والعياذ باللَّه .

وفي هذا : التحذير من الكذب وأنه من علامات المنافقين ، فلا يجوز للإنسان أن يكذب ، لكن إن اضطر إلى التورية وهي التأويل فلا بأس ؛ مثل أن يسأله أحد عن أمر لا يحب أن يطلع عليه غيره فيحدث بشيء خلاف الواقع ، لكن يتأول فهذا لا بأس به .

وأما إخلاف الوعد فحرام ، يجب الوفاء بالوعد سواء وعدته مالًا ، أو وعدته إعانة تعينه في شيء ، أو أي أمر من الأمور إذا وعدت فيجب عليك أن تفي بالوعد .

وفي هذا : ينبغي للإنسان أن يحدد المواعيد ويضبطها فإذا قال لأحد إخوانه : أواعدك في المكان الفلاني ، فليحدد الساعة الفلانية حتى إذا تأخر الموعود وانصرف الواعد يكون له عذر ، حتى لا يربطه في المكان كثيرًا .

---

(١) أخرجه البخاري في الإيمان (٣٤) ومسلم في الإيمان (١٠٦) والترمذي في الإيمان (٢٦٣٢) ، قوله « فَجَرَ » أي مال عن الحق وقال الباطل أو شق ستر الديانة .

(٢) أخرجه البخاري في الشهادات (٢٦٨٣) ومسلم في الفضائل (٦٠) والإمام أحمد في مسنده (٣٠٧/٣) ، قوله : « عدة » أي : وعد ، قوله : « فحثى لي حثية » أي : غرف لي غرفة .

وقد اشتهر عند بعض السفهاء أنهم يقولون : أنا أواعدك ولا أخلفك ؛ وعدي إنجليزي ، يظنون أن الذين يوفون بالوعد هم الإنجليز ، ولكن الوعد الذي يُوفَّى به هو وعد المؤمن ، ولهذا ينبغي لك أن تقول إذا وعدت أحدًا وأردت أن تؤكد : **إنه وعد مؤمن** حتى لا يخلفه ، لأنه لا يخلف الوعد إلا المنافق .

« وإذا اؤتمن خان » : يعني إذا ائتمنه الناس على أموالهم أو على أسرارهم أو على أولادهم أو على أي شيء من هذه الأشياء ، فإنه يخون - والعياذ بالله - فهذه أيضًا من علامات النفاق .

وأما حديث عبد الله بن عمرو بن العاص رضي الله عنهما ففيه « أربع من كن فيه كان منافقًا خالصًا ، ومن كان فيه خصلة منهن كان فيه خصلة من النفاق حتى يدعها » المراد به : أن هذه الأربع لا تجتمع إلا في المنافق الخالص ، وإن كان المؤمن قد يحصل له واحدة منها ، لكنه لا يكون منافقًا خالصًا ، بل يكون فيه خصلة من نفاق حتى يدعها .

وهذه الأربع هي :

« إذا اؤتمن خان ، وإذا حدث كذب » وسبق الكلام على هاتين الجملتين .

والثالثة : قال : « وإذا عاهد غدر » وهو قريب من قوله فيما سبق « إذا وعد أخلف » - أي إذا عاهد أحدًا غدر به ، ولم يفِ بالعهد الذي عاهده عليه .

والرابعة : « إذا خاصم فجر » والخصومة : هي المخاصمة عند القاضي ونحوه ، فإذا خاصم فجر . والفجور في الخصومة على نوعين :

أحدهما : أن يدعي ما ليس له .

والثاني : أن ينكر ما يجب عليه .

مثال الأول : ادعى شخص على آخر فقال عند القاضي : أنا أطلب من هذا الرجل ألف ريال - وهو كاذب - وحلف على هذه الدعوى ، وأتى بشاهد زور ، فحكم له القاضي ، فهذا خاصم ففجر ؛ لأنه ادعى ما ليس له ، وحلف عليه .

مثال الثاني : أن يكون عند شخص ألف ريال فيأتيه صاحب الحق فيقول : أوفني حقي ، فيقول : ليس لك عندي شيء ، فإذا اختصما عند القاضي ولم يكن للمدعي بينة ، حلف هذا المنكر الكاذب في إنكاره أنه ليس في ذمته له شيء ، فيحكم القاضي ببراءته ، فهذه خصومة فجور - والعياذ بالله - وقد ثبت عن النبي ﷺ أنه قال : « من حلف على يمين صبر ليقتطع بها حق امرئ مسلم لقي الله وهو عليه غضبان » [1] نعوذ بالله .

---

(١) أخرجه البخاري في الأيمان والنذور (٦٦٧٦) ، ومسلم في الإيمان (٢٢٠) ، قوله « من حلف على يمين صبر » هو بإضافة يمين إلى صبر ويمين الصبر : هي التي يحبس الحالف نفسه عليها وتسمى اليمين الغموس .

وهذه الخصال الأربع إذا اجتمعت في المرء كان منافقًا خالصًا ، لأنه استوفى خصال النفاق والعياذ بالله ، وإذا كان فيه واحدة منهن كان فيه خصلة من النفاق حتى يدعها .

وفي هذا الحديث : دليل على التحذيرالبليغ من هذه الصفات الأربع : الخيانة في الأمانة ، والكذب في الحديث ، والغدر بالعهد ، والفجور في الخصومة .

وفيه أيضًا : دليل على أن الإنسان قد يجتمع فيه خصال إيمان وخصال نفاق لقوله : « كان فيه خصلة من النفاق » وهذا مذهب أهل السنة والجماعة ؛ أن الإنسان يكون فيه خصلة نفاق ، وخصلة إيمان وخصلة فسوق ، وخصلة عدالة ، وخصلة عداوة ، وخصلة ولاية يعني أن الإنسان ليس بالضرورة أن يكون كافرًا خالصًا أو مؤمنًا خالصًا ، بل قد يكون فيه خصال من الكفر وهو مؤمن وخصال من الإيمان .

ثم ذكر حديث جابر بن عبد الله رضي الله عنهما أن النبي ﷺ قال : « لو قد جاء مال البحرين لأعطيتك هكذا وهكذا وهكذا » مال البحرين يعني مال الإحساء وما جاورها ، كلها تسمى البحرين في ذلك العهد . يقول : « لو قد جاء لأعطيتك هكذا وهكذا وهكذا » يقول بيديه - عليه الصلاة والسلام - ، وهذا وعد من رسول الله ﷺ لجابر بن عبد الله أن يعطيه من مال البحرين هكذا وهكذا وهكذا .

فلما تُوفِّيَ الرسول - عليه الصلاة والسلام - قبل أن يأتي مال البحرين وكان الخليفة أبا بكر الصديق رضي الله عنه بإجماع الصحابة ؛ بايعوه كلهم على أنه هو الخليفة ، بعد رسول الله ﷺ .

فجاء مال البحرين في خلافة أبي بكر ، فقال رضي الله عنه : « من كان له عند رسول الله ﷺ عدة أو دين » عدة : يعني وعد ، أو دين : يعني على الرسول - عليه الصلاة والسلام - ؛ لأنه ربما يكون الرسول اشترى من أحد شيئًا فلزمه دين ، أو وعد أحدًا شيئًا ، وفعلًا توفي الرسول - عليه الصلاة والسلام - ودرعه مرهونة عند رجل يهودي في المدينة بثلاثين صاعًا من شعير [1] اشتراها لأهله - عليه الصلاة والسلام - ؛ فهو ﷺ ليس عنده مال ولم يُبعث جابيًا للمال ، ولا يَبقى عنده المال إلا بمقدار ما يفرقه على المسلمين .

المهم : أن أبا بكر نادى : من كان له عند رسول الله ﷺ عدة أو دين فليأتنا ، فجاء جابر رضي الله عنه إلى أبي بكر وقال : إن النبي ﷺ قال : « لو جاء مال البحرين لأعطيتك هكذا وهكذا وهكذا » فقال : خذ فأخذ بيديه فعدها فإذا هي خمسمائة ، فقال : خذ مثليها ، لأن الرسول قال : « هكذا وهكذا وهكذا » ثلاث مرات ، فأعطاه أبو بكر رضي الله عنه العدة التي وعده إياها رسول الله ﷺ .

وفي هذا الحديث من الفوائد :

جواز تخصيص بعض المسلمين بشيء من بيت المال لأن النبي ﷺ خصص جابرًا ، ولكن بشرط ألا يكون ذلك لمجرد الهوى بل للمصلحة العامة أو الخاصة .

---

(١) أخرجه البخاري في المغازي (٤٤٦٧) ، والترمذي في البيوع (١٢١٤) ، وعنده « بعشرين صاعًا » وابن ماجه في الرهون (٢٤٣٩) .

وفيه : دليل على كرم النبي ﷺ حيث يحثو المال حثيًا ، ولا يعده عدًّا لأنه قال بيديه ، وهذا يدل على الكرم وأن المال لا يساوي عنده شيئًا - صلوات الله وسلامه عليه ، بخلاف الذي جمع مالًا وعدده ، يعدد « الهلل » قبل « الريالات » من حرصه على المال .

وفي هذا دليل أيضًا على أن النبي ﷺ لا يعلم الغيب ، لأنه وعد وتُوفي قبل أن يفي بالوعد ، لأن المال لم يأتِ .

وفيه أيضًا دليل على فضيلة أبي بكر رضي الله عنه لمبايعة الصحابة له .

وفيه دليل أيضًا على قبول دعوى المدعي إذا لم يكن له منازع يردّ دعواه وكان هذا المدعي ثقة ، أما إذا كان له منازع ، فإن البينة على المدعي واليمين على من أنكر . وفي هذه القصة لا منازع لجابر رضي الله عنه ، لأن أبا بكر هو المسؤول عن بيت المال ، وقد عرض على الناس : من كان له عدة أو دين فليأتنا ، فجاء جابر ولم يقل له أبو بكر : أين البينة على أن الرسول ﷺ وعدك ؟ ما طلب منه البينة ، لأنه واثق به ولا منازع له .

وفيه دليل أيضًا على اعتبار الشيء بنظيره ، وأن الإنسان إذا وزن شيئًا في إناء وكان وزنه - مثلًا - مائة كيلو ، فله أن يملأ هذا الإناء مرة ثانية بشيء آخر ويعتبره مائة كيلو إذا تساوى الموزون في الخفة والثقل ، لأن أبا بكر رضي الله عنه لما عدَّ الحثية الأولى اعتبر الحثية الثانية والثالثة بمثلها في العدد .

فإذا فرضنا أن شخصًا وجب عليه خمسمائة صاع مثلًا ، ثم كان في إناء عشرة أصواع ، وأراد أن يعتبر الباقي بهذا الإناء ، فإن ذلك لا بأس به ، لأنه إذا تساوى الشيء فإنه لا بأس أن يُعتبر هذا الاعتبار لفعل أبي بكر الصديق رضي الله عنه . والله الموفق .

* * *

٨٧ - باب المحافظة على ما اعتاده من الخير

قال الله تعالى : ﴿ إِنَّ اللَّهَ لَا يُغَيِّرُ مَا بِقَوْمٍ حَتَّىٰ يُغَيِّرُوا مَا بِأَنفُسِهِمْ ﴾ [الرعد : ١١] . وقال تعالى : ﴿ وَلَا تَكُونُوا كَالَّتِي نَقَضَتْ غَزْلَهَا مِن بَعْدِ قُوَّةٍ أَنكَاثًا ﴾ [النحل : ٩٢] .

« وَالأَنْكَاثُ » : جَمْعُ نِكْثٍ ، وَهُوَ الغَزْلُ المَنْقُوضُ .

وقال تعالى : ﴿ وَلَا يَكُونُوا كَالَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ مِن قَبْلُ فَطَالَ عَلَيْهِمُ الْأَمَدُ فَقَسَتْ قُلُوبُهُمْ ﴾ (١) [الحديد : ١٦] . وقال تعالى : ﴿ فَمَا رَعَوْهَا حَقَّ رِعَايَتِهَا ﴾ [الحديد : ٢٧] .

٦٩٢ - وعن عبد اللهِ بن عمرو بن العاص رضي الله عنهما قال : قال لي رسول الله ﷺ : « يَا عَبْدَ اللَّه ، لا

(١) قوله ﷻ : ﴿ لَا يُغَيِّرُ مَا بِقَوْمٍ ﴾ من النعمة أو النقمة . قوله ﷻ : ﴿ نَقَضَتْ ﴾ أي أفسدت . قوله ﷻ : ﴿ مِنۢ بَعْدِ قُوَّةٍ ﴾ أي من بعد إحكامه وفتله . قوله ﷻ : ﴿ الْأَمَدُ ﴾ أي الزمان . قوله ﷻ : ﴿ فَقَسَتْ قُلُوبُهُمْ ﴾ أي مالوا إلى الدنيا وأعرضوا عن الله .

تَكُنْ مِثْلَ فُلانٍ ، كَانَ يَقُومُ اللَّيلَ فَتَرَكَ قِيَامَ اللَّيلَ ! » [1] متفقٌ عليه .

الشرح

قال المؤلف - رحمه الله تعالى - : (باب المحافظة على ما اعتاده من الخير) . يعني أن الإنسان إذا اعتاد فعل الخير فينبغي أن يداوم عليه فمثلًا إذا اعتاد ألا يدع الرواتب - يعني الصلوات النوافل التي تتبع الصلوات الخمس - فليحافظ على ذلك ، وإذا كان يقوم الليل فليحافظ على ذلك ، وإذا كان يصلي ركعتين من الضحى فليحافظ على ذلك وكل شيء من الخير إذا اعتاده فإنه ينبغي أن يحافظ عليه .

وكان من هدي النبي ﷺ أن عمله ديمة ، يعني يداوم عليه ؛ فكان إذا عمل عملًا أثبته ولم يغيره ؛ وذلك لأن الإنسان إذا اعتاد الخير وعمل به ثم تركه ، فإن هذا يؤدي إلى الرغبة عن الخير ، لأن الرجوع بعد الإقدام شر من عدم الإقدام ، فلو أنك لم تفعل الخير ابتداءً لكان أهون مما إذا فعلته ثم تركته ، وهذا شيء مشاهد مجرب .

وذكر المؤلف رحمه الله عدة آيات من القرآن ، كلها تدل على أن الإنسان ينبغي أن يحافظ على ما اعتاده من الخير ، فمن ذلك قوله تعالى : ﴿ وَلَا تَكُونُواْ كَٱلَّتِي نَقَضَتْ غَزْلَهَا مِنۢ بَعْدِ قُوَّةٍ أَنكَٰثًا ﴾ يعني : لا تكونوا كالمرأة الغازلة التي تغزل الصوف ، ثم إذا غزلته وأتقنته نقضته أنكاثًا ومزقته ، بل دوموا على ما أنتم عليه .

ومن ذلك قوله تعالى : ﴿ وَلَا يَكُونُواْ كَٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلْكِتَٰبَ مِن قَبْلُ فَطَالَ عَلَيْهِمُ ٱلْأَمَدُ فَقَسَتْ قُلُوبُهُمْ ﴾ أي : أنهم كانوا يعملون العمل الصالح لكن طال عليهم الأمد فقست قلوبهم وتركوا العلم ، فلا تكونوا مثلهم .

وأما الأحاديث التي ذكرها المؤلف فمنها : حديث عبد الله بن عمرو بن العاص أن رسول الله ﷺ قال : « يا عبد الله لا تكن مثل فلان كان يقوم الليل فترك قيام الليل » كلمة فلان يكني بها عن الإنسان البشر الرجل . والمرأة يقال لها : فلانة ، وهذه الكلمة يحتمل أنها من كلام الرسول ﷺ وأن الرسول لم يذكر اسمه لعبد الله بن عمرو سترًا عليه ، لأن المقصود القضية دون صاحبها ، ويحتمل أن الرسول ﷺ عينه لكن أبهمه عبد الله بن عمرو رضي الله عنه ، وأيًّا كان فالمهم العمل .

والقضية أن رجلًا كان يقوم من الليل فلم يثبته ولم يداوم عليه ، مع أن قيام الليل في الأصل سنة ، فلو لم يفعله الإنسان لم يُلم عليه ؛ يعني لو لم يقم من الليل ما لامه ولا قال له : « لماذا لم تقم من الليل؟ » لأنه سنة ، لكن كونه يقوم ثم يرجع ويترك ، هذا هو الذي يلام عليه . ولهذا قال الرسول ﷺ : « لا تكن مثل فلان كان يقوم الليل فترك قيام الليل » .

ومن ذلك وهو أهم وأعظم أن يبدأ الإنسان بطلب العلم الشرعي ، ثم إذا فتح الله عليه بما فتح تركه ، فإن هذا كفر نعمة أنعمها الله عليه ، فإذا بدأت بطلب العلم فاستمر إلا أن يشغلك عنه شيء على وجه الضرورة ، وإلا فداوم لأن طلب العلم فرض كفاية ، كل من طلب العلم فإن الله تعالى يثيبه

---

(١) أخرجه البخاري في التهجد (١١٥٢) ، ومسلم في الصيام (١٨٥) ، قوله « كان يقوم الليل » أي : لصلاة التهجد .

على طلبه ثواب الفرض .

وثواب الفرض أعظم من ثواب النافلة ، كما جاء في الحديث الصحيح أن الله تعالى قال : « ما تقرب إليَّ عبدي بشيء أحبُّ إليّ مما افترضتُه عليه » (١) فطلب العلم فرض كفاية إذا قام به الإنسان قام بفرض عن عموم الأمة ، وقد يكون فرض عين فيما إذا احتاج الإنسان إليه في نفسه ، كمن أراد أن يصلي فلابد أن يتعلم أحكام الصلاة ، ومن كان عنده مال فلابد أن يتعلم أحكام الزكاة ، والبائع والمشتري لابد أن يتعلما أحكام البيع والشراء ، ومن أراد أن يحج فلابد أن يتعلم أحكام الحج ؛ هذا فرض عين .

أما بقية العلوم فهي فرض كفاية ، فإذا شرع الإنسان في طلب العلم فلا يرجع وإنما يستمر إلا أن يصده عن ذلك شيء ضروري ، فهذا شيء آخر ، ولهذا كان المنافقون هم الذين إذا بدأوا بالعمل تركوه .

في غزوة أحد خرج مع النبي ﷺ نحو ألف رجل وكان ثلثهم تقريبًا من المنافقين فرجعوا من الطريق وقالوا : ﴿ لَوْ نَعْلَمُ قِتَالًا لَّاتَّبَعْنَاكُمْ ﴾ قال الله تعالى : ﴿ هُمْ لِلْكُفْرِ يَوْمَئِذٍ أَقْرَبُ مِنْهُمْ لِلْإِيمَانِ ﴾ [آل عمران : ١٦٧] .

فالحاصل : أنه ينبغي للمسلم إذا مَنَّ الله عليه بعمل مما يُتعبد به لله من عبادات خاصة كالصلاة ، أو عبادات متعدية للغير كطلب العلم ألا يتقاعس وألا يتأخر ، ليستمر على ذلك ؛ فإن ذلك من هدي النبي ﷺ ومن إرشاده بقوله : « يا عبد الله لا تكن مثل فلان كان يقوم الليل فترك قيام الليل » . والله الموفق .

* * *

٨٨ - باب استحباب طيب الكلام وطلاقة الوجه عند اللقاء

قال الله تعالى : ﴿ وَاخْفِضْ جَنَاحَكَ لِلْمُؤْمِنِينَ ﴾ [الحجر : ٨٨] وقال تعالى : ﴿ وَلَوْ كُنتَ فَظًّا غَلِيظَ الْقَلْبِ لَانفَضُّوا مِنْ حَوْلِكَ ﴾ (٢) [آل عمران : ١٥٩] .

٦٩٣ - عَنْ عَدِيِّ بن حَاتم رضي الله عنه قال : قال رسول الله ﷺ : « اتَّقُوا النَّارَ وَلَو بِشِقِّ تَمرَةٍ ، فَمَنْ لَمْ يَجِدْ فَبِكلِمَةٍ طَيِّبةٍ » (٣) متفقٌ عليه .

٦٩٤ - وعن أبي هريرة رضي الله عنه أن النبيَّ ﷺ قال : « وَالكَلِمَةُ الطَّيِّبَةُ صَدَقَةٌ » (٤) متفقٌ عليه . وهو بعض حديث تقدم بطوله .

٦٩٥ - وعن أَبي ذَرٍّ رضي الله عنه قال : قال لي رسول الله ﷺ : « لا تَحْقِرَنَّ مِنَ المَعْرُوفِ شَيْئًا ، وَلَو أَنْ

---

(١) أخرجه البخاري في الرقاق (٦٥٠٢) ، والإمام أحمد في مسنده (٦/٢٥٦) .

(٢) قوله تعالى : ﴿ فَظًّا ﴾ أي سيئ الخلق . قوله تعالى : ﴿ غَلِيظَ ﴾ أي قاسي . قوله تعالى : ﴿ لَانفَضُّوا ﴾ أي لتفرقوا .

(٣) أخرجه البخاري في الأدب (٦٠٢٣) ، ومسلم في الزكاة (٦٦) بلفظ « من استطاع منكم أن يستتر .. » .

(٤) أخرجه البخاري في الجهاد والسير (٢٩٨٩) ، ومسلم في الزكاة (٥٦) .

تَلْقَى أَخَاكَ بِوَجْهٍ طَلِيقٍ »[(١)] رواه مسلم .

الشرح

قال المؤلف - رحمه الله تعالى - : في « باب استحباب طيب الكلام وطلاقة الوجه عند اللقاء » . يعني : إذا لاقى الإنسان أخاه ، إنه ينبغي له أن يلاقيه بالبشر وطلاقة الوجه وحسن المنطق ، لأن هذا من خُلق النبي ﷺ ولا يعد هذا تنزلًا من الإنسان ، ولكنه رفعة وأجر له عند الله ﷻ ، واتباع لسنة النبي ﷺ ، فإنَّ النبي ﷺ كان دائم البشر ، كثير التبسم صلوات الله وسلامه عليه .

فالإنسان ينبغي له أن يلقى أخاه بوجه طلق ، وبكلمة طيبة ، لينال بذلك الأجر والمحبة والألفة ، والبعد عن التكبر والترفع على عباد الله .

ثم ذكر المؤلف آيات منها : قوله تعالى : ﴿ وَٱخْفِضْ جَنَاحَكَ لِلْمُؤْمِنِينَ ﴾ اخفض جناحك : يعني لِنْ وتواضع للمؤمنين ؛ لأن المؤمن أهل لأن يتواضع له .

أما الكفار فقد قال الله تعالى : ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ جَٰهِدِ ٱلْكُفَّارَ وَٱلْمُنَٰفِقِينَ وَٱغْلُظْ عَلَيْهِمْ ۚ وَمَأْوَىٰهُمْ جَهَنَّمُ ۖ وَبِئْسَ ٱلْمَصِيرُ ﴾ [التوبة : ٧٣] ، فالذي يُتلقى بالبشر وطلاقة الوجه هو المؤمن ، أما الكافر فإن كان يُرجى إسلامه إذا عاملناه بطلاقة الوجه والبشر ، فإننا نعامله بذلك رجاء إسلامه وانتفاعه بهذا اللقاء .

وأما إذا كان هذا التواضع وطلاقة الوجه لا يزيده إلا تعاليًا على المسلم وترفعًا عليه ، فإنه لا يُقابل بذلك .

ثم إن طلاقة الوجه توجب سرور صاحبك لأنه يفرق بين شخص يلقاك بوجه معبس وشخص يلقاك بوجه منطلق ، لهذا قال النبي - عليه الصلاة والسلام - لأبي ذر : « لا تحقرن من المعروف شيئًا ولو أن تلقى أخاك بوجه طلق » ، فهذا من المعروف لأنه يدخل السرور على أخيك ، ويشرح صدره .

ثم إذا قرن ذلك بالكلمة الطيبة حصل بذلك مصلحتان : طلاقة الوجه والكلمة الطيبة التي قال عنها النبي ﷺ : « اتقوا النار ولو بشق تمرة » يعني : اجعلوا بينكم وبين النار وقاية « ولو بشق تمرة » ؛ يعني : ولو أن تصدقوا بنصف تمرة ،فإن ذلك يقيكم من النار إذا قبلها الله ﷻ .

« فإن لم يجد فبكلمة طيبة » .كلمة طيبة مثل أن تقول له : كيف أنت ؟

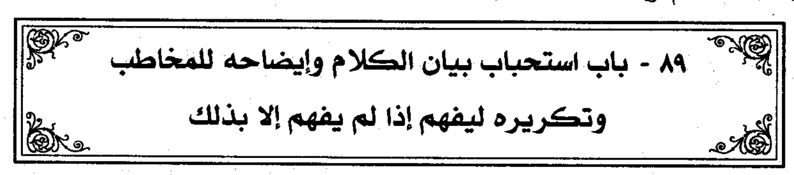
كيف حالك ؟ كيف إخوانك ؟ كيف أهلك ؟ وما أشبه ذلك ، لأن هذه من الكلمات الطيبة التي تدخل السرور على صاحبك ، كل كلمة طيبة فهي صدقة لك عند الله وأجر وثواب وقد قال النبي - عليه الصلاة والسلام - : « البر حسن الخلق »[(٢)] وقال : «أكمل المؤمنين إيمانًا أحسنهم خلقًا »[(٣)] .

---

(١) أخرجه مسلم في البر والصلة (١٤٤) وفيه « بوجه طلق » .

(٢) هذا جزء من حديث وقد أخرجه مسلم في البر والصلة (١٤) ، قوله : « البر » البر يكون بمعنى الصلة وبمعنى اللطف والمبرة وحسن الصحبة والعشرة وبمعنى الطاعة ، وهذه الأمور هي مجامع حسن الخلق .

(٣) أخرجه الترمذي في الرضاع (١١٦٢) ، وأبو داود في السنة (٤٦٨٢) ، وأحمد في مسنده (٢/٢٥٠) .



٨٩ - باب استحباب بيان الكلام وإيضاحه للمخاطب وتكريره ليفهم إذا لم يفهم إلا بذلك

٦٩٦ - عن أنسٍ ﷺ أن النبي ﷺ كانَ إذا تَكَلَّمَ بِكَلِمَةٍ أَعَادَها ثَلاثًا حَتَّى تُفْهَمَ عَنْهُ ، وَإذا أَتَى عَلى قَومٍ فَسَلَّمَ عَلَيهِمْ سَلَّمَ عَلَيهِمْ ثَلاثًا (١) . رواه البخاري .

٦٩٧ - وعن عائشة ﷺ قالت : كَانَ كَلامُ رسول اللّه ﷺ كَلامًا فَصْلًا يَفْهَمُهُ كُلُّ مَنْ يَسْمَعُهُ (٢) . رواه أبو داود .

الشرح

قال المؤلف النووي - رحمه اللّه تعالى - : (باب استحباب بيان الكلام وإيضاحه للمخاطب وتكريره ليُفهم إذا لم يُفهم إلا بذلك) .

والمعنى : أنه ينبغي للإنسان إذا تكلم وخاطب الناس أن يكلمهم بكلام بيِّن ، لا يستعجل في إلقاء الكلمات ، ولا يدغم شيئًا في شيء ويكون حقه الإظهار بل يكون كلامه فصلًا بينًا واضحًاحتى يفهم المخاطب بدون مشقة وبدون كلفة .

فبعض الناس تجده يسرع في الكلام ويأكل الكلام حتى أن الإنسان يحتاج إلى أن يقول له : ماذا تقول ؟ . فهذا خلاف السنة ، فالسنَّة أن يكون الكلام بينًا واضحًا يفهمه المخاطب وليس من الواجب أن يكون خطابك باللغة الفصحى .

فعليك أن تخاطب الناس بلسانهم ، وليكن كلامك بينًا واضحًا ، كما في حديث أنس بن مالك ﷺ أن النبي ﷺ كان إذا تكلم بالكلمة أعادها ثلاثًا حتى تُفهم عنه .

فقوله : « حتى تُفهم عنه » يدل على أنها إذا فهمت بدون تكرار فإنه لا يكررها ، وهذا هو الواقع فإن الرسول - عليه الصلاة والسلام - نسمع عنه أحاديث كثيرة يقولها في خطبه وفي المجتمعات ولا يكرر ذلك .

لكن إذا لم يفهم الإنسان ؛ بأن كان لا يعرف المعنى جيدًا فكررْ عليه حتى يفهم ، أو كان سمعه ثقيلًا لا يسمع ، أو كان هناك ضجة حوله لا يسمع ، فهنا يستحب أن تكرر حتى يفهم عنك .

وكان ﷺ إذا سلم على قوم « سلم عليهم ثلاثًا » معناه : أنه كان لا يكرر أكثر من ثلاث ؛ يسلم مرة فإذا لم يُجَبْ سلم الثانية ، فإذا لم يُجَبْ سلم الثالثة ، فإذا لم يُجَبْ تركه .

وكذلك في الاستئذان كان ﷺ يستئذن ثلاثًا ، يعني : إذا جاء للإنسان يستئذن في الدخول على بيته ، يدق عليه الباب ثلاث مرات ، فإذا لم يجب انصرف ، فهذه سنته - عليه الصلاة والسلام - أن يكرر الأمور ثلاثًا ثم ينتهي .

وهل مثل ذلك إذا دق جرس الهاتف ثلاث مرات ؟ ، يحتمل أن يكون من هذا الباب ، وأنك إذا

---

(١) أخرجه البخاري في العلم (٩٥) ، والإمام أحمد في مسنده (٢١٣/٣) .

(٢) أخرجه أبو داود في الأدب (٤٨٣٩) ، والإمام أحمد في مسنده (١٣٨/٦) .

اتصلت بإنسان ودق الجرس ثلاث مرات وأنت تسمعه وهو لم يجبك ، فأنت في حل إذا وضعت سماعة الهاتف .

ويحتمل أن يقال : إن الهاتف له حكم آخر وأنك تبقى حتى تيأس من أهل البيت ، لأنهم ربما لا يكونون حول الهاتف عند اتصالك ، فربما يكونون في طرف المكان ويحتاجون إلى خطوات كثيرة حتى يصلوا إلى الهاتف ، فلذلك قلنا باحتمال الأمرين .

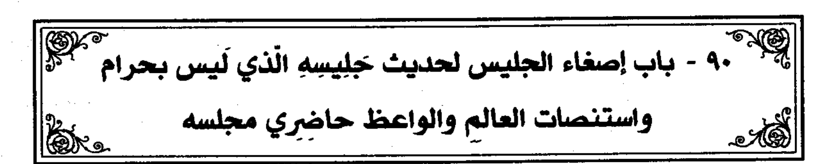
ثم ذكر المؤلف رَحِمَهُ ٱللَّهُ حديث عائشة رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهَا أن النبي ﷺ كان كلامه « فصلًا » يعني : مفصلًا ، لا يُدْخِل الحروف بعضها على بعض ، ولا الكلمات بعضها على بعض ، حتى لو شاء العادُّ أن يحصيه لأحصاه من شدة تأنيه ﷺ في الكلام .

وهكذا ينبغي للإنسان أن لا يكون كلامه متداخلًا بحيث يخفى على السامع ، لأن المقصود من الكلام هو إفهام المخاطب ، وكلما كان أقرب إلى الإفهام كان أولى وأحسن .

ثم إنه ينبغي للإنسان إذا استعمل هذه الطريقة ؛ يعني : إذا جعل كلامه فصلًا بينًا واضحًا ، وكرره ثلاث مرات لمن لم يفهم ، ينبغي أن يستشعر في هذا أنه متبع لرسول اللَّه ﷺ حتى يحصل له بذلك الأجر وإفهام أخيه المسلم .

وهكذا جميع السنن اجعل على بالك أنك متبع فيها لرسول اللَّه ﷺ حتى يتحقق لك الاتباع .

* * *



٩٠ - باب إصغاء الجليس لحديث جَلِيسِهِ الّذي لَيس بحرام واستنصات العالِم والواعظ حاضِري مجلسه

٦٩٨ - عن جَرير بن عبدِ اللَّه رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ قال : قال لي رسول اللَّه ﷺ في حَجَّةِ الوَدَاع : «اسْتَنْصِتِ النَّاسَ » ثُمَّ قال : « لا تَرْجِعُوا بَعْدِي كُفَّارًا يَضْرِبُ بَعْضُكُمْ رِقَابَ بَعْضٍ » [١] متفقٌ عليه .

الشرح

ذكر المؤلف - رحمه اللَّه تعالى - هذا الباب في إصغاء الإنسان إلى جليسه إذا لم يكن يتكلم بشيء محرم ، واستنصات العالم والمعلم الناس يعني : ليستمعوا إلى كلامه ، وقد سبق لنا أن النبي ﷺ كان إذا سلم ثلاثًا ، والمراد أنه إذا لم يسمع المسلَّم عليه سلم ثلاثًا ؛ فإنه يسلم أول مرة ، فإذا لم يجب سلم ثانيةً ، فإذا لم يجب سلم ثالثةً ، فإذا لم يجب تركه .

---

(١) أخرجه البخاري في العلم (١٢١) ، ومسلم في الإيمان (١١٨) ، والإمام أحمد في مسنده (٣٦٣/٤ ، ٣٦٦)
قوله : « استنصت الناس » أي : أمرهم بالإنصات ، قوله : « لا ترجعوا بعدي كفارًا » المعنى هنا الزجر أي : لا تتشبهوا بالكفار في قتل بعضكم بعضًا .

أما إذا ردَّ المسلم عليه من أول مرة فإنه لا يعيد السلام مرة ثانية .

أما هذا الباب ففيه : أنه ينبغي للإنسان أن يكون حسن الإصغاء إلى كلام جليسه ، إذا لم يكن يتكلم بمحرم . وحسن الإصغاء يكون بالقول وبالفعل .

أما القول : فبألا يتكلم إذا كان جليسه يتكلم ، فيحصل بذلك التشويش بأن يكون كل واحد يتكلم مع جليسه ، والذي في المجالس أن يكون الكلام كلامًا واحدًا حتى ينتفع الناس جميعًا بما يتكلم به بعضهم .

وأما الإصغاء بالفعل : فينبغي إذا كان الإنسان يحدثك أن تقبل إليه بوجهك ، وألا تلتفت يمينًا وشمالًا ، لأنك إذا التفت يمينًا وشمالًا وهو يحدثك نسبك إلى الكبرياء ، وقد قال اللَّه تعالى : ﴿ وَلَا تُصَعِّرْ خَدَّكَ لِلنَّاسِ وَلَا تَمْشِ فِي ٱلْأَرْضِ مَرَحًا ﴾ [لقمان : ١٨] ، فينبغي أن تصغى إليه وأن تقابله بوجهك حتى يعرف أنك قد أحسست به ، وأنك قد اهتممت بكلامه ، إلا إذا كان يتكلم بشيء محرم ، كغيبة ، أو كلام لغو ، أو ما أشبه ذلك من الأشياء المحرمة ، فإنك لا تصغى إليه . بل انهه عن ذلك الشيء .

فإن استمر يتكلم بالكلام المحرم ولو يصغ إلى قولك وإلى نصحك ، فالواجب عليك أن تقوم من مكانك وأن تفارقه ، لأن اللَّه يقول : ﴿ وَقَدْ نَزَّلَ عَلَيْكُمْ فِي ٱلْكِتَٰبِ أَنْ إِذَا سَمِعْتُمْ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ يُكْفَرُ بِهَا وَيُسْتَهْزَأُ بِهَا فَلَا تَقْعُدُوا۟ مَعَهُمْ حَتَّىٰ يَخُوضُوا۟ فِي حَدِيثٍ غَيْرِهِۦٓ ۚ إِنَّكُمْ إِذًا مِّثْلُهُمْ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ جَامِعُ ٱلْمُنَٰفِقِينَ وَٱلْكَٰفِرِينَ فِي جَهَنَّمَ جَمِيعًا ﴾ [النساء : ١٤٠] .

ثم ذكر المؤلف رَحِمَهُ اللَّهُ حديث جرير بن عبد اللَّه البجلي رضي الله عنه أن النبي ﷺ قال له في حجة الوداع : « استنصت الناس » يعني سكتهم حتى يستمعوا لما يقوله النبي ﷺ .

ثم قال النبي ﷺ : « لا ترجعوا بعدي كفارًا يضربُ بعضكم رقاب بعض » يضرب هنا بالرفع ، ولا يجوز جزمها على أنها جواب النهي ، بل هي بالرفع لأنها حال ، يعني لا ترجعوا بعدي كفارًا حال كونكم يضرب بعضكم رقاب بعض ، وفي هذا دليل على أن قتال المؤمنين بعضهم بعضًا كفر ، وقد أيد هذا الحديث قوله - عليه الصلاة والسلام - : « سباب المسلم فسوق وقتاله كفر »[1] لكنه كفر لا يخرج من الملة ، والدليل على أنه لا يخرج من الملة قوله تعالى : ﴿ وَإِن طَآئِفَتَانِ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ٱقْتَتَلُوا۟ فَأَصْلِحُوا۟ بَيْنَهُمَا ﴾ إلى قوله تعالى : ﴿ إِنَّمَا ٱلْمُؤْمِنُونَ إِخْوَةٌ فَأَصْلِحُوا۟ بَيْنَ أَخَوَيْكُمْ ﴾ [الحجرات : ٩ ، ١٠] .

* * *

(١) أخرجه البخاري في الأدب (٦٠٤٤) ، ومسلم في الإيمان (١١٦) .

٩١ - بابُ الوَعظ والاقتصاد فيه

قال اللّه تعالى : ﴿ ٱدۡعُ إِلَىٰ سَبِيلِ رَبِّكَ بِٱلۡحِكۡمَةِ وَٱلۡمَوۡعِظَةِ ٱلۡحَسَنَةِۖ ﴾ (١) [النحل : ١٢٥] .

٦٩٩ - عن أَبي وَائِلٍ شَقِيق بن سَلَمَةَ قال : كَانَ ابْنُ مَسْعُودٍ ﷺ يُذَكِّرُنَا في كُلِّ خَمِيسٍ ، فَقَالَ لهُ رَجُلٌ : يَا أَبَا عَبْدِ الرَّحْمن ، لَوَدِدْتُ أَنَّكَ ذَكَّرْتَنَا كُلَّ يوم ، فقال : أَما إِنَّهُ يَمْنعني مِنْ ذلك أني أَكْرَهُ أَنْ أُمِلَّكُمْ ، وَإِنِّي أَتَخَوَّلُكُمْ بِالمَوعِظَةِ ، كَما كان رسول اللّه ﷺ يَتَخَوَّلُنَا بها مَخافَةَ السَّآمَةِ عَلَينا (٢) . متفقٌ عليه .

« يَتَخَوَّلُنَا » : يَتَعَهَّدُنَا .

الشرح

قال المؤلف - رحمه اللّه تعالى - : (باب الوعظ والاقتصاد فيه) . وذلك لعدم إدخال المَلَلِ والسآمة على الناس فيما يعظ به .

الوعظ : هو ذكر الأحكام الشرعية مقرونة بالترغيب أو الترهيب ، كأن تقول للإنسان مثلًا : إنه يجب عليك كذا وكذا . فاتق اللّه ، وقم بما أوجب اللّه عليك وما أشبه ذلك .

وأعظم واعظ هو كتاب اللّه ﷻ فإن اللّه يقول : ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ قَدۡ جَآءَتۡكُم مَّوۡعِظَةٞ مِّن رَّبِّكُمۡ وَشِفَآءٞ لِّمَا فِي ٱلصُّدُورِ وَهُدٗى وَرَحۡمَةٞ لِّلۡمُؤۡمِنِينَ ﴾ [يونس : ٥٧] ، فأعظم ما يُوعظ به كتاب اللّه ﷻ ، لأنه جامع بين الترغيب والترهيب ، وذكر الجنة والنار ، والمتقين والفجّار ، فهو أعظم كتاب يوعظ به .

ولكن إنما يكون كذلك لمن كان له قلب أو ألقى السمع وهو شهيد كما قال تعالى : ﴿ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَذِكۡرَىٰ لِمَن كَانَ لَهُۥ قَلۡبٌ أَوۡ أَلۡقَى ٱلسَّمۡعَ وَهُوَ شَهِيدٞ ﴾ [ق : ٣٧] .

أما من قست قلوبهم - والعياذ باللّه - فقد قال اللّه تعالى : ﴿ وَإِذَا مَآ أُنزِلَتۡ سُورَةٞ فَمِنۡهُم مَّن يَقُولُ أَيُّكُمۡ زَادَتۡهُ هَٰذِهِۦٓ إِيمَٰنٗاۚ فَأَمَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ فَزَادَتۡهُمۡ إِيمَٰنٗا وَهُمۡ يَسۡتَبۡشِرُونَ ﴾ [التوبة : ١٢٤] ، وهكذا المؤمن كلما قرأ آية من كتاب اللّه ازداد إيمانًا باللّه ، واستبشر بما جعل في قلبه من النور من هذا الكتاب العظيم ﴿ وَأَمَّا ٱلَّذِينَ فِي قُلُوبِهِم مَّرَضٞ فَزَادَتۡهُمۡ رِجۡسًا إِلَىٰ رِجۡسِهِمۡ وَمَاتُواْ وَهُمۡ كَٰفِرُونَ ﴾ (٣) [التوبة : ١٢٥] ، ونعوذ باللّه من ذلك .

فينبغي للإنسان أن يعظ الناس بالقرآن ، وبالسنة ، وبكلام الأئمة وبكل ما يلين القلوب ويوجهها إلى اللّه ﷻ .

---

(١) قوله تعالى : ﴿ سَبِيلِ رَبِّكَ ﴾ أي دين ربك . قوله تعالى : ﴿ بِٱلۡحِكۡمَةِ ﴾ أي بالقرآن . قوله تعالى : ﴿ وَٱلۡمَوۡعِظَةِ ٱلۡحَسَنَةِ ﴾ الكلام الطيب .

(٢) أخرجه البخاري في العلم (٧٠) ، ومسلم في صفات المنافقين (٨٣) قوله : « أملكم » أي أصيبكم بالملل .

(٣) قوله تعالى : ﴿ مَّرَضٞ ﴾ نفاقٌ . قوله تعالى : ﴿ رِجۡسًا ﴾ نفاقًا وكفرًا .

ثم ذكر المؤلف رَحِمَهُ اللَّهُ أنه ينبغي الاقتصاد في الموعظة ، فلا تكثر على الناس فتملهم ، وتكرِّه إليهم القرآن والسنة وكلام أهل العلم ، لأن النفوس إذا ملت كلَّت وتعبت ، وسئمت ، وكرهت الحق وإن كان حقًّا ، ولهذا كان أحكم الواعظين من الخلق محمد ﷺ يتخول الناس بالموعظة ، ما يكثر عليهم لئلا يملوا ويسأموا ويكرهوا ما يُقال من الحق .

ثم صدَّر المؤلف هذا الباب بقوله تعالى : ﴿ ٱدْعُ إِلَىٰ سَبِيلِ رَبِّكَ بِٱلْحِكْمَةِ وَٱلْمَوْعِظَةِ ٱلْحَسَنَةِ ۖ وَجَٰدِلْهُم بِٱلَّتِى هِىَ أَحْسَنُ ﴾ ادع إلي سبيل ربك : يعني إلى دين الله ، لأن سبيل الله هو دين الله حيث إنه يوصل إلى الله تعالى ، فمن سلك هذا الدين أوصله إلى الله ﷻ ، ولأن هذا الدين وضعه الله ﷻ وشرعه لعباده ، ولهذا أضيف إليه ، فقيل : سبيل الله [1] .

﴿ ٱدْعُ إِلَىٰ سَبِيلِ رَبِّكَ بِٱلْحِكْمَةِ وَٱلْمَوْعِظَةِ ٱلْحَسَنَةِ ۖ وَجَٰدِلْهُم بِٱلَّتِى هِىَ أَحْسَنُ ﴾ أي بثلاثة أمور :

أولًا : الحكمة : وذلك بأن تنزل الأمور منازلها ، في الوقت المناسب ، والكلام المناسب ، والقول المناسب ، لأن بعض الأماكن لا تنبغي فيها الموعظة ، وبعض الأزمنة لا تنبغي فيها الموعظة وكذلك بعض الأشخاص لا ينبغي أن تعظهم في حال من الأحوال ، بل تنتظر حتى يكون متهيئًا لقبول الموعظة ، ولهذا قال : ﴿ بِٱلْحِكْمَةِ ﴾ قال العلماء : الحكمة : وضع الأشياء في مواضعها .

ثانيًا : الموعظة الحسنة ، يعني اجعل دعوتك مقرونة بموعظة حسنة ، موعظة تلين القلب وترققه وتوجهه إلى الله ، بشرط أن تكون حسنة ، إن كان الترغيب فيها أولى فبالترغيب ، وإن كان الترهيب والتخويف فيها أولى فبالترهيب والتخويف .

وكذلك تكون حسنة من حيث الأسلوب والصياغة ، وكذلك تكون حسنة من حيث الإقناع ، بحيث تأتي بموعظة تكون فيها أدلة مقنعة ؛ أدلة شرعية ، وأدلة عقلية تسند الشرعية ، لأن بعض الناس يقنع بالأدلة الشرعية كالمؤمنين الخلَّص ، فإن الله يقول : ﴿ وَمَا كَانَ لِمُؤْمِنٍ وَلَا مُؤْمِنَةٍ إِذَا قَضَى ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥٓ أَمْرًا أَن يَكُونَ لَهُمُ ٱلْخِيَرَةُ مِنْ أَمْرِهِمْ ﴾ [الأحزاب : ٣٦] . ومن الناس من لا يكتفي بالأدلة الشرعية ، بل يحتاج أن تسند الأدلة الشرعية عنده بأدلة عقلية ، ولهذا يستدل الله ﷻ في آيات كثيرة بالأدلة العقلية على ما أوحاه إلى نبيه من الأدلة الشرعية .

انظر - مثلًا - إلى البعث بعد الموت ؛ فالبعث بعد الموت أنكره الكفار وقالوا : من يحيي العظام وهي رميم ؟ ، كيف يموت الإنسان وتأكل الأرض عظامه ولحمه وجلده ، ثم يبعث ؟ ، فأجاب الله : ﴿ قُلْ يُحْيِيهَا ٱلَّذِىٓ أَنشَأَهَآ أَوَّلَ مَرَّةٍ ۖ ﴾ [يس : ٧٩] ، من الذي خلق هذه العظام أول مرة ؟ ، هو الله ، وإعادة الخلق أهون من ابتدائه ﴿ وَهُوَ ٱلَّذِى يَبْدَؤُا۟ ٱلْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُۥ ﴾ [الروم : ٢٧] ﴿ أَوَلَيْسَ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ بِقَٰدِرٍ عَلَىٰٓ أَن يَخْلُقَ مِثْلَهُم ۚ بَلَىٰ ﴾ [يس : ٨١] ، هذه أدلة عقلية ؛ الاستدلال بالمبدأ على المعاد .

وكذلك يستدل الله ﷻ على إمكان البعث بإحياء الأرض بعد موتها ، فإن الله تعالى ينزل المطر

---

(١) قوله : « سبيل الله » أضيف لفظ الجلالة إلى (سبيل) لبيان الدلالة على أن الدين هو - دائمًا - الطريق إلى الله تعالى .

على أرض هامدة قاحلة ، ليس فيها حياة ولا نبات ، فتصبح الأرض مخضرة بهذا المطر . من الذي أحيا هذا النبات إلا الله ؟ فالذي أحيا هذا النبات بعد يبسه وموته قادر على إحياء الموتى .

ولابد من حياة أخرى لأنه ليس من الحكمة أن الله ينشئ هذا الخلق ويمدهم بالنعم والرزق ، وينزل عليهم الكتب ، ويرسل إليهم الرسل ، ويشرع الجهاد لأعدائه ثم تكون المسألة مجرد دنيا تروح ، فهذا لا يمكن ، وهذا خلاف الحكمة ، بل لابد من حياة أخرى هي الحياة الحقيقية كما قال تعالى : ﴿ يَقُولُ يَٰلَيْتَنِي قَدَّمْتُ لِحَيَاتِي ﴾ [الفجر : ٢٤] .

الحياة الحقيقية هي حياة الآخرة ﴿ رَبَّنَآ ءَاتِنَا فِي ٱلدُّنْيَا حَسَنَةً وَفِي ٱلْأٓخِرَةِ حَسَنَةً وَقِنَا عَذَابَ ٱلنَّارِ ﴾ [البقرة : ٢٠١] .

ثم قال : ﴿ وَجَٰدِلْهُم بِٱلَّتِي هِيَ أَحْسَنُ ﴾ ؛ يعني : إذا وعظت موعظة حسنة وصار الإنسان يجادل ولم يقبل فجادله ، لا تنسحب ، لكن جادل بالتي هي أحسن من حيث الأسلوب ، ومن حيث العرض ، ومن حيث الإقناع ، إذا استدل عليك بدليل فحاول إبطال دليله ، فإذا كان إبطال دليله يطول فانتقل إلى دليل آخر ، ولا تأخذ في الجدال معه ، بل انتقل إلى دليل آخر لا يستطيع مجادلتك فيه .

انظر إلى إبراهيم - عليه الصلاة والسلام - لما حاجه الرجل في الله : ﴿ أَلَمْ تَرَ إِلَى ٱلَّذِي حَآجَّ إِبْرَٰهِـۧمَ فِي رَبِّهِۦٓ أَنْ ءَاتَىٰهُ ٱللَّهُ ٱلْمُلْكَ إِذْ قَالَ إِبْرَٰهِـۧمُ رَبِّيَ ٱلَّذِي يُحْيِۦ وَيُمِيتُ ﴾ [البقرة : ٢٥٨] ؛ يعني : وأنت لا تستطيع أن تحيى وتميت ﴿ قَالَ أَنَا۠ أُحْيِۦ وَأُمِيتُ ﴾ كيف يحيي ويميت هذا المجادل المعاند ؟ ؛ كان يؤتى بالرجل لا يستحق القتل فيقول : اقتلوه فجعل هذا التمويه إحياءً وإماتةً .

فقال إبراهيم : ﴿ فَإِنَّ ٱللَّهَ يَأْتِي بِٱلشَّمْسِ مِنَ ٱلْمَشْرِقِ فَأْتِ بِهَا مِنَ ٱلْمَغْرِبِ ﴾ [البقرة : ٢٥٨] ، ولم يجادله على قوله : أنا أحيي وأميت ، وإلا لو جادله لقال : أنت لم تحي ولم تُمت حقيقة وإنما تفعل سبب الموت فيموت ، وهو القتل ، وترفع موجب القتل فلا يُقْتل ، لكنه عَدَلَ عن هذا إلى شيء لا يستطيع الخصم أن يتحرك معه أو أن ينطق ، قال : ﴿ فَإِنَّ ٱللَّهَ يَأْتِي بِٱلشَّمْسِ مِنَ ٱلْمَشْرِقِ فَأْتِ بِهَا مِنَ ٱلْمَغْرِبِ ﴾ فلم يستطع الخصم ردًّا ، ولهذا قال : ﴿ فَبُهِتَ ٱلَّذِي كَفَرَ وَٱللَّهُ لَا يَهْدِي ٱلْقَوْمَ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴾ (١) [البقرة : ٢٥٨] .

فالحاصل أن الله يقول : ﴿ وَجَٰدِلْهُم بِٱلَّتِي هِيَ أَحْسَنُ ﴾ وفُهِم من الآية أن من لا يستطيع المجادلة بالتي هي أحسن فلا يجادل ، لأنه قد يأتي إنسان مؤمن حقًّا وليس عنده إشكال لما معه من الإيمان ، لكن يجادله ألدُّ خصم فيعجز عن مقاومته ، ففي هذه الحال لا تجادل ؛ لأنك إن جادلت لن تجادل بالتي هي أحسن . اتركه إلى وقت آخر أو إلى أن يأتي أحد أقوى منك في المجادلة فيجادله .

* * *

٧٠٠ - وعن أبي اليَقْظَان عَمَّار بن يَاسر ﵄ قال : سَمِعْتُ رسول الله ﷺ يقول : « إنَّ طُولَ

---

(١) قوله ﴿ فَبُهِتَ ﴾ دُهِش وتحيَّر وانقطعت حُجَّتُهُ .

صَلاةِ الرَّجُل ، وَقِصَرَ خُطْبَتِهِ ، مَئِنَّةٌ مِنْ فقْهِهِ ، فَأَطِيلُوا الصَّلاةَ ، وأَقصِروا الخُطْبَةَ »[١] رواه مسلم .

« مَئِنَّةٌ » بميم مفتوحة ، ثم همزة مكسورة ، ثم نون مشدَّدة ، أي عَلامَةٌ دَالَّةٌ عَلى فِقْهِهِ .

٧٠١ - وعن مُعَاوِيَةَ بن الحكَم السُّلَمِي ﷺ قال : « بَينا أَنا أُصَلِّي مَعَ رسول اللَّه ﷺ ، إذْ عَطَسَ رَجُلٌ مِنَ القَومِ فَقُلْتُ : يَرْحَمُكَ اللَّه ، فَرماني القَوم بأَبْصَارِهِمْ ! فَقُلْت : وَاثُكْلَ أُمِّيَاه ! ما شَأْنُكُمْ تَنْظُرونَ إليَّ ؟ فَجَعَلُوا يَضْرِبُونَ بِأَيدِيهِم عَلى أَفْخَاذِهِمْ ! فَلَمَّا رَأَيتُهُمْ يُصَمِّتُونني لكِنِّي سَكَتُّ . فَلَمَّا صلى رسول اللَّه ﷺ ، فَبِأَبِي هُوَ وَأُمِّي ، مَا رَأَيت مُعَلِّمًا قَبْلَه وَلا بَعْدَه أَحْسَنَ تَعْلِيمًا مِنْه ، فَوَاللَّهِ ما كَهَرَني وَلا ضَرَبَني وَلا شَتَمَني ، قال : « إنَّ هذِهِ الصَّلاةَ لا يَصْلُح فِيها شيءٌ مِنْ كَلامِ النَّاس ، إنَّما هِيَ التَّسْبيحُ والتَّكْبيرُ ، وَقِرَاءَةُ القُرْآن » أَو كما قال رسول اللَّه ﷺ قلت : يا رسول اللَّه ، إني حَدِيثُ عَهْدٍ بِجَاهِلِيَّةٍ ، وَقَدْ جَاءَ اللَّه بِالإِسْلامِ ، وَإِنَّ مِنَّا رِجالًا يَأْتُونَ الكُهَّانَ ؟ قال : « فلا تأتهم » قلت : ومنا رجالٌ يَتطيَّرون ؟ قال : « ذاك شيءٌ يَجِدونَه في صُدورِهِمْ ، فَلا يَصُدَّنَّهُمْ »[٢] رواه مسلم .

٧٠٢ - وعن العِرْبَاض بن سَارِيَةَ ﷺ قال : وَعَظَنَا رسول اللَّه ﷺ مَوعِظَةً وَجِلَتْ مِنْها القُلُوب ، وَذَرَفَتْ مِنها العُيُون . وَذَكَرَ الحَدِيثَ وَقَدْ سَبَقَ بكَمَالِهِ في باب الأَمْر بالمحَافَظَةِ عَلى السُّنَّة[٣] ، وَذَكرْنَا أَنَّ التِّرمِذيَّ قال : إنه حديث حسنٌ صحيحٌ .

الشرح

ذكر المؤلف النووي - رحمه اللَّه تعالى - في : (باب الوعظ والاقتصاد فيه ، وعدم إدخال الملل والسآمة على الناس فيما يعظ به) .

وسبق الكلام عن الآية التي ذكرها المؤلف - رحمه اللَّه تعالى - في هذا الباب ، وهي قوله تعالى : ﴿ ادْعُ إِلَىٰ سَبِيلِ رَبِّكَ بِالْحِكْمَةِ وَالْمَوْعِظَةِ الْحَسَنَةِ ۖ وَجَادِلْهُم بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ ﴾ .

ثم ذكر المؤلف أحاديث منها : حديث عمار بن ياسر ، أن النبي ﷺ قال : « إن طول صلاة الرجل وقصر خطبته مئنة من فقهه » يعني : صلاة الجمعة .

فصلاة الجمعة لها خطبتان قبلها ، فيقول النبي ﷺ : « إن طول صلاة الرجل وقصر خطبته مئنة من فقهه » وهذا وإن كان ظاهرًا في خطبة الجمعة فهو عام أيضًا حتى في الخطب العارضة ، لا ينبغي للإنسان أن يطيل على الناس ، كلما قصر كان أحسن لوجهين :

الوجه الأول : ألا يمل الناس . **الوجه الثاني** : أن يستوعبوا ما قال .

---

(١) أخرجه مسلم في الجمعة (٤٧) ، والإمام أحمد في مسنده (٤/٢٦٣) .

(٢) أخرجه مسلم في المساجد (٣٣) واللفظ له ، والإمام أحمد في مسنده (٥/٤٤٧ ، ٤٤٨) ، قوله : « فرماني القوم بأبصارهم » أي شزرًا إنكارًا لما فعلتُ ، قوله : « يتطيرون » من الطيرة وهو التشاؤم بالشيء .

(٣) أخرجه أبو داود في السنة (٤٦٠٧) ، والإمام أحمد في مسنده (٤/١٢٦ ، ١٢٧) ، والترمذي في العلم (٢٦٧٦) ، هذا الحديث ذكر سلفًا وتم شرحه في (باب الأمر بالمحافظة على السنة وآدابها) .

لأن الكلام إذا طال ضيع بعضه بعضًا . فإذا كان قصيرًا مهضومًا مستوعبًا انتفع الناس به ، وكذلك لا يلحقهم الملل .

وأما طول الصلاة فالمراد أن تكون كصلاة النبي ﷺ ليست طويلة ؛ لأن النبي ﷺ أنكر على معاذ إطالته في صلاة العشاء ، وأنكر على الرجل الآخر إطالته في صلاة الفجر ، وقال : « أيها الناس إن منكم منفرين » (١) .

فالمراد بطول الصلاة هنا الطول الموافق لصلاة رسول الله ﷺ ، هذا إذا كان الإنسان إمامًا ، أما إذا صلى لنفسه فليطول ما شاء ، ولا أحد يمنعه لأنه يعامل نفسه بنفسه ، ثم قال النبي - عليه الصلاة والسلام - : « فأطيلوا الصلاة وأقصروا الخطبة » أطيلوها كما ورد واقصروا الخطبة ، لكن لابد من خطبة تثير المشاعر ويحصل بها الموعظة والانتفاع .

ثم ذكر المؤلف حديث معاوية بن الحكم ﷺ ، أن بينما كان مع النبي ﷺ يصلي إذ عطس رجل من القوم فقال : الحمد لله ، فقال له معاوية : يرحمك الله ، لأنك إذا سمعت العاطس يحمد الله بعد عطاسه ، وجب عليك أن تشمته ؛ فتقول : يرحمك الله ، حتى ولو كنت تقرأ أو تطالع أو تراجع .

أما في الصلاة فلا يجوز ، لأن الصلاة لا يصلح فيها شيء من كلام الناس ، ولهذا أنكر الناس بأعينهم على معاوية ، فرموه بأبصارهم ، فقال : واثكل أمّياه . ماذا صنعت ؟ فجعلوا يضربون بأيديهم على أفخاذهم يسكتونه ، فسكت ومضى في صلاته ، فلما انصرف من الصلاة دعاه النبي ﷺ فقال : فبأبي هو وأمي ، ما رأيت معلمًا أحسن تعليمًا منه لا قبله ولا بعده ، والله ما كهرني ولا ضربني ولا شتمني ، وإنما خاطبه بلطف وقال : « إن هذه الصلاة لا يصلح فيها شيء من كلام الناس ، إنما هي التسبيح والتكبير وقراءة القرآن » أو كما قال - عليه الصلاة والسلام - .

فهذه موعظة قصيرة مفيدة ، انتفع بها معاوية ، ونقلها من بعده .

وفي هذا الحديث دليل على أنه لا بأس أن يلتفت المصلي أو ينظر إذا كان ذلك لمصلحة أو حاجة ، وإلا فالأصل أن يكون نظره إلى موضع سجوده ، وفي حال الجلوس يكون نظره إلى موضع إشارته ، لأن الجالس في التشهد أو بين السجدتين يرفع إصبعه قليلًا ويشير بها عند الدعاء ، فيكون نظره إلى موضع إشارته ، وأما في حال القيام والركوع فينظر إلى موضع سجوده .

وقال بعض العلماء ينظر تلقاء وجهه ، والأمر في هذا واسع ؛ إن شاء نظر إلى موضع سجوده ، وإن شاء نظر تلقاء وجهه ، لكن إذا حصلت حاجة والتفت فإن ذلك لا بأس به .

وفيه أيضًا : أن العمل اليسير في الصلاة لا يضر ، لأن الصحابة جعلوا يضربون بأيديهم على أفخاذهم ، ولم ينكر النبي ﷺ عليهم ذلك ، إلا أنه ﷺ قال في حديث آخر : « إذا نابكم شيء فليسبح الرجال ولتصفق النساء » (٢) .

---

(١) أخرجه مسلم في الصلاة (١٨٢) بلفظ « يا أيها الناس .. » ، والبخاري في الأذان (٧٠٢) .

(٢) أخرجه البخاري في العمل في الصلاة (١٢١٨) ، ومسلم في الصلاة (١٠٢) ، والنسائي في الإمامة (٧٨٤) .

وفيه دليل : على أن الكلام في الصلاة لا يجوز ، وأنه مبطل لها ، إلا إذا كان الإنسان جاهلًا أو ناسيًا أو غافلًا ، فمثلًا - لو أن أحدًا سلم عليك وأنت تصلي ، أو دق الباب وأنت تصلي فقلت غافلًا : ادخل . أو قلت : وعليكم السلام ناسيًا أو غافلًا ، فصلاتك صحيحة ، لأن اللَّه لا يؤاخذ الإنسان بالجهل أو بالنسيان أو بالغفلة ﴿ لَّا يُؤَاخِذُكُمُ اللَّهُ بِاللَّغْوِ فِيٓ أَيْمَٰنِكُمْ وَلَٰكِن يُؤَاخِذُكُم بِمَا كَسَبَتْ قُلُوبُكُمْ ﴾ [البقرة : ٢٢٥] .

ومن فوائد الحديث : حسن تعليم النبي ﷺ ، وأنه يعلم بالرفق واللين ، وهذا هديه ﷺ وهو أسوة أمته ، فالذي ينبغي للإنسان أن ينزل الناس منازلهم ، فالمعاند المكابر يخاطب بخطاب يليق به ، والجاهل الملتمس للعلم يخاطب بخطاب يليق به .

ومن فوائد هذا الحديث : أن الصلاة لا يصلح فيها شيء من كلام الآدميين ، وإنما هي التسبيح والتكبير وقراءة قرآن ، أو كما قال - عليه الصلاة والسلام - والصلاة كما نعلم فيها قراءة قرآن وفيها تكبير ، وفيها تسبيح ، وفيها دعاء ، وفيها تشهد .

وفي الحديث : الثناء على الواعظ إذا كانت عظته جيدة وليس عنده عنف ، وهذا يشجع أهل الوعظ على أن يلتزموا بهذه الطريقة التي التزم بها رسول اللَّه ﷺ .

وفي سياق حديث معاوية بن الحكم رضي الله عنه أنه قال : قلت : يا رسول اللَّه ، إني حديث عهد بجاهلية ، وإن اللَّه تعالى قد جاء بالإسلام . قال هذا الكلام ليبين حاله من قبل وحاله من بعد ، وليحدِّث بنعمة اللَّه عليه ، حيث كانوا في جاهلية لا يعرفون معروفًا ولا ينكرون منكرًا ، إلا ما جرت به العادات بينهم .

وجاءنا اللَّه بهذا الإسلام ، بالنور المبين ، والفرقان العظيم ، فبيَّن الحق من الباطل ، وبيَّن النافع من الضار ، وبيَّن الإيمان من الكفر ، والتوحيد من الشرك إلى غير ذلك مما مَنَّ اللَّه به على هذه الأمة بالإسلام .

ثم قال رضي الله عنه : وإنَّ منَّا رجالًا يأتون الكهان . قال : « فلا تأتهم » .

الكهان : كانوا رجالًا تنزل عليهم شياطين الجن بما يسمعون من خبر السماء ، ثم يحدثون الناس بما أخبرت به الشياطين ، ويضيفون إلى الخبر الحق أشياء كثيرة من الكذب ، فإذا صدقوا في واحد من مائة ، اتخذهم الناس حُكَّامًا ؛ ولهذا يأتون إليهم ويتحاكمون إليهم .

فالكاهن : عبارة عن رجل يأتيه الشيطان يخبره بما سمع من خبر السماء ، ويضيف إلى هذا الخبر أشياء كثيرة من الكذب ، يأتيهم الناس فيسألونهم : ما حالنا ؟ ما مستقبلنا ؟ يسألونهم عن أمور مستقبلة عامة أو خاصة ، فيخبرونهم بما سمعوا من أخبار الشياطين .

قال النبي ﷺ : « فلا تأتهم » كلمة واحدة : لا تأت الكهان . وهل تظن أن معاوية أو غيره من الصحابة إذا قال لهم الرسول - عليه الصلاة والسلام - : لا تفعلوا . أن يفعلوا ؟ لا ، لا نظن ذلك ، فإنهم ليسوا كحال كثير من الناس اليوم يُكرَّر عليه النهي ولكنه لا ينتهي ، أو يتأول ويقول : النهي للكراهة ، أو النهي للأدب أو لخلاف الأولى ، أو ما أشبه ذلك .

ثم اعلم أن الكاهن هو الذي يخبر عن المغيبات في المستقبل ، وإذا أتاه الإنسان فله ثلاث حالات :

الحال الأولى : أن يأتيه يسأله ولا يصدقه ، فثبت في (صحيح مسلم) أن من فعل هذا لا تقبل له صلاة أربعين يومًا (١) .

الحال الثانية : أن يأتيه يسأله ويصدقه فهذا كافر لقوله ﷺ : « من أتى كاهنًا فصدقه بما يقول فقد كفر بما أنزل على محمد » (٢) ، ووجه كفره أن تصديقه إياه يتضمن تكذيب قول الله جل وعلا : ﴿ قُل لَّا يَعْلَمُ مَن فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ٱلْغَيْبَ إِلَّا ٱللَّهُ ﴾ [النمل: ٦٥] ؛ لأن الكاهن يخبر عن الغيب في المستقبل ، فإذا صدقته فمضمونه أنك تكذب هذه الآية فيكون ذلك كفرًا .

الحال الثالثة : أن يسأل الكاهن ليكذبه ، وإنما يسأله اختبارًا ، فهذا لا بأس به . وقد قال سأل النبي ﷺ ابن الصياد عما أضمر له . فقال له : « الدخ » يعني : الدخان ، فقال له النبي - عليه الصلاة والسلام - : «أخسأ فلن تعدو قدرك » (٣) .

فإذا سأله ليفضحه ويكشف كذبه وحاله للناس ، فإن هذا لا بأس به ، بل إن هذا يكون محمودًا مطلوبًا لما في ذلك من إبطال الباطل .

ثم سأل معاوية ﷺ رسول الله ﷺ سؤالًا آخر ؛ قال : ومنا رجال يتطيرون ؟ قال : « ذاك شيء يجدونه في صدورهم فلا يصدنهم » .

والتطير : هو التشاؤم بالأشياء ، وكان العرب يتشاءمون أكثر ما يتشاءمون في الطيور ، فإذا طار يمينًا فله حال ، وإن طار يسارًا فله حال ، وإن اتجه أمامًا فله حال ، أو رجع فله حال . حسب اصطلاحات العرب وخرافاتهم .

فكانوا يتطيرون ؛ فيجعلون الطيور هي التي تمضيهم أو تردهم ، إذا كان الطير مثلًا عن اليسار قال : هذا نذير سوء فلا أسافر ، إذا طار يمينًا قال هذا سفر مبارك . حيث اليمين من اليمن والبركة ، وهكذا اصطلاحات عندهم .

فكانوا يتشاءمون أكثر ما يتشاءمون في الطيور ، وربما تشاءموا من الأيام ، وربما تشاءموا من الشهور وربما تشاءموا فيما يصنعون من الأصوات ، وربما تشاءموا حتى من الأشخاص ، حتى إنه يوجد الآن أناس إذا خرج أحدهم من بيته ثم لاقاه شخص قبيح المنظر قال : هذا اليوم يوم سوء وتشاءم ، وإذا لقي رجلًا جميل الوجه قال : هذا اليوم خير ، فتفاءل .

فقال النبي - عليه الصلاة والسلام - : « هذا شيء يجدونه في صدورهم فلا يصدنهم » .

والإنسان إذا ركن إلى التطير تنغصت عليه حاله ، وربما يصنع الجني ما يكره ليبقى دائمًا في غمّ وهم ، ولكن لا تتشاءم .

---

(١) أخرجه مسلم في السلام (١٢٥) بلفظ « من أتى عرافًا فسأله عن شيء لم تقبل له صلاةٌ أربعين ليلة » .
(٢) أخرجه الترمذي في الطهارة (١٣٥) ، وابن ماجه في الطهارة (٦٣٩) .
(٣) أخرجه البخاري في القدر (٦٦١٨) ، ومسلم في الفتن (٩٥) .

وكان العرب يتشاءمون من شهر شوال في النكاح ، يقولون الذي يتزوج في شهر شوال لا يوفق في زواجه ؛ هكذا كانوا يقولون ، فكانت عائشة رضي الله عنها تقول : تزوجني النبي ﷺ في شوال ؛ عقد عليها في شوال ، ودخل بها في شوال . فتقول : أيكم أحظى إليه مني ؟ [١] .

لا شك أن عائشة رضي الله عنها أحب النساء إليه بعد أن تزوجها ، ومع ذلك عقد عليها في شوال ، ودخل عليها في شوال ، والعرب لجهلهم وسخافتهم يقولون : الذي يتزوج في شوال لا يوفق ، ونحن الآن نشاهد أناسًا يتزوجون في شوال ولا يكون فيهم إلا الخير .

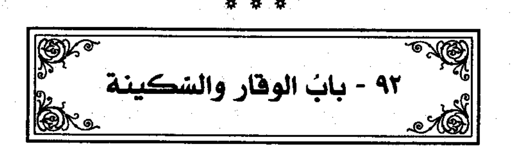
فالمهم أنه يجب عليك أن تمحو من قلبك التطير والتشاؤم ، وكن دائمًا متفائلًا ، واجعل الدنيا دائمًا أمامك واسعة ، واجعل الطريق أمامك دائمًا مفتوحًا . فإن الرسول - عليه الصلاة والسلام - كان يكره الطيرة ويعجبه الفأل الحسن [٢] .

فاجعل نفسك دائمًا في تفاؤل ، والذي يريده الله سيكون ، لكن كن مسرورًا فرحًا ، فالدنيا أمامك واسعة ، والطريق مفتوح ، ودائمًا كن في تفاؤل ، ودائمًا كن واسع الصدر ، فهذا هو الخير .

أما التشاؤم والانقباض ، وأن يجعل الإنسان باله في كل شيء ، فإن الدنيا ستضيق عليه .

فمن محاسن الإسلام أنه ألغى الطيرة وأثبت الفأل ، لأن الفال خير والطيرة شر .

* * *



٩٢ - باب الوقار والسكينة

قال الله تعالى : ﴿ وَعِبَادُ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلَّذِينَ يَمْشُونَ عَلَى ٱلْأَرْضِ هَوْنًا وَإِذَا خَاطَبَهُمُ ٱلْجَٰهِلُونَ قَالُوا۟ سَلَٰمًا ﴾ [٣] [الفرقان : ٦٣] .

٧٠٣ - عن عائشة رضي الله عنها قالتْ : مَا رَأَيتُ رسول الله ﷺ مُسْتَجمِعًا قَطُّ ضَاحِكًا حَتَّى تُرَى مِنْه لَهَوَاتُه ، إنَّمَا كانَ يَتَبَسَّمُ [٤] . متفقٌ عليه .

« اللَّهَوَات » جَمْع لَهَاةٍ : وَهِيَ اللَّحْمَة الَّتي في أَقْصَى سَقْفِ الفَمِ .

الشرح

قال المؤلف - رحمه الله تعالى - : (باب الوقار والسكينة) .

---

(١) انظر الحديث فيما أخرجه مسلم في النكاح (٧٣) ، والترمذي في النكاح (١٠٩٣) ، والدارمي في النكاح (٥٣) ، وأحمد في مسنده (٥٤/٦) .

(٢) أخرجه ابن ماجه في الطب (٣٥٣٦) ، والإمام أحمد في مسنده (١٣٠/٦) .

(٣) قوله سبحانه : ﴿ هَوْنًا ﴾ أي بسكينة ووقار وتواضع وحلم . قوله تعالى : ﴿ سَلَٰمًا ﴾ أي قولًا سديدًا يَسْلمون فيه من الإثم .

(٤) أخرجه البخاري في الأدب (٦٠٩٢) ، ومسلم في الاستسقاء (١٦) ، والإمام أحمد في مسنده (٦٦/٦) .
قولها رضي الله عنها : «مستجمعًا» المستجمع في الشيء : المجد فيه ، القاصد له .

والوقار : هو هيئة يتصف بها العبد يكون وقورًا ، بحيث إذا رآه من رآه يحترمه ويعظمه . **والسكينة** هي عدم الحركة الكثيرة وعدم الطيش ، بل يكون ساكنًا في قلبه ، وفي جوارحه ، وفي مقاله .

ولا شك أن هذين الوصفين (الوقار والسكينة) من خير الخصال التي يمن اللَّه بها على العبد . لأن ضد ذلك أن يكون الإنسان لا شخصية له ، ولا هيبة له وليس وقورًا ذا هيبة ، بل هو مهين ، قد وضع نفسه ونزلها .

وكذلك السكينة ضدها أن يكون الإنسان كثير الحركات كثير التلفت ، لا يُرى عليه أثر سكينة في قلبه ولا قوله ولا فعله ، فإذا مَنَّ اللَّه على العبد بذلك ، فإنه ينال بذلك خُلقين كريمين .

وضد ذلك أيضًا العجلة ؛ أن يكون الإنسان عجولًا لا يتحرى ولا يتأنى ، ليس له هَمٌّ إلا القيل والقال اللذين نهى عنهما رسول اللَّه ﷺ ، فقد كان ينهى عن القيل والقال وكثرة السؤال وإضاعة المال [1] .

فإذا كان الإنسان ليس متأنيًا ولا متثبتًا في الأمور ، حصل منه زلل كثير ، وأصبح الناس لا يثقون في قوله ، وصار عند الناس من القوم الذين يُرد حديثهم ولا يُنتفع به .

ثم استشهد المؤلف بقول اللَّه تبارك وتعالى : ﴿ وَعِبَادُ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلَّذِينَ يَمْشُونَ عَلَى ٱلْأَرْضِ هَوْنًا وَإِذَا خَاطَبَهُمُ ٱلْجَٰهِلُونَ قَالُوا۟ سَلَٰمًا ﴾ .

﴿ وَعِبَادُ ٱلرَّحْمَٰنِ ﴾ : الذين مَنَّ اللَّه عليهم بالرحمة ووفقهم للخير ، هم الذين يمشون على الأرض هونًا . يعني إذا رأيت أحدهم رأيت رجلًا ، في مشيته وقارٌ ، بدون أن يعجل عجلة تقبح .

﴿ وَإِذَا خَاطَبَهُمُ ٱلْجَٰهِلُونَ قَالُوا۟ سَلَٰمًا ﴾ : يعني قالوا قولًا يسلمون به من شرهم ، وليس المعنى أنهم يلقون السلام ؛ بل المعنى أنه إذا خاطبه الجاهل قال قولًا يسلم به من شره ، إما أن يدافعه بالتي هي أحسن ، وإما أن يسكت إذا رأى السكوت خيرًا .

المهم : أنه يقول قولًا يسلم به ، لأن الجاهل أمره مشكل ؛ إن خاصمته أو جادلته فربما يبدر منه كلام سيّئ عليك ، وربما يبدر منه كلام سيّئ على ما تدعو إليه من الخير ، فيسب الدين وما أشبه ذلك والعياذ باللَّه .

فمن توفيق عباد الرحمن أنهم إذا خاطبهم الجاهلون قالوا سلامًا ، يعني قالوا قولًا يسلمون به ولا يحصل لهم به إثم ، وكذلك من أوصافهم ما ذكره في آخر الآيات .

﴿ وَٱلَّذِينَ لَا يَشْهَدُونَ ٱلزُّورَ ﴾ : يعني لا يشهدون القول الكذب ولا الفعل القبيح . ﴿ وَإِذَا مَرُّوا۟ بِٱللَّغْوِ ﴾ : أي الذي ليس فيه خير ولا شر . ﴿ مَرُّوا۟ كِرَامًا ﴾ أي سالمين منه .

وذلك أن الاشياء إما خير وإما شر وإما لغو ، فالشر لا يشهدونه ، واللغو يسلمون منه ، ويمرون به كرامًا ، والخير يرتعون فيه .

ثم ذكر حديث عائشة رضي الله عنها : أن النبي ﷺ لم يستجمع قط ضاحكًا تبدو منه لهواته . يعني ليس يضحك ضحكًا فاحشًا بقهقة ، يفتح فمه حتى تبدو لهاته ، ولكنه ﷺ كان يبتسم ، أو

---

(١) أخرجه البخاري في الزكاة (١٤٧٧) ، ومسلم في الأقضية (١٠) .

يضحك حتى تبدو نواجذه أو تبدو أنيابه ؛ وهذا من وقار النبي ﷺ .

ولهذا تجد الرجل كثير الكركرة الذي إذا ضحك قهقه وفتح فاه يكون هينًا عند الناس ، وضيعًا عندهم ليس له وقار . وأما الذي يكثر التبسم في محله ، فإنه يكون محبوبًا تنشرح برؤيته الصدور وتطمئن به القلوب .

* * *

٩٣ - باب النَّدب إلى إتيان الصَّلَاة والعِلم ونحوهما من العبادات بالسكينة والوقار

قال اللّه تعالى : ﴿ وَمَن يُعَظِّمْ شَعَـٰٓئِرَ ٱللَّهِ فَإِنَّهَا مِن تَقْوَى ٱلْقُلُوبِ ﴾ (١) [الحج : ٣٢] .

٧٠٤ - وعن أبي هريرة ﷺ قال : سمعتُ رسول اللّه ﷺ يقول : « إذا أُقِيمتِ الصَّلاة ، فلا تَأْتُوها وَأَنْتُم تَسْعَونَ ، وأتوهَا وَأَنْتُم تَمْشُونَ وَعَلَيكُمُ السكِينَة ، فَمَا أدرَكْتُمْ فَصلُّوا ، وَمَا فَاتَكُمْ فَأَتمّوا » متفقٌ عليه (٢) .

زاد مسلم في روايةٍ له : « فَإِنَّ أَحَدَكُمْ إذا كانَ يَعمِدُ إلى الصَّلاةِ فَهُوَ في صَلاة » (٣) .

٧٠٥ - وعن ابن عباس ﷺ أَنَّهُ دَفَعَ مَعَ النَّبيِّ ﷺ يَومَ عَرَفَةَ فَسَمِعَ النَّبيُّ ﷺ وَرَاءَهُ زَجرًا شَدِيدًا وَضَرْبًا وَصوتًا للإبِل ، فَأَشارَ بِسوطِهِ إِلَيهِمْ وقال : « أَيُّهَا النَّاسُ ! عَلَيكُم بالسَّكِينَةِ ؛ فَإِنَّ البِرَّ لَيسَ بِالإيضَاعِ » (٤) رواه البخاري ، وروى مسلم بعضه .

« البِرُّ » الطَّاعَةُ . « وَالإيضَاعُ » بِضادٍ معجمةٍ قبلها ياءٌ وهمزةٌ مكسورةٌ ، وَهُوَ : الإسْرَاعُ .

الشرح

قال المؤلف - رحمه اللّه تعالى - : (باب الندب إلى إتيان إلى الصلاة والعلم ونحوهما من العبادات بالسكينة والوقار) .

---

(١) قوله ﷻ : ﴿ وَمَن يُعَظِّمْ شَعَـٰٓئِرَ ٱللَّهِ ﴾ جمع شعيرة ، وهي كلُّ شيء للّه تعالى فيه أمر أشْعَرَ به وأعلم . وشعائر اللّه : أعلام دينه في الحج أو الأعمال التي أمر بها فيه . وتعظيم شعائر اللّه : امتثال ما أمر به عندها . وأداء المناسك على الوجه المشروع . قوله : ﴿ تَقْوَى ٱلْقُلُوبِ ﴾ أي خشية اللّه وتعظيمه .

(٢) أخرجه البخاري في الجمعة (٩٠٨) ، ومسلم في المساجد (١٥١) ، قوله « فلا تأتوها وأنتم تسعون » المنهي عنه هنا السعي بمعنى العدو والإسراع في المشي . ولا يخالف ذلك قوله تعالى : ﴿ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ إِذَا نُودِىَ لِلصَّلَوٰةِ مِن يَوْمِ ٱلْجُمُعَةِ فَٱسْعَوْا۟ إِلَىٰ ذِكْرِ ٱللَّهِ ﴾ فالمأمور به في الآية هو المضي فيها . قوله « وأنتم تمشون » أي بلا إسراع . قوله « وعليكم السكينة » السكينة التأني في الحركات واجتناب العبث ، والوقار في الهيئة كغض البصر وخفض الصوت وعدم الالتفات .

(٣) أخرجه مسلم في المساجد (١٥٢) . قوله « يعمد إلى الصلاة » أي يقصد أداءها .

(٤) أخرجه البخاري في الحج (١٦٧١) ، وأخرج مسلم بعضه في الحج (٢٦٨) .

الصلاة من المعلوم أنها آكد أركان الإسلام بعد الشهادتين ، وهي من أعظم شعائر الله . والإنسان إذا أقبل إلى الصلاة فإنما يقبل إلى الوقوف بين يدي الله ﷻ .

ومن المعلوم أن الإنسان إذا أتى إلى شخص من بني آدم يعظمه ، فإنه يأتي إليه بأدب وسكينة ووقار ، فكيف إذا أتى ليقف بين يدي الله ﷻ ؟

ولهذا ينبغي للإنسان أن يأتي إلى الصلاة في سكينة كما سيأتي في حديث أبي هريرة ﷺ .

ثم استدل المؤلف - رحمه الله تعالى - لهذا الباب بقوله تعالى : ﴿ ذَٰلِكَ وَمَن يُعَظِّمْ شَعَٰٓئِرَ ٱللَّهِ فَإِنَّهَا مِن تَقْوَى ٱلْقُلُوبِ ﴾ .

الذي يعظم شعائر الله فيرى أنها عظيمة في قلبه ، ويقوم بما ينبغي لها من التعظيم بجوارحه ، فإن هذا من تقوى القلوب ، علامة على صلاح نيته وتقوى قلبه ، وإذا اتقى القلب اتقت الجوارح ، لقول النبي ﷺ : « ألا وإن في الجسد مضغة إذا صلحت صلح الجسد كله ، وإذا فسدت فسد الجسد كله ألا وهي : القلب »[١] .

فعليك بتعظيم شعائر الله فإن ذلك تقوى لقلبك ، وأيضًا يكون خيرًا لك عند الله ﷻ ﴿ ذَٰلِكَ وَمَن يُعَظِّمْ حُرُمَٰتِ ٱللَّهِ فَهُوَ خَيْرٌ لَّهُۥ عِندَ رَبِّهِۦ ﴾ [الحج : ٣٠] .

ثم ذكر حديث أبي هريرة ﷺ أن النبي ﷺ قال : « إذا أقيمت الصلاة فلا تأتوها وأنتم تسعون » يعني إذا سمعتم الإقامة من خارج المسجد ، وهذا يدل على أن الإقامة تسمع من خارج المسجد وهو الظاهر ، وقد جاء في الحديث أن بلالًا قال للنبي ﷺ : لا تسبقني بآمين[٢] . مما يدل على أنه يقيم في مكان يسمعه الناس فيقول النبي - عليه الصلاة والسلام - : « وائتوها وأنتم تمشون وعليكم السكينة » تمشون مشيًا عاديًّا وعليكم السكينة .

وفي قوله ﷺ : « وأنتم تمشون » دليل على أنه يمشي مشيًا معتادًا ، وأنه لا يقارب الخطى كما استحبه بعض أهل العلم ، وأما قول النبي - عليه الصلاة والسلام - : « لم يخط خطوة إلارفع الله بها درجة» يعني أنه يقارب الخطى ، لكن يمشي مشيه المعتاد بدون إسراع ، فإذا أتى الإنسان على هذا الوجه فقد قال النبي - عليه الصلاة والسلام - : « فما أدركتم فصلوا وما فاتكم فأتموا » .

إلا أن أهل العلم قالوا : إذا خشي فوات الركعة يعني فوات الركوع فلا بأس أن يسرع قليلًا ، سرعة لا تكون سرعة قبيحة ، فإنه لا بأس بذلك ، لكن لا ينبغي أن تكون سرعة تقبح ، يكون لها جلبة وصوت .

يستفاد من هذا الحديث فوائد منها : تعظيم شأن الصلاة ، وأن الإنسان ينبغي أن يأتي إليها بأدب وخشوع وسكينة ووقار .

ومنها : أنه لا بأس أن تسمع الإقامة من خارج المسجد وعلى هذا فإذا أقام المؤذن في مكبر الصوت

---

(١) أخرجه البخاري في الإيمان (٥٢) ، ومسلم في المساقاة (١٠٧) ، قوله « ألا وإن في الجسد مضغة » المضغة القطعة من اللحم سميت بذلك لأنها في حجم ما يمضغ في الفم لصغرها : المراد تصغير القلب بالنسبة إلى باقي الجسم مع أن صلاح الجسد وفساده تابعان القلب .

(٢) أخرجه أبو داود في الصلاة (٩٣٧).

ليسمع من كان خارج المسجد فلا بأس .

وإن كان بعض الناس قد اعترض على هذا وقال : إنه إذا أقام من خارج المسجد تكاسل الناس ، وصاروا لا يحضرون إلا إذا سمعوا الإقامة ، وربما تفوتهم الركعة الأولى ، أو يفوتهم أكثر حسب قربهم من المسجد أو بعدهم منه . ولكن مادام الأمر قد حدث مثله في عهد الرسول – عليه الصلاة والسلام – ، وأن الإقامة كانت تسمع من الخارج ، فإننا نرى أنه لا بأس بذلك ، لكن الشيء الذي يُخشى منه الإثم ما يفعله بعض الناس فينقل الصلاة نفسها عبر مكبر الصوت من المنارة ، فإن هذا يشوش على من حوله ، ولا سيما في صلاة الليل الجهرية ، يشوش على أصل البيوت ويشوش على المساجد القريبة ، حتى إننا سمعنا بعض الناس إذا سمع مكبر الصوت من مسجد قريب وكان الإمام حسن الصوت والقراءة ، صار المأموم الذي في هذا المسجد يتابع بقلبه الإمام الذي في المسجد الثاني .

حتى سمعنا أن بعضهم أمَّن على قراءة إمام المسجد الثاني ، لما قال إمام المسجد الثاني ﴿ وَلَا ٱلضَّآلِّينَ ﴾ قال هؤلاء : آمين ، وهذا ليس ببعيد ، لأن القلب إذا انشغل بشيء أعرض عن غيره ، فإذا كانوا يتابعون قراءة المسجد المجاور ، وكانت قراءة الإمام جيدة في الصوت والأداء ، فإن القلب قد يُلهى عن الإمام الذي بين يديه .

وقد ثبت في (موطأ الإمام مالك رحمه الله) أن النبي ﷺ خرج ذات ليلة وأصحابه في المسجد يصلون وقد علت أصواتهم بالقراءة ، فقال – عليه الصلاة والسلام – : « إن المصلي يناجي ربه ، فلينظر بم يناجيه به ، ولا يجهر بعضكم على بعض بالقرآن » (١) .

وعند أبي داود : « ألا كلّكم مناجٍ ربَّه ، فلا يؤذينَّ بعضُكم بعضًا ، ولا يرفعْ بعضُكم على بعض في القراءة » (٢) .

فجعل هذا أذية ونهى عنه ، والواقع شاهد بذلك ، ولهذا نرى أن الذين يفعلون هذا ؛ يؤدون الصلاة عبر مكبر الصوت ، نرى أنهم إذا كانوا يؤذون من حولهم فإنهم آثمون .

فإذا كان هذا العمل يكون فيه الإنسان إما آثمًا وإما سالمًا ، فلا شك أن تركه أولى ، وهو في الحقيقة لا فائدة منه ، لأن الإنسان لا يصلي إلى من هم خارج المسجد ، وإنما يصلي لأهل المسجد ، أما الذين في الخارج فلا عليك منهم .

ثم إن هذا العمل فيه مفسدة أخرى ؛ وهي أن بعض الناس يتكاسل عن إتيان المسجد للصلاة مادام أنه يسمع صوت قراءة الإمام فيتكاسل ، وكلما أراد أن يقوم ثبطه الشيطان ، وقال له : انتظر الركعة الثانية ، انتظر الثالثة ، اجلس حتى لا يبقى إلا ركعة فيحرم بذلك من الخير .

لهذا نوصي إخواننا لا سيما الأئمة ألا يفعلوا هذا ، وأن تسلم ذممهم ويسلم إخوانهم من أذيتهم

(١) أخرجه مالك في الموطأ في الصلاة (٢٩) ، والإمام أحمد في مسنده (٦٧/٢) .
(٢) أخرجه أبو داود في الصلاة (١٣٣٢) .

حتى في البيوت أيضًا .

ربما بعض الناس يكون قد صلى ويحب أن ينام ويرتاح ، قد يكون مريضًا فيزعجه هذا الصوت ، وقد يكون المسجد قريبًا من السطوح في أيام القيظ وفيه الصبيان فيفزعهم صوت المكبر .

فالحاصل : إن هذه المسألة ابْتُلِيَ بها بعضُ الناس - نسأل اللَّه أن يعافينا - وصاروا يؤذون من بجوارهم من المساجد أو البيوت في أمر لا فائدة منه .

ومعنى قوله ﷺ : « فما أدركتم فصلوا وما فاتكم فأتموا » أن الإنسان يكبر تكبيرة الإحرام ثم يدخل مع الإمام على الحال التي فيها ، فإذا جئت والإمام راكع فكبر تكبيرة الإحرام وأنت قائم معتدل ثم اركع ، وبذلك تدرك الركعة .

وإذا أتيت وهو قائم من الركوع فكبر وادخل معه واسجد معه ، ولا تحسب هذه الركعة ، لأن الإنسان إذا لم يدرك ركوع الإمام فاتته الركعه .

وإذا أتيت وهو ساجد فكبر للإحرام وأنت قائم ثم اسجد ولا تنتظر حتى يقوم ، وإذا أتيت وهو جالس فكبر وأنت قائم واجلس ، أي حال أدركت الإمام عليها فاصنع كما يصنع الإمام .

وإذا أتيت وهو في التشهد الأخير نظرت إن كان معك جماعة في مثل حالك فلا تدخل معه ، لأنك لا تدرك صلاة الجماعة بإدراك التشهد ، لا تدرك الجماعة إلا إذا أدركت ركعة كاملة ، لقول النبي ﷺ : « من أدرك ركعة من الصلاة فقد أدرك الصلاة » [1] .

وإذا لم يكن معك جماعة ، أو لا يمكنك أن تدرك مسجدًا آخر فادخل معه ولو في التشهد ، ولا تحسب هذا شيئًا ، لأنه فاتك الركوع .

وفي قوله ﷺ : « فأتموا » دليل على أن المسبوق إذا قام يقضي فإنه يقضي آخر صلاته لا أولها ، فإذا أدرك الركعتين الأخيرتين من الظهر مثلًا وقام يقضي فإن الركعتين اللتين يقضيهما هما آخر صلاته ، فلا يزيد على الفاتحة ، لأن السنة في الركعتين الأخيرتين أن لا يزيد فيهما على الفاتحة .

وأما حديث ابن عباس رضي الله عنهما الذي ذكره المؤلف أن النبي ﷺ دفع من عرفة فسمع وراءه جلبة وضربًا وزجرًا للإبل وأصواتًا للإبل ، لأنهم كانوا في الجاهلية إذا دفعوا من عرفة أسرعوا إسراعًا عظيمًا يبادرون النهار قبل أن يظلم الجو ، فكانوا يضربون الإبل ضربًا شديدًا ، فأومأ النبي ﷺ إليهم بسوطه ، وقال : « أيها الناس عليكم بالسكينة » يعني الطمأنينة والهدوء « فإن البر ليس بالإيضاع » يعني : أن

---

(١) أخرجه البخاري في مواقيت الصلاة (٥٨٠) ، ومسلم في المساجد (١٦١) قال النووي في شرح مسلم : إذا أدرك المسبوق مع الإمام ركعة كان مدركًا لفضيلة الجماعة بلا خلاف وإن لم يدرك ركعة بل أدركه قبل السلام بحيث لا يحسب له ركعة ففيه وجهان لأصحابنا : أحدهما لا يكون مدركًا للجماعة لمفهوم قوله ﷺ : من أدرك ركعة من الصلاة مع الإمام فقد أدرك الصلاة . والثاني وهو الصحيح وبه قال جمهور أصحابنا يكون مدركًا لفضيلة الجماعة لأنه أدرك جزءًا منه . (صحيح مسلم بشرح النووي ٥/١٠٦) .

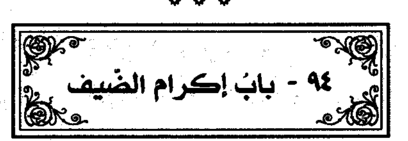
البر والخير ليس بالإيضاع ، أي ليس بالإسراع . والإيضاع نوع من اليسر سريع .

ففي هذا : دليل على أن الإنسان لا ينبغي له أن يسرع إذا تقدم إلى أماكن العبادة ، لأن الذين يدفعون من عرفة يتجهون إلى مزدلفة إلى عبادة .

وبهذا يتم المؤلف رحمه الله ما ترجم به من الندب إلى إتيان الصلاة ، ومجالس العلم ، وغيرها من العبادة بسكينة ووقار .

فإذا أتيت إلى مجالس العلم والخير ، فكن ساكنًا وقورًا مهيبًا ، حتى لا يستهان بك أمام الناس ، ويكون تعظيمك لهذه المجالس من تعظيم الله عز وجل .

* * *



٩٤ - باب إكرام الضيف

قال الله تعالى : ﴿ هَلْ أَتَىٰكَ حَدِيثُ ضَيْفِ إِبْرَٰهِيمَ ٱلْمُكْرَمِينَ ۝ إِذْ دَخَلُوا۟ عَلَيْهِ فَقَالُوا۟ سَلَـٰمًا قَالَ سَلَـٰمٌ قَوْمٌ مُّنكَرُونَ ۝ فَرَاغَ إِلَىٰٓ أَهْلِهِۦ فَجَآءَ بِعِجْلٍ سَمِينٍ ۝ فَقَرَّبَهُۥٓ إِلَيْهِمْ قَالَ أَلَا تَأْكُلُونَ ﴾ [الذاريات : ٢٤- ٢٧] . وقال تعالى : ﴿ وَجَآءَهُۥ قَوْمُهُۥ يُهْرَعُونَ إِلَيْهِ وَمِن قَبْلُ كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ٱلسَّيِّـَٔاتِ ۚ قَالَ يَـٰقَوْمِ هَـٰٓؤُلَآءِ بَنَاتِى هُنَّ أَطْهَرُ لَكُمْ ۖ فَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ وَلَا تُخْزُونِ فِى ضَيْفِىٓ ۖ أَلَيْسَ مِنكُمْ رَجُلٌ رَّشِيدٌ ﴾ (١) [هود : ٧٨] .

الشرح

قال المؤلف رحمه الله : (باب إكرام الضيف) .

والضيف : هو الذي ينزل بك مسافرًا ، لأجل أن تتلقاه بالإيواء والطعام والشراب وما يحتاج إليه .

والضيافة : خلق فاضل قديم منذ عهد إبراهيم الخليل - عليه الصلاة والسلام - ، وإن لم يكن قبل ذلك .

وسيذكر المؤلف - إن شاء الله - أحاديث متعددة حول إكرام الضيف ، وأن إكرامه من الإيمان بالله واليوم الآخر ، ولكنه رحمه الله كعادته يبدأ بالآيات الكريمة ، لأن القرآن مقدم على السنة ، فهو كلام الله والحديث كلام رسول الله ﷺ ، وكلاهما حق يجب تصديقه إن كان خبرًا ، وامتثاله إن كان طلبًا .

فذكر قول الله تعالى : ﴿ هَلْ أَتَىٰكَ حَدِيثُ ضَيْفِ إِبْرَٰهِيمَ ٱلْمُكْرَمِينَ ﴾ هل أتاك ؟ : الاستفهام هنا للتشويق من أجل أن ينتبه المخاطب ، والخطاب في قوله : ﴿ هَلْ أَتَىٰكَ ﴾ إما للرسول ﷺ وإما له وللأمة ؛ أي لكل من يصح خطابه .

﴿ هَلْ أَتَىٰكَ حَدِيثُ ضَيْفِ إِبْرَٰهِيمَ ٱلْمُكْرَمِينَ ۝ إِذْ دَخَلُوا۟ عَلَيْهِ فَقَالُوا۟ سَلَـٰمًا ﴾ وهؤلاء الضيف ملائكة أرسلهم الله عز وجل إلى إبراهيم ، ثم إلى لوط .

---

(١) قوله تعالى : ﴿ مُّنكَرُونَ ﴾ أي غير معروفين . قوله تعالى : ﴿ فَرَاغَ ﴾ أي فذهب . قوله تعالى : ﴿ يُهْرَعُونَ ﴾ أي يسرعون . قوله تعالى : ﴿ وَلَا تُخْزُونِ ﴾ أي لا تفضحوني . قوله تعالى : ﴿ رَّشِيدٌ ﴾ أي عاقل .

وقوله : ﴿ ٱلْمُكْرَمِينَ ﴾ يعني الذين أكرمهم إبراهيم - عليه الصلاة والسلام - : ﴿ إِذْ دَخَلُوا۟ عَلَيْهِ فَقَالُوا۟ سَلَٰمًا قَالَ سَلَٰمٌ ﴾ قال العلماء : إن قولهم سلامًا يعني نسلم سلامًا ، وإن قوله : سلامٌ يعني : عليكم سلامٌ .

والثانية أبلغ من الأولى ، لأن المشروع لمن حُيي بتحية أن يحيي بأحسن منها أو بمثلها كما قال الله تعالى : ﴿ وَإِذَا حُيِّيتُم بِتَحِيَّةٍ فَحَيُّوا۟ بِأَحْسَنَ مِنْهَآ أَوْ رُدُّوهَآ ﴾ [النساء : ٨٦] .

وإنما كانت الثانية أبلغ من الأولى لأن الأولى جملة فعليه ، والثانية جملة اسمية ، تفيد الثبوت والاستمرار .

ثم قال : ﴿ قَوْمٌ مُّنكَرُونَ ﴾ ولم يقل : أنتم قوم ، لأن أنتم صريح في الخطاب ، وهذا قد يكون مستبشعًا عند بعض الناس ، فكان من حسن معاملته لضيفه أن قال : قوم منكرون .

و ﴿ قَوْمٌ ﴾ لو أخذناها هكذا لكان يمكن أن يكون التقدير : هم قوم ، أو أنتم قوم ، أو هؤلاء قوم ، ليست في الصراحة كقوله أنتم قوم ، فلهذا حذف المبتدأ وصارت : قوم منكرون . ومعنى كونهم منكَرِين أنه لا يعرفهم لأنه أول مرة يلتقي بهم .

﴿ فَرَاغَ إِلَىٰٓ أَهْلِهِۦ ﴾ وكان ﷺ كريمًا ، ومعنى راغ : أي ذهب بسرعة وخُفية ﴿ إِلَىٰٓ أَهْلِهِۦ ﴾ أي إلى بيته ﴿ فَجَآءَ بِعِجْلٍ سَمِينٍ ﴾ جاء بعجل ؛ وهي صغار البقر ، لأن لحمه خفيف ولذيذ ، وكونه سمينًا يكون أحلى للحمه وأطيب ، وفي الآية الأخرى أنه جاء بعجل حنيذ ، أي محنوذ يعني مشوي لم يخرج من طعمه شيء وهذا ألذ ما يكون من اللحم .

﴿ فَقَرَّبَهُۥٓ إِلَيْهِمْ ﴾ ولم يضعه بعيدًا عنهم فيقول : تقدموا إلى الطعام ، ولكن هو الذي قربه لئلا يكون عليهم عناء ومشقة ، ومع ذلك لم يقل : كلوا . هكذا بصيغة الأمر ، ولكن قال : ﴿ أَلَا تَأْكُلُونَ ﴾ وهذا عرض وليس بأمر ، وهو أيضًا من حسن معاملته لضيوفه .

ثم إن هؤلاء الضيوف ذهبوا إلى لوط بصورة شبان مُرْدٍ ذوي جمال وفتنة ، وكان قوم لوط - والعياذ بالله - قد ابتلوا بداء اللواط ، وهو إتيان الذكرُ الذكرَ ، فلما ذهبوا إلى لوط انطلق بعضهم إلى بعض يخبر بعضهم بعضًا ويقولون : جاء إلى لوط مردان شبان ذوو جمال ، فجاءوا ﴿ يُهرعون إليه ﴾ أي : يسرعون .

﴿ وَمِن قَبْلُ كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ٱلسَّيِّـَٔاتِ ﴾ يعني : كانوا يعملون الفاحشة وهي اللواط .

﴿ قَالَ يَٰقَوْمِ هَٰٓؤُلَآءِ بَنَاتِى هُنَّ أَطْهَرُ لَكُمْ ۖ فَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ وَلَا تُخْزُونِ فِى ضَيْفِىٓ ﴾ قال بعض العلماء ﴿ هَٰٓؤُلَآءِ بَنَاتِى ﴾ يشير إلى بنات القوم ما هن بناته من صلبه ، ولكنه يعني بذلك بنات قومه ، لأن النبي لقومه بمنزلة الأب لهم ، كأنه يقول : عندكم النساء ، وهذا كقوله في آية أخرى : ﴿ أَتَأْتُونَ ٱلذُّكْرَانَ مِنَ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿١٦٥﴾ وَتَذَرُونَ مَا خَلَقَ لَكُمْ رَبُّكُم مِّنْ أَزْوَٰجِكُم ﴾ [الشعراء : ١٦٥، ١٦٦] يعني من النساء ﴿ بَلْ أَنتُمْ قَوْمٌ عَادُونَ ﴾ .

المهم : أنه - عليه الصلاة والسلام - قال لهم : ﴿ فَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ وَلَا تُخْزُونِ ﴾ وقوله ﴿ هَٰٓؤُلَآءِ بَنَاتِى هُنَّ أَطْهَرُ لَكُمْ ﴾ هذا من باب التفضيل الذي ليس في الجانب المفضل عليه منه شيء ؛ لأن إتيان الذكور ليس فيه طهارة ، كله خبث وخبائث ، كما قال تعالى : ﴿ وَنَجَّيْنَٰهُ مِنَ ٱلْقَرْيَةِ ٱلَّتِى كَانَت تَّعْمَلُ ٱلْخَبَٰٓئِثَ ﴾

[الأنبياء: ٧٤]، لكن هن أطهر لكم لأن فروج النساء تحل بالعقد.

﴿فَاتَّقُوا اللَّهَ وَلَا تُخْزُونِ فِي ضَيْفِي أَلَيْسَ مِنكُمْ رَجُلٌ رَّشِيدٌ﴾ ولكن لم يكن منهم رجل رشيد، والعياذ بالله.

﴿قَالُوا لَقَدْ عَلِمْتَ مَا لَنَا فِي بَنَاتِكَ مِنْ حَقٍّ وَإِنَّكَ لَتَعْلَمُ مَا نُرِيدُ﴾ [هود: ٧٩] يعني تعلم أننا نريد هؤلاء الشباب الذين جاءوا إليك.

﴿قَالَ لَوْ أَنَّ لِي بِكُمْ قُوَّةً أَوْ آوِي إِلَىٰ رُكْنٍ شَدِيدٍ﴾ (١) [هود: ٨٠]، فقالت الرسل ﴿يَا لُوطُ إِنَّا رُسُلُ رَبِّكَ لَن يَصِلُوا إِلَيْكَ﴾ [هود: ٨١]، ثم أرشدوه إلى أن يسري بأهله ويدع البلدة.

وفي سورة القمر قال تعالى: ﴿كَذَّبَتْ قَوْمُ لُوطٍ بِالنُّذُرِ ﴿٣٣﴾ إِنَّا أَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ حَاصِبًا إِلَّا آلَ لُوطٍ نَّجَّيْنَاهُم بِسَحَرٍ ﴿٣٤﴾ نِّعْمَةً مِّنْ عِندِنَا كَذَٰلِكَ نَجْزِي مَن شَكَرَ ﴿٣٥﴾ وَلَقَدْ أَنذَرَهُم بَطْشَتَنَا فَتَمَارَوْا بِالنُّذُرِ ﴿٣٦﴾ وَلَقَدْ رَاوَدُوهُ عَن ضَيْفِهِ فَطَمَسْنَا أَعْيُنَهُمْ فَذُوقُوا عَذَابِي وَنُذُرِ﴾ (٢) [القمر: ٣٣-٣٧]. قيل: إن الملائكة صفقوهم على وجوههم فعميت أبصارهم، وقيل: إن الله أعمى أبصارهم في نفس الحال.

وعلى كل حال فإن قوله: ﴿وَلَا تُخْزُونِ فِي ضَيْفِي﴾ يدل على أن الضيوف كانوا مكرمين عند لوط، كما هم مكرمون عند إبراهيم - عليه الصلاة والسلام -.

والحاصل: أنك إذا نزل بك ضيف فإنه يجب عليك أن تضيفه يومًا وليلة، ولكن لا تفعل كما يفعل السفهاء، تذهب وتتكلف وتصنع وليمة كبيرة ترمي معظمها، حتى إنا نسمع عن بعض الناس أنه إذا نزل به الضيف ذهب صاحب البيت من أجل أن يذبح له ذبيحة، فيقول الضيف: لا تذبح. عليَّ الطلاق ما تذبح. فيقول الثاني: عليَّ الطلاق أن أذبح، هذا غلط ومنكر، فلا حاجة إلى اليمين في ذلك، إما أن تذبح وإما أن لا تذبح.

وإذا اضطررت إلى اليمين فليس هناك حاجة إلى اليمين بالطلاق، لأن الحلف بالطلاق أمره ليس بالهين. فالأئمة الأربعة: مالك وأبو حنيفة والشافعي وأحمد بن حنبل وجمهور أتباعهم يرون: أن الحلف بالطلاق طلاقٌ إذا حنث فيه الإنسان، يعني إذا قلت: عليَّ الطلاق ما تفعلين كذا. ففعلت طُلقَت زوجتُك ولو أردتَ اليمين، هذا مذهب جمهور الأمة وجميع الأئمة المتبوعين من هذه الأمة. إذًا المسألة خطيرة وتهاون الناس اليوم بهذه المسألة غلط كبير.

ما أسرع أن يقول الإنسان: عليَّ الطلاق أن أفعل، عليَّ الطلاق ما أفعل، أو امرأتي طالق إن فعلت، أو امرأتي طالق إن لم أفعل، وهذا غلط عظيم. كيف تقول هذا الكلام وأكثر الأئمة يرون أنك إذا حنثت طلقت امرأتك.

---

(١) قوله تعالى: ﴿لَوْ أَنَّ لِي بِكُمْ قُوَّةً﴾ لو أن لي على دفعكم مقدرة لدفعتكم. قوله تعالى: ﴿أَوْ آوِي إِلَىٰ رُكْنٍ﴾ ألجأ إلى قويٍّ أنتصر عليكم.

(٢) قوله تعالى: ﴿بِالنُّذُرِ﴾ الإنذارات والعبر، قوله تعالى: ﴿حَاصِبًا﴾ ريحًا عاصفة ترميهم بالحصباء (الحصى الصغير)، قوله تعالى: ﴿فَتَمَارَوْا بِالنُّذُرِ﴾ فكذبوا بالإنذارات متشككين، قوله تعالى: ﴿رَاوَدُوهُ عَن ضَيْفِهِ﴾ طلبوا منه أن يتخلى عنهم ويمكنهم منهم. قوله تعالى: ﴿فَطَمَسْنَا أَعْيُنَهُمْ﴾ أعميناهم أو أزلنا أثر عيونهم بمسحها.

٧٠٦ - عن أبي هريرة ﷺ أنَّ النبيَّ ﷺ قال : « مَنْ كانَ يُؤمِنُ باللَّهِ وَاليَومِ الآخِرِ فَلْيُكرِمْ ضَيفَهُ ، وَمَنْ كانَ يُؤمِنُ باللَّه وَاليَومِ الآخِرِ فليَصِلْ رَحِمَه ، وَمَنْ كانَ يُؤمِنُ بِاللَّهِ وَاليَومِ الآخِرِ فَلْيقلْ خَيرًا أَو لِيَصْمُتْ » (١) متفقٌ عليه .

٧٠٧ - وعن أبي شُرَيح خُوَيلِدِ بن عمرو الخُزَاعِيِّ ﷺ قال : سَمِعتُ رسول اللَّه ﷺ يقول : « مَنْ كان يؤمِنُ بِاللَّهِ وَاليومِ الآخِرِ فَلْيُكرمْ ضَيفَهُ جَائِزَتَهُ » قالوا : وما جَائِزَتُهُ يا رسول اللَّه ؟ قال : « يَومُه ولَيلَتُهُ . والضِّيَافَةُ ثَلاثَةُ أَيَّام ، فما كان وَرَاءَ ذلكَ فهو صَدَقَة عليه » (٢) متفقٌ عليه .

وفي روايةٍ لمسلمٍ : « لا يَحِلُّ لِمُسلمٍ أَن يُقِيمَ عِند أَخِيهِ حتى يُؤْثِمَهُ » قالوا : يا رسول اللَّه ، وكَيفَ يُؤْثِمُهُ ؟ قال : « يُقِيمُ عِنْدَهُ وَلا شَيءَ لَهُ يَقْرِيهِ بِهِ » (٣) .

الشرح

ذكر المؤلف رَحِمَهُ اللَّهُ في : (باب الضيافة وإكرام الضيف) ، الأحاديث التي تدل على إكرام الضيف وقراه ، ومن ذلك حديث أبي هريرة ﷺ أن النبي ﷺ قال : « من كان يؤمن باللَّه واليوم الآخر فليكرم ضيفه » ، وهذا من باب الحث والإغراء على إكرام الضيف ، يعني : أن إكرام الضيف من علامة الإيمان باللَّه واليوم الآخر ، ومن تمام الإيمان باللَّه واليوم الآخر .

وذلك أن الذي يكرم ضيفه يثيبه اللَّه تعالى يوم القيامة ، وربما أثابه يوم القيامة وفي الدنيا ، كما قال اللَّه تعالى : ﴿ مَن كَانَ يُرِيدُ حَرْثَ ٱلْآخِرَةِ نَزِدْ لَهُۥ فِى حَرْثِهِۦ ﴾ (٤) [الشورى : ٢٠] ، فيثيبه اللَّه في الدنيا بالخلف ، وفي الآخرة بالثواب ، ولهذا قال : « من كان يؤمن باللَّه واليوم الآخر فليكرم ضيفه » .

وإكرام الضيف يختلف بحسب أحوال الضيف ، فمن الناس من هو من أشراف القوم ووجهاء القوم فيُكرم بما يليق به ، ومن الناس من هو من سقط القوم فيُكرم بما يليق به ، ومنهم من هو دون ذلك .

فالمهم أن النبي - عليه الصلاة والسلام - أطلق الإكرام فيشمل كل الإكرام ، فمن الناس إذا نزل بك ضيفًا لا يرضيه أن تأتي له بطعام عليه دجاجتان وما أشبه ذلك ، يحتاج إلى أن تأتي له بطعام عليه ذبيحة ، ويكون من إكرامه أيضًا أن تدعو جيرانك وما أشبه ذلك . ومن الناس من هو دون ذلك .

المهم : أن النبي ﷺ لم يقيد الإكرام بشيء بل أطلق ، فيكون راجعًا إلى ما يعده الناس إكرامًا .

قال : « ومن كان يؤمن باللَّه واليوم الآخر فليصل رحمه » ، وفي حديث آخر « فليكرم جاره » (٥) ،

---

(١) أخرجه البخاري في الأدب (٦١٣٨) ، ومسلم في الإيمان (٧٤) .

(٢) أخرجه مسلم في اللقطة (١٤) واللفظ له ، والبخاري في الأدب (٦١٣٥) .

(٣) أخرجه مسلم في اللقطة (١٥) ، قوله : (يؤثمه) أي يوقعه في الإثم ، قوله (يقريه) قرى الضيف يقريه قِرًى وقراءً أي : أحسن إليه .

(٤) قوله تعالى : ﴿ حَرْثَ ٱلْآخِرَةِ ﴾ ثوابها . قوله تعالى : ﴿ حَرْثَ ٱلدُّنْيَا ﴾ نعمها ولذاتها .

(٥) أخرجه مسلم في الإيمان (٧٤) ، وأحمد في مسنده (٤/٣١) ، والحاكم في المستدرك (٤/١٦٤) .

« فليصل رحمه » : الرحم هم الأقارب ، وكلما كان القريب إليك أقرب كان حقه أوجب ، فعلى المرء أن يصل رحمه ، ولم يبيِّن النبي ﷺ بماذا يصله ؟ فيرجع أيضًا إلى العرف ، فمن الأقارب من تصله بالزيارة والإكرام البدني ، ومن الأقارب من تصله بإعطاء المال لحاجته إليه ، ومن الأقارب من تكرمه بالطعام والكسوة ، كل بحسب حاله ، المهم - أكرم أقاربك بما يعد إكرامًا .

فمثلًا : إذا كان قريبك غنيًا كريمًا فهذا لا يمكن أن ترسل إليه طبقًا من طعام ، إنما تكرمه بالزيارة والكلام اللين وما أشبه ذلك . أما إذا كان قريبك فقيرًا فطبق الطعام أحب إليه من غيره ، فترسل له طبقًا من الطعام ، أما إذا كان قريبك يحتاج إلى المال فالأفضل أن ترسل إليه المال وهلم جرا . فكل إنسان يكرم بما يليق بحاله .

الثالث قال : « من كان يؤمن باللّٰه واليوم الآخر فليقل خيرًا أو ليصمت » ، ويا ليتنا نسير على ذلك في حياتنا . « من كان يؤمن باللّٰه واليوم الآخر فليقل خيرًا أو ليصمت » : وقد يكون الكلام نفس الكلام خيرًا ، وقد يكون الخير في المقصود منه ، فمثلًا الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر وتعليم مسألة من مسائل العلم والدين ، والكلام هنا خير في نفسه .

والكلام الآخر الذي ليس في نفسه خير من حيث هو ، لكن تتكلم به من أجل أن تدخل الأُنس على مجالسك وأن تشرح صدره ، هذا أيضًا خير ، وإن كان نفس الكلام ليس مما يتقرب به إلى اللّٰه ، لكنه ليس إثمًا ، وتقصد بذلك أن توسع صدر جليسك وأن تدخل عليه الأنس والسرور ، فهذا أيضًا من الخير .

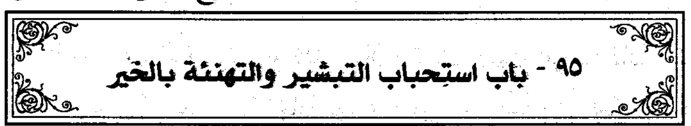
وعُلِمَ من هذا : أن من لم يقل الخير ، فإن إيمانه باللّٰه واليوم الآخر يكون ناقصًا ، فكيف بمن يقول الشر ؟ وكيف بمن أصبح يأكل لحوم الناس - والعياذ باللّٰه - ويسعى بينهم بالنميمة ، ويكذب ويغش ؟ بل كيف من أصبح يؤلب على أهل العلم ويسب أهل العلم ، ويذمهم بأمرٍ هُم فيه أقرب إلى الصواب مما يظن ؟ فإن هذا أعظم وأعظم ، لأن الكلام في أهل العلم ليس كالكلام في عامة الناس .

الكلام في عامة الناس ربما يجرح الرجل نفسه ، لكن الكلام في أهل العلم جرح في العلماء وجرح فيما يحملونه من الشريعة ، لأن الناس لن يثقوا بهم إذا كثر القول فيهم والخوض فيهم ، ولهذا يجب عند كثرة الكلام وخوض الناس في أمر من الأمور أن يحرص الإنسان على كف لسانه ، وعدم الكلام إلا فيما كانت مصلحته ظاهرة ، حتى لو سئل فإنه يقول : نسأل اللّٰه الهداية ، نسأل اللّٰه أن يهدي الجميع .

أما أن يتكلم ويطلق لسانه في أمور ليس لها أصل البتة ، فهذا من عدم الإيمان باللّٰه واليوم الآخر ؛ ولا يكفر الإنسان بهذا لكن إيمانه يكون ناقصًا ، لأن النبي ﷺ قال : « من كان يؤمن باللّٰه واليوم الآخر فليقل خيرًا أو ليصمت » ، وكما قيل : إذا كان الكلام من فضة فالسكوت من ذهب . وقيل أيضًا في الحكمة : الصمت حكمة وقليل فاعله . وقيل أيضًا : من صمت نجا ومن تكلم فإنه خطر .

فلذلك الزم الصمت إلا في شيء ترى أنه خير فحينئذٍ تكلم فالخير مطلوب .

* * *



٩٥ - باب استحباب التبشير والتهنئة بالخير

قال الله تعالى : ﴿ فَبَشِّرْ عِبَادِ ۝ الَّذِينَ يَسْتَمِعُونَ الْقَوْلَ فَيَتَّبِعُونَ أَحْسَنَهُ ﴾ [الزمر : ١٧، ١٨] . وقال تعالى : ﴿ يُبَشِّرُهُمْ رَبُّهُم بِرَحْمَةٍ مِّنْهُ وَرِضْوَانٍ وَجَنَّاتٍ لَّهُمْ فِيهَا نَعِيمٌ مُّقِيمٌ ﴾ [التوبة : ٢١] وقال تعالى : ﴿ وَأَبْشِرُوا بِالْجَنَّةِ الَّتِي كُنتُمْ تُوعَدُونَ ﴾ [فصلت : ٣٠] . وقال تعالى : ﴿ فَبَشَّرْنَاهُ بِغُلَامٍ حَلِيمٍ ﴾ [الصافات : ١٠١] . وقال تعالى : ﴿ وَلَقَدْ جَاءَتْ رُسُلُنَا إِبْرَاهِيمَ بِالْبُشْرَىٰ ﴾ [هود : ٦٩] . وقال تعالى : ﴿ وَامْرَأَتُهُ قَائِمَةٌ فَضَحِكَتْ فَبَشَّرْنَاهَا بِإِسْحَاقَ وَمِن وَرَاءِ إِسْحَاقَ يَعْقُوبَ ﴾ [هود : ٧١] . وقال تعالى : ﴿ فَنَادَتْهُ الْمَلَائِكَةُ وَهُوَ قَائِمٌ يُصَلِّي فِي الْمِحْرَابِ أَنَّ اللَّهَ يُبَشِّرُكَ بِيَحْيَىٰ ﴾ [١] [آل عمران : ٣٩] . وقال تعالى : ﴿ إِذْ قَالَتِ الْمَلَائِكَةُ يَا مَرْيَمُ إِنَّ اللَّهَ يُبَشِّرُكِ بِكَلِمَةٍ مِّنْهُ اسْمُهُ الْمَسِيحُ ﴾ [آل عمران : ٤٥] . الآية . والآيات في الباب كثيرة معلومة .

الشرح

قال المؤلف - رحمه الله تعالى - : (باب استحباب التبشير والتهنئة بالخير) .

والبشارة تكون في الأمور التي تسر ، وسميت بذلك لأن الإنسان كان إذا بشر بما يسره ظهر أثر ذلك في وجهه وفي بشرته ، وقد تكون البشارة فيما يسوء مثل قوله تعالى : ﴿ فَبَشِّرْهُم بِعَذَابٍ أَلِيمٍ ﴾ [الانشقاق : ٢٤] .

والبشارة فيما يسر تكون فيما يسر في الآخرة ، وفيما يسر في الدنيا ؛ أما البشارة فيما يسر في الآخرة فكثيرة ، ذكرها الله في القرآن في مواضع كثيرة مثل قوله تعالى : ﴿ وَبَشِّرِ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ أَنَّ لَهُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ ﴾ [البقرة : ٢٥] ، وقوله : ﴿ لَهُمُ الْبُشْرَىٰ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَفِي الْآخِرَةِ ﴾ [يونس : ٦٤] ، وقوله : ﴿ يُبَشِّرُهُمْ رَبُّهُم بِرَحْمَةٍ مِّنْهُ وَرِضْوَانٍ وَجَنَّاتٍ لَّهُمْ فِيهَا نَعِيمٌ مُّقِيمٌ ۝ خَالِدِينَ فِيهَا أَبَدًا إِنَّ اللَّهَ عِندَهُ أَجْرٌ عَظِيمٌ ﴾ [التوبة : ٢١، ٢٢] ، وقال الله تعالى : ﴿ وَأُخْرَىٰ تُحِبُّونَهَا نَصْرٌ مِّنَ اللَّهِ وَفَتْحٌ قَرِيبٌ وَبَشِّرِ الْمُؤْمِنِينَ ﴾ [الصف : ١٣] ، هذا كله فيما يتعلق بأمور الآخرة .

ومن الأمور التي تبشر بالخير في أمور الآخرة : الرؤيا الصالحة يراها الرجل أو تُرى له [٢] ، مثل أن يرى إنسان رؤيا فيقال له في المنام مثلًا : بشّر فلانًا بأنه من أهل الجنة فيبشره ، فهذه بشرى .

كذلك أيضًا الإنسان إذا رأى من نفسه أنه ينقاد للخير والعمل الصالح ويرغب فيه ويحبه ، وأنه

---

(١) قوله تعالى : ﴿ الْقَوْلَ ﴾ أي القرآن . قوله تعالى : ﴿ بِغُلَامٍ حَلِيمٍ ﴾ هو إسماعيل عليه السلام قوله تعالى : ﴿ وَامْرَأَتُهُ قَائِمَةٌ فَضَحِكَتْ ﴾ استبشارًا بهلاك قوم لوط أو تعجبت كيف تلد وهي عجوز ، أو حاضت في الوقت ليكون ذلك علامة على ما بُشرتْ به . قوله تعالى : ﴿ الْمِحْرَابِ ﴾ هو محل الصلاة .

(٢) هذا معنى حديث وقد أخرجه الإمام أحمد في مسنده (٦/١٢٩) ولفظه « الرؤيا الصالحة يراها الرجل أو تُرى له » ومالك في الموطأ في الرؤيا (٥) ص (٩٥٨) .

يكره الشر ، فهذه أيضًا بشرى ، لأن اللَّه تعالى قال : ﴿ فَأَمَّا مَنْ أَعْطَىٰ وَاتَّقَىٰ ۝ وَصَدَّقَ بِالْحُسْنَىٰ ۝ فَسَنُيَسِّرُهُ لِلْيُسْرَىٰ ﴾ [الليل : ٥-٧] .

وأما البشارة فيما يتعلق بأمر الدنيا فمثل قوله تعالى عن إبراهيم الخليل : ﴿ إِنَّا نُبَشِّرُكَ بِغُلَامٍ عَلِيمٍ ﴾ [الحجر : ٥٣] ، وفي آية أخرى : ﴿ فَبَشَّرْنَاهُ بِغُلَامٍ حَلِيمٍ ﴾ [الصافات : ١٠١] ، والذي بشر به في الآية الأولى غير الذي بُشر به في الآية الثانية التي فيها : إنا نبشرك بغلام عليم ، هذا إسحاق ، والتي فيها : فبشرناه بغلام حليم ، هذا إسماعيل عليه السلام .

إسحاق أبو بني إسرائيل ، لأن ابنه يعقوب ، ويعقوب هو إسرائيل الذي من ذريته موسى وعيسى عليهما السلام ، وأكثر الأنبياء المذكورين في القرآن كلهم من ذرية إسرائيل .

أما التي ذكر اللَّه فيها فبشرناه بغلام حليم - وهي التي في سورة الصافات - فهذا إسماعيل أبو العرب ، وليس في ذريته رسول إلا رسول واحد ولكنه ختم جميع الرسالات وبُعث إلى الناس كافة من بعثته إلى يوم القيامة ، وغيره من الأنبياء كان يبعث إلى قومه خاصة . هذا الرسول الذي من بني إسماعيل هو محمد صلوات اللَّه وسلامه عليه .

وكذلك قال تعالى عن امرأة إبراهيم : ﴿ وَامْرَأَتُهُ قَائِمَةٌ فَضَحِكَتْ فَبَشَّرْنَاهَا بِإِسْحَاقَ وَمِن وَرَاءِ إِسْحَاقَ يَعْقُوبَ ﴾ ، هذا أيضًا بشارة للأنثى .

فالحاصل أن البشارة تكون في أمور الآخرة وفي أمور الدنيا ، وينبغي للإنسان أن يكون متفائلًا مستبشرًا بالخير ، وألا يرى الدنيا أمامه كالحة فيستحسر ويقنط .

وينبغي للإنسان أيضًا إذا حصل له خير أن يهنِّيء به وأن يُبشر به إذا كان مستقبلًا ، يُهنئ به بالخير إذا وقع ، ويُبشر بالخير في المستقبل . بشّر أخاك ، أدخل عليه السرور حتى لو رأيت مثلًا إنسانًا مغتمًا قد ضاقت عليه الدنيا وتكالبت عليه الأمور ، فقل له : أبشر بالفرج لأن النبي ﷺ يقول : « واعلم أن النصر مع الصبر وأن الفرج مع الكرب وأن مع العسر يسرًا »[(١)] ، هذا كلام الرسول - عليه الصلاة والسلام - ، ما ينطق عن الهوى .

فإذا رأيت أخاك مكروبًا ، فقل له : أبشر فالفرج قريب ، وإذا رأيته في عسر فقل له : اليسر قريب ، وكما قال ابن عباس رضي الله عنهما : « لن يغلب عسر يسرين »[(٢)] في سورة ألم نشرح لك صدرك ﴿ فَإِنَّ مَعَ الْعُسْرِ يُسْرًا ۝ إِنَّ مَعَ الْعُسْرِ يُسْرًا ﴾ [الشرح : ٥-٦] ، العسر ذكر مرتين واليسر ذكر مرتين ، لكن حقيقة الأمر أن العسر لم يذكر إلا مرة واحدة واليسر ذُكر مرتين . لماذا ؟ قال العلماء : إذا تكررت الكلمة معرفة بأل فهي واحدة ، وإذا تكررت غير معرفة بأل فهي اثنان .

---

(١) هذا جزء من حديث وقد أخرجه الإمام أحمد في مسنده (٣٠٧/١) ولفظه : « يا غلام أو يا غليم ألا أعلمك كلمات .. » .

(٢) أخرجه الحاكم في المستدرك (٥٢٨/٢) عن الحسن بلفظ « لن يغلب عسر يسرين .. » وفي كشف الخفاء ذكر أنه ورد عن ابن عباس (٢٠٧٩) .

العسر كرر مرتين لكن بأل ، فيكون العسر الثاني هو الأول ، واليسر كرر مرتين لكن بدون (أل) فيكون اليسر الثاني غير اليسر الأول ، ولهذا قال ابن عباس رضي الله عنهما : « لن يغلب عسر يسرين » .

يقال : إن الحجاج بن يوسف الثقفي وهو رجل معروف - نسأل الله أن يعفو عنه - ، رجل ظالم يقتل الناس بغير حق ، تكلم عنده أحد الناس وقال له كلمة استنكرها الحجاج ، وكان الحجاج جيدًا في اللغة العربية ، فهو الذي شكل القرآن وهذه من حسناته ، وإن كان له سيئات كثيرة . قال له الحجاج : ليس هذا في اللغة العربية ، فُعلة ما تأتي في اللغة العربية ، قال : هكذا سمعت من الأعراب . وكانوا يأخذون اللغة من الأعراب ؛ لأن الأعراب في البادية ليسوا في المدن ، والمدن دخل فيها الفرس والروم الذين أسلموا فتغير اللسان . فقال الحجاج : اذهب عند الأعراب وائتني بشاهد من كلام العرب ما يدل على أن فُعلة موجودة في اللغة العربية ، ولك كذا وكذا يوم ، فإن لم تأتني فأنا أضرب عنقك .

ذهب الرجل مكروبًا والحجاج ينفذ ما يقول ، وذهب يطلب من الأعراب ، فسمع أعرابيًا يقول : ربما تكره النفوس من الأمر له فُرجةٌ كَحَلِّ العِقَالِ ، ففرح بها فرحًا عظيمًا وجاء بها إلى الحجاج ، فبينما هو في الطريق قيل له : إن الحجاج قد مات ، فقال : والله ما أدري هل أنا أشد فرحًا بهذه الكلمة التي وجدتها عند الأعرابي أو بموت هذا الرجل .

فالحاصل : أن الإنسان ينبغي له أن يدخل السرور والبشري على إخوانه حتى يفرحوا ، وينشطوا ، ويؤملوا ، وينتظروا الفرج . نسأل الله أن يجعلنا والمسلمين ممن له البشرى في الحياة الدنيا والآخرة .

* * *

٧٠٨ - عن أبي إبراهيمَ - وَيُقَالُ : أبو محمد ، ويقال : أبو مُعَاوِيَةَ - عَبدِ الله بن أبي أَوفَى رضي الله عنه أنَّ رسول الله ﷺ بَشَّرَ خَدِيجَةَ رضي الله عنها بِبَيتٍ في الجنَّةِ مِنْ قَصَبٍ ، لا صَخَبَ فِيهِ ولا نَصَبَ [1] . متفقٌ عليه .

« القَصَبُ » هُنَا : اللُّؤلُؤُ المجُوَّفُ « وَالصَّخَبُ » : الصِّياحُ وَاللَّغَطُ . « وَالنَّصَبُ » : التَّعَبُ .

٧٠٩ - وعن أبي موسى الأَشْعَرِيِّ رضي الله عنه أَنَّهُ تَوَضَّأَ في بَيتِهِ ، ثُمَّ خَرَجَ فقال : لأَلْزَمَنَّ رسول الله ﷺ ، وَلأَكُونَنَّ مَعَهُ يَومِي هذا ، فَجَاءَ المَسْجِدَ ، فَسَأَلَ عَنِ النَّبيِّ ﷺ ، فَقَالُوا : وَجَّهَ هٰهُنا ، قال : فَخَرَجْتُ على أَثَرِهِ أَسْأَلُ عَنْهُ ، حَتَّى دَخَلَ بِئْرَ أَرِيسٍ ، فَجَلَسْتُ عِنْدَ البَابِ حَتَّى قَضَى رسول الله ﷺ حَاجَتَهُ وَتَوَضَّأَ ، فَقُمْتُ إِلَيهِ ، فَإِذا هُوَ قَدْ جَلَسَ عَلى بِئْرِ أريسٍ ، وَتَوَسَّطَ قُفَّهَا ، وَكَشَفَ عَنْ سَاقَيهِ وَدَلَّاهُمَا في البِئْرِ ، فَسَلَّمْتُ عَلَيهِ ثُمَّ انْصَرَفْتُ ، فَجَلَسْتُ عِنْدَ البَابِ فَقُلْتُ : لأَكُونَنَّ بَوَّابَ رسول الله ﷺ اليَومَ ، فَجَاءَ أَبُو بَكْرٍ رضي الله عنه فَدَفَعَ البَابَ فَقُلْتُ : مَنْ هَذا ؟ فَقَالَ : أَبُو بَكْرٍ ، فَقُلْتُ : عَلى رِسْلِكَ ، ثُمَّ ذَهَبْتُ فَقُلْتُ : يا رَسُولَ الله هذا أَبُو بَكْرٍ يَسْتَأْذِنُ ، فَقَالَ : « ائْذَنْ لَهُ وَبَشِّرْهُ بالجَنَّةِ » فَأَقْبَلْتُ حَتَّى

---

(١) أخرجه البخاري في مناقب الأنصار (٣٨١٩) ، ومسلم في فضائل الصحابة (٧٢) .

قُلْتُ لأبي بَكْر : ادْخُلْ ورَسُولُ اللَّهِ يُبَشِّرُكَ بالجَنَّةِ ، فَدَخَلَ أَبُو بَكْر حَتَّى جَلَسَ عَنْ يَمِين النَّبيِّ ﷺ مَعَهُ في القُفِّ وَدَلَّى رِجْلَيهِ في البِئْرِ كمَا صَنَعَ رَسُولُ اللَّه ﷺ ، وَكَشَفَ عَنْ سَاقَيهِ ، ثُمَّ رَجَعْتُ وجَلَسْتُ ، وقَد تَرَكْتُ أخي يَتَوَضَّأُ وَيَلْحَقُني ، فَقُلْتُ : إنْ يُرِدِ اللَّه بِفُلانٍ - يُريدُ أَخَاهُ - خَيرًا يَأتِ بِهِ ، فَإذا إنْسَانٌ يُحَرِّكُ البَابَ ، فَقُلْتُ : مَنْ هذا ؟ فَقَالَ : عُمَرُ بنُ الخَطَّابِ . فَقُلْتُ : عَلى رِسْلِكَ ، ثُمَّ جِئْتُ إلى رَسُولِ اللَّه ﷺ ، فَسَلَّمْتُ عَلَيه وقُلْتُ : هذَا عُمَرُ يَسْتَأذِنُ ؟ فَقَالَ : « ائْذَنْ لَهُ وَبَشِّرْهُ بِالجَنَّةِ » فَجِئْتُ عُمَرَ ، فَقُلْتُ : أَذِنَ وَيُبَشِّرُكَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ بِالجنَّةِ ، فَدَخَلَ فَجَلَسَ مَعَ رَسُول اللَّه ﷺ في القُفِّ عَنْ يَسَارِهِ ، وَدَلَّى رِجْلَيهِ في البِئْرِ ، ثُمَّ رَجَعْتُ فَجَلَسْتُ فَقُلْت : إنْ يُرِدِ اللَّه بفُلانٍ خَيرًا - يَعْني أَخَاهُ - يَأْتِ بِهِ ، فَجَاءَ إنْسَانٌ فَحَرَّكَ البَابَ . فَقُلْتُ : مَنْ هذَا ؟ فَقَالَ : عُثْمَانُ بنُ عَفَّانَ فَقُلْتُ : عَلى رِسْلِكَ ، وجِئْتُ النَّبيَّ ﷺ ، فَأَخْبَرْتُهُ فَقالَ : « ائْذَنْ لَهُ وَبَشِّرْهُ بِالجَنَّةِ مَعَ بَلْوَى تُصيبُه » ، فَجِئْتُ فَقُلْتُ : ادْخُلْ وَيُبَشِّرُكَ رسُولُ اللَّهِ ﷺ بِالجَنَّةِ مَعَ بَلْوَى تُصيبُكَ ، فَدَخَلَ فَوَجَدَ القُفَّ قَدْ مُلِئ ، فَجَلَسَ وِجَاهَهُمْ مِنَ الشِّقِّ الآخرَ . قَالَ سَعِيدُ بنُ المُسَيّب : فَأَوَّلْتُهَا قُبُورَهُمْ . متفقٌ عليه [1] .

وزادَ في روايةٍ : « وَأَمَرَني رسول اللَّه ﷺ بِحفْظِ البَابِ . وَفِيها : أَنَّ عُثْمانَ حِينَ بَشَّرَهُ حَمِدَ اللَّهَ تعالى ، ثُمَّ قَالَ : اللَّهُ المُسْتَعَانُ [2] .

قوله : « وَجَّهَ » بفتحِ الواو وتشديدِ الجيم ، أَي : تَوَجَّهَ . وقوله : « بِئْرِ أَرِيسٍ » : هو بفتحِ الهمزةِ وكسرِ الراء ، وبعْدَها ياءٌ مُثَنَّاةٌ مِن تحت ساكِنَةٌ ، ثُمَّ سِينٌ مهملَةٌ ، وهو مصروفٌ ، ومنهمْ مَنْ مَنَعَ صَرْفَهُ . « والقُفُّ » بضم القافِ وتشديد الفاءِ : هُوَ المَبْنيُّ حَولَ البِئْرِ . قوله : « عَلى رِسْلِكَ » بكسر الراء على المشهور ، وقيل بفتحها ، أَي : ارْفُقْ .

الشرح

ذكر المؤلف رحمه الله في (باب استحباب التبشير بالخير والتهنئة به) آيات سبق الكلام عليها ، وبيّنّا أن البشارة قد تكون بخير في الدنيا وقد تكون في الآخرة .

ثم ذكر حديثين : حديث أبي إبراهيم عبد الله بن أبي أوفى رضي الله عنه أن النبي ﷺ بشر خديجة رضي الله عنها ببيت في الجنة . وكذلك حديث أبي موسى الأشعري وسيأتي إن شاء الله .

فقد بشر ﷺ خديجة رضي الله عنها ببيت في الجنة من قصب ليس فيه صخب ولا نصب . ولكن القصب الذي بُني منه قصر خديجة في الجنة ليس كالقصب الذي في الدنيا . الاسم هو الاسم

---

(١) أخرجه مسلم في فضائل الصحابة (٢٩) واللفظ له ، والبخاري في فضائل أصحاب النبي (٣٦٧٤) قوله «فأولتها قبورهم » قيل : نية وقوع التأويل في اليقظة وهو الذي يسمى الفراسة . والمراد اجتماع أبي بكر وعمر مع النبي ﷺ في الدفن وانفراد عثمان عنهم .

(٢) هذه رواية للبخاري أخرجها في الأدب (٦٢١٦) .

والحقيقة غير الحقيقة ، كما أنه في الجنة نخل ورمان وفاكهة ولحم طير وغير ذلك لكن التشابه في الاسم فقط ، فالاسم هو الاسم والحقيقة غير الحقيقة .

وهذا باب يجب على الإنسان أن يتفطن له ؛ فإن أمور الغيب التي لها نظير في الدنيا لا تماثل نظيرها في الآخرة .

فمثلًا في صفات الله ﷻ ، لله ﷻ وجه كريم ، موصوف بالجلال والإكرام ، ونحن أيضًا لنا وجه فالأمر لا يختلف في الاسم ، لكن قال تعالى : ﴿ لَيْسَ كَمِثْلِهِۦ شَىْءٌ ۖ وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْبَصِيرُ ﴾ [الشورى : ١١] ، فوجهه يليق بجلاله وعظمته ، ولا يمكن الإحاطة به ؛ لا وصفًا ، ولا تصورًا في الذهن ، ولا نطقًا باللسان ، فهو أعظم وأجل من أن تحيط به الأوصاف ، وهكذا بقية صفاته ﷻ. اسمها يوافق الاسم الذي نتصف به ، ولكن الحقيقة غير الحقيقة .

كذلك أيضًا الجنة فيها عسل ، وماء ، وخمر ، ولحم ، ونساء ، وفاكهة ، ورمان ، وغير ذلك ، لكن ليست كالذي في الدنيا ؛ لأن الله ﷻ قال في القرآن الكريم : ﴿ فَلَا تَعْلَمُ نَفْسٌ مَّآ أُخْفِىَ لَهُم مِّن قُرَّةِ أَعْيُنٍ ﴾ [السجدة : ١٧] ، ولو كانت مثل ما في الدنيا لكنا نعلمها ، لكنها ليست مثلها ولا قريبًا منها .

وكذلك قال النبي ﷺ فيما يرويه عن الله أنه قال : « أعددت لعبادي الصالحين ما لا عين رأت ولا أذن سمعت ولا خطر على قلب بشر » (١) نسأل الله أن يجعلنا والمسلمين ممن أعد الله لهم ذلك .

فخديجة رضي الله عنها بشرها النبي ﷺ بواسطة جبريل ، هو الذي أخبر الرسول ﷺ : بشَّرَها ببيت في الجنة من قصب ، ولكن ليس القصب الذي في الجنة مثل القصب الذي في الدنيا ، ثم قال : « ليس فيه صخب ولا نصب » .

والصخب : أي الأصوات المزعجة الشديدة ، أهل الجنة كلهم ليس عندهم صخب ولا نصب ولا كلام لغو ، كما قال تعالى : ﴿ لَّا لَغْوٌ فِيهَا وَلَا تَأْثِيمٌ ﴾ [الطور : ٢٣] .

﴿ تَحِيَّتُهُمْ فِيهَا سَلَٰمٌ ﴾ [إبراهيم : ٢٣] ، فكلامهم طيب لأنهم جوار الطيب جل وعلا ، فهم طيبون في جنات عدن ، مساكن طيبة عند الطيب جل وعلا ، كما أن قلوبهم في الدنيا طيبة ، وأفعالهم طيبة ، لأن الله لا يقبل إلا الطيب (٢) ، وأفعالهم مقبولة ، فهم كذلك في الآخرة .

فقصر خديجة ليس فيه صخب ، وليس فيه نصب ، وليس فيه تعب ، لا يحتاج إلى كنس القمامة ولا غيره ، بل كله طيب . وهذه بشارة لأم المؤمنين خديجة رضي الله عنها .

وأم المؤمنين خديجة هي أول امرأة تزوجها النبي ﷺ ، تزوجها وهو ﷺ ابن خمس وعشرين سنة ، ولها أربعون سنة من زوج سابق قبله ، وولدت له ﷺ بناته الأربع وأولاده الثلاثة أو الاثنان ،

---

(١) أخرجه البخاري في بدء الخلق (٣٢٤٤) ، ومسلم في الجنة وصفة نعيمها (٢) .

(٢) هذا معنى حديث وقد أخرجه مسلم في الزكاة (٦٥) بلفظ « إن الله طيب لا يقبل إلا طيبًا » ، وأحمد في مسنده (٣٢٨/٢) .

ان ، ولم يتزوج عليها أحدًا حتى ماتت رضي الله عنها ، وكانت امرأة عاقلة ذكية حكيمة ، لها مآثر طيبة معروفة يجدها من يراجع ترجمتها في كتب التاريخ [١] ، وكانت تسامي عائشة رضي الله عنها يعني إنها هي وعائشة أفضل نساء الرسول - عليه الصلاة والسلام - وأحب نسائه إليه .

واختلف العلماء أيهما أفضل ؛ فقيل : عائشة ، وقيل : خديجة ، والصحيح أن لكل واحدة منهما مزية تختص بها ، لا تشاركها فيها الأخرى .

فلعائشة رضي الله عنها في آخر الرسالة ، وبعد موت الرسول - عليه الصلاة والسلام - ، من نشر الرسالة والعلم والشريعة ما ليس لخديجة .

وخديجة رضي الله عنها لها في أول الرسالة ومناصرة النبي ﷺ ومعاضدته ما ليس لعائشة ، فلكل واحدة منهما مزية .

أما الفضيلة الكبرى فكفى لهما فخرًا أنهما أحب نساء النبي ﷺ إليه ، ويكفي هذا ، وأما الفضائل فكل واحدة لها فضيلة .

* * *

ثم ذكر المؤلف - رحمه اللَّه تعالى - حديث أبي موسى الأشعري رضي الله عنه ، أنه في يوم من الأيام توضأ في بيته وخرج يطلب النبي ﷺ ويقول : « لألزمن رسول اللَّه ﷺ يومي هذا » . ألزمن : يعني أكون معه ذاهبًا وآتيًا . وفي هذا : دليل على أن الإنسان ينبغي إذا خرج من بيته أن يكون متوضئًا لأجل أن يكون مستعدًا للصلاة وهو خارج البيت ، فإذا جاء وقت الصلاة وهو في مكان لا يوجد فيه ماء كان على طهارة وصلى ، وإذا حضرت جنازة صلى عليها وهو خارج البيت ، أو على الأقل يكون على طهر ، لأن كون الإنسان على طهر أفضل من أن يكون على غير طهر ، وربما أيضًا يحصل له الموت في هذا الوقت فيكون على طهر ، فالإنسان يحرص ما استطاع أن يكون على طهر لاسيما إذا خرج من بيته .

فخرج رضي الله عنه يطلب النبي ﷺ فأتى المسجد ، لأن الرسول - عليه الصلاة والسلام - إما في المسجد وإما في بيته في مهنة أهله [٢] ، وإما في مصالح أصحابه - عليه الصلاة والسلام - ، فلم يجده في المسجد ، فسأل عنه فقالوا : وجَّه هاهنا ، وأشاروا إلى ناحية (أريس) وهي بئر حول قباء ، فخرج أبو موسى في إثره حتى وصل إلى البئر ، فوجد النبي ﷺ هنالك فلزم الباب رضي الله عنه .

فقضى النبي ﷺ حاجته وتوضأ ثم جلس على قُفِّ البئر يعني على حافته ، ودلى رجليه وكشف عن ساقيه . والظاهر - واللَّه أعلم - أنه كان في ذلك الوقت في حَرٍّ ، وهذا البئر فيه ماء ، والماء قريب وحوله الأشجار والنخل والظلال ، وعادة أن الإنسان إذا حصل له مثل ذلك فعل مثل هذا الفعل ؛ فيكشف عن ساقيه ليبرد جسمه ، وتأتيه من برودة الماء الذي في البئر ، وفي هذا الظل .

فجلس - عليه الصلاة والسلام - متوسطًا للقف أي حافة البئر ، ودلى رجليه ، وكشف عن

---

(١) انظر الطبقات الكبرى (٨/٥٢) ، وأعلام النساء لعمر رضا كحاله (١/٣٢٦) .

(٢) أخرجه البخاري في النفقات (٥٣٦٣) بلفظ « كان (يكون) في مهنة أهله .. » ، والإمام أحمد في مسنده (٦/٤٩) .

ساقيه ، وكان أبو موسى على الباب يحفظ باب البئر ، فاستأذن أبو بكر ﷺ ، لكنه لم يأذن له أبو موسى حتى يستشير النبي ﷺ ، فقال للنبي ﷺ : هذا أبو بكر يستأذن ، فقال : « ائذن له وبشره بالجنة » فأذن له وقال له : يبشرك رسول الله ﷺ بالجنة .

ويالها من بشارة .. ! يبشره بالجنة ثم يأذن له أن يدخل ليكون مع الرسول ﷺ .

فدخل ووجد النبي ﷺ متوسطًا القفَّ فجلس عن يمينه ؛ لأن النبي ﷺ يعجبه التيامن في كل شيء ، فجلس أبو بكر على يمينه وصنع مثل ما صنع النبي ﷺ ؛ دلى رجليه في البئر وكشف عن ساقيه كراهة أن يخالف النبي ﷺ ؛ في هذه الجلسة ، وإلا فليس من المشروع أن يجلس الإنسان على بئر ويدلي رجليه ويكشف عن ساقيه ، لكنه لا يحب أن يجلس مع النبي ﷺ على غير الهيئة التي كان النبي ﷺ يجلس عليها .

فقال أبو موسى - وكان قد ترك أخاه يتوضأ ويلحقه - : إن يرد الله به خيرًا يأت به ، وإذا جاء واستأذن فقد يحصل له أن يُبشر بالجنة ، ولكن استأذن الرجل الثاني ، فجاء أبو موسى إلى الرسول - عليه الصلاة والسلام - وقال : هذا عمر قال : « ائذن له وبشره بالجنة » فأذن له ، وقال له : يبشرك رسول الله ﷺ بالجنة .

فدخل فوجد النبي ﷺ وأبا بكر على القف ، فجلس عن يسار الرسول - عليه الصلاة والسلام - والبئر ضيقة ، ليست واسعة كثيرًا ، فهؤلاء الثلاثة كانوا في جانب واحد .

ثم استأذن عثمان وصنع أبو موسى مثل ما صنع من الاستئذان فقال النبي ﷺ : « ائذن له وبشره بالجنة مع بلوى تصيبه » ، فإذن له وقال : يبشرك الرسول ﷺ بالجنة مع بلوى تصيبك ، فاجتمع في حقه نعمة وبلوى ، فدخل فوجد القف قد امتلأ ، لأنه ليس واسعًا كثيرًا ، فذهب إلى الناحية الأخرى تجاههم وجلس فيها ، ودلى رجليه ، وكشف عن ساقيه .

أوّلها سعيد بن المسيب - أحد كبار التابعين - على أنها قبور هؤلاء ؛ لأن قبور الثلاثة كانت في مكان واحد ، فالنبي ﷺ وأبو بكر وعمر كلهم كانوا في حجرة واحدة ، دفنوا جميعًا في مكان واحد ، وكانوا في الدنيا يذهبون جميعًا ويرجعون جميعًا ، ودائمًا يقول النبي ﷺ : « ذهبت أنا وأبو بكر وعمر » « وجئت أنا وأبو بكر وعمر » [1] ، فهما صاحباه ووزيراه ، ويوم القيامه يخرجون من قبورهم جميعًا .

فجلس عثمان ﷺ تجاههم ، وبشره ﷺ بالجنة مع بلوى تصيبه ، وهذه البلوى هي ما حصل له ﷺ من اختلاف الناس عليه وخروجهم عليه ، وقتلهم إياه في بيته ﷺ ، حيث دخلوا عليه في بيته وقتلوه وهو يقرأ القرآن ، وكتاب الله بين يديه .

ويذكر بعض المؤرخين أن قطرة من الدم نزلت على قوله تعالى : ﴿ فَسَيَكْفِيكَهُمُ ٱللَّهُ وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ

---

(١) أخرجه البخاري في فضائل الصحابة (٣٦٨٥) بلفظ « ذهبت أنا وأبو بكر وعمر ، ودخلت أنا وأبو بكر وعمر وخرجت أنا وأبو بكر وعمر » وابن ماجه في المقدمة (٩٨) .

﴿ٱلْعَلِيمُ﴾ [البقرة: ١٣٧] ، والله أعلم .

لكن على كل حال هو ﷺ كان معروفًا بكثرة القراءة والتهجد ، فدخل عليه أولئك المعتدون الظالمون فقتلوه ، فقتل شهيدًا .

وبذلك تحقق قول الرسول - عليه الصلاة والسلام - حينما صعد على جبل أحد - وهو جبل معروف كبير في المدينة - هو وأبو بكر وعمر وعثمان ، وارتج بهم الجبل ، وهذا من آيات الله ، ليس هو ارتجاج نقمة وخسف ، لكنه ارتجاج فرح ، فلما ارتج بهم الجبل قال له النبي ﷺ : « اثبت أُحُدُ ، فإنما عليك نبي وصديق وشهيدان » [1] فالنبي هو - عليه الصلاة والسلام - ، والصديق أبو بكر ، والشهيدان : عمر وعثمان .

وكلاهما ﷺ قتل شهيدًا ؛ أما عمر فَقُتِلَ وهو متقدم لصلاة الفجر بالمسلمين ، قُتِلَ في المحراب ، وأما عثمان فَقُتِلَ وهو يتهجد في بيته في صلاة الليل ، فرضي الله عنهما ، وألحقنا وصالح المسلمين بهما في دار النعيم المقيم .

فهذه القصة فيها بشارة لأبي بكر وعمر وعثمان ، ولذلك ذكرها المصنف رحمه الله في هذا الباب ، فرضي الله عنهم جميعًا ، وجعلنا والمسلمين ممن يحشرون في زمرة محمد ﷺ .

* * *

٧١٠ - وعنْ أبي هريرة ﷺ قال : كُنَّا قُعُودًا حَولَ رسول الله ﷺ ، وَمَعَنا أَبُو بَكْرٍ وعُمَرُ ﷺ في نَفَرٍ ، فَقامَ رسول الله ﷺ مِنْ بينِ أَظْهُرِنَا فَأبطَأَ عَلَينَا ، وَخَشِينا أَنْ يُقْتَطَعَ دُونَنا وَفَزِعْنَا فَقُمْنَا ، فَكُنْتُ أَوَّلَ مَنْ فَزِعَ ، فَخَرَجْتُ أَبْتَغِي رسول الله ﷺ ، حَتى أَتيتُ حَائِطًا للأنْصارِ لِبَنِي النَّجَّار ، فَدُرْتُ بِهِ هَلْ أَجِدُ لَهُ بَابًا ؟ فَلَمْ أَجِدْ ، فَإِذَا رَبِيعٌ يَدْخُلُ في جَوفِ حَائِطٍ مِنْ بِئْرٍ خارِجَةٍ - وَالرَّبِيعُ : الجَدْوَلُ الصَّغِيرُ - فَاحْتَفَزْتُ ، فَدَخَلْتُ عَلى رسُولِ اللهِ ﷺ فَقال : « أَبُو هُرَيرَةَ ؟ » فَقُلْتُ : نَعَمْ يَا رَسُولَ اللهِ ، قَال : « مَا شَأْنُكَ » قلتُ : كُنْتَ بَينَ ظَهْرَينَا فَقُمْتَ فَأَبْطَأْتَ عَلَينَا ، فَخَشِينَا أَنْ تُقْتَطَعَ دُونَنَا ، فَفَزِعْنَا ، فَكُنْتُ أَوَّلَ مَنْ فَزِعَ ، فَأَتيتُ هذَا الحائِطَ ، فَاحتَفَزْتُ كَمَا يَحْتَفِزُ الثَّعْلَبُ ، وَهؤلاءِ النَّاسُ وَرَائِي ، فَقَالَ : « يَا أَبَا هُرَيرَةَ » وَأَعْطَانِي نَعْلَيهِ فَقَالَ : « اذْهَبْ بِنَعْلَيَّ هاتَينِ ، فَمَنْ لَقِيتَ مِنْ وَرَاءِ هذَا الحائِطِ يَشْهَدُ أَنْ لاَ إِلَهَ إِلا اللهُ مُسْتَيقِنًا بها قَلْبُهُ ، فَبَشِّرْهُ بالجَنَّةِ » وَذَكَرَ الحَدِيثَ بطُولِهِ [2] ، رواه مسلم .

« الرَّبِيعُ » : النَّهْرُ الصَّغِيرُ ، وَهُوَ الجَدْوَلُ - بفتحِ الجيمِ - كَمَا فَسَّرَهُ في الحَدِيثِ . وقولُه :

---

(١) أخرجه البخاري في فضائل أصحاب النبي (٣٦٧٥) ، والترمذي في المناقب (٣٦٩٧) .

(٢) أخرجه مسلم في الإيمان (٥٢) . قوله « من بين أظهرنا » يقال : نحن بين أظهركم وظهريكم وظهرانيكم ، أي بينكم ، قوله « يقتطع دوننا » أي يصاب بمكروه من عدوٍّ ، قوله « وفزعنا » الفزع بمعنى الروع ، وبمعنى الاهتمام بالشيء والهبوب له ، وبمعنى الإغاثة . والمعاني الثلاثة تصح هنا ، قوله « حائطًا » أي بستانًا . وسمي بذلك ؛ لأنه حائط لا سقف له .

« اخْتَفَزْتُ » رويَ بالرَّاءِ وبالزَّايِ ، ومعناهُ بالزاي : تَضامَمْتُ وتَصاغَرْتُ حَتَّى أَمْكَنَنِي الدُّخُولُ .

الشرح

هذا الحديث الذي نقله المؤلف في (باب التبشير والتهنئة بالخير) فيه أيضًا البشارة ، فإن النبي ﷺ كان جالسًا في أصحابه في نفر منهم ، ومعه أبو بكر وعمر ، فقام النبي ﷺ ثم أبطأ عليهم ، فخشوا أن يكون أحد من الناس اقتطعه دونهم ، لأن النبي ﷺ مطلوب من جهة المنافقين ومن جهة غيرهم من أعداء الدين .

فقام الصحابة ﷺ فزعين ، فكان أول من فزع أبو هريرة ﷺ ، حتى أتى حائطًا لبني النجار ، فجعل يطوف به لعله يجد بابًا فلم يجد ، ولعله أراد بابًا مفتوحًا فلم يجد لأنه من المعلوم أن الحيطان لابد أن يكون لها أبواب ، ولكن لعله أن يكون وجد بابًا مغلقًا ، ولكنه وجد فتحة صغيرة في الجدار فضم جسمه حتى دخل فوجد النبي ﷺ .

فقال له : « أبو هريرة » . قال : نعم . فأعطاه نعليه - عليه الصلاة والسلام - وقال له : « اذهب بِنَعْلَيّ هاتين ، فمن لقيت من وراء هذا الحائط يشهد أن لا إله إلا اللّه مستيقنًا به قلبه فبشره بالجنة » .فخرج أبو هريرة ﷺ ومعه نعلا رسول اللّه ﷺ ، وكأن الرسول ﷺ أعطاه النعلين أمارة وعلامة أنه صادق ، لأن هذه بشارة عظيمة ، أن من شهد لا إله إلا اللّه مستيقنًا بها قلبه دخل الجنة ، لأن الذي يقول هذه الكلمة مستيقنًا بها قلبه لابد أن يقوم بأوامر اللّه ويجتنب نواهي اللّه ، لأنه يقول : لا معبود بحق إلا اللّه ، وإذا كان هذا معنى تلك الكلمة العظيمة ، فإنه لابد أن يعبد اللّه ﷻ وحده لا شريك له .

أما من قالها بلسانه ولم يوقن بها قلبه - والعياذ باللّه - فإنها لا تنفعه ، فهاهم المنافقون يشهدون أن لا إله إلا اللّه ، لكنهم لا يذكرون اللّه إلا قليلًا ، ويقومون ويصلون ، لكنهم يصلون صلاة المنافقين ، فالصلاة ثقيلة عليهم ، وأثقلها صلاة العشاء والفجر ، ويأتون للرسول - عليه الصلاة والسلام - يقولون : نشهد أنك لرسول اللّه ، ويؤكدون هذا .

ولكن اللّه يقول : ﴿ وَٱللَّهُ يَعْلَمُ إِنَّكَ لَرَسُولُهُۥ وَٱللَّهُ يَشْهَدُ إِنَّ ٱلْمُنَـٰفِقِينَ لَكَـٰذِبُونَ ﴾ [المنافقون: ١] ؛ لم تستيقن قلوبهم بلا إله إلا اللّه ولا بمحمد رسول اللّه ، ولهذا لم تنفعهم ، أما من استيقن بها قلبه فهذا هو الذي يبشر بذلك .

ولكن لا يمكن أن يوجد إنسان صادق يقول : أشهد أن لا إله إلا اللّه وأن محمدًا رسول اللّه ويترك الفرائض ، ولهذا لا يكون هذا الحديث دليلًا على أن تارك الصلاة لا يكفر . لا ، ليس فيه دلالة ، لأن تارك الصلاة يكفر ولو قال : أشهد أن لا إله إلا اللّه وأن محمدًا رسول اللّه ، لأنه يقولها من غير يقين . إذ كيف يقولها من يقين ويترك الصلاة ويحافظ على تركها والعياذ باللّه ؟ [1] .

---

(١) إن من ترك الصلاة عن جحود ونكران وكفران كما لو كان غير معتقد مشروعيتها أو فائدتها ، أو كان ينظر إليها باستخفاف وزراية وسخرية فذلكم لا جرم أنه كافر وهو ما أجمع عليه العلماء سلفًا وخلفًا وقد نقل الإمام الماوردي الإجماع على ذلك وهو في ذلك جارٍ في جحود كل مجمع عليه معلوم من الدين بالضرورة (مغني المحتاج جـ ١ ص =

ولكن قد يرد على القلب وساوس من الشيطان في اللَّه ﷻ ، وهذه الوساوس لا تضر المؤمن شيئًا ، فإن النبي ﷺ قال : « هذا صريح الإيمان » (١) . ليس معنى ذلك أن الوساوس نفسها صريح الإيمان ، لكن الوساوس دليل على خالص الإيمان ، لأن الشيطان يأتي إلى القلب الخالص الصريح الخالي من الشك ويُوقع عليه الوساوس لعله يشك ، أو لعله يفسد إيمانه .

فيأتي الشيطان إلى القلب العامر بالإيمان فإذا دافعه الإنسان ، وقال : أعوذ باللَّه من الشيطان الرجيم ، وأخذ يوحِّد اللَّه ﷻ ويمجِّده وأعرض عن هذه الوساوس زالت عنه ، والشيطان لا يأتي إلى قلب خراب ليفسده ؛ لأن القلب الخراب خراب .

ويُذكر أن ابن مسعود أو ابن عباس رضي الله عنهما جاء إليه ناس يقولون : إن اليهود يقولون : نحن لا نُوَسْوَس في الصلاة . فقال ابن عباس أو ابن مسعود : وما يصنع الشيطان بقلب خراب ؟

معنى هذا أن قلوبهم خربة ، والقلوب الخربة لا يأتي الشيطان لها ، لأنها انتهت إلى ما يريده الشيطان ، إنما يأتي الشيطان للقلوب السليمة المخلصة من أجل أن يلقي عليها الوساوس والشكوك .

فدع عنك هذه الوساوس والشكوك والتجئ إلى ربك وقل : أعوذ باللَّه من الشيطان الرجيم ، اللَّه أحد ، اللَّه الصمد ، لم يلد ولم يولد ولم يكن له كفوًا أحدٌ ، هو الأول والآخر والظاهر والباطن ، فسيزول عنك ذلك بإذن اللَّه .

ففي هذا الحديث : بشارة بالخير ، وهو أن من شهد أن لا إله إلا اللَّه موقنًا بها قلبه فليبشَّر بالجنة .

* * *

٧١١ – وعَنْ ابنِ شُمَاسَةَ قالَ : حَضَرْنَا عَمْرو بنَ العَاصِ رضي الله عنه وَهُوَ في سِيَاقَة المَوت فَبَكى طَويلًا ، وَحَوَّلَ وَجْهَهُ إلى الجدارِ ، فَجَعَلَ ابْنُهُ يَقُولُ : يَا أَبَتَاهُ ، أَمَا بَشَّرَكَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ بِكَذَا؟ أَمَا بَشَّرَكَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ بِكَذَا ؟ فَأَقْبَل بوَجْهِهِ فَقَالَ : إنَّ أَفْضَلَ مَا نُعِدُّ شَهَادَةُ أَنْ لاَ إلهَ إلَّا اللَّهُ ، وَأَنَّ مُحَمَّدًا رسول اللَّه ﷺ ، إنِّي قَدْ كُنتُ عَلى أَطْبَاقٍ ثَلاث : لَقَدْ رَأَيْتُني وَمَا أَحَدٌ أَشَدَّ بُغْضًا لِرَسُولِ اللَّهِ ﷺ مِنِّي ، وَلا أَحَبَّ إليَّ مِنْ أَنْ أَكُونَ قَدِ اسْتَمْكَنْتُ مِنْهُ فَقَتَلْتُهُ ، فَلَو مُتُّ عَلى تِلْكَ الحال لَكُنْتُ مِنْ أَهْلِ النَّار ، فَلَمَّا جَعَلَ اللَّهُ الإسْلامَ في قَلْبِي أَتيتُ النَّبيَّ ﷺ فَقُلْتُ : ابْسُطْ يمينَكَ فَلأُبَايِعْكَ ، فَبَسَطَ يَمِينَه فَقَبَضْتُ يَدِي ، فقالَ : « مالكَ يَا عَمرو ؟ » قلت : أَرَدْتُ أَن أَشْتَرِطَ ، قالَ : « تشْتَرِطُ مَاذَا ؟ » ، قُلْتُ : أَنْ يُغْفَرَ لي ، قَالَ : « أَمَا عَلِمْتَ أَنَّ الإسْلامَ يَهْدِمُ ما كَانَ قَبلَهُ ، وَأَن الهِجَرة تهدِمُ ما كان

= ٣٢٧ ، المحلي جـ ٢ ص ٢٤١) .
أم إن تركها عن غير جحود ولا نكران ولا استخفاف بها ، بل تركها كسلًا وعجزًا أو تهاونًا وتثاقلًا مع أنه مؤمن بها من حيث الأهمية والمشروعية فإنه لا يكفر بل يفسق تفسيقًا ، وقد ذهب جمهور العلماء إلى أنه ينبغي قتله بعد أن ينذر ويحذر ويستتاب فإن أبى إلا النكول عن الصلاة وهو غير جاحد لها فقد وَجَبَ قتلُهُ حدًّا لا كفرًا .

(١) أخرجه مسلم في الإيمان (٢٠٩) ، وأحمد في مسنده (٤٤١/١) .

قَبْلَهَا ، وَأَنَّ الحَجَّ يَهدِمُ ما كَانَ قَبْلَهُ ؟ » وما كان أحدٌ أَحَبَّ إِليَّ مِنْ رسول اللَّه ﷺ ، وَلا أَجَلَّ في عَيني مِنْهُ ، ومَا كُنتُ أُطِيقُ أَن أَملأَ عَيني مِنه ، إجلالًا له ، ولو سُئِلتُ أَن أَصِفَهُ ما أَطَقتُ ؛ لأَنِّي لَم أَكنِ أملأُ عَيني مِنه ، ولو مُتُّ على تِلكَ الحَالِ لَرَجَوتُ أَنْ أَكُونَ مِنْ أَهْلِ الجَنَّةِ ، ثُم وُلِّينَا أَشياءَ ما أَدرِي ما حَالي فِيها ؟ فإذا أنا مُت فلا تَصحَبْنِي نَائحَةٌ ولا نَارٌ ، فإذا دَفنتُموني ، فَشُنُّوا عليَّ التُّرَابَ شَنًّا ، ثم أَقِيمُوا حَول قَبرِي قَدرَ ما تُنحرُ جَزورٌ ، ويُقْسَمُ لحمُهَا ، حَتَّى أَسْتَأْنِسَ بِكُمْ ، وأَنظُرَ ما أُرَاجِعُ بِهِ رسُلَ ربي [(١)] . رواه مسلم .

قوله : « شُنُّوا » رُوِيَ بِالشينِ المعجمةِ وبالمهملةِ ، أَي : صُبُّوهُ قَلِيلًا قَلِيلًا . واللَّه سبحانه أعلم .

الشرح

ثم ذكر المؤلف رحمه الله في سياق الأحاديث الواردة في التبشير والتهنئة بالخير حديث عمرو بن العاص رضي الله عنه ، تلك القصة العظيمة أنه حضره بعض أصحابه وهو في سياق الموت ، فبكى بكاءً شديدًا وحول وجهه نحو الجدار رضي الله عنه ، وهو في سياق الموت سيفارق الدنيا ، فقال له ابنه : عَلامَ تبكي وقد بشرك النبي ﷺ بالجنة ؟ فقال : « يا بني إني كنت على أطباق ثلاث » ، أطباق يعني أحوال ، ومنه قوله تعالى : ﴿ لَتَرْكَبُنَّ طَبَقًا عَن طَبَقٍ ﴾ [الانشقاق : ١٩] ، يعني حالًا بعد حال .

ثم ذكر هذه الأطباق الثلاث ؛ أنه كان يُبغض النبي ﷺ بغضًا شديدًا ، وأنه لم يكن على وجه الأرض أحد يبغضه كما كان يبغضه هو ، وأنه يود أنه لو تمكن منه فقتله ، وهذا أشد ما يكون من الكفر ، حتى ألقى اللَّه الإسلام في قلبه ، فجاء إلى النبي ﷺ فقال يا رسول اللَّه : ابسط يدك فلأبايعك على الإسلام ، وكان النبي ﷺ أحسن الناس خلقًا ، فمد يده ولكن عمرو بن العاص كفّ يده ليس استكبارًا ، ولكن استثباتًا لما سيذكره ، فقال له : « مَالكَ » ؟ قال : يا رسول اللَّه ، إني أشترط - يعني على الإسلام - قال : « ماذا تشترط » ؟ قال : أشترط أن يُغفر لي .

هذا أكبر همه رضي الله عنه ، يشترط أن اللَّه يغفر له ، ظن أن اللَّه لن يغفر له لما كان له من سابقة في محاربة الدين . فقال له النبي ﷺ : « أما علمت أن الإسلام يهدم ما كان قبله ، وأن الهجرة تهدم ما كان قبلها ، وأن الحج يهدم ما كان قبله » ثلاثة أشياء .

أما الإسلام فإنه يهدم ما كان قبله بنص الكتاب العزيز ، قال اللَّه عز وجل : ﴿ قُل لِّلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ إِن يَنتَهُواْ يُغْفَرْ لَهُم مَّا قَدْ سَلَفَ وَإِن يَعُودُواْ فَقَدْ مَضَتْ سُنَّتُ ٱلْأَوَّلِينَ ﴾ [الأنفال : ٣٨] .

والهجرة : إذا هاجر الإنسان من بلده التي كان يعيش فيها وهي بلد كفر ، هدمت ما قبلها .

---

(١) أخرجه مسلم في الإيمان (١٩٢) . قوله « في سياقة الموت » أي حال حضور الموت ، قوله « كنت على أطباق ثلاث » أي على أحوال ثلاث ، قوله « فلا تصحبني نائحة » النائحة الرافعة صوتها بالبكاء كـ « يا جبلاه » ، وهي ملعونة في السُّنة ، قوله « جزور » الجزور هي الناقة التي تنحر .

والحج يهدم ما قبله لقول النبي ﷺ : « من حجَّ فلم يرفث ولم يفسق رجع من ذنوبه كيوم ولدته أمه »[١] .

فبايع رضي الله عنه وأحب النبي ﷺ حبًا شديدًا حتى كان أحب الناس إليه ، وحتى أنه لا يستطيع أن يحد النظر فيه إجلالًا له - عليه الصلاة والسلام - . سبحان مقلب القلوب ! بالأمس كان يبغضه بغضًا شديدًا ، حتى يتمنى أنه يقدر عليه فيقتله ، والآن ما يستطيع أن يرفع طرفه إليه إجلالًا له ، ولا يستطيع أن يصفه لأنه لا يحيط به ، حيث إنه لم يدركه إدراكًا جيدًا مهابةً له ﷺ .

يقول رضي الله عنه : إنه لو مات على الطبق الأول لكان من أهل النار ، يقول : ولو مت على تلك الحال يعني الطبق الثاني ، لرجوت أن أكون من أهل الجنة . انظر الاحتياط فقد جزم أنه لو مات على الحال الأولى لكان من أهل النار ، أما الحال الثانية فإنه لشدة خوفه قال : لو مت على هذه الحال لرجوت أن أكون من أهل الجنة ، ولم يقل : لكنت من أهل الجنة ، لأن الشهادة بالجنة أمرها صعب ، نسأل الله أن يجعلني وإياكم من أهلها .

ثم إنه بعد ذلك تولى أمورًا رضي الله عنه ، وتولى إمارات وقيادات ، وحصل ما حصل في قصة حرب معاوية وغيره ، وكان عمرو بن العاص معروف أنه من أدهى العرب وأذكى العرب ، فيقول : أخشى من هذا الذي حدث بعد الطبق الأوسط أن يكون أحاط بعمله .

ثم أوصى رضي الله عنه أنه مات فلا تتبعه نائحة . والنائحة : هي المرأة التي تنوح على الميت وتبكي عليه بكاءً يشبه نوح الحمام ، وأمر رضي الله عنه إذا دفنوه أن يبقوا عند قبره قدر ما تنحر جزور ويقسم لحمها ، حتى يراجع رسل ربه وهم الملائكة الذين يأتون إلى الميت إذا دفن الميت فإنه يأتيه ملكان ويجلسانه في قبره ويسألانه ثلاثة أسئلة يقولان له : من ربك ؟ وما دينك ؟ ومن نبيك ؟

أما المؤمن الذي ثبته الله بالقول الثابت في الحياة الدنيا وفي الآخرة - جعلنا الله منهم بمنّه وكرمه - فيقول : ربي الله ، وديني الإسلام ، ونبيي محمد ﷺ ، يثبته الله في هذا المقام الضنك .

وأما المنافق - والعياذ بالله - أو المرتاب الذي عنده الشك فيقول : هاه .. هاه لا أدري ، سمعت الناس يقولون شيئًا فقلته ، لأن الإيمان ما دخل إلى قلبه ولا وقر في قلبه ، فهو يسمع ويقول ، لكن - نسأل الله العافية - لم يلج الإيمان قلبه ، فيُضرب بمرزبة ، والمرزبة : هي المطرقة العظيمة من الحديد ؛ يضرب بِمَرَزَبَّة ، من حديد فيصيح صيحة يسمعها كل شيء إلا الإنسان[٢] .

وقال النبي ﷺ : « ولو سمعها الإنسان لصعق » ، لو يسمع الناس من يعذب في قبره لصُعِقُوا ، لأنه يصيح صيحة لا نظير لها في الدنيا ، لأن الصياح في الدنيا مهما كان لا يموت منه أحد ، لكن هذه الصيحة عظيمة ليس لها نظير ، فيصيح صيحة يسمعها كل شيء إلا الإنسان ولو سمعها الإنسان لصُعِقَ .

---

(١) أخرجه البخاري في الحج (١٥٢١) ، ومسلم في الحج (٤٣٨) قوله : « فلم يرفث ولم يفسق » الرفث اسم للفحش من القول ، وقيل : هو الجماع وأما الفسوق فالمعصية ، وفسر بالخروج عن الاستقامة .

(٢) أخرجه البخاري في الجنائز (١٣٧٤) ، ومسلم في الجنة وصفة نعيمها (٧٠) .

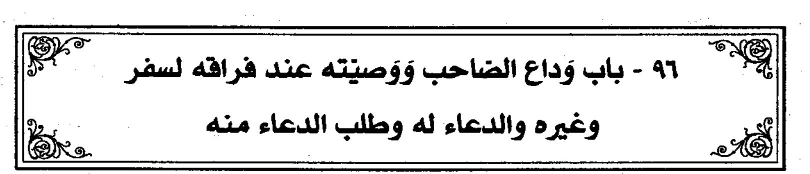
فأمر عمرو بن العاص ﷺ أهله أن يقيموا عليه قدر ما تنحر الجزور ويقسم لحمها ليستأنس بهم ، وهذا يدل على أن الميت يحس بأهله ، وقد ثبت عن النبي – عليه الصلاة والسلام – أن الميت يسمع قرع نعالهم إذا انصرفوا من دفنه [(١)] . قرع النعال الخفي يسمعه الميت إذا انصرفوا من دفنه .

وقد ثبت عن النبي – عليه الصلاة والسلام – في حديث حسن أنه كان إذا دفن الميت وقف عليه وقال : « استغفروا لأخيكم واسألوا له التثبيت فإنه الآن يسأل » [(٢)] ، فيُستحب إذا دُفن الميت أن يقف الإنسان على قبره ويقول : اللهم ثبته ، اللهم ثبته ، اللهم ثبته ، اللهم اغفر له ، اللهم اغفر له ، اللهم اغفر له . لأن النبي ﷺ كان إذا سلم سَلَّم ثلاثًا ، وإذا دعا دعا ثلاثًا [(٣)] .

نسأل اللَّه تعالى أن يثبتنا وإياكم بالقول الثابت في الحياة الدنيا وفي الآخرة .

المهم : أن ابن عمرو بن العاص قال له : بشرك النبي ﷺ بالجنة ، وهذا من باب البشارة بالخير والتهنئة به .

* * *



٩٦ - باب وداع الصاحب ووصيته عند فراقه لسفر وغيره والدعاء له وطلب الدعاء منه

قال اللَّه تعالى : ﴿ وَوَصَّىٰ بِهَآ إِبْرَٰهِـۧمُ بَنِيهِ وَيَعْقُوبُ يَٰبَنِىَّ إِنَّ ٱللَّهَ ٱصْطَفَىٰ لَكُمُ ٱلدِّينَ فَلَا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنتُم مُّسْلِمُونَ ۝ أَمْ كُنتُمْ شُهَدَآءَ إِذْ حَضَرَ يَعْقُوبَ ٱلْمَوْتُ إِذْ قَالَ لِبَنِيهِ مَا تَعْبُدُونَ مِنۢ بَعْدِى قَالُوا۟ نَعْبُدُ إِلَٰهَكَ وَإِلَٰهَ ءَابَآئِكَ إِبْرَٰهِـۧمَ وَإِسْمَٰعِيلَ وَإِسْحَٰقَ إِلَٰهًا وَٰحِدًا وَنَحْنُ لَهُۥ مُسْلِمُونَ ﴾ [(٤)] [البقرة : ١٣٢، ١٣٣] .

وأما الأحاديث :

٧١٢ – فمنها حَديثُ زيدِ بنِ أَرْقَمَ ﷺ الذي سبق في باب إكرام أَهْلِ بَيتِ رسول اللَّه ﷺ قال : قامَ رسول اللَّه ﷺ فِينا خَطِيبًا ، فَحَمِدَ اللَّه ، وأَثْنى عَلَيهِ ، وَوَعَظَ وَذَكَّرَ ، ثُمَّ قال : « أَمَّا بَعْدُ ، أَلا أَيُّها النّاسُ إِنَّمَا أَنا بَشَرٌ يُوشِكُ أَنْ يَأْتي رَسُولُ رَبِّي فأُجِيبَ ، وَأَنَا تارِكٌ فِيكُمْ ثَقَلَينِ : أَوَّلُهما : كِتَابُ اللَّهِ ، فِيهِ الهُدَى وَالنُّورُ فَخُذُوا بكِتَابِ اللَّه ، وَاسْتَمْسِكُوا بِهِ» فَحَثَّ عَلَى كِتَاب اللَّهِ ، وَرَغَّبَ فِيهِ ، ثُمَّ قال : « وَأَهْلُ بَيتي ، أُذَكِّرُكُمُ اللَّه في أَهْلِ بَيتي » [(٥)] رواه مسلم . وَقَدْ سَبَقَ بِطُولِهِ .

---

(١) سبق تخريجه .

(٢) أخرجه مسلم في الجنائز (٦٣) ، وأبو داود في الجنائز (٣٢٢١) .

(٣) أخرجه مسلم في الجهاد والسير (١٠٧) .

(٤) قوله تعالى : ﴿ ٱصْطَفَىٰ لَكُمُ ٱلدِّينَ ﴾ أي اختار لكم الإسلام . قوله تعالى : ﴿ شُهَدَآءَ ﴾ أي حاضرين .

(٥) أخرجه مسلم في فضائل الصحابة (٣٦) ، والإمام أحمد في مسنده (٣/٢٦، ٥٩) . قوله « يوشك أن يأتي رسول ربي » أي بالانتقال إليه وإن كان يخير بين ذلك وبين البقاء في الدنيا ، لكن من المعلوم أنه لا يؤثر على النقلة إليه البقاء في الدنيا ، قوله « ثقلين » سُمِّيَا به لعظمهما .

الشرح

قال النووي - رحمه اللَّه تعالى - : (باب وداع الصاحب ووصيته عند فراقه لسفر وغيره والدعاء له وطلب الدعاء منه) .

وذلك أن الإنسان إذا سافر فينبغي لذويه وأقاربه وأصحابه أن يودِّعوه ، وأن يوصوه بتقوى اللَّه ﷻ ، فإن اللَّه تعالى يقول : ﴿ وَلَقَدْ وَصَّيْنَا ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْكِتَـٰبَ مِن قَبْلِكُمْ وَإِيَّاكُمْ أَنِ ٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ ﴾ [النساء: ١٣١] .

وكان النبي ﷺ إذا بعث جيشًا أو سرية وأمَّر عليهم أميرًا قال له : « أوصيك بتقوى اللَّه ومن معك من المسلمين خيرًا » (١) ، وذلك أن الإنسان يحتاج من يساعده ويعينه على طاعة ربه لا سيما عند السفر ، لأن السفر محل الشغل والتقصير لا سيما فيما سبق من الزمان ، لما كانت الأسفار بعيدة على المطايا وعلى الأقدام ، فالناس يحتاجون إلى وصية وإلى تثبيت وإلى إعانة .

ثم ذكر المؤلف - رحمه اللَّه تعالى - الآيات الواردة في ذلك فذكر قوله تعالى : ﴿ وَوَصَّىٰ بِهَآ إِبْرَٰهِـۧمُ بَنِيهِ وَيَعْقُوبُ يَـٰبَنِىَّ إِنَّ ٱللَّهَ ٱصْطَفَىٰ لَكُمُ ٱلدِّينَ فَلَا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنتُم مُّسْلِمُونَ ﴾ [البقرة: ١٣٢] وهذه الوصية هو قول اللَّه ﷻ في إبراهيم : ﴿ إِذْ قَالَ لَهُۥ رَبُّهُۥٓ أَسْلِمْ ۖ قَالَ أَسْلَمْتُ لِرَبِّ ٱلْعَـٰلَمِينَ ﴾ [البقرة: ١٣١] ، ولم يتردد فأسلم وانقاد له .

﴿ وَوَصَّىٰ بِهَآ إِبْرَٰهِـۧمُ بَنِيهِ وَيَعْقُوبُ ﴾ يعني : وصى بهذه الوصية ، وهي أن يسلموا للَّه ﷻ ظاهرًا وباطنًا ، فالإسلام الظاهر يكون بإقام الصلاة وإيتاء الزكاة وصوم رمضان وحج البيت ، والإسلام الباطن يكون بالإيمان باللَّه وملائكته وكتبه إلى آخره .

﴿ وَوَصَّىٰ بِهَآ إِبْرَٰهِـۧمُ بَنِيهِ وَيَعْقُوبُ ﴾ يعني : أن إبراهيم ويعقوب كلًا منهما وصى بها بنيه قائلًا : ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ ٱصْطَفَىٰ لَكُمُ ٱلدِّينَ ﴾ أي : اختاره لكم ﴿ فَلَا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنتُم مُّسْلِمُونَ ﴾ المعنى : استديموا الإسلام واثبتوا عليه إلى الممات ولا ترتدوا عنه .

﴿ أَمْ كُنتُمْ شُهَدَآءَ إِذْ حَضَرَ يَعْقُوبَ ٱلْمَوْتُ إِذْ قَالَ لِبَنِيهِ مَا تَعْبُدُونَ مِنۢ بَعْدِى قَالُوا۟ نَعْبُدُ إِلَـٰهَكَ وَإِلَـٰهَ ءَابَآئِكَ إِبْرَٰهِـۧمَ وَإِسْمَـٰعِيلَ وَإِسْحَـٰقَ إِلَـٰهًا وَٰحِدًا ﴾ وهذا غاية التوحيد ، وهو من نصح يعقوب عليه السلام لبنيه حيث أراد أن يعرف حالهم قبل أن يفارق الدنيا ، ﴿ مَا تَعْبُدُونَ مِنۢ بَعْدِى قَالُوا۟ نَعْبُدُ إِلَـٰهَكَ وَإِلَـٰهَ ءَابَآئِكَ إِبْرَٰهِـۧمَ وَإِسْمَـٰعِيلَ وَإِسْحَـٰقَ ﴾ [البقرة: ١٣٣] .

أما إبراهيم فهو أبوه يعني جده ، وإسحاق أبوه من صلبه ، وأما إسماعيل فهو عمه لكن أطلق عليه لفظ الآباء من باب التغليب ، لأن العم صنو الأب ، كما قال النبي ﷺ لعمر : « يا عمر ! أما شعرت أن عم الرجل صنو أبيه » (٢) يعني شريكه في الأصل والجذر . والصنو هو عبارة عن النخلتين يكون أصلهما واحدًا وهما قرينتان .

---

(١) أخرجه مسلم في الجهاد (٣) .

(٢) أخرجه مسلم في الزكاة (١١) .

وقوله : ﴿ إِلَٰهًا وَٰحِدًا ﴾ من باب التوكيد ﴿ وَنَحْنُ لَهُۥ مُسْلِمُونَ ﴾ .

فهذه الوصية ينبغي للإنسان أن يوصي بها من أراد سفرًا ، وأن يوصي بها أهله ، وأن يتعاهدهم عليها ، لأنها هي التي عليها بناء كل شيء ، فلا دين بدون إخلاص ، ولا عبادة بدون إخلاص ، ولا اتباع بدون إخلاص ، كل شيء مبناه على الإخلاص لله ﷻ .

* * *

٧١٣ - وعن أبي سُلَيمَانَ مَالكِ بْنِ الحُوَيرِثِ ﷺ قال : أَتينا رسول اللَّه ﷺ وَنحْنُ شَبَبَةٌ مُتَقَارِبُونَ ، فَأَقمنا عِنْدَهُ عِشْرِينَ لَيلَةً ، وكان رسول اللَّه ﷺ رَحِيمًا رَفِيقًا ، فَظَنَّ أَنَّا قَدِ اشْتَقْنَا أَهْلَنَا ، فَسَأَلَنَا عَمَّنْ تَرَكْنَا مِنْ أَهْلِنَا ، فَأَخْبَرْنَاهُ ، فقال : « ارْجِعُوا إلى أَهْلِيكم ، فَأَقِيمُوا فِيهِمْ ، وَعلِّموهُم وَمُرُوهُمْ ، وَصَلُّوا صَلاةَ كَذا في حِينِ كَذَا ، وَصَلُّوا كَذَا في حِينِ كَذَا ، فَإِذَا حَضَرَتِ الصَّلاةُ فَلْيُؤَذِّنْ لَكُمْ أَحَدُكُم ، وَلْيَؤُمَّكُم أَكبَرُكُم » متفقٌ عليه (١) .

زاد البخاري في روايةٍ له : « وَصَلُّوا كَمَا رَأَيتُموني أُصَلِّي » (٢) .

قوله : « رَحِيمًا رَفِيقًا » روِيَ بفاءٍ وقافٍ ، ورويَ بقافينِ .

الشرح

ذكر المؤلف النووي - رحمه اللَّه تعالى - في باب توديع الصاحب والمسافر ما نقله عن مالك بن الحويرث ﷺ قال : أتينا رسول اللَّه ﷺ ونحن شَبَبَةٌ متقاربون ، وهذا في عام الوفود في السنة التاسعة من الهجرة وكانوا شبابًا ، فأقاموا عند النبي ﷺ عشرين ليلة .

جاءوا من أجل أن يتفقهوا في دين اللَّه ، قال مالك : وكان رسول اللَّه ﷺ رحيمًا رفيقًا ، فظنَّ أنا قد اشتقنا أهلنا ، يعني اشتقنا إليهم ، فسألَنا عمن تركنا من أهلنا ، فأخبرناه ، فقال : « ارجعوا إلى أهليكم فأقيموا فيهم وعلموهم ومروهم ، وصلوا صلاة كذا في حين كذا ، فإذا حضرت الصلاة فليؤذن لكم أحدكم وليؤمكم أكبركم » زاد البخاري : « وصلوا كما رأيتموني أصلي » .

فهذا الحديث فيه فوائد :

منها : أن النبي ﷺ كان مشهورًا بالرحمة والرفق ، فكان أرحم الناس بالناس ، وكان أرفق الناس بالناس - عليه الصلاة والسلام - . رحيمًا رفيقًا ، حتى إن الجارية من أهل المدينة - البنت الصغيرة - كانت تمسك بيده ليذهب معها ليقضي حاجتها ، وحتى العجوز كذلك ، فكان - عليه الصلاة والسلام - أرحم الناس بالناس ، وأرفق الناس بالناس .

---

(١) أخرجه البخاري في الأذان (٦٨٥) ، ومسلم في المساجد (٦٧٤) . قوله « شَبَبَة » جمع شاب ، قوله « متقاربون » أي في السن .

(٢) أخرجه البخاري في الأذان (٦٣١) .

ومنها : أن الإنسان ينبغي له أن يكون شعوره شعور الآخرين ، لا يكون أنانيًا إذا تمت له الأمور نسي من سواه ، فإن رسول الله ﷺ كان مقيمًا في أهله مستريح البال مطمئن القلب مرتاح النفس ، لكن هؤلاء الناس الشببة الذين جاءوا يتعلمون الدين ، كانت الفطرة والعادة والطبيعة أن الإنسان يشتاق إلى أهله ، فلما رأى أنهم اشتاقوا إلى أهلهم وسألهم من خلفوا وراءهم وأخبروه ، أمرهم أن يرجعوا إلى أهليهم .

فينبغي عليك أن تشعر بشعور الآخرين وأن تجعل نفسك مكانهم حتى تعاملهم بما تحب أن تعامل به نفسك .

ومنها : أنه ينبغي للإنسان أن يقيم في أهله ما أمكنه ، ولا ينبغي أن يتغرب عنهم ولا أن يبتعد عنهم ، حتى إن الرسول - عليه الصلاة والسلام - أمر المسافر إذا سافر وقضى حاجته أن يرجع إلى أهله ، لأن بقاء الإنسان في أهله فيه خير كثير ، فيه الألفة والمودة والمحبة ، والتربية ومراعاة أحوالهم ، والتأديب والتوجيه لهم ، فلهذا كان الذي ينبغي للإنسان ألا يفارق أهله إلا عند الحاجة ، ومتى انتهت حاجته رجع إليهم .

ومن فوائد الحديث : أن الإنسان مأمور بأن يعلم أهله ولهذا قال : « ارجعوا إلى أهليكم وعلموهم » ، يعلمونهم ماتعلموه من رسول الله ﷺ ، فالإنسان ينبغي له أن يعلم أهله ما يحتاجون إليه ، إما أن يجعل جلسة خاصة لهم ، أو إذا جلسوا على الطعام أو على الشراب أو في انتظار النوم أو ما أشبه ذلك يعلمهم .

ومن فوائد الحديث أيضًا : أن الإنسان لا يقتصر على التعليم فقط ، قال : « علموهم ومروهم » فيعلمهم ويأمرهم ، وأهم ما يأمر به : الصلاة ، وقد نص الرسول - عليه الصلاة والسلام - عليها فقال : « مروا أبناءكم بالصلاة لسبع واضربوهم عليها لعشر »[1] ، فلابد من تعليم الأهل ، ولابد من أمرهم وتأديبهم وتوجيههم .

ومن فوائد الحديث : وجوب الأذان وأنه فرض كفاية ؛ لقوله : « إذا حضرت الصلاة فليؤذن لكم أحدكم » .

ومنها : أنه لا يصح الأذان قبل الوقت ، فلو أذن الإنسان قبل الوقت ولو بتكبيرة واحدة من الأذان ، فإن أذانه لا يصح ، ويجب عليه أن يعيده بعد دخول الصلاة ، لقوله : « إذا حضرت الصلاة » والصلاة لا تحضر إلا إذا دخل وقتها .

وبهذا نعرف أنَّ قول الرسول ﷺ لأبي محذورة « إذا أذنت بالأوّل من الصبح فقل : الصلاة خير من النوم مرتين »[2] المراد به الأذان الذي يكون بعد دخول الوقت ، لأنه قال الأول لصلاة الصبح .

---

(١) أخرجه أبو داود في الصلاة (٤٩٥) ، والترمذي في الصلاة (٤٠٧) ، والإمام أحمد في مسنده (١٨٧/٢) .
(٢) أخرجه الإمام أحمد في مسنده (٤٠٨/٣) .

خلافًا لما فهمه بعض الناس من أن المراد بذلك الأذان الذي يكون قبل الفجر لأن الأذان الذي يكون قبل الفجر ليس أذانًا لصلاة الفجر ، فقد بيّن الرسول - عليه الصلاة والسلام - أن الأذان الذي يكون قبل الفجر هو لإيقاظ النائم وإرجاع القائم . فقال : « إن بلالًا يؤذن بليل ليوقظ نائمكم ويرجع قائمكم ، فكلوا واشربوا حتى يؤذن ابن أم مكتوم فإنه لا يؤذن حتى يطلع الفجر » [١] .

هكذا قال النبي ﷺ فبيّن في هذا الحديث أن الأذان الذي يكون في آخر الليل ، والذي يسميه الناس الأذان الأول ليس للفجر وليس للصلاة ، لأن الأذان للصلاة لا يكون إلا بعد دخول وقتها : « إذا حضرت الصلاة فليؤذن لكم أحدكم » وقد بيّن الرسول - عليه الصلاة والسلام - أن هذا الأذان ليس لصلاة الفجر بقوله : « ليرجع قائمكم » يعني ليرده ليتسحر « ويوقظ نائمكم » ليتسحر .

ومن فوائد هذا الحديث : وجوب صلاة الجماعة لقوله : « وليؤمكم أكبركم » واللام هنا للأمر فصلاة الجماعة واجبة [٢] .

ومن فوائد الحديث : أنَّ صلاة الجماعة واجبة على المسافرين كما هي واجبة على المقيمين ، لأن هؤلاء وفد سيرجعون إلى أهليهم ، فهم مسافرون ، وأمرهم مع ذلك بالصلاة جماعة ، وعلى هذا فإذا كان الإنسان في البلد وهو مسافر ، فإنه يجب عليه أن يحض الجماعة في المساجد .

وبعض العامة إذا قلت له : صلّ قال : أنا مسافر ، والمسافر ما عليه صلاة جماعة . وهذا خطأ ، يجب عليك أن تصلي مع الجماعة في المساجد ولو كنت مسافرًا ، فأنت وأهل البلد سواء ، قال النبي - عليه الصلاة والسلام - لرجل : « أتسمع النداء ؟ » قال : نعم . قال : « فأجب » [٣] .

ومن فوائد هذا الحديث : تقديم الكبير في الإمامة لقوله : « وليؤمكم أكبركم » وهذا لا ينافي قوله - عليه الصلاة والسلام - : « يؤم القوم أقرؤهم لكتاب اللّه » [٤] ؛ لأن هؤلاء الشباب كلهم وفدوا في وقت واحد ، والظاهر أنه ليس بينهم فرق بيّنٌ في قراءة القرآن ، وأنهم متقاربون ، ليس بعضهم أقرأ من بعض ولهذا قال : « وليؤمكم أكبركم » لأنهم متساوون في القراءة أو متقاربون ، فإذا تساووا في

---

(١) أخرجه البخاري في الصوم (١٩١٩) ، ومسلم في الصيام (٣٨) .

(٢) قالت الحنفية : صلاة الجماعة واجبة وحجتهم في ذلك أن النبي ﷺ واظب عليها ، قالت المالكية : إن الصلاة المكتوبة غير الجمعة إيقاعها في الجماعة سنة مؤكدة يحصل بها ثواب جزيل وفضل عظيم ، والحنابلة تقول بأن الجماعة واجبة في الصلوات الخمس على كل رجل حرٌ قادر حتى ولو كان مسافرًا وأحاق به خوف شديد . وتصح الصلاة من منفرد لكنه يأثم لترك الجماعة بغير عذر .

أما الشافعية فلهم أقوال ثلاثة : الأول أن صلاة الجماعة في حق كل رجل قادر مفروضة على الكفاية حتى إذا صلاها فريق من المسلمين في كل بلد كفت الباقين . والثاني أنها سنة مؤكدة والثالث أنها فرض عين لكن ليست شرط صحة الصلاة بمعنى أن صلاة المنفرد جائزة مع الإثم (فقه الكتاب والسنة ١/٥٦٢) .

(٣) أخرجه مسلم في المساجد (٢٥٥) .

(٤) أخرجه مسلم في المساجد (٢٩٠) ، وأبو داود في الصلاة (٥٨٢) ، والإمام أحمد في مسنده (٣/١٦٣) .

القراءة والسنة والهجرة ، فإنه يرجع إلى الأكبر سنًّا .

وفيه أيضًا : اعتبار الكبر في السن وأن الكبير في السن مقدم على غيره.إذا لم يكن لغيره ميزة يفضل بها هذا الكبير في السن .

ومن فوائده أيضًا : أنه ينبغي للإنسان أن يوجه الناس لكل أمرٍ وإن كان يظن أنه معلوم ، ولهذا قال : « صلوا صلاة كذا في حين كذا » مع أنهم قد صلوا مع النبي عليه الصلاة والسلام وصلوا معه عشرين ليلة ، وهم يعلمون ذلك ، لكن من أجل التنبيه . قال صلوا الظهر - مثلًا - في وقت كذا ، صلوا العصر في وقت كذا ، صلوا المغرب في وقت كذا ، صلوا العشاء في وقت كذا ، صلوا الفجر في وقت كذا .

ومن فوائد هذا الحديث : أن النبي ﷺ كان يعلم الناس بالقول وبالفعل ، فعلَّم الذي صلى بغير طمأنينة بالقول ، قال : « إذا قمت إلى الصلاة فأسبغ الوضوء ، ثم استقبل القبلة فكبر ، ثم اقرأ ما تيسر معك من القرآن ، ثم اركع » [١] إلى آخره .

أما هؤلاء فقال لهم : « صلوا كما رأيتموني أصلي » وهذا تعليم بالفعل ، وكما فعل - عليه الصلاة والسلام - حينما صُنع له المنبر ، فصعد عليه وجعل يصلي بالناس وهو على المنبر ، فيركع وهو على المنبر ، فإذا أراد السجود نزل من المنبر وهو مستقبل القبلة ثم سجد ، وقال لما سلم : « إنما فعلت هذا لتأتموا بي ولتعلموا صلاتي » [٢] .

ومن فوائد هذا الحديث : أنه يجب على الإنسان أن يعرف كيف كان النبي ﷺ يصلي ، فيقرأ من كتب العلم التي كتبها من يوثق في علمه ، كيف كان الرسول ﷺ يصلي ، حتى ينفذ أمر الرسول في قوله : « صلوا كما رأيتموني أصلي » .

* * *

٧١٤ - وعن عُمَرَ بنِ الخطَّاب ﷺ قال : « اسْتَأْذَنْتُ النبيَّ ﷺ في العُمْرَةِ ، فَأَذِنَ ، وقال : « لا تَنْسَنَا يَا أُخَيَّ مِنْ دُعَائِكَ » . فقالَ كَلِمَةً مَا يَسُرُّنِي أَنَّ لي بهَا الدُّنْيا .

وفي رواية قال : « أَشرِكْنا يَا أُخَيَّ في دُعَائِكَ » [٣] رواه أبو داود ، والترمذي وقال : حديث حسن صحيح .

٧١٥ - وعن سالم بنِ عَبْدِ اللَّه بن عُمَرَ أَنَّ عبدَ اللَّهِ بن عُمَرَ ﷺ كَانَ يَقُولُ للرَّجُلِ إذَا أَرَادَ سَفَرًا : ادْنُ مِنِّي حَتَّى أُوَدِّعَك كَمَا كَانَ رسول اللَّه ﷺ يوَدِّعُنَا ، فَيقُولُ : « أَسْتَودِعُ اللَّهَ دِينَكَ ،

---

(١) أخرجه البخاري في الأيمان والنذور (٦٦٦٧) ، ومسلم في الصلاة (٤٦) .

(٢) أخرجه البخاري في الجمعة (٩١٧) ، ومسلم في المساجد (٤٤) .

(٣) أخرجه أبو داود في الصلاة (١٤٩٨) واللفظ له ، والترمذي في الدعوات (٣٥٦٢) .

وَأَمَانَتَكَ ، وَخَوَاتِيم عَمَلِكَ » [(١)] رواه الترمذي ، وقال : حديث حسن صحيح .

٧١٦ - وعن عبدِ اللَّهِ بن يَزِيدَ الخَطْمِيِّ الصَّحابيِّ ﷺ قالَ : كَانَ رسول اللَّه ﷺ إذا أَرَادَ أَنْ يُوَدِّعَ الجَيْشَ قالَ : « أَسْتَودِعُ اللَّه دِينَكُمْ ، وَأَمَانَتَكُم ، وَخَوَاتِيم أَعمالِكُمْ » [(٢)] .

حديث صحيح ، رواه أبو داود وغيره بإسناد صحيح .

٧١٧ -وعن أنسٍ ﷺ قال : جَاءَ رَجُلٌ إلى النبيِّ ﷺ فقال : يا رَسُولَ اللَّه ، إني أُرِيدُ سَفَرًا ، فَزَوِّدْني ، فَقَال : « زَوَّدَكَ اللَّهُ التَّقْوَى » قال : زِدْني ، قال : « وَغَفَرَ ذَنْبَكَ » ، قال : زِدْني ، قال : « وَيَسَّرَ لكَ الخيرَ حَيثُمَا كُنْت » [(٣)] رواه الترمذي وقال : حديث حسن .

الشرح

هذه الأحاديث ذكرها النووي - رحمه اللَّه تعالى - في هذا الباب فيما يستحب من وداع الصاحب والدعاء له وطلب الدعاء منه ، فذكر حديث عمر بن الخطاب ﷺ أنه أراد أن يعتمر ، فاستأذن النبي ﷺ فأذن له . وقال : « لا تنسنا يا أُخَيَّ من دعائك » وفي رواية : « أشركنا يا أُخَيَّ في دعائك » ، وذكر أن الترمذي أخرجه وقال : إنه حسن صحيح ولكن الحقيقة أنه ضعيف وأنه لا يصح عن النبي ﷺ .

وطلب الدعاء من الغير ينقسم إلى أقسام :

القسم الأول : أن يطلب من الغير الدعاء لصالح المسلمين جميعًا ، أي شيء عام ، فهذا لا بأس به ، وقد دخل رجل يوم الجمعة والنبي ﷺ يخطب فقال : يا رسول اللَّه ، هلكت الأموال ، وانقطعت السبل ، فادع اللَّه يُغيثنا ، فرفع النبي ﷺ يديه وقال : « اللهم أغثنا . اللهم أغثنا . اللهم أغثنا » ، فأنشأ اللَّه سحابة فانتشرت وتوسعت وأمطرت ، ولم ينزل النبي ﷺ من المنبر إلا والمطر يتحادر من لحيته ، وبقي المطر أسبوعًا كاملًا .

وفي الجمعة الثانية دخل رجل آخر - أو الأول - فقال : يا رسول اللَّه ، غرق المال ، وتهدم البناء ، فادعُ اللَّه يمسكها عنا ، فرفع النبي ﷺ يديه وقال : « اللهم حوالينا ولا علينا » وجعل يشير إلى النواحي ، فما يشير إلى ناحية إلا انفرجت وتمايز السحاب ، حتى خرج الناس يمشون في الشمس [(٤)] .

فإذا طلبت من شخص صالح مرجو الإجابة شيئًا عامًا للمسلمين فهذا لا بأس به ، لأنك لم تسأل لنفسك ، مثال ذلك : لو أن رجلًا جاء إليك يطلب منك الشفاعة لتغيث رجلًا ملهوفًا ، أو تقضي عنه

---

(١) أخرجه الترمذي في الدعوات (٣٤٤٣) واللفظ له وأبو داود في الجهاد (٢٦٠٠) قوله « أستودع اللَّه دينك » أي أودعه إياه ، والسين لتأكيد ذلك وتحقيقه . وذكر الدين ؛ لأن السفر مظنة التساهل في أمره لمشقته ؛ ولذا رخص للمسافر في أمور العبادات ، قوله : « وأمانتك » أي وما اؤتمنت عليه من تكاليف شرعية وحقوق إنسانية .

(٢) أخرجه أبو داود في الجهاد (٢٦٠١) . (٣) أخرجه الترمذي في الدعوات (٣٤٤٤) .

(٤) أخرجه البخاري في الاستسقاء (١٠٣٣) ، ومسلم في الاستسقاء (٨) .

دينه ، أو ترفع الظلم عن رجل ضعيف من المسلمين ، فإنَّ هذا لا بأس به لأن المصلحة لغيره .

القسم الثاني : أن يطلب الدعاء من الرجل الصالح من أجل أن ينتفع الرجل بهذا الدعاء . ولا يهمه هو أن ينتفع ، لكن يحب من هذا الرجل الذي طلب منه الدعاء أن يلجأ إلى الله ، وأن يسأل الله ﷻ ، وأن يعلق قلبه بالله ، وأن يعلم أن الله ﷻ سميع الدعاء ، المهم أن يكون قصده مصلحة هذا الرجل ، فهذا لا بأس به أيضًا ، لأنك لم تسأله لمحض نفعك ، ولكن لنفعه هو ، فأنت تريد أن يزداد هذا الرجل الصالح خيرًا بدعاء الله ﷻ ، وأن يتقرب إلى الله بالدعاء وأن يحصل على الأجر والصواب .

القسم الثالث : أن يطلب الدعاء من الغير لمصلحة نفسه هو ، فهذا أجازة بعض العلماء وقال : لا بأس أن تطلب من الرجل الصالح أن يدعو لك .

لكن شيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله قال : لا ينبغي إذا كان قصدك مصلحة نفسك فقط [١] ، لأن هذا قد يدخل في المسألة المذمومة ، لأن النبي ﷺ بايع أصحابه ألا يسألوا الناس شيئًا [٢] .

وكذلك لأنه ربما يعتمد هذا السائل الذي سأل غيره أن يدعو له ؛ ربما يعتمد على دعاء هذا الغير ، وينسى أن يدعو هو لنفسه ، فيقول : أنا قلت لفلان وهو رجل صالح ادعُ الله لي ، وإذا استجاب الله هذا الدعاء فهو كافٍ فيعتمد على غيره ، وكذلك لأنه ربما يلحق المسؤول غرور في نفسه ، وأنه رجل صالح يطمع الناس إلى دعائه ، فيحصل في هذا شر على المسؤول .

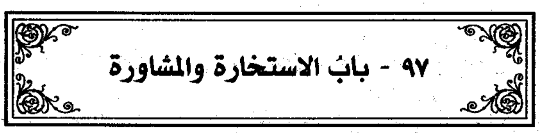
وعلى كل حال فإن هذا القسم الثالث مختلف فيه ، فمن العلماء من قال : لا بأس أن تقول للرجل الصالح : يا فلان ادع الله لي ، ومنهم من قال : لا ينبغي ، والأحسن ألا تقول ذلك ، لأنه ربما يمنّ عليك بهذا ، وربما تذل أمامه بسؤالك ، ثم إنه من الذي يحول بينك وبين ربك ؟ ادع الله أنت بنفسك ، لا أحد يحول بينك وبين الله .

لماذا تذهب تفتقر إلى غيرك وتقول : ادع الله لي وأنت ليس بينك وبين ربك واسطة ؟! قال الله تعالى : ﴿ وَقَالَ رَبُّكُمُ ادْعُونِي أَسْتَجِبْ لَكُمْ ﴾ [غافر : ٦٠] ، وقال : ﴿ وَإِذَا سَأَلَكَ عِبَادِي عَنِّي فَإِنِّي قَرِيبٌ أُجِيبُ دَعْوَةَ الدَّاعِ إِذَا دَعَانِ ﴾ [البقرة : ١٨٦] .

* * *

(١) انظر مجموع الفتاوى (١/٣٥٢) .

(٢) هذا جزء من حديث أخرجه مسلم في الزكاة (١٠٨) ، ولفظه « ألا تبايعون رسول الله » .



٩٧ - بابُ الاستخارة والمشاورة

قال اللَّه تعالى : ﴿ وَشَاوِرْهُمْ فِي ٱلْأَمْرِ ﴾ [آل عمران : ١٥٩] . وقال تعالى : ﴿ وَأَمْرُهُمْ شُورَىٰ بَيْنَهُمْ ﴾ [الشورى : ٣٨] أي : يَتَشَاوَرُونَ بَينَهُم فِيهِ .

٧١٨ - عن جابر ﷺ قال : كانَ رسول اللَّه ﷺ يُعَلِّمُنا الاستِخَارَةَ في الأُمُورِ كُلِّهَا كالسُّورَةِ مِنَ القُرآنِ ، يَقُولُ : « إذا هَمَّ أَحدُكُمْ بِالأمر ، فَلْيركعْ رَكعَتَينِ مِنْ غَيرِ الفَرِيضَةِ ، ثم ليقُلْ : اللَّهُمَّ إنِّي أَسْتَخِيرُكَ بِعِلْمِكَ ، وأستَقدِرُكَ بِقُدْرتِكَ ، وَأَسأَلُكَ مِنْ فَضْلِكَ العَظِيمِ ، فَإنَّكَ تَقْدِرُ وَلا أَقْدِرُ ، وَتَعْلَمُ وَلا أَعْلَمُ ، وَأَنتَ عَلَّامُ الغُيُوبِ . اللَّهُمَّ إنْ كنتَ تَعْلَمُ أنَّ هذا الأمرَ خَيرٌ لي في ديني وَمَعَاشي وَعَاقِبَةِ أَمْري - أو قالَ : عَاجِلِ أَمْرِي وَآجله - فاقْدُرْهُ لي وَيَسِّرْهُ لي ، ثمَّ بارِكْ لي فِيهِ ، وَإنْ كُنتَ تَعْلَم أَنَّ هذَا الأمْرَ شرٌّ لي في دِيني وَمَعَاشِي وَعَاقِبَةِ أمري - أَو قال : عَاجِلِ أَمْرِي وَآجلِهِ - فاصْرِفْه عَنِّي ، وَاصْرِفني عَنْهُ ، واقدُرْ ليَ الخَير حَيثُ كانَ ، ثمَّ أرْضِني بِهِ » . قال : ويسمِّي حاجته (١) . رواه البخاري .

الشرح

قال النووي ﷺ : باب الاستخارة والمشاورة .

والإستخارة مع اللَّه ، والمشاورة مع أهل الرأي والصلاح ، وذلك أن الإنسان عنده قصور أو تقصير ، والإنسان خُلق ضعيفًا ، فقد تَشْكُل عليه الأمور ، وقد يتردد فيها ، فماذا يصنع ؟ لنفرض أنه همّ بسفر وتردد هل هو خير أمْ شر ، أوهمّ أن يشتري سيارة أو بيتًا ، أو أن يصاهر رجلًا يتزوج ابنته أو ما أشبه ذلك ، ولكنه متردد . فماذا يصنع ؟ نقول : له طريقان :

الطريق الأول : استخارة ربّ العالمين ﷻ الذي يعلم ما كان وما يكون وما لم يكن لو كان كيف يكون .

الطريق الثاني : استشارة أهل الرأي والصلاح والأمانة ، واستدل المؤلف ﷺ على المشاورة بآيتين من كتاب اللَّه هما قوله تعالى : ﴿ وَشَاوِرْهُمْ فِي ٱلْأَمْرِ ﴾ وهذا خطاب للنبي ﷺ .

قال اللَّه تعالى : ﴿ فَٱعْفُ عَنْهُمْ وَٱسْتَغْفِرْ لَهُمْ وَشَاوِرْهُمْ فِي ٱلْأَمْرِ فَإِذَا عَزَمْتَ فَتَوَكَّلْ عَلَى ٱللَّهِ ﴾ [آل عمران : ١٥٩] ، وكان النبي ﷺ وهو أسدُّ الناس رأيًا وأصوبهم صوابًا ، يستشير أصحابه في بعض الأمور التي تشكل عليه ، وكذلك خلفاؤه من بعده كانوا يستشيرون أهل الرأي والصلاح .

---

(١) أخرجه البخاري في التهجد (١١٦٢) واللفظ له ، وأبو داود في الصلاة (١٥٣٨) قوله : « إذا هم أحدكم بالأمر » أي الجائز فعلًا وتركًا . قوله : « أستخيرك بعلمك » أي أسألك أن تشرح صدري لخير الأمرين فلا يعلم خيرهما إلا العالم بذلك وليس كذلك إلا أنت ، قوله : « وأستقدرك بقدرتك » أي أسأل منك أن تقدرني على خير الأمرين ، قوله « فاقدره » أي اقض به وهيئه .

ولابد من هذين الشرطين فيمن تستشيره ؛ أن يكون ذا رأي وخبرة في الأمور وتأنّ وتجربة وعدم تسرع ، وأن يكون صالحًا في دينه ، لأن من ليس بصالح في دينه ليس بأمين ، حتى وإن كان ذكيًا وعاقلًا ومحنكًا في الأمور ، إذا لم يكن صالحًا في دينه فلا خير فيه ، وليس أهلًا لأن يكون من أهل المشورة ، لأنه إذا كان غير صالح في دينه ، فإنه ربما يخون والعياذ باللَّه ، ويُشير بما فيه الضرر ، أو يشير بما لا خير فيه ، فيحصل بذلك من الشر والفساد ما اللَّه به عليم .

ولنفرض أنه رجل من أهل الفسق والمجون والفجور فلا يجوز أن تستشيره ، لأن هذا يوقعك في هلاك .

كذلك لو كان رجلًا صالحًا دينًا أمينًا لكنه مغفل ، ما يعرف الأمور ، أو متسرع لا خبرة له ، فهذا أيضًا لا تحرص على استشارته ، لأنه ربما إذا كان مغفلًا لا يدري عن الأمور ؛ يأخذ الأمور بظواهرها ، ولا يعرف شيئًا مما وراء الظواهر ، وكذلك إذا كان متسرعًا فإنه ربما يحمله التسرع على أن يشير عليك بما لا خير فيه ، فلابد من أن يكون ذا خبرة وذا رأي وصلاح في الدين .

وقال اللَّه تبارك وتعالى : ﴿ وَأَمْرُهُمْ شُورَىٰ بَيْنَهُمْ ﴾ [الشورى : ٣٨] يعني أمرهم المشترك الذي هو للجميع ، كالجهاد مثلًا فإنه شورى بينهم .فإذا أراد ولي الأمر أن يجاهد أو أن يفعل شيئًا عامًّا للمسلمين ، فإنه يشاورهم .

ولكن كيف تكون المشورة ؟

المشورة تكون إذا حدث له أمر يتردد فيه ، جمع الإمام من يرى أنهم أهل للمشورة برأيهم وصلاحهم واستشارهم .

أما الاستخارة : فهي مع اللَّه ﷻ ، يستخير الإنسان ربه إذا هم بأمر وهو لا يدري عاقبته ولا يدري مستقبله ، فعليه بالاستخارة .

والاستخارة معناها طلب خير الأمرين . وقد أرشد النبي ﷺ إلى ذلك ، بأن يصلي الإنسان ركعتين من غير الفريضة في غير وقت النهي ، إلا في أمر يخشى فواته قبل خروج وقت النهي ، فلا بأس أن يستخير ولو في وقت النهي .

أما ما كان فيه الأمر واسعًا فلا يجوز أن يستخير وقت النهي ، فلا يستخير بعد صلاة العصر وكذلك بعد الفجر حتى ترتفع الشمس مقدار رمح ، وكذلك عند زوالها حتى تزول لا يستخير ، إلا في أمر قد يفوت عليه ، يصلي ركعتين من غير الفريضة ، ثم يسلم ، وإذا سلم قال : « اللهم إني أستخيرك بعلمك ، وأستقدرك بقدرتك ، وأسألك من فضلك العظيم ، فإنك تقدر ولا أقدر ، وتعلم ولا أعلم ، وأنت علام الغيوب ، اللهم إن كان هذا الأمر – ويسميه – خيرًا لي في ديني ومعاشي وعاقبة أمري – أو قال : « عاجل أمري وآجله » يعني إما أن تقول هذا أو هذا – فاقدره لي ويسره لي . وإن كنت تعلم أنه شر لي في ديني ومعاشي وعاقبة أمري ، أو قال : عاجل أمري وآجله ، فاصرفه عني واصرفني عنه واقدر لي الخير حيث كان ثم أرضني به » وينتهي ثم بعد ذلك إن انشرح صدره بأحد

الأمرين بالإقدار أو الإحجام ، فهذا المطلوب ، يأخذ بما ينشرح به صدره ، فإن لم ينشرح صدره لشيء وبقي مترددًا أعاد الاستخارة مرة ثانية وثالثة .

ثم بعد ذلك المشورة إذا لم يتبين له شيء بعد الاستخارة ، فإنه يشاور أهل الرأي والصلاح ، ثم ما أشير عليه به فهو الخير إن شاء الله لأن الله تعالى قد لا يجعل في قلبه بالاستخارة ميلًا إلى شيء معين حتى يستشير ، فيجعل الله تعالى ميل قلبه بعد المشورة .

وقد اختلف العلماء هل المقدم المشورة أو الاستخارة ؟

والصحيح أن المقدم الاستخارة ، فقدم أولًا الاستخارة ، لقول النبي ﷺ : « إذا هم أحدكم بالأمر فليصل ركعتين ... إلى آخره » ، ثم إذا كررتها ثلاث مرات ولم يتبين لك الأمر ، فاستشر ؛ ثم ما أشير عليك به فخذ به ، وإنما قلنا : إنه يستخير ثلاث مرات ، لأن من عادة النبي ﷺ أنه إذا دعا دعا ثلاثًا [١] ، والاستخارة دعاء ، وقد لا يتبين للإنسان خير الأمرين من أول مرة ، بل قد يتبين في أول مرة ، أو في الثانية ، أو في الثالثة ، وإذا لم يتبين فليستشر .

* * *

٩٨ - باب استحباب الذهاب إلى العيد وعيادة المريض والحج والغزو والجنازة ونحوها من طريق والرجوع من طريق آخر ؛ لتكثير مواضع العبادة

٧١٩ - عن جابر ﷺ قال : كَانَ النبيُّ ﷺ إذا كَانَ يَومُ عِيدٍ خَالَفَ الطَّرِيق [٢] . رواه البخاري .

قوله : « خَالَفَ الطَّرِيقَ » يعني : ذَهَبَ في طَرِيقٍ ، وَرَجَعَ في طَرِيقٍ آخَرَ .

٧٢٠ - وعن ابنِ عُمَرَ ﷺ أن رسول الله ﷺ كانَ يَخْرُجُ مِنْ طَرِيقِ الشَّجَرَةِ ، وَيَدْخُلُ مِنْ طَرِيقِ المُعَرَّسِ ، وَإذا دَخَلَ مَكَّةَ دَخَلَ مِن الثَّنِيَّةِ العُلْيَا ، وَيَخْرُجُ مِنَ الثَّنية السُّفْلى [٣] . متفقٌ عليه .

---

(١) سبق تخريجه في « باب استحباب بيان الكلام وإيضاحه للمخاطب » .

(٢) أخرجه البخاري في العيدين (٩٨٦) .

(٣) أخرجه مسلم في الحج (٢٢٣) واللفظ له ، والبخاري في الحج (١٥٣٣) ، قوله : « من طريق الشجرة » طريق عند مسجد ذي الحُليفة ، قوله : « المُعَرَّسِ » موضع معروف بقرب المدينة على بعد ستة أميال منها ، قوله « الثنية العليا » الثنية طريق العقبة ، وهو الطريق العالي والثنية العليا هنا هي التي ينزل منها إلى المعلاة وهي مقبرة مكة المكرمة ، قوله : « الثنية السفلى » هي التي بأسفل مكة عند باب الشبيكة .

الشرح

ثم ذكر النووي رَحِمَهُ اللَّهُ (باب استحباب مخالفة الطريق في العيد والجمعة وغيرها من العبادات) .

ومعني مخالفة الطريق : أن يذهب إلى العبادة من طريق ويرجع من الطريق الآخر ؛ فمثلًا يذهب من الجانب الأيمن ويرجع من الجانب الأيسر ، وهذا ثابت عن النبي ﷺ في العيدين ، كما رواه جابر رضي الله عنه كان النبي ﷺ إذا كان يوم عيد خالف الطريق ؛ يعني خرج من طريق ورجع من طريق آخر .

واختلف العلماء لِمَ كان رسول اللَّه ﷺ يصنع ذلك ؟

فقيل : ليشهد له الطريقان يوم القيامة ، لأن الأرض يوم القيامة تشهد على ما عُمل فيها من خير وشر ؛ كما قال اللَّه تبارك وتعالى : ﴿ يَوْمَئِذٍ تُحَدِّثُ أَخْبَارَهَا ۝ بِأَنَّ رَبَّكَ أَوْحَىٰ لَهَا ﴾ [الزلزلة : ٤، ٥] ، تشهد الأرض فتقول : عمل عليّ فلان كذا ، وعمل كذا وعمل كذا . فإذا ذهب من طريق ورجع من آخر شهد له الطريقان يوم القيامة بأنه أدي صلاة العيد .

وقيل : من أجل إظهار الشعيرة ؛ شعيرة العيد ، حتى تكتظ الأسواق هنا وهناك . ومعلوم أن الناس لا يخرجون كلهم من طريق واحد ويرجعون من طريق واحد ، تجد هذا يخرج من هذا الطريق ، وهذا من هذا ، فإذا انتشر الناس في طرق المدينة صار في هذا إظهار لهذه الشعيرة ، لأن صلاة العيد من شعائر الدين ، والدليل على ذلك أن الناس يؤمرون بالخروج إلى الصحراء إظهارًا لذلك ، وإعلانًا له .

وبعضهم قال : إنما خالف الطريق من أجل المساكين الذين يكونون في الأسواق ، قد يكون في هذا الطريق ما ليس في هذا الطريق من المساكين ، فيتصدق على هؤلاء وهؤلاء .

ولكن الأقرب واللَّه أعلم ، أنه من أجل إظهار تلك الشعيرة حتى تظهر شعيرة صلاة العيد بالخروج إليها من جميع سكك البلد .

ثم اختلف العلماء - رحمهم اللَّه - هل يلحق في ذلك صلاة الجمعة ؟ لأن صلاة الجمعة صلاة عيد .

قالوا : تلحق بصلاة العيدين ، فيأتي إلى الجمعة من طريق ويرجع من طريق آخر .

ثم توسع بعض العلماء وقالوا : يُشرع ذلك أيضًا في الصلوات الخمس ، فيأتي مثلًا في صلاة الظهر من طريق ويرجع من طريق آخر ، وهكذا في صلاة العصر وبقية الصلوات ، قالوا : لأن ذلك حضور إلى الصلاة ، فيقاس على صلاة العيد .

وتوسع آخرون فقالوا : تُشرع مخالفة الطريق في كل تعبد ، كل عبادة تذهب إليها فاذهب إليها من طريق وارجع منها من طريق آخر ، حتى عيادة المريض ، فإذا عدت مريضًا فاذهب إليه من طريق وارجع من طريق آخر ، وكذلك إذا شيعت جنازة ، فاذهب من طريق وارجع من طريق آخر .

وكل هذه الأقيسة الثلاثة كلها ضعيفة ؛ لا قياس لصلاة الجمعة على العيدين ، ولا بقية الصلوات على العيدين ، ولا المشي في العبادة على العيدين ، وذلك لأن العبادات ليس فيها قياس ، ولأن هذه

الأشياء كانت في عهد الرسول - عليه الصلاة والسلام - ، كان في عهده الجمعة ، والصلوات الخمس ، وعيادة المريض ، وتشييع الجنائز ، ولم يحفظ عنه أنه كان ﷺ يخالف الطريق في هذا .

والشيء إذا وجد في عهد الرسول ﷺ ولم يسن فيه شيئًا ، فالسنة ترك ذلك .

أما في الحج : فإن الرسول ﷺ خالف الطريق في دخوله إلى مكة ؛ دخل من أعلاها ، وخرج من أسفلها ، وكذلك في ذهابه إلى عرفة ، ذهب من طريق ورجع من طريق آخر .

واختلف العلماء أيضًا في هذه المسألة : هل كان النبي ﷺ فعل ذلك على سبيل التعبد ، أو لأنه أسهل لدخوله وخروجه ؟ لأنه كان الأسهل لدخوله أن يدخل من الأعلى ولخروجه أن يخرج من الأسفل .

فمَنْ من العلماء قال بالأول قال : إنه سنة أن تدخل من أعلاها - أي : أعلى مكة - وتخرج من أسفلها ، وسنة أن تأتي عرفة من طريق وترجع من طريق آخر .

ومنهم من قال : إن هذا حسب تيسر الطريق ، فاسلك المتيسر سواء من الأعلى أو من الأسفل .

وعلى كل حال إن تيسر لك أن تدخل من أعلاها وتخرج من أسفلها فهذا طيب ، فإن كان ذلك عبادة فقد أدركته ، وإن لم يكن عبادة لم يكن عليك ضرر فيه ، وإن لم يتيسر كما هو الواقع في وقتنا الحاضر ، حيث إن الطريق قد وجهت توجيهًا واحدًا ، ولا يمكن للإنسان أن يخالف ، فالأمر - والحمد لله - واسع .

* * *

٩٩ - باب استحباب تقديم اليمين في كلّ ما هو من باب التكريم

كالوضوءِ وَالغُسْلِ والتَّيَمُّمِ ، ولُبْس الثَّوبِ والنَّعْلِ والخُفِّ والسَّرَاوِيلِ ودخولِ المسجدِ ، والسِّوَاكِ ، والاكْتِحَالِ ، وتقليمِ الأَظْفَارِ ، وَقَصِّ الشَّارِبِ ، وَنَتْفِ الإبْط ، وحلقِ الرَّأسِ ، والسلام من الصلاةِ ، والأكل والشربِ ، وَالمُصَافَحَة ، واسْتِلامِ الحَجَرِ الأسودِ ، والخروجِ مِن الخَلاء ، والأخذِ والعَطَاءِ ، وغير ذلك مما هو في معناهُ ، ويُسْتَحَبُّ تقديم اليسار في ضِدِّ ذلكَ ، كالامْتِخَاطِ والبُصَاقِ عن اليسارِ ، ودُخولِ الخَلاءِ ، والخروجِ مِن المسجدِ ، وَخَلْعِ الخُفِّ والنَّعْلِ والسراويل والثوب ، والاسْتِنْجاءِ وفِعلِ المُسْتَقْذَراتِ وأشباه ذلك .

قال الله تعالى : ﴿ فَأَمَّا مَنْ أُوتِيَ كِتَابَهُ بِيَمِينِهِ فَيَقُولُ هَاؤُمُ اقْرَءُوا كِتَابِيَهْ ﴾ الآيات [الحاقة : ١٩] . وقال تعالى : ﴿ فَأَصْحَابُ الْمَيْمَنَةِ مَا أَصْحَابُ الْمَيْمَنَةِ ۝ وَأَصْحَابُ الْمَشْأَمَةِ مَا أَصْحَابُ الْمَشْأَمَةِ ﴾ (١) [الواقعة : ٨، ٩] .

---

(١) قوله تعالى : ﴿ هَاؤُمُ ﴾ أي تعالوا . قوله تعالى : ﴿ الْمَيْمَنَةِ ﴾ هم الذين على يمين العرش ، أو الذين يؤتون كتبهم بأيمانهم . قوله تعالى : ﴿ الْمَشْأَمَةِ ﴾ هم الذين يأخذون كتبهم بشمالهم وهم أصحاب النار .

الشرح

قال المؤلف - رحمه الله تعالى - : باب استحباب تقدم اليمين في كل ما هو من باب التكريم . والعكس بالعكس فيما يُقصد به الإهانة فإنه يبدأ باليد اليسرى .

وقد ذكر المؤلف - رحمه الله تعالى - أشياء متعددة مثل الوضوء والغسل والتيمم ولبس الثوب .

فالوضوء يبتدئ فيه الإنسان باليمين ، يبتدئ باليد اليمنى قبل اليد اليسرى ، وبالرجل اليمنى قبل الرجل اليسرى ، هذا إذا كانا عضوين متميزين .

أما إذا كان عضوًا واحدًا كالوجه مثلًا ، فإننا لا نقول : ابدأ بيمين الوجه قبل يساره ، بل يغسل الوجه مرة واحدة كما جاءت به السنة .

نعم لو فرض أن الإنسان لا يستطيع أن يغسل وجهه إلا بيد واحدة فهنا يبدأ باليمين ، ربما يُقال : يبُدأ من اليمين وربما يُقال : يبُدأ من الأعلى ، وكذلك مسح الأذنين لا تمسح الأذن اليمنى قبل اليسرى ، بل يمسحان جميعًا ، إلا إذا كان الإنسان لا يستطيع أن يمسح بيديه جميعًا فيبدأ باليمنى قبل اليسرى .

وكذلك في الغسل إذا أراد الإنسان أن يغتسل من الجنابة ، فإنه يتوضأ وضوءه للصلاة ، ثم يفيض الماء على رأسه ثلاث مرات حتى يُروى ، ثم يغسل سائر جسده ، ويبدأ بالشق الأيمن منه قبل الأيسر ، لقول النبي ﷺ للنساء اللاتي كن يغسلن ابنته قال : « ابدأن بميامنها ومواضع الوضوء منها »[1] .

فإذا كنت تحت الصنبور وهو يصب على رأسك وأنت تريد أن تغتسل ، فإذا غسلت رأسك وأرويته فابدأ بغسل الجانب الأيمن من الجسد قبل الأيسر ، هذا هو السنة .

كذلك في التيمم ، ولكن التيمم جاءت السنة أن الإنسان يمسح وجهه بيديه جميعًا ثم يمسح كل واحدة بالأخرى ، فلا يظهر فيها التيامن ، لأن التيمم في عضوين فقط ، ؛ في الوجه والكفين ، وإذا كان في الوجه والكفين ، فالوجه يمسح مرة واحدة ، والكفان يمسح بعضهما ببعض .

كذلك لبس الثوب والنعل والخف والسراويل ، كل هذه يبدأ فيها باليمين ، إذا أردت أن تلبسّ الثوب فأدخل اليد اليمنى في كمها قبل اليد اليسرى ، في السراويل أدخل الرجل اليمنى في كمها قبل أن تدخل الرجل اليسرى ، في النعل إذا أردت أن تلبس النعل ابدأ بالرجل اليمنى أدخلها في النعل قبل اليسرى ، كذلك في الخف والجوارب ، ابدأ بالرجل اليمنى قبل الرجل اليسرى ، هذه هي السنة كما جاءت عن النبي ﷺ .

وكذلك دخول المسجد تبدأ بالرجل اليمنى قبل الرجل اليسرى تقصد ذلك ، فإذا أقبلت على المسجد فانتبه حتى تكون رجلك اليمنى هي الداخلة الأولى .

كذلك أيضًا السواك إذا أراد الإنسان أن يتسوك فيبدأ بالجانب الأيمن قبل الأيسر .

---

(١) أخرجه البخاري في الوضوء (١٦٧) ، ومسلم في الجنائز (٤٢) .

وكذلك الاكتحال إذا أراد أن يكتحل يبدأ بالعين اليمنى قبل اليسرى .

كذلك تقليم الأظفار يبدأ بالأيمن قبل الأيسر ، فيبدأ مثلًا في اليمنى بالخنصر ، ثم البنصر ، ثم الوسطى ، ثم السبابة ، ثم الإبهام ، وفي اليد اليسرى يبدأ بتقليم الإبهام ، ثم السبابة ، ثم الوسطى ، ثم البنصر ، ثم الخنصر . ويبدأ أيضًا بالقدم اليمنى في تقليم أظافرها قبل القدم اليسرى .

كذلك في قص الشارب ابدأ بالجانب الأيمن منه قبل الأيسر .

كذلك نتف الإبط وحلق الرأس ، نتف الإبط سنة ، فإذا أردت أن تنتف الآباط يعني : تنتف الشعر فابدأ بالإبط الأيمن قبل الأيسر ، وكذلك في حلق الرأس ابدأ بالجانب الأيمن من الرأس قبل الأيسر .

وكذلك أيضًا السلام من الصلاة يلتفت الإنسان عن يمينه قبل أن يلتفت عن يساره .

وكذلك الأكل والشرب فيأكل بيمينه ويشرب بيمينه ، ولا يجوز أن يأكل باليسرى أو يشرب باليسرى ، لأن النبي ﷺ نهى عن ذلك وقال : « إن الشيطان يأكل بشماله ويشرب بشماله »[١] .

فإذا رأيت رجلين أحدهما يأكل باليمين ويشرب باليمين ، والثاني يأكل بالشمال ويشرب بالشمال ، فالأول على هدي النبي ﷺ والثاني على هدي الشيطان ، وهل يرضي أحد من الناس أن يتبع هدي الشيطان ويعرض عن هدي محمد ﷺ ؟! لا أحد يريد ذلك أبدًا ، لكن الشيطان يزين للناس الأكل بالشمال والشرب بالشمال ، وربما بعض الناس يظن أن هذا تقدم وحضارة ، لأن الغربيين الكفرة يقدمون اليسار عن اليمين ، ولهذا يجب على الإنسان أن يأكل باليمين وأن يشرب باليمين إلا للضرورة .

ويجب علينا أيضًا أن نعلِّمَ أولادنا الصغار أن يأكلوا باليمين ويشربوا باليمين ، كذلك المصافحة يصافح باليمين ولا يصافح باليسار ، فإن مَدَّ إليك يده اليسرى للمصافحة فلا تصافحه ، اهجره لأنه خالف السنة إلا إذا كانت اليد اليمنى شلَّاء لا يستطيع أن يحركها فهذا عذر .

كذلك استلام الحجر الأسود باليمين ، وكذلك إذا لم يستطع الإنسان مسحه فإنه يشير إليه ، ويكون ذلك باليد اليمنى ، وكذلك استلام الركن اليماني يكون باليمين .

ونحن نرى الآن بعض الطائفين يمسح الحجر الأسود باليسرى أو يشير إليه باليسرى ، أو يشير اليه باليدين جميعًا أما الركن اليماني فإن استطعت أن تستلمه يعني تمسحه باليد فافعل ، وإلا فلا تشر إليه لأنه لم يرد عن النبي ﷺ أنه أشار إليه .

والغالب أن هذا جهل منهم فإذا رأيت أحدًا يمسح الركن اليماني أو الحجر الأسود باليد اليسرى فنبهه أن هذا ليس من الإكرام ، فليس من إكرام بيت اللَّه أن تمسح الركن اليماني أو الحجر الأسود باليد اليسرى ، بل امسحهما باليد اليمنى .

---

(١) أخرجه مسلم في الأشربة (١٠٥ ، ١٠٦) ، والإمام أحمد في مسنده (٢/٨ ، ٣٣) .

كذلك الخروج من الخلاء يعني إذا دخلت الحمام لقضاء الحاجة من بول أو غائط ثم خرجت فقدم الرجل اليمنى ، لأن خارج الخلاء أحق بالتكريم من الخلاء ، فإذا خرجت فابدأ بالرجل اليمنى .

كذلك الأخذ والإعطاء وغير ذلك ؛ الأخذ والإعطاء يعني إذا أردت أن تناول صاحبك شيئًا ، فناوله باليمين ، وإذا أردت أن تأخذ شيئًا يناولك إياه فخذه باليمين .

هذه أخلاق الإسلام ، لكن بعض الناس يناولك باليسار ويأخذ منك باليسار ، ظنًّا منه أن هذا هو التقدم ، لأن الكفرة يأخذون باليسار ويعطون باليسار ، وسبحان اللّه العظيم ، أصحاب الشمال لهم الشمال ، لأن الكفرة أصحاب الشمال ، والمؤمنون هم أصحاب اليمين ، ولهذا تجد الكافر دائمًا يفضل اليسار ، لأنه أهل اليسار وأهل الشمال ، فهو من أهل اليسار في الدنيا وفي الآخرة والعياذ باللّه .

إذًا كل هذه الأمور ابدأ فيها باليمين ، وكذلك غيرها مما يشمله التكريم ، كل شيء للتكريم فإنه يبدأ فيه باليمين لأن اليمين أكرم وأفضل ، أما اليسار فبالعكس .

ثم ذكر المؤلف أشياء مما يُقدم فيها اليسار ؛ كالامتخاط والبصاق ، فإنه يكون باليسار .

الامتخاط : يعني إذا استنثر الإنسان ليخرج ما في أنفه من الأذى ، فإنه يكون باليد اليسرى ، وكذلك لو أراد أن يمسح المخاط ، فإنه يكون باليد اليسرى .

وكذلك عند دخول الخلاء يقدم الرجل اليسرى ، وأما الخروج منه فقد سبق أنه يقدم الرجل اليمنى .

وكذلك إذا خرج من المسجد ، فإنه يقدم الرجل اليسرى .

وكذلك إذا أراد أن يخلع النعل ، أو أن يخلع الخف ، أو أن يخلع الثوب أو أن يخلع السراويل ، فإنه يبدأ بإخراج الرجل اليسرى ، وتكون اليمنى هي الأولى عند اللبس .

كذلك الاستنجاء يكون باليد اليسرى ، وقد نهى النبي ﷺ أن يستنجئ الرجل بيمينه [١] ، لأن اليمين محل الإكرام ، ويُؤكل بها ويشُرب بها ، فينبغي إبعادها عن القاذورات ، وكذلك كل شيء مستقذر ، فإنه يكون باليد اليسرى ، وأما اليمنى فهي لما يكون فيه الإكرام ، ولغيره مما لا إكرام فيه ولا إهانة . فاليسرى تكون للأذى واليمنى لما سواها .

واعلم أن الناس حينما ظهرت الساعات التي تتعلق باليد ، صاروا يلبسونها باليد اليسار من أجل أن تبقى اليد اليمنى طليقة ليس فيها ساعة يتأذى بها الإنسان عند الحركة ، لأن حركة اليمنى أكثر من حركة اليسرى ، ويحتاج الإنسان لحركة اليمنى أكثر ، فكانوا يجعلونها في اليد اليسرى ، لأن ذلك أسهل ولأن اليد اليمنى هي التي يكون فيها العمل غالبًا فربما تتعرض الساعة لشيء يضرها ، ولذلك جعلوها باليسار .

وقد ظن بعض الناس أن الأفضل جعلها في اليمين بناء على تقدم اليد اليمنى ، ولكن هذا ظن ليس

---

(١) أخرجه مسلم في الطهارة (٥٧) .

مبنيًا على صواب ، لأنه ثبت عن النبي ﷺ أنه كان يتختم بيمينه ويتختم أحيانًا بيساره ، وربما كان تختمه بيساره أفضل ليسهل أخذ الخاتم باليد اليمنى . والساعة أقرب ما تكون للخاتم فلا تفضل فيها اليمنى على اليسرى ولا اليسرى على اليمنى . الأمر في هذا واسع ، وإن شئت جعلتها باليمين وإن شئت جعلتها باليسار ، كل هذا لا حرج فيه .

ثم ذكر المؤلف آيتين من كتاب الله هما قوله تعالى : ﴿ فَأَمَّا مَنْ أُوتِيَ كِتَٰبَهُۥ بِيَمِينِهِۦ فَيَقُولُ هَآؤُمُ ٱقْرَءُواْ كِتَٰبِيَهْ ﴾ ، وهذا يكون يوم القيامة . فإن الناس يؤتون كتبهم أي كتب أعمالهم التي كُتب فيها عمل الإنسان ، إما باليمين وإما بالشمال ، ﴿ مَنْ أُوتِيَ كِتَٰبَهُۥ بِيَمِينِهِۦ ﴾ جعلنا الله منهم - فإنه يأخذه فرحًا مسرورًا يقول للناس : انظروا إليّ ﴿ ٱقْرَءُواْ كِتَٰبِيَهْ ﴾ كما نشاهد الآن الطالب إذا أخذ ورقة النجاح صار يريها أصدقاءه وأقاربه فرحًا بها ﴿ وَأَمَّا مَنْ أُوتِيَ كِتَٰبَهُۥ بِشِمَالِهِۦ ﴾ فإنه على العكس من ذلك ، يتمنى أنه لم يؤت الكتاب فضلًا عن أن يطلع عليه غيره .

والآية الآخرى التي ذكرها المؤلف فهي قوله تعالى : ﴿ فَأَصْحَٰبُ ٱلْمَيْمَنَةِ مَآ أَصْحَٰبُ ٱلْمَيْمَنَةِ ۝٨ وَأَصْحَٰبُ ٱلْمَشْـَٔمَةِ مَآ أَصْحَٰبُ ٱلْمَشْـَٔمَةِ ﴾ ، فذكر الله سبحانه أن الناس يكونون يوم القيامة ثلاثة أقسام : أصحاب الميمنة ، وأصحاب المشأمة ، والسابقون ، فالسابقون هم المقربون ، وأصحاب الميمنة ناجون ، وأصحاب المشأمة هالكون ، فهم يوم القيامة ثلاثة أصناف .

وهم كذلك عند خروج الروح من البدن ثلاثة أصناف . ذكر الله في سورة الواقعة أحوالهم يوم القيامة ، وذكر في آخرها أحوالهم عند الاحتضار ، فقال : ﴿ فَلَوْلَآ إِذَا بَلَغَتِ ٱلْحُلْقُومَ ۝٨٣ وَأَنتُمْ حِينَئِذٍ تَنظُرُونَ ۝٨٤ وَنَحْنُ أَقْرَبُ إِلَيْهِ مِنكُمْ وَلَٰكِن لَّا تُبْصِرُونَ ۝٨٥ فَلَوْلَآ إِن كُنتُمْ غَيْرَ مَدِينِينَ ۝٨٦ تَرْجِعُونَهَآ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ۝٨٧ فَأَمَّآ إِن كَانَ مِنَ ٱلْمُقَرَّبِينَ ۝٨٨ فَرَوْحٌ وَرَيْحَانٌ وَجَنَّتُ نَعِيمٍ ﴾ [1] [الواقعة : ٨٣- ٨٩] .

والمقربون هم السابقون الذين يسبقون إلى الخيرات في كل نوع من أنواع الخير ، ﴿ وَأَمَّآ إِن كَانَ مِنْ أَصْحَٰبِ ٱلْيَمِينِ ۝٩٠ فَسَلَٰمٌ لَّكَ مِنْ أَصْحَٰبِ ٱلْيَمِينِ ﴾ [2] .

﴿ وَأَمَّآ إِن كَانَ مِنَ ٱلْمُكَذِّبِينَ ٱلضَّآلِّينَ ۝٩٢ فَنُزُلٌ مِّنْ حَمِيمٍ ۝٩٣ وَتَصْلِيَةُ جَحِيمٍ ﴾ [3] [الواقعة : ٩٢- ٩٤] ، وهؤلاء هم أصحاب المشأمة والعياذ بالله ، فهم المكذبون الضالون ، أعاذنا الله من حالهم .

وأشار المؤلف رَحِمَهُ ٱللَّهُ في هاتين الآيتين إلى أن أهل اليمين للفضائل الدائمة في الدنيا وفي الآخرة ،

---

(١) قوله تعالى : ﴿ بَلَغَتِ ٱلْحُلْقُومَ ﴾ بلغت الروح الحلقوم عند الموت . قوله تعالى : ﴿ وَنَحْنُ أَقْرَبُ إِلَيْهِ ﴾ بعلمنا وقدرتنا . قوله تعالى : ﴿ غَيْرَ مَدِينِينَ ﴾ غير مقضي عليكم بالبعث والحساب ، أو غير مستعبدين وغير مسلوبي الحرية في أمركم . قوله تعالى : ﴿ تَرْجِعُونَهَآ ﴾ تردون الروح إلى الجسد بعد أن بلغت الحلقوم . قوله تعالى : ﴿ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ﴾ في زعمكم أن الله يبعث من يموت . قوله تعالى : ﴿ فَرَوْحٌ ﴾ فله استراحة أو رحمة أو فرح أو سرور . قوله تعالى : ﴿ وَرَيْحَانٌ ﴾ نبات له رائحة طيبة (رزق حسن) .

(٢) قوله تعالى : ﴿ أَصْحَٰبِ ٱلْيَمِينِ ﴾ أصحاب السعادات . قوله تعالى : ﴿ فَسَلَٰمٌ لَّكَ ﴾ تقول له ملائكة الرحمة عند الموت : سلام .

(٣) قوله تعالى : ﴿ فَنُزُلٌ ﴾ فله قرى وضيافة . قوله تعالى : ﴿ حَمِيمٍ ﴾ ماء بالغ غاية الحرارة قوله تعالى : ﴿ وَتَصْلِيَةُ جَحِيمٍ ﴾ مقاساةٌ لحر النار ، أو إدخال فيها .

ويأتي إن شاء الله بقية الكلام على هذا .

* * *

٧٢١ - وعن عائشة رضي الله عنها قالَتْ : كَانَ رسول الله ﷺ يُعْجِبُهُ التَّيَمُّنُ في شَأْنِهِ كُلِّه : في طُهُورِهِ ، وَتَرَجُّلِهِ ، وتنَعُّلِه [(١)] . متفقٌ عليه .

٧٢٢ - وعنها قالت : كانَتْ يَدُ رسول الله ﷺ اليُمْنى لِطُهُورِهِ وَطَعَامِهِ ، وَكَانَتِ اليُسْرَى لِخَلَائِهِ وَمَا كَانَ مِنْ أَذىً [(٢)] . حديث صحيح ، رواه أبو داود وغيره بإسنادٍ صحيحٍ .

الشرح

نقل المؤلف - رحمه الله تعالى - في (باب استحباب تقديم اليمين فيما من شأنه التكريم) ، عن عائشة رضي الله عنها قالت : كان النبي ﷺ يعجبه التيامن في شأنه كله ، « في شأنه كله » أي : في جميع أحواله ، يعجبه : يعني يسره ويستحسن البداءة باليمين في كل شيء ، في طهوره وترجله وتنعله .

« في طهوره » : يعني إذا تطهر يبدأ باليمين ، فيبدأ بغسل اليد اليمنى قبل اليسرى ، وبغسل الرجل اليمنى قبل اليسرى ، وأما الأذنان فإنهما عضو واحد داخلان في الرأس ، فيمسح بهما جميعًا إلا إذا كان لا يستطيع أن يمسح إلا بيد واحدة ، فهنا يبدأ بالأذن اليمنى للضرورة .

قالت « وترجله » : والترجل يعني تسريح الشعر ومشطه ودهنه ، وكان الرسول ﷺ كعادة الناس في ذلك الوقت لا يأخذ رأسه إلا في حج أو عمرة ، لكن أحيانًا يأخذ منه وأحيانًا يبقيه ، فأحيانًا يكون إلى شحمة أذنيه ، وأحيانًا ينزل حتى يضرب على منكبيه ، فكان ﷺ يتعاهده بالتنظيف والتسريح والدهن حتى يبقى نظيفًا ، لا يكون فيه الغبار ولا القمل ولا غير ذلك مما يستقذر .

وكذلك أيضًا يعجبه التيمن في « تنعله » : أي إذا لبس النعل فإنه يبدأ باليمين قبل اليسار ، وإذا خلع يبدأ باليسار قبل اليمين ، وكذلك الثوب إذا لبسه يبدأ بإدخال الكم اليمين قبل اليسار ، وكذلك السروال يبدأ بإدخال الرجل اليمنى قبل اليسرى ، والعكس في الخلع .

وفي الحديث الثاني عن عائشة رضي الله عنها أنها بينت ما كان النبي ﷺ يستعمل فيه اليمين ويستعمل فيه اليسار ، فذكرت أن الذي يستعمل فيه اليسار ما كان فيه أذىً ، كالاستنجاء والاستجمار والاستنشاق والاستنثار وما أشبه ذلك ، كل ما فيه أذىً فإنه تُقدَّم فيه اليسرى ، وما سوى ذلك فإنه تُقدَّم فيه اليمنى تكريمًا لها ، لأن الأيمن أفضل من الأيسر كما سبق .

* * *

(١) أخرجه البخاري في الصلاة (٤٢٦) بلفظ « يحب » بدل يعجبه ، ومسلم بنحوه في الطهارة (٦٧) قولها « في طهوره » الطُّهور : استعمال الماء للتطهير ، والطَّهور الماء المتطهر به .

(٢) أخرجه أبو داود في الطهارة (٣٣) قولها رضي الله عنها « لخلائه » أي لما فيه من استنجاء ، قولها رضي الله عنها « وما كان من أذىً » كتنحية نحو بصاق ومخاط وغيره .

٧٢٣ – وعن أُمِّ عَطيَّة رضي الله عنها أن النَّبيَّ ﷺ ، قالَ لَهُنَّ في غَسْلِ ابْنَتِهِ زَيْنَبَ رضي الله عنها : « ابْدَأْنَ بِمَيَامِنِهَا وَمَوَاضِعِ الوُضُوءِ مِنْهَا »[١] متفقٌ عليه .

٧٢٤ – وعن أبي هُريرة رضي الله عنه أن رسول اللَّه ﷺ قال : « إذا انْتَعَلَ أَحَدُكُمْ فَلْيَبْدَأْ باليُمْنى ، وَإذا نَزَعَ فَلْيَبْدَأْ بِالشِّمَالِ . لتكُنِ اليُمْني أَوَّلَهُما تُنْعَلُ ، وَآخِرَهُما تُنْزَعُ »[٢] متفقٌ عليه .

٧٢٥ – وعن حَفْصَةَ رضي الله عنها أَنَّ رسول اللَّه ﷺ كان يَجْعَلُ يَمِينَه لِطَعَامِهِ وَشَرَابِهِ وَثِيَابِهِ ، وَيَجْعَلُ يَسَارَهُ لِمَا سِوَى ذلكَ[٣] . رواه أبو داود والترمذي وغيره .

٧٢٦ – وعن أبي هُريرة رضي الله عنه أَنَّ رسول اللَّه ﷺ قال : « إذا لَبِسْتُمْ ، وَإذا تَوَضَّأْتُمْ ، فَابْدَؤُوا بِأَيَامِنِكُمْ »[٤] حديث صحيح ، رواه أبو داود والترمذي بإسناد صحيح .

٧٢٧ – وعن أنس رضي الله عنه أن رسول اللَّه ﷺ أتى مِنىً : فَأَتَى الجَمْرَةَ فَرَمَاهَا ، ثُمَّ أَتَى مَنْزِلَهُ بِمِنىً ، وَنَحَرَ ، ثُمَّ قال لِلحلَّاقِ : « خُذْ » وَأَشَارَ إلى جَانِبِه الأَيْمَنِ ، ثُمَّ الأَيْسَرِ ، ثمَّ جَعَلَ يُعْطِيهِ النَّاسَ[٥] . متفقٌ عليه .

وفي روايةٍ : لمَّا رَمَى الجَمْرَةَ ، وَنَحَرَ نُسُكَهُ وَحَلَقَ : نَاوَلَ الحَلَّاقَ شِقَّهُ الأَيْمَنَ فَحَلَقَهُ ، ثمَّ دَعَا أَبَا طَلْحَةَ الأنصارِيَّ رضي الله عنه ، فَأَعْطَاهُ إِيَّاهُ ، ثمَّ نَاوَلَهُ الشقَّ الأَيسَرَ فقال : « احْلِقْ » فَحَلَقَهُ ، فَأَعْطَاهُ أَبَا طَلْحَةَ فقال : « اقسِمْهُ بَينَ النَّاسِ »[٦] .

الشرح

هذه الأحاديث في بيان استحباب البداءة باليمين فيما طريقه التكريم ، وتقديم اليسار فيما طريقه الأذى والقذر ؛ كالاستنجاء والاستجمار وما أشبه ذلك ، فذكر المؤلف حديثًا عن أم عطية رضي الله عنها ، وكانت أم عطية رضي الله عنها من نساء الأنصار وكان لها أعمال جليلة ؛ منها أنها كانت تغسّل الأموات من النساء ، فلما ماتت زينب بنت محمد ﷺ وحضرن ليغسلنها ، فقال لهن النبي ﷺ : « ابدأن بميامنها ومواضع الوضوء منها » .

وكيفية تغسيل الميت : بأن تُخلع ثيابه بعد أن يوضع على عورته ما يسترها ، ثم يضع الغاسل خرقة

---

(١) أخرجه البخاري في الوضوء (١٦٧) ومسلم في الجنائز (٤٢ ، ٤٣) ، والإمام أحمد في مسنده (٤٠٨/٦) قوله « بميامنها » جمع ميمنة ، قوله « ومواضع الوضوء منها » لشرف أعضاء الوضوء على باقي البدن .

(٢) أخرجه مسلم في اللباس (٦٧) واللفظ له ، والبخاري في اللباس (٥٨٥٦) ، وأبو داود في اللباس (٤١٣٩) .

(٣) أخرجه أبو داود في الطهارة (٣٢) .

(٤) أخرجه أبو داود في اللباس (٤١٤١) ، والترمذي في اللباس (١٧٦٦) بلفظ مختلف ، قوله « بأيامنكم » جمع أيمن .

(٥) أخرجه مسلم واللفظ له في الحج (٣٢٣) والبخاري في الوضوء (١٧١) .

(٦) أخرجه مسلم في الحج (٣٢٦) .

على يده فينجيه ، يعني يغسل فرجه القبل والدبر حتى ينظفه ، ثم بعد ذلك يزيل هذه الخرقة ويغسّل كفيه كما يتوضأ الإنسان في العادة ، ثم يأخذ خرقة مبلولة بالماء ، فينظف أسنانه وفمه وينظف منخريه بدلًا عن المضمضة والاستنشاق ، ولا يدخل الماء في فمه ولا في أنفه لأنه إذا فعل ذلك نزل الماء إلى جوفه وربما يخرج فيؤذيهم عند التغسيل ، ثم يغسل وجهه ، ويديه إلى المرفقين ، ويمسح رأسه ، ويغسل رجليه ، وضوءًا كاملًا .

ثم بعد ذلك يغسل رأسه برغوة السدر ، بعد أن يكون قد أعد ماءً فيه سدر مطحون يضربه بيده حتى يكون له رغوة ، فيأخذ الرغوة ويغسل بها رأس الميت ، ثم يغسل ببقية السدر بقية البدن .

على أن المرأة لا يغسّلها إلا نساء ، حتى أبوها لا يغسلها ولا ابنها ولا أحد من محارمها ، إلا النساء أو الزوج .

والرجل لا يغسله إلا الرجال ، لا تغسله أمه ولا بنته ولا أحد من النساء إلا زوجته ، فالزوج يغسّل زوجته والزوجة تغسّل زوجها ، وما سوى ذلك لا يغسل الذكر الأنثى ولا الأنثى الذكر .

حضرت النساء لتغسيل زينب بنت رسول الله ﷺ ، فقال ﷺ : « ابدأن بميامنها » يعني بالأيمن قبل الأيسر ؛ اليد اليمنى قبل اليسرى ، والرجل اليمنى قبل اليسرى ، والشق الأيمن قبل الشق الأيسر ، و « مواضع الوضوء منها » ، ففعلن ذلك ، وجعلن رأسها ثلاثة قرون ، يعني ثلاث جدايل : الجانب الأيمن قرن ، والأيسر قرن ، ووسط الرأس قرن ، وألقينه خلفها ، ثم أعطاهن النبي ﷺ حقوه : يعني إزاره ، وقال : « أشعرنها إياه » يعني : الففنه على جسدها مباشرة و تبركًا بإزار النبي ﷺ ففعلن ذلك .

والشاهد من هذا قوله : « ابدأن بميامنها » .

ثم ذكر المؤلف أحاديث فيها معنى ما تقدم ، كحديثي أبي هريرة ﷺ في لبس الثوب والنعل والوضوء ، وكذلك حديث حفصة ﷺ .

ثم ذكر حديث أنس بن مالك ﷺ ، في قصة حلق النبي ﷺ في حجة الوداع . فإن النبي ﷺ في حجة الوداع . لما بات بمزدلفة وصلى الفجر ، وجلس يدعو حتى أسفر جدًا ودفع قبل أن تطلع الشمس ، ووصل إلى جمرة العقبة وقد ارتفع النهار ، وصار للشمس حرارة ، فرمى الجمرة وذلك يوم العيد .

وذهب ﷺ إلى منزله فدعا بالحلاق فحلق رأسه ؛ وأشار ﷺ إلى الشق الأيمن فبدأ الحلاق بالشق الأيمن ، وكان النبي ﷺ يُعَفِّي شعر الرأس ، فكان شعر رأسه كثيرًا ، فبدأ بالشق الأيمن فحلقه ، ثم دعا أبا طلحة ﷺ الأنصاري وأعطاه شعر الشق الأيمن كله ، ثم حلق بقية الرأس ودعا أبا طلحة وأعطاه إياه ، وقال : « اقسمه بين الناس » فقسمه ، فمن الناس من ناله شعرة واحدة ، ومنهم من ناله شعرتان ، ومنهم من ناله أكثر حسب ما تيسر ، وذلك لأجل التبرك بهذا الشعر الكريم ؛ شعر النبي ﷺ .

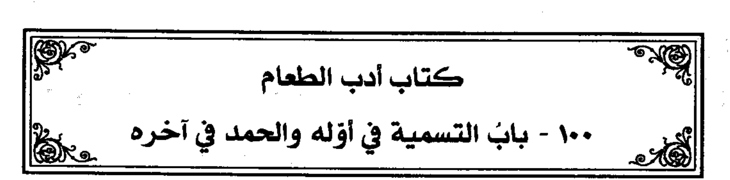
وكون أبا طلحة خصه الرسول بالجانب الأيمن كله يدل على أن من الناس من يختص بخصيصة يخصه الله بها ، وإن كان في الصحابة من هو أفضل منه ؛ فأبو بكر وعمر وعثمان وعليّ وكثير من الصحابة أفضل من أبي طلحة ، لكن فضل الله ﷻ يؤتيه من يشاء ، وكان الصحابة يتبركون بشعر النبي ﷺ وبثيابه وبعرقه ، لكن غيره لا يتبرك بشعره ولا بثيابه ولا بعرقه .

وكان عند أم سلمة رضي الله عنها - إحدى زوجات الرسول ﷺ - شعرات من شعر الرسول ﷺ ، وضعتها في جُلجل يعني : طابوق من الفضة ، وجعلته من الفضة تكريمًا لشعر الرسول ﷺ ، فكان الناس إذا مرض عندهم مريض جاءوا إليها فصبت على الشعر ماء وحركته به ، ثم أعطته المريض فيشفى بإذن الله ببركة شعر النبي ﷺ .

لكن هذا ليس لغير النبي ﷺ ، فإن الصحابة لم يتبركوا بشعر أبي بكر وهو أفضل الأمة بعد الرسول ﷺ ، ولا بشعر عمر ، ولا غيره من الصحابة ، وكذلك من دونهم لا يُتبرك بشعره ولا بعرقه ولا بثيابه ، إنما ذلك خاص برسول الله ﷺ .

والشاهد من حديث أنس أن النبي ﷺ أشار إلى الحلاق أن يبدأ بالجانب الأيمن . فإذا حججت وأردت أن تحلق أو تقصر فابدأ بالجانب الأيمن ، وكذلك لو حلقت حلقًا عاديًا فابدأ بالجانب الأيمن .

* * *



كتاب أدب الطعام

١٠٠ - باب التسمية في أوّله والحمد في آخره

٧٢٨ - عن عُمَرَ بنِ أبي سَلَمَة رضي الله عنهما قال : قال رسول الله ﷺ : « سَمِّ اللَّهَ وكُلْ بِيَمِينِكَ ، وكُلْ مِمَّا يَلِيكَ » [(١)] متفقٌ عليه .

٧٢٩ - وعن عَائشةَ رضي الله عنها قالَتْ : قالَ رسول الله ﷺ : « إذا أكَلَ أحدُكُمْ فَلْيَذْكُرِ اسْمَ اللَّه تعالى ، فإنْ نسِيَ أنْ يَذْكُرَ اسْمَ اللَّهِ تَعَالَى في أوَّلِهِ ، فَلْيَقُلْ : بسْمِ اللَّهِ أَوَّلَهُ وَآخِرَهُ » [(٢)] .

رواه أبو داود ، والترمذي ، وقال : حديث حسن صحيح .

الشرح

قال المؤلف رحمه الله « كتاب أدب الطعام » : فالطعام ما يطعمه الإنسان ، أي ما يتذوق طعمه ، ويكون شرابًا ويكون أكلًا ، والدليل على أن الشراب يسمى طعمًا أو طعامًا قوله تبارك وتعالى :

---

(١) أخرجه البخاري في الأطعمة (٥٣٧٨) واللفظ له ، ومسلم في الأشربة (١٠٨) ، والإمام أحمد في مسنده (٤/٢٦ ، ٢٧) قوله : « وكل مما يليك » أي إذا كان الطعام لونًا واحدًا ، فإن كان ألوانًا جاز الأكل من جميع الجوانب .

(٢) أخرجه أبو داود في الأطعمة (٣٧٦٧) ، والترمذي في الأطعمة (١٨٥٨) ، والإمام أحمد في مسنده (٦/٢٤٦) .

﴿فَمَن شَرِبَ مِنْهُ فَلَيْسَ مِنِّي وَمَن لَّمْ يَطْعَمْهُ فَإِنَّهُۥ مِنِّيٓ إِلَّا مَنِ ٱغْتَرَفَ غُرْفَةًۢ بِيَدِهِۦ﴾ [البقرة: ٢٤٩].

ثم قال: (باب التسمية في أوله والحمد في آخره). ثم ذكر حديث عمر بن أبي سلمة ﷺ وكان ربيب النبي ﷺ يعني: ابن زوجته أم سلمة، فإنه قُدِّم للنبي ﷺ طعام، وكان غلامًا صغيرًا فجعلت يده تطيش في الصحفة من هنا ومن هنا، وكان النبي ﷺ لا يدع مجالًا يحتاج إلى التعليم إلا علم، حتى الصغار، فقال له: «سَمِّ اللَّه، وكُلْ بيمينك، وكُلْ مما يليك».

فهذه ثلاثة آداب في الأكل علمها النبي ﷺ هذا الغلام.

أولًا: قال: «سم اللَّه»، يعني قل: بسم اللَّه، ولا حرج أن يزيد الإنسان: الرحمن الرحيم، لأن هذين الاسمين أثنى اللَّه بهما على نفسه في البسملة في القرآن الكريم ﴿بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ﴾ فإن قال: بسم اللَّه الرحمن الرحيم. فلا حرج، وإن اقتصر على بسم اللَّه كفى.

والتسمية على الأكل واجبة إذا تركها الإنسان فإنه يأثم ويشاركه الشيطان في أكله، ولا أحد يرضى أن يشاركه عدوه في أكله، فلا أحد يرضى أن يشاركه الشيطان في أكله، فإذا لم تقل: بسم اللَّه فإن الشيطان يشاركك فيه.

فإن نسيت أن تسمي في أوله وذكرت في أثنائه فقل: «بسم اللَّه أوله وآخره» كما أرشد إلى ذلك النبي ﷺ في الحديث الذي روته عائشة وأخرجه أبو داود والترمذي.

ثانيًا: قال: «كُلْ بيمينك» والأكل باليمين واجب، ومن أكل بشماله فهو آثم عاصٍ للرسول ﷺ، ومن عصى الرسول فقد عصى اللَّه، ومن يطع الرسول فقد أطاع اللَّه.

ثالثًا: «كُلْ مما يليك» يعني: إذا كان معك مشارك فكُلْ من الذي يليك، لا تأكل من جهته، ومن الذي يليه، فإن هذا سوء أدب، قال العلماء: إلا أن يكون الطعام أنواعًا، مثل أن يكون فيه قرع وباذنجان ولحم وغيره، فلا بأس أن تتخطى يدك إلى هذا النوع أو ذاك، كما كان الرسول ﷺ يتتبع الدُّبَّاء من الصحفة ويأكلها [(١)]. والدباء يعني القرع.

وكذلك لو كنت تأكل وحدك فلا حرج أن تأكل من الطرف الآخر لأنك لا تؤذي أحدًا في ذلك، لكن لا تأكلْ من أعلى الصحفة لأن البركة تنزل في أعلاها، ولكن كل من الجوانب.

وفي هذا الحديث: دليل على أنه ينبغي لنا أن نعلِّمَ الصبيان والغلمان آداب الأكل والشرب، وكذلك آداب النوم، فضلًا عن الأمور الأخرى كالصلاة، فإن الرسول ﷺ قال: «مروا أبناءكم بالصلاة لسبع واضربوهم عليها لعشر» [(٢)].

* * *

٧٣٠ - وعن جابرٍ ﷺ قال: سَمِعْتُ رسول اللَّه ﷺ يقولُ: «إذا دخل الرَّجُل بَيتَهُ، فَذَكَرَ اللَّهَ

---

(١) أخرجه البخاري في الأطعمة (٥٣٧٩)، والترمذي في الأطعمة (١٨٤٨).

(٢) أخرجه أبو داود في الصلاة (٤٩٥)، والترمذي في الصلاة (٤٠٧).

تعالى عِنْدَ دُخُولِهِ وعِنْدَ طَعامِهِ ، قال الشَّيطانُ لأصْحابِهِ : لا مَبيت لَكُم ولا عَشاءَ ، وإذا دخَل ، فَلَمْ يَذْكُر اللَّهَ تَعَالى عِنْد دِخُولِهِ ، قال الشَّيطَانُ : أَدْرَكْتُم المَبِيت ، وإذا لم يذْكُرِ اللَّهَ تَعَالى عِنْدَ طَعَامِهِ قال : أَدْرَكْتُم المبيت والعَشَاءَ » [١] رواه مسلم .

الشرح

ذكر المؤلف - رحمه الله تعالى - في سياق أدب الطعام ، عن جابر ﷺ أن النبي ﷺ قال : « إذا دخل الرجل بيته فذكر اللّٰه تعالى عند دخوله وعند طعامه ، قال الشيطان لأصحابه : لا مبيت لكم ولا عشاء » ؛ ذلك لأن الإنسان ذكر اللّٰه .

وذكر اللّٰه تعالى عند دخول البيت أن يقول : « بسم اللّٰه ولجنا ، وبسم اللّٰه خرجنا ، وعلى اللّٰه ربنا توكلنا ، اللهم إني أسألك خير المولج ، وأسألك خير المخرج » [٢] ، هذا الذكر عند دخول المنزل ، سواءٌ في الليل أو في النهار .

وأما الذكر عند العشاء فأن يقول : « بسم اللّٰه » .

فإذا ذكر اللّٰه عند دخوله البيت ، وذكر اللّٰه عند أكله عند العشاء ، قال الشيطان لأصحابه : لا مبيت لكم ولا عشاء ، لأن هذا البيت وهذا العشاء مُحمِيَ بذكر اللّٰه ﷻ ، حماه اللّٰه تعالى من الشياطين .

وإذا دخل فلم يذكر اللّٰه تعالى عند دخوله قال الشيطان : أدركتم المبيت ، وإذا لم يذكر اللّٰه تعالى عند طعامه قال : أدركتم المبيت والعشاء ، أي أن الشيطان يشاركه المبيت والطعام لعدم التحصن بذكر اللّٰه .

وفي هذا : حث على أن الإنسان ينبغي له إذا دخل بيته أن يذكر اسم اللّٰه ، والذكر الوارد في ذلك : « بسم اللّٰه ولجنا ، وبسم اللّٰه خرجنا ، وعلى اللّٰه ربنا توكلنا ، اللهم إني أسألك خير المولج وخير المخرج » ، ثم يستاك ، لأن النبي ﷺ إذا دخل بيته فأول ما يبدأ به السواك ، ثم يسلم على أهله [٣] .

أما عند العشاء فيقول : « بسم اللّٰه » . وبذلك يحترز من الشيطان الرجيم مبيتًا وعشاءً ، فإن ذكر اسم اللّٰه عند الدخول دون العشاء شاركه الشيطان في عشائه ، وإن ذكر اسم اللّٰه عند العشاء دون الدخول شاركه الشيطان في المبيت دون العشاء ، وإن ذكر اسم اللّٰه عند الدخول وعند العشاء فإن الشيطان لا يكون له مبيت ولا عشاء .

* * *

٧٣١ - وعن حُذَيفَةَ ﷺ قال : كنَّا إذا حَضَرْنَا مَعَ رسول اللّٰه ﷺ طَعَامًا ، لَمْ نَضَعْ أيدِينَا حَتَّى يَبْدَأَ رسول اللّٰه ﷺ فَيَضَعَ يَدَه ، وَإِنَّا حَضَرْنَا مَعَهُ مرَّةً طَعَامًا ، فَجَاءَت جَارِيَةٌ كَأَنَّها تُدْفَعُ ، فَذَهَبَتْ

---

(١) أخرجه مسلم في الأشربة (١٠٣) واللفظ له ، وأبو داود في الأطعمة (٣٧٦٥) ، والإمام أحمد في مسنده (٣/٣٤٦) .

(٢) أخرجه أبو داود في الأدب (٥٠٩٦) .

(٣) أخرجه مسلم في الطهارة (٤٣) ولفظه « أن النبي ﷺ كان إذا دخل بيته بدأ بالسواك » .

لِتَضَعَ يَدَهَا في الطَّعَامِ ، فَأَخَذَ رسول اللَّه ﷺ بِيَدِهَا ، ثُمَّ جَاءَ أَعْرَابِيٌّ كَأَنَّمَا يُدْفَعُ ، فَأَخَذَ بِيَدِهِ ، فقال رسول اللَّه ﷺ : « إِنَّ الشَّيطَانَ يَسْتَحِلُّ الطَّعَامَ أَنْ لا يُذْكَرَ اسمُ اللَّهِ تَعَالى عليه ، وَإِنَّهُ جَاءَ بِهذِهِ الجَارِيَةِ لِيَسْتَحِلَّ بها ، فَأَخَذْتُ بِيَدِها فَجاءَ بهذا الأعْرابيِّ لِيَسْتَحِلَّ بِهِ ، فَأَخَذْتُ بِيَدِهِ ، وَالَّذي نَفْسي بِيَدِهِ إِنَّ يَدَه في يَدِي مَعَ يَدَيهِمَا » ثُمَّ ذَكر اسمَ اللَّهِ تَعالى وَأكلَ [(١)] . رواه مسلم .

الشرح

ذكر المؤلف رحمه الله في باب أدب الطعام ما نقله عن حذيفة بن اليمان رضي الله عنه ، قال : كنا إذا حضرنا مع رسول اللَّه ﷺ طعامًا ، لم نضع أيدينا حتى يبدأ رسول اللَّه ﷺ فيضع يده ؛ وذلك لكمال احترامهم للنبي ﷺ ، فلا يضعون أيديهم في الطعام حتى يضع يده .

فحضر مع رسول اللَّه ﷺ ذات يوم طعامًا قدم إلى رسول اللَّه ﷺ ، فلما بدؤوا جاءت جارية ، يعني طفلة صغيرة كأنما تُدفع دفعًا ، يعني كأنها تركض ، فأرادت أن تضع يدها في الطعام بدون أن تسمي فأمسك النبي ﷺ بيدها ، ثم جاء أعرابي كذلك كأنما يُدفع دفعًا ، فجاء ليضع يده في الطعام فأمسك النبي ﷺ بيده ، ثم أخبر النبي ﷺ أن هذا الأعرابي وهذه الجارية جاء بهما الشيطان لأجل أن يستحل الطعام بهما إذا أكلا بدون تسمية .

وهما قد يكونان معذورين لجهلهما ؛ هذه لصغرها وهذا أعرابي ، لكن الشيطان أتي بهما من أجل أنهما إذا أكلا بدون تسمية شارك في الطعام .

ثم أقسم النبي ﷺ أن يد الشيطان مع أيديهما في يد النبي ﷺ .

وهذا الحديث يدل على فوائد :

منها : احترام الصحابة لرسول اللَّه ﷺ وأدبهم معه .

ومنها : أنه ينبغي إذا كان هناك كبير على الطعام ألا يتقدم أحدٌ قبل أكله ، بل يؤثرون الكبير بالأكل أولًا ، لأن التقدم بين يدي الكبير غير مناسب وينافي الأدب .

ومنها : أن الشيطان يأمر الإنسان ويحثه ويزجره على فعل ما لا ينبغي ، وقد جاء في القرآن الكريم : ﴿ ٱلشَّيْطَٰنُ يَعِدُكُمُ ٱلْفَقْرَ وَيَأْمُرُكُم بِٱلْفَحْشَآءِ ﴾ [البقرة : ٢٦٨] ، وقال تعالى : ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَا تَتَّبِعُوا۟ خُطُوَٰتِ ٱلشَّيْطَٰنِ وَمَن يَتَّبِعْ خُطُوَٰتِ ٱلشَّيْطَٰنِ فَإِنَّهُۥ يَأْمُرُ بِٱلْفَحْشَآءِ وَٱلْمُنكَرِ ﴾ [(٢)] [النور : ٢١] ، فدل هذا

---

(١) أخرجه مسلم في الأشربة (١٠٢) ، والإمام أحمد في مسنده (٥/٣٨٣) قوله : « كأنها تدفع » أي لشدة سرعتها ، قوله « يستحل الطعام » أي يتمكن منه ، قوله « أن لا يذكر اسم اللَّه تعالى عليه » أي علة استحلاله ، والجار قبلها ، أي : بأن لا يذكر اسم اللَّه عليه . وحذف الجار من أن . قوله « فأخذت بيدها » أي منعًا للشيطان مما أراد ، قوله « إن يده في يدي مع يدهما » أي يد الشيطان .

(٢) قوله تعالى : ﴿ خُطُوَٰتِ ٱلشَّيْطَٰنِ ﴾ طرقه وآثاره ومذاهبه . قوله تعالى : ﴿ يَأْمُرُ بِٱلْفَحْشَآءِ ﴾ يوقع من يتبعه بما عظم قبحه من الذنوب . قوله تعالى : ﴿ وَٱلْمُنكَرِ ﴾ ما ينكره الشرع وينهى عنه .

على أن الشيطان له إمرة على بني آدم والمعصوم من عصمه اللَّه .

ومنها : أن الإنسان إذا أتي في أثناء الطعام فليسمِّ ولا يقل : سمى الأولون قبلي .

ولكن إذا كانوا جميعًا وبدؤوا بالطعام جميعًا ، فهل يكفي تسمية الواحد ؟

والجواب : إن كان الواحد سمى سرًا فإن تسميته لا تكفي لأن الآخرين لم يسمعوها ، وإن سمى جهرًا ونوى عن الجميع فقد يقال : إنها تكفي ، وقد يقال : الأفضل أن يسمي كل إنسان لنفسه ، وهذا أكمل وأحسن .

ومن فوائد هذا الحديث : أن للشيطان يدًا ، لأن النبي ﷺ أمسك بيده .

ومنها أيضًا : أن هذا الحديث آيةٌ من آيات الرسول ﷺ ، حيث أعلمه اللَّه تعالى بما حصل في هذه القصة ، وأن الشيطان دفع الأعرابي والجارية ، وأنه أمسك بأيديهم ؛ أي بأيدي الثلاثة بيده الكريمة صلوات اللَّه وسلامه عليه .

ومنها : أنه إذا جاء أحد يريد أن يأكل ولم تسمعه سمَّى فأمسكْ بيده حتى يسمي ، لأن النبي ﷺ أمسك بأيديهم ولم يقل : سميا ، بل أمسك بأيديهم حتى يكون في ذلك ذكرى لهم ؛ يذكرون هذه القصة ولا ينسون التسمية في المستقبل .

ومن فوائد هذا الحديث : تأكد التسمية عند الأكل ، والصحيح أن التسمية عند الأكل واجبة ، وأن الإنسان إذا لم يسمِّ فهو عاصٍ للَّه ﷻ ، وراضٍ بأن يشاركه في طعامه أعدى عدو له وهو الشيطان ، فلذلك كانت التسمية واجبة ، فإن نسيت التسمية في أوله وذكرت في أثنائه فقل : بسم اللَّه أوله وآخره .

* * *

٧٣٢ - وعن أُمَيَّةَ بنِ مخشِيٍّ الصَّحَابي ﷺ قال : كانَ رسول اللَّه ﷺ جَالِسًا ، وَرَجُلٌ يأْكُلُ ، فَلَمْ يُسمِّ اللَّه حَتَّى لَمْ يَبْقَ مِنْ طَعَامِهِ إلا لُقْمَةٌ ، فَلَمَّا رَفَعَهَا إلى فِيهِ ، قالَ : بسمِ اللَّهِ أَوَّلَهُ وَآخِرَهُ ، فَضَحِكَ النبيُّ ﷺ ، ثم قال : « مَا زَالَ الشَّيطَانُ يَأْكُلُ مَعَهُ ، فلمَّا ذَكَرَ اسم اللَّهِ اسْتَقَاءَ مَا في بَطنِهِ » [(١)] .

رواه أبو داود ، والنسائي .

٧٣٣ - وعن عائشة ﵂ قالَتْ : كانَ رسول اللَّه ﷺ يَأكُلُ طَعَامًا في سِتَّةٍ مِنْ أَصحَابِهِ ، فَجَاءَ أَعْرَابِيٌّ ، فَأَكَلَهُ بِلُقْمَتَينِ . فقال رسول اللَّه ﷺ : « أما إنَّهُ لو سمَّى لكَفَاكُمْ » [(٢)] .

رواه الترمذي ، وقال : حديثٌ حسنٌ صحيحٌ .

---

(١) أخرجه أبو داود في الأطعمة (٣٧٦٨) ، والطبراني في الكبير (١/٢٦٩) .

(٢) أخرجه الترمذي في سننه (١٨٥٨) .

٧٣٤ - وعن أبي أُمامة رضي الله عنه أن النبيَّ ﷺ كانَ إذا رَفَعَ مَائِدَتَهُ قال : « الحَمْدُ للّهِ كَثِيرًا طَيِّبًا مُبَارَكًا فِيهِ ، غَيرَ مَكْفِيٍّ [(١)] وَلا مَوَدَّعٍ [(٢)] ، وَلا مُسْتَغْنَىً عَنْهُ رَبَّنَا » [(٣)] رواه البخاريّ .

٧٣٥ - عن مُعَاذِ بن أنسٍ رضي الله عنه قالَ : قالَ رسول اللّه ﷺ : « مَنْ أَكَلَ طَعَامًا فقال : الحَمْدُ للّهِ الذي أَطْعَمَني هذا ، وَرَزَقَنِيهِ مِنْ غيرِ حَولٍ مِنِّي وَلا قُوَّةٍ ، غُفِرَ لَهُ مَا تَقَدَّمَ مِنْ ذَنْبِهِ » [(٤)] رواه أبو داود ، والترمذي ، وقال : حديثٌ حسنٌ .

الشرح

هذه الأحاديث ساقها المؤلف رحمه الله في كتاب أدب الطعام ، وفيها دلالة على أمور :

منها : أن الإنسان إذا لم يسم اللّه على طعامه فإن الشيطان يأكل معه ، لحديث أمية بن مخشي ، أن رجلًا أكل طعامًا فلم يسم ، فلما بقي لقمة واحدة تذكر فسمى اللّه تعالى ، فضحك النبي ﷺ ، وأخبر أن الشيطان كان يأكل معه ، فلما ذكر اللّه قاء الشيطان ما أكله . وهذه من نعمة اللّه سبحانه وتعالى ؛ أن الشيطان يُحرم أن يأكل معنا إذا سمينا في أول الطعام ، وكذلك إذا سمينا في آخره وقلنا : بسم اللّه أوله وآخره ، فإن ما أكله يتقيّؤه فيُحرم إياه .

وفي الحديث دليل على أن الشيطان يأكل ، لأنه أكل من هذا الطعام ، فالشيطان يأكل ويشرب ويشارك الآكل والشارب إذا لم يسم اللّه تعالى على أكله وشربه .

وكذلك ذكر حديث عائشة رضي الله عنها أن النبي ﷺ كان يأكل في ستة نفر من أصحابه ، فجاء أعرابي فدخل معهم فأكل الباقي بلقمتين ، هذا كأنه جائع واللّه أعلم ، فجاء منهمًا في الأكل ، فأكل الباقي بلقمتين ، فقال النبي ﷺ : « أما إنه لو سمى لكفاكم » لكنه لم يسم ، فأكل الباقي كله بلقمتين ولم يكفه .

وهذا يدل على أن الإنسان إذا لم يسم نُزعت البركة من طعامه ، لأن الشيطان يأكل معه ، فيكون الطعام الذي يظن أنه يكفيه لا يكفيه ، لأن البركة تنزع منه .

وبقية الأحاديث فيها دليل على أن الإنسان ينبغي له إذا أكل أكلًا ان يحمد اللّه ﷻ ، وأن يقول : الحمد للّه الذي أطعمني هذا ورزقنيه من غير حول مني ولا قوة . ومعنى ذلك أنه لولا أن اللّه تعالى يسر

---

(١) غير مكفي : قيل : يحتمل أن تكون من كفأت الإناء : أي غير مردود عليه إنعامه ، ويحتمل أن تكون من الكفاية : أي أن اللّه غير مكفي رزق عباده لأنه لا يكفيهم أحد غيره . وقيل : المعنى أنا غير مكتف بنفسي عن كفايته . وهذا كله إذا كان الضمير للّه . وقيل : يحتمل أن يكون الضمير للطعام ، ومكفي بمعنى مقلوب من الإكفاء وهو القلب ، غير أنه لا يكفي الإناء للاستغناء عنه .

(٢) ولا مودَّع : بفتح الدال أي غير متروك ، ويحتمل كسرها على أنه حال من القائل ، أي غير تارك .

(٣) أخرجه البخاري في الأطعمة (٥٤٥٨) .

(٤) أخرجه أبو داود في اللباس (٤٠٢٣) ، والترمذي في الدعوات (٣٤٥٨) ، والإمام أحمد في مسنده (٣/٤٣٩) .

لك هذا الطعام ما حصل لك ، كما قال تعالى : ﴿ أَفَرَءَيْتُم مَّا تَحْرُثُونَ ۝ ءَأَنتُمْ تَزْرَعُونَهُۥٓ أَمْ نَحْنُ ٱلزَّٰرِعُونَ ۝ لَوْ نَشَآءُ لَجَعَلْنَٰهُ حُطَٰمًا فَظَلْتُمْ تَفَكَّهُونَ (١) إِنَّا لَمُغْرَمُونَ (٢) ۝ بَلْ نَحْنُ مَحْرُومُونَ ﴾ (٣) [الواقعة : ٦٣- ٦٧] .

فالإنسان لولا أن اللّٰه ييسر له الطعام من حين أن يبذر ، ثم ينبت ، ثم يحصد ، ثم يُحضر إليه ، ثم يطحن ، ثم يعجن ، ثم يطبخ ، ثم ييسر اللّٰه الأكل ، ما تيسر له ذلك .

ولهذا قال بعض العلماء : إن الطعام لا يصل إلى الإنسان ويقدم إليه إلاَّ وقد سبق ذلك نحو مائة نعمة من اللّٰه لهذا الطعام ، ولكننا أكثر الأحيان في غفلة عن هذا ، نسأل اللّٰه أن يطعمنا وجميع المسلمين الطعام الحلال ، وأن يرزقنا شكر نعمته ، إنه على كل شيء قدير .

وفي حديث معاذ بن أنس ﷺ ، حَثُّ النبي ﷺ على قول : « الحمد للّٰه كثيرًا طيبًا مباركًا فيه ، غير مكفي ولا مودع ولا مستغنىً عنه ربنا » ، أي إننا لا نستغني عن اللّٰه ﷻ ، ولا أحد يكفينا دونه ، فهو سبحانه حسبنا وهو رازقنا جل وعلا .

* * *

١٠١ - باب لا يَعيبُ الطَّعام واستحباب مَدْحه

٧٣٦ - عن أبي هُريرة ﷺ قالَ : « مَا عَابَ رسول اللّٰه ﷺ طَعَامًا قَطُّ ، إن اشْتَهاهُ أَكَلَهُ ، وَإِنْ كَرِهَهُ تَرَكَهُ » (٤) متفقٌ عليه .

٧٣٧ - وعن جابرٍ ﷺ أنَّ النبيَّ ﷺ سَأَلَ أَهْلَهُ الأُدْمَ فقالُوا : ما عِنْدَنَا إلا خَلٌّ ، فَدَعَا بِهِ ، فَجَعَلَ يَأْكُلُ ويقول : « نِعْمَ الأُدْمُ الخَلُّ ، نِعْمَ الأُدْمُ الخَلُّ » (٥) رواه مسلم .

الشرح

قال المؤلف - رحمه اللّٰه تعالى - : (باب لا يعيب الطعام ، واستحباب مدحه) .

والطعام : ما يطعمه من مأكول ومشروب ، والذي ينبغي للإنسان إذا قدم له الطعام أن يعرف قدر نعمة اللّٰه ﷻ بتيسيره ، وأن يشكره على ذلك ، وألا يعيبه ؛ إن كان يشتهيه وطابت به نفسه فليأكله ، وإلا فلا يأكله ، ولا يتكلم فيه بقدح أو بعيب .

ودليل ذلك حديث أبي هريرة ﷺ قال : ما عاب رسول اللّٰه ﷺ طعامًا قط . يعني لم يعب أبدًا

---

(١) أي لجعلنا ذلك الزرع متكسرًا متفتتًا لشدة يبسه لا نفع فيه بعد ما أنبتناه .

(٢) أي تقولون : إنا لمهلكون بهلاك أقواتنا . (٣) أي ممنوعون الرزق بالكلية .

(٤) أخرجه البخاري في الأطعمة (٥٤٠٩) ومسلم في الأشربة (١٨٧) وأبو داود في الأطعمة (٣٧٦٣) .

(٥) الأدم : ما يؤتدم به مع الخبز ، مائعًا كان أو جامدًا .

(٦) أخرجه مسلم في الأشربة (١٦٦) بلفظ ، والإمام أحمد في مسنده (٣٠١/٣ ، ٣٦٤) .

فيما مضى طعامًا ، ولكنه إن اشتهاه أكله وإلا تركه ولا يعيبه .

مثال ذلك : رجل قُدِّم له تمر وكان التمر رديئًا ، فلا يقل : هذا تمر رديء ، بل يقال له : إن اشتهيته فكُلْ وإلا فلا تأكله ، أمَّا أن تعيبه وهو نعمة أنعم اللَّه بها عليك ويسرها لك ، فهذا لا يليق .

كذلك إذا صُنع طعام فَقُدِّمَ إليه ، ولكنه لم يعجبه فلا يعيبه ، ويقال له : إن كان هذا الطبخ قد ساغ لك فكُلْ ، وإلا فاتركه .

وأما في مدح الطعام والثناء عليه فذكر حديث جابر ﷺ أن النبي ﷺ سأل أهله الأدم ، فقالوا : ما عندنا شيء إلا الخل . والخل : عبارة عن ماء يوضع فيه التمر حتى يكون حلوًا ، فجيء إليه بالخل فجعل يأتدم به ، يعني يغط فيه الخبز ويأكله ، ويقول : « نعم الأدم الخل ، نعم الأدم الخل » .

وهذا ثناء على الطعام ، لأن الخل وإن كان شرابًا يشرب و لكن الشراب يسمى طعامًا ، قال اللَّه تعالى : ﴿ فَمَن شَرِبَ مِنۡهُ فَلَيۡسَ مِنِّي وَمَن لَّمۡ يَطۡعَمۡهُ فَإِنَّهُۥ مِنِّيٓ ﴾ [البقرة : ٢٤٩] ، وإنما سمي طعامًا لأن له طعمًا يطعم .

وهذا أيضًا من هدي النبي ﷺ أنه إذا أعجبه الطعام أثنى عليه . وكذلك مثلًا : لو أثنيت على الخبز ، قلت : نعم الخبز خبز فلان أو ما أشبه ذلك ، فهذا أيضًا من سنة الرسول ﷺ .

* * *

١٠٢ - باب ما يقوله مَن حضر الطّعام وهو صَائِم إذا لم يفطر

٧٣٨ – عن أبي هُريرة ﷺ قالَ : قالَ رسول اللَّه ﷺ : « إذا دُعِيَ أَحَدُكُمْ ، فَلْيُجِبْ ، فَإنْ كَانَ صَائمًا فَلْيُصَلِّ ، وَإنْ كَانَ مُفْطِرًا فَلْيَطْعَمْ » [(١)] رواه مسلم .

قال العُلَمَاءُ : مَعْنى « فَلْيُصَلِّ » : فَلْيَدْعُ ، ومعنى « فَلْيَطْعَمْ » : فَلْيَأْكُلْ .

الشرح

قال المؤلف – رحمه اللَّه تعالى – : (باب ما يقوله من حضر الطعام وهو صائم إذا لم يفطر) .

ثم ذكر حديث أبي هريرة ﷺ ، أن النبي ﷺ قال فيمن دُعي إلى طعام وهو صائم ، قال : « فإن كان صائمًا فليصل ، وإن كان مفطرًا فليطعم » .

« فليصل » : يعني فليدعو لأن الصلاة هنا المراد بها الدعاء ، كما هو في اللغة العربية أن الصلاة هي الدعاء ، أما في الشرع ، فالصلاة هي العبادة المعروفة ، إلا إذا دَلَّ الدليل على أن المراد بها الدعاء فهو على مادل عليه الدليل .

---

(١) أخرجه مسلم في النكاح (١٠٦) ، وأبو داود في الصوم (٢٤٦٠) ، والإمام أحمد في مسنده (٤٨٩/٢) .

فالإنسان إذا دعي إلى طعام وحضر فلا يكفي الحضور ، بل يأكل لأن الرجل الذي دعاك لم يصنع الطعام إلا ليؤكل ، فقد تكلف لك وصنع طعامًا أكثر من طعام أهله ، ودعاك إليه ، فإذا قلنا لا حرج عليك إن تركت الأكل لزم من هذا أن يبقى طعامه لم يؤكل ، فمثلًا لو دعا عشرة وصنع لهم طعامًا ، وقلنا : إن الواجب الحضور دون الأكل ، ثم قاموا ولم يأكلوا لصار في ذلك مفسدة لماله ، ومضيعة لماله ، وصار في قلبه على الحاضرين شيء ؛ لماذا لم يأكلوا طعامي ؟! .

فنقول : إذا دعاك داعٍ فالسنة أن تجيبَهُ إلا إذا كان الداعي هو الزوج في وليمة العرس ، فإن الواجب أن تجيبه إلى دعوته ، ولا يحل لك أن تمتنع ، لقول النبي ﷺ : « من لم يجب فقد عصى الله ورسوله »[1] يعني دعوة الوليمة ، أما غيرها من الدعوات فأنت بالخيار .

مثال ذلك : لو أن إنسانًا دعاك في طعام لأنه قدم من سفر ، أو لأنه دعا أصحابه ، أو ما أشبه ذلك ، فأنت بالخيار ؛ إن شئت فأجب وإن شئت فلا تجب ، لكن الأفضل أن تجيب ، وهذا الذي عليه جمهور العلماء .

وقال بعض العلماء : يجب أن تجيب في دعوة الطعام في العرس وغيره ، إلا لسبب شرعي .

فإذا حضرت فإن كنت مفطرًا فكُلْ ، وإن كنت صائمًا فادعُ لصاحب الطعام ، وأخبره بأنك صائم ، حتى لا يكون في قلبه شيء ، وإن رأيت أنك إذا أفطرت وأكلت صار أطيب لقلبه فأفطر ، إلا أن يكون الصوم صوم فريضة ، فلا تفطر .

فتبين الآن أن المسألة ثلاثة أحوال :

أولًا : إذا دعاك وأنت مفطر فكُلْ .

ثانيًا : إذا دعاك وأنت صائم صوم فريضة فلا تأكل ولا تفطر .

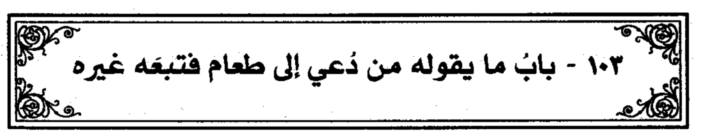
ثالثًا : إذا دعاك وأنت صائم صوم نفل فأنت بالخيار ؛ إن شئت فأفطر وكُلْ ، وإن شئت فلا تأكل ، وأخبره بأنك صائم ، واتبع في ذلك ما هو الأصلح ؛ إذا رأيت أن من الخير أن تفطر فأفطر وكُلْ ، وإلا فلزوم الصيام أولى .

أما البطاقات : فلا تجب الإجابة فيها ، إلا إذا علمت أن الرجل أرسل إليك البطاقة بدعوة حقيقية ، لأن كثيرًا من البطاقات ترسل إلى الناس من باب المجاملة ، ولا يهمه حضرت أم لم تحضر ، لكن إذا علمت أنه يهمه أن تحضر لكونه قريبًا لك أو صديقًا لك فأجب .

* * *

---

(١) أخرجه البخاري في النكاح (٥١٧٧) ومسلم في النكاح (١٤٣٢) .



١٠٣ - بابُ ما يقوله من دُعي إلى طعام فتبعَه غيره

٧٣٩ - عن أبي مسعود البَدْرِيِّ ﷺ قال : دَعَا رَجُلٌ النَّبِيَّ ﷺ لِطَعَامٍ صَنَعَهُ لَهُ خَامِسَ خَمْسَةٍ ، فَتَبِعَهُمْ رَجُلٌ ، فَلَمَّا بَلَغَ البابَ ، قال النبيُّ ﷺ : « إِنَّ هذا تَبِعَنا ، فَإِنْ شِئْتَ أَنْ تَأْذَنَ لَهُ ، وَإِنْ شِئْتَ رَجَعَ » قال : بل آذَنُ لهُ يا رسول اللَّه [١] . متفقٌ عليه .

الشرح

قال المؤلف رحمه الله في (كتاب أدب الطعام) : (باب ما يقوله من دعي إلى طعامٍ فتبعه غيره) .

ثم ذكر حديث أبي مسعود البدري ﷺ ، أن رجلًا دعا النبي ﷺ إلى طعام خامس خمسة ، يعني حدد العدد بأنهم خمسة ، فتبعهم رجل فكانوا ستة ، فلما بلغ النبي ﷺ منزل الداعي استأذن للرجل السادس ؛ قال ﷺ : « إن هذا تبعنا ، فإن شئت أن تأذن له ، وإن شئت رجع » ، ففي هذا دليل على فوائد :

منها : أنه يجوز للإنسان إذا دعا قومًا أن يحدد العدد ولا حرج في ذلك ، وبعض الناس يقول : إنه إذا حدد العدد فإنه بخيل ، ولكن يقال قد يكون الإنسان قليل ذات اليد ، يحتاج أن يحدد لأجل أن يصنع الطعام الذي لا يزيد عن كفايتهم ، ولا سيما في مكان يكون فيه عامة الناس فقراء ، أما الأغنياء فالحمد للَّه لا يحددون .

وفيه أيضًا دليل على جواز اتباع الرجل للمدعوين لعله يحصل على طعام ، لأن النبي ﷺ لم يمنع هذا الرجل من اتباعهم بل استأذن له ، ولأنه ورد أيضًا في حديث أبي هريرة ﷺ ، حين تبع النبي ﷺ من أجل أن يشبع بطنه .

وفيه أيضًا دليل على أنه إذا جاء مع الإنسان من لم يُدْعَ فإنه يستأذن له ، خصوصًا إذا كنت تظن أن صاحب البيت دعاك لغرض خاص لا يجب أن يطلع عليه أحد ، فحينئذٍ لابد أن تستأذن .

وفيه أيضًا دليل على أنه لا حرج على صاحب البيت إذا لم يأذن للذي تبع المدعو ، لأنه لو كان في ذلك حرج ما استأذنه النبي ﷺ ، فلما استأذنه دَلَّ على أنه بالخيار ؛ إن شاء أذن وإن شاء قال : ارجع .

وذلك أن الإنسان إذا استأذن على شخص فصاحب البيت بالخيار ؛ إن شاء أذن له وإن شاء قال : ارجع ، وقد قال اللَّه تعالى : ﴿ وَإِن قِيلَ لَكُمُ ٱرْجِعُوا۟ فَٱرْجِعُوا۟ ۖ هُوَ أَزْكَىٰ لَكُمْ ﴾ [النور : ٢٨] .

فلا يكن في صدرك حرج ولا في نفسك ضيق إذا استأذنت على شخص وقال : ارجع ، أنا الآن مشغول . خلافًا لبعض الناس إذا استأذن على إنسان وقال له : ارجع أنا مشغول ، صار في قلبه شيء ،

---

(١) أخرجه البخاري في الأطعمة (٥٤٣٤) مسلم في الأشربة (١٣٨) .

وهذا غلط لأن الناس لهم حاجات خاصة في بيوتهم ، وقد يكون لهم تعلقات بأناس آخرين أهم ، فإذا استأذنت على شخص في البيت ، وقال لك : الآن عندي شغل ؛ فارجع ، ارجعْ بكل راحة وبكل طمأنينة ، لأن هذا هو الشرع .

* * *

١٠٤ - باب الأكل ممّا يليه ووَعظه وتأديبه مَن يُسيء أكله

٧٤٠ - عن عمر بن أبي سَلَمَةَ رضي الله عنهما قال : « كُنْتُ غلامًا في حِجْر رسول اللَّه ﷺ ، وَكَانَتْ يَدِي تَطِيشُ في الصَّحْفَةِ ، فقال لي رسول اللَّه ﷺ : « يَا غُلامُ سَمِّ اللَّهَ تَعَالَى ، وَكُلْ بِيَمِينِكَ ، وَكُلْ مِمَّا يَلِيكَ » [(١)] متفقٌ عليه .

قوله : « تَطِيشُ » بكسر الطاء وبعدها ياءٌ مثناة من تحت ، معناه : تتحرّك وتمتدُّ إلى نواحي الصَّحْفَةِ .

٧٤١ - وعن سَلَمَة بنِ الأكوَعِ رضي الله عنه أن رَجُلًا أكلَ عِنْدَ رسولِ اللَّه ﷺ بشِمالِه، فقال : « كُلْ بِيَمِينكَ » قال : لا أستطيعُ ، قالَ : « لا اسْتَطعْت » ما مَنَعَهُ إلا الكِبْرُ ! فَمَا رَفَعَهَا إلي فِيهِ [(٢)] . رواه مسلم .

الشرح

قال المؤلف رحمه الله في كتاب أدب الطعام : (باب الأكل مما يليه ووعظه وتأديبه من يسيء أكله) .

وقد سبق لنا الكلام على أن الأكل باليمين والشرب باليمين واجب ، وأنه يحرم على الإنسان أن يأكل بشماله أو يشرب بشماله ، وأن من أكل بشماله أو شرب بشماله فإنه عاصٍ وآثم ؛ عاصٍ للَّه ورسوله ، وآثم ومشابه للشيطان ولأولياء الشيطان من الكفار .

والواجب على المسلم أن يأكل باليمين إلا لعذر ، كما لو كانت اليمين مشلولة أو ما أشبه ذلك ، فاتقوا اللَّه ما استطعتم .

ولهذا ذكر المؤلف حديث سلمة بن الأكوع رضي الله عنه ، أن النبي ﷺ قال لرجل يأكل بشماله : « كُلْ بيمينك » ، قال : لا أستطيع ، قال النبي ﷺ : « لا استطعتَ » ؛ يعني دعا عليه أن يعجز أن يرفع يده اليمنى إلى فمه ، لأنه ما منعه إلا الكبر والعياذ باللَّه ، فدعا عليه الرسول ﷺ فلم يرفعها بعد ذلك إلى فمه .

---

(١) أخرجه البخاري في الأطعمة (٥٣٧٦) ، ومسلم في الأشربة (١٠٨) ، والإمام أحمد في مسنده (٢٦/٤) .
(٢) أخرجه مسلم في الأشربة (١٠٧) ، والإمام أحمد في مسنده (٤٥/٤) ، والبيهقي في سننه (٢٧٧/٧) .

ويحتمل قوله : ما منعه إلا الكبر ؛ يعني إلا التكبر عن أمر الرسول ﷺ ، ويحتمل أنه : ما منعه إلا الكبر ؛ يعني ما منعه أن يأكل بيمينه إلا الكبر ، وأيًا كان فإن دعاء الرسول ﷺ عليه بهذه الدعوة التي أوجبت أن تنشلّ يده حتى لا ترفع إلى فمه ، دليل على أن الأكل بالشمال حرام .

وقد أخبر النبي ﷺ أن الشيطان يأكل بشماله ويشرب بشماله [(١)] ، فأنت الآن أمامك هدي النبي ﷺ وهدي الشيطان ، فهل تأخذ بهدي الرسول أو بهدي الشيطان ؟ ! وكل مؤمن يقول : آخذ بهدي الرسول ﷺ ، والرسول ﷺ يأكل بيمينه وأمر بالأكل باليمين ويشرب بيمينه وأمر بالشرب باليمين ، والشيطان يأكل بشماله ويشرب بشماله ، فاختر أي الطريقين شئت .

ولهذا كان أولياء الشيطان من اليهود والنصارى والمشركين لا يعرفون الأكل إلا بالشمال ، ولا الشرب إلا بالشمال ، لأنهم أولياء الشيطان و تولاهم الشيطان والعياذ بالله ، واستحوذ عليهم ، فإياك أن تكون مثلهم .

وبعض الناس إذا كان يأكل وأراد أن يتشرب يمسك الكأس باليسار ويشرب ، وهذا لا يجوز ، لأن الحرام لا يباح إلا للضرورة ، وهذا ليس له ضرورة ، يستطيع أن يمسك الكأس من أسفله باليد اليمنى ، فغالب كئوس الناس اليوم إما من البلاستيك يُشرب بها ثم ترمى ولا تغسل ، أو من الحديد أو الزجاج فيمكن غسلها حتى لو تلطخت .

ولكن لا يجوز للإنسان أن يأكل بشماله أو يشرب بشماله ، فإن فعل فهو عاص لله ورسوله ؛ عاص للرسول لأنه نهى عن ذلك ، وعاص لله لأن معصية الرسول معصية لله ، قال الله تعالى : ﴿ مَّن يُطِعِ ٱلرَّسُولَ فَقَدْ أَطَاعَ ٱللَّهَ ﴾ [النساء: ٨٠] ، وقال : ﴿ وَمَن يَعْصِ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ فَقَدْ ضَلَّ ضَلَٰلًا مُّبِينًا ﴾ [الأحزاب: ٣٦] ، والرسول ما يتكلم من عند نفسه ، بل يتكلم لأنه رسول رب العالمين ﷺ .

وذكر المؤلف رحمه الله حديث عمر بن أبي سلمة ربيب رسول الله ﷺ ، وعمر بن أبي سلمة ابن أم سلمة ، وأم سلمة مات عنها زوجها أبو سلمة رضي الله عنه ، وكانت تحبه حبًا عظيمًا وهو ابن عمها ، وحضر النبي ﷺ وفاته ، ودخل عليه النبي ﷺ وقد شخص بصره أي انفتح انفتاحًا كبيرًا ، فقال ﷺ : « إن الروح إذا قبض تبعه البصر » [(٢)] ؛ لأن الروح بإذن الله جسم لطيف خفيف يخرج من البدن ، ولا يمكن أن نشاهده بل يشاهده الميت ، فيشاهد نفسه خرجت من جسده .

قال : إن الروح إذا قبضت تبعها البصر ، فضج ناس من أهله لما سمعوا كلام الرسول ﷺ عرفوا أنه مات ، فضجوا كعادة الناس ، لأنه في الجاهلية إذا مات الميت دعوا بالويل والثبور : واثبوراه واويلاه وما أشبه ذلك ، فقال ﷺ : « لا تدعوا على أنفسكم ، إلا بخير ، فإن الملائكة يؤمِّنون [(٣)] على ما تقولون » .

---

(١) انظر الحديث في صحيح مسلم في الأشربة (١٠٥) ، وسنن أبي داود (٣٧٧٦) ، ومسند الإمام أحمد (٨/٢) .

(٢) أخرجه مسلم في الجنائز (٧) ، والإمام أحمد في مسنده (٢٩٧/٦) .

(٣) يؤمِّنون : أمَّن على دعائه أي قال : آمين أي استجب .

ثم أغمض النبي ﷺ بصره ، يعني رد أجفانه بعضها إلى بعض ، لئلا تبقى عيناه مفتوحتين ، وهكذا ينبغي أن يغمض الميت إذا مات ، لأنه إذا برد ما تستطيع أن تغمض عينيه ، فما دام حارًّا فأغمض عينيه .

وقال ﷺ : « اللهم اغفر لأبي سلمة وارفع درجته في المهديين ، واخلفه في عقبه في الغابرين ، واغفر لنا وله يا رب العالمين ، وافسح له في قبره ونَوِّرْ له فيه » . يا لها من دعوات كُلنا يتمناها .

« اللهم اغفر لأبي سلمة » : يعني ذنوبه ، « وارفع درجته في المهديين » : أي في جنات النعيم – جعلنا الله من أهلها – ، « وافسح له في قبره » : أي وسع له في قبره ، « ونور له فيه » لأن القبر ظلمة إلا من نوره الله عليه ، نوَّر الله قبورنا ، « واخلفه في عقبه » : يعني كن خليفته في عقبه .

وكانت أم سلمة رضي الله عنها قد سمعت من النبي ﷺ أن الإنسان إذا أصيب بمصيبة فقال : « اللهم أجرني في مصيبتي واخلف لي خيرًا منها ؛ آجره الله في مصيبته وأخلفْ له خيرًا منها » فقالت ذلك لما مات زوجها وابن عمها وأحب الناس إليها ، ثم جعلت تفكر تقول في نفسها : من خيرٌ من أبي سلمة ؟ فهي مؤمنة بأن الله سيخلف لها خيرًا منه ، لكن تقول : من خيرٌ من أبي سلمة ؟

فما أن انتهت عدتها من وفاة زوجها حتى خطبها النبي ﷺ ، فكان النبي ﷺ خيرًا لها من أبي سلمة بلا شك (١) .

ثم إن الله استجاب دعوة الرسول ﷺ لما قال في أبي سلمة : « أخلفه في عقبه » ، خلفه الله في عقبه ، وجعل خليفة أبيهم رسول الله ﷺ ، وهو نعم الخليفة ، خلف أبا سلمة في أهله وفي أولاده .

وكان منهم عمر بن أبي سلمة رضي الله عنه وكان صغيرًا غلامًا ، جلس مع الرسول ﷺ يأكل فجعلت يده تطيش في الصحفة ؛ صبي صغير ما تعلَّم تروح يده يمينًا ويسارًا ، يأكل مما يليه ومن وسط الصحفة ومن الجانب الآخر .

فقال له النبي ﷺ : « يا غلام سَمِّ الله » يعني قُلْ : بسم الله عند الأكل ، « وكُلْ بيمينك وكل مما يليك » .

فعلَّم الرسول هذا الغلام ثلاث سنن : « سَمِّ الله » والتسمية على الأكل واجبة ، « وكُلْ بيمينك » والاكل باليمين واجب ، « وكُلْ مما يليك » تأدبًا مع صاحبك ، لأن من سوء الأدب أن تأكل من حافة صاحبك ، فعلَّمه النبي ﷺ ثلاث سنن في أكلة واحدة ، وهذه من بركات النبي ﷺ ؛ أن يجعل الله فيه بركة فيُعلِّم في كل مناسبة .

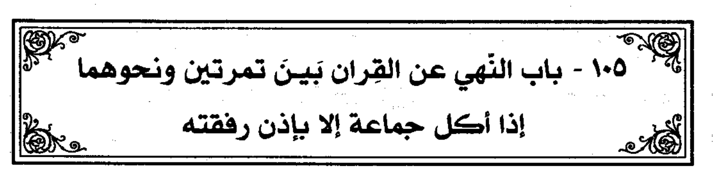
وكذلك ينبغي لطالب العلم وغير طالب العلم ، كل من عَلِمَ سُنَّةً ينبغي أن يبينها في كل مناسبة

---

(١) انظر صحيح مسلم في الجنائز (٤ ، ٥) .

ولا تقل : أنا لست بعالم . نعم لستَ بعالمٍ لكن عندك علم ، قال النبي ﷺ : « بلغوا عني ولو آية »[١] ، فينبغي للإنسان في مثل هذه الأمور أن ينتهز الفرص ، كلما سمحت الفرصة لنشر السنة فانشرها يكن لك أجرها ، وأجر من عمل بها إلى يوم القيامة .

* * *



١٠٥ - باب النَّهي عن القِران بَين تمرتين ونحوهما إذا أكل جماعة إلا بإذن رفقته

٧٤٢ – عن جبلَةَ بن سُحَيم قال : أَصَابَنا عامُ سَنَةٍ مَعَ ابن الزُّبَيرِ فرُزِقْنَا تَمْرًا ، وَكَانَ عَبْدُ اللَّهِ ابن عمر رضي الله عنهما يَمُرُّ بنا وَنَحنُ نَأْكُلُ ، فيقولُ : لا تُقَارِنُوا ؛ فإن النبي ﷺ نَهى عنِ الإقرانِ ، ثم يقولُ : « إلا أَنْ يَسْتَأْذِنَ الرَّجُلُ أَخَاهُ »[٢] متفقٌ عليه .

* * *

١٠٦ - باب مَا يقوله ويَفعَله مَن يأكل ولا يشبع

٧٤٣ – عن وَحْشِيِّ بنِ حرب رضي الله عنه أَن أصحابَ رسول اللَّه ﷺ قالُوا : يا رسولَ اللَّهِ ، إِنَّا نَأْكُلُ وَلا نَشْبَعُ ؟ قال : « فَلَعَلَّكُم تَفْتَرِقُون » قالُوا : نَعَمْ . قال : « فَاجْتَمِعُوا عَلى طَعَامِكُمْ ، وَاذْكُرُوا اسْمَ اللَّهِ ، يُبَارَكْ لَكُمْ فيه »[٣] رواه أبو داود .

الشرح

هذان بابان ذكرهما النووي رحمه الله في كتاب أدب الطعام .

أما أولهما : فهو في النهي عن القران بين التمرتين ونحوهما مما يؤكل أفرادًا إذا كان مع جماعة إلا بإذن أصحابه ، فمثلًا : الشيء الذي جرت العادة أن يؤكل واحدة واحدة كالتمر ، إذا كان معك جماعة فلا تأكل تمرتين جميعًا ، لأن هذا يضر بإخوانك الذين معك ، فلا تأكل أكثر منهم إلا إذا استأذنت ، وقلت : تأذنون لي أن آكل تمرتين في آنٍ واحد ، فإن أذنوا لك فلا بأس .

وكذلك ما جاء في العادة بأنه يؤكل أفرادًا ، كبعض الفواكه الصغيرة التي يلتقطها الناس حبةً ويأكلونها ،

---

(١) أخرجه البخاري في أحاديث الأنبياء (٣٤٦١) والترمذي في العلم (٢٦٦٩) .

(٢) أخرجه البخاري في الأطعمة (٥٤٤٦) وفيه القران ومسلم في الأشربة (١٥٠) وفيه الإقران والمعروف في اللغة القران : يقال قرن بين الشيئين يقرن بضم الراء وكسرها أي جمع . ولا يقال : أقرن ، وأخرجه أبو داود في الأطعمة (٣٨٣٤) والترمذي في الأطعمة (١٨١٤) .

(٣) أخرجه أبو داود في الأطعمة (٣٧٦٤) .

فإن الإنسان لا يجمع بين اثنتين إلا بإذن صاحبه الذي معه ، مخافة أن يأكل أكثر مما يأكل صاحبه .

أما إذا كان الإنسان وحده فلا بأس أن يأكل التمرتين جميعًا ، أو الحبتين مما يؤكل أفرادًا جميعًا ، لأنه لا يضر بذلك أحدًا ، إلا أن يخشى على نفسه من الشَّرَقِ أو الغصص ، فإن العامة يقولون : من كبر اللقمة غُصَّ ، فإذا كان يخشى أنه لو أكل تمرتين جميعًا أو حبتين جميعًا مما يؤكل أفرادًا أن يغص فلا يفعل ، لأن ذلك يَضرُّ بنفسه ، والنفس أمانة عندك ؛ لا يحل لك أن تفعل ما يؤذيها أو يضرها .

ثم ذكر المؤلف ما رواه ابن عمر رضي الله عنهما عن النبي ﷺ أنه نهى عن القران ، يعني أن يقرن الإنسان بين تمرتين إلا أن يستأذن من كان معه فلا بأس .

أما الباب الثاني : فهو في الذي يأكل ولا يشبع ، ولذلك أسباب :

منها : أنه لا يسمي الله على الطعام ؛ فإن الإنسان إذا لم يسم الله على الطعام أكل الشيطان معه ، ونُزِعَتْ البركة من طعامه (١) .

ومنها : أن يأكل من أعلى الصحفة فإن ذلك أيضًا مما ينزع البركة من الصحفة ، لأن النبي ﷺ نهى أن يأكل الإنسان من أعلى الصحفة فإن فيه البركة ، فيأكل من الجوانب .

ومنها : التفرق على الطعام ، فإن ذلك أيضًا من أسباب نزع البركة ، لأن التفرق يستلزم أن كل واحد يجعل له إناءٌ خاصٌ ، فيتفرق الطعام ، وتنزع بركته ، وذلك لأنك لو جعلت لكل إنسان طعامًا في صحن واحدٍ ، أو في إناء واحدٍ لتفرق الطعام ، لكن إذا جعلته كله في إناء واحد اجتمعوا عليه وصار في القليل بركة .

وهذا يدل على أنه ينبغي للجماعة أن يكون طعامهم في إناء واحد ، ولو كانوا عشرة أو خمسة يكون طعامهم في صحن واحد بحسبهم ، فإن ذلك من أسباب نزول البركة ، والتفرق من أسباب نزع البركة .

* * *

١٠٧ - باب الأمر بالأكل من جانب القصعة والنهي عن الأكل من وسطها

فيه : قوله ﷺ : « وَكُلْ مِمَّا يَلِيكَ » (٢) متفقٌ عليه كما سبق .

٧٤٤ - وعن ابن عباس رضي الله عنهما عن النبي ﷺ قال : « البَرَكَةُ تَنْزِلُ وَسْطَ الطَّعَامِ ، فَكُلُوا مِنْ حَافَتَيهِ وَلا تَأْكُلُوا مِنْ وَسطِهِ » (٣) رواه أبو داود ، والترمذي ، وقال : حديث حسنٌ صحيحٌ .

(١) انظر أبي داود في الأطعمة (٣٧٧٢ ، ٣٧٧٣) والترمذي في الأطعمة (١٨٠٥) .
(٢) انظر حديث رقم (٧٤٠) .
(٣) أخرجه أبو داود في الأطعمة (٣٧٧٢) ، والترمذي في الأطعمة (١٨٠٥) .

٧٤٥ - وعن عبد اللَّه بن بُسْرٍ ﷺ قال : كان لِلنَّبيِّ ﷺ قَصْعَةٌ يُقَالُ لها : الغَرَّاءُ [١] ، يَحْمِلُهَا أَرْبَعَةُ رجالٍ ، فَلَمَّا أَضْحَوا وَسَجَدُوا الضُّحَى أُتِيَ بتلْكَ القَصْعَةِ ، يعني وقد ثُرِدَ فيها [٢] ، فَالتَفُّوا عليها ، فَلَمَّا كَثُرُوا جَثَا رسول اللَّه ﷺ ، فقالَ : أعرابيٌّ : ما هذه الجِلْسَةُ ؟ قال رسول اللَّه ﷺ : « إنَّ اللَّه جَعَلَني عَبْدًا كَرِيمًا ، وَلَمْ يَجْعَلْني جَبَّارًا عَنِيدًا » ، ثمَّ قالَ رسول اللَّه ﷺ : « كُلُوا مِنْ حَوَالَيهَا ، وَدَعُوا ذِرْوَتَها ؛ يُبَارَكْ فيها » [٣] رواه أبو داود [٤] بإسناد جيد .

« ذِرْوَتَها » : أَعْلاهَا : بكسر الذال وضمها .

الشرح

هذا الباب الذي عقده المؤلف رَحِمَهُ اللَّهُ في (كتاب أدب الطعام) يفيد ما أشرنا إليه فيما سبق ، وهو أنه ينبغي للناس أن يأكلوا من حواف القصعة ، يعني من جوانبها لا من وسطها ولا من أعلاها .

ففي حديث عبد اللَّه بن عباس ، وعبد اللَّه بن بسر ﷺ ما يدل على ذلك ، وأن الإنسان إذا قُدِّمَ إليه الطعام فلا يأكل من أعلاه بل يأكل من الجانب ، وإذا كان معه جماعة فليأكل مما يليه ، ولا يأكل مما يلي غيره .

وقوله ﷺ : « إن البركة تنزل في وسط الطعام » يدل على أن الإنسان إذا أكَلَ من أعلاه - أي من الوسط - نزعت البركة من الطعام .

قال أهل العلم : إلا إذا كان الطعام أنواعًا ، وكان نوعٌ منه في الوسط وأراد أن يأخذ منه شيئًا فلا بأس ، مثل أن يوضع اللحم في وسط الصحفة فإنه لا بأس أن تأكل من اللحم ولو كان في وسطها ، لأنه ليس له نظير في جوانبها ، فلا حرج و كما أن النبي ﷺ كان يتبع الدباء يلتقطها من الصحفة كلها ، والدباء هي القرع [٥] .

وفي حديث عبد اللَّه بن بسر ﷺ دليل على استحباب ركعتي الضحى ، لقوله فلما سجدوا الضحى ؛ أي لما صلوا صلاة الضحى ، وصلاة الضحى سُنَّة ، ووقتها من ارتفاع الشمس قدر رمح ، يعني من ربع ساعة من طلوع الشمس إلى قبيل الزوال يعني إلى أن يبقى على الظهر عشر دقائق ، كل هذا وقت لها .

---

(١) الغراء : مشتق من الغرة وهي بياض الوجه ، وإضاءته ، ويجوز أن تكون من الغرة بمعنى الشيء النفيس والمرغوب فيه ، فيكون وصفها بذلك لرغبة الناس فيها لنفاسة ما فيها ، أو لكثرة ما تسعه ، وقيل : سميت غراء لبياضها بالإليه والشحم ، أو لبياض وبرها ، او لبياضها باللبن .

(٢) سجدوا الضحى : أي صلوا صلاته .

(٣) الثريد : فت الخبز وبله بالمرق ؛ والمراد ثرده بماء اللحم ؛ لأن الثريد غالبًا لا يكون إلا من لحم .

(٤) أخرجه أبو داود في الأطعمة (٣٧٧٣) .

(٥) انظر البخاري في الأطعمة (٥٣٧٩) .

وهي سنة ينبغي للإنسان أن يحافظ عليها لأنها تغني عن الصدقات التي تصبح على كل عضو من أعضاء البدن ، كما أخبر النبي ﷺ بأنه يصبح على كل سُلامى من الناس صدقة كل يوم تطلع فيه الشمس يعني كل عضو من أعضائك عليك به صدقة كل يوم (١) .

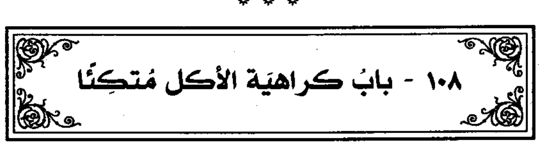
لكن ليست صدقة مال فقط ، بل التسبيح صدقة ، والتكبير صدقة ، والتهليل صدقة ، وقراءة القرآن صدقة ، والأمر بالمعروف صدقة ، والنهي عن المنكر صدقة ، ومعونة الرجل على متاعه صدقة ، والكلمة الطيبة صدقة ، وإتيان الرجل زوجته صدقة ، كل شيء يتقرب به العبد إلى الله فهو صدقة ، ويجزئ عن ذلك ركعتان يركعهما من الضحى ، وهذا يدل على أن سنة الضحى سنة في كل يوم .

وفيه أيضًا دليل على أن الإنسان عند الأكل لا يأكل متكئًا وإنما يأكل مستوفزًا ؛ يعني جاثٍ على ركبتيه حتى لا يكثر من الأكل ، لقول النبي ﷺ في الإكثار من الأكل : « ما ملأ ابن آدم وعاءً شرًّا من بطنه ، فإن كان لا محالة : فثلثٌ لطعامه وثلثٌ لشرابه وثلثٌ لنفسه (٢) » ، هذا هو الأكل النافع الطبيعي وإذا جعت فَكُلْ ، فالأمر ليس مقصورًا على ساعات معينة .

ولو قال قائل : إن الإنسان لو اقتصر على ثلث وثلث وثلث ، قد يجوع قبل أن يأتي وقت العشاء . نقول : إذا جعت فَكُلْ ، لكن كونك تأكل هذا الخفيف يكون أسهل للهضم وأسهل للمعدة ، وإذا اشتهيت فَكُلْ ، وهذا من الطب النبوي .

لكن لا بأس بالشبع أحيانًا لأن النبي ﷺ أقرَّ أبا هريرة ﷺ حينما سقاه اللبن وقال : « اشرب . اشرب . اشرب » ، حتى قال : والله لا أجد له مساغًا (٣) ؛ يعني لا أجد له مكانًا ، فأقره النبي ﷺ على ذلك ، وإنما الذي ينبغي أن يكون الأكثر في أكلك كما أرشد إليه النبي ﷺ ، ثلثٌ للطعام وثلثٌ للشراب وثلثٌ للنفس .

* * *



١٠٨ - بابُ كراهيَة الأكل مُتكِئًا

٧٤٦ - عن أَبي جُحَيفَةَ وَهْبِ بنِ عبد الله ﷺ قال : قال رسول الله ﷺ : « لا آكُلُ مُتَّكِئًا » (٤) رواه البخاري .

قال الخَطَّابِيُّ : المُتَّكِئُ هُنَا : هو الجالِسُ مُعْتَمِدًا على وِطاءٍ تحته قال : وأَرَادَ أَنَّهُ لا يَقْعُدُ عَلى الوِطاءِ

---

(١) انظر صحيح البخاري في الصلح (٢٧٠٧) ، ومسلم في صلاة المسافر (٨٤) .
(٢) أخرجه الترمذي في الزهد (٢٣٨٠) ، والحاكم في المستدرك (٣٣١/٤) .
(٣) انظر الحديث في سنن الترمذي في صفة القيامة (٢٤٧٧) .
(٤) أخرجه البخاري في الأطعمة (٥٣٩٨) .

وَالوَسَائِدِ كَفِعْلِ مَنْ يُرِيد الإِكْثَارَ مِنَ الطَّعَام ، بل يَقْعُدُ مُسْتَوفِزًا لا مُسْتَوطِئًا (١) ، وَيَأْكُلُ بُلْغَةً (٢) . هذا كلامُ الخَطَّابي ، وَأَشَار غَيرُهُ إلى أَنَّ المُتَّكِئَ هو المائلُ عَلى جَنْبِهِ ، واللَّه أعلم .

٧٤٧ - وعن أنسٍ ﷺ قال : رَأَيتُ رسول اللَّه ﷺ جَالسًا مُقْعِيًا يَأْكُلُ تَمْرًا (٣) . رواه مسلم .

« المُقْعِي » : هو الذي يُلْصِقُ أَلْيَتَيهِ بالأَرضِ ، ويَنْصِبُ سَاقَيهِ .

الشرح

قال المؤلف رحمه الله في كتاب أدب الطعام : (باب كراهية الأكل متكئًا) . الأكل ينقسم بالنسبة للجلوس له إلى قسمين : قسم منهيٌ عنه ، وليس من هدي النبي ﷺ ، وهو أن يأكل الإنسان متكئًا ؛ إما على اليد اليمنى أو على اليد اليسرى ، وذلك لأن الاتكاء يدل على غطرسة وكبرياء ، وهذا معنى نفسي .

ولأنه إذا أكل متكئًا يتضرر ، حيث يكون مجرى الطعام متمايلًا ليس مستقيمًا فلا يكون على طبيعته ، فربما حصل في مجاري الطعام أضرار من ذلك .

ولهذا قال النبي ﷺ في حديث أبي جحيفة عبد اللَّه بن وهب السواري ﷺ ، قال النبي ﷺ : «لا آكل متكئًا » ، يعني ليس من هديي أن آكل متكئًا ، وذلك للسببين الذين ذكرناهما : سبب معنوي يكون بالنفس وهو الكبرياء ، وسبب حسي يتعلق بالبدن وهو الضرر الذي ينتج عن الأكل على هذا الوجه .

وذكر المؤلف حديث أنس أنه رأى النبي ﷺ يأكل تمرًا مقعيًا ، والإقعاء : أن ينصب قدميه ويجلس على عقبيه هذا هو الإقعاء ، وإنما أكل النبي ﷺ كذلك لئلا يستقر في الجلسة فيأكل أكلًا كثيرًا ، لأن الغالب أن الإنسان إذا كان مقعيًا لا يكون مطمئنًا في الجلوس فلا يأكل كثيرًا ، وإذا كان غير مطمئن فلن يأكل كثيرًا ، وإذا كان مطمئنًا فإنه يأكل كثيرًا ، هذا هو الغالب ، وربما يأكل الإنسان كثيرًا وهو غير مطمئن ، وربما يأكل قليلًا وهو مطمئن ، لكن من أسباب تقليل الأكل ألا يستقر الإنسان في جلسته ، وألا يكون مطمئنًا الطمأنينة الكاملة .

والحاصل : أن عندنا جلستين : الجلسة الأولي الاتكاء ؛ وهذا ليس من هدي النبي ﷺ أن يأكل متكئًا ، وكل أنواع الجلوس الباقية جائزة ، ولكن أحسن ما يكون ألا تجلس جلسة الإنسان المطمئن المستقر ، لئلا يكون ذلك سببًا لإكثار الطعام ، وإكثار الطعام لا ينبغي ، والأفضل أن يجعل الإنسان ثلثًا للأكل وثلثًا للشراب وثلثًا للنفس ، هذا أصح ما يكون في الغذاء ، فإن تيسر فهذا هو المطلوب ، ولا بأس أن يشبع الإنسان أحيانًا .

* * *

(١) أي قعد قعودًا منتصبًا غير مطمئن . (٢) بلغة : أي يكتفي ويجتزئ به .

(٣) أخرجه مسلم في الأشربة (١٤٨) ، والإمام أحمد في مسنده (٣/١٨٠) .

١٠٩ - بابُ استحباب الأكل بثلاثِ أصابع واستحباب لعق الأصابع وكراهة مسحها قبل لعقها واستحباب لعق القصعة وأخذ اللقمة التي تسقط منه وأكلها وجواز مسحها بعد اللعق بالساعد والقدم وغيرها

٧٤٨ - عَن ابنِ عباسٍ رضي الله عنهما قال : قالَ رسول اللَّه ﷺ : « إذا أَكَلَ أَحَدُكُمْ طَعَامًا ، فَلا يَمسَحْ أَصَابِعَهُ حتى يَلعَقَهَا [١] أَو يُلْعِقَهَا » [٢] متفقٌ عليه .

٧٤٩ - وعن كعْبِ بنِ مالكٍ رضي الله عنه قال : رَأَيتُ رسول اللَّه ﷺ يَأكُلُ بِثلاثِ أصابعَ ، فإذا فَرَغَ لَعِقَها [٣] . رواه مسلم .

٧٥٠ - وعن جابر رضي الله عنه أَنَّ رسول اللَّه ﷺ أَمر بِلَعْقِ الأَصَابعِ وَالصَّحْفَةِ [٤] ، وقال : « إنَّكُمْ لا تَدرُونَ في أَيِّ طَعَامِكم البَرَكَةُ » [٥] رواه مسلم .

٧٥١ - وعنه أن رسول اللَّه ﷺ قال : « إذا وَقعَت لُقمَةُ أَحدِكُمْ ، فَليَأْخُذْهَا فَلْيُمِطْ ما كان بها مِن أَذىً وليَأْكُلْهَا ، ولا يَدَعْها للشَّيطَانِ ، ولا يَمسَحْ يَدَهُ بِالمنديلِ حتَّى يَلعَقَ أَصَابِعَهُ ، فإنه لا يَدري في أيِّ طَعامِهِ البركةُ » [٦] رواه مسلم .

٧٥٢ - وعنه أَن رسول اللَّه ﷺ قال : « إن الشَّيطانَ يَحضرُ أَحدَكم عندَ كُلِّ شَيءٍ مِنْ شَأْنِهِ ، حتى يَحْضُرَهُ عِندَ طَعَامِهِ ، فَإذا سَقَطَتْ لُقْمَةُ أَحدِكم فَليَأْخذهَا فَلْيُمِط ما كانَ بها مِن أَذى ، ثُمَّ لِيَأْكُلْهَا ولا يَدعْهَا للشَّيطَانِ ، فإذا فَرَغَ فَلْيَلْعَقْ أَصابِعَهُ ؛ فإنَّه لا يَدرِي في أيِّ طعامِهِ البَرَكَةُ » [٧] رواه مسلم .

٧٥٣ - وعن أنسٍ رضي الله عنه قال : كان رسول اللَّه ﷺ إذا أَكَلَ طَعَامًا ، لعِقَ أَصَابِعَهُ الثَّلاثَ ، وقالَ : « إذا سَقَطَتْ لُقمةُ أحدِكم فَليَأْخُذْهَا ، وليمِطْ عنها الأذى ، وليَأْكُلْهَا ، ولا يَدَعْها لِلشَّيطَانِ » وَأَمَرَنَا أن نَسلُتَ القَصعَةَ [٨] وقال : « إنَّكم لا تَدْرُونَ في أيِّ طَعَامِكم البَرَكَةُ » [٩] رواه مسلم .

٧٥٤ - وعن سعيد بنِ الحارثِ أنه سأل جابرًا رضي الله عنه عنِ الوضوءِ مِمَّا مَسَّتِ النَّارُ ، فقال : لا ، قد كُنَّا زَمَنَ النبي ﷺ لا نجدُ مِثلَ ذلك الطعام إلا قَليلًا ، فإذا نَحنُ وجدَنَاهُ ، لَم يَكُن لَنَا مَنَادِيلُ إلا أَكُفَّنا

---

(١) أي يلحسها ؛ إغتنامًا للبركة وحرصًا عليها .
(٢) أخرجه البخاري في الأطعمة (٥٤٥٦) ومسلم في الأشربة (١٣٠) .
(٣) أخرجه مسلم في الأشربة (١٣٢) .
(٤) الصحفة : إناء للطعام يشبع خمسة نفر .
(٥) أخرجه مسلم في الأشربة (١٣٣) .
(٦) أخرجه مسلم في الأشربة (١٣٤) ، وأحمد في مسنده (٣/١٧٧) .
(٧) أخرجه مسلم في الأشربة (١٣٥) .
(٨) نسلت القصعة : أي نمسحها .
(٩) أخرجه مسلم في الأشربة (١٣٦) .

وَسَوَاعِدَنَا وأَقْدَامَنَا ، ثُمَّ نُصَلِّي وَلا نَتَوَضَّأُ [(١)] . رواه البخاري .

الشرح

هذه الأحاديث التي ذكرها المؤلف رحمه الله في (كتاب آداب الطعام) تضمنت مسائل متعددة :

المسألة الأولى : أنه ينبغي للإنسان أن يأكل بثلاث أصابع : الوسطى والسبابة والإبهام ، لأن ذلك أدل على عدم الشره ، وأدل على التواضع ، ولكن هذا في الطعام الذي يكفي فيه ثلاث أصابع ، أمَّا الطعام الذي لا يكفي فيه ثلاث أصابع مثل الأرز ، فلا بأس بأن تأكل بأكثر ، لكن الشيء الذي تكفي فيه الأصابع الثلاثة يقتصر عليها ، فإن هذا سنة النبي ﷺ .

المسألة الثانية : أنه ينبغي للإنسان إذا انتهى من الطعام أن يلعق أصابعه قبل أن يمسحها بالمنديل ، كما أمر بذلك النبي ﷺ ؛ يلعقها هو أو يُلْعقها غيره ، أما كونه هو يلعقها فالأمر ظاهر ، وكونه يُلعقُها غيره هذا أيضًا ممكن ، فإنه إذا كانت المحبة بين الرجل وزوجته محبة قوية ، يسهل عليه جدًّا أن تلعق أصابعه أو أن يلعق أصابعها فهذا ممكن .

وقول بعض الناس : إن هذا لا يمكن أن يقوله النبي - عليه الصلاة والسلام - ، لأنه كيف يلعق الإنسان أصابع غيره ؟ نقول : إن النبي - عليه الصلاة والسلام - لا يقول إلا حقًّا ، ولا يمكن أن يقول شيئًا لا يمكن ، فالأمر في هذا ممكن جدًّا .

وكذلك الأولاد الصغار ، أحيانًا الإنسان يحبهم ويلعق أصابعهم بعد الطعام هذا شيء ممكن ، فالسنة أن تلعقها أو تُلعقُها غيرك ، والأمر الحمد للَّه واسع ، ما قال الرسول ﷺ : فليلعقها غيره حتى نقول هذا إجبار للناس على شيء يشق عليهم ، العْقْهَا أنت ، أو ألعِقْهَا غيرك .

وقال النبي - عليه الصلاة والسلام - : « إنكم لا تدرون في أي طعامكم البركة » ، قد تكون البركة ونفع الطعام الكثير بهذا الجزء الذي تلعقه من أصابعك .

حتى إنه ذكر لي بعض الناس عن بعض الأطباء ، أن الأنامل - بإذن اللَّه - تفرز إفرازات عند الطعام تعين على هضم الطعام في المعدة ، وهذه من الحكمة ولكننا نفعلها سنة ، إن حصلت لنا هذه الفائدة الطبية حصلت ، وإن لم تحصل فلا يهمنا ، الذي يهمنا امتثال أمر النبي - عليه الصلاة والسلام - .

المسألة الثالثة : أنه ينبغي للإنسان أن يلعق الصحن أو القدر أو الإناء الذي فيه الطعام ، إذا انتهت فالْحسْ حافته كما أمر بهذا النبي - عليه الصلاة والسلام - ، فإنك لا تدري في أي طعامك البركة .

ومع الأسف أن الناس يتفرقون عن الطعام بدون تنفيذ هذه السنة ، فتجد حافات الآنية عليها الطعام كما هي . والسبب في هذا الجهل بالسنة ، ولو أن طلبة العلم إذا أكلوا مع العامة وجهوهم إلى هذه السنة وغيرها من سنن الأكل والشرب لانتشرت هذه السنن ، لكن نسأل اللَّه أن يعاملنا بعفوه ،

---

(١) أخرجه البخاري في الأطعمة (٥٤٥٧) .

فنحن نتجاوز كثيرًا ونتهاون في الأمر ، وهذا خلاف الدعوة إلى الحق .

المسألة الرابعة : إن الإنسان إذا سقطت منه اللقمة فلا يتركها ، بل يأخذها ، وإذا كان فيها أذىً يمسحه ، لا يأكل الأذى ، لأن الإنسان ليس مجبرًا على أن يأكل شيئًا لا يشتهيه ، يمسح الأذى ، كأن يكون فيها عود أو تراب أو ما أشبه ذلك ، امسحه ثم كله ، لماذا ؟ لأن النبي - عليه الصلاة والسلام - قال : « ولا يدعها للشيطان » ، لأن الشيطان يحضر ابن آدم في كل شئونه ، إن أراد أن يأكل حضره ، وإن أراد أن يشرب حضره ، وإن أراد أن يأتي أهله حضره ؛ حتى يشاركه ، كما في الآية الكريمة ﴿ وَشَارِكْهُمْ فِي ٱلْأَمْوَٰلِ وَٱلْأَوْلَٰدِ ﴾ [الإسراء: ٦٤] ، فهو يشارك أهل الغفلة .

فإذا قلت وأنت تأكل : بسم الله ، منعته من الأكل ، ما يقدر على الأكل معك وقد سميت على الطعام أبدًا ، إذا لم تقل : بسم الله ، أكل معك ، فإذا قلت : بسم الله ، فإن الشيطان يترقب اللقمة إذا سقطت بالأرض ، فإن رفعتها أنت فهي لك ، وإن تركتها أكلها هو ، فصار إذا لم يشاركك في الطعام شاركك فيما يسقط من الطعام ، ولهذا فضيقٌ عليه في ذلك أيضًا ، فإذا سقطت اللقمة أو التمرة أو ما أشبه ذلك في الأرض فخذها ، وإذا كان علق بها أذى من تراب أو عيدان أو ما أشبه ذلك فأزل ذلك الأذى ثم كلها ولا تدعها للشيطان .

المسألة الخامسة : الوضوء من الطعام المطبوخ الذي مسته النار ، كالخبز والرز والجريش وغيرها ، هل يتوضأ الإنسان إذا أكله أم لا ؟ قال بعض العلماء [١] إنه يجب على من أكل شيئًا مطبوخًا على النار أن يتوضأ ، لأن النبي ﷺ أمر بالوضوء مما مست النار [٢] ، ولكن الصحيح أنه لا يجب ، كما في حديث جابر في « صحيح البخاري » الذي أورده المؤلف رحمه الله ، فالصحيح أنه لا يجب بل هو (سنة) ، يعني الأفضل أن تتوضأ حتى ولو كنت على وضوء ؛ إذا أكلت شيئًا مطبوخًا على النار فالأفضل أن تتوضأ ، لكنه ليس بواجب ، لأن آخر الأمرين من النبي ﷺ ترك الوضوء مما مست النار [٣] ، يعني عدم الالتزام به .

ويدل لهذا أيضًا أن النبي ﷺ سئل : نتوضأ من لحوم الإبل قال : « نعم » . قال : نتوضأ من لحوم الغنم ؟ قال : « إن شئت » [٤] ، لأن لحم الإبل إذا أكله الإنسان انتقض وضوؤه لو كان على وضوء فلابد أن يتوضأ ، ولكن ما يجب غسل الفرج لأنه ما بال ولا تغوط ، إنما يجب الوضوء ، سواء كان اللحم نيئًا أو مطبوخًا وسواء أكلت الهبر [٥] أو الكبد أو القلب أو الكرش أو الأمعاء ، أي شيء تأكله من البعير فإنه يجب عليك أن تتوضأ ، لأنه كله ناقض للوضوء ، أما غيره فإذا أكلته مطبوخًا فالأفضل أن تتوضأ ولا يجب عليك ذلك .

---

(١) ذهب أكثر العلماء إلى عدم الوضوء مما مست النار ، وهو قول الحنفية والشافعية والمالكية واستندوا في ذلك إلى الحديث الذي رواه أبو داود في سننه في الطهارة (١٩٢) من حديث جابر أنه كان آخر الأمرين من رسول الله ﷺ عدم الوضوء مما مست النار ، انظر فقه الكتاب والسنة للدكتور أمير عبد العزيز (١٩٦٠/٤) .

(٢) انظر صحيح مسلم في الحيض (٩٠) .

(٣) انظر سنن أبي داود في الطهارة (١٩٢) وسنن النسائي في الطهارة (١٠٨/١) حديث رقم (١٨٥) .

(٤) انظر الحديث في صحيح مسلم في الحيض (٩٧) .

(٥) الهَبْرُ : قِطَعُ اللحم .

هذه من الآداب ، والحقيقة أن هذا الكتاب « رياض الصالحين » كتاب جامع نافع ، ويصدق عليه أنه رياض للصالحين ، ففيه من كل زوج بهيج ، فيه أشياء كثيرة من مسائل العلم ، ومسائل الآداب لا تكاد تجاهد في غيره .

* * *

١١٠ - بابُ تكثير الأيدي على الطعام

٧٥٥ – عن أبي هريرة ﷺ قالَ : قالَ رسولُ اللَّه ﷺ : « طَعَامُ الاثنَينِ كافي الثَّلاثَةِ ، وَطَعَامُ الثَّلاثَةِ كافي الأربَعَةِ » [١] متفقٌ عليه .

٧٥٦ – وعن جابِرٍ ﷺ قالَ : سمعتُ رسولَ اللَّه ﷺ يَقُولُ : « طَعَامُ الوَاحِدِ يَكْفِي الاثْنَينِ ، وَطَعَامُ الاثْنَينِ يَكَفِي الأربَعَةَ ، وطعامُ الأرْبَعَةِ يَكْفِي الثَّمَانِيَةَ » [٢] رواه مسلم .

* * *

١١١ - بابُ أدب الشرب واستِحبابُ التَّنفس ثلاثًا خارج الإناء وكراهة التنفس في الإناء واستحباب إدارة الإناء على الأيمن فالأيمن بعد المبتدئ

٧٥٧ – عن أنسٍ ﷺ أن رسول اللَّه ﷺ كانَ يتنَفَّسُ في الشَّرَابِ ثَلاثًا [٣] . متفقٌ عليه . يعني : يَتَنَفَّسُ خارِجَ الإناءِ .

٧٥٨ – وعن ابن عباس ﷺ قال : قال رسول اللَّه ﷺ : « لا تَشْرَبُوا [٤] وَاحِدًا كَشُرْبِ البَعِير ، وَلكِنِ اشرَبُوا مَثْنى وَثُلاثَ [٥] ، وَسَمُّوا إذا أَنْتُم شَرِبْتُم ، وَاحْمَدوا إذا أَنْتُم رَفَعْتُم » [٦] رواه الترمذي وقال : حديث حسن .

٧٥٩ – وعن أبي قَتَادَةَ ﷺ أن النبيَّ ﷺ نَهَى أن يُتَنَفَّسَ في الإناء [٧] . متفقٌ عليه . يعني : يُتَنَفَّسُ في نَفْسِ الإناء .

٧٦٠ – وعن أنسٍ ﷺ أن رسول اللَّه ﷺ أُتِي بِلبَنٍ قد شِيبَ بمَاءٍ ، وَعَنْ يَمِينِهِ أَعْرَابِيٌّ ، وَعَنْ

---

(١) لم يقم الشارح ﷺ بشرح هذا الحديث ، وقد أخرجه البخاري في الأطعمة (٥٣٩٢) ، ومسلم في الأشربة (١٥٨) ، والإمام أحمد في مسنده (٢/٢٤٤) .

(٢) لم يقم الشارح ﷺ بشرح هذا الحديث ، وقد أخرجه مسلم في الأشربة (١٧٩) ، والترمذي في الأطعمة (١٨٢٠) ، وابن ماجه في الأطعمة (٣٢٥٤) .

(٣) أخرجه البخاري في الأشربة (٥٦٣١) ، ومسلم في الأشربة (١٢٢) .

(٤) لا تشربوا واحدًا : أي شربًا واحدًا بأن لا تتنفسوا فيه .

(٥) أي في نَفَسَينِ أو ثلاثة .

(٦) أخرجه الترمذي في الأشربة (١٨٨٥) .

(٧) أخرجه البخاري في الأشربة (٥٦٣٠) ، ومسلم في الطهارة (٦٥) .

يَسَارِهِ أبو بَكرٍ ﷺ ، فَشَرِبَ ، ثُم أَعْطَى الأعْرَابيَّ وقال : « الأيمنَ فالأيمنَ » (١) متفقٌ عليه .

قوله : « شِيبَ » أي : خُلِط .

٧٦١ - وعن سهل بن سعد ﷺ أن رسول اللَّه ﷺ أُتيَ بشرابٍ ، فَشَربَ مِنهُ وعَنْ يَمِينِهِ غُلامٌ ، وعن يَسَارِهِ أشْيَاخٌ ، فقال للغُلام : « أَتأْذَنُ لي أنْ أُعْطِيَ هؤلاءِ ؟ » فقال الغلامُ : لا واللَّهِ ، لا أُوثِرُ بنَصِيبي مِنكَ أَحَدًا ، فَتَلَّهُ رسول اللَّه ﷺ في يدهِ (٢) . متفقٌ عليه .

قوله : « تَلَّهُ » أَي : وَضَعَهُ ، وهذا الغُلامُ هو ابْنُ عباس ﷺ .

الشرح

قال المؤلف - رحمه اللَّه تعالى - : (باب أدب الشرب واستحباب التنفس ثلاثًا خارج الإناء ، وكراهة التنفس في الإناء ، واستحباب إدارة الإناء على الأيمن فالأيمن بعد المبتدئ) .

وقد بين المؤلف في الباب السابق ما يتعلق بالطعام ، فقد سبق جمل كثيرة من آداب الأكل ، وللَّه ﷻ على عباده نعم لا تحصى كما قال اللَّه تعالى : ﴿ وَإِن تَعُدُّواْ نِعْمَتَ ٱللَّهِ لَا تُحْصُوهَآ ﴾ [إبراهيم : ٣٤] ، فالأكل والشرب من نعم اللَّه ﷻ .

ولا يعرف قدر هذه النعمة إلا من حرمها ، نسأل ألا يحرمنا إياها ، فمن حرمها وذاق الجوع وذاق العطش عرف قدر نعمة اللَّه تعالى بالأكل والشرب ، وهذه إحدى الحكم من الصيام ؛ أن الإنسان يمسك عن الأكل والشرب حتى يعرف قدر نعمة اللَّه عليه بتيسير الأكل والشرب .

وللشرب آداب ، منها : أن يسمي اللَّه ﷻ إذا شرب ، فيقول عند الشرب : بسم اللَّه .

ومنها : أن يتنفس في الشرب ثلاثًا ، لقول أنس بن مالك ﷺ : كان النبي ﷺ إذا شرب تنفس في الشراب ثلاثًا . كيف يتنفس في الشراب ثلاثًا ؟ يعني يشرب ، ثم يفصل الإناء عن فمه ، ثم يشرب ثم يفصله عن فمه ، ثم يشرب الثالثة ؛ ولا يتنفس في الإناء ، لحديث أبي قتادة ﷺ أن النبي ﷺ : « نهى أن يتنفس الإنسان في الإناء » .

والحكمة من ذلك أن النفس في الإناء مستقذر على من يشرب من بعده ، وربما تخرج مع النَّفَسِ أمراض في المعدة ، أو في المريء ، أو في الفم فتلتصق بالإناء ، وربما يَشْرَقُ إذا تنفس في الإناء ، فلهذا نهى النبي ﷺ أن يتنفس الإنسان في الإناء ، بل يتنفس ثلاثة أنفاس كل نفس يُبعد فيه الإناء عن فمه .

وقد أخبر النبي - عليه الصلاة والسلام - بأن هذا أهنأ وأبرأ وأمرأ (٣) ؛ أهنأ : لأنه يشرب بمهلة . وأبرأ : يعني أبرأ من العطش ، وأسلم من المرض . وأمرأ : أسهل في النزول إلى الأمعاء .

---

(١) أخرجه البخاري في الأشربة (٥٦١٢) ، ومسلم في الأشربة (١٢٤) .

(٢) أخرجه البخاري في الأشربة (٥٦٢٠) ، ومسلم في الأشربة (١٢٧) ، والإمام أحمد في مسنده (٣٣٣/٥) .

(٣) انظر أبي داود في الأشربة (٣٧٢٧) ، والإمام أحمد في مسنده (١١٨/٣ ، ١١٩) .

ووجه ذلك أن العطش عبارة عن حرارة المعدة لقلة الماء أو لغير ذلك ، وأحيانًا يكون المرض ، فإذا جاءها الماء دفعة واحدة ربما يضر ، فإذا راسله الإنسان عليها مراسلة كان هذا أبرأ في إزالة العطش ، وفي السلامة من المرض والأثر الذي يحصل بورود الماء على المعدة دفعة واحدة .

ولهذا ينبغي أيضًا إذا شرب أن لا يعبَّ الماء عبًا ، وإنما يمصّه مصًا ، لا يعبه عبًا[1] فيأخذ جرعات كبيرة ، بل يمصّه مصًا ، حتي يأتي المعدة شيئًا فشيئًا ، فيمصّه في النفس الأول ، ثم يطلق الإناء ، ثم يمصه في النفس الثاني ، ثم يطلق الإناء ، ثم في النفس الثالث ، هذه هي السنة .

وأما التناول يعني بمن يبدأ في إعطاء الإناء إذا أراد أن يعطي الشراب أحدًا ؟ ؛ مثال ذلك : رجل دخل ومعه شراب ؛ شاي أو قهوة بمن يبدأ ؟ نقول : إذا كان أحد من الناس قد طلب الشراب فقال : هات الماء مثلًا ، فإنه يبدأ به هو الأول ، وإذا لم يكن أحد طلبه ، فإنه يبدأ بالأكبر ثم الأكبر ، يناوله من على يمينه .

وإذا كان لكل واحد إناء كالكئوس مثلًا ، فليبدأ بالأكبر ثم يعطي الذي عن يساره ، لأن الذي عن يساره هو الذي عن يمين الصاب ، والصاب هو الذي سيناول ، فيبدأ بمن على يمينه . والذي على يمين الصاب هو الذي يسار الشارب ، لأن الصاب مستقبل للشارب ، فيكون من على يسار الشارب هو الذي على يمين الصاب .

مثال ذلك مثلًا : إنسان طلب الماء ، فجيء إليه بالماء فشرب منه ، وأراد أن يناوله أحدًا بعده ، إن كان الذي جاء بالشراب واقفًا على رأسه يقول : أعطني الإناء إذا فرغت فيعطيه إياه ، وإن لم يكن فإنه إذا انتهى يعطيه للذي على يمينه ، سواء كان صغيرًا أو كبيرًا شريفًا أو وضيعًا .

والدليل على هذا : أن النبي ﷺ أُتِيَ بلبن قد شيب بماء فشرب وعلى يمينه رجل من الأعراب ، وعلى يساره أبو بكر وعمر فلما فرغ النبي ﷺ ناوله الأعرابي ، فقال عمر للأعرابي : هذا أبو بكر ، يريد من الأعرابي أن يكرم أبا بكر ويقول : خذه يا أبا بكر ، لأن أبا بكر مشهور معروف بين الصحابة ، أنه أخص أصحاب النبي ﷺ بالنبي ، ولكن الأعرابي أخذ الإناء فشرب ، فهنا نجد أن النبي ﷺ فضل المفضول على الفاضل ، لأن أبا بكر أفضل من الأعرابي ، لكن فَضّله ﷺ عليه لأنه عن يمينه وقال : « الأيمن فالأيمن » .

والقصة الثانية : أُتي النبي ﷺ بشراب فشرب منه ، وعلى يمينه غلام ، وعلى يساره الأشياخ الكبار ، فلما شرب قال للذي على يمينه وهو الغلام : « أتأذن لي ان أعطي هؤلاء » يعني الأشياخ ، فقال : والله يا رسول الله ما أنا بالذي أوثر بنصيبي عليك أحدًا ، يعني ما أوثرهم علي ، أنا أحب أن أشرب فضلتك ، « فتلّه رسول الله ﷺ في يده » ، يعني : أعطاه الإناء في يده .

فهذا دليل على أنه إذا كان الذي على اليمين أصغر سنًا فإنه يفضل على الذي على اليسار

---

(١) عبَّ الماء عبًا أي شربه بلا تنفس ومَصّ . المعجم الوسيط (٢/٦٠٠) .

ولو كان أكبر سنًّا . والأول يدل على أنه إذا كان الذي على اليمين أقل قدرًا ، فإنه يُعطى ويقدم على الذي هو أعظم قدرًا إذا كان على اليسار ، لقول الرسول : « الأيمنون ، الأيمنون ، الأيمنون ، ألا فيمنوا ، ألا فيمنوا ، ألا فيمنوا [١] » هكذا جاء الحديث . لكن هذا فيمن إذا شرب يريد أن يناول من على يمينه أو على يساره .

أما ما يفعله الناس اليوم ؛ يأتي الرجل بالإبريق ويدخل المجلس ، فهنا يبدأ بالأكبر لأن الرسول – عليه الصلاة والسلام – كانوا يبدؤون به فيعطونه أولًا ، ولأنه لما أراد أن يناول – عليه الصلاة والسلام – المسواك أحد الرجلين اللذين وقفا ، قيل له : « كبر كبر » [٢] ، وقد ورد في ذلك أيضًا أحاديث عن النبي – عليه الصلاة والسلام – ، أنك إذا دخلت المجلس تبدأ بالأكبر لا بمن على اليمين .

* * *

١١٢ - بابُ كراهة الشّرْبِ من فم القربة ونحوها وبيان أنه كراهة تنزيه لا تحريم

٧٦٢ – عن أَبي سعيدِ الخدْرِيِّ ﷺ قال : نَهَى رسول اللَّه ﷺ عنِ اخْتِنَاثِ الأسْقِيَةِ يعني : أَنْ تُكسرَ أَفْوَاهُها ، وَيُشْرَبَ منْها [٣] . متفقٌ عليه .

٧٦٣ – وعن أبي هريرة ﷺ قال : نَهَى رسول اللَّه ﷺ أَن يُشْرَبَ مِنْ فِي السِّقاءِ أو القِرْبَةِ [٤] . متفقٌ عليه .

٧٦٤ – وعن أُمِّ ثابتٍ كَبْشَةَ بِنْتِ ثَابتٍ أُخْتِ حَسَّان بْن ثابتٍ (رضي اللَّه عنه وعنها) قالت : دخل عَلَيَّ رسولُ اللَّه ﷺ ، فَشَرِبَ مِن فِي قِرْبَةٍ مُعَلَّقَةٍ قَائمًا ، فَقُمْتُ إلى فِيهَا فَقَطَعْتُهُ [٥] . رواه الترمذي وقال : حديث حسن صحيح .

وإِنَّمَا قَطَعَتْهَا ، لتحفَظَ مَوضِعَ فَمِ رسول اللَّه ﷺ ، وَتَتَبَرَّكَ بِهِ ، وَتَصُونَهُ عَنِ الابْتِذَالِ . وَهذا الحَدِيثُ مَحْمُولٌ على بَيَانِ الجَوَازِ ، والحديثان السابقان لبيان الأفضل والأكمل والله أعلم .

---

(١) أخرجه البخاري في الهبة (٢٥٧١) بلفظ « الأيمنون الأيمنون ، ألا فيمنوا » ، ومسلم في الأشربة (١٢٦) بلفظ « الأيمنون الأيمنون الأيمنون » .

(٢) أخرجه أبو داود في الطهارة (٤٥٢١) .

(٣) أخرجه البخاري في الأشربة (٥٦٢٥) ومسلم في الأشربة (١١١) .

(٤) أخرجه البخاري في الأشربة (٥٦٢٨) ، والإمام أحمد في مسنده (٢/٢٣٠) ، ومسلم في المساقاة (١٦٠٩) .

(٥) أخرجه الترمذي في الأشربة (١٨٩٢) .

الشرح

قال المؤلف - رحمه الله تعالى - : باب (كراهة الشرب من فم القربة ونحوها وبيان أنه كراهة تنزيه لا تحريم) .

من آداب الشرب : ألا يشرب الإنسان من فم القربة أو السقاء ، لأن النبي ﷺ نهى عن ذلك ، والحكمة من هذا أن المياه فيما سبق ليست بتلك المياه النظيفة ، فإذا صارت في القربة أو في السقاء ، فإنه يكون فيها أشياء مؤذية عيدان أو حشرات أو غير ذلك مما هو معروف لمن كانوا يستعملون هذا من قبل ، فلهذا نهى النبي ﷺ « عن اختناث الأسقية » يعني أن الإنسان يكسر أفواهها هكذا ثم يشرب .

وذُكِرَ أن رجلًا شرب مرة هكذا فخرجت حية من القربة ، وهذا لا شك أنه على خطر ، إما أن تلدغه أو تؤذيه ، لهذا ينهى عن الشرب من فم القربة ، وليس من ذلك الشرب من الصنبور ، أو من الجِرَارِ التي يُخزَّن فيها الماء ، لأن هذه معلومة ونظيفة ، فهو كالشرب من الأواني ، لكن إذا كان هناك حاجة فلا بأس أن يشرب الإنسان من فم القربة ، مثل أن يكون محتاجًا إلى الماء وليس عنده إناء ، فإنه يشرب من فِي القربة ، وعلى هذا فيكون النهي عن ذلك كما قال المؤلف رحمه الله للكراهة وليس للتحريم .

ويستفاد من الحديث الأخير : أنه يجوز أن يشرب الإنسان قائمًا إذا دعت الحاجة إلى ذلك ، مع أن النبي ﷺ نهى عن الشرب قائمًا ، لكن إذا كان هناك حاجة فلا بأس كما في هذه الحالة ، القربة معلقة ، والمعلقة تكون عالية عن القاعد ، وليس عنده إناء ، فشرب النبي ﷺ من هذه القربة المعلقة قائمًا .

وفي الحديث أيضًا دليل على جواز التبرك بآثار النبي ﷺ وهو كذلك ، وقد كان الصحابة يتبركون بعرق النبي ﷺ ، ويتبركون بريقه ، ويتبركون بثيابه ، ويتبركون بشعره [1] ، أما غيره ﷺ فإنه لا يتبرك بشيء من هذا منه ، فلا يتبرك بثياب الإنسان ولا بشعره ولا بأظفاره ولا بشيء من متعلقاته ، إلا النبي ﷺ .

* * *

١١٣ - باب كراهة النفخ في الشراب

٧٦٥ - عن أبي سعيدٍ الخدريِّ رضي الله عنه أَنَّ النبيَّ ﷺ نَهَى عَنِ النَّفخِ في الشَّرَابِ ، فقال رَجُلٌ : القَذَاةُ [2] أراها في الإناءِ ؟ فقال : « أَهْرِقْهَا » قال : إنِّي لا أَرْوَى مِنْ نَفَسٍ وَاحِدٍ ؟ قال : « فَأَبِنِ القَدَحَ إذًا عَنْ فِيكَ » [3] رواه الترمذي وقال : حديث حسن صحيح .

---

(١) سبق تخريج الأحاديث الدالة على ذلك في « باب استحباب تقديم اليمين في كل ما هو من باب التكريم » .

(٢) القذاة : واحدة القذى ، ومعناه ما يسقط في الشراب من ذباب وغيره .

(٣) أخرجه الترمذي في الأشربة (١٨٨٧) .

٧٦٦ - وعن ابن عباس ﵄ أن النبي ﷺ نهى أن يُتَنَفَّسَ في الإِنَاءِ ، أَو يُنْفَخَ فِيهِ [(١)] . رواه الترمذي وقال : حديث حسن صحيح .

الشرح

قال المؤلف ﵀ في آداب الطعام والشراب : (باب كراهة النفخ في الشراب) .

ثم ذكر حديثين فيهما النهي عن النفخ في الشراب ؛ وذلك لأن الإنسان إذا نفخ ربما يحصل من الهواء الذي يخرج منه ، أشياء مؤذية أو ضارة كمرض ونحوه ، فلهذا نهى النبي ﷺ عن النفخ فيه ، فسأله الرجل قال : يا رسول الله ، القذاة - يعني تكون في الشراب - يعني مثل العود الصغير أو ما أشبه ذلك ، فينفخه الإنسان من أجل أن يخرج ، فقال النبي ﷺ : « أهرقها » يعني : صب الماء الذي فيه القذاة ولا تنفخ فيه .

ثم سأله : أنه لا يُروى بنفسٍ واحد فقال : « أَبِن الإناء عن نفسك » المعنى أنه يشرب ويحتاج إلى تنفس ، فأمره النبي ﷺ أن يبين الإناء عن فمه يعني يفصله ، ثم يتنفس ، ثم يعود فيشرب ، إلا أن بعض العلماء استثنى من ذلك ما دعت الحاجة إليه ، كما لو كان الشراب حارًّا ويحتاج إلى السرعة ، فرخص في هذا بعض العلماء ، ولكن الأولى ألا ينفخ حتى لو كان حارًّا ، إذا كان حارًّا وعنده إناء آخر ، فإنه يصبه في الإناء ثم يعيده مرة ثانية حتى يبرد .

وفي هذا : دليل على أن الشريعة الإسلامية كاملة من جميع الوجوه ، كل شيء قد علمنا إياه رسول الله ﷺ ، كما قال أبو ذر : « لقد تُوفِّي رسول الله ﷺ وما طائر يقلب جناحيه في السماء إلا ذكر لنا منه علمًا » [(٢)] حتى الطيور في السماء لنا منها علم بتعليم الله ورسوله إيانا .

وقال رجل من المشركين لسلمان الفارسي ﵁ : علمكم نبيكم كل شيء حتى الخراءة ، يعني حتى الجلوس على قضاء الحاجة لبول أو غائط . قال : أجل ، وذكر ما علمه لنا النبي ﷺ في ذلك : ألا نستقبل القبلة بغائط ولا بول وألا نستنجي باليمين ، وألا نستنجي بأقل من ثلاثة أحجار ، وألا نستنجي برجيع [(٣)] أو عظم [(٤)] .

فالمهم : أن شريعتنا ولله الحمد كاملة من كل وجه ، ليس فيها نقص ، ولا تحتاج إلى أحد يكملها ، وفيه ردٌّ على السفهاء الذين يزعمون أن الشريعة الإسلامية إنما تنظم العبادة بين الله وبين الخلق فقط ، وأما المعاملات بين الناس بعضهم بعضًا ، فإن الشريعة لا تعتني بها ، فيقال لهؤلاء : تبًّا

---

(١) أخرجه الترمذي في الأشربة (١٨٨٨) .

(٢) أخرجه الإمام أحمد في مسنده (١٥٣/٥ ، ١٦٢) .

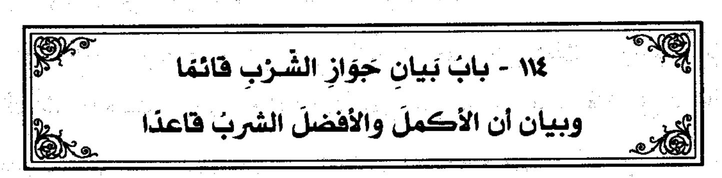
(٣) الرجيع : الروث والعذرة ، فعيل بمعنى فاعل لأنه يرجع عن حاله الأولى ، بعد أن كان طعامًا أو علفًا .

(٤) انظر صحيح مسلم في الطهارة (٥٧) ، وأبو داود في الطهارة (٧) ، والترمذي في الطهارة (١٦) .

لكم ، وسفهًا لعقولكم ، أطول آية في كتاب اللّه العزيز كلها في المداينة [١] ، في التعامل بين الناس ، وهل بعد هذا من اعتناء ؟ !

وما أكثر الآيات التي في القرآن الكريم في تنظيم المال وإصلاحه وما أشبه ذلك ، وكذلك في السنة ، فالشريعة الإسلامية ولله الحمد كاملة من كل وجه .

* * *



١١٤ - باب بيانِ جوازِ الشّرْبِ قائمًا وبيان أن الأكملَ والأفضلَ الشربُ قاعدًا

فيه حديث كبشة السابق .

٧٦٧ - وعن ابن عباسٍ رضي الله عنهما قال : سَقَيتُ النَّبيَّ ﷺ مِنْ زَمْزَمَ ، فَشَرِبَ وَهُوَ قَائمٌ [٢] . متفقٌ عليه .

٧٦٨ - وعن النَّزالِ بن سبْرَةَ رضي الله عنه قالَ : أَتَى عَليٌّ رضي الله عنه بَابَ الرَّحْبَةِ فَشَرِبَ قَائمًا ، وقالَ : إنِّيَ رَأيتُ رَسولَ اللَّهِ ﷺ فَعَل كما رَأَيتُموني فَعَلْتُ [٣] . رواهُ البخاري .

٧٦٩ - وعن ابنِ عمر رضي الله عنهما قال : كنَّا نَأْكُلُ عَلى عَهْدِ رسُولِ اللَّهِ ﷺ وَنَحْنُ نَمْشي ، ونَشْرَبُ ونَحْنُ قِيَامٌ [٤] . رواه الترمذي ، وقال : حديث حسن صحيح .

٧٧٠ - وعن عمرو بن شعيب عن أبيهِ عن جدِّه رضي الله عنه قال : رَأَيتُ رسُولَ اللَّهِ ﷺ يَشْرَبُ قَائمًا وقاعِدًا [٥] . رواه الترمذي وقال : حديث حسن صحيح .

٧٧١ - وعن أَنسٍ رضي الله عنه عن النبيِّ ﷺ أَنَّهُ نهى أَنْ يَشرَبَ الرَّجُلُ قَائمًا ، قال قتادة : فَقُلْنَا لأَنَس : فالأَكْلُ ؟ قالَ : ذلكَ أَشَرُّ أَو أَخْبَثُ . رواه مسلم .

وفي رواية له أنَّ النبيَّ ﷺ زَجرَ عَن الشُّرْبِ قَائمًا [٦] .

٧٧٢ - وعن أَبي هريرة رضي الله عنه قال : قالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ : « لَا يَشْرَبَنْ أَحَدٌ مِنْكُم قَائمًا ، فَمَنْ نَسِيَ فَلْيَسْتَقِئْ » [٧] رواه مسلم .

---

(١) الآية (٢٨٢) من سورة البقرة .

(٢) أخرجه البخاري في الحج (١٦٣٧) ، ومسلم في الأشربة (١١٧) .

(٣) أخرجه البخاري في الأشربة (٥٦١٥) .

(٤) أخرجه الترمذي في الأشربة (١٨٨٠) .

(٥) أخرجه الترمذي في الأشربة (١٨٨٣) .

(٦) أخرجه مسلم في الأشربة (١١٢ ، ١١٣) .

(٧) أخرجه مسلم في الأشربة (١١٦) .

الشرح

قال المؤلف - رحمه الله تعالى - : (باب بيان جواز الشرب قائمًا ، وبيان أن الأكمل والأفضل الشرب قاعدًا) .

فالأفضل في الأكل والشرب أن يكون الإنسان قاعدًا ، لأن هذا هو هدي النبي صلى الله عليه وعلى آله وسلم ، ولا يأكل وهو قائم ولا يشرب وهو قائم .

أما الشرب وهو قائم : فإنه صح عن النبي ﷺ أنه نهى عن ذلك . وسئل أنس بن مالك عن الأكل قال : ذاك أشر وأخبث ، يعني معناه أنه إذا نهى عن الشرب قائمًا فالأكل قائمًا من باب أولى .

لكن في حديث ابن عمر الذي أخرجه الترمذي وصححه قال : كنا في عهد النبي ﷺ نأكل ونحن نمشي ، ونشرب ونحن قيام . فهذا يدل على أن النهي ليس للتحريم ولكنه لترك الأولى ، بمعنى أن الأحسن والأكمل أن يشرب الإنسان وهو قاعد وأن يأكل وهو قاعد ، ولكن لا بأس أن يشرب وهو قائم وأن يأكل وهو قائم . والدليل على ذلك حديث عبد الله بن عباس رضي الله عنهما قال : سقيت النبي صلى الله عليه وعلى آله وسلم من زمزم فشرب وهو قائم .

زمزم : هي عين الماء التي حول الكعبة ، وسببها : أن إبراهيم الخليل - عليه الصلاة والسلام - [1] ترك هاجر أم إسماعيل وابنها إسماعيل في مكة وليس فيها أحد ، ليس فيها سكان ، وليس فيها كعبة ، وليس فيها أحد ، بل وليس فيها زروع ، هي وادٍ غير ذي زرع ، وجعل عندهما وعاء من تمر وسقاء من ماء وانصرف ، لأن الله أمره أن يبقيهما هنالك ، فلما انصرف لحقته هاجر وقالت له : كيف تذهب وتتركنا ؟ هل أمرك الله بذلك ؟ قال : نعم ، قالت : إذا كان الله أمرك بذلك فإنه لن يضيعنا ، وهذا يدل على كمال إيمان هاجر رضي الله عنها .

وقصتها هذه نظير قصة أم موسى بن عمران [2] : كان فرعون مسلطًا على بني إسرائيل ، يقتل أبناءهم ، ويبقي نساءهم ؛ إذلالًا لهم ، وقد قيل إن المنجمين قالوا له : إنه سيظهر من بني إسرائيل رجل يكون هلاكك على يده ، فصار يقتل أبناءهم .

فخافت أم موسى عليه ، فأوحى الله إليها وحي إلهام لا وحي نبوة ، أنها إذا خافت عليه تجعله في تابوت - صندوق من الخشب - ، وتلقيه في البحر ، وهذا شيء شديد على النفس ، أن تضع ولدها في تابوت وتلقيه في البحر ، لكنها مؤمنة واثقة بوعد الله عز وجل ، ففعلت ؛ جعلته في التابوت وألقته في البحر ، فرآه جند فرعون ، فأخذوه ليقتلوه ، فلما رأته زوجة فرعون ألقى الله محبته في قلبها وقالت : ﴿ قُرَّتُ عَيْنٍ لِّي وَلَكَ لَا تَقْتُلُوهُ عَسَىٰٓ أَن يَنفَعَنَآ أَوْ نَتَّخِذَهُۥ وَلَدًا وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ ﴾ [القصص : ٩] .

واضطربت أم موسى ، أصبح فؤادها فارغًا ، يعني ما كأن شيئًا وراءه ، قد فرغ قلبها على ولدها

---

(١) انظر قصص الأنبياء لابن كثير قصة إبراهيم وقصة اسماعيل عليهما السلام .

(٢) انظر قصص الأنبياء لابن كثير قصة موسى عليه السلام .

مع إيمانها بالله ، ولكن الله ﷻ بقدرته جعل هذا الابن كلما عرضت عليه امرأة لِيَرْضَعْهَا أبى أن يَرْضَعْهَا ؛ لا يرضى أن يَرضع من أي امرأة ، فإذا أخت موسى قد أرسلتها والدته تنظر ماذا حدث له ، فرأت الناس يبحثون عن مرضع لهذا الصبي فقالت : ﴿ هَلْ أَدُلُّكُمْ عَلَىٰٓ أَهْلِ بَيْتٍ يَكْفُلُونَهُۥ لَكُمْ وَهُمْ لَهُۥ نَٰصِحُونَ ﴾ [القصص : ١٢] ، فرده الله إلى أمه قبل أن يرضع من أي امرأة ؛ ما رضع من أحد سوى أمه مع أنها قد ألقته في البحر لكن رده الله عليها .

« فهاجر رضي الله عنها » لما قال لها إبراهيم : إن الله أمرني بهذا قالت : إذًا لا يضيعنا ، ثم بقيت هي وطفلها في هذا المكان الذي ليس فيه أحد من بني آدم ، وجعلت تأكل من التمر وتشرب من الماء ، وتدر اللبن على الولد ويرضع ، حتى نفد التمر والماء وجاعت الأم ، ومعلوم أن الأم إذا جاعت لا يكون فيها لبن ، وجعل الطفل يصيح ويبكي .

فبحثت بما ألهمها الله عن أقرب جبل لها تصعد عليه لعلها تسمع صوتًا أو ترى أحدًا ، فوجدت أقرب مكان إليها الصفا - والمشاهد الآن أن أقرب جبل للكعبة هو الصفا - ، فصعدت عليه وتسمعت فما وجدت أحدًا ، فنزلت وقالت : أذهب إلى الجهة الثانية ؛ وأقرب جبل إليها في الجهة الثانية هو المروة ، فصعدت على المروة تسمع ، فلم تجد أحدًا ، وكان بين الصفا والمروة شعيب ، وادٍ مجرى سيل ، ومعروف أن الشعيب يكون نازلًا عن الأرض ، فكانت إذا نزلت في الشعيب ركضت ركضًا عظيمًا ، تركض من أجل أن تسمع الولد وتلتفت إليه وتراه ، فعلت هذا سبع مرات .

فلما أكملت سبع مرات إذا هي تسمع شيئًا ، فقالت : أغث إن كان عندك غواث ؛ سمعت حسًّا وإذا هو جبريل ، أمره ربه ﷻ أن ينزل إلى الأرض فيضرب بعقبه أو بجناحه مكان زمزم ، فضربه مرة واحدة ، فخرج هذا الماء ينبع ، فجعلت تحوطه تحجر عليه ، خافت أن يسيح في الأرض وينقص ، وشربت من الماء وإذا الماء يكفي عن الطعام والشراب وهو ماء ، فجعلت تشرب من هذا الماء وترضع الولد ، وفرّج الله ﷻ عنها .

وكان حولها أناس ولكنهم كانوا بعيدين عنها من (جرهم) قبيلة من العرب كانوا حولها ، فرأوا الطيور تهوي إلى هذا المكان مكان زمزم الذي فيه الماء ، والطير يرى من بعيد ، فقالوا : ما خبرنا أن هنا ماء حتى تأوي الطيور إليه ، لكنهم قالوا : لا يمكن للطيور أن تأوي إلا إلى ماء ، فتبعوا هذه الطيور حتى وصلوا إلى المكان ، وإذا المكان عين تنبع ، فنزلوا حول المرأة وأنست بهم ، وكَبِرَ إسماعيل وتزوج منهم .

بعد مدة جاء إبراهيم - عليه الصلاة والسلام - ، فدخل على أهل إسماعيل وعلى هاجر ، وسأل زوجة إسماعيل كيف حالكم ؟ فشكت الحال وتضجرت ، فقال لها : إذا جاء زوجك فقولي له : يغير عتبة بابه فجاء إسماعيل وأخبرته بالذي حصل ؛ قال : هل جاءكم أحد ؟ قالت : نعم جاء شيخ صفته كذا وكذا وإنه قال : أقرئيه السلام وقولي له : يغير عتبة بابه . ماذا يريد إبراهيم بهذه الكلمة ؟ يريد أن يطلقها ؛ لأن المرأة شكاية ، شكت زوجها يعني أن ما عندهم إلا كل بؤس . فقال : هذا أبي وأنت العتبة ، فالحقي بأهلك .

ثم تزوج غيرها ، ثم جاء إبراهيم مرة أخرى بعد أن غاب عنه مدة ، ودخل على بيت ابنه إسماعيل

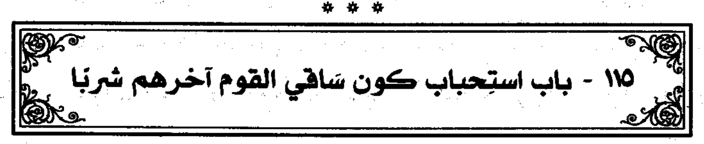
ووجد الزوجة فسألها عن حالهم ، فأثنت على حالهم وقالت : نحن بخير ، وأثنت على الحال ، فقال : أقرئي زوجك مني السلام وقولي له : يمسك بعتبة بابه ، فلما جاء إسماعيل كأنه سأل هل جاء أحد ؟ قالت : نعم ، جاءنا شيخ صفته كذا وكذا ، وأنه يقرئك السلام ويقول : يمسك عتبة بابه ؛ قال : ذاك أبي ، وأنت عتبة الباب ، وأمرني أن أمسكك .

فالحاصل : أن زمزم ماء مبارك « طعام طعم وشفاء سقم »[(١)] ، « وماء زمزم لما شرب له »[(٢)] إن شربته لعطش رويت ، وإن شربته لجوع شبعت ، حتى إن بعض العلماء أخذ من عموم هذا الحديث أن الإنسان إذا كان مريضًا وشربه للشفاء شفي ، وإذا كان كثير النسيان وشربه للحفظ صار حافظًا ، وإذا شربه لأي غرض ينفعه ، فعلى كل حال هذا الماء ماء مبارك .

فالحاصل : أن الأكمل والأفضل أن يشرب الإنسان وهو قاعد ويجوز الشرب قائمًا ، وقد شرب عليٌّ بن أبي طالب ﷺ قائمًا ، وقال : إن النبي ﷺ فعل كما رأيتموني فعلت ، فدل ذلك على أن الشرب قائمًا لا بأس به ، لكن الأفضل أن يشرب قاعدًا .

بقي أن يقال : إذا كانت البرادة في المسجد ودخل الإنسان المسجد ، فهل يجلس ويشرب أو يشرب قائمًا ؟ لأنه إن جلس خالف قول النبي ﷺ : « إذا دخل أحدكم المسجد فلا يجلس حتى يصلي ركعتين »[(٣)] ، وإن شرب قائمًا ترك الأفضل . فنقول : الأفضل أن يشرب قائمًا ، لأن الجلوس قبل صلاة الركعتين حرام عند بعض العلماء[(٤)] ، بخلاف الشرب قائمًا فهو أهون ، وعلى هذا فيشرب قائمًا ثم يذهب ويصلي تحية المسجد .

* * *



١١٥ - باب استحباب كون ساقي القوم آخرهم شربًا

٧٧٣ - عن أَبي قتادة ﷺ عن النبيِّ ﷺ قال : « سَاقِي القَومِ آخِرُهُمْ شُرْبًا »[(٥)] .

رواه الترمذي وقال : حديث حسن صحيح .

الشرح

قال المؤلف رَحِمَهُ اللَّهُ في كتاب أدب الطعام : باب استحباب كون ساقي القوم آخرهم شربًا .

---

(١) انظر صحيح مسلم في فضائل الصحابة (١٣٢) .

(٢) أخرجه أحمد في مسنده (٥٧/٣) ، وابن ماجه في المناسك (٣٠٦٢) .

(٣) أخرجه البخاري في الصلاة (٤٤٤) ، ومسلم في صلاة المسافرين (٧١٤) .

(٤) ذهب الجمهور إلى أن ركعتي دخول المسجد مندوب إليها من غير إيجاب وذهب أهل الظاهر إلى وجوبها . انظر بداية المجتهد (١٥١/١) .

(٥) أخرجه الترمذي في الأشربة (١٨٩٤) ، ومسلم في المساجد ومواضع الصلاة (٣١١) من حديث طويل .

يعني الذي يسقي القوم ماءً أو لبنًا أو قهوة أو شايًا ، ينبغي أن يكون هو آخرهم شربًا ؛ من أجل أن يكون مؤثرًا على نفسه ، ومن أجل أن يكون النقص - إن كان - على نفس الساقي ، وهذا لاشك أنه أحسن امتثالًا لأمر النبي ﷺ ، وأخذًا بأدب النبي ﷺ ، لكنه إذا كان لا يشتهي أن يشرب فليس بلازم أن يشرب بعدهم ، إن شاء شرب ، وإن شاء لا يشرب .

المهم : أن يكون هو الأخير إذا أراد أن يشرب ، لما في ذلك من الإيثار وامتثال أمر النبي ﷺ ، وفي هذا إشارة إلى أنه ينبغي للإنسان أن يخدم إخوانه بسقيهم ، وإذا كان صاحب البيت فليقدم إليهم الشراب أو الأكل ، كما فعل إبراهيم - عليه الصلاة والسلام - ﴿ فَرَاغَ إِلَىٰٓ أَهْلِهِۦ فَجَآءَ بِعِجْلٍ سَمِينٍ ﴿٢٦﴾ فَقَرَّبَهُۥٓ إِلَيْهِمْ قَالَ أَلَا تَأْكُلُونَ ﴾ [الذاريات : ٢٦، ٢٧] .

فصاحب البيت يقرب الأكل ويناول الشراب ، ويكون هو آخر القوم ، ثم هل الأفضل أن يشاركهم في الطعام سواء كان غداءً أو عشاءً أو فطورًا ، أو الأفضل أن ينصرف ولا يشاركهم ؟ هذا يرجع إلى عادة الناس ، فإذا كانت مشاركته أطيب لقلوب الضيوف وأكثر إيناسًا فليأكل معهم ، وإذا كان الأمر بالعكس وجرت العادة أنه لا يأكل الإنسان مع ضيوفه فلا يأكل .

فهذا أمر يرجع إلى العرف ؛ إن كان العرف أن من إكرام الضيف ألا تأكل معه وأن تجعله حرًا يأكل ما شاء فلا تأكل ، وإن كان الأمر بالعكس فَكُلْ ، ولقد قال رسول الله ﷺ : « من كان يؤمن بالله واليوم الآخر فليكرم ضيفه » [(١)] ، ولم يبين نوع الإكرام فيرجع في ذلك إلى ما جرى به عرف الناس .

* * *

١١٦ - بابُ جواز الشّرب من جميع الأواني الطاهرة غير الذهب والفضة وجواز الكرْع (وهو الشرب بالفم من النهر وغيره) بغير إناء ولا يد وتحريم استعمال إناء الذهب والفضة في الشرب والأكل والطهارة وسائر وجوه الاستعمال

٧٧٤ - عَنْ أَنسٍ رضي الله عنه قال : حضَرَتِ الصَّلاةُ ، فَقَامَ مَنْ كان قَرِيبَ الدَّارِ إلى أَهْلِهِ ، وَبَقِيَ قَوْمٌ فَأُتِيَ رسول الله ﷺ بِمِخْضَبٍ [(٢)] مِنْ حِجَارَةٍ ، فَصَغُرَ المِخْضَبُ أَنْ يَبْسُطَ فِيهِ كَفَّهُ ، فَتَوَضَّأَ القَوم كُلُّهُمْ . قَالُوا : كَمْ كُنتُمْ ؟ قَالَ : ثَمانِينَ وزِيَادَةً [(٣)] . متفقٌ عليه . هذه رواية البخاري .

وفي روايةٍ له ولمسلم : أَنَّ النبيَّ ﷺ دَعَا بِإِنَاءٍ مِنْ ماءٍ ، فَأُتي بِقَدَحٍ رَحْرَاحٍ [(٤)] فِيهِ شَيءٌ مِنْ مَاءٍ ،

---

(١) أخرجه البخاري في الأدب (٦٠١٨) ومسلم في الإيمان (٧٤) .

(٢) أي بإناء . (٣) أخرجه البخاري في الوضوء (١٩٥) .

(٤) الرحراح : الواسع القصير الجدار .

فَوَضَعَ أَصَابِعَهُ فِيهِ . قَالَ أَنس : فَجَعَلْتُ أَنْظُرُ إلى الماءِ يَنْبُعُ مِنْ بَينِ أَصابِعِهِ ، فحَزَرْت [١] مَنْ تَوَضَّأَ مَا بَيـنَ السَّبْعِينَ إلى الثَّمَانِينَ [٢] .

٧٧٥ - وعن عبد اللّه بنِ زيدٍ ﷺ قال : أَتَانَا النَّبيُّ ﷺ ، فَأَخْرَجْنَا لَهُ مَاءً في تَورٍ مِنْ صُفْرٍ فَتَوَضَّأَ [٣] . رواه البخاري .

« الصُّفْر » بضم الصاد ، ويجوز كسرها ، وهو النحاس ، و « التَّور » : كالقدح ، وهو بالتاء المثناة من فوق .

٧٧٦ - وعن جابر ﷺ أَنَّ رسول اللّه ﷺ دَخَلَ عَلى رَجُلٍ مِنَ الأَنْصارِ ، ومَعَهُ صاحِبٌ لَهُ ، فقالَ رسول اللّه ﷺ : « إنْ كَانَ عِنْدَكَ مَاءٌ بَاتَ هذِهِ اللَّيلَةَ في شَنَّةٍ وَإلا [٤] كَرَعْنَا » [٥] رواه البخاري .

« الشَّنُّ » : القِرْبَة .

٧٧٧ - وعن حذيفة ﷺ قالَ : إنَّ النبيَّ ﷺ نَهَانَا عَنِ الحَرِيرِ والدِّيبَاجِ والشُّربِ في آنِيَةِ الذَّهَبِ والفِضةِ ، وقالَ : « هيَ لهُمْ في الدُّنْيَا ، وهيَ لَكُمْ في الآخِرَةِ » [٦] متفقٌ عليه .

٧٧٨ - وعن أُمِّ سلمة ﷺ أَنَّ رسُولَ اللّهِ ﷺ قال : « الَّذِي يَشرَبُ في آنِيَةِ الفِضَّةِ إنَّما يُجَرْجِرُ في بَطْنِهِ نَارَ جَهَنَّمَ [٧] » متفقٌ عليهِ .

وفي رواية لمسلم : « إنَّ الَّذِي يَأْكُلُ أَو يَشْرَبُ في آنِيَةِ الفِضَّةِ والذَّهَبِ » [٨] .

وفي روايةٍ لَه : « مَنْ شَرِبَ في إنَاءٍ مِنْ ذَهَبٍ أَو فِضَّةٍ فَإنَّما يُجَرْجِرُ في بَطْنِهِ نَارًا مِنْ جَهَنَّمَ » [٩] .

الشرح

هذا الباب عقده المؤلف ﷺ في كتابه لبيان حكم الأواني واستعمالها في الشرب .

وليعلم أن هناك قاعدة نافعة ، وهي أن الأصل في كل ما خلق اللّه في الأرض أنه حلال ، فالأصل أن حكمه الحل ، إلا ما قام الدليل على تحريمه ، ودليل ذلك قول اللّه تبارك وتعالى : ﴿ هُوَ ٱلَّذِى خَلَقَ

---

(١) حرزت الشيء حرزًا أي : قدرته .

(٢) أخرجه البخاري في الوضوء (٢٠٠) بلفظه ، ومسلم في الفضائل (٤) .

(٣) أخرجه البخاري في الوضوء (١٩٧) .

(٤) الحكمة من طلب الماء البائت أنه أبرد وأصفى ، والكرع : تناول الماء بالفم من غير إناء ولا كف .

(٥) أخرجه البخاري في الأشربة (٥٦١٣) .

(٦) أخرجه بنحوه البخاري في الأشربة (٥٦٣٣) ، واللباس (٥٨٣١) ، ومسلم في اللباس والزينة (٤) .

(٧) أخرجه البخاري في الأشربة (٥٦٣٤) ، ومسلم في اللباس والزينة (١) .

(٨) انظر صحيح مسلم في اللباس والزينة (٢) . (٩) انظر صحيح مسلم في اللباس والزينة (١) .

لَكُم مَّا فِي ٱلْأَرْضِ جَمِيعًا ﴾ [البقرة: ٢٩] ، كل ما في الأرض فهو لنا حلال من حيوان وأشجار وأحجار وكل شيء ، كل الذي في الأرض حلال أحله الله لنا إلا ما قام الدليل على تحريمه .

وبناءً على هذه القاعدة العظيمة التي بينها الله لنا في كتابه ، فإن كل من ادعى أن هذا حرام فعليه الدليل ، إذا قال مثلًا : إن هذا الحيوان حرام ، نقول : هات الدليل ، وإلا فالأصل أنه حلال . إذا قال : هذه الآنية حرام ، قلنا : هات الدليل ، وإلا فالأصل أنها حلال . إذا قال : هذا الشجر حرام ، قلنا : هات الدليل ، وإلا فالأصل أنه حلال ؛ لأن الذي يقول : إنه حلال معه أصل من الله ﷻ ﴿ هُوَ ٱلَّذِى خَلَقَ لَكُم مَّا فِى ٱلْأَرْضِ جَمِيعًا ﴾ ، وقال ﷻ : ﴿ وَسَخَّرَ لَكُم مَّا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ جَمِيعًا مِّنْهُ ﴾ [الجاثية: ١٣] . فهذا هو الأصل .

ولهذا قال المؤلف رحمه الله : (باب جواز الشرب من جميع الآنية) : من خشب أو حجر أو غير ذلك ، إلا الذهب والفضة ، فإن الذهب والفضة لا يجوز فيهما الأكل ولا الشرب ، ودليل هذا حديث حذيفة بن اليمان وأم سلمة رضي الله عنهما : أمَّا حديث حذيفة بن اليمان فقد صرح ﷺ أن النبي صلى الله عليه وعلى آله وسلم نهى عن الشرب في آنية الذهب والفضة ، وكذلك حديث أم سلمة ، وبيَّن النبي صلى الله عليه وعلى آله وسلم الحكمة من ذلك فقال : « هي لهم في الدنيا - يعني الكفار - وهي لكم في الآخرة » .

فالكفار في الآخرة في نار جهنم والعياذ بالله ، إذا استغاثوا وهلكوا من العطش فقد قال الله تعالى : ﴿ وَإِن يَسْتَغِيثُوا۟ يُغَاثُوا۟ بِمَآءٍ كَٱلْمُهْلِ يَشْوِى ٱلْوُجُوهَ ۚ بِئْسَ ٱلشَّرَابُ وَسَآءَتْ مُرْتَفَقًا (١) ﴾ [الكهف: ٢٩] ، يؤتى إليهم بالماء كالمهل وهو كرديء الزيت المحمى والعياذ بالله ، إذا قربوه إلى وجوههم ليشربوا منه فإنه يشوي وجوههم ، ﴿ وَسُقُوا۟ مَآءً حَمِيمًا فَقَطَّعَ أَمْعَآءَهُمْ ﴾ [محمد: ١٥] والعياذ بالله .

لكن أهل الجنة - جعلنا الله منهم - ﴿ يُسْقَوْنَ مِن رَّحِيقٍ مَّخْتُومٍ (٢) ۝٢٥ خِتَٰمُهُۥ مِسْكٌ ۚ وَفِى ذَٰلِكَ فَلْيَتَنَافَسِ ٱلْمُتَنَٰفِسُونَ ﴾ [المطففين: ٢٥، ٢٦] ، يسقون بآنية الذهب والفضة ، ولذلك نهى النبي ﷺ عن الأكل والشرب فيهما ، لأنهما آنية الجنة .

ونهى عن لبس الحرير للرجال ؛ لأن الحرير للمؤمنين في الجنة ، والرجال لا يليق بهم لبس الحرير في الدنيا . وكذلك النساء ، لولا أن الله تعالى رخَّص لهن في لباس الحرير من أجل مصلحتهن ومصلحة أزواجهن ، حتى تتجمل المرأة لزوجها ، فيحصل بذلك مصلحة للجميع ، ولولا هذا لكان الحرير حرامًا على النساء كما هو حرام على الرجال ؛ لأنه لباس أهل الجنة .

فالحاصل : أن جميع الأواني من زجاج وخزف وخشب وأحجار وغير ذلك ، الأصل فيها الحل

---

(١) مرتفقا أي متكأ . صفوة البيان لمعاني القرآن (ص ٣٨٠) .

(٢) أي من خمر بيضاء لذيذة خالصة مما يكدرها حتى من الغول الذي في خمر الدنيا و ﴿ مَّخْتُومٍ ﴾ أي أوانيه وأكوابه وختامها المسك بدل الطين ، أو تمثيل لكمال نفاسته ، وإلا فليس هناك غبار أو ذباب ليصان الرحيق عن ذلك بالختم ، أو المعنى أن شاربه يجد في نهاية شربه رائحة المسك . صفوة البيان (ص ٧٩٢) .

حتى لو كانت من أغلى المعادن ، فإنها حلال إلا الذهب والفضة ، والعلة في ذلك ليس كما قال بعض الفقهاء : إنها الخيلاء وكسر قلوب الفقراء وما أشبه ذلك ، لأنه لو كان هكذا لكان كل إناء يكسر قلوب الفقراء يحرم فيه الأكل والشرب و لكن العلة بيّنها الرسول – عليه الصلاة والسلام – : « هي لهم في الدنيا وهي لكم في الآخرة » ، وهذا خاص بآنية الذهب والفضة .

لو أن الإنسان شرب في آنية من معدن أغلى من الذهب والفضة لم يكن هذا حرامًا إذا لم يصل إلى حد السرف ، ولكن لو أكل أو شرب في الذهب والفضة كان ذلك حرامًا ، لأن النبي ﷺ نهى عن ذلك وبيّنَ السبب .

وفي حديث أم سلمة : دليل على أن الأكل في آنية الذهب والفضة من كبائر الذنوب ، لأن النبي ﷺ توعد على ذلك بأن من فعله : « فإنما يجرجر في بطنه نار جهنم » ؛ الجرجرة : صوت الطعام والشراب وهو ينحدر في البلعوم ، فإذا أكل أو شرب في إناء الذهب والفضة ، فإنما يجرجر في بطنه نار جهنم ، وهذا يدل على أنه من كبائر الذنوب ؛ لأن فيه الوعيد ، وكل ذنب فيه وعيد ، فإنه من كبائر الذنوب .

والمطلي بالذهب والفضة قال العلماء : إنه كالخالص ، لا يجوز أن يؤكل فيه ولا أن يُشرب فيه .

* * *

كتاب اللباس

١١٧ - باب استحباب الثوب الأبيض وجواز الأحمر والأخضر والأصفر والأسود وجوازه من قطن وكتان وشعر وصوف وغيرها إلا الحرير

قالَ اللَّهُ تعالى : ﴿ يَٰبَنِيٓ ءَادَمَ قَدۡ أَنزَلۡنَا عَلَيۡكُمۡ لِبَاسٗا يُوَٰرِي سَوۡءَٰتِكُمۡ وَرِيشٗاۖ وَلِبَاسُ ٱلتَّقۡوَىٰ ذَٰلِكَ خَيۡرٞۚ ﴾ [الأعراف : ٢٦] .

الشرح

قال المؤلف رحمه الله : كتاب اللباس .

وهذا من أحسن الترتيب فإن الأكل والشرب لباس الباطن ، والثياب لباس الظاهر . قال اللّه تبارك وتعالى : ﴿ إِنَّ لَكَ أَلَّا تَجُوعَ فِيهَا وَلَا تَعۡرَىٰ ۝١١٨ وَأَنَّكَ لَا تَظۡمَؤُاْ فِيهَا وَلَا تَضۡحَىٰ (١) ﴾ [طه : ١١٨- ١١٩] ، فقال ﴿ أَلَّا تَجُوعَ فِيهَا وَلَا تَعۡرَىٰ ﴾ لأن الجوع عري الباطن ، فخلوا البطن من الطعام عري لها . ﴿ وَلَا تَعۡرَىٰ ﴾ من لباس الظاهر ﴿ وَأَنَّكَ لَا تَظۡمَؤُاْ فِيهَا ﴾ هذا حرارة الباطن ﴿ وَلَا تَضۡحَىٰ ﴾ هذا حرارة الظاهر ، ولهذا أشكل على بعض الناس قال : لماذا لم يقل : إن لك ألا تجوع فيها ولا تظمأ ، وأنك لا تعرى

(١) أي لا يصيبك حر شمس الضحى لانتفائها فيها . صفوة البيان (ص ٤٠٩) .

فيها ولا تضحى ؟ ولكن من تفطن للمعنى الذي أشرنا إليه ، تبين له بلاغة القرآن . ﴿ أَلَّا تَجُوعَ فِيهَا ﴾ : هذا انتفاء العري في الباطن . ﴿ وَلَا تَعْرَىٰ ﴾ : انتفاؤه في الظاهر . و ﴿ لَا تَظْمَؤُا ﴾ هذا انتفاء الحرارة في الباطن . ﴿ وَلَا تَضْحَىٰ ﴾ يعني لا تتعرض للشمس الحارة ؛ فيه انتفاء للحرارة في الظاهر .

كذلك المؤلف رَحِمَهُ ٱللَّهُ بدأ بآداب الأكل ، ثم بآداب الشرب ، ثم باللباس الذي هو كسوة الظاهر ، وافتتح هذا الكتاب بقوله تعالى : ﴿ يَٰبَنِيٓ ءَادَمَ قَدْ أَنزَلْنَا عَلَيْكُمْ لِبَاسًا يُوَٰرِي سَوْءَٰتِكُمْ وَرِيشًا وَلِبَاسُ ٱلتَّقْوَىٰ ذَٰلِكَ خَيْرٌ ﴾ [الأعراف : ٢٦] ، فذكر الله تعالى نوعين من اللباس : نوعًا ظاهرًا ونوعًا باطنًا ، أو نوعًا حسيًّا ونوعًا معنويًّا ، وذكر أن الحسي قسمان : قسم ضروري توارى به العورة ، وقسم كمالي – وهو الريش – ، لباس الزينة .

والله ﷻ من حكمته أن جعل بني آدم محتاجين اللّباس لمواراة السوءة ، يعني لتغطية السوءة ، حتى يستتر الإنسان ، كما أنه محتاج للباس يواري سوءته الحسية ، فهو محتاج للباسٍ يواري سوءته المعنوية وهي المعاصي ، وهذا من حكمة الله تعالى .

ولهذا نجد غالب المخلوقات – سوى الآدمي – لها ما يستر جلدها من شعر أو صوف أو وبر أو ريش ، لأنها ليست بحاجة إلى أن تتذكر العري المعنوي ، بخلاف بني آدم ؛ فإنهم محتاجون إلى أن يتذكروا العورة المعنوية وهي عورة الذنوب ، حمانا الله منها .

﴿ يَٰبَنِيٓ ءَادَمَ قَدْ أَنزَلْنَا عَلَيْكُمْ لِبَاسًا يُوَٰرِي سَوْءَٰتِكُمْ ﴾ أي عوراتكم ﴿ وَرِيشًا ﴾ أي ثياب زينة وجمال زائدة عن اللباس الضروري ، ﴿ وَلِبَاسُ ٱلتَّقْوَىٰ ﴾ هذا هو اللباس المعنوي ﴿ ذَٰلِكَ خَيْرٌ ﴾ أي خير من اللباس الظاهر ؛ سواء كان مما هو ضروري ، كالذي يواري السوءة أم من الكمالي .

وإذا كان لباس التقوى خيرًا من لباس الظاهر ، فيجب على الإنسان أن يفكر ، حيث تجدنا نحرص على نظافة اللباس الظاهر – فالإنسان إذا أصاب ثوبه بقعة أو وسخ ذهب يغسلها بالماء والصابون ، وبما يقدر عليه من المنظف – لكن لباس التقوى كثير من الناس لا يهتم به ، يتنظف أو يتسخ لا يهتم به .

مع أن هذا كما قال الله ﷻ : هو الخير ، وهو إشارة أنه يجب الاعتناء بلباس التقوى أكثر مما يجب الاعتناء بلباس البدن الظاهر الحسي ، لأن لباس التقوى أهم ، وهنا قال : ذلك خير ، ولم يقل : ولباس التقوى هو خير ، لأن ذلك اسم إشارة ، وجيء بها للبعيد إشارة إلى علو مرتبة هذا اللباس ، كما قال تعالى : ﴿ الٓمٓ ۝ ذَٰلِكَ ٱلْكِتَٰبُ لَا رَيْبَ فِيهِ ﴾ [البقرة : ١، ٢] ولم يقل : هذا الكتاب إشارة إلى علو مرتبة القرآن ، كذلك قوله : ﴿ ذَٰلِكَ خَيْرٌ ﴾ إشارة إلى علو مرتبة لباس التقوى .

فينبغي للإنسان أن يعتني بهذا اللباس ، بأن يتقي الله ﷻ ، وأن يفكر دائمًا في سيئاته ومعاصيه ، وتنظيف السيئات والمعاصي أسهل من تنظيف الثياب الظاهرة ، الثياب الظاهرة تحتاج إلى عمل وتعب وأجرة وتحضير ماء ومنظف ، لكن هذا الأمر سهل جدًّا ﴿ وَٱلَّذِينَ إِذَا فَعَلُواْ فَٰحِشَةً أَوْ ظَلَمُوٓاْ أَنفُسَهُمْ

ذَكَرُوا اللَّهَ فَاسْتَغْفَرُوا لِذُنُوبِهِمْ ﴾ [آل عمران : ١٣٥] بالاستغفار والتوبة يُمحى كل ما سلف ، نسأل الله تعالى أن يتوب علينا بمنّه وكرمه .

* * *

وقال تعالى : ﴿ وَجَعَلَ لَكُمْ سَرَابِيلَ تَقِيكُمُ الْحَرَّ وَسَرَابِيلَ تَقِيكُم بَأْسَكُمْ ﴾ [النحل : ٨١] .

٧٧٩ - وعن ابنِ عبَّاس رضي الله عنهما أنَّ رسُولَ اللَّهِ ﷺ قال : « البسُوا مِنْ ثِيَابِكُمُ البيَاض ؛ فإنَّهَا مِنْ خَيرِ ثِيَابِكُمْ ، وَكَفِّنُوا فِيهَا مَوتَاكُمْ » [١] رواهُ أبو داود ، والترمذي وقال : حديث حسن صحيح .

٧٨٠ - وعنْ سَمُرَةَ رضي الله عنه قال : قالَ رسُولُ اللَّهِ ﷺ : « البَسُوا البَيَاضَ ؛ فَإنَّهَا أَطْهَرُ [٢] وأَطْيَبُ [٣] ، وكَفِّنُوا فِيهَا مَوتَاكُمْ » [٤] رواهُ النسائي ، والحاكم وقال : حديث صحيح .

٧٨١ - وعن البراء رضي الله عنه قال : كَانَ رسُولُ اللَّهِ ﷺ مَرْبُوعًا [٥] ، ولَقَدْ رَأَيتُهُ في حُلَّةٍ حَمْراءَ مَا رَأَيتُ شَيئًا قَطُّ أَحْسَنَ مِنْهُ [٦] . متَّفقٌ عليهِ .

الشرح

وذكر المؤلف رحمه الله آية أخرى ، وهي قوله تعالى : ﴿ وَجَعَلَ لَكُمْ سَرَابِيلَ تَقِيكُمُ الْحَرَّ وَسَرَابِيلَ تَقِيكُم بَأْسَكُمْ ﴾ ، والسرابيل : هي الدروع يعني : مثل لباسنا هذا يسمى سرابيل : القمص والدروع وشبهها .

﴿ وَجَعَلَ لَكُمْ سَرَابِيلَ تَقِيكُمُ الْحَرَّ وَسَرَابِيلَ تَقِيكُم بَأْسَكُمْ ﴾ . أما السرابيل التي تقينا البأس فهي سرابيل الحديد ، والدروع من الحديد ، كانوا في السابق يلبسونها عند الحرب والقتال ؛ لأنها تقي الإنسان السهام الواردة إليه ؛ فإنها عبارة عن حلق من حديد منسوج ، كما قال الله تعالى وهو يعلم داود : ﴿ أَنِ اعْمَلْ سَابِغَاتٍ وَقَدِّرْ فِي السَّرْدِ [٧] ﴾ [سبأ : ١١] فيصفون هذه الدروع بأنها إذا لبسها الإنسان وجاءته السهام أو الرماح أو السيوف ، ضربت على هذا الحديد ووقته الشر .

أما قوله : ﴿ سَرَابِيلَ تَقِيكُمُ الْحَرَّ ﴾ : فهي الثياب من القطن وشبهها تقي الحر ، وقديقول قائل : لماذا لم يقل : تقيكم البرد ؟ أجاب العلماء عن ذلك بأن هذا على تقدير شيء محذوف أي تقيكم الحر وتقيكم البرد ، لكنه ذكر الحر ؛ لأن السورة مكية نزلت في مكة وأهل مكة ليس عندهم برد ، فذكر الله

---

(١) أخرجه أبو داود في سننه في الطب (٣٨٧٨) ، والترمذي في الجنائز (٩٩٤) .

(٢) لأنها لنقائها يظهر ما يخالطها من الدنس وإن قل .

(٣) أي لسلامتها غالبًا من الخيلاء الذي يكون في لبس الملونات .

(٤) أخرجه الترمذي في الأدب (٢٨١٠) ، والنسائي في سننه في الزينة (٨/٢٠٥) ، والحاكم في المستدرك (٤/١٨٥) .

(٥) أي لم يكن طويلًا بائنًا ولا قصيرًا ، بل كان بينها وإلى الطول أقرب .

(٦) أخرجه البخاري في اللباس (٥٨٤٨) واللفظ له ، ومسلم في الفضائل (٩١) ، وأحمد في مسنده (٨/٢٨١) .

(٧) سابغات : جمع سابغة وهي الدروع الواسعة وقدر في السرد أي أحكم نسج الدروع بحيث تُدْخل الحلَقَ بعضها في بعض . صفوة البيان ص ٥٤١ .

منته عليهم بهذه السرابيل التي تقي الحر ، وقيل : إنه ليس في الآية شيء محذوف ، وأن الدروع التي تقي البأس تقي الإنسان حر السهام ونحوها ، والسرابيل الخفية تقي الحر الجوي ؛ وذلك أن الإنسان في الجو الحار لو لم يكن عليه سرابيل تقيه الحر للفحه الحرُّ واسودَّ جلده وتأذى وجف ، ولكن اللّٰه ﷻ جعل السرابيل التي تقي الحر من نعمته تبارك وتعالى .

ثم ذكر حديث ابن عباس رضي الله عنهما ، وحديث سمرة في أن النبي ﷺ حَثَّ على لبس الثياب البيض وقال : « إنها من خير ثيابكم » وقال « كفنوا فيها موتاكم » . وصدق النبي – عليه الصلاة والسلام – ؛ فإن الثوب الأبيض خير من غيره ، من جهة الإضاءة والنور ، ومن جهة أنه إذا اتسخ أدنى اتساخ ظهر فيه ، فبادر الإنسان إلى غسله .

أما الثياب الأخرى فربما تتراكم فيها الأوساخ ، والإنسان لا يشعر بها ولا يغسلها ، وإذا غسلها فلا يدري ؛ هل تنظفت أم لا ؟ ، فلهذا قال النبي – عليه الصلاة والسلام – : « إنها من خير ثيابكم ، وكفنوا فيها موتاكم » .

وهو شامل للبس الثياب البيض : القمص ، والأزر ، والسراويل ، كلها ينبغي أن تكون من البياض ، فإنه أفضل ، ولكن لو أنه لبس من لون آخر فلا بأس ، بشرط ألا يكون مما يختص لبسه بالنساء ، فإن كان مما يختص لبسه بالنساء فإنه لا يجوز أن يلبسه الرجل ، لأن النبي صلى اللّٰه عليه وعلى آله وسلم لعن المتشبهين من الرجال بالنساء [1] ، وكذلك بشرط ألا يكون أحمر ، لأن الأحمر قد نهى عنه النبي ﷺ إذا كان أحمر خالصًا ، فإن كان أحمر وفيه بياض فلا بأس .

وعلى هذا يحمل الحديث الثالث الذي ذكره المؤلف أن النبي ﷺ كان مربوعًا ، وأنه كان عليه حُلَّة حمراء ، هذه الحلة الحمراء ليس معناها أنها كلها حمراء ، لكن معناها : أن أعلامها حمر ، مثل ما تقول الشماغ أحمر وليس هو كله أحمر ، بل فيه بياض كثير ، لكن نقطه ووشمه الذي فيه أحمر ، كذلك الحلة الحمراء يعني أن أعلامها حمر ، أما أن يلبس الرجل أحمر خالصًا ليس فيه شيء من البياض ، فإن النبي ﷺ نهى عن ذلك .

* * *

٧٨٢ – وعن أبي جُحيفَةَ وهْبِ بن عبدِ اللّٰهِ رضي الله عنه قال : رَأَيتُ النَّبيَّ ﷺ بمَكَّةَ وهُوَ بالأَبْطَحِ [٢] في قُبَّة [٣] لَهُ حَمْرَاءَ مِنْ أَدَمٍ [٤] ، فَخرَجَ بِلالٌ بوَضُوئِهِ ، فَمِنْ نَاضِحٍ ونَائِلٍ [٥] ، فَخَرَجَ النبي ﷺ وعَلَيهِ

---

(١) انظر صحيح البخاري في اللباس (٥٨٨٥) ، وسنن أبي داود في اللباس (٤٠٧٩) .

(٢) أي المحصب ويقال له البطحاء .

(٣) هي ما يعبر عنها بالخيمة الآن .

(٤) جمع أديم وهو الجلد المدبوغ .

(٥) قال النووي : معناه فمنهم من ينال من شيئًا ومنهم من ينصح عليه غير شيئًا مما ناله ، ويرش عليه بللًا مما حصل له فيه تقديم وتأخير تقديره فتوضأ فمن نائل بعد ذلك وناصح فيه تقديم وتأخير تقديره فتوضأ فمن نائل بعد ذلك وناضح تبركًا بآثاره ﷺ . صحيح مسلم بشرح النووي (٢١٨/٤ ، ٢١٩) .

حُلَّةٌ حَمْرَاءُ ، كَأَنِّي أَنْظُرُ إلى بيَاضِ سَاقَيهِ ، فَتَوَضَّأَ وَأَذَّنَ بِلالٌ ، فَجَعَلْتُ أَتَتَبَّعُ فَاهُ ههُنَا وههُنَا ، يقولُ يَمِينًا وشِمَالًا : حيَّ عَلَى الصَّلَاةِ ، حيَّ عَلى الفَلاحِ ثُمَّ رُكِزَتْ لهُ عَنَزَةٌ ، فَتَقَدَّمَ فَصَلَّى ؛ يَمُرُّ بَيـنَ يَدَيهِ الكَلْبُ وَالحِمَارُ لَا يُمْنَعُ [1] . متفقٌ عليه [2] .

« العَنَزَةُ » بفتحِ النونِ : نَحْوُ العُكَّازَةِ .

٧٨٣ - وعن أبي رِمْثَةَ رِفاعَةَ التَّيْمِيِّ ﷺ قَالَ : رَأَيتُ رسُولَ اللَّهِ ﷺ وعلَيه ثوبانِ أَخْضَرانِ [3] . رواهُ أبُو داود ، والترمذي بإسْنَادٍ صحيحٍ .

٧٨٤ - وعن جابر ﷺ أنَّ رسُولَ اللَّه ﷺ دَخَلَ يَومَ فَتْحِ مَكَّةَ وعَلَيهِ عِمَامَةٌ سَودَاء [4] . رواهُ مسلم .

الشرح

هذه الأحاديث ذكرها النووي رحمه الله في « رياض الصالحين » في (كتاب اللباس) وقد سبق ذكر شيء من هذه الأحاديث ، وهنا حديث وهب بن عبد الله السوائي أبي جحيفة ﷺ ، أنه رأى النبي ﷺ في قبة له حمراء من أَدَم أو من أُدُم ، ولكن الصواب من أدم .

وذلك في الأبطح في حجة الوداع ، فإن النبي - صلى الله عليه وعلى آله وسلم - لما قدم مكة في حجة الوداع في السنة العاشرة من الهجرة ، قدمها ضحى يوم الأحد ، الرابع من ذي الحجة ، ونزل إلى المسجد الحرام فطاف وسعى ثم خرج إلى الأبطح ، فنزل فيه إلى اليوم الثامن وكان في هذه القبة التي ضربت له - عليه الصلاة والسلام - .

يقول : فخرج ، يعني حين زالت الشمس ، فخرج النبي ﷺ وعليه حلة حمراء كأني أنظر إلى بياض ساقيه . وهذه الحلة حلة حمراء يعني أن أعلامها حمر ليست سودًا ولا خضرًا ، لأن الأحمر الخالص قد ثبت نهي النبي ﷺ عن لبسه ، فتحمل هذه على أن المراد أن أعلامها يعني خطوطها ونقشها حمر .

خرج بلال ﷺ بوضوءِ النبي - عليه الصلاة والسلام - يعني بما بقي من مائه الذي توضأ به ، فجعل الناس يأخذون منه من ناضحٍ ونائلٍ ، يعني بعضهم أخذ كثيرًا وبعضهم أخذ قليلًا ؛ يتبركون بفضل وضوئه - صلى الله عليه وعلى آله وسلم - ، فخرج النبي ﷺ ، من هذه القبة ، وأذَّن بلال ، ثم ركزت العنزة لرسول الله ﷺ ، والعنزة : رمح في طرفه زج ، يعني رمح في طرفه حديدة محددة ،

---

(١) أي من وراء السترة لأن المصلي إنما يمنع المرور بينه وبين السترة .

(٢) أخرجه البخاري في الصلاة (٣٧٦) ، ومسلم في الصلاة (٢٤٩) .

(٣) أخرجه أبو داود في اللباس (٤٠٦٥) ، والترمذي في الأدب (٢٨١٢) .

(٤) أخرجه مسلم في الحج (٤٥١) .

كان النبي ﷺ يصحبها معه في السفر ، ركزت العنزة من أجل أن يصلي إليها ، لأن الإنسان إذا كان في السفر فإنه ينبغي أن يصلي إلى شيء قائم ؛ كعصا يركزها في الأرض أو ما أشبه ذلك .

يقول : فتقدم فصلى الظهر ركعتين والعصر ركعتين ، وهذا يدل على جواز الجمع للمسافر وإن كان نازلًا ، لكن الأفضل ألا يجمع إلا من حاجة ؛ كما لو كان سائرًا يمشي أو كان نازلًا ولكن يحتاج إلى راحة ؛ فيجمع جمع تأخير أو جمع تقديم ، وإلا فالأفضل للنازل ألا يجمع .

ثم ذكر وهب بن عبد الله السوائي أبو جحيفة كيف كان أذان بلال ؛ يقول : جعلت أتتبع فاه هاهنا وهاهنا ؛ يعني : يمينًا وشمالًا ، يقول : حي على الصلاة حي على الفلاح .

واختلف العلماء رحمهم الله [1] : هل يقول : « حي على الصلاة » على اليمين ، « حي على الصلاة » على اليسار ، ثم « حي على الفلاح » على اليمين ، « حي على الفلاح » على اليسار ، أم أنه يجعل « حي على الصلاة » كلها على اليمين ، « وحي على الفلاح » كلها على اليسار ؟ ، والأمر في هذا واسع ، وإن فعل هذا أو هذا فكله على خير ولا بأس به .

ثم ذكر حديثين آخرين ؛ أحدهما : أن النبي ﷺ كان عليه لباس أخضر ، والثاني : كان عليه عمامة سوداء ، وهذا يدل أيضًا على جواز لباس الأخضر ولباس الأسود .

* * *

٧٨٥ - وعن أبي سعيد عمر بن حُرَيْثٍ ﷺ قال : كأني أنظر إلى رسولِ اللَّه ﷺ وعَلَيهِ عِمَامَةٌ سَودَاءُ [2] ، قدْ أرْخَى طَرَفيها بَينَ كتفيهِ [3] . رواه مسلم .

وفي روايةٍ له : أن رسول اللَّه ﷺ خَطَبَ النَّاسَ ، وَعَليهِ عِمَامَة سَودَاءُ [4] .

٧٨٦ - وعن عائشة ﵂ قالت : كُفِّنَ رسول اللَّه ﷺ في ثلاثة أثْوابٍ بيضٍ سَحُوليَّةٍ مِنْ كُرسُفٍ ، لَيسَ فيهَا قَمِيصٌ وَلا عِمَامَةٌ [5] ، متفقٌ عليه .

« السَّحُوليَّةُ » بفتح السين وضمها وضم الحاء المهملتين : ثيابٌ تُنْسَب إلى سَحُولٍ ، قَرْيَةٍ باليَمنِ . « وَالكُرْسُف » : القُطْن .

---

(١) قال ابن قدامة في المغني (١/٤٧٢) ، المستحب أن يؤذن مستقبل القبلة لا نعلم فيه خلافًا ، ويستحب أن يدير وجهه يمينه إذا قال حي على الصلاة وعلى يساره إذا قال حي على الفلاح ولا يزيل قدميه عن القبلة في التفاته لما روى أبو جحيفة قال : رأيت بلالًا يؤذن وأتتبع فاه ههنا وههنا وأصبعاه في أذنيه (متفق عليه) وفي لفظ قال : أتيت رسول اللَّه ﷺ وهو في قبة حمراء من أدم فخرج بلال فأذن فلما بلغ حي علي الصلاة حي على الفلاح التفت يمينًا شمالًا ولم يستدر . وظاهر الكلام أنه لا يستدير سواء كان على الأرض أو فوق منارة وهو قول الشافعي .

(٢) لا يخالف ذلك ما جاء من أنه ﷺ دخل يومئذ وعليه مغفر ؛ لإمكان الجمع بدخوله بهما معًا وهي فوقه ، أو كان واحدًا بعد آخر ، ولبسه العمامة السوداء يومئذ إشارة إلى أن هذا الدين لا يتغير كالسواد بخلاف سائر الألوان وللتنبيه على عدم المنع منه .

(٣) أخرجه مسلم في الحج (٤٥٣) . (٤) أخرجه مسلم في الحج (٤٥٢) .

(٥) أخرجه البخاري في الجنائز (١٢٧٣) ومسلم في الجنائز (٤٦) .

٧٨٧ - وعنها قالت : خَرَجَ رسول اللّٰه ﷺ ذات غَدَاةٍ (١) ، وَعَلَيه مِرْطٌ مُرَحَّلٌ من شَعْرٍ أَسْوَد (٢) . رواه مسلم .

« المِرْط » بكسر الميم : وهو كساءٌ « والمُرَحَّل » بالحاء المهملة : هُو الذي فيه صورةُ رِحال الإبل ، وَهِيَ الأَكْوَارُ .

٧٨٨ - وعن المُغِيرةِ بن شُعْبَةَ ﷺ قال : كنتُ مع رسول اللّٰه ﷺ ذاتَ ليلَةٍ في مسير ، فقال لي : « أَمَعَكَ مَاءٌ ؟ » قلت : نَعَمْ ، فَنَزَلَ عن راحِلَتِه فَمَشى حتى تَوَارَى في سَوادِ اللَّيلِ ثم جاءَ فَأَفْرَغْتُ عليهِ مِنَ الإداوَةِ ، فَغَسَلَ وَجْهَهُ وَعَلَيه جُبَّةٌ مِنْ صُوفٍ ، فلم يَسْتَطِعْ أَنْ يُخْرِجَ ذِراعَيهِ منها حتى أَخْرَجَهُمَا مِنْ أَسْفَلِ الجُبَّةِ ، فَغَسَلَ ذِراعَيهِ وَمَسَحَ برأْسِه ، ثمَّ أَهْوَيت لأَنزِعَ خُفَّيهِ فقال : « دَعْهُمَا فَإِنِّي أَدْخَلْتُهُمَا طَاهِرتَينِ » وَمَسَحَ عَلَيهِمَا . متفقٌ عليه (٣) .

وفي روايةٍ : وعَلَيهِ جُبَّةٌ شامِيَّةٌ ضَيِّقَةُ الكُمَّينِ (٤) .

وفي روايةٍ : أنَّ هذهِ القَضِيَّةَ كانت في غَزْوَةِ تَبُوكَ .

الشرح

هذه الأحاديث التي ذكرها المؤلف رحمه الله في (كتاب اللباس) فيها الإشارة - كما سبق - إلى أنه يجوز للإنسان أن يلبس ما شاء من الثياب ، البيض ، والسود ، والخضر ، والصفر ، والحمر ، إلا أن الأحمر الخالص قد ثبت فيه النهي عن النبي - صلى اللّٰه عليه وعلى آله وسلم - ، فلا يلبس الأحمر الخالص إلا مشوبًا بلون آخر .

وفي حديث عمرو بن حريث ، أنه رأى النبي - صلى اللّٰه عليه وعلى آله وسلم - وعليه عمامة سوداء ، وسبق أنه ﷺ دخل مكة وعليه عمامة سواء فهو يدل على جواز لبس العمامة السوداء ، وكذلك الشمال (٥) الذي نقشه أسود أو أخضر أو أحمر كل هذا جائز .

وفيه : دليل على جواز لبس العمامة ، وأن من الأفضل أن يجعل الإنسان لها ذؤابة ، وأن يرخي طرفها من خلف ، كما فعل النبي ﷺ . والعمامة التي ليس لها ذؤابة تسمى العمامة الصماء ، لأنه ليس لها طرف مرخي ، وكلاهما جائز ، وكلاهما أيضًا يجوز المسح عليه على القول الراجح .

وفي حديث عائشة رضي الله عنها : أن رسول اللّٰه - صلى اللّٰه عليه وعلى آله وسلم - كفن في ثلاثة أثواب بيض سحولية من كرسف ؛ ليس فيها قميص ولا عمامة ، ففيه دليل على أن الأفضل أن يكفن

---

(١) أي في أي ساعة من البكرة .

(٢) أخرجه مسلم في اللباس (٣٦) .

(٣) أخرجه البخاري في اللباس (٥٧٩٩) ، ومسلم في الطهارة (٧٩) واللفظ له .

(٤) أخرجه مسلم في الطهارة (٧٧) .

(٥) الشمال : كساء من صوف أو شعر يتغطى به ويتلفف به . المعجم العربي الأساسي ص (٧٠٣) .

الأموات في الثياب البيض ، وهذا إن تيسر ، لكن لو فرض أنه لم يتيسر فيكفن الميت في مثل ما يلبسه الحي ، من أي لون كان إلا الأحمر الخالص .

وفي حديث عائشة : دليل على أن الميت لا يجعل عليه قميص ولا عمامة ، وإنما توضع القطع واحدة فوق الأخرى ، ثم يوضع عليها الميت ، ثم تلف القطع العليا عليه ، ثم الوسطى ثم السفلى ، ثم تُثنى من عند رأسه ومن عند الرجْلين ، وتُربط وتُحزم حتى يدخل الميت القبر ، فإذا أدخل القبر فإنها تفك الحزائم . قال العلماء : تفك الحزائم ؛ لأن الميت إذا مات ينتفخ ، فإذا انتفخ وقد ربط فربما يتفجر ، فتفك الحزائم من أجل ألا يتفجر .

وفي حديث المغيرة بن شعبة ﷺ : أن النبي - صلى الله عليه وعلى آله وسلم - في غزوة تبوك نزل من بعيره وأخذ الإداوة : وهي إناء يوضع فيه الماء - فأخذ الإداوة - عليه الصلاة والسلام - وانطلق حتى توارى في سواد الليل ، لأنه - عليه الصلاة والسلام - أشد حياءً ، فلا يجب أن يراه أحد وهو جالس على قضاء حاجته ، وإن لم تر عورته .

وهذا من كمال الأدب ؛ أنك إذا أردت أن تقضي حاجتك فابعد عن الناس حتى تتوارى عنهم ، لا من أجل ألا يروا عورتك ، بل لأن ستر العورة واجب ولا يجوز أن تتكشف أمام الناس ، لكن هذا فوق ذلك ، يعني الأفضل ألا يُرى الإنسان وهو على حاجته ، وهذا من هدي النبي ﷺ ، لأن هديه أكمل الهدي .

ثم أراد أن يتوضأ وكان عليه جُبَّة من صوف ضيقة الأكمام ، لبسها - عليه الصلاة والسلام - لأن الوقت كان باردًا ، لأن تبوك قريبة من الشام والشام باردة ، فلذلك كان عليه هذه الجبة - عليه الصلاة والسلام - ، فلما توضأ وغسل وجهه وأراد أن يخرج ذراعيه من الكم ، وكان ضيقًا صفيقًا فلم تستطع يده أن تخرج ، فأخرجها من أسفل وغسلها - عليه الصلاة والسلام - .

ولما أراد أن يغسل قدميه أهوى المغيرة بن شعبة لينزع خفيه ، قياسًا على أن الرسول لم يمسح على الكمين لما كانا ضيقين ، وإنما أخرج يده من أسفل حتى غسلها ، فظن المغيرة بن شعبة أن الخفين مثل ذلك ، وأنها تنزع من أجل غسل الرجل ، ولكن النبي ﷺ قال له : « دعهما فإني أدخلتهما طاهرتين » فمسح عليهما ، وقوله : « أدخلتهما طاهرتين » أي لبستهما على طهارة ، فمسح عليهما .

ففي هذا الحديث عدة فوائد :

منها : أن رسول الله ﷺ بشر يناله ما ينال البشر من الأمور الطبيعية ، يبرد كما يبرد الناس ، ويحترّ كما يحترّ الناس ، ولهذا رآه مرة معاوية وقد فك أزرار القميص [١] - لأنه والله أعلم - كان محترًا ففك الأزرار ، فظن معاوية ﷺ أن هذا من السنة ، وهو ليس من السنن المطلقة ، لكن من السنة إذا كان فيه تخفيف على البدن ، لأن كل ما يخفف عن البدن فهو خير .

---

(١) انظر مسند أحمد (١/٤٥٢) وسنن ابن ماجه في اللباس (٣٥٧٨) .

فإذا كان الإنسان محترًا وأراد أن يفتح الأزرار الأعلى والذي يليه فلا بأس ويكون هذا من السنة ، أما بدون سبب فإنه ليس من السنة ، لأنه لو كان من السنة لكان وضع الأزرار عبثًا لا فائدة منه ؛ والدين الإسلامي ليس فيه شيء عبث ، فكله جد .

ومن فوائد هذا الحديث : أنه لا حرج على الإنسان أن يتوقى ما يؤذيه من حر أو برد ، كما فعل النبي ﷺ ، بل الأفضل للإنسان أن يتوقى ما يؤذيه ؛ لأن هذا من تمام الرعاية للنفس ، حتى إن شيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله قال : الأكل إذا خفت أن يؤذيك صار حرامًا عليك ؛ الأكل الذي هو الغذاء إذا خفت أن يؤذيك ؛ إما بكثرته وإما بكونك أكلت قريبًا فتخشى أن تتأذى بالأكل الجديد ، فإنه يحرم عليك ، بمعنى أنك تأثم إذا أكلته ؛ لأن الإنسان يجب أن يرعى نفسه حق الرعاية .

ومن فوائد الحديث : أنه لا يجوز أن يمسح على حائل سوى الخفين أو العمامة ، فلو كان على الإنسان ثوب ضيق الأكمام ولا تخرج اليد إلا بصعوبة وقال : أمسح على هذا الثوب كما أمسح على الخف ، قلنا : هذا لا يجوز ، لابد أن تخرج يدك حتى تغسلها ، حتى لو فرض أنها لم تخرج إلا بشق الكم يشق فإنه حتى يؤدي الإنسان ما فرض اللّه عليه من غسل اليد ﴿ فَٱغْسِلُوا۟ وُجُوهَكُمْ وَأَيْدِيَكُمْ إِلَى ٱلْمَرَافِقِ وَٱمْسَحُوا۟ ﴾ [المائدة : ٦] .

ومن فوائد الحديث : بيان جهل بعض الناس الذين يظنون أن ما يسمى بالمانيكير مثل الخفين ، إذا وضعته المرأة على طهارة تغسلها يومًا وليلة وهذا خطأ ليس بصحيح ، فالمانيكير يجب أن يزال عند الوضوء حتى يصل الماء إلى الأظافر وأطراف الأصابع .

ومن فوائد هذا الحديث : جواز استخدام الأحرار ؛ لأن النبي ﷺ كان المغيرة يخدمه ، ولكن لا شك أن خدمة الرسول ﷺ شرف ، كل يفخر بخدمة الرسول - عليه الصلاة والسلام - ، وكان للنبي ﷺ خدم من الأحرار كعبد اللّه بن مسعود رضي الله عنه ، وأنس بن مالك وغيرهما ؛ فالمغيرة كان يخدم النبي ﷺ .

ومن فوائد الحديث : جواز إعانة المتوضئ على وضوئه يعني تصب عليه ، أو تقرب له الإناء وما أشبه ذلك . وكذلك لو فرض أنه لا يستطيع أن يغسل أعضاءه فاغسلها أنت ، فلو فرض أن يده كسرًا أو شللًا أو ما أشبه ذلك ، فلا حرج أن تغسل أعضاءه أنت .

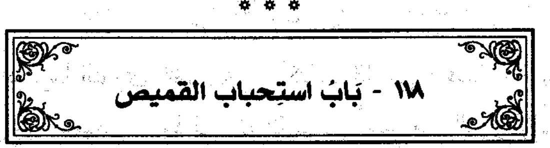
ومن فوائد هذا الحديث : أن الإنسان إذا كان لابسًا خفين أو جوارب على طهارة ، فإنه يمسح عليهما ، وأن المسح أفضل من أن يخلعهما ويغسل قدميه ، لأن الرسول - صلى اللّه عليه وعلى آله وسلم - قال : « دعها - أي اتركهما لا تخلعهما - فإني أدخلتهما طاهرتين » فمسح عليهما .

ومن فوائد هذا الحديث : ما ذهب إليه بعض العلماء من أن المسح على الخفين يكون مرة واحدة على القدمين ؛ إذ إن المغيرة لم يذكر أنه بدأ باليمنى قبل اليسرى ، فاستنبط بعض العلماء من ذلك أن المسح على الخفين يكون هذا أو يمسح على الرجل اليمنى قبل اليسرى ، لأن المسح بدل عن الغسل

والغسل تقدم فيه اليمنى على اليسرى والبدل له حكم المبدل ، فإن فعل الإنسان هذا أو هذا فلا حرج والأمر في هذا واسع .

ومن فوائد الحديث : أنه لا يجوز المسح على الخفين أو الجوربين إلا إذا كان لبسهما على طهارة ، فإن لبسهما على غير طهارة وجب عليه أن يخلعهما عند الوضوء ويغسل قدميه ، ومنه فوائد أخرى .

* * *



١١٨ - بَابُ استِحبابِ القَميص

٧٨٩ - عَن أُمِّ سَلمةَ ﵂ قالت : كان أَحَبَّ الثِّيابِ إلى رسول اللَّه ﷺ القَميصُ [١] . رواه أبو داود ، والترمذي وقال : حديث حسن .

* * *

١١٩ - بابُ صفة طول القميص والكمّ والإزار وطرف العمامة وتحريم إسبال شيء من ذلك على سبيل الخيلاء وكراهته من غير خيلاء

٧٩٠ - عن أسماءَ بنتِ يزيدَ الأنصاريَّةِ ﵂ قالت : كان كُمُّ قَمِيصِ رسول اللَّه ﷺ إلى الرُّسْغِ [٢] ، رواه أبو داود ، والترمذي وقال : حديث حسن .

٧٩١ - وعن ابن عمر ﵄ أنّ النبي ﷺ قال : « مَنْ جَرَّ ثَوبَهُ خُيلاءَ لَمْ يَنْظُرِ اللَّهُ إليهِ يَومَ القِيامَةِ » فقال أبو بكر : يا رسول اللَّه إنَّ إزاري يَسْتَرْخي [٣] إلا أنْ أتَعاهَدَهُ [٤] ، فقال له رسول اللَّه ﷺ : « إنَّكَ لَسْتَ مِمَّنْ يَفعَلُهُ خُيَلاء » [٥] . رواه البخاري ، وروى مسلم بعضه .

٧٩٢ - وعن أبي هريرة ﵁ أن رسول اللَّه ﷺ قال : « لا يَنْظُرُ اللَّهُ يَومَ القِيامَةِ إلى مَنْ جَرَّ إزَارَه بَطَرًا » [٦] متفقٌ عليه [٧] .

٧٩٣ - وعنه عن النبي ﷺ قال : « مَا أسْفَلَ مِنَ الكَعْبَينِ مِنَ الإزارِ فَفِي النَّارِ » [٨] رواه البخاري .

---

(١) أخرجه أبو داود في اللباس (٤٠٢٥) ، والترمذي في اللباس (١٧٦٢) .
(٢) أخرجه أبو داود في اللباس (٤٠٢٧) ، والترمذي في اللباس (١٧٦٥) .
(٣) أي لنحافة بدنه . (٤) أي بالشد والرفع .
(٥) أخرجه البخاري في اللباس (٥٧٨٤) ، ومسلم في اللباس (٤٢) ، والترمذي في اللباس (١٧٣٠) .
(٦) البطر كفر النعمة وعدم شكرها ، والمراد لازم ذلك ، أي عجبًا وخيلاء ، فما قبله مفسر له .
(٧) أخرجه البخاري في اللباس (٥٧٨٨) ، ومسلم في اللباس (٤٨) .
(٨) أخرجه البخاري في اللباس (٥٧٨٧) ، وأحمد في سنده (٤٦١/٢ ، ٩/٥) وابن ماجه في اللباس (٣٥٧٣) . والمعنى قيل : أن ما دون الكعب من القدم يعذب عقوبةً ، ويكون ذلك من تسمية الشيء باسم ما جاوره أو حل فيه . =

٧٩٤ - وعن أبي ذرٍّ ﷺ عن النبي ﷺ قال : « ثلاثةٌ لا يُكَلِّمُهُمُ اللَّهُ يَومَ القِيامةِ ، ولا يَنْظُرُ إليهم ، وَلا يُزَكِّيهِمْ ، وَلهمْ عَذَابٌ أَليمٌ » قال : فقرأها رسول اللَّه ﷺ ثلاث مِرار . قال أبو ذرٍّ : خابُوا وَخسِرُوا ! مَنْ هُمْ يا رسول اللَّه ؟ قال : « المُسْبِلُ ، والمَنَّانُ ، وَالمُنَفِقُ سِلْعَتَهُ بِالحلفِ الكاذِبِ » [1] رواه مسلم . وفي روايةٍ له : « المُسْبِلُ إزارَهُ » .

الشرح

هذه الأحاديث التي ذكرها النووي رحمه الله في (كتاب اللباس) فيها أحاديث تدل على أن أحب الثياب إلى رسول اللَّه ﷺ القميص ؛ وذلك أن القميص أستر من الإزار والرداء ، وكانوا في عهد الرسول - عليه الصلاة والسلام - يلبسون الإزار والرداء أحيانًا ، وأحيانًا يلبسون القميص ، وكان النبي - صلى اللَّه عليه وعلى آله وسلم - يحب القميص لأنه أستر ، ولأنه قطعة واحدة يلبسها الإنسان مرة واحدة ، فهي أسهل من أن يلبس الإزار أولًا ثم الرداء ثانيًا .

ولكن مع ذلك لو كنت في بلد يعتادون لباس الأُزُرِ والأردية ولبست مثلهم فلا حرج ، المهم ألا تخالف لباس أهل بلدك فتقع في الشهرة وقد نهى النبي ﷺ عن لباس الشهرة .

وفي هذه الأحاديث أيضًا دليل على أن كم القميص يكون إلى الرسغ ، والرسغ هو الوسط بين الكوع والكرسوع ، لأن الإنسان له مرفق وهو المفصل الذي بين العضد والذراع ، وله كوع وكرسوع ورسغ ، فالكوع : هو طرف الذراع مما يلي الكف من جهة الإبهام . والكرسوع : طرف عظم الذراع مما يلي الكف من جهة الخنصر ، وأما الرسغ فهو ما بينهما ، وعلى هذا قول الناظم :

وعظمٌ يلي الإبهام كوعٌ وما يلي ... الخنصر الكرسوع والرسغ ما وسط

وعظم يلي إبهام رجلٍ ملقبٌ ببوع ... فخذ بالعلم واحذر من الغلط

والعوام إذا أرادوا ضرب المثل بالإنسان الأبله ، قالوا : هذا رجل لا يعرف كوعه من كرسوعه .

وأكثر الناس يظنون أن الكوع : هو المرفق الذي إليه منتهى الوضوء ؛ ولكن ليس كذلك ، فما عند مفصل الكف من الذراع ؛ مما يلي الخنصر هو الكرسوع ، وما يلي الإبهام فهو الكوع ، وما بينهما فهو الرسغ . والنبي - عليه الصلاة والسلام - كان قميصه إلى الرسغ .

ثم ذكر المؤلف حديث ابن عمر ، وحديث أبي هريرة رضي الله عنهما في إسبال الثياب يقع على وجهين .

= ويحتمل أن يكون المراد الشخص نفسه فيكون التقدير : لابس أسفل ما سفل من الكعبين . أو يكون التقدير : فعل ذلك محسوب في أفعال أهل النار . وكل ذلك مستفاد من استحالة الإزار في النار حقيقة .

وقد يحمل الحديث على ظاهره من باب قوله تعالى : ﴿ إِنَّكُمْ وَمَا تَعْبُدُونَ مِن دُونِ اللَّهِ حَصَبُ جَهَنَّمَ ﴾ ويكون في الوعيد إشارة إلى أن من يتعاطى المعصية أحق بذلك العذاب .

(١) أخرجه مسلم في الإيمان (١٧١) .

الوجه الأول : أن يجر الثوب خيلاء .

والوجه الثاني : أن يترك الثوب أسفل من الكعبين من غير خيلاء .

أما الوجه الأول : وهو الذي يجر ثوبه خيلاء ، فإن النبي ﷺ ذكر له أربع عقوبات والعياذ بالله : لا يكلمه الله يوم القيامة ، ولا ينظر إليه - يعني : نظر رحمة - ولا يزكيه ، وله عذاب أليم . أربع عقوبات يعاقب بها المرء إذا جر ثوبه خيلاء .

ولما سمع أبو بكر بهذا الحديث قال : يا رسول الله إن أحد شقي إزاري يسترخي عليّ إلا أن أتعاهده ، يعني - فهل يشملني هذا الوعيد ؟ فقال ﷺ : « إنك لست ممن يصنع هذا خيلاء » فزكاه النبي - عليه الصلاة والسلام - بأنه لا يصنع هذا خيلاء ، وإنما العقوبة على من فعله خيلاء .

أما من لم يفعله خيلاء : فعقوبته أهون ففي حديث أبي هريرة ﷺ أن النبي - صلى الله عليه وعلى آله وسلم - قال : « ما أسفل من الكعبين من الإزار ففي النار » ، ولم يذكر إلا عقوبة واحدة ، ثم هذه العقوبة أيضًا لا تعم البدن كله ، إنما تختص بما فيه المخالفة ؛ وهو ما نزل من الكعب ، فإذا نزل ثوب الإنسان أو « مشلحه » أو سرواله إلى أسفل من الكعب ، فإنه يعاقب على هذا النازل بالنار ، ولا يشمل النار كلّ الجسد ، إنما يكوى بالنار - والعياذ بالله - بقدر ما نزل .

ولا تستغرب أن يكون العذاب على بعض البدن الذي حصلت فيه المخالفة ، فإنه ثبت في الصحيحين أن النبي ﷺ رأى أصحابه توضؤوا ولم يسبغوا الوضوء ، فنادى بأعلى صوته « ويل للأعقاب من النار »(١) فهنا جعل العقوبة على الأعقاب ، يعني العراقيب التي لم يسبغوا وضوءها ، فالعقاب بالنار يكون عامًّا ؛ كأن يُحرق الإنسان كله بالنار والعياذ بالله ، ويكون في بعض البدن الذي حصلت فيه المخالفة ، ولا غرابة في ذلك .

وبهذا نعرف ضعف قول النووي رحمه الله : بتحريم الإسبال خيلاء وكراهيته لغير الخيلاء (٢) ، والصحيح أنه حرام سواء كان لخيلاء أم لغير خيلاء ، بل الصحيح أنه من كبائر الذنوب ، لأن كبائر الذنوب : كل ذنب جعل الله عليه عقوبة خاصة به وهذا عليه عقوبة خاصة ؛ ففيه الوعيد بالنار إذا كان لغير الخيلاء ، وفيه وعيد بالعقوبات الأربع إذا كان خيلاء ، لا يكلمه الله يوم القيامة ، ولا ينظر إليه ، ولا يزكيه ، وله عذاب أليم .

وختم المؤلف بحديث أبي ذر أن النبي - صلى الله عليه وعلى آله وسلم - قال : « ثلاثة لا يكلمهم الله يوم القيامة ولا ينظر إليهم ، ولا يزكيهم ، ولهم عذاب أليم » قرأها ثلاث مرات وإنما فعل النبي - عليه الصلاة والسلام - هذا من أجل أن ينتبه الإنسان ، لأن اللفظ إذا جاء مجملًا - ولا سيما مع التكرار - ينتبه له الإنسان ، حتى إذا جاءه التفصيل والبيان ورد على نفس متشوفة تطلب البيان .

---

(١) أخرجه البخاري في الوضوء (١٦٣) ، ومسلم في الطهارة (٢٤٠) .

(٢) انظر صحيح مسلم بشرح النووي (٦٢/١٤) .

فقال أبو ذر : يا رسول الله خابوا وخسروا مَنْ هؤلاء ؟ قال : « المسبل ، والمنان ، والمنفِّق سلعته بالحلف الكاذب » .

الأول المسبل : يعني الذي يجر ثوبه خيلاء .

والثاني المنان : الذي يمن بما أعطى ، إذا أحسن إلى أحد بشيء جعل يمن عليه : فعلت بك كذا وفعلت بك كذا .

والمَنُّ من كبائر الذنوب ، لأن عليه هذا الوعيد ، وهو مبطل للأجر لقوله تعالى : ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تُبْطِلُواْ صَدَقَٰتِكُم بِٱلْمَنِّ وَٱلْأَذَىٰ ﴾ [البقرة: ٢٦٤] .

والثالث المنفق سلعته بالحلف الكاذب : يعني الذي يحلف وهو كاذب ليزيد ثمن السلعة ، فيقول : والله لقد اشتريتها بعشرة ، وهو لم يشترها إلا بثمانية ، أو يقول : أعطيت فيها عشرة ، وهو لم يعط فيها إلا ثمانية ، فيحلف على هذا ، فهذا ممن يستحق هذه العقوبات الأربع ؛ لا يكلمه الله يوم القيامة ، ولا ينظر إليه ، ولا يزكيه ، وله عذاب أليم . نسأل الله العافية .

* * *

٧٩٥ - وعن ابن عمر رضي الله عنهما عن النبي ﷺ قال : « الإسبَالُ في الإزارِ ، وَالقَمِيص ، وَالعمَامَةِ ، مَنْ جَرَّ شَيئًا خُيَلاءَ لَم يَنظُرِ اللَّه إلَيهِ يَومَ القِيَامَةِ » [1] رواه أبو داود ، والنسائي بإسنادٍ صحيح .

٧٩٦ - وعن أبي جُرَيٍّ جَابِرِ بن سُلَيم رضي الله عنه قال : رَأَيتُ رَجلًا يصْدُرُ النَّاسُ عَنْ رَأْيِهِ [2] ، لا يَقُولُ شَيئًا إلا صَدَرُوا عنه ، قلتُ : من هذا ؟ قالوا : رسول اللَّه ﷺ . قلتُ : عَليكَ السَّلامُ يا رسولَ اللَّه - مَرَّتَينِ - قال : « لا تَقُل عَلَيكَ السَّلامُ ، عَلَيكَ السَّلامُ تَحِيَّةُ المَوتَى - قُلِ : السَّلامُ عَلَيكَ » قال : قلتُ : أنتَ رسول اللَّه ﷺ ؟ قال : « أَنَا رسول اللَّه الذي [3] إذا أَصَابَكَ ضُرٌّ فَدَعوتَهُ كَشَفَهُ عَنْكَ ، وَإذا أَصَابَكَ عَامُ سَنَة [4] فَدَعَوتَهُ أَنبَتَها لكَ ، وإذا كُنتَ بِأَرضٍ قَفْرٍ [5] أو فَلاةٍ [6] ، فَضَلَّت رَاحِلتُكَ ، فَدَعَوتَه رَدَّهَا عَلَيكَ » قال : قلتُ : اعْهَدْ إليَّ [7] . قال : « لا تَسُبَّنَّ أَحَدًا » قال : فَمَا سَبَبْتُ بَعْدَهُ

---

(١) أخرجه أبو داود في اللباس (٤٠٩٤) والنسائي في سننه (٢٠٨/٨) وابن ماجه في اللباس (٣٥٧٦) والطبراني في الكبير (٣١١/١٢) وهذا الحديث لم يقم الشارح رحمه الله بشرحه . قوله « والعمامة » إسبال العمامة يكون بإطالة عَذَبَتها أي طرفها .

(٢) أي يرجعون إلى ما يظهر من صدره من الرأي الذي يرشدهم إليه .

(٣) صفة لله عز وجل .

(٤) أي عام شدة ومجاعة . وقال المنذري : السنة هي العام المقحط الذي لم تنبت الأرض شيئًا سواء نزل عليها الغيث أم لا .

(٥) القفر : الأرض الخالية من الأنيس التي لا ماء بها ولا ناس .

(٦) الفلاة : الأرض التي لا ماء فيها ، والجمع فلًا ، وفلوات .

(٧) أي أوصني .

حُرًّا ، وَلا عَبدًا ، وَلا بَعِيرًا ، وَلا شَاةً « وَلا تَحقِرَنَّ مِنَ المَعرُوفِ شَيئًا [١] ، وأَنْ تُكلِّمَ أخاكَ وأَنْتَ مُنبَسِطٌ إليهِ وجهُكَ ، إنَّ ذلكَ مِنَ المَعرُوفِ . وارفَعْ إزَارَكَ إلى نَصْفِ السَّاقِ ، فَإن أَبَيتَ فَإلى الكَعْبين ، وإيَّاكَ وإسبالَ الإزارِ ؛ فَإنَّها مِن المَخِيلةِ [٢] ، وإنَّ اللَّه لا يحبُّ المَخِيلَةَ ، وإن امرؤٌ شَتَمَكَ وعَيَّرَكَ بما يَعْلَمُ فيكَ فلا تُعَيِّرهُ بما تَعلَم فيهِ ، فإنَّمَا وبَالُ [٣] ذلكَ عليهِ » [٤] رواه أبو داود والترمذي بإسنادٍ صحيحٍ ، وقال الترمذي : حديث حسن صحيح .

الشرح

ذكر المؤلف رحمه الله في (كتاب اللباس) ، عن جابر بن سُليم رضي الله عنه أنه قدم المدينة فرأى رجلًا يصدر الناس عن رأيه لا يقول شيئًا إلا صدورًا عنه ؛ يعني أنهم يأخذون بما يقول وبما يوجه ، لأنه رسول الله - صلى الله عليه وعلى آله وسلم - ، فسأل من هذا ؟ لأنه رجل لا يعرف النبي ﷺ قالوا : رسول الله ، فجاء إليه فقال : أنت رسول الله ؟ قال : نعم .

ولكنه قال : عليك السلام ؛ فقدم الخبر فقال النبي - صلى الله عليه وعلى آله وسلم - : « لا تقل : عليك السلام ؛ عليك السلام تحية الموتى ، ولكن قل : السلام عليك » ومعنى قوله - عليه الصلاة والسلام - : « عليك السلام تحية الموتى » ، يعني : أنهم كانوا في الجاهلية يسلمون على الأموات هكذا ، كما قال الشاعر :

عليك سلام الله قيس بن عامر ورحمته ما شاء أن يترحم

فكانوا في الجاهلية إذا سلموا على الأموات يقولون : عليك السلام ، لكنّ الإسلام نسخ هذا وصار السلام يقال لمن ابتُدئ به ، السلام عليك ، حتى الموتى كان النبي - صلى الله عليه وعلى آله وسلم - يخرج إليهم إلى المقبرة يسلم عليهم فيقول : السلام عليكم دار قوم مؤمنين ، ولا يقول : عليكم السلام .

وفي قوله - عليه الصلاة والسلام - : « قل السلام عليك » دليل على أن الإنسان إذا سلم على الواحد يقول : السلام عليك ، وهكذا جاء أيضًا في حديث الرجل الذي يسمى المسيء في صلاته ، أنه جاء فسلم على النبي ﷺ فقال : السلام عليك [٥] ؛ بالإفراد ، وهذا هو الأفضل .

وقال بعض العلماء : تقول : السلام عليكم ، تريد بذلك أن تسلم على الإنسان الذي سلمت عليه ومن معه من الملائكة ، ولكن الذي وردت به السنة أولى وأحسن ؛ أن تقول : السلام عليك ، إلا إذا كانوا جماعة فإنك تسلم عليهم بلفظ السلام عليكم .

ثم إن النبي ﷺ بيّنَ له أنه رسول رب العالمين الذي يكشف الضر ويجلب النفع ، فإذا ضاعت البعير في فلاة من الأرض فدعوت الله ﷻ ردها عليك ، يقول : « وإذا أصابك سنةٌ » يعني : جدبًا

(١) أي لا تتركه احتقارًا له واستهانة لقدره . (٢) أي النفوس ذوات الخيلاء .

(٣) أي ثقل .

(٤) أخرجه أبو داود في اللباس (٤٠٨٤) ، والترمذي في الاستئذان (٢٧٢٢) .

(٥) سبق تخريجه .

في الأرض وعدم نبات ، « فدعوت اللَّه كشفه عنك » أنبت الأرض لك ، وكذلك إذا أصابك الضر فدعوت اللَّه كشفه عنك ، كما قال تعالى : ﴿ أَمَّن يُجِيبُ ٱلْمُضْطَرَّ إِذَا دَعَاهُ وَيَكْشِفُ ٱلسُّوٓءَ وَيَجْعَلُكُمْ خُلَفَآءَ ٱلْأَرْضِ أَءِلَٰهٌ مَّعَ ٱللَّهِ ﴾ [النمل : ٦٢] .

فبين له أنه - أي الرب عز وجل - يجلب لعباده الخير ، وأنه إذا دعاه عبده لم يخب ، وهكذا كل دعاء تدعو به ربك فإنك لا تخيب ، لو لم يأتك من هذا إلا أن الدعاء عبادة تؤجر عليه ؛ الحسنة بعشر أمثالها إلى سبعمائة ضعف إلى أضعاف كثيرة لكفى .

وإذا لم يكن هناك موانع تمنع إجابة الدعاء ، فإن اللَّه تعالى إما أن يعطيك ما سألت وتراه رأي العين ؛ تدعو اللَّه بالشيء فيحصل ، وإما أن يكشف عنك من الضر ما هو أعظم ، وإما أن يدخر ذلك لك عنده ، وإلا فلن يخيب من دعا اللَّه عز وجل أبدًا .

ولكن إياك أن تستبطئ الإجابة فتقول : دعوت ودعوت فلم يستجب لي [١] ؛ فإن الشيطان قد يلقي في قلبك هذا ويقول : كم دعوت اللَّه من مرة وما جاءك مطلوب ؟ ثم يقنطك من رحمة اللَّه والعياذ باللَّه ، وهذه من كبائر الذنوب ؛ القنوط من رحمة اللَّه من كبائر الذنوب .

ولا تقنط من رحمة اللَّه ولو تأخرت إجابة الدعاء ، فأنت لا تدري ما هو الخير ؟ ما أمرك اللَّه تعالى بالدعاء إلا وهو يريد أن يستجيب لك ، كما قال تعالى : ﴿ وَقَالَ رَبُّكُمُ ٱدْعُونِىٓ أَسْتَجِبْ لَكُمْ ﴾ [غافر : ٦٠] ، لكنك تستعجل ، انتظر وألح على اللَّه بالدعاء ، فربما أن اللَّه عز وجل يؤخر إجابتك لأجل أن تكثر من الدعاء فتزداد حسناتك ، وتعرف قدر نفسك ، وتعرف قدر حاجتك إلى اللَّه عز وجل ، فهذا خير .

فإياك أن تستعجل ، وألحَّ على اللَّه في الدعاء ، واللَّه جل وعلا يحبّ الملحين في الدعاء المبالغين فيه ، لأن الإنسان يدعو من إليه المنتهى عز وجل ، من بيده ملكوت كل شيء .

وسواء كان ذلك في صلاتك أو في خلواتك ، ادع اللَّه بما شئت حتى وأنت تصلي ، ادع اللَّه بما شئت لأن النبي ﷺ قال : « أما السجود فأكثروا فيه من الدعاء » [٢] وقال حين ذكر التشهد « ثم ليتخذ من الدعاء ما شاء » [٣] ، فليس للإنسان أحد سوى اللَّه ، فليلجأ إليه في كل دقيق وجليل ، حتى إنه جاء في الحديث « ليسأل أحدكم ربه حاجته كلها ، حتى يسأل شسع نعله إذا انقطع » [٤] ، شراك النعل أدنى شيء يُسأله اللَّه عز وجل ، لأن السؤال عبادة والتجاء إلى اللَّه عز وجل وإنابة إليه وارتباط به جل وعلا ، يكون قلبك دائمًا مع اللَّه جل وعلا ، فأكثِرْ من الدعاء .

ثم إن النبي - صلى اللَّه عليه وعلى آله وسلم - أمر جابر بن سليم ألا يحقرن من المعروف شيئًا ،

---

(١) انظر حديث رسول اللَّه ﷺ في ذلك في صحيح مسلم في الذكر والدعاء (٩٠ ، ٩١ ، ٩٢) ، ومسند أحمد (٣٩٦/٢) .

(٢) انظر صحيح مسلم في الصلاة (٢٠٧) .

(٣) أخرجه البخارى في الأذان (٨٣٥) ، ومسلم في الصلاة (٥٨) .

(٤) أخرجه الترمذي في الدعوات (١١٧) .

كل معروف فعله سواءٌ كان قولًا أو فعلًا أو جاهًا أو أي شيء لا تحقر شيئًا من المعروف ، فإن المعروف من الإحسان ، والله ﷻ يحب المحسنين .

فلو ساعدت إنسانًا على تحميل متاعه في السيارة فهذا معروف ، لوأدنيت له شيئًا يحتاج إليه فهذا من المعروف ، لو أعطيته القلم يكتب به فهذا من المعروف ، لو أعطيته حافظة من أجل أن يحفظ بها شيئًا من الأشياء ، فهذا من المعروف ، أحسن فإن الله يحب المحسنين .

واعلم أن هناك قاعدة إذا ذكرها الإنسان سَهُل عليه الإحسان ، وهي ما ثبت عن النبي - عليه الصلاة والسلام - من قوله : « ومن كان في حاجة أخيه كان الله في حاجته »[1] ، وما ظنك إذا كان الله في حاجتك ؟ هل تتعثر الأمور ؟ الجواب : لا ، إذا كان الله في حاجتك يساعدك على حاجتك ويعينك عليها ، فلا شك أنها سوف تسهل ، فأنت كلما كنت في حاجة أخيك كان الله في حاجتك ، فأَكْثِرْ من المعروف ، أكثر من الإحسان ، ولا تحقرن شيئًا ولو كان قليلًا ، قال النبي ﷺ : «لا تحقرن جارة لجارتها ولو فرسن شاة »[2] ، أي لا تحقر ولو هذا الشيء القليل .

ثم قال النبي ﷺ لجابر بن سليم : « وأن تكلم أخاك وأنت منبسط إليه وجهك إن ذلك من المعروف » . لما قال : « لا تحقرن من المعروف شيئًا » بَيَّنَ أن من المعروف أن تلقى أخاك بوجه طلق لا معبس ولا مكفهر ، بل يكون منبسطًا وذلك لأن هذا يدخل السرور على أخيك ، وكل ما أدخل السرور على أخيك فإنه معروف وإحسان ، والله يحب المحسنين ، وهذا لا شك أنه خير ، إلا أنه في بعض الأحيان قد يكون المرء الذي يخاطبك من المصلحة ألا تلقاه بوجه منبسط ؛ كأن يكون قد فعل شيئًا لا يحمد عليه ، فلا تلقه بوجه منبسط تعزيرًا له ، لأجل أن يرتدع ويتأدب ، ولكل مقام مقال .

ثم إن النبي ﷺ أمره أن يرفع إزاره إلى نصف الساق ، فإن أبى فإلى الكعبين وهذا يدل على أن رفع الإزار إلى نصف الساق أفضل ، ولكن لا حرج أن ينزل إلى الكعبين وذلك لأن هذا من باب الرخصة ، وليس بلازم أن يرفع الإنسان إزاره إلى نصف الساق أو يرى أن ذلك حتم عليه ، وأن الذي لا يرفع قد خالف السنة ، لأن الرسول ﷺ قال : « فإن أبيت فإلى الكعبين » فإن أبيت فعليك كذا وكذا من الوعيد فدل ذلك على أن الأمر في هذا واسع .

وقد مرَّ علينا أن أبا بكر الصديق رضي الله عنه قال للنبي ﷺ : « إن أحد شقي إزاري يسترخي عليّ إلا أن أتعاهده »[3] .

وقلنا إن هذا يدل على أن إزار أبي بكر رضي الله عنه كان نازلًا عن نصف الساق ، وأن هذا لابأس به ، فلا ينبغي للإنسان أن يشدد على نفسه أو على الناس ، بحيث يرى أنه لزام عليه أن يجعل سرواله أو ثوبه أو «مشلحه » إلى نصف الساق ، فالأمر في هذا واسع ، هو سنة ولكن مع ذلك الأمر فيه واسع ولله الحمد بترخيص النبي ﷺ .

---

(١) أخرجه البخاري في الإكراه (٦٩٥١) ، ومسلم في البر والصلة (٥٨) .

(٢) أخرجه البخاري في الآدب (٦٠١٧) ومسلم في الزكاة (١٠٣٠) .

(٣) سبق تخريجه .

ثم حذر النبي ﷺ جابر بن سليم من المخيلة ، يعني أن يختال في مشيته أو ثوبه أو عمامته أو (مشلحه) أو كلامه أو أي شيء يفعله خيلاء ، فإن الله لا يحب ذلك ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ كُلَّ مُخْتَالٍ فَخُورٍ ﴾ [لقمان : ١٨] ، فالإنسان ينبغي له أن يكون متواضعًا دائمًا في لباسه ومشيته وهيئته وكل أحواله ، لأن من تواضع لله رفعه الله .

فهذه الآداب التي علمها النبي - صلى الله عليه وعلى آله وسلم - أمته ، ينبغي للإنسان أن يتأدب بها ، لأنه يحصل على أمرين :

أولًا : امتثال أمر النبي ﷺ وقد قال الله تعالى : ﴿ وَمَن يُطِعِ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ يُدْخِلْهُ جَنَّٰتٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ ﴾ [النساء : ١٣] .

ثانيًا : التحلي بحسن الخلق من خلال التأدب بهذه الآداب الراقية التي لا يستطيع أحد من البشر أن يوجه الناس إلى آداب مثلها أبدًا ، لأن الآداب التي جاء بها الشرع هي خير الآداب .

ثم إن النبي - صلى الله عليه وعلى آله وسلم - قال : « وإن امرؤٌ شتمك وعيرك بما يعلم فيك فلا تعيره بما تعلم ، فإنما وبال ذلك عليه » وذلك أن الإنسان ينبغي له أن يعفو ويصفح ولا يجعل كل كلمة يسمعها مقياسًا له في الحكم على الناس ، تغاضَ عن الشيء واعف واصفح ، فإن الله تعالى يحب العافين عن الناس ويثيبهم على ذلك ، وأنت إذا عيرته أو سببته بما تعلم فيه طال النزاع ، وربما حصل بذلك العداوة والبغضاء فإذا كففت وسكت هدأت الأمور .

وهذا شيء مجرب ؛ أن الإنسان إذا سابَّ أحدًا قد سبه طال السباب بينهما وحصل تفرق وتباغض ، وإذا سكت فإنه قد يكون أنفع ، كما قال الله تبارك وتعالى في وصف عباد الرحمن : ﴿ وَإِذَا خَاطَبَهُمُ ٱلْجَٰهِلُونَ قَالُوا۟ سَلَٰمًا ﴾ [الفرقان : ٦٣] ، يعني : قالوا قولًا يسلمون به ، إما أن يقولوا مثلًا : جزاك الله خيرًا ، أعرض عن هذا ، اترك الكلام وما أشبه ذلك .

وقال ﷻ : ﴿ خُذِ ٱلْعَفْوَ وَأْمُرْ بِٱلْعُرْفِ وَأَعْرِضْ عَنِ ٱلْجَٰهِلِينَ ﴾ [الأعراف : ١٩٩] ، ﴿ خُذِ ٱلْعَفْوَ ﴾ يعني ما عفى وسهل من أخلاق الناس ، ولا تُرد من الناس أن يكونوا على أكمل حال بالنسبة لك ، الناس ليسوا على هواك ، لكن خذ منهم ما عفى وما سهل ، وما صعب فلا تطلبه ، ولهذا قال تعالى : ﴿ وَأْمُرْ بِٱلْعُرْفِ وَأَعْرِضْ عَنِ ٱلْجَٰهِلِينَ ﴾ الجاهل إذا سابك أو شتمك أو ما أشبه ذلك ، فأعرض عنه ، فإن هذا هو الخير وهو المصلحة والمنفعة .

* * *

٧٩٧ - وعن أبي هريرة ﷺ قال : بينما رجل يُصَلِّي مُسبلٌ إزَارَه ، قال له رسول الله ﷺ : « اذهَب فَتوضَّأْ » فَذَهَبَ فَتوضَّأَ ، ثم جاءَ ، فقال : « اذهَبْ فَتوضَّأْ » فقال له رجُلٌ : يا رسول الله ، مالكَ أَمَرْتَهُ أَن يَتَوضَّأَ ثم سَكَتَّ عنه ؟ قال : « إنه كانَ يُصَلِّي وهو مُسبلٌ إزارَهُ ، وإن اللهَ لا يَقْبَلُ صَلاةَ رَجُلٍ مُسبلٍ » (١) . رواه أبو داود بإسنادٍ صحيحٍ على شرط مسلم .

---

(١) أخرجه أبو داود في الصلاة (٦٣٨) .

الشرح

في الأحاديث السابقة بَيَّنَ النبي ﷺ أن من جر ثوبه خيلاء لا ينظر الله إليه ، ولا يكلمه يوم القيامة ، ولا يزكيه ، وله عذاب أليم ، وأن ما أسفل من الكعبين ففي النار ، وبينا أن هذا من كبائر الذنوب ، وأنه لا يحل للإنسان أن يلبس ثوبًا نازلًا عن الكعب ، وأما ما كان على حذاء الكعب يعني على وزن الكعب فلا بأس به ، وكذلك ما ارتفع إلى نصف الساق ، فما بين نصف الساق إلى الكعب كله من الألبسة المرخص فيها .

والإنسان في حل وفي سعة إذا لبس إزارًا أو سروالًا أو قميصًا أو « مشْلحًا » يكون فيما بين ذلك ، وأما ما نزل عن الكعب فحرام بكل حال ، بل هو من كبائر الذنوب .

ثم اختلف العلماء - رحمهم الله - فيما لو صلى الإنسان وهو مسبل ، يعني قد نزل ثوبه أو سرواله أو إزاره أو (مشلحه) الذي يستر ولا يشف ، اختلف في هذا أهل العلم ، هل تصح صلاته أو لا تصح ؟

فمن العلماء من قال : إنها لا تصح صلاته ؛ لأنه لبس ثوبًا محرمًا ، والله ﷻ إنما أباح لنا أن نلبس ما أحل لنا ، فإن قوله : ﴿ يَٰبَنِيٓ ءَادَمَ خُذُواْ زِينَتَكُمۡ عِندَ كُلِّ مَسۡجِدٖ ﴾ [الأعراف : ٣١] يعني ثيابكم ، يريد بها ما أباح لنا وما أحله لنا ، وأما ما حرمه علينا فلسنا مأمورين به ، بل نحن منهيون عنه .

واستدل الذين يقولون : إن الله لا يقبل صلاته إذا أسبل ، بهذا الحديث الذي ذكره المؤلف عن أبي هريرة ؛ أن النبي ﷺ رأى رجلًا مسبلًا فقال له النبي ﷺ : « اذهب فتوضأ » ، فذهب فتوضأ ، ثم رجع فقال : « اذهب فتوضأ » ، ثم سأل النبي ﷺ رجلٌ فقال : يار رسول الله مالك أمرته أن يتوضأ ؟ قال : « إنه كان يصلي وهو مسبل إزاره ، وإن الله لا يقبل صلاة مسبل » . وهذا نص صريح في أن الله لا يقبل صلاة المسبل ؛ يعني فتكون صلاته فاسدةً ، ويُلزم بإعادتها .

والمؤلف يقول رواه أبو داود بإسناد صحيح على شرط مسلم ولكن هذا فيه نظر ، فإن الحديث ضعيف لا يصح عن النبي - صلى الله عليه وعلى آله وسلم - .

والصحيح من أقوال العلماء : أن صلاة المسبل صحيحة ، ولكنه آثم ، ومثل ذلك أيضًا من لبس محرمًا عليه ؛ كثوب سرقه الإنسان فصلى به ، أو ثوب فيه تصاوير ؛ فيه صليب مثلًا ، أو فيه صور حيوان ، فكل هذا يحرم لبسه في الصلاة ، وفي خارج الصلاة ، فإذا صلى الإنسان في مثل هذا فالصلاة صحيحة ، لكنه آثم بلبسه .

هذا هو القول الراجح في هذه المسألة ؛ لأن النهي هنا ليس نهيًا خاصًّا بالصلاة ، فلبس الثوب المحرم عام في الصلاة وغيرها ، فلا يختص بها فلا يبطلها ، هذه هي القاعدة التي أخذ بها جمهور العلماء رحمهم الله ، وهي القاعدة الصحيحة .

وهذا الحديث لو صح لكان فاصلًا للنزاع ، لكنه ضعيف ، فمن ضعفه قال : صلاة المسبل

صحيحة ومن صححه قال : صلاة المسبل غير صحيحة ، وعلى كل حال فإن الإنسان يجب عليه أن يتقي الله ﷻ وألا يتخذ من نعمته وسيلة لغضبه - والعياذ بالله - فإن من بارز الله بالعصيان وقيل له : إن الثوب النازل عن الكعب حرام ومن كبائر الذنوب ولكنه لم يبال بهذا ، فهذا استعان بنعمة الله على معصية الله نسأل الله العافية .

* * *

٧٩٨ - وعن قَيسِ بن بشرِ التَّغْلِبيِّ قال : أَخبَرَني أبي - وكان جَلِيسًا لأبي الدَّرداءِ - قال : كان بِدِمشقَ رَجُلٌ من أَصحَاب النبي ﷺ يقال له سهل بن الحَنْظَلِيَّة ، وكان رجُلًا مُتَوَحِّدًا [(١)] قَلَّمَا يُجَالِسُ النَّاسَ ، إنَّمَا هو صَلاةٌ [(٢)] ، فَإذا فَرَغَ فَإنَّمَا هو تسبيحٌ وتَكبيرٌ حتى يَأْتي أَهْلَهُ ، فَمَرَّ بِنَا وَنَحنُ عند أبي الدَّرداءِ ، فقال له أبو الدَّرداءِ : كَلِمةً تَنْفعُنَا ولا تَضُرُّكَ . قال : بَعَثَ رسول الله ﷺ سَرِيةً فقَدِمَتْ ، فَجَاءَ رَجُلٌ مِنهم فَجَلسَ في المَجْلِسِ الذي يَجلِسُ فِيهِ رسول الله ﷺ ، فقال لرجُلٍ إلى جَنْبه : لَو رَأيتَنا حِينَ التَقَينا نحنُ وَالعَدوُّ ، فَحَمَلَ [(٣)] فُلانٌ وَطَعَنَ ، فقال : خُذْهَا مِنِّي ، وَأَنَا الغُلامُ الغِفَارِيُّ ، كَيفَ تَرَى في قولِهِ ؟ قال : مَا أَرَاهُ إلا قَدْ بَطَلَ أَجرُهُ ، فَسَمِعَ بِذلكَ آخرُ فقال : مَا أَرَى بِذلكَ بَأْسًا ، فَتَنَازَعَا حتى سَمِعَ رسول الله ﷺ فقال : « سُبْحَانَ اللَّه ؟ لا بَأْسَ أَنْ يُؤْجَرَ ويُحْمَدَ » فَرَأَيتُ أَبَا الدَّرْدَاءِ سُرَّ بِذلكَ ، وَجَعَلَ يَرْفعُ رَأْسَه إليهِ وَيَقولُ : أَنْتَ سَمِعْتَ ذلكَ مِنْ رسول الله ﷺ !؟ فيقول : نَعَمْ . فما زَالَ يعِيدُ عَلَيهِ حتى إنِّي لأقولُ لَيَبْرُكَنَّ على ركبتَيهِ .

قال : فَمَرَّ بِنَا يَومًا آخرَ ، فقال له أبو الدَّرْدَاءِ : كَلِمَةً تَنْفعُنَا وَلا تَضُرُّكَ ، قال : قال لَنا رسول الله ﷺ : « المُنْفِقُ عَلى الخَيلِ كالبَاسِطِ يَدَهُ بالصَّدَقة لا يَقْبِضُها » .

ثم مَرَّ بنا يَومًا آخرَ ، فقال له أبو الدَّرْدَاءِ : كَلِمَةً تَنْفعنا وَلا تَضُرُّكَ ، قال : قال رسول الله ﷺ : « نِعْمَ الرَّجُلُ خرَيمٌ الأَسَدِيُّ ! لَولا طُولُ جُمَّتِهِ وَإسْبَالُ إزَارِهِ ! » فَبَلَغَ خُرَيمًا ، فَعَجَّلَ ، فَأَخَذَ شَفرةً فَقَطَعَ بها جُمَّتَهُ [(٤)] إلى أُذنيه ، وَرَفَعَ إزَارَهُ إلى أَنْصَافِ سَاقَيهِ .

ثمَّ مَرَّ بنَا يَومًا آخرَ فَقالَ لَهُ أَبُو الدَّرْدَاءِ : كَلِمَةً تَنْفعُنا وَلا تَضُرُّكَ ، قَالَ : سَمِعْتُ رسول الله ﷺ يَقُولُ : « إنَّكُمْ قَادِمُونَ على إخْوانِكُم ، فَأَصْلِحُوا رحَالَكُم [(٥)] ، وأَصْلِحُوا لِبَاسَكُمْ حتى تَكُونُوا كَأَنَّكُمْ

---

(١) أي يحب التوحد وهو الانفراد عن الناس .
(٢) أي ذو صلاة تشغله .
(٣) أي على شخص من العدو .
(٤) لولا طول جمته : الجمة الشعر إذا اطال حتى بلغ المنكبين وسقط عليها .
(٥) أي ما أنتم راكبون عليه .

شَامَةٌ في النَّاسِ (1) ، فَإِنَّ الله لاَ يُحِبُّ الفُحْشَ (2) وَلا التَّفَحُّشَ » (3) .

رواه أبو داود بِإسنادٍ حسنٍ ، إلا قَيسَ بن بشر ، فاخْتَلَفُوا في تَوْثيقِهِ وتَضْعِيفِهِ ، وقد روى له مسلم .

الشرح

في هذا الحديث الذي ذكره المؤلف في قصة ابن الحنظلية ﷺ عبَر وفوائد ، حيث كان رجلًا يحب التفرد ، ما هو إلا صلاة ثم تسبيح ثم في شأن أهله ، يعني أنه لا يحب أن يذهب عمره سُدًى مع الناس في القيل والقال والكلام الفارغ الذي ليس فيه فائدة ، يصلي ويسبح ويكون في أهله .

فمر ذات يوم بأبي الدرداء ﷺ وهو جالس مع أصحابه ، فقال له أبو الدرداء ﷺ : « كلمة تنفعنا ولا تضرك » يعني أعطنا كلمة أو قل لنا كلمة تنفعنا ولا تضرك ، فذكر ابن الحنظلية أن النبي - صلى الله عليه وعلى آله وسلم - بعث سرية ثم قدمت السرية . والسرية يعني الجيش القليل ، أقل من أربعمائة نفر (4) ، يذهبون يقاتلون الكفار إذا لم يسلموا ، فقدموا إلى النبي - عليه الصلاة والسلام - فجلس أحدهم في المكان الذي يجلس فيه الرسول - عليه الصلاة والسلام - ، وجعل يتحدث عن السرية وما صنعته ، وذكر رجلًا راميًا يرمي ويقول : خذها وأنا الغلام الغفاري ؛ يفتخر . والحرب لا بأس أن الإنسان يفتخر فيها أمام العدو ، ولهذا جاز للإنسان في مقابلة الأعداء ، أن يمشي الخيلاء وأن يتبختر في مشيته ، وأن يضع على عمامته ريش النعام وما أشبه ذلك ، مما يعد مفخرة ، لأن هذا يغيظ الأعداء ، وكل شيء يغيظ الكفار فلك فيه أجر عند الله ، حتى الكلام الذي يغيظ الكافر ويذله هو عِزٌّ لك عند الله ﷻ أجر .

هذا الغلام الغفاري كان يفتخر ويقول : « خذها » يعني خذ الرمية « وأنا الغلام الغفاري » فقال بعض الحاضرين : بَطُلَ أجْرُهُ ، لأنه افتخر ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ كُلَّ مُخْتَالٍ فَخُورٍ ﴾ [لقمان : 18] . وهذا صحيح أن الله لا يحب كل مختال فخور إلا في الحرب ، فقال الآخر : لا بأس في ذلك . فصار بينهم كلام ، فخرج النبي ﷺ وهم يتنازعون فقال : « سبحان الله » يعني تنزيهًا لله ﷻ عن كل عيب ونقص ، لأن الله تعالى كامل الصفات من كل وجه ، ليس في علمه قصور ، ولا في قدرته

---

(1) المراد كونوا في أحسن هيئة وزي حتى تظهروا للناس ظهور الشامة في البدن .

(2) أي لا يحب من تكون هيئته ولباسه وقوله فاحشًا ، ولا المتكلف الفحش الفاعل له .

(3) أخرجه أبو داود في اللباس (4089) . قوله « متوحدًا » أي يحب التوحد وهو الانفراد عن الناس ، قوله « إنما هو صلاة » أي ذو صلاة تشغله ، قوله «سرية » السرية قطعة من الجيش يبعثها الإمام إلى العدو وسميت به ؛ لأنها تكون سراة العسكر أي خلاصته والنفيس منه ، وقيل : لسيرهم ليلًا ، قوله « فحمل » أي على شخص من العدو . قوله « لولا طول جُمته » الشعر إذا طال متى بلغ المنكبين وسقط عليهما . قوله « رحالكم » أي ما أنتم راكبون عليه . قوله « كأنكم شامة في الناس » المراد كونوا في أحسن هيئة وزي حتى تظهروا للناس ظهور الشامة في البدن . قوله « لا يحب الفحش ولا التفحش » أي لا يحب من تكون هيئته ولباسه وقوله فاحشًا ، ولا المتكلف الفحش الفاعل له .

(4) المعجم العربي الأساسي ص : 621 مادة سري .

قصور ، ولا في حكمته قصور ، ولا في عزته قصور ، كل صفاته جل وعلا كاملة من جميع الوجوه . قال : « سبحان الله » ؛ يعني كيف تتنازعون في هذا ؟ « لا بأس أن يُحمد ويؤجر » ، يعني يجمع الله له بين خيري الدين والدنيا ، يُحمد بأنه رجل شجاع رامٍ ، وأنه يؤجر عند الله ﷻ ، فلا بأس في هذا .

وكان عامر بن الأكوع ﵁ لما لحق القوم في عهد الرسول - عليه الصلاة والسلام - كان يقول : خذها وأنا ابن الأكوع واليوم يوم الرضع [١] ؛ فلا بأس أن يفتخر الإنسان في حال الحرب بنفسه وقوته وعشيرته وما أشبه ذلك .

ومر ابن الحنظلية بأبي الدرداء يومًا آخر فقال له أبو الدرداء : « كلمة تنفعنا ولا تضرك » يعني علمنا كلمة تنفعنا ولا تضرك ، فأخبره أن النبي ﷺ قال : « المنفق على الخيل كالباسط يده بالصدقة لا يقبضها » ، لأن الخيل في ذلك الوقت هي المركوب الذي يُركب به في الجهاد في سبيل الله ، والمنفق عليها كالباسط يده بالصدقة لا يقبضها ، فيكون الإنفاق على الخيل من الصدقات ، لأنها تستعمل في الجهاد في سبيل الله .

ثم مر به مرة أخرى فقال : « كلمة تنفعنا ولا تضرك » فأخبره أن النبي - صلى الله عليه وعلى آله وسلم - أثنى على رجل إلا أنه قال : « لولا طول جمته وإسبال إزاره » ، الجمة : الشعر ؛ يعني أنه عنده شيء من الخيلاء .

هذا الرجل قد أطال شعره وأطال ثوبه ، فسمع الرجل بذلك فقص جمته حتى صارت إلى كتفه وقصر ثوبه .

وفي هذا دليل على أن طول الجمة - يعني الشعر للرجال - من المخيلة ، وأن الشعر للرجل لا يتجاوز الكتف أو شحمة الاذن أو ما أشبه ذلك ، لأن الذي يحتاج إلى التجمل بالرأس هي المرأة ، فإن المرأة هي التي تحتاج إلى التجمل ، وفي هذا إشارة إلى أن الرجال لا يجوز لهم أن يتشبهوا بالنساء في الشعر أو في غير الشعر ، لأن النبي ﷺ لعن المتشبهين من الرجال بالنساء والمتشبهات من النساء بالرجال [٢] .

والله ﷻ جعل الذكور جنسًا والإناث جنسًا ، وأحل لكل واحد منهما ما يناسبه ، فلا يجوز أن يلحق الرجال بالنساء ، ولا أعلم أن أحدًا من المسلمين ألحق النساء بالرجال في كل شيء . لكن الكفار الذين انتكسوا ونكس الله فطرتهم وطبيعتهم هم الذين يقدمون النساء ، ويقولون : لابد أن تشارك المرأة الرجل حتى لا يحصل فرق ، ولا شك أن هذا خلاف الفطرة التي جبل الله عليها الخلق ، وخلاف الشريعة التي جاءت بها الرسل فالنساء لهن خصائص والرجال لهم خصائص . ثم إن الرجل سمعَ ذلك فقص جمته ، وفيه دليل على امتثال الصحابة ﷺ لأمر النبي ﷺ واسترشادهم بإرشاده ، وأنهم كانوا يتسابقون إلى تنفيذ ما يقول ، وهذا علامة الإيمان .

---

(١) انظر ذلك بنصه في البخاري في المغازي (٤١٩٤) ، ومسلم في الجهاد (١٣٢) ، وأحمد في مسنده (٣/٤٣١) .
(٢) سبق تخريجه .

أما المتباطئ في تنفيذ أمر الله ورسوله ؛ فإن فيه شبهًا من المنافقين الذين إذا قاموا إلى الصلاة قاموا كسالى ، تجده مثلًا يُخْبَرُ عن حكم الله ورسوله في شيء ، ثم يتباطأ ويتثاقل وكأنما وضع على رأسه صخرة والعياذ بالله ، ثم يذهب إلى كل عَالِم لعله يجد رخصة ، مع أن العلماء قالوا : إن تتبع الرخص من الفسق - والعياذ بالله - والمتتبع للرخص فاسق ، حتى إن بعضهم قال : إن من تتبع الرخص فقد تزندق أي : صار زنديقًا .

فعلى الإنسان إذا بلغه أمر الله ورسوله من شخص يثق به في علمه وفي دينه ألا يتردد ، وأقول في علمه ودينه ؛ لأن من الناس من هو دَيِّن ملتزم متقٍ لكن ليس عنده علم ، تجده يحفظ حديثًا من أحاديث الرسول ثم يقول ويتكلم في الناس وكأنه إمام من الأئمة ، وهذا يجب الحذر منه ومن فتاواه ، لأنه قد يخطئ كثيرًا لقلة علمه .

ومن الناس من يكون عنده علم واسع لكن له هوىً - والعياذ بالله - يفتي الناس بما يرضي الناس لا بما يرضي الله ، وهذا يسمى عالم الأمة . فالعلماء ثلاثة أقسام : عالم ملة ، وعالم دولة ، وعالم أمة .

أما عالم الملة : فهو الذي ينشر دين الإسلام ، ويفتي بدين الإسلام عن علم ، ولا يبالي بما دل عليه الشرع أوافق أهواء الناس أم لم يوافق ؟ .

وأما عالم الدولة : فهو الذي ينظر ماذا تريد الدولة فيفتي بما تريد الدولة ، ولو كان في ذلك تحريف كتاب الله وسنة رسوله ﷺ .

وأما عالم الأمة : فهو الذي ينظر ماذا يرضي الناس ، إذا رأى الناس على شيء أفتى بما يرضيهم ، ثم يحاول أن يُحَرِّف نصوص الكتاب والسنة من أجل موافقة أهواء الناس ، نسأل الله أن يجعلنا من علماء الملة العاملين بها .

فالمهم : أن الإنسان يجب عليه ألا يُغْرِّر بدينه وألا يغترَّ ، بل يكون مطمئنًا حتى يجد من يثق به في علمه ودينه ويأخذ دينه منه . كما قال أحد السلف : إن هذا العلم دين فانظروا عمن تأخذون دينكم .

فهذا العلم دين وطريق إلى الله ﷻ ، ثم إن هؤلاء المغرمين بالكفار وتقليدهم - والعياذ بالله - تجدهم يقلدون الكفار في الملابس ، فإذا جاءت هذه المجلات التي يسمونها البردة وغيرها اشتروها مباشرة وذهبوا بها إلى أهل البيت ، وقالوا : انظروا إلى هذه الملابس ، فتجد صورًا خليعة وألبسة مخالفة للشريعة ، والنساء لقصرهن نظرًا ونقصهن عقلًا ودينًا ، إذا رأت شيئًا يعجبها يمليه عليها هواها قالت لزوجها : أريد مثل هذا ، أو ذهبت بنفسها إلى الخياط ليصنع لها مثل هذه الألبسة الفاضحة ، فيصبح الشعب المسلم في زيِّه كزي الشعب الكافر والعياذ بالله ، وهذه مسألة خطيرة قال ﷺ : « من تشبه بقوم فهو منهم » (١) .

---

(١) أخرجه أبو داود في اللباس (٤٠٣١) ، وأحمد في مسنده (٩٢/٢) .

ومن ذلك الآن ما تفعله النساء برؤوسهن ، كان النساء إلى عهد قريب تفرح المرأة إذا طال شعرها ، والخاطب إذا خطب امرأة كان يسأل عن شعرها أطويل هو أم قصير ؟ أما الآن فصار الأمر بالعكس ، المرأة تقص رأسها حتى يكون قريبًا من رأس الرجل أو مثل الرجل ، نسأل اللَّه العافية .

ثم بدأن أيضًا يستعملن ما يسمى بالخنفسة ، تجد المرأة تقص سوالف رأسها - مقدم الرأس - والباقي يبقى مقصرًا مشرفًا ، كل هذا تقليد ، كل هذا بسبب الغفلة من الرجال عن النساء ، والواجب أن تكون رجلًا في بيتك ، رجلًا بمعنى الكلمة فلا تكون كأنك خشبة عند أهلك . إذا رأيت أهلك مقصرين في واجب للَّه ﷻ مُرهم به ، وإذا كان الشرع يجيزلك أن تضرب فاضرب ، إذا رأيتهم يخافون الشرع في شيء من الأمور الأخرى فألزمهم بالشرع ، لأنك مسئول أعطاك النبي ﷺ إمارة على أهلك « الرجل راع في أهله ومسئول عن رعيته » (١) ؛ ما نصَّبَك فلان وفلان ، ما نصَّبك أمير البلد ولا الوزير ولا الملك ولا غيره ، نصبك محمد رسول اللَّه ﷺ .

فأنت أمير في بيتك « الرجل راع في بيته ومسئول عن رعيته » ولم يقل : راعٍ وسكت ، لو كان كذلك لهان الأمر ، لكن قال : « ومسئول عن رعيته » فانظر ماذا يكون جوابك إذا وقفت يوم القيامة بين يدي اللَّه ، فعلينا أن ننتبه إلى هذه الأمور ، قبل أن يجترفنا السيل الجرار الذي لا يبقي ولا يذر والعياذ باللَّه ، ثم تنقلب عاداتنا وأحوالنا كأحوال النصارى .

ثم ذكر في بقية الحديث أن النبي ﷺ أرشدهم إلى أن يخرج الرجل على وجه يرضي قال : « إنكم قادمون على إخوانكم » يعني فأصلحوا أحوالكم وأصلحوا ثيابكم ؛ لأنه من المعروف فيما سبق أن المسافر تكون ثيابه رثة ، ويكون شعره شعثًا ، ويكون عليه الغبار ، ليس الأمر كاليوم ، فاليوم تسافر بالطائرات نظيفة ونزيهة وليس فيها شيء ، لكن فيما سبق كان الأمر على العكس من هذا ، فأمرهم أن يصلحوا أحوالهم ؛ يعني الشعر الشعث يُرَجَّل ويصلح ، وكذلك يتنظف الإنسان ويلبس الثياب التي ليست ثياب سفر ، حتى يلقى الناس دون أن يشمئزوا منه .

وفي هذا إشارة إلى أنه ينبغي للإنسان أن يلاحظ نفسه في هذه الأمور ولا يكون غافلًا ، حتى جمال الثياب ؛ فإنه لما قال النبي - عليه الصلاة والسلام - : « لا يدخل الجنة من في قلبه مثقال حبة خردل من كبر » قالوا : يا رسول اللَّه كلنا يُحب أن يكون ثوبه حسنًا ونعله حسنًا ، فقال - عليه الصلاة والسلام - : « إن اللَّه جميل يحب الجمال - يعني يحب التجمل - ليكن ثوبك حسنًا ، ونعلك حسنًا ، وهيئتك حسنة » . « إن اللَّه جميل يحب الجمال ، الكبر بطر الحق وغمط الناس » (٢) ، « بطر الحق » يعني : رد الحق ؛ أن الإنسان يستكبر عن الحق ، يقال : هذا حق ؛ فيعرض والعياذ باللَّه « وغمط الناس » احتقارهم وازدراؤهم وألا يراهم شيئًا . قال رجل لابنه يابني كيف ترى الناس ؟ قال : أراهم

---

(١) أخرجه البخاري في الاستقراض (٢٤٠٩) ، ومسلم في الإمارة (٢٠) ، والترمذي في السنن (١٧٠٥) ، وأحمد في مسنده (٥٤/٣) .

(٢) أخرجه مسلم في الإيمان (١٤٧) وأحمد في مسنده (١٣٣/٤ ، ١٣٤) .

قال : أراهم ملوكًا . قال : هم يرونك كذلك . وقال آخر لابنه : كيف ترى الناس قال : لا أراهم شيئًا . قال : هم كذلك يرونك . يعني إذا رأيت الناس ملوكًا فهم يجعلونك ملكًا ، وإذا لم ترهم شيئًا لا تكون أنت شيئًا عندهم ، فالناس ينظرون إليك بقدر ما تنظر إليهم .

* * *

٧٩٩ – وعن أبي سعيدٍ الخدْرِيِّ ﷺ قال : قال رسول اللّٰه ﷺ : « إزْرَةُ المُسلمِ إلى نِصْفِ السَّاقِ ، وَلا حَرَجَ – أَو لا جُناحَ – فيما بَينَهُ وَبَينَ الكَعْبَينِ ، فما كانَ أَسْفَلَ مِنَ الكَعْبَيْنِ فَهُوَ في النَّارِ ، ومَنْ جَرَّ إزارَهُ بَطَرًا لَمْ يَنْظُرِ اللّٰهُ إلَيهِ »(١) . رواهُ أبُو داود بإسنادٍ صحيح .

٨٠٠ – وعن ابن عمر ﷺ قال : مَرَرْتُ عَلى رسول اللّٰه ﷺ وَفي إزاري اسْتِرْخَاءٌ ، فَقَالَ : « يَا عَبْدَ اللّٰهِ ، ارْفَعْ إزارَكَ » فَرَفَعْتُهُ ، ثُمَّ قَالَ : « زِدْ » ، فَزِدْت ، فمَا زِلْتُ أَتَحَرَّاهَا بَعْد . فَقَالَ بَعْضُ القَوْمِ : إلى أَينَ ؟ فَقَالَ : إلى أَنْصافِ السَّاقَينِ(٢) . رواه مسلم .

٨٠١ – وعنه قال : قالَ رسول اللّٰه ﷺ : « مَنْ جَرَّ ثَوبَهُ خيلاءَ لَمْ يَنْظُرِ اللّٰهُ إلَيهِ يَوم القِيامَةِ » فقالَتْ أُمُّ سَلَمَة : فَكَيفَ تَصْنَعُ النِّسَاءُ بِذُيُولِهن ؟ ، قالَ : « يُرْخِينَ شِبْرًا » قالَت : إذًا تَنْكَشِفُ أَقْدَامُهُنَّ. قال : « فَيُرْخِينَهُ ذِراعًا لاَ يَزِدْنَ »(٣) .

رواهُ أبو داود ، والترمذي وقال : حديثٌ حسن صحيح .

الشرح

هذه أحاديث ثلاثة ساقها النووي رحمه الله في (كتاب اللباس) ، منها حديث أبي سعيد الخدري ﷺ ، أن النبي – صلى اللّٰه عليه وعلى آله وسلم – قال : « أزرة المسلم إلى نصف الساق ، ولا جناح » أو قال « لا حرج فيما بينه وبين الكعبين ، وما كان أسفل من الكعبين فهو في النار ، ومن جر إزاره بطرًا لم ينظر اللّٰه إليه » . فقسم النبي ﷺ طول القميص إلى أربعة أقسام :

القسم الأول : السنة : إلى نصف الساق .

والقسم الثاني : الرخصة : وهو ما نزل من نصف الساق إلى الكعب .

والقسم الثالث : كبيرة من كبائر الذنوب : وهو ما نزل عن الكعبين ولكنه لم يكن بطرًا .

القسم الرابع : من جر ثوبه خيلاء أو بطرًا : وهو أشد من الذي قبله .

فصارت الأقسام أربعة : قسم هو السنة ، وقسم جائز ، وقسم محرم ؛ بل من كبائر الذنوب ،

---

(١) أخرجه أبو داود في اللباس (٤٠٩٣) قوله « إزرة المؤمن » أي الهيئة المستحبة في اتزار المؤمن .

(٢) أخرجه مسلم في اللباس (٤٧) والبيهقي في السنن (٢/٢٤٤) قوله : « فما زلت أتحراها » أي أقصدها .

(٣) أخرجه أبو داود في اللباس (٤١١٩) ، والترمذي في اللباس (١٧٣١) ، قوله « يرخين شبرًا » الشبر : ما بين الخنصر والإبهام بالتفريج المعروف .

لكنه دون الذي بعده ، والقسم الرابع من جره خيلاء ، فإن اللّٰه تعالى لا ينظر إليه .

وفي هذا : دليل على أن من أنزل ثوبه ؛ إزارًا أو قميصًا أو سروالًا أو (مشلحًا) إلى أسفل من الكعبين ؛ فإنه قد أتى كبيرة من كبائر الذنوب ، سواء فعل ذلك خيلاء أو لغير الخيلاء ؛ لأن النبي ﷺ فرق في هذا الحديث بين ما كان خيلاء وما لم يكن كذلك ، فالذي جعله خيلاء لا ينظر اللّٰه إليه يوم القيامة .

وإذا ضممنا هذا الحديث إلى حديث أبي ذر السابق قلنا : لا ينظر اللّٰه إليه ، ولا يكلمه ، ولا يزكيه ، وله عذاب أليم [1] .

أما ما دون الكعبين ؛ فإنه يعاقب عليه بالنار فقط ، ولكن لا تحصل له العقوبات الأربع .

ثم ذكر حديث ابن عمر أن النبي صلى اللّٰه عليه وعلى آله وسلم أمره أن يرفع إزاره ، فرفعه ثم قال : « زد » ثم قال : « زد » حتى قال رجل : إلى أين يا رسول اللّٰه ؟ قال : « إلى أنصاف الساقين » يعني الزيادة إلى فوق لا تتجاوز نصف الساق من فوق ، لكنها من نصف الساق إلى الكعب كل هذا جائز وكلما ارتفع إلى نصف الساق فهو أفضل .

وأما حديث أم سلمة رضي الله عنها أن النبي ﷺ رخص للنساء أن يرخين ذيولهن يعني أسفل ثيابهن إلى شبر ، فقالت : إذًا تنكشف أقدامهن ، فقال - عليه الصلاة والسلام - : « فيرخينه ذراعًا لا يزدن » لأن المرأة قدمها عورة ، فإذا برز للناس ورأوه ؛ فإن ذلك قد يكون فيه فتنة ، فإذا نزلت ثوبها وجعلت تمشي سترت قدمها .

وفي هذا دليل على وجوب تغطية الوجه ؛ لأنه إذا كانت القدم يجب سترها مع أن الفتنة فيها أقل من الفتنة في الوجه ، فستر الوجه من باب أولى ، ولا يمكن للشريعة التي نزلت من لدن حكيم خبير أن تقول للنساء يغطين أقدامهن ولا يغطين وجوههن ؛ لأن هذا تناقض ، بل هذا إعطاء للحكم في شيء ، وحجب الحكم عن شيء أولى منه ، وهذا لا يتصور في الشريعة العادلة التي هي الميزان ، ولهذا جَانبَ الصواب من قال من العلماء : إنه يجب أن تُستر القدمان ولا يجب أن يُستر الوجه والعينان . هذا لا يمكن أبدًا ، والصواب الذي لا شك عندنا فيه ، أنه لا يحل للمرأة أن تكشف وجهها إلا لزوجها أو محارمها .

* * *

١٢٠ - بابُ استِحبابِ تَركِ الترفع في اللِّباسِ تواضعًا

قَدْ سَبَقَ في بابِ فَضْلِ الجُوعِ وَخُشُونَةِ العَيشِ جُمَلٌ تَتَعَلَّقُ بِهذا البَابِ

٨٠٢ - وعن معاذِ بن أنسٍ رضي الله عنه أنَّ رسول اللّٰه ﷺ قال : « مَنْ تَرَكَ اللِّبَاسَ تَواضُعًا للّٰهِ ، وَهُوَ

---

(١) سبق تخريجه .

يَقْدِرُ عَلَيهِ ، دَعَاهُ اللَّهُ يَومَ القِيَامَةِ عَلى رُؤُوسِ الخَلَائِقِ حتى يُخَيِّرَهُ مِنْ أَيِّ حُلَلِ الإيمانِ شَاءَ يَلبَسُهَا »[١] . رواه الترمذي وقال : حديث حسن .

* * *

١٢١ - بابُ استِحباب التوسُّط في اللِّباس

ولا يقتصر على ما يزري به لغير حاجة ولا مقصود شرعي .

٨٠٣ - عن عمرِو بن شُعَيبٍ عن أَبِيهِ عَنْ جَدِّهِ ﷺ قال : قالَ رسول اللَّه ﷺ : « إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ أَنْ يُرى أَثَرُ نِعْمَتِهِ عَلى عَبْدِهِ »[٢] رواه الترمذي وقال : حديثٌ حسن .

الشرح

عقد المؤلف رحمه الله في (كتاب اللباس) هذين البابين :

الباب الأول : في استحباب ترك رفيع الثياب تواضعًا للَّه عز وجل .

والثاني : في التوسط في اللباس .

أما الأول : فعن معاذ بن أنس رضي الله عنه أن النبي صلى اللَّه عليه وعلى آله وسلم قال : « من ترك اللباس - يعني اللباس الجميل الطيب - تواضعًا للَّه عز وجل - وهو يقدر عليه ؛ دعاه اللَّه يوم القيامة على رؤوس الخلائق حتى يخيره من أيِّ حُلل الإيمان شاء يلبسها » .

وهذا يعني أن الإنسان إذا كان بين أناس متوسطي الحال لا يستطيعون اللباس الرفيع فتواضع وصار يلبس مثلهم ؛ لئلا تنكسر قلوبهم ، ولئلا يفخر عليهم ؛ فإنه ينال هذا الأجر العظيم ، أما إذا كان بين أناس قد أنعم اللَّه عليهم ويلبسون الثياب الرفيعة لكنها غير محرمة ، فإن الأفضل أن يلبس مثلهم ؛ لأن اللَّه تعالى جميل يحب الجمال .

ولا شك أن الإنسان إذا كان بين أناس رفيعي الحال يلبسون الثياب الجميلة ولبس دونهم ؛ فإن هذا يعد لباس شهرة ، فالإنسان ينظر ما تقتضيه الحال ، فإذا كان ترك رفيع الثياب تواضعًا للَّه ومواساة لمن كان حوله من الناس ، فإن له الأجر العظيم ، أما إذا كان بين أناس قد أغناهم اللَّه ويلبسون الثياب الرفيعة ؛ فإنه يلبس مثلهم .

ثم ذكر المؤلف رحمه الله الاقتصاد في اللباس ، وأن الإنسان يقتصد في جميع أحواله ؛ في لباسه ، وطعامه ، وشرابه و لكن لا يجحد النعمة ، فإن اللَّه تعالى يحب أن يُرى أثر نعمته على عبده ، إذا

---

(١) أخرجه الترمذي في صفة القيامة (٢٤٨١) . قوله « حتى يخيره من أي حلل الإيمان شاء » أي وينشر تشريفه بأنواع الشرف ، يخيره بين حلل أهل الإيمان المتفاوتة المقام فيختار الأعلى ، ويرد من الفيوض المورد الأحلى فينزل المكان الأعلى .

(٢) أخرجه الترمذي في السنن (٢٨١٩) ، وأحمد في مسنده (٢١٣/٢٥) ، والحاكم في المستدرك (١٣٥/٤) .

أنعم على عبده نعمة فإنه يحب أن يُرى أثر هذه النعمة عليه . فإن كانت مالًا ؛ فإنه يحب سبحانه وتعالى أن يُرى أثر هذا المال على من أنعم اللّٰه عليه به بالإنفاق ، والصدقات ، والمشاركة في الإحسان ، والثياب الجميلة اللائقة به وغير ذلك . وإذا أنعم اللّٰه على عبده بعلم ؛ فإنه يحب أن يُرى أثر هذه النعمة عليه بالعمل بهذا العلم ، في العبادة وحسن المعاملة ، ونشر الدعوة ، وتعليم الناس وغير ذلك .

وكلما أنعم اللّٰه عليك نعمة فأَرِ اللّٰه تعالى أثر هذه النعمة عليك ، فإن هذا من شكر النعمة .

وأما من أنعم اللّٰه عليه بالمال وصار لا يُرى عليه أثر النعمة ؛ يخرج إلى الناس بلباسٍ رَثٍّ وكأنه أفقر عباد اللّٰه ، فهذا في الحقيقة قد جحد نعمة اللّٰه عليه ، كيف ينعم اللّٰه عليك بالمال والخير وتخرج إلى الناس بثياب كلباس الفقراء أو أقل ، وكذلك ينعم اللّٰه عليك بالمال ثم تمسك ولا تنفق لا فيما أوجب اللّٰه عليك ، ولا فيما ندب لك أن تنفق فيه . ينعم اللّٰه عليك بالعلم فلا يُرى أثر هذه النعمة عليك ، لا بزيادة عبادة أو خشوع أو حسن معاملة ، ولا بتعليم الناس ونشر العلم .

كل هذا نوع من كتمان النعمة التي ينعم اللّٰه بها على العبد ، الإنسان كلما أنعم اللّٰه عليه بنعمة ؛ فإنه ينبغي أن يظهر أثر هذه النعمة عليه حتى لا يجحد نعمة اللّٰه .

* * *

١٢٢ - بابُ تحريم لباسِ الحَرير على الرِّجال وتحريم جلوسهم عليه واستنادهم إليه وجواز لبسه للنساء

٨٠٤ - عن عمر بن الخطَّاب ﷺ قال : قالَ رسول اللّٰه ﷺ : « لاَ تَلْبَسُوا الحَرِيرَ ، فَإِنَّ مَنْ لَبِسَهُ في الدُّنْيَا لَمْ يَلبَسْهُ في الآخرَةِ » [(١)] متفقٌ عليه .

٨٠٥ - وعنه قال : سمعتُ رسول اللّٰه ﷺ يقولُ : « إِنَّمَا يَلبَسُ الحَرِيرَ مَنْ لَا خَلَاقَ لَهُ » متفقٌ عليه . وفي روايةٍ للبُخاري : « مَنْ لا خَلَاقَ لَهُ في الآخِرَةِ » [(٢)] .

قولُه : « مَنْ لا خَلَاقَ لَهُ » ، أَي : لاَ نَصِيبَ لَهُ .

٨٠٦ - عن أنسٍ ﷺ قال : قالَ رسول اللّٰه ﷺ : « مَنْ لَبِسَ الحَرِيرَ في الدُّنيا لَمْ يَلْبَسْهُ في

---

(١) أخرجه البخاري في اللباس (٥٨٣٤) ، ومسلم في اللباس (١١) قوله : « لم يلبسه في الآخرة » قال الحافظ ابن حجر : بأن من يدخل الجنة من هؤلاء يعاقب بذلك في الجنة وذلك بأن يصرف اللّٰه نفسه عن طلبه ، لا أنه يحب ذلك ويمنع منه ؛ لأن ذلك يخالف تلك الدار من زيادة الإكرام ، ومثل ذلك في شارب الخمر الميت على غير توبة لا يشرب الخمر في الجنة .

(٢) أخرجه البخاري في اللباس (٥٨٣٥) ومسلم في الباس (٩) .

الآخِرَةِ» (١) متفقٌ عليه .

٨٠٧ - وعن عليٍّ ﷺ قال : رَأَيتُ رسول اللّه ﷺ أَخَذَ حَرِيرًا ، فَجَعَلَهُ في يَمِينِهِ ، وَذَهَبًا فَجَعَلَهُ في شِمالِهِ ، ثُمَّ قَالَ : «إنَّ هذَينِ حَرَامٌ عَلى ذُكُورِ أُمَّتي» (٢) .

رواهُ أبو داود بإسنادٍ حسن .

٨٠٨ - وعن أبي مُوسى الأشْعَرِيِّ ﷺ أنَّ رسول اللّه ﷺ قال : «حُرِّمَ لِبَاسُ الحَرِيرِ وَالذَّهَبِ عَلى ذُكُورِ أُمَّتي ، وَأُحِلَ لإنَاثِهِمْ» (٣) . رواهُ الترمذي وقال : حديثٌ حسن صحيحٌ

٨٠٩ - وعن حُذَيفَةَ ﷺ قال : نَهَانَا النَّبيُّ ﷺ أَنْ نَشْرَبَ في آنِيَةِ الذَّهَبِ وَالفِضَّةِ، وَأَنْ نَأْكُلَ فِيهَا ، وَعَنْ لُبْسِ الحَرِيرِ وَالدِّيبَاجِ ، وَأَنْ نَجْلِسَ عَلَيهِ (٤) . رواهُ البخاري .

الشرح

باب تحريم الحرير على الرجال وافتراشه والاستناد إليه ، هذه ثلاثة أمور : لباس الحرير ، وافتراشه ، والاستناد إليه ، وقد جزم المؤلف بأن هذا حرام على الرجال ، وذلك للأحاديث التي أوردها عن عمر بن الخطاب ، وعليٍّ بن أبي طالب ، وأنس بن مالك ، وأبي موسى الأشعري ، وحذيفة بن اليمان ﷺ ، وكلها تدل على تحريم لباس الذهب ، وعلى تحريم لباس الحرير للرجال .

وفي حديث عمر بن الخطاب ﷺ : أنه من لبسه في الدنيا لم يلبسه في الآخرة ، يعني إذا لبس الرجل حريرًا في الدنيا ؛ فإنه لا يلبسه في الآخرة ، وهذا وعيد يدل على أن لباس الحرير للرجال من كبائر الذنوب ؛ لأن فيه الوعيد في الآخرة ، وكل ذنب فيه وعيد الآخرة فهو كبيرة من كبائر الذنوب عند أهل العلم ، ولا فرق بين أن يكون قميصًا أو سراويل أو غترة أو طاقية أو غير ذلك مما يلبس ، كل هذا حرام على الرجال إذا كان من الحرير ، ولا يجوز للرجال أن يلبسوا شيئًا من الحرير لا قليلًا ولا كثيرًا .

وفي حديث عليٍّ : أن النبي ﷺ أخذ ذهبًا وحريرًا بيديه وقال : «هذان حرام على ذكور أمتي حلٌّ لإناثها» والحكمة في ذلك : أن المرأة محتاجة إلى التجمل لزوجها ، فأبيح لها الذهب والحرير . وأما الرجل فليس في حاجة إلى ذلك ، فلهذا حَرُمَ عليه لبس الذهب والحرير .

وفي حديث عمر بن الخطاب ﷺ : أنه «إنما يلبسه من لا خلاق له في الآخرة» ، يعني من لا

---

(١) أخرجه البخاري في اللباس(٥٨٣٢) ، ومسلم في اللباس(٢١ ، ٢٢) وأحمد في مسنده ١/٢٦ ، ٣/٢٣ ، ١٠١) .

(٢) أخرجه أحمد في مسنده(١/١١٥) ، وأبو داود في اللباس(٤٠٥٧) والنسائي في السنن(٨/١٦٠) .

(٣) أخرجه الترمذي في اللباس(١٧٢٠) .

(٤) أخرجه البخاري في اللباس(٥٨٣٧) قوله «الديباج» هو نوع من الحرير .

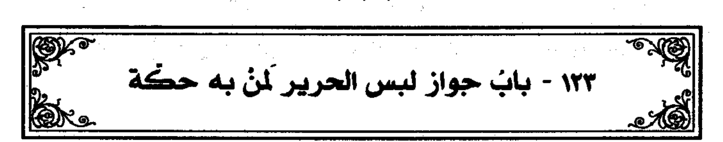
نصيب له في الآخرة ، ولهذا ذهب بعض العلماء إلى أن الإنسان إذا لبس الحرير في الدنيا ؛ فإنه لا يدخل الجنة والعياذ بالله ؛ لأن الرسول - عليه الصلاة والسلام - قال : « لا خلاق له في الآخرة » أي لا نصيب له . وقال أيضًا : « من لبسه في الدنيا لم يلبسه في الآخرة » . وهذا يعني أنه لا يدخل الجنة ، ولكن قال بعض العلماء : إنه يدخلها ، ولكن لا يتمتع بلباس الحرير مع أن أهل الجنة لباسهم فيها حرير ، وإنما يلبس شيئًا آخر وهذا مالم يتب ، فإن تاب من ذنوبه فإن التائب من الذنب يغفر الله له ذنبه ، كما قال تعالى : ﴿ قُلْ يَٰعِبَادِىَ ٱلَّذِينَ أَسْرَفُوا۟ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ لَا تَقْنَطُوا۟ مِن رَّحْمَةِ ٱللَّهِ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ يَغْفِرُ ٱلذُّنُوبَ جَمِيعًا ﴾ [الزمر: ٥٣] .

وهذا في الحرير الطبيعي الذي يخرج من دود القزّ ، وأما الحرير الصناعي فليس حرامًا ، لكن لا ينبغي للرجل أن يلبسه لما فيه من الميوعة والتنزل بحال الرجل الذي ينبغي أن يكون فيها خشنًا ، يلبس ثياب الرجولة لا ثياب النعومة .

لكن الفائدة من قولنا : إن الحرير الصناعي ليس حرامًا ، يعني لو لبس طاقية من الحرير الصناعي أو سروالًا لا يُرَى ، فهذا لا بأس به ، وأما القميص والغترة ؛ فلا ينبغي وإن كان حلالًا ، لا ينبغي أن يلبسه الرجل لما فيه من الميوعة والتدني ، ولأن الجاهل إذا رآه يظنه حريرًا طبيعيًا ، فيظن أن ذلك سائغ للرجال وربما يقتدي به ، والسلامة أسلم للإنسان .

وكذلك الذهب ؛ فإنه محرم على الرجال حلال للنساء ؛ لأنهن يحتجن إلى التجمل لأزواجهن . وأما « الدبلة » من الذهب ؛ فهي حرام على الرجل لاشك ، وأما المرأة فإن قارن ذلك عقيدة ، كاعتقادها أنها تحببها إلى زوجها - فهي حرام ، وإن كان بدون عقيدة فهي خاتم من الخواتم .

* * *

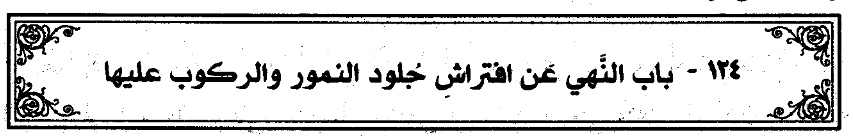


١٢٣ - بابُ جواز لبس الحرير لِمَنْ به حكة

٨١٠ - عن أنسٍ ﷺ قال : رَخَّصَ رسول الله ﷺ ، للزُّبيرِ وعَبْدِ الرَّحْمنِ بنِ عَوفٍ ﷺ في لُبْسِ الحَرِيرِ ؛ لحكَّةٍ بِهِمَا [١] . متفقٌ عليه .

* * *

(١) أخرجه البخاري في اللباس (٥٨٣٩) ، ومسلم في اللباس (٢٥) .



١٢٤ - باب النَّهي عَن افتراشِ جُلود النمور والركوب عليها

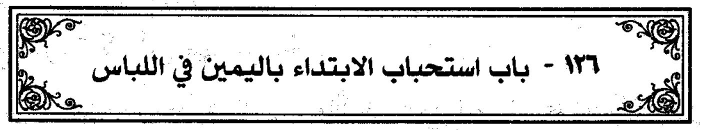
٨١١ - عن مُعاوِيَةَ رضي الله عنه قالَ : قال رسول اللَّه ﷺ : « لا تَرْكَبُوا الخزَّ وَلا النِّمارَ »[١] .

حديثٌ حسن ، رواهُ أبو داود وغيره بإسنادٍ حسنٍ .

٨١٢ - وعن أبي المَلِيحِ عن أبيهِ رضي الله عنه أَنَّ رسول اللَّه ﷺ نَهى عَنْ جُلُودِ السِّبَاعِ[٢] . رواهُ أبو داود ، والترمذيُّ ، والنسائي بأسَانِيدَ صحاحٍ . وفي روايةِ الترمذي : نَهى عَنْ جُلُودِ السِّبَاعِ أَنْ تُفْتَرَشَ .

١٢٥ - بابُ ما يقول إذا لَبِسَ ثوبًا جَديدًا

٨١٣ - عن أبي سعيد الخُدْريِّ رضي الله عنه قال : كانَ رسول اللَّه ﷺ إِذَا اسْتَجَدَّ ثَوبًا سَمَّاهُ بِاسْمِهِ - عِمَامَةً ، أَو قَمِيصًا ، أَو رِدَاءً - يَقُولُ : « اللَّهُمَّ لَكَ الحَمْدُ أَنْتَ كَسَوتَنِيهِ ، أَسْأَلُكَ خَيرَهُ وَخَيرَ مَا صُنِعَ لَهُ ، وأَعُوذُ بِكَ مِنْ شَرِّهِ وَشَرِّ مَا صُنِعَ لَهُ »[٣] . رواهُ أبو داود ، والترمذي وقال : حديث حسن .



١٢٦ - باب استحباب الابتداء باليمين في اللباس

هذا الباب قد تقم مقصوده وذكرنا الأحاديث الصحيح فيه .

الشرح

هذه الأبواب التي ذكرها المؤلف هي آخر أبواب (كتاب اللباس) في (كتاب رياض الصالحين) .

فالباب الأول: جواز لبس الحرير لمن به حكة . وقد سبق أن النبي ﷺ نهى الرجال عن لبس الحرير وقال : « إنما يلبسه من لا خلاق له »[٤] وقال : « من لبسه في الدنيا لم يلبسه في الآخرة »[٥] .

لكن إذا دعت الحاجة إلى ذلك فإنه لا بأس به ، مثل أن يكون في الإنسان حكة ، يعني حساسية واحتاج إلى لبس الحرير ؛ فإنه يلبسه ويكون مما يلي الجسد ؛ لأن الحرير لين وناعم وبارد يناسب الحكة فيطفؤها ؛ ولهذا رخص النبي ﷺ لعبد الرحمن بن عوف والزبير أن يلبسا الحرير من حكة كانت بهما .

---

(١) أخرجه أبو داود في اللباس (٤١٢٩) ، وأحمد في مسنده (٩٣/٤) . قوله : « ولا النمار » : النمار جمع نمر . وهنا نهي عن استعمال جلوده ؛ لما فيها من الزينة والخيلاء ، ولأنها زي الأعاجم . والنهي هنا شامل للمذكى وغيره ولأنه يحرم أكله ، وقد يكون النهي ؛ لأن الدباغ لا يؤثر فيها ويبقى عليها بعض من الشعر .

(٢) أخرجه أبو داود في اللباس (٤١٣٢) ، والترمذي في اللباس (١٧٧٠) ، والنسائي في السنن (١٧٦/٧) .

(٣) أخرجه أبو داود في اللباس (٤٠٢٠) والترمذي في اللباس (١٧٦٧) .

(٤ ، ٥) سبق تخريجه .

كذلك أيضًا إذا كان الحرير أربعة أصابع فأقل [١] ، يعني عرضه أربعة أصابع فأقل ؛ فإنه لا بأس به ؛ لأن النبي صلى الله عليه وعلى آله وسلم رخص في ذلك ، يعني مثلًا : لو كان إنسان عنده جبة وفي فتحتها خيوط من الحرير أو تطريزًا من الحرير لا يتجاوز أربعة أصابع ، فإن ذلك لا بأس به .

وكذلك إذا كان الثوب مختلطًا بين الحرير والقطن ، أو بين الحرير والصوف ، وكان الأكثر الصوف أو القطن ، يعني أكثر من الحرير ، فإنه لا بأس به ، فهذه ثلاثة أمور .

الأمر الرابع : إذا كان في الحرب ، يعني التقى الصفان بين المسلمين والكفار ، فلا بأس أن يلبس الإنسان ثياب الحرير ؛ لأن ذلك يغيظ الكفار ، وكل شيء يغيظ الكفار فإنه مطلوب . فهذه أربعة أشياء تستثنى :

الأول : إذا كان لحاجة كالحكة ، ويكون مما يلي الجسد . والحكمة في ذلك واضحة .

الثاني : إذا كان أربعة أصابع فأقل .

والثالث : إذا كان مختلطًا والأكثر ظهورًا سوى الحرير .

والرابع : في الحرب من أجل إغاظة الكفار .

فهذه المواضع الأربعة لا بأس فيها من الحرير .

أما الباب الثاني : فهو لباس جلود النمار . والنِّمار جمع نَمِر ؛ وهو حيوان معروف ، فلا يجوز للإنسان أن يلبس فروًا من جلود النمار ، وكذلك لا يجوز للإنسان أن يلبس فروًا من جلود السباع ، كما يدل عليه الحديث الآخر ؛ لأن جلود السباع نجسة ، كل السباع نجسة ، وأخبثها الكلب ؛ لأن نجاسة الكلب مغلظة ، لا يكفي فيها إلا الغسل سبع مرات إحداها بالتراب [٢] ، أما ما سواه من السباع فهو نجس ، لكن ليس بهذه الغلظة .

وعلى كل حال فجلود الذئاب ، وجلود النمور ، وأي جلود أخرى ، حرام كجلد الأسد مثلًا يحرم لبسها ، وكذلك يحرم افتراشها ؛ لأن النبي صلى الله وعلى آله وسلم نهى عن ذلك ، يعني لو جعلتها مقاعد تجلس عليها فإن ذلك حرام .

أما جلود الضأن ، وجلود ما تحله الذكاة ، فلا بأس أن يفترشها الإنسان ، ولا بأس أن يلبسها أيضًا ؛ لأنها طاهرة . والطاهر لا بأس باستعماله .

وأما الباب الثالث : فهو ما يقوله الإنسان إذا لبس ثوبًا جديدًا ، ولا شك أن الإنسان لا يملك لنفسه نفعًا ولا ضرًا إلا ما شاء الله ، ولا شك أن ما نأكله ونشربه ونلبسه من نعمة الله ﷻ ، وأنه هو

---

(١) ويدل على ذلك ما أخرجه البخاري في اللباس (٥٨٢٨) النسائي في السنن (١٦٣/٨) ، وأحمد في مسنده (٩٢/٤ ، ٩٦) ، والترمذي في اللباس (١٧٢١) .

(٢) وذلك لما أخرجه مسلم في الطهارة (٩٣) ، وأبو داود في الطهارة (٧٣) ، والنسائي في السنن (٥٤/١) وابن ماجه في الطهارة (٣٦٤) .

الذي خلقه لنا ، ولولا أن الله يسره ما تيسر ، لو شاء الله تعالى لفُقدَ المال من بين أيدينا فلم نستطع أن نحصل شيئًا ، ولو شاء الله لوجد المال بيننا لكن لا نجد شيئًا نطعمه أو نلبسه أو نشربه ﴿ قُلْ أَرَءَيْتُمْ إِنْ أَصْبَحَ مَآؤُكُمْ غَوْرًا فَمَن يَأْتِيكُم بِمَآءٍ مَّعِينٍ ﴾ (١) [الملك : ٣٠] .

فكل ما بنا من نعمة الله وحده ومن ذلك اللباس و فإذا منَّ الله عليك بلباس جديد ؛ قميص أو سروال أو غترة أو مشلح أو نحوها ولبستها ، فقل « اللهم لك الحمد أنت كسوتنيه » وتسميه باسمه ، اللهم لك الحمد أنت كسوتني هذا القميص ، أنت كسوتني هذا السروال ، أنت كسوتني هذه الغترة ، أنت كسوتني هذه الطاقية ، أنت كسوتني هذا المشلح ، أي شيء تلبسه وهو جديد فاحمد الله قل : « اللهم لك الحمد أنت كسوتنيه ، أسألك خيره وخير ما صنع له ، وأعوذ بك من شره وشر ما صنع له » . فربما يكون هذا سبب شر عليك ، ربما تأكل النار طرفه ثم تتقد حتى تشمل هذا اللباس ، وتقضي عليك أنت أيضًا ، ربما تكون فيه أشياء سامة ما تعلم عنها شيئًا ، فالمهم أنك تقول : « اللهم إني أعوذ بك من شره وشر ما صنع له » لأنه قد يصنع ويكون سببًا للشر ؛ كأن يحمل صاحبه على الكبر والترفع على الناس ، أو قد يكون سببًا للفتنة وهي من أعظم الشر والفساد ، كتلك الألبسة التي تتفنن النساء في صنعها مضاهاة لغيرهن من نساء الغرب الكافرات .

* * *

كتاب آداب النوم

١٢٧ - بابُ آداب النَّوم والاضطِجاع والقعود والمجلس والجليس والرؤيا

٨١٤ - عن البَرَاءِ بن عَازِبٍ رضي الله عنهما قال : كَانَ رسول الله ﷺ إذا أَوَى إلى فِرَاشِهِ نَامَ عَلى شِقِّهِ الأَيمن ، ثُمَّ قال : « اللَّهُمَّ أَسْلَمْتُ نَفْسِي إلَيكَ ، وَوَجَّهْتُ وَجْهي إلَيكَ ، وَفَوَّضْتُ أَمْري إلَيكَ ، وَأَلجأْتُ ظَهْرِي إلَيكَ ، رَغْبَةً وَرَهْبَةً إلَيكَ ، لا مَلْجأَ وَلا مَنْجى مِنْكَ إلا إليكَ ، آمَنْتُ بِكِتَابِكَ الَّذي أَنْزَلْتَ ، ونَبِيِّكَ الذي أَرْسَلْتَ » (٢) .

رواه البخاري بهذا اللفظ في كتاب الأدب من صحيحه .

---

(١) قوله ﴿ غَوْرًا ﴾ أي غائرًا ذاهبًا في الأرض لا تناله الدِّلاء ، قوله ﴿ مَّعِينٍ ﴾ أي جار أو ظاهر تراه العيون وتناله الأيدي والدلاء .

(٢) أخرجه البخاري في الدعوات (٦٣١٥) وأحمد في مسنده (٢٩٦/٤) بنحوه . قوله « أوى إلى فراشه » أي انضم إليه . قوله : « اللهم أسلمت نفسي إليك » أي تركتها مسلمة إليك من غير تعرض مني لما يرد إليها منك . وليكن صادقًا عند إرادة ذلك بقلبه . قوله : « ووجهت وجهي » أي ذاتي ، وكنى عن الذات بالوجه ؛ لأنه أشرف ما في الإنسان ؛ فهو محل الصورة التي بها تمايز الأشكال والجمال ، قوله : « وألجأت ظهري إليك » أي أرجعته إليك ، فجعلته راجعًا بين يديك فلا ملجأ منك إلا إليك . قوله : « رغبة ورهبة » أي طمعًا في ثوابك وخوفًا من عقابك .

٨١٥ - وعنه قال: قال لي رسول الله ﷺ: «إذا أتيتَ مَضْجَعَكَ فتوضَّأْ وُضوءَكَ للصَّلاةِ، ثُمَّ اضْطَجِعْ عَلى شِقِّكَ الأيمنِ، وَقُلْ ...» وَذَكَرَ نَحْوَهُ، وَفيه: «وَاجْعَلْهُنَّ آخِرَ مَا تَقُول»[1] متفقٌ عليه.

الشرح

عقد المؤلف رحمه الله كتابًا في آداب النوم والجلوس والجليس، وغير ذلك مما يحتاج إليه الإنسان في حياته، وهذا يدل على أن هذا الكتاب - أعني رياض الصالحين - كتاب شامل عام ينبغي لكل مسلم أن يقتنيه وأن يقرأه وأن يفهم ما فيه.

فذكر المؤلف رحمه الله آداب النوم، والنوم من آيات الله عز وجل الدالة على كمال قدرته ورحمته وحكمته، قال تعالى: ﴿وَمِنْ ءَايَٰتِهِۦ مَنَامُكُم بِٱلَّيْلِ وَٱلنَّهَارِ وَٱبْتِغَآؤُكُم مِّن فَضْلِهِۦٓ﴾ [الروم: ٢٣] وهو نعمة من الله تعالى على العبد؛ لأنه يستريح فيه من تعب سابق، وينشط فيه لعمل لاحق، فهو ينفع الإنسان فيما مضى وفيما يستقبل، وهو من كمال الحياة الدنيا؛ وذلك لأن الدنيا ناقصة، فتكمل بالنوم لأجل الراحة. لكنه نقص من وجه آخر بالنسبة للقيوم عز وجل وهو الله، فإن الله تعالى ﴿لَا تَأْخُذُهُۥ سِنَةٌ وَلَا نَوْمٌ﴾ [البقرة: ٢٥٥] لكمال حياته فهو لا يحتاج إلى النوم، ولا يحتاج إلى شيء، وهو الغني الحميد عز وجل.

لكن الإنسان في هذه الحياة الدنيا بشر ناقص يحتاج إلى تكميل، والنوم عبارة عن أن الله سبحانه وتعالى يقبض النفس حين النوم، لكنه ليس القبض التام الذي تحصل به المفارقة التامة، ولذلك تجد الإنسان حيًّا ميتًا في الحقيقة لا يحس بما عنده؛ لا يسمع قولًا، ولا يبصر شخصًا، ولا يشم رائحة، ولكن لم تخرج نفسه من بدنه الخروج الكامل. قال الله تعالى: ﴿ٱللَّهُ يَتَوَفَّى ٱلْأَنفُسَ حِينَ مَوْتِهَا﴾ وهذه الوفاة الكبرى ﴿وَٱلَّتِى لَمْ تَمُتْ فِى مَنَامِهَا﴾ يتوفاها في منامها ﴿فَيُمْسِكُ ٱلَّتِى قَضَىٰ عَلَيْهَا ٱلْمَوْتَ﴾ وهي الأولى ﴿وَيُرْسِلُ ٱلْأُخْرَىٰٓ﴾ وهي النائمة، يعني يطلقها ﴿إِلَىٰٓ أَجَلٍ مُّسَمًّى﴾ [الزمر: ٤٢]، لأن كل شيء عند الله تعالى بمقدار، وكل شيء عنده بأجل مسمى، كل فعله جل وعلا حكمة في غاية الإتقان.

فهذا النوم من آيات الله عز وجل، تأتي القوم مثلًا في حجرة أو في سطح أو في بر، وهم نيام كأنهم جثث موتى لا يشعرون بشيء، ثم هؤلاء القوم يبعثهم الله عز وجل، قال الله تعالى: ﴿وَهُوَ ٱلَّذِى يَتَوَفَّىٰكُم بِٱلَّيْلِ وَيَعْلَمُ مَا جَرَحْتُم[2] بِٱلنَّهَارِ ثُمَّ يَبْعَثُكُمْ فِيهِ لِيُقْضَىٰٓ أَجَلٌ مُّسَمًّى ثُمَّ إِلَيْهِ مَرْجِعُكُمْ﴾ [الأنعام: ٦٠].

ثم إن الإنسان يعتبر بالنوم اعتبارًا آخر وهو إحياء الأموات بعد الموت، فإن القادر على رد الروح حتى يصحو الإنسان ويستيقظ ويعمل عمله في الدنيا، قادر على أن يبعث الأموات من قبورهم، وهو على كل شيء قدير.

(١) أخرجه البخاري في الدعوات (٦٣١١).

(٢) قوله تعالى: ﴿مَا جَرَحْتُم﴾: أي ما كسبتم بالجوارح من الخير والشر.

ومن آداب النوم : أن ينام الإنسان على الشق الأيمن ؛ لأن هذا فعل النبي ﷺ وأمره ، فالبراء بن عازب ﷺ روى أن النبي ﷺ كان يضطجع على شقه الأيمن [١] ، والنبي ﷺ أمر البراء بن عازب أن ينام على شقه الأيمن ، هذا هو الأفضل ، سواءٌ كانت القبلة خلفك أو أمامك أو عن يمينك أو عن شمالك ، النوم على الشق الأيمن هو المهم لأمر النبي ﷺ به .

بعض الناس اعتاد أن ينام على الجنب الأيسر ولو نام على الأيمن ربما لا يأتيه النوم ، لكن عليه أن يعوِّدَ نفسه ؛ لأن المسألة ليست بالأمر الهين ، ثبتت من فعل الرسول ﷺ وأمره ، فأنت إذا نمت على الجنب الأيمن تشعر بأنك متبع للرسول - عليه الصلاة والسلام - حيث كان ينام على جنبه الأيمن ، وممتثل لأمره حيث أمر به - عليه الصلاة والسلام - . فعود نفسك وجاهدها على ذلك يومًا أو يومين أو أسبوعًا حتى تستطيع النوم وأنت ممتثل لسنة نبيك ﷺ .

ومن السنن أيضًا : إذا تيسر أن تضع يدك اليمنى تحت خدك الأيمن [٢] ، لأن هذا ثبت من فعل الرسول - عليه الصلاة والسلام - ، فإن تيسر لك ذلك فهو جيد وأفضل ، وإن لم يتيسر فليس هو بالتأكيد كمثل النوم على الجنب الأيمن .

ومن ذلك أيضًا : أن تقول هذا الذكر الذي قاله النبي ﷺ وأمر به : « اللهم أسلمت نفسي إليك ، ووجهت وجهي إليك ، وفوضت أمري إليك وألجأت ظهري إليك ، رغبة ورهبة إليك ، لا ملجأ ولا منجا منك إلا إليك ، آمنت بكتابك الذي أنزلت ونبيك الذي أرسلت » . واجعل هذا آخر ما تقول يعني بعد الأذكار مثل : « اللهم بك وضعت جنبي وبك أرفعه ، إن أمسكت نفسي فاغفر لها وارحمها ، وإن أرسلتها فاحفظها بما تحفظ به عبادك الصالحين [٣] » . وما أشبه ذلك . المهم اجعل هذا الذكر الذي علمه النبي ﷺ البراء بن عازب آخر ما تقول .

وقد أمر النبي ﷺ البراء بن عازب أن يعيد عليه هذا الذكر ، فأعاده لكن قال : وبرسولك الذي أرسلت ، فقال له النبي ﷺ : « لا ، قل : وبنبيِّك الذي أرسلت ، ولا تقل وبرسولك » .

قال أهل العلم : وذلك لأن الرسول يطلق على الرسول البشري والرسول الملكي (جبريل) ، كما قال تعالى : ﴿ إِنَّهُۥ لَقَوْلُ رَسُولٍ كَرِيمٍ ۝ ذِى قُوَّةٍ عِندَ ذِى ٱلْعَرْشِ مَكِينٍ ﴾ [التكوير : ١٩، ٢٠] .

وَ (النبي) ؛ للنبي البشري ، وأنت إذا قلت : نبيك الذي أرسلت ، جمعت بين الشهادة للرسول صلى الله عليه وعلى آله وسلم بالنبوة والرسالة ، فكان هذا اللفظ أولى من قولك : وبرسولك الذي أرسلت ؛ لأنك لو قلت : وبرسولك الذي أرسلت ؛ يمكن أن يكون جبريل ﷺ ؛ لأن جبريل رسول أرسله الله إلى الأنبياء بالوحي .

---

(١) انظر في ذلك ما أخرجه البخاري في الدعوات (٦٣١٠) ، والإمام أحمد في مسنده (١/ ٤٠٠) .

(٢) انظر ذلك فيما أخرجه النسائي في السنن (٤/ ٢٠٣ ، ٢٠٤) ، وأحمد في مسنده (٦٥/ ٢٨٨) .

(٣) أخرجه الدارمي في السنن (٢/ ٢٩٠) بلفظه ، وبنحوه البخاري في التوحيد (٧٣٩٣) ومسلم في الذكر والدعاء (٦٤) .

فينبغي عليكم أن تحفظوا هذا الذكر ، وأن تقولوه إذا اضطجعتم على فرشكم ، وأن تجعلوه آخر ما تقولون امتثالًا لأمر النبي صلى اللَّه عليه وعلى آله وسلم ، واتباعًا لسنته وهديه . هذه من آداب النوم .

ومن حكمة اللَّه ﷻ ورحمته أنك لا تكاد تجد فعلًا للإنسان إلا وجدته مقرونًا بذكر ؛ اللباس له ذكر ، الأكل له ذكر ، الشرب له ذكر ، النوم له ذكر ، حتى جماع الرجل لامرأته له ذكر ، كل شيء له ذكر . وذلك من أجل ألا يغفل الإنسان عن ذكر اللَّه ، يكون ذكر اللَّه على قلبه دائمًا ، وعلى لسانه دائمًا ، وهذه من نعمة اللَّه التي نسأل اللَّه تعالى أن يرزقنا شكرها ، وأن يعيننا عليها .

* * *

٨١٦ - وعن عائشة رضي الله عنها قالتْ : كَانَ النَّبيُّ ﷺ يُصَلِّي مِن اللَّيل إحْدَى عَشَرَةَ رَكْعَةً ، فَإذا طَلَعَ الفَجْرُ صَلَّى رَكْعَتَينِ خَفِيفَتَينِ ، ثُمَّ اضْطَجَعَ عَلى شِقِّهِ الأَيمن حَتَّى يَجيءَ المُؤَذِّنُ فَيُؤْذِنَهُ [(١)] . متفقٌ عليه .

٨١٧ - وعن حُذَيفَة رضي الله عنه قال : كان النبي ﷺ إذا أَخَذَ مَضْجَعَهُ مِنَ اللَّيلِ وَضَعَ يَدَهُ تَحْتَ خَدِّه ، ثُمَّ يَقُولُ : « اللَّهُمَّ بِاسْمِكَ أَمُوتُ وَأَحْيَا » وَإذا اسْتَيقَظَ قَالَ : « الحَمْدُ للَّهِ الَّذي أَحْيَانَا بَعْدَ مَا أَمَاتَنَا وَإلَيهِ النُّشُورُ » [(٢)] رواه البخاري .

الشرح

هذه من الأحاديث التي ساقها النووي رحمه الله في (كتاب آداب النوم) ، وقد سبق أن النبي صلى اللَّه عليه وعلى آله وسلم أمر البراء بن عازب أن يضطجع على جنبه الأيمن ، وأن يقول : « اللهم أسلمت نفسي إليك ، ووجهت وجهي إليك ، وفوضت أمري إليك ...» إلى آخر الحديث وبيَّنَّا أن السنة والأفضل أن ينام الإنسان على جنبه الأيمن .

وفي حديث حذيفة رضي الله عنه : أنه ينبغي أن يضع الإنسان يده تحت خده . ومعلوم أنها اليد اليمنى تكون تحت الخد الأيمن ، وهذا ليس على سبيل الوجوب ، ولكن على سبيل الأفضلية ، فإن تيسر لك هذا وإلا فالأمر واسع وللَّه الحمد .

فكان النبي ﷺ يضع يده تحت خده ويقول : « باسمك اللهم أموت وأحيا » يعني أنني أموت وأحيا بإرادة اللَّه ﷻ ، والمراد بالموت هنا واللَّه أعلم : موت النوم ، لأن النوم يسمى وفاة ، أو أنه الموت الأكبر الذي هو مفارقة الروح للبدن ، ويكون كقوله تعالى : ﴿ قُلْ إِنَّ صَلَاتِي وَنُسُكِي وَمَحْيَايَ وَمَمَاتِي لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ ﴾ [الأنعام: ١٦٢] .

وإذا قام قال : « الحمد للَّه الذي أحيانا بعد ما أماتنا وإليه النشور » وهذا يؤيد أن المراد بالموت في

(١) أخرجه البخاري في الدعوات (٦٣١٠) واللفظ له ، ومسلم في صلاة المسافرين (١٢٢) .
(٢) أخرجه البخاري في الدعوات (٦٣١٤) قوله : « بعد ما أماتنا » أي أنامنا . قوله : « النشور » أي الرجوع .

قوله : « باسمك اللهم أموت وأحيا » : يعني موت النوم ، وهو الموت الأصغر .

أما حديث عائشة رضي الله عنها : فقد أخبرت أن النبي ﷺ كان يصلي من الليل إحدى عشرة ركعة ، وهذا أكثر ما كان يصلي ؛ إما إحدى عشرة ، وإما ثلاثة عشر ، وقد ينقص عن ذلك ، حسب ما تكون حاله - عليه الصلاة والسلام - من النشاط وعدم النشاط .

ثم كان إذا طلع الفجر صلى ركعتين خفيفتين وهما سنة الفجر ، فإن السنة أن يخففها ، فيقرأ في الأولى ﴿ قُلْ يَٰٓأَيُّهَا ٱلْكَٰفِرُونَ ﴾ وفي الثانية ﴿ قُلْ هُوَ ٱللَّهُ أَحَدٌ ﴾ [1] ، أو في الأولى ﴿ قُولُوٓاْ ءَامَنَّا بِٱللَّهِ وَمَآ أُنزِلَ إِلَيْنَا ﴾ [البقرة : ١٣٦] إلى آخر الآية في سورة البقرة ، وفي الثانية ﴿ قُلْ يَٰٓأَهْلَ ٱلْكِتَٰبِ تَعَالَوْاْ إِلَىٰ كَلِمَةٍ سَوَآءِۭ بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمْ ﴾[2] في آل عمران .

والمهم : أن يخففهما ؛ فيخفف الركوع والسجود والقيام والقعود ، لكن بشرط ألا يخلَّ بالطمأنينة ، لأنه لو أخلَّ بالطمأنينة لفسدت ، ثم يضطجع على جنبه الأيمن - عليه الصلاة والسلام - بعد أن يصلي الركعتين سنة الفجر ، يضطجع على الجنب الأيمن حتى يؤذنه ، يعني حتي يعلمه بأن وقت الإقامة قد جاء ، فيخرج ويصلي .

ففي هذا الحديث فوائد :

منها : أن من نعمة الله عز وجل أن أطلعنا على ما كان النبي صلى الله عليه وعلى آله وسلم يعمله في السر في الليل بواسطة زوجاته رضي الله عنهن ، وهذا من الحكمة في كثرة تعدد زوجات النبي صلى الله عليه وعلى آله وسلم ؛ فإنه مات عن تسع نسوة ، ومن فوائد ذلك : أن كل امرأة منهن تأتي بسنة لا يطلع عليها إلا هي .

ومنها : أن النبي ﷺ يصلي في الليل إحدى عشرة ركعة ، وكان يطيل القيام - عليه الصلاة والسلام - كان يقوم إذا انتصف الليل ، وأحيانًا بعد ذلك حسب نشاطه ، وكان ﷺ إذا قام من نصف الليل ينام في آخر الليل ، كما قالت عائشة رضي الله عنها في حديث آخر ، وإلا صلى إلى الفجر إذا تأخر ، فإذا طلع الفجر صلى ركعتين ، ثم اضطجع على جنبه الأيمن .

وفيه دليل : على أنه يُسَنُّ تخفيف ركعتي الفجر كما فعل النبي - عليه الصلاة والسلام - وفيه : أن الأفضل للإمام ألا يحضر إلى المسجد إلا عند إقامة الصلاة ، وأن يجعل صلاة الرواتب في بيته ، كما كان النبي - عليه الصلاة والسلام - يفعل ، أما المأموم فإنه يتقدم ، لكن الإمام لما كان يُنتظر ولا ينتظر كانت السنة أن يتأخر في بيته حتى يصلي النوافل المشروعة ثم يأتي .

وفيه دليل على استحباب الاضطجاع على الجنب الأيمن بعد سنة الفجر لمن تطوع في بيته كما فعل النبي - عليه الصلاة والسلام - واختلف العلماء رحمهم الله في هذه الضجعة :

فمنهم من قال : إنها سنة بكل حال . ومنهم من قال : إنها ليست بسنة إلا إذا كان الإنسان

---

(١) انظر في ذلك ما أخرجه مسلم في الحج (١٤٧) والدارمي في السنن (٤٦/٢) .

(٢) أخرج ذلك مسلم في صلاة المسافرين (٩٩ ، ١٠٠) .

صاحب صلاة في آخر الليل ، فإنه يضطجع ليعطي بدنه شيئًا من الراحة .

ومنهم من شدد فيها حتى جعلها بعض العلماء من شروط صلاة الفجر ، وقال : من لم يضطجع بعد السنة فلا صلاة له ، لكنَّ هذا قول شاذ ، وإنما ذكرناه لنبين لكم أن بعض العلماء يأتون بأقوال شاذة بعيدة من الصواب .

والصواب أنها سنة لمن كان له تهجد من الليل وصلاة وطول قيام فهذا يضطجع حتى يُؤذَّنَ بالصلاة وهذا في حق الإمام ظاهر ، أما المأموم فإنه ربما لو اضطجع يقيمون الصلاة ، فيفوته شيء منها وهو لا يشعر ، لأن المأموم يَنتظِر ولا يُنْتَظر ، لكن الإمام هو الذي ينتظره الناس ، فإذا اضطجع بعد سنة الفجر في بيته ، فإن هذا من السنة إذا كان ممن يجتهد في التهجد ، أما من لا يقوم إلا متأخرًا أو لا يقوم إلا مع أذان الفجر فهذا لا حاجة إلى أن يضطجع بعد سنة الفجر .

* * *

٨١٨ - وعن يَعِيشِ بن طِخْفَةَ الْغِفَارِيِّ ﷺ قال : قال أبي : بَينَمَا أَنَا مُضْطَجِعٌ في المسْجِدِ عَلى بَطْني إذا رَجُلٌ يُحَرِّكُني بِرِجْلِهِ فقال : « إنَّ هذِهِ ضِجْعَةٌ يُبْغِضُهَا اللَّهُ » قال : فَنَظَرْتُ ، فَإِذا رسول اللَّه ﷺ [١] . رواه أبو داود بإسنادٍ صحيحٍ .

٨١٩ - وعن أبي هريرة ﷺ عن رسول اللَّه ﷺ قال : « مَنْ قَعَدَ مَقْعَدًا لَمْ يَذْكُرِ اللَّه تعالى فِيهِ ، كَانَتْ عَلَيهِ مِنَ اللَّهِ تعالى تِرَةٌ ، وَمَن اضْطَجَعَ مَضْجَعًا لا يَذْكُرُ اللَّه تعالى فِيهِ ، كَانَتْ عَلَيه مِن اللَّهِ تِرَةٌ » [٢] رواه أبو داود بإسنادٍ حسن . « التِّرَةُ » بكسر التاءِ المثناة من فوق ، وهي : النَّقْصُ ، وَقِيلَ : التَّبِعَةُ .

الشرح

هذه بقية الأحاديث الواردة في آداب النوم والاضطجاع ، ذكر فيها المؤلف حديث يعيش بن طخفة الغفاري أنه قال : حدثني أبي أنه كان نائمًا في المسجد على بطنه ، فإذا رجل يركضه برجله ويقول : « إن هذه ضجعة يبغضها اللَّه ﷻ» فنظرت فإذا رسول اللَّه ﷺ .

ففي هذا الحديث دليل على أنه لا ينبغي للإنسان أن ينام على بطنه لا سيما في الأماكن التي يغشاها الناس ؛ لأن الناس إذا رأوه على هذه الحال فهي رؤية مكروهة ، لكن إذا كان في الإنسان وجع في بطنه وأراد أن ينام على هذه الكيفية لأنها أريح له ، فإن هذا لا بأس به ، لأن هذه حاجة .

وفي هذا : دليل على جواز ركض الإنسان بالرجل يعني : نخسه برجله ؛ لأن النبي صلى اللَّه عليه وعلى آله وسلم فعل ذلك وهو أشد الناس تواضعًا ، ولا يعد هذا من الكبر اللهمَّ إلا أن يكون في قلب

---

(١) أخرجه أبو داود في الأدب (٥٠٤٠) ، والإمام أحمد في مسنده (٣/٤٣٠) طخفة بالخاء المعجمة ويقال : طهفة بالهاء وطغفة بالغين المعجمة ورجح البخاري في الأوسط طخفة .

(٢) أخرجه أبو داود في الأدب (٤٨٥٦) .

الإنسان شيء من كبر فهذا شيء آخر ، لكن مجرد أن تركض الرجل برجلك لا يعتبر هذا كبرًا ، إلا أنه ينبغي مراعاة الأحوال إذا كنت تخشى أن الرجل الذي تركضه برجلك يرى أنك مستهين به ، وأنك محتقر له فلا تفعل ، لأن الشيء المباح إذا ترتب عليه محظور فإنه يمنع .

ثم ذكر حديث أبي هريرة في الرجل يجلس مجلسًا لا يذكر اللَّه فيه ، أو يضطجع مضطجعًا لا يذكر اللَّه فيه ، كان عليه من اللَّه ترة .

والترة يعني الخسارة ؛ أن تجلس مجلسًا لا تذكر اللَّه فيه فهذا خسارة ؛ لأنك لم تربح فيه .

وفيه دليل : على أنه ينبغي للإنسان أن يكثر من ذكر اللَّه ؛ قائمًا وقاعدًا وعلى جنبه ، وكذلك إذا اضطجعت مضطجعًا لم تذكر اسم اللَّه فيه فإنه يكون عليك من اللَّه ترة أي خسارة .

فأكثر من ذكر اللَّه دائمًا وأبدًا ، كن كمن قال اللَّه تعالى فيهم : ﴿ إِنَّ فِي خَلْقِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَٱخْتِلَٰفِ ٱلَّيْلِ وَٱلنَّهَارِ لَءَايَٰتٍ لِّأُو۟لِى ٱلْأَلْبَٰبِ ۝١٩٠ ٱلَّذِينَ يَذْكُرُونَ ٱللَّهَ قِيَٰمًا وَقُعُودًا وَعَلَىٰ جُنُوبِهِمْ ﴾ [آل عمران : ١٩٠ - ١٩١] ، لتكون ممتثلًا لقول اللَّه تعالى : ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱذْكُرُوا۟ ٱللَّهَ ذِكْرًا كَثِيرًا ۝٤١ وَسَبِّحُوهُ بُكْرَةً وَأَصِيلًا ﴾ (١) [الأحزاب : ٤١ - ٤٢] . أعاننا اللَّه على ذكره وشكره وحسن عبادته .

* * *

١٢٨ - بابُ جواز الاستِلقاء على القفا ووضع إحدى الرِّجلين على الأخرى إذا لم يَخف انكشاف العورة وجواز القعود متربعًا ومحتبيًا

٨٢٠ - عن عبدِ اللَّه بن يزيد رضي الله عنهما أَنَّهُ رأَى رسول اللَّه ﷺ مُسْتَلْقِيًا في المَسْجِدِ ، وَاضِعًا إِحْدَى رِجْلَيهِ عَلى الأُخرَى (٢) . متفقٌ عليه .

٨٢١ - وعن جابر بن سَمُرَةَ رضي الله عنه قال : كان النبيُّ ﷺ إذا صَلَّى الفَجْرَ تَرَبَّعَ في مَجْلِسِهِ حَتَّى تَطْلُعَ الشَّمْسُ حَسْنَاءَ (٣) . حديث صحيح ، رواه أبو داود وغيره بأسانيد صحيحة .

٨٢٢ - وعن ابنِ عمر رضي الله عنهما قال : رأيت رسول اللَّه ﷺ بِفناءِ الكَعْبَةِ مُحْتَبِيًا بِيَدَيهِ هكذا . وَوَصَفَ بيدَيهِ الاحْتِبَاء ، وَهُوَ القُرْفُصَاءُ (٤) . رواه البخاري .

---

(١) قوله تعالى : ﴿ لَءَايَٰتٍ ﴾ لأدلة على قدرة اللَّه وصدق رسوله . قوله تعالى : ﴿ لِّأُو۟لِى ٱلْأَلْبَٰبِ ﴾ لأصحاب العقول . قوله تعالى : ﴿ بُكْرَةً وَأَصِيلًا ﴾ أول النهار وآخره .

(٢) أخرجه مسلم في اللباس والزينة (٧٥) واللفظ له ، والبخاري في اللباس (٥٩٦٩) . قوله : « مستلقيًا » أي نائمًا على ظهره .

(٣) أخرجه أبو داود في الأدب (٤٨٥٠) واللفظ ، ومسلم في المساجد ومواضع الصلاة (٢٨٧) . قوله « تربع في مجلسه » أي جلس متربعًا في محل صلاته يذكر اللَّه تعالى ، قوله : « حسناء » أي بيضاء .

(٤) أخرجه البخاري في الاستئذان (٦٢٧٢) قوله « محتبيًا » الاحتباء الجلوس على الألية وضم الفخذين والساقين إلى البطن بالذراعين للاستناد .

٨٢٣ - وعن قَيلةَ بنتِ مَخرمَةَ ﵂ قالت : رَأَيتُ النبيَّ ﷺ وَهُوَ قَاعِدٌ القُرْفُصَاءَ ، فَلَمَّا رَأَيتُ رسول الله ﷺ المُتَخَشِّعَ في الجِلْسَةِ أُرعدْتُ مِنَ الفَرَقِ [١] . رواه أبو داود ، والترمذي .

٨٢٤ - وعن الشَّريد بنِ سُوَيدٍ ﵁ قال : مَرَّ بي رسول الله ﷺ وَأَنا جَالِسٌ هكَذا ، وَقَدْ وَضَعْتُ يَدِيَ اليُسْرَى خَلْفَ ظَهْرِي ، وَاتَّكَأْتُ عَلى أَلْيَةِ يَدِي فقال : « أَتَقْعُدُ قِعْدَةَ المَغْضُوبِ عَلَيهِمْ ؟! » [٢] رواه أبو داود بإسنادٍ صحيح .

الشرح

هذا الباب الذي عقده النووي ﵀ في بيان النوم على الظهر ، وقد سبق أن الأفضل لمن أراد أن ينام ، أن ينام على الجنب الأيمن ، وسبق ذكرنا أن النوم على البطن لا ينبغي إلا لحاجة .

وبقي النوم على الظهر وهو لا بأس به بشرط أن يأمن انكشاف العورة ، فإن كان يخشى من انكشاف عورته ، بحيث يرفع إحدى رجليه فيرتفع الإزار وليس عليه سراويل ؛ فإنه لا ينبغي ، لكن إذا أمن من انكشاف العورة ؛ فإن ذلك لا بأس به .

وبقي شيء رابع وهو النوم على الجنب الأيسر ، فهذا أيضًا لا بأس به ، فالنوم على الظهر لا بأس به ، والنوم على الجنب الأيسر لا بأس به ، والنوم على الجنب الأيمن أفضل ، والنوم منبطحًا لا ينبغي إلا لحاجة .

أما القعود : فإن جميع أنواع القعود لا بأس بها ؛ فلا بأس أن يقعد الإنسان متربعًا ، ولا بأس أن يجلس وهو محتبي القرفصاء ؛ يعني يقيم فخذيه وساقيه ، ويجعل يديه مضمومتين على الساقين ، هذا أيضًا لا بأس به ؛ لأن النبي صلى الله عليه وعلى آله وسلم قعد هذه القعدة .

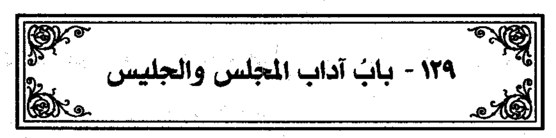
ولا يكره من الجلوس إلا ما وصفه النبي ﷺ بأنه قعدة المغضوب عليهم ، بأن يجعل يده اليسرى من خلف ظهره ويجعل بطن الكف على الأرض ويتكئ عليها ، فإن هذه القعدة وصفها النبي صلى الله عليه وعلى آله وسلم بأنها قعدة المغضوب عليهم .

أما لو وضع اليدين كلتيهما من وراء ظهره واتكأ عليهما فلا بأس ولو وضع اليد اليمنى فلا بأس ، إنما التي وصفها النبي - عليه الصلاة والسلام - بأنها قعدة المغضوب عليهم ؛ أن يجعل اليد اليسرى من خلف ظهره ويجعل باطنها - أي أليتها - على الأرض ، ويتكيء عليها ، فهذه هي التي وصفها النبي ﷺ بأنها قعدة المغضوب عليهم .

---

(١) أخرجه أبو داود في الأدب (٤٨٤٧) ، قوله : « القرفصاء » أن يجلس على أليتيه ويلصق فخذيه ببطنه ويحتبي بيديه يضعهما على ساقيه ، أو يجلس على ركبتيه منكبًا ويلصق بطنه بفخذيه ويتأبط كفيه ، قوله : « المتخشع » المتذلل المخبت . قوله : « أرعدت » أي اضطربت . قوله : « من الفرق » أي من الخوف .

(٢) أخرجه أبو داود في الأدب (٤٨٤٨) ، وأحمد في مسنده (٣٨٨/٤) والبيهقي في السنن (٢٣٦/٣) قوله : « على ألية يدي » ألية اليد : اللحمة التي في أصل الإبهام - والمسماة بألية الإبهام - وما يقابله من أصل الخنصر والذي يسمى بالضَّرَّة . قوله « قعدة » اسم لبيان الهيئة . قوله « المغضوب عليهم » وهم اليهود كما هو قول جمهور المفسرين في تفسير آخر الفاتحة .



١٢٩ - بابُ آداب المجلس والجليس

٨٢٥ - عن ابنِ عُمَرَ رضي الله عنهما قال : قال رسول اللَّه ﷺ : « لا يُقيمَنَّ أَحَدُكُم رَجُلًا مِنْ مَجْلِسِهِ ثُمَّ يَجْلِسُ فِيهِ ، وَلَكِنْ تَوَسَّعُوا وَتَفَسَّحُوا » وَكَانَ ابن عُمَرَ إذا قامَ له رَجُل مِنْ مَجْلِسِهِ لَمْ يَجْلِسْ فِيهِ [1] . متفقٌ عليه .

٨٢٦ - وعن أبي هُريرةَ رضي الله عنه أَنَّ رسول اللَّه ﷺ قال : « إذا قامَ أَحَدُكُم مِنْ مَجْلِسٍ ، ثُمَّ رَجَعَ إِلَيهِ ، فَهُوَ أَحَقُّ بِهِ » [2] رواه مسلم .

الشرح

قال المؤلف رحمه الله في (باب آداب المجلس والجليس) ، هذا الباب عقده المؤلف رحمه الله لبيان الآداب التي ينبغي أن يكون عليها الإنسان في مجالسه ، ومع جليسه .

وقد ذكر اللَّه تعالى في كتابه شيئًا من آداب المجالس ، فقال تعالى : ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِذَا قِيلَ لَكُمْ تَفَسَّحُواْ فِى ٱلْمَجَٰلِسِ فَٱفْسَحُواْ يَفْسَحِ ٱللَّهُ لَكُمْ ﴾ [المجادلة : ١١] . والشريعة الإسلامية شريعة شاملة لكل ما يحتاج الناس إليه في دينهم ودنياهم ، قال اللَّه تبارك وتعالى : ﴿ وَنَزَّلْنَا عَلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ تِبْيَٰنًا لِّكُلِّ شَىْءٍ وَهُدًى وَرَحْمَةً وَبُشْرَىٰ لِلْمُسْلِمِينَ ﴾ [النحل : ٨٩] وقال أبو ذر رضي الله عنه : لقد توفي رسول اللَّه صلى اللَّه عليه وعلى آله وسلم ، وما طائر يقلب جناحيه في السماء إلا ذكر لنا منه علمًا [3] .

ولهذا تجد الشريعة بينت مسائل الدين المهمة الكبيرة ، كالتوحيد وما يتصل به من العقيدة ، والصلاة ، والزكاة ، والصيام ، والحج ، وما كان دون ذلك من آداب النوم ، والأكل ، والشرب ، والمجالس .

ثم ذكر المؤلف حديث عبد اللَّه بن عمر رضي الله عنهما أن النبي ﷺ قال : « لا يقيمن أحدكم رجلًا من مجلسه ثم يجلس فيه ولكن توسَّعوا وتفسَّحوا » يعني إذا دخلت مكانًا ووجدت المكان ممتلئًا ، فلا تقل : يا فلان قم ثم تجلس في مكانه ، ولكن إذا كنت لابد أن تجلس ، فقل : تفسَّحوا توسَّعوا ، فإذا تفسحوا وتوسعوا ؛ فإن اللَّه تعالى يوسع لهم ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِذَا قِيلَ لَكُمْ تَفَسَّحُواْ فِى ٱلْمَجَٰلِسِ فَٱفْسَحُواْ يَفْسَحِ ٱللَّهُ لَكُمْ ﴾ .

أما أن تقيم الرجل وتجلس مكانه فإن هذا لا يجوز ، حتى في مجالس الصلاة ؛ لو رأيت إنسانًا في الصف الأول فإنه لا يحل لك أن تقول له : قمْ ، ثم تجلس في مكانه ، حتى لو كان صبيًّا لكنه

---

(١) أخرجه مسلم بلفظه في السلام (٢٨) ، والبخاري بنحوه في الاستئذان (٦٢٦٩ ، ٦٢٧٠) ، قوله : « توسعوا » أي تكلفوا التوسع للقادم . قوله : « وتفسحوا » بمعنى توسعوا والعطف هنا تفسيري .

(٢) أخرجه مسلم في السلام (٣١) ، وأحمد في مسنده (٢/٢٨٣) ، وابن ماجه في الأدب (٣٧١٧) .

(٣) أخرجه أحمد في مسنده (٥/١٥٣) .

يصلي ، فإنه لا يحل لك أن تقيمه من مكانه وتصلي فيه ؛ لأن الحديث عام ، والصبي لابد أن يصلي مع الناس ، ويكون في مكانه الذي يكون فيه .

وأما قول النبي صلى الله عليه وعلى آله وسلم : « ليلني منكم أولو الأحلام والنهى » [1] فهو أمر للبالغين العقلاء أن يتقدموا حتى يلوا الرسول - عليه الصلاة والسلام - ، وليس نهيًا أن يكون الصغار قريبين منه ، ولو كان أراد ذلك لقال ﷺ : لا يلني إلا أولو الأحلام والنهى ، أما إذا أمر أن يليه أولو الأحلام والنهى ، فالمعنى أنه يحثهم على التقدم حتى يكونوا وراء النبي صلى الله عليه وعلى آله وسلم، يلونه ويفهمون عنه شريعته وينقلونها إلى الناس .

وكان ابن عمر رضي الله عنهما من ورعه إذا قام أحد له وقال له : اجلس في مكاني . لا يجلس فيه ، كل هذا من الورع ، يخشى أن هذا الذي قال قام خجلًا وحياءً من ابن عمر ، ومعلوم أن الذي يهدي إليك أو يعطيك شيئًا خجلًا وحياءً أنك لا تقبل منه ؛ لأن هذا كالمكره ، ولهذا قال العلماء رحمهم الله : يحرم قبول الهدية إذا علمت أنه أهداك حياءً أو خجلًا .

ومن ذلك أيضًا إذا مررت ببيت وفيه صاحبه وقال : تفضل ، وانت تعرف أنه إنما قال ذلك حياءً وخجلًا فلا تدخل عليه ؛ لأن هذا يكون كالمكره .

هذه من آداب الجلوس التي شرعها النبي ﷺ لأمته ؛ ألا يقيم الرجل أخاه من مجلسه ثم يجلس فيه .

* * *

٨٢٧ - وعن جَابِرِ بنِ سَمُرَةَ رضي الله عنهما قال : كُنَّا إذا أَتَينا النَّبيَّ ﷺ ، جَلَسَ أَحَدُنَا حَيثُ يَنْتَهي [2] .

رواه أبو داود ، والترمذي وقال : حديث حسن .

٨٢٨ - وعن أبي عبدِ اللَّه سَلمان الفارسيِّ رضي الله عنه قال : قال رسول اللَّه ﷺ : « لا يَغْتَسِلُ رَجُلٌ يَومَ الجُمُعَةِ ، وَيَتَطَهَّرُ ما استَطَاعَ مِنْ طُهْر ، وَيَدَّهِنُ مِنْ دُهْنِهِ ، أَو يَمَسُّ مِنْ طِيبِ بَيتِهِ ، ثُمَّ يخرُجُ فَلا يُفَرِّقُ بَينَ اثْنَينِ ، ثُمَّ يُصَلِّي ما كُتِبَ لهُ ، ثُمَّ يُنْصِتُ إذا تَكَلَّمَ الإمامُ ، إلَّا غُفِرَ لَهُ ما بَينَهُ وَبينَ الجُمُعَةِ الأُخْرَى» [3] رواه البخاري .

---

(١) سبق تخريجه .

(٢) أخرجه أبو داود في الأدب (٤٨٢٥) ، والترمذي في الاستئذان (٢٧٢٥) ، قوله : « جلس أحدنا حيث ينتهي » سواء كان ذلك في صدر المجلس أو أسفله . وقد جاء أنه ﷺ كان يجلس حيث ينتهي به المجلس .

(٣) أخرجه البخاري في الجمعة (٨٨٣) قوله : « فلا يفرق بين اثنين » قال الزين بن المنير : التفرقة بين اثنين يتناول القعود بينهما وإخراج أحدهما والقعود مكانه ، وقد يطلق على مجرد التخطي ، وفي التخطي زيادة رفع رجليه على رءوسهما أو أكتافهما ، وربما تعلق بثيابهما شيء مما برجليه ، واستثنى من كراهة التخطي ما إذا كان في الصفوف الأول فرجة فأراد الداخل سدها ، فيغتفر له ؛ لتقصيرهم .

الشرح

هذان الحديثان نقلهما النووي رَحِمَهُ اللَّهُ في (باب آداب المجلس والجليس) ، فمن آداب المجلس : أن الإنسان إذا دخل على جماعة يجلس حيث ينتهي به المجلس ، هكذا كان فعل النبي ﷺ ، وفعل الصحابة إذا أتوا مجلس النبي ﷺ ، يعني : لا يتقدم إلى صدر المجلس إلا إذا آثره أحد بمكانه ، أو كان قد تُرِك له مكان في صدر المجلس فلا بأس .

وأما أن يشق المجلس وكأنه يقول للناس : ابتعدوا وأجلس أنا في صدر المجلس ، فهذا خلاف هدي النبي ﷺ وهدي أصحابه رضي الله عنهم ، وهو يدل على أن الإنسان عنده شيء من الكبرياء والإعجاب بالنفس .

ثم إن كان الرجل صاحب خير وتذكير وعلم ؛ فإن مكانه الذي هو فيه سيكون هو صدر المجلس ، فسوف يتجه الناس إليه إن تكلم ، أو يسألونه إذا أرادوا سؤاله ، ولهذا كان الرسول - عليه الصلاة والسلام - إذا دخل المجلس جلس حيث ينتهي به ، ثم يكون المكان الذي هو فيه الرسول ﷺ هو صدر المجلس .

وهكذا أيضًا ينبغي للإنسان إذا دخل المجلس ورأى الناس قد بقوا في أماكنهم ؛ فليجلس حيث ينتهي به المجلس ، ثم إن كان من عامة الناس فهذا مكانه ، وإن كان من خاصة الناس ؛ فإن الناس سوف يتجهون إليه ويكون مكانه هو صدر المجلس .

كذلك أيضًا من آداب المجلس : ألا يفرق بين اثنين [١] يعني لا يجلس بينهما فيضيق عليهما ، فإن النبي ﷺ ذكر الرجل يتطهر في بيته يوم الجمعة ويدهن ويأخذ من طيب أهله ، ثم يأتي إلى الجمعة ولا يفرق بين اثنين ، ويصلي ما كتب له حتى يحضر الإمام ؛ فإنه يغفر له ما بين الجمعة والجمعة الأخرى وفضل ثلاثة أيام ؛ فدل ذلك على أنه يجب على الإنسان في يوم الجمعة أن يتطهر ، والمراد بذلك الاغتسال ؛ لأن غسل الجمعة واجب ويأثم من لم يغتسل إلا لضرورة [٢] ، لأن النبي ﷺ قال : «غسل الجمعة واجب على كل محتلم » [٣] ، يعني على كل بالغ ، فكل بالغ يأتي إلى الجمعة ؛ فإنه يجب

---

(١) انظر صحيح البخاري في الجمعة (٩١١) .

(٢) قال الحنفية والشافعية والحنابلة والمالكية أن غسل يوم الجمعة ليس واجبًا ، وقال بذلك أيضًا الثوري والأوزاعي وابن المنذر ، قال ابن عبد البر في هذا : أجمع علماء المسلمين قديمًا وحديثًا على أن غسل الجمعة ليس بفرض ، وحكي عن أحمد روايةً قديمًا وحديثًا على أن غسل يوم الجمعة ليس بفرض ، وحكي عنه رواية أخرى أنه واجب ، وروى ذلك عن أبي هريرة وهو قول أهل الظاهر ؛ إذا قالوا : الغسل واجب يوم الجمعة لليوم لا للصلاة ، والصحيح أن الغسل يوم الجمعة سنة لافرض ؛ فله بذلك حكم سائر المندوبات ، وهو قول جماهير العلماء من الصحابة والتابعين ومن بعدهم ودليل ذلك قوله ﷺ « من توضأ يوم الجمعة فبها ونعمت ، ومن اغتسل فالغسل أفضل »(انظر : المغني ٣٤٦/٢ ، المجموع ٥٣٥/٤ ، بداية المجتهد ١٤٢/١ ، بدائع الصنائع ٢٦٩/١ ، المحلى ٧٥/٥ ، ٧٦ ، فقه الكتاب والسنة ٢٩٢٩/٣ ، ٢٩٣٠) .

(٣) أخرجه البخاري في الجمعة(٨٧٩) ومسلم في الجمعة(٧) وابن ماجه في السنن(١٠٨٩) وأحمد في مسنده(٦٠/٣) .

عليه أن يغتسل إلا أن يخاف ضررًا أو لا يجد ماءً ، كما لو مَرَّ مثلًا بقرية وهو مسافر ، وأراد أن يصلي الجمعة معهم ولم يجد مكانًا يغتسل فيه ، فهذا يسقط عنه لقوله تعالى : ﴿ لَا يُكَلِّفُ ٱللَّهُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا ﴾ [البقرة: ٢٨٦] .

كذلك أيضًا مما يسن في هذا اليوم : أن يدهَّن [١] ، وذلك إذا كان له شعر رأس ، فإنه يدهن رأسه ويصلحه حتى يكون على أجمل حال .

ومن ذلك أيضًا : أن يلبس أحسن ثيابه [٢] . ومن ذلك أيضًا : أن يتسوك ، يخصها بسواك الجمعة وليس السواك العادي ، ولهذا لو أن الإنسان استعمل يوم الجمعة الفرشاة التي تطهِّرُ الفم لكان هذا حسنًا وجيدًا .

ومن ذلك : أن يتقدم إلى المسجد ، فإن من راح في الساعة الأولى فكأنما قرب بدنة ، ومن راح في الساعة الثانية فكأنما قرب بقرة ، ومن راح في الساعة الثالثة فكأنما قرب كبشًا أقرن ، ومن راح في الساعة الرابعة فكأنما قرب دجاجة ، ومن راح في الساعة الخامسة فكأنما قرب بيضة ، ومن أتى بعد دخول الإمام فليس له أجر التقدم ، ولكن له أجر الجمعة [٣] ، لكن أجر التقدم حرم منه . وكثير من الناس - نسأل الله لنا ولهم الهداية - ليس لهم شغل في يوم الجمعة ، ومع ذلك تجده يقعد في بيته أو في سوقه بدون أي حاجة وبدون أي سبب ، ولكن الشيطان يثبطه من أجل أن يفوت عليه هذا الأجر العظيم ، فبادر من حين تطلع الشمس ، واغتسل وتنظف ، والبس أحسن الثياب ، وتطيب ، وتقدم إلى المسجد ، وصلِّ ما شاء الله ، واقرأ القرآن إلى أن يحضر الإمام .

وكذلك أيضًا من آداب الجمعة : ألا يفرق بين اثنين [٤] ، يعني لا تأتي بين اثنين تدخل بينهما وتضيق عليهما ، أما لو كان هناك فرجة ؛ فهذا ليس بتفريق ؛ لأن هذين الاثنين هما اللذان تفرقا ، لكن أن تجد اثنين متراصين ليس بينهما مكان لجالس ثم تجلس بينهما !! هذا من الإيذاء ، وقد رأى النبي ﷺ رجلًا يتخطى الرقاب يوم الجمعة والنبي ﷺ يخطب ، فقال له : « اجلس فقد آذيت » [٥] ، كل هذه من آداب الحضور إلى الجمعة .

* * *

٨٢٩ - وعن عَمْرو بن شُعَيبٍ عن أَبِيهِ عن جَدِّهِ رضي الله عنه أن رَسول اللَّه ﷺ قال : « لا يَحِلُّ لِرَجُلٍ أن يُفَرِّقَ بَينَ اثنَينِ إلا بِإذْنِهِمَا » رواه أبو داود ، والترمذي وقال : حديث حسن .

---

(١) انظر صحيح البخاري في الجمعة (٨٨٠ ، ٨٨٣) .
(٢) انظر صحيح البخاري في الجمعة (٨٨٦) .
(٣) انظر في ذلك ما أخرجه البخاري في الجمعة (٨٨١) .
(٤) انظر صحيح البخاري في الجمعة (٩١٠) .
(٥) أخرجه أبو داود في الصلاة (١١١٨) ، وابن ماجه في السنن (١١١٥) ، والنسائي في السنن (٣/١٠٣) .

وفي روايةٍ لأبي داود : « لا يُجلَسْ بَينَ رَجُلَينِ إلا بإذْنِهِمَا »[١] .

٨٣٠ – وعن حُذَيفَةَ بنِ اليَمَانِ ﷺ أن رسول اللّٰه ﷺ لَعَنَ مَنْ جَلَسَ وَسْطَ الحَلْقَة . رواه أبو داود بإسنادٍ حسن .

وروى الترمذي عن أبي مِجْلَزٍ : أَنَّ رَجُلًا قَعَدَ وَسْطَ حَلْقَةٍ ، فقال حُذَيفَةُ : مَلْعُونٌ عَلى لِسَانِ مُحَمَّدٍ ﷺ – أَو : لَعَنَ اللّٰه عَلى لِسَانِ مُحَمَّدٍ ﷺ – مَنْ جَلَسَ وَسْطَ الحَلْقَةِ[٢] . قال الترمذي : حديث حسن صحيح .

٨٣١ – وعن أبي سعيد الخُدْري ﷺ قال : سَمِعْتُ رسول اللّٰه ﷺ يقول : «خَيرُ المجَالِسِ أَوسَعُهَا »[٣] .

رواه أبو داود بإسنادٍ صحيح على شرطِ البخاري .

٨٣٢ – وعن أبي هريرة ﷺ قال : قال رسول اللّٰه ﷺ : « مَنْ جَلسَ في مَجْلِسٍ ، فَكَثُرَ فِيه لَغَطُهُ فقال قَبْلَ أَنْ يَقُومَ مِنْ مَجْلِسِهِ ذلك : سُبْحَانَكَ اللَّهُمَّ وَبحمْدِكَ ، أَشْهَدُ أَنْ لا إلهَ إلا أَنْتَ ، أَسْتَغْفِرُكَ وَأَتُوبُ إِلَيكَ ، إلا غُفِرَ له مَا كَانَ في مَجْلِسِهِ ذلكَ »[٤] رواه الترمذي وقال : حديث حسن صحيح .

الشرح

ومن آداب المجالس : ما ذكره المؤلف عن عمرو بن شعيب عن أبيه عن جده ﷺ أن النبي ﷺ قال : « لا يحل لرجل أن يفرق بين اثنين إلا بإذنهما » . يعني : إذا جئت ووجدت شخصين جلس أحدهما إلى جنب الآخر فلا تفرق بينهما ، إلا إذا أذنا لك في هذا ، إما إذنًا باللسان ، يعني إذا قال أحدهما : تعال اجلس هنا ، أو بالفعل ؛ بأن يتفرق بعضهما عن بعض ؛ إشارة إلى أنك تجلس بينهما ، وإلا فلا تفرق بينهما ؛ لأن هذا من سوء الأدب إن قلت : تفسح ، ومن الأذية إن جلست وضيقت عليهما .

ومن الآداب أيضًا : أن يجلس الإنسان حيث انتهى به المجلس كما سبق ، فلا يجوز للإنسان أن يجلس وسط الحلقة ، يعني إذا رأيت جماعة متحلقين سواء كانوا متحلقين على من يعلمهم ، أو على من يتكلم معهم ، المهم إذا كانوا حلقة فلا تجلس في وسط الحلقة ؛ وذلك لأنك تحول بينهم وبين من معهم ، ثم إنهم لا يرضون في الغالب أن يجلس أحد في الحلقة يتقدم عليهم ، فيكون في ذلك عدوان عليهم وعلى حقوقهم ، إلا إذا أذنوا لك ، بأن وقفت مثلًا وكان المكان ضيقًا وقالوا : تفضل اجلس هنا فلا حرج ، أما بدون إذن ، فإن حذيفة بن اليمان أخبر بأن النبي صلى اللّٰه عليه وعلى آله وسلم

---

(١) أخرجه أبو داود في الأداب (٤٨٤٥) ، وأحمد في مسنده ٢١٣/٢ ، والترمذي في الأدب (٢٧٥٢) .
(٢) أخرجه أبو داود في الأدب (٤٨٢٦) ، والترمذي في الأدب (٢٧٥٤) .
(٣) أخرجه أبو داود في الأدب (٤٨٢٠) .
(٤) أخرجه أحمد في مسنده ٤٩٤/٢ ، والترمذي في الدعوات (٣٤٣٣) قوله : « فكثر فيه لغطه » المراد : كثر كلامه بما لا ينفعه آخره . قوله : « سبحانك » أي تنزيهًا لك عما لا يليق بجلالك .

« لعن من جلس في وسط الحلقة » .

كذلك أيضًا من آداب المجالس : أن الإنسان إذا جلس مجلسًا فكثر فيه لغطه ، فإنه يكفره أن يقول : « سبحانك اللهم وبحمدك ، أشهد أن لا إله إلا أنت ، أستغفرك وأتوب إليك » قبل أن يقوم من مجلسه ، فإذا قال ذلك ؛ فإن هذا يمحو ما كان منه من لغط ، وعليه فيستحب أن يُختم المجلس الذي كثر فيه اللغط بهذا الدعاء : « سبحانك اللهم وبحمدك ، أشهد أن لا إله إلا أنت ، أستغفرك وأتوب إليك » .

ومما ينبغي في المجالس أيضًا أن تكون واسعة ، فإن سعة المجالس من خير المجالس كما قال ﷺ : « خير المجالس أوسعها » ؛ لأنها إذا كانت واسعة حملت أناسًا كثيرين ، وصار فيها انشراح وسعة صدر ، وهذا على حسب الحال ، قد يكون بعض الناس حُجَر بيته ضيقة ، لكن إذا أمكنت السعة فهو أحسن ؛ لأنه يحمل أناسًا كثيرين ، ولأنه أشرح للصدر .

* * *

٨٣٣- وعن أبي برزَةَ ﷺ قال : كَانَ رسول اللَّه ﷺ يقولُ بأَخَرَةٍ إذا أَرَادَ أَنْ يَقُومَ مِنَ المجلِس : «سُبْحَانَكَ اللَّهُمَّ وَبحَمْدِكَ ، أَشْهَدُ أَنْ لا إلَه إلا أَنْتَ ، أَسْتَغْفِرُكَ وَأَتُوبُ إِلَيْكَ » فقال رجل : يا رسول اللَّه ، إنَّكَ لَتَقُولُ قَوْلًا مَا كُنْتَ تَقُولُهُ فِيمَا مَضَى ؟ قال : «ذلك كَفَّارَةٌ لِمَا يَكُونُ في المجلِسِ » [1] رواه أبو داود .

ورواه الحاكم أبو عبد اللَّه في « المستدرك » من رواية عائشة ﷺ وقال : صحيح الإسناد

الشرح

سبق أن النبي صلى اللَّه وعلى آله وسلم قال : « من جلس مجلسًا فكثر فيه لغطه فقال قبل أن يقوم : سبحانك اللهم وبحمدك ، أشهد أن لا إله إلا أنت ، استغفرك وأتوب إليك ، إلا غفر له ما كان في مجلسه ذاك » . وفي حديث أبي برزة الذي وصله المؤلف بالحديث السابق دليل على أن النبي صلى اللَّه عليه وعلى آله وسلم كان يفعله ، وبين أن هذا كفارة المجلس ، وقلما يجلس الإنسان مجلسًا إلا ويحصل له فيه شيء من اللغط ، أو من اللغو ، أو من ضياع الوقت ، فيحسن أن يقول ذلك كلما قام من مجلسه ؛ « سبحانك اللهم وبحمدك ، أشهد أن لا إله إلا أنت ، أستغفرك وأتوب إليك » حتى يكون كفارة للمجلس .

أما الحديث الآخر عن ابن عمر ﷺ : أن النبي ﷺ قلَّما كان يقوم من مجلس حتى يدعو بهؤلاء الدعوات : « اللهم اقسم لنا من خشيتك ....» وذكر تمام الحديث ؛ فهذا سيأتي الكلام عليه إن شاء اللَّه في موضع آخر .

والمقصود بهذا أن الرسول ﷺ كان يقول ذلك في أكثر أحيانه ، ولكن هل هو في كل مجلس حتى مجالس الوعظ ومجالس الذكر ؟ في هذا نظر ، وابن عمر ﷺ لا يتابع النبي ﷺ في كل

---

(١) أخرجه أبو داود في الأدب (٤٨٥٩) والحاكم في المستدرك (٥٣٧/١) قوله : « بأخرة » أي في آخر جلوسه ، ويجوز أن يكون في آخر عمره .

مجلس ، بل قد يفوته بعض المجالس ، فإن قال الإنسان هذا الذكر في أثناء المجلس ، أو في أوله أو في آخره ؛ حصَّل بذلك السنة التي كان النبي ﷺ يفعلها .

* * *

٨٣٤ - وعن ابن عمر رضي الله عنهما قال : قلَّما كان رسول الله ﷺ يَقومُ مِن مَجْلِسٍ حتى يَدْعُوَ بِهؤُلاءِ الدَّعَوَاتِ : « اللَّهُمَّ اقسم لَنَا مِن خَشْيَتِكَ ما تَحُولُ بِهِ بَينَنَا وبَينَ مَعَاصِيكَ ، ومن طَاعَتِكَ ما تُبَلِّغُنا بِهِ جَنَّتَكَ ، ومِنَ اليَقِينِ ما تُهَوِّنُ بِهِ عَلَينا مَصَائِبَ الدُّنيا ، اللَّهُم مَتِّعنا بِأَسْمَاعِنا ، وأَبصارِنا ، وقُوَّتِنا ما أَحْيَيْتَنَا ، واجعلْهُ الوَارِثَ مِنَّا ، وَاجعَلْ ثَأْرَنَا عَلى مَنْ ظَلَمنا ، وانْصُرْنَا على مَنْ عَادَانَا ، وَلا تَجْعَل مُصِيبَتَنَا في دِينِنا ، وَلا تَجْعَل الدُّنيا أَكبَرَ هَمِّنَا ، ولا مَبْلَغَ عِلمِنَا ، وَلا تُسَلِّطْ عَلَينَا مَنْ لا يَرْحَمُنَا »[1] رواه الترمذي وقال : حديث حسن .

الشرح

نقل الإمام النووي رحمه الله في (باب آداب المجلس والجليس) عن عبد الله بن عمر رضي الله عنهما أن النبي ﷺ كان قلما يقوم من مجلس إلا ويقول : « اللهم اقسم لنا من خشيتك ما تحول به بيننا وبين معصيتك » اقسم : بمعنى قدِّر ، والخشية : هي الخوف المقرون بالعلم ، لقول الله تبارك وتعالى : ﴿ إِنَّمَا يَخْشَى ٱللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ ٱلْعُلَمَٰٓؤُاْ ﴾ [فاطر : ٢٨] .

وقوله : « ما تحول به بيننا وبين معصيتك » ؛ لأن الإنسان كلما خشي الله عز وجل ، منعته خشيته من الله أن ينتهك محارم الله ، ولهذا قال : « ما تحول به بيننا وبين معصيتك » .

ثم قال : « ومن طاعتك » يعني : واقسم لنا من طاعتك « ما تبلغنا به جنتك » فإن الجنة طريقها طاعة الله عز وجل ، فإذا وفق العبد لخشية الله واجتناب محارمه والقيام بطاعته نجا من النار بخوفه ودخل الجنة بطاعته . « ومن اليقين ما تهون به علينا مصائب الدنيا » . واليقين : هو أعلى درجات الإيمان ، لأنه إيمان لا شك معه ولا تردد ، تتيقن ما غاب عنك كما تشاهد ما حضر بين يديك . فإذا كان عند الإنسان يقين تام بما أخبر الله تعالى به من أمور الغيب ، فيما يتعلق بالله عز وجل ، أو بأسمائه ، أو صفاته ، أو اليوم الآخر ، أو غير ذلك ، وصار ما أخبر الله به من الغيب عنده بمنزلة المشاهد ؛ فهذا هو كمال اليقين .

وقوله : « ما تهون به علينا مصائب الدنيا » لأن الدنيا فيها مصائب كثيرة ، لكن هذه المصائب إذا كان عند الإنسان يقين أنه يكفر بها من سيئاته ، ويرفع بها من درجاته ، إذا صبر واحتسب الأجر من الله ؛ هانت عليه المصائب ، وسهلت عليه المحن مهما عظمت ، سواء كانت في بدنه ، أو في أهله ، أو في ماله ، ما دام عنده اليقين التام ؛ فإنها تهون عليه المصائب . « ومتعنا بأسماعنا وأبصارنا وقوتنا ما أحييتنا » تسأل الله تعالى أن يمتعك بهذه الحواس : السمع والبصر والقوة ما دمت حيًّا ؛ لأن الإنسان إذا متع بهذه الحواس حصل على خير كثير ، وإذا افتقد هذه الحواس فاته خير كثير ، لكن لا يلام عليه

---

(١) أخرجه الترمذي في الدعوات (٣٥٠٢) .

إذا كان لا يقدر عليها . « واجعله الوارث منا » يعني اجعل تمتعنا بهذه الأمور (السمع ، والبصر ، والقوة) الوارث منَّا ، يعني اجعله يمتد إلى آخر حياتنا حتي يبقى بعدنا ويكون كالوارث لنا ، وهو كناية عن استمرار هذه القوات إلى الموت . « واجعل ثأرنا على من ظلمنا » يعني اجعلنا نستأثر ، ويكون لنا الأثرة على من ظلمنا ، بحيث تقتص لنا منه ، إما بأشياء تصيبه في الدنيا أو في الآخرة ، ولا حرج على الإنسان أن يدعو على ظالمه بقدر ظلمه ، وإذا دعا على ظالم بقدر ما ظلمه فهذا إنصاف ، واللَّه سبحانه وتعالى يستجيب دعوة المظلوم .

قال النبي صلى اللَّه عليه وعلى آله وسلم لمعاذ وقد بعثه إلى اليمن وبين له ما يدعوهم إليه ، فقال : «فإن أجابوك لذلك » أي للصدقة من أموالهم « فإياك وكرائم أموالهم ، واتق دعوة المظلوم ؛ فإنه ليس بينها وبين اللَّه حجاب » [(١)] ؛ لأن اللَّه تعالى حكم عدل ينتقم من الظالم إذا رفع المظلوم الشكوى إليه ، فإذا رفع المظلوم الشكوى إلى اللَّه انتقم اللَّه من الظالم ، لكن لا يتجاوز في دعائه فيدعو بأكثر من مظلمته ؛ لأنه إذا دعا بأكثر من مظلمته صار هو الظالم .

« وانصرنا على من عادانا » وأكبر عدو لنا من عادانا في دين اللَّه ؛ من اليهود والنصاري والمشركين البوذيين والملحدين والمنافقين وغيرهم . هؤلاء هم أعدؤنا ؛ قال اللَّه تعالى : ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَتَّخِذُواْ عَدُوِّى وَعَدُوَّكُمْ أَوْلِيَآءَ ﴾ [الممتحنة : ١] وقال اللَّه في المنافقين : ﴿ هُمُ ٱلْعَدُوُّ فَٱحْذَرْهُمْ قَٰتَلَهُمُ ٱللَّهُ أَنَّىٰ يُؤْفَكُونَ ﴾ [المنافقون : ٤] . فتسأل اللَّه تعالى أن ينصرك على من عاداك ، وينصرك على اليهود والنصاري والمشركين والبوذيين وجميع أصناف الكفرة ، واللَّه سبحانه وتعالى هو الناصر ﴿ بَلِ ٱللَّهُ مَوْلَىٰكُمْ وَهُوَ خَيْرُ ٱلنَّٰصِرِينَ ﴾ [آل عمران : ١٥٠] .

« ولا تجعل مصيبتنا في ديننا ، ولا تجعل الدنيا أكبر همنا ولا مبلغ علمنا » المصائب في الحقيقة تكون في مال الإنسان ؛ بأن يحترق ماله ، أو يسرق ، أو يتلف ، فهذه مصيبة . وتكون أيضًا في أهل الإنسان ، فيمرض أهله ، أو يموتون . وتكون في العقل : بأن يصاب هو أو أهله بالجنون ، نسأل اللَّه العافية . وتكون في كل ما من شأنه أن يصاب به الإنسان . لكن أعظم مصيبة هي مصيبة الدين - نسأل اللَّه أن يثبتنا على دينه الحق - فإذا أصيب الإنسان بدينه والعياذ باللَّه ، فهذه أعظم مصيبة .

والمصائب في الدين مثل المصائب في البدن ، هناك مصائب خفيفة في البدن كالزكام والصداع اليسير وما أشبه ذلك ، وهناك مصائب في الدين خفيفة كشيء من المعاصي ، وهناك مصائب في الدين مهلكة مثل : الكفر ، والشرك ، والشك ، وما أشبه ذلك ، هذه مهلكة مثل الموت للبدن ، فأنت تسأل اللَّه ألا يجعل مصيبتك في دينك . أما المصائب التي دون الدين ؛ فإنها سهلة ، فإن المصاب من حرم الثواب ، نسأل اللَّه العافية .

«ولا تجعل الدنيا أكبر همنا ولا مبلغ علمنا ، ولا تسلط علينا » بذنوبنا «من لا يرحمنا » فلا تجعل

---

(١) أخرجه البخاري في الزكاة (١٤٩٦) ومسلم في الإيمان (٢٩) .

الدنيا أكبر همنا ، بل اجعل الآخرة أكبر همنا ، ولا ننسى نصيبنا من الدنيا ، فلابد للإنسان من الدنيا ، لكن لا تكون الدنيا أكبر همه ولا مبلغ علمه ، بل يسأل اللّه أن يجعل مبلغ علمه علم الآخرة ، أما علم الدنيا وما يتعلق بها فهذه مهما كانت فإنها ستزول ، يعني لو كان الإنسان عالمًا في الطب ، عالمًا في الفلك ، عالمًا في الجغرافيا ، عالمًا في أي شيء من علوم الدنيا ؛ فهي علوم تزول وتفنى ، فالكلام على علم الشرع ؛ علم الآخرة ، فهذا هو المهم .

« ولا تسلط علينا من لا يرحمنا » لا تسلط علينا أحدًا من خلقك لا يرحمنا ، يعني وكذلك من يرحمنا ، لا تسلط علينا أحدًا ، لكن الذي يرحمك لا ينالك منه السوء ، أما الذي ينالك منه السوء هو أن يسلط اللّه عليك من لا يرحمك ، نسأل اللّه ألا يسلط علينا من لا يرحمنا .

فكان الرسول - عليه الصلاة والسلام - إذا جلس مجلسًا يقول هذا الذكر لكنه ليس بلازم كما سبق أن قلنا ، وإنما المقصود أنه ﷺ كان يقول ذلك كثيرًا .

* * *

٨٣٥ - وعن أبي هريرة ﷺ قال : قال رسول اللّه ﷺ : « مَا مِن قَومٍ يَقومُونَ مِنْ مَجْلِسٍ لا يَذكُرونَ اللّه تعالى فِيهِ ، إلا قَامُوا عَنْ مِثْلِ جِيفَةِ حِمَارٍ ، وكانَ لَهُم حَسرَةً »[1] .

رواه أبو داود بإسنادٍ صحيح .

٨٣٦ - وعنه عن النبي ﷺ قال : « مَا جَلَسَ قَومٌ مَجلِسًا لم يَذكُروا اللّه تعالى فِيهِ ، ولَم يُصَلُّوا على نَبِيِّهم فِيهِ ، إلا كانَ عليهِمْ تِرةٌ ، فَإن شاءَ عَذَّبهُم ، وإن شَاءَ غَفَرَ لَهُم »[2] رواه الترمذي وقال : حديث حسن .

٨٣٧ - وعنه عن رسول اللّه ﷺ قال : « مَنْ قَعَدَ مَقعَدًا لم يذكر اللّه تعالى فِيهِ كَانَت عليهِ مِنَ اللّهِ تِرَةٌ ، وَمَنِ اضطَجَعَ مَضْجَعًا لا يَذْكرُ اللّه تعالى فِيهِ كانتْ عَلَيهِ مِنَ اللّهِ تِرَةٌ »[3] رواه أبو داود .

وقد سبق قريبًا ، وَشرَحنا « التِّرَةَ » فِيهِ .

الشرح

هذه ثلاثة أحاديث في بيان آداب المجلس ، وكلها تدل على أنه ينبغي للإنسان إذا جلس مجلسًا أن يغتنم ذكر اللّه ﷻ والصلاة على النبي صلى اللّه عليه وعلى آله وسلم ، حيث إنها تدل على أنه ما جلس قوم مجلسًا لم يذكروا اللّه فيه ، ولم يصلوا على النبي صلى اللّه عليه وعلى آله وسلم ؛ إلا كان عليهم من اللّه ترة ، يعني قطيعة وخسارة إن شاء عذبهم ، وإن شاء غفر لهم . ويتحقق ذكر اللّه ﷻ في

---

(١) أخرجه أبو داود في الأدب (٤٨٥٥) ، قوله : « إلا قاموا عن مثل جيفة حمار » أي في ذلك المجلس واستخدم لفظ « جيفة حمار » زيادة في التنفير ، وإيماء إلى أن تارك الذكر كالحمار المضروب به المثل في البلادة ، الغافل عن ذكر من أغدق له العطيات .

(٢) أخرجه الترمذي في الدعاء (٣٣٨٠) وأحمد في مسنده من طريق آخر (٤٦٣/٢) .

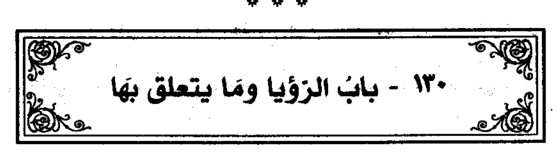
(٣) أخرجه أبو داود في الأدب (٤٨٥٦) .

المجالس بصور عديدة ، فمثلًا : إذا تحدث أحد الأشخاص في المجلس عن آية من آيات الله ﷻ ، فإن هذا من ذكر الله ، مثل أن يقول : نحن في هذه الأيام في دفء كأننا في الربيع وهذا من آيات الله ؛ لأننا في الشتاء ، وفي أشد ما يكون من أيام الشتاء بردًا ، ومع ذلك فكأننا في الصيف فهذا من آيات الله . ويقول مثلًا : لو اجتمع الخلق على أن يدفئوا هذا الجو في هذه الأيام التي جرت العادة أن تكون باردة ما استطاعوا إلى ذلك سبيلًا وما أشبه ذلك ، أو مثلًا : يذكر حالة من أحوال النبي – عليه الصلاة والسلام – مثل أن يقول : كان النبي – عليه الصلاة والسلام – أخشى الناس لله وأتقاهم لله ، فيذكر الرسول – عليه الصلاة والسلام – ثم يصلي عليه ، والحاضرون يكونون إذا استمعوا إليه مثله في الأجر .

هكذا يكون ذكر الله ﷻ والصلاة على رسوله ﷺ ، وإن شاء ذكر الله من الأصل ، إذا جلس قال : ما شاء الله ، لا قوة إلا بالله ، لا إله إلا الله ، وما أشبه ذلك . المهم أن الإنسان العاقل يستطيع أن يعرف كيف يذكر الله ، ويصلي على النبي صلى الله عليه وعلى آله وسلم في هذا المجلس .

ومن ذلك أيضًا : أنه إذا انتهى المجلس وأراد أن يقوم يقول : « سبحانك اللهم وبحمدك ، أشهد أن لا إله إلا أنت ، أستغفرك وأتوب إليك » . وفي هذه الأحاديث الثلاثة دليل على أنه ينبغي للإنسان ألا يفوت عليه مجلسًا ولا مضطجعًا إلا يذكر الله ، حتى يكون ممن قال الله فيهم ﴿ ٱلَّذِينَ يَذْكُرُونَ ٱللَّهَ قِيَـٰمًا وَقُعُودًا وَعَلَىٰ جُنُوبِهِمْ ﴾ [آل عمران : ١٩١] .

* * *



١٣٠ - باب الرؤيا وما يتعلق بها

قال الله تعالى : ﴿ وَمِنْ ءَايَـٰتِهِۦ مَنَامُكُم بِٱلَّيْلِ وَٱلنَّهَارِ ﴾ [الروم : ٢٣] .

٨٣٨ – وعن أبي هريرة ﷺ قال : سمعت رسول الله ﷺ يقول : « لم يَبْقَ مِنَ النُّبُوَّةِ إلا المُبَشِّرَاتُ » قالوا : وَمَا المُبَشِّرَاتُ ؟ قال : « الرُّؤيا الصَّالِحَةُ » [١] رواه البخاري .

٨٣٩ – وعنه أن النبيَّ ﷺ قال : « إذا اقتَرَبَ الزَّمَانُ لَمْ تَكَدْ رُؤْيَا المُؤمِنِ تَكذِبُ ، وَرُؤيَا المؤمِنِ جُزْءٌ مِنْ ستةٍ وأَرْبَعِينَ جُزءًا مِنَ النُّبُوَّةِ » متفقٌ عليه . وفي روايةٍ : « أَصْدَقُكم رُؤْيَا أَصدَقُكُم حَدِيثًا » [٢] .

٨٤٠ – وعنه قال : قال رسول الله ﷺ : « مَنْ رَآني في المَنَامِ فسَيَرَاني في اليَقَظَةِ – أَو كَأَنَّمَا رَآني في اليَقَظَةِ – لا يَتَمَثَّلُ الشَّيطانُ بي » [٣] . متفقٌ عليه .

---

(١) أخرجه البخاري في التعبير (٦٩٩٠) .

(٢) أخرجه البخاري في التعبير (٧٠١٧) ، ومسلم في الرؤيا (٦) .

(٣) اخرجه البخاري في التعبير (٦٩٩٣) ، ومسلم في الرؤيا (١١) ، قوله : « فسيراني في اليقظة » قيل : هذه بشرى برؤيتهم إياه – عليه الصلاة والسلام – يوم القيامة ، وسمي ذلك يقظة ؛ لأنها اليقظة الحقيقية . وذلك لاينافي أن يكون التأويل بالنسبة إلى أمر الدنيا حصول خير دين ودنيا .

٨٤١ - وعن أبي سعيد الخدْري رضي الله عنه أنهُ سمِعَ النبيَّ ﷺ ، يقول : « إذا رَأَى أَحَدُكُم رُؤْيَا يُحِبُّها ، فإنَّما هِيَ مِنَ اللَّهِ تعالى ، فَلْيَحْمَدِ اللَّه عَلَيهَا ، وَلِيُحَدِّثْ بهَا - وفي روايةٍ : فلا يُحَدِّثْ بهَا إلا مَنْ يُحِبُّ - وإذا رَأَى غَيرَ ذلكَ مِمَّا يَكرَهُ ، فَإنَّمَا هِيَ مِنَ الشَّيطَان ، فَلْيستَعِذْ مِنْ شَرِّهَا ، وَلا يَذكُرهَا لأَحَدٍ ، فإنها لا تَضُرُّهُ »[١] متفقٌ عليه .

الشرح

قال المؤلف النووي رحمه الله في (باب الرؤيا وما يتعلق بها) .

الرؤيا : يعني رؤيا المنام ، فالإنسان إذا نام فإن اللَّه تعالى يتوفى روحه ، لكنها وفاة صغرى ، كما قال تعالى : ﴿ وَهُوَ ٱلَّذِى يَتَوَفَّىٰكُم بِٱلَّيْلِ وَيَعْلَمُ مَا جَرَحْتُم بِٱلنَّهَارِ ثُمَّ يَبْعَثُكُمْ فِيهِ لِيُقْضَىٰٓ أَجَلٌ مُّسَمًّى ﴾ [الأنعام : ٦٠] ، وقال اللَّه تعالى : ﴿ ٱللَّهُ يَتَوَفَّى ٱلْأَنفُسَ حِينَ مَوْتِهَا وَٱلَّتِى لَمْ تَمُتْ فِى مَنَامِهَا ﴾ [الزمر : ٤٢] ، وهذه الوفاة الصغرى تذهب فيها الروح إلى حيث يشاء اللَّه .

ولهذا كان من أذكار المنام أن نقول : « اللهم بك وضعت جنبي وبك أرفعه ، فإن أمسكت روحي فاغفر لها وارحمها ، وإن أرسلتها فاحفظها بما تحفظ به عبادك الصالحين »[٢] .

ثم إن الروح في هذه الحال ترى منامات ومرائي تنقسم إلى ثلاثة أقسام : رؤيا محبوبة ، ورؤيا مكروهة ورؤيا عبارة عن أشياء ليس لها معنى وليس لها هدف ، قد تكون من تلاعب الشيطان ، وقد تكون من حديث النفس ، وقد تكون من أسباب أخرى .

القسم الأول : الرؤيا الصالحة الحسنة ، وهي إذا رأى الإنسان ما يحب ، فهذه من اللَّه عز وجل ، وهي من نعمة اللَّه على الإنسان أن يريه ما يحب ؛ لأنه إذا رأى ما يحب نشط وفرح وصار هذا من البشرى ، فمن عاجل بشرى المؤمن الرؤيا الصالحة يراها أو تُرى له ، ولهذا قال النبي صلى اللَّه عليه وعلى آله وسلم : « لم يبق من النبوة إلا المبشرات » ، الرؤيا الصالحة يراها الإنسان أو تُرى له ، هذه بشرى وخير ، وهي من اللَّه عز وجل .

القسم الثاني : الرؤيا المكروهة ، وهي من الشيطان ، حيث يضرب الشيطان للإنسان أمثالًا في منامه يزعجه بها ، لكن دواءها أن يستعيذ باللَّه من شر الشيطان ومن شر ما رأى ، ولا يذكر لأحد فإنها لا تضره ، ولا يحرص على أن تُعْبَر ؛ لأن بعض الناس إذا رأى ما يكره حرص على أن تُعبر وذهب إلى العابرين ، أو يطالع في الكتب لينظر ما هذه الرؤيا المكروهة ، ولكنها إذا عُبرت ؛ فإنها تقع على الوجه المكروه .

وإذا استعاذ الإنسان من شرِّ الشيطان ومن شرِّ ما رأى ، ولم يحدث بها أحدًا ؛ فإنها لا تضره مهما كانت ، وهذا دواء سهل أن الإنسان يَتَصَبَّر ويكتمها ويستعيذ من شر الشيطان ومن شرها حتى لا تقع .

أما القسم الثالث : وهو الذي ليس له هدف معين ، فهذا أحيانًا يكون من حديث النفس ، حين

---

(١) أخرجه البخاري في التعبير (٧٠٤٥) ولم نجده في صحيح مسلم .

(٢) سبق تخريجه .

يكون الإنسان متعلقًا قلبه بشيء من الأشياء يفكر فيه وينشغل به ثم يراه في المنام ، أو أحيانًا يلعب به الشيطان في منامه ، يريه أشياء ليس لها معنى ، كما ذكر رجل للنبي ﷺ قال : يا رسول الله ، رأيت في المنام أن رأسي قد قطع ، وذهب رأسي يركض وأنا أسعى وراءه فقال النبي صلى الله عليه وعلى آله وسلم : « لا تحدث الناس بتلعُّب الشيطان بك في منامك » [1] ، فهذا ليس له معنى ، رأس يقطع ويركض الرأس وهذا يركض بجسده وراءه ، هذا ليس له معنى .

المهم : أن هذه هي أقسام الرؤيا ، وإذا ضرب للإنسان مثل بأبيه أو أمه أو أخيه أو عمه أو غير ذلك ، فقد يكون هذا هو الواقع ، وقد يكون من الشيطان ، يتمثل الشيطان للنفس بصورة هذا الإنسان ويراه النائم ، إلا النبي صلى الله عليه وعلى آله وسلم ؛ فإن الإنسان إذا رأى النبي على هذا الوصف المعروف فإنه قد رآه حقًّا ؛ لأن الشيطان لا يتمثل بالنبي ﷺ أبدًا ولا يجرؤ [2] .

فإذا رأى الإنسان شخصًا ووقع في نفسه أنه النبي ﷺ فليبحث عن أوصاف هذا الذي رأى ، هل تطابق أوصاف النبي - عليه الصلاة والسلام - ؟ فهو هو ، وإن لم تطابق فليس النبي ﷺ ، وإنما هذه أوهام من الشيطان ، أوقع في نفس النائم أنه هو الرسول ﷺ وليس هو الرسول ، ولذلك دائمًا يأتي أحد يقول : رأيت الرسول - عليه الصلاة والسلام - وقال كذا وفعل كذا ، ثم إذا وصفه إذا أوصافه لا تطابق أوصاف النبي ﷺ ، مع أنه في منامه وقع عليه أنه النبي ، لكن إذا تحدث عن أوصافه فإذا هو ليس النبي ﷺ ، فنجزم أن ليس هو الرسول ﷺ .

أما لو وصف لنا من رآه ، وانطبقت أوصافه على النبي لله فهو النبي صلى الله عليه وعلى آله وسلم ، ولكن يجب أن نعلم أنه لا يمكن أن يحدثه النبي ﷺ بشيء يخالف شريعته ، يعني لو جاء إنسان وقال : رأيت الرسول ، وقال لي كذا وأوصاني بكذا ، فإن كان يخالف الشريعة فهو كذب ، ويكون الكذب ممن تحدث به إذا انطبقت أوصاف من رآه على أوصاف النبي صلى الله عليه وعلى آله وسلم .

* * *

٨٤٢ - وعن أبي قَتَادَةَ ﷺ قال : قال النبيُّ ﷺ : « الرؤيَا الصَّالِحَةُ - وفي روايةٍ : الرُّؤيَا الحَسَنَةُ - مِنَ اللَّه ، والحُلُم مِنَ الشَّيطَانِ ، فَمَن رَأَى شَيئًا يَكرهُهُ فَلْيَنْفُثْ عَن شِمَالِهِ ثَلاثًا ، ولْيَتَعَوَّذ مِنَ الشَّيطَان فإنَّها لا تضُرُّهُ » [3] متفقٌ عليه .

« النَّفثُ » نَفخٌ لطِيفٌ لا رِيقَ مَعَهُ .

---

(١) أخرجه مسلم في الرؤيا (١٤ ، ١٥) .

(٢) ويدل على ذلك ما أخرجه البخاري في التعبير (٦٩٩٤) ، ومسلم في الرؤيا (٧) ، والترمذي في السنن (٢٢٧٦) .

(٣) أخرجه مسلم في الرؤيا (٣) واللفظ له ، والبخاري في التعبير (٦٩٨٤) بنحوه . قوله « الرؤيا الحسنة من الله والحلم من الشيطان » الرؤيا والحلم عبارة عما يراه النائم في نومه ، لكن غلبت الرؤيا على ما يراه من الخير والشيء الحسن ، وغلب الحلم على ما يراه من الشر والشيء القبيح ، ويستعمل كل واحد منهما مكان الآخر .

٨٤٣ - وعن جابر ﷺ عن رسول الله ﷺ قال : « إذا رَأَى أَحَدُكُمُ الرُّؤيَا يَكرَهُهَا ، فَلْيَبْصُق عَن يَسَارِهِ ثَلاثًا ، وليَستَعِذ بِاللهِ مِنَ الشَّيطَانِ ثَلاثًا ، وليَتَحَوَّلْ عَن جَنبِهِ الذي كان عليه » (١) . رواه مسلم .

٨٤٤ - وعن أبي الأَسْقَعِ وَاثِلَةَ بنِ الأَسْقَعِ ﷺ قال : قال رسول الله ﷺ : « إنَّ مِن أَعظَمِ الفِرَى أَن يَدَّعِيَ الرَّجُلُ إلى غَيرِ أَبِيهِ ، أَو يُرِيَ عَينَهُ مَالم ترَ ، أَو يَقُولَ على رسول الله ﷺ مَا لم يَقُلْ » (٢) رواه البخاري .

الشرح

هذه الأحاديث فيما يتعلق بالرؤيا ، وسبق شيء من ذلك ، وقد بينا أن الرؤيا ثلاثة أقسام :

القسم الأول : رؤيا حسنة صالحة فهذه من الله ﷻ ، وذكرنا أنها فيما يَسرُّ ، وأنها من عاجل بشرى المؤمن .

القسم الثاني : الحلم ، وهذا من الشيطان ، والغالب أنه يكون فيما يكره الإنسان ، أي أن الشيطان يُري الإنسان ما يكره حتى يفزع ويتكدر ويحزن وربما يمرض ؛ لأن الشيطان عدو للإنسان ؛ يحب ما يسوء الإنسان وما يحزنه ، قال الله تعالى : ﴿ إِنَّمَا ٱلنَّجْوَىٰ مِنَ ٱلشَّيْطَٰنِ لِيَحْزُنَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَلَيْسَ بِضَآرِّهِمْ شَيْـًٔا إِلَّا بِإِذْنِ ٱللَّهِ ۚ وَعَلَى ٱللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ ٱلْمُؤْمِنُونَ ﴾ [المجادلة : ١٠] .

فالحلم هو هذا الذي يراه الإنسان في منامه يكرهه ويزعجهُ ، ولكن من نعمة الله ﷻ أن جعل لكل داء دواء . ودواء الحلم فيما يلي :

أولًا : أن يبصق الإنسان على يساره ثلاث مرات ، ويستعيذ بالله من شر الشيطان ثلاث مرات ، ومن شر ما رأى ، يقول : أعوذ بالله من شر الشيطان ومن شر ما رأيت . ثلاث مرات ، ويتحول إلى الجنب الثاني ، فإذا كان على جنبه الأيسر يتحول إلى الأيمن ، وإذا كان على الأيمن يتحول إلى الأيسر .

ثانيًا : وإذا لم ينفع هذا ، يعني لو أنه تحول عن جنبه الأول إلى الثاني ثم عادت هذه الرؤيا التي يكرهها ؛ فليقمْ ويتوضأ ويُصَلِّ . ولا يخبر بها أحدًا ، فلا يقول : رأيت ورأيت ، ولا يذهب إلى الناس يعبرونها ، ولا يذهب إلى أحد يفسرها ؛ فإنها لا تضره أبدًا حتى وكأنها ما وقعت ، وفي هذا راحة له .

وبعض الناس إذا رأى شيئًا يكرهه ذهب يتلمس من يفسر له هذه الرؤيا ، ونحن نقول له : لا تفعل ذلك ، وكان الصحابة ﷺ يرون الرؤيا يكرهونها ، فلما حدثهم النبي صلى الله عليه وعلى آله وسلم بهذا الحديث استراحوا ؛ فصار الإنسان إذا رأى الرؤيا التي يكرهها بصق عن يساره ثلاث مرات ،

---

(١) أخرجه مسلم في الرؤيا (٥) ، وأبو داود في الأدب (٥٠٢٢) ، وابن ماجه في تعبير الرؤيا (٣٩٠٨) .

(٢) أخرجه البخاري في المناقب (٣٥٠٩) قوله « الفِرَى » جمع فرية وهي الكذبة العظيمة . قوله « أن يدعي الرجل إلى غير أبيه » التعدية بإلى هنا لتضمنها معنى الانتساب ، وصار هذا الادعاء من أعظم الفري ؛ لأنه أفتراء على الله تعالى ، فالمدعي إلى غير أبيه يقول : خلقني الله من ماء فلان ، وقد خلقه الله من ماء غيره . قوله « أو يري عينه ما لم تر » أي يكذب في رؤياه . قوله : « أو يقول على رسول الله ﷺ ما لم يقل » أي أن ينسب إليه من الحديث مالم يقل ﷺ .

واستعاذ بالله من شرها وشر الشيطان ، ولم يحدِّث بها أحدًا ، ثم لا تضره وكأنه ما رآها .

أما القسم الثالث : فهو الحلم الذ يكون من حديث النفس ، حيث يكون الإنسان متعلقًا بشيء من الأشياء دائمًا ، فهذا ربما يراه في المنام ، وهذا أيضًا لا حكم له ولا أثر له .

وينبغي للإنسان إذا رأى رؤيا تسره ، وهي الرؤيا الصالحة ، أن يؤولها على خير ما يقع في نفسه ؛ لأن الرؤيا إذا عبرت بإذن الله فإنها تقع .

ثم إن من المهم ألا نعتمد على ما يوجد في بعض الكتب ؛ ككتاب تفسير الأحلام لابن سيرين ، وما أشبهها ؛ فإن ذلك خطأ ؛ وذلك لأن الرؤيا تختلف بحسب الرائي ، وبحسب الزمان ، وبحسب المكان ، وبحسب الأحوال ، يعني ربما يرى الشخص رؤيا فنفسرها له بتفسير ، ويرى آخر رؤيا هي نفس الرؤيا فنفسرها له بتفسير آخر غير الأول ، وذلك لأن هذا رأى ما يليق به ، وهذا رأى ما يليق به ، أو لأن الحال تقتضي أن نفسر هذه الرؤيا بهذا التفسير .

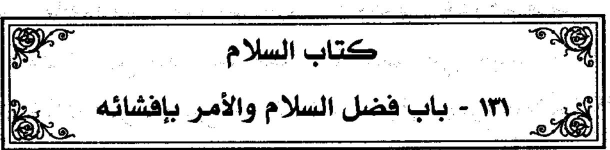
فالمهم : ألا يرجع الإنسان إلى الكتب المؤلفة في تفسير الأحلام ؛ لأن الأحلام والرؤى تختلف . ويذكر أن رجلًا رأى رؤيا ففسرت له بتفسير ، ثم رأى آخر نفس الرؤيا ففسرت بتفسير آخر ، فسئل الذي فسرهما في ذلك فقال : لأن هذا يليق به ذلك التفسير لما رأى ، وهذا يليق به ذلك التفسير لما رأى كل إنسان يفسر له بما يليق به .

ولهذا فإن النبي ﷺ في غزوة أحد قبل الواقعة أو في أثنائها ، رأى في المنام أن في سيفه ثلمة ، ورأى بقرًا تنحر ، ففسرها بأنه يقتل أحد من أهل بيته ، وأنه يقتل نفر من أصحابه [1] ، فالثلمة هي أنه يقتل أحد من أهل بيته ، لأن الإنسان يحتمي بقبيلته ويحتمي بسيفه ، فلما صار في السيف ثلمة فمعنى ذلك أنه سيكون ثلمة في أهل بيته . ووقع كذلك ؛ فقد استشهد حمزة عم النبي ﷺ في أُحُد ، أما البقر التى تنحر : فالذين قتلوا من الصحابة ﷺ في أُحُد نحو سبعين رجلًا ، وإنما رآه بقرًا ؛ لأن البقر فيها منافع كثيرة ، فهي أنفع ما يكون من بهيمة الأنعام ؛ للحرث ، وللسمن ، وللنماء ، وللبن ، وفيها مصالح كثيرة ، والصحابة ﷺ كلهم خير ، ففيهم خير كثير لهذه الأمة ، ولو لم يكن من خيرهم إلا أن الله سبحانه وتعالى وفقهم لحمل الشريعة إلى الأمة لكان ذلك يكفيهم ، إذ إنه لا طريق لنا إلى شريعة الله إلا بواسطة الصحابة ﷺ .

* * *

---

(١) انظر البخاري في التعبير (٧٠٣٥) .



كتاب السلام

١٣١ - باب فضل السلام والأمر بإفشائه

١ - ﴿ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَدۡخُلُواْ بُيُوتًا غَيۡرَ بُيُوتِكُمۡ حَتَّىٰ تَسۡتَأۡنِسُواْ وَتُسَلِّمُواْ عَلَىٰٓ أَهۡلِهَاۚ ذَٰلِكُمۡ خَيۡرٞ لَّكُمۡ لَعَلَّكُمۡ تَذَكَّرُونَ ﴾ [النور: ٢٧].

٢ - ﴿ لَّيۡسَ عَلَى ٱلۡأَعۡمَىٰ حَرَجٞ وَلَا عَلَى ٱلۡأَعۡرَجِ حَرَجٞ وَلَا عَلَى ٱلۡمَرِيضِ حَرَجٞ وَلَا عَلَىٰٓ أَنفُسِكُمۡ أَن تَأۡكُلُواْ مِنۢ بُيُوتِكُمۡ أَوۡ بُيُوتِ ءَابَآئِكُمۡ أَوۡ بُيُوتِ أُمَّهَٰتِكُمۡ أَوۡ بُيُوتِ إِخۡوَٰنِكُمۡ أَوۡ بُيُوتِ أَخَوَٰتِكُمۡ أَوۡ بُيُوتِ أَعۡمَٰمِكُمۡ أَوۡ بُيُوتِ عَمَّٰتِكُمۡ أَوۡ بُيُوتِ أَخۡوَٰلِكُمۡ أَوۡ بُيُوتِ خَٰلَٰتِكُمۡ أَوۡ مَا مَلَكۡتُم مَّفَاتِحَهُۥٓ أَوۡ صَدِيقِكُمۡۚ لَيۡسَ عَلَيۡكُمۡ جُنَاحٌ أَن تَأۡكُلُواْ جَمِيعًا أَوۡ أَشۡتَاتٗاۚ فَإِذَا دَخَلۡتُم بُيُوتٗا فَسَلِّمُواْ عَلَىٰٓ أَنفُسِكُمۡ تَحِيَّةٗ مِّنۡ عِندِ ٱللَّهِ مُبَٰرَكَةٗ طَيِّبَةٗۚ كَذَٰلِكَ يُبَيِّنُ ٱللَّهُ لَكُمُ ٱلۡأٓيَٰتِ لَعَلَّكُمۡ تَعۡقِلُونَ ﴾ [النور: ٦١].

٣ - ﴿ وَإِذَا حُيِّيتُم بِتَحِيَّةٖ فَحَيُّواْ بِأَحۡسَنَ مِنۡهَآ أَوۡ رُدُّوهَآۗ ﴾ [النساء: ٨٦].

٤ - ﴿ هَلۡ أَتَىٰكَ حَدِيثُ ضَيۡفِ إِبۡرَٰهِيمَ ٱلۡمُكۡرَمِينَ ۝٢٤ إِذۡ دَخَلُواْ عَلَيۡهِ فَقَالُواْ سَلَٰمٗاۖ قَالَ سَلَٰمٞ قَوۡمٞ مُّنكَرُونَ ﴾ [الذاريات: ٢٤، ٢٥].

الشرح

قال المؤلف رحمه الله في كتابه « رياض الصالحين »: (كتاب السلام) والسلام يريد به التحية التي شرعها النبي ﷺ لأمته.

والسلام بمعنى: الدُّعاء بالسلامة من كل آفة، فإذا قلتَ لشخصٍ: « السلام عليكَ » فهذا يعني أنك تدعو له بأن اللَّه يُسلِّمه من كل آفةٍ: يُسلِّمه من المرض، من الجنون، يُسلِّمه من الناس، يُسلِّمه من المعاصي وأمراض القلوب، يُسلِّمه من النار، فهو لفظ عام. معناه: الدعاء للمُسلَّم عليه بالسلامة من كل آفة.

وكان الصحابة رضي الله عنهم من محبتهم للَّه عز وجل كانوا يقولون في صلاتهم: السلام على اللَّه من عباده، السلام على جبريل، السلام على فلانٍ وفلان، فنهاهم النبي ﷺ أن يقولوا: السلام على اللَّه من عباده، وقال: « إن اللَّه هو السلام »؛ يعني: السالم من كل عيب ونقص - جل وعلا - فلا حاجة أن تُثني عليه بالدعاء بأن يُسلِّم نفسه. ثم قال لهم: قولوا: « السلام علينا وعلى عباد اللَّه الصالحين؛ فإنكم إذا قلتم ذلك سلَّمتم على كل عبد صالح في السماء والأرض »(١).

ولا أدري هل نحن نستحضر هذا إذا قلنا في الصلاة: « السلام علينا وعلى عباد اللَّه الصالحين »؟! لا أدري هل نحن نستحضر أننا نُسلِّم على أنفسنا، السلام علينا، وعلى كل عبد صالح في السماء

---

(١) أخرجه البخاري في العمل في الصلاة (٤)، ومسلم في الصلاة (٥٦)، وأحمد في مسنده (١/٢١٣).

والأرض ، يعني نُسَلِّم على الأنبياء ، نُسَلِّم على الصحابة ، نُسَلِّم على التابعين لهم بإحسانٍ ، نُسَلِّم على أصحاب الأنبياء ، كالحواريين أصحاب عيسى ، والذين اختارهم موسى عليه الصلاة والسلام سبعين رجلًا ، وغير ذلك ؟! هل نحن نستحضر أننا نُسَلِّم على جبريل ، وعلى ميكائيل ، وعلى إسرافيل ، وعلى مالك خازن النار ، وعلى خازن الجنة ، وعلى جميع الملائكة ؟! لا أدري هل نحن نستحضر هذا أم لا ؟ إن كنا لا نستحضر فيجب أن نستحضر ذلك ؛ لأن الرسول ﷺ قال : « إنكم إذا قلتم ذلك سلَّمتم على كل عبد صالح في السماء والأرض » .

والسلام مشروعٌ بين المسلمين ، مأمورٌ بإفشائه ، قال النبي ﷺ : « لا تَدْخُلُوا الجَنَّةَ حَتَّى تُؤْمِنُوا وَلا تُؤمِنوا حَتى تحابُّوا ، أَوَلا أَدُلُّكُم عَلَى شَيْءٍ إذا فَعَلْتُمُوهُ تَحابَبْتُم ، أَفْشوا السَّلام بَينَكُم » [1] يعني أظهروه .. أعلنوه ، وصدق رسول الله ﷺ ، أن إفشاء السلام بين الناس من أسباب المحبة ، ولذلك إذا لاقاك رجل ولم يُسَلِّم عليك كرهته ، وإذا سلَّم عليك أحببته - وإن لم يكن بينك وبينه معرفةَ - ولهذا كان من حسن الإسلام أن تُفشي السلام ، وأن تقرأ السلام على من عرفت ومن لم تعرف [2] .

ثم ذكر المؤلف رَحِمَهُ اللَّهُ آيات من كتاب الله منها :

١ - أن السلام من سنن الرسل والملائكة أيضًا ؛ فهؤلاء الملائكة الذين جاءوا إبراهيم عليه الصلاة والسلام ﴿ إِذْ دَخَلُواْ عَلَيْهِ فَقَالُواْ سَلَٰمًاۖ قَالَ سَلَٰمٌ قَوْمٌ مُّنكَرُونَ ﴾ ذكر علماء النحو أن إجابة إبراهيم أكمل من سلام الملائكة ، لأن الملائكة قالوا : ﴿ سَلَٰمًاۖ ﴾ بالنصب وهو مصدر منصوب لفعل محذوف والتقدير: نسلم سلامًا ؛ فالجملة فعلية وهي لا تدلُّ على الدوام والثبوت ، أما رَدُّ إبراهيم فقال : ﴿ سَلَٰمٌ ﴾ أي : عليكم سلام ؛ فهي جملة اسمية تدل على الثبوت ؛ فرده أكمل ؛ ولهذا يعتبر رَدُّ إبراهيم عليه الصلاة والسلام من الرد الأكمل الذي قال الله ﷻ فيه : ﴿ فَحَيُّواْ بِأَحْسَنَ مِنْهَآ أَوْ رُدُّوهَآۗ ﴾ فتبين في هذا أن السلام من سنن الرسل السابقين ، وأنه أيضًا من عمل الملائكة المقربين .

٢ - ثم ذكر المؤلف أيضًا آيات تدل على ذلك ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَدْخُلُواْ بُيُوتًا غَيْرَ بُيُوتِكُمْ حَتَّىٰ تَسْتَأْنِسُواْ وَتُسَلِّمُواْ عَلَىٰٓ أَهْلِهَاۚ ذَٰلِكُمْ خَيْرٌ لَّكُمْ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ ﴾ [النور: ٢٧] .

فإذا أردت أن تدخل بيتًا لا تدخل إذا لم يكن بيتك ، حتى تستأنس وتسلم ، يعني حتى لا يكون في قلبك وحشة ؛ لأن الإنسان إذا دخل بيت غيره بدون استئذان استوحش ، وإذا دخل باستئذان فهو مستأنس . وفي قراءة أخرى ﴿ تَسْتَأْذِنُوا ﴾ لكن السبعية ﴿ حَتَّىٰ تَسْتَأْنِسُواْ ﴾ وهي أعم ، لأن قوله : ﴿ تَسْتَأْنِسُواْ ﴾ يشمل ما إذا استأنس الإنسان بإذن من صاحب البيت ، أو استأنس الإنسان بإذن سابق .

مثلًا : قال له : ائتني الساعة الرابعة والنصف وتجد الباب مفتوحًا ، فإذا جئت في الموعد ووجدت الباب مفتوحًا فلا حاجة لأن تستأنس ، لأني الآن مستأنس أم مستوحش ؟ مستأنس ، لأن عندي أذن

---

(١) أخرجه الترمذي في السنن (٢٦٨٨) ، وابن ماجه (٣٦٩٢) ، وأحمد في مسنده (٤٧٧/٢) .

(٢) ودليل ذلك ما رواه : البخاري في الاستئذان (١٩/٩) ، والنسائي في الإيمان (١٠٧/٨) .

مسبق ، فقراءة ﴿ حَتَّىٰ تَسْتَأْنِسُواْ ﴾ هي الصحيحة يعني هي أشمل من قراءة ﴿ حَتَّىٰ تَسْتَأْنِسُواْ ﴾ ، وأيضًا هي السبعية .

وقوله : ﴿ وَتُسَلِّمُواْ عَلَىٰٓ أَهْلِهَاۚ ﴾ أيضًا تُسلِّم على أهل البيت : السلام عليكم ... أأدخل ؟ وإذا دخلت بيتك فلا حاجة للاستئذان ؛ لأنه بيتك ، ولكن تُسَلِّم على أهلك ، وابدأ بالسِّواك قبل السلام ، فإذا وصلت أهلك قل : السلام عليكم . هذه هي السنة التي جاءت عن رسول الله ﷺ [1] .

٣ - قوله تعالى : ﴿ هَلْ أَتَىٰكَ حَدِيثُ ضَيْفِ إِبْرَٰهِيمَ ٱلْمُكْرَمِينَ ۝ إِذْ دَخَلُواْ عَلَيْهِ فَقَالُواْ سَلَٰمًاۖ قَالَ سَلَٰمٌ قَوْمٌ مُّنكَرُونَ ﴾ [الذاريات : ٢٤، ٢٥] .

﴿ هَلْ أَتَىٰكَ ﴾ مثل هذه الصيغة يُراد بها التشويق ، يعني أن الله ﷻ ذكرها بصيغة الاستفهام تشويقًا للمخاطب ، ومن المعلوم أن الإنسان يقول : لم يأتني ، لأنها ماضٍ . وقد سبق الكلام عن هذه الآية أيضًا ، أما قوله : ﴿ قَوْمٌ مُّنكَرُونَ ﴾ يعني : أنتم قوم منكرون ، أي : لا أعرفكم ، وليس المعنى أنه من المنكر الذي هو الحرام ، لكنه من المنكر الذي هو غير معروف يعني : أنا لا أعرفكم .

٤ - قوله تعالى : ﴿ فَإِذَا دَخَلْتُم بُيُوتًا فَسَلِّمُواْ عَلَىٰٓ أَنفُسِكُمْ تَحِيَّةً مِّنْ عِندِ ٱللَّهِ مُبَٰرَكَةً طَيِّبَةًۚ كَذَٰلِكَ يُبَيِّنُ ٱللَّهُ لَكُمُ ٱلْأٓيَٰتِ لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ ﴾ [النور : ٦١] .

﴿ فَسَلِّمُواْ عَلَىٰٓ أَنفُسِكُمْ ﴾ يعني على من فيها ، وجعلهم من أنفسهم ، لأن المؤمن للمؤمن كالبنيان يشُدُّ بعضه بعضًا ، فهو كقوله تعالى : ﴿ لَقَدْ جَآءَكُمْ رَسُولٌ مِّنْ أَنفُسِكُمْ عَزِيزٌ عَلَيْهِ مَا عَنِتُّمْ حَرِيصٌ عَلَيْكُم ﴾ [التوبة : ١٢٨] ، فالمعنى إذن : سلِّموا على من فيها ، لأنكم أنتم وإياهم نفسٌ واحدة .

والنفس قد تطلق على الغريب كما ذكرنا : ﴿ لَقَدْ جَآءَكُمْ رَسُولٌ مِّنْ أَنفُسِكُمْ ﴾ وكذلك قوله تعالى : ﴿ وَلَا تَلْمِزُوٓاْ أَنفُسَكُمْ ﴾ [الحجرات : ١١] يعني : لا يلمز بعضكم بعضًا ، وليس المعنى أن الإنسان يلمز نفسه ، المهم : أنك إذا دخلت بيتًا فسلِّم على من فيه ، قل : السلام عليكم ، وهم يجب عليهم أن يردوا السلام ، وقد سبق أن السنة إذا دخلت بيتك أنَّ أول ما تبدأ به أن تتسوَّك ، ثم تسلم على أهل البيت .

٥ - ﴿ وَإِذَا حُيِّيتُم بِتَحِيَّةٍ فَحَيُّواْ بِأَحْسَنَ مِنْهَآ أَوْ رُدُّوهَآۗ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ حَسِيبًا ﴾ فأمَر الله ﷻ إذا حُيينا بتحية أن نحيي بأحسن منها أو نردها ، يعني نرد مثلها . فمثلًا : إذا قال لك إنسان : السلام عليك . فقل : عليك السلام ولا تنقص ، وإذا قال : السلام عليك ورحمة الله . فقل : عليك السلام ورحمة الله . وإذا قال : السلام عليك ورحمة الله وبركاته . فقل : عليك السلام ورحمة الله وبركاته . وجوبًا ، لأن الله قال : ﴿ أَوْ رُدُّوهَآۗ ﴾ .

وإذا قال : السلام عليك . فقلت : وعليك السلام ورحمة الله . فهذا أحسن من الأول ، وأفضل ، لكنه ليس بواجب ، الواجب أن ترد عليه بمثل ما سلَّم عليك .

وقوله سبحانه : ﴿ بِأَحْسَنَ مِنْهَآ ﴾ يشمل الأحسن نوعًا ، والأحسن كمًّا ، والأحسن كيفية .

---

(١) انظر في ذلك أحمد في مسنده (٣٤٦/٣) .

فمثلًا - إذا قال : السلام عليك . فقلتَ : أهلًا ومرحبًا بأبي فلان حيَّاكَ اللَّه وبيَّاك [(١)] تفضل . فهذا لا يجزئ ولو قلته ألف مرة لن ينفع ، وكنت آثمًا ، لأنك لم ترد بأحسن ولا بالمثل ، فهو عندما قال : السلام عليك ، يدعو لك بالسلام مع التحية ، فإذا قلت : أهلًا ومرحبًا ، فهذه تحية بلا دعاء ، فلا بد أن تقول أحسن منها نوعًا ، أحسن منها كمًّا ، أو مثلها ، وإذا قال : السلام عليك ورحمة اللَّه . فقلت : عليك السلام . فهذا لا يجوز ، لأنك ما رددت بأحسن ولا بالمثل ، لا بد أن تقول كما قال . كذلك أحسن منها كيفية : فإذا سلَّم عليك بصوت واضح مرتفع لا ترد عليه بطرف أنفك . ومن ذلك أيضًا : إذا سلم عليك وقد أقبل إليك بوجهه فسلَّمتَ عليه مُعْرِضًا عنه مُصَعِّرًا خدَّك له ، فهذا أيضًا نقص ؛ لم تردها ، ولم ترد بأحسن منها .

وظاهر الآية الكريمة : أنه لو حيَّاك رجل من الكفار قال : السلام عليك بعبارة واضحة فقلت : وعليك السلام ، فلا بأس بها ، لأنك رددت بالمثل ، وأما قول النبي ﷺ : « إذَا سَلَّمَ عَلَيكُم أحد من أهلُ الكتاب فَقولُوا : عَلَيكُ » [(٢)] . يعنى لا تقولوا : وعليكم السلام ؛ فإنه بيَّنَ سبب ذلك فقال : « إن اليهود إذا سلَّموا على أحدكم إنما يقولون : السام عليكم » [(٣)] ، يعني : يدعون عليكم بالموت ، فقال رسول اللَّه : قولوا : « وعليكم » أي وعليك أنت أيضًا السام ، فيفهم من هذا الحديث أنهم لو قالوا : السلام عليكم . فإننا نقول : وعليكم السلام . ولا بأس ، لأن اللَّه قال : ﴿ وَإِذَا حُيِّيتُم بِتَحِيَّةٍ فَحَيُّوا۟ بِأَحْسَنَ مِنْهَآ أَوْ رُدُّوهَآ ﴾ واللَّه الموفق .

* * *

٨٤٥ - وعن عبدِ اللَّه بن عمرِو بن العاص رضي الله عنهما أن رجلًا سَأَل رسول اللَّه ﷺ : أيُّ الإسلامِ خَيرٌ؟ قالَ : « تُطْعِمُ الطَّعَامَ ، وتَقْرَأُ السَّلامَ عَلى مَنْ عَرَفْت وَمَنْ لَمْ تَعْرِف » [(٤)] متفقٌ عليه .

الشرح

سبق الكلام على الآيات التي ذكرها المؤلف رحمه الله في هذا الباب ، ثم ذكر الأحاديث ومنها :

١ - حديث : عبد اللَّه بن عمرو بن العاص أن رسول اللَّه ﷺ سُئِل : أيُّ الإسْلام خَيرٌ ؟ ، . والصحابة رضي الله عنهم إذا سألوا الرسول في مثل هذه الأسئلة لا يريدون مجرد العلم ، وإنما يريدون العمل ، فإذا قال الإسلام : كذا وكذا ؛ فعلوه وتسابقوا إليه ، وهكذا ينبغي للسائل الذي يسأل العالم ويستفتيه أن ينوي بقلبه أنه إذا دله على الخير فعله - كما كان دأب الصحابة - لا يريد أن ينظر ماذا عند العالم فقط . فقال النبي ﷺ : « تطعم الطعام » يعني : من احتاج إليه ، وأول من يلزمك إطعامه هم عائلتك ، وإطعامهم صدقة وصلة وأفضل من إطعام الأباعد ، لأن إطعام أهلك قيام بواجب ، وإطعام

---

(١) حياك اللَّه : أي ملكك وأبقاك ، وبياك : أي أضحكك ، أو بوأك منزلًا في الجنة (لسان العرب ١/ ٤٠٨ ، مادة بيي) .

(٢) أخرجه الترمذي في السنن (٣٣٠١) ، وابن ماجه في السنن (٣٦٩٧) .

(٣) أخرجه البخاري في استتابة المرتدين (٦٩٢٨) ، ومسلم في السلام (٨ ، ٩) ، والترمذي في السنن (١٦٠٣) .

(٤) أخرجه البخاري في الإيمان (١٢) ومسلم في الإيمان (٦٣) وابن ماجه في الأطعمة (٣٢٥٣) .

الأباعد قيام بمستحب ، والواجب أحب إلى الله من المستحب كما في الحديث القدسي : « ما تقرب إليَّ عبدي بشيء أحب إليَّ مما افترضت عليه » [١] وبعض الناس ينفق على أهله ما ينفق ولكنه لا يشعر بأنه يتقرب إلى الله بهذا الإنفاق ، ولو جاءه مسكين وأعطاه « ريال واحد » يشعر بأنه متقرب إلى الله بهذه الصدقة ، ولكن الصدقة الواجبة على الأهل أفضل ، وأكثر أجرًا ، فإذا أطعمت الطعام لأهلك فهذا من خير الإسلام .

« وَتَقْرأُ السَّلام » : وهذا هو الشاهد . وَتَقْرأُ السَّلام : يعني تقول : السلام عليك . ويسمى : قراءة السلام ، وإلقاء السلام . « عَلَىَ مَنْ عَرَفْتَ وَمَنْ لَمْ تَعْرِفْ » : لا يكن سلامك سلام معرفة بل يكون مثوبة وإلفة ، لأن المُسَلِّم يثاب على سلامه ويحصل بسلامه التأليف كما قال النبي عليه الصلاة والسلام : « واللَّه لا تدخلوا الجنة حتى تؤمنوا ، ولا تؤمنوا حتى تحابوا ، أفلا أخبركم بشيء إذا فعلتموه تحابيتم ، أفشوا السلام بينكم » [٢] ، أما من لا يسلم إلا سلام معرفة ؛ فسوف يفوته خير كثير ، لأنه ربما مرَّ به عشرات لا يعرف منهم إلا واحدًا ، أما من يسلم سلام مثوبة وإلفة فهو يسلم على من عرف ومن لم يعرف إلا إذا كان الذي مررت به كافرًا فلا تُسَلِّم عليه ، لأن النبي ﷺ قال : « لا تبدأوا اليهود ولا النصارى بالسلام » [٣] وغيرهم أخبث منهم مثل السيخ والمشركين والشيوعيين ومن شابههم ، فلا تقرأ عليهم السلام ، ولا تُسلِّم عليهم ، وكذلك الفاسق المُعلن بفسقه - إذا كان في ترك السلام عليه مصلحة - وهو أنك إذا لم تسلم عليه تاب من فسقه ورجع إلى اللَّه ، أما إذا لم يكن هناك مصلحة ، وأن الأمر بالنسبة له سيان سلَّمت أو لم تسلم ، وكان عدم سلامك عليه يكون في قلبه عداوة عليك ويستمر في باطله ولا يقبل منك النصيحة ؛ فسلِّم عليه .

ممَ سبق نجد أن الناس صاروا ثلاثة أقسام :

القسم الأول : الفاسق المعلن بفسقه : فهذا سلِّم عليه إلا إذا كان في هجره مصلحة .

القسم الثاني : الكافر : لا تسلم عليه ، لكن إن سلَّمَ عليك رُدَّ عليه .

القسم الثالث : إنسان مُسْلِم لا تعلم عليه فسقًا فسلِّم عليه ، واحرص على أن تكون أنت البادئ بالسلام ، لأن النبي ﷺ كان يبدأ من لقيه بالسلام [٤] - وهو أشرف الخلق - وقال عليه الصلاة والسلام : « لا يحل للمؤمن أن يهجر أخاه فوق ثلاث ، يلتقيان فيعرض هذا ويعرض هذا وخيرهما الذي يبدأ بالسلام » [٥] . وهكذا الحديث الذي معنا خير الإسلام « أن تقرأ السلام على من عرفت

---

(١) أخرجه البيهقي في السنن (٣/٣٤٦) .

(٢) أخرجه الترمذي في السنن (٢٦٨٨) ، وأحمد في مسنده (٢/٤٧٧) ، وابن ماجه في السنن (٣٦٩٢) جميعهم دون لفظ « واللَّه » .

(٣) أخرجه مسلم في السلام (١٣) ، وأحمد في مسنده (٢/٢٦٦) ، والترمذي في السنن (١٦٠٢) .

(٤) انظر الحديث في : مسلم في الإيمان (٢٧٨) .

(٥) أخرجه مسلم في البر والصلة (٢٣) ، وأحمد في مسنده (٣/١٦٥) . بلفظ : « لا يحل المسلم » .

ومن لم تعرف » والله الموفق .

* * *

٨٤٦ - وعن أبي هريرة ﷺ عن النبي ﷺ قال : « لمَّا خَلَقَ اللَّه تعالى آدَمَ ﷺ قال : اذْهَبْ فَسَلِّمْ عَلى أُولئكَ - نَفرٍ مِنَ المَلائِكَةِ جُلوس - فاسْتَمِعْ ما يُحَيُّونَكَ ، فإنَّها تحيَّتُكَ وَتَحيَّةُ ذُرِّيَّتِكَ . فقال : السَّلامُ عَلَيكُمْ ، فقالوا : السَّلامُ عَلَيكَ وَرَحْمَةُ اللَّهِ ، فَزَادُوهُ : وَرَحْمَةُ اللَّهِ » [١] متفقٌ عليه .

الشرح

ذكر المؤلف رحمه الله في كتابه (رياض الصالحين) في باب فضل السلام والأمر بإفشائه عن أبي هريرة ﷺ أن الله لما خلق آدم قال له : « اذهب إلى هؤلاء النفر من الملائكة - وهم جلوس - فسلِّم عليهم ، وانظر ماذا يحيونك به ، فإنها تحيتك وتحية ذريتك ، فذهب آدم - امتثالًا لأمر الله - فسلم على الملائكة الجلوس : السلام عليكم . قالوا : السلام عليك ورحمة الله . فزادوا : ورحمة الله . ففي هذا الحديث دليل على :

١ - أن هذه الخليقة البشرية كانت من العدم ، وأنها لم تكن شيئًا مذكورًا من قبل كما قال الله - تبارك وتعالى - : ﴿ هَلْ أَتَىٰ عَلَى ٱلْإِنسَـٰنِ حِينٌ مِّنَ ٱلدَّهْرِ لَمْ يَكُن شَيْـًٔا مَّذْكُورًا ﴾ [٢] [الإنسان : ١] فهذه البشرية لم تكن شيئًا مذكورًا من قبل ، فخلقها الله وأوجدها لحكمة عظيمة ، ولهذا لما قالت الملائكة لله ﷻ حين أخبرها أنه جاعل في الأرض خليفة قالوا : ﴿ أَتَجْعَلُ فِيهَا مَن يُفْسِدُ فِيهَا وَيَسْفِكُ ٱلدِّمَآءَ وَنَحْنُ نُسَبِّحُ بِحَمْدِكَ وَنُقَدِّسُ لَكَ قَالَ إِنِّىٓ أَعْلَمُ مَا لَا تَعْلَمُونَ ﴾ [٣] [البقرة : ٣٠] خلق الله هذه البشرية وجعل منهم الأنبياء والرسل والصديقين والشهداء والصالحين .

٢ - أن الملائكة أجسام وليست أرواحًا بلا أجسام ؛ لأنهم جلوس ، والجالس يعني أنه جسم ، وقد رأى النبي ﷺ جبريل على صورته التي خُلق عليها له ستمائة جناح قد سدَّ الأفق [٤] ، والله ﷻ قال : ﴿ جَاعِلِ ٱلْمَلَـٰٓئِكَةِ رُسُلًا أُوْلِىٓ أَجْنِحَةٍ ﴾ [فاطر : ١] فالملائكة أجسام ولكن الله ﷻ حجبهم عنَّا ، جعلهم عالـمًا غيبيًّا كما أن الجن أجسام ولكن الله ﷻ حجبهم عنَّا فجعلهم عالمًا غيبيًّا ، وقد تظهر الملائكة في صورة إنسان كما جاء جبريل إلى رسول الله ﷺ مرة بصورة « دِحْيَة الكلبي » [٥] ، ومرة بصورة رجل غريب لا يُرى عليه أثر السفر ولا يعرفه الصحابة ، وعليه ثياب بيض ، شعره أسود وجلس إلى النبي ﷺ وسأله عن الإسلام والإيمان والإحسان والساعة وأشراطها ، ومن فوائد هذا الحديث .

٣ - أن السُّنة في السلام « السلام عليك » - إذا كان الـمُسلَّم عليه واحدًا ، وإذا كانوا جماعة تقول :

---

(١) أخرجه البخاري في الاستئذان (٦٢٢٧) ومسلم في الجنة وصفة نعيمها (٢٨) .

(٢) قوله تعالى : ﴿ حِينٌ مِّنَ ٱلدَّهْرِ ﴾ أي طائفة محدودة من الزمان الممتد ، والدهر يطلق على كل زمان طويل غير معين .

(٣) قوله تعالى : ﴿ وَيَسْفِكُ ٱلدِّمَآءَ ﴾ أي : يقتل ظلمًا وعدوانًا . وقوله تعالى : ﴿ نُسَبِّحُ بِحَمْدِكَ ﴾ أي ننزهك عما لا يليق بعظمتك ، وقوله تعالى : ﴿ وَنُقَدِّسُ لَكَ ﴾ أي : نطهر ذكرك عما لا يليق بك ، تعظيمًا لك وتمجيدًا .

(٤) أخرجه البخاري في بدء الخلق (٣٢٣٢) ، وأحمد في مسنده (٤٠١/١) .

(٥) انظر مسلم في فضائل الصحابة (١٠٠) .

« السلام عليكم » ، لأن الواحد يخاطب بخطاب الواحد ، والجماعة تخاطب بخطاب الجماعة .

٤ ـ أن السلام مُتلقَّى من الملائكة بأمر الله ، حيث قال ﷺ « إنها تحيتك وتحية ذريتك » لكن في قولهم : « السلام عليك ورحمة الله » إشكالٌ ؟ . وهو أن المعروف في الرد أن يُقدَّم الخبر فيقال : عليك السلام . والرد على ذلك نقول : إما أن هذا يُعلِّمونه التحية الابتدائية ، أو أن الشريعة وردت بخلاف ذلك - أي بتقديم الخبر - .

٥ ـ أن الأفضل في رد السلام أن يزيد الإنسان « ورحمة الله » ، لأن الملائكة زادوا ، والله ﷻ قال : ﴿ فَحَيُّوا۟ بِأَحۡسَنَ مِنۡهَآ ﴾ فبدأ بالأحسن ﴿ أَوۡ رُدُّوهَآ ﴾ إذا لم تردوا الأحسن .

* * *

٨٤٧ - وعن أبي عُمارة البَراءِ بن عازبٍ ﵄ قال : أمرنا رسول الله ﷺ بسَبْعٍ : بِعِيَادَةِ المَرِيض ، وَاتِّبَاعِ الجَنَائِزِ ، وَتَشْمِيتِ العَاطِسِ ، وَنصْرِ الضَّعِيف ، وَعَونِ المَظْلُومِ ، وَإِفْشَاءِ السَّلامِ ، وَإِبرارِ المُقْسِمِ (١) . متفقٌ عليه ، هذا لفظ إحدى روايات البخاري .

٨٤٨ - وعن أبي هريرة ﵁ قال : قال رسول الله ﷺ : « لا تَدْخُلُوا الجَنَّةَ حَتَّى تُؤْمنوا ، وَلا تُؤْمِنُوا حتى تحَابُّوا ، أَوَلا أَدُلُكُمْ عَلى شَيْءٍ إذا فَعَلْتُمُوهُ تحَابَبْتُمْ ؟ أَفْشُوا السَّلامَ بَيْنَكُمْ » (٢) رواه مسلم .

٨٤٩ - وعن أبي يوسف عبد الله بن سلام ﵁ قال : سمعت رسول الله ﷺ يقول : « يَا أَيُّهَا النَّاسُ أَفْشُوا السَّلامَ ، وَأَطْعِمُوا الطَّعَامَ ، وَصِلُوا الأرْحَامَ ، وَصَلُّوا والنَّاسُ نِيامٌ ، تَدْخُلُوا الجَنَّةَ بسَلامٍ » (٣) رواه الترمذيُّ وقال : حديثٌ حسنٌ صحيحٌ .

٨٥٠ - وعن الطُّفَيلِ بن أُبَيِّ بن كَعْبٍ أَنَّهُ كانَ يَأْتي عبد الله بن عُمَرَ ، فَيَغْدُو مَعَهُ إلى السُّوقِ ، قال : فإذا غَدَونَا إلى السُّوقِ ، لَمْ يَمُرَّ عبدُ الله عَلى سَقَّاطٍ وَلا صاحِبِ بَيْعَةٍ ، ، وَلا مِسْكِينٍ ، وَلا أَحَدٍ إلا سَلَّمَ عَلَيهِ ، قال الطُّفَيلُ : فَجِئْتُ عبد الله بن عُمَرَ يَومًا ، فَاسْتَتْبَعَني إلى السُّوقِ ، فَقُلْتُ لَهُ : ما تَصْنَعُ بِالسُّوقِ ، وَأَنْتَ لا تَقِفُ عَلى البَيعِ ، وَلا تَسْأَلُ عَنِ السِّلَعِ ، وَلا تَسُومُ بِهَا ، وَلا تجلسُ في مَجَالِسِ السُّوقِ ؟ وَأَقولُ : اجْلِسْ بِنا ها هُنا نَتَحَدَّثْ ، فقال : يا أَبَا بَطْنٍ - وَكَانَ الطُّفَيلُ ذا بَطْنٍ - إِنَّمَا نَغْدُو مِنْ أَجْلِ السَّلام ، فَنُسَلِّمُ عَلى مَنْ لَقِيناهُ (٤) . رواه مالك في الموطأ بإسنادٍ صحيحٍ .

الشرح

هذه الأحاديث في باب فضل السلام وإفشائه : حديث البراء ، وأبي هريرة ، وعبد الله بن سلام كلها سبق الكلام عليها ؛ فلا حاجة إلى إعادة الكلام . أما حديث الطفيل بن أُبَيّ بن كعب ؛ فإنه ذكر له قصة

---

(١) أخرجه البخاري في الاستئذان (٦٢٣٥) ، ومسلم في اللباس (٣) ، والإمام أحمد في مسنده (٤٩٩/٤) .

(٢) أخرجه مسلم في الإيمان (٩٣) ، والإمام أحمد في مسنده (٣٩١/٢) .

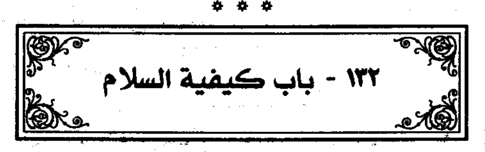
(٣) أخرجه الترمذي في صفة القيامة (٢٤٨٧) . (٤) أخرجه مالك في الموطأ (٩٦١/٢ ، ٩٦٢) .

مع عبد اللَّه بن عمر ﷺ وهي : أنه استتبعه - يعني عبد اللَّه بن عمر - يومًا إلى السوق فجعل عبد اللَّه بن عمر يُسَلِّم على كل أحد : على صاحب الدكان ، وعلى كل من مرَّ به ممن عرف وممن لا يعرف . فجاءه ذات يوم ، فقال له : اذهب بنا إلى السوق . فقال له : ماذا تصنع في السوق ؟ فأنت لا تشتري شيئًا ، ولا تبيع شيئًا ، اجلس بنا نتحدث . فقال : إنما أذهب إلى السوق من أجل السلام على الناس ، لأن الإنسان إذا سلَّم وأفشى السلام وأظهره كان هذا سببًا لدخول الجنة ، كما في حديث أبي هريرة : « لا تدخلوا الجنة حتى تؤمنوا ، ولا تؤمنوا حتى تحابوا ، أفلا أخبركم بشيء إذا فعلتموه تحاببتم ، أفشوا[1] السلام بينكم » ، ولأن الإنسان إذا سلَّم على أخيه فقال : السلام عليكم ، أو السلام عليك إذا كان واحدًا ؛ فإنه يُكتب له بذلك عشر حسنات ، فإذا سلم على عشرة أشخاص ؛ كُتب له بذلك مائة حسنة ، وهذا خير من البيع والشراء ، فكان عبد اللَّه بن عمر يدخل السوق من أجل كثرة المُسَلَّم عليهم ، لأنه في بيته لا يأتيه أحد ، وإذا أتاه ، أتاه أقل بكثير ممن يوجد في السوق ، لكن من في السوق يمر عليهم ، ويسلم عليهم ، وفي هذا دليل على أنه لا ينبغي للإنسان أن يَمَلَّ من كثرة السلام ، لو قابلت مائة شخص فيما بينك وبين المسجد مثلًا ، فسلم ؛ إذا سلمت على مائة شخص تحصل على ألف حسنة ، هذه نعمة كبيرة .

وفي هذا أيضًا دليل على حرص السلف الصالح على كسب الحسنات ، وأنهم لا يفرطون فيها بخلاف وقتنا الحاضر : تجد الإنسان يفرط في حسنات كثيرة . وابن عمر ﷺ من أحرص الناس إلى المبادرة إلى فعل الخير لما حدَّثه أبو هريرة ﷺ عن النبي ﷺ : أن من تبع الجنازة حتى يُصَلَّى عليها كُتب له قيراط ، ومن شهدها حتى تُدفن كُتب له قيراطان ، قيل : وما القيراطان يا رسول اللَّه ؟ قال : « مثل الجبلين العظيمين : أصغرهما مثل أُحد »[2] . ولما حُدِّث ابن عمر بهذا الحديث قال : واللَّه لقد فرطنا في قراريط كثيرة ، ثم صار لا تحصل جنازة إلا تبعها ﷺ وهكذا السلف الصالح إذا علموا ما في الأعمال من الخير والثواب بادروا إليها وحرصوا عليها ، فالذي ينبغي للمؤمن أن يكون حريصًا على فعل الخير كلما بان له خصلة خير فليبادر إليها . نسأل اللَّه أن يجعلنا وإياكم من المتسابقين إلى الخيرات ، إنه على كل شيء قدير .

أما قوله : « يا أبا بطن » فإن الطفيل كان كبير البطن ، وهذا من باب المداعبة ، وليس قصده أن يعيره بأنه كبير البطن ، ولكنه كان يداعبه ، مثل قول الرسول لأبي هريرة : « يا أبا هر »[3] .

* * *



١٣٢ - باب كيفية السلام

يُسْتَحَبُّ أَنْ يَقُولَ المُبْتَدِئُ بالسَّلامِ : « السَّلامُ عَلَيكُمْ وَرَحْمَةُ اللهِ وَبَرَكَاتُهُ » فَيَأتي بضَمِيرِ الجَمْعِ ، وَإنْ كانَ المُسلَّمُ عَلَيهِ واحِدًا ، وَيَقُولُ المُجِيبُ : « وَعَليكُم السَّلامُ وَرَحْمَةُ اللهِ وَبَرَكَاتُهُ » فَيأْتي بِواو

(١) قوله : « أفشوا » أي : أعلنوا وأظهروا .

(٢) أخرجه البخاري في الجنائز (١٣٢٣) ، ومسلم في الجنائز (٥٥) ، وأحمد في مسنده (٢٧٦/٥) .

(٣) ورد ذلك في مسند أحمد (٥٢٥/٢) ، والحاكم في المستدرك (١٥/٣) ، والبيهقي في السنن (٤٤٦/٢) .

العَطفِ في قوله : وَعَلَيكُم .

٨٥١ - عن عِمْرَانَ بن الحُصَينِ ﷺ قال : جاءَ رَجُلٌ إلى النبيِّ ﷺ فقال : السَّلامُ عَلَيكُم ، فَرَدَّ عَلَيهِ ثم جَلَسَ ، فقال النبيُّ ﷺ : « عَشْرٌ » ثم جَاءَ آخَرُ ، فقال : السَّلامُ عَلَيكُم وَرَحْمَةُ اللَّه ، فَرَدَّ عليهِ فَجَلَسَ ، فقال : « عِشْرُون » ثم جَاءَ آخَرُ ، فقال : السَّلامُ عَلَيكُم وَرَحْمَةُ اللَّه وَبَرَكَاتُهُ ، فَرَدَّ عَلَيهِ فَجَلَسَ ، فقال : « ثَلاثونَ » [١] رواه أبو داود والترمذي وقال : حديث حسن .

٨٥٢ - وعن عائشة ﷺ قالت : قال لي رسول اللَّه ﷺ : « هذا جِبرِيلُ يَقرَأُ عَلَيكِ السَّلامَ » قَالَتْ : قُلتُ : وَعَلَيهِ السَّلامُ ورحْمَةُ اللَّه وَبَرَكَاتُهُ [٢] . متفقٌ عليه . وهكذا وقع في بعض رواياتِ الصحيحين : « وبَرَكَاتُهُ » وَفي بَعْضِها بحَذفِهَا وَزِيَادَةُ الثِّقَةِ مَقْبولَةٌ .

٨٥٣ - وعن أنسٍ ﷺ أن النبيَّ ﷺ كانَ إذا تكلم بِكَلِمَةٍ أَعَادَها ثلاثًا حتى تُفهَمَ عنه ، وإذا أَتَى عَلَى قَومٍ فَسَلَّمَ عَلَيهِم سَلَّمَ عَلَيهِمْ ثَلاثًا [٣] . رواه البخاري . وَهذا مَحْمُولٌ عَلى مَا إذا كان الجَمْعُ كَثِيرًا .

الشرح

ذكر المؤلف رحمه الله في كتابه : (رياض الصالحين) باب كيفية السلام : يعني كيف يُسلِّم ؟ ماذا يقول إذا سلَّم ؟ وماذا يقول إذا ردَّ ؟ وذكر المؤلف رحمه الله أنه يستحب أن يقول : السلام عليكم ورحمة اللَّه ، وإن كان المُسَلَّم عليه واحدًا ، ثم استدل بحديث عِمران بن حصين ﷺ قال : جاءَ رجُل إلى النبي ﷺ فقال : السَّلامُ عَلَيكُم ، فَرَدَّ عَلَيهِ ثم جَلَسَ ، فقال النبي ﷺ : « عَشْرٌ » ثم جَاءَ آخَرُ فَقَالَ : السَّلامُ عَلَيكُم وَرَحْمَةُ اللَّه ، فَرَدَّ عليهِ فَجَلَسَ ، فقال : « عِشْرون » ، ثم جَاءَ آخَرُ فَقَالَ : السَّلامُ عَلَيكُم وَرَحْمَةُ اللَّه وَبَرَكَاتُهُ ، فَرَدَّ عليهِ فَجَلَسَ ، فقال : « ثلاثُونَ » . فقال للأول : عشر حسنات ، والثاني : عشرون ، وللثالث : ثلاثون ، لأن كل واحد منهم زاد .

وهذه مسألة اختلف فيها العلماء : هل إذا سلَّم على واحد يقول : السلام عليك أم عليكم ؟ والصحيح أن يقول : السلام عليك . هكذا ثبت عن النبي ﷺ كما في حديث المسيء في صلاته أنه قال : السلام عليك [٤] . وأما ما استدل به المؤلف من حديث عمران ؛ فليس فيهِ دلالة ، لأن الرجل دخل مع النبي ﷺ ومعه جماعة فسلم على الجميع .فإذا كانوا جماعة فقل : السلام عليكم ، وإذا كان واحدًا فقل : السلام عليك ، وإن زدت : « ورحمة اللَّه » ؛ فهو خير ، وإن زدت : « وبركاته » ؛

---

(١) أخرجه أبو داود في الأدب (٥١٩٥) ، والترمذي في الاستئذان (٢٦٨٩) .
(٢) أخرجه البخاري في بدء الخلق (٣٢١٧) ، ومسلم في فضائل الصحابة (٩١) .
(٣) أخرجه البخاري في العلم (٩٥) .
(٤) انظر مسلم في الصلاة (٤٥) والترمذي في السنن (٣٠٣) والنسائي في السنن (٣/٥٩) .

فهو خير ؛ لأن كل كلمة فيها عشر حسنات ، وإن اقتصرت على : « السلام عليك » فهو كافٍ .

ويقول الرادُّ : « وعليكم السلام » ثم إن كان المُسَلِّم لم يزد على قول : السلام عليك . كفى ، وإن كان المُسَلِّم قد قال : « السلام عليك ورحمة اللَّه » ؛ فعلى الرادِّ أن يقول : « السلام عليك ورحمة اللَّه» لقوله تعالى : ﴿ وَإِذَا حُيِّيتُم بِتَحِيَّةٍ فَحَيُّوا بِأَحْسَنَ مِنْهَآ أَوْ رُدُّوهَآ ﴾ يعني : ردوا مثلها . وقال : يستحب أن يقول : « وعليكم » بزيادة الواو ، وهذا حسن ، لأنه إذا قال : « وعليكم » صار واضحًا أنه معطوف على الجملة التي سلم بها المُسَلِّم ، وإن حذفها فلا بأس ، لأن إبراهيم عليه السلام لم يأتِ بالواو في رده السلام على الملائكة ﴿ قَالُوا سَلَامًا قَالَ سَلَامٌ ﴾ [هود: ٦٩] ، ولم يأت بالواو ، فإن أتى بالواو فحسن ، وإن تركها فلا بأس .

ثم إنه من السُّنة إذا نُقِل السلام من شخص إلى شخص أن يقول : عليه السلام . وإن قال : عليك وعليه السلام ، أو عليه وعليك السلام ، فحسن ، لأن هذا الذي نقل السلام محسن ، فتكافئه بالدعاء له ، فإذا قال شخص لآخر : سلِّم لي على فلان ، ثم نقل الوصية وقال : فلان يسلِّم عليك ، فإنه يقول : عليه وعليك السلام ، أو يقول : عليه السلام ، ويقتصر ، لأن النبي ﷺ بلَّغ عائشة أن جبريل يقرأ عليها السلام ، فقالت : عليه السلام ، فدل ذلك على أنه إذا نقل السلام إليك أحد من شخص تقول : عليه السلام ، ولكن هل يجب عليك أن تنقل الوصية إذا قال : سلِّم لي على فلان ، أم لا يجب ؟ .

فصَّل العلماء فقالوا : إن التزمت له بذلك وجب عليك ، لأن اللَّه يقول : ﴿ إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُكُمْ أَن تُؤَدُّوا الْأَمَانَاتِ إِلَىٰٓ أَهْلِهَا ﴾ وأنت الآن تحملت هذا ، أما إذا قال : سلِّم لي على فلان وسكت ، أو قلت له مثلًا : إذا ذكرت أو ما أشبه ذلك ؛ فهذا لا يلزم إلا إذا ذكرت ، وقد التزمت له أن تسلم عليه إذا ذكرت ، لكن الأحسن ألا يكلف الإنسان أحدًا بهذا ، لأنه ربما يشق عليه ، ولكن يقول : سلم لي علي من سأل عني ، هذا طيب ، أما أن يُحَمِّله فإن هذا لا ينفع ، لأنه قد يستحي منك فيقول : نعم انقل سلامك ؛ ثم ينسى أو تطول المدة أو ما أشبه ذلك .

ثم ذكر حديث أنس بن مالك رضي الله عنه : أن النبي ﷺ كان إذا تكلم تكلم ثلاثًا ، وإذا سَلَّمَ سَلَّمَ ثلاثًا ؛ لكنه يتكلم ثلاثًا إذا لم تفهم الكلمة عنه ، أما إذا فهمت فلا يكرر ، لكن لو لم تفهم لكون المخاطب ثقيل السمع ، أو لكثرة الضجة حوله أو ما أشبه ذلك فليعد مرتين ، فإن لم تكفِ فثلاث ، يعني وبعد الثلاث لا يجوز . كما أنه إذا استأذن للدخول في البيت ثلاث مرات ولم يؤذن له انصرف ، وكذلك هنا إذا تكلم ثلاث مرات ولم يكلمه ، أولم يفهم يتركه ، كذلك إذا سلمت ولم يَسمع المُسَلَّم عليه أَعِدْ مرة ثانية وثالثة ، وهكذا إذا سلمت ورد عليك ردًّا لا يُجزئ : كما لو قلت : السلام عليك . قال : أهلًا ومرحبًا . أعد السلام قل : السلام عليك . إذا قال : أهلًا مرحبًا . أعد السلام قل : السلام عليك - ثلاث مرات - فإن لم ينفع فاتركه ، ولكن نبهه بأن قول القائل في الإجابة : أهلًا ومرحبًا لا يكفي ، ولابد أن يقول : عليك السلام ، إذا قيل : السلام عليك .

٨٥٤ - وعن المِقْدَادِ ﷺ في حديثِهِ الطويل قال : كُنَّا نَرفَعُ للنَّبيِّ ﷺ نَصِيبَهُ مِنَ اللَّبنِ ، فَيَجيءِ مِنَ اللَّيلِ ، فَيُسَلِّمُ تَسليمًا لا يُوقِظُ نَائمًا ، وَيُسْمِعُ اليَقْظَانَ ، فَجَاءَ النَّبيُّ ﷺ فَسَلَّم كما كان يُسَلِّمُ [١] . رواه مسلم .

٨٥٥ - وعن أَسْمَاءَ بنت يزيد ﵂ أن رسول اللَّه ﷺ مَرَّ في المَسْجِدِ يَومًا ، وَعُصبَة مِنَ النِّسَاءِ قُعودٌ ، فَألوى بِيَدِهِ بالتسليم [٢] . رواه الترمذي وقال : حديث حسن .

وَهذا مَحْمُولٌ عَلى أنه ﷺ جَمَعَ بَينَ اللَّفظ والإشَارَة ، ويُؤَيِّدُهُ أن في رِوايةِ أبي داود : « فَسَلَّمَ عَلَينَا » .

٨٥٦ - وعن أبي جُرَيّ الهجَيميّ ﷺ قال : أَتيتُ رسول اللَّه ﷺ ، فَقُلْتُ : عَلَيكَ السَّلامُ يا رسول اللَّه ؟ قَالَ : « لا تَقُل عَلَيكَ السَّلامُ ، فإنَّ عَلَيكَ السَّلامُ تَحِيَّةُ المَوتى » [٣] . رواه أبو داود ، والترمذي وقال : حديث حسن صحيح . وقد سبق بِطوله .

الشرح

هذه الأحاديث التي ذكرها النووي في كتاب (رياض الصالحين) من آداب السلام منها حديث المقداد بن الأسود ﷺ أن النبي ﷺ كان يدخل البيت في الليل فيسلم سلامًا خفيفًا يسمعه اليقظان ولا يوقظ النائم ، وهكذا ينبغي للإنسان إذا دخل بيتًا أو حجرة أو ما أشبه ذلك وفيها نيام وأيقاظ ؛ أن يسلم سلامًا يسمعه الأيقاظ ولا يوقظ النيام ، لأن النائم لا يحب أن يوقظه أحد ، لاسيما أن بعض الناس إذا أوقظ ما يأتيه النوم بعد ذلك ويبقى أرقًا إلى الفجر ، وهذا فيه أذى وفيه ضرر على الآخرين . فإذا دخلت مكانًا فيه أيقاظ ونيام ؛ فأعط الأيقاظ حقهم في السلام ، وامنع الأذى عن النيام بحيث يكون السلام خفيًا يسمعه اليقظان ولا يسمعه النائم .

ثم ذكر المؤلف حديث أسماء بمرور النبي ﷺ على نساءٍ في المسجد فألوى بيده إليهن بالتسليم وقال ﵀ : إن هذا محمول على أنه جمع بين التسليم باليد - بالإشارة - وكذلك باللسان ، لأن التسليم باليد فقط منهيٌ عنه ، نهى عنه النبي عليه الصلاة والسلام [٤] وأما الجمع بينهما فلا بأس خصوصًا إذا كان الإنسان بعيدًا يحتاج إلى أن ينظر لليد التي يشير بها المسلِّم ، أو كان أصم لا يسمع وما أشبه ذلك ، فإنه يجمع بين السلام وبين الإشارة ، وأما ما يفعله بعض الناس إذا مَرَّ وهو يركب سيارته ؛ فإنه يضرب البوق ، فإن هذا لا يكون سلامًا ، وليس من السنة ، اللَّهم إلا أن بعض الناس يقول : أنا لا أريد به السلام ، لكن أريد أن ينتبه ثم أسلم عليه ، هذا أرجو ألا يكون به بأس ، وأما أن

---

(١) أخرجه مسلم في الأشربة (١٧٤) .

(٢) أخرجه الترمذي في الاستئذان (٢٦٩٧) ، والبيهقي في سننه (٢٤/٣) ، والعصبة : نحو العشرة ، وقيل : من العشرة إلى الأربعين .

(٣) أخرجه أبو داود في الأدب (٥٢٠٩) ، والترمذي في الاستئذان (٢٧٢٢) .

(٤) وذلك فيما رواه الترمذي في الاستئذان (٤٥/٧) .

يجعله بدلًا عن السلام ؛ فإن هذا - لاشك - خلاف السنة ، فالسنة أن يسلم الإنسان بلسانه - وإذا كان الصوت لا يُسمع - فإنه يشير بيده ، حتى ينتبه البعيد أو الأصم .

وفي حديث أسماء بنت يزيد رضي الله عنها أن النبي ﷺ مرَّ بمسجد فيه عصبة من النساء ، فألوى إليهن بالتسليم - أي سلَّم عليهن وأشار بيده - قال النووي : وهو محمول على أنه جمع بين السلام والإشارة ؛ وذلك لأن السلام بالإشارة فقط منهي عنه ، فالسلام لابد أن يكون بالقول .

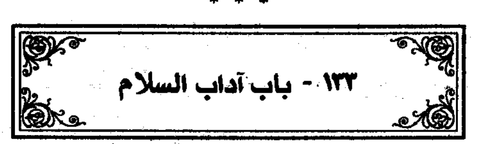
وفي الحديث سلام النبي ﷺ على النساء ، وذلك لأن المحذور منتفٍ غاية الانتفاء ، وإلا فإن الرجل الأجنبي الذي ليس مَحْرَمًا للمرأة لا يُسلِّم عليها ، لما في ذلك من الفتنة ، ولا سيما الشاب مع الشابة ؛ فإنه لا يسلم الرجل على المرأة ، ولا المرأة على الرجل ، لكن إذا كان الرجل معروفًا بالصلاح ، ومرَّ على نساء مجتمعات في المسجد ، أو في درس ، أو ما أشبه ذلك ؛ فلا بأس أن يُسلِّم ، لأن المحذور منتفٍ ، والمسجد كلنا يدخل فيه ويخرج ، لكن أن يمر الإنسان على المرأة الشابة في الشارع ، أو السوق ويسلم عليها فهذا فتنة ، فلا يسلم على المرأة ، كذلك لو دخل بيته - وفيه نساء يزرن أهله - فلا بأس أن يسلم ، لأن المحذور منتفٍ ، وأما ما يخشى منه الفتنة ؛ فإن لدينا القاعدة الشرعية وهي : « درأ المفاسد أولى من جلب المصالح » . ومن هنا نعلم أن مصافحة المرأة لا تجوز ، لا الكبيرة ولا الصغيرة ، لا من وراء حائل ولامباشرة ، لأن الفتنة قائمة [(١)] . أما المَـحْرَم فيجوز . والله أعلم .

كذلك أيضًا في صيغة السلام تقدم أنها : السلام عليك ورحمة الله وبركاته ، وإذا كانوا جماعة تقول : السلام عليكم ورحمة الله وبركاته . وأما : عليك السلام ، فإن النبي ﷺ نهى عنها ، وقال : « إن هذه تحية الموتى » يعني أنهم كانوا في الجاهلية يسلمون على أمواتهم بمثل هذا ، مثل قول الشاعر : -

* عليك سلام الله قيس بن عامر *

فهم إذا خاطبوا الأموات - ولو كانوا غائبين - لكنهم يستحضرونهم كأنهم بين أيديهم ، يسلمون عليهم بهذا : عليك سلام الله ، فلهذا نهى ﷺ عن ذلك ، لأنه تحية الموتى ، ومشابهة لأهل الجاهلية في جاهليتهم ، فبدلًا من أن تقول : عليك السلام . قل : السلام عليك . هذا هو السلام . والله أعلم .

* * *



١٣٣ - باب آداب السلام

٨٥٧ - عن أبي هريرة رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال : « يُسَلِّمُ الرَّاكِبُ عَلى المَاشي ، والمَاشي عَلى القَاعِدِ ، وَالقَليلُ عَلى الكَثِيرِ » متفقٌ عليه . وفي روايةٍ للبخاري : « وَالصَّغِيرُ عَلى الكَبِيرِ » [(٢)] .

---

(١) هذا هو رأي من يرى أن مس المرأة ناقض للوضوء وهو مذهب مالك والشافعي وأحمد والأكثرون أمَّا من يرون أنه لا ينقض الوضوء فإنهم يرون أنه لا شيء فيه إن كان للضرورة (انظر : المجموع ١/٣٠ ، ٣١) .

(٢) أخرجه البخاري في الاستئذان (٦٢٣٢) ، ومسلم في السلام (١) ، والإمام أحمد في مسنده (٢/٥١٠) .

٨٥٨ - وعن أبي أُمَامَةَ صُدَيِّ بن عَجلانَ البَاهِلِيِّ ﷺ قال : قال رسول الله ﷺ : « إنَّ أَولى النَّاسِ باللهِ مَنْ بَدَأَهم بالسَّلام » رواه أبو داود بإسنادٍ جيدٍ .

ورواه الترمذي عن أبي أُمَامَةَ ﷺ : قِيلَ : يا رسول اللهِ ، الرَّجُلانِ يَلْتَقِيانِ ، أَيُّهُمَا يَبْدأُ بِالسَّلامِ ؟ قال : « أَولاهُمَا بِاللهِ تعالى » [(١)] . قال الترمذي : هذا حديثٌ حسنٌ .

الشرح

هذه الأحاديث في شيء من آداب السلام ذكرها النووي رحمه الله في (رياض الصالحين) في آداب السلام ، سبق الكلام عن بعضها ، ومنها حديث أبي هريرة ﷺ مَن الذي يُسَلِّم ؟ . فنقول أولًا : خيرُ الناس من يبدأ الناسَ بالسلام ، وقد كان النبي ﷺ - وهو أشرف الخلق - يبدأ من لقيه بالسلام ، فاحرص على أن تكون أنت الذي تسلم قبل صاحبك ولو كان أصغر منك ، لأن خير الناس من يبدؤهم بالسلام ، وأولى الناس بالله من يبدؤهم بالسلام ، فهل تحب أن تكون أولى الناس عند الله ؟! كلنا يحب ذلك ، إذن فابدأ الناس بالسلام .

ثم ذكر النبي ﷺ أن الراكب يسلم على الماشي ، والماشي على القاعد ، و القليل على الكثير ، والصغير على الكبير ، وذلك لأن الراكب يكون (متعليًا) فيسلم على الماشي ، والماشي متعليًا على القاعد فيسلم عليه ، والقليل يسلم على الكثير ، لأن الكثير لهم حق على القليل ، والصغير يسلم على الكبير ، لأن الكبير له حق على الصغير ، ولكن لو قُدِّر أن القليلين في غفلة ولم يسلموا فليسلم الكثيرون ، ولو قدر أن الصغير في غفلة فليسلم الكبير ولا تترك السنة ، وهذا الذي ذكره النبي ﷺ ليس معناه أنه لو سلم الكبير على الصغير كان حرامًا ، ولكن المعنى : الأولى أن الصغير يسلم على الكبير ، فإذا لم يسلم فليسلم الكبير ، حتى إذا بادرت بالسلام - كما قلنا من قبل - كان أفضل ، وأولى الناس بالله من يبدؤهم بالسلام .

* * *

١٣٤ - باب استحباب إعادة السلام على من تكرر لقاؤه على قرب ، بأن دخل ثم خرج في الحال أو حال بينهما شجرة ونحوها

٨٥٩ - عن أبي هُريرةَ ﷺ في حَدِيثِ المسِيءِ صَلاتَهُ أَنهُ جاءَ فصلَّى ، ثُمَّ جاءَ إلى النبيِّ ﷺ ، فَسَلَّمَ عَلَيهِ ، فَرَدَّ عَلَيهِ السَّلاَمَ ، فقال : « ارْجِع فَصَلِّ ، فَإنَّكَ لَمْ تُصَلِّ » فَرَجَعَ فَصَلَّى ، ثُمَّ جاءَ فَسَلَّمَ عَلى النَّبيِّ ﷺ حَتى فَعَلَ ذلكَ ثَلاثَ مَرَّاتٍ [(٢)] . متفقٌ عليه .

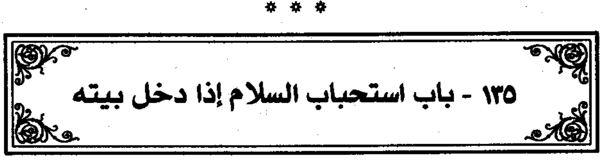
---

(١) أخرجه أبو داود في الأدب (٥١٩٧) ، والترمذي في الاستئذان (٢٦٩٤) . ومعنى قوله : « أولى الناس بالله » أي أحقهم بالقرب منه بالطاعة .

(٢) أخرجه البخاري في الأذان (٧٥٧) ، ومسلم في الصلاة (٤٥) ، والإمام أحمد في مسنده (٢/٤٣٧) .

٨٦٠ - وعنه : عَنْ رسول اللَّه ﷺ ، قال : « إذا لقِيَ أَحَدُكُمْ أخاه ، فَلْيُسَلِّمْ عَلَيهِ ، فَإنْ حالَتْ بَيْنَهُمَا شَجَرَةٌ أَو جِدَارٌ أَو حَجَرٌ ، ثُمَّ لَقِيَهُ ، فَلْيُسَلِّمْ عَلَيهِ » (١) رواه أبو داود .

* * *



١٣٥ - باب استحباب السلام إذا دخل بيته

قال اللَّه تعالى : ﴿ فَإِذَا دَخَلْتُم بُيُوتًا فَسَلِّمُوا عَلَىٰٓ أَنفُسِكُمْ تَحِيَّةً مِّنْ عِندِ ٱللَّهِ مُبَٰرَكَةً طَيِّبَةً ﴾ [النور: ٦١] .

٨٦١ - وعن أنسٍ ﷺ قالَ : قالَ لي رسول اللَّه ﷺ : « يا بُنَيَّ ، إذا دَخَلْتَ عَلى أهْلِكَ ، فَسَلِّمْ ، يَكُنْ بَرَكَةً عَلَيكَ ، وَعَلى أَهْلِ بَيتِكَ » (٢) رواه الترمذي وقال : حديث حسن صحيح .

الشرح

هذان البابان من آداب السلام ذكرهما النووي رحمه الله في كتابه (رياض الصالحين) ، فذكر أن الإنسان إذا سلم على أخيه ثم خرج ورجع عن قرب أو عن بعد - من باب أولى - فإنه يعيد السلام مثلًا - إنسان عنده ضيوف في البيت فدخل إلى البيت يأتي لهم بماء أو طعام أو نحو ذلك ، فإنه إذا رجع يسلم ، وهذه من نعمة اللَّه أنه يُسَنُّ السلام وتكراره كلما غاب الإنسان عن أخيه ، سواء غيبة طويلة أو قصيرة ، فإن اللَّه شرع لنا أن يسلم بعضنا على بعض ، لأن السلام عبادة وأجر كلما ازددنا منه ازددنا عبادة للَّه ، وازداد أجرنا وثوابنا عند اللَّه ، ولولا أن اللَّه شرع هذا لكان تكرار السلام على هذا الوجه من البدعة ، لكن من نعمة اللَّه أنك إذا غبت عن أخيك ورجعت - ولو عن قرب - فإنك تسلم عليه ، سواء حال بينكما شجرة أو حجر كبير بحيث تغيب عنه فإنك إذا لقيته سلم عليه . ثم استدل المعلق رحمه الله بحديث أبي هريرة ﷺ في قصة الرجل الذي دخل المسجد فصلى صلاة لا يطمئن فيها - ينقرها نقرًا - ثم جاء فسلم على النبي ﷺ فرد عليه السلام وقال : « ارجع فصلِّ ، فإنك لم تصلِّ » ، فرجع الرجل وصلى لكن كصلاته الأولى ، بدون طمأنينة ، ثم رجع فسلم على النبي ﷺ فرد عليه السلام وقال : «ارجع فصل ؛ فإنك لم تصل » ثلاث مرات ، والرجل يصلي صلاةً لا يعرف غيرها ؛ لأنه جاهل ، ثم قال : والذي بعثك بالحق لا أحسن غير هذا فعلمني . وهذا من حكمة الرسول ﷺ جعله يتردد ، يصلي هذه الصلاة التي لا تجزئ من أجل أن يشتاق إلى العلم ويتشوف إليه ، فيَرِد العلم على قلبه ، وهو منفتح له محتاج إليه . ومعروف أن الشيء إذا جاء على الحاجة يكون أَقْبَل للنفس ، انظر الآن تعطي الفقير عشرة ريالات ، وهو محتاج ، يفرح بها فرحًا شديدًا ، ويكون لها منزلة ، لكن لو أعطيتها غنيًا لا تهمه .

الحاصل : أن النبي ﷺ رد هذا الرجل من أجل أن يتشوق إلى العلم وينفتح قلبه له فقال ﷺ : « إذا قمت إلى الصلاة فأسبغ الوضوء ، ثم استقبل القبلة ، فكبر ، ثم اقرأ ما تيسر معك من القرآن - ولكن الفاتحة لابد منها لدلالة نصوص أخرى عليها - ثم اركع حتى تطمئن راكعًا ، ثم ارفع حتى تطمئن

(١) أخرجه أبو داود في الأدب (٥٢٠٠) . (٢) أخرجه الترمذي في الاستئذان (٢٦٩٨) .

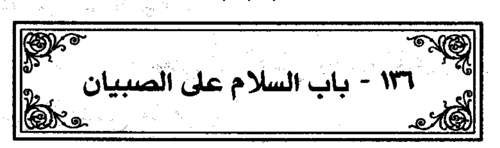
قائمًا ، ثم اسجد حتى تطمئن ساجدًا ، ثم ارفع حتى تطمئن جالسًا ، ثم اسجد حتى تطمئن ساجدًا - هذه ركعة تامة - ثم افعل ذلك في صلاتك كلها » علمه الرسول ﷺ فتعلم ومشى .

فاستدل المؤلف بهذا الحديث على أن الإنسان إذا رجع إلى أخيه ولو من قرب فَلْيُسَلِّم عليه ؛ مثلًا أنت في المسجد ثم انصرفت لتجديد الوضوء ، أو إحضار كتاب ، أو ما أشبه ذلك ، ثم رجعت فسلم ، وهذا خير ، فكل سلام بعشر حسنات .

ثم ذكر المؤلف رحمه الله أنه من السُّنة إذا دخل الإنسان بيته أن يسلم ، واستدل بقوله تعالى : ﴿ فَإِذَا دَخَلْتُم بُيُوتًا فَسَلِّمُوا عَلَىٰٓ أَنفُسِكُمْ تَحِيَّةً مِّنْ عِندِ ٱللَّهِ مُبَٰرَكَةً طَيِّبَةً ﴾ .

إذا دخلت بيتك فسلم ، لكن أول ما تدخل تبدأ به السواك ، ثم سلم على أهلك ، وقد أوصى النبي ﷺ أنس بن مالك - رضي الله عنه وهو خادمه - قال : « يا بني إذا دخلت على أهلك فسلم ؛ تكن بركة عليك وعلى أهلك » [١] ولهذا قال الله تعالى : ﴿ مُبَٰرَكَةً طَيِّبَةً ﴾ ، فإذا دخلت البيت فسلم على من فيه سواء أهلك ، أو زملائك ، أو ما أشبه ذلك ؛ فهذا من السُّنة .

* * *



١٣٦ - باب السلام على الصبيان

٨٦٢ - عن أنس رضي الله عنه أَنَّهُ مَرَّ عَلى صِبيانٍ ، فَسَلَّمَ عَلَيهِمْ ، وقال : كانَ رسولُ اللَّه ﷺ يَفْعَلُهُ [٢] . متفقٌ عليه .

١٣٧ - باب سلام الرجل على زوجته والمرأة من محارمه وعلى أجنبية وأجنبيات لايخاف الفتنة بهن وسلامهن بهذا الشرط

٨٦٣ - عن سَهْلِ بن سَعْدٍ رضي الله عنه قالَ : كانَتْ فِينا امْرَأَةٌ - وفي روايةٍ : كانَتْ لَنا عَجُوزٌ - تَأْخُذُ مِنْ أَصُولِ السِّلْقِ فَتَطْرَحُهُ في القِدْرِ ، وَتُكَرْكِرُ حَبَّاتٍ مِن شَعيرٍ ، فإذا صَلَّينا الجُمُعَةَ وَانْصَرَفْنا ، نُسَلِّمُ عَلَيها ، فَتُقَدِّمُهُ إلَينا [٣] . رواه البخاري . قوله : « تكركر » أي تطحن .

٨٦٤ - وعَنْ أُمِّ هَانِئٍ فَاخِتَةَ بنت أبي طالب رضي الله عنها قالَتْ : أَتيتُ النبيَّ ﷺ يَومَ الفَتْحِ وَهُوَ يَغْتَسِلُ ، وَفاطِمَةُ تَسْتُرُهُ بِثَوبٍ ، فَسَلَّمْتُ ، وذكَرتِ الحديث [٤] . رواه مسلم .

---

(١) أخرجه الترمذي في الاستئذان (٢٦٩٨) والمنذري في الترغيب والترهيب (٢/٤٦٠) قوله : « يكون بركة » أي يكون السلام سببًا في زيادة البركة وكثرة الخير والرحمة .

(٢) أخرجه البخاري في الاستئذان (٦٢٤٧) واللفظ له ، ومسلم في السلام (١٤) .

(٣) أخرجه البخاري في الاستئذان (٦٢٤٨) .

(٤) أخرجه البخاري في الصلاة (٣٥٩) واللفظ له ومسلم بنحوه في الحيض (٧٠) ، والإمام أحمد في مسنده (٦/٤٢٣) .

الشرح

قال المؤلف في كتابه (رياض الصالحين) في آداب السلام : باب السلام على الصبيان ؛ يعني الصغار من سن التمييز إلى سن الثانية عشرة ونحوها ، وقد جرت عادة الكثير من الناس ألا يسلم على الصبيان استخفافًا بهم ، ولكن هذا خلاف هدي النبي ﷺ حيث كان يسلم على الصغير والكبير ، فهذا أنس بن مالك رضي الله عنه مرَّ على صبيان فسلم عليهم وقال : إن النبي كان يفعله . أي كان يسلم على الصبيان . وللسلام على الصبيان أكثر من فائدة :

١ - اتباع السنة - سنة النبي ﷺ - وقد قال الله تعالى : ﴿ لَّقَدْ كَانَ لَكُمْ فِي رَسُولِ اللَّهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ لِّمَن كَانَ يَرْجُوا اللَّهَ وَالْيَوْمَ الْآخِرَ ﴾ [1] [الأحزاب : ٢١] .

٢ - التواضع ، حتى لا يُذَمَّ الإنسان بنفسه ، ويشمخ بأنفه ، ويعلو برأسه ، وقد قال النبي ﷺ : « ما زاد الله عبدًا بعفو إلا عِزًّا ، وما تواضع أحد لله إلا رفعه » [2] .

٣ - تعويد الصبيان لمحاسن الأخلاق ؛ لأن الصبيان إذا رأوا الرجل يَمُرُّ بهم ويسلم عليهم تعودوا ذلك ، واعتادوا هذه السنة المباركة الطيبة .

٤ - أن هذا يجلب المودة للصبي ، بمعنى أن الصبي يحب الذي يُسَلِّم عليه ويفرح لذلك ، وربما لا ينساها أبدًا ، لأن الصبي لا ينسى ما مر به .

فينبغي لنا إذا مررنا على صبيان يلعبون في السوق ، أو جالسين يبيعون شيئًا ، أو ما أشبه ذلك ؛ أن نسلم عليهم لهذه الفوائد التي ذكرناها .

أما السلام على النساء : فالسلام على المحارم من النساء والزوجات سُنَّة ، والمحارم : يعني اللاتي لا يحل لك أن تتزوج بهن ، تسلم عليهن ، ولا حرج في ذلك ، تسلم على زوجتك ، أختك ، عمتك ، بنت أخيك ، بنت أختك ، ولا حرج في هذا ، أما الأجانب : فلا تسلم عليهن ، اللَّهم إلا العجائز الكبيرات إذا كنت آمنًا على نفسك من الفتنة ، وأما إذا خفت الفتنة فلا تسلم ، ولهذا جرت عادة الناس اليوم أن الإنسان لا يسلم على المرأة إذا لاقاها في السوق ، وهذا هو الصواب ، ولكن لو أتيت بيتك ووجدت فيه نساء من معارفك وسلمت فلا بأس ولا حرج بشرط أمن الفتنة ، وكذلك المرأة تسلم على الرجل بشرط أمن الفتنة .

وذكر المؤلف رحمه الله حديث المرأة التي كانت تأخذ من « أصول السِّلق » وهو نوع من الشجر ، وأصوله طيبة تصلح إدامًا ، فتأخذ من هذه الأصول وتلقيها في الماء ، وتغليها على النار ، وتكركر عليها حبات من شعير ، فإذا خرج الصحابة جاء إليها من شاء منهم يسلم عليها ، ويأكل من هذا السلق ويفرحون به ، لأن الصحابة رضي الله عنهم لم يكونوا أغنياء إلا بعد أن فتح الله عليهم ، كما قال تعالى :

---

(١) قوله تعالى : ﴿ أُسْوَةٌ ﴾ أي : قدوة .

(٢) أخرجه مسلم في البر والصلة (٦٩) ، والمنذري في الترغيب والترهيب (٥/٢) .

﴿ وَمَغَانِمَ كَثِيرَةً يَأْخُذُونَهَا ﴾ [الفتح: ١٩] وقال: ﴿ وَعَدَكُمُ اللَّهُ مَغَانِمَ كَثِيرَةً تَأْخُذُونَهَا فَعَجَّلَ لَكُمْ هَٰذِهِۦ ﴾ [الفتح: ٢٠] فكثرت الأموال بعد الفتوح، أما قبل ذلك فإن غالبية الصحابة كانوا فقراء.

٨٦٥ – وعن أسماءَ بنتِ يزيدَ رضي الله عنها قالت: مَرَّ عَلَيْنَا النبيُّ ﷺ في نِسْوَةٍ فَسَلَّمَ عَلَيْنَا [١]. رواه أَبو داود، والترمذي وقال: حديث حسنٌ، وهذا لفظ أبي داود، ولفظ الترمذي: أَنَّ رسول اللَّه ﷺ مرَّ في المَسْجِدِ يَومًا وَعُصْبَةٌ مِنَ النِّسَاءِ قُعُودٌ، فَأَلْوَى بِيَدِهِ بِالتَّسْلِيم.

* * *

١٣٨ - باب تحريم ابتدائنا الكافر بالسلام وكيفية الرد عليهم واستحباب السلام على أهل مجلس فيهم مسلمون وكفار

٨٦٦ – عن أبي هُرَيرَةَ رضي الله عنه أنّ رسول اللَّه ﷺ قال: « لا تَبدَؤُوا اليَهودَ ولا النَّصارى بِالسَّلامِ، فإذا لقِيتُم أحَدَهُم في طَرِيق فَاضطَرُّوهُ إلى أَضْيَقِهِ » [٢] رواه مسلم.

٨٦٧ – وعن أنسٍ رضي الله عنه قال: قال رسول اللَّه ﷺ: « إذا سَلَّمَ عَلَيكُم أهلُ الكِتَابِ فَقُولُوا: وعَلَيكُم » [٣] متفقٌ عليه.

٨٦٨ – وعن أسامَةَ رضي الله عنه أنّ النبيَّ ﷺ مَرَّ عَلَى مَجلِسٍ فِيهِ أخلاطٌ مِنَ المُسْلِمِينَ والمُشرِكِينَ – عَبَدَةِ الأوثَانِ واليَهُود – فَسَلَّمَ عَلَيهِم النبيُّ ﷺ [٤]. متفقٌ عليه.

الشرح

هذا الباب ذكره المؤلف في كتابه (رياض الصالحين) في حكم السلام على الكفار الخلَّص، وعلى الكفار المختلطين بالمسلمين وقد سبق الكلام على المسلمين الخلص، وأنه سنة مؤكدة.

أما السلام على الكفار: فإنه لا يحل لنا أن نبدأهم بالسلام؛ يعني لا يجوز للإنسان إذا مر بالكافر أو دخل عليه أن يقول: السلام عليك، لأن النبي ﷺ نهى عن ذلك كما في حديث أبي هريرة رضي الله عنه وذلك لأن تسليمنا عليهم فيه نوع من الذل لهم، ونوع من الإكرام لهم، لأن التحية والسلام إكرام، والكافر ليس أهلًا للإكرام، بل الكافر حقه منا أن نغيظه، وأن نذله، وأن نهينه، لأن اللَّه ﷻ قال: ﴿ مُّحَمَّدٌ رَّسُولُ اللَّهِ وَالَّذِينَ مَعَهُۥٓ أَشِدَّآءُ عَلَى الْكُفَّارِ رُحَمَآءُ بَيْنَهُمْ تَرَىٰهُمْ رُكَّعًا سُجَّدًا يَبْتَغُونَ فَضْلًا مِّنَ اللَّهِ وَرِضْوَٰنًا ﴾ [الفتح: ٢٩] قال: ﴿ أَشِدَّآءُ عَلَى الْكُفَّارِ ﴾ يعني أقوياء عليهم، أعزة عليهم. ﴿ تَرَىٰهُمْ رُكَّعًا سُجَّدًا يَبْتَغُونَ فَضْلًا مِّنَ اللَّهِ وَرِضْوَٰنًا سِيمَاهُمْ فِى وُجُوهِهِم

---

(١) أخرجه أبو داود في الأدب (٥٢٠٤)، والترمذي في الاستئذان (٢٦٩٧).

(٢) أخرجه مسلم في السلام (١٣)، والترمذي في السير (١٦٠٢)، والإمام أحمد في مسنده (٢/٢٦٦).

(٣) أخرجه البخاري في الاستئذان (٦٢٥٨)، ومسلم في السلام (٧).

(٤) أخرجه البخاري في الاستئذان (٦٢٥٤)، ومسلم في الجهاد والسير (١١٦)، والإمام أحمد في مسنده (٥/٢٠٣).

مِنْ أَثَرِ ٱلسُّجُودِۚ ذَٰلِكَ مَثَلُهُمْ فِي ٱلتَّوْرَىٰةِۚ وَمَثَلُهُمْ فِي ٱلْإِنجِيلِ كَزَرْعٍ أَخْرَجَ شَطْـَٔهُۥ فَـَٔازَرَهُۥ فَٱسْتَغْلَظَ فَٱسْتَوَىٰ عَلَىٰ سُوقِهِۦ يُعْجِبُ ٱلزُّرَّاعَ لِيَغِيظَ بِهِمُ ٱلْكُفَّارَ ﴾ هذا الشاهد ، وقال تعالى في سورة التوبة : ﴿ وَلَا يَطَـُٔونَ مَوْطِئًا يَغِيظُ ٱلْكُفَّارَ وَلَا يَنَالُونَ مِنْ عَدُوٍّ نَّيْلًا إِلَّا كُتِبَ لَهُم بِهِۦ عَمَلٌ صَـٰلِحٌ ﴾ (١) [التوبة : ١٢٠] ابتداؤنا إياهم بالسلام إكرام لهم وإعزاز لهم ، والمؤمن ينبغي أن يكون عزيزًا على الكافرين ، قال اللّٰه تعالى : ﴿ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مَن يَرْتَدَّ مِنكُمْ عَن دِينِهِۦ فَسَوْفَ يَأْتِى ٱللَّهُ بِقَوْمٍ يُحِبُّهُمْ وَيُحِبُّونَهُۥٓ أَذِلَّةٍ عَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ أَعِزَّةٍ عَلَى ٱلْكَـٰفِرِينَ ﴾ (٢) [المائدة : ٥٤] فهم لهم العزة على الكافرين يعني يرى المسلم أنه أعز من الكافر وأن له العزة عليه ، ولهذا لما كثُرت العمالة النصرانية بيننا اليوم ذهبت الغيرة من القلوب ، وكأن النصراني أو اليهودي أو البوذي أو الوثني كأنه لا يخالفُنا إلا كما يخالف المالكي الحنبلي ، والشافعي ، أو ما أشبه ذلك عند بعض الناس الذين يظنون أن اختلافنا مع أهل الكفر كاختلاف المذاهب الأربعة في الإسلام نسأل اللّٰه العافية .

وهذا لا شك أنه من موت القلوب ، فلا يحل للإنسان أبدًا أن يعز الكافر . والمشروع أن نعمل كل ما فيه غيظ لهم ، ولكن يجب علينا أن نفي لهم بالعهد الذى بيننا وبينهم - إذا كان بيننا وبينهم عهد - فمثلًا : عمال ولو كانوا نصارى ، أولًا : نقول لا تأتي بعمالٍ نصارى في الجزيرة العربية ، لأن الرسول ﷺ قال : « لأخرجن اليهود والنصارى من جزيرة العرب » (٣) وأمر فقال : « أخرجوا اليهود والنصارى من جزيرة العرب » (٤) وقال وهو في مرض موته : « أخرجوا المشركين من جزيرة العرب » (٥) فلا تأتِ بكافرٍ وأنت يمكنك أن تأتي بمسلم ، وأما ما يعتقده من أمات اللّٰه قلبه - والعياذ باللّٰه - أو بما نقول : أزاغ اللّٰه قلبه ، يقول : أنا آتي بعمال كفار ، لأنهم لا يصلون ، فلو صلوا لنقص العمل ، وحتى لا يصوموا ومن ثم فلا ينقص العمل ؛ وحتى لا يذهبوا لعمرة أو حج ومن ثم فلا ينقص العمل ، فهذا - والعياذ باللّٰه - ممن اختار الدنيا على الآخرة نسأل اللّٰه العافية .

فالحاصل : أنه لا يجوز أن نبدأ أي كافر بالسلام ، لا يهودي ولا نصراني ولا بوذي ولا وثني ، فأي إنسان على غير الإسلام لا يجوز أن نبدأه بالسلام .

قال : « وإذا لقيتموهم في الطريق فاضطروهم إلى أضيقه » يعنى : لا نوسع لهم الطريق ، فلو تلاقي جماعة من المسلمين ، وجماعة من الكفار في الطريق فعلى المسلمين ألا يفسحوا لهم المجال ، ولو تفرقوا في الطريق ؛ لأنك إذا أفسحت الطريق لهم يُعَدُّ هذا إكرامًا .. أو ما أشبه ذلك .

إذًا : لماذا نعاملهم هذه المعاملة ، نعاملهم بهذه المعاملة لأنهم أعداء لله - قبل كل شيء - وأعداء

---

(١) قوله تعالى : ﴿ وَلَا يَطَـُٔونَ مَوْطِئًا ﴾ أي : لا يدوسون مكانًا من أمكنة الكفار بأرجلهم أو حوافر خيلهم ، وقوله تعالى : ﴿ يَنَالُونَ مِنْ عَدُوٍّ ﴾ بقتل أو أسرٍ أو جراحة أو غنيمة أو غير ذلك .

(٢) قوله تعالى : ﴿ أَذِلَّةٍ ﴾ أي عطوفين عليهم متذللين لهم متواضعين ، وقوله تعالى : ﴿ أَعِزَّةٍ ﴾ أي : أشداء غلظاء عليهم .

(٣) أخرجه مسلم في الجهاد (٦٣) ، والترمذي في السنن (١٦٠٧) ، وأبو داود في السنن (٣٠٣٠) ، وأحمد في مسنده (٣/٣٤٥) .

(٤) ذكر السيوطي في الدر المنثور (٣/٢٢٧) ، والهندي في كنز العمال (٥/١١٠) .

(٥) أخرجه البخاري في الجزية (٣١٦٨) ، ومسلم في الوصية (٢٠) ، وأحمد في مسنده (١/٢٢٢) .

لنا ، قال تعالى : ﴿ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَا تَتَّخِذُوا۟ عَدُوِّى وَعَدُوَّكُمْ أَوْلِيَآءَ تُلْقُونَ إِلَيْهِم بِٱلْمَوَدَّةِ وَقَدْ كَفَرُوا۟ بِمَا جَآءَكُم مِّنَ ٱلْحَقِّ ﴾ [1] [الممتحنة : ١] فهم أعداء الله أولًا – قبل كل شيء – وثانيًا أعداء لنا ، وأفعالهم بالمسلمين سابقًا ولاحقًا وإلى اليوم تدل على ذلك ؛ على شدة عداوتهم للمسلمين ، فلا يجوز أن نسلم عليهم ، ولكن إذا سلموا ماذا نقول ؟ قال النبي عليه الصلاة والسلام : « إذا سلموا عليكم فقولوا : وعليكم » فقط ، لا تزد على هذا ، لماذا ؟ لأنهم في عهد الرسول ﷺ كانوا يسلمون على المسلمين لكن سلامٌ خبيث يقولون : « السام عليكم » يعني : الموت . فيظن من يسمعهم أنهم يقولون : السلام عليكم . وهم يقولون السام عليكم – يعني الموت – فانظر إلى العداوة حتى في التحية ، لذا قال النبي ﷺ : قولوا : وعليكم – فقط – فإن كانوا قد قالوا : السام ، فعليهم ، وإن كانوا قد قالوا : السلام ، فعليهم ، وهذا من العدل ، لأن الله قال : ﴿ وَإِذَا حُيِّيتُم بِتَحِيَّةٍ فَحَيُّوا۟ بِأَحْسَنَ مِنْهَآ أَوْ رُدُّوهَآ ﴾ هذا عدل ، ولهذا قال بعض العلماء : إذا قال الكافر : السلام عليك – باللام الواضحة – فقل : عليك السلام ، لأنه زال الأمر الذي بنى عليه الرسول ﷺ قوله : « قولوا : وعليكم » كما في حديث ابن عمر في البخاري إنهم يقولون : « السام عليكم فإذا سلموا فقولوا : وعليكم » [2] . وهذه علة واضحة ، لأن السبب أننا نقول : وعليكم ، لأنهم يقولون : السام عليكم ، أما إذا قالوا السلام صراحة ، فنقول : وعليكم السلام ، لأن أقوم الناس بالعدل هم المسلمون – والحمد لله – فإذا قالوا : السلام عليكم . نقول : وعليكم السلام . وإن قالوا : أهلًا وسهلًا . فقل : أهلًا وسهلًا : وإن قالوا : مرحبًا . فقل : مرحبًا . فنعطيهم مثل ما يعطوننا .

لكن قد أشكل على بعض الناس الآن أننا ابتلينا بقوم من الكفار يكونون رؤساء في بعض الشركات فيدخل المسلم على مكتب الرئيس – رئيس الشركة – وهو يهودي أو نصراني فماذا يقول .. ؟ نقول : يسلم ويقول : السلام فقط . وينوي بذلك أنه السلام عليه هو أي على المسلم ، لأنك إذا حذفت المتعلق فلا يدرى لمن هذا السلام ، وهذا إذا خفت من شره ، أما إذا لم تخف من شره وأنه رجل لا يبالى سلمت أم لم تسلم ، فادخل لقضاء مصلحتك منه بدون سلام ، لأن الرسول عليه الصلاة والسلام قال : « لا تبدؤوا اليهود والنصارى بالسلام » . لكن إذا خفت من شره فتقول السلام فقط .

واختلف العلماء – رحمهم الله – هل يجوز أن نبدأهم بغير السلام مثل : مرحبًا ، أهلًا وسهلًا ؟ فمنهم من قال : لابأس به تأليفًا ، لاسيما إن خاف منه أو من شره . ومنهم من قال : لا ، لأن ذلك فيه تعظيم له ، والإنسان في هذه الحال – مرحبًا ، أهلًا .. وما أشبه ذلك – ينظر ما تقتضيه الحاجة أو المصلحة .

ثم ذكر المؤلف حديث : إذا مرَّ الإنسان بجمع فيه مسلمون وكفار ، هل يترك السلام ، لأن فيهم كفارًا أم يسلم لأن فيه مسلمين ؟

اجتمع الآن سببان : مبيح وحاظر . المبيح : وهم المسلمون ، والحاظر : – المانع – وهم الكفار ، لكن هنا يمكن تشذير الحكم [3] ، وإلا فالقاعدة الشرعية أنه إذا اجتمع مبيح وحاظر وتعذر انفكاك

---

(١) قوله تعالى : ﴿ تُلْقُونَ إِلَيْهِم بِٱلْمَوَدَّةِ ﴾ : أي ترسلون إليهم الأخبار .

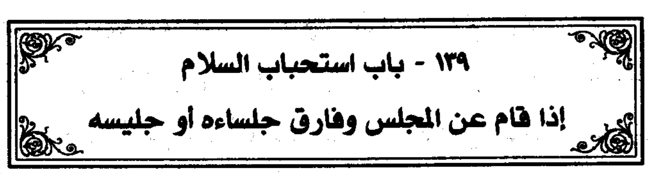
(٢) سبق تخريجه .

(٣) تشذير الحكم : أي تزيينه وتحسينه .

أحدهما عن الآخر ؛ فإنه يغلب جانب الحاظر - أي المنع - لكن إذا أمكن الانفكاك : تسلم وتنوي على المسلمين ؛ لأن النبي ﷺ مرَّ بمجلس فيه أخلاط من المشركين واليهود ، وفيهم مسلمون فسلم عليهم [(١)] . والله الموفق .

وختم المؤلف رحمه الله - كتاب السلام وآدابه - بهذا الحديث عن أبي هريرة رضي الله عنه في الرجل إذا جاء إلى المجلس ثم قام منه ، ومن المعلوم أن الإنسان إذا دخل على قوم فإنه يسلم عليهم - كما سبق - والسلام سنة مؤكدة ، ورده فرض عين على من سلم عليه ، وإذا كانوا جماعة فهو فرض كفاية إذا قام به من يكفي سقط عن الباقين ، لكن إذا كانوا جماعة وكان من المعلوم أن المسلِّم يريد بالقصد الأول واحدًا منهم وجب على هذا الواحد أن يرد ، مثلًا أن كانوا طلبة ومعهم معلمهم ، والذي دخل وسلم يريد بالقصد الأول نفس المعلم ؛ فإنه يجب على المعلم أن يرد ولا يكفي ردُّ الجماعة - كالطلبة مثلًا - وكذلك لو كان أمير مع رجاله وشرطته ، فدخل إنسان وسلم ؛ فإنه من المعلوم أن المقصود بالقصد الأول هو الأمير ، فيجب عليه أن يرد ، أما إذا كانوا جماعة متساوين ولم يعلم أن واحدًا منهم هو المقصود بالقصد الأول ، فإنه إذا رد أحدهم السلام كفى ، لأن رد السلام فرض كفاية .

* * *



١٣٩ - باب استحباب السلام إذا قام عن المجلس وفارق جلساءه أو جليسه

٨٦٩ - عن أبي هُرَيرَةَ رضي الله عنه قال : قال رسول الله ﷺ : « إذا انتهى أَحَدُكُم إلى المَجْلِسِ فَلْيُسَلِّم ، فإذا أَرَادَ أَنَ يَقُومَ فَلْيُسَلِّمْ ، فَلَيسَتِ الأولى بِأَحَقَّ مِنَ الآخِرَة » [(٢)] رواه أبو داود ، والترمذي وقال : حديث حسن .

الشرح

ففي هذا الحديث أن الرجل إذا دخل على المجلس فإنه يسلم ، فإذا أراد أن ينصرف وقام وفارق المجلس فإنه يسلم ، لأن النبي ﷺ أمر بذلك ، وقال : « ليست الأولى بأحق من الثانية » . يعني : كما أنك إذا دخلت تسلم كذلك إذا فارقت فسلم ، ولهذا إذا دخل الإنسان المسجد سلم على النبي ﷺ ، وإذا خرج سلم عليه أيضًا ، وإذا دخل مكة لعمرة أو حج بدأ بالطواف وإذا فارق مكة وخرج ختم بالطواف ، لأن الطواف تحية مكة لمن دخل بحج أو عمرة ، وكذلك وداع مكة لمن أتى بحج أو عمرة ثم سافر ، وهذا من كمال الشريعة أنها جعلت المبتدى والمنتهى على حدٍّ سواء في مثل هذه الأمور ، والشريعة - كما نعلم جميعًا - من لدن حكيم خبير كما قال تعالى : ﴿ كِتَٰبٌ أُحْكِمَتْ ءَايَٰتُهُۥ ثُمَّ فُصِّلَتْ مِن لَّدُنْ حَكِيمٍ خَبِيرٍ ﴾ [هود : ١] فتجدها كلَّها متناسقة متصاحبة ليس فيها تناقض ولا تفريط حتى إن

(١) أخرجه البخاري في تفسير القرآن (٤٥٦٦) ، ومسلم في الجهاد (١١٦) ، وأحمد في مسنده (٥/٢٠٣) .
(٢) أخرجه أبو داود في الأدب (٥٢٠٨) ، والترمذي في الاستئذان (٢٧٠٦) .

الرسول عليه الصلاة والسلام نهى أن يمشي الرجل بنعل واحد - ولو لإصلاح الأخرى - لماذا .. ؟ لأنك إذا خصصت إحدى قدميك بالنعل ؛ صار ذلك جورًا وعدم عدل ، فهكذا نرى أن الشريعة الإسلامية جاءت بالعدل في كل شيء . ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ يَأۡمُرُ بِٱلۡعَدۡلِ وَٱلۡإِحۡسَٰنِ وَإِيتَآيِٕ ذِي ٱلۡقُرۡبَىٰ وَيَنۡهَىٰ عَنِ ٱلۡفَحۡشَآءِ وَٱلۡمُنكَرِ وَٱلۡبَغۡيِۚ يَعِظُكُمۡ لَعَلَّكُمۡ تَذَكَّرُونَ ﴾ [النحل: ٩٠] والله الموفق .

* * *

١٤٠ - باب الاستئذان وآدابه

قال الله تعالى : ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَدۡخُلُواْ بُيُوتًا غَيۡرَ بُيُوتِكُمۡ حَتَّىٰ تَسۡتَأۡنِسُواْ وَتُسَلِّمُواْ عَلَىٰٓ أَهۡلِهَاۚ ﴾ [النور: ٢٧] وقال تعالى : ﴿ وَإِذَا بَلَغَ ٱلۡأَطۡفَٰلُ مِنكُمُ ٱلۡحُلُمَ فَلۡيَسۡتَـٔۡذِنُواْ كَمَا ٱسۡتَـٔۡذَنَ ٱلَّذِينَ مِن قَبۡلِهِمۡۚ ﴾ [النور: ٥٩] .

٨٧٠ - وعن أبي موسى الأشعَرِيِّ ﷺ قال : قال رسول الله ﷺ : « الاسْتِئْذَانُ ثلاثٌ ، فإن أُذِنَ لكَ وإلا فَارْجع »[١] متفقٌ عليه .

٨٧١ - وعن سهل بن سعدٍ ﷺ قال : قال رسول الله ﷺ : « إنَّما جُعِلَ الاستئذَانُ مِنْ أجْلِ البَصَر »[٢] متفقٌ عليه .

٨٧٢ - وعن ربْعِيِّ بن حِرَاشٍ قال : حدَّثَنا رَجُلٌ من بني عَامِرٍ اسْتَأْذَنَ على النبي ﷺ وَهُوَ في بيتٍ ، فقال : أأَلِجِ ؟ فقال رسول الله ﷺ لِخَادِمِهِ : « اخرج إلى هذا فَعَلِّمهُ الاستئذَانَ ، فَقُل لَهُ : قُلْ : السَّلامُ عَلَيكم ، أأَدخُلُ ؟ » فَسَمِعَهُ الرَّجل فقال : السَّلامُ عَلَيكم ، أأَدخُلُ ؟ فَأَذِنَ له النَّبيُّ ﷺ ، فدخل[٣] . رواه أبو داود بإسنادٍ صحيح .

٨٧٣ - عن كِلْدَةَ بنِ الحنبل ﷺ قال : أتيت النَّبيَّ ﷺ ، فَدَخلتُ عَليه ولم أسَلِّم ، فقال النبي ﷺ : « ارْجع فقل : السَّلامُ عَلَيكُم أأَدخُلُ ؟ »[٤] رواه أبو داود ، والترمذي وقال : حديث حسن .

الشرح

قال المؤلف رَحِمَهُ اللهُ في كتابه رياض الصالحين باب الاستئذان وآدابه ، والاستئذان : يعني طلب الإذن أن تطلب من صاحب البيت أن يأذن لك في الدخول فإن أذن لك فادخل ، وإن لم يأذن لك فلا تدخل

---

(١) أخرجه مسلم بلفظه في الآداب (٣٤ ، ٣٦ ، ٣٧) ، وأخرجه البخاري بنحوه في الاستئذان (٦٢٤٥) .
(٢) أخرجه البخاري في الاستئذان (٦٢٤١) ، ومسلم في الآداب (٤٠) ، والبيهقي في سننه (٣٣٨/٨) .
(٣) أخرجه أبو دواد في الأدب (٥١٧٧) ، والبيهقي في السنن ٣٤٠/٨ وقوله : (أألج .. ؟) من الولوج أي : أأدخل .
(٤) أخرجه أبو داود في الأدب (٥١٧٦) ، والترمذي في الاستئذان (٢٧١٠) .

حتى لو قال لك بصراحة : ارجع ، فارجع كما قال الله تعالى : ﴿ وَإِن قِيلَ لَكُمُ ٱرْجِعُواْ فَٱرْجِعُواْ هُوَ أَزْكَىٰ لَكُمْ ﴾ [النور : ٢٨] وأنت يا صاحب البيت لا تستحي أن تقول : ارجع ، وأنت أيها المستأذن لا تغضب عليه إذا قال لك ارجع ؛ لأن الإنسان قد يكون في حاجة ، وقد يكون غير مستعد لاستقبال الناس ، فلا يمكن أن تلجئه وتحرجه ، وإذا رجعت بعد أن قال لك : ارجع ، فإن الله يقول أن ذلك هو أزكى لك ﴿ فَٱرْجِعُواْ هُوَ أَزْكَىٰ لَكُمْ ﴾ أي : أزكى لقلوبكم وأطهر . وذكر المؤلف رحمه الله آيتين من كتاب الله :

الآية الأولى : وقد سبق الكلام عليها - وهي قوله تعالى : ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَدْخُلُواْ بُيُوتًا غَيْرَ بُيُوتِكُمْ حَتَّىٰ تَسْتَأْنِسُواْ ﴾ وقلنا : إن معنى الاستئناس يعني أن تستأذنوا ، أو أن تعلموا علم اليقين أن صاحبكم مستعد لدخولكم ، ومن ذلك : إذا واعدك الإنسان قال لك مثلًا : ائتني بعد صلاة الظهر ، فإذا وجدت الباب مفتوحًا فهو إذن . فأنت إذا أتيت لا حاجة لأن تستأذن ، لأن صاحب البيت قال لك : ائتني في الموعد المحدد ، فإذا وجدت الباب مفتوحًا فهذا إذنٌ ، فالإذن لا فرق بين أن يكون سابقًا أو لاحقًا ، مادام قد علمت أن الرجل لم يفتح بابه إلا من أجل أن تدخل ، وبينك وبينه موعد فادخل ، ولكن لا بأس - بل الأولى بلا شك - أن تسلم عند الدخول لو لم يكن في ذلك إلا أن تحصل أجر السلام وثوابه والدعاء من أخيك حيث يقول لك : وعليك السلام .

أما الآية الثانية : فهي قوله تعالى : ﴿ وَإِذَا بَلَغَ ٱلْأَطْفَٰلُ مِنكُمُ ٱلْحُلُمَ فَلْيَسْتَـْٔذِنُواْ كَمَا ٱسْتَـْٔذَنَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ ﴾ إذا بلغوا الحلم يعنى : بلغوا بالإنزال ، لكن كُنِّي عنه بالحلم ، لأن الغالب أن الإنسان لا يخرج منه المني أول ما يخرج إلا بالاحتلام ، وإن كان بعض الناس يبلغ بدون احتلام لكن الغالب أنه يحتلم ، فإذا بلغ الطفل الحلم فإنه لا يدخل البيت إلا باستئذان ، أما قبل ذلك فأمره هين ، لكن هناك ثلاث عورات لابد من الاستئذان فيها ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لِيَسْتَـْٔذِنكُمُ ٱلَّذِينَ مَلَكَتْ أَيْمَٰنُكُمْ وَٱلَّذِينَ لَمْ يَبْلُغُواْ ٱلْحُلُمَ مِنكُمْ ثَلَٰثَ مَرَّٰتٍ ﴾ .

الأولى : ﴿ مِّن قَبْلِ صَلَوٰةِ ٱلْفَجْرِ ﴾ .

والثانية : ﴿ وَحِينَ تَضَعُونَ ثِيَابَكُم مِّنَ ٱلظَّهِيرَةِ ﴾ .

والثالثة : ﴿ وَمِنۢ بَعْدِ صَلَوٰةِ ٱلْعِشَآءِ ﴾ .

هذه الأوقات لابد أن نستأذن فيها ؟ حتى الصغار لابد وأن يستأذنوا ، لأن الإنسان في هذه الأوقات الثلاثة قد يكون متهيئًا للنوم وعليه ثياب لا يحب أن يطلع عليه أحد ، فلذلك لابد من الاستئذان في هذه الساعات الثلاث .

وأما بالنسبة للنظر - نظر الطفل للمرأة - فليس مقيدًا بالبلوغ ، بل هو مقيد بما إذا عُرف من الطفل أنه ينظر إلى المرأة نظر شهوة ، فإذا علم ولو لم يكن له إلا عشر سنوات فإنه يجب عليها أن تحتجب عنه ، لأن الله قال : ﴿ وَقُل لِّلْمُؤْمِنَٰتِ يَغْضُضْنَ مِنْ أَبْصَٰرِهِنَّ وَيَحْفَظْنَ فُرُوجَهُنَّ وَلَا يُبْدِينَ زِينَتَهُنَّ إِلَّا مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَلْيَضْرِبْنَ بِخُمُرِهِنَّ عَلَىٰ جُيُوبِهِنَّ وَلَا يُبْدِينَ زِينَتَهُنَّ إِلَّا لِبُعُولَتِهِنَّ ﴾ [النور : ٣١] يعني -

أزواجهن - إلى أن قال : ﴿ أَوِ ٱلطِّفْلِ ٱلَّذِينَ لَمْ يَظْهَرُوا۟ عَلَىٰ عَوْرَٰتِ ٱلنِّسَآءِ ﴾ قال العلماء : الذين لم يظهروا على عورات النساء : يعني : ليس لهم غرض في النساء ولا يسري على بالهم المرأة ، بعض الأطفال من حين ما يتم له عشر سنوات وهو ينظر إلى النساء نظر شهوة ، وهذا يختلف - كما قلت - قد يكون هذا الطفل يجلس مع قوم أكثرُ حديثهم في النساء ، فهذا تتربى فيه الشهوة الجنسية مبكرًا ، وقد يكون عند قوم ليس همهم إلا الدرس وحفظ القرآن وما أشبه ذلك ولا يسري على بالهم هذا الشيء فلا تنمو فيه هذه الغريزة ، على كل حال فإذا عرفنا أن الطفل يَطَّلع على عورة المرأة ، ويتكلم في النساء ، وأشبهت نظراته نظرة الإنسان المشتهي ، فإنه يجب على المرأة أن تحتجب عنه ولو لم يكن له إلا عشر سنين ، مع أن العلماء - رحمهم الله - يقولون : يمكن لمن تم له عشر سنين أن يأتي له أولاد يعني وعنده (١١) سنة فلا تستغرب إذا جاء له ولد إذا تزوج وجامع زوجه فلا تستغرب ، ويذكر أن عمرو بن العاص ليس بينه وبين ابنه عبد الله إلا إحدى عشرة سنة ! وقال الشافعي رحمه الله : رأيت جدة لها إحدى وعشرون سنة - عندنا الآن تبلغ الواحد والعشرين وما تزوجت حتى الآن - لأن المرأة يمكن أن تبلغ - تحيض - ولها تسع سنوات ، فإذا قدرنا أنها تزوجت ولها تسع سنوات - يعني في العاشرة - وحملت في أول سنة ، وأتت ببنت ، ثم إن البنت لما تم لها تسع سنوات تزوجت في العاشرة - كم هكذا ، (٢٠) سنة ، يأتيها ولد في الحادي والعشرين فتكون جدته - أم البنت - والشافعي رحمه الله صدوق يقول : رأيت جدة لها إحدى وعشرون سنة .

والحاصل أنه إذا بلغ الطفل الحلم فلا يدخل البيت إلا باستئذان ، وإذا اطلع على عورات النساء وصار يتكلم فيهن وينظر إليهن بشهوة ، فإنه يجب أن تستتر عنه المرأة - ولم لو يتم له إلا عشر سنوات ، والله الموفق .

* * *

١٤١ - باب بيان أنّ السُّنة إذا قيل للمستأذن مَن أنت أن يقول : فلان فيسمي نفسه بما يُعرَف به من اسم أو كُنية وكراهة قوله « أنا » ونحوها

٨٧٤ - عن أنسٍ رضي الله عنه في حديثه المشهورِ في الإسراءِ قال : قال رسول الله ﷺ : « ثُمَّ صَعِدَ بي جبْرِيلُ إلى السَّماءِ الدُّنيا فَاسْتَفْتَحَ ، فَقِيلَ : مَنْ هذَا ؟ قال : جِبْرِيلُ ، قِيلَ : وَمَنْ مَعَكَ ؟ قال : مُحَمَّدٌ . ثُم صَعِدَ إلى السَّمَاءِ الثَّانِيَةِ وَالثَّالِثَةِ وَالرَّابِعَةِ وَسائِرِهِنَّ ، وَيُقَالُ في بَاب كُلِّ سَماءٍ : مَنْ هذا ؟ فَيَقُولُ : جِبْرِيلُ » [1] متفقٌ عليه .

---

(١) هذا الحديث لم يقم الشارح رحمه الله بشرحه ، وقد أخرجه البخاري في بدء الخلق (٣٢٠٧) ، ومسلم في الإيمان (٢٥٩) . قوله : « فاستفتح » أي طلب من الملك الموكل بها الفتح ، وإنما لم يُفتح له ﷺ قبل مجيئه ليظهر جليًا أن فتحها إنما هو لكرامة المصطفى ﷺ ، وأن ذلك ليس عادة فيها .

٨٧٥ – وعن أبي ذَرٍّ رضي الله عنه قال : خَرَجْتُ لَيلَةً مِن اللَّيالي ، فإذا رسول الله ﷺ يَمْشي وَحْدَهُ ، فَجَعَلْتُ أَمْشِي في ظِلِّ القَمَرِ ، فالْتَفَتَ فَرآني فقال : « مَنْ هذا ؟ » فقلتُ : أبو ذَرٍّ [١] متفقٌ عليه .

٨٧٦ – وعن أُمِّ هَانِئٍ رضي الله عنها قالتْ : أتيتُ النبي ﷺ وَهُوَ يَغْتَسلُ وَفاطِمَةُ تَسْتُرُهُ ، فقال : « مَنْ هذِهِ ؟ » فقلتُ : أنَا أُمُّ هَانِئٍ [٢] . متفقٌ عليه .

٨٧٧ – وعن جابر رضي الله عنه قال : أَتيتُ النبي ﷺ فَدَقَقْتُ البَابَ ، فقال : « مَنْ ذا ؟ » فقلتُ : أَنَا ، فقال : « أَنَا أَنَا ؟! » كَأَنَّهُ كَرِهَهَا [٣] . متفقٌ عليه .

* * *

١٤٢ - باب استحباب تشميت العاطس إذا حمد الله تعالى وكراهية تشميته إذا لم يحمد الله تعالى وبيان آداب التشميت والعطاس والتثاؤب

٨٧٨ – عن أبي هُرَيرةَ رضي الله عنه أن النبيَّ ﷺ قال : « إن اللَّهِ يُحِبُّ العُطَاسَ ، وَيَكْرَهُ التَّثَاؤُبَ ، فإذا عَطَسَ أَحَدُكُمْ وَحَمِدَ اللَّه تعالى كانَ حَقًّا على كُلِّ مُسْلم سَمِعَهُ أن يقول لهُ : يَرْحَمُكَ اللَّه ، وَأَمَّا التَّثَاؤُب فَإِنَّمَا هُوَ مِنَ الشَّيطانِ ، فَإذا تَثَاءَبَ أَحَدُكُمْ فَلْيَرُدَّهُ ما اسْتَطَاعَ ، فَإِنَّ أَحَدَكُمْ إذا تَثَاءَبَ ضَحِك مِنْهُ الشَّيطانُ » [٤] رواه البخاري .

٨٧٩ – وعنه عن النبي ﷺ قال : « إذا عَطَسَ أَحَدُكُمْ فَلْيَقُل : الحَمْدُ للّهِ ، وَلْيَقُلْ لهُ أَخُوهُ أَو صَاحِبُهُ : يَرْحَمُكَ اللَّه . فإذا قال لهُ : يرْحَمُكَ اللَّه ، فَلْيَقُلْ : يَهدِيكُمُ اللَّه وَيُصْلِحُ بالَكُمْ » [٥] . رواه البخاري .

٨٨٠ – وعن أبي موسى رضي الله عنه قال : سمعت رسول اللّه ﷺ يقولُ : « إذا عَطَسَ أَحَدُكُمْ فَحَمِدَ اللَّهَ فَشَمِّتُوهُ ، فَإِنْ لَمْ يَحْمَدِ اللَّه فَلا تُشَمِّتُوهُ » [٦] رواه مسلم .

٨٨١ – وعن أنس رضي الله عنه قال : عَطَسَ رَجُلانِ عنْدَ النبي ﷺ ، فَشَمَّتَ أَحَدَهُمَا وَلَمْ يُشَمِّتِ الآخَرَ ، فقال الَّذي لَمْ يُشَمِّتْهُ : عَطَس فُلان فَشَمَّتَّهُ ، وَعَطَسْتُ فَلَمْ تُشَمِّتْني ؟ فقال : « هذا حَمِدَ اللَّه ، وَإنَّكَ لَمْ تَحْمَدِ اللَّه » [٧] . متفقٌ عليه .

---

(١) هذا الحديث لم يقم الشارح رحمه الله بشرحه . أخرجه البخاري في الرقاق (٦٤٤٣) ، ومسلم في الزكاة (٣٣) .
(٢) هذا الحديث لم يقم الشارح بشرحه . أخرجه البخاري بلفظه في الغسل (٢٨٠) ، ومسلم في الحيض (٧٢) ، والإمام أحمد في مسنده (٤٢٣/٦ ، ٤٢٥) .
(٣) هذا الحديث لم يقم الشارح بشرحه . أخرجه البخاري في الاستئذان (٦٢٥٠) ، ومسلم في الآداب (٣٩) ، والإمام أحمد في مسنده (٣٢٠/٣) ، والترمذي في الاستئذان (٢٧١١) .
(٤) أخرجه البخاري في الأدب (٦٢٢٦) .
(٥) أخرجه البخاري في الأدب (٦٢٢٤) .
(٦) أخرجه مسلم في الزهد (٥٤) .
(٧) أخرجه البخاري في الأدب (٦٢٢٥) ، ومسلم في الزهد (٥٣) .

٨٨٢ – وعن أبي هريرة ﷺ قال : كان رسول اللَّه ﷺ إذا عَطَسَ وَضَعَ يَدَهُ أَو ثوبَهُ عَلى فِيهِ ، وَخَفَضَ – أَو غَضَّ – بهَا صَوتَهُ شَكُّ الراوي [١] . رواه أبو داود ، والترمذي وقال : حديث حسن صحيح .

٨٨٣ – وعن أبي موسى ﷺ قال : كان اليَهودُ يَتَعَاطسُونَ عِنْدَ رسول اللَّه ﷺ ، يَرْجُونَ أَنْ يَقولَ لهمْ : يَرْحَمُكُمُ اللَّه ، فيقولُ : « يهْدِيكُمُ اللَّه وَيُصْلِحُ بَالكمْ » [٢] . رواه أبو داود ، والترمذي وقال : حديث حسن صحيح .

٨٨٤ – وعن أبي سعيدِ الخُدْرِيِّ ﷺ قال : قال رسول اللَّه ﷺ : « إذا تَثَاءَبَ أَحَدُكُم فَلْيُمْسِكْ بِيَدِهِ عَلى فِيهِ ، فَإنَّ الشيطَانَ يَدْخُلُ » [٣] رواه مسلم .

الشرح

قال المؤلف النووى رَحِمَهُ اللَّهُ في كتاب رياض الصالحين : باب استحباب تشميت العَاطس إذا حمد اللَّه تعالى وبيان آداب العُطاس ، والتثاؤب .

العُطاس من اللَّه عَزَّ وَجَلَّ يحبه اللَّه كما في حديث أبى هريرة ﷺ أن النبي ﷺ قال : « إن اللَّه يحب العطاس » والسبب في ذلك : أن العطاس يدل على النشاط ، والخفة ، ولهذا تجد الإنسان إذا عَطَس نَشَط ، واللَّه ﷻ يحب الإنسان النشيط الجادَّ ، وفي الصحيح عن النبي ﷺ أنه قال : « المؤمن القوي خير وأحب إلى اللَّه من المؤمن الضعيف ، وفي كل خير » [٤] ، والعطاس يدل على الخفة والنشاط ، لهذا كان محبوبًا إلى اللَّه ، وكان مشروعًا للإنسان إذا عطس أن يقول : الحمد لله ؛ لأنها نعمة أُعطيها فليحمد اللَّه عليها ، فيقول : الحمد لله إذا عطس ، سواء أكان في الصلاة أو خارج الصلاة في أي مكان كان ، إلا أن العلماء – رحمهم اللَّه – يقولون : إذا عطس – وهو في الخلاء – فلا يقول بلسانه « الحمد لله » ، ولكن يحمد بقلبه ؛ لأنهم يقولون – رحمهم اللَّه – إن الإنسان لا يذكر اللَّه في الخلاء ، فإذا عطس الإنسان وحمد اللَّه كان حقًّا على كل من سمعه أن يقول له : « يرحمك اللَّه » فيدعو له بالرحمة جزاء له على حمده لله عَزَّ وَجَلَّ فإنه لما حمد اللَّه كان من جزائه أن إخوانَه يدعون له بالرحمة .

وقوله : « كان حقًّا على كل من سمعه » ظاهره أنه يجب على كل السامعين بأعيانهم ، ويؤيده قوله في الحديث الآخر : « إذا عطس فحمد اللَّه فَشَمِّتُوه » [٥] .

---

(١) أخرجه أبو داود في الأدب (٥٠٢٩) والترمذي في الأدب (٢٧٤٥) .

(٢) أخرجه أبو داود في الأدب (٥٠٣٨) والترمذي في الأدب (٢٧٣٩) . قوله : (يتعاطسون) أي يظهرون العطاس بصوت يشبهه أو يطلبون أسبابه بنحو إظهار الرأس وغير ذلك .

(٣) أخرجه مسلم في الزهد والرقائق (٥٧) ، والإمام أحمد في مسنده (٩٦/٣) .

(٤) أخرجه مسلم في القدر (٣٤) ، وأحمد في مسنده (٣٧٠/٢) ، وابن ماجه في السنن (٤١٦٨) .

(٥) أخرجه الحاكم في المستدرك (٢٦٥/٤) .

وذهب بعض العلماء إلى أن : تشميت العاطس فرض كفاية ، يعني إذا قال واحد من الجماعة : يرحمك الله ، كفى ، لكن الاحتياط أن يشمتَه - أي يدعو له بالرحمة - كل من سمعه كما جاء في الحديث .

وأما التثاؤب : فإنه من الشيطان ، ولهذا كان الله يكرهه ، لماذا ؟ لأن التثاؤب يدل على الكسل ، ولهذا يكثر التثاؤب فيمن كان فيه نوم ، ولأجل أنه يدل على الكسل كان الله يكرهه ، ولكن إذا تثاءب فالأولى أن يرده - أي يرد التثاؤب - يكظمه ويتصبر ، قال العلماء : وإذا أردت أن تكظمه فَعُض على شفتك السفلى ، وليس عضًا شديدًا فتنقطع ، ولكن لأجل أن تضمها حتى لا ينفتح الفم ، فالمهم أن تكظم سواء بهذه الطريقة أو غيرها ، فإن عجزت عن الكظم فضع يدك على فمك ، وما ذكره بعض العلماء - رحمهم الله - أنك تضع ظهرها على الفم فلا أصل له ، وإنما تضع بطنها - هكذا - تسدُّ الفم ، والسبب في ذلك أن الإنسان إذا تثاءب ضحك الشيطان منه ؛ لأنه - أي الشيطان - يعرف أن هذا يدل على كسله وعلى فتوره ، والشيطان يحب من بني آدم أن يكون كسولًا فتورًا [1] ، أعاذنا الله وإياكم منه - ويكره الإنسان النشيط الجاد الذي يكون دائمًا في حزم وقوة ونشاط ، فإذا جاءك التثاؤب فإن استطعت أن تكظمه وتمنعه فهذا هو السنة وهذا هو الأفضل ، وإن لم تقدر فضع يدك على فمك .

ولكن هل تقول : أعوذ بالله من الشيطان الرجيم ؟ لا ، لأن ذلك لم يرد عن النبي عليه الصلاة والسلام ، فالنبي ﷺ علمنا ماذا نفعل عند التثاؤب ولم يقل : قولوا كذا ، وإنما قال : اكظموا ، أو ردوا باليد ، ولم يقل : قولوا : أعوذ بالله من الشيطان الرجيم ، أما ما اشتهر عند بعض الناس أن الإنسان إذا تثاءب يقول : أعوذ بالله من الشيطان الرجيم ؛ فهذا لا أصل له ، والعبادات مبنية على الشرع لا على الهوى ، لكن قد يقول بعض الناس : أليس الله يقول : ﴿ وَإِمَّا يَنزَغَنَّكَ مِنَ ٱلشَّيْطَٰنِ نَزْغٌ فَٱسْتَعِذْ بِٱللَّهِ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ ﴾ [فصلت : ٣٦] [2] ، وقد أخبر النبي ﷺ أن التثاؤب من الشيطان ، فهذا نزغ ؟ نقول : لا ؛ فقد فهمت الآية خطأ ، فالمراد من الآية ﴿ وَإِمَّا يَنزَغَنَّكَ مِنَ ٱلشَّيْطَٰنِ نَزْغٌ فَٱسْتَعِذْ بِٱللَّهِ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ ﴾ يعنى الأمر بالمعاصي ، أو بترك الواجبات فهذا نزغ الشيطان ، كما قال تعالى فيه ، إنه ينزغ بين الناس وهذا نزغه : الأمر بالمعاصي والتضليل عن الواجبات ، فإن أحسست بذلك فقل : أعوذ بالله من الشيطان الرجيم ، أما التثاؤب : فليس فيه إلا سنة فعلية فقط : وهي الكظم ما استطعت ، فإن لم تقدر ؛ فضعْ يدك على فمك .

ومن آداب العطاس : أنه ينبغي للإنسان إذا عطس أن يضع ثوبه على وجهه [3] ، قال أهل العلم : وفي ذلك حكمتان :

الحكمة الأولى : أنه قد يخرج مع هذا العطاس أمراض تنتشر على من حوله . الحكمة الثانية : أنه

(١) الفتور : هو السكون بعد الجِدَّة والنشاط (المعجم العربي الأساسي ص ٩١٥ مادة فتر) .

(٢) النزغ : هو الإفساد بين الناس وحمل بعضهم على بعض (المعجم العربي الأساسي ص : ١١٨٦) .

(٣) وذلك لما رواه الترمذي في الأدب (٢٧٤٥) عن أبي هريرة أن النبي ﷺ كان إذا عطس غطى وجهه بيده أو بثوبه ، وغض بها صوته .

قد يخرج من أنفه شيء مستقذر تتقزز النفوس منه ، فإذا غطى وجهه صار ذلك خير [١] . ولكن لا تفعل ما يفعله بعض الناس بأن تضع يدك على أنفك ، فهذا خطأ ، لأن هذا يحد من خروج الريح التي تخرج من الفم عند العطاس ، وربما يكون في ذلك ضرر عليك .

وفي هذه الأحاديث - التي ذكرها المؤلف - دليل على أن من عطس ولم يقل : الحمد لله ؛ فإنه لا يقال له : يرحمك الله ، لأن النبي ﷺ عطس عنده رجلان : أحدهما قال له النبي ﷺ : « يرحمك الله » . والثاني لم يقل له ذلك ، فقال الثاني : يا رسول الله عطس فلان : فقلت له : « يرحمك الله » ، وعطستُ فلم تقل لي ذلك ؟ قال - أي الرسول الكريم ﷺ - : « هذا حَمِدَ الله ، وإنك لم تحمد الله » . وعلى هذا إذا عطس إنسان ولم يحمد الله فلا تقل له : يرحمك الله ، ولكن هل نذكره فنقول له قل : (الحمد لله) ؟ لا ؛ لأن هذا الحديث يدل على أنك لا تذكره ، فلم يقل النبي ﷺ في الحديث : إذا عطس ولم يحمد الله فذكروه . بل قال : « لا تشمتوه » فنحن لا نقول : احمد الله ، ولكن فيما بعد علينا أن نخبره أن الإنسان إذا عطس عليه أن يقول : « الحمد لله » ويكون ذلك من باب التعليم . ولابد أن يكون حمد العاطس مسموعًا ، كما أن العاطس إذا قيل له : يرحمك الله ، يقول : « يهديكم الله ويصلح بالكم » أي يصلح شأنكم ، فتدعو له بالهداية وإصلاح الشأن ، ويقول بعض العامة : (يهدينا أو يهديكم الله) وهذا خلاف المشروع ، المشروع أن يقول : « يهديكم الله ويصلح بالكم » كما بينّا . والله الموفق .

* * *

١٤٣ - باب استحباب المصافحة عند اللقاء وبشاشة الوجه وتقبيل يد الرجل الصالح وتقبيل ولده شفقة ومعانقة القادم من سفر وكراهية الانحناء

٨٨٥ - عن أبي الخَطَّاب قَتَادَةَ قال : قلتُ لأَنَسٍ : أَكَانَتِ المُصافَحَةُ في أَصْحَابِ رسول الله ﷺ ؟ قال : نَعَمْ [٢] . رواه البخاري .

٨٨٦ - وعن أنسٍ رضي الله عنه قال : لمَّا جَاءَ أَهْلُ اليَمَنِ قال رسول الله ﷺ : « قَدْ جَاءَكُمْ أَهْلُ اليَمَنِ » وَهُمْ أَوَّلُ مَنْ جَاءَ بالمُصَافَحَةِ [٣] . رواه أبو داود بإسنادٍ صحيح .

٨٨٧ - وعن البَرَاءِ رضي الله عنه قال : قالَ رسول الله ﷺ : « ما مِنْ مُسْلِمَينِ يَلْتَقِيانِ فَيَتَصَافَحَانِ إلا غُفِرَ لهُمَا قَبْلَ أَنْ يَفْتَرِقَا » [٤] رواه أبو داود .

---

(١) وقد قال ابن العربي : الحكمة في خفض الصوت بالعطاس : أن في رفعه إزعاجًا للأعضاء وفي تغطية الوجه : أنه لو بدر منه شيء آذى جليسه ، ولو لوى عنقه صيانة لجليسه لم يأمن من الالتواء (انظر : تحفة الأحوذي ٨/١٥) .

(٢) أخرجه البخاري في الاستئذان (٦٢٦٣) .

(٣) أخرجه أبو داود في الأدب (٥٢١٣) بلفظه ، والإمام أحمد في مسنده (٣/٢١٢ ، ٢٥١) .

(٤) أخرجه أبو داود في الأدب (٥٢١٢) وله شاهد من حديث أنس ، ورواه الإمام أحمد في مسنده (٣/١٤٢) والترمذي في الاستئذان (٢٧٢٩) .

٨٨٨ - وعن أنس ﷺ قال : قالَ رَجُلٌ : يا رسولَ اللّه ، الرَّجُلُ مِنَّا يَلْقَى أَخاهُ أو صَدِيقَهُ ، أَيَنْحَني لَهُ ؟ قال : « لا » قال : أَفَيَلْتَزِمُهُ وَيُقَبِّلُهُ ؟ قال : « لا » قال : فَيَأْخُذُ بِيَدِهِ وَيُصافِحُهُ ؟ قال : « نَعَمْ » [(١)] رواه الترمذي وقال : حديث حسن .

الشرح

هذا الباب عقده المؤلف النووي رَحِمَهُ اللَّهُ في كتاب رياض الصالحين بآداب السلام والاستئذان وما يتعلق بذلك . فمنها : المصافحة - فهل يُسَنُّ للرجل إذا لقي أخاه أن يصافحه ؟ والجواب : نعم يُسَنُّ له ذلك ، لأن هذا من آداب الصحابة ﷺ كما سأل قتادة أنس بن مالك ﷺ : هل كانت المصافحة في أصحاب النبي ﷺ ؟ قال : نعم . ويصافحه باليد اليمنى ، وإذا حصل ذلك ؛ فإنه يُغْفر لهما قبل أن يفترقا ، وهذا يدل على فضيلة المصافحة إذا لاقاه ، وهذا إذا كان لاقاه ليتحدث معه أو ما أشبه ذلك ، أما مجرد الملاقاة في السوق ، فيكفي أن يُسَلِّم عليه ، وإذا كنت تقف إليه دائمًا وتتحدث إليه بشيء فصافحه . ثم ينبغي أن نعرف أن بعض الناس إذا سَلَّم من الصلاة إذا كانت فرضًا صافح أخاه وأحيانًا يقول له : « تقبل اللّه » أو « قبول ... قبول » وهذا من البدع ؛ فما كان الصحابة يفعلون هذا ، وإنما يكفي أن يُسَلم المصلِّي عن يمينه وعن يساره « السلام عليكم ورحمة اللّه » .

وأما الانحناء عند الملاقاة أو المعانقة والالتزام : فإن النبي ﷺ سئل عن ذلك : أَنَنْحني ، قال : « لا » . قال السائل : أيلتزمه ويعانقه ؟ . قال : « لا » . فإذا لاقاه ؛ فإنه لا يلتزمه - أي لا يَضُمُّه إليه - ولا يعانقه ولا ينحني له ، والانحناء أشد وأعظم ، لأن فيه نوعًا من الخضوع لغير اللّه عَجَلَّ بمثل ما يفعل لله في الركوع ؛ فهو منهي عنه ، ولكنه يصافحه وهذا كافٍ ، إلا إذا كان هناك سبب ، فإن المعانقة أو التقبيل لا بأس به ، كأن كان قادمًا من سفرٍ أو نحو ذلك ، فإن قال قائل : كيف يكون قول الرسول ﷺ : لاينحني له مع قول اللّه تعالى في إخوة يوسف لما دخلوا عليه : ﴿ وَقَالَ ٱدْخُلُواْ مِصْرَ إِن شَآءَ ٱللَّهُ ءَامِنِينَ ۝ وَرَفَعَ أَبَوَيْهِ عَلَى ٱلْعَرْشِ وَخَرُّواْ لَهُۥ سُجَّدًا ﴾ [يوسف:٩٩- ١٠٠] فالجواب عن هذا : أنه في شريعة سابقة ، وشريعتنا الإسلامية قد نسخته ، ومنعت منه ، فلا يجوز لأحد أن يسجد لأحد ، وإن لم يرد بذلك العبادة ، أو ينحني ، فإن الانحناء منع منه الرسول ﷺ . فإذا قابلك أحد يجهل هذا الأمر وانحني لك ، فانصحه وأرشده ، قل له : هذا ممنوع لا تنحني ، ولا تخضع إلا لله وحده . وتقبيل اليد لا بأس به إذا كان الرجل أهلًا لذلك . واللّه الموفق .

* * *

٨٨٩ - وعن صَفْوَانَ بن عَسَّالٍ ﷺ قال : قال يَهُودِيٌّ لِصَاحِبِهِ : اذْهَبْ بنَا إلى هذا النَّبِيِّ ، فَأَتَيا رسول اللّه ﷺ ، فَسَألاهُ عَنْ تِسْعِ آياتٍ بَيِّنَاتٍ ، فَذَكَرَ الحَدِيثَ إلى قَولِهِ : فَقَبَّلا يَدَهُ وَرِجْلَهُ ، وقالا : نَشْهَدُ أَنَّكَ نَبِيٌّ [(٢)] . رواه الترمذي وغيره بأسانيد صحيحة .

---

(١) أخرجه الترمذي في الاستئذان (٢٧٢٨) . (٢) أخرجه الترمذي في الاستئذان (٢٧٣٣) .

٨٩٠ - وعن ابن عمر ﷺ قصة قال فيها : فدَنَونَا مِنَ النَّبيِّ ﷺ فقبَّلنا يَدَهُ [١] . رواه أبو داود .

٨٩١ - وعن عائشة ﷺ قالت : قَدِمَ زَيدُ بنُ حَارِثَةَ المَدِينَةَ ورسول الله ﷺ في بَيتي ، فَأتَاهُ فَقَرَعَ البَابَ ، فَقَامَ إلَيهِ النبيُّ ﷺ يَجُرُّ ثوبَهُ ، فاعْتنقهُ وقبَّله » [٢] رواه الترمذي وقال : حديث حسن .

٨٩٢ - وعن أبي ذرٍّ ﷺ قال : قال رسول الله ﷺ : « لا تَحقِرَنَّ مِنَ المَعْرُوفِ شَيئًا ، وَلَو أنْ تَلْقَى أخَاكَ بوَجْهٍ طَليقٍ » [٣] رواه مسلم .

الشرح

هذه الأحاديث ذكرها الإمام النووي ﷺ في رياض الصالحين في آداب المصافحة والمعانقة وما يتعلق بذلك . ومنها حديث صفوان بن عسال ﷺ : أن رجلًا يهوديًا قال لصاحبه : اذهب بنا إلى هذا الرجل - يعنى النبي ﷺ - فذهبا إليه وأخبراه وذكر النبي ﷺ تسع آيات فقبلا يده ورجله وقالا : « نشهد أنك نبي » . واليهود كانوا في المدينة وكان أصلهم من مصر - من بني إسرائيل ، ثم انتقلوا إلى الشام - إلى الأرض المقدسة - التي قال لهم نبيهم موسى ﷺ ﴿ ٱدْخُلُوا ٱلْأَرْضَ ٱلْمُقَدَّسَةَ ٱلَّتِى كَتَبَ ٱللَّهُ لَكُمْ ﴾ [المائدة : ٢١] وكانوا يقرأون في التوراة أنه سيبعث نبي في آخر الزمان وأنه سيكون من مكة ، ومُهَاجره المدينة ، فهاجر كثير منهم من الشام إلى المدينة ينتظرون النبي ﷺ ليتبعوه ؛ لأنه قد نُوِّه عن فضله في التوراة والإنجيل ، فقد قال الله تعالى ﴿ ٱلَّذِينَ يَتَّبِعُونَ ٱلرَّسُولَ ٱلنَّبِىَّ ٱلْأُمِّىَّ ٱلَّذِى يَجِدُونَهُۥ مَكْتُوبًا عِندَهُمْ فِى ٱلتَّوْرَىٰةِ وَٱلْإِنجِيلِ يَأْمُرُهُم بِٱلْمَعْرُوفِ وَيَنْهَىٰهُمْ عَنِ ٱلْمُنكَرِ وَيُحِلُّ لَهُمُ ٱلطَّيِّبَٰتِ وَيُحَرِّمُ عَلَيْهِمُ ٱلْخَبَٰٓئِثَ وَيَضَعُ عَنْهُمْ إِصْرَهُمْ وَٱلْأَغْلَٰلَ ٱلَّتِى كَانَتْ عَلَيْهِمْ ﴾ [الأعراف : ١٥٧] [٤] وكان إذا جرى بينهم وبين المشركين شيء يستفتحون على الذين كفروا يقولون سُيبعث نبي ، ونتبعه ، ونستفتح به ونغلبكم [٥] ، كما قال تعالى : ﴿ وَكَانُوا مِن قَبْلُ يَسْتَفْتِحُونَ عَلَى ٱلَّذِينَ كَفَرُوا فَلَمَّا جَآءَهُم مَّا عَرَفُوا كَفَرُوا بِهِۦ ﴾ [البقرة : ٨٩] ثم إنهم صاروا ثلاث قبائل - أي اليهود في المدينة - : بنو قينقاع ، وبنو النضير ، وبنو قريظة . وعاهدهم النبي ﷺ لما قدم المدينة وكلهم نقضوا العهد ، فطُردوا منها ، آخرهم بنو قريظة قتل منهم نحو : سبعمائة نفر لما خانوا العهد في يوم الأحزاب ، وانتقلوا إلى خيبر وفتحها النبي ﷺ وأبقاهم فيها ؛ لأنهم أصحاب مزارع يعرفون الحرث والزرع ، والصحابة مشتغلون عن ذلك بما هو أهم ، فعاملهم النبي ﷺ قال لهم : تبقَون في مَحَلكم - خيبر - على أن لكم نصف الثمر والزرع وللمسلمين نصفهما ونقركم في ذلك ما شاء

---

(١) أخرجه أبو داود في الأدب (٥٢٢٣) . (٢) أخرجه الترمذي في الاستئذان (٢٧٣٢) .

(٣) أخرجه مسلم في البر والصلة (١٤٤) .

(٤) قوله تعالى : ﴿ وَيُحِلُّ لَهُمُ ٱلطَّيِّبَٰتِ ﴾ أي يحلل لهم ما طاب في حكم الشرع كالشحوم ، وقوله تعالى : ﴿ وَيُحَرِّمُ عَلَيْهِمُ ٱلْخَبَٰٓئِثَ ﴾ أي يحرم عليهم ما خبث في حكم الشرع كالربا ، وقوله تعالى : ﴿ وَيَضَعُ عَنْهُمْ إِصْرَهُمْ وَٱلْأَغْلَٰلَ ﴾ أي يخفف عنهم ما ألزموا العمل به من التكاليف الشاقة في التوراة ؛ كقطع موضع النجاسة من الثوب ، وإحراق الغنائم ، وتحريم السبت .

(٥) انظر ذلك في تفسير الطبري (١/٥٧٧ - ٥٧٩) .

الله (١) . وبقوا في عهد الرسول ﷺ في خيبر ، وفي عهد أبي بكر .

ولما تولى عمر حصل منهم خيانة - كما هي طبيعتهم التي عُرفوا بها من الخيانة والغدر ، فأجلاهم عمر ﷺ عن خيبر في السنة السادسة عشرة إلى « أذرعات » في الشام (٢) . هذا أصل وجود اليهود في الجزيرة العربية ، كانوا ينتظرون بعث النبي ﷺ ليتبعوه ، ولكنهم لما رأوه عين اليقين كفروا ، ولعلهم كانوا في أول الأمر يظنون أنه من بني إسرائيل هكذا قال بعض العلماء ولكن لما تبيَّن أنه من بني إسماعيل حسدوهم - أي بنو إسماعيل - وكفروا ، ولكن لا يتبين لي هذا ، لأن الله يقول : ﴿ يَعْرِفُونَهُۥ كَمَا يَعْرِفُونَ أَبْنَآءَهُمْ ﴾ فهم يعرفون أنه من العرب من بني إسماعيل ، لكن - والعياذ بالله - فرق بين علم اليقين ، وعين اليقين ، هم كانوا بالأول يظنون أنه إذا بُعث يتبعونه بسهولة لكنهم حسدوه والعياذ بالله .

المهم : أن هذين الرجلين قبّلا يد النبي ﷺ ورجله ، فأقرهما على ذلك ، وفي هذا جواز تقبيل اليد والرجل للإنسان الكبير الشرف والعلم ، كذلك تقبيل اليد والرجل من الأب والأم وما أشبه ذلك ؛ لأن لهما حقًّا ، وهذا من التواضع .

وذكر المؤلف أيضًا حديث ابن عمر ﷺ قال : أتينا النبي ﷺ فقبَّلْنا يده . وأقرهما النبي ﷺ على ذلك . وتقبيل اليد كتقبيل الرأس ليس بينهما فرق ، لكن عجبًا أن الناس الآن يستنكرون تقبيل اليد أكثر من استنكارهم تقبيل الرأس ، وهو لا فرق بينهما ، لكن الذي يُنْتَقَد من بعض الناس أنه إذا سلَّم عليه أحد قد مَدَّ يده إليه وكأنه يقول : قَبِّل يدي . فهذا هو الذي يستنكر ، ويقال للإنسان عندئذٍ : لا تفعل أما من يقبل يدك تكريمًا وتعظيمًا أو رأسك أو جبهتك فهذا لا بأس به ، إلا أن هذا لا يكون في كل مرة يلقاك ، لأنه سبق أن الرسول ﷺ سُئل عن ذلك إذا لاقى الرجل أخاه أينحني له ؟ قال : « لا » . قال : أيقبله ويعانقه ؟ قال : « لا » . قال : أيصافحه ، قال : نعم (٣) . لكن إذا كان السبب فلا بأس للغائب ، ولهذا يذكر المؤلف رحمه الله حديث عائشة في قدوم زيد بن حارثة حين جاء إلى النبي ﷺ واستأذن فقام الرسول ﷺ إليه يجر ثوبه ، وزيد بن حارثة مولى للرسول (أي كان عبدًا مملوكًا للرسول ﷺ أهدته إليه خديجة ﷺ فأعتقه ، ولكن الرسول ﷺ كان يحبه ويحب ابنه أسامة ؛ ولهذا يسمى أسامة الحِبُّ بن الحِبِّ فهو محبوب لرسول الله وابنه أسامة كذلك) المهم : أن الرسول ﷺ قام يجرُّ ثوبه فعانقه وقبله ، لأن زيدًا ﷺ كان قادمًا من سفر ، فإذا كان عند القدوم من السفر ؛ فهذا لا بأس به ، أما كلما لاقاك يقبلك فهذا نهى عنه الرسول ﷺ .

كذلك أيضًا أوصى النبي ﷺ أن الإنسان لا يحقر من المعروف شيئًا ؛ يعني : المعروف والإحسان

---

(١) انظر الحديث بنصه في : البخاري في الحرث (٢٣٢٩) ، ومسلم في المساقاة (٦) ، وأحمد في مسنده (١٧/٢) .

(٢) انظر القصة في أخبار عمر من : ١٦٥ ، وقد كان لطردهم قصة ، وهي أنهم اعتدوا على عبد الله بن عمر أثناء ذهابه إليهم لجمع الجزية ، فذكر عبد الله أباه بحديث النبي ﷺ : « أخرجوا اليهود من جزيرة العرب » وانظر القصة أيضًا في : البخاري في الشروط (٢٧٣٠) ، وأحمد في مسنده (١٥/١) .

(٣) سبق تخريجه في الباب السابق .

إلى الناس ؛ لا تحقر شيئًا منه أبدًا ، وتقول : هذا قليل ، حتى ولو أعطيته قلمًا أو شيئًا قليل القيمة ماديًا ، فلا تحقر شيئًا ؛ فإن هذا يذكر الإنسان ولو بعد حين ، يقول : هذا الرجل أهداني سنة كذا وكذا ، فكل شيء يجلب المودة والمحبة بين الناس لا تحقره ، ولهذا قال الرسول ﷺ « لا تحقرن من المعروف شيئًا ، ولو أن تلقى أخاك بوجه طليق » إلى هذا الحد ! تلقى أخاك بوجه طليق يعنى غير عبوس ، لكن أحيانًا يغلبنا عدم التوسع في هذا الأمر لسبب أو لآخر ، فقد تكون هناك أسباب خفية ، يكون الإنسان مثلًا متأثرًا بها - والناس لا يعلمون - فلا يحصل أن يلقى الإنسان الناس دائمًا بوجه طليق ، إنما عليك المحاولة أن تلقاهم بوجه طليق منشرح ؛ لأن هذا من المعروف وسبب للمودة والمحبة ، والدين الإسلامي دين المحبة والوفاء والأخوة ، كما قال تعالى : ﴿ وَاذْكُرُوا نِعْمَتَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ كُنتُمْ أَعْدَاءً فَأَلَّفَ بَيْنَ قُلُوبِكُمْ فَأَصْبَحْتُم بِنِعْمَتِهِ إِخْوَانًا ﴾ [آل عمران : ١٠٣] نسأل الله أن يهدينا وإياكم إلى أحسن الأخلاق والأعمال فلا يهدي إلى أحسنها إلا هو ، وأن يصرف عنا سيئ الأخلاق والأعمال فلا يصرف عنّا سيئها إلا هو .

* * *

٨٩٣ - وعن أبي هريرة رضي الله عنه قال : قبَّلَ النبيُّ ﷺ الحسنَ بنَ عليٍّ رضي الله عنهما فقال الأَقْرَعُ بن حَابِسٍ : إنَّ لي عَشْرَةً مِنَ الوَلَدِ مَا قَبَّلْتُ مِنْهُمْ أحدًا . فقالَ رسول اللَّه ﷺ : « مَنْ لا يَرْحَمْ لا يُرْحَمْ ! »[١] . متفق عليه .

الشرح

هذا الحديث ذكره النووي رحمه الله فيما يتعلق بالمعانقة والتقبيل وما أشبه ذلك . ومن ذلك : تقبيل الصغار رحمة بهم وشفقة وإحسانًا وتوددًا ، فإن النبي ﷺ قبَّل الحسنَ بن عليٍّ بن أبي طالب رضي الله عنهما والحسن هو ابن فاطمة بنت محمد ﷺ ، يعنى أن النبي ﷺ جَدُّه من قِبَلِ أُمِّه ، وكان النبي ﷺ يحب الحسن ويحب الحسين ويقول : « إنهما سيدا شباب أهل الجنة »[٢] لكن الحسن أفضل من الحسين ، ولهذا قال عنه النبي ﷺ : « إن ابني هذا سيد وسيصلح اللَّه به بين فئتين من المسلمين »[٣] ، ولذلك لما استشهد عليٌّ بن أبي طالب رضي الله عنه حين قتله الخارجي ، كان الذي تولى الخلافة بعده الحسن ابنه الأكبر والأفضل ، ولكنه لما رأى أن منازعته لمعاوية الخلافة سيحصل فيها سفك دماء وقتل وضرر عظيم تنازل رضي الله عنه عن الخلافة لمعاوية تنازلًا تامًّا درءًا للفتنة ، وائتلافًا للأمة ، فأصلح اللَّه به بين الأمة وصار بهذا له منقبة عظيمة ؟ حيث تنازل عما هو أحق به لمعاوية رضي الله عنه درءًا للفتنة[٤] .

كان الحسن بن علي ذات يوم عند النبي ﷺ وعنده الأقرع بن حابس ، وهو رجل من سادات بنى تميم ، فقبَّل النبي ﷺ الحسن ، فكأن هذا الرجل - الأقرع - الجافي كأنه استغرب : كيف يُقبِّل النبي ﷺ هذا الطفل ! فقال : إن لي عشرة من الولد ما قبلت واحدًا منهم ، فقال النبي ﷺ : « من لا

(١) أخرجه البخاري في الأدب (٥٩٩٧) ، ومسلم في الفضائل (٦٥) ، والإمام أحمد في مسنده (٢/٢٤١ ، ٥١٤) .
(٢) انظر الحديث في : الترمذي في السنن (٣٧٦٨) ، وأحمد في مسنده (٣/٦٢) ، والحاكم في المستدرك (٣/١٦٦) .
(٣) أخرجه أحمد في مسنده (٥/٤٤) ، والطبراني في الكبير (٣/٢١) .
(٤) لا يدل هذا الاستشهاد على أفضلية الحسن رضي الله عنه على أخيه ؛ فلم ترد أخبار أو أحاديث .

يَرحَم لا يُرحم » يعني : من لا يَرحم الناس لا يَرحمه اللَّهُ ﷻ والعياذ باللَّه ، ولا يوفقه لرحمة . فدل ذلك على جواز تقبيل الأولاد الصغار رحمة وشفقة - سواء كانوا من أبنائك ، أو من أولاد أبنائك وبناتك ، أو من الأجانب ؛ لأن هذا يوجب الرحمة وأن لديك قلبًا يرحم الصغار ، وكلما كان الإنسان بعباد اللَّه أرحم ؛ كان إلى رحمة اللَّه أقرب ، حتى إن اللَّه ﷻ غفر لامرأة بَغيٍّ زانية ، غفر لها حين رحمت كلبًا يأكل الثرى من العطش ، فنزلت وأخذت بخفها ماءً وسقته فغفر اللَّه لها [(١)] - مع أنها سقت ورحمت كلبًا - ولكن إذا جعل اللَّه في قلب الإنسان رحمة لهؤلاء الضعفاء فذلك دليل على أنه سوف يُرحَمُ بإذن اللَّه ﷻ . نسأل اللَّه أن يرحمنا وإياكم .

فقال النبي ﷺ : « من لا يَرحم لا يُرحم » فدلَّ ذلك على أنه ينبغي للإنسان أن يجعل قلبه لينًا عطوفًا رحيمًا ، خلاف ما يفعله بعض السفهاء من الناس ، حتى إنه إذا دخل الصبي عليه - وهو في المقهى - انتهره ونهزه فهذا خطأ ، وها هو النبي ﷺ أحسن الناس خُلقًا وأكرمهم أدبًا ، كان في يوم من الأيام ساجدًا يصلي بالناس ، فأتى الحسن بن عليّ بن أبي طالب فركب عليه - وهو ساجد - كما يفعل الصبيان ، وتأخر النبي في السجود ، فكأن الصحابة تعجبوا من ذلك ! فقال : « إن ابني ارتحلني - يعني جعلني راحلة له - وإني أحببت ألا أقوم حتى يقضي نهمته » [(٢)] هذه من الرحمة ، وفي يوم آخر كانت أمامة بنت زينب بنت الرسول ﷺ كانت صغيرة فخرج بها الرسول ﷺ إلى المسجد فتقدم يصلى بالناس وهو حاملٌ هذه الطفلة ، إذا سجد وضعها على الأرض ، وإذا قام حملها [(٣)] . كل هذا رحمة بها وعطف ، وإلا فقد كان من الممكن أن يقول لعائشة أو غيرها من نسائه : خذي البنت . ولكن لرحمته ﷺ ، ولعلمه أنها ربما تعلقت بجدها ﷺ ، فأراد أن يطيب نفسها .

وفي يوم من الأيام كان يخطب الناس وكان على الحسن والحسين ثوبان لعلهما جديدان وكان فيهما طول فجعل يمشيان ويتعثران ، فنزل من على المنبر وحملهما بين يديه ﷺ وقال صدق اللَّه : ﴿أَنَّمَآ أَمْوَٰلُكُمْ وَأَوْلَٰدُكُمْ فِتْنَةٌ﴾ [الأنفال : ٢٨] ولذا فإنه ما إن رآهما يتعثران فما طابت نفسه حتى نزل فحملهما [(٤)] .

المهم : أنه ينبغي لنا أن نعوِّد أنفسنا على رحمة الصبيان وعلى رحمة كل من يحتاج الرحمة من اليتامى والفقراء والعاجزين وغيرهم ، وأن نجعل في قلوبنا رحمة ؛ ليكون ذلك سببًا لرحمة اللَّه إيانا ؛ لأننا أيضًا محتاجون إلى الرحمة ، ورحمتنا لعباد اللَّه سبب لرحمة اللَّه لنا ، نسأل اللَّه أن يعمنا وإياكم برحمته .

* * *

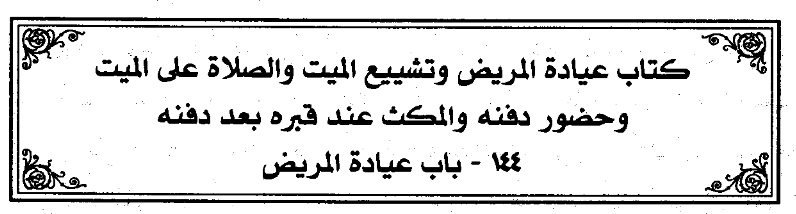
---

(١) انظر الحديث في : البخاري في بدء الخلق (٣٣٢١) ، وأحمد في مسنده (٢/ ٥١٠) ، والبغوي في شرح السنة (٦/ ١٦٦) . والثرى : أي التراب .

(٢) أخرجه البيهقي في السنن (٢/ ٢٦٣) ، ومعنى قوله : « نهمته » أي : لعبه أو رغبته في اللعب (المعجم العربي الأساسي ص : ١٢٣٧) .

(٣) انظر نص الحديث : في البخاري في الصلاة (٥١٦) ، ومسلم في المساجد (٤١) ، وأحمد في مسنده (٥/ ٢٠٧) .

(٤) انظر الحديث في : النسائي في الجمعة (٣٠) ، وأبو داود في الصلاة (١١٠٩) ، وأحمد في مسنده (٥/ ٣٥٤) ، والترمذي في المناقب (٣٧٨٣) ، ومعنى « يتعثران » أي : يسقطان على الأرض لصغرهما وقلة قوتهما .



كتاب عيادة المريض وتشييع الميت والصلاة على الميت وحضور دفنه والمكث عند قبره بعد دفنه

١٤٤ - باب عيادة المريض

٨٩٤ - عن البَرَاءِ بن عازِبٍ رضي الله عنهما قال: أَمَرَنَا رسولُ اللَّهِ ﷺ بِعِيادَةِ المَرِيضِ، وَاتِّبَاعِ الجَنَازَةِ، وَتَشْمِيتِ الْعَاطِسِ، وَإِبْرَارِ المُقْسِمِ، وَنَصْرِ المَظْلُومِ، وَإِجَابَةِ الدَّاعِي، وَإِفْشَاءِ السَّلام [١]. متفقٌ عليه.

الشرح

سبق لنا في رياض الصالحين لمؤلفه النووي رحمه الله عدة أبواب مفيدة وكلها تتعلق بالأحياء ثم ذكر رحمه اللَّه - في هذا الباب - حكم عيادة المريض وتشييع الجنائز.

عيادة المريض: ذهب بعض العلماء إلى أنها فرض كفاية، فإذا لم يقم بها أحد؛ فإنه يجب على من عَلِم بحال المريض أن يعُوده؛ لأن النبي ﷺ جعل ذلك من حقوق المسلم على أخيه، ولا يليق بالمسلمين أن يعلموا أن أخاهم مريض ولا يعودَه أحد منهم؛ لأن هذا قطيعة وأي قطيعة!

وهذا القول هو الراجح: أن عيادة المرضى فرض كفاية، ومن المعلوم أن غالب المرضى يعودهم أقاربهم وأصحابهم وتحصل بذلك الكفاية، لكن لو علمنا أن أحدًا أجنبيًا في البلد مريضًا ليس معروفًا، وقد علمت أنه لم يعده أحد فإن الواجب عليك أن تعودَه؛ لأن ذلك من حقوق المسلمين بعضهم على بعض. والمستحب لمن عاد المريض أن يسأل عن حاله كيف أنت؟ وعن أعماله: كيف تتوضأ؟ كيف تصلي؟ وعن معاملاته: هل لك حقوق على الناس، أو هل للناس حقوق عليك؟ ثم إذا قال: نعم، قل له: أوصِ بما عليك، لأن النبي ﷺ قال: «ما حق امرئ مسلم له شيء يوصي فيه يبيت ليلتين إلا ووصيته مكتوبة عنده» [٢] ولا تُلْحِف [٣] عليه في المسألة، ولا سيما إذا كان مرضُه شديدًا؛ لأنه ربما يضجر ويتعب، ولا تطل الجلوس عنده، لأنه ربما يمل، لأن حال المريض غير حال الصحيح، فربما يمل، ويحب أن تقوم عنه ليأتي إليه أهله وما أشبه ذلك، ولكن إذا رأيت من المريض أنه مستأنس بك، ويفرح أن تبقى، وأن تطيل الجلوس عنده؛ فهذا خير ولا بأس به، وهذا ربما يكون سببًا في شفائه؛ لأن من أسباب الشفاء إدخالَ السرور على المريض، ومن أسباب دوام المرض وزيادته: إدخال الغم عليه، فمثلًا إذا جئت مريضًا وقلت له: أنت اليوم أحسن من أمس، حتى وإن لم يكن أحسن من جهة الطب لكن تقول: أحسن من أمس، لأنك زدت خيرًا، ما بين أمس واليوم صليت خمس صلوات، استغفرت، هللت، كذلك زاد أجرك بالمرض، وذلك حتى يدخل عليه السرور، ولا تقل له: أنت

(١) أخرجه مسلم في اللباس (٣) واللفظ له، والبخاري في الاستئذان (٦٢٣٥).

(٢) أخرجه البخاري في الوصايا (٢٧٣٨) ومسلم في الوصية (١، ٤) وأحمد في مسنده (٢/ ٨٠) ومالك في الموطأ (٧٦١).

(٣) تلحف عليه: أي لا تلح عليه (المعجم العربي الأساسي ص ١٠٧٧ مادة لحف).

أمس أحسن من اليوم . فهذا خطأ حتى ولو كان الأمر كذلك ؛ لأنه إن لم يضر لن ينفع ، كذلك إذا كان المريض ممن يحب القصص وكان ذلك مدعاة لإدخال السرور عليه ، فهذا أيضًا طيب ، لأن من المهم إدخال السرور على المريض ، وإذا أردت أن تقوم واستأذنت تقول : أتأذن لي . فإن هذا أيضًا مما يَسُرُّه ؛ لأنه ربما يودُّ أن تبقى فلا يأذن لك ، ثم احرص غاية الحرص على أن توجهَه إلى فعل الخير وقوله في هذا المرض ، فيتفرغ للذِّكر ولقراءة القرآن وما أشبه ذلك ؛ لعله ينتبه ويكون لك أجر السبب .

* * *

٨٩٥ - وعن أبي هريرة ﷺ أن رسول اللَّه ﷺ قال : « حَقُّ الْمُسْلِمِ عَلى الْمُسْلِمِ خَمْسٌ : رَدُّ السَّلام ، وَعِيَادَةُ الْمَرِيضِ ، وَاتِّبَاعُ الجَنَائِزِ ، وإجَابَةُ الدَّعْوَةِ ، وَتَشْمِيتُ الْعَاطِسِ »[1] متفقٌ عليه .

الشرح

قال المؤلف النووي رحمه الله في كتابه - رياض الصالحين - كتاب عيادة المريض وتشييع الجنازة . يقال : عيادة ، وزيارة ، وتشييع .

الزيارة : للصحيح إذا زرت أخًا لك في اللَّه في بيته في مكانه فهذه زيارة . والعيادة للمريض ؛ لأن الإنسان يُعيدها ويكررها مادام أخوه مريضًا . وتشييع الجنازة : اتباعها ، ثم ذكر المؤلف حديث البراء ابن عازب وقد سبق الكلام على أكثره ، والشاهد منه قوله : « وعيادة المريض » فهي أمرٌ أَمَرَ به النبي ﷺ وهي فرض كفاية - إذا قام بها البعض سقط عن الباقين ، وإذا لم يقم بها أحد وجب على من علم أن يعودَه - ثم إن المراد بالمريض الذي يعاد : هو الذي انقطع في بيته ، ولا يخرج ، وأما المريض مرضًا خفيفًا لا يعوقه عن الخروج ومصاحبة الناس ؛ فإنه لا يُعاد ، لكن يُسأل عن حاله إذا علم به الإنسان . وللعيادة آداب كثيرة منها :

١ - أن ينوي الإنسان بها امتثال أمر النبي ﷺ ، فإن النبي ﷺ أمر بها .

٢ - أن ينوي الإحسان إلى أخيه بعيادته ، فإن المريض إذا عاده أخوه ؛ وجد في ذلك راحة عظيمة وانْشِراحَ صَدرٍ .

٣ - أن يستغلَّ الفرصة في توجيه المريض إلى ما ينفعه ؛ فيأمره بالتوبة والاستغفار والخروج من حقوق الناس .

٤ - أنه ربما يكون على المريض إشكالات في طهارته أو صلاته أو ما أشبه ذلك ، فإذا كان العائد طالب علم انتفع به المريض ؛ لأنه لابد أن يخبره عمَّا ينبغي أن يقوم به من طهارة وصلاة ، أو يسأله المريض .

٥ - أن الإنسان ينظر للمصلحة في إطالة البقاء عند المريض أو عدمها . وهذا القول هو القول الصحيح ، وذهب بعض العلماء إلى أنه ينبغي تخفيف العيادة ، وألا يثقل على المريض ، لكن الصحيح أن الإنسان ينظر للمصلحة : إذا رأى أن المريض مستأنس منبسط منشرح الصدر ، وأنه يحب بقاءه ،

---

(١) أخرجه البخاري في الجنائز (١٢٤٠) ، ومسلم في السلام (٤) ، والإمام أحمد في مسنده (٢/٥٤٠) .

فليتأن لما في ذلك من إدخال السرور عليه ، وإن رأى خلاف ذلك ؛ فإنه يقوم ولا يتأخر .

٦ - أن يتذكر الإنسان نعمة اللّه عليه بالعافية ، فإن الإنسان لا يعرف قدر نعمة اللّه عليه إلا إذا رأى من ابتُلي بفقدها ، كما قيل : وبضدِّها تتميز الأشياء . فتحمد اللّه ﷻ على العافية وتسأله أن يديم عليك النعمة .

٧ - ومنها ما يرجى من دعاء المريض للعائد ، ودعاء المريض حَرِيٌّ [١] بالإجابة ، لأن اللّه ﷻ عند المنكسرة قلوبهم ، والمريض من أشد الناس ضعفًا في النفس ، ولا سيما إذا طال به المرض وثَقُل فيرجى إجابة دعوة هذا المريض .

وهناك فوائد أكثر مما ذكرنا ؛ لذلك ينبغي للإنسان أن يحرص على عيادة المرضى ؛ لما في ذلك من الأجر الكثير والثواب العظيم .

* * *

٨٩٦ - وعنه قال : قَالَ رسولُ اللّه ﷺ : « إنَّ اللّهَ ﷻ يَقُولُ يومَ القِيامَةِ : يَا ابْنَ آدَم مَرِضْتُ فَلَمْ تَعُدْني ! قال : يَا رَبِّ كَيفَ أَعُودُكَ وَأَنْتَ رَبُّ العَالمِين ؟! قال : أَمَا عَلِمْتَ أَنَّ عَبْدِي فُلانًا مَرِضَ فَلَمْ تَعُدْهُ ؟ أَمَا عَلِمْتَ أَنَّكَ لَو عُدْتَهُ لَوَجَدْتَني عِنْدَهُ ؟ يَا ابْنَ آدَمَ اسْتَطْعَمْتُكَ فَلِمْ تُطْعِمْنِي ! قال : يَا رَبِّ كَيفَ أُطعِمُكَ وَأَنْتَ رَبُّ العالمِينَ ؟! قال : أَمَا عَلِمْتَ أَنَّهُ اسْتَطْعَمَكَ عَبْدي فُلانٌ فَلَمْ تُطْعِمْهُ ، أَمَا عَلِمْتَ أَنَّكَ لَو أَطْعَمْتَهُ لَوَجَدْتَ ذَلكَ عِنْدي ؟ يَا ابْنَ آدَمَ اسْتَسْقَيتُكَ فَلَمْ تَسْقِني ! قال : يَا رَبِّ كَيفَ أَسْقِيكَ وَأَنْتَ رَبُّ الْعَالِمِينَ ؟! قال : اسْتَسْقَاكَ عَبْدِي فُلانٌ فَلَمْ تسْقِهِ ! أَمَا عَلِمْتَ أَنَّكَ لَو سَقَيتَهُ لَوَجَدْتَ ذلكَ عِنْدِي ؟ » [٢] رواه مسلم .

الشرح

هذا الحديث ذكره النووي رحمه الله في رياض الصالحين باب عيادة المريض وتشييع الميت عن أبي هريرة رضي الله عنه أن النبي ﷺ قال : « يقول اللّه تعالى يوم القيامة : يا ابن آدم مرضت فلم تعدني » قال : كيف أعودك وأنت رب العالمين ؟! يعني : وأنت لست بحاجة إليّ حتى أعودك . قال : « أما علمت أن عبدي فلانًا مرض فلم تعده ؟! أما إنك لو عدته لوجدتني عنده » هذا الحديث ليس فيه إشكال في قوله تعالى : « مرضت فلم تعدني » لأن اللّه تعالى يستحيل عليه المرض ؛ لأن المرض صفة نقص ، واللّه ﷻ منزه عن كل نقص قال اللّه تبارك وتعالى : ﴿ سُبْحَٰنَ رَبِّكَ رَبِّ ٱلْعِزَّةِ عَمَّا يَصِفُونَ ﴾ [الصافات : ١٨٠] لكن المراد بالمرض : مرض عبدٍ من عباده الصالحين ، وأولياء اللّه ﷻ هم خاصته ، ولهذا جاء في الحديث الصحيح القدسي أيضًا : « من عادى لي وليًا ؛ فقد آذنته بالحرب » [٣] . يعني من يعادي أولياء اللّه فهو محارب لله ﷻ مع أنه - وإن كان لم يُعادِ اللّه على زعمه - لكنه عادى أولياءه وحاربهم ، كذلك إذا مرض عبد

---

(١) حري : أي : جدير (المعجم العربي الأساسي ص : ٣١١ مادة حري) .

(٢) أخرجه مسلم في البر والصلة (٤٣) ، وقوله : « تعدني » أي : تزورني .

(٣) أخرجه البخاري في الرقاق (٥٨) ، والبيهقي في السنن (٣/٣٤٦) .

من عباد الله الصالحين فإن الله ﷻ يكون عنده ؛ ولهذا قال : « أما إنك لو عدته لوجدتني عنده » ولم يقل : لوجدت ذلك عندي كما قال في الطعام والشراب بل قال : « لوجدتني عنده » وهذا يدل على قرب المريض من الله ﷻ ولهذا قال العلماء : إن المريض حَرِيٌّ بإجابة الدعاء إذا دعا لشخص أو دعا عليه ، وفي هذا دليل على استحباب عيادة المريض ، وأن الله ﷻ عند المريض وعند من عاده ، لقوله : « لوجدتني عنده » وقد سبق لنا كيف تكون عيادة المريض وما ينبغي أن يقوله له العائد .

« يا ابن آدم استطعمتك فلم تطعمني » يعني طلبت منك طعامًا فلم تطعمني ، ومعلومٌ أن الله تعالى لا يطلب الطعام لنفسه لقول الله تبارك وتعالى ﴿ وَهُوَ يُطْعِمُ وَلَا يُطْعَمُ ﴾ [الأنعام : ١٤] فهو غني عن كل شيء لا يحتاج لطعام ولا شراب ، لكن جاء عبد من عباد الله فعلم به شخص فلم يطعمه ، قال الله تعالى : « أما إنك لو أعطيته لوجدت ذلك عندي » يعني لوجدت ثوابه عندي مدَّخرًا لك ، الحسنة بعشر أمثالها إلى سبعين ألف ضعف إلى أضعاف كثيرة ، وفي هذا دليل على استحباب إطعام الجائع ، وأن الإنسان إذا أطعم الجائع وجد ذلك عند الله .

« يا ابن آدم استسقيتك - أي طلبت منك أن تسقيني - فلم تسقني » قال : كيف أسقيك وأنت رب العالمين ؟! يعني : لست في حاجة إلى طعام ولا شراب قال : « أما علمت أن عبدي فلانًا ظمئ ، أو استسقاك فلم تسقه ، أما علمت أنك لو استسقيته لوجدت ذلك عندي » ففيه أيضًا دليل على فضيلة إسقاء من طلب منك السقيا ، وأنك تجد ذلك عند الله مُدخرًا .

والشاهد من هذا الحديث : الجملة الأولى منه وهي قوله : « مرضت فلم تعدني » ففيه دليل على استحباب عيادة المريض . والله الموفق .

* * *

٨٩٧ - وعن أبي موسى ﷺ قال : قالَ رسولُ اللهِ ﷺ : « عُودُوا المَرِيضَ ، وأَطْعِمُوا الجَائِعَ ، وَفُكُّوا العَانِي » (١) رواه البخاري .

٨٩٨ - وعن ثَوبَانَ ﷺ عن النبيِّ ﷺ قال : « إنَّ المُسْلَم إذا عَادَ أخَاهُ المُسْلَم لَمْ يَزَلْ في خُرْفَةِ الجَنَة حَتَّى يَرْجعَ » قِيلَ : يا رسولَ اللهِ وَمَا خُرْفَةُ الجنَّةِ ؟ قال : « جَنَاهَا » (٢) رواه مسلم .

الشرح

ذكر المؤلف رحمه الله في كتاب رياض الصالحين في باب عيادة المريض وتشييع الميت .

عن أبي موسى الأشعري ﷺ أن النبي ﷺ قال : « فكوا العاني - يعني : الأسير - وأطعموا الجائع ، وعودوا المريض » هذه ثلاثة أشياء أمر بها النبي ﷺ :

---

(١) أخرجه البخاري في المرضى (٥٦٤٩) والإمام أحمد في مسنده (٣٩٤/٤) وأبو داود في الجنائز (٣١٠٥) .
(٢) أخرجه مسلم في البر والصلة (٤٢) بلفظه ، والإمام أحمد في مسنده (٢٧٩/٥ ، ٢٨٣) بنحوه .

أولًا : عيادة المريض : وقد سبق أنها فرض كفاية يجب على المسلمين أن يعودوا مرضاهم . فإذا لم يقم أحد بذلك ؛ وجب على من علم بالمريض أن يعوده ؛ لأن ذلك من حق المسلم على إخوانه .

ثانيًا : أطعموا الجائع : فإذا وجدنا إنسانًا جائعًا ؛ وجب علينا جميعًا أن نطعمه ، وإطعامه فرض كفاية إذا قام به من يكفي سقط عن الباقين ، فإن لم يقم به أحد ؛ تعين على من علم بحاله أن يطعمه ، وكذلك أيضًا كسوة العاري وهو فرض كفاية .

ثالثًا : فكوا العاني : يعني الأسير ، فكوا الأسير الذي عند الكفار من الأسر ، فإذا اختطف الكفار رجلًا مسلمًا ؛ وجب علينا أن نفك أسره ، وكذلك لو أسروه في حرب بينهم وبين المسلمين ؛ فإنه يجب علينا أن نفك أسره ، وفك أسره فرض كفاية أيضًا . ثم ذكر حديث ثوبان أن النبي ﷺ قال : « إذا عاد المسلم أخاه المسلم - يعني في مرضه - فإنه لا يزال في خُرفة الجنة » قيل : وما خُرفة الجنة ؟! قال : « جناها » يعني : أنه يجني من ثمار الجنة مدة دوامه جالسًا عند هذا المريض .

وقد سبق أن الجلوس عند المريض يختلف باختلاف الأحوال والأشخاص - راجع ما سبق - وفي هذا الحديث الثاني دليل على فضل عيادة المريض ، فمن يحب أن يغترف من ثمار الجنة هذا من أسبابها . والله الموفق .

* * *

٨٩٩ - وعن عليٍّ ﷺ قال : سَمِعْتُ رسولَ اللَّه ﷺ يقولُ : « مَا مِنْ مُسْلِمٍ يَعُودُ مُسْلِمًا غُدْوَةً إلا صَلَّى عَلَيهِ سَبْعُونَ أَلْفَ مَلَكٍ حَتَّى يُمْسِي ، وَإِنْ عَادَهُ عَشِيَّةً إلا صَلَّى عَلَيه سَبْعُونَ أَلْفَ مَلَكٍ حَتَّى يُصْبِحَ ، وَكَانَ لَهُ خَرِيفٌ فِي الجَنَّةِ »[١] رواه الترمذي وقال : حديث حسن. « والخريفُ » : الثَّمَرُ المَخْرُوفُ ، أي : المجْتَنَى .

٩٠٠ - وعن أنس ﷺ قال : كَانَ غُلامٌ يَهُودِيٌّ يَخْدُمُ النَّبِيَّ ﷺ ، فَمَرِضَ ، فَأَتَاه النَّبِيُّ ﷺ يَعُودُهُ ، فَقَعَدَ عِنْدَ رَأْسِهِ فقالَ لَهُ : « أَسْلِمْ » فَنَظَرَ إلى أَبِيه وَهُوَ عِنْدَهُ ؟ فقال : أَطِعْ أَبَا القَاسِمِ ، فَأَسْلَمَ ، فَخَرَجَ النَّبِيُّ ﷺ وَهُوَ يقولُ : « الحَمْدُ للهِ الَّذي أَنْقَذَهُ مِنَ النَّار »[٢] رواه البخاري .

الشرح

ذكر المؤلف رحمه الله في كتاب رياض الصالحين في باب عيادة المريض وتشييع الميت عن عليٍّ بن أبي طالب ﷺ أنه سمع النبي ﷺ يقول : « ما من مسلم يعود مريضًا غدوة ، إلا صلى عليه سبعون ألف ملك حتى يمسي » وكذلك إن عاده في المساء « صلى عليه سبعون ألف ملك حتى يُصبح ، وكان في خريف الجنة» . هذا الحديث له شاهد مما سبق أن الإنسان إذا عاد أخاه المريض فهو في خرفة الجنة أي : في جناها .

وأما استغفار الملائكة له : ففيه نظر ، لأن فضل الله واسع ، لكن من قواعد الحديث الضعيف عند العلماء كثرة الثواب في عمل يسير جدًّا ، لكننا نقول : إنه ما دام قد ثبت أصل مشروعية عيادة المريض ؛

(١) أخرجه الترمذي في الجنائز (٩٦٩) . قوله : (غدوة) الغدوة تكون ما بين صلاة الصبح وطلوع الشمس والجمع غُدا ، قوله : (إلا صلى عليه سبعون ألف ملك) استغفروا ودعوا له بأنواع الخير ، قوله : (عشية) أي آخر النهار .

(٢) أخرجه البخاري في الجنائز (١٣٥٦) ، والإمام أحمد في مسنده (٢٨٠/٣) .

فإن ذكر الفضائل - إذا لم يكن الضعف شديدًا - مما يساعد على فعل ما رغب فيه ، ويُنَشِّط الإنسان ، ويرجو الإنسان ثواب ذلك - إن كان هذا الحديث ثابتًا عن النبي ﷺ ؛ حصل للإنسان ما دلّ عليه ، وإن لم يكن ثابتًا ؛ فإنه لا يزيده إلا رغبةً في الخير ، وعلى كل حالٍ فهو يدل على فضيلة عيادة المريض ، وأنه إذا كان في الصباح ؛ فله هذا الأجر ، وإذا كان في المساء ، فله هذا الأجر .

أما حديث أنس بن مالك ﷺ : أن غلامًا يهوديًّا كان يخدم النبي ﷺ فمرض الغلام فعاده النبي ﷺ وجلس عند رأسه وقال له : « أسلم » فنظر إلى أبيه - يعني كأنه يستشيره - فقال له - وهو يهودي - : « أطع أبا القاسم » ، لأن اليهودي يعلم أنه حق ، فقال لابنه : أطع أبا القاسم ، فأسلم هذا الغلام ، فخرج النبي ﷺ وهو يقول : « الحمد لله الذي أنقذه من النار » ؛ ففي هذا الحديث عدة فوائد منها :

١ - جواز استخدام اليهودي - يعني جعلهم خدمًا عنده ، وهذا بشرط أن يأمن من مكرهم ؛ لأن اليهود أصحاب مكر وخديعة وخيانة ، لا يوفون بعهد ، ولا يؤدون أمانة ، لكن إذا أَمِنَهم فلا بأس من أن يستخدمه .

٢ - جواز عيادة المريض اليهودي ؛ لأن النبي ﷺ عاد هذا الغلام ، ولكن يحتمل أن تكون عيادة النبي ﷺ له كانت من أجل خدمته إياه ، وأن هذا من باب المكافأة ، وعلى هذا لا يكون الحكم لكل يهودي أن تَعُوده ، ويحتمل أن الرسول ﷺ عاده ليعرض عليه الإسلام ، فتكون عيادة المريض اليهودي - أو غيره من الكفار - مستحبة إذا كان الإنسان يريد أن يعرض عليهم الإسلام ، فينقذهم الله به من النار ، وقد قال النبي ﷺ : « لأن يهدي الله بك رجلًا واحدًا خير لك من حُمْر النَّعم » [1] .

يعني : إذا هدى الله بك رجلًا من الكفر خير لك من الإبل الحمر التي هي أغلى أنواع الإبل عند العرب .

٣ - يجب على من عاد المريض أن يُرشده إلى الحق ويرغِّبه فيه ، فإذا كان يعلم أنه - أي المريض - صاحب تقصير قال له : « يا فلان استغفر الله ، تب إليه » فأحسن ما تُهدى للمريض هو أن تنفعه في دينه .

٤ - الأب قد يؤثر ابنه في الخير وهو لا يفعله ، فهذا اليهودي أشار على ابنه أن يطيع أبا القاسم ويُسْلم ، ولكنه هو لم يُسْلم ، فالأب قد يحب لابنه الخير وهو محروم منه والعياذ بالله .

٥ - فيه دليل على أن النبي ﷺ حق ، ودليل ذلك أن اليهودي قال لابنه : أطع أبا القاسم ، والحق ما شهدت به الأعداء ، ومعلوم أن اليهود والنصارى يعرفون النبي ﷺ كما يعرفون أبناءهم ، قال الله تعالى : ﴿ ٱلَّذِينَ ءَاتَيْنَٰهُمُ ٱلْكِتَٰبَ يَعْرِفُونَهُۥ كَمَا يَعْرِفُونَ أَبْنَآءَهُمْ ﴾ [البقرة : ١٤٦] وإنما كانوا يعرفونه كما يعرفون أبناءهم ؛ لأن الله قال : ﴿ ٱلَّذِى يَجِدُونَهُۥ مَكْتُوبًا عِندَهُمْ فِى ٱلتَّوْرَىٰةِ وَٱلْإِنجِيلِ ﴾ [الأعراف : ١٥٧] معروف مشهور باسمه العلم ﷺ ﴿ ٱلَّذِى يَجِدُونَهُۥ مَكْتُوبًا عِندَهُمْ فِى ٱلتَّوْرَىٰةِ وَٱلْإِنجِيلِ يَأْمُرُهُم بِٱلْمَعْرُوفِ وَيَنْهَىٰهُمْ عَنِ ٱلْمُنكَرِ وَيُحِلُّ لَهُمُ ٱلطَّيِّبَٰتِ وَيُحَرِّمُ عَلَيْهِمُ ٱلْخَبَٰٓئِثَ وَيَضَعُ عَنْهُمْ إِصْرَهُمْ

(١) أخرجه أحمد في مسنده (٥/٣٣٣) ، ومسلم في فضائل الصحابة (٣٤) .

﴿وَٱلْأَغْلَـٰلَ ٱلَّتِى كَانَتْ عَلَيْهِمْ﴾ [الأعراف: ١٥٧] هم يعرفون هذا ، لكن الحسد - والعياذ بالله - والاستكبار منعهم من الإيمان به ﴿وَدَّ كَثِيرٌ مِّنْ أَهْلِ ٱلْكِتَـٰبِ لَوْ يَرُدُّونَكُم مِّنۢ بَعْدِ إِيمَـٰنِكُمْ كُفَّارًا حَسَدًا مِّنْ عِندِ أَنفُسِهِم مِّنۢ بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُمُ ٱلْحَقُّ﴾ [البقرة: ١٠٩] نسأل الله السلامة .

وعلى هذا فإذا مرض إنسان كافر فلك أن تعوده إذا رجوت في عيادته خيرًا ، بأن تعرض عليه الإسلام لعله يُسْلِم ؛ فهؤلاء العمال الذين عندنا الآن من الكفار - وهم كثيرون - لا ينبغي أن نتركهم هكذا ، وأن نجعلهم في منزلة البهائم يعملون لنا دون أن ندلهم على الحق ، فهم لهم حق علينا واجب : أن ندعوهم للإسلام ، ونبين لهم الحق ، ونرغِّبهم فيه ، حتى يسلموا ، أما أن يكون عندنا هذا العدد الهائل من النصارى والبوذيين وغيرهم ، ثم لا نجد من يُسلم منهم إلا واحدًا بعد واحدٍ بعد عدة أيام ؛ فهو دليل على ضعف الدعوة عندنا ، وأننا لم نحاول أن ندعوهم للإسلام ، وهذا - لا شك - تقصير منَّا ، وإلا فإن العامل جاء يتكفف الناس في الواقع يريد لقمة العيش ، فليس عنده دافع الاستكبار ، فلو أننا دعوناه باللِّين ورغَّبناه لحصَّلنا خيرًا كثيرًا ، واهتدى على أيدينا أُناس كثيرون ، ولكننا في غفلة عن هذه الدعوة إلى الحق ، والذي ينبغي لنا أن ننتهز الفرص في هذه الأمور ، والله الموفق .

* * *

١٤٥ - باب ما يُدعى به للمريض

٩٠١ - عن عائشة رضي الله عنها : أنَّ النبيَّ ﷺ كَانَ إذا اشتَكَى الإنْسَانُ الشَّيءَ مِنْهُ ، أَو كَانَتْ بِهِ قَرْحَةٌ أَو جُرْحٌ ، قال النَّبيُّ ﷺ بِأُصْبُعِهِ هكذا ، وَوَضَعَ سُفْيَانُ بْنُ عُيَينَةَ الرَّاوي سَبَّابَتَهُ بِالأَرْضِ ثُمَّ رَفَعَهَا وقال : « بِسْمِ اللَّهِ ، تُرْبَةُ أَرْضِنا ، بِرِيقَةِ بَعْضِنَا ، يُشْفَى بِهِ سَقِيمُنَا ، بِإذْنِ رَبِّنَا » (١) متفقٌ عليه .

٩٠٢ - وعنها : أن النبيَّ ﷺ كَانَ يَعُودُ بَعْض أَهْلِهِ يَمْسَحُ بِيَدِهِ اليُمْنى ويقولُ : « اللَّهُمَّ رَبَّ النَّاسِ ، أَذْهِب البَأْسَ ، واشْفِ ، أَنْتَ الشَّافي لا شِفَاءَ إلا شِفاؤُكَ ، شِفاءً لا يُغادِرُ سَقَمًا » (٢) متفقٌ عليه .

الشرح

لما ذكر المؤلف - النووي رحمه الله - في كتاب رياض الصالحين ما يدل على استحباب عيادة المريض ذكر ما يُدْعَى له به وما يُفعل به ، فذكر حديثين عن عائشة رضي الله عنها .

الأول : أنه إذا كان في الإنسان المريض جُرح أو قرحة أو نحو ذلك ؛ كان النبي ﷺ يبل إصبعه ثم يمسح بها الأرض ، فيأخذ من التراب بهذا البلل ، ثم يمسح به الجُرح ويقول : « تربة أرضنا بريقة بعضنا ،

(١) أخرجه البخاري في الطب (٥٧٤٥) بلفظه ، والإمام أحمد في مسنده (٦/٩٣) بنحوه . وقوله : « إذا اشتكى الإنسان الشيء منه » أي : اشتكى ألمًا في عضو من أعضائه وقوله : « بريقة بعضنا » أي : ممزوجة معها .

(٢) أخرجه البخاري في الطب (٥٧٤٣) ، ومسلم في البر والصلة (٤٨) . قوله « اللباس » أي : الشدة والعذاب ، وقوله « لا يغادر سقمًا » أي : لا يترك مرضًا .

يُشْفَى به مريضنا بإذن ربنا » وهذا يدل على أنه ينبغي للإنسان أن يداوي الجرح بمثل ذلك ، ووجه ذلك : أن التراب طهور كما قال النبي ﷺ : « جُعلت تربتها لنا طهورًا » [١] وريق المؤمن طاهر أيضًا ، فيجتمع الطهوران مع قوة التوكل على الله ﷻ والثقة به فيُشفى بها المريض ، ولكن لابد من أمرين :

١ - قوة اليقين في هذا الداعي بأن الله ﷻ سوف يشفي هذا المريض بهذه الرقية .

٢ - قبول المريض لهذا وإيمانه بأنه سينفع .

أما إذا كانت المسألة على وجه التجربة ؛ فإن ذلك لا ينفعه ؛ لأنه لابد من اليقين بأن ما فعله النبي ﷺ خير ، ولابد أن يكون المحل قابلًا - وهو المريض - يكون مؤمنًا بفائدة ذلك ، وإلا فلا فائدة ؛ لأن الذين في قلوبهم مرض لا تزيدهم الآيات إلا رجسًا إلى رجسهم والعياذ بالله .

أما الحديث الثاني : فإنه كان إذا عاد بعض أهله يقول : « اللَّهم ربَّ الناس ، أذْهبْ البأس ، اشفِ أنت الشافي ، لا شفاء إلى شفاؤك ، شفاءً لا يغادر سقمًا » ويمسح بيده اليمنى . أي : يمسح المريض ، ويقرأ عليه هذا الدعاء : « اللَّهم رب الناس » فيتوسل إلى الله ﷻ بربوبيته العامة ، فهو الرب ﷻ الخالق المالك المدبر لجميع الأمور ، فأنت - أيها المريض - تقول : خلقني الله ﷻ ولا بأس ثم قدر عليَّ المرض ، والذي قدَّر عليَّ المرض بعد الصحة قادر على أن يشفيني .

« أذهب البأس » يعني : المرض الذي حلَّ بهذا المريض .

« اشف أنت الشافي » والشفاء : إزالة المرض وبُرْء المريض ، فيقال : اشفِ ، ولا يقال : أَشفِ [٢] ، لأن الثانية - أشف - بمعنى أَهْلِك ، وأما الأولى - اشف - فمعناها البرء من السقم ، ولهذا يقال : « اللَّهم اشف فلانًا ولا تُشفِه » فالكلمتان - عند العامة - يُظن أن معناهما واحد ، ولكن بينهما هذا الفرق العظيم : اشفه أي : أبرئه من المرض ، أما أَشفه : أهلكه .

« الشافي » هو الله ﷻ لأنه الذي يَشْفي المرض ، وما يصنع من الأدوية أو يُقرأ من الرُقى ، فما هو إلا سببٌ قد ينفع وقد لا ينفع ، فالله هو المسبِّب ﷻ ولهذا ربما يمرض رجلان بمرض واحدٍ ، ويداويان بدواءٍ واحد ، وعلى (وصفة) واحدة فيموت هذا ، ويشفى ذاك ؛ لأن الأمر كله بيد الله ﷻ فهو الشافي ، وما يُصنَع من أدوية أو رُقَى فهو سبب ، ونحن مأمورون بذلك السبب كما قال النبي ﷺ : « تداووا ، ولا تتداووا بحرام » [٣] وقال : « ما أنزل الله داءً إلا أنزل له دواء » [٤] .

وقوله : « لا شفاء إلا شفاؤك » صدق رسول الله ﷺ فلا شفاء إلا شفاء الله ، فشفاء الله لا شفاء غيره ، وشفاء المخلوقين ليس إلا سببًا ، والشافي هو الله ، فليس الطبيب وليس الدواء هما اللذان

---

(١) أخرجه مسلم في المساجد (٤) .

(٢) أشف : تسمى الهمزة التي في أولها « همزة الإزالة » فهي قد أزالت معنى الشفاء .

(٣) أخرجه أبو داود في الطب (٣٨٧٤) ، والبيهقي في السنن (١٠/٥) .

(٤) أخرجه أحمد في مسنده (٤١٣/١) ، والحاكم في المستدرك (١٩٦/٤) .

يشفيان ، بل الطبيب سبب ، والدواء سبب ، وإنما الشافي هو الله .

وقوله : « شفاء لا يغادر سقمًا » يعني : شفاء كاملًا لا يبقي سقمًا أي : لايبقي مرضًا .

فينبغي للإنسان إذا عاد المريض أن يمسحه بيده اليمنى ، ويقول هذا الدعاء . والله الموفق .

* * *

٩٠٣ – وعن أنس ﷺ أنه قال لثابتٍ رَحِمَهُ اللهُ : أَلا أَرْقِيكَ بِرُقْيَةِ رسول الله ﷺ ؟ قال : بَلى ، قال : « اللَّهُمَّ رَبَّ النَّاسِ ، مُذْهِبَ البَأْس ، اشْفِ أَنتَ الشَّافي ، لا شافي إلا أَنْتَ ، شفاءً لا يُغادِر سقمًا »[1] رواه البخاري .

٩٠٤ – وعن سعدِ بن أبي وَقّاصٍ ﷺ قال : عَادَني رسول الله ﷺ ، فقال : « اللَّهُمَّ اشْفِ سَعْدًا ، اللَّهُمَّ اشْفِ سَعْدًا ، اللَّهُمَّ اشْفِ سَعْدًا »[2] رواه مسلم .

٩٠٥ – وعن أبي عبد اللَّهِ عثمانَ بن أبي العاصِ ﷺ أنهُ شكا إلى رسول الله ﷺ وَجَعًا يَجِدُهُ في جَسَدِهِ ، فقال له رسول الله ﷺ : « ضَعْ يَدَكَ عَلى الذي تَأَلَّم مِن جَسَدِكَ وَقلْ : بِسمِ اللَّهِ – ثَلاثًا – وَقُلْ سَبْعَ مَرَّاتٍ : أَعُوذُ بِعِزَّةِ اللَّهِ وَقُدْرَتِهِ مِنْ شَرِّ مَا أَجِدُ وَأُحَاذِرُ »[3] رواه مسلم .

٩٠٦ – وعن ابن عباس ﷺ عن النبي ﷺ ، قال : « مَنْ عَادَ مَرِيضًا لَمْ يَحْضُرْهُ أَجَلُهُ ، فقالَ عِندَهُ سَبْعَ مَرَّاتٍ : أَسْأَلُ اللَّهَ العَظِيمَ ربَّ العَرْشِ العَظِيمِ أَنْ يَشْفِيكَ ، إلا عَافَاهُ اللَّهُ مِنْ ذلكَ المَرَضِ »[4] رواه أبو داود والترمذي وقال : حديث حسن ، وقال الحاكِم : حديث صحيح على شرطِ البخاري .

الشرح

هذه الأحاديث مما يقال عند المريض إذا عاده الإنسان ذكرها النووي رَحِمَهُ اللهُ في كتابه رياض الصالحين .

حديث سعد بن أبي وقاص أن النبي ﷺ عاده في مرضه فقال : « اللَّهم اشفِ سعدًا ، اللَّهم اشفِ سعدًا ، اللَّهم اشفِ سعدًا » ثلاث مرات ، ففي هذا الحديث دليل على أن من السُّنة أن يعود الإنسان المريض المسلم ، وفيه أيضًا حسن خلق النبي ﷺ ومعاملته لأصحابه ، فإنه كان (يَعُود مرضاهم ويدعو لهم) وفيه أن يُستحب أن يُدعى بهذا الدعاء « اللَّهم اشفِ فلانًا » وتسميه ، ثلاث مرات ، فإن هذا مما يكون سببًا في شفاء المريض ، وفيه أيضًا دليل على أن الإنسان يكرِّر الدعاء ، لقد كان الرسول ﷺ إذا دعا يدعو ثلاثًا ، وإذا سَلَّم ولم يفهم عنه سلَّم ثلاثًا ، وتكرار الدعاء ثلاثًا من الأمور المشروعة كما كان ﷺ في الصلاة يقول : « رب اغفر لي ، رب اغفر لي ، رب اغفر لي » يكرر . هكذا أيضًا يكرر الدعاء للمريض .

---

(١) أخرجه البخاري في الطب (٥٧٤٢) ، والإمام أحمد في مسنده (١٥١/٣) ، وأبو داود في الطب (٣٨٩٠) .

(٢) أخرجه مسلم في الوصايا (٨) ، والإمام أحمد في مسنده (١٦٨/١) .

(٣) أخرجه مسلم في السلام (٦٧) ، وقوله : « بعزة الله » أي أعتصم بغلبته وأتحصن ، وقوله : « من شر ما أجد » أي : من الألم . وقوله : « أحاذر » أي : أتوقى .

(٤) أخرجه أبو داود في الجنائز (٣١٠٦) والترمذي في الطب (٢٠٨٤) .

ثم ذكر المؤلف حديث عثمان بن أبي العاص : أن النبي ﷺ سأله عثمان أنه يشكو من مرضٍ في جسده فأمره النبي ﷺ أن يقول هذا الدعاء : (بسم الله ثلاثًا) ويضع يده على موضع الألم ثم يقول : « أعوذ بعزة الله وقدرته من شر ما أجد وأحاذر » يقولها سبع مرات ، فهذا من أسباب الشفاء أيضًا ، فينبغي للإنسان إذا أحسَّ بألم أن يضع يده على هذا الألم ويقول : « بسم الله ثلاثًا ، أعوذ بعزة الله وقدرته من شر ما أجد وأحاذر » يقولها سبع مرات ، إذا قاله مُوقِنًا بذلك مؤمنًا به ، وأنه سوف يستفيد من هذا ؛ فإنه يذهب الألم بإذن الله ﷻ ، وهذا أبلغ من الدواء الحسي كالأقراص ، والشراب والحُقَن ، لأنك تستعين بمن بيده ملكوت السموات والأرض الذي أنزل هذا المرض ، هو الذي يجيرك منه .

كذلك أيضًا حديث ابن عباس : أن الإنسان إذا زار مريضًا لم يحضر أجله - أي ليس الذي فيه مرض الموت - فقال : « أسأل الله العظيم رب العرش العظيم أن يشفيك سبع مرات إلا شفاه الله من هذا المرض » هذا إذا لم يحضر الأجل ، أما إذا حضر الأجل ؛ فلا ينفع الدواء ولا القراءة ، لأن الله تعالى قال : ﴿ وَلِكُلِّ أُمَّةٍ أَجَلٌ فَإِذَا جَآءَ أَجَلُهُمْ لَا يَسْتَأْخِرُونَ سَاعَةً وَلَا يَسْتَقْدِمُونَ ﴾ [الأعراف : ٣٤] والله الموفق .

* * *

٩٠٧ - وعنه أنَّ النبيَّ ﷺ دَخَلَ عَلى أَعْرَابيٍّ يَعُودُهُ ، وَكانَ إذا دَخَلَ عَلى مَنْ يَعُودُهُ قال : « لا بَأْسَ ، طَهُورٌ إنْ شَاءَ اللَّهُ » [١] رواه البخاري .

الشرح

هذا الحديث الذي ذكره النووي رحمه الله في كتابه (رياض الصالحين) باب ما يدعى به للمريض .

عن ابن عباس رضي الله عنهما أن النبي ﷺ دخل على أعرابي يعوده ، وكان إذا دخل على مريض يعوده قال : « لا بأس - طهور إن شاء الله » . « لا بأس » يعني : لا شدة عليك ولا أذى . « طهور » يعني : هذا طهور إن شاء الله ، وإنما قال النبي ﷺ : « إن شاء الله » لأن هذه جملة خبرية وليست جملةً دعائية ، لأن الدعاء ينبغي للإنسان أن يجزم به ؟ ولا يقل إن شئت . ولهذا نهى النبي ﷺ أن يقول الرجل : اللهم اغفر لي إن شئت ، اللهم ارحمني إن شئت [٢] لا تقل هذا ، لأن الله لا مكره له ، إن شاء غفر لك ، وإن شاء لم يغفر ولم يرحم ، فلا يقال : إن شئت ؛ إلا لمن له مكره ، أو لمن يستعظم العطاء ، فإذا سألت الله فلا تقل : إن شئت .

أما قول : إن شاء الله في قول النبي « لا بأس ، طهور إن شاء الله » فهذا لأنه خير وتفاؤل . فيقول : لا بأس ، كأنه ينفي أن يكون به بأس ، ثم يقول : « إن شاء الله » لأن الأمر كله بمشيئة الله ﷻ .

فيؤخذ من هذا الحديث : أنه ينبغي لمن عاد المريض إذا دخل عليه أن يقول : « لا بأس ، طهور إن شاء الله » .

---

(١) أخرجه البخاري في المرضى (٥٦٥٦) ، والبيهقي في سننه (٣/٣٨٣) .

(٢) أخرجه البخاري في الدعوات (٦٣٣٩) ، ومسلم في الذكر (٨) ، وأحمد في مسنده (٢/٢٤٣) .

٩٠٨ - وعن أبي سعيد الخُدْرِيِّ ﷺ أن جِبْرِيلَ أَتَى النَّبيَّ ﷺ ، فقال : يَا مُحَمَّدُ اشْتَكَيتَ ؟ قال : « نَعَمْ » قال : بِسْمِ اللَّهِ أَرْقِيكَ ، مِنْ كُلِّ شَيْءٍ يُؤْذِيكَ ، مِنْ شَرِّ كُلِّ نَفْسٍ أَو عَينِ حَاسِدٍ ، اللَّهُ يَشْفِيكَ ، بِسْمِ اللَّهِ أَرقِيكَ » [١] رواه مسلم .

الشرح

ثم ذكر حديث أبي سعيد الخدري ﷺ أن جبريل أتى النبي ﷺ يسأله : « اشتكيت » يعني : هل أنت مريض .. ؟ قال : نعم ، فقال : « بسم اللَّه أرقيك من كل شيء يؤذيك ، من شر كل نفس أو عين حاسدٍ ، اللَّه يشفيك ، بسم اللَّه أرقيك » هذا دعاء من جبريل للنبي ﷺ يقول له : « اشتكيت » قال : « نعم » وفي هذا دليل على أنه لا بأس أن يقول المريض للناس : إني مريض . إذا سألوه ، وأن هذا ليس من باب الشكوى ، فالشكوى أن تشتكي الخالق للمخلوق ، تقول : أنا أمرضني اللَّه بكذا وكذا ، تشكو الرب للخلق ، هذا لا يجوز ، ولهذا قال يعقوب : ﴿ إِنَّمَآ أَشْكُواْ بَثِّى وَحُزْنِىٓ إِلَى ٱللَّهِ ﴾ [يوسف : ٨٦] لكن إذا أخبَر المريض بمرضه على سبيل الإخبار لا الشكوى فلا بأس ، ولهذا بعض العامة يقول : إخبار لا شكوى ، وهذا طيب ، وفيه أيضًا دليل على أنه ينبغي أن نقرأ على المريض بهذه الرقية : « بسم اللَّه أرقيك » يعني : أقرأ عليك « من كل شيء يؤذيك » : من مرض ، حزن ، هم ، أو غم ... إلخ « من شر كل نفس أو عين حاسد ، اللَّه يشفيك » « من شر كل نفس » من النفوس البشرية أو نفوس الجن أو غير ذلك ، أو « عين حاسد » أي : ما يسمونه الناس بالعين ، وذلك أن الحاسد - والعياذ باللَّه - الذي يكره أن يُنعم اللَّه على عباده بنعمه نفسُه خبيثة شريرة ، وهذه النفس الخبيثة الشريرة قد ينطلق منها ما يصيب المحسود ، ولهذا قال تعالى : ﴿ وَمِن شَرِّ حَاسِدٍ إِذَا حَسَدَ ﴾ [الفلق : ٥] ويكون المحسود مهمومًا بسبب هذه العين ، ولهذا قال : « أو عين حاسد اللَّه يشفيك » أي : يبرئه ويزيل سقمه « بسم اللَّه أرقيك » فبدأ بالبسملة في أول الدعاء وفي آخره ، فإذا كان الإنسان في مثل هذه الحالة قل له هذا الدعاء فهذا خير ؛ لأن كل ما جاء في السُّنة فإن مراعاته أفضل ، وإذا لم تعرف هذا الدعاء فادعُ بالمناسب : شفاك اللَّه ، عافاك اللَّه ، أسأل اللَّه لك الشفاء ، أسأل اللَّه لك العافية ، وما أشبه ذلك ، وفي هذا الحديث دليل على أن النبي ﷺ كغيره من البشر ، يصيبه المرض ، وفيه أيضًا أن القراءة على المريض لا تنافي كمال التوكل ، بخلاف الذي يطلب من الناس أن يقرأوا عليه ؛ ففيه شيء من نقص التوكل ؛ لأنه سأل الخلق ، واعتمد على سؤالهم ، لكن إذا جاء إنسان يقرأ عليه ولم تمنعه ؛ فإن ذلك لا شيء فيه ولا يُعدُّ نقصًا في التوكل ، ولهذا قَرأ النبي ﷺ على غيره ، وقُرئ عليه أيضًا [٢] ، فذلك لا ينافي كمال التوكل إذا كان بغير سؤال . واللَّه الموفق .

* * *

٩٠٩ - وعن أبي سعيد الخُدْرِيِّ وأبي هريرة ﷺ أَنَّهُمَا شَهِدَا عَلى رسول اللَّه ﷺ أنه قال : « مَنْ قال : لا إلَهَ إلا اللَّهُ واللَّهُ أَكْبَرُ ، صَدَّقَهُ رَبُّهُ ، فقال : لَا إِلَهَ إلا أَنَا وَأَنَا أَكْبَرُ . وَإذا قال : لا إلَهَ إلا اللَّهُ

---

(١) أخرجه مسلم في السلام (٤٠) ، وقوله « أرقيكَ » أي أعوِّذكَ .

(٢) انظر في ذلك : البخاري في المغازي (٤٤٣٩) .

وَحْدَهُ لا شريكَ لَهُ ، قال : يقول : لا إلهَ إلا أَنَا وَحْدِي لا شَرِيكَ لي . وإذا قال : لا إلهَ إلا اللَّهُ لَهُ المُلْكُ وَلَهُ الحَمْدُ ، قال : لا إلهَ إلا أَنَا لي المُلْكُ وَلِيَ الحَمْدُ . وإذا قال : لا إلهَ إلا اللَّهُ وَلا حَولَ وَلا قوَّةَ إلا باللَّهِ ، قال : لا إلهَ إلا أنَا وَلا حَولَ وَلا قُوَّةَ إلا بي » وَكَانَ يقولُ : « مَنْ قالَها في مَرَضِهِ ثُمَّ مَاتَ لَمْ تَطْعَمْهُ النَّارُ » [(١)] رواه الترمذي وقال : حديث حسن .

الشرح

هذا آخر حديث نقله النووي رَحِمَهُ اللَّهُ في كتابه « رياض الصالحين » في باب : « ما يُدعى به للمريض » وقد سبقت الأحاديث فيما يَدعو به العائد للمريض .

أما هذا فهو فيما يدعو به المريض نفسه ، فقد ذكر أبو هريرة وأبو سعيد الخُدريُّ رضي الله عنهما عن النبي ﷺ أن اللَّه ﷻ يصدق العبد إذا قال : « اللَّه أكبر ، لا إله إلا اللَّه » قال اللَّه : « إنه لا إله إلا أنا ، وأنا أكبر » ، وإذا قال : « اللَّه أكبر ولا حول ولا قوة إلا باللَّه ، كذلك يُصدِّقه اللَّه » فمن قال هذا : « لا إله إلا اللَّه ، ولا حول ولا قوة إلا باللَّه » ثم مات مع بقية الذكر فإنه لا تطعمه النار ، أي : يكون ذلك من أسباب تحريم الإنسان على النار ، فينبغي للإنسان أن يحفظ هذا الذكر ، وأن يكثر منه في حال مرضه ؛ حتى يُختم له بالخير إن شاء اللَّه تعالى ، واللَّه الموفق .

* * *

١٤٦ - باب استحباب سؤال أهل المريض عن حاله

٩١٠ - عن ابن عباسٍ رضي الله عنهما أَنَّ عليّ بن أبي طالب رضي الله عنه خرجَ مِنْ عِنْدِ رسول اللَّه ﷺ في وَجَعِهِ الَّذي تُوُفِّيَ فيهِ ، فقالَ النَّاسُ : يَا أَبَا الحَسَنِ ، كَيفَ أَصبَحَ رسول اللَّه ﷺ ؟ قال : أَصْبَحَ بِحَمدِ اللَّهِ بَارِئًا [(٢)] . رواه البخاري .

الشرح

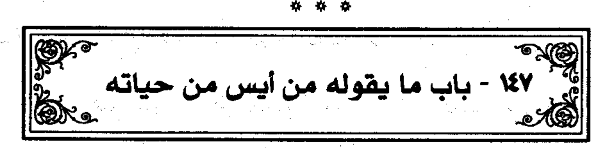
بعد ما ذكر المؤلف النووي رَحِمَهُ اللَّهُ في كتابه : (رياض الصالحين) كثيرًا من آداب عيادة المريض يتحدث عن بيان سؤال أهل المريض عن حاله ، وأن ذلك من الأمور التي جاءت بها السُّنة ، حيث ذكر عنه ابن عباس رضي الله عنهما أن عليّ بن أبي طالب رضي الله عنه خرج من عند النبي ﷺ في مرضه الذي مات فيه ، وكان علي بن أبي طالب صهرَ رسول اللَّه ﷺ وابن عمه ، وأفضل أهل البيت ، فهو الخليفة الرابع في هذه الأمة ، ولما خَلَّفه النبي ﷺ على أهله في غزوة تبوك ، ورأى أنه تأثر من ذلك قال له النبي ﷺ : « أما ترضى أن تكون مني بمنزلة هارون من موسى » [(٣)] لأن موسى خلَّف هارون على أهله قال : ﴿ ٱخْلُفْنِي فِي

(١) أخرجه الترمذي في الدعوات (٣٤٢٦) . (٢) أخرجه البخاري في الاستئذان (٦٢٦٦) .
(٣) أخرجه البخاري في فضائل أصحاب النبي (٣٧٠٦) ، ومسلم في فضائل الصحابة (٣٢) ، وأحمد في مسنده (١/١٧٥) .

﴿قَوْمِى وَأَصْلِحْ وَلَا تَتَّبِعْ سَبِيلَ ٱلْمُفْسِدِينَ﴾ [الأعراف : ١٤٢] قال له النبي ﷺ ذلك ، ثم قال : «إلا أنه لا نبي بعدي» خرج من عند الرسول ﷺ في مرضه الذي مات فيه ، وكان النبي ﷺ عندما مرض يعدل بين نسائه [١] التسع إلا سودة بنتَ زمعة ، فإنها وَهَبتْ يومها لعائشة ، فلما اشتد به المرض صار يقول : «أين أنا غدًا ، أين أنا غدًا ؟» يريد يوم عائشة فأذن له رضي الله عنهن أن يمرض في بيت عائشة [٢] ، وظلَّ عندها رضي الله عنها حتى تُوفي . فَسُئِلَ عليٌّ رضي الله عنه : كيف أصبح النبي ﷺ ؟ قال : أصبح بحمد الله بارئًا .

ففيه دليل على أنه إذا لم يمكن الوصول إلى المريض ؛ فإنه يُسأل عنه من يراه من أقاربه أو غيرهم ليطمئن الإنسان ، وفي وقتنا الحالي حصل - ولله الحمد - اتصالٌ بغير الأقارب وهو اتصال الهاتف ، فإن الإنسان إذا لم يتمكن من الذهاب إلى المريض بنفسه ، فهذا الهاتف يدخل على البيوت بدون استئذان ، لهذا نقول إذا لم تتمكن من عيادة المريض بنفسك ، فإنك تتصل بالهاتف وتسأل عن حاله ويُكتب لك بذلك الأجر - إن شاء الله تعالى - والله الموفق .

* * *



١٤٧ - باب ما يقوله من أيس من حياته

٩١١ - عن عائشة رضي الله عنها قالت : سَمِعْتُ النبيَّ ﷺ وَهُوَ مُسْتَنِدٌ إليَّ يَقُولُ : «اللَّهُمَّ اغفِرْ لي وَارْحَمْني ، وأَلْحِقْني بالرَّفِيقِ الأَعْلى» [٣] متفقٌ عليه .

٩١٢ - وعنها قالت : رَأَيتُ رسول الله ﷺ وَهُوَ بالموتِ ، عندَهُ قَدَحٌ فِيهِ مَاءٌ ، وَهُوَ يدخِلُ يَدَهُ في القَدَحِ ، ثم يَمسَحُ وَجْهَهُ بالماءِ ، ثم يقول : «اللَّهُم أعِنِّي عَلى غَمَرَاتِ المَوتِ وَسَكَرَاتِ المَوتِ» [٤] رواه الترمذي .

الشرح

قال المؤلف رحمه الله في كتابه «رياض الصالحين» باب ما يقوله من أَيس من حياته ؛ اليأس من الحياة لا يُعلم إلا إذا حضر الموت ، أما قبل ذلك ؛ فإنه مهما اشتدَّ المرض فإن الإنسان لا ييأس ، وكم من إنسان اشتد به المرض حتى جمع أهلُه ماءَ تغسيله وحنوطه [٥] ، وكفنه ثم شفاه الله وعافاه ، وكم من إنسان أشرف على الموت في أرض مفازة ليس عنده ماء ولا طعام فأنجاه الله عز وجل ومن ذلك ما قال النبي ﷺ : إنَّ اللَّهَ الله أشد فرحًا بتوبة عبده من أحدكم براحلته حين أضلَّها - يعني : ضيَّعها -

---

(١) قوله : «يعدل بين نسائه» أي : يساوي بينهن في كل شيء ومنها المبيت عندهن .

(٢) انظر : الحديث في البخاري في النكاح (٧/٥٢) ، ومسلم في فضائل الصحابة (٨٤) ، والبيهقي في السنن (٧/٢٩٨) .

(٣) أخرجه البخاري في المرضى (٥٦٧٤) ، ومسلم في فضائل الصحابة (٨٥) ، والإمام أحمد في مسنده (٦/٢٣١) .

(٤) أخرجه الترمذي في الجنائز (٩٧٨) ، وابن ماجه في الجنائز (١٦٢٣) . قوله : «غمرات الموت» أي شدائده التي تكاد تغمر الإنسان وتغطيه وتستره ، قوله «سكرات الموت» : هي مقدمات الموت الشديدة التي تتمكن من الإنسان حتى يغيب عن الإدراك .

(٥) الحنوط : هو الطيب الذي يطيب به الجسد عند موته .

وعليها طعامه وشرابه وطلبها فلم يجدها ، فاضطجع تحت شجرة ينتظر الموت : أيس منها ، وما بقي عليه إلا أن يموت « فبينما هو كذلك إذا بخطام ناقته متعلقًا بالشجرة » ردّ اللَّه عليه ضالته حتى جاءت هذه الشجرة ترعاها فارتطم خطامها بها فأخذها الرجل وقال : « اللَّهم أنت عبدي وأنا ربك » يريد أن يقول : « أنت ربي وأنا عبدك » لكنه من شدة الفرح أخطأ [1] ، فهذا الرجل أيس من حياته باعتبار صاحب الحال ، لأنه فقد طعامه وشرابه لكن اليأس الحقيقي : هو ما إذا حضر الإنسان الموت وصار في النزع فحينئذٍ لا يمكن أن يحيى ، قال اللَّه تعالى : ﴿ فَلَوْلَآ إِذَا بَلَغَتِ ٱلْحُلْقُومَ ۝ وَأَنتُمْ حِينَئِذٍ تَنظُرُونَ ﴾ [الواقعة : ٨٣- ٨٤] بلغت يعني : الروح ﴿ ٱلْحُلْقُومَ ﴾ يعني : الحلق ، ﴿ وَأَنتُمْ حِينَئِذٍ تَنظُرُونَ ﴾ ﴿ وَنَحْنُ أَقْرَبُ إِلَيْهِ مِنكُمْ وَلَٰكِن لَّا تُبْصِرُونَ ﴾ الملائكة أقرب إلى الإنسان من حلقومه عند احتضاره ﴿ فَلَوْلَآ إِن كُنتُمْ غَيْرَ مَدِينِينَ ۝ تَرْجِعُونَهَآ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ﴾ [الواقعة : ٨٦- ٨٧] من يستطيع ؟! هل أحد يمكن أن يردَّ روحه بعد أن بلغت الحلقوم ؟! أبدًا أبدًا ؛ إذًا ييأس الإنسان من حياته إذا عاين الموت ، فماذا يقول ؟ تقول عائشة رضي الله عنها : أن النبي ﷺ كان يقول : « اللَّهم اغفرلي وارحمني وألحقني بالرفيق الأعلى » هكذا يقول الرسول ﷺ عند موته وهو الذي غفر اللَّه له ما تقدم من ذنبه وما تأخر !

من هم الرفيق الأعلى ؟ هم النبيون والصديقون والشهداء والصالحون وحسُن أولئك رفيقًا ، هكذا كان الرسول يقول عند موته ، وكان عنده ﷺ إناء فيه ماء ، وقد أُتي من شدة الموت وسكراته ما لم يُؤتَ أحد [2] ، لأنه ﷺ يمرض مرض رجلين [3] ، شُدِّدَ عليه المرض ، شدِّد عليه النزع ، لماذا ؟ من أجل أن ينال أعلى درجات الصبر ، لأن الصبر يحتاج إلى شيء يُصْبرَ عليه ، فكأن اللَّه قد اختار لنبيه ﷺ أن يكون مرضُه شديدًا ، ونزعه شديدًا حتى ينال أعلى درجات الصابرين ﷺ . فكان ﷺ يضع يده في الإناء الذي فيه الماء ، ويمسح بذلك وجهه ويقول : « اللَّهم أعني على غمرات الموت ، أو قال على سكرات الموت » أعني عليها حتى أتحمل وأصبر وأتروَّى ، ولا يزيغ عقلي ، وحتى يختم لي بشهادة أن لا إله إلا اللَّه وأن محمدًا رسوله اللَّه ، لأن المقام مقام عظيم ، مقام هولٍ وشدة إذا لم يُعنك اللَّه عز وجل ويُصبرك ؛ فأنت على خطر ، ولهذا كان يقول : « اللَّهم أعني على غمرات الموت » وفي رواية أخرى يقول : « لا إله إلا اللَّه ، إن للموت سكرات » [4] وصدق النبي ﷺ . قال اللَّه تعالى : ﴿ وَجَآءَتْ سَكْرَةُ ٱلْمَوْتِ بِٱلْحَقِّ ذَٰلِكَ مَا كُنتَ مِنْهُ تَحِيدُ ﴾ [5] [ق : ١٩] نسأل اللَّه أن يُعيننا وإياكم على غمرات الموت ، وأن يُحسن لنا ولكم الخاتمة ويتوفانا على الإيمان والتوحيد ، وأن يتوفانا وهو راضٍ عنَّا إنه على كل شيء قدير .

---

(١) انظر الحديث في البخاري في الدعوات (٦٣٠٩) ، ومسلم في التوبة (٣ ، ٤) ، وأحمد في مسنده (٢/ ٥٠٠) .
(٢) انظر في ذلك : الترمذي في الجنائز (٧) ، وابن ماجه في الجنائز (٦٤) ، وأحمد في مسنده (٦/ ٧٠) .
(٣) انظر ذلك في : البخاري في المرضى (٥٦٤٨) ، وابن ماجه في الجنائز (١٦٣٢) .
(٤) أخرجه البخاري في الرقاق (٦٥١٠) .
(٥) قوله تعالى : ﴿ سَكْرَةُ ٱلْمَوْتِ ﴾ أي : شدته وكربه ، وقوله تعالى ﴿ تَحِيدُ ﴾ : أي تفر وتهرب .

١٤٨ - باب استحباب وصية أهل المريض ومن يخدمه بالإحسان إليه واحتماله والصبر على ما يشق من أمره وكذا بالوصية بمن قرب سبب موته بحد أو قصاص ونحوهما

٩١٣ - عن عِمرَانَ بن الحُصَينِ رضي الله عنهما أَن امْرَأَةً مِنْ جُهَينَةَ أَتَتِ النَّبيَّ ﷺ وَهِي حُبْلى مِن الزِّنَا، فقالت: يا رسول اللَّه، أَصبتُ حَدًّا فَأَقمهُ عَلَيَّ، فَدَعَا رسول اللَّه ﷺ وليَّهَا، فقال: «أَحْسِنْ إِلَيهَا، فَإِذا وضَعَتْ فَأْتني بِهَا» فَفعَل فَأَمَرَ بها النبيُّ ﷺ، فشُدَّتْ عَلَيها ثِيَابُهَا، ثُمَّ أَمَرَ بِها فرُجِمَتْ، ثُمَّ صَلَّى عَليها [1]. رواه مسلم.

الشرح

ذكر المؤلف النووي رحمه الله في باب: استحباب وصية أهل المريض بالصبر وتحمله وغير ذلك، يعني: أنه ينبغي للإنسان أن يُحسن إلى المريض ويتحمله ويصبر على ما يجد منه من كلام قاس؛ لأن المريض نفسه ضيقة، والدنيا عليه قد ضاقت، فربما يحصل منه كلام أو تضجر أو ما أشبه ذلك، فليصبر الإنسان على هذا وليحتسب الأجر من اللَّه سبحانه وتعالى فإنه يُثاب على إحسانه لهذا المريض، ويُثاب على تحمله المشقة منه والأذى، ولا سيما إذا كان هذا الذي يتولاه الإنسان قد وُجد سببُ موته أو سبب قتله كما ذكر حديث عمران بن الحصين رضي الله عنه: أن امرأة جاءت إلى النبي ﷺ وهي حُبلى من الزنا - حامل - فقالت: يا رسول اللَّه إني أصبت حدًّا فأقمه عليه. تريد من الرسول ﷺ أن يُقيم عليها الحد وهو الرجم؛ لأنها محصنة، فدعا النبي ﷺ وليها وقال له: «أحسن إليها فإذا وضعت فأتني بها» فجيء بها إلى رسول اللَّه ﷺ بعد أن وضعت الحمل، ثم أمرها أن تنتظر حتى تفطم الصبي، فلما فطمته جاءت فأقام عليها الحد وأمرها أن تشد عليها ثيابها أي: تحزم وتربط، لئلا تضطرب عند رجمها فتبدو سوءتُها - أي عورتها - ثم أمر بها فرجمت وصلَّى عليها ﷺ.

ففي هذا دليل على أنه يُوصَى أهل الميت ومن يتولاه بالإحسان إليه والرفق به وغير ما ذكر مما يناسب حاله، كما فعل النبي ﷺ، وفي هذا الحديث دليل على أنه لا يشترط في الإقرار بالزنا أن يتكرر أربع مرات، وأن الزاني إذا أقرَّ ولو مرة واحدة وهو عاقل لا اشتباه في حاله؛ فإنه يُؤخذ بإقراره ويُقام عليه الحدُّ، وفيه أيضًا دليل على أنه يشترط في إقامة الحدِّ ألا يتعدى الضرر إلى غير المحدود، لأنها لو رُجمت لمات الذي في بطنها، وهو ليس منه جناية، ولهذا أمر النبي ﷺ أن تنتظر حتى تضع مولودها وتفطمه، وفي هذا دليل على أن المرأة لا يحفر لها في الرجم، ولكن تربط عليها ثيابها ثم تُلقى عليها الحجاة، حجارة لا صغيرة ولا كبيرة، حتى تموت، وإنما كان الحد هكذا؛ لأن الشهوة المحرَّمة شملت جميع البدن، فناسب أن يذوق جميع البدن ألم العقوبة، وهذا من حكمة اللَّه عز وجل.

---

(١) أخرجه مسلم في الحدود (٢٤).

وفي هذا دليل على أن الحدود إذا أقيمت ؛ فإن صاحبها يبرأ منها ويخلص منها ويطهر منها ، ولهذا أمر النبي ﷺ بها فصلَّى عليها وصلَّى الناس أيضًا .

* * *

١٤٩ - باب جواز قول المريض : أنا وَجِع أو شديد الوَجَع أو موعوك ونحو ذلك ، وبيان أنه لا كراهة في ذلك إذا لم يكن على سبيل التسخط وإظهار الجزع

٩١٤ - عن ابن مسعودٍ ﷺ قال : دَخَلتُ عَلى النَّبيِّ ﷺ وَهُوَ يُوعَكُ ، فَمَسَسْتُهُ ، فقلْتُ : إنّك لَتُوعَكُ وَعْكًا شَدِيدًا ، فقال : « أَجَلْ ؛ إنِّي أُوعَكُ كما يُوعَكُ رَجُلانِ مِنكُمْ » [١] متفقٌ عليه .

٩١٥ - وعن سعدِ بن أبي وَقَّاصٍ ﷺ قال : جَاءَني رسول اللّه ﷺ يَعُودُني مِنْ وَجَعٍ اشْتَدَّ بي ، فَقُلْتُ : بَلَغَ بي ما تَرَى ، وَأَنَا ذُو مَالٍ وَلا يَرِثُني إلا ابنَتي [٢] ، وذكر الحديث . متفقٌ عليه .

٩١٦ - وعن القاسمِ بن محمدٍ قال : قالَتْ عَائِشَةُ ﷺ : وَا رَأساهُ ، فقال النَّبيُّ ﷺ : « بَلْ أَنَا وَا رَأْسَاهُ » [٣] وذكر الحديث . رواه البخاري .

الشرح

قال الحافظ النووي ﷺ فيما يتعلق بالمريض : أنه يجوز أن يُخبر عما فيه من المرض وشدته ، بشرط أن يكون ذلك إخبارًا لا شكوى ، أي : أنه يقصد بهذا الإخبار وليست الشكوى والتَّسَخُّط من قدر اللّه وقضائه ، ثم استدلَّ بحديث ابن مسعود وحديث سعد بن أبي وقاص وحديث عائشة ﷺ وكلها أحاديث تدل على أنه لا بأس أن يُخبر الرجلُ المريضُ بأنه مريض أو شديد الوَجَع أو ما أشبه ذلك .

فحديث ابن عباس يذكر أنه دخل على النبي ﷺ وهو يوعك - أي : فيه شدة ، فمدَّ يده فقال له : إنك لتوعك يا رسول اللّه ، قال : « أجل ، إنني لأوعك كما يوعك الرجلان منكم » أي : يُشَدَّد عليه ﷺ في المرض ، وذلك من أجل أن ينال أعلى درجات الصبر ﷺ ؛ فإن أنواع الصبر ثابتة في حقه على الوجه الأعلى ؛ فقد صبر على أمر اللّه ، وصبر عن معاصي اللّه ، وصبر على أقدار اللّه المؤلمة ﷺ : صبر على أمر اللّه حين بَلَّغَ رسالة ربه مع شدة الإيذاء له حتى كان يؤذى في وسط البيت الحرام - وهو صابر محتسب - حتى إنه خرج إلى أهل الطائف ودعاهم إلى اللّه ﷻ ولكنهم استهزءوا به

(١) أخرجه البخاري في المرضى (٥٦٤٨) ، ومسلم في البر والصلة (٤٥) .
(٢) أخرجه البخاري في المرضى (٥٦٦٨) ، ومسلم في الوصية (٥) .
(٣) أخرجه البخاري في المرضى (٥٦٦٦) ، والأحكام (٧٢١٧) ، والإمام أحمد في مسنده (٦/٢٢٨) والبيهقي في سننه (٣/٣٧٨) .

وسخروا منه ، وجعلوا يرمونه بالحجارة حتى أدمَوا عَقِبه ، فلم يُفق إلا وهو في قرن الثعالب ، ثم جاءه ملك الجبال يستأذنه أن يطبق عليهم الأخشبين فقال : « لا ، إني أستأني بهم لعل الله يخرج من أصلابهم من يعبده وحده ولا يشرك به شيئًا »[1] فهذا صبر على أمر الله .

وصبر ﷺ عن معصية الله ، فكان أخشى الناس لله وأتقاهم له ، وصبر على أقدار الله ، فكم أُوذِي في الجهاد في سبيل الله وفي غير ذلك ، وكم حدث له من أمراض وهو صابر محتسب ، لينال بذلك درجة الصابرين ، فلنا فيه أسوة ، فالإنسان يجب عليه أن يصبر على أقدار الله المؤلمة ، كما صبر الرسول ﷺ ، يصبر ويحتسب ويعلم أنه ما من شيء يُصيبه إلا كَفَّرَ الله به عنه خطيئة ، حتى الشوكة يُشاكها ، ثم إذا احتسب الأجر عند الله ونوى بذلك أن يكون هذا الصبر لنيل رفعة درجات له حصل له هذا ، فينال بالمصائب مرتبتين عظيمتين :

١ - مرتبة الصابرين على قضاء الله وقدره .

٢ - ينال من رفعة الدرجات مع الاحتساب ما يناله من الثواب .

وأما حديث سعد بن أبي وقاص رضي الله عنه : فهو أنه مرض في مكة - وكان من المهاجرين - وكانوا يكرهون أن يموت الإنسان في بلده الذي هاجر منه ، لأنه ترك البلد لله فيكره أن يموت فيها ، وكان من عادة النبي ﷺ وحسن رعايته وخلقه أنه يعود المريضَ من أصحابه ، فعاده ، فقال له سعد رضي الله عنه : يا رسول الله إني ذو وَجع - وجع شديد - وإني ذو مال ، ولا يرثني إلا ابنة لي - أي لا يرثه من الذرية إلا بنت ، وإلا فله عصبة - أفَأتصدق بثُلثي مالي ؟ قال : « لا » قال : بالنصف ؟ قال : « لا » قال : بالثُلث ؟ قال : « الثلث ، والثلث كثير ، إنك أن تَذَر ورثتك أغنياء خير من أن تذرهم عالة يتكففون الناس » والغالب من الناس اليوم - وقبل اليوم - أنهم يوصون بالثُلث مع أن النبي ﷺ قال : « الثُلُث كثير » ، وهذا يدل على أنه لا يجب أن يوصى الإنسان بالثُلث ، ولكن أخذ الناس ذلك عادة وأصبحوا يوصون بالثُلث ، ولهذا قال حبر هذه الأمة - الذي دعا له النبي ﷺ أن يفقهه الله في الدين ويُعلِّمه التأويل : لو أن الناس غضُّوا من الثُلث إلى الربع . يعني لكان أحسن ، لأن النبي ﷺ قال : « الثلث ، والثلث كثير »[2] والناس الآن يقولون : اكتب ثُلثا ، وثلثين ، وما أشبه ذلك ، وهذا غير محبوب ؛ لأن النبي ﷺ ، غَضَّ من الثُلث إلى الربع ، وغَض من الربع إلى الخُمس وهو أفضل ؛ لأن أبا بكر رضي الله عنه أفقه هذه الأمة ، والخليفة الأول بعد نبيها أوصى بالخُمس وقال : « رضيت بما رضي الله به » لأن الله يقول : ﴿ وَاعْلَمُوا أَنَّمَا غَنِمْتُم مِّن شَيْءٍ فَأَنَّ لِلَّهِ خُمُسَهُ وَلِلرَّسُولِ ﴾ [الأنفال : ٤١] مع هذا نجد الذين يوصون بالثلث لا يوصون على الوجه المشروع بل يوصون بأشياء مفضولة وغيرها أفضل منها ، يوصي وأحيانًا يحيف في الوصية حيث يوصى للأولاد ويدع البنات ، أو يوصي بأشياء تؤدي بالنزاع بين المُوصَى لهم في المستقبل ، ولو أن الناس إذا أرادوا أن يوصوا أوصَوا بما هو نفع عام : كبناء المساجد والمدارس ، وشراء الكتب النافعة وما أشبه ذلك مما يُنفذ في حينه

(١) أخرجه أحمد في مسنده (١/٢٥٨) .

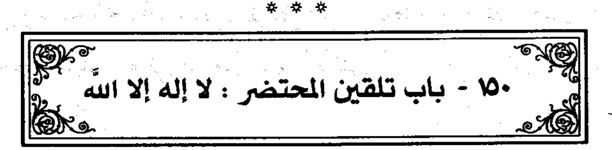
(٢) أخرجه مسلم في الوصية (١٠) ، وأحمد في مسنده (١/٢٣٠) ، وقوله : « غضوا » أي نقصوا .

ويجري أجره ويَسْلمُ الورثة أو الموصَى لهم من التنازع ، لكان خيرًا .

والذي يجب على أهل العلم الذين يكتبون الوصايا : أن يَفْقَهُوا أولًا في دين اللَّه ، وأن يحملوا الناس على ما هو أفضل وأولى ، لأن العاميَّ الذي جاء يطلب منك أن تكتب ويقول لك : اكتب وصيتي قد ائتمنك ، فكونه يكون كاتب أُمِّيَةٍ - أي : لا يهمه إلا ما يرضي الناس فقط - فهذا خطأ ، احملوا الناس على ما ينفعهم في دينهم ودنياهم حتى ولو كان على خلاف عاداتهم ، فهذا العاميُّ المسكين ما أراد إلا الخير ولا يدري ، فعليك أن تدله وتخبره بالخير الذي ينفعه في قبره بعد موته .

أما الحديث الثالث : فهو عن عائشة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا أنها قالت : يا رسول اللَّه وا رأساه ، تشكو من رأسها فقال النبي ﷺ : « بل أنا وا رأساه » فهذا اجتمع فيه سنتان : إقرارية ، وقولية ، أما الإقرارية : فإن النبي ﷺ أقر عائشة عندما قالت : « وا رأساه » ، وأما القولية : فهو نفسه قال : « وا رأساه » وعليه فإن الإنسان إذا قال : وا رأساه وا بطناه ... أو ما أشبه ذلك فلا حرج ، بشرط ألا يقصد بذلك أن يشكو الخالق إلى المخلوق بل يقصد التوجُّع مما قضاه اللَّه عليه ، فإذا كان مجرد خبر ؛ فهذا لا بأس ولا سيما إذا كان يذكر هذا عند مَنْ يريد أن يعالجه ، لأنه خبر مجرد ليس المراد به الاعتراض والتَّسَخُّط على قضاء اللَّه وقدره ، نسأل اللَّه لنا ولكم الشفاء من كل داء ، وأن يجعل هذا قوة لنا على طاعته إنه على كل شيء قدير .

* * *



١٥٠ - باب تلقين المحتضر : لا إله إلا الله

٩١٧ - عن معاذٍ رضي الله عنه قالَ : قالَ رسول اللَّه ﷺ : « من كانَ آخِرَ كَلامِهِ لا إلهَ إلا اللَّه دَخَلَ الجَنَّةَ » (١) . رواه أبو داود والحاكم وقال : صحيح الإسناد .

٩١٨ - وعن أبي سعيد الخُدْرِيِّ رضي الله عنه قالَ : قال رسول اللَّه ﷺ : « لَقِّنُوا مَوتَاكُمْ لا إلهَ إلا اللَّهُ » (٢) رواه مسلم .

الشرح

قال المؤلف النووي رَحِمَهُ اللَّهُ في : باب تلقين المحتضر قول لا إله إلا اللَّه .

المحتضر هو : الذي حضرت الملائكة لقبض روحه ، واللَّه ﷻ قد وكّل بالإنسان ملائكة يحفظونه في حال حياته وبعد مماته ، قال اللَّه تعالى : ﴿ لَهُۥ مُعَقِّبَٰتٌ مِّنۢ بَيۡنِ يَدَيۡهِ وَمِنۡ خَلۡفِهِۦ يَحۡفَظُونَهُۥ مِنۡ أَمۡرِ ٱللَّهِۗ ﴾ (٣) [الرعد : ١١] وقال اللَّه تبارك وتعالى ﴿ حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءَ أَحَدَكُمُ ٱلۡمَوۡتُ تَوَفَّتۡهُ رُسُلُنَا وَهُمۡ لَا يُفَرِّطُونَ ﴾ (٤) [الأنعام : ٦١] والإنسان إذا حضر أجله نزل إليه ملائكة يقبضون روحه من يد ملك الموت ، فإن ملك

(١) أخرجه أبو داود في الجنائز (٣١١٦) ، والحاكم في المستدرك (٣٥١/١ ، ٥٠٠) ، والإمام أحمد في مسنده (٢٣٣/٥ ، ٢٤٧) .

(٢) أخرجه مسلم في الجنائز (١ ، ٢) ، والبيهقي في سننه (٣٨٣/٣) .

(٣) قوله تعالى : ﴿ مُعَقِّبَٰتٌ ﴾ أي ملائكة يتعاقبون عليه بالليل والنهار ، لحفظه وكتابة أعماله وأقواله .

(٤) قوله تعالى : ﴿ لَا يُفَرِّطُونَ ﴾ أي : لا يتوانون أو يقصرون .

الموت يتولّى قبضها من البدن ، والملائكة معهم كفن وحنوط من الجنة إذا كان من المؤمنين - جعلنا اللَّه وإياكم منهم - وأما إذا كان من الكافرين : فملائكة العذاب معهم كفن من النار وحنوط من النار - نعوذ باللَّه من ذلك - فإذا احتُضر الإنسان وعلمنا أنه في النزع وأنه ميّت ؛ فإننا نلقنه : « لا إله إلا اللَّه » ، كما قال النبي ﷺ : « لَقِّنُوا موتاكم لا إله إلا اللَّه » .

قال العلماء : فيُلَقَّنه برفق ، لا يأمره ، لا يقل قل : لا إله إلا اللَّه ، لأنه ربما إذا قال له : قل : لا إله إلا اللَّه - وهو في هذه الحال - قد ضاق صدره و قد ضاقت عليه الدنيا ، فيقول : لا ؛ لأنك ما تتصور ضيق الصدر في هذه الحالة إلا إذا كنت في هذه الحالة ، نسأل اللَّه أن يشرح صدورنا وإياكم عند لقائه ، فتذكر اللَّه عنده تقول : لا إله إلا اللَّه . ترفع صوتك بهذا ليسمع فربما يمنُّ اللَّه عليه فيستحضر أنك تلقنه فيقول : لا إله إلا اللَّه ، فإذا قال : لا إله إلا اللَّه ، وكانت آخرَ كلامه من الدنيا دخل الجنة كما في حديث معاذ رضي الله عنه عن النبي ﷺ أنه قال : « من كان آخر كلامه لا إله إلا اللَّه دخل الجنة » . قال أهل العلم : فإذا قال : لا إله إلا اللَّه فليسكت ولا يقل شيئًا ، فإن عاد المحتضر نفسه وتحدث في شيء مثل : اسقوني ، أعطوني ماءً أو أي شيء آخر ، فَلْيُعِدْ التلقين ، ولكن إذا كان الإنسان - والعياذ باللَّه - كافرًا مرتدًا فهذا ربما نقول له بالأمر : قل : لا إله إلا اللَّه ، فإن مَنَّ اللَّه عليه وقالها فبها ونعمت ، وإن لم يقل فهو كافر ، لذلك لما حضرت أبا طالب الوفاة وهو عم النبي ﷺ وأعمام النبي الذين أدركوا الرسالة أربعة : اثنان أسلما : حمزة والعباس ، أحدهما أفضل من الآخر ، حمزة أفضل من العباس . واثنان ماتا على الكفر ، أحدهما أقبح كفرًا من الآخر : أبو طالب - والد علي - ، وأبو لهب ، وأبو لهب - والعياذ باللَّه - من أشد الناس إيذاء للرسول ﷺ ، ولهذا أنزل اللَّه في ذمه سورة كاملة يقرأها الناس في الصلوات في الفرائض والنوافل ﴿ تَبَّتْ يَدَآ أَبِي لَهَبٍ وَتَبَّ ۝ مَآ أَغْنَىٰ عَنْهُ مَالُهُۥ وَمَا كَسَبَ ۝ سَيَصْلَىٰ نَارًا ذَاتَ لَهَبٍ ۝ وَٱمْرَأَتُهُۥ حَمَّالَةَ ٱلْحَطَبِ ۝ فِى جِيدِهَا حَبْلٌ مِّن مَّسَدٍۭ ﴾ [المسد] ولكن أبا طالب - رغم كفره - كان به حَدَبٌ على الرسول ﷺ وحنان وشفقة ومدافعة وثناء عليه إلا أنه - والعياذ باللَّه - حيل بينه وبين الإسلام ، فعندما حضرته الوفاة - وكان النبي ﷺ عنده - وعنده رجلان من قريش ، فقال له الرسول ﷺ : « يا عم ، قل : لا إله إلا اللَّه ، كلمة أحاجّ لك بها عند اللَّه » [1] ولكن كان هذان الرجلان جليسي سوء قالا : أترغب عن ملة عبد المطلب . وكأنهما - واللَّه أعلم - رأياه همَّ أن يقول : لا إله إلا اللَّه ، فقالا له : أترغب عن ملة عبد المطلب ؟ فلما قالا ذلك أخذته العزة بالإثم ، فقال : هو على ملة عبد المطلب ، وكان آخر كلمة منه كلمة الشرك - والعياذ باللَّه - ثم مات . يقول الرسول ﷺ : « إنه شفع له عند اللَّه فخُفِّف عنه العذاب ، فكان في ضَحضَاح من النار قد غاص به ، وعليه نعلان من نار يغلي منهما دماغه » [2] .

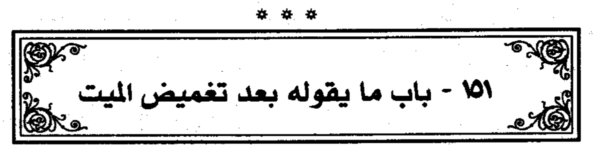
---

(١) أخرجه مسلم في الإيمان (٣٩) ، كلاهما بلفظ « كلمة أشهد لك بها » وأبو عوانة في مسنده (١٤/١) بلفظه .

(٢) انظر الحديث في : البخاري في الرقاق (٦٥٦٤) ، ومسلم في الإيمان (٣٥٨) ، وأحمد في مسنده (٢٠٧/١) . والضحضاح : هو ما رق من الماء على وجه الأرض إلى نحو الكعبين ، واستعير في النار .

والعياذ بالله ، ودماغه أبعد شيء عن قدميه ، فإذا كان يغلي كالقدر فيه الماء تحته النار ، فما بالك بما هو أدنى من رأسه إلى قدميه ؟! لكان أشد . قال النبي ﷺ : « ولولا أنا لكان في الدرك الأسفل من النار » والشاهد من هذا أن النبي ﷺ قال له : « يا عم قل : لا إله إلا الله » ولم يذكر الله عنده فقط ، بل قال : قل : لا إله إلا الله . فهذا من أفضل وأجلّ ما يكون هدية للمرء إذا لقّنه أخوه عند الموت قول : لا إله إلا الله ، فهي تساوي الدنيا كلها ، فإذا حضرت أحدًا - وهو يحتضر - فاحرص على تلقينه : لا إله إلا الله ، امتثالًا لأمر النبي ﷺ وإحسانًا لهذا الشخص ، وربما يُلَقِّنُك الله ﷻ عند موتك ، لأن النبي ﷺ قال : « الله في عون العبد ما دام العبد في عون أخيه »[1] ختم الله لنا ولكم بالشهادة .

* * *



١٥١ - باب ما يقوله بعد تغميض الميت

٩١٩ - عن أُمِّ سَلَمَة رضي الله عنها قالت : دَخَلَ رسول الله ﷺ علي أبي سَلَمَة وَقَدْ شَقَّ بَصَرُهُ ، فَأَغْمَضَهُ ، ثُمَّ قالَ : « إنَّ الرُّوحَ إذا قُبِضَ ، تَبِعَه الْبَصَرُ » فَضَجَّ نَاسٌ مِنْ أَهْلِهِ ، فقال : « لا تَدْعُوا عَلى أَنْفُسِكُمْ إلا بِخَيرٍ ؛ فإنَّ المَلَائِكَةَ يُؤَمِّنُونَ عَلى ما تَقُولونَ » ثُمَّ قَالَ : « اللَّهُمَّ اغْفِرْ لأبي سَلَمة ، وَارْفَعْ دَرَجَتهُ في المَهْدِيِّينَ ، وَاخْلُفْهُ في عَقِبِهِ في الغابِرِينَ ، وَاغْفِرْ لَنَا وَلَهُ يا رَبَّ الْعَالَمِينَ ، وَافْسَحْ لَهُ في قَبْرِهِ ، وَنَوِّرْ لَهُ فيه »[2] رواه مسلم .

الشرح

قال المؤلف رحمه الله في : باب ما يقال عند تغميض الميت .

يعني أن الإنسان إذا حضر الميت ، فإن الميت في الغالب يشخص بصره - ينفتح باتساع - يشاهد الروح إذا خرجت من البدن ، لأن الروح إذا خرجت من البدن لها جسم ، لكنه جسم لا يراه الناس ، لا يراه إلا الميت ، والملائكة فقط ، وتأخذها ، وقد دخل النبي ﷺ على أبي سلمة ، وكان من عادة النبي ﷺ أنه يعود المرضى ، فدخل عليه - وقد شَقَّ بصره - يعني اتَّسع وانفتح ، فعرف النبي ﷺ أنه مات ؛ فقال : « إن الروح إذا قبض تبعه البصر » فضجَّ ناسٌ من أهله - أي من أهل الميت عندما سمعوا النبي ﷺ يقول هذا الكلام - فعرفوا أن الرجل قد مات فضجُّوا كعادة الناس ، فقال ﷺ : « لا تدعوا على أنفسكم إلا بخيرٍ ؛ فإن الملائكة يُؤَمِّنون على ما تقولون » وكانوا في الجاهلية إذا حصل مثل هذا يدعون على أنفسهم بالويل والثُّبور - والعياذ بالله - يقول : يا ويلاه يا ثبوراه وما أشبه ذلك ، فقال : « لا تدعوا على أنفسكم إلا بخير ؛ فإن الملائكة يُؤَمِّنون على ما تقولون » ففي هذه الحال ينبغي للإنسان أن يدعو

---

(١) أخرجه مسلم في الذكر والدعاء (٣٨) ، وأبو داود في السنن (٤٩٩٠) ، والترمذي في السنن (١٤٢٥) .

(٢) أخرجه مسلم في الجنائز (٧) واللفظ له ، والإمام أحمد في مسنده (٦/٢٩٧) ، وابن ماجه في الجنائز (١٤٥٤) .

لنفسه بالخير ويقول ما أرشد إليه النبي ﷺ : « اللَّهم أجِرْني في مصيبتي واخلفني خيرًا منها »[١] بعد قوله : « إنا لله وإنا إليه راجعون » لأن كل مصيبة تقول : إنا لله وإنا إليه راجعون ، وفي مصيبة الموت : « اللَّهم أجرني في مصيبتي واخلفني خيرًا منها » ، وكذلك غيرها ، وقد حدَّث النبي ﷺ بهذا الحديث فسمعته أم سلمة زوج أبي سلمة فلما مات زوجها - وكان من أحب الناس إليها - دعت بهذا الدعاء ، وقالت في نفسها : « من خير من أبي سلمة ؟ » لأنها مؤمنة بهذا الكلام فلما انقضت عِدَّتُها خَطبها النبي ﷺ فكان خيرًا من أبي سلمة[٢] . ولا شك ، المهم أن الرسول ﷺ أغمض عيني أبي سلمة ثم قال : « اللَّهم اغفر لأبي سلمة ، وارفع درجته في المهديين ، ونوِّر له في قبره ، وافسح له فيه ، واخلفه في عَقِبه » خمس كلمات تساوي الدنيا كلها :

« اللَّهم اغفر لأبي سلمة » يعني اغفر له ذنوبه فلا تعاقبه عليها وسامحه واعفُ عنه .

« ارفع درجته في المهديين » في الجنة ؛ لأن أصحاب الجنة مهديُّون كلُّهم .

« أفسح له في قبره » : يعني وسِّع له فيه ، فإن القبر بالنسبة لمنازل الدنيا ضيق بحسب الحسِّ ، لكنه يُفسح للمؤمن حتى يكون كمدِّ البصر ، ويكون روضة من رياض الجنة .

« نوِّر له فيه » : والقبر مظلم بحسب الحسِّ لا فيه نور النهار ولا نور السِّراج وغيره .

« اخلفه في عقبه » يعني : كن خليفة له في ذريته ، فهذه الدعوات الخمس منها شيء علمناه ومنها شيء رجوناه . الذي علمناه : أن اللَّه ﷻ خلفه في عقبه ؛ لأن زوجته تزوجها النبي ﷺ ، وأولاده صاروا ربائب للنبي ﷺ تربوا في بيته ، وأما الأربعة الباقية : فإننا نرجو اللَّه أن يكون قد قبل دعوة نبيه في هذا الرجل الصالح .

في هذا الحديث دليل على مسائل :

١ - أنه ينبغي للإنسان إذا أُصيب بمصيبة ألا يدعو لنفسه إلا بالخير .

٢ - أنه ينبغي لمن حضر الميت إذا خرجت روحه وانفتح بصره أن يُغَمِّضَهُ ما دام حارًا ، لأنه إذا برد وعيناه شاخصتان بقيتا شاخصتين . قال العلماء : وينبغي أيضًا أن يُلَيِّنَ مفاصله قبل أن تبرد وتشخص ، وذلك بأن يرد ذراعَه إلى عضده ، وعضده إلى صدره ثم يمد يده ، ويرد الساق إلى الفخذ ، والفخذ إلى البطن ثم يمدها عدة مرات حتى تلين ، ليسهل تغسيله وتكفينه .

٣ - الدلالة على أن الروح شيء يُرى لأنها جسم ، ولكنه ليس كأجسامنا هذا ، فأجسامنا غليظة ، لكن الروح جسم ليس بالغليظ بل باللطيف ، يجري من ابن آدم مجرى الدم ، وليس مخلوقًا من طين بل من مادةٍ اللَّه أعلم بها ، ولهذا قال اللَّه تعالى : ﴿ وَيَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلرُّوحِۖ قُلِ ٱلرُّوحُ مِنْ أَمْرِ رَبِّى

---

(١) أخرجه مسلم في الجنائز (٣) ، وأحمد في مسنده (٢٧/٤) ، وقوله : « أجرني » أي : أعطني جزاء صبري على مصيبتي وقوله : « واخلفني » أي : رد علي مثل ما أخذت مني .

(٢) انظر القصة في : مسلم في الجنائز (٤) ، وأحمد في مسنده (٢٨٩/٦) .

﴿ وَمَآ أُوتِيتُم مِّنَ ٱلْعِلْمِ إِلَّا قَلِيلًا ﴾ [الإسراء: ٨٥] .

٤ - ينبغي لمن حضر الميت وأغمضه أن يدعو له وإذا دعا بهذه الدعوات العظيمة التي دعا بها الرسول ﷺ لأبي سلمة كان خيرًا ، وإن لم يعرفها دعا بما شاء .

٥ - الملائكة يؤمِّنون على الدعاء في هذه الحالة ، فينبغي لأهل الميت أن يدعو بالخير .

* * *

١٥٢ - باب ما يقال عند الميت ، وما يقوله من مات له ميت

٩٢٠ - عن أُمِّ سَلَمة رضي الله عنها قالَت : قال رَسُولُ اللَّهِ ﷺ : « إذا حَضَرْتُمُ المَرِيضَ ، أو المَيِّتَ ، فَقُولُوا خيرًا ، فَإِنَّ المَلَائِكَةَ يُؤَمِّنُونَ عَلى مَا تَقُولُونَ » قالَتْ : فَلَمَّا مَاتَ أَبو سَلَمَة ، أَتَيتُ النَّبيَّ ﷺ فَقُلْتُ : يا رسُولَ اللَّه ، إنَّ أَبَا سَلَمة قَدْ مَاتَ ، قالَ : « قُولي : اللَّهُمَّ اغْفِرْ لي ولَه ، وَأَعْقِبْنِي مِنْهُ عُقْبَى حَسَنَةً » فقلتُ ، فَأَعْقَبَنِي اللَّهُ مَنْ هُوَ خَيرٌ لي مِنْهُ : مُحَمَّدًا ﷺ . رواه مسلم هكذا : « إذا حَضَرْتُمُ المَرِيضَ » أَوَ « المَيِّتَ » عَلى الشَّكِّ [(١)] ، ورواه أبو داود وغيره : « المَيِّتَ » بلا شَكٍّ .

٩٢١ - وعنها قالت : سمعتُ رسولَ اللَّهِ ﷺ يقول : « مَا مِنْ عَبدٍ تُصِيبُهُ مُصِيبَةٌ ، فيقولُ : إنَّا للَّهِ وَإنَّا إليهِ رَاجعُونَ ، اللَّهُمَّ أْجُرْنِي في مُصِيبتي ، وَأَخْلِف لي خَيرًا مِنْها ، إلا أَجَرَهُ اللَّهُ تعالى في مُصِيبتِهِ ، وَأَخْلَفَ لَهُ خَيرًا مِنْها » . قالت : فَلَمَّا تُوفِّيَ أَبُو سَلَمَةَ ، قلتُ كما أَمَرَني رسولُ اللَّهِ ﷺ ، فَأَخْلَفَ اللَّهُ لي خَيرًا منْهُ ، رسولَ اللَّهِ ﷺ [(٢)] . رواه مسلم .

٩٢٢ - وعن أبي موسى رضي الله عنه أنَّ رسولَ اللَّهِ ﷺ قال : « إذا مَاتَ وَلَدُ العَبدِ ، قال اللَّهُ تعالى لملائِكتِهِ : قَبَضْتُم وَلَدَ عَبْدِي ؟ فيقولُونَ : نَعَم ، فيقولُ : قَبَضتُم ثَمَرَةَ فُؤادِهِ ؟ فيقولونَ : نَعَم . ، فَيَقُولُ : فَمَاذَا قَالَ عَبْدِي ؟ فَيَقُولُونَ : حَمِدَكَ واسْتَرْجَعَ ، فَيَقُولُ اللَّهُ تعالى : ابنُوا لِعَبْدي بَيتًا في الجَنَّة ، وَسَمُّوهُ بيتَ الحَمدِ » [(٣)] رواه الترمذي وقال : حديث حسن .

٩٢٣ - وعن أبي هُريرةَ رضي الله عنه أنَّ رسولَ اللَّهِ ﷺ قال : « يقُولُ اللَّهُ تعالى : ما لِعَبْدِي المُؤْمِنِ عِنْدِي جَزَاءٌ إذا قَبَضْتُ صَفِيَّهُ مِنْ أَهْلِ الدُّنْيا ، ثُمَّ احْتَسَبَهُ إلا الجَنَّةَ » [(٤)] رواه البخاري .

٩٢٤ - وعن أُسامة بن زيدٍ رضي الله عنهما قال : أَرْسَلَتْ إحْدى بَناتِ النَّبيِّ ﷺ إلَيهِ تَدْعُوهُ وتُخْبِرُهُ أنَّ صَبيًّا لها - أَو ابْنًا - في المَوتِ ، فقال للرَّسول : « ارْجِعْ إلَيهَا ، فَأَخْبِرْهَا أَنَّ للَّهِ تَعَالى مَا أَخَذَ ، وَلَهُ ما أَعْطَى ،

---

(١) أخرجه مسلم في الجنائز (٦) ، والإمام أحمد في مسنده (٣٠٦/٦) ، والترمذي في الجنائز (٩٧٧) ، وابن ماجه في الجنائز (١٤٤٧) .

(٢) أخرجه مسلم في الجنائز (٤) ، والإمام أحمد في مسنده (٣٠٩/٦) .

(٣) أخرجه الترمذي في الجنائز (١٠٢١) ، وقوله : « ثمرة فؤاده » بيان لعظمة المصيبة وعظم الصبر عليها .

(٤) أخرجه البخاري في الرقاق (٦٤٢٤) ، وقوله : « ثم احتسبه » أي : بأن يرجو ثوابه ويدخره عند اللَّه تعالى ، وذلك ينبئ عن مزيد الصبر والتسليم .

وَكُلُّ شَيْءٍ عِنْدَهُ بِأَجَلٍ مُسَمًّى ، فَمُرْهَا ، فَلْتَصْبِرْ وَلْتَحْتَسِبْ »[١] وذكر تمام الحديث . متفقٌ عليه .

الشرح

هذه الأحاديث ذكرها النووي رَحِمَهُ اللَّهُ : فيما يقال عند الموت يعني : إذا مات للإنسان أحد فماذا يقول .. ؟ وقد سبقت لنا الإشارة إلى حديثين صدَّر بهما هذا الباب وهما لأم سلمة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا حين مات زوجها فقالت : « إنا للّه وإنا إليه راجعون ، اللّهم أجرني في مصيبتي وأخلفني خيرًا منها » فأخلف اللّه عليها محمدًا ﷺ .

أما الأحاديث الثلاثة الباقية : فهي فيمن مات له ولد ، فحمد اللّه واسترجع وصبر ، فإن اللّه ﷻ يعوِّضه بذلك الجنة ، كما في الحديث : « إن اللّه تعالى إذا قبضت الملائكة نفس ولده فإن اللّه يقول للملائكة : قبضتم ولد عبدي ؟ فيقولون : نعم » وهو يعلم ﷻ ، لكن يقول هذا ليظهر فضل هذا العبد ، وأنه حمد اللّه واسترجع عند هذه المصيبة العظيمة ، فيقول : قبضتم ثمرة فؤاده ، فيقولون : نعم . فيقول : ماذا قال ؟ قالوا : حمدك واسترجع . يعني : قال : « الحمد لله ، إنّا لله وإنا إليه راجعون » والحمد عند المصائب مما يدل على صبر الإنسان على قضائه وقدره ، وأنه صبر ، فأثنى على اللّه بهذه المصيبة وكان النبي ﷺ إذا أصابه ما يكره قال : « الحمد لله على كل حال » وإذا أصابه ما يسرّه قال : « الحمد لله الذي بنعمته تتمّ الصالحات »[٢] فإذا حصل لك ما يسرُّك فقل : الحمد لله الذي بنعمته تتمّ الصالحات ، وإذا حصل العكس فقال : الحمد لله على كل حال .

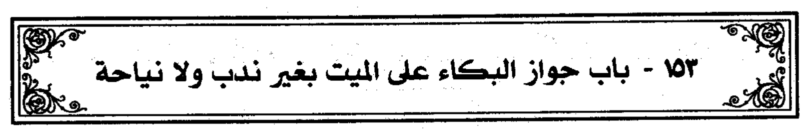
وكذلك أخبر ﷻ فيما رواه عنه النبي ﷺ أنه « ما من إنسان يقبض اللّه له ولده فيصبر ويحتسب إلا عوَّضه اللّه به الجنة » وكذلك أيضًا ما أخرجه البخاري أن النبي ﷺ قال : « يقول اللّه تعالى : ما جزاء عبدي المؤمن الذي قبضت له صفيه واحتسب إلا الجنة » صفيه : يعني من اصطفاه واختاره من ولدٍ وزوجة أو غيرهما .

أما الحديث الأخير : فهو في قصة لإحدى بنات النبي ﷺ كان لها صبيٌّ في سياق الموت ، فأرسلت إلى النبي ﷺ تدعوه . فقال النبي ﷺ للرسول الذي أرسلته إليه : « قل لها : إن لله ما أخذ ، وله ما أعطى وكل شيء عنده بأجل مُسَمّى ، فَمُرْها فلتصبر ولتحتسب » فينبغي للإنسان في تعزية أخيه أن يقول له هذه الكلمات فهي أحسن ما يعزى به : « إن لله ما أخذ ، وله ما أعطى وكل شيء عنده بأجل مُسَمّى ، اصبر واحتسب » واللّه الموفق .

---

(١) أخرجه البخاري في الجنائز (١٢٨٤) ، ومسلم في الجنائز (١١) . قوله : « في الموت » أي في مقدماته المعتاد وجودُه بعدها ، قوله : « إن للّه تعالى ما أخذ » معناه : الحث على الصبر والتسليم لقضاء اللّه ، والتقدير : هذا الذي أخذ منكم كان له لا لكم ، فلم يأخذ إلا ما هو له ، فينبغي أن لا تجزعوا كما لا يجزع من استردت منه وديعة أو عارية ، قوله : « وله ما أعطى » معناه : أن ما وهبه لكم ليس خارجًا عن ملكه ، بل هو سبحانه يفعل فيه ما يشاء ، قوله : « وكل شيء عنده بأجل مسمًّى » أي : اصبروا ولا تجزعوا ، فكل من خلقه يكون قد قضى أجلَه المسمى ، ومحال تقديم هذا الأجل أو تأخيره ، فاصبروا واحتسبوا على ما نزل بكم .

(٢) أخرجه ابن ماجه في الأدب (٣٨٠٣) ، والحاكم في المستدرك (٤٩٩/١) .



١٥٣ - باب جواز البكاء على الميت بغير ندب ولا نياحة

أَمَّا النِّيَاحَةُ فَحَرَامٌ وسَيَأْتِي فِيهَا بَابٌ في كتاب النَّهْي إن شاءَ اللَّه تعالى . وَأَمَّا البُكَاءُ فَجَاءَتْ أَحَادِيثُ كَثِيرَةٌ بالنَّهْي عَنْهُ ، وَأَنَّ المَيِّتَ يُعَذَّبُ بِبُكاءِ أَهْله ، وهِيَ مُتَأَوَّلَةٌ ومَحْمُولَةٌ عَلى مَنْ أَوصَى بِهِ ، وَالنَّهْيُ إِنَّمَا هُوَ عَنِ البُكاءِ الذي فيه نَدْبٌ ، أو نِيَاحَةٌ ، والدَّليلُ على جَوَازِ البُكَاءِ بَغَيرِ نَدْبٍ وَلا نِيَاحَةٍ أَحادِيثُ كَثِيرَةٌ منها :

٩٢٥ - عنِ ابنِ عُمَرَ رضي الله عنهما أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ عاد سَعْدَ بنَ عُبَادَةَ ، وَمَعَهُ عَبدُ الرَّحمنِ بْنُ عَوفٍ ، وسَعْدُ بنُ أَبِي وَقَّاصٍ ، وعَبْدُ اللَّه بنُ مَسْعُودٍ رضي الله عنه ، فَبَكى رسولُ اللَّهِ ﷺ ، فَلَّما رَأَى القومُ بُكاءَ رسولِ اللَّهِ ﷺ بَكوا ؛ فقال : « أَلَا تسمعون ؟ إن اللَّه لا يعذب بدمع العين ، ولا بحزن القلب ، ولكن يُعَذِّبُ بِهذَا أَو يَرْحَمُ » وَأَشَارَ إِلى لِسَانِهِ [١] . متفقٌ عليه .

الشرح

ذكر المؤلف رحمه الله في : باب جواز البكاء على الميت من غير ندب ولا نياحة .

البكاء على الميت تارةً يكون بمقتضى الطبيعة ، يعني يأتي للإنسان دون أن يقصده ، فهذا لاحرج فيه ، ولا إثم فيه ، بل هو من أخلاق النبي ﷺ كما في الحديث الذي ذكره المؤلف ، وهو دليل على رحمة الإنسان ورقة قلبه ، وتارةً يكون بتكلُّف ومعه ندب أو نياحة ؛ فهذا هو الذي يأثم به الإنسان ؛ فالندب هو أن يقوم بتعداد محاسن الميت إذا بكى ، يبكي ويقول : هذا فلان الذي يأتي لنا بكذا وكذا ، ويدافع عنا ، وما أشبه ذلك ، أو يقول وا أبتاه ... وأما النياحة : فهي البكاء برنة كنوح الحمام ، فهذا هو المحرم ، وقد لعن النبي ﷺ النائحة والمستمعة [٢] . أما البكاء الذي يأتي طبيعيًا دون أن يتقصَّده الإنسان ولكنه حزن ورحمة فهو لا بأس به ، كما في الحديث الذي ذكره المؤلف رحمه الله أن النبي ﷺ عاد سعد بن عبادة رضي الله عنه من مرضٍ أَلَمَّ به فبكى عليه الصلاة والسلام فبكى من معه : سعد بن أبي وقاص وعبد اللَّه بن مسعود رضي الله عنهما ثم قال : « ألا تسمعون » يعني : اسمعوا « إن اللَّه تعالى لا يعذب بدمع العين ولا بحزن القلب » لا يعذب الباكي والحزين ولا يعذب الميت « وإنما يعذب بهذا أو يرحم » وأشار إلى لسانه يعني : أن يقول الإنسان قولًا مُحَرَّمًا فهذا الذي يُعَذَّب به الإنسان ، فدلَّ ذلك على جواز البكاء على الميت بشرط ألا يكون فيه ندب ولا نياحة ، وإنما تأتي به الطبيعة والجبلة ، فهذا لا بأس به وهو من خُلُقِ النبي ﷺ ، واللَّه أعلم .

* * *

٩٢٦ - وعنِ أُسَامَةَ بنِ زَيدٍ رضي الله عنهما أَنَّ رسولَ اللَّهِ ﷺ رُفِعَ إليهِ ابْنُ ابنَتِهِ وَهُوَ في المَوتِ ، فَفاضَتْ عَينا رسولِ اللَّهِ ﷺ ، فقال له سعدٌ : مَا هذا يا رسولَ اللَّهِ ؟! قال : « هذِهِ رحمةٌ جَعَلَهَا اللَّهُ تَعالى في

---

(١) أخرجه البخاري في الجنائز (١٣٠٤) ، ومسلم في الجنائز (١٢) .
(٢) أخرجه أبو داود في السنن (٣١٢٨) ، وأحمد في مسنده (٣/٦٥) .

قُلوبِ عِبَادِهِ ، وَإنما يَرْحَمُ اللَّهُ مِنْ عِبَادِهِ الرُّحَمَاءَ »[1] متفقٌ عليه .

٩٢٧ - وعن أنسٍ ﷺ أَنَّ رسُولَ اللَّهِ دَخَلَ عَلى ابْنِهِ إبْرَاهِيمَ ﷺ وَهُوَ يَجُودُ بنَفْسِه ، فَجَعَلَتْ عَينا رسولِ اللَّه ﷺ تَذْرِفَانِ . فقال له عبدُ الرَّحمن بنُ عوفٍ : وأنت يا رسولَ اللَّه ؟! فقال : « يَا ابْن عَوفٍ إنها رَحْمَةٌ » ثُمَّ أتبعَها بأُخْرَى ، فقال : « إنَّ الْعينَ تَدْمَعُ ، وَالقَلْبَ يَحْزَنُ ، وَلا نَقولُ إلا ما يُرْضِي ربَّنا ، وَإنَّا بِفِرَاقِكَ يَا إِبْرَاهِيمُ لَمحْزُونُونَ »[2] . رواه البخاري ، وروى مسلم بعضه . والأحاديث في الباب كثيرة في الصحيح مشهورة ، واللَّه أعلم .

الشرح

سبق لنا الكلام على الأحاديث الثلاثة الماضية التي ذكرها النووي ﷺ في (رياض الصالحين) في باب جواز البكاء على الميت من غير ندب ولا نياحة ، ثم ذكر حديثين عن رسول اللَّه ﷺ أنه بكى حين رأى طفلين في النزع :

أما الأول : فهو ابن ابنته الذي رفع إليه وهو في سياق الموت ، فذرفت عينا رسول اللَّه ﷺ رحمة بهذا الصبي ، لأنه يراه ينازعه الموت ، فرق له وبكى ﷺ وهو ﷺ أرحم الخلق بالخلق . فقال له سعد ابن عبادة : ما هذا يا رسول اللَّه ؟! يعني : كيف تبكي ؟! فقال ﷺ : « هذه رحمة - يعني أنني رحمت هذا الصبي الذي ينازع نفسه فَرَقَقْت له - وإنما يرحم اللَّه من عباده الرحماء » كلما كان الإنسان بعباد اللَّه أرحم ؛ كان قريبًا من رحمة اللَّه ، ولهذا ينبغي لك أن تعود نفسك على الرحمة والرقة للأطفال والحيوان وغير ذلك ممن هو أهل للرحمة ، حتى تكون أهلًا لرحمة اللَّه ﷻ « إنما يرحم اللَّه من عباده الرحماء » ، وفي هذا : دليل على جواز البكاء على الميت ، لأن النبي ﷺ بكى وقال : « هذه رحمة » وفيه دليل على أنه ينبغي للإنسان أن يتعرض لرحمة اللَّه ﷻ بكل وسيلة ﴿ إِنَّ رَحْمَتَ اللَّهِ قَرِيبٌ مِّنَ الْمُحْسِنِينَ ﴾ [الأعراف : ٥٦] وفي قوله ﷺ : « إنما يرحم اللَّه من عباده الرحماء » إشارة إلى أن جزاء اللَّه من جنس العمل ، فلما كان هذا الإنسان راحمًا لعباد اللَّه كان اللَّه - تعالى - راحمًا له ، لأن اللَّه تعالى في حاجة العبد إذا كان العبد في حاجة أخيه « من كان في حاجة أخيه كان اللَّه في حاجته »[3] .

أما الحديث الثاني : حديث أنس بن مالك ﷺ : فهو أن النبي ﷺ رُفع إليه ابنه إبراهيم ﷺ وهذا الولد ليس من زوجته خديجة ، بل من مارية التي أهداها له ملك القبط ، فسراها النبي ﷺ - أي وطئها بملك اليمين - فأتت له بهذا الولد وبقي ستة عشر شهرًا ومات في حياة النبي ﷺ ، رُفع إليه وهو يجود بنفسه ، أي : ينازعه الموت ، وأشرف ما عند الإنسان نفسه ، وهذا المحتضر كأنما يُسلِّمها للملائكة يجود

---

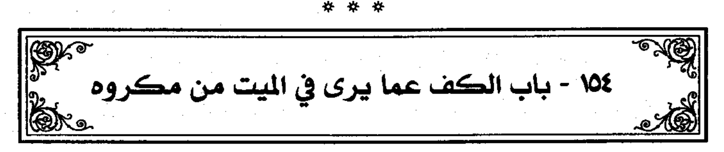
(١) أخرجه البخاري في الجنائز (١٢٨٤) ، ومسلم في الجنائز (١١) .

(٢) أخرجه البخاري في الجنائز (١٣٠٣) ، ومسلم في الفضائل (٦٢) ، قوله : « وهو يجود بنفسه » أي : يخرجها ويدفعها كما يدفع الإنسان ما يجود به ، قوله : « تذرفان » أي تدمعان .

(٣) أخرجه البخاري في المظالم (٤٢٢٤) ، ومسلم في البر والصلة (٥٨) ، والطبراني في الكبير (٢٨٧/١٢) .

بها ، فبكى ﷺ فقيل له : ما هذا يا رسول الله ؟ فقال ﷺ : « إن العين تدمع والقلب يحزن ولا نقول إلا ما يُرضي ربنا وإنا بفراقك يا إبراهيم لمحزونون » ثم قالها مرة أخرى : « العين تدمع ، والقلب يحزن ، ولا نقول إلا ما يرضي ربنا ، وإنا على فراقك يا إبراهيم لمحزونون » ثم تُوفي الولد وله ستة عشر شهرًا ، فدلَّ ذلك على الإنسان لا حرج عليه إذا بكى رحمةً بالميت وحزنًا على فراقه ، فإن الرسول هنا قال : إنه محزون على فراق ابنه ، وفيه أيضًا : دليل بجواز إخبار الإنسان عن نفسه بأنه محزون من هذه المصيبة ، لأنه ﷺ قال : « القلب يحزن » ، وفيه دليل على أن النبي ﷺ يموت له الولد ويتألم لذلك وأنه يلحقه ما يلحق البشر ، فكان له ﷺ من الأولاد سبعة : ثلاثةٌ ذكور ، وأربعةٌ إناث ، وأشهر الذكور هو إبراهيم ﷺ أما الإناث فأفضلهن فاطمة ، وهي كانت مع علي بن أبي طالب ﷺ وزينب امرأة أبي العاص بن الربيع ، وأم كلثوم ورقية كانتا مع عثمان بن عفان ، لما ماتت إحداهما زوَّجه النبي ﷺ الثانية ، ولم يزوج الرسول ﷺ أحدًا من صحابته ابنتين إلا عثمان ، فتميز عثمان ﷺ أن الرسول زوجه ابنتيه ، لكن بعد أن ماتت الأولى . أما أولاده : القاسم ، وعبد الله ، وإبراهيم ، لكن الذي اشتهر وبقي مدة هو إبراهيم ، وكل هؤلاء من خديجة ﷺ إلا إبراهيم ، فإنه من مارية القبطية ، ولم يبق أحد من أولاده لا ذكورهم ولا إناثهم بعد موته إلا فاطمة ، فقد ماتوا جميعًا في حياته ، وهذا من حكمة الله ﷻ فإنه لا أحد يستطيع أن يدفع الموت ، ولو كان أعظم الناس جاهًا عند الله حتى النبي ﷺ .

* * *



١٥٤ - باب الكف عما يرى في الميت من مكروه

٩٢٨ - عن أبي رافع أَسْلَم مولى رسولِ الله ﷺ ، أنَّ رسول الله ﷺ قال : « مَنْ غَسَّلَ مَيِّتًا فَكَتَمَ عَلَيه ؛ غَفَرَ اللَّهُ لَهُ أَرْبَعِينَ مَرَّة » (١) رواه الحاكم وقال : صحيح على شرط مسلم .

الشرح

قال النووي رحمه الله في كتابه (رياض الصالحين) : باب من ستر على الميت ما رآه من مكروه . ثم ذكر حديث مولى رسول الله ﷺ في فضل الغاسل إذا ستر على الميت ما يرى من مكروه ، والذي يُرى من الميت من المكروهات نوعان :

النوع الأول : ما يتعلق بحاله   النوع الثاني : ما يتعلق بجسده .

الأول : لو رأى مثلًا : أن الميت تغيَّر وجهه واسودَّ وقبح ، فهذا - والعياذ بالله - دليل على سوء خاتمته - نسأل الله العافية - فلا يحلُّ له أن يقول للناس : إني رأيت هذا الرجل على هذه الصفة ؛ لأن هذا كَشْفٌ لعيوبه ، والرجل قَدِمَ على ربه وسوف يجازيه بما يستحق من عفو أو فضل ، إن كان عمل خيرًا ، فالله يجزيه الحسنة بعشرة أمثالها ، وإن كان غير ذلك ﴿ وَجَزَٰٓؤُاْ سَيِّئَةٖ سَيِّئَةٞ مِّثۡلُهَاۖ ﴾ [الشورى : ٤٠] .

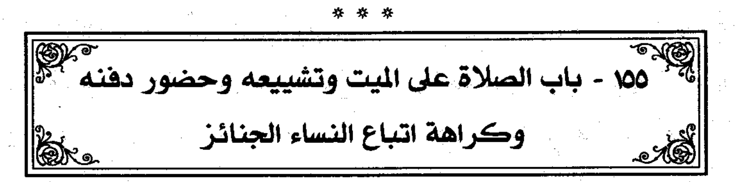
---

(١) أخرجه الحاكم في المستدرك (١/٣٥٤ ، ٣٦٢) .

الثاني : ما يتعلق بجسده كأن يرى بجسده عيبًا ، كأن يرى برصًا [١] أو سوادًا أو غير ذلك مما يكره الإنسان أن يطلع عليه غيره ، فهذا أيضًا لا يجوز أن يكشفه للناس ، ويقول : رأيت فيه كذا وكذا . ولهذا قال العلماء - رحمهم اللّه - : يجب على الغاسل أن يستر ما رآه إن لم يكن حسنة . أما إذا رأى خيرًا بالميت واستنارة بوجهه أو رآه يتبسم فهذا خير ، وليخبر به الناس ، لأنه يجعل الناس يثنون عليه خيرًا ، ولا بأس به ، ولا يُعدُّ هذا من الرياء أو ما أشبه ذلك ، فإن هذا يعد من عاجل بُشْرى المؤمن ، لأن المؤمن له مبشرات ، ومن هذه مثلًا أنه يُرى بعد موته على حالةٍ حسنة ، وكذلك يرى الرؤيا الحسنة لنفسه أو يراها له غيره ، كل هذه من المبشرات التي تبشر بالخير .

ولهذا قال العلماء رحمهم اللّه : يكره لغير المُعِين في غسله أن يحضر غسله حتى ولو كان قريبًا له ؛ لأنه ربما يُرى ما يكره فيكون في ذلك إساءة إلى الميت . واللّه الموفق .

* * *



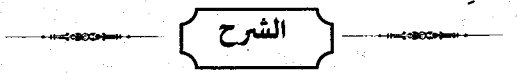
١٥٥ - باب الصلاة على الميت وتشييعه وحضور دفنه وكراهة اتباع النساء الجنائز

وَقدْ سَبَقَ فضْلُ التَّشييعِ .

٩٢٩ - عن أبي هُرَيرَةَ ﷺ قال : قالَ رسولُ اللّهِ ﷺ : « مَنْ شَهِدَ الجِنَازَةَ حَتَّى يُصَلَّى عَلَيها فَلَهُ قِيرَاطٌ ، وَمَنْ شَهِدَهَا حَتَّى تُدْفَنَ فَلَهُ قِيرَاطَانِ » قِيلَ : وَمَا القِيرَاطَانِ؟ قال : « مِثْلُ الجَبَلَينِ العَظِيمَينِ » [٢] متفقٌ عليه .

٩٣٠ - وعنه أنَّ رسولَ اللّهِ ﷺ قال : « مَن اتَّبَعَ جِنَازَةَ مُسْلم إيمَانًا وَاحْتِسَابًا ، وَكَانَ مَعَهُ حَتَّى يُصَلَّى عَلَيهَا وَيُفرَغَ مِنْ دَفنها ؛ فَإنَّهُ يَرْجِعُ مِنْ الأَجْر بِقِيرَاطَينِ كُلُّ قِيرَاطٍ مِثلُ أُحُدٍ ، وَمَنْ صَلَّى عَليهَا ، ثم رَجَعَ قَبْلَ أَنْ تُدْفَنَ ، فَإنَّهُ يرجعُ بِقِيرَاطٍ » [٣] رواه البخاري .

٩٣١ - وعن أُمِّ عَطِيَّةَ ﵂ قَالَتْ : نُهِينا عَنِ اتِّبَاعِ الجَنائِزِ ، وَلم يُعزَمْ عَلَينَا [٤] متفقٌ عليه . ومعناه : ولَمْ يُشَدَّد في النَّهيِ كما يُشَدَّدُ في المُحَرَّمَاتِ .



الشرح

قال المؤلف ﵀ في كتابه (رياض الصالحين) : (باب الصلاة على الميت وتشييعه وحضور دفنه) . يعني : استحباب ذلك للرجال وكراهته للنساء .

---

(١) البرص : هو مرض يصيب الجلد .

(٢) أخرجه البخاري في الجنائز (١٣٢٥) ، ومسلم في الجنائز (٥٢) ، والإمام أحمد في مسنده (٤٠١/٢) .

(٣) أخرجه البخاري في الإيمان (٤٧) ، والإمام أحمد في مسنده (٤٣٠/٢) .

(٤) أخرجه مسلم في الجنائز (٣٤ ، ٣٥) ، وابن ماجه في الجنائز (١٥٧٧) ، والبيهقي في سننه (٧٧/٤) .

والجَنازة - بالفتح - اسم للميت ، والجِنازة - بالكسر - اسم للنعش الذي عليه الميت .

وقد ذكر المؤلف حديث أبي هريرة الأول والثاني ، وحديث أم عطية ، لِيُعْلم أن تشييع الجنائز من حقوق المسلمين على إخوانهم . قال العلماء : وإذا خرج مع الجنازة فينبغي أن يكون مُتَخَشِّعًا متفكرًا في مآله ، ويعلم أنه كما أنه الآن يتبع جنازة هذا الرجل فسوف يأتي اليوم الذي يتَّبع الناس فيه جَنازته ، فكما حَمَل هذا فهو أيضًا سيُحمل .

كل ابن أنثى ولو طالت سلامته يومًا على آلة حدباءَ محمولُ

فيفكر في أمره ، وأنه مهما طالت به الدنيا فسوف يُحمل كما حُملِ هذا ويُشيَّع كما شُيِّع هذا ، ولهذا قالوا : لا ينبغي لتابع الجنازة أن يتحدث في شيء من أمور الدنيا ، بل يفكر في نفسه ، وإذا كان معه أحد يكلمه فليذكره بمآل كلِّ حيٍّ ، حتى يكون تشييع الجنازة تشييعًا وعبرة ، أي قضاء لحق المسلم ، وعِبرة للمشيع .

ثم ذكر المؤلف رحمه الله حديثي أبي هريرة وفيهما : أن من تبع الجنازة من بيتها حتى يُصلَّى عليها ثم تُدْفَن فله قيراطان ، فسئل عن القيراطين قال : مثل الجبلين العظيمين ، وفي رواية لمسلم « أصغرهما مثل جبل أحد » . ولما حُدِّث ابن عمر بهذا الحديث قال : لقد فرطنا في قراريط كثيرة - يعني ما كنا نخرج مع الجنائز ، وفرطنا في هذه القراريط الكثيرة ، فصار يخرج بعد ذلك مع الجنائز ، رضي الله عنه - فإذا شهدتها حتى يُصَلَّى عليها فلك قيراط ، وإن استمررت معها حتى تُدفن فلك قيراطان ، لكن في رواية البخاري اشترط أن يكون ذلك إيمانًا واحتسابًا ، يعني : إيمانًا بالله وتصديقًا بوعده واحتسابًا لثوابه ، وليس قصدُك المجاملة لأهل الميت ، لأن المجاملة لأهل الميت ثواب عاجل في الدنيا فقط ، وقد يؤجر الإنسان على مجاملة إخوانه ، لكن الأجر الذي هو قيراطان لمن تبعها إيمانًا واحتسابًا .

أما النساء : فقالت أم عطية رضي الله عنها : نُهينا عن اتباع الجنائز ، ولم يُعْزَم علينا (نهينا) إذا قاله صحابي أو قالته صحابية فالمعنى : أن النبي ﷺ نهاهم ، لأن النبي ﷺ هو الذي له الأمر والنهي ، فإذا قال الصحابي أو الصحابية : (نُهينا) فالمعنى نهانا رسول الله ﷺ .

وقد أخذ بعض العلماء من هذا الحديث : أن اتباع النساء للجنائز مكروه ؛ لأنها قالت : نهينا ولم يُعزم علينا . وقال بعض العلماء : بل اتباع النساء للجنائز مُحرَّم ، لثبوت النهي .وقول أم عطية : ولم يعزم علينا . هذا تَفَقه منها رضي الله عنها ولا ندري - هل الرسول ﷺ هو الذي نهاهن ولم يعزم عليهن ، أم هي التي فهمت أنه لم يُعْزم على النساء بترك اتباع الجنائز ؟ .

والصحيح أن اتباع المرأة للجنازة حرام ، وأنه لا يجوز للمرأة أن تتبع الجنازة ؛ لأنها إذا تبعتها فهي لا شك ضعيفة فربما تصيح وتُوَلول وتضرب الخدَّ وتنتف الشعر وتمزق الثوب ، وأيضًا ربما يحدث اختلاط بين الرجال والنساء في تشييع الجنازة فيحصل بذلك فتنة وتزول الحكمة من اتباع الجنائز بحيث يكون الرجال ، أو الأراذل [1] من الرجال لا يكون لهم هَمٌّ إلا ملاحقة هؤلاء النساء أو التمتع

---

(١) الأرذل : هو : الخسيس الرديء ، وأرذل العمر : آخره ، وهو الهرم والخرف (المعجم العربي الأساسي ص ٥١٨) .

بالنظر إليهن ، فالواجب منع النساء من اتباع الجنائز ؛ فهو حرامٌ ولا يجوز ، كما أن زيارة المرأة للمقابر حرامٌ ، لأن النبي ﷺ لعن زائرات القبور والمتخذين عليها المساجد والسرج [١] . والله الموفق .

* * *

١٥٦ - باب استحباب تكثير المصلين على الجنازة وجعل صفوفهم ثلاثة فأكثر

٩٣٢ - عَنْ عائشةَ رضي الله عنها قَالَتْ : قالَ رسولُ اللَّه ﷺ : « مَا مِنْ مَيِّتٍ يُصَلِّي عَليهِ أُمَّةٌ مِنَ المُسْلِمينَ يَبلُغُونَ مائَةً كُلُّهُم يَشْفَعُونَ له إلا شُفِّعُوا فيه » [٢] رواه مسلم .

٩٣٣ - وعن ابن عباسٍ رضي الله عنهما قال : سَمِعْتُ رَسُولَ اللَّه ﷺ يَقُول : « مَا مِنْ رَجُلٍ مُسْلم يَمُوتُ ، فَيَقومُ عَلى جِنَازتِهِ أَرْبَعُونَ رَجُلًا لا يُشرِكُونَ بِاللَّهِ شيئًا ؛ إلا شَفَّعَهُم اللَّه فيه » [٣] رواه مسلم .

٩٣٤ - وعن مَرْثَدِ بن عبدِ اللَّهِ اليَزَنيِّ قال : كان مَالكُ بنُ هُبَيرَة رضي الله عنه إذا صَلَّى عَلى الجِنَازة ، فَتَقَالَّ النَّاس عَلَيها ، جَزَّأَهُمْ عَليها ثَلاثَةَ أَجْزَاءٍ ، ثم قال : قالَ رسولُ اللَّه ﷺ : « مَنْ صَلَّى عَليهِ ثَلاثَةُ صُفُوفٍ ، فَقَد أَوجَبَ » [٤] . رواه أبو داود ، والترمذي وقال : حديث حسن .

الشرح

قال النووي رحمه الله : باب استحباب تكثير المصلين على الميت ، ثم ذكر رحمه الله ثلاثة أحاديث : حديث عائشة ، وعبد الله بن عباس ، ومالك بن هُبَيرة - رضي الله عنهم - وكلها تدل على أنه كلما كثُر الجمع على الميت كان ذلك أفضل وأرجى للشفاعة ، ففي حديث عائشة : أنه من صلَّى عليه طائفة من الناس يبلغون مائة يشفعون له إلا شَفَّعهم الله فيه ، ومعلوم أن المصلين على الجنازة يشفعون إلى الله عز وجل لهذا الميت ، فهم يسألون من الله له المغفرة والرحمة ، والدعاء للميت في الجنازة من أوجب ما يكون في الصلاة ، بل هو ركن لا تصح صلاة الجنازة إلا به ، إلا المسبوق . وحديث ابن عباس يدل على أنه من قام على جنازته أربعون رجلًا لا يشركون بالله شيئًا ؛ إلا شَفَّعهم الله فيه - أي : قَبِلَ شفاعتهم فيه - وهذه بشرى للمؤمن ، إذا كثر المصلون على جنازته فشفعوا له عند الله أن الله تعالى يُشَفِّعهم فيه . أما حديث مالك بن هُبَيرة : ففيه أن الرسول ﷺ قال : « من صلَّى عليه ثلاثة صفوف إلا أوجب » يعني : وجبت له الجنة . وهذه الأحاديث كلها تدل على أنه كلما كثر الجمع كان

---

(١) أخرجه الترمذي في الجنائز (١٠٥٦) ، وأحمد في مسنده (٣٥٦/٢) ، والبيهقي في السنن (٧٨/٢) .

(٢) أخرجه مسلم في الجنائز (٥٨) ، والبيهقي في السنن (٣٠/٤) .

(٣) أخرجه مسلم في الجنائز (٥٩) ، والبيهقي في سننه (١٨١/٣) .

(٤) أخرجه أبو داود في الجنائز (٣١٦٦) ، والترمذي في الجنائز (١٠٢٨) ، قوله : (فتقالَّ) أي فرآهم قليلين ، قوله : (فقد أوجب) أي : أوجب الله له الجنة بالوعد الصادق على لسان نبيه المصطفى ﷺ .

أفضل ، ولهذا نجد أن بعض الناس إذا صلَّى على جنازة في مسجد نبه أهل المساجد الأخرى ليحضروا إليه حتى يكثر الجمع ، فينبغي للإمام إذا رأى الذين جاءوا ليشهدوا صلاة الجنازة قد فاتهم شيء من صلاة الفريضة ألا يتعجل بالصلاة على الميت حتى ينتهي الذين يقضون صلاتهم ليشاركوا الحاضرين في الصلاة على الميت ، فيكون ذلك أكثر للجمع ، وربما تكون دعوة واحد منهم هي المستجابة ، وكون بعض الناس بعدما يُسَلِّم يقوم ويصلي على الجنازة - وخلفه صف أو أكثر - فهذا وإن كان جائزًا - لكن الأفضل أن ينتظر حتى يتمَّ الناس صلاتهم ويصلُّون على الجنازة . والله الموفق .

* * *

١٥٧ - باب ما يُقرأ في صلاة الجنازة

يُكَبِّرُ أَرْبَعَ تَكبيراتٍ : يَتَعَوَّذ بَعْدَ الأُولى ، ثمَّ يَقرَأُ فَاتِحَةَ الكِتَابِ ، ثمَّ يُكَبِّرُ الثَّانيَةَ ، ثمَّ يُصَلِّي على النبيِّ ﷺ ، فيقول : اللَّهُمَّ صَلِّ عَلى مُحَمَّدٍ ، وَعَلى آلِ مُحَمَّدٍ ، وَالأَفضَلُ أن يُتِمَّهُ بقوله : كما صَلَّيتَ عَلى إبراهِيمَ .. إلى قولِهِ : إنَّكَ حَميدٌ مَجيدٌ .

وَلا يفعَلُ ما يَفعَلُهُ كثيرٌ مِنَ العَوَامِّ مِنْ قِراءَتِهم ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ وَمَلَٰٓئِكَتَهُۥ يُصَلُّونَ عَلَى ٱلنَّبِيِّ ﴾ [الأحزاب : ٥٦] فَإِنَّهُ لا تَصِحُّ صَلاتُهُ إذا اقتَصَر عليه .

ثم يُكَبِّرُ الثَّالِثَة ، ويَدعُو للمَيِّتِ وللمُسْلِمِينَ بمَا سَنَذكُرُهُ من الأحاديثِ إن شَاءَ اللَّهُ تعالى ، ثم يُكَبِّرُ الرَّابِعَةَ ويَدعو ، ومِنْ أَحسَنِهِ : اللهُمَّ لاَ تَحْرِمْنَا أَجْرَهُ ، ولا تَفتنا بَعدَهُ ، واغْفِرْ لَنَا ولَهُ .

والمُخْتَارُ أَنه يُطَوِّلُ الدُّعاءَ في الرَّابعة خِلاَفَ ما يَعْتَادُهُ أَكْثَرُ النَّاس ؛ لحديث ابن أبي أوفى الذي سَنَذْكُرُهُ إن شاء اللَّه تعالى . فَأمَّا الأَدْعِيَةُ المَأْثُورَةُ بَعْدَ التَّكْبِيرَةِ الثالِثَةِ ، فمنها :

٩٣٥ - عن أبي عبد الرحمنِ عوفِ بنِ مالكٍ ﷺ قال : صلَّى رسولُ اللَّهِ ﷺ على جِنازَةٍ ، فَحَفِظْتُ مِنْ دُعَائِهِ وَهوَ يَقُولُ : « اللهُمَّ اغْفِرْ لَهُ ، وارْحَمْهُ ، وَعَافِهِ ، وَاعْفُ عَنْهُ ، وَأَكْرِمْ نُزُلَهُ ، وَوَسِّعْ مُدْخَلَهُ ، وَاغسِلْهُ بالمَاءِ وَالثَّلْجِ وَالْبَرَدِ ، وَنَقِّه مِنَ الخَطَايَا كما نَقَّيتَ الثَّوبَ الأَبْيَضَ مِنَ الدَّنَسِ ، وَأَبْدِلْهُ دَارًا خَيرًا مِنْ دَارِه ، وأَهْلًا خَيرًا مِنْ أَهْلِهِ ، وَزَوجًا خَيرًا مِن زَوجِهِ ، وأَدْخِلهُ الجَنَّةَ ، وأَعِذْه مِنْ عَذَابِ القَبْرِ ، وَمِنْ عَذَاب النَّار » حتَّى تَمَنَّيتُ أَنْ أَكُونَ أَنَا ذلكَ المَيِّتَ[1] . رواه مسلم .

الشرح

قال المؤلف النووي رَحِمَهُ اللَّهُ في كتابه (رياض الصالحين) باب ما يُدعى به للميت .

صلاة الجنازة : تشتمل على قراءة الفاتحة ـ ثم الصلاة على النبي ﷺ ، ثم الدعاء ، فيبدأ أولًا بالفاتحة ، لأنها ثناء على الله ﷻ ثم الصلاة على النبي ﷺ وهو أحق الناس أن يُقدَّم حتى على النفس ، ثم بعد ذلك

---

(١) أخرجه مسلم في الجنائز (٨٥) ، والإمام أحمد في مسنده (٢٣/٦) .

الدعاء العام « اللَّهم اغفر لحيِّنا وميتنا » ثم الدعاء الخاص للميت « اللَّهم اغفر له وارحمه » وهذا الترتيب كالترتيب في التشهد حيث نبدأ أولًا التحيات للَّه وهو الثناء على اللَّه ، ثم السلام على النبي ، ثم السلام على الإنسان وعلى عباد اللَّه الصالحين ، وهذا أيضًا - الدعاء للميت - كذلك مُرَتَّب ، لكن نبدأ بالعام قبل الخاص بخلاف التَّشهد فإنه يُبْدَأ بالخاص قبل العام ؛ لأن التشهد تدعو لنفسك « السلام علينا » والنفس مقدمة على الغير إلا على النبي ﷺ . المهم أن صلاة الجنازة يكبِّر الإنسان التكبيرة الأولى ثم يقول : أعوذ باللَّه من الشيطان الرجيم ثم يقرأ الفاتحة كاملة ، ثم يكبر الثانية فيصلِّي على النبي ﷺ ، وأحسن ما يُصَلَّى به عليه ما علَّمه أمَّتَه : « اللَّهم صلِّ على محمد وعلى آل محمد كما صليت على إبراهيم وعلى آل إبراهيم إنك حميد مجيد ، اللَّهم بارك على محمد وعلى آل محمد كما باركت على إبراهيم وعلى آل إبراهيم إنك حميد مجيد » ثم يكبر الثالثة فيدعو لعامة المسلمين « اللَّهم اغفر لحيِّنا وميتنا ، وشاهدنا وغائبنا ، وصغيرنا وكبيرنا » ثم يدعوُ للميت الدعاء الخاص ، ومنه حديث أنس بن مالك ﷺ أن النبي ﷺ صلَّى على جنازة فحفظ من دعائه : « اللَّهم اغفر له وارحمه ، وعافه واعف عنه ، وأكرم نُزُله [1] » يعني ضيافته ، لأن الميت في ضيافة اللَّه ﷻ إذا انتقل إلى قبره فهو إما أن يكون في قبره معذبًا أو منعمًا ، ويقول : « وأوسع مُدخله » ويجوز مَدخله - يعني : أوسع قبره - لأنه يُدخل فيه « واغسله بالماء والثلج والبَرَد » واغسله يعني طهره من الذنوب بالماء والثلج والبَرَد ، ذكر الثلج والبرد لأنه بارد ، وذكر الماء لأن به النظافة ، والذنوب - أجارنا اللَّه وإياكم منها - عقوبتها حارَّة ؛ فناسب أن يقرن مع الماء ؛ الثلج والبرد ، فيحصل بالماء التنظيف ، ويحصل بالثلج والبرد التبريد « ونقِّه من الخطايا كما يُنقى الثوب الأبيض من الدنس » يعني : نَظِّفه تنظيفًا كاملًا من الخطايا كما يُنقى الثوب الأبيض من الوسخ ، وذكر الثوب الأبيض ؛ لأنه هو الذي تظهر فيه أدنى دنسة ، فإذا كان الثوب الأبيض نقيًا فمعناه أنه ليس به دنس إطلاقًا بخلاف الثوب الأسود والأحمر والأخضر وما أشبه ذلك ، فإنه ليس كالأبيض تبين به الدَّنَسة بيانًا واضحًا « اللَّهم أبدله دارًا خيرًا من داره » لأنه انتقل من دار الدنيا إلى دار البرزخ ، ودار الدنيا - كما نعلم - دار محن وأذى وكدر فيقول : « أبدله دارًا خيرًا من داره » ليكون منعمًا في قبره « وأهلًا خيرًا من أهله » أهله : ذووه ؛ كأمه وخالته ، وأبيه ، وابنه وما أشبه ذلك « وزوجًا خيرًا من زوجه » يعني زوجة خيرًا من زوجته ، وهم الحور العين ، وكذلك بزوجته في الدنيا ، لأن الإنسان إذا تزوج امرأة في الدنيا وماتت على الإيمان ؛ فإنها تكون زوجته في الآخرة ، فإن قال قائل : كيف تكون خيرًا من زوجتي وهي واحدة في الدنيا ؟! نقول : خيرًا منها في الصفات والجمال وغير ذلك « وأدخله الجنة ، وأعذه من عذاب القبر وعذاب النار » كل هذا دعاء يدعو به الإنسان للميت ، وينبغي أن يخلص الإنسان للميت في هذا الدعاء ، فإن كانت امرأة فإنه يقول : « اللَّهم اغفر لها وارحمها ، وعافها واعف عنها ... » يعني بضمير المؤنث ، فإن كان لا يدري ، هل هي ذكر أم أنثى ؛ فإنه مُخير ، إن شاء قال : اللَّهم اغفر له - يعني لهذا الشخص - والمرأة توصف بأنها شخصٌ ، أو إن شاء قال : « اغفر لها » أي : لهذه الجنازة ، والجنازة تطلق على الرجل وعلى

---

(1) أخرجه مسلم في الجنائز (٦٦٢) ، والنسائي في السنن (١/ ٥٢) ، وأحمد في مسنده (٦/ ٢٣) .

المرأة ، وإن كان يعلم أنه ذكر ذكَّره ، وإن كان يعلم أنها أنثى أنَّثها ، وإن كان لا يدري جاز أن يذكره ، وجاز أن يؤنثه ، فإن ذكَّره فالمعنى « اغفر له » أي : لهذا الشخص الذي بين أيدينا ، وإن قال : « اغفر لها » أي : لهذه الجنازة ، والجنازة تطلق على الرجل والمرأة . والله الموفق .

* * *

٩٣٦ - وعن أبي هريرة وأَبِي قَتَادَةَ ، وأبي إبْرَاهيمَ الأَشْهَلِيِّ عَنْ أَبيه - وَأَبُوهُ صَحَابِيٌّ ﷺ عَنِ النبيِّ ﷺ أَنَّهُ صَلَّى عَلَى جِنَازَةٍ فقال : « اللَّهُمَّ اغْفِرْ لحَيِّنَا وَمَيِّتنَا ، وَصَغِيرنا وَكَبيرنَا ، وَذَكَرنَا وأُنْثَانَا ، وشَاهِدِنَا وَغَائِبِنَا . اللَّهُمَّ مَن أَحْيَيتَه منا فَأَحْيِهِ عَلَى الإسْلامِ ، وَمَنْ تَوَفَّيتَه منَّا فَتوفَّهُ عَلى الإيمان ، اللَّهُمَّ لا تَحْرِمْنَا أَجْرهُ ، ولا تَفْتِنَّا بَعْدَهُ »[1] رواه الترمذي من رواية أبي هريرة والأَشْهلي ، ورواه أبو داود من رواية أبي هريرة وأبي قَتادة : قال الحاكم : حديث أبي هريرة صَحيحٌ على شَرْط البُخاريِّ ومُسْلِم ، قال الترمذي : قال البخاريُّ : أصحُّ روايات هذا الحديث روايةُ الأَشْهَليِّ . قال البخاري : وأَصَحُّ شيءٍ في الباب حديث عَوفِ بن مالكٍ .

٩٣٧ - وعن أبي هُرَيرَة ﷺ قَالَ : سَمِعْتُ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ يقول : « إذا صَلَّيتُمْ عَلى المَيِّت ، فَأَخْلِصُوا لهُ الدُّعاء »[2] رواه أبو داود .

الشرح

هذان الحديثان فيما يُدْعَى به في الصلاة على الميت ، وقد سبق حديث عوف بن مالك ﷺ في الدعاء الخاص للميت ، أما هذا الدعاء الذي ذكره المؤلف رحمه الله فهو الدعاء العام ، يقول المُصَلِّي على الميت : « اللَّهم اغفر لحيِّنا وميِّتنا ، وصغيرنا وكبيرنا ، وذكرنا وأنثانا ، وشاهدنا وغائبنا » وهذه الجمل تغني عنها جملة واحدة ، لو قال : اللَّهم اغفر لحيِّنا وميِّتنا شمل الجميع ، لكن مقام الدعاء ينبغي فيه البَسْط والتفصيل ، لأن الدعاء كل جملة منه عبادة لله عز وجل وإذا كرَّرته ازددت بذلك ثوابًا فقوله : « حيِّنا وميِّتنا » يشمل الحيَّ الحاضر والميت القديم والميت في عصره « وصغيرنا وكبيرنا » كذلك أيضًا يشمل الصغير والكبير الحيَّ والميت ، وذكر الصغير مع أن الصغير لا ذنب له من باب التبعية ، وإلا فإن الصغير ليس له ذنب حتى تُسأل له المغفرة « وذكرنا وأنثانا » مثلها عامة « وشاهدنا وغائبنا » الحاضر والمسافر مثلًا « اللَّهم من أحييته منا فأحيه على الإسلام ، ومن توفيته فتوفه على الإيمان » الحياة ذكر معها الإسلام وهو الاستسلام الظاهر ، ومع الموت ذكر الإيمان ؛ لأن الإيمان أفضل ومحله القلب ، والمدار على ما في القلب عند الموت وفي يوم القيامة « اللَّهم لا تحرمنا أجره ، ولا تفتنا بعده » لا تحرمنا أجره يعني : بالصلاة عليه ، لأن الإنسان يؤجر بالصلاة على الميت - كما سبق - أن من شهدها حتى يصلِّي عليها فله قيراط ، ومن شهدها حتى تدفن فله قيراطان . كذلك أيضًا أجر آخر للمصاب بهذا

---

(١) أخرجه أبو داود في الجنائز (٣٢٠١) ، والترمذي في الجنائز (١٠٢٤) .

(٢) أخرجه أبو داود في الجنائز (٣١٩٩) ، وابن ماجه في الجنائز (١٤٩٧) ، والبيهقي في سننه (٤/٤٠) .

الميت الذي حزن لفراقه يؤجر أيضًا على صبره على المصيبة « ولا تفتنا بعده » : يعني لا تُضلنا عن ديننا بعده ، لأن الحيَّ لا تؤمن عليه الفتنة ، ما دام الإنسان لم تَخرج روحه فإنه عُرضة لئن يفتن في دينه - والعياذ بالله - ولهذا قال : « لا تفتنا بعده » فينبغي للإنسان أن يدعو بهذا الدعاء اقتداءً برسول الله ﷺ .

أما حديث أبي هريرة أن النبي ﷺ قال : « إذا دعوتم للميت فأخلصوا له الدعاء » : فالمعنى : أنك تدعو بحضور قلب وإلحاح على الله لأخيك الميت ، لأنه مُحتاج لك . والله الموفق .

* * *

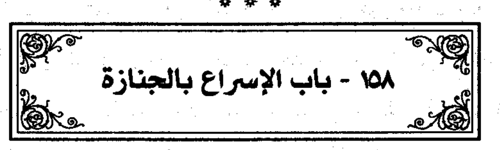
٩٣٨ - وعَنْهُ عن النَّبيِّ ﷺ في الصَّلاة على الجَنَازَةِ : « اللَّهُمَّ أنْتَ رَبُّهَا ، وأنْتَ خَلَقْتَهَا ، وأَنْتَ هَدَيتَها للإسلام ، وَأَنْتَ قَبَضْتَ روحَهَا ، وَأَنْتَ أَعْلَمُ بِسِرِّهَا وَعَلانيتها ، جِئْنَاكَ شُفعاءَ لَهُ ، فاغفر لَهُ » [1] رواه أبو داود .

٩٣٩ - وعن وَاثِلَةَ بنِ الأَسْقَعِ ﷺ قال : صَلَّى بِنَا رسولُ اللَّهِ ﷺ على رَجُلٍ مِنَ المُسْلِمِينَ ، فَسَمِعْتُهُ يقولُ : « اللَّهُمَّ إنَّ فُلانَ ابْنَ فُلانٍ في ذِمَّتِكَ وَحَبْلِ جَوارِك ، فَقِهِ فِتْنَةَ القَبْرِ ، وَعَذَابَ النَّارِ ، وَأَنْتَ أَهْلُ الوفَاءِ والحَمْدِ ، اللَّهُمَّ فاغفِرْ لهُ وارْحَمْهُ ، إنكَ أَنْتَ الغَفُور الرَّحِيمُ » [2] رواه أبو داود .

٩٤٠ - وعن عبد اللَّه بنِ أبي أوفى ﷺ أَنَّهُ كبَّرَ على جَنازَةِ ابْنَةٍ لَهُ أَرْبَعَ تَكْبِيراتٍ ، فَقَامَ بَعْدَ الرَّابِعَةِ كَقَدْرِ مَا بَينَ التَّكْبِيرتَيـنِ يَسْتَغْفِرُ لهَا وَيَدْعُو ، ثُمَّ قال : كَانَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ يَصْنَعُ هكَذَا .

وفي رواية : كَبَّرَ أَرْبَعًا ، فَمَكَثَ سَاعَةً حَتى ظَنَنْتُ أَنَّهُ سَيُكَبِّرُ خَمسًا ، ثُمَّ سَلَّمَ عَنْ يَمِينه ، وَعَنْ شِمَالِهِ . فَلَمَّا انْصَرَفَ قُلْنَا لَهُ : مَا هَذا ؟ فقال : إنِّي لا أَزيدُكُمْ عَلى مَا رَأَيتُ رسول اللَّه ﷺ يَصْنَعُ ، أو هكذا صَنَعَ رسول اللَّه ﷺ [3] . رواه الحاكم وقال : حديث صحيح .

* * *



١٥٨ - باب الإسراع بالجنازة

٩٤١ - عن أبي هُرَيرَةَ ﷺ عن النبي ﷺ قال : « أَسْرِعُوا بِالجَنَازَةِ ؛ فَإنْ تَكُ صَالِحَةً ؛ فَخَيرٌ تُقَدِّمُونَهَا إِلَيهِ ، وَإِنْ تَكُ سِوَى ذِلِكَ ؛ فَشَرٌّ تَضَعُونَهُ عَنْ رِقَابِكُمْ » متفقٌ عليه . وفي رواية لمسلم : « فَخَيرٌ

(١) هذا الحديث لم يقم الشارح ﷺ بشرحه ، والحديث أخرجه أبو داود في الجنائز (٣٢٠٠) ، والإمام أحمد في مسنده (٢/ ٣٤٥، ٣٦٣) ، والبيهقي في سننه (٤/ ٤٢) . قوله « أنت ربها » أي سيدها ومالكها ، قوله « بسرها وعلانيتها » أي باطنها وظاهرها .

(٢) هذا الحديث لم يقم الشارح ﷺ بشرحه ، والحديث أخرجه أبو داود في الجنائز (٣٢٠٢) ، وابن ماجه في الجنائز (١٤٩٩) ، قوله : « في ذمتك » أي في عهدك وأمانك ، قوله : « وحبل جوارك » أي في كنف حفظك وعهد جوارك ، قوله « فقه فتنة القبر » أي امتحان السؤال فيه ، أو قِهِ من أنواع عذابه من الضغطة والظلمة وغيرهما .

(٣) هذا الحديث لم يقم الشارح ﷺ بشرحه ، والحديث أخرجه الحاكم في المستدرك (١/ ٣٦٠) ، وأخرجه ابن ماجه في الجنائز (١٥٠٣) ، والبيهقي في سننه (٤/ ٣٥) .

تُقَدِّمُونَهَا عَلَيهِ » (١) .

٩٤٢ - وعن أبي سعيدِ الخُدْرِيِّ ﷺ قَالَ : كَانَ النَّبِيُّ ﷺ يَقُولُ : « إذا وُضِعَتِ الجِنَازَةُ ، فَاحْتَمَلَهَا الرِّجَالُ عَلى أعْنَاقِهِمْ ، فَإنْ كَانَتْ صَالحةً ، قالتْ : قَدِّمُوني ، وَإنْ كَانَتْ غَيرَ صَالحَةٍ ، قَالَتْ لأَهْلِهَا : يَا وَيلَهَا ! أَينَ تَذْهَبُونَ بِهَا ؟ يَسْمَعُ صَوتَهَا كُلُّ شَيءٍ إلا الإنْسانَ ، وَلَو سَمِعَ الإنْسَانُ لَصَعِقَ » (٢) رواه البخاري .

الشرح

قال المؤلف في كتابه (رياض الصالحين) باب الإسراع في الجنازة ، الإسراع في الجنازة يشمل الإسراعَ في تجهيزها (٣) ، والإسراعَ في تشييعها ، والإسراعَ في دفنها ، وذلك أن الميت إذا مات فإما أن يكون صالحًا وإما أن يكون سوى ذلك ، فإن كان صالحًا فإن حبسه حيلولة بينه وبين ما أعدَّه له اللَّه من النعيم في قبره ، لأنه ينتقل من الدنيا إلى خير منها وإلى أفضل ، لأنه حين احتضاره ومنازعته الموت يُبَشَّر يقال لروحه : « أبشري برحمة من اللَّه ورضوان » (٤) فيشتاق لهذه البشرى ، فيجب أن يَتَعجل وأن يُعَجَّل به ، فإذا حُبس كان في هذا شيء من الجناية عليه والحيلولة بينه وبين ما أعده اللَّه له من النعيم . وإن كان غير صالح - والعياذ باللَّه - فإنه لا ينبغي أن يكون بيننا وينبغي أن نسارع بالتخلص منه ، ولهذا قال النبي ﷺ « أسرعوا بالجنازة » أسرعوا بها في تجهيزها وتشييعها ودفنها ، لا تؤخروها « فإن تكُ صالحة ؛ فخير تقدمونها إليه » خيرٌ : يعني خير مما انتقلت منه « تقدمونها إليه » لأنها تقدم - جعلنا اللَّه وإياكم منهم - إلى رحمة اللَّه ونعيم وسرور ونور ، فتقدمونها إلى خير « وإن تك سوى ذلك » يعني : ليست صالحة « فشرٌ تضعونه عن رقابكم » تَسْلَمون منه ، لأنه ما لا خير فيه لا خير في بقائه . إذًا يُستفاد من هذا الحديث أنه يُسَنُّ الإسراع بالجنازة وألا تؤخر ، وما يفعله بعض الناس اليوم إذا مات الميت قالوا : انتظروا حتى يَقدم أهله من كل فَجٍّ ، وبعضهم ربما كان في أوربا أو في أمريكا ، وربما طال ذلك يومًا أو يومين ، فهذا جناية على الميت وعصيان لأمر الرسول ﷺ ، « أسرعوا بالجنازة » فإذا جاء أهله إذًا بعد دفنه فإنهم يصلُّون على قبره ، فالأمر واسع والحمد للَّه ، فلماذا يتأخر دفنه حتى يأتوا ؟ وماذا ينفعه من ذلك ؟! إنه لا ينفعه إلا الدعاء له بالصلاة عليه ، وهذا حاصل إذا صلَّوا عليه في قبره ، ولا وجه لهذا الحبس إطلاقًا ، فإن قال قائل : أليس النبي ﷺ مات يوم الاثنين ولم يدفن إلا ليلة الأربعاء ؟! قلنا : بلى ، لكن الصحابة ﷺ أرادوا ألا يدفنوا الرسول ﷺ حتى يقيموا خليفة على عباد اللَّه بعده ، لئلا تخلو الأرض من خليفة لله فيها ؛ ولهذا لـمَّا تمت مبايعة أبي بكر ﷺ دفنوا النبي ﷺ وهذه علة ظاهرة واضحة . وقوله ﷺ « إن تكُ صالحة ، فخير تقدمونها إليه ، وإن تكُ سوى ذلك ... » يستفاد منه : أنه ينبغي أن يُعَبَّر عن الألفاظ السيئة بما يدل عليها بدون

---

(١) أخرجه البخاري في الجنائز (١٣١٥) ، ومسلم في الجنائز (٥٠) .

(٢) أخرجه البخاري في الجنائز (١٣١٤) .

(٣) المراد بتجهيزها أي : بغلسها وتجهيزها للصلاة عليها .

(٤) انظر الحديث في : ابن ماجه في الزهد (٤٢٦٢) ، وأحمد في مسنده (١٤٠/٦) .

سوء ، لأنه قسيم الصالحة الفاسدة ، ولكن النبي ﷺ عدل عن كلمة (تلك فاسدة) إلى قوله « وإن تك سوى ذلك » وهذا من باب التأدُّب في اللفظ ، وإلا فالمعنى واحد ، والتأدُّب في اللفظ له شأن عجيب ، انظر إلى قوله تعالى عن الجن : ﴿ وَأَنَّا لَا نَدْرِيٓ أَشَرٌّ أُرِيدَ بِمَن فِي ٱلْأَرْضِ أَمْ أَرَادَ بِهِمْ رَبُّهُمْ رَشَدًا ﴾ [الجن : ١٠] لما أرادوا الخير أضافوه إلى الله ﴿ أَمْ أَرَادَ بِهِمْ رَبُّهُمْ رَشَدًا ﴾ ، والشر قالوا : ﴿ أَشَرٌّ أُرِيدَ ﴾ وما قالوا : شر أراده الله ، مع أن الله مريد للخير والشر ، لكن الشر الذي يريده الله ليس شرًّا في فعله بل في مفعولاته ، أما فعله ﷻ فلا شك أنه خير ، لكن يُقَدِّر الشرَّ للخير لحكمة يريدها ﷻ المهم أنه ينبغي للإنسان أن يتأدب في صياغة الألفاظ من غير إخلالٍ بالمعنى ، ويذكر أن ملكًا من الملوك رأى رؤيا ، وهي أن أسنانه قد سقطت ، واهتمَّ لذلك ، فجمع الذين يعبُرون الرؤيا - أي يفسرونها - فقال له واحد : إن حاشيتَك تموت وأهلك معهم . ففزع الملك ، ولم يعجبه هذا التفسير ، فأمر بالرجل فَجُلد ، ثم دعا آخر وقال له ما رأى . قال : إن الملك يكون أطولَ أهله عمرًا . المعنى واحدٌ ، فأكرمه وأجازه ، فالألفاظ لها تأثير ، ولهذا قال الرسول ﷺ : « وإن تك سوى ذلك ، فشر تضعونه عن رقابكم » .

ثم ذكر حديث أبي سعيد الخدري ﷺ : أن الرجل إذا مات وحُمِلَتْ جنازته « فإن كانت صالحة قالت : قدِّموني ، قدِّموني » تقول ذلك بصوت مسموع يسمعه كل شيء إلا الإنسان ، لا يسمعه نعمة من الله ﷻ لأننا لو سمعنا ما يقوله الأموات على نعوشهم لانزعجنا ، تقول « قدِّموني ، قدِّموني » إلى أي شيء .. ؟ إلى ما أعده الله لها من النعيم الذي بُشِّرت به عند الاحتضار .

وإن لم تكن صالحة قالت : « ياويلها أين تذهبون بها » - نعوذ بالله - تدعو بالويل ؛ لأنها ستُقدَّم - نسأل الله العافية - إلى عذاب في القبر ، يُضيَّق عليها القبر حتى تختلف الأضلاع ، ويفتح لها باب إلى النار - نسأل الله العافية - ولا أحد من الأحياء البشر يعلم ويشعر بذلك ، ومن نعمة الله ﷻ أن أخفاه علينا ، ولو علمنا بذلك ما تَدَافَنَّا أبدًا ، لكن الله يخفيه ، وهذا يدل على أن من حق الميت علينا أن نبادر به ، ولذلك قال أهل العلم : يُسَنُّ الإسراع في تجهيز الميت ، إلا إذا مات بغتةً [١] ؛ فإنه ينتظر حتى يُتيقَّن أنه مات ، لأنه يحتمل أن يكون غشية وأنه حيٌّ ، فيُنْتَظَر حتى يتيقن أنه مات ثم نبادر به . والله الموفق .

* * *

١٥٩ - باب تعجيل قضاء الدين عن الميت
والمبادرة إلى تجهيزه إلا أن يموت فجأة فيترك حتى يتيقن موته

٩٤٣ - عن أبي هريرة ﷺ عن النبي ﷺ قال : « نَفْسُ الْمُؤمِنِ مُعَلَّقَةٌ بِدَيْنِهِ حَتَّى يُقْضَى عَنْهُ » [٢] رواه الترمذي وقال : حديث حسنٌ .

---

(١) بغتة : أي فجأة .

(٢) أخرجه الترمذي في الجنائز (١٠٧٨ و ١٠٧٩) ، وابن ماجه في الصدقات (٢٤١٣) ، والبيهقي في سننه (٤٩/٦، ٢٥/٩) ، قوله : « نفس المؤمن معلقة بدينه » أي : محبوسة عن مقامها الكريم .

٩٤٤ - وعن حُصَين بن وَحْوَحٍ ﷺ أنَّ طَلْحَةَ بنَ البَرَاءِ ﷺ مَرِضَ ، فَأَتَاهُ النَّبيُّ ﷺ يَعُودُهُ فَقَالَ : « إنِّي لا أَرَى طَلْحَةَ إلا قَدْ حَدَثَ فِيهِ المَوتُ ، فَآذِنُوني بِهِ ، وَعَجِّلُوا بِهِ ، فَإنَّهُ لا يَنْبَغِي لِجِيفَةِ مُسْلِمٍ أَنْ تُحْبَسَ بَينَ ظَهْرَانَي أَهْلِهِ »[1] رواه أبو داود .

الشرح

قال المؤلف رحمه الله في كتابه : (رياض الصالحين) : باب تعجيل قضاء الدَّينِ عن الميت وإسراع تجهيزه إلا أن يموت فجأة فينتظر حتى يتيقن موته .

وذلك يدل على أن الإنسان إذا مات فإنه يجب على أهله أن يبادروا بقضاء دَينه إذا كان عليه دين ، ولا يجوز لهم أن يؤخروا ذلك ، لأن المال الذي ورثوه من ماله ليس لهم فيه حق إلا إذا انتهى الدَّين ؛ يعني : الورثة ليس لهم حق في شيء من التركة حتى يُقضى الدَّين - ولهذا قال الله تعالى في آيات المواريث : ﴿ مِنۢ بَعۡدِ وَصِيَّةٖ يُوصَىٰ بِهَآ أَوۡ دَيۡنٍ غَيۡرَ مُضَآرّٖ ﴾ [النساء: ١٢] فليس للورثة حق أن يأخذوا شيئًا من التركة حتى يقضوا دين الميت ، ويجب عليهم المبادرة في قضاء الدين ، إلا إذا كان مُؤَجَّلًا ؛ فإنه يطلب من أهل الدَّين أن ينتظروا ، فإن أَبَوا فإنه يُعَجَّل لهم ، وإلا إذا وثَّق الورثة برهنٍ ، أو كفيل . وقد تهاون الناس في قضاء الدَّين عن الأموات ، فتجد الميت يموت وعليه الدين ، فيلعب الورثة بالتركة ويؤخرون قضاء الدَّين ، فيكون - مثلًا - عليه مئات الآلاف ، وترك عقارات كثيرة ، فيقول الورثة : لا نبيع العقارات ، بل ننتظر حتى تزيد العقارات ثم نبيع ، وهذا حرام ، الواجب أن يبادروا حتى ولو باعوا الشيء بنصف الثمن ، لأن المال ليس لهم بل هو للميت ، ومن ذلك : إذا كان الإنسان قد اقترض من صندوق التنمية العقارية ولم يدفع أقساطًا ، تجد الورثة يلعبون ولا يوفون صندوق التنمية ، وربما يسوِّل لهم الشيطان أن يرفعوا إلى الحكومة طلب العفو عنه ثم يقولون ننتظر متى جاء الردُّ فربما يأتي بالرفض ، وربما يُعْفَى عنه ، لكن لا يُعْلَم ، فلا يحل لهم ذلك ، والواجب أن يبادروا بقضاء الدَّين عن الميت ، أما إذا كان الميت قد أَوفَى ما عليه من أقساط في حياته وبقي البيت مرهونًا لصندوق التنمية ؛ فإن الميت لا يبرأ بذلك ، ولا يلحقه شيء ، بعض الناس من أهل الورع إذا مات الميت وقد اقترض من صندوق التنمية وقد وفَّى بجميع الأقساط التي حلَّت عليه في حياته ؛ يظنون أن الميت تتعلق روحه بهذا الدين ، وليس الأمر كذلك ، ما دام هناك رهن ، فالميت بريء منه ، ويدل على هذا أن النبي ﷺ مات وعليه دين لرجل من اليهود وقد أعطاه رهنًا درعه[2] . فهل تقول : إن نفس الرسول ﷺ معلقة بالدَّين ! لا ، لأنه قد رهنه شيئًا يمكنه الاستيفاء منه .

ثم ذكر المؤلف رحمه الله حديث أبي هريرة أن النبي ﷺ قال : « نفس المؤمن معلقة بدينه حتى يُقضى عنه » يعني : أن نفسه وهو في قبره معلقة بالدَّين ، كأنها - والله أعلم - تتألم من تأخير الدَّين ، ولا تفرح بنعيم ولا تنبسط ، لأن عليه دينًا ومن ثمَّ قلنا : إنه يجب على الورثة أن يبادروا بقضاء الدَّين .

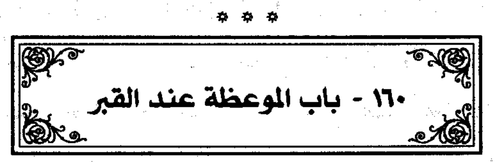
---

(١) أخرجه أبو داود في الجنائز (٣١٥٩) .

(٢) انظر القصة في : البخاري في المغازي (٤٤٦٧) ، والترمذي في البيوع (٤/١٢١) ، وأحمد في مسنده (١/٢٣٦) .

أما الحديث الثاني : فقد تقدم الكلام عليه وهو أن يُسَنَّ الإسراع في الجنازة ، ولهذا قال : « لا ينبغي لجيفة مسلم أن تحبس بين ظهرانيّ أهلها » لكن لو حبست لساعة أو ساعتين لانتظار كثرة الجمع ، كما لو مات في أول النهار مثلًا يوم جمعة وقالوا : ننتظر للصلاة لكثرة الجمع ؛ فهذا لا بأس به - إن شاء اللَّه - وهو تأخير لا يضر واللَّه الموفق .

* * *



١٦٠ - باب الموعظة عند القبر

٩٤٥ - عن علي ﷺ قال : كُنَّا في جِنَازَةٍ في بَقِيعِ الغَرْقَدِ ، فأتانا رسول اللَّه ﷺ فَقَعَدَ ، وَقَعَدْنَا حَولَهُ وَمَعَهُ مِخْصَرَةٌ ، فَنَكَسَ وَجَعَلَ يَنْكُتُ بِمِخصَرتهِ ، ثم قال : « مَا منْكُمْ مِن أحَدٍ إلا وَقَدْ كُتِبَ مَقْعَدُهُ مِنَ النَّارِ ، ومَقْعَدُهُ مِنْ الجنَّة » فقالوا : يا رَسُولَ اللَّهِ ، أفَلا نَتَّكِلُ عَلى كِتَابِنَا ؟ فقال : « اعْمَلُوا ؛ فَكُلٌّ مُيَسَّرٌ لِمَا خُلِقَ لَهُ » (١) وذكَرَ تمامَ الحديث . متفقٌ عليه .

الشرح

قال المؤلف - رحمه اللَّه تعالى - في كتابه (رياض الصالحين) : باب الموعظة عند القبر .

والموعظة : هي تذكير الناس بما يُلينُ قلوبهم ، إما بترغيب في خير ، وإما بترهيب من شر هذه هي الموعظة ، وأعظم واعظٍ وأفضله وأصلحه للقلب هو القرآن الكريم كما قال اللَّه تعالى : ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ قَدْ جَآءَتْكُم مَّوْعِظَةٌ مِّن رَّبِّكُمْ وَشِفَآءٌ لِّمَا فِى ٱلصُّدُورِ وَهُدًى وَرَحْمَةٌ لِّلْمُؤْمِنِينَ ﴾ [يونس : ٥٧] فالقرآن - لمن كان له قلب أو ألقى السمع وهو شهيد - هو أعظم واعظ ، لكن قلوب أكثر الناس لا تتعظ بالقرآن ، لأن بها قسوة وقد قال اللَّه تعالى فيمن إذا تُتلى عليه الآيات : ﴿ قَالَ أَسَٰطِيرُ ٱلْأَوَّلِينَ ﴾ (٢) [المطففين : ١٣] - والعياذ باللَّه - قال اللَّه تعالى : ﴿ كَلَّا ۖ بَلْ ۜ رَانَ عَلَىٰ قُلُوبِهِم مَّا كَانُوا۟ يَكْسِبُونَ ﴾ (٣) [المطففين : ١٤] يعني : ختم عليها ما كانوا يكسبون من الأعمال السيئة حتى يشعروا بالقرآن كما يشعر به المتقون الذين مَنَّ اللَّه عليهم - نسأل اللَّه أن يمنَّ علينا وعليكم ، ولكن مع ذلك قد يأتي إنسان أعطاه اللَّه بيانًا وفصاحة وعلمًا فيعظ الناس ويذكرهم ويلينُ قلوبهم بما لا تلين به إذا تُلي عليها القرآن ، وهذا شيء مُشاهدٌ ومن ذلك الموعظة عند القبر ، فقد ذكر المؤلف رحمه الله حديث علي بن أبي طالب قال : « كنا في جنازة ببقيع الغرقد » [المعروف الآن بالمدينة] - والغرقد : نوع من الشجر معروف ، وسُمِّي ببقيع الغرقد لكثرة وجود هذا النوع من الشجر به ، وكان مدفن أهل المدينة ، وقد قال النبي ﷺ : « اللَّهم اغفر لأهل بقيع الغرقد » قالها ثلاثًا (٤) . فكانوا في جنازة فجاء النبي ﷺ فقعد وقعد الناس حوله ؛ لأن

---

(١) أخرجه البخاري في تفسير القرآن (٤٩٤٩) ، ومسلم في القدر (٦ ، ٧) .

(٢) قوله ﴿ أَسَٰطِيرُ ٱلْأَوَّلِينَ ﴾ أي : أباطيل وخرافات الأقدمين .

(٣) قوله ﴿ رَانَ ﴾ أي : صدأ غطى على قلوبهم .

(٤) أخرجه مسلم في الجنائز (١٠٢) ، والبيهقي في السنن (٧٩/٤) ، والألباني في إرواء الغليل (٢٣٦/٣) .

كل الناس يحبون أن يكونوا جلساء للنبي ﷺ جلسوا حوله وفي يده مِخصرة ، يعني عود ، فنكس رأسه وجعل ينكت بالعود كالمهموم ﷺ ثم قال : « ما منكم من أحد إلا وقد كُتب مقعده من الجنة ومقعده من النار » كل إنسان من بني آدم مكتوب مقعده من الجنة إن كان من أهل الجنة ، ومقعده من النار إن كان من أهل النار ، وذلك قبل خلق السموات والأرض بخمسين ألف سنة - نسأل الله أن يجعلنا وإياكم من السعداء - لما قال هذا الكلام قالوا : يا رسول الله ، أفلا ندع العمل ونتَّكل على الكتاب ؟! يعني ما دام الأمر مكتوب فما حاجة العمل ؟! فقال لا تدعوا العمل ، فالجنة لا تأتي إلا بعمل ، والنار لا تأتي إلا بعمل ، فلا يدخل النار إلا من عَمِلَ عَمَلَ أهل النار ، ولا يدخل الجنة إلا من عَمِلَ عَمَلَ أهل الجنة ، قال ﷺ : « اعملوا ، فكلٌّ مُيسر لما خُلق له » أما أهل السعادة فييسرون لعمل السعادة ، وأما أهل الشقاوة فييسرون لعمل أهل الشقاوة ، ثم تلا قوله تعالى : ﴿ فَأَمَّا مَنْ أَعْطَىٰ وَاتَّقَىٰ ۝ وَصَدَّقَ بِالْحُسْنَىٰ ۝ فَسَنُيَسِّرُهُ لِلْيُسْرَىٰ ۝ وَأَمَّا مَنْ بَخِلَ وَاسْتَغْنَىٰ ۝ وَكَذَّبَ بِالْحُسْنَىٰ ۝ فَسَنُيَسِّرُهُ لِلْعُسْرَىٰ ﴾ [الليل : ٥ - ١٠]

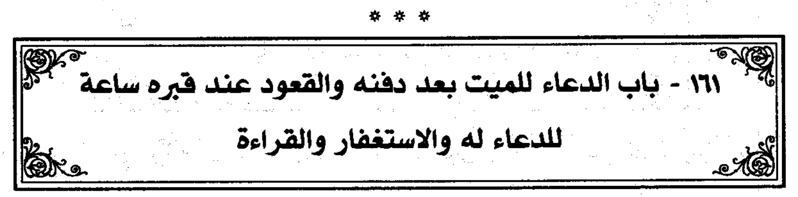
قال : اعملْ لا تتكلْ على الكتاب ، الكتاب أمر مجهول ما ندري ما فيه ، لكن من عمل خيرًا فهو بُشْرَى أنه من أهل الخير ، ومن عمل سوى ذلك فهذا إنذار ، قال : « اعملوا ، فكل ميسر لما خُلق له » فأنت يا أخي إذا رأيت الله قد يَسر لك عمل أهل السعادة فأبشرْ أنك من أهل السعادة ، وإذا رأيت نفسك أنك تنقاد للصلاة ، للزكاة ، لفعل الخير ، عندك تقوى من الله ﷻ فاعلم واستبشر أنك من أهل السعادة ، لأن الله قال : ﴿ فَأَمَّا مَنْ أَعْطَىٰ وَاتَّقَىٰ ۝ وَصَدَّقَ بِالْحُسْنَىٰ ۝ فَسَنُيَسِّرُهُ لِلْيُسْرَىٰ ﴾ وإن رأيت العكس ، رأيت نفسك تنشرح بفعل السيئات - والعياذ بالله - وتضيق ذرعًا بفعل الطاعات فاحذر ، أنقذ نفسك ، وتُب إلى الله ﷻ حتى يُيسر الله لك ، واعلم أنك إذا أقبلت على الله أقبل الله عليك حتى إذا أذنبت مهما أذنبت ، قال الله تعالى : ﴿ قُلْ يَا عِبَادِيَ الَّذِينَ أَسْرَفُوا عَلَىٰ أَنْفُسِهِمْ لَا تَقْنَطُوا مِنْ رَحْمَةِ اللَّهِ ۚ إِنَّ اللَّهَ يَغْفِرُ الذُّنُوبَ جَمِيعًا ﴾ [الزمر : ٥٣] وعلى هذا فإذا جاء الإنسان إلى المقبرة وجلس الناس حوله فهنا يحسن أن يعظهم بما يناسب ، بمثل هذا الحديث ، أو حديث عبد الرحمن بن سمرة حين جاء الرسول ﷺ انتهى إلى جنازة رجل من الأنصار ووجدهم يحفرون القبر ولم يتموا حفره فجلس وجلسوا حوله ، كأن على رؤوسهم الطير ، احترامًا لرسول الله ﷺ وإجلالًا لهذا المجلس وهيبة ، فجعل يحدثهم أن الإنسان إذا جاءه الموت نزلت إليه ملائكة الرحمة أو ملائكة العذاب ، وجعل يحدثهم بحديث طويل يعظهم به [١] ، هذه هي الموعظة عند القبر ، أما أن يقوم القائم عند القبر يتكلم كأنه يخطب ؛ فهذا لم يكن من هدى الرسول ﷺ ، فليس من هدي الرسول ﷺ أن يقف الإنسان بين الناس يتكلم كأنه يخطب ، فهذا ليس من السنة ؛ فالسُّنة أن تفعل كما فعل الرسول ﷺ فقط ، فإذا كان الناس جلوسًا ولم يدفن الميت فاجلس في انتظار دفنه وتحدث حديث المجالس حديثًا عاديًا ، وقد أخذ بعض الناس ترجمة النووي رَحِمَهُ اللَّهُ وترجمة البخاري في صحيحه « باب الموعظة عند القبر » ، أخذوا منها أن يكون الرجل خطيبًا في الناس برفع صوت : ويا عباد الله . وما أشبه ذلك من

---

(١) انظر الحديث في البخاري في الجنائز (١٣٧٤) .

الكلمات التي تقال في الخطب ، وهذا فهم خاطئ غير صحيح ، فالموعظة عند القبر تُقَيَّد بما جاء في السُّنة فقط ، لئلا تتخذ المقابر منابر ، فالمواعظ الهادئة يكون الإنسان فيها جالسًا ، ويبدو عليه أثر الحزن والتفكر وما أشبه ذلك وليست موعظة وكأنه ينذر الجيش ، لكن فضل اللَّه يؤتيه من يشاء ، فبعض الناس يفهم شيئًا من النصوص فهمًا غير مراد بها ، واللَّه يهدي من يشاء إلى صراط مستقيم .

* * *



١٦١ - باب الدعاء للميت بعد دفنه والقعود عند قبره ساعة للدعاء له والاستغفار والقراءة

٩٤٦ - عن أبي عَمْرو - وقيل : أبو عبد اللَّه ، وقيل : أبو لَيلى - عُثْمَانَ بن عَفَّانَ ﷺ قال : كانَ النَّبيُّ ﷺ إذا فَرَغَ منْ دَفنِ المَيِّتِ وقفَ عَلَيهِ ، وقال : « اسْتَغْفِرُوا لأَخِيكُم وسَلُوا لَهُ التَّثبيتَ ؛ فَإِنَّهُ الآن يُسأَلُ » [1] رواه أبو داود .

٩٤٧ - وعن عمرو بن العاص ﷺ قال : إذا دَفنتُموني ، فأَقِيمُوا حَولَ قَبرِي قَدْرَ مَا تُنحر جَزورٌ ويُقَسَّمُ لحمُها ؛ حتى أَستأنِسَ بِكم ، وأَعْلَم مَاذا أُراجعُ بِهِ رُسُلَ رَبِّي [2] . رواه مسلم . وقد سبق بطولِهِ .

قال الشَّافِعِيُّ رحمه الله : وَيُسْتَحبُّ أَن يُقرَأَ عِنْدَهُ شيءٌ مِنَ القُرآنِ ، وَإِن خَتَمُوا القُرآن عِنْدَهُ كانَ حَسَنًا .

الشرح

قال المؤلف رحمه الله في كتابه (رياض الصالحين) : باب الوقوف بعد دفن الميت والدعاء له والاستغفار له ، وذلك أن الميت إذا دُفن فإنه يأتيه ملكان يسألانه عن ربه ودينه ونبيه ، فكان النبي ﷺ إذا فرغ من دفن الميت وقف عنده وقال : « استغفروا لأخيكم واسألوا له التثبيت فإنه الآن يُسأل » فيسنُّ للإنسان - إذا فرغ الناس من دفن الميت - أن يقف عنده ويقول : « اللَّهم اغفر له » ثلاث مرات ، « اللَّهم ثبته » ثلاثًا ، لأن النبي ﷺ كان غالب أحيانه إذا دعا دعا ثلاثًا ، ثم ينصرف ولا يجلس بعد ذلك لا للذكر ولا للقراءة ولا للاستغفار ، هكذا جاءت به السُّنة ، أما ما ذكره رحمه الله عن عمرو بن العاص ﷺ أنه أمر أهله أن يقيموا عنده إذا دفنوه قدر ما تُنحر جزور قال : لعلي أستأنس بكم وأراجع ما أقوله لرسل ربي من الملائكة . فهذا اجتهاد منه ﷺ لكنه اجتهاد لا نرضى عنه ، لأن هدي النبي ﷺ أكمل من هدى غيره ، ولم يكن النبي ﷺ يقف أو يجلس عند القبر بعد الدفن قدر ما تنحر الجزور ويقسم لحمها ؛ ولم يأمر أصحابه بذلك ، غاية ما هنالك أنه أمرهم أن يقفوا على القبر ويستغفروا لصاحبه ويسألوا له التثبيت فقط ، هذا هو السُّنة ،

---

(١) أخرجه أبو داود في الجنائز (٣٢٢١) .

(٢) أخرجه مسلم في الإيمان (١٩٢) ، والإمام أحمد في مسنده (١٩٩/٤) ، قوله « جزور » : ما يصلح أن يذبح من الإبل ذكرًا كان أو أنثى .

ثم ينصرف الناس ، وأما القراءة عند القبر : فالأصح أنها مكروهة ، وأنه يُكره للإنسان أن يذهب إلى القبر ثم يقف عنده ويقرأ ؛ لأن هذا من البدع ، وقد قال النبي ﷺ « كل بدعة ضلالة » (١) وأقل أحوالها أن تكون مكروهة . والله الموفق .

* * *

١٦٢ - باب الصدقة عن الميت والدعاء له

قال الله تعالى : ﴿ وَالَّذِينَ جَاءُو مِنْ بَعْدِهِمْ يَقُولُونَ رَبَّنَا اغْفِرْ لَنَا وَلِإِخْوَانِنَا الَّذِينَ سَبَقُونَا بِالْإِيمَانِ ﴾ [الحشر : ١٠] .

٩٤٨ - وعَنْ عَائِشَةَ رضي الله عنها أَنَّ رَجُلًا قال للنَّبِيِّ ﷺ : إنَّ أُمِّي افْتُلِتَتْ نَفْسُها وَأُرَاهَا لو تَكَلَّمَتْ ، تَصَدَّقَتْ ، فَهَل لَها أَجْرٌ إن تصَدَّقْتُ عَنْهَا ؟ قال : « نَعَمْ » (٢) متفقٌ عليه .

٩٤٩ - وعن أبي هُرَيرَةَ رضي الله عنه أَنَّ رسول الله ﷺ قَالَ : « إذا مَاتَ الإنسَانُ انقَطَعَ عَمَلُهُ إلا مِنْ ثَلاثٍ : صَدقَةٍ جَارِيَةٍ ، أَو عِلمٍ يُنْتَفَعُ بِهِ ، أَو وَلَدٍ صَالِحٍ يَدعُو له » (٣) رواه مسلم .

الشرح

قال المؤلف - في (رياض الصالحين) - : باب الصدقة عن الميت والدعاء له ثم ساق قول الله تعالى : ﴿ وَالَّذِينَ جَاءُو مِنْ بَعْدِهِمْ ﴾ أي : من بعد الصنفين السابقين وهم المهاجرون والأنصار الذين تبوءوا الدار والإيمان من قبلهم ، لأن هذه الأمة ثلاثة أقسام : مهاجرون ، وأنصار ، ومن جاءوا من بعدهم ، وقد جمع الله ذلك في آيتين في القرآن منها قوله تعالى : ﴿ وَالسَّابِقُونَ الْأَوَّلُونَ مِنَ الْمُهَاجِرِينَ وَالْأَنْصَارِ وَالَّذِينَ اتَّبَعُوهُمْ بِإِحْسَانٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا عَنْهُ ﴾ [التوبة : ١٠٠] وكذلك في سورة الحشر : ﴿ لِلْفُقَرَاءِ الْمُهَاجِرِينَ الَّذِينَ أُخْرِجُوا مِنْ دِيَارِهِمْ وَأَمْوَالِهِمْ يَبْتَغُونَ فَضْلًا مِنَ اللَّهِ وَرِضْوَانًا وَيَنْصُرُونَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ أُولَئِكَ هُمُ الصَّادِقُونَ ۝ وَالَّذِينَ تَبَوَّءُو الدَّارَ وَالْإِيمَانَ مِنْ قَبْلِهِمْ يُحِبُّونَ مَنْ هَاجَرَ إِلَيْهِمْ وَلَا يَجِدُونَ فِي صُدُورِهِمْ حَاجَةً مِمَّا أُوتُوا وَيُؤْثِرُونَ عَلَى أَنْفُسِهِمْ وَلَوْ كَانَ بِهِمْ خَصَاصَةٌ وَمَنْ يُوقَ شُحَّ نَفْسِهِ فَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ ۝ وَالَّذِينَ جَاءُو مِنْ بَعْدِهِمْ يَقُولُونَ رَبَّنَا اغْفِرْ لَنَا وَلِإِخْوَانِنَا الَّذِينَ سَبَقُونَا بِالْإِيمَانِ ﴾ (٤) [الحشر : ٨- ١٠] فإذا رأيت الرجل يترحم على الصحابة ويستغفر لهم ويحبهم فاعلم أنه منهم - أي يحشر معهم - وإذا رأيت الرجل يسبُّ الصحابة ولا يترحم عليهم ولا يستغفر لهم ، فإنهم بريئون منه وهو بريء

---

(١) أخرجه مسلم في الجمعة (٤٣) ، وابن ماجه في السنن (٤٢) ، وأحمد في مسنده (٣/٣١٠) .

(٢) أخرجه البخاري في الجنائز (١٣٨٨) ، ومسلم في الزكاة (٥١) ، ومعنى قوله : « أفتلتت » أي ماتت فجأة .

(٣) أخرجه مسلم في الوصية (١٤) ، وأبو داود في الوصايا (٢٨٨٠) ، والترمذي في الأحكام (١٣٧٦) ، والإمام أحمد في مسنده (٢/٣٧٢) ، وقوله « انقطع عمله » أي : فائدة عمله وتجديد ثوابه .

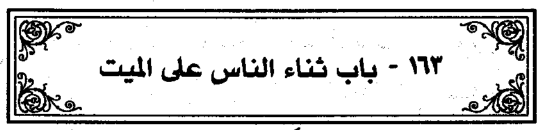
(٤) قوله ﴿ تَبَوَّءُو ﴾ أي : نزلوا المدينة وأقاموا بها .

منهم ، وليس له حظ في هذه الأمة ، لأن الصحابة هم الواسطة بيننا وبين رسول الله ﷺ الذين بلغوا شريعة الله عن رسول الله ﷺ ، والرسول ﷺ هو الواسطة التي بيننا وبين ربنا ، الذي بلغنا كلام ربنا ، فإذا طعن أحد في الواسطة التي بيننا وبين رسول الله ﷺ فهو طعن في الشريعة كلها ، وخاصة الطعن في أبي بكر وعمر ، لأنهما أفضل أتباع الرسل على الإطلاق ، ليس في أتباع موسى ولا إبراهيم ولا عيسى ولا محمد أفضل من أبي بكر وعمر ، فمن طعن فيهما ؛ فإنه ليس في قلبه شيء من الإيمان - والعياذ بالله - وكذلك مَنْ سب الصحابة وقدح فيهم ؛ فإنه قدح في دين الله ﷻ ولهذا قال : ﴿ وَالَّذِينَ جَاءُو مِنۢ بَعْدِهِمْ يَقُولُونَ رَبَّنَا اغْفِرْ لَنَا وَلِإِخْوَانِنَا الَّذِينَ سَبَقُونَا بِالْإِيمَانِ ﴾ [الحشر: ١٠] .

ثم استدل بحديث عائشة رضي الله عنها أن رجلًا قال : يا رسول الله ، إن أمي افتُلتت نفسها - يعني : ماتت ، ولو تكلمت لتصدقت ، أفأتصدق عنها ؟ قال : « نعم » ؛ فدل ذلك على جواز الصدقة على الميت ، فتنوي إذا أردت أنْ تتصدق أنَّ هذه عن أمك ، عن أبيك ، عن أخيك ،عن أختك ، عن أي إنسان مُسْلم ميت ، فإن ذلك ينفعه .

وأما الدعاء للميت : ففي حديث أبي هريرة : « إذا مات الإنسان انقطع عمله » لأن دار العمل هي دار الدنيا ، فإذا مات انتهى ، فليس هناك عمل بعد الموت « إذا مات الإنسان انقطع عمله إلا من ثلاث : صدقة جارية » يعني : هو نفسه يضع وقفًا ، عقارًا ، أي شيء للفقراء « أو علم ينتفع به » يعني : من بعده « أو ولدٍ صالح يدعو له » لأن غير الصالح لا يدعو لوالديه ولا يبرهما ، لكن الصالح هو الذي يدعو لوالديه بعد موتهما ، ولهذا يتأكد علينا أن نحرص غاية الحرص على صلاح أولادنا ، لأن صلاحَهم صلاحٌ لهم وخير لنا ، حيث يدعون لنا بعد الموت ، وأفضل هذه الثلاثة : العلم الذي ينتفع به ، وأضرب لكم مثلًا بل أمثالًا كثيرة : أبو هريرة رضي الله عنه من أفقه الصحابة بعد الرسول ﷺ يسقط أحيانًا على الأرض من شدة الجوع ، ومع ذلك أكثر المسلمين الآن لا يقرؤون إلا رواياته ؛ فهو الذي نقل لنا هذه الأحاديث ، وهي صدقة جارية إذا ما قورنت بأي صدقات أخرى في عهده ! . الإمام أحمد ، شيخ الإسلام ابن تيمية ، يُدَرس لنا وهو في قبره لأن كتبه بين أيدينا ، أكبر خليفة ، أكبر تاجر في عهد ابن تيمية رحمه الله هل وصل خبرهم إلينا الآن ؟! أبدًا ، إذًا العلم أنفع الثلاثة ، فالصدقة الجارية قد تتعثر ، والولد الصالح قد يموت ، لكن العلم النافع الذي ينتفع به المسلمون باقٍ إلى ما شاء الله! فاحرص أخي على العلم ؛ فهو لا يعدله شيء ، كما قال الإمام أحمد لمن صحت نيته . فاحرص على العلم الشرعي وعلى مساعداته كالنحو وما أشبه ذلك ، حتى ينفعك الله وينفع بك ، والله الموفق .

* * *



١٦٣ - باب ثناء الناس على الميت

٩٥٠ - عن أنسٍ ﷺ قال : مَرُّوا بجنَازَةٍ فَأَثنوا عَلَيهَا خيرًا ، فقال النبيُّ ﷺ : « وَجَبَتْ » ، ثم مَرُّوا بِأُخرَى ، فَأَثْنوا عَليها شرًّا ، فَقَالَ النَّبيُّ ﷺ : « وَجَبَتْ » فَقَالَ عُمَرُ بنُ الخَطَّابِ ﷺ : ما وَجَبَتْ ؟ قَالَ : « هذا أَثنَيتُمْ عَلَيهِ خَيرًا ، فَوَجَبَتْ لَهُ الجنَّةُ ، وهذا أَثنيتُم عليه شَرًّا ، فَوَجَبَتْ لَهُ النَّارُ ، أنتُم شُهَداءُ اللَّهِ في الأرضِ »[1] متفقٌ عليه .

٩٥١ - وعن أَبي الأَسودِ قال : قَدِمتُ المَدِينَةَ ، فَجَلَسْتُ إلى عُمَرَ بنِ الخَطَّابِ ﷺ فَمَرَّتْ بِهِمْ جِنَازَةٌ ، فَأُثني عَلى صَاحِبِها خَيرًا ، فقال عُمَرُ : وجَبَت ، ثم مُرَّ بِأُخرَى ، فَأُثني على صَاحِبِها خيرًا ، فَقَالَ عُمَرُ : وجَبَت ، ثم مُرَّ بِالثَّالِثَةِ ، فَأُثنِي عَلى صَاحِبِها شَرًّا ، فَقَالَ عُمَرُ : وَجَبَتْ ، قَالَ أَبُو الأَسْودِ : فَقُلْتُ : وما وجَبَتْ يَا أَميرَ المُؤمِنِين ؟ قال : قُلْتُ كما قَالَ النَّبيُّ ﷺ : « أَيُّمَا مُسلِم شَهِدَ لهُ أَربعَةٌ بِخَير ، أَدخَلَهُ اللَّهُ الجَنَّةَ » فَقُلنَا : وثَلاثَةٌ ؟ قال : « وثَلاثَةٌ » فقلنا : واثنَانِ ؟ قال : « واثنَانِ » ثُمَّ لَم نَسأَلْهُ عَنِ الواحِدِ[2] . رواه البخاري .

الشرح

قال المؤلف رحمه الله في كتابه (رياض الصالحين) : باب ثناء الناس على الميت . ثناء الناس على الميت يعني : ذكره بخير أو بشر ؛ فالميت إذا مات فإما أن يثني الناس عليه خيرًا ، وإما شرًّا حسب ما يعلمون من حاله . ثم ذكر المؤلف حديث أنس ﷺ وحديث أبي الأسود مع عمر بن الخطاب ، ففي حديث أنس أن النبي ﷺ مُرَّ بجنازة في مجلسه فأثنوا على صاحبها خيرًا فقال : « وجبت » ثم مَرُّوا بجنازة أخرى فأثنوا عليها شرًّا فقال النبي ﷺ : « وجبت » فقال عمر بن الخطاب : ما وجبت يا رسول الله ، قال : « أثنيتم على الأول خيرًا فوجبت له الجنة ، وأثنيتم على الثاني شرًّا فوجبت له النار ، أنتم شهداء الله في الأرض » والثاني كأنه - والله أعلم - من المنافقين ، وقد كان المنافقون في عهد الرسول ﷺ موجودين في المدينة بكثرة ، يظهرون الإسلام ويبطنون الكفر - والعياذ بالله - والمنافقون في الدرك الأسفل من النار إلا من تاب ، وفي هذا : دليل على أن المسلمين إذا أثنوا على الميت خيرًا ؛ دلَّ ذلك على أنه من أهل الجنة فوجبت له الجنة ، وإذا أثنوا عليه شرًّا دلَّ ذلك على أنه من أهل النار فوجبت له النار ، ولا فرق في هذا بين أن تكون الشهادة في عهد النبي ﷺ أو بعده ؛ لأن حديث أبي الأسود مع عمر بن الخطاب ﷺ كان بعد النبي ﷺ ، وقد تنازل النبي ﷺ إلى أن ذكر من شهد له اثنان بخير كان من أهل الجنة ، ومن عقيدة أهل السُّنة والجماعة أننا لا نشهد لأحدٍ بجنة أو نار إلا من يشهد له النبي ﷺ ، فنشهد لمن شهد له الرسول ﷺ بالجنة ، ونشهد بالنار لمن شهد له بالنار ، فمثال من شهد له بالجنة الخلفاء الأربعة : (أبو بكر ، وعمر ، وعثمان ، وعلي) وكذلك بقية العشرة

---

(١) أخرجه البخاري في الجنائز (١٣٦٧) ، ومسلم في الجنائز (٦٠) .

(٢) أخرجه البخاري في الجنائز (١٣٦٨) .

المبشَّرين بالجنة فإن النبي ﷺ قال : « أبو بكر في الجنة ، وعمر في الجنة ، وعثمان في الجنة ، وعلي في الجنة ، وسعد بن أبي وقاص في الجنة ، وسعيد بن زيد في الجنة ، وعبد الرحمن بن عوف في الجنة ، وأبوعبيدة بن الجراح في الجنة ، والزبير بن العوام في الجنة » (١) **هؤلاء عشرة جعلهم النبي ﷺ جميعًا من أهل الجنة ، وعُكاشة بن المُحصن لما أخبر النبي ﷺ :** « أنه يدخل من هذه الأمة سبعون ألفًا بلا حساب أو عذاب » **قال : يا رسول الله ادعُ الله أن يجعلني منهم . قال :** « أنت منهم » **فقال آخر : يا رسول الله ادع الله أن يجعلني منهم . قال :** « سبقك بها عُكّاشة » (٢) .

ثابت بن القيس ﷺ كان جهوري الصوت ، ولما نزل قوله تعالى : ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَرْفَعُوٓاْ أَصْوَٰتَكُمْ فَوْقَ صَوْتِ ٱلنَّبِيِّ وَلَا تَجْهَرُواْ لَهُۥ بِٱلْقَوْلِ كَجَهْرِ بَعْضِكُمْ لِبَعْضٍ أَن تَحْبَطَ أَعْمَٰلُكُمْ وَأَنتُمْ لَا تَشْعُرُونَ ﴾ (٣) [الحجرات : ٢] **خاف ﷺ وبقي في بيته محبوسًا يبكي يخشى أن يكون حبط عمله ، لأنه جهوري الصوت ، ففقده النبي ﷺ فأرسل إليه ، فأخبره الخبر ، فقال :** « بل تعيش حميدًا ، وتقتل شهيدًا ، وتدخل الجنة » **فكل من شهد له النبي ﷺ بالجنة نشهد له ، ومن شهد له بالنار فإننا نشهد له بالنار ، وقد شهد النبي ﷺ لجماعة بالنار ، وكذلك في القرآن ، قال الله تعالى في أبي لهب وهو عم النبي ﷺ :** ﴿ سَيَصْلَىٰ نَارًا ذَاتَ لَهَبٍ ۝ وَٱمْرَأَتُهُۥ حَمَّالَةَ ٱلْحَطَبِ ۝ فِى جِيدِهَا حَبْلٌ مِّن مَّسَدٍ ﴾ (٤) [المسد : ٣- ٥] **وأخبر ﷺ أن عمه أبا طالب في ضحضاح من نار وعليه نعلان يغلي منهما دماغه (٥) - والعياذ بالله - وجاءه رجل فقال : يا رسول الله ، أين أبي ؟ . فقال :** « أبوك في النار » (٦) **وأخبر ﷺ :** « أن عمرو بن لُحي الخزاعي يجر قُسطه في النار » (٧) .

قال شيخ الإسلام ابن تيمية : وكذلك من أجمعت الأمة على الثناء عليه فإننا نشهد له بالجنة ، فمثلًا الإمام أحمد رحمه الله ، الشافعي ، أبوحنيفة ، مالك ، سفيان الثوري ، سفيان بن عيينة ، وغيرهم من الأئمة الذين أجمعت الأمة على الثناء عليهم ، فنشهد لهم بأنهم من أهل الجنة ، شيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله أجمع الناس بالثناء عليه إلا من شذَّ ، ومن شذَّ شذ في النار ، نشهد له بالجنة على هذا الرأي ، ويؤيد هذا الرأي حديث عمر ﷺ الذي رواه البخاري أن الرسول ﷺ قال : « من شهد له أربعة وثلاثة واثنان » **ثم لم يسألوه عن الواحد . نسأل الله تعالى أن يجعلنا وإياكم من أهل الجنة المحرمين على النار .**

* * *

---

(١) أخرجه أبو داود في السنن (٤٦٥٠) ، والترمذي في السنن (٣٧٤٧) ، وابن ماجه في السنن (١٣٣) ، وأحمد في مسنده (١/١٨٨) .

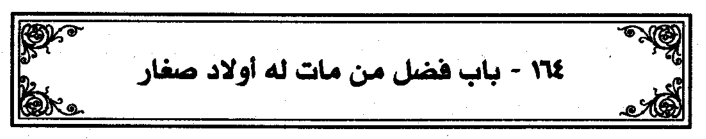
(٢) أخرجه البخاري في الرقاق (٦٤٧٢) ، ومسلم في الإيمان (٣٧٤) ، وأحمد في مسنده (٢/٤٠٠) .

(٣) قوله : ﴿ وَلَا تَجْهَرُواْ لَهُۥ بِٱلْقَوْلِ ﴾ : نهيٌ عن مساواة أصواتهم بصوته ﷺ ، قوله : ﴿ تَحْبَطَ أَعْمَٰلُكُمْ ﴾ أي : يبطل ثواب أعمالكم بفعل المنهي عنه .

(٤) قوله : ﴿ جِيدِهَا ﴾ أي : عنقها ، وقوله : ﴿ مَّسَدٍ ﴾ أي : حبل من ليف ،

(٥) سبق تخريجه . (٦) أخرجه أبو داود في السنن (٤٧١٨) .

(٧) انظر الحديث في : مسلم في الجنة وصفة نعيمها (٥١) ، وأحمد في (٢/٢٧٥) .



١٦٤ - باب فضل من مات له أولاد صغار

٩٥٢ - عن أنسٍ ﷺ قَالَ : قَالَ رسول اللَّه ﷺ : « مَا مِنْ مُسلمٍ يَمُوتُ له ثَلاثَةٌ لم يَبْلُغُوا الحِنْثَ ؛ إلا أَدخَلَهُ اللَّهُ الجَنَّةَ بِفَضْلِ رَحْمَتِهِ إيَّاهُمْ » (١) متفقٌ عليه .

٩٥٣ - وعن أبي هُرَيرَةَ ﷺ قَالَ : قَالَ رسول اللَّه ﷺ : « لا يَمُوتُ لأَحَدٍ مِنَ المُسْلِمِينَ ثَلاثَةٌ مِنَ الوَلَدِ لا تَمَسُّهُ النَّارُ إلَّا تَحِلَّةَ القَسَمِ » (٢) متفقٌ عليه .

« وَتَحِلَّةُ القَسَمِ » قولُ اللَّهِ تعالى : ﴿ وَإِن مِّنكُمْ إِلَّا وَارِدُهَا ﴾ [مريم : ٧١] « والوُرُودُ » : هُوَ العُبُورُ عَلى الصِّرَاطِ ، وَهُوَ جِسْرٌ مَنْصُوبٌ عَلى ظَهْرِ جَهَنَّمَ . عَافانَا اللَّهُ مِنْهَا .

٩٥٤ - وعن أبي سعيدِ الخُدْرِيِّ ﷺ قَالَ : جَاءَتِ امرأَةٌ إلى رسول اللَّه ﷺ ، فَقَالَتْ : يَا رَسُول اللَّهِ ، ذَهَبَ الرِّجال بِحَدِيثِكَ ، فاجْعَلْ لَنَا مِنْ نَفْسِكَ يَومًا نأْتِيكَ فيهِ تُعَلِّمُنَا مِمَّا عَلَّمَكَ اللَّهُ ، قَالَ : « اجْتَمِعْنَ يَومَ كَذَا وَكَذَا » فاجْتَمَعْنَ ، فَأَتَاهُنَّ النبيُّ ﷺ فَعَلَّمَهُنَّ مِمَّا عَلَّمَهُ اللَّهُ ، ثُمَّ قَالَ : « ما مِنْكُنَّ مِنِ امْرَأَةٍ تُقَدِّمُ ثَلاثَةً مِنَ الوَلَدِ إلا كانُوا لَهَا حِجَابًا مِنَ النَّارِ » فَقَالَتِ امْرَأَةٌ : وَاثْنَينِ ؟ فَقَالَ رسول اللَّه ﷺ : « وَاثْنَينِ » (٣) متفقٌ عليه .

الشرح

قال المؤلف - رحمه اللَّه تعالى - في كتابه (رياض الصالحين) : (باب فضل من مات له أولاد صغار) يعني : باب الفضل الذي يُعطى إياه الذي مات له أولاد صغار - يعني : فاحتسب الأجر من اللَّه ﷻ وصبر - ثم ذكر حديث أنس وأبي هريرة وأبي سعيد ، وكلها تدل على فضل ذلك ، وهو أن الإنسان إذا مات له أولاد صغار لم يبلغوا الحنث - يعني : لم يبلغوا - فإنهم يكونون له سِترًا من النار بفضل رحمته إياهم ، لأن هؤلاء الأولاد الصغار هم محلُّ الرحمة ؛ فالأولاد إذا كبروا استقلوا بأنفسهم ، ولم يكن عند والدهم من الرحمة لهم كالرحمة التي عنده للأولاد الصغار ، وإذا كان له أولاد صغار وماتوا واحتسب الأجر من اللَّه - وهم ثلاثة - فإنهم يكونون له سترًا من النار فلا تمسهم النار إلا تَحِلَّة القسم ، يريد بـ« تحلة القسم » قوله تعالى : ﴿ وَإِن مِّنكُمْ إِلَّا وَارِدُهَا كَانَ عَلَىٰ رَبِّكَ حَتْمًا مَّقْضِيًّا ۝ ثُمَّ نُنَجِّي الَّذِينَ اتَّقَوا وَّنَذَرُ الظَّالِمِينَ فِيهَا جِثِيًّا ﴾ (٤) [مريم : ٧١- ٧٢] .

---

(١) أخرجه البخاري في الجنائز (١٢٤٨) ، والإمام أحمد في مسنده (١٥٢/٣) ، قوله ﷺ : « لم يبلغوا الحنث » أي لم يبلغوا سن التكليف .

(٢) أخرجه البخاري في الجنائز (١٢٥١) ، ومسلم في البر والصلة (١٥٠) ، والترمذي في الجنائز (١٠٦٠) .

(٣) أخرجه البخاري في الجنائز (١٢٤٩) ، ومسلم في البر والصلة (١٥٢) ، قوله « ذهب الرجال بحديثك » أي : أن الرجال يستأثرون بحديثك دون النساء ، وقوله « تقدم » أي : يموت لها .

(٤) قوله ﴿ وَارِدُهَا ﴾ أي : أدخلها .

وفي حديث أبي سعيد الخدري في اجتماع النساء حتى أتى إليهن النبي ﷺ فعلمهن مما علمه الله وأخبرهنَّ « أنه ما من امرأة يموت لها ثلاثة من الولد لم يبلغوا الحنث ؛ إلا لم تمسّه النار إلا تحلة القسم » ، فقالت امرأة : واثنين ؟ فقال : « واثنين » وعلى هذا فيكون ذلك من فضل الله أيضًا ، أنه إذا مات للإنسان اثنان من الولد - ذكورًا أو إناثًا - ثم صبر واحتسب ؛ كان ذلك له حجابًا من النار ، والله الموفق .

* * *

١٦٥ - باب البكاء والخوف عند المرور بقبور الظالمين ومصارعهم وإظهار الافتقار إلى الله تعالى والتحذير من الغفلة عن ذلك

٩٥٥ - عَنِ ابْنِ عُمَرَ رضي الله عنهما أنَّ رسول اللَّه ﷺ قَالَ لأَصْحَابِهِ - يَعْنِي لمَّا وَصَلُوا الحِجْرَ : دِيَارَ ثَمُودَ : « لا تَدْخُلُوا عَلى هؤلاء المُعَذَّبِينَ إلا أَنْ تَكُونُوا بَاكِينَ ، فَإِنْ لَمْ تَكُونُوا باكِينَ ، فَلا تَدْخُلُوا عَلَيهِمْ ، لا يُصِيبُكُمْ مَا أَصَابَهُمْ » متفقٌ عليه .

وفي رواية قال : لمَّا مَرَّ رسول اللَّه ﷺ بالحِجْرِ قال : « لا تَدْخُلُوا مَسَاكِنَ الَّذِينَ ظَلَمُوا أَنْفُسَهُمْ أَنْ يُصِيبكُمْ مَا أَصَابَهُمْ إلا أَنْ تَكُونوا بَاكِينَ » ثُمَّ قَنَّعَ رسول اللَّه ﷺ رَأْسَهُ وَأَسْرَعَ السَّيرَ حتى أَجازَ الوَادي [1] .

الشرح

قال المؤلف رحمه الله في كتابه « رياض الصالحين » : باب البكاء عند المرور بقبور الظالمين والخوف من أن يُصيب الإنسان ما أصابهم ، ثم ذكر حديث ابن عمر بمرور النبي ﷺ بالحِجْر - ديار ثمود - وثمود هم قوم صالح الذين أرسل الله إليهم صالحاً - عليه الصلاة والسلام - فذكَّرهم بالله ولكنهم كفروا به فقال : تمتعوا في داركم ثلاثة أيام ، ثم أخذتهم الصيحة والرجفة فأصبحوا في دارهم جاثمين ، وكان الله تعالى قد أعطاهم قدرة وقوة في نحت الجبال وبناء القصور في السهول ، وأصبحوا أمة قوية ، ولكن الله تعالى أخذهم برجفة وصيحة فماتوا عن آخرهم ، وقد مرَّ بهم النبي ﷺ في طريقه إلى تبوك ، فقال ﷺ : « لا تدخلوا على هؤلاء إلا أن تكونوا باكين ؛ فإن لم تكونوا باكين فلا تدخلوا عليهم ؛ لا يصيبكم ما أصابهم » ولهذا نقول لا يجوز لأحد أن يذهب لديار ثمود ليتفرج وينظر مساكنهم ، لأن ذلك وقوع في معصية الرسول ﷺ إلا رجلًا يريد أن يذهب للعبرة ويكون باكيًا عند مروره بتلك الأماكن ، فإن لم يكن باكيًا ؛ فإنه لا يجوز أن يدخل عليهم ؛ لأنه ربما يصيبه ما أصابهم ؛ ولما مرَّ النبي ﷺ بواديهم قنَّع رأسه - يعني خفضه - وأسرع السير حتى تجاوز الوادي ، وبه نعرف خطأ هؤلاء الجهَّال الذين يذهبون إلى ديار ثمود للتفرج والتنزه ويبقون فيها أيامًا ينظرون آثارهم القديمة ، فإن ذلك معصية للرسول ﷺ ومخالفة لهديه وسنته ، فإنه ﷺ لـمَّا مرَّ بهذه الديار أسرع وقنَّع رأسه ﷺ حتى جاوز الوادي وحذَّر من

---

(١) أخرجه البخاري في تفسير القرآن (٤٧٠٢) ، ومسلم في الزهد والرقائق (٣٨) ، قوله « ديار ثمود » هي : أرض بين المدينة والشام هلك فيها قوم صالح عليه السلام ، قوله « قنع رأسه » أي : لف رأسه بقناع ، قوله « أجاز الوادي » أي : سار فيه حتى قطعه .

أن يسكن الإنسان في مساكن الذين ظلموا أنفسهم ، والذين أهلكهم اللَّه في هذه الأرض خوفًا أن يصيب الإنسان ما أصابهم من عذاب اللَّه ، إما بكفره باللَّه ﷻ حتى يستحق هذا العذاب ، وإما بعقوبة يُعاقب بها وإن لم يكفر ، وإذا لقي اللَّه تعالى يوم القيامة فاللَّه بصير بالعباد ، واللَّه الموفق .

* * *

كتاب آداب السفر

١٦٦ - باب استحباب الخروج يوم الخميس واستحبابه أول النهار

٩٥٦ - عن كعب بن مالكٍ ﵁ أنَّ النبيَّ ﷺ خَرَجَ في غَزْوَةِ تَبُوكَ يَومَ الخَمِيسِ ، وَكَانَ يُحِبُّ أَنْ يَخْرُجَ يَومَ الخَمِيسِ . متفقٌ عليه .

وفي رواية في « الصحيحين » : لَقَلَّمَا كانَ رسول اللَّه ﷺ يَخْرُجُ إلا في يَومِ الخَمِيس [١] .

٩٥٧ - وعن صَخْر بنِ وَدَاعَةَ الغامِدِيِّ الصَّحَابِيِّ ﵁ أنَّ رسول اللَّه ﷺ قَالَ : « اللَّهُمَّ بَارِكْ لأُمَّتِي في بُكُورها » وَكَانَ إذا بَعَثَ سَرِيَّةً أو جَيشًا بَعَثَهُم مِنْ أَوَّلِ النَّهارِ . وَكان صَخْرٌ تَاجِرًا ، فَكَانَ يَبْعَثُ تِجَارَتَهُ أَوَّلَ النَّهارِ ، فَأَثْرَى وكَثُرَ مَالُهُ [٢] ، رواه أبو داود والترمذيُّ وقال : حديثٌ حسن .

الشرح

قال المؤلف - رحمه اللَّه تعالى - : كتاب آداب السفر ، السفر : هو مفارقة الوطن ، أن يخرج الإنسان من وطنه إلى وطن آخر ، وسُمِّي سفرًا ؛ لأنه من الإسفار ، وهو الخروج والظهور كما يقال : أسفر الصبح إذا ظهر وبان ، وقيل : في المعنى سُمِّي السفر سفرًا ؛ لأنه يُسْفِر عن أخلاق الرجال ؛ يعني يبين ويوضح أحوالهم ، فكم من إنسان لا تعرفه ولا تعرف سيرته إلا إذا سافرت معه عندئذٍ تعرف أخلاقه وسيرته وإيثاره ... إلخ ، حتى كان عمر ﵁ إذا زكى رجل شخصًا عنده قال له : هل سافرت معه ، هل عاملته ؟ إن قال : نعم قبل ذلك ، وإن قال : لا . فقال : لا علم لك به .

ثم إن السفر ينبغي للإنسان أن يتحرى فيه الأوقات التي تكون أسهل ، وأنسب ، من ذلك أن يكون في آخر الأسبوع كما كان النبي ﷺ في أكثر أسفاره يخرج يوم الخميس ، وربما خرج في غيره ؛ فقد خرج ﷺ في آخر سفرة سافرها - وهي حجة الوداع - يوم السبت ، لكن دائمًا كان إذا سافر - ولاسيما إذا كان في غزوٍ - كان ذلك يوم الخميس ، والحكمة من ذلك - واللَّه أعلم - أنه يوم ترفع فيه الأعمال وتُعرض على اللَّه ﷻ فكان يحب ﷺ أن يُعرض على اللَّه عمله في ذلك اليوم [٣] . وكان ﷺ يحب أن يخرج من أول النهار لما في ذلك من استقبال النهار ، لأنه ربما يفاجأ

---

(١) أخرجه البخاري في الجهاد والسير (٢٩٥٠) ، ولم يُعْثَر عليه في صحيح مسلم ، وأحمد في مسنده (٣/٤٥٥) .

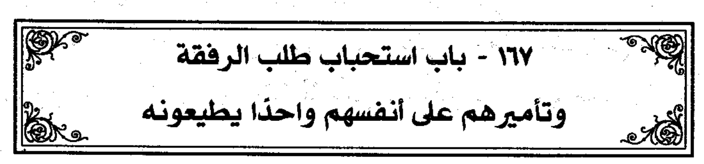
(٢) أخرجه أبو داود في الجهاد (٢٦٠٦) ، والترمذي في البيوع (١٢١٢) ، وابن ماجه في التجارات (٢٢٣٦) .

(٣) انظر الحديث في: مسلم في البر والصلة (٣٥) ، والدارمي في الصوم (٤١) ، وأحمد في مسنده (٢/٢٦٨) .

الإنسان في سفره طولًا وقد تجهز قليلًا فيصعب عليه التخلص منه ، وهذا في الأسفار التي كانت في عهد الرسول ﷺ على الدواب والأرجل ، أما اليوم فكما تشاهدون الناس لا يجدون صعوبة في أول النهار أو آخره ، ثم إن السفر في الوقت الحاضر مرتبط بطائرات ومواعيد ، على كل حال إذا خرج في أول النهار وفي يوم الخميس فهو أفضل ، وإن لم يتيسر له ذلك فلا بأس والحمد لله .

ثم ذكر حديث صخر ﷺ أن النبي ﷺ قال : « اللَّهم بارك لأمتي في بكورها » - أي : في أول النهار - فدعا النبي ﷺ أن يبارك الله في أول النهار فيه لأمته ؛ لأنه مستقبل العمل ؛ فإن النهار كما قال الله تعالى معاش : ﴿ وَجَعَلْنَا ٱلنَّهَارَ مَعَاشًا ﴾ [النبأ : ١١] فإذا استقبله الإنسان من أوله صار في ذلك بركة ، وهذا شيء مشاهد ، أن الإنسان إذا عمل في أول النهار وجد في عمله بركة ، لكن وللأسف أكثرنا اليوم ينامون في أول النهار ولا يستيقظون إلا في الضحى ، فيفوت عليهم أولُ النهار الذي فيه بركة ، وقد قال العامة : أمير النهار أوله . يعني أن أول النهار هو الذي يتركز عليه العمل ، وكان صخر يبعث بتجارته أول النهار فأثرى وكثُر ماله من أجل دعاء النبي ﷺ بالبركة لهذه الأمة في بكورها . والله الموفق .

* * *



١٦٧ - باب استحباب طلب الرفقة وتأميرهم على أنفسهم واحدًا يطيعونه

٩٥٨ - عَنِ ابْنِ عُمَرَ ﷺ قَالَ : قَالَ رسول اللَّه ﷺ : « لَو أَنَّ النَّاسَ يَعْلَمُونَ مِن الوَحْدَةِ ما أَعلَمُ ما سَارَ رَاكِبٌ بِلَيلٍ وَحْدَهُ » (١) رواه البخاري .

٩٥٩ - وعن عمرو بن شُعَيبٍ ، عن أبيه ، عن جَدِّهِ ﷺ قَالَ : قَالَ رسول اللَّه ﷺ : « الرَّاكِبُ شَيطَانٌ ، والرَّاكِبَان شَيطَانَانِ ، وَالثَّلاثَةُ رَكبٌ » (٢) .

رواه أبو داود ، والترمذي ، والنسائي بأسانيد صحيحة ، وقال الترمذي : حديثٌ حسن .

٩٦٠ - وعن أبي سعيد وأبي هُريرةَ ﷺ قالا : قَالَ رسول اللَّه ﷺ : « إذا خَرَجَ ثَلاثَةٌ في سَفَرٍ فَلْيُؤَمِّرُوا أَحَدَهم » (٣) حديث حسن ، رواه أبو داود بإسنادٍ حسن .

٩٦١ - وَعَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ ﷺ عن النبي ﷺ قَالَ : « خَيرُ الصَّحَابَة أَرْبَعَةٌ ، وَخَيرُ السَّرَايَا أَرْبَعُمِائَةٍ ، وَخَيرُ الجُيُوش أَرْبَعَةُ آلافٍ ، وَلَنْ يُغْلَبَ اثْنَا عَشرَ أَلْفًا مِنْ قِلَّةٍ » (٤) رواه أبو داود والترمذي وقال : حديث حسن .

(١) أخرجه البخاري في الجهاد والسير (٢٩٩٨) ، والإمام أحمد في مسنده (٢/١٢٠) .

(٢) أخرجه أبو داود في الجهاد (٢٦٠٧) ، والترمذي في الجهاد (١٦٧٤) ، والإمام أحمد في مسنده (٢/١٨٦ ، ٢١٤) .

(٣) أخرجه أبو داود في الجهاد (٢٦٠٨) ، والبيهقي في سننه (٢/٢٥٧) .

(٤) أخرجه أبو داود في الجهاد (٢٦١١) ، والترمذي في السير (١٥٥٥) ، والإمام أحمد في مسنده (١/٢٩٤ ، ٢٩٩) .

قوله : « خير الأصحاب أربعة » قيل : هم الخلفاء الأربعة ، وقوله : « السرايا » هي جزء من الجيش لا يقل عدده عن ثلاثمائة إلى =

الشرح

قال المؤلف رَحِمَهُ ٱللَّهُ في : باب استحباب الرفقة وتأمير أحدهم ، هذا الباب تضمن مسألتين :

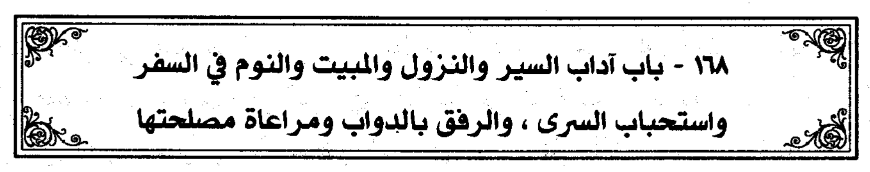
الأولى : أنه ينبغي للإنسان أن يكون معه رفقة في السفر وألا يسافر وحده ، ولهذا قال النبي ﷺ : لو يعلم الناس ما في الوحدة ما سار راكبٌ بليل قط وحده يعني : معناه أن الإنسان لا ينبغي أبدًا أن يسير وحده في السفر ، لأنه ربما يصاب بمرض أو إغماء ، أو يتسلَّط عليه أحد ، أو غير ذلك من المحظورات فلا يكون معه أحد يدافع عنه أو يخبر عنه أو ما أشبه ذلك ، وهذا في الأسفار التي تتحقق فيها الوحدة ، وأما ما يكون في الخطوط العامرة التي لا تكاد تمر فيها دقيقة واحدة إلا وتمر بك فيها سيارة فهذا - وإن كان الإنسان في سيارة وحده - فليس من هذا الباب - يعني ليس من السفر وحده - لأن الخطوط الآن عامرة من محافظة لأخرى ، ومن مدينة لثانية . وما أشبه ذلك ، فلا يدخل في النهي .

ثم بين النبي ﷺ في حديث عمرو بن شعيب أن الراكب شيطان ، والراكبين شيطانان ، والثلاثة رَكبٌ ، يعني : من يسافر وحده شيطان ، والذي يسافر وليس معه سوى واحدٍ شيطانان ، والثلاثة ركب - يعني : ليسوا من الشياطين - بل هم ركب مستقل ، وهذا أيضًا على الحذر والتنفير من سفر الوحدة ، وكذلك من سفر الاثنين ، والثلاثة لا بأس ، وهذا كما قلت مقيد بالأسفار التي لا يكون فيها ذاهبٌ وآتٍ .

ثم ذكر حديث أبي سعيد وأبي هريرة أن الرسول ﷺ أمر المسافرين إذا سافروا أن يؤمِّروا أحدهم . يعني : يؤمرون واحدًا منهم يتولَّى تدبيرهم ، يقول نذهب ، ونجلس ، نتوضأ ، نتناول العشاء ، وما أشبه ذلك ، لأنهم إذا لم يؤمِّروا واحدًا صار أمرهم فوضى ، ولهذا قيل : لا يصلح الناس فوضى لا سراة لهم ، لابد من أمير يتولَّى أمرهم ، وظاهر الحديث : أن هذا الأمير إذا رضُوه وجبت طاعته فيما يتعلق بمصالح السفر ، لأنه أمير ، أمَّا ما لا يتعلق بأمور السفر ؛ فلا تجب طاعته كالمسائل الخاصة بالإنسان ، إلا أنه لا يعني ذلك أن هذا الأمير يستبدُّ بل يكون كما قال الله تبارك وتعالى : ﴿ فَٱعْفُ عَنْهُمْ وَٱسْتَغْفِرْ لَهُمْ وَشَاوِرْهُمْ فِى ٱلْأَمْرِ ﴾ [آل عمران : ١٥٩] فعليه أن يشاورهم في الأمور التي يخفى فيها جانب المصلحة ، ولا يستبد برأيه ، أما الأمور الواضحة فلا حاجة للمشورة فيها . والله الموفق .

* * *

= أربعمائة ، وقوله : « خير الجيوش أربعة » أي أن أفضل عدد للجيش ما بلغ عدده أربعة آلاف فأكثر .



١٦٨ - باب آداب السير والنزول والمبيت والنوم في السفر واستحباب السرى ، والرفق بالدواب ومراعاة مصلحتها

٩٦٢ - عن أبي هُرَيرَةَ ﷺ قَالَ : قَالَ رسول اللَّه ﷺ : « إذا سَافَرْتم في الخِصْبِ فَأَعْطُوا الإبلَ حَظَّهَا مِنَ الأرض ، وَإذا سَافَرْتُمْ في الجَدْبِ ، فَأَسْرعُوا عَلَيها السَّيرَ ، وبَادروا بهَا نِقْيَهَا ، وَإذَا عَرَّستُم ، فَاجتَنِبُوا الطَّريقَ ؛ فَإنَّهَا طرُقُ الدَّوَابِّ ، وَمَأْوَى الهَوَامِّ باللَّيلِ »[1] رواه مسلم .

معنى : « أعطُوا الإبِلَ حَظها مِنَ الأَرْضِ » أَي : ارْفقُوا بهَا في السَّيرِ لترْعَى في حَالِ سَيرهَا وقوله : « نِقْيَها » هو بكسر النون ، وإسكان القاف ، وبالياء المثناة من تحت وهو : المخُّ ، معناه : أَسْرِعُوا بِهَا حتى تَصِلُوا المَقصِدَ قَبلَ أَنْ يَذهَبَ مُخُّها مِنْ ضَنكِ السَّيرِ . وَ « التَّعْرِيسُ » : النزُولُ في الليل .

٩٦٣ - وعن أبي قتَادَةَ ﷺ قَالَ : كانَ رسول اللَّه ﷺ إذا كانَ في سَفرٍ ، فَعَرَّسَ بلَيلٍ ؛ اضْطَجَعَ عَلى يَمِينِهِ ، وَإذا عَرَّسَ قُبيلَ الصبح ؛ نَصَبَ ذِرَاعَهُ ، وَوَضَعَ رَأْسَهُ عَلى كَفِّه[2] . رواه مسلم .

قال العلماءُ : إنَّمَا نَصَبَ ذِرَاعَهُ لئلَّا يَسْتَغْرِقَ في النَّومِ ، فَتَفُوتَ صَلاةُ الصُّبْحِ عَنْ وَقْتِهَا أَو عَنْ أَوَّلِ وَقتِهَا .

الشرح

ذكر المؤلف رحمه الله في هذا الباب آدابًا كثيرة تتعلق بالسفر والرواحل ، وذلك أن المسافر - إذا سافر على راحلة : بهيمة من إبل أو حُمُر أو بغال أو خيل - فإن عليه أن يراعي مصلحتها ؛ لأنه مسئول عنها ، ولهذا كان النبي ﷺ - في حجة الوداع - راكبًا على ناقته وقد شد لها زمامها[3] ، فإذا أتى مرتفعًا من المرتفعات أرخى لها قليلًا .

ومن الآداب : أن الإنسان إذا سافر في أيام الخِصْب فإنه ينبغي أن يتأنى في السير - يعني : لا يسير سيرًا حثيثًا ، يعطي فيه الإبل من حقها من الرعي - لأنه إذا كان يمشي الهوينى أمكن لها ذلك ، فإذا كانت الأرض مُعْشِبة وخصبة وأنت على إبل ، فلا تُسرع السير ، دْعها ترعى في مهل من أجل أن تنال حظها من الخصب ، أما إذا كان الأمر بالعكس وكانت السَّنة جَدْبًا ؛ فإن المفروض أن تُسرع ، لأنك إذا أمهلت في السير والأرض جدب لا ترعى ، طالت مدة السفر فيذهب مُخُّها ، وهذا من حكمة النبي ﷺ وأن اللَّه تعالى قد أعطاه مصالح الرعاية للإنسان والبهائم ، حيث أرشد ﷺ المسافرين إلى هذه الآداب : في الخصب : تأنَّ في السير ، في الجدب : أسرع في السير ، كذلك أمر ﷺ أننا إذا عرسنا - نزلنا - ليلًا لنستريح وننام فإننا لا ننام في الطريق يعني : في الجادة ؛ لأنها طرق البهائم ، فالناس يستطرقون هذا الطريق فربما يأتي إنسان غافل فيقع في هذا الطريق ، كذلك هي أيضًا

---

(١) أخرجه مسلم بنحوه في الإمارة (١٧٨) ، والبيهقي في السنن (٥/٢٥٦) .

(٢) أخرجه مسلم في المساجد ومواضع الصلاة (٣١٣) ، وقوله : « عرس قبل الصبح » أي : نام قبل أذان الفجر .

(٣) الزمام : هو الخيط يشد المقود إلى طرفه (المعجم العربي الأساسي ص : ٥٨٥) .

مأوى الهوام تأتي إلى هذه الطرق حتى إذا سقط من أحد شيء من الطعم أكلته ، ولهذا يكثر وجود الهوام في هذه الطرق ، فلهذا أمر النبي ﷺ ألا ننام في الطرقات بل نرتفع عنها ، حتى لا يحرج السائرين على الطريق ، وحتى لا نتعرض لأذى الهوام ، ومثل ذلك - بل من باب أولى - طرق سيارات اليوم ، فإن الإنسان يبتعد عنها ، لأنه ربما يأتي سائق ينعس ولو لحظة ، فيقتحم بسيارته هؤلاء الذين ينامون على الطريق ، وتحدث كارثة ، فابعد عن هذه الطرق السريعة لا تنم حولها ، حتى لا تقع في الخطر ، وهذا من إرشاد النبي ﷺ .

وكان من هديه ﷺ أنه إذا عرَّس في أول الليل : اضطجع على يمينه ، وإذا عرَّس قبيل الفجر : اتكأ على يده اليسرى ؛ لأن إذا كان أول الليل ينام على اليمين ليعطي النفس حظها من النوم ، ولهذا كان ﷺ في بيته إذا نام ينام على الجنب الأيمن بل أمر بذلك (١) ، أما إذا كان قبيل الفجر فكان ينصب ذراعه ﷺ وينام على يده لئلا يستغرق في النوم فتفوته صلاة الفجر ، وفي هذا إشارة إلى أن الإنسان أيضًا يعطي نفسه حظها من الراحة ، ولا ينسى عبادة ربه ، ففي أول الليل يمكنه أن ينام ويشبع قبل الفجر ثم يقوم ، أما في آخر الليل فإنه لا ينام نومة المطمئن ، بل نومة المستيقظ الذي لا يستغرق في النوم لئلا تفوته صلاة الفجر ، وفي هذا دليل على أن الإنسان ينبغي له أن يستعمل المنبه في النوم ؛ لينبهه حتى لا تفوته الصلاة ، فأنَّ الرسول ﷺ نصب ذراعه من أجل أن ينتبه ، كذلك الإنسان ينبغي أن يجعل معه منبهًا للصلاة ، فهذا من آداب السفر التي دلَّ عليها خير البشر ﷺ ، والله الموفق .

* * *

٩٦٤ - عن أنسٍ ﷺ قَالَ : قَالَ رسول اللَّه ﷺ : « عَلَيكُم بِالدُّلْجَةِ ؛ فَإِنَّ الأَرْضَ تُطْوَى بِاللَّيلِ » (٢) رواه أبو داود بإسنادٍ حسن . « الدُّلْجة » : السَّيرُ في اللَّيلِ .

٩٦٥ - وعن أبي ثَعْلَبَةَ الخُشَنِيِّ ﷺ قالَ : كانَ النَّاس إذا نَزَلُوا مَنْزِلًا تَفرَّقُوا في الشِّعَاب وَالأَودِيَةِ . فقالَ رسول اللَّه ﷺ : « إنَّ تَفرُّقَكُمْ في هذِهِ الشِّعَابِ وَالأَودِيَةِ إنَّمَا ذلكُم منَ الشَّيطَان ! » فَلَمْ يَنْزِلُوا بَعْدَ ذلكَ مَنْزِلًا إلا انْضَمَّ بَعْضهُمْ إلى بَعْض (٣) . رواه أبو داود بإسناد حسن .

٩٦٦ - وعَنْ سَهْلِ بنِ عمرو - وَقيلَ : سَهْلِ بن الرَّبِيعِ بنِ عَمْرو الأَنْصَارِيِّ المَعْروفِ بابن الحَنْظَلِيَّةِ ، وَهُوَ منْ أَهْلِ بَيعَةِ الرِّضوانِ - ﷺ قالَ : مرَّ رسول اللَّه ﷺ ببعيرٍ قَدْ لَحِقَ ظَهْرُهُ بِبَطْنِهِ ، فقال : « اتَّقُوا

---

(١) انظر الحديث في مسند أحمد (٢٨١/٤ ، ٢٩٨) .

(٢) أخرجه أبو داود في الجهاد (٢٥٧١) ، والإمام أحمد في مسنده (٣٨٢/٣) ، وقوله « فإن الأرض تطوى بالليل » أي : يسهل المشي فيها بحيث يظن الماشي أنه سار قليلًا في حين أنه يكون قد سار كثيرًا ؛ وذلك للإحساس بالنشاط من برودة الليل .

(٣) أخرجه أبو داود في الجهاد (٢٦٢٨) ، والبيهقي في سننه (١٥٢/٩) ، وقوله « منزلًا » أي مكانًا ، وقوله : «الشعاب » : هي الطرق بين جبلين ، وقوله : « الأودية » هي المسيل ما بين الجبلين ، أي مقر نزول السيول .

اللَّهَ في هذه البَهائمِ المُعْجَمَةِ ، فَارْكَبُوها صَالحَةً ، وكُلُوها صَالحَةً »[١] رواه أبو داود بإسناد صحيح .

٩٦٧ - وعَنْ أَبِي جعفر عبدِ اللَّه بنِ جعفرٍ رضي الله عنهما قالَ : أَرْدَفني رسول اللَّه ﷺ ذاتَ يَومٍ خَلْفَه ، وَأَسَرَّ إليَّ حَدِيثًا لا أُحدِّث بِهِ أحدًا مِنَ النَّاسِ ، وكانَ أَحَبَّ مَا اسْتَتَرَ بِهِ رسول اللَّه ﷺ لِحاجَتِهِ هَدَفٌ أَو حَائِشُ نَخْلٍ . يعني حائط نخلٍ . رواه مسلم هكذا مختصرًا .

وزاد فِيه البَرْقاني بإسناد مسلم بعد قوله : حَائِشُ نَخلٍ : فَدَخَلَ حَائطًا لرَجُلٍ مِنَ الأنصارِ ، فإذا فِيهِ جَمَلٌ ، فَلَمَّا رَأى رسول اللَّه ﷺ جَرْجَرَ وَذَرَفَتْ عَيناهُ ، فَأَتَاهُ النبيُّ ﷺ فَمَسَحَ سَرَاتَهُ - أَي : سنامَهُ - وَذِفْرَاهُ فَسَكَنَ ، فقال : « مَنْ رَبُّ هذا الجَمَلِ ؟ لِمَنْ هذا الجَمَلُ ؟ » فَجاءَ فَتىً مِنَ الأنصارِ فقالَ : هذا لي يا رسولَ اللَّهِ ، فقالَ : « أَفَلا تَتَّقِي اللَّه في هذِهِ البَهِيمَةِ التي مَلَّكَكَ اللَّهُ إياهَا ؟ فإنَّهُ يَشْكُو إليَّ أَنَّكَ تُجِيعُهُ وَتُدْئِبُهُ »[٢] ورواه أبو داود كروايةِ البَرْقاني .

قولهُ : « ذِفرَاه » هو بكسر الذال المعجمة وإسكان الفاءِ ، وهو لفظٌ مفردٌ مؤنثٌ . قالَ أَهْلُ اللُّغَة : الذِّفْرَى : المَوضِعُ الذي يَعْرَقُ مِنَ البَعِيرِ خَلْفَ الأُذنِ ، وقوله : « تُدْئِبُهُ » أي : تُتْعِبُهُ .

٩٦٨ - وعن أنسٍ رضي الله عنه قال : كُنَّا إذا نَزَلْنَا مَنْزِلًا ، لا نُسَبِّحُ حَتَّى نَحُلَّ الرِّحَالَ[٣] . رواه أبو داود بإسناد على شرط مسلم .

وقوله : « لا نُسَبِّحُ » : أَي لا نُصَلِّي النَّافلَةَ ، ومعناه : أَنَّا - مَعَ حِرْصِنا عَلى الصَّلاةِ - لا نُقَدِّمُها عَلى حَطِّ الرِّحالِ وَإِرَاحَةِ الدَّوابِّ .

الشرح

هذه الأحاديث في آداب السفر ساقها النووي رحمه الله منها : أن النبي ﷺ أرشد أمته إلى أن يسيروا في الليل ، وأخبر أن الأرض تطوى للمسافر إذا سافر في الليل ، يعني أنه يقطع في الدلجة - الليل - ما لا يقطعه في النهار ، وذلك لأن الليل وقت بَرَاد ، فهو أنشط للرواحل وأسرع في سيرها ، ولهذا عبر النبي ﷺ عن ذلك بأنه تطوى الأرض للمسافر إذا مشى في الليل . ومن الآداب أيضًا : أنه ينبغي للجماعة ألا يتفرقوا إذا نزلوا منزلًا فإن الصحابة رضي الله عنهم كانوا إذا نزلوا منزلًا تفرقوا في الأودية والشعاب فقال النبي ﷺ : « إنما ذلكم من الشيطان » يعني تفرقكم فما نزلوا بعد ذلك منزلًا إلا اجتمعوا جميعًا ، لأن ذلك أقوى لهم وأحفظ ، ولو تسلَّط عليهم عدو في هذا الليل - وكانوا جميعًا - أمكنهم المدافعة ، لكن إذا تفرقوا توزعوا وفشلوا .

---

(١) أخرجه أبو داود في الجهاد (٢٥٤٨) ، قوله « لحق ظهره ببطنه » كناية عن شدة الجوع ، قوله « فاركبوها صالحة » أي اركبوها إذا كانت تطيق الركوب عليها ، قوله : « وكلوها صالحة » أي : حال كونها سمينة صالحة للأكل .

(٢) أخرجه مسلم في الحيض (٧٩) ، وأبو داود في الجهاد (٢٥٤٩) ، والإمام أحمد في مسنده (١/٢٠٤ ، ٢٠٥) ، قوله : « هدف » هو كل ما ارتفع على وجه الأرض من بناء وغيره ، وقوله : « حائش » أي : بستان نخل .

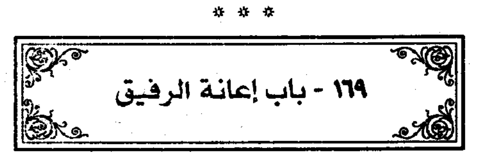
(٣) أخرجه أبو داود في الجهاد (٢٥٥١) .

ومن ذلك أيضًا : أن النبي ﷺ أمر بالرفق بالبهائم ، وأنه يجب على الإنسان أن يعاملها معاملة حسنة ، فلا يكلفها ما لا تطيق ، ولا يقصر عنها في أكل أو شرب .

ومن ذلك أيضًا : أن الإنسان يركب الراحلة وحده ، وله أن يُردف [١] غيره لكن بشرط أن تكون الراحلة مطيقة لذلك ، فإن لم تكن مطيقة لضعفها أو نحو ذلك ؛ فإنه لا يحل له أن يكلفها ما لا تطيق ، لأن هذه البهائم تتعب كما يتعب الإنسان ، هي مكونة مما كُوِّن منه الإنسان : لحم وعظم ودم ، فإذا كان الإنسان يتعب إذا حُمِّل ما لا يطيق ، أو حُمِّل عملًا يُتعبه ، كذلك هذه البهائم ، ولهذا أمر النبي ﷺ أن نتقي اللَّه ﷻ فيها وألا نقصر في حقها .

ثم ذكر حديث ابن الحنظلية أن الرسول ﷺ كان قلما يقضي حاجته إلا إلى هدف أو حائل ، هدف : مثل العنزة كان يركزها ويقضي حاجته ﷺ ، فدخل ذات يوم حائط رجل من الأنصار فإذا بجمل ، فلما رأى النبي ﷺ - أي الجمل رأى النبي ﷺ - جاء يجرجر وعيناه تذرفان ، يشكو صاحبه إلى النبي ﷺ فقال النبي ﷺ : « مَنْ ربُّ هذا الجمل ؟ » فجاء رجل من الأنصار فقال : إنه لي يا رسول اللَّه . فأخبره ﷺ أن الجمل يشكو إليه صاحبه بأنه يجيعه ويحمله ما لا يطيق ، وأمره أن يتقي اللَّه تعالى فيه ، وهذا من آيات النبي ﷺ أن البهائم العُجْم تشكو إليه إذا رأته ﷺ ؛ لأن هذا من آيات اللَّه التي يؤيد اللَّهُ بها رسولَه ﷺ فإن اللَّه تعالى ما أرسل رسولًا إلا أعطاه آيات تدل على نبوته لئلا يكذبه الناس ، لأن الناس إذا جاء إليهم رجل وقال : أنا رسول اللَّه لكم بدون آية ما صدقوه ، لكن اللَّه تعالى يؤتي رسله آيات تدل على أنهم صادقون ، وأعظم آيات أعطيها الأنبياء ما أُعطيه النبي ﷺ ، وقد ذكر ابن كثير رَحِمَهُ اللَّهُ في « البداية والنهاية » وغيره أيضًا أنه ما من آية لنبي من السابقين إلا كان لرسول اللَّه ﷺ مثلها أو أعظم منها [٢] . إما له شخصيًا وإما لأتباعه ، وذكر على ذلك أمثلة وشواهد كثيرة ، لكن لم يعط أحد من الأنبياء مثل ما أعطي النبي ﷺ من هذا الوحي - القرآن - ولهذا قال : « إنما الذي أوتيته وحي أوحاه اللَّه إليّ ، فأرجو أن أكون أكثرَهم تابعًا يوم القيامة » [٣] لأن هذا الوحي باقٍ إلى يومنا هذا ، والناس كلما قرأوه ازدادوا إيمانًا باللَّه ورسوله ؛ لما فيه من الآيات العظيمة الدالة على أن رسول اللَّه ﷺ رسول اللَّه حقًّا . واللَّه الموفق .

* * *



١٦٩ - باب إعانة الرفيق

في الباب أحاديثُ كثيرةٌ تقدّمتْ كحديث : « وَاللَّهُ في عَونِ العَبْدِ مَا كَانَ العَبْدُ في عَونِ أخِيهِ » . وحديث : « كَلُّ مَعْرُوفٍ صَدَقة » وَأشْبَاهِهِمَا .

---

(١) يردف : أي يجعل واحدًا يركب خلفه . (٢) البداية والنهاية (٦/٦٥) .

(٣) أخرجه البخاري في فضائل القرآن (٤٩٨١) ، ومسلم في الإيمان (٢٣٩) ، وأحمد في مسنده (٢/٣٤١) .

٩٦٩ - وعن أبي سعيدٍ الخُدْريِّ ﷺ قال : بَينما نَحنُ في سَفرٍ ؛ إذ جَاءَ رَجُلٌ عَلى رَاحلةٍ لَهُ ، فَجعَلَ يَصْرِفُ بَصَرَهُ يَمِينًا وَشِمالًا ، فَقالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ : « مَنْ كَانَ مَعَهُ فَضْلُ ظَهْرٍ ؛ فَلْيَعُدْ بهِ عَلى مَنْ لا ظَهرَ له ، وَمَنْ كانَ له فَضلُ زَادٍ ؛ فَلْيَعُدْ بِهِ عَلى مَنْ لا زَادَ له » فَذَكَرَ مِنْ أَصْنافِ المالِ ما ذَكره ، حَتَّى رَأَينا أَنَّهُ لا حَقَّ لأَحَدٍ منا في فضْلٍ [١] . رواه مسلم .

٩٧٠ - وعَنْ جابرٍ ﷺ عَنْ رسولِ اللَّهِ ﷺ ، أَنَّهُ أَرَادَ أَنْ يَغْزُوَ ، فقال : « يَا مَعْشَرَ المُهَاجِرِينَ والأنصار ! إنَّ مِنْ إخوَانِكُم قومًا ، لَيسَ لَهمْ مَالٌ ، وَلا عَشِيرَةٌ ، فَلْيَضُمَّ أَحدكم إليهِ الرَّجُلَينِ ، أَوِ الثَّلاثَةَ » فَما لأَحَدِنَا مِنْ ظَهرٍ يَحْمِلُهُ إلا عُقبَة كعُقْبَةِ - يَعْني أَحَدهم - قال : فَضَمَمْتُ إليَّ اثْنَينِ أَو ثَلاثَةً مَا لي إلا عُقبَةٌ كعُقْبَةِ أحَدهِم مِنْ جَملي [٢] . رواه أبو داود .

٩٧١ - وعنه قال : كانَ رسول اللَّهِ ﷺ يَتَخَلَّف في المَسِيرِ ، فَيُزْجِي الضَّعِيفَ ، وَيُردِف وَيَدعُو له [٣] . رواه أبو داود بإسناد حسن .

الشرح

قال المؤلف - رحمه اللَّه تعالى - باب الإحسان إلى الرفيق عند السفر والرفق به ، وهذا من آداب السفر أن الإنسان يُحسن إلى رفيقه في السفر ويرفق به ، ثم ذكر المؤلف رحمه الله ثلاثة أحاديث : منها : أن رجلًا جاء إلى النبي ﷺ وهو في سفر فجعل يلتفت يمينه وشماله وكأنه يريد حاجة ، فقال النبي ﷺ « مَنْ كان عنده فضل ظهر فليعد به على من لا ظهر له ، ومن كان عنده فضل زاد فليعد به على من لا زاد له » وذكر أصنافًا من المال ، فصار الناس كلٌّ منهم ينظر إلى رفيقه ويُركبه معه ويُشركه في زاده . وهكذا أيضًا في الحديث الثاني : أن النبي ﷺ أمر أن يتعاقب الرجلان والثلاثة على البعير الواحد ، حتى يكون الناس كلهم سواء ، وكذلك الحديث الثالث : أن الرسول ﷺ يكون في أخريات القوم في السفر يزجي الضعيف - يسوقه - ويدعو له ، كما ثبت ذلك عنه في صحيح مسلم في قصة جابر بن عبد اللَّه أن النبي ﷺ لحقه - وكان جابر على جمل قد أعيا - فضربه النبي ﷺ - ضرب الجمل - ودعا له ، فصار يمشي كما تمشي الركاب بل كان يتقدم عليها [٤] . والحاصل أنه ينبغي للإنسان أن يكون مع رفقاءه في السفر محسنًا إليهم قاضيًا لحاجتهم معينًا لهم ، فإن هذا من الآداب النبوية التي جاءت بها سنة النبي ﷺ واللَّه أعلم .

---

(١) أخرجه مسلم في اللقطة (١٨) ، والبيهقي في سننه (١٨٢/٨) ، قوله « فضل ظهر » أي دابة زائدة عن حاجته ، قوله : « فضل زاد » أي : طعام زائد عن حاجته .

(٢) أخرجه أبو داود في الجهاد (٢٥٣٤) ، قوله « معشر » هم كل جماعة أمرهم واحد ، وهم أيضًا أهل الرجل ، قوله « العشيرة » : هي القبيلة ، قوله « إلا عقبة كعقبة أحدهم من جملي » أي أنهم يتساوون في تناوب ركوب الدابة ، والمقصود : أنه لم يكن لي فضل في الركوب على الذين ضممتهم إلي ، بل كان لي عقبة من جملي ، مثل عقبة أحدهم .

(٣) أخرجه أبو داود في الجهاد (٢٦٣٩) .

(٤) انظر الحديث في البخاري في الشروط (٢٧١٨) ، ومسلم في المساقاة (١٠٩) ، والإمام أحمد في مسنده (٢٩٩/٣) .

١٧٠ - باب ما يقول إذا ركب الدابة للسفر

قال اللَّه تعالى : ﴿ وَالَّذِي خَلَقَ الْأَزْوَاجَ كُلَّهَا وَجَعَلَ لَكُم مِّنَ الْفُلْكِ وَالْأَنْعَامِ مَا تَرْكَبُونَ ﴿١٢﴾ لِتَسْتَوُوا عَلَىٰ ظُهُورِهِ ثُمَّ تَذْكُرُوا نِعْمَةَ رَبِّكُمْ إِذَا اسْتَوَيْتُمْ عَلَيْهِ وَتَقُولُوا سُبْحَانَ الَّذِي سَخَّرَ لَنَا هَٰذَا وَمَا كُنَّا لَهُ مُقْرِنِينَ ﴿١٣﴾ وَإِنَّا إِلَىٰ رَبِّنَا لَمُنقَلِبُونَ ﴾ [الزخرف : ١٢- ١٤] .

٩٧٢ - وعن ابنِ عمرَ رضي الله عنهما أنَّ رسولَ اللَّه ﷺ كانَ إذا استَوى عَلى بَعِيرِهِ خَارجًا إلى سَفَر ؛ كَبَّرَ ثلاثًا ، ثمَّ قالَ : « سُبْحَانَ الذي سَخَّر لَنَا هذا ومَا كُنَّا له مُقرنِينَ ، وَإنَّا إلى رَبِّنَا لَمُنقَلِبُون . اللَّهُمَّ إنَّا نَسْألُكَ في سَفرنَا هذا البِرَّ وَالتَّقوَى ، وَمِنَ العَمَلِ ما تَرْضى . اللَّهُمَّ هَوِّنْ عَلَينَا سَفرنَا هذا وَاطْو عَنَّا بُعْدَهُ . اللَّهُمَّ أنتَ الصَّاحِبُ في السَّفَرِ ، وَالخَلِيفَةُ في الأَهْلِ . اللَّهُمَّ إنِّي أَعُوذُ بكَ مِنْ وَعْثَاءِ السَّفَرِ ، وَكَآبَةِ المَنظَرِ ، وَسُوءِ المُنْقَلَبِ في المَالِ وَالأهلِ وَالوَلدِ » وَإذا رَجَعَ قَالهُنَّ وزادَ فِيهِنَّ : « آيبونَ تَائبونَ عَابِدُونَ لِرَبِّنَا حَامِدُونَ » (١) رواه مسلم .

الشرح

قال المؤلف - رحمه اللَّه تعالى - في باب آداب السفر : باب ما يقوله إذا ركب دابته للسفر . هكذا قيض المؤلف رحمه الله الحكم فيما إذا ركب للسفر ، وظاهر الآية الكريمة أن الحكم عام ، أن الإنسان إذا ركب دابته أو سيارته أو السفينة ، فإنه يقول ما ذكره اللَّه عز وجل .

ثم ذكر حديث ابن عمر رضي الله عنهما : أن النبي ﷺ كان إذا ركب دابته خارجًا في سفر قال : كذا وكذا ، وذكر قبل ذلك الآية وهي قوله تعالى : ﴿ وَجَعَلَ لَكُم مِّنَ الْفُلْكِ وَالْأَنْعَامِ مَا تَرْكَبُونَ ﴿١٢﴾ لِتَسْتَوُوا عَلَىٰ ظُهُورِهِ ثُمَّ تَذْكُرُوا نِعْمَةَ رَبِّكُمْ إِذَا اسْتَوَيْتُمْ عَلَيْهِ وَتَقُولُوا سُبْحَانَ الَّذِي سَخَّرَ لَنَا هَٰذَا وَمَا كُنَّا لَهُ مُقْرِنِينَ ﴿١٣﴾ وَإِنَّا إِلَىٰ رَبِّنَا لَمُنقَلِبُونَ ﴾ الآية . ﴿ وَجَعَلَ لَكُم ﴾ يعني : سيَّر لكم . ﴿ مِّنَ الْفُلْكِ ﴾ : يعني : السفن وهي ثلاثة أنواع : بحرية ، وبرية ، وجوية ، أما البحرية فكانت معروفة من قديم الزمان من زمن نوح ﷺ حين أوحى اللَّه إليه ﴿ وَاصْنَعِ الْفُلْكَ بِأَعْيُنِنَا وَوَحْيِنَا ﴾ [هود : ٣٧] ثم قال : ﴿ وَلَقَد تَّرَكْنَاهَا آيَةً فَهَلْ مِن مُّدَّكِرٍ ﴾ [القمر : ١٥] وأما السفن البرية فظهرت متأخرة وهي : السيارات ، وأما الجوية فهي أيضًا بعد ذلك وهي : الطائرات وكلها داخلة في قوله : ﴿ وَجَعَلَ لَكُم مِّنَ الْفُلْكِ ﴾ فإنها فلك لأنها تجمع ما شاء اللَّه من الخلق . وقوله تعالى : ﴿ وَالْأَنْعَامِ ﴾ يعني الإبل والبغال والحمير والخيل وغيرها مما يُركب ، وقد اختلف العلماء في جواز ركوب الإنسان ما لم تجر العادة بركوبه ، كما لو ركب البقر، فمنهم من قال : إنه جائز ما لم يشق عليه . ومنهم من قال : إنه لا يجوز ، لأنها لم تخلق لهذا . والصحيح أنه جائز ، وأنه لا بأس أن

---

(١) أخرجه مسلم في الحج (٤٢٥) ، وأبو داود بنحوه في الجهاد (٢٥٩٩) ، قوله : « استوى على بعيره » أي استقر على ظهره . قوله : « سخر » أي ذلَّل ، قوله : « واطِوعنا » أي قربه لنا ، قوله « الخليفة » أي : المعتمد عليه والمفوض إليه كل الأمور .

يركب الإنسان ما لم تجر العادة بركوبه لكن بشرط ألا يشق عليها ، فإن شق عليه فهو ممنوع . وقوله تعالى : ﴿ لِتَسْتَوُۥا عَلَىٰ ظُهُورِهِۦ ﴾ اللام إما للتعليل أو للعاقبة ، يعني أنه جعل لنا ما نركب لنستقر على الظهور ، فلم يجعله صعبًا نزرًا لا يستوي الإنسان على ظهره ولا يستقره ، بل هو يُستقر على ظهره ، وهذا مُشاهد في السيارات والسفن والطائرات والإبل الذلول وما أشبه ذلك ﴿ ثُمَّ تَذْكُرُوا۟ نِعْمَةَ رَبِّكُمْ إِذَا ٱسْتَوَيْتُمْ عَلَيْهِ ﴾ بعد الاستواء تذكرون نعمة اللَّه بما يسَّر لكم مما خلق من الأنعام ومما علمكم من الفلك ، وتقولوا : ﴿ سُبْحَـٰنَ ٱلَّذِى سَخَّرَ لَنَا هَـٰذَا وَمَا كُنَّا لَهُۥ مُقْرِنِينَ ۝١٣ وَإِنَّآ إِلَىٰ رَبِّنَا لَمُنقَلِبُونَ ﴾ كان الذي يتبادر أن يقول الإنسان : الحمد للَّه الذي سخر لنا هذا . ولكنه أمر أن يقول : ﴿ سُبْحَـٰنَ ٱلَّذِى سَخَّرَ لَنَا هَـٰذَا ﴾ لماذا ؟ لأن (سبحانه) تدل على التنزيه : يعني تنزيه اللَّه ﷻ عن الحاجة وعن النقص ، فكأن الإنسان يشعر إذا ركب على هذه الفلك والأنعام أنه محتاج إليه يستعين به على حاجاته فيسبح اللَّه ﷻ الذي هو مستغنٍ عن كل خلقه فكان التسبيح في هذا المقام أنسب ، مع أنه جاء في السُّنة أنه يحمد اللَّه ، لكننا نتكلم عن هذه الآية ﴿ سُبْحَـٰنَ ٱلَّذِى سَخَّرَ لَنَا هَـٰذَا وَمَا كُنَّا لَهُۥ مُقْرِنِينَ ﴾ يعني : ما كنا مطيقين له لولا أن اللَّه سخره أي ذلَّله ، كما قال اللَّه تعالى في آية أخرى : ﴿ وَذَلَّلْنَـٰهَا لَهُمْ فَمِنْهَا رَكُوبُهُمْ وَمِنْهَا يَأْكُلُونَ ﴾ [يس : ٧٢] أرأيتم لو كانت هذه البعير الكبيرة الجسم القوية النشيطة لو لم تسخر هل نركبها ؟! هل نقدر عليها ؟! الجواب : لا ؛ لأن هناك من السباع ما هو دونها بكثير ولا نستطيع أن نقدر عليه ، لكن اللَّه سخر لنا هذا الذي نركبه ، حتى إن الصبي الصغير يأخذ بزمام الناقة ويقودها إلى حيث شاء ، هذا من تسخير اللَّه ﷻ وتذليله ﴿ سُبْحَـٰنَ ٱلَّذِى سَخَّرَ لَنَا هَـٰذَا وَمَا كُنَّا لَهُۥ مُقْرِنِينَ ﴾ أي : مطيقين ﴿ وَإِنَّآ إِلَىٰ رَبِّنَا لَمُنقَلِبُونَ ﴾ هذه الجملة جملة عظيمة ، كأن الإنسان لمَّا ركب مسافرًا على هذه الذلول أو الفلك كأنه يتذكر السفر الأخير من هذه الدنيا وهو سفر الإنسان إلى اللَّه ﷻ إذا مات ، وحملته الناس على أعناقهم فيتذكر ويقول : ﴿ وَإِنَّآ إِلَىٰ رَبِّنَا لَمُنقَلِبُونَ ﴾ جل وعلا فالمنقلب إلى اللَّه ، واللَّه تعالى يقول في كتابه العزيز : ﴿ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلْإِنسَـٰنُ إِنَّكَ كَادِحٌ إِلَىٰ رَبِّكَ كَدْحًا ﴾ [الانشقاق : ٦] كادح إلى ربك ، لم يقل كادح لربك بل كادح إليه : يعني سيكون مآلك ومآل كدك وكدحك إلى اللَّه ﷻ ﴿ كَادِحٌ إِلَىٰ رَبِّكَ ﴾ أي : عامل وراجع إلى ربك ، ﴿ فَمُلَـٰقِيهِ ﴾ كلنا سوف يلاقي اللَّه ، ولكن على أي شيء وشأن يلاقي اللَّه ﷻ ؟! .

يعني الإنسان لا يهمه أين يموت ولا متى يموت ؟ ربما أنه يحب أن يطيل اللَّه عمره ، وأن يموت في بلد مقدَّس كما اختار ذلك موسى ﷺ ، لكن الشأن كل الشأن على أي شيء يموت - نسأل اللَّه أن يتوفانا وإياكم على الإيمان والتوحيد - هذا هو المهم ، فإن متَّ على خير ؛ فإنه لا فرق أن تموت هنا أو هناك ، أو في بلد مقدس أو غير مقدس ، ولا في هذا الشهر ولا في هذا اليوم ولا في هذا الوقت ، المهم أن تموت على خير ، فينبغي للإنسان إذا ركب سيارته أو الطائرة أن يقول هذا الذكر الوارد عن النبي ﷺ في حديث ابن عمر : يكبر ثلاثًا ويقول : ﴿ سُبْحَـٰنَ ٱلَّذِى سَخَّرَ لَنَا هَـٰذَا وَمَا كُنَّا لَهُۥ مُقْرِنِينَ ۝١٣ وَإِنَّآ إِلَىٰ رَبِّنَا لَمُنقَلِبُونَ ﴾ ، ثم يدعو بهذا الدعاء الذي ذكره ابن عمر ﵄ وتأمل في هذا الحديث كلمة تدل على إحاطة اللَّه بكل شيء يقول : « أنت الصاحب في السفر ، والخليفة في

الأهل » « الصاحب في السفر » يعني : تصحبني في سفري ، تُيسره عليَّ ، تسهله علي « وأنت الخليفة في الأهل » أي : الخليفة في الأهل من بعدي تحوطهم برعايتك وعنايتك ، فهو جلَّ وعلا مع الإنسان في سفره ، وخليفته في أهله ، لأنه جل وعلا بكل شيء محيط . والله الموفق .

* * *

٩٧٣ - وعن عبد الله بن سَرْجِسَ ﷺ قالَ : كانَ رسولُ اللهِ ﷺ إذا سَافَرَ يَتَعَوَّذُ مِنْ وَعْثاءِ السفَرِ ، وَكآبَةِ المُنْقَلَبِ ، وَالحورِ بَعْد الكونِ ، وَدَعْوَةِ المَظْلُومِ ، وَسُوءِ المَنْظَرِ في الأَهْلِ وَالمَالِ (١) . رواه مسلم . هكذا هو في صحيح مسلِم : الحَورِ بَعْدَ الكونِ ، بالنون ، وكذا رواه الترمذيُّ ، والنسائيُّ . قال الترمذي : ويروى « الكور » بِالراءِ ، وَكِلاهُمَا لهُ وَجْهٌ .

قالَ العلماءُ : ومعناه بالنونِ والراءِ جميعًا : الرُّجوعُ مِنَ الاستقامةِ ، أَو الزِّيَادَة إلى النَّقْصِ . قالوا : وروايةُ الرَّاءِ مَأْخوذَةٌ مِنْ تَكْويرِ العِمامة ، وَهُوَ لَفُّهَا وَجَمْعُها ، وروايةُ النون مِنَ الكَون ، مَصْدَرُ : كَانَ يَكُونُ كَونًا ، إذَا وُجدَ وَاسْتقرَّ .

٩٧٤ - وعن عَليِّ بنِ رَبيعَة قال : شَهِدْتُ عليَّ بن أبي طالب ﷺ أُتِيَ بِدابَّةٍ لِيَرْكَبَهَا ، فَلَمَّا وَضَعَ رِجْلَهُ في الرِّكاب قال : بِسْمِ اللهِ ، فَلَمَّا اسْتَوَى عَلى ظَهْرِها قال : الحَمْدُ للهِ ، ثم قال : ﴿ سُبْحَٰنَ ٱلَّذِى سَخَّرَ لَنَا هَٰذَا وَمَا كُنَّا لَهُۥ مُقْرِنِينَ ۝ وَإِنَّآ إِلَىٰ رَبِّنَا لَمُنقَلِبُونَ ﴾ [الزخرف : ١٣ - ١٤] ثُمَّ قال : الحَمْدُ للهِ ، ثَلاثَ مَرَّات ، ثُمَّ قال : اللهُ أَكْبَرُ ، ثَلاثَ مَرَّاتٍ ، ثُمَّ قال : سُبْحانَكَ إنِّي ظَلَمْتُ نفْسِي فَاغْفِرْ لي إنَّهُ لا يَغْفِرُ الذُّنُوبَ إلا أَنْتَ ، ثُمَّ ضَحِكَ ، فقِيلَ : يَا أَمِيرَ المُؤمِنينَ ، مِنْ أَيِّ شَيءٍ ضَحِكْتَ ؟ قَالَ : رَأَيتُ النَّبيَّ ﷺ فَعَلَ كَمَا فَعَلْتُ ، ثُمَّ ضَحِكَ ، فَقُلْتُ : يَا رَسُولَ اللهِ مِنْ أيِّ شَيءٍ ضَحِكْتَ ؟ قال : « إنَّ رَبَّكَ يَعْجَبُ مِنْ عَبْدِهِ إذا قال : اغْفِرْ لي ذُنوبي ، يَعْلَمُ أنَّهُ لا يَغْفِرُ الذُّنُوبَ غَيرِي » (٢) رواه أبو داود ، والترمذي وقال : حديثٌ حسنٌ ، وفي بعض النسخ : حسنٌ صَحيحٌ . وهذا لفظ أبي داود .

الشرح

هذان الحديثان في الأدعية والأذكار التي تقال إذا ركب الإنسان راحلته في السفر ، وسبق لنا شرح الآية الكريمة أن الله تعالى قال : ﴿ لِتَسْتَوُۥا عَلَىٰ ظُهُورِهِۦ ثُمَّ تَذْكُرُوا نِعْمَةَ رَبِّكُمْ إِذَا اسْتَوَيْتُمْ عَلَيْهِ وَتَقُولُوا سُبْحَٰنَ ٱلَّذِى سَخَّرَ لَنَا هَٰذَا وَمَا كُنَّا لَهُۥ مُقْرِنِينَ ﴾ كذلك أيضًا يتعوَّذ الإنسان من وعثاء السفر ومن كآبة المنظر ، وسوء المنقلب في المال والأهل ، ويتعوَّذ أيضًا من دعوة المظلوم ، ويسأل الله المغفرة والرحمة ويحمد الله ثلاثًا ويكبر ثلاثًا ، كل هذا مما جاء عن النبي ﷺ فإن ذكرته بلفظه فهذا هو الأحسن والأفضل ، وإلا فقل ما تيسَّر ، وأهم شيء ما ذكره الله تعالى في القرآن : ﴿ سُبْحَٰنَ ٱلَّذِى سَخَّرَ لَنَا هَٰذَا وَمَا كُنَّا لَهُۥ مُقْرِنِينَ ۝ وَإِنَّآ إِلَىٰ رَبِّنَا لَمُنقَلِبُونَ ﴾ .

(١ ، ٢) أخرجه مسلم في الحج (٤٢٦) بلفظه ، والترمذي في الدعوات (٣٤٣٩) .

وفي حديث علي بن أبي طالب ﷺ بيان سعة مغفرة الله ورحمته وأنه ﷻ يفرح من عبده إذا استغفره وتاب إليه ، وقد ثبت عن النبي ﷺ أنه قال : « لله أشد فرحًا بتوبة عبده من أحدكم براحلته ... » وذكر الحديث وهو أن رجلًا مسافرًا أضلّ راحلته وفقدها فطلبها فلم يجدها وعليها طعامه وشرابه ، فأيس منها ومن الحياة ، ونام تحت شجرة ينتظر الموت ، فبينما هو كذلك إذا براحلته قد تعلَّقت بالشجرة ، فأخذ بزمامها وقال : « اللَّهم أنت عبدي وأنا ربك » يريد أن يقول : « اللَّهم أنت ربي وأنا عبدك » لكنه أخطأ من شدة الفرح [1] . فاللَّه ﷻ يفرح بتوبة عبده فعليك - أخي المسلم - أن تتوب إلى اللَّه وترجع وتستغفر وتعلم أنك متى استغفرت اللَّه تعالى بصدق وإخلاص فإن اللَّه تعالى يغفر لك ﴿ وَمَن يَعْمَلْ سُوٓءًا أَوْ يَظْلِمْ نَفْسَهُۥ ثُمَّ يَسْتَغْفِرِ ٱللَّهَ يَجِدِ ٱللَّهَ غَفُورًا رَّحِيمًا ﴾ [النساء: ١١٠] نسأل اللَّه أن يغفر لنا ولكم ويرحمنا ويرحمكم إنه على كل شيء قدير .

* * *

١٧١ - باب تكبير المسافر إذا صعد الثنايا وشبهها وتسبيحه إذا هبط الأودية ونحوها ، والنهي عن المبالغة برفع الصوت بالتكبير ونحوه

٩٧٥ - عن جابرٍ ﷺ قال : كُنَّا إذا صَعِدْنَا كَبَّرْنَا ، وَإذا نَزَلْنَا سَبَّحْنا [2] . رواه البخاري .

٩٧٦ - وعن ابن عمر ﷺ قال : كانَ النبيُّ ﷺ وَجيُوشُهُ إذا عَلَوا الثَّنَايَا كَبَّرُوا وَإذا هَبَطُوا سَبَّحوا [3] . رواه أبو داود بإسناد صحيح .

الشرح

هذا الباب عقده المؤلف النووي رحمه الله تحت آداب السفر وما يُقال فيه ، فمن ذلك أنه من آداب السفر أنه إذا صعد الإنسان شيئًا مرتفعًا كالجبل ، وكذلك الطائرة إذا صعدت فإنه يكبر يقول : « اللَّه أكبر » إما مرة أو مرتين أو ثلاثًا ، وإذا نزل « سبَّح » قال : سبحان اللَّه مرة أو مرتين أو ثلاثًا ، ووجه ذلك : أن الإنسان إذا علا فإنه يرى نفسه في مكان عالٍ ، فقد يستعظم نفسه فيقول : اللَّه أكبر - يعني يرد نفسه إلى الاستصغار ، أما كبرياء اللَّه ﷻ فيقول : اللَّه أكبر . يعني : لو علوتي أيتها النفس فإن فوقك من هو أعلى منكِ وهو اللَّه - عز وعلا - أما إذا نزل فالنزول سفول ودنو وذل ، فيقول : سبحان اللَّه ، يعني : أنزه اللَّه سبحانه وتعالى عن السفول والنزول ؛ لأنه سبحانه وتعالى فوق كل شيء ، وإن كان - جل وعلا - ثبت عن رسول اللَّه ﷺ أنه ينزل إلى السماء الدنيا هذا نزول يليق بجلاله وعظمته ولا يلزم منه السفول ، لأن اللَّه تعالى ليس كمثله شيء ، المهم أنه من الآداب المستحبة التي من هدي الرسول ﷺ وأصحابه أنك إذا صعدت تقول : اللَّه أكبر ، وإذا نزلت واديًا تقول : سبحان اللَّه ، كذلك الطائرة عند ارتفاعها تكبر ،

---

(١) انظر الحديث في مسلم في التوبة (٣ ، ٤) ، وأحمد في مسنده (٣١٦/٢) .

(٢) أخرجه البخاري في الجهاد والسير (٢٩٩٣) .

(٣) أخرجه عبد الرزاق في مصنفه (٩٢٤٥) ، بلفظه ، وأبو داود في الجهاد (٢٥٩٩) بنحوه .

عند نزولها المطار تسبح ، لأنه لا فرق بين الصعود في الهواء والنزول منه ، أو على الأرض . والله الموفق .

* * *

٩٧٩ - وعن أبي موسى الأشعَريِّ ﷺ قال : كنَّا مَعَ النبيِّ ﷺ في سَفَرٍ ، فَكنا إذا أشرَفْنَا عَلى وَادٍ هَلَّلْنَا وَكَبَّرْنَا وَارتَفَعَتْ أَصْوَاتنا ، فقالَ النبيُّ ﷺ : « يَا أَيُّها الناس ارْبَعُوا عَلى أَنْفُسِكم ؛ فَإنَّكم لا تَدعونَ أَصَمَّ ولا غائبًا ، إنَّهُ مَعَكم ، إنَّهُ سَميعٌ قَريبٌ » [1] متفقٌ عليه .

« ارْبَعُوا » بِفتحِ الباءِ الموحدةِ أي : ارْفُقوا بِأَنْفُسِكم .

الشرح

تقدَّم أنه ينبغي للمسافر إذا علا وارتفع أن يكبر ، وإذا هبط ونزل أن يُسبح ، وبينا الحكمة في ذلك ، ولكن ينبغي للإنسان إذا فعل هذا ألا يُجهد نفسه ولا يشق عليها ولا يرفع صوته رفعًا بالغًا ، كما في حديث أبي موسى الأشعري ﷺ أنهم كانوا مع النبي ﷺ في سفر فكانوا يهلِّلون ويكبرون ويرفعون أصواتهم فقال النبي ﷺ : « أيها الناس اربعوا على أنفسكم » يعني هوِّنوا عليها ولا تشقوا على أنفسكم في رفع الصوت ، « فإنكم لا تدعون أصمَّ ولا غائبًا ، إنما تدعون سميعًا مجيبًا قريبًا » وهو الله ﷻ لا يحتاج أن تُجهدوا أنفسكم في رفع الصوت عند التسبيح والتحميد والتكبير ، لأن الله تعالى يسمع ويبصر وهو قريب - جلَّ وعلا - مع أنه فوق السماوات لكنه محيط بكل شيء - جلَّ وعلا - قال ابن عباس ﷺ : « ما السماوات السبع والأرضون السبع في كف الرحمن إلا كخردلة في كف أحدكم » [2] كل السماوات والأرض لا تنسب - فقط - إلى الله ﷻ بَل هو - جلَّ وعلا - محيط بكل شيء وهو فوق كل شيء ، وفي هذا دليل على أنه لا ينبغي للإنسان أن يشق على نفسه في العبادات لا في أدائها ولا في المداومة عليها ، ولهذا لما بلغ النبي ﷺ أن عبد الله بن عمرو بن العاص ﷺ قال من شدة رغبته في الخير : « لأقومنَّ الليل ما عشت ، ولأصومن النهار ما عشت » يعني : يريد أن يصوم كلَّ النهار ويقوم كلّ الليل ، فبلغ النبي ﷺ ذلك فدعاه ، وقال : « أنت الذي قلت هذا ، » قال : نعم يا رسول الله . قال : « إنك لا تطيق ذلك » ، ثم أمره أن يصوم من كل شهر ثلاثة أيام وأن يقوم وينام ، فقال : إني أطيق أكثر من ذلك ، فما زال به حتى قال النبي ﷺ له : « صُم يومًا وأفطر يومًا » قال : فإني أطيق أكثر من ذلك ، قال : « لا أفضل من هذا ، هذا صوم داود ﷺ يصوم يومًا ويفطر يومًا » . ليتقوَّى بيوم الفطر على يوم الصيام ، فلما كبر ﷺ شق عليه ذلك ، شق أن يصوم يومًا ويفطر يومًا فقال : ليتني قبلت رخصة النبي ﷺ [3] . ثم صار يصوم خمسة عشر يومًا سردًا ويفطر خمسة عشر يومًا سردًا ؛ لأنه عجز أن يصوم يومًا ويفطر يومًا ، أما في القيام فقال له : أعظم ما يكون أن

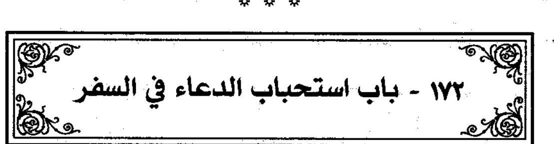
---

(١) أخرجه البخاري في الجهاد والسير (٢٩٩٢) ، ومسلم في الذكر والدعاء (٤٤) ، والبيهقي في سننه (١٨٤/٢) .
(٢) ذكره أبو نعيم في تاريخ أصبهان (٢٠٥/٢) .
(٣) انظر الحديث في (البخاري في النكاح (٥٠٦٣) ، ومسند الإمام أحمد (١٨٨/٢) .

ينام نصف الليل ، ويقوم ثلث الليل ، وينام سدس الليل ، قسمه ثلاثة أقسام : ينام النصف ، ويقوم الثلث ، وينام السدس ، وقال : « لا أفضل من ذلك » .

والحاصل : أنه لا ينبغي للإنسان أن يشق على نفسه في العبادة ، متى تسهّلت فليحمد اللَّه ، بعض الناس في أيام الشتاء يكون عنده الماء الساخن والبارد ، يتوضأ بالبارد ويترك الساخن، يعذب نفسه واللَّه ﷻ يقول : ﴿ مَّا يَفْعَلُ ٱللَّهُ بِعَذَابِكُمْ إِن شَكَرْتُمْ وَءَامَنتُمْ ﴾ [النساء : ١٤٧] نعم ، إذا لم يكن عندك إلا الماء البارد واستعملته وشق عليك فلك أجر ، أما أن تعدل عن السهل إلى الصعب طلبًا للأجر فهذا ليس بصواب ، متى تسهّل الأمر فافعله ، كذلك بعض الناس مثلًا يقول : أمشي على رجلي للحج ؛ لأنه أصعب من المشي بالسيارة . قلنا : هذا خطأ ، إذا سهّل اللَّه لك العبادة فافعل ، أو أنك تقرأ على نور ضعيف ولا تقرأ على نور قوي ؛ لأن القراءة على النور الضعيف أصعب ، ونقول : هذا أيضًا خطأ ، كلما تسهّلت العبادة فافعل ما تيسّر ولكن لا تقصر ، أما إذا لم يمكن إلا مع تعب فهذا الأمر إلى اللَّه ، ومتى تعبت في العبادة فلك أجر . واللَّه الموفق .

* * *



١٧٢ - باب استحباب الدعاء في السفر

٩٨٠ - عن أبي هُرَيرَةَ ﵁ قالَ : قالَ رسول اللَّه ﷺ : « ثَلاثُ دَعْواتٍ مُسْتجَابَاتٌ لا شَكَّ فِيهنَّ : دَعْوَةُ المَظلومِ ، وَدَعْوَةُ المسَافِرِ ، وَدَعْوَةُ الوَالِدِ عَلى وَلَدِهِ » (١) رواه أبو داود ، والترمذي وقال : حديث حسن ، وليس في رواية أبي داود : « على ولدِهِ » .

* * *

١٧٣ - باب ما يدعو به إذا خاف ناسا أو غيرهم

٩٨١ - عن أَبي موسى الأشعَرِيِّ ﵁ أَنَّ رسول اللَّه ﷺ كانَ إذا خَافَ قَومًا قال : « اللَّهُمَّ إِنَّا نَجعَلُكَ في نحورِهِمْ ، وَنَعُوذُ بِكَ مِنْ شرورِهِمْ » (٢) رواه أبو داود ، والنسائي بإسنادٍ صحيحٍ .

الشرح

قال المؤلف النووي ﵀ في : باب دعاء المسافر .

المسافر : هو الذي فارق وطنه فإنه يكون مسافرًا حتى يرجع إليه ، ودعوة المسافر دعوة مُحتاج في

---

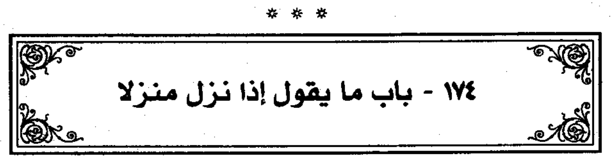
(١) أخرجه أبو داود في الصلاة (١٥٣٦) ، والترمذي في البر والصلة (١٩٠٥) ، وابن ماجه في الدعاء (٣٨٦٢) .

(٢) أخرجه أبو داود في سننة في الصلاة (١٥٣٧) ، والبيهقي في سننه (١٥٢/٩) ، قوله « نجعلك في نحورهم » أي نسألك أن تصد صدورهم .

الغالب ، والإنسان إذا احتاج ودعا ربه أوشك أن يستجاب له ، لأن الله ﷻ يجيب دعوة المضطر ودعوة المحتاج أكثر مما يستجيب لغيرهما ، ثم ذكر الحديث ثلاث دعوات مستجابات لاشك فيهن : دعوة المظلوم ، ودعوة المسافر ، ودعوة الوالد ، أما دعوة المظلوم : فمعناها إذا ظلمك أحد فأخذ مالك أو غير ذلك ، فهذا ظلم ، فإذا دعوت الله عليه استجاب الله دعاءك ، حتى ولو كان المظلوم كافرًا وظلمته ، ثم دعا الله فإن الله يستجيب دعاءه ، لا حبًا للكافر ولكن حبًا للعدل ، والمظلوم لابد أن يُنصف له من الظالم ، ولهذا لما أرسل النبي ﷺ معاذًا إلى اليمن قال له : « اتقِ دعوة المظلوم ، فإنه ليس بينها وبين الله حجاب »[1] فالمظلوم دعوته مستجابة إذا دعا على ظالمه بمثل ما ظلمه أو أقل ، أما إذا تجاوز ؛ فإنه يكون معتديًا فلا يستجاب له ، هذه واحدة ، الثانية : دعوة المسافر ، إذا دعا الله ﷻ أن ييسره سفره ، أو يعينه عليه ، أو غير ذلك من الدعوات ؛ فإن الله تعالى يستجيب له ، ولذا ينبغي أن يغتنم فرصة الدعاء في السفر ، وإذا كان السفرُ سفرَ طاعة كعمرة وحج ؛ فإنه يزداد ذلك قوة في إجابة الدعاء ، الثالثة : دعوة الوالد ، في بعض ألفاظ الحديث (على ولده) وفي بعض ألفاظه مطلقة ، (الوالد) أي سواء لولده أو عليه ، وهذا هو الأصح ، دعوة الوالد لولده أو عليه مستجابة ، أما دعوته لولده ؛ فلأنه يدعو لولده شفقة ورحمة ، والراحمون يرحمهم الله ﷻ وأما عليه ؛ فإنه لا يمكن أن يدعو على ولده إلا باستحقاق ، فإذا دعا عليه - وهو مستحق لها - استجاب الله دعوته ، هذه ثلاث دعوات مستجابات ، دعوة المظلوم ، والمسافر ، والوالد سواء الأم أو الأب .

ثم ذكر المؤلف حديث ما يُسَنُّ للإنسان إذا خاف ناسًا أو غيرهم ماذا يقول ، مثلًا : قابلك أناس تخشى منهم ، قابلك شخص تخشى من شره ، فقل : « اللَّهم إنا نجعلك في نحورهم ، ونعوذ بك من شرورهم » إذا قلت ذلك بصدق وإخلاص ولجوء إلى الله كفاك الله شرهم ، (اللَّهم إنا نجعلك في نحورهم) : أي أمامهم تدفعهم عنا ، وتمنعنا منهم ، (ونعوذ بك من شرورهم) ففي هذه الحال يكفيك الله شرهم ، كلمتان يسيرتان إذا قالهما الإنسان بصدق وإخلاص فإن الله تعالى يستجيب له . والله الموفق .

* * *



١٧٤ - باب ما يقول إذا نزل منزلا

٩٨٢ - عن خَولةَ بنتِ حَكيم رضي الله عنها قالتْ : سَمِعْتُ رسول الله ﷺ يقولُ : « مَنْ نَزلَ مَنزلًا ثمَّ قال : أَعُوذ بِكَلِماتِ اللَّهِ التَّامَّاتِ مِنْ شَرِّ مَا خَلَق ؛ لَمْ يضرَّهُ شَيءٌ حَتَّى يَرْتَحِلَ مِنْ مَنزِلِهِ ذلكَ »[2] رواه مسلم .

٩٨٣ - وعنِ ابنِ عمرَ رضي الله عنهما قال : كانَ رسول الله ﷺ إذا سَافَرَ فَأَقبَلَ اللَّيلُ قال : « يَا أَرْضُ ، رَبِّي وَرَبُّكِ اللَّه ، أعُوذُ باللَّهِ مِنْ شَرِّكِ ، وَشَرِّ مَا فِيكَ ، وَشَرِّ ما خُلِقَ فِيكَ ، وَشَرِّ مَا يدِبُّ عَليكِ ، أعُوذ باللَّه

---

(١) أخرجه البيهقي في السنن (٤/٩٦) ، والدارقطني في السنن (٢/١٣٦) .

(٢) أخرجه مسلم في الذكر (٥٤) والإمام أحمد في مسنده (٦/٣٧٧) والترمذي في الدعوات (٣٤٣٧) .

مِنْ شَرِّ أَسَدٍ وَأَسْوَدٍ ، وَمِنَ الحَيَّةِ وَالعَقرَبِ ، وَمِنْ سَاكِنِ البَلَدِ ، وَمِنْ وَالِدٍ وَمَا وَلَدَ » [1] رواه أبو داود .

« وَالأَسْوَدُ » : الشَّخص ، قال الخَطَّابِيُّ : « وسَاكِن البَلَدِ » : هُمُ الجِنُّ الَّذِينَ هم سُكَّان الأَرْضِ . قال : وَالبَلَد مِنَ الأَرْضِ : مَا كان مَأْوَى الحَيوانِ ، وَإِنْ لَمْ يَكنْ فِيهِ بَنَاءٌ وَمَنَازِلُ . قال : وَيحتَمِلُ أَنَّ المُرادَ « بِالوَالِدِ » : إبليسُ « وَما ولدَ » : الشَّيَاطِين .

الشرح

هذان الحديثان في بيان ما يقوله الإنسان إذا كان مسافرًا ونزل منزلًا ، ففي حديث خَولَة بنت حكيم رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا أن النبي ﷺ قال : « مَن نزل منزلًا فقال : أعوذ بكلمات اللَّه التامات من شر ما خلق ، لم يضره شيء حتى يرتحل من منزله هذا » قوله : « نزل منزلًا » يشمل مَنْ نزل منزلًا في السفر إذا كان مسافرًا ، ثم نزل ليستريح لغداء أو عشاء أو نوم أو غير ذلك ، فإنه إذا نزل يقول : « أعوذ بكلمات اللَّه التامات من شر ما خلق » وأعوذ أي : أعتصم بكلمات اللَّه التامات ، و « كلمات اللَّه التامات » تشمل كلماتِه الكونيةَ والشرعية ، فأما الكونية فهي التي ذكرها اللَّه في قوله : ﴿ إِنَّمَآ أَمْرُهُۥٓ إِذَآ أَرَادَ شَيْـًٔا أَن يَقُولَ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ ﴾ [يس : ٨٢] فيحميك اللَّه تعالى بكلماته الكونية ، يدفع عنك ما يضرُّك إذا قلت هذا الكلام ، كذلك الكلمات الشرعية وهي الوحي ، فيها وقاية من كل سوء وشر ، ووقاية من الشر قبل نزوله وبعد نزوله ، أما قبل نزوله : فقد ثبت عن النبي ﷺ أن من قرأ آية الكرسي في ليلة ؛ لم يزل عليه من اللَّه حافظ ولا يقربه شيطان حتى يصبح [2] ، وأما بعد نزول الشر : فقد ثبت عنه ﷺ : أن الفاتحة إذا قُرأ بها على المريض فإنه يبرأ بها ، حتى إن الصحابي رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ لما قرأ الفاتحة على سيد القوم الذي لُدِغَ قام كأنما نشط من عِقَال ، يعني : برأت حاله [3] ، لأنَّ القرآن شفاء ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ قَدْ جَآءَتْكُم مَّوْعِظَةٌ مِّن رَّبِّكُمْ وَشِفَآءٌ لِّمَا فِى ٱلصُّدُورِ وَهُدًى وَرَحْمَةٌ لِّلْمُؤْمِنِينَ ﴾ [يونس : ٥٧] فاحرص - يا أخي المسلم - إذا نزلت منزلًا في برٍّ أو بحر ، أو منزلًا اشتهيته للنوم وما أشبه ذلك فقل : « أعوذ بكلمات اللَّه التامات من شر ما خلق » فإنه لا يضرك شيء حتى ترتحل من منزلك ذلك . واللَّه الموفق .

* * *

١٧٥ - باب استحباب تعجيل المسافر الرجوع إلى أهْلِه إذا قضى حاجته

٩٨٤ - عَنْ أَبي هُرَيرَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ أنَّ رسول اللَّه ﷺ قال : « السَّفَرُ قِطْعَةٌ مِنَ العَذَابِ ، يَمْنَعُ أَحَدَكم طَعَامَهُ ، وَشَرَابَهُ وَنَومَهُ ، فإذا قَضى أَحَدُكُمْ نَهْمَتَهُ مِنْ سَفَرِهِ ، فَلْيُعَجِّلْ إلى أَهْلِهِ » [4] متفقٌ عليه . « نَهْمَتُهُ » : مَقْصُودَهُ .

---

(١) أخرجه أبو داود في الجهاد (٢٦٠٣) .
(٢) أخرجه البخاري في فضائل القرآن (٥٠١٠) .
(٣) انظر الحديث في البخاري في فضائل القرآن (٥٠٠٧) ، ومسلم في فضائل الصحابة (١٦١) ، والترمذي في السنن (٢٠٦٤) ، وابن ماجه في السنن (٣٨٩١) .
(٤) أخرجه البخاري في العمرة (١٨٠٤) ، ومسلم في الإمارة (١٧٩) .

الشرح

قال المؤلف - رحمه الله تعالى - فيما يتعلق بالسفر : باب استحباب تعجيل المسافر الرجوع إلى أهله إذا قضى حاجته ، وذلك أن المسافر إذا سافر فإنه يترك أهله ، وربما يحتاجون إليه في تعليمهم ورعايتهم وغير ذلك ، وربما يحدث لهم أشياء توجب أن يكون عندهم ، ولهذا أمر النبي ﷺ كما في الحديث الذي ذكره المؤلف أن الإنسان إذا قضى نهمته من سفره فليرجع إلى أهله ، وقال ﷺ في هذا الحديث : « إن السفر قطعة من العذاب » ويعني ذلك : عذاب الضمير وعذاب الجسم ، ولا سيما الذي كان في الزمن السابق حيث يسافرون على الإبل ويكون فيها مشقات كبيرة ، وحرّ في الصيف وبرد في الشتاء ، ولهذا قال ﷺ : « إنه قطعة من العذاب ، يمنع أحدكم طعامه وشرابه ونومه » لأنه - أي المسافر - مشغول البال ولا يأكل ويشرب كطعامه وشرابه العادي في أيامه العادية ، وكذلك في النوم ، فإذا كان كذلك فليرجع الإنسان إلى الراحة إلى أهله وبلده ليقوم على أهله بالرعاية والتأديب وغير ذلك ، وفي هذا دليل على أن إقامة الإنسان في أهله أفضل من سفره إلا أن يكون هناك حاجة ، ووجهه أن أهله يحتاجون إليه ، ولهذا لما قدم مالك بن الحويرث ومعه عشرون رجلًا من قومه إلى النبي ﷺ وأقاموا عنده نحو عشرين ليلة ، فرأى أنهم قد اشتاقوا إلى أهلهم قال : « ارجعوا إلى أهليكم وأقيموا فيهم وأدِّبوهم وعلِّموهم » [١] فدلَّ ذلك على أن الإنسان لا ينبغي أن يغيب عن أهله إلا بقدر الحاجة ، هذا هو الأفضل . والله الموفق .

* * *

١٧٦ - باب استحباب القدوم على أهله نهارًا وكراهته في الليل لغير حاجة

٩٨٥ - عن جابرٍ ﷺ أَنَّ رسول اللَّه ﷺ قال : « إذا أَطالَ أَحَدُكُم الغَيبَةَ فَلا يَطْرُقَنَّ أَهْلَهُ لَيلًا » .

وفي روايةٍ : أَنَّ رسول اللَّه ﷺ نَهَى أَنْ يَطْرُقَ الرَّجُلُ أَهْلَهُ لَيلًا [٢] . متفقٌ عليه .

٩٨٦ - وعن أنسٍ ﷺ قَالَ : كانَ رسول اللَّه ﷺ لا يطرُقُ أَهْلَهُ لَيلًا ، وَكانَ يَأْتِيهِمْ غُدْوَةً أَو عَشِيَّةً [٣] . متفقٌ عليه . « الطُّرُوقُ » : المَجِيءُ في اللَّيلِ .

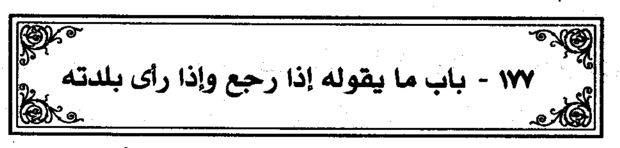
* * *

---

(١) أخرجه البخاري في الأذان (٦٣١) ، ومسلم في المساجد (٢٩٢) ، والنسائي في السنن (٢/٩) ، والدارمي في السنن (١/٢٨٦) .

(٢) أخرجه البخاري في العمرة (١٨٠١) ، ومسلم في الإمارة (١٨٢) ، بنحوه ، والإمام أحمد في المسند (٣/٣٩٦) .

(٣) أخرجه البخاري في العمرة (١٨٠٠) ، ومسلم في الإمارة (١٨٠) .



١٧٧ - باب ما يقوله إذا رجع وإذا رأى بلدته

فِيهِ حديثُ ابْنِ عُمَرَ السَّابقُ في باب تكبيرِ المسافرِ إذا صَعِدَ الثَّنَايَا .

٩٨٧ - وعن أَنسٍ ﷺ قال : أَقْبَلْنَا مَعَ النَّبيِّ ﷺ حَتَّى إذا كُنَّا بظَهْرِ المَدِينَةِ قال : «آيِبُونَ ، تَائِبُونَ ، عَابِدونَ ، لِرَبِّنَا حَامِدُونَ » [١] فَلَمْ يَزَلْ يَقُولُ ذلكَ حَتَّى قَدِمْنَا المَدِينَة ، رواه مسلم .

* * *

١٧٨ - باب استحباب ابتداء القدوم بالمسجد الذي في جواره وصلاته فيه ركعتين

٩٨٨ - عن كعب بنِ مالكٍ ﷺ أَنَّ رسول اللَّه ﷺ كانَ إذا قَدِمَ مِنْ سَفَرٍ بَدَأَ بالمَسْجِدِ فَرَكَعَ فِيهِ رَكْعَتَينِ [٢] . متفقٌ عليه .

الشرح

هذه الأبواب الثلاثة من آداب السفر :

أما الباب الأول : فإن الإنسان إذا غاب عن أهله وطالت غيبته فلا يطرقهم ليلًا ، أي : لا يأتيهم في الليل إلا لحاجة أو إعلان ، الحاجة : مثل أن يحصل عليه في السفر مشقة لو انتظر إلى الصباح مثلًا ، فهذه حاجة يَقدم عليهم في الليل ولا حرج ، وكذلك أيضًا إذا كان قد أعلمهم قال : إنه سيقدم عليهم الليلة الفلانية ، فلا بأس أن يَقْدِم عليهم ليلًا ، أما إذا كان أطال الغيبة فإنه لا يطرقهم ليلًا ، لأن النبي ﷺ علّل ذلك فقال : « لكي تمتشط الشعثة ، وتستحدَّ المُغِيبة » [٣] يعني : لأجل أن المرأة تتجمل وتتزين لزوجها لئلا يقدم عليها وهي شعثة غير ماشطة ، أو لم تستحدّ أي : لم تحلق عانتها ، فلهذا قيد المسألة إذا أطال السفر ، أما إذا لم يطل السفر ، كسفر يوم أو يومين أو ما أشبه ذلك ؛ فلا حرج عليه أن يقدم إلى أهله متى شاء ، والحاصل : أنه إذا أطال الغيبة فلا يقدم على أهله ليلًا إلا لحاجة أو إعلام فلا بأس .

أما الحديث الثاني : فهو إذا قدم الإنسان من السفر فليبدأ قبل كل شيء بالمسجد ، فقبل أن يدخل على أهله ، يبدأ بالمسجد ويصلي فيه ركعتين ، لأن النبي ﷺ سَنَّ ذلك لأمته في قوله وفعله ، فكان

---

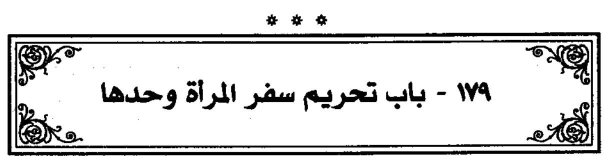
(١) أخرجه مسلم في الحج (١٣٤٥) ، والترمذي في الدعوات (٣٤٤٠) ، والإمام أحمد في المسند (١/٢٥٦) ، قوله « بظهر المدينة) أي : في مكان تظهر منه دور المدينة ؛ أي على مشارف المدينة .

(٢) أخرجه البخاري في الجهاد والسير (٣٠٨٨) ، ومسلم في التوبة (٥٩) ، من حديث طويل ، وأبو داود في الجهاد (٢٧٧٣) ، والإمام أحمد في المسند (٣/٤٥٥) .

(٣) أخرجه البخاري في النكاح (٥٢٤٧) ، ومسلم في الإمارة (١٨١) ، وأحمد في مسنده (٣/٣٠٣) . ومعنى « الشعثة » أي : التي اغبر وتلبد وتوسخ شعر رأسها ،وقوله : « المغيبة » أي التي غاب عنها زوجها .

ﷺ إذا قدم أول ما يبدأ به هو المسجد يصلي فيه ركعتين [١] . ولما جاءه جابر رضي الله عنه ليأخذ ثمن جمله الذي باعه عليه قال له : « أدخلت المسجد وصليت ؟ » قال : لا ، قال : « ادخل المسجد وصلِّ ركعتين » [٢] وهذه السُّنة قد غفل عنها كثير من الناس ، إما جهلًا بذلك وإما تهاونًا ، ولكن ينبغي للإنسان أن يحيي هذه السُّنة ، وإذا وصل إلى البلد فليكن أول ما يبدأ به أن يدخل إلى المسجد ويصلي ركعتين ثم بعد ذلك يذهب إلى أهله . والله الموفق .

* * *



١٧٩ - باب تحريم سفر المرأة وحدها

٩٨٩ - عن أَبي هُرَيرَة رضي الله عنه قَالَ : قَال رسول الله ﷺ : « لا يَحِلُّ لامْرَأَةٍ تُؤمِنُ بالله وَاليَومِ الآخِرِ تُسَافِرُ مَسِيرَةَ يَومٍ وَلَيلَةٍ إلا مَعَ ذِي مَحْرَمٍ عَليها » [٣] متفقٌ عليه .

٩٩٠ - وعنِ ابنِ عباسٍ رضي الله عنهما أنَّه سَمِعَ النَّبيَّ ﷺ يقولُ : « لا يَخْلُوَنَّ رَجُلٌ بامْرَأَةٍ إلا وَمَعَهَا ذُو مَحْرمٍ ، وَلا تُسَافِرُ المَرْأَةُ إلا مَعَ ذِي مَحْرَمٍ » فقالَ لَهُ رَجُلٌ : يا رسولَ اللهِ إنَّ امْرَأَتِي خَرَجَتْ حَاجَّةً ، وَإنِي اكْتُتِبْتُ في غَزْوَةِ كَذَا وكذا ؟ قال : « انْطَلِقْ فَحُجَّ مَعَ امْرَأَتِكَ » [٤] متفقٌ عليه .

الشرح

ذكر المؤلف رحمه الله في : باب تحريم سفر المرأة وحدها ، يعني : بلا محرَم ، وذلك أن المرأة ناقصة العقل والدين ، قريبة التصوُّر ، كل إنسان يخدعها ، وكل إنسان يَذِلُّ بها ، وهي فتنة الرجال كما قال النبي ﷺ : « أول فتنة بني إسرائيل كانت في النساء » [٥] وقال : « ما تركت بعدي فتنة أضر على الرجال من النساء » [٦] فلهذا تمنع المرأة من السفر بلا محرم ، واختلف العلماء فيما إذا كان السفر قصيرًا هل تمنع منه أم لا ؟ فمنهم من قال بالمنع حتى من السفر القصير ، ومنهم من قال : لا تمنع إلا من السفر الطويل ، والصحيح أنها تمنع مما يُسميه الناس سفرًا ؛ فكل ما يطلق عليه اسم سفر ؛ فإنه لا يجوز للمرأة أن تسافر إلا مع ذي محرم ، خوفًا عليها من الفتنة والشر والبلاء .

(١) انظر الحديث أيضًا في : البخاري في العمرة (١٨٠٢) ، ومسلم في التوبة (٥٣) ، وأبو داود في الأدب (٢٧٧٣) .
(٢) انظر الحديث في : البخاري في البيوع (٢٠٩٧) .
(٣) أخرجه البخاري في تقصير الصلاة (١٠٨٨) ، ومسلم في الحج (٤٧٩) ، قوله : « ذي محرم » هو الزوج أو أحد أقاربها ممن لا يجوز لها الزواج به مثل : الأخ والأب والابن والعم والخال والجد .
(٤) أخرجه البخاري في النكاح (٥٢٣٣) ، ومسلم في الحج (٤٢٤) ، قوله : « اكتتبت في غزوة كذا » أي عيّنت في أسماء من عين في تلك الغزوة .
(٥) أخرجه مسلم في الذكر والدعاء (٩٩) ، و الإمام أحمد في مسنده (٣/٢٢) .
(٦) أخرجه البخاري في النكاح (٥٠٩٦) ، ومسلم في الذكر والدعاء (٩٧) ، والترمذي في السنن (٢٧٨٠) ، والإمام أحمد في مسنده (٥/٢٠٠) .

ثم ذكر المؤلف حديث أبي هريرة وابن عباس ﭫ فيما يدل على أنه يحرم أن تسافر المرأة بلا محرم ، وظاهر الحديث أنه لا فرق بين المرأة الشابة والكبيرة ، والحسناء والقبيحة ، ومن معها نساء ومَن لا نساء معها ، ومن هي آمنة وغير آمنة ، وإذا قُدِّر أن يوجد في سفر من الأسفار السلامة يقينًا ؛ فإن ذلك لا يوجد في كل سفر ، ولما كانت المسألة خطيرة منعت المرأة منعًا باتًّا من السفر بلا محرم ، وقد تهاون بعض الناس اليوم في السفر بلا محرم ولا سيما في سفر الطائرة وكذلك النقل الجماعي وهذا غلط وتهاون في طاعة الله ورسوله ﷺ ، فلا يحل للمرأة أن تسافر بلا محرم ، ولو بالطائرة حتى لو كان محرمها سيشيعها إلى أن تركب الطائرة ، ومحرمها الثاني يقابلها في البلد الآخر ، فإن ذلك لا يجوز ، لأننا مهما قدَّرنا من السلامة ؛ فإنه مَن يركب إلى جنب هذه المرأة ؟ لأن النساء الآن في الطائرة لا يُفرق بينهن وبين الرجال ، تجد المرأة إلى جانب الرجل ، لهذا نقول : إنه يحرمُ على المرأة أن تسافر بلا محرم في الطائرة أو السيارة أو الجمل أو الحمار أو الأرجل كل ذلك حرام ، والمحْرَم : هو مَن تحرُم عليه تحريمًا مُؤَبَّدا بنسب أو مصاهرة أو رضاعة ، وقد ذكر الله ذلك في القرآن الكريم قال : ﴿ حُرِّمَتْ عَلَيْكُمْ أُمَّهَٰتُكُمْ وَبَنَاتُكُمْ وَأَخَوَٰتُكُمْ وَعَمَّٰتُكُمْ وَخَٰلَٰتُكُمْ وَبَنَاتُ ٱلْأَخِ وَبَنَاتُ ٱلْأُخْتِ ﴾ [النساء : ٢٣] هؤلا سبع من النسب ثم قال : ﴿ وَأُمَّهَٰتُكُمُ ٱلَّٰتِىٓ أَرْضَعْنَكُمْ وَأَخَوَٰتُكُم مِّنَ ٱلرَّضَٰعَةِ ﴾ [النسا : ٢٣] هذا من الرضاعة ، وكذلك العمَّة من الرضاعة والخالة من الرضاعة ، كلها محارم لقول النبي ﷺ « يحرم من الرضاع ما يحرم من النسب » [١] .

أما المصاهرة : فأبو الزوج وجدُّه من قِبَلِ الأب أو الأم محْرَم للزوجة ، وابن الزوج وابن بنت الزوج وإن نزل كذلك أيضًا من محارم الزوجة ، فلو سافر جد الزوج سافر بامرأة ابنه ، فإن ذلك لا بأس به ، لأنه مِحْرَم ، ولو أن ابن الزوج النابه سافر بزوجة أبيه فلا بأس ، لأنها محْرَم له ، وأما ما يظنه بعض العوام من أن الإنسان إذا أنقذ امرأة من هلاك صار محْرمًا لها ؛ فهذا ليس له أصل ، كأن يقول بعض الناس : إذا غرقت امرأة ثم جاء إنسان وأنقذها ، أو شبت حريق بالبيت فجاء إنسان فأنقذها ، يدَّعي بعض العوام أنه يصير مَحْرَمًا لها وهذا ليس له أصل ، غير صحيح ، المحارم سبع من النسب ، وسبع من الرضاع ، وأربع من المصاهرة [٢] . أما الزوج فمعلوم أنه محرم ، لأنه زوج . والله الموفق .

* * *

---

(١) أخرجه الإمام أحمد في مسنده (١/٣٣٩) ، والبيهقي في السنن (٧/٤٥٢) ، وأخرجه البخاري في النكاح (٥٠٩٩) ومسلم في الرضاع (٢ ، ٩) كلاهما بلفظه « ما يحرم من الولادة » .

(٢) انظر في ذلك المبسوط (٤/١٩٨) ، وكشاف القناع (٥/٦٩) ، حاشيتا القليوبي وعميرة (٣/٢٤١) ، بداية المجتهد (٢/٣٠) ، المحلى (٩/٥٢٠) فقه الكتاب والسنة (٢/١٠٧٩) .

كتاب الفضائل

١٨٠ - باب فضل قراءة القرآن

قال المؤلف - رحمه الله تعالى - في كتابه(رياض الصالحين) : كتاب الفضائل ، الفضائل : جمع فضيلة ، ثم بدأ بفرائض كتاب الله ﷻ فقال : باب فضل قراءة القرآن ، والقرآن الذي بين أيدينا هو كلام الله ﷻ ، تكلّم به ﷻ حقيقةً كلامًا سمعه جبريل ، ثم تلاه جبريل على النبي ﷺ قال الله تعالى : ﴿ وَإِنَّهُۥ لَتَنزِيلُ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ۝ نَزَلَ بِهِ ٱلرُّوحُ ٱلْأَمِينُ ۝ عَلَىٰ قَلْبِكَ لِتَكُونَ مِنَ ٱلْمُنذِرِينَ ﴾ [الشعراء : ١٩٢- ١٩٤] وقال : ﴿ نَزَّلَهُۥ عَلَىٰ قَلْبِكَ ﴾ لأن القلب هو محل الوعي والإدراك والفقه لتكون من المنذرين ، وقال الله تبارك وتعالى : ﴿ لَا تُحَرِّكْ بِهِۦ لِسَانَكَ لِتَعْجَلَ بِهِۦٓ ﴾ [القيامة : ١٦] وكان النبي ﷺ من شدة حرصه على القرآن كان يبادر جبريل - وجبريلُ يقرأ عليه يلقنه - فيبادره القراءة ، فقال الله تعالى : ﴿ لَا تُحَرِّكْ بِهِۦ لِسَانَكَ لِتَعْجَلَ بِهِۦٓ ﴾ يعني : اسكت حتى يقرأ جبريل ﴿ إِنَّ عَلَيْنَا جَمْعَهُۥ وَقُرْءَانَهُۥ ۝ فَإِذَا قَرَأْنَٰهُ ﴾ [القيامة : ١٧- ١٨] يعني : قرأه جبريل الذي هو رسول رب العالمين إلى محمد ﷺ [١] ﴿ فَإِذَا قَرَأْنَٰهُ فَٱتَّبِعْ قُرْءَانَهُۥ ﴾ يعني : اقرأه بعده ﴿ ثُمَّ إِنَّ عَلَيْنَا بَيَانَهُۥ ﴾ يعني لا تقاطع جبريل في القراءة .

فهذا القرآن تكلم الله به - جلّ وعلا - وهو يتكلم به ﷻ إذا أراد أن ينزله ، كما قال تعالى : ﴿ قَدْ سَمِعَ ٱللَّهُ قَوْلَ ٱلَّتِى تُجَٰدِلُكَ فِى زَوْجِهَا ﴾ وهذه الجملة جملة ماضوية ، يعني ، أنها فعل ماضٍ : ﴿ قَدْ سَمِعَ ﴾ يدل على تقدُّم كلام هذه المرأة وعلى تأخر كلام الله في قصتها وشأنها ، ﴿ قَدْ سَمِعَ ٱللَّهُ قَوْلَ ٱلَّتِى تُجَٰدِلُكَ فِى زَوْجِهَا وَتَشْتَكِىٓ إِلَى ٱللَّهِ وَٱللَّهُ يَسْمَعُ تَحَاوُرَكُمَآ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ سَمِيعٌۢ بَصِيرٌ ﴾ [المجادلة : ١] وقال تعالى : ﴿ وَإِذْ غَدَوْتَ مِنْ أَهْلِكَ تُبَوِّئُ ٱلْمُؤْمِنِينَ مَقَٰعِدَ لِلْقِتَالِ ﴾ [٢] [آل عمران : ١٢١] هذا في أُحد ، يقول : إذ غدوت من أهلك ، إذن فالغدو سابق على كلام الله تعالى هذا ، والله جلّ وعلا يتكلم متى شاء بما شاء ، كيف شاء ، ولا يحل لنا أن نقول : إن كلام الله تعالى ككلامنا ، يعني أن صوته في القرآن كأصواتنا ، كلا ، لكنه يتكلم بالحروف التي نتكلم بها ، فهذا القرآن الذي بين أيدينا هو الحروف التي نكوّن منها كلامنا ، وهو كلام الله ﷻ ، المعنى واللفظ كله كلام الله ، هذا هو ما دلَّ عليه الكتاب والسُّنة وإجماع السلف وأئمة أهل السُّنة : أن القرآن كلام الله وأنه مُنزَّل من عنده ، وأن الله تكلم به حقيقةً ، وأنه تلقاه عنه جبريلُ ، ثم نزل به على قلب النبي ﷺ ، قال الله تعالى : ﴿ إِنَّهُۥ لَقَوْلُ رَسُولٍ كَرِيمٍ ۝ ذِى قُوَّةٍ عِندَ ذِى ٱلْعَرْشِ مَكِينٍ [٣] ۝ مُّطَاعٍ ثَمَّ أَمِينٍ ﴾ [التكوير : ١٩- ٢١] فهو أمين ، أعني جبريل عليه الصلاة والسلام ، نزل به على أمين البشر ، جبريلُ أمين الملائكة ، ومحمدٌ ﷺ أمينُ البشر ، وكلاهما أمين على وحي الله ﷻ .

هذا القرآن له فضائل عظيمة ، فضائل عامة ، وفضائل في آيات وسور خاصة ، مثلًا : الفاتحة هي

---

(١) انظر في ذلك البخاري في تفسير سورة القيامة باب (١ ، ٢) ، ومسلم في الصلاة (١٤٨) والترمذي في التفسير سورة القيامة باب (١) .

(٢) قوله تعالى : ﴿ تُبَوِّئُ ﴾ أي : تهيئ لهم مواطن وأماكن القتال .

(٣) قوله تعالى : ﴿ مَكِينٍ ﴾ أي : صاحب مكانة رفيعة ومنزلة عظيمة .

السبع المثاني ، وهي أم الكتاب [١] ، وآية الكرسي هي أعظم آية في كتاب الله [٢] ، وهلم جرًا ، في آيات أو سور لها فضائل خاصة ، أما القرآن عمومًا فله أيضًا فضائل عامة .

وهذا يوجب لنا أن نحرص غاية الحرص على تلاوة كتاب الله ﷻ ليلًا ونهارًا ، لأن الإنسان إذا تلا كلام الله صار له بكل حرف عشر حسنات ، الحرف الواحد من الكلمة له فيه عشر حسنات ، فمثلًا : « قلْ » فيها عشرون حسنة ؛ لأنها حرفان : القاف واللام .

« أعوذ » : هذه أربعة أحرف فيها أربعون حسنة ، يعني ثواب عظيم لا يتصوره الإنسان إذا قرأ هذا الكتاب العزيز العظيم الذي ﴿ لَّا يَأْتِيهِ ٱلْبَٰطِلُ مِنۢ بَيْنِ يَدَيْهِ وَلَا مِنْ خَلْفِهِۦ ۖ تَنزِيلٌ مِّنْ حَكِيمٍ حَمِيدٍ ﴾ [فصلت : ٤٢] .

وينبغي للإنسان إذا قرأ القرآن أن يترتل فيه وألا يتعجَّل عجلة تُوجِبُ سقوطَ بعض الحروف ، فإن بعض الناس يَهُذُّه هذًّا [٣] حتى يسقط بعض الحروف ، هذا ما تلاه كما أُنزل ! فلا بد من بيان الحروف ، لكن التجويد المصطلح عليه في كتب التجويد ليس بواجب ، لكنه من كمال تحسين الصوت ، الواجب ألا تُسقط حرفًا من الحروف ولا شدَّة من الشدَّات ، وأما قواعد التجويد المعروفة فهي من باب التحسين والتكميل وليست من باب الواجبات ، ولهذا يُضَعَّف القول بأن التجويد واجبٌ وأن من لم يجود القرآنَ آثم ، فإن هذا قول ضعيف جدًّا [٤] ، بل يقال : القرآن أمره - ولله الحمد - بَيِّنٌ واضح لا تسقط حرفًا من حروفه ، وأما مراعاة قواعد التجويد فليست بواجبة ، لكنها من باب تحسين الصوت بالقرآن .

واعلم أن القرآن أول ما نزل نزل على سبعة أحرف [٥] ؛ لأن الناس عرب من قبائل متعددة ولهجات مختلفة ، ونحن نعرف أن الواحد إذا أراد أن يتكلم بلهجة غيره يصعب عليه ويشق عليه ؛ فكان من رحمة الله ﷻ أنْ جعل القرآن على سبعة أحرف ، كلٌّ يقرأ بلهجته من العرب ، بقي على هذا ، في عهد النبي عليه الصلاة والسلام كله ، وفي عهد أبي بكر ، وفي عهد عمر ، وفي عهد عثمان صار الناس يقرؤون على لهجاتهم فصار في هذا اختلافٌ ، واللغة القرشية كانت غلبت على جميع اللَّهجات ، بعد أن تطور اللسان وصارت الدولة كلُّ خلفائها من قريش ، غلبت اللغةُ القرشية ،

---

(١) انظر في ذلك البخاري في التفسير (٤٤٧٤) ، وأبو داود في السنن (١٤٥٧) ، والترمذي في السنن (٣١٢٤) وأحمد في مسنده (٤٤٨/٢) .

(٢) انظر في ذلك : أبو داود في السنن (٤٠٠٣) ، والطبراني في الكبير (١٤٣/٩) ، والمنذري في الترغيب والترهيب (٣٦٩/٢) .

(٣) هذَّ القرآن : أسرع في قراءته .

(٤) هذا هو رأي الشارح والصحيح الذي تعارف عليه أهل العلم أن تجويد القرآن أمر واجب على كل حافظ للقرآن الكريم ، ومعرفة قواعد علم التجويد تعرف القارئ قواعد التلاوة دون لحن أو خطأ . وأصدق مثال على ذلك ما فعله عمر بن الخطاب ﷺ مع أحد الصحابة عندما وجده يقرأ الآية بالقصر فأحضره إلى النبي ﷺ وأخبره بما حدث فأقر النبي ﷺ كل واحد منهما على قراءته لأن قراءة الآية كان فيها القراءتان . فلو لم تكن أحكام التجويد مهمة ما فعل عمر ﷺ ذلك « انظر صحيح البخاري كتاب فضائل القرآن باب أنزل القرآن على سبعة أحرف (٤٩٩٢) » .

(٥) ودليل ذلك قوله ﷺ : « نزل القرآن على سبعة أحرف » أخرجه البخاري في فضائل القرآن (٤٩٩١) وأحمد في مسنده (٢٠٤/٤) ، والحاكم في المستدرك (٥٥٣/١) .

وغلب حرف قريش على جميع اللَّهجات ، فلما خاف أمير المؤمنين عثمان ﷺ أن يختلف الناس في كلام اللّه وأن تؤدي هذه الأحرف السبعة إلى شقاق ونزاع ، أمر ﷺ أن يُوَحَّد القرآن على حرف واحد ، ألا وهو حرف قريش - أي لغة قريش - فجمع القرآن على حرف واحد على لغة قريش وهو الذي نقرأ به الآن ، ثم أمر بسائر المصاحف فأُحرقت [١] ، لئلا تبقى فيفتتن الناس بها ، فكان في ذلك مصلحة عظيمة وفضيلةٌ لأمير المؤمنين عثمان ﷺ لا توصف ، فنسأل اللّه تعالى أن يجزيه عن المسلمين خيرًا .

وأحثُّ نفسي وإياكم على تلاوة كتاب اللّه ، لا تتركوا القرآن ، ولو في الشهر مرة تقرأه كله ، أو مرتين ، أو أربعة ، أو عشر مرات ، وهذا أدنى ما يكون من الكمال ، أن تقرأه كل ثلاثة أيام [٢] ، هذا أفضل ما يكون ، وإن رأيت أنه لا يتيسر لك إلا في الأسبوع مرة ، أو كل عشرة أيام مرة ، أو في الأسبوعين مرة ، أو في ثلاثة أسابيع مرة ، أو في الشهر مرة ، المهم لا تهجر القرآن ؛ لأنه كلام اللّه ﷻ ولا يزيدك إلا نورًا في القلب وبصيرة في العلم . واللّه الموفق .

* * *

٩٩١ - عن أَبي أُمَامَةَ ﷺ قالَ : سَمِعتُ رسول اللّه يقولُ : « اقْرَأُوا القُرآنَ ؛ فَإِنَّهُ يَأْتي يَومَ القِيامَةِ شَفِيعًا لأَصْحَابِهِ » [٣] رواه مسلم .

٩٩٢ - وعَن النَّواسِ بنِ سَمعَانَ ﷺ قالَ : سَمِعتُ رسول اللّه ﷺ يقولُ : « يُؤْتَى يَومَ القِيامَةِ بالقُرآنِ وَأَهْلهِ الذِين كانوا يَعْمَلُونَ بِهِ في الدُّنيَا تَقدُمهُ سورَة البَقَرَةِ وَآلِ عِمرَانَ ، تُحَاجَّانِ عن صاحِبِهِمَا » [٤] رواه مسلم .

الشرح

قال النووي رَحِمَهُ اللَّهُ في كتاب (رياض الصالحين) كتاب الفضائل ، باب فضل قراءة القرآن ، وقد سبق لنا شيء من الكلام على ذلك في الدرس الماضي ، ونتناول الآن الأحاديث التي ساقها في هذا الباب ، ومنها عن أبي أمامة ﷺ أن النبي ﷺ قال : « اقرأوا القرآن » فأمر ﷺ بقراءة القرآن وأطلق ؛ فهي مستحبة في كل وقت وعلى كل حال ، إلا إذا كان الإنسان على حاجة - يعني يبول أو يتغوط - فلا يقرأ القرآن ؛ لأن القرآن معظَّم محترم فلا يُقرأ في هذه الحال ، وكذلك إذا كان الإنسان مع أهله حال جماعه ؛ فإنه لا يقرأ القرآن ، لكنه يقول عند جماعه : « بسم اللّه ، اللَّهم جنبنا الشيطان وجنبِ الشيطان ما رزقتنا » [٥] .

قال النبي ﷺ : « اقرأوا القرآن ؛ فإنه يأتي يوم القيامة شفيعًا لأصحابه » إذا كان يوم القيامة جعل

---

(١) انظر البخاري في التفسير (٤٩٨٧) .

(٢) وذلك مصداقًا لما رواه البخاري في فضائل القرآن (٥٠٥٢) .

(٣) أخرجه مسلم في صلاة المسافرين (٢٥٢) ، والبيهقي في السنن (٣٩٥/٢) ، والإمام أحمد في المسند (٢٥٥/٥ ، ٢٥٧) بنحوه .

(٤) أخرجه مسلم في صلاة المسافرين (٢٥٣) ، والإمام أحمد في المسند (١٨٣/٤) .

(٥) أخرجه أبو داود في السنن (٢١٦١) ، والدارمي في السنن (١٤٥/٢) ، وأحمد في مسنده (٢١٧/١) .

الله ﷻ ثواب هذا القرآن شيئًا قائمًا بنفسه ، يأتي يوم القيامة شفيعًا لأصحابه يشفع لهم عند الله ﷻ فإن القرآن إذا تلاه الإنسان محتسبًا فيه الأجر عند الله فله بكل حرف عشر حسنات .

ومثله حديث النَّوَّاس بن سمعان ﷺ : أن النبي ﷺ أخبر أن من قرأ القرآن وعمل به ، فإنه يأتي يوم القيامة يتقدمه سورة البقرة وآل عمران يحاجَّان عن صاحبهما يوم القيامة ، ولكن الرسول ﷺ قيد في هذا الحديث قراءةَ القرآن بالعمل به ، لأن الذين يقرأون القرآن ينقسمون إلى قسمين : قسم لا يعمل به ، فلا يؤمنون بأخباره ولا يعملون بأحكامه ، هؤلاء يكون القرآن حجة عليهم ، وقسم آخر يؤمنون بأخباره ويصدقون بها ويعملون بأحكامه . فهؤلاء يكون القرآن حجة لهم يحاجُّ عنهم يوم القيامة ، لأن النبي ﷺ قال : « القرآن حجة لك أو عليك » (١) . وفي هذا دليل على أن أهم شيء في القرآن : العملُ به . ويؤيد هذا قوله تعالى : ﴿ كِتَٰبٌ أَنزَلْنَٰهُ إِلَيْكَ مُبَٰرَكٌ لِّيَدَّبَّرُوٓاْ ءَايَٰتِهِۦ وَلِيَتَذَكَّرَ أُوْلُواْ ٱلْأَلْبَٰبِ ﴾ [ص : ٢٩] أي : يتفهمون معانيها ويعملون بها ، وإنما أخر العمل عن التدبر ؛ لأنه لا يمكن العمل بلا تدبر ؛ إذ إن التدبر يحصل به العلم ، والعمل فرعٌ عن العلم ، فالمهم أن هذا هو الفائدة من إنزال القرآن : أن يُتْلَى ويُعمل به ، يؤمن بأخباره ويُعمل بأحكامه ، يُمْتثل أمره ، يُجتنب نهيه ، فإذا كان يوم القيامة فإنه يحاج عن أصحابه . وفي هذا دليل على أن الترتيب بين سورة البقرة وآل عمران والنساء هو ما في المصحف الآن يعني البقرة ثم آل عمران ثم النساء .

وأما حديث حذيفة بن اليمان ﷺ : أنه صلَّى مع النبي ﷺ فقرأ بالبقرة ثم بالنساء ثم بآل عمران (٢) ، فإن هذا نُسِخ في الترتيب الأخير حيث جعلت آل عمران قبل النساء ، ولهذا اتفق الصحابة ﷺ على أن آل عمران بعد سورة البقرة ، فهي بينها وبين سورة النساء . والله الموفق .

* * *

٩٩٣ - وعن عثمان بنِ عفانَ ﷺ قال : قالَ رسول الله ﷺ : « خَيرُكم مَنْ تَعَلَّمَ القرآنَ وَعَلَّمَهُ » (٣) رواه البخاري .

٩٩٤ - وعن عائشةَ ﷺ قالتْ : قالَ رسول الله ﷺ : « الَّذي يَقرأُ القُرآنَ وَهُوَ ماهِرٌ بهِ مع السَّفَرَةِ الكَرامِ البَرَرَةِ ، وَالذي يَقرأُ القُرآنَ وَيَتَتَعْتَعُ فِيهِ وَهُوَ عليهِ شَاقٌّ له أَجْران » (٤) متفقٌ عليه .

الشرح

قال المؤلف - رحمه الله تعالى - فيما نقله في كتابه (رياض الصالحين) باب فضل قراءة القرآن : عن عثمان بن عفان ﷺ أن النبي ﷺ قال : « خيركم من تعلّم القرآن وعلمه » الخطاب للأمة عامة ،

---

(١) أخرجه مسلم في الطهارة (١) ، وابن ماجه في السنن (٢٨٠) ، وأحمد في مسنده (٥/٣٤٣) .

(٢) انظر الحديث في مسلم في صلاة المسافرين (٢٠٣) ، وأحمد في مسنده (٥/٣٨٤) .

(٣) أخرجه البخاري في فضائل القرآن (٥٠٢٧) ، وأبو داود في الصلاة (١٤٥٢) ، والترمذي في فضائل القرآن (٢٩٠٨) .

(٤) أخرجه البخاري في تفسير القرآن (٤٩٣٧) ، ومسلم في الصلاة (٢٤٤) ، قوله : « مع السفرة الكرام البررة » أي : مع الملائكة الذين يحصون الأعمال في منازلهم ؛ وذلك لأنه مثلهم في حمل كتاب الله تعالى ، قوله « يتتعتع » أي : يصعب عليه .

فَخَيْرُ الناس من جمع بين هذين الوصفين : من تعلّم القرآن ، وعلّم القرآن ، تعلمه من غيره وعلّمه غيرَه ، والتعلُّم والتعليم يشمل التعلُّم اللفظي والمعنوي ، فمن حفَّظ القرآن ؛ يعني صار يعلّم الناس التلاوة ويحفظهم إياه ؛ فهو داخل في التعليم ، وكذلك من تعلّم القرآن على هذا الوجه ؛ فهو داخل في التعلُّم ، وبه نعرف فضيلة الحِلَق الموجودة الآن في كثير من البلاد - ولله الحمد - في المساجد حيث يتعلّم الصبيان فيها كلام الله ﷻ ، فمن ساهم فيها بشيء ؛ فله أجر ، ومن دخَّل أولاده فيها فله أجر ، ومن تبرّع وعلَّم فيها فله أجر ، كلهم داخلون في قوله ﷺ : « خيركم من تعلّم القرآن وعلّمه » .

والنوع الثاني : تعليم المعنى ، يعني تعليم التفسير ، أن الإنسان يجلس إلى الناس يعلمهم تفسير كلام الله ﷻ كيف يفسر القرآن ، والقرآن كما نعلم متشابه ، تجد في بعض الأحيان آيات تتكرر بلفظها مثل : ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ جَٰهِدِ ٱلْكُفَّارَ وَٱلْمُنَٰفِقِينَ وَٱغْلُظْ عَلَيْهِمْ ۚ وَمَأْوَىٰهُمْ جَهَنَّمُ ۖ وَبِئْسَ ٱلْمَصِيرُ ﴾ (١) [التوبة : ٧٣] هذه تكررت بلفظها في سورتين : التوبة والتحريم ، وكذلك كثير من الآيات يتكرر ، فإذا علَّم الإنسان غيرَه كيف يُفسِّر القرآن وأعطاه القواعد في ذلك فهذا من تعليم القرآن . ولنعلم أن القرآن الكريم ليس كغيره من الكتب من حيث التفسير ، يعني أنه لا يجوز للإنسان أن يُفسر القرآن بهواه ويحمل الآيات على ما يريده هو ، كما يفعل أهل الإلحاد بآيات الله ﷻ من أهل التعطيل وغيرهم ، يحملون الآية على غير ما أراد الله ، مثلًا : يقول في قوله تعالى : ﴿ وَجَآءَ رَبُّكَ وَٱلْمَلَكُ صَفًّا صَفًّا ﴾ [الفجر : ٢٢] يقول : وجاء أمر ربك هذا حرام . لا يجوز ، لأن الذي يفسِّر القرآن إنما يشهد على الله أنه أراد كذا ، وهذه عظيمة وليست هينة ، لو كنت تفسر كلام عالم من العلماء لَعُدَّ ذلك جناية إذا فسرته بما تريد أنت ، فكيف بكلام رب العالمين ! ولهذا جاء في الحديث : « من قال في القرآن برأيه فليتبوأ مقعده من النار » (٢) فالواجب أن يتحرز الإنسان من أن يقول معنى الآية : كذا وكذا - وهو لا يدري - لكن إذا كان طالب علم وتكلم بمعنى الآية عند من هو أعلم منه على أساس أنه سيرشده إذا أخطأ فلا بأس ، ومن ذلك ما يُلْقى في الاختبارات مثل : فسِّر الآية كذا وكذا ، ويكون الطالب ليس عنده في تلك الساعة استحضار لمعناها فهل يفسرها بما عنده ؟ نقول : نعم ، لأن هذا يُختبر ، وإذا أخطأ فعنده من سينبهه ، لكن يتحرى أخطاءه ، أما الإنسان الذي يفسِّر ليس على هذا الوجه - وهو ليس عنده علم - فإنه لا يجوز له أن يُقدِم على هذا ، لأن كلام الله ليس كغيره .

أما حديث عائشة رضي الله عنها ففيه أن النبي ﷺ أخبر أن : « الماهر بالقرآن مع السفرة الكرام البررة » الماهر : الذي يجيد القرآن ، يتقنه ، هذا مع السفرة الكرام البررة وهؤلاء السفرة الكرام البررة هم الملائكة ، كما قال تعالى : ﴿ فِى صُحُفٍ مُّكَرَّمَةٍ ۝١٣ مَّرْفُوعَةٍ مُّطَهَّرَةٍۭ ۝١٤ بِأَيْدِى سَفَرَةٍ ۝١٥ كِرَامٍۭ بَرَرَةٍ ﴾ (٣)

---

(١) قوله ﴿ جَٰهِدِ ٱلْكُفَّارَ ﴾ أي بالقتال ، ﴿ وَٱلْمُنَٰفِقِينَ ﴾ بالوعظ باللسان وإلزام الحجة ، قوله ﴿ وَٱغْلُظْ عَلَيْهِمْ ﴾ أي شدد عليهم جميعًا في الجهاد بقسميه.

(٢) أخرجه الترمذي في السنن (٢٩٥٠) وأحمد في مسنده (٢٣٣/١) .

(٣) قوله تعالى : ﴿ مَّرْفُوعَةٍ ﴾ أي : ذات منزلة رفيعة ، قوله تعالى : ﴿ مُّطَهَّرَةٍ ﴾ أي : منزهة عن مساس أي دنس ، قوله تعالى : ﴿ سَفَرَةٍ ﴾ هم الملائكة الذين جعلهم الله سفراء بينه وبين مرسله ، قوله تعالى ﴿ بَرَرَةٍ ﴾ أي أتقياء مطيعين .

[عبس: ١٣- ١٦] فالماهر مع الملائكة ؛ وأما الذي يتتعتع فيه : يتهجاه وهو عليه شاق فله أجران ، الأول للتلاوة ، والثاني للتعب والمشقة ، ولهذا قال النبي ﷺ لعائشة : «أجرك على قدر نصبك »[١] أي : على قدر تعبك ، فالذي يتتعتع في القرآن ويشق عليه له أجران : أجر التلاوة ، وأجر قراءة القرآن ، لكن الأول أفضل منه ؛ لأن الأول مرتبته عظيمة ، وفرق بين إنسان له مرتبة عالية وإنسان دون ذلك ولكن له أجر ، ونضرب مثلًا لهذا - والثواب ليس له نظير - لكن لو أن رجلًا له شرف وسيادة ومنزلة عالية في الناس لكن دراهمه قليلة ، وآخر وضيع بين الناس ليس له قيمة لكن دراهمه كثيرة ، الأول أفضل . فالمهم أن الماهر بالقرآن المـجيد فيه مع السفرة الكرام البررة ، وأما الذي يتلوه ويتتعتع فيه وهو عليه شاق فله أجران ، إذن تالي القرآن ليس بخاسر مهما كان . والله الموفق .

* * *

٩٩٥ - وعن أَبي موسى الأشْعَرِيِّ رضي الله عنه قالَ : قالَ رسول اللَّه ﷺ :« مَثَلُ المُؤمن الَّذي يَقْرَأُ القرْآنَ مثلُ الأُترُجَّةِ : رِيحهَا طَيِّبٌ وَطَعمُها طَيِّبٌ ، وَمثلُ المؤمنِ الَّذِي لا يَقرَأُ القُرآنَ كمثَلِ التَّمرَةِ : لا ريح لها وَطعْمهَا حُلْوٌ ، وَمثَلُ المُنَافِقِ الذي يَقْرَأُ القرْآنَ كَمثَلِ الرَّيحانَةِ : ريحها طَيِّبٌ وَطَعمُهَا مرٌّ ، وَمَثَلُ المُنَافِقِ الذي لا يَقْرأُ القُرْآنَ كَمَثَلِ الحَنْظَلَةِ : لَيسَ لها رِيحٌ وَطَعمُهَا مرٌّ »[٢] متفقٌ عليه .

الشرح

هذا الحديث ساقه المؤلف رحمه الله في باب فضل قراءة القرآن في(رياض الصالحين) ، في بيان أحوال الناس بالنسبة للقرآن ، أن النبي ﷺ ضرب أمثلة للمؤمن والمنافق ، المؤمن إما أن يكون قارئًا للقرآن أو غير قارئ ، فإن كان قارئًا له : فمثله كمثل الأُترجة - يعني الثمرة - ريحها طيب وطعمها طيب ، فهذا المؤمن الذي يقرأ القرآن ؛ لأن نفسه طيبة وقلبه طيب ، وفيه خير لغيره ، الجلسة معه خير ، وكما قال النبي ﷺ أن مثل الجليس الصالح ؛ كمثل حامل المسك ، إما أن يبيعه أو تجد منه رائحة طيبة[٣] . فالمؤمن الذي يقرأ القرآن كله خير في ذاته وفي غيره ، فهو كالأترجة لها رائحة طيبة ذكية وطعمها طيب ، أما المؤمن الذي لا يقرأ القرآن : فهو كمثل التمرة ، طعمها حلو ولكن ليس لها رائحة ذكية كرائحة الأترجة ، ونفى النبي ﷺ ريحها ؛ لأنه ليس بريح طيب وإن كان كل شيء له رائحة ، لكن ليست رائحتها ذكية لكنها حلوة طيبة ، هذا المؤمن الذي لا يقرأ القرآن ، إذن فالمؤمن القارئ للقرآن أفضل بكثير من الذي لا يقرأ القرآن ، ومعنى لا يقرأه : يعني : لا يعرفه ولم يتعلمه . ومثل المنافق الذي يقرأ القرآن كمثل الرَّيحانة ، لها رائحة طيبة لكن طعمها مرٌّ ، لأن المنافق في ذاته خبيث لا خير فيه ، والمنافق : هو الذي يُظهر أنه مسلم ولكن قلبه كافر - والعياذ بالله - هو الذي قال

---

(١) أخرجه البخاري في العمرة(١٧٨٧) ، ومسلم في الحج(١٢٦) ، وأحمد في مسنده(٤٣/٦) .

(٢) أخرجه البخاري في التوحيد(٧٥٦٠) ، ومسلم في صلاة المسافرين وقصرها(٢٤٣) .

(٣) انظر الحديث في البخاري في البيوع(٢١٠١) ، ومسلم في البر والصلة(١٤٦) .

الله فيه : ﴿ وَمِنَ النَّاسِ مَن يَقُولُ ءَامَنَّا بِاللَّهِ وَبِالْيَوْمِ الْآخِرِ وَمَا هُم بِمُؤْمِنِينَ ۝ يُخَادِعُونَ اللَّهَ وَالَّذِينَ ءَامَنُوا وَمَا يَخْدَعُونَ إِلَّا أَنفُسَهُمْ وَمَا يَشْعُرُونَ ۝ فِي قُلُوبِهِم مَّرَضٌ فَزَادَهُمُ اللَّهُ مَرَضًا وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ بِمَا كَانُوا يَكْذِبُونَ ﴾ (١) [البقرة : ٨-١٠] يوجد منافقون يقرأون القرآن قراءة طيبة مرتلة مجوّدة لكنهم منافقون - والعياذ بالله - كما قال النبي ﷺ في الخوارج : « يقرأون القرآن لا يتجاوز حناجرهم » (٢) وهؤلاء - والعياذ بالله - ضرب لهم النبي ﷺ مثلًا بالريحانة ريحها طيب وذلك لما معهم من القرآن ، وطعمها مُرٌّ ، وذلك لخبث طويَّتهم وفساد نيتهم ، والمنافق الذي لا يقرأ القرآن ضرب النبي ﷺ له مثلًا بالحنظلة طعمها مُرٌّ وليس لها ريح ، هذا المنافق الذي لا يقرأ القرآن لا خير فيه ، طعمه مرٌّ وليس معه قرآن ينتفع الناس به ، هذه أقسام الناس بالنسبة لكتاب الله ﷻ فاحرص أخي المسلم على أن تكون من المؤمنين الذين يقرأون القرآن ويتلونه حق تلاوته حتى تكون مثل الأترجة ريحها طيب وطعمها حلو . والله الموفق .

* * *

٩٩٦ - وعن عُمَرَ بن الخطابِ رضي الله عنه أنَّ النَّبيَّ ﷺ قال : « إنَّ اللَّهَ يَرفَعُ بِهذَا الكِتَابِ أَقوَامًا وَيَضَعُ بِهِ آخَرين » (٣) رواه مسلم .

الشرح

قال المؤلف رحمه الله في كتابه (رياض الصالحين) في باب فضل قراءة القرآن فيما نقله عن أمير المؤمنين عمر بن الخطاب رضي الله عنه أن النبي ﷺ قال : « إن الله يرفع بهذا الكتاب أقوامًا ويضع آخرين » يعني معناه : أن هذا القرآن يأخذه أناس يتلونه ويقرءونه ، فمنهم من يرفعه الله به في الدنيا والآخرة ، ومنهم من يضعهم الله به في الدنيا والآخرة ، فمن هذا ؟ ومن هذا ؟ من عمل بهذا القرآن تصديقًا بأخباره وتنفيذًا لأوامره واجتنابًا لنواهيه ، واهتداءً بهديه ، وتخلُّقًا بما جاء به من أخلاق - وكلها أخلاق فاضلة - فإن الله تعالى يرفعه به في الدنيا والآخرة ؛ وذلك لأن هذا القرآن هو أصل العلم ومنبع العلم وكل العلم ، وقد قال الله تعالى : ﴿ يَرْفَعِ اللَّهُ الَّذِينَ ءَامَنُوا مِنكُمْ وَالَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ دَرَجَٰتٍ ﴾ [المجادلة : ١١] أما في الآخرة فيرفع الله به أقوامًا في جنات النعيم ، ويقال للقارئ : « اقرأ ورتل واصعد » (٤) وله إلى منتهى قراءته صعود في الجنة - إن شاء الله - وأما الذين يضعهم الله به فقوم يقرأونه ويحسنون قراءته لكنهم يستكبرون عنه - والعياذ بالله - لا يصدقون بأخباره ولا يعملون بأحكامه يستكبرون عنه عملًا

---

(١) قوله تعالى ﴿ يُخَادِعُونَ اللَّهَ ﴾ أي : يخادعون رسول الله بإظهار الإيمان وإضمار الكفر ليدفعوا عن أنفسهم القتل والأسر والجزية ، وقوله تعالى ﴿ وَمَا يَشْعُرُونَ ﴾ أي ما يفطنون إلى أن وبال خداعهم عائد عليهم بالشقاء الأبدي ، وقوله تعالى ﴿ فِي قُلُوبِهِم مَّرَضٌ ﴾ أي نفاق .

(٢) انظر الحديث بأكمله في : البخاري في المغازي (٣٤٥١) ، ومسلم في الزكاة (١٤٤ ، ١٤٥) ، وأحمد في مسنده (٤/٣) .

(٣) أخرجه مسلم في صلاة المسافرين وقصرها (٢٦٩) ، والإمام أحمد في المسند (٣٥/١) ، والبيهقي في السنن (٨٩/٣) .

(٤) أخرجه الترمذي في السنن (٢٩١٤) ، وأبو داود في السنن (١٤٦٤) ، وأحمد في مسنده (١٩٢/٢) ، والبيهقي في السنن (٥٣/٢) .

ويجحدونه خبرًا ، إذا جاءهم شيء من القرآن كقصص الأنبياء السابقين أو غيرهم أو عن اليوم الآخر أو ما أشبه ذلك صاروا - والعياذ بالله - يشككون في ذلك ولا يؤمنون ، بل ﴿ فِي قُلُوبِهِم مَّرَضٌ ﴾ مرتابون - والعياذ بالله - وربما يصل بهم الحال إلى الجحد مع أنهم يقرأون القرآن ، وفي الأحكام يستكبرون ، لا يأتمرون بأمره ولا ينتهون بنهيه ، هؤلاء - والعياذ بالله - يضعهم الله في الدنيا والآخرة ، ولابد أن يكون أمرهم خسارًا حتى لو فُرض أن الدنيا دانت لهم وتزخرفت فإن مآلهم إلى الخسار - والعياذ بالله - ولكن ربما يُمهل لهم ويُملى لهم وتنفتح عليهم الدنيا ، ولكنهم كلما انفتح عليهم شيء من زهرة الدنيا ؛ فإنهم لا يزدادون به إلا خسارًا - والعياذ بالله - ﴿ وَيَوْمَ يُعْرَضُ الَّذِينَ كَفَرُوا عَلَى النَّارِ أَذْهَبْتُمْ طَيِّبَاتِكُمْ فِي حَيَاتِكُمُ الدُّنْيَا وَاسْتَمْتَعْتُم بِهَا فَالْيَوْمَ تُجْزَوْنَ عَذَابَ الْهُونِ بِمَا كُنتُمْ تَسْتَكْبِرُونَ فِي الْأَرْضِ بِغَيْرِ الْحَقِّ وَبِمَا كُنتُمْ تَفْسُقُونَ ﴾ [الأحقاف : ٢٠] يعني : ربما يمهل الله ﷻ للكافر الجاحد المستكبر وتزدان له الدنيا ، لكنه لا يزيده ذلك إلا خسارًا وإثمًا في الآخرة - والعياذ بالله - فالحذر الحذر أن تكون من القسم الثاني الذين يضعهم الله بهذا القرآن ، كن من القسم الأول الذين يرفعهم الله بالقرآن - جعلنا الله وإياكم منهم .

* * *

٩٩٧ - وعن ابن عمر رضي الله عنهما عن النبي ﷺ قال : « لا حَسَدَ إلا في اثنَتَينِ : رَجُلٌ آتاهُ اللَّهُ القُرآنَ ؛ فهوَ يقومُ بِهِ آناءَ اللَّيلِ وآناءَ النهارِ ، وَرَجُلٌ آتاهُ اللَّهُ مَالًا ؛ فهُوَ يُنْفِقهُ آناءَ اللَّيل وَآناءَ النهارِ »[1] متفقٌ عليه . « والآناءُ » السَّاعَاتُ .

الشرح

قال المؤلف رحمه الله في باب فضل القرآن - في كتاب (رياض الصالحين) - فيما نقله عن ابن عمر رضي الله عنهما أن النبي ﷺ قال : « لا حسد إلا في اثنتين » الحسد قال العلماء : إن معناه هنا هو : الغبطة ، يعني لا شيء فيه غبطة إلا هاتين الاثنتين ، وذلك لأن الناس يغبط بعضهم بعضًا في أمور الدنيا وفي أمور الآخرة ، فتجد - مثلًا - بعض الناس يغبط هذا الرجل حين أعطاه الله المال والأولاد والأهل والقصور والسيارات ، وما أشبه ذلك ، يقول : هذا هو الحضيض ، هذا هو المغتبطِ ، وما أشبه ذلك ، يحسد ، يغبط بعض الناس على ما آتاه الله من الصحة وسلامة البنيان وغير ذلك ، يغبطه على أنه له شرف وجاه في قومه ، إن قال سُمع ، وإن عمل اتُّبع ، فيقول : هذا هو الحضيض[2] ، لكن النبي ﷺ بيَّن أن الذي يُغْبطَ من حصل على هذين الاثنين : الأولى آتاه الله تعالى الحكمة - القرآن - فهو يقوم به آناء الليل وآناء النهار ، آتاه الله القرآن حفظه وفهمه وعمل به آناء الليل والنهار يقوم به ، يفكر ماذا قال الله ﷻ عن الصلاة ، فيقول : ﴿ وَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ ﴾ فيقيمها ، ماذا قال عن الزكاة، فيقول : ﴿ وَآتُوا الزَّكَاةَ ﴾ فيؤتيها ، ماذا قال عن الوالدين، قال الله تعالى : ﴿ وَاعْبُدُوا اللَّهَ وَلَا تُشْرِكُوا بِهِ شَيْئًا

---

(١) أخرجه البخاري في فضائل القرآن (٥٠٢٥) ، ومسلم في صلاة المسافرين وقصرها (٢٦٦) .

(٢) الحضيض : هو قرار الأرض ، وهو التدني ، وهو أيضًا : نقطة مقابلة للأوج وهو أعلى منازل القمر (المعجم العربي الأساسي ص ٣٢٨ مادة حضض) .

﴿وَبِٱلْوَٰلِدَيْنِ إِحْسَٰنًا﴾ [النساء: ٣٦] وماذا قال عن صلة الأرحام ﴿وَٱلَّذِينَ يَصِلُونَ مَآ أَمَرَ ٱللَّهُ بِهِۦٓ أَن يُوصَلَ﴾ [الرعد: ٢١] فيصل رحمه، ماذا قال عن الجيران، قال تعالى: ﴿وَٱلْجَارِ ذِى ٱلْقُرْبَىٰ وَٱلْجَارِ ٱلْجُنُبِ﴾ [النساء: ٣٦] إلى آخره، فتجده يقوم بالقرآن آناء الليل والنهار. هذه هي الغبطة، وهي الغنيمة، وهي الحظ.

والثاني: «رجل آتاه اللَّه المال» يعني: صار غنيًّا «فهو ينفقه آناء الليل وآناء النهار» يعني: في سبيل اللَّه فيما يرضي اللَّه ﷻ أي شيء يرضي اللَّه، ينفق ماله فيه... بناء المساجد، الصدقات على الفقراء، إعانة المجاهدين، إعانة الملهوفين، وغير ذلك، المهم لا يجد شيئًا يقرِّب إلى اللَّه إلا بذل ماله فيه ليلًا ونهارًا، ليس ممسكًا ولا مبذرًا فيغلو ويزيد، بل ينفقه لله وباللَّه وفي اللَّه منفقًا لله مستعينًا به متمشيًا على شرعه، هذا هو الذي يغبط، أما الذي عنده حظ من الدنيا يتمتع به كما تتمتع البهيمة بالعلف ثم يذهب عنها، هذا ليس محسودًا ولا يُحسد على ذلك، لأنه تالف أو متلوف عنه، لكن الذي ينفق ماله في سبيل اللَّه هو الذي يغبط، وفي هذا دليل على أنه ينبغي للإنسان أن يقوم بالقرآن آناء الليل والنهار، دائمًا يجعل أعماله كلها مبنية على القرآن، يتمشَّى بهدي القرآن، وأنه ينبغي لمن آتاه اللَّه المال أن يؤدي حقه ويقوم بواجبه وينفقه حيث كان إنفاقه خيرًا، واللَّه الموفق.

* * *

٩٩٨ - وعن البَرَاءِ بنِ عَازِب ﷺ قال: كَانَ رَجلٌ يَقرأُ سورَةَ الكَهْفِ، وَعِنده فَرَسٌ مَربوطٌ بِشَطنينِ، فَتَغشَّته سَحَابَةٌ، فَجَعلَت تَدنو، وَجَعَلَ فَرَسُه يَنْفِر مِنها، فَلَمَّا أَصبحَ أَتَى النَّبيَّ ﷺ، فَذَكَرَ ذلكَ لَهُ فقالَ: «تِلكَ السَّكِينَةُ تَنَزَّلَتْ للقُرآنِ»[1] متفقٌ عليه. «الشَّطَنُ» بفتحِ الشينِ المعجمةِ والطاءِ المهملة: الحبلُ.

الشرح

ذكر المؤلف النووي رَحِمَهُ اللَّهُ في كتاب (رياض الصالحين) في (باب فضل قراءة القرآن) ما يدل على فضل قراءة القرآن من الأحاديث السابقة واللاحقة، فمن ذلك حديث البراء بن عازب ﷺ: أن رجلًا كان يقرأ في سورة الكهف، وسورة الكهف هي التي بين الإسراء ومريم، هذه السورة من فضائلها: أن الإنسان إذا قرأها يوم الجمعة أضاء له ما بين الجمعتين[2]، وفيها قصص وعبر قصَّها اللَّه ﷻ على رسوله ﷺ. وكان هذا الرجل يقرأ القرآن فتغشاه - يعني غطاه - شيء مثل الظلمة كأنه غمامة، كلما قرأ نزل، كلما قرأ نزل من فوق، وجعلت الفرس - وهي مربوطة بشطنين - تميل، تنفر من هذا الذي رأته، فلما أُخبر النبي ﷺ قال: «تلك السكينة نزلت لقراءة القرآن» لأن السكينة تنزل عند قراءة القرآن، إذا قرأه الإنسان بتمهل وتدبُّر؛ فإن السكينة تنزل حتى تصل إلى قلب القارئ؛ لينزلها اللَّه في قلبه.

---

(١) أخرجه البخاري في فضائل القرآن (٥٠١١)، ومسلم في صلاة المسافرين وقصرها (٢٤٠)، قوله «تغشته سحابة» أي غطته وكانت فوقه.

(٢) انظر الحديث في: الحاكم في المستدرك (١/٥٦٤) وقال: صحيح على شرط مسلم، ووافقه الذهبي، والبيهقي في السنن (٣/٢٤٩)، والمنذري في الترغيب والترهيب (١/٥١٣)، والألباني في إرواء الغليل (٣/٩٣).

وهذه القصة من كرامات الأولياء ، فالأولياء لهم كرامات ، لكن ليس لكل وليّ كرامة ، وإنما يؤتي اللَّه بعض أولياءه كرامة تثبيتًا له وتصديقًا لما كان عليه من الحق ، وهي - يعني الكرامات - أمور خارقة للعادة - يعني لا تأتي على وفق العادة - يجريها اللَّه ﷻ على يدي بعض أوليائه تكريمًا له وتثبيتًا له ، وتصديقًا لما هو عليه من الحق ، وهي في نفس الوقت معجزة للرسول الذي يَتَّبِعه هذا الوليُّ ، وقد ذكر العلماء - رحمهم اللَّه - أن الخوارق ثلاثة أقسام : قسم آيات للأنبياء ، وقسم كرامات للأولياء ، وقسم إهانات من الشياطين يجريها اللَّه على خلاف العادة على أيدي الشياطين - والعياذ باللَّه - وعلامة ذلك : أن الذي تحصل له هذه الخوارق [١] إما أن يكون نبيًا ، أو وليًا للرحمن ، أو وليًا للشيطان ، ومن المعلوم أنه بعد وفاة النبي محمد ﷺ لا يمكن أن تكون هناك كرامة معجزة أبدًا ؛ لأن النبوة انقطعت ، بوفاة رسول اللَّه وخاتم النبيين ، وبقيت الكرامات ، والأحوال الشيطانية والشعوذات والسحر وما أشبه ذلك ، والكرامات علامتها أن يجريها اللَّه ﷻ على يد عبد صالح من أولياء اللَّه ، وأولياء اللَّه هم المؤمنون المتقون كما قال تعالى :﴿ أَلَآ إِنَّ أَوْلِيَآءَ ٱللَّهِ لَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ۝ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَكَانُوا۟ يَتَّقُونَ ﴾ [يونس: ٦٢- ٦٣] فإذا أُجرِيَ شيء خارق للعادة على يد رجل صالح مؤمن تقي معروف بالخير قيل هذه كرامة .

والقسم الثالث : السحر والأحوال الشيطانية وهذه تجري على يد طواغيت وأولياء الشياطين الذين يدَّعون أنهم أولياء ، ويلعبون بعقول السُّفهاء وعقول العامة ، تجد الإنسان يُكبر عمامته ويُوسِّع كُمَّه ويُطيل لحيته ويُعَفِّر جبهته في الأرض ليظهر عليه أثر السجود ، وما أشبه ذلك من اللعب بعقول الناس ، ثم يستخدم الشياطين لأغراض خاصة ، فتقلِّب له البعير ، وربما تحمله في الهواء ويطير ، حتى إن بعضهم شُوهِد في أول يوم عرفة ثم حملته الشياطين حتى أدرك الناس في عرفة ... هذا من زمان وهم يلعبون بعقول الناس ، هؤلاء شياطين ، وإن كانوا يفعلون هذا الشيء ؛ فإنه لا كرامة لهم ، والكرامات والإهانات أَلَّف فيها العلماء كثيرًا ، ومن أحسن ما أُلِّف كتابُ «الفرقان بين أولياء الرحمن وأولياء الشيطان » لشيخ الإسلام ابن تيمية رَحِمَهُ ٱللَّهُ ذكر فيها أشياء كثيرة من كرامات الأولياء وأشياء أخرى من إهانات الأعداء ، يُذْكَر أن «مُسَيلمة الكذاب » الذي خرج في اليمامة بالرياض وادَّعى أنه نبي ، أنه جاءه قوم فقالوا له : إن عندنا بئرًا غار ماؤها ولم يبق منه إلا قليل ، وطلبوا منه أن يأتي إليها ، لأجل أن يباركها ، كما كان الرسول ﷺ إذا شكوا إليه قلة الماء يَنُشر على يديه ﷺ أن ينبع الماء من بين أصابعه فجاءوا إلى «مسيلمة الكذاب » فذهب إلى البئر ، يقولون : إنه مجَّ فيها مجَّة [٢] من الماء ولـمَّا مجَّ فيها الماء غار الماء الموجود فيها ، وكانوا يتوقعون أن الماء يكثر وينهمر فأراهم اللَّه ﷻ آية لتكذيب هذا الرجل ، هذا - لا شك - أنه أمر خارق للعادة ، لأن ليس من العادة أن الإنسان يمجُّ الماء في بئر ليس

---

[١] الخوارق : هي الأشياء التي تجاوز قدرة العبد أو طبيعة المخلوقات كالمعجزة والكرامة(المعجم العربي الأساسي ص ٩٣٢ مادة خرق) .

[٢] مج : أي رمى به من فمه أي بصق فيه(المعجم العربي الأساسي ص ١١١٨ مادة مجج) .

فيها إلا ماء قليل ثم يغار [(١)] ، هذا خلاف العادة ، لكن اللَّه أجرى ذلك إهانة له ، فعلى كل حالٍ إذا رأيت من شخص ما يكون خارقًا للعادة فإن كان مؤمنًا تقيًا يُعرف بالصلاح والاستقامة فهذا من كرامات الأولياء ، وإن لم يكن كذلك فهي أحوال شيطانية من الشياطين ، أو سحر يسحر أعين الناس ، لأن السحر قد يسحر الأعين حتى ترى المتحرك ساكنًا والساكن متحركًا ، فهاهم سحرة فرعون ألقوا حبالًا عادية وعصيًا في الأرض ثم سحروا أعين الناس حتى جعل الوادي كله حيات ، حتى موسى عليه السلام أوجس في نفسه خيفة ، فأوحى اللَّه تعالى أن يُلقي عصاه ﴿ فَأَلْقَىٰ عَصَاهُ فَإِذَا هِيَ ثُعْبَانٌ مُّبِينٌ ﴾ [الشعراء : ٣٢] حية عظيمة جعلت تمشي على هذه الحبال والعصي تلقفها ، فعرفوا أنه صادق ؛ لأنه التهم كل سحر .

فالحاصل : أن هذه الظُّلة التي حصلت للقارئ والذي كان يقرأ سورة الكهف هذه كرامة له ، وهي شهادة من اللَّه عز وجل بالفعل على أن هذا القرآن حق تنزل السكينة لقراءته وتلاوته . نسأل اللَّه تعالى أن ينفعنا وإياكم به ، وأن يجعله حجة لنا وقائدًا إلى جنات النعيم .

* * *

٩٩٩ - وعن ابنِ مسعودٍ رضي الله عنه قالَ : قالَ رسول اللَّه ﷺ : « مَنْ قَرَأَ حَرْفًا مِنْ كِتَابِ اللَّهِ فَلَهُ حَسَنَةٌ ، والحَسَنَةُ بِعَشرِ أَمْثَالِهَا ، لا أقول : آلم حَرفٌ ، وَلكِن : أَلِفٌ حَرْفٌ ، وَلامٌ حَرْفٌ ، وَمِيمٌ حَرْفٌ » [(٢)] رواه الترمذي وقال : حديث حسن صحيح .

١٠٠٠ - وعن ابنِ عَبَّاسٍ رضي الله عنهما قال : قالَ رسول اللَّه ﷺ : « إنَّ الَّذي لَيسَ في جَوفِهِ شَيءٌ مِنَ القُرآنِ كالبَيتِ الخَرِبِ » [(٣)] رواه الترمذي وقال : حديث حسن صحيح .

الشرح

هذان الحديثان في فضل قراءة القرآن وثوابه ، الحديث الأول عن ابن مسعود رضي الله عنه أن النبي ﷺ أخبر أن من قرأ القرآن فله بكل حرف حسنة والحسنة بعشر أمثالها . ثم بين ذلك في قوله : « لا أقول آلم حرف ، ولكن ألف حرف ، ولام حرف ، وميم حرف » فتكون ثلاثة فيها ثلاثون حسنة ، وكذلك بقية الكلمات في القرآن العظيم ، إذا قرأها الإنسان ففي كل حرف من كل كلمة عشر حسنات وهذه نعمة عظيمة وأجر كثير ، فينبغي للإنسان أن يكثر ما استطاع من تلاوة كتاب اللَّه عز وجل وليس بلازم أن تكون قد حفظت القرآن كله ، اقرأ ما تيسر ، حتى لو فرض أنك لم تحفظ إلا سورة الفاتحة وجزء عم وتبارك وما أشبه ذلك ، كل القرآن خير حتى إن الرسول ﷺ أخبر أن من قرأ ﴿ قُلْ هُوَ اللَّهُ أَحَدٌ ﴾ فكأنما قرأ ثُلث القرآن [(٤)] .

---

(١) انظر القصة في البداية والنهاية (٣٢٧/٦) .

(٢) أخرجه الترمذي في فضائل القرآن (٢٩١٢) ، والبغوي في شرح السنة (٤٦١/١٠) .

(٣) أخرجه الترمذي في فضائل القرآن (٢٩١٤) ، قوله « في جوفه » أي في قلبه ، قوله « البيت الخرب » أي البيت الخالي من المتاع أو الزينة .

(٤) الحديث أخرجه البخاري في فضائل القرآن (٥٠١٥) ، ومسلم في صلاة المسافرين (٢٥٩) ، والترمذي في السنن (٢٨٩٣) .

كذلك أيضًا الحديث الثاني بين الرسول ﷺ أن الجوف الذي ليس فيه شيء من القرآن كالبيت الخَرِب ، يعني أن القرآن يَعْمُر القلب ويجعله مستنيرًا بالعلم وبنور الكتاب العزيز ، وإذا فُقد القرآن من قلب العبد فإنه يكون كالبيت الخرب - والعياذ بالله - ليس فيه خير ، وهذا أيضًا فيه تحذير من عدم قراءة القرآن ، والحرص عليه ، نسأل الله أن يجعلنا وإياكم ممن يتلونه حق تلاوته .

* * *

١٠٠١ - وعن عبدِ اللَّهِ بنِ عَمْرو بن العاص رضي الله عنهما عن النبي ﷺ قال : « يُقَالُ لِصَاحِبِ القُرْآنِ : اقْرَأْ وَارْتَقِ وَرَتِّلْ كما كُنْتَ تُرَتِّلُ في الدُّنْيا ، فَإِنَّ مَنْزِلَتَكَ عِنْدَ آخِرِ آيةٍ تَقْرَؤُهَا »[١] رواه أبو داود ، والترمذي وقال : حسن صحيح .

* * *

١٨١ - باب الأمر بتعهد القرآن والتحذير من تعريضه للنسيان

١٠٠٢ - عَنْ أَبي مُوسَى رضي الله عنه عن النبي ﷺ قال : « تَعَاهَدُوا هذا القُرْآن ؛ فَوَالَّذي نَفْسُ مُحَمَّدٍ بِيَدِهِ لَهُوَ أَشَدُّ تَفَلُّتًا مِنَ الإبِلِ في عُقُلِهَا »[٢] متفقٌ عليه .

١٠٠٣ - وعَنِ ابْنِ عُمَرَ رضي الله عنهما أنَّ رسول اللَّه ﷺ قال : « إنَّمَا مَثَلُ صَاحِبِ القُرْآنِ كَمَثَلِ الإبِلِ المُعَقَّلَةِ ، إنْ عَاهَدَ عَلَيها أَمْسَكَها ، وَإنْ أَطْلَقَهَا ذَهَبَتْ »[٣] متفقٌ عليه .

الشرح

ذكر المؤلف رحمه الله في : (باب الأمر بتعهد القرآن ، والتحذير من تعريضه للنسيان) أن كتاب الله عز وجل إذا مَنَّ الله عليك فحفظته فتعهده ، وذلك لأن القرآن الكريم كما شبهه النبي ﷺ كالإبل في عُقُلها إذا تعهدها الإنسان أمسكها ، وإن أطلقها ذهبت وضاعت ، وقد أقسم على ذلك النبي ﷺ حين قال كما في حديث أبي موسى الأشعري رضي الله عنه « تعاهدوا القرآن ، فوالذي نفس محمد بيده لهو أشد تفلتًا من الإبل في عُقُلها » فينبغي لك أن تجعل لك حزبًا معينًا تتعاهده كلَّ يوم - مثلًا - تقول : كل يوم أقرأ جزءًا ، فتحفظ القرآن في شهر ، أو جزأين فتحفظه في خمسة عشر يومًا ، أو ثلاثة أجزاء

---

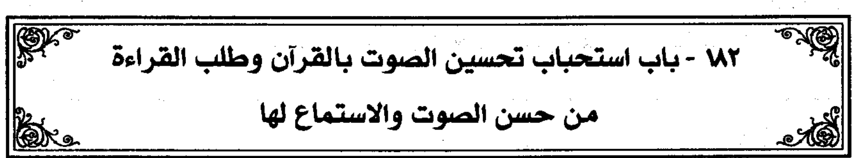
(١) هذا الحديث لم يقم الشارح رحمه الله بشرحه والحديث أخرجه أبو داود في الصلاة (١٤٦٤) والترمذي في فضائل القرآن (٢٩١٥) ، والإمام أحمد في المسند (١٩٢/٢) والبيهقي في السنن (٥٣/٢) ، قوله « ارتق » أي اصعد درجات الجنة .

(٢) أخرجه البخاري في فضائل القرآن (٥٠٣٢) ومسلم في صلاة المسافرين وقصرها (٢٣١) ، والترمذي في السنن (٢٨٩٣) وقوله « كفلتا » أي تخلصًا . وقوله « عقلها » هو الحبل الذي يشد به البصير .

(٣) أخرجه البخاري في فضائل القرآن (٥٠٣١) ومسلم في صلاة المسافرين (٢٢٦) والإمام أحمد في المسند (١١٢/٢) ، ومالك في الموطأ (٢٠٢) ، قوله « صاحب القرآن » أي الحافظ له عن ظهر قلب ، قوله « الإبل المعقلة » هي المشدودة بالعقال ؛ وهو الحبل الذي يشد في ركبة البعير ، قوله « إن عاهد عليها » أي احتفظ بها ولازمها واستمر ممسكًا لها .

فتحفظه في عشرة أيام إلى تسعة أيام إلى ثلاثة أيام ، تعاهد هذا حتى لا تنساه ، وقد وردت أحاديث في التحذير من نسيانه لمن أهمله ، أما من نساه بمقتضى الطبيعة ؛ فإنه لا يضرُّ ، لكن من أهمل وتغافل عنه - بعد أن أنعم اللَّه عليه بحفظه ؛ فإنه يخشى عليه من العقوبة ، فأنت يا أخي إذا مَنَّ اللَّه عليك بالقرآن فتعاهده بالقراءة بتكرار التلاوة ، وكذلك أيضًا بالعمل به ، لأن العمل بالشيء يؤدي إلى حفظه وبقائه ، ولهذا قال بعض العلماء : قيد العلم بالعمل به ، فإن العمل بالعلم يقتضي بقاءه ، لأنه لا يزال على قلبك وعلى جوارحك ، فإذا صار هكذا فإنه يبقى ولا ينسى ، أما إذا أُهمل فإنه يضيع . وينبغي لمن قرأ القرآن أن يقرأه بتدبر وتمهل ، ولا يحلُّ له أن يُسرع السرعة التي توجب إسقاط بعض الحروف ، لأنه إذا أسقط بعض الحروف فقد غيَّر كلام اللَّه عن موضعه ، وحرَّفه ، أما العجلة التي لا تستوجب سقوط الحروف ؛ فإنه لا بأس بها . واللَّه الموفق .

* * *



١٨٢ - باب استحباب تحسين الصوت بالقرآن وطلب القراءة من حسن الصوت والاستماع لها

١٠٠٤ - عَنْ أَبي هُرَيرَةَ ﷺ قال : سمِعتُ رسول اللَّه ﷺ يَقولُ : « مَا أَذِنَ اللَّهُ لِشَيءٍ مَا أَذِنَ لِنَبيٍّ حَسَنِ الصَّوتِ يَتَغَنَّى بِالقُرْآنِ يَجْهَرُ بِهِ »[1] متفقٌ عليه . مَعْنى « أَذِنَ اللَّهُ » : أي اسْتَمَعَ ، وَهُوَ إشَارَةٌ إلى الرِّضَى وَالقَبُول .

١٠٠٥ - وعن أَبي موسى الأَشْعَرِيِّ ﷺ أَنَّ رسولَ اللَّه ﷺ قالَ لهُ : « لَقَدَ أُوتِيتَ مِزْمَارًا مِنْ مَزَامِيرِ آلِ دَاوُدَ » متفقٌ عليه . وفي روايةٍ لمسلمٍ : أَنَّ رسول اللَّه ﷺ قالَ لهُ : « لَو رَأَيتَني وَأَنَا أَسْتَمِعُ لِقِرَاءَتِكَ البَارِحَةَ »[2] .

الشرح

قال المؤلف رحمه الله في كتابه (رياض الصالحين) في آداب القراءة : باب استحباب تحسين الصوت بالقراءة ، وطلب القراءة من حَسَن الصوت والاستماع إليه ، هاتان مسألتان :

المسألة الأولى : استحباب تحسين الصوت في قراءة القرآن ، وتحسين الصوت ينقسم إلى قسمين : أحدهما : تحسين الأداء بحيث يبيِّن الحروف ويخرجها من مخارجها حتى يبدو القرآن واضحًا بيِّنًا ، فلا يُخفي ولا يحذف شيئًا من الحروف ، لئلا ينقص شيء مما أنزل اللَّهُ على رسوله ﷺ .

الثاني : تحسين النغمة بالصوت فيحسِّن صوته ، وكلاهما أمر مطلوب ، ولكن الأمر الأول -

---

(١) أخرجه البخاري في فضائل القرآن (٥٠٢٣) ، ومسلم في صلاة المسافرين وقصرها (٢٣٢) ، والإمام أحمد في المسند (٢٧١/٢) .

(٢) أخرجه البخاري في فضائل القرآن (٥٠٤٨) ، ومسلم في صلاة المسافرين وقصرها (٢٣٥) ، والبيهقي في السنن (١٢/٣) .

تحسين الأداء - لا ينبغي المبالغة فيه والغلو فيه بحيث تجد الرجل يقرأ القرآن يتكلّف ويحمرُّ وجهه ، ويتكلّف في الغُنَّة وفي الإدغام وفي مثل ذلك فإن هذا من إقامة الحروف المتكلَّفة ، ولكن لتكن قراءته طبيعية ويبينٌ فيها الحروف والحركات ، هذا هو المطلوب ، وأما الغلو والمبالغة ؛ فإنهما ليسا مطلوبين ، وبه نعلم أن تعلُّم التجويد ليس بواجب ، لأنه يعود إلى تحسين الصوت بدون غلو ولا مبالغة ، فهو من الأمور المستحبة التي يتوصل بها الإنسان إلى شيء مستحب لا إلى شيء واجب .

وأما القسم الثاني: هو تحسين الصوت فقد يقول قائل : حُسْن الصوت ليس باختيار الإنسان ، لأن اللّه تعالى هو الذي يَمُنُّ على من يشاء من عباده فيعطيه حنجرة قوية وصوتًا طيبًا ، فيقال : نعم ، الأمر كذلك ، لكن يُحسِّن الإنسان الصوت بالتعلُّم ، لأن حُسْن الصوت غريزي ومكتسب ، فلا يزال يقرأ بصوت حسن حتى يتعلَّم ويؤدي بصوت حسن .

ثم ذكر المؤلف رَحِمَهُ اللَّهُ حديث أبي هريرة رضي الله عنه أن النبي ﷺ قال : « ما أذن اللّه لشيء إذنه لنبي حسن الصوت يتغنَّى بالقرآن يجهر به» « أذن» قال العلماء : استمع ، يعني ما استمع اللّه لشيء من الأشياء التي يسمعها - جل وعلا - مثل استماعه لنبي حَسَن الصوت يتغنَّى بالقرآن يجهر به ، يعني : نبي ، والأنبياء هم أفضل طبقات الخلق « يتغنَّى بالقرآن» يعني : يقرأه بصوت حسن « يجهر به» يعني : يرفع صوته به ، فهذا هو الذي يأذن اللّه له ؛ أي : يستمع له جَلَّ وعلا ، لأنه يحب الصوت الحَسَن بالقرآن والأداء الحسن ، ثم ذكر حديث أبي موسى الأشعري رضي الله عنه وهو عبد اللّه بن قيس أحد خطباء النبي ﷺ : أن النبي ﷺ استمع إلى قراءته ذات ليلة فأعجبته ، فقال النبي ﷺ لأبي موسى : « لقد أوتيت مزمارًا من مزامير آل داود» وآل داود يعني به داود عليه السلام . فداود كان لديه صوت حَسَن جميل رفيع ، حتى قال اللّه تعالى : ﴿يَٰجِبَالُ أَوِّبِي مَعَهُۥ وَٱلطَّيْرَ﴾ (١) [سبأ : ١٠] فكانت الجبال ترجِّع مع داودَ وهو يتلو الزبور لحسن صوته ، تجاوبه جبال أحجار جامدة ، وكذلك الطير تؤوِّب معه - سبحان اللّه - تأتي فإذا سمعت قراءته ؛ تجمَّعت في جو السماء وجعلت ترجِّع معه ، فكانت الجبال والطيور إذا سمعت قراءة داود للزَّبور قامت ترجِّع معه ؛ ولهذا قال النبي ﷺ لأبي موسى : « لقد أوتيت مزمارًا من مزامير آل داود » يعني صوتًا حسنًا كصوت آل داود ، يقول أبو موسى : لما قال له الرسول : لو رأيتني وأنا أستمع لقراءتك البارحة - قال : لو علمت أنكَ تستمع - أو قال تسمع - لحبَّرته لك تحبيرًا (٢) . يعني يزيِّنه أحسن مما كان .

قال العلماء : وفي هذا دليل على أن الإنسان لو حسَّن صوته بالقرآن لأجل أن يتلذَّذ السامع ويُسَرَّ به ، فإن ذلك لا بأس به ولا يُعَدُّ من الرياء ؛ بل هذا مما يدعو إلى الاستماع لكلام اللّه عَزَّ وَجَلَّ حتى يُسَرَّ الناس به ؛ ولهذا يوجد بعض الناس إذا ضاق صدره استمع إلى قراءة إنسان حسن القراءة حسن الصوت ، وهذه مُتَيَسِّرة الآن في أشرطة لبعض القراء الذين لا يتكلَّفون القراءة ، وأصواتهم حسنة وأداؤهم حسن ، إذا استمع الإنسان إليهم لا يكاد يَمَلُّ ؛ لأن كلام اللّه له تأثير إذا جاء من إنسان حسن الصوت وحسن الأداء لا يُمَلُّ . ويستفاد من هذين الحديثين : أنه ينبغي للإنسان أن يقرأ القرآن

(١) قوله تعالى : ﴿أَوِّبِي﴾ أي رجعي ورددي معه التسبيح .
(٢) أخرجه البيهقي في السنن (١٢/٣) .

على أكمل ما يمكنه أن يقرأه عليه ، من حسن الصوت ، وحسن الأداء ، ونسأل الله تعالى أن يجعلني وإياكم ممن يقيم حروفه وحدوده حتى يكون حجة لنا لا علينا . والله الموفق .

* * *

١٠٠٦ - وعنِ البَرَاءِ بنِ عَازبٍ ﷺ قالَ : سَمِعْتُ النبيَّ ﷺ قَرَأَ في العِشَاءِ بِالتِّين والزَّيْتُونِ ، فَمَا سَمِعْتُ أَحَدًا أَحْسَنَ صَوتًا مِنْهُ [١] . متفقٌ عليه .

١٠٠٧ - وعنْ أبي لُبَابَةَ بَشِير بنِ عبدِ المُنْذرِ ﷺ ، أنَّ النبيَّ ﷺ قال : « مَنْ لَمْ يَتَغَنَّ بِالقُرْآنِ فَلَيسَ منَّا » [٢] رواه أبو داود بإسنادٍ جيد . وَمعنى « يَتَغَنَّى » : يُحَسِّنُ صَوتَهُ بِالقُرآنِ .

١٠٠٨ - وعنِ ابنِ مسعودٍ ﷺ قَالَ : قَالَ لِي النَّبيُّ ﷺ : « اقْرَأْ عَلَيَّ القُرْآنَ » ، فَقُلْتُ : يَا رَسُولَ اللَّهِ ! أَقْرَأُ عَلَيكَ وَعَلَيكَ أُنْزِلَ ؟! قال : « إنِّي أُحِبُّ أَنْ أَسْمَعَهُ مِنْ غَيرِي » فَقَرَأْتُ عَلَيهِ سُورَةَ النِّسَاء حَتَّى جِئْتُ إلى هذه الآية : ﴿ فَكَيْفَ إِذَا جِئْنَا مِن كُلِّ أُمَّةٍ بِشَهِيدٍ وَجِئْنَا بِكَ عَلَىٰ هَٰٓؤُلَآءِ شَهِيدًا ﴾ [النساء : ٤١] قال : « حَسْبُكَ الآنَ » فَالْتَفَتُّ إِلَيهِ ، فَإذا عَيناهُ تَذْرِفَان [٣] . متفقٌ عليه .

الشرح

هذه الأحاديث في بيان تحسين الصوت والقراءة في القرآن الكريم ، فحديث البراء بن عازب ﷺ أنه صلَّى مع النبي ﷺ صلاة العشاء ، فقرأ ﴿ وَٱلتِّينِ وَٱلزَّيْتُونِ ﴾ قال : فما سمعت قراءة أحسن من قراءته - أو قال : صوتًا أحسن من صوته - وكلاهما صحيح ؛ فالنبي ﷺ أحسن الناس صوتًا بالقرآن وهو أول - وأولى - من يدخل في قوله فيما سبق من حديث : « ما أذن الله لشيء إذنه لنبي حسن الصوت يتغنَّى بالقرآن يجهر به » فرسول الله ﷺ أحسن الناس صوتًا بالقرآن ، وأحسن الناس أداءً في القراءة ؛ لأن القرآن عليه أُنزل ، والقرآن هو خُلُقه ﷺ .

وفي هذا الحديث : دليل على أن صلاة العشاء لا بأس أن يُقرأ فيها بقصار المفصَّل ، لأن التين من قصار المفصل ولكن الأكثر أن يقرأ فيها من أوساطه ؛ لأن النبي ﷺ أمر معاذ بن جبل أن يقرأ فيها بـ ﴿ سَبِّحِ ٱسْمَ رَبِّكَ ٱلْأَعْلَى ﴾ ، ﴿ هَلْ أَتَىٰكَ حَدِيثُ ٱلْغَٰشِيَةِ ﴾ و ﴿ وَٱلَّيْلِ إِذَا يَغْشَىٰ ﴾ و ﴿ وَٱلشَّمْسِ وَضُحَىٰهَا ﴾ [٤] وما أشبه ذلك لكن لا حرج أن يقرأ بقصار المفصَّل كالتين ، و ﴿ إِذَا زُلْزِلَتِ ﴾ وما أشبه ذلك ، وكذلك أيضًا حثَّ النبي ﷺ على التغنِّي بالقرآن وقال : « من لم يتغنَّ بالقرآن فليس منا » .

قال العلماء : وهذه الكلمة لها معنيان :

---

(١) أخرجه البخاري في الأذان (٧٦٩) ومسلم في الصلاة (١٧٥) .

(٢) أخرجه أبو داود في الصلاة (١٤٧١) ، والإمام أحمد في المسند (١٧٢/١ ، ١٧٥ ، ١٧٩) .

(٣) أخرجه البخاري في فضائل القرآن (٥٠٥٠) ومسلم في صلاة المسافرين وقصرها (٢٤٧) ، قوله « تذرفان » أي تجري دموعهما رحمةً لأمته .

(٤) انظر الحديث في مسند أحمد (١٢٤/٣ ، ٣٠٨) والألباني في إرواء الغليل (٣٣٠/١) .

الأول : (من لم يتغنَّ به) : أي : من لم يستغن به عن غيره بحيث يطلب الهُدَى من سواه فليس منا ، فهذا - لاشك - أن من طلب الهُدَى من غير القرآن أضلَّه اللَّه والعياذ باللَّه .

والمعنى الثاني : (من لم يتغنَّ) : أي من لم يحسِّن صوته بالقرآن فليس منَّا ؛ فيدل على أنه ينبغي للإنسان أن يُحسِّن صوته بالقرآن وأن يستغني به عن غيره .

وأما الحديث الثالث عن ابن مسعود ﷺ : أن النبي ﷺ طلب منه أن يقرأ عليه ، فقال عبد اللَّه بن مسعود : أأقرأ عليك وعليك أنزل ؟! فقال ﷺ : « إني أحب أن أسمعه من غيري » ؛ فذلك لأن الإنسان الذي يستمع قد يكون أقرب إلى تدبُّر القرآن من القارئ ، فالقارئ تجده يركز على ألا يخطئ في القراءة ، والمستمع يتدبر ويتأمل ، ولهذا قيل : « القارئ حالب والمستمع شارب »[1] يعني القارئ يحلب الناقة أو الشاة ، والمستمع شارب هو الذي يستفيد ، المهم أن النبي ﷺ طلب من عبد اللَّه بن مسعود أن يقرأ عليه فقال : أأقرأ عليك القرآن وعليك أُنزل ؟! قال : « إني أحب أن أسمعه من غيري » فقرأ بسورة النساء حتى إذا جاء إلى قول اللَّه تعالى : ﴿ فَكَيْفَ إِذَا جِئْنَا مِن كُلِّ أُمَّةٍ بِشَهِيدٍ وَجِئْنَا بِكَ عَلَىٰ هَٰؤُلَاءِ شَهِيدًا ﴾ يعني : كيف تكون الحال ؟ فقال ﷺ : « حسبك الآن » يقول : فالتفتُّ فإذا عيناه تذرفان ، يبكي ﷺ أن يُؤتى به يوم القيامة شهيدًا على أمته ؛ لأنه يُؤتى يوم القيامة من كل أمة بشهيد ؛ الأنبياء شهداء ، العلماء شهداء ؛ لأن العلماء واسطة بين الرسل وبين الخلق ، هم الذين يحملون شريعة الرسل إلى الخلق ، فهم شهداء ، فالعالم يشهد بأمرين : أمر أعلى ، وأمر أسفل ، الأمر الأعلى : يشهد بأن هذا حكم اللَّه ، والأمر الأسفل : يشهد بأنَّه قد بلَّغ الناس ، لأن العالم يبلِّغ فمثلًا يقرأ آية أو حديثًا ، ويقول للناس معناها كذا وكذا اعملوا بها ، فيشهد عليهم ، فهو شاهد من طرفين : طرف أعلى ، وطرف أسفل ، فيوم القيامة يُؤتى من كل أمة بشهيد ، أول من يشهد الرسل : نشهد أننا بلَّغنا رسالة ربنا إلى خلقه ، ويُؤتى من هذه الأمة بـ « محمد » ﷺ يستشهده اللَّه فيشهد أنه بلَّغ ، مع أن النبي ﷺ استشهد ربه في أكبر مجمع للمسلمين في ذلك الوقت في يوم عرفة ، لمَّا خطب الناس الخطبة الطويلة العظيمة البليغة قال : « ألا هل بلَّغت » ؛ قالوا : نعم ، قال : « اللَّهم اشهد » ، قال : « ألا هل بلَّغت » قالوا : نعم ، قال : « اللَّهم اشهد » قال : « ألا هل بلَّغت » قالوا : نعم ، قال : « اللَّهم اشهد »[2] .

لما وصل لهذه الآية بكى ﷺ لأنه تصوَّر هذه الحال ، تخيلها ، حالًا عظيمة ، كل أمة جاثية[3] ، وكل أمة تُدعى إلى كتابها ، كل أمة تأتي على الرُّكَبِ من شدة الهول وعظمته ، كل أمة تُدعى إلى كتباها ﴿ الْيَوْمَ تُجْزَوْنَ مَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴾ [الجاثية : ٢٨] ولهذا قال في الآية الكريمة التي وقف عليها عبد اللَّه بن مسعود : ﴿ يَوْمَئِذٍ يَوَدُّ الَّذِينَ كَفَرُوا وَعَصَوُا الرَّسُولَ لَوْ تُسَوَّىٰ بِهِمُ الْأَرْضُ ﴾ [النساء: ٤٢] يعني : يودون أنهم مابعثوا وما قبضوا ﴿ فَكَيْفَ إِذَا جِئْنَا مِن كُلِّ أُمَّةٍ بِشَهِيدٍ وَجِئْنَا بِكَ عَلَىٰ هَٰؤُلَاءِ شَهِيدًا ﴿٤١﴾ يَوْمَئِذٍ يَوَدُّ

---

(١) هذا قول مشهور من أمثلة العامة .

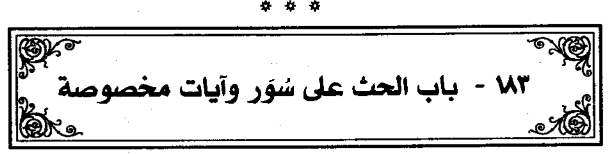
(٢) انظر البخاري في الحج (١٧٤١) ومسلم في الحج (٤٤٦) وأحمد في مسنده (٣٢/٤)، والدارمي في المناسك (٧٢).

(٣) قوله « كل أمة جاثية » أي باركين على الرُّكب من هول الموقف .

﴿ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ وَعَصَوُاْ ٱلرَّسُولَ لَوْ تُسَوَّىٰ بِهِمُ ٱلْأَرْضُ وَلَا يَكْتُمُونَ ٱللَّهَ حَدِيثًا﴾ [النساء: ٤١- ٤٢] يودون أنهم بقوا في الأرض، أو أن يكونوا ترابًا، ولكن لا ينفعهم، ولهذا قال: ﴿وَلَا يَكْتُمُونَ ٱللَّهَ حَدِيثًا﴾.

فالمهم: أنه يجوز للإنسان أن يطلب من شخص قارئ أن يقرأ عليه ولو كان هذا القارئ أقلَّ منه علمًا، لأن بعض الناس يعطيه الله تعالى حُسْن صوت وحُسن أداء وإن كان قليل العلم، فلا بأس أن تقول: يا فلان - جزاك الله خيرًا - اقرأ عليَّ، إما أن تعينِّ له ما يقرأ، وإما أن تدع الأمر إليه، فتستمع، وفي هذا الحديث بركة القرآن أنه ينتفع به القارئ والمستمع، ولا شك أن القرآن أعظم الكتب بركة، وأفيدها، وأصلحها للقلب، وأرضاها للرب نسأل الله أن يجعلني وإياكم من أهل القرآن الذين يعملون به ظاهرًا وباطنًا يموتون عليه ويحيَون عليه. والله الموفق.

* * *



١٨٣ - باب الحث على سُوَر وآيات مخصوصة

١٠٠٩ - عن أَبي سعيدٍ رافع بن المُعَلَّى ﷺ قَالَ: قَالَ لي رسول الله ﷺ: «أَلا أُعَلِّمُكَ أَعْظَمَ سُورَةٍ في القُرْآنِ قبل أَنْ تَخْرُجَ منَ المَسْجِدِ؟» فَأَخَذَ بِيَدِي، فَلَمَّا أَرَدنا أَنْ نَخْرُجَ قُلْتُ: يَا رَسُولَ اللَّهِ إِنَّكَ قُلْتَ: لأُعَلِّمَنَّكَ أَعْظَمَ سُورَةٍ في القُرْآنِ؟ قال: «﴿ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ هي السَّبْعُ المَثَاني وَالقُرْآنُ العَظِيمُ الَّذي أُوتِيتُهُ» [1] رواه البخاري.

الشرح

قال المؤلف رحمه الله في كتابه (رياض الصالحين): باب الحث على سور وآيات معينة وفيما سبق ذكر الحث على القرآن عمومًا، أما هذا الباب ففيه ذكر آيات وسور معينة لها فضل خاص، فمن ذلك: سورة الفاتحة، فهي أعظم سورة في كتاب الله، ولهذا تُسَمَّى أم القرآن، والأم: هو الذي يرجع إليه الشيء، فسورة الفاتحة ترجع إليها معاني القرآن كلها؛ ولذلك أوجب الله قراءتها في كل ركعة من الصلوات، فقال النبي ﷺ: «لا صلاة لمن لم يقرأ بأم القرآن، أو بفاتحة الكتاب» [2].

وهذه السورة لها خصائص منها: أن الإنسان إذا قرأ على مريض فإنه يشفى بإذن الله، لكن بشرط أن يقرأها بإيمان - يعني وهو مؤمن أنها رقية نافعة.

والشرط الثاني: أن يقرأها على مريض مؤمن أيضًا مصدق بأنها رقية ونافعة، ويدلُّ على هذا أن النبي ﷺ بعث سريَّة، فنزلوا على قوم فاستضافوهم ولكن القوم لم يضيفوهم، فسلَّط الله على

---

(١) أخرجه البخاري في فضائل القرآن (٥٠٠٦)، قوله «السبع المثاني» أي أنها تثنى في كل صلاة؛ أي تقرأ في كل صلاة.

(٢) أخرجه البخاري في الأذان (٧٥٦) ومسلم في الصلاة (٣٤) والترمذي في السنن (٢٤٧) وأحمد في مسنده (٥/٣٢٢).

سيدهم - أي : سيد القوم - أن لدغته عقرب ، وتأذى منها أذىً شديدًا ، فقال بعضهم : اذهبوا إلى هذا الرهط لعل فيهم قارئًا يقرأ ، فجاءوا إلى السريَّة ، وقالوا : إن سيدهم لدغته عقرب فهل منكم أحد يقرأ؟ قالوا : نعم ، لكن ما نقرأ عليكم إلا إذا أعطيتمونا مكافأة غنمًا فقالوا : نعطيكم ، فتقدم أحد القوم من الصحابة ، فجعل يقرأ عليه سورة الفاتحة - وهو أشد ما يكون من الألم - فقرأ عليه ، فقام الرجل المريض كأنما نشط من عُقال ، يعني : كأنه بعير فُكَّ عقاله ، ليس فيه داء ، فأعطوهم الغنم ، ثم قال بعضهم لبعض : نخشى أن تكون الغنم حرامًا ، لا نأكل منها حتى نصل إلى النبي ﷺ ، فلما وصلوا المدينة وأخبروا النبي ﷺ قال لهم : « خذوها واضربوا لي معكم بسهم »[1] يعني اجعلوا لي سهمًا منها ، وإنما قال ذلك تطييبًا لقلوبهم ، وإلا فهو ﷺ في غنًى عن هذا ، لكن تطييبًا لقلوبهم وبيانًا لحلِّ هذا الشيء ، ثم قال للذي قرأها : وما يدريك أنها رقية ، فإذا قرأ الإنسان على مريض وهو مؤمن أنها رقية والمريض مؤمن كذلك بأنها نافعة بإذن الله ؛ فإن الله تعالى ينفع بها نفعًا عجيبًا ، هذا من فضائل سورة الفاتحة ، وهي أعظم سورة في كتاب الله كما في هذا الحديث . والله الموفق .

* * *

١٠١٠ - وعن أبي سعيدٍ الخُدْريِّ رضي الله عنه أَنَّ رسول الله ﷺ قَالَ في ﴿ قُلْ هُوَ ٱللَّهُ أَحَدٌ ﴾ : « وَالَّذي نَفْسي بِيَدِهِ ، إنَّهَا لَتَعْدِلُ ثُلُثَ القُرْآنِ » .

وفي روايةٍ : أنَّ رسولَ اللَّه ﷺ قالَ لأَصْحَابِهِ : « أَيَعْجِزُ أَحَدُكُمْ أَنْ يَقْرَأَ بِثُلُثِ القُرْآنِ في لَيلَةٍ ؟ » فَشَقَّ ذلكَ عَلَيهم ، وَقَالُوا : أيُّنا يُطِيقُ يا رسولَ الله ؟ فقالَ : « ﴿ قُلْ هُوَ ٱللَّهُ أَحَدٌ ۝١ ٱللَّهُ ٱلصَّمَدُ ﴾ ثُلُثُ القُرْآنِ »[2] رواه البخاري .

١٠١١ - وعَنْهُ : أَنَّ رَجُلًا سَمِعَ رَجُلًا يَقْرأُ : ﴿ قُلْ هُوَ ٱللَّهُ أَحَدٌ ﴾ يُرَدِّدُهَا فَلَمَّا أَصْبَحَ جَاءَ إلى رسول اللَّه ﷺ ، فَذَكَرَ ذلكَ لَهُ وَكَانَ الرَّجُلُ يَتَقَالُّهَا ، فَقَالَ رسول اللَّه ﷺ : « وَالَّذي نَفْسي بِيَدِهِ ، إنَّهَا لَتَعْدِلُ ثُلُثَ القُرْآنِ »[3] رواه البخاري .

الشرح

قال النووي رحمه الله فيما نقله من الأحاديث في باب الحث على سُورَ معينة في كتاب الله في فضل ﴿ قُلْ هُوَ ٱللَّهُ أَحَدٌ ۝١ ٱللَّهُ ٱلصَّمَدُ .... ﴾ وهي تسمى سورة الإخلاص ؛ لأن الله ﷻ أخلصها لنفسها ، فلم يذكر فيها شيئًا إلا من أسماء الله وصفاته ، وأيضًا من قرأها مؤمنًا بها معتقدًا لما دلت عليه ؛ فإنه مخلص لله ﷻ سالم من الشرك ، هذه - السورة كلها أسماء لله وصفاته ﴿ قُلْ هُوَ ٱللَّهُ

---

(١) انظر الحديث في : البخاري في فضائل القرآن(٥٠٠٧) ومسلم في السلام(٦٥) وأبو داود في الطب(١٩) وأحمد في مسنده(٣٦٧/٤) .

(٢) أخرجه البخاري في فضائل القرآن(٥٠١٥) ، والإمام أحمد في المسند(٤٤٧/٦) .

(٣) أخرجه البخاري في فضائل القرآن(٥٠١٣) ، والإمام أحمد في مسنده(٣٥/٣) والنسائي في السنن(١٧١/٢) .

أَحَـدٌ ﴾ يقال : إن المشركين سألوا النبي ﷺ وقالوا : انسب لنا ربك ؟ يعني : ما نسبه ؟ كأنهم يقولون : من هو ابن له - والعياذ بالله - أو أنهم سألوه : من أي شيء هو ؟ أمن ذهب أو فضة أو ما أشبه ذلك . فأنزل الله هذه السورة ﴿ قُلْ هُوَ ٱللَّهُ أَحَـدٌ ﴾ أحد [1] ، يعني : واحد منفرد عن كل مخلوقاته - جل وعلا - و﴿ أَحَـدٌ ﴾ اسم مختص بالله ﷻ لا يُطلق على غيره ﴿ ٱللَّهُ ٱلصَّـمَدُ ﴾ الصمد : اختلفت عبارات المفسرين في معناه ، لكن المعنى الجامع لها : أن الصمد هو الكامل في صفاته الذي افتقرت إليه جميع مخلوقاته ؛ فهو الكامل في علمه ، في قدرته ، في رحمته ، في حلمه ، وفي غير ذلك من صفاته ، وكذلك هو الذي افتقرت إليه جميع مخلوقاته ، كل الخلائق تصمد إليه في حاجتها وتسأله حتى المشركون إذا كانوا في البحر وماجت الأمواج فإنما يدعون الله وحده ؛ فهو - جل وعلا - مرجع الخلائق كلها فالصمد - إذًا - معناه : الكامل في صفاته الذي افتقرت إليه جميع مخلوقاته ﴿ لَمْ يَـلِدْ وَلَمْ يُولَـدْ ۝ وَلَمْ يَكُن لَّهُۥ كُفُوًا أَحَـدٌ ﴾ ﴿ لَمْ يَـلِدْ ﴾ : ليس له أولاد ﷻ لأنه غني عن كل أحد ، قال الله تعالى : ﴿ أَنَّىٰ يَكُونُ لَهُۥ وَلَدٌ وَلَمْ تَكُن لَّهُۥ صَـٰحِبَةٌ ﴾ [2] [الأنعام: ١٠١] وفي هذا ردٌّ وإبطالٌ لما ادعته اليهود والنصارى والمشركون ، اليهود قالوا : عُزير ابن الله [3] ؛ يعني قالوا : إله يلد وابنه عُزير ، والنصارى قالوا : المسيح ابن الله [4] ، والمشركون قالوا : الملائكة بنات الله [5] ، فأبطل الله ذلك كله ﴿ لَمْ يَـلِدْ وَلَمْ يُولَـدْ ﴾ وذلك لأنه - جل وعلا - هو الأول الذي ليس قبله شيء ، فهو الأول وما بعده كائن بعد أن لم يمكن ، أما الرّب - جل وعلا - فإنه أولٌ أزلي أبدي ﴿ وَلَمْ يَكُن لَّهُۥ كُفُوًا أَحَـدٌ ﴾ يعني : لا أحد يكافئه ويكون ندًّا له لا في علمه ، ولا في قدرته ، ولا في غير ذلك ، ولما افتخرت عاد بقوتها وقالوا : ﴿ مَنْ أَشَدُّ مِنَّا قُوَّةً ﴾ قال الله ﷻ : ﴿ أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّ ٱللَّهَ ٱلَّذِى خَلَقَهُمْ هُوَ أَشَدُّ مِنْهُمْ قُوَّةً وَكَانُوا بِـَٔايَـٰتِنَا يَجْحَدُونَ ۝ فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ رِيحًا صَرْصَرًا فِىٓ أَيَّامٍ نَّحِسَاتٍ ﴾ [فصلت: ١٥- ١٦] ريحًا : هواء من ألين المخلوقات ، فدمرهم تدميرًا وهم يقولون : من أشد منا قوة ؟! والله ﷻ لا يكون له كفوًا أحد ، واعلم أن ﴿ كُفُوًا ﴾ فيها ثلاثة قراءات : (كُفُوًا) بضم الفاء والواو ، ولا يصلح أن تكون (كُفْوا) بسكون الفاء - وفيها قراءتان أخريان بالهمز مع سكون الفاء ، وبالهمز مع ضم الفاء كُفْئًا ، وكُفُئًا - وأما مع الواو فإنها مضمومة ، ونسمع كثيرًا من القراء يقرؤونها بالسكون مع الواو ، وهذا لَحن ، فأنت إذا قرأتها بالواو ضُمَّ الفاء [6] .

هذه السورة أقسم النبي ﷺ أنها تعدل ثلث القرآن ، وقال لأصحابه : « أيعجز أحدكم أن يقرأ ثلث القرآن في ليلة ؟ » فشق عليهم ذلك ، فقال : ﴿ قُلْ هُوَ ٱللَّهُ أَحَـدٌ ۝ ٱللَّهُ ٱلصَّـمَدُ ۝ لَمْ يَـلِدْ

---

(١) انظر الترمذي في التفسير (٣٣٦٥) ، والسيوطي في الدر المنثور (٦٦٩/٨) ، والطبري في تفسيره (٤٤٦/٣٠) .

(٢) قوله تعالى : ﴿ صَـٰحِبَةٌ ﴾ أي زوجة .

(٣) الآية ٣٠ من سورة التوبة .

(٤) الآية ٣٠ من سورة التوبة .

(٥) الآية ٥٧ من سورة النحل .

(٦) قرأ حفص (كفوًا) بضم الفاء وفتح الواو من غيرهم ، وقرأ حمزة بإسكان الفاء مع الهمز ﴿ كفأً ﴾ في الوصل ، فإذا وقف أبدل الهمزة واوًا مفتوحة ﴿ كفوًا ﴾ إتباعًا للخط ، والقياس أن يلقي حركتها على الفاء ، وقرأ الباقون بضم الفاء مع الهمز ﴿ كفؤًا ﴾ . (انظر التيسير في القراءات السبع ص : ١٨٣) .

وَلَمْ يُولَدْ ۝ وَلَمْ يَكُن لَّهُۥ كُفُوًا أَحَدٌۢ﴾ تعدل ثلث القرآن يعني : أجرها كأجر ثلث القرآن ، لكنها لا تجزئ عن القرآن ، ولهذا لو قرأها الإنسان مثلًا ثلاث مرات بدل قراءة الفاتحة في الصلاة لا تجزئ ، لأن هناك فرقًا بين المعادلة في الأجر والمعادلة في الإجزاء ؛ قد يكون الشيء معادلًا لغيره في الأجر ولكنه لا يعادله في إجزائه ، أرأيتم مثلًا إذا قال الإنسان : « لا إله إلا اللَّه وحده لا شريك له ، له الملك وله الحمد ، وهو على كل شيء قدير » عشر مرات كان كمن أعتق أربعة أَنْفُس من ولد إسماعيل[1] ؛ يعني يعادل عِتق أربعة رقاب ، لكن لو كان عليه عتق رقبة وقال ذلك ما نفعه ذلك ، فهناك فرق بين المعادلة في الثواب والمعادلة في الإجزاء ، فهي تعدل ثلث القرآن في الثواب ولكنها لا تعدل في الإجزاء، ولهذا لو قرأها الإنسان ثلاث مرات في الصلاة لم تجزئه عن الفاتحة . واللَّه الموفق .

* * *

١٠١٢ - وعن أبي هريرةَ ﷺ أَنَّ رسول اللَّه ﷺ قال في ﴿ قُلْ هُوَ ٱللَّهُ أَحَدٌ ﴾ : « إِنَّهَا تَعْدِلُ ثُلُثَ القُرْآنِ »[2] رواه مسلم .

١٠١٣ - وعنْ أَنسٍ ﷺ أَنَّ رَجُلًا قال : يا رسولَ اللَّهِ إني أُحبُّ هذِهِ السُّورَةَ : ﴿ قُلْ هُوَ ٱللَّهُ أَحَدٌ ﴾ ، قال : « إِنَّ حُبَّها أَدْخَلَكَ الجنَّةَ »[3] رواه الترمذي وقال : حديثٌ حسن . ورواه البخاري في صحيحه تعليقًا .

١٠١٤ - وعن عُقْبَةَ بنِ عَامِرٍ ﷺ أَنَّ رسول اللَّه ﷺ قال : « أَلَمْ تَرَ آيَاتٍ أُنْزِلَتْ هذِهِ اللَّيلَةَ لَمْ يُرَ مِثْلُهُنَّ قَطُّ ؟ ﴿ قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ ٱلْفَلَقِ ﴾ ، و ﴿ قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ ٱلنَّاسِ ﴾ »[4] رواه مسلم .

١٠١٥ - وعن أبي سعيدِ الخُدْرِيِّ ﷺ قال : كانَ رسول اللَّه ﷺ يَتَعَوَّذُ مِنَ الجانِّ ، وَعَينِ الإِنْسَانِ ، حتَّى نَزَلَتْ المُعَوِّذَتَانِ ، فَلَمَّا نَزَلَتا ، أَخَذَ بِهِما وَتَرَكَ مَا سِوَاهُمَا[5] . رواه الترمذي وقال : حديث حسن .

١٠١٦ - وعن أبي هريرةَ ﷺ أَنَّ رسول اللَّه ﷺ قالَ : « مِنَ القُرْآن سُورَةٌ ثَلاثُونَ آيَةً شفَعَتْ لِرَجُلٍ حَتَّى غُفِرَ لَهُ ، وَهِيَ : ﴿ تَبَٰرَكَ ٱلَّذِى بِيَدِهِ ٱلْمُلْكُ ﴾ »[6] رواه أبو داود والترمذي وقال : حديث حسن .

١٠١٧ - وعن أبي مسعود البَدْرِيِّ ﷺ عن النبي ﷺ قال : « مَنْ قَرَأَ بِالآيَتَيْنِ مِنْ آخِرِ سُورَةِ البَقَرَةِ في لَيلَةٍ كَفَتَاهُ »[7] متفقٌ عليه . قيلَ : كَفَتَاهُ المَكْرُوهَ تِلْكَ اللَّيلَةَ ، وَقِيلَ : كَفَتَاهُ مِنْ قِيَامِ اللَّيلِ .

---

(١) الحديث أخرجه البخاري في الدعوات (٦٤٠٣) ، ومسلم في الذكر والدعاء (٣٠) .

(٢) أخرجه مسلم في صلاة المسافرين وقصرها (٢٦١) . (٣) أخرجه الترمذي في فضائل القرآن (٢٩٠١) .

(٤) أخرجه مسلم في صلاة المسافرين وقصرها (٢٦٤) ، والإمام أحمد في مسنده (١٥١/٤) بنحوه ، قوله « لم ير مثلهن قط » أي لم يبصر مثلهن فيما يعوذ به . (٥) أخرجه الترمذي في الطب (٢٠٥٨) .

(٦) أخرجه أبو داود في الصلاة (١٤٠٠) والترمذي في فضائل القرآن (٢٨٩٣) ، قوله تعالى : ﴿ تَبَٰرَكَ ﴾ أي تعالى وتعاظم .

(٧) أخرجه البخاري في فضائل القرآن (٥٠٤٠) ، ومسلم في صلاة المسافرين وقصرها (٢٥٦) ، والبيهقي في السنن (٢٠/٣ ، ٢١) .

الشرح

ذكر المؤلف - رحمه الله تعالى - في باب الحث على قراءة سور وآيات معينة من سور القرآن ما سبق في سورة الفاتحة وسورة الإخلاص ، وقد تقدم الكلام عليهما ، ومن ذلك المعوذتان : فإن المعوذتين - وهما﴿ قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ ٱلْفَلَقِ﴾ ﴿ قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ ٱلنَّاسِ﴾ ما تعوَّذ بهما متعوِّذ عن إيمان وصدق إلا أعاذه الله ﷻ .

أما سورة « الفلق » فيقول الله ﷻ :﴿ قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ ٱلْفَلَقِ ۞ مِن شَرِّ مَا خَلَقَ﴾ [الفلق : ١ ، ٢] يعني : قل أيها الإنسان مستعينًا بربك : أعوذ برب الفلق من شر ما خلق ، الفلق : فلق الصبح ، وفلق الحبِّ والنوى ، قال الله تعالى ﴿ فَالِقُ ٱلْإِصْبَاحِ ﴾ (١) [الأنعام : ٩٦] وقال : ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ فَالِقُ ٱلْحَبِّ وَٱلنَّوَىٰ﴾ (٢) [الأنعام : ٩٥] فهو ﷻ رب الفلق ، لا يستطيع أحد أن يفلق شيئًا من هذه التي ذكرها الله إلا الله ﷻ ﴿ مِن شَرِّ مَا خَلَقَ﴾ أي :كل ما خلق ، ومنهم نفسه ، كما جاء في الحديث الصحيح : «نعوذ بالله من شرور أنفسنا ومن سيئات أعمالنا » (٣) والنفس أمارة بالسوء فنستعيذ بالله من شر ما خلق أي : من شر كل ما خلق من الإنس والجن والنفس وغير ذلك﴿ وَمِن شَرِّ غَاسِقٍ إِذَا وَقَبَ﴾ الغاسق : الليل ؛ لأن الليل تخرج فيه الهوام وتخرج فيه السباع ، وتكون فيه الشرور ، فتستعين بالله من شر الليل إذا وقب أي : إذا دخل﴿ وَمِن شَرِّ ٱلنَّفَّٰثَٰتِ فِى ٱلْعُقَدِ﴾ يعني الساحرات اللاتي ينفثن في العقد ليسحرن الناس ، ونص على النساء وإن كان السحر يكون في النساء وفي الرجال ؛ لأنه هو الغالب فيهن ، ويجوز أن يكون من﴿ ٱلنَّفَّٰثَٰتِ﴾ أي : النفوس النفَّاثات فتشمل النساء والرجال﴿ وَمِن شَرِّ حَاسِدٍ إِذَا حَسَدَ﴾ هذه العين ، صاحب العين - والعياذ بالله - الشرير الذي لا يحب الخير للغير تجده إذا مَنَّ الله على أحدٍ بشيء من مالٍ أو جاهٍ أو علمٍ أو ولدٍ أو زوجةٍ أو غير ذلك ، يخرج من نفسه الخبيثة كما يخرج السهم فيصيب الرجل ، وهذا السهم لا ينفعه شيئًا ، لكن نفسه خبيثة - والعياذ بالله - لا تحب الخير للغير ، فيصاب الإنسان بالعين ، قال النبي ﷺ : «لو سبق القضاء شيء - أو قال القدر - لسبقته العين » (٤) فالعين تدرك وهي حق حتى قال بعض العلماء : إنها المراد من قوله تعالى :﴿ أَمْ يَحْسُدُونَ ٱلنَّاسَ عَلَىٰ مَآ ءَاتَىٰهُمُ ٱللَّهُ مِن فَضْلِهِۦ﴾ [النساء : ٥٤] .

﴿ وَمِن شَرِّ حَاسِدٍ﴾ ثم قال :﴿ إِذَا حَسَدَ﴾ لأن الحاسد قد لا يحسد ، لكن إذا حسد - والعياذ بالله - تعدَّى شرُّه غيره يعني تعدَّى إلى غيره ، ويجوز أن يكون المراد بالآية : الحاسد العائن وغير العائن ؛ لأن بعض الناس حسود - والعياذ بالله - .

والحسد : هو كراهة ما أنعم الله به على غيرك - وإن كنت لا تتمنى زواله ، فإن تمنيت زواله صار

---

(١) قوله تعالى :﴿ فَالِقُ ٱلْإِصْبَاحِ﴾ أي شاق ظلمة الصبح عن بياض النهار فيذهب الليل بسواده ويجيء النهار بضيائه .

(٢) قوله تعالى :﴿ فَالِقُ ٱلْحَبِّ وَٱلنَّوَىٰ﴾ أي يشق الحبة اليابسة فيخرج منها النبات ويشق النواة اليابسة فيخرج منها النخلة والشجرة النامية .

(٣) أخرجه أحمد في مسنده(١/٣٩٢) .

(٤) الحديث بنصه في مسلم في السلام(٤٢) ، والترمذي في السنن(٢٠٥٩) وابن ماجه في السنن(٣٥١٠) ، وأحمد في مسنده(٦/٤٣٨) ، جميعهم بلفظ : «لو كان شيء سابق القدر » .

أشدُّ - والعياذ بالله - والحاسدون - والعياذ بالله نسأل الله العافية - لا يُحرقون إلا أنفسهم ، الحاسد يحترق ؛ كلما أنعم الله على عباده نعمة احترق قلبه ، فهذا الحاسد - والعياذ بالله - أحيانًا إذا حسد بغى على الغير واعتدى عليهم ؛ مثلًا افترض أن إنسانًا مَنَّ الله عليه بمالٍ وصار ينفقه في سبيل الله ، ووجده رجل حسود - والعياذ بالله - قلبه يحترق ، أيضًا إذا مَنَّ الله على إنسان بعلم وصار له قبول عند الناس صار - والعياذ بالله - يحسد . وهلم جرًا ، والحسد - والعياذ بالله - من كبائر الذنوب ، وقد ذمَّ الله اليهود عليه فقال : ﴿أَمْ يَحْسُدُونَ ٱلنَّاسَ عَلَىٰ مَآ ءَاتَىٰهُمُ ٱللَّهُ مِن فَضْلِهِۦ﴾ (١) [النساء : ٥٤] فالفضل من الله يؤتيه من يشاء ، وأنت إذا حسدت جنيت على من أعطاهم الله الفضل ، وجنيت واعتديت على حق الله ، كأنك تقول : ما استحق هذا الرجل هذه النعمة فتحسد ، هذه سورة الفلق .

والمهم : أن الإنسان ينبغي أن يتعوذ بهاتين السورتين ، وذكر الترمذي رَحِمَهُ اللَّهُ أن النبي ﷺ كان يتعوَّذ من الجانِّ ومن عين الإنسان حتى نزلت ﴿قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ ٱلْفَلَقِ﴾ و ﴿قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ ٱلنَّاسِ﴾ فصار يتعوَّذ بهما وترك ما سواهما . والله الموفق .

* * *

١٠١٨ - وعن أبي هريرة رضي الله عنه أنَّ رسول الله ﷺ قال : « لا تَجْعَلُوا بُيُوتَكُم مَقَابِرَ ؛ إنَّ الشَّيطَانَ يَنْفِرُ مِنْ البَيتِ الَّذي تُقرأُ فِيهِ سُورَةُ البَقَرَةِ » (٢) رواه مسلم .

١٠١٩ - وعن أُبَيّ بن كَعْبٍ رضي الله عنه قَالَ : قَالَ رسول الله ﷺ : « يا أبا المُنْذِرِ أتَدْرِي أَيُّ آيةٍ مِنْ كِتابِ اللهِ مَعَكَ أَعْظَمُ ؟ قُلْتُ : ﴿ٱللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ٱلْحَيُّ ٱلْقَيُّومُ﴾ ، فَضَرَبَ في صَدْرِي وَقَالَ : «لِيَهْنِكَ العِلْمُ أَبَا المُنْذِرِ » (٣) رواه مسلم .

الشرح

هذه الأحاديث في بيان فضل آيات أو سور من القرآن الكريم منها : سورة البقرة .

نقل المؤلف رَحِمَهُ اللَّهُ عن أبي هريرة رضي الله عنه أن النبي ﷺ قال : « لا تجعلوا بيوتكم مقابر » قال العلماء : معنى ذلك : لا تتركوا الصلاة فيها - يعني صلوا في بيوتكم - وإنما سمَّى البيوت في حال عدم الصلاة فيها مقابر ؛ لأن المقبرة لا تصح الصلاة فيها كما جاء في الحديث عن النبي ﷺ أنه قال : « الأرض كلها مسجد إلا المقبرة والحمام » (٤) وقال ﷺ : « لا تصلوا إلى القبور ولا تجلسوا عليها » (٥)

---

(١) قوله ﷻ : ﴿لَيُزْلِقُونَكَ بِأَبْصَٰرِهِمْ﴾ أي يصرعونك بأبصارهم من شدة نظرهم إليك شزرًا يبيتون العداوة والبغضاء .

(٢) أخرجه مسلم في صلاة المسافرين وقصرها (٢١٢) والترمذي في فضائل القرآن (٢٨٧٧) ، والإمام أحمد في المسند (٢/٢٨٤) .

(٣) أخرجه مسلم في صلاة المسافرين وقصرها (٢٥٨) ، قوله « ليهنك العلم » أي ليكن العلم هنيئًا لك .

(٤) أخرجه الترمذي في الصلاة (٣١٧) وابن ماجه في المساجد (٧٤٥) وأحمد في مسنده (٣/٢٨٣) ، والحاكم في المستدرك (١/٢٥١) .

(٥) أخرجه مسلم في الجنائز (٥٨) والنسائي في السنن (٢/٦٧) ، وأحمد في مسنده (٤/١٣٥) .

فالمقبرة لا تصح فيها صلاة النافلة ولا الفريضة ، ولا سجدة التلاوة ولا سجدة الشكر ، ولا أي شيء من الصلوات ؛ إلا صلاة واحدة وهي صلاة الجنازة إذا صُلِّي على الجنازة في المقبرة فلا بأس ، سواء كان ذلك قبل الدفن أم بعده ، لكن بعد الدفن لا يُصَلِّي عليها في أوقات النهي : يعني : مثلًا لو جئت لحضور جنازة بعد صلاة العصر ووجدت أنهم قد دفنوها فلا تصلِّ عليها ، لأنه يمكنك أن تصلي في وقت آخر غير وقت النهي كالضحى مثلًا ، وأما إذا جئت وهم لم يدفنوها ، لكن قد وضعت في الأرض للدفن ، فلا بأس أن تصلي عليها ولو كان ذلك بعد العصر ، في هذه الحال تكون صلاة لها سبب ، والصلاة التي لها سبب ليس عنها وقت نهي .

ثم أخبر ﷺ أن الشيطان ينفر من البيت الذي تُقرأ فيه سورة البقرة ، يعني إذا قرأت في بيتك سورة البقرة فإن الشيطان يفر منها ولا يقرب البيت ، والسبب أن في سورة البقرة « آية الكرسي » ويدل لهذا الحديث الذي ذكره المؤلف بعد وهو حديث أبي بن كعب رضي الله عنه أن النبي ﷺ سأله : أي آية في كتاب الله أعظم ؟ قال : آية الكرسي فضرب النبي ﷺ على صدره ، وقال « ليَهْنِكَ العلمُ يا أبا المنذر » يعني هنَّأه حيث علم أن أعظم آية في كتاب الله « آية الكرسي » لأن هذه الآية مشتملة على عشر صفات من صفات الله عز وجل يقول عز وجل : ﴿ اللَّهُ لَا إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ الْحَيُّ الْقَيُّومُ ﴾ ففي هذا إخلاص التوحيد لله عز وجل ومعنى ﴿ لَا إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ﴾ أي : لا معبود حق إلا هو - جلَّ وعلا - فجميع المعبودات من دون الله معبودة بغير حق - حتى ولو سُميت آلهة - فإنما هي أسماء سمَّوها ما أنزل الله بها من سلطان ﴿ الْحَيُّ الْقَيُّومُ ﴾ يعني : الكامل في حياته وفي قَيُّومِيَّته ، فهو الحي الكامل في حياته لم يسبق حياته عدم ولا يلحقها فناء ، لأنه الأول الذي ليس قبله شيء ، والآخر الذي ليس بعده شيء ، قال الله عز وجل : ﴿ كُلُّ مَنْ عَلَيْهَا فَانٍ ۝٢٦ وَيَبْقَىٰ وَجْهُ رَبِّكَ ذُو الْجَلَالِ وَالْإِكْرَامِ ﴾ (١) [الرحمن : ٢٦، ٢٧] قال بعض السلف : ينبغي لمن قرأ هذه الآية ﴿ كُلُّ مَنْ عَلَيْهَا فَانٍ ﴾ ألا يقف بل يقول : ﴿ كُلُّ مَنْ عَلَيْهَا فَانٍ ۝٢٦ وَيَبْقَىٰ وَجْهُ رَبِّكَ ذُو الْجَلَالِ وَالْإِكْرَامِ ﴾ لأجل أن يتبين في ذلك نقص المخلوقات وكمال الخالق - جلَّ وعلا - فهو ﷻ الحيُّ الكامل في حياته ، كذلك حياته لا يلحقها نقص بوجه من الوجوه ، وحياة غيره كلها نقص انظر حياتك أنت : إن جئت بالسمع فسمعك ناقص ، لا تسمع كل شيء ، البصر كذلك ، الصحة كذلك ، وما أكثر الأمراض التي تصيب الناس وهكذا بقية أسباب الحياة ناقصة أما الربُّ عز وجل فهو كامل الحياة ﴿ الْقَيُّومُ ﴾ معناها القائم بنفسه القائم على غيره ، يعني معنى القائم بنفسه لا يحتاج لغيره ﴿ وَمَن كَفَرَ فَإِنَّ اللَّهَ غَنِيٌّ عَنِ الْعَالَمِينَ ﴾ [آل عمران : ٩٧] ﴿ إِن تَكْفُرُوا فَإِنَّ اللَّهَ غَنِيٌّ عَنكُمْ وَلَا يَرْضَىٰ لِعِبَادِهِ الْكُفْرَ وَإِن تَشْكُرُوا يَرْضَهُ لَكُمْ ﴾ [الزمر : ٧] فهو غني ، وفي الحديث القدسي أنه قال جلَّ وعلا : « يا عبادي إنكم لن تبلغوا ضري فتضروني ، ولن تبلغوا نفعي فتنفعوني » (٢) فهو قائم بنفسه لا يحتاج لأحد ، قائم على غيره : كل ما سواه فإن القائم عليه هو الله عز وجل قال الله تعالى : ﴿ أَفَمَنْ هُوَ قَائِمٌ عَلَىٰ كُلِّ نَفْسٍ بِمَا كَسَبَتْ ﴾ (٣) [الرعد : ٣٣] يعني : كمن لا يملك

---

(١) قوله ﷻ : ﴿ فَانٍ ﴾ أي هالك ، وقوله ﷻ : ﴿ ذُو الْجَلَالِ ﴾ أي صاحب العظمة والاستغناء المطلق .
(٢) أخرجه مسلم في البر والصلة (٥٥) .
(٣) قوله ﷻ : ﴿ أَفَمَنْ هُوَ قَائِمٌ ﴾ أي أفمن هو رقيب على كل نفس حفيظ عليها . عالم بما علمت من خير أو شر فمجازيها به .

شيئًا والقائم على كل نفس بما كسبت هو الله ﷻ ؛ إذًا ﴿ ٱلْقَيُّومُ ﴾ له معنيان : القائم بنفسه ، والقائم على غيره . ﴿ لَا تَأْخُذُهُۥ سِنَةٌ وَلَا نَوْمٌ ﴾ السِّنَةُ هي : النعاس والنعاس هو مقدمة النوم ، والنوم معروف ، فالله ﷻ لا تأخذه سنة ولا نوم ، والإنسان تأخذه السنة ويأخذه النوم اختار أم لم يختر ، أحيانًا ينام الإنسان وهو يصلي ، ينعس وهو يكلم الناس ، لكن الله ﷻ لا تأخذه سنة ولا نوم لكمال حياته وكمال قيوميته ، وفي الحديث الصحيح عن النبي ﷺ أنه قال : « إن الله لا ينام ولا ينبغي له أن ينام »[١] يعني مستحيل غاية الاستحالة أن ينام ﷻ لأنه كامل الحياة كامل القيُّومية ، مَن يقوم على الخلق لو نام الخالق ! لا أحد فهو جلَّ وعلا لا تأخذه سنة ولا نوم . والله أعلم .

* * *

١٠٢٠ - وعن أبي هريرةَ ﷺ قال : وَكَّلَني رسول الله ﷺ بحِفْظِ زَكَاةِ رَمَضَانَ ، فَأَتَاني آتٍ ، فَجَعَلَ يَحْثُو مِنَ الطَّعَامِ ، فَأَخَذْتهُ فَقُلْتُ : لأَرْفَعَنَّكَ إلى رسول الله ﷺ ، قَالَ : إنِّي مُحْتَاجٌ ، وَعَلَيَّ عِيَالٌ ، وَبِي حاجَة شَدِيدَةٌ ، فَخَلَّيتُ عَنْهُ ، فَأَصْبَحْتُ ، فَقَالَ رسول الله ﷺ : « يَا أَبَا هُرَيرَة . مَا فَعَلَ أَسِيرُكَ البَارِحَةَ ؟ » قُلْتُ : يَا رَسُولَ اللهِ شَكَا حَاجَةً وَعِيَالًا ، فَرَحِمْتُهُ ، فَخَلَّيتُ سَبِيلَهُ . فَقَالَ : « أَمَا إنَّهُ قَدْ كَذَبَكَ وَسَيَعُودُ » فَعَرَفْتُ أَنَّهُ سَيَعُودُ لِقَولِ رسول الله ﷺ فَرَصَدْتُهُ ، فَجَاءَ يَحْثُو مِنَ الطَّعَام ، فَقُلْتُ : لأَرْفَعَنَّكَ إلى رسول الله ﷺ ، قَالَ : دَعْني فَإنِّي مُحْتَاجٌ ، وَعَلَيَّ عِيَالٌ لا أَعُودُ ، فَرَحِمْتُهُ فَخَلَّيتُ سَبيلَهُ ، فَأَصْبَحْت ، فَقَالَ لي رسول الله ﷺ : « يَا أَبَا هُرَيرَةَ ، ما فَعَلَ أَسِيرُكَ البَارِحَةَ ؟ » قُلْتُ : يَا رَسُولَ اللهِ شَكَا حَاجَةً وَعِيالًا فَرَحِمْتُهُ ، فَخَلَّيتُ سَبِيلَهُ ، فَقَالَ : « إنَّهُ قَدْ كَذَبَكَ وَسَيَعُودُ » فَرَصَدْتُهُ الثَّالِثَةَ . فَجَاءَ يَحْثُو مِن الطَّعَامِ ، فَأَخَذْتُهُ ، فقلتُ : لأَرْفَعَنَّكَ إلى رسول الله ﷺ ، وَهذا آخِرُ ثلاثِ مَرَّاتٍ أَنَّكَ تَزْعُمُ أَنَّكَ لَا تَعُودُ ، ثُمَّ تَعُودُ ! فقال : دَعْني فَإنِّي أُعَلِّمُكَ كَلِمَاتٍ يَنْفَعُكَ اللهُ بِهَا ، قلتُ : مَا هُنَّ ؟ قال : إذا أَوَيتَ إلى فِراشِكَ فَاقْرَأْ آيَةَ الكُرْسِيِّ ؛ فَإنَّهُ لَنْ يَزَالَ عَلَيكَ مِنَ اللهِ حَافِظٌ ، وَلا يَقْرَبُكَ شَيطَانٌ حَتى تُصبِحَ ، فَخَلَّيتُ سَبِيلَهُ ، فَأَصْبَحْتُ ، فَقَالَ لي رسول الله ﷺ : « مَا فَعَلَ أَسِيرُكَ البَارِحَةَ ؟ » قُلْتُ : يَا رَسُولَ اللهِ زَعَمَ أَنَّهُ يُعَلِّمُني كَلِمَاتٍ يَنْفَعُني اللهُ بهَا ، فَخَلَّيتُ سَبِيله ، قالَ : « مَا هِيَ ؟ » قلت : قالَ لي : إذا أَوَيتَ إلى فِراشِكَ فَاقْرأ آيةَ الكُرْسيِّ مِنْ أَوَّلِهَا حَتَّى تَخْتِمَ الآيَةَ : ﴿ ٱللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ٱلْحَىُّ ٱلْقَيُّومُ ﴾ وقالَ لي : لا يَزَال عَلَيكَ مِنَ اللهِ حَافِظٌ ، وَلَنْ يَقْرَبَكَ شَيطَانٌ حَتَّى تُصْبحَ . فقالَ النبيُّ ﷺ : « أَمَا إنَّه قَدْ صَدَقَكَ وَهُوَ كَذُوبٌ ، تَعْلَمُ مَنْ تَخاطِبُ مُنْذ ثَلاثٍ يا أَبَا هُرَيرَةَ » ؟ قلت : لا ، قال : « ذَاكَ شَيطَانٌ »[٢] رواه البخاري .

---

(١) أخرجه مسلم في الإيمان (٢٩٤) ، وابن ماجه في السنن (١٩٥) ، وأحمد في مسنده (٤٠١/٤) .

(٢) أخرجه البخاري في الوكالة (٢٣١١) ، والبيهقي في دلائل النبوة (١٣٠ ، ١٣١) ، قوله « فرصدته » أي راقبته ، قوله « يحثو » أي يأخذ بكفيه ، قوله « فخليت سبيله » أي تركته يذهب لحاله .

الشرح

هذه القصة قصة عجيبة عظيمة ، وذلك لأن النبي ﷺ وكَّل أبا هريرة ﷺ على صدقة رمضان - يعني الفطر - يحفظها ، وكانوا يجمعونها قبل العيد بيوم أو يومين ، وكان أبوهريرة وكيلًا عليها ، وفي ليلة من الليالي جاء رجل يحثو من الطعام ، فأمسكه أبو هريرة وقال : لأرفعنَّك إلى رسول الله ﷺ فخاف وقال : إنني ذو عيال ، وذو حاجة ، فرحمه وأطلقه ، فلما أصبح وجاء إلى رسول الله ﷺ قال له ﷺ : «ما فعل أسيرك البارحة ؟ » وهذه من آيات الله ، لأن النبي ﷺ لم يكن عنده ولكنه علم بذلك عن طريق الوحي ، قال : «ما فعل أسيرك البارحة ، » قلت : يا رسول الله إنه قال : إنه ذو حاجة وذو عيال فرحمته وأطلقته ، فقال النبي ﷺ : « كَذَبَك - يعني كذب عليك - وسيعود » يقول : فعلمت أنه سيعود لقول النبي ﷺ إنه سيعود - وكان الصحابة ﷺ يؤمنون بما أخبر به النبي ﷺ كما يؤمنون بما يشاهدونه بأعينهم أو أكثر - يقول : فرصدته ، فجاء ، فجعل يحثو من الطعام ، فقلت : لأرفعنك إلى رسول الله ﷺ فاشتكى شكايته الأولى أنه محتاج وذو عيال فرحمه ﷺ ، وإنما رحمه مع أن الرسول ﷺ قال : «كذبك » ؛ لأن أبا هريرة يعلم حِلم النبي ﷺ وسَعَة صدره ، وأنه لن يُؤنِّبه وفعلًا لم يُؤنبه ، فلما أصبح وجاء إلى النبي ﷺ وأخبره ، قال : إنه كذبك وسيعود ، في المرة الثالثة جعل يترقبه ، وجاء يأكل من الطعام ، فقلت : لأرفعن أمرك إلى النبي ﷺ في هذه المرة ، لأنك قلت : لن تعود ثلاث مرات وعدتَ ، فقال : دعني وإني أعلمك كلمات ينفعك الله بهن ، قال : وما هُنَّ ، قال : آية الكرسي : ﴿ ٱللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ٱلۡحَيُّ ٱلۡقَيُّومُ﴾ إذا أويت إلى فراشك للنوم فاقرأها ، فإنَّه لا يزال عليك من الله حافظ ، فلا يقربك شيطان حتى تصبح ، فلما أصبح غدا إلى النبي ﷺ وقال له الخبر ، فقال : «إنه صدقك وهو كذوب » - يعني ، هذه المرة ما قاله لك صادق فيه وهو كذوب - أتدري من تخاطب منذ ثلاث ليال ؟! قلت : يا رسول الله لا أعلم . قال : «ذاك شيطان مُتَلَبِّس في صورة آدمي » .

وفي هذا الحديث فوائد كثيرة ، ولكننا نعود لشرح آية الكرسي ؛ حيث وقفنا عند قوله تعالى : ﴿ لَا تَأۡخُذُهُۥ سِنَةٞ وَلَا نَوۡمٞۚ﴾ والسنة : النعاس ، والنوم معروف ﴿ لَّهُۥ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِي ٱلۡأَرۡضِۗ﴾ هذه جملة تفيد عموم ملك الله ﷻ وأنه منفرد بالملك ﷻ ﴿ لَّهُۥ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِي ٱلۡأَرۡضِۗ﴾ والدليل على عموم ملكه أن (ما) في قوله : ﴿ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ﴾ اسم موصول - يعني له الذي - واسم الموصول يفيد العموم ، والدليل على انفراده بالملك : أنه قُدِّم فيها الخبر ﴿ لَّهُۥ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ﴾ ، وتقديم الخبر يدل على الحصر ، فلا أحد يملك شيئًا في السموات ، ولا في الأرض إلا الله ، وما يملكه الإنسان من ثياب وعقارات ونحو ذلك مُلك مُقيَّد ، لا يستطيع أن يتصرف فيه كيف يشاء لو أراد إنسان أن يحرق ثوبه مُنع ، إذًا فملكي الذي هو ملكي لست حرًا في تصرفي فيه إلا على حسب الشرع ، ولهذا لا يجوز لنا أن نُرابي في أموالنا ، مع أنه ربما يكون الذي أعطى الربا موافقًا راضيًا ، لكن لا يجوز ، لأننا لسنا أحرارًا في أملاكنا لا نملكها إلا ملكًا مقيدًا ، الملك التام المطلق الذي يفعل فيه المالك ما يشاء

هو ملك الله ﷻ ﴿ لَّهُۥ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ ﴾ .

﴿ مَن ذَا ٱلَّذِى يَشْفَعُ عِندَهُۥٓ إِلَّا بِإِذْنِهِۦ ﴾ ﴿ مَن ﴾ : اسم استفهام بمعنى النفي يعني : لا أحد يشفع عند الله إلا بإذن الله ، والشفاعة معروفة وهي : التوسط للغير لجلب منفعة أو لدفع مضرة ، ومن المعلوم أن ملوك الدنيا مهما عظم ملكهم فإن الإنسان يشفع عندهم بدون أي استئذان ، حتى إن الـمُلْك الكبير الملك تشفع عنده زوجته ولا تستأذن منه ، لكن الله ﷻ لا أحد يشفع عنده إلا بإذنه ، فأكرم عباده عنده لا يشفع إلا بإذن الله ، وهذا دليل على كمال سلطانه ﷻ وأنه من كمال سلطانه لا أحد يستطيع أن يتكلم عنده ولا بالشفاعة التي هي خير إلا بإذنه ، من أكرم الخلق من بني آدم عند الله ؟ .

إنه « محمد ﷺ » ويوم القيامة لا يمكن أن يشفع إلا بعد أن يستأذن من الله ثم يسجد سجودًا طويلًا يفتح الله عليه من المحامد ما لم يفتحه عليه من قبل ثم يشفع ، ومن دونه من باب أولى ، لا أحد يشفع إلا بإذن الله لماذا ؟

لكمال ملكه وسلطانه ﷻ .

﴿ يَعْلَمُ مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُمْ ﴾ يعلم الله ﷻ ﴿ مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ ﴾ كل الأمور المستقبلة ﴿ وَمَا خَلْفَهُمْ ﴾ كل الأمور الماضية ، وهذا دليل على كمال علمه ﷻ وأنه محيط بكل شيء : ماضيًا وحاضرًا ومستقبلًا .

فما بين يديك : ما تستقبله ولو بلحظة ، وما خلفك : ما خلفته ولو بلحظة ، فمثلًا : لأن كلامنا اليوم بعد صلاة العصر من بين أيدينا أم من خلفنا ؟ من خلفنا ، كلماتي الآن أنا أقول الآن وما بعد الآن مستقبل ، والآن حاضر فالله ﷻ يعلم كل ما يكون بين أيدينا الحاضر والمستقبل وما خلفنا .

وهذا يدل على كمال علمه - جلّ وعلا - لأن علم غيره ناقص .

أولًا : نجهل كثيرًا من الأمور ثم يتجدد لنا العلم .

ثانيًا : إذا علمنا شيئًا فهناك آفة لعلمنا وهي النسيان ، أما علم الله ﷻ فليس فيه نسيان ولا جهل سابق ، كما قال موسى عليه السلام لما قال له فرعون : ﴿ فَمَا بَالُ ٱلْقُرُونِ ٱلْأُولَىٰ ۝٥١ قَالَ عِلْمُهَا عِندَ رَبِّى فِى كِتَٰبٍ لَّا يَضِلُّ رَبِّى وَلَا يَنسَى ﴾ (١) [طه : ٥١، ٥٢] .

﴿ لَّا يَضِلُّ ﴾ : يعني لا يجهل ، ﴿ وَلَا يَنسَى ﴾ : ما مضى فعلمنا نحن محفوف بآفتين : آفة سابقة وهي الجهل ، وآفة لاحقة وهي النسيان ، وعلم الله ﷻ خالٍ من ذلك كله (٢) .

---

(١) قوله : ﴿ فَمَا بَالُ ٱلْقُرُونِ ٱلْأُولَىٰ ﴾ أي ما حال الأمم الخالية التي عبدت غير ما تدعو لعبادته .

(٢) بعد هذا الكلام قام الشارح رحمه الله بذكر الحديث (١٠١٩ ، ١٠٢٠) مرة أخرى وبنفس المعنى ، وقد آثرنا أن نتابع الشرح بما لا يخل أو يوضح أن هناك تكرارًا ، وحتى تكون الفائدة .

وقوله تعالى : ﴿ وَلَا يُحِيطُونَ بِشَيْءٍ مِّنْ عِلْمِهِۦٓ إِلَّا بِمَا شَآءَ ﴾ يعني : أن الخلق لا يحيطون بشيء من علمه إلا بما شاء ، والعلم هنا بمعنى المعلوم يعني : أننا لا نحيط بشيء مما يعلمه الله إلا بما شاء الله ﷻ وهذا كقوله : ﴿ عَٰلِمُ ٱلْغَيْبِ فَلَا يُظْهِرُ عَلَىٰ غَيْبِهِۦٓ أَحَدًا ۝ إِلَّا مَنِ ٱرْتَضَىٰ مِن رَّسُولٍ فَإِنَّهُۥ يَسْلُكُ مِنۢ بَيْنِ يَدَيْهِ وَمِنْ خَلْفِهِۦ رَصَدًا ﴾ .

كذلك أيضًا لا نحيط بشيء من علمه - أي من علم ذاته وصفاته - إلا بما شاء . فلا نعلم ما يتعلق بذات الله وأسمائه وصفاته إلا بما شاء .

ولهذا قال العلماء رحمهم الله : إن الأسماء والصفات توقيفية ، بمعنى أنه يتوقف إثباتها أو نفيها على ما جاء به الشرع ؛ لأننا لا نعلم من صفات ربنا إلا ما علّمنا ولا من أسمائه إلا ما علّمنا ولا من ذاته إلا ما علّمنا ﷻ .

وفي هذه الجملة دليل على افتقار الإنسان إلى علم الله ﷻ وأنه ينبغي للإنسان أن يسأل الله تعالى أن يعلمه ما لم يكن يعلم مما فيه مصلحة دينه ودنياه : ﴿ وَسِعَ كُرْسِيُّهُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ ﴾ .

الكرسي : قال ابن عباس ﷺ : هو موضع قدمي الله ﷻ وهو دون العرش ، والعرش أعظم منه ، وفي الحديث عن النبي ﷺ أنه قال : « ما السماوات السبع والأرضون السبع في الكرسي إلا كحلقة ألقيت في فلاة من الأرض ، وإن فضل العرش على الكرسي كفضل الفلاة على هذه الحلقة » .

العرش أعظم بكثير من الكرسي ، وخالق العرش - جل وعلا - أعظم وأعظم - سبحانه وتعالى - فإذا كان هذا شأن الكرسي أنه واسع ومحيط بالسماوات والأرض ، فالعرش أعظم ، والربُّ أعظم من كل شيء .

﴿ وَلَا يَـُٔودُهُۥ حِفْظُهُمَا ﴾ يعني : لا يثقل ويعجز الله ﷻ أن يحفظ السماوات والأرض على ما فيهما من الخلائق وعلى كبرهما واتساعهما وعلى علوه ﷻ فوق كل شيء ، فهو لا يغيب عنه شيء ، لا يثقله أن يحفظ السماوات والأرض ، ولا يثقله أن يحفظ ما في السماوات والأرض ﴿ لَهُۥ مُعَقِّبَٰتٌ مِّنۢ بَيْنِ يَدَيْهِ وَمِنْ خَلْفِهِۦ يَحْفَظُونَهُۥ مِنْ أَمْرِ ٱللَّهِ ﴾ ﴿ فَٱللَّهُ خَيْرٌ حَٰفِظًا وَهُوَ أَرْحَمُ ٱلرَّٰحِمِينَ ﴾ فالله ﷻ مع علوه فوق كل شيء ﴿ وَلَا يَـُٔودُهُۥ ﴾ أي : لا يثقله أن يحفظ السماوات والأرض .

﴿ وَهُوَ ٱلْعَلِيُّ ٱلْعَظِيمُ ﴾ وهو العلي - جل وعلا - فوق كل شيء ، وهو العظيم على كل شيء .

قال بعض أهل العلم والعلو نوعان : علو ذاته وعلو صفاته ، فصفاته فوق كل شيء ، والعظيم يعني ذو العظمة والعزة والكبرياء والجلال .

وبهذه المعاني القليلة بالنسبة لهذه الآية العظيمة يتبين أنها أعظم آية في كتاب الله . والله الموفق .

[ونعود بعد ذلك إلى حديث أبي هريرة ﷺ مع أسيره] فإذا الوحي قد جاء النبي ﷺ من الله ﷻ في هذه القصة ، فقال له أي لأبي هريرة : « ما فعل أسيرك البارحة ؟ » يعني : الذي أمسكته فقال : يا رسول الله إنه ادَّعى أنه ذو حاجة وذو عيال فرحمته وأطلقته ، قال : « أما إنه كذبك وسيعود » يقول : فعلمت أن هذا الشخص سيعود لقول النبي ﷺ فرصده يعني ترصد له في الليلة الثانية فجاءه وفعل كالليلة الأولى واعتذر بما اعتذر به في الليلة الأولى ، فرحمه أبو هريرة وأطلقه ، ثم أخبر النبي ﷺ فقال : « إنه كذبك وسيعود » ، فعاد في المرة الثالثة ، ولكن أبا هريرة أمسكه وقال : لابد أن أرفعك إلى النبي ﷺ فقال : إني أعلمك كلمات ينفعك الله بهن ، قلت : وما هُنّ ؟ قال : آية الكرسي ، فقال النبي ﷺ : « أما إنه صدقك وهو كذوب » أي : أخبرك بالصدق مع أنه كذوب غرور كذب على أبينا آدم ، وقال له وهو في الجنة - ﴿ هَلْ أَدُلُّكَ عَلَىٰ شَجَرَةِ ٱلْخُلْدِ وَمُلْكٍ لَّا يَبْلَىٰ ﴾ (١) [طه : ١٢٠] الشجرة هذه شجرة قال الله لآدم وحواء : ﴿ فَكُلَا مِنْ حَيْثُ شِئْتُمَا وَلَا تَقْرَبَا هَٰذِهِ ٱلشَّجَرَةَ ﴾ [الأعراف : ١٩] فجاء الشيطان إلى آدم وحواء وغرَّهما وأقسم لهما أنه ناصح ، وهو كاذب غاشٌ ، فهو كذوب .

وأقره ﷺ أن من قرأ هذه الآية (آية الكرسي) لم يزل عليه حافظ ولا يقربه شيطان حتى يصبح .

هذه القصة فيها فوائد :

١ - أنه لا بأس أن يخرج الناس صدقات الفطر إلى ولي الأمر - السلطان أو نائبه - فلو شكّلت لجنة تجمع زكاة الفطر من الناس ؛ فإن الإنسان إذا دفع المال إلى هذه اللجنة برئت ذمته .

٢ - جواز تصرف الوكيل فيما وكّل فيه إذا وافق على ذلك الموكّل ؛ لأن أبا هريرة تصرَّف هذا التصرف وأعطى هذا الرجل أو الشخص - أقول الرجل أو الشخص - لأن الجن يسمون رجالًا قال تعالى : ﴿ وَأَنَّهُۥ كَانَ رِجَالٌ مِّنَ ٱلْإِنسِ يَعُوذُونَ بِرِجَالٍ مِّنَ ٱلْجِنِّ فَزَادُوهُمْ رَهَقًا ﴾ (٢) [الجن : ٦] .

٣ - أن الشيطان قد يتمثل بصورة الإنسان ، ويتمثل بصورة الكلاب ، حتى قال بعض العلماء في قول الرسول ﷺ : « الكلب الأسود شيطان » (٣) أي : أن الشياطين تتمثل فتكون كلابًا سوداء . ولكن الصحيح أن معنى الحديث : أن الكلب الأسود شيطان - يعني هو شيطان الكلاب - وأخبثها وأشدها ضررًا وتمردًا وتتمثل الشياطين بالحيوانات في القط . وتتمثل أيضًا بالحية كما في الحديث الصحيح : أن رجلًا من الأنصار شابًا تزوج حديثًا فلما جاء إلى بيته وجد زوجته على الباب فسألها لماذا ؟! قالت : ادخل ، فلما دخل وجد على الفراش حيَّة ، فأخذ الرمح فوخزها فماتت ، ولما ماتت

---

(١) قوله تعالى : ﴿ لَّا يَبْلَىٰ ﴾ أي لا يزول ولا يضنى .

(٢) قوله تعالى : ﴿ يَعُوذُونَ ﴾ أي يستعيذون برجال من الجن حين ينزلون في أسفارهم بمكان موحش فيقول قائلهم : أعوذ بسيد هذا الوادي من شر سفهاء قومه ، فيبيت في جواره حتى يصبح ، وأول من فعل ذلك قوم من أهل اليمن ثم بنو حنيفة .

(٣) أخرجه مسلم في الصلاة (٢٦٥) ، والترمذي في السنن (٣٣٨) ، وأحمد في مسنده (١٥١/٥) .

مات هو في الحال [١] . فلا يدرى أيهما أسرع موتًا : الحية أم هذا الرجل ؟! لأن الحية هذه صارت جنِّية ، فلما قتلها قتله أهلها في الحال ! .

ولهذا نهى النبي ﷺ عن قتل الحيَّات التي في البيوت [٢] ، فلا يجوز للإنسان أن يقتل الحية إذا رآها في بيته ، ولكن حَرِّج عليها ثلاثة أيام : قل لها : أنت مني في حرج ، لا تقعدي في بيتي إذا جاءت بعد الثالثة اقتلها [٣] ؛ لأنها إن كانت جنيَّة فهي إذا حُرِّجت لا تأتي ، وإن كانت غير ذلك فإنها لا تدري فتأتي بعد الثالثة وحينئذٍ تُقتل ، إلا أن الرسول ﷺ استثنى نوعين من هذه الدَّواب تُقتل ولو في البيوت وهما : الأبتر وذو الطُّفيتين [٤] ، والأبتر قصير الذنب وهو نوع من الحيَّات ، فهو يقتل ولو في البيت . وذو الطُّفيتين : يقول العلماء : إنهما خطَّان أبيضان على ظهر الحيَّة ، هذه تقتل ولو في البيوت ؛ لأنهما كما قال النبي ﷺ : يخطفان البصر من شدة قبحهما ، ويدفعان ما في بطون النساء من حمل ؛ فلهذا أمر النبي ﷺ بقتل هذين النوعين ولو في البيوت ، والشاهد من هذا أن الشيطان والجن يتصوران بصور غير صورها الأصلية .

٤ - أنه يجوز تقديم زكاة الفطر قبل العيد ولو بأكثر من يومين إذا كانت تدفع إلى ولي الأمر ، وولي الأمر يجب عليه ألا يخرجها إلا في وقتها .

٥ - آية من آيات الرسول ﷺ وهو علمه بما جرى مع أنه لم يطَّلع - لكن جاءه الوحي من الله ﷻ .

٦ - ينبغي للإنسان كلما جاء إلى فراشه للنوم أن يقرأ آية الكرسي من أولها إلى آخرها ، وليس منها قوله تعالى : ﴿ لَآ إِكۡرَاهَ فِي ٱلدِّينِۖ ﴾ [البقرة : ٢٥٦] هذه آية خارجة عنها ، آخر آية الكرسي : ﴿وَهُوَ ٱلۡعَلِيُّ ٱلۡعَظِيمُ ﴾ فتقرأها كلما أويت إلى فراشك حتى لا يقربك الشيطان ولم يزل عليه من الله حافظ ، وحدثني جدُّ هذا الرجل الذي يتولَّى الأذان معنا الآن أنه كان يقرأها كل ليلة وأنه نسيها ليلة من الليالي فلدغته عقرب ، لأن الرسول ﷺ قال : « لم يزل عليه من الله حافظ » وهو نسي أن يقرأها فلم يوجد الحافظ ، فإذن احرص على قراءتها كل ليلة وخصوصًا إذا أويت إلى فراشك .

---

(١) انظر الحديث وقصته في : مسلم في السلام (١٣٩) ، ومالك في الموطأ (٩٧٦/٢) ، والبغوي في شرح السنة (١٩٤/١٢) .

(٢) حديث النهي عن قتل الحيات : أخرجه الترمذي في الصيد (١٥) ، أحمد في مسنده (٤٣٠/٣) ، والهيثمي في مجمع الزوائد (٢٠٧/٥) .

(٣) انظر في ذلك : الترمذي في الأحكام (١٤٨٥) ، والبغوي في شرح السنة (١٩٤/١٢) ، وأبو داود في الأدب (٥٢٦٠) .

(٤) انظر الحديث في : البخاري في بدء الخلق (٣٢٩٧) ، ومسلم في السلام (١٢٧) ، وأحمد في مسنده (١٢١/٢) .

٧ - قبول الحق - ولو جاء من أي إنسان - حتى ولو كان شيطانًا ، أو مشركًا ، حتى لو كان يهوديًا أو نصرانيًا ، فإن الله قبل الحق من المشركين ، والنبي ﷺ قبل الحق من اليهودي ، وأقر الحق من الشيطان كما في هذا الحديث ، أما قبول الله من المشركين : ﴿ وَإِذَا فَعَلُوا۟ فَٰحِشَةً قَالُوا۟ وَجَدْنَا عَلَيْهَآ ءَابَآءَنَا وَٱللَّهُ أَمَرَنَا بِهَا ﴾ [١] [الأعراف : ٢٨] فتعللوا بعلتين : أنهما وجدوا عليها أباءهم والثانية : أن الله أمرهم بها فقال الله تعالى : ﴿ قُلْ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَأْمُرُ بِٱلْفَحْشَآءِ ﴾ [الأعراف : ٢٨] وسكت عن قولهم : ﴿ وَجَدْنَا عَلَيْهَآ ءَابَآءَنَا ﴾ ، لأنه حق صحيح .

وأما قبول النبي ﷺ من اليهودي : فإنه جاءه حبر من أحبار اليهود قال : إنا نجد أن الله يجعل السموات على إصبع ، والأراضين على إصبع والشجر على إصبع ، وذكر تمام الحديث ، فضحك النبي ﷺ حتى بدت نواجذه تصديقًا لقول هذا اليهودي الحبر ، ثم قرأ ﴿ وَمَا قَدَرُوا۟ ٱللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِۦ وَٱلْأَرْضُ جَمِيعًا قَبْضَتُهُۥ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ وَٱلسَّمَٰوَٰتُ مَطْوِيَّٰتٌۢ بِيَمِينِهِۦ ۚ سُبْحَٰنَهُۥ وَتَعَٰلَىٰ عَمَّا يُشْرِكُونَ ﴾ [٢] [٣] [الزمر : ٦٧] وأقر الحق الذي قال به الشيطان كما في هذا الحديث ، فعليك أن تقبل الحق من أي إنسان ، وأن ترد الباطل من أي إنسان ، ولهذا كان من الكلمات المأثورة عند العلماء : الرجال يعرفون بالحق ، والحق لا يعرف بالرجال . يعني : لا تجعل مدار قبولك الحق على الرجل ، وصحيح أن العالم أقرب إلى الصواب ولكن قد يخطئ وقد يصيب . والله الموفق .

* * *

١٠٢١ - وعن أبي الدَّرْدَاءِ رضي الله عنه أَنَّ رسول الله ﷺ قال : « مَنْ حَفِظَ عَشْرَ آيَاتٍ مِن أَوَّلِ سُورَةِ الكَهْفِ ، عُصِمَ منَ الدَّجَّال » . وفي رواية : « مِنْ آخِرِ سُورَةِ الكهْف » [٤] رواهما مسلم .

١٠٢٢ - وَعَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ رضي الله عنهما قَالَ : بَيْنَمَا جِبْرِيلُ عليه السلام قاعِدٌ عِندَ النَّبيِّ ﷺ سَمِعَ نَقِيضًا مِنْ فَوقِهِ ، فَرَفَعَ رَأْسَه فَقَالَ : هذا بَابٌ مِنَ السَّمَاءِ فُتِحَ اليَومَ ، وَلَمْ يُفْتَح قَطُّ إلا اليَومَ ، فَنَزَلَ مِنه مَلَكٌ فقالَ : هذا مَلَكٌ نَزَلَ إلى الأرْض لم ينزِلْ قَطُّ إلا اليَومَ ، فَسَلَّمَ وقال : « أَبشِرْ بِنورَين أُوتِيتَهُمَا ، لَمْ يُؤتهمَا نَبِيٌّ قبلَكَ : فَاتحَةِ الكِتَابِ ، وخَوَاتِيم سُورَةِ البَقَرةِ ، لَن تقرَأَ بَحرفٍ منها إلا أُعْطِيتَه » [٥] رواه مسلم .

---

(١) قوله ﷻ : ﴿ فَٰحِشَةً ﴾ أي فعلة متناهية في القبح كالشرك وغيره .

(٢) قوله ﷻ : ﴿ وَمَا قَدَرُوا۟ ﴾ أي ما عظموا الله تعالى حق تعظيمه ، وقوله ﷻ : ﴿ وَٱلْأَرْضُ جَمِيعًا قَبْضَتُهُۥ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ ﴾ بيان لعظيم قدرته تعالى وأنه المتولي لإبقاء السماوات والأرض في الدنيا وهو المتولي لتخريبها يوم القيامة .

(٣) أخرجه البخاري في التوحيد (٥٤٧١) ، ومسلم في المنافقين (١٩) .

(٤) أخرجه مسلم في صلاة المسافرين وقصرها (٢٥٧) .

(٥) أخرجه مسلم في صلاة المسافرين وقصرها (٢٥٤) ، قوله « نقيضًا » أي صوتًا كصوت الباب إذا فتح .

الشرح

ذكر المؤلف - رحمه اللَّه تعالى - في سياق الأحاديث في باب الحث على آيات وسور معينة من كتاب اللَّه ما يتعلق بسورة الكهف ، وما يتعلق بفاتحة الكتاب ، وآخر سورة البقرة .

أما الأول : فإن النبي ﷺ أخبر أنه من حفظ عشر آيات من أول سورة الكهف أو من آخرها عُصِم من الدَّجَّال ، والدجال رجل كافر يُبعث في آخر الزمان يدَّعي النبوة أولًا ثم يدعي أنه إله - والعياذ باللَّه - وفتنته أعظم فتنة تكون على الأرض منذ خلق آدم إلى قيام الساعة ، كما أخبر بذلك النبي ﷺ ، وقال : « إن خرج وأنا فيكم فأنا حجيجه دونكم ، وإلا فاللَّه خليفتي على كل مسلم »[1] وقد حذَّر النبي ﷺ من فتنته ، وما من نبي من الأنبياء إلا أنذر قومه حتى يستعدَّ بنو آدم لهذه الفتنة العظيمة ، وإن كان من المعلوم أنه لا يأتي إلا في آخر الزمان ، لكن لأجل التنبيه لعظم فتنته وأنها كبيرةٌ عظيمة ، لا ينجو منها إلا من أنجاه اللَّه ﷻ .

فهذا الدَّجَّال يجعل اللَّه على يديه آيات خوارق فتنة للناس : منها أنه يأمر السماء فتمطر ويأمر الأرض فتنبت ، فيأتي إلى القوم ليس في أرضهم رعي ومواشيهم ضعاف عجاف فيدعوهم ، ويمنيهم ، فيتبعونه ، فيأمر السماء فتمطر ، ويأمر الأرض فتنبت ، ثم تروح عليهم مواشيهم وهي أغزر ما تكون لبنًا وأوفر ما تكون لحمًا ، ثم يأتي إلى آخرين فيدعوهم ، ولكنهم ينكرونه فيصبحون مقفرين ليس في أرضهم نبات ، هل تجدون أعظم من هذه الفتنة ؟! لا سيما في البادية ، فيتبعه أناس كثيرون فمن تبعه أدخله جنته ، ومن أنكره أدخله ناره[2] ، وهي جنة فيما يبدو للناس لكنها نار - والعياذ باللَّه - وناره نار فيما يبدو للناس لكنها جنة وماء عذب ، ولكن الناس ليس لهم إلا الظاهر ، إلا أن اللَّه سبحانه وتعالى بيَّن لنا آياته : أنه كاذب بما أخبرنا به ﷺ من أن هذا الرجل مكتوب بين عينيه كافر يقرأها كل مؤمن[3] - حتى الذي لا يستطيع القراءة - ويعمى عنه كل منافق ، كما أن الإنسان في القبر - إذا كان مؤمنًا - أجاب بالصواب وقال : ربي اللَّه وديني الإسلام ونبيي محمد ، وإذا كان منافقًا - ولو كان قارئًا - لم يجب[4] - والعياذ باللَّه - وأعطانا نبينا ﷺ آية أيضًا بيِّنة وهي أنه أعور ليس له إلا عين واحدة وربنا - جل وعلا - ليس بأعور ، منزه عن كل عيب ونقص ، فمن وُفِّق سَلِمَ من فتنته ونجا ، يبقى هذا الدجال الخبيث في الأرض أربعين يومًا أول يوم كسَنَة - يعني اثني عشر شهرًا - واليوم الثاني كشهر - ثلاثون يومًا - والثالث كالأسبوع - سبعة أيام - وبقية الأيام كأيامنا ، يبقى

---

(١) أخرجه مسلم في الفتن (١١٠) ، وأبو داود في الملاحم (٤٣٢١) ، وأحمد في مسنده (٤/١٨١) .

(٢) انظر فتنة الدجال وأخباره في : البخاري في الأنبياء (٣٤٥٠) ، والفتن (٧١٢٢ - ٧١٣٢) ، ومسلم في الفتن (١٠٥ - ١٠٨) ، وأبو داود في الملاحم (٤٣٢١) ، وأحمد في مسنده (١١٨ ، ٣١٣ ، ٣٢٧) .

(٣) الحديث أخرجه مسلم في الفتن (٩٥) ، وأحمد في مسنده (٥/٤٣٣) .

(٤) انظر البخاري في الجنائز (١٣٧٤) ، ومسلم في الجنة وصفة نعيمها (٧٠) .

هذه المدة ثم ينزل عيسى بن مريم عليه السلام فيقتل هذا الدَّجالَ [١] ، المسيح الصادق النبي الطاهر يقتله ، يسلطه الله عز وجل عليه فيقتله ، ومن أجل عظم فتنته أمرنا رسول الله ﷺ أن نستعيذ منه في كل صلاة فقال : « إذا تشهَّد أحدكم فليقل : أعوذ بالله من عذاب جهنم ، ومن عذاب القبر ، ومن فتنة المحيا والممات ، ومن فتنة المسيح الدجال » [٢] ؛ لأن فتنته عظيمة ، فينبغي لنا أن نستعيذ بالله عز وجل بقلب صادق من فتنة هذا المسيح الدجال ، ثم إنه أيضًا من أسباب الوقاية من فتنته : أن من حفظ عشر آيات من سورة الكهف من أولها أو آخرها وقرأهن عليه عُصِم من فتنته .

ومن السور المعينة والآيات المعينة سورة الفاتحة ، وآيتان من آخر سورة البقرة ؛ فإنهما ما قرأهما واحد من هذه الأمة مؤمنًا موقنًا إلا أتاه الله تعالى ما فيهما من الطلب ، وفي سورة الفاتحة : ﴿ ٱهْدِنَا ٱلصِّرَٰطَ ٱلْمُسْتَقِيمَ ۝ صِرَٰطَ ٱلَّذِينَ أَنْعَمْتَ عَلَيْهِمْ غَيْرِ ٱلْمَغْضُوبِ عَلَيْهِمْ وَلَا ٱلضَّآلِّينَ ﴾ [الفاتحة : ٦، ٧] قال الله تعالى لعبده إذا قرأها في الصلاة : هذا لعبدي ولعبدي ما سأل [٣] . وأما آخر سورة البقرة : ﴿ لَا يُكَلِّفُ ٱللَّهُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا ۚ لَهَا مَا كَسَبَتْ وَعَلَيْهَا مَا ٱكْتَسَبَتْ ۗ رَبَّنَا لَا تُؤَاخِذْنَآ إِن نَّسِينَآ أَوْ أَخْطَأْنَا ۚ رَبَّنَا وَلَا تَحْمِلْ عَلَيْنَآ إِصْرًا كَمَا حَمَلْتَهُۥ عَلَى ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِنَا ۚ رَبَّنَا وَلَا تُحَمِّلْنَا مَا لَا طَاقَةَ لَنَا بِهِۦ ۖ وَٱعْفُ عَنَّا وَٱغْفِرْ لَنَا وَٱرْحَمْنَآ ۚ أَنتَ مَوْلَىٰنَا فَٱنصُرْنَا عَلَى ٱلْقَوْمِ ٱلْكَٰفِرِينَ ﴾ [البقرة : ٢٨٦] سبع جمل دعائية ما يدعو بهن مؤمن موقنًا مؤمنًا إلا استجاب الله له ، وهذه ميزة وفضل عظيم - نسأل الله تعالى أن يعفو عنا وعنكم ، وأن ينصرنا على القوم الكافرين .

* * *

١٨٤ - باب استحباب الاجتماع على القراءة

١٠٢٣ - وَعَنْ أبي هُرَيرَةَ رضي الله عنه قَالَ : قَالَ رسول الله ﷺ : « وَمَا اجْتَمَعَ قَومٌ في بَيتٍ من بُيوتِ اللّهِ يَتْلُونَ كتَابَ اللّهِ ، وَيَتَدَارَسُونَه بَينَهُمْ ؛ إلا نَزَلَتْ عَلَيهِم السَّكِينَة ، وغَشِيَتْهُمُ الرَّحْمَة ، وَحَفَّتْهُم المَلائِكَة ، وَذَكَرهُم اللّه فِيمَنْ عِندَه » [٤] رواه مسلم .

الشرح

قال المؤلف النووي رحمه الله في : باب استحباب الاجتماع على تلاوة القرآن : يعني بذلك أنه من المستحب أن يجتمع الناس على تلاوة القرآن كما يوجد الآن في حلقات تحفيظ القرآن في المساجد ،

---

(١) الحديث أخرجه أحمد في مسنده (٤٥٤/٦) .

(٢) أخرجه الحاكم في المستدرك (٢٦٩/١) ، والبيهقي في السنن (٣٧٩/٢) .

(٣) الحديث أخرجه مسلم في الصلاة (٣٨) .

(٤) أخرجه مسلم في الذكر والدعاء والتوبة (٣٨) ، وأبو داود في الصلاة (١٤٥٥) .

فإن اجتماعهم لتعلم القرآن ، وتعليمه مما نَدَب إليه النبي ﷺ ، وذلك فيما رواه أبو هريرة عنه ﷺ أنه قال : « وما اجتمع قوم في بيت من بيوت اللَّه يتلون كتاب اللَّه ، ويتدارسونه بينهم ؛ إلا نزلت عليهم السكينة ، وغشيتهم الرحمة ، وحفتهم الملائكة ، وذكرهم اللَّه فيمن عنده » هذه أربعة أشياء تترتب على هذا الاجتماع بقوله ﷺ : « ما اجتمع قوم في بيت من بيوت اللَّه » وبيوت اللَّه في الأرض المساجد ، قال اللَّه تعالى : ﴿فِي بُيُوتٍ أَذِنَ ٱللَّهُ أَن تُرْفَعَ وَيُذْكَرَ فِيهَا ٱسْمُهُۥ يُسَبِّحُ لَهُۥ فِيهَا بِٱلْغُدُوِّ وَٱلْآصَالِ ۝ رِجَالٌ لَّا تُلْهِيهِمْ تِجَٰرَةٌ وَلَا بَيْعٌ عَن ذِكْرِ ٱللَّهِ وَإِقَامِ ٱلصَّلَوٰةِ وَإِيتَآءِ ٱلزَّكَوٰةِ﴾ (١) وأضاف اللَّه هذه الأماكن إلى نفسه تشريفًا وتعظيمًا ، ولأنها محل ذكره ، وتلاوة كلامه ، والتقرب إليه بالصلاة ، وإلا فهو ﷻ فوق عرشه فوق سماواته لا يحل في شيء من خلقه ولا يحل فيه شيء من خلقه – جل وعلا – لكن هذه الإضافة للتشريف ، وقد قال العلماء – رحمهم اللَّه – : الإضافة إلى اللَّه نوعان : صفة لا تقوم إلا بمحل ؛ فهذه تكون من صفات اللَّه ﷻ مثل : عزة اللَّه ، قدرة اللَّه ، كلام اللَّه ، سمع اللَّه ، بصر اللَّه ، هذه صفة لا تقوم إلا بموصوف فتكون من صفات اللَّه ﷻ .

الثاني : شيء بائن من اللَّه ﷻ مخلوق ؛ فهذا ليس من صفات اللَّه ، وإنما هو مُضَاف إليه ﷻ على سبيل التشريف والتكريم مثل : مساجد اللَّه ، بيوت اللَّه ، ناقة اللَّه ، ومثل قوله تعالى في آدم : ﴿وَنَفَخْتُ فِيهِ مِن رُّوحِي﴾ [ص: ٧٢] ، كذلك في عيسى ابن مريم ، فإن الروح شيء بائن من اللَّه تعالى مخلوق من مخلوقاته ، لكن أضيف إليه على سبيل التشريف والتكريم ، وقوله ﷺ : « يتلون كتاب اللَّه » . تلاوة كتاب اللَّه – ﷻ تنقسم إلى ثلاثة أقسام :

١ – تلاوة اللفظ . ٢ – تلاوة المعنى . ٣ – تلاوة العمل .

أما تلاوة اللفظ : فمعروف ؛ يقرأ هذا ، وهذا ، وهذا ، وهي على نوعين :

١ – أن يقرأ القارئ صفحة أو صفحتين ثم يتابع الباقون يقرؤون نفس ما قرأ ، وهذا غالبًا يكون في التعليم .

٢ – أن يقرأ القارئ صفحة ، أو صفحتين ثم يقرأ الثاني بعده صفحة أو صفحتين غير ما قرأهما الأول ، وهلم جرًّا .

فإن قال قائل : هذا النوع الثاني يفوت فيه ثواب بعضهم ، لأن ما قرأه هذا غير ما قرأه ذاك . فيقال: لا يفوته شيء ، لأن المستمع كالقارئ له ثوابه ، ودليل ذلك قول اللَّه تبارك وتعالى في سورة يونس في قصة موسى ؑ حين دعا على آل فرعون ﴿رَبَّنَا ٱطْمِسْ عَلَىٰٓ أَمْوَٰلِهِمْ وَٱشْدُدْ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ فَلَا

---

(١) قوله تعالى : ﴿تُرْفَعَ﴾ أي أمر أن يعظم قدرها بصيانتها عن دخول الجنب والحائض وعن تلويثها وإدخال نجاسات فيها . وقوله تعالى : ﴿يُسَبِّحُ﴾ أي ينزهه تعالى فيها ويقدسه عما لا يليق به في ذاته وصفاته . وقوله تعالى : ﴿بِٱلْغُدُوِّ﴾ هو من طلوع الفجر إلى طلوع الشمس . وقوله تعالى : ﴿وَٱلْآصَالِ﴾ هو ما بين العصر وتروحة الشمس .

﴿يُؤْمِنُواْ حَتَّىٰ يَرَوُاْ ٱلْعَذَابَ ٱلْأَلِيمَ﴾ (١) [يونس: ٨٨] القائل هو موسى كما في أول الآية: ﴿وَقَالَ مُوسَىٰ رَبَّنَآ إِنَّكَ ءَاتَيْتَ فِرْعَوْنَ وَمَلَأَهُۥ ...﴾ [يونس: ٨٨] قال الله تعالى: ﴿قَدْ أُجِيبَت دَّعْوَتُكُمَا فَٱسْتَقِيمَا وَلَا تَتَّبِعَآنِّ سَبِيلَ ٱلَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ﴾ [يونس: ٨٩] الداعي واحد، لكن قال العلماء: إن هارون كان يستمع ويؤمن على دعائه (٢)، فكان الدعاء لهما جميعًا.

أما التلاوة المعنوية: فأن يتدارس هؤلاء القوم كلام الله ﷻ ويتفهموا معناه، وقد كان السلف الصالح لا يقرؤون عشر آيات حتى يتفهموها وما فيها من العلم والعمل.

أما القسم الثالث من التلاوة: فهي تلاوة العمل: وهذه هي المقصود الأعظم للقرآن الكريم، كما قال تعالى: ﴿كِتَٰبٌ أَنزَلْنَٰهُ إِلَيْكَ مُبَٰرَكٌ لِّيَدَّبَّرُوٓاْ ءَايَٰتِهِۦ وَلِيَتَذَكَّرَ أُوْلُواْ ٱلْأَلْبَٰبِ﴾ [ص: ٢٩] العمل بما جاء في القرآن وذلك بتصديق ما أخبر الله به، والقيام بما أمر به، والبعد عما نهى عنه، هذه التلاوة العملية لكتاب الله ﷻ يقول ﷺ: «إلا نزلت عليهم السكينة» السكينة: شيء يقذفه الله ﷻ في القلب فيطمئن، ويوقن، ويستقر، ولا يكون عنده قلق، ولا شك، ولا ارتياب، هو ذاته مطمئن، وهذه من أكبر نعم الله على العبد أن يُنزل السكينة في قلبه بحيث يكون مطمئنًا غير قلق ولا شاكٍ، راضيًا بقضاء الله وقدره، مع الله ﷻ في قضائه وقدره - إن أصابته ضراء صبر وانتظر الأجر من الله، وإن أصابته سراء شكر وحمد الله على ذلك - مطمئن، مستقر، مستريح، هذه السكينة نعمة عظيمة - نسأل الله أن ينزل في قلوبنا وقلوبكم السكينة - وقد قال الله تعالى: ﴿هُوَ ٱلَّذِيٓ أَنزَلَ ٱلسَّكِينَةَ فِي قُلُوبِ ٱلْمُؤْمِنِينَ لِيَزْدَادُوٓاْ إِيمَٰنًا مَّعَ إِيمَٰنِهِمْ﴾ (٣) [الفتح: ٤] فهي من أسباب زيادة الإيمان «وغشيتهم الرحمة» يعني: غطتهم، والغشيان بمعنى الغطاء كما قال تعالى: ﴿وَٱلَّيْلِ إِذَا يَغْشَىٰ﴾ [الليل: ١] يعني: يغطي الأرض بظلامه، غشيتهم الرحمة أي: رحمة الله ﷻ فتغشاهم وتحيط بهم، وتكون لهم بمنزلة الغطاء الشامل لكل ما يحتاجون إليه من رحمة الله ﷻ: «وحفتهم الملائكة» أي: أحاطت بهم يستمعون الذكر، ويكونون شهداء عليهم، «وذكرهم الله فيمن عنده»: يذكرهم الله تعالى في الملأ الأعلى، وهذا كقوله تعالى في الحديث القدسي: «من ذكرني في ملأ ذكرته في ملأ خير منه» (٤) وهذا الحديث يدل على فضيلة الاجتماع على كتاب الله ﷻ والله الموفق.

* * *

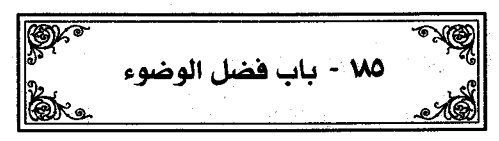
---

(١) قوله تعالى: ﴿ٱطْمِسْ﴾ أي أهلكها أو امح أثرها. وقوله تعالى: ﴿وَٱشْدُدْ﴾ أي اربط عليها وقسّها حتى لا تلين ولا تنشرح للإيمان.

(٢) هذا هو قول: عكرمة والربيع بن أنس وأبي العالية كما ذكره الطبري في تفسيره (١١/٢٠٨).

(٣) قوله تعالى: ﴿أَنزَلَ ٱلسَّكِينَةَ﴾ أي أوجد الطمأنينة والثبات، وقوله تعالى: ﴿لِيَزْدَادُوٓاْ إِيمَٰنًا﴾ أي ليزدادوا يقينًا.

(٤) أخرجه أحمد في مسنده (٢/٣٥٤).



١٨٥ - باب فضل الوضوء

قال الله تعالى : ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِذَا قُمۡتُمۡ إِلَى ٱلصَّلَوٰةِ فَٱغۡسِلُواْ وُجُوهَكُمۡ وَأَيۡدِيَكُمۡ إِلَى ٱلۡمَرَافِقِ وَٱمۡسَحُواْ بِرُءُوسِكُمۡ وَأَرۡجُلَكُمۡ إِلَى ٱلۡكَعۡبَيۡنِۚ وَإِن كُنتُمۡ جُنُبٗا فَٱطَّهَّرُواْۚ وَإِن كُنتُم مَّرۡضَىٰٓ أَوۡ عَلَىٰ سَفَرٍ أَوۡ جَآءَ أَحَدٞ مِّنكُم مِّنَ ٱلۡغَآئِطِ أَوۡ لَٰمَسۡتُمُ ٱلنِّسَآءَ فَلَمۡ تَجِدُواْ مَآءٗ فَتَيَمَّمُواْ صَعِيدٗا طَيِّبٗا فَٱمۡسَحُواْ بِوُجُوهِكُمۡ وَأَيۡدِيكُم مِّنۡهُۚ مَا يُرِيدُ ٱللَّهُ لِيَجۡعَلَ عَلَيۡكُم مِّنۡ حَرَجٖ وَلَٰكِن يُرِيدُ لِيُطَهِّرَكُمۡ وَلِيُتِمَّ نِعۡمَتَهُۥ عَلَيۡكُمۡ لَعَلَّكُمۡ تَشۡكُرُونَ ﴾ [المائدة : ٦] .

الشرح

قال النووي رَحِمَهُ ٱللَّهُ الوضوء : في اللغة العربية : مأخوذ من الوضاءة وهي الحسن والنظافة ، وأما في الشرع : فهو تطهير الأعضاء - الأربعة على صفة مخصوصة . الأعضاء الأربعة هي : الوجه واليدان والرأس والرجلان - والوضوء من نعمة الله ﷻ على هذه الأمة حيث أمرهم به ورتَّب عليه الثواب الذي سيذكر في هذا الباب إن شاء الله ، قال الله تعالى : ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِذَا قُمۡتُمۡ إِلَى ٱلصَّلَوٰةِ ﴾ الآية . ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ ﴾ : إذا سمعت الله يقول : ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ ﴾ فانتبه وأرعها سمعك ، فإما خير تُؤمر به ، وإما شر تُنهى عنه ، وإما خبر صادق تنتفع به ﴿ إِذَا قُمۡتُمۡ إِلَى ٱلصَّلَوٰةِ ﴾ أي : إذا أردتم القيام إلى الصلاة - فريضة أو نافلة - ﴿ فَٱغۡسِلُواْ وُجُوهَكُمۡ وَأَيۡدِيَكُمۡ إِلَى ٱلۡمَرَافِقِ ﴾ ﴿ فَٱغۡسِلُواْ وُجُوهَكُمۡ ﴾ : ولم يذكر الله تعالى غسل الكفين ؛ لأنه سنة وليس بواجب ، والوجه من الأذن إلى الأذن عرضًا ، ومن منحنى الجبهة إلى أسفل اللحية طولًا ، ويدخل فيه المضمضة في الفم والاستنشاق في الأنف ، ﴿ وَأَيۡدِيَكُمۡ إِلَى ٱلۡمَرَافِقِ ﴾ يعني : واغسلوا أيديكم إلى المرافق ، والمرفق هو المفصل الذي بين الذراع والعَضُد ، وهو داخل في الغسل ؛ لأن النبي ﷺ كان إذا غسل يديه أشرع في العضد [١] ، ﴿ وَٱمۡسَحُواْ بِرُءُوسِكُمۡ ﴾ الرأس يمسح ولا يجب غسله ، وهذا من رحمة الله ﷻ بعباده ؛ لأن الرأس فيه شعر فلو فُرض غسله لكان فيه مشقة على الناس وجرى الماء على الثياب ، ولَلحِقَ الناس مشقة في أيام الشتاء ، ولكن من رحمة الله أن الرأس يمسح ولا يغسل ، ومن الرأس الأُذُنان . يُمسحان أيضًا ؛ لأن النبي ﷺ كان يمسح بأذنيه [٢] ، ﴿ وَأَرۡجُلَكُمۡ إِلَى ٱلۡكَعۡبَيۡنِۚ ﴾ يعني : واغسلوا أرجلكم إلى الكعبين ، والكعبان هما العظمتان الناتئتان أسفل الساق ، وهما داخلتان في الغسل ، هذه أربعة أعضاء ، وهذه هي أعضاء الوضوء ، ثم قال ﷻ : ﴿ وَإِن كُنتُمۡ جُنُبٗا فَٱطَّهَّرُواْۚ ﴾ ، وفي الآية الثانية : ﴿فاغتسلوا ﴾ يعني إذا كان الإنسان عليه جنابة وجب عليه أن يطهر جميع بدنه : من رأسه إلى أخمص قدميه ، ومنه المضمضة والاستنشاق فالمضمضة والاستنشاق واجبتان في الوضوء وكذلك الغسل .

---

(١) أخرجه مسلم في الطهارة (٣٤) .

(٢) أخرجه الدارقطني في السنن (١/١٠٥) .

والجنُب : هو الذي حصلت عليه جنابة ، والجنابة : إما إنزال المني بشهوة وإما جماع - وإن لم يُنزل - ، فإذا جامع الإنسان زوجته وجب عليه أن يغتسل سواء أَنْزَل أم لم يُنْزِل ، وإذا أنْزَل وجب عليه غسل سواء جامعَ أمْ لم يجامع ، حتى لو فكَّر وأنزل وجب عليه الغسل ﴿ وَإِن كُنتُم مَّرْضَىٰٓ أَوْ عَلَىٰ سَفَرٍ أَوْ جَآءَ أَحَدٌ مِّنكُم مِّنَ ٱلْغَآئِطِ أَوْ لَٰمَسْتُمُ ٱلنِّسَآءَ فَلَمْ تَجِدُواْ مَآءً فَتَيَمَّمُواْ صَعِيدًا طَيِّبًا ﴾ : يعني أن الإنسان إذا وجب عليه الوضوء أو الغسل ولم يجد ماءً أو كان مريضًا يتضرر باستعمال الماء ؛ فإنه يتيممَّ : يضرب الأرض بكفيه ويمسح وجهه وكفيه ؛ ﴿ فَٱمْسَحُواْ بِوُجُوهِكُمْ وَأَيْدِيكُم مِّنْهُ مَا يُرِيدُ ٱللَّهُ لِيَجْعَلَ عَلَيْكُم مِّنْ حَرَجٍ ﴾ يعني : فيما فرض علينا ، لم يُرد أن يُحرِّجنا ويلحق بنا المشقة ، بل هو أرحم بنا من أنفسنا وأولادنا وأمهاتنا ، والدليل على أنه أرحم بنا من أنفسنا قوله تعالى : ﴿ وَلَا تَقْتُلُوٓاْ أَنفُسَكُمْ ﴾ [النساء : ٢٩] فالذي يوصيك ألا تقتل نفسك هو أرحم بك من نفسك ، فهو لا يريد منَّا بهذا الفرض أن يشق علينا أو يلحقنا الحرج ، ولكن يريد ليطهركم .

هذا الذي أراده اللَّه منا بالوضوء والغسل أن يطهر ظواهرنا بالماء وبواطننا بالتوحيد ، ولهذا يُسَنُّ إذا فرغت من الوضوء أن تتشهَّد تقول : أشهد أن لا إله إلا اللَّه وحده لا شريك له ، وأشهد أن محمدًا عبده ورسوله ، اللَّهم اجعلني من التوابين واجعلني من المتطهرين . ﴿ وَلِيُتِمَّ نِعْمَتَهُۥ عَلَيْكُمْ ﴾ : وذلك بهذا الوضوء الذي يحصل به تكفير السيئات ورفعة الدرجات ، فإن من توضأ وأسبغ الوضوء ثم قال : أشهد أن لا إله إلا اللَّه وحده لا شريك له ، وأن محمدًا عبده ورسوله اللَّهم اجعلني من التوابين واجعلني من المتطهرين . فتحت له أبواب الجنة الثمانية يدخل من أيها شاء [١] . وقوله : ﴿ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴾ : أي : لأجل أن تشكروا اللَّه ﷻ على نعمه ؛ فالواجب على المرء أن يشكر اللَّه على نعمه ، لأن نعم اللَّه لا تُحصى ولا سيما النعم الدينية ، لأن بها سعادة الدنيا والآخرة ، والشكر : هو القيام بطاعة اللَّه بامتثال أمره ، واجتناب نهيه ، باللسان والأركان والقلوب نسأل اللَّه أن يرزقنا وإياكم شكر نعمته وحسن عبادته إنه على كل شيء قدير .

* * *

١٠٢٤ - وَعَنْ أبي هُرَيرَةَ ﷺ قَالَ : سَمِعْت رسول اللَّه ﷺ يَقُول : « إنَّ أُمَّتي يُدْعَونَ يومَ القِيامَةِ غُرًّا مُحجَّلِينَ مِنْ آثارِ الوضوءِ ، فَمَنِ اسْتَطاعَ مِنْكُم أَنْ يُطِيلَ غُرَّتَه ، فَلْيَفعَلْ » [٢] متفقٌ عليه .

١٠٢٥ - وعنه قالَ : سَمِعْت خَلِيلي ﷺ يقولُ : « تَبْلُغُ الحِلِيةُ مِنَ المؤمِن حَيث يبْلُغُ الوُضوءُ » [٣] رواه مسلم .

---

(١) وذلك لما رواه : الترمذي في الطهارة (٥٥) ، والنسائي في السنن (٩٣/١) ، وأحمد في مسنده (٢٦٥/٣) .
(٢) أخرجه البخاري في الوضوء (١٣٦) ، ومسلم في الطهارة (٣٥) ، والإمام أحمد في المسند (٤٠٠/٢) .
(٣) أخرجه مسلم في الطهارة (٤٠) ، وأحمد في المسند (٣٧١/٢) ، والبيهقي في السنن (٥٧/١) ، قوله : « تبلغ الحلية » أي النور يوم القيامة .

١٠٢٦ - وعن عثمانَ بن عفانَ ﷺ قالَ : قالَ رسول اللّه ﷺ : « مَنْ تَوَضَّأَ فَأَحْسَنَ الْوُضوءَ ؛ خَرَجَت خَطَايَاهُ مِنْ جسَدِهِ حَتى تَخْرُجَ مِنْ تَحْتِ أَظفارِهِ » [١] رواه مسلم .

الشرح

هذه الأحاديث ذكرها النووي رحمه الله في فضل الوضوء . حديث أبي هريرة ﷺ قال : سمِعْت رَسُولَ اللّهِ ﷺ يقُول : « إنَّ أمَّتي يُدْعَونَ يَومَ القِيامَةِ غُرًّا محجَّلِينَ مِنْ آثَارِ الوضوءِ ، فَمنِ اسْتَطَاعَ مِنْكُمْ أَنْ يُطِيل غُرَّتَه ، فَليفعلْ » . يعني أن هذه الأمة أمةَ محمد ﷺ تدعى يوم القيامة غرًّا محجلين ، الغرة : بياض الوجه ، والتحجيل : بياض الأطراف ، أطراف اليدين ، وأطراف الرجلين . يعني أن هذه المواضع تكون نورًا يتلألأ يوم القيامة لهذه الأمة ، وهذه خاصة بنا ولله الحمد ، كما قال النبي ﷺ « سيماء أمتي ليست لغيركم » [٢] . يعني علامة تتبين بها أمة محمد ﷺ في هذا اليوم المشهود ، وهذا دليل على فضل الوضوء ، وأن أعضاء الوضوء تأتي بيضاء يوم القيامة تلوح من النور يقول :« فمن استطاع منكم أن يطيل غُرَّته فليفعل » هذه الجملة ليست من كلام النبي ﷺ بل هي من كلام أبي هريرة ﷺ وليست بصحيحة من جهة الحكم الشرعي ، لأن ظاهرها أن الإنسان يمكنه أن يطيل غُرَّته : يعني : يطيل وجهه وهذا غير ممكن ، فالوجه محدد من الأذن إلى الأُذن ، ومن منحنى الجبهة إلى أسفل اللحية ، وهذا مما يدل على أن هذه الجملة من كلام أبي هريرة ﷺ قالها اجتهادًا ، كما أشار إلى ذلك ابن القيم في النونية قال :

وأبو هريرة قال ذا من كيسه فغدا يميزه أولو العرفان
وإطالة الغرات ليس يمكن أيضًا وهذا واضح التبيان [٣]

لكن على كل حال ما فرضه اللّه علينا أن نغسل الوجوه والأيدي إلى المرافق ، والأرجل إلى الكعبين ، هذا هو منتهى الوضوء وكفى فخرًا أن يأتي الناس يوم القيامة وهذه المواضع تتلألأ نورًا من أجسادهم من أثر الوضوء ، ففي هذا دليل على فضيلة الوضوء وعلى إثبات البعث ، وأن الأمم يوم القيامة تأتي كل أمة تُدعى إلى كتابها . هل صدَّقَت كتابها أم لم تصدق .

وأما الحديث الثاني وهو حديث أبي هريرة ﷺ : أن النبي ﷺ قال : «تبلغ الحلية من المؤمن حيث يبلغ الوضوء » : الحِلْية يوم القيامة يُحلى بها الرجال والنساء ، يلبس الرجال والنساء حلية من ذهب وفضة ولؤلؤ ﴿ وَحُلُّوٓاْ أَسَاوِرَ مِن فِضَّةٍ ﴾ [الإنسان : ٢١] ﴿ يُحَلَّوْنَ فِيهَا مِنْ أَسَاوِرَ مِن ذَهَبٍ وَلُؤْلُؤًا ﴾ [الحج : ٢٣] فهم يحلَّون بهذه الأنواع الثلاثة يلبس الرجل والمرأة في الجنة حُليًا من هذه الأنواع الثلاثة :

---

(١) أخرجه مسلم في الطهارة (٣٣) ، قوله « خرجت خطاياه » المراد بها الصغائر المتعلقة بحق اللّه تعالى وخروجها مجاز عن غفرانها .

(٢) أخرجه ابن ماجه في الزهد (٤٢٨٢) .

(٣) شرح قصيدة الإمام ابن القيم لأحمد بن إبراهيم بن عيسى (٢/٤٩٠) .

ذهب وفضة ولؤلؤ ، ولا بد أن تكون مرصوفة على وجه يحصل به الجمال أكثر وأكثر ، لأن التحلي بكل نوع من هذا لاشك أنه يكسب الإنسان جمالًا ، فإذا رصف بعضها إلى بعض ، ورتبت ترتيبًا حسنًا أعطت جمالًا أكثر ، فيوم القيامة تبلغ الحلية من المؤمن حيث يبلغ الوضوء ، إذن كلُّ الذِّراع يكون حلية ، مملوءًا حلية من ذهب وفضة ولؤلؤ ، وهذا يدل على فضيلة الوضوء ، حيث تكون مواضعه يوم القيامة يحلى بها الإنسان في الجنة ، جعلني الله وإياكم من أهلها .

وأما الحديث الثالث ، حديث عثمان ﷺ، ففيه : « أن من توضأ فأحسن الوضوء خرجت خطاياه» تخرج خطاياه من هذا الوضوء حتى من تحت أظفاره ، وعلى هذا فالوضوء يكون سببًا لكفارة الخطايا حتى من أدق مكان وهو ما تحت الأظفار ، وهذه الأحاديث وأمثالها يدلُّ على أن الوضوء من أفضل العبادات ، وأنه عبادة ينبغي للإنسان أن ينوي به التقرب إلى الله ﷻ يعني : أن يستحضر - وهو يتوضأ - أنه يتقرب إلى الله ، كما أنه إذا صلَّى - يستشعر أنه يتقرب إلى الله ، كذلك وهو يتوضأ ، ويستشعر بأنه يمتثل أمر الله في قوله : ﴿إِذَا قُمْتُمْ إِلَى ٱلصَّلَوٰةِ فَٱغْسِلُواْ وُجُوهَكُمْ﴾[المائدة : ٦] ويستشعر أيضًا أنه مُتَّبعٌ لرسول الله ﷺ في وضوئه ، وكذلك أيضًا يستحضر أنه يريد الثواب ، وأنه يُثاب على هذا العمل حتى يتقنه ويحسنه . والله الموفق .

* * *

١٠٢٧ - وعنهُ قال : رَأيتُ رسول الله ﷺ تَوَضَّأَ مثلَ وُضوئي هذا ثمَّ قال : «مَنْ تَوَضَّأَ هكذا ، غُفِرَ لَهُ مَا تَقَدَّمَ مِنْ ذَنبِه ، وَكانَتْ صَلاتُهُ وَمَشْيُهُ إلى المَسْجدِ نَافِلَةً »[١] رواه مسلم.

١٠٢٨ - وعن أبي هريرةَ ﷺ أنَّ رسول الله ﷺ قال : «إذا تَوَضَّأَ العَبْدُ المُسْلِم - أَو المُؤمِنُ - فَغَسَلَ وَجهَهُ ؛ خرَجَ مِنْ وَجهِهِ كلُّ خَطِيئَةٍ نَظَرَ إليها بَعَينيهِ مَعَ المَاءِ - أَو مَعَ آخِرِ قَطْرِ المَاءِ - فإذا غَسَلَ يَديهِ ؛ خَرَجَ مِنْ يَدَيه كُلُّ خَطِيئَةٍ كانَ بَطَشَتْها يَدَاهُ مَعَ المَاءِ - أَو مَعَ آخِرِ قَطْرِ المَاء - فَإذا غَسَلَ رِجلَيه ؛ خَرَجَتْ كُلُّ خَطِيئَةٍ مَشَتها رِجلاه مَعَ الماءِ - أَو مَعَ آخِرِ قَطرِ الماءِ - حَتى يَخْرجَ نَقيًا مِنَ الذُّنُوبِ »[٢] رواه مسلم.

الشرح

هذه الأحاديث التي ذكرها المؤلف رحمه الله منها حديث عثمان بن عفان ﷺ أنه توضأ : فغسل كفَّيه ثلاثًا ، وتمضمض ، واستنشق ثلاثًا ، بثلاث غرَفات ، وغسل وجهه ثلاثًا ، وغسل يديه إلى المرفقين ثلاثًا ، ومسح رأسه بيديه فأقبل بهما وأدبر ، ومسح أذنيه ، وغسل رجليه ثلاثًا إلى الكعبين . قال النبي ﷺ: « من توضأ نحو وضوء هذا ، ثم صلَّى ركعتين لا يُحدِّث بهما نفسه غفر الله له ما تقدَّم من

---

(١) أخرجه مسلم في الطهارة (٨).

(٢) أخرجه مسلم في الطهارة (٣٢)، قوله : « بطشتها يداه» أي اكتسبتها أو فعلتها ، قوله : « مشتها رجلاه» أي مشت لها أو فيها .

ذنبه » وهذا شيء يسير - ولله الحمد - أن الإنسان يعمل هذا العمل ثم يُغْفَر ما تقدم من ذنبه .

وأخذ العلماء من ذلك أنه يُستحب لمن أسبغ الوضوء أن يصلِّي ركعتين ، وتُسَمَّى سنة الوضوء ، سواء في الصباح أو المساء ، في الليل أو النهار ، بعد الفجر أو بعد العصر ؛ لأنها سنة لها سبب ، فإذا توضأ الإنسان نحو وضوء الرسول ﷺ فإنه يصلي ركعتين يُغْفَر له ما تقدَّم من ذنبه ، وفي هذا الحديث قال : « وكان مَشيه إلى المسجد وصلاته نافلة » [1] يعني : زائد على مغفرة الذنوب ، وليس معنى نافلة يعني صلاة تطوع ، قد تكون صلاة فريضة ، ولكن نافلة : يعني شيئًا زائدًا على مغفرة الذنوب ، لأن ذنوبه غفرت بوضوئه وصلاته الأولى ، فيكون مشيه للمسجد وصلاته ولو فريضة نافلة أي زيادة على مغفرة الذنوب ؛ لأن النفل في اللغة معناه الزيادة ، كما قال الله تعالى : ﴿ وَمِنَ ٱلَّيۡلِ فَتَهَجَّدۡ بِهِۦ نَافِلَةً لَّكَ ﴾ [2] [الإسراء: ٧٩] .

ثم ذكر المؤلف رَحِمَهُ اللَّهُ حديث أبي هريرة في أن الوضوء تخرج به الخطايا ، إذا غسلت وجهك خرجت خطايا وجهك مع الماء ، أو مع آخر قَطْر الماء ، أو هنا للشك من الراوي ، وعلى كل حال فإن الإنسان إذا غسل وجهه خرجت خطايا وجهه ، إذا غسل يديه خرجت خطايا يديه التي كان قد بطش بها ، وإذا غسل رجليه خرجت خطايا رجليه حتى يخرج نقيًّا من الذنوب - ولله الحمد - فهذا دليل على فضيلة الوضوء ، ولكن مَنْ مِنَّا يستحضر هذا الفضل ؟! فهل يكتب هذا الفضل للإنسان سواءً استحضره أم لا ؟ الظاهر - إن شاء الله - أنه يُكتب له سواء استحضر أو لم يستحضر ، لكن إذا استحضر فهو أكمل ، لأنه إذا استحضر هذا احتسب الأجر على الله عَزَّوَجَلَّ وأيقن أنه سيجازى ويكافأ على هذا العمل جزاءً وفاقًا ، بخلاف ما إذا توضأ - وهو غافل - لكننا نرجو من الله سُبْحَانَهُ أن يكتب هذا الأجر حتى من الإنسان الغافل الذي يتوضأ على سبيل إبراء ذمته . والله الموفق .

* * *

١٠٢٩ - وعَنْهُ : أنَّ رسول اللَّه ﷺ أَتَى المقبرَةَ فَقَالَ : « السَّلامُ عَلَيكُمْ دَارَ قَومٍ مُؤمِنِينَ ، وَإنَّا إن شَاءَ اللَّه بكُمْ لاحِقُونَ ، وَدِدْتُ أنَّا قَدْ رَأَينَا إخوانَنَا » قَالُوا : أَوَ لَسْنَا إخْوانَكَ يَا رسُولَ اللَّهِ؟ قَالَ : « أَنْتُمْ أَصْحَابي ، وَإخوانُنَا الَّذينَ لَمْ يأْتُوا بَعْدُ » قَالُوا : كَيفَ تَعْرِفُ مِنْ لَمْ يَأْتِ بَعْدُ مِنْ أُمَّتِكَ يَا رَسُولَ اللَّهِ ؟ فَقَالَ : « أَرَأَيتَ لَو أَنَّ رَجُلا لَهُ خَيلٌ غُرٌّ مُحَجَّلَةٌ بَينَ ظَهْرَي خَيلٍ دُهْمٍ بُهْمٍ ، أَلا يَعْرِفُ خَيلَهُ ؟ » قَالُوا : بَلى يا رَسُولَ اللَّهِ ، قَالَ : « فَإنَّهُمْ يَأْتُونَ غُرًّا مُحَجَّلِينَ مِنَ الوُضُوءِ ، وَأَنَا فَرَطُهُمْ عَلَى الحَوْضِ » [3] رواه مسلم .

---

(١) أخرجه مسلم في الطهارة (٨) ، والنسائي في الطهارة (٧٥) ، ومالك في الموطأ (الطهارة) وأحمد في مسنده (٣٤٩/٤) .

(٢) وقوله تعالى : « نافلة » أي فريضة زائدة على الصلوات الخمس خاصة به ﷺ دون أمته .

(٣) أخرجه مسلم في الطهارة (٣٩) ، وأحمد في مسنده (٣٧٥/٢) .

الشرح

هذا الحديث الذي أورده النووي رحمه الله في فضل الوضوء عن أبي هريرة رضي الله عنه أن النبي ﷺ أتى المقبرة فقال : « السلام عليكم دار قوم مؤمنين ، وإنَّا إن شاء اللّه بكم لاحقون » كان النبي ﷺ في أول الأمر نهى عن زيارة القبور ، لأن الناس حديث عهد بشرك ، فخشي أن تتعلق قلوبهم بالقبور وتفتتن بها ، فنهى عن الزيارة ، ثم لما استقر الإيمان في قلوبهم أمرهم بالزيارة فقال : « كنت نهيتكم عن زيارة القبور فزوروها ، فإنها تذكر الموت » - وفي رواية « تذكر الآخرة » [1] فأمر ﷺ بزيارتها وبيَّن الحكمة العظيمة من هذه الزيارة ، وأنها تذكر الإنسان الذي على ظهر الأرض أنه اليوم على ظهرها وغدًا في بطنها ، ولا يدْري متى يكون هذا ، قد يصبح على ظهرها ويمسي في بطنها ، والعكس فكان في زيارة المقابر تذكير بالموت وبالآخرة ، لأن الإنسان يمر بالمقبرة فإذا فكر يرى أباه ، عمه ، زوجته ، أخاه ... وما أشبه ذلك .

أمس كانوا معه يأكلون ويشربون ويتنعمون والآن هم مرتهنون بأعمالهم في القبور يتذكر العام الماضي في مثل هذا الوقت وهم معنا فرحون بالدنيا ، مغتبطون بها والآن غادروها ، وصاروا مرتهنين بأعمالهم ، من يعمل خيرًا يلقه ومن يعمل سوءًا يلقه ، فهي تذكر الآخرة تذكر الموت حقًّا ، اخرجوا إلى المقابر ، انظروا هؤلاء الذين لا يحصيهم إلا اللّه عز وجل أو لا يُحصون إلا بمشقة كانوا بالأمس معنا ، والآن هم في بطن الأرض ولا تدري فلعلك ضجيعهم في مدة يسيرة ، فهي تذكر الموت كما قال النبي ﷺ ، ولهذا كان يخرج هو بنفسه إلى البقيع يزور أهل البقيع ، ويسلِّم عليهم ﷺ ويدعو لهم : السلام عليكم دار قوم مؤمنين . يعني : يا أهل دار قوم مؤمنين - والظاهر - واللّه أعلم - أنه يسلِّم عليهم ويسمعونه ؛ إذ لا فائدة من خطاب لا يسمعه المخاطب ؛ لكنهم لا يستجيبون ؛ لأنهم في قبورهم ، فيُسلِّم عليهم : « السلام عليكم دار قوم مؤمنين وإنا إن شاء اللّه بكم لاحقون » وصدق النبي ﷺ ؛ ما من حيٍّ إلا سيلحق الميت بمشيئة اللّه عز وجل يقول : « وإنا إن شاء اللّه بكم لا حقون » واختلف العلماء - رحمهم اللّه - لماذا قال : وإنا إن شاء اللّه بكم لاحقون وهو أمر معلوم متيقن ؟ والصحيح أنه لا إشكال في هذا فإن معنى التعليق هنا : أننا إذا لحقنا بكم فإنما نلحق بمشيئة اللّه ، متى شاء لحقنا بكم ، لأن الأمر أمره ، والملك ملكه ، هو الذي يُدبر عز وجل ما شاء فيمن شاء ، أليس اللّه يقول : ﴿ لَتَدْخُلُنَّ ٱلْمَسْجِدَ ٱلْحَرَامَ إِن شَآءَ ٱللَّهُ ءَامِنِينَ ﴾ [الفتح : ٢٧] مع أنهم سيدخلونه ، لأن اللّه أكد الدخول بالقسم واللام ونون التوكيد ، ولا شك في أنهم سيدخلونه ، ولهذا لما جرى الصلح في الحديبية على أن الرسول سيرجع ولا يكمل عُمْرَته ، قال له عمر : ألست تحدثُنا أننا ندخل البيت ونطوف به ؟ قال : بلى ، لكن هل حددت لك هذا العام ، وإنك آتيه ومُطوف به ؟ [2] .

فالحاصل أن كلمة « إن شاء اللّه » هنا ليس معناها التعليق الذي يكون الإنسان فيه مترددًا بين

---

(١) أخرجه الترمذي في السنن (١٠٥٤) ، والنسائي في السنن (٢٨٦/١) ، وابن ماجه في السنن (١٥٧١) ، والبيهقي في السنن (٧٦/٤) .

(٢) أخرجه البخاري في الشروط (٢٧٣١) .

حصول الشيء وعدمه ، بل معنى التعليق : أن لحوقنا بكم ليس باختيارنا ولكنه بمشيئة الله ﷻ ثم قال ﷺ : « وددت أنّا لقينا إخواننا » تمنى أن يلقى إخوانه ﷺ - اللّهم اجعلني وإياكم منهم - قالوا : يا رسول اللّه ألسنا إخوانك ؟ قال : « أنتم أصحابي » - أخص من الإخوان - الصاحب أخ وزيادة ، والأخ أخ بلا مصاحبة . قال : « أنتم أصحابي » - يعني : فأنتم أخص منهم ، وهم : - الصحابة - إخوان للرسول (وأصحاب له ، أما من جاءوا بعدهم من المؤمنين فهم إخوانه وليسوا أصحابه .

« وددت أنّا لقينا إخواننا » قالوا : أولسنا إخوانك يا رسول اللّه ؟! قال : « أنتم أصحابي ، ولكن أخواني قوم يأتون بعدي ، يؤمنون بي ولم يروني » - اللّهم لك الحمد - اللّهم ثبّتنا على ذلك - يؤمنون بالرسول ﷺ وأنه رسول اللّه حقًّا وهم لا يرونه ، لكنهم مثل الذين يرونه - قالوا : يا رسول اللّه كيف تعرفهم ؟ - يعني : وأنت لم تدركهم ، فضرب مثلًا برجل له خيل غُرٌّ . غر يعني : فيها بياض في رأسها . ومحجلة : بياض في أرجلها - مع خيل دُهُم - يعني سود ليس فيها أي غُرة ، هل يشتبه عليه هذا بهذا ، قالوا : لا . قال : « فإنكم تأتون يوم القيامة غُرًّا محجلين » - يعني : من أثر الوضوء ؛ ففي هذا دليل على فضيلة الوضوء ، وأن هذه الأمة يأتون يوم القيامة وهم غر محجلون من أثر الوضوء ، غُرٌّ يعني : بيض الوجوه ، مُحَجَّلُون يعني : بيض الأرجل والأيدي ، وهذا البياض بياض نور وإضاءة ، يعرفهم الناس يوم القيامة في هذا اليوم المشهود العظيم ، تعرف أمة هذا النبي الكريم ﷺ بهذه السِّيماء والعلامة التي ليست لغيرهم ، أسأل اللّه تعالى بمنّه وكرمه أن يحشرني وإياكم على هذا الوجه وأن يجعلنا من أمته ظاهرًا وباطنًا إنه على كل شيء قدير .

* * *

١٠٣٠ - وعَنْهُ : أَن رسول اللّه ﷺ قَالَ : « ألا أَدُلُّكُم عَلى ما يَمْحُو اللّه بِهِ الخَطَايَا ، وَيَرْفَعُ بِهِ الدَّرَجَاتِ ؟ » قَالُوا : بَلى يا رَسُولَ اللّهِ ، قَالَ : « إسْبَاغُ الوُضُوءِ عَلى المَكَارِهِ ، وَكَثْرَةُ الخُطَا إلى المَسَاجِدِ ، وَانْتِظَارُ الصَّلاةِ بَعدَ الصَّلاةِ ، فَذلِكُمُ الرِّبَاطُ ، فَذلِكُمُ الرِّبَاطُ » [1] رواه مسلم .

١٠٣١ - وعَنْ أَبي مَالِكٍ الأَشْعَرِيِّ ﷺ قَالَ : قَال رسول اللّه ﷺ : « الطُّهُورُ شَطْرُ الإيمَانِ » [2] رواه مسلم . وقد سبقَ بِطولِهِ في بابِ الصبرِ . وفي الباب حديثُ عمرو بْنِ عَبَسَةَ ﷺ السَّابِقُ في آخِرِ بَابِ الرَّجاءِ ، وَهُوَ حَديثٌ عظيمٌ ، مُشْتَمِلٌ عَلى جُمَلٍ من الخيرات .

١٠٣٢ - وَعَنْ عُمَرَ بْنِ الخَطَّابِ ﷺ عن النبي ﷺ قَالَ : « مَا مِنْكُمْ مِنْ أَحَدٍ يَتَوَضَّأُ فَيُبلِغُ - أَوَ فَيُسْبِغُ الوُضُوءَ - ثُمَّ يقولُ : أَشْهَدُ أَنْ لا إلَهَ إلا اللّه وَحْدَه لا شَريكَ لهُ ، وَأَشْهَدُ أَنَّ مُحَمَّدًا عَبْدُهُ وَرَسُولُه ؛ إلا فُتِحَتْ لهُ أبْوابُ الجَنَّةِ الثَّمَانِيَةُ ، يَدْخُل مِنْ أَيِّها شاءَ » [3] رواه مسلم . وزَادَ الترمذي :

---

(١) أخرجه مسلم في الطهارة (٤١) ، والبيهقي في السنن (٦٢/٣) .

(٢) أخرجه مسلم في الطهارة (١) ، والإمام أحمد في المسند (٣٤٢/٥ ، ٣٤٣) ، والبيهقي في السنن (٤٢/١) .

(٣) أخرجه مسلم في الطهارة (١٧) ، والإمام أحمد في مسنده (١٤٥/٤ ، ١٤٦) .

«اللَّهُمَّ اجْعَلْني مِنَ التَّوَّابِينَ واجْعَلني مِنَ المُتَطَهِّرِينَ » .

الشرح

هذه الأحاديث في بيان فضل الوضوء ، وقد سبق حديث في هذا المعنى ، وتكلمنا على زيارة القبور التي ذكرها المؤلف رَحِمَهُ ٱللَّهُ وبينًا أن فيها فائدة عظيمة وهي تذكير الإنسان الموت أو الآخرة ، وليُعْلَم : أن زيارة القبور لا تحل للنساء ، فلا يجوز للمرأة أن تزور المقبرة ؛ لأن النبي ﷺ لعن زائرات القبور ، والمتخذين عليها المساجد والسُرُج [١] ، ولأن المرأة ضعيفة لا تتحمل فربما تنوح وتبكي وتلطم ؛ ولأن المقابر - في الغالب - تكون خالية من الناس ، فيخشى إذا خرجت المرأة إليها أن يتبعها السفهاء من الناس ويحصل بذلك المحذور والفتنة ؛ لهذا لعن النبي ﷺ زائرات القبور ، أما إذا مرت المرأة بالمقبرة من غير أن تخرج لقصد الزيارة ، فلا بأس أن تقف وتسلِّم وتدعو كما يدعو الرجل ، يعني : هناك فرق بين القصد وعدم القصد ، ثم ليُعْلَم أيضًا أن أصحاب القبور مهما بلغوا من العمل الصالح والتُّقى لا يملكون لأنفسهم نفعًا ولا ضرًا ، ولا يملكون لغيرهم أيضًا نفعًا ولا ضرًّا ؛ ولهذا هم يُدْعَى لهم ولا يدعو هم ، يُدْعَى لهم كما سبق أن النبي ﷺ دعا لهم [٢] . ولكنهم لا يُدْعُو ؛ لأنهم لا يفيدون ، وقد قال الله ﷻ : ﴿وَمَنْ أَضَلُّ مِمَّن يَدْعُوا مِن دُونِ ٱللَّهِ مَن لَّا يَسْتَجِيبُ لَهُۥٓ إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْقِيَٰمَةِ وَهُمْ عَن دُعَآئِهِمْ غَٰفِلُونَ ۝ وَإِذَا حُشِرَ ٱلنَّاسُ كَانُوا۟ لَهُمْ أَعْدَآءً وَكَانُوا۟ بِعِبَادَتِهِمْ كَٰفِرِينَ﴾ [الأحقاف : ٥، ٦] ، وقال تعالى : ﴿وَٱلَّذِينَ تَدْعُونَ مِن دُونِهِۦ مَا يَمْلِكُونَ مِن قِطْمِيرٍ ۝ إِن تَدْعُوهُمْ لَا يَسْمَعُوا۟ دُعَآءَكُمْ وَلَوْ سَمِعُوا۟ مَا ٱسْتَجَابُوا۟ لَكُمْ ۖ وَيَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ يَكْفُرُونَ بِشِرْكِكُمْ ۚ وَلَا يُنَبِّئُكَ مِثْلُ خَبِيرٍ﴾ [٣] [فاطر : ١٣، ١٤] .

أما ما ذكره رَحِمَهُ ٱللَّهُ من الأحاديث الباقية ، فهو حديث أبي هريرة رضي الله عنه أن النبي ﷺ قال : « ألا أدلكم - أوأخبركم - بما يمحو اللَّه به الخطايا ويرفع به الدرجات » وإنما ساق الحديث ﷺ على سبيل الاستفهام من أجل أن ينتبه السامع لما يُلقي إليه ؛ لأن الأمر مهم ، فقال : « ألا أدلكم بما يمحو اللَّه به الخطايا ويرفع به الدرجات ؟ » قالوا : بلى يا رسول اللَّه ، قال : « إسباغ الوضوء على المكاره ، وكثرة الخطا إلى المساجد ، وانتظار الصلاة بعد الصلاة ؛ فذلكم الرباط ، فذلكم الرباط » .

« إسباغ الوضوء على المكاره » : يعني أن الإنسان يتوضأ ويسبغ وضوءه على كره منه : إما لكونه فيه حُمى ينفر من الماء فيتوضأ على كره ، وإما أن يكون الجو باردًا ، وليس عنده ما يُسخن به الماء فيتوضأ على كره ، وإما أن يكون هناك أمطار تحول بينه وبين الوصول لمكان الوضوء فيتوضأ على كره ، المهم أنه يتوضأ على كره ومشقة لكن بدون ضرر ، أما مع الضرر فلا يتوضأ بل يتيمَّم ، هذا مما

---

(١) الحديث أخرجه ابن ماجه في السنن (١٥٧٦) ، وأحمد في مسنده (٢/٢٣٧) ، البيهقي في السنن (٢/٧٨) ، والألباني في إرواء الغليل (٣/٢٣٢) .

(٢) انظر في دعاء النبي للموتى : مسلم في الجنائز (١٠٤) ، وابن ماجه في السنن (١٥٤٧) ، وأحمد في مسنده (٥/٣٥٣) ، والنسائي في السنن (١/٩٤) .

(٣) قوله : ﴿قِطْمِيرٍ﴾ القطمير هو القشرة البيضاء الرقيقة الملتفة على النواة ، وهي تضرب مثلًا للشيء الدنيء الطفيف .

يمحو اللّه به الخطايا ويرفع به الدرجات ، ولكن هذا لا يعني أن الإنسان يشق على نفسه ويذهب يتوضأ بالبارد ويترك الساخن ، أو يكون عنده ما يُسخَّن به الماء ، ويقول : لا ، أريد أن أتوضأ بالماء البارد ، لأنال هذا الأجر ، فهذا غير مشروع ، لأن اللّه يقول : ﴿ مَّا يَفْعَلُ ٱللَّهُ بِعَذَابِكُمْ إِن شَكَرْتُمْ وَءَامَنتُمْ ﴾ [النساء : ١٤٧] ورأى النبي ﷺ رجلًا واقفًا في الشمس قال : « ما هذا ؟ » قالوا : نذر أن يقف في الشمس ، فنهاه عن ذلك وأمره أن يستظل (١) . فالإنسان ليس مأمورًا ولا مندوبًا في أن يفعل ما يشق عليه ويضره ، بل كلما سَهُلت عليه العبادة فهو أفضل ، لكن إذا كان لابد من الأذى والكره ؛ فإنه يؤجر على ذلك ، لأنه بغير اختياره ، كذلك « كثرة الخطا إلى المساجد » فيه دليل على أن الجماعة تكون في المسجد ولا تكون في البيت ، وأن الإنسان إذا كثرت خطاه إلى المساجد ؛ فإنه يؤجر : يرفع اللّه له به الدرجات ويمحو عنه الخطايا ، وقد ثبت عن النبي ﷺ : أن الرجل : إذا توضأ في بيته فأسبغ الوضوء ثم خرج إلى المسجد لا يخرجه إلا الصلاة لم يخطُ خطوة إلا رفع اللّه له بها درجة وحطَّ عنه بها خطيئة (٢) . وهذه نعمة عظيمة ، فإذا وصل المسجد وصلَّى لم تزل الملائكة تصلي عليه ما دام في مُصلاَّه ، تقول : اللّهم صلِّ عليه ، اللّهم اغفر له ، اللّهم ارحمه ، ولا يزال في صلاة ما انتظر الصلاة (٣) ، « وكثرة الخطا » معناه أن يأتي الإنسان للمسجد ولو من بعد ، وليس المعنى أن يتقصَّد الطريق البعيد أو أن يقارب الخطا هذا غير مشروع ، بل يمشي على عادته ولا يتقصَّد البعد ؛ يعني : مثلًا لو كان بينه وبين المسجد طريق قريب وآخر بعيد ، لا يترك القريب ، لكن إذا كان بعيدًا ولا بد أن يمشي إلى المسجد ؛ فإن كثرة الخطا إلى المساجد مما يمحو اللّه به الخطايا ويرفع به الدرجات ، وأما « انتظار الصلاة بعد الصلاة » : بمعنى أن الإنسان إذا فرغ من هذه الصلاة يتشوَّق إلى الصلاة الأخرى وهكذا يكون قلبه معلقًا بالمساجد : كلما فرغ من صلاة فهو ينتظر الصلاة الأخرى ، هذا أيضًا مما يمحو اللّه به الخطايا ويرفع به الدرجات ، قال : فذلكم الرباط فذلكم الرباط : يعني المرابطة على الخير ، وهو داخل في قوله تعالى : ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱصْبِرُوا۟ وَصَابِرُوا۟ وَرَابِطُوا۟ وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ﴾ (٤) [آل عمران : ٢٠٠] .

ثم ذكر المؤلف حديث أبي مالك الأشعري رضي الله عنه أن النبي ﷺ قال : « الطهور شطر الإيمان » : يشمل طهور الماء ، التيمم ، طهارة القلب من الشرك والشك والغل والحقد على المسلمين ، وغير ذلك مما يجب التطهر منه ، فهو يشمل الطهارة الحسيَّة والمعنوية ، « شطر الإيمان » : نصفه ، والنصف الثاني هو التحلِّي بالأخلاق الفاضلة والأعمال الصالحة ؛ لأن كل شيء لا يتم إلا بتنقيته من الشوائب

---

(١) انظر الحديث في البخاري في الأيمان (٦٧٠٤) ، وأبو داود في الأيمان (٣٣٠٠) ، ومالك في الموطأ (النذور ٦) وأحمد في مسنده (٤/١٦٨) .

(٢) الحديث أخرجه البخاري في الأذان (٦٤٧) ومسلم في المساجد (٢٥٧) وأحمد في مسنده (١/٤١٥) .

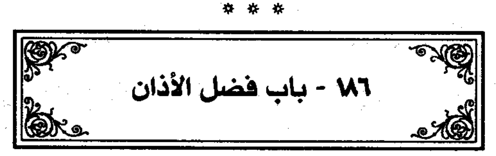
(٣) وذلك لما رواه مسلم في المساجد (٢٧٥) والبخاري في الوضوء (١٧٦) والترمذي في الصلاة (٣٣٠) .

(٤) قوله : ﴿ وَصَابِرُوا۟ ﴾ أي : غالبوا الأعداء في الصبر على شدائد الحرب ولا تكونوا أضعف منهم . وقوله : ﴿ وَرَابِطُوا۟ ﴾ أي أقيموا في الثغور رابطين خيلكم فيها مستعدين للغزو في أي لحظة .

وتكميله بالفضائل ، فالتكميل بالفضائل نصف ، والتنقية من الرذائل نصف آخر ، ولهذا قال : « الطُّهور شطر الإيمان » وأما شطره الثاني هو التكميل بالأخلاق الفاضلة والأعمال الصالحة .

ثم ذكر المؤلف آخر ما ختم به الباب حديث عمر بن الخطاب ﷺ أن الرجل إذا أسبغ الوضوء ثم قال : أشهد أن لا إله إلا اللَّه ، وحده لا شريك له ، وأشهد أن محمدًا عبده ورسوله ؛ فإنها تفتح له أبواب الجنة الثمانية يدخل من أيُّها شاء ، وزاد الترمذي رَحِمَهُ اللَّهُ : « اللَّهم اجعلني من التوابين ، واجعلني من المتطهرين » هذه الأحاديث في فضل الوضوء ، والمؤلف لم يستوعب كل ما ورد في هذا الباب من فضائل ، لكن لو لم يكن من فضائله إلا حديث واحد لكفى به دعوة إلى الوضوء وإحسانه - وفق اللَّه الجميع لما فيه الخير والصلاح .

* * *



١٨٦ - باب فضل الأذان

١٠٣٣ - عَنْ أَبي هُرَيرَةَ ﷺ أَنَّ رسول اللَّه ﷺ قَالَ : « لَو يَعْلَمُ النَّاسُ ما في النِّدَاءِ والصَّفِّ الأَوَّلِ ، ثُمَّ لَمْ يَجِدُوا إلا أَنْ يَسْتَهِموا عَلَيهِ ؛ لاسْتَهَموا عَلَيهِ ، وَلَو يَعْلَمُونَ ما في التَّهْجِيرِ ؛ لاسْتَبَقُوا إِلَيهِ ، وَلَو يَعْلَمُونَ ما في العَتَمَةِ والصُّبْحِ ؛ لأَتوهُمَا ولَو حَبْوًا » [(١)] متفقٌ عليه . « الاسْتهامُ » : الاقْتراعُ ، و « التَّهْجِيرُ » : التَّبْكيرُ إلى الصَّلاةِ .

الشرح

قال المؤلف - رحمه اللَّه تعالى - في كتابه (رياض الصالحين) : باب الأذان : يعني في فضله وما ورد فيه ، والأذان : هو الإعلام بالصلاة أي بدخول وقتها إن كانت مما يُقَدَّم أو بفعلها إن كانت مما يُؤَخَّر ، هذا هو الأذان ، يعني : ينادي الإنسان فيُعلم الناس أن الوقت قد دخل في صلاة المغرب والفجر والعصر والظهر إلا أن يبردوا بها ، وكذلك في العشاء إذا أخَّروها فالأذان كذلك يؤخر ، وإلا فإنه يؤذَّن عند دخول الوقت ، لقول النبي ﷺ « إذا حضرت الصلاة فليؤذن لكم أحدُكم » [(٢)] والأذان المشروع هو الذي يؤذن للصلوات الخمس ، وفرض في السنة الثانية من الهجرة فبعد أن هاجر النبي ﷺ إلى المدينة شُرع الأذان ، واختلف الصحابة حين تشاوروا كيف يُعلَم بدخول وقت الصلاة ؟ فقال بعضهم : نوقد نارًا عظيمة يعرف الناس أن الوقت قد دخل ، وقال بعضهم بل نضرب بالناقوس - الناقوس الذي يشبه الجرس - : وهو الذي يُنادي به النصارى لصلواتهم ، وقال آخرون : بل ننفخ بالبوق كما يفعل اليهود ، وكل هذا كرهه النبي ﷺ ، هرع رجل من الصحابة - وهو : عبد اللَّه بن زيد - رأى رجلًا في المنام وفي يده ناقوس قال له : أتبيع هذا ، قال : وماذا تصنع به ، قال : أُعلِم به للصلاة ، قال : أفلا أدلك

---

(١) أخرجه البخاري في الأذان (٦١٥) ، ومسلم في الصلاة (١٢٩) ، قوله « العتمة » أي صلاة العشاء .

(٢) أخرجه البخاري في الأذان (٦٢٨) ، ومسلم في المساجد (٢٩٢) ، والنسائي في السنن (٢/٩) ، وأحمد في مسنده (٥/٥٣) .

على خير من ذلك ؟ قال : بلى ، فقرأ عليه الأذان ، وقرأ عليه الإقامة ، فلما أصبح غدا إلى النبي ﷺ وأخبره بالخبر ، فقال النبي ﷺ : « إن هذا رؤيا حق » ثم علَّمه بلالًا فأذَّن به (١) ، بهذا الأذان المعروف ، ولما كان في زمن عثمان بن عفان رضي الله عنه وكثر الناس جعل أذانًا أولًا للجمعة قبل الأذان الثاني الذي هو عند حضور الإمام ، فكان في يوم الجمعة أذانان ، وفي رمضان أمر النبي ﷺ بلالًا أن يؤذِّن في آخر الليل إذا قرب وقت السحور ، وقال : « إن بلالا يؤذن بليل ؛ ليوقظ نائمكم ، ويرجع قائمكم ، فكلوا واشربوا حتى تسمعوا أذان ابن أم مكتوم ؛ فإنه لا يؤذِّن حتى يطلع الفجر » (٢) فصار عندنا : الفجر لها أذان أول ، ولكن ليس لها ؛ بل لأجل الإعلان : أن وقت السحور قد حلَّ ، والجمعة لها أذان أول من سنة عثمان رضي الله عنه وهو أحد الخلفاء الراشدين الذين أُمرنا باتباع سنتهم : قال بعض المتحذلقين الذي يدَّعون أنهم سلفيّون سُنيّون : إن أذان الجمعة الأول لا نقبله ، لأنه بدعة ، لم يكن على عهد النبي ﷺ وهذا القول منهم قدح للنبي ﷺ ، وقدح بالخلفاء الراشدين ، وقدح بالصحابة رضي الله عنهم وهؤلاء المساكين وصلوا إلى هذا الحد من حيث لا يعلمون ، أما كونه قدح بالرسول ﷺ ؛ فلأن النبي ﷺ قال : « عليكم بسنتي وسنة الخلفاء الراشدين المهديين من بعدي » (٣) وبإجماع المسلمين أن عثمان رضي الله عنه من الخلفاء الراشدين ، وأما كونه قدح بالخلفاء الراشدين : فهو قدح بعثمان رضي الله عنه وهو منهم ، والقادح في واحد منهم قادح في الجميع ، كما أن المكذب للرسول الواحد مكذب بجميع الرسل ، وأما كونه قدح في الصحابة : فلأن الصحابة لم ينكروا على عثمان رضي الله عنه مع أنه لو أخطأ لأنكروا عليه كما أنكروا عليه الإتمام في (مِنى) في الحج ، لكن في أذان الجمعة الأولى لم ينكروا عليه ، فهل هؤلاء المتحذلقون المخالفون أعلم بشريعة الله ومقاصدها من الصحابة ؟! لكن صدق رسول الله ﷺ : أن آخر هذه الأمة يلعن أولها - والعياذ بالله - ويقدح فيهم ، فالأذان الأول للجمعة أذان شرعي بإشارة النبي ﷺ وسنة أمير المؤمنين عثمان رضي الله عنه وبإجماع الصحابة الإجماع السكوتي ولا عذر لأحد ، وقطع الله لسان من يعترض على خلفاء هذه الأمة الراشدين وعلى الصحابة .

قد يقول قائل : لماذا لم يشرعه الرسول ﷺ والجمعة موجودة في عهده ؟

والجواب: أن السبب هو أن الناس في عهد عثمان كثروا واتسعت المدينة واحتاجوا إلى أذان ينبههم يكون قبل الأذان الأخير الذي يكون عند مجيء الإمام فكان من الحكمة أن يؤذن ، وعثمان رضي الله عنه بنى على أساس : فهاهو النبي ﷺ يأمر بلالًا أن يؤذن بآخر الليل لا لأن الصلاة حلَّت ولكن ليُوقظ النائم ، ويُرجع القائم ، فهو مقصد شرعي ، ولا إشكال في شرعية أذان الجمعة الأول ، إذًا فالأذان الأول ليوم الجمعة مشروع بسنة الخلفاء الراشدين وإيماء سيد المرسلين محمد ﷺ وإجماع الصحابة الذين أدركوا هذا ، أما الأذان في آخر الليل : فإنه مشروع بسنة النبي ﷺ في رمضان لإيقاظ النائم ، وإرجاع القائم ،

---

(١) انظر القصة في أبو داود في الصلاة (٥٠٧) ، والترمذي في الصلاة (١٨٩) ، وأحمد في مسنده (٤/٤٣) .
(٢) أخرجه البخاري في الأذان (٦١٧) ، ومسلم في الصيام (٣٦) ، كلاهما بنحوه ، والنسائي في السنن (٢/١١) بلفظه .
(٣) أخرجه الترمذي في السنن (٢٦٧٦) ، وابن ماجه في السنن (٤٢) ، وأحمد في مسنده (٤/١٢٦) .

لكن هل يُشرع في غير رمضان ، نقول : لعله قياسًا على فعل عثمان ﷺ نرى أنه لا بأس به .

وهنا مسألة ثانية « الصلاة خير من النوم » : زعم بعض المتأخرين أنها تُقال في الأذان الأول الذي قبل الفجر ، وأخطؤوا خطأً عظيمًا ، لأن النبي ﷺ أمر بلالًا أن يقولها في آذان الفجر قال : « إذا أذنت الأول في صلاة الصبح فقل : الصلاة خير من النوم »[١] . ومعلوم أن الأذان للصلاة لا يكون إلا بعد دخول وقتها لقول النبي ﷺ : « إذا حضرت الصلاة فليؤذن لكم أحدكم »[٢] وسُمي أذانًا أولًا باعتبار الإقامة ، لأن الإقامة أذان ثانٍ ، كما قال النبي ﷺ : « بين كل أذانين صلاة »[٣] وجاء في صحيح مسلم رحمه الله من حديث عائشة رضي الله عنها قالت : فإذا أذن الأول للفجر - يعني : قام النبي ﷺ حتى يأتيه المؤذن فيؤذنه لصلاة الفجر[٤] . وهذا صريح في أن أذان الفجر الأول يكون بعد دخول الوقت ، وأما الأذان آخر الليل فليس أذانًا للفجر ؛ بل هو أذان للنائمين ليقوموا ، وللقائمين ليرجعوا ويتسحرُّوا إذا كان ذلك في رمضان ، والأذان من أفضل الأعمال ، وهو أفضل من الإمامة ، يعني أن مرتبة المؤذن في الأجر أفضل من مرتبة الإمام ، لأن المؤذن يعلن لتعظيم الله وتوحيد الله والشهادة للرسول بالرسالة ، وكذلك أيضًا يدعو الناس إلى الصلاة والفلاح في اليوم والليلة خمس مرات أو أكثر ، والإمام لا يحصل منه ذلك . والمؤذن لا يسمع صوته شجر ولا حجر ولا مدر إلا شهد له يوم القيامة[٥] . ولهذا كان الأذان مرتبته في الشرع أعلى من مرتبة الإمامة ، فإن قال قائل : إذا كان كذلك لماذا لم يكن الرسول ﷺ يؤذن ولا الخلفاء الراشدون ؟ أجاب العلماء عن هذا بأن النبي ﷺ والخلفاء الراشدين كانوا مشغولين بمصالح العباد ؛ لأنهم خلفاء أئمة يدبِّرون الأمة والأذان في عهد الرسول ﷺ ليس كالأذان في وقتنا ، الآن إذا أراد الإنسان أن يؤذن ليس عليه سوى أن ينظر إلى الساعة ويعرف الوقت حلَّ أو لم يحل ، لكن في عهد الرسول ﷺ كانوا يراقبون الشمس ، ويتابعون الظل حتى يعرفوا أن الشمس قد زالت ، وكذلك أيضًا يراقبونها حتى يعرفوا أنها غربت ، ثم يراقبون الشفق ، ثم يراقبون الفجر ، ففيه صعوبة عظيمة ؛ لذلك كان النبي ﷺ والخلفاء الراشدون لا يتولُّون الأذان لا لأن فضله أقل من الإمامة ، ولكن لأنهم مشغولون بما هم فيه عن الأذان ، وقد بيَّن النبي ﷺ فضيلته بأن الناس « لو يعلمون ما فيه - النداء - ثم لم يجدوا إلا أن يستهموا عليه لاستهموا » سبحان الله معنى هذا أن الناس لو يعلمون ما في الأذان من فضل وأجر لكانوا يقترعون أيهم الذي يؤذن ، بينما الناس الآن مع الأسف يتدافعون ، هذا يقول أذن ، وهذا يقول بل أذن أنت ؟ وهكذا ، فينبغي عليك إذا كنت في رحلة على أن تحرص أن تكون أنت المؤذن ، لكن معلوم أن الرحلة لها أمير - سواء سفر أو نزهة - فإذا نصَّب الأمير شخصًا للأذان ؛ فليس لأحد أن يتقدم ويؤذن ؛ لأنه صار

---

(١) أخرجه أحمد في مسنده (٣/٤٠٨) . (٢) سبق تخريجه .

(٣) أخرجه البخاري في الأذان (٦٢٤) ومسلم في صلاة المسافرين (٣٠٤) والترمذي في السنن (١٨٥) وأبو داود في السنن (١٢٨٣) .

(٤) الحديث أخرجه مسلم في صلاة المسافرين (١٢١ ، ١٢٢) .

(٥) وذلك لما رواه ابن ماجه في الأذان (٧٢٣) .

مؤذنًا راتبًا ، وكذلك إذا قال لأحدهم : أنت الإمام ، صار هو الإمام ولا أحد يتقدم عليه ؛ لقول النبي ﷺ : « لا يَؤُمَّنَّ رجلٌ رجلًا في سلطانه إلا بإذن » (١) . وفق اللَّه الجميع لما فيه الخير والصواب .

* * *

١٠٣٤ - وَعَنْ مُعَاوِيَةَ ﷺ قَالَ : سَمِعْتُ رسول اللَّه ﷺ يَقُولُ : « المُؤَذِّنُونَ أَطْوَلُ النَّاسِ أَعْنَاقًا يَوْمَ القِيَامَةِ » (٢) رواه مسلم .

١٠٣٥ - وَعَنْ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ عَبْدِ الرَّحْمنِ بْنِ أَبِي صَعْصَعَةَ ، أَنَّ أَبَا سَعِيدِ الخُدْرِيَّ ﷺ قَالَ لَهُ : «إنِّي أَرَاكَ تُحِبُّ الغَنَمَ وَالبَادِيَةَ فَإذا كُنْتَ في غَنَمِكَ - أَو بَادِيتِكَ - فَأَذَّنْتَ للصَّلاةِ ؛ فَارْفَعْ صَوتَكَ بالنِّدَاءِ ؛ فَإنَّهُ لا يَسْمَعُ مَدَى صَوتِ المُؤَذِّنِ جِنٌّ وَلا إنْسٌ وَلا شَيءٌ ، إلَّا شَهِدَ لَهُ يَومَ القِيَامَةِ » قال أبو سعيدٍ : سَمِعْتُهُ مِنْ رسول اللَّه ﷺ (٣) . رواه البخاري .

الشرح

هذان الحديثان ساقهما المؤلف رحمه الله في (رياض الصالحين) في : باب فضل الأذان : فعن معاوية ﷺ أن النبي ﷺ قال : « المؤذِّنون أطول الناس أعناقًا يوم القيامة » إذا بُعث الناس فإن المؤذنين يكون لهم ميزة ليست لغيرهم وهي أنهم أطول الناس أعناقًا ، فيعرفون بذلك تنويهًا لفضلهم وإظهارًا لشرفهم ؛ لأنهم يؤذنون ويعلنون بتكبير اللَّه ﷻ وتوحيده والشهادة لرسوله ﷺ بالرسالة ، والدعوة إلى الصلاة وإلى الفلاح ، يعلنونها من الأماكن العالية ؛ ولهذا كان جزاؤهم من جنس العمل أن تعلو رءوسهم ، وأن تعلوا وجوههم ، وذلك بإطالة أعناقهم يوم القيامة ، وهذا يدل على أنه ينبغي للإنسان أن يحرص على أن يكون مؤذنًا حتى لو كان في نزهة هو وأصحابه ؛ فإنه ينبغي أن يبادر لذلك ، وقد سبق أن النبي ﷺ قال : « لو يعلم الناس ما في النداء ثم لم يجدوا إلا أن يستهموا عليه لاستهموا » وكذلك من فضيلة الأذان ما رواه أبو سعيد الخدري ﷺ عن النبي ﷺ : « أنه ما من إنس ، ولا جنٍّ ولا شيء يسمع صوت المؤذن إلا شهد له بذلك يوم القيامة » (٤) ، وهذا أيضًا من فضائل الأذان أن صاحبه يُشهد له يوم القيامة بأنه من المؤذنين تنويهًا لفضله وبيانًا لثوابه .

فالحاصل : أن الأذان له فضل عظيم ، وأنه ينبغي للإنسان أن يكون مؤذنًا إلا أنه إذا كان هناك مؤذن راتب ؛ فإنه لا يحل لأحد أن يتجاوزه ، ويؤذن عنه إلا إذا كان قد وكَّله أو ما أشبه ذلك يعني لا تظنوا أن الإنسان ينبغي له أن يبادر للمسجد ويؤذن قبل المؤذن الراتب ، لأن هذا عُدوان عليه ، وقد قال النبي ﷺ : « لا يؤمن الرجلُ الرجلَ في سلطانه إلا بإذنه » (٥) واللَّه الموفق .

---

(١) أخرجه أحمد في مسنده (٤/١٢١) ، والبيهقي في السنن (٣/١١٩) ، والطبراني في الكبير (١٧/٢٢٠) .
(٢) أخرجه مسلم في الصلاة (١٤) ، وابن ماجه في الأذان والسنة فيه (٧٢٥) ، والبيهقي في السنن (١/٤٣٣) .
(٣) أخرجه البخاري في الأذان (٦٠٩) ، والإمام أحمد في المسند (٣/٣٥) ، والبيهقي في السنن (١/٣٩٧ ، ٤٢٧) .
(٤) أخرجه ابن ماجه في الأذان (٧٢٢) . (٥) سبق تخريجه .

١٠٣٦ - وَعَنْ أَبي هُرَيرَةَ ﷺ قَالَ : قَالَ رسول اللَّه ﷺ : « إذا نُودِيَ بالصَّلاةِ ؛ أَدْبَرَ الشَّيطَانُ ، ولَهُ ضُراطٌ ؛ حتَّى لا يَسْمَعَ التَّأْذِينَ ، فَإذا قُضيَ النِّدَاءُ أَقْبَلَ ، حَتَّى إذا ثُوِّبَ للصَّلاةِ ، أَدْبَرَ ، حَتَّى إذا قُضِيَ التَّثْوِيبُ أَقْبَلَ ، حَتَّى يَخْطِرَ بَينَ المَرْءِ وَنَفْسِهِ يَقُولُ : اذْكُرْ كَذا ، وَاذْكُرْ كَذَا - لِمَا لَمْ يَذْكُرْ مِنْ قَبْلُ - حَتَّى يَظَلَّ الرَّجُلُ مَا يَدْرِي كَمْ صَلَّى » [١] متفقٌ عليه . « التَّثْوِيبُ » الإقَامَةُ .

١٠٣٧ - وَعَنْ عَبْدِ اللَّه بْنِ عَمْرِو بْن العَاصِ ﷺ أنه سَمِعَ رسول اللَّه ﷺ يَقُولُ : إذا سَمِعْتُمُ المُؤَذِّنَ فَقُولُوا مِثْلَ مَا يَقُولُ ، ثُمَّ صَلُّوا عَلَيَّ ؛ فَإِنَّهُ مَنْ صَلَّى عَلَيَّ صَلاةً ، صَلَّى اللَّهُ عَلَيهِ بِهَا عَشْرًا ، ثُمَّ سَلُوا اللَّه لِيَ الوَسِيلَةَ ؛ فَإِنَّهَا مَنْزِلَةٌ في الجَنَّةِ لا تَنْبَغِي إلا لعَبْدٍ منْ عِبَاد اللَّهِ ، وَأَرْجُوْ أَنْ أَكُونَ أَنَا هُوَ ، فَمَنْ سَأَلَ لِيَ الوَسِيلَةَ ؛ حَلَّتْ لَهُ الشَّفَاعَةُ » [٢] رواه مسلم .

الشرح

هذه الأحاديث أيضًا في فضل الأذان : منها حديث أبي هريرة ﷺ أنه إذا أَذَّن المؤذن أدبر الشيطان وله ضُراط كراهة أن يسمع ذكر اللَّه ﷻ وهذا هو معنى قوله تعالى : ﴿ مِن شَرِّ ٱلْوَسْوَاسِ ٱلْخَنَّاسِ ﴾ [الناس : ٤] الذي يخنس عند ذكر اللَّه ﷻ ويختفي ويبعُد ؛ لأن الشيطان أكره ما عنده عبادة اللَّه ، وأبغض ما عنده من الرجال عباد اللَّه ، وأحب ما يحب الشرك باللَّه ﷻ والمعاصي ؛ لأنه يأمر بالفحشاء : ﴿ ٱلشَّيْطَٰنُ يَعِدُكُمُ ٱلْفَقْرَ وَيَأْمُرُكُم بِٱلْفَحْشَآءِ ﴾ [٣] [البقرة : ٢٦٨] فيحب من الناس أن يأتوا ما لم يأمر اللَّه به ، ويكره أن يأتوا ما أمر اللَّه ﷻ فإذا أذَّن المؤذن ولّي وأبعد عن مكان الأذان حتى يخرج بعيدًا عن البلاد لئلا يسمع الذكر ، فإذا انتهى الأذان أقبل حتى يُغوي بني آدم ، فإذا أقيمت الصلاة فإنه في حال الإقامة أيضًا يولّي ويدبر ، ثم إذا فرغت الإقامة أدبر حتى يحول بين المرء وقلبه في صلاته : يقول له : اذكر كذا ، اذكر كذا ، اذكر كذا ... حتى لا يطيق المصلي ، وهذا أمر يشهد له الواقع فإن الإنسان أحيانًا ينسى أشياء ، فإذا دخل في الصلاة ؛ فتح الشيطان عليه باب التذكُّر حتى جعل يذكرها ، ويذكر أن رجلًا جاء إلى أبي حنيفة رحمه الله وقال : إنه استودع وديعة ونسيها ، فقال له : اذهب فتوضأ فصل ركعتين وستذكرها ، ففعل الرجل فتوضأ ودخل في الصلاة ، فذكره إياها الشيطان ، وهذا أمر يشهد له الواقع ، وصدق رسول اللَّه ﷺ . وقد أراد النبي ﷺ في هذا الحديث فائدتين عظميين :

بيان فضل الأذان ، وأنه يطرد الشياطين ؛ ولهذا استحب الكثير من العلماء إذا ولد المولود أول ما يولد أن يؤذن في أذنه [٤] حتى يطرد الشيطان عنه وبعضهم يقول : يؤذن في أذنه حتى يكون أول ما يسمع ذكر اللَّه ﷻ وعلى

---

(١) أخرجه البخاري في الأذان (٦٠٨) ، ومسلم في الصلاة (١٦) ، قوله : « قضى النداء » أي انتهى المؤذن من الأذان ، وقوله : « يخطر » أي يوسوس .

(٢) أخرجه مسلم في الصلاة (١١) ، وأبو داود في الصلاة (٥٢٣) ، والترمذي في المناقب (٣٦١٤) ، والنسائي في السنن (٢/٢٥) .

(٣) قوله : ﴿ يَعِدُكُمُ ٱلْفَقْرَ ﴾ أي يخوفكم سوء الحال والضعف ، وقوله : ﴿ وَيَأْمُرُكُم بِٱلْفَحْشَآءِ ﴾ أي يغريكم بالبخل .

(٤) انظر الحديث في : أبي داود في الأدب (٥١٠٥) .

كل حال ، فالأذان يطرد الشياطين ، ولكن هل إذا أذن الإنسان في غير وقت الأذان هل يطرد الشياطين ؟ اللَّه أعلم ، لكن ذكر اللَّه على سبيل العموم يطرد الشياطين ؛ لأن معنى الخنَّاس : الذي يخنس عند ذكر اللَّه ﷻ .

أما الحديث الثاني : ففضيلته أن النبي ﷺ أمر إذا سمعنا المؤذن أن نقول مثل ما يقول : إذا قال : اللَّه أكبر ، نقول : اللَّه أكبر ... إلخ إلا (حي على الصلاة ، حي على الفلاح) فلا نقول ؛ لأننا نحن مدعوون والمؤذن داعٍ فلا يصح أن نقول (حي على الصلاة) بعده لكننا نقول كلمة الاستعانة (لا حول ولا قوة إلا باللَّه) وهذه الكلمة تعني أننا عزمنا على الإجابة ولكننا نستعين باللَّه ﷻ ولهذا أقول : إن هذه الكلمة كلمة استعانة تعين الإنسان على أموره ، وعلى صلاح أحواله ؛ ولهذا قال الرجل المؤمن في قصة صاحبي الجنتين قال لصاحبه : ﴿ وَلَوْلَآ إِذْ دَخَلْتَ جَنَّتَكَ قُلْتَ مَا شَآءَ ٱللَّهُ لَا قُوَّةَ إِلَّا بِٱللَّهِ ﴾ [الكهف : ٣٩] يعني : لكان خيرًا لك وسلمت جنتك من التلف ، فهذه الكلمة كلمة عظيمة حتى قال النبي ﷺ لعبد اللَّه بن قيس - أبو موسى الأشعري - رضي الله عنه : «ألا أدلك على كنز من كنوز الجنة » قال : بلى . قال : «لا حول ولا قوة إلا باللَّه »[١] فإذا قال المؤذن : حي على الصلاة حي على الفلاح نقول : لا حول ولا قوة إلا باللَّه ، وإذا قال في صلاة الفجر : الصلاة خير من النوم ، نقول : الصلاة خير من النوم وإذا قال : اللَّه أكبر ، قلنا : اللَّه أكبر ، وإذا قال : لا إله إلا اللَّه ، قلنا : لا إله إلا اللَّه ، ثم بعد ذلك نصلِّي على النبي ﷺ نقول : اللَّهم صلِّ على محمد ؛ فإن من صلَّى عليه مرة واحدة صلَّى اللَّه عليه بها عشرًا ، ثم نسأل اللَّه له الوسيلة : اللَّهم رب هذه الدعوة التامة والصلاة القائمة آتِ محمدًا الوسيلة والفضيلة ، وابعثه مقامًا محمودًا الذي وعدته إنك لا تخلف الميعاد[٢] .

فإذا صلينا على النبي ، وسألنا اللَّه له الوسيلة حلَّت لنا الشفاعة - يعني شفاعة النبي ﷺ - . الوسيلة : درجة عالية في الجنة ، أعلى ما يكون لا ينبغي أن تكون إلا لعبد من عباد اللَّه ، قال النبي ﷺ «وأرجوا أن أكون أنا هو » وهذا الرجاء - إن شاء اللَّه تعالى - سيكون محققًا ، لأننا نعلم أن أفضل الخلق عند اللَّه محمد ﷺ ولأن أمة محمد تدعو اللَّه بذلك بعد كل أذان ، والدعاء بين الأذان والإقامة لا يُردُّ ، كل الأمة تقول : اللَّهم آت محمدًا الوسيلة ، وأمة محمد جديرة - بإذن اللَّه - إذا دعت أن يؤتى محمدًا الوسيلة أن يقبل اللَّه منها ، ولهذا قال : «أرجوا أن أكون أنا هو » إذن ينبغي لنا إذا سمعنا المؤذن أن نقول مثل ما يقول حتى لو كنَّا نقرأ نقطع القراءة ونجيب المؤذن ، وإذا فرغنا نقبل على القراءة ، واختلف العلماء - رحمهم اللَّه - فيما إذا كان الإنسان يصلِّي : هل يتابع المؤذن ؟ فقال - شيخ الإسلام - ابن تيمية رحمه الله نعم ولو كنت تصلِّي ؛ لأن الأذان ذكر لا يبطل الصلاة والنبي ﷺ يقول : إذا سمعتم المؤذن فقولوا مثل ما يقول ، ولا يستثنِ حالًا من الأحوال ، ولكن أكثر العلماء يقولون : إذا كنت تصلِّي لا تجب المؤذن ؛ لأن الصلاة فيها شغل خاص بها ، والأذان طويل يشغلك كثيرًا عنها ، ولكن لو عطست وأنت تصلي فقل : الحمد للَّه ، فليس هناك مانع ؛ لأنها

---

(١) أخرجه ابن ماجه في السنن (٣٨٢٤) ، وأحمد في مسنده (٥٢٥/٢) .

(٢) أخرجه البخاري في الأذان (٦١٤) ، والترمذي في الصلاة (٢١١) بدون «إنك لا تخلف الميعاد » وقال الشيخ الألباني في إرواء الغليل (٢٦١/١) وهذه الزيادة شاذة ، لأنها لم ترد في جميع طرق الحديث إلا في رواية الكشميني لصحيح البخاري خلافًا لغيره . ثم قال : ووقعت هذه الزيادة في كتاب : قاعدة جليلة في التوسل والوسيلة لابن تيمية (ص : ٣٧) والظاهر أنها مدرجة من بعض النساخ .

كلمة واحدة لا تشغلك عن الصلاة ، أما إجابة المؤذن طويلة فلا تجب المؤذن ، ولكن إذا فرغت من الصلاة فأجب المؤذن ؛ لأنك سكت اشتغالاً بصلاتك ، كذلك إذا كنت على قضاء الحاجة ، وأذن المؤذن فلا تجبه ؛ لأن هذا ذكر ، لكن إذا فرغت وخرجت من المرحاض أجب ، وقيل : بل يجيبه بقلبه ، لكن هذا فيه نظر ؛ لقول الرسول ﷺ: « فقولوا مثل ما يقول» والمتابعة بالقلب ليست قولًا ، كذلك لو سمعت عدة مؤذنين فهل تجيب كلَّ مؤذن ؟ نقول : إذا كانوا يؤذنون في صوت واحد ، بمعنى أن يبدأ الثاني قبل أن يتم الأول فانشغل بالأول ولا عليك بالثاني ، أما إذا سمعت الثاني بعد انتهاء الأول فتابعه ؛ لأنه خير وهو داخل في عموم قول الرسول ﷺ: « فقولوا مثل ما يقول» لكن العلماء - رحمهم الله - قيدوا هذا فيما لو لم يكن قد صلَّى ؛ فإن كان أذَّن وصلَّى ، ثم بعد ذلك سمع أذانًا قالوا : فلا يجبه ؛ لأنه غير مدعو بهذا الأذان ، هو أدى ما فرض عليه فلا يحتاج أن يتابع المؤذن ، ولكن في هذا القول نظر ؛ لأنه مخالف لعموم قول النبي ﷺ: « إذا سمعتم المؤذن فقولوا مثل ما يقول المؤذن» ولم يستثن شيئًا ؛ وقولهم : إنه غير مدعو بهذا الأذان ، نقول إنه غير مدعو به الآن لكن في المستقبل لابد أن يُدعى للصلاة ، والأمر هنا سهل نقول : أجب المؤذن - ولو كنت قد صلَّيت - وأنت على خير ، ولا يضرك شيء . والله الموفق .

* * *

١٠٣٨ - وَعَنْ أَبِي سَعِيدٍ الخُدْرِيِّ ﷺ أنَّ رسول الله ﷺ قَالَ : «إذا سَمِعْتُمُ النِّدَاءَ ، فَقُولُوا كَمَا يَقُولُ المُؤَذِّنُ »[١] متفقٌ عليه .

١٠٣٩ - وَعَنْ جَابِرٍ ﷺ أنَّ رسول الله ﷺ قَالَ : «مَنْ قَالَ حِينَ يَسْمَعُ النِّدَاءَ : اللَّهُمَّ رَبَّ هِذِهِ الدَّعْوَةِ التَّامَّةِ ، وَالصَّلاةِ القَائِمَةِ ، آتِ مُحَمَّدًا الوَسِيلَةَ ، وَالفَضِيلَةَ ، وَابْعَثْهُ مَقَامًا مَحْمُودًا الَّذي وَعَدْتَه ، حَلَّتْ لَهُ شَفَاعَتِي يَومَ القِيَامَةِ »[٢] رواه البخاري .

١٠٤٠ - وَعَنْ سَعْدِ بْنِ أبي وَقَّاصٍ ﷺ عَنِ النَّبِيِّ ﷺ أَنَّهُ قَالَ : مَنْ قَالَ حِينَ يَسْمَعُ المُؤَذِّنَ : أَشْهَدُ أَنْ لا إلَهَ إلا اللَّهُ وَحْدَهُ لا شَرِيكَ لَهُ ، وَأَنَّ مُحَمَّدًا عَبْدُهُ وَرَسُولُهُ ، رَضِيتُ باللَّهِ رَبًّا ، وَبِمُحَمَّدٍ رَسُولًا ، وَبالإسْلام دِينًا ، غُفِرَ لَهُ ذَنْبُهُ »[٣] رواه مسلم .

١٠٤١ - وَعَنْ أَنَسٍ ﷺ قَالَ : قَالَ رسول الله ﷺ: «الدُّعَاءُ لا يُرَدُّ بَينَ الأَذانِ وَالإقَامةِ »[٤] رواه أبو داود والترمذي وقال : حديث حسن .

الشرح

هذه الأحاديث بقية باب فضل الأذان ساقها النووي رحمه الله في (رياض الصالحين) منها : قول

---

(١) أخرجه البخاري في الأذان (٦١١)، ومسلم في الصلاة (١٠).

(٢) أخرجه البخاري في الأذان (٦١٤).

(٣) أخرجه مسلم في الصلاة (١٣)، والإمام أحمد في المسند (١٨١/١)، والحاكم في المستدرك (٢٠٣/١).

(٤) أخرجه أبو داود في الصلاة (٥٢١)، والترمذي في الصلاة (٢١٢)، وأحمد في المسند (١٥٥/٣).

النبي ﷺ : « إذا سمعتم النداء فقولوا مثل ما يقول المؤذن » ، **ومنها من قال حين يسمع النداء :** « اللَّهم رب هذه الدعوة التامة والصلاة القائمة آت محمدًا الوسيلة والفضيلة ، وابعثه مقامًا محمودًا الذي وعدته » ، **ومنها** « أشهد أن لا إله إلا اللَّه وحده لا شريك له ، وأشهد أن محمدًا عبده ورسوله ، رضيت باللَّه ربًا وبالإسلام دينًا وبمحمدٍ رسولًا » **ومنها :** « أن الدعاء بين الأذان والإقامة لا يُرد »[1] .

فأما الحديث الأول : **فقد سبق الكلام عليه أنه ينبغي للإنسان إذا سمع النداء أن يقول مثل ما يقول المؤذن كما بينا من قبل .**

وأما الحديث الثاني : **من قال حين يسمع النداء : يعني : وفرغ المؤذن ، كما دلَّ عليه الحديث السابق ، إذا فرغ المؤذن فإنك تصلِّي على النبي ﷺ ثم تقول :** « اللَّهم رب هذه الدعوة التامة والصلاة القائمة ، آت محمدًا الوسيلة والفضيلة ، وابعثه اللَّهم مقامًا محمودًا الذي وعدته » . « اللَّهم رب هذه الدعوة التامة » : **هي الدعوة إلى الصلاة والفلاح ؛ لأن ذلك من أتم ما يكون من الدعوات .** « الصلاة القائمة » **يعني : الصلاة التي ستُقام ، لأن النداء إعلان بدخول وقت الصلاة .**

« آت محمدًا الوسيلة والفضيلة » : **يعني أعطه الوسيلة وهي درجة في الجنة أعلى ما يكون من درجاتها وهي للنبي ﷺ . والفضيلة : يعني الميزة والرتبة العالية وقد حصل له ذلك .** « وابعثه مقامًا محمودًا الذي وعدته » **وقد وعده اللَّه ذلك في قوله :** ﴿ وَمِنَ ٱلَّيۡلِ فَتَهَجَّدۡ بِهِۦ نَافِلَةً لَّكَ عَسَىٰٓ أَن يَبۡعَثَكَ رَبُّكَ مَقَامًا مَّحۡمُودًا ﴾[2] [الإسراء : ٧٩] **ومن هذا المقام المحمود الشفاعة العظمى ، فإن الناس يوم القيامة يلحقهم من الكرب والغم ما لا يُطيقون في ذلك اليوم العظيم الذي مقداره خمسون ألف سنة في صعيد واحد يُسمعهم الداعي وينفذهم البصر ، عارية أجسادهم ، حافية أقدامهم ، شاخصة عيونهم ، لا يملكون لأنفسهم نفعًا ولا ضرًا يفر المرء من أخيه وأمه وأبيه وصاحبته وبنيه . الشمس تدنو منهم قدر ميل ، ولا هناك عوج ولا أمْتَ ولا ظلّ ، ولا بناء ولا شيء فيطلبون من يشفع لهم عند اللَّه ، فيأتون آدم ثم نوحًا ثم إبراهيم ثم موسى ثم عيسى حتى تصل إلى النبي ﷺ فيقوم ويشفع ، في هذا المقام يحمده الأولون والآخرون ؛ لأن الناس كلهم في هذا المقام ، فإذا تعذَّر الأنبياء الكرام الكبار : إبراهيم وموسى وعيسى ونوح وآدم أبو البشر ثم قام هذا النبي الكريم فشفع إلى اللَّه فهنا يحمده الأولون والآخرون**[3] . **وهذا من المقام المحمود الذي وعده اللَّه ﷻ .**

ثم إن هذا الحديث رواه البخاري إلى قوله : الذي وعدته ، لكن قد صحت الزيادة : إنك لا تخلف الميعاد ؛ فينبغي أن يقولها الإنسان ؛ لأنها صحيحة ، ولأن هذا دعاء المؤمنين : ﴿ رَبَّنَا وَءَاتِنَا مَا وَعَدتَّنَا عَلَىٰ رُسُلِكَ وَلَا تُخۡزِنَا يَوۡمَ ٱلۡقِيَٰمَةِۖ إِنَّكَ لَا تُخۡلِفُ ٱلۡمِيعَادَ ﴾ [آل عمران : ١٩٤] **فهو – جلَّ وعلا – لا**

---

(١) أخرجه مسلم في الصلاة (٢٠٧) وأبو داود في الصلاة (٨٧٦) .

(٢) قوله : ﴿ فَتَهَجَّدۡ ﴾ أي صل بالقرآن في بعض الليل ، قوله : ﴿ نَافِلَةً لَّكَ ﴾ أي فريضة زائدة على الصلوات الخمس ، وهي خاصة به ﷺ .

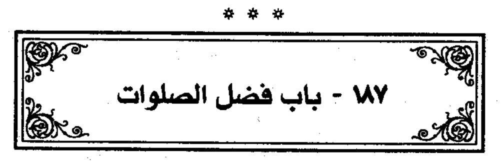
(٣) انظر حديث الشفاعة في : البخاري في الأنبياء (٣٣٤٠) ، ومسلم في الإيمان (٣٢٧) ، وأحمد في مسنده (١/ ٤ ، ٢٨٢) .

يخلف الميعاد ؟ لكمال صدقه وكمال قدرته - جلَّ وعلا - وإخلاف الوعد إما أن يكون عن كذب من الواعد ، وإما أن يكون عن عجز منه ، والله - جلَّ وعلا - أصدق القائلين وأقدر القادرين فهو ﷻ وعد نبيه في قوله : ﴿ عَسَىٰٓ أَن يَبۡعَثَكَ رَبُّكَ مَقَامٗا مَّحۡمُودٗا ﴾ [الإسراء: ٧٩] وهو - جلَّ وعلا - صادق في وعده قادر على تنفيذه .

أما من قال : أشهد أن لا إله إلا الله وأشهد أن محمدًا رسول الله ، رضيت بالله ربًّا وبالإسلام دينًا وبمحمدٍ نبيًّا ورسولًا ، فهذه تقال إذا قال المؤذن : أشهد أن لا إله إلا الله ، أشهد أن محمدًا رسول الله وكنت معه فقل هذا .

أما آخر الأحاديث : ففيه الحث على الدعاء بين الأذان والإقامة ، وأن الدعاء بينهما حَرِيٌّ بالإجابة ، فينبغي أن تنتهز هذه الفرصة لعل الله أن يستجيب لك . والله الموفق .

* * *



١٨٧ - باب فضل الصلوات

قَال الله تعالى : ﴿ إِنَّ ٱلصَّلَوٰةَ تَنۡهَىٰ عَنِ ٱلۡفَحۡشَآءِ وَٱلۡمُنكَرِۗ ﴾ [العنكبوت: ٤٥] .

الشرح

قال المؤلف رحمه الله في كتابه (رياض الصالحين) : باب فضل الصلوات .

الصلوات : هي عبادات معلومة مفتتحة بالتكبير مختتمة بالتسليم ، وهي آكد أركان الإسلام بعد الشهادتين ، وأفضل أركان الإسلام بعد الشهادتين ، وأنفع أركان الإسلام بعد الشهادتين ، وهي صلة بين الإنسان وربه ؛ لأن الإنسان يقوم بين يدي الله ﷻ يناجيه ، يقول : ﴿ ٱلۡحَمۡدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلۡعَٰلَمِينَ ﴾ فيقول الله : « حمدني عبدي » ، ﴿ ٱلرَّحۡمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ ﴾ فيقول الله : « أثنى عليَّ عبدي » ، ﴿ مَٰلِكِ يَوۡمِ ٱلدِّينِ ﴾ فيقول الله : « مَجَّدني عبدي » ، ﴿ إِيَّاكَ نَعۡبُدُ وَإِيَّاكَ نَسۡتَعِينُ ﴾ فيقول : « هذا بيني وبين عبدي نصفين » ، ﴿ ٱهۡدِنَا ٱلصِّرَٰطَ ٱلۡمُسۡتَقِيمَ ﴾ : « هذا لعبدي ، ولعبدي ما سأل » (١) . محاورة ، مناجاة ، ثم هي أيضًا أفعال وأقوال كلها تعظيم من حين يبدأ الإنسان بقوله : الله أكبر . يعني أكبر من كل شيء ، علمًا وسلطانًا وكبرياء وجبروتًا ، وكل شيء في السماوات السبع والأرضون السبع في كفه كخردلة في كف أحدنا ، فكل هذه السماوات على عظمها يطويها بيمينه ﷻ ويقبض الأرض على كبرها كقبضة أحدنا بيده على الشيء ، ثم يناجيه بكلام ثم ينحني تعظيمًا له بفعله ، ويعظمه بلسانه يقول : سبحان ربي العظيم ، ثم يرفع ثم يسجد وهذا الرفع من أجل الفصل

---

(١) أخرجه مسلم في الصلاة (٣٨) ، وأبو داود في الصلاة (١٣٢) ، والترمذي في التفسير (١) ، وأحمد في مسنده (٢/٢٤١) .

بين ركن التعظيم وهو الركوع وركن الذل وهو السجود ، ولهذا قال النبي ﷺ : « أما الركوع فعظموا فيه الرب » ، ثم يسجد ذلًا للَّه وخضوعًا فيضع أشرف ما به على مستوى أقدامه التي هي أسفل ما به يضع جبهته على الأرض ذلًا للَّه وخضوعًا للَّه ﷻ ثم يقول : « سبحان ربي الأعلى » تنزيهًا لربه ﷻ عن السفول ، كأنما يقول : سبحان من تنزه عن السفول ، فكان أعلى فوق كل شيء . فالصلاة عبادة عظيمة - نسأل اللَّه أن يفتح علينا وعليكم حتى نعرف قدرها - ويدلك على فضلها وعظمها ومحبة اللَّه لها ؛ أنه ما من فريضة فرضت على الرسول ﷺ إلا بواسطة الوحي إلا الصلاة ، فرضها اللَّه على رسوله منه له مباشرة كلمه بها ، وفرضها عليه في أعلى مكان يصل إليه البشر ، وفرضها عليه في أشرف ليلة كانت لرسوله ﷺ وهي ليلة المعراج ، وفرضها عليه عددًا كبيرًا ، خمسين صلاة في اليوم والليلة ؛ لأن اللَّه يحبها ، ولأن ثوابها عظيم ، ولكن من لطف اللَّه أن خفَّفها حتى صارت خمس صلوات عن خمسين صلاة - اللَّهم لك الحمد - والصلاة لها ثمرات جليلة عظيمة منها :

ما ذكره اللَّه تعالى في الآية التي صدَّر المؤلف بها هذا الباب ﴿ إِنَّ ٱلصَّلَوٰةَ تَنْهَىٰ عَنِ ٱلْفَحْشَآءِ وَٱلْمُنكَرِ ﴾ الفحشاء : فواحش الذنوب كالزنا واللواط وما أشبهها ، والمنكر : ما دون ذلك . الصلاة تنهى عن الفحشاء والمنكر .. لكن متى ؟ إذا كانت صلاةً مُقامة على الوجه الأكمل ؛ ولهذا نجدنا كثيرًا نصلي ولا نجد القلوب تتغير أو تكره الفحشاء أو المنكر ، أو يكون الإنسان بعد الصلاة خيرًا منها قبلها ، لا نجد هذا ؛ لأن الصلاة التي نصليها ليست الصلاة التي تنهى عن الفحشاء والمنكر ، وإلا فكلام اللَّه حق ، ووعده صدق ، الصلاة تنهى عن الفحشاء والمنكر إذا كنت قد هممت بذنب أو كان قلبك يميل إلى المعاصي ، فإنك إذا صليت انمحى ذلك كله ، لكن بشرط أن تكون الصلاة التي تراد منك والتي تريدها أنت للَّه ﷻ صلاة أكمل ما يكون ، ولهذا يجب علينا - ونسأل اللَّه أن يعيننا - أن نعتني بصلاتنا ، نكمِّلها بقدر المستطاع بجميع أركانها وشروطها وواجباتها ومكمِّلاتها ؛ فإنها تنهى عن الفحشاء والمنكر .

قال بعض السلف : من لم تنهه صلاتُه عن الفحشاء والمنكر لم يزدد بها من اللَّه إلا بُعدًا - نسأل اللَّه العافية - لأنها ليست الصلاة المطلوبة منَّا ، الصلاة المطلوبة منا أن تكون صلاة بمعنى الكلمة ، كان بعض السلف إذا دخل في صلاته - لا يحسُّ بشيء يغيب عن كل شيء إلا عن اللَّه ﷻ حتى إن عروة بن الزبير رحمه الله وهو من فقهاء التابعين أصابت أحد أعضائه آكلة - جروح تتقرح حتى تقضي على الجسم كله - فقرر الأطباء أن تقطع رجله ، حتى لا تسري الآكلة إلى بقية البدن ، وكان في ذلك الوقت لا يوجد (بنج) فقال : أمهلوني حتى أدخل في صلاتي . فلما دخل في صلاته قطعوا رجله ، فلم يحس بها ؛ لأن قلبه منشغل مع اللَّه (١) .

والقلب إذا انشغل لا يحس بما يصيب البدن ، انظر إلى الحمَّالين - مثلًا - يحمِّلون السيارة أو يفرغونها ، فيصاب أحدهم بجرح في يده أو قدمه مع التحميل ولا يحس به ، لأنه مشغول ، فإذا انتهى من العمل أحس بالجرح ، فالإنسان في صلاته لابد أن يكون مع اللَّه ﷻ لا يذهب قلبه يمينًا وشمالًا كما

(١) انظر القصة في : وفيات الأعيان (٣/٢٥٥)، والمعارف لابن قتيبة ص (٢٢٢)، وحلية الأولياء (٢/١٧٨).

هي العادة عند كثير منّا ، ولا تتسلط الهواجس ولا الوساوس [١] إلا إذا دخل الإنسان في الصلاة ، جاء الشيطان يقول له : اذكر كذا .. اذكر كذا .. افعل كذا ... لا تفعل كذا ... وهذا يخلّ بالصلاة ، ربما ينصرف الإنسان ما من صلاته شيء وإن كانت تبرأ الذمة ، لكن ما أدرك شيئًا منها ، وكان عمر ﷺ يجهز جيشه في الصلاة ، فأخذ البطّالون من هذا أنه لا بأس أن الإنسان وهو في صلاته يوسوس وما إلى ذلك ، لكن تجهيز الجيش جهاد في سبيل اللّه والجهاد في سبيل اللّه يجوز أن يدخل على الصلاة ، ولهذا نجد أن اللّه شرع للمسلمين صلاة الخوف ، فعمر ﷺ يجهز جيشه في صلاته - وهو حاضر القلب - لم يذهب قلبه يمينًا ولا شمالًا ، لأنه يعبد اللّه ﷻ وإن كان يجهز الجيش وهو يصلّي ، فنسأل اللّه تعالى أن يجعلنا وإياكم ممن تنهاه صلاته عن الفحشاء والمنكر ، وأن يتقبل منا ومنكم إنه على كل شيء قدير .

* * *

١٠٤٢ - وَعَنْ أَبي هُرَيرَةَ ﷺ قَالَ : سَمِعْتُ رسول اللّه ﷺ يَقُولُ : « أَرَأَيْتُم لَو أَنَّ نَهْرًا بِبَابِ أَحَدِكم يَغْتَسلُ منه كُلَّ يومٍ خَمْسَ مَرَّاتٍ ، هَلْ يبْقى مِنْ دَرَنِهِ شَيءٌ ؟ » قَالُوا : لا يَبْقى مِنْ دَرَنِهِ شَيءٌ ، قَالَ : « فَذلكَ مَثَلُ الصَّلَوَاتِ الخَمْسِ ، يَمْحُو اللّه بهِنَّ الخَطَايَا » [٢] متفقٌ عليه .

١٠٤٣ - وَعَنْ جَابِرٍ ﷺ قَالَ : قَالَ رسول اللّه ﷺ : « مَثَلُ الصَّلَواتِ الخَمْسِ كَمَثَلِ نَهرٍ جَارٍ غَمْرٍ عَلى بَابِ أَحَدِكُم يَغْتَسِلُ مِنْهُ كُلَّ يومٍ خَمْسَ مَرَّاتٍ » [٣] رواه مسلم . « الغَمْرُ » بفتح الغين المعجمةِ : الكَثيرُ .

١٠٤٤ - وَعَنِ ابْنِ مَسْعُودٍ ﷺ أَنَّ رَجُلًا أَصَابَ مِن امْرَأَةٍ قُبْلَةً ، فَأَتَى النَّبيَّ ﷺ فَأَخبَرَهُ ، فَأَنزَلَ اللّه تعالى : ﴿ وَأَقِمِ ٱلصَّلَوٰةَ طَرَفَيِ ٱلنَّهَارِ وَزُلَفًا مِّنَ ٱلَّيْلِۚ إِنَّ ٱلْحَسَنَٰتِ يُذْهِبْنَ ٱلسَّيِّـَٔاتِۚ ﴾ فقالَ الرَّجُلُ : أَلِيَ هذا ؟ قال : « لِجَميعِ أُمَّتي كلِّهِمْ » [٤] متفقٌ عليه .

١٠٤٥ - وعن أبي هُريرةَ ﷺ أنَّ رسول اللّه ﷺ قال : « الصَّلواتُ الخَمْسُ ، والجُمُعَةُ إلى الجُمُعَة ، كفَّارَةٌ لِمَا بَينَهُنَّ ، مالم تُغشَ الكبائِرُ » [٥] رواه مسلم .

١٠٤٦ - وعن عثمانَ بنِ عفانَ ﷺ قالَ : سمِعْتُ رسول اللّه ﷺ يقولُ : « ما مِنِ امرِئٍ مُسْلِمٍ تَحضرُهُ صَلاةٌ مَكْتوبَةٌ ، فيُحْسِنُ وُضوءَهَا ، وَخُشوعَهَا ، وَرُكوعَهَا ، إلا كانت كَفَّارَةً لِمَا قَبْلَهَا مِنَ

(١) الهواجس : هي الخواطر وتصور الفكر . والوساوس : هي الكلام الخفي المختلط (المعجم العربي الأساسي ص : ١٢٥٤ مادة هجس ، وص : ١٣٠٩ مادة وسوس) .

(٢) أخرجه البخاري في مواقيت الصلاة (٥٢٨) ، ومسلم في المساجد ومواضع الصلاة (٢٨٣) ، قوله : « بباب أحدكم » إشارة إلى سهولته وقرب تناوله ، قوله : « درنه » أي وسخه أو ما علق به من أوساخ .

(٣) أخرجه مسلم في المساجد ومواضع الصلاة (٢٨٤) ، والإمام أحمد في المسند (٤٢٦/٢) ، والبيهقي في السنن (٦٣/٣) .

(٤) أخرجه البخاري في تفسير القرآن (٤٦٨٧) ، ومسلم في التوبة (٣٩) ، قوله تعالى : ﴿ وَزُلَفًا مِّنَ ٱلَّيْلِۚ ﴾ هي ساعاته . ويدخل في صلاة طرفي النهار : الصبح والظهر والعصر . وفي زلفًا من الليل : المغرب والعشاء .

(٥) أخرجه مسلم في الطهارة (١٤) ، والإمام أحمد في مسنده (٣٥٩/٢) .

الذُّنوبِ ما لم تُؤتَ كَبِيرةٌ ، وَذلكَ الدَّهْرَ كلَّهُ » [١] رواه مسلم

الشرح

هذه الأحاديث من فضائل الصلوات فقد شبه النبي ﷺ الصلوات بنهر غَمْرٍ جارٍ . النهر الغمر : الكثير الماء . الجاري : معروف ضد الراكد ، يغتسل منه الإنسان في اليوم خمس مرات ، فهل يبقى من وسخه شيء ؟

الجواب : لا يبقى من وسخه شيء ، فهكذا الصلوات الخمس يمحو الله بهن الخطايا حتى يبقى الإنسان طاهرًا نقيًّا من الخطايا ، ولكن كما أسلفنا فيما مضى أن هذا في الصلوات التي يتمها الإنسان ، ويحققها ويحضر قلبه ، ويشعر أنه يناجي الله ﷻ فإذا تمت الصلاة على المطلوب حصل هذا الثواب العظيم .

وكذلك أيضًا من فضائل الصلوات الخمس : أن الصلوات الخمس والجمعة إلى الجمعة مكفرات لما بينهن ما لم تُغْشَ الكبائر - يعني : مالم تُفعل - فالصلوات الخمس تكفر الصغائر لكن الكبائر لا ، فالغش مثلًا في المعاملات كبيرة من كبائر الذنوب ؛ لأن النبي ﷺ تبرأ من فاعله فقال : « من غش فليس منا » [٢] .

فإذا صلَّى الإنسان الصلوات الخمس - وهو غاشٌّ - فإن الغش لا يُكَفَّر ، لأنه كبيرة من كبائر الذنوب ، الحلف الكاذب في السلعة هذا أيضًا من كبائر الذنوب ، « ثلاثة لا يكلمهم الله يوم القيامة ، ولا ينظر إليهم ، ولا يزكيهم ولهم عذاب أليم : المنّان ، والمسبل ، والمنفق سلعته بحلف كاذب » [٣] كذلك لو كان الإنسان ينزل ثوبه خُيَلاء فإن هذا من كبائر الذنوب ؛ فإنه لا يُكفَر عنه ذلك إذا صلَّى بل لو أنزله إلى أسفل من الكعب - ولو لم يكن خُيلاء - فإنه من كبائر الذنوب فلا يغفر له بصلاته ، لأنه كبيرة .

الغيبة أيضًا من كبائر الذنوب ، فإذا اغتاب الإنسان رجلًا واحدًا فقط بين صلاة الفجر والظهر مثلًا فإن صلاة الظهر لا تكفِّر هذه الغيبة ، لأنها من كبائر الذنوب - ولو كانت مرة واحدة لرجل واحد - والغيبة هي التي يسميها العوام الشّبابة يعني : أن يذكر أخاه بما يكره ، لأن النبي ﷺ سئل عنها فقال : « ذِكرُكَ أخاك بما يكره » قال : أرأيت إن كان فيه ما أقول ، قال : « إن كان فيه ما تقول فقد اغتبته ، وإن لم يكن فيه ما تقول فقد بهته » [٤] والغيبة تختلف آثامها باختلاف آثارها وعواقبها ، فمثلًا : اغتياب العلماء أشد من العوام ، واغتياب ولاة الأمور أشد من اغتياب من دونهم ، وبهذا نعرف أن هذه

---

(١) أخرجه مسلم في الطهارة (٧) ، والإمام أحمد في مسنده (٥/٢٦٠) ، والبيهقي في السنن (٢/٢٩٠) ، قوله « مالم تؤت كبيرة » أي مالم يعملها . قال النووي : معناه أن الذنوب كلها تغفر إلا الكبائر ، فإنها إنما تكفرها التوبة أو الرحمة ، قوله : « وذلك الدهر كله » أي أن التكفير بسبب الصلاة مستمر في جميع الأزمان لا يختص بزمان دون زمان .

(٢) أخرجه مسلم في الإيمان (١٦٤) ، والترمذي في السنن (١٣١٥) ، بلفظه .

(٣) أخرجه البخاري في الأحكام (٧٢١٢) ، ومسلم في الإيمان (١٧١ ، ١٧٢) ، والترمذي في السنن (١٢١١) ، وقوله : « ولا يزكيهم » أي لا يطهرهم من دنس ذنوبهم . قوله : « المسبل » هو المرخي إزاره الجار طرفه .

(٤) أخرجه أبو داود في السنن (٤٨٧٤) ، والترمذي في السنن (١٩٣٤) ، وأحمد في مسنده (٢/٣٨٤) . وقوله : « بهته » بفتح الهاء وتشديد التاء أي قلت عليه البهتان وهو كذب عظيم يبهت فيه من يقال في حقه .

النشرات التي توزع بين الناس الآن من الغيبة ، وأن نشرها بين الناس من كبائر الذنوب ، وأن الإنسان يأثم بها إثمًا عظيمًا ، لأنها توجب أن يكره الناس من اغتيبوا فيها ، وأن يتمردوا عليهم ، وتوجب أيضًا إيغار الصدور [١] ، وإيقاظ الفتن ، فهي - والعياذ باللَّه - غيبة لولاة الأمور من أكبر الآثام في الغيبة ، فالذي ينشرها أو يصورها ويوزعها آثم فاعل كبيرة - والعياذ باللَّه - عليه إثمها وإثم كل من تأثر بها - نسأل اللَّه السلامة والعافية ؛ لأن هذه الأمور لا شك أنها داخلة في الغيبة : ذكرك أخاك بما يكره .

ثانيًا : ثم ما مصدر هذا الكلام ، من قال : إن هذا الكلام صحيح ، من يقول إنه صحيح ، ولذلك يوجد في بعض النشرات أشياء كذب ليست بصحيحة فتكون جامعة بين الغيبة ، والبهتان والعياذ باللَّه .

وثالثًا : ماذا يترتب على نشر هذه الأوراق ؟ هل تصلح الأمور ؟ هل يقلع الناس عما وصِفوا به في هذه النشرات ؟ أبدًا . لا يزيد الأمر إلا شدة ؛ لذلك نرى أن توزيع مثل هذه النشرات في غيبة ولاة الأمور من كبائر الذنوب ، وأن الإنسان آثم إذا نشرها أو صورها أو وزعها بين الناس لما فيها من انطباق حقيقة الغيبة عليها ، ثم يتولد عليها مفاسد عظيمة ليست كما لو اغتبت زيدًا أو عمرًا ؛ فالأمر يكون عليه شخصيًا ، لكن هذا يترتب عليه أنه ضرر على المغتاب شخصيًا ، وضرر على الأمن ؛ لأنه يوجب إيغار الصدور وكراهة ولاة الأمور ، فنحن نحذر من نشر هذه الأوراق ، ونرى أن من شارك في نشرها أو توزيعها ؛ فإنه آثم فاعل كبيرة من كبائر الذنوب ، ولو كنا نعلم أن الأمور ستصلح بمثل هذا لكان الأمر هينًا ، ولكن الأمور ما تزداد إلا كراهة لولاة الأمور وشر مستطير ، نسأل اللَّه ﷻ أن يجازي من نشرها بما يستحق إنه على كل شيء قدير .

* * *

١٨٨ - باب فضل صلاة الصبح والعصر

١٠٤٧ - عن أبي موسى ﷺ أنَّ رسول اللَّه ﷺ قالَ : « مَنْ صَلَّى البَرْدَينِ دَخَلَ الجَنَّةَ » [٢] متفقٌ عليه . « البَرْدَانِ » : الصُّبْحُ وَالعَصْرُ .

١٠٤٨ - وعن أبي زهيرٍ عُمارَةَ بنِ رُوَيبَة ﷺ قالَ : سمِعْتُ رسول اللَّه ﷺ يقولُ : «لَنْ يَلِجَ النَّارَ أَحَدٌ صَلَّى قبلَ طُلوعِ الشَّمْسِ وَقَبْلَ غُرُوبِها » يَعْني الفَجْرَ والعَصْرَ [٣] . رواه مسلم .

---

(١) إيغار الصدور : أي أشعالها غيظًا (المعجم العربي الأساسي ص ١٣٢١ مادة وغر) .

(٢) أخرجه البخاري في مواقيت الصلاة (٥٧٤) ومسلم في المساجد ومواضع الصلاة (٢١٥) والبيهقي في السنن (٤٦٦/١) .

(٣) أخرجه مسلم في المساجد ومواضع الصلاة (٢١٣) ، والإمام أحمد في المسند (١٣٦/٤) .

الشرح

قال المؤلف رحمه الله في كتابه « رياض الصالحين » : باب فضل صلاة الصبح ، وصلاة العصر . هاتان الصلاتان تميزتا بفضل ليس في غيرهما : أما الفجر فقد قال الله تبارك وتعالى : ﴿ أَقِمِ الصَّلَوٰةَ لِدُلُوكِ الشَّمْسِ إِلَىٰ غَسَقِ اللَّيْلِ وَقُرْءَانَ الْفَجْرِ إِنَّ قُرْءَانَ الْفَجْرِ كَانَ مَشْهُودًا ﴾ (١) [الإسراء : ٧٨] يشهده الله وملائكته ، وهذه فضيلة عظيمة ، واختصَّت أيضًا بأنها مفصولة عن الصلوات الخمس منفردة بوقتها ، فبينها وبين صلاة العشاء نصف الليل الأخير ، وبينها وبين صلاة الظهر نصف النهار الأول ، لأن وقت العشاء ينتهي بنصف الليل ولا يمتد إلى طلوع الفجر ، فإذا انتصف الليل خرج وقت صلاة العشاء وبقي هذا النصف إلى الفجر ليس وقتًا لصلاة مفروضة ، لكنه وقت التهجد لمن وفقه الله عز وجل أما من طلوع الشمس إلى زوال الشمس ؛ فليس أيضًا وقتًا لصلاة مفروضة ، وإنما هو وقت لصلاة مطلقة كصلاة الضحى وما أشبه ذلك ، فتميزت بأنها مشهودة ، وبأنها منفردة بوقتها لا يتصل بها ما قبلها ولا تتصل بما بعدها ، أما صلاة العصر : فتميزت بأنها الصلاة الوسطى ، فإن الصلاة الوسطى بنص الحديث عن النبي صلى الله عليه وسلم هي صلاة العصر (٢) . وتميزت بأن الله تعالى نوَّه بفضلها وشرفها حيث خصَّها بالذكر بعد أن عمَّم فقال : ﴿ حَافِظُوا عَلَى الصَّلَوَاتِ ﴾ هذا عام ﴿ وَالصَّلَوٰةِ الْوُسْطَىٰ ﴾ [البقرة : ٢٣٨] يعني : صلاة العصر فخصَّها بالذكر لفضيلتها . وهناك فضائل وميزات اشتركت فيها صلاة الفجر وصلاة العصر منها ما أشار إليه المؤلف رحمه الله في هذا الباب :

١ - أن من صلَّى البردين دخل الجنة ، والبردان هما : صلاة الفجر ، وصلاة العصر ، لأن الفجر يأتي في بَرَاد الليل في آخره ، والعصر تأتي في براد النهار في آخره ، ولذلك قال صلى الله عليه وسلم : « من صلَّى البردين دخل الجنة » .

٢ - وكذلك أخبر صلى الله عليه وسلم : « أنه لا يلج النارَ أحدٌ صلَّى قبل طلوع الشمس وقبل غروبها » يعني : صلاة الفجر ، وصلاة العصر . ففي الأول : إثبات دخول الجنة ، وفي الثاني : انتفاء دخول النار ، فيكون هذا كقوله تعالى : ﴿ فَمَن زُحْزِحَ عَنِ النَّارِ وَأُدْخِلَ الْجَنَّةَ فَقَدْ فَازَ ﴾ [آل عمران : ١٨٥] نسأل الله تعالى أن يجعلنا وإياكم من المحافظين على الصلوات ، والصلاة الوسطى وأن يُحَرِّمنا على النار ويدخلنا الجنة إنه على كل شيء قدير .

* * *

١٠٤٩ - وعن جُنْدُبِ بن سفيانَ رضي الله عنه قالَ : قالَ رسول الله صلى الله عليه وسلم : « مَنْ صَلَّى الصُّبْحَ ؛ فَهُوَ في ذِمَّةِ اللَّه ، فَانْظُرْ يَا ابنَ آدَمَ ، لا يَطْلُبَنَّكَ اللَّهُ مِنْ ذِمَّتِهِ بِشيءٍ » (٣) رواه مسلم .

١٠٥٠ - وعن أبي هُريرةَ رضي الله عنه قالَ : قالَ رسول اللَّه صلى الله عليه وسلم : « يَتَعَاقَبُونَ فِيكم مَلَائِكَةٌ بالليلِ

---

(١) قوله : ﴿ لِدُلُوكِ ﴾ أي بعد زوالها وميلها عن وسط السماء ناحية الغرب . وقوله : ﴿ غَسَقِ ﴾ أي شدة ظلمته .

(٢) وذلك لما رواه : أحمد في مسنده (٥/١٢) ، وابن خزيمة في صحيحه (١٣٣٨) .

(٣) أخرجه مسلم في المساجد ومواضع الصلاة (٢٦١) ، وابن ماجه في الفتن (٣٩٤٦) والترمذي في الصلاة (٢٢٢) بنحوه ، قوله « في ذمة الله » أي في أمان الله وضمانه .

ومَلائِكَةٌ بِالنَّهَارِ ، وَيَجْتَمِعُونَ في صَلاةِ الصُّبْحِ وَصَلاةِ العَصْرِ ، ثُمَّ يَعْرُجُ الَّذين بَاتُوا فِيكم ، فَيَسْأَلُهُمُ اللَّهُ - وَهُوَ أَعْلَمُ بِهِم - كيفَ تَرَكْتم عِبَادِي ؟ فَيَقُولُونَ : تَرَكْنَاهُمْ وَهُمْ يُصَلُّون ، وأَتيناهُمْ وَهُمْ يُصَلُّون» (١) متفقٌ عليه .

١٠٥١ - وعن جَرِيرِ بنِ عبدِ اللَّهِ البَجَليِّ ﷺ قال : كنا عِندَ النبيِّ ﷺ ، فَنَظَرَ إلى القَمَرِ لَيلَةَ البَدْرِ فقال : « إنَّكُمْ سَتَرَوْنَ رَبَّكُمْ كما تَرَوْنَ هذا القَمَرَ ، لا تُضَامُونَ في رُؤيَتِهِ ، فَإنِ اسْتَطَعْتُمْ أَنْ لا تُغلَبُوا عَلى صَلاةٍ قَبْلَ طُلُوعِ الشَّمْسِ ، وَقَبْلَ غُرُوبِها فافْعَلُوا » (٢) متفقٌ عليه . وفي روايةٍ : « فَنَظَرَ إلى القَمَرِ لَيلَةَ أَرْبَعَ عَشْرَةَ » .

١٠٥٢ - وعن بُرَيدَةَ ﷺ قالَ : قالَ رسول اللَّه ﷺ : « مَنْ تَرَكَ صَلاةَ العَصْرِ فَقَدْ حَبِطَ عَمَلُهُ» (٣) رواه البخاري .


الشرح

هذه الأحاديث في بيان فضيلة صلاة الفجر ، وصلاة العصر فمنها :

الحديث الأول : أن النبي ﷺ قال : «من صلَّى الفجر ؛ فهو في ذمة اللَّه ﷻ » يعني : في عهده وأمانه «فلا يطلُبنَّكم اللَّه من ذمته بشيء » يعني : لا تغدوا ، ولا تعملوا عملًا سيئًا فيطالبكم اللَّه تعالى بما عهد به إليكم ، وهذا دليل على أن صلاة الفجر كالمفتاح لصلاة النهار ، بل لعمل النهار كله ، وأنها كالمعاهدة بين اللَّه بأن يقوم العبد بطاعة ربه ﷻ ممتثلًا لأمره ، مجتنبًا لنهيه .

ومن فضائل صلاة الفجر والعصر :

١ - أن اللَّه ﷻ وكَّل بالعباد ملائكة معقبات يتعاقبون فينا يحفظوننا من أمر اللَّه ﷻ يجتمعون في صلاة الفجر وفي صلاة العصر ، ثم يصعد الذين باتوا فينا إلى اللَّه ﷻ فيسألهم - وهو أعلم - كيف تركتم عبادي ، يسألهم ذلك إظهارًا لشرف العباد ، وتنويهًا بفضلهم ، وليس خفاءً عليه ، لأنه يعلم السر وأخفى ، لكنْ لإظهار فضيلتهم ، يسألهم : كيف تركتم عبادي ، فيقولون : (أتيناهم وهم يصلون ، وتركناهم وهم يصلون) لأنهم يأتون في أول الليل وأول النهار فيتعاقبون في صلاة الفجر وصلاة العصر : هؤلاء ينزلون ، وهؤلاء يصعدون ، وقيَّد اللَّه ﷻ وقت صعودهم ونزولهم بهاتين الصلاتين لفضلهما ، لأن صلاة العصر هي الصلاة الوسطى ، وصلاة الفجر هي الصلاة المشهودة .

---

(١) أخرجه البخاري في مواقيت الصلاة (٥٥٥) ، ومسلم في المساجد ومواضع الصلاة (٢١٠) ، والنسائي في السنن (٢٤٠/١) ، ومالك في الموطأ (١٧٠) ، قوله «يتعاقبون فيكم ملائكة » أي تأتي عليكم طائفة بعد طائفة ؛ وقوله : «يعرج » أي يصعد .

(٢) أخرجه البخاري في مواقيت الصلاة (٥٧٣) ، ومسلم في المساجد ومواضع الصلاة (٢١١) ، وأبو داود في السنن (٤٧٢٩) ، قوله «لا تضامون » أي لا ينالكم ظلم بأن يرى بعضكم دون بعض ، بل تستوون كلكم في رؤيته تعالى .

(٣) أخرجه البخاري في مواقيت الصلاة (٥٥٣) ، والإمام أحمد في المسند (٣٥٠/٥) ، والنسائي في السنن (٢٣٦/١) .

٢ - ومن ذلك أيضًا : ما رواه جرير بن عبدالله البجلي ﷺ أنهم كانوا مع النبي ﷺ « فنظر إلى القمر ليلة البدر - ليلة الرابع عشر - فقال ﷺ : « إنكم سترون ربكم كما ترون هذا القمر » يعني يوم القيامة يراه المؤمنون في الجنة كما يرون القمر ليلة البدر ، ليس المعنى أن الله مثل القمر ؛ لأن الله ليس كمثله شيء ، بل هو أعظم وأجل ﷻ وقد قال النبي ﷺ فيما صحَّ عنه : « حجابه النور لو كشفه لأحرقت سُبُحات وجهه ما انتهى إليه بصره من خلقه »[١] لكن المراد من المعنى تشبيه الرؤية بالرؤية ، فكما أننا نرى القمر ليلة البدر رؤية حقيقية ليس فيها اشتباه ؛ فإننا سنرى ربنا ﷻ كما نرى هذا القمر رؤية حقيقية بالعين دون اشتباه .

واعلم أن ألذ نعيم وأطيب نعيم عند أهل الجنة - أسأل الله أن يجعلني وإياكم منهم - هو النظر إلى وجه الله فلا شيء يعدله ، ولهذا قال ﷻ : ﴿ لِّلَّذِينَ أَحْسَنُوا الْحُسْنَىٰ وَزِيَادَةٌ ﴾ [يونس : ٢٦] فسَّرها النبي ﷺ بأنها النظر إلى وجه الله ﴿ الْحُسْنَىٰ ﴾ : اسم تفضيل مؤنث يقابله « أحسن » في المذكر ، فالزيادة : زيادة على الأحسن وهي النظر إلى وجه الله ﷻ : فيقول رسول الله ﷺ لما ذكر أننا نرى ربنا كما نرى القمر ليلة البدر - : « فإن استطعتم ألا تُغلبوا على صلاة قبل طلوع الشمس ، وصلاة قبل غروبها فافعلوا » والمراد من قوله : « استطعتم ألا تغلبوا على صلاة » أي على أن تأتوا بهما كاملتين .

ومنها : أن تصلي في جماعة : إن استطعتم ألا تغلبوا على هذا فافعلوا . وفي هذا دليل على أن المحافظة على صلاة الفجر ، وصلاة العصر من أسباب النظر إلى وجه الله ﷻ ويالها من قيمة عظيمة ، حافظ على صلاة الفجر وصلاة العصر تنظر إلى وجه الله يوم القيامة في جنات النعيم .

٣ - ومن فضائل صلاة العصر خاصة : أن من تركها فقد حبط عمله ، لأنها عظيمة ، وقد استدل بهذا بعض العلماء على أن من ترك صلاة العصر كَفَر ، لأنه لا يحبط الأعمال إلا الرِّدَّة كما قال تعالى : ﴿ وَلَوْ أَشْرَكُوا لَحَبِطَ عَنْهُم مَّا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴾[٢] [الأنعام : ٨٨] ، وقال تعالى : ﴿ وَمَن يَرْتَدِدْ مِنكُمْ عَن دِينِهِ فَيَمُتْ وَهُوَ كَافِرٌ فَأُولَٰئِكَ حَبِطَتْ أَعْمَالُهُمْ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ وَأُولَٰئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ ﴾ [البقرة : ٢١٧] فيقول بعض العلماء : صلاة العصر خاصة من تركها فقد كفر ، وكذلك من ترك بقية الصلوات عمومًا فقد كفر ، وهذا القول ليس ببعيد من الصواب ؛ لأن حبوط العمل لا يكون إلا بالكفر والردة ؛ ففي هذا دليل على عِظَم شأن هذه الصلاة - صلاة العصر - ولذلك نصَّ الله على المحافظة عليها من بين سائر الصلوات فقال : ﴿ حَافِظُوا عَلَى الصَّلَوَاتِ وَالصَّلَاةِ الْوُسْطَىٰ ﴾ يعني : صلاة العصر ﴿ وَقُومُوا لِلَّهِ قَانِتِينَ ﴾ .

* * *

---

(١) أخرجه مسلم في الإيمان (٢٩٣) ، وأحمد في مسنده (٤٠١/٤) ، قوله : « سبحات وجهه » أي نوره وجلاله وبهاؤه .

(٢) قوله : ﴿ لَحَبِطَ عَنْهُم ﴾ أي بطل وسقط عنهم . والقائل لهذا هم الخوارج كما قال ابن حجر في فتح الباري (٣٢/٢) وقد فصل المسألة هناك .

١٨٩ - باب فضل المشي إلى المساجد

١٠٥٣ - عن أبي هريرةَ ﷺ أنَّ النبيَّ ﷺ قالَ : « مَنْ غَدَا إلى المسْجِدِ أو رَاحَ ، أَعَدَّ اللَّهُ لهُ في الجنَّةِ نُزُلًا كُلَّما غَدَا أو رَاحَ » [١] متفقٌ عليه .

١٠٥٤ - وعنهُ : أنَّ النَّبيَّ ﷺ قَالَ : « مَنْ تَطَهَّرَ في بَيتِهِ ، ثُمَّ مَضَى إلى بَيتٍ مِنْ بُيُوتِ اللَّهِ ، لِيَقْضِيَ فَرِيضَةً مِنْ فَرَائِضِ اللَّهِ ، كانَتْ خُطُوَاتُهُ ، إحْدَاها تَحُطُّ خَطِيئَةً ، والأخرى تَرْفَعُ دَرَجَةً » [٢] رواه مسلم .

١٠٥٥ - وعن أُبَيِّ بن كعب ﷺ قالَ : كانَ رَجُلٌ مِنَ الأَنْصَارِ لا أعْلَم أحَدًا أبْعَدَ مِنَ المسْجِدِ مِنْهُ ، وَكانَتْ لا تُخْطِئُهُ صَلاةٌ ! فَقيلَ له : لو اشتَرَيتَ حِمَارًا تَركَبُهُ في الظَّلْمَاءِ وَفي الرَّمْضَاءِ ، قالَ : ما يَسُرُّني أنَّ مَنْزلي إلى جَنْبِ المسْجِدِ ؛ إنِّي أُريدُ أَنْ يُكْتَبَ لي مَمْشايَ إلى المسْجِدِ ، ورُجُوعي إذا رَجَعْتُ إلى أهْلي . فقالَ رسول اللَّه ﷺ : « قَدْ جَمَعَ اللَّهُ لكَ ذلكَ كُلَّه » [٣] رواه مسلم .

١٠٥٦ - وعن جابرٍ ﷺ قال : خَلَتِ البِقَاعُ حَولَ المسْجِد ، فَأَرادَ بَنُو سَلِمَةَ أَنْ يَنْتَقِلُوا قُرْبَ المَسْجِد ، فَبَلَغَ ذلكَ النبيَّ ﷺ ، فقالَ لهم : « بَلَغَني أنَّكُمْ تُرِيدُونَ أَن تَنْتَقِلُوا قُرْبَ المَسْجد ؟! » قالوا : نعم يا رسولَ اللَّه ، قَدْ أَرَدْنَا ذلكَ ، فقالَ : « بَنِي سَلمةَ ! دِيارَكُمْ تُكْتَبْ آثارُكُم ، ديارَكُم تُكْتَبْ آثارُكُمْ » فقالوا : ما يَسُرُّنَا أَنَّا كُنَّا تَحَوَّلْنَا [٤] . متفقٌ عليه ، وروى البخاري معناه من رواية أنس .

الشرح

قال المؤلف - رحمه اللَّه تعالى - في كتابه (رياض الصالحين) : (باب فضل المشي إلى المساجد) .

المشي للمساجد : يعني : الصلاة فيها ، والمشي إلى المساجد يكون لأسباب متعددة ، مثلًا لحضور درس ، قراءة القرآن ، إصلاح شيء فيها ، أو غير ذلك ، لكن من جاء إلى المساجد للصلاة فهذا المقصود من هذا الباب ، ففي حديث أبي هريرة أن النبي ﷺ قال : « من غدا إلى المسجد أو راح كتب اللَّه له نزلًا في الجنة كلما غدا أو راح » .

« غدا » : يعني ذهب في الصباح . « راح » : يعني ذهب في العَشي بعد الزوال ، فإنه يكتب له نُزلًا في الجنة كلما غدا أو راح .

ونحن - ولله الحمد - نغدو إلى المساجد ونروح في كل يوم وليلة خمس مرات فيكتب للإنسان نزل

---

(١) أخرجه البخاري في الأذان (٢٨٥) ، ومسلم في المساجد ومواضع الصلاة (٢٨٥) .

(٢) أخرجه مسلم في المساجد ومواضع الصلاة (٢٨٢) ، والبيهقي في السنن (٣/٦٢) .

(٣) أخرجه مسلم في المساجد ومواضع الصلاة (٢٧٨) ، قوله : « لا تخطئه صلاة » أي لا تفوته صلاة في جماعة ، قوله : « في الظلماء » أي في ظلمة الليل ، قوله « في الرمضاء » أي في وقت الحر الشديد .

(٤) أخرجه مسلم في المساجد ومواضع الصلاة (٢٨٠) ، والبخاري في الأذان (٦٥٥ ، ٦٥٦) ، من طريق آخر .

في الجنة يعني : ضيافة في الجنة ، هذه من فضائل المشي إلى المساجد ، ومن فضائلها أيضًا : أن الإنسان إذا تطهر في بيته وخرج إلى المسجد لا يخرجه إلا الصلاة ففي الحديث الذي ساقه المؤلف هنا : أنه لا يخطو خطوة إلا رفع اللَّه له بها درجة ، والخطوة الثانية يحط عنه خطيئة ، لكن في حديث آخر : «أنه لا يخطو خطوة إلا رفع اللَّه له بها درجة ، وحطَّ عنه بها خطيئة »[1] فيكتسب في الخطوة الواحدة رفع الدرجة وحَطَّ الخطيئة بشرط أن يتوضأ في بيته ويسبغ الوضوء ، ثم يخرج إلى المسجد لا يخرجه إلا الصلاة ، فهذا له بكل خطوة يخطوها أن يرفع اللَّه له بها درجة ويحط عنه خطيئة ، وهذه نعم عظيمة من اللَّه ﷻ ومن فوائد ذلك : أنه ينبغي للإنسان أن يأتي إلى المسجد ماشيًا ويرجع ماشيًا فهو الأفضل ، ودليل ذلك قصة الأنصاري الذي كان بعيد الدار فقيل له : لو اشتريت حمارًا تركبه في الظلماء والرمضاء . فقال : لا ، فأنا أحتسب على اللَّه خطايا ، فقال النبي ﷺ : «قد كتب اللَّه لك ذلك كله »[2] فدل ذلك على أن المجيء إلى المسجد على القدمين أفضل من المجيء على مركوبٍ ، لأنه يحسب لك أجر الخُطا ، ولكن إذا كان الإنسان معذورًا فلا بأس أن يأتي بالسيارة ، وخطوة السيارة دورة لعجلتها إذا دار عَجَلُها دورة واحدة فهذه خطوة ، لأنه عند دورانه يرتفع الذي باشر الأرض ثم يدور حتى يرجع ثانية إلى الأرض ، فهو كرفع القدم من الأرض ثم وضعها مرة ثانية ، فإذا كان الإنسان معذورًا ؛ فلا بأس أن يأتي بالسيارة ، وهذا أيضًا من فضائل المشي إلى المساجد : أن اللَّه تعالى يكتب للإنسان الخطوات كلما ذهب وكلما رجع ، ومما يدل أيضًا على فضل المشي إلى المساجد(ولو بعدت) حديث جابر في بني سلمة يقول : خلا ما حول المسجد - يعني : من المنازل - فأراد بنو سلمة أن يأتوا المسجد ويقربوا منه ، فبلغ ذلك النبي ﷺ فسألهم عن ذلك قالوا : نعم . أردنا أن نتحوَّل لنقرب من المسجد فقال : «يا بني سلمة : ديارَكم تُكتَبْ آثارُكم » يعني : الزموا دياركم ولا تقربوا تكتب آثاركم ، فدل هذا على أنه كلما كان منزل الإنسان أبعد من المسجد فإنه أكثر أجرًا ، لأنه قال : «تكتب آثاركم » ، ولكن لا يعني هذا أن الإنسان يتقصَّد أن ينزل بعيدًا من المسجد ، لكن إذا قدِّر ألا يصلِّي إلا في المكان البعيد أو كانت ديار قوم أو ما أشبه ذلك ، فإنه يكتب آثاره ؛ فدل ذلك على فضيلة المشي إلى المساجد ، وفضل اللَّه واسع وعطاؤه كثير ، يعطي على العمل القليل الأجر الكثير - نسأل اللَّه لنا ولكم من فضله العظيم - .

* * *

١٠٥٧ - وعنْ أَبي موسى ؓ قالَ : قالَ رسول اللَّه ﷺ : « إنَّ أَعْظَمَ النَّاسِ أَجرًا في الصَّلاةِ أَبْعَدُهُمْ إلَيها مَمْشًى ، فَأَبْعَدُهُمْ ، والَّذي يَنْتَظِرُ الصَّلاةَ حَتى يُصلِّيَها مَعَ الإمامِ أَعْظَمُ أَجرًا مِنَ الذي يُصَلِّي ثُمَّ يَنامُ »[3] متفقٌ عليه .

١٠٥٨ - وعن بُرَيدَةَ ؓ عن النبي ﷺ قال : « بشِّروا المَشَّائِينَ في الظُّلَم إلى المَساجِدِ بِالنور التامِّ

(١) أخرجه مسلم في المساجد ومواضع الصلاة (٢٥٧) .
(٢) أخرجه مسلم في المساجد (٢٧٨) ، وأحمد في مسنده (١٣٣/٥) .
(٣) أخرجه البخاري في الأذان (٦٥١) ، ومسلم في المساجد ومواضع الصلاة (٢٧٧) .

يَوْمَ القِيامَةِ »[1] رواه أبو داود ، والترمذي .

١٠٥٩ - وعن أبي هريرةَ رضي الله عنه أَنَّ رسول اللَّه ﷺ قالَ : «أَلا أَدُلُّكُمْ عَلى مَا يَمْحُو اللَّهُ بِهِ الخَطَايَا ، وَيَرْفَعُ بِهِ الدَّرَجاتِ ؟ قَالُوا : بَلى يا رسولَ اللَّهِ . قالَ : «إِسْباغُ الوُضُوءِ عَلى المَكارِهِ ، وَكَثْرَةُ الخُطَا إلى المَسَاجِدِ ، وَانْتِظَارُ الصَّلاةِ بَعْدَ الصَّلاةِ ، فَذلِكُمُ الرِّباطُ ، فَذلِكُمُ الرِّباطُ »[2] رواه مسلم .

١٠٦٠ - وعن أَبي سعيدٍ الخدْريِّ رضي الله عنه عن النبي ﷺ قال : «إذا رَأَيتُمُ الرَّجُلَ يَعْتَادُ المَسَاجِدَ فَاشْهَدُوا لَهُ بِالإيمانِ ، قالَ اللَّهُ عز وجل : ﴿ إِنَّمَا يَعْمُرُ مَسَٰجِدَ ٱللَّهِ مَنْ ءَامَنَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْأَخِرِ ﴾ الآية[3]. رواه الترمذي وقال : حديث حسن .

الشرح

هذه بقية الأحاديث في فضل المشي إلى المساجد ، ذكر الحديث الأول : أن النبي ﷺ قال : « أعظم الناس أجرًا في الصلاة أبعدهم ممشى فأبعدهم » وذلك لما سبق من أن الإنسان إذا تطهر في بيته وخرج إلى المسجد لا يخرجه إلا الصلاة ، لم يخطُ خطوة إلا رفع اللَّه له بها درجة وحُطَّ عنه خطيئة ، ولا تزال الملائكة تصلي عليه ما دام في مصلاه[4] . فإذا كان بيتك بعيدًا عن المسجد ، ولم يمنعك البعد من حضور الجماعة ؛ فإنك أعظم أجرًا من القريب ، لأن القريب ليس له عذر ، يسهل عليه الوصول للمسجد ، أما البعيد : فقد يكون له شيء من العذر لبعده ، ومع ذلك يتجشم البعد ويأتي إلى المسجد ، ويصلي مع الجماعة ، فكان هذا أفضل ، ثم ذكر أن الذي ينتظر الصلاة حتى يصليها مع الإمام أفضل من الذي يصلي ثم ينام ، وهذا في صلاة العشاء ، فإن المشروع في صلاة العشاء أن تُؤَخَّر إلى ثُلث الليل ، لأن النبي ﷺ صلَّى العشاء ذات يوم وقد مضى عامة الليل وقال : « إنه لوقتها ، لولا أن أشق على أمتي »[5] فهذا الذي صلَّى وحده ونام ؛ لأنه يشق عليه أن ينتظر صلاة الجماعة لكونهم يؤخرونها نقول له : إذا انتظرت وصليت مع الجماعة فهو أفضل ، وأما إذا كان الإمام يصلِّي على العادة ؛ فإنه لا يجوز للإنسان أن يصلي ثم ينام ؛ لأن صلاة الجماعة واجبة حتى إن النبي ﷺ قال : « لقد هممت أن آمر بالصلاة فتقام ، ثم آمر رجلًا فيصلي بالناس ، ثم أنطلق برجال معهم حزم من حطب لا يشهدون الصلاة فأحرِّق عليهم بيوتهم بالنار »[6] ثم ذكر الحديث الذي أخرجه الترمذي قال : « بشر المشَّائين في الظلم إلى المساجد بالنور التامِّ يوم القيامة » وهذا الحديث ضعيف ،

---

(١) أخرجه أبو داود في الصلاة (٥٦١)، والترمذي في الصلاة (٢٢٣)، قوله : « المشائين» أي كثيري المشي في الظلام لحضور الصلاة ، قوله « النور التام» أي : النور المتلألئ يوم القيامة الذي عبر عنه قوله تعالى : ﴿ نُورُهُمْ يَسْعَىٰ بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَبِأَيْمَٰنِهِمْ يَقُولُونَ رَبَّنَآ أَتْمِمْ لَنَا نُورَنَا ﴾.

(٢) أخرجه مسلم في الطهارة (٤١).

(٣) أخرجه الترمذي في تفسير القرآن (٣٠٩٢)، وابن ماجه في المساجد والجماعات (٨٠٢)، والإمام أحمد في المسند (٦٨/٣).

(٤) سبق تخريجه .

(٥) أخرجه مسلم في المساجد (٢١٩)، والنسائي في السنن (٢٦٧/١)، وأحمد في مسنده (١٥٠/٦).

(٦) أخرجه البخاري في الخصومات (٢٤٢٠)، ومسلم في المساجد (٥٢)، وأبو داود في الصلاة (٥٤٨)، وأحمد في مسنده (٥٣٩/٢).

لكن لا شك أن الذي يذهب إلى المسجد في الظُّلم فإن جزاءه من جنس العمل ، يعني كما تَجشَّم الظُّلَم وأتى إلى المساجد فإنه يكتب له النور يوم القيامة ، وأضعف منه الحديث الذي بعده : « إذا رأيتم الرجل يعتاد المسجد فاشهدوا له بالإيمان » ؛ فإن اللَّه يقول : ﴿ إِنَّمَا يَعْمُرُ مَسَٰجِدَ ٱللَّهِ مَنْ ءَامَنَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِ وَأَقَامَ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتَى ٱلزَّكَوٰةَ وَلَمْ يَخْشَ إِلَّا ٱللَّهَ ﴾ [التوبة : ١٨] هذا أيضًا حديث ضعيف لا يصح رفعه إلى رسول اللَّه ﷺ لكنه يكفي في فضل المشي إلى المساجد ما سبق من الأحاديث الصحيحة الواضحة نسأل اللَّه أن يرزقنا وإياكم الإخلاص في العمل والموافقة لما يرضاه جلَّ وعلا .

* * *

١٩٠ - باب فضل انتظار الصلاة

١٠٦١ - عنْ أبي هريرةَ ﷺ أَنَّ رسول اللَّه ﷺ قالَ : « لا يَزَالُ أحدُكُمْ في صَلاةٍ مَا دَامَتِ الصَّلاةُ تَحْبِسُهُ ، لا يَمْنَعُهُ أَنْ يَنْقَلِبَ إلى أَهْلِهِ إلا الصَّلاةُ » [١] متفقٌ عليه .

١٠٦٢ - وعنه أنَّ رسول اللَّه ﷺ قال : « المَلائِكَةُ تُصَلِّي عَلى أَحدِكُمْ مَا دَامَ في مُصَلَّاهُ الَّذي صَلَّى فِيهِ ، مَا لَمْ يُحْدِثْ ، تَقُولُ : اللَّهُمَّ اغْفِر لَهُ ، اللَّهُمَّ ارْحَمْهُ » [٢] رواه البخاري .

١٠٦٣ - وعن أنسٍ ﷺ أَنَّ رسول اللَّه ﷺ أَخَّرَ لَيلَةً صَلاةَ العِشاءِ إلى شَطْرِ اللَّيلِ ، ثُمَّ أَقْبَلَ عَلَينَا بِوَجْهِهِ بَعْدَ مَا صَلَّى فقال : « صَلَّى النَّاسُ وَرَقَدُوا وَلَمْ تَزَالُوا في صَلاةٍ مُنْذُ انْتَظَرْتُمُوهَا » [٣] رواه البخاري .

الشرح

هذه الأحاديث في بيان فضل انتظار الصلاة سواء كان ذلك بعد صلاة سابقة أو تقدم الإنسان إلى المسجد ينتظر الصلاة ، فقد بيَّن النبي ﷺ في هذه الأحاديث أن الإنسان ما دام ينتظر الصلاة فإنه في الصلاة ، وبيَّن أيضًا أن الملائكة تصلِّي عليه ما دام في مصلاه الذي صلَّى فيه ما لم يُحدث تقول : « اللَّهم صلِّ عليه ، اللَّهم اغفر له اللَّهم ارحمه » وقوله : « ما لم يُحدث » قيل : ما لم يُحدث حدثًا في الإسلام ؛ يعني مالم يعصِ . وقيل : ما لم يُحدث حدثًا ينقض الوضوء ؛ لأنه إذا أحدث حدثًا ينقض الوضوء ؛ فإنه يبطل الصلاة فيمنع أن يكون في صلاة ، وأيًّا كان ففيه دليل على فضيلة انتظار الصلاة بعد الصلاة ، وعلى فضيلة انتظار الصلاة وإن لم يكن بعد الصلاة ، فيؤخذ من هذا أنه ينبغي للإنسان أن يتقدم إلى المسجد ، ثم ذكر قصة تأخير النبي ﷺ صلاة العشاء إلى نصف الليل ؛ يعني أنه لم ينته منها حتى

(١) أخرجه البخاري في الأذان (٦٥٩) ، ومسلم في المساجد ومواضع الصلاة (٢٧٥) ، والبيهقي في السنن (٣/٦٥) ، قوله : « لا يزال أحدكم في صلاة » أي من حيث الثواب لا في سائر الأحكام .

(٢) أخرجه البخاري في الأذان (٦٥٩) ، قوله : « تصلي على أحدكم » أي تستغفر له ، قوله : « مالم يحدث » أي مالم يأت بشيء ينقض الوضوء .

(٣) أخرجه البخاري في مواقيت الصلاة (٥٧٢) والإمام أحمد في المسند (٣/٣٦٧) .

منتصف الليل والصحابة ينتظرون النبي ﷺ فلما انصرف من صلاته قال : « إن الناس صلُّوا وناموا وإنكم ما تزالون في صلاة ما انتظرتم الصلاة » . فكانت من وقت العشاء إلى نصف الليل أي إلى أن صلَّى النبي ﷺ ، والصحابة في انتظاره ، ولا يزالون في صلاة ما انتظروا الصلاة ، وفي هذا الحديث : دليل على أن الأفضل تأخير صلاة العشاء ، وهو كذلك إلا إذا كان يشق على الناس أو على بعضهم ، فالأفضل أن يُقَدِّموا ، وعلى هذا فإذا كانوا جماعة في سفر أو في غير سفر أو في بلد لا تُقام فيها جماعات ؛ فإن الأفضل أن تؤخر الصلاة إلى قريب من منتصف الليل ، لأن النبي ﷺ قال : « إنه لوقتها لولا أن أشقَّ على أمتي » [(١)] وكان ﷺ في صلاة العشاء إذا رآهم اجتمعوا عجَّل ، وإذا رآهم أبطؤوا أخَّر . والله الموفق .

* * *

١٩١ - باب فضل صلاة الجماعة

١٠٦٤ - عن ابن عمرَ رضي الله عنهما أنَّ رسول اللَّه ﷺ قال : « صَلاةُ الجَمَاعَةِ أفضلُ مِنْ صَلاةِ الفَذِّ بِسَبْعٍ وَعِشْرِينَ دَرَجَةً » [(٢)] . متفقٌ عليه .

١٠٦٥ - وعن أبي هريرةَ رضي الله عنه قال : قالَ رسول اللَّه ﷺ : « صَلاةُ الرَّجُلِ في جَمَاعَةٍ تُضَعَّفُ عَلى صَلاتِهِ في بَيتِهِ وَفي سُوقِهِ خمسًا وَعِشْرِينَ ضِعْفًا ، وَذلكَ أَنَّهُ إذا تَوَضَّأَ فَأَحْسَنَ الوُضُوءَ ، ثُمَّ خَرَجَ إلى المَسْجِدِ ، لا يُخْرِجُه إلا الصَّلاةُ ؛ لَمْ يخط خُطْوةً إلا رُفعت له بها دَرجةٌ ، وحُطت عَنْه بها خَطِيئةٌ ، فإذا صلى ؛ لَمْ تَزَلِ المَلائِكَة تُصَلِّي عَلَيهِ مَا دَامَ في مُصَلَّاه ، مَا لَمْ يُحْدِثْ ، تَقُولُ : اللَّهُمَّ صَلِّ عَلَيهِ ، اللَّهُمَّ ارحَمْهُ . وَلا يَزَالُ في صَلاةٍ مَا انْتَظَرَ الصَّلاةَ » [(٣)] متفقٌ عليه . وهذا لفظ البخاري .

الشرح

قال النووي رحمه الله في كتابه (رياض الصالحين) : باب فضل صلاة الجماعة يريد بذلك رحمه الله بيان فضل الصلاة مع الجماعة ، وقد اتفق العلماء على أن صلاة الجماعة من أفضل العبادات وأجلِّ الطاعات ، لكن اختلفوا هل هي سنة ، أم واجب ، أم شرط لصحة الصلاة ، على أقوال ثلاثة :

١ - أنها سنة ، إن قام بها الإنسان أثيب على ذلك ، وإن تركها فلا إثم عليه [(٤)] .

٢ - أنها واجبة ، يجب على الإنسان أن يصلِّي مع الجماعة فإن لم يفعل فهو آثم وصلاته صحيحة [(٥)] .

---

(١) سبق تخريجه .
(٢) أخرجه البخاري في الأذان (٦٤٥) ومسلم في المساجد ومواضع الصلاة (٢٤٩) .
(٣) أخرجه البخاري في الأذان (٦٤٧) .
(٤) هذا هو رأي المالكية (انظر أسهل المدارك (٢٣٩/١) وفقه الكتاب والسنة (٥٦٢/١) ،
(٥) وهذا هو رأي الحنابلة والظاهرية (انظر غاية المنتهي ١٨١/١ ، وفقه الكتاب والسنة ٥٦٣/١) .

٣ - أن الجماعة شرط لصحة الصلاة ، وأنه إذا لم يُصلِّ مع الجماعة فصلاته باطلة ، ولا تقبل منه . وهذا الأخير اختيار شيخ الإسلام ابن تيمية [١] رحمه الله ورواية عن الإمام أحمد : أن الإنسان إذا صلَّى وحدَه بدون عذر شرعي فإن صلاته لا تُقبل ، كالذي يصلِّي بغير وضوء ، وعللُّوا ذلك بأن صلاة الجماعة واجبة .

والقاعدة : أن من ترك واجبًا في الصلاة بطلت صلاته .

لكن القول الراجح : أنها واجبة يأثم الإنسان بتركها ، ولكنه إذا صلَّى وحده قبلت صلاته ، فليست شرطًا لصحة الصلاة ، ويدلُّ على هذا حديث عبد الله بن عمر رضي الله عنهما أن النبي ﷺ قال : « صلاة الجماعة أفضل من صلاة الفذِّ بسبع وعشرين درجة » . ووجه الدلالة أنه لو كانت صلاة المنفرد لا ثواب فيها ما صحت المفاضلة ولكن يأثم الإنسان الذي لا يصلِّي مع الجماعة .

وأما حديث أبي هريرة : فبيَّن النبي ﷺ أن صلاة الجماعة أفضل من صلاة المرء في بيته وفي سوقه بخمس وعشرين ضعفًا ، ولا منافاة بين الحديثين بل يؤخذ بالزائد ؛ لأن فضل الله واسع ، ثم بيَّن ذلك : « وذلك أنه إذا توضأ في بيته فأسبغ الوضوء - يعني : أتمَّه - ثم خرج من بيته إلى المسجد لا يخرجه إلا الصلاة ؛ لم يخط خطوة ؛ إلا رفعت له بها درجة ، وحُطَّت عنه بها خطيئة » الخطوة الواحدة فيها فائدتان :

١ - أنه يرفع له بها درجة . ٢ - أنه يَحَطُّ عنه بها خطيئة .

فإذا دخل المسجد وصلَّى ؛ « لم تزل الملائكة تُصلي عليه ما دام في مصلاه تقول » : « اللَّهم اغفر له ، اللَّهم ارحمه ، ما لم يحدث ، ولا يزال في صلاة ما انتظر الصلاة » وهذا أجر عظيم ، وفضل كبير ، لا ينبغي للرجل المؤمن العاقل أن يُفرِّط فيه ، لو أنه قيل لك : إن سلعتَك إذا بعتها في بلدك بعتها بمائة ، وإذا بعتها في بلدٍ آخر بالسفر إليه بعتها « بمائة وعشرة » لسافرت من أجل عشرة بالمائة ، ولم يَشُق عليك السفر ، والكثير من الناس - والعياذ بالله - حُرِموا الخير ، تجدهم قريبين من المسجد يتركون هذا الفضل العظيم وهذا المكسب العظيم ، الواحد بسبع وعشرين يعني أضعاف ، ومع ذلك لا يأتي إلى المسجد - نسأل الله العافية - وربح الدنيا - مع قلته - يسعى إليه ويهتم به مع أنه زائل ، فإن كل ما في الدنيا من نعيم فإما زائل عنك ، وإما زائل أنت عنه ، ولابد ، فما من نعيم دائم ولا إقامة دائمة ، ونعيم الآخرة باقٍ ، ومع ذلك نجد بعض الناس يفرط فيه ، ولا يهتم به ، وفضل الله تعالى يؤتيه من يشاء - نسأل الله تعالى أن يعيننا على ذكره وشكره وحسن عبادته .

* * *

١٠٦٦ - وعنهُ قالَ : أَتى النبيَّ ﷺ رَجُلٌ أَعمى ، فقال : يا رسولَ اللّهِ ، لَيسَ لي قَائِدٌ يَقُودُني إلى المَسْجِدِ ، فَسَأَلَ رسول اللّه ﷺ أنْ يُرَخِّصَ لَهُ فَيُصلِّي في بَيتِهِ ، فَرَخَّصَ لَهُ ، فَلَمَّا وَلَّى دَعَاهُ فقالَ

(١) انظر القواعد النورانية الفقهية لابن تيمية (ص ٢٧) .

لهُ : « هَلْ تَسْمَعُ النِّدَاءَ بِالصَّلاةِ ؟ » قال : نَعَمْ ، قال : « فَأَجِبْ » [١] رواه مسلم .

١٠٦٧ - وعن عبدِ اللَّهِ - وَقِيلَ : عَمْرو بْنِ قَيسٍ المَعْرُوفِ بابْنِ أُمِّ مَكْتُوم المُؤَذِّنِ ﷺ أنهُ قالَ : يا رسولَ اللَّهِ إنَّ المَدِينَةَ كَثِيرَةُ الهَوَامِّ والسِّبَاعِ . فقالَ رسول اللَّه ﷺ : « تَسْمَعُ حَيَّ عَلى الصَّلاةِ ، حَيَّ على الفَلاحِ ، فَحَيَّهلا » [٢] . رواه أبو داود بإسناد حسنٍ ، ومعنى « حَيَّهَلا » : تعالَ .

١٠٦٨ - وعن أَبي هريرةَ ﷺ أَنَّ رسول اللَّه ﷺ قالَ : « وَالَّذي نَفْسِي بِيَدِهِ ، لَقَدْ هَمَمْتُ أَن آمُرَ بحَطَبٍ فَيُحْتَطَبَ ، ثمَّ آمُرَ بالصَّلاةِ فَيُؤَذَّنَ لهَا ، ثمَّ آمُرَ رَجُلًا فَيَؤُمَّ النَّاسَ ، ثمَّ أُخَالفَ إلى رِجَالٍ فَأُحَرِّقَ عَلَيهِمْ بيوتَهمْ » [٣] متفقٌ عليه .

الشرح

هذه الأحاديث الثلاثة في بيان وجوب صلاة الجماعة ، وأن تكون في المسجد فمنها حديث أبي هريرة الأخير : أن النبي ﷺ أقسم - وهو الصادق البارُّ بدون قسم - أنه هَمَّ أن يأمر بالصلاة فتُقام ، ثم يأمر رجلًا فيصلي بالناس ، ثم ينطلق بحزم من حطب إلى قوم لا يشهدون الصلاة فيحرِّق عليهم بيوتهم بالنار . وهذا يدل على وجوب صلاة الجماعة ؛ لأن النبي ﷺ لا يهم هذا الهمَّ ؛ إلا لترك أمرٍ واجبٍ ، ولا يخبر الناس بذلك ؛ إلا ليحذرهم من تركه ومخالفته ، وإلا لم يكن هناك فائدة ، وكونه ﷺ هَمَّ أن يعاقبهم هذه العقوبة دليل على تأكُّد الجماعة وأنها أمر مهم ، وقد رُوي بسند ضعيف أنه قال : « لولا ما في البيوت من النساء والذريّة » [٤] لكن هذا ضعيف ، ولكن يكفي أن يكون هَمَّ بذلك وأخبر الأمة به .

ثم من الذي تجب عليه الجماعة ؟ هو الذي يستطيع أن يصل إليها - وهو يسمع النداء - ولهذا استفتى النبيَّ ﷺ رجلٌ قال يا رسول اللَّه : إنني رجل أعمى وليس لي قائد يقودني إلى المسجد - يريد أن يُرَخِّص له النبي ﷺ - فرخَّص له ، فلما أدبر ناداه ، قال : « هل تسمع النداء ؟ » قال : نعم ، قال : « فأجب » ، فدلَّ ذلك على وجوب صلاة الجماعة على الأعمى ، وأن العَمى ليس عذرًا في ترك الجماعة ، ودلَّ ذلك أيضًا على أنها تجب في المسجد ، وأنه ليس المقصود الجماعة فقط بل الجماعة وأن تكون في المسجد ، ودلَّ ذلك أيضًا على أن العبرة بسماع النداء ، ولكن المراد سماع النداء المعتاد وليس بالميكروفون ، ودلَّ ذلك أيضًا على أنه لا يصح اقتداء من كان خارج المسجد بمن في المسجد ولو أمكنه أن يقتدي به يعني - مثلًا - لو كان الإنسان عند بيت بجوار المسجد وهو

---

(١) أخرجه مسلم في المساجد ومواضع الصلاة (٢٥٥) .

(٢) أخرجه أبو داود في الصلاة (٥٥٣) ، قوله : « الهوام » هي خشاش الأرض المؤذية كالأفعى والعقرب ، قوله « فحيهلا » كلمة حث واستعجال وضعت موضع أجب . وقيل : حي بمعنى أقبل ، وهلا بمعنى أسرع .

(٣) أخرجه البخاري في الأذان (٦٤٤) ، ومسلم في المساجد ومواضع الصلاة (٢٥١) .

(٤) أخرجه أحمد في مسنده (٣٦٧/٢) ، والهيثمي في مجمع الزوائد (٢٤٢/٢) ، والمنذري في الترغيب والترهيب (٢٦٨/١) .

يسمع تكبيرات الإمام فقال لابنه - مثلًا - نصلّي مع الإمام جماعة في بيتنا ؛ فإن ذلك لا يصح ، لأنه لابد من حضور المكان الذي تقام فيه الجماعة ، إلا أنه إذا امتلأ المسجد ، وصلّى الناس في الأسواق ، فإن الذين خارج المسجد يكونون تبعًا لمن في المسجد في اتصال الصفوف ، وإلا فبدون اتصال الصفوف ؛ فإن من كان خارج المسجد لا تصح صلاته مع أهل المسجد ، لابد من الحضور حتى لو كان يسمع كل التكبيرات ، فإذا قال قائل : إذا كان مريضًا ولا يستطيع الحضور لكن يسمع النداء ، بواسطة الميكروفون يتابع الإمام ؟

قلنا : لا يصلّي مع الإمام ، هو معذور في ترك الجماعة ، وإذا كان من عادته أنه يصلي مع الجماعة ؛ فإنه يُكتب له ما كان يعمل لمَّا كان صحيحًا ؛ لقول النبي ﷺ « من مرض أو سافر ؛ كتب له ما كان يعمل صحيحًا مقيمًا » (١) . والله أعلم .

* * *

١٠٦٩ - وعنِ ابنِ مسعودٍ رضي الله عنه قال : مَنْ سَرَّه أَن يَلْقَى اللَّهَ تعالى غدًا مُسْلِمًا ؛ فَلْيُحَافِظْ عَلى هؤلاءِ الصَّلَوات ، حَيثُ يُنَادَى بهِنَّ ؛ فَإِنَّ اللَّهَ شَرَعَ لنبيِّكم ﷺ سُنَنَ الهُدَى ، وَإِنَّهُنَّ مِن سُنَنِ الهُدى ، وَلَو أَنَّكُم صَلَّيتم في بُيوتِكم كما يُصَلِّي هذا المُتَخَلِّفُ في بَيتِه ؛ لَتَركتم سُنَّةَ نَبيِّكم ، وَلَو تَرَكتُم سُنَّةَ نَبيِّكم ؛ لَضلَلْتُم ، ولَقَد رَأَيتُنَا وما يَتَخَلَّف عَنها إلا منَافِقٌ مَعْلُومُ النِّفَاق ، ولَقَد كانَ الرَّجُل يُؤتى بِهِ يُهَادَى بينَ الرَّجُلَينِ حَتى يُقامَ في الصَّفِّ . رواه مسلم . وفي رواية له قال : إنَّ رسول اللَّه ﷺ عَلَّمَنَا سُنَنَ الهُدَى ، وَإِنَّ مِن سُنَنِ الهُدَى : الصَّلاةَ في المَسجِدِ الَّذي يُؤَذَّنُ فيه (٢) .

الشرح

ساق المؤلف رحمه الله في باب فضل الجماعة هذا الأثر عن عبد الله بن مسعود رضي الله عنه هذا الأثر الذي كأنما يخرج من مشكاة النبوة ، كأنه من كلام الرسول ﷺ في سلاسته وحسنه ونظمه ، يقول : رضي الله عنه من سرَّه أن يلقى اللهَ غدًا مسلمًا ؛ فليحافظ على هذه الصلوات حيث يُنادى بهنَّ - وكلنا يسره أن يلقى الله تعالى مسلمًا مؤمنًا به - جل وعلا - فمن أراد ذلك فليحافظ على هؤلاء الصلوات الخمس حيث يُنادى بهن - أي : في المكان الذي نادى به عليهن ، أي : المساجد - وذلك لوجوب صلاة الجماعة في المسجد ، فلا يجوز لأحد يقدر على أن يصلي في المسجد إلا وجب عليه إذا كان من أهل وجوب الجماعة كالرجال ، ثم ذكر رضي الله عنه أن الله عز وجل شرع لنبيه ﷺ سنن الهُدى - يعني طرق الهُدى - فكل ما جاء به النبي ﷺ فهو هدًى ونور شرعه الله له : « وإنهن - يعني الصلوات الخمس - من سنن الهدى » وصدق رضي الله عنه بل الصلوات الخمس أعظم سنن الهُدى بعد الشهادتين ، لأن الصلاة أعظم أركان الإسلام بعد الشهادتين ، ثم قال : « لو أنكم صليتم في بيوتكم كما صلَّى هذا

---

(١) ذكره السيوطي في الدر المنثور (١٠٥/٦) ، وأبو نعيم في حلية الأولياء (٢٤/١٠) .

(٢) أخرجه النسائي في السنن (١٠٨/٢) ، وقوله « سنن الهدى » أي طريق الصواب .

المتخلف في بيته لتركتم سنة نبيِّكم ، ولو تركتم سنة نبيكم لضللتم » - يعني : لو أن كل واحد صلَّى في بيته كما صلَّى هذا المتخلف لتركنا السُّنة ، ولتعطلت المساجد ، ولانقطع الناس بعضهم عن بعض ، ولما تعارفوا ولا تآلفوا ، ولا حصل هذا المظهر العظيم في الدين الإسلامي ، ولكن من رحمة اللَّه وحكمته أن شرع للعباد أن يصلُّوا جماعة ، كلَّ يوم خمس مرات ؛ تلقى أخاك تسلم عليه ويسلم عليك وتقتدي معه على إمام واحد ، فهي نعمة عظيمة من أعظم روابط الأخوة في المودة والمحبة ، ثم قال : « ولقد رأيتنا وما يتخلف عنها إلا منافق » والمنافقون كثيرون لاسيما إذا اعتزَّ الإسلام وقَوِي ما استطاع الإنسان أن يُعلن كفره ؛ ولهذا لم يبرز النفاق ولم يكثر في عهده ﷺ إلا حين انتصر المسلمون في غزوة بدر ، لما انتصر المسلمون في غزوة بدر في السنة الثانية من الهجرة بدأ النفاق يظهر ، خاف الكفار على أنفسهم فصاروا يعلنون الإسلام حتى إنهم يأتون إلى الرسول ﷺ يقولون : ﴿ نَشْهَدُ إِنَّكَ لَرَسُولُ ٱللَّهِ ﴾ فيقول اللَّه ﷻ : ﴿ وَٱللَّهُ يَعْلَمُ إِنَّكَ لَرَسُولُهُۥ وَٱللَّهُ يَشْهَدُ إِنَّ ٱلْمُنَٰفِقِينَ لَكَٰذِبُونَ ﴾ [المنافقون : ١] يعني : ما قالوا صدقًا بل قالوا بألسنتهم ما ليس في قلوبهم يقول : « ما يتخلَّف عنها إلا منافق » : لماذا يتخلف المنافق ؟ لأن المنافق لا يرجو ثوابًا ، ولا يؤمن بالحساب ، فلا يحضرها ؛ ولهذا قال الرسول ﷺ : « أثقل الصلوات على المنافقين : العشاء ، والفجر »(١) ؛ لأن صلاة العشاء لا يُرى فيها الذي يتخلف ففي عهد النبي ﷺ لم يكن يوجد كهرباء ولا أنوار فيتخلَّف الإنسان ولا يُدْرَى عنه ، ثم إن صلاة العشاء والفجر تأتي في وقت الراحة والنوم ، فهي ثقيلة على المنافقين لا يأتون إليها ، ولو يعلمون ما فيهما لأتوهما ولو حبوًا ، ثم ذكر ﷺ أن الرجل من المسلمين يؤتى به يُهادى بين الرجلين حتى يُقام في الصف ، فهو رجل مريض لا يستطيع أن يمشي وحده ، يهادونه : يمشون به رويدًا رويدًا حتى يُقام في الصف فيصلِّي مع الجماعة ﷺ وبهذه الأعمال وغيرها ملكوا مشارق الأرض ومغاربها ، ولمَّا تخلَّفت الأمة الإسلامية واختلفت قلوبها ، صارت إلى ما ترون الآن : أمة ذليلة - على أنهم يبلغون مليارًا من البشر ومع ذلك هم في أذلِّ ما يكون من الأمم ، لأنهم متفرقون ، بل بعضهم متعادون ، بل بعضهم يرى أن الآخر أشدُّ عليه من اليهود والنصارى - والعياذ باللَّه - لأنهم متنازعون متفرِّقون لكن في عهد الرسول ﷺ لا يمكن أن يتخلف أحد عن الجماعة حتى ولو كان مريضًا يُؤتي به يُهادى بين الرجلين حتى يُقام في الصف ، فلو أننا عدنا إلى ما كان الصحابة عليه لصرنا أمةً عزيزةً مرموقة الكل يخافها ، والكل يصانعها ، والكل يتودَّد إليها - نسأل اللَّه أن يُعيد لنا مجدنا لديننا ويعيد لنا كرامتنا إنه على كل شيء قدير .

* * *

١٠٧٠ - وعن أَبي الدرداءِ ﷺ قال : سَمعت رسول اللَّه ﷺ يقول : « ما مِن ثَلاثَةٍ في قَرْيَةٍ وَلا بَدْوٍ لا تُقامُ فِيهِمُ الصَّلاةُ إلا قَدِ اسْتَحْوَذَ عَلَيهِمُ الشَّيطانُ ، فَعَلَيكُم بِالجَماعَةِ ؛ فَإِنَّما يَأْكُلُ الذِّئْبُ مِنَ

(١) أخرجه البخاري في مواقيت الصلاة باب رقم (٢٠) ذكر العشاء والعتمة ، وأحمد في مسنده (٢/٢٤٢) ، وأبو داود في الصلاة (٥٥٤) .

الغنَمِ القاصِيَةَ »[1] رواه أبو داود بإسناد حسن .

الشرح

قال المؤلف رحمه الله في كتابه (رياض الصالحين) في باب فضل الجماعة فيما نقله عن أبي الدرداء رضي الله عنه أن النبي ﷺ قال : « ما من ثلاثة في قرية ولا بدو - يعني : ولا بادية - لا تقام فيهم الجماعة إلا استحوذ عليهم الشيطان » يعني : معنى ذلك : أنه إذا كان ثلاثة في قرية أو في بادية لا تُقام فيهم الجماعة - ولا الجمعة - إلا استحوذ عليهم الشيطان ، فدل ذلك على أنه لا يجوز ترك الجماعة ، ولكن هذا الحديث يفيد أنه لا يجوز إذا كانوا ثلاثة فأكثر ، لكن هناك أحاديث أخرى تدلُّ على أن الجماعة تجب إذا كانا « اثنين فأكثر » أما في الجمعة ، فلا تجب إلا إذا كانوا ثلاثة فأكثر في غير البرّية[2] أما البادية والمسافرون في البر ؛ فليس عليهم جمعة ، لكن القرى والأمصار فيها جمعة ، وأدنى ما يكون ثلاثة ، فإن قيل : كيف يمكن أن تكون قرية أو مدينة ليس فيها إلا ثلاثة ، فالجواب : يمكن هذا بأن تكون هذه المدينة مسافرين جاءوا للدراسة مثلًا (كما يوجد الآن في المجتمعات في بعض البلاد الخارجية) يكون من فيها من المواطنين ثلاثة فقط والباقون كلهم مسافرون جاءوا للدراسة ؛ فهؤلاء تلزمهم الجمعة ؛ لأن فيها ثلاثة مواطنين ، وأما البادية فلا تجب عليهم الجمعة ؛ لأن الجمعة لا تكون إلا في القرى والأمصار ؛ ولهذا لم تكن البادية في عهد النبي ﷺ وهم حول المدينة يقيمون الجمعة ، وفي قوله : « وعليكم بالجماعة ، فإنما يأكل الذئب القاصية من الغنم » دليل على أنه لا ينبغي للمسلمين الافتراق والاختلاف ، وأنه واجب عليهم الاجتماع ، وأن الشرود عن الجماعة سبب في الهلاك ؛ لأن النبي ﷺ شبَّه ذلك بالقاصية من الغنم البعيدة يأكلها الذئب فتهلك ، فهكذا الذي يشذُّ عن الجماعة حتى لو برأي ينفرد به ويظن أن النصوص معه وتدل عليه ، فإن الواجب إذا رأى الإنسان في رأي أن النصوص تدل على خلاف ما يراه الجمهور ، فالواجب عليه أن يعيد النظر مرة بعد أخرى ؛ إذ لا يمكن أن يكون الجمهور توهمُّوا وأنت الذي أصبت ، ولهذا لما قال حذيفة لابن مسعود رضي الله عنه : إن قومًا يعتكفون في البصرة ، والرسول ﷺ يقول : « لا اعتكاف إلا في ثلاثة مساجد : الحرام ، والنبوي ، والأقصى »[3] - قال : لعلهم ذكروا ونُسِّيت ، وحفظوا . فوهَّم ابن مسعود حذيفة ، وذلك لأن المسلمين يكادون يجمعون على أن

---

(١) أخرجه أبو داود في الصلاة (٥٤٧) ، والنسائي في السنن (١٠٦/٢) ، وقوله « استحوذ عليهم الشيطان » أي غلبهم وحولهم إليه ، قوله « فعليك بالجماعة » أي الزم الجماعة ؛ فإن الشيطان بعيد عن الجماعة ويستولي على من فارقها ، قوله : « القاصية » أي المنفردة عن الأغنام .

(٢) هذا هو قول الأحناف ولكنهم اختلفوا هل هم ثلاثة سوى الإمام أم ثلاثة بالإمام ، فذهب أبو حنيفة ومحمد بأن العدد الذي تصح به الجمعة ثلاثة سوى الإمام ولا يشترط كونهم ممن حقر الخطبة ، ووافقهم على ذلك الأوزاعي وأبو ثور والثوري والليث . أما أبو يوسف فقال أن أقلهم اثنان سوى الإمام ووجه قوله أن الشرط أداء الجمعة بجماعة وقد وجد ؛ لأنهما مع الإمام ثلاثة وهي جمع مطلق ، ولهذا يتقدمهما الإمام ويصطفان خلفه . (انظر فقه الكتاب والسنة ٢٩١٥/٥ ، بدائع الصنائع ٢٦٨/١) .

(٣) ذكره الهندي في كنز العمال (٢٤٠/٨) .

الاعتكاف يصح في كل مسجد ، وأنه لو فرض صحة حديث حذيفة لكان معناه لا اعتكافًا تامًّا إلا في هذه المساجد الثلاثة ، وإلا فلا يمكن أن يخاطب الله بالقرآن الكريم الأمة الإسلامية يقول : ﴿ وَلَا تُبَٰشِرُوهُنَّ وَأَنتُمْ عَٰكِفُونَ فِى ٱلْمَسَٰجِدِ ﴾ [البقرة : ١٨٧] ثم نقول : لا اعتكاف إلا في ثلاثة مساجد لا يحضرها ولا واحد بالمائة من المسلمين ، هذا خلاف البلاغة وخلاف الفصاحة ، لكن بعض الناس يحب الإغراب في الشيء ، يحب أن يُذكر ، ومن أمثال العامة : خالف تُذْكر ، هو إن شذَّ وخالف ما عليه الجماعة اشتهر ، ولهذا تجد بعض الناس يُفتي بأقوال شاذَّة ما لها دليل ، مخالف للدليل ورأي الجمهور ، ثم يشتهر بهذا ، وقد شبَّه النبي ﷺ الشاذ عن الجماعة بالقاصية من الغنم يأكلها الذئب . والله الموفق .

* * *

١٩٢ - باب الحث على حضور الجماعة في الصبح والعشاء

١٠٧١ - عنْ عثمانَ بن عفانَ رضي الله عنه قالَ : سمعتُ رسول اللَّه ﷺ يقولُ : « مَنْ صَلَّى العشاءَ في جَمَاعَةٍ ، فَكَأَنَّمَا قامَ نِصفَ اللَّيلِ ، وَمَنْ صَلَّى الصبْحَ في جَمَاعَةٍ ، فَكَأَنَّما صَلَّى اللَّيلَ كُلَّهُ » رواه مسلم . وفي روايةِ الترمذي عنْ عثمانَ بنِ عفانَ رضي الله عنه قالَ : قالَ رسول اللَّه ﷺ : « مَنْ شَهِدَ العِشَاءَ في جَمَاعَةٍ كانَ لهُ قِيامُ نَصْفِ لَيلَةٍ ، وَمَنْ صَلَّى العِشَاءَ وَالفَجْرَ في جَمَاعَةٍ ، كَانَ لَهُ كَقِيَامِ لَيلَةٍ » [1] قال التِّرمذيّ : حديثٌ حسنٌ صحيحٌ .

١٠٧٢ - وعن أَبي هُريرةَ رضي الله عنه أَنَّ رسول اللَّه ﷺ قال : « وَلَو يَعْلَمُونَ مَا في العَتَمَةِ وَالصُّبْحِ لأَتوهُما وَلَو حَبْوًا » [2] متفقٌ عليه . وقد سبق بطوله .

١٠٧٣ - وعنهُ قالَ : قالَ رسول اللَّه ﷺ : « لَيسَ صَلاةٌ أَثْقَلَ عَلى المُنَافِقِينَ مِنْ صَلاةِ الفَجْرِ وَالعِشَاءِ ، وَلَو يَعْلَمُونَ مَا فِيهما لأَتوهُما وَلَو حَبْوًا » [3] متفقٌ عليه .

الشرح

قال المؤلف النووي رحمه الله في كتابه (رياض الصالحين) : (باب فضل صلاة الفجر ، وصلاة العشاء) - يعني في جماعة - ونص على هاتين الصلاتين لما فيهما من الأجر الكثير ، ففي حديث عثمان بن عفان رضي الله عنه : « أن الإنسان إذا صلَّى العشاء والفجر في جماعة فكأنما صلَّى الليل كله » . أي : فكأنه قام يصلِّي الليل كلَّه ، العشاء نصف الليل ، والفجر نصف الليل ، وهذا فضل عظيم ، يعني كأنك قائم الليل كله وأنت في فراشك ، إذا صليت الفجر في جماعة والعشاء في جماعة ، وقال (كما في حديث أبي هريرة : « لو يعلمون ما في العتمة وصلاة الفجر لأتوهما ولو حبوًا » .

---

(١) أخرجه مسلم في المساجد ومواضع الصلاة (٢٦٠) ، وأبو داود في الصلاة (٤٨) ، والإمام أحمد في المسند (١/٥٨) ، والترمذي في الصلاة (٢٢١) .

(٢) أخرجه البخاري في الأذان (٦٥٤) ، ومسلم في الصلاة (١٢٩) .

(٣) أخرجه البخاري في الأذان (٦٥٧) ، ومسلم في المساجد ومواضع الصلاة (٢٥٢) بنحوه .

« العتمة » هي العشاء ، و« الفجر » معروف ، لو يعلمون ما فيهما من الأجر والثواب لأتوهما يحبون على الأرض كما يحبو الصبي ، لما فيهما من الأجر العظيم ، وكذلك الحديث الذي بعده لأبي هريرة أيضًا : أن أثقل الصلوات على المنافقين صلاة العشاء ، وصلاة الفجر ، لأن المنافقين يصلُّون رياءً وسُمعة ، وصلاة العشاء والفجر ظُلمة لا يُشَاهدون ، فهم يأتون إليهما كُرهًا ، لكن الظهر والعصر والمغرب يأتون ، لأن الناس يشاهدونهم ، فهم يراءون الناس ، ولا يذكرون اللَّه إلا قليلًا ، والعشاء والفجر ما فيهما مراءاة ، لأنها ظلمة ، وفي عهد النبي ﷺ لم تكن توجد أنوار ولا سُرُج فلا يشاهدهم أحد ، فيكون حضورهم الفجر والعشاء ثقيلًا عليهم لفوات المراءاة ، هذا من وجه ، ومن وجه آخر أن صلاة العشاء والفجر وقت الراحة والنوم ، ففي عهد الرسول ﷺ كان الناس لا يسهرون كما يسهر الناس اليوم ، ينامون مبكرين بعد صلاة العشاء ، والفجر يقومون ، ومنهم من يمن اللَّه عليه بقيام ، ومنهم من يقوم لصلاة الفجر ، فهما ثقيلتان على المنافقين ؛ فينبغي للإنسان أن يحرص على صلاة العشاء والفجر ، لكن صلاة العشاء ليست أفضل من صلاة العصر ؛ فصلاة العصر أفضل ، ولهذا صارت صلاة الفجر قرينة للعصر وقرينة للعشاء ، فهي قرينة للعصر كما سبق « من صلَّى البردين دخل الجنة »[1] وقال ﷺ : « إنكم سترون ربكم كما ترون القمر ليلة البدر فإن استطعتم ألا تغلبوا على صلاة قبل طلوع الشمس – الفجر – وصلاة قبل غروبها – العصر – فافعلوا »[2] وهي – أي صلاة الفجر – مع العشاء أيضًا إذا اجتمعتا فكأنما قام الإنسان الليل كله ، وكذلك أيضًا « لو يعلم الناس ما في العشاء والفجر لأتوهما ولو حبوًا » فاحرص – أخي المسلم – على جميع الصلوات ، كن محافظًا عليها ، فإن اللَّه ﷻ يقول : ﴿ قَدْ أَفْلَحَ ٱلْمُؤْمِنُونَ ۝ ٱلَّذِينَ هُمْ فِي صَلَاتِهِمْ خَٰشِعُونَ ۝ وَٱلَّذِينَ هُمْ عَنِ ٱللَّغْوِ مُعْرِضُونَ ... وَٱلَّذِينَ هُمْ عَلَىٰ صَلَوَٰتِهِمْ يُحَافِظُونَ ۝ أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْوَٰرِثُونَ ۝ ٱلَّذِينَ يَرِثُونَ ٱلْفِرْدَوْسَ هُمْ فِيهَا خَٰلِدُونَ ﴾[3] [المؤمنون : ١- ١١] فذكر اللَّه الصلاة في أول الأوصاف الحميدة وفي آخرها ، وقال تعالى في سورة المعارج ﴿ إِنَّ ٱلْإِنسَٰنَ خُلِقَ هَلُوعًا ۝ إِذَا مَسَّهُ ٱلشَّرُّ جَزُوعًا ۝ وَإِذَا مَسَّهُ ٱلْخَيْرُ مَنُوعًا ۝ إِلَّا ٱلْمُصَلِّينَ ۝ ٱلَّذِينَ هُمْ عَلَىٰ صَلَاتِهِمْ دَآئِمُونَ ﴾[4] [المعارج : ١٩- ٢٣] ... وفي آخر الأوصاف الحميدة قال : ﴿ وَٱلَّذِينَ هُمْ عَلَىٰ صَلَوَٰتِهِمْ يُحَافِظُونَ ﴾ [المؤمنون : ٩] .

وفي هذا يُعرف أن الصلاة أعظم الأعمال بعد الشهادتين ، جعلني اللَّه وإياكم من مقيمي الصلاة ، ومؤتي الزكاة ، المحافظين على أداء فرائض اللَّه ، واجتناب محارمه .

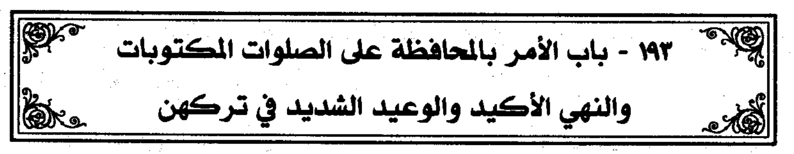
* * *

(١) أخرجه البخاري في مواقيت الصلاة (٥٧٤) ، ومسلم في المساجد (٢١٥) ، وأحمد في مسنده (٤/٨٠) ، وقوله : « البردين » هما العصر والفجر .

(٢) أخرجه البخاري في التوحيد (٧٤٣٤) ، ومسلم في المساجد (٢١١) ، وأبو داود في السنن (٤٧٢٩) .

(٣) قوله : ﴿ ٱلْفِرْدَوْسَ ﴾ أعلى الجنات وأفضلها .

(٤) قوله : ﴿ هَلُوعًا ﴾ أي شديد الجزع والضجر . وقوله : ﴿ إِذَا مَسَّهُ ٱلشَّرُّ جَزُوعًا ﴾ أي إذا مسه الفقر أصابه الجزع ولم يصبر .



١٩٣ - باب الأمر بالمحافظة على الصلوات المكتوبات والنهي الأكيد والوعيد الشديد في تركهن

قال اللَّه تعالى : ﴿ حَٰفِظُواْ عَلَى ٱلصَّلَوَٰتِ وَٱلصَّلَوٰةِ ٱلْوُسْطَىٰ ﴾ [البقرة : ٢٣٨] وقال تعالى : ﴿ فَإِن تَابُواْ وَأَقَامُواْ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتَوُاْ ٱلزَّكَوٰةَ فَخَلُّواْ سَبِيلَهُمْ ﴾ [التوبة : ٥] .

١٠٧٤ - وعنِ ابنِ مسعودٍ ﷺ قالَ : سَأَلتُ رسول اللَّه ﷺ : أيُّ الأَعْمالِ أَفْضَلُ؟ قال : « الصَّلاةُ عَلى وَقْتِها » قلتُ : ثمَّ أَيٌّ ؟ قال : « بِرُّ الوَالِدَينِ » قلتُ : ثمَّ أَيٌّ ؟ قال : « الجِهادُ في سَبيلِ اللَّهِ » (١) متفقٌ عليه .

الشرح

قال المؤلف - رحمه اللَّه تعالى - في : باب وجوب المحافظة على الصلوات والتحذير من إضاعتها . الصلوات : خمس كتبهنَّ اللَّه ﷻ على عباده في كل يوم وليلة ؛ لقوله - تبارك وتعالى - حين سأل النبي ﷺ ربه أن يخفِّف عن العباد قال : « إنهن خمس في الفعل وخمسون في الميزان » (٢) ، وسأل النبيَّ ﷺ رجلٌ عن الإسلام ومنه الصلوات فذكر له خمس صلوات ، قال : هل عليَّ غيرها ؟ قال : « لا ، إلا أن تتطوَّع » (٣) . وأرسل معاذًا إلى اليمن وقال : أخبرهم أن اللَّه افترض عليهم خمس صلوات في كل يوم وليلة (٤) .

وقد أمر اللَّه بالمحافظة عليها فقال : ﴿ حَٰفِظُواْ عَلَى ٱلصَّلَوَٰتِ وَٱلصَّلَوٰةِ ٱلْوُسْطَىٰ ﴾ خصَّها لما لها من المزيَّة والفضل . والمراد بالصلاة الوسطى صلاة العصر فسَّرها بذلك النبي ﷺ أعلم الخلق بكتاب اللَّه وبمراده ، ولا قول لأحد بعد قول النبي ﷺ ، وقال تعالى : ﴿ فَإِن تَابُواْ وَأَقَامُواْ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتَوُاْ ٱلزَّكَوٰةَ فَخَلُّواْ سَبِيلَهُمْ ﴾ وليت المؤلف جاء بالآية الأخرى : ﴿ فَإِن تَابُواْ وَأَقَامُواْ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتَوُاْ ٱلزَّكَوٰةَ فَإِخْوَٰنُكُمْ فِى ٱلدِّينِ ﴾ [التوبة : ١١] أن هذه الآية تدل على أن من لم يُقم الصلاة فهو كافر ، ثم ذكر حديث ابن مسعود ﷺ أنه سأل النبي ﷺ أيُّ العمل أحب إلى اللَّه ، قال : « الصلاة على وقتها » يعني : على الوقت المطلوب شرعًا إن كان مما يُطْلَب تقديمه فتقديمه أفضل ، وإن كان مما يُطلب تأخيره فتأخيره أفضل ، والصلوات الخمس كلها الأفضل فيها التقديم ، إلا العشاء فالأفضل فيها التأخير ما لم يشق على الناس ، وإلا الظهر في شدة الحر ؛ فالأفضل فيها التأخير تيسيرًا على الناس وتخفيفًا عليهم ، أما الفجر والعصر والمغرب ؛ فالأفضل فيها التعجيل على كل حال . لكن قال العلماء - رحمهم اللَّه -

---

(١) أخرجه البخاري في مواقيت الصلاة (٥٢٧) ومسلم في الإيمان (١٣٧) .

(٢) انظر الحديث بتمامه في : البخاري في الصلاة (٣٤٩) والترمذي في الصلاة (٢١٣) والنسائي في الصلاة (١/ ٢٢١) .

(٣) أخرجه البخاري في الإيمان (٣٤) ومسلم في الإيمان (٨) وأبو داود في الصلاة (٣٩١) .

(٤) أخرجه مسلم في الإيمان (٢٩) والترمذي في الزكاة (٦٢٥) وأحمد في مسنده (١/ ٢٣٢) .

من قام حين يسمع النداء يتوضأ ويتأهب للصلاة فهذا تقديم - يعني ليس المعنى أنه من حين يؤذن نصلّي ، المهم أن تستعد للصلاة من أول وقتها .

قال ابن مسعود : ثم أيٌّ ، قال ﷺ : « بر الوالدين » يعني : الإحسان إليهما بالقول والمال والخدمة وغير ذلك . قال : ثم أي ؟ قال : « الجهاد في سبيل اللَّه » . قال ابن مسعود : ولو استزدته لزادني يعني لو طلب زيادة ، ثم أيّ ، ثم أيّ ؟ لزاده النبي ﷺ ، قال ذلك بناء على ما عرفه من قرينة الحال . وفي الحديث دليل على إثبات المحبة لله ﷻ وأنه يحب الأعمال كما يحب العاملين ، وأن حبه يتفاوت ﷺ وفيه أن برَّ الوالدين مقدَّم على الجهاد في سبيل اللَّه ، واجبه على واجبه ، وتطوعه على تطوعه ، فمثلًا إذا كان الوالدان ليس عندهما من يعولهما ولا من يخدمهما وهما في ضرورة للولد ؛ فإنه يجب عليه أن يبقى ولا يجاهد ، وإذا كان عندهما من يقوم بخدمتهما وأمرهما فهذا بقاؤه عندهما مستحب ، ثم الجهاد إذا احتاج إليه كان أفضل ، وإن لم يحتج إليه فبرُّ الوالدين أفضل . واللَّه أعلم .

أما بالنسبة لصلاة الفجر : المعروف أن التوقيت الذي يعرفه الناس الآن ليس بصحيح ، فالتوقيت مقدم على الوقت بخمس دقائق على أقل تقدير ، وبعض الإخوان خرجوا إلى البر ، فوجدوا أن الفرق بين التوقيت الذي بأيدي الناس ، وبين طلوع الفجر نحو ثلث ساعة ، فالمسألة خطيرة جدًّا .

ولهذا لاينبغي للإنسان في صلاة الفجر أن يبادر في إقامة الصلاة ، وليتأخر ثلث ساعة ، أو (٢٥) دقيقة ، حتى يتيقن أن الفجر قد حضر وقته .

* * *

١٠٧٥ - وعن ابنِ عمرَ ﷺ قالَ : قالَ رسول اللَّه ﷺ : « بُنِيَ الإسلامُ عَلى خَمْسٍ : شَهَادَةِ أَنْ لا إلهَ إلا اللَّه ، وَأَنَّ مُحَمَّدًا رسول اللَّه ﷺ ، وإقامِ الصَّلاةِ ، وَإيتاءِ الزَّكاةِ ، وَحَجِّ البَيْتِ ، وَصَومِ رَمَضَانَ » (١) متفقٌ عليه .

الشرح

ذكر المؤلف رحمه الله في باب فضل الصلوات الخمس والنهي الأكيد ، والوعيد الشديد على من ضيَّعهن ، ما رواه ابن عمر ﷺ عن النبي ﷺ أنه قال : « بُني الإسلام على خمس : شهادة أن لا إله إلا اللَّه ، وأن محمدًا رسول اللَّه ، وإقام الصلاة ، وإيتاء الزكاة ، وحج البيت ، وصوم رمضان » هكذا رواه ابن عمر ﷺ وفي لفظ أنه قدَّم الصومَ على الحج ، فعلى الأول بنى البخاري رحمه الله الترتيب الصحيح ، فبدأ بالحج قبل الصيام ، وأكثر الأحاديث على تقديم الصيام على الحج ، قوله ﷺ : « بني الإسلام » يعني : أنه شبه الإسلام بالقصر الذي له خمسة أعمدة ، ومعلوم أن الأعمدة هي أساس البنيان ، وأنه إذا فُقدت الأعمدة تَدَاعى البنيان وانهدم ، فإن بُني على غير أعمدة بُني بناءً ضعيفًا ، ولكن الإسلام بناءٌ قوي مُحْكَم ، شرعه اللَّه ﷻ لعباده وقال : ﴿ ٱلْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ

(١) أخرجه البخاري في الإيمان (٨) ، ومسلم في الإيمان (١٩) ، والترمذي في الإيمان (٢٦٠٩) .

وَأَتْمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي وَرَضِيتُ لَكُمُ ٱلْإِسْلَٰمَ دِينًا ﴾ [المائدة: ٣] هذه الدعائم وهذه الأعمدة الخمسة بيّنها ﷺ بقوله: شهادة أن لا إله إلا الله، وأن محمدًا رسول الله - يعني: أن تشهد معترفًا بلسانك، مؤمنًا بقلبك أنه لا معبود بحق إلا الله، كلُّ ما عُبِد من دون الله فهو باطل، وهذا هو مقتضى الشرع ومقتضى العقل، لأن الذي يستحق العبادة هو الذي خلق الخلق، ومن الذي خلق الخلق؟! الله ﷻ قال تبارك وتعالى: ﴿ أَمْ خُلِقُوا۟ مِنْ غَيْرِ شَىْءٍ أَمْ هُمُ ٱلْخَٰلِقُونَ ﴾ [الطور: ٣٥] وقال تعالى: ﴿ أَفَرَءَيْتُم مَّا تُمْنُونَ ﴿٥٨﴾ ءَأَنتُمْ تَخْلُقُونَهُۥٓ أَمْ نَحْنُ ٱلْخَٰلِقُونَ ﴾ (١) [الواقعة: ٥٨، ٥٩] لو اجتمع الخلق كلهم على أن يخلقوا جنينًا واحدًا ما استطاعوا بل قال ﷻ: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ضُرِبَ مَثَلٌ فَٱسْتَمِعُوا۟ لَهُۥٓ إِنَّ ٱلَّذِينَ تَدْعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ لَن يَخْلُقُوا۟ ذُبَابًا وَلَوِ ٱجْتَمَعُوا۟ لَهُۥ ﴾ [الحج: ٧٣] سبحان الله! كل المعبودات بالباطل على اختلاف أصنافها لن يخلقوا ذبابًا ولو اجتمعوا له، هذا في القدر. في الشرع قال الله - تبارك وتعالى -: ﴿ قُل لَّئِنِ ٱجْتَمَعَتِ ٱلْإِنسُ وَٱلْجِنُّ عَلَىٰٓ أَن يَأْتُوا۟ بِمِثْلِ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانِ لَا يَأْتُونَ بِمِثْلِهِۦ ﴾ [الإسراء: ٨٨] إذن لا أحد يستطيع أن يأتي بمثل كلام الله ولا أن يخلق مثل خلق الله، ﴿ وَلَئِن سَأَلْتَهُم مَّنْ خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ لَيَقُولُنَّ ٱللَّهُ ﴾ [الزمر: ٣٨] ﴿ وَلَئِن سَأَلْتَهُم مَّنْ خَلَقَهُمْ لَيَقُولُنَّ ٱللَّهُ ﴾ [الزخرف: ٨٧] ﴿ قُلْ مَن يَرْزُقُكُم مِّنَ ٱلسَّمَآءِ وَٱلْأَرْضِ أَمَّن يَمْلِكُ ٱلسَّمْعَ وَٱلْأَبْصَٰرَ وَمَن يُخْرِجُ ٱلْحَىَّ مِنَ ٱلْمَيِّتِ وَيُخْرِجُ ٱلْمَيِّتَ مِنَ ٱلْحَىِّ وَمَن يُدَبِّرُ ٱلْأَمْرَ فَسَيَقُولُونَ ٱللَّهُ ﴾ [يونس: ٣١] إذن هذا الذي يوصف بكل هذه الأوصاف هو المستحق للعبادة، هل يستحق العبادة شيء مُدبَّر؟! الشمس مُدبَّرة ﴿ وَٱلشَّمْسُ تَجْرِى لِمُسْتَقَرٍّ لَّهَا ذَٰلِكَ تَقْدِيرُ ٱلْعَزِيزِ ٱلْعَلِيمِ ﴾ (٢) [يس: ٣٨] هل هي تستحق أن تعبد؟! القمر هل يستحق أن يعبد؟! النجم، الشجر، لا أحد يستحق، فكل مخلوق.

حاجّ إبراهيم ﷺ قومَه فلما جَنَّ عليه الليل وأظلم رأى كوكبًا، وكان من قومه من يعبد النجوم قال: هذا ربي وكالعادة غاب الكوكب، فلما أفل قال: لا أحب الأفلين؛ لأن الربّ لا يغيب عن عباده، فلما رأى القمر بازغًا - وهو أعلى النجوم إضاءة - قال: هذا ربي. فلما أفل - أي: غاب - قال: ﴿ لَئِن لَّمْ يَهْدِنِى رَبِّى لَأَكُونَنَّ مِنَ ٱلْقَوْمِ ٱلضَّآلِّينَ ﴾ [الأنعام: ٧٧] وهذا أشد من الأول، جاء إلى شيء أكبر وهي الشمس، فلما رأى الشمس بازغة قال هذا ربي فلما أفلت: غابت أعلن ﷺ التوحيد قال: ﴿ قَالَ يَٰقَوْمِ إِنِّى بَرِىٓءٌ مِّمَّا تُشْرِكُونَ ﴿٧٨﴾ إِنِّى وَجَّهْتُ وَجْهِىَ لِلَّذِى فَطَرَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ حَنِيفًا وَمَآ أَنَا۠ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ﴾ [الأنعام: ٧٨] إذن لا إله إلا الله: لا معبود بحق إلا الله وكل ما يُعبد من دون الله فهو باطل. والعجيب أن هذه الأصنام التي تعبد - يا إخواني - أنها يوم القيامة تجمع وتحصب في نار جهنم كما يحصب الحصى وكذلك عابدوها يحصبون: ﴿ إِنَّكُمْ وَمَا تَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ حَصَبُ جَهَنَّمَ أَنتُمْ لَهَا وَٰرِدُونَ ﴿٩٨﴾ لَوْ كَانَ هَٰٓؤُلَآءِ ءَالِهَةً مَّا وَرَدُوهَا وَكُلٌّ فِيهَا خَٰلِدُونَ ﴾ (٣) [الأنبياء: ٩٨، ٩٩] نعم: لو كانت هذه الأصنام آلهة حقًّا هل ترد

---

(١) قوله: ﴿ مَّا تُمْنُونَ ﴾ أي ما تقذفونه من النطف في الأرحام.

(٢) قوله: ﴿ تَجْرِى لِمُسْتَقَرٍّ لَّهَا ﴾ أي تسير مسرعة إلى مكان استقرارها كل يوم.

(٣) قوله: ﴿ حَصَبُ جَهَنَّمَ ﴾ أي وقود جهنم، والحصب هو ما يرمى في النار وتهيج، وقوله: ﴿ وَٰرِدُونَ ﴾ أي داخلون.

النار ؟! وكذلك الذين يعبدونها ، لما جاءت هذه الآيات أراد المشركون أن يشبهوا بها قالوا : عيسى ابن مريم يعبد ، إذن يُلقى في النار ، فأنزل الله تعالى قوله : ﴿ إِنَّ الَّذِينَ سَبَقَتْ لَهُم مِّنَّا الْحُسْنَىٰ أُولَٰئِكَ عَنْهَا مُبْعَدُونَ ﴿١٠١﴾ لَا يَسْمَعُونَ حَسِيسَهَا وَهُمْ فِي مَا اشْتَهَتْ أَنفُسُهُمْ خَالِدُونَ ﴿١٠٢﴾ لَا يَحْزُنُهُمُ الْفَزَعُ الْأَكْبَرُ وَتَتَلَقَّاهُمُ الْمَلَائِكَةُ هَٰذَا يَوْمُكُمُ الَّذِي كُنتُمْ تُوعَدُونَ ﴾ (١) [الأنبياء: ١٠١- ١٠٣] فعيسى ابن مريم ممن سبقت لهم من الله الحسنى ، لأنه أحد أولي العزم من الرسل ، المهم - يا إخواني - أن تعلموا أن كل من يُعبد من دون الله ؛ فهو باطل سواء كان نجمًا أو وليًا أو صالحًا أو عالمًا أو رئيسًا ، كل ما يعبد من دون الله فهو باطل ، عبادته باطلة ، فشهادة أن لا إله إلا الله تتضمن الإخلاص الذي لا تصح العبادة إلا به ، والمتابعة : التي يتضمنها شهادة أن محمدًا رسول الله ، ولهذا يُعَدُّ هذا ركنًا واحدًا .

أما الثاني : فهو إقامة الصلاة ؛ يعني الصلوات الخمس وما يتبعها من النوافل لكون الصلاة من أركان الإسلام والصلوات الواجبة بالإجماع وهي خمس : الصبح ، والظهر ، والعصر ، والمغرب ، والعشاء ، والجمعة تكون في محل الظهر ، وما عدا ذلك فمختلف فيه : فالوتر اختلف العلماء هل هو واجب يأثم الإنسان بتركه أم سنة أم فيه تفصيل وهو : أن من له ورد من الليل يجب عليه أن يوتر ، ومن ليس له ورد ، وإنما ينام إذا صلى العشاء إلى الفجر ؛ فهذا لا يجب عليه الوتر (٢) ؟ وأما صلاة الكسوف فمختلف فيها ؛ من العلماء من يقول : واجبة (٣) ، ومنهم من يقول : ليست بواجبة ، والصحيح أنها واجبة (٤) ، لأن النبي ﷺ أمر بها وفزع لما كسفت الشمس وصلاها صلاةً غريبة ، لكنها فرض كفاية إذا قام بها من يكفي من أهل البلد سقطت عن الباقين ، وكذلك أيضًا اختلف العلماء - رحمهم الله - في تحية المسجد : هل هي واجبة أم لا ؟ والقول بالوجوب قول قوي ، لكن يمنع القطع به ؛ أحاديث تدل على أنها ليست بواجبة ، مثل مجيء الإمام يوم الجمعة ، فإن النبي ﷺ يدخل المسجد يوم الجمعة ويصعد المنبر ويخطب الناس ويجلس ولا يصلِّي تحية المسجد ، وكذلك رُويت أخبار أخرى تدل على عدم وجوب تحية المسجد .

وكذلك صلاة العيدين اختلف فيها العلماء : منهم من يقول : إنها واجبة (٥) ، ومنهم من يقول :

---

(١) قوله : ﴿ حَسِيسَهَا ﴾ أي صوتها الذي يحس من حركة تلهبها إذا نزلوا منازلهم في الجنة ، وقوله : ﴿ الْفَزَعُ الْأَكْبَرُ ﴾ أي أهوال يوم القيامة .

(٢) انظر آراء الفقهاء في : بدائع الصنائع (١/ ٢٧٠) ، والبناية (٢/ ٤٨٨) ، والمجموع (٤/ ١٢) ، وأسهل المدارك (١/ ٣٠٢) ، والمغني (٢/ ١٦١) .

(٣) وهو رأي الحنفية فقط (انظر بدائع الصنائع ١/ ٢٨٠ ، وشرح فتح القدير ٢/ ٨٤) .

(٤) الصحيح الذي عليه عامة العلماء أنها غير واجبة وأنها سنة مؤكدة ويدل على عدم وجوبها الحديث الذي أخرجه مسلم في الإيمان (٢٩) عن الرجل الذي سأل النبي ﷺ عما عليه من فروض فأخبره عن الصلاة ، والزكاة ، والصوم والحج ، وفي كل مرة كان النبي ﷺ يخبره بقوله : « لا إلا أن تطوع » ولذا فإن غير الصلوات الخمس المكتوبة ليس واجبًا ومن جملة ذلك صلاة الكسوف (انظر الوسيط في المذاهب ٢/ ٣٣٩ ، المبسوط ٢/ ٧٥ ، وشرح فتح القدير ٢/ ٨٤ ، وحاشية ابن عابدين ٢/ ١٨٢) .

(٥) وهذا هو رأي الحنفية وبعض الشافعية (انظر بدائع الصنائع ١/ ٢٧٤ ، وشرح القدير ٢/ ٧٠ ، وفقه الكتاب والسنة ٥/ ٢٩٤٩) .

إنها سنة [١] ، ومنهم من يقول : فرض كفاية [٢] ، المهم أن الصلوات المجمع على وجوبها هي : الخمس ، والجمعة بدلًا عن الظهر .

ومعنى : « إقامة الصلاة » : أن يأتي بها الإنسان في أوقاتها متممًا شروطها وأركانها وواجباتها ، ومكملًا ذلك بمستحباتها ، هذا هو إقام الصلاة .

وأما « إيتاء الزكاة » : فهو إعطاء الزكاة لمستحقها ، والزكاة هي القسط من مالك الذي أوجبه الله عليك في الذهب والفضة ، والنقد ، وعروض التجارة ، والخارج من الأرض ، وبهيمة الأنعام ، فيجب أن تعطي الزكاة هذه لمستحقيها وقد بيَّن الله المستحقين لها في قوله : ﴿ إِنَّمَا ٱلصَّدَقَٰتُ لِلْفُقَرَآءِ وَٱلْمَسَٰكِينِ وَٱلْعَٰمِلِينَ عَلَيْهَا وَٱلْمُؤَلَّفَةِ قُلُوبُهُمْ وَفِى ٱلرِّقَابِ وَٱلْغَٰرِمِينَ وَفِى سَبِيلِ ٱللَّهِ وَٱبْنِ ٱلسَّبِيلِ ﴾ [التوبة : ٦٠] .

وأما حج البيت : فهو قَصْدُ مكة لأداء المناسك وقد فرضه الله ﷻ على هذه الأمة في السنة التاسعة أو العاشرة من الهجرة .

وأما صوم رمضان : فهو صوم الشهر الذي بين شعبانَ وشوال ، وفُرض في السنة الثانية من الهجرة .

فهذه هي أركان الإسلام ، من أتى بها فهو المسلم ، وقد بَنَى على أساس متين ، ومن لم يأت بها فهو بين فاسق أو كافر ، فمن لم يأت بالشهادتين فهو كافر ، ومن لم يُصَلِّ فهو كافر ، ومن منع الزكاة فهو فاسق ، ومن لم يحج فهو فاسق ، ومن لم يصم فهو فاسق . والله الموفق .

* * *

١٠٧٦ - وعنهُ قال : قالَ رسول الله ﷺ : « أُمِرْتُ أَنْ أُقاتِلَ الناسَ حتَّى يَشْهدُوا أَنْ لا إله إلا الله وَأَنَّ مُحَمَّدًا رسولُ الله ، وَيُقِيمُوا الصَّلاةَ ، وَيُؤْتُوا الزَّكاةَ ، فَإذا فَعَلُوا ذلكَ ؛ عَصَمُوا مِنِّي دِماءَهُمْ وَأَمْوَالَهمْ إلا بحَقِّ الإسْلامِ ، وَحِسَابُهمْ عَلى اللهِ » [٣] متفقٌ عليه .

الشرح

قال النووي رحمه الله : في باب المحافظة على الصلوات الخمس فيما نقله عن عبد الله بن عمر رضي الله عنهما أن رسول الله ﷺ قال : « أُمِرت أن أقاتل الناس حتى يشهدوا أن لا إله إلا الله ، وأن محمدًا رسول الله ويقيموا الصلاة ويؤتوا الزكاة » ، « أُمرت » : الآمر له هو الله ﷻ « أن أقاتل الناس حتى يشهدوا أن لا إله إلا الله ، وأن محمدًا رسول الله ، ويقيموا الصلاة ، ويؤتوا الزكاة » فالذي أمره بقتالهم هو

---

(١) وهذا هو رأي بعض الشافعية والمالكية (انظر مغني المحتاج ٣١٠/١) .

(٢) هذا هو رأي بعض الشافعية والحنابلة في ظاهر المذاهب (انظر مغني المحتاج ٣١٠/١ ، والمغني ٣٦٧/٢ ، وفقه الكتاب والسنة ٢٩٤٩/٥ - ٢٩٥٢) .

(٣) أخرجه البخاري في الإيمان (٢٥) ، ومسلم في الإيمان (٣٦) ، والنسائي في السنن (١٤/٥) والإمام أحمد في المسند (٣٤٥/٢) ، وأبو داود في الجهاد (٢٦٤٠) ، قوله « إلا بحقها » أي : الدماء والأموال ؛ يعني هي معصومة إلا عند حق الله فيها كردة وحدّ وترك صلاة وزكاة ، أو حق آدمي ، قوله « وحسابهم على الله » أي : فيما يسترونه من كفر وإثم .

الذي خلقهم ، وله أن يتصرف في ملكه كيف يشاء ، له أن يأمر بقتل هؤلاء ، وله أن يأمر بقتالهم إلى أن يُسلموا ، فإذا أسلموا كفَّ عنهم ، وهذا الحديث مخصوص بقوله تعالى : ﴿قَٰتِلُواْ ٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَلَا بِٱلْيَوْمِ ٱلْآخِرِ وَلَا يُحَرِّمُونَ مَا حَرَّمَ ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥ وَلَا يَدِينُونَ دِينَ ٱلْحَقِّ مِنَ ٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلْكِتَٰبَ حَتَّىٰ يُعْطُواْ ٱلْجِزْيَةَ عَن يَدٍ وَهُمْ صَٰغِرُونَ﴾ [التوبة : ٢٩] وكذلك حديث بريدة بن الطفيل أن النبي ﷺ كان إذا أمَّر أميرًا على جيش أو سرية أوصاه بتقوى الله ﷻ وذكر الحديث وفيه أنهم إذا أرادوا الجزية فاقبلها وكف عنهم [١] . وعلى هذا فيقاتل الكفار إلى غايتين : إما أن يسلموا ، وإما أن يعطوا الجزية عن يد - وهم صاغرون - فإن لم يفعلوا لا هذا ولا هذا وجب على المسلمين قتالهم ، وقتال المسلمين لهم بأمر الله الذي هو ربهم وربُّ الكافرين ، ليس تعصُّبًا من المسلمين لدينهم وحُقَّ لهم أن يتعصبوا له ، لأنه دين الله ﷻ . ودين غير المسلمين دين باطل منسوخ لا يقبله الله ﷻ من أي أحد ، كما قال تعالى : ﴿وَمَن يَبْتَغِ غَيْرَ ٱلْإِسْلَٰمِ دِينًا فَلَن يُقْبَلَ مِنْهُ﴾ [٢] [آل عمران : ٨٥] وقوله : « حتى يشهدوا أن لا إله إلا الله ، وأن محمدًا رسول الله ، ويقيموا الصلاة ويؤتوا الزكاة » سبق الكلام عليه .

« إذا فعلوا ذلك عصموا منِّي دماءهم وأموالهم » وفي هذا دليل على أن الكفار إذا قوتلوا فأموالهم حلالٌ لنا ، وكما أننا نستبيح دماءهم فنستبيح أموالهم من باب أولى ، وكذلك أيضًا نستبيح نساءهم وذريَّاتهم يكونون سبيًا لنا ، ويكونون أرقَّاء للمسلمين ، لأننا نأخذهم بكلمات الله ﷻ بأمره ، ودينه ، وشرعه . « فإذا فعلوا ذلك عصموا مني دماءهم وأموالهم إلا بحق الإسلام وحسابهم على الله » وقد قاتل أبو بكر الصديق ؓ مانعي الزكاة حتى راجعه الصحابة ، وراجعه عمر في ذلك ، ولكنه أصرَّ على مقاتلتهم وقال : « والله لو منعوني عَناقًا - أي ماعزًا صغيرة ، وفي رواية : عقالًا ، وهي ما تربط به البعير - كانوا يؤدونه لرسول الله ﷺ لقاتلتهم على ذلك » يقول : فلما رأيت أن الله شرح صدر أبي بكر للقتال علمت أنه الحق [٣] . فهذا دليل على أهمية الصلاة ، وأن الناس يُقاتلون على تركها إلى أن يُصلُّوا . والله الموفق .

* * *

١٠٧٧ - وعن معاذٍ ؓ قالَ : بعثني رسول الله ﷺ إلى اليَمَن فقال : « إِنَّكَ تَأْتِي قَوْمًا مِنْ أَهْلِ الكتاب ، فَادْعُهُمْ إلى شَهَادَةِ أَنْ لا إلهَ إلا الله ، وَأَنِّي رسولُ الله ، فَإِنْ أَطاعوا لِذلكَ ، فَأَعْلِمْهُمْ أَنَّ اللَّهَ تَعَالى افْتَرَض عَلَيهِمْ خمْسَ صَلواتٍ في كلِّ يوم ولَيلَةٍ ، فَإِنْ هُمْ أَطَاعوا لِذلكَ ، فَأَعْلِمْهُمْ أَنَّ اللَّهَ تَعَالى افْتَرَضَ عَلَيهِمْ صَدَقَةً تُؤخَذُ مِنْ أَغْنِيائهمْ فَتُرَدُّ عَلى فُقَرائِهِمْ ، فَإِنْ هُمْ أَطَاعوا لِذلكَ ، فَإِيَّاكَ وَكَرائِمَ أَمْوَالِهِمْ ، وَاتَّقِ دَعْوَةَ المَظْلُومِ ؛ فَإِنَّهُ لَيسَ بينَها وَبَينَ اللَّهِ حِجَابٌ » [٤] متفقٌ عليه .

---

(١) انظر الحديث بنصه في مسلم في الجهاد والسير (٢) .

(٢) قوله : ﴿ يَبْتَغِ ﴾ أي من يطلب بعد مبعثه ﷺ .

(٣) أخرجه البخاري في الزكاة (١٤٠٠) ، ومسلم في الإيمان (٢٣) ، وأبو داود في الزكاة (١٥٥٦) .

(٤) أخرجه البخاري في الزكاة (١٤٩٦) ومسلم في الإيمان (٢٩) ، وأبو داود في الزكاة (١٥٨٤) ، والنسائي في السنن (٢/٥) ، قوله : « صدقة » أي زكاة ، قوله : « فترد » أي تعطى .

الشرح

نقل المؤلف النووي رحمه الله في المحافظة على الصلوات : حديث ابن عباس رضي الله عنهما عن معاذ بن جبل أنه بعثه النبي ﷺ إلى اليمن ، اليمن معروف جنوب الجزيرة العربية ، بعثه في السنة العاشرة من الهجرة في ربيع الأول ، ولما أراد أن يبعثه قال له : « إنك تأتي قومًا من أهل الكتاب » ، وأهل الكتاب هم اليهود والنصارى ، لأن اللَّه أنزل على اليهود التوراة ، وعلى النصارى الإنجيل، وإنما أخبره بذلك ليكون مستعدًّا لهم ، لأن أهل الكتاب هم أعلم الناس في ذلك الوقت بشرائع اللَّه ، فيجب على الإنسان أن يعرف حالهم حتى يمكن أن يجادلهم بما يُفحمُهم به – وليكن أول ما تدعوهم إليه «شهادة أن لا إله إلا اللَّه ، وأن محمدًا رسول اللَّه » وهذا هو مفتاح الإسلام ، وهذا لا يعني أن رسول اللَّه ﷺ مُخْتَص بالرسالة ، فهناك رسلٌ قبله : موسى ، وهود ، وعيسى ، وغيرهم ، ولكن رسول اللَّه هو خاتم النبيين ، وشريعته نَسَخَت جميع الشرائع ، فلا نبي بعده ، ولا شريعة سوى شريعته « فإن هم أطاعوك في ذلك ، فأعلمهم أن اللَّه افترض عليهم خمس صلوات في كل يوم وليلة » وهذا هو الشاهد «فإن هم أطاعوك في ذلك ، فأعلمهم أن اللَّه افترض عليهم صدقة في أموالهم تؤخذ من أغنيائهم فترد على فقرائهم » : « في أموالهم » هذه إحدى روايات البخاري ، «تؤخذ من أغنيائهم فترد على فقرائهم » : الأغنياء هنا جمع غني ، وهم الذين يملكون نصابًا زكاويًّا ، والغني في كل موضع بحسبه ، فيُفَسَّر في باب وجوب الزكاة بالنصاب الزكوي ، ويفسر في باب أهل الزكاة بأنه الذي يجد ما يكفيه وعائلته لمدة سنة فأكثر ؛ فإن وافقوا لذلك « فإياك وكرائم أموالهم » ؛ يعني احذر أن تأخذ الطيب من الأموال بل خذ الوسط لا يُظلمون ولا يَظلمون ، لا تأخذ الرَّدي فتظلم المستحقين للزكاة ، ولا الأجود فتظلم الذين تجب عليهم الزكاة ، خذ الوسط ، «واتق دعوة المظلوم » يعني إنك إن أخذت من كرائم أموالهم فقد ظلمتهم ، فيدعون عليك ؛ فاتق دعوة المظلوم « فإنه ليس بينها وبين اللَّه حجاب » فاللَّه تعالى يستجيب لها ولو كانت من كافر ، المظلوم – إذا دعا اللَّه ولو كان كافرًا – فإن اللَّه ينتقم له ممن ظلمه ، إما عاجلا وإما آجلًا ، لأن هذا من باب إقامة العدل ، واللَّه سبحانه وتعالى أحكم الحاكمين ، ومن تمام حكمته العدل بين عباده ، فيأخذ للمظلوم من الظالم ، والشاهد من هذا الحديث قوله : «فأعلمهم أن اللَّه افترض عليهم خمس صلوات في كل يوم وليلة » . واللَّه الموفق .

* * *

١٠٧٨ – وعن جابرٍ رضي الله عنه قال : سمعتُ رسول اللَّه ﷺ يقولُ : « إنَّ بَينَ الرَّجُلِ وَبَينَ الشِّرْكِ والكُفْرِ ؛ تَرْكَ الصَّلاةِ » [١] رواه مسلم .

١٠٧٩ – وعن بُرَيدَةَ رضي الله عنه عن النبي ﷺ قال : « العَهْدُ الَّذي بَيْنَنَا وَبَيْنَهُمُ الصَّلاةُ ، فَمَنْ تَرَكَهَا

---

(١) أخرجه مسلم في الإيمان (١٣٤) ، والبيهقي في السنن (٣/٣٦٦) .

فَقَدْ كَفَرَ »[١] رواه الترمذي وقال : حديثٌ حسنٌ صحيحٌ .

١٠٨٠ - وعن شقيقِ بنِ عبدِ اللّه التابعيِّ المتَّفَقِ على جَلالَتِهِ رَحِمَهُ اللَّهُ قال : كانَ أَصْحابُ مُحَمَّدٍ ﷺ لا يَرَوْنَ شَيْئًا مِنَ الأَعْمالِ تَرْكُهُ كُفْرٌ غيرَ الصَّلاةِ[٢] . رواه الترمذي في كتابِ الإيمانِ بإسنادٍ صحيحٍ .

الشرح

هذه الأحاديث في التحذير من إضاعة الصلاة ، حديث جابر وحديث بُريدة ، أما حديث جابر فقد قال النبي ﷺ إن بين الكفر والشرك ترك الصلاة ، وحديثُ بريدة : « العهد الذي بيننا وبينهم الصلاة ، فمن تركها فقد كفر » .

فهذان الحديثان يدلاَّن على أن تارك الصلاة كافر ، وأنه كافر كفرًا مُخرجًا عن الملة ، فالذي لا يصلي أشد من اليهود والنصارى ، اليهود لو ذبحوا لأكل الإنسان ذبيحتهم ، والنصراني أيضًا كذلك ، أما تارك الصلاة لو ذبح فإن ذبيحته لا تحل[٣] .

تارك الصلاة لو كان أنثى لا تصلي فإنه لا يحل للمسلم أن يتزوجها ، ولو كانت نصرانية جاز أن يتزوجها المسلم ، ولو كانت يهودية جاز أن يتزوجها أيضًا المسلم .

تارك الصلاة لا يُقَرُّ على ترك الصلاة ، بل يقال : صلِّ وإلا قتلناك ؟واليهودي والنصراني يُقَرُّ على دينه إما بمعاهدة أو استئمانٍ أو ذمة ، فدل ذلك على أن ترك الصلاة أعظم من اليهودية والنصرانية ، هذا الأمر الذي يتهاون به الناس اليوم ، وليُعلمْ أن الإنسان إذا ترك الصلاة ثم عُقد له على امرأة فإن النكاح غير صحيح ، ولو جامعها فإنه يجامعها بزنى - والعياذ باللّه - وكذلك لو عُقد له - وهو يصلي - ثم ترك الصلاة انفسخ النكاح ؟ ووجب أن يفرق بينه وبين المرأة إلا أن يتوب ويعود إلى الإسلام فيبقى على نكاحه ، وليُعلمْ أيضًا أن تارك الصلاة - إذا مات على ترك الصلاة - فإنه لا يُغسَّل ولا يكفن ولا يصلى عليه ولا يدفن مع المسلمين ، ولا يُدْعى له بالرحمة ، ولا تناله شفاعة النبي ﷺ يوم القيامة ، ولكن ماذا نصنع به .... هل نُبْقي جيفته للكلاب تأكلها ونحن نشاهده ؟ لا ؛ لأن في هذا إفسادٌ لقلوب أقاربه ، لكن نخرج به برًّا ونحفر له حفرة ونغرسه فيها بثيابه بدون تكفين ولا

---

(١) أخرجه الترمذي في الإيمان (٢٦٢٣) والإمام أحمد في المسند (٣٤٦/٥) والبيهقي في السنن (٣٦٦/٣) .

(٢) أخرجه الترمذي في الإيمان (٢٦٢٤) .

(٣) هذا هو مذهب الإمام أحمد الذي قال بأن تارك الصلاة كافر لمجرد تركه سواء كان مقرًا بمشروعيتها أو جاحدًا وبذلك يجب أن يعاقب بالقتل لكفره وارتداده ، وهو ما ذهب إليه أهل الظاهر ، وهو مروي عن علي وابن عباس وجابر بن عبد اللّه وأبي الدرداء . أما الحنفية فقد ذهبوا إلى أن تارك الصلاة وهو مقر بفرضيتها غير جاحد لها لا يقتل بل ينبغي زجره وضربه أو سجنه حتى يصلي وإلا ظل حبيسًا حتى يموت .

أما جمهور العلماء فقد ذهبوا إلى أنه وإن تركها عن غير جحود ولا نكران ولا استخفاف ؛ كأن يكون قد تركها كسلًا أو عجزًا أو تهاونًا أو تثاقلًا مع أنه مؤمن بها فإنه لا يكفر بل يفسق ، وأنه يجب أن ينذر ويستتاب فإن أبى إلا النكول وهو غير جاحد لها فقد وجب قتله حدًا لا كفرًا (انظر فقه الكتاب والسنة ٤٩٤/١ ، والكافي ١٢٠/١ ، وأسهل المدارك ٢٦٤/١ ، والمحلى ٢٤١/٢) .

تغسيل ولا صلاة عليه ، ولولا أن أهله يتأثرون لقلنا : يبقى على وجه الأرض تأكله الكلاب - والناس ينظرون إليه - لكنه يُرْمى اتقاءً لنتنه ورائحته وخبثه ، وإذا كان يوم القيامة قال النبي ﷺ « إنه يُحْشَر مع فرعون وهامان وقارون وأُبي بن خلف » (١) وبهذا نعلم أن ترك الصلاة أمر عظيم ، وأنه يجب على من مات عنده ميت - وهو لا يصلِّي - أن يُبعده عن مدافن المسلمين ، ولا يحل له أن يقدمه للمسلمين ليصلوا عليه - وهو يعلم أنه مات لا يصلي - أبدًا فإن فعل فهو مُسيء إلى المسلمين ، والمسلمون ليس عليهم إثم ، لأنهم ما علموا ، لأن اللَّه قال : ﴿ وَلَا تُصَلِّ عَلَىٰٓ أَحَدٍ مِّنْهُم مَّاتَ أَبَدًا وَلَا تَقُمْ عَلَىٰ قَبْرِهِۦٓ إِنَّهُمْ كَفَرُوا۟ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ وَمَاتُوا۟ وَهُمْ فَٰسِقُونَ ﴾ (٢) [التوبة : ٨٤] والذي لا يصلي كافر باللَّه ورسوله ، حتى لو قال : أومن بأن اللَّه موجود ، وأن محمدًا رسوله ، لا يكفي ، لأن المنافقين يقولون مثل هذا الكلام : ﴿ إِذَا جَآءَكَ ٱلْمُنَٰفِقُونَ قَالُوا۟ نَشْهَدُ إِنَّكَ لَرَسُولُ ٱللَّهِ وَٱللَّهُ يَعْلَمُ إِنَّكَ لَرَسُولُهُۥ وَٱللَّهُ يَشْهَدُ إِنَّ ٱلْمُنَٰفِقِينَ لَكَٰذِبُونَ ﴾ [المنافقون : ١] ثم اعلم أنه إذا مات لك ميت - وهو لا يصلي - فإنه لا يحل لك من ميراثه شيء على قول أكثر أهل العلم ، لأن ميراثه ليس لأقاربه المسلمين كما أنه هو لو مات عنه قريب مسلم فإنه لا يرثه ، يعني : مثلًا إنسان مات وله ابن لا يصلي ، وله ابن عم بعيد يصلي ، من يرثه ، ابن العم البعيد ، وابنه لا يرث ، ولو مات عن أبيه - وهو لا يصلي - وله عم ، والولد غني ومات عن أبيه الذي لا يصلي وعمه المسلم الذي يصلي فالمال للعمِّ لقول النبي ﷺ : « لا يرث المسلم الكافر ، ولا الكافر المسلم » (٣) وهذا هو الذي دلت عليه نصوص الكتاب والسنة وإجماع الصحابة ، كما حكاه عنهم عبد اللَّه بن شقيق أو شقيق بن عبد اللَّه قال : كان أصحاب محمد ﷺ لا يرون شيئًا من الأعمال تركه كفرًا غير الصلاة (٤) . وقال النووي في هذا الرجل : إنه متفق على جلالته وثقته وعدالته وتحرِّيه . وقد صرَّح علماؤنا المتأخرون كالشيخ عبد العزيز بن باز رَحِمَهُ اللَّهُ بأنه كافر كفرًا مخرجًا عن الملة ، وأنه مُرْتَدٌّ عن دين الإسلام ، ومع الأسف أن الناس الآن يتهاونون في هذا الأمر . نسأل اللَّه تعالى أن يهدينا لما فيه الخير والصلاح .

* * *

١٠٨١ - وعن أبي هُرَيرَةَ رضي الله عنه قالَ : قالَ رسول اللَّه ﷺ : « إنَّ أوَّلَ ما يُحاسَبُ بِهِ العَبْدُ يَوم القِيامَةِ مِنْ عَمَلِهِ صَلاتُهُ ، فَإنْ صَلحَتْ ، فَقَدْ أَفْلَحَ وَأَنجَحَ ، وَإنْ فَسَدَتْ ، فَقدْ خَابَ وَخسِرَ ، فَإنِ انْتَقص مِنْ فَرِيضَتِهِ شَيْئًا ، قالَ الرَّبُّ عز وجل : انظرُوا هَلْ لِعَبْدي مِنْ تَطَوُّعٍ ، فَيُكَمَّلُ منها ما انْتَقصَ مِنَ الفَرِيضَةِ ؟ ثمَّ يَكونُ سَائِرُ أَعْمالِهِ عَلَى هذا » (٥) رواه الترمذي وقال حديث حسن .

---

(١) انظر الحديث في : الدارمي في الرقاق (٣٣) وأحمد في مسنده (١٦٩/٢) .

(٢) هذه الآية نزلت في المنافقين وليس في تاركي الصلاة .

(٣) أخرجه البخاري في الفرائض (٦٧٦٤) ، ومسلم في الفرائض (١) ، والترمذي في السنن (٢١٠٧) ، وأبو داود في السنن (٢٩٠٩) .

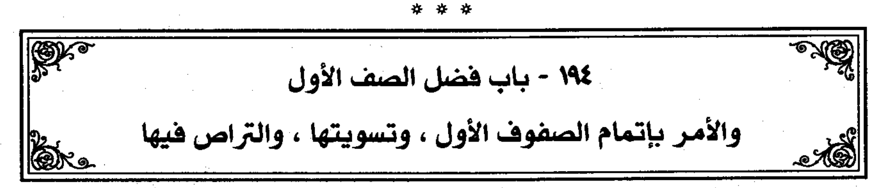
(٤) أخرجه الترمذي في السنن (٢٦٢٢) .

(٥) أخرجه الترمذي في الصلاة (٤١٣) وأبو داود في الصلاة (٨٦٤) والبيهقي في السنن (٣٨٦/٢) والنسائي في السنن (٢٣٣/١) .

الشرح

هذا آخر حديث في باب فضل الصلاة والوعيد الشديد على من تركها والنهي الأكيد ، وفيه أن أول ما يحاسب عليه العبد من أعماله يوم القيامة الصلاة - وهذا بالنسبة لحق الله ﷻ - فإن صلحت فقد أفلح ونجح ، وإلا فعلى العكس خاب وخسر - والعياذ بالله - أما بالنسبة لحقوق الآدميين ، فأول ما يُقضى بين الناس في الدماء ؛ لأنها أعظم الحقوق ، الدماء : يعني القتل ، ثم يأتي بقية المحاسبة على ما تبقى ، ولكن الله ﷻ إذا حاسب العبد على الصلاة وصحت أفلح ونجح ، وإلا خاب وخسر ، ثم يحمد الله ﷻ أن يُنْظَر في أعماله : هل له نوافل ، فإنها تكمَّل بها الفرائض ، ولهذا كان من فضل الله ورحمته ونعمته وإحسانه أن شرع لنا النوافل خلف الصلوات ، وقبلها ، وفي كل وقت إلا الأوقات المنهي عنها ، وذلك لأن الإنسان لابد أن يكون في صلاته خَلَلٌ فيُكمَّل بهذه النوافل ، فالظهر له أربع ركعات قبلها بتسليمين وركعتان بعدها ، وصلاة العصر ليس لها راتبة لكن لها سنة مطلقة كما قال النبي ﷺ : « بين كل أذانين صلاة » [1] وصلاة المغرب لها راتبة بعدها ركعتان وسنة مطلقة قبلها ، وصلاة العشاء بعدها ركعتان ، والفجر قبلها ركعتان ، وصلاة الليل ، وصلاة الوتر ، وصلاة الضحى ، كلُّ هذه النوافل يزداد بها أجر المصلِّي ويُكمل بها النقص الذي حصل في الفريضة ، وهذه من نعمة الله ﷻ نسأل الله أن يعيننا وإياكم على ذكره وشكره وحسن عبادته .

* * *



١٩٤ - باب فضل الصف الأول

والأمر بإتمام الصفوف الأول ، وتسويتها ، والتراص فيها

١٠٨٢ - عَنْ جَابِرِ بْنِ سَمُرَةَ رضي الله عنهما قَالَ : خَرَجَ عَلَينَا رَسُولُ اللَّهِ ﷺ ، فَقَالَ : « أَلَا تَصُفُّونَ كما تَصُفُّ المَلائِكَةُ عنْدَ رَبِّهَا ؟ » فَقُلْنَا : يَا رَسُولَ اللَّهِ وَكيفَ تَصُفُّ المَلائِكَةُ عِندَ ربِّها ؟ قال : « يُتِمُّونَ الصّفوفَ الأُوَلَ ، وَيَتَرَاصُّونَ في الصَّفِّ » [2] رواه مسلم .

١٠٨٣ - وعن أَبي هُرَيرَةَ رضي الله عنه أَنَّ رسُولَ اللَّه ﷺ ، قَالَ : « لو يَعلَمُ النَّاسُ مَا في النِّدَاءِ وَالصَّفِّ الأَوَّلِ ، ثُمَّ لَمْ يَجِدُوا إلا أَنْ يَسْتَهِمُوا عَلَيهِ ؛ لاسْتَهَمُوا » [3] متفق عليه .

الشرح

قال النووي رحمه الله : باب فضل الصف الأول والتراصّ في الصفوف وتسويتها وإكمال الأوَّل

---

(١) أخرجه البخاري في الأذان (٦٢٤) ، ومسلم في صلاة المسافرين (٣٠٤) ، والترمذي في الصلاة (١٨٥) ، وأبو داود في الصلاة (١٢٨٣) .

(٢) أخرجه مسلم في الصلاة (١١٩) ، وابن ماجه في إقامة الصلاة (٩٩٢) والإمام أحمد في مسنده (١٠١/٥) .

(٣) أخرجه البخاري في الأذان (٦١٥) ، ومسلم في الصلاة (١٢٩) ، والإمام أحمد في المسند (٢٣٦/٢) .

فالأوَّل .

هذه مسائل متعددة بَيَّنَ رَحِمَهُ اللَّهُ حُكْمها بما ساقه من أحاديث .

الحديث الأول عن جابر بن سمرة رضي الله عنه : قال : خرج علينا رسول الله ﷺ ذات يوم فقال : « ألا تَصُفُّون كما تصفُ الملائكة عند ربها » : الملائكة لها عبادات متنوعة ، وهم - عليهم الصلاة والسلام - لا يستكبرون عن عبادة اللّه ولا يستحسرون يسبحون الليل والنهار لا يفترون ، وتأمل قوله : ﴿ يُسَبِّحُونَ ٱلَّيْلَ وَٱلنَّهَارَ ﴾ [الأنبياء : ٢٠] ولم يقل : يسبحون في الليل والنهار ، لأنهم يستوعبون الوقت كلّه في التسبيح ، ومن عباداتهم عند ربهم أنهم يصفون عند اللّه عز وجل كما قال تعالى : ﴿ وَإِنَّا لَنَحْنُ ٱلصَّآفُّونَ ۝ وَإِنَّا لَنَحْنُ ٱلْمُسَبِّحُونَ ﴾ [الصافات : ١٦٥، ١٦٦] وكيف صفوفهم ؟ قال النبي ﷺ : يكمّلون الأول فالأول ويتراصون . إذن فنحن إذا صففنا بين يدي اللّه في صلاتنا ينبغي أن نكون كالملائكة : يكمّلون الأول فالأول ويتراصون . الأول فالأول : كما أنه من سنة الملائكة عند اللّه عز وجل ومما رغب فيه النبي ﷺ ؛ فهو من الأمور التي ينبغي أن يتزاحم الناس عليها ، لأن النبي ﷺ قال في حديث أبي هريرة : « لو يعلم الناس ما في النداء والصف الأول - يعني من الأجر - ثم لم يجدوا إلا أن يستهموا عليه لاستهموا » يعني لو لم يجدوا طريقًا يصلون إلى الصف الأول به إلا أن يجروا قُرعة لفعلوا - وهذا يدل على فضيلة الصف الأول ويدل على أن الأفضل التراصُّ في الصفوف ، ويدل على أنه يُكمل الأول فالأول ، فهذه ثلاث مسائل ينبغي للإنسان أن ينتبه لها :

١ - ألا يقف في صف حتى يَكْمُل الذي قبله .

٢ - في الصلاة يتراصون : يلصق بعضهم كعبه بكعب أخيه ، ومنكبه بمنكبه حتى تتم المراصة ، لأنهم إذا لم يتراصوا تدخل الشياطين بينهم كأولاد الغنم الصغار ، ثم يشوّشون عليهم صلاتهم ، ولكن يجب التنبه لمسائل :

أ - ليس المراد بالمراصّة المراصّة التي تشوّش على الآخرين ، وإنما المراد منها ألا يكون بينك وبينه فُرجة .

ب - الصف الأول : لا يجوز التقدم إليه بوضع المنديل أو الكتاب أو ما أشبه ذلك وكأنه أصبح ملكًا له - يحجزه دائمًا سواء جاء أو لا - فهذا لا يجوز حتى إن بعض الفقهاء قال : لا تصح صلاته ، لأنه شبه مغصوب حيث إنه جلس في مكان لا يستحقه، فقول الرسول ﷺ : « ثم لم يجدوا إلا أن يستهموا عليه لاستهموا » معناه أنهم يتقدّمون ويتسابقون ، ثم إن حجز الأماكن فيه مضرة ، المهم - بارك اللّه فيكم - أن المراد من قول الرسول : « لو يعلم الناس ما في النداء والصف الأول » أن من يتقدم بنفسه . نعم إذا كان إنسان حاضر بالمسجد ولكنه أراد أن يبتعد عن الصف الأول لأجل أن يقرأ أو يصلي أو يراجع أو ينام - ولا بأس بالنوم في المسجد - فلا بأس ، لأنه في المسجد ، لكن يجب أن يصل إلى مكانه قبل أن تتصل الصفوف فيحتاج إلى تخطي الرقاب ، وقد رأى النبي ﷺ

رجلًا يتخطى الرقاب فقال : « اجلس فقد آذيت » (١) .

وفي حديث أبي هريرة الثاني : دليل على جواز الاستهام في القرب ، يعني لو تنازع اثنان في الأذان ، وليس بينهما مؤذن راتب ، ومتساويان في الصفات المطلوبة في الأذان ، فحينئذ نُقرع بينهما ، فمن خرجت له القرعة هو الذي يؤذن ، ومع الأسف أنك ترى بعض الناس الآن - جماعة مسافرين أو ما أشبه ذلك - كل واحد يقول للثاني : أذِّن أنت ، وهو لا يعلم ما في الأذان من خير ، فهو - الأذان - لا يسمعه شجر ولا مدر ، ولا حجر إلا شهد لك يوم القيامة (٢) . فينبغي أن تبادر للأذان - نسأل الله لنا ولكم الخير ، وأن يجعلنا من المتسابقين للخيرات إنه على كل شيء قدير .

* * *

١٠٨٤ - وعَنْهُ قَالَ : قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ : « خيرُ صُفوفِ الرِّجَال أَوَّلُها ، وَشرُّها آخِرُها ، وَخيرُ صُفوفِ النِّسَاء آخِرُها ، وَشَرُّها أوَّلُهَا » (٣) رواه مسلم .

١٠٨٥ - وعن أَبي سَعيد الخُدْرِيِّ ﷺ أنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ ، رَأَى في أَصْحَابِهِ تأخُّرًا ، فَقَالَ لَهُمْ : « تَقَدَّمُوا فَأْتَمُّوا بي ، وَلْيَأْتَمَّ بِكُمْ منْ بعْدَكُم ، ولا يَزالُ قومٌ يَتَأَخَّرُونَ حتى يُؤَخِّرَهُمُ اللَّه » (٤) رواه مسلم .

١٠٨٦ - وعن أَبي مسعودٍ ﷺ قال : كانَ رسُولُ اللَّهِ ﷺ ، يَمْسَحُ مَنَاكِبَنَا في الصَّلاةِ ، ويَقُولُ : « اسْتوُوا وَلا تَختلِفوا فَتَخْتَلِفَ قُلُوبُكُمْ ، لِيَلِني مِنْكُمْ أُولُو الأَحْلامِ وَالنُّهَى ، ثمَّ الَّذِينَ يَلُونهمْ ، ثمَّ الَّذِينَ يَلُونَهمْ » (٥) رواه مسلم .

١٠٨٧ - وعن أنسٍ ﷺ قالَ : قَالَ رسولُ اللَّه ﷺ : « سَوُّوا صُفُوفَكُمْ ؛ فَإِنَّ تَسْوِيَةَ الصَّفِّ مِنْ تَمامِ الصَّلاةِ » متفقٌ عليه . وفي روايةِ البخاري : « فإِنَّ تَسْوِيَةَ الصُّفُوفِ مِنْ إِقَامَةِ الصَّلاةِ » (٦) .

الشرح

هذه الأحاديث في بيان فضل الصفوف نقلها النووي رحمه الله منها حديث أبي هريرة ﷺ أن النبي ﷺ قال : « خير صفوف الرجال أولها وشرها آخرها ، وخير صفوف النساء آخرها وشرها أولها » وذلك لأن صفوف النساء تكون خلف الرجال ، هذا هو السُّنة ، فإذا كان أولها فهو قريب من الرجال فيكون شرها ، وآخرها بعيد عن الرجال فيكون خيرها ، أما الرجال : فكلما تقدَّموا فهو أفضل كما قال النبي ﷺ مُحذِّرًا

---

(١) أخرجه أبو داود في الصلاة (١١١٨) ، والنسائي في السنن (١٠٣/٣) ، وابن ماجه في السنن (١١١٥) .

(٢) وذلك لما رواه أحمد وابن ماجه في الأذان (٧٢٢) .

(٣) أخرجه مسلم في الصلاة (١٣٢) ، وأبو داود في الصلاة (٦٧٨) ، وابن ماجه في إقامة الصلاة (١٠٠٠) .

(٤) أخرجه أبو داود في الصلاة (٦٨٠) ، والإمام أحمد في المسند (٣٤/٣ ، ٥٤) .

(٥) أخرجه مسلم في الصلاة (١٢٢) ، قوله « لا تختلفوا » وذلك بأن يتقدم منكب أحدكم على منكب الآخر ، قوله : « ليلني » أي ليقف قريبًا مني ، قوله : « أولو الأحلام والنهى » أي : أصحاب الألباب والعقول .

(٦) أخرجه البخاري في الأذان (٧٢٣) ومسلم في الصلاة (١٢٤) .

عن التأخر : « لا يزال قوم يتأخرون حتى يؤخرهم الله »(١) وهذه خطيرة : أن الإنسان - كلما تأخر عن الصف الأول أو الثاني أو الثالث ألقى الله في قلبه محبة التأخر في كل عمل صالح - والعياذ بالله - ولهذا قال : « لا يزال قوم يتأخرون حتى يؤخرهم الله » فأنت - يا أخي - تقدَّم في الصف الأول فالأول ، وقوله في الحديث : « خير صفوف النساء آخرها وشرها أولها » : ما لم يكن النساء في مكان خاص لهن ، فإن خير صفوفهن أولها ، لأنه أقرب من الإمام ولا محذور فيه ، لأنهن بعيدات عن الرجال ، ثم ذكر أن النبي ﷺ كان يسوي مناكب أصحابه عند التكبير ، مناكبهم : يعني أكتافهم ويقول : « استووا ولا تختلفوا فتختلف قلوبكم » يعني : أن اختلاف الناس - بعضهم متقدم وبعضهم متأخر - يوجب اختلاف القلوب ، وآخر الأحاديث أن الرسول ﷺ أمر بتسوية الصف وقال : « إن تسوية الصفوف من تمام الصلاة » وهو كذلك ، وفي رواية : « إقامة الصفوف من تمام الصلاة » فالذي ينبغي لنا أن نقيم صفوفنا ، وتكملة الأول فالأول ، والتراص حتى يكون ذلك من تمام صلاتنا . والله الموفق .

* * *

١٠٨٨ - وَعَنْهُ قال : أُقيمت الصَّلاة ؛ فأقبَلَ علينا رَسُولُ اللَّهِ ﷺ بِوَجْهِهِ فَقَالَ : « أقِيموا صُفُوفَكُمْ وَتَرَاصُّوا ؛ فَإِنِّي أُرَاكُم مِنْ وَرَاءِ ظَهْرِي » رَوَاهُ البُخَارِي بِلَفْظِهِ ، ومُسْلِمٌ بمَعْنَاهُ . وفي رِوَايةٍ للبُخَاري : وكَانَ أحدُنَا يُلْزِقُ مَنْكِبَهُ بِمَنْكِبِ صَاحِبِهِ وقَدَمَهُ بقَدَمِهِ (٢) .

١٠٨٩ - وَعَنِ النُّعْمَانِ بنِ بشير ﷺ قال : سمعتُ رسول الله ﷺ يقولُ : « لَتُسَوُّنَّ صُفُوفَكُمْ ، أَو ليُخَالِفَنَّ اللَّهُ بَينَ وجُوهِكُمْ » متفقٌ عليه .

وفي رواية لمسلِم : أَنَّ رسول الله ﷺ كانَ يُسَوِّي صُفُوفَنَا ، حَتَّى كأَنَّمَا يُسَوِّي بهَا القِدَاح ، حَتَّى رَأَى أَنَّا قَد عَقَلْنَا عَنْهُ . ثُمَّ خَرَجَ يَومًا فَقَامَ حَتَّى كَادَ يُكَبِّرُ ، فَرأى رَجُلًا بَادِيًا صَدْرُهُ مِنَ الصَّفِّ ، فقالَ : « عِبَادَ اللَّهِ ، لَتُسَوُّنَّ صُفُوفَكُمْ ، أَو لَيُخَالِفَنَّ اللَّهُ بَينَ وجُوهِكُمْ » (٣) .

الشرح

هذه الأحاديث في تتمة باب إقامة الصفوف والحث على تسويتها وما يتعلق بذلك . فعن أبي هريرة ﷺ أن النبي ﷺ كان يسوِّي الصفوف فيقبل على الناس ويقول : « أقيموا صفوفكم ، فإني أراكم من وراء ظهري » فأمرهم ﷺ بإقامة الصفوف ، وأخبر أنه يراهم من وراء ظهره ؟ وهذا من خصائص النبي ﷺ أنه في هذه الحالة المعينة يرى الناس من وراء ظهره ، أما فيما سوى ذلك فإنه لا يرى من وراء ظهره

---

(١) أخرجه مسلم في الصلاة (١٣٠) ، وابن ماجه في الصلاة (٩٧٨) ، وأحمد في مسنده (٣/ ٣٤) .

(٢) أخرجه البخاري في الأذان (٧١٩) ، ومسلم في الصلاة (١٢٥) ، والإمام أحمد في المسند (٣/ ١٠٣ ، ١٨٢) ، والبيهقي في السنن (٢/ ٢١) .

(٣) أخرجه البخاري في الأذان (٧١٧) ، ومسلم في الصلاة (١٢٧) ، وأبو داود في الصلاة (٦٦٤) ، وأحمد في المسند (٤/ ٢٧١ ، ٢٧٢) . قوله : « كأنما يسوي بها القداح » أي السهام والمراد المبالغة في الاستواء .

شيئًا ، وأخبر ﷺ في حديث النعمان بن بشير : أنه إما أن تسووا الصفوف أو يخالفنّ اللَّه بين قلوبكم فقال : « عباد اللَّه لتسوون صفوفكم أو ليخالفن اللَّه بين وجوهكم » واختلف العلماء في قوله : « بين وجوهكم » : فقيل : المعنى : أن اللَّه يعاقبهم بأن يجعل وجوههم نحو ظهورهم ، فَتُلْوَى الأعناق ، وقيل : المعنى : أي بين وجهات نظركم ، وهو كالحديث الذي سبق : « لا تختلفوا فتختلف قلوبكم » وهذا المعنى أصح وأرجح ، ومعلوم أن الاختلاف الظاهر يؤدي إلى اختلاف الباطن ، فإذا اختلف الناس فيما بينهم ظاهرًا أدَّى ذلك إلى اختلاف القلوب ، وإذا اختلفت القلوب صار الشر والفساد - والعياذ باللَّه - وخلاصة هذا الباب كلّه : أننا مأمورون بتسوية الصفوف على النحو التالي :

١ - تسوية الصف بالمحاذاة : بحيث لا يتقدم أحد على أحد ، ولهذا كان الصحابة يلصقون أحدهم قدمه بقدم صاحبه ، ومنكبه بمنكبه ، وفي هذا الوصف دليل على فساد فهم الذين إذا وقفوا في الصف فتحوا بين أرجلهم حتى تكون القدم لاصقة بالقدم لكن المناكب متباعدة ، وهذا بدعة ، ليست من السُّنة ، فالسُّنة أننا نتراص جميعًا بحيث يُلْصق الكعب بالكعب والمنكب بالمنكب .

٢ - تسوية الصف بإكمال الأول فالأول ، بحيث لا يصف أحد في الصف الثاني ، والأول لم يتم ، أو في الثالث والثاني لم يتم .... إلخ .

٣ - أن الأولى إذا اجتمع رجال ونساء أن تبتعد النساء عن الرجال ، فإن خير صفوف النساء آخرها وشرها أولها .

٤ - سدُّ الفُرَج : بألا ندع للشياطين فُرَجًا يدخلون من بينها ؛ لأن الشياطين تُسَلَّط على بني آدم ابتلاءً من اللَّه وامتحانًا ، فإذا وجدوا فُرجة في الصف تخلَّلوا المصلين حتى يشوِّشوا عليهم صلواتهم .

٥ - إذا كانوا ثلاثة فإنه يتقدم أحدهم إمامًا ويكون الباقيان خلفه ، وإن كانا بالغين أو صغيرين أو بالغ وصغير - كلهم يكونون خلفه ، لأن ذلك ثبت عن النبي ﷺ في صلاة النفل ، وصلاة الفرض مثل صلاة النفل إلا إذا قام دليل على الفرق بينهما . واللَّه الموفق .

* * *

١٠٩٠ - وعَنِ البَرَاءِ بنِ عازِبٍ ﷺ قالَ : كانَ رسول اللَّه ﷺ ، يَتَخلَّلُ الصَّفَّ مِنْ نَاحِيَةٍ إلى نَاحِيَةٍ ، يَمسَحُ صُدُورَنَا ، وَمَنَاكِبنَا ، ويقولُ : « لا تَخْتَلِفُوا فَتَخْتَلِفَ قُلُوبُكُمْ » وَكَانَ يَقُولُ : « إنَّ اللَّهَ وَمَلائِكَتَهُ يُصَلُّونَ عَلى الصُّفُوفِ الأُوَلِ » [(١)] رواه أبو داود بإسنادٍ حَسَنٍ .

١٠٩١ - وعَنِ ابنِ عُمَرَ ﷺ أنَّ رسول اللَّه ﷺ قالَ : « أقِيمُوا الصُّفُوفَ ، وحَاذُوا بَيْنَ المَنَاكِبِ ، وسُدُّوا الخَلَلَ ، وَلِينوا بأَيدِي إخْوَانِكُمْ ، وَلا تَذَرُوا فُرُجَاتٍ للشيطانِ ، ومَنْ وَصَلَ صَفًّا وَصَلَهُ اللَّهُ ، وَمَنْ قَطَعَ صَفًّا قَطَعَهُ اللَّه » [(٢)] رواه أبو داود بإسنادٍ صحيحٍ .

(١) أخرجه أبو داود في الصلاة (٦٦٤) ، والإمام أحمد في المسند (١٢٢/٤) ، والحاكم في المستدرك (٥٧٣/١) .
(٢) أخرجه أبو داود في الصلاة (٦٦٦) ، والإمام أحمد في المسند (٩٥/١) ، والبيهقي في السنن (٢٢٩/٨) ، =

١٠٩٢ – وعَنْ أنسٍ ﷺ أنَّ رسولَ اللَّه ﷺ قالَ : « رُصُّوا صُفُوفَكُمْ ، وَقَارِبُوا بَيْنَها ، وَحَاذُوا بالأعْناقِ ؛ فَوَالَّذِي نَفْسِي بِيَدِهِ إنِّي لأَرَى الشَّيطَانَ يَدْخُلُ مِنْ خَلَلِ الصَّفِّ ، كَأَنَّهَا الحَذَفُ » [١] حديث صحيح رواه أبو داود بإسنادٍ على شرط مسلم .

الشرح

هذه الأحاديث في تكملة هذا الباب الذي فيه بيان فضيلة الصف الأول وتكميل الأول فالأول من الصفوف ، فإن في هذه الأحاديث دليل على مسائل : أن النبي ﷺ كان يمسح صدور أصحابه ومناكبهم ، ليسوي صفوفهم ، ويقول : « لا تختلفوا فتختلف قلوبكم » . وكان ﷺ يتخلل الصف من ناحية إلى ناحية يسوي بيده الكريمة ، وكان هذا عادته . ولما كثر الناس في زمن أمير المؤمنين عمر ﷺ ، وفي زمن عثمان ، صار هناك رجال موكلون من قبل الخليفة ، يسوون الصفوف ، فإذا جاءوا إلى الإمام وقالوا : إن الصفوف قد تمت ، وكملت ، كبر للصلاة . وهذا دليل على عناية النبي ﷺ والخلفاء الراشدين بالصفوف ، والتراص فيها ، وتسويتها ، وعدم فرجات الشيطان ، حتى تكون الصلاة تامةً مستوية ؛ فإن تسوية الصف من تمام الصلاة ، ومن إقامة الصلاة .

* * *

١٠٩٣ – وعنهُ : أنَّ رسول اللَّه ﷺ قال : « أَتِمُّوا الصَّفَّ المقدَّمَ ، ثُمَّ الَّذي يَلِيه ، فَمَا كَانَ مِنْ نَقْصٍ ؛ فَلْيَكُنْ في الصَّفِّ المُؤخَّرِ » [٢] رواه أبو داود بإسنادٍ حسن .

١٠٩٤ – وعن عائشةَ ﷺ قالَتْ : قالَ رسولُ اللَّه ﷺ : « إنَّ اللَّهَ وَمَلائِكَتَهُ يُصلُّون عَلى مَيَامِنِ الصفوفِ » [٣] رواه أبو داود بإسنادٍ عَلى شَرْطِ مُسْلِمٍ ، وفيه رجلٌ مُخْتَلَفٌ في تَوْثِيقِهِ .

١٠٩٥ – وعَنِ البَرَاءِ ﷺ قالَ : كُنَّا إذ صَلَّينا خَلْفَ رسولِ اللَّهِ ﷺ أحْبَبْنا أَنْ نَكُونَ عَنْ يَمِينِه ؛ يُقْبِلُ عَلَينَا بِوَجْهِهِ ، فَسَمِعْتُهُ يقول : « رَبِّ قِنِي عَذَابَكَ يَومَ تَبْعَثُ – أَو تَجْمَعُ – عِبَادَكَ » [٤] رواه مسلم .

١٠٩٦ – وعَنْ أَبي هُريرَة ﷺ قالَ : قَالَ رسولُ اللَّهِ ﷺ : « وَسِّطُوا الإمَامَ ، وَسُدُّوا الخَلَلَ » [٥] رواه أبو داود .

= وقوله : « أقيموا الصفوف » أي عدلوها وسووها ، وقوله : « الخلل » أي الفرجة في الصفوف ، وقوله : « ولينوا بأيدي إخوانكم » أي كونوا هينين لينين عند أخذكم بأيدي المصلين حتى يستوي الصف .

(١) أخرجه أبو داود في الصلاة (٦٦٧) ، والبيهقي في السنن (٣/١٠٠) ، وقوله : « رصوا صفوفكم » أي ضموا بعضها إلى بعض ، وقوله : « وقاربوا بينها » أي بحيث لا يسع بين الصفين صف آخر ، وقوله : « وحاذوا بالأعناق » أي اجعلوا بعضها بمحاذاة بعض .

(٢) أخرجه أبو داود في الصلاة (٦٧١) ، وابن ماجه في إقامة الصلاة (١٠٠٥) ، والبيهقي في السنن (٣/١٠٣) .

(٣) أخرجه أبو داود في الصلاة (٦٧٦) ، والإمام أحمد في المسند (٣/١٣٢ ، ٢٢٥) ، والنسائي في السنن (٢/٩٢) .

(٤) أخرجه مسلم في صلاة المسافرين وقصرها (٦٢) ، والإمام أحمد في المسند (٤/٢٩٠) ، والبيهقي في السنن (٢/١٨٢) .

(٥) أخرجه أبو داود في الصلاة (٦٨١) . والبيهقي (٣/١٠٤) بلفظ توسطو الإمام ، قوله : « سدوا الخلل » وذلك بحيث لا يبقى ثمة ما يسع مصليًا سدًّا لمدخل الشيطان .

الشرح

هذه الأحاديث في بيان الصفوف الأُول ، وقد سبق أن النبي ﷺ أمر بأن يُكمل الصف الأول فالأول ، وأخبر أن اللّه وملائكته يصلون على الصفوف الأُوَل ، وفي حديث أنس بن مالك الذي نقله المؤلف في هذا الباب : أن النبي ﷺ أمر أن نبدأ بالصف المقدَّم فالمقدَّم ، وما كان من نقص فليكن في الصف المؤخر ، وهذا يدل على أن من وقف في الثاني قبل تمام الأول - ولو كان معه غيره - فإنه لم يصُب السُّنة ؛ بل السُّنة ألا يكون أحد في الثاني حتى يتم الأول ولا في الثالث حتى يتم الثاني .... إلخ ، هذه هي السنة .

وفي الأحاديث التي ذكرها المؤلف هنا أن النبي ﷺ قال : « إن اللّه وملائكته يُصلُّون على ميامن الصفوف » لكن هذا الحديث فيه رجل مختلف في توثيقه ، وعلى هذا فيكون ضعيفًا - وإن كان على شرط مسلم من حيث الإسناد - لكن إذا كان فيه رجل مختلف بتوثيقه فإنه يكون ضعيفًا .

أما الحديث الأخير : فالنبي ﷺ أمر أن يوسَّط الإمام فقال : « وسِّطوا الإمام » يعني : اجعلوه وسطًا ، وهذا هو العدل ، ولهذا لما كان في أول الهجرة وكان الناس يصفُّون إذا كانوا ثلاثة صفًّا واحدًا كان مشروعًا أن الإمام يكون بينهم - لا يكون متطرفًا من حيث اليسار بل يكون بينهم فدلَّ ذلك على أن توسيط الإمام له أهمية ، وبه نعرف أن ما يفعله بعض الناس الآن : تجدهم يكملون الصف يمينًا والأيسر ليس فيه إلا القليل هذا خلاف السُّنة ؛ السُّنة أن يكون اليمين واليسار متقاربين ، فإذا تساويا فهنا نقول : الأيمن أفضل فإن زاد رجل أو رجلان في الأيمن فلا بأس ، أما أن يكون الأيمن تامًّا والأيسر ليس فيه إلا قليل فهذا خلاف السُّنة ، لأنه ليس فيه توسيط الإمام ، وقد عرفتم أن الحديث الذي فيه : « إن اللّه وملائكته يصلون على ميامن الصفوف » فيه رجل قد اختلُف في توثيقه .... واللّه أعلم .

* * *

١٩٥ - باب فضل السنن الراتبة مع الفرائض وبيان أقلها وأكملها وما بينهما

١٠٩٧ - عَنْ أُمِّ المؤمِنِينَ أُمِّ حَبِيبَةَ رَمْلَةَ بنت أَبي سُفيانَ رضي الله عنهما قَالَتْ : سَمِعْتُ رسول اللّهِ ﷺ يقولُ : « مَا مِنْ عَبْدٍ مُسْلِمٍ يُصَلِّي للّهِ تَعَالى كُلَّ يَوم ثنتَي عَشرَةَ رَكْعَةً تَطوعًا غيرَ الفَرِيضَةِ ؛ إلَّا بَنَى اللّهُ لهُ بَيتًا في الجَنَّةِ » أَو : « إلَّا بُنِيَ له بَيتٌ في الجَنَّةِ »[1] رواه مسلم .

١٠٩٨ - وعَنِ ابنِ عُمَرَ رضي الله عنهما قالَ : صَلَّيتُ مَعَ رَسُول اللّهِ ﷺ رَكْعَتَينِ قَبْلَ الظُّهْرِ ، وَرَكْعَتينِ بَعْدهَا ، وَرَكْعَتين بَعْدَ الجُمُعَةِ ، وَرَكْعَتَينِ بَعْدَ المَغرِبِ ، وَرَكْعَتَينِ بعْدَ العِشَاءِ[2] . متفقٌ عليه .

١٠٩٩ - وعنْ عبدِ اللّه بنِ مُغَفَّلٍ رضي الله عنه قالَ : قالَ رسولُ اللّهِ ﷺ : « بينَ كلِّ أَذَانَينِ صَلاةٌ ، بينَ

---

(١) أخرجه مسلم في صلاة المسافرين وقصرها (١٠١) ، والإمام أحمد في المسند (٣٢٧/٦) .

(٢) أخرجه البخاري في التهجد (١١٦٥) ، ومسلم في صلاة المسافرين وقصرها (١٠٤) .

كلِّ أَذَانيـنِ صَلاةٌ ، بَيـنَ كلِّ أذَانَيـنِ صَلاةٌ » قالَ في الثَّالثَةِ : « لمَنْ شاءَ » (١) متفقٌ عليهِ .

الشرح

اعلم أن من نعمة اللَّه ﷻ أن شرع لعباده نوافل زائدة عن الفريضة لتُكَمَّل بها الفرائض ؛ لأن الفرائض لا تخلو من نقص ، ولولا أن اللَّه شرعها لكانت بدعة ، لكن من نعمة اللَّه أن شرع هذه النوافل حتى تُكَمِّل نقص الفرائض ، والنوافل أنواع متعددة وأجناس : منها الرواتب التابعة للمفروضات وهي : اثنتا عشرة ركعة : أربع قبل الظهر يُسَلِّم بين كل ركعتين ، وركعتان بعدها ، وركعتان بعد المغرب ، وركعتان بعد العشاء وركعتان قبل صلاة الفجر ، من صلاهُنَّ في كل يوم وليلة بنى اللَّه له بيتًا في الجنة كما في حديث أم حبيبة رضي الله عنها .

والأفضل أن تصلى هذه الرواتب في البيت ، في حق المأموم وفي حق الإمام ، لأن النبي ﷺ قال : « أفضل صلاة المرء في بيته إلا المكتوبة » (٢) حتى لو كنت في مكة أو في المدينة فالأفضل أن تصلِّي هذه السنن الراتبة في بيتك ، لأن النبي ﷺ كان يصليها في بيته ويقول : « أفضل صلاة المرء في بيته إلا المكتوبة » . وهناك نوافل تابعة للمفروضات لكنها ليست كهذه الرواتب وهو ما رواه عبد اللَّه بن مُغَفَّل رضي الله عنه أن النبي ﷺ قال : « بين كل أذانين صلاة » ثلاث مرات وقال في الثالثة « لمن شاء » ، لئلا يتخذها الناس سنة راتبة ، وعلى هذا فيكون بين كل أذانين - يعني الأذان والإقامة - صلاة الفجر بين الأذان والإقامة سنة راتبة ، الظهر بين الأذان والإقامة سنة راتبة ، العصر ليس لها راتبة ، قبلها ولا بعدها لكن يُدخل في هذا الحديث أن الإنسان إذا أُذِّن للعصر فليصلِّ ركعتين قبل الإقامة ، المغرب كذلك ليس لها سنة راتبة قبلها لكن يُسَنُّ أن يصلي ركعتين بعد الأذان ، وقد ورد فيها حديث بخصوصها قال : « صلوا قبل المغرب » (٣) ثلاثًا . وقال في الثالثة : « لمن شاء » ، العشاء كذلك ليس لها راتبة قبلها لكن تدخل في الحديث أن يصلي بعد الأذان وقبل الإقامة ركعتين ، وإذا فاتت الرواتب التي قبل الصلاة فإنه يقضيها بعد ذلك .

وإذا كان للصلاة سُنَّتان قبلها وبعدها وفاتته الأولى ؛ فإنه يبدأ أولًا بالبعدية ثم ما فاتته . مثال ذلك : دخل والإمام يصلِّي الظهر - وهو لم يصلِّ راتبة الظهر - فإذا انتهت الصلاة يصلِّي أولًا الركعتين اللتين بعد الصلاة ثم يقضي الأربع التي قبلها .

الجمعة قال ابن عمر رضي الله عنهما : إن النبي ﷺ كان يصلي بعدها ركعتين ، وثبت عنه (أنه أمر أن يصلي الإنسان بعدها أربع ركعات فقال : « إذا صلَّى أحدكم الجمعة فليصلِّ بعدها أربعًا » (٤) فقال بعض

---

(١) أخرجه البخاري في الأذان (٦٢٧) ، ومسلم في صلاة المسافرين وقصرها (٣٠٤) ، والإمام أحمد في المسند (٨٦/٣) ، والترمذي في الصلاة (١٨٥) .

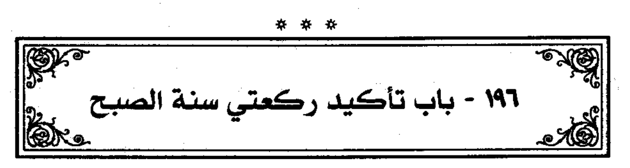
(٢) أخرجه النسائي في قيام الليل (١٩٨/٣) ، وأحمد في مسنده (١٨٦/٥) .

(٣) أخرجه البخاري في التهجد (١١٨٣) ، وأبو داود في السنن (١٢٨١) ، والبيهقي في السنن (٤٧٤/٢) .

(٤) أخرجه مسلم في الجمعة (٦٧) ، والنسائي في السنن (١١٣/٣) ، وأحمد في مسنده (٤٩٩/٢) .

العلماء : يقدَّم القولُ وتكون راتبة الجمعة أربع ركعات ، وقال بعضهم : يجمع بين القول والفعل فتكون راتبة الجمعة ست ركعات وقال بعضهم : إن صُلِّيت في المسجد فأربع ، وإن صُلِّيت بالبيت فركعتان ، لأن الرسول ﷺ كان يصليها بالبيت ركعتين ، وقال : « صلوا بعد الجمعة أربعًا » فإن صلَّى بالمسجد فأربع ، وإن صلَّى بالبيت فركعتان ، والأمر في هذا واسع - إن شاء اللَّه - لكن ينبغي للإنسان أن يحرص على هذه السنن الراتبة لما فيها من الخير وتكميل ناقص الفرائض . واللَّه أعلم .

* * *



١٩٦ - باب تأكيد ركعتي سنة الصبح

١١٠٠ - عن عائشة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا أَنَّ النَّبيَّ ﷺ كَانَ لا يَدَعُ أَرْبَعًا قَبْلَ الظُّهرِ ، وَرَكْعَتَينِ قبْلَ الغدَاةِ [١] . رواه البخاري .

١١٠١ - وَعَنْها : قَالَتْ : لَم يكنِ النَّبيُّ ﷺ على شيءٍ مِنَ النوافِلِ أَشَدَّ تَعاهُدًا مِنْه عَلى رَكْعَتي الفَجْرِ [٢] . مُتَّفقٌ عليهِ .

١١٠٢ - وَعَنْها : عَنِ النبيِّ ﷺ قالَ : « رَكْعتا الفجْرِ خَيرٌ مِن الدُّنيا وَمَا فِيها » رواه مسلم . وفي روايةٍ : « لَهُمَا أَحَبُّ إلي مِنَ الدُّنْيَا جَميعًا » [٣] .

١١٠٣ - وعَنْ أبي عبدِ اللَّهِ بِلالِ بنِ رَبَاحٍ رضي الله عنه مُؤَذِّنِ رسول اللَّهِ ﷺ أَنَّهُ أَتى رَسُولَ اللَّهِ ﷺ لِيُؤذِنه بصَلاةِ الغدَاةِ ، فَشَغَلَتْ عَائِشَةُ بِلالًا بِأَمْرٍ سَأَلَتهُ عَنْهُ ، حَتى أصبَحَ جدًّا ، فَقَامَ بِلالٌ فَآذَنَهُ بالصَّلاةِ ، وَتَابَعَ أَذَانَهُ ، فَلَم يَخرُج رَسُولُ اللَّه ﷺ ، فلما خرج صَلَّى بِالنَّاسِ ، فَأَخبَرَهُ أَنَّ عَائشَةَ شَغَلَتْهُ بأَمْرٍ سَأَلَتْه عَنْهُ حَتى أَصبَحَ جِدًّا ، وَأَنَّهُ أبطَأَ عَلَيهِ بالخُروجِ ، فَقَالَ - يَعْني النَّبي ﷺ - : « إِني كُنتُ رَكعْتُ رَكْعَتَي الفَجْرِ » فقالَ : يا رسول اللَّهِ إِنَّكَ أَصْبَحْتَ جدًّا ! قالَ : « لو أصبحتُ أَكْثَرَ مِمّا أصبَحتُ ، لرَكَعْتُهُما ، وَأَحْسَنْتُهُمَا ، وَأَجمَلْتُهُمَا » [٤] رواه أبو داود بإسناد حسن .

الشرح

تمتاز سنة الفجر وهي ركعتان قبل الصلاة بأمور :

١ - أنه يُسَنُّ تخفيفهما ، فلو أطالهما الإنسان لكان مخالفًا للسُّنة ، بل يخفف حتى كانت

---

(١) أخرجه البخاري في التهجد (١١٨٢) ، وأبو داود في الصلاة (١٢٥٣) ، وقوله : « قبل الغداة » أي الصبح .

(٢) أخرجه البخاري في التهجد (١١٦٣) ، وأبو داود في الصلاة (١٢٥٤) ، قوله « أشد تعاهدًا » أي محافظة ومداومة .

(٣) أخرجه مسلم في صلاة المسافرين وقصرها (٩٦) ، والترمذي في الصلاة (٤١٦) ، والبيهقي في السنن (٤٧٠/٢) والحاكم في المستدرك (٣٠٦/١) .

(٤) أخرجه أبو داود في الصلاة (١٢٥٧) ، قوله : « ليؤذنه » أي ليخبره ويعلمه ، وقوله : « أصبحت جدًّا » أي دخل في الصبح .

عائشة تقول إنه يخفف فيهما حتى أقول أقرأ بأم القرآن ؟! [1] من شدة التخفيف .

٢ - أنه يُسَنُّ فيهما قراءة معينة : إما ﴿ قُلْ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلْكَـٰفِرُونَ ﴾ [الكافرون : ١] في الركعة الأولى ، ﴿ قُلْ هُوَ ٱللَّهُ أَحَدٌ ﴾ [الصمد : ١] في الثانية ، وإما ﴿ قُولُوٓاْ ءَامَنَّا بِٱللَّهِ وَمَآ أُنزِلَ إِلَيْنَا .... ﴾ [البقرة : ١٣٦] و ﴿ قُلْ يَـٰٓأَهْلَ ٱلْكِتَـٰبِ تَعَالَوْاْ إِلَىٰ كَلِمَةٍ سَوَآءٍۭ بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمْ ... ﴾ [آل عمران : ٦٤] يعني مرة هذا ومرة هذا .

٣ - ومنها أن النبي ﷺ لم يكن على شيء من النوافل - يعني رواتب الصلوات - أشد تعاهدًا منه على ركعتي الفجر ، يتعاهدهما ﷺ .

٤ - أن النبي ﷺ أخبر أنهما خير من الدنيا وما فيها . وأحب إليه من الدنيا وما فيها .

٥ - أن النبي ﷺ لم يكن يَدَعُهما حضرًا ولا سفرًا . كل هذا تتميز به سنة الفجر ، فينبغي للإنسان أن يحافظ عليها ، وأن يحرص عليها حضرًا وسفرًا ، وإذا فاتته قبل الصلاة فليصلهما بعدها ، إما في نفس الوقت وإما بعد ارتفاع الشمس قيد رمح .

وذكرت عائشة رضي الله عنها أن النبي ﷺ كان لا يدع أربعًا قبل الظهر ، لكنهما بتسليمتين ، لأن الظهر راتبتها ست ركعات : أربع قبلها واثنتان بعدها فينبغي لنا أن نحرص على ما كان النبي ﷺ يحرص عليه ، وأن نقتدي بسنته ﷺ ما استطعنا ، فإن الله يقول : ﴿ لَّقَدْ كَانَ لَكُمْ فِى رَسُولِ ٱللَّهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ لِّمَن كَانَ يَرْجُواْ ٱللَّهَ وَٱلْيَوْمَ ٱلْـَٔاخِرَ وَذَكَرَ ٱللَّهَ كَثِيرًا ﴾ [الأحزاب : ٢١] والله الموفق .

* * *

١٩٧ - باب تخفيف ركعتي الفجر وبيان ما يقرأ فيهما ، وبيان وقتهما

١١٠٤ - عَنْ عائشةَ رضي الله عنها أنَّ النَّبيَّ ﷺ كانَ يُصَلي رَكْعَتَيـنِ خفيفَتَيـنِ بَيـنَ النِّدَاءِ وَالإِقَامَةِ مِنْ صَلاةِ الصُّبْح . متفقٌ عليه . وفي روايةٍ لهمَا : يُصَلِّي رَكعَتَي الفَجْرِ ، إذا سَمِعَ الأَذَانَ ، فَيُخَفِّفُهُمَا حَتى أَقُولَ : هَل قَرأَ فيهما بِأُمِّ القُرْآنِ ؟! وفي روايةٍ لمُسْلِم : كانَ يُصَلِّي رَكعَتَي الفَجْرِ إذا سَمِعَ الأَذَانَ ويُخَفِّفُهُمَا . وفي روايةٍ : إذا طَلَعَ الفَجْرُ [2] .

١١٠٥ - وعَنْ حَفصَةَ رضي الله عنها أنَّ رسول اللَّه ﷺ كانَ إذا أَذَّنَ المؤذن للصُّبحِ ، وَبَدَا الصُّبحُ ؛ صَلَّى رَكعَتَينِ خفيفتينِ [3] . متفقٌ عليه . وفي روايةٍ لمسلمٍ : كانَ رسول اللَّه ﷺ إذا طَلَعَ صلَّى الفَجرَ لا يُصَلِّي إلا رَكعَتَينِ خَفِيفَتَينِ .

---

(١) انظر ما أخرجه مسلم في صلاة المسافرين (٩٢) .

(٢) هذا الحديث وما بعده حتى نهاية هذا الباب لم يقم الشارح رحمه الله بشرحها والحديث أخرجه البخاري في التهجد (١١٦٥) ومسلم في صلاة المسافرين وقصرها (٩١) ، قوله « النداء » أي الأذان .

(٣) أخرجه البخاري في الأذان (٦١٨) ، ومسلم في صلاة المسافرين وقصرها (٨٧) .

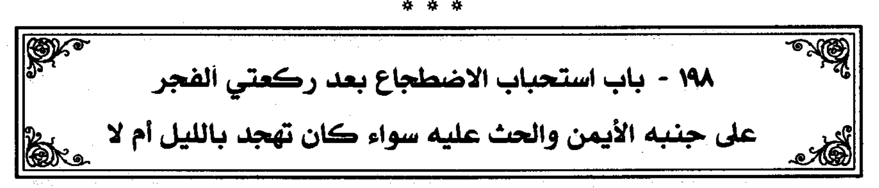
١١٠٦ - وعَنِ ابنِ عُمَرَ رضي الله عنهما قالَ : كانَ رسول اللَّه ﷺ ، يُصَلِّي مِنَ اللَّيلِ مَثنَى مَثنَى ، وَيُوتِرُ بِرَكعةٍ من آخرِ اللَّيلِ ، وَيُصَلِّي الرَّكعَتينِ قبْلَ صَلاةِ الغَدَاةِ ، وَكأَنَّ الأَذَانَ بِأُذُنَيهِ (١) . متفقٌ عليه .

١١٠٧ - وعَنِ ابنِ عباسٍ رضي الله عنهما أنَّ رسول اللَّه ﷺ كانَ يَقرأُ في رَكعَتَي الفَجرِ في الأُولى مِنْهُمَا : ﴿ قُولُوٓاْ ءَامَنَّا بِٱللَّهِ وَمَآ أُنزِلَ إِلَيۡنَا ﴾ الآيةُ التي في البقرة ، وفي الآخِرةِ منهما : ﴿ ءَامَنَّا بِٱللَّهِ وَٱشۡهَدۡ بِأَنَّا مُسۡلِمُونَ ﴾ . وفي روايةٍ : في الآخرةِ التي في آلِ عِمرانَ : ﴿ تَعَالَوۡاْ إِلَىٰ كَلِمَةٖ سَوَآءِۭ بَيۡنَنَا وَبَيۡنَكُمۡ ﴾ (٢) رواهما مسلم .

١١٠٨ - وَعَنْ أَبي هُريرَةَ رضي الله عنه أَنَّ رسول اللَّه ﷺ ، قَرأَ في رَكْعَتَي الفَجْرِ : ﴿ قُلۡ يَٰٓأَيُّهَا ٱلۡكَٰفِرُونَ ﴾ و ﴿ قُلۡ هُوَ ٱللَّهُ أَحَدٌ ﴾ (٣) رواه مسلم .

١١٠٩ - وَعَنِ ابنِ عمرَ رضي الله عنهما قالَ : رَمَقْتُ النَّبيَّ ﷺ شَهرًا وكان يَقرأُ في الرَّكْعَتَينِ قَبْلَ الفَجْرِ : ﴿ قُلۡ يَٰٓأَيُّهَا ٱلۡكَٰفِرُونَ ﴾ ، و ﴿ قُلۡ هُوَ ٱللَّهُ أَحَدٌ ﴾ (٤) . رَوَاهُ الترمذي وقالَ : حديثٌ حَسَنٌ .

* * *



١٩٨ - باب استحباب الاضطجاع بعد ركعتي الفجر على جنبه الأيمن والحث عليه سواء كان تهجد بالليل أم لا

١١١٠ - عَنْ عائِشَةَ رضي الله عنها قَالَتْ : كانَ النَّبيُّ ﷺ إذا صلَّى رَكْعَتَي الفَجْر اضْطَجَعَ عَلى شِقِّهِ الأَيمَنِ (٥) . رواه البخاري .

١١١١ - وَعَنْهَا : قَالَتْ : كَانَ النبيُّ ﷺ يُصَلِّي فيمَا بَينَ أَنْ يَفْرُغَ مِنْ صَلاةِ العِشَاءِ إلى الفَجْرِ إحْدَى عَشْرَةَ رَكْعَةً ، يُسَلِّمُ بَينَ كُلِّ رَكْعَتَيـنِ ، وَيُوتِرُ بوَاحِدَةٍ ، فَإذا سَكَتَ المُؤَذِّنُ مِنْ صَلاةِ الفَجْرِ ، وَتَبَيَّنَ لَهُ الفَجْرُ ، وَجَاءهُ المُؤَذِّنُ ، قامَ فَرَكَعَ رَكْعتَيـنِ خَفِيفَتَيـنِ ، ثُمَّ اضْطَجَعَ عَلى شِقِّه الأَيمَنِ ، هكذا حَتَّى يَأْتِيَهُ المُؤَذِّنُ للإقَامَةِ (٦) . رواه مسلم .

١١١٢ - وَعَنْ أبي هُريرَةَ رضي الله عنه قالَ : قالَ رسول اللَّه ﷺ : « إذا صَلَّى أحَدُكُم رَكْعَتَي الفَجْرِ ؛ فَلْيَضْطَجعْ عَلى يَمينِهِ » (٧) . رَوَاه أَبو داود ، والترمذي بأسانِيدَ صحيحةٍ . قالَ الترمِذي : حديثٌ حَسَنٌ صَحِيحٌ .

---

(١) أخرجه البخاري في الوتر (٩٩٥) ، ومسلم في صلاة المسافرين وقصرها (١٤٥) .
(٢) أخرجه مسلم في صلاة المسافرين (٩٩) ، والبيهقي في السنن (٤٢/٣) .
(٣) أخرجه مسلم في صلاة المسافرين وقصرها (٩٨) ، وأبو داود في الصلاة (١٢٥٦) والنسائي في السنن (١٥٦/٢) .
(٤) أخرجه الترمذي في الصلاة (٤١٧) ، قوله : « رمقت » أي أطلت النظر .
(٥) أخرجه البخاري في التهجد (١١٦٠) ، والإمام أحمد في المسند (٢٥٤/٦) .
(٦) أخرجه مسلم في صلاة المسافرين وقصرها (١٢٢) وأبو داود في الصلاة (١٣٣٦) والنسائي في السنن (٣٠/٢) .
(٧) أخرجه أبو داود في الصلاة (١٢٦١) ، والترمذي في الصلاة (٤٢٠) .

الشرح

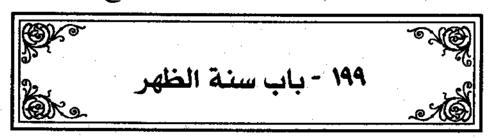
سبق لنا أن النبي ﷺ كان يصلِّي ركعتي الفجر ، وسبق أن هاتين الركعتين تتميزان عن بقية الرواتب بميزات سبق ذكرها ، ومن مميزاتهما : أنه إذا صلَّى هاتين الركعتين اضطجع على شقِّه الأيمن كما كان النبي ﷺ يفعل ، ثبت ذلك عن عائشة رضي الله عنها في الصحيحين : « أنه كان إذا صلَّى سنة الفجر اضطجع بعدها على الجنب الأيمن » ، وفي حديث عائشة الثاني الذي رواه مسلم : أنه كان ﷺ يصلِّي إحدى عشرة ركعة يُسلِّم بين كل ركعتين ، وفي هذا دليل على وهم من توهم أنه إذا صلَّى إحدى عشرة ركعة يصلِّي أربعًا أربعًا ، ثم ثلاثًا بناءً على حديثها رضي الله عنها أنها قالت : كان النبي ﷺ لا يزيد في رمضان ولا غيره على إحدى عشرة ركعة ، يصلي أربعًا فلا تسأل عن حسنهن وطولهن ، ثم أربعًا فلا تسأل عن حسنهن وطولهن ، ثم ثلاثًا [١] فظن بعض الناس أنه يصلِّي أربعًا جميعًا ، ثم أربعًا جميعًا ، ثم ثلاثًا ، وهذا وهم ؛ فقد أخذوا بظاهر الحديث ، فيُحمل هذا على أنه يصلي أربعًا على ركعتين ركعتين ، ثم يستريح ، ثم يصلي أربعًا على ركعتين ركعتين ، ثم يستريح ، ثم يصلي ثلاثًا ، هكذا يجب أن يحمل ؛ لأن الراوي عن النبي ﷺ في ذلك واحد وهي عائشة ، والفعل واحد ، فيجب حمل بعضها على بعض لتتفق السُّنة ، لا يُقال : إنه يفعل هذا مرة وهذا مرة ، لأن كلمة « كان » تدل على دوام الفعل غالبًا .

وأما حديث أبي هريرة في أمر النبي ﷺ من صلَّى ركعتي الفجر أن يضطجع على جنبه الأيمن ؛ فهذا - وإن كان الترمذي وأبوداود قد روياه ، وقال المؤلف : إنه بأسانيد صحيحة فقد قال حبر الأمة وبحر العلوم العقلية والنقلية شيخ الإسلام ابن تيمية : إن هذا حديث منكر ، وإنه لم يصح الأمر به عن النبي ﷺ ، وهذا هو الصحيح [٢] ، لأن الرسول لم يأمر بأن يضطجع الرجل إذا صلى سنة الفجر على جنبه الأيمن .

وقول المؤلف رحمه الله في الترجمة (لا فرق بين المتهجد وغيره) إشارة إلى خلاف في ذلك ، وهو : أن بعض العلماء قال : يُسن الاضطجاع بعد ركعتي الفجر مطلقًا ، وبعضهم قال لا يُسن مطلقًا ، وبعضهم قال بالتفصيل : إن كان له تَهجد فإنه يُسن له أن يضطجع بعدهما من أجل الراحة بعد التعب ، وإن لم يكن له تهجد فلا يضطجع ، ومن أعجب الأقوال وأغربها أن بعض العلماء قال : إن الاضطجاع بعد سنة الفجر شرط لصحة صلاة الفجر ، وأن من لم يضطجع فصلاته باطلة ، وهذه من غرائب العلم ، وغرائب الأقوال ؟! ما الرابط بين هذا الاضطجاع وبين صلاة الفجر ، الجهة منفصلة عن الصلاة ولا علاقة لها بالاضطجاع ، . لكن ذكرناه لأجل أن تعجبوا من آراء بعض أهل العلم - رحمهم الله - أنهم يقولون أقوالًا لا يدل عليها نقل ولا عقل ، والصحيح هو ما قاله شيخ الإسلام : أنه إذا كان الإنسان مُتعبًا من تهجده فإنه يستريح ، يضطجع على جنبه الأيمن ، وهذا بشرط ألا يخشى أن يغلبه النوم فتفوته الصلاة ، فإن خشي فلا ينم .

---

(١) أخرجه البخاري في التهجد (١١٤٧) ، ومسلم صلاة المسافرين (١٢٥) ، ومالك في الموطأ (صلاة الليل ٩) .
(٢) فتاوى ابن تيمية (٢٠٣/٢٣ ، ٢٠٤) .



١٩٩ - باب سنة الظهر

١١١٣ - عَنِ ابنِ عمرَ رضي الله عنهما قالَ : صَلَّيتُ مَعَ رَسول اللَّه ﷺ ، رَكْعَتَينِ قَبْلَ الظُّهرِ ، وَرَكعَتينِ بَعدَهَا [١] . متفقٌ عليه .

١١١٤ - وَعَنْ عائِشَةَ رضي الله عنها أَنَّ النبيَّ ﷺ كانَ لا يدَعُ أَرْبَعًا قَبْلَ الظُّهرِ [٢] ، رَواه البخاريُّ .

١١١٥ - وَعَنْهَا : قَالَتْ : كانَ النبيُّ ﷺ يُصَلِّي في بَيتي قَبْلَ الظُّهرِ أَرْبعًا ، ثُمَّ يَخْرُجُ فَيُصَلِّي بِالنَّاس ، ثُمَّ يَدْخُلُ فَيُصَلِّي رَكْعَتَين ، وَكانَ يُصَلِّي بالنَّاسِ المَغْرِبَ ، ثُمَّ يَدْخُلُ فَيُصَلِّي رَكْعَتَينِ ، وَيُصَلِّي بِالنَّاسِ العِشَاءَ ، وَيَدْخُلُ بَيتي ، فَيُصَلِّي رَكْعَتَينِ [٣] . رواه مسلم .

١١١٦ - وعن أُمِّ حَبيبَةَ رضي الله عنها قَالَتْ : قالَ رسول اللَّه ﷺ : « مَنْ حَافَظَ عَلى أَرْبَعِ رَكَعَاتٍ قَبْلَ الظُّهرِ ، وَأَرْبَعٍ بَعْدَهَا ، حَرَّمَهُ اللَّهُ عَلى النَّارِ » [٤] . رواه أبو داود ، والترمذي وقال : حديثٌ حسنٌ صحيحٌ .

١١١٧ - وَعَنْ عبدِ اللَّه بنِ السائبِ رضي الله عنه أَنَّ رسول اللَّه ﷺ كانَ يُصَلِّي أَرْبعًا بعْدَ أَن تَزولَ الشَّمسُ قَبْلَ الظُّهرِ ، وقَالَ : « إِنَّهَا سَاعَةٌ تُفْتَحُ فِيهَا أَبوابُ السَّمَاءِ ، فَأُحِبُّ أَن يَصعَدَ لي فِيها عَمَلٌ صَالِحٌ » [٥] رواه الترمذي وَقَالَ : حديثٌ حسنٌ .

١١١٨ - وعَنْ عَائِشَةَ رضي الله عنها أَنَّ النَّبيَّ ﷺ كانَ إذا لَمْ يُصَلِّ أَرْبعًا قبْلَ الظهْرِ ، صَلَّاهُنَّ بعْدَها [٦] . رَوَاهُ الترمذي وقَالَ : حديثٌ حَسَنٌ .

الشرح

قال المؤلف رحمه الله باب سنة الظهر ، وذكر أحاديث متعددة كلها تدل على أن الظهر لها ست ركعات : أربع قبلها بسلامين ، وركعتان بعدها ، وأنه إذا نسي الإنسان أو فاته الأربع القبليَّة فإنه يصليها بعد الظهر ، لأن الرواتب تُقضى كما تُقضى الفرائض ، ولكن قد ورد في حديث أخرجه ابن ماجه : أنه يبدأ أولًا بالسُّنة البعدية ، ثم بالسُّنة القبلية [٧] . فمثلًا جئت لصلاة الظهرُ والإمام يصلي ولم تتمكن من صلاة السنة القبلية نقول : صَلِّ ، وبعد الانتهاء من الصلاة ، صلِّ الركعتين اللتين بعد الصلاة ثم صلِّ ركعتين وركعتين للتي قبل الصلاة . هذا هو السُّنة . وفي هذه الأحاديث دليل على أن الإنسان ينبغي له أن يحافظ على الرواتب ،

(١) أخرجه البخاري في التهجد (١١٦٩) ، ومسلم في صلاة المسافرين وقصرها (١٤٠) .

(٢) أخرجه البخاري في التهجد (١١٨٢) ، والإمام أحمد في المسند (٩٣/٦) .

(٣) أخرجه مسلم في صلاة المسافرين وقصرها (١٠٥) .

(٤) أخرجه أبو داود في الصلاة (١٢٦٩) ، والترمذي في الصلاة (٤٢٧ ، ٤٢٨) .

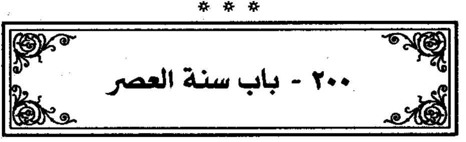
(٥) أخرجه الترمذي في الصلاة (٤٧٨) ، قوله : « بعد أن تزول الشمس » أي قبل دخول وقت الظهر ، قوله : «يصعد لي » يرتفع لي .

(٦) أخرجه الترمذي في الصلاة (٤٢٦) .

(٧) انظر الحديث في ابن ماجه في إقامة الصلاة (١١٥٩) .

لقول عائشة : كان النبي ﷺ : لا يدع أربعًا قبل الظهر - يعني لا يتركها - إلا أنه في السفر لا يصلِّي سنة الظهر القبلية ولا البعدية ، لأن النبي ﷺ لم يكن يصلي راتبة الظهر إذا كان مسافرًا . واللّه الموفق .

* * *



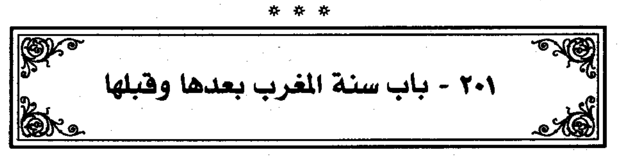
٢٠٠ - باب سنة العصر

١١١٩ - عَنْ عليٍّ بنِ أَبي طَالبٍ ﷺ قالَ : كانَ النَّبي ﷺ يُصَلِّي قَبْلَ العَصْرِ أَرْبعَ رَكعَاتٍ ، يَفصِلُ بَينَهُنَّ بِالتَّسْليم عَلى المَلائِكَةِ المقرَّبِينَ ، وَمَنْ تَبِعَهُمْ مِنَ المسْلِمِينَ وَالمؤمِنِين[١] . رواه الترمذي وقَالَ : حديثٌ حَسَنٌ .

١١٢٠ - وَعنِ ابنِ عُمَرَ ﷺ عن النبي ﷺ قالَ : « رَحِمَ اللَّهُ امْرَأً صلَّى قبْلَ العَصْرِ أَرْبعًا » [٢] . رَوَاه أبو داود ، والترمذي وقالَ : حديثٌ حَسَنٌ .

١١٢١ - وعنْ عليٍّ بنِ أَبي طالبٍ ﷺ أَنَّ النبيَّ ﷺ كانَ يُصلِّي قبْلَ العَصرِ رَكْعَتَينِ [٣] . رَوَاه أبو داود بإسنادٍ صحيحٍ .

* * *



٢٠١ - باب سنة المغرب بعدها وقبلها

تَقَدَّمَ في هذه الأبوابِ حديثُ ابنِ عُمرَ ، وحديثُ عائشةَ ، وهما صحيحانِ أَنَّ النبيَّ ﷺ كانَ يُصَلِّي بعْدَ المغربِ رَكْعَتَيْنِ .

١١٢٢ - وَعَنْ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ مُغَفَّلٍ ﷺ عن النبي ﷺ قالَ : « صَلُّوا قَبلَ المَغرِبِ » قالَ في الثَّالثَةَ : « لمنْ شاءَ » [٤] رواه البخاري .

١١٢٣ - وعن أنسٍ ﷺ قالَ : لَقدْ رَأَيتُ كِبارَ أَصحابِ رسول اللَّه ﷺ يَبْتَدِرُونَ السَّوَارِي عندَ المغرب [٥] . رواه البخاري .

١١٢٤ - وعَنْهُ قَالَ : كُنَّا نُصَلِّي عَلى عَهدِ رسول اللَّه ﷺ رَكعَتَينِ بعدَ غُروبِ الشَّمسِ ، قَبلَ

---

(١) أخرجه الترمذي في الصلاة (٤٢٩) ، قوله : « يفصل بينهن » أي يسلم بعد الركعتين .

(٢) أخرجه أبو داود في الصلاة (١٢٧١) ، والترمذي في الصلاة (٤٣٠) ، والإمام أحمد في المسند (١١٧/٢) ، قوله : « رحم اللّه امرأ » أي أحسن اللّه إليه وغفر له .

(٣) أخرجه أبو داود في الصلاة (١٢٧٢) .

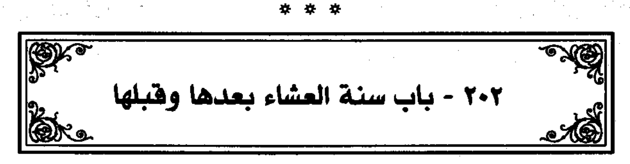
(٤) أخرجه البخاري في التهجد (١١٨٣) والبيهقي في السنن (٤٧٤/٢) .

(٥) أخرجه البخاري في الصلاة (٥٠٣) وأحمد في مسنده (٢٨٠/٣) وقوله : « يبتدرون » أي يستبقون ، وقوله : « السواري » أي أعمدة المسجد وكانت من جذوع النخل وذلك لئلَّا يقطع أحد عليه الصلاة .

المَغرِبِ ، فقيلَ : أَكَانَ رسول اللَّه ﷺ صَلَّاهُمَا ؟ قالَ : كانَ يَرانَا نُصَلِّيهِمَا ، فَلَمْ يَأْمُرْنَا ، وَلَم يَنْهَنَا [١] . رواه مسلمٌ .

١١٢٥ - وعنه قَالَ : كُنَّا بِالمَدينَةِ ، فإذا أَذَّنَ المُؤَذِّنُ لِصَلاةِ المغرِب ؛ ابْتَدَرُوا السَّوَارِيَ ، فَرَكَعُوا رَكعَتَينِ ، حَتَّى إنَّ الرَّجُلَ الغَرِيبَ لِيَدخُلُ المَسجِدَ فَيَحْسَبُ أَنَّ الصَّلاةَ قَدْ صُلِّيَتْ من كَثْرَةِ مَنْ يُصَلِّيهِمَا [٢] . رواه مسلم .

* * *



٢٠٢ - باب سنة العشاء بعدها وقبلها

فيهِ حديثُ ابنِ عُمَرَ السَّابقُ : صَلَّيتُ مَعَ النَّبِيِّ ﷺ رَكعَتَينِ بَعْدَ العِشَاءِ ، وحديثُ عبدِ اللَّهِ بنِ مُغَفَّل : « بَينَ كلِّ أَذَانينِ صَلاةٌ » متفقٌ عليه . كما سبَقَ .

الشرح

هذه الأبواب في بيان سنة العصر والمغرب والعشاء ، وقد سبق بيان سنة الفجر وسنة الظهر .

فأما العصر : فمن السنن قبلها : أن يصلِّي الإنسان أربع ركعات استئناسًا بهذا الحديث : « رحم اللَّه امرأ صلَّى قبل العصر أربعًا » وهذه الجملة دعائية : يعني أن النبي ﷺ دعا لمن صلَّى قبل العصر أربعًا ، وهذا الحديث وإن كان فيه مقال عند أهل العلم ، لكنه يُرجى أن ينال الإنسان الأجر إذا صلَّى هذه الأربع .

وأما المغرب : فلها سنة قبلها وبعدها ، لكن السُّنة التي قبلها ليست راتبة ، والتي بعدها راتبة ، السُّنة التي قبلها فيها الحديث أن النبي ﷺ قال : « صلُّوا قبل المغرب » ثلاثًا ، وقال في الثالثة : « لمن شاء » ؟ لئلا تُتَّخذ سُنة راتبة ، فإذا أذن المغرب فصلِّ ركعتين سنة لكن ليست كالتي بعدها راتبة مؤكدة ، بل هي سنة إن تركها الإنسان فلا حرج ، وإن فعلها فلا حرج ، ولهذا قال أنس : « كان النبي ﷺ يرانا نصلِّيهما فلم يأمرنا ولم ينهنا » .

وأما العشاء : فلها سنة قبلها وبعدها ، لكن السنة قبلها ليست راتبة ، بل هي داخلة في عموم قول النبي ﷺ : « بين كل أذانين صلاة » . أما بعدها فيُسنُّ ركعتان .

فتبين بهذا أن الصلوات الخمس : الفجر لها سنة قبلها ، وليس لها سنة بعدها ، والظهر لها سنة قبلها وبعدها ، والعصر ليس لها سنة قبلها ولا بعدها - يعني راتبة - لكن لها سنة غير راتبة قبلها وأما بعدها فهو وقت نهي ، والمغرب لها سنة بعدها - أي : راتبة - وقبلها - غير راتبة ، والعشاء لها سنة

---

(١) أخرجه مسلم في صلاة المسافرين (٣٠٣) ، والدارمي في الصلاة (١٤٥) .

(٢) أخرجه مسلم في صلاة المسافرين (٣٠٣) ، (٣٠٤) والترمذي في الصلاة (١٨٥) .

بعدها - يعني راتبة - وقبلها وليست براتبة ، هذه هي السنن التابعة للمفروضات .

ومن فوائدها : أنه إذا حصل نقص بالفرائض فإنها تكملها .

* * *

٢٠٣ - باب سنة الجمعة

فِيهِ حديثُ ابنِ عُمرَ السَّابِقُ (١٠٩٨) أَنَّهُ صلَّى مَعَ النَّبِيِّ ﷺ رَكعَتَينِ بَعْدَ الجُمُعَةِ . متفقٌ عليه .

١١٢٦ - وعَنْ أَبي هُرَيرَةَ ﷺ قالَ : قالَ رسول اللَّه ﷺ : « إذا صَلَّى أَحَدُكُمُ الجُمُعَةَ ، فَلْيُصَلِّ بَعْدَهَا أَرْبَعًا » [١] رواه مسلم .

١١٢٧ - وَعَنِ ابنِ عُمَرَ ﷺ أَنَّ النَّبِيَّ ﷺ كانَ لا يُصَلِّي بَعْدَ الجُمُعَةِ حَتَّى يَنْصَرِفَ ، فَيُصَلِّي رَكْعَتَينِ في بَيتِهِ [٢] ، رواه مسلم .

الشرح

الجمعة : صلاة مستقلة ليست هي الظهر ؛ ولهذا لا يجمع العصر إليها ، يعني إذا كان الإنسان مسافرًا ، ومررت ببلد وصليت معهم الجمعة فلا تجمع العصر إليها ، لأنها مستقلة [٣] ، والسُّنة إنما جاءت بالجمع بين الظهر والعصر لا بين الجمعة والعصر ، ولأنها أي : - الجمعة - تختلف عن سائر الصلوات بما يشرع قبلها وبعدها وفي يومها - فلا سنة قبلها - يعني ليس لها راتبة - إذا جاء الإنسان إلى المسجد يصلي ما شاء - إلا أن يحضر الإمام - من غير عدد معين ، يصلي ، يقرأ حتى يأتي الإمام سواء صلَّى ركعتين ، أم أربعًا ، أم ستًّا على حسب نشاطه [٤] ، وأما بعدها فلها سنة راتبة ، والسنة الراتبة التي بعدها : ركعتان بالبيت لقول ابن عمر ﷺ : كان النبي ﷺ إذا صلَّى الجمعة لا يصلي بعدها شيئًا حتى ينصرف إلى بيته فيصلي ركعتين ، وفي حديث أبي هريرة الذي ذكره المؤلف : أن النبي ﷺ قال : « إذا صلَّى أحدكم الجمعة فليصلِّ بعدها أربعًا » فاختلف العلماء - رحمهم اللَّه - هل سنة الجمعة أربع ركعات بسلامين أم ركعتان ، فمنهم من قال : إنها أربع ركعات ، لأن هذا هو الذي أمر به النبي ﷺ وأما الركعتان فهما فعله ، وأمره مُقَدَّم على فعله . فتكون أربع ركعات .

---

(١) أخرجه مسلم في الجمعة (٦٧) ، والإمام أحمد في المسند (٤٩٩/٢) ، والبيهقي في السنن (٣٣٩/٣) .

(٢) أخرجه مسلم في الجمعة (٧١) ، والنسائي في السنن (١١٣/٣) ، والبيهقي في السنن (٢٤٠/٣) .

(٣) الكلام على أن الجمعة صلاة مستقلة أم ظهر مقصورة فيه خلاف بين العلماء ، فقال بعضهم في الجمعة والظهر يوم الجمعة ثلاثة أقوال : الأول كل واحدة أصل بنفسه . والثاني الظهر أصل والجمعة بدل وهو القول بأنها ظهر مقصورة . والثالث : وهو أصحها أن الجمعة أصل والظهر بدل (انظر في ذلك : المجموع ٤٥١/٤) .

(٤) انظر فتاوى ابن تيمية (١٨٩/٢٤) .

ومنهم من قال : هي ركعتان فقط [١] ؛ لأن هذا هو الذي ذكره ابن عمر ﷺ وأما الأربع فليست براتبة . ومنهم من فصَّل فقال : إنْ صلَّى في المسجد سنة الجمعة صلَّى أربعًا ، وإن صلَّى بالبيت صلَّى ركعتين » وهذا اختيار شيخ الإسلام ابن تيمية - رحمة اللَّه عليه - ومنهم من قال : يجمع بين هذا وهذا : فيصلي أربعًا بأمر النبي ﷺ ويصلِّي ركعتين بفعله ، فتكون السنة بعد الجمعة ست ركعات [٢] . واللَّه الموفق .

* * *

٢٠٤ - باب استحباب جعل النوافل في البيت سواء الراتبة وغيرها والأمر بالتحول للنافلة من موضع الفريضة أو الفصل بينهما بكلام

١١٢٨ - عَنْ زيدِ بن ثابتٍ ﷺ أَنَّ النَّبيَّ ﷺ قالَ : « صَلُّوا أَيُّها النَّاسُ في بُيُوتِكُمْ ؛ فَإِنَّ أَفْضَلَ الصَّلاةِ صَلاةُ المَرْءِ في بَيْتِهِ إلا المكْتُوبَةَ » [٣] متفقٌ عليه .

١١٢٩ - وَعَنِ ابنِ عُمَرَ ﷺ عَنِ النَّبيِّ ﷺ ، قالَ : « اجْعَلُوا مِنْ صَلاتِكُمْ في بُيُوتِكُمْ ، وَلا تَتَّخِذُوهَا قُبُورًا » [٤] متفقٌ عليه .

١١٣٠ - وَعَنْ جابرٍ ﷺ قالَ : قَالَ رسول اللَّه ﷺ : « إذا قَضَى أَحَدُكُمْ صَلاتَهُ في مَسْجِدِهِ ؛ فَلْيَجْعَلْ لبَيْتِهِ نصِيبًا مِنْ صَلاتِهِ ؛ فَإِنَّ اللَّهَ جَاعِلٌ في بَيْتِهِ مِنْ صَلاتِهِ خَيْرًا » [٥] رواه مسلم .

الشرح

لما ذكر المؤلف رحمه الله الرواتب التابعة للمفروضات ؛ بين في هذا الباب أن الأصل للإنسان أن يصلي في بيته ، وذكر في ذلك أحاديث منها : أن النبي ﷺ قال : « صلوا أيها الناس في بيوتكم » فأمر أن يصلى في البيت ، فإن صلاة المرء في بيته أفضل إلا المفروضة [٦] ؛ فدل ذلك على أن الإنسان ينبغي له أن تكون جميع رواتبه في بيته سواء الرواتب أو صلاة الضحى أو التهجد أو غير ذلك ، حتى

---

(١) وهذا هو رأي طائفة من أصحاب الشافعي وأحمد ، أما أصحاب أبي حنيفة وطائفة من أصحاب أحمد فقد قالوا بأنها أربعة (انظر فتاوى ابن تيمية ١٨٩/٢٤) .

(٢) فتاوى ابن تيمية (١٩٢/٢٤) .

(٣) أخرجه البخاري في الأذان (٧٣١) ، ومسلم في صلاة المسافرين (٢١٣) ، والإمام أحمد في المسند (١٨٢/٥) ، والبيهقي في السنن (٤٩٤/٢) .

(٤) أخرجه البخاري في الصلاة (٤٣٢) ومسلم في صلاة المسافرين (٢٠٨) والإمام أحمد في المسند (١٦/٢) ، قوله « من صلاتكم » أي بعض صلاتكم ، والمراد بها صلاة النافلة ، قوله « لا تتخذوها قبورًا » أي لا تجعلوها مهجورة كالقبور .

(٥) أخرجه مسلم في صلاة المسافرين (٢١٠) ، وابن ماجه في إقامة الصلاة والسنة فيها (١٣٧٦) ، والإمام أحمد في المسند (١٥/٣ ، ٥٩) .

(٦) وذلك لما رواه أبو داود في الصلاة (١٠٤٤) والطبراني في الكبير (١٥٥/٥) والبغوي في شرح السنة (١٣٠/٤) .

في مكة والمدينة ، الأفضل أن تكون الرواتب في البيت ، أفضل من كونها في المسجد ، في المسجد الحرام أو المسجد النبوي ، لأن النبي ﷺ قال هذا وهو في المدينة والصلاة في مسجده خير من ألف صلاة إلا المسجد الحرام . وكثير من الناس الآن يفضل أن يصلي النافلة في المسجد الحرام دون البيت ، وهذا نوع من الجهل ، فمثلًا إذا كنت في مكة وأذن لصلاة الفجر وسألك سائل : هل الأفضل أن تصلي الراتبة في البيت أو أذهب إلى المسجد الحرام ؟ قلنا : الأفضل في البيت ، سنة الضحى أفضل في المسجد الحرام أم في البيت ؟ قلنا : في البيت ، التهجد أفضل في المسجد الحرام أم في البيت ؟ قلنا : في البيت ، وهلم جر . إلا الفرائض ؛ فالفرائض لابد أن تكون في المساجد ، ولهذا قال النبي ﷺ في الحديث الأخير : « فإن اللَّه جاعل في بيته من صلاته خيرًا » يعني أن البيت إذا صليت فيه جعل اللَّه فيه خيرًا ، جعل اللَّه في صلاتك فيه خيرًا . من هذا أنَّ أَهْلَكَ إذا رأوك تصلي اقتدوا بك وألفوا الصلاة وأحبوها ولا سيما الصغار منهم ، ومنها : أن الصلاة في البيت أبعد من الرياء ، فإن الإنسان في المسجد يراه الناس وربما يقع في قلبه شيء من الرياء ، أما في البيت ؛ فإنه أقرب إلى الإخلاص وأبعد عن الرياء . ومنها : أن الإنسان إذا صلى في بيته وجد فيه الراحة ، راحة قلبية وطمأنينة ، وهذا لا شك أنها تزيد في إيمان العبد ، فالمهم أن الرسول ﷺ أمرنا أن نصلي في بيوتنا إلا الفرائض .

كذلك يستثنى من تلك النوافل : قيام رمضان ؛ فإن الأفضل في قيام رمضان أن يكون جماعة في المساجد مع أنه سنة وليس بواجب ، لكن دلت السنة على أن قيام رمضان في المسجد أفضل ، فإن الرسول ﷺ صلى بأصحابه ثلاث ليالي أو ليلتين ثم تخلى وقال : « إني خشيت أن تفرض عليكم » [١] . واللَّه الموفق .

* * *

١١٣١ - وَعَنْ عُمَرَ بْنِ عَطَاءٍ أَنَّ نَافِعَ بْنَ جُبَيْرٍ أَرْسَلَهُ إلى السَّائِبِ ابن أُخْتِ نَمِرٍ يَسْأَلُهُ عَنْ شَيْءٍ رَآهُ مِنْهُ مُعَاوِيَةُ في الصَّلاةِ فَقَالَ : نَعَمْ صَلَّيْتُ مَعَهُ الجُمُعَةَ في المقصُورَةِ ، فَلَمَّا سَلَّمَ الإمامُ ، قُمتُ في مَقَامِي ، فَصَلَّيْتُ ، فَلَمَّا دَخَلَ أَرْسَلَ إليَّ فقال : لا تَعُدْ لمَا فَعَلتَ . إذا صَلَّيت الجُمُعَةَ ، فَلا تَصِلْها بصَلاةٍ حَتي تَتَكلم أَو تَخْرُجَ ، فَإِنَّ رسول اللَّه ﷺ أَمَرَنَا بِذلكَ ؛ أَنْ لا نُوصِل صَلاةً بِصَلَاةٍ حَتَّى نَتَكَلَّمَ أَو نَخْرُجَ [٢] . متفقٌ عليه .

الشرح

هذا الحديث الذي ذكره رَحِمَهُ اللَّهُ في استحباب الفصل بين الفرض والسنة ، وهو حديث معاوية رضي الله عنه أنه رأى رجلًا صلى الجمعة ثم قام فصلى - يعني السنة - فدعاه معاوية وأخبره أن النبي ﷺ أمر ألا توصل صلاة بصلاة حتى نخرج أو نتكلم ، فمثلًا إذا صليت الظهر ، فالظهر لها راتبة بعدها - وأردت

---

(١) أخرجه البخاري في الأذان (٧٢٩) .

(٢) أخرجه مسلم في الجمعة (٧٣) ، وقوله : « في المقصورة » هي الحجرة المبنية في المسجد ، وكان معاوية قد أحدث ذلك في المسجد بعدما ضربه الخارجي .

أن تصلي الراتبة ، لا تصل في مكانك ، قم في محل آخر ، أو اخرج إلى بيتك وهو أفضل ، أو على الأقل تكلم ؛ لأن النبي ﷺ نهى أن توصل صلاة بصلاة حتى يخرج الإنسان أو يتكلم ، ولهذا قال العلماء : يسن الفصل بين الفرض وسنته بكلام أو انتقال من موضعه .

والحكمة من ذلك : ألا يوصل الفرض بالنفل ، فليكن الفرض وحده ، والنفل وحده حتى لا يختلط . هكذا قال أهل العلم رحمهم الله . والله الموفق .

٢٠٥ - باب الحث على صلاة الوتر وبيان أنه سنة مؤكدة وبيان وقته

١١٣٢ - عَنْ عَليٍّ ﷺ قالَ : الوِترُ لَيسَ بِحَتْمٍ كَصَلاةِ المَكْتُوبَةِ ، وَلكِنْ سَنَّة سنه رسول اللَّه ﷺ ، قالَ : « إنَّ اللَّهَ وِتْرٌ يُحِبُّ الوِتْرَ ؛ فَأَوتِرُوا يَا أَهْلَ القُرْآنِ » [١] . رواه أبو داود والترمذي وقَالَ : حديثٌ حسنٌ .

١١٣٣ - وَعَنْ عَائِشَةَ ﷺ قَالَتْ : مِنْ كُلِّ اللَّيلِ قَدْ أَوتَرَ رسول اللَّه ﷺ ، مِنْ أَوَّلِ اللَّيلِ ، وَمِنْ أَوسَطِهِ ، وَمِنْ آخِرِهِ ، وَانْتَهى وِتْرُهُ إِلى السَّحَرِ [٢] متفقٌ عليه .

١١٣٤ - وعَنِ ابنِ عُمَرَ ﷺ عن النبي ﷺ قَالَ : « اجْعَلوا آخِرَ صَلاتِكُمْ بِاللَّيلِ وِتْرًا » [٣] متفقٌ عليه .

الشرح

اعلم أنه ثبت عن النبي ﷺ أنه قال : « إن اللَّه وتر يحب الوتر » ، « إن اللَّه وتر » يعني : ليس معه إله ثانٍ ، وهو سبحانه وتعالى يحب الوتر ، وقد ظهرت آثار هذه المحبة في مخلوقاته ، وفي مشروعاته ، ففي مشروعاته : نجد أن أكثرها وتر ينقطع بوتر ؛ الصلوات الخمس عددها سبعة عشر ركعة وهي وتر، صلاة الليل إحدى عشر ركعة وهي وتر ، كذلك المخلوقات أعظم ما نعلم من المخلوقات : العرش وهو واحد ، ثم السماوات وهي سبع ، ثم الأرضون وهي سبع ، فتجد أن الوترية ظهرت في مشروعات اللَّه وفي مخلوقات اللَّه ﷻ ، لأنه تبارك وتعالى وتر يحب الوتر .

واعلم أيضًا أن الوتر وتران : وتر فريضة ، ووتر سنة .

أما وتر الفريضة : فهو صلاة المغرب كما ثبت في الحديث الصحيح : أنها وتر النهار [٤] ، يعني تختم بها صلاة النهار وهي وتر ، وإن كانت في أول الليل . وأما وتر النافلة فهو الوتر الذي يختم به

---

(١) أخرجه أبو داود في الصلاة (١٤١٦) والترمذي في الصلاة (٤٥٣) .

(٢) أخرجه البخاري في التهجد (٩٩٦) ومسلم في صلاة المسافرين وقصرها (١٣٦) .

(٣) أخرجه البخاري في التهجد (٩٩٨) ومسلم في صلاة المسافرين وقصرها (١٥١) والإمام أحمد في المسند (٢٠/٢) والبيهقي في السنن (٤٣/٣) ، قوله « اجعلوا آخر صلاتكم بالليل وترًا » يقصد به أن يختم الإنسان عمله بالأفضل ، فتعود عليه بركته ويحوز نفعه .

(٤) وذلك لما رواه أحمد في مسنده (٣٠/٢) ، والطبراني في الصغير (١١٢/١) .

صلاة الليل ، قال النبي ﷺ : « اجعلوا آخر صلاتكم بالليل وترًا » واختلف العلماء رحمهم الله في وتر صلاة الليل ، فمنهم من قال : إنه واجب وأن الذي يترك الوتر آثم ، ولكنه ليس كالفريضة ركن من أركان الإسلام ، لكنه واجب ، يأثم الإنسان بتركه [(١)] . ومنهم من قال : إنه سنة لا يأثم الإنسان بتركه [(٢)] ، ولكل منهم حجة ، لكن حجة من يقول : إنه ليس بواجب أقوى ، لأن رجلًا سأل النبي ﷺ عن ما يجب عليه من الصلوات ، فعد عليه الصلوات الخمس ، فقال : هل علي غيرها ، قال : « لا ، إلا أن تطوع » [(٣)] . وفصل بعض العلماء فقال : من كان له وتر من آخر الليل وجب عليه أن يوتر ، ومن لم يكن كذلك ، يعني : أنه يصلي العشاء ثم ينام - فهذا لا يلزمه الوتر [(٤)] ، ففصل بين من له وتر من آخر الليل الواجب عليه أن يوتر ، لقول النبي ﷺ : « أوتروا يا أهل القرآن » [(٥)] وهذا خاص بهم ، أمر خاص بهم ؛ لأن الأمر العام يشملهم وغيرهم ، لكن هذا أمر خاص . وعلى كل حال فإن ترك الوتر لا ينبغي ، حتى قال الإمام أحمد بن حنبل رحمه الله إمام أهل السنة قامع البدعة ، قال رحمه الله : من ترك الوتر فهو رجل سوء لا ينبغي أن تقبل له شهادة [(٦)] . إلى هذا الحد وصفه بأنه رجل سوء وأنه لا ينبغي أن تقبل له شهادة ، لأن الوتر أدناه ركعة ، ركعة لا تشتد على أحد ، ولا تكلف أحدًا ، ولا تأخذ من وقتك وقتًا كثيرًا . فالذي يتركها مع تأكدها وفضلها وأمر النبي ﷺ بها ، فهو رجل سوء ، فلا تتركها . قال : ولا ينبغي أن تقبل له شهادة فإذا جاء إلى القاضي وشهد ، وقد علمنا أنه لا يوتر رددنا شهادته ، هذا قول الإمام أحمد رحمه الله . وهذا يدل على تأكد هذا الوتر ، فلا ينبغي للإنسان أن يدعه .

أما وقته : فهو من صلاة العشاء ، وسنتها إلى طلوع الفجر [(٧)] . من صلاة العشاء ولو جمعت جمع تقديم مع المغرب ، يعني أن الإنسان إذا نزل مطر أو ما أشبه ذلك ، وجمع صلاة العشاء إلى المغرب تقديمًا ، فإن الوتر يدخل وقته ، فيصلي العشاء ثم الراتبة ثم الوتر ، سواء في أول الليل ، أو وسطه ، أو آخره كما قالت عائشة رضي الله عنها : من كل الليل أوتر النبي ﷺ : من أول الليل ، ووسطه ، وآخره ، وانتهى وتره إلى السحر [(٨)] ، هذا وقته .

أما عدده : فسيأتي إن شاء الله ، ولنعلم أن الذي يسرع في صلاته إسراعًا مخلًا بالطمأنينة ليست

---

(١) هذا هو أحد أقوال أبي حنيفة وهو الصحيح عنده ، وهو أدون درجة من الفرائض ولا يكفر جاحده (انظر فقه الكتاب والسنة ٣٠٤٨/٥ ، ٣٠٤٩) بدائع الصنائع (٢٧١/١) ، والبناية (٢٨٩/٢) .

(٢) وهذا هو مذهب أكثر أهل العلم كالشافعية والحنابلة والمالكية والصاحبان من الأحناف (انظر المجموع ١٢/٤ ، وأسهل المدارك ٢٢١/١ ، والمغني ١٦١/٢ ، وبداية المجتهد ١٧٠/١) .

(٣) انظر الحديث في : البخاري في الإيمان (٤٦) ، ومسلم في الإيمان (٨) ، وأبو داود في الصلاة (٣٩١) .

(٤) انظر في ذلك المجموع (١٤/٤ ، ١٥) ، والمغني (١٦٣/٢) .

(٥) أخرجه أحمد في مسنده (١٤٨/١) ، والبيهقي في السنن (٤٦٨/٢) .

(٦) انظر المغني (١٦١/٢) ، وفقه الكتاب والسنة (٣٠٤٩/٥) .

(٧) انظر بدائع الصنائع (٢٧٢:١) ، المجموع (١٣/٤) ، المغني (٦٢/٢) .

(٨) أخرجه البخاري في الوتر (٩٩٦) ، ومسلم في صلاة المسافرين (١٣٦) ، وأحمد في مسنده (٨٥/١ ، ٨٦) .

له صلاة : الفريضة والنفل ، لأن رجلًا جاء إلى المسجد وصلى بغير طمأنينة ، فقال له النبي ﷺ : « ارجع فصل فإنك لم تصل » ثلاث مرات [١] . فلابد من الطمأنينة . وعجبًا لبني آدم ، وعجلة بني آدم ، وجهل بني آدم ، وظلم بني آدم . كيف يسرع هذه السرعة وهو يخاطب الله ويناجيه . لو أن إنسانًا وقف مع صديق له يحادثه لبقي الساعة والساعتين وهو واقف لا يمل ، فكيف وهو بين يدي الله ﷻ يناجيه ويخاطبه ؟ يا رب اغفر لي ، سبحان ربي الأعلى ، سبحان ربي العظيم ، يناجيه في كلامه ، لماذا هذه السرعة ، هل وراءه جيش ؟ أبدًا ، لكن الشيطان عدو لنا ، ولا يحب منا إلا ما يسوؤنا ، يحب أن يصدنا عن ذكر الله وعن الصلاة ، يقول لنا عجل ، كأننا على جمر . وأقول يا أخي جرب ، اطمئن في الصلاة واستحضر أنك تخاطب الله وتناجيه حتى تذوق طعمها ، وحتى تكون قرة عينك كما كانت قرة عين الرسول ﷺ [٢] . أما أن يسرقها سرقًا ، فهذه سرقة من الشيطان . نعوذ بالله من الشيطان الرجيم ، اللَّهم أعذنا جميعًا من الشيطان الرجيم .

* * *

١١٣٥ - وَعَنْ أَبي سَعِيدِ الخُدْرِيِّ ﷺ أَنَّ النَّبيَّ ﷺ قَالَ : « أَوتِرُوا قَبْلَ أَنْ تُصْبِحُوا » [٣] رواه مسلم .

١١٣٦ - وعن عائشةَ ﵂ أَنَّ النَّبيَّ ﷺ كانَ يُصَلِّي صَلاتَهُ بِاللَّيلِ ، وَهِيَ مُعْتَرِضَةٌ بينَ يَدَيهِ ، فَإذا بَقِيَ الوِتْرُ ، أَيقَظَهَا فَأَوترتْ . رواه مسلم . وفي روايةٍ له : فَإذا بَقِيَ الوترُ قالَ : « قُومِي فَأَوتِري يَا عَائِشَةُ » [٤] .

١١٣٧ - وعَنِ ابنِ عُمَرَ ﵄ أَنَّ النَّبيَّ ﷺ ، قالَ : « بَادِرُوا الصُّبْحَ بالوِتْرِ » [٥] . رَوَاه أبو داود ، والترمذي وقالَ : حديثٌ حسنٌ صحيحٌ .

١١٣٨ - وَعَنْ جابرٍ ﷺ قالَ : قالَ رسول اللَّه ﷺ : « مَنْ خَافَ أَنْ لا يَقُومَ مِنْ آخرِ اللَّيلِ ؛ فَليُوتِرْ أَوَّلَهُ ، وَمَنْ طَمِعَ أَنْ يَقُومَ آخِرَهُ ؛ فَليوتِرْ آخِرَ اللَّيلِ ؛ فَإِنَّ صَلاةَ آخِرِ اللَّيلِ مَشْهُودَةٌ ، وذَلكَ أَفضَلُ » [٦] رواه مسلم .

---

(١) أخرجه البخاري في الإيمان (٤٧) ، ومسلم في الصلاة (٤٥) ، والترمذي في الصلاة (٣٠٣) ، والنسائي في السنن (٥٩/٣) .

(٢) وذلك مصداقًا لما رواه النسائي في السنن (٦١/٧) ، وأحمد في مسنده (١٢٨/٣) ، والحاكم في المستدرك (١٦٠/٢) .

(٣) أخرجه مسلم في صلاة المسافرين وقصرها (١٦٠) والترمذي في الصلاة (٤٦٨) وابن ماجه في إقامة الصلاة والسنة فيها (١١٨٩) .

(٤) أخرجه مسلم في صلاة المسافرين وقصرها (١٣٤) ، والبيهقي في السنن (٢٧٥/٢ ، ٢٧٩) ، قوله : « وهي معترضة بين يديه » أي نائمة بينه وبين القبلة .

(٥) أخرجه مسلم في صلاة المسافرين قصرها (١٤٩) ، والإمام أحمد في المسند (٣٧/٢ ، ٣٨) وأبو داود في الصلاة (١٤٣٦) والترمذي في الصلاة (٤٦٧) ، قوله : « بادروا الصبح بالوتر » أي سابقوه به ، وتعجلوا بأن توقعوه قبل دخوله .

(٦) أخرجه مسلم في صلاة المسافرين وقصرها (١٦٢) ، والبيهقي في السنن (٣٥/٣) ، قوله : « مشهودة » أي تحضرها الملائكة .

الشرح

هذه الأحاديث في بقية ما يتعلق بالوتر ذكرها المؤلف في رياض الصالحين ومنها : أن النبي ﷺ قال : « أوتروا قبل أن تصبحوا » ؛ لأن الوتر ينتهي وقته بطلوع الفجر ، فإذا طلع الفجر فلا وتر حتى ولو بين أذان الفجر والإقامة لا وتر ، ولكن إذا طلع الفجر والإنسان لم يوتر ؛ فإنه يصلي في النهار شفعًا ، إن كان يوتر بثلاث صلى أربعًا ، إن كان يوتر بخمس صلى ستًّا ، إن كان يوتر بسبع صلى ثمانية ، لقول عائشة رضي الله عنها : كان النبي ﷺ إذا غلبه نوم أو وجع ؛ صلى من النهار ثنتي عشر ركعة [١] . واعلم أن الوتر له صفات :

الصفة الأولى : أن يوتر بواحدة فقط ، وهذا جائز ولا يكره الوتر بها [٢] .

الثانية : أن يوتر بثلاث ، وله الخيار إن شاء سلم من الركعتين وأتى بالثالثة ، وإن شاء سردها سردًا بتشهد واحد .

الثالث : أن يوتر بخمس فيسردها سردًا لا يتشهد إلا في آخرها .

الرابع : أن يوتر بسبع فيسردها سردًا لا يتشهد إلا في آخرها .

الخامس : أن يوتر بتسع فيسردها سردًا لكن يتشهد بعد الثامنة ولا يسلم ثم يصلي التاسعة ويسلم .

السادسة : أن يوتر بإحدى عشرة فيسلم من كل ركعتين ويوتر بواحدة [٣] .

هذه صفة الوتر وقد سبق أنه سنة مؤكدة ، وأن من العلماء من أوجبه ، فلا تضيع الوتر . ثم إن كنت ترجو أن تستوتر من آخر الليل ؛ فاجعل الوتر في آخر الليل ؛ وإن كنت تخاف ألا تقوم ؛ فاجعل الوتر من أول الليل ، لا تنم إلا موترًا . ولهذا أوصى النبي ﷺ أبا هريرة أن يوتر قبل أن ينام [٤] ؛ لأن أبا هريرة كان يقرأ أحاديث الرسول ﷺ في أول الليل وينام في آخره ، فأمره النبي ﷺ أن يوتر قبل أن ينام .

واعلم أن الوتر سنة في الحضر والسفر ، حتى في السفر لا تتركه ، ومن ذلك ليلة المزدلفة ؛ فإن الإنسان إذا صلى العشاء ، فإنه يصلي المغرب والعشاء جمعًا ثم يوتر ، وإن كان جابر رضي الله عنه لم يذكره في حديثه لكن الأصل بقاء ما كان على ما كان ، وأن الرسول ﷺ لا يدع الوتر حضرًا ولا سفرًا [٥] . والله الموفق .

* * *

---

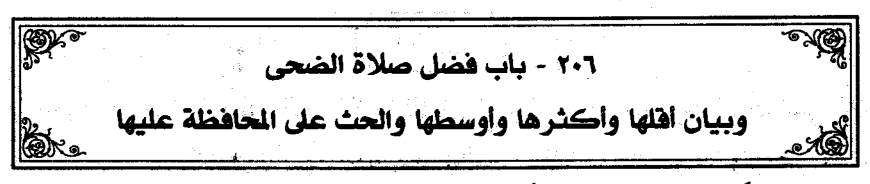
(١) أخرجه مسلم في صلاة المسافرين (١٣٩) .

(٢) وهذا هو قول المالكية ، الذين قالوا أنه ركعة واحدة ويندب أن يكون بعد الشفع لكراهة الاقتصار على ركعة . (انظر أسهل المدارك ٣٠١/١) .

(٣) انظر تفصيل ذلك كله في المجموع (١٢/٤) ، بدائع الصنائع (٢٧٢/١) ، المغني (١٥٨/٢) .

(٤) مسلم في صلاة المسافرين (١٤٦ ، ١٤٧) ، وأحمد في مسنده (٣٤٧/٢) ، وأبو داود في السنن (١٤٣٣) .

(٥) وذلك لما رواه البخاري في الوتر (١٠٠٠) .



٢٠٦ - باب فضل صلاة الضحى
وبيان أقلها وأكثرها وأوسطها والحث على المحافظة عليها

١١٣٩ - عَنْ أَبي هُريرَةَ ﷺ قالَ : أَوصَاني خَليلي ﷺ بصِيَام ثلاثَةِ أيَّامٍ مِنْ كُلِّ شَهرٍ ، وَرَكْعَتَي الضحى ، وَأَنْ أُوتِرَ قَبلَ أَنْ أَرْقُدَ . [١] متفقٌ عليه .

وَالإيتَارُ قَبلَ النَّومِ إنَّمَا يُستَحبُّ لِمَنْ لا يَثِقُ بِالاستِيقَاظِ آخِرَ اللَّيلِ ، فَإنْ وَثِقَ ، فآخِرُ اللَّيلِ أَفْضَلُ .

١١٤٠ - وعَنْ أَبي ذَرٍّ ﷺ عن النَّبيِّ ﷺ ، قالَ : « يُصْبحُ عَلى كُلِّ سُلامَى مِنْ أَحَدِكُمْ صدَقَةٌ : فَكُلُّ تَسبيحَةٍ صَدَقَةٌ ، وكُلُّ تَحمِيدَةٍ صَدَقَةٌ ، وَكُلُّ تهليلَةٍ صَدَقَةٌ ، وَكُلُّ تكبيرَةٍ صَدَقَةٌ ، وَأَمرٌ بِالمعْرُوفِ صَدَقَةٌ ، وَنَهْيٌ عَنِ المُنْكرِ صَدَقَةٌ ، وَيُجزِئُ مِنْ ذلكَ : رَكْعَتَانِ يَرْكَعُهما مِنَ الضُّحَى » [٢] رواه مسلم .

١١٤١ - وعَنْ عائشَةَ ﷺ قالت : كانَ رسولُ اللَّهِ ﷺ يُصَلِّي الضُّحَى أَرْبَعًا ، وَيَزيدُ مَا شاءَ اللَّه [٣] . رواه مسلم .

١١٤٢ - وعَنْ أُمِّ هَانِئٍ فاختةَ بنتِ أَبي طالبٍ ﷺ قالَتْ : ذهَبْتُ إلى رسول اللَّهِ ﷺ عامَ الفَتْحِ فَوَجدْتُهُ يَغْتَسِل ، فَلَمَّا فَرَغَ مِنْ غُسْلِهِ ، صَلَّى ثَمانِيَ رَكَعاتٍ ، وَذلكَ ضُحىً [٤] متفقٌ عليه . وهذا مختصر لفظِ إحدى روايات مسلم .

الشرح

صلاة الضحى هي : ركعتان أو أكثر تفعلان من ارتفاع الشمس قدر رمح إلى قبيل الزوال .

وارتفاع الشمس قدر رمح يكون بمقدار ربع ساعة أو نحوها بعد طلوع الشمس فمن ثم يبدأ وقت صلاة الضحى إلى أن يبقى على الزوال عشر دقائق أو قريب منها .

كل هذا وقت لها لكن فعلها في آخر الوقت أفضل ، لقول النبي ﷺ : « صلاة الأوابين حين ترمض الفصال » [٥] . والفصال : أولاد النوق ، وترمض يعني تشتد عليها الرمضة ، وهذا في آخر الوقت . وهذه من الصلوات التي يسن تأخيرها ، ونظيرها في الفرائض صلاة العشاء ، فإن صلاة العشاء لها أن تؤخر في آخر وقتها إلا إذا شق على الناس .

---

(١) أخرجه البخاري في التهجد (١١٧٨) ، ومسلم في صلاة المسافرين وقصرها (٧٢١) ، والإمام أحمد في المسند (٢/٢٦٥) .

(٢) أخرجه مسلم في صلاة المسافرين وقصرها (٨٤) ، وأبو داود في الصلاة (١٢٨٩) ، والبيهقي في السنن (٣/٤٧) ، قوله : « على كل سلامى » قال النووي : أصله عظام الأصابع وسائر الكف ، ثم استعمل في جميع عظام البدن ومفاصله ، قوله : « ويجزئ » ويكفي .

(٣) أخرجه مسلم في صلاة المسافرين وقصرها (٧٨) ، والإمام أحمد في المسند (٦/١٤٥) ، والبيهقي في السنن (٣/٥٠) .

(٤) أخرجه البخاري في التهجد (١١٧٦) ، ومسلم في صلاة المسافرين وقصرها (٨٢) .

(٥) أخرجه مسلم في صلاة المسافرين (١٤٣) ، وأحمد في مسنده (٤/٣٦٦) ، والبيهقي في السنن (٣/٤٩) .

وصلاة الضحى مما عهد النبي ﷺ إلى بعض أصحابه ؛ عهد بها إلى أبي هريرة ، وأبي الدرداء ، وأبي ذر ، قال النبي ﷺ لأبي هريرة رضي الله عنه حين أوصاه ، قال : « أوصاني خليلي ﷺ بثلاثة : صيام ثلاثة أيام من كل شهر » ، ولم يعين وقتها من الشهر ، ولهذا قالت عائشة : « كان النبي ﷺ يصوم ثلاثة أيام من كل شهر لا يبالي أصامها من أول الشهر أو وسطه أو آخره »[(١)] . ولا فرق بين أن تكون متوالية يعني متتابعة أو متفرقة ، كلها يحصل بها الأجر ، لكن أفضل هذه الأيام الثلاثة أيام البيض : الثالث عشر ، والرابع عشر ، والخامس عشر[(٢)] .

وأوصاه ﷺ بركعتي الضحى ، ركعتان يركعهما ما بين ارتفاع الشمس قدر رمح إلى قبيل الزوال .

والثالث : بأن يوتر قبل أن ينام ، وإنما أوصاه بالوتر قبل أن ينام ؛ لأن أبا هريرة رضي الله عنه كان يدرس في أول الليل أحاديث رسول اللّٰه ﷺ فلا ينام إلا متأخرًا ويُخشى ألا يقوم من آخر الليل ، فلهذا أوصاه أن يوتر قبل أن ينام . والشاهد من هذا ركعتي الضحى .

ثم ذكر حديث أبي ذر : « أنه يصبح على كل سلامى من الناس صدقة ، كل يوم تطلع فيه الشمس » . والسلامى هي الأعضاء أو العظام والمفاصل ، وقد ذكر العلماء السابقون رحمهم اللّٰه ، أن في كل إنسان ثلاثمائة وستون مفصلًا ، كل مفصل يطالبك كل يوم بصدقة ؛ لأن الذي أحياه عز وجل وأمده وعافاه له عليك منة وفضل ، كل يوم كل عضو يطالبك بصدقة ، لكنها ليست بصدقة مال ، بل هي كل ما يقرب إلى اللّٰه من قول أو عمل أو بذل مال أو غير ذلك ؛ فكل تسبيحة صدقة ، وكل تحميدة صدقة ، وكل تهليلة صدقة ، وكل تكبيرة صدقة ، وأمر بالمعروف صدقة ، ونهي عن منكر صدقة ، فكل ما يقرب إلى اللّٰه فهو صدقة ، ومثل هذا يسير على المرء أن يؤدي ثلاثمائة وستون صدقة كل يوم . قال : « ويجزئ من ذلك » يعني بدلًا عن ذلك ، يجزئ « ركعتان يركعهما في الضحى » هذه نعمة كبيرة بدلًا من أن تطالب عن كل عضو من أعضاءك بصدقة ، يكفيك أن تصلي ركعتين من الضحى . وهذا يدل على أنه ينبغي للإنسان أن يواظب عليهما ؛ أي على ركعتي الضحى حضرًا وسفرًا .

ولكن هل لها عدد معين ؟ نقول : إن أقلها ركعتان ، وأما أكثرها فما شاء اللّٰه ، لو تبقى تصلي كل الضحى ، فأنت على خير ، ولهذا تقول عائشة رضي الله عنها : كان النبي ﷺ يصلي من الضحى أربع ركعات ويزيد ما شاء اللّٰه . ولم تحدد وأما قول من قال : إن أكثرها ثمان ، ففيه نظر ، لأن حديث أم هانئ في فتح مكة : أن رسول اللّٰه ﷺ صلى ثمان ركعات . لا يدل على أن هذا هو أعلاه ، قال وقع اتفاقًا وما يقع اتفاق ليس فيه دليل على الحصر .

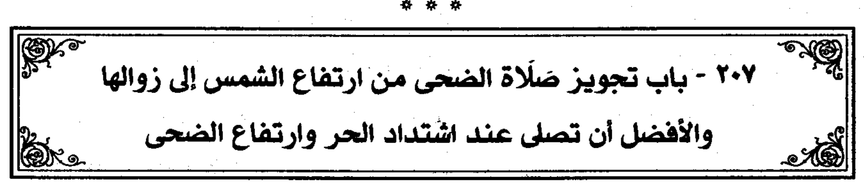
وعلى هذا فنقول : أقلها ركعتان ولا حد لأكثرها ، صلِّ ما شئت ، لكن كان النبي ﷺ يصلي أربعًا وربما صلى ثمانية ، فينبغي للإنسان أن يغتنم عمره بصالح الأعمال ؛ لأنه سوف يندم إذا جاءه

---

(١) أخرجه الترمذي في الصوم (٧٦٣) ، بلفظه والنسائي في الصوم (٤/٢١٩) ، وأحمد في مسنده (٢/٩٠) .
(٢) وذلك لما رواه النسائي في السنن (٤/٢٢٠ ، ٢٢١) وأحمد في مسنده (٦/٢٨٧) .

الموت أن أمضى ساعة من دهره لا يتقرب بها إلى الله ﷻ كل ساعة تمر عليك وأنت لا تتقرب إلى الله بها فهي خسارة ، لأنها راحت عليك لم تنتفع بها . فانتهز الفرصة بالصلاة والذكر وقراءة القرآن والتعلق بالله ﷻ ، اجعل قلبك دائمًا مع الله ﷻ ربك في السماء وأنت في الأرض ، لا تغفل عن ذكر الله بلسانك وفي فعالك وبجنانك ، بالقلب ، فإن الدنيا زائلة لم تبق لأحد . انظر الأولين فمن سبقك من الأمم السابقة والماضية البعيدة المدى ، وانظر إلى من سبقك من أصحابك ، بالأمس كانوا معك يتمتعون ، ويأكلون كما تأكل ، ويشربون كما تشرب ، والآن هم في أعمارهم مرتهنون ، وأنت سيأتي عليك هذا ، طالت الدنيا أم قصرت قال تعالى : ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلْإِنسَٰنُ إِنَّكَ كَادِحٌ إِلَىٰ رَبِّكَ كَدْحًا فَمُلَٰقِيهِ ﴾ [الانشقاق : ٦] [١] فانتهز الفرصة يا أخي ، انتهز الفرصة ، فلن ينفعك يوم القيامة مال ولا بنون ولا أهل ، ولن ينفعك إلا أن تأتي الله بقلب سليم ، أسأل الله أن يجعلني وإياكم ممن يأتي ربه بقلب سليم ، وأن يتوفانا على الإيمان والتوحيد ، إنه على كل شيء قدير .

* * *



٢٠٧ - باب تجويز صلاة الضحى من ارتفاع الشمس إلى زوالها والأفضل أن تصلى عند اشتداد الحر وارتفاع الضحى

١١٤٣ - عن زيدِ بنِ أَرْقَمَ رضي الله عنه أَنَّهُ رَأَى قَوْمًا يُصَلُّونَ مِنَ الضُّحَى ، فقالَ : أَمَا لَقَدْ علموا أَنَّ الصَّلاةَ في غَيرِ هذِهِ السَّاعَةِ أَفْضَلُ ، إنَّ رسولَ اللَّهِ ﷺ قالَ : « صَلاةُ الأَوَّابِينَ حِينَ تَرْمَضُ الفِصَالُ » [٢] رواه مسلم .

« تَرْمَضُ » : بفتح التاء والميم وبالضاد المعجمة ، يعني : شدة الحرّ ؟ « وَالفِصَالُ » جَمْعُ فَصِيلٍ وَهُوَ : الصَّغِيرُ مِنَ الإِبِلِ .

* * *

٢٠٨ - باب الحث على صلاة تحية المسجد بركعتين وكراهية الجلوس قبل أن يصلي ركعتين في أي وقت دخل

١١٤٤ - عن أَبي قتادة رضي الله عنه قالَ : قالَ رسول اللَّهِ ﷺ : « إذا دَخَلَ أَحَدُكُمُ المسْجِدَ ، فَلا يَجْلِسْ حَتَّى يُصَلِّيَ رَكْعَتَيـنِ » [٣] متفقٌ عليه .

---

(١) قوله : ﴿ كَادِحٌ ﴾ أي جاهد ومجد في السير إلى لقاء ربك ، وقوله : ﴿ فَمُلَٰقِيهِ ﴾ أي تلاقي ربك بعملك فيجازيك عليه .

(٢) هذا الحديث لم يقم الشارح رحمه الله بشرحه والحديث أخرجه مسلم في صلاة المسافرين وقصرها (١٤٣) والإمام أحمد في المسند (٣٦٦/٤) بنحوه ، والبيهقي في السنن (٤٩/٣) ، قوله : « صلاة الأوابين » أي التائبين الرجّاعين من الذنب إلى التوبة ومن الغفلة إلى الحضور .

(٣) أخرجه البخاري في الصلاة (٤٤٤) ومسلم في صلاة المسافرين وقصرها (٦٩) .

١١٤٥ - وعن جابرٍ ﷺ قالَ: أَتيتُ النَّبيَّ ﷺ وهُو في المَسْجِد، فقَالَ: «صَلِّ رَكعَتَينِ»[(١)] متفقٌ عليه.

* * *

٢٠٩ - باب استحباب ركعتين بعد الوضوء

١١٤٦ - عن أبي هُريرَةَ ﷺ أنَّ رسول الله ﷺ قالَ لبلال: «يَا بِلالُ حَدِّثْنِي بأَرْجَى عَمَلٍ عَمِلْتَهُ في الإسْلامِ؛ فَإنِّي سَمِعْتُ دَفَّ نَعْلَيكَ بَينَ يَدَيَّ في الجنَّةِ»، قَالَ: مَا عَمِلْتُ عَمَلًا أَرْجَى عِنْدِي مِنْ أَنِّي لَمْ أَتَطَهَّرْ طُهُورًا في سَاعَةٍ مِنْ لَيلٍ أَو نَهارٍ إلا صَلَّيتُ بِذلكَ الطُّهُورِ ما كُتِبَ لي أَنْ أُصَلِّيَ[(٢)]. متفقٌ عليه. وهذا لفظُ البخاري. «الدَّفُّ» بالفاءِ: صَوتُ النَّعْلِ وَحَركَتُهُ عَلى الأرْضِ، والله أعلم.

الشرح

ذكر المؤلف ﷺ بابين، الأول: في تحية المسجد بأنها سنة مؤكدة، إذا دخل المسجد في أي وقت كان، وأنه يكره أن يجلس حتى يصلي ركعتين، وأنه لا فرق بين أن تكون الركعتان في تحية المسجد، أو في المراتب، أو فريضة، أو صلاة استخارة، أو غير ذلك، المهم ألا يجلس حتى يصلي ركعتين.

وسنتكلم أولًا عن سنة دخول المسجد وهي سنة مؤكدة جدًّا حتى إن بعض العلماء قال: إنها واجبة. ويدل على تأكدها جدًّا أن رجلًا دخل يوم الجمعة والنبي ﷺ يخطب فجلس، فقال له: «أصليت معنا؟» قال: لا، قال: «فقم فصلِّ ركعتين وتجوز فيهما»[(٣)] يعني: خففهما؛ لأجل أن يستمع للخطبة. وإذا كان الرسول ﷺ أمره أن يصلي حال الخطبة مع أن استماع الخطبة واجب، كان ذلك إذنا بأن تحية المسجد واجبة، ولولا نصوص دلت على عدم الوجوب، لقلنا إنها واجبة، لكنها سنة مؤكدة في أي وقت، دخلت بعد صلاة الفجر صلِّ ركعتين، بعد صلاة العصر صلِّ ركعتين، عند غروب الشمس صلِّ ركعتين، عند طلوع الشمس صلِّ ركعتين، لا تجلس، دخلت والإمام يخطب صلِّ ركعتين، دخلت والناس تستمع إلى درس، صلِّ ركعتين في أي حال، وفي أي وقت، لابد أن تصلي ركعتين، لكن يستثنى من ذلك أولًا: إذا دخل الخطيب فإنه لا يسن له أن يصلي ركعتين، بل يعمد إلى المنبر ويسلم على الناس ويخطب.

ثانيًا: إذا دخل المسجد الحرام للطواف، فإنه يجزئه الطواف عن صلاة الركعتين[(٤)]. وأما من

---

(١) أخرجه البخاري في الصلاة (٤٤٣) ومسلم في صلاة المسافرين وقصرها (٧١) وابن ماجه في إقامة الصلاة (١١١٢) والإمام أحمد في المسند (٣/٣٠٢، ٣٠٨).

(٢) أخرجه البخاري في التهجد (١١٤٩) ومسلم في فضائل الصحابة (٢٤٥٨) والإمام أحمد في المسند (٢/٣٣٣)، قوله: «ما كتب» أي ما قدر.

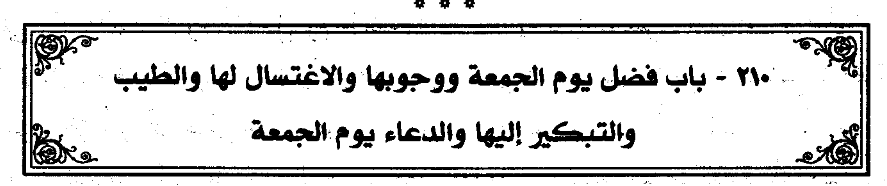
(٣) أخرجه أحمد في مسنده (٣/٣٠٨، ٣٦٣) والنسائي في السنن (٣/١٠٦) وأبو داود في الصلاة (١١١٦).

(٤) انظر في ذلك المغني (٣/٤٤٤ - ٤٤٨)، بدائع الصنائع (٢/١٤٢)، والأم (٢/١٨٠ - ١٨١)، بداية المجتهد (١/٢٩٢).

دخل المسجد الحرام للصلاة ؛ فإنه كغيره من المساجد يصلي تحية المسجد . وما اشتهر بين العامة أن تحية المسجد الحرام الطواف ، هذا لا أصل له ، بل يقال : من دخل المسجد الحرام ليطوف أجزأه الطواف عن تحية المسجد ، ومن دخل لاستماع درس أو انتظار فريضة أو ما أشبه ذلك ؛ فهو كغيره من المساجد لا يجلس حتى يصلي ركعتين . وينبغي إذا دخل المسجد والإمام يخطب يوم الجمعة أن يصلي ركعتين خفيفتين ، وإذا دخله والمؤذن يؤذن ؛ فإن كان في غير جمعة ؛ فإنه ينتظر قائمًا حتى يتابع المؤذن ويدعو بالدعاء الذي بعد الأذان ثم يصلي ركعتين ، وإن كان في يوم الجمعة والأذان هو الثاني ؛ فإنه يصلي تحية المسجد حتى يتفرغ للاستماع للخطبة (١) ، هكذا قال أهل العلم رحمهم الله .

أما الباب الثاني فهو عن سنة الوضوء ، وأنه ينبغي للإنسان إذا توضأ أن يصلي ركعتين في أي وقت كان ، حتى لو بعد العصر ، بعد الفجر ، في أي وقت ينبغي لك إذا توضأت أن تصلي ركعتين ، لأن بلال بن رباح ﷺ ، سأله النبي ﷺ عن أرجى عمل عمله في الإسلام ، فقال : إني ما توضأت في ليل أو نهار إلا صليت ركعتين ، فأقره النبي ﷺ على ذلك ، وينبغي في هاتين الركعتين أن تحرص غاية الحرص على ألا توسوس فيهما ، يعني اجعل قلبك وقالبك لصلاتك ، لأن من أحسن الوضوء ثم صلى ركعتين لا يحدث فيهما نفسه ؛ غفر الله له ما تقدم من ذنبه (٢) . ويصلي ركعتين سواء في بيته إن توضأ في بيته ، أو في المسجد إن توضأ في المسجد أو في أي مكان . والله الموفق .

* * *



٢١٠ - باب فضل يوم الجمعة ووجوبها والاغتسال لها والطيب والتبكير إليها والدعاء يوم الجمعة

قالَ اللَّهُ تعالى : ﴿ فَإِذَا قُضِيَتِ ٱلصَّلَوٰةُ فَٱنتَشِرُواْ فِى ٱلْأَرْضِ وَٱبْتَغُواْ مِن فَضْلِ ٱللَّهِ وَٱذْكُرُواْ ٱللَّهَ كَثِيرًا لَّعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ﴾ [الجمعة : ١٠] .

الشرح

ذكر المؤلف رحمه الله أشياء من خصائص يوم الجمعة ، ويوم الجمعة هو اليوم الذي بين الخميس والسبت ، وهواليوم الذي خصت به هذه الأمة ، وأضل الله عنه اليهود والنصارى ، اليهود كان لهم السبت ، والنصارى كان لهم الأحد ، فكانوا تبعًا لنا مع أنهم قبلنا في الزمن (٣) . وهذا من فضائل هذه الأمة ولله الحمد ، وهذا اليوم هو يوم الخصائص ، ويوم السبت والأحد ليس فيه خصائص ، لكن

---

(١) انظر آراء العلماء في هذه المسألة في المجموع (٥٥٠/٤) ، شرح فتح القدير (٦٧/٢) ، وبدائع الصنائع (٢٦٣/١) ، وأسهل المدارك (٣٢٤/١) .

(٢) وذلك لما رواه البخاري في الوضوء (١٦٠) ، ومسلم في الطهارة (٣ ، ٤) .

(٣) انظر في ذلك : البخاري في الجمعة (٨٧٦) ، ومسلم في الجمعة (٢٢) ، والنسائي في السنن (٨٥/٣) ، وابن ماجه في إقامة الصلاة (١٠٨/٣) .

ضل اليهود والنصارى عن يوم الجمعة ، فصار لنا ولله الحمد والمنة .

ويوم الجمعة له خصائص متعددة ، ومن أحسن من ذكرها ابن القيم رحمه الله في زاد المعاد ، فليرجع إليه فإنه واف شافي [١] .

ثم صدر المؤلف رحمه الله هذا الباب بقول الله تعالى : ﴿ فَإِذَا قُضِيَتِ ٱلصَّلَوٰةُ فَٱنتَشِرُواْ فِي ٱلْأَرْضِ وَٱبْتَغُواْ مِن فَضْلِ ٱللَّهِ وَٱذْكُرُواْ ٱللَّهَ كَثِيرًا لَّعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ﴾ وكان هذا آخر آية سبقت وهو قوله : ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِذَا نُودِيَ لِلصَّلَوٰةِ مِن يَوْمِ ٱلْجُمُعَةِ فَٱسْعَوْاْ إِلَىٰ ذِكْرِ ٱللَّهِ وَذَرُواْ ٱلْبَيْعَ ذَٰلِكُمْ خَيْرٌ لَّكُمْ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ ۝ فَإِذَا قُضِيَتِ ٱلصَّلَوٰةُ ... ﴾ [الجمعة : ٩، ١٠] فخاطب الله المؤمنين أن يتركوا البيع إذا نودي للصلاة من يوم الجمعة ، والمراد به النداء الثاني الذي يكون إذا حضر الإمام ، أما النداء الأول ؛ فإن عثمان بن عفان رضي الله عنه لما كثر الناس في المدينة أمر أن يؤذن أذان سابق ليستعد الناس للحضور [٢] ، فكان هذا من سنة الخليفة الراشد عثمان الذي أمرنا باتباع سنته كما قال النبي ﷺ : « عليكم بسنتي وسنة الخلفاء الراشدين المهديين من بعدي » [٣] ولقد ضل من قال إنه بدعة ، وسفه الصحابة رضي الله عنهم وسفه الخليفة الراشد ، ونحن نقول له : أنت المبتدع في هذا القول الذي ادعيت أن هذا بدعة وكيف يكون بدعة وقد سماه الرسول ﷺ سنة ، « سنة الخلفاء الراشدين المهديين من بعدي » . لكن هؤلاء سفهاء الأحلام وإن كانوا كبار السن ، كيف تضلل الصحابة رضي الله عنهم بقائدهم عثمان بن عفان ، وتدعي أنك أنت صاحب السنة ؟ بل أنت صاحب البدعة في هذا القول .

يقول عز وجل : ﴿ إِذَا نُودِيَ لِلصَّلَوٰةِ مِن يَوْمِ ٱلْجُمُعَةِ فَٱسْعَوْاْ إِلَىٰ ذِكْرِ ٱللَّهِ ﴾ والمراد بذكر الله : الخطبة والصلاة ، أما الخطبة : فيذكر الله فيها بالتشهد وذكر الأحكام والموعظة وغير ذلك [٤] ، وأما ذكر الله في الصلاة فهذا ظاهر . ﴿ وَذَرُواْ ٱلْبَيْعَ ﴾ اتركوا البيع ، ولهذا إذا نودي للصلاة من يوم الجمعة حَرُمَ البيع إلا على من لا تجب عليه كالنساء مثلًا ، وأما من تجب عليه الجمعة فإنه يحرم عليه البيع ، ولو باع لم يصح ، حتى لو كان في طريقه إلى المسجد ، وسمع أذان الجمعة ومعه زميل له فتبايعا فإن البيع باطل لا ينتقل به المبيع إلى المشتري ولا الثمن إلى البائع [٥] ؛ لأنه باطل وكل شيء نهى الله عنه فهو باطل لقول النبي ﷺ : « كل شرط ليس في كتاب الله فهو باطل » [٦] .

---

(١) انظر زاد المعاد في هدي خير العباد (١/٣٦٤ - ٤٤١) .

(٢) انظر في ذلك ما رواه البيهقي في السنن (٣/١٩٢) .

(٣) أخرجه الترمذي في السنن (٢٦٧٦) وابن ماجه في المقدمة (٤٢) وأحمد في مسنده (٤/١٢٧) .

(٤) انظر في ذلك : بدائع الصنائع (١/٣٦٢) ، وشرح فتح القدير (٢/٥٩) ، المجموع (٤/٥١٦ - ٥٢١) ، وفقه الكتاب والسنة (٥/٢٩٠٠ - ٢٩٠٥) .

(٥) هذا هو رأي جمهور العلماء عدا الحنفية الذين قالوا : يكره البيع والشراء يوم الجمعة إذا صعد الإمام المنبر وأذن المؤذن بين يديه ، ولو باع يجوز ؛ لأن الأمر بترك البيع ليس لعين البيع بل لترك استماع الخطبة (انظر بدائع الصنائع ١/٢٧٠) ، والمغني (٢/٢٩٨) ، والمجموع (٤/٥٠٠) ، وأسهل المدارك (١/٣٢٨) ، وفقه الكتاب والسنة (٥/٢٩٨٧) .

(٦) أخرجه ابن ماجه في السنن (٢٥٢١) ، وأحمد في مسنده (٦/٢١٣) ، والبيهقي في السنن (١/١٣٢) .

قوله : ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِذَا نُودِىَ لِلصَّلَوٰةِ مِن يَوْمِ ٱلْجُمُعَةِ فَٱسْعَوْاْ إِلَىٰ ذِكْرِ ٱللَّهِ ﴾ يشمل ، المسافر الذي في البلد إذا سمع أذان الجمعة يجب أن يحضر الجمعة ؛ لأنه مؤمن ، فمن الذي أخرجه ، فإذا قال أنا مسافر قلنا : ألست مؤمنًا ، فيقول : بلى ، إذا قال : بلى ، قلنا اسمع ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِذَا نُودِىَ لِلصَّلَوٰةِ مِن يَوْمِ ٱلْجُمُعَةِ فَٱسْعَوْاْ إِلَىٰ ذِكْرِ ٱللَّهِ وَذَرُواْ ٱلْبَيْعَ ذَٰلِكُمْ خَيْرٌ لَّكُمْ ﴾ يعني خير لكم من البيع ؛ لأن فيه إقامة شعيرة من شعائر الإسلام وقيام بواجب ؛ فهو خير من البيع ﴿ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ ﴾ يعني إن كنتم من ذوي العلم فاعلموا أنه خير ، والمراد بهذه الجملة الشرطية الحث على ترك البيع والتوجه إلى الجمعة [(١)] . ﴿ فَإِذَا قُضِيَتِ ٱلصَّلَوٰةُ فَٱنتَشِرُواْ فِى ٱلْأَرْضِ ﴾ يعني : انتشروا في الأرض وابتغوا من فضل اللّه في البيع والشراء لكن لا يلهيكم ذلك عن ذكر اللّه .

ولهذا قال : ﴿ وَٱذْكُرُواْ ٱللَّهَ كَثِيرًا ﴾ يعني : لاتظنوا أنكم إذا فرغتم من ذكر اللّه في الخطبة والصلاة أنكم انتهيتم من ذكر اللّه ، لا ، ذكر اللّه في كل حال وفي كل وقت وفي كل مكان ، قال اللّه تعالى : ﴿ إِنَّ فِى خَلْقِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَٱخْتِلَٰفِ ٱلَّيْلِ وَٱلنَّهَارِ لَءَايَٰتٍ لِّأُوْلِى ٱلْأَلْبَٰبِ ﴾ [آل عمران : ١٩٠] من ذوي الألباب ؟ ﴿ ٱلَّذِينَ يَذْكُرُونَ ٱللَّهَ قِيَٰمًا وَقُعُودًا وَعَلَىٰ جُنُوبِهِمْ وَيَتَفَكَّرُونَ فِى خَلْقِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ رَبَّنَا مَا خَلَقْتَ هَٰذَا بَٰطِلًا سُبْحَٰنَكَ فَقِنَا عَذَابَ ٱلنَّارِ ﴾ [(٢)] [آل عمران : ١٩١] .

فالحاصل : أنه إذا قضيت الصلاة فلا جلوس بعدها مُلزم ، اخرج ، ابتغ الرزق ، ابتغ من فضل اللّه ، وفي هذا إشارة إلى أن الإنسان إذا قدّم الصلاة على البيع والشراء ثم اشترى وباع بعد ذلك ؛ فإنه يُرزق ، لأنه قال : ﴿ وَٱبْتَغُواْ مِن فَضْلِ ٱللَّهِ وَٱذْكُرُواْ ٱللَّهَ كَثِيرًا لَّعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ﴾ وفي هذا إشارة إلى أنه لا خطبة بعد صلاة الجمعة ، لأن اللّه قال : ﴿ فَإِذَا قُضِيَتِ ٱلصَّلَوٰةُ فَٱنتَشِرُواْ فِى ٱلْأَرْضِ ﴾ فليس هناك خطبة ولا كلام ولا موعظة ، تكفي المواعظ التي في الخطبة التي قبل الصلاة والتي كانت مشروعة في هدي النبي ﷺ ، ولهذا قال الإمام أحمد رحمه الله : إذا تكلم أحد بعد الصلاة فلا تستمع له ، إلا أن يكون كتابًا من السلطان ، لأن الكتابات الموجهة من السلطان لابد أن تستمعها الرعية ، لأن السلطان له حق على الرعية يوجهها ويدلها على الخير ، أما غير ذلك من النصائح ؛ فإن في الخطبتين كفاية ، خير الهدي ، هدي محمد ﷺ ، ولم يكن يخطب بعد الصلاة ، ولم يرو عنه ذلك بحرف صحيح ، ولا ضعيف . يوجد بعض الناس يتخذها سنة راتبة كلما انتهت صلاة الجمعة قام يتكلم ، فتكون الجمعة فيها كم خطبة ، ثلاثة خطب ، من أين هذا ، أما لو طرأ أمر لابد منه ، لو جاء كتاب من السلطان ، أو من نائب السلطان من أحد الوزراء ، أو من غيرهم ممن له أن يتكلم ، فهذا نعم ، يُقرأ على الناس ويُسمع .

وقوله تبارك وتعالى : ﴿ لَّعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ﴾ لعل هنا للتعليل وليست للترجي ، وكل ما جاءتك لعل في كتاب اللّه فهي للتعليل ؛ لأن الرجاء إنما يكون من شأن من يتعسر عليه الأمر ، وأما الرب ﷻ فكل

---

(١) ما أجمع عليه الفقهاء أنه يشترط لوجوب الجمعة في حق المصلي أن يكون مقيمًا أما المسافر فلا تجب عليه (انظر في ذلك : المغني ٣٢٩/٢ ، وبدائع الصنائع ٢٥٨/١ ، والمجموع ٤٨٤/٤ ، وأسهل المدارك ٣٢٢/١) .

(٢) قوله : ﴿ بَٰطِلًا ﴾ أي عبثًا وهزلًا عاريًا عن الحكمة بل خلقته مشتملًا على حكم جليله .

شيء يسير عليه ، فإذا وجدت لعل في القرآن فهي للتعليل ، مثل : ﴿ كُتِبَ عَلَيْكُمُ ٱلصِّيَامُ كَمَا كُتِبَ عَلَى ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِكُمْ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ ﴾ [البقرة : ١٨٣] وما أشبه ذلك .

﴿ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ ﴾ يعني : لأجل أن تتقوا ، ﴿ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ﴾ يعني لأجل أن تفلحوا . رزقنا الله وإياكم الفلاح والصلاح والإصلاح والهداية ، نسأل الله أن يهدينا وأن يهدي لنا وأن يهدي بنا ، إنه على كل شيء قدير .

وأنبه على أنه لا يشتري المساويك ، حتى المساويك بعد نداء الجمعة الثاني لا يجوز بيعها ولا شراؤها ولذلك أنبه صاحب المساويك . وأقول لك عبارة أحسن من المساويك (جمع سيء) لكن قل : أعواد الأراك ، والله أعلم .

* * *

١١٤٧ - وعَنْ أبي هُريرَةَ ﷺ قالَ : قالَ رسول اللَّه ﷺ : « خَيرُ يَومٍ طَلَعَتْ عَلَيهِ الشَّمْسُ يَومُ الجُمُعَةِ ؛ فِيهِ خُلِقَ آدم ، وَفيه أُدْخِلَ الجَنَّةَ ، وَفِيهِ أُخرِجَ مِنْهَا » [1] رواه مسلم .

الشرح

قال النووي رحمه الله فيما نقله عن أبي هريرة ﷺ أن النبي ﷺ قال : « خير يوم طلعت عليه الشمس يوم الجمعة » ، والمراد بذلك خير يوم من أيام الأسبوع وإنما قلنا هذا لئلا يتعارض مع قول النبي ﷺ : « خير يوم طلعت عليه الشمس يوم عرفة » [2] ، فإن يوم عرفة أفضل باعتبار العام ، وهذا أفضل باعتبار الأسبوع « فيه خلق آدم » وآدم هو أبو البشر خلقه الله ﷻ بيده ، خلقه من تراب ثم قال له : كن فيكون . خلق يوم الجمعة « وفيه أدخل الجنة » وهي جنة المأوى التي يأوي إليها البشر ، أدخله الله الجنة هو وزوجه وقال : ﴿ ٱسْكُنْ أَنتَ وَزَوْجُكَ ٱلْجَنَّةَ وَكُلَا مِنْهَا رَغَدًا حَيْثُ شِئْتُمَا وَلَا تَقْرَبَا هَٰذِهِ ٱلشَّجَرَةَ فَتَكُونَا مِنَ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴾ [3] [البقرة : ٣٥] فأذن الله لهما أن يأكلا من جميع أشجار الجنة مما شاءا ونهاهما عن شجرة معينة اختبارًا وابتلاء فوسوس لهما الشيطان ودلهما بغرور [4] وأقسم لهما أن يأكلا من هذه الشجرة وأنه بذلك يحصل لهما الخلد والملك الذي لا يبلى ، وما زال بهما حتى أكلا من الشجرة ، وكان الله تعالى قد وضع على عورتيهما هيبة فلما أكلا من الشجرة بدت لهما سوءاتهما ، وصار كل إنسان ينظر إلى عورته ، آدم ينظر إلى عورته ، وحواء تنظر إلى عورتها ، انكشفت ؛ لأنهما هتكا حرمة الله ﷻ بأكلهما من الشجرة ، وقال الله تعالى عن ذلك : ﴿ وَعَصَىٰٓ ءَادَمُ رَبَّهُۥ فَغَوَىٰ ﴾ [5] [طه : ١٢١] لما

---

(١) أخرجه مسلم في الجمعة (١٧) وأبو داود في الصلاة (١٠٤٦) والترمذي في الصلاة (٤٩١) .

(٢) لم أعثر على الحديث بهذا النص وإن كان هناك أحاديث أخرى توضح فضل هذا اليوم على سائر الأيام .

(٣) قوله : ﴿ رَغَدًا ﴾ أي كثيرًا واسعًا بلا عناء .

(٤) قوله : ﴿ فَدَلَّىٰهُمَا بِغُرُورٍ ﴾ أي أنزلهما عن رتبة الطاعة إلى رتبة المعصية بما غرهما من القسم .

(٥) قوله : ﴿ وَعَصَىٰٓ ءَادَمُ ﴾ أي خالف نهي ربه له واعتقد أن النهي عن شجرة معينة لا عن النوع كله ، قوله : ﴿ فَغَوَىٰ ﴾ أي ضل عن مطلوبه وهو الخلود في الجنة .

أكلا منها أمرهما الله ﷻ أن يخرجا من الجنة فهبطا إلى الأرض ، وهذا من حكمة الله ﷻ ، لأنه لولا ذلك ما وجدت هذه البشرية ، وهذه الخليقة وحصل هذا الامتحان ، ولكن الله تعالى بحكمته قدر لكل شيء سببًا ، فانظر كيف نزل من الجنة العالية إلى الأرض الهابطة بمعصية واحدة .

فما بالك بنا نحن معاصينا كثيرة ، بالليل والنهار - نسأل الله أن يعاملنا وإياكم بعفوه - ومع ذلك نؤمل أملًا ما هو إلا أوهام ، نؤمل أننا في الدرجات العليا مع أننا هابطون بكثرة المعاصي والتهاون بالواجبات وما يعتري القلوب من الحقد والبغضاء والكراهية - نسأل الله أن يتوب علينا وعليكم وأن يصحح قلوبنا وقلوبكم - وهذه الجنة التي أهبط منها آدم ، اختلف فيها : هل هي جنة المأوى ، أو أنها جنة بستان عظيم على ربوة طيبة الهواء كثيرة الماء ؟ والصواب : أنها جنة الخلد ، وفي هذا يقول ابن القيم :

فحيا على جنات عدن فإنها ... منازلك الأولى وفيه المخيم

والله على كل شيء قدير ، فهذا فضل يوم الجمعة أنه فيه خلق آدم ، وفيه أدخل الجنة ، وفيه أخرج منها . وكلاهما حكمة ، خلق آدم حكمة ، إدخاله الجنة حكمة ، إنزاله إلى الأرض بسبب المعصية حكمة ، ولكن اعلموا أن آدم تاب إلى الله هو وزوجه : ﴿ قَالَا رَبَّنَا ظَلَمْنَا أَنفُسَنَا وَإِن لَّمْ تَغْفِرْ لَنَا وَتَرْحَمْنَا لَنَكُونَنَّ مِنَ الْخَاسِرِينَ ﴾ [الأعراف : ٢٣] وقال الله تعالى : ﴿ ثُمَّ اجْتَبَاهُ رَبُّهُ فَتَابَ عَلَيْهِ وَهَدَىٰ ﴾ (١) [طه : ١٢٢] فكان بعد التوبة خيرًا منه قبل التوبة ، والله الموفق .

* * *

١١٤٨ - وَعَنْهُ : قَالَ : قَالَ رسول الله ﷺ : « مَنْ تَوَضَّأَ فَأَحْسَنَ الوُضوءَ ، ثمَّ أَتَى الجُمُعَةَ ، فاسْتَمَعَ وَأَنْصَتَ ؛ غُفِرَ لهُ ما بَيْنَه وَبَيْنَ الجُمُعَةِ وَزِيَادة ثَلاثَةِ أَيَّامٍ ، وَمَنْ مَسَّ الحَصَى ؛ فَقَدْ لَغَا » (٢) رواه مسلم .

١١٤٩ - وَعَنْهُ : عَنِ النَّبيِّ ﷺ قالَ : « الصَّلَواتُ الخَمْسُ ، وَالجُمُعَةُ إلى الجُمُعَة ، وَرَمَضانُ إلى رَمَضانَ ؛ مُكَفِّراتٌ ما بَيْنَهُنَّ إذا اجْتُنِبَتِ الكبائِرُ » (٣) رواه مسلم .

١١٥٠ - وَعَنْهُ وعَنِ ابن عُمَرَ ﭭ أنَّهما سَمِعَا رسول الله ﷺ يقولُ على أَعْوَادِ مِنْبَرِهِ : « لَيَنْتَهِيَنَّ أَقْوَامٌ عَنْ وَدْعِهِمُ الجُمُعَاتِ ، أَو لَيَخْتِمَنَّ اللَّهُ عَلى قُلُوبِهِمْ ، ثُمَّ لَيَكُونُنَّ مِنَ الغَافِلِينَ » (٤) رواه مسلم .

١١٥١ - وَعَنِ ابنِ عُمَرَ ﭭ أَنَّ رسول الله ﷺ قالَ : « إذا جَاءَ أَحَدُكُمُ الجُمُعَةَ فَلْيَغْتَسِلْ » (٥) متفقٌ عليه .

١١٥٢ - وعن أَبي سعيدِ الخُدْرِيِّ ﭬ أَنَّ رسول الله ﷺ ، قَالَ : « غُسْلُ يَومِ الجُمُعَةِ وَاجِبٌ

---

(١) قوله : ﴿ اجْتَبَاهُ ﴾ أي اصطفاه للنبوة وقربه . (٢) أخرجه مسلم في الجمعة (٢٧) .

(٣) أخرجه مسلم في الطهارة (١٥ ، ١٦) ، والإمام أحمد في المسند (٢/٣٥٩) ، وابن ماجه في الطهارة (٥٩٨) .

(٤) أخرجه مسلم في الجمعة (٤٠) ، وابن ماجه في المساجد والجماعات (٧٩٤) ، والنسائي في السنن (٣/٨٨) ، قوله : « عن ودعهم » أي عن تركهم ، وقوله : « أو ليختمن الله على قلوبهم » أي يطبع على قلوبهم فلا يصير لها استعداد لقبول الهدى .

(٥) أخرجه البخاري في الجمعة (٨٧٧) ، ومسلم في الجمعة (١) ، والإمام أحمد في مسنده (٢/٣ ، ٥٥) ، ومالك في الموطأ (١٠٢ ، ١٠٣) .

عَلى كلِّ مُحْتَلِمٍ »[١] متفقٌ عليه .

المُراد بالمحْتَلِم : البَالِغ . وَالمُرَادُ بِالوُجُوبِ : وُجُوبُ اختيَارٍ ، كقولِ الرَّجُلِ لِصَاحِبِهِ : حَقُّكَ وَاجِبٌ عَليَّ . واللَّه أعلَم .

١١٥٣ - وَعَنْ سَمُرَةَ ﷺ قالَ : قالَ رسول اللَّه ﷺ : « مَنْ تَوَضَّأَ يَوم الجُمُعَةِ ، فَبِهَا وَنِعْمَتْ ، وَمَن اغْتَسَلَ فَالغُسْلُ أَفْضَلُ »[٢] رواهُ أبو داود ، والترمذي وقالَ : حديثٌ حسنٌ .

الشرح

هذه الأحاديث في بيان ما يتعلق بصلاة الجمعة ذكرها النووي رحمه الله في رياض الصالحين :

ومنها : أن الإنسان إذا توضأ في بيته ثم أنصت حتى يفرغ الإمام من تمام الخطبة ؛ فإنه يغفر له ما بين الجمعتين ، ومن مس الحصى فقد لغا ، واللغو معناه : أن يحرم من فضل يوم الجمعة ، وتكون الجمعة في حقه باعتبار الثواب كأنها صلاة ظهر ليس كأنها صلاة جمعة ، والحصى يدل على أن مسجد الرسول ﷺ كان مفروشًا بالحصى أي بالحجارة الصغيرة ؛ لأنه لم يكن فيه فرش ولا رمال ، وإنما كان فرش فيه الحصى - وهو كالحجارة التي يرمي بها الجمرات ، فمن مسه : يعني عبث فيه بلمسٍ أو شبهه ؛ فقد لغا ، ووجه ذلك : أنه إذا فعل هذا اشتغل عن سماع الخطبة ، وسماع الخطبة واجب ، ولهذا قال عليه الصلاة والسلام : « من تكلم يوم الجمعة والإمام يخطب فهو كمثل الحمار يحمل أسفارًا »[٣] ، يعني الحمار الذي يحمل الكتب ما ينتفع بها ، والذي يقول له : أنصت ، ليست له جمعة ، يُحرم أجر الجمعة .

وفي هذا الحديث الذي رواه مسلم ، يقول : من توضأ يوم الجمعة ، لكن في حديث أبي سعيد الخدري : غسل الجمعة واجب على كل محتلم . والأخذ بحديث أبي سعيد أولى من عدة وجوه .

الوجه الأول : أن حديث أبي سعيد فيه زيادة وهو الوجوب ، وجوب الاغتسال ، وحديث أبي هريرة فيه التوضؤ ، والأخذ بالزيادة واجب .

الوجه الثاني : أن حديث أبي سعيد أخرجه البخاري ومسلم وأحمد والنسائي والترمذي وأبوداود وابن ماجه ، اتفق عليه السبعة ، وحديث أبي هريرة انفرد به مسلم ، ومعلوم أن ما اتفق عليه السبعة أولى بالأخذ مما انفرد به مسلم .

ومنها : أن في حديث أبي سعيد علق النبي ﷺ الوجوب بوصف يقتضي التكليف ، وهو قوله : « على كل محتلم » ، والمحتلم هو البالغ ، والبلوغ مناط التكليف ، ولهذا نقول : القول الراجح من أقوال أهل

---

(١) أخرجه البخاري في الجمعة (٨٩٥) ، ومسلم في الجمعة (٥) ، وأبو داود في الطهارة (٣٤١) .

(٢) أخرجه أبو داود في الطهارة (٣٥٤) ، والترمذي في الصلاة (٤٩٧) ، والنسائي في السنن (٣/٩٤) ، وابن ماجه في إقامة الصلاة (١٠٩١) ، قوله : « فبها » أي فبالرخصة المدلول عليها بالسياق .

(٣) أخرجه المنذري في الترغيب والترهيب (١/٥) بلفظه ، وبنحوه أحمد في مسنده (١/٢٣٠) .

العلم في هذه المسألة أن غسل الجمعة واجب على كل إنسان شتاء أو صيفًا ، سواء أكان به وسخ أم لم يكن به وسخ ، لأن كلام النبي ﷺ في ذلك واضح ، ولأن هذا هو الذي يظهر من فهم الصحابة ﷺ ، فإن أمير المؤمنين عثمان ﷺ دخل وعمر بن الخطاب أمير المؤمنين يخطب ، فأنكر عليه ، فقال : والله يا أمير المؤمنين ما زدت أن توضأت ثم أتيت ، فقال : والوضوء أيضًا وقد قال النبي ﷺ : «إذا أتى أحدكم الجمعة فليغتسل »[١] يعني : كيف تقتصر على الوضوء ، فأنكر عليه في مشهد من الصحابة .

الحاصل : أن القول الراجح وجوب غسل الجمعة[٢] ، لكن لو لم يغتسل ، فهل تبطل الجمعة ؟ لا ، لا تبطل ، لأن هذا ليس غسل حدث ، حتى نقول إنه صلى بغير طهارة ، بل هو غسل واجب من غير حدث ، ولهذا لا يغني عن غسل الجنابة ، فلو أن الإنسان اغتسل للجمعة وهو عليه غسل جنابة وما نوى غسل الجنابة لم يجزئه ، لأن غسل الجمعة ليس عن حدث بخلاف غسل الجنابة . والله الموفق .

* * *

١١٥٤ - وَعَنْ سَلْمَانَ ﷺ قالَ : قَالَ : رسول اللَّه ﷺ : « لا يَغْتَسِلُ رَجُلٌ يَومَ الجُمُعَةِ ، وَيَتَطَهَّرُ ما اسْتَطَاعَ مِنْ طُهْرٍ ، وَيَدَّهِنُ مِنْ دُهْنِهِ ، أَو يَمَسُّ مِن طِيبِ بَيْتِه ، ثُمَّ يَخْرُجُ فَلا يُفَرِّقُ بَيـنَ اثنيـنِ ، ثمَّ يُصَلِّي مَا كُتِبَ لَهُ ، ثمَّ يُنْصِتُ إذا تَكَلَّمَ الإمَامُ ؛ إلا غُفِرَ لهُ ما بَيْنَهُ وَبَيـنَ الجُمُعَةِ الأُخْرَى »[٣] رواه البخاري .

١١٥٥ - وَعَنْ أَبِي هُرَيرَةَ ﷺ أَنَّ رسولَ اللَّهِ ﷺ قالَ : « مَنِ اغْتَسَلَ يَومَ الجُمُعَةِ غُسلَ الجَنَابَةِ ، ثمَّ رَاحَ في السَّاعَةِ الأُولى ، فَكأَنَّمَا قرَّبَ بَدَنَةً ، وَمَنْ رَاحَ في السَّاعَةِ الثَّانِيَةِ ، فَكأَنَّمَا قَرَّبَ بَقَرَةً ، وَمَنْ رَاحَ في السَّاعَةِ الثَّالِثَةِ ، فَكأَنَّمَا قَرَّبَ كَبْشًا أَقرَنَ ، وَمَنْ رَاحَ في السَّاعَةِ الرَّابِعَةِ ، فَكأَنَّمَا قَرَّبَ دَجَاجَةً ، وَمَنْ رَاحَ في السَّاعَةِ الخَامِسَةِ ، فَكأَنَّمَا قَرَّبَ بَيضَةً ، فإذا خَرَجَ الإمامُ ، حَضَرَتِ المَلائِكَةُ يَسْتَمِعُونَ الذِّكر »[٤] متفقٌ عليه . قَولُه : « غُسلَ الجَنَابَةِ » ؛ أَي : غُسلًا كَغُسل الجَنَابَةِ في الصِّفَةِ .

الشرح

هذه الأحاديث فيما يتعلق بيوم الجمعة وفي صلاتها ، فالحديث الأول حديث سلمان ﷺ ، أن النبي ﷺ

---

(١) أخرجه أبو داود في الطهارة (٣٤٠) .

(٢) الذي عليه أكثر أهل العلم أن الغسل ليس بواجب وإنما هو سنة وهذا هو قول الحنفية والشافعية والحنابلة والمالكية ، وبه قال الثوري والأوزاعي وابن المنذر ، أما الرأي بأنه واجب فإنها رواية عن الإمام أحمد بن حنبل وروي ذلك عن أبي هريرة فهو مذهب أهل الظاهر ؛ إذ قالوا : الغسل واجب يوم الجمعة لليوم لا للصلاة (انظر المجموع ٥٣٥/٤ ، والمغني ٣٤٥/٢ ، وأسهل المدارك ٣٢٦/١ ، وبدائع الصنائع ٢٦٩/١) .

(٣) أخرجه البخاري في الجمعة (٨٨٣) ، والإمام أحمد في مسنده (٤٧٨/٥) ، والبيهقي في السنن (٢٤٣/٣) ، قوله : «فلا يفرق بين اثنين » أي لا يتخطى رقاب المصلين ؛ وهو كناية عن التبكير في الصلاة ، قوله : «ثم يصلي ما كتب له » أي ما قدر له من الصلاة فرضًا أو نفلًا .

(٤) أخرجه البخاري في الجمعة (٨٨١) ، ومسلم في الجمعة (١٠) ، والإمام أحمد في المسند (٤٦٠/٢) ، قوله : « ثم راح » أي ثم ذهب في أول النهار ، قوله : « قرب بدنة » أي تصدق بناقة .

ذكر أشياء إذا فعلها الإنسان فإنه يغفر له ما بين الجمعة والجمعة : منها : الاغتسال ، أن يغتسل كما يغتسل للجنابة ، كما في حديث أبي هريرة السابق ، وهذا الاغتسال سبق أن القول الراجح وجوبه ، وأنه يجب على الإنسان أن يغتسل ليوم الجمعة إذا كان يصلي الجمعة ، أما النساء فلا يجب عليهن ، ولكن هذا الوجوب ليس عن حدث ، فلو تركه الإنسان وصلى الجمعة أَثِم وصحت الجمعة ، لأنه ليس عن حدث ، ومنها أن يدهن بالطيب ، يعني : يتطيب بعود أو ورد أو ريحان أو غير ذلك ، المهم أن يتطيب ويختار أطيب ما يجد . ومنها : ألا يفرق بين اثنين ، لأنه إذا فرق بين اثنين آذاهما ، وهذا يدل على أن المراد إذا وجد الصف مشتبكًا فلا يفرقه ، أما لو وجد فرجة فله أن يدخل فيها ، لأن الاثنين هما اللذان افترقا . ومنها : أن يصلي ما كتب له ، ولم يحدد النبي ﷺ صلاةً ، فدل هذا على أن الجمعة ليست لها راتبة قبلها بل يصلي الإنسان ما شاء ، قليلًا كان أو كثيرًا إلى أن يحضر الإمام . ومنها : أن ينصت ، يعني ينصت للخطبة فلا يتكلم إلى أن يفرغ الخطيب من الخطبة ، فإذا فعل هذه الأشياء الخمسة فإنه يغفر له ما بين الجمعتين ، وهذا فضل عظيم من اللَّه ﷻ .

أما حديث أبي هريرة ، فقال النبي ﷺ : « من اغتسل يوم الجمعة غسل الجنابة » يعني : يوم الجمعة ، غسل الجنابة فهو معروف ، ثم راح يعني في الساعة الأولى ، فكأنما قرب بدنة ، يعني : كأنما ذبح بدنة ووزعها على الفقراء ، « ومن راح في الساعة الثانية فكأنما قرب بقرة ، ومن راح في الساعة الثالثة فكأنما قرب كبشًا أقرن » ، وخص الكبش بالأقرن ، لأنه أقوى وأكبر حجمًا . « ومن راح في الساعة الرابعة فكأنما قرب دجاجة ، ومن راح في الساعة الخامسة فكأنما قرب بيضة » فإذا حضر الإمام طويت الصحف ؛ ولم يكتب للحاضر شيء من الأجر ، إلا أجر الصلاة العادية ، فإذا دخل الإنسان بعد أن دخل الإمام فإنه لا يكتب له أجر التقدم ، ولكن يكتب له أجر الخطا من بيته إلى المسجد .

ففي هذا دليل على أنه ينبغي للإنسان يوم الجمعة أن يبكر وأكثر الناس اليوم - لله الحمد - ليس لهم شغل فارغون ، لكن يكسلهم الشيطان ويثبطهم عن الخير ، حتى أن الإنسان ليذهب إلى السوق ليس له شغل ولكن يقطع الوقت إلى أن يحضر الإمام فيحرم من هذا الخير ، هذه الساعات تختلف في طولها وقصرها بحسب اختلاف الأيام ، في أيام الصيف يطول النهار فتطول الساعات ، وفي أيام الشتاء يقصر النهار فتقصر الساعات ، والمهم أن تقسم ما بين طلوع الشمس إلى حضور الإمام إلى خمسة أقسام ، قد تكون ساعة عرفية كالساعات التي معنا ، وقد تكون أطول أو أقصر .

المهم : أن تقسم ما بين طلوع الشمس إلى مجيء الإمام إلى خمسة أقسام ، فالساعة الأولى هي الخمس الأول ، والثانية هي الخمس الثاني ، وهلم جرا . واللَّه الموفق .

* * *

١١٥٦ - وَعَنْهُ : أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ ذَكرَ يَومَ الجُمُعَةِ ، فَقَالَ : « فِيها سَاعَةٌ لا يُوَافِقها عَبْدٌ مُسلِمٌ ، وَهُوَ قَائِمٌ يُصَلِّي يَسْأَلُ اللَّهَ شَيْئًا ، إلا أَعْطَاهُ إيَّاه » [1] وَأَشَارَ بِيَدِهِ يُقَلِّلُهَا . متفقٌ عليه .

---

(١) أخرجه البخاري في الجمعة (٩٣٥) ومسلم في الجمعة (١٣) .

١١٥٧ - وَعَنْ أبي بُرْدَةَ بن أَبِي مُوسَى الأَشْعَرِيِّ ﷺ قَالَ : قَالَ عَبْدُ اللَّهِ بن عُمَرَ ﷺ : أَسَمِعْتَ أَبَاكَ يُحَدِّثُ عَن رسول اللَّه ﷺ فِي شَأْنِ سَاعَةِ الجُمُعَةِ ؟ قَالَ : قلتُ : نعمْ ، سَمِعْتُهُ يَقُولُ : سمِعْتُ رسول اللَّه ﷺ يَقُولُ : « هي مَا بَينَ أَنْ يَجلِسَ الإمامُ إلى أَنْ تُقضَى الصَّلاةُ » (١) رواه مسلم .

١١٥٨ - وَعَنْ أَوسِ بنِ أَوسٍ ﷺ قَالَ : قَالَ رسول اللَّه ﷺ : « إنَّ مِنْ أفضَلِ أَيَّامِكُمْ يَومَ الجُمُعَةِ ، فَأَكْثروا عَلَيَّ مِنَ الصَّلاةِ فِيهِ ؛ فَإِنَّ صَلاتَكُمْ مَعْرُوضَةٌ عَلَيَّ » (٢) رواه أبو داود بإسنادٍ صحيح .

الشرح

هذه الأحاديث الثلاثة فيما يتعلق بالجمعة . فأما الحديث الأول : حديث أبي هريرة ، والحديث الثاني : حديث أبي موسى : ففيهما بيان أن في يوم الجمعة ساعة لا يوافقها عبد مسلم يسأل اللَّه شيئًا إلا أعطاه إياه . وهذا من خصائص يوم الجمعة ، فيها ساعة إذا سألت اللَّه فيها شيئًا ، أي شيء يكون ما لم يكن إثمًا أو قطيعة رحم ؛ فإن اللَّه تعالى يجيبه ، لكن في الحديث « وهو قائم يصلي » وأشار النبي ﷺ يقلل هذه الساعة ، يعني الساعة ليست طويلة ، وقد اختلف العلماء في تعيين هذه الساعة متى ؟ من أول النهار ، من وسط النهار ، من آخر النهار ، اختلفوا فيها على أكثر من أربعين قولًا ، كما اختلفوا في تعيين ليلة القدر على أكثر من أربعين قولًا . ولكن قد تكون بعض هذه الأقوال متداخلة ويمكن اختصارها .

وأرجى زمن تكون فيه هذه الساعة ما دل عليه حديث أبي موسى الأشعري ﷺ ، ما بين أن يجلس الإمام إلى أن تُقضى الصلاة ، يعني إذا دخل الإمام يوم الجمعة وسلم على الناس وجلس ، من هذا الحين تبدأ ساعة الإجابة ، ومن المعلوم أنه إذا قام يخطب فإن الناس منصتون ، لكن يمكن أن يدعو بين الخطبتين وأن يدعو في صلاة الفريضة ، والدعاء في صلاة الفريضة أقرب إلى الاستجابة ، لأن الإنسان يكون فيها ساجدًا للَّه ، وأقرب ما يكون العبد من ربه وهو ساجد (٣) ، لهذا نرى أن أقرب ساعة تكون ساعة إجابة يوم الجمعة في هذه الساعة من حين أن يجلس الإمام إلى أن تقضى الصلاة . فألحّ يا أخي على ربك في الدعاء في هذا الوقت لعل اللَّه ﷻ أن يجيب ، ولا تستبطأ الإجابة ، ولا تستعظم المسؤول ؛ فإن اللَّه ﷻ أعظم من أن يتعاظمه شيء ؛ كل شيء هين على اللَّه ، لو تسأل أي ما تسأل فهو هين على اللَّه ﷻ ، فادع اللَّه ﷻ ، واحرص على الدعاء في هذا الوقت .

الوقت الثاني : من صلاة العصر إلى غروب الشمس ، هذا أيضًا ترجى فيه الإجابة ولكن يشكل على هذا قوله : « وهو قائم يصلي » ، فإن العصر ما فيه صلاة ، ولكن قد يقال : يمكن للإنسان أن

---

(١) أخرجه مسلم في الجمعة (١٦) ، وأبو داود في الصلاة (١٠٤٩) ، والبيهقي في السنن (٣/٢٥٠) .

(٢) أخرجه أبو داود في الصلاة (١٠٤٧) ، والنسائي في السنن (٣/٩١) ، وابن ماجه في إقامة الصلاة (١٠٨٥) ، قوله : « فإن صلاتكم معروضة عليّ » يعني على وجه القبول فيه ، وإلا فهي دائمًا تعرض عليه بواسطة الملائكة ، إلا عند روضته فيسمعها بحضرته ﷺ .

(٣) وذلك مصداقًا لما رواه مسلم في الصلاة (٢١٥) ، وأبو داود في الصلاة (٨٧٥) ، والنسائي في السنن (٢/٢٢٦) .

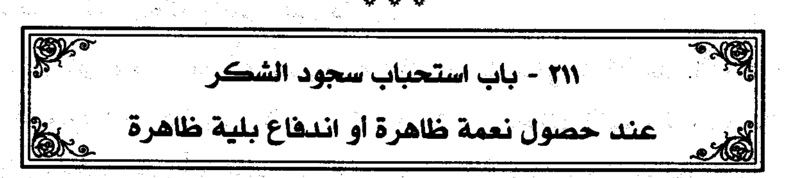
يتوضأ في هذا الوقت ، يحتاج إلى الوضوء فيتوضأ ثم يصلي ركعتين للوضوء ، أو يقال : إن الإنسان إذا كان في انتظار الصلاة فهو في صلاة ، ولهذا نرى أن الأرجى ما دل عليه حديث أبي موسى ثم ما دل عليه حديث أبي هريرة ، وباقي الأقوال ليس عليها دليل بين .

ومما يختص بالجمعة : كثرة الصلاة على النبي ﷺ ، ولا شك أن النبي ﷺ أعظم الخلق حقوقًا علينا ، حقوقه علينا أعظم من حقوق أنفسنا علينا ، ولهذا يجب أن تقدم محبته على محبة نفسك وابنك وأبيك وأمك وزوجك وكل الناس ، ولا يمكن أن يتم إيمانك إلا بهذا أن تقدم محبة الرسول ﷺ على محبة كل أحد .

من حقه عليك أن تكثر من الصلاة والسلام عليه ، وهو ليس بحاجة إلى صلاتك وسلامك ، لكنك أنت بحاجة إلى أجر هذه الصلاة ، لأنك إذا صليت على الرسول ﷺ مرة واحدة ؛ صلى الله عليك عشرة [1] ، فإذا قلت : اللّٰهم صَلِّ على محمد ، صلى الله عليك عشر مرات ، مع أنك في حاجة إلى ذلك والرسول ﷺ ليس في حاجة .

ولكن ما معنى الصلاة على الرسول ؟ كلنا يقول : اللّٰهم صلِّ على محمد ، لكن كثيرًا منا لا يعرف معنى هذه الكلمة ، ما معنى قولك : اللّٰهم صلِّ على محمد ؟ قال أبو العالية رحمه الله : صلاة الله على نبيه ثناؤه عليه في الملأ الأعلى ، عند الملائكة المقربين [2] ، يثني عليه ، يقول عبدي فلان فيه كذا وكذا ويذكر من صفاته الحميدة ، فأنت إذا صليت على النبي أثنى الله عليك عشر مرات ، فعليك بالإكثار من الصلاة والسلام على رسول الله ﷺ في يوم الجمعة وفي كل وقت . أسأل الله سبحانه وتعالى أن يرزقني وإياكم القيام بحقه وحق رسوله وحق عباده المؤمنين .

* * *



٢١١ - باب استحباب سجود الشكر عند حصول نعمة ظاهرة أو اندفاع بلية ظاهرة

١١٥٩ - عَنْ سَعْدِ بنِ أبي وَقَّاصٍ رضي الله عنه قَالَ : خَرَجْنا مَعَ رسول الله ﷺ مِن مَكَّةَ نُرِيدُ المَدِينَةَ ، فَلَمَّا كُنَّا قَرِيبًا مِن عزْوَرَاءَ نَزَلَ ثُمَّ رَفَعَ يَدَيهِ ، فَدَعَا اللَّهَ سَاعَةً ، ثُمَّ خَرَّ سَاجِدًا فَمكَثَ طَوِيلًا ثُمَّ قَامَ فَرَفَعَ يَدَيهِ سَاعَةً ثُمَّ خَرَّ ساجدًا - فَعَلَهُ ثَلاثًا - وَقَالَ : إنِّي سَأَلْتُ رَبِّي ، وَشَفَعْتُ لأُمَّتي ، فَأَعْطَاني ثُلُثَ أُمَّتي ، فَخَررتُ ساجدًا لِرَبِّي شُكْرًا ، ثُمَّ رَفَعْتُ رَأْسِي ، فَسَأَلْتُ رَبِّي لأُمَّتي ، فَأَعْطَاني ثُلُثَ

---

(١) وذلك لما رواه الترمذي في الصلاة (٤٨٤ ، ٤٨٥) ، وأحمد في مسنده (٢/١٠٢) ، والحاكم في المستدرك (١/٥٥٠) .

(٢) انظر زاد المسير (٦/٣٩٨) ، وقيل : إن صلاة الله أي رحمته قاله الحسن ، وقيل مغفرته ، قاله سعيد بن جبير ، وقيل : كرامته قاله سفيان وقيل : بركته ، قاله أبو عبيدة أما صلاة الملائكة ، فقال أبو العالية : إنها دعاؤهم ، وقال مقاتل : إنها استغفارهم .

أُمَّتي ، فَخَرَرتُ ساجِدًا لِرَبِّي شُكْرًا ، ثُم رَفَعْتُ رَأسِي ، فَسَأَلْتُ رَبِّي لأُمَّتي ، فَأَعطَاني الثُّلُثَ الآخرَ ، فَخَرَرتُ ساجدًا لِرَبِّي » [1] رَواهُ أَبو داودَ .

الشرح

من المعلوم أن نعمة اللَّه ﷻ لا تحصى ، كما قال اللَّه تبارك وتعالى ﴿ وَإِن تَعُدُّواْ نِعْمَتَ ٱللَّهِ لَا تُحْصُوهَآ ﴾ [إبراهيم : ٣٤] وأضرب مثلًا بالنَّفَسِ الذي يتكرر في الدقيقة الواحدة ستين مرة ، هذا النفس لو قبض لهلك الإنسان ، فهو نعمة كبرى ولا يمكن عدها ، وكذلك الصحة والعافية ، الأكل والشرب ، البراز والبول ، كلها نعم عظيمة ، لكنها نعم مستمرة ، ولو كلف الإنسان أن يسجد عند كل نعمة منها ؛ لبقي ساجدًا مدى الدهر ، لكن هناك نعم تتجدد للإنسان ، كإنسان ولد له ، أو تسهل له الزواج ، أو قدم له غائب ميئوس منه ، أو حصل له مال ، أو ما أشبه ذلك من النعم التي تتجدد ، أو بشر بنصر المسلمين ، أو ما أشبه ذلك ؛ فهذا يستحب للإنسان أن يسجد لله تبارك وتعالى شكرًا له .

فمثلًا : إذا بُشر بولد قيل له : أبشر بولد ، هذه نعمة متجددة ؛ فيسجد لله كما يسجد في الصلاة ويقول : سبحان ربي الأعلى ، سبحانك اللَّه ربنا وبحمدك ، اللَّهم اغفر لي ، ثم يشكر اللَّه على النعمة المعينة التي حصلت ، فيقول : أشكرك يا ربي على هذه النعمة ، ويثني على اللَّه تعالى في ذلك . هكذا أيضًا في اندفاع النقم ، الإنسان في سلامة دائمة ، ودائمًا هو معرض للآفات وللنقم ، لكن أحيانًا تنعقد أسباب النقمة ويشاهدها فيرفعها اللَّه عنه ، ولنضرب لذلك مثلًا بحادث ، إنسان مثلًا يمشي في الطريق فانقلبت السيارة فنجا ، هذا اندفاع نقمة ، فيسجد لله تعالى شكرًا على اندفاع هذه النقمة ، أو إنسان مثلًا يمشي وبينما هو كذلك انخسفت به حفرة في الأرض فنجا ، فحضره اندفاع نقمة [2] ، يحمد اللَّه سبحانه وتعالى على ذلك .

واندفاع النقم كثير ، فإذا دفع اللَّه عنك نقمة ؛ فاسجد لله تعالى شكرًا على اندفاع هذه النقمة . وقل مثلًا في السجود : سبحان ربي الأعلى ثلاث مرات ، سبحانك اللَّهم ربنا وبحمدك اللَّهم اغفر لي ، اللَّهم إني أشكرك على أن نجيتني من هذه المصيبة ويذكرها ، هذا سجود الشكر .

واختلف العلماء رحمهم اللَّه ، هل تشترط له الطهارة أو لا ؟ والصحيح أنها لا تشترط ، وذلك لأن هذا يأتي بغتة والإنسان غير متأهب ، فلو ذهب يتوضأ لطال الفصل بين السبب ومسببه فإذا كان على غير طهارة فليسجد . واللَّه الموفق .

* * *

(١) أخرجه أبو داود في الجهاد (٢٧٧٥) ، قوله : « عزوراء » بفتح فسكون ففتح : ثنية بالجحفة عليها الطريق من المدينة إلى مكة .

(٢) اندفاع النقمة : أي رد العقوبة .



٢١٢ - باب فضل قيام الليل

قالَ اللَّه تَعالَى : ﴿ وَمِنَ ٱلَّيۡلِ فَتَهَجَّدۡ بِهِۦ نَافِلَةً لَّكَ عَسَىٰٓ أَن يَبۡعَثَكَ رَبُّكَ مَقَامًا مَّحۡمُودًا ﴾ [الإسراء : ٧٩] . وقَالَ تَعالَى : ﴿ تَتَجَافَىٰ جُنُوبُهُمۡ عَنِ ٱلۡمَضَاجِعِ ﴾ [السجدة : ١٦] ، وقَالَ تَعالَى : ﴿ كَانُواْ قَلِيلًا مِّنَ ٱلَّيۡلِ مَا يَهۡجَعُونَ ﴾ [الذاريات : ١٧] .

الشرح

قيام الليل يعني : الصلاة فيه وهو أفضل الصلاة بعد المكتوبة ، كما سيأتي إن شاء اللَّه في الأحاديث . وقد ذكر اللَّه سبحانه وتعالى الثناء على القائمين في الليل ، فأمر نبيه ﷺ أن يتهجد ، قال : ﴿ وَمِنَ ٱلَّيۡلِ فَتَهَجَّدۡ بِهِۦ نَافِلَةً لَّكَ عَسَىٰٓ أَن يَبۡعَثَكَ رَبُّكَ مَقَامًا مَّحۡمُودًا ﴾ فأمر اللَّه نبيه أن يتهجد من الليل يعني لا كل الليل ، لأن قيام كل الليل ليس من السنة إلا أحيانًا ، كقيام عشر رمضان ، وأما البقية فالسنة أن ينام ويقوم . قوله : ﴿ فَتَهَجَّدۡ بِهِۦ نَافِلَةً لَّكَ ﴾ اختلف العلماء في قوله : ﴿ نَافِلَةً لَّكَ ﴾ فقيل : المعنى أن هذا خاص بك يعني الوجوب ، وجوب التهجد ؛ لأن غير النبي ﷺ لا يجب عليه التهجد إلا أن ينذره ، فإن نذر أن يتهجد ؛ لزمه الوفاء بالنذر وإلا فلا أما النبي ﷺ : فإنه يجب عليه أن يتهجد من الليل ، وقيل : المعنى ﴿ نَافِلَةً لَّكَ ﴾ يعني أنه نافلة أي : زيادة ، فضل ، وهذا له ولغيره عليه الصلاة والسلام .

ثم قال تعالى مبينًا ما يكون من ثمرات التهجد ، قال : ﴿ عَسَىٰٓ أَن يَبۡعَثَكَ رَبُّكَ مَقَامًا مَّحۡمُودًا ﴾ قال العلماء : إذا قال اللَّه تعالى في القرآن ﴿ عَسَىٰٓ ﴾ فهو واجب ؛ يعني أن اللَّه سيبعثك مقامًا محمودًا ، أي يبعثك يوم القيامة مقامًا تحمد عليه من كل الخلائق .

فلرسول اللَّه ﷺ المقام المحمود يوم القيامة ، ومنه الشفاعة العظمى ، يعني من المقام المحمود للنبي ﷺ الشفاعة العظمى ، وهي أن الناس يوم القيامة يبعثون في صعيد واحد ليس هناك جبال ولا أشجار ولا بناء ولا أنهار ، يُسمعهم الداعي وينفذهم البصر ، لا يحول بينهم وبين الداعي شيء ، ولا بينهم وبين الرائي شيء في صعيد واحد وتدنوا الشمس ، تدنوا الشمس منهم حتى تكون على قدر ميل ، ويطول هذا اليوم حتى يكون مقداره خمسين ألف سنة ، سبحان اللَّه ، الإنسان ما يستطيع أن يقف ولا أربع وعشرين ساعة ، لكن هذا اليوم مقداره خمسون ألف سنة . فيلحق الناس من الهم والكرب ما لا يطيقون ، فيطلب بعضهم إلى بعض النظر في الأمر لعل أحدًا يشفع لهم عند اللَّه ﷻ يريحهم من هذا الموقف ، يلهمهم اللَّه ﷻ أن يذهبوا إلى آدم ، آدم أبو البشر ، كل البشر أبوهم واحد وهو آدم عليه الصلاة والسلام ، وكما هو العادة أن الإنسان يفر إلى أقرب من يراه أنه أنفع ، فيذهبوا إلى أبيهم ويقولون : ألا ترى ما نحن فيه ، إن اللَّه خلقك بيده ، وعلمك أسماء كل شيء وأسجد لك الملائكة ، يعني أعطاك خيرًا كثيرًا ، فاشفع لنا إلى اللَّه ، فيعتذر ، يعتذر بماذا ؟ يقول : إن اللَّه نهاه عن الأكل مِن

الشجرة فأكل منها ، وهذه معصية ، فهو خجلان من الله ﷻ ، فكيف يشفع لكم عند الله .
فيذهبون إلى نوح وهو أول الرسل من البشر ، أول رسول أرسله الله إلى أهل الأرض هو نوح ﵇ فيذكرونه بنعمة الله عليه ، أنه أول رسول أرسله الله إلى أهل الأرض ، ولكنه يعتذر ، يعتذر بماذا ؟ بقوله : ﴿ رَبِّ إِنَّ ٱبْنِي مِنْ أَهْلِي وَإِنَّ وَعْدَكَ ٱلْحَقُّ ﴾ [هود: ٤٥] ؛ لأن الله وعده أن ينجيه وأهله وكان أحد أبنائه كافرًا لم يَنْجُ من الماء حتى قال له نوح : ﴿ يَٰبُنَيَّ ٱرْكَب مَّعَنَا وَلَا تَكُن مَّعَ ٱلْكَٰفِرِينَ ۝ قَالَ سَـَٔاوِىٓ إِلَىٰ جَبَلٍ يَعْصِمُنِى مِنَ ٱلْمَآءِ ﴾ (١) [هود: ٤٢، ٤٣] يعني ولا أركب معك ، لأن المياه عظيمة ، فكيف كانت ، السماء فتحها ، في قراءة ﴿ فَفَتَحْنَآ أَبْوَٰبَ ٱلسَّمَآءِ ﴾ [القمر: ١١] وفي قراءة : ﴿ ففتَّحْنا أَبْوَٰبَ ٱلسَّمَآءِ ﴾ (٢) وهي أعظم ، فتّح الله أبواب السماء بماء منهمر ، غزير ، أشد من القرب ﴿ وَفَجَّرْنَا ٱلْأَرْضَ عُيُونًا ﴾ حتى التنور الذي هو محل النار ، وهو أشد الأرض يبوسة وأبعدها من الماء ، بدأ التنور يفور ، فجرنا الأرض عيونًا ، كل الأرض إذا كانت السماء فتحت بماء منهمر ، والأرض فجرت بالعيون ، كيف يكون منسوب المياه ؟ يكون عظيمًا ... عظيمًا حتى صعد الماء إلى قمم الجبال .

وكانت أمرأة من الكفار الذي كفروا بنوح معها صبي ، كلما ارتفع الماء في الجبل صعدت عليه ، كلما ارتفع صعدت عليه ، حتى وصل الماء إلى قمة الجبل فارتفع المنسوب ووصل إلى كعبيها ثم إلى ركبتيها ثم ألجمها الماء فرفعت صبيها هكذا من أجل أن ينجو من الغرق ، فتغرق هي ، وترجو أن ينجو الولد من الغرق ، قال النبي ﷺ : « لو رحم الله أحدًا رحم أم الصبي » (٣) لكن والعياذ بالله قضى الله على أهل الأرض أن يغرقوا كلهم إلا من ركب في هذه السفينة . ابن نوح الذي كفر بأبيه أَبَى أن يركب ، قال : ﴿ سَـَٔاوِىٓ إِلَىٰ جَبَلٍ يَعْصِمُنِى مِنَ ٱلْمَآءِ ﴾ قال له أبوه : ﴿ لَا عَاصِمَ ٱلْيَوْمَ مِنْ أَمْرِ ٱللَّهِ إِلَّا مَن رَّحِمَ ۚ وَحَالَ بَيْنَهُمَا ٱلْمَوْجُ فَكَانَ مِنَ ٱلْمُغْرَقِينَ ﴾ [هود : ٤٣] غرق لكنَّ نوح عليه الصلاة والسلام قال : ﴿ رَبِّ إِنَّ ٱبْنِي مِنْ أَهْلِي وَإِنَّ وَعْدَكَ ٱلْحَقُّ وَأَنتَ أَحْكَمُ ٱلْحَٰكِمِينَ ۝ قَالَ يَٰنُوحُ إِنَّهُۥ لَيْسَ مِنْ أَهْلِكَ ۖ إِنَّهُۥ عَمَلٌ غَيْرُ صَٰلِحٍ ۖ فَلَا تَسْـَٔلْنِ مَا لَيْسَ لَكَ بِهِۦ عِلْمٌ ۖ إِنِّىٓ أَعِظُكَ أَن تَكُونَ مِنَ ٱلْجَٰهِلِينَ ﴾ [هود: ٤٥، ٤٦] سبحان الله كلام الله ﷻ لنبي من الأنبياء من أولي العزم ﴿ إِنِّىٓ أَعِظُكَ أَن تَكُونَ مِنَ ٱلْجَٰهِلِينَ ﴾ [هود: ٤٦] فيأتون إلى نوح في ذلك اليوم - نسأل الله أن ينجينا وإياكم من عذابه - يأتون إلى نوح ويقولون : اشفع لنا ، فيذكر ذنبه ، أنه سأل ما ليس له به علم ، والمذنب ليس له وجه يشفع ، المذنب لا يمكن أن يشفع عند من عصاه ، لأنه ليس له وجه فيعتذر .

فيذهبون إلى إبراهيم ﵇ أبي الأنبياء الذي أُمرنا أن نتبع ملته ويذكِّرونه بنعمة الله عليه ولكنه يعتذر ، يعتذر بأشياء ما تضره ، ولكنه عليه الصلاة والسلام بكمال إيمانه جعلها من الأشياء الضارة ، فيذكر ما يذكر من العذر ، ويقول : اذهبوا إلى موسى .

---

(١) قوله تعالى : ﴿ سَـَٔاوِىٓ ﴾ أي سألجأ واستند ، وقوله تعالى : ﴿ يَعْصِمُنِى ﴾ أي يمنع وصول الماء إلي .
(٢) قرأ ابن عامر ﴿ فَفَتَحْنَآ ﴾ بتشديد التاء والباقون بتخفيفها (انظر التيسير في القراءات السبع ص ٨٥) .
(٣) أخرجه الحاكم في المستدرك (٢/٣٤٢) ، بلفظ « لو رحم الله أحد لرحم أم الصبي » .

يأتون موسى ويذكّرونه بنعمة اللَّه عليه ، ولكنه يعتذر ، بماذا يعتذر ؟ يقول : أنه قتل نفسًا لم يؤذن له بقتلها ؛ حين قتل القبطي الذي استغاثه عليه الإسرائيلي ، إسرائيلي من بني إسرائيل كان مع قبطي يتنازعان ، وكان موسى من أشد الناس صرامة قوي شديد ، وهذا من حكمة اللَّه ، لأن بني إسرائيل لا ينفعهم إلا الأقوياء الأشداء ، فبعثه اللَّه إلى بني إسرائيل ، فلما رأى هذا القبطي قد استغاثه الإسرائيلي عليه وكزه [١] موسى : يعني أعطاه وكزة بيده ، فقضى عليه .

فقال يعتذر أنه قتل نفسًا لم يؤمر بقتلها ، اذهبوا إلى عيسى ، فيذهبون إلى عيسى ابن مريم عليه الصلاة والسلام ، الذي هو آخر الرسل قبل محمد عليه الصلاة والسلام ، ليس بينه وبينه نبي ولا رسول ، ولكنه يعتذر بدون أن يذكر شيئًا ، لكنه يدلهم على من هو أكمل منه ، وهو محمد صلوات اللَّه وسلامه عليه - أسأل اللَّه تعالى أن يدخلني وإياكم في شفاعته - . يأتون إلى محمد فيقول : «أنا لها » ويذهب ويسجد تحت العرش بعد إذن اللَّه ﷻ ، ثم يؤذن له بالشفاعة فيشفع ، فينزل الرب ﷻ للقضاء بين عباده ، فيقضي بينهم ويستريحون من هذا الموقف [٢] .

هذا المقام يا إخواني هل يُحمد عليه الرسول ؟! نعم لا شك ، كل الأنبياء الكرام والرسل ، أولو العزم كلهم يعتذرون حتى تصل إلى الرسول ﷺ ، وانظر كيف كانت هذه السلسلة ، يعني لو شاء اللَّه تبارك وتعالى لدلهم على محمد من أول الأمر ، لكن ليظهر فَضْلُ هذا النبي الكريم ، صلوات اللَّه وسلامه عليه ، ويتحقق قوله تعالى : ﴿ عَسَىٰٓ أَن يَبۡعَثَكَ رَبُّكَ مَقَامٗا مَّحۡمُودٗا ﴾ وَنِعْمَ هذا المقام مقامٌ ، فصلوات اللَّه وسلامه عليه .

ثم ذكر قول اللَّه تبارك وتعالى : ﴿ تَتَجَافَىٰ جُنُوبُهُمۡ عَنِ ٱلۡمَضَاجِعِ يَدۡعُونَ رَبَّهُمۡ خَوۡفٗا وَطَمَعٗا وَمِمَّا رَزَقۡنَٰهُمۡ يُنفِقُونَ ﴾ هذا في سياق قوله تعالى : ﴿ إِنَّمَا يُؤۡمِنُ بِـَٔايَٰتِنَا ٱلَّذِينَ إِذَا ذُكِّرُواْ بِهَا خَرُّواْ سُجَّدٗا وَسَبَّحُواْ بِحَمۡدِ رَبِّهِمۡ وَهُمۡ لَا يَسۡتَكۡبِرُونَ ﴾ [السجدة : ١٥] فوصفهم اللَّه ﷻ بهذه الأوصاف الجليلة : إذا ذكروا بآيات اللَّه خروا سجدًا ، أي : خروا سجدًا فيما يتطلب السجود فلا يستكبرون على وضع جباههم وأنوفهم على الأرض بل يتذللون لله إذا أمر بالسجود سجدوا ، ويحتمل أن يكون معنى قوله : ﴿ خَرُّواْ سُجَّدٗا ﴾ أي : أن المراد بذلك كمال التذلل لله بالعبادة ، سواء كان سجدة أو غيرها ، ﴿ وَسَبَّحُواْ بِحَمۡدِ رَبِّهِمۡ ﴾ أي : سبحوا اللَّه ﷻ ، وتسبيح اللَّه يعني : تنزيهه عن كل نقص وعيب ، هذا هو التسبيح ، سبحت اللَّه يعني نزهته وبرأته من كل نقص وعيب ؛ لأنه جل وعلا كامل الصفات ، إذ ينتفي عنه جميعُ النقائص . وقوله : ﴿ بِحَمۡدِ رَبِّهِمۡ ﴾ الباء للمصاحبة ، أي سبحوا اللَّه تسبيحًا مقرونًا بالحمد مصاحبًا به . والحمد هو : وصف المحمود بالكمال مع المحبة والتعظيم . هذا معنى الحمد ، حمدت اللَّه يعني : اعتقدت أن له أوصافًا كاملة ، وذكرت بلساني ذلك ، فإن كُرر المدح صار ثناءً ، كما يدل على ذلك حديث أبي هريرة أن النبي ﷺ قال : « قال اللَّه ﷻ قسمت الصلاة بيني وبين عبدي نصفين فإذا قال : الحمد لله

---

(١) قوله : « وكزه » أي ضربه بجميع يده على ذقنه (المعجم العربي الأساسي ص : ١٣٣٠) .

(٢) انظر حديث الشفاعة .

رب العالمين ، قال : حمدني عبدي ، وإذا قال : الرحمن الرحيم ، قال : أثنى عليّ عبدي »(١) .

﴿ وَهُمْ لَا يَسْتَكْبِرُونَ ﴾ يعني : لا يستكبرون عن عبادة اللّه ، إذا أمرهم اللّه امتثلوا الأمر بِذُلٍّ وخضوع ، وشعور بالعبودية ، وشعور بكمال الألوهية والربوبية لله ﷻ .

﴿ تَتَجَافَىٰ ﴾ أي : تتباعد جنوبهم ﴿ عَنِ ٱلْمَضَاجِعِ ﴾ أي : عن المراقد فهم يحيون الليل بالصلاة وذكر اللّه ﷻ ، وإذا أتموا صلاتهم ختموا ذلك بالاستغفار كما قال تعالى : ﴿ وَبِٱلْأَسْحَارِ هُمْ يَسْتَغْفِرُونَ ﴾ [الذاريات : ١٨] قال بعض السلف : هذا يدل على كمال معرفتهم بأنفسهم ، يقومون الليل ، ثم يستغفرون في آخر الليل خوفًا من أن يكونوا قصَّروا مع اللّه ﷻ(٢) .

﴿ يَدْعُونَ رَبَّهُمْ خَوْفًا وَطَمَعًا ﴾ يدعون اللّه دعاء المسألة ودعاء العبادة ، دعاء المسألة أن يقولوا : يا ربنا اغفر لنا ، يا ربنا أغننا ، يا ربنا يسر أمورنا ، يا ربنا اشرح صدورنا ، هذا دعاء المسألة ، أما دعاء العبادة : أن يقيموا الصلاة ويؤتوا الزكاة ويصوموا رمضان ويحجوا البيت ، ويبروا الوالدين ، ويصلوا الأرحام ، إلى غير ذلك من العبادات . وكانت العبادة دعاءً ؛ لأنك لو سألت العبد : لأي شيء تعبد اللّه ؟ لقال : لنيل رضوان اللّه ﷻ ، فهو داعٍ بلسان الحال ، وقد يصحبه دعاء بلسان المقال ، فالصلاة مثلًا فيها دعاء ، يدعو الإنسان فيها دعاء ركن في الصلاة ، إذا لم تدع في الصلاة بهذا الدعاء بطلت صلاتك ، في أي موضع ؟! في الفاتحة ﴿ ٱهْدِنَا ٱلصِّرَٰطَ ٱلْمُسْتَقِيمَ ﴾ هذا دعاء ركن في العبادة ، لو تركته ما صحت صلاتك ، فالصلاة دعاءٌ بلسان الحال ودعاء بلسان المقال ، ولهذا قال : ﴿ يَدْعُونَ رَبَّهُمْ ﴾ أي : يعبدونه ويسألونه . ﴿ خَوْفًا وَطَمَعًا ﴾ خوفًا من عقابه وطمعًا في ثوابه ؛ لأنهم إن فعلوا المحرم عوقبوا ، وإن تركوا المحرم وقاموا بالواجب أثيبوا ، فهم خائفون طامعون ، وقيل : خوفًا من ذنوبهم وطمعًا في فضل اللّه ، فالإنسان إذا نظر إلى نفسه وإلى ذنوبه خاف ، لأنها ذنوب أثقل من الجبال ، وأكثر من الرمال ، نسأل اللّه تعالى أن يعاملنا بعفوه . وإن نظر إلى سعة رحمة اللّه وسَعِه عفوه ، وأن العفو أحب إليه من العقوبة وأنه يفرح بتوبة عبده المؤمن ، أشد من أي فرح في الدنيا كلها ، قال النبي عليه الصلاة والسلام : « للّه أشد فرحًا » اللام هذه للابتداء ، وهي للتوكيد « بتوبة عبده المؤمن من أحدكم كان معه راحلته عليها طعامه وشرابه فأضلت » ضاعت منه « في أرض فلاة » ما حوله أحد ، « فضاعت ، طلبها فلم يجدها ، فيئس من الحياة ، فاضطجع تحت شجرة ينتظر الموت ، ما بقي إلا أن يموت ، فإذا بخطام الناقة متعلقًا بالشجرة » ، خطام يعني : زمام « فقام وأخذه وقال من شدة الفرح : اللّهم أنت عبدي وأنا ربك » . هو يريد أن يقول : اللّهم أنت ربي وأنا عبدك لكن من شدة الفرح قال : اللّهم أنت عبدي وأنا ربك . « فاللّه جل وعلا أشد فرحًا بتوبة عبده من هذا الرجل براحلته »(٣) .

---

(١) أخرجه الترمذي في السنن (٢٩٥٣) والبيهقي في السنن (٢/٣٧ ، ٣٨) والمنذري في الترغيب والترهيب (٢/٣٦٧) .

(٢) ذكر ذلك ابن الجوزي في زاد المسير (١/٣٦١) ، في تفسير قوله تعالى : ﴿ وَٱلْمُسْتَغْفِرِينَ بِٱلْأَسْحَارِ ﴾ آل عمران : ١٧ .

(٣) الحديث أخرجه البخاري في الدعوات (٦٣٠٨) ، ومسلم في التوبة (٣ ، ٤) ، وابن ماجه في السنن (٤٢٤٩) وأحمد في مسنده (٢/٣١٦) ، جميعهم بألفاظ مختلفة عن هذا النص .

إذًا نحن نطمع في فضل اللَّه ، ذنوبنا كثيرة عظيمة ، لكن فضل اللَّه أوسع ، ورحمته أوسع ، إذا كانت الصلوات الخمس تكفر ما بينها إذا لم ترتكب الكبائر فهذا فضل عظيم . فعلى كل حال ، هم يدعون اللَّه خوفًا وطمعًا ، خوفًا من عذابه ، وطمعًا في ثوابه ، خوفًا من ذنوبهم ، وطمعًا في فضله ، كل الأوجه صحيحة .

﴿ وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنفِقُونَ ﴾ مِن : للتبعيض ، يعني : ينفقون بعض ما رزقناهم ؛ لأنه لا ينبغي للإنسان أن يتصدق بكل ماله ، ولهذا لما قال أبو لبابة : يا رسول اللَّه ، إني أتصدق بكل مالي . قال : « يكفيك الثلث ، تصدق بالثلث » [(١)] . حتى إن العلماء قالوا : إذا نذر الصدقة بماله كله أجزأه ثلثه ، لأن هذا هو المذكور فعلى هذا تكون (من) للتبعيض ، يعني : ينفقون شيئًا مما رزقناهم . وقيل : إن (من) للبيان ، لبيان الجنس ، فينفقون حسب الحال ، قد ينفقون قليلًا أو كثيرًا ، الثلث ، أو النصف ، أو الكل ، كما فعل أبو بكر ﷺ ، عندما حث النبي ﷺ على الصدقة ، فتصدق أبو بكر بكل ماله ، وتصدق عمر بشطر ماله - بالنصف - قال : الآن أسبق أبا بكر ، لأن الصحابة يتسابقون ، ليس حسدًا ولكن تسابق في الخيرات فلما جاء بنصف ماله وإذا أبو بكر قد تصدق بكل ماله ، قال النبي ﷺ لأبي بكر : « ماذا تركت لأهلك ؟ » قال : تركت لهم اللَّه ورسوله . قال لعمر : ماذا تركت ؟! قال : تركت النصف ، ثم قال عمر : واللَّه لا أسابقه على شيء أبدًا بعد اليوم [(٢)] .

لأن أبا بكر ﷺ له سوابق ، وفضائل لا يلحقه فيها عمر ، ولا عثمان ، ولا علي ، ولا من دونهم . المهم أنهم ينفقون مما رزقهم اللَّه . فما هو الجزاء وما هي الثمرة ؟! ﴿ فَلَا تَعْلَمُ نَفْسٌ مَّآ أُخْفِيَ لَهُم مِّن قُرَّةِ أَعْيُنٍ جَزَآءً بِمَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴾ [(٣)] [السجدة : ١٧] اللَّهم اجعلنا منهم يا رب .

لا تعلم نفس ما أخفي لهم من قرة أعين ، وذلك في جنات النعيم ، فيها ما لا عين رأت ، ولا أذن سمعت ، ولا خطر على قلب بشر ، أتظنون أن قول اللَّه تعالى : ﴿ فِيهِمَا فَٰكِهَةٌ وَنَخْلٌ وَرُمَّانٌ ﴾ [الرحمن : ٦٨] أتظنون أن النخل والرمان والفاكهة كالذي في الدنيا لا واللَّه ، ليس في الجنة شيء مما في الدنيا إلا الأسماء ، اسم الرُّمَّان لكن لا يمكن أن يخطر على بالك ، اسم النخل لكن لا يخطر على بالك ، اسم الفاكهة لكن ما تخطر على بالك ﴿ فَلَا تَعْلَمُ نَفْسٌ مَّآ أُخْفِيَ لَهُم مِّن قُرَّةِ أَعْيُنٍ جَزَآءً بِمَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴾ .

نسأل اللَّه تعالى أن يجعلنا وإياكم من هؤلاء الأبرار الكرام البررة إنه على كل شيء قدير .

* * *

قال اللَّه تعالى : ﴿ كَانُوا۟ قَلِيلًا مِّنَ ٱلَّيْلِ مَا يَهْجَعُونَ ﴾ [الذاريات : ١٧] .

---

(١) أخرجه أبو داود في السنن (٣٣١٩) ، وأحمد في مسنده (٤٥٣/٣) ، كلاهما بلفظ : « يجزئ عنك الثلث » ومالك في الموطأ (النذور والأيمان ١٦) بلفظ « يجزيك من ذلك الثلث » .

(٢) انظر الحديث بنصه في : أبو داود في السنن (١٦٧٨) ، والترمذي في السنن (٣٦٧٥) ، والحاكم في المستدرك (٤١٤/١) ، والبيهقي في السنن (١٨١/٤) ، جميعهم بلفظ « ما أبقيت لأهلك » .

(٣) قوله تعالى : ﴿ قُرَّةِ أَعْيُنٍ ﴾ أي مما تسر به قلوبهم .

١١٦٠ - وَعَن عَائِشَةَ رَضِيَ اللهُ عَنهَا قَالَتْ : كَانَ النَّبِيُّ ﷺ يَقُومُ مِنَ اللَّيلِ حتى تَتَفطَّرَ قَدَمَاهُ ، فَقُلْتُ لَهُ : لِمَ تَصنَعُ هذا يا رَسُولَ اللهِ ، وَقد غُفِرَ لكَ ما تَقَدَّمَ مِن ذَنْبِكَ وَما تَأَخَّرَ ؟ قَالَ : «أَفَلا أَكُونُ عَبْدًا شَكُورًا !» [١] . متفقٌ عليه . وَعَنِ المغِيرَةِ بنِ شعبَةَ نحوهُ ، متفقٌ عليه .

الشرح

ذكر المؤلف في : باب فضل قيام الليل ، آيات ثلاثًا ، تكلمنا عن اثنتين منها ، فهذه هي الثالثة ، وهي قوله تعالى : ﴿ كَانُوا قَلِيلًا مِّنَ ٱلَّيْلِ مَا يَهْجَعُونَ ۝ وَبِٱلْأَسْحَارِ هُمْ يَسْتَغْفِرُونَ ﴾ .

هذه من أوصاف المتقين الذين أعد الله لهم الجنات والعيون ، من أوصافهم أنهم كانوا لا يهجعون من الليل إلا قليلًا ، وذلك أنهم يشتغلون بالقيام والتهجد وقراءة القرآن وغير ذلك . قال الله تعالى : ﴿ إِنَّ رَبَّكَ يَعْلَمُ أَنَّكَ تَقُومُ أَدْنَىٰ مِن ثُلُثَيِ ٱلَّيْلِ وَنِصْفَهُۥ وَثُلُثَهُۥ وَطَآئِفَةٌ مِّنَ ٱلَّذِينَ مَعَكَ ﴾ [٢] [المزمل : ٢٠] فكانوا يقومون من الليل ، ثم إذا فرغوا من القيام رأوا أنهم مقصرون ، فجعلوا يستغفرون الله عز وجل ، وبالأسحار يستغفرون .

وقال تعالى في سورة آل عمران : ﴿ وَٱلْمُسْتَغْفِرِينَ بِٱلْأَسْحَارِ ﴾ [آل عمران : ١٧] أي في آخر الليل .

ثم ذكر الأحاديث في ذلك ، ومنها حديث عائشة رضي الله عنها : أن النبي ﷺ كان يقوم من الليل ويطيل القيام حتى تتفطر قدماه ، لأن الدم ينزل فيها ، فتتفطر ، فقيل : كيف تفعل هذا وقد غفر الله لك ما تقدم من ذنبك وما تأخر ؟! قال : « أفلا أحب أن أكون عبدًا شكورًا » . فجعل النبي صلى الله عليه وعلى آله وسلم هذه الأعمال من شكر نعمة الله جل جلاله ، فدل ذلك على أن الشكر هو القيام بطاعة المنعم ، وليس الإنسان إذا قال : أشكر الله ، هذا شكر باللسان ولكن لا يكفي ، لابد من الشكر بالجوارح والقيام بطاعة الله عز وجل، وفي هذا دليل على تحمل النبي صلى الله عليه وعلى آله وسلم للعبادة ومحبته لها ؛ لأنه لا يمكن لأحد أن يفعل ذلك إلا لمحبة شديدة ، ولهذا قال : « جعلت قرة عيني في الصلاة » [٣] فالصلاة أحب الأعمال إلى الرسول عليه الصلاة والسلام ، وقد قام معه من الليل من أصحابه عبد الله بن مسعود رضي الله عنه قام معه ذات ليلة فأطال النبي صلى الله عليه وعلى آله وسلم القيام ، قال عبد الله : حتى هممت بأمر سوء ، قالوا : بما هممت يا أبا عبد الرحمن ؟ قال : هممت أن أجلس وأدعه [٤] . وهو شاب ، أقل سنًّا من الرسول عليه الصلاة والسلام ومع ذلك عجز أن يكون كالنبي صلى الله عليه وعلى آله وسلم .

ولكن لو قال قائل : هل الأفضل في قراءة الليل أن أطيل القيام ، أو أن أطيل السجود والركوع ؟ قلنا : انظر ما هو أصلح لقلبك ، قد يكون الإنسان في حال السجود أخشع وأحضر قلبًا ، وقد يكون

---

(١) أخرجه البخاري في تفسير القرآن (٤٨٣٧) ، ومسلم في صفات المنافقين (٨١) ، بنحوه ، والإمام أحمد في المسند (٤/٢٥١ ، ٢٥٥) ، قوله : « تتفطر قدماه » أي تتشقق .

(٢) قوله تعالى : ﴿ أَدْنَىٰ ﴾ أي أقل من نصفه وأقل من ثلثه ، وقوله تعالى : ﴿ وَطَآئِفَةٌ مِّنَ ٱلَّذِينَ مَعَكَ ﴾ أي وتقوم معك طائفة من أصحابك .

(٣) أخرجه الطبراني في الصغير (١/٢٦٢) بلفظه ، والنسائي في السنن (٧/٢٦١) وأحمد في مسنده (٣/١٢٨) كلاهما بلفظ : « وجعلت قرة عيني في الصلاة » .

(٤) أخرجه مسلم في صلاة المسافرين (٢٠٤) ، وابن ماجه في إقامة الصلاة (١٤١٨) ، وأحمد في مسنده (١/٣٩٦) .

في حال القيام يقرأ القرآن ويتدبر القرآن ، ويحصل له لطائف من كتاب الله ﷻ ما لا يحصل له في حال السجود ، ولكن الأفضل أن يجعل صلاته متناسبة إذا أطال القيام أطال الركوعَ والسجودَ ، وإذا قصر القيام قصر الركوع والسجود ، حتى تكون متناسبة كصلاة النبي ﷺ . والله أعلم .

* * *

١١٦١ - وَعَنْ عَليٍّ ﷺ أَنَّ النَّبيَّ ﷺ طَرَقَهُ وفاطِمَةَ لَيلًا ، فَقَالَ : « أَلا تُصَلِّيَانِ ؟ »[١] متفقٌ عليه. « طَرَقَهُ » : أَتَاهُ لَيلًا .

١١٦٢ - وَعَن سَالِمِ بنِ عبدِ اللَّهِ بنِ عُمَرَ بنِ الخَطَّابِ ﷺ عَن أبيهِ : أَنَّ رسول اللَّه ﷺ قَالَ : «نِعْمَ الرَّجلُ عَبْدُ اللَّهِ لَو كَانَ يُصَلِّي مِنَ اللَّيلِ »قال سالِمٌ : فَكَانَ عَبْدُ اللَّهِ بعْدَ ذلكَ لا يَنَامُ مِنَ اللَّيلِ إلا قَلِيلًا[٢] . متفقٌ عليه.

١١٦٣ - وَعَن عبدِ اللَّهِ بنِ عَمرِو بنِ العاصِ ﷺ قالَ : قَالَ رسول اللَّه ﷺ: « يَا عَبْدَ اللَّهِ لا تكن مثْلَ فُلانٍ ؛ كانَ يَقُومُ اللَّيلَ فَتَرَكَ قِيَامَ اللَّيلِ »[٣] متفقٌ عليه .

١١٦٤ - وعَنِ ابنِ مَسْعُودٍ ﷺ قَالَ : ذُكِرَ عِنْدَ النَّبيِّ ﷺ رَجُلٌ نَامَ لَيلَةً حَتَّى أَصبَحَ ! قَالَ : «ذاكَ رَجُلٌ بَالَ الشَّيطَانُ في أُذُنيهِ » - أو قال : « في أُذنه »[٤] متفقٌ عليه .

١١٦٥ - وعَن أَبي هُرَيرَةَ ﷺ أنّ رسول اللَّه ﷺ ، قالَ : « يَعْقِدُ الشَّيطَانُ عَلى قافِيَةِ رَأسِ أحَدِكُم - إذا هُوَ نَامَ - ثَلاثَ عُقَدٍ ، يَضرِبُ عَلى كل عُقدَةٍ : عَليكَ ليلٌ طَويلٌ فَارقُد ، فإنِ اسْتَيقَظَ ، فَذَكَرَ اللَّه تَعَالى ؛ انحَلَّت عُقْدَةٌ ، فَإن تَوضَّأَ ؛ انحَلَّت عُقدَةٌ ، فَإن صَلَّى ؛ انحلَّت عُقدَةُ كلُّها ، فأَصبَحَ نَشِيطًا طَيِّبَ النَّفسِ ، وَإلا أَصبَحَ خَبيثَ النَّفْسِ كَسْلانَ »[٥] متفقٌ عليه . « قافِيَةُ الرَّأسِ » : آخِرُهُ .

الشرح

هذان الحديثان فيما يتعلق بقيام الليل .

الحديث الأول : أنه ذكر عن النبي صلى اللَّه عليه وعلى آله وسلم رجل نام حتى أصبح ، وقوله :

---

(١) هذا الحديث لم يقم الشارح ﷺ بشرحه والحديث أخرجه البخاري في التهجد (١١٢٧) ، ومسلم في صلاة المسافرين وقصرها (٢٠٦) ، والإمام أحمد في المسند (١٤٦/٢) .

(٢) هذا الحديث لم يقم الشارح ﷺ بشرحه والحديث أخرجه البخاري في فضائل أصحاب النبي (٣٧٣٩) ومسلم في فضائل الصحابة (١٤٠) .

(٣) هذا الحديث لم يقم الشارح ﷺ بشرحه والحديث أخرجه البخاري في التهجد (١١٥٢) ومسلم في الصيام (١٨٥) والإمام أحمد في المسند (١٧٠/٢) ، قوله : « لا تكن مثل فلان » أي لا تماثله وتشابهه في ما فعل .

(٤) أخرجه البخاري في التهجد (١١٤٤) ومسلم في صلاة المسافرين وقصرها (٢٠٥) والنسائي في السنن (٢٠٤/٣) ، قوله « بال الشيطان في أذنيه » أي أفسده الشيطان وجعله منقادًا إليه ، أو استخف به واحتقره واستعلى عليه .

(٥) أخرجه البخاري في التهجد (٣٢٦٩) ، ومسلم في صلاة المسافرين وقصرها (٢٠٧) ، وابن ماجه في إقامة الصلاة (١٣٢٩) ، والبيهقي في السنن (٥٠١/٢) ، وقوله : « يضرب على كل عقدة » أي يضرب على العقدة تأكيدًا وإحكامًا لها ، وقيل : يحجب الحس عن النائم حتى يستيقظ .

« حتى أصبح » أي : حتى طلع الصبح ، ولم يتهجد . ويحتمل حتى أصبح أي فاتته صلاة الفجر ، فقال النبي ﷺ : « ذاك رجل بال الشيطان في أذنه ، أو قال في أذنيه » . لما بال لم يسمع النداء ، لما بال في أذنيه حال بينه وبين سماع النداء فلم يقم . فدل هذا على فوائد : أولًا : أن الشيطان يبول ، لأن النبي ﷺ قال : « بال الشيطان في أذنه » .

ثانيًا : أنه يأكل ويشرب ، وهذا ثبت أيضًا عن النبي ﷺ أنه قال : « لا يأكل أحدكم بشماله ، ولا يشرب بشماله ، فإن الشيطان يأكل بشماله ويشرب بشماله » [١] أيضًا ثبت عن النبي ﷺ أن الشيطان يتقيأ فإن رجلًا أكل طعامًا ولم يسم ، فشاركه الشيطان فيه ؛ لأنك إذا بدأت في الطعام ولم تسم الله شاركك الشيطان ، فلما سمى الرجل ذكر النبي ﷺ : أن الشيطان تقيأ ما أكله [٢] تقيأه يعني : أخرجه من جوفه .

فهذه أربعة أشياء : البول ، والأكل ، والشرب ، والتقيؤ ، يجب علينا أن نؤمن بها كما أخبر بها النبي صلى الله عليه وعلى آله وسلم ، وأن نؤمن بأنها حق على حقيقتها ؛ لأن الرسول ﷺ هو أعلم الخلق في أمور الغيب . ثانيًا : هو أنصح الخلق للأمة . ثالثًا : أنه أصدق الخلق - عليه الصلاة والسلام - ولا يمكن أن ينطق بكلام وهو يريد خلاف ظاهره أبدًا ، إذًا الشيطان يأكل ويشرب ويتقيأ ويبول ، ولكن هل بوله وقيئه وأكله وشربه ، شيء محسوس يُشاهد ، لا ، لا يشاهد ، فنؤمن بذلك ، ونقول هذه أمور غيبية لا نعرف عن كيفيتها ولا نعرف عنها من واقع الأمر المحسوس .

وفي الحديث : دليل أنه ينبغي للإنسان أن يحرص على قيام الليل حتى لا يكون للشيطان عليه سبيلًا .

أما حديث أبي هريرة : أن النبي ﷺ أخبر أن الشيطان يعقد على قافية أحدنا إذا نام ثلاث عقد ، يعقدُها ويحكمها ، يقول : « عليك ليل طويل » [٣] نم .... وما أشبه ذلك ، يثبطه عن الخير ، لكن إذا قام الإنسان وذكر الله انحلت عقدة ، فإذا توضأ انحلت العقدة الثانية ، فإذا صلى انحلت العقدة الثالثة ، فأصبح طيب النفس نشيطًا ، والحمد لله هذا سهل ، اذكر الله ، قل : لا إله إلا الله ، الحمد لله الذي أحيانا بعد ما أماتنا وإليه النشور ، واقرأ عشر آيات في آخر سورة آل عمران [٤] ، توضأ ، تنحل عقدتان ، صل تنحل العقد الثلاثة ، ولهذا يستحب أن يفتتح الإنسان قيام الليل بركعتين خفيفتين ، لأن النبي - صلى الله عليه وعلى آله وسلم - أمر بذلك ؛ ولأنه هو نفسه - صلى الله عليه وعلى آله وسلم - يفعل

---

(١) أخرجه الترمذي في السنن (١٧٩٩) وأحمد في مسنده (٣٥٧/٣) كلاهما بلفظه ، ومسلم في الأشربة (١٠٦) بلفظ « لا يأكلن » .

(٢) انظر الحديث في : أبو داود في الأطعمة (٣٧٦٨) والطبراني في الكبير (٢٩٦/١) ، والحاكم في المستدرك (١٠٨/٤) ، وأحمد في مسنده (٣٣٦/٤) .

(٣) انظر الحديث في : البخاري في بدء الخلق (٣٢٦٩) ، ومسلم في صلاة المسافرين (٢٠٧) ، ومالك في الموطأ (السفر ٩٥) ، وأحمد في مسنده (٢٤٣/٢) ، ومعنى قوله « قافية » أي مؤخرة الرأس .

(٤) انظر الحديث في البخاري في الدعوات (٦٣١٢) ، ومسلم في الذكر والدعاء (٥٩) ، وابن ماجه في السنن (٣٨٨٠) .

ذلك ، يفتتح صلاة الليل بركعتين خفيفتين (١) ؛ ولأن ذلك أسرع في حل عقد الشيطان ، فبمجرد أن يصلي ركعتين تنحل العقد ، وهذه من أمور الغيب التي لا ندركها نحن بحواسنا ، لا ندركها إلا عن طريق الوحي ، ويجب علينا أن نقول آمنا وصدقنا بما أخبر الله به ورسوله ؛ لأن هذا هو حقيقة الإيمان ، أما الذي لا يؤمن إلا بما يشاهد فليس بمؤمن ، ولهذا إذا شاهد الكفار العذاب ، أو شاهدوا الموت يؤمنون ، فرعون لما غرق ورأى أنه هالك قال : ﴿ ءَامَنتُ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا ٱلَّذِىٓ ءَامَنَتْ بِهِۦ بَنُوٓاْ إِسْرَٰٓءِيلَ وَأَنَا۠ مِنَ ٱلْمُسْلِمِينَ ﴾ [يونس : ٩٠] بعد أن كان يتسلط على بني إسرائيل أراد أن يؤمن بما آمنوا به ، أذل نفسه وهو حي قبل أن يموت ، فقيل له : ﴿ ءَآلْـَٰٔنَ ﴾ يعني : الآن تؤمن ، لا ينفع ﴿ وَقَدْ عَصَيْتَ قَبْلُ وَكُنتَ مِنَ ٱلْمُفْسِدِينَ ۝ فَٱلْيَوْمَ نُنَجِّيكَ بِبَدَنِكَ « فقط » لِتَكُونَ لِمَنْ خَلْفَكَ ءَايَةً ﴾ [يونس : ٩١، ٩٢] لأن بني إسرائيل قد أرعبهم فرعون ، لو قيل لهم مات سيكونون في شك ، لكن إذا رأوا جثته طافية على الماء آمنوا ﴿ فَٱلْيَوْمَ نُنَجِّيكَ بِبَدَنِكَ لِتَكُونَ لِمَنْ خَلْفَكَ ءَايَةً وَإِنَّ كَثِيرًا مِّنَ ٱلنَّاسِ عَنْ ءَايَٰتِنَا لَغَٰفِلُونَ ﴾ [يونس : ٩٢] .

فالحاصل : يا إخواني أن هذه الأمور التي قد تستبعدها عقولكم يجب أن تصدقوا بها ، قالها المعصوم ، قل آمنا وصدقنا ، فنؤمن بأنه يبول في أذن الإنسان إذا تأخر عن صلاة الصبح ، سواء وجدت رطوبة أم لا ، تقيأ ما أكل في وسط الطعام ومع ذلك نأكله ، ولو تقيأ بشر في وسط الطعام ما أكلناه ، فالواجب في مثل هذه الأمور أن يُصدق الإنسان ويؤمن ، وما أكثر ما خفي علينا ، لما جاءوا يسألون الرسول عن الروح ، ما هي هذه الروح التي إذا كانت في البدن صار حيًّا يتحرك وإذا خرجت منه صار جثة ، ما هي هذه الروح ؟! قال تعالى : ﴿ وَيَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلرُّوحِ ۖ قُلِ ٱلرُّوحُ مِنْ أَمْرِ رَبِّى وَمَآ أُوتِيتُم مِّنَ ٱلْعِلْمِ إِلَّا قَلِيلًا ﴾ [الإسراء : ٨٥] .

ولما جاء عصفور ونقر في البحر ، والبحر كثير الماء - نقر العصفور من البحر ، يعني شرب - هل ينقص البحر ؟! لا ما ينقص البحر ، قال الخضر لموسى - عليه الصلاة والسلام - : « ما نقص علمي وعلمك من علم الله إلا مثل ما نقص هذا العصفور من هذا البحر » (٢) .

فنحن لا نعلم إلا ما علمنا الله ، وما أوتينا من العلم إلا قليلًا . والله الموفق .

* * *

١١٦٦ - وَعَن عبدِ اللهِ بنِ سلام ﷺ أَنَّ النَّبيَّ ﷺ قالَ : « أَيُّها النَّاسُ أَفْشُوا السَّلامَ ، وَأَطْعِمُوا الطَّعَامَ ، وَصَلُّوا باللَّيلِ وَالنَّاسُ نِيامٌ ؛ تَدخُلُوا الجَنَّةَ بِسَلامٍ » (٣) . رواهُ الترمذيُّ وقالَ : حديثٌ حسنٌ صحيحٌ .

الشرح

نقل المؤلف النووي رحمه الله عن عبد الله بن سلام ﷺ قال : قال رسول الله ﷺ : « يا أيها الناس

---

(١) انظر الحديث في : البخاري في التهجد (١١٧٠) ، ومسلم في صلاة المسافرين (٨٧ ، ٨٨) ، وأبو داود في التطوع (١٣٢٣) ، والترمذي في الوتر (٤٥٩) .

(٢) أخرجه البخاري في العلم (٤٤) ، وأحمد في مسنده (١١٨/٥) بلفظ : « إلا كنقرة هذا العصفور في البحر » .

(٣) أخرجه الترمذي في صفة القيامة (٢٤٨٥) ، والدارمي في سننه (٢٧٥/٢) .

أفشوا السلام » .

اعلم أن خطاب الشرع إذا صدر بالنداء ؛ دل ذلك على أهمية هذا الخطاب ؛ لأن النداء يُوجِب تنبه المخَاطَب ؛ فإنه فرق بين أن تقول الكلام مرسلًا وبين أن تنادي من تخاطب ، فالثاني يكون أبلغ في التنبيه والانتباه .

يقول : « يا أيها الناس أفشوا السلام » يعني : أظهروا وأعلنوا وأكثروا من السلام ، والسلام يخاطب به المُسَلِّم والمُسَلَّم عليه ؛ فإن المسلِّم ينبغي له أن يُسلم على كل من لاقاه ممن يستحق أن يُسَلَّمَ عليه ، سواء عرفه ، أو لم يعرفه .

والذي يستحق أن يُسلَّم عليه هو المسلم الذي لا يحل هجره ، أما الكافر فلا تبدأه بالسلام سواء كان كافرًا لا ينتسب للإسلام ، أو كان كافرًا ينتسب للإسلام لكنه على بدعة ، فهذا لا تسلم عليه لأنه لا يستحق ، ولهذا قال النبي - عليه الصلاة والسلام - « لاتبدأوا اليهود والنصارى بالسلام » (١) .

وينبغي للمُسَلِّم أن يرفع صوته حتى يُسمع وألا يسلم بأنفه ، لأن بعض الناس - نسأل اللَّه لنا ولهم الهداية - يكون عنده كبرياء أو عنده جفاء ، فإذا لاقاك سلم عليك بأنفه ، لا تكاد تسمعه ، وهذا خلاف إفشاء السلام ؛ فإفشاء السلام أن ترفع صوتك وتجهر به ، السلام عليك . قال العلماء : إلا إذا سلم على قوم أيقاظ بينهم نيام ، فلا ينبغي أن يرفع صوته رفعًا يستيقظ به النيام ؛ لأن هذا يؤذي النائمين .

ثم إن الصيغة المستحبة أن تقول : السلام عليك ، إن كان المُسَلَّم عليه واحدًا ، وإن كانوا جماعة رجال تقول : السلام عليكم ، وإن كانوا جماعة نساء تقول : السلام عليكن ، حسب المخَاطَب ، ثم إنك إذا قلت : السلام عليك أو عليكم أو عليكن ، فإنك تشعر أنك تدعو لهم بالسلامة ، السلام عليكم مجرد تحية ، دعاء بالسلامة ، كأن اللَّه يُسلم من كل الآفات ، من آفات الذنوب ، وآفات القلوب ، وآفات الأجسام ، وآفات الأعراض ، من كل آفة ، ولهذا لو قلت : أهلًا ومرحبًا ، بدل السلام ، ما أجزأك ؛ لأن أهلًا ومرحبًا ما فيها دعاء ، فيها صحيح تحية ، تهنئة ، ولكنها ليست فيها دعاء . فالسلام المشروع أن تقول : السلام عليكم .

أما المُسلَّم عليه فالواجب عليه أن يرد كما سُلِّمَ عليه ، هذا أمر واجب لقول اللَّه تعالى : ﴿ وَإِذَا حُيِّيتُم بِتَحِيَّةٍ فَحَيُّوا۟ بِأَحْسَنَ مِنْهَآ أَوْ رُدُّوهَآ ﴾ [النساء: ٨٦] فإذا قال : السلام عليك . فقلت : أهلًا ومرحبًا أبا فلان ، حياك اللَّه سررنا بمجيئك .. تفضل .. كل هذه الكلمات لا تجزئ عن كلمة واحدة ما هي ؟! عليك السلام ، لابد أن تقول عليك السلام ، فإن لم تفعل فأنت آثم عليك وزر ؛ لأنك تركت واجبًا ﴿ فَحَيُّوا۟ بِأَحْسَنَ مِنْهَآ أَوْ رُدُّوهَآ ﴾ .

كذلك أيضًا إذا سلم عليك بصوت مرتفع بين واضح ، لا ترد عليه السلام بأنفك ، هذا لا يجوز ؛ لأنك لم ترد بمثلها ولا بأحسن منها ، فقوله تعالى : ﴿ فَحَيُّوا۟ بِأَحْسَنَ مِنْهَآ أَوْ رُدُّوهَآ ﴾ يشمل الصيغة ، وصفةَ الأداء .

كذلك قال - عليه الصلاة والسلام - : « أطعموا الطعام » لمن يطعم الطعام ؟ لمن يحتاج إليه ،

---

(١) أخرجه مسلم في السلام (١٣) ، والترمذي في السنن (١٧٠٠) ، وأحمد في مسنده (٢/٢٦٦) .

إطعامُك أهلَك من الزوجات والأولاد بنين أو بنات ومن في بيتك أفضل ما يكون ، أفضل من أن تتصدق على مسكين ؛ لأن إطعامك أهلك قيام بواجب ، والقيام بالواجب أفضل من القيام بالتطوع لقول اللَّه تعالى في الحديث القدسي : « ما تقرب إليَّ عبدي بشيء أحب إليَّ مما افترضت عليه »[١] . فإطعام الطعام لأهلك أفضل من إطعام المسكين ؛ لأن الأول واجب وهذا تطوع ، فمن أطعمَ الطعامَ أهلَه ولم يقصر بشيء وقام بالواجب فقد أطعم الطعام ، وما فَضل فتصدق به فهو خير .

« وصلوا بالليل والناس نيام » اللَّهم اجعلنا من هؤلاء ، ربما كان أحسن وألذ النوم ما كان من بعد منتصف الليل إلى الفجر ، فإذا قام الإنسان في هذا الوقت لله ﷻ يتهجد ، يتقرب إليه بكلامه وبدعاءٍ خاشعًا بين يديه ، والناس نائمون فهذا من أفضل الأعمال . (صلوا بالليل والناس نيام) وهذا محل الشاهد من هذا الحديث ، أن الرسول ﷺ جعل الصلاة بالليل من أسباب دخول الجنة ، والثواب قال : (تدخلوا الجنة بسلام) تسلم عليك الملائكة ﴿ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةُ يَدْخُلُونَ عَلَيْهِم مِّن كُلِّ بَابٍ ۝ سَلَٰمٌ عَلَيْكُم بِمَا صَبَرْتُمْ ﴾ [الرعد: ٢٣، ٢٤] يهنئونهم بما صبروا وبهذا الثواب العظيم .

و « تدخلوا الجنة بسلام » : ظاهره أنه بلا عقاب ولا عذاب ؛ لأن من عذب لم يسلم . فهذه الأمور الثلاثة في هذا الحديث من أسباب دخول الجنة بسلام ، نسأل اللَّه تعالى أن يعينني وإياكم عليها ، وأن يجعلنا ممن يدخلون الجنة بسلام ، إنه على كل شيء قدير .

* * *

١١٦٧ - وَعَنْ أبي هُريرَةَ ؓ قَالَ : قَالَ رسول اللَّه ﷺ : « أَفْضَلُ الصِّيَامِ بَعْدَ رَمَضَانَ شَهْرُ اللَّهِ المُحَرَّمُ ، وأَفْضَلُ الصَّلاةِ بَعْدَ الفَرِيضَةِ صَلاةُ اللَّيلِ »[٢] رواه مسلم .

١١٦٨ - وَعَنِ ابنِ عُمَرَ ؆ أَنَّ النَّبيَّ ﷺ قَالَ : « صَلاةُ اللَّيلِ مَثْنَى مَثْنَى ، فَإذا خِفْتَ الصُّبْحَ ؛ فَأَوتِرْ بِوَاحِدَةٍ »[٣] متفقٌ عليه .

١١٦٩ - وَعَنْهُ قَالَ : كانَ النَّبيُّ ﷺ ، يُصَلِّي مِنَ اللَّيلِ مَثْنَى مَثْنَى ، وَيُوتِرُ بِركعَةٍ[٤] . متفقٌ عليه .

١١٧٠ - وَعَنْ أَنَسٍ ؓ قَالَ : كَانَ رسول اللَّه ﷺ ، يُفطِرُ مِنَ الشَّهرِ حَتَّى نَظُنَّ أَنْ لا يَصُومَ مِنْهُ ، وَيَصُومُ حَتَّى نَظُنَّ أَنْ لا يُفْطِرَ مِنْهُ شَيئًا ، وَكانَ لا تَشَاءُ أَنْ تَراهُ مِنَ اللَّيلِ مُصَلِّيًا إلا رَأَيتَهُ ، وَلا نَائمًا إلا رَأَيتَهُ[٥] . رواه البخاري .

---

(١) أخرجه البخاري في الرقاق (٦٥٠٢) والبيهقي في السنن (٣٤٦/٣) .

(٢) أخرجه مسلم في الصيام (٢٠٢) والنسائي في السنن (٢٠٧/٣) .

(٣) أخرجه البخاري في التهجد (١١٣٧) ومسلم في صلاة المسافرين وقصرها (١٤٥) ، والإمام أحمد في المسند (١٥٥/٢) ، قوله : « خفت الصبح » أي خشيت طلوعه .

(٤) أخرجه البخاري في التهجد (٩٩٥) ، ومسلم في صلاة المسافرين وقصرها (١٤٦) ، والترمذي في الصلاة (٤٦١) ، وابن ماجه في إقامة الصلاة (١١٧٤) .

(٥) أخرجه البخاري في الصوم (١٩٧٢) ، ومسلم في الصيام (١٨٠) نحوه .

الشرح

هذه الأحاديث في بيان فضل صلاة الليل ومنها حديث أبي هريرة ﷺ أن النبي ﷺ قال : « أفضل الصيام بعد رمضان شهر الله المحرم » صيام شهر رمضان أحد أركان الإسلام ، وهو واجب بالإجماع ، وشهر المحرم أفضل الشهور التي يتطوع بها بالصوم ، وعلى هذا فيكون صوم شهر المحرم من الصيام المستحب ؛ لأنه أفضل الصيام بعد الفريضة . وأما الشاهد من هذا الحديث « وأفضل الصلاة بعد الفريضة صلاة الليل » هذا هو الشاهد ، فصلاة الليل أفضل من صلاة النهار ، ما عدا الرواتب التابعة للمكتوبات ؛ فإنها أفضل من النفل المطلق في الليل ، فمثلًا راتبة الظهر أربع ركعات بسلامين قبلها وركعتان بعدها ، أفضل من ست في الليل ، لأنه راتبة مؤكدة ، تابعة للفريضة ، وأما النفل المطلق ففي الليل أفضل من النهار ، ولهذا قال : « أفضل الصلاة بعد الفريضة صلاة الليل » .

أما حديث ابن عمر الأول والثاني ، ففيه دليل على أن صلاة الليل تكون مثنى مثنى ، لا يمكن أن تصلي أربعًا ، بل لابد من اثنين ويسلم ، اثنين ويسلم ، قال الإمام أحمد رحمه الله : فإن قام إلى الثالثة ناسيًا فهو كما لو قام إلى ثالثة في الفجر . يعني : فيجب عليه أن يرجع ، فإن لم يفعل بطلت صلاته يعني لو كنت تصلي بالليل على ركعتين ركعتين ، فقمت إلى الثالثة ناسيًا ، وجب عليك أن ترجع حتى لو بدأت في قراءة الفاتحة ، يجب أن ترجع فإن لم تفعل بطلت صلاتك ، لأن رسول الله – صلى الله عليه وعلى آله وسلم – قال : « صلاة الليل مثنى مثنى » يعني على ثنتين ثنتين [١] ، إلا أنه استثنى من ذلك الوتر ، إذا أوتر بثلاث أو خمس أو سبع أو تسع ، فإذا أوتر بثلاث فإن شاء سلم من الركعتين الأوليين وأتى بالثالثة وحدها ، وإن شاء جمع الثلاثة جميعًا بسلام واحد . وإن أوتر بخمس سردها كلها بسلام واحد وتشهد واحد ، وإن أوتر بسبع كذلك ، كلها بسلام واحد ، وإن أوتر بتسع كذلك ، إلا أنه في الثامنة يجلس ويتشهد ولا يسلم ، ثم يأتي بالتاسعة ويسلم . وإن أوتر بإحدى عشرة ، سلم من كل ركعتين ، كما فعل النبي ﷺ .

وفي حديث ابن عمر الأول والثاني دليل أن الوتر لا يكون بعد طلوع الفجر ، فإذا طلع الفجر انتهى وقت الوتر ، فإن غلبه النوم ولم يوتر قبل طلوع الفجر صلى من النهار ، لكن يصلي شفعًا ، فإن كان من عادته أن يوتر بثلاث صلى أربعًا ، وإن كان من عادته أن يوتر بخمس صلى ستًا ... وهلم جرًا .

فهذه الأحاديث في فضل صلاة الليل وفي كيفية صلاة الليل ، وأنها مثنى مثنى .

أما حديث أنس بن مالك ﷺ : ففيه دليل على أن رسول الله – صلى الله عليه وعلى آله وسلم – كان أحيانًا يُديمُ العمل الصالح ، حتى لا تراه إلا على هذا العمل ، كان لا تراه قائمًا إلا رأيته ، ولا تراه نائمًا إلا رأيته ، وكذلك في الصوم ، لا تراه صائمًا إلا رأيته ، ولا تراه مفطرًا إلا رأيته . يعني أنه – عليه الصلاة والسلام – يتبع ما هو أصلح وأنفع ، أحيانًا يديم الصوم ، وأحيانًا يديم الفطر ، وأحيانًا يديم النوم ؛

---

(١) هذا هو قول أكثر أهل العلم ، وبه قال أبو يوسف ومحمد ، وقال أبو حنيفة إن شئت ركعتين وإن شئت أربعًا وإن شئت ستًا وإن شئت ثمانيًا (انظر المغني مع الشرح الكبير ٧٩٦/١) .

لأنه - عليه الصلاة والسلام - يتبع ما هو الأفضل والأرضى لله ، وما هو الأريح لبدنه ؛ لأن الإنسان له حق على نفسه كما قال ﷺ لعبد الله بن عمرو بن العاص : « إن لنفسك عليك حقًّا » (١) . والله الموفق .

* * *

١١٧١ - وَعَنْ عَائِشَةَ رضي الله عنها أَنَّ رسول الله ﷺ كَانَ يُصَلِّي إِحْدَى عَشْرَةَ رَكْعَةً - تَعْنِي في اللَّيلِ - يَسْجُدُ السَّجْدَةَ مِنْ ذلكَ قَدْرَ مَا يَقْرَأُ أَحَدُكُمْ خَمْسِينَ آيَةً قَبْلَ أن يَرْفَعَ رَأْسَهُ ، وَيَرْكَعُ رَكْعَتَينِ قَبْلَ صَلاةِ الفَجْرِ ، ثمَّ يَضْطَجعُ عَلى شِقِّهِ الأَيمَنِ حَتَّى يَأْتِيَهُ المُنَادِي للصَّلاةِ (٢) . رواه البخاري .

١١٧٢ - وَعَنْهَا قَالَتْ : ما كانَ رسول الله ﷺ يَزِيدُ - في رَمضانَ وَلا في غَيرِهِ - عَلَى إحْدَى عَشَرَةَ رَكْعَةً : يُصَلِّي أَرْبعًا فَلا تَسْأَلْ عَنْ حُسْنِهِنَّ وَطولِهِنَّ ! ثمَّ يُصَلِّي أرْبعًا فَلَا تَسْأَلْ عَنْ حُسْنِهِنَّ وَطولِهِنَّ ! ثمَّ يُصَلِّي ثَلاثًا . فَقُلْتُ : يا رسُولَ اللَّهِ أَتَنامُ قَبْلَ أَن تُوتِرَ !؟ فقال : « يَا عائِشَةُ إنَّ عَينَيَّ تَنامانِ وَلا يَنامُ قلبي » (٣) . متفقٌ عليه .

١١٧٣ - وَعَنْها أنَّ النَّبيَّ ﷺ ، كانَ يَنامُ أَوَّلَ اللَّيلِ ، وَيقومُ آخِرَهُ فَيُصلي (٤) . متفقٌ عليه .

١١٧٤ - وَعَن ابنِ مَسْعُودٍ رضي الله عنه قالَ : صَلَّيتُ مَعَ النَّبيِّ ﷺ لَيلَةً ، فَلَمْ يَزلْ قائمًا حَتَّى هَمَمْتُ بِأَمْرِ سُوءٍ . قِيل : مَا هَمَمْتَ ؟ قالَ : هَمَمْتُ أَنْ أَجْلِسَ وَأَدَعَهُ (٥) . متفقٌ عليه .

١١٧٥ - وَعَنْ حُذيفَةَ رضي الله عنه قَالَ : صَلَّيتُ مَعَ النَّبيِّ ﷺ ذاتَ لَيلَةٍ فَافْتَتَحَ البَقَرَةَ ، فقلتُ : يَرْكَعُ عِنْدَ المَائَةِ ، ثمَّ مَضَى ، فقلتُ : يُصَلِّي بها في رَكْعَةٍ ، فَمَضى ، فَقُلْتُ : يرْكَعُ بها ، ثُمَّ افْتَتَحَ النِّسَاءَ فَقَرَأَها ، ثُمَّ افْتَتَحَ آلَ عِمْرانَ ، فَقرأَها ، يَقْرَأُ مُتَرَسِّلًا . إذا مَرَّ بآيةٍ فِيها تَسْبِيحٌ سَبَّحَ ، وَإذا مَرَّ بسُؤَال سَأَلَ ، وَإذا مَرَّ بتَعَوُّذٍ تَعَوَّذَ ، ثُمَّ رَكَعَ فَجَعَلَ يَقُولُ : « سُبْحَانَ رَبِّي العَظِيم » ، فَكانَ رُكُوعُهُ نَحْوًا مِنْ قِيَامِهِ ، ثمَّ قالَ : سَمِعَ اللَّهُ لمنْ حَمِدَه ، رَبَّنا لكَ الحَمْدُ ، ثُمَّ قامَ طَويلًا قَرِيبًا مِمَّا رَكَعَ ، ثُمَّ سَجَدَ فَقَالَ : « سُبْحَانَ رَبِّيَ الأَعْلى » ، فَكَانَ سُجُودُهُ قَرِيبًا مِنْ قِيَامِهِ (٦) . رواه مسلم .

الشرح

هذه الأحاديث في بيان صلاة النبي ﷺ في الليل . منها :

حديث عائشة الأول : أن النبي ﷺ « كان يصلي من الليل إحدى عشرة ركعة » وقد بين ذلك

(١) أخرجه أحمد في مسنده (٦/٢٦٨) ، والحاكم في المستدرك (٤/٦٠) .

(٢) أخرجه البخاري في التهجد (١١٢٣) ، والنسائي في قيام الليل (٣/٢٤٣) والإمام أحمد في المسند (٦/٨٨) .

(٣) أخرجه البخاري في التهجد (١١٤٧) ، ومسلم في صلاة المسافرين وقصرها (١٢٥) ، والبيهقي في السنن (٣/٦) ، قوله : « إن عيني تنامان ولا ينام قلبي » قال النووي : هذا من خصائص الأنبياء ، ولذا لا ينتقض وضوؤهم بالنوم .

(٤) أخرجه البخاري في التهجد (١١٤٦) ، ومسلم في صلاة المسافرين وقصرها (١٣٠) ، والإمام أحمد في المسند (٦/١٠٩) .

(٥) أخرجه البخاري في التهجد (١١٣٥) ، ومسلم في صلاة المسافرين وقصرها (٢٠٤) ، قوله « هممت » أي قصدت فعلَ أمرٍ .

(٦) أخرجه مسلم في صلاة المسافرين وقصرها (٢٠٣) .

في أحاديث أخرى ، أنه يسلم من ركعتين ، ثم ركعتين ، ثم ركعتين ، ثم ركعتين ، ثم ركعة ، يعني : يصلي إحدى عشرة ركعة ، يسلم من اثنتين ، ويوتر بواحدة [١] .

ثم كان ﷺ يصلي ركعتين قبل الغداة ، يعني إذا أذن الفجر صلى ركعتين ، وكان يخفف هاتين الركعتين حتى تقول عائشة أقرأ بأم القرآن ؟ لشدة تخفيفه لهما ، ثم يضطجع على جنبه الأيمن حتى يأتيه المؤذن يؤذنه بالصلاة ﷺ [٢] . ففي هذا : دليل على أن قيام الليل إحدى عشرة ركعة يوتر بواحدة ، ودليل على أنه ينبغي أن يصلي الإنسان الراتبة في بيته أفضل من المسجد ، لاسيما الإمام ، وفيه أيضًا أن الإمام لا يخرج من بيته إلا للإقامة ، يبقى في بيته حتى يأتي وقت الإقامة ، فيخرج إلى المسجد ويصلي ، هذا هو الأفضل ، أفضل من أن يتقدم الإمام ويصلي بالمسجد ، أما غير الإمام فينتظر الإمام ، والإمام ينتظره غيره ، فلذلك كان الأفضل في حقه أن يتأخر إلى قرب إقامة الصلاة ، إن لم يكن لهذا سبب أو في تقدمه مصلحة مثل أن يكون تقدمه يشجع المصلين فيتقدمون ، ولو تأخر لكسلوا ، فهذا أيضًا للمصلحة .

وفي حديثها الآخر: أن النبي ﷺ « كان لا يزيد في رمضان ولا غيره على إحدى عشرة ركعة» . لأنها سئلت : كيف كانت صلاة النبي ﷺ في رمضان ؟ قالت : « كان لا يزيد في رمضان ولا في غيره على إحدى عشرة ركعة ، يصلي أربعًا فلا تسأل عن حسنهن وطولهن ، ثم يصلي أربعًا فلا تسأل عن حسنهن وطولهن ، ثم يصلي ثلاثًا» . هذه أربع وأربع وثلاث : إحدى عشرة ، هذا هو السنة ؛ الأفضل ألا يزيد في صلاة الليل على إحدى عشرة ركعة ، أو ثلاثة عشرة ركعة .

وقولها رضي الله عنها : « يصلي أربعًا فلا تسأل عن حسنهن وطولهن» . قد ظن بعض الناس أنها أربع مجموعة بسلام واحد ، وهذا خطأ ؛ لأنه قد جاء مفصلًا مبينًا أنها أربع ركعات ، يسلم من كل ركعتين ، وأربع ركعات يسلم من كل ركعتين ، وثلاث ركعات ، فيكون قولها : « أربعًا لا تسأل عن حسنهن وطولهن ، ثم يصلي» ، يكون فيه دليل على أنه إذا صلى الأربع بسلام استراح قليلًا ، لقولها: « ثم يصلي» وثم للترتيب في المهلة ، ثم يصلي الأربع على ركعتين ، ثم يسلم .

وأنا أشير في هذه المسألة أنه لا ينبغي للإنسان ألا يتعجل في فهم النصوص ، بل يجمع شواردها [٣] حتى يضم بعضها إلى بعض ليتبين له الأمر ، فبعض الإخوان الذين بدؤوا يتعلمون ولا سيما علم الحديث ، صاروا يصلون بالناس أربع ركعات جميعًا ، وهذا غلط ، غلط على السنة ، وفهم خاطئ ؛ لأن النبي ﷺ سئل عن صلاة الليل فقال : « مثنى مثنى» فلا يمكن أن يصلي أربعًا ، ممكن أن يصلي خمسًا جميعًا ، وسبعًا جميعًا ، وتسعًا جميعًا .

أما حديث عبد الله بن مسعود رضي الله عنه: أنه صلى مع النبي ﷺ ذات ليلة ؛ لأن النبي ﷺ بابه مفتوح ،

---

(١) وذلك لما رواه البخاري في الأذان (٦١٩)، وأبو داود في الصلاة (١٣٣٥)، والنسائي في السنن (١/٢٤٨)، وأحمد في مسنده (٦/٢١٥).

(٢) وذلك لما رواه مسلم في صلاة المسافرين (٩١)، وأحمد في مسنده (٦/١٨١).

(٣) شواردها : أي متفرقها (انظر لسان العرب ٣/٢٢٣٠ مادة شرد).

بيته بيت للأمة ، للصحابة ، يأتي الواحد منهم يحب أن يصلي مع النبي ﷺ ، لا يقول له لا تصلي معي ، صل في بيتك ، لا بل يفتح له صدره ، ويدخل البيت ويصلي معه . وكان ابن مسعود ﷺ من الذين يخدمون الرسول ﷺ صاحب السواك ، ينظف سواك الرسول ، وصاحب الوساد وساده وصاحب النعل . فكان يدخل على الرسول ويصلي معه ، فدخل فصلى معه ذات ليلة لما دخل في الصلاة أطال النبي ﷺ القيام ، يقول : حتى هممت بأمر سوء ، قيل : بماذا هممت يا أبا عبد الرحمن؟ قال : هممت أن أجلس وأدعه . قال هذا وهو شاب ، والرسول ﷺ أسن منه ، ومع ذلك كان يقف ويطيل حتى يعجز الشباب عن قيامه - عليه الصلاة والسلام - وقد غفر اللَّه له ما تقدم من ذنبه وما تأخر ، لكنه يصلي ﷺ شكرًا للَّه ﷻ ، كما قال : « أفلا أحب أن أكون عبدًا شكورًا »(١) .

والمرة الثانية صلى معه حذيفة بن اليمان ﷺ ، فبدأ بسورة البقرة ، « فقلت : يركع عند المائة ، ولكنه مضى ، فقلت : يركع بها ، ولكنه أتمها ثم بدأ بسورة النساء ، فأتمها ، ثم بدأ بسورة آل عمران فأتمها » يرتل - عليه الصلاة والسلام - يرتل القرآن ، وهذه السور الثلاث تمثل خمسة أجزاء وربع . بالترتيل كم تستغرق من وقت ؟! والنبي ﷺ واقف لا يمر بآية رحمة إلا سأل ، ولا آية تسبيح إلا سبح ، ولا آية وعيد إلا تعوذ ، فيجمع بين القراءة والذكر والدعاء ﷺ ، مع هذا الطول العظيم ، ثم ركع ، فكيف كان ركوعه ؟! كان ركوعه نحوًا من قيامه ، أطال الركوع ، ثم رفع قائلًا : « سمع اللَّه لمن حمده » ، وكان قيامه نحوًا من ركوعه ، ثم سجد ، فكان سجوده نحوًا من قيامه ، وهكذا صلاته كانت متناسبة ، وإذا أطال في القراءة أطال في الركوع والسجود ، يقول في الركوع : « سبحان ربي العظيم » ، ويقول في السجود : « سبحان ربي الأعلى » ، ويقول أيضًا إضافة إلى ذلك : « سبحانك اللَّهم ربنا وبحمدك اللَّهم اغفر لي »(٢) . ويقول أيضًا : « سبوح قدوس رب الملائكة والروح »(٣) .

فالصلاة روضة من رياض العبادات ، فيها من كل زوج بهيج ، قرآن وذكر ودعاء وتسبيح وتكبير وتعوذ ، ولهذا كانت هي أفضل العبادات البدنية ، أفضل من الصيام ، وأفضل من الزكاة ، وأفضل من الحج ، وأفضل من كل العبادات ، إلا التوحيد ، أشهد أن لا إله إلا اللَّه وأشهد أن محمدًا رسول اللَّه . لأن هذا هو مفتاح الإسلام .

فالحاصل : أن هذه صفة صلاة النبي ﷺ من الليل ، فاحرص أخي المسلم ، أسأل اللَّه أن يعينني وإياك على اتباعه ظاهرًا وباطنًا ، وإن يتوفانا على ملته ويحشرنا في زمرته ، ويدخلنا معه جنات النعيم .

* * *

١١٧٦ - وَعَنْ جَابِرٍ ﷺ قَالَ : سُئِلَ رسول اللَّه ﷺ : أَيُّ الصَّلاةِ أَفْضَلُ ؟ قالَ : « طُولُ

---

(١) أخرجه البخاري في تفسير القرآن (٤٨٣٧) .

(٢) أخرجه البخاري في تفسير القرآن (٤٩٦٧) ، ومسلم في الصلاة (٢١٧) ، والنسائي في الصلاة (١٣٢/٢) ، وأبو داود في الصلاة (٨٧٧) .

(٣) أخرجه مسلم في الصلاة (٢٢٣) ، وأبو داود في الصلاة (٨٧٢) ، والنسائي في السنن (٢٢٤/٢) .

القُنُوتِ» (١) رواه مسلم . المرادُ بِالقنُوتِ : القِيامُ .

١١٧٧ - وَعَنْ عبدِ اللَّه بنِ عَمْرِو بن العَاصِ رضي الله عنهما أَنَّ رسول اللَّه ﷺ قالَ : «أَحَبُّ الصَّلاة إلى اللَّهِ صَلاةَ دَاوُدَ ، وَأَحَبُّ الصيامِ إلى اللَّهِ صِيَامُ دَاوُدَ ؛ كانَ يَنَامُ نِصْفَ اللَّيلِ، وَيقُومُ ثُلُثَهُ ، وَيَنَامُ سُدُسَهُ ، وَيصومُ يَوْمًا ، وَيفطِرُ يَوْمًا » (٢) متفقٌ عليه .

١١٧٨ - وَعَنْ جَابِرٍ رضي الله عنه قَالَ : سَمِعْتُ رسول اللَّه ﷺ يَقُولُ : « إنَّ في اللَّيلِ لَسَاعَةً لا يُوافِقُهَا رَجُلٌ مُسلمٌ يَسْأَلُ اللَّهَ تعالى خَيرًا مِنْ أَمْرِ الدُّنيا والآخِرَةِ ؛ إلا أَعْطَاهُ إيَّاهُ ، وَذلكَ كلَّ لَيلَةٍ » (٣) رواه مسلم .

الشرح

هذه الأحاديث ساقها الإمام النووي في باب (فضل صلاة الليل) ومنها أن النبي ﷺ سئل : «أي الصلاة أفضل » ، قال : «طول القنوت » والمراد بطول القنوت : أي طول الخشوع لله عز وجل والقيام والركوع والسجود .

وقد اختلف العلماء رحمهم اللَّه أيهما أفضل : طول القراءة مع تخفيف الركوع والسجود ، أو الأفضل تقصير القراءة والركوع والسجود ؛ بمعنى هل الأفضل أن تقصر الركعات مع كثرة العدد ، أو أن تطيل الركعات مع قلة العدد ؟ والصواب أن الأفضل في ذلك أن تكون الصلاة متناسبة ، وقد سبق معنا أن النبي ﷺ كان يجعل ركوعه نحوًا من قيامه ، وسجوده نحوًا من قيامه ، أي قريبًا منه ، وذكر رحمه الله من ذلك حديث عبد اللَّه بن عمرو بن العاص رضي الله عنهما أن النبي ﷺ قال : «أحب الصلاة إلى اللَّه صلاة داود ، وأحب الصيام إلى اللَّه صيام داود » أما صلاته ، يعني النافلة ، صلاة الليل ، فإنه كان ينام نصف الليل ويقوم ثلثه وينام سدسه ، فيقسم الليل ثلاثة أقسام ، النصف الأول للنوم ، ثم الثلث للقيام ، ثم السدس للنوم ؛ لأن هذا فيه راحة البدن ، فإن الإنسان إذا نام نصف الليل ؛ أخذ حظًا كبيرًا من النوم ، فإذا قام الثلث ثم نام السدس ؛ فإن التعب الذي حصل له في القيام يذهب بالنوم الذي في آخر الليل ، ولكن مع هذا ، إذا قام الإنسان في أي ساعة من الليل ؛ فإنه يرجى له أن ينال الثواب ، هذا الذي ذكره النبي ﷺ هو الأحب إلى اللَّه والأفضل ، لكن يكفي أن تقوم الثلث الأخير ، أو الثلث الأوسط ، أو النصف الأول ، حسب ما تيسر لك . قالت عائشة رضي الله عنها : من كل الليل أوتر النبي ﷺ من أول الليل ، ووسطه ، وآخره (٤) . فالأمر في هذا ولله الحمد واسع .

ثم ذكر الحديث الثالث : أن في الليل ساعة لا يوافقها عبد مسلم يدعو اللَّه تعالى بخير إلا أعطاه إياه وهذه الساعة غير معلومة بعينها ؛ يعني : اللَّه أعلم . لكن الرسول ﷺ أخبرنا بهذا من أجل أن

---

(١) أخرجه مسلم في صلاة المسافرين وقصرها (١٦٥) .

(٢) أخرجه البخاري بنحوه في أحاديث الأنبياء (٣٤٢٠) ، ومسلم في الصيام (١٨٩) ، والإمام أحمد في المسند (٢٠٦/٢) ، والبيهقي في السنن (٢٩٦/٤) ، قوله « أحب الصلاة إلى اللَّه » أي أكثرها ثوابًا عنده .

(٣) أخرجه مسلم في صلاة المسافرين وقصرها (١٦٦) ، والإمام أحمد في المسند (٣١٣/٣) .

(٤) أخرجه مسلم في صلاة المسافرين (٥٦) .

نجتهد ، وأن نتحرى قدر الله ﷻ ، وهذه الساعة كساعة يوم الجمعة مبهمة ، وإن كانت ساعة يوم الجمعة أرجي ما يكون إذا حضر الإمام يعني الخطيب إلى أن تقضى الصلاة . والله الموفق .

* * *

١١٧٩ - وَعَنْ أبي هُرَيرَةَ ﷺ أنَّ النَّبيَّ ﷺ قَالَ : « إذا قامَ أحَدُكم مِنَ اللَّيلِ ؛ فَليَفتَتِح الصَّلاةَ بِركْعَتَينِ خَفيفتينِ » (١) رواه مسلم .

١١٨٠ - وَعَنْ عَائِشةَ ﷺ قَالَتْ : كانَ رسول الله ﷺ إذا قامَ مِنَ اللَّيلِ افتَتحَ صَلاتَهُ بِرَكْعَتَينِ خفيفَتَينِ (٢) ، رواه مسلم .

١١٨١ - وَعَنْها ﷺ قالَتْ : كانَ رسول الله ﷺ إذا فَاتَتْهُ الصَّلاةُ من اللَّيل مِنْ وَجَعٍ أَو غَيرِهِ ، صَلَّى من النَّهارِ ثِنْتي عَشرَةَ رَكْعَةً (٣) . رواه مسلم .

١١٨٢ - وَعَنْ عُمَرَ بنِ الخَطَّابِ ﷺ قَالَ : قَالَ رسول الله ﷺ : « مَنْ نَامَ عَنْ حِزْبِهِ أَو عَنْ شَيءٍ مِنْهُ ، فَقَرَأَهُ فِيما بَيْنَ صَلاةِ الفَجْرِ وَصَلاةِ الظُّهرِ ، كُتِبَ لَهُ كأنَّما قَرَأَهُ مِنَ اللَّيلِ » (٤) رواه مسلم .

١١٨٣ - وعَنْ أَبي هُريرَةَ ﷺ قالَ : قَالَ رسول الله ﷺ : « رَحِمَ اللَّهُ رَجُلًا قَامَ مِنَ اللَّيلِ ، فَصَلَّى وَأَيقَظَ امْرَأَتَهُ ، فإنْ أَبَتْ نَضَحَ في وَجْهِهَا المَاءَ ، رَحِمَ اللَّه امْرَأَةً قَامَت مِنَ اللَّيلِ فَصَلَّتْ ، وَأَيقَظَتْ زَوجَهَا فَإن أَبى نَضَحَتْ في وَجْهِهِ المَاءَ » (٥) . رواهُ أبو داود بإسنادٍ صحيحٍ .

١١٨٤ - وَعَنْهُ وَعَنْ أبي سَعيدٍ ﷺ قَالا : قالَ رسول الله ﷺ : « إذا أَيقَظَ الرَّجُلُ أَهلَهُ مِنَ اللَّيلِ فَصَلَّيا - أَو صَلَّى - رَكعَتَينِ جَميعًا ، كُتِبَا في الذَّاكِرينَ وَالذَّاكِراتِ » (٦) . رواهُ أبو داود بإسنادٍ صحيح .

١١٨٥ - وعَنْ عَائِشةَ ﷺ أنَّ النَّبيَّ ﷺ قَالَ : « إذا نَعَسَ أَحَدُكُمْ في الصَّلاةِ ، فَلْيَرْقُدْ حتى

---

(١) هذا الحديث لم يقم الشارح ﷺ بشرحه ، والحديث أخرجه مسلم في صلاة المسافرين وقصرها (١٩٨) ، والبيهقي في السنن (٦/٣) ، قوله : « ليفتتح الصلاة » أي ليبدأ صلاته ، قوله : « بركعتين خفيفتين » وذلك حتى يذهب ما قد يبقى من كسل النوم فتشد الأعصاب وتقوى الأعضاء من فتورها ، فتتوجه بكل نشاط لصلاة الليل .

(٢) هذا الحديث لم يقم الشارح ﷺ بشرحه ، والحديث أخرجه مسلم في صلاة المسافرين وقصرها (١٩٧) ، والنسائي في السنن (٢١٢/٣) .

(٣) أخرجه مسلم في صلاة المسافرين وقصرها (١٤٠) ، والبيهقي في السنن (٤٨٥/٢) .

(٤) أخرجه مسلم في صلاة المسافرين وقصرها (١٤٢) ، والترمذي في الصلاة (٥٨١) ، وأبو داود في الصلاة (١٣١٣) ، قوله : « عن حزبه » هو ما يجعله الرجل على نفسه من قراءة أو صلاة .

(٥) أخرجه أبو داود في الصلاة (١٣٠٨) ، وابن ماجه في إقامة الصلاة (١٣٣٦) ، والإمام أحمد في المسند (٢٥٠/٢ ، ٤٣٦) ، قوله : « رحم اللّه رجلًا » خبر عن استحقاقه الرحمة واستيجابه لها ، أو دعاء له ومدح له بحسن ما فعل ، قوله : « قام من الليل » أي من بعض الليل ، قوله : « فإن أبت » أي امتنعت لغلبة النوم وكثرة الكسل ، قوله : « نضح » أي رش .

(٦) أخرجه أبو داود في الصلاة (١٣٠٩) ، والطبراني في الصغير (٨١/١) .

يَذهَبَ عَنْهُ النَّومُ ، فَإِنَّ أَحدَكُمْ إذا صَلَّى وَهو نَاعِسٌ ، لَعَلَّهُ يَذهَبُ يَستَغفِرُ فَيَسُبَّ نَفسَهُ »[1] متفقٌ عليه .

١١٨٦ - وَعَنْ أبي هُرَيرَةَ ﷺ قَالَ : قَالَ رسول اللَّه ﷺ : « إذا قَامَ أَحدُكُمْ ، مِنَ اللَّيلِ فَاستَعجَمَ القُرآنُ على لِسَانِهِ ، فَلَم يَدرِ ما يَقُولُ ، فَلْيَضْطَجعْ »[2] رواه مسلم .

الشرح

هذه بقية الأحاديث التي نقلها النووي رحمه الله في كتابه رياض الصالحين في : باب فضل صلاة الليل ، وتدل على أمور ، الأمر الأول : أن الإنسان إذا فاته قيام الليل ؛ فإنه يقضيه من النهار ، ولكنه لا يوتر ؛ لأن الوتر تختم به صلاة الليل ، وقد انتهت كما دل على ذلك حديث عائشة رضي الله عنها ، أن النبي ﷺ إذا غلبه وجع أو غيره ، يعني كالنوم فلم يصل في الليل ، صلى في النهار ثنتي عشرة ركعة ؛ لأنه - عليه الصلاة وسلام - كان يواظب في أكثر أحيانه على إحدى عشرة ركعة ، فكان يقضي ما هو الأكمل والأكثر ، يقضي ثنتي عشرة ركعة ، وعلى هذا فإذا كان من عادة الإنسان أنه يوتر بثلاث ولم يقم ؛ فإنه يقضي بالنهار أربعًا ، ولا يقضي ثلاثًا ، وإذا كان من عادته أن يوتر بخمس يقضي ستًّا وهلم جرًّا ، ولكن متى يقضي ؟ يقضيه فيما بين طلوع الشمس وارتفاعها إلى زوال الشمس ، كما يدل على ذلك حديث عمر رضي الله عنه فيمن فاته ورده أو حزبه في الليل ، أو شيء منه ، أنه يقضيه في النهار بالضحى ، فيقضي ذلك في الضحى ، فإن نسي ولم يتذكر إلا بعد الظهر قضاه بعد الظهر ، لعموم قول النبي ﷺ : « من نام عن صلاة أو نسيها فليصلها إذا ذكرها »[3] .

ومما دلت عليه هذه الأحاديث : أن الإنسان إذا غلبه النوم وجاءه النعاس وهو يصلي فلا يصلي ؛ وذلك لأنه ربما يذهب يستغفر لنفسه فيسب نفسه ؛ لأنه ينعس ، وأيضًا ربما يستعجم القرآن على لسانه ، فيتكلم بالكلمة من القرآن على غير وجهها فيحرف القرآن ، فأنت إذا كان من عادتك أن تصلي بالليل وجاءك النوم ؛ فلا تجهد نفسك ، نم حتى يزول عنك النعاس ، ثم استأنف القيام ، فإن طلع الفجر فاقض الوتر في الضحى ولكن شفعًا .

ومما تدل عليه هذه الأحاديث : أن ينبغي للإنسان إذا كان له أهل وقام من الليل أن يوقظ أهله ، لكن حسب نشاط الأهل ، ولهذا كان الرسول ﷺ يصلي من الليل فإذا لم يبق إلا الوتر أيقظ عائشة فأوترت[4] ، يعني ليس من اللازم أن توقظ أهلك معك ، قد يكون أهلك ليسوا مثلك في النشاط البدني أو في النشاط النفسي ، فلا توقظهم معك ، ليس بلازم إلا إذا رأيت أنهم يرغبون ، ولكن لا

---

(١) أخرجه مسلم في صلاة المسافرين وقصرها بلفظه (٢٢٢) ، والبخاري في الوضوء بنحوه (٢١٢) ، وأبو داود في الصلاة (١٣١٠) .

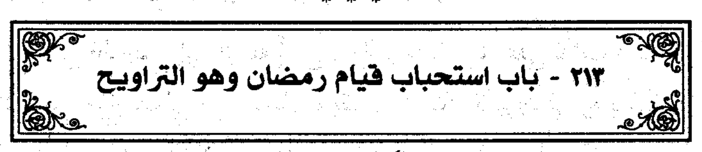
(٢) أخرجه مسلم في صلاة المسافرين وقصرها (٢٢٣) ، والإمام أحمد في المسند (٣١٨/٢) ، وأبو داود في الصلاة (١٣١١) ، قوله : « فاستعجم القرآن » أي التبس عليه ولم ينطلق به لسانه لغلبة النعاس .

(٣) أخرجه أبو داود في الصلاة (٤٤٢) ، وابن ماجه في السنن (٦٩٥ ، ٦٩٦) .

(٤) انظر الحديث في مسلم في صلاة المسافرين (١٣٤) .

تنسهم من آخر الليل ، يقومون ولو للوتر ، كما كان رسول الله ﷺ يفعل . نسأل الله أن يجعلنا وإياكم ممن يقوم الليل ويصوم النهار ويعبد ربه حق عبادته .

* * *



٢١٣ - باب استحباب قيام رمضان وهو التراويح

١١٨٧ - عَنْ أبي هُرَيْرَةَ ﷺ أنَّ رسول الله ﷺ قَالَ : « مَنْ قامَ رَمَضَانَ إيمانًا واحْتِسابًا : غُفِرَ لَهُ مَا تَقَدَّمَ مِنْ ذَنْبِهِ » (١) متفقٌ عليه .

١١٨٨ - وَعَنْهُ ﷺ قَالَ : كانَ رسول الله ﷺ يُرَغِّبُ في قِيَامِ رَمَضَانَ مِنْ غَيرِ أنْ يَأْمُرَهُمْ فِيهِ بِعَزِيمَة ، فيقولُ : « مَنْ قامَ رَمَضَانَ إيمانًا واحْتِسابًا ؛ غُفِرَ لَهُ مَا تَقَدَّمَ مِنْ ذَنْبِهِ » (٢) رواه مسلم .

الشرح

سميت تراويح لأن السلف الصالح ﷺ كانوا يقومون رمضان ويطيلون القيام والركوع والسجود ، فإذا صلوا أربع ركعات - يعني بتسليمتين - استراحوا ، وإذا صلوا أربعًا استراحوا ، ثم يصلون ثلاثًا ، وهذا يؤيده حديث عائشة ﷺ السابق ، كان يصلي أربعًا فلا تسأل عن حسنهن وطولهن ، ثم يصلي أربعًا فلا تسأل عن حسنهن وطولهن ، ثم يصلي ثلاثًا .

فكان النبي ﷺ يرغب في قيام رمضان من غير أن يأمر فيه بعزيمة ، يعني ما يلزم لكنه يرغب ، يقول : « من قام رمضان إيمانًا واحتسابًا غفر له ما تقدم من ذنبه » ، وقام النبي ﷺ بأصحابه ثلاث ليالٍ في رمضان ، يصلي بهم جماعة ، ثم تأخر وقال : « إني خشيت أن تفرض عليكم فتعجزوا عنها » (٣) فتركه ، وبقي الناس يأتون إلى المسجد يصلون الرجلين والثلاثة كل يصلي مع صاحبه ، فخرج عمر ذات ليلة فوجدهم يصلون أوزاعًا (٤) ، فرأى ﷺ بثاقب رأيه أن يجمعهم على إمام واحد ، فأمر أُبيَّ بن كعب ﷺ وآخر معه أن يصليا بالناس إحدى عشرة ركعة (٥) ، فاجتمع الناس على إمام واحد في التراويح ، وبقي المسلمون على هذا إلى يومنا هذا ، لكن اختلف العلماء في عدد ركعات التراويح ، فمنهم من قال : إحدى عشرة ركعة ، ومنهم من قال : ثلاث عشرة ركعة ، ومنهم من قال : ثلاث وعشرون ركعة ، ومنهم من قال أكثر من ذلك ، والأمر في هذا واسع ؛ لأن السلف

---

(١) أخرجه البخاري في الصوم (٢٠٠٨) ، ومسلم في صلاة المسافرين وقصرها (١٧٣) ، وأبو داود في الصوم (١٣٧١) ، قوله : « من قام رمضان » المقصود بالقيام : صلاة التراويح ، قوله : « إيمانًا واحتسابًا » أي تصديقًا بأنه حق معتقدًا فضيلته ، يريد بذلك وجه الله تعالى وحده .

(٢) أخرجه مسلم في صلاة المسافرين وقصرها (١٧٤) ، والإمام أحمد في المسند (٢/٢٨١) ، والترمذي في الصوم (٨٠٨) .

(٣) أخرجه البخاري في الأذان (٧٢٩) بنحوه .

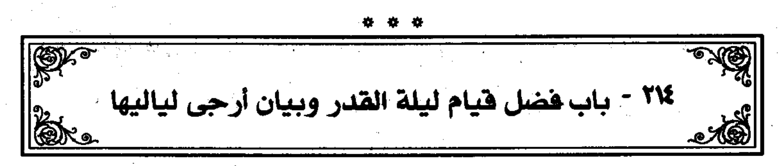
(٤) قوله : « أوزاعًا » أي متفردين .

(٥) انظر الحديث في سنن أبي داود في الصلاة (١٣٧٤) ، وأحمد في مسنده (٦/٢٦٧) .

الذين اختلفوا في هذا لم ينكر بعضهم على بعض ، فالأمر في هذا واسع ، يعني نحن لا ننكر على من زاد على إحدى عشرة ركعة ، ولا على من زاد على ثلاث وعشرين ركعة . ونقول : صل ما شئت ما دامت جماعة المسجد قد رضوا بذلك ، ولم ينكر أحد .

أما إذا اختلف الناس فالرجوع إلى السنة أولى ، والسنة ألا يزيد على ثلاث عشرة ركعة ؛ لأن عائشة سئلت كيف كان النبي ﷺ يصلي في رمضان ، فقالت : كان لا يزيد في رمضان ولا غيره على إحدى عشرة ركعة (١) . فأما مع عدم الخلاف ، فإنه يصلي ثلاثًا وعشرين أو أكثر ، ما دام الناس لم يقولوا خفف ، فإذا قالوا خفف ؛ فلا يزيد على إحدى عشرة ، أو ثلاث عشرة ركعة . والله الموفق .

* * *



٢١٤ - باب فضل قيام ليلة القدر وبيان أرجى لياليها

قَالَ اللَّه تعالى : ﴿ إِنَّآ أَنزَلْنَٰهُ فِى لَيْلَةِ ٱلْقَدْرِ ﴾ [القدر : ١] إلى آخر السورة وقال تعالى : ﴿ إِنَّآ أَنزَلْنَٰهُ فِى لَيْلَةٍ مُّبَٰرَكَةٍ ... ﴾ [الدخان : ٣] .

١١٨٩ - وَعَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ ﷺ عن النبي ﷺ قَالَ : « مَنْ قامَ لَيلَةَ القَدْرِ إيمانًا وَاحْتِسابًا ؛ غُفِرَ لَهُ مَا تَقَدَّمَ مِنْ ذَنْبِهِ » (٢) متفقٌ عليه .

١١٩٠ - وَعَنِ ابنِ عُمَرَ ﷺ أَنَّ رِجَالًا مِنْ أَصْحَابِ النَّبيِّ ﷺ أُرُوا لَيلَةَ القَدْرِ في المَنَامِ في السَّبْعِ الأَوَاخِرِ ، فَقَالَ رسول اللَّه ﷺ : « أَرَى رُؤْيَاكُمْ قَدْ تَوَاطَأَتْ في السَّبْعِ الأَوَاخِرِ ، فَمَنْ كان مُتَحَرِّيهَا ؛ فَلْيَتَحَرَّهَا في السَّبْعِ الأَوَاخِرِ » (٣) متفقٌ عليه .

١١٩١ - وَعَنْ عَائِشَةَ ﷺ قَالَتْ : كانَ رسول اللَّه ﷺ ، يُجاوِرُ في العَشْرِ الأَوَاخِرِ مِنْ رَمَضَانَ ، ويقُولُ : « تَحَرَّوا لَيلَةَ القَدرْ في العَشْرِ الأَوَاخِرِ مِنْ رَمَضَانَ » (٤) متفقٌ عليه .

١١٩٢ - وَعَنْهَا ﷺ أَنَّ رسول اللَّه ﷺ ، قَالَ : « تَحَرَّوا لَيلَةَ القَدْرِ في الوَتْرِ مِنَ العَشْرِ الأَواخِرِ مِنْ رَمَضَانَ » (٥) رواه البخاري .

---

(١) أخرجه البخاري في التهجد (١١) ، ومسلم في صلاة المسافرين (١٢٥) .

(٢) أخرجه البخاري في الصوم (١٩٠١) ، ومسلم في صلاة المسافرين وقصرها (١٧٥) ، والإمام أحمد في المسند (٢٤١/٢ ، ٣٤٧) ، والنسائي في السنن (١٥٧/٤) .

(٣) أخرجه البخاري في الصوم (٢٠١٥) ، ومسلم في الصيام (٢٠٥) ، والإمام أحمد في المسند (٥/٢) ، والبيهقي في السنن (٣٠٨/٤) ، قوله : « أرو ليلة القدر » أي أراهم الله ليلة القدر وأعلمهم بها ، قوله : « تواطأت » توافقت ، قوله : « فمن كان متحريها » أي طالبًا وقاصدًا لها .

(٤) أخرجه البخاري في الصوم (٢٠٢٠) ، ومسلم بنحوه في الصيام (٢١٩) ، والترمذي في الصوم (٧٩٢) ، قوله : « يجاور » أي يعتكف .

(٥) أخرجه البخاري في الصوم (٢٠١٧) ، ومسلم في الصيام (٢١٩) ، والإمام أحمد في المسند (٥٦/٦) .

١١٩٣ - وَعَنْهَا رَضِيَ اللهُ عَنْهَا قَالَتْ : كَانَ رسول الله ﷺ إذا دَخَلَ العَشْرُ الأَوَاخِرُ مِنْ رَمَضَانَ ، أَحْيا اللَيلَ ، وَأَيقَظَ أَهْلَهُ ، وَجَدَّ ، وَشَدَّ المِئزرَ [١] . مُتفقٌ عليه .

١١٩٤ - وَعَنْهَا قَالَتْ : كَانَ رسول الله ﷺ ، يَجتهِدُ في رَمضانَ مَا لا يَجْتَهِدُ في غَيرِهِ ، وفي العَشْرِ الأَوَاخِرِ منه ، مَا لا يَجْتَهِدُ في غَيرِهِ [٢] . رواه مسلم .

١١٩٥ - وَعَنْهَا قَالَتْ : قُلْتُ : يا رَسُولَ اللهِ أَرَأَيتَ إن عَلِمْتُ أيَّ لَيلَةٍ لَيلَةُ القَدْرِ مَا أَقُولُ فيها ؟ قَالَ : « قولي : اللَّهُمَّ إنَّكَ عَفُوٌّ تُحِبُّ العَفْوَ فاعْفُ عنِّي » [٣] رواه التِرْمذيُّ وقالَ : حديثٌ حسنٌ صحيحٌ .

الشرح

ذكر المؤلف رحمه الله : (باب فضل ليلة القدر) .

وليلة القدر سميت بذلك لوجهين :

الوجه الأول : أنه يقدر فيها ما يكون في السنة من أعمال بني آدم وغيرها ، ودليل ذلك قوله تعالى : ﴿ إِنَّآ أَنزَلْنَٰهُ فِى لَيْلَةٍ مُّبَٰرَكَةٍ ۚ إِنَّا كُنَّا مُنذِرِينَ ۝ فِيهَا يُفْرَقُ كُلُّ أَمْرٍ حَكِيمٍ ﴾ يعني : يفصل ويبين .

والوجه الثاني : أن ذلك الشرف ، أي ليلة القدر ، أي : ليلة ذات الشرف ؛ لأن قدرها عظيم ، ويدل لذلك قوله تعالى : ﴿ إِنَّآ أَنزَلْنَٰهُ فِى لَيْلَةِ ٱلْقَدْرِ ۝ وَمَآ أَدْرَىٰكَ مَا لَيْلَةُ ٱلْقَدْرِ ۝ لَيْلَةُ ٱلْقَدْرِ خَيْرٌ مِّنْ أَلْفِ شَهْرٍ ... ﴾ هذه الليلة خُصَّت بفضلها هذه الأمة ، فكانت لها ، ويذكر أن النبي ﷺ عرضت عليه أعمار أمته فتقاصرها ، فأعطي ليلة القدر [٤] وجعلت هذه الليلة خيرًا من ألف شهر ، فإذا كان الإنسان له عشرون سنة ، صار له عشرون ألف سنة في ليلة القدر ، وهذا من فضل الله ﷻ على هذه الأمة . والله تعالى خص هذه الأمة وخص نبيها ﷺ بخصائص لم تكن لمن سبقهم ، فالحمد الله رب العالمين .

ثم ذكر المؤلف أحاديث وردت في ذلك ، وأنها - أي ليلة القدر - في رمضان ، وأنها في العشر الأواخر منه ، وأنها في أوتاره آكد ، وأنها في ليلة سبع وعشرين آكد ، لكن هي تنتقل في العشر ، يعني قد تكون هذه السنة ليلة إحدى وعشرين ، والسنة الثانية ليلة ثلاث وعشرين ، والثالثة ليلة خمس

---

(١) أخرجه البخاري في الصوم بنحوه (٢٠٢٤) : ومسلم في الاعتكاف (٧) : بلفظ « دخل العشر أحيا » وكذلك أبو داود في الصوم (١٣٧٦) ، قوله : « أحيا الليل » أي قامه بأنواع العبادات من الصلاة والذكر ، قوله : « وأيقظ أهله» أي للصلاة ، وقوله : « وشد المئزر » كناية عن اجتهاده في العبادة زيادة على عادته في غيره من الشهور .

(٢) أخرجه مسلم في الاعتكاف (٨) ، والإمام أحمد في المسند (٢٥٦/٦) ، والترمذي في الصوم (٧٩٦) ، كلهم بلفظ « العشر الأواخر » .

(٣) أخرجه الترمذي في الدعوات (٣٥٠٨) ، والإمام أحمد في المسند (١٧١/٦ ، ١٨٢) ، قوله « أرأيت » أي أعلمني أو أخبرني .

(٤) وذلك لما رواه مالك في الموطأ (الاعتكاف ١٥) ، وقال ابن عبد البر : هذا الحديث من الأحاديث الأربعة التي لا توجد في غير الموطأ .

وعشرين ، أو سبع وعشرين ، أو تسع وعشرين ، أو أربع وعشرين أو ست وعشرين ، أو اثنتين وعشرين تتنقل لأنها ليست ليلة معينة دائمًا ، لكن أرجى ما تكون ليلة سبع وعشرين ثم الأوتار ، وأرجى العشر الأواخر السبع الأواخر منها ، لأن جماعة من الصحابة أُروا ليلة القدر في السبع الأواخر ، فقال ﷺ : « أرى رؤياكم قد تواطأت في السبع الأواخر ، فمن كان متحريها ، فليتحرها في السبع الأواخر » . وهذا يحتمل أنه كل عام ، أو أنه تلك السنة فقط ، وعلى كل حال فهي في العشر الأواخر من رمضان .

وذكر المؤلف رحمه الله أحاديث عن عائشة رضي الله عنها ، مما يدل على فضل هذه المرأة ، وأنها حفظت لأمة محمد ﷺ من سنته ما لم تحفظه امرأة أخرى من النساء ، فهي رضي الله عنها أكثر النساء حديثًا عن رسول الله ﷺ . حفظت من شريعة الله وسنة رسوله ما لم تحفظه امرأة سواها ، فجزاها الله عن أمة محمدًا خيرًا .

تقول عائشة للرسول ﷺ : أرأيت إن وافقت أو علمت ، أي ليلة ليلة القدر ، ما أقول فيها ، قال : « قولي : اللَّهم إنك عفو تحب العفو فاعف عني » .

والعفو : هو التجاوز عن سيئات عباده ، وهو ﷻ عفو قدير ، يعني يعفو مع المقدرة ، ليس كبني آدم إذا عجز عن الشيء سامح ، إنما يعفو مع القدرة جل وعلا ، وهذا هو كمال العفو ، وهو سبحانه وتعالى يحب العافين عن الناس ﴿ فَمَنْ عَفَا وَأَصْلَحَ فَأَجْرُهُۥ عَلَى ٱللَّهِ ﴾ [الشورى : ٤٠] ، وهو سبحانه يحب الذين يأخذون من الناس العفو ، بل أمر بذلك فقال : ﴿ خُذِ ٱلْعَفْوَ وَأْمُرْ بِٱلْعُرْفِ ﴾ قال العلماء : معنى العفو يعني خذ ما عفي من الناس ، يعني ما سهل منه ، خذه ولا تشد الحبل ، فخذ العفو واترك ما وراء ذلك ، وهذا من آداب القرآن أن الإنسان يكون واسع الصدر لبني آدم يأخذ العفو ، فالشاهد أن أفضل ما تدعو به أن تقول : « اللَّهم إنك عفو تحب العفو فاعف عني » . واللَّه الموفق .

* * *

٢١٥ - باب فضل السواك وخصال الفطرة

١١٩٦ - عَنْ أبي هُريرَةَ رضي الله عنه أنَّ رسول اللَّه ﷺ قَالَ : « لَولا أَنْ أَشُقَّ عَلى أُمَّتي - أو عَلى النَّاسِ - لأَمَرْتُهُمْ بِالسِّواكِ مَعَ كلِّ صَلاةٍ » [١] متفقٌ عليهِ .

١١٩٧ - وَعَنْ حُذيفَةَ رضي الله عنه قالَ : كانَ رسول اللَّه ﷺ إذا قَامَ مِنَ اللَّيلِ يَشُوصُ فَاهُ بالسِّوَاكِ [٢] . متفقٌ عليه . « الشَّوصُ » : الدَّلْكُ .

١١٩٨ - وَعَنْ عَائشةَ رضي الله عنها قَالَتْ : كنَّا نُعِدُّ لرَسُولِ اللَّهِ ﷺ سِوَاكَهُ وَطَهُورَهُ ، فَيَبْعَثُهُ اللَّه ما

---

(١) أخرجه البخاري في الجمعة (٨٨٧) ، ومسلم في الطهارة (٢٥٢) ، وأبو داود في الطهارة (٤٧) ، والإمام أحمد في المسند (٢٢١/١ ، ٣٦٦) .

(٢) أخرجه البخاري في الوضوء (٢٤٥) ، ومسلم في الطهارة (٢٤٧) ، وأبو داود في الطهارة (٥٥) ، والإمام أحمد في المسند (٣٨٢/٥) .

شَاءَ أَن يَبعَثَهُ مِنَ اللَّيلِ ، فَيتسَوَّكُ ، وَيَتَوَضَّأُ وَيُصَلِّي [١] . رواه مسلم .

١١٩٩ - وَعَنْ أنسٍ ﷺ قَالَ : قَالَ رسول اللَّه ﷺ : « أَكْثرتُ عَليكُم في السِّوَاكِ » [٢] . رَوَاهُ البُخاريُّ .

١٢٠٠ - وَعَنْ شريحِ بنِ هانئٍ قالَ : قُلْتُ لِعَائِشَةَ رضي الله عنها : بِأَيِّ شيءٍ كانَ يَبْدأُ النَّبيُّ ﷺ إذا دَخَلَ بَيْتَهُ ؟ . قَالَتْ : بِالسِّوَاكِ [٣] ، رَوَاهُ مُسْلِمٌ .

١٢٠١ - وَعَنْ أَبي مُوسَى الأشعَرِيِّ ﷺ قَالَ : دَخَلتُ عَلى النَّبيِّ ﷺ وَطَرَفُ السِّواكِ على لِسانِهِ [٤] . متفقٌ عليه ، وهذا لَفْظُ مُسلِمٍ .

١٢٠٢ - وَعَنْ عَائِشَةَ رضي الله عنها أَنَّ النَّبيَّ ﷺ ، قَالَ : « السِّوَاكُ مَطْهَرَةٌ للفَمِ ، مَرْضَاةٌ للرَّبِّ » [٥] رَوَاهُ النَّسائيُّ ، وابنُ خُزَيمَةَ في صحيحِهِ بأسانيدَ صحيحةٍ .

الشرح

السواك هو : التسوك ، وهو دلك الأسنان واللثة واللسان بعود الأراك ، هذا السواك المعروف هو عود الأراك ، ويحصل الفضل بعود الأراك أو بغيره من كل عود يشابهه ، والصحيح أنه يحصل أيضًا بالخرقة أو بالإصبع لكن العود أفضل .

والسواك ذكر النبي ﷺ فيه فائدتين عظيمتين .

[الفائدة الأولى] كما في حديث عائشة رضي الله عنها أن النبي ﷺ قال : « السواك مطهرة للفم ، مرضاة للرب » « مطهرة للفم » يعني : يطهر الفم من الأوساخ والأنتان وغير ذلك مما يضر ، وقوله : « للفم » يشمل كل الفم ، الأسنان واللثة واللسان ، كما في حديث أبي موسى أنه دخل على النبي ﷺ وطرف السواك على لسانه .

[الفائدة الثانية] : « مرضاة للرب » ، أي أنه من أسباب رضا اللَّه عن العبد أن يتسوك .

وللسواك مواضع يتأكد فيها ، وإلا فهو مسنون كلَ وقت ، لكن يتأكد في مواضع معينة منها :

أولًا : إذا قام من النوم ، فإنه يُسن له أن يستاك لحديث حذيفة ﷺ « أن النبي ﷺ كان إذا قام من الليل يشوص فاه بالسواك » ، يعني يتسوك ، وكذا يؤيده حديث عائشة أنهم كانوا يعدون له سواكه

---

(١) أخرجه مسلم في صلاة المسافرين وقصرها (١٣٩) ، والنسائي في السنن (٣/٢٤١) ، قوله « فيبعثه اللَّه » أي يوقظه ؛ لأن النوم أخو الموت .

(٢) أخرجه البخاري في الجمعة (٨٨٨) .

(٣) أخرجه مسلم في الطهارة (٤٣) .

(٤) أخرجه مسلم في الطهارة (٤٥) ، بلفظه ، والبخاري في الوضوء بنحوه (٢٤٤) .

(٥) أخرجه النسائي في السنن (١/١٠) ، وابن ماجه في الطهارة (٢٨٩) بنحوه ، والإمام أحمد في المسند (١/٣ ، ١٠) ، قوله : « مطهرة للفم مرضاة للرب » أي أنه يحمل الرجل على طهارة الفم ورضا اللَّه ﷻ .

ووضوءه فإذا قام تسوك وتوضأ وصلى ما شاء اللّه ، ويسن عند القيام من النوم بالليل أو بالنهار ؛ لأن الفم يتغير فيسن أن يتسوك .

ثانيًا : كذلك يسن إذا دخل الإنسان بيته أول ما يدخل يتسوك ؛ لأن عائشة سئلت : أي شيء يبدأ به الرسول ﷺ إذا دخل بيته قالت : السواك .

ثالثًا : يتسوك عند الصلاة ، سواء ذهب ليصلي فريضة أو نافلة ، صلاة ذات ركوع وسجود ، أو صلاة جنازة ؛ فإنه يسن أن يتسوك ؛ لأن النبي ﷺ قال : « لولا أن أشق على أمتي لأمرتهم بالسواك عند كل صلاة » يُسن السواك أيضًا بتأكد عند الوضوء ، ومحله عند المضمضة أو قبل أو بعد ، لكنه عند الوضوء كما جاء ذلك عن النبي ﷺ .

وألحق العلماء - رحمهم اللّه - ما إذا تغير فمه بأكل أو شرب لبن أو نحوه مما له دسم ، فإنه يُسن أن يتسوك ؛ لأنه يطهر الفم . وعلى كل حال فالسواك سنة ويتأكد في مواضع ، ولكنه من حيث السُّنية مشروع كل وقت حتى للصائم بعد الزوال ؛ فإنه كغيره يُسن له أن يتسوك ، وأما من كره ذلك من أهل العلم فقوله لا دليل عليه ، والصحيح أن الصائم يتسوك أول النهار ، واللّه الموفق .

* * *

١٢٠٣ - وَعَنْ أَبي هُرَيرَةَ ﷺ عن النبي ، ﷺ ، قَالَ : « الفِطَرةُ خَمْسٌ » أَو « خَمْسٌ مِنَ الفِطْرةِ : الخِتان ، وَالاسْتِحْدَادُ ، وَتقليمُ الأَظفَارِ ، ونَتْفُ الإبطِ ، وَقَصُّ الشَّارِبِ » [١] متفقٌ عليه .

« الاسْتِحْدَادُ » : حَلْقُ العَانَةِ ، وَهُوَ حَلقُ الشعْرِ الذي حَولَ الفرْجِ .

الشرح

ساق المؤلف رحمه الله أحاديث خصال الفطرة في : باب فضل السواك ، وخصال الفطرة .

والفطرة : يعني التي فطر الخلق على استحسانها وأنها من الخير ، والمراد بذلك الفِطَرُ السليمة ؛ لأن الفِطَرَ المنحرفة لا عبرة بها لقول النبي ﷺ : « كل مولود يولد على الفطرة ، فأبواه يهودانه ، أو ينصرانه ، أو يمجسانه » [٢] .

وذكر منها حديث أبي هريرة ﷺ : أن النبي ﷺ قال : « الفطرة خمس » ، وفي لفظ : « خمس من الفطرة » فعلى اللفظ الأول يكون المعنى : أن الفطرة هي هذه الخمس ، وعلى الثاني يكون المعنى : أن هذه الخمس من الفطرة ، وهناك أشياء أخرى غيرُها من الفطرة ، وهذا اللفظ أقرب إلى الواقع ؛ لأن الخمس التي ذكرت في حديث أبي هريرة يوجد شيء من الفطرة غيرها فيكون الأقرب أن لفظ

(١) أخرجه البخاري في اللباس (٥٨٨٩) ، ومسلم في الطهارة (٤٩) ، والإمام أحمد في المسند (٢/١٢٩) ، والترمذي في الأدب (٢٧٥٦) ، قوله : « الفطرة » أي السنة ، قوله « الختان » هو في الذكر : قطع جميع الجلدة التي تغطي الحشفة حتى تنكشف . وفي الأنثى : قطع أدنى جزء من الجلدة التي في أعلى الفرج ، قوله : « تقليم الأظفار » أي قصها وقطعها .

(٢) أخرجه البخاري في الجنائز (١٣٨٥) ، وأبو داود في السنن (٤/٤٧) ، وأحمد في مسنده (٢/٢٧٥) .

الحديث : خمس من الفطرة .

أما على اللفظ الأول - على الحصر - فقد يراد بذلك الفطرة تامة ، وأما الأخرى فتكون من الفطرة التي هي من مكملات الفطرة .

أولًا : الختان : الذي يسمى عند الناس الطهارة وهو للرجال والنساء ، أما الرجال فختانهم واجب ، وأما النساء فختانهن سنة ، وليس بواجب ، وذلك أن الرجل إذا لم يختن وبقيت الجلدة التي فوق الحشفة فإنه يحتقن بها البول ، وتكون سببًا في النجاسة ؛ لأنه إذا احتقن بها البول ثم حصل ضغط عليها ، خرج البول الذي صار بينها وبين الحشفة فتلوثت الثياب وتنجست ، ثم هي أيضًا عند الكبر ، وعندما يصل الإنسان إلى حد الزواج يكون هناك مشقة شديدة عند الجماع ، فلذلك كان من الفطرة أن تُقص هذه الجلدة ، ولهذا كان كثير من الكفار الآن يختتنون لا لأجل الطهارة والنظافة لأنهم نجس ، لكنهم يختتنون من أجل التلذذ عند الجماع وعدم المشقة ، هذه واحدة .

ومتى يكون الختان ؟ يكون الختان من اليوم السابع فما بعده ، وكلما كان في الصغر فهو أفضل لأن ختان الصغير لا يكون فيه إلا الألم الجسمي دون الألم القلبي ، أما الكبير ، لو ختنا من له عشر سنوات مثلًا ، فإنه يكون فيه ألم قلبي وجسمي ، ثم إن نمو اللحم ونبات اللحم وسرعة البرء في الصغار أكثر ، لهذا قال العلماء : إن الختان في زمن الصغر أفضل ، وهو كذلك .

الثاني : الاستحداد : يعني حلق العانة ، والعانة هي الشعر الخشن الذي ينبت حول القبل ، وهو من علامات البلوغ ، فمن الفطرة أن يحلق الإنسان هذا الشعر ؛ لأنه إذا طال فربما يتلوث بالنجاسة من أسفل أو من القبل ويحصل في ذلك وسخ وقذر ، ولأنه مضر وإن كان بعض الناس يُبقي العانة ويجعلها تزداد وتطول ، نسأل اللَّه السلامة .

الثالث : قص الشارب : وهو الشعر النابت فوق الشفة العليا ، وحدُّه : الشفة ، كل ما طال على الشفة العليا فهو شارب ، فهذا يحف ؛ لأن بقاءه يكون فيه تلويث بما يخرج من الأنف من الأذى ، ثم عند الشرب أيضًا يباشر الشعر المتلوثُ الماءَ فيقذره ، وربما يحمل ميكروبات مضرة ، وعلى كل حال فهو من السنة ، أهم شيء أنه من السنة والتقرب إلى اللَّه عَجَلَّ إذا حففته .

الرابع : قص الأظافر : يعني تقليمها ، والمراد بذلك أظافر اليدين والرجلين ولا ينبغي أن نقص حتى يصل إلى اللحم ؛ لأن هذا يضر الإنسان وربما يحصل فيه خُرَّاج أو ما أشبه ذلك ، لكن نقصهما قصًّا معتدلًا .

الخامس : نتف الإبط : إذا كان فيه شعر فإنها تنتف ولا تقص ولا تحلق ، بل نتفها أولى ؛ لأن النتف يزيلها بالكلية ويضعف أصولها حتى لا تنبت فيما بعد ، وهذا أمر مطلوب شرعًا .

هذه خمسة أشياء : الختان ، الاستحداد ، قص الشارب ، تقليم الأظافر ، نتف الإبط . أما الختان : فيفعل مرة واحدة وينتهي أمره ، وهنا أنبه على مسألة ، وهي أن بعض الناس قد يُولَد مختونًا ، ليس له كلفة ، تجد الحشفة بارزة ظاهرة من حين أن يولد ، وشهدنا ذلك بأعيننا ، فهذا لا يختن ، ما بقي

شيء يختن من أجله .

أما الأربع الباقية : الاستحداد ، قص الشارب ، تقليم الأظافر ، نتف الإبط ، فإنها لا تترك فوق أربعين يومًا ؛ لأن النبي ﷺ وَقّتَ لأمته بأن لا تترك هذه الأشياء فوق أربعين يومًا [١] ، فلها مدة محدودة لا تتجاوزها . وأحسن ما يكون في ضبط الأربعين أن تجعل وقتًا معينًا ، مثلًا تقول أول جمعة من كل شهر أقوم بعملي هذا ، حتى لا تنسى ؛ لأنه أحيانًا ينسى الإنسان وربما يمضي أربعون يومًا ، وخمسون يومًا وما يذكر ، فإذا جعلت شيئًا معينًا بأن تقول مثلًا : أول جمعة من كل شهر أزيل هذه الأشياء الأربعة ، علمت الوقت ، ولكن هذا ليس بسنة ، إنما هو من أجل ضبط الوقت لفعل السنة وهو أن لا تتركها فوق الأربعين يومًا .

لا يحلق الشارب بالموس ، حتى إن الإمام مالك رحمه الله ، قال : أرى أن يُؤَدَّب من حلق شاربه . لأنه يشوه الخلقة ، ولأنه خلاف السنة ، السنة حفه أو تقصيره .

وفي الإبط الأصل النتف ، إلا أن بعض الناس يشق عليه النتف جدًّا فلا بأس من استخدام الأدهان وشبيهها .

* * *

١٢٠٤ - وَعَنْ عَائِشَةَ رضي الله عنها قَالَتْ : قالَ رسول اللَّه ﷺ : « عَشْرٌ مِنَ الفِطْرَةِ : قَصُّ الشَّارِبِ ، وَإِعْفَاءُ اللحْيَةِ ، وَالسِّوَاكُ ، واسْتِنشَاقُ المَاءِ ، وَقَصُّ الأظفَارِ ، وغَسْلُ البَرَاجِمِ ، وَنَتفُ الإبْطِ ، وَحَلقُ العَانَةِ ، وانتقاصُ المَاءِ » قال الرَّاوِي : وَنَسِيتُ العَاشِرَةَ إلا أَنْ تَكونَ المَضمَضَةَ ، قالَ وَكِيعٌ - وَهُوَ أَحَدُ رُوَاتِهِ - : انتِقَاصُ الماءِ ، يَعْني : الاسْتِنْجَاءَ [٢] . رَوَاهُ مُسلِمٌ . « البَرَاجِمُ » بالباءِ الموحدةِ والجيمِ ، وهِيَ : عُقَدُ الأَصَابعِ « وَإعْفَاءُ اللِّحْيَةِ » مَعْنَاهُ : لا يَقُصُّ مِنْهَا شَيئًا .

١٢٠٥ - وَعَنِ ابنِ عُمَرَ رضي الله عنهما عن النبي ﷺ قالَ : « أَحْفُوا الشَّوَارِبَ ، وَأَعْفُوا اللحَى » [٣] متفقٌ عليه .

الشرح

هذه بقية خصال الفطرة ، وقد سبق حديث أبي هريرة رضي الله عنه أن النبي ﷺ قال : « الفطرة خمس : الختان ، والاستحداد ، وقص الشارب ، وتقليم الأظافر ، ونتف الإبط » وذكرنا أن الأربعة التي سِوَى الختان لا تترك فوق أربعين يومًا ، لأن النبي ﷺ وَقّتَ ذلك .

أما حديث عائشة : ففيه أن الفطرة عشرة خصال ، منها ما سبق في حديث أبي هريرة ، ومنها ما ذكر في حديث عائشة دون حديث أبي هريرة . فمن ذلك : « إعفاء اللحية » فإنه من الفطرة ، وفي حديث ابن عمر ، أن النبي ﷺ أمر بإعفاء اللِّحى .

(١) وذلك لما رواه أبو داود في الترجل (٤٢٠٠) ، والترمذي في السنن (٢٧٥٨) ، وابن ماجه في السنن (٢٩٥) ، والبيهقي في السنن (١/١٥٠) .

(٢) أخرجه مسلم في الطهارة (٢٦١) ، وأبو داود في الطهارة (٥٣) ، وابن ماجه في الطهارة (٢٩٣) .

(٣) أخرجه مسلم في الطهارة (٥٢) بلفظه ، والبخاري في اللباس بنحوه (٥٨٩٣) ، والإمام أحمد في المسند (٢/١٦) .

واللحية ، قال أهل اللغة : إنها شعر الوجه ، واللَّحْيَيْن يعني : العوارض وشعر الخدين ، فهذه كلها من اللحية ، وأما الشارب فقد سبق الكلام عليه ، وإعفاء اللحية يعني إرخاءها وإطلاقها وتركها على ما هي عليه ، هذا من الفطرة التي فطر اللّٰه الناس عليها ، وعلى استحسانها ، وعلى أنها من علامة الرجولة بل ومن جمال الرجولة ، وعلى هذا فلا يجوز للإنسان أن يحلق لحيته ، فإن فعل فقد خالف طريق النبي ﷺ وعصى أمره ، ووقع في مشابهة المشركين والمجوس ؛ لأن النبي ﷺ قال : « خالفوا المشركين ، وَفِّروا اللِّحَى وحفوا الشوارب » ولم يكن الناس يعرفون هذا ، يعني : لم يكن المسلمون يعرفون حلق اللحية بل كان بعض الغلاة الظلمة إذا أرادوا أن يُعَذِّروا شخصًا حلقوا لحيته ، وهذا حرام عليهم لأنه لا يجوز التعذير بمحرم ، لكن يقاس به أنهم كانوا يعدون حلق اللحية مُثْلَةً وتعذيرًا وعذابًا .

أما بعد أن استعمر الكفار ديار المسلمين في مصر والشام والعراق وغيرها ، وأدخلوا على المسلمين هذه العادة السيئة ، وهي حلق اللحية ، صار الناس لا يبالون بحلقها ، بل كان الذي يعفي لحيته مُستنكرًا من بعض البلاد الإسلامية ، وهذه لا شك أنها معصية للرسول ﷺ ومن يعص الرسول ﷺ فقد عصى اللّٰه ومن يطع الرسول ﷺ فقد أطاع اللّٰه ، وإذا ابتلى الإنسان بأحد من أقاربه يحلق لحيته ، فالواجب عليه أن ينصحه ويبين له الحق ، أما هجره فهذا حسب المصلحة ، إذا كان هجره يفيد في ترك المعصية ، فليهجره ، وإن كان لا يفيد أو لا يزيد الأمر إلا شدة فلا يهجره ، لأن الهجر دواء يستعمل حيث ينفع ، وإذا لم ينفع ، فإن الأصل تحريم هجر المؤمن ، لقول النبي ﷺ : « لا يحل لمؤمن أن يهجر أخاه فوق ثلاث ، يلتقيان فيُعرض هذا ويعرض هذا ، وخيرهما الذي يبدأ بالسلام »[1] .

ومما زيد في هذا الحديث : « الاستنشاق » ، والاستنشاق من الفطرة ؛ لأنه تنظيف وإزالة لما في الأنف ، فهو طهارة ، والاستنشاق يكون في الوضوء ويكون في غير الوضوء ، كلما احتجت إلى تنظيف الأنف فاستنشق الماء ونظف أنفك ، وهذا يختلف باختلاف الناس ، من الناس من لا يحتاج إلى هذا إلا في الوضوء ، ومن الناس من يحتاج إليه كثيرًا . ومن ذلك أيضًا - أي من سنن الفطرة - « المضمضة » فإنها من الفطرة ؛ لأن فيها تنظيف الفم ، والفم يحتاج إلى تنظيف ، لأنه يمر به الأكل والدهن وما أشبه ذلك ، فيحتاج إلى تنظيف ، فكانت المضمضة من خصال الفطرة . ومن ذلك أيضًا « الاستنجاء » ، وقد فسر وكيع انتقاص الماء بأنه الاستنجاء ، لأن الاستنجاء تنظيف وتطهير وإزالة أذى .

ومن ذلك أيضًا : « غسل البراجم » والبراجم قال العلماء : إنها مسقط الأصابع ، فإن مسقط الأصابع من الباطن يحتاج إلى تنظيف أكثر من ظاهرها ، لأن ظاهرها ممسوح وليس فيه شيء يحتاج إلى تنظيف أكثر .

وفي هذا الحديث : دليل على أن إعفاء اللحية - مع كونه مخالفة للمشركين - من خصال الفطرة ، فيندفع بذلك شُبهة من شَبَّه وقال : إن من الكفار اليوم من يعفي لحيته أفلا يليق بنا أن نخالفهم ونحلق اللحى ؟ انظر - والعياذ باللّٰه - من الشيطان . فنقول : إن إعفاءهم اللحى تَبَعٌ لفطرة ، ونحن مأمورون بالفطرة ، وإذا شابهونا هم بالفطرة ، فإنا لا نمنعهم ولا ينفع أن نعدل عن الفطرة من أجل أنهم وافقونا

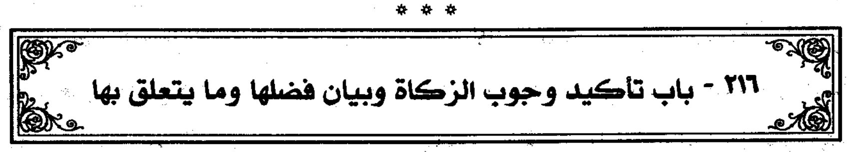
---

(١) أخرجه مسلم في البر والصلة (٢٦) .

فيها ، كما أنهم إذا وافقونا في تقليم الأظفار فإننا لا نقول نترك تقليم الأظفار بل نقلمها ، وهكذا بقية الفطرة إذا وافقنا فيها الكفار فإننا لا نعدل عنها ، واللّه الموفق .

ولنعلم أن الإكثار من استخدام الماء في الوضوء أو الغسل داخل في قول اللّه تعالى ﴿ إِنَّهُۥ لَا يُحِبُّ ٱلْمُسْرِفِينَ ﴾ [الأعراف : ٣١] ولهذا قال الفقهاء - رحمهم اللّه - : يكره الإسراف ولو كان على نهر جارٍ فكيف إذا كان على مَكائِن تَستَخْرِج الماء ، فالحاصل أن الإسراف في الوضوء وغير الوضوء من الأمور المذمومة .

* * *



٢١٦ - باب تأكيد وجوب الزكاة وبيان فضلها وما يتعلق بها

الزكاة هي الركن الثالث من أركان الإسلام ، لقول النبي ﷺ في حديث عبد اللّه بن عمر رضي الله عنهما : « بني الإسلام على خمس : شهادة أن لا إله إلا اللّه وأن محمدًا رسول اللّه ، وإقام الصلاة ، وإيتاء الزكاة »[1] واللّه ﷻ يذكرها كثيرًا مع الصلاة في القرآن الكريم ، ولهذا اختلف العلماء - رحمهم اللّه - هل تاركها يكفر كما يكفر تارك الصلاة أم لا ؟ على قولين .

والزكاة : هي التعبد لله تعالى في دفع مال مخصوص من أموال مخصوصة . هذا المال المخصوص مقدر : ربع العشر ، نصف العشر ، العشر . وكذلك يدفع لطائفة مخصوصة كما سيأتي إن شاء اللّه . والزكاة لها فوائد عظيمة ، منها : تكميل إسلام العبد ، لأنها أحد أركان الإسلام ، وهي أفضل من الصدقة ، يعني لو أدى الإنسان مائة ريال زكاة أو مائة ريال صدقة تطوع ، كانت مائة ريال الزكاة أحب إلى اللّه ﷻ وأفضل .

ومنها : أن الإنسان يخرج بها عن دائرة البخلاء إلى دائرة الكرماء ؛ لأنها بَذْلُ مالٍ ، والبخل إمساك المال ، فإذا بذلها الإنسان خرج من كونه بخيلًا إلى كونه كريمًا ، ومنها مضاعفة الحسنات ؛ لأن الذين ينفقون أموالهم في سبيل اللّه مثلهم كمثل حبة أنبتت سبع سنابل في كل سنبلة مائة حبة ؛ يعني : ريال بمائة ريال أو أكثر . ومنها : أن فيها جبرًا[2] لقلوب الفقراء ودفعًا لحاجتهم وحماية من غضبهم ، لأن الفقراء إذا لم يُعْطَوا من مال الأغنياء ربما يغضبون ويتجرعون ويكرهون الأغنياء ويرون أنهم في واد والأغنياء في واد ، والأمة الإسلامية أمة واحدة يجب أن يعتقد كل إنسان أنه لبنة في سور قصر مع إخوانه المسلمين ، لقول النبي ﷺ : « المؤمن للمؤمن كالبنيان يشد بعضه بعضا »[3] .

ومنها : أنها سبب في شرح الصدر ، لأن الإنسان كلما بذل شيئًا من ماله شرح اللّه له صدره ، وهذا شيء مجرب وواقع ، لو يتصدق الإنسان بأدنى من واجب الزكاة لوجد في صدره انشراحًا وفي

---

(١) أخرجه البخاري في الإيمان (٨) ، ومسلم في الإيمان (٢٠) ، وأحمد في مسنده (٢/٩٣) .

(٢) قوله : « جبرًا » أجاب طلبه وواساه (المعجم العربي الأساسي ص : ٢٢٦) .

(٣) أخرجه البخاري في اللقطة (٢٤٤٦) ، ومسلم في البر والصلة (٦٥) ، والنسائي في السنن (٥/٧٩) .

قلبه محبة للخير .

ومنها : أنها تُطفِئ غضب الرب وتدفع ميتة السوء ، وهذه فائدة عظيمة ، تدفع ميتة السوء ؛ يعني الإنسان يموت على أحسن حال ، وحسن الخاتمة - أحسن اللّٰه لي ولكم الخاتمة - أعز ما يكون على الإنسان ، لأنه وقت فراق الدنيا إلى الآخرة ، والشيطان أحرص ما يكون على بني آدم عند الموت ، لأنها هي الساعة الحاسمة ، إما من أهل النار أو من أهل الجنة وفي حديث ابن مسعود : « إن أحدكم ليعمل بعمل أهل الجنة حتى ما يكون بينه وبينها إلا ذراع ، فيسبق عليه الكتاب ، فيعمل بعمل أهل النار ، فيدخل النار ، وإن أحدكم ليعمل بعمل أهل النار حتى ما يكون بينه وبينها إلا ذراع ، فيسبق عليه الكتاب ، فيعمل بعمل أهل الجنة ؛ فيدخلها »[1] . فالأعمال بالخواتيم ، والصدقة وعلى رأسها الزكاة تدفع ميتة السوء .

ومنها : أن النبي ﷺ أخبر أن كل امرئ في ظل صدقته يوم القيامة ، كل امرئ في ظل صدقته يوم القيامة[2] ، فالناس تكون الشمس فوق رؤوسهم قدر ميل ، وهؤلاء المتصدقون وعلى رأس صدقاتهم الزكاة يكونون في ظل صدقاتهم يوم القيامة .

وحكى لي بعض الصلحاء أن رجلًا كان يمنع أهله من الصدقة من البيت يقول : لا تتصدقوا ، وفي يوم من الأيام نام ورأى في المنام كأن الساعة قد قامت ورأى فوق رأسه ظلًّا يظله من الشمس إلا أن فيه ثلاثة خروق يقول : فجاءت تمرات فَسَدَّت هذه الخروق ، فتعجب ، كيف الثوب متخرق وتجيء التمرات تسد الخروق ، فلما قصها على زوجته ، أخبرته أنها تصدقت بثوب وثلاث تمرات ، فكان الكساء الأول هو الثوب لكنه مخرق فجاءت التمرات الثلاث فسدت الخروق ، ففرح بذلك وأذن لها بعد هذا أن تتصدق بما شاءت .

فالحاصل : أن هذه الرؤيا مصداق قول الرسول ﷺ : « كل امرئ في ظل صدقته يوم القيامة »[3] .

ومنها : أنها تُلين القلب[4] وصدقات التطوع تلين القلب ، حيث إن الإنسان يعطيها الفقراء المحتاجين فيلين قلبه ويرحمهم ، وفي ذلك تعرض لرحمة اللّٰه ، لأن اللّٰه إنما يرحم من عباده الرحماء ، ولها فوائد كثيرة قد يطول في المقام ذكرها .

وسيأتي إن شاء اللّٰه الكلام على الآيات التي ذكرها المؤلف . واللّٰه الموفق .

* * *

قال اللّٰه تعالى : ﴿ وَأَقِيمُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتُوا۟ ٱلزَّكَوٰةَ ﴾ [البقرة : ٤٣] وقال تعالى : ﴿ وَمَآ أُمِرُوٓا۟ إِلَّا لِيَعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ ٱلدِّينَ حُنَفَآءَ وَيُقِيمُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ وَيُؤْتُوا۟ ٱلزَّكَوٰةَ وَذَٰلِكَ دِينُ ٱلْقَيِّمَةِ ﴾ [البينة : ٥] . وقال تعالى : ﴿ خُذْ مِنْ أَمْوَٰلِهِمْ صَدَقَةً تُطَهِّرُهُمْ وَتُزَكِّيهِم بِهَا ﴾ [التوبة : ١٠٣] .

---

(١) أخرجه البخاري في التوحيد (٧٤٥٤) ، ومسلم في القدر (١) ، وأحمد في مسنده (٤٣٠/١) .

(٢) وذلك لما رواه أحمد في مسنده (١٤٨/٤) .

(٣) وذلك لما رواه أحمد في مسنده (١٤٨/٤) .

(٤) وذلك لما رواه أحمد في مسنده (٢٦٣/٢) .

الشرح

قال النووي رَحِمَهُ ٱللَّهُ تعالى في وجوب الزكاة وبيان فضلها وما يتعلق بها . ثم ذكر آيات ثلاث ، الآية الأولى ﴿ وَأَقِيمُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتُوا۟ ٱلزَّكَوٰةَ ﴾ فإقامة الصلاة : أن تأتي بها مستقيمة على الوجه الذي ورد عن النبي ﷺ ، وإيتاء الزكاة : هو إعطاؤها لمستحقها وقد سبق بيان معنى الزكاة وبيان فوائدها ما يسَّر اللَّه تعالى .

ثم ذكر الآية الثانية وهي قوله تعالى ﴿ وَمَآ أُمِرُوٓا۟ إِلَّا لِيَعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ ٱلدِّينَ حُنَفَآءَ وَيُقِيمُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ وَيُؤْتُوا۟ ٱلزَّكَوٰةَ ۚ وَذَٰلِكَ دِينُ ٱلْقَيِّمَةِ ﴾ ﴿ وَمَآ أُمِرُوٓا۟ ﴾ يعني بذلك الناس ﴿ إِلَّا لِيَعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ ﴾ أي يتذللوا له بالعبادة بكل ما تَعَبَّدَهم به من عقيدة أو قول أو عمل ، ﴿ مُخْلِصِينَ لَهُ ٱلدِّينَ ﴾ أي مخلصين له العمل ، وإخلاص العمل لله ألا يبتغي الإنسان شيئًا بعمله سوى اللَّه عَزَّ وَجَلَّ ، لا يبتغي به دنيا ولا جاه ولا رئاسة ولا غير ذلك ، لا يريد إلا ثواب اللَّه . وقوله ﴿ حُنَفَآءَ ﴾ يعني : مائلين عن الشرك ، إخلاص بلا إشراك . وقوله ﴿ وَيُقِيمُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ وَيُؤْتُوا۟ ٱلزَّكَوٰةَ ۚ ﴾ وهذا هو الشاهد في قوله ﷺ ﴿ وَيُؤْتُوا۟ ٱلزَّكَوٰةَ ۚ ﴾ ، وقوله ﴿ وَذَٰلِكَ دِينُ ٱلْقَيِّمَةِ ﴾ ، ﴿ وَذَٰلِكَ ﴾ أي : عبادة اللَّه تعالى مخلصين له الدين وإقامة الصلاة وإيتاء الزكاة ، ﴿ دِينُ ٱلْقَيِّمَةِ ﴾ أي دين الملة القيمة فهو العمل المرضي عند اللَّه عَزَّ وَجَلَّ . وقال سبحانه ﴿ خُذْ مِنْ أَمْوَٰلِهِمْ صَدَقَةً ﴾ الخطاب للنبي ﷺ ، ﴿ خُذْ مِنْ أَمْوَٰلِهِمْ صَدَقَةً ﴾ يعني بذلك الزكاة ﴿ تُطَهِّرُهُمْ وَتُزَكِّيهِم بِهَا وَصَلِّ عَلَيْهِمْ ۖ ﴾ تطهرهم من الذنوب والأخلاق الرذيلة ، أما كونها تطهر من الذنوب فلقوله ﷺ : « الصدقة تطفئ الخطيئة كما يطفئ الماء النار »[1] وأما كونها تطهر الأخلاق الرذيلة ، فلأنها تلحق الإنسان بالكرماء والمحسنين بما يبذله من أموال الزكاة لمستحقيها . (وتزكيهم بها) أي تنمي أخلاقهم ، بعد التطهير من الأخلاق الرذيلة تنمي الأخلاق الفاضلة ﴿ وَتُزَكِّيهِم بِهَا ﴾ تزكيهم أيضًا دينًا ، فهي تزكية دين وتزكية أخلاق . ﴿ وَصَلِّ عَلَيْهِمْ ۖ ﴾ أي ادعو لهم بالصلاة عليهم . وكان النبي ﷺ إذا أتاه قومًا بصدقة قال لهم : « اللَّهم صلِّ عليهم »[2] امتثالًا لأمر اللَّه . ﴿ إِنَّ صَلَوٰتَكَ سَكَنٌ لَّهُمْ ۗ ﴾ صلاتك عليهم : يعني دعاءك لهم بالصلاة مسكن لهم ، تسكن إليه نفوسهم وتطمئن قلوبهم ، وتنشرح صدورهم ، ويسهل عليهم بذل المال ، ﴿ وَٱللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴾ ففي هذه الآيات الثلاث دليل على وجوب الزكاة وأنها من أفضل الأعمال ، وسيأتي إن شاء اللَّه الأحاديث .

* * *

١٢٠٦ - وَعَن ابنِ عُمَرَ رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُمَا أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ قَالَ : « بُنِيَ الإسْلامُ عَلى خَمْسٍ : شَهَادَةِ أَنْ لا إلهَ إلا اللَّهُ ، وَأَنَّ مُحَمَّدًا عَبْدُهُ وَرَسُولُهُ ، وَإقامِ الصَّلاةِ ، وَإيتاءِ الزَّكَاةِ ، وَحَجِّ البَيتِ ، وَصَومِ رَمضَانَ »[3] متفقٌ عليه .

---

(١) أخرجه الترمذي في الزكاة (٦١٤) ، وابن ماجه في السنن (٤٢١٠) ، وأحمد في مسنده (٢٣٧/٥) .

(٢) أخرجه البخاري في الدعوات (٦٣٥٩) ، ومسلم في الزكاة (١٧٦) ، وأحمد في مسنده (٣٠٣/٣) .

(٣) أخرجه البخاري في الإيمان (٨) ، ومسلم في الإيمان (١٩) ، والإمام أحمد في المسند (٢٦/٢ ، ٩٣) ، والترمذي في الإيمان (٢٦٠٩) .

١٢٠٧ - وعن طَلْحَةَ بنِ عُبَيدِ اللَّه ﷺ قالَ : جَاءَ رَجُلٌ إلى رسول اللَّه ﷺ مِنْ أَهْلِ نَجْدٍ ثَائِرُ الرَّأْسِ نَسْمَعُ دَوِيَّ صَوتِهِ ، وَلا نَفْقَهُ مَا يَقُولُ ، حَتى دَنَا مِنْ رسول اللَّه ﷺ ، فإذا هُوَ يَسْأَلُ عَنِ الإِسْلامِ ، فَقَالَ رسول اللَّه ﷺ : « خَمْسُ صَلَواتٍ في اليَومِ وَاللَّيلَةِ » قالَ : هَلْ عَلَيَّ غَيرُهُنَّ ؟ قالَ : « لا ، إلا أَنْ تَطَوَّعَ » فَقَال رسول اللَّه ﷺ : « وصِيَامُ شَهْرِ رَمَضَانَ » قَالَ : هَلْ عَلَيَّ غَيرُهُ ؟ قَالَ : « لا ، إلا أَنْ تَطَوَّعَ » قَالَ : وَذَكَرَ لَهُ رسول اللَّه ﷺ ، الزَّكَاةَ فَقَالَ : هَلْ عَلَيَّ غَيرُهَا ؟ قَالَ : « لا ، إلا أَنْ تَطَوَّعَ » فَأَدْبَرَ الرَّجُلُ وهُوَ يَقُولُ : وَاللَّهِ لا أَزِيدُ عَلى هذَا وَلا أَنْقُصُ مِنْهُ ، فَقَالَ رسول اللَّه ﷺ : « أَفْلَحَ إنْ صَدَقَ» [1] متفقٌ عليه .

١٢٠٨ - وَعَنِ ابنِ عَبَّاسٍ ﷺ أَنَّ النَّبيَّ ﷺ بَعَثَ مُعَاذًا ﷺ إلى اليَمَنِ فَقَالَ : « ادْعُهُمْ إلى شَهَادَةِ أَنْ لا إلهَ إلا اللَّهُ وَأَنِّي رَسُولُ اللَّهِ ، فإنْ هُمْ أَطَاعُوا لِذلكَ ، فَأَعْلِمْهُم أَنَّ اللَّهَ تَعَالى افتَرَضَ عَليهِمْ خَمسَ صَلواتٍ في كُلِّ يومٍ وَليلةٍ ، فَإن هُمْ أَطَاعُوا لِذلكَ ، فَأَعْلِمْهُمْ أَنَّ اللَّهَ افتَرضَ عَليهِم صَدَقَةً تُؤخَذُ مِنْ أَغْنِيَائِهِمْ ، وَتُرَدُّ على فُقَرائِهم» [2] متفقٌ عليه .

الشرح

هذه الأحاديث الثلاثة ذكرها النووي رحمه الله في تأكيد وجوب الزكاة ، أما حديث ابن عمر رضي الله عنهما : وهو قول النبي ﷺ : « بني الإسلام ... » فقد تقدم الكلام عليه مفصلًا ولا حاجة إلى إعادته . وأما حديث طلحة بن عبيد الله في قصة الرجل النجدي الذي جاء ثائر الرأس يسمعون صوته ولا يفقهون ما يقول وسأل النبي ﷺ عن الإسلام ، فذكر له : خمس صلوات ، وصيام رمضان ، والزكاة ، ولم يذكر شهادة أن لا إله إلا الله وأن محمدًا رسول الله ، لعلمه ﷺ بأنه قد نطقها وشهد بها لأنه جاء مسلمًا ، لكن يريد أن يستفسر عن تفاصيل بعض الأشياء ، وفيه قوله ﷺ لهذا الرجل ، لما ذكر ﷺ خمس صلوات وصيام رمضان والزكاة ، وقال الرجل : هل عَلَيَّ غيرها ، قال : « لا ، إلا أن تطوع » فدل هذا على أنه لا يجب في اليوم والليلة أكثر من خمس صلوات ، فالوتر ليس بواجب لكنه سنة مؤكدة ، وتحية المسجد ليست بواجبة لكنها سنة مؤكدة ، وصلاة العيدين ليست بواجبة لكنها سنة مؤكدة ، وكذلك أيضًا ما اختلف فيه العلماء .

هكذا ذهب بعض أهل العلم ، وجعل هذا الحديث أصلًا في عدم وجوب ما ذُكِر . ولكن عند التأمل ليس فيه دليل على ذلك ، يعني أنه لا يدل على عدم وجوب تحية المسجد ، وعلى عدم وجوب صلاة العيد ، وما أشبهها ؛ لأن هذه صلوات لها أسباب عارضة تجب بوجود أسبابها ، إلا أن القول الراجح أن تحية المسجد ليست بواجبة ولكنها سنة مؤكدة ، أما صلاة العيد فواجبة ؛ لأن النبي ﷺ أمر حتى الحُيَّض

---

(١) أخرجه البخاري في الإيمان (٤٦) ، ومسلم في الإيمان (٨) ، والنسائي في السنن (١/٢٢٧) ، وأبو داود في الصلاة (٣٩١) ، قوله : « ثائر الرأس » أي شعره منتفش غير مرجل ، قوله : « دوي صوته » أي قوة صوته .

(٢) أخرجه البخاري في الزكاة (١٣٩٥) ، ومسلم في الإيمان (٢٩) بنحوه ، والإمام أحمد في المسند (١/٢٣٣) ، والنسائي في السنن (٥/٥٥) ، قوله : « وترد على فقرائهم » أي توزع على فقرائهم .

من النساء وذوات الخدور والعواتق أن يخرجن ويصلين إلا أن الحيَّض يعتزلن المصلى [(١)] ، وأما الوتر فنعم في الحديث دليل على أنه ليس بواجب ، لأن الوتر يتكرر يوميًا ، فلو كان واجبًا لبينه الرسول ﷺ لهذا الرجل ، فالصواب أن الوتر سنة مؤكدة وليس بواجب ، لو تركه الإنسان لا يأثم ، لكن من داوم على تركه سقطت عدالته ، قال الإمام أحمد رحمه الله : من ترك الوتر فهو رجل سوء لا ينبغي أن تقبل له شهادة [(٢)] .

وأما صيام رمضان : نعم ، لا يجب على الإنسان أن يصوم غيره ، اللَّهم إلا إن نذر ، فإن النبي ﷺ قال : « من نذر أن يطيع اللَّه فليطعه » [(٣)] .

وأما الزكاة : فلا يجب غيرها أيضًا في المال ، إلا ما كان له سبب كالنفقة على الزوجة والأقارب وما شابه ذلك مما له سبب معين يجب بوجوب السبب .

وأما قول الرجل لما أدبر : « واللَّه لا أزيد على هذا ولا أنقص » . عاهد اللَّه عهدًا بيمين ألا يزيد على هذا ولا ينقص ، فقال النبي ﷺ : « أفلح إن صدق ، أفلح إن صدق » . وهذا دليل على أن الإنسان إذا اقتصر على الواجب في الشرع ؛ فإنه مفلح ، ولكن لا يعني هذا أنه لا يُسَنُّ أن يأتي بالتطوع ، لأن التطوع تُكمل به الفرائض يوم القيامة ، وكم من إنسان أدى الفريضة وفيها خلل وفيها خروق ، وفيها خدوش ، تحتاج إلى تكميل وإلى رتق الصدع .

أما حديث ابن عباس رضي الله عنهما : في بعث النبي ﷺ معاذًا إلى اليمن ، فقد سبق الكلام عليه أيضًا ، فلا حاجة إلى إعادته ، لكن فيه أن الرسول ﷺ قال : « أعلمهم أن اللَّه افترض عليهم صدقة في أموالهم تؤخذ من أغنيائهم فترد على فقرائهم » ، فهذا هو الشاهد في هذا الباب . واللَّه الموفق .

* * *

١٢٠٩ - وَعَنِ ابنِ عُمَرَ رضي الله عنهما قَالَ : قال رسولُ اللَّه ﷺ : « أُمِرْتُ أَنْ أُقاتِلَ النَّاسَ حتى يَشهدُواَ أَنْ لا إلهَ إلا اللَّهُ وَأَنَّ مُحَمَّدًا رَسُولُ اللَّهِ ، وَيُقِيمُوا الصَّلاةَ ، وَيُؤْتُوا الزَّكاةَ ، فَإذا فَعَلوا ذلكَ ؛ عَصَمُوا مِنِّي دِمَاءَهُمْ وَأَمْوَالَهُمْ إلا بَحقِّ الإسْلامِ ، وَحِسَابُهُمْ عَلَى اللَّه » [(٤)] متفقٌ عليه .

١٢١٠ - وَعَنْ أَبي هُرَيرَةَ رضي الله عنه قَالَ : لمَّا تُوُفيَ رسُولُ اللَّه ﷺ ، وَكَانَ أَبُو بَكْرٍ رضي الله عنه وَكَفَرَ مَنْ كَفَرَ مِنَ العرَبِ ، فَقَالَ عُمَرُ رضي الله عنه : كيفَ تُقَاتِلُ النَّاسَ وَقَدْ قَالَ رسول اللَّه ﷺ : « أُمِرتُ أَنْ أُقَاتِلَ النَّاسَ حَتَّى يَقُولُوا : لا إلهَ إلا اللَّهُ ، فَمَنْ قَالَها ، فَقَدْ عَصَمَ مني مَالَهُ وَنَفْسَهُ إلا بحَقِّه ، وَحِسَابُهُ عَلى اللَّهِ » ؟!

---

(١) انظر الحديث في البخاري في الحيض (٣٢٤) ، ومسلم في العيدين (١٠ ، ١٢) ، وأحمد في مسنده (٨٤/٥) .

(٢) فتاوى ابن تيمية (٨٨/٢٣) .

(٣) أخرجه البخاري في الأيمان والنذور (٦٧٠٠) ، وأبو داود في السنن (٣٢٨٩) ، والترمذي في السنن (١٥٢٦) والنسائي في السنن (١٧/٧) .

(٤) أخرجه البخاري في الإيمان (٢٥) ، ومسلم في الإيمان (٣٣) ، والإمام أحمد في المسند (٣٤٥/٢ ، ٤٢٣) ، والنسائي في السنن (١٤/٥) .

فَقَالَ أَبُو بَكْرٍ : واللَّهِ لأُقَاتِلَنَّ مَنْ فَرَّقَ بَينَ الصَّلاةِ وَالزَّكَاةِ ، فإنَّ الزَّكَاةَ حَقُّ المَالِ . واللَّهِ لَو مَنَعُوني عِقَالًا كَانُوا يُؤَدُّونَهُ إلى رَسُولِ اللَّهِ ﷺ لَقَاتَلْتُهُمْ على مَنعِهِ . قَالَ عُمَرُ رضي الله عنه : فَوَاللَّهِ مَا هُوَ إلا أَنْ رَأَيتُ اللَّه قَدْ شَرَحَ صَدْرَ أَبي بَكْرٍ للقِتَالِ ، فَعَرَفْتُ أَنَّهُ الحَقُّ [١] . مُتفقٌ عليهِ .

الشرح

هذه الأحاديث التي ساقها المؤلف منها ما سبق الكلام عليه ، ومنها حديث عبد اللَّه بن عمر رضي الله عنهما أن رسول اللَّه ﷺ قال : « أُمرت أن أقاتل الناس حتى يشهدوا أن لا إله إلا اللَّه وأن محمدًا رسول اللَّه ، ويقيموا الصلاة ، ويؤتوا الزكاة » . قوله : (أمرت) الآمر له هو اللَّه عز وجل ، وفي هذا دليل على أن النبي ﷺ عبد مأمور مُكلَّف يُؤْمر ويُنْهَى كما يؤمر وينهى سائر الناس ؛ لأنه عبد من عباد اللَّه - عليه الصلاة والسلام - ليس ربًّا ولا يملك شيئًا من حقوق الربوبية ، بل هو عبد يؤمر وينهى وربما يحصل له أكبر من ذلك ، لقول اللَّه - تبارك وتعالى - له : ﴿ عَفَا ٱللَّهُ عَنكَ لِمَ أَذِنتَ لَهُمْ حَتَّىٰ يَتَبَيَّنَ لَكَ ٱلَّذِينَ صَدَقُوا۟ وَتَعْلَمَ ٱلْكَٰذِبِينَ ﴾ [التوبة : ٤٣] وكقوله تعالى : ﴿ لِمَ تُحَرِّمُ مَآ أَحَلَّ ٱللَّهُ لَكَ تَبْتَغِى مَرْضَاتَ أَزْوَٰجِكَ وَٱللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴾ [٢] [التحريم : ١] يعاتبه ربه عز وجل ، ويقول له ﷺ : ﴿ وَٱتَّقِ ٱللَّهَ وَتُخْفِى فِى نَفْسِكَ مَا ٱللَّهُ مُبْدِيهِ وَتَخْشَى ٱلنَّاسَ وَٱللَّهُ أَحَقُّ أَن تَخْشَىٰهُ ﴾ [٣] [الأحزاب : ٣٧] . فمن زعم أن محمدًا ﷺ له شيء من الربوبية وأنه ينفع ويضر ويجيب الدعوة ويكشف السوء ؛ فقد أشرك باللَّه وكفر بمحمد ﷺ .

يقول - عليه الصلاة والسلام - : « أمرت أن أقاتل الناس حتى يشهدوا أن لا إله إلا اللَّه وأن محمدًا رسول اللَّه ، ويقيموا الصلاة ، ويؤتوا الزكاة » ، يقاتل من امتنع عن واحدة من هذه الأربع : من شهادة أن لا إله إلا اللَّه وأن محمدًا رسول اللَّه ، ومن إقامة الصلاة ، ومن إيتاء الزكاة . يقاتلهم حتى يذعنوا ويرضخوا لهذه الأربع ، فإذا فعلوا ذلك يعني ، شهدوا أن لا إله إلا اللَّه وأن محمدًا رسول اللَّه ، وأقاموا الصلاة وآتوا الزكاة ، « عصموا مني دماءهم وأموالهم إلا بحقها وحسابهم على اللَّه عز وجل » . يعني : إذا فعلوا ذلك فقد استسلموا ظاهرًا فيعصمون دماءهم وأموالهم وحسابهم على اللَّه ؛ لأن من الناس من يقول : أشهد أن لا إله إلا اللَّه وأن محمدًا رسول اللَّه ، ويقيم الصلاة ويؤتي الزكاة ، وقلبه منطوٍ على الكفر ، ولهذا قال : « حسابهم على اللَّه » فالمنافقون يقولون : لا إله إلا اللَّه ، لكن لا يذكرون اللَّه إلا قليلًا . ويقولون لرسول اللَّه ﷺ : نشهد إنك لرسول اللَّه ، ويقيمون الصلاة ولكن لا يأتون الصلاة إلا وهم كسالى ، ويتصدقون ولكن لا ينفقون إلا وهم كارهون . ومع ذلك قلوبهم منطوية على الكفر - نسأل اللَّه العافية - ولهذا قال : « وحسابهم على اللَّه عز وجل » .

ثم ذكر رحمه الله حديث أبي هريرة رضي الله عنه في تحاور أبي بكر الصديق رضي الله عنه الخليفة الأول لرسول اللَّه ﷺ

---

(١) أخرجه البخاري في الزكاة (١٣٩٩) ، ومسلم في الإيمان (٣٢) ، وابن ماجه في الفتن (٣٩٢٧ ، ٣٩٢٨) ، والبيهقي في السنن (٤/١٠٤) .

(٢) قوله : ﴿ تَبْتَغِى مَرْضَاتَ أَزْوَٰجِكَ ﴾ أي تطلب رضاهن .

(٣) قوله : ﴿ وَتَخْشَى ٱلنَّاسَ ﴾ أي تستحي من قولهم .

وعمر بن الخطاب الخليفة الثاني لرسول الله ﷺ في مسألة دينية ، مع أن كل واحد منهما يحب الآخر حبًا عظيمًا ، لكن هذه المحبة لا تمنع من المحاورة و المراجعة الدينية ، لأن الدين فوق كل شيء ، لما كان أبو بكر رضي الله عنه بعد وفاة النبي ﷺ باختيار الصحابة له الخليفة بعد الرسول وكذلك بإشارة الرسول ﷺ إليه ، حيث خلفه عنه في الحج [1] . وهي إمامة كبرى بالنسبة للناس ، وفي الصلاة وهي إمامة صغرى ، لأن أمير الحج يؤم من الناس أكثر ما يؤمه أمير المسجد ، خلَّفه النبي ﷺ إمامًا للمسجد حين مرض [2] وخلَّفه في الحج بالناس عام تسع من الهجرة ، واتفق الصحابة بعد موت الرسول ﷺ على أن الخليفة من بعده أبو بكر ، ارتد من ارتد من العرب - والعياذ بالله - وقد أشار الله إلى ذلك في قوله : ﴿ وَمَا مُحَمَّدٌ إِلَّا رَسُولٌ قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِهِ الرُّسُلُ أَفَإِيْن مَّاتَ أَوْ قُتِلَ انقَلَبْتُمْ عَلَىٰٓ أَعْقَٰبِكُمْ ﴾ [3] [آل عمران : ١٤٤] وقد حصل ، ارتد من ارتد من العرب ومنعوا الزكاة وكفروا بالله ، فقاتلهم أبو بكر رضي الله عنه فحاوره عمر ، قال : كيف تقاتل الناس ؟ وقد قال النبي ﷺ : أمرت أن أقاتل الناس حتى يقولوا : لا إله إلا الله . وهذا هو الذي سمعه عمر من النبي ﷺ وإلا فإن ابنه سمع من الرسول أكثر من ذلك ، سمع من الرسول ﷺ أنه قال : « حتى يشهدوا أن لا إله إلا الله وأن محمدًا رسول الله ، ويقيموا الصلاة ، ويؤتوا الزكاة » . لكن عمر روى ما سمع : (حتى يقولوا لا إله إلا الله) . فقال أبو بكر : (والله لأقاتلن من فرق بين الزكاة والصلاة) ، فإن الزكاة حق المال ، والله لو منعوني عقالًا - يعني عقال بعير - كانوا يؤدونه إلى رسول الله ﷺ لقاتلتهم على ذلك . وهذا دليل على حزمه رضي الله عنه حزم أبي بكر مع أنه ألين من عمر ، لكن في مواقف الشدة والضيق يكون أبو بكر أحزم من عمر . نضرب لكم أمثلة منها هذا المثال : عمر رأى ألا يقاتل الناس لكن بعد مراجعة أبي بكر له ، علم أنه الحق ، لما رأى أن الله قد شرح صدر أبي بكر للقتال وهو الخليفة من بعد الرسول عرف أنه الحق ، إذ أن الله سبحانه وتعالى لم يشرح صدر هذا الخليفة الراشد (أول خليفة في الأمة الإسلامية) إلا لحق ، عرف أنه الحق لما شرح الله صدر أبي بكر له . هذا موقف صار أبو بكر أجلد من عمر وأشد وأثبت .

والموضع الثاني : لما مات الرسول ﷺ أظلمت المدينة واضطرب الناس وصار يومًا عظيمًا واجتمع الناس في المسجد وقام عمر وقال : « إن النبي ﷺ لم يمت ولكنه صعد - يعني : غُشي عليه - وليبعثنه الله فليقطعن أيدي رجال وأرجلهم » . اهتز قلبه ، يقولها بجد وحزم . وكان أبو بكر رضي الله عنه حين مات الرسول ﷺ خارج المدينة في حائط له ، فذهبوا فأخبروه ، أخبروا أبا بكر ، فجاء إلى الرسول ﷺ وكشف عن وجهه وقد غُطِّي - عليه الصلاة والسلام - كشف عن وجهه وقبَّله وقال : « بأبي أنت وأمي ، طبت حيًا وميتًا ، والله لا يجمع الله عليك موتتين ، أما الموتة الأولى فقد متها » ثم خرج إلى

---

(١) كان ذلك في السنة التاسعة للهجرة (انظر في ذلك : السيرة النبوية لابن كثير ٦٨/٤) .

(٢) انظر الحديث في : البخاري في الأذان (٦٦٤) ، ومسلم في الصلاة (٩٥) ، والترمذي في السنن (٣٦٧٢) ، والنسائي في السنة (٩٩/٢) .

(٣) قوله : ﴿ انقَلَبْتُمْ عَلَىٰٓ أَعْقَٰبِكُمْ ﴾ أي رجعتم إلى ما كنتم عليه من الكفر والضلال .

الناس ، وإذا عمر يتكلم ، ينكر ويقول : (ما مات غُشي عليه وليبعثنه الله) فقال أبو بكر : (على رسلك) يعني أرفق ، فجلس عمر أو بقي قائمًا ، فصعد أبو بكر المنبر وخطب الناس خطبة عظيمة بليغة في هذا المقام الضنك ، قال : (أما بعد : أيها الناس ، من كان يعبد محمدًا فإن محمدًا قد مات ﷺ وهو أشد الناس فجيعة به – ومن كان يعبد الله فإن الله حي لا يموت ، ثم تلا قوله تعالى : ﴿ إِنَّكَ مَيِّتٌ وَإِنَّهُم مَّيِّتُونَ ﴾ وقوله تعالى ﴿ وَمَا مُحَمَّدٌ إِلَّا رَسُولٌ قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِهِ الرُّسُلُ أَفَإِين مَّاتَ أَوْ قُتِلَ انقَلَبْتُمْ عَلَىٰٓ أَعْقَٰبِكُمْ وَمَن يَنقَلِبْ عَلَىٰ عَقِبَيْهِ فَلَن يَضُرَّ ٱللَّهَ شَيْـًٔا ﴾ يقول عمر : (حتى عثرت فما تُقِلّني رجلاي ، يعني : لا يقدر أن يقف ، فجلس ، لأنه علم أن هذا هو الحق) [1] . فانظر إلى ثبات أبي بكر في هذا المقام .

أما الموضع الثالث : فهو في صلح الحديبية : صلح الحديبية فيه شروط ظاهرها أنه فيه غضاضة على المسلمين ، منها : أن من جاء من قريش مسلمًا – انتبِه – من جاء من قريش مسلمًا ردَّه الرسول إلى قريش ، ومن ذهب من المسلمين إلى قريش فلا يلزمهم ردُّه . هذا الشرط ظاهره أنه إجحاد ، عَجَز عمر ، فلا يقدر على هذا ، فقال : يا رسول الله ، كيف ؟ كيف ؟ مَنْ خرج منهم مسلمًا وجاء مهاجرًا إلينا نرده ، ومن ذهب منا لا يردونه ؟ كيف نعطى الدنية في ديننا ؟ ألسنا على الحق وعدُّونا على الباطل ؟ قال : « بلى ، لكن هذا أمر الله ، وأنا عبد الله ورسوله ، ولن أعصي الله ، وسينصرنا الله ﷻ . فعجز عمر ، فذهب إلى أبي بكر يستنجد به لعله يشير على الرسول ﷺ بعدم الموافقة ، فكان جواب أبي بكر ﷺ كجواب الرسول ﷺ حرفًا بحرف ، مواقف عظيمة في هذا المقام الضنك ، قال : « إنه لرسول الله وإن الله ناصره ، فاستمسك بغرزه » يقول لعمر ، يعني : احذر أن تخالفه فإنه على الحق [2] .

في هذه المواقف الثلاثة العظيمة تبين ثبات أبي بكر ﷺ وأنه أثبت الصحابة وأحق الصحابة بالخلافة وأحزمهم وأعقلهم ، وهكذا يتبين حال الإنسان الثابت الذي ينظر إلى الأمور من بعيد ويسبر غورها [3] ، والإنسان الذي عنده غِيرة لكنه لا يريد أن يتعجل ، فالتعجل قد يكون فيه غرر .

المهم : من هذا الحديث أو الفائدة منه في هذا الباب الذي بوّبه النووي رحمه الله في رياض الصالحين أن من امتنع عن الزكاة وجب على الإمام قتاله حتى يؤدي الزكاة . والله الموفق .

* * *

١٢١١ – وَعَنْ أَبِي أَيوبَ ﷺ أَنَّ رَجُلًا قَالَ للنَّبيِّ ﷺ : أَخْبِرْني بعمَل يُدْخِلُني الجَنَّةَ ، قَالَ : «تَعْبُدُ اللَّهَ لا تُشْرِكُ بِهِ شَيْئًا ، وَتُقِيمُ الصَّلاةَ ، وَتُؤتي الزَّكاةَ ، وَتَصِلُ الرَّحِمَ » [4] متفقٌ عليه .

---

(١) انظر في ذلك : البخاري في فضائل الصحابة (٣٦٦٧) .

(٢) انظر القصة في : البخاري في التفسير (٤٨٤٤) ، ومسلم في الجهاد (٩٤) ، وأحمد في مسنده (٤٨٦/٣) .

(٣) سبر غورها : أي تبين حقيقته وسره (المعجم الوسيط ٦٩٠/٢) .

(٤) أخرجه البخاري في الزكاة (١٣٩٦) ، ومسلم في الإيمان (١٢) ، والترمذي في الإيمان (٢٦١٦) ، والإمام أحمد في المسند (٤٧٢/٣) .

١٢١٢ - وَعَنْ أبي هُريرَةَ ﷺ أنَّ أَعرَابِيًّا أَتَى النبيَّ ﷺ فَقالَ : يا رَسُولَ اللَّهِ ! دُلَّني عَلى عَمَلٍ إذا عَمِلْتُهُ ، دَخَلْتُ الجَنَّةَ . قَالَ : « تَعْبُدُ اللَّهَ لا تُشْرِكُ بِهِ شَيئًا ، وَتُقِيمُ الصَّلاةَ ، وَتُؤتي الزَّكاةَ المَفْرُوضَةَ ، وَتَصُومُ رَمَضَانَ » قَالَ : وَالذي نَفْسِي بِيَدِهِ ، لا أَزِيدُ عَلى هذا ، فَلَمَّا وَلَّى ، قالَ النَّبيُّ ﷺ : « مَنْ سَرَّهُ أَنْ يَنْظُرَ إلى رَجُلٍ مِنْ أَهْلِ الجَنَّةِ فَلْيَنْظُرْ إلى هذا » (١) متفقٌ عليه .

١٢١٣ - وَعَنْ جَرِيرِ بنِ عبدِ اللَّهِ ﷺ قَالَ : بَايَعْتُ النَّبيَّ ﷺ عَلى إقَامِ الصَّلاةِ ، وَإِيتَاءِ الزَّكاةِ ، والنُّصحِ لِكُلِّ مُسْلِمٍ (٢) . متفقٌ عليه .

الشرح

هذه الأحاديث الثلاثة في باب تأكيد وجوب الزكاة وبيان فضلها ، حديث أبي أيوب وأبي هريرة وجرير ، وكلها تدل على ما سبق من أن إقامة الصلاة وإيتاء الزكاة من فرائض الإسلام ، وفي حديث أبي أيوب زيادة « وتصل الرَّحِم » والرَّحِم : هم القرابة من جهة الأب أو من جهة الأم ، وصِلَتُهم بما جرى به العُرف والعادة ؛ لأن النبي ﷺ لم يبين كيفية الصلة ، وكل شيء جاء في الكتاب والسنة ولم يُبيَّنْ فإن مرجعه إلى عادة الناس وعرفهم . وهذا يختلف باختلاف الأحوال واختلاف الأزمان واختلاف البلدان ، ففي حالة الحاجة والفقر وشدة المؤنة تكون صلتهم بإعطائهم ما يتيسر من المال وما يسد حاجتهم ، وكذلك إذا كان هناك مرضى في القرابة فإن صلتهم أن تعودهم وتتكرر عليهم بحسب ما فيهم من مرض وبحسب القرابة . وإذا كانت الأمور ميسرة وليست هناك حاجة كما في عُرْفِنا اليوم ؛ فإنه يكفي أن تصلهم بالهاتف أو بالمكاتبة أو في المناسبات البعيدة كالأعياد وغير ذلك ، والمهم أن صلة الرحم واجبة ، ولكن غير محددة في الشرع فيرجع فيها على ما جرى به العرف وتعارفه الناس بينهم .
وأما في حديث جرير بن عبد الله ؛ ففيه زيادة على ما سبق - من إقامة الصلاة وإيتاء الزكاة - « النصح لكل مسلم » ، إن الإنسان ينصح لكل مسلم بحيث يعامله كما يعامل نفسه وكما يحب أن يعامله الناس ، فلا يشتمه ، ولا يقذفه ، ولا يخدعه ، ولا يغشه ، ولا يخونه ، ويكون له ناصحًا من كل وجه ، وإذا استشاره في شيء وجب عليه أن يشير عليه بما هو الأصلح له في دينه ودنياه . وقد ذُكِر أن جرير بن عبد الله ﷺ حينما بايع النبي ﷺ على هذه البيعة : « النصح لكل مسلم » ، ذُكِر عنه أنه اشترى فرسًا من شخص بثمن ثم إنه لما ركبه ورأى الفرس لقاه جيدًا ، فرجع إلى البائع وقال : (إن فرسك هذا يساوي أكثر ، فزاده إلى أن زاده قسطًا بثمن الأول مرة أو مرتين) ؛ لأنه بايع النبي ﷺ على : (النصح لكل مسلم) . فعلى المرء أن يكون واصلًا لرحمه وأن يكون ناصحًا لإخوانه المسلمين ، وفي حديث تميم الداري أن النبي ﷺ قال : « الدين النصيحة » ثلاث مرات ، قالوا : لمن ، قال : « للَّه ، ولكتابه ، ولرسوله ، ولأئمة المسلمين وعامتهم » (٣) . واللَّه الموفق .

---

(١) أخرجه البخاري في الزكاة باختصار (١٣٩٧) ومسلم في الإيمان (١٥) والإمام أحمد في المسند (٤٧٢/٣) وابن ماجه في الفتن (٣٩٧٣) .

(٢) أخرجه البخاري في الزكاة (١٤٠١) ومسلم في الإيمان (٩٧) .

(٣) أخرجه البخاري في الإيمان باب (٤٣) ومسلم في الإيمان (٩٥) والنسائي في السنن (١٥٧/٧) ، وأحمد في مسنده (٢٩٧/٢) .

١٢١٤ - وَعَنْ أَبي هُريرَةَ ﷺ قَالَ : قَالَ رسول اللَّه ﷺ : « مَا مِنْ صَاحِبِ ذهَبٍ ، وَلا فِضَّةٍ ، لا يُؤَدِّي مِنْهَا حَقَّهَا ؛ إلا إذا كَانَ يَومُ القِيَامَةِ صُفِّحَتْ لَهُ صَفائِحُ مِنْ نَارٍ ، فَأُحْمِيَ عَلَيها في نارِ جَهَنَّمَ ، فَيُكْوَى بَها جَنْبُهُ ، وَجَبِينُهُ ، وَظَهْرُهُ ، كُلَّما بَرَدَتْ أُعيدَتْ لَهُ في يَومٍ كَانَ مِقْدَارُهُ خَمْسِينَ أَلْفَ سَنَةٍ ، حَتَّى يُقْضَى بَينَ العِبَادِ فَيُرَى سَبِيلُهُ ، إمَّا إلى الـجَنَّةِ ، وَإمَّا إلى النَّارِ» قِيلَ : يَا رَسُولَ اللَّهِ فالإبِلُ ؟ قَالَ : ولا صاحِبِ إبِلٍ لا يُؤَدِّي مِنْهَا حَقَّهَا ، وَمِنْ حَقِّهَا حَلْبُها يومَ وِرْدِهَا ، إلا إذا كانَ يَومُ القِيَامَة بُطِحَ لَها بقَاعٍ قَرْقَرٍ أوفرَ ما كانَتْ ، لا يَفْقِدُ مِنْهَا فَصِيلًا وَاحِدًا ، تَطَؤُهُ بِأَخْفافِهَا ، وَتَعَضُّهُ بِأفْواهِها ، كُلَّمَا مَرَّ عَلَيهِ أولاَهَا ، رُدَّ عَلَيهِ أُخْرَاها ، في يَومٍ كانَ مِقْداره خَمْسِينَ أَلْفَ سَنَةٍ، حَتَّى يُقْضَى بَينَ العِبادِ ، فَيُرَى سَبِيلُه ، إمَّا إلى الـجَنَّةِ وَإمَّا إلى النارِ » .

قِيلَ : يَا رسولَ اللَّهِ فَالبَقَرُ وَالغَنَمُ ؟ قالَ : « وَلا صَاحِبِ بَقَرٍ وَلا غَنمٍ لا يُؤَدِّي مِنها حَقَّهَا ، إلا إذا كانَ يَومُ القِيَامَةِ ، بُطِحَ لهَا بقَاعٍ قَرقَرٍ ، لا يَفْقِد مِنْهَا شَيْئًا ، لَيس فِيهَا عَقْصَاءُ ، ولا جَلْحَاءُ ، وَلا عَضباءُ ، تَنْطَحُهُ بِقُرُونِهَا ، وَتَطَؤُهُ بِأَظْلافِهَا ، كُلَّمَا مَرَّ عَلَيهِ أُولاها ، رُدَّ عَلَيهِ أُخْرَاها ، في يَومٍ كانَ مِقْدارُهُ خَمْسِينَ أَلْفَ سَنَةٍ حَتَّى يُقْضَى بَينَ العِبَادِ ، فَيُرَى سَبِيلُهُ إمَّا إلى الـجَنَّةِ ، وَإمَّا إلى النَّارِ » .

قِيلَ : يا رَسُولَ اللَّهِ فالخيلُ ؟ قَالَ : « الخَيلُ ثَلاثَةٌ : هيَ لِرَجُلٍ وِزرٌ ، وَهِيَ لِرجُلٍ سِتْرٌ ، وهِي لِرجُلٍ أجرٌ ، فَأَمَّا التي هيَ لهُ وِزرٌ : فَرَجُلٌ رَبَطَهَا رِياءً وَفخْرًا وَنِواءً عَلى أَهْلِ الإسْلامِ ، فهيَ لَهُ وِزرٌ ، وَأَمَّا التي هِيَ لَهُ سِتْرٌ : فَرَجُلٌ رَبَطَهَا في سَبِيلِ اللَّهِ ، ثُمَّ لَم يَنْسَ حَقَّ اللَّهِ في ظُهُورِها ، وَلا رِقابِهَا ، فَهِيَ لَهُ سِتْرٌ ، وَأَمَّا التي هيَ لَهُ أَجْرٌ : فَرَجُلٌ رَبَطَهَا في سبيلِ اللَّه لأَهْلِ الإسْلامِ في مَرْجٍ ، أَو رَوضةٍ ، فَمَا أَكَلَت مِن ذلك المَرجِ أو الرَّوضَةِ مِن شَيءٍ ؛ إلَّا كُتِبَ لَهُ عَدَدَ ما أَكَلَت حَسَناتٌ ، وَكُتِبَ لَهُ عَدَدَ أَرواثِها وَأَبوالِهَا حَسَنَاتٌ ، وَلا تَقْطَعُ طِوَلَها فاسْتَنَّت شَرَفًا أو شَرفَينِ ؛ إلا كَتَبَ اللَّهُ لَهُ عَدَدَ آثارِهَا ، وَأَرواثها حَسَنَاتٍ ، وَلا مَرَّ بها صَاحِبُهَا عَلى نَهْرٍ ، فَشَرِبَت مِنْهُ ، وَلا يُرِيدُ أَن يَسْقِيَها ؛ إلا كَتَبَ اللَّهُ لَهُ عَدَدَ ما شَرِبَت حَسَنَاتٍ » .

قِيلَ : يا رسولَ اللَّهِ فالحُمُرُ ؟ قالَ : « مَا أُنْزِلَ عَلَيَّ في الحُمُر شَيءٌ إلا هذِهِ الآيةُ الفَاذَّةُ الجَامِعَةُ : ﴿ فَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْرًا يَرَهُۥ ۝٧ وَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ شَرًّا يَرَهُۥ ﴾ [الزلزلة : ٦، ٧] (١) .

متفقٌ عليه . وهذا لفظُ مُسْلم .

---

(١) أخرجه مسلم في الزكاة بلفظه (٢٤) والبخاري في الزكاة (١٤٠٢) بنحوه ، والبيهقي في السنن (٨١/٤) ، قوله : « لا يؤدي منها حقها » أي ما قدر فيها من زكاة ، قوله : « صفحت له صفائح » أي جعلت كنوزه الذهبية والفضية كأمثال الألواح ، قوله : « بطح له بقاع قرقر » أي ألقي على وجهه في قعر صحراء واسعة مستوية ، قوله : « كلما مر عليه أولاها رد عليه أخراها » هكذا في جميع الأصول ، وقال القاضي عياض : هو تغيير وتصحيف . وصوابه : كلما رد عليه أخراها رد عليه أولاها ؛ حتى ينتظم الكلام ، قوله : « عقصاء » أي ملتوية القرنين ، قوله : « جلحاء » أي لا قرن لها ، قوله : « جدباء » هي التي انكسر قرنها ، قوله : « بأظلافها » هو بمنزلة الحافر للفرس ، قوله : « ونواء » أي معاداة ، قوله : « فرجل » أي فخيل رجل ، قوله : « ربطها في سبيل اللَّه » أي أعدها للجهاد ، قوله : « في مرج أو روضة » المرج هو الأرض الواسعة ذات النبات الكثير التي تسرح فيها الدواب ، والروضة أخص من =

الشرح

هذا الحديث الذي أورده المؤلف رَحِمَهُ اللَّهُ في باب تأكيد وجوب الزكاة وبيان فضلها، وهو حديث أبي هريرة الذي أخرجه مسلم مطوّلًا، فيه ذكر النبي ﷺ الذهبَ والفضة والإبل، والبقر، والغنم، والخيل والحمر، وذَكَرَ حُكْمَ كل منها عليه الصلاة والسلام وهكذا كان ﷺ يبين للناس بيانًا شافيًا كافيًا حتى ترك أمته وقد أكمل به الله الدين وأتم به النعمة على المؤمنين، فقال ﷺ: « ما من صاحب ذهب ولا فضة لا يؤدي منها حقها إلا إذا كان يوم القيامة صُفِّحَتْ له صفائح من نار فَأُحْمِي عليها في نار جهنم فيُكْوَى به جنبه وجبينه وظهره، كلما بردت أعيدت في يوم كان مقداره خمسين ألف سنة حتى يُقْضَى بين العباد، ثم يرى سبيله إما إلى الجنة، وإما إلى النار». فالذهب والفضة تجب الزكاة في أعيانهما في كل حال، فالزكاة واجبة في أعيان الذهب والفضة في كل حال، سواء أعدها الإنسان للنفقة، أو للزواج، أو لشراء بيت يحتاج إلى سكناه، أو شراء سيارة يحتاج إلى ركوبها أو ادخرهما ليستكثر بهما المال، أو غير ذلك، ففيهما الزكاة على كل حال حتى ذَهَبُ المرأة الذي تلبسه والفضة التي تلبسها تجب عليها الزكاة، تجب الزكاة فيها على كل حال، لكن لا بد من بلوغ النصاب، وهو في الذهب خمسة وثمانون جرامًا ونصف جرام، والفضة خمسمائة وخمسة وتسعون جرامًا، فإذا كان عند الإنسان من الفضة هذا المقدار ومن الذهب ذلك المقدار وجب عليه الزكاة على كل حال، فإن لم يفعل فجزاؤه ما ذكره النبي ﷺ: « إذا كان يوم القيامة صُفِّحَت له صفائح من نار» لا من ذهب وفضة، من نار - والعياذ بالله - قطع نارية ويُحْمَى عليها في نار جهنم، ونار جهنم فُضِّلت على نار الدنيا كلها بتسعة وستين جزءًا، نار الدنيا كلها حتى نار الغاز وما هو أشد حرارة، نار جهنم فضِّلت عليها بتسعة وستين جزءًا [1]. نسأل الله أن يجيرنا وإياكم منها - يحمى عليها في نار جهنم فيُكوى به جنبُه، يعني الجنب الأيمن والأيسر، وجبينه: يعني وجهه، وظهره: واضح معناه، كلما بردت أعيدت لا تبقى حتى تبرد وتسكت عنه، كلما بردت أعيدت، في يوم كان مقداره خمسين ألف سنة، ليس ساعة ولا ساعتين ولا شهرًا ولا شهرين ولا سنة ولا سنتين، خمسون ألف سنة وهو يعذب هذا العذاب - والعياذ بالله - حتى يُقْضَى بين العباد، ثم يرى سبيله إما إلى الجنة، وإما إلى النار، نسأل الله العافية، وعلى هذا يكون هذا الحديث كالتفسير لقول الله تعالى: ﴿ وَٱلَّذِينَ يَكۡنِزُونَ ٱلذَّهَبَ وَٱلۡفِضَّةَ وَلَا يُنفِقُونَهَا فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ فَبَشِّرۡهُم بِعَذَابٍ أَلِيمٖ ﴾ [التوبة: ٣٤]. ومعنى يكنزونها أي: لا يؤدون زكاتها، كما فسَّرها بذلك أهل العلم من الصحابة والتابعين ومَنْ بعدهم؛ لأن ما لا يُؤَدَّى زكاته فهو كنز، ولو كان على رؤوس الجبال، وما تُؤَدَّى

= المرعى، قوله: « استنت » أي جَرَتْ وَعَدَت، قوله: « شرفًا » هو العالي من الأرض، قوله: « فالحمر » أي فما حكم الحمر؟ قوله: « الفاذة » أي القليلة النظير المتناولة لكل خير ومعروف.

(١) وذلك لما رواه البخاري في بدء الخلق (٣٢٦٥)، ومسلم في الجنة وصفة نعيمها (٣٠)، والترمذي في صفة جهنم (٢٥٨٩)، وأحمد في مسنده (٢/٣١٣).

زكاته فليس بكنز ولو كان في باطن الأرض ، فالكنز ما لا تؤدَّى زكاته .

﴿ يَوْمَ يُحْمَىٰ عَلَيْهَا فِي نَارِ جَهَنَّمَ فَتُكْوَىٰ بِهَا جِبَاهُهُمْ وَجُنُوبُهُمْ وَظُهُورُهُمْ ﴾ [1] [التوبة : ٣٥] وهذا عذاب وألم جسدي ، ويعذبون عذابًا قلبيًّا ، فيقال لهم : ﴿ هَٰذَا مَا كَنَزْتُمْ لِأَنفُسِكُمْ فَذُوقُوا مَا كُنتُمْ تَكْنِزُونَ ﴾ [التوبة : ٣٥] ، فيحصل لهم العذاب الجسدي ، والعذاب القلبي بالتوبيخ والتأنيب ، فكيف يكون قلبه في تلك الساعة وهو يقال له : هذا ما كنزت لنفسك ؟ سيتقطع قلبه ، ألم جسدي ، وألم قلبي - والعياذ بالله - هذا جزاء من لا يؤدي الزكاة من الذهب أو الفضة . وما قام مقام الذهب والفضة بالنقدية فله حكمه ، وعلى هذا فمن عنده أوراق تساوي هذا المبلغ من الذهب والفضة ، فعليه أن يزكي عنها ، ومعاملة الناس الآن في غالب الدول كلها بالأوراق ، فئة ريال ، فئة خمسة ، فئة عشرة ... هذه الأوراق تقوم مقام الذهب والفضة ؛ لأنها جُعِلَت بدلًا عنها في التعامل بين الناس ، فإذا ملك الإنسان أوراقًا تساوي هذا القدر من الفضة ، فعليه زكاته ، يعني تساوي (٥٦) ريالًا عربيًّا من الفضة فعليه الزكاة ، ومعلوم أن الفضة ترتفع أحيانًا وتنخفض أحيانًا ؛ فيقدر قيمتها إذا وجبت عليه الزكاة ، فإذا بلغت النصاب أي (٥٦) ريالًا من الفضة فعليه زكاته ، ومقدار الزكاة ربع العشر .

ثم ذكر النبي ﷺ الإبل والبقر والغنم ، وجعل من حق الإبل حلبها يوم وِردها ، إذا وَرَدَت على الماء فإنها تُحْلَب ، وجرت العادة أنهم يحلبونها ويتصدقون بها على الحاضرين ، هذا من حقها ، لأن الإبل روايا كبيرة ، فيها ألبان ، فإذا وردت الماء درَّت ، وإذا درت صار فيها فضل كبير من اللبن ، فإذا جاء الفقراء يوزع عليهم ، هذا من حقها .

وذكر - عليه الصلاة والسلام - الخيل وأنها ثلاثة أنواع : أجر - وستر - ووزر .

أما الحمر فإنه قال أنه لم ينزل عليه فيها شيء . إلا هذه الآية الجامعة الفاذة ﴿ فَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْرًا يَرَهُ ۝ وَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ شَرًّا يَرَهُ ﴾ . فإن استعملت الحمير في خير فهو خير ، وإن استعملتها في شر فهي شر . والله أعلم .

* * *

٢١٧ - باب وجوب صوم رمضان وبيان فضل الصيام وما يتعلق به

قالَ اللَّه تعالى : ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ كُتِبَ عَلَيْكُمُ ٱلصِّيَامُ كَمَا كُتِبَ عَلَى ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِكُمْ ﴾ إلى قَولِهِ تَعالى : ﴿ شَهْرُ رَمَضَانَ ٱلَّذِىٓ أُنزِلَ فِيهِ ٱلْقُرْءَانُ هُدًى لِّلنَّاسِ وَبَيِّنَٰتٍ مِّنَ ٱلْهُدَىٰ وَٱلْفُرْقَانِ فَمَن شَهِدَ مِنكُمُ ٱلشَّهْرَ فَلْيَصُمْهُ وَمَن كَانَ مَرِيضًا أَوْ عَلَىٰ سَفَرٍ فَعِدَّةٌ مِّنْ أَيَّامٍ أُخَرَ ﴾ [البقرة : ١٨٣- ١٨٥] .

---

(١) قوله : ﴿ يُحْمَىٰ ﴾ أي يوقد .

الشرح

ذكر المؤلف رحمه الله وجوب صوم رمضان وبيان فضل الصوم وما يتعلق به بعد الكلام على الزكاة ؛ لأن هذا هو الترتيب الذي جاء في حديث عمر بن الخطاب رضي الله عنه في مسألة جبريل النبيَّ ﷺ عن الإسلام والإيمان والإحسان والساعة وأماراتها .

وصوم رمضان : هو التعبد لله سبحانه وتعالى بترك الأكل والشرب والجماع من طلوع الفجر إلى غروب الشمس ، هذا هو الصيام : أن يتعبد الإنسان لله بترك هذه الأشياء ، لا أن يتركها على العادة أو من أجل البدن ، ولكنه يتعبد لله بذلك ، يمسك عن الطعام والشراب والنكاح ، وكذلك سائر المفطرات من طلوع الفجر إلى غروب الشمس ، من هلال رمضان إلى هلال شوال .

وصيام رمضان أحد أركان الإسلام ، هذه منزلته في دين الإسلام ، وهو فرض بإجماع المسلمين ، لدلالة الكتاب والسنة على ذلك .

ثم ذكر المؤلف الآيات التي تدل على هذا فقال : ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا كُتِبَ عَلَيْكُمُ الصِّيَامُ كَمَا كُتِبَ عَلَى الَّذِينَ مِن قَبْلِكُمْ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ ﴾ فوجّه الله الخطاب للمؤمنين لأن صيام رمضان من مقتضيات الإيمان ، ولأن صيام رمضان يكمل به الإيمان ، ولأن ترك صيام رمضان ينقص به الإيمان .

واختلف العلماء فيما لو تركه تهاونًا أو كسلًا ، هل يكفرُ أم لا ؟ . والصحيح : أنه لا يكفر ، وأنه لا يكفر الإنسان بترك شيء من أركان الإسلام سوى الشهادتين والصلاة .

وقوله تعالى : ﴿ كُتِبَ عَلَيْكُمُ الصِّيَامُ ﴾ ، أي : فُرِض - وقوله : ﴿ كَمَا كُتِبَ ﴾ : أي كما فرض على الذين من قبلكم ﴿ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ ﴾ وإنما ذكر الله تعالى أنه فرض على من قبلنا ولم يذكر مثل ذلك في الصلاة ؛ لأن الصيام فيه مشقة ، فيه تعب ، فيه ترك المألوف ، ولا يخفى أنه في أيام الحر وطول النهار يكون شديدًا على النفوس ، فذكر الله أنه فرضه على من قبلنا تسلية لنا ، لأن الإنسان إذا علم أن هذا الشيء له ولغيره هان عليه . وذكره أيضًا من أجل أن يبين أنه جل وعلا أكمل لنا الفضائل ، كما أكمل لمن سبقنا ما شاء من الفضائل .

وقوله : ﴿ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ ﴾ أي : لأجل أن تتقوا الله ؛ لأن الصيام جُنَّة ، يقيك من المعاصي ، ويقيك من النار ، لأن : « من صام رمضان إيمانًا واحتسابًا غُفِر له ما تقدم من ذنبه »[1] ﴿ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ ﴾ أي من أجل التقوى ، وهذه هي الحكمة من إيجاب الصوم ، ويدل على هذا قوله ﷺ : « من لم يدع قول الزور والعمل به والجهل ، فليس لله حاجة في أن يدع طعامه وشرابه »[2] ، لأن الله لم يرد أن يعذب العباد بترك ما يشتهون ويألفون ، ولكنه أراد أن يَدَعوا قول الزور والعمل به والجهل .

---

(١) أخرجه البخاري في الإيمان (٣٨) ومسلم في صلاة المسافرين (١٧٥) والنسائي في السنن (١٥٦/٤) ، وابن ماجه في الصيام (١٦٤١) .

(٢) أخرجه الترمذي في الصوم (٧٠٧) وابن ماجه في الصيام (١٦٨٩) وأحمد في مسنده (٤٥٢/٢) .

ثم قال : ﴿ أَيَّامًا مَّعْدُودَٰتٍ ﴾ ذكرها على وجه التقرير ليبين أن المسألة ليست شهورًا ولا سنوات ولكنها أيام ، وليست طويلة ، أيامًا معدودات .

﴿ فَمَن كَانَ مِنكُم مَّرِيضًا أَوْ عَلَىٰ سَفَرٍ فَعِدَّةٌ مِّنْ أَيَّامٍ أُخَرَ ﴾ وهذا أيضًا تفسير آخر ، أولًا : الأيام قليلة ، أيام معدودة ، ثانيًا : أن من كان يشق عليه الصوم ، أو سافر ؛ فإنه يفطر ، وعليه عدة من أيام أخر .

﴿ وَعَلَى ٱلَّذِينَ يُطِيقُونَهُۥ ﴾ وهم مقيمون ﴿ فِدْيَةٌ طَعَامُ مِسْكِينٍ فَمَن تَطَوَّعَ خَيْرًا فَهُوَ خَيْرٌ لَّهُۥ وَأَن تَصُومُوا۟ خَيْرٌ لَّكُمْ ﴾ هذا في أول الأمر ، أول ما فرض اللَّه الصوم قال للذين يطيقونه ، عليكم فدية طعام مسكين ، فإن تصدقتم فهو خير لكم ، وأن تصوموا خير لكم ، فخيَّرَ اللَّه الناس في أول الأمر بين أن يصوم الإنسان ، أو يطعم عن كل يوم مسكينًا ، ثم تعينَّ الصيام في الآية التي بعدها .

﴿ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ ﴾ أي إن كنتم من ذوي العلم ، الذين يفهمون ، ووجه ذلك : أن الصوم أشق على كثير من الناس من إطعام المسكين ، فلما كان أشق عُلِم أنه أفضل ؛ لأن الإنسان إذا عمل عبادة شاقة بأمر اللَّه ، كان أجرها أعظم ، ومن ثَمَّ كان الأبعد من المسجد أعظم أجرًا من الأدنى من المسجد ؛ لأنه أكثر عملًا ، لكن ليس معنى ذلك أن الإنسان يطلب المشقة في العبادات التي يسرها اللَّه ، هذا من التنطُّع في الدين ، لكن إذا كلفك اللَّه بعبادة ، وشقت عليك صار هذا أعظم ، أمَّا أن تتطلَّب المشقة كما يفعل بعض الجهال في أيام الشتاء مثلًا يذهب فيتوضأ بالماء البارد ، يقول : لأنَّ إسباغ الوضوء على المكاره مما يرفع اللَّه به الدرجات ، ويمحو به الخطايا . نقول : يا أخي ما هذا أراد الرسول ﷺ إنما أراد الرسول ﷺ أن الإنسان إذا توضأ بماء بارد في أيام الشتاء كان أعظم أجرًا ، ولكنه لم يقل : اقصد الماء البارد ، فإذا مَنَّ اللَّه عليك بالماء الساخن تستطيع أن تسبغ الوضوء فيه إسباغًا كاملًا فهذا أفضل .

﴿ فَمَن كَانَ مِنكُم مَّرِيضًا ﴾ والمرض ثلاثة أقسام :

١ - قسم مَرضي لا يُرْجَى برؤه ، بل هو مستمر ، فهذا لا صيام على المريض ولكن عليه أن يطعم عن كل يوم مسكينًا ، لأنه من جنس الكبير العاجز عن الصوم الذي لا يُرْجَى زوال عجزه .

٢ - القسم الثاني : المريض مرضًا يضره الصوم ، ويخشى عليه أن يهلك به ، كمريض لا يستطيع الاستغناء عن الماء ، مثل بعض أنواع المرض السكري وما أشبه ذلك ، فهذا يحرم عليه الصوم ، لقول اللَّه تعالى : ﴿ وَلَا تَقْتُلُوٓا۟ أَنفُسَكُمْ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ بِكُمْ رَحِيمًا ﴾ [النساء: ٢٩] .

٣ - والقسم الثالث : مرض يشق معه الصوم ، لكن لا ضرر فيه ، والأفضل أن يفطر ولا يصوم ، ويقضي بعد ذلك ، وأما المرض الذي لا يتأثر به الصيام كمرض العين اليسير ومرض السن ، وما أشبه ذلك ، فإنه لا يجوز فيه الفطر ، لأن الحكمة من الرخصة هي إزالة المشقة ، وهذا لا مشقة عليه إطلاقًا ، فلا يحل له الفطر ، والأصل وجوب الصوم في وقته إلا بدليل بَيِّنٍ واضح يبيح للإنسان أن يفطر ثم يقضي بعد ذلك [1] .

---

(١) راجع المسألة في : المغني (١٤٧/٣) ، الهداية (٣١٩/١ ، ٣٢٠) ، مغني المحتاج (٤٣٧/١) .

وأما السفر : فإنه ينقسم كالمرض أيضًا إلى ثلاثة أقسام : قسم يضره الصومُ ويشق عليه مشقة شديدة بسبب سفره ، مثل أن يسافر في أيام الحر ، والأيام الطويلة ، ويعلم أن لو صام لتضرر به وشق عليه مشقة غير محتملة ، فهذا يكون عاصيًا إذا صام ، والدليل لذلك أن النبي ﷺ شُكي إليه أن الناس قد شق عليهم الصوم وهم في سفر ، فدعا بماء فشربه ، والناس ينظرون إليه حتى لا يكون في صدورهم حرج إذا أفطروا ، وكان ذلك بعد العصر ، ولكن بعض الصحابة ﷺ بقوا على صومهم ، فجيء إلى النبي ﷺ ، وقيل له : إن بعض الناس قد صام ، فقال : « أولئك العصاة ، أولئك العصاة »[١] ، فوصفهم بالعصيان ؛ لأنهم لم يقبلوا رخصة الله مع مشقة ذلك عليهم مشقة شديدة .

والقسم الثاني : من يشق عليه مشقة ولكنها محتملة ، فهذا يُكْرَه له الصوم ، وليس من البر أن يصوم ، ودليل ذلك أن النبي ﷺ كان في سفر فرأى زحامًا ورجلًا قد ظُلِّلَ عليه ، قال : « ما هذا ؟! » قالوا : صائم ، فقال ﷺ : « ليس من البر الصيام في السفر »[٢] .

والقسم الثالث : من لا يتأثر بالسفر إطلاقًا ، يعني : صائم ولا يتأثر ، لأن النهار قصير والجو بارد ، ولا يهمه ، فهذا اختلف فيه العلماء أيهما أفضل . يفطر ، أم يصوم أو يُخَيَّر ، والصحيح أن الأفضل أن يصوم ، لأن ذلك أشد اتباعًا لسنة النبي ﷺ ، ولأنه أيسر على المكلف ، فإن الصيام مع الناس أيسر من القضاء ، ولأنه أسرع في المبادرة في إبراء الذمة ، ولأنه يوافق الزمن الذي يكون فيه الصوم أفضل وهو شهر رمضان ، فمن أجل هذه الأربعة كان الصوم أفضل[٣] .

قال أبو الدرداء ﷺ : (كنا مع النبي ﷺ في رمضان في حر شديد ، حتى إن أحدنا ليضع يده على رأسه أو كفه على رأسه من شدة الحر - وكان الصيام في السفر - ما فينا صائم إلا رسول الله وعبد الله بن رواحة)[٤] .

هذا حكم الصوم في السفر ، والسفر عام فيمن يسافر للعمرة ، أو يسافر لغير ذلك ، وفيمن سفره دائم ، وسفره عارض ، وعلى هذا فإن أهل الأمصار يفطرون ولو كان سفرهم مستمرًا ، لأن لهم وطنًا ، يأوون إليه ، فإذا فارق الرجل الوطن فهو مسافر . فإن سأل سائل : متى يصومون ؟! قلنا : يصومون في أيام الشتاء ، أو إذا قدموا إلى بلدهم .

* * *

١٢١٥ - وَعَنْ أَبي هُرَيرَةَ ﷺ قَالَ : قالَ رسول الله ﷺ : « قَالَ اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ : كُلُّ عَمَلِ ابْنِ آدَمَ لَهُ إلا الصِّيَامَ ، فَإِنَّهُ لي وَأَنَا أَجزي بِهِ ، وَالصِّيَامُ جُنَّةٌ ، فَإذا كَانَ يَومُ صَومِ أَحَدِكُمْ فَلا يَرْفُثْ وَلا يَصْخَبْ ، فَإِنْ سَابَّهُ أَحَدٌ أَو قَاتَلَهُ ، فَلْيَقُلْ : إنِّي صَائمٌ . وَالَّذِي نَفْسُ مُحَمَّدٍ بِيَدِهِ لَخُلُوفُ فَمِ الصَّائمِ

---

(١) أخرجه مسلم في الصيام (٩٠) .

(٢) أخرجه النسائي في السنن (١٧٦/٤) ، والترمذي في الصوم (٧١٠) وأحمد في مسنده (٣١٩/٣) ، والبخاري في الصوم (١٩٤٦) بلفظ : « أن تصوموا في السفر » وبنفس اللفظ مسلم في الصيام (٩٢) .

(٣) انظر الموضوع في المغني (١٥٠/٣) ، وبداية المجتهد (٢٩٦/١) ، والهداية (٣١٩/١) ، والأم (١٠٢/٢) .

(٤) أخرجه أبو داود في الصوم (٢٤٠٩) وفيه : خرجنا مع رسول الله ﷺ في بعض غزواته في حر شديد .

أَطْيَبُ عِنْدَ اللَّهِ مِنْ رِيحِ المِسْكِ . لِلصَّائِمِ فَرْحَتَانِ يَفْرَحُهُمَا : إذا أَفْطَرَ فَرِحَ بِفِطْرِهِ . وَإِذَا لَقِيَ رَبَّهُ فَرِحَ بِصَومِهِ » متفقٌ عليه .

وهذا لفظ روايةِ البُخاري ، وفي روايةٍ له : « يَتْرُكُ طَعَامَهُ ، وَشَرَابَهُ ، وشَهْوَتَهُ ، مِنْ أجْلي ، الصِّيَامُ لي وَأنَا أَجْزي بِهِ ، والحسنة بعشر أمثالها » .

وفي رواية لمسلم : « كلُّ عملِ ابنِ آدمَ يضاعفُ : الحسنةُ بعشرِ أمثالها إلى سبعمائة ضعف ، قال اللَّه تعالى : إلا الصومَ ؛ فإنه لي وأنَا أَجْزي بِهِ يَدَعُ شَهْوَتَهُ وَطَعَامَهُ مِنْ أَجْلي . للصَّائِمِ فَرْحَتَانِ : فَرْحَةٌ عِنْدَ فَطْرِهِ ، وَفَرْحَةٌ عِنْدَ لِقَاءِ رَبِّهِ . ولَخُلُوفُ فيهِ أَطْيَبُ عِنْدَ اللَّهِ مِنْ ريحِ المِسْكِ»[1] .

الشرح

هذا الحديث ، حديث أبي هريرة نقله المؤلف رَحِمَهُ اللَّهُ بعد أن ذكر الآيات ، وذكر فيه فوائد : أن اللَّه ﷻ جعل الصوم له ، وعمل ابن آدم الثاني - أي غير الصوم - لابن آدم . يقول اللَّه تعالى : « كل عمل ابن آدم له إلا الصيام فإنه لي » ، والمعنى : أن الصيام يختصه اللَّه ﷻ من بين سائر الأعمال ، لأنه - أي الصيام - أعظم العبادات إطلاقًا ، فإنه سر بين الإنسان وربه ، لأن الإنسان لا يُعلم إذا كان صائمًا أو مفطرًا ، هو مع الناس ولا يُعلم به ، نِيَّتُه باطنة ، فلذلك كان أعظم إخلاصًا ، فاختصه اللَّه من بين سائر الأعمال ، قال بعض العلماء : ومعناه : إذا كان اللَّه سبحانه وتعالى يوم القيامة وكان على الإنسان مظالم للعباد ، فإنه يؤخذ للعباد من حسناته إلا الصيام ، فإنه لا يؤخذ منه شيء ؛ لأنه لله ﷻ وليس للإنسان ، وهذا معنى جيد ، أن الصيام يتوفر أجره لصاحبه ولا يؤخذ منه لمظالم الخلق شيئًا .

ومنها : أن عمل ابن آدم يُزاد من حسنة إلى عشرة أمثالها ، إلا الصوم ، فإنه يُعطى أجره بغير حساب ، يعني : أنه يضاعف أضعافًا كثيرة ، قال أهل العلم : ولأن الصوم اشتمل على أنواع الصبر الثلاثة ، ففيه صبر على طاعة اللَّه ، وصبر عن معصية اللَّه ، وصبر على أقدار اللَّه .

أما الصبر على طاعة اللَّه : فلأن الإنسان يحمل نفسه على الصيام مع كراهته له أحيانًا ، يكرهه لمشقته ، لا لأن اللَّه فرضه ، لو كره الإنسان الصوم ؛ لأن اللَّه فرضه لحبط عمله ، لكنه كرهه لمشقته ، ولكنه مع ذلك يحمل نفسه عليه ، فيصبر عن الطعام والشراب والنكاح لله ﷻ ، ولهذا قال اللَّه تعالى في الحديث القدسي : « يترك طعامه وشرابه وشهوته من أجلي » .

النوع الثاني من أنواع الصبر : الصبر عن معصية اللَّه ، وهذا حاصل للصائم ؛ فإنه يصبر نفسه عن معصية اللَّه ﷻ ، فيتجنب اللغو والرفث والزور وغير ذلك من محارم اللَّه .

الثالث : الصبر على أقدار اللَّه ، وذلك أن الإنسان يصيبه في أيام الصوم(ولا سيما في الأيام الحارة

---

(١) أخرجه البخاري في الصوم(١٩٠٤) والتوحيد(٧٤٩٢) ومسلم في الصيام(١٦٣) والإمام أحمد في المسند (٢٧٣/٣) .

والطويلة) من الكسل والملل والعطش ما يتألم ويتأذى به ، ولكنه صابر لأن ذلك في مرضاة الله .

فلما اشتمل على أنواع الصبر الثلاث ؛ كان أجره بغير حساب ، قال الله - تعالى - ﴿ إِنَّمَا يُوَفَّى ٱلصَّٰبِرُونَ أَجْرَهُم بِغَيْرِ حِسَابٍ ﴾ [الزمر: ١٠] .

ومن الفوائد التي اشتمل عليها هذا الحديث : أن للصائم فرحتين ، الفرحة الأولى عند فطره ، إذا أفطر فَرِح بفطره ، فَرِح بفطره من وجهين ، الوجه الأول : أنه أدى فريضة من فرائض الله ، وأنعم الله بها عليه ، وكم من إنسان في المقابر يتمنى أن يصوم يومًا واحدًا فلا يكون له ! وهذا قد مَنَّ الله عليه بالصوم فصام ، فهذه نعمة ، فكم من إنسان شرع في الصوم ولم يتمه ! فإذا أفطر فَرِح ؛ لأنه أدى فريضة من فرائض الله ، ويفرح أيضًا فرحًا آخر ، وهو أن الله أحل له ما يوافق طبيعته من المآكل والمشارب والمناكح ، بعد أن كان ممنوعًا منها ، فهاتان فرحتان في الفطر :

الأولى : أن الله مَنَّ عليه بإتمام هذه الفريضة .

الثانية : أن الله من عليه بما أحل له مَنَّ محبوباته من طعام وشراب ونكاح .

ومن فوائد هذا الحديث : الإشارة إلى الحكمة من فرض الصوم ، حيث قال ﷺ : « فإذا كان يوم صوم أحدكم فلا يرفث ولا يصخب » يعني : لا يقول قولًا يأثم به ولا يصخب فيتكلم بكلام صخب ، بل يكون وقورًا مطمئنًا متأنيًا ، فإن سابَّه أحد أو شاتمه فلا يرفع صوته عليه ، بل يقول : إني صائم ، يقول ذلك ، لئلا يتعالى عليه الذي سابَّه ، كأنه يقول : أنا لست عاجزًا عن أن أقابلك بما سببتني ولكني صائم ، يمنعني صومي من الرد عليك ، وعلى هذا فيقوله جهرًا .

كذلك أيضًا إذا قال : (إني صائم) يُردع نفسه عن مقابلة هذا الذي سابَّه . كأنه يقول لنفسه : (إني صائم ، فلا تَرُدِّي على هذا الذي سبَّ) وهذا أيضًا معنىً جليل عظيم ولهذا كان النبي ﷺ إذا رأى من الدنيا ما يعجبه وخاف أن تتعلق نفسه بذلك ، قال : « لبيك إن العيش عيش الآخرة » (١) . فالنفس مجبولة على محبة ما تميل إليه ، فإذا رأى ما يعجبه من الدنيا فليقل : لبيك : يعني إجابةً لك يا رب .

« إن العيش عيش الآخرة » أما عيش الدنيا فزائل وفانٍ .

فهذه من فوائد الصوم نقلها المؤلف - رحمه الله تعالى - مما رواه أبو هريرة عن النبي ﷺ وفي هذا الحديث نوعان من أنواع الحديث : ألفاظ قدسية من كلام الله ﷻ التي رواها النبي ﷺ عن ربه ، وألفاظ نبوية من عند النبي ﷺ . والله أعلم .

* * *

١٢١٦ - وعنهُ : أنَّ رسول الله ﷺ قالَ : « مَنْ أَنْفَقَ زَوجَينِ في سَبِيلِ اللهِ نُودِيَ مِنْ أَبْوابِ الجَنَّةِ : يَا عَبْدَ اللهِ هذا خيرٌ ، فَمَنْ كَانَ مِنْ أَهْلِ الصَّلاةِ دُعِيَ مِنْ بَابِ الصَّلاةِ ، وَمَنْ كانَ مِنْ أَهْلِ الجهاد ، دُعِيَ مِنْ

---

(١) أخرجه البيهقي في السنن (٤٨/٧) .

بَابِ الجهَادِ ، وَمَنْ كَانَ مِنْ أَهْلِ الصِّيَامِ ، دُعِيَ مِنْ بَابِ الرَّيَّانِ ، وَمَنْ كَانَ مِنْ أَهْلِ الصَّدَقَةِ ، دُعِيَ مِنْ بَابِ الصَّدَقَةِ » قال أبو بكر ﷺ : بِأَبِي أَنْتَ وَأُمِّي يا رسولَ اللَّهِ ! ما عَلى مَنْ دُعِيَ مِنْ تِلكَ الأَبْوابِ مِنْ ضَرُورَةٍ ، فهلْ يدعَى أَحَدٌ مِنْ تِلكَ الأَبْوابِ كلِّهَا ؟ قال : « نَعَم ، وَأَرْجُو أَنْ تكونَ مِنهم »[1] متفقٌ عليه .

١٢١٧ – وعنْ سهلِ بنِ سعدٍ ﷺ عن النبي ﷺ قالَ : « إنَّ في الجَنَّةِ بَابًا يُقَالُ لهُ : الرَّيَّانُ ، يَدْخُلُ مِنْهُ الصَّائمونَ يَومَ القِيامةِ ، لا يدخلُ مِنْهُ أَحَدٌ غيرهم ، يقالُ : أينَ الصَّائمونَ ؟ فَيَقومونَ لا يدخلُ مِنْهُ أَحَدٌ غيرُهم ، فإذا دَخلوا أُغلقَ فَلَم يَدخلْ مِنْهُ أَحَدٌ »[2] . متفقٌ عليه .

١٢١٨ – وعَنْ أبي سَعيدِ الخُدْريِّ ﷺ قالَ : قالَ رسول اللَّهِ ﷺ : « مَا مِنْ عَبْدٍ يصُومُ يَومًا في سَبِيلِ اللَّهِ ؛ إلا بَاعَدَ اللَّهُ بِذلكَ اليَومِ وَجْهَهُ عَن النَّارِ سَبعِينَ خَريفًا »[3] متفقٌ عليه .

١٢١٩ – وعنْ أَبي هُرَيرَةَ ﷺ عَنِ النَّبيِّ ﷺ ، قالَ : « مَنْ صَامَ رَمَضَانَ إيمانًا واحتِسَابًا ؛ غفِرَ لَهُ ما تَقَدَّمَ مِنْ ذنْبِهِ »[4] متفقٌ عليه .

الشرح

هذه الأحاديث التي ساقها النووي كلها تدل على فضل الصيام ، فمنها حديث أبي هريرة ﷺ أن النبي ﷺ قال : « من أنفق زوجين في سبيل اللَّه دُعِي من أبواب الجنة : يا عبد اللَّه هذا خير » زوجين : صنفين ، مثل أن ينفق دراهم ودنانير أو دراهم وأمتعة أو خيلًا وإبلًا وما أشبه ذلك ، قال تعالى ﴿ وَكُنتُمْ أَزْوَاجًا ثَلَاثَةً ﴾ [الواقعة : ٧] أي أصنافًا ثلاثة ، ثم ذكر الرسول أبواب الجنة وفي قوله ﷺ : « دُعِي من أبواب الجنة : يا عبد اللَّه هذا خير » يعني أن الملائكة تدعوه من كل باب فتقول : هذا خير ، هذا خير ، هذا خير ، وهذا يدل على فضل الإنفاق في سبيل اللَّه ، وفيه أيضًا : أنه من كان من أهل الصلاة دعي من باب الصلاة ، ومن كان من أهل الصدقة دعي من باب الصدقة ، ومن كان من أهل الصيام دعي من باب الريان ؛ لأن هذا الباب خاص بهم ، فالريان يعني الذي يروي ؛ لأن الصائمين يعطشون ولا سيما في أيام الصيف الطويلة الحارة فيجازون بتسمية هذا الباب بما يختص بهم باب الريان ، وقوله : « من كان من أهل الصدقة .. من أهل الجهاد .. من أهل الصيام » يعني : من كان يكثر من هذا الشيء وهذا يعني من صام فقط ولم يكن يصلي فإنه لا يدخل الجنة لأنه كافر . لكن المراد بذلك المسلمين الذين

---

(١) أخرجه البخاري في الصوم (١٨٩٧) ، ومسلم في الزكاة (٨٥) ، والإمام أحمد في المسند (٢٦٨/٢ ، ٣٦٦) .

(٢) أخرجه البخاري في الصوم (١٨٩٦) ، ومسلم في الصيام (١٦٦) ، وابن ماجه في الصيام (١٦٤٠) ، والبيهقي في السنن (٣٠٥/٤) ، قوله : « أين الصائمون » أي : المكثرون من الصيام .

(٣) أخرجه البخاري في الجهاد والسير (٢٨٤٠) ، ومسلم في الصوم (١٦٧) ، والنسائي في السنن (١٧٣/٤) والدارمي في السنن (٢٠٣) ، قوله : « سبعين خريفًا » أي باعد النار عنه مسيرة سبعين عامًا .

(٤) أخرجه البخاري في الصوم (١٩٠١) ، ومسلم في صلاة المسافرين وقصرها (١٧٥) ، قوله : « إيمانًا واحتسابًا » أي : مصدقًا بثواب اللَّه وعطائه قاصدًا بذلك وجه اللَّه تعالى فقط ، قوله : « غفر له ما تقدم من ذنبه » أي من الذنوب والصغائر المتعلقة بحق اللَّه سبحانه .

يكثرون الصلاة ؛ فإنهم يُدْعَون من باب الصلاة ، والذين يكثرون الصدقة يُدْعَون من باب الصدقة ... وعلى كل حال من كان من أهل الجنة دخل الجنة من أي باب كان ، وأبواب الجنة ثمانية ، وأبواب النار سبعة ، أما أبواب النار : فذكرها الله في القرآن فقال تعالى : ﴿ لَهَا سَبْعَةُ أَبْوَٰبٍ لِّكُلِّ بَابٍ مِّنْهُمْ جُزْءٌ مَّقْسُومٌ ﴾ [الحجر : ٤٤] أما أبواب الجنة الثمانية فصحت بها السنة عن النبي ﷺ (١) .

ولما حدَّثَ النبي ﷺ بهذا الحديث ، قال أبو بكر : « يا رسول الله بأبي أنت وأمي ما على من دعي من تلك الأبواب من ضرورة ؟ » ، يعني الذي يُدعى من باب واحد لا يشق عليه ، فهل يُدعى أحد من هذه الأبواب كلها ؟! يعني كل باب عليه ملائكة ينادون عليه ، يا فلان ، قال : « نعم » يعني : ممكن أن يكون الإنسان كثير الصلاة ، كثير الصدقة ، والجهاد ، فيُدعى من الأبواب كلها ؟ قال : نعم ، وأرجو أن تكون منهم . فأبو بكر رضي الله عنه يدعى من الأبواب الثمانية كلها ؛ لأنه رضي الله عنه سبَّاق إلى الخير ، كل خير له فيه نصيب ، حتى إنه رضي الله عنه عندما حث النبي ﷺ ذات يوم على الصدقة ، ورغب فيها ، فأتى عمر رضي الله عنه ، وكان يحب أن يسبق أبا بكر لا حسدًا لأبي بكر ، ولكن حبًّا في السبق إلى الخير ، فأتى عمر بنصف ماله للصدقة فلما جاء إلى النبي ﷺ إذا أبو بكر قد جاء بجميع ماله ، كل ماله ، فقال له الرسول : « ماذا تركت لأهلك ؟ » قال : تركت لهم الله ورسوله . قال عمر : والله لا أسابقه بعدها أبدًا (٢) ، لأن أبا بكر رضي الله عنه أسبق الصحابة على الخير ، وأقواهم إيمانًا ، وأشدهم تصديقًا بالله ورسوله .

ثم ذكر أحاديث أخرى كلها تدل على الصيام ، آخرها قوله في حديث أبي هريرة ، « من صام رمضان إيمانًا واحتسابًا غفر له ما تقدم من ذنبه » إذا صام إيمانًا بالله ، واحتسابًا بثواب الله فإن الله تعالى يغفر له ما تقدم من ذنبه .

* * *

١٢٢٠ - وعنهُ رضي الله عنه أَنَّ رسول الله ﷺ قالَ : « إذا جَاءَ رَمَضَانُ ؛ فُتِّحتْ أَبْوابُ الجَنَّةِ ، وَغُلِّقَت أَبْوابُ النَّارِ ، وصُفِّدَتِ الشَّيَاطِينُ » (٣) متفقٌ عليه .

١٢٢١ - وعنهُ أَنَّ رسول اللهِ ﷺ قالَ : « صُومُوا لِرُؤْيَتِهِ ، وَأَفْطِرُوا لِرُؤْيَتِهِ ، فإن غُبِّيَ عَليكم ؛ فَأَكْمِلُوا عِدَّةَ شَعْبَانَ ثَلاثِينَ » متفقٌ عليه وهذا لفظ البخاري . وفي روايةِ مسلم : « فَإن غُمَّ عَليكم ؛ فَصُوموا ثَلاثِينَ يَومًا » (٤) .

---

(١) وذلك لما رواه مسلم في الإيمان (٤٦) ، وأحمد في مسنده (١٤/٤) .

(٢) انظر في ذلك سنن أبي داود في الزكاة (١٦٧٨) ، والترمذي في السنن (٣٦٧٥) ، والحاكم في المستدرك (٤١٤/١) ، والبيهقي في السنن (١٨١/٤) .

(٣) أخرجه البخاري في الصوم (١٨٩٩) ، ومسلم في الصوم (١) ، والإمام أحمد في المسند (٣٥٧/٢) ، والبيهقي في السنن (٣٠٣/٤) .

(٤) أخرجه البخاري في الصوم (١٩٠٩) ، ومسلم في الصيام (١٧) ، والترمذي في الصوم (٦٨٨) ، قوله : « صوموا لرؤيته » أي : لرؤية هلال رمضان ، قوله : « غبي » أي : حال بينكم وبينه غيم .

الشرح

نقل النووي رَحِمَهُ اللَّهُ عن أبي هريرة أن النبي ﷺ قال : « إذا دخل رمضان فُتِّحت أبواب الجنة ، وغُلِّقت أبواب النيران ، وصُفِّدت الشياطين » هذه ثلاثة أشياء تكون في رمضان :

تفتح أبواب الجنة : ترغيبًا للعاملين لها بكثرة الطاعات من صلاة وصدقة وذكر وقراءة للقرآن وغير ذلك .

وتغلق أبواب النيران : وذلك لقلة المعاصي فيه من المؤمنين .

وصفدت الشياطين : يعني : المردة منهم ، كما جاء ذلك في رواية أخرى . والمردة يعني : الذين هم أشد الشياطين عداوة وعدوانًا على بني آدم . والتصفيد معناه : الغل ، يعني تُغَل أيديهم حتى لا يخلصوا إلى ما كانوا يخلصون إليه في غيره ، وكل هذا الذي أخبر به النبي ﷺ حق ، أخبر به نصحًا للأمة ، وتحفيزًا لها على الخير ، وتحذيرًا لها من الشر .

وأما حديث أبي هريرة الثاني : فقال : « صوموا لرؤيته وأفطروا لرؤيته » يعني : أنه يجب على المسلمين أن يصوموا إذا رأوا الهلال - هلال رمضان - فإن لم يروه فلا صيام عليهم ، ولهذا قال : « فإن غُبيَ عليكم فأكملوا عدة شعبان ثلاثين يومًا » يعني : لو تغبى الهلال في غيم أو قطر وما أشبه ذلك فإنه يجب أن يكمل شعبان ثلاثين يومًا ، هذا لفظ البخاري .

أما لفظ رواية مسلم : « فصوموا ثلاثين يومًا » وهذا إذا غبي هلال شوال فبيَّن النبي ﷺ في هذا الحديث أنه متى غبي الهلال ليلة الثلاثين من شعبان ، فإنه يجب أن يكمل شعبان ثلاثين يومًا . وإذا غبي ليلة الثلاثين من رمضان فإنه يكمل ثلاثين يومًا ، والله الموفق .

* * *

٢١٨ - باب الجود وفعل المعروف والإكثار من الخير في شهر رمضان والزيادة من ذلك في العشر الأواخر منه

١٢٢٢ - وعن ابنِ عباسٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا قالَ : كانَ رسول اللَّه ﷺ أَجوَدَ النَّاسِ ، وَكانَ أَجْوَدُ ما يَكُونُ في رَمضانَ حين يَلْقَاهُ جبريلُ ، وكَانَ جِبْرِيلُ يَلقَاهُ في كُلِّ لَيلَةٍ مِنْ رَمَضَانَ فَيُدَارِسُهُ القرآنَ ، فَلَرسُولُ اللَّهِ ﷺ حِينَ يلقَاهُ جِبرِيلُ أَجْوَدُ بِالخَيرِ مِنَ الرِّيحِ المُرْسَلَةِ [١] . متفقٌ عليه .

١٢٢٣ - وعَنْ عائشةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا قالَتْ : كانَ رسول اللَّه ﷺ إذا دَخَلَ العَشرُ ؛ أحيَا الليل ، وَأَيقَظَ أَهْلَهُ ، وَشَدَّ المئزرَ [٢] . متفقٌ عليه .

---

(١) أخرجه البخاري في الإيمان (٦) ، ومسلم في الفضائل (٥٠) ، والإمام أحمد في المسند (١/٢٨٨ ، ٣٦٣) والبيهقي في السنن (٤/٣٠٥) .

(٢) أخرجه البخاري في فضل ليلة القدر (٢٠٢٤) ، ومسلم في الاعتكاف (٧) ، وأبو داود في الصوم (١٣٧٦) .

الشرح

قال المؤلف رحمه الله في باب الجود في شهر رمضان : الجود : هو بذل المحبوب من مال أو عمل ، والإنسان يجود بماله فيعطي الفقير ويهدي إلى الغني ، ويواسي المحتاج . ويجود كذلك بعمله فيعين الإنسان في أموره : في سيارته ، في دكانه ، في بيته ، فالجود هو بذل المال ، أو العمل ، وربما يدخل في ذلك أيضًا بذل الجاه ، بأن يشفع لأحد أو يتوسط له في جلب منفعة أو دفع مضرة ، أو ما أشبه ذلك .

وكان النبي ﷺ كما قال أنس بن مالك رضي الله عنه (أجود الناس) بماله وبدنه وعلمه ودعوته ونصيحته ، وكل ما ينفع الخلق ، وكان أجود ما يكون في رمضان ؛ لأن رمضان شهر الجود ، يجود الله فيه على العباد ، والعباد الموفَّقون يجودون على إخوانهم والله - تعالى - جواد يحب الجود [1] ، وكان النبي ﷺ ينزل عليه جبريل في رمضان كل ليلة يدارسه القرآن من أجل أن يثبِّتَه في قلبه ، وأن يحصل الثواب بالمدارسة بينه وبين جبريل ، وجبريل عليه السلام ينزل لكن على كيفية لا نعلمها ، لأنه ملك من الملائكة ، والملائكة لا يُرَون إلا إذا شاء الله عز وجل كان رسول الله ﷺ حين يلقاه جبريل فيدارسه القرآن ، أجود بالخير من الريح المرسلة أي : أنه يسارع إلى الخير عليه الصلاة والسلام ، ويجود به ، حتى إنه أسرع من الريح المرسلة ، يعني : التي أرسلها الله عز وجل ، فهي سريعة عاصفة ، ومع ذلك فالرسول ﷺ أجود بالخير من هذه الريح في رمضان .

ثم ذكر المؤلف حديث عائشة رضي الله عنها : أن النبي ﷺ كان إذا دخل العشر الأواخر من رمضان أحيا الليل - أي أحياه بالذكر ، والقرآن والصلاة ، والعبادة - وأيقظ أهله ، وشد مئزره ، أيقظهم ليصلوا ، وشد المئزر أي : تأهَّب تأهُّبًا كاملًا للعمل ، لأن شد المئزر معناه : أن الإنسان يتأهَّب للعمل ، ويتقوى عليه ، وقيل : معنى شد المئزر : أنه يتجنب النساء ، عليه الصلاة والسلام ، لأنه يتفرغ للعبادة ، وكلاهما صحيح . النبي ﷺ يتفرغ للعبادة في العشر الأواخر من رمضان ، ويحيى الليل كله بطاعة الله ، فهذا من الجود بالنفس ، لكنه جود في حق الله عز وجل ، والله هو الذي يَمُنُّ على من يشاء من عباده ، إذا مَنَّ عليك بالعمل فله المنة ، يمن عليك بالعمل أولًا ، ثم يمن عليك بقبوله ثانيًا ، وفقنا الله وإياكم لما يحب .

* * *

٢١٩ - باب النهي عن تقدم رمضان بصوم بعد نصف شعبان إلا لمن وصله بما قبله أو وافق عادة له بأن كان عادته صوم الاثنين والخميس فوافقه

١٢٢٤ - عن أبي هُريرةَ رضي الله عنه عن النبي ﷺ قال : « لا يَتَقَدَّمَنَّ أَحَدُكم رَمَضَانَ بِصَومِ يَومٍ أَو يومينِ ، إلا أَنْ يَكونَ رَجُلٌ كَانَ يَصُومُ صَومَهُ ، فَلْيَصُمْ ذَلكَ اليَومَ » [2] متفقٌ عليه .

---

(١) وذلك لما رواه الهندي في كنز العمال (٤٣٥٠٧) والسيوطي في الدر المنثور (١/١٩٥) ، والألباني في الصحيحة (٤/١٦٩) .

(٢) أخرجه البخاري في الصوم بلفظه (١٩١٤) ، ومسلم في الصيام (٢١) ، بنحوه ، والبيهقي في السنن (٤/٢٠٧) ، =

١٢٢٥ - وعن ابنِ عباسٍ ﷺ قال : قالَ رسول اللَّه ﷺ : « لا تَصُومُوا قَبْلَ رَمَضَانَ ، صُومُوا لِرُؤْيَتِه ، وَأَفْطِرُوا لِرُؤْيَتِهِ ، فَإِنْ حَالَتْ دُونَهُ غَيايَةٌ ؛ فَأَكْمِلُوا ثَلاثِينَ يَوْمًا » (١) رواه الترمذي : وقال : حديث حسنٌ صحيح . « الغَيَايَة » بالغين المعجمة وبالياءِ المثناةِ من تحت المكررةِ ، وهِيَ : السَّحَابَةُ .

١٢٢٦ - وعنْ أبي هُرَيْرَةَ ﷺ قالَ : قالَ رسول اللَّه ﷺ : « إذا بَقِي نِصْفٌ مِنْ شَعْبَانَ فَلا تَصومُوا » (٢) رواه الترمذي وقال : حديثٌ حَسَنٌ صَحِيحٌ .

١٢٢٧ - وَعَنْ أبي اليقظانِ عمارِ بن يَاسِرِ ﷺ قالَ : مَن صَامَ اليَومَ الَّذِي يُشَكُّ فِيهِ فقَدْ عَصَى أَبَا القَاسِمِ ﷺ (٣) . رواه أبو داود ، والترمذي وقالَ : حديثٌ حَسَنٌ صَحِيحٌ .

* * *

٢٢٠ - بابُ ما يقال عِندَ رؤية الهلال

١٢٢٨ - عَنْ طَلْحَةَ بنِ عُبَيدِ اللَّهِ ﷺ أَنَّ النبيَّ ﷺ كانَ إذا رَأَى الهِلالَ قالَ : « اللَّهُمَّ أَهِلَّهُ عَلَينَا بالأَمنِ والإيمانِ ، وَالسَّلامَةِ والإسْلامِ ، رَبِّي وَربُّكَ اللَّهُ ، هِلالُ رُشْدٍ وخَيرٍ » (٤) رواه الترمذي وقَالَ : حديثٌ حَسَنٌ .

الشرح

ذكر النووي ﷺ في باب النهي عن تقدم رمضان بصوم بعد منتصف شعبان .

أحاديث منها : حديث أبي هريرة ﷺ : أن النبي ﷺ نهى أن يتقدم الرجل رمضان بصوم يوم أو يومين ، إلا من له عادة ، مثل : أن يكون من عادته أن يصوم يوم الاثنين ، فصادف يومُ الاثنين قبل رمضان بيوم أو يومين ، فلا بأس ، أو يكون من عادته أن يصوم أيام البيض ، ولم يتيسر أن يصوم اليوم الثالث عشر والرابع عشر والخامس عشر إلا أن يصوم قبل رمضان بيوم أو يومين ، فلا بأس ؛ فهذا يدل على أن المقصود بالنهي الخوفُ من أن يحتاط الإنسان لدخول رمضان ، فيقول : أصوم قبله بيوم أو

= وقوله : « كان يصوم صومه » أي : يصوم يومًا اعتاد صومه طوال العام .

(١) أخرجه الترمذي في الصوم (٦٨٨) والنسائي في السنن (٤/١٣٦) . قوله : « فإن حالت » أي : فإن منعت .

(٢) أخرجه الترمذي في الصوم (٧٣٨) .

(٣) أخرجه أبو داود في الصوم بنحوه (٢٣٣٤) والترمذي في الصوم (٦٨٦) . قوله : « الذي يشك فيه » أي : يلتبس عليه أهو من شعبان أم من رمضان ؛ وهو يوم الثلاثين من شعبان ، قوله : « أبا القاسم » هو النبي ﷺ .

(٤) هذا الحديث لم يقم الشارح ﷺ بشرحه والحديث أخرجه الترمذي في الدعوات (٣٤٥١) ، والدارمي في سننه (٤/٢) ، وأبو داود في الأدب (٥٠٩٢) بنحوه . وقوله ﷺ « أهله علينا بالأمن » أي : من المخاوف الدينية والدنيوية .

يومين احتياطيًا ، فإن هذا الاحتياط لا وجه له ، ولهذا قال ﷺ : « صوموا لرؤيته وأفطروا لرؤيته » ، أي لرؤية الهلال ، فإن حال بينكم وبينه غياية - يعني : غيم أو قطر أو ما أشبه ذلك « فأكملوا العدة ثلاثين يومًا » يعني عدة شعبان .

واختلف العلماء رحمهم الله في هذا النهي ، هل هو نهي تحريم أو نهي كراهة ؟! والصحيح : أنه نهي تحريم ، لا سيما اليوم الذي يُشَكُّ فيه . فإن عمار بن ياسر رضي الله عنهما قال : « من صام اليوم الذي يشك فيه فقد عصى أبا القاسم ﷺ » .

وعلى هذا فنقول : لا يجوز للإنسان أن يصوم قبل رمضان بيوم أو يومين إلا مَنْ له عادة ، ولا يجوز أن يصوم يوم الشك ، وهو يوم الثلاثين من شعبان إذا كان في الليلة غيم أو قطر يمنع من رؤية الهلال مطلقًا ، لأن الرسول ﷺ قال : « صوموا لرؤيته وأفطروا لرؤيته » .

وأما النهي عن الصوم بعد منتصف شعبان فإنه وإن قال الترمذي : حسن صحيح ؛ فإنه ضعيف ، قال الإمام أحمد : إنه شاذ ؛ وإنه يخالف حديث أبي هريرة رضي الله عنه أن النبي ﷺ قال : « لا تصوموا قبل رمضان بيوم أو يومين »[١] . فإن مفهومه أنه يجوز أن يصوم قبل رمضان بثلاثة أيام ، وأربعة أيام ، وعشرة أيام .

وحتى لو صح الحديث فالنهي فيه ليس للتحريم وإنما هو للكراهة ، كما أخذ بذلك بعض أهل العلم رحمهم الله . إلا مَنْ له عادة بصوم ؛ فإنه يصوم ولو بعد نصف شعبان ، وعلى هذا يكون الصيام ثلاثة أقسام :

١ - بعد النصف إلى الثامن والعشرين ، هذا مكروه إلا من اعتاد الصوم ، لكن هذا القول مبني على صحة الحديث ، والإمام أحمد لم يصححه ، وعلى هذا فلا كراهة .

٢ - قبل رمضان بيوم أو يومين ، فهذا محرم إلا من له عادة .

٣ - يوم الشك : فهذا محرم مطلقًا ، لا تصم يوم الشك ؛ لأن النبي ﷺ نهى عنه[٢] .

ولكن كما قلت : يظهر أن النهيَ لمن أراد أن يجعله من رمضان ، وأما من أراد التطوع به فإنه يحرم تحريمَ الذرائع[٣] ، يعني : بمعنى أنه يُخْشَى أن الناس إذا رأوا هذا الرجل قد صام ظنوا أنه صام احتياطًا ، وهذا لا يجوز أن يحتاط ، « صوموا لرؤيته ، وأفطروا لرؤيته » . والله الموفق .

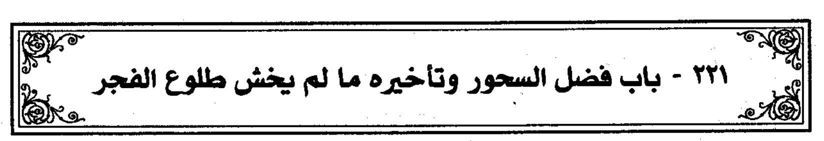
* * *

---

(١) أخرجه البخاري في الصوم (١٩١٤) بلفظ : « لا يتقدم أحدكم رمضان بصوم يوم ولا يومين » ، ومسلم في الصيام (١٠٨٢) بلفظ « لا تقدَّموا رمضان بصوم يوم أو يومين » ، وأبو داود في السنن (٢٣٣٥) ، والنسائي في السنن (١٤٩/٤) .

(٢) انظر الحديث في أبي داود في الصوم (٢٣٣٤) ، والترمذي في الصوم (٦٨٦) ، والنسائي في السنن ١٥٣/٤ ، وابن ماجه في السنن (١٦٤٥) .

(٣) في مذهب الشافعية أنه لا يصح صومه عن رمضان ويجوز صومه من قضاء أو نذر ، أو كفارة قال ابن الصباغ : هذا خلاف القياس ؛ لأنه إذا لم يكره فيه ماله سبب من التطوع فالفرض أولى ، ويحرم أن يصوم فيه تطوعًا لا سبب له . فإن صامه لم يصح على الأصح ، وإن نذر صومه ففي صحة نذره هذا الوجهان وقال الحنفية : إنه غير مكروه (انظر روضة الطالبين ٣٦٧/٢ ، المجموع ٤٥٣/٦ ، الهداية ٣٠٤/١) .



٢٢١ - باب فضل السحور وتأخيره ما لم يخش طلوع الفجر

١٢٢٩ - عَنْ أنسٍ ﷺ قالَ : قالَ رسول اللَّه ﷺ : « تَسَحَّرُوا ؛ فَإِنَّ في السَّحُورِ بَرَكَةً » [١] متفقٌ عليه .

١٢٣٠ - وعن زيدِ بنِ ثابتٍ ﷺ قالَ : تَسَحَّرْنَا مَعَ رسول اللَّه ﷺ ، ثُمَّ قُمْنَا إلى الصَّلاةِ ، قِيلَ : كَمْ كانَ بَيْنَهُمَا ؟ قالَ : قَدْرُ خَمْسِينَ آيَةً [٢] . متفقٌ عليه .

١٢٣١ - وَعَنِ ابن عُمَرَ ﷺ قالَ : كانَ لرسول اللَّه ﷺ مُؤَذِّنان : بِلالٌ ، وَابْنُ أُمِّ مَكْتُومٍ ، فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ : « إِنَّ بِلالًا يُؤَذِّنُ بِلَيلٍ ، فَكُلُوا وَاشْرَبُوا حَتَّى يُؤَذِّنَ ابْنُ أُمِّ مَكْتُومٍ » ، قَالَ : وَلَمْ يَكُنْ بَيْنَهُمَا إلا أَنْ يَنْزِلَ هذا وَيَرْقَى هذا [٣] ، متفقٌ عليه .

١٢٣٢ - وَعَنْ عَمْرِو بنِ العاصِ ﷺ أَنَّ رسول اللَّه ﷺ قالَ : « فَصْلُ ما بَيْنَ صِيَامِنا وَصِيامِ أَهْلِ الكِتابِ أَكْلَةُ السَّحَرِ » [٤] رواه مسلم .

الشرح

ذكر المؤلف - رحمه اللَّه تعالى - فضل السحور يقال : السُّحُور والسَّحُور ، فالسَّحور : الأكل الذي يتسحر به الإنسان والسُّحور بالضم : الفعل : يعني تَسَحُّر الإنسان .

والسَّحور حث عليه النبي ﷺ بقوله وأيَّده بفعله ، فقال ﷺ : « تسحروا فإن في السَّحور بركة » فأمر ، وبيَّن ، أمر بأن نتسحر ، وبين أن في السحور بركة ، فمن بركة السحور : امتثال أمر النبي ﷺ ، وامتثال أمر النبي ﷺ كله خير ، كله أجر وثواب ، ومن بركته : أنه معونة على العبادة ؛ فإنه يعين الإنسان على الصيام ، فإذا تسحر كفاه هذا السحور إلى غروب الشمس ، مع أنه في أيام الإفطار يأكل في أول النهار ، وفي وسط النهار ، وفي آخر النهار ، ويشرب كثيرًا ، فيُنزل اللَّه البركة في السحور ، حتى يكفيه من قبل طلوع الفجر إلى غروب الشمس ، ومن بركته : أنه يحصل به التفريق بين صيام المسلمين وصيام غير المسلمين ، ولهذا بيَّن النبي ﷺ أن فصلَ ما بيننا وبين صيام أهل الكتاب أَكْلَةُ السَّحَرِ ، يعني : السحور ، لأن أهل الكتاب يصومون من نصف الليل فيأكلون قبل منتصف الليل ، لا يأكلون في السحر . أما المسلمون - وللَّه الحمد - فيأكلون في السحر ، في آخر الليل . والتمييز بين المسلمين والكفار أمر مطلوب في الشرع ، ولهذا نهى النبي ﷺ عن التشبه بهم ، قال :

---

(١) أخرجه البخاري في الصوم (١٩٢٣) ، ومسلم في الصيام (٤٥) ، والترمذي في الصوم (٧٠٨) ، والإمام أحمد في المسند (٣/٣٢) . قوله ﷺ : « بركة » أي أجرًا وثوابًا .

(٢) أخرجه البخاري في الصوم (١٩٢١) ، ومسلم في الصيام (٤٧) .

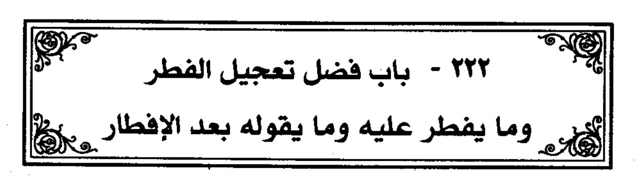
(٣) أخرجه البخاري في الصوم (١٩١٨ ، ١٩١٩) ، ومسلم في الصيام (٣٧) . ورواية البخاري جاءت عبارة « إن بلالًا كان يؤذن بليل » من كلام عائشة ﷺ وبقية الحديث متوافقة مع ما جاء به النووي .

(٤) أخرجه مسلم في الصيام (٤٦) .

« خالفوا المجوس ، وفرّوا اللِّحى ، وحفوا الشوارب »[(١)] يعني : أرخوا اللحى ، لا تقصوها ولا تحلقوها ، وقال ﷺ : « من تشبه بقوم فهو منهم »[(٢)] . وينبغي أن يؤخِّر السحور إلى قبيل طلوع الفجر ، ولا يتقدم ، لأن النبي ﷺ قال : « لا يزال الناس بخير ما عجَّلوا الفطر وأخروا السحور »[(٣)] وقال ﷺ : « إن بلالًا يؤذن بليل فكلوا واشربوا حتى يؤذن ابن أم مكتوم » « فإنه لا يؤذِّن حتى يطلع الفجر » .

وأما قوله في الرواية التي ساقها المؤلف : (ولم يكن بينهما إلا أن ينزل هذا ويصعد هذا) فهذه مُدْرَجَة في الحديث ، شاذة ، ليست بصحيحة ، لأن أمر النبي ﷺ بالأكل والشرب حتى يؤذن ابن أم مكتوم دليل على أن بينهما فرقًا كبيرًا يتسع للأكل والشرب والسحور ، فهذه جملة ضعيفة شاذة ، لا عُمْدة عليها . وقد بيَّنَ زيد بن ثابت رضي الله عنه حينما ذكر أنه تسحر مع النبي ﷺ ثم قاموا إلى الصلاة ، ولم يكن بينهما إلا قدر خمسين آية ، خمسون آية : من عشر دقائق إلى ربع الساعة ، إذا قرأ الإنسان قراءة مُرَتَّلة أو دون ذلك . وهذا يدل على أن الرسول ﷺ يؤخر السحور تأخيرًا بالغًا ، وعلى أنه يقدم صلاة الفجر ولا يتأخر ، ثم إنه ينبغي للإنسان عند تسحره أن يستحضر أنه يتسحر امتثالًا لأمر اللَّه ورسوله ، ويتسحر مخالفة لأهل الكتاب ، وكرهًا لما كانوا عليه ، ويتسحر رجاء البركة في هذا السحور ، ويتسحر استعانة به على طاعة اللَّه ، حتى يكون هذا السحور الذي يأكله خيرًا وبركة وطاعة ، واللَّه الموفق .

* * *



٢٢٢ - باب فضل تعجيل الفطر وما يفطر عليه وما يقوله بعد الإفطار

١٢٣٣ - عَنْ سَهْلِ بنِ سَعْدٍ رضي الله عنه أَنَّ رسول اللَّه ﷺ قَالَ : « لا يَزالُ النَّاسُ بَخيرٍ مَا عَجَّلوا الفِطْرَ »[(٤)] متفقٌ عليه .

١٢٣٤ - وَعَنْ أَبي عَطِيَّةَ قَالَ : دخلتُ أَنَا ومسروقٌ على عائشةَ رضي الله عنها فَقَالَ لَها مَسروقٌ : رَجُلانِ منْ أَصْحَاب مُحَمَّدٍ ﷺ ، كلاهُمَا لا يَأْلُو عَنِ الخَيرِ : أَحَدُهُمَا يُعَجِّلُ المَغْرِبَ وَالإِفْطَارَ ، والآخَرُ يُؤَخِّرُ المغرِبَ وَالإِفْطَارَ ؟ فَقَالَتْ : مَنْ يُعَجِّلُ المَغْربَ والإِفْطَارَ ؟ قالَ : عَبْدُ اللَّهِ - يعني ابنَ مَسْعودٍ - فَقَالَتْ : هكَذَا كَانَ رسول اللَّه ﷺ يَصْنَعُ[(٥)] . رواه مسلم . قوله : « لا يَأْلُو » أَي لا يُقَصِّرُ في الخَيرِ .

---

(١) أخرجه مسلم في الطهارة (٥٤ ، ٥٥) بنحوه .
(٢) أخرجه أبو داود في السنن (٤٠٣١) ، وأحمد في مسنده (٥٠/٢) .
(٣) أخرجه مسلم في الصيام (٤٨) ، والترمذي في الصيام (٦٩٩) ، وأحمد في مسنده (٣٣٧/٥) .
(٤) أخرجه البخاري في الصوم (١٩٥٧) ، ومسلم في الصيام (٤٨) ، والإمام أحمد في المسند (١٣١/٥ ، ١٣٤) ، والترمذي في الصيام (٦٩٩) .
(٥) أخرجه مسلم في الصيام (٤٩) ، وأبو داود في الصوم (٢٣٥٤) ، والإمام أحمد في المسند (٤٨/٦ ، ١٧٣) ، =

١٢٣٥ - وَعَنْ أَبِي هُرَيرَةَ ﷺ قالَ : قالَ رسول اللَّه ﷺ : « قالَ اللَّهُ ﷻ : أَحَبُّ عِبَادِي إلَيَّ أَعْجَلُهُمْ فِطْرًا »[١] رواه الترمذي وقالَ : حَديثٌ حَسَنٌ .

١٢٣٦ - وَعَنْ عُمَرَ بنِ الخَطَّابِ ﷺ قالَ : قالَ رسول اللَّه ﷺ : « إذا أَقْبَلَ اللَّيلُ مِنْ ههُنَا ، وَأَدْبَرَ النَّهارُ مِنْ ههُنَا ، وَغَرَبَتِ الشَّمسُ ؛ فَقَدْ أَفْطَرَ الصَّائِمُ »[٢] متفقٌ عليه .

١٢٣٧ - وَعَنْ أَبي إبراهيمَ عبدِ اللَّه بنِ أبي أوفى ﷺ قالَ : سِرْنَا مَعَ رسول اللَّه ﷺ وَهُوَ صَائمٌ ، فَلَمَّا غَرَبَت الشَّمْسُ ، قالَ لبَعْض القَومِ : « يا فُلانُ انْزِلْ فَاجْدَحْ لَنا » فَقَالَ : يا رَسُولَ اللَّه لَو أَمْسَيتَ ؟ قالَ : « انْزِلْ فَاجْدَحْ لَنَا » قال : إنَّ عَلَيكَ نَهارًا ، قال : « انْزِلْ فَاجدَحْ لنا » قَالَ : فَنَزَلَ فَجَدَحَ لهمْ ، فَشَرِبَ رسول اللَّه ﷺ ، ثُمَّ قالَ : « إذا رَأَيتُمُ اللَّيلَ قَدْ أَقْبَلَ مِنْ ههنَا ؛ فقَدْ أَفْطَرَ الصَّائمُ » وأشارَ بِيَدِهِ قِبلَ المَشْرِقِ[٣] . متفقٌ عليه . قوله : « اجْدَحْ » بجيم ثُمَّ دالٍ ثُمَّ حاءٍ مهملتين ، أَي : اخْلِطِ السَّوِيقَ بالمَاءِ .

١٢٣٨ - وَعَنْ سَلْمَانَ بنِ عَامرٍ الضَّبِّيِّ الصَّحابي ﷺ عن النبي ﷺ قَالَ : « إذا أَفْطَرَ أَحَدُكُمْ ؛ فَلْيُفْطِرْ عَلى تَمْرٍ ، فَإنْ لَمْ يَجِدْ ؛ فَلْيُفطِرْ عَلى مَاءٍ ؛ فَإنَّه طَهُورٌ »[٤] . رَوَاهُ أَبو دَاودَ ، والترمذي وقالَ : حديثٌ حَسَنٌ صَحيحٌ .

١٢٣٩ - وَعَنْ أَنسٍ ﷺ قالَ : كانَ رسول اللَّه ﷺ يُفْطِرُ قَبْلَ أَنْ يُصَلِّيَ عَلى رُطَبَاتٍ ، فَإنْ لَمْ تَكُنْ رُطَبَاتٌ ؛ فَتُمَيرَاتٌ ، فَإنْ لَمْ تَكُنْ تُمَيرَات ؛ حَسَا حَسَوَاتٍ مِنْ مَاءٍ[٥] . رَوَاه أَبو داود ، والترمذي وقال : حديثٌ حَسَنٌ .

الشرح

ذكر المؤلف - رحمه اللَّه تعالى - فضل تعجيل الفطر ، وما يفطر به ، وما يقال عند الفطور .

هذه ثلاث مسائل .

المسألة الأولى : تعجيل الفطر : لكن بشرط أن يتحقق غروب الشمس ، لقول النبي ﷺ في

= وقوله : « ومسروق » هو : مسروق بن الأجدع بن مالك ، فقيه ، عابد ، روى عنه أصحاب السنن .

(١) أخرجه الترمذي في الصيام (٧٠٠) ، وقوله : « أحب عبادي إلي » أي أرضاهم عندي وأدناهم مني ، قوله : « أعجلهم » أي الذي يسرع بإفطاره عند دخول الوقت .

(٢) أخرجه البخاري في الصوم (١٩٥٤) ، ومسلم في الصيام (٥١) ، والبيهقي في السنن (٢١٦/٤) .

(٣) أخرجه البخاري في الصوم (١٩٥٥) ، ومسلم في الصيام (٥٢) ، وأبو داود في الصوم (٢٣٥٢) .

(٤) أخرجه أبو داود في الصوم (٢٣٥٥) ، والترمذي في الصوم (٦٥٨) ، وابن ماجه في الصيام (١٦٩٩) ، والإمام أحمد في المسند (١٧/٤) . قوله : « فليفطر على تمر » قيل : لأنه يقوي البصر ويدفع الضعف الحاصل فيه بسبب الصوم ، قوله : « فإنه طهور » أي مزيل للخبائث المعنوية والحسية .

(٥) أخرجه أبو داود في الصوم (٢٣٥٦) ، والترمذي في الصوم (٤٦٩) ، قوله : « قبل أن يصلي » أي المغرب ، قوله : « حسا حسوات » أي : شرب ثلاث مرات .

حديث عمر بن الخطاب الذي ساقه المؤلف : « إذا أقبل الليل من هاهنا - يعني من المشرق - وأدبر النهار من هاهنا - يعني من المغرب - وغربت الشمس فقد أفطر الصائم » . فإذا بادر الإنسان بالفطر من حين أن يغرب قرص الشمس ولو كان البياض ظاهرًا ، والشعاع في الأفق ، ما دام قرص الشمس قد غاب ، فأفطِر ، وبادِر ، وهذه هي السنة القولية والفعلية من الرسول ﷺ .

أما الفعلية : فدليلها حديث عائشة رضي الله عنها حين سألها عطية ومسروق عن رجلين من أصحاب رسول الله ﷺ ، أحدهما يؤخِّر الفطر ، ويؤخر صلاة المغرب ، والثاني يعجل الفطر ويعجل صلاة المغرب ، أيهما أصوب ؟! فقالت عائشة : « من هذا ؟! » - أي الذي يعجل - قالوا : ابن مسعود رضي الله عنه فقالت : « هكذا كان النبي ﷺ يفعل » . يعني : يعجل الفطر ، ويعجل صلاة المغرب ؛ هذه سنة فعلية ، تدل على أن الأفضل تقديم الإفطار .

أما القولية : فحديث سهل بن سعد أن النبي ﷺ قال : « لا يزال الناس بخير ما عجَّلوا الفطر » فما دام الناس يبادرون إلى السنة ويتسابقون إلى الخير ؛ فهم بخير ، لا يزالون بخير ، أما إذا تباطأوا ولم يفطروا مبادِرين ؛ فإن ذلك هو الشر ، ولهذا كان الرافضة المخالفون لسنة الرسول ﷺ ، يؤخرون الفطور ، لا يفطرون إلا إذا اشتبكت النجوم ، فيُحْرَمون من الأجر والثواب ، ويحرمون من تعجيل إعطاء النفوس حظوظَها من الأكل والشرب ، يُعَذَّبون في الدنيا قبل الآخرة ، لأن الإنسان إذا تأخر وهو عطشان أو جائع يتألم أكثر ، فهم يؤلمون أنفسهم بتأخير الفطور ، ويخالفون السنة ، ويفوتهم الأجر .

ثم إن المؤلف رحمه الله ذَكَر أن الأفضل أن يفطر على رطب ، فإن لم يجد فتمر ، فإن لم يجد فماء ؛ لأن النبي ﷺ كان يفطر على رُطَيبات قليلة ، لا يُكْثِر ، لأنه لا ينبغي الإكثار عند الفطور ، فإن المعدة خالية ، فإذا أكثرت فهذا يضرك ، أعطها شيئًا فشيئًا ، قلل عند الفطور ، ولهذا ليس من الطب أن الإنسان إذا أفطر ، يتعشى مباشرة كما يفعل بعض الناس ، بل الطب يقتضي أن تعطي المعدة الشيء القليل ، لأنها خالية ، فكان عليه الصلاة والسلام يفطر على رطيبات ، فإن لم يكن فعلى تُميرات ، فإن لم يكن حَسَا حسوات أو حسيات من ماء ، هكذا ينبغي أن تفطر على الرطب ، ثم التمر ، ثم الماء .

والرطب الآن - والحمد لله - موجود حتى في غير أيام الصيف ، فالناس يدخرون الرطب الآن في الثلاجات ، ويبقى مدة ، فالأفضل أن تفطر على الرطب ، فإن لم يكن عندك شيء ؛ فالتمر ، فإن لم يكن عندك تمر فالماء . فإن قال قائل : ليس عندي رطب ولا تمر ، ولكن عندي خبز وماء ، أيهما أفطر عليه ؟ أفطِر على الماء ؛ لأن النبي ﷺ أرشد إلى ذلك ، وقال : « إنه طَهور » [1] يطهر المعدة والكبد ، فلذلك أمرنا عليه الصلاة والسلام أن نفطر على الماء ، وإنما قدم الرطب والتمر ، لأنه أنفع للبدن من الماء ، لأنه حلوى وغذاء ، وقوة ، وقد قال أهل الطب : « إن الحلاوة التي في التمر هي أسرع شيء يتقبله الجسم من أنواع الحلوى ، وإنها تسري إلى العروق فورًا » . وهذا من حكمة الله عز وجل ، فهذا

---

(١) انظر الحديث في سنن الدارقطني (٢٨/١) والزيلعي في نصب الراية (٩٥/١) .

الذي ينبغي أن تفطر عليه ، رطب ، فإن لم تجد فتمر ، فإن لم تجد فماء ، فإن لم تجد ماءً ، فما تَيسَّر من مأكول أو مشروب ، فإن لم تجد كما لو كنت في البر وليس عندك شيء ، فقال بعض العوام : (امصص إصبعك) . وهذا غلط ، إذا لم تجد فتكفي النية في القلب ، وإذا عثرت على مطعوم أو مشروب بعد ذلك ، فافعل ، أما مَصُّ الإصبع فليس له أصل . وتحذلق عامي وقال : « اتْفُل في ثوبك ثم امصص الريق ! » أي : كأنه يُجْعَل مثل الماء ، وهذا أيضًا غلط ، كل هذا ليس بمشروع ، ولكن إن تيسر لك ما تفطر عليه فهذا هو المطلوب وإلا فانتظر حتى ييسر اللَّه ، وانوِ بقلبك .

وفي قول الرسول ﷺ : « إذا أقبل الليل من هاهنا ، وأدبر النهار من هاهنا ، وغربت الشمس ، فقد أفطر الصائم » . قال بعض أهل العلم : « فقد أفطر » ، يعني : وإن لم ينو الفطر ، يعني فقد انتهى صيامه ، وأفطر حُكْمًا ، وقال بعضهم : فقد أفطر ، أي : فقد حَلَّ له الفِطرُ .

لكن لا شك أنك إذا نويت الفطر - إذا ما لم يكن عندك ما تأكله وتشربه - فهو أحسن وأفضل ، حتى تكون مبادرًا إلى الإفطار بالنية ، لعدم القدرة على الأكل والشرب . واللَّه الموفق .

* * *

٢٢٣ - باب أمر الصائم بحفظ لسانه وجوارحه عن المخالفات والمشاتمة ونحوها

١٢٤٠ - عنْ أَبي هُريرةَ ﷺ قالَ : قالَ رسول اللَّه ﷺ : « إذا كَانَ يَومُ صَومِ أَحدِكُمْ ، فَلا يَرْفُثْ وَلا يصْخَبْ ، فَإِنْ سَابَّهُ أَحَدٌ ، أَو قاتَلَهُ ، فَلْيَقُلْ : إِنِّي صائِمٌ » [(١)] متفقٌ عليه .

١٢٤١ - وعنهُ قال : قالَ النبيُّ ﷺ : « مَنْ لَمْ يَدَعْ قَولَ الزُّورِ والعَمَلَ بِهِ ؛ فَلَيسَ للَّهِ حَاجَةٌ في أَنْ يَدَعَ طَعَامَهُ وَشَرَابَهُ » [(٢)] رواه البخاري .

الشرح

ذكر المؤلف - رحمه اللَّه تعالى - أمر الصائم بحفظ لسانه وجوارحه .

والمراد بذلك : أنه يجب على الصائم أن يتجنب كل قول محرم ، وكل فعل محرم ، لأن اللَّه - تعالى - إنما فرض الصيام من أجل التقوى ، كما قال تعالى : ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ كُتِبَ عَلَيْكُمُ ٱلصِّيَامُ كَمَا كُتِبَ عَلَى ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِكُمْ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ ﴾ [البقرة : ١٨٣] أي : من أجل أن تتقوا اللَّه ﷻ وتجتنبوا محارمه ، ولا يريد اللَّه من عباده أن يضيق عليهم بترك الأكل والشرب والجماع ، ولكن يريد أن يمتثلوا أمره ، ويجتنبوا نواهيه ، حتى يكون الصيام مدرسة يتعودون فيها على ترك المحرمات وعلى

---

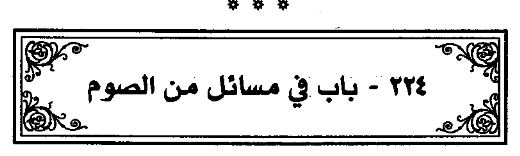
(١) أخرجه البخاري في الصوم (١٩٠٤) ، ومسلم في الصيام (١٦٣) .

(٢) أخرجه البخاري في الصوم (١٩٠٣) ، وأبو داود في الصوم (٢٣٦٢) ، والترمذي في الصوم (٧٠٧) .
وقوله : « قول الزور » أي قول الكذب ، قوله : « فليس للَّه حاجة في أن يدع طعامه وشرابه » ليس معناه أنه يؤمر بالأكل والشرب ، وإنما معناه التحذير من قول الزور ، والمعنى : فإن اللَّه غني عن صيامه هذا ولن يقبله .

القيام بالواجبات ، وإذا كان شهر كاملٌ يمر بالإنسان وهو محافظ على دينه ، تارك للمحرم ، قائم بالواجب ؛ فإن ذلك سوف يغير من مجرى حياته .

ولهذا بيَّن اللَّه الحكمة من ذلك بأنها التقوى ، وقال النبي ﷺ : « إذا كان يوم صوم أحدكم فلا يرفث ولا يصخب » يعني : لا يفعل فعلًا محرمًا ولا يقول قولًا محرمًا ، « فإن سابَّه أحد » يعني : صار يعيبه ويشتمه . « أو قاتله فليقل : إني صائم » حتى يدفع عن نفسه العجز عن المدافعة ، ويبين لصاحبه أنه لولا الصيام لقابلتك بمثل ما فعلت بي ، فيبقى عزيزًا لا ذليلًا ، لكنه ذُلٌّ لعبودية اللَّه - تعالى - وطاعة اللَّه ، وكذلك قال ﷺ : « من لم يدع قول الزور » يعني : قول المحرم « والعمل به » أي بالمحرم ، « والجهل » كما في لفظ آخر ، يعني : العدوان على الناس ، « فليس لله حاجة في أن يدع طعامه وشرابه » : فليس لله حاجة في أن يدع طعامه وشرابه ؛ لأن اللَّه تعالى إنما أوجب الصيام لأهم شيء وهو ترك المحرمات والقيام بالواجبات ، واللَّه الموفق .

* * *



٢٢٤ - باب في مسائل من الصوم

١٢٤٢ - عَنْ أَبي هريرةَ ﷺ عن النبي ﷺ ، قالَ : « إذا نَسيَ أحَدُكم فَأَكَلَ ، أو شَرِبَ ؛ فَلْيُتِمَّ صَومَهُ ؛ فَإنَّمَا أَطْعَمَهُ اللَّهُ وَسَقَاهُ » [(١)] . متفقٌ عليه .

١٢٤٣ - وعن لَقِيطِ بن صَبِرَةَ ﷺ قَالَ : قلتُ : يا رسولَ اللَّه أخْبِرْني عَنِ الوُضُوءِ ؟ قالَ : « أَسْبغِ الوضُوءَ ، وَخَلِّلْ بَين الأَصَابعِ ، وَبَالِغْ في الاسْتِنْشَاقِ ، إلا أَنْ تَكُونَ صَائِمًا » [(٢)] رواه أبو داود ، والترمِذي وقالَ : حديثٌ حَسَنٌ صَحيحٌ .

١٢٤٤ - وعنْ عائشةَ ﷺ قالَتْ : كانَ رسول اللَّه ﷺ يدْرِكُهُ الفَجْرُ وَهُوَ جُنُبٌ مِنْ أَهْلِهِ ، ثمَّ يَغْتَسِلُ وَيَصُومُ [(٣)] . متفقٌ عليه .

١٢٤٥ - وعنْ عائشةَ وأُمِّ سَلَمَةَ ﷺ قَالَتَا : كانَ رسول اللَّه ﷺ يُصْبح جُنُبًا مِنْ غَيرِ حُلُم ، ثُم

---

(١) أخرجه البخاري في الصوم (١٩٣٣) بلفظه عدا لفظة « أحدكم » ، ومسلم في الصوم (١٧١) بنحوه ، والبيهقي في السنن (٢٢٩/٤) .

(٢) أخرجه أبو داود في الصوم (٢٣٦٦) ، والترمذي في الصوم (٧٨٨) ، وابن ماجه في الوضوء (٤٤٨) ، والبيهقي في السنن (٥٠/١) . قوله : « أسبغ الوضوء » أي : أتمه بغسل ما زاد على الفرائض من الغرة والتحجيل ، قوله : « تخليل الأصابع » وذلك بالتشبيك بين أصابع اليدين ، وفي الرجلين بخنصر اليد اليسرى ، قوله : « بالغ في الاستنشاق » أي : بإيصال الماء إلى الخيشوم وجذبه بالنفس مع إدخال خنصر يده اليسرى وإزالة ما في أنفه من أذى .

(٣) أخرجه البخاري في الصوم (١٩٠٣) ، ومسلم في الصيام (٨٠) ، والبيهقي في السنن (٢١٤/٤) . وقوله : «من غير حلم » أي : يصبح جنبًا من جماع ولا يجنب من احتلام ؛ لامتناعه منه .

يَصُومُ (١) . متفقٌ عليه .

الشرح

ذكر المؤلف رحمه الله مسائل متنوعة متفرقة من الصوم فمنها : إذا أكل الإنسان أو شرب ، وهو صائم ناسيًا ، فهل يفسد صومه ؟! استمع للجواب من قول النبي ﷺ فيما رواه عنه أبو هريرة رضي الله عنه قال : « من نسي وهو صائم فأكل وشرب فليتم صومه ، فإنما أطعمه اللّه وسقاه » (٢) فإذا أكلت أو شربت ولو شبعت ورويت ، وأنت ناسٍ في الصيام ؛ فإن صومك كامل ، ليس فيه نقص ، ولهذا قال : « فليتم صومه » وفي قوله : « فإنما أطعمه اللّه وسقاه » دليل على أن فعل الناسي لا يُنْسَب إليه ، وإنما ينسب إلى اللّه وكذلك النائم لا ينسب فعله إلى نفسه وإنما ينسب إلى اللّه كما قال اللّه تعالى في أصحاب الكهف : ﴿ وَنُقَلِّبُهُمْ ذَاتَ ٱلْيَمِينِ وَذَاتَ ٱلشِّمَالِ ﴾ [الكهف : ١٨] والذي يتقلب هو النائم ، ولكن لما لم يكن له قصد ؛ نسب اللّه الفعل إليه ، كذلك الناسي لم يتعمد فساد الصوم ، نسي وأكل وشرب ، نقول : صومك صحيح ، وكذلك لو كان جاهلًا ، مثل أن يحتجم وهو لا يدري أن الحجامة تفطر (٣) فصومه صحيح ، ومثل أن يأكل يظن أن الفجر لم يطلع ، ثم تبين أنه طالع ، فصومه صحيح ، ومثل أن يأكل يظن أن الشمس قد غربت ، فأكل ثم تبين أن الشمس لم تغرب ، فصيامه صحيح (٤) .

وقد وقعت هذه المسألة في عهد النبي ﷺ حينما كان الناس صائمين في يوم غيم ، فأفطروا ظنًّا منهم أن الشمس قد غربت ، ثم طلعت الشمس ، ولم يأمرهم النبي ﷺ بقضاء الصوم (٥) لأنهم لا يدرون ، ولم يتعمدوا ، ولكن متى ذكر الإنسان وجب عليه الترك والإمساك ، حتى لو كانت اللقمة في فمه وجب عليها لَفْظُها ، وكذلك لو كان الماء في فمه ، وجب عليه أن يُرِيقَه ، وكذلك لو كان جاهلًا ثم أُخبر فإنه يجب عليه أن يُمْسِك ، مثلًا لو رأى إنسانًا يأكل ويشرب ، يقول : ما هذا وأنت صائم ؟ قال : الشمس غربت . قال : الشمس لم تغرب . فيجب عليه أن يتوقف لأنه زال عنه العذر .

فإذا قال قائل : لو رأيت صائمًا يأكل ، وأعرف أنه ناسٍ ، فهل عليَّ أن أُذَكِّره ؟! قلنا : نعم يجب

---

(١) أخرجه البخاري في الصوم (١٩٣٠) ، ومسلم في الصيام (٨٠) ، والبيهقي في السنن (٢١٥/٤) .

(٢) ذكره بهذا اللفظ : أحمد في مسنده (٤٢٥/٢) ، والدارمي في الصوم (١٣/٢) .

(٣) هذا هو قول إسحاق وابن المنذر ومحمد بن إسحاق بن خزيمة وهو قول عطاء وعبد الرحمن بن مهدي ، وكان الحسن ومسروق وابن سيرين لا يرون للصائم أن يحتجم ، وكان جماعة من الصحابة يحتجمون ليلًا في الصوم ، منهم : ابن عمر وابن عباس وأبو موسى وأنس . ورخص فيها أبو سعيد الخدري وابن مسعود وأم سلمة وعروة وسعيد بن جبير ، وقال مالك والثوري وأبو حنيفة والشافعي : يجوز للصائم أن يحتجم ولا يفطر ؛ لما روى البخاري عن ابن عباس : أن النبي ﷺ احتجم وهو صائم . ولأنه دم خارج من البدن أشبه الفصد (انظر : المغني مع الشرح الكبير ٣٧/٣ ، الهداية ٣١٠/١) .

(٤) انظر في ذلك المغني (١٢٢/٣) ، أسهل المدارك (٤٢٥/١) ، فقه الكتاب والسنة (١٥٦/١ ، ١٥٧) .

(٥) انظر الحديث في البخاري في الصوم (٦٦٦٩) ، ومسلم في الصوم (١١٥٥) ، وأبو داود في الصوم (٢٣٩٨) .

أن تذكره ؛ لأن أخاك إذا عذر بالنسيان وأنت علمت به ، وجب عليك أن تذكره ، ولهذا قال النبي ﷺ في الصلاة : « إذا نسيت فذكروني » (١) فأمر أن يُذَكَّر إذا نسي ، كذلك أيضًا إذا رأيت صائمًا يأكل ويشرب ناسيًا فذكِّره ، كما لو رأيت إنسانًا يصلي منحرفًا عن القبلة ، وجب عليك أن تخبره . فالمهم : أنه إذا وقع أخوك في شيء لا يحل له ، فعليك أن تذكره ، لأن النسيان كثير والخطأ كثير .

ثم ذكر المؤلف حديث لقيط بن صبرة ﷺ ، حيث قال له النبي ﷺ : « أسبغ الوضوء ، وخلل بين الأصابع ، وبالغ في الاستنشاق ، إلا أن تكون صائمًا » .

« أسبغ الوضوء » : يعني توضأ وضوءًا سابغًا كاملًا ، والإسباغ : بمعنى الإتمام قال تعالى : ﴿ وَأَسْبَغَ عَلَيْكُمْ نِعَمَهُ ظَاهِرَةً وَبَاطِنَةً ﴾ [لقمان : ٢٠] أي أكملها ، والثاني « وخلل بين الأصابع » ولا سيما أصابع الرجلين ، خلل بينهما بالماء ، لأن أصابع الرجلين متلاصقة ، وربما لا يدخل الماء من بينها ، « وبالغ في الاستنشاق » يعني : استنشاق الماء عند الوضوء ، « إلا أن تكون صائمًا » فلا تبالغ في الاستنشاق ؛ لأنك إذا بالغت في الاستنشاق ؛ دخل الماء إلى جوفك من طريق الأنف ، فدل ذلك على أن وصول الأكل أو الشرب عن طريق الأنف كوصوله عن طريق الفم ، يُفْطِر الصائمَ ، وأما الإبرَ التي تكون في الوريد أو تكون في اليد ، أو تكون في الظَّهر ، أو في أي مكان ؛ فإنها لا تُفْطر الصائمَ ، إلا الإبرَ المغذية التي يُستغنى بها عن الأكل والشرب ، فهذه تفطر الصائم ، ولا يحل له إذا كان صومه فرضًا أن يستعملها إلا عند الحاجة ، عند الضرورة ، فإذا اضْطُر إلى ذلك أفطر ، واستعمل الإبر ، وقضى يومًا مكانه .

ثم ذكر المؤلف حديثي عائشة وأم سلمة : أن النبي ﷺ كان يصبح جُنُبًا فيصوم ثم يغتسل . وهذا أيضًا جائز . يعني : يجوز للجنب أن ينوي الصوم ، وإن لم يغتسل إلا بعد طلوع الفجر ، كما كان النبي ﷺ يفعل ذلك ، وفي حديث عائشة وأم سلمة دليل على أن أفعال النبي ﷺ حجة يُحْتَج بها ، ولا يقال هذا من خصائصه ، لأن الأصل عدم الخصوصية (٢) ، فإنْ فَعَل النبي ﷺ فِعْلًا ، فهو حق ، إن كان عبادةً فهو عبادة ، وإن كان عادةً فهو عادة ، وليس بمحرم . والله الموفق .

* * *

٢٢٥ - باب بيان فضل صوم المحرَّم وشعبان والأشهر الحرم

١٢٤٦ - عَنْ أبي هُرَيرَةَ ﷺ قَالَ : قَالَ رسول اللَّه ﷺ : « أَفْضَلُ الصِّيَامِ بعْدَ رَمَضَانَ : شَهْرُ اللَّهِ الـمُحَرَّمُ ، وَأَفْضَلُ الصَّلاةِ بَعْدَ الفَرِيضَةِ : صَلاةُ اللَّيلِ » (٣) رواه مسلم .

---

(١) أخرجه البيهقي في السنن (٢/١٥) ، والطبراني في الكبير (١٠/١٠٦) .

(٢) وهذا هو قول عامة أهل العلم ومنهم : علي وابن مسعود وأبو الدرداء وأبو ذر وابن عمر وابن عباس وعائشة وأم سلمة وبه قال مالك والشافعي وأبو حنيفة والثوري والليث بن سعد وداود الظاهري (انظر المغني مع الشرح الكبير ٣/٧٨) .

(٣) أخرجه مسلم في الصيام (٢٠٤) ، والإمام أحمد في المسند (٢/٣٤٤) ، والنسائي في السنن (٣/٢٠٦) .=

١٢٤٧ - وعَنْ عائشةَ رضي الله عنها قالتْ : لَمْ يَكنِ النبيُّ ﷺ يَصُوم مِنْ شَهْرٍ أَكْثَرَ مِنْ شَعْبَانَ ؛ فَإِنَّه كَانَ يَصُوم شَعْبَانَ كلَّه . وفي روايةٍ : كَانَ يَصُومُ شَعبانَ إلا قَلِيلًا [١] . متفقٌ عليه .

١٢٤٨ - وعن مُجيبَةَ البَاهِلِيَّةِ عَنْ أَبيهَا أو عمِّها ، أَنَّهُ أَتى رسول اللَّه ﷺ ، ثمَّ انطلَقَ فَأَتاه بعدَ سَنَةٍ ، وَقَد تَغَيَّرَتْ حَالهُ وَهيئَتهُ ، فَقَالَ : يا رَسُولَ اللَّهِ أَمَا تَعْرِفُني ؟ قَالَ : « وَمَنْ أَنتَ ؟ » قالَ : أَنا البَاهِلِيُّ الذي جِئتكَ عامَ الأَوَّلِ . قَالَ : « فَمَا غَيَّرَكَ ، وَقد كنتَ حَسَنَ الهَيئَةِ ؟ » قَالَ : ما أَكلتُ طَعَامًا منذ فَارَقْتكَ إلا بِلَيلٍ ، فَقَالَ رسول اللَّه ﷺ : « عَذَّبتَ نَفْسَكَ ! » ثُمَّ قَالَ : « صُمْ شَهرَ الصَّبرِ ، وَيَومًا مِنْ كلِّ شَهرٍ » قال : زِدْني ، فإنَّ بي قوَّةً ، قَالَ : « صُمْ يومينِ » قالَ : زِدْني ، قالَ : « صُمْ ثَلاثَةَ أَيَّامٍ » قالَ : زدْني ، قالَ : « صُمْ مِنَ الحُرُمِ وَاترُكْ ، صُمْ مِنَ الحرُمِ وَاترُكْ ، صُمْ من الحرُمِ وَاترُكْ » وقالَ بِأَصَابِعِهِ الثَّلاثِ فَضَمَّهَا ، ثُمَّ أَرْسَلَهَا [٢] . رواه أبو داود . و « شهرُ الصَّبرِ » : رَمَضَانُ .

الشرح

هذا الباب ذكر المؤلف رحمه الله فيه بيان ما يُسن صومه من الأيام والشهور ، فمن ذلك : صوم شعبان ، فقد كان النبي ﷺ يصومه كله ، أو كله إلا قليلًا ، كما روت عنه ذلك عائشة رضي الله عنها ، ولهذا ينبغي للإنسان أن يكثر من الصيام في شهر شعبان أكثر من غيره ؛ لأن النبي ﷺ كان يصومه .

قال أهل العلم : والحكمة من ذلك أنه يكون بين يدي رمضان كالرواتب بين يدي الفريضة .

ومن ذلك أيضًا : شهر اللَّه المحرم ، وشهر اللَّه المحرم هو ما بين ذي الحجة وصفر ، قال فيه النبي ﷺ : « أفضل الصيام بعد رمضان شهر اللَّه المحرم » ويتأكد أن يصوم منه العاشر ، أو العاشر والتاسع ، أو التاسع والعاشر والحادي عشر .

ومن ذلك أيضًا : أن يصوم من كل شهر ثلاثة أيام ، كما في حديث الباهلي وقد كان النبي ﷺ يصوم من كل شهر ثلاثة أيام ، لا يبالي أصامها من أول الشهر أو وسطه أو آخره [٣] لكن أيام البيض أفضل ، وهي يوم الثالث عشر والرابع عشر ، والخامس عشر .

ومن ذلك أيضًا : أن يصوم يوم عرفة ، لأن النبي ﷺ سُئِل عن صومه ، فقال : إنه « يُكَفِّر السنة الماضية والباقية » [٤] . يعني يكفر سنتين .

= قوله : « شهر اللَّه المحرم » هو أول شهور السنة الهجرية وأضيف الشهر للَّه تعالى للتشريف والتفخيم ، قوله : « وأفضل الصلاة » أي النافلة ، قوله : « صلاة الليل » أي التهجد .

(١) أخرجه البخاري في الصوم (١٩٦٩) ، والإمام أحمد في المسند (١٦٥/٦) ، والنسائي في السنن (٢٠٠/٤) .

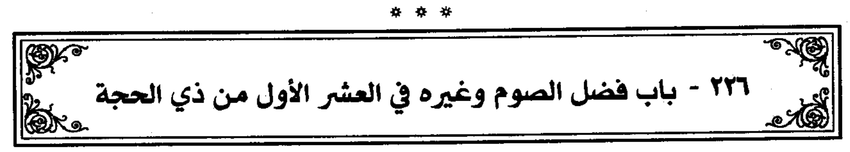
(٢) أخرجه أبو داود في الصوم (٢٤٢٨) ، وقوله : « صم من الحرم » أي : من الأشهر الحرم وهي أربعة : ذو القعدة وذو الحجة والمحرم ورجب ، قوله : « وقال بأصابعه » أي : صم منها ما شئت .

(٣) الحديث أخرجه مسلم في الصيام (١٩٤) ، والنسائي في السنن (٢٠٣/٤) .

(٤) أخرجه مسلم في الصيام (١٩٧) ، وأحمد في مسنده (١٩٧/٥) ، والبيهقي في السنن (٢٨٣/٤) .

وفي حديث الباهلي الذي صام سنة كاملة حتى تغيرت هيئته ، وضعفت حاله ، وجاء إلى النبي ﷺ ، فقال له : هل تعرفني ، قال : من أنت ، قال : أنا الباهلي الذي أتيتك عام أول ، فأخبره بما كان يصنع ، وأنه لم يترك الصوم منذ فارقه ، فقال النبي ﷺ : (عَذَّبْتَ نفسك) . وفي هذا : دليل على أنه ليس من الشرع أن يُكلِّف الإنسان نفسه ما لا يطيق ، وأن يعذب نفسه ، لأن اللّه يقول : ﴿ مَّا يَفْعَلُ ٱللَّهُ بِعَذَابِكُمْ إِن شَكَرْتُمْ وَءَامَنتُمْ ۚ وَكَانَ ٱللَّهُ شَاكِرًا عَلِيمًا ﴾ [النساء : ١٤٧] واللّه الموفق .

* * *



٢٣٦ - باب فضل الصوم وغيره في العشر الأول من ذي الحجة

١٢٤٩ - عن ابنِ عبَّاسٍ رضي الله عنهما قالَ : قالَ رسول اللّه ﷺ : « مَا مِنْ أَيامِ العَمَلُ الصَّالِحُ فِيها أَحَبُّ إلى اللَّهِ مِنْ هذِهِ الأَيَّامِ » يعني : أيامَ العشرِ ، قالوا : يا رسولَ اللهِ وَلا الجهادُ في سبيلِ اللَّهِ ؟ قالَ : « وَلا الجهادُ في سَبِيلِ اللَّهِ ، إلا رَجلٌ خَرَجَ بَنَفْسِهِ ، وَمَالِهِ ، فَلَم يَرجعْ مِنْ ذلكَ بِشَيءٍ » (١) رواه البخاري .

* * *

٢٣٧ - باب فضل صوم يوم عرفة وعاشوراء وتاسوعاء

١٢٥٠ - عنْ أبي قَتَادَةَ رضي الله عنه قالَ : سئِلَ رسول اللّه ﷺ : عَنْ صَومِ يَومِ عَرَفَةَ ، قالَ : « يكفِّرُ السَّنَةَ المَاضِيَةَ وَالباقِيَةَ » (٢) رواه مسلم .

١٢٥١ - وعَن ابنِ عباسٍ رضي الله عنهما : أَنَّ رسول اللّه ﷺ صَامَ يَومَ عاشوراءَ ، وَأَمَرَ بِصِيَامِهِ (٣) . متفقٌ عليه .

١٢٥٢ - وعن أَبي قَتَادَةَ رضي الله عنه أَنَّ رسول اللّه ﷺ سُئِلَ عَنْ صِيَامِ يَومِ عَاشُورَاءَ ، فَقَالَ : « يُكَفِّرُ السَّنَةَ المَاضِيَةَ » (٤) رواه مسلم .

١٢٥٣ - وعَنِ ابنِ عَبَّاسٍ رضي الله عنهما قَالَ : قالَ رسول اللّه ﷺ : « لَئِنْ بَقِيتُ إلى قابِلٍ لأَصُومَنَّ التَّاسِعَ » (٥) رواه مسلم .

---

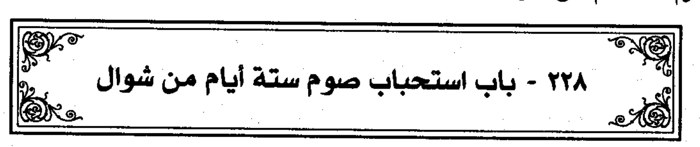
(١) أخرجه البخاري في الصوم بنحوه (٩٦٩) ، والإمام أحمد في المسند (١/٢٢٤) ، وابن ماجه في الصيام (١٧٢٧). قوله : « خرج بنفسه » أي : خرج لقهر عدوه ولو أدى ذلك إلى قتل نفسه وذهاب ماله في سبيل اللّه ، قوله : « فلم يرجع من ذلك بشيء » أي : رزقه اللّه الشهادة فلم يرجع هو ولم يرجع ماله .

(٢) أخرجه مسلم في الصيام (١٩٧) ، والإمام أحمد في المسند (٥/٢٩٧) ، والبيهقي في السنن (٤/٢٨٣) .

(٣) أخرجه مسلم في الصيام (١٢٨) ، والبخاري في الصوم (٢٠٠٤) ، وأبو داود في الصوم (٢٤٤٤) .

(٤) أخرجه مسلم في الصيام (١٩٧)، وأبو داود في الصوم (٢٤٢٥)، والترمذي في الصوم (٧٦٧)، وأحمد في مسنده (٤/٢٥).

(٥) أخرجه مسلم في الصيام (٣٤) ، وأحمد في مسنده (١/٢٢٥) ، وابن ماجه في الصيام (١٧٣٦) . وقوله : « قابل » أي : العام القادم .



٢٢٨ - باب استحباب صوم ستة أيام من شوال

١٢٥٤ - عَنْ أَبي أَيوبَ ﷺ أَنَّ رسول اللَّه ﷺ ، قَالَ : « مَنْ صَامَ رَمَضَانَ ، ثمَّ أَتْبَعَهُ سِتًّا مِنْ شَوَّالٍ ، كانَ كَصِيَامِ الدَّهرِ » (١) رواه مسلم .

الشرح

هذه الأبواب الثلاثة التي عقدها النووي في بيان أيام يُسن صيامها ، فمنها - مما يُسن صيامه - : أيام العشر ، عشر ذي الحجة الأُول ، فإن النبي ﷺ قال : « ما من أيامِ العملُ الصالحُ فيها أحبُّ إلى اللَّه من هذه الأيام » يعني أيام العشر . وقوله « العمل الصالح » يشمل الصلاة ، والصدقة ، والصيام ، والذكر ، والتكبير ، وقراءة القرآن ، وبر الوالدين ، وصلة الأرحام ، والإحسان إلى الخلق ، وحسن الجوار ، وغير ذلك ... كل الأعمال الصالحة .

ما من أيام - في السنة - يكون العمل الصالح فيها أحب إلى اللَّه من هذه الأيام العشر ، « قالوا : ولا الجهاد في سبيل اللَّه ؟! قال : ولا الجهاد في سبيل اللَّه، إلا رجل خرج بنفسه وماله فلم يرجع من ذلك بشيء » .

ففي هذا : دليل على فضيلة العمل الصالح في الأيام العشر الأولى من شهر ذي الحجة ، من صيام وغيره ، وفيه دليل أيضًا على أن الجهاد من أفضل الأعمال ، ولهذا قال الصحابة : « ولا الجهاد في سبيل اللَّه ؟! » . وفيه دليل على أن يخرج الإنسان مجاهدًا في سبيل اللَّه بنفسه وماله ، وماله ؛ يعني : سلاحه ومركوبه ، ثم يُقْتَل ، ويؤخذ سلاحه ومركوبه ، يأخذه العدو ، فهذا فَقَد نفسه وماله في سبيل اللَّه ؛ فهو من أفضل المجاهدين ، فهذا أفضل من العمل الصالح في أيام العشر ، وإذا وقع هذا العمل في أيام العشر تَضاعف فَضْلُه .

ومن الأيام التي يُسَنُّ صيامُها : يوم عرفة ، واليوم العاشر من شهر المحرم لحديث أبي قتادة ﷺ أن النبي ﷺ سُئِل عن صوم يوم عرفة . قال : « يكفر السنة الماضية والباقية » الماضية يعني : التي انتهت ، لأن يوم عرفة في آخر شهر من العام ، والباقية . فهو يكفر سنتين .

وسئل عن صوم يوم عاشوراء ، قال : « يكفر السنة الماضية » . فهو أقل أجرًا من صوم يوم عرفة ، ومع ذلك ينبغي أن يصوم مع عاشوراء تاسوعاء ؛ لأن النبي ﷺ قال : (لَأَنْ بقيت إلى قادم لأصومن التاسع) يعني : مع العاشر .

ولأنه أمر أن يُصام يومًا قبله أو يومًا بعده ، مخالفةً لليهود ، لأن يوم عاشوراء - العاشر من المحرم - هو

(١) أخرجه مسلم في الصيام (١١٦٤) ، وأبو داود في الصوم (٢٤٣٣) ، وابن ماجه في الصيام (١٧١٦) . قوله : « كصيام الدهر » أي : كصيام العام كله . قال العلماء : وإنما كان ذلك كصيام الدهر ؛ لأن الحسنة بعشر أمثالها فرمضان بعشرة أشهر والستة أيام بشهرين .

اليوم الذي أنجى اللَّه فيه موسى وقومه ، وأغرق فرعون وقومه ، فكان اليهود يصومونه شكرًا لله على هذه النعمة العظيمة ، أن اللَّه أنجى جنده ، وهزم جند الشيطان . أنجى موسى وقومه ، وأهلك فرعون وقومه ، فهو نعمة عظيمة ، ولهذا لما قدم النبي ﷺ المدينة وجد اليهود يصومون يوم عاشوراء ، فسألهم عن ذلك ، فقالوا : هذا يوم نجَّا اللَّه موسى وقومه ، وأُهلِك فرعون وقومه فنصومه شكرًا لله ، فقال : « نحن أولى بموسى منكم » [(١)] . لماذا ؟ لأن النبي والذين معه أولَى الناس بالأنبياء السابقين ، ﴿ إِنَّ أَوْلَى النَّاسِ بِإِبْرَاهِيمَ لَلَّذِينَ اتَّبَعُوهُ وَهَٰذَا النَّبِيُّ وَالَّذِينَ آمَنُوا ۗ وَاللَّهُ وَلِيُّ الْمُؤْمِنِينَ ﴾ [(٢)] [آل عمران : ٦٨] فرسول اللَّه ﷺ أحق بموسى من اليهود ؛ لأن اليهود كفروا به ، وكفروا بعيسى ، وكفروا بمحمد ، فصامه وأَمَر الناس بصيامه ، إلا أنه أمر أن يخالفوا اليهود الذين لا يصومون إلا يوم العاشر ، كأن نصوم التاسع ، أو الحادي عشر ، مع العاشر ، أو الثلاثة . ولهذا ذكر بعض أهل العلم ، كابن القيم وغيره أن صيام عاشوراء ثلاثة أقسام :

١ - أن نصوم عاشوراء والتاسع ، وهذا أفضل الأنواع .

٢ - أن نصوم عاشوراء والحادي عشر ، وهذا دون الأول .

٣ - أن نصوم عاشوراء وحده ، فكرهه بعض العلماء ؛ لأن النبي ﷺ أمر بمخالفة اليهود ، ورخَّص فيه بعض العلماء [(٣)] .

وكذلك من الأيام التي يُسَنُّ صيامها : ستة أيام من شوال ، كما في حديث أبي أيوب ، أن النبي ﷺ قال : « من صام رمضان ثم أتبعه ستًّا من شوال فكأنما صام الدهر » فسَّر العلماء ذلك بأن الحسنة بعشر أمثالها ، فيكون رمضان شهرًا بعشرة أشهر ، ويكون الستة بستين يومًا ، وهم شهران ، فعلى هذا يُسن للإنسان إذا أتم صيام رمضان أن يصوم ستة من شوال .

وليُعْلَم أنها لا تصام قبل القضاء ، يعني : لو كان على الإنسان يومٌ واحدٌ من رمضان ، وصام الست ؛ فإنه لا يحصل على أجر ذلك ؛ لأن الرسول ﷺ قال : « من صام رمضان » ومن عليه يوم واحد من رمضان لم يكن صامه ، بل صام أيامًا منه ، من كان عليه يوم فقد صام تسعة وعشرين ، ومن كان عليه يومان فقد صام ثمانية وعشرين ، ما صام الشهر ، والرسول ﷺ يقول : « من صام رمضان » فإذا صمت رمضان وصمت ستة أيام بعده من شوال فكأنما صمت الدهر كله .

وسواء صمتها من ثاني يوم العيد وأتبعت بعضها بعضًا ، أو صمتها بعد يومين أو ثلاثة ، أو صمتها متتابعة ، أو صمتها متفرقة ، الأمر في هذا واسع ، لكن لو أنك تساهلت حتى خرج شوال وصمت ؛ فإنها لا تكون بهذا الأجر ، اللَّهم إلا من كان معذورًا ، مثل أن يكون مريضًا ، أو امرأة نفساء أو مسافرًا ، ولم يصم في شوال وقضاها في ذي القعدة ، فلا بأس [(٤)] .

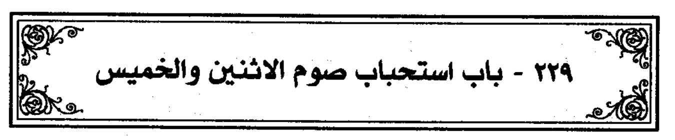
---

(١) أخرجه البخاري في مناقب الأنصار (٣٩٤٣) ، ومسلم في الصيام (١٢٧) .

(٢) قوله : ﴿ وَلِيُّ الْمُؤْمِنِينَ ﴾ أي : ناصرهم ومجازيهم بالحسنى .

(٣) انظر زاد المعاد (٢/٧٦) .

(٤) هذا هو قول ابن عمر وابن عباس فيما روي عنهما : أنهما أصبحا صائمين ثم أفطرا . وقال ابن عمر : لا بأس به ما لم يكن نذرًا =



٢٢٩ - باب استحباب صوم الاثنين والخميس

١٢٥٥ - عن أَبي قَتَادَةَ ﷺ أَنَّ رسول اللّه ﷺ سُئِلَ عَنْ صَومِ يومِ الاثْنَينِ فَقَالَ : « ذلكَ يَومٌ وُلِدْتُ فِيهِ ، وَيَومٌ بُعِثْتُ - أو أُنزِلَ عَلَيَّ - فِيهِ »[(١)] رواه مسلم .

١٢٥٦ - وعَنْ أبي هُرَيرَةَ ﷺ عن النبي ﷺ ، قالَ : « تُعْرَضُ الأَعْمَالُ يَومَ الاثنينِ والخَميسِ ، فَأُحِبُّ أَنْ يُعْرَضَ عَملي وَأَنَا صَائِمٌ »[(٢)] رَوَاهُ التِرمِذِيُّ وقالَ : حديثٌ حَسَن ، ورواهُ مُسلمٌ بغيرِ ذِكرِ الصَّوم .

١٢٥٧ - وَعَنْ عائشةَ ﷺ قَالَتْ : كانَ رسول اللّه ﷺ يَتَحَرَّى صَومَ الاثْنَينِ وَالخَميسِ[(٣)] . رواه الترمذيُّ وقالَ : حديثٌ حسنٌ .

* * *

٢٣٠ - باب استحباب صوم ثلاثة أيام من كل شهر

والأَفضلُ صومُها في الأَيام البِيضِ ، وهِيَ : الثالِثَ عَشَرَ ، والرابعِ عشَرَ والخامِسَ عشَرَ وقِيلَ : الثاني عشرَ ، والثالثَ عشَرَ ، والرابعَ عَشَرَ ، والصحيحُ المَشْهُورُ هوَ الأَوَّلُ .

١٢٥٨ - وعن أَبي هُريرةَ ﷺ قالَ : أَوصاني خليلي ﷺ بِثلاثٍ : صِيَامِ ثَلاثَةِ أَيَّامٍ مِن كلِّ شَهرٍ ، وَرَكعَتَي الضُّحى ، وأَن أُوتِرَ قبْلَ أَنْ أَنَامَ[(٤)] . متفقٌ عليه .

١٢٥٩ - وعَنْ أَبي الدَّرْداءِ ﷺ قالَ : أوصَاني حَبيبي ﷺ بِثلاثٍ لَنْ أَدَعَهُنَّ ما عِشْتُ : بِصِيَامِ ثَلاثَةِ أَيَّامٍ مِن كُلِّ شَهرٍ ، وَصَلاةِ الضحى ، وَبِأَنْ لا أَنَامَ حَتى أُوتِرَ[(٥)] . رواه مسلم .

١٢٦٠ - وَعَنْ عبدِ اللّه بنِ عَمْرِو بنِ العاص ﷺ قالَ : قالَ رسول اللّه ﷺ : « صومُ ثلاثة أَيَّامٍ مِنْ كُلِّ شهرٍ صومُ الدهرِ كُلِّه »[(٦)] متفقٌ عليه .

= أو قضاء رمضان ، وقال ابن عباس : إذا صام الرجل تطوعًا ثم شاء أن يقطعه قطعه ، وقال ابن مسعود : متى أصبحت تريد الصوم فأنت على خير النظرين إن شئت صمت وإن شئت أفطرت ، وهو قول أحمد والشافعي وإسحاق والثوري ، وقد روى حنبل عن أبيه أحمد بن حنبل : إذا أجمع على الصيام فأوجبه على نفسه فأفطر من غير عذر أعاد ذلك اليوم ، وقال النخعي وأبو حنيفة : يلزم بالشروع فيه ولا يخرج منه إلا بعذر ، فإن خرج قضاه . وعن مالك : لا قضاء عليه . (انظر المغني مع الشرح الكبير ١١٣/٣) .

(١) أخرجه مسلم في الصيام (١٩٧) ، والبيهقي في السنن (٢٨٦/٤) .

(٢) أخرجه الترمذي في الصوم (٧٤٧) ، وابن ماجه في الصوم (١٧٤٠) ، قوله : « تعرض الأعمال » أي : تقوم الملائكة الحفظة أو غيرهم بعرض أعمال العباد على اللّه .

(٣) أخرجه الترمذي في الصوم (٧٤٥) ، والنسائي في الصوم (٢٣٦١ ، ٢٣٦٢) .

(٤) أخرجه البخاري في الصوم (١٩٨١) ، ومسلم في صلاة المسافرين وقصرها (٨٥) .

(٥) أخرجه مسلم في صلاة المسافرين وقصرها (٨٦) ، والإمام أحمد في المسند (١٧٣/٥) بنحوه .

(٦) أخرجه البخاري في الصوم (١٩٧٩) ، ومسلم في الصيام (١٩٣) .

١٢٦١ - وعنْ مُعَاذةَ العَدَويَّةِ أنَّها سَأَلَتْ عائشةَ رضي الله عنها : أكانَ رسول اللَّه ﷺ يصومُ مِن كُلِّ شهرٍ ثلاثةَ أيَّامٍ ؟ قَالَتْ : نَعمْ . فَقُلْتُ : مِنْ أيِّ الشَّهْرِ كَانَ يَصُومُ ؟ قَالَتْ : لَمْ يَكُنْ يُبالي مِنْ أيِّ الشَّهْرِ يَصُومُ [١] . رواه مسلم .

١٢٦٢ - وعَنْ أَبي ذَرٍّ رضي الله عنه قَالَ : قالَ رسول اللَّه ﷺ : « إذا صُمْتَ مِنَ الشَّهْرِ ثَلاثًا ، فَصُمْ ثَلاثَ عَشْرَةَ ، وَأَرْبَعَ عَشْرَةَ ، وَخَمْسَ عَشْرَةَ » [٢] رواهُ الترمِذيُّ وقالَ : حديثٌ حسنٌ .

١٢٦٣ - وعنْ قتادَةَ بنِ مِلحَانَ رضي الله عنه قَالَ : كانَ رسول اللَّه ﷺ يأْمُرُنا بصِيَامِ أيَّامِ البيضِ : ثَلاثَ عَشْرَةَ ، وَأَرْبَعَ عَشْرَةَ ، وَخَمْسَ عَشْرَةَ [٣] . رواهُ أبو داودَ .

١٢٦٤ - وعن ابنِ عبَّاسٍ رضي الله عنهما قالَ : كانَ رسول اللَّه ﷺ لا يُفطِرُ أيَّامَ البِيضِ في حَضَرٍ وَلا سَفَرٍ [٤] . رواهُ النَّسائي بإسنادٍ حَسَنٍ .

الشرح

هذان البابان عقدهما المؤلف النووي رحمه الله في بيان فضل صوم يوم الاثنين والخميس ، وثلاثة أيام من كل شهر .

أما يوم الاثنين : فإن النبي ﷺ سُئِلَ عن صومه ، فقال : « ذاك يومٌ وُلِدْتُ فيه ، ويوم بُعِثْتَ - أو أُنزِل عَلَيّ - فيه » وكذلك مات فيه - عليه الصلاة والسلام - فيوم الاثنين ولد فيه النبي ﷺ ، لكن في أي شهر؟ لم يتبين ، هل في شهر ربيع الأول ، أو في غيره ؟ وهل هو في اليوم الثاني عشر منه أو في غيره ، إنما المؤكد أنه ولد في يوم الاثنين . كذلك أيضًا أُنزل على الرسول ﷺ فيه ، يعني : أول ما نزل عليه القرآن في يوم الاثنين .

والراوي شَكٌّ ، هل قال : « أُنزِل » أو « بُعِثت » ؟ وبينهما فرق ، لأنه أُنزِل عليه القرآن قبل أن يُبعث ، أُنزلت عليه سورة (اقرأ باسم ربك الذي خلق ...) وبهذا صار نبيًا وأنزل عليه ، وأما البعث وهو الإرسال : فإنما كان بقوله تعالى : (يا أيها المدثر ...) وهذا بعد الأول . وعلى كُلٍّ صار هذا اليوم فيه مناسبات شريفة عظيمة ، ولادة الرسول ﷺ وإنزال الوحي عليه ، أو إرساله إلى الناس .

وأما صيام ثلاثة أيام من كل شهر : ففيه أحاديث : منها حديث أبي هريرة رضي الله عنه وأبي الدرداء ، وأبي ذر ، هؤلاء الثلاثة أوصاهم النبي ﷺ بوصية واحدة ، لكن كل واحد في وقت .

---

(١) أخرجه مسلم في الصيام (١٩٤) ، وأبو داود في الصوم (٢٤٥٣) ، وابن ماجه في الصيام (١٧٠٩) . قوله : « من أي شهر كان يصوم » أي : هذه الأيام الثلاثة ، قوله : « لا يبالي » أي : كان لا يهتم بتعيين تلك الأيام فكان يصومها بحسب ما يقتضي رأيه ، ولعل الحكمة في ذلك : أنه لم يواظب على أيام بعينها حتى لا يظن تعيينها .

(٢) أخرجه الترمذي في الصوم (٧٦١) ، والنسائي في الصيام (٢٤٢٤) .

(٣) أخرجه أبو داود في الصوم (٢٤٤٩) ، والنسائي في الصوم (٢٤٢٩) ، وابن ماجه في الصوم (١٧٠٧) .

(٤) أخرجه النسائي في السنن (٢٣٤٥) .

أوصاهم بصيام ثلاثة أيام من كل شهر ، وقال لعبد الله بن عمرو بن العاص : « صومُ ثلاثة أيام من كل شهر صومَ الدهر كله » يعني : ثلاثة أيام - والحسنة بعشرة أمثالها - تكون ثلاثين يومًا ، فتكون صومَ الدهر كله .

أوصاهم بثلاثة أيام من كل شهر ، ولم يُعَيِّن ، لم يقل : الثالث عشر ، والرابع عشر ، والخامس عشر ، وأوصاهم أيضًا بركعتي الضحى .

وركعتا الضحى وقتها من ارتفاع الشمس قدر رمح - أي من نحو ثلث ساعة بعد طلوع الشمس - إلى قبيل الزوال - أي إلى ما قبل الزوال بنحو عشر دقائق ، كل هذا وقت لركعتي الضحى .

وتُسن كل يوم ، لأن النبي ﷺ ذكر : « إن كل عضو من أعضاء بني آدم يصبح كل يوم عليه صدقة » [١] . مُقابلةً للأعضاء ، والأعضاء ثلاثمائة وستون عضوًا ، إذًا عليك كل يوم ثلاثمائة وستون صدقة . لكن الصدقات ما هي لازمة بالمال ؛ فكل تسبيحة صدقة ، وكل تكبيرة صدقة ، وكل تهليلة صدقة ، وأمر بالمعروف صدقة ، ونهي عن المنكر صدقة ، حتى إعانة الرجل في دابته صدقة ، حتى جماع الرجل لأهله صدقة . ولكن قال النبي ﷺ : « يغني عن ذلك كله ركعتان يركعهما من الضحى » .

إذًا أنت إذا ركعت ركعتين من الضحى أدَّيت الواجب عليك من الصدقات ، وبقي الباقي تطوعًا .

أما الثالث : « وأن أوتر قبل أن أنام » : هذا لمن يخشى أن لا يقوم من آخر الليل ، الذي يخشى ألا يقوم من آخر الليل ، نقول : أَوتِر قبل أن تنام ، احتط لنفسك ، أما الذي يتأكد أن يقوم من آخر الليل ، فليجعل وتره من آخر الليل . هكذا جاءت السنة عن النبي ﷺ .

قال العلماء : وإنما أوصى هؤلاء بأن يوتروا قبل أن يناموا ، لأن مقتضى حالهم يقتضي ذلك ، فقد كان أبو هريرة رضي الله عنه في أول الليل يتحفظ أحاديث رسول الله ، وينام في آخر الليل [٢] .

ثم إن الأيام الثلاثة يجوز أن تصومها في العشرِ الأوَّل ، أو في العشر الأوسط ، أو في العشر الأخير ، أو كل عشرة أيام يومًا ، أو كل أسبوع يومًا ، كل هذا جائز ، والأمر واسع ، ولهذا قالت عائشة رضي الله عنها : أن النبي ﷺ لا يبالي من أي الشهر صامها ، من أوله ، أو من وسطه ، أو من آخره .

لكن اليوم الثالث عشر والرابع عشر والخامس عشر ، أحسن وأفضل ، لأنها أيام البِيضِ .

أما صوم يوم الخميس فهو أيضًا سنة ، لكنه دون صوم يوم الاثنين ، صوم يوم الاثنين أفضل ، وكلاهما فاضل . وإنما كان صيامهما فاضلًا ، لأنه يُرْوَى عن النبي ﷺ أن الأعمال تُعْرَض فيهما على الله ، وقد قال ﷺ : « فأُحِبُّ أن يعرض عملي وأنا صائم » .

وأفضل الصيام صيام داود ، أن يصوم الإنسان يومًا ويُفِطر يومًا ، هذا لمن قدر ولم يكن عليه مشقة ، ولم يضيع بسببه الأعمال المشروعة الأخرى ، ولم يمنعه عن تعلم العلم ، لأن هناك عبادات

---

(١) انظر الحديث بلفظه في : مسلم في صلاة المسافرين (٨٤) ، وأبو داود في السنن (١٢٨٩) ، وأحمد في مسنده (١٦٧/٥) .

(٢) انظر في ذلك : عون المعبود شرح سنن أبي داود (٣١٠/٤) .

أخرى ، إذا كان كثرة الصيام تعجزك عنها فلا تكثر الصيام . . والله الموفق .

* * *

٢٣١ - باب فضل من فطَّر صائمًا وفضل الصائم الذي يؤكل عنده ودعاء الآكل للمأكول عنده

١٢٦٥ - عنْ زَيدِ بنِ خالدٍ الجُهَنيِّ ﷺ عن النبي ﷺ ، قالَ : « مَنْ فَطَّرَ صَائمًا ، كانَ لهُ مِثْلُ أجْرِهِ ، غَيرَ أَنَّهُ لا يَنْقُصُ مِنْ أَجْرِ الصَّائم شيء »[1] . رواهُ الترمذيُّ وقالَ : حديثٌ حسنٌ صحيحٌ .

١٢٦٦ - وعَنْ أُمِّ عُمَارَةَ الأنصاريَّةِ رضي الله عنها أنَّ النبيَّ ﷺ ، دَخَلَ عَلَيها ، فَقَدَّمَتْ إلَيهِ طَعَامًا ، فَقَالَ : « كُلِي » فَقالَتْ : إنِّي صَائمَةٌ ، فقالَ رسول اللَّه ﷺ : « إنَّ الصَّائِمَ تُصَلِّي عَلَيهِ المَلائِكَةُ إذا أُكِلَ عِنْدَهُ حَتَّى يَفْرُغُوا » وَرُبَّما قالَ : « حَتَّى يَشْبَعُوا »[2] رواهُ الترمذيُّ وقالَ : حديثٌ حسنٌ .

١٢٦٧ - وعَنْ أَنسٍ ﷺ أَنَّ النبيَّ ﷺ جاءَ إلى سَعْدِ بْنِ عُبادَةَ ﷺ فَجاءَ بِخُبْزٍ وَزَيتٍ ، فَأَكَلَ ، ثُمَّ قَالَ النبيُّ ﷺ : « أَفْطَرَ عِنْدَكُمُ الصَّائمونَ ، وَأَكَلَ طَعَامَكُمُ الأَبْرَارُ ، وَصَلَّتْ عَلَيكُمُ المَلائِكَةُ »[3] . رواهُ أبو داود بإسنادٍ صحيحٍ .

الشرح

باب فضل من فَطَّر صائمًا هو آخر ما ذكره النووي رحمه الله في كتابه رياض الصالحين فيما يتعلق بالصيام ، وذلك أن من نعمة اللَّه ﷻ على عباده أن شرع لهم التعاون على البر والتقوى ، ومن ذلك تفطير الصائم ، لأن الصائم مأمور بأن يفطِر ، وأن يعجِّل الفطر ، فإذا أُعين على هذا فهو من نعمة اللَّه ﷻ ، ولهذا قال النبي ﷺ : « من فطّر صائمًا ، كان له مثل أجره ، غير أنه لا ينقص من أجر الصائم شيء » .

واختلف العلماء في معنى « مَنْ فَطّر صائمًا » فقيل : إن المراد مَن فطَّره على أدنى ما يُفَطِّر به الصائم ، ولو بتمرة .

وقال بعض العلماء : المراد بتفطيره أن يشبعه ، لأن هذا هو الذي ينفع الصائم طول ليله ، وربما يستغني به عن السحور ؟

ولكن ظاهر الحديث أن الإنسان لو فطَّرَ صائمًا ولو بتمرة واحدة ؛ فإنه له مثل أجره .

(١) أخرجه الترمذي في الصوم (٨٠٧) ، وابن ماجه في الصيام (١٧٤٦) ، والدارمي في الصوم (١٧٠٢) . قوله : « مثل أجره » أي : أجر الصائم الذي فطره .

(٢) أخرجه الترمذي في الصوم (٧٨٥) ، وابن ماجه في الصيام (١٧٤٨) ، والإمام أحمد في مسنده (٣٦٥/٦) ، والدارمي في الصوم (١٧٣٨) . قوله : « تصلي عليه الملائكة » أي : تستغفر له .

(٣) أخرجه أبو داود في الأطعمة (٣٨٥٤) ، قوله : « الأبرار » أي : الأتقياء الصالحون ، وقوله : « صلت عليكم الملائكة » أي : دعت لكم .

ولهذا ينبغي للإنسان أن يحرص على إفطار الصائمين بقدر المستطاع لا سيما مع حاجة الصائمين وفقرهم ، أو حاجتهم ، لكونهم لا يجدون من يقوم بتجهيز الفطور لهم ، وما أشبه ذلك .

* * *

كتاب الاعتكاف

٢٣٢ - بابُ فضل الاعتكاف

١٢٦٨ - عنِ ابنِ عُمَرَ رضي الله عنهما قالَ : كانَ رسول اللَّه ﷺ يَعْتَكِفُ العَشْرَ الأَوَاخِرَ مِنْ رَمَضَانَ [١] . متفقٌ عليه .

١٢٦٩ - وعنْ عائشة رضي الله عنها أنَّ النبيَّ ﷺ كانَ يَعْتَكِفُ العَشْرَ الأَوَاخِرَ مِنْ رَمَضَانَ ، حَتَّى تَوَفَّاهُ اللَّهُ تعالى ، ثُمَّ اعْتَكَفَ أَزْوَاجُهُ مِنْ بَعْدِهِ [٢] . متفقٌ عليه .

١٢٧٠ - وعَنْ أَبي هُريرةَ رضي الله عنه قالَ : كانَ النبيُّ ﷺ يَعْتَكِفُ في كُلِّ رَمَضَانَ عَشْرَةَ أَيَّامٍ ، فَلَمَّا كَانَ العَامُ الَّذِي قُبِضَ فِيهِ اعْتَكَفَ عِشْرِينَ يَوْمًا [٣] . رواه البخاري .

الشرح

ذكر المؤلف - رحمه اللَّه تعالى - باب الاعتكاف . والاعتكاف : لزوم المسجد لطاعة اللَّه عز وجل ، وهو مشروع في العشر الأواخر من رمضان ، لأن النبي ﷺ كان يعتكف العشر الأخير ، ثم اعتكف العشر الأوسط ، يتحرى ليلة القدر ، ثم قيل له : « إنها في العشر الأواخر » ، فصار يعتكف العشر الأواخر من رمضان . وبهذا عرفنا أنه لا يُشْرَع الاعتكاف في غير رمضان ، وأن ما ذكره بعض العلماء من أنه ينبغي للإنسان إذا قصد المسجد أن ينوي الاعتكاف مدةَ مُكثه فيه ، قول لا دليل عليه [٤] ، فإن النبي ﷺ لم يشرعه

---

(١) أخرجه البخاري في الاعتكاف (٢٠٢٥) ، ومسلم في الاعتكاف (١) ، وأحمد في مسنده (٢/١٣٣ ، ٢٨١) وابن ماجه في الاعتكاف (١٧٧٠) .

(٢) أخرجه البخاري في الاعتكاف (٢٠٢٦) ، ومسلم في الاعتكاف (٣) ، وأبو داود في الصوم (٢٤٦٦) ، والترمذي في الصوم (٧٩٠) .

(٣) أخرجه البخاري في الاعتكاف (٢٠٤٤) ، والإمام أحمد في المسند (٢/٣٥٥) ، والترمذي في الحج (٨٠٣) . قوله : « قبض فيه » أي : تُوفِّيَ فيه .

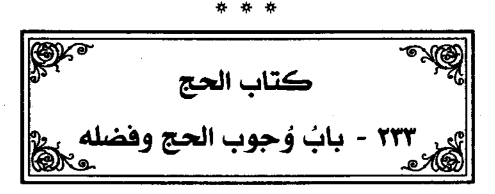
(٤) أجمع العلماء على أن الاعتكاف ليس واجبًا بل هو سنة مستحبة ، أو قربة من القرب ونافلة من النوافل . وقد جاءت التعريفات لتوضح أنه ليس للاعتكاف وقت محدد أو يوم محدد وهناك دليل على أن النبي ﷺ اعتكف دون إشارة إلى وقت معين فقد روى ابن ماجه عن عائشة رضي الله عنها قالت : « كان النبي ﷺ إذا أراد أن يعتكف صلى الصبح ثم دخل المكان الذي يريد أن يعتكف فيه ، فأراد أن يعتكف العشر الأواخر من رمضان فأمر فضرب له خباء . فلما رأى ذلك رسول اللَّه ﷺ قال : « آلبرَّ تُردنَ ؟ » فلم يعتكف في رمضان واعتكف عشر من شوال . (أخرجه ابن ماجه في السنن ١/٥٦٣) (انظر في ذلك : أحكام القرآن للجصاص ١/٣٤٣ ، الأم ٢/١١٥ ، بداية المجتهد ١/٣١٤ ، ٣١٥ ، فقه الكتاب والسنة ١/١٧٦) .

لأمته ، لا بقوله ، ولا بفعله ، يعني : لم يقل للناس : إذا دخلتم المسجد فانووا الاعتكاف فيه في أي وقت ، ولم يكن يفعل ذلك هو بنفسه ، وإنما كان يعتكف العشر الأواخر تحريًا لليلة القدر ، ولهذا ينبغي للمعتكف ألا يشتغل إلا بالطاعة ، من صلاة وقراءة القرآن وذِكْر ، حتى تعليم العلم ، قال العلماء : « لا ينبغي للمعتكف أن يشتغل بتعليم العلم ، بل يقبل على العبادات الخاصة ، لأن هذا الزمن مخصوص للعبادات الخاصة » .

ولا يجوز للمعتكف أن يخرج من المسجد إلا لما لابد منه ، كأن يكون ليس عنده من يأتيه بالطعام والشراب ، فيخرج ليأكل ويشرب ، أو يخرج لقضاء الحاجة ، أو يحتاج إلى الخروج من أجل غُسْل الجنابة ، وما أشبه ذلك . أو يحتاج للخروج لكونه في مسجد غير جامع فيذهب إلى الجمعة ، المهم : أن المعتكف لا يخرج من المسجد ، إلا لشيء لا بد له منه ، شرعًا ، أو طبعًا [١] .

ثم إنه ينبغي للمعتكف إذا جاءه أحد يريد أن يشغله بالكلام اللغو الذي لا فائدة منه أن يقول له : يا أخي ، أنا معتكف ، إما أن تعينني على الطاعة ، وإما أن تبتعد عني ، والله تعالى لا يستحي من الحق ، وأما الجلوس اليسير عند المعتكف والتحدث اليسير ؛ فهذا لا بأس به ، لأن النبي ﷺ كان يستقبل نساءه ، وهو معتكف فيتحدث إليهن ، ويتحدثن إليه [٢] . والله الموفق .

* * *



كتاب الحج

٢٣٣ - بابُ وُجوب الحج وفضله

قال الله تعالى : ﴿ وَلِلَّهِ عَلَى ٱلنَّاسِ حِجُّ ٱلْبَيْتِ مَنِ ٱسْتَطَاعَ إِلَيْهِ سَبِيلًا ۚ وَمَن كَفَرَ فَإِنَّ ٱللَّهَ غَنِىٌّ عَنِ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴾ [آل عمران : ٩٧] .

١٢٧١ - وعن ابن عُمَرَ رضي الله عنهما أن رسول الله ﷺ قال : « بني الإسلام على خَمْسٍ : شهادةِ أن لا إله إلا الله ، وأنَّ محمدًا رسول الله ، وإقامِ الصلاةِ ، وإيتاءِ الزكاةِ ، وحجِّ البيتِ ، وصومِ رمضانَ » [٣] متفقٌ عليه .

١٢٧٢ - وعَنْ أبي هُرَيرَةَ رضي الله عنه قالَ : خَطَبَنا رسول الله ﷺ فَقالَ : « يا أَيُّها النَّاسُ قَدْ فَرَضَ اللهُ عَلَيكُمُ الحَجَّ فَحُجُّوا » فَقالَ رَجُلٌ : أَكُلَّ عَامٍ يا رسولَ اللهِ ؟ فَسَكَتَ ، حَتَّى قالَها ثَلاثًا . فَقالَ رسول الله ﷺ : « لَو قُلْتُ نَعَمْ لَوَجَبَتْ ، وَلَمَا اسْتَطَعْتُمْ » ثُمَّ قالَ : « ذَرُوني مَا تَرَكْتُكُمْ ؛ فَإِنَّمَا هَلَكَ مَنْ كَانَ قَبْلَكُم بِكَثْرَةِ سُؤالِهِمْ ، وَاخْتِلافِهِمْ عَلى أَنْبِيائِهِمْ ، فَإِذَا أَمَرْتُكُمْ بِشَيءٍ ؛ فَأْتُوا مِنْهُ ما اسْتَطَعْتُمْ ، وَإِذا نَهَيْتُكُم عَن شَيءٍ ؛ فَدَعُوهُ » [٤] رواه مسلم .

---

(١) هذا هو الذي عليه جمهور العلماء خلافًا لما قاله سعيد بن جبير والنخعي والحسن البصري من جواز شهود الجنازة وعيادة المريض ، أو الصحيح ما قاله الجمهور (انظر فقه الكتاب والسنة ١/١٧٧) .

(٢) راجع الحديث في البخاري في الاعتكاف (٢٠٣٨) .

(٣) أخرجه البخاري في بدء الوحي (٨) ، ومسلم في الإيمان (١٩) ، والإمام أحمد في المسند (٢/١٢٠) .

(٤) أخرجه مسلم في الحج (٤١٢) ، والإمام أحمد في مسنده (١/٢٢٥) ، وابن ماجه في المناسك (٢٨٨٤) . قوله : « لو قلت نعم لوجبت » أي : لفُرِضَ عليكم الحج كل عام ، قوله : « واختلافهم على أنبيائهم » أي : تقولهم عليهم ما لم يقولوه ، وتحريفهم ما قالوه .

الشرح

ذكر المؤلف - رحمه الله تعالى - : وجوب الحج وفضله . والحج : هو قصد مكة للتعبد لله سبحانه وتعالى بأداء المناسك ، وهو أحد أركان الإسلام بإجماع المسلمين ، ودليل فرضه قول الله تبارك وتعالى : ﴿ وَلِلَّهِ عَلَى ٱلنَّاسِ حِجُّ ٱلْبَيْتِ مَنِ ٱسْتَطَاعَ إِلَيْهِ سَبِيلًا وَمَن كَفَرَ فَإِنَّ ٱللَّهَ غَنِيٌّ عَنِ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴾ . فهذه الآية نزلت في العام التاسع من الهجرة ، وهو العام الذي يسمى عام الوفود ، وبها فُرض الحج . أما قوله تعالى في سورة البقرة : ﴿ وَأَتِمُّوا۟ ٱلْحَجَّ وَٱلْعُمْرَةَ لِلَّهِ ﴾ [البقرة : ١٩٦] . ففيها فَرْض الإتمام لا فَرْض الابتداء ، فَفَرْض الابتداء كان في السنة التاسعة في آية سورة آل عمران ، وأما فرض الاستمرار والإتمام ، فكان في آية البقرة ، في سنة ست من الهجرة .

قال الله تعالى : ﴿ وَلِلَّهِ عَلَى ٱلنَّاسِ حِجُّ ٱلْبَيْتِ مَنِ ٱسْتَطَاعَ إِلَيْهِ سَبِيلًا ﴾ [آل عمران : ٩٧] . على الناس يعني : على جميعهم ، لكن الكافر لا نأمره بالحج حتى يُسلم ، وأما المسلم فنأمره بأن يحج بهذا الشرط الذي اشترطه الله ﷻ ﴿ مَنِ ٱسْتَطَاعَ إِلَيْهِ سَبِيلًا ﴾ يعني : من استطاع أن يصل إلى مكة ، فمن لم يستطع لفقره ؛ فلا حَجَّ عليه ، ومن لم يستطع لعجزه ؛ نظرنا ، فإن كان عجزه لا يُرْجَى زوالُه ، وعنده مال ؛ وجب أن يقيم من يَحجُّ عنه .

وإن كان يرجى زواله كَمَرض طارئ ، طرأ عليه في أيام الحج ؛ فإنه ينتظر حتى يعافيه الله ، ثم يحج بنفسه .

ثم ذكر المؤلف رَحِمَهُ ٱللَّهُ حديث ابن عمر رضي الله عنهما ، أن النبي ﷺ قال : « بني الإسلام على خمس ...» وقد سبق الكلام عليه ، فلا حاجة إلى الإعادة ، والشاهد من هذا قوله ﷺ وحج البيت الحرام .

والحج لا يجب إلا مرة ، إلا إذا نذر الإنسان أن يحج فليحج ، لكن بدون نذر لا يجب إلا مرة ؛ لأن النبي ﷺ حين سُئل أفي كل عام ؟ قال : « لو قلت : نعم لوجبت . ولما استطعتم » الحج مرة ، فما زاد فهو تطوع ، وهذا من نعمة الله ﷻ ، أنه لم يفرضه إلا مرة واحدة في العمر ، وذلك لأن غالب الناس يشق عليهم الوصول إلى مكة وهذه من الحكمة . تجد الصلوات الخمس مفروضة كل يوم ، الجمعة مفروضة في الأسبوع مرة ، لأن الجمعة يجب أن تكون في مسجد واحد فقط في البلد كله ، وهذا قد يكون فيه مشقة لو قلنا للناس اجتمعوا في مسجد واحد كل يوم خمس مرات ، فيه مشقة ، ولهذا لم تفرض الجمعة إلا في الأسبوع مرة .

الزكاة لم تجب إلا في السنة مرة ، الصيام لم يجب إلا في السنة مرة ، الحج لا يجب إلا في العمر مرة ، وهذا من حكمة الله تعالى ورحمته ، حيث جعل هذه الفرائض مناسبة لأحوال العباد .

وقال النبي ﷺ : « لو قلت نعم لوجبت ولما استطعتم » ، ثم قال - عليه الصلاة والسلام - : « ذروني ما تركتكم » يعني : لا تسألوا عن أشياء أنا ساكت عنها ، ما دمت ساكت عن الشيء فاسكتوا عنه ، لأن أعظم الناس جُرمًا من سأل عن مسألة حلال فحرمت من أجل مسألته ، أو عن

مسألة غير واجبة ، فوجبت من أجل مسألته .

لكن بعد موت النبي ﷺ لا بأس أن يسأل الناس العلماء عن أمور دينهم ، لأن الشرع انتهى ، فليس هناك في تحليل ولا تحريم ، ولا إيجاب ، ولا إسقاط . فهذا هو مراد الرسول ﷺ بأن تسأل ولا تقل : ﴿ لَا تَسْـَٔلُواْ عَنْ أَشْيَآءَ إِن تُبْدَ لَكُمْ تَسُؤْكُمْ ﴾ (١) [المائدة : ١٠١] اسأل .

ثم بَيَّنَ الرسول – عليه الصلاة والسلام – أن ما أهلك الذين من قبلنا كثرة مسألتهم ، واختلافهم على أنبيائهم ، يعني : أنهم يسألون .. يسألون ، فهلكوا ، وانظر إلى أصحاب البقرة حين قال لهم موسى – عليه الصلاة والسلام – : اذبحوا بقرة ، وخذوا جزءًا منها ، واضربوا به القتيل ، وكان القتيل من بين قبيلتين أو طائفتين قُتل ، فادعت إحدى الطائفتين على الأخرى أنها قتلته ، فأنكروا . وهو ميت ، وليس يوجد شهود . فجاءوا إلى موسى – عليه الصلاة والسلام – فأمرهم بأمر الله ، أن يذبحوا بقرة ، لو ذبحوا أي بقرة تلك الساعة لحصل لهم المقصود ، لكن جعلوا يسألون : ما هي ؟ ما لونها ؟ ما هي ؟ حتى شددوا ، فشدد الله عليهم ، فذبحوها وما كادوا يفعلون (٢) .

فالحاصل : أن كثرة المسائل والاختلاف على الأنبياء من أسباب الهلاك ، وهذا كله كما قلت : في عهد النبوة ، عهد التشريع .

أما الآن : فاسأل عما تحتاج إلى السؤال عنه ، ولا حرج عليك .

أما أغلوطات المسائل وألغاز المسائل ، والأشياء التي يقصد بها التشدد والتعنت فهذه منهي عن السؤال عنها ، لقول النبي ﷺ : « هلك المتنطعون ، هلك المتنطعون ، هلك المتنطعون » (٣) . والله أعلم .

* * *

١٢٧٣ – وَعَنْهُ قَالَ : سُئِلَ النَّبِيُّ ﷺ ، أَيُّ العَمَلِ أَفضَلُ ؟ قال : « إيمانٌ بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ » قِيلَ : ثُمَّ مَاذَا ؟ قال : « الجِهَادُ في سَبِيلِ اللَّهِ » قِيلَ : ثُمَّ مَاذَا ؟ قَالَ : « حَجٌّ مَبْرورٌ » (٤) متفقٌ عليه . « المَبْرورُ » هُوَ الَّذِي لا يَرتَكِبُ صَاحِبُهُ فِيهِ مَعْصِيَةً .

١٢٧٤ – وَعَنْهُ قالَ : سَمِعْتُ رسول اللَّه ﷺ يقولُ : « مَنْ حَجَّ فَلَم يَرْفُثْ ، وَلَمْ يَفسُقْ ؛ رَجَعَ

---

(١) نزلت هذه الآية حينما أكثر المسلمون من السؤال عن أمور يسوؤهم إبداؤها لكون التكليف بها شاقًا عليهم كسؤالهم عن الحج أفي كل عام ؟ أو لكونها مستورة وفي إظهارها فضيحة للسائل كسؤال بعضهم عن أبيه ؛ فنُهوا عن السؤال عن أمثال هذه الأمور .

(٢) انظر الآية ٦٧ – ٧١ من سورة البقرة .

(٣) أخرجه : مسلم في العلم (٧) ، والبغوي في شرح السنة ٣٩٦/١٢ والمتنطع : المتعمق في الكلام الغالي ، ويكون الذي يتكلم بأقصى حلقه مأخوذ من النطع .

(٤) أخرجه البخاري في الإيمان (٢٦) ، ومسلم في الإيمان (١٣٥) ، والبيهقي في السنن (٢٦٢/٥) .

كَيوم وَلَدَتهُ أُمُّهُ » (١) متفقٌ عليه .

١٢٧٥ - وعَنْه أنَّ رسول اللّه ﷺ قالَ : « العُمْرَةَ إلى العُمْرَةِ كَفَّارَةٌ لَمَا بَينَهُمَا ، والحَجُّ المبْرُورُ لَيسَ لَهُ جَزَاءٌ إلا الجَنَّةَ » (٢) متفقٌ عليه .

١٢٧٦ - وعَنْ عَائشَةَ ﵂ قالتْ : قلت : يا رسول اللّه ، نَرَى الجِهَادَ أفضل العَمَلِ ، أَفَلا نُجَاهِدُ ؟ فَقَالَ : « لكِنْ أَفضَلُ الجِهَادِ حجٌّ مَبرُورٌ » (٣) رواه البخاري .

١٢٧٧ - وَعَنْهَا أَنَّ رسول اللّه ﷺ قَالَ : « مَا مِنْ يَومٍ أَكْثَرَ مِنْ أَنْ يَعْتِقَ اللّهُ فِيهِ عَبْدًا مِنَ النَّارِ مِنْ يَومِ عَرَفَةَ » (٤) رواه مسلم .

١٢٧٨ - وعنِ ابنِ عبَّاسٍ ﵄ أَنَّ النبيَّ ﷺ ، قالَ : « عُمرَةٌ في رَمَضَانَ تَعدِلُ حَجَّةً » - أَو « حَجَّةً مَعِي » (٥) متفقٌ عليه .

الشرح

هذه الأحاديث ذكرها النووي ﵀ في كتابه رياض الصالحين ، في باب : وجوب الحج وفضله . وهي تدل على أمور : منها أن الحج المبرور في المرتبة الثالثة بالنسبة لأفضل الأعمال ، فقد سُئل النبي ﷺ أي الأعمال أفضل ؟ قال : إيمان باللّه ، ثم ماذا ؟! قال : الجهاد في سبيل اللّه ، ثم قال الثالث : حج مبرور. فالحج المبرور هو الذي اجتمعت فيه أمور :

الأمر الأول : أن يكون خالصًا لله بأن لا يحمل الإنسانَ على الحج إلا ابتغاءُ رضوان اللّه والتقرب إليه ﷻ ، لا يريد رياءً ولا سمعة ، ولا أن يقول الناس : فلان حج ، وإنما يريد وجه اللّه .

الثاني : أن يكون الحج على صفة حج النبي - صلى اللّه عليه وعلى آله وسلم - يعني أن يتبع الإنسان فيه الرسول ﷺ ما استطاع .

(١) أخرجه البخاري في الحج (١٥٢١) ، ومسلم في الحج (٤٣٨) بنحوه . وقوله : « فلم يرفث » الرفث : التصريح بذكر الجماع . قال الأزهري : هي كلمة جامعة لكل ما يريد الرجل من المرأة، قوله : « ولم يفسق » الفسوق : المعصية .

(٢) أخرجه البخاري في العمرة (١٧٧٣) ، ومسلم في الحج (٤٣٧) ، ومالك في الموطأ (٣٤٦) ، والبيهقي في السنن (٣٤٣/٣) . قوله : « كفارة لما بينهما » أي : أنهما مكفرتان لما بينهما من صغائر الذنوب المتعلقة باللّه تعالى ، قوله : «المبرور » هو الذي لا يخالطه إثم .

(٣) أخرجه البخاري في الحج (١٥٢٠) ، والإمام أحمد في المسند (٧١/٦) ، وابن ماجه في المناسك (٢٩٠١) ، وابن خزيمة في صحيحه (٣٠٧٤) .

(٤) أخرجه مسلم في الحج (٤٣٦) ، وابن ماجه في المناسك (٣٠١٤) ، والنسائي في السنن (٣٠٠٣) ، والدارقطني في سننه (٣٠١/٢) .

(٥) أخرجه البخاري في العمرة (١٧٨٢) ، ومسلم في الحج (٢٢٢) ، والترمذي في الحج (٩٣٩) ، وأبو داود في المناسك (١٩٨٨) . قوله : « تعدل حجة » أي : في الأجر فقط .

الثالث : أن يكون من مال مباح ، ليس حرامًا ، بأن لا يكون ربًا ، ولا من غشٍّ ، ولا من ميسرٍ ، ولا غير ذلك من أنواع المفاسد المحرمة ، بل يكون من مالٍ حلال ، ولهذا قال بعضهم :

إِذَا حَجَجْتَ بِمَالٍ أَصْلُهُ سُحْتٌ فَمَا حَجَجْتَ وَلَكِنْ حَجَّتْ العِيرُ

يعني : الإبل حجت ، أما أنت فما حججت ، لماذا ؟! لأن مالك حرامًا .

الرابع : أن يجتنب فيه الرفث والفسوق والجدال ، لقول اللّه تعالى : ﴿ فَمَن فَرَضَ فِيهِنَّ ٱلْحَجَّ فَلَا رَفَثَ وَلَا فُسُوقَ وَلَا جِدَالَ فِي ٱلْحَجِّ ﴾ [البقرة : ١٩٧] . فيجتنب الرفث وهو الجماع ودواعيه ، ويجتنب الفسوق ، سواء كان في القول المحرم ، الغيبة ، النميمة ، والكذب ، أو الفعل : كالنظر إلى النساء ، وما أشبه ذلك ، لابد أن يكون قد تجنب فيه الرفث والفسوق ، والجدال : المجادلة والمنازعة بين الناس في الحج ، هذه تنقص الحج كثيرًا .

اللّهم إلا جدالًا يراد به إثباتُ الحق ، وإبطال الباطل ؛ فهذا واجب ، فلو جاء إنسان مبتدع يجادل ، والإنسان محرم ؛ فإنه لا يتركه بل يجادله ويبين الحق ، لأن اللّه أمر بذلك : ﴿ ٱدْعُ إِلَىٰ سَبِيلِ رَبِّكَ بِٱلْحِكْمَةِ وَٱلْمَوْعِظَةِ ٱلْحَسَنَةِ وَجَٰدِلْهُم بِٱلَّتِي هِيَ أَحْسَنُ ﴾ [سورة النحل: ١٢٥] لكن الجدال من غير داعٍ يتشاحنون أيهم يتقدم ، أو عند رمي الجمرات ، أو عند المطار ، أو ما أشبه ذلك ، هذا كله مما ينقص الحج ، فلا بد من ترك الجدال ، فالحج المبرور ليس له جزاء إلا الجنة . « ومن حج ولم يرفث ولم يفسق رجع كيوم ولدته أمه » أي : رجع من الذنوب نقيًّا لا ذنوب عليه كيوم ولدته أمه .

وفي حديث عائشة الذي سألت فيه النبي ﷺ ، نرى الجهاد أفضل الأعمال ، قال : لكن أفضل الأعمال حج مبرور ، هذا بالنسبة للنساء ؛ فالنساء جهادهن هو الحج ، أما الرجال فالجهاد في سبيل اللّه أفضل من الحج ، إلا الفريضة ؛ فإنها أفضل من الجهاد في سبيل اللّه ، لأن الفريضة ركن من أركان الإسلام .

وفي هذه الأحاديث عمومًا دليل على أن الأعمال تتفاضل بحسب العامل ، ففي حديث أبي هريرة ذكر رسول اللّه ﷺ : أن أفضل الأعمال : الإيمان باللّه ، ثم الجهاد في سبيل اللّه ، ثم الحج ، وفي حديث ابن مسعود أنه سأل النبي ﷺ : أي الأعمال أحب إلى اللّه ؟ قال : « الصلاة على وقتها » قال : ثم أي ؟ قال : « بر الوالدين » قال : ثم أي ؟ قال : « الجهاد في سبيل اللّه » .

فكلٌّ يخاطب بما يليق بحاله ، وكما قال رسول اللّه ﷺ للرجل الذي قال : أوصني ، قال : « لا تغضب » قال : أوصني ، قال : « لا تغضب » قال : أوصني : قال : « لا تغضب » (١) . ما قال : أوصيك بتقوى اللّه ، وبالعمل الصالح ، لأن هذا الرجل يليق بحاله أن يُوصى بترك الغضب ، لأنه غضوب . فالرسول ﷺ يخاطب كل إنسان بما يليق بحاله ، ويُعلم هذا بتتبع الأدلة العامة في الشريعة ، وبيان مراتب الأعمال .

* * *

(١) أخرجه الترمذي في السنن (٢٠٢٠) ، وأحمد في مسنده ٢/٤٦٦ .

١٢٧٩ - وَعَنْهُ أَنَّ امرأَةً قالَتْ : يا رَسُولَ اللَّهِ ، إنَّ فَرِيضَةَ اللَّه عَلى عِبَادِهِ في الحَجِّ ، أَدْرَكَتْ أَبي شيخًا كَبِيرًا ، لا يَثْبُتُ عَلى الرَّاحِلَةِ ، أَفَأَحُجُّ عَنهُ ؟ قالَ : « نَعَم »[١] متفقٌ عليه .

١٢٨٠ - وعن لَقِيط بنِ عامرٍ ﷺ أَنَّهُ أَتى النَّبيَّ ﷺ فَقَالَ : إنَّ أبي شَيخٌ كَبيرٌ لا يَسْتطِيعُ الحَجَّ ، وَلا العُمْرَةَ ، وَلا الظَّعْنَ . قالَ : « حُجَّ عَنْ أَبِيكَ وَاعْتَمِرْ »[٢] . رواهُ أبو داودَ ، والترمذيُّ وقالَ : حديثٌ حسنٌ صحيحٌ .

١٢٨١ - وعَنِ السائبِ بنِ يزيدَ ﷺ قالَ : حُجَّ بي مَعَ رسول اللَّه ﷺ في حَجَّةِ الوَدَاعِ ، وَأَنا ابنُ سَبعِ سِنِينَ[٣] . رواه البخاري .

١٢٨٢ - وَعَنِ ابنِ عباسٍ ﷺ أَنَّ النبيَّ ﷺ لَقِيَ رَكْبًا بِالرَّوحاء ، فَقَالَ : « مَنِ القَومُ ؟ » قَالُوا : المسلِمُونَ . قَالُوا : مَنْ أَنتَ ؟ قَالَ : « رسولُ اللَّهِ » فَرَفَعَتِ امْرَأَةٌ صَبِيًّا فَقَالَتْ : أَلِهذا حَجٌّ ؟ قَالَ : « نَعمْ ، وَلَكِ أَجرٌ »[٤] رواه مسلم .

١٢٨٣ - وَعَنْ أَنَسٍ ﷺ أَنَّ رسول اللَّه ﷺ حَجَّ عَلى رَحْلٍ ، وَكَانتْ زامِلَتهُ[٥] . رواه البخاري .

١٢٨٤ - وَعَنِ ابنِ عبَّاسٍ ﷺ قَالَ : كَانَتْ عُكاظُ ، وَمِجَنَّةُ ، وَذُو المَجَازِ أَسْوَاقًا في الجَاهِلِيَّةِ ، فَتَأَثَّمُوا أن يَتَّجِرُوا في المَوَاسِمِ ، فَنَزَلَتْ : ﴿ لَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ أَن تَبْتَغُوا فَضْلًا مِّن رَّبِّكُمْ ﴾ [البقرة: ١٩٨] في مَوَاسِمِ الحَجِّ[٦] . رواه البخاري .

الشرح

هذه الأحاديث ساقها النووي رحمه الله في باب : وجوب الحج وفضله .

والحديث الأول والثاني : فيمن عجز عن الحج ، هل يحج عنه أحد أم لا ؟!

---

(١) أخرجه البخاري في الحج (١٥١٣) ، ومسلم في الحج (٤٠٧) ، وأبو داود في الزكاة (١٦٥٦) ، والترمذي في الحج (٩٢٩) .

(٢) أخرجه الترمذي في الحج (٩٣٠) ، وأبو داود في المناسك (١٨١٠) ، وابن ماجه في المناسك (٢٩٠٦) ، والنسائي في السنن (٢٦٣٧) . قوله : « ولا الظعن » بفتحتين أو سكون الثاني ؛ مصدر ظعن إذا سافر ، وفسر الظعن بالراحلة ؛ أي : لا يقوى على السير ولا على الركوب من كبر السن .

(٣) أخرجه البخاري في الحج (١٨٥٨) ، والترمذي في الحج (٩٢٦) .

(٤) أخرجه مسلم في الحج (٤٠٩) ، والترمذي في الحج (١٨٥٨) ، والبيهقي في السنن (١٥٥/٥ ، ١٥٦) . قوله : « بالروحاء » موضع من عمل الفُرْع بينها وبين المدينة ثلاثون ميلًا وقيل أربعون .

(٥) أخرجه البخاري في الحج (١٥١٧) ، وأبو داود في المناسك (١٨٨٠) بمعناه . قوله : « زاملته » البعير الذي يحمل عليه الطعام والمتاع . والمراد : أنه لم يكن معه زاملة لحمل طعامه ومتاعه .

(٦) أخرجه البخاري في الحج (١٧٧٠) . قوله : « عكاظ » أحد أسواق العرب في الجاهلية بالقرب من نواحي « ركبة » إلى جهة الطائف ، قوله « ذو المجاز » سوق بعرفة على ناصية كبكب ، وهو جبل خلف عرفات مشرف عليها .

ففي حديث ابن عباس ﷺ : أن امرأة سألت النبي ﷺ فقالت : إن أبي أدركته فريضة اللَّه على عباده في الحج ، شيخًا لا يثبت على الراحلة ، أفأحج عنه ؟ قال : « نعم » .

فدل ذلك على أن الإنسان إذا عجز عن الحج عجزًا لا يرجى زواله ، كالكبر والمرض الذي لا يرجى شفاؤه ، وما أشبه ذلك ؛ فإنه يحج عنه .

وفي هذا دليل على أن المرأة يجوز أن تحج عن الرجل ، وكذلك الرجل يجوز أن يحج عن المرأة ، والرجل عن الرجل ، والمرأة عن المرأة ، كل ذلك جائز [1] ، ولذلك أذن النبي ﷺ للرجل الذي أخبره أن أباه شيخ كبير لا يستطيع الركوب ، ولا الحج ، ولا العمرة ، فقال : « حج عن أبيك واعتمر » .

وفي هذه الأحاديث أيضًا دليل على جواز حج الصبيان ، فها هو السائب بن يزيد ﷺ يقول : حُج بي مع النبي ﷺ في حجة الوداع وأنا ابن سبع سنين .

طفل حُج به : فدل ذلك على جواز الحج من الأطفال ، وكذلك حديث ابن عباس : أن امرأة رفعت إلى النبي ﷺ صبيًا فقالت : ألهذا حج ؟ قال : نعم ، ولك أجر .

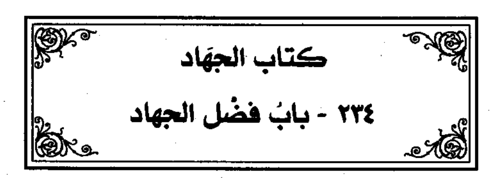
ففي هذين الحديثين دليل على جواز حج الصبيان ، والصبي يفعل ما يفعله الكبير ، وإذا عجز عن شيء فإنه يُفعل عنه إن كان مما تدخله النيابة ، أو يحمل إذا كان مما لا تدخله النيابة ، فمثلًا إذا كان لا يستطيع أن يطوف أو يسعى يُحمل ، إذا كان لا يستطيع أن يَرمي يُرمى عنه ، لأن حمله في الجمرات فيه مشقة ولا فائدة من حمله ، لأنه ليس رميًا بيده ، لهذا نقول : في الطواف والسعي يحمل ، وفي الرمي يُرمى عنه ، ثم إن الطائف والساعي ، هل يسعى لنفسه وهو حامل طفله ، ينوي به السعي عن نفسه وعن طفله ، والصواب عن نفسه وعن طفله ؟

نقول : لا ، فيه تفصيل : إن كان الطفل يعقل النية ، وقال له وليه : انوِ الطواف ، انوِ السعي ؛ فلا بأس أن يطوف به وهو حامله ، ينوي عن نفسه والصبي عن نفسه ، وإن كان لا يعقل النية ؛ فإنه لا يطوف به ، وينوي نيتين : نية لنفسه ، ونية لمحموله ؛ بل يطوف أولًا عن نفسه ، ثم يحمل صبيه فيطوف به ؛ أو يجعله مع إنسان آخر يطوف به ، وذلك لأنه لا يمكن أن يكون عمل واحد بنيتين ؛ فهذا هو التفريق في مسألة الطواف به .

ثم إن الإنسان إذا حج ؛ فإنه يجب عليه وهو نائب لغيره ، أن يفعل كل ما في وسعه من تتميم الحج : من أركانه ، وواجباته ومكملاته ، لأنه نائب عن غيره ، فلا ينبغي له أن يهمل فيما يقوم به عن الغير ، بخلاف من حج لنفسه ، فمن حج لنفسه وترك المستحب فلا بأس . لكن الحج عن الغير تؤديه بقدر ما تستطيع . واللَّه الموفق .

* * *

(١) وذلك الذي عليه جمهور الحنفية والشافعية والحنابلة وأهل الظاهر ، أما المالكية : فلا تجوز عندهم النيابة في الحج ، ووجه ذلك عندهم : أن العبادات لا ينوب فيها أحد عن أحد وهو رأي مرجوح والراجح ما ذهب إليه الجمهور ، وهو جواز النيابة في الحج ، وقد استثنى الحنابلة من ذلك النيابة في حج التطوع فقالوا إنها تجوز في الفرض ولا تجوز في التطوع (انظر : بدائع الصنائع ١٢٥/٢ ، والكافي ٥٢٠/١ ، وبداية المجتهد ٢٧٣/١ ، والمهذب ١٩٩/١) .



كتاب الجهاد

٢٣٤ - بابُ فضْلِ الجهادِ

قال الله تعالى: ﴿ وَقَٰتِلُواْ ٱلْمُشْرِكِينَ كَآفَّةً كَمَا يُقَٰتِلُونَكُمْ كَآفَّةً وَٱعْلَمُوٓاْ أَنَّ ٱللَّهَ مَعَ ٱلْمُتَّقِينَ ﴾ [التوبة: ٣٦] وقال تعالى: ﴿ كُتِبَ عَلَيْكُمُ ٱلْقِتَالُ وَهُوَ كُرْهٌ لَّكُمْ وَعَسَىٰٓ أَن تَكْرَهُواْ شَيْـًٔا وَهُوَ خَيْرٌ لَّكُمْ وَعَسَىٰٓ أَن تُحِبُّواْ شَيْـًٔا وَهُوَ شَرٌّ لَّكُمْ وَٱللَّهُ يَعْلَمُ وَأَنتُمْ لَا تَعْلَمُونَ ﴾ [البقرة: ٢١٦] وقال تعالى: ﴿ ٱنفِرُواْ خِفَافًا وَثِقَالًا وَجَٰهِدُواْ بِأَمْوَٰلِكُمْ وَأَنفُسِكُمْ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ ﴾ [التوبة: ٤١] (١) وقال تعالى: ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ ٱشْتَرَىٰ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ أَنفُسَهُمْ وَأَمْوَٰلَهُم بِأَنَّ لَهُمُ ٱلْجَنَّةَ يُقَٰتِلُونَ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ فَيَقْتُلُونَ وَيُقْتَلُونَ وَعْدًا عَلَيْهِ حَقًّا فِى ٱلتَّوْرَىٰةِ وَٱلْإِنجِيلِ وَٱلْقُرْءَانِ وَمَنْ أَوْفَىٰ بِعَهْدِهِۦ مِنَ ٱللَّهِ فَٱسْتَبْشِرُواْ بِبَيْعِكُمُ ٱلَّذِى بَايَعْتُم بِهِۦ وَذَٰلِكَ هُوَ ٱلْفَوْزُ ٱلْعَظِيمُ ﴾ [التوبة: ١١١] وقال الله تعالى: ﴿ لَّا يَسْتَوِى ٱلْقَٰعِدُونَ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ غَيْرُ أُوْلِى ٱلضَّرَرِ وَٱلْمُجَٰهِدُونَ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ بِأَمْوَٰلِهِمْ وَأَنفُسِهِمْ فَضَّلَ ٱللَّهُ ٱلْمُجَٰهِدِينَ بِأَمْوَٰلِهِمْ وَأَنفُسِهِمْ عَلَى ٱلْقَٰعِدِينَ دَرَجَةً وَكُلًّا وَعَدَ ٱللَّهُ ٱلْحُسْنَىٰ وَفَضَّلَ ٱللَّهُ ٱلْمُجَٰهِدِينَ عَلَى ٱلْقَٰعِدِينَ أَجْرًا عَظِيمًا ۝ دَرَجَٰتٍ مِّنْهُ وَمَغْفِرَةً وَرَحْمَةً وَكَانَ ٱللَّهُ غَفُورًا رَّحِيمًا ﴾ [النساء: ٩٥، ٩٦] وقال تعالى: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ هَلْ أَدُلُّكُمْ عَلَىٰ تِجَٰرَةٍ تُنجِيكُم مِّنْ عَذَابٍ أَلِيمٍ ۝ تُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ وَتُجَٰهِدُونَ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ بِأَمْوَٰلِكُمْ وَأَنفُسِكُمْ ذَٰلِكُمْ خَيْرٌ لَّكُمْ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ ۝ يَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ وَيُدْخِلْكُمْ جَنَّٰتٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ وَمَسَٰكِنَ طَيِّبَةً فِى جَنَّٰتِ عَدْنٍ ذَٰلِكَ ٱلْفَوْزُ ٱلْعَظِيمُ ۝ وَأُخْرَىٰ تُحِبُّونَهَا نَصْرٌ مِّنَ ٱللَّهِ وَفَتْحٌ قَرِيبٌ وَبَشِّرِ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴾ (٢) [الصف: ١٠، ١٣] والآياتُ في الباب كثيرةٌ مشْهُورةٌ.

وأمّا الأحاديثُ في فضلِ الجهادِ فأكثرُ من أنْ تُحصَرَ، فمِنْ ذلكَ.

١٢٨٥ - عَنْ أبي هُريرَةَ ﷺ قالَ: سئِلَ رسول اللَّه ﷺ: أَيُّ الأعمال أَفْضَلُ؟ قَالَ: «إيمانٌ باللَّهِ ورَسولِهِ» قِيلَ: ثم مَاذَا؟ قَالَ: «الجهادُ في سبيلِ اللَّهِ» قِيلَ: ثمَّ ماذا؟ قالَ: «حجٌّ مبْرورٌ» (٣) متفقٌ عليه.

١٢٨٦ - وعَنِ ابنِ مَسْعُودٍ ﷺ قالَ: قُلْتُ: يا رَسُولَ اللَّهِ، أيُّ العَمَلِ أحبُّ إلى اللَّهِ تعالى؟ قالَ: «الصَّلاةُ على وَقْتِهَا» قُلْتُ: ثُمَّ أيٌّ؟ قالَ: «بِرُّ الوَالدَينِ» قُلْتُ: ثُمَّ أيٌّ؟ قالَ: «الجهادُ في سَبيلِ اللَّهِ» (٤) متفقٌ عليه.

---

(١) قوله تعالى: ﴿ كَآفَّةً ﴾ أي: جميعًا. قوله تعالى: ﴿ ٱنفِرُواْ ﴾ أي: اخرجوا. قوله تعالى: ﴿ خِفَافًا وَثِقَالًا ﴾ أي: شبابًا وشيوخًا.

(٢) قوله تعالى: ﴿ فَٱسْتَبْشِرُواْ ﴾ أي: افرحوا. قوله تعالى: ﴿ أُوْلِى ٱلضَّرَرِ ﴾ هم الذين لديهم عذر لا يستطيعون القتال من أجله. قوله تعالى: ﴿ وَكُلًّا ﴾ أي: المجاهدين والقاعدين بغير عذر. قوله تعالى: ﴿ ٱلْحُسْنَىٰ ﴾ أي: الجنة. قوله تعالى: ﴿ وَأُخْرَىٰ ﴾ أي: ونعمة أخرى. قوله تعالى: ﴿ قَرِيبٌ ﴾ عاجل.

(٣) أخرجه البخاري في الإيمان (٢٦)، ومسلم في الإيمان (١٣٥)، والبيهقي في السنن (٥/٢٦٢). قوله: «أي العمل أفضل» أي: أكثر ثوابًا عند اللَّه.

(٤) أخرجه البخاري في الإيمان (٢٦)، ومسلم في الإيمان (١٣٨)، والنسائي في السنن (٢٦٢٤)، والدارمي في الجهاد (٢٣٩٣). قوله: «على وقتها» أي: في وقتها المحدد.

١٢٨٧ - وَعَنْ أبي ذَرٍّ ﷺ قَالَ : قُلْتُ : يا رَسُولَ اللَّهِ ، أَيُّ العَمَلِ أَفضَلُ ؟ قَالَ : « الإيمانَ بِاللَّهِ ، وَالجِهَادُ فِي سَبيلِهِ » [١] مُتفقٌ عليهِ .

الشرح

قال المؤلف النووي رَحِمَهُ اللَّهُ في كتاب رياض الصالحين ، كتاب الجهاد : الجهاد مصدر جاهد يجاهد ، ومعناه : بذل الجهد في مكافحة العدو . وينقسم إلى ثلاثة أقسام :

القسم الأول : جهاد النفس .

والثاني : جهاد المنافقين .

والثالث : جهاد الكفار المحاربين .

فأما الأول : فعليه ينبني الجهاد الثاني والجهاد الثالث .

ومعنى جهاد النفس : حمل النفس على القيام بالواجبات ، وترك المحرمات ، لأن النفس تحتاج إلى معاناة وإلى مجاهدة ، إذ أن لكل إنسان نَفْسَينِ نفسًا أمارة بالسوء ، ونفسًا مطمئنة تأمر بالخير ، فهاتان النفسان دائمًا في صراع ، النفس الأمارة بالسوء تريد منه أن يفعل السوء فهي أمارة ، وأمارة صيغة مبالغة ، أو هي بمعنى الكثرة ، أو أن من شأنها وطبيعتها الأمر بالسوء ، يعنى النسبة ، كما تقول : نجار ، وصناع ، وما أشبه ذلك .

فالنفسان دائمًا في صراع ، فيجاهد الإنسان بنفسه المطمئنة نفسه الأمارة بالسوء .. ! وجرب نفسك ، عندما تَهم بفعل الخير ، تجد هناك جاذبًا آخر يجذبك إلى الشر ، ويثبطك [٢] عن الخير ، ويقول : إن فعلت كذا ، صار كذا وكذا ، من الأمور المثبطة عن الخير ، فأنت دائمًا في جهاد ، وأعظم ما يجاهد عليه الإنسان نفسه ، الإخلاص لله عَزَّ وَجَلَّ في العبادات ، في المعاملات ، في طلب العلم ، في كل الأحوال .

قال بعض السلف : ما جاهدت نفسي على شيء مجاهدتها على الإخلاص ، لأن الإنسان قد يميل قلبه إلى مراءاة الناس ، أو يميل قلبه إلى أن يريد عرضًا من الدنيا بعمل الآخرة أو ما أشبه ذلك .

فالإخلاص شديد عظيم يحتاج إلى معاناة عظيمة شديدة . والكلمة الواحدة مع الإخلاص تنجي صاحبها من النار وتدخله الجنة ، ولهذا قال النبي ﷺ : « أسعد الناس بشفاعتي يوم القيامة من قال : لا إله إلا اللَّه خالصًا من قلبه » [٣] وقال - عليه الصلاة والسلام - : « من كان آخر كلامه لا إله إلا اللَّه دخل الجنة » [٤] كلمة واحدة مع الإخلاص توصل صاحبها إلى هذه الدرجة العظيمة ، النجاة من

---

(١) أخرجه البخاري في الجهاد والسير (٢٥١٨) ، مسلم في الإيمان (١٣٦) ، والنسائي في السنن (١١٣/٥) ، والبيهقي في السنن (٢٦٢/٥) .

(٢) ثبطه : أي : أعاقه ومنعه .

(٣) أخرجه البخاري في العلم (٩٩) ، وأحمد في مسنده (٣٧٣/٢) .

(٤) أخرجه أبو داود في السنن (٣١١٦) ، وأحمد في مسنده (٢٤٧/٥) ، والحاكم في المستدرك (٣٥١/١) .

النار ودخول الجنة . ولهذا عرف السلف رحمهم الله قدر الإخلاص ، وجاهدوا أنفسهم عليه ، وحرصوا على أن تكون أعمالهم كلها خالصة لله ﷻ . وبالإخلاص لله لابد أن يتبع الإنسانُ رسول الله ﷺ ، لأن المخلص في طلب الوصول إلى الله لابد أن يسلك الطريق الموصل إليه ، ولا طريق يُوصل إلى الله إلا طريق محمد ﷺ ، فهي مستلزمة للمتابعة ، ولهذا يقال : إخلاص لله تعالى في القصد ، وإخلاص للرسول ﷺ في المتابعة .

فالمهم : أن جهاد النفس ينبني عليه جهاد المنافقين ، وجهاد الكفار المحاربين ، بل كل الأعمال تنبني على جهاد النفس ، وهنا نذكركم بحديث يُروى عن النبي ﷺ أنه قال حين رجع من تبوك : « رجعنا من الجهاد الأصغر ، إلى الجهاد الأكبر » يعني : جهاد النفس [1] وهذا الحديث لا أصل له ، ولا يصح عن النبي ﷺ ، لكنه متداول بين الناس إلا أنه من الأحاديث التي لا أصل لها ، لأنه أحيانًا يشتهر على ألسن الناس أحاديث ليس لها إسناد ، وليس لها صحة كقول بعضهم : « حب الوطن من الإيمان » [2] هذا غير صحيح ، بل حب الديار الإسلامية من الإيمان ، أما الوطن فقد يرتحل الإنسان ويهاجر من بلد الكفر إلى بلد الإسلام ، ولا يكون حبها من الإيمان ، بل دار الكفر مبغوضة هي وأهلُها ، أما الديار الإسلامية فحبها من الإيمان ، سواء كانت وطنك أم لا .

هذا النوع الأول من الجهاد ، وهو : جهاد النفس ، الذي ينبني عليه جهاد المنافقين ، وجهاد المحاربين .

الثاني : جهاد المنافقين ، وجهاد المنافقين من أصعب ما يكون أيضًا ؛ لأن المنافق عدو خفي ، بل هو العدو حقيقة ، وانظر إلى قول الله تبارك وتعالى : ﴿ هُمُ ٱلْعَدُوُّ فَٱحْذَرْهُمْ قَٰتَلَهُمُ ٱللَّهُ أَنَّىٰ يُؤْفَكُونَ ﴾ [3] [المنافقون : ٤] ، كلمة هم العدو جملة خبرية ، طرفا إسنادها معرفة فتفيد الحصر ، كأنه قال : لا عدو لك إلا المنافق ، المنافق والعياذ بالله هو بيننا ، يصلي ويتصدق ويصوم ويدعي أنه منا ، لكنه جاسوس علينا ، ﴿ وَإِذَا لَقُواْ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ قَالُوٓاْ ءَامَنَّا وَإِذَا خَلَوْاْ إِلَىٰ شَيَٰطِينِهِمْ قَالُوٓاْ إِنَّا مَعَكُمْ إِنَّمَا نَحْنُ مُسْتَهْزِءُونَ ﴾ [البقرة : ١٤] ربما يأتي إلى أحد طلبة العلم ، ويلتقي به ويصاحبه ويظهر له المحبة والمودة ، فإذا قال له أصحابه إذا ذهب إليهم : لماذا أنت ملازمه ؟! يقول : أسخر به ، وهذا كما أنه موجود في عهد الرسول ﷺ موجود في عهدنا الآن ، فهذا جهاد المنافق بماذا يكون ، ؟!

---

(١) ذكره العجلوني في كشف الخفاء (١٠/٥١١) ، والقاري في الأسرار المدفوعة (٢٠٦) ، والفتني في تذكرة الموضوعات (١٩١) ، وقال العجلوني : قال ابن حجر في (تسديد القوس) : هو مشهور على الألسنة ، وهو من كلام إبراهيم بن عيله .

(٢) ذكره العجلوني في كشف الخفاء (١/٤١٣) ، والألباني في الضعيفة (٣٦) ، قال الصفاني : موضوع ، وقال في المقاصد : لم أقف عليه ، ومعناه صحيح ، ورد القاري قوله : ومعناه صحيح ، بأنه عجيب ؛ إذ لا تلازم بين حب الوطن وبين الإيمان .

(٣) قوله تعالى : ﴿ أَنَّىٰ يُؤْفَكُونَ ﴾ أي : كيف يصرفون عن الحق والرشد إلى ما هم عليه من الكفر والضلال .

المنافق لا يمكن أن تسل عليه السيف ، لماذا ؟ لأنه يزعم أنه مؤمن ، ولهذا لما أستأذن النبي ﷺ في قتل المنافقين أبى أن يقتلهم ، وقال : « لا يتحدث الناس أن محمدًا يقتل أصحابه » (١) . فهم أصحاب في الظاهر ، مسلمون ، إذًا فلا نسل عليهم السيف ، لكن بماذا أجاهده ؟!

جهاده بالعلم والمناظرة ، وتحذيره من أن يبقى على النفاق . ولا تيأس وتقول : هذا منافق ، فلقد تاب أناس في عهد الرسول ﷺ . كما قال الله تعالى : ﴿ وَلَئِن سَأَلْتَهُمْ لَيَقُولُنَّ إِنَّمَا كُنَّا نَخُوضُ وَنَلْعَبُ ﴾ من هم ؟! المنافقون ، ﴿ وَلَئِن سَأَلْتَهُمْ لَيَقُولُنَّ إِنَّمَا كُنَّا نَخُوضُ وَنَلْعَبُ قُلْ أَبِاللَّهِ وَآيَاتِهِ وَرَسُولِهِ كُنتُمْ تَسْتَهْزِئُونَ ۝ لَا تَعْتَذِرُوا قَدْ كَفَرْتُم بَعْدَ إِيمَانِكُمْ إِن نَّعْفُ عَن طَائِفَةٍ مِّنكُمْ نُعَذِّبْ طَائِفَةً بِأَنَّهُمْ كَانُوا مُجْرِمِينَ ﴾ [التوبة : ٦٥، ٦٦] ومتى يكون العفو ؟! بالإيمان ، بالتوبة من النفاق ، فالله سبحانه وتعالى قد يَمُن على المنافق فيتوبُ ، فلا تيأس ، جَاهِدْه بالعلم والبيان والنصح ، والإرشاد ، وَحذِّرهُ من العقوبة ، هذا جهاد المنافق .

أما جهاد الكافر المحارب : فهو الذي أراده المؤلف في هذا الباب ، وساق فيه الآيات المتعددة ، والأحاديث الكثيرة .

قَالَ اللَّهُ تَعالى : ﴿ وَقَاتِلُوا الْمُشْرِكِينَ كَافَّةً كَمَا يُقَاتِلُونَكُمْ كَافَّةً وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ مَعَ الْمُتَّقِينَ ﴾ [التوبة : ٣٦] . كافة : يعني عامة ، كل الكفار يجب أن نقاتلهم وأن نجاهدهم إلى أن يقولوا : لا إله إلا الله ، ويقيموا الصلاة ، ويؤتوا الزكاة ، ويصوموا رمضان ، ويحجوا البيت ، أو يُسَلِّموا الجزية عن يد وهم صاغرون ، فإن سَلَّموا الجزية عن يد وهم صاغرون ، كففنا عن قتالهم ، لقول الله تبارك وتعالى ﴿ قَاتِلُوا الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَلَا بِالْيَوْمِ الْآخِرِ وَلَا يُحَرِّمُونَ مَا حَرَّمَ اللَّهُ وَرَسُولُهُ وَلَا يَدِينُونَ دِينَ الْحَقِّ مِنَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ حَتَّىٰ يُعْطُوا الْجِزْيَةَ عَن يَدٍ وَهُمْ صَاغِرُونَ ﴾ [التوبة : ٢٩] .

فيجب على المسلمين أن يقاتلوا الكفار ، كل كافر من أي بلد كان ، من الروس أو الأمريكان أو الإنجليز أو الفرنسيين أو الفلبينيين وغيرهم ، يجب عليهم أن يقاتلوا كل كافر حتى يُسلم أو يعطي الجزية عن يد .

ولكن إذا قال قائل : كيف يكون ذلك اليوم في هذا العصر ؟! قلنا : إن الواجبات لها شروط ، منها : الاستطاعة ، لقول الله تعالى : ﴿ فَاتَّقُوا اللَّهَ مَا اسْتَطَعْتُمْ ﴾ [التغابن : ١٦] ، وقوله تعالى : ﴿ وَجَاهِدُوا فِي اللَّهِ حَقَّ جِهَادِهِ هُوَ اجْتَبَاكُمْ وَمَا جَعَلَ عَلَيْكُمْ فِي الدِّينِ مِنْ حَرَجٍ ﴾ (٢) [الحج : ٧٨] .

ومعلوم أن المسلمين اليوم مع الأسف الشديد يقاتلُ بعضهم بعضًا ، وليس عندهم تفكير في أن يقاتلوا لإعلاء كلمة الله ، هذا ظني فيهم ، والواقع شاهد بذلك بأن المسلمين لا يريدون هذا على

(١) أخرجه البخاري في التفسير (٤٩٠٥) ، ومسلم في البر والصلة (٦٣) ، والترمذي في السنن (٣٣١٥) ، وأحمد في مسنده (٣/٣٩٣) .

(٢) قوله تعالى : ﴿ اجْتَبَاكُمْ ﴾ : اختاركم للذَّبِّ عن دينه ، واصطفاكم لحرب أعدائه والجهاد في سبيله . وقوله تعالى : ﴿ حَرَجٍ ﴾ أي : ضيق لا مخرج منه .

الإطلاق ، ولا سيما الولاة منهم ، ويدلك على هذا ما يُفعل بإخواننا المسلمين في البوسنة والهرسك من ذبح الرجال ، كأنما تذبح الخراف ، وانتهاك الأعراض ، وابتزاز الأموال ، وإذلال الإسلام - وهذا أعظم - لأنه لا يهمني أن يقتل ألف شخص من المسلمين بقدر ما يقال : إن المسلمين أذلوا بإسلامهم .

فالقتال اليوم في فلسطين والبوسنة والهرسك والشيشان وغيرها كلها لإذلال المسلمين ، والأمة الإسلامية مع الأسف الآن متفرقة ، مشتتة ، لم يقم أحد منها يثأر لدين الله ﷻ ، فكيف يمكن أن يقاتلوا الكفار ؟! في الوقت الحاضر لا يمكن من أجل الذل الذي ضربه الله على قلوب ولاة الأمور في البلاد الإسلامية ، وعدم الإعداد للجهاد في سبيل الله .

بل ربما يمد بعضهم يَد الذل لعدوه الذي كان بالأمس يقاتله ، يمد له يد الذل والاستسلام ، فكيف نطلب من المسلمين أن يقاتلوا الكفار ، نعم .. الله يقول : قاتلوهم ؛ ﴿ وَقَٰتِلُواْ ٱلْمُشْرِكِينَ كَآفَّةً كَمَا يُقَٰتِلُونَكُمْ كَآفَّةً ﴾ ويقول : ﴿وَقَٰتِلُواْ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ ٱلَّذِينَ يُقَٰتِلُونَكُمْ وَلَا تَعْتَدُوٓاْ ﴾ ولكن مع الأسف - إنا لله وإنا إليه راجعون - كل هذا ضاع ، فالإنسان ينعصر قلبه دمًا ، وتجرح كبده إذا ما رأى ما يُفعل بالمسلمين الذين يشهدون : أن لا إله إلا الله وأن محمدًا رسول الله ، والذين هم في أشد الشوق إلى معرفة الدين الإسلامي ، والعمل به كما نسمع من إخواننا الذين يأتون من البلاد المستعمرة من الشيوعيين . يحدثوننا بفرحهم الشديد إذا وجدوا من يعلمهم دين الإسلام ، ويقبلون على ذلك رجالًا ونساء ، ومع هذا نتركهم يُذبحون ، والمسلمون لم يرفعوا لذلك رأسًا ، وإن شئت قلت : ولم يروا بذلك بأسًا إلا أن يشاء الله . فنحن الآن في ذلٍّ ليس بعده ذل ، وسبب ذلك هو أن الله ﷻ ابتلى كثيرًا من المسلمين بالإعراض التام عن دينهم ، لا يريدون إلا عرض الدنيا ، والترف ، ولهذا ترى المتحدثين في محاباة ولا يبالون بالدين إلا من شاء الله .

أما كلام الرب ﷻ فاسمعوا إليه ﴿ وَقَٰتِلُواْ ٱلْمُشْرِكِينَ كَآفَّةً كَمَا يُقَٰتِلُونَكُمْ كَآفَّةً وَٱعْلَمُوٓاْ أَنَّ ٱللَّهَ مَعَ ٱلْمُتَّقِينَ ﴾ كما يقاتلونكم : أي الذي سيقاتل سيقاتله هو ، فاثأروا لأنفسكم على الأقل ، بصرف النظر عن هذا الدين أو الإسلام ، ولكن مع الأسف الأمر بالعكس .

بل إننا ربما الآن - مع الأسف - المواطنون منا يشجعون أعداء الإسلام على قتال المسلمين ، انظر إلى العمالة التي ملئت بها الدنيا ، أكثرهم كفار ، مع توافر المسلمين في البلاد الإسلامية الفقيرة التي يغزوها النصارى من كل وجه ، فنجد المواطن ما همه إلا أن ينتهي من عمله ، ويقول له الشيطان : إن الكافر أحسن في العمل من المسلمين ، المسلم يقول : أذهب أصلي ، أصوم رمضان ، أحج ، أعتمر ، فيسافر . فيزين له الشيطان سوء عمله ، فيترك المسلمين ، ويأتي بهؤلاء الكفرة من أجل حطام الدنيا ، من أين لنا بالتقدم ؟ ومن أين لنا أن نقاتل في سبيل الله والأمر هكذا ؟ .

فالإنسان يقرأ هذه الآيات ويقول : سبحان الله ، هذه لنا أم لغيرنا ؟! ومع ذلك لا تحرك ساكنًا .

قال تعالى ﴿كُتِبَ عَلَيْكُمُ الْقِتَالُ﴾ [البقرة: ٢١٦] كتب : من الذي كتبه ؟ من الله تعالى ، كتب بمعنى : فرض ﴿كُتِبَ عَلَيْكُمُ الصِّيَامُ﴾ : فرض عليكم الصيام . ﴿وَهُوَ كُرْهٌ لَّكُمْ﴾ : تكرهونه ، لكنه خير ، ﴿وَعَسَىٰ أَن تَكْرَهُوا شَيْئًا وَهُوَ خَيْرٌ لَّكُمْ﴾ لو كرهتموه فهو خير ، ما هو الخير ؟! ، ﴿وَلَا تَحْسَبَنَّ الَّذِينَ قُتِلُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ أَمْوَاتًا بَلْ أَحْيَاءٌ عِندَ رَبِّهِمْ يُرْزَقُونَ ۝ فَرِحِينَ بِمَا آتَاهُمُ اللَّهُ مِن فَضْلِهِ وَيَسْتَبْشِرُونَ بِالَّذِينَ لَمْ يَلْحَقُوا بِهِم مِّنْ خَلْفِهِمْ أَلَّا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ۝ يَسْتَبْشِرُونَ بِنِعْمَةٍ مِّنَ اللَّهِ وَفَضْلٍ وَأَنَّ اللَّهَ لَا يُضِيعُ أَجْرَ الْمُؤْمِنِينَ﴾ [آل عمران: ١٦٩- ١٧١] هذا خير عظيم ، وكما سيأتي إن شاء الله في الآية الثالثة ﴿إِنَّ اللَّهَ اشْتَرَىٰ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ أَنفُسَهُمْ وَأَمْوَالَهُم بِأَنَّ لَهُمُ الْجَنَّةَ﴾ [التوبة: ١١١] ، ثم أنت أيها المسلم إذا قاتلت وجُرحت واستشهدت ، أتظن أن عدوك سالم ؟ ﴿وَلَا تَهِنُوا فِي ابْتِغَاءِ الْقَوْمِ﴾ [النساء: ١٠٤] أي في طلبهم ، ﴿إِن تَكُونُوا تَأْلَمُونَ فَإِنَّهُمْ يَأْلَمُونَ كَمَا تَأْلَمُونَ﴾ هذا الجرح الذي جُرحت ، وجُرح عدوك يألم كما تألم ، ولكن ﴿وَتَرْجُونَ مِنَ اللَّهِ مَا لَا يَرْجُونَ﴾ [النساء: ١٠٤] ، فهؤلاء كفار ليس لهم إلا النار ، أما أنت فترجوا من الله منازل الشهداء ، وترجون من الله ما لا يرجون ، ولما قام أبو سفيان قبل أن يسلم في يوم أحد قام يقول : يوم بيوم بدر ، والحرب سِجال - يعني أنتم غلبتمونا ، ونحن غلبناكم - ماذا قال المسلمون ؟! قالوا : لا سواء ، قتلانا في الجنة وقتلاكم في النار [1] فرق عظيم ، فالقتال نكرهه ويكرهه العدو ، لكن فرق بين إذا ما قتل الواحد منا أو منهم ، أو جرح الواحد منا أو منهم ، فنسأل الله تعالى أن يقيم علم الجهاد ، جهاد الأنفس وجهاد الأعداء ، وأن يهدي ولاة أمور المسلمين لإقامة دين الله ظاهرًا وباطنًا وأن يعيذهم من الشرور ، وأن يعيذهم من البطانة السيئة التي تضرهم ولا تنفعهم ، إنه على كل شيء قدير .

وَقَالَ تَعالَى : ﴿كُتِبَ عَلَيْكُمُ الْقِتَالُ وَهُوَ كُرْهٌ لَّكُمْ وَعَسَىٰ أَن تَكْرَهُوا شَيْئًا وَهُوَ خَيْرٌ لَّكُمْ وَعَسَىٰ أَن تُحِبُّوا شَيْئًا وَهُوَ شَرٌّ لَّكُمْ وَاللَّهُ يَعْلَمُ وَأَنتُمْ لَا تَعْلَمُونَ﴾ [البقرة: ٢١٦] وقَالَ تَعالَى : ﴿انفِرُوا خِفَافًا وَثِقَالًا وَجَاهِدُوا بِأَمْوَالِكُمْ وَأَنفُسِكُمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ﴾ [التوبة: ٤١] وقَالَ تَعالَى : ﴿إِنَّ اللَّهَ اشْتَرَىٰ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ أَنفُسَهُمْ وَأَمْوَالَهُم بِأَنَّ لَهُمُ الْجَنَّةَ يُقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَيَقْتُلُونَ وَيُقْتَلُونَ وَعْدًا عَلَيْهِ حَقًّا فِي التَّوْرَاةِ وَالْإِنجِيلِ وَالْقُرْآنِ وَمَنْ أَوْفَىٰ بِعَهْدِهِ مِنَ اللَّهِ فَاسْتَبْشِرُوا بِبَيْعِكُمُ الَّذِي بَايَعْتُم بِهِ وَذَٰلِكَ هُوَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ﴾ [التوبة: ١١١] .

ساق المؤلف النووي رَحِمَهُ اللَّهُ آيات من الجهاد منها ما سبق ، ومنها ما يلحق إن شاء الله ، فمن ذلك قوله تعالي ﴿كُتِبَ عَلَيْكُمُ الْقِتَالُ﴾ [البقرة: ٢١٦] .

وقد سبق أن القتال واجب على المسلمين أن يقاتلوا أعداء الله ، وأعداءهم من اليهود والنصارى والمشركين والشيوعيين ، وغيرهم ، كل من ليس بمسلم ، فالواجب على المسلمين أن يقاتلوه حتى تكون كلمة الله هي العليا ، وذلك إما بإسلام هؤلاء ، وإما بأن يبذلوا الجزية عن يد وهم صاغرون ، نحن لا نكرههم على الإسلام ، لا نقول : لابد أن تسلموا ، ولكن نقول : لابد أن يكون الإسلام هو

(١) انظر الحديث في أحمد في مسنده (٢٨٨/١) .

الظاهر ، فإما أن تسلموا وحياكم اللَّه ، وإما أن تبقوا على دينكم ولكن أعطوا الجزية عن يدٍ وأنتم صاغرون ، فإن أَبَوْ ، الإسلام ، وثُمَّ الجزية ، وجب علينا قتالهم ، ولكن يجب قبل قتالهم أن نعدَّ ما استطعنا من قوة ، لقوله تعالى : ﴿ وَأَعِدُّواْ لَهُم مَّا ٱسْتَطَعْتُم مِّن قُوَّةٍ ﴾ [الأنفال : ٦٠] والقوة نوعان : قوة معنوية ، وقوة مادية حسية « القوة المعنوية » الإيمان ، الإيمان باللَّه والعمل الصالح ، قبل أن نبدأ بجهاد غيرنا ، قال اللَّه تعالى : ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ هَلْ أَدُلُّكُمْ عَلَىٰ تِجَٰرَةٍ تُنجِيكُم مِّنْ عَذَابٍ أَلِيمٍ ۝ تُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ وَتُجَٰهِدُونَ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ بِأَمْوَٰلِكُمْ وَأَنفُسِكُمْ ذَٰلِكُمْ خَيْرٌ لَّكُمْ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ ﴾ [الصف : ١٠، ١١] فالإيمان قبل الجهاد ، ثم بعد ذلك الإعداد بـ « القوة المادية » ، ولكن مع الأسف إن المسلمين لما كان بأسهم بينهم من أزمنة متطاولة ، نسوا أن يُعِدُّوا هذا أو هذا ، لا إيمان قوي ، ولا مادة ، سبقنا الكفار بالقوة المادية بالأسلحة وغيرها ، وتأخرنا عنهم بهذه القوة كما أننا تأخرنا عن إيماننا الذي يجب علينا تأخرًا كبيرًا وسار بأسنا بيننا ، نسأل اللَّه السلامة والعافية .

فالقتال واجب ولكنه كغيره من الواجبات لابد من القدرة ، والأمة الإسلامية اليوم عاجزة لاشك عاجزة ، ليس عندها قوة معنوية ، ولا قوة مادية ، إذًا يسقط الجواب لعدم القدرة عليه فاتقوا اللَّه ما استطعتم ، قال تعالى ﴿ وَهُوَ كُرْهٌ لَّكُمْ ﴾ أي القتال كره لكم ، ولكن اللَّه قال : ﴿ كُتِبَ عَلَيْكُمُ ٱلْقِتَالُ وَهُوَ كُرْهٌ لَّكُمْ وَعَسَىٰٓ أَن تَكْرَهُواْ شَيْـًٔا وَهُوَ خَيْرٌ لَّكُمْ وَعَسَىٰٓ أَن تُحِبُّواْ شَيْـًٔا وَهُوَ شَرٌّ لَّكُمْ ﴾ .

أول الآية خاص ، بماذا ؟ بالقتال ، وآخر الآية عام ﴿ وَعَسَىٰٓ أَن تَكْرَهُواْ شَيْـًٔا ﴾ ، ولم يقل : وعسى أن تكرهوا القتال ، ولكن قال : ﴿ شَيْـًٔا ﴾ ، أي شيء يكون ، ربما يكره الإنسان شيئًا يقع ويكون الخير فيه ، وربما يحب شيئًا أن يقع ويكون الشر فيه ، وكم من شيء وقع وكرهته ثم في النهاية تجد أن الخير فيه مصداقًا لقوله تعالى : ﴿ وَعَسَىٰٓ أَن تَكْرَهُواْ شَيْـًٔا وَهُوَ خَيْرٌ لَّكُمْ وَعَسَىٰٓ أَن تُحِبُّواْ شَيْـًٔا وَهُوَ شَرٌّ لَّكُمْ ﴾ .

وهذه الآية يشبهها قوله تبارك وتعالى في النساء ﴿ فَإِن كَرِهْتُمُوهُنَّ فَعَسَىٰٓ أَن تَكْرَهُواْ شَيْـًٔا وَيَجْعَلَ ٱللَّهُ فِيهِ خَيْرًا كَثِيرًا ﴾ [النساء : ١٩] قال : ﴿ وَعَسَىٰٓ أَن تَكْرَهُواْ شَيْـًٔا ﴾ ، ولم يقل : وعسى أن تكرهوهن ، ويجعل اللَّه فيه خيرًا كثيرًا .

فهذا آمن في كل شيء قد يُجري اللَّه ﷻ بقضائه وقدره وحكمته شيئًا تكرهه ثم في النهاية يكون الخير فيه ، والعكس ربما يُجري اللَّه ﷻ شيئًا تظنه خيرًا ولكنه شر ، عاقبته شر ، ولهذا ينبغي للإنسان أن يسأل اللَّه تعالى حُسن العاقبة دائمًا .

ثم قال : ﴿ وَٱللَّهُ يَعْلَمُ وَأَنتُمْ لَا تَعْلَمُونَ ﴾ ، نعم .. اللَّه يعلم ونحن لا نعلم ، لأن علم اللَّه تعالى واسع ، فهو بكل شيء عليم ، عِلْمُ اللَّه عِلم واسع للمستقبل يعلم الغيب ونحن لا نعلم ، يعلم كل شيء ونحن لا نعلم ، بل يعلم ما توسوس به النفوس قبل أن يبدو وقبل أن يظهر ، ونحن لا نعلم ، وسأسألكم عن شيء سهل غير بعيد ، هل تعرفون عن أرواحكم شيئًا ؟! الروح التي بها الحياة هل تعرفون عنها شيئًا ؟! الجواب : لا . ﴿ وَيَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلرُّوحِ قُلِ ٱلرُّوحُ مِنْ أَمْرِ رَبِّى وَمَآ أُوتِيتُم مِّنَ ٱلْعِلْمِ إِلَّا قَلِيلًا ﴾ [الإسراء: ٨٥] الروح التي بين جنبيك لا تعرفها ولا تدري عنها ، وجملة ﴿ وَيَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلرُّوحِ

﴿ قُلِ ٱلرُّوحُ مِنْ أَمْرِ رَبِّى وَمَآ أُوتِيتُم مِّنَ ٱلْعِلْمِ إِلَّا قَلِيلًا ﴾ هذه الجملة ، ﴿ وَمَآ أُوتِيتُم مِّنَ ٱلْعِلْمِ إِلَّا قَلِيلًا ﴾ كأن فيها التوبيخ ، كأنه يقول : وما خفي عليكم من العلم إلا أن تعلموا هذه الروح ، ما أكثر العلوم التي فاتتكم ؟! والحاصل أن الله يقول : ﴿ وَٱللَّهُ يَعْلَمُ وَأَنتُمْ لَا تَعْلَمُونَ ﴾ .

وقال تعالى : ﴿ ٱنفِرُوا۟ خِفَافًا وَثِقَالًا ﴾ [التوبة : ٤١] ﴿ ٱنفِرُوا۟ ﴾ إلى أي شيء ؟! إلى الجهاد ﴿ ٱنفِرُوا۟ خِفَافًا وَثِقَالًا ﴾ يعني : انفروا حال ما يكون النفر خفيفًا عليكم أو ثقيلًا عليكم ، ﴿ ٱنفِرُوا۟ خِفَافًا وَثِقَالًا وَجَٰهِدُوا۟ بِأَمْوَٰلِكُمْ وَأَنفُسِكُمْ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ ذَٰلِكُمْ خَيْرٌ لَّكُمْ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ ﴾ أي : إن كنتم من ذوي العلم ، فاعلموا أن ذلك خير لكم .

وقال تعالى : ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ ٱشْتَرَىٰ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ أَنفُسَهُمْ وَأَمْوَٰلَهُم بِأَنَّ لَهُمُ ٱلْجَنَّةَ يُقَٰتِلُونَ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ فَيَقْتُلُونَ وَيُقْتَلُونَ وَعْدًا عَلَيْهِ حَقًّا فِى ٱلتَّوْرَىٰةِ وَٱلْإِنجِيلِ وَٱلْقُرْءَانِ وَمَنْ أَوْفَىٰ بِعَهْدِهِۦ مِنَ ٱللَّهِ ﴾ [التوبة : ١١١] انظروا لهذه الصفقة ، صفقة بيع ، تامة الشروط والأركان ، والوسائل ، من المشتري ؟ الله ﷻ . والبائع ؟ المؤمنون ، والعوض من المؤمنين : الأنفس والأموال ، والعوض من الله : الجنة ، والوثيقة : وعد من الله ، ما هي أوراق تمزق وترمى . بل في التوراة ، والإنجيل ، والقرآن أوثق هذه الوثائق ، وثيقة مكتوبة في التوراة والإنجيل والقرآن ، ليس هناك شيء أوثق منها ، وذكر التوراة والإنجيل والقرآن ؛ لأنها أوثق الكتب المنزلة على الرسل ، القرآن أشرفها ، ثم التوراة ، ثم الإنجيل ، هذه صفقة لا يمكن لها نظير كل الشروط كاملة ، وصفقة كبيرة عظيمة ، النفس والمال هما العوض من الإنسان ، والمُعَوِّض : هو المليك .. هو الله ﷻ ، وهي الجنة ، التي قال عنها الرسول عليه الصلاة والسلام : « لموضع سوط أحدكم في الجنة خير من الدنيا وما فيها » [1] موضع سوط : يعني حوالي (متر أو نحوه) خير من الدنيا وما فيها ، أي دنيا ؟ دنياك هذه ؟ لا .

قد تكون دنياك دنيا مملوءة بالتنغيص والتنفير ، والعمر قصير ، ولكن خير من الدنيا ، منذ خلقت إلى يوم القيامة ، بما فيها من السرور والنعيم ، موضع السوط في الجنة خير من الدنيا وما فيها .

أيهما أغلى .. الأنفس والأموال ، أم الجنة ؟! الجنة ، إذًا البائع رابح ، لأنه باع النفس والمال الذي لابد من فنائه بنعيم لا يزول ، ومن الذي عاهد على هذا البيع ؟ الله ﴿ وَمَنْ أَوْفَىٰ بِعَهْدِهِۦ مِنَ ٱللَّهِ ﴾ (من) هنا استفهام بمعنى النفي ، يعني لا أحد أصدق وأوفى بعهده من الله ، وصدق الله ﷻ ، ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُخْلِفُ ٱلْمِيعَادَ ﴾ .

ثم قال : ﴿ فَٱسْتَبْشِرُوا۟ بِبَيْعِكُمُ ٱلَّذِى بَايَعْتُم بِهِۦ ﴾ يعني : تستبشر النفوس بذلك ، وليبشر بعضكم بعضًا ، ولهذا قال الله تعالى : ﴿ وَلَا تَحْسَبَنَّ ٱلَّذِينَ قُتِلُوا۟ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ أَمْوَٰتًۢا بَلْ أَحْيَآءٌ عِندَ رَبِّهِمْ يُرْزَقُونَ ﴿١٦٩﴾ فَرِحِينَ بِمَآ ءَاتَىٰهُمُ ٱللَّهُ مِن فَضْلِهِۦ وَيَسْتَبْشِرُونَ بِٱلَّذِينَ لَمْ يَلْحَقُوا۟ بِهِم مِّنْ خَلْفِهِمْ أَلَّا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴾ [آل عمران : ١٦٩، ١٧٠] يستبشروا بهذا البيع ، بيع عظيم ، الذي بايعتم به ، وذلك (هو) الفوز العظيم ،

---

(١) أخرجه أحمد في مسنده (٣/٤٣٣) ، والدارمي في السنن (٢/٣٣٣) .

هذه الجملة فيها ضمير الفصل ، وذلك هو الفوز العظيم ، وضمير الفصل يقول العلماء يستفاد منه ثلاث فوائد :

١ - الاختصاص .   ٢ - التوفيق .   ٣ - التمييز بين الخبر والصفة .

يعني معنى ذلك هو الفوز العظيم الذي لا فوز مثله ، وصدق الله ورسوله ، ونسأل الله تعالى أن يجعلنا من هؤلاء ممن باعوا أنفسهم لله عز وجل ، والله الموفق .

قال تعالى : ﴿ لَّا يَسْتَوِى ٱلْقَٰعِدُونَ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ غَيْرُ أُو۟لِى ٱلضَّرَرِ وَٱلْمُجَٰهِدُونَ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ بِأَمْوَٰلِهِمْ وَأَنفُسِهِمْ ۚ فَضَّلَ ٱللَّهُ ٱلْمُجَٰهِدِينَ بِأَمْوَٰلِهِمْ وَأَنفُسِهِمْ عَلَى ٱلْقَٰعِدِينَ دَرَجَةً ۚ وَكُلًّا وَعَدَ ٱللَّهُ ٱلْحُسْنَىٰ ۚ وَفَضَّلَ ٱللَّهُ ٱلْمُجَٰهِدِينَ عَلَى ٱلْقَٰعِدِينَ أَجْرًا عَظِيمًا ۝ دَرَجَٰتٍ مِّنْهُ وَمَغْفِرَةً وَرَحْمَةً ۚ وَكَانَ ٱللَّهُ غَفُورًا رَّحِيمًا ﴾ [النساء : ٩٥، ٩٦] .

يعني : لا يستوي القاعدون والمجاهدون ، ونفي الاستواء ظاهر ، لأن المجاهد قد بذل نفسه وماله لله عز وجل ، والقاعد خائف إلا من استثنى الله عز وجل في قوله تعالى : ﴿ غَيْرُ أُو۟لِى ٱلضَّرَرِ ﴾ غير الذين يتضررون إذا ذهبوا إلى الجهاد وهم ثلاثة أصناف ذكرهم الله تعالى ، في قوله : ﴿ لَّيْسَ عَلَى ٱلْأَعْمَىٰ حَرَجٌ وَلَا عَلَى ٱلْأَعْرَجِ حَرَجٌ وَلَا عَلَى ٱلْمَرِيضِ حَرَجٌ ﴾ [النور : ٦١] ، وكذلك الذين لا يجدون ما ينفقون أو كانوا ضعفاء في أبدانهم لقول الله تعالى : ﴿ لَّيْسَ عَلَى ٱلضُّعَفَآءِ وَلَا عَلَى ٱلْمَرْضَىٰ وَلَا عَلَى ٱلَّذِينَ لَا يَجِدُونَ مَا يُنفِقُونَ حَرَجٌ إِذَا نَصَحُوا۟ لِلَّهِ وَرَسُولِهِۦ ۚ مَا عَلَى ٱلْمُحْسِنِينَ مِن سَبِيلٍ ۚ وَٱللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴾ [التوبة : ٩١] ، والثالث : من قعدوا للتفقه في الدين ، لقوله تعالى : ﴿ وَمَا كَانَ ٱلْمُؤْمِنُونَ لِيَنفِرُوا۟ كَآفَّةً ۚ فَلَوْلَا نَفَرَ مِن كُلِّ فِرْقَةٍ مِّنْهُمْ طَآئِفَةٌ لِّيَتَفَقَّهُوا۟ فِى ٱلدِّينِ وَلِيُنذِرُوا۟ قَوْمَهُمْ إِذَا رَجَعُوٓا۟ إِلَيْهِمْ لَعَلَّهُمْ يَحْذَرُونَ ﴾ [التوبة : ١٢٢] .

فهؤلاء ثلاثة أصناف :

الأول - أولو الضرر ، والضعفاء .

الثاني - والذين لا يجدون مالًا .

الثالث - ومن قعدوا ليتفقهوا في الدين .

فهؤلاء معذورون إما لوجود مصلحة في بقائهم أعلى من مصلحة الجهاد ، وهم الذين قعدوا للتفقه في الدين ، وإما لعذر لا يستطيعون معه أن يذهبوا إلى الجهاد .

وقول الله تعالى : ﴿ لَّا يَسْتَوِى ٱلْقَٰعِدُونَ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ غَيْرُ أُو۟لِى ٱلضَّرَرِ وَٱلْمُجَٰهِدُونَ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ بِأَمْوَٰلِهِمْ وَأَنفُسِهِمْ ۚ فَضَّلَ ٱللَّهُ ٱلْمُجَٰهِدِينَ بِأَمْوَٰلِهِمْ وَأَنفُسِهِمْ ﴾ ، المجاهدون أفضل ، وفي هذه الآية نفي الاستواء بين المؤمنين ، وأن المؤمنين ليسوا سواء ، فمثل ذلك قوله تعالى : ﴿ لَا يَسْتَوِى مِنكُم مَّنْ أَنفَقَ مِن قَبْلِ ٱلْفَتْحِ وَقَٰتَلَ ۚ أُو۟لَٰٓئِكَ أَعْظَمُ دَرَجَةً مِّنَ ٱلَّذِينَ أَنفَقُوا۟ مِنۢ بَعْدُ وَقَٰتَلُوا۟ ۚ وَكُلًّا وَعَدَ ٱللَّهُ ٱلْحُسْنَىٰ [1] ﴾ [الحديد : ١٠] ونفي الاستواء في القرآن العزيز كثير ، ﴿ قُلْ هَلْ يَسْتَوِى ٱلْأَعْمَىٰ وَٱلْبَصِيرُ أَمْ هَلْ تَسْتَوِى ٱلظُّلُمَٰتُ وَٱلنُّورُ ﴾

---

(١) قوله تعالى : ﴿ ٱلْحُسْنَىٰ ﴾ أي : الجنة .

[الرعد: ١٦] ، ﴿ وَمَا يَسْتَوِي ٱلْبَحْرَانِ هَٰذَا عَذْبٌ فُرَاتٌ سَآئِغٌ شَرَابُهُۥ وَهَٰذَا مِلْحٌ أُجَاجٌ (١) ﴾ [فاطر: ١٢] والآيات كثيرة ، وأحبُّ أن أنبهَ هنا على كلمة يطلقها بعض الناس قد يريدون بها خيرًا ، وقد يطلقها بعض الناس يريدون بها شرًّا ، وهي قولهم : إن الدين الإسلامي دين المساواة ، فهذا كذب على الدين الإسلامي ، لأن الدين الإسلامي ليس دين مساواة ، الدين الإسلامي دين عدل ، وهو إعطاء كل شخص ما يستحق ، فإذا استوى شخصان في الأحقية فحينئذٍ يتساويان فيما يترتب على هذه الأحقية ، أما مع الاختلاف فلا ، ولا يمكن أن يطلق على الدين الإسلامي أنَّه دين مساواة أبدًا ، بل إنه دين العدل ، لقول اللَّه تعالى : ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ يَأْمُرُ بِٱلْعَدْلِ وَٱلْإِحْسَٰنِ وَإِيتَآيِٕ ذِى ٱلْقُرْبَىٰ ﴾ [النحل: ٩٠] ، هذه الكلمة : الدين الإسلامي دين المساواة قد يطلقها بعض الناس ويريد بها شرًّا ، فمثلًا يقول : لا فرق بين الذكر والأنثى ، الدين دين مساواة ، الأنثى أعطوها من الحقوق مثل ما تعطون الرجل ، لماذا ؟ لأن الدين الإسلامي دين المساواة ، الاشتراكيون يقولون : الدين (دين مساواة) ، لا يمكن ، هذا غني جدًّا ، وهذا فقير جدًّا ، لابد أن نأخذ من مال الغني ونعطي الفقير ، لأن الدين دين المساواة ، فيريدون بهذه الكلمة شرًّا ، ولما كانت هذه الكلمة قد يراد بها خير ، وقد يراد بها شر ، لم يوصف الدين الإسلامي بها ، بل يوصف بأنه دين العدل ، الذي أمر اللَّه به ، ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ يَأْمُرُ بِٱلْعَدْلِ وَٱلْإِحْسَٰنِ ﴾ ما قال بالمساواة ، ولا يمكن أن يتساوى اثنان أحدهما أعمى ، والثاني بصير ، أحدهما عالم ، والثاني جاهل ، أحدهما نافع للخلق ، والثاني شرير ، لا يمكن أن يستوون .

العدل الصحيح : ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ يَأْمُرُ بِٱلْعَدْلِ وَٱلْإِحْسَٰنِ وَإِيتَآيِٕ ذِى ٱلْقُرْبَىٰ ﴾ لهذا أحببت التنبيه عليها ، لأن كثيرًا من الكتاب العصريين أو غيرهم يطلق هذه الكلمة ولكنه لا يتفطن لمعناها ، ولا يتفطن أن الدين الإسلامي لا يمكن أن يأتي بالمساواة من كل وجه ، مع الاختلاف أبدًا ، لو أنه حكم بالمساواة مع وجود الفارق ، لكان دينًا غيرَ مستقيم . فعلى المسلم ألا يسوي بين اثنين بينهما تضاد أبدًا ، لكن إذا استووا من كل وجه ، صار العدل أن يعطي كل واحد منهما ما يعطي الآخر .

وعلى كل حال فهذه الكلمة ينبغي لطالب العلم أن يتفطن لها ، وأن يتفطن لغيرها أيضًا من الكلمات التي يطلقها بعض الناس وهو لا يعلم معناها ، ولا يعلم مغزاها ، ومن ذلك أيضًا قول بعضهم : اللَّهم إني لا أسألك رد القضاء ولكني أسألك اللطف فيه ، هذه كلمة عظيمة لا تجوز ، لا أسألك رد القضاء ؟! وقد قال النبي : « لا يرد القضاء إلا الدعاء » (٢) ، الدعاء لا يرد القضاء ، لكن من أثر الدعاء إذا دعوت اللَّه تعالى بكشف ضُرٍّ ، فهذا قد كتب في الأزل في اللوح المحفوظ ، أن اللَّه تعالى يرفع هذا الضر عنك بدعائك ، فكله مكتوب ، وأنت إذا قلت : لا أسألك رد القضاء ولكن

---

(١) قوله تعالى : ﴿ فُرَاتٌ ﴾ أي : شديد العذوبة وقوله تعالى : ﴿ سَآئِغٌ شَرَابُهُۥ ﴾ أي : سهل انحداره في الحلق لعذوبته . قوله تعالى : ﴿ أُجَاجٌ ﴾ شديد الملوحة والمرارة . وسمي أجاجًا من الأجيج وهو تلهب النار ؛ لأن شربه يزيد العطش .

(٢) أخرجه الترمذي في السنن (٢١٣٩) بلفظه ، وابن ماجه في السنن (٤٠٢٢) ، وأحمد في مسنده (٥/٢٨٠) والبغوي في شرح السنة (٦/١٣) ثلاثتهم بلفظ : « لايرد القدر إلا الدعاء » .

أسألك اللطف فيه ، كأنك تقول : ما يهمني ، ترفع أو لا ترفع ، لكن الإنسان يطلب رفع كل ما نزل به ، فلا تقل : اللَّهم إني لا أسألك رد القضاء ولكن أسألك اللطف فيه ، قل : اللَّهم إني أسألك العفو والعافية [(١)] ، اللَّهم اشفني من مرضي ، اللَّهم أغنني من فقري ، اللَّهم اقض عني الدين [(٢)] ، اللَّهم علمني ما جهلت ، وما أشبه ذلك ، أما « لا أسألك رد القضاء » . فاللَّه تعالى يفعل ما يشاء ، ولا أحد يرده ، لكن أنت مفتقر إلى اللَّه ، فهذا الكلام لا أصل له ولا يجوز ، بل قد قال النبي ﷺ : « لا يقل أحدكم اللَّهم اغفر لي إن شئت » وهي أهون من « اللَّهم لا أسألك رد القضاء » ، « لا يقل أحدكم اللَّهم اغفر لي إن شئت ، اللَّهم ارحمني إن شئت ، وليعزم المسألة ، فإن اللَّه تعالى لا مكره له » [(٣)]وفي لفظ : « فإن اللَّه لا يتعاظمه شيء » [(٤)] .

وأرجو منكم حين جرى التنبيه على هاتين الكلمتين « الدين الإسلامي دين المساواة » و « اللَّهم لا أسألك رد القضاء ولكن أسألك اللطف فيه » إذا سمعتم أحدًا يقول ذلك أن تنبهوه ، وتتعاونوا على البر والتقوى ، وأكثر ما في القرآن العزيز هو نفي الاستواء ، لم يأت ذكر الاستواء إلا في مواطن قليلة مثل قوله تعالى ﴿ ضَرَبَ لَكُم مَّثَلًا مِّنْ أَنفُسِكُمْ هَل لَّكُم مِّن مَّا مَلَكَتْ أَيْمَٰنُكُم مِّن شُرَكَآءَ فِى مَا رَزَقْنَٰكُمْ فَأَنتُمْ فِيهِ سَوَآءٌ ﴾ [الروم : ٢٨] فالمراد نفي المساواة ، ﴿ هَل لَّكُم ﴾ هذا الاستفهام بمعنى النفي﴿ هَل لَّكُم مِّن مَّا مَلَكَتْ أَيْمَٰنُكُم مِّن شُرَكَآءَ فِى مَا رَزَقْنَٰكُمْ فَأَنتُمْ فِيهِ سَوَآءٌ ﴾ والجواب : لا ، إذًا فالمراد نفي المساواة ، وعلى كل حال فإني أنصح ، وأريد منكم إذا سمعتم أحدًا يقول هذا ، فقل له : لا ، ليس دين المساواة ، بل هو الدين العدل ، فهو إعطاء كل واحد ما يستحق .

والقول الآخر « لا أسألك رد القضاء ... » هذا كلام لغو ، من يرد القضاء ؟! لكن من قضاء اللَّه أن يرفع عنك المرض ، أو يرفع عنك الجهل ، نسأل اللَّه تعالى أن يرزقنا الفقه في ديننا ، وألا يجعلنا إمَّعةً نقول ما يقول الناس ، ولا ندري ما نقول ، واللَّه الموفق .

وقال تعالى : ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ هَلْ أَدُلُّكُمْ عَلَىٰ تِجَٰرَةٍ تُنجِيكُم مِّنْ عَذَابٍ أَلِيمٍ ۝١٠ تُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ وَتُجَٰهِدُونَ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ بِأَمْوَٰلِكُمْ وَأَنفُسِكُمْ ذَٰلِكُمْ خَيْرٌ لَّكُمْ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ ۝١١ يَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ وَيُدْخِلْكُمْ جَنَّٰتٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ وَمَسَٰكِنَ طَيِّبَةً فِى جَنَّٰتِ عَدْنٍ ذَٰلِكَ ٱلْفَوْزُ ٱلْعَظِيمُ ۝١٢ وَأُخْرَىٰ تُحِبُّونَهَا نَصْرٌ مِّنَ ٱللَّهِ وَفَتْحٌ قَرِيبٌ وَبَشِّرِ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴾ [الصف : ١٠: ١٣] والآيات في الباب كثيرةٌ مَشْهُورةٌ

﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ هَلْ أَدُلُّكُمْ عَلَىٰ تِجَٰرَةٍ تُنجِيكُم مِّنْ عَذَابٍ أَلِيمٍ ﴾ [الصف : ١٠] صدَّرَ اللَّه تعالى هذه الآيات

---

(١) هذا نص حديث أخرجه أبو داود في السنن (٥٣٥٨) ، وأحمد في مسنده (٢/٢٥) ، وابن ماجه في السنن (٣٨٧١) ، والحاكم في المستدرك (١/٥١٧) .

(٢) أخرجه المنذري في الترغيب والترهيب (٢/٦١٥) ، والسيوطي في الدر المنثور حديثًا قريبًا من هذ المعنى بلفظ «اللهم أغنني من الفقر واقض عني » .

(٣) أخرجه البخاري في الدعوات (٦٣٣٩) ، وأحمد في مسنده (٢/٣١٨) ، والبغوي في شرح السنة (٥/١٩٢) .

(٤) أخرجه مسلم في الذكر والدعاء (٨) ، والبغوي في شرح السنة (٥/١٩٣ ، ١٩٤) .

بهذا النداء الشريف الموجه للمؤمنين ، من أجل إثارة هممهم وتنشيطهم على قبول ما يسمعون من كلام الله ﷻ .

﴿ هَلْ أَدُلُّكُمْ عَلَىٰ تِجَارَةٍ تُنجِيكُم مِّنْ عَذَابٍ أَلِيمٍ ﴾ القائل هو ربنا ﷻ ، وهذا الاستفهام للتشويق ، يشوقنا جل وعلا بهذه التجارة التي يدلنا عليها ، ويستفاد من قوله ﷺ : ﴿ هَلْ أَدُلُّكُمْ ﴾ أنه ليس لنا طريق إلى هذه التجارة إلا الطريقُ الذي شرعه الله ﷻ ، هو الدال على ذلك . ﴿ هَلْ أَدُلُّكُمْ عَلَىٰ تِجَارَةٍ تُنجِيكُم مِّنْ عَذَابٍ أَلِيمٍ ﴾ وهذه التجارة ليست تجارة الدنيا ، لأن تجارة الدنيا قد تنجي من العذاب الأليم وقد تكون سببًا للعذاب الأليم ، فالرجل الذي عنده مال ولا يزكي ، يكون ماله عذابًا عليه والعياذ بالله ، ﴿ وَالَّذِينَ يَكْنِزُونَ الذَّهَبَ وَالْفِضَّةَ وَلَا يُنفِقُونَهَا فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَبَشِّرْهُم بِعَذَابٍ أَلِيمٍ ۝ يَوْمَ يُحْمَىٰ عَلَيْهَا فِي نَارِ جَهَنَّمَ فَتُكْوَىٰ بِهَا جِبَاهُهُمْ وَجُنُوبُهُمْ وَظُهُورُهُمْ ۖ هَٰذَا مَا كَنَزْتُمْ لِأَنفُسِكُمْ فَذُوقُوا مَا كُنتُمْ تَكْنِزُونَ ﴾ [التوبة : ٣٤، ٣٥] ، ﴿ وَلَا يَحْسَبَنَّ الَّذِينَ يَبْخَلُونَ بِمَا آتَاهُمُ اللَّهُ مِن فَضْلِهِ هُوَ خَيْرًا لَّهُم ۖ بَلْ هُوَ شَرٌّ لَّهُمْ ۖ سَيُطَوَّقُونَ مَا بَخِلُوا بِهِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ ۗ وَلِلَّهِ مِيرَاثُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ ۗ وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ ﴾ [آل عمران : ١٨٠] .

تجارة الدنيا قد تنجي من العذاب وقد تُوقِع في العذاب ، لكن هذه التجارة التي عرضها الله ﷻ علينا - ونسأل الله ﷻ أن يجعلنا وإياكم ممن يقبلونها - يقول : ﴿ تُنجِيكُم مِّنْ عَذَابٍ أَلِيمٍ ﴾ ، أي : عذاب مؤلم ، لأنه لا عذاب أشد ألمًا من عذاب النار ، أعاذني الله وإياكم منها .

ما هذه التجارة ؟ قال : ﴿ تُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ وَتُجَاهِدُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ بِأَمْوَالِكُمْ وَأَنفُسِكُمْ ۚ ذَٰلِكُمْ خَيْرٌ لَّكُمْ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ ﴾ هذه التجارة : الإيمان بالله ورسوله ، وهذا يتضمن جميع شرائع الإسلام كلها ، لكن نص على الجهاد لأن السورةَ سورةُ الجهاد من أولها إلى آخرها كلها جهاد ، ﴿ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الَّذِينَ يُقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِهِ صَفًّا كَأَنَّهُم بُنْيَانٌ مَّرْصُوصٌ ﴾ [الصف : ٤] ثم ذكر ما يتعلق بذلك ، وهنا يقول ﴿ وَتُجَاهِدُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ بِأَمْوَالِكُمْ وَأَنفُسِكُمْ ﴾ أي : تبذلوا جهدكم في سبيل الله ، ببذل المال وبذل النفس ، ﴿ ذَٰلِكُمْ خَيْرٌ لَّكُمْ ﴾ خير لكم من كل شيء ، ﴿ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ ﴾ يعني : إن كنتم من ذوي العلم ، وفي هذه الآية وأمثالها يحسن الوقوف على قوله : ﴿ ذَٰلِكُمْ خَيْرٌ لَّكُمْ ﴾ ولا تَصِلْ ، لا تقلْ : ﴿ ذَٰلِكُمْ خَيْرٌ لَّكُمْ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ ﴾ لأنك لو وصلت لأفهمت معنى باطلًا في الآية ، لكان المعنى : « ذلكم خير لكم إن كنتم تعلمون ، وإن كنتم لا تعلمون فليس خيرًا لكم » وهذا ليس مراد الله ﷻ ، بل إن المعنى : ذلكم خير لكم ، ثم قال : إن كنتم من ذوي العلم ، كأنه يقول : فاعلموا ذلك إن كنتم أهلًا للعلم .

هذا هو العمل ، فما هو الثواب ؟! ﴿ يَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ وَيُدْخِلْكُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ وَمَسَاكِنَ طَيِّبَةً فِي جَنَّاتِ عَدْنٍ ۚ ذَٰلِكَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ ﴾ ﴿ جَنَّاتٍ ﴾ : هي ما أعده الله ﷻ لعباده الصالحين ، وبالأخص المجاهدين في سبيل الله ، « إن في الجنة مائة درجة ، أعدها الله ﷻ للمجاهدين في سبيله »[1] ولهذا

---

(١) أخرجه البخاري في الجهاد (٢٧٩٠) ، والبغوي في شرح السنة (١٠/٣٤٦) ، والمنذري في الترغيب والترهيب (٤/٥١١) .

جمع جنة في قوله تعالى : ﴿ جَنَّٰتٍ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ ﴾ أي : من تحت قصورها ، وأشجارها ، وهي أنهار ليست كأنهار الدنيا ، أربعة أنهار : ﴿ أَنْهَٰرٌ مِّن مَّآءٍ غَيْرِ ءَاسِنٍ ﴾ [محمد : ١٥] يعني : لا يمكن أن يتغير بخلاف ماء الدنيا فإنه إذا بقي يتغير ، ﴿ وَأَنْهَٰرٌ مِّن لَّبَنٍ لَّمْ يَتَغَيَّرْ طَعْمُهُۥ وَأَنْهَٰرٌ مِّنْ خَمْرٍ لَّذَّةٍ لِّلشَّٰرِبِينَ وَأَنْهَٰرٌ مِّنْ عَسَلٍ مُّصَفًّى ﴾ أنهار تجري ، أنهار العسل فيها لم يخرج من النحل ، واللبن لم يخرج من ضَرْع بهيمة ، والماء لم يخرج من نبع أرض ، وكذلك الخمر لم يخرج من زبيب أو تمر أو شعير أو غير ذلك ، أنهار خلقها الله ﷻ في الجنة تجري هذه الأنهار ، ورد في الحديث : أنها أنهار لا تحتاج إلى شق ، ولا إلى سد (١) ، يعني ما يحتاج أن تضع له أخدودًا تمنعه من التسرب يمينًا وشمالًا .

قال ابن القيم في النونية :

أَنْهَارُهَا مِنْ غَيْرِ أُخْدُوْدٍ جَرَتْ   سُبْحَانَ مُمْسِكِهَا عَنِ الْفَيَضَانِ

جلَّ وعلا ، ثم هذا النهر يأتي طوعك ، ذلك أن تطلب أن الماء يذهب يمينًا يذهب ، يسارًا يذهب ، أمامًا يذهب ، يتوقف يتوقف ، كما تشاء .

وقوله : ﴿ وَمَسَٰكِنَ طَيِّبَةً فِي جَنَّٰتِ عَدْنٍ وَرِضْوَٰنٌ مِّنَ ٱللَّهِ أَكْبَرُ ذَٰلِكَ هُوَ ٱلْفَوْزُ ٱلْعَظِيمُ ﴾ مساكن طيبة : طيبة في بنائها ، طيبة في غرفها ، طيبة في منظرها ، طيبة في مسكنها ، طيبة من كل ناحية ، والساكن فيها : حور مقصورات في الخيام ، خيام من لؤلؤ ، مرتفعة من أحسن ما تراه بصرًا ، قال النبي ﷺ : « جنتان من ذهب آنيتهما وما فيهما ، وجنتان من فضة آنيتهما وما فيهما » (٢) اللبِنَ : لبن البناء ليس من الطوب والتراب ، بل هو من الذهب أو من الفضة ، ولهذا وصفها الله بالطيب .

ثم إن من طيبها أن ساكنها لا يبغي عنها حولًا .. مساكن الدنيا مهما حسنت سترى ما هو أحسن من بيتك ، فتقول : ليت هذا لي . لكن في الجنة لا تبغي حولًا عن مسكنك ، ولا انتقالًا ، كل إنسان يرى أنه هو أنعم أهل الجنة ، لكي لا ينكسر قلبه لو رأى من هو أفضل منه ، ولكن يرى أنه أنعم أهل الجنة ، عكس ذلك أهل النار ، أهل النار يرى أحدهم أنه أشد أهل النار عذابًا ، وإن كان هو أهونهم .

فهذه المساكن الطيبة في جنات عدن ، قال العلماء : العدن بمعنى : الإقامة (٣) .. ومنه المَعْدِن في الأرض لطول إقامته بمعدنه ومكانه . أي : في جنات إقامة لا يمكن أن تزول أبد الآبدين ... نسأل الله أن يجعلنا وإياكم من أهلها .

﴿ ذَٰلِكَ ٱلْفَوْزُ ٱلْعَظِيمُ ﴾ : الفوز أن ينال الإنسان ما يريد ، وينجو مما يخاف ﴿ ٱلْعَظِيمُ ﴾ : الذي لا أعظم منه ، ربح ليس فوقه ربح ، عوض ليس فوقه عوض ، لهؤلاء الذين آمنوا بالله ورسوله ، وجاهدوا

---

(١) انظر الحديث في الدارمي في الرقائق (٢٨٣١) ، والترمذي في صفة الجنة (٢٥٧١) .

(٢) أخرجه البخاري في التفسير (٤٨٧٨) ، ومسلم في الإيمان (٢٩٦) ، وابن ماجه في الإيمان (١٨٦) جميعهم بتقديم الفضة على الذهب .

(٣) هذا هو قول ابن عباس وجماعة ، وهو اختيار ابن جرير الطبري (انظر تفسير الطبري ١٠/٢٢٩ ، ٢٣٠) .

في سبيل اللَّه ، أسأل اللَّه سبحانه وتعالى أن يجعلني وإياكم منهم ولا يحرمنا هذا الفضل بسوء أعمالنا ، وأن يعاملنا بعفوه ، إنه على كل شيء قدير .

* * *

١٢٨٨ - وَعَنْ أَنَسٍ رضي الله عنه أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ صلى الله عليه وسلم ، قَالَ : « لَغَدْوَةٌ فِي سَبِيلِ اللَّهِ ، أَو رَوحَةٌ ، خَيرٌ مِن الدُّنْيَا وَمَا فِيها » (١) متفقٌ عليهِ .

١٢٨٩ - وَعَنْ أَبِي سَعِيدٍ الخُدْرِيِّ رضي الله عنه قَالَ : أَتى رَجُلٌ رسول اللَّه صلى الله عليه وسلم ، فَقَالَ : أَيُّ النَّاسِ أَفْضَلُ ؟ قَالَ : « مُؤمِنٌ يُجَاهِدُ بِنَفْسِهِ وَمَالِهِ فِي سَبِيلِ اللَّه » قال : ثُمَّ مَنْ ؟ قَالَ : « مُؤمِنٌ فِي شِعْبٍ مِنَ الشِّعَابِ يَعْبُدُ اللَّهَ ، وَيَدَعُ النَّاسَ مِنْ شَرِّهِ » (٢) متفقٌ عليه .

١٢٩٠ - وَعَنْ سَهلِ بنِ سَعْدٍ رضي الله عنه أَنَّ رسول اللَّه صلى الله عليه وسلم قَالَ : « رِباطُ يَومٍ فِي سَبِيلِ اللَّهِ ؛ خَيرٌ مِنَ الدُّنْيَا ومَا عَلَيهَا ، وَمَوضِعُ سَوطِ أَحَدِكُم مِنَ الجَنَّةِ ؛ خَيرٌ مِنَ الدُّنْيَا ومَا عَلَيهَا ، والرَّوحَةُ يَرُوحُها العَبْدُ فِي سَبِيلِ اللَّهِ تَعَالَى ، أَوِ الغَدْوَةُ ؛ خَيرٌ مِنَ الدُّنْيَا وَمَا عَلَيهَا » (٣) متفقٌ عليه .

الشرح

سبق لنا الكلام على قوله تعالى : ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ هَلْ أَدُلُّكُمْ عَلَىٰ تِجَٰرَةٍ تُنجِيكُم مِّنْ عَذَابٍ أَلِيمٍ ۝ تُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ وَتُجَٰهِدُونَ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ بِأَمْوَٰلِكُمْ وَأَنفُسِكُمْ ۚ ذَٰلِكُمْ خَيْرٌ لَّكُمْ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ ۝ يَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ وَيُدْخِلْكُمْ جَنَّٰتٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ وَمَسَٰكِنَ طَيِّبَةً فِى جَنَّٰتِ عَدْنٍ ۚ ذَٰلِكَ ٱلْفَوْزُ ٱلْعَظِيمُ ﴾ [الصف : ١٠-١٢] .

وبقي قوله تعالى : ﴿ وَأُخْرَىٰ تُحِبُّونَهَا ۖ نَصْرٌ مِّنَ ٱللَّهِ وَفَتْحٌ قَرِيبٌ ۗ وَبَشِّرِ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴾ [الصف : ١٣] ، ﴿ وَأُخْرَىٰ تُحِبُّونَهَا ﴾ يعني : ولكم أخرى تحبونها . . ثم بيّنها بقوله : ﴿ نَصْرٌ مِّنَ ٱللَّهِ وَفَتْحٌ قَرِيبٌ ۗ وَبَشِّرِ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴾ ، ﴿ نَصْرٌ مِّنَ ٱللَّهِ ﴾ : ينصركم اللَّه به على أعدائكم ، ولا شك أن الإنسان إذا انتصر على عدوه فإن ذلك له حب عظيم ، لأن اللَّه تعالى يجعل عذاب عدوه على يده ، كما قال تعالى : ﴿ قَٰتِلُوهُمْ يُعَذِّبْهُمُ ٱللَّهُ بِأَيْدِيكُمْ وَيُخْزِهِمْ وَيَنصُرْكُمْ عَلَيْهِمْ وَيَشْفِ صُدُورَ قَوْمٍ مُّؤْمِنِينَ ۝ وَيُذْهِبْ غَيْظَ قُلُوبِهِمْ ۗ وَيَتُوبُ ٱللَّهُ عَلَىٰ مَن يَشَآءُ ۗ وَٱللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ ﴾ [التوبة : ١٤، ١٥] ، فوائد عظيمة ، إذا عذب اللَّه تعالى عدوك على يديك ، ولهذا قال : ﴿ نَصْرٌ مِّنَ ٱللَّهِ وَفَتْحٌ قَرِيبٌ ﴾ ، وقد حصل هذا للمؤمنين في صدر هذه الأمة ، فتح اللَّه عليهم فتوحات عظيمة ، وغنموا غنائم كثيرة ، لأنهم قاموا بما يجب عليهم من الإيمان باللَّه ، والجهاد في سبيل اللَّه عز وجل ، ثم قال : ﴿ وَبَشِّرِ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴾ يعني بشر بهذه الأمور كلها من كان مؤمنًا

---

(١) أخرجه البخاري في الجهاد والسير (٢٧٩٢) ، ومسلم في الإمارة (١٢٠) ، والترمذي في فضائل الجهاد (١٦٥١) وقوله : « غدوة » أي : الخروج من أول النهار ، قوله : « روحة » أي : الخروج من آخر النهار .

(٢) أخرجه البخاري في الجهاد والسير (٢٧٨٦) ، ومسلم في الإمارة (١٢٢) ، والترمذي في فضائل الجهاد (١٦٦٠) .

(٣) أخرجه البخاري في الجهاد والسير (٢٨٩٢) بلفظه ، ومسلم في الإمارة (١١٣) بنحوه ، وابن ماجه في الجهاد (٢٧٥٦) وقوله : « رباط يوم في سبيل اللَّه » : هو الإقامة في ثغر من ثغور الإسلام حارسًا له من العدو .

بها ، قائمًا بما يجب عليه من الإيمان بالله ورسوله والجهاد في سبيل الله .

ثم ذكر المؤلف رَحِمَهُ اللهُ أحاديث في فضل الجهاد والرباط في سبيل الله ، وأن الغدوة والروحة في سبيل الله ، أو غدوة وروحة في الرباط ؛ خير من الدنيا وما فيها ، وهذا فضل عظيم ، خير من الدنيا كلها من أولها إلى آخرها ، وما فيها .

وليس خيرًا من دنياك التي أنت تعيشها فقط ، بل من الدنيا وما فيها ، ومن متى الدنيا ؟! من زمن لا يعلمه إلا الله ، وكذلك لا يُدْرَى متى تنتهي ، كل هذا خير من الدنيا وما فيها .

وقوله ﷺ : « وموضع سوط أحدكم من الجنة خير من الدنيا وما عليها » ويقال في ذلك ما قيل في الأول : إن الدنيا كلها من أولها إلى آخرها ، موضع السوط في الجنة خير منها .والغدوة والروحة في سبيل الله خير منها ، والرباط في سبيل الله خير منها .

وفي هذه الأحاديث : أن النبي ﷺ سأل : أي الرجال خير ؟ فبين أنه الرجل الذي يجاهد في سبيل الله بماله ونفسه ، ثم أي ؟ قال : ورجل مؤمن في شعب من الشعاب يعبد الله ويدع الناس من شره ، يعني أنه قائم بعبادة الله ، كافٍ عن الناس ، ولا يريد أن ينال الناس من شر ، وهذا أحد الأدلة الدالة على أن العزلة خيرٌ من الخُلطة مع الناس ، ولكن الصحيح في هذه المسألة أن في ذلك تفصيلًا : من كان يخشى على دينه بالاختلاط بالناس فالأفضل له العزلة ، ومن لا يخشى فالأفضل أن يخالط الناس ، لقول النبي ﷺ : « المؤمن الذي يخالط الناس ويصبر على أذاهم خير من المؤمن الذي لا يخالط الناس ولا يصبر على أذاهم » [(١)] .

فمثلًا : إذا فسد الزمان ورأيت أن اختلاطك مع الناس لا يزيدك إلا شرًّا وبعدًا من الله ، فعليك بالوحدة ، اعتزل ، قال النبي ﷺ « يوشك أن يكون خير مال الرجل غنمًا يتبع بها شعث الجبال ، ومراتع القطر » [(٢)] .

فالمسألة تختلف : العزلة في زمن الفتن والشر والخوف من المعاصي خير من الخُلطة ، أما إذا لم يكن الأمر كذلك فاختلط مع الناس ، وآمر بالمعروف وانه عن المنكر ، واصبر على أذاهم وعاشرهم ، ربما ينفع الله بك رجلًا واحدًا خير لك من حُمْر النعم [(٣)] ، إذا هداه الله على يديك . والله الموفق .

* * *

١٢٩١ - وَعَنْ سَلْمَانَ رضي الله عنه قَالَ : سَمِعْتُ رسول الله ﷺ يَقُولُ : « رباطُ يوم وَلَيلَةٍ خَيرٌ مِنْ صِيَامِ شَهْرٍ وَقِيَامِهِ ، وَإِنْ ماتَ فِيهِ جَرَى عَلَيهِ عَمَلُهُ الَّذي كانَ يَعْمَلُ ، وَأُجْرِيَ عَلَيهِ رِزْقُهُ ، وَأَمِنَ الفَتَّانَ » [(٤)] رواه مسلم .

---

(١) ذكره ابن حجر في فتح الباري (١٠/٥١٢) بلفظه ، والألباني في السلسلة الصحيحة (٩٣٩) ، وأخرجه ابن ماجه في السنن (٤٠٣٢) والبيهقي في السنن (١٠/٨٩) وأحمد في مسنده (٥/٣٦٥) بلفظ « أعظم أجرًا » بدلًا من « خير » .

(٢) أخرجه البخاري في بدء الخلق (٣٣٠٠) ، وأبو داود في السنن (٤٢٦٧) ، وابن ماجه في السنن (٣٩٨٠) والنسائي في السنن (٨/١٢٤) .

(٣) وذلك مصداقًا لما ورد عن النبي ﷺ وأخرجه البخاري في الجهاد (٣٠٠٩) ، ومسلم في فضائل الصحابة (٣٤) .

(٤) أخرجه مسلم في الإمارة (١٦٣) ، والنسائي في السنن (٣١٦٧ ، ٣١٦٨) .

١٢٩٢ - وعَنْ فضَالةَ بن عُبَيد ﷺ أنَّ رسول اللَّه ﷺ قَالَ : « كُلُّ مَيِّتٍ يُخْتَمُ عَلى عَمَلِهِ إلا المُرَابِطَ في سَبيلِ اللَّهِ ؛ فَإِنَّهُ يَنْمِي لهُ عَمَلُهُ إلى يَومِ القِيامَةِ ، وَيُؤَمَّنُ من فِتْنَةِ القَبْرِ »[(١)] رواهُ أبو داودَ ، والترمذيُّ وَقَالَ : حديثٌ حَسَنٌ صحيحٌ .

١٢٩٣ - وَعَنْ عُثْمَانَ ﷺ قَالَ : سَمِعْتُ رسول اللَّه ﷺ يَقُولُ : « رباطُ يَومٍ في سَبِيلِ اللَّهِ خَيرٌ مِنْ أَلْفِ يَومٍ فيما سِوَاهُ مِنَ المَنَازِلِ »[(٢)] رواهُ الترمذيُّ وقالَ : حديثٌ حَسنٌ صَحيحٌ .

١٢٩٤ - وَعَنْ أبي هُريرةَ ﷺ قَالَ : قَالَ رسول اللَّه ﷺ : « تَضَمَّنَ اللَّهُ لِمَنْ خَرَجَ في سَبِيلِهِ ، لا يُخْرِجُهُ إلا جِهَادٌ في سَبِيلي ، وَإيمانٌ بي ، وَتَصْدِيقٌ بِرُسُلي ؛ فهوَ ضامنٌ ، عليَّ أن أُدْخِلَهُ الجنَّةَ ، أو أُرْجِعَهُ إلى مَنْزِلِهِ الَّذي خَرَجَ مِنْهُ بما نَالَ مِنْ أَجْرٍ ، أَو غَنِيمَةٍ . وَالَّذي نَفْسُ مُحَمَّدٍ بِيَدِهِ ، ما مِنْ كَلْمٍ يُكْلَمُ في سَبيلِ اللَّهِ إلا جاءَ يَومَ القِيَامةِ كَهَيئَتِهِ يَومَ كُلِمَ ، لَونُهُ لَونُ دَمٍ ، وَريحُهُ ريحُ مِسْكٍ . وَالَّذي نَفْسُ مُحَمَّدٍ بِيَدِهِ ، لَولا أَنْ أَشُقَّ عَلى المُسْلِمِين مَا قَعَدْتُ خِلاَفَ سَرِيَّةٍ تَغْزُو في سَبِيلِ اللَّهِ أَبَدًا ، ولكِنْ لا أَجِدُ سَعَةً فأَحْمِلَهمْ وَلا يَجِدُونَ سَعَةً ، وَيَشُقُّ عَلَيهِمْ أَن يَتَخَلَّفُوا عَنِّي . وَالَّذي نَفسُ مُحَمَّدٍ بِيَدِهِ ، لَوَدِدْتُ أني أَغزو في سَبِيلِ اللَّهِ ، فَأُقْتَلُ ، ثُمَّ أَغزو ، فَأُقتلُ ، ثُمَّ أغزو ، فَأُقتلُ »[(٣)] رواه مسلم ، وروى البخاريُّ بَعْضَهُ .

« الكَلْمُ » : الجرْحُ .

الشرح

هذه الأحاديث ساقها النووي رَحِمَهُ اللَّهُ في بيان فضل المرابطة في سبيل اللَّه ، يعني أن يرابط الإنسان على الحدود ، أو تجاه العدو في سبيل اللَّه عَزَّ وَجَلَّ لإعلاء كلمة اللَّه وحفظ دين اللَّه ، وحفظ المسلمين ، فإن هذا من أفضل الأعمال .

وقد سبق أن النبي ﷺ قال : « رباط في سبيل اللَّه خير من الدنيا وما فيها »[(٤)] . وفي هذه الأحاديث دليل على أن المرابط يجري عليه عمله إلى يوم القيامة ، وأنه يأمن فتنة القبر ، يعني : أن

---

(١) أخرجه أبو داود في الجهاد (٢٥٠٠) ، والترمذي في فضائل الجهاد (١٦٢١) ، والإمام أحمد في مسنده (٢٠/٦) والحاكم في مستدركه (١٤٤/٢) . قوله : « ينمي له عمله » أي : يزيد له عمله ، قوله : « ويؤمن من فتنة القبر » استدل غير واحد بهذا على أن المرابط لا يُسْأل في قبره كالشهيد .

(٢) أخرجه الترمذي في فضائل الجهاد (١٦٦٧) ، والنسائي في الجهاد (٣١٦٩) ، والدارمي في الجهاد (٢٤٢٤) .

(٣) أخرجه مسلم في الإيمان (١٠٣ ، ١٠٧) بلفظه ، والبخاري في الجهاد والسير (٢٨٠٣) ، والإمام أحمد في المسند (٣٣٩/٢) ، والبيهقي في السنن (٣٩/٩) . قوله : « تضمن » أي : التزم ، قوله : « أن أدخله الجنة » إذا استشهد ، قوله : « أو غنيمة » هو المال الذي يصيبه المسلمون من الكفار ، قوله : « السرية » هي القطعة من الجيش يبلغ أقصاها أربعمائة جندي .

(٤) أخرجه البخاري في الجهاد والسير (٢٨٩٢) ، والترمذي في السنن (١٦٦٤) ، وأحمد في مسنده (٦٢/١) .

الناس إذا ماتوا ودُفنوا أتاهم ملكان يسألان الرجل عن ربه ، ودينه ، ونبيه (١) ، إلا من مات مرابطًا في سبيل اللَّه فإنه لا يأتيه الملكان يسألانه .

وقد بيَّنَ النبي ﷺ الحكمة من ذلك ، فقال : « كفى ببارقة السيوف على رأسه فتنه » (٢) ، فالشهيد والمرابط كلاهما لا يأتيه الملكان في قبره فيسألانه ، بل يأمن ذلك ، وهذا فضل عظيم وأجر عظيم .

وأما حديث أبي هريرة الأخير : ففيه دليل على فضيلة القتيل في سبيل اللَّه ، ولهذا أقسم النبي ﷺ أنه لولا أن يَشُقَ على المسلمين ما تخلف عن سرية قط ، ولكنه يتخلف عليه الصلاة والسلام أحيانًا ، لأشغال المسلمين وقضاء حوائجهم ، وعدم المشقة عليهم ، وأقسم ﷺ أنه يتمنى ويود أن لو قُتِلَ في سبيل اللَّه ثم أُحييَ فقُتِل ، ثم أُحييَ فقُتل ، فهذا يدل على فضل القتل في سبيل اللَّه ، ولا شك في هذا ، والقرآن واضح في ذلك ، قال اللَّه تعالى ﴿ وَلَا تَحْسَبَنَّ ٱلَّذِينَ قُتِلُوا۟ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ أَمْوَٰتًۢا ۚ بَلْ أَحْيَآءٌ عِندَ رَبِّهِمْ يُرْزَقُونَ ۝ فَرِحِينَ بِمَآ ءَاتَىٰهُمُ ٱللَّهُ مِن فَضْلِهِۦ وَيَسْتَبْشِرُونَ بِٱلَّذِينَ لَمْ يَلْحَقُوا۟ بِهِم مِّنْ خَلْفِهِمْ أَلَّا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ۝ ۞ يَسْتَبْشِرُونَ بِنِعْمَةٍ مِّنَ ٱللَّهِ وَفَضْلٍ وَأَنَّ ٱللَّهَ لَا يُضِيعُ أَجْرَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴾ [آل عمران : ١٦٩ - ١٧١] .

وهذه الحياة البرزخية لا نعلم بها وليست كحياتنا ، ولهذا قال تعالى ﴿ وَلَا تَقُولُوا۟ لِمَن يُقْتَلُ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ أَمْوَٰتٌۢ ۚ بَلْ أَحْيَآءٌ وَلَٰكِن لَّا تَشْعُرُونَ ﴾ [البقرة : ١٥٤] .

حياة ما يُعلم بها ، يعني لو فتحت على قبره لوجدت الإنسان ميتًا ، لكنه عند اللَّه حي يرزق يأكل من الجنة بكرة وعشية ، نسأل اللَّه سبحانه أن يرزقنا وإياكم الشهادة في سبيله ، وأن يعيننا وإياكم على الجهاد في سبيله ، جهاد أنفسنا ، جهاد أعدائنا ، إنه على كل شيء قدير .

* * *

١٢٩٥ - وَعَنْهُ قَالَ : قَالَ رسول اللَّه ﷺ : « ما مِنْ مَكلوم يُكْلَمُ في سَبِيلِ اللَّهِ ؛ إلا جاءَ يَومَ القِيامَةِ ، وكَلْمُهُ يَدْمَى : اللونُ لونُ دَمٍ ، وَالريحُ رِيحُ مِسْكٍ » (٣) متفقٌ عليه .

١٢٩٦ - وَعَنْ مُعَاذٍ ﷺ عَنِ النَّبي ﷺ قَالَ : « مَنْ قاتلَ في سَبِيلِ اللَّهِ مِن رَجلٍ مُسلِمٍ فُواقَ نَاقةٍ ؛ وَجَبَتْ له الجَنَّةُ ، وَمَنْ جُرِحَ جُرْحًا في سَبِيلِ اللَّهِ أَو نُكِبَ نكبَةً ؛ فَإنَّهَا تجيء يومَ القِيامَةِ كأَغزَرِ ما كَانَتْ : لَونُها الزَّعْفَرانُ ، وَرِيحُهَا كالمِسك » (٤) . رواهُ أبو داوُدَ ، والترمذيُّ وقَالَ : حديثٌ حَسَنٌ صحيحٌ .

١٢٩٧ - وَعَنْ أَبي هُريرةَ ﷺ قَالَ : مَرَّ رَجلٌ مِنْ أَصْحَابِ رسول اللَّه ﷺ بِشِعْبٍ فيهِ عُيَينَةٌ مِن

---

(١) انظر الحديث في مسلم في (الجنة وصفة نعيمها) (٧٣) ، وأحمد في مسنده (٦٣/٦) .

(٢) أخرجه النسائي في السنن (٩٩/٤) ،الهندي في كنز العمال (١٠٦١٠) والسيوطي في الدر المنثور (٩٩/٢) .

(٣) أخرجه البخاري في الأضاحى (٥٥٣٣) ، ومسلم في الإمارة (١٠٣) ، والإمام أحمد في المسند (٣٨٤/٢) .
قوله : « مكلوم » أي مجروح .

(٤) أخرجه الترمذي في فضائل الجهاد (١٦٥٧) ، وأبو داود في الجهاد (٢٥٤١) ، والنسائي في السنن (٣١٤١) .
قوله : « أو نكب نكبة » هي ما يصيب المرء من الحوادث .

مَاءٍ عَذبَة ، فَأعجَبتهُ ، فَقَالَ : لو اعتزَلتُ النَّاسَ فَأَقَمتُ في هذا الشِّعبِ ، ولَنْ أَفعَلَ حتى أستأذِنَ رسولَ اللَّهِ ﷺ ، فذكَرَ ذلكَ لِرسول اللَّه ﷺ ، فَقَالَ : « لا تفعلْ ؛ فإنَّ مُقامَ أحدِكُمْ في سَبيلِ اللَّهِ أفضَلُ مِنْ صَلاتِهِ في بَيتِهِ سَبْعِينَ عَامًا ، ألا تُحبُّونَ أنْ يَغفِرَ اللَّهُ لكُمْ وَيُدْخِلكُمُ الجَنَّةَ ؟ اغزُوا في سبيل اللَّهِ ، مَنْ قَاتَلَ في سَبيلِ اللَّهِ فُوَاقَ نَاقَةٍ وَجَبَتْ له الجَنَّةُ » (١) رواه الترمذيُّ وَقَالَ : حديثٌ حَسَنٌ . « والفُوَاقُ » مَا بَينَ الحَلْبَتَينِ .

١٢٩٨ - وعَنْهُ : قَالَ : قِيلَ : يا رَسُول اللَّهِ ، ما يَعْدِلُ الجِهَادَ في سَبِيلِ اللَّهِ ؟ قَالَ : « لا تَسْتَطِيعُونَهُ » فَأَعَادُوا عليهِ مَرَّتَينِ أو ثَلاثًا كُلَّ ذلكَ يقول : « لا تَسْتَطِيعُونَه ! » ثمَّ قالَ : « مَثَلُ المُجَاهِدِ في سَبِيلِ اللَّهِ كَمَثَلِ الصَّائمِ القَائمِ القَانِتِ بآياتِ اللَّه لا يَفْتُرُ مِنْ صِيامٍ ، ولا صَلاةٍ ، حَتى يَرجعَ المُجَاهِدُ في سَبِيلِ اللَّهِ » متفقٌ عليه . وهذا لفظُ مسلمٍ .

وفي رواية البخاريِّ : أنَّ رَجلًا قَالَ : يا رَسُولَ اللَّهِ دُلَّني عَلى عَمَلٍ يَعْدِلُ الجِهَادَ ؟ قالَ : « لا أَجِدهُ » ثمَّ قال : « هَلْ تَسْتَطِيعُ إذا خَرَجَ المُجَاهِدُ أن تَدخُلَ مَسجِدَكَ فَتَقُومَ وَلا تَفتُرَ ، وتَصُومَ وَلا تُفْطِرَ ؟ » فَقَالَ : ومَنْ يستطيعُ ذلكَ ؟! (٢) .

١٢٩٩ - وَعَنْهُ أَنَّ رسول اللَّه ﷺ قَالَ : « مِنْ خَيرِ مَعَاشِ النَّاسِ لَهُم : رَجُلٌ مُمسِكٌ بِعِنانِ فَرَسِهِ في سَبِيلِ اللَّهِ ، يَطيرُ عَلى مَتنِهِ كُلَّمَا سَمِعَ هَيعةً ، أَو فَزعَةً طَارَ عليه ، يَبْتَغِي القتلَ والمَوتَ مَظَانَّهُ ، أَو رَجُلٌ في غُنَيمَةٍ في رأسِ شَعَفَةٍ من هذه الشَّعَفِ ، أَو بَطنِ وادٍ من هذِهِ الأَودِيَةِ ؛ يُقِيمُ الصَّلاةَ ، وَيُؤتي الزَّكَاةَ ، وَيَعْبدُ رَبَّهُ حَتَّى يَأْتِيَهُ اليَقِينُ ، لَيسَ منَ النَّاسِ إلا في خَيرٍ » (٣) رواه مسلم .

١٣٠٠ - وَعَنْهُ أَنَّ رسول اللَّه ﷺ قالَ : « إنَّ في الجَنَّةِ مائَةَ دَرَجَةٍ أَعَدَّهَا اللَّهُ للمُجَاهِدينَ في سَبِيلِ اللَّهِ ، ما بَينَ الدَّرَجَتَينِ كَمَا بَينَ السَّمَاءِ وَالأَرْضِ » (٤) رواه البخاري .

١٣٠١ - وعَن أَبي سَعيدٍ الخُدْرِيِّ ؓ أنَّ رسول اللَّه ﷺ قال : « مَنْ رَضِيَ بِاللَّهِ رَبًّا ، وَبالإسْلام دِينًا ، وبُمحَمَّدٍ رَسُولًا ؛ وَجَبَت لَهُ الجَنَّةُ » فَعَجِبَ لهَا أبو سَعيدٍ ، فَقَالَ : أَعِدْها عَلَيَّ يا رَسُولَ اللَّهِ ، فَأَعَادَهَا عَلَيهِ . ثُمَّ قَالَ : « وَأُخْرَى يَرْفَعُ اللَّهُ بِهَا العَبْدَ مائَةَ دَرَجَةٍ في الجَنَّةِ ، ما بَينَ كُلِّ دَرَجَتَينِ كَما

---

(١) أخرجه الترمذي في فضائل الجهاد (١٦٥٠) ، وأحمد في المسند (٢/٥٢٤) ، والبيهقي في السنن (٩/١٦٠) ، والحاكم في المستدرك (٢/٦٨) .

(٢) أخرجه البخاري في الجهاد والسير (٢٧٨٥) ، ومسلم في الإمارة (١١٠) ، والنسائي في الجهاد (٣١٢٤) ، ومالك في الجهاد (٩٧٣) . قوله : « القانت » أي : المطيع .

(٣) أخرجه مسلم في الإمارة (١٢٥) . قوله : « من خير معاش الناس » أي : من خير أحوال عيش الناس ، قوله : « ممسك عنان فرسه » أي : متأهب ومنتظر وواقف نفسه على الجهاد ، قوله : « يطير على متنه » أي : يسرع جدًّا على ظهره كأنه يطير ، قوله : « هيعة » الصوت عند حضور العدو ، قوله : « فزعة » النهوض إلى العدو ، قوله : « يبتغي القتل والموت مظانه » أي : يطلبه من مواطنه التي يرجى فيها ؛ لشدة رغبته في الشهادة .

(٤) أخرجه البخاري في الجهاد والسير (٢٧٩٠) .

بَينَ السَّماءِ والأرْضِ » قالَ : وما هِيَ يا رسول اللّهِ ؟ قال : « الجِهادُ في سَبِيلِ اللّهِ ، الجِهادُ في سَبِيلِ اللَّهِ »[١] رواه مسلم .

الشرح

هذه أحاديث متعددة ، كلها في فضل الجهاد في سبيل الله .

فمنها : أن الإنسان إذا قُتل شهيدًا ؛ فإنه يأتي يوم القيامة ، وجرحه يدمي ، اللون لون الدم ، والريح ريح المسك ، يشهده الأولون والآخرون من هذه الأمة وغيرها ، بل ويشهده الملائكة في ذلك اليوم المشهود ، وهذا يوجب له الرفعة في الدنيا والآخرة .

ومنها : أن من قاتل (فواق ناقة) وهو ما بين الحلبتين ؛ فإنه تجب له الجنة ، فإذا شهد الصف - ولو بهذا المقدار - يقاتل في سبيل الله لتكون كلمة الله هي العليا ؛ فإنها توجب له الجنة .

ومنها : أن الخارج للجهاد في سبيل الله ، له مثل أجر الصائم القائم من حين أن يخرج إلى أن يرجع ، والصائم القائم من حين أن يخرج المجاهد إلى أن يرجع ، هو الذي يساويه في الأجر عند الله ﷻ ، ولكن ذلك لا يستطاع كما قاله النبي ﷺ وقاله الصحابة له ، ومنها أن الله أعد للمجاهدين في سبيله مائة درجة في الجنة ، كل درجة بينها وبين الأخرى مثل ما بين السماء والأرض ، أعدها الله للمجاهدين في سبيله .

فهذه الأحاديث وأمثالها ، وهي كثيرة جدًا ، تدل على فضل الجهاد في سبيل الله ، والجهاد في سبيل الله يكون بالمال ويكون بالنفس ، ولكنه بالنفس أفضل وأعظم أجرًا ، لأن كل هذه الأحاديث التي سمعناها ، كلها فيمن جاهد بنفسه ، ومن جاهد بماله فهو على خير ، وقد ثبت عن النبي ﷺ أنه من جهز غازيًا في سبيل الله ، فقد غزا[٢] ، أي كتب له أجر الغازي ، ومن خلفه في أهله بخير فقد غزا ، فنسأل الله أن يجعلنا وإياكم من المجاهدين في سبيله ، ابتغاء وجه الله ، إنه على كل شيء قدير .

* * *

١٣٠٢ - وَعَنْ أَبي بَكْرِ بنِ أَبِي مُوسى الأَشْعَرِيِّ ، قَالَ : سَمِعْتُ أَبي رضي الله عنه وَهُوَ بحَضْرَةِ العَدُوِّ ، يقول : قَالَ رسول اللَّه ﷺ : « إنَّ أَبْوابَ الجَنَّةِ تَحْتَ ظِلالِ السُيوفِ » فَقامَ رَجُلٌ رَثُّ الهَيئَةِ فَقالَ : يا أَبَا مُوسَى آأَنْتَ سمِعْتَ رسول اللَّه ﷺ يقول هذا ؟ قالَ : نَعَمْ ، فَرَجَعَ إلى أَصْحَابِهِ ، فَقَالَ : أَقْرَأُ عَلَيْكُمُ السَّلامَ . ثُمَّ كَسَرَ جَفْنَ سَيفِهِ فَأَلْقَاهُ ، ثُمَّ مَشَى بسَيفِهِ إلى العَدُوِّ ، فَضَرَبَ بِهِ حَتَّى قُتِلَ[٣] . رواه مسلم .

---

(١) أخرجه مسلم في الإمارة (١١٦) ، والنسائي في السنن (١٩/٦) ، والحاكم في المستدرك (٩٣/٢) .

(٢) أخرجه البخاري في الجهاد والسير (٢٨٤٣) ، والنسائي في السنن (٤٦/٦) وأحمد في مسنده (١٩٣/٥) .

(٣) أخرجه مسلم في الإمارة (١٤٦) ، والإمام أحمد في المسند (٣٩٦/٤) . والترمذي في فضائل الجهاد (١٦٥٩) . قوله : « تحت ظلال السيوف » أي : أن الجهاد وحضور معارك القتال طريق إلى الجنة وسبب لدخولها ، قوله : « جفن سيفه » هو غمده ، أو ما يوضع فيه السيف .

١٣٠٣ - وَعَنْ أبي عَبْسٍ عبدِ الرَّحمنِ بنِ جَبْيرٍ ﷺ قالَ : قَالَ رسول الله ﷺ : « ما اغْبَرَّت قَدَمَا عَبْدٍ في سَبِيلِ اللَّهِ فَتَمَسَّه النَّارُ » (١) رواه البخاري .

١٣٠٤ - وَعَنْ أبي هُرَيرَةَ ﷺ قال : قَالَ رسول اللَّه ﷺ : « لا يَلِجُ النَّارَ رَجُلٌ بَكَى مِنْ خَشْيَةِ اللَّهِ حَتَّى يَعُودَ اللَّبن في الضَّرعِ ، وَلا يَجْتَمِعُ عَلى عَبْدٍ غُبَارٌ في سَبِيلِ اللَّهِ وَدُخَانُ جَهَنَّمَ » (٢) رواه الترمذيُّ وقالَ : حديثٌ حسنٌ صحيحٌ .

١٣٠٥ - وَعَنِ ابنِ عبَّاسٍ ﷺ قالَ : سَمِعْتُ رسول اللَّه ﷺ يَقُولُ : « عَينَانِ لا تَمسُّهُمَا النَّار : عَينٌ بَكَت مِنْ خَشْيَةِ اللَّهِ ، وَعَينٌ بَاتَت تحْرُسُ في سَبِيلِ اللَّهِ » (٣) رواه الترمذيُّ وقالَ : حديثٌ حسنٌ .

١٣٠٦ - وعن زَيدِ بنِ خَالدٍ ﷺ أنَّ رسول اللَّه ﷺ قَالَ : « مَن جَهَّزَ غَازِيًا في سَبِيلِ اللَّه فَقَدْ غَزا ، وَمَنْ خَلَفَ غَازِيًا في أَهْلِهِ بِخَيرٍ فَقَدْ غَزَا » (٤) متفقٌ عليه .

١٣٠٧ - وَعَنْ أبي أُمَامَةَ ﷺ قَالَ : قَالَ رسول اللَّه ﷺ : « أَفْضَلُ الصَّدَقَاتِ ظِلُّ فُسْطَاطٍ في سَبِيلِ اللَّه ، وَمَنِيحَةُ خادِمٍ في سَبِيلِ اللَّهِ ، أَو طَروقةُ فَحْلٍ في سبيلِ اللَّهِ » (٥) رواه الترمذي وقالَ : حديثٌ حَسَنٌ صحيحٌ .

١٣٠٨ - وَعَن أَنَسٍ ﷺ أَنَّ فتىً مِن أَسْلَمَ قَالَ : يا رسولَ اللَّه إِنِّي أُرِيد الغَزْوَ وَلَيسَ مَعِي ما أَتَجَهَّزُ بِهِ ، قَالَ : « ائْتِ فُلانًا ؛ فَإِنَّه قَدْ كانَ تَجَهَّزَ فَمَرِضَ » فَأَتاهُ فَقَالَ : إِنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ يُقْرِئُكَ السَّلامَ ويقولُ : أَعْطِني الذي تَجَهَّزتَ بِهِ . قَالَ : يَا فُلانَةُ ، أَعْطِيهِ الذي كُنْتُ تَجَهَّزت بِهِ ، وَلا تَحْبِسي عَنْهُ شَيئًا ، فَوَاللَّهِ لاَ تَحْبِسي مِنْهُ شَيئًا فَيُبَارَكَ لَكِ فِيهِ (٦) . رَوَاه مسلمٌ .

١٣٠٩ - وَعَن أَبي سَعِيدِ الخُدْرِيِّ ﷺ أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ بَعَثَ إلى بَني لَحْيَانَ ، فَقَالَ : « لِيَنْبَعِثْ مِنْ كُلِّ رَجُلَينِ أَحَدُهُما ، وَالأَجْرُ بَينَهُما » رَواهُ مسلم .

وفي رواية لهُ : « لِيَخْرُجْ مِنْ كُلِّ رجلين رَجُلٌ » ثُمَّ قال لِلقاعد : « أَيُّكُمْ خَلَفَ الخَارِجَ في أَهْلِهِ وَمَالِهِ بخير ؛ كانَ لهُ مثْلُ نِصْفِ أَجرِ الخارِجِ » (٧) .

---

(١) أخرجه البخاري في الجهاد والسير (٢٨١١) ، والبيهقي في السنن (١٦٢/٩) .

(٢) أخرجه الترمذي في فضائل الجهاد (١٦٣٣) ، والنسائي في السنن (٣١٠٧ ، ٣١١٥) ، وابن ماجه في الجهاد (٢٧٧٤) .

(٣) أخرجه الترمذي في فضائل الصحابة (١٦٣٩) .

(٤) أخرجه البخاري في الجهاد والسير (٢٨٤٣) ، ومسلم في الإمارة (١٣٥) ، والنسائي في السنن (٢٥٠٩) والدارمي في الجهاد (٢٤١٩) . قوله : « فقد غزا » أي حصل له أجر بسبب الغزو ، وهذا الأجر يحصل بكل جهاد .

(٥) أخرجه الترمذي في فضائل الجهاد (١٦٢٧) ، والإمام أحمد في المسند (٢٧٠/٥) . قوله : « منيحة » أي عطية قوله : « طروقة الفحل » أي : الناقة التي بلغت أن يطرقها الفحل ليلقحها وإن لم يطرقها .

(٦) أخرجه مسلم في الإمارة (١٣٤) .

(٧) أخرجه مسلم في الإمارة (١٣٧ ، ١٣٨) ، والإمام أحمد في المسند (٤٩/٣) ، والبيهقي في السنن (٤٠/٩) . =

١٣١٠ - وَعَنِ البَرَاءِ ﷺ قَالَ : أَتَى النَّبِيَّ ﷺ رَجُلٌ مُقَنَّعٌ بِالحَدِيدِ ، فَقَالَ : يا رَسُولَ اللَّهِ أُقَاتِلُ أَوْ أُسْلِمُ ؟ قَالَ : « أَسْلِمْ ، ثُمَّ قاتِلْ » فَأَسْلَمَ ، ثمَّ قَاتَلَ فَقُتِلَ . فَقَالَ رسولُ اللَّهِ ﷺ : « عمِلَ قَلِيلًا ، وَأُجِرَ كَثِيرًا » [١] . متفقٌ عليه ، وهذا لفظُ البخاريِّ .

١٣١١ - وَعَنْ أَنَسٍ ﷺ أَنَّ النَّبِيَّ ﷺ قالَ : « مَا أَحَدٌ يَدْخُلُ الجَنَّةَ يُحِبُّ أَنْ يَرْجِعَ إِلى الدُّنْيا وَلَه ما عَلَى الأَرْضِ مِنْ شَيْءٍ إِلَّا الشَّهِيدُ ، يَتَمَنَّى أَنْ يَرْجِعَ إِلى الدُّنْيا ، فَيُقْتَلَ عَشْرَ مَرَّاتٍ ؛ لِمَا يَرَى مِنَ الكَرَامَةِ » . وفي روايةٍ : « لِمَا يَرَى مِنْ فَضْلِ الشَّهَادَةِ » [٢] متفقٌ عليه .

١٣١٢ - وَعَنْ عَبد اللَّه بنِ عَمرِو بنِ العاص ﷺ أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ قَالَ : « يَغْفِرُ اللَّهُ للشهيدِ كُلَّ ذَنْبٍ إِلَّا الدَّيْنَ » رواه مسلم .

وفي روايةٍ له : « القَتْلُ في سَبِيلِ اللَّهِ يُكَفِّرُ كُلَّ شَيْءٍ إِلَّا الدَّيْنَ » [٣] .

١٣١٣ - وَعَنْ أَبِي قَتَادَةَ ﷺ أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ قَامَ فيهِمْ فَذَكَرَ أَنَّ الجِهادَ في سَبيلِ اللَّه ، وَالإِيمانَ بِاللَّهِ ، أَفْضَلُ الأَعْمَالِ ، فَقَامَ رَجُلٌ ، فَقَالَ لَهُ : يا رَسُولَ اللَّه أَرَأَيتَ إِنْ قُتِلْتُ في سَبِيلِ اللَّهِ أَتُكَفَّرُ عَنِّي خَطَايَايَ ؟ فَقَالَ لَهُ رَسولُ اللَّهِ ﷺ : « نَعَمْ إِنْ قُتِلْتَ في سَبِيلِ اللَّه وَأَنْتَ صَابِرٌ مُحْتَسِبٌ مُقبلٌ غيرُ مُدْبرٍ » ثُمَّ قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ : « كَيفَ قُلْتَ ؟ » قَالَ : أَرَأَيتَ إِنْ قُتِلْتُ في سبيلِ اللَّهِ أَتُكَفَّرُ عَنِّي خَطَايَايَ ؟ فَقَالَ رسول اللَّه ﷺ : « نَعَمْ وَأَنْتَ صَابِرٌ مُحْتَسِبٌ ، مُقْبِلٌ غيرُ مُدْبِرٍ ، إلا الدَّينَ ؛ فَإِنَّ جِبْرِيلَ ﷺ قالَ لي ذلكَ » [٤] رواه مسلم .

الشرح

هذه الأحاديث المتعددة ، ذكرها النووي ﷺ في كتاب الجهاد ، وفيها مسائل :

منها : أن النبي ﷺ كان حسن التدبير في أصحابه ، فهذا الرجل الذي جاء إليه يقول : إني أريد الغزو وليس عندي شيء - يعني شيئًا يغزو به - فأحاله على رجل كان قد تجهز ليغزو ولكنه مَرِضَ ، ثم إن الرجل ذهب إلى صاحبه فأخذ جهازه ، وقال لامرأته : لا تتركي منه شيء ، فإنك لا تتركي شيئًا فيبارك لنا فيه ، فجهزه .

= قوله : « بني لحيان » هم بطن من بطون هذيل ، قوله : « لينبعث من كل رجلين أحدهما » أي : ليذهب النصف ويبقى النصف .

(١) أخرجه البخاري في الجهاد والسير (٢٨٠٨) بلفظه ، ومسلم في الإمارة (١٤٤) ، والبيهقي في السنن (٩/١٦٧) . قوله : « مقنع بالحديد » أي مغطى بالسلاح ، وقيل : إن هذا الرجل هو أصيرم بن عبد الأشهل الذي غير النبي ﷺ اسمه وسماه زرعة .

(٢) أخرجه البخاري في الجهاد والسير (٢٨١٧) ، ومسلم في الإمارة (١٨٧٧) بنحوه .

(٣) أخرجه مسلم في الإمارة (١١٩) ، والإمام أحمد في المسند (٢/٢٢٠) ، والحاكم في المستدرك (٢/١١٩) .

(٤) أخرجه مسلم في الإمارة (١١٧) ، وأبو داود في الجهاد (١٧١٢) ، والنسائي في السنن (٣١٥٦ ، ٣١٥٧) ، والدارمي في السنن (٢٤١٢) .

وفيها أي في هذه الأحاديث دليل على أن من جهز الغازي وأعطاه ما يكفي لغزوه فإنه كالذي يغزو ، وأن من خَلَفَ الغازي في أهله ؛ فله مثل أجره ، ويدل لهذا أيضًا قضية بني لحيان ، حيث إن النبي ﷺ أمرهم أن يخرج منهم واحد ويبقى واحد يخلف الغازي في أهله ويكون له نصف أجره ، لأن النصف الثاني للغازي ، وفي هذه الأحاديث أيضًا من فضائل الجهاد أن أبواب الجنة تحت ظلال السيوف بمعنى أن من قاتل فإنه يكون قتاله سببًا لدخول الجنة من أبوابها ، فقد ثبت عن النبي ﷺ : إن في الجنة بابًا يقال له باب الجهاد يدخله من يجاهد في سبيل الله [(١)] .

وفي هذه الأحاديث : أن الشهادة تكفر كل شيء من الأعمال إلا الدَّيْنَ : يعني إلا دَيْنَ الآدمي ، فإن الشهادة لا تكفره ؛ وذلك لأن دين الآدمي لابد من إيفائه إما في الدنيا ، وإما في الآخرة ، وفي هذا الحديث التحذير من التساهل في الدَّين وأنه لا ينبغي للإنسان أن يتساهل في الدين ولا يستدين إلا عند الضرورة وليس عند الحاجة ، إنما عند الضرورة القصوى ، لأن النبي ﷺ لم يأذن للرجل الذي قال : زوجني ، فقال : « أصدق المرأة » قال : ليس عندي إلا إزاري ، قال : « إزارك لا ينفعها ، إن أعطيتها إياه بقيت بلا إزار ، وإن أبقيته عليك بقيت بلا مهر ، التمس ولو خاتمًا من حديد » فالتمس فلم يجد ، فقال : « زوجتكها بما معك من القرآن » [(٢)] . ولم يقل استقرض من الناس ، مع أنه زواج ، حاجة ملحة ، لكن لم يأذن له الرسول ﷺ بل لم يرشده إلى الاستدانة ، لأن الدَّيْنَ خطير جدًّا ، وقد روى عن النبي ﷺ بسند فيه نظر : « أن نفس المؤمن معلقة بدينه حتى يُقضى عنه » [(٣)] .

فالأمر مهم فلا تستهن بالدين ، الدين همٌّ في الليل وذلٌّ في النهار [(٤)] . فالإنسان مهما أمكنه يجب أن يتحرز من الدين ، وأن لا يكثر في الإنفاق ؛ لأن كثيرًا من الناس تجده فقيرًا ثم يريد أن ينفق على نفسه وأهله كما ينفق الأغنياء ، فيستلف من هذا ، ويستلف من هذا ، أو يستدين ، أو يرابي ، وهذا غلط عظيم ، يعني لو لم يكن لك إلا وجبة واحدة في الليل والنهار ، فلا تستلف ، اصبر ، وقل : اللّهم اغنني قال اللّه تعالى : ﴿ وَإِنْ خِفْتُمْ عَيْلَةً فَسَوْفَ يُغْنِيكُمُ ٱللَّهُ مِن فَضْلِهِۦٓ إِن شَآءَ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمٌ حَكِيمٌ [(٥)] ﴾ [التوبة : ٢٨] أما تهاون بعض الناس – نسأل اللّه العافية – يستدين من أجل أن يفرش كل البيت فراء حتى الدرج – هذا غلط – أو يستدين من أجل أن يأخذ سيارة ضخمة ، مع أنه يكفيه سيارة مثلًا بعشرين ألف ، يقول : لا بمائة ألف وهو فقير ؛ هذا من سوء التصرف ، ومن ضعف الدين ، ومن قلة

---

(١) انظر نص الحديث في البخاري في فضائل الصحابة (٣٦٦٦) ، ومسلم في الزكاة (٨٥) ، ومالك في الموطأ (الجهاد ٤٩) .

(٢) انظر الحديث بنصه في البخاري في النكاح (٥٠٨٧) ، ومسلم في النكاح (٧٦) .

(٣) أخرجه الترمذي في السنن (١٠٧٨) ، وابن ماجه في السنن (٢٤١٣) ، والبيهقي في السنن (٦/٧٦) ، والحاكم في المستدرك (٢/٢٦) .

(٤) ذكره الهندي في كنز العمال (١٥٤٧٩) ، والعجلوني في كشف الخفاء (١/٤٩٩) وقال : ليس بحديث وإنما هو مثل وعزاه إلى الديلمي في مسند الفردوس عن عائشة .

(٥) قوله تعالى : ﴿ عَيْلَةً ﴾ أي فقرًا وفاقة .

اللامبالاة ، لأن الدَّين لا تكفره حتى الشهادة في سبيل اللَّه ، لا تكفر الدين ، فكيف تستدين ..!

إن هذا لا يجوز إلا عند الضرورة ، وأقول عند الضرورة وليس عند الحاجة ؛ يعني حتى لو كنت محتاجًا لعدة كماليات ، لا تتداين ، لا تشتري شيئًا ليس معك ثمنه ، اصبر حتى يرزقك اللَّه ثم اشتري على قدر الحال ، ولهذا من الأمثال العامية الصحيحة (مد رجلك على قدر لحافك) إن أمددتها أكثر تعرضت للبرد والشمس وغير ذلك ؛ ففيه التحذير من الدَّين وأنه لا ينبغي للإنسان أن يستدين .

وهنا مسألة : بعض الناس يكون عليه دين ثم يتصدق ، ويقول : أحب هذه الصدقة ، وهذا حرام ، كيف تتصدق وأنت مدين ، أد الواجب أولًا ، ثم التطوع ثانيًا ؛ (لأن الذي يتصدق ولا يسدد دينه كالذي يبني قصرًا ويهدم مصرًا) أنت الآن مطالب أن توفي دينك ، كيف تتصدق ؟ أوفي ثم تصدق .

وفي هذه الأحاديث أيضًا : أن الجهاد بدون إسلام لا ينفع صاحبه ، لأن الرجل الذي استأذن من النبي ﷺ وقال : يا رسول اللَّه أجاهد ثم أسلم ، أم أسلم ثم أجاهد ؟ قال : أسلم ثم جاهد . فأسلم ثم جاهد ، وهكذا جميع الأعمال الصالحة يشترط فيها الإسلام ، لا يقبل اللَّه من أحد صدقة ولا حجًا ولا صيامًا ولا أي شيء وهو غير مسلم ، فإذا رأينا - مثلًا - رجلًا لا يصلي ولكنه كثير الصيام ، كثير الصدقات ، بشوش للناس ، أخلاقه طيبة لكنه لا يصلي ، اعلم أن كل عمل يعمله لا ينفعه يوم القيامة ، حتى الصيام يصوم رمضان ولا يصلي ، ما له صيام ، يحج وما يصلي ، ما له حج ، بل يحرم عليه أن يذهب إلى مكة وهو لا يصلي ، لأن اللَّه يقول : ﴿ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِنَّمَا ٱلْمُشْرِكُونَ نَجَسٌ فَلَا يَقْرَبُواْ ٱلْمَسْجِدَ ٱلْحَرَامَ بَعْدَ عَامِهِمْ هَـٰذَا ﴾ [التوبة : ٢٨] ، فالإسلام شرط لكل عبادة لا تقبل أي عبادة إلا بالإسلام ولا تصح أي عبادة إلا بالإسلام ، واللَّه الموفق .

* * *

١٣١٤ - وعَنْ جابرٍ ﷺ قالَ : قالَ رَجُلٌ : أين أَنَا يا رَسولَ اللَّهِ إنْ قُتِلتُ ؟ قالَ : « في الـجَنَّةِ » فَأَلْقَى تَمَرَاتٍ كُنَّ في يَدِهِ ، ثُمَّ قاتَلَ حَتَّى قُتِلَ [١] ، رواه مسلم .

١٣١٥ - وعَنْ أَنَسٍ ﷺ قَالَ : انْطَلَقَ رسول اللَّه ﷺ وَأَصْحَابُهُ حَتَّى سَبَقُوا المشرِكينَ إلى بَدرٍ ، وَجَاءَ المُشرِكُونَ ، فقالَ رسول اللَّه ﷺ : « لا يُقَدِّمَنَّ أَحَدٌ مِنْكُمْ إلى شَيْءٍ حَتَّى أَكُونَ أَنا دُونَهُ » فَدَنَا المُشرِكُونَ ، فَقَالَ رسول اللَّه ﷺ : « قُومُوا إلى جَنَّةٍ عَرْضُهَا السَّمواتُ وَالأَرْضُ » قال : يَقولُ عُمَيرُ ابنُ الحُمَامِ الأنصارِيُّ ﷺ : يا رسولَ اللَّه جَنَّةٌ عَرْضُها السَّمواتُ وَالأرضُ ؟ قالَ : « نَعَم » قالَ : بَخٍ بَخٍ ! فقالَ رسول اللَّه ﷺ : « ما يَحمِلُكَ على قَولِكَ بَخٍ بَخٍ ؟ » قالَ : لا وَاللَّهِ يا رَسُولَ اللَّهِ إلا رَجَاءَ أَنْ أَكُونَ مِنْ أَهْلِها ، قال : « فإِنَّكَ مِن أَهْلِهَا » فَأَخْرَجَ تَمَرَاتٍ مِنْ قَرَنِهِ ، فَجَعَلَ يَأْكُلُ منهُنَّ ، ثم قَالَ : لَئِنْ أَنَا حَيِيتُ حتى آكُلَ تَمَرَاتي هذِهِ إنَّهَا لَحَيَاةٌ طَويلَةٌ ! فَرَمَى بما كانَ مَعَهُ مِنَ التَّمْرِ ، ثم قَاتَلَهُمْ

---

(١) أخرجه مسلم في الإمارة (١٤٣) ، والإمام أحمد في المسند (٣٠٨/٣) ، والنسائي في السنن (٣٣/٦) .

حتَّى قُتِلَ [١] . رواه مسلم .

« القَرَن » بفتح القاف والراء : هو جُعْبَةُ النَّشَّابِ .

١٣١٦ - وعنهُ قَالَ : جَاءَ نَاسٌ إلى النَّبيِّ ﷺ أَن ابعَث مَعَنا رِجَالًا يُعَلِّمُونَا القُرآنَ وَالسُّنَّةَ ، فَبَعَثَ إِلَيهِم سَبعِينَ رَجُلًا مِنَ الأَنْصَارِ يُقَالُ لهمُ : القُرَّاءُ ، فِيهِم خَالي حَرَامٌ ، يَقرأُونَ القُرآنَ ، وَيَتَدَارَسُونَ باللَّيلِ يَتَعَلَّمونَ ، وكانُوا بالنَّهارِ يَجيئُونَ بالمَاءِ ، فَيَضَعُونَه في المَسجِدِ ، وَيَحْتَطِبُونَ فَيَبِيعُونَه ، وَيَشتَرونَ بِهِ الطَّعَامَ لأَهلِ الصُّفَّةِ ، ولِلفُقَرَاءِ ، فَبَعَثَهم النَّبيُّ ﷺ ، فَعَرَضُوا لهم فَقَتَلُوهُمْ قبلَ أَنْ يَبلُغُوا المكانَ ، فَقَالُوا : اللَّهُمَّ بَلِّغ عَنَّا نَبيَّنَا أَنَّا قَد لَقِينَاكَ فَرَضِينَا عَنْكَ وَرَضِيتَ عَنَّا ، وَأَتَى رجُلٌ حَرَامًا خَالَ أَنَسٍ مِنْ خَلفِهِ ، فَطَعَنَهُ بِرُمحٍ حتى أَنْفَذَهُ ، فَقَالَ حَرامٌ : فُزتُ وربِّ الكَعْبَةِ ، فقالَ رسول اللَّه ﷺ : « إن إِخْوَانَكم قَد قُتِلُوا وإِنَّهم قَالُوا : اللَّهُمَّ بَلِّغ عَنَّا نَبيَّنَا أَنَّا قَد لَقِينَاكَ فَرَضِينَا عَنْكَ وَرَضِيتَ عَنَّا » [٢] . متفقٌ عليه ، وهذا لفظ مسلم .

١٣١٧ - وعَنْهُ قالَ : غَابَ عَمِّي أنسُ بنُ النَّضْرِ ﷺ عن قِتَالِ بَدرٍ ، فقال : يا رسولَ اللَّهِ ، غِبتُ عن أَوَّلِ قِتَالٍ قَاتَلتَ المُشرِكِينَ ، لَئِنِ اللَّهُ أَشْهَدَني قِتَالَ المُشرِكينَ لَيَرَيَنَّ اللَّهُ ما أَصنَعُ ، فَلَمّا كانَ يومُ أُحُدٍ انكَشَفَ المُسلِمُونَ ، فقالَ : اللَّهُمَّ إِنِّي أَعتَذِرُ إِلَيكَ مِمَّا صَنَعَ هَؤلاءِ - يَعْني أَصْحَابَهُ - وَأَبرأُ إِليكَ مِمَّا صَنَعَ هَؤُلاءِ - يعني المُشركِينَ - ثم تَقَدَّمَ فَاستَقْبَلَهُ سَعدُ بنُ مُعَاذٍ فقال : يَا سَعدَ بنَ مُعَاذٍ الجَنَّةَ وَرَبِّ النَّضْرِ ، إِنِّي أَجدُ رِيحَهَا مِنْ دُونِ أُحُدٍ ! قالَ سعدٌ : فما استطَعتُ يا رَسُولَ اللَّهِ مَا صَنَعَ ! قالَ أَنَسٌ : فَوَجَدْنَا به بِضعًا وَثَمَانِينَ ضَربَةً بالسَّيف ، أَو طَعْنَةً بِرُمْحٍ ، أَو رَمْيَةً بِسَهمٍ ، وَوَجَدْنَاهُ قد قُتِلَ وَمَثَّلَ بِهِ المُشرِكونَ ، فَمَا عَرَفَهُ أَحَد إِلَّا أُختُهُ بِبَنانِهِ . قال أَنَسٌ : كُنَّا نُرَى - أَو نَظُنُّ - أَنَّ هذِهِ الآية نَزَلَتْ فِيهِ وَفي أَشْبَاهِهِ : ﴿ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ رِجَالٌ صَدَقُوا مَا عَاهَدُوا اللَّهَ عَلَيْهِ فَمِنْهُم مَّن قَضَىٰ نَحْبَهُ ﴾ إلى آخرهَا [الأحزاب : ٢٣] [٣] متفقٌ عليه ، وقد سَبقَ في بابِ المُجَاهَدَةِ .

١٣١٨ - وعَنْ سَمُرَةَ ﷺ قالَ : قالَ رسول اللَّه ﷺ : « رَأَيتُ اللَّيلَةَ رَجُلَينِ أَتياني ، فَصَعدَا بي الشَّجَرَةَ ، فَأَدْخَلاني دَارًا هِيَ أَحسَنُ وَأَفضَل ، لَمْ أَرَ قَطُّ أَحسَنَ مِنها ، قالا : أَمَّا هذِهِ الدَّار فَدَارُ الشُّهَدَاءِ » [٤] رواه البخاري وهو بعضٌ من حديثٍ طويلٍ فيه أنواع العلم سيأتي في باب تحريم الكذِب إنْ شاءَ اللَّهُ تَعالى .

---

(١) أخرجه مسلم في الإمارة (١٤٥) . وقوله : « أنا دونه » أي : قدامه متقدمًا في ذلك الشيء ؛ لئلا يفوت شيء من المصالح التي تعلمونها ، قوله : « بخ بخ » كلمة تطلق لتفخيم الأمر وتعظيمه في الخير .

(٢) أخرجه البخاري في الجهاد والسير (٢٨٠١) والحاكم في المستدرك (٢/١١١) .

(٣) أخرجه البخاري في الجهاد والسير (٢٨٠٥) . وقوله : « انكشف المسلمون » أي : انهزموا . قوله : « أخته » هي : الرُّبيع بنت النضر . قوله : « بنانه » أي : أطراف أصابعه ، قوله : « نحبه » أي عمره .

(٤) أخرجه البخاري في السير (٢٨٠٥) .

١٣١٩ - وعَنْ أنسٍ ﷺ أَنَّ أُمَّ الرُّبَيِّعِ بنْتَ البَرَاءِ - وَهِيَ أُمُّ حارِثَةَ بن سُرَاقَةَ - أَتَتِ النَّبِيَّ ﷺ فَقَالَتْ : يا رَسُولَ اللَّهِ أَلا تُحَدِّثُني عَنْ حارِثَةَ - وَكَانَ قُتِلَ يومَ بَدْرٍ - فَإِنْ كانَ في الجَنَّةِ صَبَرْتُ ، وَإِنْ كانَ غَيرَ ذلكَ اجْتَهَدْتُ عَلَيهِ في البُكَاءِ ، فقال : « يا أُمَّ حارِثَةَ إِنَّهَا جِنَانٌ في الجَنَّةِ ، وَإِنَّ ابْنَكِ أَصَابَ الفِرْدَوسَ الأَعْلى » [(١)] .

١٣٢٠ - وعَنْ جابرِ بنِ عبدِ اللَّهِ ﷺ قالَ : جِيءَ بِأَبِي إلى النَّبِيِّ ﷺ قَدْ مُثِّلَ بِهِ ، فَوُضِعَ بَينَ يَدَيه ، فَذَهَبْتُ أَكْشِفُ عَنْ وَجْهِهِ ، فَنَهاني قَومي ، فقال النبيُّ ﷺ : « ما زَالَتِ المَلائِكَةُ تُظِلُّهُ بِأَجْنِحَتِها » [(٢)] متفقٌ عليه .

١٣٢١ - وعَنْ سهلِ بنِ حُنَيفٍ ﷺ أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ قال : « مَنْ سَأَلَ اللَّهَ تَعَالى الشَّهَادَةَ بِصِدْقٍ ؛ بَلَّغَهُ اللَّهُ مَنَازِلَ الشُّهَدَاءِ وَإِنْ مَاتَ عَلى فِرَاشِهِ » [(٣)] رواه مسلم .

الشرح

هذه الأحاديث في فضل الشهداء الذين قتلوا في سبيل اللَّه وأن لهم الجنة ، كما قال اللَّه ﷻ : ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ ٱشْتَرَىٰ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ أَنفُسَهُمْ وَأَمْوَٰلَهُم بِأَنَّ لَهُمُ ٱلْجَنَّةَ يُقَٰتِلُونَ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ فَيَقْتُلُونَ وَيُقْتَلُونَ وَعْدًا عَلَيْهِ حَقًّا فِى ٱلتَّوْرَىٰةِ وَٱلْإِنجِيلِ وَٱلْقُرْءَانِ ﴾ [التوبة : ١١١] وذكر المؤلف أحاديث كثيرة تدل على صدق الصحابة ﷺ ، وصدق إيمانهم ، يخبرهم النبي ﷺ بما للشهداء فيدعون ما بأيديهم من الطعام ويتركونه ويتقدمون إلى الجهاد في سبيل اللَّه ثم يقتلون فيلقون اللَّه ﷯ راضين عنه وهو راضٍ عنهم جلَّ وعلا وهذا لا شك من فضائل الصحابة ﷺ التي لا يلحقهم بعدهم أحد فيها .

هذا عمير بن الحمام الأنصاري ﷺ لما قال النبي ﷺ يوم بدر : من قاتلهم محتسبًا مقبلًا غير مدبر وجبت له جنة عرضها كعرض السماء والأرض ، قال : يا رسول اللَّه ، جنة عرضها كعرض السماء والأرض ، قال : نعم ، فأخرج تمرات من قرنه الذي يوضع فيه الطعام عادةً ، ويأخذه المجاهد ، ثم جعل يأكل ، ثم استطال الحياة ﷺ وقال : واللَّه لأن بقيت حتى آكل هذه التمرات إنها لحياة طويلة ، ثم تقدم فقاتل وقتل ﷺ ، وقد شهد له النبي ﷺ بالجنة .

وكذلك أنس بن النضر ﷺ لقي سعد بن معاذ في غزوة أحد ، وأخبره بأنه يجد ريح الجنة دون أحد ، قال ابن القيم : فهذه من الكرامات التي يكرم بها اللَّه من يشاء من عباده أن يجد ريح الجنة وهو في الأرض والجنة في السماء ، لكن من أجل أن اللَّه يثبتُ يقينَه حتى يتيقنها وكأنها أمر محسوس عنده فقاتل حتى قتل ، لأنه ﷺ تأخر عن غزوة بدر ، وسبب ذلك ، أن كثيرًا من الصحابة لم

---

(١) أخرجه البخاري في الجهاد والسير (٢٠٨٩) ، والترمذي في فضائل الجهاد (١٦٥٤) بمعناه . قوله : « الفردوس الأعلى » الفردوس هو البستان الذي يجمع كل شيء ، وهو أفضل مكان وأوسعه في الجنة .

(٢) أخرجه البخاري في الجهاد والسير (٢٨١٦) ، ومسلم في فضائل الصحابة (١٢٩) .

(٣) أخرجه مسلم في الإمارة (١٥٧) ، وأبو داود في الصلاة (١٥٢٠) ، والترمذي في فضائل الجهاد (١٦٥٣) .

يخرجوا في بدر ؛ لأنهم إنما خرجوا من أجل عير أبي سفيان التي جاء بها من الشام يريد بها مكة ، ولم يخرجوا لقتال ، ولكن اللَّه جمع بينهم وبين عدوهم من غير ميعاد ، فتخلف ﷺ ؛ لأنهم لم يؤمروا بالخروج إلى الغزو ، وإنما قال الرسول ﷺ : « من شاء أن يخرج معنا فليخرج » فخرج من خرج وتخلف من تخلف ، لكنه قال ﷺ : حين تخلف عن هذه الغزوة - غزوة بدر - : لإن أشهدني اللَّه مشهدًا - يعني غزوًا في سبيل اللَّه - ليرين اللَّه مني ما أصنع ، ثم تقدم وجاهد وجالد وقاتل حتى قتل ، ووجدوا به بضعًا وثمانين ، أو بضعًا وتسعين ضربة في جسد واحد ، مما يدل على أنه قد غامر وخاض صفوف المشركين ، لم تعرفه إلا أخته ببنانه ، وقال ﷺ وهو يجاهد : اللَّهم إني أعتذر إليك مما صنع هؤلاء ؛ يعني أصحابه الذين انكشفوا في غزوة أحد ، وأبرأ إليك مما صنع هؤلاء ؛ يعني المشركين .

فهذه القصص وأمثالها تدل دلالة واضحة على أن اللَّه اختار لنبيه (أفضل الخلق وأنه مصداق قوله ﷺ : « خير الناس قرني ثم الذين يلونهم ، ثم الذين يلونهم » [(١)] نسأل اللَّه أن يبلغنا وإياكم منازل الشهداء ، وأن يجمع بيننا وبينهم في جنات النعيم .

* * *

١٣٢٢ - وعَنْ أَنسٍ ﷺ قالَ : قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ : « مَنْ طَلَبَ الشَّهَادَةَ صَادِقًا ؛ أُعطيهَا ولو لم تُصِبْهُ » [(٢)] رواه مسلم .

١٣٢٣ - وعَنْ أبي هُرَيرَةَ ﷺ قالَ : قَالَ رسُولُ اللَّهِ ﷺ : « مَا يَجِدُ الشَّهيدُ مِنْ مَسِّ القَتْلِ إلَّا كما يَجِدُ أَحَدُكُمْ مِنْ مَسِّ القَرصَةِ » [(٣)] رواه الترمذي وقال : حديثٌ حسنٌ صحيحٌ .

١٣٢٤ - وعنْ عَبْدِ اللَّهِ بنِ أبي أَوفَى ﷺ أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ في بَعضَ أَيَّامِهِ الَّتي لَقِيَ فِيهَا العَدُوَّ انْتَظَرَ حتى مَالَتِ الشَّمْسُ ، ثُمَّ قامَ في النَّاسِ فقال : « أَيُّهَا النَّاسُ ، لا تَتَمَنَّوا لِقَاءَ العَدُوِّ ، وَسَلُوا اللَّهَ العَافِيَةَ ، فإذا لَقِيتُمُوهم فَاصْبِرُوا ، وَاعلَموا أَنَّ الجَنَّةَ تَحْتَ ظِلالِ السيوفِ » ثم قال : « اللَّهُمَّ منزِلَ الكِتَابِ ، وَمُجْرِيَ السَّحَابِ ، وَهَازِمَ الأَحْزَابِ ، اهْزِمهُم وَانْصُرنَا عَلَيهِم » [(٤)] متفقٌ عليه .

١٣٢٥ - وعن سَهْلِ بنِ سَعْدٍ ﷺ قال ، قال رسول اللَّه ﷺ : « ثِنْتَانِ لا تُرَدَّانِ - أو قَلَّما تُرَدَّانِ - الدعاءُ عندَ النداءِ ، وعندَ البأسِ حينَ يُلْحِمُ بَعْضُهُمْ بَعْضًا » [(٥)] . رواه أبو داود بإسناد صحيح .

١٣٢٦ - وعَنْ أنسٍ ﷺ قالَ : كانَ رسُولُ اللَّهِ ﷺ إذا غَزَا قال : « اللَّهُمَّ أَنتَ عَضدِي ونَصيرِي ،

---

(١) أخرجه الترمذي في السنن (٢٣٠٢) . (٢) أخرجه مسلم في الإمارة (١٥٦) .

(٣) أخرجه الترمذي في فضائل الجهاد (١٦٦٨) ، وأحمد في المسند (٢/٢٩٧) ، وابن ماجه في الجهاد (٢٨٠٢) . قوله : « من مس القتل » أي من ألم القتل .

(٤) أخرجه البخاري في الجهاد والسير (٣٠٢٤) ، ومسلم في الجهاد (٢٠) ، وأبو داود في الجهاد (٢٦٣١) .

(٥) أخرجه أبو داود في الجهاد (٢٥٤٠) ، والبيهقي في السنن (١/٤١٠) . قوله : « يلحم بعضهم بعضًا » أي : يقتل بعضهم بعضًا .

بِكَ أَحُولُ ، وبك أَصُولُ ، وَبِكَ أُقاتِلُ » [١] رواهُ أبو داود ، والترمذي وقال : حَدِيث حَسَنٌ .

١٣٢٧ - وعَنْ أبي مُوسَى ﷺ أَنَّ النَّبيَّ ﷺ كانَ إذا خَافَ قَوْمًا قالَ : « اللَّهُمَّ إِنَّا نَجعلُكَ في نُحُورِهِم ، وَنَعُوذُ بِكَ مِنْ شُرورِهِم » [٢] رواه أبو داود بإسنادٍ صحيحٍ .

١٣٢٨ - وعَنِ ابنِ عُمَرَ ﷺ أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ قالَ : « الخَيلُ مَعْقُودٌ في نَوَاصِيها الخَيرُ إلى يَومِ القِيامَةِ » [٣] متفقٌ عليه .

١٣٢٩ - وعَن عُرْوَةَ البَارِقيِّ ﷺ أنَّ النبيَّ ﷺ قال : « الخَيلُ مَعْقُودٌ في نَوَاصِيهَا الخَيرُ إلى يَومِ القِيامَةِ : الأَجرُ ، وَالمغنمُ » [٤] متفقٌ عليه .

١٣٣٠ - وَعَن أبي هُرَيرَةَ ﷺ قالَ : قالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ : « مَنِ احتَبَسَ فَرَسًا في سَبِيلِ اللَّهِ إيمانًا باللَّه ، وَتَصدِيقًا بِوَعْدِهِ ؛ فَإِنَّ شِبَعَهُ ، وَرِيَّهُ ، وَرَوثَهُ ، وَبَولَهُ ؛ في مِيزَانِهِ يَومَ القِيَامَةِ » [٥] رواه البخاريُّ .

١٣٣١ - وعَن أَبي مَسْعُودٍ ﷺ قالَ : جَاءَ رَجُلٌ إلى النَّبيِّ ﷺ بِنَاقَةٍ مَخطُومَةٍ فقالَ : هٰذِهِ في سَبيلِ اللَّهِ ، فقالَ رسول اللَّه ﷺ : « لكَ بِها يَومَ القِيامَةِ سَبعُمِائَةِ ناقَةٍ كُلُّها مَخطُومَةٌ » [٦] رواه مسلم .

١٣٣٢ - وعن أبي حَمَّادٍ - ويُقال : أبو سُعاد ، ويُقَالُ : أبو أَسَدٍ ، ويقال : أبو عامِرٍ ، ويقالُ : أبو عَمْرو ، ويقالُ : أبو الأَسْوِدِ ، ويقالُ : أبو عَبْسٍ - عُقْبَةَ بن عامِرٍ الجُهَنيِّ ﷺ قَالَ : سَمِعْتُ رسول اللَّه ﷺ وَهُوَ عَلى المِنْبَرِ يقولُ : « وأَعِدُّوا لهُم ما اسْتَطَعْتُم من قُوَّةٍ ، أَلا إنَّ القُوَّةَ الرَّميُ ، أَلا إنَّ القُوَّةَ الرَّميُ ، أَلا إنَّ القُوَّةَ الرَّميُ » [٧] رواه مسلم .

الشرح

هذه الأحاديث ساقها النووي رحمه الله ، بعضها في بيان فضيلةالشهداء ، وقد سبقت أحاديث كثيرة في هذا الموضوع ، وبعضها في فضل المشاركة في الجهاد بالراحلة والسهم .

---

(١) أخرجه الترمذي في الدعوات (٣٥٨٤) ، وأبو داود في الجهاد (٢٦٣٢) ، وأحمد في مسنده (٣/١٨٤) . قوله : « عضدي » أي : معتمدي . قوله : « بك أحول » أي : أصرف كيد العدو وأحتال لدفع مكرهم . قوله : « بك أصول » أي : أحمل على العدو حتى أغلبه وأستأصله .

(٢) أخرجه أبو داود في الصلاة (١٥٣٧) ، وأحمد في مسنده (٤/٤١٥) ، والبيهقي في السنن (٥/٢٥٣) . قوله « اللهم إنا نجعلك في نحورهم » أي : نسألك أن تصد صدورهم ، وتدفع شرورهم ، وتكفينا أمورهم ، وتحول بيننا وبينهم .

(٣) أخرجه البخاري في الجهاد والسير (٢٨٤٩) ، ومسلم في الإمارة (٩٦) ، وأحمد في مسنده (٤/١٨٤) بنحوه .

(٤) أخرجه البخاري في الجهاد والسير (٢٨٥٢) ، ومسلم في الإمارة (٩٨) .

(٥) أخرجه البخاري في الجهاد والسير (٢٨٥٢) ، وأحمد في مسنده (٢/٣٧٤) ، والنسائي في السنن (٦/٢٢٥) . قوله : « وتصديقًا بوعده » أي : بالثواب المترتب على ذلك .

(٦) أخرجه مسلم في الإمارة (١٣٢) ، والطبراني في الكبير (١٧/٢٢٩) . قوله : « مخطومة » أي : فيها خطام ، وهو قريب من الزمام .

(٧) أخرجه مسلم في الإمارة (١٦٧) .

فأما الأول : فقد ذكر النبي ﷺ أن الإنسان إذا استشهد في سبيل الله فإن ما يصيبه من القتل يكون كالقرصة ؛ يعني كقرصة النملة ، أو الذرة ، أو ما أشبه ذلك ، لأن الله تعالى يسهل عليه القتل كما أنه يسهل عليه خروج الروح ، لأن الروح تبشر برضوان من الله ﷻ وبالجنة ، فيسهل عليها الخروج ، كما في غيرها من الأموات .

ومنها : أن النبي ﷺ بَيَّنَ حينما خطب الناس ، بَيَّنَ الحكم في قوله : « لا تتمنوا لقاء العدو ، واسألوا الله العافية ، فإذا لقيتموهم فاثبتوا فإن الجنة تحت ظلال السيوف » والشاهد من هذا الحديث قوله : « الجنة تحت ظلال السيوف » .

ومنها : أي من فضائل الجهاد في سبيل الله ﷻ - أن الإنسان الذي يشارك براحلة يكتب له بذلك أجرها ، كما قال النبي ﷺ : « الخيل معقود في نواصيها الخير إلى يوم القيامة » ، والمراد بالخيل : خيل الجهاد ، لأنه فسر هذا الخير بقوله : « الأجر ، والمغنم » وهذا إنما يكون في خيل الجهاد ، فخيل الجهاد في نواصيها الخير إلى يوم القيامة . ويحتمل أن يكون الحديث عامًّا ، أي الخيل كلُّها سواء كانت ممن يجاهد عليه أم لا ، للعموم .

ومنها أيضًا : أن رجلًا جاء بناقة مخطومة إلى رسول الله ﷺ فقال : هذه يا رسول الله في سبيل الله ، فأخبره النبي ﷺ أن الله أعد له يوم القيامة سبعمائة ناقة كلها مخطومة ، لأن الله تعالى يضاعف الحسنة بعشر أمثالها إلى سبعمائة ضعف إلى أضعاف كثيرة .

ومنها : أي من الجهاد في سبيل الله - المساعدة في السهام : الرمي ، ولهذا خطب النبي ﷺ ذات يوم ، فقال في قوله تعالى : ﴿ وَأَعِدُّواْ لَهُم مَّا ٱسْتَطَعْتُم مِّن قُوَّةٍ ﴾ [الأنفال : ٥٩] « ألا إن القوة الرمي ، ألا إن القوة الرمي ، ألا إن القوة الرمي » والرمي في كل وقت بحسبه ، ففي عهد الرسول ﷺ يكون الرمي بالقوس بالسهام ، وفي وقتنا الآن يكون الرمي بالقنابل والصواريخ وما أشبهه ؛ لأن كل رمي يكون بحسب الوقت الذي يكون فيه الإنسان نسأل الله أن يجعلنا من المجاهدين في سبيله بالمال والنفس ، إنه على كل شيء قدير .

* * *

١٣٣٣ - وَعَنْهُ قالَ : سمِعْتُ رسول الله ﷺ ، يقولُ : « سَتُفْتَحُ عَلَيكُم أَرَضُونَ ، وَيَكفِيكُمُ اللهُ ، فَلا يَعْجزْ أَحَدُكُمْ أَنْ يَلْهُوَ بِأَسْهُمِهِ »[١] رواه مسلم .

١٣٣٤ - وعَنْهُ أَنَّهُ قَالَ : قالَ رسول الله ﷺ : « مَنْ عُلِّمَ الرَّمْيَ ثمَّ تَرَكَهُ ؛ فَلَيسَ مِنَّا » ، أَو « فَقَد عَصى »[٢] رواه مسلم .

١٣٣٥ - وعنهُ ﷺ قالَ : سَمِعْتُ رسول الله ﷺ ، يقولُ : « إنَّ اللهَ يُدخِلُ بالسَّهمِ الوَاحِدِ ثَلاثَةَ نَفَرٍ

(١) أخرجه مسلم في الإمارة (١٦٨) وأحمد في مسنده (١٥٧/٤) .

(٢) أخرجه مسلم في الإمارة (١٦٩) . قوله : « فليس منا » أي فليس من أهل هدينا .

الجَنَّةَ . صَانعَهُ يحتَسِبُ في صَنْعَتِهِ الخَيرَ ، وَالرَّامِي بِهِ ، وَمُنْبِلَهُ . وَارْمُوا وَارْكَبُوا ، وَأَنْ تَرمُوا أَحَبُّ إليَّ مِنْ أَنْ تَركَبُوا . ومَنْ تَرَكَ الرَّمِيَ بَعْدَ ما عُلِّمَهُ رَغْبَةً عنه ؛ فَإِنَّها نِعْمَةٌ تَرَكَهَا » أَو قال : « كَفَرَهَا » (١) . رواهُ أبو داودَ .

١٣٣٦ - وعَنْ سَلَمَةَ بن الأكوَعِ ﷺ قالَ : مَرَّ النَّبيُّ ﷺ على نَفَرٍ يَنْتَضِلُونَ ، فَقَالَ : « ارْمُوا بَني إِسْماعيلَ ؛ فَإِنَّ أباكُمْ كانَ رَامِيًا » (٢) رواه البخاري .

١٣٣٧ - وَعَنْ عَمْرِو بنِ عَبَسَةَ ﷺ قالَ : سَمِعْتُ رسول اللّه ﷺ يَقُولُ : « مَنْ رَمَى بِسَهمٍ في سَبيلِ اللّهِ ؛ فَهُوَ لَهُ عِدْلُ مُحرَّرةٍ » (٣) رواهُ أبو داود ، والترمذي وقال : حديثٌ حسنٌ صحيحٌ .

١٣٣٨ - وعَنْ أبي يحيى خُرَيم بنِ فاتِكٍ ﷺ قالَ : قالَ رسول اللّه ﷺ : « مَنْ أَنْفَقَ نَفَقَةً في سَبِيلِ اللّه كُتِبَ لَهُ سَبْعُمائةِ ضِعْفٍ » (٤) رواهُ الترمذي وقالَ : حديثٌ حَسَنٌ .

١٣٣٩ - وعَنْ أبي سَعيدٍ ﷺ قال : قالَ رَسُولُ اللّهِ ﷺ : « مَا مِنْ عَبْدٍ يَصُومُ يَومًا في سَبِيلِ اللّهِ ؛ إِلَّا بَاعَدَ اللّهُ بِذلكَ اليَومِ وَجْهَهُ عَنِ النَّارِ سَبْعِينَ خَرِيفًا » (٥) متفقٌ عليه .

١٣٤٠ - وعَنْ أَبي أُمَامَةَ ﷺ عَنِ النبيِّ ﷺ قالَ : « مَنْ صَامَ يَومًا في سَبيلِ اللّهِ جَعَلَ اللّهُ بَينَهُ وَبَينَ النَّارِ خَنْدَقًا كَمَا بَينَ السَّماءِ وَالأَرْضِ » (٦) رواه الترمذي وقال : حديثٌ حسنٌ صحيحٌ .

١٣٤١ - وعَنْ أبي هُرَيرَةَ ﷺ قالَ : قالَ رَسُول اللّه ﷺ : « مَنْ ماتَ وَلَمْ يَغْزُ ، وَلَمْ يُحَدِّثْ نَفْسَه بِغَزْوٍ ، مات عَلى شُعْبَةٍ مِنَ النِّفاقِ » (٧) رواه مسلم .

١٣٤٢ - وعَنْ جابرٍ ﷺ قالَ : كنَّا مَعَ النَّبيِّ ﷺ في غَزَاةٍ فقالَ : « إن بِالمَدِينَةِ لَرِجَالًا ما سِرْتُمْ مَسِيرًا ، وَلا قَطَعْتُمْ وَادِيًا إلَّا كانُوا مَعَكم ، حَبَسَهُمُ المَرَضُ » .

وفي روايةٍ : « حَبَسَهُمُ العُذْرُ » . وفي روايةٍ : « إِلَّا شَرَكُوكُمْ في الأَجْرِ » (٨) رواهُ البخاري من

---

(١) أخرجه أبو داود في الجهاد (٢٥١٣) ، والترمذي في فضائل الجهاد (٢٠) ، والنسائي في السنن (٣٥٨٠) .
قوله : « منبله » أي : مناوله .

(٢) أخرجه البخاري في الجهاد والسير (٢٨٩٩) ، وأحمد في مسنده (١٤٨/٤) ، والبيهقي في السنن (١٣/١٠) .

(٣) أخرجه الترمذي في فضائل الجهاد (١٦٣٨) ، وأبو داود في العتق (٣٩٦٥) ، وابن ماجه في الجهاد (٢٨١٢) .
قوله : « عدل محررة » أي : بمثابة تحرير رقبة .

(٤) أخرجه الترمذي في فضائل الجهاد (١٦٢٥) ، والنسائي في السنن (٣١٨٦) .

(٥) أخرجه البخاري في الجهاد والسير (٢٨٤٠) ، ومسلم في الصيام (١٦٧) واللفظ له .

(٦) أخرجه البخاري في الجهاد والسير (٢٨٤٠) ، ومسلم في الصيام (١٦٨) ، و الترمذي في فضائل الجهاد (١٦٢٤)
قوله : « خندقًا » أي : حفرة واسعة لا يستطيع الإنسان اجتيازها .

(٧) أخرجه مسلم في الإمارة (١٥٨) ، وأبو داود في الجهاد (٢٥٠٢) ، والإمام أحمد في المسند (٣٧٤/٢) .
قوله : « مات على شعبة من النفاق » أي : أن من فعل هذا فقد أشبه المخلفين عن الجهاد .

(٨) أخرجه البخاري في الجهاد والسير (٢٨٣٩) ، ومسلم في الإمارة (١٥٩) ، وأبو داود في الجهاد (٢٥٠٨) ، وابن ماجه في الجهاد (٢٧٦٤) . قوله : « حبسهم العذر » أي : منعهم عن الخروج .

روايةِ أنسٍ ، وَرواهُ مُسلمٌ من روايةِ جابرٍ واللفظ له .

١٣٤٣ - وعنْ أبي مُوسى ﷺ أَنَّ أَعْرَابِيًّا أَتى النبيَّ ﷺ فَقَالَ : يا رسولَ اللَّهِ ، الرَّجُلُ يُقَاتِلُ لِلْمَغْنَمِ ، وَالرَّجُلُ يُقَاتِلُ لِيُذْكَرَ ، وَالرَّجُلُ يُقَاتِلُ لِيُرَى مَكانُهُ - وفي روايةٍ : يُقَاتِلُ شَجَاعَةً ، وَيُقَاتِلُ حَمِيَّةً . وفي رواية : وَيُقَاتِلُ غَضَبًا - فَمَنْ في سَبيلِ اللَّهِ ؟ فَقَالَ رسولُ اللَّهِ ﷺ : « مَنْ قَاتَلَ لِتَكُونَ كَلِمَةُ اللَّهِ هيَ العُلْيَا ؛ فَهُوَ في سَبِيلِ اللَّهِ » (١) متفقٌ عليهِ .

الشرح

هذه الأحاديث في بيان أمور في الجهاد في سبيل اللَّه ، منها الرمي ، وقد سبق أن النبي ﷺ قال : « ألا إن القوة الرمي » ، كررها ثلاثًا .

وفي الأحاديث التي ساقها المؤلف في هذا الباب حث على تعلم الرمي ، وعلى أن من ترك الرمي بعد أن مَنَّ اللَّه تعالى عليه به ؛ فإنها نعمة كَفَرَها ، وفي بعض الأحاديث أن النبي ﷺ تبرأ منه .

وفي بعض الأحاديث أيضًا : إنها ستفتح عليكم أرضون وسيكفيكم اللَّه ، فلا يعجز أحدكم أن يلهو بأسهمه (٢) .

ففي هذه الأحاديث وأشباهها : حثٌّ على تعلم الرمي ، وعلى أن الإنسان ينبغي له ، أن يتعلم كيف يرمي ولو بالأسلحة الخفيفة ؛ لأنه لا يدري ماذا يحدث له ، حتى إن النبي ﷺ أجاز العوض في المسابقة في الرمي ، يعني مثلًا رمى اثنان بالبندقية أو شبهها من السلاح ويجعلون بينهما عوضًا ، من يرم منهم يأخذه ، هذا أيضًا لا بأس به وجائز ، لما في ذلك من الحث على تعلم الرمي ، وفي هذه الأحاديث أن النبي ﷺ قال : « اركبوا وارموا ، وأن ترموا أحب إلي من أن تركبوا » ، لأن الرمي يدركه الإنسان الراكب والراجل ، أما الركوب فلا يدركه إلا من ركب ، ولهذا كان الرمي أحب إلى النبي ﷺ من الركوب .

وفي هذه الأحاديث أيضًا : دليل على فضيلة الصيام في الجهاد في سبيل اللَّه ، وأن الإنسان إذا صام يومًا في سبيل اللَّه ؛ باعد اللَّه بين وجهه وبين النار سبعين خريفًا : يعني سبعين سنة ، وفي هذه الأحاديث دليل على وجوب إخلاص النية لله ، فإن النبي ﷺ سئل عن الرجل يقاتل شجاعة ويقاتل حمية ويقاتل زورًا ويقاتل غضبًا - يعني عصبية لقومه - فمن في سبيل اللَّه ؟ ، قال : « من قاتل لتكون كلمة اللَّه هي العليا فهو في سبيل اللَّه » .

* * *

١٣٤٤ - وعنْ عبدِ اللَّه بنِ عَمرِو بن العاصِ ﷺ قالَ : قالَ رسولُ اللَّه ﷺ : « مَا مِنْ غَازِيَةٍ ، أَوَ

(١) أخرجه البخاري في الجهاد والسير (٢٨١٠) ، ومسلم في الإمارة (١٤٩) ، وأبو داود في الجهاد (٢٥١٧) .
(٢) أخرجه مسلم في الإمارة (١٦٨) ، وأحمد في مسنده (١٥٧/٤) .

سَرِيةٍ تَغْزُو ، فَتَغْنَمُ وَتَسْلَمُ ؛ إلَّا كانُوا قَدْ تَعَجَّلُوا ثُلُثَي أُجورِهِمْ ، وَمَا مِنْ غازِيَةٍ أَو سَرِيةٍ تُخْفِقُ وَتُصَابُ ؛ إلَّا تَمَّ أُجورُهُمْ »[١] . رواهُ مسلمٌ .

١٣٤٥ - وعنْ أَبي أُمَامَةَ ﷺ أَنَّ رَجُلًا قالَ : يا رسولَ اللَّه ائْذَنْ لي في السِّيَاحَةِ ، فَقالَ النَّبيُّ ﷺ : « إنَّ سِيَاحَةَ أُمَّتي الجِهادُ في سَبيلِ اللَّهِ ﷻ »[٢] رواهُ أبو داود بإسنادٍ جيِّدٍ .

١٣٤٦ - وعَنْ عبدِ اللَّهِ بنِ عَمْرِو بنِ العاصِ ﷺ عَنِ النَّبيِّ ﷺ قَالَ : « قَفْلَةٌ كَغَزْوَةٍ »[٣] . رواهُ أبو داود بإسنادٍ جيدٍ . « القَفْلَةُ » : الرُّجُوعُ ، والمراد : الرُّجُوعُ مِنَ الغَزْوِ بعْدَ فَرَاغِهِ ؛ ومعناه : أنه يُثابُ في رُجُوعِهِ بعد فَرَاغِهِ مِنَ الغَزْوِ .

١٣٤٧ - وعنِ السائِب بن يزيدَ ﷺ قالَ : لمَّا قدِمَ النَّبيُّ ﷺ مِنْ غَزْوَةِ تبوكَ تَلَقَّاه النَّاسُ ، فَتَلَقَّيْتُهُ مَعَ الصِّبيانِ على ثَنِيَّةِ الوَدَاعِ[٤] . رواه أبو داود بإسنادٍ صَحيحٍ بهذا اللفظ ، وَرواه البخاريُّ قالَ : ذَهَبْنَا نَتَلَقَّى رسولَ اللَّهِ ﷺ مَعَ الصِّبيَانِ إلى ثَنِيَّةِ الوَدَاعِ .

١٣٤٨ - وَعَنْ أَبي أُمَامَةَ ﷺ عَنِ النبيِّ ﷺ قَالَ : « مَنْ لم يَغْزُ ، أَو يُجَهِّزْ غَازِيًا ، أو يَخْلُفْ غَازِيًا في أَهْلِهِ بِخَيرٍ ، أَصَابَهُ اللَّه بِقَارِعَةٍ قَبْلَ يَومِ القِيامَةِ »[٥] .

رواهُ أبو داود بإسنادٍ صحيحٍ .

١٣٤٩ - وعَنْ أنسٍ ﷺ أَنَّ النبيَّ ﷺ قالَ : « جَاهِدُوا المُشْرِكينَ بِأَموالِكُمْ وَأَنْفُسِكُم وَأَلسِنَتِكُم »[٦] رواهُ أبو داود بإسنادٍ صحيحٍ .

١٣٥٠ - وعَنْ أَبي عَمْرو - ويقالُ : أبو حَكِيم - النُّعْمَانِ بن مُقَرِّنٍ ﷺ قالَ : شَهِدْتُ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ إذا لَمْ يُقَاتِلْ مِنْ أَوَّلِ النَّهارِ أَخَّرَ القِتَالَ حَتَّى تَزُولَ الشَّمْسُ ، وَتهبَّ الرِّياحُ ، ويَنزِلَ النَّصْرُ[٧] .

---

(١) أخرجه مسلم في الإمارة (١٥٤) ، وأحمد في مسنده (١٦٩/٢) ، والنسائي في السنن (٣١٢٥) . قوله : « غازية » أي : جماعة يخرجون للجهاد .

(٢) أخرجه أبو داود في الجهاد (٢٤٨٦) ، والبيهقي في السنن (١٦١/٩) ، والحاكم في المستدرك (٧٣/٢) . قوله : « ائذن لي في السياحة » أي : الذهاب في الأرض بمفارقة المألوفات والمباحات ، وترك الجمعة والجمعات ؛ ولذا فإن النبي ﷺ رد عليه ذلك كما رد على عثمان بن مظعون التبتل .

(٣) أخرجه أبو داود في الجهاد (٢٤٨٧) ، وأحمد في مسنده (١٧٤/٢) ، والبيهقي في السنن (٢٨/٩) .

(٤) أخرجه أبو داود في الجهاد (٢٧٧٩) ، والبخاري في الجهاد (٣٠٨٣) بنحوه ، والترمذي في الجهاد (١٧١٨) . قوله : « تبوك » هي موضع من بادية الشام قريب من مدين الذين بعث اللَّه إليهم شعيب ، وهي آخر غزوات النبي ﷺ . قوله : « ثنية الوداع » هي موضع على مشارف المدينة .

(٥) أخرجه أبو داود في الجهاد (٢٥٠٣) ، وابن ماجه في الجهاد (٥٧٥٩) ، والبيهقي في السنن (٤٨/٩) . قوله : « قارعة » أي : داهية مهلكة .

(٦) أخرجه أبو داود في الجهاد (٢٥٠٤) ، والنسائي في الجهاد (٣٠٩٦) ، وأحمد في مسنده (١٢٤/٣) .

(٧) أخرجه أبو داود في الجهاد (٢٦٥٥) ، والإمام أحمد في المسند (٤٤٤/٥) ، والترمذي في فضائل الجهاد (١٦١٣) .

رواهُ أَبو داود ، والترمذي ، وقالَ : حديثٌ حَسَنٌ صحيحٌ .

١٣٥١ - وعنْ أبي هُرَيرَةَ ﷺ قالَ : قالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ : « لا تَتَمَنَّوا لِقَاءَ العَدُوِّ ، وَاسْأَلوا اللَّهَ العَافِيَةَ ، فإذا لَقِيتُمُوهم ؛ فَاصبِرُوا » (١) متفقٌ عليه .

١٣٥٢ - وعَنْهُ وعَنْ جابِرٍ ﷺ أَنَّ النبيَّ ﷺ قالَ : « الحَرْبُ خَدْعَةٌ » (٢) متفقٌ عليهِ .

الشرح

هذه الأحاديث هي بقية أحاديث باب الجهاد وفيها الحث على الغزو ، وأن الإنسان إذا لم يغز ولم يحدث نفسه بالغزو ولم يخلف غازيًا في أهله وماله ؛ فإنه تصيبه قارعة قبل يوم القيامة ، وهذه القارعة ربما تفسر بما سبق في الحديث ، من مات ولم يغزو ولم يحدث نفسه بالغزو مات على شعبة من النفاق .

وفيها : أيضًا الحث على جهاد المشركين بالمال والنفس واللسان : **بالمال** : أي أن يبذل الإنسان مالًا يساعد به المجاهدين ، أو يشتري به سلاحًا أو غير ذلك . **والنفس** : بأن يخرج بنفسه يقاتل . **واللسان** : بأن يهجوهم بالقصائد والأشعار ، لأن هجو المشركين يؤثر فيهم ويكون ذكرى سيئة في حقهم إلى ما شاء اللَّه ، مثلًا إلى الآن ونحن نسمع هجاء حسان بن ثابت وعبد اللَّه بن رواحة وغيرهم للمشركين .

وفي هذه الأحاديث التي ذكرها المؤلف رحمه الله ، فضيلة الجهاد في سبيل اللَّه وأنه من أفضل الأعمال ، وقد مرت الأحاديث الكثيرة في هذا المعنى ، وأطال المؤلف رحمه الله في نقل الأحاديث في ذلك ، لأن باب الجهاد من أهم أبواب الدين ، حتى إن النبي ﷺ قال :« وذُروة سنامه - أي ذُروة سنام الإسلام - الجهاد في سبيل اللَّه » (٣) ، لما فيه من إعلاء كلمة اللَّه ونصر الإسلام والمسلمين ، وغير ذلك من المصالح العظيمة ، واللَّه الموفق .

* * *

٢٣٥ - باب بيان جماعة من الشهداء في ثواب الآخرة يغسلون ويصلى عليهم بخلاف القتيل في حرب الكفار

١٣٥٣ - عنْ أبي هُرَيرَةَ ﷺ قال : قال رسول اللَّه ﷺ : « الشُّهَدَاءُ خَمْسَةٌ : المطْعُونُ ، والمبْطُونُ ، وَالغَرِيقُ ، وَصاحِبُ الهَدْمِ ، وَالشَّهِيدُ في سَبيلِ اللَّهِ » (٤) متفقٌ عليهِ .

١٣٥٤ - وعنهُ قالَ : قالَ رسولُ اللَّهِ ﷺ : « ما تَعُدُّونَ الشُّهَدَاءَ فِيكُمْ ؟ » قالوا : يا رَسُولَ اللَّهِ

(١) أخرجه البخاري في الجهاد والسير (٣٠٢٦) ، ومسلم في الجهاد والسير (٢٠) .
(٢) أخرجه البخاري في الجهاد والسير (٣٠٢٩ ، ٣٠٣٠) ، ومسلم في الجهاد والسير (١٧) ، وأبو داود في الجهاد (٢٦٣٦) .
(٣) أخرجه الترمذي في الإيمان (٢٦١٦) ، وأحمد في مسنده (٥/٢٣٤) ، والحاكم في المستدرك (٢/٤١٣) .
(٤) أخرجه البخاري في الجهاد والسير (٢٨٢٩) ، ومسلم في الإمارة (١٦٤) .

مَنْ قُتِلَ في سَبيلِ اللَّهِ فَهُوَ شهيدٌ . قال : « إنَّ شُهَدَاءَ أُمَّتي إذًا لَقَليلٌ ! » قالُوا : فَمَنْ هم يا رَسُولَ اللَّهِ ؟ قالَ : « مَنْ قُتِلَ في سَبِيلِ اللَّهِ فَهُوَ شَهيدٌ ، وَمَنْ ماتَ في سَبيلِ اللَّهِ فهو شَهيدٌ ، وَمَنْ ماتَ في الطَّاعونِ فهو شَهيدٌ ، وَمَنْ مَاتَ في البَطنِ فَهُوَ شَهيدٌ ، وَالغَرِيقُ شَهيدٌ » [1] رواهُ مُسْلمٌ .

الشرح

قال المؤلف رَحِمَهُ اللَّهُ في بيان الشهداء غير المقتولين في سبيل اللَّه ، والمقتول في سبيل اللَّه هو أعلى أنواع الشهداء ، أما الشهداء الآخرون - فهم كما أشار إليهم المؤلف - هم شهداء في الآخرة في أحكام الآخرة ، لا في أحكام الدنيا ، ويتبين ذلك بأن الشهيد المقتول في سبيل اللَّه شهيد في الدنيا والآخرة ؛ فهو شهيد في الدنيا إذا قتل ومات ؛ فإنه لا يغسل ولا يكفن ولا يصلى عليه ، ويدفن ، ولا يأتيه الملكان اللذان يسألانه عن ربه وعن دينه ، وعن نبيه ، فلا يُغسل من أجل أن يبقى أثر الدم عليه ، أثر الدم الذي قتل في سبيل اللَّه من أجله ، فيأتي يوم القيامة وجرحه يثعب دمًا ، اللون لون الدم والريح ريح المسك ، لذلك قال العلماء : يحرم أن يغسل ، ويحرم أن يغسل دمه ، بل يبقى على ما هو عليه [2] .

ولا يكفن وإنما يكفن في ثيابه التي قتل فيها ، حتى يأتي يوم القيامة بهذه الثياب ، ولا يُصلَّى عليه ، لأن الصلاة شفاعة ، كما قال النبي ﷺ في الصلاة على الميت : « ما من رجل مسلم يموت فيقوم على جنازته أربعون رجلًا لا يشركون باللَّه شيئًا إلا شفعهم اللَّه فيه » [3] ، والمقتول في سبيل اللَّه لا يحتاج لأن يشفع له أحد ، لأن الشفاعة له كونه يعرض رقبته لأعداء اللَّه إعلاءً لكلمة اللَّه .

ولهذا علل النبي ﷺ عدم فتنته في قبره ، فقال : « كفى ببارقة السيوف على رأسه فتنة » [4] ، أي كفى بها اختبار ، وصدق رسول اللَّه ﷺ .

فيكفن في ثيابه ليأتي بها يوم القيامة ولا يُصلَّى عليه ، ونظير هذا في بعض الوجوه الرجل إذا مات محرمًا ؛ فإنه يغسل بماء وسدر ، ولا يحنط ، ولا يقرب طيبًا ، ولا يغطى رأسه ، ولا يكفن في ثياب غير ثياب الإحرام ، التي كانت عليه ، لأنه يبعث يوم القيامة ملبيًا ، يبعث يقول : لبيك اللَّهم لبيك .

والشهيد يبعث يوم القيامة جرحه يثعب دمًا ، لونه لون الدم ، وريحه ريح المسك ، فهذا الشهيد

---

(١) أخرجه مسلم في الإمارة (١٩١٥) ، وأحمد في مسنده (٣١٠/٢) ، والطبراني في الكبير (٨٧/١٨) .

(٢) وذلك الذي عليه الحنفية والشافعية والمالكية والحنابلة ، وثمة خلاف بينهم في تفصيل ما ينزع من الشهيد من اللباس، فقالت الحنفية : ينزع عنه الجلد والسلاح والفرو والحشو والخف والمنطقة والقلنسوة ، وقالت الشافعية : يزال ما عليه من حديد وجلود وكل ماليس من عام لباس الناس ؛ ثم وليه بالخيار إن شاء كفنه بما بقي عليه ، وإن شاء نزعه وكفنه بغيره ، وتركه أفضل . وإذا لم يكن ثوبه ساترًا لجميع بدنه فإنه يتم وجوبًا . وقالت المالكية : يكفن بجميع ثيابه . وقال أهل الظاهر : يدفن بثيابه كلها عدا السلاح . (انظر المغني ٥٣٢/٢ ، المجموع ٢٦٧/٥ ، المدونة ١٦٥/١ ، أسهل المدارك ٣٥٦/١ ، المحلى ٥/ ١١٥ ، فقه الكتاب والسنة ٢٧٤١/٥) .

(٣) أخرجه مسلم في الجنائز (٥٩) ، والبيهقي في السنن (٣٨١/٣) ، والبغوي في شرح السنة (٣٨١/٥) .

(٤) أخرجه النسائي في السنن (٩٩/٤) ، والهندي في كنز العمال (١٠٦١٠) .

في أحكام الدنيا الشهيد في سبيل الله ، يجنب هذه الأشياء : لا يغسل . لا يكفن بكفن جديد ، وإنما يكفن في ثيابه - ولا يصلى عليه ، ويدفن .

ولا يأتيه الملكان يسألانه عن ربه ودينه ونبيه ، لأن هذا أكبر امتحان واختبار له ودليل على صدقه .

أما في الآخرة ، فقد قال الله تعالى : ﴿ وَلَا تَحْسَبَنَّ ٱلَّذِينَ قُتِلُوا۟ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ أَمْوَٰتًۢا بَلْ أَحْيَآءٌ عِندَ رَبِّهِمْ يُرْزَقُونَ ﴿١٦٩﴾ فَرِحِينَ بِمَآ ءَاتَىٰهُمُ ٱللَّهُ مِن فَضْلِهِۦ وَيَسْتَبْشِرُونَ بِٱلَّذِينَ لَمْ يَلْحَقُوا۟ بِهِم مِّنْ خَلْفِهِمْ أَلَّا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴿١٧٠﴾ ۞ يَسْتَبْشِرُونَ بِنِعْمَةٍ مِّنَ ٱللَّهِ وَفَضْلٍ وَأَنَّ ٱللَّهَ لَا يُضِيعُ أَجْرَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴾ [آل عمران : ١٦٩ : ١٧١] .

أما بقية الشهداء المذكورين في الحديث فهم شهداء في الآخرة ، لا في الدنيا ، ومع ذلك فإنهم لا يساوون الذين قتلوا في سبيل الله ، ولكنهم شهداء ، ولكل درجات مما عملوا : المطعون ، والمبطون ، والغريق ، ومن قتل في سبيل الله شهيد في الدنيا وصاحب الهدم .

الأول - المطعون : يعني من مات بالطاعون ، والطاعون وباء فتاك مُعدٍ - نسأل الله العافية - إذا وقع في أرض فإنه يهلك ، ولهذا قال النبي ﷺ في الطاعون : « إذا سمعتم به في أرض فلا تقدموا عليها ، وإذا وقع وأنتم فيها فلا تخرجوا فرارًا منه »[١] ، لأنه كيف تفر من الله ﷻ ، وانظر إلى قوم ألوف[٢] خرجوا من ديارهم حذر الموت فقال الله لهم : موتوا ، فماتوا ، هربوا من الموت ، لكن الله تعالى أراد أن يبين لهم أنه لا مفر من الله ﷻ ، قال الله لهم موتوا فماتوا ثم أحياهم ، ليتبين أنه لا مفر من قدر الله ﷻ ، لكن نفعل الأسباب التي أمرنا بها ، أما التي نهينا عنها فلا ، ولهذا قال : « إذا وقع وأنتم في أرض فلا تخرجوا منها فرارًا منه » هذا المطعون إذا مات بالطاعون كان شهيدًا .

الثاني - المبطون : والمبطون هو الذي أصابه داء البطن ويشبه والله أعلم ، ما يسمونه الآن الغاشية ، تصيب الإنسان في بطنه ثم يموت ، هذه إذا مات بها الإنسان فإنه يكون شهيدًا .

الثالث - الغريق : الذي يغرق ، إما في أنهار عظيمة ، أو يقع في النهر أو في البحر أو ما أشبه ذلك ، فإنه يكون من الشهداء في الآخرة ، ولهذا أمر الإنسان أن يتعلم السباحة[٣] ، فالإنسان مأمور أن يتعلم السباحة حتى إذا حصل مثل هذه الأشياء أمكنه أن يتوقى منه .

وأما الرابع - من مات بهدم : يعني رجل انهدم عليه البيت ، أو الجدار ، أو ما أشبه ذلك . فإنه يكون شهيدًا ؛ لأن هؤلاء كلهم ماتوا بحوادث مميتة بريئة ، وهل يقاس عليهم مثلهم كالذي يموت في حادث أو في صدم أو ما أشبه ذلك ؟ الله أعلم ، قد يقاسون على هذا ، ويقال : لا فرق بين أن ينهدم الجدار ، أو أن تنقلب السيارة ، لأن كل حادث مات به الإنسان ، فيحكم على من مات بهذا الحادث أنه شهيد ،

---

(١) أخرجه البخاري في الطب (٥٧٣٠) ، ومسلم في السلام (٩٨) ، وأبو داود في السنن (٣١٠٣) .

(٢) أي عدة آلاف ، وقيل كانوا أربعة آلاف .

(٣) وذكر الأثر : السيوطي في الدر المنثور (١٩٤/٣) ، والهندي في كنز العمال (٤٥٣٤٢) ، والعجلوني في كشف الخفاء (٨٨/٢) وعزاه إلى الديلمي وقال أنه عنده روي عن جابر مرفوعًا « علموا أبناءكم السباحة والرمي ، والمرأة الغزل » .

لكننا لا نجزم به ؛ لأنَّ مسائل - الجزاء عقوبة أو مثوبة - ليس فيها قياس ، فالحاصل أنه هناك شهداء غير المقتولين في سبيل الله ، ومن ذلك أيضًا من مات في سبيل الله ، وإن لم يقتل فهو شهيد ، لكنه شهيد في الآخرة ، كرجل خرج مع المجاهدين ، ومات في الطريق موتة طبيعية ، فهذا أيضًا من الشهداء ، لكنه شهيد في الآخرة ، أما في الدنيا ؛ فإنه يغسل ويكفن ويصلى عليه ، ويدفن مع الناس ، كالشهداء الذين ذكرهم الرسول ﷺ وهم من مات بهدم ، أو غرق ، أو طاعون ، أو بطن ، والله الموفق .

* * *

١٣٥٥ - وعنْ عبدِ اللَّهِ بنِ عَمْرِو بنِ العاص ﷺ قالَ : قالَ رسولُ اللَّهِ ﷺ : « مَنْ قُتِلَ دُونَ مَالِهِ فَهُوَ شَهِيدٌ » [(١)] متفقٌ عليه .

١٣٥٦ - وعن أبي الأعْوَر سعيدِ بنِ زَيدِ بنِ عَمْرِو بن نُفَيلٍ ، أحدِ العشرةِ المشهودِ لهم بالجنةِ ﷺ قالَ : سمِعْتُ رسولَ اللَّهِ ﷺ يقولُ : « مَنْ قُتِلَ دونَ مالِهِ فَهو شهيدٌ ، ومَنْ قُتِل دونَ دَمِهِ فهوَ شهيدِ ، ومَنْ قُتِلَ دونَ دِينِه فهو شهيدٌ ، ومَنْ قُتِلَ دونَ أَهْلِهِ فهو شهيدٌ » [(٢)] . رواهُ أبو داودَ ، والترمذي وقال : حديثٌ حسنٌ صحيحٌ .

١٣٥٧ - وعنْ أبي هُريرةَ ﷺ قالَ : جَاءَ رَجُلٌ إلى رسول اللَّهِ ﷺ فَقالَ : يا رسولَ اللَّهِ أَرَأَيتَ إنْ جَاءَ رَجُلٌ يُرِيدُ أَخْذَ مَالي ؟ قالَ : « فَلا تُعْطِهِ مَالكَ » قال : أَرَأَيتَ إنْ قَاتَلَني ؟ قال : « قَاتِلْهُ » قالَ : أَرَأَيتَ إنْ قَتَلَني ؟ قالَ : « فَأَنْتَ شَهيدٌ » قال : أَرَأَيتَ إنْ قَتَلْتُهُ ؟ قال : « هُوَ في النَّارِ » [(٣)] رواهُ مسلمٌ .

الشرح

هذه بقية الأحاديث في بيان الشهداء في ثواب الآخرة ، منها ما في حديث عبد الله بن عمرو بن العاص ﷺ وعن أبيه ، أن النبي ﷺ قال :« من قتل دون ماله فهو شهيد » . يعني إذا أتاك أحد يريد أخذ مالك فدافعت عنه حتى قُتِلْتَ فأنت شهيد .

وفي الحديث الأخير ، أن رجلا سأل النبي ﷺ قال : يا رسول الله ، أرأيت إن جاء أحد يريد أخذ مالي ، قال : « فلا تعطه مالك » قال : أرأيت أن قاتلني ، قال : « قاتله » قال : أرأيت إن قتلني ، قال : « فأنت شهيد » قال : أرأيت إن قتلته ، قال : « هو في النار » .

فدل ذلك على أن الإنسان يدافع عن ماله إذا جاء أحد يريد أخذ المال ، فإنك تدافع ، فإذا لم يندفع إلا بالقتل فاقتله ، وإن اندفع بدون ذلك فلا تقتله ، يعني لو أمكن أن تكون أنت أقوى منه ، وتشد يديه ورجليه ، وتأسره فلا تقتله ، لأنه لا حاجة لقتله ، وإذا كان لا يمكن فقاتلك فقاتله ، ولو

---

(١) أخرجه البخاري في المظالم والغصب(٢٤٨٠) ، ومسلم في الإيمان (٢٢٦) ، وأبو داود في السنة (٤٧٧١) . قوله : « دون ماله » أي : دفاعًا عن ماله .

(٢) أخرجه الترمذي في الديات(١٤٢١) ، وأبو داود في السنة(٤٧٧٢) ، والبخاري في المظالم والغصب(٢٤٥٢) بنحوه ، وأحمد في مسنده(١٦٣١ ، ١٦٣٦) .

(٣) أخرجه مسلم في الإيمان (٢٢٥) .

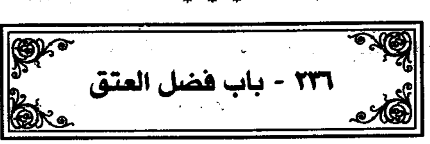
قتلته ، وإن خفت أن يبادرك بالقتل فاقتله ، ولا حاجة للمقاتلة ، يعني لو جاء إليك يسعى يشتد ومعه سلاح قد شهره فاقتله ، لأنك إن لم تبادره قتلك ، فإذا قتلته فإنه في النار ، وإن قتلك هو فأنت شهيد .

وكذلك في حديث سعيد بن زيد : « من قتل دون ماله فهو شهيد ، ومن قتل دون دمه فهو شهيد ، ومن قتل دون دينه فهو شهيد » حتى لو أن أحدًا أراد أن يفتنك في دينك ، يهتك عرضك أو ما أشبه ذلك ، فقاتلته فقتلك فأنت شهيد ، وإن قتلته أنت فهو في النار .

ولهذا قال العلماء : إن دفع الصائل ولو أدى إلى قتله جائز [١] ؛ لأنه إذا صال عليك فلا حرمة له ، لكن إذا اندفع بما دون القتل فلا تقتله .

نسأل اللّه تعالى أن يعيذنا وإياكم من الفتن ما ظهر منها وما بطن .

* * *



٢٣٦ - باب فضل العتق

قال اللّه تعالى : ﴿ فَلَا ٱقْتَحَمَ ٱلْعَقَبَةَ ۝ وَمَآ أَدْرَىٰكَ مَا ٱلْعَقَبَةُ ۝ فَكُّ رَقَبَةٍ ﴾ [البلد : ١١، ١٣] .

١٣٥٨ - وعَنْ أبي هُريرةَ ﷺ قالَ : قالَ لي رَسولُ اللّهِ ﷺ : « مَنْ أَعْتَقَ رَقَبةً مُسْلِمَةً ؛ أَعْتَقَ اللّهُ بِكُلِّ عُضْوٍ مِنْهُ عضوًا مِنْهُ مِنَ النَّارِ ؛ حتى فَرْجَهُ بِفَرْجِهِ » [٢] متفقٌ عليهِ .

١٣٥٩ - وَعَنْ أبي ذَرٍّ ﷺ قالَ : قُلْتُ : يا رَسُولَ اللّهِ ، أَيُّ الأعْمَالِ أفضلُ ؟ قالَ : « الإيمانُ باللّهِ ، وَالجهادُ في سَبيلِ اللّهِ » قالَ : قُلْتُ : أَيُّ الرِّقَاب أَفْضَلُ ؟ قالَ : « أَنْفَسُهَا عِنْدَ أَهْلِهَا ، وَأَكْثَرُهَا ثَمَنًا » [٣] مُتَّفَقٌ عَليهِ .

* * *

٢٣٧ - باب فضل الإحسان إلى المملوك

قَالَ اللّهُ تَعَالى : ﴿ وَٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ وَلَا تُشْرِكُوا۟ بِهِۦ شَيْـًٔا ۖ وَبِٱلْوَٰلِدَيْنِ إِحْسَـٰنًا وَبِذِى ٱلْقُرْبَىٰ وَٱلْيَتَـٰمَىٰ وَٱلْمَسَـٰكِينِ وَٱلْجَارِ ذِى ٱلْقُرْبَىٰ وَٱلْجَارِ ٱلْجُنُبِ وَٱلصَّاحِبِ بِٱلْجَنۢبِ وَٱبْنِ ٱلسَّبِيلِ وَمَا مَلَكَتْ أَيْمَـٰنُكُمْ [٤] ﴾ [النساء : ٣٦] .

---

(١) انظر في ذلك : فقه الكتاب والسنة (١٨٧١/٤) والمجموع (٨٩/٩) والمغني (٥٦٦/٨) .

(٢) أخرجه البخاري في كفارات الأيمان (٦٧١٥) ، ومسلم في العتق (٢١) ، والترمذي في النذور والأيمان (١٥٤١) .

(٣) أخرجه البخاري في العتق (٢٥١٨) ، ومسلم في الإيمان (١٣٦) ، والإمام أحمد في المسند (١٥٠/٥) والبيهقي في السنن (٢٧٣/١٠) .

(٤) قوله ﷻ : ﴿ وَبِذِى ٱلْقُرْبَىٰ ﴾ هم أولو الأرحام . قوله ﷻ : ﴿ وَٱلْيَتَـٰمَىٰ ﴾ هو الصغير الذي لا أب له . قوله ﷻ : ﴿ وَٱلْمَسَـٰكِينِ ﴾ هم المحتاجون . قوله ﷻ : ﴿ وَٱلْجَارِ ذِى ٱلْقُرْبَىٰ ﴾ هو الجار الذي تربطك به قرابة . قوله ﷻ : ﴿ وَٱلْجَارِ ٱلْجُنُبِ ﴾ هو الجار الذي لا تربطك به قرابة . قوله ﷻ : ﴿ وَٱلصَّاحِبِ بِٱلْجَنۢبِ ﴾ هو المرأة ، أو رفيق السفر . قوله ﷻ : =

١٣٦٠ - وَعَنِ المَعْرُورِ بن سُوَيدٍ قَالَ : رَأَيتُ أَبَا ذَرٍّ رضي الله عنه وَعليهِ حُلَّةٌ ، وَعَلى غُلامِهِ مِثْلُهَا ، فَسَأَلْتُهُ عَنْ ذَلكَ ، فَذَكَرَ أَنَّهُ سَابَّ رَجُلًا عَلى عَهْدِ رسول اللَّه ﷺ ، فَعَيَّرَهُ بأُمِّهِ ، فَقَالَ النَّبيُّ ﷺ : « إنَّكَ امْرُؤٌ فِيكَ جَاهِلِيَّةٌ ، هُمْ إخْوَانُكُمْ ، وَخَوَلُكُمْ ، جَعَلَهُمُ اللَّهُ تَحتَ أَيدِيكُمْ ، فَمَنْ كَانَ أَخُوهُ تَحتَ يَده ، فَلْيُطعِمْهُ مِمَّا يَأْكُلُ ، وَلْيُلْبِسْهُ مِمَّا يَلْبِسُ ، وَلا تُكَلِّفُوهُم مَا يَغْلِبُهُمْ ، فإنْ كَلَّفْتُمُوهُم ؛ فَأَعِينُوهُم »[(١)] متفقٌ عليه .

١٣٦١ - وَعَنْ أَبي هُرَيرَة رضي الله عنه عَنِ النَّبيِّ ﷺ قالَ : « إذا أتى أحَدَكم خَادِمُهُ بِطَعَامِهِ ، فَإنْ لم يُجلِسْهُ مَعَهُ ، فَلْيُنَاوِلْهُ لُقْمَةً أَو لُقْمَتينِ ، أَو أُكلَةً أَو أُكلَتَينِ ؛ فَإنَّهُ وَلِيَ عِلاجَهُ »[(٢)] رواه البخاري .

« الأُكلَةُ » بضم الهمزة : هِيَ اللُّقمَةُ .

الشرح

العتق هو : تحرير الرقاب : يعني أن يكون هناك إنسان مملوك فيأتي شخص فيعتقه ، ويحرره ابتغاء وجه اللَّه عز وجل ، فهذا من أفضل الأعمال ، قال اللَّه تعالى : ﴿ فَلَا ٱقْتَحَمَ ٱلْعَقَبَةَ ۝ وَمَآ أَدْرَىٰكَ مَا ٱلْعَقَبَةُ ۝ فَكُّ رَقَبَةٍ ۝ أَوْ إِطْعَٰمٌ فِى يَوْمٍ ذِى مَسْغَبَةٍ ۝ يَتِيمًا ذَا مَقْرَبَةٍ ۝ أَوْ مِسْكِينًا ذَا مَتْرَبَةٍ ﴾ [البلد : ١١-١٦] ﴿ ٱقْتَحَمَ ٱلْعَقَبَةَ ﴾ : يعني رأس صعدها على مشقة ، والعقبة هي الطريق المرتفع ، ومعلوم أن اقتحام العقبات صعب وشاق ، وكذلك إعتاق الرقاب صعب على النفوس ، لأن فيه إخراج المملوك عن ملكه وهو شاق ، وقوله : ﴿ فَكُّ رَقَبَةٍ ﴾ يشمل العتق ، ويشمل فك الأسير من العدو ، فإن هذا من فك الرقاب ، ففي الآية دليل على فضيلة العتق ، ثم ذكر المؤلف ما ثبت عن النبي ﷺ أن من أعتق عبدًا ، أعتق اللَّه بكل عضو منه - أي من العتيق - عضوًا منه - أي من المعتِق - من النار ، حتى الفرج بالفرج . يعني أنك إذا أعتقت عبدًا أعتق اللَّه كل بدنك من النار ، لأنك أعتقت كل بدن هذا العبد من الرق ، فيعتقك اللَّه تعالى من النار ، ثم ذكر فضل الإحسان إلى المملوك ، وصدر هذا بقوله تعالى : ﴿ وَٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ وَلَا تُشْرِكُوا۟ بِهِۦ شَيْـًٔا ﴾ اعبدوا اللَّه : يعني أطيعوا اللَّه ، فعبادة اللَّه هي طاعته ، بامتثال أمره ، واجتناب نهيه ، وهذا هو الذي خُلِقَ العباد من أجله ، قال تعالى : ﴿ وَمَا خَلَقْتُ ٱلْجِنَّ وَٱلْإِنسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ ﴾ [الذاريات : ٥٦] ما خلقنا اللَّهُ لنأكلَ ، ونشربَ ، ونلبسَ ، ونسكنَ ، ونتمتعَ ، لا ، هذه كلها وسائل ، الغاية هي العبادة ﴿ وَمَا خَلَقْتُ ٱلْجِنَّ وَٱلْإِنسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ ﴾ فمن لم يعبد اللَّه ، أو عبد مع اللَّه غيره ، أو لم يعبد أحدًا فإنه أضاع دينه ودنياه ، لأنه أضاع ما خلق من أجله .

وقوله : ﴿ وَلَا تُشْرِكُوا۟ بِهِۦ شَيْـًٔا ﴾ عام ، و﴿ شَيْـًٔا ﴾ يعم كل مُشْرَك ، مُشْرَك به ، لأنه نكرة في

= ﴿ وَٱبْنِ ٱلسَّبِيلِ ﴾ هو المسافر الذي انقطعت به السبل . قوله ﷺ : ﴿ وَمَا مَلَكَتْ أَيْمَٰنُكُمْ ﴾ هم العبيد .

(١) أخرجه البخاري في العتق (٢٥٤٥) ، ومسلم في الأيمان (٣٨) . قوله : « خولكم » الخول مثل الخدم والحشم وزنًا ومعنًى من التخويل بمعنى الإعطاء والتمليك .

(٢) أخرجه البخاري في العتق (٢٥٥٧) ، وأحمد في مسنده (٤٤٦/١) . قوله : « ولي علاجه » أي : يزاول عمله من تحصيل آلاته ، ووضع القدر على النار ، وغير ذلك .

سياق النهي فيكون عامًا فلا تشرك بعبادة الله أحدًا لا الرسول ، ولا جبريل ، ولا ولي من أولياء الله ، ولا صديقًا ، ولا شهيدًا ، لا تعبد إلا الله وحده لا تشرك به شيئًا ، فمن أشرك بالله شيئًا ، فإن كان شركًا أكبر فقد قال الله في حقه : ﴿ إِنَّهُ مَن يُشْرِكْ بِاللَّهِ فَقَدْ حَرَّمَ اللَّهُ عَلَيْهِ الْجَنَّةَ وَمَأْوَاهُ النَّارُ وَمَا لِلظَّالِمِينَ مِنْ أَنصَارٍ ﴾ [المائدة: ٧٢] مثاله : أن يذهب إلى قبر ثم يسجد له أو يدعوه يقول : يا سيدي أغثني ، يا سيدي ارزقني ولدًا ، ارزقني زوجة ، ارزقني مالًا ، فهذا الشرك الأكبر مخرجًا من الملة ، حتى لو صام الإنسان ، وتصدق ، وصلى ، وقرأ القرآن ، وحج البيت ، وهو باقٍ على هذا الشرك ؛ فإنه لا يدخل الجنة ، والجنة عليه حرام ، ومأواه النار وما للظالمين من أنصار ، لأنه أشرك بالله .

قوله تعالى : ﴿ وَاعْبُدُوا اللَّهَ وَلَا تُشْرِكُوا بِهِ شَيْئًا وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَانًا وَبِذِي الْقُرْبَىٰ ... ﴾ ولم يذكر الله حق النبي ﷺ مع أن حق الرسول أعظم من حق الوالدين ، يجب على الإنسان أن يحب الرسول ﷺ أشد من حبه لنفسه ، ومن حبه لولده ، ومن حبه لوالده [1] . وحق الرسول فوق كل حقوق الخلق ، قال العلماء : لأن حق الرسول من حق الله ، لأن عبادة الله لا يمكن أن تقبل إلا باتباع رسول الله ﷺ فحق الرسول داخل في ضمن حق الله ﷻ فمن لم يجرد العبادة لله إخلاصًا وللرسول اتباعًا فلا عبادة له ، ولهذا لم يذكر حق الرسول ﷺ ، لأنه داخل في حق الله .

وقوله : ﴿ وَبِالْوَالِدَيْنِ ﴾ يشمل الأم والأب ، ﴿ إِحْسَانًا ﴾ يعني احسنوا للوالدين إحسانًا ، إحسانًا بالمال ، تعطيهم من مالك إذا كانوا فقراء محتاجين أو غير فقراء ، ولكن تعطهم كمالًا ، كماليات ، تتودد إليهما ، ومن الإحسان أن تخدمهما ، فإذا أرسلك أبوك إلى شيء ، اذهب . قال : انتظر فلان ، انتظره . قال : ائتِ لي بالحاجة الفلانية ، تأتي له ، فتخدمهما بالمال وبالبدن وبالجاه أيضًا ، لو كان الابن له جاه عند الناس أو عند الدولة ، وأبوه محتاج إلى جاهه ، فمن الإحسان أن يخدمه بجاهه ، وكذلك الأم ، فالإحسان هنا يشمل كل ما يُعد إحسانًا .

* * *

٢٣٨ - باب فضل المملوك الذي يؤدي حق الله وحق مواليه

١٣٦٢ - عَنِ ابنِ عُمَرَ رضي الله عنهما أَنَّ رسول اللَّه ﷺ قالَ : « إنَّ العَبْدَ إذا نَصَحَ لِسيِّدِهِ ، وَأَحْسَنَ عِبادَةَ اللَّه ؛ فَلَهُ أَجْرُهُ مَرَّتَيـنِ » [2] متفقٌ عليه .

١٣٦٣ - وَعَنْ أَبي هُرَيرَةَ رضي الله عنه قالَ : قَالَ رسول اللَّه ﷺ : « لِلْعَبْدِ المَمْلُوكِ المُصْلِحِ أَجْرَان » وَالَّذي نَفسُ أَبي هُرَيرَةَ بِيَدِهِ لَولا الجِهَادُ في سَبِيلِ اللَّهِ ، وَالحَجُّ ، وَبِرُّ أُمِّي ؛ لأَحْبَبتُ أَنْ أَمُوتَ وَأَنَا

---

(١) وذلك مصداقًا لما رواه مسلم في الإيمان (٧٠) ، والنسائي في السنن (٨/١١٤) ، وأحمد في مسنده (٣/٢٧٥) ، قال ﷺ : « لا يؤمن أحدكم حتى أكون أحب إليه من ولده ووالده والناس أجمعين » .

(٢) أخرجه البخاري في العتق (٢٥٤٨) ، ومسلم في الأيمان (٤٣) ، وأبو داود في الأدب (٥١٦٩) ، والبيهقي في السنن (٨/١٢) .

مملوكٌ [١] . متفقٌ عليه .

١٣٦٤ - وَعَنْ أبي مُوسَى الأشْعَرِيِّ ﷺ قالَ : قَالَ رسول اللّٰه ﷺ : « لِلْمَمْلُوكِ الَّذي يُحْسِنُ عِبَادَةَ رَبِّهِ ، وَيُؤَدِّي إلى سَيِّدِهِ الذي عليه مِنَ الحَقِّ ، وَالنَّصِيحَةِ ، وَالطَّاعَةِ ، أَجْرَانِ » [٢] رواه البخاري .

١٣٦٥ - وَعَنْهُ قَالَ : قَالَ رسول اللّٰه ﷺ : « ثلاثةٌ لهُمْ أَجْرَانِ : رَجُلٌ مِنْ أَهْلِ الكِتَابِ آمَنَ بِنَبِيِّهِ ، وَآمَنَ بِمُحَمَّدٍ ، وَالعَبْدُ المَمْلُوكُ إذا أدَّى حَقَّ اللّٰهِ وَحَقَّ مَوَالِيهِ ، ورَجُلٌ كانَتْ لَهُ أَمَةٌ فَأَدَّبها فَأَحْسَنَ تَأْدِيبَها ، وَعَلَّمَها فَأَحْسَنَ تَعْلِيمَها ، ثُمَّ أَعْتَقَها فَتَزَوَّجَها ؛ فَلَهُ أَجْرَانِ » [٣] متفقٌ عليه .

الشرح

عقد المؤلف باب فضل العتق ليبين ما جاءت به الأحاديث من أن المملوك إذا قام بحق اللّٰه وحق سيده كان له الأجر مرتين ، الأجر الأول : لقيامه بحق اللّٰه ، والثاني : لقيامه بحق سيده ، لأن لله عليه حقًّا ، كالصلوات والصيام وغيرهما من العبادات التي ليست مبنية على أمر مالي ، وللسيد عليه حق وهو القيام بخدمته ، وما إلى ذلك ، فإذا قام بالحقين صار له أجران .

وكذلك في الحديث الأخير ذكر النبي ﷺ أن ثلاثة لهم الأجر مرتين الأول : « رجل من أهل الكتاب » اليهود والنصارى : يعني كان يهوديًّا أو نصرانيًّا ثم « آمن » بالرسول ﷺ ، فهذا له الأجر مرتين ، الأجر الأول : إيمانه برسوله ، والثاني : إيمانه بمحمد ﷺ ، وليُعلم أن اليهود والنصارى إذا بلغتهم رسالة محمد ﷺ فلم يؤمنوا به حبطت أعمالهم ، حتى أعمالهم التي يدينون بها في ملتهم ، حابطة غير مقبولة ، لقول اللّٰه تعالى : ﴿ وَمَن يَبْتَغِ غَيْرَ ٱلْإِسْلَٰمِ دِينًا فَلَن يُقْبَلَ مِنْهُ وَهُوَ فِى ٱلْءَاخِرَةِ مِنَ ٱلْخَٰسِرِينَ ﴾ [آل عمران : ٨٥] . **أما الثاني** : فهو العبد المملوك الذي قام بحق سيده وحق اللّٰه ﷻ ، **أما الثالث** : فرجل عنده أمة أدبها فأحسن تأديبها ، وعلمها فأحسن تعليمها ، ثم أعتقها ، وتزوجها ، فله الأجر مرتين ، المرة الأولى لإحسانه إليها وهي رقيقة مملوكة ، والأجر الثاني لإحسانه إليها بعد أن أعتقها لم يضيعها ، بل تزوجها وكفها وأحصن فرجها ، واللّٰه الموفق .

* * *

٢٣٩ - باب فضل العبادة في الهرج وهو الاختلاط والفتن ونحوها

١٣٦٦ - عنْ مَعقِلِ بن يسارٍ ﷺ قَالَ : قال رَسُولُ اللّٰهِ ﷺ : « العِبَادَةُ في الهَرْجِ كهِجْرَةٍ إلَيَّ » [٤] رواهُ مُسْلمٌ .

---

(١) أخرجه البخاري في العتق (٢٥٤٨) ، ومسلم في الأيمان (٤٤) ، وأحمد في مسنده (٢/٣٣٠) ، والبيهقي في السنن (١٢/٩) . قوله : « المصلح » هو الناصح لسيده ، والقائم بعبادة ربه الواجبة عليه .

(٢) أخرجه البخاري في العتق (٢٥٥١) . قوله : « ويؤدي إلى سيده » أي يعطي إلى سيده .

(٣) أخرجه البخاري في العلم (٩٧) ، ومسلم في الإيمان (٢٤١) .

(٤) هذا الحديث لم يقم الشارح ﷺ بشرحه والحديث أخرجه مسلم في الفتن وأشراط الساعة (١٣٠) ، والترمذي في الفتن (٢٢٠١) ، وأحمد في مسنده (٢٧/٥) ، قوله : « العبادة في الهرج » أي في الفتنة واختلاط أمور الناس ، =

٢٤٠ - باب فضل السماحة في البيع والشراء والأخذ والعطاء وحسن القضاء والتقاضي وإرجاح المكيال والميزان ، والنهي عن التطفيف

قَالَ اللَّهُ تَعَالَى : ﴿ وَمَا تَفْعَلُوا مِنْ خَيْرٍ فَإِنَّ اللَّهَ بِهِ عَلِيمٌ ﴾ [البقرة: ٢١٥] وقالَ تعالى : ﴿ وَيَا قَوْمِ أَوْفُوا الْمِكْيَالَ وَالْمِيزَانَ بِالْقِسْطِ وَلَا تَبْخَسُوا النَّاسَ أَشْيَاءَهُمْ ﴾ [هود: ٨٥] وقالَ تعالى : ﴿ وَيْلٌ لِّلْمُطَفِّفِينَ ۝ الَّذِينَ إِذَا اكْتَالُوا عَلَى النَّاسِ يَسْتَوْفُونَ ۝ وَإِذَا كَالُوهُمْ أَو وَّزَنُوهُمْ يُخْسِرُونَ ۝ أَلَا يَظُنُّ أُولَٰئِكَ أَنَّهُم مَّبْعُوثُونَ ۝ لِيَوْمٍ عَظِيمٍ ۝ يَوْمَ يَقُومُ النَّاسُ لِرَبِّ الْعَالَمِينَ (١) ﴾ [المطففين: ١: ٦] .

الشرح

البيع والشراء أمران ضروريان لا تقوم حياة بني آدم إلا بهما غالبًا ؛ وذلك لأن الإنسان قد يحتاج إلى شيء عند غيره ، فكيف يتوصل إليه ، إن استجداه وقال : هبه لي ، أذل نفسه . وإن استعاره بقي في قلق ، وإن أخذه غصبًا ظلمه ، فكان من حكمة اللَّه ﷻ أن شرع البيع والشراء ؛ لأنني ممكن أن أحتاج دراهم فأبيع ما عندي ، وأنت محتاج هذا الشيء المعين عندي فتشتريه بالدراهم ، فكان البيع أمرًا ضروريًّا لحاجة بني آدم .

ولكن من الناس من يبيع بالعدل ، ومن الناس من يبيع بالظلم ، ومن الناس من يبيع بالإحسان ، فالناس ثلاثة أقسام : قسم يبيع بالعدل ، لا يَظلم ولا يُظلم ، كما قال تعالى في الذين يتعاملون بالربا : ﴿ وَإِن تُبْتُمْ فَلَكُمْ رُءُوسُ أَمْوَالِكُمْ لَا تَظْلِمُونَ وَلَا تُظْلَمُونَ ﴾ [البقرة: ٢٧٩] وقسم يبيع بالجور ، والظلم ، كالغشاش ، والكذاب ، وما أشبه ذلك ، وقسم يبيع بالفضل والإحسان ، فيكون سمحًا في البيع وفي الشراء ، إن باع لم يطلب حقه وافيًا ، بل ينزل من الثمن ، ويمهل في القضاء ، وإن اشترى لا يهمه أنْ يزيد عليه الثمن ويبادر بالوفاء فيكون محسنًا .

وقد استدل المؤلف رَحِمَهُ اللَّهُ على فضل السماحة في البيع والشراء بآيات ، منها قوله تعالى : ﴿ وَمَا تَفْعَلُوا مِنْ خَيْرٍ فَإِنَّ اللَّهَ بِهِ عَلِيمٌ ﴾ [البقرة: ٢١٥] كلمة ﴿ مِنْ خَيْرٍ ﴾ نكرة في سياق الشرط فتعم جميع الخيرات ، من أي جهة ، وهي مؤكد عمومها بـ « من » ﴿ مِنْ خَيْرٍ ﴾ يعني أي خير تفعلونه ﴿ فَإِنَّ اللَّهَ بِهِ عَلِيمٌ ﴾ يعني لا يخفى عليه ولا يفوته ﷻ ، وسيجازيكم على هذا أفضل مما عملتم ، لأن اللَّه يجازي بالحسنة عشر أمثالها إلى سبعمائة ضعف إلى أضعاف كثيرة .

والمراد بالآية الكريمة : الحث على فعل الخير ، وأن يعلم الفاعل أنه لن يضيع عليه شيء من فعله ؛

= وسبب كثرة فضل العبادة فيه : أن الناس يغفلون عنها ويشتغلون عنها ولا يتفرغ لها إلا الأفراد .

(١) قوله ﷺ : ﴿ بِالْقِسْطِ ﴾ أي بالعدل . قوله ﷺ : ﴿ وَلَا تَبْخَسُوا ﴾ أي لا تنقصوا قوله ﷺ : ﴿ وَيْلٌ ﴾ أي حزن وهلاك ومشقة من العذاب ، وهو واد في جهنم . قوله ﷺ : ﴿ لِّلْمُطَفِّفِينَ ﴾ هم الذين ينقصون في الكيل والوزن . قوله ﷺ : ﴿ إِذَا اكْتَالُوا عَلَى النَّاسِ ﴾ أي وزنوا لأنفسهم .

فإن الله به عليم وسيجازيه عليه ﷻ أفضل الجزاء . ومن الخير : السماحة في البيع والشراء ، وقد دعا النبي ﷺ للمتسامحين في البيع والشراء ، فقال : « رحم الله امرءًا سمحًا إذا باع ، سمحًا إذا اشترى ، سمحًا إذا اقتضى » [1] . فالإنسان كلما كان أسمح في بيعه وشرائه ، وتأجيره ، واستئجاره ، ورهنه ، وارتهانه وغير ذلك فإنه أفضل ، وقال الله تعالى عن شعيب أنه قال لقومه : ﴿ وَيَٰقَوۡمِ أَوۡفُواْ ٱلۡمِكۡيَالَ وَٱلۡمِيزَانَ بِٱلۡقِسۡطِۖ وَلَا تَبۡخَسُواْ ٱلنَّاسَ أَشۡيَآءَهُمۡ وَلَا تَعۡثَوۡاْ فِي ٱلۡأَرۡضِ مُفۡسِدِينَ ﴾ [هود : ٨٥] أوفوا المكيال : أي ما تبيعونه كيلًا ، والميزان : ما تبيعونه وزنًا ، أوفوه ولا تنقصوا منه شيئًا .

وهذا دليل على أن الوفاء في العقود مما جاء في الشرائع السماوية السابقة واللاحقة ، وقال تعالى : ﴿ وَيۡلٞ لِّلۡمُطَفِّفِينَ ۝ ٱلَّذِينَ إِذَا ٱكۡتَالُواْ عَلَى ٱلنَّاسِ يَسۡتَوۡفُونَ ﴾ [المطففين : ١ - ٢] ويل : كلمة وعيد ، يتوعد الله ﷻ المطففين الذين هذه صفاتهم إذا اكتالوا على الناس يستوفون ، يعني إذا كان الحق لهم ، واكتالوا فإنهم يستوفون حقهم كاملًا ، ﴿ وَإِذَا كَالُوهُمۡ أَو وَّزَنُوهُمۡ يُخۡسِرُونَ ﴾ يعني إذا كان الحق عليهم وكالوا لهم أو وزنوا لهم ، يخسرون أي يبخسون الكيل والميزان .

فيظلمون من الوجهين ، أو يطلبون العدل فيما يتعاملون به ، ويبخسون فيما يعاملون الناس به ، وهذا هو المطفف ، وهذه الآية وإن كانت قد وردت في المكيال والميزان إلا أن العامل حتى الموظف إذا كان يريد أن يعطى راتبه كاملًا لكنه يتأخر في الحضور ، أو يتقدم في الخروج ؛ فإنه من المطففين الذي توعدهم الله بالويل ؛ لأنه لا فرق بين إنسان يكيل أو يزن للناس وبين إنسان موظف عليه أن يحضر في الساعة الفلانية ولا يخرج إلا في الساعة الفلانية ثم يتأخر في الحضور ، ويتقدم في الخروج ، هذا مطفف ، وهذا المطفف في الوظيفة لو نقص من راتبه ريال واحد من عشرة آلاف ، لقال لماذا تنقص ، هذا مطفف يدخل في هذا الوعيد ﴿ وَيۡلٞ لِّلۡمُطَفِّفِينَ ۝ ٱلَّذِينَ إِذَا ٱكۡتَالُواْ عَلَى ٱلنَّاسِ يَسۡتَوۡفُونَ ۝ وَإِذَا كَالُوهُمۡ أَو وَّزَنُوهُمۡ يُخۡسِرُونَ ﴾ ثم قال تعالى منكرًا عليهم ﴿ أَلَا يَظُنُّ أُوْلَٰٓئِكَ أَنَّهُم مَّبۡعُوثُونَ ۝ لِيَوۡمٍ عَظِيمٖ ﴾ يعني هل هؤلاء نسوا يوم الحساب ، نسوا يوم القيامة الذي ما أقرب منه .

فالإنسان في هذه الدنيا ليس معه ضمان أن يعيش ولو لحظة واحدة ، يموت الإنسان وهو يتغذى أو يتعشى ، يموت وهو نائم ، يموت وهو على مكتبه ، يموت وهو ذاهب لحاجته ، أو راجع منها ، ثم يأتي اليوم العظيم ﴿ أَلَا يَظُنُّ أُوْلَٰٓئِكَ أَنَّهُم مَّبۡعُوثُونَ ۝ لِيَوۡمٍ عَظِيمٖ ﴾ استعظمه الله ﷻ ، بين أنه عظيم ، فيدل على عِظَمه ، وقد وصف الله هذا اليوم في آيات كثيرة كلها تزعج وتروع وتخوف [2] . هؤلاء سوف يتعرضون لعقوبة الله في ذلك اليوم ، هؤلاء المطففون سيتعرضون لعقوبة الله في ذلك اليوم ﴿ يَوۡمَ يَقُومُ ٱلنَّاسُ لِرَبِّ ٱلۡعَٰلَمِينَ ﴾ يقوم الناس كلهم لرب العالمين من في مشارق الأرض ومغاربها يبعثون على صعيد واحد يسمعهم الداعي وينفذهم البصر ، الداعي يسمعهم كلهم ، لأن الأرض مبسوطة غير كروية يغيب بعض الناس فيها عن بعض ، بل هي سطح واحد إذا تكلم أحد في أولهم سمعه آخرهم . وينفذهم البصر يراهم الرائي بخلاف الدنيا

---

(١) أخرجه البخاري في البيوع (٢٠٧٦) .

(٢) راجع سور التكوير ، الانشقاق ، الانفطار .

الأرض منعطفة كروية لكن في الآخرة الأرض سطح واحد كما قال تبارك وتعالى : ﴿ وَإِذَا ٱلْأَرْضُ مُدَّتْ ۝ وَأَلْقَتْ مَا فِيهَا وَتَخَلَّتْ ﴾ [الانشقاق : ٣: ٤] تمد كما يمد الجلد ، هذا اليوم العظيم يقوم الناس فيه لله ﷻ للحساب والمعاقبة ، ومقدار هذا اليوم خمسون ألف سنة ، والشمس من فوقهم بقدر ميل ، ولا شجرة يستظلون به ، ولا بناء ، ولا شيء إلا من يظله الله في ظله يوم لا ظل إلا ظله ، أسال الله أن يجعلني وإياكم منهم . فهذا اليوم العظيم سيجد هؤلاء المطففون عقوبتهم في ذلك اليوم ، لا فيه ولد ينفع ولا أب و لا أم ولا زوجة ولا أحد ، ﴿ لِكُلِّ ٱمْرِئٍ مِّنْهُمْ يَوْمَئِذٍ شَأْنٌ يُغْنِيهِ ﴾ [عبس : ٣٧] فليحذر هؤلاء المطففون وليتقوا الله ﷻ ويؤدوا الحق كاملًا وإن زادوا فضلة فهو أفضل ، ولهم أن يأخذوا حقهم كاملًا وإن تسامحوا فهو أفضل ، والله الموفق .

* * *

١٣٦٧ – وَعَنْ أبي هُريرَةَ ﷺ أَنَّ رَجُلًا أتى النَّبيَّ ﷺ يَتَقَاضَاهُ فَأَغْلَظَ لَهُ ، فَهَمَّ بِهِ أَصْحَابُهُ ، فَقَالَ رسول اللَّه ﷺ : « دَعُوهُ ؛ فَإِنَّ لِصَاحِبِ الحَقِّ مَقَالًا » ثُمَّ قَالَ : « أَعْطُوهُ سِنًّا مِثْلَ سِنِّهِ » قالوا : يا رسول اللَّهِ ، لاَ نَجِدُ إلا أَمْثَلَ مِنْ سِنِّهِ ، قال : « أَعْطُوهُ ؛ فَإِنَّ خَيرَكُمْ أَحْسَنُكُمْ قَضَاءً » [(١)] متفقٌ عليه .

١٣٦٨ – وَعَنْ جَابِرٍ ﷺ أَنَّ رسول اللَّه ﷺ قالَ : « رَحِمَ اللَّهُ رَجُلًا سَمْحًا إذا بَاعَ ، وَإذا اشْتَرَى ، وَإذا اقْتَضَى » [(٢)] رواه البخاري .

١٣٦٩ – وَعَنْ أَبي قَتَادَةَ ﷺ قَالَ : سَمِعتُ رسول اللَّه ﷺ يَقُولُ : « مَنْ سَرَّهُ أَنْ يُنَجِّيَهُ اللَّهُ مِنَ كُرَبِ يَومِ القِيَامَةِ ، فَلْيُنَفِّسْ عَنْ مُعْسِرٍ ، أو يَضَعْ عَنْهُ » [(٣)] رواه مسلم .

الشرح

هذه الأحاديث ذكرها المؤلف في باب (فضل السماحة في البيع والشراء) .

أما الأحاديث : فمنها حديث أبي هريرة أن أعرابيًا جاء يتقاضى الرسول ﷺ حقه ، يتقاضاه يعني يطلب أن يقضيه النبي ﷺ حقه ، وذلك أن الرسول ﷺ استقرض بَكرًا – يعني ناقة صغيرة – فجاء صاحبها يطلبها ، يقول : أعطني بكري والأعراب كما نعلم عندهم جفاء ، فأغلظ للرسول ﷺ القول ، فَهَمَّ به الصحابة ، يعني هموا به أن يضربوه أو يسكتوه أو ما أشبه ذلك ، فقال : «دعوه ، فإن لصاحب الحق مقالًا » صلوات الله وسلامه عليه ، ما ظنكم لو تكلم مثل هذا الأعرابي على جندي من الجنود ماذا يُفعل به ؟! يبطش به ، أو على أمير من الأمراء أو على قاض من القضاة ، أو على وزير من الوزراء ، لو جاء يطلب حقه ولو بسهولة ربما يفتك به ، إلا من شاء الله ، هذا يغلظ القول لمحمد رسول الله ﷺ ويقول : « دعوه ، فإن لصاحب الحق مقالًا » ، ومن هنا نعرف أن الإنسان إذا كان

---

(١) أخرجه البخاري في الوكالة (٢٣٠٦) ومسلم في المساقاة (١٢٠) ، وأحمد في مسنده (٤١٦/٢) ، والبيهقي في السنن (٣٥١/٥) . قوله « سنًّا مثل سنه » أي جملًا له سن معين من أسنان الإبل .

(٢) أخرجه البخاري في البيوع (٢٠٧٦) . قوله « سمحًا » أي متساهلًا قوله « اقتضى » أي طلب قضاء حقه .

(٣) أخرجه مسلم في المساقاة (٣٢) ، والبيهقي في السنن (٣٥٧/٥) . قوله « فلينفس » أي يمد ويؤخر المطالبة .

عليه حق لشخص ، وكان الشخص جاء يطلبه فلصاحب الحق أن يغلظ له القول ؛ لأنه صاحب حق ، والرسول ﷺ سيوفيه - لا شك لكن قد لا يكون عنده تلك الساعة شيء ، ولذلك أمرهم بقضاء بكره فقالوا : « إنا لا نجد إلا سنًّا خيرًا من سنة » وفي رواية قالوا : « لا نجد إلا رباعيًا خيارًا »[(١)] والرباعي أحسن بكثير من البَكر ، البكر صغير ، والرباعية كبيرة تتحمل الحمل والأثقال وغير ذلك ، فأمرهم النبي ﷺ أن يعطوه إياها ، وقال : « إن خيرَكم أحسنُكم قضاءً » ، في صفة القضاء وفي معاملة المستقضي الذي يطلب حقه ، فينبغي للإنسان أن يقتدي برسول الله ﷺ في حسن القضاء ، لكن معاملة المستقضي الذي يطلب حقه أي لا يعامله بالجفاء والسب والشتم ، بل باللين لأن له حقًّا ومقالة ، ولا في المقضي يعني يقضي أحسن مما عليه سواء كان أحسن مما عليه كيفية ، أو أكثر مما يطلب . فمثلًا إذا استقرضتَ من شخص مائة ريال وعند الوفاء أعطيته مائة وعشرة بدون شرط ، فإن هذا لا بأس به . وهو من خير القضاء ، وكذلك لو استقرضت منه صاعًا من الطعام وسطًا ، ليس بالطيب ولا بالرديء ، فأعطيته صاعًا طيبًا فهذا أيضًا من حسن القضاء . وخير الناس أحسنهم قضاء وفي حديث جابر أن النبي ﷺ جمع قال : « رحم الله امرءًا سمحًا إذا باع ، سمحًا إذا اشترى ، سمحًا إذا اقتضى » وكذلك سمحًا إذا قضى ، فقوله - عليه الصلاة والسلام - : « رحم الله امرءًا » أو قال « رجلًا » هذا خبر بمعنى الدعاء ، يعني يدعو له بالرحمة إذا كان سمحًا في هذه المواضع الأربعة : سمحًا إذا باع لا يشتد على المشتري ويكون سهلًا يواضعه ويضع عنه . سمحًا إذا قضى ، إذا قضى غيره كان سمحًا يعطيه في وقته ولا يماطل ، كذلك سمحًا إذا اشترى ، وكذلك سمحًا إذا اقتضى ، إذا أخذ حقه ، فهذه الأحوال الأربع ينبغي للإنسان أن يكون سمحًا فيها حتى ينال دعاء رسول الله ﷺ ، ويأتي الكلام - إن شاء الله - على بقية الأحاديث .

* * *

١٣٧٠ - وَعَنْ أبي هُرَيرَةَ ﷺ أَنَّ رسول اللَّه ﷺ قَالَ : « كَانَ رَجُلٌ يُدَايِنُ النَّاسَ ، وَكَانَ يَقُولُ لِفَتَاهُ : إذا أَتَيتَ مُعْسِرًا فَتَجَاوَزْ عَنْهُ ، لَعَلَّ اللَّهَ أَنْ يَتَجَاوَزَ عَنَّا ، فَلَقِيَ اللَّه فَتَجَاوَزَ عَنْهُ »[(٢)] متفقٌ عليه .

١٣٧١ - وَعَنْ أَبي مسْعُودِ البَدْرِيِّ ﷺ قَالَ : قَالَ رسول اللَّه ﷺ : « حُوسِبَ رَجُلٌ مِمَّنْ كَانَ قَبْلَكُمْ ، فَلَمْ يُوجَدْ لَهُ مِنَ الخَيرِ شَيءٌ ، إلا أَنَّهُ كَانَ يُخَالِطُ النَّاسَ ، وَكَانَ مُوسِرًا ، وَكَانَ يَأْمُرُ غِلْمَانَهُ أَنْ يَتَجَاوَزُوا عَنِ المُعْسِرِ . قَالَ اللَّهُ ﷻ : نَحْنُ أَحَقُّ بِذلكَ مِنْهُ ، تَجَاوَزُوا عَنْهُ »[(٣)] رواه مسلم .

١٣٧٢ - وَعَنْ حُذَيفَةَ ﷺ قَالَ : أُتِيَ اللَّهُ تَعَالى بِعَبْدٍ مِنْ عِبَادِهِ آتَاهُ اللَّهُ مَالًا ، فَقَالَ لَهُ : مَاذَا

---

(١) أخرجه مسلم في المساقاة (١١٨) ، ومالك في الموطأ (البيوع ٨٩) .

(٢) أخرجه البخاري في البيوع (٢٠٧٨) ، ومسلم في المساقاة (٣١) ، والنسائي في السنن (٣١٨/٧) ، وأحمد في مسنده (٢٦٣/٢) . قوله : « فتجاوز عنه » أي أنظره وطالبه بالحسنى وعفا عنه .

(٣) أخرجه مسلم في المساقاة (٣٠) ، وأحمد في مسنده (١٢٠/٤) ، والبيهقي في السنن (٣٥٦/٥) . قوله : « ممن كان قبلكم » أي من الأمم السابقة ، قوله : « يخالط الناس » أي يعاملهم بالبيع والمداينة .

عَمِلتَ في الدُّنيا ؟ قالَ : - وَلا يَكْتُمُونَ اللَّهِ حَدِيثًا - قَالَ : يَا رَبِّ آتَيْتَنِي مالَكَ ، فَكُنْتُ أُبَايِعُ النَّاسَ ، وَكانَ مِنْ خُلُقِي الجَوَازُ ، فَكُنْتُ أَتَيَسَّرُ عَلى المُوسِرِ ، وَأُنْظِرُ المُعْسِرَ ، فَقَالَ اللَّهُ تَعَالى : « أَنَا أَحَقُّ بِذا مِنْكَ ، تَجاوَزُوا عَنْ عَبْدي » فَقَالَ عُقْبَةُ بنُ عَامِرٍ وأبو مَسْعُودٍ الأنصاريُّ ﷺ : هكذَا سَمِعْنَاهُ مِنْ فِي رَسُولِ اللَّهِ ﷺ [١] . رواه مسلم .

الشرح

هذه الأحاديث الثلاثة في فضل السماحة في البيع والشراء ، وفيها فضل العفو عن الناس والتجاوز عنهم ، ففي الحديث الأول ، عن أبي هريرة ﷺ أن النبي ﷺ قال : « كان رجل يداين الناس » يعني يتعامل معهم بالدين ، والدين ليس هو المعروف عندنا ، يعني أن تشتري سلعة لتبيعها وتنتفع بثمنها ، الدين : كل ما ثبت في الذمة فهو دين ، حتى لو بعت إلى شخص سيارة بثمن غير مؤجل ، ولم يسلمك الثمن فالثمن في ذمته دين . وإن استأجرت بيتًا وتمت المدة ولم تسلمه الأجرة فالأجرة في ذمتك دين . المهم أن المداينة أن يعامل الناس ليس نقدًا ، يعني ليس يدًا بيد بل يبيع إليهم ويشتري منهم ويعفو عن المعسر « فكان يقول لغلامه : إذا رأيت معسرًا فتجاوز عنه ، لعل اللَّه يتجاوز عنا » . فكان الغلام يفعل هذا . فلقي اللَّه ﷻ فجازاه اللَّه ﷻ بمثل ما يجازي به الناس ، يعني بمثل ما يفعل هذا الرجل في الناس عامله اللَّه ﷻ ، فتجاوز عنه ؛ وذلك لأن اللَّه في عون العبد ما كان العبد في عون أخيه . ولأن الجزاء من جنس العمل ، ففي هذا الحديث حديث أبي هريرة والحديثين بعده دليل على فضيلة إنظار المعسر والتجاوز عنه وإبرائه .

واعلم أن هذا لا ينقصُكَ شيئًا من المال ؛ لأن النبي ﷺ قال : « ما نقصت صدقة من مال » [٢] بل هذا يجعل في مالك البركة والخير والزيادة والنماء .

وأما إنظار المعسر : فإنه واجب ، يجب على الإنسان إذا كان صاحبُه معسرًا لا يستطيع الوفاء يجب عليه أن يُنظره ولا يحل له أن يكربه أو يطالبه ، لقول اللَّه تعالى : ﴿ وَإِن كَانَ ذُو عُسْرَةٍ فَنَظِرَةٌ إِلَىٰ مَيْسَرَةٍ [٣] ﴾ [البقرة : ٢٨٠] فهناك فرق بين الإبراء وهو إسقاط الدين عن المعسر وبين الإنظار ، الإنظار واجب ، والإبراء سنة ، ولا شك أن الإبراء أفضل ، لأن الإبراء تبرأ به الذمة نهائيًا ، والإنظار تبقي الذمة مشغولة لكن صاحب الحق لا يُطالب به حتى يستطيع المطلوب أن يوفي . وبعض الناس - نسأل اللَّه العافية - تحل لهم الديون على أناس فقراء فيؤذونهم ويضربونهم ويطالبونهم ويدفعون بهم إلى ولاة الأمور ، ويحبسونهم عن أهليهم وأولادهم وأموالهم ، وهذا لاشك أنه منكر والواجب على القضاة إذا علموا أن هذا معسر لا يستطيع الوفاء ، الواجب عليهم أن يقولوا للدائن ليس لك حق في

---

(١) أخرجه مسلم في المساقاة (٢٨ ، ٢٩) . قوله : « الجواز » أي التسامح والتساهل في البيع والاقتضاء ، قوله : « وأنظر » أي أمهل .

(٢) أخرجه مسلم في البر والصلة (٦٩) ، وأحمد في مسنده (٢/٢٣٥) ، والبيهقي في السنن (١٠/٢٣٥) .

(٣) قوله : ﴿ فَنَظِرَةٌ إِلَىٰ مَيْسَرَةٍ ﴾ أي : فعليكم تأخيره وإمهاله حتى تتيسر له الأمور .

مطالبته ، لأن الله تعالى هو الحكم - هو الحاكم بين العباد - وقد قال الله تعالى : ﴿ وَإِن كَانَ ذُو عُسْرَةٍ فَنَظِرَةٌ إِلَىٰ مَيْسَرَةٍ ﴾ لكن يتعلل بعض القضاة في هذه المسألة ، يقولون : إن بعض المدينين يتلاعبون بالناس فيأكلون الأموال ويجحدون الإيثار ، فيعاملونهم بهذا تنكيلًا بهم . نعم إذا ثبت أن هذا المدين يدعى الإعسار وليس بمعسر فإنه لا بأس أن يجبر ويحبس ويضرب حتى يُوفي فإن لم يفعل ؛ فإن الحاكم يتولى بيع ما شاء من ماله ويُوفي دينه . أما الذي نعلم أنه معسر حقيقة ؛ فإنه لا يجوز لطالبه أن يطالبه ولا أن يقول : أعطني ، يجب أن يعرض عنه بالكلية ﴿ فَنَظِرَةٌ إِلَىٰ مَيْسَرَةٍ ﴾ والله الموفق .

* * *

١٣٧٣ - وَعَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ ﷺ قَالَ : قَالَ رسول اللَّه ﷺ ، « مَنْ أَنْظَرَ مُعْسِرًا ، أَو وَضَعَ لَهُ ؛ أَظلَّهُ اللَّهُ يَومَ القِيَامَةِ تَحْتَ ظِلِّ عَرْشِهِ يَومَ لا ظِلَّ إلا ظِلُّهُ » [١] . رواهُ الترمذيُّ وقَالَ : حديثٌ حسنٌ صحيحٌ .

١٣٧٤ - وَعَنْ جابرٍ ﷺ أَنَّ النَّبيَّ ﷺ اشْتَرَى مِنْهُ بَعِيرًا ، فَوَزَنَ لَهُ ، فَأَرْجَحَ . [٢] متفقٌ عليه .

١٣٧٥ - وَعَنْ أَبِي صَفْوَانَ سُوَيدِ بنِ قَيسٍ ﷺ قَالَ : جَلَبْتُ أَنَا وَمَخْرَمَةُ العَبْدِيُّ بَزًّا مِنْ هَجَرَ ، فَجَاءَنَا النَّبيُّ ﷺ ، فَسَاوَمَنَا بِسَرَاوِيلَ ، وَعِنْدِي وَزَّانٌ يَزِنُ بالأَجْرِ ، فَقَالَ النبيُّ ﷺ لِلْوَزَّانِ : « زِنْ وَأَرْجِحْ » [٣] . رواهُ أبو داودَ ، والترمذيُّ وقَالَ : حديثٌ حسنٌ صحيحٌ .

الشرح

هذه بقية الأحاديث الواردة في فضل السماحة في البيع والشراء والقضاء والاقتضاء وقد سبق أحاديث كثيرة حول هذا الموضوع ، والأحاديث التي ذكرها المؤلف رحمه الله وردت فيمن أنظر مُعسرًا أو وضع عنه ، فإن الله تعالى يظله في ظله يوم لا ظل إلا ظله . أنظره يعني أمهله حتى يوسع الله عليه ، وهذا أمر واجب كما سبقت الإشارة إليه . فإن وضع عنه فهو أفضل وأكمل ، لأنه إذا وضع عنه أبرأ ذمته ، وأما إذا أنظره فإنما أمهله وبقيت ذمته - أي ذمة المطلوب - مشغولة لم تنفك .

ثم ذكر حديثين أيضًا فيهما ذكر الوزن والإرجاح ، حديث جابر ﷺ أن النبي ﷺ اشترى منه فوزن وأرجح يعني أرجح الوزن لأنهم كانوا فيما سبق يتعاملون بالنقود وزنًا لا عددًا وإن كانوا يتعاملون أيضًا بها عددًا ، لكن الكثير وزنًا كما جاء في الحديث : « ليس فيما دون خمس أواق صدقة » [٤] . فوزن له النبي ﷺ وأرجح يعني زاده أكثر مما يستحق ، وهكذا ينبغي للإنسان عند

(١) أخرجه الترمذي في البيوع (١٣٠٦) ، وأحمد في مسنده (٣٥٩/٢) ، وابن ماجه في الأحكام (٢٤١٧) .
قوله : « من أنظر معسرًا » .

(٢) أخرجه البخاري في البيوع (٢٠٩٧) بمعناه ، ومسلم في المساقاة (١١٥) بنحوه .

(٣) أخرجه أبو داود في البيوع (٣٣٣٦) ، والترمذي في البيوع (١٣٠٥) ، وابن ماجه في التجارات (٢٢٢٠) .
قوله : « هجر » بلدة باليمن .

(٤) أخرجه البخاري في الزكاة (١٤٠٥) ، ومسلم في الزكاة (٢ ، ٣) ، وأحمد في مسنده (٦/٣) ، والترمذي في السنن (٦٢٧) .

الوفاء أن يُوفِّي كاملًا بدون نقص وإذا زاد فهو أفضل . والله الموفق .

* * *

كتاب العلم

٢٤١ - باب فضل العلم [تعلمًا وتعليمًا لله] (١)

قَالَ اللَّه تَعالى : ﴿ وَقُل رَّبِّ زِدْنِي عِلْمًا ﴾ [طه : ١١٤] وقَالَ تَعالى : ﴿ قُلْ هَلْ يَسْتَوِى ٱلَّذِينَ يَعْلَمُونَ وَٱلَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ ﴾ [الزمر : ٩] وَقَالَ تَعَالى : ﴿ يَرْفَعِ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مِنكُمْ وَٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْعِلْمَ دَرَجَٰتٍ ﴾ [المجادلة : ١١] وقَالَ تَعَالى : ﴿ إِنَّمَا يَخْشَى ٱللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ ٱلْعُلَمَٰٓؤُا۟ ﴾ [فاطر : ٢٨] .

الشرح

ذكر المؤلف النووي في فضل العلم تَعَلمًا وتَعْلِيمًا لله ﷻ . والمراد بالعلم الذي وردت به النصوص في فضله ، والثواب عليه ، ورفعة أهله ، وكونهم ورثة الأنبياء ، إنما هو علم الشريعة عقيدة وعملًا ، وليس علم ما يتعلق بالدنيا كالحساب والهندسة ، وما أشبه ذلك ، المراد بالعلم الشرعي الذي جاءت به الشرائع هذا هو العلم الذي يثني على من أدركه وعلى من علمه وتعلمه .

والعلم جهاد ، جهاد في سبيل الله ، وعليه يبنى الجهاد وسائر الإسلام ، لأن من لا يعلم لا يمكن أن يعمل على الوجه المطلوب ولهذا قال الله تعالى : ﴿ وَمَا كَانَ ٱلْمُؤْمِنُونَ لِيَنفِرُوا۟ كَآفَّةً فَلَوْلَا نَفَرَ مِن كُلِّ فِرْقَةٍ مِّنْهُمْ طَآئِفَةٌ لِّيَتَفَقَّهُوا۟ فِى ٱلدِّينِ وَلِيُنذِرُوا۟ قَوْمَهُمْ إِذَا رَجَعُوٓا۟ إِلَيْهِمْ لَعَلَّهُمْ يَحْذَرُونَ ﴾ [التوبة : ١٢٢] يعني لولا نفر بالجهاد من المؤمنين من كل فرقة منهم طائفة ، وقعدت طائفة أخرى ﴿ لِّيَتَفَقَّهُوا۟ ﴾ أي الطائفة القاعدون ﴿ فِى ٱلدِّينِ وَلِيُنذِرُوا۟ قَوْمَهُمْ إِذَا رَجَعُوٓا۟ إِلَيْهِمْ ﴾ أي رجعوا من الغزو ﴿ لَعَلَّهُمْ يَحْذَرُونَ ﴾ فجعل الله تعالى الفقه في دين الله معادلًا للجهاد في سبيل الله ، بل أولى منه ، لأنه لا يمكن أن يجاهد المجاهد ، ولا أن يصلي المصلي ، ولا أن يزكي المزكي ، ولا أن يصوم الصائم ، ولا أن يحج الحاج ، ولا أن يعتمر المعتمر ، ولا أن يأكل الآكل ، ولا أن يشرب الشارب ، ولا أن ينام النائم ، ولا أن يستيقظ المستيقظ ، إلا بالعلم ، فالعلم هو أصل كل شيء ولذلك قال النبي ﷺ : « من يرد الله به خيرًا يفقهه في الدين » (٢) .

ولا فرق بين المجاهد الذي يُسوي قلل قوسه (٣) ، وبين طالب العلم الذي يستخرج المسائل العلمية من بطون الكتب ، كل منهم يعمل للجهاد في سبيل الله وبيان شريعة الله لعباد الله . ولهذا أعقب

---

(١) ما بين المعقوفين زيادة من الشارح .

(٢) أخرجه البخاري في العلم (٧١) ، ومسلم في الزكاة (٩٨) ، والترمذي في السنن (٢٦٤٥) ، وابن ماجه في السنن (٢٢٠) .

(٣) قلل قوسه : أي رأس السيف « لسان العرب مادة قلل » .

المؤلف رَحِمَهُ ٱللَّهُ باب الجهاد بباب العلم ، ليبين أنه مثله ، بل إن بعض العلماء فضله على الجهاد في سبيل الله . والصحيح أن في ذلك تفصيلًا ، فمن الناس من يكون الجهاد في حقه أفضل ، ومن الناس من يكون طلب العلم في حقه أفضل . فإذا كان الرجل قويًّا شجاعًا مقدامًا ، لكنه في العلم بضاعته مزجاة ، قليل الحفظ ، قليل الفهم ، يصعب عليه تلقي العلم ؛ فهنا نقول : الجهاد في حقه أفضل ، وإذا كان بالعكس رجل ليس عنده تلك القوة البدنية أو الشجاعة القلبية لكن عنده حفظًا وفهمًا واجتهادًا ؛ فهذا طلب العلم في حقه أفضل ، فإن تساوى الأمران : فإن من أهل العلم من رجح طلب العلم ، لأنه أصل ، ولأنه ينتفع به الناس كلهم القاصي والداني ، وينتفع به من كان حيًّا ومن يولد بعد ، وينتفع به صاحبه في حياته وبعد مماته ، كما قال النبي ﷺ : « إذا مات الإنسان انقطع عمله إلا من ثلاث : صدقة جارية ، وعلم ينتفع به ، أو ولد صالح يدعوله »(1) . وجميع الناس محتاجون للعلم : الأنبياء وغير الأنبياء كلهم محتاجون للعلم ولهذا أمر الله نبيه أن يقول : ﴿ وَقُل رَّبِّ زِدْنِي عِلْمًا ﴾ ﴿ وَلَا تَعْجَلْ بِٱلْقُرْءَانِ مِن قَبْلِ أَن يُقْضَىٰٓ إِلَيْكَ وَحْيُهُۥ ۖ وَقُل رَّبِّ زِدْنِي عِلْمًا ﴾ [طه : ١١٤] فالرسل محتاجون إلى العلم والزيادة فيه ، وإلى سؤال الله عَزَّوَجَلَّ أن يزيدهم منه ، فمن دون الأنبياء من باب أولى . فجدير بالعبد أن يسأل الله دائمًا أن يزيده من العلم ولكن إذا سأل الله أن يزيده من العلم ، فلا بد أن يسعى في الأسباب التي يحصل بها العلم ، أما أن يطلبه ويقول : رب زدني علمًا ، وهو لم يفعل الأسباب فهذا ليس من الحكمة ولا من الصواب ، هذا كمن قال : اللّه ارزقني ولدًا ولا يتزوج ، من أين يأتي هذا الولد ، فلابد إذا سألت الله شيئًا أن تسعى للأسباب التي يحصل بها ؟ لأن الله حكيم ، قرن المسببات بأسبابها ، وفي هذه الآية ﴿ وَقُل رَّبِّ زِدْنِي عِلْمًا ﴾ دليل على فضل العلم ، لم يقل لنبيه : وقل رب زدني مالا ، بل قال له : ﴿ وَقُل رَّبِّ زِدْنِي عِلْمًا ﴾ . وقال له في الدنيا : ﴿ وَلَا تَمُدَّنَّ عَيْنَيْكَ إِلَىٰ مَا مَتَّعْنَا بِهِۦٓ أَزْوَٰجًا مِّنْهُمْ زَهْرَةَ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا لِنَفْتِنَهُمْ فِيهِ ۚ وَرِزْقُ رَبِّكَ خَيْرٌ وَأَبْقَىٰ(2) ﴾ [طه : ١٣١] أسأل الله تعالى أن يمن علينا وعليكم بالعلم النافع والعمل الصالح والدعوة إلى الله على بصيرة .

* * *

ثم قَالَ تَعالى : ﴿ قُلْ هَلْ يَسْتَوِى ٱلَّذِينَ يَعْلَمُونَ وَٱلَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ ۗ ﴾ [الزمر : ٩] وَقَالَ تَعَالى : ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ إِذَا قِيلَ لَكُمْ تَفَسَّحُوا۟ فِى ٱلْمَجَٰلِسِ فَٱفْسَحُوا۟ يَفْسَحِ ٱللَّهُ لَكُمْ ۖ وَإِذَا قِيلَ ٱنشُزُوا۟ فَٱنشُزُوا۟ يَرْفَعِ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مِنكُمْ وَٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْعِلْمَ دَرَجَٰتٍ ۚ ﴾ [المجادلة : ١١] .

الشرح

سبق لنا شيء من الكلام على العلم وبيان أن العلم الممدوح الذي فيه الثواب هو العلم في شريعة الله عَزَّوَجَلَّ ، وما كان وسيلة لذلك كعلم النحو والصرف وما إليهما ، فإنه وسيلة ، وقد قال العلماء : إن

---

(١) أخرجه مسلم في الوصية (١٤) ، أبو داود في السنن (٢٨٨٠) ، والترمذي في السنن (١٣٧٦) ، والنسائي في السنن (٦/٢٥١) .

(٢) قوله : ﴿ زَهْرَةَ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا ﴾ أي : زينتها وبهجتها . قوله : ﴿ لِنَفْتِنَهُمْ ﴾ أي لنختبرهم .

للوسائل أحكام المقاصد ، والعلم الشرعي ينقسم إلى قسمين : قسم فرض عين يجب على كل إنسان أن يتعلمه ، وقسم آخر فرض كفاية إذا قام به من يكفي سقط عن بقية الناس ، وقسم ثالث يتفرع عن الثاني سنة ؛ وهو إذا ما قام بالعلم من يكفي فيكون للباقين سنة . أما العلم الفرض العين الذي يجب على كل إنسان : فهو أن يتعلم الإنسان ما يحتاج إليه في أمور دينه الواجبة ، كأن يتعلم ما يتعلق بتوحيد الله وبيان ما ينافيه ويناقضه من الشرك كلّه جَلِّيه وخفيه صغيره وكبيره ؛ لأن هذا مفروض على كل أحد ؛ لأن كل إنسان يجب عليه أن يعرف توحيد الله ويوحد الله تعالى بما يختص به جل وعلا ، كذلك أيضًا الصلاة ، الصلاة مفروضة على كل أحد لا تسقط عن المسلم أبدًا ما دام عقله ثابتًا ، فلابد أن يتعلمها ، ويتعلم ما يلزم لها من طهارة وغيرها حتى يعبد الله على بصيرة . الزكاة لا يجب تعلمها على كل أحد ، من عنده مال وجب عليه أن يتعلم ما هو المال الزكوي ؟ وما مقدار النصاب ؟ وما مقدار الواجب ؟ ومن الذي تؤتى إليه الزكاة ؟ وما أشبه ذلك . لكن لا يجب على كل واحد أن يتعلم الزكاة ، فإذا كان فقيرًا فلماذا نوجب عليه أن يتعلم أحكام الزكاة وهو ليس عنده مال ؟ الصوم يجب تعلمه على كل أحد ، يجب أن يتعلم الإنسان ماذا يصوم عنه ؟ وما هي المفطرات ؟ وما هي نواقض الصوم ؟ وما هي منقصاته ؟ وما أشبه ذلك . كل إنسان يصوم يجب عليه أن يتعلم ذلك . الحج لا يجب على كل أحد أن يتعلمه وإنما يجب أن يتعلمه من استطاع إليه سبيلًا حتى يحج على بصيرة .

ومع الأسف أن كثيرًا من الناس لا يتعلمون ما يجب عليهم من أحكام دينهم فيقعون في المتاعب ، ولا سيما في الحج وما أكثر الذين يسألون عن الحج ، وتجدهم قد وقعوا في خلل كبير ؛ لأنهم لم يتعلموا قبل أن يعملوا ، البيع مثلًا : أحكام البيع لا يجب على كل إنسان أن يتعلم أحكام البيع ، لكن من أراد أن يتَّجر ويبيع ويشتري لابد أن يتعلم ما هو البيع الممنوع ؟ وما هو البيع المشروع ؟ حتى يكون على بصيرة من أمره . وهلم جرًّا .

فتبين الآن أن العلم الشرعي ينقسم إلى قسمين : الأول فرض عين ، والثاني فرض كفاية . وفرض الكفاية يستحب لمن زاد على من تقوم به الكفاية أن يتعلم ليحفظ شريعة الله ويهدي اللَّهُ به عبادَه وينتفع الناس به .

ولا شيء أشرف من العلم ، ويدل لهذا قول الله تبارك وتعالى لنبيه ﷺ : ﴿ وَلَا تَعْجَلْ بِالْقُرْءَانِ مِن قَبْلِ أَن يُقْضَىٰٓ إِلَيْكَ وَحْيُهُۥ وَقُل رَّبِّ زِدْنِى عِلْمًا ﴾ ربنا ﷻ يقول للرسول ﴿ وَقُل رَّبِّ زِدْنِى عِلْمًا ﴾ الرسول - عليه الصلاة والسلام - محتاج إلى زيادة العلم ، فدل ذلك على فضيلة العلم ؛ لأنه لم يقل له وقل رب زدني مالا ، زدني زوجات ، زدني أولادًا بل قال له : ﴿ وَلَا تَمُدَّنَّ عَيْنَيْكَ إِلَىٰ مَا مَتَّعْنَا بِهِۦٓ أَزْوَٰجًا مِّنْهُمْ زَهْرَةَ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا لِنَفْتِنَهُمْ فِيهِ وَرِزْقُ رَبِّكَ خَيْرٌ وَأَبْقَىٰ ﴾ ومما يدل على فضل العلم قول الله تبارك وتعالى : ﴿ قُلْ هَلْ يَسْتَوِى ٱلَّذِينَ يَعْلَمُونَ وَٱلَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ ﴾ بين كل الناس ، قول عام ﴿ هَلْ يَسْتَوِى ٱلَّذِينَ يَعْلَمُونَ وَٱلَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ ﴾ ، والجواب مفهوم ، أنه لا يستوي الذين يعلمون والذين لا يعلمون وهذا أمر منتفٍ بمقتضى طبيعة الإنسان وفطرته أنه لا يستوي الإنسان الذي يعلم والذي لا يعلم ، لكن الله ﷻ ذكره على

صيغة الاستفهام ليكون متضمنًا للتحدي ، ليكون هذا النفي متضمنًا للتحدي ، يعني هات لي أحد يقول إنه يستوي الذين يعلمون والذين لا يعلمون ، لا أحد يقول بذلك . ولا يمكن أن يستوي الذين يعلمون والذين لا يعلمون أبدًا حتى في أمور الدنيا لا يستوي الذين يعلمون والذين لا يعلمون .

وقال اللَّه تعالى : ﴿ يَرْفَعِ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا مِنكُمْ وَالَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ دَرَجَاتٍ ﴾ هذا أيضًا يدل على فضيلة العلم ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا قِيلَ لَكُمْ تَفَسَّحُوا فِي الْمَجَالِسِ فَافْسَحُوا يَفْسَحِ اللَّهُ لَكُمْ وَإِذَا قِيلَ انشُزُوا ﴾ يعني قوموا وارتفعوا ﴿ فَانشُزُوا يَرْفَعِ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا مِنكُمْ وَالَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ دَرَجَاتٍ ﴾ [المجادلة : ١١] . فإذا دخل إنسان والمجلس مليء بالجالسين ، وقال : تفسحوا ، فليفسحوا له ﴿ يَفْسَحِ اللَّهُ لَكُمْ ﴾ يعني يوسع لكم الأمور ؛ لأنكم وسعتم على هذا الداخل فيوسع اللَّه عليكم ؛ لأن الجزاء من جنس العمل ، فمن عامل أخاه بشيء عامله اللَّه تعالى بمثله ، إن أيسرت على معسر يسر اللَّه عليك ، إن فرجت عن مؤمن كربة فرج اللَّه عنك كربة من كرب يوم القيامة ، إن أعنت أحدًا كان اللَّه في عونك « واللَّه في عون العبد ما كان العبد في عون أخيه » (١) ولهذا قال : ﴿ فَافْسَحُوا يَفْسَحِ اللَّهُ لَكُمْ وَإِذَا قِيلَ انشُزُوا فَانشُزُوا ﴾ يعني إذا قيل لكم قوموا فقوموا ، وفي هذا : دليل على أنه لا حرج على الإنسان أن يقول للجماعة الذين عنده انشزوا ، اخرجوا بارك اللَّه فيكم ، انتهى شغلكم ، ولا حياء في ذلك . لا حياء في ذلك ولا غضاضة على الإنسان ، حتى الجلوس لا ينبغي لهم أن يكونوا ثقلاء ، لا يقومون إلا إذا قيل قوموا ، ينبغي للإنسان أن يخفف الجلوس عند الناس ؛ ما استطاع ، إلا إذا علم من صاحبه أنه يحب أن تبقى عنده فلا بأس ، وإلا فالأصل ألا تطيل الجلوس عند الناس ؛ لأن الناس قد يكون لهم شغل ، ويستحيون أن يقولوا قم ، لكن من قال :قم ، فلا حرج عليهم . حتى إن اللَّه عَجَلَل ، قال لجلساء نبيه الذين يجلسون عنده بعد أن ينتهوا من الطعام قال لهم ﷺ : ﴿ إِنَّ ذَلِكُمْ كَانَ يُؤْذِي النَّبِيَّ فَيَسْتَحْيِي مِنكُمْ وَاللَّهُ لَا يَسْتَحْيِي مِنَ الْحَقِّ ﴾ [الأحزاب : ٥٣] يعني معناه إذا انتهيتم من الطعام فاخرجوا لا تجلسوا ؛ فإن ذلك يؤذي النبي فيستحيي منكم واللَّه لا يستحيي من الحق فإذا قيل : ﴿ انشُزُوا فَانشُزُوا ﴾ ومثل ذلك أيضًا : إذا استأذن عليك أحد في البيت ففتحت له وقلت : ارجع ، ما في جلوس الآن ، فلا حرج عليك ، كما قال تعالى : ﴿ وَإِن قِيلَ لَكُمُ ارْجِعُوا فَارْجِعُوا هُوَ أَزْكَى لَكُمْ ﴾ [النور : ٢٨] بعض الناس إذا أرجعته من عند الباب يغضب ، واللَّه يقول : ﴿ هُوَ أَزْكَى لَكُمْ ﴾ أحسن إن ترجعوا يعطيكم اللَّه زكاءً ، يزكيكم عَجَلَل ، قال : ﴿ يَرْفَعِ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا مِنكُمْ وَالَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ دَرَجَاتٍ ﴾ ولم يعين عَجَلَل الدرجات ؛ لأن هذه الدرجات بحسب ما مع الإنسان من الإيمان والعلم ، كلما قوي الإيمان وكلما كثر العلم وانتفع الإنسان به ونفع غيره كان أكثرَ درجات ، فهلمّ فأكثر ، قَوِّ إيمانك ، أكثر من طلب العلم ما استطعت ، فإن اللَّه تعالى : ﴿ يَرْفَعِ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا مِنكُمْ وَالَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ دَرَجَاتٍ ﴾ رفعني اللَّه وإياكم بذكره وأعاننا على ذكره وشكره وحسن عبادته .

* * *

وقالَ تَعالى : ﴿ إِنَّمَا يَخْشَى اللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ الْعُلَمَاءُ ﴾ [فاطر : ٢٨] .

---

(١) أخرجه مسلم في الذكر والدعاء (٣٧ ، ٣٨) ، وأحمد في مسنده (٢/٢٥٢) .

١٣٧٦ - وَعَنْ مُعَاوِيَةَ ﷺ قَالَ : قَالَ رسول اللَّه ﷺ : « مَنْ يُرِدِ اللَّهُ بِهِ خَيْرًا يُفَقِّهْهُ فِي الدِّينِ »[1] متفقٌ عليه .

الشرح

ساق الإمام النووي رحمه الله ما يتعلق - أو بعض ما يتعلق - من كتاب اللَّه عز وجل في فضل العلم . وسبق الكلام على آيات ثلاث مما ذكره في باب فصل العلم تعلمًا وتعليمًا لله .

أما الآية الرابعة فيه فهي قوله تعالى : ﴿ إِنَّمَا يَخْشَى ٱللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ ٱلْعُلَمَٰٓؤُاْ ﴾ والخشية : هي الخوف المقرون بالتعظيم ، فهي أخص من الخوف ، فكل خشية خوف ، وليس كل خوف خشية ؛ ولهذا يخاف الإنسان من الأسد ولكنه لا يخشاه ، أما اللَّه عز وجل فإن الإنسان يخاف منه ويخشاه ، قال اللَّه تعالى : ﴿ فَلَا تَخْشَوُاْ ٱلنَّاسَ وَٱخْشَوْنِ ﴾ [المائدة : ٤٤] ولكن من هم أهل الخشية حقًّا ؟؟ أهل الخشية حقًّا هم العلماء ، العلماء باللَّه وأسمائه وصفاته وأفعاله وأحكامه الذين يعرفون ما لله عز وجل من الحكم والأسرار في مقدوراته ومشروعاته جل وعلا - وأنه سبحانه وتعالى كامل من كل الوجوه ليس في أفعاله نقص ، ولا في أحكامه نقص فلهذا يخشون اللَّه عز وجل ، وفي هذا : دليل على فضيلة العلم وأنه من أسباب خشية اللَّه ، والإنسان إذا وفق للخشية عصم من الذنوب وإن أذنب استغفر وتاب إلى اللَّه عز وجل ؛ لأنه يخشى اللَّه ، يخافه ، يعظمه ، ثم ذكر الأحاديث وصدرها بحديث معاوية بن أبي سفيان ﷺ أن النبي ﷺ قال : « من يرد اللَّه به خيرًا يفقه في الدين » واللَّه جل وعلا يريد في خلقه ما يشاء من خير وشر ، لكن إراداته خير وأما مراداته ففيها الخير والشر ، كل قضائه خير وأما مَقضِياته ففيها الخير والشر ، والناس أوعية منهم من يعلم اللَّهُ تعالى في قلبه خيرًا فيوفقه ، ومنهم من يعلم اللَّهُ في قلبه شرًّا فيخذله والعياذ باللَّه ، قال اللَّه تعالى : ﴿ فَلَمَّا زَاغُوٓاْ أَزَاغَ ٱللَّهُ قُلُوبَهُمْ ﴾ [الصف : ٥] لم يزغ قلوبهم إلا حين زاغوا هم أولًا وأرادوا الشر لم يوفقوا لخير . أما من علم اللَّه في قلبه خيرًا فإن اللَّه يوفقه ، فإذا علم اللَّه في قلب الإنسان خيرًا أراد به الخير ، وإذا أراد به الخير فقهه في دنيه ، وأعطاه من العلم بشريعته ما لم يعط أحدًا من الناس وهذا يدل على أن الإنسان ينبغي له أن يحرص غاية الحرص على الفقه في الدين ؛ لأن اللَّه تعالى إذا أراد شيئًا هيأ أسبابه ، ومن أسباب الفقه : أن تتعلم ، وأن تحرص لتنال هذه المرتبة العظيمة ، أن اللَّه يريد بك الخير ، فاحرص على الفقه في دين اللَّه ، والفقه في الدين ليس هو العلم فقط ، بل العلم والعمل ولهذا حذر السلف من كثرة القُرَّاء وقلة الفقهاء ، فقال عبد اللَّه بن مسعود ﷺ : (كيف بكم إذا كثر قراؤكم وقل فقهاؤكم)[2] فإذا علم الإنسان بشيء من شريعته اللَّه ولكن لم يعمل بها فليس بفقيه ، حتى لو كان يحفظ أكبر كتاب في الفقه عن ظهر قلب ويفهمه لكن لم يعمل به ، فإن هذا لا يسمى فقيهًا ، يسمى قارئًا ، لكن ليس بفقيه ، الفقيه هو الذي يعمل بما علم ، فيعلم أولًا ، ثم يعمل ثانيًا ، هذا هو

---

(١) أخرجه البخاري في العلم (٧١) ، ومسلم في الزكاة (٩٨) ، وأحمد في مسنده (٣٠٦/١) ، وابن ماجه في المقدمة (٢٢٠ ، ٢٢١) .

(٢) أخرجه الدارمي في المقدمة (٢٢) حديث (١٩٠ ، ١٩١) بنحوه .

الذي فُقه في الدين ، وأما من علم ولم يعمل فليس بفقيه ، بل يسمى قارئًا ولا يسمى فقيهًا ، ولهذا قال قوم شعيب لشعيب : ﴿ مَا نَفْقَهُ كَثِيرًا مِّمَّا تَقُولُ ﴾ [هود: ٩١] ؛ لأنهم حرموا الخير لعلم الله ما في قلوبهم من الشر . فاحرص على العلم ، واحرص على العمل به ؛ لتكون ممن أراد الله به خيرًا ، أسأل الله تعالى أن يجعلني وإياكم من هؤلاء الذين فقهوا في دين الله وعملوا وعلَّموا ونفعوا وانتفعوا به .

١٣٧٧ - وَعَنِ ابن مَسْعُودٍ ﷺ قَالَ : قَالَ رسول اللَّه ﷺ : « لا حَسَدَ إلا في اثْنَتَيـنِ : رَجُلٌ آتاهُ اللَّهُ مَالًا فَسَلَّطَهُ عَلى هَلَكَتِهِ في الحَقِّ ، وَرجُلٌ آتاهُ اللَّه الحِكْمَةَ فَهُوَ يَقْضِي بِهَا ، وَيُعَلِّمُهَا »[1] متفقٌ عليه . والمرادُ بالحَسَدِ : الغِبْطَةُ ، وَهُوَ أَنْ يَتَمَنَّى مِثْلَهُ .

* * *

الشرح

ذكر الإمام النووي رَحِمَهُ اللَّهُ في باب فضل العلم .

حديث ابن مسعود ﷺ ، أن النبي ﷺ قال : « لا حسد إلا في اثنتين » . الحسد يطلق ويراد به الحسد المحرم الذي هو من كبائر الذنوب ، وهو أن يكره الإنسان ما أنعم اللَّه به على غيره . هذا الحسد أن تكره ما أنعم اللَّه به على غيرك ، تجد إنسانًا عنده مال فتكره ، تقول : ليت اللَّه ما رزقه ، عنده علم ، تكره ذلك وتتمنى أن اللَّه لم يرزقه العلم ، عنده أولاد صالحون ، تكره ذلك وتتمنى أن اللَّه لم يرزقه ، وهلم جرًّا ، هذا النوع من الحسد من كبائر الذنوب . وهو من خصال اليهود كما قال اللَّه تعالى عنهم : ﴿أَمْ يَحْسُدُونَ ٱلنَّاسَ عَلَىٰ مَآ ءَاتَىٰهُمُ ٱللَّهُ مِن فَضْلِهِۦ﴾ [النساء : ٥٤] وقال عنهم : ﴿وَدَّ كَثِيرٌ مِّنْ أَهْلِ ٱلْكِتَـٰبِ لَوْ يَرُدُّونَكُم مِّنۢ بَعْدِ إِيمَـٰنِكُمْ كُفَّارًا حَسَدًا مِّنْ عِندِ أَنفُسِهِم مِّنۢ بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُمُ ٱلْحَقُّ﴾ [البقرة : ١٠٩] .

أما النوع الثاني من الحسد فهو حسد الغبطة : يعني الذي تغبط به غيرك أن أنعم اللَّه عليه بمال أو علم أو ولد أو جاه أو غير ذلك ، الناس يغبط بعضهم بعضًا على ما آتاهم اللَّه من النعم ، يقول : ما شاء اللَّه فلان أعطاه اللَّه كذا ، فلان أعطاه اللَّه كذا ، لكن لا غبطة إلا في شيئين ، الغبطة الحقيقية التي يغبط عليها الإنسان شيئان : الأول : العلم ، والمقصود به العلم النافع وهو المراد بقوله : « رجل آتاه اللَّه الحكمة فهو يقضي بها ويعلمها » هذا العلم ، إذا مَنَّ اللَّه على إنسان بعلم فصار يقضي به بين الناس سواء كان قاضيًا أو غير قاضٍ ، وكذلك يقضي به في نفسه وعلى نفسه ، ويعلم الناس ، فهذا هو الغبطة ، لأن العلم هو أنفع شيء ، أنفع من المال ، أنفع للإنسان من الأعمال الصالحة العلم ، لأنه إذا مات وانتفع الناس بعلمه جرى ذلك عليه إلى يوم القيامة ، كُلَّما انتفع به أي إنسان من الناس فله أجر ، العلم كلما أنفقت منه وعلمته ازداد ، ولهذا من أقوى ما يُثبت العلم ، ويُبقي حفظه : أن يعلمه الإنسان غيره ؛ لأن اللَّه في عون العبد ما كان العبد في عون أخيه ، فإذا علمت غيرك ؛ علمك اللَّه ، وإذا علمت غيرك ؛ ثبت العلم في نفسك ، لكن لا تتقدم للتعليم إلا وأنت أهل له حتى ينفع اللَّه بك ،

---

(١) أخرجه البخاري في العلم (٧٣) ، ومسلم في صلاة المسافرين وقصرها (٨١٦) ، وابن ماجه في الزهد (٤٢٠٨) .

وحتى لا تفشل أمام الناس ، لأن الذي يتقدم للتعليم وليس أهلًا له بين أمرين : إما أن يقول بالباطل وهو لا يشعر ، وإما أن يفشل وإذا سُئل عجز عن الإجابة مثلًا . فهذا العلم كُلَّمَا أنفقت منه ازداد ، أيضًا العلم لا يحتاج إلى تعب ، إلا في تعلمه ، لا يحتاج مثلًا إلى خزائن كالمال ، المال يحتاج إلى خزائن ، وإلى محاسبين ، وإلى حسابات ، وإلى تعب ، لكن العلم لا يحتاج إلى هذا ، خزينته قلبك ، هذه الخزينة ، وهي معك أينما كنت ، فلا تخشى عليه ، لا تخشى أن يسرق ولا أن يحرق ؛ لأنه في قلبك . فالمهم أن العلم هو أفضل نعمة أنعم اللَّه بها على الإنسان بعد الإسلام والإيمان ، ولهذا قال : « رجل آتاه اللَّه الحكمة فهو يقضي بها ويعلمها » . أما الثاني : « فهو رجل آتاه اللَّه مالًا فسلطه على هلكته في الحق » ، يعني صار يبذل ماله فيما يُرضي اللَّه ﷻ ، لا يبذله في حرام ولا يبذله في لغوٍ وإنما يبذله فيما يرضي اللَّه ، سلطه اللَّه على هلكته يعني على إنفاقه في الحق ، هذا أيضًا ممن يُغبط ، نحن لا نغبط من عنده مال عظيم لكنه بخيل لا ينفع المال لا نغبطه بعد ، بل هذا نتألم له ونقول : هذا المسكين كيف يستطيع الجواب على حساب يوم القيامة على هذا المال ، من أين اكتسبه ، وفيمَ أنفقه ، وكيف تصرف فيه ؟ لكن إذا رأينا رجلًا آتاه اللَّه مالًا وصار ينفقه فيما يرضي اللَّه ، نقول : ما شاء اللَّه ! هذا يُغبط . لا نغبط إنسانًا آتاه اللَّه مالًا فسلطه على هلكته في القصور والديكورات والسيارات الفخمة نحن لا نغبطه على هذا . بل نقول : هذا مسرف ؛ إذا كان تجاوز الحد فيما ينفق ، نقول : هذا مسرف ، واللَّه لا يحب المسرفين .

كذلك لا نغبط شخصًا عنده مال فصار ينفق منه جوائز في أشياء لا ينتفع الناس بها لا في دينهم ولا في دنياهم ، فإن بعض الناس يعطي جوائز على ألعاب وأشياء من الأمور التي ليس بها خير لا في الدنيا ولا في الآخرة ، هذا لا نغبطه ؛ لأنه لم يُسلط على هلكة ماله في الحق . إنما الذي يغبط من سلطه اللَّه على هلكة ماله في الحق . أيضًا لا نحسد إنسانًا آتاه اللَّه مالًا فصار كلّما عنَّ له أن يتزوج تزوج ، وجمع عنده من النساء الحسان ما لا يجمعه غيره ، هذا لا نغبطه أيضًا . إلا إذا كان سلطه اللَّه على هلكته في الحق ، وأراد بذلك تحصين فرجه وتحصيل السنة ، وكثرة النسل ، هذا مقصود شرعي يغبط عليه الإنسان .

الشاهد في هذا الحديث : في باب فضل العلم هو الجزء الأول منه : من آتاه اللَّه الحكمة ، يعني العلم ، فقضى بها وعلمها . وهذا خير الرجلين ، يعني خير من صاحب المال الذي سلط على هلكته في الحق . نسأل اللَّه أن يرزقنا وإياكم العلم النافع والعمل الصالح .

* * *

١٣٧٨ - وَعَنْ أَبِي مُوسَى ﵁ قَالَ : قَالَ النَّبِيُّ ﷺ : « مَثَلُ مَا بَعَثَنِي اللَّهُ بِهِ مِنَ الهُدَى وَالعِلْمِ كَمَثَلِ غَيْثٍ أَصَابَ أَرْضًا ، فَكَانَتْ مِنْهَا طَائِفَةٌ طَيِّبَةٌ قَبِلَتِ المَاءَ ؛ فَأَنْبَتَتِ الكَلأَ ، وَالعُشْبَ الكَثِيرَ ، وَكَانَ مِنْهَا أَجَادِبُ ؛ أَمْسَكَتِ المَاءَ ، فَنَفَعَ اللَّهُ بِهَا النَّاسَ ، فَشَرِبُوا مِنْهَا وَسَقَوا وَزَرَعُوا ، وَأَصَابَ طَائِفَةً مِنْهَا أُخْرَى ؛ إِنَّمَا هِيَ قِيعَانٌ لا تُمْسِكُ مَاءً ، وَلا تُنْبِتُ كَلأً ، فَذلِكَ مَثَلُ مَنْ فَقُهَ فِي دِينِ اللَّهِ ، وَنَفَعَهُ ما

بَعَثَنِي اللَّهُ بِهِ ، فَعَلِمَ وَعَلَّمَ ، وَمَثَلُ مَنْ لَمْ يَرْفَعْ بِذلكَ رَأْسًا ، وَلَمْ يَقْبَلْ هُدَى اللَّهِ الَّذِي أُرْسِلْتُ بِهِ » (١) متفقٌ عليه .

الشرح

في هذا الحديث الذي ساقه النووي رَحِمَهُ اللهُ رواه أبو موسى عن النبي ﷺ في هذا مثل بديع عجيب ، فقد مثل النبي ﷺ ما بعثه الله به من العلم والهدى بغيث - يعني بمطر - ووجه الشبه أن بالغيث تحيي الأرض وبالوحي تحيي القلوب . ولهذا سَمَّى اللَّه سبحانه وتعالى ما بعث به محمدًا ﷺ سماه روحًا ، فقال تعالى : ﴿ وَكَذَٰلِكَ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ رُوحًا مِّنْ أَمْرِنَا ۚ مَا كُنتَ تَدْرِى مَا ٱلْكِتَٰبُ وَلَا ٱلْإِيمَٰنُ وَلَٰكِن جَعَلْنَٰهُ نُورًا نَّهْدِى بِهِۦ مَن نَّشَآءُ مِنْ عِبَادِنَا ۚ وَإِنَّكَ لَتَهْدِىٓ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴿٥٢﴾ صِرَٰطِ ٱللَّهِ ٱلَّذِى لَهُۥ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ ۗ أَلَآ إِلَى ٱللَّهِ تَصِيرُ ٱلْأُمُورُ ﴾ (٢) [الشورى : ٥٢، ٥٣] فالوحي غيث ، لكنه كما مثل الرسول ﷺ نزل على الأرض فصارت الأرض ثلاثة أقسام : قسم قَبِل المطر وشرب وأنبت العشب الكثير والكلأ فانتفع الناس بذلك ؛ لأن الأرض أنبتت ، والقسم الثاني : قيعان لا تنبت لكن أمسكت الماء لم تشربه فسقى الناس منه وارتووا وزرعوا ، القسم الثالث : أرض قيعان بلعت الماء ولم تنبت ، سباخ ، سبخة تبلع الماء ، ولكنها لا تنبت ، فهذا مَثَلُ من فقِه في دين اللَّه فَعلِم وعَلَّم ، ومثل من لم يرفع به رأسه . الصورة الأولى والثانية للمثل فيمن قبل الحق فعلم وتعلم ونفع وانتفع ، لكن الذين قبلوا الحق صاروا قسمين ، قسم آتاه اللَّه تعالى فقهًا فصار يأخذ الفقه والأحكام الشرعية من كتاب اللَّه وسنة رسول اللَّه ﷺ ولا يُعَلم .

والثاني : راوية ولكنه ليس عنده ذلك الفقه يعني يحكى الحديث ، يرويه يحفظه ، ولكنه ليس عنده فقه ، وهذا كثير أيضًا ، ما أكثر رجال الحديث الذين رووا الحديث لكنهم ليس عندهم فقه ، ما هم إلا أوعية يأخذ الناس منهم ، ولكن الذي يوزع هذا الماء وينفع الناس به هم الفقهاء . هذان قسمان : قسم حفظ الشريعة ووعاها وفهمها وعلمها واستنبط منها الأحكام الكثيرة هؤلاء مثل الأرض التي قبلت الماء وأنبتت الكلأ والعشب الكثير ، قسم آخر نقلة فقط ينقلون ، ينقلون الأحاديث لكنهم لا يحفظونها كثيرًا ، هؤلاء كالأرض التي أمسكت الماء فانتفع الناس به وارتووا منه ؛ لأن الناس يأخذون من هؤلاء الرواة للحديث ، ثم يستنبطون منه الأحكام وينفعون الناس بها .

القسم الثالث : أرض لم تنتفع بالغيث ، قيعان لا تمسك الماء ولا تنبت الكلأ هؤلاء ما فيهم خير ، لم ينتفعوا بوحي اللَّه ولم يرفعوا به رأسًا ، والعياذ باللَّه ، يكذبون بالخبر ويستكبرون عن الأمر ، فهؤلاء هم شر الأقسام . نسأل اللَّه العافية . فأنت انظر في نفسك من أي الأرضين الثلاث أنت ؟ هل أنت من الأرض التي قبلت الماء وأنبتت العشب والكلأ ؟ أو من الأرض الثانية ، أو من الأرض الثالثة ؟ والعياذ باللَّه .

---

(١) أخرجه البخاري في العلم (٧٩) ، ومسلم في الفضائل (١٥) . قوله : « أجادب » هي الأرض التي لا تنبت كلأ . وقيل : هي الأرض التي تمسك الماء فلا يسرع فيه النضوب ، قوله : « قيعان » هي الأرض الملساء التي لا نبات فيها .

(٢) قوله : ﴿ رُوحًا ﴾ أي القرآن . قوله : ﴿ مَا ٱلْكِتَٰبُ ﴾ أي شرائعه ومعالمه وتفاصيله . وقوله : ﴿ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴾ أي دين قويم .

وفي الحديث : حسن تعليم الرسول ﷺ حيث يضرب الأمثال بالمعاني المعقولة بأشياء محسوسة ؛ لأن إدراك المحسوس أقرب من إدراك المعقول ، وما أكثر الأمثال في القرآن ﴿ مَّثَلُ ٱلَّذِينَ يُنفِقُونَ أَمْوَٰلَهُمْ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ كَمَثَلِ حَبَّةٍ ﴾ [البقرة : ٢٦١] هذا مثل لو جاء الكلام هكذا : من أنفق في سبيل الله حبة فله سبعمائة حبة ، لم يرسخ في الذهن كرسوخ المثل ، فالمثل الذي يستحضره الإنسان يرسخ قال الله تعالى : ﴿ وَتِلْكَ ٱلْأَمْثَٰلُ نَضْرِبُهَا لِلنَّاسِ وَمَا يَعْقِلُهَآ إِلَّا ٱلْعَٰلِمُونَ ﴾ [العنكبوت : ٤٣] فضرب الأمثال تقريب للعلم وترسيخ له وإعانة على الفهم ، لهذا ينبغي لك إذا حدثت عاميًّا ، ولم يفهم أن تضرب له مثلًا ، اضرب له المثل بشيء يعقله ويعرفه حتى يعرف المعاني المعقولة بواسطة الأشياء المحسوسة . والله الموفق .

* * *

١٣٧٩ - وَعَن سَهْلِ بنِ سَعْدٍ ﷺ أنَّ النَّبيَّ ﷺ قَالَ لِعَليٍّ ﷺ : «فواللَّهِ لأَنْ يَهْدِيَ اللَّهُ بِكَ رَجُلًا وَاحِدًا خَيرٌ لكَ مِن حُمْرِ النَّعَمِ »[1] متفقٌ عليه .

١٣٨٠ - وَعَنْ عَبْدِ اللَّهِ بن عمرو بنِ العاصِ ﷺ أَنَّ النَّبيَّ ﷺ قَالَ : «بَلِّغُوا عَنِّي وَلَو آيَةً ، وَحَدِّثُوا عَنْ بَنِي إِسْرَائِيلَ وَلا حَرَجَ ، وَمَنْ كَذَبَ عَلَيَّ مُتَعَمِّدًا ؛ فَلْيَتَبَوَّأْ مَقْعَدَهُ مِنَ النَّارِ »[2] رواه البخاري .

الشرح

ساق الإمام النووي في كتابه رياض الصالحين أحاديث في بيان فضل العلم ، ومنها حديث سهل بن سعد ﷺ أن النبي ﷺ قال لعلي بن أبي طالب حين أعطاه الراية يوم خيبر قال : « امض على رسلك ثم ادعهم إلى الإسلام وأخبرهم بما يجب عليهم من حق الله فيه فوالله لئن يهدي بك الله رجلًا واحدًا خير لك من حمر النعم » أقسم ﷺ أن الله لو هدي به رجلًا واحدًا لكان خيرًا له من حُمْر النعم . (والحمر) بسكون الميم جمع حمراء ، وأما (الحمُر) بضم الميم فهي جمع حمار ، ولهذا يخطئ بعض الطلبة فيقول : خير لك من حُمُر هذا غلط ، لأن الحمُر جمع حمار ، كما قال الله تعالى : ﴿كَأَنَّهُمْ حُمُرٌ مُّسْتَنفِرَةٌ ﴾ [المدثر : ٥٠] أما حُمْر بسكون الميم فهي جمع حمراء وكذلك جمع أحمر ، لكن هنا جمع حمراء ، وهي الناقة الحمراء ، وكانت أعجب المال إلى العرب في ذلك الزمان ، وأحبَ المال إلى العرب في ذلك الزمن ، فإذا هدى الله بك رجلًا واحدًا كان ذلك خيرًا لك من حُمْرِ النعم . ففي هذا حث على العلم وعلى التعليم وعلى الدعوة إلى الله ﷻ ؛ لأنه لا يمكن أن يدعو الإنسان إلى الله إلا وهو يعلم ، فإذا كان يعلم ما يعلم من شريعة الله ودعا إلى ذلك كان هذا دليلًا على فضل العلم .

---

(١) أخرجه البخاري في المغازي (٤٢١٠)، ومسلم في فضائل الصحابة (٣٤).

(٢) أخرجه البخاري في أحاديث الأنبياء (٣٤٦١)، وأحمد في مسنده (٢/١٥٩)، والدارمي في السنن (١/١٣٦).

ثم ذكر حديث عبد الله بن عمرو بن العاص ﷺ وعن أبيه أن النبي ﷺ قال : « بلغوا عني ولو آية » بلغوا عني : يعني بلغوا الناس بما أقول وبما أفعل وبجميع سنته - عليه الصلاة والسلام - « بلغوا عني ولو آية » من كتاب الله . ولو هنا للتقليل ، يعني لا يقلْ الإنسان أنا لا أبلغ إلا إذا كنت عالمًا كبيرًا ، لا ، إنما يبلغ الإنسان ولو آية بشرط أن يكون قد علمها وأنها من كلام الرسول ﷺ ولهذا قال في آخر الحديث : « ومن كذب علي متعمدًا فليتبوأ مقعده من النار » من كذب على الرسول متعمدًا يعلم أنه كاذب ، فليتبوأ مقعده من النار ، هنا اللام للأمر لكن المراد بالأمر هنا الخبر ، يعني فقد تبوأ مقعده من النار - والعياذ بالله - أي : فقد استحق أن يكون من ساكني النار ، لأن الكذب على الرسول ليس كالكذب على واحد من الناس ، الكذب على الرسول كذب على الله ﷻ ، ثم هو كذب على الشريعة لأن ما يخبر به الرسول ﷺ من الوحي هو من شريعة الله وكذلك يقال : الكذب على العالم ليس كالكذب على عامة الناس . يعني مثلًا تقول : فلان كذا وكذا ، قال : هذا حرام هذا حلال ، هذا واجب ، هذا سنة - وأنت تكذب - هذا أيضًا أشد من الكذب على عامة الناس ؛ لأن العلماء ورثة الأنبياء يبلغون شريعة الله إرثًا لرسول الله ﷺ ، فإذا كذبت عليهم ، إذ قلت قال العالم فلان : كذا وكذا - وأنت تكذب - فهذا إثمه عظيم ، نسأل الله العافية ، بعض الناس - والعياذ بالله - إذا اشتهى شيئًا يكف الناس عنه ، قال : قال العالم فلان : هذا حرام ، هو يكذب ، لكن يعرف أن الناس إذا نسب العلم إلى فلان قبلوه ، فيكذب ، وهذا أشد من الكذب على عامة الناس .

فالحاصل : أن من كذب على الرسول ﷺ متعمدًا فليتبوأ مقعده من النار ، ومن نقل عمدًا حديثًا كذبًا يعلم أنه كذب فهو أحد الكذابين ، يعني فليتبوأ مقعده من النار .

وما أكثر ما ينشر من النشرات التي بها الترغيب أو الترهيب وهي مكذوبة على الرسول ﷺ لكن بعض المجتهدين الجهال ينشرون هذه النشرات ويوزعونها بكمية كبيرة يقولون : نعظ الناس بهذا ، كيف تعظونهم بشيء كذب ؟؟ ولهذا يجب الحذر من هذه المنشورات التي تنشر في المساجد أو تعلق على الأبواب ، أبواب المساجد أو غير ذلك ، يجب الحذر منها ، وربما يكون فيها أشياء مكذوبة فيكون الذي ينشرها قد تبوأ مقعده من النار إذا علم أنها كذب .

وقال في حديث عبدالله بن عمرو : « حدثوا عن بني إسرائيل ولا حرج » ، بنو إسرائيل اليهود والنصارى إذا قالوا قولًا فحدث عنهم ولا حرج عليك ، بشرط أن لا تعلم أنه مخالف للشريعة ، لأن بني إسرائيل عندهم كذب ، يحرفون الكلم عن مواضعه ويكذبون ، فإذا أخبروك بخبر فلا بأس أن تحدث به بشرط أن لا يكون مخالفًا لما جاء في شريعة الرسول ﷺ فإن كان مخالفًا له ؛ فإنه لا يجوز أن يحدث ، إلا إذا حدَّث به ليبين أنه باطل فلا حرج ، والله أعلم .

* * *

١٣٨١ - وَعَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ ﷺ أَنَّ رسول الله ﷺ قَالَ : « وَمَنْ سَلَكَ طَرِيقًا يَلْتَمِسُ فِيهِ عِلْمًا ؛

سَهَّلَ اللَّهُ لَهُ بِهِ طَرِيقًا إلى الجَنَّةِ » [١] رواه مسلم .

١٣٨٢ - وَعَنْهُ أيضًا ﷺ أنَّ رسول اللَّه ﷺ ، قَالَ : « مَنْ دَعَا إلى هُدًى ؛ كانَ لَهُ مِنَ الأجْرِ مِثْلُ أُجُورِ مَنْ تبعَهُ لا يَنْقُصُ ذلكَ مِنْ أُجُورِهِم شَيئًا » [٢] رواه مسلم .

الشرح

هذه الأحاديث في بيان فضل العلم وآثاره الحميدة ، عن أبي هريرة ﷺ أن النبي ﷺ قال : « ومن سلك طريقًا يلتمس فيه علمًا سهل اللَّه له به طريقًا إلى الجنة » سلوك الطريق يشمل الطريق الحسي الذي تقرعه الأقدام ، مثل أن يأتي الإنسان من بيته إلى مكان العلم سواء كان مكان العلم مسجدًا أو مدرسة أو كلية أو غير ذلك ، ومن ذلك أيضًا الرحلة في طلب العلم أن يرتحل الإنسان من بلده إلى بلد آخر يلتمس العلم ، فهذا سلك طريقًا يلتمس فيه علمًا . وقد رحل جابر بن عبد اللَّه الأنصاري صاحب رسول اللَّه ﷺ في حديث واحد مسيرة شهر كامل على الرواحل على الإبل ، سار من بلده إلى بلد مسيرة شهر من أجل حديث واحد رواه عبد اللَّه بن أنيس عن النبي ﷺ [٣] .

أما الثاني : فهو الطريق المعنوي ، وهو أن يلتمس العلم من أفواه العلماء ومن بطون الكتب ، فالذي يُراجِع الكتب للعثور على حكم مسألة شرعية وإن كان جالسًا على كرسيه ؛ فإنه قد سلك طريقًا يلتمس فيه علما . ومن جلس إلى شيخ يتعلم منه ؛ فإنه قد سلك طريقًا يلتمس فيه علمًا ولو كان جالسًا . فسلوك الطريق ينقسم كما سمعتم إلى قسمين : قسم : يراد به الطريق الذي تقرعه الأقدام . والثاني : يراد به الطريق الذي يتوصل به إلى العلم وإن كان جالسًا .

من سلك هذا الطريق سهل اللَّه له به طريقًا إلى الجنة ؛ لأن العلم الشرعي تعرف به حكم ما أنزل اللَّه ، تعرف به شريعة اللَّه ، تعرف به أوامر اللَّه ، تعرف به نواهي اللَّه ، فتستدل به على الطريق الذي يُرضي اللَّه ﷻ ويوصلك إلى الجنة ، وكلما ازددت حرصًا في سلوك الطرق الموصلة إلى العلم ازددت طرقًا توصلك إلى الجنة .

وفي هذا الحديث : من الترغيب في طلب العلم ما لا يخفى على أحد ، فينبغي للإنسان أن ينتهز الفرصة ، ولاِ سيما الشاب الذي يحفظ سريعًا ، ويمكث في ذهنه ما حفظه ينبغي له أن يبادر الوقت يبادر العلم قبل أن يأتيه ما يشغله عن ذلك .

أما الحديث الثاني : فهو أيضًا عن أبي هريرة أن النبي ﷺ قال : « من دعا إلى هدى فله أجر من

---

(١) أخرجه مسلم في الذكر والدعاء (٣٨) ، وأحمد في مسنده (٢/٢٥٢) . قوله : « سلك » أي سار .

(٢) أخرجه مسلم في العلم (١٦) ، والترمذي في العلم (٢٦٤٧) ، وابن ماجه في المقدمة (٢٠٦) ، وأحمد في مسنده (٢/٣٩٧) .

(٣) أخرج ذلك الإمام أحمد في مسنده (٣/٤٩٥) ، والبخاري في الأدب المفرد (٩٧٠) ، والخطيب البغدادي في الرحلة (٣١) . من طريق عبد اللَّه بن محمد عقيل ، والحاكم في المستدرك (٢/٤٣٧ ، ٤٣٨) ووافقه الذهبي .

تبعه » يعني إلى يوم القيامة ، « من دعا إلى هدى » يعني علم الناس ، فإن الداعي إلى الهدى هو الذي يعلم الناس ويبين لهم الحق ويرشدهم إليه ، فهذا له مثل أجر من فعله ، مثلًا دللت إنسانًا على أنه ينبغي له أن يوتر يجعل آخر صلاته في الليل وترًا ، كما أمر النبي ﷺ قال : « اجعلوا آخر صلاتكم في الليل وترًا » [1] وحضضت على الوتر ورغبت فيه فأوتر أحد من الناس بناء على كلامك وعلى توجيهك ، فلك مثل أجره ، لك ، عَلِمَ بذلك آخر منك أو من الذي علمته أنت فلك مثل أجره ، وإن تسلسلوا إلى يوم القيامة .

وفي هذا : دليل على كثرة أجور النبي ﷺ ؛ لأنه دل الأمة على الهدى فكل من عمل من هذه الأمة بهدي ، فللنبي ﷺ أجره من غير أن ينقص من أجورهم شيء ، الأجر تام للفاعل والداعي ، وإذا تبين أن النبي ﷺ له أجر ما عملته أمته ، تبين بذلك خطأ من يهدي ثواب العبادة للرسول ﷺ ، يعني مثلًا بعض الناس اجتهد وصار يصلي ركعتين ويقول : اللَّهم اجعل ثوابها للرسول ، يقرأ قرآنا ويقول : اللَّهم اجعل ثوابه للرسول ، هذا غلط . وأول ما حدث هذا في القرن الرابع الهجري ، يعني بعد ثلاثمائة سنة من موت الرسول ، يستحسن بعض العلماء أنه يفعل هذا ؟قال كما أهدي لأبي وأمي صدقة أو صلاة أو ذكر أهديه للرسول ﷺ نقول : هذا خطأ وغلط وسفه في التصور وضلال في الدين ، كيف ؟ نسأله ونقول : هل أنت أعظم حبًا للرسول من أبي بكر ؟ فيقول : لا . أعظم من عمر ؟ لا . أعظم من عثمان ؟ لا . أعظم من علي ؟ لا . أعظم من ابن عباس ، ابن مسعود ، الصحابة ؟ لا . هل أحد منهم أهدى للرسول عملًا صالحًا أبدًا ، وكذلك التابعون والأئمة الإمام أحمد بن حنبل ، الشافعي ، مالك ، أبو حنيفة ما فعلوا هذا ، ما الذي أطلعك على شيء لم يعلموا به أو لم يعملوا به ، من أنت ؟؟ فهو خطأ في التصور وضلال في الدين ؛ لأن أي عمل تعمله ولو كان ثوابه لك فللرسول ﷺ مثله ، وإن لم تقل شيئًا ، أي عمل لو تصلي ركعتين أجرهما لك وللرسول مثله من غير أن ينقص من أجرك شيئًا . إذًا ما الفائدة ، لا يعني إرجاعك القرب للرسول إلا أنك حرمت نفسك من الأجر فقط ، وللرسول ﷺ له مثل أجرك سواء أهديت له أو لم تهد ؛ لأنه يقول ﷺ : « من دعا إلى هدى فله أجر من اتبعه ، لا ينقص ذلك من أجورهم شيء » [2] فلا حاجة .

إذًا نأخذ من هذا الحديث فضيلة العلم ؛ لأن العلم به الدلالة على الهدى والحث على التقوى ، فالعلم أفضل بكثير من المال حتى لو تصدق بأموال عظيمة طائلة فالعلم ونشر العلم أفضل . وأضرب لكم مثلًا الآن ، في عهد أبي هريرة خلفاء ملوك ملكوا الدنيا ، وفي عهد الإمام أحمد أغنياء ملكوا أموالًا عظيمة وتصدقوا وأنفقوا ، في عهد من بعدهم كشيخ الإسلام ابن تيمية ، وابن القيم أناسٌ

---

(١) أخرجه البخاري في الوتر (٩٩٨) ، ومسلم في صلاة المسافرين (١٥١) ، وأبو داود في السنن (١٤٣٨) ، وأحمد في مسنده (٢٠/٢) .

(٢) أخرجه مسلم في العلم (١٦) ، وأحمد في مسنده (٣٩٧/٢) ، والبغوي في شرح السنة (٢٣٢/١) ، جميعهم بلفظ « كان له من الأجر مثل أجور من تبعه » .

أغنياء تصدقوا وأنفقوا وأوقفوا ، أين ذهب المال ؟ أين ذهب ما أنفقوه ؟ أين ذهب ما وقفوه ؟ راح ، لا يوجد له أثر الآن ، لكن أحاديث أبي هريرة تتلى في كل وقت ليلًا ونهارًا ويأتيه أجرها ، الأئمة أيضًا علمهم وفقههم منشور بين الأمة يأتيهم أجرهم ، وهكذا شيخ الإسلام ابن تيمية ، وابن القيم وغيرهم من العلماء ماتوا لكن ذكرهم حي باق يعلمون الناس وهم في قبورهم ، ينالهم الأجر وهم في قبورهم ، وهذا يدل على أن العلم أفضل بكثير من المال وأنفع للإنسان ، وسيأتي - إن شاء اللّه - في حديث أبي هريرة الذي ذكره المؤلف : « إذا مات ابن آدم انقطع عمله إلا من ثلاث : صدقة جارية ، أو علم ينتفع به ، أو ولد صالح يدعو له » . واللّه الموفق .

* * *

١٣٨٣ - وَعَنْهُ قَالَ : قَالَ رسول اللّه ﷺ : « إِذَا مَاتَ ابْنُ آدَمَ انْقَطَعَ عَمَلُهُ إلا مِنْ ثَلاثٍ : صَدَقَةٍ جَارِيَةٍ ، أَو عِلمٍ يُنْتَفَعُ بِهِ ، أَو وَلَدٍ صَالِحٍ يَدْعُو لَهُ » (١) رواه مسلم .

الشرح

ساق المؤلف رحمه الله فضل العلم تعلُّما وتعليمًا لله فذكر عن أبي هريرة - رضي الله عنه - أن النبي ﷺ قال : « إذا مات ابن آدم انقطع عمله إلا من ثلاث : صدقة جارية ، أو علم ينتفع به ، أو ولد صالح يدعو له » وهذا الحديث فيه الحث أعني : حث الإنسان على المبادرة بالأعمال الصالحة ؛ لأنه لا يدري متى يفاجئه الموت ، فليبادر قبل أن ينقطع العمل بالعمل الصالح الذي يزداد به رفعة عند اللّه سبحانه وتعالى وثوابًا ، ومن المعلوم أن كل واحد منا لا يعلم متى يموت ، ولا يعلم أين يموت ، كما قال اللّه تعالى : ﴿ وَمَا تَدْرِي نَفْسٌ مَّاذَا تَكْسِبُ غَدًا وَمَا تَدْرِي نَفْسٌ بِأَيِّ أَرْضٍ تَمُوتُ ﴾ [لقمان : ٣٤] فإذا كان الأمر كذلك ؛ فإن العاقل ينتهز الفرص ، فرص العمر في طاعة اللّه عز وجل قبل أن يأتيه الموت ، ولم يستعتب ولم يتب ، وقولنا : « انقطع عمله » يشمل كل عمل لا يكتب له ولا عليه إذا مات ؛ لأنه انتقل إلى دار الجزاء ، فدار العمل هي دار الدنيا ، أما بعد ذلك فالدور كلها دور جزاء ، إلا من ثلاث : « صدقة جارية » يعني أن يتصدق الإنسان بشيء ويستمر هذا الشيء ، وأحسن ما يكون المساجد ، بناء المساجد صدقة جارية ، لأن أجر الباني مستمر مادام هذا المسجد قائمًا ليلًا ونهارًا ، والمسلمون يمكثون في المساجد في صلاتهم وقراءتهم وتعلمهم العلم وتعليمهم العلم وغير ذلك ، ومن الصدقات الجارية : أن يوقف الإنسان وقفًا من عقار أو بستان أو نحوه على الفقراء والمساكين ، أو على طلبة العلم ، أو على المجاهدين في سبيل اللّه أو ما أشبه ذلك ، ومن الصدقات الجارية : أن يطبع الإنسان كتبًا نافعة للمسلمين يقرؤون فيها وينتفعون بها ، سواء كانت من مؤلفين في عصره أو من مؤلفين سابقين ، المهم أن تكون كتبًا نافعة ينتفع بها المسلمون من بعده ، ومن الصدقات الجارية : إصلاح الطرق ؛ فإن

---

(١) أخرجه مسلم في الوصية (١٤) . قوله : « انقطع عمله » أي من إثابته على الأعمال ، المتجددة بتجدد العمل المترتبة عليه ، قوله : « إلا من ثلاثة » أي يظل ثوابها دائمًا ، قوله : « صدقة جارية » هي الوقف ، قوله : « أو علم ينتفع به » كالكتب .

الإنسان إذا أصلح الطرق وأزال عنها الأذى واستمر الناس ينتفعون بهذا ؛ فإن ذلك من الصدقات الجارية ، والقاعدة في الصدقة الجارية : كل عمل صالح يستمر للإنسان بعد موته .

أما الثاني : «فعلم ينتفع به » وهذا أعمها وأشملها وأنفعها أن يترك الإنسان وراءه علمًا ينتفع المسلمون به ، سواء وُرِث من بعده بالتعليم الشفوي أو بالكتابة ، فتأليف الكتب وتعليم الناس وتداول الناس لهذه المعلومات مادام مستمرًا ، فأجر المعلم جار مستمر ، لأن الناس ينتفعون بهذا العلم الذي ورثه .

والثالث : «ولد صالح يدعو له » ولد يشمل ذكر وأنثى - يعني ابن أو بنت ، يشمل ابنك من صلبك ، وابنتك من صلبك ، وأبناء أبنائك ، وأبناء بناتك ، وبنات أبنائك ، وبنات بناتك إلى آخره ، ولد صالح يدعو للإنسان بعد موته ، هذا أيضًا يثاب عليه الإنسان ، وانظر كيف قال الرسول ﷺ : ولد صالح يدعو له ، ولم يقل : ولد صالح يصلي له ، أو يقرأ له القرآن ، أو يتصدق عنه ، أو يصوم عنه ، لا ، ما قال هذا مع أن هذه كلها أعمال صالحة ، بل قال : ولد صالح يدعو له ، وفي هذا : دليل على أن الدعاء لأبيه وأمه وجده وجدته أفضل من الصدقة عنهم ، وأفضل من الصلاة لهم ، وأفضل من الصيام لهم ، لأن النبي ﷺ لا يمكن أن يدل أمته إلا على خير ما يعلمه لهم ، ما من نبي بعثه اللّه إلا دل أمته على خير ما يعلمه لهم [(١)] . فلو علم الرسول ﷺ أن كونك تتصدق عن أبيك وأمك أفضل من الدعاء ، لقال الصدقة ما قال الدعاء ، فلما عدل عن الصدقات ، والصيام ، والصلاة ، وقراءة القرآن ، والمقام مقام تحدث عن الأعمال ، ولما عدل عن هذه الأعمال إلى الدعاء ؛ علمنا يقينًا - لا إشكال فيه - أن الدعاء أفضل من ذلك ، فلو سألنا سائل : أيهما أفضل أتصدق لأبي أو ادعو له ؟ قلنا : الدعاء أفضل ؛ لأن رسول اللّه هكذا أرشدنا ، فقال : « أو ولد صالح يدعو له » والعجيب أن العوام وأشباه العوام يظنون أن الإنسان إذا تصدق عن أبيه أو صام يومًا لأبيه ، أو قرأ حزبًا من القرآن لأبيه ، أو ما أشبه ذلك ، يرون أنه أفضل من الدعاء ، ومصدر هذا هو الجهل ، وإلا فمن تدبر النصوص علم أن الدعاء أفضل ، ولهذا لم يرشد النبي ﷺ في أي حديث بحرف واحد إلى العمل الصالح يجعله الإنسان لوالده ، قال الإمام مالك : إنه حصلت قضايا أعيان يسأله الصحابة ، هل يتصدق عن الأب وهو ميت وعن الأم وهي ميتة ؟ فيقول : نعم ، لا بأس ، لكنه لم يحث الأمة على ذلك ولم يرشدهم إلى هذا ، لكن سُئِل في قضايا أعيان ، سعد بن عبادة ﷺ سأله : هل يتصدق بحائطه يعني ببستانه عن أمه بعد موتها ، قال الرسول : نعم [(٢)] . وجاءه رجل قال : يا رسول اللّه ، إن أمي افتلتت نفسها ، يعني ماتت بغتة ، أفأتصدق عنها ، قال : «نعم » [(٣)] لكن لما أراد أن يشرع تشريعًا عامًّا للأمة قال : أو ولد صالح يدعو له ، نسأل اللّه أن يغفر لنا ولكم ولوالدينا وللمسلمين جميعًا .

* * *

---

(١) يدل على ذلك ما رواه أحمد في مسنده (٢/٢٧ ، ١٦١) ، والدرامي في النكاح (٣٧) .

(٢) أخرجه الترمذي في الزكاة (٦٦٩) ، وأحمد في مسنده (٦/٧) ، ومالك في الموطأ (٧٦٠) .

(٣) أخرجه البخاري في الجنائز (٩٥) ، ومسلم في الزكاة (٥١) .

١٣٨٤ - وَعَنْهُ قَالَ : سَمِعْتُ رسول اللَّه ﷺ يَقُولُ : « الدُّنْيا مَلْعُونَةٌ مَلْعُونٌ ما فِيهَا ، إلا ذِكْرَ اللَّهِ تَعَالى ، وَمَا والاه ، وَعَالِمًا ، أو مُتَعَلِّمًا » [١] رواهُ الترمذيُّ وَقَالَ : حديثٌ حسنٌ .

قولهُ « وَمَاوَالاهُ » أي : طاعَةُ اللَّهِ .

١٣٨٥ - وَعَنْ أنسٍ ﷺ قَالَ : قَالَ رسول اللَّه ﷺ : « مَنْ خَرَجَ في طَلَبِ العِلمِ ؛ كَانَ في سَبيلِ اللَّهِ حتى يَرجِعَ » [٢] رواهُ التِرمِذيُّ وَقَالَ : حديثٌ حَسَنٌ .

١٣٨٦ - وَعَنْ أبي سَعيدِ الخدْرِيِّ ﷺ عَنْ رسول اللَّه ﷺ ، قَالَ : « لَنْ يَشْبَعَ مُؤمِنٌ مِنْ خَيرٍ حتى يكونَ مُنْتَهاهُ الجَنَّةَ » [٣] رواهُ الترمذيُّ وقَالَ : حديثٌ حَسَنٌ .

١٣٨٧ - وَعَنْ أبي أُمَامَةَ ﷺ أنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ قَالَ : « فَضْلُ العَالِمِ على العَابِدِ ؛ كَفَضْلي عَلى أدْنَاكُمْ » ثُمَّ قالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ : « إنَّ اللَّهَ ومَلائِكَتَهُ وأَهْلَ السَّموات وَالأرضِ حَتَّى النَّمْلَةَ في جُحْرِهَا وَحَتَّى الحُوتَ لَيُصَلُّونَ عَلى مُعَلِّمِي النَّاسِ الخَيرَ » [٤] رواهُ الترمذي وَقَالَ : حَديثٌ حَسَنٌ .

١٣٨٨ - وَعَنْ أبي الدَّرْدَاءِ ﷺ قال : سَمِعْتُ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ يَقُولُ : « مَنْ سَلَكَ طَرِيقًا يَبْتَغِي فِيهِ عِلْمًا ؛ سَهَّلَ اللَّهُ لَهُ طَرِيقًا إلى الجنَّةِ ، وَإنَّ المَلائِكَةَ لَتَضَعُ أَجْنِحَتَهَا لِطَالِبِ العِلْمِ رِضيً بما يَصْنَعُ ، وَإنَّ العالِمَ لَيَسْتَغْفِرُ لَهُ مَنْ في السَّمَاوَاتِ وَمَنْ في الأرْضِ حَتَّى الحِيتَانُ في المَاءِ ، وَفَضْلُ العالم عَلى العَابدِ ؛ كَفَضْلِ القمَرِ عَلى سَائِرِ الكَوَاكِب ، وَإنَّ العُلَمَاءَ وَرَثَةُ الأنبياءِ ، وَإنَّ الأنبياءَ لَمْ يُوَرِّثُوا دِينَارًا وَلا دِرْهَمًا ، وَإنَّما وَرَّثُوا العِلْمَ ، فَمَنْ أَخَذَهُ ؛ أَخَذَ بِحَظٍّ وَافِرٍ » [٥] رَوَاهُ أبو داودَ والتِرمذيُّ .

الشرح

ساق المؤلف رحمه الله في فضل العلم تعلمًا وتعليما لله حديث أبي الدرداء ﷺ أن النبي ﷺ قال :

(١) أخرجه الترمذي في الزهد (٢٣٢٢) . قوله : « ملعونة ملعون ما فيها » أي بعيدة عن أن يحتاج اللَّه منها شيئًا ، هذا الحديث لم يقم الشارح رحمه الله بشرحه .

(٢) أخرجه الترمذي في العلم (٢٦٤٩) ، وبنحوه الطبراني في الصغير (١/١٣٦) . قوله « فهو في سبيل اللَّه » أي في طاعته ، هذا الحديث لم يقم الشارح رحمه الله بشرحه .

(٣) أخرجه الترمذي في العلم (٢٦٨٦) . قوله « لن يشبع مؤمن من خير » أي : من كل مقرب إلى اللَّه تعالى من سائر الطاعات وأشرفها ، قوله « حتى يكون منتهاه » أي : حتى يدخل الجنة ، هذا الحديث لم يقم الشارح رحمه الله بشرحه .

(٤) أخرجه الترمذي في العلم (٢٦٨٥) ، والدارمي في السنن (١/٧٧) ، والطبراني في الكبير (٨/٢٧٨) . قوله « العالم » هو المقتصر على فرائض العبادات ويصرف باقي وقته في العلم ، قوله « العابد » هو الذي يعرف ما يجب عليه تعلمه ويصرف ما زاد عليه في التعبد ، قوله « ليصلون » أي يستغفرون ويتضرعون بالدعاء ، هذا الحديث لم يقم الشارح رحمه الله بشرحه .

(٥) أخرجه الترمذي في العلم (٢٦٨٣) ، وأبو داود في العلم (٣٦٤١) ، وابن ماجه في المقدمة (٢٢٣) . قوله « من سلك » أي : دخل أو مشى ، قوله « لتضع أجنحتها » معناه أنها تتواضع لطالب العلم توقيرًا له ولعلمه ، قوله « بحظ » أي : بنصيب .

« من سلك طريقًا يبتغي فيه علمًا سهل الله له طريقًا إلى الجنة » وقد سبق بيان معنى هذه الجملة ، وفيه أيضًا من حديث أبي الدرداء ﷺ أن النبي ﷺ قال : « إن العالم ليستغفر له من في السماوات والأرض حتى الحيتان في البحر » وهذا يدل على فضل العلم وأن العلماء يستغفر لهم أهل السماء والأرض ، وحتى الحيتان في البحر ، وحتى الدواب في البر ، كل شيء يستغفر له . ولا تستغرب أن تكون هذه الحيوانات تستغفر الله ﷻ للعالم ، لأن الله سبحانه وتعالى قال في القرآن الكريم على لسان موسى - عليه الصلاة والسلام - ﴿ رَبُّنَا ٱلَّذِىٓ أَعْطَىٰ كُلَّ شَىْءٍ خَلْقَهُۥ ثُمَّ هَدَىٰ ﴾ [طه : ٥٠] فالبهائم والحشرات تعلم ربها ﷻ وتعرفه ﴿ تُسَبِّحُ لَهُ ٱلسَّمَٰوَٰتُ ٱلسَّبْعُ وَٱلْأَرْضُ وَمَن فِيهِنَّ وَإِن مِّن شَىْءٍ إِلَّا يُسَبِّحُ بِحَمْدِهِۦ وَلَٰكِن لَّا تَفْقَهُونَ تَسْبِيحَهُمْ ﴾ [الإسراء : ٤٤] كل شيء يسبح بحمد الله حتى إن الحصى سُمع تسبيحه بين يدي النبي وهو حصى [(١)] ؛ لأن الله تعالى رب كل شيء ومليكه حتى إن الله قال للسماوات والأرض ﴿ ٱئْتِيَا طَوْعًا أَوْ كَرْهًا قَالَتَآ أَتَيْنَا طَآئِعِينَ ﴾ [فصلت : ١١] فخاطبهما فخاطباه ﴿ ٱئْتِيَا طَوْعًا أَوْ كَرْهًا ﴾ يعني لما أمرهما به ﴿ قَالَتَآ أَتَيْنَا طَآئِعِينَ ﴾ فكل شيء يمتثل أمر الله ﷻ إلا الكفرة من بني آدم والجن ، ولهذا قال الله ﷻ في كتابه العزيز يُبيِّنُ أن كثيرًا من الناس يسجد لله ﷻ ، وكثيرًا حق عليه العذاب ﴿ أَلَمْ تَرَ أَنَّ ٱللَّهَ يَسْجُدُ لَهُۥ مَن فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَن فِى ٱلْأَرْضِ وَٱلشَّمْسُ وَٱلْقَمَرُ وَٱلنُّجُومُ وَٱلْجِبَالُ وَٱلشَّجَرُ وَٱلدَّوَآبُّ وَكَثِيرٌ مِّنَ ٱلنَّاسِ وَكَثِيرٌ حَقَّ عَلَيْهِ ٱلْعَذَابُ ﴾ [الحج : ١٨] ما يسجد ، ولهذا الكافر لا يستجيب لله ، لا يسجد لله شرعًا وتعبدًا ، لكنه يسجد لله ذلًّا قدريًّا ما له مفر عما قضى الله ، كما قال الله تعالى ﴿ وَلِلَّهِ يَسْجُدُ مَن فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ طَوْعًا وَكَرْهًا ﴾ [الرعد : ١٥] والسجود هنا السجود القدري ، فكل أحد خاضع لقدر الله ، ما أحد يستطيع أن يغالب الله ﷻ ، أين المفر ، يقول الشاعر الجاهلي :

أين المفر والإله الطالب ... والأشرم المغلوب ليس الغالب

فالسجود الشرعي ، كثير من الناس حق عليهم العذاب فلم يسجدوا ، على أن الشمس والقمر والنجوم والجبال والشجر والدواب كلها تسجد لله ﷻ .

لكن الكفرة من بني آدم ومن الجن لا يسجدون لله تعالى إلا السجود الكوني القدري ﴿ وَلِلَّهِ يَسْجُدُ مَن فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ طَوْعًا وَكَرْهًا ﴾ المهم أن الله تعالى سخر هذه الكائنات تستغفر للعالم ، وأفضل من ذلك أن الملائكة تضع أجنحتها لطالب العلم رضًا بما يفعل .

الملائكة الكرام الذين كرمهم الله ﷻ تضع أجنحتها لطالب العلم رضًا بما يفعل ، هل ترون فضلًا أعظم من هذا ؟ إن الملائكة - ملائكة الله ﷻ - تضع أجنحتها لطالب العلم رضًا بما يصنع ، هذا فضل عظيم .

ثم بين النبي ﷺ في حديث أبي الدرداء أن العلماء ورثة الأنبياء ، لو سألت من الذي يرث الأنبياء ؟ العُبَّاد الذين يركعون ويسجدون ليلًا ونهارًا ؟ لا . أقارب الأنبياء ؟ لا ، لا يرث الأنبياء إلا العلماء - اللَّهم اجعلنا منهم - العلماء هم ورثة الأنبياء ، ورثوا العلم من الأنبياء ، وورثوا العمل كما يعمل الأنبياء ، وورثوا

---

(١) انظر الحديث في الدارمي في المقدمة (٥) ، وأحمد في مسنده (١/٤٦٠) .

الدعوة إلى الله ﷻ ، وورثوا هداية الخلق ودلالتهم على شريعة الله ، فالعلماء هم ورثة الأنبياء ، الأنبياء لم يورثوا درهمًا ولا دينارًا ، توفى النبي ﷺ عن ابنته فاطمة ، وعن عمه العباس ، وعن أبناء عمه وعن زوجاته ، ولم ترثه ابنته ولا زوجاته ولا عصبته ، لأن الأنبياء لا يورثون درهمًا ولا دينارًا . وهذا من حكمة الله ﷻ أنهم لا يُورثون لئلا يقول قائل : إن النبي إنما ادعى النبوة لأجل أن يملك فيورثوا ، فيرثه أقاربه من ذلك ، فقُطع هذا ، وقيل : النبي لا يرثه ولده ، وأما قول زكريا ﴿ فَهَبْ لِي مِن لَّدُنكَ وَلِيًّا ۝ يَرِثُنِي وَيَرِثُ مِنْ ءَالِ يَعْقُوبَ ﴾ [مريم : ٥- ٦] فالمراد بذلك إرث العلم والنبوة وليس المال ، فالأنبياء لا يورثون ما ورثوا درهمًا ولا دينارًا إنما ورثوا هذا العلم - صلوات الله عليه - ، هذا أعظم ميراث ، فمن أخذه أخذ بحظ وافر ، أي بنصيب وافر كثير ، من أخذ بهذا العلم ، وأسأل الله أن يجعلني وإياكم من آخذيه ، هذا هو الإرث الحقيقي النافع ، العلماء ورثة الأنبياء ، والأنبياء لم يورثوا درهمًا ولا دينارًا ، وإنما ورثوا العلم .

أليس الإنسان يسعى من شرق الأرض إلى مغربها من أجل أن يحصل على مالٍ خلفه أبوه له وهو متاع دنيا ؟ فلماذا لا نسعى من مشارق الأرض ومغاربها إلى أخذ العلم الذي هو ميراث من ؟ الأنبياء عليهم الصلاة والسلام .

جدير بنا أن نسعى بكل ما نستطيع لأخذ العلم الموروث عن الأنبياء - عليهم الصلاة والسلام - ولو لم يكن من فضل العلم إلا أن العالم كلما عمل شيئًا فهو يشعر مع إخلاصه لله ﷻ يشعر بأن إمامه محمد ﷺ ، لأنه يعبد الله على بصيرة ، عندما يتوضأ يشعر كأن الرسول أمامه ، يتوضأ الآن ، يتبعه تمامًا ، وكذلك في الصلاة وغيرها من العبادات ، لو لم يأتك من فضل العلم إلا هذا لكان كافيًا ، فكيف وهذا الفضل العظيم في حديث أبي الدرداء رضي الله عنه فالمهم أن الإنسان الذي يمن الله عليه بالعلم فقد من الله عليه بما هو أعظم من الأموال والبنين والزوجات والقصور والمراكب وكل شيء .

اللَّهم ارزقنا علمًا نافعًا ، وعملًا صالحًا ، ورزقًا طيبًا واسعًا تغنينا به عن خلقك ، إنك على كل شيء قدير .

* * *

١٣٨٩ - وَعَنِ ابنِ مَسْعُودٍ رضي الله عنه قَالَ : سَمِعْتُ رسول اللَّه ﷺ يَقُولُ : « نَضَّرَ اللَّهُ امْرَأً سَمِعَ مِنَّا شَيْئًا ، فَبَلَّغَهُ كمَا سَمعَهُ ؛ فَرُبَّ مُبَلَّغٍ أَوعَى مِنْ سَامع » [(١)] . رواهُ الترمذيُّ وَقَالَ : حديثٌ حَسَنٌ صحيحٌ .

١٣٩٠ - وَعَنْ أبي هُريرَةَ رضي الله عنه قَالَ : قَالَ رسول اللَّه ﷺ : « مَنْ سُئِلَ عَنْ عِلمٍ فَكَتَمَهُ ، أُلجِمَ يَومَ القِيَامَةِ بِلِجَامٍ مِنْ نَارٍ » [(٢)] رَوَاهُ أَبو داودَ والترمذيُّ وقَالَ : حديثٌ حَسَنٌ .

الشرح

ساق النووي رحمه الله في فضل العلم تعلمًا وتعليمًا لله أحاديث متعددة ومنها حديث ابن مسعود رضي الله عنه

---

(١) أخرجه الترمذي في العلم (٢٦٥٩) . قوله « نضر الله امرأً » أي : حسن خلقه وقدره .

(٢) أخرجه أبو داود في العلم (٣٦٥٨) ، وأحمد في مسنده (٢/٢٦٣ ، ٣٠٥) ، والطبراني في الكبير (٨/٤٠١) .

أن النبي ﷺ قال : « نضر اللّه امرأ سمع منا » يعني مقالًا « فبلغه كما سمعه ؛ فرب مبلغ أوعى من سامع » « نضر اللّه » يعني حسنه ؛ لأن نضر بالضاد من الحسن ، ومنه قوله تعالى ﴿ وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ نَّاضِرَةٌ ۝ إِلَىٰ رَبِّهَا نَاظِرَةٌ ﴾ [القيامة : ٢٢- ٢٣] ﴿ نَّاضِرَةٌ ﴾ يعني حسنة ، ﴿ إِلَىٰ رَبِّهَا نَاظِرَةٌ ﴾ يعني تنظر بالعين إلى اللّه عَزَّوَجَلَّ، جعلنا اللّه وإياكم منهم ، وكذلك أيضًا قال اللّه تبارك وتعالى ﴿ فَوَقَاهُمُ اللَّهُ شَرَّ ذَٰلِكَ الْيَوْمِ وَلَقَّاهُمْ نَضْرَةً وَسُرُورًا ﴾ [الإنسان : ١١] أي حسنًا وسرورًا ، حسنًا في الوجوه وسرورًا في القلوب ، هنا يقول : نضر اللّه امرأ سمع منا – يعني مقالًا فأداه كما سمعه ، والمراد بذلك : أن النبي ﷺ دعا للإنسان إذا سمع حديثًا عن رسول اللّه فبلغه كما سمعه ، أن يحسن اللّه تعالى وجهه يوم القيامة .

« فرب مبلغ أوعى من سامع » لأنه ربما يكون الإنسان يسمع الحديث ويبلغه ويكون المبلغ أوعى من السامع يعني أفقه وأفهم وأشدُّ عملًا من الإنسان الذي سمعه وأداه ، وهذا كما قال النبي ﷺ « معلوم ، تجد مثلًا من العلماء من هو راوية يروي الحديث يحفظه ويؤديه لكنه لا يعرف معناه فيبلغه إلى شخص آخر من العلماء يعرف المعنى ويفهمه ويستنتج من أحاديث الرسول ﷺ أحكامًا كثيرة فينفع الناس ، وقد سبق أن مثل الأول كمثل الأرض التي أمسكت الماء فرُوِيَ الناس وارتووا لكنها لا تنبت ، وأما الأرض الرياض التي أنبتت ؛ هم الفقهاء الذين عرفوا الأحاديث وفقهوها واستنتجوا منها الأحكام الشرعية ، أما حديث أبي هريرة بعد هذا فقد توعد النبي ﷺ من سُئل عن علم فكتمه توعده بأن يلجم يوم القيامة بلجام من نار ، أي يوضع على فمه لجام من نار ، نسأل اللّه العافية ؛ لأنه كتم ما أنزل اللّه بعد أن سُئل عنه ، وهذا إذا علمت أن السائل يسأل لاسترشاده فلا يجوز لك أن تمنعه ، أما إذا علمت أنه يسأل امتحانًا وليس قصده أن يسترشد فيعلم ويعمل ، فأنت بالخيار إن شئت فعلمه وإن شئت فلا تعلمه ، لقول اللّه تعالى ﴿ فَإِن جَاءُوكَ فَاحْكُم بَيْنَهُمْ أَوْ أَعْرِضْ عَنْهُمْ ﴾ [المائدة : ٤٢] ؛ لأن اللّه علم أن هؤلاء يأتون النبي ﷺ يستحكمونه لا لأجل أن يعملوا بكلامه ولكن لينظروا ما عنده ، فإذا علمت أن هذا الرجل جاء يسألك عن علم امتحانًا فقط ، لا طلبًا للحق ، فأنت بالخيار : إن شئت فافعل وأَفْتِه وعلمه ، وإن شئت فلا تفْتِه ولا تعلمه ، كذلك إذا علمت أنه يحصل من الفتوى مفسدة كبيرة ، فلا بأس أن ترجئ الإفتاء ، لا تكتم لكن لا بأس أن ترجئ الإفتاء إلى وقت يكون فيه المصلحة ؛ لأنه أحيانًا تكون الفتوى لو أفتيت بها سببًا للشر والفساد ، فأنت إذا رأيت أنها سبب للشر والفساد وأجّلت الإجابة فلا حرج عليك في ذلك ، واللّه الموفق .

* * *

١٣٩١ – وعنهُ قالَ : قالَ رسول اللّه ﷺ : « مَنْ تَعَلَّمَ عِلمًا مِمَّا يُبْتَغَى بِهِ وَجْهُ اللّهِ عَزَّ وَجَلَّ لا يَتَعَلَّمُهُ إلا ليُصِيبَ بِهِ عَرَضًا مِنَ الدُّنيا ؛ لَمْ يَجِدْ عَرْفَ الجَنَّةِ يَومَ القِيَامَةِ » (١) يَعْنِي : ريحها . رواهُ أَبو داود بإسنادٍ صَحِيحٍ .

---

(١) أخرجه أبو داود في العلم (٣٦٦٤) ، وابن ماجه في المقدمة (٢٥٢) ، وأحمد في مسنده (٣٣٨/٢) . قوله «إلا ليصيب به عرضًا » أي : إلا لينال ويحصل له بسبب هذا العلم على مال أو جاه .

الشرح

من فضل العلم تعلما وتعليمًا للَّه ، ما ساقه المؤلف رحمه الله عن أبي هريرة رضي الله عنه أن النبي ﷺ قال : « من طلب علمًا مما يبتغي به وجه اللَّه » لا يريد إلا أن ينال عرضًا من الدنيا ، « لم يجد عرف الجنة يوم القيامة » ، يعني ريحها ، العلوم تنقسم إلى قسمين ، قسم : يراد به وجه اللَّه وهو العلوم الشرعية وما يساندها من علوم عربية ، وقسم آخر : علم الدنيا ، كعلم الهندسة والبناء والميكانيكا وما أشبه ذلك ، فأما الثاني - علم الدنيا - فلا بأس أن يطلب الإنسان به عرض الدنيا ، يتعلم الهندسة ليكون مهندسًا يأخذ راتبًا وأجرة ، يتعلم الميكانيكا من أجل أن يكون ميكانيكيًا يعمل ويكدح وينوي الدنيا ، هذا لا حرج عليه أن ينوي في تعلمه الدنيا ، لكن لو نوى نفع المسلمين بما تعلم ؛ لكان ذلك خيرًا له وينال بذلك الدين والدنيا ، يعني لو قال : أنا أريد تعلم الهندسة من أجل أن أكفي المسلمين أن يجلبوا مهندسين كفارًا مثلًا ، لكان هذا طيبًا ، أو يتعلم الميكانيكا من أجل أن يسدَّ حاجة المسلمين فيما إذا احتاجوا ميكانيكيين ، فهذا خير وله أجر على ذلك ، لكن لو لم يرد إلا الدنيا ؛ فله ذلك ولا إثم عليه ، كالذي يبيع ويشتري من أجل زيادة المال ، أما القسم الأول : الذي يتعلم شريعة اللَّه عز وجل وما يساندها ؛ فهذا علم لا يبتغي به إلا وجه اللَّه ، إذا أراد به الدنيا ؛ فإنه لا يجد ريح الجنة يوم القيامة ، وهذا وعيد شديد والعياذ باللَّه ، يدل على أن من قصد بتعلم الشرع شيئًا من أمور الدنيا ؛ فإنه قد أتى كبيرة من كبائر الذنوب ، ولا يبارك له في علمه ، يعني مثلًا ، قال : أريد أن أتعلم من أجل أن أصرف وجوه الناس إليّ ، حتى يحترموني ويعظموني ، أريد أن أتعلم حتى أكون مدرسًا فآخذ راتبًا ، وما أشبه ذلك ، هذا - والعياذ باللَّه - لا يجد ريح الجنة يوم القيامة ، وقد أشكل على هذا أو قد روع هذا بعض الذين يقرأون في المدارس النظامية كالمعاهد والكليات من أجل أن ينالوا الشهادة ، فيقال : نيل الشهادة ليس للدنيا وحدها ؛ قد يكون للدنيا وحدها وقد يكون للآخرة ، فإذا قال الطالب : أنا أطلب العلم لأنال الشهادة حتى أتمكن من وظائف التدريس وأنفع الناس بذلك ، أو حتى أكون مديرًا في دائرة أوجه من فيها إلى الخير ، فهذا خير ونية طيبة ، ولا فيها إثم ولا حرج .

وذلك أنه مع الأسف في الوقت الحاضر صار المقياس في كفاءة الناس هذه الشهادات ، معك شهادة توظف وتولى قيادة على حسب هذه الشهادة ، ممكن يأتي إنسان يحمل شهادة دكتوراه فيولى التدريس في الكليات والجامعات ، وهو من أجهل الناس لو جاء طالب في الثانوية العامة لكان خيرًا منه ، وهذا مشاهد ، يوجد الآن أحيانًا من يحمل شهادة دكتوراه لكنه لا يعرف من العلم شيئًا أبدًا ، إما أنه نجح بغش ، أو نجح نجاحًا سطحيًا لم يرسخ العلم في ذهنه ، لكن يوظف ؛ لأن معه شهادة دكتوراه ، في حين أنه يأتي إنسان طالب علم جيد هو خير للناس وخير لنفسه من هذا الدكتور ألف مرة لكن لا يوفق ، لا يدرس في الكليات ، لماذا ؟ لأنه لا يحمل شهادة دكتوراه . فنظرًا لأن الأحوال تغيرت وانقلبت إلى هذه المآل ، نقول : إذا طلبت العلم من أجل أن تنال الشهادة التي تتمكن بها من تولي التدريس ، لا لأجل الدنيا ، لكن لأجل نفع الخلق ؛ فإن هذا لا بأس به ولا تعد قاصدًا بذلك

الدنيا ولا ينالك هذا الوعيد ، فالحمد لله ، إنما الأعمال بالنيات ، وإنما لكل امرئ ما نوى ، الحمد لله هذا ميزان ، انظر قلبك ماذا نوى ؟ فعلى هذا فالذي يطلب العلم في الجامعة من أجل أن ينال الشهادة نقول : ما الذي تريده ؟ هل أنت تريد أن تنال الشهادة من أجل أن تكون في المرتبة الفلانية وراتبك كذا وكذا ؟ إذًا قال : نعم ، أنا فقير ، أنا أريد هذا ، نقول : خبت وخسرت ، ما دمت تريد الدنيا .
أما إذا قال : لا ، أنا أريد أن أنفع الخلق ؛ لأن الأمور الآن لا يمكن الوصول إلى نفع الخلق بالتدريس إلا بالشهادات وأنا أريد أن أصل إلى هذا ، أو لا يوظف الإنسان وظيفة كبيرة يكون قائد فيها على جماعة من المسلمين إلا بالشهادة وأنا أريد هذا ، قلنا : الحمد لله ، هذه نية طيبة وليس عليك شيء ، والأعمال بالنيات ولكل امرئ ما نوى . المهم : احذر أخي طالب العلم ، احذر من النيات السيئة ، العلم الشرعي أعز وأرفع وأعلى من أن تريد به عرضًا من الدنيا ، عرض الدنيا ما الذي تنتفع به ؟ آخر أمره أن يكون في محل القاذورات ، تأكل وتشرب ويروح للمرحاض ، وألذ ما يتطلبه الإنسان هو الأكل والشرب في المنافع البدنية ، ومع ذلك نهايته المرحاض ، أيضًا لو بقيت عندك الدنيا فلابد إما أن تفارقها أو تفارقك ، إما أن تفتقر وتعدم المال ، وإما أن تموت ويذهب المال لغيرك .

لكن أمور الآخرة تبقى ، فلماذا تجعل العلم الشرعي الذي هو من أجلِّ العبادات وأفضل العبادات تجعله سلمًا لتنال به عرضًا من الدنيا ، هذا سفه في العقل وضلال في الدين ، العلم الشرعي اجعله لله ﷻ ولحماية شريعة الله ورفع الجهل عن نفسك وعن إخوانك المسلمين ، وللدلالة على الهدى ، ولتنال ميراث النبي ﷺ ؛ لأن العلماء ورثة الأنبياء [١] ، نسأل الله أن يخلص لنا ولكم النية ويصلح العمل ، إنه على كل شيء قدير .

* * *

١٣٩٢ - وَعَنْ عبدِ اللَّهِ بنِ عَمرو بنِ العاصِ رضي الله عنهما قالَ : سَمِعْتُ رسول اللَّه ﷺ يَقُولُ : « إنَّ اللَّهَ لا يَقْبِضُ العِلْمَ انْتزَاعًا يَنْتَزِعُهُ مِنَ النَّاسِ ، وَلكنْ يَقْبِضُ العِلْمَ بِقَبْضِ العُلَماء حَتَّى إذا لَمْ يُبْقِ عالمًا ، اتَّخَذَ النَّاسُ رُؤوسًا جُهَّالًا ، فَسُئِلُوا ، فَأَفْتَوا بغَيرِ علْمٍ ، فَضَلُّوا وأَضَلُّوا » [٢] متفقٌ عليه .

الشرح

ساق المؤلف رحمه الله في فضل العلم تعلما وتعليمًا لله حديث عبد الله بن عمرو بن العاص أن النبي ﷺ قال : « إن الله لا يقبض العلم انتزاعًا من صدور الرجال » ففي هذا الحديث : إشارة إلى أن العلم سيقبض ، ولا يبقى في الأرض عالم يرشد الناس إلى دين الله ، فتتدهور الأمة وتضل ، بعد ذلك ينزع

(١) كما جاء في الحديث الذي أخرجه ابن ماجه في السنن (٢٢٣) ، والبخاري في التاريخ الكبير (٣٣٧/٨) ، والهندي في كنز العمال (٢٨٦٧٩) .

(٢) أخرجه البخاري في العلم (١٠٠) ، ومسلم في العلم (١٣) ، والترمذي في العلم (٢٦٥٢) ، وأحمد في مسنده (١٦٢/٢) ، قوله « لا يقبض العلم » أي لا يرفعه من الدنيا .

منهم القرآن ، ينزع من الصدور ، ومن المصاحف كما قال أهل السنة : إن القرآن كلام الله منزل غير مخلوق منه بدأ وإليه يعود ، قالوا : معنى وإليه يعود : أي يرجع إلى الله ﷻ في آخر الزمان حين يهجره الناس هجرًا تامًّا ، لا يقرؤونه ولا يعملون به ، ونظير ذلك الكعبة المشرفة حماها الله ﷻ لما أراد أبرهة أن يهدمها وقدم إليها بفيل عظيم وجنود كبيرة حماها الله ﷻ منه وأنزل الله في ذلك سورة كاملة ﴿ أَلَمْ تَرَ كَيْفَ فَعَلَ رَبُّكَ بِأَصْحَابِ الْفِيلِ ۝ أَلَمْ يَجْعَلْ كَيْدَهُمْ فِي تَضْلِيلٍ ۝ وَأَرْسَلَ عَلَيْهِمْ طَيْرًا أَبَابِيلَ ۝ تَرْمِيهِم بِحِجَارَةٍ مِّن سِجِّيلٍ ۝ فَجَعَلَهُمْ كَعَصْفٍ مَّأْكُولٍ ﴾ [الفيل : ١ : ٥] طيور أرسلها الله ﷻ ، أبابيل يعني جماعات متفرقة كل واحد في منقاره وبين رجليه حجارة من سجيل ؛ يعني من طين مشوي صلب ، فكانت هذه الطيور بأمر الله ترسل هذه الحجارة على هؤلاء الجنود حتى إنها تضرب الرجل من رأسه وتخرج من دبره ، نعوذ بالله حتى جعلهم كعصف مأكول يعني كعصف الزرع الذي أكلته البهائم واختلط بعضه ببعض . لكن في آخر الزمان إذا انتهك الناس حرمة هذا البيت وأكثروا فيه من المعاصي وغير ذلك مما يعد امتهانًا لحرمته ؛ سلط الله عليهم رجلًا من الحبشة ابعج الرجلين قصير فينقضها حجرًا حجرًا ، يأتي إليها بجنود ، فينقضها يهدمها حجرًا حجرًا ، إذا نزع الحجر أعطاه أحد الجنود ، ثم التالي الذي بجنبه من مكة إلى البحر ، يتمادون حجارتها حتى تهدم عن آخرها [١] ، فانظر كان في الأول حماها الله ﷻ من أولئك الكفرة ، لأنه يعلم أنه سيبعث فيها رسولًا ينقل الناس من الضلال والظلم والشرك إلى الهدى والعدل والتوحيد .

لكن في آخر الزمان عندما ينتهك الناس هذه الحرمة ترفع من مكانها ، يسلط الله عليها بحكمته من يهدمها ، ولا أحد يقول شيئًا ، ولا أحد يعارض هذا الرجل ، والله ﷻ بحكمته يمكنه من ذلك ، كذلك القرآن الكريم ينتزع من الصدور ومن المصاحف ويرفع إلى الرب ﷻ ؛ لأنه كلامه منه بدأ وإليه يعود . العلم أيضًا لا ينتزع من صدور الرجال لكنه يقبض بموت العلماء ، بموت العلماء الذين هم علماء حقيقة ولا يبقى عالم ، فيتخذ الناس رؤساء ، يعني يتخذ الناس من يترأسهم ويستفتونه ، لكنهم جهال يفتون بغير علم فيَضلون ويُضلون - والعياذ بالله - وتبقى الشريعة بين هؤلاء الجهال يحكمون بها بين الناس وهم جهلة لا يعرفون فلا يبقى عالم ، وحينئذ لا يوجد الإسلام الحقيقي الذي يكون مبنيًّا على الكتاب والسنة ، لأن أهله قد قبضوا . وفي هذا الحديث حث على طلب العلم ؛ لأن الرسول أخبرنا بهذا لأجل أن نتحاشى ونتدارك هذا الأمر ونطلب العلم ، وليس المعني أنه أخبرنا لنستسلم فقط ، لا ، من أجل أن نحرص على طلب العلم حتى لا نصل إلى الحال التي وصفها الرسول ﷺ . والإخبار بالواقع لا يعني إقراره . يعني إذا أخبر الرسول ﷺ عن شيء ليس معناه أنه يقره ويسمح فيه ، كما أخبر - عليه الصلاة والسلام - وأقسم : « لتركبن سنن من كان قبلكم » - يعني لتركبن طرق من كان قبلكم - قالوا : اليهود والنصارى ، قال : « نعم ، اليهود والنصارى » [٢] . فأخبر أن هذه الأمة سوف ترتكب ما كان عليه اليهود والنصارى ،

---

(١) انظر نص الحديث في مسند الإمام أحمد (٢/٣١٠) بلفظ : « يظهر ذو السويقتين على الكعبة فيهدمها » .
(٢) أخرجه أحمد في مسنده (٥/٢١٨) ، والحاكم في المستدرك (٤/٤٥٥) ، والألباني في الصحيحة (١٣٤٨) .

إخبار تحذير لا إخبار تقرير وإباحة ، فيجب أن نعلم الفرق بين ما يخبر به الرسول مقررًا ومثبتًا له ، وما يخبر به محذرًا عنه ، فالرسول ﷺ أخبر بأن العلماء سيموتون ، ويعني ذلك أن نحرص حتى لا يجيء هذا الوقت الذي يموت به العلماء ولا يبقى إلا هؤلاء الرؤساء الجهال الذين يفتون بغير علم ، فيضلون بأنفسهم ويضلون غيرهم ، اللَّهم إنا نسألك علمًا نافعًا ، وعملًا صالحًا ، ورزقًا طيبًا واسعًا .

* * *

كتاب حمد الله تعالى وشكره

قال المؤلف النووي رحمه الله : حمد اللَّه يعني وصفه بالمحامد والكمالات وتنزيهه عن كل ما ينافي ذلك ويضاده ، فهو سبحانه وتعالى أهل الحمد يُحْمَدُ على جميل إحسانه وعلى كمال صفاته جل وعلا مع المحبة والتعظيم ، وقد حمد اللَّه نفسه في ابتداء خلقه فقال : ﴿ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَجَعَلَ ٱلظُّلُمَٰتِ وَٱلنُّورَ ﴾ [الأنعام : ١] . وحمد نفسه حين أنزل على عبده الكتاب فقال : ﴿ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِىٓ أَنزَلَ عَلَىٰ عَبْدِهِ ٱلْكِتَٰبَ وَلَمْ يَجْعَل لَّهُۥ عِوَجَا ﴾ [الكهف : ١] . وحمد نفسه على تنزيهه عن الشريك والند ، فقال : ﴿ وَقُلِ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِى لَمْ يَتَّخِذْ وَلَدًا وَلَمْ يَكُن لَّهُۥ شَرِيكٌ فِى ٱلْمُلْكِ وَلَمْ يَكُن لَّهُۥ وَلِىٌّ مِّنَ ٱلذُّلِّ وَكَبِّرْهُ تَكْبِيرًۢا ﴾ [الإسراء : ١١١] وحمد نفسه جل وعلاَ عند انتهاء الخلق فقال . سبحانه وتعالى ﴿ وَتَرَى ٱلْمَلَٰٓئِكَةَ حَآفِّينَ مِنْ حَوْلِ ٱلْعَرْشِ يُسَبِّحُونَ بِحَمْدِ رَبِّهِمْ وَقُضِىَ بَيْنَهُم بِٱلْحَقِّ وَقِيلَ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴾ [الزمر : ٧٥] فهو جل وعلا محمود في ابتداء الخلق وانتهاء الخلق واستمرار الخلق ، ومحمود على ما أنزل على عبده من الشرائع ، محمود على كل حال ، ولهذا كان النبي ﷺ إذا أتاه ما يسره ، قال : «الحمد للَّه الذي بنعمته تتم الصالحات »[1] وإذا أتاه ما يخالف ذلك ، قال : « الحمد للَّه على كل حال »[2] و ما يقوله بعض الناس اليوم : (الحمد للَّه الذي لا يحمد على مكروه سواه) فهو خطأ غلط ، لأنك إذا قلت : الحمد للَّه الذي لا يحمد على مكروه سواه ، فهو عنوان على إنك كاره لما قدره عليك ، ولكن قل كما قال النبي ﷺ : « الحمد اللَّه على كل حال » ، هذا هو الصواب وهو السنة التي جاءت عن النبي ﷺ وقد حمد اللَّه نفسه وأمر بحمده فقال اللَّه تعالى : ﴿ قُلِ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ وَسَلَٰمٌ عَلَىٰ عِبَادِهِ ٱلَّذِينَ ٱصْطَفَىٰٓ ﴾ [النمل : ٥٩] فأمرنا أن نحمده جل وعلا ، بل جعل حمدنا إياه من أركان الصلاة لا تتم الصلاة إلا به ، فالفاتحة أولها : ﴿ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴾ لو أسقطت هذه الآية من الفاتحة ما صحت صلاتك ، فحمد اللَّه تعالى واجب على كل إنسان ، وكذلك الشكر ، الشكر على إنعامه ، كم أنعم عليك من نعمة ؟! عقل ، سلامة بدن ، مال ، أهل ، أمن ، ... نعم لا تحصى ! ﴿ وَإِن تَعُدُّوا۟ نِعْمَتَ ٱللَّهِ لَا تُحْصُوهَآ ﴾ [إبراهيم : ٣٤] لو لم يكن من نعمته عليك إلا هذا النَّفَس

---

(١) أخرجه ابن ماجه في السنن (٣٨٠٣) ، والحاكم في المستدرك (٤٩٩/١) .

(٢) أخرجه الترمذي في السنن (٣٥٩٩) ، وأحمد في مسنده (١١٧/٢) ، والحاكم في المستدرك (٤٩٩/١) .

الذي لو اغتممته لفقدت الحياة ، مع أنه يخرج بدون أن تستبنه وبدون أن تتعب له ، وانظر الذين ابتلوا بضيق النفس ، كيف يتكلفون عند إدخال النفس وإخراجه ، وهذا النفس مستمر دائم ، نعمة لا تحصى أبدًا ، العقل ، الأولاد ، المال ، الدين ... كل هذه نعم عظيمة ، يستحق جل وعلا أن يُشْكَرَ عليها ، والشكر : قال أهل العلم : هو القيام بطاعة المنعم ، هذا هو الشكر أن تقوم بطاعة المنعم ولا سيما جنس هذه النعمة ، فإذا أنعم اللَّه عليك بمال فليكن عليك أثر هذا المال في لباسك ، في بيتك ، في مركوبك ، في صدقاتك ، في نفقاتك ، لِيُرَى أثر نعمة اللَّه عليك في هذا المال . في العلم ، إذا أنعم اللَّه عليك بعلم فليرى عليك أثر هذا العلم ، من نشره بين الناس ، تعليمه الناس والدعوة إلى اللَّه ﷻ ، وغير ذلك ، فالشكر يكون من جنس النعمة التي أنعم اللَّه بها عليك ، أو بأعم .

إذًا فمن عصى اللَّه فإنه لم يقم بشكر نعمة اللَّه ، كافر بنعمة اللَّه - والعياذ باللَّه - قال اللَّه تعالى : ﴿ أَلَمْ تَرَ إِلَى ٱلَّذِينَ بَدَّلُوا۟ نِعْمَتَ ٱللَّهِ كُفْرًا وَأَحَلُّوا۟ قَوْمَهُمْ دَارَ ٱلْبَوَارِ ۞ جَهَنَّمَ يَصْلَوْنَهَا ۖ وَبِئْسَ ٱلْقَرَارُ ﴾ (١) [إبراهيم : ٢٨- ٢٩] فالعاصي لم يقم بشكر نعمة اللَّه ﷻ ، وينقص من شكره بقدر ما أتى من المعصية ، حتى لو قال الإنسان بلسانه : اشكر اللَّه ، الشكر للَّه وهو يعصي اللَّه ، فإنه لم يصدق فيما قال ، الشكر القيام بطاعة المنعم .

والشكر له فائدتان عظيمتان ، منها : الاعتراف باللَّه تعالى في حقه وفضله وإحسانه .

ومنها : أنه سبب لمزيد النعمة ، كلما شكرت زادت نعمة اللَّه عليك ، قال اللَّه تعالى ﴿ وَإِذْ تَأَذَّنَ رَبُّكُمْ لَئِن شَكَرْتُمْ لَأَزِيدَنَّكُمْ ۖ وَلَئِن كَفَرْتُمْ إِنَّ عَذَابِى لَشَدِيدٌ ﴾ [إبراهيم : ٧] إذا شكر الإنسان زاده اللَّه ، وإذا كفر عرض نفسه لعذاب اللَّه ، وعذاب اللَّه تعالى شديد ، وقال اللَّه تعالى : ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ كُلُوا۟ مِن طَيِّبَٰتِ مَا رَزَقْنَٰكُمْ وَٱشْكُرُوا۟ لِلَّهِ ﴾ [البقرة : ١٧٢] واشكروا اللَّه تعالى على هذه النعمة التي أنعمها عليكم ، وسهل لكم الوصول إليها فوصلت إليكم من غير حول ولا قوة ، هذه الطيبات التي نأكلها لو شاء اللَّه تعالى لم نقدر عليها إما لعسر فينا ، وإما لفقد لهذه النعم ، قال اللَّه تعالى ﴿ أَفَرَءَيْتُم مَّا تَحْرُثُونَ ۞ ءَأَنتُمْ تَزْرَعُونَهُۥٓ أَمْ نَحْنُ ٱلزَّٰرِعُونَ ۞ لَوْ نَشَآءُ لَجَعَلْنَٰهُ حُطَٰمًا فَظَلْتُمْ تَفَكَّهُونَ ۞ إِنَّا لَمُغْرَمُونَ ۞ بَلْ نَحْنُ مَحْرُومُونَ ۞ أَفَرَءَيْتُمُ ٱلْمَآءَ ٱلَّذِى تَشْرَبُونَ ۞ ءَأَنتُمْ أَنزَلْتُمُوهُ مِنَ ٱلْمُزْنِ أَمْ نَحْنُ ٱلْمُنزِلُونَ ۞ لَوْ نَشَآءُ جَعَلْنَٰهُ أُجَاجًا فَلَوْلَا تَشْكُرُونَ ۞ أَفَرَءَيْتُمُ ٱلنَّارَ ٱلَّتِى تُورُونَ ۞ ءَأَنتُمْ أَنشَأْتُمْ شَجَرَتَهَآ أَمْ نَحْنُ ٱلْمُنشِـُٔونَ ۞ نَحْنُ جَعَلْنَٰهَا تَذْكِرَةً وَمَتَٰعًا لِّلْمُقْوِينَ ﴾ (٢) [الواقعة : ٦٣: ٧٣] .

فالمهم : أن علينا أن نشكر نعمة اللَّه ، ويكون الشكر من جنس النعمة ، فتبذل من العلم والمال بحسب ما أعطاك اللَّه ﷻ ، الصحة ، أنت أعطاك اللَّه صحة ونشاطًا واحتاج إخوانك إلى المساعدة والمعاونة ، فمن شُكْرِ النعمة أن تعينهم ، واللَّه الموفق .

---

(١) قوله ﷺ : ﴿ دَارَ ٱلْبَوَارِ ﴾ أي دار الهلاك .

(٢) قوله ﷺ : ﴿ فَظَلْتُمْ تَفَكَّهُونَ ﴾ أي ظللتم تتعجبون . قوله ﷺ : ﴿ إِنَّا لَمُغْرَمُونَ ﴾ أي إنا لمهلكون . قوله ﷺ : ﴿ مَحْرُومُونَ ﴾ أي ممنوعين الرزق . قوله ﷺ : ﴿ ٱلْمُزْنِ ﴾ السحاب قوله ﷺ : ﴿ أُجَاجًا ﴾ أي ملحًا زُعَاقًا لا يطاق لشدة مرارته . قوله ﷺ : ﴿ تُورُونَ ﴾ أي تقدحونها وتستخرجونها من الشجر الرطب . قوله ﷺ : ﴿ وَمَتَٰعًا لِّلْمُقْوِينَ ﴾ أي ومنفعة للمسافرين .

٢٤٢ - باب فضل الحمد والشكر

قال الله تعالى : ﴿ فَاذْكُرُونِي أَذْكُرْكُمْ وَاشْكُرُوا لِي وَلَا تَكْفُرُونِ ﴾ [البقرة : ١٥٢] وقال تعالى : ﴿ لَئِن شَكَرْتُمْ لَأَزِيدَنَّكُمْ ﴾ [إبراهيم : ٧] وقال تعالى : ﴿ وَقُلِ الْحَمْدُ لِلَّهِ ﴾ [الإسراء : ١١١] وقال تعالى : ﴿ وَآخِرُ دَعْوَاهُمْ أَنِ الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ ﴾ [يونس : ١٠] .

الشرح

سبق الكلام على هذا ، ولكننا لم نتكلم على الآية الأولى ، وهي قوله تبارك وتعالى ﴿ فَاذْكُرُونِي أَذْكُرْكُمْ وَاشْكُرُوا لِي وَلَا تَكْفُرُونِ ﴾ [البقرة : ١٥٢] فاعلم أن ذكر الله ﷻ هو ذكر القلب ، وأما ذكر اللسان مجردًا عن ذكر القلب ؛ فإنه ناقص ، ويدل لهذا قوله ﷻ ﴿ وَلَا تُطِعْ مَنْ أَغْفَلْنَا قَلْبَهُ عَن ذِكْرِنَا وَاتَّبَعَ هَوَاهُ ﴾ [الكهف : ٢٨] ولم يقل : من أغفلنا لسانه عن ذكرنا ، قال : ﴿ مَنْ أَغْفَلْنَا قَلْبَهُ عَن ذِكْرِنَا ﴾ فالذكر النافع هو ذكر القلب ، وذكر القلب يكون في كل شيء ، يعني معنى ذلك أن الإنسان وهو يمشي وهو قاعد وهو مضجع إذا تفكر في آيات الله ﷻ فهذا من ذكر الله ، ومن ذِكْرِ الله أيضًا ما جاء في السنة مثل « لا إله إلا الله وحده لا شريك له ، له الملك وله الحمد ، وهو على كل شيء قدير » [١] و « سبحان الله » [٢] وما أشبه ذلك .

ومن ذِكْرِ الله أيضًا الصلاة ؛ فإنها من ذكر الله ، قال الله تبارك وتعالى ﴿ اتْلُ مَا أُوحِيَ إِلَيْكَ مِنَ الْكِتَابِ وَأَقِمِ الصَّلَاةَ إِنَّ الصَّلَاةَ تَنْهَىٰ عَنِ الْفَحْشَاءِ وَالْمُنكَرِ وَلَذِكْرُ اللَّهِ أَكْبَرُ ﴾ [العنكبوت : ٤٥] .

قال بعض العلماء : المعني : ولنا فيها من ذكر الله أكبر ، فعلى كل حال ينبغي للإنسان عند ذكر الله باللسان أن يكون ذاكرًا لله بقلبه حتى يتطابق القلب واللسان وتحصل الفائدة ، لأن مجرد الذكر باللسان ينفع الإنسان ولكنه ناقص ، لكن الذكر بالقلب هو الأصلي .

والمهم : اعلم أن الله تعالى يقول : ﴿ فَاذْكُرُونِي أَذْكُرْكُمْ ﴾ وقد ثبت عن النبي ﷺ أن الله قال : « من ذكرني في نفسه ذكرته في نفسي ، ومن ذكرني في ملأ ذكرته في ملأ خير منه » [٣] ، يعني الإنسان إذا ذكر الله في نفسه وليس حوله أحد ، ذكره الله في نفسه ، وإن ذكر الله وحوله ملأ يعني في جماعة ؛ ذكره الله في ملأ خير منهم ، وهذا يدل على أن الله تعالى التزم بأن من ذكره في نفسه ذكره في نفسه ، ومن ذكره في ملأ ذكره في ملأ خير منهم ، وقال : ﴿ وَاشْكُرُوا لِي وَلَا تَكْفُرُونِ ﴾ [البقرة : ١٥٢] وقد سبق معنى الشكر ومعنى الكفران ، ويأتي - إن شاء الله - بقية الكلام على هذا الباب في الأحاديث القادمة .

---

(١) أخرجه : البخاري في الرقاق (٦٤٧٣) ، ومسلم في المساجد (١٣٧) ، وأبو داود في السنن (١٥٠٥) ، والترمذي في السنن (٢٢٩) .

(٢) ورد اللفظ في أكثر من موضع في كتب الحديث منها : البخاري في العلم (١١٥) ، ومسلم الحيض (١١٥) ، وأحمد في مسنده (٥٧/٤) وغيرها .

(٣) أخرجه أحمد في مسنده (٣٥٤/٢ ، ٤٠٥) .

١٣٩٣ - وعَنْ أَبي هُرَيرَةَ ﷺ أَنَّ النبيَّ ﷺ أُتيَ لَيلَةَ أُسْرِيَ بِهِ بِقَدَحَينِ مِن خَمْرٍ وَلَبَنٍ ، فَنَظَرَ إِلَيهِمَا ، فَأَخَذَ اللَّبَنَ ، فَقَالَ جبريلُ ﷺ : « الحَمْدُ للّهِ الَّذي هَدَاكَ لِلفِطْرَةِ ، لَو أَخَذْتَ الخَمْرَ غَوَتْ أُمَّتُكَ » [١] رواه مسلم .

١٣٩٤ - وعَنْهُ عَنْ رسُول اللّهِ ﷺ قالَ : « كُلُّ أَمْرٍ ذِي بَال لا يُبْدَأُ فيهِ بالحَمْد للّهِ ؛ فَهُوَ أَقْطَعُ » [٢] حديثٌ حَسَنٌ ، رواهُ أَبو داود وغيرُهُ .

١٣٩٥ - وَعَنْ أَبي مُوسى الأَشعَرِيِّ ﷺ أَنَّ رسول اللّه ﷺ قالَ : « إذا ماتَ وَلَدُ العَبْدِ قالَ اللّهُ تَعَالى لملائكَتِهِ : قَبَضْتُمْ وَلَدَ عَبْدِي ؟ فيقولُونَ : نَعَمْ ، فَيَقُولُ : قَبَضْتُمْ ثَمَرَةَ فُؤَادِهِ ؟ فيقولون : نَعَمْ ، فيقولُ : مَاذَا قالَ عَبْدِي ؟ فيقولون : حَمِدَكَ وَاسْتَرْجَع ، فَيَقُولُ اللّهُ تَعالى : ابْنُوا لِعَبْدِي بَيتًا في الجَنَّةِ ، وَسَمُّوهُ بَيتَ الحَمْدِ » [٣] رواهُ الترمذي وقالَ : حديثٌ حسنٌ .

١٣٩٦ - وعنْ أَنسٍ ﷺ قالَ : قالَ رسول اللّه ﷺ : « إنَّ اللّهَ لَيَرْضَى عَنِ العَبْدِ يَأْكُلُ الأَكْلَةَ ؛ فَيَحْمَدُهُ عَلَيهَا ، وَيَشْرَبُ الشَّرْبَةَ ؛ فَيَحْمَدُهُ عليهَا » [٤] رواه مسلم .

الشرح

هذه الأحاديث ذكرها المؤلف ﷺ لبيان حمد اللّه وشكره ، ومن المعلوم لنا جميعًا أن كل ما بنا من نعمة فمن اللّه ﷻ ، وأنه إذا مسنا الضر فليس لنا ملجأ إلا إلى اللّه ، وأن الإنسان إذا أصيب بما يكره أو بما يؤذيه ؛ فإن اللّه تعالى يكفر بذلك عنه ، ما من أذىً أو همٍّ أو غمٍّ يصيب المؤمن إلا كَفَّرَ اللّه بذلك عنه حتى الشوكة يشاكها [٥] ، الشوكة إذا شكتك فإن اللّه يكفر بها عنك ، إذًا فنعم اللّه عظيمة كثيرة لا تعد ولا تحصى ، لذلك يجب علينا أن نحمد اللّه تعالى وأن نشكره على نعمه التي أسبغها علينا ، ومن فوائد الحمد : أن الإنسان إذا ابتدأ الشيء بحمد اللّه فإن اللّه تعالى يجعل فيه البركة ، إذا ابتداه بحمد اللّه جعل اللّه فيه البركة ، يعني أراد أن يؤلف كتابًا أو يتكلم في كلام ، خطبة أو غير ذلك ، إذا حمد اللّه جعل اللّه فيه البركة ، وكل أمر لا يُبدأ فيه بحمد اللّه فهو أقطع ، يعني منزوع البركة ، لكن قد ينوب عن الحمد غيره كالبسملة مثلًا ، البسملة أيضًا يبارك اللّه فيها بأشياء كثيرة منها : أن الإنسان إذا ذبح الذبيحة إن قال : بسم اللّه حلت الذبيحة ، وكانت طيبة ، وإن قال : الحمد للّه لم تحل الذبيحة ؛ لأن الذبيحة لا تحل إلا بالبسملة ، وإذا قال عند الذبح : اللّه

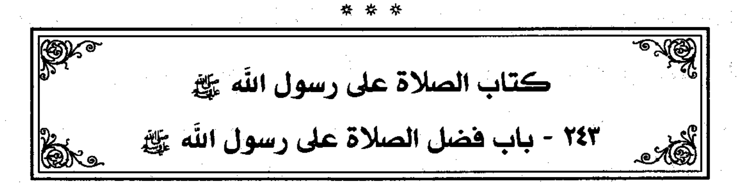
(١) أخرجه مسلم في الإيمان(٢٧٢) وذكره هنا بمعناه . قوله : « الفطرة » أي الإسلام ، والحاكم في المستدرك(٢٧٨/٣) بلفظه .
(٢) أخرجه أبو داود في الأدب(٥٨٤٠) بمعناه ، وابن ماجه في النكاح(١٨٩٤) ، والطبراني في الكبير(٧٢/١٩) . قوله : « ذي بال » أي ذو أهمية ، قوله : « أقطع » أي لا بركة فيه .
(٣) أخرجه الترمذي في الجنائز(١٠٢١) .
(٤) أخرجه مسلم في الذكر والدعاء(٨٩) ، وأحمد في مسنده(١٠٠/٣) ، والترمذي في الأطعمة(١٨١٦) .
(٥) انظر ما يدل على ذلك في مسلم في البر والصلة(٤٦) ، وأحمد في مسنده(٤٤١/١) .

أكبر ولم يقل : بسم الله لم تحل الذبيحة . فكل أمر يبدأ فيه بالحمد لله فهو خير وبركة ، لكن قد ينوب عن الحمد ما سواه كالبسملة عند الأكل والشرب والذبح والوضوء وإتيان الرجل أهله ، يقول : « بسم الله ، اللهم جنبنا الشيطان وجنب الشيطان ما رزقتنا » (١) ، وغير ذلك .

ومن فوائد الحمد : أن الله ﷻ يرضى عن العبد إذا أكل الأكلة أن يحمده عليها ، وإذا شرب الشربة أن يحمده عليها ، فما هي الأكلة ؟ هل هي الوجبة ، أو كل ردة يردها الإنسان إلى فمه فهي أكلة ؟ الحديث محتمل ، وكان الإمام أحمد بن حنبل رحمه الله كل ما أكل ردة قال : الحمد لله ، فقيل له : يا أبا عبد الله ، ما هذا ؟ قال : أكل وحمد خير من أكل وسكوت ، وكأن الإمام أحمد رحمه الله رأى أن الأكلة هي الردة ، وعلى هذا يكون حمد الإنسان على طعامه كثيرًا ، لكن أكثر العلماء يقولون : إن الأكلة هي الوجبة ، تجلس على الطعام ، وإذا خلصت تقول : الحمد لله ، والحمد كله خير ، فهذه من فوائد الحمد ، أنه إذا حمد الإنسان على أكله وشربه كان ذلك سببًا لرضا الله ﷻ عنه ، نسأل الله أن يحل علينا وعليكم الرضا ، إنه على كل شيء قدير .

سؤال وجوابه : الأكل باليسار والشرب باليسار حرام ، والذي يأكل بشماله ويشرب بشماله مشابه للشيطان مقتد بالشيطان ، مجانب لهدي الرحمن (٢) . ولهذا رأى النبي ﷺ رجلًا يأكل بشماله ، قال : « كل بيمينك » قال : لا أستطيع ، فقال له : استطعت (٣) فشلت يمينه وسار لا يستطيع أن يرفعها إلى فمه . وهذا يدل على أن الإنسان يجب عليه أن يأكل باليمين ويشرب باليمين ، حتى الشرب وأنت تأكل لا تشرب بالشمال اشرب باليمين حتى لو تلوث الكأس أو الماعون لا يهم ، تُغسل ، والله الموفق .

* * *



كتاب الصلاة على رسول الله ﷺ

٢٤٣ - باب فضل الصلاة على رسول الله ﷺ

قالَ اللّه تعالى : ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ وَمَلَٰٓئِكَتَهُۥ يُصَلُّونَ عَلَى ٱلنَّبِيِّۚ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ صَلُّواْ عَلَيۡهِ وَسَلِّمُواْ تَسۡلِيمًا ﴾ [الأحزاب : ٥٦] .

١٣٩٧ - وعَنْ عَبدِ اللَّهِ بنِ عَمرو بنِ العاصِ رضي الله عنهما أَنَّهُ سَمِعَ رسول الله ﷺ يقُولُ : « مَنْ صَلَّى عَلَيَّ صَلاةً ، صَلَّى اللَّهُ عَلَيهِ بِهَا عَشْرًا » (٤) رواه مسلم .

---

(١) أخرجه أبو داود في السنن (٢١٦١) ، والدارمي في السنن (١٤٥/٢) .

(٢) وذلك مصداقًا لما رواه الترمذي في السنن (١٧٩٩) ، وأحمد في مسنده (٨٠/٢) .

(٣) انظر الحديث في مسلم في الأشربة (١٠٧) ، والدارمي في الأطعمة (٨) .

(٤) أخرجه مسلم في الصلاة (٣٨٤) ، وأحمد في مسنده (١٦٨/٢) ، والحاكم في المستدرك (٥٥٠/١) .

الشرح

ذكر المؤلف رحمه الله في باب فضل الصلاة على النبي ﷺ أن الأمر يكون تارة للوجوب وتارة يكون للاستحباب ، فالذي للوجوب : يعني أن الإنسان إذا تركه فهو آثم عاص مستحق للعقوبة .

وأما الذي للاستحباب : أن الإنسان إذا فعله فله أجر ، وإذا تركه فليس عليه إثم ، فيتفق الواجب والمستحب بأن فيهما ثوابًا لفعلهما ، لكن ثواب الواجب أعظم وأكثر ؛ لقول النبي ﷺ في الحديث القدسي : إن اللَّه تعالى قال : « ما تقرب إليَّ عبدي بشيء أحب إليّ مما افترضته عليه »[١] .

ويختلف الواجب عن المستحب : بأن تارك الواجب آثم عاص للَّه ومستحق للعقوبة ، وتارك المستحب لا يأثم ، لكن فاته خير ، والأمر بالصلاة على النبي ﷺ أطلقه المؤلف رحمه الله فاختلف العلماء - رحمهم اللَّه - هل تجب الصلاة على النبي ﷺ في العمر مرة أو بأسباب أو لا تجب ، والصحيح أنها تجب بأسباب ، وإلا فالأصل أنها مستحبة . فما معنى الصلاة على النبي ﷺ ، أي ما معنى قول القائل : اللَّهم صل على محمد ؟ أكثر الناس يقرأ هذا أو يدعو بهذا الدعاء وهو لا يدري معناه ، وهذا غلط ، كل شيء تقوله تعرف معناه ، كل شيء تدعو به تعرف معناه حتى لا تدعو بإثم ، فقولك اللَّهم صل على محمد يعني : اللَّهم اثْنِ عليه في الملأ الأعلى ، ومعنى أثن عليه يعني : اذكره بالصفات الحميدة . والملأ الأعلى هم الملائكة ، فكأنك إذا قلت : اللَّهم صل على محمد ، كأنك تقول : يا رب صفه بالصفات الحميدة ، واذكره عند الملائكة حتى تزداد محبتهم له ، ويزداد ثوابهم بذلك ، هذا معنى اللَّهم صل على محمد . واختلف العلماء - رحمهم اللَّه - هل يصلى على غير النبي أم لا ؟ يعني هل يجوز أن تقول : اللَّهم صل على فلان أو العالم الفلاني أو الشيخ الفلاني ، أو اللَّهم صل على أبي أو ما أشبه ذلك . والصحيح أن في ذلك تفصيلًا ، فإن كان ذلك تابعًا للصلاة على النبي ﷺ فلا بأس ، ولهذا قال الرسول ﷺ حين سألوه كيف يصلون عليه ؟ قال : قولوا اللَّهم صلِّ على محمد وعلى آل محمد »[٢] . وإن كان مستقلًا ، فإن كان لسبب فلا بأس ، ومن ذلك إذا أتى الإنسان إليك بصدقته لتوزعها ، فقل : اللَّهم صل عليه ، وواحد أعطاك مائتي ألف ريال يقول : هذه للزكاة وزعها ، فقل : اللَّهم صل على فلان ، ويسمع هذا منك ، لقول اللَّه تبارك وتعالى لنبيه ﷺ ﴿ خُذْ مِنْ أَمْوَٰلِهِمْ صَدَقَةً تُطَهِّرُهُمْ وَتُزَكِّيهِم بِهَا وَصَلِّ عَلَيْهِمْ ﴾ [التوبة : ١٠٣] . قال عبد اللَّه بن أبي أوفى ، فأتيت بصدقتي ، أو قال أتاه أبي ، فقال : « اللَّهم صلِّ على آل أبي أوفى »[٣] هذا أيضًا لا بأس ، كذلك إذا صليت على إنسان دون أن تجعل ذلك شعارًا له كلما ذكرته صليت عليه فلا بأس ، يعني حتى لو قلنا : اللَّهم صل على أبي بكر ، أو على عمر ، أو على عثمان ، أو علي ؛ فلا بأس ولكن لا تجعل هذا شعارًا كلما ذكرت هذا صليت عليه ؛ لأنك إذا فعلت ذلك جعلته كأنه نبي .

---

(١) أخرجه البخاري في الرقاق (٦٦٠٢) .

(٢) أخرجه البخاري في التفسير (٤٧٩٧) ، ومسلم في الصلاة (٦٦) .

(٣) أخرجه البخاري في الدعوات (٦٣٣٢) ، ومسلم في الزكاة (١٧٦) ، وأحمد في مسنده (٣٥٣/٤) .

ثم صدر المؤلف هذا الباب بالآية الكريمة ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ وَمَلَٰٓئِكَتَهُۥ يُصَلُّونَ عَلَى ٱلنَّبِيِّۚ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ صَلُّواْ عَلَيۡهِ وَسَلِّمُواْ تَسۡلِيمًا ﴾ [الأحزاب: ٥٦] فتأمل ما في هذه الآية من خبر وأمر وتأكيد، ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ وَمَلَٰٓئِكَتَهُۥ يُصَلُّونَ عَلَى ٱلنَّبِيِّۚ ﴾ هذا خبر، أخبرنا الله بذلك حثًّا لنا على الصلاة والسلام عليه، « الله وملائكته » كل الملائكة في كل السماوات والأرض يصلون على النبي، والملائكة عالم الغيب من مخلوقات الله، لا يحصيهم إلا الله ﷻ. البيت المعمور في السماء السابعة يدخله كل يوم سبعون ألف ملك كل يوم ثم لا يعودون إليه [(١)] يعني يجيء ملائكة غيرهم. إذن من الذي يحصيهم ؟ لا يحصيهم إلا الله، وفي الحديث عن النبي ﷺ: « أطّت السماء وحُق لها أن تئط » [(٢)] والأطيط: هو صوت الرحل يعني صرير السنابل على البعير ولا يصر إلا إذا كان عليه حمل ثقيل، تسمع له صرخة، ويقول: « وحق لها أن تئط »، ما من موضع أربعة أصابع إلا وفيه ملك قائم لله أو راكع أو ساجد.

والسماء ليست كالأرض، السماء أوسع بكثير بكثير من الأرض، انظر الآن بُعْدَها الشاسع، وهي على الأرض كالكرة فتكون دائرتها واسعة عظيمة، والسماء الثانية أوسع، والثالثة أوسع، والرابعة أوسع، والخامسة أوسع، والسادسة أوسع، والسابعة أوسع. كل سماء في ملائكة، بين أربعة أصابع فيها ملك قائم لله، راكع ساجد، إذًا من الذي يحصي الملائكة ؟ إذا كنا لا نحصي الملائكة فهل يمكن أن نحصي الصلاة على الرسول، لا، لأن الملائكة يصلون على النبي فلا تحصى الصلاة على النبي ﷺ، انظر فضل الله واسع، أعطى الله هذا الرجل، رسول الله ﷺ، أعطاه الله هذه الفضيلة العظيمة التي لا ينالها أحد فيما نعلم، ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ وَمَلَٰٓئِكَتَهُۥ يُصَلُّونَ عَلَى ٱلنَّبِيِّۚ ﴾ [الأحزاب: ٥٦] هذا خبر أراد الله منا أن نتشجع، ولهذا قال بعدها: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ﴾ بمقتضى إيمانكم صلوا عليه. وجه الخطاب لنا بصدد الإيمان؛ لأن الإيمان هو الذي يحمل الإنسان على امتثال الأمر ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ صَلُّواْ عَلَيۡهِ وَسَلِّمُواْ تَسۡلِيمًا ﴾ الصلاة والسلام، ﴿ صَلُّواْ عَلَيۡهِ ﴾ أي: ادعوا الله أن يثني عليه في الملأ الأعلى، ﴿ وَسَلِّمُواْ ﴾ عليه أي: ادعوا الله أن يسلمه تسليمًا تامًّا، ومما يسلمه ؟ في حياته: يسلمه من الآفات الجسدية والآفات المعنوية، وبعد موته: من الآفات المعنوية، بمعنى أن تسلم شريعته من أن يقضي عليها قاض، أو ينسخها ناسخ، وكذلك الجسد؛ لأنه ربما يعتدى عليه بعد موته في قبره، كما يأتي في قصة مشهورة أن رجلين أرادا أن يستخرجا جسد النبي ﷺ فنزلا المدينة وبدأ يحفران من تحت الأرض حفرة حتى يتوصلا إلى قبر النبي ﷺ فيأخذا جسده الشريف، فبقيا على ذلك مدة، فرأى أحد الملوك في المنام أن رجلين يحفران ليصلا إلى جسد النبي ﷺ ويأخذاه، فاهتم بذلك اهتمامًا عظيمًا، ثم ارتحل إلى المدينة، ارتحل إلى المدينة، وصل المدينة، فمن أين يعلم هذين الرجلين ؟ كيف يتوصل إلى معرفتهما ؟ فقال لأمير المدينة: ادع لي جميع أهل المدينة؛ لأنه في المنام إما وُصفا له أو رآهما في المنام وعرفهما، فقال: ادع لي أهل المدينة، فدعاهم، فأطعمهم ومشوا،

---

(١) أخرجه أحمد في مسنده (٣/١٥٣)، والحاكم في المستدرك (٢/٤٦٨)، والطبراني في الكبير (١١/٤١٧) والألباني في الصحيحة (٤٧٧).

(٢) أخرجه أحمد في مسنده (٥/١٧٣).

وما رأى الرجلين ، فقال : ادع لي أهل المدينة ، فدعاهم أظن مرتين أو ثلاثًا ، ولم ير الرجلين ، والرؤيا التي رآها حق لابد أن يكون هذا ، قال : أين أهل المدينة ؟ قالوا : ليس هناك أحد ، إلا رجلين غريبين في المسجد - يعني ليس لهما قيمة - قال : أحضروهما ، فجيء بهما ، فإذا هما اللذان رآهما في المنام ، فعرفهما ثم أمر بأن يحفر في الأرض حفرة على جوانب الحجرة التي فيها قبر النبي ﷺ قبل أن تكون حجرة بالبناء ، ثم صبها بالنحاس والرصاص والرخام ، حتى يحمي الله جسد هذا النبي الكريم ، فصب الرصاص إلى الأرض ، ولهذا قبر النبي محفوظ حفظًا تامًا . فالمهم أن قول المسلم : اللّهم صل وسلم على محمد ، يعني سلمه من الآفات الجسدية حيًا وميتًا ، وسلمه أيضًا ، سلم شريعته من أن يطمسها أحد أو أن يعدو عليها أحد . ثم اعلموا أيها الإخوان أن أجساد الأنبياء لا يمكن أن تأكلها الأرض ، لا يمكن لأن الله حرم على الأرض أن تأكل أجساد الأنبياء [١] ، إذن فأجساد الأنبياء سالمة من الأرض ، الأرض التي تأكل كل جسد إلا من شاء الله لا تأكل أجساد الأنبياء . والحاصل أن في هذه الآية الكريمة أمر الله تعالى أن نصلي ونسلم عليه تسليمًا ، والصلاة عليه واجبة في مواضع ، منها :إذا ذكر اسمه عندك فصل عليه ؛ لأن جبريل أتى إلى النبي ﷺ وقال : « رغم أنف امرء ذكرت عنده فلم يصل عليك » . رغم أنف ، معني رغم : يعني سقط في الرغامة ، الرغامة هي الأرض الترابية « رغم أنف امرء ذكرت عنده فلم يصل عليك » يعني إذا سمعت ذكر الرسول ﷺ فقل : اللّهم صلِّ وسلم عليه ، فإن له حقًّا عليك . تجب الصلاة على النبي أيضًا عند كثير من العلماء في الصلاة في التشهد الأخير ، فعند كثير من العلماء أنها ركن لا تصح الصلاة إلا به [٢] ، وعند بعضهم أنها سنة [٣] ، وعند بعضهم أنها واجب [٤] . والاحتياط أن لا يدعها الإنسان في صلاته ؛ أي الصلاة على النبي ، ولو أن الإنسان جعل كل دعاء يدعو به مقرونًا بالصلاة على النبي ﷺ لكان كما جاء في الحديث يكفي همه ويغفر ذنبه .

ولهذا أكثر يا أخي من الصلاة والسلام على الرسول ليزداد إيمانك ويسهل لك الأمر . ثم اعلم أن الرسول ﷺ بشر لا يملك النفع لك ولا الضر ، فلا تسأله ، لا تقل : يا رسول الله ، افعل كذا ، يا رسول الله ، استغفر لي ، يا رسول الله ، أغثني ، يا رسول الله ، سهل أمري . هذا حرام ، شرك أكبر ؛ لأنه لا يجوز أن تدعو مع الله أحدًا ، الدعاء خاص بمن بالله ، قال تعالى : ﴿ وَقَالَ رَبُّكُمُ ادْعُونِيٓ أَسْتَجِبْ لَكُمْ إِنَّ ٱلَّذِينَ يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِي سَيَدْخُلُونَ جَهَنَّمَ دَاخِرِينَ [٥] ﴾ [غافر : ٦٠] فإن قال قائل : أيهما أعظم حقًّا الوالدان - يعني الأم والأب - أم الرسول ؟ أقول الرسول أعظم من حق نفسك عليك [٦] ، ولهذا يجب على الإنسان أن يفتدي نفسه للرسول ، يجب على كل إنسان أن

---

(١) انظر لذلك : ما رواه النسائي في الجمعة (٣/٩٣ ، ٩٤) والدارمي في السنن (٢٠٦) وأحمد في مسنده (٤/٨) .

(٢) وهذا هو رأي الشافعية والحنابلة في الراجح من مذهبهم ، إذ قالوا : إن الصلاة على النبي في التشهد الذي يسبق التسليم فرض ، فلو تركها عامدًا فسدت صلاته . (انظر المجموع ٣/٤٦٥ ، والمغني ١/٥٤٢) .

(٣) وهذا مذهب الحنفية والمالكية انظر . (أسهل المدارك ١/١١٠) وتحفة الفقهاء (١/٢٣٧) .

(٤) وهذا مذهب بعض الحنابلة (انظر المغني ١/٥٤٢) .

(٥) قوله : ﴿ دَاخِرِينَ ﴾ أي : صاغرين أذلاء .

(٦) وذلك مصداقًا لما رواه البخاري في الإيمان (١٥) ومسلم في الإيمان (٦٩) .

يكون الرسول أحب إليه من نفسه وولده ووالده والناس أجمعين .

فإن قال قائل : أليس الله يذكر حق الوالدين بعد حقه ؟ قلنا : بلى ﴿ وَقَضَىٰ رَبُّكَ أَلَّا تَعْبُدُوٓا۟ إِلَّآ إِيَّاهُ وَبِٱلْوَٰلِدَيْنِ إِحْسَٰنًا ﴾ [الإسراء : ٢٣] ولكن حق الرسول متبوع بحق الله ؛ لأن عبادة الله لا تتم إلا بالإخلاص لله والمتابعة لرسول الله ﷺ .

والله ﷻ يصطفي من الملائكة رسلًا ومن الناس ، والله ﷻ يخلق ما يشاء ويختار ، والله ﷻ أعلم حيث يجعل رسالته ، فجعل خير الرسالات في محمد ﷺ ، وختم به النبوة ، فلا نبي بعده ، فمن ادعى أنه نبي بعد رسول الله ؛ فإنه كافر ، ومن صدقه فإنه كافر أيضًا ، لقول الله تعالى : ﴿ مَّا كَانَ مُحَمَّدٌ أَبَآ أَحَدٍ مِّن رِّجَالِكُمْ وَلَٰكِن رَّسُولَ ٱللَّهِ وَخَاتَمَ ٱلنَّبِيِّۦنَ ﴾ [الأحزاب : ٤٠] وقد أمر الله بالصلاة على نبيه والسلام عليه ، فقال تعالى ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ وَمَلَٰٓئِكَتَهُۥ يُصَلُّونَ عَلَى ٱلنَّبِىِّ ۚ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ صَلُّوا۟ عَلَيْهِ وَسَلِّمُوا۟ تَسْلِيمًا ﴾ [الأحزاب : ٥٦] . فبدأ الله بالإخبار عن نفسه وعن ملائكته أنهم يصلون على النبي ، وهذه الآية كما تعرفون في سورة الأحزاب التي أمر الله تعالى فيها نبيه بتقوى الله ﷻ وأنزل عليه أعظم آية فيما يتعلق بفعل الرسول ﷺ فقال : ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِىُّ ٱتَّقِ ٱللَّهَ وَلَا تُطِعِ ٱلْكَٰفِرِينَ وَٱلْمُنَٰفِقِينَ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَلِيمًا حَكِيمًا ﴾ [الأحزاب : ١] وقال تبارك وتعالى له : ﴿ وَإِذْ تَقُولُ لِلَّذِىٓ أَنْعَمَ ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَأَنْعَمْتَ عَلَيْهِ أَمْسِكْ عَلَيْكَ زَوْجَكَ وَٱتَّقِ ٱللَّهَ وَتُخْفِى فِى نَفْسِكَ مَا ٱللَّهُ مُبْدِيهِ وَتَخْشَى ٱلنَّاسَ وَٱللَّهُ أَحَقُّ أَن تَخْشَىٰهُ ﴾ [الأحزاب : ٣٧] فلما نزلت هذه القوارع العظيمة على رسول الله ﷺ ، جبر الله ذلك بقوله : ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ وَمَلَٰٓئِكَتَهُۥ يُصَلُّونَ عَلَى ٱلنَّبِىِّ ۚ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ صَلُّوا۟ عَلَيْهِ وَسَلِّمُوا۟ تَسْلِيمًا ﴾ وبقوله : ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ يُؤْذُونَ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ لَعَنَهُمُ ٱللَّهُ فِى ٱلدُّنْيَا وَٱلْءَاخِرَةِ وَأَعَدَّ لَهُمْ عَذَابًا مُّهِينًا ﴾ [الأحزاب : ٥٧] فانجبرت هذه القوارع التي نزلت من الله تعالى في حق رسول الله ﷺ .

وقوله : ﴿ وَمَلَٰٓئِكَتَهُۥ ﴾ يشمل كل ملك في السماوات والأرض ؛ فإنه يصلي على النبي ﷺ .

ومعنى الصلاة من الله على رسوله : الثناء عليه في الملأ الأعلى ، يعني : أن الله يحمده ويثني عليه ويبين فضله في الملأ الأعلى في الملائكة .

وأما معنى الصلاة عليه من الملائكة والبشر : فهو الدعاء له بأن يصلي الله عليه . ثم أَمَرَ لما ذَكَرَ أنه وملائكته يصلون عليه ، أمرنا بأن نصلي ونسلم ، وهذا الأمر مطلق لم يبين متى ، لكنه جاء في السنة أنه يصلى عليه الصلاة والسلام في مواضع منها : في التشهد في الصلاة ، فإن الصحابة قالوا : يا رسول الله ، علمنا كيف نصلي ونسلم عليك إذا نحن صلينا عليك في صلاتنا ؟ قال : « قولوا : اللَّهم صلِّ على محمد ، إلى آخره » ومنها : إذا ذكر اسمه فإنك تصلي عليه ، إما وجوبًا أو استحبابًا ؛ لأن النبي ﷺ قال : « رغم أنف امرئ ذكرت عنده فلم يصلِّ علي » وقال جبريل يخاطب النبي ﷺ : « رغم أنف امرئ ذكرت عنده فلم يصل عليك » ، قل : آمين ، فقال : « آمين » فالصلاة عليه إذا ذكر واجبة عند كثير من العلماء ومستحبة عند أكثر العلماء ، وقوله : « صلوا عليه » أي : اسألوا الله الصلاة عليه ، قولوا : اللَّهم صلِّ على محمد ، « وسلموا عليه » يعني : اسألوا الله له السلامة من كل آفة ، من كل آفة في حياته ، ومن كل بلاء في حشره عليه الصلاة والسلام ؛ لأن الأنبياء في الحشر ،

كل يدعو : اللَّهم سلم ، اللَّهم سلم ، اللَّهم سلم [١] ، وكذلك يتضمن الدعاء بالسلامة لدينه وشريعته أن يسلمها اللَّه تعالى من الأعداء فلا يسطو عليها بتحريف أو تغيير ؛ إلا سلط اللَّه عليه من يبين ذلك . وهذا هو الواقع ولله الحمد .

* * *

١٣٩٧ - وعنْ عَبدِ اللَّهِ بنِ عَمرو بنِ العاصِ ﷺ أَنَّهُ سَمِعَ رسول اللَّه ﷺ يقُولُ : « مَنْ صَلَّى عَلَيَّ صَلاةً ، صَلَّى اللَّهُ عَلَيهِ بِهَا عَشْرًا » [٢] رواه مسلم .

١٣٩٨ - وَعَنِ ابنِ مَسْعُودٍ ﷺ أَنَّ رسول اللَّه ﷺ قالَ : « أَولى النَّاسِ بي يَومَ القِيامَةِ أَكثَرُهُمْ عَلَيَّ صَلاةً » [٣] . رواهُ الترمذي وقالَ : حديثٌ حسنٌ .

١٣٩٩ - وعن أَوسِ بنِ أوسٍ ﷺ قالَ : قالَ رسول اللَّه ﷺ : « إنَّ مِنْ أَفْضَلِ أيَّامِكُم يَومَ الجُمُعَةِ ، فَأَكثِرُوا عَلَيَّ مِنَ الصَّلاةِ فِيهِ ، فَإِنَّ صلاتَكُمْ مَعْرُوضَةٌ عَلَيَّ » فقالوا : يا رَسُولَ اللَّهِ ، وَكَيفَ تُعْرَضُ صَلاتُنَا عَلَيكَ وَقَدْ أَرِمْتَ ؟ - قالَ : يقولُ : بَلِيتَ - قالَ : « إنَّ اللَّهَ ﷻ حَرَّمَ عَلى الأَرْضِ أَجْسادَ الأَنْبِيَاءِ » [٤] . رواهُ أبو داود بإسنادٍ صَحيحٍ .

الشرح

هذه الأحاديث الثلاثة في بيان فضل الصلاة على النبي ﷺ وقد تقدم لنا معنى الصلاة عليه ، فالحديث الأول عن عبد اللَّه بن عمرو بن العاص ﷺ ، أن النبي ﷺ قال : « من صلى عليَّ مرة واحدة ؛ صلى اللَّه عليه بها عشرة » . يعني : إذا قلت : اللَّهم صل على محمد ، صلى اللَّه عليك بها عشر مرات ، فأثنى اللَّه عليك في الملأ الأعلى ، عشر مرات ، وهذا يدل على فضيلة الصلاة على رسول اللَّه ﷺ ، ويدل على علو مرتبة النبي ﷺ عند اللَّه حيث جازى من صلى عليه بعشر أمثال عمله ، يصلي اللَّه عليه عشر مرات .

وأما الحديث الثاني : فعن ابن مسعود ﷺ أن النبي ﷺ أخبر أن أولى الناس به أكثرهم صلاة عليه ، أولى الناس به يوم القيامة وأقربهم منه من صلى عليه ، عليه الصلاة والسلام . وهذا أيضًا يدل على الترغيب في كثرة الصلاة على النبي ﷺ .

أما الحديث الثالث : فهو حديث أوس بن أوس : أن النبي ﷺ أمر أن نكثر من الصلاة عليه يوم الجمعة ، وأخبر بأن صلاتنا معروضة عليه ، تعرض عليه ، فيقال : صلى عليك فلان ابن فلان ، أو

---

(١) أخرجه البخاري في التوحيد (٧٤٣٧) ، ومسلم في الإيمان (٢٩٩) وأحمد في مسنده (٢/٢٩٣) .
(٢) أخرجه مسلم في الصلاة (٣٨٤) ، وأحمد في مسنده (٢/١٦٨) ، والحاكم في المستدرك (١/٥٥٠) .
(٣) أخرجه الترمذي في الصلاة (٤٨٤) . قوله « أولى الناس بي » أي أخص أمتي بي وأقربهم مني وأحقهم بشفاعتي .
(٤) أخرجه أبو داود في الصلاة (١٠٤٧) والنسائي في السنن (٣/٩١) وابن ماجه في إقامة الصلاة (١٠٨٥) .

تعرض عليه ، يقال : صلى عليك رجل من أمتك ، اللّٰه أعلم هل يعين المصلى أم لا ، المهم أنها تعرض على النبي ﷺ ، فقالوا : يا رسول اللّٰه ، كيف تعرض عليك ، وقد أرمت ، أو أَرَمت ، أي : بليت ، فقال : « إن اللّٰه حرم على الأرض أن تأكل أجساد الأنبياء » . فالأنبياء عليهم الصلاة والسلام مهما بقوا في الأرض فإن الأرض لا تأكلهم ، أما غير الأنبياء فإنها تأكلهم ، لكن قد يكرم اللّٰه تعالى بعض الموتى فلا تأكلهم الأرض وإن بقوا . لكننا لا نتيقن أن أحدًا لا تأكله الأرض إلا الأنبياء عليهم الصلاة والسلام . ففي هذه الأحاديث الثلاثة الترغيب في كثرة الصلاة على النبي ﷺ ولا سيما في يوم الجمعة ، ولكن أَكْثِر الصلاة عليه في كل وقت ؛ فإنك إذا صليت مرة واحدة صلى اللّٰه بها عليك عشرة . اللّٰهم صل وسلم على عبدك ورسولك محمد وعلى آله وأصحابه أجمعين .

* * *

١٤٠٠ - وعَنْ أبي هُرَيرَةَ ﷺ قالَ : قالَ رسول اللّٰه ﷺ : « رَغِمَ أَنْفُ رَجُلٍ ذُكِرْتُ عِنْدَهُ فَلَمْ يُصَلِّ عَلَيَّ » [١] رواه الترمذي وقالَ : حديثٌ حسنٌ .

١٤٠١ - وعَنْهُ ﷺ قال : قالَ رسول اللّٰه ﷺ : « لا تَجْعَلُوا قَبْرِي عِيدًا ، وَصَلُّوا عَلَيَّ ؛ فَإنَّ صَلاتَكُمْ تَبْلُغُني حَيثُ كُنْتُمْ » [٢] رواه أبو داود بإسنادٍ صحيح .

١٤٠٢ - وعنهُ أنَّ رسول اللّٰه ﷺ قالَ : « مَا مِنْ أَحَدٍ يُسَلِّمُ عَلَيَّ ؛ إلا رَدَّ اللّٰهُ عَلَيَّ رُوحِي حَتَّى أَرُدَّ عليه السلام » [٣] . رواهُ أبو داود بإسنادٍ صحيح .

١٤٠٣ - وعن عَلِيٍّ ﷺ قالَ : قالَ رسولَ اللّٰه ﷺ : « البَخِيلُ مَنْ ذُكِرْتُ عِنْدَهُ ، فَلَمْ يُصَلِّ عَلَيَّ » [٤] . رواهُ الترمذي وقالَ : حديثٌ حَسنٌ صحيحٌ .

١٤٠٤ - وعَنْ فُضَالَةَ بنِ عُبَيدٍ ﷺ قالَ : سَمِعَ رسول اللّٰه ﷺ رَجُلًا يَدْعُو في صَلاتِهِ لَمْ يُمَجِّدِ اللّٰهَ تَعَالى ، وَلَمْ يُصَلِّ عَلى النبيِّ ﷺ ، فقالَ رسول اللّٰه ﷺ : « عَجلَ هذا » ثُمَّ دَعَاهُ فقالَ لهُ - أَو لِغَيرِهِ - : « إذا صَلَّى أَحَدُكُمْ فَلْيَبْدَأْ بِتَحْمِيدِ رَبِّهِ سُبْحَانَهُ ، وَالثَّنَاءِ عليهِ ، ثُمَّ يُصَلِّي عَلى النبيِّ ﷺ ، ثُمَّ يَدْعُو بعدُ بِمَا شَاءَ » [٥] . رواهُ أبو داودَ والترمذي وقالَ : حديثٌ حسن صحيحٌ .

---

(١) هذا الحديث لم يقم الشارح ﷺ بشرحه والحديث أخرجه الترمذي في الدعوات (٣٥٤٥) والحاكم في المستدرك (٥٤٩/١) وابن حبان في صحيحه (٩٠٨) . قوله « رغم أنف رجل » أي لصق أنفه بالتراب وهو الرغام ، كناية عن الذل ، وهذا إخبار أو دعاء .

(٢) أخرجه أبو داود في المناسك (٢٠٤٢) وأحمد في المسند (٣٦٧/٢) والبيهقي في شعب الإيمان (٤٩١/٣) .

(٣) أخرجه أبو داود في المناسك (٢٠٤١) وأحمد في المسند (٥٢٧/٢) والبيهقي في السنن (٢٤٥/٥) . قوله « رد اللّٰه علي روحي » أي رد علي نطقي .

(٤) أخرجه الترمذي في الدعوات (٣٥٤٦) وأحمد في المسند (١٧٣/١) .

(٥) أخرجه أبو داود في الصلاة (١٤٨١) والترمذي في الدعوات (٣٤٧٧) والنسائي في السنن (٤٤/٣) .

الشرح

هذه الأحاديث أيضًا فيها الأمر بالصلاة على النبي ﷺ وفضيلة ذلك ، فمنها حديث أبي هريرة ﷺ أن النبي ﷺ قال : « لا تجعلوا قبري عيدًا ، وصلوا علي ؛ فإن صلاتكم تبلغني حيثما كنتم » .

المعنى : لا تجعلوا القبر عيدًا تكرمونه بالمجيء إليه كل سنة مرة أو مرتين أو ما أشبه ذلك ، وفيه دليل على تحريم شد الرحل لزيارة قبر النبي ﷺ ، وأن الإنسان إذا أراد الذهاب إلى المدينة لا يقصد أن يسافر من أجل زيارة قبر الرسول ، ولكن يسافر من أجل الصلاة في مسجده ؛ لأن الصلاة في مسجده خير من ألف صلاة فيما سواه ، إلا المسجد الحرام [١] . قال : « وصلوا علي فإن صلاتكم تبلغني حيثما كنتم » ، إذا صليت على الرسول ﷺ فإن صلاتك تبلغه حيثما كنت في بر أو بحر أو جو ، قريبًا كنت أو بعيدًا ، وكذلك الحديث الثاني : أنه ما من رجل مسلم يسلِّم على النبي ﷺ إلا رد الله عليه روحه حتى يرد عليه السلام . فإذا سلمت على النبي ﷺ رد الله عليه روحه فرد عليك السلام ، والظاهر أن هذا فيمن كان قريبًا منه كأن يقف على قبره ، ويقول : السلام عليك أيها النبي ورحمة الله وبركاته ، ويحتمل أن يكون عامًّا والله على كل شيء قدير .

ثم ذكر المؤلف حديث علي بن أبي طالب ﷺ ، وحديث فضالة بن عبيد وفيهما أيضًا الحث على الصلاة على الرسول ﷺ ، ولكن حديث فضالة الظاهر أن المراد بذلك التشهد ، وأن هذا الرجل تشهد ، ولم يُثْنِ على الله ولم يمجده ، ولم يصل على النبي ولكنه دعا مباشرة ، ومعلوم أن التشهد فيه أولًا الثناء على الله في قوله : التحيات لله والصلوات والطيبات ، وفيه أيضًا السلام على النبي ﷺ والصلاة عليه ثم الدعاء . فيحمل - أعني حديث فضالة بن عبيد - على هذا ، على أن المراد بذلك الدعاء في الصلاة ، وأنه يسبق بالتحيات ثم بالسلام والصلاة على النبي ﷺ ثم الدعاء . والله الموفق [٢] .

* * *

١٤٠٥ - وعَنْ أَبي محمدٍ كَعْبِ بنِ عُجرَةَ ﷺ قالَ : خَرَجَ عَلَينَا النبيُّ ﷺ فقُلْنَا : يا رسولَ اللهِ ، قَدْ عَلِمْنَا كَيفَ نُسَلِّمُ عَلَيكَ ، فَكَيفَ نُصَلِّي عَلَيكَ ؟ قال : « قُولُوا : اللَّهُمَّ صَلِّ عَلى مُحَمَّدٍ ، وَعَلى آلِ مُحَمَّدٍ ، كَمَا صَلَّيتَ عَلَى آلِ إبْرَاهِيمَ ، إنَّكَ حَمِيدٌ مَجيدٌ . اللَّهُمَّ بَارِكْ عَلى مُحَمَّدٍ ، وَعَلى آلِ مُحَمَّدٍ ، كَمَا بَارَكْتَ عَلى آلِ إبْرَاهِيمَ ، إنَّكَ حَمِيدٌ مَجيدٌ » [٣] متفقٌ عليه .

١٤٠٦ - وعَنْ أَبي مَسْعُودٍ البَدْرِيِّ ﷺ قالَ : أَتانا رسول الله ﷺ وَنَحْنُ في مَجلسِ سعدِ بنِ

---

(١) ويدل لذلك : ما أخرجه البخاري في فضل الصلاة (١١٩٠) .

(٢) جاء في قول الشارح ﷺ فقرة بعنوان : سؤال وجوابه ، وأتي بالجواب ولم يأت بالسؤال ، ونصها : « أي نعم هو جائز أن يفرد السلام أو الصلاة ؛ لكن الأفضل أن يجمع بينهما » سؤال . الحديث يأبى ؛ لأن خاتمته : عبده ورسوله ، والرسول علم أصحابه أول ما علمهم التشهد : السلام عليك أيها النبي ورحمة الله وبركاته السلام علينا وعلى عباد الله الصالحين أشهد أن لا إله إلا الله ، وأشهد أن محمدًا عبده ورسوله . وقد رأينا حذفها من المتن حتى لا تسبب لبس عند القارئ .

(٣) أخرجه البخاري في التفسير (٤٧٩٧) ، ومسلم في الصلاة (٦٦) والترمذي في الصلاة (٤٨٣) .

عُبَادَةَ رضي الله عنه فقالَ لهُ بَشِيرُ بنُ سعدٍ : أَمَرَنَا اللَّهُ تَعَالى أَنْ نُصَلِّيَ عَلَيك يا رسولَ اللَّهِ ، فَكَيفَ نُصَلِّي عَلَيكَ ؟ فَسَكَتَ رسولُ اللَّه ﷺ حتى تَمَنَّينَا أَنَّهُ لَمْ يَسْأَلْهُ ، ثمَّ قالَ رسول اللَّه ﷺ : « قولُوا : اللَّهُمَّ صَلِّ عَلى مُحَمَّدٍ ، وعَلى آلِ مُحَمَّدٍ ، كما صَلَّيتَ على آلِ إبْرَاهِيمَ ، وَبَارِكْ عَلى مُحَمَّدٍ ، وَعَلى آلِ مُحَمَّدٍ ، كما بَارَكْتَ عَلى آلِ إبْرَاهِيمَ ، إنَّكَ حَمِيدٌ مَجِيدٌ ، وَالسلام كما قد عَلِمتم »[1] رواه مسلم .

١٤٠٧ - وَعَنْ أَبي حُمَيدٍ السَّاعِدِيِّ رضي الله عنه قالَ : قَالُوا : يا رسولَ اللَّهِ ، كيفَ نُصَلِّي عَلَيكَ ؟ قالَ : « قولُوا : اللَّهُمَّ صَلِّ عَلى مُحَمَّدٍ ، وَعَلى أَزْوَاجِهِ وَذُرِّيَّتِهِ ، كما صَلَّيتَ عَلى آلِ إبْرَاهِيمَ ، وَبَارِكْ عَلى مُحَمَّدٍ ، وَعَلى أَزْوَاجِهِ وَذُرِّيَّتِهِ ، كما بَارَكت عَلى آلِ إبْرَاهِيمَ ، إنَّكَ حَمِيدٌ مجيدٌ »[2] متفقٌ عليه .

الشرح

هذه أحاديث ثلاثة في بيان كيفية الصلاة على النبي ﷺ حديث كعب بن عجرة رضي الله عنه في كيفية الصلاة ، أنهم سألوا النبي ﷺ : كيف يصلون عليه ؛ لأنه علمهم كيف يسلمون ، والذي علمهم إياه هو قوله : « السلام عليك أيها النبي ورحمة اللَّه وبركاته » أما الصلاة فعلمهم وقال : « قولوا : اللَّهم صل على محمد وعلى آل محمد » وقد سبق أن معنى صلاة اللَّه على العبد هو ثناؤه عليه في الملأ الأعلى . والمراد بآل محمد هنا كل أتباعه على دينه ؛ فإن آل الإنسان قد يراد بهم أتباعه على دينه ، وقد يراد بهم قرابته ، لكن في مقام الدعاء ينبغي أن يراد بهم العموم ؛ لأنه أشمل ، فالمراد بقوله : « وعلى آل محمد » ، يعني : جميع أتباعه ، فإن قال قائل : هل تأتي الآل بمعنى الأتباع ؟ قلنا : نعم ، قال اللَّه تعالى : ﴿ وَيَوْمَ تَقُومُ ٱلسَّاعَةُ أَدْخِلُوٓاْ ءَالَ فِرْعَوْنَ أَشَدَّ ٱلْعَذَابِ ﴾ [غافر : ٤٦] قال العلماء : معناه أدخلوا أتباعه أشد العذاب وهو أولهم ، كما قال تعالى : ﴿ يَقْدُمُ قَوْمَهُۥ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ فَأَوْرَدَهُمُ ٱلنَّارَ ۖ وَبِئْسَ ٱلْوِرْدُ ٱلْمَوْرُودُ ﴾ [هود : ٩٨] وقوله : « كما صليت على إبراهيم وعلى آل إبراهيم » الكاف هنا للتعليل ، وهذا من باب التوسل بأفعال اللَّه السابقة إلى أفعاله اللاحقة ، يعني كما مننت بالصلاة على إبراهيم وآله فامنن بالصلاة على محمد وآله ﷺ ، فهي من باب التعليل وليست من باب التشبيه ، وبهذا يزول الإشكال الذي أورده بعض أهل العلم رحمهم اللَّه ، حيث قالوا : كيف تلحق الصلاة على النبي ﷺ وآله بالصلاة على إبراهيم وآله ، مع أن محمدًا أشرف من جميع الأنبياء عليهم الصلاة والسلام ؟ فالجواب : أن الكاف هنا ليست للتشبيه ولكنها للتعليل .

« كما صليت على إبراهيم وعلى آل إبراهيم إنك حميد مجيد » « حميد » يعني : محمود ، « مجيد » يعني : ممجد ، والمجد هو : العظمة والسلطان والعزة والقدرة وما إلى ذلك . « اللَّهم بارك على محمد وعلى آل محمد كما باركت على إبراهيم وعلى آل إبراهيم إنك حميد مجيد » كذلك أيضًا التبريك ، تقول : « اللَّهم بارك على محمد وعلى آل محمد » أي : أنزل فيهم البركة ، والبركة

---

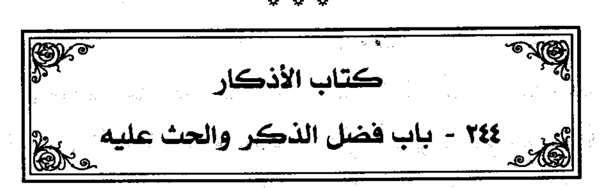
(١) أخرجه مسلم في الصلاة (٦٥) وأحمد في مسنده (٤/١١٨ ، ٢٤١) والنسائي في السنن (٣/٤٥) .

(٢) أخرجه البخاري في الدعوات (٦٣٦٠) ومسلم في الصلاة (٦٩) والنسائي في السنن (٣/٤٩) .

هي الخير الكثير الواسع الثابت . « كما باركت على إبراهيم وعلى آل إبراهيم إنك حميد مجيد » هذه هي الصلاة على النبي ﷺ وعلى آله وسلم ، وهذه هي الصفة الفضلى . وإذا اقتصرت على قولك : اللَّهم صلِّ على محمد ، كما فعل العلماء في جميع مؤلفاتهم إذا ذكروا الرسول ، لم يقولوا هذه الصلاة المطولة ؛ لأن هذه هي الكاملة وأما أدنى مجزئ فأن تقول : اللَّهم صل على محمد .

أما حديث أبي مسعود البدري : وهو زيد ، وأبي حميد الساعدي فهما مقاربان لهذا اللفظ إلا أن في حديث أبي حميد الساعدي ذكر الأزواج والذرية ، وأزواج النبي ﷺ يعني زوجاته ، والذي مات عنهن تسع زوجات ، وكان يقسم لثماني زوجات ، وأما التاسعة سودة فقد وهبت يومها لعائشة رضي الله عنها ، فكان النبي ﷺ يقسم لعائشة يومين يومها ويوم سودة ، وبقية الزوجات يقسم لهن النبي ﷺ بالعدل (١) ، يقسم بالعدل كما أمر بذلك فالحاصل أن هذه الصفات الثلاث التي ذكرها المؤلف رحمه الله وساقها في أحاديث ثلاثة متقاربة ولكنها تصف الكمال من صفة الصلاة عليه ، فصلوات اللَّه وسلامه عليه وعلى آله وأصحابه ومن تبعهم بإحسان إلى يوم الدين .

* * *



كتاب الأذكار

٢٤٤ - باب فضل الذكر والحث عليه

قال اللَّه تعالى : ﴿ وَلَذِكْرُ ٱللَّهِ أَكْبَرُ ﴾ [العنكبوت : ٤٥] وقال تعالى : ﴿ فَٱذْكُرُونِىٓ أَذْكُرْكُمْ ﴾ [البقرة : ١٥٢] وقالَ تعالى : ﴿ وَٱذْكُر رَّبَّكَ فِى نَفْسِكَ تَضَرُّعًا وَخِيفَةً وَدُونَ ٱلْجَهْرِ مِنَ ٱلْقَوْلِ بِٱلْغُدُوِّ وَٱلْءَاصَالِ وَلَا تَكُن مِّنَ ٱلْغَٰفِلِينَ ﴾ [الأعراف : ٢٠٥] وقالَ تعالى : ﴿وَٱذْكُرُواْ ٱللَّهَ كَثِيرًا لَّعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ﴾ [الجمعة : ١٠] وقال تعالى : ﴿ إِنَّ ٱلْمُسْلِمِينَ وَٱلْمُسْلِمَٰتِ ﴾ إلى قوله تعالى : ﴿ وَٱلذَّٰكِرِينَ ٱللَّهَ كَثِيرًا وَٱلذَّٰكِرَٰتِ أَعَدَّ ٱللَّهُ لَهُم مَّغْفِرَةً وَأَجْرًا عَظِيمًا ﴾ [الأحزاب : ٣٥] وقال تعالى : ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱذْكُرُواْ ٱللَّهَ ذِكْرًا كَثِيرًا ۝ وَسَبِّحُوهُ بُكْرَةً وَأَصِيلًا ﴾ (٢) [الأحزاب : ٤٠، ٤٢] والآيات في الباب كثيرة معلومة .

الشرح

الأذكار جمع ذكر والمراد بذلك ذكر اللَّه عز وجل ، وقد ذكر المؤلف فضل الذكر والحث عليه ، وذكر آيات متعددة ، ولْيعلم أن ذكر اللَّه تعالى يكون بالقلب ، ويكون باللسان ، ويكون بالجوارح ، أما القلب : فهو التفكر ، ذكر اللَّه تعالى بالقلب : أن يتفكر الإنسان في أسماء اللَّه وصفاته وأحكامه وأفعاله وآياته .

---

(١) انظر في ذلك ما رواه البخاري في النكاح (٥٢١٢) ومسلم في الرضاع (٤٧) وابن ماجه في السنن (١٩٧٢) وأحمد في مسنده (٣٤٩/١) والبيهقي في السنن (٧٤/٧) .

(٢) قوله : ﴿ فِى نَفْسِكَ ﴾ أي سرًا . قوله : ﴿ تَضَرُّعًا ﴾ أي تذللًا . قوله : ﴿ وَدُونَ ٱلْجَهْرِ مِنَ ٱلْقَوْلِ ﴾ أي ليس همسًا ولا جهرًا بل وسطًا بينهما . قوله : ﴿ بِٱلْغُدُوِّ وَٱلْءَاصَالِ ﴾ أي أوائل النهار وآخره .

وأما الذكر باللسان فظاهر : ويشمل كل قول يقرب إلى الله ﷻ من التهليل والتسبيح والتكبير ، وقراءة القرآن ، والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر ، وقراءة السنة ، وقراءة العلم ، كل قول يقرب إلى الله فهو ذكر لله ﷻ .

وأما الأفعال : ذكر الله بالجوارح ، فهو كل فعل يقرب إلى الله كالقيام في الصلاة والركوع والسجود والقعود ، وغير ذلك ، لكن يطلق عرفًا على ذكر الله تعالى التسبيح والتحميد والتكبير والتهليل ، وذكر المؤلف رحمه الله في ذلك آيات ، منها : قول الله تعالى : ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱذۡكُرُواْ ٱللَّهَ ذِكۡرٗا كَثِيرٗا ۝ وَسَبِّحُوهُ بُكۡرَةٗ وَأَصِيلًا ﴾ فخاطب الله المؤمنين وأمرهم أن يذكروا الله تعالى ذكرًا كثيرًا في كل وقت وفي كل حال وفي كل مكان ، ﴿ ٱذۡكُرُواْ ٱللَّهَ ذِكۡرٗا كَثِيرٗا ۝ وَسَبِّحُوهُ بُكۡرَةٗ وَأَصِيلًا ﴾ أي قولوا : سبحان الله في البكور والأصيل ، يعني : في أول النهار وآخر النهار ، ويحتمل أن يراد بالنهار كله وفي الليل كله ، وقال الله تعالى : ﴿ وَٱذۡكُرُواْ ٱللَّهَ كَثِيرٗا لَّعَلَّكُمۡ تُفۡلِحُونَ ﴾ وهذا ذكره الله ﷻ في سياق لقاء العدو ، فقال تعالى : ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِذَا لَقِيتُمۡ فِئَةٗ فَٱثۡبُتُواْ وَٱذۡكُرُواْ ٱللَّهَ كَثِيرٗا لَّعَلَّكُمۡ تُفۡلِحُونَ ﴾ [الأنفال : ٤٥] فذكر الله تعالى من أسباب الثبات والفلاح ، والفلاح كلمة جامعة يراد بها حصول المطلوب والنجاة من المرهوب ، وقال الله تعالى : ﴿ ٱتۡلُ مَآ أُوحِيَ إِلَيۡكَ مِنَ ٱلۡكِتَٰبِ وَأَقِمِ ٱلصَّلَوٰةَۖ إِنَّ ٱلصَّلَوٰةَ تَنۡهَىٰ عَنِ ٱلۡفَحۡشَآءِ وَٱلۡمُنكَرِۗ وَلَذِكۡرُ ٱللَّهِ أَكۡبَرُۗ ﴾ [العنكبوت : ٤٥] قيل : المعنى ولما فيها من ذكر الله أكبر ، وقيل : المعنى ذكر الله عمومًا أكبر ، وهو أن الإنسان إذا صلى كان ذلك سببًا لحياة قلبه وذكره لله ﷻ كثيرًا . وقال تعالى في وصف الخُلق من عباده ﴿ إِنَّ ٱلۡمُسۡلِمِينَ وَٱلۡمُسۡلِمَٰتِ وَٱلۡمُؤۡمِنِينَ وَٱلۡمُؤۡمِنَٰتِ ... ﴾ إلى قوله : ﴿ وَٱلذَّٰكِرِينَ ٱللَّهَ كَثِيرٗا وَٱلذَّٰكِرَٰتِ أَعَدَّ ٱللَّهُ لَهُم مَّغۡفِرَةٗ وَأَجۡرًا عَظِيمٗا ﴾ وقال تعالى : ﴿ فَٱذۡكُرُونِيٓ أَذۡكُرۡكُمۡ وَٱشۡكُرُواْ لِي وَلَا تَكۡفُرُونِ ﴾ والآيات في هذا كثيرة كلها تدل على فضيلة الذكر والحث عليه ، وقد أثنى الله تعالى على الذين يذكرون الله قيامًا وقعودًا وعلى جنوبهم ، وبيَّن أنهم هم أصحاب العقول ، فقال تعالى : ﴿ إِنَّ فِي خَلۡقِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ وَٱخۡتِلَٰفِ ٱلَّيۡلِ وَٱلنَّهَارِ لَأٓيَٰتٖ لِّأُوْلِي ٱلۡأَلۡبَٰبِ ۝ ٱلَّذِينَ يَذۡكُرُونَ ٱللَّهَ قِيَٰمٗا وَقُعُودٗا وَعَلَىٰ جُنُوبِهِمۡ وَيَتَفَكَّرُونَ فِي خَلۡقِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ رَبَّنَا مَا خَلَقۡتَ هَٰذَا بَٰطِلٗا سُبۡحَٰنَكَ فَقِنَا عَذَابَ ٱلنَّارِ ﴾(١) [آل عمران : ١٩٠، ١٩١] فالمهم أن نحث أنفسنا وإياكم على إدامة ذكر الله ، وهو لا يكلف باللسان ، واللسان لا يعجز ولا يتعب ، بل يبقى دائمًا : لا إله إلا الله ، وسبحان الله ، والحمد لله ، والله أكبر ، ليس فيه تعب ، فهو سهل ولله الحمد وأجره عظيم . جعلني الله وإياكم من الذاكرين الله كثيرًا والذاكرات إنه على كل شيء قدير .

* * *

١٤٠٨ – وعَنْ أَبي هُرَيرَةَ رضي الله عنه قالَ : قالَ رسُول اللَّهِ ﷺ : « كَلِمَتَانِ خَفِيفَتَانِ عَلى اللِّسانِ ، ثَقِيلَتَانِ في

---

(١) قوله : ﴿ ٱلۡأَلۡبَٰبِ ﴾ أي العقول الخالصة من شوائب الوهم والهوى قوله : ﴿ بَٰطِلٗا ﴾ أي عبثًا وهزلًا عاريًا عن الحكمة خاليًا من المصلحة ، بل خلقته مشتملًا على حكم جليلة .

الميزانِ ، حَبيبَتانِ إلى الرَّحْمَنِ : سُبْحَانَ اللَّهِ وَبِحَمْدِهِ ، سُبْحَانَ اللَّهِ العظِيم »(١) متفقٌ عليه .

١٤٠٩ - وعَنْهُ ﷺ قالَ : قالَ رسُول اللَّهِ ﷺ : « لأنْ أَقُولَ : سُبْحَانَ اللَّهِ ، وَالحَمْدُ للَّهِ ، وَلا إلهَ إلا اللَّهُ ، وَاللَّهُ أَكْبَرُ ، أَحَبُّ إليَّ مِمَّا طَلَعَت عليهِ الشَّمْسُ »(٢) رواه مسلم .

١٤١٠ - وعنهُ أنَّ رسُول اللَّهِ ﷺ قالَ : « مَنْ قالَ : لا إلهَ إلا اللَّهُ وَحْدَهُ لا شَرِيكَ لَهُ ، لَهُ المُلْكُ ، وَلهُ الحَمْدُ ، وَهُوَ عَلَى كُلِّ شَيءٍ قَدِيرٌ ، في يَومٍ مِائَةَ مَرَّةٍ ؛ كانَتْ لَهُ عَدْلَ عَشرِ رِقاب ، وَكُتِبَتْ لَهُ مِائَةُ حَسَنَةٍ ، وَمُحِيت عنهُ مِائَةُ سَيِّئَةٍ ، وكانت له حرزًا مِنَ الشَّيطَانِ يَومَهُ ذلكَ حتى يُمسِيَ ، وَلم يَأْتِ أَحدٌ بِأَفضَلَ مِمَّا جَاءَ بِهِ إلا رَجلٌ عَمِلَ أَكْثرَ مِنه » وقال : « من قالَ : سُبْحَانَ اللَّهِ وَبِحَمْدِهِ ، في يَومٍ مَائَةَ مرة ؛ حُطَّتْ خَطَايَاهُ وَإنْ كَانَتْ مِثْلَ زَبَدِ البَحْرِ »(٣) متفقٌ عليه .

الشرح

هذه الأحاديث الثلاثة عن أبي هريرة ﷺ كلها تدل على فضل الذكر .

الأول: قال النبي ﷺ : « كلمتان خفيفتان على اللسان ، ثقيلتان في الميزان حبيبتان إلى الرحمن : سبحان اللَّه وبحمده ، سبحان اللَّه العظيم » كلمتان [والثاني] وهما أيضًا ثقيلتان في الميزان إذا كان يوم القيامة ووزنت الأعمال ووضعت هاتان الكلمتان في الميزان ثقل بهما .

والثالث : حبيبتان إلى الرحمن ، وهذا أعظم الثوابين ، أن اللَّه تعالى يحبهما وإذا أحب اللَّه العمل أحب العامل به ، فهاتان الكلمتان من أسباب محبة اللَّه للعبد . ما معنى سبحان اللَّه وبحمده ؟ المعنى : أنك تنزه اللَّه تعالى عن كل عيب ونقص ، وأنه الكامل من كل وجه جل وعلا ، مقرونًا هذا التسبيح بالحمد الدال على كمال إفضاله وإحسانه إلى خلقه جل وعلا وتمام حكمته وعلمه ، وغير ذلك من كمالاته « سبحان اللَّه العظيم » يعني : ذي العظمة والجلال فلا شيء أعظم من اللَّه سلطانًا ، ولا أعظم قدرًا ، ولا أعظم حكمة ، ولا أعظم علمًا ؛ فهو عظيم بذاته وعظيم بصفاته جل وعلا ، « سبحان اللَّه وبحمده ، سبحان اللَّه العظيم » فيا عبد اللَّه أَدِمْ هاتين الكلمتين ، قلهما دائمًا ؛ لأنهما ثقيلتان في الميزان ، وحبيبتان إلى الرحمن ، وهما لا يضران في شيء ؛ خفيفتان على اللسان : « سبحان اللَّه وبحمده ، سبحان اللَّه العظيم » فينبغي للإنسان أن يقولهما ويكثر منهما .

ثم ذكر الحديث الثاني : عن أبي هريرة أن النبي ﷺ قال : « لأن أقول سبحان اللَّه ، والحمد للَّه ، ولا إله إلا اللَّه ، واللَّه أكبر ، أربع كلمات ، أحب إلي مما طلعت عليه الشمس » يعني : أحب عليَّ من

---

(١) أخرجه البخاري في الأيمان والنذور (٦٦٨٢) ومسلم في الذكر والدعاء والتوبة (٣١) والترمذي في الدعوات (٣٤٦٧) وابن ماجه في الأدب (٣٨٠٦) . قوله « سبحان اللَّه » أي تنزه عما لا يليق به سبحانه وتعالى من الشريك والولد والصاحبة والنقائص مطلقًا .

(٢) أخرجه مسلم في الذكر والدعاء والتوبة (٣٢) والترمذي في الدعوات (٣٥٩٧) .

(٣) أخرجه البخاري في الدعوات (٦٤٠٣) ومسلم في الذكر والدعاء (٢٨) وأحمد في مسنده (٣٠٢/٢) .

كل الدنيا . وهي أيضًا كلمات خفيفة : « سبحان اللَّه ، والحمد للَّه ، ولا إله إلا اللَّه ، واللَّه أكبر » الناس الآن يسافرون ويقطعون الفيافي والصحاري والمهالك والمفاوز من أجل أن يربحوا شيئًا قليلًا من الدنيا قد يتمتعون به وقد يحرمون إياه ، وهذه الأعمال العظيمة يتعاجز الإنسان عنها ؛ لأن الشيطان يكسِّله ويخذِّله ويثبطه عنها ، وإلا فهي كما قال الرسول ﷺ : « أحب إلي مما طلعت عليه الشمس » وإذا فرضنا أن عندك ملك الدنيا كلها ، كل الدنيا عندك ملكها ما طلعت عليه الشمس وغربت ، ثم مت ، ماذا تستفيد ؟ لا تستفيد شيئًا ، لكن « سبحان اللَّه ، والحمد للَّه ، ولا إله إلا اللَّه ، واللَّه أكبر » هي الباقيات الصالحات ، قال اللَّه تعالى : ﴿ ٱلْمَالُ وَٱلْبَنُونَ زِينَةُ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا ۖ وَٱلْبَٰقِيَٰتُ ٱلصَّٰلِحَٰتُ خَيْرٌ عِندَ رَبِّكَ ثَوَابًا وَخَيْرٌ أَمَلًا ﴾ [الكهف : ٤٦] فينبغي لنا أن نغتنم الفرصة بهذه الأعمال الصالحة .

أما الحديث الثالث : فهو « من قال في يومه مائة مرة لا إله إلا اللَّه وحده لا شريك له ، له الملك وله الحمد ، وهو على كل شيء قدير » . حصل له هذه الفضائل الخمسة .

[أولًا] : كان كمن أعتق عشر رقاب ، [وثانيًا] : كتبت له مائة حسنة ، [وثالثًا] ومُحطَّت عنه مائة خطيئة ، [ورابعًا] وكانت له حرزًا من الشيطان ، [خامسًا] ولم يأت أحد بأفضل مما جاء به إلا من عمل أكثر مما عمل .

خمس فضائل ، إذا قلت : « لا إله إلا اللَّه وحده لا شريك له ، له الملك وله الحمد ، وهو على كل شيء قدير » وهذه مائة مرة ، وهذه سهلة ، يمكن وأنت تنتظر صلاة الفجر بعد أن تأتي للمسجد تقولها ، أو بعد طلوع الفجر تقولها تنتفع بها . وهذا أيضًا من الأمور التي ينبغي للإنسان أن يداوم عليها ، وينبغي أن يقولها في أول النهار ؛ لتكون حرزًا له من الشيطان .

أما سبحان اللَّه وبحمده : فمن قالها مائة مرة ؛ حطت عنه خطاياه وإن كانت مثل زبد البحر ، وهذه سبحان اللَّه وبحمده تقولها في آخر النهار لأجل أن تحط عنك خطايا النهار . فانتهز الفرصة يا أخي ، انتهز الفرصة فالعمر يمضي ولا يرجع مما مضى من عمرك ، فلن يرجع إليك وهذه الأعمال أعمال خفيفة مفيدة ثوابها جزيل وعملها قليل . نسأل اللَّه أن يعيننا وإياكم على ذكره وشكره وحسن عبادته .

* * *

١٤١١ – وعَنْ أَبي أيوبَ الأنصاريِّ ﷺ عَنِ النبيِّ ﷺ قال : « مَنْ قالَ لا إلهَ إلا اللَّهُ وَحْدَهُ لا شَرِيكَ لَهُ ، لَهُ المُلْكُ ، وَلَهُ الحَمْدُ ، وَهُوَ على كُلِّ شَيءٍ قَدِيرٌ ، عَشْرَ مَرَّاتٍ ، كانَ كَمَنْ أَعْتَقَ أَرْبَعَةَ أنفُسٍ مِن وَلَدِ إسْمَاعِيلَ » (١) متفقٌ عليه .

١٤١٢ – وعنْ أبي ذَرٍّ ﷺ قالَ : قالَ لي رَسُولُ اللَّهِ ﷺ : « ألا أُخبِرُكَ بِأَحَبِّ الكَلامِ إلى اللَّهِ ؟ إنَّ أَحَبَّ الكَلامِ إلى اللَّهِ : سُبْحَانَ اللَّهِ وَبِحَمْدِهِ » (٢) رواه مسلم .

---

(١) أخرجه مسلم في الذكر والدعاء والتوبة (٣٠) واللفظ له ، والبخاري في الدعوات بنحوه (٦٤٠٤) .

(٢) أخرجه مسلم في الذكر والدعاء والتوبة (٨٥) .

١٤١٣ - وعَنْ أَبي مالكٍ الأشْعَرِيِّ ﷺ قالَ : قالَ رسُول اللَّه ﷺ : « الطُّهورُ شَطْرُ الإيمان ، وَالحمدُ للّهِ تَملأُ الميزَانَ ، وَسُبْحَانَ اللَّهِ وَالحَمْدُ للَّهِ تَملآنِ - أَو تَملأُ - ما بَينَ السَّماوَاتِ وَالأَرْضِ » (١) رواه مسلم .

١٤١٤ - وعَنْ سَعْدِ بنِ أبي وَقَّاصٍ ﷺ قال : جَاءَ أَعْرَابيٌّ إلى رسُول اللَّهِ ﷺ فقالَ : عَلِّمْني كَلامًا أَقُولُهُ . قَالَ : « قُل : لا إلَهَ إلا اللَّهُ وَحْدَهُ لا شَرِيكَ لهُ ، اللَّهُ أَكْبَرُ كَبيرًا ، وَالحَمْدُ للَّهِ كثِيرًا ، وسُبْحَانَ اللَّهِ ربِّ العَالمينَ ، وَلا حَولَ وَلا قُوَّةَ إلا باللَّهِ العَزيزِ الحكيم » قال : فهؤلاء لِرَبِّي ، فَمَا لي ؟ قال : « قُلْ : اللَّهُمَّ اغْفِرْ لي ، وَارْحَمْني ، وَاهْدِني ، وَارْزُقْني » (٢) رواه مسلم .

١٤١٥ - وعَنْ ثوبَانَ ﷺ قالَ : كانَ رسُول اللَّهِ ﷺ إذا انْصَرَفَ مِنْ صَلاتِهِ اسْتَغْفَرَ ثَلاثًا ، وقال : « اللَّهُمَّ أَنْتَ السَّلامُ ، وَمِنْكَ السَّلامُ ، تَبَارَكْتَ يَا ذا الجَلالِ وَالإكْرام » قِيلَ لِلأوزَاعيِّ - وَهُوَ أَحَدُ رُواة الحديث - : كَيفَ الاستِغْفَارُ ؟ قال : تقول : أَسْتَغْفِرُ اللَّهَ ، أَسْتَغْفِرُ اللَّه (٣) . رواه مسلم .

الشرح

هذه الأحاديث التي ساقها المؤلف رحمه الله وقد سبق لنا شيء من هذه الأحاديث ، فمنها - أي : من الأحاديث التي ساقها - أن « من قال : لا إله إلا اللَّه وحده لا شريك له ، له الملك ، وله الحمد وهو على كل شيء قدير عشر مرات » كان كمن أعتق أربعة أنفس من ولد إسماعيل ؛ يعني كان كالذي أعتق أربع رقاب من أشرف الناس نسبًا وهم بنو إسماعيل ؛ لأن أشرف الناس نسبًا هم العرب ، وهم بنو إسماعيل ، وأما العجم فلهم آباء آخرون ، ولكن ذرية إسماعيل هم العرب ، فمن قال : « لا إله إلا اللَّه ، وحده لا شريك له ، له الملك وله الحمد ، وهو على كل شيء قدير » عشر مرات ، كان كمن أعتق أربعة أنفس ، وهذا دليل على فضل هذا الذكر .

وكذلك أيضًا قال النبي ﷺ : « أحب الكلام إلى اللَّه سبحان اللَّه وبحمده » وقد سبق أن النبي ﷺ قال : « كلمتان خفيفتان على اللسان ، ثقيلتان في الميزان ، حبيبتان إلى الرحمن : سبحان اللَّه وبحمده ، سبحان اللَّه العظيم » .

وكذلك حديث ثوبان : لكنه ذكر مقيدًا ، أن النبي ﷺ كان إذا انصرف من صلاته قال : «أستغفر اللَّه » يعني : استغفر ثلاثًا ، قال : أستغفر اللَّه ، أستغفر اللَّه ، أستغفر اللَّه ، « اللَّهم أنت السلام ومنك السلام ، تباركت يا ذا الجلال والإكرام » وإنما يستغفر الإنسان إذا فرغ من صلاته من أجل ما يكون فيها

(١) أخرجه مسلم في الطهارة (١) والإمام أحمد في مسنده (٣٤٢/٥) والدارمي في السنن (١٦٧/١) . قوله «شطر الإيمان » أي نصف الإيمان .

(٢) أخرجه مسلم في الذكر والدعاء والتوبة (٣٣) وأحمد في مسنده (١٨٠/١) .

(٣) أخرجه مسلم في المساجد ومواضع الصلاة (١٣٥) وأحمد في مسنده (٢٧٥/٥) والنسائي في السنن (٦٩/٣) . قوله « تباركت ياذا الجلال والإكرام » أي : تعاليت ياذا العظمة والمكرمة .

من خلل ونقص ويقول : « اللَّهم أنت السلام » يعني : اللَّهم إني أتوسل إليك بهذا الاسم الكريم من أسمائك أن تسلم لي صلاتي حتى تكون تكفرة للسيئات ورفعة للدرجات . واللَّه الموفق .

* * *

١٤١٦ - وعَنِ المُغِيرَةِ بن شُعْبَةَ ﷺ أَنَّ رسُول اللَّهِ ﷺ كَانَ إذا فَرَغَ مِنَ الصَّلاة وَسَلَّمَ قالَ : « لا إله إلا اللَّهُ وَحْدَهُ لا شَرِيكَ لَهُ ، لهُ المُلْكُ ، وَلَهُ الحَمْدُ ، وَهُوَ على كُلِّ شَيءٍ قَديرٌ . اللَّهُمَّ لا مانعَ لما أَعْطَيتَ ، وَلا مُعْطِيَ لما مَنَعْتَ ، وَلا يَنْفَعُ ذَا الجَدِّ مِنْكَ الجَدُّ » (١) متفقٌ عليه .

١٤١٧ - وعَنْ عبدِ اللَّهِ بنِ الزُّبَير (رضِيَ اللَّهُ تَعالى عَنْهُما) أَنَّهُ كانَ يَقُولُ دُبُرَ كُلِّ صَلاة ، حينَ يُسَلِّمُ : لا إلهَ إلا اللَّه وَحْدَهُ لا شَريكَ لَهُ ، لهُ المُلْكُ ، ولهُ الحَمْدُ ، وَهُوَ عَلى كُلِّ شَيءٍ قَديرٌ . لا حَولَ وَلا قُوَّةَ إلا باللَّه ، لا إلهَ إلا اللَّهُ ، وَلا نَعْبُدُ إلا إيَّاهُ ، لهُ النِّعْمَةُ ، وَلَهُ الفَضْلُ ، وَلَهُ الثَّناءُ الحَسَنُ . لا إلهَ إلا اللَّهُ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ وَلَو كَرِهَ الكَافِرُونَ . قالَ ابْنُ الزُّبَير : وَكَانَ رسُول اللَّهِ ﷺ يُهَلِّلُ بِهِنَّ دُبُرَ كُلِّ صَلاةٍ مَكتوبة (٢) . رواه مسلم .

الشرح

هذان الحديثان في بيان الأذكار المقيدة ؛ لأن الأذكار تنقسم إلى قسمين ، مطلقة ومقيدة ، منها ما هو مقيد بالوضوء ، ومنها ما هو مقيد بالصلاة ، فهذان الحديثان مقيدان بالصلاة ، حديث المغيرة بن شعبة ، وحديث عبد اللَّه بن الزبير ﷺ .

أما حديث المغيرة : فقد أخبر ﷺ أن النبي ﷺ كان يقول إذا سلم من صلاته : « لا إله إلا اللَّه وحده لا شريك له ، له الملك وله الحمد ، وهو على كل شيء قدير » ومعنى لا إله إلا اللَّه : يعني : لا معبود بحق إلا اللَّه ، فلا معبود في الكائنات يستحق أن يعبد إلا اللَّه ﷻ ، أما الأصنام التي تعبد من دون اللَّه فليست مستحقة للعبادة ، حتى وإن سماها عابدوها آلهة ؛ فإنها ليست آلهة ، بل هي كما قال اللَّه تعالى : ﴿ مَا تَعۡبُدُونَ مِن دُونِهِۦٓ إِلَّآ أَسۡمَآءٗ سَمَّيۡتُمُوهَآ أَنتُمۡ وَءَابَآؤُكُم مَّآ أَنزَلَ ٱللَّهُ بِهَا مِن سُلۡطَٰنٍۚ ﴾ [يوسف : ٤٠] فالمعبود حقًّا هو اللَّه ﷻ .

وقوله : « وحده لا شريك له » هذا من باب التأكيد ، تأكيد وحدانيته جل وعلا ، وأنه لا مشارك له في ألوهيته « له الملك وله الحمد ، وهو على كل شيء قدير » له المُلْكُ المطلق العام الشامل الواسع ، ملك السماوات والأرض وما بينهما ، ملك الآدميين والحيوانات والأشجار والبحار والأنهار والملائكة

---

(١) أخرجه البخاري في الأذان (٨٤٤) ومسلم في المساجد ومواضع الصلاة (١٣٧) وأبو داود في الصلاة (١٥٠٦) والنسائي في السنن (٣/٧٠) . قوله « ولا ينفع ذا الجد منك الجد » أي لا ينفع صاحب الجاه والغنى غناه وسلطانه عندك ؛ إنما ينفعه عنايتك وما قدمه من عمل صالح .

(٢) أخرجه مسلم في المساجد ومواضع الصلاة (١٣٩) وأبو داود في الصلاة (١٥٠٥) بنحوه . قوله « يهلل بهن » أي يرفع صوته بتلك الكلمات .

والشمس والقمر ، كل هذه ملك لله ﷻ ، ما علمنا وما لم نعلم ، له الملك كله يتصرف فيه كما يشاء وعلى ما تقتضيه حكمته جل وعلا .

« وله الحمد » يعني : الكمال المطلق على كل حال ، فهو جل وعلا محمود على كل حال في السراء وفي الضراء ، أما في السراء : فيحمد الإنسان ربه حمد شكر ، وأما في الضراء : فيحمد الإنسان ربه حمد تفويض ، لأن الشيء الذي يضر الإنسان قد لا يتبين له وجه مصلحته فيه ولكن الله تعالى أعلم ، فيحمد الله تعالى على كل حال ، وكان النبي ﷺ إذا أتاه ما يسره قال : « الحمد لله الذي بنعمته تتم الصالحات »[1] وإذا أتاه ما لا يسره قال : « الحمد لله على كل حال »[2] .

وأما ما يقوله بعض الناس : الحمد لله الذي لا يحمد على مكروه سواه ، فهذه كلمة خاطئة لم ترد ومعناها غير صحيح ، وإنما يقال : الحمد لله على كل حال .

« اللّٰهم لا مانع لما أعطيت ، ولا معطي لما منعت ، ولا ينفع ذا الجد منك الجد » . هذا أيضًا تفويض إلى الله ﷻ بأنه لا مانع لما أعطى ، فما أعطاك الله لا أحد يمنعه ، وما منعك لا أحد يعطيك إياه ، ولهذا قال : ولا معطي لما منعت ، فإذا آمنا بهذا فمن نسأل العطاء ، من الله إذا آمنا بأنه لا مانع لما أعطى ولا معطي لما منع ، إذًا لا نسأل العطاء إلا من الله ﷻ ، ونعلم أنه لو أعطانا فلان شيء فالذي قدر ذلك هو الله ، والذي صيره حتى يعطينا هو الله ، وما هو إلا مجرد سبب ، لكن نحن مأمورون بأن نشكر من صنع إلينا معروفًا ، كما قال النبي ﷺ : « من صنع إليكم معروفًا فكافئوه ، فإن لم تجدوا ما تكافئونه ، فادعوا له حتى تروا أنكم قد كافئتموه »[3] لكن نعلم أن الذي يسر لنا هذا العطاء وصير لنا هذا المعطي هو الله ﷻ .

« اللّٰهم لا مانع لما أعطيت ، ولا معطي لما منعت ، ولا ينفع ذا الجد منك الجد » الجَدّ يعني : الحظ والغنى ، يعني الإنسان المحظوظ الذي له حظ ، وعنده مال ، وعنده أولاد ، وعنده زوجات ، وعنده كل ما يشتهي من الدنيا ، فإن هذا لا ينفعه من الله . « لا يمنع ذا الجد منك الجد » الجد فاعل ، يعني : أن الجد هو الحظ والغنى ما يمنع من الله ﷻ ؛ لأن الله تعالى له ملك السماوات والأرض وكم من إنسان تراه مسرورًا في أهله وعنده المال والبنون وجميع ما يناله من الدنيا ولا ينفعه شيء من الله ، يصاب بمرض ولا يقدر أن يرفعه عنه إلا الله ﷻ ، يصاب به غم وهم وقلق لا ينفعه إلا الله ﷻ .

وهذا كله في التفويض إلى الله . إذًا ينبغي لنا إذا سلم الإنسان واستغفر ثلاثًا ، وقال : « اللّٰهم أنت السلام ، ومنك السلام ، تباركت يا ذا الجلال والإكرام » أن يذكر الله تعالى بهذا الذكر .

والترتيب بين الأذكار ليس بواجب ، يعني : لو قدمت بعضها على بعض فلا بأس ، لكن الأفضل أن تبدأ بالاستغفار ثلاثًا ، و « اللّٰهم أنت السلام ، ومنك السلام ، تباركت يا ذا الجلال والإكرام » ثم تذكر الله تعالى بالأذكار الواردة ، وسيأتي الكلام إن شاء الله عن حديث عبد الله بن الزبير .

(١ ، ٢) سبق تخريجهما .

(٣) أخرجه أبو داود في الزكاة (١٦٧٢) والمنذري في الترغيب والترهيب (٦٠١/١) .

١٤١٨ – وعَنْ أبي هُرَيْرَةَ ﷺ أَنَّ فُقَرَاءَ المُهَاجِرِينَ أَتَوا رسُولَ اللَّهِ ﷺ فقالُوا : ذَهَبَ أَهْلُ الدُّثُورِ بِالدَّرَجَاتِ العُلَى وَالنَّعِيمِ المُقِيمِ ؛ يُصَلُّونَ كَمَا نُصَلِّي ، وَيَصُومُونَ كَمَا نَصُومُ ، وَلَهُمْ فَضْلٌ مِنْ أَمْوَالٍ ؛ يَحُجُّونَ ، وَيَعْتَمِرُونَ ، وَيُجَاهِدُونَ ، وَيَتَصَدَّقُونَ . فقالَ : « ألا أُعَلِّمُكُمْ شَيْئًا تُدْرِكُونَ بِهِ مَنْ سَبَقَكُمْ ، وَتَسْبِقُونَ بِهِ مَنْ بَعْدَكُمْ ، وَلا يَكُونُ أَحَدٌ أَفْضَلَ مِنْكُمْ إلا مَنْ صَنَعَ مِثْلَ مَا صَنَعْتُمْ ؟» قالوا : بَلَى يا رسولَ اللَّهِ ، قالَ : « تُسَبِّحُونَ ، وَتَحْمَدُونَ ، وَتُكَبِّرُونَ خَلْفَ كُلِّ صَلاةٍ ثَلاثًا وَثَلاثِينَ » قالَ أبُو صالِحٍ الرَّاوِي : عَنْ أبي هُرَيْرَةَ ، لَمَّا سُئِلَ عَنْ كَيفِيَّةِ ذِكْرِهِنَّ ، قال : يقولُ : سُبْحَانَ اللَّهِ ، وَالحَمْدُ للَّهِ ، واللَّهُ أَكْبَرُ ، حَتَّى يَكُونَ مِنْهُنَّ كُلِّهِنَّ ثَلاثًا وثَلاثِينَ . متفقٌ عليه .

وزادَ مُسْلمٌ في روايتِه : فَرَجَعَ فُقَرَاءُ المُهَاجِرِينَ إلى رَسُولِ اللَّهِ ﷺ ، فقالوا : سَمِعَ إِخْوَانُنَا أَهْلُ الأَمْوالِ بِمَا فَعَلْنَا ، فَفَعَلُوا مِثْلَهُ ، فقالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ : « ذلكَ فَضْلُ اللَّهِ يُؤْتِيهِ مَنْ يَشَاءُ » (١) .

« الدُّثُورُ » جَمعُ دَثْر – بفتحِ الدَّالِ وإسكانِ الثاءِ المثلَّثةِ – وهو المَالُ الكثيرُ .

١٤١٩ – وعَنْهُ عَنْ رسُولِ اللَّهِ ﷺ قالَ : « مَنْ سَبَّحَ اللَّهَ في دُبُرِ كُلِّ صَلاةٍ ثَلاثًا وَثَلاثِينَ ، وَحَمِدَ اللَّهَ ثَلاثًا وَثَلاثِينَ ، وَكَبَّرَ اللَّهَ ثَلاثًا وَثَلاثِينَ ، وقالَ تَمَامَ المَائَةِ : لا إلهَ إلا اللَّهُ وَحْدَهُ لا شَرِيكَ لَهُ ، لَهُ المُلْكُ ، وَلَهُ الحَمْدُ ، وَهُوَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ؛ غُفِرَت خَطَايَاهُ وَإِن كَانَتْ مِثْلَ زَبَدِ البَحْرِ » (٢) رواه مسلم .

١٤٢٠ – وعنْ كعْبِ بنِ عُجْرَةَ ﷺ عَنْ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ قالَ : « مُعَقِّبَاتٌ لا يَخِيبُ قَائِلُهُنَّ – أَو فَاعِلُهُنَّ – دُبُرَ كُلِّ صَلاةٍ مَكْتُوبَةٍ : ثلاثٌ وثلاثونَ تَسْبِيحَةً ، وثلاثٌ وثلاثون تَحْمِيدَةً ، وأربعٌ وثلاثون تَكْبِيرَةً » (٣) رواه مسلم .

الشرح

هذه من الأحاديث الدالة على فضيلة الذكر المخصوص المقيد بعمل ، وقد سبق لنا أن الأذكار منها مطلق ومقيد ، وهذا منها ، حديث أبي هريرة : أن فقراء المهاجرين جاءوا يشتكون إلى النبي ﷺ يقولون : إن أهل الأموال سبقونا ، إنهم يصلون كما نصلي ، ويصومون كما نصوم ، ولهم فضل من الأموال ، يعني : زيادة يتصدقون بها ويحجون ويعتمرون ويجاهدون ، فدلهم النبي ﷺ على أمر ، قال : « ألا أخبركم بشيء إذا فعلتموه لم يزدكم من لحقكم وتسبقون به من بعدكم ، قالوا : بلى يا رسول اللَّه ، قال : « تسبحون وتحمدون وتكبرون خلف كل صلاة ثلاث وثلاثين » ، يعني تقولون :

---

(١) أخرجه البخاري في الأذان (٨٤٣) ومسلم في المساجد ومواضع الصلاة (١٤٢) . قوله « بالدرجات العلى » أي المكانة العالية عند اللَّه ، قوله « المقيم » أي الدائم ، قوله « دبر كل صلاة » أي بعد نهاية كل صلاة .

(٢) هذا الحديث لم يقم الشارح رحمه الله بشرحه ، والحديث أخرجه مسلم في المساجد ومواضع الصلاة (١٤٦) والإمام أحمد في المسند (٤٨٣/٢) بنحوه ، والبيهقي في السنن (١٨٧/٢) . قوله « زبد البحر » هو ما يعلو على وجهه عند هيجانه وتموجه .

(٣) هذا الحديث لم يقم الشارح رحمه الله بشرحه والحديث أخرجه مسلم في المساجد ومواضع الصلاة (١٤٤) والدارمي في السنن (٤٠٦/٢) والبيهقي في السنن (١٨٧/٢) . قوله « معقبات » أي تسبيحات يعقب بعضها بعضًا .

سبحان اللَّه ، والحمد للَّه ، واللَّه أكبر ثلاثًا وثلاثين مرة ، فهذه تسع وتسعون ، ثم إنهم فعلوا ذلك ، ولكن سمع الأغنياء بهذا ففعلوا مثله ، فتساووا معهم في هذا الذكر ، فرجع الفقراء إلى رسول اللَّه ﷺ وقالوا : يا رسول اللَّه سمع إخواننا أهل الأموال بما صنعنا فصنعوا مثله ، وكأنهم يريدون شيء آخر يختصون به ، فقال : « ذلك فضل اللَّه يؤتيه من يشاء » . **ففي هذا الحديث من الفوائد :**

أولًا : حرص الصحابة رضي الله عنهم على التسابق إلى الخير وأن كل واحد منهم يحب أن يسبق غيره .

ومن فوائد هذا الحديث : أن هذا الذكر : « سبحان اللَّه ، والحمد للَّه ، واللَّه أكبر ثلاث وثلاثين » مشروع خلف الصلوات ، وقد ورد في حديث آخر أنه تكمل المائة بقول : « لا إله إلا اللَّه وحده لا شريك له ، له الملك وله الحمد وهو على كل شيء قدير » [(١)] .

وهذه صفة من صفات الذكر بعد الصلاة . ومن صفات الذكر بعد الصلاة أن تقول : سبحان اللَّه ، والحمد للَّه ، ولا إله إلا اللَّه ، واللَّه أكبر ، خمسًا وعشرين فيكون الجميع مائة ، ومن صفاته أيضًا أن تقول : سبحان اللَّه ثلاثًا وثلاثين ، والحمد للَّه ثلاثًا وثلاثين ، واللَّه أكبر أربعًا وثلاثين ، فهذه مائة .

ومن صفاته أن تقول : سبحان اللَّه عشر مرات ، والحمد للَّه عشر مرات ، واللَّه أكبر عشر مرات ، تفعل هذا مرة وهذا مرة ؛ لأن الكل ثبت عن النبي ﷺ .

ومن فوائد الحديث : سعة صدر النبي ﷺ على المراجعة والمناقشة ؛ لأنه عليه الصلاة والسلام يريد الحق أينما كان ، والحق معه لكن يطيب قلوب الناس ويبين لهم .

ومنها من فوائد الحديث : أن اللَّه تعالى إذا مَنَّ على أحد بفضل فإنما هو فضله يؤتيه من يشاء ، ولا يجور بهذا الفضل على أحد ، فإذا أغنى هذا وأفقر هذا ؛ فهو فضله يؤتيه من يشاء . وليس هذا بجور ؛ بل ذلك فضله يؤتيه من يشاء ، وكذلك أيضًا من رزقه اللَّه علمًا ولم يرزق الآخر ، فهذا من فضله ، فالفضل بيد اللَّه عز وجل يؤتيه من يشاء .

ومن فوائد هذا الحديث أيضًا : أن الأغنياء من الصحابة كالفقراء حريصون على فعل الخير والتسابق فيه ، ولهذا صنعوا مثل ما صنع الفقراء ، فصاروا يسبحون ويحمدون ويكبرون خلف كل صلاة ثلاثًا وثلاثين . واللَّه الموفق .

* * *

١٤٢١ - وعنْ سعدِ بن أبي وقاصٍ رضي الله عنه أَنَّ رَسُول اللَّهِ ﷺ كانَ يَتَعَوَّذُ دُبُرَ الصَّلَوَاتِ بِهؤلاءِ الكَلِمَاتِ : « اللَّهُمَّ إِنِّي أَعُوذُ بكَ مِنَ الجُبْنِ وَالبُخْلِ ، وأَعُوذُ بكِ مِنْ أَنْ أُرَدَّ إلى أَرْذَلِ العُمُرِ ، وَأَعُوذُ بِكَ مِنْ فِتْنَةِ الدُّنْيَا ، وَأَعوذُ بِكَ مِنْ فِتْنَةِ القَبرِ » [(٢)] رواه البخاري .

---

(١) أخرجه مسلم في المساجد ومواضع الصلاة (١٤٦) .

(٢) أخرجه البخاري في الدعوات (٦٣٧٠) والنسائي في السنن (٢٦٧/١) والترمذي في الدعوات (٣٥٦٧) .
قوله « أعوذ بك » أي أعتصم بك وألتجئ ، قوله « فتنة الدنيا » أي أن أبتلى بالغنى أو الفقر الذي يشغله عن اللَّه تعالى ، =

١٤٢٢ - وعنْ معاذٍ رضي الله عنه أنَّ رسُول اللَّهِ ﷺ أَخذَ بِيَدِهِ وقالَ : « يَا مُعَاذُ ، واللَّهِ إنّي لأُحِبُّكَ » فقالَ : « أُوصِيكَ يَا مُعَاذُ لا تَدعَنَّ في دُبرِ كُلِّ صَلاةٍ تَقُولُ : اللَّهُمَّ أَعِنِّي عَلى ذِكْرِكَ ، وشُكْرِكَ ، وَحُسنِ عِبادَتكَ »[1] رواه أبو داود بإسنادٍ صحيح .

الشرح

هذه من الأذكار التي تقال دبر الصلاة ، فالحديث الأول : عن سعد بن أبي وقاص رضي الله عنه أن النبي ﷺ كان يتعوذ بهذه الكلمات دبر كل صلاة : « اللَّهم إني أعوذ بك من البخل ، وأعوذ بك من الجبن ، وأعوذ بك من أن أرد إلى أرذل العمر ، وأعوذ بك من فتنة الدنيا ، وأعوذ بك من فتنة القبر » .

وكذلك حديث معاذ بن جبل : أن النبي ﷺ كان يقول دبر كل صلاة : « اللَّهم أعني على ذكرك » وعلى « شكرك » وعلى « حسن عبادتك » . فكلمة « دبر » القاعدة فيها أنه إذا كان المذكور أذكارًا ؛ فإنه يكون بعد السلام ، وإذا كان المذكور دعاء ؛ فإنه يكون قبل السلام ؛ لأن ما قبل السلام وبعد التشهد هو دبر الصلاة ، وكما قال شيخ الإسلام ابن تيمية : دبر الشيء من الشيء ، كما يقال دبر الحيوان لمؤخره ، وعلى هذا فيكون حديث سعد بن أبي وقاص ، وحديث معاذ بن جبل يكون هذا الدعاء قبل أن تسلم ، إذا انتهيت من التشهد ومن قولك : أعوذ باللَّه من عذاب جهنم ، و من عذاب القبر ، ومن فتنة المحيا والممات ومن فتنة المسيح الدجال ، تقول : « اللَّهم إني أعوذ بك من البخل والجبن ، وأعوذ بك من أن أرد إلى أرذل العمر ، وأعوذ بك من فتنة الدنيا ، وأعوذ بك من فتنة القبر » . هذه خمسة أشياء تستعيذ باللَّه منهن :

الأول : البخل وهو : الشح بالمال .

الثاني : الجبن وهو : الشح بالنفس . فالبخل : أن يمنع الإنسان ما يجب عليه بذله من ماله من زكاة أو نفقات أو إكرام ضيف أو غير ذلك ، وأما الجبن : فأن يشح الإنسان بنفسه ، لا يقدم في جهاد يخشى أن يقتل ، ولا يتكلم بكلام حق يخشى أن يسجن ، وما أشبه ذلك ، فهذا جبن .

وأما « أعوذ بك أن أرد إلى أرذل العمر » : « أرذل » يعني أرداه وأنقصه ، وذلك على وجهين :

الوجه الأول : أن يحدث للإنسان حادث فيختل به عقله فيهذي ، فيرد إلى أرذل العمر ويصير كالصبي ، كما يوجد هذا في الحوادث ، يوجد أحد يصاب بحادث فيختل مخه ثم يكون كالصغير ، أو أن يكون ذلك عن كبر ، **وهو الوجه الثاني** ؛ لأن الإنسان كلما كبر إذا استوى وبلغ أربعين سنة بدأ يأخذ في النقص ولكن الناس يختلفون ، أحد ينقص كثيرًا ، وأحد ينقص قليلًا قليلًا . لكنه لابد أن ينقص إذا بلغ الأربعين فقد استوى وكمل ، والشيء إذا استوى وكمل أخذ في النقص .

فمن الناس من يرد إلى أرذل العمر في قواه الحسية وقواه العقلية ، فيضعف بدنه ويحتاج إلى من

= قوله « فتنة القبر » هي سؤال الملكين .

(١) أخرجه أبو داود في الصلاة (١٥٢٢) والنسائي في السنن (٥٣/٣) وأحمد في مسنده (٢٢٤/٥) .

يحمله ويوضئه ويوجهه وما أشبه ذلك ، أو العقلية بأن يهذي ولا يدري ما يقول ، فالرد إلى أرذل العمر يشمل هذا وهذا ، ما كان بحادث وما كان بسبب تقادم السن به . ثم إن الإنسان إذا وصل إلى هذه الحال ، نسأل اللَّه أن يعيذنا وإياكم منها ، فإن أهله يملونه ، أهله الذين هم أشفق الناس به يتعبون منه ويملونه ، وربما يتركونه في مكان تتكفل به الحكومة مثلًا ، وهذا لا شك أن الإنسان لا يرضاه ولا يرضى لنفسه أن يصل إلى هذا الحد ، وتسقط أيضًا عنه الصلاة ويسقط عنه الصوم ، وتسقط عنه الواجبات ؛ لأنه وصل إلى حد يرتفع عنه التكليف .

« وأعوذ بك من فتنة الدنيا » وما أعظم فتنة الدنيا وما أكثر المفتونين في الدنيا لا سيما في عصرنا هذا ، وعصرنا هذا هو عصر الفتنة ، كما قال النبي ﷺ : « واللَّه ما الفقر أخشى عليكم ، وإنما أخشى أن تفتح عليكم الدنيا فتنافسوها كما تنافسها من قبلكم فتهلككم كما أهلكتهم »[(١)] . وهذا هو الواقع في الوقت الحاضر ، فتحت علينا الدنيا من كل جانب ، من كل شيء من كل وجه ، منازل كقصور الملوك ، ومراكب كمراكب الملوك ، وملابس ومطاعم ومشارب ، فتحت فصار الناس الآن ليس لهم هَمٌّ إلا البطون والفروج . فتنوا بالدنيا ، نسأل اللَّه العافية .

ففتنة الدنيا عظيمة ، يجب على الإنسان أن ينتبه لها ، ولهذا قال اللَّه ﷻ : ﴿ إِنَّ وَعْدَ اللَّهِ حَقٌّ فَلَا تَغُرَّنَّكُمُ الْحَيَوٰةُ الدُّنْيَا وَلَا يَغُرَّنَّكُم بِاللَّهِ الْغَرُورُ[(٢)] ﴾ [لقمان : ٣٣] « وأعوذ بك من فتنة القبر ، أو من عذاب القبر » وفتنة القبر أيضًا فتنة عظيمة ، إذا دفن الميت وانصرف عنه أصحابه حتى إنه ليسمع قرع نعالهم منصرفين عنه ، أتاه ملكان يسألانه عن ربه ودينه ونبيه ، إن كان مؤمنًا خالصًا أجاب بالصواب ، وقال : ربي اللَّه ، ونبيي محمد ، وديني الإسلام . وإن كان مرائيًا أو منافقًا أعاذنا اللَّه وإياكم من ذلك ، قال : ها ها لا أدري ، ها ها لا أدري ، فيضرب بمرزبة من حديد ، المرزبة من الحديد قالوا مثل المطرقة ، وقد ورد في بعض الأحاديث أنه لو اجتمع عليها أهل منًى ما أقلوها ، من عظمتها[(٣)] ، نسأل اللَّه العافية ، فيصيح صيحة يسمعها كل شيء ، يسمعها كل شيء إلا الثقلين يعني الإنس والجن ، وهذه من رحمة اللَّه أن اللَّه تعالى لا يسمعنا عذاب القبر ؛ لأننا إذا سمعنا الناس يعذبون في قبورهم ما طاب لنا عيش ولتنكدنا ، إن كان قريبًا لنا تنكدنا من وجهين : من قرابته ، ومن هذه الأصوات المزعجة ، وإن كان غير قريب أيضًا انزعجنا منه ، ففتنة القبر فتنة عظيمة ، نسأل اللَّه أن يعيذنا وإياكم منها . هذه أشياء كان النبي ﷺ يعلِّمها أصحابه ، خمسة أشياء : « اللَّهم إني أعوذ بك من البخل ، وأعوذ بك من الجبن ، وأعوذ بك من أن أرد إلى أرذل العمر ، وأعوذ بك من فتنة الدنيا ، وأعوذ بك من عذاب القبر ، أو من فتنة القبر » .

أما حديث معاذ : فإن النبي ﷺ قال له : إني أحبك وأقسم قال : « واللَّه إني لأحبك » ، وهذه

---

(١) أخرجه البخاري في المغازي (٤٠١٥) ومسلم في الزهد (٦) والترمذي في السنن (٢٤٦٢) وأحمد في مسنده (١٣٧/٤) .

(٢) قوله : ﴿ الْغَرُورُ ﴾ هو كل ما يغرُّ الإنسان ويخدعه من نحو مال وجاه وشهوة وشيطان وهو أخبث الغارين .

(٣) انظر ذلك في أبو داود في السنن (٤٧٥١) وأحمد في مسنده (٢٩٦/٤) .

مرتبة عظيمة لمعاذ بن جبل ﷺ أن نبينا ﷺ أقسم أنه يحبه ، والمحب لا يدخر لحبيبه إلا ما هو خير له ، وإنما قال هذا له لأجل أن يكون مستعدًا لما يلقى إليه ؛ لأنه يلقيه إليه من محب ، ثم قال له : « لا تدعن أن تقول دبر كل صلاة مكتوبة : اللّهم أعني على ذكرك » وعلى « شكرك » وعلى « حسن عبادتك » و « دبر كل صلاة » يعني في آخر الصلاة قبل السلام ، هكذا جاء في بعض الروايات أنه يقولها قبل السلام ، وهو حق ، وكما ذكرنا أن المقيد بالدبر ، أي : دبر الصلاة إن كان دعاء فهو قبل التسليم ، وإن كان ذكرًا فهو بعد التسليم ، ويدل لهذه القاعدة أن رسول اللّه ﷺ قال في حديث ابن مسعود في التشهد لما ذكره ، قال : ثم ليتخير من الدعاء ما شاء أو ما أحب أو أعجبه إليه ، أما الذكر فقال اللّه تعالى : ﴿ فَإِذَا قَضَيْتُمُ الصَّلَوٰةَ فَاذْكُرُوا اللَّهَ قِيَٰمًا وَقُعُودًا وَعَلَىٰ جُنُوبِكُمْ ﴾ [النساء ١٠٣] . «أعني على ذكرك » يعني كل قول يقرب إلى اللّه ، كل شيء يقرب إلى اللّه ، كل تفكير يقرب إلى اللّه ؛ فهو من ذكر اللّه ، « وشكرك » أي : شكر النعم واندفاع النقم ، فكم من نعمة للّه علينا ، وكم من نقمة اندفعت عنا ، فنشكر اللّه على ذلك ، ونسأل اللّه أن يعيننا عليه وعلى « حسن عبادتك » وحسن العبادة يكون بأمرين : بالإخلاص للّه ﷻ ، كل ما قوي الإخلاص كان أحسن ، وبالمتابعة لرسول اللّه ﷺ ، واللّه الموفق .

* * *

١٤٢٣ - وعَنْ أبي هُرَيرَةَ ﷺ أنَّ رسُول اللّهِ ﷺ قالَ : « إذا تَشَهَّدَ أَحَدُكُم ؛ فَلْيَسْتَعِذ بِاللّهِ مِنْ أَرْبَع ، يقولُ : اللّهُمَّ إنِّي أَعُوذُ بِكَ مِنْ عَذابِ جهَنَّم ، وَمِنْ عَذَابِ القَبرِ ، وَمِن فِتْنَةِ المَحيَا وَالمَماتِ ، وَمِنْ شَرِّ فِتْنَةِ المَسِيحِ الدَّجَّالِ » [1] . رواه مسلم .

١٤٢٤ - وعنْ عَلِيٍّ ﷺ قالَ : كانَ رسُول اللّهِ ﷺ إذا قامَ إلى الصَّلاة يكونُ مِنْ آخِرِ ما يقولُ بيْنَ التَّشَهُّدِ وَالتَّسْلِيمِ : « اللّهُمَّ اغفِرْ لي مَا قَدَّمتُ وَمَا أَخَّرتُ ، وَمَا أَسْرَرْتُ وَمَا أَعْلَنْتُ ، وما أَسْرَفْتُ ، وما أَنتَ أَعْلَمُ بِهِ مِنِّي ، أَنْتَ المُقَدِّمُ ، وَأَنْتَ المُؤَخِّرُ ، لا إلهَ إلا أَنْتَ » [2] رواه مسلم .

الشرح

ذكر المؤلف ﷺ هذين الحديثين فيما يتعوذ به ويذكر اللّه به في الصلوات ، ففي الأول عن أبي هريرة ﷺ أن النبي ﷺ قال : « إذا تشهد أحدكم فليستعذ باللّه من أربع » وفي لفظ : التشهد الأخير ، يقول : « اللّهم إني أعوذ بك من عذاب جهنم ، ومن عذاب القبر ، ومن فتنة المحيا والممات ، ومن شر فتنة المسيح الدجال » هذه أربعة أمور أمر النبي ﷺ أن نستعيذ باللّه منها إذا فرغنا من التشهد يعني قبل التسليم : « أعوذ باللّه من عذاب جهنم » وهي النار ، فنتعوذ باللّه من عذابها ، وهذا يشمل

---

(١) أخرجه مسلم في المساجد ومواضع الصلاة (١٣٠) والإمام أحمد في مسنده (٤٤٧/٢) والبيهقي في السنن (١٥٤/٢) .
(٢) أخرجه مسلم في صلاة المسافرين وقصرها (٢٠) وأحمد في مسنده (٩٤/١ ، ٩٥) والترمذي في الدعوات (٣٤٢١) والبيهقي في السنن (١٨٥/٢) .

ما عملت من سوء تسأل اللّٰه أن يعفو عنك منه ، وما لم تعمل من السوء تسأل اللّٰه أن يجنبك إياه « ومن عذاب القبر » لأن القبر فيه عذاب ، عذاب دائم للكافرين ، وعذاب قد ينقطع للعاصين ، وقد ثبت عن النبي ﷺ أنه مر بقبرين فقال : « إنهما ليعذبان وما يعذبان في كبير ، أما أحدهما فكان لا يستبرئ من البول ، وأما الآخر فكان يمشي بالنميمة » (١) « ومن فتنة المحيا والممات » فتنة المحيا : ما يفتتن به الإنسان في حياته وتدور على شيئين ، إما جهل وشبهة وعدم معرفة بالحق ، فيشتبه عليه الحق بالباطل فيقع في الباطل فيهلك . وإما شهوة أي : هوى ، بحيث يعلم الإنسان الحق لكنه لا يريده وإنما يريد الباطل . وأما فتنة الممات : فقيل : إنها فتنة القبر وهي سؤال الملكين للإنسان إذا دفن عن ربه ودينه ونبيه ، وقيل : فتنة الممات هي ما يكون عند موت الإنسان ، وذلك أن أشد ما يكون الشيطان حرصًا على إغواء بني آدم عند موتهم . يأتي الإنسان عند موته ويوسوس له ويشككه ، وربما يأمره بأن يكفر باللّٰه ﷻ . فهذه الفتنة من أعظم الفتن . وأما فتنة المسيح الدجال : فالمسيح الدجال هو من يبعثه اللّٰه ﷻ عند قيام الساعة . رجل خبيث كاذب ، مكتوب بين عينيه : كافر يقرءوه المؤمن الكاتب وغير الكاتب ، ويفتن اللّٰه تعالى الناس به ؛ لأنه يمكن له في الأرض بعض الشيء ، يبقى في الأرض أربعين يومًا ، اليوم الأول طوله طول السنة الكاملة ، والثاني طول الشهر والثالث طوله أسبوع ، والرابع كسائر الأيام . يدعو الناس إلى أن يكفروا باللّٰه ، وأن يشركوا به ، يقول : أنا ربكم ، ومعه جنة ونار ، لكنها جنة فيما يرى الناس ، ونار فيما يرى الناس ، وإلا فحقيقة جنته أنها نار ، وحقيقة ناره أنها جنة (٢) ، كما جاء في الحديث عن النبي ﷺ فيغتر الناس به ويفتتن به ما شاء اللّٰه أن يفتتن ، وفتنته عظيمة ؛ فإن النبي ﷺ قال : « ما في الدنيا فتنة أعظم من خلق آدم إلى قيام الساعة مثل فتنة المسيح الدجال ، وما من نبي إلا وأنذر به قومه » (٣) ولهذا خصه من بين فتنة المحيا بأن فتنته عظيمة . نسأل اللّٰه أن يعيذنا وإياكم منها ، وهذه الأربع يذكرها الإنسان قبل أن يسلم ، واختلف العلماء رحمهم اللّٰه ، هل هذا واجب أو سنة ، فأكثر العلماء على أنه سنة وأن الإنسان لو تركه لم تبطل صلاته ، وقال بعض أهل العلم : إنه واجب ، إنه يجب على الإنسان أن يستعيذ باللّٰه من هذه الأربع قبل أن يسلم ، وأنه لو ترك ذلك فصلاته باطلة وعليه أن يعيدها . وقد أمر طاووس وهو أحد كبار التابعين ابنه حين لم يقرأ هذه التعويذات الأربع أمره أن يعيد صلاته (٤) . فينبغي للإنسان ألا يدعها ، أن يحرص عليها لما فيها من الخير الكثير ، ولئلا يؤدي بصلاته إلى أنها تكون باطلة عند بعض أهل العلم . واللّٰه الموفق .

* * *

(١) أخرجه البخاري في الجنائز (١٣٦١) والترمذي في السنن (٧٠) والنسائي في السنن (٤/١٠٦) .

(٢) انظر في ذلك البخاري في الحج (١٥٥٥) ومسلم في الإيمان (٢٧٠) وأحمد في مسنده (٣/١١٥) .

(٣) انظر نص الحديث كما أورده البخاري في الأنبياء (٣) والمغازي (٤٤٢) والفتن (٢٦) ومسلم في الفتن (٩٥ ، ١٠١) .

(٤) ذهب الفقهاء إلى أن الدعاء بالمأثور جائز في الصلاة واستدلوا بهذا الحديث وغيره أما إذا كان الدعاء بغير المأثور ؛ فإن الحنفية وبعض الحنابلة ذهبوا إلى عدم جواز ذلك وأنه مفسد للصلاة ؛ لأنه من كلام الآدميين ، والمشترط أن يكون بألفاظ تشبه ألفاظ القرآن فمثلًا لو قال : اللهم اغفر لأخي ولزيد ؛ تفسد صلاته ، وذهبت الشافعية والحنابلة في المعتمد =

١٤٢٥ - وعَنْ عائشةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا قَالَتْ : كانَ النَّبيُّ ﷺ يُكْثِرُ أَنْ يقولَ في رُكُوعِهِ وَسُجُودِهِ : « سُبْحَانَكَ اللَّهُمَّ رَبَّنَا وَبِحَمْدِكَ ، اللَّهُمَّ اغْفِرْ لي » [١] متفقٌ عليه .

١٤٢٦ - وعَنْها أنَّ رسُول اللَّهِ ﷺ كانَ يَقُولُ في ركوعِهِ وَسجودِهِ : « سُبُّوحٌ قدُّوسٌ رَبُّ الملائِكةِ وَالرُّوحِ » [٢] رواه مسلم .

١٤٢٧ - وَعَنِ ابنِ عَبَّاسٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا أنَّ رسُول اللَّهِ ﷺ قالَ : « فَأَمَّا الرُّكوعُ ؛ فَعَظِّموا فيهِ الرَّبَّ عَزَّ وَجَلَّ ، وَأَمَّا السُّجُودُ ؛ فَاجْتَهِدُوا في الدُّعاءِ ، فَقَمِنٌ أَنْ يُسْتَجَابَ لَكُمْ » [٣] رواه مسلم .

الشرح

هذه أذكار في أحوال معينة ، فمنها ما نقله المؤلف رَحِمَهُ اللَّهُ عن عائشة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا أن النبي ﷺ كان يكثر أن يقول في ركوعه وسجوده : « سبحانك اللَّهم ربنا وبحمدك ، اللَّهم اغفر لي » وهذا بعد أن أنزل اللَّه عليه ﴿ إِذَا جَآءَ نَصْرُ ٱللَّهِ وَٱلْفَتْحُ ۝ وَرَأَيْتَ ٱلنَّاسَ يَدْخُلُونَ فِى دِينِ ٱللَّهِ أَفْوَاجًا ۝ فَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ وَٱسْتَغْفِرْهُ إِنَّهُۥ كَانَ تَوَّابًۢا ﴾ [النصر : ١ : ٣] وهذه السورة هي أَجلُ رسول اللَّه ﷺ فإن اللَّه نعاه إلى نفسه بأنه إذا جاء نصر اللَّه والفتح فقد قرب أجله ، كما فهم ذلك ابن عباس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا ، فإن ابن عباس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا كان صغير السن ، وكان عمر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ يحضره مع مجالس الرجال وكبار القوم ، فقال بعضهم : لماذا يحضر عمر ابن عباس ويترك أبناءه ؟ فأراد أن يبين لهم رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ فضل ابن عباس ، فقال لهم يومًا من الأيام : ما تقولون في قوله تعالى : ﴿ إِذَا جَآءَ نَصْرُ ٱللَّهِ وَٱلْفَتْحُ ۝ وَرَأَيْتَ ٱلنَّاسَ يَدْخُلُونَ فِى دِينِ ٱللَّهِ أَفْوَاجًا ۝ فَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ وَٱسْتَغْفِرْهُ إِنَّهُۥ كَانَ تَوَّابًۢا ﴾ ما مغزى هذه السورة ؟ قالوا : معناها أنه إذا جاء الفتح فسبح بحمد ربك واستغفره ، فقال : ما تقول يا ابن عباس ؟ قال : أقول هذا أجل رسول اللَّه ﷺ أن اللَّه أعطاه علامة وهي الفتح والنصر إذا جاءت فقد قرب أجله . فقال : ما فهمت منها إلا ما فهمت [٤] . فالحاصل أن هذه الآية أمر اللَّه نبيه أن يسبح بحمد ربه ويستغفره ، وكان ﷺ يفعل ذلك ،

= من مذهبهم إلى جواز الدعاء في الصلاة بغير المأثور والمأثور ، وإلى جواز الدعاء في الصلاة كيفما كان ما دام في غير معصية . وعلى هذا فإن ترك الدعاء بهذه الألفاظ أو بغيرها لا يفسد الصلاة ، وقد قال الإمام النووي : وظاهر كلام طاووس رَحِمَهُ اللَّهُ أنه حمل الأمر على الوجوب ، فأوجب إعادة الصلاة لفواته ، وجمهور العلماء على أنه مستحب . ولعل طاووسًا أراد تأديب ابنه وتأكيد هذا الدعاء عنده ، لا أنه يعتقد وجوبه (صحيح مسلم بشرح النووي (٨٩/٥) . وانظر المغني (٥٩٨/١) مغني المحتاج (١٧٦/١) فقه الكتاب والسنة (٥٦٠/١ ، ٥٦١) .

(١) أخرجه البخاري في الأذان (٧١٧) ومسلم في الصلاة (٢١٧) وأحمد في مسنده (٣٩٢/١ ، ٣٩٤) والبيهقي في السنن (١٠٩/٢) .

(٢) أخرجه مسلم في الصلاة (٢٢٣) وأحمد في مسنده (٣٥/٦ ، ٩٤) والنسائي في السنن (١٩١/٢) قوله « سبوح » أي المبرأ من النقائص والشريك وكل ما لا يليق بالإلهية . قوله « قدوس » هو المطهر من كل ما لا يليق .

(٣) أخرجه مسلم في الصلاة (٢٠٧) . قوله « فعظموا فيه الرب » أي بذكر الثناء عليه والمبالغة في التنزيه والتقديس .

(٤) انظر الحديث بنصه في : البخاري في تفسير القرآن (٤٩٧٠) .

يكثر أن يقول في ركوعه وهو كذلك في سجوده : « سبحانك اللّهم ربنا وبحمدك اللّهم اغفر لي » ومعنى هذا : أنك تثني على اللّه ﷻ بكمال صفاته وانتفاء صفات النقص عنه وتسأله المغفرة .

أما حديثها الثاني : فكان النبي ﷺ يقول في ركوعه وسجوده : « سبوح قدوس رب الملائكة والروح » يعني : أنت سبوح قدوس ، وهذه مبالغة في التنزيه ، وأنه جل وعلا سبوح قدوس رب الملائكة وهم جند اللّه ﷻ عالم لا نشاهدهم ، وأما الروح فهو جبريل [١] وهو أفضل الملائكة . فينبغي للإنسان أن يكثر في ركوعه وسجوده من قوله : « سبحانك اللّهم ربنا وبحمدك اللّهم اغفر لي » تأسيًا برسول اللّه ﷺ وأن يقول كذلك في ركوعه وسجوده : « سبوح قدوس رب الملائكة والروح » .

أما حديث ابن عباس رضي الله عنهما : فقال : « أما الركوع فعظموا فيه الرب ، وأما السجود فاجتهدوا في الدعاء » . وهذا طرف من حديث أوله : « ألا وإني نهيت أن أقرأ القرآن راكعًا أو ساجدًا ، فأما الركوع فعظموا فيه الرب ، وأما السجود فاجتهدوا في الدعاء ، فَقَمِنٌ أن يستجاب لكم » [٢] أي حري أن يستجاب لكم ، لأن أقرب ما يكون العبد من ربه وهو ساجد . والركوع لا يجوز لأحد أن يقرأ القرآن وهو راكع ولا يجوز أن يقرأ القرآن وهو ساجد ، لكن له أن يدعو بالدعاء الذي يوافق القرآن مثل أن يقول مثلًا : ربنا اغفر لنا ذنوبنا وإسرافنا في أمرنا وثبت أقدامنا وانصرنا على القوم الكافرين ، لكن أما أن يقرأ القرآن فإنه حرام عليه أن يقرأ وهو راكع أو يقرأ وهو ساجد ، الركوع له التعظيم يعظم ربه ، سبحان ربي العظيم ، سبحان الملك القدوس وما أشبه ذلك . السجود يقول : سبحان ربي الأعلى ، سبحانك اللّهم ربنا وبحمدك اللّهم اغفر لي ، ويدعو ، ويكثر من الدعاء ، فقمن أن يستجاب له أي حري أن يستجاب له . وفقنا اللّه وإياكم لما يحبه ويرضاه

* * *

١٤٢٨ - وعن أبي هريرَةَ رضي الله عنه أَنَّ رسولَ اللّهِ ﷺ قَالَ : « أَقرَبُ ما يَكُونُ العَبْدُ مِنْ رَبِّهِ وَهُوَ سَاجِدٌ ، فَأَكثِرُوا الدُّعَاءَ » [٣] رواه مسلم .

١٤٢٩ - وعنهُ أَنَّ رسُولَ اللّهِ ﷺ كانَ يَقُولُ في سُجُودِهِ : « اللَّهُمَّ اغفِرْ لي ذَنْبي كُلَّهُ : دِقَّهُ وَجِلَّهُ ، وَأَوَّلَهُ وَآخِرَهُ ، وَعَلانِيَتَهُ وَسِرَّه » [٤] رواه مسلم .

الشرح

هذان الحديثان في بيان دعاء وأذكار مخصوصة ذكرها المؤلف رحمه الله في باب فضل الدعاء ، فمنها

---

(١) ودليل ذلك قوله تعالى : ﴿ نَزَلَ بِهِ ٱلرُّوحُ ٱلْأَمِينُ ۝ عَلَىٰ قَلْبِكَ لِتَكُونَ مِنَ ٱلْمُنذِرِينَ ﴾ .

(٢) أخرجه مسلم في الصلاة (٢٠٧) والنسائي في السنن (١٨٩/٢ ، ١٩٠) والبيهقي في السنن (٨٨/٢) .

(٣) أخرجه مسلم في الصلاة (٢١٥) وأحمد في مسنده (٢٤١/٢) وأبو داود في الصلاة (٧٨٥) .

(٤) أخرجه مسلم في الصلاة (٢١٦) والبيهقي في السنن (١١٠/٢) . قوله « دِقَّه وجِلَّه » أي صغيره وكبيره . وقال النووي : هي القليل والكثير .

حديث أبي هريرة رضي الله عنه : أن النبي ﷺ قال : « أقرب ما يكون العبد من ربه وهو ساجد » ؛ وذلك لأن الإنسان إذا سجد فإنه يضع أشرف ما به من الأعضاء في أماكن وضع الأقدام التي توطأ بالأقدام ، وكذلك أيضًا يضع أعلى ما في جسده حذاء أدنى ما في جسده ؛ يعني أن وجهه أعلى ما في جسده وقدميه أدنى ما في جسده فيضعهما في مستوى واحد تواضعًا لله عز وجل ، ولهذا كان أقرب ما يكون من ربه وهو ساجد ، وقد أمر النبي ﷺ فيما سبق بالإكثار من الدعاء في حال السجود فيجتمع في ذلك الهيئة والمقال تواضعًا لله عز وجل ، ولهذا يقول الإنسان في سجوده : سبحان ربي الأعلى إشارة إلى أنه جل وعلا هو العلي الأعلى في ذاته وفي صفاته ، وأن الإنسان هو السافل النازل بالنسبة لجلال الله تعالى وعظمته .

أما الحديث الثاني : فهو فيه أن النبي ﷺ كان يقول في صلاته : « اللَّهم اغفر لي ذنبي كله ، دقه وجله ، علانيته وسره ، وأوله وآخره » . وهذا من باب التبسط في الدعاء والتوسع فيه ؛ لأن الدعاء عبادة فكل ما كرره الإنسان ازداد عبادة لله عز وجل ، ثم إنه في تكراره هذا يستحضر الذنوب كلها السر والعلانية ، وكذلك ما أخفاه ، وكذلك دقه وجله ، وهذا هو الحكمة في أن النبي ﷺ فصل بعد الإجمال ، فينبغي للإنسان أن يحرص على الأدعية الواردة عن رسول الله ﷺ ؛ لأنها أجمع الدعاء وأنفع الدعاء . وفقنا الله وإياكم لما فيه الخير والصلاح .

* * *

١٤٣٠ - وعَنْ عائشَةَ رضي الله عنها قَالَتْ : افتقدْتُ النَّبيَّ ﷺ ذَاتَ لَيلَةٍ ، فَتَحَسَّسْتُ ، فإذَا هُوَ رَاكِعٌ - أَو سَاجِدٌ - يقولُ : « سُبْحَانَكَ وبحَمْدِكَ ، لا إلهَ إلا أَنْتَ » ، وفي رواية : فَوَقَعَت يَدِي عَلى بَطْنِ قَدَمِيهِ وَهُوَ في المَسْجِدِ وَهما مَنْصُوبَتَانِ ، وَهُوَ يَقُولُ : « اللَّهُمَّ إنِّي أَعُوذُ بِرِضَاكَ مِنْ سَخطِكَ ، وبِمُعَافاتِكَ مِنْ عُقُوبَتِكَ ، وَأَعُوذُ بِكَ مِنْكَ ، لا أُحْصي ثَنَاءً عليك ، أَنْتَ كما أَثنيتَ على نَفْسِكَ » [1] رواه مسلم .

١٤٣١ - وعنْ سعدِ بنِ أبي وقاص رضي الله عنه قالَ : كُنَّا عِنْدَ رسول اللَّهِ ﷺ فقال : « أيعجزُ أحدُكم أنْ يَكْسِبَ في كلِّ يَومٍ أَلفَ حَسَنَةٍ ؟! » فَسَأَلَهُ سَائِلٌ مِنْ جُلَسَائِهِ : كَيفَ يَكسِبُ أَلفَ حَسَنَةٍ ؟ قالَ : « يُسَبِّح مِائَةَ تَسْبِيحَةٍ ، فَيُكْتَبُ لهُ أَلفُ حَسَنةٍ ، أَو يُحَطُّ عَنْهُ أَلفُ خَطِيئَةٍ » [2] رواه مسلم .

قالَ الحُمَيدِيُّ : كذا هوَ في كِتَابِ مُسْلِم : « أَو يُحَطُّ » قالَ البَرْقَانِيُّ : ورواهُ شُعْبَةُ ، وأبو عَوَانَةَ ، وَيَحيى القَطَّانُ ، عَنْ مُوسى الذي رواه مسلم مِن جِهَتِهِ فقالُوا : « وَيحطُّ » بِغَيرِ أَلفٍ .

الشرح

هذان الحديثان في بيان الذكر وفضله ، الحديث الأول عن عائشة رضي الله عنها : أنها افتقدت النبي ﷺ

---

(١) أخرجه مسلم في الصلاة (٢٢٢) وأحمد في مسنده (١/ ٩٦) وأبو داود في الصلاة (١٤٣٣) . قوله « على بطن قدميه وهو في المسجد » أي في السجود للصلاة ، أو في الموضع الذي كان يصلي فيه ، قوله « فتحسست » أي بحثت عنه ، قوله « سخطك » أي انتقامك ، قوله « معافاتك » أي عفوك ، قوله « لا أحصي » أي لا أستطيع أن أحصر أو أعد ، وقيل : لا أحيط .

(٢) أخرجه مسلم في الذكر والدعاء (٣٧) والإمام أحمد في المسند (١/ ١٨٠ ، ١٨٥) .

ذات ليلة ، فخرجت تتحسس عنه ؛ لأنها رضي الله عنها هي أحب نسائه إليه وهي تحبه أيضًا ، فتخشى أن يكون حصل له شيء ، فذهبت تتحسس فوجدته ﷺ في المسجد وهو ساجد يدعو الله تبارك وتعالى بهذا الدعاء ، قالت : ووقعت يدي ، يدها على بطون قدميه وهو ساجد ، واستدل العلماء بذلك على أن الساجد ينبغي له أن يضم قدميه بعضهما إلى بعض ولا يفرقهما ؛ لأنه لا يمكن أن تقع اليد الواحدة على قدمين متفرقتين ، وكذلك هو أيضًا في صحيح ابن خزيمة أن النبي ﷺ كان يضم رجليه في السجود (١) .

أما الركبتان فهما على طبيعتهما لا يفرقهما ولا يضمهما على طبيعتهما . وكان من دعائه عليه الصلاة والسلام : « اللَّهم إني أعوذ برضاك من سخطك » والمعنى : أنه ﷺ يستعيذ بالله عز وجل بالأعمال الصالحة عن الأعمال السيئة ؛ لأن الأعمال السيئة توجب الغضب والسخط ، والأعمال الصالحة توجب الرضا ، والشيء إنما يداوى بضده ، فالسخط ضده الرضا ، فيستعيذ بالرضا من السخط ، « وبمعافاتك من عقوبتك » يعني أستعيذ بمعافاتك من الذنوب وآثارها وعقوباتها من عقوبتك على الذنوب ، وهذا يتضمن سؤال المغفرة ، وأعوذ بك منك ، وهذا أشمل وأعم ، أنه يتعوذ بالله من الله عز وجل ، وذلك لأنه لا منجى ولا ملجأ من الله إلا إليه ، لا أحد ينجيك من عذاب الله إلا الله عز وجل ، فتستعيذ بالله من الله سبحانه وتعالى ، أي : تستعيذ به من عقوبته وغير ذلك مما يقدره ، فدل ذلك على ما ذكرنا من انضمام القدمين في السجود ، ودل هذا على أن النبي ﷺ كان يصلي أحيانًا النافلة في المسجد مع أن الأفضل (٢) أن تكون في البيت كما قال رسول الله ﷺ : « أفضل صلاة المرء في بيته ، إلا المكتوبة » (٣) لكنه عليه الصلاة والسلام أحيانًا يصلي النافلة في المسجد . وفيه أيضًا دليل على محبة عائشة لرسول الله ﷺ ولا غرابة ؛ فإنه عليه الصلاة والسلام كانت هي أحب نسائه اللاتي عنده ، ولا يساميها أحد ، اللَّهم إلا خديجة رضي الله عنها ، فإن خديجة هي أول نسائه ﷺ ولم يتزوج عليها أحد حتى ماتت ، وكان يذكرها دائمًا أي يذكر خديجة ، لكن عائشة رضي الله عنها هي أحب نساءه الموجودات في عهد عائشة .

ومن فوائد هذا الحديث : أن الإنسان يستعيذ بصفات الله عز وجل من ضدها بالرضا من السخط ، وبالمعافاة من العقوبة ، وأنه لا ملجأ له من الله إلا إليه ، فيستعيذ بالله منه تبارك وتعالى . والله الموفق .

سؤال وجوابه : [نعم ، لا يجوز للإنسان وهو ساجد أن يرفع يديه أو إحدى يديه أو رجليه أو إحدى رجليه ، لأن الواجب السجود على الأعضاء السبعة : الجبهة مع الأنف ، والكفين ، والركبتين ، وأصابع القدمين (٤) فإن رَفَعَهُمَا حتى قام من السجود فصلاته باطلة (٥) ، أما إن رفع ثم نزل بسرعة

---

(١) انظر صحيح ابن خزيمة (١/٣٢٨) . (٢) كما جاء في أحاديث أخرى .

(٣) أخرجه أحمد في مسنده (٥/١٨٦) والترمذي في الصلاة (٤٥٠) والبغوي في شرح السنة (٤/١٣١) .

(٤) وذلك مصداقًا لقوله ﷺ الذي أخرجه البخاري في الأذان (٨١٢) ومسلم في الصلاة (٢٣٠) .

(٥) وهذا هو مذهب الحنابلة والشافعية والمالكية والحنفية (انظر المغني (١/٥١٦) وشرح فتح القدير (١/٣٠٣) ومغني المحتاج (١/١٦٨) وأسهل المدارك (١/ ٢٠٠) وفقه الكتاب والسنة (١/٥٠٤) .

فأرجو ألا يكون عليه إعادة للصلاة] .

* * *

١٤٣٢ - وعَنْ أبي ذَرٍّ ﷺ أنَّ رسُول اللَّهِ ﷺ قالَ : « يُصْبِحُ عَلى كُلِّ سُلامَى مِنْ أَحَدِكُمْ صَدَقَةٌ : فَكُلُّ تَسْبِيحَةٍ صَدَقَةٌ ، وكُلُّ تَحْمِيدَةٍ صَدَقَةٌ ، وكُلُّ تَهْلِيلَةٍ صَدَقَةٌ ، وكُلُّ تَكْبِيرَةٍ صَدَقَةٌ ، وأَمْرٌ بالْمَعْرُوفِ صَدَقَةٌ ، وَنَهْيٌ عَنِ المُنْكَرِ صَدقَةٌ . وَيُجْزِئُ مِنْ ذلكَ رَكْعَتَانِ يَرْكَعُهُمَا منَ الضُّحى » [١] رواه مسلم .

١٤٣٣ - وَعَنْ أمِّ المؤمنين جُوَيرِيَةَ بنتِ الحَارِثِ ﷺ ، أنَّ النبيَّ ﷺ خَرَجَ مِنْ عِنْدِهَا بُكْرَةً حين صَلَّى الصُّبْحَ وَهِيَ في مَسْجِدِهَا ، ثُمَّ رَجَعَ بَعْدَ أَنْ أَضْحَى وَهِيَ جَالِسَةٌ ، فقالَ : « مَا زِلْتِ عَلى الحَالِ التي فَارَقْتُكِ عَلَيهَا ؟ » قالَت : نَعَمْ : فَقَالَ النَّبيُّ ﷺ : « لَقَدْ قُلْتُ بَعْدَكِ أَرْبَعَ كَلِمَاتٍ ثَلاثَ مَرَاتٍ ، لَو وُزِنَتْ بما قُلْتِ مُنْذُ اليَومِ لَوَزَنَتْهُنْ : سُبْحَانَ اللَّهِ وبحَمْدِهِ ، عَدَدَ خَلْقِهِ ، ورضَا نَفْسِهِ ، وزِنَةَ عَرْشِهِ ، ومِدَادَ كَلِمَاتِهِ » رواه مسلم .

وفي رواية له : « سُبْحَانَ الله عَدَدَ خَلْقِهِ ، سُبْحَانَ اللَّهِ رِضَا نَفْسِهِ ، سُبْحَانَ اللَّهِ زِنَةَ عَرْشِهِ ، سُبْحَانَ اللَّهِ مِدَادَ كَلماتِهِ » .

وفي روايةِ الترمذي : « أَلا أُعَلِّمُكِ كَلمَات تَقُولِينَهَا ؟ سُبْحَانَ اللَّهِ عَدَدَ خلْقِهِ ، سُبْحَانَ اللَّه عَدَدَ خَلْقِهِ ، سُبْحَانَ اللَّه عَدَدَ خَلْقِهِ ، سُبْحَانَ اللَّه رِضى نَفْسِهِ ، سُبْحَانَ اللَّهِ رِضى نَفْسِهِ ، سُبْحَانَ اللَّهِ رضى نَفْسِهِ ، سُبْحَانَ اللَّهِ زِنَةَ عَرْشِهِ ، سُبْحَانَ اللَّهِ زِنَةَ عَرْشِهِ ، سُبْحَانَ اللَّهِ زِنَةَ عَرْشِهِ ، سُبْحَانَ اللَّهِ مِدَادَ كَلمَاتِهِ ، سُبْحَانَ اللَّهِ مِدَادَ كَلماتِهِ ، سُبْحَانَ اللَّهِ مِدَادَ كَلمَاتِهِ » [٢] .

الشرح

هذه الأحاديث من الأحاديث التي فيها بيان فضيلة نوع من أنواع الذكر ، وهو ما روته أم المؤمنين جويرية بنت الحارث عن النبي ﷺ أنه خرج من عندها الفجر ثم رجع إليها ضحى ، وهي تسبح وتهلل فبين لها ﷺ أنه قال بعدها كلمات تزن ما قالت منذ الفجر أو منذ الصبح : « سبحان اللَّه وبحمده عدد خلقه » ثلاث مرات ، « سبحان اللَّه وبحمده رضا نفسه » ثلاث مرات ، « سبحان اللَّه وبحمده زنة عرشه » ثلاث مرات ، « سبحان اللَّه وبحمده مداد كلماته » ثلاث مرات .

أما « سبحان اللَّه وبحمده عدد خلقه » : فمعناه أنك تسبح اللَّه ﷻ وتحمده عدد مخلوقاته ، ومخلوقات اللَّه ﷻ لا يحصيها إلا اللَّه كما قال اللَّه تعالى : ﴿ وَمَا يَعْلَمُ جُنُودَ رَبِّكَ إِلَّا هُوَ ﴾ [المدثر : ٣١] .

(١) هذا الحديث لم يقم الشارح ﷺ بشرحه ، والحديث أخرجه مسلم في الصلاة (٨٤) وأبو داود في الصلاة (١٢٨٩) والبيهقي في السنن (٣/ ٤٧) . قوله « سلامى » أي عضو ، قوله « تسبيحة » هو قولك : سبحان اللَّه ، قوله « تحميدة » هو قولك : الحمد للَّه ، قوله « تهليلة » هو قولك : لا إله إلا اللَّه ، قوله « ويجزئ » أي ينوب عن ذلك .

(٢) أخرجه مسلم في الذكر والدعاء (٧٩) وأحمد في مسنده (٦/ ٤٣٠) والترمذي في السنن (٣٥٥٥) . قوله « في مسجدها » أي موضع صلاتها ، قوله « مداد كلماته » أي مثل عدد كلماته .

وأما « سبحان الله وبحمده زنة عرشه » وزنة عرشه لا يعلم ثِقَلَها إلا الله سبحانه وتعالى ؛ لأن العرش أكبر المخلوقات التي نعلمها ، فإن النبي ﷺ يروى عنه أنه قال : « إن السماوات السبع والأرضين السبع في الكرسي كحلقة أُلقيت في فلاة من الأرض ، وإن فضل العرش على الكرسي كفضل الفلاة على هذه الحلقة »[١] إذًا فهو مخلوق عظيم لا يعلم قدره إلا الله ﷻ .

وأما « سبحان الله وبحمده رضا نفسه » فيعني : أنك تسبح الله وتحمده حمدًا يرضى به الله ﷻ، وأي حمدٍ يرضى به الله إلا وهو أفضلُ الحمدِ وأكملُه .

وأما « سبحان الله وبحمده مداد كلماته » والمداد ما يُكتب به الشيء وكلمات الله تعالى لا يقارن بها شيء قال الله تعالى : ﴿ وَلَوْ أَنَّمَا فِي ٱلْأَرْضِ مِن شَجَرَةٍ أَقْلَٰمٌ وَٱلْبَحْرُ يَمُدُّهُۥ مِنۢ بَعْدِهِۦ سَبْعَةُ أَبْحُرٍ مَّا نَفِدَتْ كَلِمَٰتُ ٱللَّهِ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴾ [لقمان : ٢٧][٢] ، وقال تعالى : ﴿ قُل لَّوْ كَانَ ٱلْبَحْرُ مِدَادًا لِّكَلِمَٰتِ رَبِّي لَنَفِدَ ٱلْبَحْرُ قَبْلَ أَن تَنفَدَ كَلِمَٰتُ رَبِّي وَلَوْ جِئْنَا بِمِثْلِهِۦ مَدَدًا ﴾ [الكهف : ١٠٩] فكلمات الله تعالى لا نهاية لها ، فالمهم أنه ينبغي لنا أن نحافظ على هذا الذكر .

سبحان الله وبحمده عدد خلقه (ثلاث مرات) سبحان الله وبحمده رضا نفسه (ثلاث مرات) سبحان الله وبحمده زنة عرشه (ثلاث مرات) سبحان الله وبحمده مداد كلماته (ثلاث مرات) فيكون الجميع (١٢) مرة .

* * *

١٤٣٤ - وعَنْ أَبي مُوسَى الأَشْعَرِيِّ ﷺ عَنِ النبيِّ ﷺ ، قالَ : « مَثَلُ الَّذي يَذكُرُ رَبَّهُ وَالَّذي لا يَذكُرُهُ ، مَثَلُ الحَيِّ وَالمَيِّتِ » رواه البخاري .

ورواه مسلم فقالَ : « مَثَلُ البَيتِ الَّذي يُذكَرُ اللَّهُ فِيهِ ، وَالبَيتِ الَّذي لايُذكَرُ اللَّهُ فِيهِ ؛ مَثَلُ الحَيِّ وَالمَيِّتِ »[٣] .

١٤٣٥ - وعَنْ أَبي هُرَيرَةَ ﷺ أَنَّ رسُول اللَّهِ ﷺ قالَ : « يَقُولُ اللَّهُ تَعَالى : أَنا عِنْدَ ظَنِّ عَبدي بي ، وَأَنَا مَعَهُ إذا ذَكَرَني ، فَإنْ ذَكَرَني في نفسِهِ ، ذَكَرتُهُ في نَفْسي ، وَإنْ ذَكَرَني في مَلإٍ ؛ ذَكَرتُهُ في مَلإٍ خَيرٍ مِنْهُمْ »[٤] متفقٌ عليه .

١٤٣٦ - وعَنْهُ : قال : قَالَ رسُول اللَّهِ ﷺ : « سَبَقَ المفَرِّدُونَ » قالوا : وَمَا المفَرِّدُونَ يا رَسُولَ اللَّهِ؟ قالَ : « الذَّاكِرونَ اللَّهَ كَثِيرًا والذَّاكِرَاتُ »[٥] رواه مسلم .

---

(١) ذكره ابن الجوزي برواية ابن عباس في زاد المسير (٣٠٤/١) وفي إسناده مقال ، وهو عند ابن عساكر في تاريخه (٣٥٦/٦) .

(٢) قوله : ﴿ مِن شَجَرَةٍ أَقْلَٰمٌ ﴾ أي لو أن أشجار الأرض كلها أقلام والبحر يمده بعد نفاذه سبعة أبحر أخرى وكتبت بتلك الأقلام ما فنيت كلمات الله .

(٣) أخرجه البخاري في الدعوات (٦٤٠٧) ومسلم في صلاة المسافرين (٢١١) .

(٤) أخرجه البخاري في التوحيد (٧٤٠٥) ومسلم في الذكر والدعاء (٢) وأحمد في مسنده (٢١٠/٣ ، ٢٧٧) . قوله « عند ظن عبدي » أي عند يقينه بي في الاعتماد على الاستيثاق بوعدي . قوله : « ذكرني في نفسه » أي سرًّا .

(٥) أخرجه مسلم في الذكر والدعاء (٤) وأحمد في مسنده (٣٢٣/٢) والحاكم في المستدرك (٤٩٥/١) قوله « سبق المفردون » أي سبقوا إلى مرضاة المولى والدرجات العلى .

روي : « المُفَرِّدُونَ » بتشديد الراء وتخفيفها ، وَالمَشْهُورُ الَّذي قَالَهُ الجُمْهُورُ : التَّشْدِيدُ .

الشرح

أما الحديث الأول : فقد قال فيه رسول الله ﷺ : « مثل الذي يذكر الله ، والذي لا يذكر الله كمثل الحي والميت » وذلك لأن الذي يذكر الله تعالى قد أحيا الله قلبه بذكره وشرح له صدره ، فكان كالحي ، وأما الذي لا يذكر الله فإنه لا يطمئن قلبه ، والعياذ بالله ، ولا ينشرح صدره للإسلام ، فهو كمثل الميت ، وهذا مثل ينبغي للإنسان أن يعتبر به ، وأن يعلم أنه كلما غفل عن ذكر الله ﷻ فإنه يقسو قلبه ، وربما يموت قلبه والعياذ بالله .

وأما الحديثان الأخيران : ففيهما أيضًا دليل على فضيلة الذكر ، وهو أن الإنسان إذا ذكر الله ﷻ في نفسه ذكره الله في نفسه ، وإن ذكره في ملإ ذكره الله في ملإ خير منهم ، يعني : إذا ذكرت ربك في نفسك - إما أن تنطق بلسانك سرًا ولا يسمعك أحد ، أو تذكر الله في قلبك ؛ فإن الله تعالى يذكرك في نفسه ، وإذا ذكرته في ملإ أي : عند جماعة ؛ فإن الله تعالى يذكرك في ملإ خير منهم ، أي في ملإ من الملائكة يذكرك عندهم ويُعلي ذكرك ويُثني عليك جل وعلا . ففي هذا دليل على فضيلة الذكر ، وأن الإنسان إذا ذكر الله عند ملإ كان هذا أفضل مما إذا ذكره في نفسه ؟ إلا أن يخاف الإنسان على نفسه الرياء ، فإن خاف الرياء فلا يجهر ، ولكن لا يكون في قلبه وساوس بأن يقول : إذا ذكرت الله جهرًا فهذا رياء ، فلا أذكر الله . فلْيَدَعْ هذه الوساوس ويذكر الله تعالى عند الناس وفي نفسه حتى يذكره الله ﷻ كما ذكر ربه .

وأما حديث أبي هريرة الثالث : فهو أن النبي ﷺ قال : « سبق المفرِّدون » قالوا : وما المفردون ؟ قال : « الذاكرون الله كثيرًا ، والذاكرات » فهذا دليل على أن الذاكرين الله كثيرًا لهم السبق على غيرهم ؛ لأنهم عملوا أكثر من غيرهم ، فكانوا أسبق إلى الخير . والله الموفق .

* * *

١٤٣٧ - وعَنْ جابرٍ ﷺ قالَ : سَمِعْتُ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ يقولُ : « أَفْضَلُ الذِّكْرِ : لا إله إلا اللَّهُ » [١] .

رواه الترمذي وقالَ : حديثٌ حَسَنٌ .

١٤٣٨ - وعنْ عبد اللَّهِ بنِ بُسْرٍ ﷺ أَنَّ رَجُلًا قالَ : يا رَسُولَ اللَّه ، إنَّ شَرَائِعَ الإسْلامِ قَدْ كَثُرَتْ عَلَيَّ ، فَأَخبِرْني بِشَيْءٍ أَتَشَبَّثُ بِهِ ، قالَ : « لا يَزَالُ لِسَانُكَ رَطبًا مِنْ ذِكْرِ اللَّهِ » [٢] .

رواه الترمذي وقال : حديثٌ حَسَنٌ .

---

(١) أخرجه الترمذي في الدعوات (٣٣٨٣) وابن ماجه في الأدب (٣٨٠٠) .

(٢) أخرجه الترمذي في الدعوات (٣٣٧٥) وأحمد في مسنده (١٨٨/٤) وابن ماجه في الأدب (٣٧٩٣) والحاكم في المستدك (٤٩٥/١) وقال : صحيح الإسناد ولم يخرجاه ، وقال الذهبي : صحيح ، والبيهقي في السنن (٣٧١/٣) . قوله « شرائع الإسلام » هي أحكامه من واجب ومندوب ومستحب وغير ذلك ، قوله « أتشبث به » أي أستمسك به ليحصل لي به فضل ما فات منها من غير الفرائض ، قوله : « لا يزال لسانك رطبًا » رطوبة اللسان عبارة عن مداومة الذكر .

١٤٣٩ - وعَنْ جابر ﷺ عَنِ النبيِّ ﷺ قالَ : « مَنْ قالَ : سُبْحَانَ اللَّهِ وَبحَمْدِهِ ، غُرِسَتْ لهُ نَخْلَةٌ في الجَنَّةِ » (١) رواه الترمذي وقال : حديثٌ حسنٌ .

١٤٤٠ - وَعَنِ ابنِ مَسْعودٍ ﷺ قال : قالَ رسُول اللَّه ﷺ : « لَقيتُ إبراهيمَ ﷺ لَيلَةَ أُسريَ بِي ، فقالَ : يا محمدُ أقْرِئْ أُمَّتَكَ مِنِّي السَّلامَ ، وأَخْبِرْهُمْ أنَّ الجنَّةَ طيِّبَةُ التُّرْبَةِ ، عَذْبَةُ الماء ، وأنَّها قِيعَانٌ ، وَأَن غِراسَهَا : سُبْحَانَ اللَّهِ ، والحمدُ للَّهِ ، ولا إلهَ إلا اللَّه ، واللَّهُ أكْبرُ » (٢) . رواه التِّرمذيُّ وقالَ : حديثٌ حَسَنٌ .

١٤٤١ - وعنْ أبي الدَّرْدَاء ﷺ قالَ : قَالَ رسُول اللَّه ﷺ : « ألا أُنَبِّئُكُم بخَيرِ أعْمَالِكُم ، وَأزْكَاهَا عِنْدَ مَليكِكم ، وَأَرْفعِها في دَرَجَاتِكم ، وَخَيرٍ لكُمْ مِنْ إنْفَاقِ الذَّهَب وَالفضَّةِ ، وَخَيرٍ لكُمْ مِنْ أنْ تَلْقَوا عَدُوَّكم فَتَضربُوا أعْنَاقَهُم ، وَيضرِبوا أعْنَاقَكُم ؟ » قالوا : بَلَى ، قالَ : « ذِكرُ اللَّهِ تَعَالى » (٣) .

رواهُ الترمذيُّ ، قالَ الحاكُم أبو عبد اللَّهِ : إسنادُهُ صحيحٌ .

الشرح

هذه الأحاديث التي ساقها المؤلف رحمه الله كلها في مجموعها تدل على فضيلة الذكر كما سبق ، ولكن في بعضها ما فيه ضعف : فمنها أن النبي ﷺ قال له رجل : إن شرائع الإسلام قد كثرت علي ، فقال له النبي ﷺ : « لا يزال لسانك رطبًا بذكر اللَّه عز وجل » هذا الحديث فيه ضعف (٤) لكن إن صح فالمعنى : أن هذا الرجل كثرت عليه النوافل ، أما الفرائض : فلا يُغني عنها قول : « لا إله إلا اللَّه » ولا غيره ، الفرائض لابد منها ، أما النوافل إذا شق على الإنسان بعضها فالذكر قد يسد ما يحصل به الخلل .

ومنها أيضًا أن الرسول ﷺ قال : « أفضل الذكر لا إله إلا اللَّه » ، ولا شك أن هذه الكلمة كلمة عظيمة فهي التي يدخل بها الإنسان في دين الإسلام ، فهي مفتاح الإسلام كما جاء في الحديث : « أن مفتاح الجنة هو لا إله إلا اللَّه » (٥) ، ومنها أيضًا فضيلة « سبحان اللَّه ، والحمد للَّه ، ولا إله إلا اللَّه ، واللَّه أكبر » وأن هذه غراس الجنة ، يعني أن الإنسان إذا قالها يُغرس له في الجنة غرسًا في كل كلمة .

ومنها : أن ذكر اللَّه عز وجل من أفضل الأعمال وأوفاها وأحبها إلى اللَّه عز وجل ، بل هو من أسباب الثبات عند اللقاء كما قال اللَّه تعالى : ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا لَقِيتُمْ فِئَةً فَاثْبُتُوا وَاذْكُرُوا اللَّهَ

---

(١) أخرجه الترمذي في الدعوات (٣٤٦٥) .

(٢) أخرجه الترمذي في الدعوات (٣٣٧٧) وأحمد في مسنده (١٠/٣٧٥) ، قوله : « إن الجنة طيبة التربة » وذلك لأن ترابها المسك والزعفران ولاشيء أطيب منهما . قوله « قيعان » القاع هو المكان الواسع المستوي من الأرض .

(٣) أخرجه الترمذي في الدعوات (٣٣٧٨) وأحمد في مسنده (٥/١٩٥) وابن ماجه في الأدب (٣٧٩٠) .

(٤) بل قال في تحفة الأحوذي في شرحه لهذا الحديث « قوله هذا حديث حسن غريب . وأخرجه أحمد وابن ماجه وابن حبان في صحيحه والحاكم وقال : صحيح الإسناد . وانظر تخريجه عند ذِكر نص الحديث .

(٥) الحديث أخرجه أحمد في مسنده (٥/٢٤٢) والمنذري في الترغيب والترهيب (٢/٤١٦) .

﴿ كَثِيرًا لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ﴾ [الأنفال : ٤٥] مثل هذه الأحاديث كلها تدل على فضيلة الذكر وأنه ينبغي للإنسان أن يكثر من ذكر الله ، وقد مر علينا قول النبي ﷺ : « كلمتان خفيفتان على اللسان ، ثقيلتان في الميزان حبيبتان إلى الرحمن : سبحان الله وبحمده ، سبحان الله العظيم » والله الموفق .

* * *

١٤٤٢ - وعن سعدِ بنِ أَبي وَقَّاصٍ ﷺ أَنَّهُ دَخَلَ مَعَ رسُول اللَّهِ ﷺ عَلى امْرَأَةٍ وَبَينَ يَدَيهَا نَوى - أَو حَصَى - تُسَبِّحُ بِهِ فقالَ : « أخبرُك بمَا هُوَ أَيسَرُ عَلَيكِ مِنْ هذا - أَو أَفْضَلُ ؟ » فقالَ : « سُبْحَانَ اللَّهِ عَدَدَ مَا خَلَقَ في السَّماء ، وَسُبْحَانَ اللَّهِ عَدَدَ ما خَلَقَ في الأَرْض ، وَسُبْحَانَ اللَّهِ عَدَدَ مَا بَينَ ذلكَ ، وسُبْحَانَ اللَّهِ عَدَدَ ما هُوَ خَالِقٌ ، واللَّهُ أَكْبَرُ مِثْلَ ذلكَ ، وَالحَمْد للّهِ مِثْل ذلك ، وَلا إلهَ إلَّا اللَّهُ مِثْلَ ذلكَ ، وَلا حَولَ ولا قُوَّةَ إلا باللَّهِ مِثْلَ ذلكَ » [١] . رواه الترمذي وقالَ : حديثٌ حسنٌ .

١٤٤٣ - وعَنْ أَبي مُوسى ﷺ قالَ : قالَ لي رَسُولُ اللَّهِ ﷺ : « أَلا أَدُلُّكَ عَلى كَنْزٍ مِنْ كُنُوزِ الجَنَّةِ ؟ » فقلت : بَلى يا رسولَ اللَّهِ ، قالَ : « لا حَولَ وَلا قُوةَ إلا باللَّه » [٢] متفقٌ عليه .

الشرح

هذان الحديثان في بيان فضل الذكر ، وقد سبقت أحاديث كثيرة كلها تدل على فضل الذكر .

فحديث سعد بن أبي وقاص في دخول النبي ﷺ على المرأة وبين يديها حصى أو نوى تسبح به ، فقال : « ألا أخبرك بما هو أفضل من ذلك ؟! » فذكر لها تسبيحًا سبق نظيره أو قريب منه ، قوله ﷺ : « سبحان الله وبحمده عدد خلقه (ثلاث مرات) سبحان الله وبحمده زنة عرشه (ثلاث مرات) ، سبحان الله وبحمده رضا نفسه (ثلاث مرات) سبحان الله وبحمده مداد كلماته (ثلاث مرات) » هذه (١٢) مرة فيها خير كثير ، وسبق بيان شرح ذلك .

أما حديث أبي موسى الأشعري ﷺ : أن النبي ﷺ قال : « ألا أدلك على كنز من كنوز الجنة ؟ » والاستفهام هنا للتشويق ، يعني : يشوقه الرسول ﷺ إلى أن يستمع إلى ما يقول ، قلت : بلى يا رسول الله . قال : « لا حول ولا قوة إلا بالله » لأن هذه الكلمة فيها التبرؤ من الحول والقوة إلا بالله ﷻ ، فالإنسان ليس له حول وليس له قوة ، فلا يتحول من حال إلى حال ، ولا يقوى على ذلك إلا بالله ﷻ ، فهي كلمة استعانة إذا أعياك الشيء ، وعجزت عنه قل : « لا حول ولا قوة إلا بالله » فإن الله تعالى يعينك عليه ، وليست هذه الكلمة كلمة استرجاع كما يفعله كثير من الناس إذا قيل له : حصلت المصيبة الفلانية . قال : لا حول ولا قوة إلا بالله . ولكن كلمة الاسترجاع أن تقول : إنا لله وإنا إليه راجعون . أما هذه فهي كلمة استعانة ، إذا أردت أن يعينك الله على شيء ، فقل : لا حول

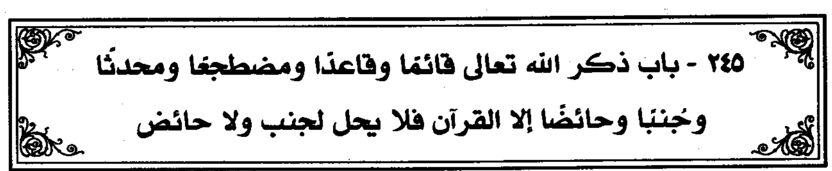
---

(١) أخرجه الترمذي في الدعوات (٣٥٣٦) وأبو داود في الصلاة (١٥٠٠) والحاكم في المستدرك (٥٤٨/١) .

(٢) أخرجه البخاري في الدعوات (٦٤٠٩) ومسلم في الذكر والدعاء (٤٤) وأحمد في مسنده (٤٦٩/٢) وابن ماجه في الأدب (٣٨٢٥) . قوله « من كنوز الجنة » أي أنَّ أجرها مدخر لقائلها والمتصف بها كما يدخر الكنز .

ولا قوة إلا بالله . وكما مر عليكم في سورة الكهف قصة صاحبي الجنتين قال له صاحبه : ﴿ وَلَوْلَآ إِذْ دَخَلْتَ جَنَّتَكَ قُلْتَ مَا شَآءَ ٱللَّهُ لَا قُوَّةَ إِلَّا بِٱللَّهِ ﴾ [الكهف : ٣٩] لكان هذا خيرًا لك وأبقى لجنتك ، ولكنه دخلها وقال : ﴿ مَآ أَظُنُّ أَن تَبِيدَ هَٰذِهِۦٓ أَبَدًا ۝٣٥ وَمَآ أَظُنُّ ٱلسَّاعَةَ قَآئِمَةً (١) ﴾ [الكهف : ٣٥: ٣٦] فأُعجب بها وأنكر قيام الساعة ، فأرسل الله عليها حسبانًا من السماء فأصبحت صعيدًا زلقًا . فالمهم أن كلمة «لا حول ولا قوة إلا بالله» كنز من كنوز الجنة ، تقولها أيها الإنسان عندما يُعييك الشيء ويثقلك وتعجز عنه قل : «لا حول ولا قوة إلا بالله» ييسر الله لك الأمر . والله الموفق .

* * *



٢٤٥ - باب ذكر الله تعالى قائمًا وقاعدًا ومضطجعًا ومحدثًا وجُنبًا وحائضًا إلا القرآن فلا يحل لجنب ولا حائض

قالَ اللَّهُ تَعالى : ﴿ إِنَّ فِي خَلْقِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَٱخْتِلَٰفِ ٱلَّيْلِ وَٱلنَّهَارِ لَءَايَٰتٍ لِّأُوْلِي ٱلْأَلْبَٰبِ ۝١٩٠ ٱلَّذِينَ يَذْكُرُونَ ٱللَّهَ قِيَٰمًا وَقُعُودًا وَعَلَىٰ جُنُوبِهِمْ ﴾ [آل عمران ١٩٠، ١٩١] .

١٤٤٤ - وعَنْ عائشَةَ رضي الله عنها قالَتْ : كانَ رسول اللَّه ﷺ يَذكُرُ اللَّهَ تَعالى عَلى كُلِّ أَحيانِهِ (٢) . رواه مسلم .

١٤٤٥ - وعن ابنِ عبَّاسٍ رضي الله عنهما عن النبي ﷺ قالَ : «لو أَنَّ أحدَكُمْ إذا أرادَ أَنْ يَأْتِيَ أَهْلَهُ قالَ : بسمِ اللهِ ، اللَّهُمَّ جَنِّبْنا الشَّيطَانَ ، وَجنِّبِ الشَّيطَانَ ما رزقْتَنا ؛ فإنَّهُ إنْ يُقدَّرْ بينهُمَا وَلَدٌ في ذلك ، لم يَضُرَّهُ شَيطانٌ» (٣) متفقٌ عليه .

الشرح

قال النووي رحمه الله ذكر الله تعالى قائمًا وقاعدًا ومضطجعًا : يعني أن الإنسان ينبغي له أن يذكر الله تعالى في كل حال قائمًا وقاعدًا وعلى جنبه . ثم استشهد رحمه الله بقول الله تعالى : ﴿ إِنَّ فِي خَلْقِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَٱخْتِلَٰفِ ٱلَّيْلِ وَٱلنَّهَارِ لَءَايَٰتٍ لِّأُوْلِي ٱلْأَلْبَٰبِ ۝١٩٠ ٱلَّذِينَ يَذْكُرُونَ ٱللَّهَ قِيَٰمًا وَقُعُودًا وَعَلَىٰ جُنُوبِهِمْ وَيَتَفَكَّرُونَ فِي خَلْقِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ﴾ يعني في ذات السماوات ، وذات الأرض بما فيهما من عجائب مخلوقات الله تعالى : ﴿ لَءَايَٰتٍ لِّأُوْلِي ٱلْأَلْبَٰبِ ﴾ أولي العقول الذين يدركون ما بآيات الله من

---

(١) قوله : ﴿ تَبِيدَ ﴾ أي : تهلك .

(٢) أخرجه مسلم في الحيض (١٧) وأبو داود في الطهارة (١٨) وأحمد في مسنده (٧٠/٦ ، ١٥٣) وابن ماجه في الطهارة (٣٠٢) .

(٣) أخرجه البخاري في الدعوات (٦٣٨٨) ومسلم في النكاح (١١٦) وأبو داود في النكاح (٢١٦١) وابن ماجه في النكاح (١٩١٩) . قوله : «أتى أهله» أي عاشر امرأته معاشرة الأزواج ، قوله : «جنبنا» أي بعِّده عنا ، قوله : «لم يضره» أي لم يضره في دينه أو بدنه وليس المراد رفع الوسوسة من أصلها .

الحِكم والأسرار ، فالسماء واسعة عالية والأرض مسطحة مُذَلَّلةٌ للخَلْق ، فيها من آيات اللّٰه تعالى من البحار والأنهار والأشجار والجبال وغير ذلك ، ما يُستدل به على خالقها جل وعلا .

وأما اختلاف الليل والنهار : فاختلاف الليل والنهار في الطول والقِصَر ، والحر والبرد ، والرخاء والشدة ، والأمن والخوف ، والبؤس والعافية ، وغير ذلك فيها أيضًا آيات عظيمة ، والإنسان إذا طالع التاريخ ورأى تقلبات الليل والنهار واختلافهما رأى من آيات اللّٰه العجيبة ما يزداد به إيمانه ، وقوله : ﴿ ٱلَّذِينَ يَذْكُرُونَ ٱللَّهَ قِيَـٰمًا وَقُعُودًا وَعَلَىٰ جُنُوبِهِمْ ﴾ هذا هو الشاهد يذكرون اللّٰه في كل حال قيامًا وقعودًا وعلى جنوبهم في كل حال .

وكذلك ذكر رحمه الله حديث عائشة رضي الله عنها قالت : كان النبي ﷺ يذكر اللّٰه على كل الأحيان . أي على كل الأزمان ، في كل زمن يذكر اللّٰه قائمًا وقاعدًا ومضطجعًا ، حتى أن النبي ﷺ ندب الإنسان أن يذكر اللّٰه عند جماع أهله ، فقال : « لو أن أحدكم أتى أهلَه قال : بسم اللّٰه ، اللّٰهم جنبنا الشيطان وجنب الشيطان ما رزقتنا ؛ فإنه إذا قضي بينهما ولد لم يضره الشيطان » ففي هذا دليل على أنه ينبغي لك أن تكثر من ذكر اللّٰه في كل حال . إلا أن العلماء قالوا : لا ينبغي أن يذكر اللّٰه تعالى في الأماكن القذرة ، مثل أماكن قضاء الحاجة (المراحيض) ونحوها تكريمًا لذكر اللّٰه عز وجل عن هذه المواضع ، هكذا ذكر بعض أهل العلم [1] . واللّٰه أعلم .

* * *

٢٤٦ - باب ما يقوله عند نومه واستيقاظه

١٤٤٦ - عن حُذَيفَةَ ، وأبي ذَر رضي الله عنهما قالا : كانَ رسولُ اللّٰه ﷺ إذا أَوَى إلى فِرَاشِهِ قال : « باسمكَ اللّٰهُمَّ أَمُوتُ وأَحيَا » وَإذا اسْتيقَظَ قالَ : « الحَمْدُ للّٰهِ الذي أَحْيَانَا بعدَ مَا أَمَاتَنا وَإليهِ النشورُ » [2] رواه البخاري .

الشرح

ذكر المؤلف رحمه الله : أن نعمة اللّٰه سبحانه وتعالى علينا أن اللّٰه شرع لنا أذكارًا عند النوم والاستيقاظ والأكل والشرب ، ابتداءً وانتهاءً ، بل حتى عند دخول الخلاء وعند اللباس ، كل هذا من أجل أن تكون أوقاتنا معمورةً بذكر اللّٰه عز وجل ، ولولا أن اللّٰه شرع لنا ذلك لكان بدعة ، ولكن اللّٰه شرع لنا هذا من أجل أن تزداد نعمته علينا بفعل هذه الطاعات .

فمنها : هذا الحديث الذي ذكره المؤلف عن حذيفة ، وأبي ذر رضي الله عنهما : أن النبي ﷺ كان إذا أوى

(١) قال ابن قدامة : من أراد دخول الخلاء ومعه شيء فيه ذكر اللّٰه استحب وضعه خارجًا انظر : المغني مع الشرح الكبير (١/١٩٠) .

(٢) أخرجه البخاري في الدعوات (٦٣١٤) وأحمد في مسنده (٥/٣٥٨) .

إلى فراشه قال : « باسمك اللَّهم أحيا و أموت » « إذا أوى » يعني : إذا ذهب إلى فراشه وأراد أن ينام قال : باسمك اللَّهم أحيا و أموت ؛ لأن اللَّه ﷻ هو المحيي المميت ، فهو المحيي يحيي من شاء ، وهو المميت يميت من يشاء ، فتقول : باسمك اللَّهم أحيا و أموت . أي : أموت على اسمك ، وأحيا على اسمك ، ومناسبة هذا الذكر عند النوم هو أن النوم موت ، لكنه موت أصغر كما قال تعالى : ﴿ وَهُوَ ٱلَّذِي يَتَوَفَّىٰكُم بِٱلَّيۡلِ وَيَعۡلَمُ مَا جَرَحۡتُم بِٱلنَّهَارِ ثُمَّ يَبۡعَثُكُمۡ فِيهِ ﴾ (١) [الأنعام : ٦٠] وقال تعالى : ﴿ ٱللَّهُ يَتَوَفَّى ٱلۡأَنفُسَ حِينَ مَوۡتِهَا وَٱلَّتِي لَمۡ تَمُتۡ فِي مَنَامِهَاۖ ﴾ [الزمر : ٤٢] ولهذا كان رسول اللَّه ﷺ إذا قام من الليل قال : « الحمد للَّه الذي أحيانا بعد ما أماتنا وإليه النشور » فتحمد اللَّه الذي أحياك بعد الموت ، وتذكر أن النشور - يعني الإخراج من القبور - يكون إلى اللَّه ﷻ ، فتتذكر ببعثك من موتتك الصغرى بَعثكَ من موتتك الكبرى ، وتقول : « الحمد للَّه الذي أحيانا بعد إذ أماتنا وإليه النشور » وفي هذا دليل على الحكمة العظيمة في هذا النوم الذي جعله اللَّه راحة للبدن عما سبق وتنشيطًا للبدن فيما يُستقبل ، وأنه يذكِّر أيضًا بالحياة الأخرى ، تذكر بذلك إذا قمت من قبرك بعد موتك حيًّا إلى اللَّه ﷻ .

وهذا يزيدك إيمانًا بالبعث ، والإيمان بالبعث أمر مهم ، لولا أن الإنسان يؤمن بأنه سوف يُبعث ويُجازَى على عمله ما عمل ، ولهذا نجد كثيرًا أن اللَّه يقرن الإيمان باليوم الآخر بالإيمان به ﷻ . كما قال تعالى : ﴿ يُؤۡمِنُونَ بِٱللَّهِ وَٱلۡيَوۡمِ ٱلۡأٓخِرِ ﴾ وآيات كثيرة في هذا . فالمهم أنه ينبغي لك إذا أويت إلى فراشك أن تقول : « باسمك اللَّهم أحيا و أموت » وإذا استيقظت تقول : « الحمد للَّه الذي أحيانا بعد ما أماتنا وإليه النشور » واللَّه الموفق .

* * *

٢٤٧ - باب فضل حِلَقِ الذكر ، والندب إلى ملازمتها ، والنهي عن مفارقتها لغير عذر

قال اللَّهُ تَعالى : ﴿ وَٱصۡبِرۡ نَفۡسَكَ مَعَ ٱلَّذِينَ يَدۡعُونَ رَبَّهُم بِٱلۡغَدَوٰةِ وَٱلۡعَشِيِّ يُرِيدُونَ وَجۡهَهُۥۖ وَلَا تَعۡدُ عَيۡنَاكَ عَنۡهُمۡ (٢) ﴾ [الكهف : ٢٨] .

١٤٤٧ - وعنْ أَبي هُرَيْرَةَ ﷺ قالَ : قالَ رسولُ اللَّهِ ﷺ : « إنَّ للَّه تَعالى مَلائِكَةً يَطُوفُونَ في الطُّرقِ يَلْتَمِسُونَ أَهْلَ الذِّكْرِ ، فإذا وَجَدُوا قَوْمًا يَذكُرونَ اللَّهَ ﷻ ، تَنَادَوا : هَلُمُّوا إلى حَاجَتِكُمْ ، فَيَحُفُّونَهمْ بِأجْنِحَتِهِم إلى السَّماءِ الدُّنْيا ، فَيَسأَلُهم رَبُّهُم - وَهُوَ أَعْلم - : ما يقولُ عِبادِي ؟ قالَ : يقولون : يُسَبِّحُونَكَ ، وَيُكَبِّرُونَكَ ، وَيَحْمَدُونَكَ ، وَيُمَجِّدُونَكَ ، فيقولُ : هل رَأَوني ؟ فيقولون : لا وَاللَّهِ ما رَأوكَ ، فَيَقُولُ : كَيفَ لو رَأَوني ؟! قالَ : يَقُولُونَ : لو رَأَوكَ كانُوا أَشَدَّ لَكَ عِبادَةً ، وَأَشَدَّ لكَ تَمْجيدًا ، وَأَكثَرَ لَكَ تَسْبيحًا . فَيَقولُ : فماذا يَسأَلُونَ ؟ قالَ : يَقُولونَ : يَسأَلُونَكَ الجَنَّةَ . قالَ : يقولُ :

---

(١) قوله : ﴿ مَا جَرَحۡتُم ﴾ أي ما كسبتم فيه بجوارحكم من الخير والشر .

(٢) قوله : ﴿ يُرِيدُونَ وَجۡهَهُۥۖ ﴾ أي : مغفرته ورحمته والنظر إليه يوم القيامة .

وَهل رَأَوهَا ؟ قَالَ : يَقُولُونَ : لا وَاللَّه يَا رَبِّ مَا رَأَوهَا ؟ قَالَ : يَقُولُ : فَكَيفَ لو رَأَوهَا ؟ ! قالَ : يَقُولُونَ : لَو أَنَّهُم رَأَوهَا كَانُوا أَشَدَّ عَلَيهَا حِرْصًا ، وَأَشَدَّ لَها طَلَبًا ، وَأَعْظَم فِيها رَغْبَةً . قَالَ : فَمِمَّ يَتَعَوَّذُونَ ؟ قَالَ : يَتَعَوَّذُونَ مِنَ النَّار ، قالَ : فَيَقُولُ : وَهَلْ رَأَوهَا ؟ قال : يقولون : لا وَاللَّهِ مَا رَأَوهَا . فَيَقُولُ : كَيفَ لو رَأَوهَا ؟! قال : يَقُولُون : لو رَأَوهَا كانُوا أَشَدَّ منها فِرارًا ، وَأَشَدَّ لها مَخافَةً . قالَ : فيقُولُ : فَأُشْهِدُكم أَنِّي قَد غَفَرْتُ لهم ، قالَ : يَقُولُ مَلَكٌ مِنَ الملائكَةِ : فِيهم فُلانٌ لَيسَ مِنهم ، إِنَّمَا جَاءَ لِحَاجَةٍ ، قالَ : هُمُ الجُلَسَاءُ لا يَشْقَى بِهِم جَلِيسُهم » متفقٌ عليه .

وفي روايةٍ لمسلم عَنْ أبي هُريرةَ ﷺ عن النبي ﷺ قالَ : « إنَّ للهِ مَلائِكَةً سَيَّارَةً فُضُلًا يَتَتَبَّعُون مَجالِسَ الذِّكرِ ، فَإِذَا وجَدُوا مَجلسًا فيهِ ذِكرٌ ، قَعَدُوا مَعَهُم ، وَحَفَّ بَعْضُهُمْ بَعْضًا بأَجْنحَتهِم حتى يَمْلَؤوا ما بَينَهُمْ وَبَينَ السَّماء الدُّنيا ، فَإِذَا تَفَرَّقُوا عَرَجُوا وَصَعدوا إلى السَّماء ، فَيَسْأَلُهُمُ اللَّهُ ﷻ - وَهُوَ أَعْلَمُ - : مِنْ أينَ جِئْتُم ؟ فَيَقُولُونَ : جِئْنَا مِنْ عِنْدِ عِبادٍ لَكَ في الأرْضِ : يُسَبِّحُونَكَ ، وَيُكَبِرُونَكَ ، وَيُهَلِّلُونَكَ ، وَيَحْمَدُونَكَ ، وَيَسأَلُونَكَ . قالَ : وَمَاذَا يَسْأَلُوني ؟ قَالُوا : يَسْأَلُونَكَ جَنَّتَكَ . قالَ : وَهَلْ رَأَوا جَنَّتي ؟ قالُوا : لا ، أَي رَبِّ . قالَ : فَكَيفَ لَو رَأَوا جَنَّتي ؟! قالُوا : وَيَستَجيرُونَكَ . قال : وَمِمَّ يَسْتَجيرُوني ؟ قالوا : مِنْ نَارِكَ يَا رَبِّ . قال : وَهَلْ رَأَوا نَاري ؟ قالوا : لا ، قَالَ : فَكَيفَ لَو رَأَوا نَاري ؟ قَالُوا : وَيَسْتَغْفِرُونَكَ ، فَيقول : قَدْ غَفَرْتُ لَهمْ ، وَأَعْطَيتُهُمْ ما سَأَلُوا ، وَأَجَرْتُهُمْ مِمَّا اسْتَجارُوا . قَال : فَيَقُولُونَ : ربِّ فيهِمْ فُلانٌ عَبْدٌ خَطَّاءٌ إِنَّمَا مَرَّ فَجَلَسَ مَعَهُمْ ، فيقول : ولهُ غَفَرْتُ ؛ هُمُ القَومُ لا يَشْقَى بِهِمْ جَلِيسُهُمْ »[1] .

الشرح

قال المؤلف رَحِمَهُ اللَّهُ تعالى باب : فضل حِلَق الذكر يعني الاجتماع على ذكر اللَّه ﷻ . ثم ساق الآية الكريمة ﴿ وَٱصْبِرْ نَفْسَكَ مَعَ ٱلَّذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُم بِٱلْغَدَوٰةِ وَٱلْعَشِيِّ يُرِيدُونَ وَجْهَهُۥ وَلَا تَعْدُ عَيْنَاكَ عَنْهُمْ ﴾ فأمر اللَّه تعالى نبيه ﷺ أن يصبر نفسه مع هؤلاء القوم الفضلاء الشرفاء الكرماء ، وصبر النفس يعني حبسها : احبس نفسك معهم فإن هؤلاء القوم خيرُ مَن تجلس إليهم ﴿ يَدْعُونَ رَبَّهُم بِٱلْغَدَوٰةِ ﴾ أي : في أول النهار ، وبالعشي في آخر النهار ، ومن ذلك إن شاء اللَّه : الاجتماع على صلاة الفجر وعلى صلاة العصر ؛ لأن الأولى في الصباح والثانية في المساء ، غداة وعشيًّا ﴿ يَدْعُونَ رَبَّهُم ﴾ أي : يريدون وجهه ، هذا دليل على إخلاصهم للّه ﷻ وأنهم لا يريدون من هذا الاجتماع والدعاء أن يُمدَّحُوا بذلك أو يقال : ما أعظم عبادتهم ، ما أكثرها ، ما أصبرهم عليها ! لا يريدون هذا كله ، يريدون وجه اللَّه ﷻ: ﴿ وَلَا تَعْدُ عَيْنَاكَ عَنْهُمْ تُرِيدُ زِينَةَ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَلَا تُطِعْ مَنْ أَغْفَلْنَا قَلْبَهُۥ عَن ذِكْرِنَا وَٱتَّبَعَ هَوَىٰهُ وَكَانَ أَمْرُهُۥ فُرُطًا ﴾ يعني : لا تتجاوز عنهم وتفارقهم وتغض الطرف عنهم من أجل الدنيا . أما من أجل مصلحة

---

(١) أخرجه البخاري في الدعوات (٦٤٠٨) واللفظ له ، ومسلم في الذكر والدعاء (٢٥) والنسائي في السنن (٣/ ٤٣) .

قوله : « هلموا إلى حاجتكم » أي تعالوا إلى بغيتكم ، قوله : « فيحفونهم » أي يطوفون ويدورون حولهم ، قوله : « يمجدونك » أي يعظمونك ، قوله : « يستجيرونك » أي يستغيثون بك ويلجأون إليك ، قوله : « سيارة » أي سيّاحين في الأرض .

أخرى أعظم مما هم عليه فلا بأس ، لكن من أجل الدنيا لا ، هؤلاء هم القوم ، وهم أهل الدنيا والآخرة ﴿ وَلَا تُطِعْ مَنْ أَغْفَلْنَا قَلْبَهُۥ عَن ذِكْرِنَا وَٱتَّبَعَ هَوَىٰهُ وَكَانَ أَمْرُهُۥ فُرُطًا ﴾ يعني : لا تطع الغافل الذي غفل قلبه عن ذكر اللَّه ، وكان أمره فرطًا ، واتبع هواه ، وضاعت عليه دنياه ، وضاعت عليه أخراه .

ففي هذه الآية الكريمة فضل الاجتماع على الذكر والدعاء ، وفيها فضل الإخلاص ، وأن الإخلاص هو الذي عليه مدار كل شيء وفيها أن الإنسان لا ينبغي له أن يدع أحوال الآخرة والعبادات إلى أحوال الدنيا .

أما الأحاديث : فذكر المؤلف حديث أبي هريرة ﷺ في صحيح البخاري ، وصحيح مسلم : أن اللَّه تعالى وكَّلَ ملائكة يسيحون في الأرض يطلبون حِلَق الذكر . والملائكة : عالَم غيبي فاضل ، خلقهم اللَّه ﷻ من النور وجعلهم صمدًا لا أجواف لهم ، فلا يأكلون ولا يشربون ، لا يحتاجون إلى هذا ، ليست لهم بطون ولا أمعاء ، وهم عالم غيبي لا يراهم البشر ، ولكن قد يُري اللَّه تعالى الناسَ إياهم أحيانًا كما جاء جبريل عليه الصلاة والسلام على هيئة رجل شديد بياض الثياب شديد سواد الشعر ، لا يُرى عليه أثر السفر ولا يعرفه أحد من الصحابة ، وجلس إلى النبي ﷺ وسأله [1] ، فهذا يحدث أحيانًا ، ولكن الأصل أن عالَم الملائكة عالَم غيبي . والملائكة كلهم خير ، ولهذا لا يدخلون الأماكن التي فيها ما يُغضب اللَّه ﷻ ، فلا يدخلون بيتًا فيه صورة ، ولا يصحبون رفقة فيها جرس ولا رفقة معهم كلب ، إلا الكلب المحلل الذي يجوز اقتناؤه [2] ، هؤلاء الملائكة وكلهم اللَّه ﷻ يسيحون في الأرض ، فإذا وجدوا حِلَق الذكر جلسوا معهم ، ثم حفوا هؤلاء الجالسين بأجنحتهم إلى السماء ، يعني هؤلاء الملائكة من الأرض إلى السماء ، ثم إن اللَّه تعالى يسألهم ليظهر فضيلة هؤلاء القوم الذين جلسوا يذكرون اللَّه ويسبحونه ويحمدونه ويهللونه ويكبرونه ويدعونه ، وإلا فاللَّه ﷻ أعلم لماذا جلسوا ، لكن ليُظْهِر فضلهم ونبلهم ، يسأل الملائكة : من أين جئتم ؟ فيقولون : جئنا من عند عباد لك في الأرض ، يسبحون ويهللون ويكبرون ويحمدون ويدعون . فيقول لهم : ماذا يريدون ؟ . قالوا : يريدون الجنة (اللَّهم اجعلنا ممن أرادها وكان من أهلها) « قال : هل رأوها ؟ قالوا : لا . قال : فكيف لو رأوها ؟ قالوا : لكانوا أشد لها طلبًا ، وأشد فيها رغبة » لأن اللَّه ﷻ يقول : « أعددت لعبادي الصالحين ما لا عين رأت ولا أذن سمعت ولا خطر على قلب بشر » [3] ثم يسألهم : ماذا يدعون بالنجاة منه ؟ قالوا : « يسألونك النجاة من النار » - هذا معنى الحديث - قال : هل رأوها ؟ قالوا : لا ، ما رأوها . قال : « فكيف لو رأوها ؟ قالوا : لكانوا أشد منها مخافة . فيقول اللَّه ﷻ : أُشهدكم أني قد غفرت لهم جميعًا » وإذا غفر اللَّه لإنسان استحق أن يدخل الجنة وأن ينجو من النار . فيقول ملك من الملائكة : إن فيهم فلانًا ، ما جاء للذكر ، لكن جاء لحاجة فوجد هؤلاء القوم فجلس

---

(١) انظر الحديث في مسلم في الإيمان (٥) والنسائي في السنن (١٠١/٨) وأحمد في مسنده (٤٢٦/٢) .

(٢) انظر ذلك فيما أخرجه البخاري في اللباس (١٩٥٨) ومسلم في اللباس (٨٥) .

(٣) أخرجه أحمد في مسنده (٤٣٨/٢) والمنذري في الترغيب والترهيب (٥٢١/٤) .

معهم . فيقول جل وعلا : فله قد غفرت ، هم القوم لا يشقى بهم جليسهم .

ففي هذا الحديث دليل على فضيلة مجالسة الصالحين ، وأن الجليس الصالح ربما يعم الله سبحانه وتعالى بجليسه رحمته وإن لم يكن مثله ، لأن الله قال : قد غفرت لهذا . مع أنه ما جاء من أجل الذكر والدعاء لكنه جاء لحاجة ، وقال : « هم القوم لا يشقى بهم جليسهم » وعلى هذا فيستحب الاجتماع على الذكر وعلى قراءة القرآن وعلى التسبيح والتحميد والتهليل وكل يدعو لنفسه ، ويسأل الله لنفسه ، ويذكر لنفسه .

ومن الاجتماع كما ذكرت من قبل : أن يجتمع المسلمون على صلاة الفجر وصلاة العصر ؛ لأنها ذكر : تسبيح وتكبير وتهليل وقراءة قرآن ودعاء ، وقد ثبت عن النبي ﷺ أن الملائكة الموكَّلين بني آدم يجتمعون في صلاة الفجر وصلاة العصر [1] . وفقنا الله وإياك إلى ما يحبه ويرضاه .

* * *

١٤٤٨ - وعنهُ وَعَنْ أبي سعيد رضي الله عنهما قالا : قَالَ رسول الله ﷺ : « لا يَقْعُدُ قَومٌ يَذْكُرُونَ اللَّهَ عز وجل ؛ إلا حَفَّتْهُمُ الملائِكَةُ ، وَغَشِيَتْهُم الرَّحْمَة ، وَنَزَلَتْ عَلَيهِمُ السَّكِينَةُ ، وَذَكَرَهُمُ اللَّهُ فِيمنْ عِنْدَهُ » [2] رواه مسلم .

١٤٤٩ - وعن أبي واقد الحارث بْن عَوفٍ رضي الله عنه أَنَّ رسول الله ﷺ بَينَما هُوَ جَالِسٌ في المسْجِدِ وَالنَّاسُ مَعَهُ إذ أَقْبَلَ ثَلاثَةُ نفرٍ ، فأَقْبَلَ اثْنَانِ إلى رسول الله ﷺ ، وَذَهَبَ وَاحِدٌ ، فَوقَفَا عَلى رسول الله ﷺ . فَأَمَّا أَحَدُهُما : فرأى فُرجَةً في الحَلْقَةِ ، فَجَلَسَ فيها ، وأَمَّا الآخرُ : فَجَلَسَ خَلْفَهُم ، وَأَمَّا الثالثُ ؛ فَأَدْبَرَ ذاهِبًا . فَلَمَّا فَرَغَ رسول الله ﷺ قال : « أَلا أُخْبِرُكم عَنْ النَّفَرِ الثَّلاثَةِ ؟ أَمَّا أحدُهم ، فَأوى إلى اللهِ ، فآوَاهُ اللَّهُ إِلَيهِ ، وأَمَّا الآخرُ فَاسْتَحْيَا ، فَاسْتَحْيَا اللَّهُ مِنْهُ ، وأَمَّا الآخرُ فَأَعْرَض ، فأَعْرضَ اللَّهُ عَنْهُ » [3] متفقٌ عليه .

الشرح

هذان الحديثان من الأحاديث التي ذكرها المؤلف رحمه الله في كتابه فالأول أخبر فيه النبي ﷺ أنه ما جلس قوم يذكرون الله تعالى إلا نزلت عليهم السكينة ، وغشيتهم الرحمة ، وحفتهم الملائكة ، وذكرهم الله فيمن عنده ، وهذا يدل على فضل الاجتماع على ذكر الله عز وجل ، ولا يلزم من هذا أن يذكروا الله بصوت واحد ، بل الحديث مطلق لكن لم يعهد عن السلف أنهم يذكرون ذكرًا جماعيًا كما يفعله بعض أهل الطرق من الصوفية وغيرهم ، وفيه أن هؤلاء المجتمعين تنزل عليهم السكينة ، والسكينة هي طمأنينة القلب وخشوعه وإنابته إلى الله عز وجل ، وتغشاهم الرحمة أي : تحيط بهم من كل جانب فيكونون أقرب إلى رحمة الله عز وجل ، « وحفتهم الملائكة » أي : كانوا حولهم يحفون بهم

---

(١) انظر الحديث في البخاري في مواقيت الصلاة (٥٥٥)ومالك في الموطأ (السفر ٨٢)وأحمد في مسنده (٢/٢٣٣).

(٢) أخرجه مسلم في الذكر والدعاء (٣٩)وأحمد في مسنده (٣/٩٢). قوله : « حفتهم الملائكة» أي طافت بهم تشريفًا لهم بسبب جلوسهم للذكر ، قوله : « ونزلت عليهم السكينة» هي الحال التي يطمئن بها القلب فيسكن عن الميل إلى الشهوات .

(٣) أخرجه البخاري في العلم (٦٦)ومسلم في السلام (٢٦)والبيهقي في السنن (٣/٢٣٢). قوله : « أوى إلى الله» أي لجأ إلى الله فقبله الله .

إكرامًا لهم ورضًا بما فعلوا « وذكرهم الله فيمن عنده » أي في الملأ الأعلى ، وقد مر علينا أن الله تعالى قال : « من ذكرني في نفسه ذكرته في نفسي ، ومن ذكرني في ملأ ذكرته في ملأ خير منهم » .

وأما الحديث الثاني : ففيه أيضًا أن النبي ﷺ كان جالسًا مع أصحابه في المسجد فأقبل ثلاثة نفر ، يعني ثلاثة رجال ، أما أحدهم : فولَّى وأعرض ولم يأت إلى الحلقة ، وأما الثاني : فوجد في الحلقة فرجة فجلس ، وأما الثالث : فجلس خلف الحلقة كأنه استحيا أن يزاحم الناس وأن يضيق عليهم ، فلما فرغ النبي ﷺ قال : « ألا أخبركم بنبأ القوم ؟ أما أحدهم فأوى إلى الله فآواه الله ﷻ » وهو الذي جلس « فآواه الله ﷻ إليه » لأنه كان صادق النية في الجلوس مع النبي ﷺ فيسَّر الله له « وأما الثاني : فاستحيا فاستحيا الله منه » لأنه ما زاحم ولا تقدم ، « وأما الثالث : فأعرض فأعرض الله عنه » لم يوفقه لأن يجلس مع هؤلاء القوم البررة الأطهار .

وفي هذا الحديث : إثبات الحياء لله ﷻ ، ولكنه ليس كحياء المخلوقين ، بل هو حياء الكمال يليق بالله ﷻ ، وقد قال النبي ﷺ : « إن الله حييٌّ كريم » (١) وقال الله تعالى : ﴿ وَٱللَّهُ لَا يَسْتَحْيِۦ مِنَ ٱلْحَقِّ ﴾ [الأحزاب : ٥٣] ، والله سبحانه وتعالى يوصف بهذه الصفة لكن ليس مثل المخلوقين ؛ لأن الله ﷻ يقول في القرآن : ﴿ لَيْسَ كَمِثْلِهِۦ شَىْءٌ ۖ وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْبَصِيرُ ﴾ [الشورى : ١١] فكلما مر عليك صفة من صفات الله مشابهة لصفات المخلوقين في اللفظ فاعلم أنهما لا يستويان في المعنى ؛ لأن الله ﴿ لَيْسَ كَمِثْلِهِۦ شَىْءٌ ۖ وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْبَصِيرُ ﴾ فإذا مر بك مثلًا أن الله استوى على العرش ، فلا تظن أن استواءه على العرش كاستوائك أنت على ظهر البعير الذي قال فيه ﴿ فَإِذَا ٱسْتَوَيْتَ أَنتَ ﴾ [المؤمنون : ٢٨] وإذا قال الله تعالى : ﴿ بَلْ يَدَاهُ مَبْسُوطَتَانِ ﴾ [المائدة : ٦٤] فلا تظن أن يدي الله جل وعلا مثل يديك ؛ لأن الله ليس كمثله شيء ، فجميع صفاته هو منفرد بها ، وكما أننا نوحده في ذاته ، ونوحده في العبادة ، كذلك نوحده في صفاته . ﴿ لَيْسَ كَمِثْلِهِۦ شَىْءٌ ۖ وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْبَصِيرُ ﴾ .

* * *

١٤٥٠ - وعن أبي سعيدٍ الخُدْرِيِّ ؓ قالَ : خَرجَ مُعاويَة ؓ عَلَى حَلْقَةٍ في المسْجِدِ ، فقال : ما أجْلَسَكُمْ ؟ قالُوا : جَلَسْنَا نَذْكرُ اللَّه . قَالَ : آللَّهِ ما أجْلَسَكُم إلا ذَاك ؟ قالُوا : ما أجْلَسنا إلا ذَاكَ ، قال : أمَا إنِّي لم أسْتَحْلِفْكُم تُهْمَةً لكُم ، ومَا كانَ أحَدٌ بمَنْزِلَتي مِنْ رسول اللَّه ﷺ أقلَّ عَنْهُ حَدِيثًا منِّي : إنَّ رسول اللَّه ﷺ خَرجَ عَلَى حَلْقَةٍ مِن أصحابِهِ فقال : « ما أجْلَسَكُمْ ؟ » قالوا : جَلَسْنَا نَذكُرُ اللَّه ، وَنْحمَدُهُ عَلَى ما هَدَانَا للإسْلامِ ، وَمَنَّ به عَلينا . قَالَ : « آللَّهِ ما أجْلَسَكُمْ إلا ذَاكَ ؟ » قالوا : واللَّه ما أجْلَسَنَا إلا ذَاكَ . قالَ : « أمَا إنِّي لَمْ أسْتَحْلِفْكُمْ تُهْمَةً لكُمْ ، ولكِنَّهُ أتَاني جِبريلُ فَأخْبَرني أنَّ اللَّه يُبَاهِي بِكُمْ المَلائكَةَ » (٢) . رواه مسلم .

---

(١) أخرجه الترمذي في الصلاة (٤٣٨) والحاكم في المستدرك (٤٩٧/٢) والبغوي في شرح السنة (١٨٦/٥) .
(٢) أخرجه مسلم في الذكر والدعاء (٤٠) وأحمد في مسنده (٩٢/٤) والنسائي في السنن (٢٤٩/٨) .

الشرح

إن هذا الحديث من الأحاديث التي تدل على فضيلة الاجتماع على ذكر الله ﷻ ، وهو ما رواه أبو سعيد الخدري عن معاوية ﷺ أنه خرج على حلقة في المسجد فسألهم على أي شيء اجتمعوا ، فقالوا : نذكر الله . فاستحلفهم ﷺ أنهم ما أرادوا إلا ذلك ، فحلفوا له ، ثم قال لهم : إني لا أستحلفكم تهمةً لكم ، ولكني رأيت النبي ﷺ خرج على قوم وذكر مثله . فدل ذلك على فضيلة هذا الاجتماع على ذكر الله ، وأن الله ﷻ يباهي بهم الملائكة ، فيقول مثلًا : انظروا إلى عبادي اجتمعوا على ذكري . وما أشبه ذلك ، مما فيه المباهاة ، ولكن كما ذكرنا سابقًا ليس هذا الاجتماع أن يجتمعوا على الذكر بصوت واحد ، ولكن يتذكرون نعمة الله عليهم بما أنعم عليهم من نعمة الإسلام وعافية البدن والأمن ، وما أشبه ذلك ؛ فإن ذكر نعمة الله من ذكر الله ﷻ ، فيكون في هذا دليل على فضل جلوس الناس ليتذاكروا نعمة الله عليهم ، ولهذا كان بعض السلف إذا مر بأخيه أو جاءه أخوه قال : اجلس بنا نؤمن ساعة . أي اجلس بنا نتذكر نعمة الله علينا حتى يزداد إيماننا ، فدل ذلك على فضيلة هذا الاجتماع ، نسأل الله أن يجمع قلوبنا على ذكره ، وشكره ، وحسن عبادته .

* * *

٢٢٨ - باب الذكر عند الصباح والمساء

قال اللَّهُ تعالى : ﴿ وَاذْكُر رَّبَّكَ فِي نَفْسِكَ تَضَرُّعًا وَخِيفَةً وَدُونَ الْجَهْرِ مِنَ الْقَوْلِ بِالْغُدُوِّ وَالْآصَالِ وَلَا تَكُن مِّنَ الْغَافِلِينَ ﴾ [الأعراف : ٢٠٥] قال أَهْلُ اللُّغةِ : « الآصالُ » : جمْع أَصِيلٍ ، وهُو ما بينَ العصْرِ والمغْرِبِ . وقال تعالى : ﴿ وَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ قَبْلَ طُلُوعِ الشَّمْسِ وَقَبْلَ غُرُوبِهَا ﴾ [طه : ١٣٠] وقال تعالى : ﴿ وَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ بِالْعَشِيِّ وَالْإِبْكَارِ ﴾ [غافر : ٥٥] قال أهلُ اللُّغَةِ : « الْعَشِيُّ » : ما بين زَوال الشَّمسِ وغُروبِها وقال تعالى : ﴿ فِي بُيُوتٍ أَذِنَ اللَّهُ أَن تُرْفَعَ وَيُذْكَرَ فِيهَا اسْمُهُ يُسَبِّحُ لَهُ فِيهَا بِالْغُدُوِّ وَالْآصَالِ ۝ رِجَالٌ لَّا تُلْهِيهِمْ تِجَارَةٌ وَلَا بَيْعٌ عَن ذِكْرِ اللَّهِ ﴾ الآية [النور : ٣٦، ٣٧] وقال تعالى : ﴿ إِنَّا سَخَّرْنَا الْجِبَالَ مَعَهُ يُسَبِّحْنَ بِالْعَشِيِّ وَالْإِشْرَاقِ ﴾ [ص : ١٨] .

الشرح

قال المؤلف رحمه الله تعالى : باب الذكر في الصباح والمساء ، يعني فضيلته في الصباح والمساء ، يعني أول النهار وآخر النهار وأول الليل ، ويدخل الصباح من طلوع الفجر ، وينتهي بارتفاع الشمس ضُحًا ، ويدخل المساء من صلاة العصر وينتهي بصلاة العشاء أو قريبًا منها .

فالأذكار التي أريدت بالصباح والمساء هذا وقتها ، والأذكار التي أريدت بالليل تكون بالليل ، مثل : آية الكرسي من قرأها في ليلة فلابد أن تكون في الليل نفسه . ثم ذكر المؤلف رحمه الله آيات متعددة في ذلك ، منها قوله تعالى : ﴿ وَاذْكُر رَّبَّكَ فِي نَفْسِكَ تَضَرُّعًا وَخِيفَةً وَدُونَ الْجَهْرِ مِنَ الْقَوْلِ بِالْغُدُوِّ وَالْآصَالِ وَلَا

تَكُن مِّنَ ٱلْغَٰفِلِينَ ﴾ [الأعراف : ٢٠٥] .

﴿ وَٱذْكُر رَّبَّكَ فِى نَفْسِكَ ﴾ يعني : فيما بينك وبين نفسك ﴿ تَضَرُّعًا وَخِيفَةً ﴾ يعني : تضرعًا إلى الله ﷻ وافتقارًا إليه وإظهارًا للفقر بين يديه ﴿ وَخِيفَةً ﴾ يعني : خيفة منه أو خيفة ألا تُقبَل ، لقول الله تعالى : ﴿ وَٱلَّذِينَ يُؤْتُونَ مَآ ءَاتَوا۟ وَّقُلُوبُهُمْ وَجِلَةٌ أَنَّهُمْ إِلَىٰ رَبِّهِمْ رَٰجِعُونَ ﴾ [المؤمنون : ٦٠] يعني : يؤتون ما آتوا ومع هذا قلوبهم وجلة ، يخافون ألا يقبل منهم ؛ لأن الله تعالى لا يتقبل إلا من المتقين ، ﴿ وَٱذْكُر رَّبَّكَ فِى نَفْسِكَ تَضَرُّعًا وَخِيفَةً وَدُونَ ٱلْجَهْرِ مِنَ ٱلْقَوْلِ ﴾ يعني الإسرار ﴿ وَلَا تَكُن مِّنَ ٱلْغَٰفِلِينَ ﴾ ثم ذكر أيضًا قوله تعالى : ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱذْكُرُوا۟ ٱللَّهَ ذِكْرًا كَثِيرًا ۝ وَسَبِّحُوهُ بُكْرَةً وَأَصِيلًا ﴾ [الأحزاب : ٤١، ٤٢] .

وقوله تعالى : ﴿ إِنَّا سَخَّرْنَا ٱلْجِبَالَ مَعَهُۥ يُسَبِّحْنَ بِٱلْعَشِىِّ وَٱلْإِشْرَاقِ ﴾ [ص : ١٨] . والآيات في هذا كثيرة ، وسوف يأتي إن شاء الله في الأحاديث تفسير ذلك .

* * *

١٤٥١ - وعنْ أبي هريرَة ﷺ قالَ : قالَ رسول اللّه ﷺ : « مَنْ قالَ حِينَ يُصْبِحُ وحينَ يُمسي : سُبْحانَ اللّه وَبحَمْدِهِ مِائَةَ مَرَّةٍ ؛ لَم يَأتِ أحدٌ يومَ القِيامَةِ بأفضَلَ مِمَّا جاءَ به ، إلَّا أحدٌ قال مِثلَ مَا قالَ أو زَادَ »(١) رواه مسلم .

١٤٥٢ - وعنهُ قالَ : جاءَ رجُلٌ إلى النَّبي ﷺ ، فقالَ : يا رسُول اللّه مَا لَقِيتُ مِنْ عَقْرب لَدَغتْني البَارِحَةَ ! قال : « أمَا لَو قُلتَ حِينَ أمْسَيتَ : أعُوذُ بِكَلمَاتِ اللّهِ التَّامَّاتِ منْ شَرِّ مَا خَلَقَ لم تَضُرَّكَ »(٢) . رواه مسلم .

١٤٥٣ - وعَنْهُ عنِ النبيِّ ﷺ أنَّهُ كان يقولُ إذَا أصبحَ : « اللَّهُمَّ بِكَ أصْبَحْنَا ، وَبِكَ أمسَينا ، وَبِكَ نَحْيَا ، وَبِكَ نَمُوتُ ، وَإلَيكَ النُّشُور » . وَإذا أمْسى قالَ : « اللَّهُمَّ بِكَ أمْسَينا ، وبِكَ نحيا ، وَبِكَ نموتُ ، وإليك النُّشُورُ »(٣) . رواه أبو داود ، والترمذي وقال : حديث حسن .

الشرح

هذه الأحاديث الثلاثة ذكرها النووي رحمه الله في باب الذكر في الصباح والمساء ، الأول : عن فضل قول الإنسان : « سبحان اللّه وبحمده مائة مرة » إذا قالها الإنسان مائة مرة حين يصبح ، ومائة مرة حين يمسي ؛ لم يأت أحد يوم القيامة بأفضل مما جاء به إلا من عمل أكثر مما عمل ، وهذا الذكر « سبحان اللّه وبحمده »

---

(١) أخرجه مسلم في الذكر والدعاء (٢٩) .

(٢) أخرجه مسلم في الذكر والدعاء بنحوه (٥٤) وأحمد في مسنده (٣٧٥/٢) . قوله : « بكلمات اللّه التامات » أي الكاملات التي لا يدخل فيها نقص ولا عيب .

(٣) أخرجه أبو داود في الأدب (٥٠٦٨) والترمذي في كتاب الدعوات (٣٣٩١) وابن ماجه في الدعاء (٣٨٦٨) وأحمد في مسنده (٣٥٤/٢) . قوله : « بك أصبحنا وبك أمسينا » أي بقدرتك أصبحنا وبقدرتك أمسينا ، قوله « وإليك النشور » أي إليك المرجع والمآب

معناه : أنك تنزّه اللّٰه ﷻ عن كل ما لا يليق بجلاله سبحانه وتعالى وتثني عليه ، بل وتصفه بصفات الكمال ، وذلك في قولك : « وبحمده » فينبغي للإنسان إذا أصبح أن يقول : « سبحان اللّٰه وبحمده مائة مرة » ، وإذا أمسى أن يقول : « سبحان اللّٰه وبحمده مائة مرة » ، وذلك ليحوز هذا الفضل الذي ذكره النبي ﷺ .

ومن ذلك أن الإنسان يقول إذا أصبح وإذا أمسى : « أعوذ بكلمات اللّٰه التامات من شر ما خلق » فهذا لجوء إلى اللّٰه سبحانه وتعالى واعتصام به من شر ما خلق ، فإذا قلته ثلاث مرات في الصباح والمساء ؛ فإنه لا يضرك شيء ، ولهذا اشتكى رجل إلى النبي ﷺ ما وجده من لدغة عقرب ، فقال : « أما إنك لو قلت حين أمسيت : أعوذ بكلمات اللّٰه التامات من شر ما خلق لم تضرك »[١] .

ومن الأذكار الصباحية والمسائية قول : « اللّٰهم بك أصبحنا ، وبك أمسينا ، وبك نحيا ، وبك نموت ، وإليك النشور » في الصباح ، وفي المساء « اللّٰهم بك أمسينا ، وبك أصبحنا ، وبك نموت ، وبك نحيا ، وإليك المصير » فينبغي للإنسان أن يحافظ على هذه الأذكار الواردة عن النبي ﷺ ، ليكون من الذاكرين اللّٰه كثيرًا والذاكرات ، واللّٰه الموفق .

كلمات اللّٰه التامات : هي كلماته كونية ، فإنه يقول للشيء : كن فيكون ، وبذلك يحميه .

* * *

١٤٥٤ - وعنْهُ أنَّ أبا بَكرٍ الصِّديقَ ﷺ قال : يا رَسُولَ اللّٰهِ مُرْني بِكَلماتٍ أقُولُهُنَّ إذا أصْبَحْتُ وإذَا أمْسَيت ، قال : « قُلْ : اللّٰهُمَّ فَاطِرَ السَمَاوَاتِ وَالأرضِ ، عَالِمَ الغَيبِ وَالشَّهَادَةِ ، رَبَّ كُلِّ شيءٍ وَمَلِيكَهُ ، أشهَدُ أن لَا إلهَ إلَّا أنتَ ، أعوذُ بِكَ مِنْ شَرِّ نفسي ، وَشَرِّ الشَّيطَانِ وَشِرْكِهِ » قال : « قُلْها إذا أصْبَحْتَ ، وَإذا أمْسَيتَ ، وإذا أخذْتَ مَضْجعَكَ »[٢] رواه أبو داود والترمذي وقال : حديثٌ حسنٌ صحيحٌ .

الشرح

هذا من الأذكار التي تقال في الصباح والمساء والذي علَّمها النبي ﷺ أبا بكر ﷺ ، حين قال : عَلِّمني . فعلمه النبي ﷺ ذكرًا ودعاءً يدعو به كلما أصبح وكلما أمسى ، يقول ﷺ قال : « قل : اللّٰهم فاطر السماوات والأرض ، عالم الغيب والشهادة ، رب كل شيء ومليكه » . « قل : اللّٰهم فاطر السماوات والأرض » يعني : يا اللّٰه يا فاطر السموات والأرض ، وفاطرهما ، يعني : أنه خلقهما ﷻ على غير مثالٍ سبق بل أبدعهما وأوجدهما من العدم على غير مثالٍ سبق « عالم الغيب والشهادة » أي : عالم ما غاب عن الخلق وما شاهدوه ؛ لأن اللّٰه تعالى يعلم الحاضر والمستقبل والماضي « رب كل شيء ومليكه » يعني : يا رب كل شيء ومليكه . واللّٰه تعالى هو رب كل شيء وهو مليك كل شيء ، والفرق بين الرب وبين المالك في هذا الحديث : أن الرب : هو الموجِد للأشياء الخالق لها ،

---

(١) أخرج هذه الرواية بهذا اللفظ أبو داود في السنن (٣٨٩٨) ومالك في الموطأ (٩٥١) .

(٢) أخرجه الترمذي في الدعوات (٣٣٩٢) وأحمد في مسنده (١/٩ ، ١٤) وأبو داود في الأدب (٥٠٨٣) .
قوله : « وشر الشيطان وشركه » أي وسوسة الشيطان وتسويله إلى الإشراك باللّٰه تعالى .

والمليك : هو الذي يتصرف فيها كيف يشاء « أشهد أن لا إله إلا اللَّه » أعترف بلساني وقلبي أنه لا معبود حقٌّ إلا أنت ، فكل ما عُبد من دون اللَّه فإنه باطل لا حقَّ له في العبودية ، ولا حق في العبودية إلا للَّه وحده ﷻ . « أعوذ بك من شر نفسي » لأن النفس لها شرور ، كما قال تعالى : ﴿ وَمَآ أُبَرِّئُ نَفْسِيٓۚ إِنَّ ٱلنَّفْسَ لَأَمَّارَةُۢ بِٱلسُّوٓءِ إِلَّا مَا رَحِمَ رَبِّيٓۚ ﴾ [يوسف : ٥٣] فإذا لم يعصمك اللَّه من شرور نفسك فإنها تضرك ، وتأمرك بالسوء ، ولكن اللَّه إذا عصمك من شرها ، وفقك إلى كل خير « ومن شر الشيطان وشِرْكه » وفي لفظ : « وشَرَكِه » يعني تسأل اللَّه أن يعيذك من شر الشيطان ومن شر شِركِهِ ، أي : ما يأمرك به من الشرك ، أو « شرَكَه » والشَّرَك ما يُصاد به الحوت والطير وما أشبه ذلك ؛ لأن الشيطان له شَرَك يصطاد به بني آدم ، إما شهوات أو شبهات أو غير ذلك ، « وأن أقترف على نفسي سوءًا أو أجرَه إلى مسلم » هذا تتمة الحديث ، ولعله سقط من هذه النسخة « أن أقترف على نفسي سوءًا » « أقترف » يعني أجُر على نفسي سوءًا « أو أجره إلى مسلم » فهذا الذكر أمر النبي ﷺ أبا بكر أن يقوله إذا أصبح وإذا أمسى وإذا أخذ مضجعه .

* * *

١٤٥٥ - وعَن ابْنِ مَسْعُودٍ ﷺ قالَ : كانَ نبيُّ اللَّهِ ﷺ إذَا أَمْسَى قال : « أَمْسَينا وأَمْسى المُلْكُ للّه ، والحَمْدُ للّهِ ، لَا إلهَ إلا اللَّهُ وَحْدَهُ لا شَرِيكَ لَه » قالَ الراوي : أُرَاهُ قال فيهنَّ : « لهُ المُلْكُ وَلَهُ الحَمْدُ وَهُوَ عَلى كُلِّ شَيءٍ قَدِيرٌ ، رَبِّ أَسْأَلُكَ خَيرَ مَا في هذِهِ اللَّيلَةِ ، وَخَيرَ مَا بَعْدَها ، وأَعُوذُ بِكَ مِنْ شَرِّ مَا في هذِهِ اللَّيلَةِ وَشَرِّ ما بَعْدَهَا ، رَبِّ أَعُوذُ بكَ مِنَ الكَسَلِ ، وسُوءِ الكِبَرِ ، رَبِّ أعوذُ بكَ مِنْ عَذَابٍ في النَّار ، وَعَذَابٍ في القَبرِ » وَإذا أصبَحَ قال ذلكَ أيضًا : « أَصْبَحْنَا وَأَصْبَحَ المُلْكُ للّهِ » [(١)] رواه مسلم .

الشرح

هذا الحديث من الأذكار الواردة في الصباح والمساء ، وهو ما رواه ابن مسعود ﷺ أن النبي ﷺ كان إذا أمسى يقول : « أمسينا وأمسى الملك للَّه ، والحمد للَّه ، لا إله إلا اللَّه وحده لا شريك له ، له الملك وله الحمد ، وهو على كل شيء قدير » وقد سبق أن أوضحنا معاني هذه الكلمات .

والنبي ﷺ يكثر من ذكر اللَّه ﷻ ، على وجوه متنوعة ، وأما « لا إله إلا اللَّه وحده لا شريك له ، له الملك وله الحمد ، وهو على كل شيء قدير ، رب أسألك خير ما في هذه الليلة وخير ما بعدها ، وأعوذ بك من شر ما في هذه الليلة و من شر ما بعدها ، رب أعوذ بك من الكسل والهَرَم وسوء الكِبَر» وفي لفظ : « وسوء الكِبْر » ، « وأعوذ بك من عذاب في النار وعذاب في القبر » وإذا أصبح يقول مثل ذلك ، إلا أنه يقول : « أصبحنا وأصبح الملك للَّه » ومن أراد الاستزادة من هذه الأذكار فعليه بكتاب (الأذكار) للمؤلف النووي رحمه الله ، أو (الوابل الصيب من الكلم الطيب) لابن القيم

---

(١) أخرجه مسلم في الذكر والدعاء (٧٥ ، ٧٦) بنحوه ، وأحمد في مسنده (١/٤٤٠) . قوله : « سوء الكبر » أي الهرم والخرف والرد إلى أرذل العمر ، قوله : « عذاب القبر » هو العذاب في البرزخ بعد الموت .

رَحِمَهُ اللَّهُ ، أو غير ذلك مما ألفه العلماء في هذا الباب . والله الموفق .

* * *

١٤٥٦ - وعنْ عبد اللَّه بنِ خُبَيبٍ - بضَمِّ الخَاء المُعْجَمَة - رضي الله عنه قالَ : قالَ لي رسول اللَّه ﷺ : « اقْرَأ : قُلْ هوَ اللَّهُ أحَدٌ ، والمعوِّذَتَينِ حِينَ تُمْسِي وَحِينَ تُصْبِحُ ، ثَلاثَ مَرَّاتٍ ؛ تَكْفِيكَ مِنْ كلِّ شَيءٍ »[١] . رواهُ أبو داود والترمذي وقال : حديثٌ حسن صحيح .

١٤٥٧ - وعنْ عُثمانَ بْنِ عَفَّانَ رضي الله عنه قالَ : قالَ رسول اللَّه ﷺ : « مَا مِنْ عَبْدٍ يَقُولُ في صَبَاحِ كلِّ يَومٍ وَمَساء كلِّ لَيلَةٍ : بسْمِ اللَّهِ الَّذي لا يَضُرُّ مَعَ اسْمِهِ شَيء في الأَرْضِ وَلا في السماء وَهُوَ السَّميعُ العَلِيمُ ، ثَلاثَ مَرَّاتٍ ، إلَّا لَمْ يَضُرَّهُ شَيء »[٢] رواه أبو داود ، والترمذي وقال : حديث حسن صحيح .

الشرح

هذان الحديثان في بيان أذكار الصباح والمساء ، ذكرهما النووي رَحِمَهُ اللَّهُ **الأول** : حديث عبد اللّه بن خبيب رضي الله عنه أن النبي ﷺ أمره أن يقرأ ﴿ قُلْ هُوَ ٱللَّهُ أَحَدٌ ﴾ و ﴿ قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ ٱلْفَلَقِ ﴾ و ﴿ قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ ٱلنَّاسِ ﴾ في الصباح والمساء ثلاث مرات ، وبين أن هذا يكفيه كل شيء .

أما السورة الأولى : فهي سورة الإخلاص ﴿ قُلْ هُوَ ٱللَّهُ أَحَدٌ ﴾ التي أخلصها اللّه تعالى لنفسه فلم يذكر فيها شيئًا إلا يتعلق بنفسه جل وعلا ، ما فيها ذكر لأحكام الطهارة أو الصلاة أو البيع أو غير ذلك ، بل كلها مُخلَصة للّه عَزَّ وَجَلَّ . ثم الذي يقرأها يَكْمُل إخلاصه للّه تعالى ، فهي مُخلَصة ومُخلِصة ، تخلص قارئها من الشرك ، وقد بين النبي ﷺ أنها تعدل ثلث القرآن[٣] ، ولكنها لا تجزئ عنه ، تعدله ولا تجزئ عنه والشيء قد يكون عديلًا للشيء ولكن لا تجزئ عنه ، ألم تروا أن الإنسان إذا قال : « لا إله إلا اللّه وحده لا شريك له له الملك وله الحمد وهو على كل شيء قدير » كان كمن أعتق أربعة أنفس من ولد إسماعيل[٤] ، ومع ذلك لا يجزئ عن عتق رقبة ، ففرق بين المعادلة في الأجر وبين الإجزاء في الكفارة ، ولهذا لو قرأ الإنسان ﴿ قُلْ هُوَ ٱللَّهُ أَحَدٌ ﴾ في الصلاة ثلاث مرات ما أجزأت عن الفاتحة ، مع أنه لو قرأها ثلاث مرات كأنما قرأ القرآن كله ؛ لأنها تعدل ثُلث القرآن .

وأما ﴿ قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ ٱلْفَلَقِ ﴾ و ﴿ قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ ٱلنَّاسِ ﴾ : فهما السورتان اللتان نزلتا على رسول اللّه ﷺ حين سحره الخبيث لبيد بن الأعصم اليهودي ، فأنزل اللّه هاتين السورتين ، فرقَاه بهما جبريل ،

---

(١) أخرجه أبو داود في الأدب بنحوه (٥٠٥٦) وأحمد في مسنده (٤٤٢/٦) .

(٢) أخرجه الترمذي في الدعوات (٣٣٨٨) وابن ماجه في الدعاء (٣٨٦٩) والحاكم في المستدرك (٥١٤/١) . قوله : « باسم اللّه » أي أتحصن وأحتمي باسم اللّه الذي يحتمى باسمه من كل سوء .

(٣) انظر الحديث في مسلم في صلاة المسافرين (٢٥٩) والترمذي في التفسير (٢٨٩٤) والنسائي في السنن (١٧٢/٢) وأحمد في مسنده (٢٣/٣) .

(٤) سبق تخريجه انظر الحديث رقم (١٤١١) .

فأحَلَّ اللَّه عنه السحر [(١)] ، قال النبي ﷺ : « ما تعوذ متعوذ بمثلهما » [(٢)] تستعيذ ﴿ بِرَبِّ ٱلْفَلَقِ ﴾ فالفلق فلق الإصباح ، وهو فالق الحب والنوى جل وعلا ﴿ مِن شَرِّ مَا خَلَقَ ﴾ كل ما خلق ﴿ وَمِن شَرِّ غَاسِقٍ إِذَا وَقَبَ ﴾ يعني الليل إذا دخل ؛ لأن الليل تكثر فيه الهوام والوحوش وغير ذلك ، فتستعيذ باللَّه من شر غاسق إذا وقب ﴿ وَمِن شَرِّ ٱلنَّفَّٰثَٰتِ فِى ٱلْعُقَدِ ﴾ أي : الساحرات اللاتي يعقدن عقد السحر ، وينفثن فيها بالطلاسم والتعوذات والاعتصام بالشياطين والاستعانة بهم والعياذ باللَّه ﴿ وَمِن شَرِّ حَاسِدٍ إِذَا حَسَدَ ﴾ هو العائن يصيب بعينه ، لأن الساحر يؤثر ، والعائن يؤثر ، فأمِرتَ أن تستعيذ ﴿ بِرَبِّ ٱلْفَلَقِ ﴾ جل وعلا ﴿ مِن شَرِّ مَا خَلَقَ ۝ وَمِن شَرِّ غَاسِقٍ إِذَا وَقَبَ ۝ وَمِن شَرِّ ٱلنَّفَّٰثَٰتِ فِى ٱلْعُقَدِ ۝ وَمِن شَرِّ حَاسِدٍ إِذَا حَسَدَ ﴾ وتأمل تناسب هذه الآيات الثلاثة ﴿ وَمِن شَرِّ غَاسِقٍ إِذَا وَقَبَ ﴾ الليل ، لأن البلاء يكون فيه خفيًا ، والسحر كذلك خفي ، والعين كذلك خفية ، فتستعيذ برب الفلق الذي يفلق الإصباح حتى يتبين ويفلق النوى حتى يظهر ويبرز ، فهذه من مناسبة المقسم به والمقسم عليه .

أما ﴿ قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ ٱلنَّاسِ ﴾ : فهي السورة الأخرى أيضًا التي بها الاستعاذة باللَّه ﷻ ﴿ قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ ٱلنَّاسِ ۝ مَلِكِ ٱلنَّاسِ ﴾ فهو الرب الملك ذو السلطان الأعظم الذي لا يمانعه شيء ولا مبدل لكلماته جل وعلا ﴿ مَلِكِ ٱلنَّاسِ ۝ إِلَٰهِ ٱلنَّاسِ ﴾ أي : معبودهم الذي يُعبَد بحق ، فلا معبود حقٌّ إلا اللَّه ﷻ ﴿ مِن شَرِّ ٱلْوَسْوَاسِ ٱلْخَنَّاسِ ۝ ٱلَّذِى يُوَسْوِسُ فِى صُدُورِ ٱلنَّاسِ ﴾ ، هذه وساوس الصدور التي يلقيها الشيطان في قلب ابن آدم ، وما أكثر ما يُلقي الشيطان في هذا العصر من الوساوس العظيمة التي تقلق الإنسان ، وسبحان اللَّه العظيم ، الدنيا اسم على مسمًّى ، دنيئة لا تتم من وجه إلا نقصت من وجوه ترفنا في هذه الأيام في هذا العهد لا يوجد نظيره فيما سبق ، النعم متوافرة والأموال والبنون وكل شيء ، والترف الجسدي ظاهر ، لكن كثُرت في الناس الآن كثرة الوساوس والأمراض النفسية ، والبلاء ، حتى لا تتم الدنيا فيركن الإنسان إليها ؛ لأن الدنيا لو تمت من كل وجه أنست الآخرة ، كما قال النبي ﷺ : « واللَّه ما الفقر أخشى عليكم ، ولكن أخشى أن تفتح عليكم الدنيا فتنافسوها كما تنافسها من قبلكم فتهلككم كما أهلكتهم » [(٣)] واللَّه ﷻ إذا فتح الدنيا من جانب صار صفوها كدرًا من جانب آخر أو من جوانب أخرى ، والشاعر الجاهلي يقول :

فيوم علينا ويوم لنا ويوم نساء ويوم نسر

فالحاصل : أن هذه السورة فيها الاستعاذة من الوسواس ، والوسواس يقع في الإنسان أحيانًا في أصول الدين ، وفي ذات الرب ، وفي القرآن ، وفي الرسول ، حتى يوسوس الإنسان في أشياء يحب أن يكون فُحمة ولا يتكلم بها ، وسواس أيضًا في الطهارة ، بعض الناس يصاب بالوسواس ، والعياذ باللَّه ، يدخل الحمام للوضوء الذي لا يستغرق خمس دقائق يبقى خمس ساعات ، نسأل اللَّه العافية ،

---

(١) راجع ذلك في البخاري في الطب (٥٧٦٣) ومسلم في السلام (٤٣) وأحمد في مسنده (٥٧/٦) .
(٢) أخرجه النسائي في السنن (٢٥١/٨) والطبراني في الكبير (٣٤٦/١٧) .
(٣) أخرجه مسلم في الزهد (٦) وابن ماجه في السنن (٣٩٩٧) والترمذي في السنن (٢٤٦٢) .

وفي الصلاة تجده يكرر تكبيرة الإحرام يكرر الكاف عشرين مرة (اللَّه أكبر) وربما يعجز، حتى إن بعضهم يقول: إني ما أستطيع أن أصلي إطلاقًا. فيؤدي به الوسواس إلى ترك الصلاة، يقع الوسواس في معاملة الأهل، حتى إن بعضهم يُخيل إليه أن أهله وضعوا له سحرًا في أكله وشربه، فيأكل من المطاعم، وحتى إن الرجل ليتكلم لأهله فيقول: يا أم فلان (زوجته) فيقول له الشيطان: طلقتها ويُنكد عليه الحال، حتى إن بعضهم إذا فتح المصحف ليقرأ كلما قلب ورقة خَيل له الشيطان أنه قال لامرأته طالق فترك قراءة القرآن، فالوساوس عظيمة لكن طردها سهل جدًّا بيَّنه النبي ﷺ الذي أعطاه اللَّه جوامع الكلم وفواتح الكلم، وخواتم الكلم، حين شُكي إليه هذا الأمر فقال ﷺ: «إذا وجد أحدكم ذلك فليستعذ باللَّه ولينته»[1] كلمتان، يستعذ باللَّه، يقول: أعوذ باللَّه من الشيطان الرجيم. ولكن يقولها بصدق وإخلاص، وأنه ملتجئ إلى اللَّه حقًّا، لا مفر له من اللَّه إلا إليه، ولينته: أي يُعرض عن هذا، يعرض إطلاقًا، إذا استعمل هذا وإن كان سوف يكبس على نفسه وسوف يتعلم وسوف يتعذب، لكن هذا في أول الأمر، ثم بعد ذلك يزول بالكلية؛ لأن الرسول ﷺ لا ينطق عن الهوى، قال: «فليستعذ ولينته» ﴿قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ ٱلنَّاسِ ۝ مَلِكِ ٱلنَّاسِ ۝ إِلَـٰهِ ٱلنَّاسِ ۝ مِن شَرِّ ٱلْوَسْوَاسِ ٱلْخَنَّاسِ﴾ هذه الجمل الثلاثة، الآيات الثلاث يمكن أن يقال إنها استوعبت أقسام التوحيد ﴿بِرَبِّ ٱلنَّاسِ﴾ توحيد الربوبية ﴿مَلِكِ ٱلنَّاسِ﴾ الأسماء والصفات؛ لأن الملك لا يستحق أن يكون ملكًا إلا بتمام أسمائه وصفاته ﴿إِلَـٰهِ ٱلنَّاسِ﴾ الألوهية ﴿مِن شَرِّ ٱلْوَسْوَاسِ ٱلْخَنَّاسِ ۝ ٱلَّذِى يُوَسْوِسُ فِى صُدُورِ ٱلنَّاسِ ۝ مِنَ ٱلْجِنَّةِ وَٱلنَّاسِ﴾ قال العلماء: ﴿ٱلْخَنَّاسِ﴾ هو الذي يخنس عند ذكر اللَّه. ولهذا جاء في الحديث: «إذا تغولت الغيلان فبادروا بالأذان»[2] الغيلان: هي الأوهام والخيالات التي تعرض للإنسان في سفره، ولا سيما في الأسفار الأولى على الإبل، أو الإنسان الذي يسافر وحده، فتتهول له الشياطين تتلون بألوان، مثل: أسد، ذئب، ضبع، شياطين، جن «إذا تغولت الغيلان فبادروا بالأذان» يعني قولوا: (اللَّه أكبر) فتتلاشى، لأن الشيطان يخنس عند ذكر اللَّه ﷻ ﴿مِن شَرِّ ٱلْوَسْوَاسِ ٱلْخَنَّاسِ ۝ ٱلَّذِى يُوَسْوِسُ فِى صُدُورِ ٱلنَّاسِ ۝ مِنَ ٱلْجِنَّةِ وَٱلنَّاسِ﴾ يعني هذا الوسواس يكون من الجنة ويكون من الناس، الجنة هي الجن، والمراد بهم الشياطين توسوس في الصدور والناس أيضًا شياطين بني آدم وما أكثرَ الشياطين في زماننا وقبل زماننا وإلى يوم القيامة ﴿وَكَذَٰلِكَ جَعَلْنَا لِكُلِّ نَبِيٍّ عَدُوًّا مِّنَ ٱلْمُجْرِمِينَ﴾ [الفرقان: ٣١] الآية، كذلك لأتباع الأنبياء أعداء من الشياطين يأتون إلى الناس يوسوسون، هذا كذا وهذا كذا، ربما يوسوسون على السذج من العوام سواء في مذاهب باطلة وملل كاذبة أو غير ذلك، المهم عندهم وسواس، شياطين الإنس احذرهم، احذر شياطين الإنس الذين يوسوسون لك في أمور يزينونها في نفسك وهي فاسدة.

فالمهم أن هذه السور الثلاث ينبغي للإنسان أن يقرأها كل صباح وكل مساء لأمر النبي ﷺ بها. واللَّه الموفق.

---

(١) أخرجه البخاري في بدء الخلق (٣٢٧٦) ومسلم في الإيمان (٢١٤) كلاهما بلفظ «فإذا بلغه فليستعذ».

(٢) أخرجه أحمد في مسنده (٣/٣٨٢)، والألباني في الصحيحة (٢/٣٥١).

ذكر المؤلف رحمه اللَّه تعالى فيما نقله في باب أذكار الصباح والمساء. ما نقله عن عثمانَ بن عفان رضي الله عنه أن النبي ﷺ قال: « ما من عبد يقول حين يمسي وحين يصبح: بسم اللَّه الذي لا يَضُرُّ مع اسمه شيء في الأرض ولا في السماء، وهو السميع العليم، ثلاث مرات، إلا وقاه اللَّه تعالى شر ذلك اليوم » **وهذه الكلمات كلمات يسيرة لكن فائدتها عظيمة** « بسم اللَّه الذي لا يضر مع اسمه شيء في الأرض ولا في السماء وهو السميع العليم » **لأن اللَّه سبحانه وتعالى بيده ملكوت السماوات والأرض، واسمه مبارك إذا ذكر على الشيء، ولهذا يُسنُّ ذكر اللَّه تعالى بالتسمية على الأكل، إذا أردت أن تأكل تقول:** « بسم اللَّه » **إذا أردت أن تشرب تقول:** « بسم اللَّه » **إذا أردت أن تأتي أهلك تقول:** « بسم اللَّه » **فالتسمية مشروعة في أماكن كثيرة، ولكنها على القول الراجح على الأكل والشرب واجبةٌ، يجب على الإنسان إذا أراد أن يأكل أن يقول:** « بسم اللَّه » **وإذا أراد أن يشرب أن يقول:** « بسم اللَّه » **لأمر النبي ﷺ بذلك** (١) **، ولأن النبي ﷺ ذكر أن من لم يسم اللَّه على أكله شاركه الشيطان في ذلك** (٢) **، فلا تنسى أن تقول في كل مساء وفي كل صباح:** « بسم اللَّه الذي لا يضر مع اسمه شيء في الأرض ولا في السماء وهو السميع العليم » **ثلاث مرات.**

وقوله: « وهو السميع العليم » **فالسميع من أسماء اللَّه، والعليم من أسماء اللَّه، فالسميع من أسماء اللَّه تعالى ولها معنيان:**

الأول: السمع الذي هو إدراك كل صوت، فاللَّه تعالى لا يخفى عليه شيء، كل صوت فاللَّه يسمعه مهما بَعُد ومهما ضَعُف لما أنزل اللَّه تعالى: ﴿ قَدْ سَمِعَ ٱللَّهُ قَوْلَ ٱلَّتِي تُجَٰدِلُكَ فِي زَوْجِهَا وَتَشْتَكِيٓ إِلَى ٱللَّهِ وَٱللَّهُ يَسْمَعُ تَحَاوُرَكُمَآۚ إِنَّ ٱللَّهَ سَمِيعُۢ بَصِيرٌ ﴾ [المجادلة: ١] وهي امرأة جاءت تشتكي إلى الرسول عليه الصلاة والسلام تقول: إن زوجها ظاهر منها، يعني قال لها: أنت عليَّ كظهر أمي. وهذا القول يعد في الجاهلية طلاقًا بائنًا مثل الطلاق بالثلاثة، وهو كذب ومنكر، كما قال تعالى: ﴿ وَإِنَّهُمْ لَيَقُولُونَ مُنكَرًا مِّنَ ٱلْقَوْلِ وَزُورًاۚ ﴾ فجاءت تشتكي إلى الرسول ﷺ فأنزل اللَّه هذه الآية ﴿ قَدْ سَمِعَ ٱللَّهُ قَوْلَ ٱلَّتِي تُجَٰدِلُكَ ﴾ قالت عائشة رضي الله عنها: الحمد للَّه الذي وسع سمعه الأصوات، واللَّه لقد جاءت المجادلة إلى رسول اللَّه ﷺ تكلمه وإني لفي الحجرة، ويخفى على بعضُ حديثها، واللَّه تعالى من فوق سبع سموات يسمع كلامهما (٣) . فاللَّه تعالى يسمع كلامك وإن خَفَتَ (ضعف) ﴿ أَمْ يَحْسَبُونَ أَنَّا لَا نَسْمَعُ سِرَّهُمْ وَنَجْوَىٰهُمۚ بَلَىٰ وَرُسُلُنَا لَدَيْهِمْ يَكْتُبُونَ ﴾ [الزخرف: ٨٠] فإياك أن تُسمع اللَّهَ عز وجل كلامًا لا يرضاه منك، واحرص على أن تُسمع اللَّه ما يرضاه منك.

ومن معاني السميع: أنه سميع الدعاء، أي مجيب الدعاء، كما قال إبراهيم عليه السلام: ﴿ إِنَّ رَبِّي لَسَمِيعُ ٱلدُّعَآءِ ﴾ [إبراهيم: ٣٩] أي: مجيبه، فهو جل وعلا يجيب دعاء المضطر وإن كان كافرًا، ولهذا

---

(١) انظر ذلك في أبو داود في السنن (٣٧٦٧) وأحمد في مسنده (٢٤٦/٦) والبيهقي في السنن (٢٧٦/٧) .
(٢) انظر ذلك في مسلم في الأشربة (١٠٢) والبغوي في شرح السنة (٢٧٥/١١ ، ٢٧٦) .
(٣) أخرجه النسائي (١٦٨/٦) ، وابن ماجه في السنن (١٨٨) .

يجيب اللّٰه ﷻ ، دعاء المضطرين في البحر ، إذا غشيهم موج كالظلل دعوا اللّٰه مخلصين له الدين فينجيهم ، ويجيب جل وعلا دعوة المظلوم ، قال النبي ﷺ : « واتق دعوة المظلوم فإنه ليس بينها وبين اللّٰه حجاب » (١) ويجيب سبحانه وتعالى من تعبد له وحمده وأثنى عليه ، كما يقول المصلي : « سمع اللّٰه لمن حمده » .

وأما العليم فهو من أسمائه أيضًا ، وعِلمُ اللّٰه تعالى علم واسع محيط بكل شيء قال اللّٰه تعالى : ﴿ وَعِندَهُۥ مَفَاتِحُ ٱلْغَيْبِ لَا يَعْلَمُهَآ إِلَّا هُوَ ۚ وَيَعْلَمُ مَا فِى ٱلْبَرِّ وَٱلْبَحْرِ ۚ وَمَا تَسْقُطُ مِن وَرَقَةٍ إِلَّا يَعْلَمُهَا وَلَا حَبَّةٍ فِى ظُلُمَٰتِ ٱلْأَرْضِ وَلَا رَطْبٍ وَلَا يَابِسٍ إِلَّا فِى كِتَٰبٍ مُّبِينٍ ﴾ [الأنعام : ٥٩] .

يعلم ما في الأرحام ، ومفاتح الغيب خمس مذكورة في قوله تعالى : ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ عِندَهُۥ عِلْمُ ٱلسَّاعَةِ وَيُنَزِّلُ ٱلْغَيْثَ وَيَعْلَمُ مَا فِى ٱلْأَرْحَامِ ۖ وَمَا تَدْرِى نَفْسٌ مَّاذَا تَكْسِبُ غَدًا ۖ وَمَا تَدْرِى نَفْسٌۢ بِأَىِّ أَرْضٍ تَمُوتُ ﴾ [لقمان : ٣٤] فاللّٰه ﷻ عند مفاتح الغيب ، ما تسقط من ورقة من شجرة إلا يعلمها إذا سقطت ورقة في شجرة في أبعد الفيافي ، ولو كانت الورقة صغيرة فاللّٰه يعلمها ، وإذا كان يعلم الساقط فهو جل وعلا يعلم الحادث الذي يخلقه ، فكل شيء فاللّٰه به عليم .

ثم قال اللّٰه تعالى : ﴿ وَمَا تَدْرِى نَفْسٌ مَّاذَا تَكْسِبُ غَدًا ۖ وَمَا تَدْرِى نَفْسٌۢ بِأَىِّ أَرْضٍ تَمُوتُ ﴾ أنت الآن مثلًا في بلدك مستقر وليس عندك نية أن تسافر يمينًا ولا شمالًا ، فإذا أراد اللّٰه أن تموت بأرض جعل لك حاجة ، تحملك تلك الحاجة إلى تلك الأرض ، وتموت هناك .

ولقد حدثني الثقة عن قصة غريبة ، يقول : إنهم خرجوا من مكة عندما كان الناس يحجون على الإبل ، خرجوا من مكة بعد الحج ، وفي أثناء الطريق مرضت أمه فجعل يمرضها فارتحل القوم في آخر الليل ، وبقي هو يُمرض أمه ويمهد لها الفراش على الراحلة ، ثم ركبت الأم وسار يقودها ، فذهب مع أحد الريعان ، ضل الطريق ، ذهب مع أحد الريعان وارتفعت الشمس ، وارتفعت حرارة الجو ، فإذا بخباء صغير عند بادية ، فعرج عليهم (اتجه إليهم) ونزل سلَّم عليهم وقال لهم : أين طريق نجد ؟ قالوا : طريق نجد بعيد ، أنت الآن ليس حولك طريق ، ولكن انزل استرح ثم ندلك على الطريق . يقول : فأنخت الراحلة وأنزلت والدتي ، وحينما نزلت على الأرض قبض اللّٰه روحها ، سبحان اللّٰه ، يعني جاءت من بلدها إلى هذه الريعان المجهولة فماتت في المكان الذي قدر اللّٰه ﷻ أن تموت فيه ؛ لأن اللّٰه يقول : ﴿ وَمَا تَدْرِى نَفْسٌۢ بِأَىِّ أَرْضٍ تَمُوتُ ﴾ فعلْم اللّٰه محيط بكل شيء حتى ما في نفسك ، إذا كنت تفكر في نفسك فاللّٰه يعلم ما يدور بنفسك ، قال اللّٰه تعالى : ﴿ وَلَقَدْ خَلَقْنَا ٱلْإِنسَٰنَ وَنَعْلَمُ مَا تُوَسْوِسُ بِهِۦ نَفْسُهُۥ ﴾ (٢) [ق : ١٦] ، فإياك أن تخفي في نفسك ما اللّٰه مُبديه ، إياك أن تخفي في نفسك ما لا يُرضي اللّٰه .

فالمهم أن هذا الدعاء مشروع في كل صباح وفي كل مساء : « بسم اللّٰه الذي لا يضر مع اسمه

(١) أخرجه البيهقي في السنن (٩٦/٤) والدار قطني في السنن (١٣٦/٢) وقد أخرجه البخاري في اللقطة (٢٤٤٨) ومسلم في الإيمان (٢٩) بلفظ : اتق .

(٢) قوله : ﴿ تُوَسْوِسُ بِهِۦ نَفْسُهُۥ ﴾ أي ما تحدث به وتخطر بباله .

شيء في الأرض ولا في السماء وهو السميع العليم » .

* * *

٢٤٩ - باب ما يقوله عند النوم

قالَ اللَّهُ تَعالى : ﴿ إِنَّ فِي خَلْقِ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَاخْتِلَافِ الَّيْلِ وَالنَّهَارِ لَآيَاتٍ لِأُولِي الْأَلْبَابِ ﴿١٩٠﴾ الَّذِينَ يَذْكُرُونَ اللَّهَ قِيَامًا وَقُعُودًا وَعَلَى جُنُوبِهِمْ وَيَتَفَكَّرُونَ فِي خَلْقِ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ ﴾ [آل عمران : ١٨٩، ١٩١] .

١٤٥٨ - وعنْ حُذيفةَ وأبي ذرٍّ رضي الله عنهما أن رَسُولَ اللَّهِ ﷺ كانَ إذَا أوَى إلَى فِرَاشِهِ قالَ : « باسْمِكَ اللَّهُمَّ أحْيَا وَأَمُوتُ » (١) رواه البخاري .

١٤٥٩ - وعَنْ عليٍّ رضي الله عنه أنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ قالَ له وَلِفَاطِمَةَ ، رضي الله عنهما : « إِذَا أَوَيْتُما إلى فِراشِكُمَا - أو إذَا أخَذْتُمَا مَضَاجِعَكُما - فَكَبِّرَا ثَلاثًا وَثَلاثِينَ ، وَسَبِّحَا ثَلاثًا وثَلاثِين ، وَاحْمَدَا ثَلاثًا وَثَلاثِينَ » وفي رِوايةٍ : التَّسْبِيحُ أَرْبعًا وَثَلاثِينَ ، وفي روايةٍ : « التَّكْبِيرُ أربَعًا وَثَلاثِينَ » (٢) متفقٌ عليه .

١٤٦٠ - وعن أبي هُرَيرةَ رضي الله عنه قالَ : قالَ رسولُ اللَّهِ ﷺ : « إذا أوَى أحَدُكُم إلىَ فِرَاشِهِ ، فَلْيَنْفُضْ فِرَاشَهُ بداخِلَةِ إزَارِهِ ؛ فإنَّهُ لَا يَدْرِي مَا خَلَفَهُ عَلَيهِ ، ثُمَّ يَقُولُ : باسْمِكَ رَبِّي وَضَعْتُ جَنْبِي ، وَبكَ أَرْفَعُهُ ؛ إنْ أَمْسَكْتَ نَفْسِي ، فَارْحَمْهَا ، وإنْ أَرْسَلْتَهَا ، فَاحْفَظْهَا بِمَا تَحْفَظُ بِهِ عِبَادَكَ الصَّالِحِينَ » (٣) متفقٌ عليه .

الشرح

هذه الأحاديث في بيان ما يقوله الإنسان عند نومه ، ومنها : حديث علي بن أبي طالب رضي الله عنه ، وفاطمة بنت محمد رضي الله عنها وصلى الله وسلم على أبيها ، وذلك أن فاطمة اشتكت إلى النبي ﷺ ما تجده من الرحى (أداة لطحن الحب) وطلبت من أبيها خادمًا فقال ﷺ : « ألا أدلكما على ما هو خير من الخادم ؟ » ثم أرشدهما إلىهذا ، أنهما إذا أويا إلى فراشهما وأخذا مضجعيهما ، يسبحان ثلاثًا وثلاثين ، ويحمدان ثلاثًا وثلاثين ، ويكبران أربعًا وثلاثين ، قال : « فهذا خير لكما من الخادم » . وعلى هذا فيُسَنُّ للإنسان إذا أخذ مضجعه لينام أن يسبح ثلاثًا وثلاثين ، ويحمد ثلاثًا وثلاثين ، ويكبر أربعًا وثلاثين ؛ فهذه مائة مرة ، فإن هذا مما يعين الإنسان في قضاء حاجاته ، كما أنه أيضًا إذا نام فإنه ينام على ذكر اللَّه عز وجل .

---

(١) لم يقم الشارح رحمه الله بشرح هذه الآية وكذلك الحديث ، وقد وضعت النسخ المطبوعة هذا الجزء على شرح الحديث رقم (١٤٥٧) ، والحديث أخرجه البخاري في الأدب (٦٤٠٨) ومسلم في الذكر والدعاء (٥٩) بنحوه ، وأحمد في مسنده (٣٨٥/٥) . قوله : « إذا أوى إلى فراشه » أي استعد للنوم .

(٢) أخرجه البخاري في فضائل أصحاب النبي (٣٧٠٥) ومسلم في الذكر والدعاء (٨٠) بنحوه ، وأبو داود في الأدب (٥٠٦٢) . قوله : « مضاجعكما » أي مكان نومكما .

(٣) أخرجه البخاري في الدعوات (٦٣٢٠) ومسلم في الذكر والدعاء (٦٤) وأحمد في مسنده (٢٩٥/٢) . قوله : « بداخلة إزاره » أي بطرف إزاره .

وكذلك أيضًا حديث أبي هريرة : إذا أراد الإنسان أن ينام أن ينفض فراشه بداخلة إزاره ثلاث مرات ، وداخلة الإزار طرفه مما يلي الجسد وكأن الحكمة من ذلك - والله أعلم - بألا يتلوث الإزار بما قد يحدث من أذى في الفراش ، وليقل : « باسمك اللَّهم وضعت جنبي وبك أرفعه ، إن أمسكت نفسي فاغفر لها وارحمها ، وإن أرسلتها فاحفظها بما تحفظ به عبادك الصالحين » وذلك أن الإنسان إذا نام فإن اللَّه تعالى يقبض روحه كما قال تعالى : ﴿ ٱللَّهُ يَتَوَفَّى ٱلْأَنفُسَ حِينَ مَوْتِهَا وَٱلَّتِى لَمْ تَمُتْ فِى مَنَامِهَا (١) ﴾ [الزمر : ٤٢] ولكن قبض الروح في المنام ليس كقبضها في الموت ، إلا أنه نوع من القبض ، ولهذا يفقد الإنسان وعيه ولا يحس بمن حوله ، فلهذا سماه اللَّه تعالى وفاة ، وقال تعالى : ﴿ وَهُوَ ٱلَّذِى يَتَوَفَّىٰكُم بِٱلَّيْلِ وَيَعْلَمُ مَا جَرَحْتُم بِٱلنَّهَارِ (٢) ﴾ [الأنعام : ٦٠] فينبغي للإنسان أن يقول هذا الذكر « باسمك اللَّهم أحيا وأموت ، اللَّهم بك وضعت جنبي وبك أرفعه ، إن أمسكت نفسي فاغفر لها وارحمها ، وإن أرسلتها فاحفظها بما تحفظ به عبادك الصالحين » واللَّه الموفق .

* * *

١٤٦١ - وعنْ عائشةَ رضي الله عنها أنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ كان إذا أَخَذَ مَضْجعَهُ نَفَثَ في يَدَيهِ ، وَقَرَأَ بالْمُعَوِّذاتِ وَمَسَحَ بِهِمَا جَسَدَهُ . متفقٌ عليه .

وفي رواية لهما : أنَّ النبيَّ ﷺ كَانَ إذَا أَوَى إلى فِراشِهِ كُلَّ لَيلَةٍ جَمَعَ كَفَّيهِ ، ثُمَّ نَفَثَ فيهما فَقَرأَ فِيهِمَا : ﴿ قُلْ هُوَ ٱللَّهُ أَحَدٌ ﴾ ، و﴿ قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ ٱلْفَلَقِ ﴾ ، و﴿ قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ ٱلنَّاسِ ﴾ ، ثُمَّ مَسَحَ بهمَا ما اسْتطاعَ مِن جَسَدِهِ ، يَبْدَأُ بِهِمَا عَلَى رَأْسِهِ وَوَجهِهِ ، وَمَا أَقبلَ مِنْ جَسَدِهِ ، يَفْعَلُ ذلِكَ ثَلاثَ مَرَّاتٍ (٣) . مُتفقٌ عليه . قالَ أهلُ اللُّغَةِ : « النَّفْثُ » : نَفخٌ لَطِيفٌ بِلَا ريق .

١٤٦٢ - وَعَنِ البَرَاء بنِ عَازِبٍ رضي الله عنهما قَالَ : قَالَ لي رَسُولُ اللَّهِ ﷺ : « إذا أَتيتَ مَضْجعَكَ فَتَوَضَّأْ وضُوءكَ للصَّلاةِ ، ثم اضطَجِعْ عَلى شِقِّكَ الأيمنِ ، وَقلْ : اللَّهُمَّ أَسْلَمْتُ نَفسِي إلَيكَ ، وَفَوَّضتُ أمْرِي إلَيكَ ، وأَلْجَأْتُ ظَهري إليكَ ، رَغبَةً ورهبَةً إلَيكَ ، لا مَلجأَ ولا مَنجى مِنْكَ إلا إليك ، آمنتُ بِكتَابِكَ الذي أَنْزَلْتَ ، وَبِنَبِيِّكَ الذِي أرسَلتَ ، فإنْ مِتَّ ؛ مِتَّ على الفِطرةِ ، واجْعَلهُنَّ آخِرَ مَا تَقُولُ » (٤) متفقٌ عليه .

١٤٦٣ - وَعَنْ أَنَسٍ رضي الله عنه أَنَّ النَّبيَّ ﷺ كَانَ إذا أوى إلى فِرَاشِهِ قَالَ : « الحَمْدُ للَّهِ الَّذي أطعَمَنَا

---

(١) قوله : ﴿ يَتَوَفَّى ٱلْأَنفُسَ ﴾ أي يقبض الأرواح حين الموت وحين النوم بأن يقطع تعلقها بالأجسام تعلق التصرف ظاهرًا وباطنًا في الموت وظاهرًا فقط في النوم .

(٢) قوله : ﴿ مَا جَرَحْتُم ﴾ أي ما كسبتم فيه بجوارحكم .

(٣) أخرجه البخاري في الدعوات (٦٣١٩) ومسلم في الذكر والدعاء (٥٩) وابن ماجه في الدعاء (٣٨٧٥) .

(٤) أخرجه البخاري في التوحيد (٧٤٨٨) ومسلم في الذكر والدعاء (٥٦) وأبو داود في الأدب (٥٠٤٦) . قوله : « شقك » أي جانبك ، قوله : « أسلمت نفسي إليك » أي جعلتها منقادة لك تابعة لحكمك ، قوله : « فوضت أمري إليك » أي رددته إليك ، قوله : « ألجأت ظهري » أي اعتمدت عليك في أموري كما يعتمد الإنسان بظهره إلى ما يستند إليه ، قوله : « رغبة ورهبة » أي طمعًا في ثوابك وخوفًا من عقابك ، قوله : « الفطرة » أي الإسلام .

وسَقَانَا ، وكفَانَا وآوانا ، فَكَمْ مِمَّنْ لا كافيَ لَهُ ولا مُؤْوِيَ » [١] رواه مسلم .

١٤٦٤ - وَعَنْ حُذَيفَةَ رضي الله عنه أنَّ رَسُولَ اللَّهِ صلى الله عليه وسلم كَانَ إذا أرادَ أَنْ يَرْقُدَ ، وَضَعَ يَدَهُ اليُمْنَى تحتَ خَدِّهِ ، ثم يَقُولُ : « اللَّهمَّ قِني عَذَابَكَ يَومَ تَبْعَثُ عِبادَكَ » [٢] رَوَاهُ التِرمذِيُّ وقالَ : حَديثٌ حَسَنٌ .

ورَوَاهُ أبو داود مِنْ رِوَايَةِ حَفْصَةَ رضي الله عنها وَفيهِ أَنَّهُ كَانَ يَقُولهُ ثَلاثَ مَرَّاتٍ .

الشرح

هذه الأحاديث من بقية الأحاديث التي ساقها المؤلف في باب « أذكار النوم » فمنها حديث عائشة : أن النبي صلى الله عليه وسلم كان إذا أخذ مضجعه جمع كفيه يعني ضم بعضهما إلى بعض ونفث فيهما ، والنفث هو النفخ مع ريق يسير ، ثم يقرأ ﴿ قُلْ هُوَ ٱللَّهُ أَحَدٌ ﴾ ﴿ قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ ٱلْفَلَقِ ﴾ ﴿ قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ ٱلنَّاسِ ﴾ يمسح بهما . أي : بيديه ما استطاع من جسده يبدأ برأسه ومقدم جسده ثلاث مرات .

فينبغي للإنسان إذا أخذ مضجعه أن يفعل ذلك ، ينفخ في يديه مجموعتين ويقرأ فيهما ﴿ قُلْ هُوَ ٱللَّهُ أَحَدٌ ﴾ ﴿ قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ ٱلْفَلَقِ ﴾ ﴿ قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ ٱلنَّاسِ ﴾ « ثلاث مرات » ، يمسح رأسه ووجهه وصدره وبطنه وفخذيه وساقيه وكل ما يستطيع من جسده .

أما الحديث الثاني : فهو حديث البراء بن عازب رضي الله عنه وقد سبق شرحه .

وأما الحديث الثالث : فهو حديث أنس بن مالك رضي الله عنه أن النبي صلى الله عليه وسلم كان إذا أوى إلى فراشه قال : « الحمد للَّه الذي أطعمنا وسقانا ، وكفانا وآوانا ، فكم ممن لا كافي له ولا مؤوي » يحمد اللَّه عز وجل الذي أطعمه وسقاه ، فلولا أن اللَّه عز وجل يسر لك هذا الطعام وهذا الشراب ما أكلت ولا شربت ، كما قال تعالى : ﴿ أَفَرَءَيْتُم مَّا تَحْرُثُونَ ﴿٦٣﴾ ءَأَنتُمْ تَزْرَعُونَهُۥٓ أَمْ نَحْنُ ٱلزَّٰرِعُونَ ﴿٦٤﴾ لَوْ نَشَآءُ لَجَعَلْنَٰهُ حُطَٰمًا فَظَلْتُمْ تَفَكَّهُونَ ﴿٦٥﴾ إِنَّا لَمُغْرَمُونَ ﴿٦٦﴾ بَلْ نَحْنُ مَحْرُومُونَ ﴾ وقال تعالى : ﴿ أَفَرَءَيْتُمُ ٱلْمَآءَ ٱلَّذِى تَشْرَبُونَ ﴿٦٨﴾ ءَأَنتُمْ أَنزَلْتُمُوهُ مِنَ ٱلْمُزْنِ أَمْ نَحْنُ ٱلْمُنزِلُونَ ﴿٦٩﴾ لَوْ نَشَآءُ جَعَلْنَٰهُ أُجَاجًا فَلَوْلَا تَشْكُرُونَ [٣] ﴾ [الواقعة : ٦٣ - ٧٠] فتحمد اللَّه الذي أطعمك وسقاك « الحمد للَّه الذي أطعمنا وسقانا وكفانا وآوانا » كفانا يعني : يسَّر لنا الأمور وكفانا المؤونة ، وآوانا أي : جعل لنا مأوى نأوي إليه ، فكم من إنسان لا كافي له ولا مأوى ، أو ولا مُؤوي ، فينبغي لك إذا أتيت مضجعك أن تقول هذا الذكر .

---

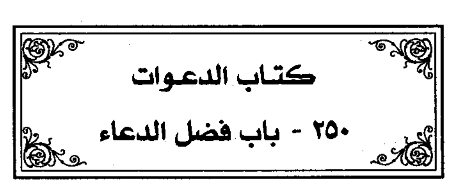
(١) أخرجه مسلم في الذكر والدعاء (٦٤) . قوله « فكم ممن لا كافي له ولا مؤوي » أي لا راحم له ولا عاطف عليه ، وقيل : لا وطن ولا مسكن يأوي إليه .

(٢) أخرجه الترمذي في الدعوات (٣٣٩٥) وأبو داود في الأدب (٥٠٤٥) وأحمد في مسنده (١/٤٠٠) وابن ماجه في الدعاء (٣٨٧٧) .

(٣) قوله : ﴿ حُطَٰمًا ﴾ أي منكسرًا مفتتًا لشدة تيبسه . قوله : ﴿ لَمُغْرَمُونَ ﴾ أي لمهلكون بهلاك قوتنا . قوله : ﴿ مَحْرُومُونَ ﴾ أي ممنوعون من الرزق بالكلية . قوله : ﴿ ٱلْمُزْنِ ﴾ أي السحاب . قوله : ﴿ لَوْ نَشَآءُ جَعَلْنَٰهُ أُجَاجًا ﴾ أي ملحًا لا يطاق لشدة مرارته .

ومن ذلك أيضًا : حديث حذيفة وحفصة رضي الله عنهما : أن النبي ﷺ كان إذا اضطجع وضع يده اليمنى تحت خده الأيمن وقال : « اللّهم قني عذابك يوم تبعث عبادك » . فكل هذه أذكار واردة عن النبي ﷺ ينبغي على الإنسان أن يحفظها ويقولها كما كان النبي ﷺ يقولها . واللّه الموفق .

* * *



كتاب الدعوات

٢٥٠ - باب فضل الدعاء

قَال اللّه تَعالى : ﴿ وَقَالَ رَبُّكُمُ ٱدْعُونِيٓ أَسْتَجِبْ لَكُمْ ﴾ [غافر : ٦٠] . وقَال تَعالى : ﴿ ٱدْعُواْ رَبَّكُمْ تَضَرُّعًا وَخُفْيَةً إِنَّهُۥ لَا يُحِبُّ ٱلْمُعْتَدِينَ ﴾ [الأعراف : ٥٥] .

وقَال تَعالى : ﴿ وَإِذَا سَأَلَكَ عِبَادِى عَنِّى فَإِنِّى قَرِيبٌ أُجِيبُ دَعْوَةَ ٱلدَّاعِ إِذَا دَعَانِ ﴾ الآية [البقرة : ١٨٦] وقَال تَعالى : ﴿ أَمَّن يُجِيبُ ٱلْمُضْطَرَّ إِذَا دَعَاهُ وَيَكْشِفُ ٱلسُّوٓءَ ﴾ الآية [النمل : ٦٢] .

الشرح

ذكر المؤلف رحمه الله في كتاب الدعوات : والدعوات جمع دعوة ، وهي دعوة الإنسان ربه عز وجل ، يقول : يا رب ، يا رب . وما أشبه ذلك ، يسأل اللّه تعالى أن يعطيه ما يريد ، وأن يكشف عنه ما لا يريد .

ثم قال باب الأمر بالدعاء وفضله . ثم ذكر الآيات : ﴿ ٱدْعُونِيٓ أَسْتَجِبْ لَكُمْ ﴾ [غافر : ٦٠] وهذا قول من اللّه عز وجل ووعد ، واللّه تعالى لا يخلف الميعاد ، ﴿ ٱدْعُونِيٓ أَسْتَجِبْ لَكُمْ ﴾ والمراد بالدعاء هنا دعاء العبادة ودعاء المسألة . أما **دعاء العبادة** : فهو أن يقوم الإنسان بعبادة اللّه ؛ لأن القائم بعبادة اللّه لو سألته : لماذا أقمت الصلاة ؟ لماذا آتيت الزكاة ؟ لماذا صمت ؟ لماذا حججت ؟ لماذا جاهدت ؟ لماذا بررت الوالدين ؟ لماذا وصلت الرحم ؟ لقال : أريد بذلك رضاء اللّه عز وجل ، وهذه عبادة متضمنة للدعاء .

أما **دعاء المسألة** : فهو أن تسأل اللّه الشيء فتقول : يا رب اغفر لي ، يا رب ارحمني ، يا رب ارزقني . و ما أشبه ذلك .. وهذا أيضًا عبادة كما جاء في الحديث « الدعاء هو العبادة » (١) وهو عبادة لما فيه من صفة التوجه إلى اللّه عز وجل والاعتراف بفضله ، فيكون قوله : ﴿ وَقَالَ رَبُّكُمُ ٱدْعُونِيٓ أَسْتَجِبْ لَكُمْ ﴾ يشمل دعاء العبادة ودعاء المسألة ﴿ أَسْتَجِبْ لَكُمْ ﴾ والاستجابة في دعاء العبادة هي قبولها ، والاستجابة في دعاء المسألة إعطاء الإنسان مسألته ، وهذا وعد من اللّه تعالى ، لكن لابد من أمور ، فلابد لإجابة الدعاء من شروط : الشرط الأول : الإخلاص ، أن تخلص للّه فتكون داعيًا له حقًّا لا تشرك به شيئًا ، لا تعبده رياءً ولا سمعة ، ولا من أجل أن يقال : فلان حاجٌّ ، فلان سخيٌّ ، فلان كثير الصوم .

إذا قلت هذا أُحبِطَ عملك ، فلابد من الإخلاص في المسألة أيضًا ، ادع اللّه وأنت تشعر بأنك في

---

(١) أخرجه الترمذي في الدعوات (٣٢٤٧) وأحمد في مسنده (٤/٢٧١) والمنذري في الترغيب والترهيب (٢/٤٧٧) .

حاجة إليه وأنه غني عنك وقادر على إعطائك ما تسأل .

الشرط الثاني : أن يكون الدعاء لا عدوان فيه ، فإن كان فيه عدوان ؛ فإن اللَّه لا يقبله ولو من الأب لابنه أو من الأم لابنها ، إذا كان فيه عدوان ، فإن اللَّه لا يقبله لقول اللَّه تعالى : ﴿ ٱدْعُوا۟ رَبَّكُمْ تَضَرُّعًا وَخُفْيَةً ۚ إِنَّهُۥ لَا يُحِبُّ ٱلْمُعْتَدِينَ (١) ﴾ [الأعراف : ٥٥] فلو دعا الإنسان بإثم بأن سأل ربه شيئًا محرمًا فهذا لا يقبل ؛ لأنه معتدٍ ، ولو سأل ما لا يمكن شرعًا ، مثل أن يقول : اللَّهم اجعلني نبيًا . هذا لا يجوز وهو عدوان لا يقبل ، ولو دعا على مظلوم ؛ فإنه لا يقبل ، ولو دعت المرأة على ابنها لأنه يحب زوجته ؛ فإنه لا يقبل ، وكذلك الأب لو دعا على ابنه لأنه صاحب أناسًا طيبين ؛ فإنه لا يقبل ، فيشترط أن لا يكون في الدعاء عدوان .

الشرط الثالث : أن يدعو اللَّه تعالى وهو موقن بالإجابة لا دعاء تجربة ، لأن بعض الناس يدعو ليجرب ، ليرى هل يُقبل الدعاء أم لا ؟ هذا لا يقبل منه ، ادعُ اللَّه وأنت موقن بأن اللَّه تعالى سوف يجيبك ، فإن دعوت وأنت في شك ؛ فإن اللَّه لا يقبله منك .

الشرط الرابع : اجتناب الحرام ، بأن لا يكون الإنسان آكلًا للحرام ، فمن أكل الحرام من ربا أو فوائد غش أو كذب أو ما أشبه ذلك ؛ فإنه لا يستجاب له ، والدليل على هذا قول النبي ﷺ : « إن اللَّه طيب لا يقبل إلا طيبًا ، وإن اللَّه أمر المؤمنين بما أمر به المرسلين » قال تعالى : ﴿ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلرُّسُلُ كُلُوا۟ مِنَ ٱلطَّيِّبَـٰتِ وَٱعْمَلُوا۟ صَـٰلِحًا ﴾ [المؤمنون : ٥١] وقال : ﴿ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ كُلُوا۟ مِن طَيِّبَـٰتِ مَا رَزَقْنَـٰكُمْ وَٱشْكُرُوا۟ لِلَّهِ إِن كُنتُمْ إِيَّاهُ تَعْبُدُونَ ﴾ ثم ذكر « الرجل يطيل السفر ، أشعث أغبر ، يمد يده إلى السماء : يا رب يا رب . ومطعمه حرام ، وملبسه حرام ، وغُذِّيَ بالحرام ، فأنى يستجاب لذلك » (٢) . فاستبعد النبي ﷺ أن يستجاب لهذا مع أنه فعل من أسباب الإجابة ما يكون جديرًا بالإجابة ، ولكن لما كان يأكل الحرام صار بعيدًا أن يقبل اللَّه منه .

فهذه أربعة شروط للدعاء لابد منها . واللَّه الموفق .

وقال تعالى : ﴿ وَإِذَا سَأَلَكَ عِبَادِى عَنِّى فَإِنِّى قَرِيبٌ ۖ أُجِيبُ دَعْوَةَ ٱلدَّاعِ إِذَا دَعَانِ ﴾ الآية [البقرة : ١٨٦]
وقال تعالى : ﴿ أَمَّن يُجِيبُ ٱلْمُضْطَرَّ إِذَا دَعَاهُ وَيَكْشِفُ ٱلسُّوٓءَ ﴾ الآية [النمل : ٦٢] .

الشرح

سبق لنا الكلام على بيان فضيلة الدعاء وشروط الإجابة ، وفي هذه الآية الكريمة يقول اللَّه تعالى : ﴿ وَإِذَا سَأَلَكَ عِبَادِى عَنِّى فَإِنِّى قَرِيبٌ ۖ أُجِيبُ دَعْوَةَ ٱلدَّاعِ إِذَا دَعَانِ ۖ فَلْيَسْتَجِيبُوا۟ لِى وَلْيُؤْمِنُوا۟ بِى لَعَلَّهُمْ يَرْشُدُونَ ﴾ الخطاب إلى النبي ﷺ يقول اللَّه له : ﴿ وَإِذَا سَأَلَكَ عِبَادِى عَنِّى ﴾ يعني : هل أنا قريب أو لست بقريب ؟ فالجواب ﴿ فَإِنِّى قَرِيبٌ ﴾ وقربه جل وعلا قرب يليق بجلاله وعظمته ، ليس قرب

(١) قوله ﷻ : ﴿ تَضَرُّعًا ﴾ أي تذللًا واستكانة . وقوله ﷻ : ﴿ وَخُفْيَةً ﴾ أي سرًا في أنفسكم .
(٢) أخرجه مسلم في الزكاة (٦٥) ، وأحمد في مسنده (٣٢٨/٢) ، والبيهقي في السنن (٣٤٦/٣) .

مكان ؛ لأنه سبحانه وتعالى فوق كل شيء ، فوق السماوات السبع ، فوق العرش ، ولكنه قرب يليق بجلاله وعظمته ، فهو مع علوه العظيم الذي لا منتهى له إلا بذاته المقدسة ؛ فهو مع ذلك قريب في علوه ، بعيد في دنوّه ، جل وعلا ، قال النبي ﷺ ذات يوم لأصحابه : « إن الذي تدعون أقرب إلى أحدكم من عنق راحلته »[١] ولكنه فوق سماواته . السماوات السبع والأراضين السبع في كفه جل وعلا كالخردلة في كف أحدنا ، فهو محيط بكل شيء لا إله إلا هو .

﴿ وَإِذَا سَأَلَكَ عِبَادِي عَنِّي فَإِنِّي قَرِيبٌ ﴾ قربًا يليق بجلاله وعظمته وليس قرب مكان ، بمعنى أنه ليس عندنا في الأرض بل هو فوق السماوات جل وعلا ﴿ فَإِنِّي قَرِيبٌ أُجِيبُ دَعْوَةَ الدَّاعِ إِذَا دَعَانِ ﴾ هذا الشاهد أنه يجيب دعوة الداعي إذا دعاه حقيقةً والتجأ إليه وافتقر إليه ، وعلم أنه لا يكشف السوء إلا اللّه وأنه محتاج إلى ربه ؛ فإنه إذا دعاه في هذا الحال أجابه سبحانه وتعالى ، ولكن لابد من ملاحظة الشروط السابقة . وقال تعالى : ﴿ فَلْيَسْتَجِيبُوا لِي وَلْيُؤْمِنُوا بِي ﴾ ﴿ فَلْيَسْتَجِيبُوا ﴾ أي : لما دعوتهم إليه من عبادته ﷻ ، ومنها أن يدعوني ؛ لأن اللّه أمرنا بذلك ﴿ وَقَالَ رَبُّكُمُ ادْعُونِي أَسْتَجِبْ لَكُمْ ﴾ ﴿ وَلْيُؤْمِنُوا بِي ﴾ إيمانًا حقيقيًا لاشك معه ولا كفر معه ، وحينئذ يكون اللّه تعالى أسرع إليهم بالإجابة ﴿ لَعَلَّهُمْ يَرْشُدُونَ ﴾ لعل هنا للتعليل ، أي : لأجل أن يرشدوا ، فيكونوا في جميع تصرفاتهم على وجه الرشد ، والرشد عكس السَّفه ، وهذا أيضًا من الآيات التي تحث الإنسان إلى الدعاء بإيمان وإخلاص .

ثم ذكر المؤلف الآية الرابعة ، قال تعالى : ﴿ أَمَّن يُجِيبُ الْمُضْطَرَّ إِذَا دَعَاهُ وَيَكْشِفُ السُّوءَ وَيَجْعَلُكُمْ خُلَفَاءَ الْأَرْضِ ﴾ الاستفهام هنا للإنكار والنفي ، يعني لا أحد يجيب المضطر إذا دعاه إلا اللّه ، فاللّه ﷻ يجيب دعوة المضطر ولو كان كافرًا ، حتى الكافر إذا اضطرَّ ودعا ربه أجابه ، قال اللّه تعالى : ﴿ وَإِذَا غَشِيَهُم مَّوْجٌ كَالظُّلَلِ دَعَوُا اللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ فَلَمَّا نَجَّاهُمْ إِلَى الْبَرِّ فَمِنْهُم مُّقْتَصِدٌ وَمَا يَجْحَدُ بِآيَاتِنَا إِلَّا كُلُّ خَتَّارٍ كَفُورٍ[٢] ﴾ [لقمان : ٣٢] فالمضطر الذي تلجئه الضرورة إلى دعاء اللّه ولو كان كافرًا يجيب اللّه دعوته ، فما بالك إذا كان مؤمنًا ؟! فمن باب أولى ، فلا أحد يجيب المضطر إلا اللّه ، أما غير اللّه ﷻ فقد يجيب وقد لا يجيب ، ربما تستغيث بإنسان في ضيق أو حريق فلا يجيبك ، ولا ينقذك ، لكن اللّه ﷻ إذا اضطررتَ إليه ودعوتَه أجابك ﴿ أَمَّن يُجِيبُ الْمُضْطَرَّ إِذَا دَعَاهُ وَيَكْشِفُ السُّوءَ وَيَجْعَلُكُمْ خُلَفَاءَ الْأَرْضِ ﴾ ﴿ وَيَكْشِفُ السُّوءَ ﴾ أي : يزيله ﴿ أَإِلَٰهٌ مَّعَ اللَّهِ ﴾ أي : لا إله مع اللّه ، يجيب المضطر إذا دعاه ويكشف السوء ، وفي هذا ردٌّ وإبطال لما يدعيه عُبَّادُ الأصنام من أنها تجيبهم وتُغيثهم ، فإن هذا لا حقيقة له ، أيُّ أحدٍ تدعوه من دون اللّه لا يجيب حتى الرسول ﷺ لو دعوته وقلت : يا رسول اللّه أنقذني من الشدة ؛ فإنك مشرك كافر ، والرسول ﷺ متبرئ منك ويقاتلك لو كان حيًا ؛ لأنه لا أحد يُدْعَى إلا اللّه ، كل من يُدعى من دون اللّه فإنه لا يستجيب ، وقال تعالى : ﴿ وَمَنْ أَضَلُّ مِمَّن يَدْعُو مِن دُونِ اللَّهِ مَن لَّا يَسْتَجِيبُ لَهُ إِلَىٰ يَوْمِ الْقِيَامَةِ وَهُمْ عَن دُعَائِهِمْ غَافِلُونَ ۝ وَإِذَا حُشِرَ

---

(١) أخرجه أحمد في مسنده (٤/٤٠٢) .

(٢) قوله ﷻ : ﴿ غَشِيَهُم ﴾ أي علاهم وغطاهم . قوله ﷻ : ﴿ كَالظُّلَلِ ﴾ هي ما أظل من سحاب أو جبل أو غيرهما .

ٱلنَّاسُ كَانُواْ لَهُمْ أَعْدَآءً وَكَانُواْ بِعِبَادَتِهِمْ كَٰفِرِينَ ﴾ [الأحقاف : ٥، ٦] فهذه الآيات وأمثالها كلها تدل على فضيلة الدعاء والدعوة إليه ، وأنه لا ينبغي للإنسان أن يبتعد عن ربه طرفة عين . والله الموفق .

* * *

١٤٦٥ - وَعَنِ النُّعْمَانِ بنِ بَشيرٍ رضي الله عنهما عَنِ النبيِّ ﷺ قَالَ : « الدُّعَاءُ هوَ العِبادَةُ » [١] . رَوَاهُ أبو دَاودَ ، والترمذيُّ ، وَقَالَ : حديثٌ حَسَنٌ صَحيحٌ .

الشرح

عندما ذكر المؤلف رحمه الله الآيات الدالة على فضل الدعاء والأمر به ذكر الأحاديث ، وذلك أن الأدلة هي الكتاب ، والسنة ، وإجماع المسلمين ، والقياس الصحيح ، هذه هي الأدلة الأربعة التي بنى المسلمون عليها أحكام شريعة الله عز وجل (الكتاب ، والسنة ، والإجماع ، والقياس الصحيح) وكلها تدور على القرآن الكريم ، هو الأصل ، فلولا أن الله سبحانه وتعالى جعل طاعة رسول الله ﷺ من طاعته وأمر باتباع رسوله ﷺ ما كانت السنة دليلًا ، ولولا أن الله جعل إجماع هذه الأمة على حق ولا يمكن أن تجتمع على ضلالة ما كان الإجماع دليلًا ، ولولا أن الاعتبار والنظر وإلحاق النظير بالنظير من أدلة الشرع الذي دل عليه القرآن الكريم ، ما كان القياس أيضًا دليلًا ، ولكن كل هذا قد دل عليه القرآن بأنه دليل تثبت به الأحكام الشرعية .

فذكر المؤلف رحمه الله آيات من كتاب الله عز وجل في فضل الدعاء والأمر به ، ثم ذكر الأحاديث ، ومنها حديث النعمان بن بشير أن النبي ﷺ قال : « الدعاء هو العبادة » يعني : الدعاء من العبادة ويشهد لهذا قول الله تعالى : ﴿ وَقَالَ رَبُّكُمُ ٱدْعُونِىٓ أَسْتَجِبْ لَكُمْ إِنَّ ٱلَّذِينَ يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِى سَيَدْخُلُونَ جَهَنَّمَ دَاخِرِينَ ﴾ [غافر : ٦٠] لم يقل : يستكبرون عن دعائي . قال : ﴿ عَنْ عِبَادَتِى ﴾ فدل هذا على أن الدعاء هو العبادة .

ووجه ذلك من النظر : أن الإنسان إذا دعا ربه فقد اعترف لله عز وجل بالكمال وإجابة الدعاء ، وأنه على كل شيء قدير ، وأن العطاء أحب إليه من المنع . ثم إنه لم يلجأ إلى غيره ، لم يدعُ غير الله ، لا ملكًا ولا نبيًا ولا وليًا ولا قريبًا ولا بعيدًا ، وهذا هو حقيقة العبادة ، وبذلك تعرف أنك إذا دعوت الله أُثِبتَ على هذا الدعاء سواء استُجيب لك أم لا ؛ لأنك تعبد لله عز وجل، فإذا قلت : يا رب اغفر لي ، يا رب ارحمني ، يا رب ارزقني ، يا رب اهدني ، فهذه عبادة تقربك إلى الله عز وجل ويكتب الله لك بها ثوابًا عنده يوم القيامة . والله الموفق .

* * *

١٤٦٦ - وَعَنْ عَائِشَةَ رضي الله عنها قَالَتْ : كَانَ رَسُولُ اللهِ ﷺ يَسْتَحِبُّ الجَوامعَ مِنَ الدُّعَاء ، وَيَدَعُ مَا سِوَى ذلكَ [٢] . رَوَاهُ أبو دَاودَ بإسْنادٍ جَيِّدٍ .

---

(١) أخرجه أبو داود في الصلاة (١٤٧٩) ، والترمذي في تفسير القرآن (٣٢٤٧) ، وأحمد في مسنده (٤/٢٧١) .

(٢) أخرجه أبو داود في الصلاة (١٤٨٢) . قوله : « الجوامع من الدعاء » أي الدعاء الجامع للمهمات والمطالب .

١٤٦٧ - وَعَنْ أَنَسٍ ﷺ قَالَ : كَانَ أَكْثَرُ دُعَاء النَّبيِّ ﷺ : « اللَّهُمَّ آتِنَا في الدُّنْيَا حَسَنَةً ، وَفي الآخِرِةِ حَسَنَةً ، وَقِنَا عَذَابَ النَّارِ » مُتَّفَقٌ عليَهِ .

زَادَ مُسلِمٌ في رِوَايتِهِ قَالَ : وكَانَ أَنَسٌ إذا أَرَادَ أن يَدعُوَ بِدعْوَةٍ دَعَا بهَا ، وَإذا أَرَادَ أَنْ يَدعوَ بِدُعَاءٍ دعا بهَا فِيهِ [(١)] .

الشرح

ذكر المؤلف رحمه الله في باب فضل الدعاء أحاديث : منها حديث عائشة رضي الله عنها : أن النبي ﷺ كان يحب الجوامع من الدعاء ويدع ما سوى ذلك ، يعني أنه إذا دعا يختار من الدعاء أجمعه ، كلمات جامعة عامة ، ويدع التفاصيل ، ولذلك لأن الدعاء العام أبلغ في العموم والشمول من التفاصيل ، فمثلًا إذا أراد أن يدعو الإنسان ربه أن يُدخله الجنة قال : اللَّهم أدخلني الجنة . ولا يحتاج إلى أن يفصل ويقول فيها كذا وكذا ؛ لأنه قد يكون هناك أشياء لا يعلمها ، فيكون هذا التفصيل كالحاصل لها ، فإذا دعا دعاء عامًّا كان هذا أشمل وأجمل . وأما تكرر الدعاء فسوف يأتي إن شاء اللَّه أن النبي ﷺ كان يكرر الدعاء ، فإذا دعا ، دعا ثلاثًا . والظاهر أن المؤلف سيذكره .ومن أجمع ما يكون من الدعاء ما ذكره في حديث أنس ﷺ أن النبي ﷺ كان يكثر أن يقول في دعائه : « اللَّهم آتنا في الدنيا حسنة ، وفي الآخرة حسنة ، وقنا عذاب النار » فإن هذا الدعاء أجمع الدعاء « ربنا آتنا في الدنيا حسنة » يشمل كل حسنات الدنيا ، من زوجة صالحة ، ومركب مريح ، وسكن مطمئن ، وغير ذلك ، « وفي الآخرة حسنة » كذلك يشمل حسنة الآخرة كلها ، من الحساب اليسير ، وإعطاء الكتاب باليمين ، والمرور على الصراط بسهولة ، والشرب من حوض الرسول ﷺ ، ودخول الجنة ، إلى غير ذلك من حسنات الآخرة . فهذا الدعاء من أجمع الأدعية ، بل هو أجمعها ؛ لأنه شامل ، وكان أنس ﷺ يدعو بذلك ، وإذا دعا بشيء آخر دعا بذلك أيضًا ، يعني كأنه ﷺ لا يدعه أبدًا إذا دعا ، وهذا يدل على فضيلة هذا الدعاء ، وأنه ينبغي للإنسان أن يدعو به ، ولهذا كان الرسول ﷺ يختتم به أشواط الطواف ، يقول بين الركن اليماني والحجر الأسود : « ربنا آتنا في الدنيا حسنة وفي الآخرة حسنة وقنا عذاب النار » في آخر كل شوط . واللَّه أعلم .

* * *

١٤٦٨ - وَعَن ابنِ مَسْعُودٍ ﷺ أنَّ النَّبيَّ ﷺ كَانَ يَقُولُ : « اللَّهُمَّ إنِّي أَسْأَلُكَ الهُدَى ، وَالتُّقَى ، وَالعَفَافَ ، والغِنى » [(٢)] رَواهُ مُسْلِمٌ .

---

(١) أخرجه البخاري في الدعوات (٦٣٨٩) ، ومسلم في الذكر والدعاء (٢٦) ، وأحمد في مسنده (١٠٧/٣) ، والترمذي في الدعوات (٣٤٨٧) .

(٢) أخرجه مسلم في الذكر والدعاء (٧٢) ، وأحمد في مسنده (٤١٦/١) ، وابن ماجه في الدعاء (٣٨٣٢) .

الشرح

لما ذكر المؤلف رَحِمَهُ اللَّهُ بعض الأحاديث الواردة في الدعاء ذكر حديث ابن مسعود رضي الله عنه أن النبي صلى الله عليه وسلم كان يقول : « اللَّهم إني أسألك الهدى والتقى والعفاف والغنى » هذه أربع كلمات يسألها النبي صلى الله عليه وسلم ربه « اللَّهم إني أسألك الهدى » والهدى يعني العلم النافع ، والهدى نوعان : هدى علم ، وهدى عمل . وبعضهم يقول : هدى دلالة ، وهدى توفيق . فإذا سأل الإنسان ربه الهدى فهو يسأل الأمرين ، يعني يسأل اللَّه أن يعلمه وأن يوفقه للعمل ، وهذا داخل في قوله تعالى في سورة الفاتحة : ﴿ ٱهْدِنَا ٱلصِّرَٰطَ ٱلْمُسْتَقِيمَ ﴾ يعني : دُلنا على الخير ووفقنا إلى القيام به ، لأن الناس ينقسمون إلى أربعة أقسام في هذا الباب :

قسم علمه اللَّه ووفقه للعمل وهذا أكمل الأقسام . وقسم حُرم العلم والعمل . وقسم أوتي العلم وحُرم العمل . وقسم أوتي العمل لكن بدون علم ، فضلَّ كثيرًا .

وخير الأقسام : الذي أُتي العلم والعمل وهذا داخل في دعاء الإنسان « اللَّهم اهدني » ، أو ﴿ ٱهْدِنَا ٱلصِّرَٰطَ ٱلْمُسْتَقِيمَ ﴾ وأما قوله صلى الله عليه وسلم : « التُّقى » فالتقى بمعنى التقوى ، والتقوى اسم جامع لفعل ما أمر اللَّه به وترك ما نهى اللَّه عنه ؛ لأنه مأخوذ من الوقاية ولا يقيك من عذاب اللَّه إلا فعل أوامره واجتناب نواهيه . « والعفاف » يعني العفاف عن الزنا ، ويشمل الزنا بأنواعه : زنا النظر ، زنا اللمس ، زنا الفرج ، زنا الاستماع ، كل أنواع الزنا ، فتسأل اللَّه العفاف عن الزنا كله بأنواعه وأقسامه ، لأن الزنا والعياذ باللَّه من الفواحش ، قال اللَّه تعالى : ﴿ وَلَا تَقْرَبُوا۟ ٱلزِّنَىٰٓ إِنَّهُۥ كَانَ فَٰحِشَةً وَسَآءَ سَبِيلًا ﴾ [الإسراء : ٣٢] وهو مفسد للأخلاق ، ومفسد للأنساب ، ومفسد للقلوب ، ومفسد للأديان . وأما « الغنى » فالمراد الغنى عن الخلق بأن يستغني الإنسان بما أعطاه اللَّه عمَّا في أيدي الناس ، سواء أعطاه اللَّه مالًا كثيرًا أو قليلًا ، والقناعة كنز لا يفنى ، وكثير من الناس يعطيه اللَّه تعالى ما يكفيه لكن يكون الشح في قلبه والعياذ باللَّه ، فتجده دائمًا في فقر ، وإذا سألت اللَّه الغنى فهو سؤال أن يغنيك اللَّه تعالى عما في أيدي الناس بالقناعة والمال الذي تستغني به عن غيره جل وعلا . فهذه الأدعية الأربعة ينبغي أن يُدعَى بها كما كان النبي صلى الله عليه وسلم يدعو بها « اللَّهم إني أسألك الهدى والتقى والعفاف والغنى » . واللَّه الموفق .

* * *

١٤٦٩ - وَعَنْ طَارِقِ بنِ أَشْيَمَ رضي الله عنه قَالَ : كانَ الرَّجلُ إذا أَسْلَمَ عَلَّمَهُ النَّبيُّ ، صلى الله عليه وسلم الصَّلاةَ ، ثُمَّ أَمَرَهُ أَنْ يَدْعُوَ بهؤُلاءِ الكَلِمَاتِ : « اللَّهُمَّ اغفِرْ لي ، وَارْحَمْني ، وَاهْدِني ، وَعَافِني ، وَارْزُقني » رواهُ مسلم .

وفي رواية لَهُ عَنْ طارقٍ أَنَّهُ سَمِعَ النَّبيَّ صلى الله عليه وسلم وَأَتاهُ رَجُلٌ ، فَقالَ : يا رَسُولَ اللَّه ، كَيفَ أَقُولُ حِينَ أَسْأَلُ رَبِّي ؟ قَالَ : « قُلْ : اللَّهُمَّ اغْفِرْ لي ، وَارْحَمْني ، وَعَافِني ، وَارْزُقني ؛ فَإِنَّ هؤلاءِ تَجْمَعُ لَكَ دُنْيَاكَ وَآخِرَتَكَ » (١) .

---

(١) أخرجه مسلم في الذكر والدعاء (٣٥ ، ٣٦) ، وأحمد في مسنده (٤٧٢/٣ ، ٤٧٣) .

الشرح

ساق المؤلف حديثًا عن طارق بن أشيم ﷺ أن النبي ﷺ كان إذا أسلم الرجل علمه الصلاة ؛ لأن الصلاة هي أهم أركان الإسلام بعد الشهادتين ، أركان الإسلام ، خمسة : شهادة أن لا إله إلا الله ، وأن محمدًا رسول الله ، وإقام الصلاة ، وإيتاء الزكاة ، وصوم رمضان ، وحج بيت الله الحرام ، وأعظم أركانه بعد شهادة أن لا إله إلا الله وأن محمدًا رسول الله ؛ الصلاة ، فكان النبي ﷺ يعلم الرجل إذا أسلم كيف يصلي ويأمره بهذا الدعاء « اللَّهم اغفر لي ، وارحمني ، واهدني ، وعافني ، وارزقني » خمس كلمات يعلمها النبي ﷺ الرجل إذا أسلم .

« اللَّهم اغفر لي » يعني اغفر لي الذنوب ، والكافر إذا أسلم غفر الله له ذنوبه كما قال الله تعالى : ﴿ قُل لِّلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ إِن يَنتَهُواْ يُغْفَرْ لَهُم مَّا قَدْ سَلَفَ [1] ﴾ [الأنفال : ٣٨] ولكن مع ذلك طلب المغفرة حتى بعد الإسلام حتى من كل مسلم ؛ لأن الإنسان لا يخلو من الذنوب ، وقد جاء في الحديث : « كل ابن آدم خطاء وخير الخطائين التوابون » [2] « وارحمني » يعني : أسبغ عليَّ رحمتك ، ففيه طلب المغفرة ، والمغفرة : النجاة من السيئات والآثام والعقوبات ، وفيه طلب الرحمة ، والرحمة : حصول المطلوبات ؛ لأن الإنسان لا يتم له الأمر إلا إذا نجا من المكروب وفاز بالمطلوب .

« واهدني » وقد سبق لنا بيان معني « الهداية » أنها هداية علم وبيان ، وهداية توفيق ورشد .

« وعافني وارزقني » عافني أي : من كل مرض ، والأمراض نوعان : مرض قلبي كما قال تعالى : ﴿ فِي قُلُوبِهِم مَّرَضٌ فَزَادَهُمُ ٱللَّهُ مَرَضًا ﴾ [البقرة : ١٠] ومرض جسمي في الأعضاء ، في البدن . وإذا سألت الله العافية فالمراد من هذا ومن هذا ، ومرض القلب أعظم من مرض البدن ؛ لأن مرض البدن ؛ إذا صبر الإنسان واحتسب الأجر من الله صار رفعة في درجاته وتكفيرًا لسيئاته والنهاية فيه الموت ، والموت مآب كل حي ولابد منه .

لكن مرض القلب - والعياذ بالله - فساد الدنيا والآخرة ، إذا مرض القلب بالشك أو الشرك أو النفاق أو كراهة ما أنزل الله أو بغض أولياء الله ، أو ما أشبه ذلك فقد خسر الإنسان دنياه وآخرته . ولهذا ينبغي لك إن سألت الله العافية أن تستحضر أنك تسأل الله العافية من مرض القلب والبدن ، مرض القلب الذي مداره على شك أو شرك أو شهوة ، وكذلك اللفظ الآخر الذي ذكره المؤلف رحمه الله أن النبي ﷺ سأله رجل عن ما الذي ينفعه وما الذي يحتاجه فأمره أن يدعو بهذا الدعاء « اللَّهم اغفر لي ، وارحمني ، واهدني ، وعافني ، وارزقني » فينبغي للإنسان أن يحرص على هذا الدعاء الذي علمه النبي ﷺ أمته والتي يبادر بتعليمها إذا أسلم ، « ارزقني » يعني الرزق الذي يقوم به البدن من الطعام والشراب واللباس والمسكن وغير ذلك ، والرزق الذي يقوم به القلب وهو العلم النافع والعمل الصالح ، وهذا يشمل هذا وهذا فالرزق نوعان : رزق يقوم به البدن ، ورزق يقوم به القلب ، والإنسان إذا قال : « ارزقني » فهو يسأل الله هذا وهذا . والله الموفق .

---

(١) قوله ﷻ : ﴿ مَّا قَدْ سَلَفَ ﴾ أي ما قد مضى .

(٢) أخرجه الترمذي في السنن (٢٤٩٩) .

١٤٧٠ - وَعَنْ عَبْدِ اللَّهِ بنِ عمرو بنِ العاصِ رضي الله عنهما قَالَ : قَالَ رَسُول اللَّهِ ﷺ : « اللَّهُمَّ مُصَرِّفَ القُلُوبِ صَرِّفْ قُلُوبَنَا عَلى طَاعَتِكَ » [١] رواه مسلم .

١٤٧١ - وَعَنْ أبي هُرَيرَةُ رضي الله عنه عَن النبيِّ ﷺ ، قَالَ : « تَعَوَّذُوا باللَّهِ مِن جَهْدِ البَلاءِ ، وَدَرَكِ الشَّقَاءِ ، وَسُوءِ القَضَاءِ ، وَشمَاتَةِ الأَعْدَاءِ » [٢] متفقٌ عليه .

وفي روايةٍ : قالَ سُفْيَانُ : أَشُكُّ أَنِّي زِدْتُ وَاحِدَةً مِنْها .

الشرح

نقل المؤلف رحمه الله فيما كان يسوقه من أحاديث الدعاء عن عبد اللَّه بن عمرو بن العاص رضي الله عنهما أن النبي ﷺ قال : « اللَّهم مصرف القلوب صرف قلوبنا على طاعتك » القلوب بيد اللَّه عز وجل ، كل قلب من قلوب بني آدم بين أصبعين من أصابع الرحمن يقلبه حيث يشاء [٣] ، وكيف شاء عز وجل ، ولهذا كان ينبغي للإنسان أن يسأل اللَّه دائمًا أن يثبته وأن يُصرف قلبه على طاعته ، وإنما خص القلب ؛ لأن القلب إذا صلح صلح الجسد كله وإذا فسد فسد الجسد كله ، كما صح ذلك عن النبي ﷺ حين قال : « ألا إن في الجسد مضغة إذا صلحت صلح الجسد كله ، وإذا فسدت فسد الجسد كله » [٤] وقوله : « صرف قلوبنا على طاعتك » قد يتبادر إلى الذهن أن الأولى أن يقال « إلى طاعتك » لكن قوله : « على طاعتك » أبلغ ، يعني قَلِّب القلب على الطاعة فلا يتقلب على معصية اللَّه ؛ لأن القلب إذا تقلب على الطاعة ؛ صار ينتقل من طاعة إلى أخرى ، من صلاة ، إلى ذكر ، إلى صدقة ، إلى صيام ، إلى علم ، إلى غير ذلك من طاعة اللَّه ، فينبغي لنا أن ندعو بهذا الدعاء « اللَّهم مصرف القلوب صرف قلوبنا على طاعتك » .

أما الحديث الثاني : حديث أبي هريرة رضي الله عنه أن النبي ﷺ قال : « تَعَوَّذُوا بِاللَّهِ مِنْ جَهْدِ الْبَلاءِ ، وَدَرَكِ الشَّقَاءِ ، وَسُوءِ الْقَضَاءِ ، وَشَماتَةِ الأَعْدَاءِ » فهذه أربع أشياء أمرنا الرسول ﷺ أن نتعوذ منها :

أولًا : « **جهد البلاء** » أي من البلاء الذي يبلو الجهد ، أي الطاقة ، والبلاء نوعان : بلاء جسمي : كالأمراض ، وبلاء معنوي ذكري ؛ بأن يُبتلى الإنسان بمن يتسلط عليه بلسانه فينشر معايبه ويُخفي محاسنه وما أشبه ذلك ، هذا من البلاء الذي يشق على الإنسان ، وربما يكون مشقة هذا على الإنسان أبلغ من مشقة البلاء الجسمي فيتعوذ الإنسان من جهد البلاء . أما البلاء البدني : فأمره ظاهر ، أمراض في الأعضاء ، أوجاع في البطن ، في الصدر ، في الرأس ، في الرقبة ، في أي مكان ، هذا من البلاء ،

---

(١) أخرجه مسلم في القدر (١٧) . قوله : « مصرف القلوب » أي مغيرها من حال إلى حال .

(٢) أخرجه البخاري في الدعوات (٦٦١٦) ، ومسلم في الذكر والدعاء (٣٠٣) . قوله : « جهد البلاء » هي المشقة وكل ما أصاب الإنسان من شدة .

(٣) وذلك مصداقًا لما رواه مسلم في القدر (١٧) ، والترمذي في القدر (٢١٤١) ، وأحمد في مسنده (١٨٢/٤) ، والبغوي في شرح السنة (١٦٥/١) .

(٤) أخرجه أحمد في مسنده (٢٧٠/٤) ، ومسلم في المساقاه (١٠٧) بلفظ : « وإن في الجسد » .

وربما يكون أيضًا من البلاء قسم ثالث : وهو ما يبتلى اللّٰه به العبد من المصائب العظيمة الكبيرة ﴿ وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يَعْبُدُ ٱللَّهَ عَلَىٰ حَرْفٍ فَإِنْ أَصَابَهُۥ خَيْرٌ ٱطْمَأَنَّ بِهِۦ وَإِنْ أَصَابَتْهُ فِتْنَةٌ ٱنقَلَبَ عَلَىٰ وَجْهِهِۦ ﴾ [الحج : ١١] إذا أصابه خير وراحة وطمأنينة اطمأن ، وإن أصابه فتنة دينية أو دنيوية انقلب على وجهه ، تجد إيمانه مثلًا متزعزع ، أدنى شبهة تَرِد عليه تصرفه عن الحق ، تجده لا يصبر ، أدنى بلاء يصيبه يصرفه عن الحق فيتسخط على قضاء اللّٰه وقدره ، وربما تقع في قلبه أشياء لا تليق باللّٰه ﷻ من أجل هذا البلاء .

« ومن درك الشقاء » أي : ومن أن يدركك الشقاء ، والشقاء ضد السعادة ، والسعادة سببها العمل الصالح ، والشقاء سببه العمل السيئ ، فإذا استعذت باللّٰه من درك الشقاء فهذا يتضمن الدعاء بألا تعمل عمل الأشقياء .

« ومن سوء القضاء » سوء القضاء يحتمل معنيين : **المعنى الأول** : أن أقضي قضاء سيئًا ، **والمعنى الثاني** : أن اللّٰه يقضي على الإنسان قضاءً يسوءه ، والقضاء يعني الحكم ، فالإنسان ربما يحكم بالهوى ويتعجل الأمور ولا يتأنّى ويضطرب ، هذا سوء قضاء ، كذلك القضاء من اللّٰه ، قد يقضي اللّٰه ﷻ على الإنسان قضاء يسوءه ويحزنه ، فتستعين باللّٰه ﷻ من سوء القضاء « ومن شماتة الأعداء » والأعداء جمع عدو ، وقد ذكر الفقهاء ضابطًا للعدو فقالوا : من سره ما ساء في شخص أو غمه فرحه فهو عدوه ، كل إنسان يسره ما ساءك أو يغمه فرحك فهو عدو لك . « وشماتة الأعداء » إن الأعداء يفرحون عليك ، يفرحون بما أصابك ، والعدو لاشك أنه يفرح في كل ما أصاب الإنسان من بلاء ، ويحزن في كل ما أصابه من خير ، فأنت تستعيذ باللّٰه ﷻ من شماتة الأعداء ، فأمرنا الرسول ﷺ أن نتعوذ باللّٰه من هذه الأمور الأربعة ، فينبغي للإنسان أن يمتثل أمر الرسول ﷺ وأن يستعيذ باللّٰه منها ؛ لعل اللّٰه أن يستجيب له . واللّٰه الموفق .

* * *

١٤٧٢ - وَعَنْهُ قَالَ : كَانَ رَسُولُ اللّٰهِ ﷺ يَقُولُ : « اللَّهُمَّ أَصْلِحْ لي دِيني الَّذي هُوَ عِصْمَةُ أَمْرِي ، وَأَصْلِحْ لي دُنْيَايَ التي فِيهَا مَعَاشِي ، وَأَصْلِحْ لي آخِرَتي الَّتي فيهَا مَعَادِي ، وَاجْعَلِ الحَيَاةَ زِيادَةً لي في كُلِّ خير ، وَاجْعَل المَوتَ رَاحَةً لي مِنْ كُلِّ شَرٍّ » (١) رواه مسلم .

١٤٧٣ - وَعَنْ عليٍّ ﷺ قَالَ : قَالَ لي رَسُولُ اللّٰهِ ﷺ : « قُلْ : اللَّهُمَّ اهْدِني ، وَسدِّدْني » . وفي روايةٍ : « اللَّهُمْ إنِّي أَسْأَلكَ الُهدَى ، وَالسَّدَادَ » (٢) رواه مسلم .

---

(١) أخرجه مسلم في الذكر والدعاء (٧١) ، وأحمد في مسنده (٣٩٩/٤) ، والنسائي في السنن (٦٣/٣) . قوله : « عصمة أمري » أي الذي أعتصم به في جميع أموري . قوله « واجعل الحياة زيادة لي في كل خير » أي اجعل طول عمري سببًا في زيادة الخير لي ، قوله : « واجعل الموت راحة لي من كل شر » أي عجل لي بالموت إذا انتشرت الفتن والمحن والابتلاءات .

(٢) أخرجه مسلم في الذكر والدعاء (٢٧٢٥) ، وأبو داود في الخاتم (٤٢٢٥) . قوله : « سددني » أي وفقني واجعلني مصيبًا مستقيمًا في جميع أموري .

الشرح

هذه الأحاديث ساقها المؤلف رَحِمَهُ اللَّهُ في فضل الدعاء، منها حديث عليٍّ بن أبي طالب أن النبي ﷺ أمره أن يقول: « اللَّهم إني أسألك الهدى والسداد » أما الهدى: فقد سبق الكلام على معناه، وأما السداد: فهو تسديد الإنسان في قوله وفعله وعقيدته، والتسديد معناه: أن يوفق الإنسان إلى الصواب، بحيث لا يضل وقد قال تعالى: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ وَقُولُوا۟ قَوْلًا سَدِيدًا ۝ يُصْلِحْ لَكُمْ أَعْمَٰلَكُمْ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ ﴾ [الأحزاب: ٧٠، ٧١] ﴿ قَوْلًا سَدِيدًا ﴾ أي صوابًا، فذكر اللَّه تعالى في القول السديد فائدتان:

الأولى: صلاح الأعمال. والثانية: مغفرة الذنوب.

فينبغي للإنسان أن يسأل اللَّه هذا الدعاء « اللَّهم إني أسألك الهدى والسداد » أو يقول « اللَّهم اهدني وسددني » المعنى واحد.

ومن ذلك أيضًا: حديث أبي هريرة أن النبي ﷺ كان يقول: « اللَّهم أصلح لي ديني الذي هو عصمة أمري، وأصلح لي دنياي التي فيها معاشي، وأصلح لي آخرتي التي إليها معادي » أو « التي فيها معادي، واجعل الحياة زيادة لي في كل خير، واجعل الموت راحة لي من كل شر ». فبدأ بالدين، وقال: « أصلح لي ديني الذي هو عصمة أمري » الذي به يعتصم الإنسان من الشر ويعتصم من الأعداء؛ لأنه كلما صلح الدين اعتصم الإنسان به من كل شر، وصلاح الدين يكون بالإخلاص للَّه، والمتابعة لرسول اللَّه ﷺ، فمن أشرك باللَّه فدينه غير صالح، من صلى رياءً، أو تصدق رياءً، أو صام رياءً، أو قرأ القرآن رياءً، أو ذكر اللَّه رياءً، أو طلب العلم رياءً، أو جاهد رياءً، فكل هذا عمله غير صالح والعياذ باللَّه، وهو مردود عليه لقول اللَّه تعالى في الحديث القدسي: « أنا أغنى الشركاء عن الشرك، من عمل عملًا أشرك به معي غيري تركته وشركه » (١) كذلك المبتدع لا عصمة له، فليس معصومًا من الشر بل الذي وقع فيه هو الشر، قال الرسول ﷺ: « كل بدعة ضلالة، وكل ضلالة في النار » (٢) فالمبتدع وإن ذكر اللَّه، وإن سبح، وإن حمد، وإن صلى على وجه ليس بمشروع؛ فعمله مردود عليه، قد يزين الشيطان للإنسان عبادةً فَيَلِيْنُ قلبه ويخشع ويبكي، ولكن ذلك لا ينفعه إذا كان بدعة، بل هو مردود عليه، ألم تر إلى النصارى يأتون الكنيسة، ويبكون ويخشعون أشد من خشوع بعض المسلمين، ومع ذلك لا ينفعهم هذا؛ لأنهم على ضلالة، كذلك أهل البدع نجد مثلًا من أهل البدع ولاسيما الصوفية، نجد عندهم أذكار كثيرة يذكرون اللَّه ويبكون ويخشعون، وتلين قلوبهم، لكن هذا كله لا ينفعهم؛ لأنه على غير شرع اللَّه، قال النبي ﷺ: « من أحدث في أمرنا هذا ما ليس منه فهو رد » (٣) مردود عليه، وقال: « من عمل عملًا ليس عليه

---

(١) انظر ابن ماجه في الزهد (٤٢٠٢)، والمنذري في الترغيب والترهيب (١/٦٩).

(٢) أخرجه مسلم في الجمعة (٤٣)، وابن ماجه في السنن (٤٢)، وأحمد (٢/٣١٠)، والبيهقي في السنن (٣/٢٠٧).

(٣) أخرجه البخاري في الصحيح (٢٦٩٧)، ومسلم في الأقضية (١٧)، وابن ماجه في المقدمة (١٤)، وأحمد في مسنده (٦/٢٧٠).

أمرنا فهو رد » (١) .

« أصلح لي ديني » يعني اجعله صالحًا بأن يكون خالصًا صوابًا . وقوله : « هو عصمة أمري » يعني الذي أعتصم به من الشر والفتن وغير ذلك .

« وأصلح لي دنياي التي فيها معاشي » الدنيا معاش تقيم فيه أو تسكن فيها إلى أن تموت ، ولكنها ليست دار قرار ، وأين الذين استقروا فيها ؟ أين الملوك وأبناء الملوك ؟ أين الأغنياء ؟ أين الأثرياء ؟ أين الفقراء ؟ أين الأسياد ؟ أين المسودون ؟ كلهم ذهبوا فصاروا أحاديث ، وأنت في يوم من الأيام ستكون أحاديث ، قال الشاعر الحكيم .

دُنْيَا يُرَى الإِنْسَانُ فِيْهَا مُخْطِرًا حَتَّى يَرَى خَبَرًا مِنَ الأَخْبَارِ

هو الآن مُخْطِر ، يقول : صار كذا وصار كذا ، ومات فلان وولد فلان ، ولكنه سوف يكون هو خبرًا من الأخبار ، نحن الآن نتحدث عن مشايخنا ، عن زملائنا ، عن إخواننا ، عن آبائنا ، خبر من الأخبار كأن لم يوجد بالدنيا ، كأنهم أحلام ، وهكذا أنت أيضًا ، فالدنيا معاش فقط وليست دار قرار ، ولكنها إن وفق الإنسان فيها إلى العمل الصالح وجعلها منفعة للآخرة فيا حبذا ، وإن كانت الأخرى وصار يعمل للدنيا لا للآخرة خسر الدنيا والآخرة والعياذ بالله ، ولهذا قال : « التي فيها معاشي » فقط معاش يعيش الإنسان ثم يتركها .

« وأصلح لي آخرتي التي إليها معادي » الآخرة هي التي إليها المعاد ولا مفر منها ، قال الله تعالى في كتابه ﴿ قُلْ إِنَّ ٱلْأَوَّلِينَ وَٱلْآخِرِينَ ۝ لَمَجْمُوعُونَ إِلَىٰ مِيقَٰتِ يَوْمٍ مَّعْلُومٍ ﴾ [الواقعة : ٤٩، ٥٠] الأولون والآخرون كلهم سوف يجمعهم الله ﷻ في صعيد واحد يوم القيامة وقال الله تبارك وتعالى : ﴿ ذَٰلِكَ يَوْمٌ مَّجْمُوعٌ لَّهُ ٱلنَّاسُ وَذَٰلِكَ يَوْمٌ مَّشْهُودٌ ۝ وَمَا نُؤَخِّرُهُۥٓ إِلَّا لِأَجَلٍ مَّعْدُودٍ ﴾ [هود : ١٠٣] لأجل معدود ، ما قال : لأجل ممدود ، بل معدود ، يعدُّ عدًّا لكن كله يفنى سريعًا ، حال اليوم هو الذي معاد كل واحد ، كل واحد معاده إلى يوم القيامة والشاعر الحكيم يقول :

كُلُّ ابْنِ أُنْثَى وَإِنْ طَالَتْ سَلَامَتُهُ يَوْمًا عَلَى آلَةٍ حَدْبَاءَ مَحْمُولُ

كلنا سنحمل على النعش مهما طالت بنا الحياة ، أو نحترق فتأكلنا النار ، أو نموت في فلاة من الأرض فتأكلنا السباع ، أو في البحر فتأكلنا الحيتان ، لا ندري ، المهم أن كل إنسان معاده إلى الآخرة ، ولهذا قال : « أصلح لي آخرتي التي إليها معادي » وصلاح الآخرة أن الله تعالى ينجيك من عذاب النار ويدخلك الجنة ، نسأل الله أن يصلح لي ولكم الآخرة .

« واجعل الحياة زيادة لي في كل خير ، واجعل الموت راحة لي من كل شر » الإنسان إذا وفق في هذه الحياة وصار يزداد خيرًا كل يوم يكتسب عملًا صالحًا ويحس ذلك بنفسه ، وتجده يفرح إذا عمل عملًا صالحًا ويقول : ﴿ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِى هَدَىٰنَا لِهَٰذَا وَمَا كُنَّا لِنَهْتَدِىَ لَوْلَآ أَنْ هَدَىٰنَا ٱللَّهُ ﴾ [الأعراف : ٤٣] كل يوم يزداد ، يصلي ،

---

(١) أخرجه البخاري في الاعتصام (باب ٢٠) ، ومسلم في الأقضية (١٨) ، وأحمد في مسنده (٦/١٤٦) .

يسبح ، يقرأ ، يأمر بالمعروف ، ينهى عن المنكر ، يلقي أخاه بوجهٍ طلق ، إلى آخره ، خيرات كثيرة ، فكلما ازداد الإنسان في حياته خيرًا كانت، حياته خيرًا ، ولهذا في الحديث : « خيركم من طال عمره وحسن عمله »[1] .

« واجعل الموت راحة لي من كل شر » الموت فقد الحياة ، لكن دعاء النبي ﷺ أن يجعل الله الموت له راحة من كل شر ؛ لأن الإنسان لا يدري ما يصيبه في هذه الدنيا ، قد يبقى في الدنيا طويلًا لكنه ينتكس - والعياذ بالله - يفسد دينه ، قد يبقى في الدنيا وتحدث فتن عظيمة يتعب فيها يقول : ليت أمي لم تلدني ، يا ليتني مت قبل هذا ،كنت نسيًا منسيًا ، يجد فتنًا عظيمة ، لكن قد يكون الموت الذي عجله الله له قد يكون راحة له من كل شر ، ولهذا كان الرسول يدعو بهذا الدعاء ، « واجعل الموت راحة لي من كل شر » فعليك يا أخي المسلم بهذا الدعاء « اللَّهم أصلح لي ... إلخ » .

* * *

١٤٧٤ - وَعَنْ أَنَسٍ ﷺ : كَانَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ يَقُولُ : « اللَّهُمَّ إِنِّي أَعُوذُ بِكَ مِنَ العَجْزِ وَالكَسَلِ ، والجُبْنِ والهَرَمِ ، وَأَعُوذُ بِكَ مِنَ عَذَابِ القَبرِ ، وأَعُوذُ بِكَ مِنْ فِتْنَةِ المَحْيَا وَالمَمَاتِ » .

وفي روايةٍ : « وَضَلَعِ الدَّينِ وَغَلَبَةِ الرِّجَالِ »[2] رواه مسلم .

١٤٧٥ - وَعَنْ أبي بكْرٍ الصِّديقِ ﷺ أنَّه قَالَ لِرَسُولِ اللَّهِ ﷺ : عَلِّمني دُعَاءً أَدعُو بِهِ في صَلاتي ، قَالَ : « قُلْ : اللَّهمَّ إنِّي ظَلَمْتُ نَفْسِي ظُلْمًا كَثِيرًا ، وَلا يَغْفِر الذُّنوبَ إلا أَنْتَ ، فَاغْفِر لي مَغْفِرَةً مِنْ عِنْدِكَ ، وارْحَمْني ، إنَّكَ أَنْتَ الغَفُور الرَّحِيم »[3] متفقٌ عليه . وَفي رِوايةٍ : « وَفي بَيتي » وَرُوِيَ : « ظُلْمًا كَثيرًا » وَرويَ « كَبِيرًا » بِالثاءِ المثلثة وبِالباءِ الموحدة ، فَيَنْبَغِي أن يُجْمَعَ بَينَهُمَا ، فَيُقَالُ : كَثِيرًا كَبِيرًا .

الشرح

هذه من الأحاديث التي ذكرها المؤلف في الأمر بالدعاء وفضله ، فعن أنس بن مالك ﷺ أن النبي ﷺ كان يقول : « اللَّهم إني أعوذ بك من الهم والحزن » الحزن لما مضى ، والهم لما يستقبل ، والإنسان إذا كان حزينًا فيما مضى مهتمًا لما يستقبل ؛ فإنه يتنكد عيشه ، لكن إذا كان لا يهتم إلا بحاضره ويستعد لمستقبله على الوجه الذي أمر به كان ذلك سببًا في طمأنينته ، فكان الرسول ﷺ يستعيذ بالله من الهم والحزن . كثير من الناس تجده يهتم اهتمامًا عظيمًا للمستقبل ، اهتمامًا لا داعي له ، فتتنكد عليه حياته ويتعب ، وإذا وصل إلى حد الفعل وجده سهلًا ، وكثير من الناس أيضًا تجده يحزن لما مضى فيتنكد .

« وأعوذ بك من العجز والهرم والكسل » العجز والهرم والكسل ، فالعجز عدم القدرة ، والهرم

---

(١) ذكره العجلوني في كشف الخفاء (٤٦١/١) بلفظه ، وأخرجه المنذري في الترغيب والترهيب (٢٥٤/٤) ، والهندي في كنز العمال (٤٢٦٤٨) كلاهما بلفظ : « خير الناس من طال عمره » .

(٢) أخرجه مسلم في الذكر والدعاء (٥٠) ، والنسائي في السنن (٢٥٧/٨ ، ٢٦٩) ، وابن ماجه في الدعاء (٣٨٣٨) .

(٣) أخرجه البخاري في الدعوات (٦٣٢٦) ، ومسلم في الذكر والدعاء (٤٨) ، وأحمد في مسنده (٤/١ ، ٧) ، والترمذي في الدعوات (٣٥٣١) .

الشيخوخة ، والكسل عدم الإرادة ، وذلك أن الإنسان إذا لم يفعل فإما لعجزه عن الفعل لمرض أو غيره ، أو كبر ، وإما لعدم عزيمته وإرادته ، فكان الرسول ﷺ يستعيذ بالله من العجز والهرم والكسل .

« وأعوذ بك من الجبن والبخل » الجبن : هو الشح بالنفس ، وألا يكون الإنسان شجاعًا فلا يُقدم في محل الإقدام . وأما البخل : فهو الشح بالمال ، لا يبذل المال بل يمسكه حتى في الأمور الواجبة لا يقوم بها .

« وأعوذ بك من ضلع الدين وغلبة الرجال » « ومن غلبة الدين وقهر الرجال » كلاهما صحيح ، فالدين همٌّ والعياذ بالله ، هم بالنهار وسهر بالليل [1] ، والإنسان المدين يقلق ويتعب ، ولكن بشرى للإنسان أنه إذا أخذ أموال الناس يريد أداءها أدَّى الله عنه ، وإذا أخذها يريد إتلافها أتلفه الله .

فإذا أخذت أموال الناس بقرض ، أو ثمن مبيع ، أو أجرة بيت ، أو غير ذلك ، وأنت تريد الأداء ؛ أدى الله عنك ، إما في الدنيا ؛ يعينك حتى تسدد ، وإما في الآخرة ، صح ذلك عن النبي ﷺ . أما المتلاعب بأموال الناس والذي يأخذها ولا يريد أداءها ولكن يريد إتلافها فإن الله يتلفه والعياذ بالله .

وأما حديث أبي بكر ﷺ : فإنه سأل النبي ﷺ دعاءً يدعو به في الصلاة ، وأنت الآن افهم من السائل ومن المسؤول ، السائل أبو بكر والمسؤول النبي ﷺ ، أحب الناس إلى الرسول ﷺ أبو بكر ، والرسول ﷺ أحب الناس إلى أبي بكر ، لا شك فالسؤال من حبيب إلى حبيبه ، فلابد أن يكون الجواب من أفضل الأجوبة .

وقوله « في صلاتي » يحتمل في السجود أو بعد التشهد الأخير ، قال : قل « اللَّهم إني ظلمت نفسي ظلمًا كثيرًا ولا يغفر الذنوب إلا أنت ، فاغفر لي مغفرة من عندك ، وارحمني إنك أنت الغفور الرحيم » هذا دعاء جامع نافع « اللَّهم إني ظلمت نفسي ظلمًا كثيرًا » فهذا اعتراف من العبد بالظلم ، وهو من وسائل الدعاء ، يعني أنَّ ذِكْرَ الإنسان حاله إلى ربه ﷻ ضمن الدعاء فهو وسيلة ، كما قال موسى ﷵ : ﴿ رَبِّ إِنِّي لِمَآ أَنزَلْتَ إِلَيَّ مِنْ خَيْرٍ فَقِيرٌ ﴾ [القصص : ٢٤] فتوسل إلى الله بحاله .

« ولا يغفر الذنوب إلا أنت » هذا ثناء على الله ﷻ واعتراف بالعجز ، وأنه لا يغفر الذنوب إلا الله ، كما قال تعالى : ﴿ وَمَن يَغْفِرُ ٱلذُّنُوبَ إِلَّا ٱللَّهُ ﴾ [آل عمران : ١٣٥] لو اجتمع الناس كلهم على أن يغفروا لك ذنبًا واحدًا ما استطاعوا ، وإنما الذي يغفر لك هو الله ﷻ .

وقوله : « اغفر لي مغفرة من عندك » أضافها إلى الله ؛ لأنها تكون أبلغ وأعظم ، فإن عظم العطاء من عِظم المعطي « وارحمني » في المستقبل ، وفقني إلى كل خير « إنك أنت الغفور الرحيم » هذا توسل إلى الله ﷻ باسمين مناسبين للدعاء ، لأنه قال : « اغفر لي وارحمني » فالمناسب « إنك أنت الغفور الرحيم » فينبغي للإنسان أن يقول هذا الدعاء في صلاته ، إما في سجوده ، أو بعد التشهد الأخير . والله الموفق .

* * *

١٤٧٦ - وَعَنْ أَبي موسَى ﷺ عَنِ النبيِّ ﷺ أَنَّه كَانَ يَدعُو بهذا الدُّعَاءِ : « اللَّهمَّ اغْفِر لي

(١) يدل لذلك ما ذكره الهندي في كنز العمال (١٥٤٧٩) ، والعجلوني في كشف الخفاء (٤٩٩/١) .

خطِيئَتي ، وَجَهْلي ، وَإِسْرَافي في أمْري ، وَمَا أنْتَ أعْلَمُ بِهِ مِنّي ، اللّهُمَّ اغفِر لي جدِّي وَهزْلي ، وَخطَئي وَعَمْدي ، وكلُّ ذلكَ عِندي ، اللّهُمَّ اغْفِرْ لي مَا قَدَّمْت وَمَا أَخَّرْتُ ، وَمَا أَسْرَرْتُ وَمَا أَعْلَنتُ ، وَمَا أَنْتَ أعْلَمُ بِهِ مِنّي ، أَنْتَ المقدِّم ، وَأَنْتَ المُؤخِّرُ ، وَأَنْتَ عَلى كلِّ شَيءٍ قَدِيرٌ » [١] متفقٌ عليه .

١٤٧٧ - وَعنْ عَائِشَةَ رضي الله عنها أنَّ النَّبيَّ ﷺ كَانَ يَقولُ في دُعَائِهِ : « اللَّهُمَّ إنّي أَعُوذُ بِكَ مِنْ شَرِّ مَا عَمِلْتُ ، وَمِنْ شَرِّ مَا لَمْ أَعْمَلْ » [٢] رواه مسلم .

١٤٧٨ - وعَنِ ابنِ عُمَرَ رضي الله عنهما قَالَ : كَانَ مِنْ دُعاءِ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ : « اللَّهُمَّ إنّي أَعُوذُ بِكَ مِنَ زوالِ نِعْمَتِكَ ، وَتَحَوُّلِ عَافِيَتِكَ ، وَفُجَاءَةِ نِقْمَتِكَ ، وَجَمِيعِ سَخطِكَ » [٣] رواه مسلم .

١٤٧٩ - وَعَنْ زَيدِ بنِ أَرْقَمَ رضي الله عنه قَالَ : كَانَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ يَقولُ : « اللَّهُمَّ إنِّي أعُوذُ بكَ مِنَ العَجْزِ وَالكَسَل ، وَالبُخْل وَالهرم ، وَعَذاب القَبْر ، اللَّهُمَّ آتِ نَفْسِي تَقْوَاهَا ، وَزكِّهَا أَنْتَ خَيرُ مَنْ زَكَّاها ، أنْتَ وَلِيُّهَا وَمَولاهَا ، اللَّهُمَّ إنِّي أعُوذُ بِكَ مِنْ عِلمٍ لا يَنْفَعُ ، وَمِنْ قَلْبٍ لَا يَخْشَعُ ، وَمِنِ نَفْسٍ لاتَشبَعُ ، وَمِنْ دَعْوَةٍ لا يُسْتَجَابُ لَهَا » [٤] رواه مسلم .

١٤٨٠ - وَعَنِ ابن عَبَّاسٍ رضي الله عنهما أَنَّ رَسُولَ اللَّه ﷺ كَانَ يَقولُ : « اللَّهُمَّ لَكَ أَسْلَمْتُ ، وَبكَ آمَنْتُ ، وَعَلَيكَ تَوكلْتُ ، وَإلَيكَ أَنَبْتُ ، وَبكَ خَاصَمْتُ ، وَإلَيكَ حَاكَمْتُ . فاغْفرْ لي مَا قَدَّمْتُ ، ومَا أخَّرْتُ ، وَمَا أَسْرَرْتُ ، وَمَا أَعْلَنْتُ ، أَنْتَ المُقَدِّمُ ، وَأَنْتَ المُؤخِّرُ ، لا إلهَ إلا أَنْتَ » .

زَادَ بَعْضُ الرُّواةِ : « وَلا حَولَ وَلا قوَّةَ إلا بِاللَّهِ » [٥] متفقٌ عليه .

الشرح

هذه الأحاديث المتعددة ذكرها المؤلف في باب فضل الدعاء والأمر به وتشتمل على جمل كثيرة ، منها : أن النبي ﷺ سأل اللَّه تعالى أن يغفر له ما قدم وما أخر ، فقال : « اللّهم اغفر لي ما قدمت وما أخرت ، وما أسررت وما أعلنت ، وما أنت أعلم به مني » وهذا يغني عنه كلمة واحدة « اللّهم اغفر لي

---

(١) أخرجه البخاري في الدعوات (٦٣٩٨) ، ومسلم في الذكر والدعاء (٧٠) ، وأحمد في مسنده (٥٥/٤ ، ٦٣) بنحوه . قوله : « وإسرافي » أي مجاوزتي عنه .

(٢) أخرجه مسلم في الذكر والدعاء (٦٥) ، وأبو داود في الصلاة (١٥٥٥) ، وابن ماجه في الدعاء (٣٨٣٩) .

(٣) أخرجه مسلم في الذكر والدعاء (٩٦) ، وأبو داود في الصلاة (١٥٥٠) ، والحاكم في المستدرك (٥٣١/١) . قوله : « وفجاءة نقمتك » أي الانتقام المباغت . قوله : « سخطك » أي غضبك .

(٤) أخرجه مسلم في الذكر والدعاء (٧٣) ، والنسائي في السنن (٢٥٨/٨) ، وأحمد في مسنده (١١٧/٣) . قوله : « زكها » أي طهرها ، قوله « ومن نفس لا تشبع » معناه استعاذة من الحرص والطمع والشره ، وتعلق النفس بالآمال البعيدة .

(٥) أخرجه البخاري في التهجد (١١٢٠) ، ومسلم في الذكر والدعاء (٦٧) ، وأحمد في مسنده (٣٠٢/١) ، والبيهقي في السنن (٥/٣) . قوله : « لك أسلمت » أي انقدت ، قوله « وبك آمنت » أي صدقت ، قوله « وعليك توكلت » أي فوضت أمري إليك ، قوله « وإليك أنبت » أي أقبلت بهمتي وطاعتي وأعرضت عما سواك ، قوله « وبك خاصمت » أي بك أحتج وأدافع وأقاتل .

ذنبي كله » لكن التفصيل في مقام الدعاء أمر مطلوب ؛ لأنه يؤدي إلى أن يتذكر الإنسان كل ما عمل ، مما أسر وأعلن وعلم وما لم يعلم ؛ ولأنه كلما تمادى في سؤال الله ﷻ ازداد تعلقًا بالله تعالى ومحبة له وخوفًا منه ورجاءً ، فلذلك كان النبي ﷺ يفصل فيما يسأل ربه ﷻ من مغفرة الذنوب وغير ذلك .

وكذلك أيضًا استعاذ الرسول ﷺ من أمور كثيرة ، من شر الذنوب وآفاتها ، وعذاب القبر ، وغير ذلك مما سمعتم في هذه الأحاديث ، وهذه الأحاديث ينبغي للإنسان أن يكتبها عنده من هذا الكتاب ، ويذكر الله تعالى بها ، ويدعو بها حتى ينتفع ، وأما قراءتها كما هي هنا فهي حسنة ولا بأس بها ، لكن في علمي أو ظني أنكم سوف تسمعونها الآن ثم تذهب عن قلوبكم ، لكن خير من هذا أن تكتبوها من هذا الكتاب ، وتدعو الله تعالى بها . والله الموفق .

* * *

١٤٨١ - وَعَن عَائشَةَ رَضِيَ اللهُ عَنهَا أَنَّ النَّبيَّ ﷺ كَانَ يَدعو بهؤلاءِ الكَلِمَاتِ : « اللَّهُمَّ إني أَعوذُ بِكَ مِن فِتْنَةِ النَّارِ ، وعَذَابِ النَّارِ ، وَمن شَرِّ الغِنَى وَالفقر » (١) . رَوَاهُ أبو داودَ ، والترمذيُّ وقَالَ : حديثٌ حَسَنٌ صحيحٌ ، وهذا لفظُ أبي داودَ .

١٤٨٢ - وَعَنْ زيادِ بْنِ عِلاقَةَ عن عَمِّه ، وهو قُطْبَةُ بنُ مالِكٍ رضي الله عنه قَالَ : كَانَ النَّبيُّ ﷺ يَقولُ : « اللَّهمَّ إنّي أَعُوذُ بِكَ مِن منْكَراتِ الأخلاقِ ، وَالأَعْمَالِ ، وَالأَهْوَاءِ » (٢) رَوَاهُ الترمذيُّ وقَالَ : حَديثٌ حَسَنٌ .

١٤٨٣ - وَعَن شَكَلِ بنِ حُمَيدٍ رضي الله عنه قَالَ : قُلْتُ : يا رَسُولَ اللَّهِ ، عَلِّمْني دُعَاءً . قَالَ : « قُل : اللَّهُمَّ إنّي أَعُوذُ بِكَ مِنْ شَرِّ سَمِعي ، وَمِن شَرِّ بَصَري ، وَمِن شَرِّ لسَاني ، وَمِن شَرِّ قَلبي ، وَمِن شَرِّ مَنِيِّي » (٣) رَوَاهُ أبو داودَ ، والترمذيُّ وقالَ : حديثٌ حَسَنٌ .

١٤٨٤ - وَعَن أَنَسٍ رضي الله عنه أَنَّ النَّبيَّ ﷺ ، كَانَ يَقُولُ : « اللَّهمَّ إنّي أعُوذُ بِكَ مِنَ البَرَصِ ، وَالجُنُونِ ، وَالجُذَامِ ، وسَيِّئِ الأسقام » (٤) رَوَاهُ أبو داودَ بإسنادٍ صحيح .

١٤٨٥ - وعَنْ أبي هُرَيرَةَ رضي الله عنه قَالَ : كَانَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ يَقُولُ : « اللَّهُمَّ إنِّي أَعُوذُ بِكَ مِنَ الجُوعِ ؛

---

(١) أخرجه أبو داود في الصلاة (١٥٤٣) ، والترمذي في الدعوات (٣٤٨٩) ، والبخاري في الدعوات بلفظ مقارب (٦٣٧٦) . قوله « أعوذ بك من فتنة النار » أي من فتنة تؤدي إلى النار ، قوله « شر الغنى » هو الغنى الذي يؤدي إلى البطر والطغيان .

(٢) أخرجه الترمذي في الدعوات (٣٥٨٥) . قوله « منكرات الأخلاق » مثل : العجب والكبر والخيلاء والفخر والحسد وغيرها . قوله « والأعمال » أي منكرات الأعمال ، مثل : الزنا وشرب الخمر وسائر المحرمات . قوله « والأهواء » هي مثل : الاعتقادات الفاسدة والمقاصد الباطلة .

(٣) أخرجه أبو داود في الصلاة (١٥٥١) ، والترمذي في الدعوات (٣٤٨٧) وأحمد في مسنده (٤٢٩/٣) والحاكم في المستدرك (٥٣٢/١) . قوله « من شر قلبي » أي من شر الوقوع في الاعتقاد الفاسد ومن شر الحقد والحسد ، قوله « من شر مني » أي من شر الوقوع في الزنا .

(٤) أخرجه أبو داود في الصلاة (١٥٥٤) ، وأحمد في مسنده (١٩٢/٣) . قوله « البرص » هو بياض يحدث في الأعضاء ، قوله « سيئ الأسقام » كالسل والاستسقاء والسرطان وكل مرض مزمن أو يتعذر البُرء منه أو ينعدم .

فإنَّهُ بِئسَ الضَّجيعُ ، وَأَعُوذُ بِكَ من الخيَانَةِ ؛ فَإِنَّها بِئْسَتِ البطانَةُ »[١] . رَوَاهُ أبو داودَ بإسنادٍ صحيحٍ .

١٤٨٦ - وَعَنْ عليٍّ ﷺ أَنَّ مُكَاتَبًا جاءَهُ ، فَقَالَ : إني عَجزتُ عَن كِتَابَتِي . فَأَعِنِّي . قَالَ : ألا أُعلمُكَ كَلِمَاتٍ عَلَّمَنيهنَّ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ لَو كانَ عَلَيكَ مِثْلُ جَبَلٍ دَينًا أَدَّاهُ اللَّه عَنْكَ ؟ قُل : « اللَّهمَّ اكْفِني بحلالِكَ عَنْ حَرَامِكَ ، وَأَغْنِني بِفَضْلِكَ عَمَّن سِوَاكَ »[٢] . رواهُ الترمذيُّ وقَالَ : حديثٌ حَسَنٌ .

الشرح

هذه جملة أحاديث من الأدعية التي كان النبي ﷺ يدعو بها ، منها : أنه كان ﷺ يعوذ بالله من منكرات الأخلاق والأعمال والأهواء والأدواء (الأمراض) كما في رواية أخرى . قوله : « سيئات الأعمال والأخلاق » سيئات الأعمال هي المعاصي ، وسيئات الأخلاق هي سوء المعاملة مع الخلق ، والأهواء : والإنسان له أهواء ، ومن الناس من يكون هواه تبعًا لما جاء به الرسول ﷺ ، ومنهم من يكون هواه تبعًا لنفسه وما تهواه . وأما الأدواء فهي الأمراض ، فهذه أيضًا مما ينبغي للإنسان أن يستعيذ بالله منها ، فإذا أعاذه الله من ذلك حصل على خير كثير .

ومنها : أنه كان ﷺ يستعيذ من البرص والجنون والجذام وسيئ الأسقام ، وهذه أيضًا من أمراض البدن والعقل .

« الجذام » : هو مرض يصيب الإنسان في أطرافه أحيانًا - والعياذ بالله - إذا بدأ بالطرف يتآكل حتى يقضي على البدن كله ، ولهذا قال العلماء : إنه لا يجوز أن يخالط الجذماء الناس ، وأنه يجب على ولي الأمر أن يجعلهم في مكان خاص ، وهو ما يعرف الآن عند الناس بالحجر الصحي ؛ لأن هذا المرض - والعياذ بالله - « الجذام » من أشد الأمراض عدوى ، يسري سير الهواء - نسأل الله العافية - ولذلك قالوا : يجب على ولي الأمر أن يجعل الجذماء (المصابون بمرض الجذام) في مكان خاص كي لا يختلطوا بالناس .

« وسيئ الأسقام » وهو جمع سقم وهو المرض ، ويشمل كل الأمراض السيئة ومنها ما عرف الآن بالسرطان ، نسأل الله العافية ؛ فإنه من أسوأ الأسقام . فمثل هذه الأحاديث ينبغي للإنسان أن يحرص عليها وأن يقتدي به ﷺ فيها .

ومن ذلك : أن النبي ﷺ كان يستعيذ بالله من الجوع ويقول « إنه بئس الضجيع » ومن الخيانة « فإنها بئست البطانة » . وانتهى ذلك وكما قلت لكم بالأمس إنه مهما كان من سرد الأحاديث فإنها تتبخر ، لكن ينبغي للإنسان أن يقيدها من هذا الكتاب في صحائف يختص بها ويحفظها شيئًا فشيئًا . والله الموفق .

* * *

---

(١) أخرجه أبو داود في الصلاة (١٥٤٧) ، والنسائي في السنن (٢٦٣/٨) ، وابن ماجه في الدعاء (٣٣٥٤) قوله : « بئس الضجيع » أي بئس الصاحب . قوله « بئست البطانة » أي بئست الخصلة الباطنة .

(٢) أخرجه الترمذي في الدعوات (٣٥٦٤) ، والحاكم في المستدرك (٥٣٨/١) . قوله : « اكفني بحلالك عن حرامك » أي اجعل الحلال مبعدًا لي عن الحرام ، قوله « بفضلك » أي ما تجود به علي من الرزق والمال .

١٤٨٧ - وعَنْ عِمْرَانَ بن الحُصَينِ رضي الله عنهما أنّ النّبيَّ ﷺ عَلَّمَ أبَاهُ حُصَينًا كَلِمَتَينِ يَدْعُو بهما : « اللهُمَّ أَلهِمْني رُشْدِي ، وأعِذْني مِن شَرِّ نفسي » [١] . رَواهُ الترمذيُّ وقَالَ : حَديثٌ حَسَنٌ .

١٤٨٨ - وعَنْ أبي الفَضلِ العبَّاسِ بنِ عَبدِ المُطّلب رضي الله عنه قَالَ : قُلْتُ : يا رَسُولَ اللهِ ! عَلِّمْني شَيئًا أسْأَلُهُ اللَّهَ تَعالى ، قال : « سَلُوا اللهَ العَافِيَةَ » فَمَكَثْتُ أيّامًا ، ثُمّ جئتُ فَقُلْتُ : يا رَسُولَ اللهِ ، عَلِّمْني شَيئًا أسْأَلُهُ اللَّهَ تَعالى ، قَالَ لي : « يَا عَبّاسُ يَا عَمَّ رَسُولِ اللهِ ، سَلُوا اللهَ العَافِيَةَ في الدُّنْيا وَالآخِرَةِ » [٢] . رَواهُ الترمذيُّ وقَالَ : حديثٌ حَسَنٌ صَحيحٌ .

١٤٨٩ - وعَنْ شَهرِ بْنِ حَوشَبٍ قَالَ : قُلْتُ لأمِّ سَلَمَةَ رضي الله عنها : يا أمَّ المؤمنينَ مَا كَانَ أَكْثَرُ دُعاءِ رَسُولِ اللهِ ﷺ ، إذا كَانَ عِنْدَكِ ؟ قَالَت : كانَ أَكْثَرُ دُعَائِهِ : « يَا مُقَلِّبَ القُلوبِ ، ثَبِّت قَلبي عَلى دِينكَ » [٣] رَواهُ الترمذيُّ ، وقَالَ : حَديثٌ حَسَنٌ .

١٤٩٠ - وعَنْ أبي الدَّرداءِ رضي الله عنه قَالَ : قَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ : « كَانَ مِنْ دُعَاءِ دَاوُدَ ﷺ : اللَّهمَّ إنّي أَسْأَلُكَ حبّكَ ، وَحبَّ مَنْ يُحِبّكَ ، وَالعَمَلَ الذي يُبَلِّغُني حُبّكَ ، اللَّهُمَّ اجْعَل حُبَّكَ أحَبَّ إليَّ مِن نَفْسي ، وَأَهْلي ، وَمِنَ الماءِ البارِدِ » [٤] رَوَاهُ الترمذيُّ وقَالَ : حديثٌ حَسَنٌ .

١٤٩١ - وعَنْ أنسٍ رضي الله عنه قَالَ : قال رَسُولُ اللهِ ﷺ : « أَلِظُّوا بِيَا ذا الجَلالِ وَالإكْرَامِ » [٥] . رواه الترمذيُّ ، وَرَوَاهُ النَّسائيُّ مِن رِوَايَةِ رَبيعَةَ بن عامِرٍ الصَّحابيِّ ، قالَ الحاكِمُ : حديثٌ صحيحُ الإسْنَادِ . « أَلِظُّوا » بكسر اللام وتشديدِ الظاءِ المعجمةِ مَعْنَاه : الزَمُوا هذِهِ الدَّعْوَةَ وأكثِرُوا مِنها .

١٤٩٢ - وعَن أبي أُمَامَةَ رضي الله عنه قَالَ : دَعَا رَسُولُ اللهِ ﷺ بِدُعَاءٍ كَثيرٍ ، لَمْ نَحْفَظْ مِنْهُ شَيئًا ، قُلْنا : يا رَسُولَ اللهِ ، دَعوتَ بِدُعاءٍ كَثيرٍ لم نَحفَظْ منهُ شَيئًا ، فَقَالَ : « ألا أدُلُّكم على ما يَجْمَعُ ذلكَ كُلَّهُ ؟ تَقُولُ : اللَّهُمَّ إنّي أسأَلُكَ مِن خير ما سَأَلَكَ مِنْهُ نَبيُّكَ مُحَمَّدٌ ﷺ ، وأعُوذُ بكَ من شَرِّ ما اسْتَعَاذَ مِنْهُ نَبيُّكَ محمدٌ ﷺ ، وَأَنْتَ المستَعَانُ ، وَعَلَيكَ البَلاغُ ، وَلا حَولَ وَلا قُوّةَ إلا بِاللَّهِ » [٦] رواهُ الترمذيُّ وَقَالَ : حَديثٌ حَسنٌ .

١٤٩٣ - وَعَنِ ابْنِ مَسْعُودٍ رضي الله عنه قَالَ : كَانَ مِنْ دُعَاءِ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ : « اللَّهُمَّ إني أَسْأَلُكَ

---

(١) أخرجه الترمذي في الدعوات (٣٤٨٣) ، وأحمد في مسنده (٤/٤٤٤) بمعناه . قوله : « وأعذني » أي اعصمني .

(٢) أخرجه الترمذي في الدعوات (٣٥١٤) .

(٣) أخرجه الترمذي في الدعوات (٣٥٢٢) ، وأحمد في مسنده (٣/١١٢) ، والحاكم في المستدرك (٢/٢٨٨) . قوله : « يا مقلب القلوب » أي يا مغير القلوب من حال إلى حال .

(٤) أخرجه الترمذي في الدعوات (٣٤٩٠) .

(٥) أخرجه الترمذي في الدعوات (٣٥٢٥) ، وأحمد في مسنده (٤/١٧٧) ، والحاكم في المستدرك (١/٤٩٩) . وانظر في نسبة الحديث إلى النسائي شرح الأحوذي (٩/٤٠٥) ولعل النسائي رواه في السنن الكبرى

(٦) أخرجه الترمذي في الدعوات (٣٥٢١) . قوله : « وعليك البلاغ » أي الإعانة على ما يبلغ إلى المطلوب .

مُوجِبَاتِ رَحْمَتِكَ ، وَعَزائِمَ مَغفِرَتِكَ ، وَالسَّلامَةَ مِن كُلِّ إثمٍ ، وَالغَنِيمَةَ مِن كُلِّ بِرٍّ ، وَالفَوزَ بالجَنَّةِ ، وَالنَّجاةَ مِنَ النَّارِ »[(١)] . رواهُ الحاكِم أبو عبدِ اللَّهِ ، وقالَ : حديثٌ صحيحٌ على شرط مسلِمٍ .

الشرح

هذه الأحاديث في بيان فضل الدعاء والتي كان الرسول ﷺ يدعو بها ويأمر بها ، فمنها حديث الحصين : أن النبي ﷺ كان يقول : « اللَّهم ألهمني رشدي ، وأعذني من شر نفسي » وفي رواية : « وقني شر نفسي » . « ألهمني رشدي » يعني اجعلني موفقًا إلى الرشد ، والرشد ضد الغي ، والغي هو المعاصي والشر والفساد ، والإنسان إذا وفق إلى الرشد فإنه موفق ، وهذا هو غاية المؤمنين الذين قال اللَّه عنهم : ﴿ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ حَبَّبَ إِلَيۡكُمُ ٱلۡإِيمَٰنَ وَزَيَّنَهُۥ فِي قُلُوبِكُمۡ وَكَرَّهَ إِلَيۡكُمُ ٱلۡكُفۡرَ وَٱلۡفُسُوقَ وَٱلۡعِصۡيَانَۚ أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلرَّٰشِدُونَ ﴾ [الحجرات : ٧] فهذا هو الرشد .

ومن ذلك أيضًا : أن النبي ﷺ سأله العباس عن شيء يَدْعو اللَّه به ، فقال : قل : « اللَّهم إني أسألك العافية » ثم جاءه بعد أيام فسأله - أي سأل النبي ﷺ - فقال : قل : « اللَّهم إني أسألك العافية في الدنيا والآخرة » . والعافية : هي السلامة من كل شر ، وإذا وفقك اللَّه لها ، وعافاك من كل شر : من شر الأبدان ، والقلوب ، والأهواء ، وغيرها ؛ فأنت في خير .

ومن ذلك أيضًا : أن النبي ﷺ كان يكثر من هذا الدعاء « اللَّهم يا مقلبَ القلوب ثَبِّتْ قلبي على طاعتك » وسبق لنا أنه كان يدعو بدعاء آخر مقارب لهذا الدعاء وهو « اللَّهم يا مُصرِّفَ القلوب صَرِّف قلوبنا على طاعتك »[(٢)] ، فإذا جمعتَ بينهما وقلت : « اللَّهم يا مقلب القلوب ثبت قلبي على طاعتك ، اللَّهم يا مصرف القلوب صرف قلبي على طاعتك » كان هذا خير .

ومن ذلك أيضًا : هذا الدعاء الذي أُثر عن داود ﷺ : « اللَّهم إني أسألك حُبَّك ، وحُبَّ من يحبك ، والعملَ الذي يقربني إلى حبك » هذا أيضًا من الأدعية المهمة ، إذا أحبك اللَّه وأحببت مَن يحب اللَّه ، كنت من أوليائه ، وكذلك إذا أحببت العمل الذي يحبه اللَّه ﷻ فهذا أيضًا من الدعاء الذي ينبغي للإنسان أن يلزمه دائمًا . فإن حب اللَّه ﷻ هو الغاية . كما قال اللَّه تعالى : ﴿ قُلۡ إِن كُنتُمۡ تُحِبُّونَ ٱللَّهَ فَٱتَّبِعُونِي يُحۡبِبۡكُمُ ٱللَّهُ وَيَغۡفِرۡ لَكُمۡ ذُنُوبَكُمۡۚ ﴾ [آل عمران : ٣١] .

ومن ذلك أيضًا : « اللَّهم إني أسألك موجبات رحمتك ،وعزائم مغفرتك ، والسلامة من كل إثم ، والغنيمة من كل بر ، وأسألك الفوز بالجنة ، والنجاة من النار » إلى غير ذلك من الأحاديث التي ذكرها المؤلف ، وقد سبق لنا أن قلنا لكم : يُفَضَّل أن تكتبونها من الكتاب ، وتقرؤونها ؛ لأن حفظها في هذا الوقت قد يكون صعبًا على الإنسان ، لكن إذا أخذها وحفظها شيئًا فشيئًا ، هان عليه .

---

(١) أخرجه الترمذي في الدعوات (٣٥٢١) ، وابن ماجه في إقامة الصلاة (١٣٨٤) ، والحاكم في المستدرك (٥٢٥/١) . قوله : « موجبات رحمتك » أي الأفعال والخصال التي تؤدي إلى رحمتك وتقتضيها ، قوله « وعزائم مغفرتك» أي موجبات الغفران ، قوله « إثم » أي معصية ، قوله « والغنيمة » أي الإكثار ، قوله « بر » أي طاعة .

(٢) أخرجه مسلم في القدر (١٧) ، وأحمد في مسنده (١٦٨/٢) .

٢٥١ - باب فضل الدعاء بظهر الغيب

قال اللّهُ تَعالى : ﴿ وَالَّذِينَ جَاءُو مِنْ بَعْدِهِمْ يَقُولُونَ رَبَّنَا اغْفِرْ لَنَا وَلِإِخْوَانِنَا الَّذِينَ سَبَقُونَا بِالْإِيمَانِ ﴾ [الحشر: ١٠] . . وقَال تَعالى : ﴿ وَاسْتَغْفِرْ لِذَنْبِكَ وَلِلْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ ﴾ [محمد: ١٩] . وقالَ تَعالى إخبارًا عَنْ إبْراهِيمَ ﷺ : ﴿ رَبَّنَا اغْفِرْ لِي وَلِوَالِدَيَّ وَلِلْمُؤْمِنِينَ يَوْمَ يَقُومُ الْحِسَابُ ﴾ [إبراهيم: ٤١] .

١٤٩٤ - وعَنْ أَبي الدَّرداءِ ﷺ أَنَّهُ سَمِعَ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ يَقُولُ : « مَا مِن عَبْدٍ مُسْلِمٍ يَدعُو لأَخِيهِ بِظَهْرِ الغَيبِ إلا قَالَ المَلَكُ : وَلَكَ بِمِثْلٍ » [(١)] رواه مسلم .

١٤٩٥ - وَعنْهُ أَنَّ رَسُولَ اللَّه ﷺ كانَ يَقُولُ : « دَعْوةُ المرءِ المُسْلِم لأَخِيهِ بِظَهْرِ الغَيبِ مُسْتَجَابَةٌ ، عِنْدَ رَأْسِهِ مَلَكٌ مُوَكَّلٌ كُلَّمَا دَعَا لأَخِيهِ بخَيرٍ قَالَ المَلَكُ المُوَكَّلُ بِهِ : آمِينَ ، وَلَكَ بِمِثْلٍ » [(٢)] رواه مسلم .

الشرح

ذكر المؤلف - النووي رحمه الله - فضل الدعاء بظهر الغيب - يعني الدعاء لأخيك - بظهر الغيب - يعني في حال غيبته - وذلك أن الدعاء بظهر الغيب يدل دلالة واضحة على صدق الإيمان ؛ لأن النبي ﷺ قال : « لا يؤمن أحدكم حتى يحب لأخيه ما يحب لنفسه » [(٣)] فإذا دعوتَ لأخيك بظهر الغيب بدون وصية منه كان هذا دليلًا على محبتك إياه ، وأنك تحب له من الخير ما تحب لنفسك .

ثم استدل المؤلف رحمه الله بثلاث آيات من كتاب الله ، ومنها قوله تعالى إلى النبي ﷺ : ﴿ وَاسْتَغْفِرْ لِذَنْبِكَ وَلِلْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ ﴾ [محمد: ١٩] فأمر الله نبيه ﷺ أن يستغفر لذنبه ، وأن يستغفر للمؤمنين والمؤمنات . وما أكثر الأحاديثَ التي فيها أن النبي ﷺ يستغفر لذنبه ، ونحن نعلم أنه يستغفر للمؤمنين أيضًا ؛ لأنه أُمِرَ بذلك ، ومعنى ﴿ وَاسْتَغْفِرْ لِذَنْبِكَ ﴾ يعني : اطْلُب المغفرةَ من الله عز وجل أن يغفر ذنبك ، والمغفرةُ : ستر الذنب والتجاوز عنه ؛ لأن هذا هو الذي يدل عليه الاشتقاق ؛ فإنه مشتق من المِغْفَر : وهو وقاية الرأس بالبَيرة المعروفة (الخوذة) توضع على الرأس عند القتال ، فتقيه من السهام وتستره .

ومن ذلك أيضًا : قول الله تعالى : ﴿ وَالَّذِينَ جَاءُو مِنْ بَعْدِهِمْ يَقُولُونَ رَبَّنَا اغْفِرْ لَنَا وَلِإِخْوَانِنَا الَّذِينَ سَبَقُونَا بِالْإِيمَانِ ﴾ وهؤلاء هم الصنف الثالث من الأصناف الثلاثة ، الذين قال الله فيهم : ﴿ لِلْفُقَرَاءِ الْمُهَاجِرِينَ الَّذِينَ أُخْرِجُوا مِنْ دِيَارِهِمْ وَأَمْوَالِهِمْ يَبْتَغُونَ فَضْلًا مِنَ اللَّهِ وَرِضْوَانًا وَيَنْصُرُونَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ

---

(١) أخرجه مسلم في الذكر والدعاء (٨٦) .

(٢) أخرجه مسلم في الذكر والدعاء (٨٨) ، وابن ماجه في المناسك (٢٨٩٥) بنحوه . قوله « ملك موكل » أي مكلف بالإتيان بما يأتي عن ذلك المرء .

(٣) أخرجه البخاري في الإيمان (١٥) ، ومسلم في الإيمان (٧١) ، والترمذي في السنن (٢٥١٥) ، والنسائي في السنن (١١٥/٨) ، وأحمد في مسنده (٢٧٦/٣) .

﴿ أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلصَّٰدِقُونَ ﴾ [الحشر: ٨] فوصفهم الله بالهجرة والنصرة .

الصنف الثاني قال الله فيهم : ﴿ وَٱلَّذِينَ تَبَوَّءُو ٱلدَّارَ وَٱلْإِيمَٰنَ مِن قَبْلِهِمْ يُحِبُّونَ مَنْ هَاجَرَ إِلَيْهِمْ وَلَا يَجِدُونَ فِى صُدُورِهِمْ حَاجَةً مِّمَّآ أُوتُوا۟ وَيُؤْثِرُونَ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ وَلَوْ كَانَ بِهِمْ خَصَاصَةٌ ۚ وَمَن يُوقَ شُحَّ نَفْسِهِۦ فَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ ﴾ [الحشر: ٩] .

وهؤلاء هم الأنصار ، أنصار المدينة .

والصنف الثالث : ﴿ وَٱلَّذِينَ جَآءُو مِنۢ بَعْدِهِمْ يَقُولُونَ رَبَّنَا ٱغْفِرْ لَنَا وَلِإِخْوَٰنِنَا ٱلَّذِينَ سَبَقُونَا بِٱلْإِيمَٰنِ وَلَا تَجْعَلْ فِى قُلُوبِنَا غِلًّا لِّلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ رَبَّنَآ إِنَّكَ رَءُوفٌ رَّحِيمٌ ﴾ وهذه دعوة لإخوانهم بظهر الغيب .

وأما الآية الثالثة : فقال الله تعالى إخبارًا عن إبراهيم ﷺ : ﴿ رَبَّنَا ٱغْفِرْ لِى وَلِوَٰلِدَىَّ وَلِلْمُؤْمِنِينَ يَوْمَ يَقُومُ ٱلْحِسَابُ ﴾ فقوله : ﴿ وَلِلْمُؤْمِنِينَ ﴾ هذا دعاء للمؤمنين بظهر الغيب .

إذن الدعاء للمؤمنين بظهر الغيب من طرق الرسل - عليهم الصلاة والسلام - ومن سبيل الرسل - عليهم الصلاة والسلام - ومن ذلك : أننا نحن كلنا ندعو لإخواننا في صلاتنا بظهر الغيب ، كُلنا يقول : السلام علينا وعلى عباد الله الصالحين ، وهذا دعاء ، وقد قال النبي ﷺ : « إنكم إذا قلتم ذلك ، فإنكم قد سلمتم على كل عبد صالح في السماء والأرض » (١) .

إذن إذا قلت : « السلام علينا وعلى عباد الله الصالحين » فهذا دعاء لإخوانك بظهر الغيب .

ثم ذكر المؤلف حديث أبي الدرداء ﷺ : أن الإنسان إذا دعا لأخيه بظهر الغيب قال المَلَكُ : « آمين ، ولك مثله » يعني : لك بمثل ذلك ، فالملك يؤمن على دعائك إذا دعوت لأخيك بظهر الغيب ويقول : « لك مثله » وهذا يدل على فضيلة هذا . لكن هذا فيمن لم يطلب منك أن تدعو له ، أما من طلب منك أن تدعو له فدعوت له ، فهذا كأنه شاهد ؛ لأنه يسمع كلامك ؛ لأنه هو الذي طلب منك ، لكن إذا دعوت له بظهر الغيب بدون أن يخبرك ، أو يطلب منك ، فهذا هو الذي فيه الأجر ، وفيه الفضل . والله الموفق .

* * *

٢٥٢ - باب في مسائل من الدعاء

١٤٩٦ - عَنْ أُسَامَةَ بْنِ زَيْدٍ ﷺ قَالَ : قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ : « مَن صُنِعَ إِلَيهِ مَعْرُوفٌ ، فَقَالَ لِفَاعِلِهِ : جَزَاكَ اللَّهُ خَيرًا ، فَقَد أَبلَغَ فِي الثَّناءِ » (٢) . رواه الترمذي وقَالَ : حَدِيثٌ حَسَنٌ صَحِيحٌ .

١٤٩٧ - وَعَن جَابِرٍ ﷺ قَالَ : قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ : « لا تَدعُوا عَلَى أَنْفُسِكُم ، ولَا تَدْعُوا عَلَى أَولَادِكُمْ ، وَلَا تَدْعُوا عَلَى أَمْوَالِكُم ، لا تُوَافِقُوا مِنَ اللَّهِ سَاعَةً يُسأَل فِيهَا عَطَاءً ، فَيَسْتَجِيبَ لَكُم » (٣) رواه مسلم .

(١) أخرجه أحمد في مسنده (٤٣١/١) .
(٢) أخرجه الترمذي في البر والصلة (٢٠٣٥) ، والطبراني في الصغير (١٤٨/٢) .
(٣) أخرجه مسلم في الزهد والرقائق (٧٤) ، وأبو داود في الصلاة (١٥٣٢) .

١٤٩٨ – وعَن أبي هُرَيرَةَ ﷺ أنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ قَالَ : « أَقْرَبُ مَا يَكُونُ العَبْدُ مِنْ رَبِّهِ وَهُوَ سَاجِدٌ ؛ فَأَكْثِرُوا الدُّعَاءَ » [١] رواه مسلم .

الشرح

هذه مسائل متشكلة من أنواع الدعاء منها حديث أسامة بن زيد ﷺ : أن النبي ﷺ قال : « مَنْ صُنِعَ إليه معروف فقال لفاعِلِه : جزاك اللَّه خيرًا ، فقد أبلغ في الثناء » إذا صنع إليك إنسان معروفًا بمال أو مساعدة ، أو علم ، أو غير ذلك ، فإنَّ النبي ﷺ أمر أن تكافئ صانع المعروف فقال : « من صنع إليكم معروفًا فكافئوه » .

والمكافأة تكون بحسب الحال ، من الناس من تكون مكافأته أن تعطيه مثل ما أعطاك أو أكثر ، ومن الناس مَنْ تكون مكافأته أن تدعو له ولا يرضى أن تكافئه بمال ، فإن الإنسان الكبير الذي عنده أموال كثيرة ، وله جاه ، وشرف في قومه ، إذا أهدى إليك شيئًا ، فأعطيته مثل ما أهدى إليك ، رأى في ذلك قصورًا في حقه ، لكن مثل هذا ادْع اللَّه له فإن لم تجدوا ما تكافئونه ، فادْعُ له حتى تروا أنكم قد كافأتموه ومن ذلك أن تقول له : « جزاك اللَّه خيرًا » ، إذا أعطاك شيئًا ، أو نفعك بشيء ، لأنك إذا قلت له « جزاك اللَّه خيرًا » فقد أبلغت في الثناء [٢] ، وذلك لأن اللَّه تعالى إذا جزاه خيرًا ؛ كان ذلك سعادة له في الدنيا والآخرة .

وأما الحديث الثاني : وهو حديث جابر ﷺ أن النبي ﷺ قال : « لا تدعو على أنفسكم ، ولا على أولادكم ، ولا على أموالكم » فإنه ربما يصادف ساعة إجابة فتجاب ، فهذا يقع كثيرًا عند الغضب ، إذا غضب الإنسان ، ربما يدعو على نفسه وربما يدعو على ولده ، ويقول : قاتلك اللَّه ، جزاك اللَّه .... وما أشبه ذلك ، حتى إن بعضهم يدعو على ولده باللعنة ، نسأل اللَّه العافية ، وكذلك نجد بعضهم يدعو على أهله ، على زوجته ، على أخته ، ربما دعا على أمه والعياذ باللَّه مع الغضب ، وكذلك أيضًا يدعو على ماله ، يقول مثلًا على سيارة اختلفوا عليها : اللهم لا تبارك في هذه السيارة ، أو في هذه الدار ، أو هذا الفراش ، وما أشبه ذلك ، كل ذلك نهى النبي ﷺ أن ندعو عليه ؛ لأنه ربما تصادف ساعة إجابة ، فإذا تصادف ساعة إجابة ؛ فإنه يستجاب . لو قلت لولدك : تعال لماذا فعلت كذا ؟ اللَّه لا يوفقك ، اللَّه لا يربحك ، اللَّه لا يصلحك ، فتصادف ساعة إجابة ، كل هذا حرام لا يجوز ؛ لأنه ربما تصادف ساعة إجابة .

كذلك المال : المال الذي يتعاكس عليك ، السيارة ، أو الشغل في البيت ، أو غير ذلك لا تدع عليه ، لكن قل : اللَّهم يَسِّر الأمر ، اللَّهم سَهِّلْ حتى يحصل التسهيلُ والتيسير .

---

(١) أخرجه مسلم في الصلاة (٢١٥) وأبو داود في الصلاة (٨٧٥) وأحمد في مسنده (٢٤١/٢) . قوله : « من ربه» أي من رحمة ربه أثناء سجوده في الصلاة .

(٢) وذلك مصداقًا لما أخرجه الترمذي في البر والصلة (٢٠٣٦) والمنذري في الترغيب والترهيب (٧٧/٢) والهيثمي في مجمع الزوائد (١٥٠/٤) والبغوي في شرح السنة (٨٧/٣) .

وأما حديث أبي هريرة : ففيه أن النبي ﷺ قال : « أقرب ما يكون العبد من ربه وهو ساجد فأكثروا من الدعاء » ، الإنسان إذا كان يدعو الله تعالى ؛ فإنه قريب من الله ، والله تعالى قريب منه ، كما قال جل وعلا : ﴿ وَإِذَا سَأَلَكَ عِبَادِي عَنِّي فَإِنِّي قَرِيبٌ أُجِيبُ دَعْوَةَ الدَّاعِ إِذَا دَعَانِ فَلْيَسْتَجِيبُوا لِي وَلْيُؤْمِنُوا بِي لَعَلَّهُمْ يَرْشُدُونَ ﴾ [البقرة: ١٨٦] « أقرب ما يكون الإنسان من ربه وهو ساجد » وذلك لأن في السجود كمال الخضوع لله ﷻ لأنك تضع أشرف أعضائك وأعلى أعضائك ، تضعها في الأسفل ، في موضع الأقدام تعظيمًا للرب ﷻ فيأبى الله تعالى إلا أن يقرب منك في هذا الحال وأنت تقرب من ربك ، فأكثروا من الدعاء وأنتم سجود في الفرائض والنوافل ، أكثر من الدعاء في أمور الدنيا وأمور الآخرة ، كله خير ، حتى لو كنت تدعو الله في أمور الدنيا وأنت ساجد فهو خير ؛ لأن الدعاء عبادة ، لو قلت : اللّهم كثر مالي ، اللّهم هيئ لي سكنًا جميلًا ، اللّهم هيئ لي سيارة مريحة ، وما أشبه ذلك فلا بأس به ، ولو كان في الفريضة : اللّهم اغفر لي ولوالدي مثلًا ؛ لأن الدعاء عبادة ، فأي شيء تدعو به الله فإنه عبادة ، أي شيء ، حتى جاء في الحديث : « ليسأل أحدكم ربه حتى شراك نعله » (١) شراك النعل : شيء زهيد ولكن تسأل الله كل شيء ؛ لأن كل شيء تسأله الله فهو عبادة لك . ثم اعلم أنك إذا سألت الله فإنك رابح في كل حال ؛ لأنه إما أن يعطيك ما تسأل ، أو يصرف عنك من السوء ما هو أعظم ، أو يدَّخر ذلك لك عنده يوم القيامة أجرًا ، فمن دعا الله تعالى فإنه لا يخيب ، فأكثر من الدعاء ، أكثر من دعاء الله ، أكثر من الاستغفار إلى الله ، والتوبة إليه ، فإن الرسول ﷺ يقول : « إنه لَيُغَانُ على قلبي و إني أستغفر الله وأتوب إليه مائة مرة » (٢) وهو الذي قد غفر الله له ما تقدم من ذنبه وما تأخر ، يستغفر الله . ويتوب إليه في اليوم مائة مرة ، ولا تغفل هذا في اليوم وهو يسير ؛ يعني لو قلت : أستغفر الله وأتوب إليه تنتهي من مائة مرة في عشر دقائق أو أقل ، الأمر بسيط ، وبه تحصل على خير والاقتداء بالرسول ﷺ ، والله الموفق .

* * *

١٤٩٩ – وَعَنْهُ أَنَّ رسول اللّهِ ﷺ قالَ : « يُسْتَجَابُ لأَحدِكُم مَا لَم يَعْجَل ؛ يَقُولُ : قَد دَعَوتُ رَبيِّ فَلَم يُسْتَجَبْ لي » متفقٌ عليه .

وفي روايةٍ لمُسْلِمٍ : « لا يَزَالُ يُسْتَجَابُ لِلعَبْدِ مَا لَم يَدعُ بِإثمٍ ، أو قَطِيعَةِ رَحِم ، مَا لَمْ يَسْتَعْجِلْ » قِيلَ : يَا رَسُولَ اللّهِ مَا الاسْتِعْجَالُ ؟ قَالَ : « يَقُولُ : قَدْ دَعَوتُ ، وَقَدْ دَعَوتُ ، فَلَم أَرَ يَسْتجِيبُ لي ، فَيَسْتَحْسِرُ عِنْدَ ذلِكَ ، وَيَدَعُ الدُّعاءَ » (٣) .

---

(١) انظر الحديث بنصه في مجمع الزوائد (١٠/١٥٠) والهندي في كنز العمال (٣١٣٩) .

(٢) أخرجه مسلم في الذكر والدعاء (٤١) وأبو داود في السنن (١٥١٥) وأحمد في مسنده (٤/٢١١) والبيهقي في السنن (٧/٥٢) .

(٣) أخرجه البخاري في الدعوات (٦٣٤٠) ومسلم في الذكر والدعاء (٩٠) والبيهقي في السنن (٣/٣٥٣) . قوله « فيستحسر » أي فيغيب .

الشرح

إن هذا الحديث في باب آداب الدعاء ، عن أبي هريرة رضي الله عنه أن النبي ﷺ قال : « يستجاب لأحدكم ما لم يعجل » ، يعني أن الإنسان حري أن يستجيب الله دعاءه إلا إذا عجل ، ومعنى العجلة فسرها النبي ﷺ بأن الإنسان يقول : دعوت ودعوت فلم أر من يستجيبُ لي ، فحينئذ يستحسر ويدع الدعاء ، وهذا من جهل الإنسان ؛ لأن الله سبحانه وتعالى لا يمنعك ما دعوته به إلا لحكمة ، أو لوجود مانع يمنع من إجابة الدعاء ، ولكن إذا دعوت الله فادع الله تعالى وأنت مُغَلِّب للرجاء على اليأس حتى يحقق الله لك ما تريد ، ثم إنْ أعطاك الله ما سألت فهذا المطلوب ، وإن لم يعطك ما سألت ؛ فإنه يرفع عنك من البلاء أكثر ، وأنت لا تدري ، أو يدخر ذلك لك عنده يوم القيامة . فلا تيأس ولا تستحسر ، ولكن ادعُ ما دام الدعاء عبادة ، فلماذا لا تكثر منه ، استجاب الله لك أو لم يستجب ، ولا تستحسر ولا تسيء الظن بالله عز وجل فإن الله تعالى حكيم ، يقول الله تعالى : ﴿ وَعَسَىٰٓ أَن تَكۡرَهُواْ شَيۡـًٔا وَهُوَ خَيۡرٞ لَّكُمۡۖ وَعَسَىٰٓ أَن تُحِبُّواْ شَيۡـًٔا وَهُوَ شَرّٞ لَّكُمۡۚ ﴾ [البقرة : ٢١٦] . والله الموفق .

* * *

١٥٠٠ - وَعَنْ أَبي أُمَامَةَ رضي الله عنه قَالَ : قِيلَ لِرَسُولِ اللّه ﷺ : أَيُّ الدُّعَاءِ أَسْمَعُ ؟ قَالَ : « جَوفَ الليلِ الآخِرِ ، وَدُبُرَ الصَّلَوَاتِ المَكْتُوبَاتِ » [(١)] رواه الترمذي وقَالَ : حديثٌ حسنٌ .

١٥٠١ - وَعَنْ عُبَادَةَ بْنِ الصَّامِتِ رضي الله عنه أَنَّ رَسُولَ اللّهِ ﷺ قَالَ : « مَا عَلى الأَرْضِ مُسْلِمٌ يَدْعُو اللَّهَ تَعَالى بدَعْوَةٍ إلا آتاهُ اللّه إيَّاهَا ، أَو صَرَفَ عَنْهُ مِنَ السُّوءِ مِثْلَهَا . مَالَم يَدْعُ بِإثْم ، أو قَطِيعَةِ رَحِم » فَقَالَ رَجُلٌ مِنَ القَومِ : إذًا نُكْثِرُ ، قالَ : « اللّهُ أَكْثَرُ » [(٢)] . رواه الترمذي وقَالَ : حَديثٌ حَسَنٌ صَحِيحٌ ، وَرَوَاهُ الحَاكِمُ مِنْ رِوَايَةِ أبي سَعِيدٍ ، وَزَادَ فِيهِ : « أَو يَدَّخِرَ لَهُ مِنَ الأَجْرِ مِثْلَهَا » .

١٥٠٢ - وعَنِ ابْنِ عَبَّاس رضي الله عنهما أَنَّ رَسُولَ اللّه ﷺ كَانَ يَقُولُ عِنْدَ الكَرْبِ : « لا إلهَ إلا اللّه العَظِيمُ الحَلِيمُ ، لا إلَهَ إلا اللّهُ رَبُّ العَرْشِ العَظِيمُ ، لا إلهَ إلا اللّهُ ربُّ السَّمَاوَاتِ ، وَرَبُّ الأَرْضِ ، وربُّ العَرْشِ الكريم » [(٣)] متفقٌ عليه .

الشرح

هذه الأحاديث من بقية الأحاديث التي جمعها النووي رحمه الله في كتابه رياض الصالحين منها الحديث الأول : أن النبي ﷺ سُئل : أي الدعاء أسمع ؟ يعني أي الدعاء أقرب إجابة ؟ فقال :

---

(١) أخرجه الترمذي في الدعوات (٣٤٩٩) والبيهقي في السنن (٢/٤٥٥) . قوله « جوف الليل » أي وسطه ، قوله « ودبر الصلوات » أي عقب صلاة الفريضة .

(٢) أخرجه الترمذي في الدعوات (٣٥٧٣) . قوله « إلا آتاه الله إياها » أي عجلها له ، قوله « الله أكثر » أي أكثر إحسانًا ونوالًا مما تطلبون وتسألون ، قوله : « أو يدخر له » أي يحفظها له إلى يوم القيامة .

(٣) أخرجه البخاري في الدعوات (٦٣٤٥) ومسلم في الذكر والدعاء (٨٣) وأحمد في مسنده (١/٢٢٨ ، ٢٥٩) .

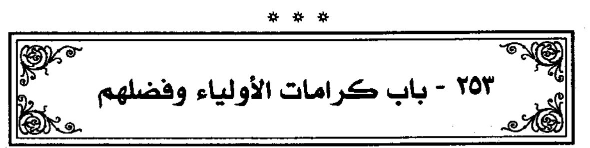
« جوف الليل الآخر وأدبار الصلوات المكتوبة » « جوف الليل الآخر » يعني آخر الليل ، وذلك لأن اللَّه تعالى ينزل إلى السماء الدنيا حين يبقى ثلث الليل الأخير فيقول : من يدعوني فأستجيب له ؟ من يسألني فأعطيه ؟ من يستغفرني فأغفر له ؟ [١] فينبغي للإنسان أن يجتهد بالدعاء في هذا الجزء من الليل ، رجاء الإجابة .

الثانية : أدبار الصلوات المكتوبات ، وأدبار الصلوات يعني أواخرها ، وهذا قد أرشد عنه النبي ﷺ حين ذكر التشهد ، ثم قال بعد ذلك : « ثم ليتخير من الدعاء ما يشاء » [٢] وليس المراد بأدبار الصلوات هي ما بعد السلام ؛ لأن ما بعد السلام في الصلوات هو ليس محل دعاء إنما هو محلُّ ذكر ، لقول اللَّه تعالى : ﴿ فَإِذَا قَضَيْتُمُ ٱلصَّلَوٰةَ فَٱذْكُرُوا۟ ٱللَّهَ قِيَٰمًا وَقُعُودًا وَعَلَىٰ جُنُوبِكُمْ ﴾ [النساء : ١٠٣] ولكن المراد بأدبار الصلوات المكتوبة أواخرها .

ثم ذكر المؤلف حديث أبي أمامة رضي الله عنه : « أنه ما من مسلم يدعو اللَّه تعالى بشيء إلا وأعطاه ما سأل ، أو صرف عنه من السوء مثل ذلك ، أو ادخر له أجره عنده يوم القيامة » وقد سبق لنا بيان هذا ، وبيَّنَّا أنه لا يَخيب مَنْ يسأل اللَّه . بل لابد أن يحدث له واحد من هذه الأمور الثلاثة إلا أن يدعو بإثم ، أي بشيء محرم ؛ فإنه لا يستجاب له ؛ لأن الدعاء بالإثم ظلم ، وقد قال اللَّه تعالى : ﴿ إِنَّهُۥ لَا يُفْلِحُ ٱلظَّٰلِمُونَ ﴾ [الأنعام : ٢١] .

وأما الحديث الأخير فهو في دعاء الكرب : أن النبي ﷺ كان يقول : « لا إله إلا اللَّه العظيم الحليم ، لا إله إلا اللَّه رب العرش العظيم ، لا إله إلا اللَّه رب السماوات ورب الأرض ورب العرش الكريم » فهذه الكلمات إذا قالها الإنسان عند الكرب كانت سببًا في تفريج كربه . واللَّه الموفق .

* * *



٢٥٣ - باب كرامات الأولياء وفضلهم

قَالَ اللَّهُ تَعالَى : ﴿ أَلَآ إِنَّ أَوْلِيَآءَ ٱللَّهِ لَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ۝ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَكَانُوا۟ يَتَّقُونَ ۝ لَهُمُ ٱلْبُشْرَىٰ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَفِى ٱلْءَاخِرَةِ ۚ لَا تَبْدِيلَ لِكَلِمَٰتِ ٱللَّهِ ۚ ذَٰلِكَ هُوَ ٱلْفَوْزُ ٱلْعَظِيمُ ﴾ [يونس : ٦٢، ٦٤] .

وَقَالَ تَعالَى : ﴿ وَهُزِّىٓ إِلَيْكِ بِجِذْعِ ٱلنَّخْلَةِ تُسَٰقِطْ عَلَيْكِ رُطَبًا جَنِيًّا ۝ فَكُلِى وَٱشْرَبِى ﴾ [مريم : ٢٥، ٢٦] .

الشرح

ذكر المؤلف النووي رحمه الله تعالى باب كرامات الأولياء وفضلهم . والكرامات هنا معناها هي

---

(١) انظر نص الحديث في البخاري في التهجد (١١٤٥) ومسلم في صلاة المسافرين (١٦٨) وأبو داود في السنن (١٣١٥) وابن ماجه في السنن (١٣٦٦) .

(٢) أخرجه مسلم في الصلاة (٥٧) والدارمي في الصلاة (٨٤) وأحمد في مسنده (١/٣٨٢ ، ٤١٣) .

كل أمر خارق للعادة ، يُظهره اللَّه سبحانه وتعالى على يد مُتبعي الرسول ﷺ ، هذه هي الكرامة يعني أمر غير معتاد يُظهره اللَّه على يد متبع الرسول ، إما تكريمًا له ، وإما نصرة للحق . وهي ثابتة - أعني الكرامات - ثابتة بالكتاب والسنة والواقع . ولكن من هم الأولياء ؟ الأولياء : هم من بيَّنهم اللَّه في قوله : ﴿ أَلَآ إِنَّ أَوْلِيَآءَ ٱللَّهِ لَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ۝٦٢ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَكَانُوا۟ يَتَّقُونَ ﴾ هؤلاء هم الأولياء ، جمعوا بين الإيمان والتقوى ، وليس أولياؤه الذين يدعون أنهم أولياؤه وهم أعداؤه كما يُفعَلُ في بعض البلاد ، يأتي الرجل يدعي أنه ولي ، وهو عاصٍ فاسقٌ يدعو الناس إلى أن يعبدوه ويطيعوه في كل شيء ، ويدعي أن اللَّه قد أحل له كل شيء ، حتى المحرمات أحلها اللَّه له ؛ لأنه بلغ الغاية . هؤلاء ليسوا أولياء اللَّه ، هؤلاء أعداء اللَّه . وليُّ اللَّه هو المؤمن التقي ، كما في هذه الآية الكريمة التي ساقها المؤلف ﴿ أَلَآ إِنَّ أَوْلِيَآءَ ٱللَّهِ لَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ۝٦٢ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَكَانُوا۟ يَتَّقُونَ ﴾ وسوف يذكر المؤلف إن شاء اللَّه الآيات والأحاديث الدالة على ذلك ، والواقع أيضًا .

والفرقُ بين الآية ، آية النبي ﷺ وكرامة الولي وشعوذة المشعوذ : الفرق بينهم أن آية النبي ﷺ أمر خارق للعادة يُظْهره اللَّه تعالى على يد النبي ﷺ تأييدًا له وتصديقًا له . مثل : إحياء عيسى عليه السلام للموتى ، فقد كان عيسى ابن مريم عليه السلام يحيي الموتى ، بل يخرجهم من القبور بعد الدفن كما قال اللَّه تعالى : ﴿ وَإِذْ تُخْرِجُ ٱلْمَوْتَىٰ بِإِذْنِى ﴾ [المائدة : ١١٠] فيقف على القبر ويدعو صاحبه فيخرج من قبره حيًّا ، ويُبرئ الأكمه والأبرص ، ويَخلق من الطين على صورة الطير ، يعني يصنع شيئًا على صورة الطير ثم ينفخ فيه فيكون طائرًا بإذن اللَّه ، يطير من بين يديه ، كان بالأول طينًا فإذا نفخ فيه طار ، هذا أيضًا من آيات اللَّه . إذن فآيات الأنبياء هي أمور خارقة للعادة ، يُظهرها اللَّه تعالى على أيديهم تأييدًا لهم .

أما كرامات الأولياء : فهي أمور خارقة للعادة ولكنها لا تكون للأنبياء بل تكون لمتبعي الأنبياء ، مثل ما حدث لمريم بنت عمران : ﴿ فَأَجَآءَهَا ٱلْمَخَاضُ إِلَىٰ جِذْعِ ٱلنَّخْلَةِ قَالَتْ يَٰلَيْتَنِى مِتُّ قَبْلَ هَٰذَا وَكُنتُ نَسْيًا مَّنسِيًّا ۝٢٣ فَنَادَىٰهَا مِن تَحْتِهَآ أَلَّا تَحْزَنِى قَدْ جَعَلَ رَبُّكِ تَحْتَكِ سَرِيًّا ۝٢٤ وَهُزِّىٓ إِلَيْكِ بِجِذْعِ ٱلنَّخْلَةِ تُسَٰقِطْ عَلَيْكِ رُطَبًا جَنِيًّا [1] ﴾ [مريم : ٢٣- ٢٥] هذه من آيات اللَّه ، كرامة لمريم ، امرأة في المخاض تحت نخلة تهز الجذع ، وهز الجذع ليس سهلًا ، هز رأس النخلة ممكن ، لكن هز الجذع صعب ، تهز الجذع ثم يتساقط الرطب من النخلة جنيًّا يعني كأنه مخروط خرطًا ، ما يتفصص إذا نزل في الأرض أو يفسد ، هذه آية من آيات اللَّه ، كذلك ما حدث لها من الحمل والولادة كلها من آيات اللَّه عز وجل كرامة لها ، كما قال تعالى : ﴿ وَجَعَلْنَٰهَا وَٱبْنَهَآ ءَايَةً لِّلْعَٰلَمِينَ ﴾ [الأنبياء : ٩١] .

الأمر الثالث : الذي يظهره اللَّه على يد المشعوذين الذين يستخدمون الجن ، يظهره اللَّه عز وجل على أيديهم : فتنة لهم وفتنةً بهم ؛ فإنه يوجد من الناس من يأتي بأشياء خارقة للعادة ولكنه ليس وليًّا

(١) قوله : ﴿ فَأَجَآءَهَا ﴾ أي ألجأها . قوله : ﴿ ٱلْمَخَاضُ ﴾ أي وجع الولادة . قوله : ﴿ نَسْيًا مَّنسِيًّا ﴾ أي شيئًا متروكًا . قوله : ﴿ سَرِيًّا ﴾ أي إنسانًا رفيع القدر .

فنقول : كرامة ، ومعلوم أيضًا أنه ليس بنبي ؛ لأنه لا نبي بعد محمد ﷺ ؛ إذن فهو من الشياطين .

الأمر الرابع : ما يكون خارقًا للعادة يُظهره الله ﷻ على يد الكاذب تكذيبًا له ، مثل ما يذكر عن مسيلمة الكذاب ، فمسيلمة كان رجلًا ادعى النبوة في آخر حياة النبي ﷺ وقال : إنه نبي وتبعه مَنْ تبعه من الناس ، وفي يوم من الأيام أتاه قوم أهل حرب يشكون إليه أن آبارهم قد غار ماؤها ولم يبق فيه إلا القليل ، وطلبوا منه أن يأتي إلى البئر ويمج فيه من ريقه لعله يعود فيه الماء ، فذهب فأعطوه ما تمضمض به ثم مجه في البئر ، وكان في البئر شيء من الماء ، ولما مجه في البئر غار الماء كله ما بقي شيء ، هذا خارق للعادة ، ولا شك أنه آية ، ولكن الله سبحانه وتعالى جعله إهانة لذلك الرجل الكذاب وإظهارًا لكذبه .

فهذه أربعة أشياء : آية النبي ، وكرامة الولي ، وشعوذة المشعوذ ، وإهانة الكذاب المفتري ، كلها أمور خارقة للعادة ، لكنها تختلف في حسب من أظهرها الله على يديه ، ومن الآيات التي ذكرها المؤلف .

قال تعالى : ﴿ كُلَّمَا دَخَلَ عَلَيْهَا زَكَرِيَّا الْمِحْرَابَ وَجَدَ عِندَهَا رِزْقًا قَالَ يَٰمَرْيَمُ أَنَّىٰ لَكِ هَٰذَا قَالَتْ هُوَ مِنْ عِندِ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ يَرْزُقُ مَن يَشَاءُ بِغَيْرِ حِسَابٍ ﴾ [آل عمران : ٣٧] . وقال تعالى : ﴿ وَإِذِ اعْتَزَلْتُمُوهُمْ وَمَا يَعْبُدُونَ إِلَّا اللَّهَ فَأْوُوا إِلَى الْكَهْفِ يَنشُرْ لَكُمْ رَبُّكُم مِّن رَّحْمَتِهِ وَيُهَيِّئْ لَكُم مِّنْ أَمْرِكُم مِّرْفَقًا ۝ وَتَرَى الشَّمْسَ إِذَا طَلَعَت تَّزَاوَرُ عَن كَهْفِهِمْ ذَاتَ الْيَمِينِ وَإِذَا غَرَبَت تَّقْرِضُهُمْ ذَاتَ الشِّمَالِ ﴾ [الكهف : ١٦، ١٧] .

الشرح

تقدم لنا الكلام على كرامات الأولياء وأنها كل أمر خارق للعادة يظهره الله تعالى على يد الولي تكريمًا له أو نصرةً لدين الله ، وذكرنا أن هناك آيات ، وهناك شعوذة ، وهناك إهانات ، أربعة أشياء كلها تخرج عن العادة وبيناها فيما سبق .

واعلم أن كل كرامة لولي فهي آية للنبي الذي اتبعه هذا الولي ؛ لأن هذا الولي الذي اتبع هذا النبي إذا أكرم بكرامة فهي شهادة من الله ﷻ على صحة طريقته ، وعلى صحة الشرع الذي اتبعه ، ولهذا نقول : كل كرامة لولي فهي آية للنبي الذي اتبعه .

ثم ذكر المؤلف آيات فيها كرامات منها : ﴿ كُلَّمَا دَخَلَ عَلَيْهَا زَكَرِيَّا الْمِحْرَابَ وَجَدَ عِندَهَا رِزْقًا قَالَ يَٰمَرْيَمُ أَنَّىٰ لَكِ هَٰذَا قَالَتْ هُوَ مِنْ عِندِ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ يَرْزُقُ مَن يَشَاءُ بِغَيْرِ حِسَابٍ ﴾ مريم ابنة عمران نذرتها أمها : ﴿ إِذْ قَالَتِ امْرَأَتُ عِمْرَانَ رَبِّ إِنِّي نَذَرْتُ لَكَ مَا فِي بَطْنِي مُحَرَّرًا فَتَقَبَّلْ مِنِّي إِنَّكَ أَنتَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ ۝ فَلَمَّا وَضَعَتْهَا قَالَتْ رَبِّ إِنِّي وَضَعْتُهَا أُنثَىٰ وَاللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا وَضَعَتْ وَلَيْسَ الذَّكَرُ كَالْأُنثَىٰ وَإِنِّي سَمَّيْتُهَا مَرْيَمَ وَإِنِّي أُعِيذُهَا بِكَ وَذُرِّيَّتَهَا مِنَ الشَّيْطَانِ الرَّجِيمِ ۝ فَتَقَبَّلَهَا رَبُّهَا بِقَبُولٍ حَسَنٍ وَأَنبَتَهَا نَبَاتًا حَسَنًا وَكَفَّلَهَا زَكَرِيَّا كُلَّمَا دَخَلَ عَلَيْهَا زَكَرِيَّا الْمِحْرَابَ وَجَدَ عِندَهَا رِزْقًا قَالَ يَٰمَرْيَمُ أَنَّىٰ لَكِ هَٰذَا قَالَتْ هُوَ مِنْ عِندِ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ يَرْزُقُ مَن يَشَاءُ بِغَيْرِ حِسَابٍ (١) ﴾ [آل عمران : ٣٥- ٣٧] فزكريا إذا دخل على مريم المحراب - أي مكان صلاتها -

(١) قوله : ﴿ أُعِيذُهَا بِكَ ﴾ أي أمنعها وأجيرها بحفظك . قوله : ﴿ وَكَفَّلَهَا ﴾ أي ضمها الله تعالى إلى زكريا وجعله كفلًا لها وضامنًا لمصالحها . قوله : ﴿ الْمِحْرَابَ ﴾ هو غرفة في بيت المقدس لا يصعد إليها إلا بسلم .

﴿ وَجَدَ عِندَهَا رِزْقًا ﴾ أي وجد عندها طعامًا لم تجر العادة بوجوده ، فيقول : ﴿ أَنَّىٰ لَكِ هَٰذَا قَالَتْ هُوَ مِنْ عِندِ ٱللَّهِ ﴾ ، لم تقل جاء به فلان أو فلان ، بل هو من عند الله ﷻ ، والله تعالى على كل شيء قدير . يأتي بهذا الرزق من عنده ، لا من سعي البشر ، بل هو من عند الله ﷻ ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ يَرْزُقُ مَن يَشَآءُ بِغَيْرِ حِسَابٍ ﴾ وعندئذ دعا زكريا ربه وكان قد بلغه الكبر . ولم يأته أولاد فقال : إن الله على كل شيء قدير ، واستدل بقدرة الله الذي جاء بهذا الرزق إلى مريم بدون سبب بشري ، فاستدل بذلك على كمال قدرة الله ، فدعا ربه أن يرزقه ولدًا فجاءه الولد . وفيه أيضًا كرامات لذلك ، فمريم رضي الله عنها لها كرامات ، منها هذه المسألة ، رزقُها يأتي من عند الله لا يُشترى من السوق ، ولا يأتي به فلان أو فلان ، من عند الله ، وكذلك ما ذكرته بالأمس ، حين جاءها المخاض إلى جذع النخلة قالت : ﴿ يَٰلَيْتَنِى مِتُّ قَبْلَ هَٰذَا وَكُنتُ نَسْيًا مَّنسِيًّا ﴾ وسبق الكلام على هذا .

ومن الكرامات أيضًا : ما وقع لأصحاب الكهف ، والكهفُ هو غار فسيح في الجبل ، وكان هؤلاء القوم رأوا ما عليه أهل بلدتهم من الشرك والكفر ولم يرضوا بذلك ، فاعتزلوا قومهم وهاجروا من بلدهم ؛ لأنها بلد شرك وكفر فاعتزلوا قومهم ولجأوا إلى غار ، كما قال تعالى : ﴿ إِنَّهُمْ فِتْيَةٌ ءَامَنُوا۟ بِرَبِّهِمْ وَزِدْنَٰهُمْ هُدًى ۝١٣ وَرَبَطْنَا عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ إِذْ قَامُوا۟ فَقَالُوا۟ رَبُّنَا رَبُّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ لَن نَّدْعُوَا۟ مِن دُونِهِۦٓ إِلَٰهًا لَّقَدْ قُلْنَآ إِذًا شَطَطًا ۝١٤ هَٰٓؤُلَآءِ قَوْمُنَا ٱتَّخَذُوا۟ مِن دُونِهِۦٓ ءَالِهَةً لَّوْلَا يَأْتُونَ عَلَيْهِم بِسُلْطَٰنٍۭ بَيِّنٍ فَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ ٱفْتَرَىٰ عَلَى ٱللَّهِ كَذِبًا ۝١٥ وَإِذِ ٱعْتَزَلْتُمُوهُمْ وَمَا يَعْبُدُونَ إِلَّا ٱللَّهَ فَأْوُۥٓا۟ إِلَى ٱلْكَهْفِ (١) ﴾ [الكهف : ١٣- ١٦] يعني لما اعتزلوهم وشِركهم أُمروا أن يأووا إلى الكهف ﴿ يَنشُرْ لَكُمْ رَبُّكُم مِّن رَّحْمَتِهِۦ وَيُهَيِّئْ لَكُم مِّنْ أَمْرِكُم مِّرْفَقًا ﴾ ﴿ فَأْوُۥٓا۟ إِلَى ٱلْكَهْفِ ﴾ اذهبوا إلى الكهف ، وهذا الكهف كما قلنا هو : غار في الجبل ، هذا الغار وجهه إلى الشمال الشرقي بحيث لا تدخل الشمس عليه لا أول النهار ولا آخره ، يسره الله لهم ؛ لأن الله تعالى يقول : ﴿ وَمَن يَتَّقِ ٱللَّهَ يَجْعَل لَّهُۥ مِنْ أَمْرِهِۦ يُسْرًا ﴾ وهؤلاء خرجوا يريدون وجه الله ، فَيَسَّرَ الله لهم ، أووا إلى الكهف وألقى الله عليهم النوم ، قال الله تعالى موضحًا هذا : ﴿ وَتَرَى ٱلشَّمْسَ إِذَا طَلَعَت تَّزَٰوَرُ عَن كَهْفِهِمْ ذَاتَ ٱلْيَمِينِ وَإِذَا غَرَبَت تَّقْرِضُهُمْ ذَاتَ ٱلشِّمَالِ ﴾ يعني ما تدخل عليهم الشمس دخولًا كاملًا فيصيبهم الحر لكن تقرضه ، شيء بسيط يأتيهم من الشمس لكي لا يتبخر الغار فيفسد ، يدخل عليه من الشمس بقدر الحاجة فقط ، ﴿ وَهُمْ فِى فَجْوَةٍ مِّنْهُ ﴾ أي : في مكان متسع كما جاء في الحديث : « كلما أتى فجوة .... » أي : شيء متسع ، هم في مكان متسع في الغار ، ذلك من آيات الله أن يسر الله لهم هذا المكان ، لما دخلوا في هذا المكان آمنين متوكلين على الله ﷻ مفوضين أمرهم إليه ، ألقى الله عليهم النوم فناموا ، كم ناموا ؟ يوم ... يومين ... ثلاثة ؟ لا ، ناموا ثلاثمائة سنة وتسع سنين وهم نائمون ، (٣٠٩ سنة) لا يستيقظون من حر ، ولا برد ، ولا جوع ، ولا عطش ، هذا من كرامات الله ، هل يبقى الواحد منا ثلاثة أيام نائمًا لا يجوع ، ولا يعطش ، ولا يحتر ، ولا يبرد ؟ لا ، هؤلاء بقوا في كهفهم (٣٠٩ سنة) ﴿ وَلَبِثُوا۟ فِى كَهْفِهِمْ ثَلَٰثَ مِا۟ئَةٍ سِنِينَ وَٱزْدَادُوا۟ تِسْعًا ﴾ [الكهف : ٢٥] ويقول الله ﷻ : ﴿ وَنُقَلِّبُهُمْ ذَاتَ

---

(١) قوله : ﴿ شَطَطًا ﴾ أي قولًا مجاوزًا للحد .

ﭽ ﭐﻟۡﻴَﻤِﻴﻦِ ﻭَﺫَﺍﺕَ ﭐﻟﺸِّﻤَﺎﻝِۖ ﭼ الله ﻷ هو الذي يقلبهم ، لماذا يقلبهم الله ﻷ ، لأن النائم لا فعل له ، مرفوع عنه القلم ، حتى لو فعل لن يتم فعله ، ﴿ وَنُقَلِّبُهُمْ ذَاتَ ٱلْيَمِينِ وَذَاتَ ٱلشِّمَالِ وَكَلْبُهُم بَٰسِطٌ ذِرَاعَيْهِ بِٱلْوَصِيدِ (١) ﴾ [الكهف : ١٨] عند الباب يحرسهم بإذن الله ﻷ ، وإنما قلبهم الله تعالى ؛ لأنهم لو بقوا هذه المدة الطويلة على جنب واحد لفسد الدم ولم يتحرك ، لكن يقلبون ذات اليمين وذات الشمال ، إذا رآهم الإنسان حسبهم أيقاظًا يعني ليس على وجههم وجه النوم ، الذي يراهم يقول هؤلاء أيقاظ وهم نائمون ، وألقى الله عليهم المهابة العظيمة ﴿ لَوِ ٱطَّلَعْتَ عَلَيْهِمْ لَوَلَّيْتَ مِنْهُمْ فِرَارًا وَلَمُلِئْتَ مِنْهُمْ رُعْبًا ﴾ [الكهف : ١٨] لوليت منهم فرارًا ببدنك ولمُلئت منهم رعبًا بقلبك ، القلب يفزع والبدن يهرب ، كي لا يكون أحد حولهم فيوقظهم ، لكن الله ﻷ أكرمهم بهذا .

لقد كانوا فتية آمنوا بالله واعتزلوا قومهم ، وخرجوا من بلدهم فهيأ الله لهم كهفًا ، يعني غار واسع في الجبل ، فدخلوا فيه فألقى الله عليهم النوم ، فناموا (٣٠٩ سنة) ، وهم نائمون لم يحتاجوا إلى أكل ولا شرب ولا تتأثر أبدانهم ، وكان الله تعالى يقلبهم ذات اليمين وذات الشمال ، وهذه من كرامات الله لهم ، أن الله تعالى هيأ لهم مقرًّا آمنًا ، حتى إن الله يقول : ﴿ لَوِ ٱطَّلَعْتَ عَلَيْهِمْ لَوَلَّيْتَ مِنْهُمْ فِرَارًا وَلَمُلِئْتَ مِنْهُمْ رُعْبًا ﴾ ما أحد يحوم حولهم ، ومن كرامات الله لهم أنهم بقوا هذه المدة (٣٠٩ سنة) ولم يتغير منهم ظُفر ولا شعر ولا غيره ، مع أن العادة أن الشعور تطول ، والأظفار تطول ، لكن هؤلاء لم تطل شعورهم ولا أظفارهم وكأنهم ناموا بالأمس .

ولهذا قال الله تعالى : ﴿ وَكَذَٰلِكَ بَعَثْنَٰهُمْ لِيَتَسَآءَلُوا۟ بَيْنَهُمْ ۚ قَالَ قَآئِلٌ مِّنْهُمْ كَمْ لَبِثْتُمْ ۖ قَالُوا۟ لَبِثْنَا يَوْمًا أَوْ بَعْضَ يَوْمٍ ۚ ﴾ [الكهف : ١٩] وإنما قالوا ذلك لأنهم لم يتغير منهم شيء ، وأما ما ذَكر بعض الناس أنهم طالت أظفارهم وشعورهم فهذا خطأ ؛ لأنه لو كان كذلك لعرفوا أنهم بقوا مدة طويلة ولكنهم لم يتغيروا . ومن كرامات الله لهم : أن الله أبقاهم على هذه النومة حتى أبدل الله تعالى مَلِكهم الظالم بمَلِك صالح ، ولما استيقظوا بعثوا واحدًا منهم إلى البلدة ليأتي بطعام لهم ، وكان معهم نقود سابقة من النقود التي مر عليها (٣٠٩ سنة) فلما جاءوا يشترون من البلدة ودفعوا النقود تعجب أهل البلدة ، من أين هذه النقود حتى أطلع الله الناس عليهم ، فهذا من كرامات الله لهم ، ويحسُن أن تجمع هذا الآيات وغيرها وتُتأمل ويُستخرج ما فيها من الكرامات الدالة على قدرة الله ﻷ وعلى أنه تبارك وتعالى أكرمُ مِنْ خلقه إذا تعبد الإنسان له بما يرضى ، أعطاه الله تعالى ما يرضي . والله الموفق .

* * *

قَالَ اللَّهُ تعالى : ﴿ أَلَآ إِنَّ أَوْلِيَآءَ ٱللَّهِ لَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ۝٦٢ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَكَانُوا۟ يَتَّقُونَ ۝٦٣ لَهُمُ ٱلْبُشْرَىٰ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَفِى ٱلْءَاخِرَةِ ۚ لَا تَبْدِيلَ لِكَلِمَٰتِ ٱللَّهِ ۚ ذَٰلِكَ هُوَ ٱلْفَوْزُ ٱلْعَظِيمُ ﴾ [يونس : ٦٢، ٦٤] .

---

(١) قوله : ﴿ بِٱلْوَصِيدِ ﴾ أي برحبة الكهف أو عتبته .

الشرح

قال المؤلف رحمه الله تعالى باب كرامات الأولياء وفضلهم ، ثم صدر المؤلف هذا الباب بهذه الآية : ﴿ أَلَآ إِنَّ أَوْلِيَآءَ ٱللَّهِ لَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ۝ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَكَانُوا۟ يَتَّقُونَ ﴾ وتقدم الكلام على أول هاتين الآيتين وأن الله تعالى بين أن أولياءه هم المؤمنون المتقون ﴿ أَلَآ إِنَّ أَوْلِيَآءَ ٱللَّهِ لَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ۝ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَكَانُوا۟ يَتَّقُونَ ﴾ وقد أخذ شيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله من هذه الآية عبارة قال فيها : « من كان مؤمنًا تقيًا كان لله وليًا » فيقول الله عز وجل : إن هؤلاء الأولياء ﴿ لَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴾ ﴿ لَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ ﴾ لما يُستقبل من أمرهم ، ﴿ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴾ على ما مضى من أمرهم ؛ لأنهم أدركوا معنى الحياة الدنيا فعملوا عملًا صالحًا وآمنوا بالله واتقوه فصاروا من أولياءه ، ثم قال : ﴿ لَهُمُ ٱلْبُشْرَىٰ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَفِى ٱلْءَاخِرَةِ ﴾ البشرى تعني البشارة في الحياة الدنيا وفي الآخرة .

والبشارة في الحياة الدنيا أنواع :

فمنها : الرؤيا الصالحة يراها المؤمن أو تُرَى له [1] (أحد يراها له) ، يعني يرى في المنام ما يسره ، أو يرى له أحد من أهل الصلاح ما يسره ، مثل أن يَرَى أنه يُبشر بالجنة ، أو يُرَى أحد من الناس أنه من أهل الجنة ، أو ما أشبه ذلك ، أو يُرى على هيئة صالحة ، المهم أن النبي ﷺ قال في الرؤيا الصالحة يراها أو ترى له : « تلك عاجل بشرى المؤمن » [2] .

ومنها : أن الإنسان يسر في الطاعة ، ويفرح بها وتكون قرة عينه ، فإن هذا يدل على أنه من أولياء الله . قال النبي ﷺ : « من سرته حسنته ، وساءته سيئته فذلك المؤمن » [3] فإذا رأيت من نفسك أن صدرك ينشرح بالطاعة ، وأنه يضيق بالمعصية فهذه بشرى لك ، أنك من عباد الله المؤمنين ومن أوليائه المتقين ، ولهذا قال النبي ﷺ : « وجُعلت قرة عيني في الصلاة » [4] .

ومن ذلك أيضًا : أن أهل الخير يثنون عليه ويحبونه ويذكرونه بالخير ، فإذا رأيت أن أهل الخير يحبونك ويثنون عليك بالخير ، فهذه بشرى للإنسان أنه يُثْنَى عليه من أهل الخير ، ولا عبرة بثناء أهل الشر ولا قدحهم ؛ لأنهم لا ميزان لهم ولا تقبل شهادتهم عند الله ، لكن أهل الخير إذا رأيتهم يثنون عليك وأنهم يذكرونك بالخير ويقتربون منك ويتجهون إليك ، فاعلم أن هذه بشرى من الله لك .

ومن البشرى في الحياة الدنيا : ما يُبَشَّر به العبد عند فراق الدنيا ، حيث تتنزَّل عليه الملائكة ﴿ أَلَّا تَخَافُوا۟ وَلَا تَحْزَنُوا۟ وَأَبْشِرُوا۟ بِٱلْجَنَّةِ ٱلَّتِى كُنتُمْ تُوعَدُونَ ۝ نَحْنُ أَوْلِيَآؤُكُمْ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَفِى ٱلْءَاخِرَةِ

---

(١) ويدل لذلك ماوراه أحمد في مسنده (١٢٩/٦) ومالك في الموطأ (٩٥٧) والطبراني في الكبير (٢٠٠/٣) والهيثمي في مجمع الزوائد (٣٧/٢) .

(٢) أخرجه مسلم في البر والصلة (١٦٦) وأحمد في مسنده (١٥٦/٥) . والبغوي في شرح السنة (٣٢٧/١٤) .

(٣) أخرجه الترمذي في السنن (٢١٦٥) والحاكم في المستدرك ووافقه الذهبي (١٤/١) والبيهقي في السنن (٩١/٧) .

(٤) أخرجه النسائي في السنن (٦١/٧) وأحمد في مسنده (١٢٨/٣) والحاكم في المستدرك (١٦٠/٢) ووافقه الذهبي .

وَلَكُمْ فِيهَا مَا تَشْتَهِيَ أَنفُسُكُمْ وَلَكُمْ فِيهَا مَا تَدَّعُونَ ۝ نُزُلًا مِّنْ غَفُورٍ رَّحِيمٍ ﴾ [فصلت: ٣٠- ٣٢] .

ومن البشارة أيضًا : أن الإنسان يبشر عند موته بشارة أخرى ، فيقال لنفسه : اخرجي أيتها النفس الطيبة التي كانت في الجسد الطيب ، اخرجي إلى رحمة من الله ورضوان ، فتفرح وتسر (١) .

ومن ذلك أيضًا : البشارة في القبر ، فإن الإنسان إذا سُئل عن ربه ودينه ونبيه وأجاب بالحق ، ناد منادٍ من السماء : أن صدق عبدي ؛ فافرشوه من الجنة ، وألبسوه من الجنة ، وافتحوا له بابًا من الجنة (٢) .

ومنها أيضًا : البشارة بالحشر ، تتلقاهم الملائكة ﴿ هَٰذَا يَوْمُكُمُ ٱلَّذِى كُنتُمْ تُوعَدُونَ ﴾ [الأنبياء: ١٠٣] و ﴿ وَأَبْشِرُوا بِٱلْجَنَّةِ ٱلَّتِى كُنتُمْ تُوعَدُونَ ﴾ [فصلت: ٣٠] المهم أن أولياء الله لهم البشرى في الحياة الدنيا وفي الآخرة نسأل الله أن يجعلنا وإياكم منهم .

﴿ لَا تَبْدِيلَ لِكَلِمَٰتِ ٱللَّهِ ذَٰلِكَ هُوَ ٱلْفَوْزُ ٱلْعَظِيمُ ﴾ [يونس: ٦٤] يعني لا أحد يبدل كلمات الله تعالى ، أما الكونية : فلا يستطيع أحد أن يبدلها ، وأما الشرعية : فقد يحرفها أهل الباطل ، كما فعل اليهود والنصارى في كتبهم ، حرفوها وبدلوها وغيروها ، وأما الكلمات الكونية فلا أحد يبدلها ﴿ لَا تَبْدِيلَ لِكَلِمَٰتِ ٱللَّهِ ذَٰلِكَ هُوَ ٱلْفَوْزُ ٱلْعَظِيمُ ﴾ . والله الموفق .

* * *

١٥٠٣ - وعن أبي محمد عبد الرحمن بن أبي بَكْرٍ الصِّدِّيقِ رضي الله عنهما أَنَّ أَصْحَابَ الصُّفَّةِ كانُوا أُنَاسًا فُقَرَاءَ وأَنَّ النَّبيَّ ﷺ قَالَ مَرَّةً : « مَنْ كَانَ عِنْدَهُ طَعَامُ اثْنَينِ ؛ فَلْيَذْهَبْ بِثَالِثٍ ، وَمَنْ كَانَ عِنْدَهُ طَعَامُ أَرْبَعةٍ ؛ فَلْيَذْهَبْ بخَامِسٍ بِسَادِسٍ » أو كَمَا قَالَ ، وَأَنَّ أَبَا بَكْرٍ رضي الله عنه جاءَ بِثَلاثَةٍ ، وَانْطَلَقَ النَّبيُّ ﷺ بِعَشَرةٍ ، وَأَنَّ أبا بَكرٍ تَعَشَّى عِنْدَ النَّبيِّ ﷺ ، ثُمَّ لَبِثَ حَتَّى صَلَّى العِشَاءَ ، ثُمَّ رَجَعَ ، فَجَاءَ بَعْدَ ما مَضَى مِنَ اللَّيلِ مَا شَاءَ اللَّهُ . قَالَتْ لَهُ امْرَأَتُهُ : ما حَبَسَكَ عَنْ أَضْيافِكَ ؟ قَالَ : أَوَ ما عَشَّيتِهِمْ ؟ قَالَتْ : أَبَوا حَتَّى تَجِيءَ وَقَدْ عَرَضُوا عَلَيهِمْ ، قَالَ : فَذَهَبْتُ أَنَا ، فَاختبأْتُ ، فَقَالَ : يَا غُنْثَرُ ، فَجَدَّعَ وَسَبَّ ، وَقَالَ : كُلُوا لا هَنِيئًا ، وَاللَّهِ لا أَطْعَمُهُ أَبَدًا ، قَالَ : وَايمُ اللَّهِ ما كُنَّا نَأْخذُ مِنْ لُقْمَةٍ إلا رَبا مِنْ أَسْفَلِهَا أَكْثَرَ مِنْهَا حَتَّى شَبِعُوا ، وَصَارَتْ أَكْثَرَ مِمَّا كَانَت قَبْلَ ذلِكَ ، فَنَظَرَ إِلَيهَا أَبو بَكْرٍ فَقَالَ لامْرَأَتِهِ : يَا أُخْتَ بَني فِرَاسٍ مَا هذَا؟ قَالَتْ : لا وَقُرَّةِ عَيني لهِيَ الآنَ أَكْثَرُ مِنْهَا قَبْلَ ذلِكَ بثَلاثِ مَرَّاتٍ ! فأَكَلَ مِنْهَا أَبو بَكرٍ وَقَالَ : إِنَّمَا كَانَ ذلكَ مِنَ الشَّيطَانِ - يَعني يَمِينَهُ - ثُمَّ أَكَلَ مِنْهَا لُقمَةً ، ثُمَّ حَمَلَهَا إلى النَّبيِّ ﷺ فَأَصبحت عِنْدَهُ . وَكَانَ بَينَنَا وَبَينَ قَومٍ عَهْدٌ ، فَمَضَى الأَجَلُ ، فَتَفَرَّقْنَا اثني عَشَرَ رَجُلًا ، مَعَ كُلِّ رَجُلٍ مِنهُم أُنَاسٌ ، واللَّهُ أَعْلَم كَمْ مَعَ كُلِّ رَجُل ، فَأَكَلُوا مِنْهَا أَجْمَعُونَ .

وفي رواية : فَحَلَفَ أَبُو بَكْرٍ لا يَطْعَمُه ، فَحَلَفَتِ المَرْأَةُ لَا تَطْعَمُهُ ، فَحَلَفَ الضَّيفُ - أَوِ

---

(١) انظر في ذلك مسلم في الجنة وصفة نعيمها (٦٦) والترمذي في السنن (١٠٧٢) .
(٢) انظر الحديث في أبي داود في السنة (٢٤) وأحمد في مسنده (٤/٢٨٧) .

الأَضْيَافُ - أَنْ لا يَطعمَه - أَو يَطْعَمُوهُ - حَتَّى يَطعمَهُ ، فَقَالَ أَبُو بَكْرٍ : هذه مِنَ الشَّيطَانِ ! فَدَعَا بالطَّعَامِ ، فَأَكَلَ وَأَكَلُوا ، فَجَعَلُوا لا يَرْفَعُونَ لُقمَةً إلا رَبَتْ مِنْ أَسْفَلِهَا أَكْثَر مِنْهَا ، فَقَالَ : يَا أُخْتَ بَنِي فِراسٍ ، مَا هذَا ؟ فَقَالَتْ : وَقُرَّةِ عَيني إِنَّهَا الآنَ لأَكْثَرُ منْهَا قَبْلَ أَنْ نَأْكُلَ ، فَأَكَلُوا ، وَبَعَثَ بهَا إلى النَّبيِّ ﷺ فَذَكَرَ أَنَّه أَكَلَ مِنْهَا .

وفي روايةٍ : إنَّ أَبَا بَكرٍ قَالَ لِعَبْدِ الرَّحمنِ : دونَكَ أَضْيَافَكَ ؛ فَإِنِّي مُنْطَلِقٌ إلى النَّبيِّ ﷺ فَافْرُغْ مِنْ قِرَاهُم قَبْلَ أَنْ أَجِيء ، فَانْطَلَقَ عَبْدُ الرَّحمنِ ، فَأَتاهم بما عندهُ ، فَقَالَ : اطْعَمُوا ، فَقَالُوا : أَينَ رَبُّ مَنزلنا ؟ قَالَ : اطْعَمُوا ، قَالُوا : مَا نَحْنُ بآكِلِينَ حَتَّى يَجيءَ ربُّ مَنْزِلنَا ، قَالَ : اقْبَلُوا عَنَّا قِرَاكُمْ ؛ فَإِنَّه إِنْ جَاءَ وَلَمْ تَطْعَمُوا ، لنَلْقَيَنَّ مِنْه ، فَأَبَوا ، فَعَرَفْتُ أَنَّه يَجِد عَلَيَّ ، فَلَمَّا جَاءَ تَنَحَّيتُ عَنْهُ ، فَقَالَ : مَا صَنعْتُم ؟ فَأَخبَروه ، فَقَالَ : يَا عبْدَ الرحمن ، فَسَكَتُّ ، ثمَّ قَالَ : يَا عَبْدَ الرَّحمنِ ، فَسَكَتُّ ، فَقَالَ : يَا غُنْثَر أَقْسَمْتُ عَلَيكَ إِنْ كُنْتَ تَسمعُ صَوتي لَمَا جِئْتَ ! فَخَرَجْتُ ، فَقُلْتُ : سَلْ أَضْيَافَكَ ، فَقَالُوا : صَدقَ ، أَتَانَا بِهِ . فَقَالَ : إِنَّمَا انْتَظَرْتُموني وَاللَّهِ لا أَطعَمُه اللَّيلَةَ ، فَقَالَ الآخَرُونَ : وَاللَّهِ لا نَطعَمُه حَتَّى تَطْعَمَهُ ، فَقَالَ : وَيلَكُمْ مَا لكم لا تَقْبَلُونَ عَنَّا قِرَاكُمْ ؟ هَاتِ طَعَامَكَ ، فَجَاءَ بِهِ ، فَوَضَعَ يَدَه ، فَقَالَ : بِسمِ اللَّهِ . الأولى مِنَ الشَّيطَان ، فَأَكَلَ وَأَكَلُوا (١) . متفقٌ عليه .

قوله : « غُنْثَر » بغَينٍ معجمةٍ مضمومةٍ ، ثم نونٍ ساكِنَةٍ ، ثم ثاءٍ مثلثةٍ : وهو الغَبِيُّ الجَاهِلُ ، وقوله : « فجدَّعَ » أَي : شَتَمَه ، وَالجَدع : القَطْعُ . قوله : « يجِدُ عليَّ » هو بكسرِ الجيمِ ؛ أَي : يَغْضَبُ .

الشرح

هذه القصة في باب كرامات الأولياء التي رواها أنس عما حصل للنبي ﷺ ، وذلك أن قومًا من المهاجرين ، كانوا يأتون إلى المدينة وهم قوم فقراء ليس عليهم إلا ثيابهم وليس عندهم شيء ، وكان في المسجد صُفَّة يأوون إليها ، ثم ييسر اللَّه لهم من يأتي إليهم ويحملهم معه إلى بيته ويطعمهم ، في ذات ليلة قال النبي ﷺ : « من كان عنده طعام اثنين فليذهب بثالث ، ومن كان عنده طعام أربعة فليذهب بخامس » ، وهكذا ، أي أمر أصحابه أن يأخذوا معهم أصحاب الصفة ليطعموهم ، وكان النبي ﷺ أكرم الناس ، ذهب بعشرة ﷺ ، وذهب أبو بكر بأربعة ، وذهب الناس بعضهم بثلاثة ، وبعضهم بأربعة ، حسب حالهم . أبو بكر رضي الله عنه ذهب بأضيافه إلى بيته وأوصى ابنه عبد الرحمن أن يقوم بضيافتهم ، وانطلق هو إلى النبي ﷺ ؛ لأنه رضي الله عنه كان أشد الناس ملازمة بالرسول ﷺ يكون معه دائمًا ، فذهب إلى النبي ﷺ وتعشى عنده ، ثم رجع إلى أهله وقد مضى شيء من الليل ، فسألهم : أطعمتم أضيافكم ؟ فقالوا : لا ، فظن أنهم هم الذين تأخروا عن أضيافهم حتى يأتي أبو بكر

---

(١) أخرجه البخاري في المناقب (٣٥٨١) ومسلم في الأشربة (١٧٦) وأحمد في مسنده (١٩٧/١) . قوله «فليذهب بثالث » أي فإن طعامهما يكفي ثلاثة ، قوله : « إلاربا من أسفلها » أي زاد الموضع الذي نأخذ منه ، قوله «فنظر إليها » أي إلى القصعة .

ﷺ ، فجعل يسب ويجدع ، يعني معناه أنه اشتد في سبه ، ونادى ابنه عبد الرحمن ، يا عبد الرحمن ، فلم يجبه ، خوفًا منه ؛ لأنه ﷺ كان شديدًا على أهله في تأديبهم ، فلم يجبه خوفًا من أن يتكلم عليه ، أو يضربه ، أو ما أشبه ذلك ، حتى أقسم عليه أنه إذا كان يسمعه فليجبه ، فأجابه ، فقال لهم : لماذا أخرتم ضيافة القوم ؟ قالوا : اسأل أضيافك ، فسألهم ، قالوا : نعم ، هم عرضوا علينا الضيافة ، ولكن أبينا حتى تأتي ، فأقسم ﷺ أن لا يأكل ، قال : واللّه ما آكل ، يعني أنكم تأخرتم من أجلي إذن أنا لا آكل ، وأقسم أن لا يأكل ، فأقسم الأضياف أن لا يأكلوا ، إكرامًا له ، فصار عندنا الآن قَسَمان ، أقْسَم أبي بكر ﷺ أن لا يأكل ، وأقسم الأضياف أن لا يأكلوا ، فأيهم أولى ؟ أن نبر بقسم أبي بكر ويأكل الأضياف ، أو بقسم الأضياف ولا يأكلون ، الثاني أولى ، فقال ﷺ : إنما ذلك من الشيطان ، يعني كونه يحلف أن لا يأكل ، هذا من الشيطان ، ثم أكل وأكل الأضياف ، لكن الكرامة التي حصلت أن الواحد منهم إذا أخذ لقمة من الإناء ارتفع الإناء ، صار بدل اللقمة أكثر منها في نفس الإناء ، من أين جاء هذا ؟ من اللّه عَجَلَّ كرامة لأبي بكر ﷺ لأنه أفضل أولياء هذه الأمة على الإطلاق ، لأنه خير هذه الأمة ، ثم انتهوا فبقي في الإناء أكثر مما كان فيه من قبل ، فأخذه أبو بكر وذهب به إلى النبي ﷺ ، ودعا النبي ﷺ إليه أقوامًا فأكلوا .

وإنما حمله أبو بكر لِيُرِيَهُ النبي ﷺ وكيف كان هذا الأمر من عند اللّه عَجَلَّ الذي بيديه ملكوت كل شيء ، وإذا أراد شيئًا فإنما يقول له كن فيكون .

الشاهد من هذا الحديث : هذه الكرامة لولي من أولياء اللّه وهو أبو بكر ﷺ ونحن نشهد أنه ولي من أولياء اللّه ، وأنه أفضل أولياء اللّه على الإطلاق ما عدا النبيين والمرسلين ؛ لأنه ﷺ من الصديقين يعني في المرتبة الثانية من صالح الأمم ، قال اللّه تعالى : ﴿ وَمَن يُطِعِ اللَّهَ وَالرَّسُولَ فَأُولَٰئِكَ مَعَ الَّذِينَ أَنْعَمَ اللَّهُ عَلَيْهِم مِّنَ النَّبِيِّينَ وَالصِّدِّيقِينَ وَالشُّهَدَاءِ وَالصَّالِحِينَ ﴾ [النساء : ٦٩] فهو ﷺ أفضل الصديقين منذ خلق اللّه آدم إلى أن يرث اللّه الأرض ومن عليها ، وهو من أولياء اللّه ، وهذه من كرامته ﷺ وفي الحديث فوائد كثيرة .

ومن فوائد هذا الحديث : أن الإنسان إذا غضب بسبب يقتضي الغضب فإنه لا يُلام عليه ؛ لأن أبا بكر ﷺ غضب فسبَّ وجدَّع ، وحتى أن ابنه عبد الرحمن اختفى منه ، خوفًا منه ، وجعل ينادي ويقول : (يا غنثر) والغنثر هو الغبي الجاهل ، فهذا دليل على أن الإنسان إذا غضب لسبب يقتضي الغضب فإنه لا يلام عليه ، ولا يخدش من فضله ولا مرتبته .

وفيه أيضًا : أنه لا بأس أن الإنسان يصف ابنه أو من له ولاية عليه بالغباوة والجهل إذا فَعَل فعلًا يقتضي أنه غبي جاهل وفيه أن من عادة الناس ، حتى في العهد القديم ، أن الضيف والمضيف يحصُل منهم الحلف والأيمان ، مثل : واللّه تأكل ، واللّه ما آكل ، واللّه تدخل ، واللّه ما أدخل ، ولكنهم يحلفون باللّه ، أما ما يفعله كثير من الجهلة اليوم ، يحلفون بالطلاق فهذا خطأ ، فكثير من البادية إذا نزل به ضيف ، وخاف الضيف أن صاحب البيت يذبح له ذبيحة ، قال : علي الطلاق ، وعلي الحرام ، وامراتي كأمي - والعياذ باللّه - إن ذبحت لي ذبيحة ، وهذا حرام ، « من كان حالفًا فليحلف باللّه أو

ليصمت » [١] فهذا لا يجوز . أما الحلف بالله فهذا قد جرت به العادة قديمًا ، وهو من عادات الناس العرب وشيمهم ، ومع هذا الأفضل أنك إذا حلفت على إنسان أن تقرنها بكلمة (إن شاء الله) تقول : والله إن شاء الله ، لأنك إذا قلت : والله إن شاء الله استفدت فائدتين عظيمتين :

الفائدة الأولى : أن الله يسهل لك الأمر .

والفائدة الثانية : أنه إذا لم يتيسر ، لم يكن عليك كفارة ، فاقرن يمينك دائمًا ، بقول : إن شاء الله ، حتى تسلم من الحنث ، وحتى يتيسر لك الأمر .

ألم يأتكم نبأ سليمان ؟ قال في يوم من الأيام ، والله لأطوفن اليوم على تسعين امرأة تلد كل منهن غلامًا يقاتل في سبيل الله ، يعني يجامع تسعين امرأة كل امرأة تلد غلامًا يقاتل في سبيل الله ، انظر كيف كان الأنبياء يحبون القتال ، تمنى أن يرزقه الله هذا العدد الكبير من الأولاد ليقاتلوا في سبيل الله ، ما قال ليعينوني (ليساعدوني) على التجارة ، على الزراعة ، على الدنيا ، لا ، يقاتلون في سبيل الله ، فقيل له : قُل : إن شاء الله ، فلم يقل إن شاء الله ، لأنه جَادٌّ عابد ، لكن وما تشاءون إلا أن يشاء الله ، جامع تسعين امرأة في تلك الليلة ، وقد أعطاه الله قوة ، فما الذي حصل ؟ ولدت واحدة منهن نصف إنسان أي مشلول ، آية من آيات الله ليريه الله ﷻ أن الأمر بيده ﷻ ، قال نبينا محمد ﷺ : لو قال : « إن شاء الله ، لم يحنث ولقاتلوا في سبيل الله » [٢] ، يعني لو قال : إن شاء الله لسهل الأمر ، و النبي ﷺ لما جاءه قريش ، قالوا : خبرنا عن قوم كانوا في الزمن الأول خرجوا من بلادهم وكانوا في غار ، أو قالوا : حدثنا عن ذي القرنين ، قال : غدًا أحدثكم ، والنبي ﷺ لا يدري ما قصتهم ؛ لأنه لا أدركها ولا هناك تواريخ موثوقة ، فقال : غدًا أخبركم ، جاء الغد وما نزل عليه الوحي ؛ لأن رسول الله ﷺ يعلم أن الوحي ينزل عليه بالليل ، ما نزل الوحي ، اليوم الثاني ما نزل الوحي ، الثالث ، الرابع ، الخامس ، بقي خمسة عشر يومًا ، وما نزل عليه الوحي ، وهذا سيكون شديدًا على الرسول ﷺ ؛ لأنه وعد قريشًا أعداءه أنه سوف يخبرهم في الغد ، ولم يخبرهم ، فأنزل الله القصة وقيل له : ﴿ وَلَا تَقُولَنَّ لِشَاْىْءٍ إِنِّي فَاعِلٌ ذَٰلِكَ غَدًا ۝ إِلَّآ أَن يَشَآءَ ٱللَّهُ ﴾ [٣] [الكهف: ٢٣] فالأمر بيد الله ، لهذا نقول : إذا أردت أن تحلف ، أي على نفسك ، على أولادك ، على ضيفك ، على أي إنسان ، اقرن ذلك بكلمة : إن شاء الله ؛ لتحصل على هاتين الفائدتين ، وهما ، التيسير أن الله ييسر الأمر ويعطيك ما حلفت عليه ، والثانية أنه لو أخلفت الأمور ؛ فإنه لا كفارة عليك . والله الموفق .

ونريد أن نكمل الكلام عن حديث أبي بكر ﷺ مع أضيافه ، وقد ذكرنا أنه ﷺ أقسم أن لا يأكل ، ثم أقسم الأضياف أن لا يأكلوا ، فلما رآهم أقسموا أكل ، ففي هذا دليل على أن الإنسان إذا حلف على شيء ثم رأى غيره خيرًا منه ؛ فإنه يكفر عن يمينه ويفعل ما هو خير ، وهذا قد دل عليه حديث صريح عن

---

(١) أخرجه البخاري في الشهادات (٢٦٧٩) ومسلم في الأيمان (٣) وأحمد في مسنده (٢/٥٢٠) .
(٢) أخرجه البخاري في الكفارات (٦٧٢٠) ومسلم في الإيمان (٢٣) وأحمد في مسنده (٢/٢٧٥) .
(٣) انظر القصة في تفسير الطبري (١٥/٢٨٥) وزاد المسير (٥/١٢٧) .

النبي ﷺ فقال : « إني - والله - إن شاء الله لا أحلف على يمين فأرى غيرها خيرًا منها إلا أتيتُ الذي هو خير وكفرتُ عن يميني » أو قال : « إلا كفرت عن يميني وأتيت الذي هو خير » [١] فإذا حلفت أن لا تكلم فلانًا مثلًا فالأفضل أن تحنث ، وتكفر عن يمينك وتكلمه ، وإذا صار بينك وبينه شيء ، وقلت : والله ما أطرق عليه البيت ، أو لا أزوره ، قلنا له : زُرْه وكَفِّرْ عن يمينك ما في ذلك إثم ، وكذلك إذا حلف الإنسان على ولده إن فعل شيئًا أن لا أكلمك ، ففعل الولد الشيء ، فليكلمه ويكفر عن يمينه ، المهم أنك إذا حلفت على شيء ثم رأيت أن الخير في عدم وفائك باليمين ، فلا تفِ بيمينك وكفر عنه .

ومن فوائد الحديث أيضًا : أن الإنسان إذا حلف على شخص يريد إكرامه ، ثم لم يفعل ؛ فإنه لا كفارة عليه ؛ لأن أبا بكر ﷺ لم يكفر عن يمينه ، يعني لم يُنقل أنه كَفَّرَ ، هكذا استدل بعض العلماء بهذا الحديث ، لكنه استدلال ضعيف ؛ لأن حديث أبي بكر هذا ليس فيه أنه كَفَّرَ ولا أنه لم يكفر .

فهو إذًا محتمل أن يكون كَفَّرَ ولم يُذكر ، أو محتمل أن يكون لم يكفر ، لكن عندنا نصوص بينة واضحة على أن من حنث في يمينه فعليه الكفارةَ ، سواء كان الحنث مِنْ فعله أو من فعل الغير ، وعلى هذا فنقول : إذا حلفت على شخص إكرامًا له ولم يفعل فعليك الكفارة ، مثال ذلك : وقفت أنت وشخص عند الباب في دعوة دعاكم إليها صاحب البيت ففتح الباب ، فقال لك : ادخل ، قلتَ : والله ما أدخل ، والله تدخل أنت ، قال : لا أدخل ، فهنا نقول : إذا دخلت فإنك تكفر عن يمينك وإن كان حلفك من أجل الإكرام لكنك حنثت ، فإذا حنثت في يمينك ؛ فعليك الكفارة سواء كان ذلك إكرامًا أو حنثًا أو غير ذلك . فإذا قال قائل : أبو بكر ﷺ هو الذي حلف أولًا وكان على الضيوف أن يبروا بيمينه ، ولكنهم حلفوا ، فإذا تحالف اثنان ، أحدهم يقول كذا ، والثاني يقول كذا ، فأيهما أولى ؟ قلنا : الأولى أن يكون الذي حلف الأول هو الذي تُبر يمينه ؛ لأنه أسبق وقد أمر النبي ﷺ بإبرار القسم [٢] ، فعلى هذا فيكون الثاني هو الذي حصل منه نوع الخطأ ، فإذا قلت : والله لتفعلن كذا ، فقلت أنت : والله لا أفعله ، فأيهما الذي تسري يمينه ، الأول أم الثاني ؟ الأول ؛ لأنه هو الذي حلف أولًا ، لكن أبا بكر ﷺ من تواضعه ، أكل من أجل إكرام الضيوف .

وفي حديث أبي بكر ﷺ من الفوائد : أن الإنسان ينبغي له أن يكرم الضيف ، بل إكرام الضيف من تمام الإيمان ، لقول النبي ﷺ : « من كان يؤمن بالله واليوم الآخر فليكرم ضيفه » [٣] وحق الضيافة الواجب يوم وليلة ، وثلاثة أيام سُنة ، وما زاد عن ذلك فهو أمر مباح [٤] ، لكن الواجب يوم وليلة ، وقد قيد بعض العلماء هذا فيما إذا كان البلد ليس فيها مطاعم ، أما إذا كان فيها مطاعم فلا

---

(١) أخرجه مسلم في الأيمان (٧ ، ١٠) والبيهقي في السنن (٣٢/١٠) .

(٢) انظر ذلك في البخاري في الأيمان والنذور (٦٦٥٤) ومسلم في اللباس (٣) وأحمد في مسنده (٢٨٤/٤) .

(٣) أخرجه البخاري في الأدب (٦١٣٨) ومسلم في الإيمان (٧٤) وأبو داود في السنن (٣٧٤٨) والترمذي في السنن (١٩٦٧) .

(٤) ويدل لذلك ما أخرجه أحمد في مسنده (٥١٠/٢) والبيهقي في السنن (١٩٧/٩) .

يجب عليك ، تقول له : اذهب إلى المطعم ، ولكن تعينه بما تيسر من النقود ، والصحيح في هذه المسألة أن الناس يختلفون ، من الناس أي من الضيوف من يرى أن ذهابه إلى المطعم فيه إهانة ، فهذا لابد أن تضيفه في بيتك ، ومنهم يكون الأمر عنده سواء ، فهنا لا حرج عليك أن تقول : يا أخي هذه دراهم اذهب إلى المطعم الفلاني ، كذلك أيضًا إذا كانت البلد فيها فنادق ؛ فإنه في هذا الحال لو قيل بأنه لا يجب كما قال بعض أهل العلم ، لكن الفندق يأتي إليه الشريف والوضيع وكل أحد ، لكن لا شك أن الإنسان إذا قصدك وأتى إلى بيتك وقال : أنا ضيفك ، أنَّ الأولى أن تضيفه ، إلا أن يكون في ذلك ضرر أو تفويت مصالح أهم ، فلكل مقام مقال . والله الموفق .

* * *

١٥٠٤ - وَعَنْ أَبِي هُرَيرَةَ ﷺ قَالَ : قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ : « لَقَدْ كَانَ فِيمَا قَبْلَكُم مِنَ الأُمَمِ نَاسٌ مُحَدَّثونَ ، فَإن يَكُ فِي أُمَّتِي أحَدٌ ؛ فإنَّهُ عُمَرُ »[1] رواه البخاري ، ورواه مسلم من رواية عائِشَةَ ، وفي رِوايَتِهِما قالَ ابنُ وَهْبٍ : « مُحَدَّثُونَ » أي : مُلْهَمُونَ .

الشرح

سبق لنا ذكر ما يتعلق بقضية أبي بكر الصديق ﷺ فيما أكرمه الله به من الكرامة ، ثم أتى المؤلف رحمه الله بحديث لأبي هريرة في كرامة لأمير المؤمنين عمر بن الخطاب ﷺ حيث قال النبي ﷺ : « كان فيما كان قبلكم مُحدثون » - يعني : ملهمون للصواب ، يقولون قولًا فيكون موافقًا للحق ، وهذا من كرامة الله للعبد أن الإنسان إذا قال قولًا ، أو أفتى بفتوى ، أو حكم بحكم ؛ تبين له بعد ذلك أنه مطابق للحق ، فعمر ﷺ من أشد الناس توفيقًا للحق ، كما سيأتي إن شاء الله تعالى فيما سيذكره المؤلف من أمثلة لذلك ، قال النبي ﷺ : « فإن يكن فيكم محدثون فعمر » يعني إن كان فيكم محدثون فعمر ، ويحتمل قوله : « إن يكن فيكم » إنه خطاب لقوم مجتمعين ليس فيهم أبو بكر ، ويحتمل أنه خطاب إلى الأمة كلها ومن بينهم أبو بكر ﷺ ، فإن كان الأول ؛ فلا إشكال ، وإن كان الثاني ؛ فقد يقول قائل : كيف يكون عمر مُلهمًا وأبو بكر ليس كذلك ؟ فيقال : إن أبا بكر ﷺ يُوفّق للصواب بدون إلهام ، بمعنى أنه ﷺ من ذات نفسه بتوفيق الله ﷻ يُوَفَّق للصواب ويدل على هذا عدةُ مسائل ؛ يعني يدل على أن أبا بكر أشد توفيقًا للصواب من عمر عدةُ مسائل :

أولًا : في صلح الحديبية لما اشترطت قريش على النبي ﷺ شروطًا يبدو أنها ثقيلة عظيمة ، عمل عمر ﷺ على إبطالها ، وجاء إلى النبي ﷺ يراجعه في ذلك ويقول : كيف نُعْطَى الدنية في ديننا ، كيف نشترط على أنفسنا أن من جاءنا منهم مسلمًا ، رددناه إليهم ، ومن جاءهم منا لا يردونه هذا ثقيل ، ولكن النبي ﷺ قال له : « إني رسول الله ولست عاصيه وهو ناصري » ، فذهب عمر ﷺ إلى أبي بكر ﷺ يريد أن يستنجد به في إقناع الرسول ﷺ فكلم أبا بكر ، فقال له أبو بكر مثل قول

(١) أخرجه البخاري في المناقب (٣٦٨٩) ومسلم في فضائل الصحابة (٢٣) .

الرسول ﷺ سواء بسواء ، قال : إنه رسول الله وليس بعاصيه وهو ناصره فاستمسك بغد [١] ، يعني لا يكن عندك شك في أمره ، فهذه واحدة . إذن من الموفق إلى الصواب في هذا ؟ أبو بكر لا شك ؟

ثانيًا : في موت الرسول ﷺ ، لما شاع الخبر في المدينة أن النبي ﷺ مات . قام عمر في الناس وقال : إنه لم يمت وإنما صعق وليبعثنه الله ، فليقطعن أيدي أقوام وأرجلهم من خلاف ، وأنكر أن يكون قد مات ، وكان أبو بكر قد خرج ذلك اليوم إلى بستان له خارج المدينة فلما رجع وجد النبي ﷺ قد مات حقًّا ، فخرج إلى المسجد وصعد المنبر ، وقال كلماته المشهورة التي تكتب بأغلى من ماء الذهب . قال : أما بعد أيها الناس ، من كان يعبد محمدًا فإن محمدًا قد مات ، ومن كان يعبد الله ؛ فإن الله حي لا يموت ، ثم قرأ قول الله تعالى : ﴿ إِنَّكَ مَيِّتٌ وَإِنَّهُم مَّيِّتُونَ ﴾ [الزمر : ٣٠] وقوله تعالى : ﴿ وَمَا مُحَمَّدٌ إِلَّا رَسُولٌ قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِهِ الرُّسُلُ أَفَإِيْن مَّاتَ أَوْ قُتِلَ انقَلَبْتُمْ عَلَىٰٓ أَعْقَـٰبِكُمْ ﴾ [آل عمران : ١٤٤] قال عمر : فوالله ما إن تلاها أبو بكر حتى عقرت ، فما تحملني رجلاي ، يعني الإنسان إذا خاف واشتد به الشيء ما يقدر أن يقف [٢] ، هذه الثانية .

ثالثًا : إنه لما توفي الرسول ﷺ ارتد من ارتد من العرب ، كفروا والعياذ بالله ، وكان النبي ﷺ قد جهز جيشًا أميره أسامة بن زيد ، ليقاتل أدنى أهل الشام والجيش كان ظاهر المدينة ولكن لم يسيروا بعد ، ولما ارتد العرب جاء عمر لأبي بكر ، وقال : لا ترسل الجيش ، نحن في حاجة ، فقال له أبو بكر : والله لا أحلنَّ راية عقدها رسول الله ﷺ ، وسيرهم أبو بكر [٣] ، فكان الصواب مع أبو بكر ﷺ لأن الناس لما سمعوا أن أهل المدينة أرسلوا الجيوش إلى أطراف الشام ، قالوا : هؤلاء عندهم قوة ولا يمكن أن نرتد ، فامتنع كثير من الناس عن الردة وبقوا في الإسلام ، المهم أن أبا بكر ﷺ أبلغ من عمر ، ﷺ في إصابة الصواب لا سيما في المواضع الضيقة ، وعلى كل حال كلا الرجلين ﷺ ، كلاهما موفق إلى الصواب ، جمعنا الله وإياكم بهما في الجنة ، وكل ما كان الإنسان أقوى إيمانًا بالله وأكثر طاعة لله وفقه الله تعالى إلى الحق بقدر ما معه من الإيمان والعلم والعمل الصالح ، تجده مثلًا يعمل عملًا يظنه صوابًا بدون ما يكون معه دليل من الكتاب والسنة ، فإذا راجع أو سأل ، وجد أن عمله مطابق للكتاب والسنة ، وهذه من الكرامات ، فعمر ﷺ قال فيه الرسول ﷺ إن يكن فيكم محدثون فإنه عمر .

* * *

١٥٠٥ - وَعَنْ جَابِرِ بن سَمُرَةَ ﷺ قَالَ : شَكَا أَهْلُ الكُوفَةِ سَعْدًا - يَعْنِي : ابْنَ أَبِي وَقَّاصٍ ﷺ إلى عُمَرَ بن الخَطَّاب ﷺ فَعَزَلَهُ وَاسْتَعْمَلَ عَليهِمْ عَمَّارًا ، فَشَكَوا [٤] حَتَّى ذكرُوا أَنَّهُ لا يُحسِنُ يُصَلِّي ، فَأَرْسَلَ إِلَيهِ ، فَقَالَ : يَا أَبَا إِسْحَاقَ ، إِنَّ هؤلاءِ يَزْعُمُونَ أَنَّكَ لا تُحْسِنُ تُصَلِّي ، فَقَالَ : أَمَّا أَنَا وَاللَّهِ فَإِنِّي

---

(١) انظر القصة في أحمد في مسنده (٤/٣٣٠) والبيهقي في السنن (٩/٢٢٠) .
(٢) انظر ذلك في البخاري في فضائل أصحاب النبي (٣٦٦٨) .
(٣) انظر ذلك في تاريخ الطبري (٣/٢٦٧ ، ٢٦٨) .
(٤) أي من سعد ﷺ .

كُنْتُ أَصَلِّي بِهِمْ صَلاةَ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ ، لا أَخرِمُ عَنْهَا ؛ أَصَلِّي صَلاةَ العِشَاءِ فَأَرْكُدُ فِي الأُولَيَيْنِ ، وَأُخِفُّ فِي الأُخرَيَيْنِ ، قالَ : ذلِكَ الظَّنُّ بِكَ يَا أَبا إسْحَاقَ ، وَأَرْسَلَ مَعَهُ رَجُلًا - أو رِجَالًا - إلى الكُوفَةِ يَسْأَلُ عَنْهُ أَهْلَ الكُوفَةِ ، فَلَمْ يَدَعْ مَسْجِدًا إلا سَأَلَ عَنْهُ ، وَيُثْنُونَ مَعْرُوفًا ، حَتَّى دَخَلَ مَسْجِدًا لِبَنِي عَبْسٍ ، فَقَامَ رَجُلٌ مِنْهُمْ ، يُقَالُ لَهُ أُسَامَةُ بْنُ قَتَادَةَ ، يُكَنَّى أَبَا سَعْدَةَ ، فَقَالَ : أَمَا إِذْ نَشَدْتَنَا فَإِنَّ سَعْدًا كَانَ لا يَسِيرُ بِالسَّرِيَّةِ ، ولا يَقْسِمُ بالسَّوِيَّةِ ، وَلا يَعْدِلُ فِي القَضِيَّةِ ، قَالَ سَعْدٌ : أَمَا وَاللَّهِ لأَدْعُوَنَّ بثلاث : اللَّهُمَّ إنْ كَان عَبْدُكَ هذا كَاذِبًا ، قَامَ رِيَاءً ، وَسُمْعَةً ، فَأَطِلْ عُمُرَهُ ، وَأَطِلْ فَقْرَهُ ، وَعَرِّضْهُ لِلفِتَنِ ، وَكَانَ بَعْدَ ذلكَ إذا سُئِلَ يَقُولُ [١] : شَيْخٌ كَبِيرٌ مَفْتُونٌ ، أَصَابَتْنِي دَعْوَةُ سَعْدٍ .

قَالَ عَبْدُ المَلِكِ بْنُ عُمَيرٍ الرَّاوِي عَنْ جَابِرِ بن سَمُرَةَ : فَأَنَا رَأَيْتُهُ بَعْدُ قَدْ سَقَطَ حَاجِبَاهُ عَلى عَيْنَيهِ مِنَ الكِبَرِ ، وَإِنَّهُ لَيَتَعَرَّضُ للجَوَارِي فِي الطُّرُقِ فَيَغْمِزُهُنَّ [٢] . متفقٌ عليه .

الشرح

هذه من الكرامات التي نقلها المؤلف رحمه الله في كتابه وهي ما رواه جابر بن سمرة في قصة سعد ابن أبي وقاص رضي الله عنه ، وكان سعد معروفًا بإجابة الدعوة (مستجاب الدعاء) يعني أن اللَّه أعطاه كرامة وهو أن اللَّه تعالى يجيب دعوته إذا دعا ، وقد جعله أمير المؤمنين عمر بن الخطاب أميرًا على أهل الكوفة ؛ لأن المسلمين لما فتحوا العراق مَصَّروا الأمصار وجعلوا البصرة والكوفة وهما أشهر ما يكون في العراق ، ثم إن أمير المؤمنين جعل لهم أمراء ، فأمَّرَ سعد بن أبي وقاص على الكوفة ، فشكاه أهل الكوفة إلى أمير المؤمنين عمر ، حتى قالوا إنه لا يحسن أن يصلي ، وهو صحابي جليل شهد له النبي ﷺ بالجنة ، فأرسل إليه عمر ، فحضر وقال له : « إن أهل الكوفة شكوك حتى قالوا : إنك لا تحسن تصلي » فأخبره سعد رضي الله عنه أنه كان يصلي بهم صلاة النبي ﷺ وذكر صلاة العشاء وكأنها - واللَّه أعلم - هي التي وقع تعيينها من هؤلاء الشكاة ، فقال : « إني لأصلي بهم صلاة رسول اللَّه ﷺ ، لا أخرم عنها » يعني لا أدعها ، فكنت أُطوِّل في العشاء بالأولين وأقصر في الأخرين ، فقال له عمر رضي الله عنه : « ذلك الظن بك يا أبا إسحاق » فزكاه عمر ؛ لأن هذا هو الظن به ، إنه يحسن الصلاة ، وإنه يصلي بقومه الذين أُمِّر عليهم صلاة النبي ﷺ ولكن مع ذلك تحرى عمر رضي الله عنه ؛ لأنه يتحمل المسئولية ويعرف قدر المسئولية ، أرسل رجالًا إلى أهل الكوفة يسألونهم عن سعد وعن سيرته ، فكان هؤلاء الرجال ، لا يدخلون مسجدًا ويسألون عن سعد إلا أثنوا عليه معروفًا . حتى أتى هؤلاء الرجال إلى مسجد بني عبس ، فسألوهم ، فقام رجل فقال : أما

---

(١) أي أسامة بن قتادة ، الذي قال عن سعد ما قال .

(٢) أخرجه البخاري في الأذان (٧٥٥) ومسلم في الصلاة (١٥٨) نحوه . قوله : « واستعمل » أي ولي عليهم ، قوله : « لا أخرم » أي لا أنقص ، قوله : « فأركد » أي أقوم طويلًا ، قوله : « ويثنون معروفًا » أي يمدحونه بالخير ، قوله : « نشدتنا » أي طلبت قولنا ، قوله : « لا يسير بالسرية » أي لا يخرج مع السرية من الجيش ، قوله : « ولا يقسم بالسوية » أي أنه يؤثر بالعطاء من يشاء ويحرم منْ هو له أهل ، قوله : « ولا يعدل في القضية » أي لا يحكم بالعدل .

ناشدتمونا ، فإن هذا الرجل « لا يعدل في القضية ، ولا يسير في السرية ، ولا يقسم بالسوية » فقولهُ « لا يسير في السرية » يعني لا يخرج في الجهاد ، ولا يقسم بالسوية إذا غنم ، ولا يعدل في القضية إذا حكم بين الناس ، فاتهمه هذه التهم ، فهي تهم ثلاث « فقال : أما إن قلت كذا » (المتحدث سعد بن أبي وقاص ﷺ) « فلأدعون عليك بثلاث دعوات » دعا عليه أن يطيل اللَّه تعالى عمره ، وفقره ، ويُعرضه للفتن ، نسأل اللَّه العافية ، ثلاث دعوات عظيمة ، لكنه ﷺ استثنى ، قال : إن كان عبدك هذا قام رياء وسمعة يعني لا بحق ، فأجاب اللَّه دعاءه ، فكان هذا الرجل طويل العمر ، حتى إن حاجبيه سقطت على عينيه من الكبر ، وكان فقيرًا ، وعرض للفتن ، حتى وهو في هذه الحال وهو كبير إلى هذا الحد كان يتعرض للجواري ، يتعرض لهن في الأسواق ليغمزهن والعياذ باللَّه ، وكان يقول عن نفسه : شيخ مفتون كبير أصابتني دعوة سعد ، فهذه من الكرامات التي أكرم اللَّه بها سعد بن أبي وقاص ﷺ .

وفيه فوائد عديدة : منها : أن من تولى أمرًا في الناس فإنه لا يسلم منهم مهما كانت منزلته ، لا بد أن يناله السوء ، ولهذا قال ابن الوردي في منظومته المشهورة ، التي أولها :

اعتَزِلْ ذِكْرَ الأغانِي والغَزَلْ وقُلْ الفَصْلَ وجَانِبْ مَنْ هَزل
وَدَعْ الذِّكْرَى لأيامِ الصِّبا فَلأيام الصبى نَجْمٌ أفَلْ

قال فيها من جملة ما قال من حكم :

إنَّ نِصْفَ الناسِ أعداءٌ لمن ولي الأحكَامَ هذا إنْ عَدَلْ

ومن الفوائد أيضًا في هذا الحديث : جواز دعاء المظلوم على ظالمه بمثل ما ظلمه ، كما دعا سعد بن أبي وقاص ﷺ بهذه الدعوات على من ظلمه .

ومن فوائدها : إن اللَّه تعالى يستجيب دعاء المظلوم ، ولهذا قال النبي ﷺ لمعاذ بن جبل حين بعثه إلى اليمن وأمره أن يأخذ الزكاة من أموالهم ، قال : « إياك وكرائم أموالهم ، واتق دعوة المظلوم فإنه ليس بينها وبين اللَّه حجاب » [1] . فالمظلوم يستجيب اللَّه دعاءه حتى ولو كان كافرًا فلو كان كافرًا وظُلم ودعا على من ظلمه أجاب اللَّه دعاءه ؛ لأن اللَّه حكم عدل ﷻ ، يأخذ بالإنصاف والعدل لمن كان مظلومًا ولو كان كافرًا ، فكيف إذا كان مسلمًا ؟

ومن فوائد هذا الحديث : أنه يجوز للإنسان أن يستثني في الدعاء ، إذا دعا على شخص يستثني فيقول : اللَّهم إن كان كذا فافعل به كذا ، اللَّهم إن كان ظلمني فأنصفني منه أو قابله بكذا وكذا ، تدعو بمثل ما ظلمك ، وقد جاء الاستثناء في الدعاء في القرآن الكريم فقال اللَّه تبارك وتعالى ﴿ وَالَّذِينَ يَرْمُونَ أَزْوَاجَهُمْ وَلَمْ يَكُن لَّهُمْ شُهَدَاءُ إِلَّا أَنفُسُهُمْ فَشَهَادَةُ أَحَدِهِمْ أَرْبَعُ شَهَادَاتٍ بِاللَّهِ إِنَّهُ لَمِنَ الصَّادِقِينَ ۝ وَالْخَامِسَةُ أَنَّ لَعْنَتَ اللَّهِ عَلَيْهِ إِن كَانَ مِنَ الْكَاذِبِينَ ۝ وَيَدْرَأُ عَنْهَا الْعَذَابَ أَن تَشْهَدَ أَرْبَعَ شَهَادَاتٍ بِاللَّهِ إِنَّهُ لَمِنَ الْكَاذِبِينَ ۝ وَالْخَامِسَةَ أَنَّ غَضَبَ اللَّهِ عَلَيْهَا إِن كَانَ مِنَ الصَّادِقِينَ ﴾ [النور : ٦- ٩] .

---

(١) انظر الحديث في مسلم في الإيمان (١٩) والبيهقي في السنن (٩٦/٤) وابن خزيمة في صحيحه (٢٢٧٥) .

ومن فوائد هذا الحديث أيضًا : حرص أمير المؤمنين عمر ﷺ على الرعية وتحمله المسئولية والإحساس بها وشعوره بها ﷺ ، ولهذا اشتهر بعدالته ، وحسن سياسته في الأمور كلها ، الحربية والسلمية ، والدينية والدنيوية ، فهو في الحقيقة خير الخلفاء بعد أبي بكر ، بل حسنة من حسنات أبي بكر ﷺ ؛ لأن الذي ولاه على المسلمين هو أبو بكر ﷺ ، فالحاصل أن هذا الحديث فيه فوائد نقتصر منها على ذلك . (والله الموفق) .

* * *

١٥٠٦ - وَعَنْ عُرْوَةَ بنِ الزُّبَيرِ أَنَّ سَعِيدَ بْنَ زَيدِ بْنِ عَمْرِو بْنِ نُفَيلٍ ﷺ خاصَمَتْهُ أَرْوَى بِنْتُ أَوسٍ إلى مَرْوَانَ بْنِ الحَكَمِ ، وَادَّعَتْ أَنَّهُ أَخَذَ شَيئًا مِنْ أَرْضِهَا ، فَقَالَ سَعِيدٌ : أَنَا كُنْتُ آخُذُ مِنْ أَرْضِهَا شَيئًا بَعْدَ الَّذِي سَمِعْتُ مِنْ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ ؟! قَالَ : مَاذا سَمِعْت مِنْ رَسُول اللَّهِ ﷺ ؟ قَالَ : سَمِعْتُ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ يَقُولُ : « مَنْ أَخَذَ شِبْرًا مِنَ الأَرْضِ ظُلْمًا ، طُوِّقَهُ إلى سَبْعِ أَرَضِينَ » . فَقَالَ لَهُ مَرْوَانُ : لا أَسْأَلُكَ بَيِّنَةً بَعْدَ هذا ، فَقَالَ سَعِيدٌ : اللَّهُمَّ إنْ كَانَتْ كاذِبَةً ، فَأَعْمِ بَصَرَهَا ، وَاقْتُلْهَا في أَرْضِهَا ، قَالَ : فَمَا مَاتَتْ حَتَّى ذَهَبَ بَصَرُهَا ، وَبَينَمَا هِيَ تَمْشِي في أَرْضِهَا إذْ وَقَعَتْ في حُفْرَةٍ فَمَاتَتْ [1] . متفقٌ عليه .

وفي روايةٍ لمسلمٍ عَنْ مُحَمَّدِ بْنِ زَيدِ بْنِ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ عُمَرَ بِمَعْنَاهُ ، وَأَنَّهُ رَآهَا عَمْيَاءَ تَلْتَمِسُ الجُدُرَ تَقُولُ : أَصَابَتْنِي دَعْوَةُ سَعِيدٍ ، وَأَنَّهَا مَرَّتْ عَلى بِئْرٍ في الدَّارِ التي خاصَمَتْهُ فِيها ، فَوَقَعَتْ فِيهَا ، فَكَانَتْ قَبْرَها [2] .

الشرح

من كرامات الأولياء : أن الله ﷻ يجيب دعوتهم ، حتى يدركوها بأعينهم ، فهذا سعيد بن زيد بن عمرو بن نفيل ﷺ أحد العشرة المبشرين بالجنة ، خاصمته امرأة ادعت أنه أخذ شيئًا من أرضها ، فخاصمته عند مروان ، فقال : أنا آخذ من أرضها شيئًا بعد ما سمعت من رسول الله ﷺ ! قالوا : وما سمعت ؟ قال : سمعت النبي ﷺ يقول : « من اقتطع شبرًا من الأرض ظلمًا طوقه الله به يوم القيامة من سبع أراضين » « أو طوقه يوم القيامة من سبع أراضين » يعني فكيف آخذ منها بعد أن سمعت هذا من النبي ﷺ . كل مؤمن يؤمن بالله ورسوله ، إذا سمع مثل هذا الخبر الصادر عن الصادق المصدوق ﷺ ؛ فإنه لا يمكن أن يظلم أحدًا من أرضه ، ولا شبرًا ، فالرسول ﷺ يخبر أنك لو أخذت شبرًا من الأرض وقيده بالشبر من باب المبالغة ، وإلا فإن أخذ أقل من ذلك ولو سنتيمترًا واحدًا فإنه يطوق به يوم القيامة من سبع أراضين ، إذا كان يوم القيامة جاءت هذه القطعة التي أخذها مطوقة في عنقه من سبع أراضين ؛ لأن الأرضين سبع طباق ، كما قال الله تعالى ﴿ ٱللَّهُ ٱلَّذِى خَلَقَ سَبْعَ سَمَٰوَٰتٍ وَمِنَ ٱلْأَرْضِ مِثْلَهُنَّ ﴾ [الطلاق : ١٢] .

والإنسان إذا ملك أرضًا ، ملك قعرها إلى أسفل السافلين ، إلى الأرض السابعة ، وإذا ملكها أيضًا

(١) أخرجه البخاري في بدء الخلق (٣١٩٨) ومسلم في المساقاة (١٣٩) وأحمد في مسنده (١/١٨٨ ، ١٩٠) . قوله : « طوقه » أي جعل طوقًا في عنقه يخسف به إلى سبع أرضين ، قوله : « تلتمس الجدر » أي تتحسس الجدر لتهتدي إلى مقصدها .

(٢) أخرجه مسلم في المساقاة (١٣٨) .

ملك هواءها إلى الثريا ، لا أحد يستطيع أن يبني فوقه جسرًا أو أن يحفر تحته خندقًا ؛ لأن الأرض له إلى أسفل السافلين ، وإلى أعلى السماء ، كلها له ، إذا كان يوم القيامة وهذا قد اقتطع شبرًا من الأرض بغير حق ؛ فإنه يأتي يوم القيامة مطوقًا به عنقه . نسأل اللّٰه العافية .

وعند جميع أهل العلم كل شيء محشور يوم القيامة حتى الوحوش تحشر حتى الإبل حتى البقر كلها تحشر يوم القيامة ، وهذا يشاهد حاملًا هذه الأرض والعياذ باللّٰه من سبع أرضين ، ولهذا قال النبي ﷺ : « لعن اللّٰه من غير منار الأرض »[١] غير منارها أي غير مراسيمها فأدخل شيئًا ليس له ، وفي هذا دليل على أن قصف الأرض أو أخذ شيء بغير الحق من كبائر الذنوب لأن عليه هذا الويل العظيم ، اللعن وأنه يحمل به يوم القيامة ، فما بالك بقوم اليوم يأخذون أميالًا بل أميال الأميال ، والعياذ باللّٰه بغير الحق ، يأخذونها يضيقون بها مراعي المسلمين ، ويحرمون المسلمين من مراعيهم أو من طرقهم أو ما أشبه ذلك ، هؤلاء سوف يطوقون ما أخذوا يوم القيامة والعياذ باللّٰه ؛ لأنهم أخذوها بغير الحق ، المراعي للمسلمين عمومًا ، الخطوط الطرقات للمسلمين عمومًا ، الأودية أودية الأمطار للمسلمين عمومًا ، ولهذا قال العلماء : إن الإنسان لا يملك بالإحياء ما قرب من عامر ، وهو يتعلق بمصلحة هذا العامر ، حتى لو أحياها وغرسها يقلع غرسه ويهدم بناؤه إذا كان هذا يتعلق بمصالح البلد ، والبلد ليست ملكًا لفلان أو علان بل هي لعموم المسلمين ، حتى لو فرضنا أن ولي الأمر أقطع هذا الرجل من الأرض التي يحتاجها أهل البلد ؛ فإنه لا يملكها بذلك ؛ لأن ولي الأمر يفعل لمصالح المسلمين ، لا يخص أحدًا بمصالح المسلمين دون أحد ، وهذه المسألة خطيرة للغاية ، ولهذا لما ارتفعت قيم الأراضي صار الناس والعياذ باللّٰه يعتدي بعضهم على بعض ، يدعي أن الأرض له و هي ليست له يكون جارًا لشخص ثم يدخل شيئًا من أرضه إلى أرضه ، وهذا على خطر عظيم ، حتى إن العلماء - أقول لكم كلامًا تعجبون منه - قالوا : لو أن الإنسان بنى جدارًا ثم زاد في تشييده أي في لياصته (المحارة) دخل على السور سنتيمتر في المحارة ؛ فإنه يكون ظالمًا ويكون بذلك معاقبًا عند اللّٰه يوم القيامة[٢] ، إلى هذا الحد . الناسُ الآن والعياذ باللّٰه يبلعون أميالًا أو أمتارًا مع هذا الوعيد الشديد ، سعيد بن زيد ﷺ ، لما حدث مروان بهذا الحديث قال : الآن لا أطلب عليك بيِّنَة ؛ لأنه عارف أن سعيدًا لا يمكن أبدًا أن يأخذ من أرض هذه المرأة بدون حق ، أما المرأة فقال سعيد ﷺ : « اللَّهم إن كانت كاذبة فأعم بصرها ، وأهلكها في أرضها » فماذا كان ، هذه المرأة أعماها اللّٰه ﷻ قبل أن تموت ، وبينما هي تمشي في أرضها ذات يوم إذ سقطت في بئر فماتت فكانت البئر قبرها ، في نفس الأرض التي كانت تخاصم سعيد بن زيد ﷺ فيها ، وهذا من كرامة اللّٰه ﷻ لسعيد بن زيد أن اللّٰه أجاب دعوته وشاهدها حيًا قبل أن يموت ، وقد سبق لنا أن المظلوم تجاب دعوته ولو كان كافرًا ؛ لأن اللّٰه تعالى ينتصر للمظلوم من الظالم ؛ لأن اللّٰه تعالى حكم عدل لا يظلم ولا يمكن أحد من الظلم ، وقد

---

(١) أخرجه مسلم في الأضاحي (٤٤ ، ٤٥) وأحمد في مسنده (١٠٨/١ ، ١١٨) .

(٢) إلا ان يعفو جاره ويسمح .

قال اللَّه تعالى في القرآن الكريم : ﴿ إِنَّهُ لَا يُفْلِحُ الظَّالِمُونَ ﴾ [الأنعام : ٢١] فالظالم لا يفلح أبدًا ، ولذلك انظر إلى هذه القصة وإلى قصة سعد بن أبي وقاص ﷺ التي ذكرناها سابقًا وكيف أجاب اللَّه الدعوة وهذه هي عادة اللَّه ﷻ في عباده ، نسأل اللَّه أن يحمينا وإياكم من الظلم ، واللَّه الموفق .

* * *

١٥٠٧ - وَعَنْ جَابِرِ بْنِ عَبْدِ اللَّه ﷺ قَالَ : لمَّا حَضَرَتْ أُحُدٌ دَعاني أبي مِنَ اللَّيلِ فَقَالَ : مَا أُرَاني إلا مَقْتُولًا في أَوَّل مَنْ يُقْتَلُ مِنْ أَصْحاب النَّبيِّ ﷺ ، وَإِنِّي لا أَتْرُكُ بَعْدي أَعَزَّ عَلَيَّ مِنْكَ غَيرَ نَفْسِ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ ، وَإِنَّ عَلَيَّ دينًا فَاقْضِ ، وَاسْتَوْصِ بأَخَوَاتِكَ خَيرًا . فَأَصْبَحنَا ، فَكَانَ أَوَّلَ قَتيل ، وَدَفَنتُ مَعَهُ آخرَ في قَبْرِهِ ، ثُمَّ لم تَطِبْ نَفْسي أَنْ أَتْرُكَهُ مَعَ آخَرَ ، فَاسْتَخْرَجْتُهُ بَعْدَ سِتَّةِ أَشْهُرٍ ، فإذا هُوَ كَيَومَ وَضَعْتُهُ غَيرَ أُذنِه ، فَجَعَلْتُهُ في قَبْرٍ عَلى حِدَةٍ [1] . رواه البخاري .

الشرح

سبق لنا بيان شيء من كرامات الأولياء التي ذكرها المؤلف وذكر في هذا الحديث ما جرى لعبد اللَّه بن حرام ﷺ والد جابر بن عبد اللَّه ، فإنه أيقظ ابنه جابرًا ليلة من الليالي وقال : ما أراني إلا أول قتيل مع رسول اللَّه ﷺ و ذلك قبيل غزوه أحد ، ثم أوصاه وقال : إني لن أترك من بعدي أحدًا أعز منك بعد رسول اللَّه ﷺ ، وأوصاه بأن يقضي دينًا كان عليه ، وأوصاه بأخواته ، ثم كانت الغزوة فقاتل ﷺ (عبد اللَّه بن حرام) وقتل ، وكان القتلى في ذلك اليوم سبعين رجلًا ، فكان يشق على المسلمين أن يحفروا لكل رجلٍ قبرًا ، فجعلوا يدفنون الاثنين أو الثلاثة في قبر واحد ، فدفن مع أبي جابر (عبد اللَّه بن حرام) رجل آخر ، ولكن جابرًا ﷺ لم تطب نفسه حتى فرق بين أبيه وبين من دفن معه ، فحفره بعد ستة أشهر من دفنه فوجده كأنه دفن اليوم ، لم يتغير إلا شيئًا في أذنه شيئًا يسيرًا ، ثم أفرده في قبر ، أما جابر ﷺ : فقد وَفَّى دين أبيه واستوصى بأخواته خيرًا ، حتى إنه تزوج بعد ذلك امرأة ثيبا فسأله النبي ﷺ : « هل تزوجت ؟ » قال : نعم قال : « بكرًا أم ثيبًا ؟ » : قال : ثيبًا ، قال : « فهلا تزوجت بكرًا تلاعبك وتلاعبها ، وتضاحكك وتضاحكها » فقال : يا رسول اللَّه إن أبي ترك أخوات لي وذكر أنه أخذ الثيب لتقوم عليهن [2] (لتقوم على خدمتهم) . في هذه كرامة لأبي جابر وهو عبد اللَّه بن حرام أنه ﷺ صدق اللَّه رؤياه ، فصار أول قتيل في أحد ، دفن ولم تأكل الأرض منه شيئًا إلا يسيرًا ، وقد مضى عليه ستة أشهر وهذا من كراماته ، واعلم أن الإنسان إذا دفن فإن الأرض تأكله لا يبقى إلا عجب الذنب [3] ، وعجب الذنب هذا يكون كالنواة لخلق الناس يوم القيامة تنبت منه الأجساد ، إلا الأنبياء عليهم الصلاة والسلام فإن الأرض لا تأكلهم ، كما قال النبي

---

(١) أخرجه البخاري في الجنائز (١٣٥١) .

(٢) انظر الحديث في البخاري في النكاح (٥٠٨٠) .

(٣) انظر ذلك في مسلم في الفتن (١٤١ - ١٤٣) ومالك في الموطأ (الجنائز ٤٩) وأحمد في مسنده (٣١٥/٢) .

« إن اللَّه حرم على الأرض أن تأكل أجساد الأنبياء »[١] أما غير الأنبياء ؛ فإن الأرض تأكل أجسادهم ، ولكن قد يمنع اللَّه الأرض أن تأكل أحدًا كرامة له واللَّه الموفق .

* * *

١٥٠٨ - وَعَنْ أَنَسٍ ﷺ أَنَّ رَجُلَيـنِ مِنْ أَصْحَابِ النَّبيِّ ﷺ خَرَجَا مِنْ عِنْدِ النَّبيِّ ﷺ في لَيلَةٍ مُظْلِمَةٍ وَمَعَهُمَا مِثْلُ المِصْبَاحَينِ بَيـنَ أيدِيهِمَا ، فَلَمَّا افترَقَا ، صَارَ مَعَ كلٌّ وَاحِدٍ منهما وَاحدٌ حتى أَتَى أَهْلَهُ[٢] . رواه البخاري مِنْ طرُقٍ ، وَفي بعضِهَا : أَنَّ الرَّجُلَيـنِ أُسَيدُ بنُ حُضَيرٍ ، وَعَبَّادُ بنُ بِشرٍ ﷺ .

الشرح

هذا حديث ذكره النووي رَحِمَهُ اللَّهُ في كرامات الأولياء وفضلهم ، وهو حديث الرجلين أسيد بن حضير وعباد بن بشر ﷺ كانا عند النبي ﷺ في ليلة مظلمة وكان في ذات الوقت ليس في الأسواق أنوار بل ولا في البيوت مصابيح فخرجا من عند النبي ﷺ في تلك الليلة ، الليلة المظلمة ، فجعل اللَّه تعالى بين أيديهما مثل المصباحين ، يعني مثل لمبة الكهرباء تضيء لهما الطريق ، وليس هذا من فعلها ولا بسبب منهما ، ولكن اللَّه تعالى خلق نورًا يسعى بين أيديهما حتى تفرقا وتفرق النور مع كل واحدٍ منهم ، حتى بلغا بيوتهما ، وهذا كرامة اللَّه ﷻ ، فمن كرامة اللَّه تعالى أنه يضيء للعبد الطريق ، الطريق الحسي وفائدته الحسية ، فإن هذين الرجلين ﷺ وأرضاهما مشيا في إضاءة ونور بينما الأسواق ليس فيها إضاءة ولا أنوار والليلة مظلمة ، فَقيَّضَ اللَّه لهما هذا النور ، هناك أيضًا نور معنوي يقذفه اللَّه تعالى في قلب المؤمن كرامةً له ، تجد بعض العلماء يفتح اللَّه عليه من العلوم العظيمة الواسعة في كل فن ويرزقه الفهم والحفظ والمجادلة ، ومن هؤلاء العلماء شيخ الإسلام ابن تيمية رحمة اللَّه عليه ، فإن هذا الرجل مَنَّ اللَّه به على الأمة الإسلامية ومازالت الأمة الإسلامية تنتفع بكتبه إلى يومنا هذا وقد توفي سنة (٧٢٨ هـ) يعني منذ مئات السنين ، والأمة تنتفع بكتبه ، وقد أعطاه اللَّه تعالى علمًا عظيمًا وفهمًا ثاقبًا ، وقوة في المجادلة ، ولا أحد يستطيع أن يجادله في شيء أبدًا ، حتى إنه رَحِمَهُ اللَّهُ قال : أي إنسان يجادلني بالباطل ويستدل بآية أو حديث ؛ فإنني أنا سأجعل الآية والحديث دليلًا عليه وليست دليلًا له . وهذا من نعمة اللَّه ﷻ أن اللَّه تعالى يعطي الإنسان قدرة إلى هذا الحد ، وحتى إنه يتكلم مع المجادلين ويناظرهم ثم يقول لهم : انظروا إلى قول فلان من زعمائهم في كتابه الفلاني وأتباع هذا الرجل الذي يجادلون فيه شيخ الإسلام لا يعلمون عن كتبه شيئًا وهو يعلم ما في كتبه ، ومناظرته في العقيدة الواسطية مع القاضي المالكي عجيبة ، كان القاضي المالكي يحاول أن يجعل السلطان يبطش به ، لكنه هو يقول هذا لا يمكن ولا يجري على مذهبكم ، وأنتم أيها المالكية قلتم كذا وكذا . ولا يمكن أن يدين للوالي في هذا الذي ذكرت بناء على مذهبكم ، فيبهت الرجل ، كيف يعرف من مذهبنا ما لا نعلم . وله أيضًا رَحِمَهُ اللَّهُ في كل فن يد واسعة ،

---

(١) أخرجه ابن ماجه في السنن (١٠٨٥) وأحمد في مسنده (٨/٤) والحاكم في المستدرك (٥٦٠/٤) والبيهقي في السنن (٢٤٩/٣) .

(٢) أخرجه البخاري في مناقب الأنصار (٣٨٠٥).

فقد كان عالمًا في النحو والعربية والصرف والبلاغة . حتى إن تلميذه ابن القيم رَحِمَهُ اللهُ في بدائع الفوائد بحث بحثًا دقيقًا جدًّا جدًّا في الفرق بين « مَدَحَ » و « حَمِدَ » وكيف تفرق اللغة العربية بين المعاني في الكلمات بتقديم حرف أو تأخيره ، وأتى ببحث عجيب ، ثم قال : وكان شيخنا رَحِمَهُ اللهُ إذا تكلم بهذا أتى بالعجب العجاب ، يعني في مسألة اللغة والصرف ، ولكنه كما قال الشاعر :

تَأَلَّقَ البرقُ نجديًّا فقُلْتُ لَهُ ... إليك عَنِّي فإني عَنْكَ مَشْغُولُ

يعني شيخ الإسلام مشتغل بما هو أكبر من مسألة بلاغية أو صرفية ، فهو مشغول بأكبر من هذا ، وفي يوم من الأيام قدم مصر وكان فيها أبو حيان اللغوي المشهور والمفسر من العلماء الكبار في هذا الباب ، وكان أبو حيان يمدح شيخ الإسلام ابن تيمية رَحِمَهُ اللهُ ، وله في مدحه قصيدة عصماء ، منها قوله :

قَامَ ابنُ تَيْمِيَةَ في نَصْرِ شرعتنا ... مقام سيد تيم : إذ عصت مُضَر

والمقصود بسيد تيم : هو أبو بكر رضي الله عنه ، يعني أنه قام في الإسلام في محنة الإسلام والبدع مقام أبي بكر في يوم المحنة ، فلما قدم مصر ، جاء الناس إلى شيخ الإسلام ابن تيمية يستفيدون من علمه ويناقشونه وكان من بينهم أبو حيان ، فناقشه في مسألة نحوية ؛ لأن أبا حيان البحر المحيط في النحو ، ناقشه في مسألة نحوية ، فقال له شيخ الإسلام : هذا غلط ليس هذا من كلام العرب ، فقال له : كيف وسيبويه إمام النحويين ذكر هذا في كتابه ، فقال له شيخ الإسلام : وهل سيبويه نبي نحو يجب علينا أن نتبعه ؟ لقد أخطأ سيبويه في كتابه في أكثر من ثمانين موضعًا لا تعلمه أنت ولا سيبويه ، سيبويه عند النحويين مثل البخاري عند أهل الحديث ، فتعجب أبو حيان ، كيف يقول هذا الكلام ، ثم إنه ذهب عنه فأنشأ فيه قصيدة يذمه والعياذ بالله ، بالأمس يمدحه والآن يذمه . والمهم أني أقول : إذا كان الله تعالى يعطي بالكرامات نورًا حسيًّا يستضيء به الإنسان . كما حدث لهذين الصحابيين فكذلك يعطي الله نورًا معنويًّا يقذفه في قلب العبد المؤمن ، نسأل الله أن يقذف في قلوبنا نورًا وإياكم ، يستطيع الإنسان به أن يتكلم في شريعة الله ، وكأن النصوص بين عينيه ، وهذا من نعمة الله على العبد ، فنسأل الله تعالى أن يجعلنا من أوليائه المتقين وعباده الصالحين .

* * *

١٥٠٩ - وَعَنْ أبي هُرَيرَةَ رضي الله عنه قَالَ : بَعَثَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ عَشَرَة رَهْطٍ عَينًا سَرِيَّة ، وَأَمَّرَ عَليهِم عَاصِمَ بنَ ثابتٍ الأنصاريَّ رضي الله عنه فانْطَلَقُوا حتَّى إذا كَانُوا بِالهَدْأَةِ ، بَينَ عُسفَانَ وَمَكَّةَ ، ذُكِرُوا لِحَيٍّ مِنْ هُذَيل يُقَالُ لهُمْ : بَنُو لِحيَانَ ، فَنَفَرُوا لهُم بِقَرِيب مِنْ مائةِ رَجُلٍ رَامٍ ، فاقْتَصُّوا آثارَهُمْ ، فَلَمَّا أَحَسَّ بِهِمْ عَاصِمٌ وأَصْحَابُهُ ، لجَأُوا إلى مَوضِعٍ ، فَأَحَاطَ بِهِمُ القَومُ ، فَقَالُوا : انْزلوا ، فَاعْطُوا بأيديكم ولكُمْ العَهْدُ وَالمِيثَاقُ أَنْ لا نَقْتُلَ مِنْكُم أَحَدًا ، فَقَالَ عَاصِمُ بنُ ثابتٍ : أَيُّهَا القَومَ أَمَّا أنَا ، فَلا أَنْزلُ عَلى ذِمَّةِ كَافِرٍ : اللَّهُمَّ أَخبِرْ عَنَّا نَبِيَّكَ ﷺ ، فَرَمَوهُمْ بالنَّبْل فَقَتلُوا عَاصِمًا ، وَنَزَلَ إليهِمْ ثَلاثَةُ نَفَر عَلى العَهدِ والميثاقِ ، منْهُمْ خبيبٌ ، وَزَيدُ بْنُ الدَّثِنةِ ، وَرَجُلٌ آخرُ . فَلَمَّا اسْتَمْكَنُوا مِنْهُمْ أَطْلقُوا أَوتَارَ قِسيِّهِمْ ، فَرَبَطُوهُمْ بِهَا .

قَالَ الرَّجُلُ الثَّالِثُ : هذا أَوَّلُ الغَدْرِ ، واللَّهِ لا أَصْحَبُكُمْ إنَّ لي بِهؤلاءِ أُسْوَةً - يُرِيدُ القَتْلي - فَجَرُّوهُ وعالجوهُ ، فَأَبى أَنْ يَصْحَبَهُمْ ، فَقَتَلُوهُ ، وانطَلَقُوا بخبيبٍ وزَيدِ بن الدَّثِنَةِ ، حَتَّى باعُوهُمَا بمَكَّةَ بعَدَ وقْعَةِ بدرٍ ، فابتاع بَنُو الحَارِثِ بنِ عَامِرِ بن نوفَل بْن عَبْدِ مَنَافٍ خُبيبًا ، وكَانَ خُبيبٌ هُوَ قَتَلَ الحَارِثَ يَومَ بَدْرٍ ، فَلَبِثَ خُبَيبٌ عِنْدَهُم أَسيرًا حَتَّى أجْمَعُوا عَلى قَتْلِهِ ، فَاسْتَعَارَ مِنْ بعضِ بَنَاتِ الحارِثِ مُوسي يَستحِدُّ بهَا فَأَعَارَتْهُ ، فَدَرَج بُنَيٌّ لَها وَهِيَ غَافِلَةٌ حَتى أتاهُ فَوَجَدَتْهُ مُجْلِسَهُ عَلى فخذِهِ وَالمُوسي بِيَدِهِ ، فَفَزِعَتْ فَزْعَةً عَرَفَهَا خُبَيبٌ . فَقَالَ : أتخشَينَ أن أَقْتُلَهُ ؟ ما كُنْتُ لأفعَل ذلكَ ! قَالَت : واللَّهِ ما رَأَيتُ أسِيرًا خَيرًا مِنْ خُبَيب ، فوَاللَّهِ لَقَدْ وَجَدْتُهُ يومًا يَأْكُلُ قِطْفًا مِنْ عِنَبٍ في يَدِهِ وإِنَّهُ لَمُوثَقٌ بِالحَدِيد وما بمَكَّةَ مِنْ ثَمَرَةٍ ، وَكَانَتْ تَقُولُ : إنَّه لَرزقٌ رَزَقَهُ اللَّهُ خُبَيبًا ، فَلَمَّا خَرَجُوا بِهِ مِنَ الحَرَمِ لِيَقْتُلُوهُ في الحِلِّ ، قَالَ لهُم خُبَيبٌ : دَعوني أُصَلي رَكعَتَينِ ، فَتَرَكُوهُ ، فَرَكَعَ رَكْعَتَينِ ، فَقَالَ : واللَّهِ لَولا أَنْ تَحْسَبُوا أَنَّ مَا بي جَزَعٌ لَزِدْتُ . اللَّهُمَّ أَحْصِهِمْ عَدَدًا ، واقْتُلْهُمْ بِدَدًا ، ولا تُبْقِ مِنْهُم أَحَدًا ، وقالَ :

فَلَسْتُ أُبَالي حِينَ أُقْتَل مُسلِمًا على أَيِّ جَنْب كَانَ للّهِ مَصْرَعي
وذَلِكَ في ذَاتِ الإلهِ وَإنْ يَشَأْ يُبَارِكْ عَلى أوصَال شِلْوٍ مُمَزعِ

وَكَانَ خُبَيبٌ هُوَ الذي سَنَّ لِكُلِّ مُسلِمٍ قُتِلَ صَبْرًا الصَّلاةَ ، وَأَخْبَرَ - يعني النَّبيَّ ﷺ - أَصْحَابَهُ يَومَ أُصيبُوا خَبَرَهُمْ ، وَبَعَثَ نَاسٌ مِنْ قُرَيشٍ إِلى عاصِمِ بْنَ ثَابِتٍ حِينَ حُدِّثُوا أَنَّهُ قُتلَ أَنْ يؤتَوا بشيء مِنْهُ يُعْرَفُ ، وَكَانَ قَتَلَ رَجُلًا مِنْ عُظَمَائِهِمْ ، فَبَعَثَ اللَّهُ لعاصِمٍ مِثْلَ الظُّلَّةِ مِنَ الدَّبْرِ فَحَمَتْهُ مِنْ رُسُلِهِمْ ، فَلَمْ يَقْدِروا أَنْ يَقْطَعُوا مِنْهُ شَيئًا (١) ، رواه البخاري .

قَولُهُ : « الهَدْأَةُ » : موضِعٌ ، « والظُّلَّةُ » : السَّحابُ . « الدَّبْرُ » : النحلُ .

وَقَولُهُ : « اقْتُلْهُمْ بِدَدًا » بكَسرِ الباءِ وفتحِها ، فمن كسر ، قال : هو جمع بِدَّةٍ بكسرِ الباءِ ، وهي النصيب ، ومعناه : اقْتُلْهُمْ حِصَصًا مُنْقَسِمَةً لكُلِّ وَاحِدٍ مِنْهُمْ نَصِيبٌ ، وَمَنْ فَتَحَ ، قَالَ : مَعْنَاهُ : مُتَفَرِّقِينَ في القَتْلِ وَاحِدًا بَعْدَ وَاحِدٍ مِنَ التَّبْدِيدِ .

وفي الباب أحاديثُ كَثِيرَةٌ صَحِيحَةٌ سبقتْ في مَوَاضعها مِنْ هذا الكتابِ ، مِنها حديثُ الغُلامِ الذي كَانَ يَأْتي الرَّاهِبَ وَالسَّاحِرَ ، وَمِنْها حديثُ جُرَيجٍ ، وحَديثُ أَصْحاب الغارِ الذين أَطْبَقَتْ عَلَيهم الصَّخرَةُ ، وحديثُ الرَّجُلِ الذي سَمِعَ صَوتًا في السَّحَابِ يقولُ : اَسْقِ حَدِيقَةَ فُلانٍ ، وَغَيرُ ذلكَ . والدَّلائِلُ في الباب كثيرَةٌ مشْهُورَةٌ ، وباللَّهِ التَّوفِيقُ .

---

(١) أخرجه البخاري في المغازي (٤٠٨٦) . قوله : « رهط » هم الجماعة ما فوق العشرة إلى الأربعين ، قوله : « فنفروا » أي خرجوا لحربهم ، قوله : « لجأوا إلى موضع » أي تحصنوا بمكان ما ، قوله : « لولا أن تحسبوا أن ما بي جزع » أي : لولا أن تحسبوا أني خائف من الموت ، قوله : « شلو » أي جسد ، وقد يطلق على العضو ، قوله : « ممزع » أي : مقطع .

الشرح

ساق المؤلف رحمه الله في باب كرامات الأولياء وفضلهم عدة أحاديث ومنها حديث أبي هريرة رضي الله عنه في قصة عاصم بن ثابت الأنصاري وأصحابه الذين أرسلهم النبي صلى الله عليه وسلم وهم عشرة رهط عينًا سرية ، « عينًا » يعني مثل الجواسيس للعدو « سرية » يعني أخفاهم عليه الصلاة والسلام ، فلما وصلوا قرب مكة شعر بهم جماعة من هذيل فخرجوا إليهم في نحو مائة رجل رامٍ يعني يجيدون الرمي ، فاتبعوا آثارهم حتى أحاطوا بهم ، ثم طلبوا منهم - أي هؤلاء الهذليون - طلبوا منهم أن ينزلوا بأمان وأعطوهم عهدًا أن لا يقتلوهم ، فأما عاصم فقال : « والله لا أنزل على ذمة كافر » أي على عهده ؛ لأن الكافر قد خان الله عز وجل ، ومن خان الله خان عباد الله ، ولهذا لما كتب أبو موسى الأشعري رضي الله عنه إلى عمر بن الخطاب رضي الله عنه ، كتب إليه أن عنده رجلًا نصرانيًا جيدًا في المحاسبة وطلب من عمر بن الخطاب رضي الله عنه أن يأذن له أن يوظف هذا النصراني على بيت المال ؛ لأنه رجل جيد في الحساب ، فكتب إليه عمر : إني لا آمن من خان الله ورسوله ؛ لأن كل كافر فهو خائن ، ولا تولِّهِ على بيت المال ، فكتب إليه مرةً ثانيةً (أبو موسى) قال : هذا الرجل قلما يوجد مثله في الحساب والجودة ، فكتب إليه عمر بن الخطاب رضي الله عنه : بسم الله الرحمن الرحيم ، من أمير المؤمنين عبد الله عمر بن الخطاب مات النصراني ، والسلام . جملة واحدة ، مات النصراني ، يعني قَدِّرْهُ أنه مات ، هل إذا مات تتعطل المحاسبة عندنا في بيت المال فقطع طمع أبي موسى رضي الله عنه . المهم أن عاصم بن ثابت رضي الله عنه أبي أن ينزل على عهد الكفار ؛ لأنهم لا يؤمنون ، كل كافر فهو غير أمين ، ثم إنهم رموهم بالنبل أي هؤلاء الهذليون رموا هؤلاء الصحابة العشرة ، فقتلوا عاصمًا وقتلوا ستة آخرين ، وبقي ثلاثة ، بقي هؤلاء الثلاثة وقالوا : ننزل وننظر هل يوفون أم لا ، فأخذهم الهذليون ثم حلوا « أوتار قسيِّهم » وربطوهم بها ؛ أي ربطوا أيديهم ، فقال الثالث : هذا أول الغدر ، لا يمكن أن أصحبكم ، فحاولوا معه قال : أبدًا فقتلوه ، ثم ذهبوا بخبيب وصاحبه إلى مكة فباعوهما ، فاشترى خبيبًا رضي الله عنه أناسٌ من أهل مكة وقد كان قتل زعيمًا لهم في بدر ، ورأوا أن هذه فرصة أن يقتلوه ثم أبقوه عندهم أسيرًا مغلول الأيدي ، في يوم من الأيام كان في البيت وكان أسيرًا مغلول الأيدي ، فدرج صبي من أهل البيت إلى خبيب رضي الله عنه ، فكأنه رق له ورحمه كعادة الإنسان يرحم الصغار ويرق لهم ، ولهذا إذا رأيت من نفسك أنك ترق للصغار وترحمهم ؛ فهذه علامة رحمة الله لك ؛ لان الراحمين يرحمهم الله عز وجل[1] ، ولهذا قال الأقرع بن الحابس لما رأى النبي صلى الله عليه وسلم يقبل الحسن والحسين - قال : إن لي عشرة من الولد ما قبلتهم ، قال : « أو أملك أن نزع الله الرحمة من قلبك ؟! إنما يرحم الله من عباده الرحماء »[2] خبيب أخذ الصبي ووضعه على فخذه وكان قد استعار من أهل البيت موسى (يعني موس) يستحد به

---

(١) ومصداق ذلك ما رواه أبو داود في السنن (٤٩٤١) والترمذي في السنن (١٩٢٤) وأحمد في مسنده (٦٠/٢) والحاكم في المستدرك (١٥٩/٤) .

(٢) انظر الحديث بنصه في البخاري في الأدب (٥٩٩٨) ومسلم في الفضائل (٦٤) وأحمد في مسنده (٥٦/٦) والبيهقي في السنن (١٠٠/٧) والبغوي في شرح السنة (٣٥/١٣) .

أي يحلق به عانته ، لما ذهب الصبي يدرس (يلعب) وأمه غافلة عنه ، لما تفطنت له وهو على فخذ خبيب ، وخبيب معه الموس فظنت أن هذه فرصة لخبيب ، ماذا يصنع ، يذبح الولد ، الموسى معه والولد صبي وهو منفرد به ، لكنه ﷺ أمين ، صحابي جليل ، لما أحس أنها ارتاعت (فزعت) ، قال : والله ما كنت لأذبحه ، قالت : « والله ما رأيت أسيرًا خيرًا من خبيب » رأيته ذات يوم وفي يده قطف عنب يأكله ، ومكة ما فيها ثمر ، فعلمت أن ذلك من عند الله ﷻ ، الله سبحانه وتعالى ، هيأ له هذا العنب وهو أسير لا يملك لنفسه شيئًا لا يستطيع أن يخرج إلى السوق يشتري أو يطعم ، تحت رحمة هؤلاء ، ولكن الله جل وعلا يسر له هذا القطف من العنب ، يأكل عنبًا وهو في مكة ، فعلمت أنه من عند الله . وهذا كقصة مريم رضي الله عنها ﴿ كُلَّمَا دَخَلَ عَلَيْهَا زَكَرِيَّا ٱلْمِحْرَابَ وَجَدَ عِندَهَا رِزْقًا قَالَ يَٰمَرْيَمُ أَنَّىٰ لَكِ هَٰذَا قَالَتْ هُوَ مِنْ عِندِ ٱللَّهِ إِنَّ ٱللَّهَ يَرْزُقُ مَن يَشَآءُ بِغَيْرِ حِسَابٍ ﴾ [آل عمران : ٣٧] ، فهذه من كرامة الله تعالى لخبيب ﷺ ، أكرمه الله ﷻ ، تنزل عليه مائدة من العنب يأكلها وهو أسير في مكة ، وبقي أسيرًا ثم أجمع هؤلاء القوم ، الذين قتل والدهم على يد خبيب أجمعوا على أن يقتلوه ، لكنهم لاحترامهم للحرم قالوا : نقتله خارج الحرم ؛ لأن الإنسان إذا قتل أحدًا خارج الحرم ودخل إلى الحرم فإنه لا يجوز أن يقتل في الحرم ، قال الله تعالى : ﴿ وَمَن دَخَلَهُۥ كَانَ ءَامِنًا ﴾ [آل عمران : ٩٧] فهذه سنة كانت في الجاهلية وأقرها الإسلام ، على أن الإنسان إذا فعل ما يوجب القتل (يستحق عليه القتل) خارج الحرم ثم لجأ إلى الحرم فإن الحرم يعيذه ولا يجوز أن يقتل [1] ، ماذا يصنع به ؟ يعني لو قال قائل : لو سلمنا بهذه القاعدة كان كل إنسان مجرم يذهب إلى الحرم ويلوذ به ، قلنا : نحن لا نقتله في الحرم لكن نضيق عليه حتى يخرج ، كيف نضيق عليه ، قال العلماء : لا يؤكل معه ، ولا يشارب ، ولا يبايع ، ولا يشترى منه ، ولا يكلم ، نضيق عليه حتى تضيق عليه الأرض بما رحبت ، حينئذٍ ماذا يفعل ؟ يخرج ، وإذا خرج أقمنا عليه ما يجب عليه ، المهم أنهم خرجوا بخبيب خارج الحرم إلى الحل ليقتلوه ، فطلب منهم ، أن يصلي ركعتين ؛ لأن أشرف الأعمال البدنية الصلاة ، ولأنها صلة بين العبد وبين ربه ﷻ ، فأذنوا له أن يصلي ركعتين ، وبعد أن انتهى منها قال : لولا أني أخاف أن تظنوا أن بي جزعًا لزدت ؛ لأنه ﷺ كان حريصًا على الصلاة ويحب أن يكثر منها عند موته ثم دعا عليهم ﷺ بهذه الدعوات الثلاث : « اللَّهم أحصهم عددًا ، واقتلهم بددا ، ولا تبق منهم أحدًا » فأجاب الله دعوته ، وما دار الحول على واحد منهم ، كلهم قتلوا ، وهذا من كرامته .

ثم أنشد هذا الشعر :

---

(١) هذا هو الرأي الراجح وهو رأي الحنفية والمالكية وهو قول مجاهد وطاووس ، فقد ذهبوا إلى أن المشرك الحربي إذا لجأ إلى الحرم فإنه لا ينبغي أن يقتل ، إلا أن يكون قد قتل داخل الحرم ، أما الشافعية فقط قالوا بقتال المشركين في أي مكان في الحل والحرم واستدلوا بقوله تعالى ﴿ وَقَٰتِلُوهُمْ حَتَّىٰ لَا تَكُونَ فِتْنَةٌ ﴾ وبقوله : ﴿ فَإِذَا ٱنسَلَخَ ٱلْأَشْهُرُ ٱلْحُرُمُ فَٱقْتُلُوا۟ ٱلْمُشْرِكِينَ حَيْثُ وَجَدتُّمُوهُمْ ﴾ ووجه ذلك أن الإجماع قد تقرر بأنه لو استولى عدو على مكة ؛ وجب على المسلمين قتاله حتى وإن لم يبدأ القتال (انظر : أحكام القرآن للجصاص (١/٢٥٩) تفسير القرطبي (٣/٣٥١) فقه الكتاب والسنة (١/١٩٥ ، ١٩٦) .

ولستُ أبالي حين أقتلُ مسلمًا ... على أيِّ جنب كان للّه مصرعي
وذلك في ذات الإلهِ وإن يشأ ... يبارِكْ على أوصال شلوٍ ممزَّع

فصار من الكرامة لهذا الرجل أن اللّه سبحانه وتعالى كان يرزقه الفاكهة التي لا توجد في مكة ، وأنه كان يأكلها بيده ، ويده موثقة بالحديد ، وأنه أول من سن الصلاة عند القتل ؛ فإنه فعل ذلك وأقره اللّه ورسوله ، وأنه دعا على هؤلاء القوم ، فأجاب اللّه دعوته .

أما عاصم بن ثابت الذي قُتِلَ ﷺ ؛ فإنه شعر به قوم من قريش وكان قد قتل رجلًا من عظمائهم فأرسلوا إليه جماعة يأتون بشيء من أعضائه يعرف به حتى يطمئنوا أنه قتل ، فلما جاء هؤلاء القوم ليأخذوا شيئًا من أعضائه ، أرسل اللّه سبحانه وتعالى عليه شيئًا مثل الظلة من الدَّبْرِ (أي من النحل) نحل عظيم ، يحميه به اللّه تعالى من هؤلاء القوم ، فعجزوا أن يقربوه ورجعوا خائبين . وهذا أيضًا من كرامة اللّه ﷻ لعاصم ﷺ ، أن اللّه ﷻ حمى جسده بعد موته من هؤلاء الأعداء الذين يريدون أن يمثلوا به .

والكرامات كثيرة ذكر المؤلف منها ما ذكر في هذا الباب ، وذكر أيضًا أشياء متفرقة في هذا الكتاب .

قال شيخ الإسلام ابن تيمية ﷺ : من عقيدة أهل السنة والجماعة التصديق بكرامات الأولياء وما يُجْرِي اللّه سبحانه وتعالى على أيديهم من أنواع العلوم والمكاشفات ، والقدرة والتقديرات ، وقال : الكرامات موجودة قبل هذه الأمة ، وفي صدر هذه الأمة إلى يوم القيامة . وذكر شيئًا كثيرًا منها في كتابه الفرقان بين أولياء الرحمن وأولياء الشيطان (١) .

* * *

كتاب الأمور المنهي عنها

٢٥٤ - باب تحريم الغيبة والأمر بحفظ اللسان

قَالَ اللّهُ تَعَالى : ﴿ وَلَا يَغْتَب بَّعْضُكُم بَعْضًاۚ أَيُحِبُّ أَحَدُكُمْ أَن يَأْكُلَ لَحْمَ أَخِيهِ مَيْتًا فَكَرِهْتُمُوهُۚ وَاتَّقُوا اللَّهَۚ إِنَّ اللَّهَ تَوَّابٌ رَّحِيمٌ ﴾ [الحجرات : ١٢] . وَقَالَ تَعَالى : ﴿ وَلَا تَقْفُ مَا لَيْسَ لَكَ بِهِۦ عِلْمٌۚ إِنَّ السَّمْعَ وَالْبَصَرَ وَالْفُؤَادَ كُلُّ أُولَٰٓئِكَ كَانَ عَنْهُ مَسْـُٔولًا ﴾ [الإسراء: ٣٦] . وقَالَ تَعَالى : ﴿ مَّا يَلْفِظُ مِن قَوْلٍ إِلَّا لَدَيْهِ رَقِيبٌ عَتِيدٌ ﴾ (٢) [ق : ١٨] .

اعْلَمْ أَنَّهُ يَنْبَغِي لِكُلِّ مُكَلَّفٍ أَنْ يَحْفَظَ لِسَانَهُ عَنْ جَمِيعِ الكَلام إلا كَلامًا ظَهَرَتْ فيهِ المَصْلَحَةُ ، وَمَتى استوى الكلامُ وتركُه في المصلحةِ ، فالسنةُ الإمساكُ عنه ؛ لأَنه قد يَنْجَرُّ الكَلامُ المُبَاحُ إلى حَرَامٍ أو مَكْرُوهٍ ، وَذلكَ كَثِيرٌ في العَادَةِ ، وَالسَّلامَةُ لا يَعْدِلُهَا شَيءٌ .

---

(١) الفرقان بين أولياء الرحمن وأولياء الشيطان بتصحيح وتعليق الشيخ محمود عبد الوهاب فايد - مطبعة محمد علي صبيح . ط . ٢ . ١٩٥٨م . ص : ١٢٨ - ١٣٨ .

(٢) قوله ﴿ وَلَا يَغْتَب ﴾ أي : يذكر أخاه بما يكره مع أن ما يذكره فيه . قوله : ﴿ وَلَا تَقْفُ ﴾ أي لا تتبع . قوله : ﴿ وَالْفُؤَادَ ﴾ القلب . قوله : ﴿ رَقِيبٌ ﴾ ملك يرقبه قوله : ﴿ عَتِيدٌ ﴾ أي : مهيَّأ ، معدٌّ لذلك ، حاضر عنده لا يفارقه .

الشرح

ذكر المؤلف رحمه الله في كتابه باب تحريم الغيبة ووجوب حفظ اللسان ، ثم ذكر عدة آيات في هذا المعنى ، والغيبة بينها النبي ﷺ حين قال لأصحابه : « أتدرون ما الغيبة ؟ » قالوا : الله ورسوله أعلم قال : « ذكرك أخاك بما يكره » قالوا : يا رسول الله أرأيت إن كان في أخي ما أقول ؟ قال : « إن كان فيه ما تقول فقد اغتبته ، وإن لم يكن فيه ما تقول فقد بَهَتَّه »[١] يعني مع الغيبة ، فالغيبة من كبائر الذنوب التي لا تكفرها الصلاة ، ولا الصدقة ، ولا الصيام ، ولا غيرها من الأعمال الصالحة ، بل تبقى على الموازنة ، قال ابن عبد القوي رحمه الله في نظمه الآداب :

وقد قيلَ صُغرى غِيبَةٌ ونميمةٌ وكلتاهما كُبْرى على نَصِّ أحمدِ

أي أحمد بن حنبل رحمه الله ، يعني أنه قد نص على أن الغيبة والنميمة من كبائر الذنوب . وقول النبي ﷺ في تعريف الغيبة : « ذكرك أخاك بما يكره » يشمل ما يكرهه من عيب خُلُقِي ، وعيب خِلْقِي ، وعيب ديني ، كل شيء يكرهه ؛ فإنك إذا ذكرته به فهي غيبة ، من العيب الخِلْقِي مثلًا لو اغتبته أنه أعرج ، أعور ، أو طويل ، أو قصير ، أو ما أشبه ذلك ، هذه غيبة ، أو خُلُقِيٌّ كما لو ذكرته بأنه ليس بعفيف يعني يتتبع النساء ينظر إلى النساء ، ينظر إلى المردان وما أشبه ذلك ، أو عيب ديني ، بأن تقول : إنه مبتدع ، أو إنه لا يصلي مع الجماعة ، إنه لا يفعل كذا وكذا ، تعيبه في غيبته ولهذا سميت غيبة ؛ لأنها في غيبة الإنسان ، أما لو كان ذلك في وجهه ؛ فإنه يسمى سبًّا ولا يسمى غيبة . وقول النبي ﷺ « إن كان فيه ما تقول فقد اغتبته ، وإن لم يكن فيه فقد بهته » . يعني بهته مع الغيبة ، فحذف الشق الثاني ؛ لأنه معلوم ، ونظير ذلك في الكلام أن النبي ﷺ قال ذات يوم : « وددنا أنا قد رأينا إخواننا » قالوا : يا رسول الله أولسنا إخوانك ؟ قال : « لا ، أنتم أصحابي ، وإخواننا هم الذين يأتون من بعدي »[٢] يعني فيؤمنون به وهم لا يرونه ، وقوله « أنتم أصحابي » لا يعني بذلك نفي الأخوة ، بل الصحابة إخوانه وأصحابه ، ومَنْ بعده إخوانه وليسوا أصحابه ، هذا أيضًا فقد بهته يعني ولا يمكن أن يكون غيبة بل هو غيبة وبهتان ، واعلم أن الغيبة تزداد قبحًا وإثمًا بحسب ما تؤدي إليه ، فغيبة العامة من الناس ليست كغيبة العالم ، أو ليست غيبة الأمير أو المدير أو الوزير أو ما أشبه ذلك ، لأن غيبة ولاة الأمور صغيرًا كان الأمر أو كبيرًا ، أشد من غيبة من ليس لهم إمرة وليس له أمر ولا ولاية ؛ لأنك إذا اغتبت عامة الناس إنما تسيء إليه شخصيًّا فقط ، أما إذا اغتبت من له أمر ؛ فقد أسأت إليه ، وإلى ما يتولاه من أمور المسلمين ، مثلًا فرض أنك اغتبت عالمًا من العلماء ، هذا لا شك أنه عدوان عليه شخصيًّا كغيره من المسلمين ، لكنك أيضًا أسأت إساءة كبيرة إلى ما يحمله من الشريعة ، رجل عالم يحمل الشريعة إذا اغتبته سقط من أعين الناس ، وإذا سقط من أعين الناس لن

---

(١) انظر نص الحديث في مسلم ، في البر والصلة (٧٠) والبيهقي في السنن (٢٤٧/١٠) .

(٢) انظر الحديث بنصه في مسلم في الطهارة (٣٩) ومالك في الموطأ (الطهارة ٢٨) .

يقبلوا قوله ولن يعودوا يرجعون إليه في أمور دينهم ، وصار ما يطلبه من الحق مشكوكًا فيه ؛ لأنك اغتبته ، فهذه جناية عظيمة على الشريعة .

كذلك الأمراء ، إذا اغتبت أميرًا أو ملكًا أو رئيسًا أو ما أشبه ذلك ؛ فإن ذلك ليست غيبة شخصية له فقط ؛ بل هي غيبة له ، و فساد لولاية أمره ؛ لأنك إذا اغتبت الأمير أو الوزير أو الملك معناها أنك تشحن قلوب الرعية على ولاتهم ، وإذا شحنت قلوب الرعية على ولاة أمورهم ؛ فإنك في هذه الحال أسأت إلى الرعية إساءة كبيرة ؛ إذ أن هذا سبب لنشر الفوضى بين الناس ، وتمزق الناس وتفرق الناس ، واليوم يكون رميًا بالكلام ، وغدًا يكون رميًا بالسهام ؛ لأن القلوب إذا شحنت وكرهت ولاة أمورها ؛ فإنها لا يمكن أن تنقاد لأوامرهم ، إذا أُمرت بخير رأته شرًّا ولهذا قال الشاعر كلمة سابقة ، قال :

وعينُ الرضا عن كلِّ عيبٍ كَلِيلة كَمَا أنَّ عيْنَ السخط تُبْدِي المساويَا

فأنت مثلًا إذا اغتبت أحدًا من الكبار الذين لهم ولاية أمر على المسلمين ، قيادة دينية ، أو قيادة تنفيذية وسلطة ، فإنك تسيء إلى المسلمين عمومًا من حيث لا تشعر ، قد يظن بعض الناس أن هذا يشفي من غليله وغليانه ، لكن كيف يصب جامه على أمن مستقر ليقلب هذا الأمن إلى خوف ، وهذا الاستقرار إلى قلق ، أو ليقلب هذه الثقة بالعالم إلى سحب الثقة ، إذا كنت ذا غليان أو إذا كان صدرك مملوءًا غيظًا ؛ فصبه على نفسك قبل أن تصبه على غيرك ، انظر في مساوئك أنت ، هل أنت ناج من المساوئ ؟ هل أنت سالم ؟ أول عيب فيك أنك تسب ولاة الأمور وتغتاب ولاة الأمور ، قد يقول : أنا أريد أن آمر بالمعروف وأنهى عن المنكر ، نقول : حسنًا ما قصدت ، ولكن البيوت تؤتى من أبوابها ، ليس طريق الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر أن تنشر معايب ولاة أمورك ؛ لأن هذا مما يزيد المنكر ، لا يثق الناس في أداء أحد ، إذا قال العالم : هذا منكر ، قالوا :هذا اجعلوه على جنب ، إذا قال الأمير : هذا منكر ، وأراد أن يمنع منه ، يقولون لا ، أنت ما أصلحت نفسك حتى تصلح غيرك . فيحدث بهذا ضرر كبير على المسلمين ، والعجب أن بعض المفتونين بهذا الأمر ، أي بسب ولاة الأمور من العلماء والأمراء ، العجب أنهم لا يأتون بحسنات هؤلاء الذين يغتابونهم ، حتى يقوموا بالقسط ؛ لأن الله يقول : ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ كُونُواْ قَوَّٰمِينَ لِلَّهِ شُهَدَآءَ بِٱلْقِسْطِۖ وَلَا يَجْرِمَنَّكُمْ شَنَـَٔانُ قَوْمٍ عَلَىٰٓ أَلَّا تَعْدِلُواْ ﴾ [1] [المائدة : ٨] ، لا يجرمنكم : لا يحملنكم بغضهم على ألا تعدلوا ، والعجب أيضًا أنك لا تكاد تجد في مجالسهم أو في أفواههم يومًا من الدهر إلا قليلًا أنهم يقولون : أيها الناس اتقوا كذا ، اتقوا الغش ، اتقوا الكذب . الغش موجود في البيع والشراء والمعاملات ، والكذب موجود أيضًا ، والغيبة موجودة ، لا تكاد تجد أنهم يصبون جامهم (غضبهم) على إصلاح العامة ويحذرونهم ، ومن المعلوم أن العامة إذا صلحت فالشعب هو العامة ، الشعب يتكون من زيد وعمر وبكر وخالد ، أفراد ، إذا صلحت الأفراد صلح الشعب ، وإذا صلح الشعب فلابد أن تصلح الأمة

---

(١) قوله : ﴿ قَوَّٰمِينَ لِلَّهِ ﴾ أي ليكن من دأبكم أن تقوموا للّه بالحق في كل أموركم قوله : ﴿ شُهَدَآءَ بِٱلْقِسْطِۖ ﴾ أي شاهدين بالعدل .

كلها ، لكن بعض الناس يكون فيه مرض يحب مثل هذا الأمر ، يحب أن يطرح على بساط البحث عالمًا من العلماء فيتتبع عوراته ولا يذكر خيراته ، ويشيع هذه العورات بين الناس ، أو يأخذ أميرًا ، أو وزيرًا أو ملكًا ، ويضعه على البساط ثم يُشَرِّحه ويتكلم فيه ، ولا يذكر شيئًا من حسناته ، سبحان اللّه ، أين العدل ؟ إذا كان اللّه عَجَلَّ ﴿ يَقُولُ ٱلْحَقَّ وَهُوَ يَهْدِى ٱلسَّبِيلَ ﴾ [الأحزاب : ٤] حتى في معاملة المشركين ، يقول عَجَلَّ : ﴿ وَإِذَا فَعَلُوا۟ فَٰحِشَةً قَالُوا۟ وَجَدْنَا عَلَيْهَآ ءَابَآءَنَا وَٱللَّهُ أَمَرَنَا بِهَا ﴾ [الأعراف : ٢٨] قالوا كلمتين ﴿ وَجَدْنَا عَلَيْهَآ ءَابَآءَنَا ﴾ والثانية : ﴿ وَٱللَّهُ أَمَرَنَا بِهَا ﴾ ، حكم اللّه بينهم ﴿ قُلْ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَأْمُرُ بِٱلْفَحْشَآءِ ﴾ فقبل منهم الحق وهو أنهم وجدوا آباءهم عليها ورد الباطل .

إذا كنت تريد أن تتكلم بالعدل تكلم بالعدل ، أما أن تتبع عورات المسلمين ولا سيما ولاة الأمور منهم ؛ فاعلم أن من تتبع عورة أخيه تتبع اللّه عورته ، وأن من تتبع اللّه عورته فضحه ولو في بيت أمه (١) . المهم أن علينا أن نتجنب الغيبة وأن نكف ألسنتنا وأن نعلم أن كل كلمة تكون غيبة لشخص فإنما تكون نقصًا من حسناتنا وزيادة في حسنات هذا الذي ظلم بسببه كما جاء في الحديث « أتدرون من المفلس فيكم ؟ » قالوا : من لا درهم عنده ولا متاع ، قال : « لا ، المفلس من يأتي يوم القيامة بحسنات أمثال الجبال ، فيأتي وقد ظلم هذا ، وشتم هذا ، وأخذ مال هذا ، فيأخذ هذا من حسناته ، وهذا من حسناته ، وهذا من حسناته ، فإن بقي من حسناته شيء ، وإلا أخذ من سيئاتهم وطرح عليه ، ثم طرح في النار » (٢) . حتى إننا سمعنا عن بعض السلف أنه سمع عن شخص يغتابه فأرسل إليه بهدية ، من الذي أرسل ؟ الذي اغتيب ، أرسل إلى الذي اغتابه بهدية . وقال له : أنت أهديتني حسنات أنتفع بها يوم القيامة ، وأنا أهديك هذه الهدية تنتفع بها في الدنيا ، وآخر أمرها أن تكون خراءة أو بولًا .

اللّهم يا إخوان نصيحتي لنفسي ولكم أن تتجنبوا الغيبة وأن تتجنبوا الخوض في مساوئ ولاة الأمور من العلماء والأمراء والسلاطين وغيرهم ، إذا كنتم تريدون الخير والإصلاح ، فالباب مفتوح ، اتصلوا بأنفسكم ، اتصلوا بقنوات أخرى إذا لم تستطيعوا أن تتصلوا بأنفسكم ، ثم إذا أديتم الواجب سقط عنكم ما وراء ذلك ، ثم اعلم يا أخي هل غيبتك هذه للعلماء أو الأمراء ، هل تصلح من الأمور شيئًا ؟ أبدًا ؛ بل هي إفساد الواقع لا تزيد الأمر إلا شكًا ، ولا ترتفع بها مظلمة ، ولا يصلح بها فاسد ، وإنما الطرق موجودة ثم على الإنسان أن يتكلم بالعدل كما قلت إذا ابتليت بنشر مساوئ الناس فانشر المحاسن حتى تتعادل الكفة أو ترجح إحدى الكفتين على الأخرى ، أما أن تبتلى بنشر المعايب وتكون أخرس في نشر المحاسن ؛ فهذا ليس بعدل . وفقنا اللّه وإياكم لما فيه الخير والصلاح .

وقد ذكر المؤلف رَحِمَهُ اللّهُ الآيات وهي :

---

(١) ودليل ذلك ما أخرجه الترمذي في البر والصلة (٢٠٣٢) ولفظه عنده : « ... يفضحه ولو في جوف رحله » وأبو داود في الأدب (٤٨٨٠) وأحمد في مسنده (٤٢١/٤) .

(٢) أخرجه مسلم في البر والصلة (٥٩) والترمذي في السنن (٢٤١٨) .

قَالَ اللَّه تَعالى : ﴿ وَلَا يَغْتَب بَّعْضُكُم بَعْضًا أَيُحِبُّ أَحَدُكُمْ أَن يَأْكُلَ لَحْمَ أَخِيهِ مَيْتًا فَكَرِهْتُمُوهُ وَاتَّقُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ تَوَّابٌ رَّحِيمٌ ﴾ [الحجرات : ١٢] وقال تَعالى : ﴿ وَلَا تَقْفُ مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ إِنَّ السَّمْعَ وَالْبَصَرَ وَالْفُؤَادَ كُلُّ أُولَٰئِكَ كَانَ عَنْهُ مَسْئُولًا ﴾ [الإسراء : ٣٦] . وقالَ تَعالى : ﴿ مَّا يَلْفِظُ مِن قَوْلٍ إِلَّا لَدَيْهِ رَقِيبٌ عَتِيدٌ ﴾ [ق : ١٨] .

وقد سبق لنا أن ذكرنا الغيبة هي أن تذكر أخاك بما يكره في دينه أو خلقه أو خلقته أو غير ذلك ، كل شيء يكرهه أخوك فلا تذكره به في حال غيبته ، وسبق لنا أن الغيبة من الكبائر ، وأنه لا تكفرها الصلاة ولا الصدقة ولا الصيام ولا الحج ، إلا أنها كغيرها من الكبائر يوازن بينها وبين الحسنات ، وسبق لنا أن الغيبة تختلف ، أي يختلف حكمها وقبحها بحسب ما تؤدي إليه من مفاسد ، وسبق لنا أن غيبة ولاة الأمور من العلماء والأمراء أشد من غيبة غيرهم لما يترتب على ذلك من المفاسد العظيمة .
أما ما ساقه المؤلف من الآيات فأولها قوله تعالى ﴿ وَلَا يَغْتَب بَّعْضُكُم بَعْضًا ﴾ . وهذه معطوفة على ما ذكر في أول الآية ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اجْتَنِبُوا كَثِيرًا مِّنَ الظَّنِّ إِنَّ بَعْضَ الظَّنِّ إِثْمٌ وَلَا تَجَسَّسُوا وَلَا يَغْتَب بَّعْضُكُم بَعْضًا أَيُحِبُّ أَحَدُكُمْ أَن يَأْكُلَ لَحْمَ أَخِيهِ مَيْتًا فَكَرِهْتُمُوهُ ﴾ . فنهى اللَّه عن الغيبة ثم ضرب مثلًا ينفر منه كل أحد ، فقال : ﴿ أَيُحِبُّ أَحَدُكُمْ أَن يَأْكُلَ لَحْمَ أَخِيهِ مَيْتًا فَكَرِهْتُمُوهُ ﴾ .

لو قدم لك أخوك المسلم ميتًا هل تحب أن تأكل لحمه ؟ الجواب : لا . الكل يقول : لا أحب ذلك ، ولا يمكن ، فإذا قال قائل : ما هي مناسبة الغيبة لهذا المثل ، قلنا : لأن الذي تغتابه غائب لا يمكن أن يدافع عن نفسه ، كالميت إذا قطعت لحمه لا يمكن أن يقوم ليدافع عن نفسه ، ولهذا إذا ذكرت أخاك بما يكره في حال وجوده ذلك لا يسمى غيبة بل يسمى سبًّا وشتمًا ﴿ وَاتَّقُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ تَوَّابٌ رَّحِيمٌ ﴾ . فأمر بتقوى اللَّه ﷻ بعد أن نهى عن الغيبة وهذا إشارة إلى أن الذين يغتابون الناس لم يتقوا اللَّه ﷻ . واعلم أنك إذا سلطت على عيب أخيك ونشرته وتتبعت عورته فإن اللَّه تعالى يقيد لك من يفضحك ويتتبع عورتك حيًّا كنت أو ميتًا ؛ لأن النبي ﷺ قال : « من تتبع عورة أخيه تتبع اللَّه عورته ، ومن تتبع اللَّه عورته فضحه ولو في بيت أمه » (١) . إلا أن الغيبة إذا كانت للنصح والبيان فإنه لا بأس بها . كما لو أراد إنسان أن يعامل شخصًا من الناس ، وجاء إليك يستشيرك ؟يقول :ما تقول ؟ هل أعامل فلانًا ؟ وأنت تعلم أن هذا سيئ المعاملة ، ففي هذا الحال يجب عليك أن تبين ما فيه من العيب من باب النصح ، ودليله أن فاطمة بنت قيس رضي الله عنها خطبها ثلاثة من الصحابة : أسامة بن زيد ، ومعاوية بن أبي سفيان ، وأبو جهم ، فجاءت تستشير النبي ﷺ تقول له خطبني فلان وفلان وفلان ، فقال لها عليه الصلاة والسلام : « أما أبوجهم فضراب للنساء ، وأما معاوية فصعلوك لا مال له ، انكحي أسامة » (٢) فذكر هذين الرجلين بما يكرهان لكن من باب النصيحة لا من باب نشر العيب والفضيحة ، وفرق بين هذا وهذا ، وكذلك لو جاء إنسان يستشيرك قال : اطلب العلم عند

---

(١) سبق تخريجه .

(٢) أخرجه أحمد في مسنده (٤١٢/٦) بلفظه ، ومسلم في الطلاق (٣٦ ، ٤٧) والترمذي في السنن (١١٣٤) كلاهما بلفظ : « وأما معاوية فلا يضع عصاه من عاتقه » .

فلان ؟ وأنت تعلم أن فلانًا ذو منهج منحرف ، فلا حرج عليك لا تطلب العلم عنده . مثل أن يكون في عقيدته شيء ، أو في فكره شيء ، أو في منهجه شيء ، و تخشى أن يؤثر على هذا الذي جاء يستشيرك يطلب العلم عنده أم لا ، وجب عليك أن تبين له ، تقول : لا تطلب العلم عند هذا ، هذا فيه كذا وكذا من العيوب ؛ حتى لا ينتشر عيبه بين الناس ؛ والأمثلة على هذا كثيرة ، والمهم أنه إذا كان ذكرك أخاك بما يكره من أجل النصيحة فلا بأس . وقد شاع عند الناس كلمة غير صحيحة وهي قولهم : [لا غيبة لفاسق] [1] هذا ليس حديثًا وليس قولًا مقبولًا ، بل الفاسق له غيبة مثل غيره ، وقد لا يكون له غيبة ، فإذا ذكرنا فسقه على وجه العيب والسب ؛ فإن ذلك لا يجوز ، وإذا ذكرناه على سبيل النصيحة والتحذير منه فلا بأس بل قد يجب . والمهم أن هذه العبارة ليست حديثًا عن الرسول عليه الصلاة والسلام ، وليست على أخلاقه أيضًا بل في ذلك تفصيل .

أما الآية الثانية فهي قوله تعالى : ﴿ وَلَا تَقْفُ مَا لَيْسَ لَكَ بِهِۦ عِلْمٌ ۚ إِنَّ ٱلسَّمْعَ وَٱلْبَصَرَ وَٱلْفُؤَادَ كُلُّ أُو۟لَـٰٓئِكَ كَانَ عَنْهُ مَسْـُٔولًا ﴾ [الإسراء: ٣٦] .

﴿ وَلَا تَقْفُ ﴾ يعني : لا تتبع ما ليس لك به علم . وهذا النهي يشتمل على كل شيء ، كل شيء ليس لك به علم فلا تتبعه أعرض عنه ولا تتكلم فيه ؛ لأنك على خطأ ، وهذا إذا كان بالنسبة لما تنسبه إلى الله ورسوله كان محرمًا من أشد المحرمات إثمًا ، إذا قلت مثلًا : قال الله تعالى كذا وكذا والله لم يقله ، أو تفسر الآية بما تهواه نفسك لا بما تدل عليه الآية ، فقد قلت على الله ما لا تعلمه ، ولهذا سيأتي الحديث : « من قال في القرآن برأيه فليتبوأ مقعده من النار » [2] ولا يحل لأحد أن يفسر آية من كتاب الله وهو لا يعلم معناها ، وإنما يفسرها بالظن والتخمين ؛ لأن الأمر خطير ؛ لأنك إذا فسرت آية إلى معنى من المعاني فقد شهدت على الله أنه أراد كذا وكذا وهذا خطر عظيم ، ولهذا يجب على الإنسان التحرز من التسرع فيما ليس له به علم بالنسبة للأحكام الشرعية ، وكذلك غيرها ولكن هي أشد ، وقد قرن الله تعالى القول عليه بلا علم ، قرنه بالشرك ، فقال تعالى : ﴿ قُلْ إِنَّمَا حَرَّمَ رَبِّىَ ٱلْفَوَٰحِشَ مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَمَا بَطَنَ وَٱلْإِثْمَ وَٱلْبَغْىَ بِغَيْرِ ٱلْحَقِّ وَأَن تُشْرِكُوا۟ بِٱللَّهِ مَا لَمْ يُنَزِّلْ بِهِۦ سُلْطَـٰنًا وَأَن تَقُولُوا۟ عَلَى ٱللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ ﴾ [الأعراف: ٣٣] وكذلك إذا قفوت ما ليس لك به علم بالنسبة للآدميين (بني آدم) بأن تنقل عن شخص أنه قال كذا وكذا وهو لم يقله ، حتى لو قيل لك إنه قال كذا وكذا ، فلا تعتمد على هذا حتى تتيقن ، لا سيما إذا كثر القول بين الناس في الأمور ، فإنه يجب التحرز أكثر ؛ لأن الناس إذا كثر فيهم القول والقيل والقال فإنهم يبنون من الحبة قبة ، ومن الكلمة كلمات ، ولا يتحرَّزون في النقل ، ولهذا

---

(١) ذكره الهيثمي في مجمع الزوائد (١٤٩/١) بلفظ : « ليس لفاسق غيبة » وبلفظه : القاري في الأسرار المرفوعة (٣٨٣) والسيوطي في الدرر المنتثرة (١٧٦) . والحديث كما قال العجلوني في كشف الخفاء (٢٢٣/٢ ، ٢٢٤) نقلًا عن الحاكم ، فيما نقله البيهقي في الشعب : إنه غير صحيح ولا معتمد .

(٢) أخرجه الترمذي في السنن (٢٩٥٠) وأحمد في مسنده (٢٣٣/١) . والبغوي في شرح السنة (٢٥٧/١) بلفظ « بغير علم » وبلفظه : ذكره البغوي في شرح السنة (٢٥٨/١) .

يسمع لإنسان أنه ينقل عنه أو عن غيره ما ليس بصحيح إطلاقًا ؛ لأن الناس مع القول والقيل والقال يكون لهم هوًى ، والعياذ بالله ، فيقولون ما لا يعلمون .

ثم ذكر الآية الثالثة وهي قوله تعالى : ﴿ وَلَقَدْ خَلَقْنَا ٱلْإِنسَٰنَ وَنَعْلَمُ مَا تُوَسْوِسُ بِهِۦ نَفْسُهُۥ ۖ وَنَحْنُ أَقْرَبُ إِلَيْهِ مِنْ حَبْلِ ٱلْوَرِيدِ ﴿١٦﴾ إِذْ يَتَلَقَّى ٱلْمُتَلَقِّيَانِ عَنِ ٱلْيَمِينِ وَعَنِ ٱلشِّمَالِ قَعِيدٌ ﴿١٧﴾ مَّا يَلْفِظُ مِن قَوْلٍ إِلَّا لَدَيْهِ رَقِيبٌ عَتِيدٌ ﴾ [ق : ١٦-١٨] المؤلف رَحِمَهُ ٱللَّهُ لم يسق إلا هذه الآية الثالثة ، وليته ساق الآيات كلها لكان أحسن ، فالله تعالى يخبر أنه خلق الإنسان ، وهذا أمر معلوم بالضرورة والفطرة ، فالله وحده هو الخالق والخالق يعلم من خلق كما قال تعالى : ﴿ أَلَا يَعْلَمُ مَنْ خَلَقَ وَهُوَ ٱللَّطِيفُ ٱلْخَبِيرُ ﴾ [الملك : ١٤] فهو جل وعلا يعلم بأحوالنا ونياتنا ومستقبلنا وكل ما يتعلق بنا ، ولهذا قال : ﴿ وَنَعْلَمُ مَا تُوَسْوِسُ بِهِۦ نَفْسُهُۥ ﴾ الشيء الذي تحدث به نفسك يعلمه الله قبل أن تتكلم ، ولكن هل يؤاخذك به ، في هذا تفصيل ، إن ركنت إليه وأثبته في قلبك عقيدة ، فإن الله يؤاخذك به ، وإلا فلا شيء عليك ، لقول النبي ﷺ : « إن الله تجاوز عن أمتي ما حدثت به أنفسها ما لم تعمل أو تتكلم » [١] .

فمثلًا لو أن إنسانًا صار يوسوس ويفكر ؛ هل يطلق زوجته أو لا ، ومثل هذا كثير بين الناس ؛ فإنها لا تطلق حتى ولو عزم على أن يطلقها ، فإنها لا تطلق إلا بالقول ، أو بالكتابة الدالة على القول ، أو بالإشارة الدالة على القول ؛ [٢] لأن الله تجاوز عن هذا الأمة ما حدثت به أنفسها ما لم تعمل أو تتكلم [٣] . قال : ﴿ وَنَحْنُ أَقْرَبُ إِلَيْهِ مِنْ حَبْلِ ٱلْوَرِيدِ ﴿١٦﴾ إِذْ يَتَلَقَّى ٱلْمُتَلَقِّيَانِ عَنِ ٱلْيَمِينِ وَعَنِ ٱلشِّمَالِ قَعِيدٌ ﴾ [ق : ١٦، ١٧] فإن الله تعالى وكَّل بالإنسان ملكين يلازمانه ، أحدهما عن اليمين والثاني عن الشمال ، يلازمانه دائمًا ويكتبان عليه كل ما نطق به وكل ما فعل ولهذا قال : ﴿ مَّا يَلْفِظُ مِن قَوْلٍ إِلَّا لَدَيْهِ رَقِيبٌ عَتِيدٌ ﴾ و ﴿ مِن ﴾ هنا زائدة للتوكيد ، يعني ما يلفظ قولًا من الأقوال أيَّ قول كان ، إلا لديه رقيب عتيد ؛ ﴿ رَقِيبٌ ﴾ أي مراقب ﴿ عَتِيدٌ ﴾ أي حاضر لا يتركه ، وأنت الآن لو جعلت في جيبك مسجلًا يسجل ما تقول لوجدت العجب العُجاب مما يصدر منك أحيانًا وأنت لا تفكر فيه ، والرجل قد يتكلم الكلمة من سخط الله لا يلقي لها بالًا تهوي به في النار كذا وكذا خريفًا والعياذ بالله [٤] . (الرقيب) معناه المراقب الذي يراقبك (العتيد) الحاضر الذي لا يغيب عنك ويكتب أي قول كان ، ويذكر عن الإمام أحمد بن حنبل رَحِمَهُ ٱللَّهُ أنه دخل عليه أحد أصحابه وهو مريض ، يئن من المرض ، فقال له : إن

---

(١) أخرجه البخاري في الطلاق (٥٢٦٩) وأخرجه مسلم بنحوه في الإيمان (٢٠١) والبيهقي في السنن (٣٥٦/٧) والطبراني في الصغير (٢٧٠/١) .

(٢) هذا هو ما عليه جمهور العلماء إلا ما روي عن مالك أن الرجل لو نوى طلاق امرأته بقلبه فإنها تُعَدُّ طالقًا ، لكن المذهب والمعتمد من قول مالك أن ذلك لا يُعَدُّ طلاقًا (انظر : أسهل المدارك (١٤٥/٢) بدائع الصنائع (١٠٩/٣) فقه الكتاب والسنة (٤١٣/١) .

(٣) انظر في ذلك ما رواه البخاري في الطلاق (٥٢٦٩) ومسلم في الإيمان (٢٠١) والنسائي في السنن (١٥٧/٦) وأحمد في مسنده (٣٩٣/٢) .

(٤) انظر في ذلك ما رواه الترمذي في السنن (٢٣١٤) وأحمد في مسنده (٢٣٦/٢) ومالك في الموطأ (٩٨٥) .

فلانًا من التابعين يقول عن الملك : يكتب حتى أنين المريض ، فأمسك رَحِمَهُ اللَّهُ عن الأنين خوفًا من أن يكتب عليه ، ولهذا ينبغي على الإنسان أن يقلل من الكلام ما استطاع ؛ لأن النبي ﷺ قال : « من كان يؤمن بالله واليوم الآخر فليقل خيرًا أو ليصمت » [١] « فليقل خيرًا » أي كلام فيه الخير ، إما لأنه خيرًا بذاته ، وإما أنه خير لما يؤدي إليه من الألفة بين الجلساء والمحبة ؛ لأنك إذا حضرت مجلسًا مثلًا ولم تتكلم فيه لم يستحب الناس الجلوس معك ، لكن إذا انطلقت في الكلام المباح من أجل أن تتألفهم وتتودد إليهم فهذا خير . تأخذ بقوله ﷺ : « فليقل خيرًا أو ليصمت » والمهم أن من جملة الأقوال التي تكتب الغيبة ، فاحذر أن تكتب عليك ؛ لأنك إذا اغتبت أحدًا ؛ فإنه يوم القيامة يأخذ من حسناتك التي هي أغلى ما يكون عندك في ذلك الوقت ، فإن بقي من حسناتك شيء ، وإلا أُخِذ من سيئات الذين اغتبتهم وطُرح عليك ثم طُرِحْتَ في النار ، والله الموفق .

واعلم أنه ينبغي لكل مكلف أن يحفظ لسانه عن جميع الكلام إلا كلامًا ظهرت فيه المصلحة ، ومتى استوى الكلام وتركه في المصلحة فالسنة الإمساك عنه ؛ لأنه قد ينجرُّ الكلام المباح إلى حرام أو مكروه ، وذلك كثير في العادة والسلامة لا يعدلها شيء .

* * *

١٥١١ - وَعَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ رضي الله عنه عَنِ النَّبي ﷺ قَالَ : « مَنْ كَانَ يُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الآخِرِ ، فَلْيَقُلْ خَيْرًا أَو لِيَصْمُتْ » [٢] متفقٌ عليه .

وَهذا الحَديثُ صَريحٌ في أَنَّهُ يَنْبَغي أَنْ لا يَتَكَلَّمَ إلا إذا كَانَ الكَلامُ خَيرًا ، وَهُوَ الَّذي ظَهَرَتْ مَصْلَحَتُهُ ، وَمَتَى شَكَّ في ظُهُورِ المَصْلَحَةِ ، فَلا يَتَكَلَّمُ .

١٥١٢ - وَعَنْ أَبِي مُوسَى رضي الله عنه قَالَ : قُلْتُ : يا رَسُولَ اللَّهِ أَيُّ المُسْلِمِينَ أَفْضَلُ ؟ قَالَ : «مَنْ سَلِمَ المُسْلِمُونَ مِنْ لِسَانِهِ وَيَدِهِ » [٣] متفقٌ عليه .

الشرح

ذكر المؤلف النووي رَحِمَهُ اللَّهُ تحريم الغيبة والأمر بحفظ اللسان : واعلم أنه ينبغي لكل مكلف أن يحفظ لسانه عن جميع الكلام إلا كلامًا ظهرت فيه المصلحة الدينية أو الدنيوية وهذا الكلام مأخوذ من قول النبي ﷺ : « من كان يؤمن بالله واليوم الآخر فليقل خيرًا أو ليصمت » وهو الحديث الذي ساقه المؤلف رَحِمَهُ اللَّهُ فإذا استوى الأمران ، أن يسكت أو يتكلم ، فالسلامة أفضل ، يعني لا يتكلم . إلا إذا اقتضت الحال أن يتكلم فليتكلم ، مثلًا لو رأى منكرًا فهنا لا يسكت ، يجب أن يتكلم وينصح

---

(١) سيأتي تخريجه قريبًا .

(٢) أخرجه البخاري في الرقاق (٦٤٧٥) ومسلم في الإيمان (٧٤) والترمذي في السنن (١٩٦٧) وابن ماجه في السنن (٣٩٧١) والبيهقي في السنن (٨/٣٦٤) .

(٣) أخرجه البخاري في الإيمان (١١) ومسلم في الإيمان (٦٦) .

وينهى عن هذا المنكر ، وأما إذا لم تقتضِ المصلحة أن يتكلم فلا يتكلم ؛ لأن ذلك أسلم له ؛ ثم اعلم أن قول الرسول ﷺ « من كان يؤمن بالله واليوم الآخر فليقل خيرًا أو ليصمت » يدل على أنه يجب على الإنسان أن يسكت إذا لم يكن الكلام خيرًا ؛ لأن الرسول ﷺ جعل شرط الإيمان بالله واليوم الآخر أن يقول الخير وإلا فليسكت ؛ لكن الخير نوعان : خير في ذات الكلام ، كقراءة القرآن والتسبيح والتكبير والتهليل وتعليم العلم وما أشبه ذلك هذا خير ، وخير لغير الكلام ، يعني خيرًا في الكلام وخيرًا لغير الكلام ، بمعنى أن الكلام مباح لكن يجر إلى مصلحة ؛ يجر إلى تأليف القلب وانبساط الإخوان وسرورهم بمجلسك ، هذا أيضًا من الخير ؛ لأن الإنسان لو بقي ساكتًا من أول المجلس لآخره مَلَّه الناس وكرهوه ، وقالوا هذا رجل فظ غليظ ؛ لكن إذا تكلم بما يدخل السرور عليهم ، وإذا كان كلامًا مباحًا ؛ فإنه من الخير . وأما من تكلم بكلام يُضحك الناس وهو كذب فإنه قد ورد فيه الوعيد « ويل لمن حدث و كذب ليضحك به القوم ، ويل له ، ثم ويل له » [(١)] وهذا يفعله بعض الناس و يسمونها (النكت) يتكلم بكلام كذب ولكن من أجل أن يضحك الناس ، هذا غلط ، تكلم بكلام مباح من أجل أن تدخل السرور على قلوبهم ، وأما الكلام الكذب فهو حرام .

ثم ذكر حديث أبو موسى الأشعري ﷺ أن النبي ﷺ سئل « أي المسلم خير » يعني أي المسلمين خير ، قال : « من سلم المسلمون من لسانه ويده » أي لا يعتدي على المسلمين لا بلسانه بغيبة أو نميمة أو سب أو ما أشبه ذلك « ويده » يعني لا يأخذ أموالهم ، ولا يضرب أبشارهم ، بل هو كافٌّ عادل ، لا يأتي الناس إلا ما هو خير ، هذا هو المسلم ، وفي هذا حث على أن يسلم الإنسان من لسانك ويدك ، احفظ لسانك لا تتكلم في عباد الله إلا في الخير ، كذلك احفظ يدك لا تَجْنِ على أموالهم ولا على أبشارهم ، بل كن سالمًا يُسْلَم منك ، و هذا هو خير المسلمين .

* * *

١٥١٣ - وَعَنْ سَهْلِ بْنِ سَعْدٍ قَالَ : قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ : « مَنْ يَضْمَنْ لي مَا بَينَ لَحْيَيهِ ، وَمَا بَينَ رِجْلَيهِ ؛ أَضْمَن لَهُ الجَنَّةَ » [(٢)] متفقٌ عليه .

١٥١٤ - وَعَنْ أَبي هُرَيرَةَ ﷺ أَنَّهُ سَمِعَ النَّبيَّ ﷺ يَقُولُ : « إنَّ الْعَبْدَ ليَتَكَلَّمُ بالكَلِمَةِ مَا يَتَبَيَّنُ فيهَا يَزِلُّ بَها إلى النَّار أبْعَدَ مِمَّا بَينَ المَشْرِقِ وَالمَغرِب » [(٣)] متفقٌ عليه .

ومعنى : « يَتَبَيَّنُ » يَتَفَكَّرُ أنْهَا خَيرٌ أم لا .

---

(١) أخرجه أبو داود في السنن (٤٩٩٠) والترمذي في السنن (٢٣١٥) وأحمد في مسنده (٥/٧) والدارمي في السنن (٢/٢٩٦) .

(٢) أخرجه البخاري في الرقاق (٦٤٧٤) ومسلم في الإيمان (٦٤) وأحمد في مسنده (٢/١٩١ ، ٢٠٦) قوله «يضمن » أي يلتزم لي حفظ . قوله : « لحييه » هما العظمان اللذان ينبت عليها الأسنان .

(٣) أخرجه البخاري في الرقاق (٦٤٧٧) ومسلم في الزهد والرقائق (٤٩) والبيهقي في السنن (٨/١٦٤) والحاكم في المستدرك (١/٤٥) وقال : صحيح ، ووافقه الذهبي . قوله : « يزل بها » أي يسقط بسببها .

١٥١٥ - وَعَنْهُ عَنِ النَّبيِّ ﷺ قالَ : « إنَّ العَبْدَ لَيَتَكَلَّمُ بِالكَلِمَةِ مِن رِضْوَانِ اللَّه تَعالى مَا يُلْقِي لهَا بَالًا يَرْفَعُهُ اللَّهُ بهَا دَرَجاتٍ ، وَإنَّ الْعَبدَ لَيَتَكَلَّمُ بالْكَلِمَةِ مِنْ سَخطِ اللَّهِ تعَالى لا يُلْقي لهَا بَالًا يَهْوِي بهَا في جَهَنَّم » [١] رواه البخاري .

الشرح

هذه أحاديث ثلاثة في بيان خطر اللسان وأنه من أعظم ما يكون من الأعضاء خطورة ، ففي الحديث الأول : أن النبي ﷺ قال : « مَنْ يَضْمَنْ لي ما بينَ لَحْيَيهِ وَمَا بينَ رِجْلَيهِ أَضْمنْ لهُ الجَنَّة » الذي بين لحييه هو اللسان والذي بين الرجلين هو الفرج ، سواء للرجل أو المرأة ، يعني من حفظ لسانه وحفظ فرجه ، حفظ لسانه عن القول المحرم ، من الكذب والغيبة والنميمة والغش وغير ذلك ، وحفظ فرجه من الزنا واللواط ووسائل ذلك ؛ فإن النبي ﷺ يضمن له الجنة ، يعني أن جزاءك هو الجنة إذا حفظت لسانك وحفظت فرجك ، فزلة اللسان كزلة الفرج ، خطيرة جدًّا ، وإنما قرن النبي ﷺ بينهما ؛ لأن في اللسان شهوة الكلام ، كثير من الناس يتنطع ويتلذذ إذا تكلم في أعراض الناس ، ويتفكّه والعياذ باللَّه .

﴿ وَإِذَا انقَلَبُوٓاْ إِلَىٰٓ أَهۡلِهِمُ انقَلَبُواْ فَكِهِينَ [٢] ﴾ [المطففين : ٣١] فتجده أحب شيء عنده أن يتكلم في أعراض الناس ، ومن الناس من يهوى الكذب ، فتجد أحسن شيء عنده هو الكذب ، والكذب من كبائر الذنوب لا سيما إذا كذب بالكلمة ليضحك القوم فإن الرسول ﷺ قال : « ويل لمن حدث فكذب ليضحك به القوم ، ويل له ثم ويل له » [٣] .

وأما الشيء الثاني الذي قرن بينه وبين شهوة الكلام فهو شهوة النساء ، فإن الإنسان مجبول على ذلك ولا سيما إذا كان شابًّا ، فإذا حاول حفظ هاتين الشهوتين ، ضمن النبي ﷺ له الجنة ، أي هذا جزاؤه ؛ لأنهم خطيران .

كذلك أيضًا الحديث الثاني : « إنَّ الْعَبْد لَيَتَكَلَّمُ بِالكَلِمةِ مَا يَتَبيَّنُ فيهَا يَزِلُّ بهَا إلى النَّارِ أَبْعَدَ مِمَّا بينَ المَشْرِقِ والمغْرِبِ » . الكلمة (لا يتبين فيها) يعني لا يتأكد ، ينقل ما سمع و « كفى بالمرء كذبًا أن يحدث بكل ما سمع » [٤] فتجده يتكلم بالكلمة ولا يتبين ولا يتثبت ولا يدرس معناها ولا يدرس ماذا توصل إليه ، والعياذ باللَّه يزل بها في النار أبعد مما بين المشرق والمغرب .

ومسافة ما بين المشرق والمغرب بعيدة جدًّا ، نصف الكرة الأرضية ، ومع ذلك كلمة واحدة زلَّ بها في النار أبعد مما بين المشرق والمغرب ، وهذا يدل على وجوب التأكد مما تتكلم به ، سواء نقلته إلى غيرك أو نقلته عن غيرك ، تثبّت ، اصبر ، لا تستعجل ، ما الذي يُوجب لك أن تستعجل في المقال ، اصبر حتى تتثبت ويتبين لك الأمر ، ثم إن رأيت مصلحة في الحديث فتحدث وإذا لم تر مصلحة في

---

(١) أخرجه البخاري في الرقاق (٦٤٧٨) وأحمد في مسنده (٢/٣٣٤) والبيهقي في السنن (٨/١٦٥) .

(٢) قوله : ﴿ فَكِهِينَ ﴾ أي متلذذين باستخفافهم بالمؤمنين . (٣) سبق تخريجه .

(٤) أخرجه مسلم في المقدمة (٥) والبغوي في شرح السنة (١٢/٣٦٢) .

الحديث فاسكت « من كان يؤمن بالله واليوم الآخر فليقل خيرًا أو ليصمت » .

وأما الحديث الثالث : هو « أن الرجل يتكلم بالكلمة من رضوان الله » ويعني كلمة ترضي الله ، قرآن ، تسبيح ، تكبير ، تهليل ، أمر بالمعروف ، نهي عن المنكر ، تعليم علم ، إصلاح ذات البين ، وما أشبه ذلك ، يتكلم بالكلمة ترضي الله ﷻ ولا يلقي لها بالًا ، يعني أنه لا يظن أنها تبلغ به ما بلغ ، وإلا فهو قد درسها وعرفها وألقى لها البال ، لكن لا يظن أن تبلغ ما بلغت ، يرفع الله له بها درجات في الجنة ، وعلى ذلك رجل يتكلم بالكلمة من سخط الله لا يلقي لها بالًا يهوي بها في النار ؛ لأنه تكلم بها ولا ظن أن تبلغ ما بلغت ، وهذا يقع كثيرًا ، كثير من الناس والعياذ بالله تجده يسأل عن فلان العاصي وما أشبه ذلك ، فيقول : هذا اتركه ، اترك هذا ، وهذا والله ما يعرف سبيله ، هذا والله ما يغفر الله له . هذه كلمة خطيرة . كان رجل عابد يمر برجل عاصٍ ، عابد يعبد الله ، فيقول هذا الرجل العابد : والله لا يغفر لفلان ، انظر ، والعياذ بالله تحجر واسعًا وتألى على الله ، والله لا يغفر لفلان ، لأن الرجل العابد هذا معجب بعمله ، يرى نفسه ، ويدلي بعمله على ربه ، وكأن له المنة على الله سبحانه وتعالى ، فقال : والله لا يغفر الله لفلان ، قال الله ﷻ : « من ذا الذي يتألى عَلَيَّ أن لا أغفر لفلان ؟ قد غفرت لفلان وأحبطت عملك » [1] الملك والسلطان لمن ؟ لله ﷻ ، ما هو لك حتى تقول : والله ما يغفر الله لفلان . والملك والسلطان لله لا ينازعه فيه منازع إلا أذله الله . قال : « من ذا الذي يتألى علي أن لا أغفر لفلان ؟ قد غفرت لفلان وأحبطت عملك » كلمة واحدة صارت سببًا لحبط عمله ، نسأل الله العافية إذًا احذر زلة اللسان ، ومن ذلك أيضًا : أي من زلل اللسان : إذا قال مثلًا شخص : يا فلان إن جارنا لا يصلي لعلك تنصحه إن شاء الله خيرًا ، قال له : هذا ما يمكن أن يهتدي أبدًا ، هذا طاغٍ ، هذا فاسق ، أعوذ بالله ، القلوب بيد من ؟ بيد الله ﷻ كما أخبرنا النبي ﷺ حيث يقول : « ما من قلب » من قلوب بني آدم « إلا بين إصبعين من أصابع الرحمن ﷻ يقلبه كيف يشاء ، إن شاء أزاغه ، وإن شاء هداه » [2] .

وهذا شيء مُسلَّم به ، حتى الإنسان أحيانًا يجد في قلبه أشياء يعرف أنها من الشيطان ، وأنه إن لم يثبته الله زل ، فالقلوب بيد الله ﷻ ، فكيف تقول : هذا ما يقال له شيء ، هذا لن يهتدي . حرام هذا لا يجوز ، ادع ولا تيأس ، هل سيوجد في هذه الأمة من كان من ألد أعدائها وأشد خصومها ، وكان ثاني اثنين في زعامة الأمة بعد نبينا محمد ﷺ من ؟ عمر بن الخطاب ، كان عمر بن الخطاب ﷺ مناوئًا للدعوة الإسلامية ، وكان يحذر منها ، وكان يفر منها ، وكان ألد أعدائها ، فهداه الله ، فصار هو الخليفة الثاني بعد الرسول ﷺ وكذلك خالد بن الوليد ، وعكرمة بن أبي جهل ، ماذا فعلا في أُحد ؟ كرا على المسلمين من الخلف على فرسيهما ومعهما فرسان آخرون واختلطا بالمسلمين وحدثت

---

(١) الحديث أخرجه مسلم في البر والصلة (١٣٧) .

(٢) أخرجه ابن ماجه في السنن (١٩٩) وأحمد في مسنده (١٨٢/٤) والحاكم في المستدرك (٥٢٥/١) . وقال : صحيح على شرط مسلم . ووافقه الذهبي .

الهزيمة ، وفي النهاية كانا قائدين عظيمين من قواد المسلمين ، فلا تيأس يا أخي ، واسأل اللّه الهداية والثبات ، ولا تزل بلسانك فتهلك ، حمانا اللّه من معاصيه ، ووفقنا لما يرضيه إنه على كل شيء قدير .

* * *

١٥١٦ - وَعَنْ أَبي عَبدِ الرَّحمنِ بلالِ بْنِ الحَارِثِ المُزَنيِّ ﷺ أن رَسُولَ اللّه ﷺ قَالَ : « إنَّ الرَّجُل لَيَتَكَلَّمُ بالْكَلِمَةِ مِنْ رِضْوانِ اللّه تَعَالَى مَا كَانَ يَظُنُّ أنْ تَبْلُغَ مَا بَلَغَتْ يَكْتُبُ اللّهُ لَهُ بهَا رِضْوَانَهُ إلى يَومِ يَلْقَاهُ ، وَإنَّ الرَّجُلَ ليَتَكَلَّمُ بالكَلِمَةِ مِنْ سَخَطِ اللّه مَا كَانَ يَظُنُّ أن تَبْلُغَ مَا بَلَغَتْ يَكْتُبُ اللّهُ لَهُ بهَا سَخَطَهُ إلى يَومِ يَلْقَاهُ » [١] .

رواهُ مالكٌ في « المُوَطَّأ » والترمذي وقال : حديثٌ حسنٌ صحيحٌ .

١٥١٧ - وَعَنْ سُفْيَانَ بْنِ عَبْدِ اللّهِ ﷺ قالَ : قُلْتُ : يَا رَسُولَ اللّهِ حَدِّثْني بأَمْرٍ أَعْتَصِمُ بِهِ ، قَالَ : « قُلْ : رَبِّيَ اللّهُ ، ثُمَّ اسْتَقِمْ » قُلْتُ : يَا رَسُولَ اللّهِ مَا أَخْوَفُ مَا تَخَافُ عَلَيَّ ؟ فأَخَذَ بِلِسَانِ نَفْسِهِ ، ثُمَّ قَالَ : « هٰذا » [٢] رواه الترمذي وقال : حديثٌ حسنٌ صحيحٌ .

١٥١٨ - وَعَنِ ابْنِ عُمَرَ ﷺ قَالَ : قَالَ رَسُولُ اللّهِ ﷺ : « لا تُكْثِروا الكَلامَ بِغَيرِ ذِكْرِ اللّهِ ؛ فَإنَّ كَثْرَة الكَلامِ بغَيرِ ذِكْرِ اللّهِ تَعالى قسْوَةٌ لِلْقَلْبِ ! وَإنَّ أَبْعَدَ النَّاسِ مِنَ اللّهِ القَلْبُ القَاسِي » [٣] رواه الترمذي .

١٥١٩ - وَعَنْ أَبي هُرَيرَةَ ﷺ قَالَ : قَالَ رَسُولُ اللّهِ ﷺ : « مَنْ وَقَاهُ اللّهُ شَرَّ مَا بَينَ لَحْيَيهِ ، وَشَرَّ مَا بَينَ رِجْليهِ ؛ دَخَلَ الجَنَّةَ » [٤] رَواهُ التِّرمذي وقال : حَديثٌ حَسَنٌ .

١٥٢٠ - وَعَن عُقْبَةَ بْنِ عَامِرٍ ﷺ قَالَ : قُلْتُ : يَا رَسُولَ اللّهِ مَا النَّجَاةُ ؟ قَالَ : « أمْسِكْ عَلَيكَ لِسانَكَ ، وَلْيَسَعْكَ بَيْتُكَ ، وَابْكِ عَلى خَطِيئَتِكَ » [٥] رواه الترمذي وقالَ : حديثٌ حسنٌ .

١٥٢١ - وَعَنْ أَبي سَعيدٍ الخُدْريِّ ﷺ عَنِ النبيِّ ﷺ قَالَ : « إذا أَصْبَحَ ابْنُ آدَمَ ، فَإنَّ الأَعْضَاءَ كُلَّهَا تُكَفِّرُ اللِّسَانَ ، تقولُ : اتَّقِ اللّهَ فينا ، فَإنَّما نحنُ بِكَ : فَإنِ اسْتَقَمتَ اسْتَقَمنا ، وَإن اعْوَجَجْتَ اعْوَجَجْنَا » [٦] رواه الترمذي . معنى « تُكَفِّرُ اللِّسَانَ » : أَي تَذِلُّ وَتَخْضَعُ لَهُ .

١٥٢٢ - وَعَنْ مُعَاذٍ ﷺ قَالَ : قُلْتُ : يَا رَسُولَ اللّهِ أَخبرني بِعَمَلٍ يُدْخِلُني الجَنَّةَ ، وَيُبَاعِدني مِنَ

---

(١) أخرجه مالك في الموطأ (٩٨٥/٢) والترمذي في الزهد (٢٣١٩) بنحوه ، وأحمد في مسنده (٤٦٩/٣) والحاكم في المستدرك (٤٦/١) . قوله : « أن تبلغ ما بلغت » أي ترتقي في الفضل ما وصلت إليه أو العكس .

(٢) أخرجه الترمذي في الزهد (٢٤١٠) وأحمد في مسنده (٤١٣/٣) وابن ماجه في الدعاء (٣٩٧٢) والدارمي في السنن (٢٩٨/٢) . قوله : « ثم استقم » أي ثم امتثل الأوامر واجتنب النواهي .

(٣) أخرجه الترمذي في الزهد (٢٤١١) . قوله : « أبعد الناس من اللّه » أي أبعدهم من رحمة اللّه وفضله .

(٤) أخرجه الترمذي في الزهد (٢٤٠٩) والحاكم في المستدرك (٣٥٧/٤) .

(٥) أخرجه الترمذي في الزهد (٢٤٠٦) .

(٦) أخرجه الترمذي في الزهد (٢٤٠٦) وأحمد في مسنده (٩٣/٦) .

النَّار ؟ قَالَ : « لَقَدْ سَأَلْتَ عَنْ عَظِيم ، وَإِنَّهُ لَيَسِيرٌ عَلى مَنْ يَسَّرَهُ اللَّه تَعَالى عَلَيهِ : تَعْبُدُ اللَّهَ لا تُشْرِكُ بِهِ شَيْئًا ، وتُقِيمُ الصَّلاةَ ، وَتؤتي الزَّكاةَ ، وَتَصُومُ رَمَضَانَ ، وَتَحُجُّ البَيتَ » ثُمَّ قَالَ : « أَلا أَدُلُّكَ عَلى أَبْوابِ الخَيرِ ؟ الصَّومُ جُنَّةٌ ، وَالصَّدَقَةُ تُطْفِئُ الخَطِيئَةَ كَما يُطْفِئُ المَاءُ النَّارَ ، وَصَلاةُ الرَّجُلِ مِنْ جَوفِ اللَّيلِ » ثُمَّ تَلا : ﴿ تَتَجَافَىٰ جُنُوبُهُمْ عَنِ ٱلْمَضَاجِعِ ﴾ حتى بلغ ﴿ يَعْمَلُونَ ﴾ [السجدة : ١٦، ١٧] . ثُمَّ قَالَ : « أَلا أُخْبِرُكَ بِرَأْسِ الأَمْرِ ، وَعَمُودِهِ ، وَذِروةِ سَنَامِهِ ؟ » قُلْتُ : بَلى يَا رَسُولَ اللَّهِ ، قَالَ : « رَأْسُ الأَمْرِ الإِسْلامُ ، وَعَمودُهُ الصَّلاةُ ، وَذرْوَةُ سَنامِهِ الجِهادُ » ثُمَّ قَالَ : « أَلا أُخْبِرُكَ بِمِلاكِ ذلك كُلِّه ؟ » قُلْتُ : بَلى يَا رَسُولَ اللَّهِ ، فَأَخَذَ بِلِسَانِهِ قَالَ : « كُفَّ عَلَيكَ هذا » قُلْتُ : يَا رَسُولَ اللَّهِ وَإِنَّا لَمُؤَاخَذُونَ بِمَا نَتَكَلَّمُ بِهِ ؟ فَقَالَ : « ثَكِلَتْكَ أُمُّكَ ! وَهَلْ يَكُبُّ النَّاسَ فِي النَّارِ عَلى وُجُوهِهِمْ إلا حَصَائِدُ أَلْسِنَتِهِمْ ؟ »(١) . رواه الترمذي وقال : حَدِيثٌ حَسَنٌ صَحِيحٌ ، وقد سبق شرحه .

الشرح

هذا من الأحاديث التي ساقها المؤلف رَحِمَهُ ٱللَّهُ ، كلها فيها التحذير من اللسان وشروره وآفاته ، وأن الإنسان ربما يتكلم بالكلمة من سخط اللَّه لا يلقي لها بالًا ولا يظن أن تبلغ ما بلغت يكتب اللَّه بها عليه سخطه إلى يوم يلقاه ، وكلها فيها التحذير من اللسان وآفاته ، ولهذا قيل :

احفظ لسانك أن تقول فتبتلي ... إن البلاء موكَّل بالمنطق

كثيرًا من الناس يدعو على نفسه بشر وهو لا يشعر ، يدعو على ولده ، يدعو على ماله ، يدعو على صديقه يدعو على قريبه من حيث لا يشعر فربما يصادف ذلك بابًا مفتوحًا فيصبه الدعاء ، وفي حديث معاذ بن جبل رضي الله عنه أن النبي صلى الله عليه وسلم قال له : « ألا أخبرك بملاك ذلك كله » أي بما يملك هذا كله ، قلت : بلى يا رسول اللَّه صلى الله عليه وسلم فأخذ بلسانه وقال : « كُفَّ عليك هذا » فقلت : يا رسول اللَّه وإنا لمؤاخذون بما نتكلم به ؟ يعني هل نؤاخذ بما نتكلم به . فقال : « ثكلتك أمك يا معاذ » وهذه كلمة يقصد بها تعظيم الأمر ، « وهل يكبُّ الناس على وجوههم إلا حصائد ألسنتهم ؟! » فاحذر يا أخي هذه الحصائد ، واحفظ لسانك ، ومن حفظ اللسان : أن يحفظ لسانه عن الكذب والغش وقول الزور والنميمة والغيبة وكل قول يبعده من اللَّه عَزَّوَجَلَّ ويوجب عليه العذاب ؛ فإنه يجب عليه أن يتنزه منه . نسأل اللَّه أن يحفظ علينا وعليكم ديننا الذي هو عصمة أمرنا إنه على كل شيء قدير .

* * *

١٥٢٣ - وَعَنْ أَبِي هُرَيرَةَ رضي الله عنه أَنَّ رَسُولَ اللَّه صلى الله عليه وسلم قَالَ : « أَتَدْرُونَ مَا الغِيبَةُ ؟ » قَالُوا : اللَّهُ وَرَسُولُهُ

---

(١) أخرجه الترمذي في الإيمان (٢٦١٦) وأحمد في مسنده (٥/٢٣١ ، ٢٣٧) . قوله : « الصوم جنة » أي وقاية وستر من النار ، قوله : « تطفئ » أي تمحو ، قوله : ﴿ تَتَجَافَىٰ ﴾ أي تتنحى . قوله : ﴿ ٱلْمَضَاجِعِ ﴾ هي أماكن النوم من أسرة وغيرها . قوله : « جوف الليل » أي وسط الليل ، قوله : « وذروة سنامه » أي أعلى مراتبه ، قوله : « ثكلتك » أي فقدتك ، قوله : « يكب » أي يلقيهم في النار .

أَعْلَمُ ، قَالَ : « ذِكْرُكَ أَخَاكَ بما يَكْرَهُ » قِيلَ : أَفَرأَيتَ إنْ كانَ في أَخي مَا أَقُولُ ؟ قَالَ : « إنْ كانَ فِيهِ ما تَقُولُ ؛ فَقَدِ اغْتَبْتَهُ ، وَإنْ لَمْ يَكُنْ فيهِ ما تَقُولُ ؛ فَقَدْ بَهَتَّهُ » [١] رواه مسلم .

١٥٢٤ - وَعَنْ أبي بَكْرَة ﷺ أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ قَالَ في خُطْبَتِهِ يَومَ النَّحرِ بِمِنى في حَجَّةِ الوداعِ : « إنَّ دِماءكم ، وَأمْوالكم ، وَأَعْراضكُمْ ؛ حَرَامٌ عَلَيكم كَحُرْمَة يَومِكُم هذا ، في شهرِكُمْ هذا ، في بَلَدِكُم هذا ، ألا هَل بَلَّغْتُ » [٢] متفقٌ عليه .

١٥٢٥ - وَعَنْ عَائِشَةَ ﷺ قالت : قُلْتُ لِلنَّبِيِّ ﷺ : حَسْبُكَ مِنْ صَفِيَّةَ كَذَا وَكذَا - قَالَ بَعْضُ الرُّوَاةِ : تعْني قَصِيرَةً - فقالَ : « لَقَدْ قُلْتِ كَلِمَةً لو مُزِجَتْ بماء البَحْر لَمَزَجَتْهُ ! » قَالَت : وَحَكَيْتُ له إنسَانًا فَقَالَ : « ما أُحِبُّ أني حَكيتُ إنسَانًا وَإنَّ لي كَذَا وَكذَا » [٣] رواه أبو داود ، والترمذي وقال : حديثٌ حسنٌ صحيحٌ .

ومعنى : « مَزَجَتْهُ » خَالطتهُ مُخَالَطةً يَتَغَيَّرُ بهَا طَعْمُهُ ، أَو رِيحُهُ ؛ لِشِدَّة نَتنِهَا وَقُبْحِها ، وَهذا مِنْ أَبلَغِ الزَّوَاجرِ عَنِ الغِيبَةِ ، قال اللَّه تعالى : ﴿ وَمَا يَنطِقُ عَنِ ٱلْهَوَىٰٓ ۝ إِنْ هُوَ إِلَّا وَحْىٌ يُوحَىٰ ﴾ [النجم : ٣، ٤] .

١٥٢٦ - وَعَنْ أَنسٍ ﷺ قَالَ : قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ : « لـمَّا عُرِجَ بي مَرَرْتُ بقَومٍ لهم أظْفَارٌ مِنْ نُحَاسٍ يَخمِشُونَ وجُوهَهُمْ وَصُدُورَهُمْ » فَقُلْتُ : مَنْ هؤلاء يا جِبْرِيلُ ؟ ، قَالَ : « هؤلاءِ الَّذِين يَأكُلُونَ لُحُومَ النَّاسِ ، وَيَقَعُونَ في أَعْرَاضِهِمْ ! » [٤] رواهُ أبو داود .

١٥٢٧ - وَعَنْ أَبي هُرَيرَةَ ﷺ أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ قَالَ : « كُلُّ المُسْلمِ على المُسْلِمِ حَرَامٌ : دَمُهُ ، وعرضه ، وَمَالُهُ » [٥] رواه مسلم .

الشرح

هذه بقية الأحاديث التي ساقها المؤلف رحمه الله في باب الغيبة والأمر بحفظ اللسان ، واشتملت على أشياء متعددة منها : بيان الغيبة ، وأنها ذكرك أخاك بما يكره ، وقد سبق لنا بيان هذا و أن الغيبة ذكرك أخاك بما يكره في دينه ، أو خُلقه ، أو بدنه ، أو أهله ، أو غير ذلك ، إلا إذا كان المقصود النصيحة كما لو

---

(١) أخرجه مسلم في البر والصلة (٧٠) والبيهقي في السنن (٢٤٦/١٠ ، ٢٤٧) .

(٢) أخرجه البخاري في العلم (١٠٥) ومسلم في القسامة (٢٩) وأحمد في مسنده (٣٣٧/٤) . قوله : « يومكم هذا » هو يوم النحر ، قوله : « شهركم هذا » هو شهر ذي الحجة ، قوله : « بلدكم هذا » هي مكة التي حرمها اللَّه يوم خلق السماوات والأرض .

(٣) أخرجه أبو داود في الأدب (٤٨٧٥) واللفظ له ، والترمذي في صفة القيامة (٢٥٠٢) . قوله : « حكيت إنسانًا » أي قلدته في شيء يكرهه .

(٤) أخرجه أبو داود في الأدب (٢٤٧٨) وأحمد في مسنده (٢٢٤/٣) . قوله : « عرج بي » أي صعد بي إلى السماء ليلة المعراج ، قوله : « يخمشون » أي يجرحون ، قوله : « يأكلون لحوم الناس » أي يغتابون الناس .

(٥) أخرجه مسلم في البر والصلة (٣٢) وأحمد في مسنده (٢٢٧/٢) .

استشارك شخص في معاملة إنسان وأنت تعرف من هذا الإنسان أنه ليس أهلًا للمعاملة ، وأنه – مثلًا – كذاب أو ما أشبه ذلك ، وأراد أن تبين له ما فيه من عيب ، فلا بأس فيه ، وبيِّنًا دليل هذا في حديث فاطمة بنت قيس حين استشارت النبي فيمن خطبوها : معاوية بن أبي سفيان ، وأبو جهم ، و أسامة بن زيد ، فقال النبي ﷺ : « أما معاوية فصعلوك لا مال له ، وأما أبو جهم فضرَّاب للنساء ، أنكحي أسامة » . فهذا من باب النصيحة فلا بئس بها ، وتضمنت هذه الأحاديث إعلان رسول اللّه ﷺ تحريم الدماء والأموال و الأعراض في حجة الوداع في أكبر مجتمع حصل بين النبي ﷺ وبين الصحابة ؛ لأن الذين حجوا معه قريب من مائة ألف ومع ذلك أعلن – عليه الصلاة والسلام – وقال : « إن أموالكم ، ودماءكم ، وأعراضكم ، حرام عليكم ، كحرمة يومكم هذا ، في شهركم هذا ، في بلدكم هذا ، ألا هل بلغت ؟ » قالوا : نعم .قال « اللّهم اشهد » . وكذلك أيضًا بينت هذه الأحاديث أن ذكرك أخاك بما يكره ولو بما يتعلق بخِلقته كالطويل والقصير وما أشبه ذلك ، كما في حديث عائشة رضي الله عنها أنها قالت في صفية بنت حيي إحدى أمهات المؤمنين : « حسبك من صفية كذا » تعني أنها قصيرة ، تقول للرسول ﷺ فقال : « لقد قلت كلمة لو مُزجت بماء البحر لمزجته » يعني لو خلطت بماء البحر على كبره وسعته لمزجته ، أي أثرت فيه وهي كلمة يسيرة جدًّا لكنها عظيمة ، حيث إنها في ضرتها ، وحيث إنها قد يحدث من هذه الكلمة أن يكره النبي ﷺ صفية ، فلعظمها صار لها هذا الأثر العظيم ، كذلك أيضًا العقوبة العظيمة التي رآها النبي ﷺ وقت أُسْرِيَ به ، أنه قد مَرَّ بأقوام لهم أظفار من النحاس يخمشون بها وجوههم وصدورهم ، فقال : « يا جبريل من هؤلاء ؟ » قال : الذين يقعون في أعراض الناس « يأكلون لحوم الناس ويقعون في أعراضهم » فالمهم أن الواجب على الإنسان الحذر من إطلاق اللسان وألا يتكلم إلا بخير إن كان يؤمن باللّه واليوم الآخر ، قال النبي ﷺ : « من كان يؤمن باللّه واليوم الآخر فليقل خيرًا أو ليصمت »[1] نسأل اللّه أن يحمينا وإياكم من سخطه وأن يعيننا وإياكم على شكره وحسن عبادته .

* * *

٢٥٥ - باب تحريم سماع الغيبة وأمر من سمع غيبة محرمة بردها ، والإنكار على قائلها ، فإن عجز أو لم يقبل منه ، فارق المجلس إن أمكنه

قال تعالى : ﴿ وَإِذَا سَمِعُوا۟ ٱللَّغْوَ أَعْرَضُوا۟ عَنْهُ ﴾ [القصص : ٥٥] .

وقال تعالى : ﴿ وَٱلَّذِينَ هُمْ عَنِ ٱللَّغْوِ مُعْرِضُونَ ﴾ [المؤمنون : ٣] . وقال تعالى : ﴿ إِنَّ ٱلسَّمْعَ وَٱلْبَصَرَ وَٱلْفُؤَادَ كُلُّ أُو۟لَٰٓئِكَ كَانَ عَنْهُ مَسْـُٔولًا ﴾ [الإسراء : ٣٦] . وقال تعالى : ﴿ وَإِذَا رَأَيْتَ ٱلَّذِينَ يَخُوضُونَ فِىٓ ءَايَٰتِنَا فَأَعْرِضْ عَنْهُمْ حَتَّىٰ يَخُوضُوا۟ فِى حَدِيثٍ غَيْرِهِۦ ۚ وَإِمَّا يُنسِيَنَّكَ ٱلشَّيْطَٰنُ فَلَا تَقْعُدْ بَعْدَ ٱلذِّكْرَىٰ مَعَ ٱلْقَوْمِ ٱلظَّٰلِمِينَ[2] ﴾ [الأنعام : ٦٨] .

---

(١) سبق تخريجه .

(٢) قوله : ﴿ ٱللَّغْوَ ﴾ هو القبيح من القول . قوله : ﴿ يَخُوضُونَ ﴾ أي يطعنون ويسبون ويستهزئون . قوله ﴿ بَعْدَ ٱلذِّكْرَىٰ ﴾ أي بعد أن تذكر .

١٥٢٨ - وَعَنْ أَبِي الدَّرْدَاءِ ﷺ عَن النبيِّ ﷺ قَالَ : « مَنْ رَدَّ عَنْ عِرْضِ أَخيهِ ، رَدَّ اللَّهُ عَنْ وجْههِ النَّارَ يَومَ القِيَامَةِ » [١] رواه الترمذي ، وقال : حديثٌ حسنٌ .

١٥٢٩ - وَعَنْ عِتْبَانَ بنِ مَالِكٍ ﷺ في حَدِيثِهِ الطَّويلِ المَشْهورِ الَّذي تقدَّمَ في بَابِ الرَّجاءِ قَالَ : قَامَ النَّبيُّ ﷺ يُصَلِّي فَقَالَ : « أَينَ مالِكُ بْنُ الدُّخشُم ؟ » فَقَالَ رجُلٌ : ذلكَ مُنافِقٌ لا يُحِبُّ اللَّهَ وَلا رَسُولَهُ ، فَقَالَ النَّبيُّ ﷺ : « لا تَقُلْ ذلِكَ ؛ أَلاَ تَرَاهُ قَدْ قَالَ : لا إلهَ إلَّا اللَّهُ يُرِيدُ بذلكَ وجْهَ اللَّهِ ؟! وإنَّ اللَّهَ قدْ حَرَّمَ على النَّارِ مَنْ قَالَ : لا إلهَ إلا اللَّهُ يَبْتَغِي بذلك وجْهَ اللَّهِ » [٢] متفقٌ عليه .

« وعِتبانُ » بكسر العين على المشهور ، وحُكِي ضمُّها ، وبعدها تاءٌ مثناةٌ مِنْ فوق ، ثمَّ باءٌ موحدةٌ . و « الدُّخْشُمُ » بضم الدال وإسكان الخاءِ ، وضمِّ الشين المعجمتين .

الشرح

ذكر المؤلف النووي رحمه الله تحريم سماع الغيبة ، بعد ما بين مضارها ومفاسدها وآثامها ، أعقب ذلك بهذا الباب وهو تحريم سماع الغيبة ، يعني أن الإنسان إذا سمع شخصًا يغتاب آخر فإنه يَحرم عليه أن يستمع إلى ذلك ، بل ينهاه عن هذا ويحاول أن ينقله إلى حديث آخر ، فإن هذا فيه أجر عظيم كما في حديث أبي الدرداء ﷺ فإن أصر هذا الذي يغتاب الناس ، إلا أن يبقى على غيبته ؛ وجب عليه أن يقوم عن المكان ؛ لأن اللَّه سبحانه وتعالى يقول : ﴿ وَقَدْ نَزَّلَ عَلَيْكُمْ فِي ٱلْكِتَٰبِ أَنْ إِذَا سَمِعْتُمْ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ يُكْفَرُ بِهَا وَيُسْتَهْزَأُ بِهَا فَلَا تَقْعُدُواْ مَعَهُمْ حَتَّىٰ يَخُوضُواْ فِي حَدِيثٍ غَيْرِهِۦٓ إِنَّكُمْ إِذًا مِّثْلُهُمْ ﴾ [النساء : ١٤٠] فدل ذلك على أن الإنسان إذا استمع إلى المحرم ؛ فهو مشارك لمن يفعل هذا المحرم ، فالواجب أن يقوم . ثم ذكر آيات متعددة في بيان الإعراض عن اللغو ، واللغو هو كل الكلام الذي لا فائدة فيه ، وعباد الرحمن قال اللَّه تعالى في وصفهم : ﴿ وَإِذَا مَرُّواْ بِٱللَّغْوِ مَرُّواْ كِرَامًا ﴾ [الفرقان : ٧٢] يعني سالمين منه لا يلحقهم شيء منه لا يستمعون إليه ، ثم ذكر حديث عتبان بن مالك في قضية مالك بن الدخشم وتكلم الرجل في عرضه عند النبي ﷺ وأن النبي ﷺ نهاه عن ذلك وقال : « ألم تر أنه يصلي يريد بذلك وجه اللَّه » وهذا يدل على أن الإنسان إذا لم يكن كذلك ؛ فإنه لا غيبة له ، فالكافر مثلًا ليس محترمًا في الغيبة ، لك أن تغتابه ، إلا أن يكون له أقارب مسلمون يتأذون بذلك فلا تغتابه وإلا فلا غيبة له ، أما الفاسق ؛ فقد سبق لنا أنه محترم إلا إذا كانت المصلحة تقتضي بيان فسقه فلا بأس أن يذكر بفسقه ؛ لأن هذا من باب النصحية . واللَّه الموفق .

* * *

١٥٣٠ - وَعَنْ كَعْبِ بْنِ مَالِكٍ ﷺ في حَدِيثِهِ الطَّويلِ في قصةِ تَوبَتِهِ وقد سَبَقَ في باب التَّوبَة .

---

(١) أخرجه الترمذي في البر والصلة (١٩٣١) ، وأحمد في مسنده (٦/ ٤٥٠) ، والبيهقي في السنن (٨/ ١٦٨) . قوله « من رد عن عرض أخيه » أي قام بمنع اغتيابه بالزجر أو الردع قبل الوقوع في الغيبة ، وإما بعده برد ما قاله عليه .

(٢) أخرجه البخاري في الصلاة (٤٢٥) ، ومسلم في المساجد ومواضع الصلاة (٢٦٣) ، والنسائي في السنن (٣/ ٥٧) والبيهقي في السنن (١٠/ ١٢٤) .

قَالَ : قَالَ النَّبِيُّ ﷺ وَهُوَ جَالِسٌ في القَومِ بتَبُوكَ : « ما فَعلَ كَعْبُ بْنُ مَالِكٍ ؟ » فَقَالَ رَجُلٌ مِنْ بَني سَلِمَةَ : يا رَسُولَ اللَّهِ ، حَبَسَهُ بُرْداهُ ، والنَّظَرُ في عِطْفَيهِ . فَقَالَ لَهُ مُعاذُ بنُ جَبَلٍ ﷺ : بِئْسَ ما قُلْتَ ، واللَّهِ يَا رَسُولَ اللَّهِ ، مَا عَلِمْنَا عَلَيهِ إلا خَيرًا ، فَسَكَتَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ [1] . متفقٌ عليه .

« عِطْفَاهُ » جانِبَاهُ ، وهو إشارةٌ إلى إعجابِهِ بنفسهِ .

الشرح

ذكر النووي رحمه الله في باب تحريم الغيبة فيما نقله عن كعب بن مالك ﷺ في قصة توبته وكان كعب من الذين تخلفوا عن غزوة تبوك بلا عذر وهم ثلاثة نفر : مرارة بن الربيع ، وهلال بن أمية ، وكعب بن مالك ، تخلفوا عن رسول اللَّه ﷺ بلا عذر ، فلما رجع النبي ﷺ من تبوك جاءه ﷺ المعذرون يعتذرون ويقولون : واللَّه إننا لا نستطيع ويحلفون على ذلك ، فكان النبي ﷺ يقبل اعتذارهم ويترك سرائرهم إلى اللَّه ، أما كعب بن مالك وصاحباه فقد نطقوا بالحق وقالوا : تخلفنا بلا عذر فأمر النبي ﷺ بهجرهم فهجرهم المسلمون حتى إن الرجل منهم لا يسلم ولا يرد عليه أحد السلام حتى كان كعب ﷺ يأتي فيسلم على النبي ﷺ يقول : فلا أدري أحرَّك شفتيه برد السلام أم لا ، وبعد ثمانية وأربعين يومًا أمر النبي ﷺ زوجاتهم أن ينفصلن عنهم ، فذهبت النساء إلى أهليهن ، إلا أن هلالًا ومرارة بن الربيع بقيت زوجاتهما عندهما ؛ لأنهما محتاجان إليهما ، أما كعب فذهبت امرأته إلى أهلها وهذه القصة العجيبة العظيمة أنزل اللَّه تعالى فيها آية من كتاب اللَّه ، يتلى ويثاب من تلاه على الحرف الواحد عشر حسنات ، أي فضل يساوي هذا الفضل ، أن يكون تاريخ إنسان في حياته إذا تلاه المسلمون كان لهم بكل حرف عشر حسنات ، فقال اللَّه تعالى على الثلاثة الذين خلفوا : ﴿ حَتَّىٰٓ إِذَا ضَاقَتْ عَلَيْهِمُ ٱلْأَرْضُ بِمَا رَحُبَتْ وَضَاقَتْ عَلَيْهِمْ أَنفُسُهُمْ وَظَنُّوٓا۟ أَن لَّا مَلْجَأَ مِنَ ٱللَّهِ إِلَّآ إِلَيْهِ ثُمَّ تَابَ عَلَيْهِمْ لِيَتُوبُوٓا۟ إِنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلتَّوَّابُ ٱلرَّحِيمُ ﴾ [التوبة : ١١٨] في تبوك كان النبي ﷺ جالسًا فسأل عن كعب فقال رجل من الناس : « يا رسول اللَّه ، شغله بُرداه والنظر في عطفيه » ولكن هذا الكلام الذي قاله هذا الرجل لا شك أنه من الغيبة ، وأنه ذكر كعب بما يكره ، إلا أن اللَّه وفق له من دافع عنه ، وقال : إنه لا يعلم عنه إلا خيرًا فسكت النبي ﷺ فيستفاد من ذلك : أن الواجب على الإنسان إذا سمع من يغتاب أحدًا أن يكف غيبته ، وأن يسعى في إسكاته ، إما بالقوة إذا كان قادرًا ، كأن يقول : اسكت ، اتق اللَّه ، خاف اللَّه . وإما بالنصيحة المؤثرة ، فإن لم يفعل ؛ فإنه يقوم ويترك المكان ؛ لأن الإنسان إذا جلس في مجلس يغتاب فيه الجالسون أهل الخير والصلاح ، فإنه يجب عليه أولًا أن يدافع ، فإن لم يستطع ؛ فعليه أن يغادر وإلا كان شريكًا لهم في الإثم . واللَّه الموفق .

* * *

(١) أخرجه البخاري في المغازي (٤٤١٨) ، ومسلم في التوبة (٥٣) ، وأحمد في مسنده (٤٥٧/٣) .

٢٥٦ - باب ما يباح من الغيبة

اعلم أن الغيبة تباح لغرض صحيح شرعي لا يمكن الوصول إليه بها وهو ستة أسباب : -

الأوَّل : التَّظَلُّم ، فيجوزُ للمظْلُوم أنْ يتظَلَّمَ إلى السُّلْطَانِ والقَاضِي وغَيرِهما مِمَّنْ لَهُ ولايةٌ ، أو قدْرَةٌ على إنْصافِهِ مِنْ ظالِمِهِ ، فيَقُولُ : ظَلَمَني فُلانٌ بكَذا .

الثَّاني : الاسْتِعانَةُ على تَغييرِ المُنْكَرِ ، وردُّ العاصي إلى الصَّواب ، فيقول لِمَن يرْجُوا قُدرتَهُ عَلى إزالة المُنكر : فُلانٌ يعْمَل كذا ، فازْجُرْهُ عنهُ ، ونحو ذَلكَ ، ويَكُونُ مقْصُودُهُ التَّوصُّلَ إلى إزَالَةِ المُنكَرِ ، فإنْ لَمْ يَقْصِدْ ذلك كَانَ حرامًا .

الثَّالِثُ : الاسْتِفْتَاءُ : فَيَقُولُ لِلْمُفْتي : ظَلَمني أبي ، أو أخي أو زَوجي ، أو فُلانٌ بكذا ، فَهَلْ لهُ ذلك ؟ وما طَريقي في الخلاص مِنْهُ ، وتَحْصِيل حقِّي ، ودفْعِ الظُّلْمِ ، ونحو ذلك ، فَهذَا جائِزٌ لِلْحاجةِ ، ولكنَّ الأحْوَطَ والأفْضَل أنْ يقُولَ : ما تقُولُ في رجُلٍ أو شَخصٍ ، أو زَوجٍ ، كانَ مِنْ أمْرِه كَذَا ؟ فإنَّهُ يحصُلُ بِهِ الغَرَضُ مِنْ غَيرِ تَعْيِينٍ ، ومع ذلكَ فالتَّعْيِينُ جائِزٌ كما سَنَذْكُرُهُ في حَديثِ هِنْدٍ إنْ شاءَ اللَّه تَعالى .

الرَّابعُ : تَحْذِيرُ المُسْلِمِينَ مِنَ الشرّ ونَصِيحتُهُم ، وذلكَ مِنْ وجُوه :

منها : جَرْحُ المجْرُوحِينَ مِنْ الرُّوَاةِ والشُّهُودِ ، وذلكَ جائِزٌ بِإجْماعِ المُسْلِمِينَ ، بَلْ واجِبٌ لِلْحاجَةِ .

ومنها : المُشَاورة في مُصاهَرةِ إنْسانٍ ، أو مُشَاركتِهِ ، أو إيداعِهِ ، أو مُعَاملتِهِ ، أو غَيرِ ذلكَ ، أو مُجَاورتِهِ ، ويَجبُ عَلى المُشَاوِرِ أنْ لا يُخْفي حالَهُ ، بلْ يَذْكُرُ المَساويءَ التي فيهِ بنيةِ النَّصِيحَةِ .

ومنها : إذا رأى مُتَفَقِّهًا يَتَرَدَّدُ إلى مُبْتَدع ، أو فاسِقٍ يأخُذُ عنهُ العِلْم ، وخاف أنْ يَتَضَرَّرَ المُتَفَقِّهُ بذلكَ ، فعلَيهِ نَصِيحتُهُ ببيانِ حاله ، بشَرْطِ أنْ يَقْصِد النَّصِيحةَ ، وهذا مِمَّا يُغْلَطُ فيهِ ، وقد يحْمِلُ المُتَكلِّمَ بِذلكَ الحَسدُ ، ويُلَبِّسُ الشيطانُ عليهِ ذلكَ ، ويُخَيِّلُ إلَيهِ أنَّهُ نَصيحةٌ فَلْيَتَفَطَّنْ لذلكَ .

ومنها : أن يكون لَهُ ولايةٌ لا يقومُ بها عَلى وجْهِها : إمَّا بألَا يكونَ صالحًا لها ، وإمَّا بأنْ يكونَ فاسِقًا ، أو مُغفَّلًا ، ونحو ذلك ، فَيَجبُ ذِكْرُ ذلكَ لمنْ لَهُ عليهِ ولايةٌ عامَّةٌ ليُزيلَهُ ، وَيُوَلِّي مَنْ يَصْلُحُ ، أو يعْلَمَ ذلكَ مِنه لِيُعَامِلَهُ بمُقْتَضى حالِهِ ، ولا يَغْتَرَّ بِهِ ، وَأنْ يَسْعى في أنْ يَحُثَّهُ على الاسْتِقَامَة أو يَسْتَبْدِل بِه .

الخَامسُ : أنْ يَكُونَ مُجاهِرًا بفِسْقِهِ أو بِدْعَتِهِ كالمجَاهِرِ بشُرْبِ الخمر ، ومُصَادَرَةِ النَّاس ، وأخْذ المكسِ ، وجبايَةِ الأمْوالِ ظُلْمًا ، وتَوَلّي الأمُورِ الباطِلَةِ ، فيجوزُ ذِكْرُهُ بما يُجاهِرُ بِهِ ، ويحْرُمُ ذِكْرُهُ بغَيرِهِ ، مِنَ العُيوب ، إلاَّ أنْ يكون لجوازِهِ سببٌ آخرُ مِمَّا ذَكَرْناهُ .

السَّادسُ : التَّعْريفُ ، فَإذا كانَ الإنْسانُ مَعْروفًا بلَقَبٍ كالأعمش ، والأعْرجِ والأصَمِّ ، والأعمَى ، والأحْوَلِ ، وغَيرِهِمْ جازَ تَعْريفُهُمْ بذلكَ ، ويحْرُم إطلاقُه عَلى جِهَةِ التَّنقِيص ، ولو أمكنَ تَعرِيفُهُ بغَيرِ

ذلك كانَ أولى .

فهذه ستَّةُ أسباب ذكَرَهَا العلماءُ وأَكْثَرُهَا مُجمَعٌ عليهِ .

الشرح

هذا الباب ذكره المؤلف النووي رَحِمَهُ اللَّهُ تعالى في كتابه (رياض الصالحين) فيما يجوز من الغيبة وذكر لذلك ستة أسباب كما سمعتم ، وكلامه رَحِمَهُ اللَّهُ ليس بعده كلام ، لأنه كله كلام جيد وصواب وله أدلة وسيذكرها - إن شاء اللّه تعالى - في هذا الباب ، يذكر الأدلة وسنتكلم عليها في حينها إن شاء اللّه فنسأل اللّه أن يغفر للنووي رَحِمَهُ اللَّهُ وأن يجمعنا وإياكم في جنات النعيم .

* * *

١٥٣١ - عَنْ عائِشَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا أَنَّ رَجُلًا اسْتَأْذَنَ عَلى النَّبي ﷺ فَقَالَ : « ائذَنُوا لَهُ ، بِئسَ أَخُو العَشِيرَةِ »[(١)] متفقٌ عليه . احْتَجَّ بِهِ البخاري في جَوازِ غِيبةِ أهلِ الفَسَادِ وأهلِ الرِّيَب .

١٥٣٢ - وَعَنْهَا قَالَتْ : قَالَ رَسُولُ اللَّه ﷺ : « مَا أَظُنُّ فُلانًا وفُلانًا يَعْرِفَانِ مِنْ ديننا شَيئًا »[(٢)] . رواه البخاري . قَالَ اللَّيثُ بْنُ سَعْدٍ أحدُ رُواةِ هذا الحَدِيثِ : هذَانِ الرَّجُلانِ كَانَا مِنَ المُنَافِقِينَ .

١٥٣٣ - وَعَنْ فَاطِمَةَ بِنْتِ قَيسٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا قَالَتْ : أَتَيتُ النَّبِيَّ ﷺ ، فقلتُ : إنَّ أَبا الجَهْمِ وَمُعَاوِيَةَ خَطباني ؟ فقَالَ رَسُولُ اللّهِ ﷺ : « أَمَّا مُعَاوِيَةُ ، فَصُعْلُوكٌ لا مَالَ له ، وأَمَّا أبو الجَهْمِ ، فلا يَضَعُ العَصَا عَنْ عاتِقِهِ »[(٣)] متفقٌ عليه .

وفي روايةٍ لمسلِم : « وأَمَّا أَبُو الجَهْمِ فَضَرَّابٌ للنِّسَاءِ » وهو تفسير لرواية : « لا يَضَعُ العَصَا عَنْ عَاتِقِه » وقيل : معناه : كثيرُ الأسفارِ .

١٥٣٤ - وعنْ زيدِ بنِ أَرْقَمَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قالَ : خَرَجْنَا مع رَسُولِ اللَّه ﷺ في سَفَر أَصَابَ النَّاسَ فيهِ شِدَّةٌ ، فَقَالَ عبدُ اللّهِ بنُ أُبيٍّ : لا تنفقوا على مَنْ عِنْدَ رسول اللّه حتى ينفضوا وقال : لَئِنْ رَجَعْنا إلى المدينة ليُخْرِجَنَّ الأعزُّ منهَا الأذلَّ ، فأتيتُ رسولَ اللّهِ ﷺ ، فأخبرتُه بذلك ، فأرسل إلى عبد اللّه بن أُبيٍّ ، فَاجْتَهَدَ يَمينهُ : مَا فَعَلَ ، فقالوا : كَذَبَ زيدٌ رَسُولَ اللّهِ ﷺ ، فَوَقَعَ في نَفسِي مِمَّا قالوا شِدَّةٌ حتى أَنْزَلَ اللّهُ تعالى تَصْدِيقي : ﴿ إِذَا جَآءَكَ ٱلْمُنَٰفِقُونَ ﴾ [المنافقون : ١] ثم دعاهم النبيُّ ﷺ ، لِيَسْتَغْفِرَ لهم

---

(١) أخرجه البخاري في الأدب (٦٠٥٤) ، ومسلم في البر والصلة (٧٣) ، وأحمد في مسنده (٣٨/٦) . قوله «أن رجلًا استأذن » هذا الرجل هو عيينة بن حصن ولم يكن أسلم حينئذ ، وإن كان قد أظهر إسلامه ، فأراد النبي ﷺ أن يبين حاله ليعرفه الناس ولا يغتر به من لم يعرفه ، وقد كان منه في حياة النبي وبعده ما يدل على ضعف إيمانه ؛ حيث ارتد مع المرتدين وجيء به أسيرًا إلى أبي بكر ، ووصف النبي له بذلك الوصف من إعجاز النبوة .

(٢) أخرجه البخاري في الأدب (٦٠٦٧) .

(٣) أخرجه مسلم في الطلاق (٣٦) ، وأحمد في مسنده (٤١٢/٦) ، ولم نعثر عليه في صحيح البخاري .

فَلَوَّوا رُؤُوسَهُمْ [(١)] . متفقٌ عليه .

الشرح

تقدم أن النووي رحمه الله ذكر بابًا في بيان ما يجوز الغيبة وذكر لذلك أحاديث فمنها حديث عائشة رضي الله عنها أن النبي ﷺ استأذن عليه رجل ، يعني ليدخل بيته فقال « ائذنوا له ، بئس أخو العشيرة » وفي لفظ « بئس ابن العشيرة » وكان هذا الرجل من أهل الفساد والغي ، فدل هذا على جواز غيبة من كان من أهل الفساد والغي وذلك من أجل أن يحذر الناس فساده حتى لا يغتروا فيه ، فإذا رأيت شخصًا ذا فساد وغي لكنه قد سحر الناس ببيانه وكلامه يأخذ الناس منه ويظنون أنه على خير ؛ فإنه يجب عليك أن تبين أن هذا الرجل لا خير فيه ، وأن تُثني عليه شرًا ، لأجل ألا يغتر الناس به ، كم من إنسان طليق اللسان فصيح البيان إذا رأيته يعجبك جسمه وإن يقول تسمع لقوله ، ولكنه لا خير فيه ، فالواجب بيان حاله .

كذلك أيضًا ذكر حديث عائشة أن النبي ﷺ قال : « ما أظن أن فلانا وفلانًا يعرفان من ديننا شيء » وكانا من المنافقين ، فأثنى عليهما شرًا وأنهما لا يعرفان من الدين شيئًا ؛ لأن المنافق لا يعرف من دين الله شيئًا في قلبه وإن كان يعرف بأذنه ، لكن لا يعرف بقلبه - والعياذ بالله - فهو منافق يظهر أنه مسلم ، ولكنه كافر ، قال الله تعالى : ﴿ وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يَقُولُ ءَامَنَّا بِٱللَّهِ وَبِٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِ وَمَا هُم بِمُؤْمِنِينَ ۝ يُخَٰدِعُونَ ٱللَّهَ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا وَمَا يَخْدَعُونَ إِلَّآ أَنفُسَهُمْ وَمَا يَشْعُرُونَ ﴾ [البقرة: ٨: ٩] . وذكر أيضًا حديث فاطمة بنت قيس في المشورة أنها جاءت رسول الله ﷺ وأخبرته أنه خطبها ثلاثة من الرجال : معاوية بن أبي سفيان ، وأبي الجهم ، وأسامة بن زيد ، فقال لها النبي ﷺ : « أما معاوية فصعلوك لا مال له » لكنه رضي الله عنه بقي حتى صار خليفة للمسلمين ، لكنه في ذلك الوقت فقير « قال أما معاوية فصعلوك لا مال له ، وأما أبو جهم فضراب للنساء » وفي رواية « أنه لا يرفع العصا عن عاتقه » وهما بمعنى واحد ، يعني أنه سيئ العشرة مع النساء يضربهن ، والمرأة لا يجوز ضربها إلا لسبب بينه الله في قوله : ﴿ وَٱلَّٰتِي تَخَافُونَ نُشُوزَهُنَّ فَعِظُوهُنَّ وَٱهْجُرُوهُنَّ فِي ٱلْمَضَاجِعِ وَٱضْرِبُوهُنَّ ﴾ [النساء: ٣٤] أما أن تكون تضرب امرأتك كلما خالفت أية مخالفة فهذا غلط ولا يحل لقوله تعالى : ﴿ وَعَاشِرُوهُنَّ بِٱلْمَعْرُوفِ ﴾ [النساء: ١٩] لكن إذا خفت نشوزها وترفعها عليك وعدم قيامها بواجبك فاستعمل معها هذه الرتب : أولًا عِظها ، خوِّفها بالله ، بين لها أن حق الزوج لا يجب تضييعه ، فإن استقامت فهذا المطلوب ، وإلا فالرتبة الثانية اهجرها في المضجع ، لا تنام معها ، أما الكلام فلا تهجرها ، لكن لك رخصة أن تهجرها في الكلام ثلاثة أيام ؛ لأنه : لا يحل لأحد أن يهجر أخاه فوق ثلاث يلتقيان فيعرض هذا ويعرض هذا وخيرهما الذي يبدأ بالسلام [(٢)] .

الرتبة الثالثة : إذا لم يشفها هذا فاضربوهن ، لكن ضربًا غير مبرح ، يعني ليس شديدًا ، بل ضرب يحصل به التأديب فقط .

---

(١) أخرجه البخاري في تفسير القرآن (٤٩٠٠) ، ومسلم في صفات المنافقين (١) .

(٢) وذلك لما رواه البخاري في الأدب (٦٠٧٧) ، والترمذي في السنن (١٩٣٢) ، وأحمد في مسنده (٤/٢٠) .

وفي نص : « أنه لا يضع العصا عن عاتقه » وهما بمعنى واحد ، وقيل إن معنى قوله : « أنه لا يضع العصا عن عاتقه » أنه كثير الأسفار ؛ لأن صاحب السفر في ذلك الوقت ، يسافر بالإبل ويحتاج العصا ، والظاهر أن المعنى واحد ؛ يعني ضراب للنساء ، ولا يضع العصا عن عاتقه بمعنى واحد ؛ لأن الروايات يفسر بعضها بعضًا ، ثم قال : « انكحي أسامة بن زيد » بن الحارثة ، فنكحته فاغتبطت به ورأت فيه خيرًا ، ففي هذا : دليل على أن الإنسان إذا جاء يستشيرك في شخص فذكرت عيوبه فلا بأس ؛ لأن هذا من باب النصيحة وليس من باب الفضيحة ، وفرق بين من يغتاب الناس ليظهر مساوءهم ويكشف عوراتهم ، وبين إنسان يتكلم بالنصيحة .

أما الحديث الرابع : فهو حديث زيد بن الأرقم ﷺ : كان النبي ﷺ في سفر وكان معه المؤمنون والمنافقون فأصاب الناس شدة ؛ فتكلم المنافقون وقالوا ﴿ لَا تُنفِقُوا۟ عَلَىٰ مَنْ عِندَ رَسُولِ ٱللَّهِ حَتَّىٰ يَنفَضُّوا۟ ﴾ [المنافقون : ٧] يعني :لا تعطوهم شيئًا من النفقة حتى يجوعوا ويتركوا النبي ﷺ وكذبوا ، المؤمنون لا يمكن أن يتركوا النبي ﷺ لو ماتوا جوعًا و ظمأً ما تركوه ، لكن هذا هي حال المنافقين الذين يلمزون النبي ﷺ في الصدقات إذا أُعطوا رضوا وإذا لم يُعطوا فإذا هم يسخطون ، أما المؤمنون فلن يتركوا الرسول ﷺ ﴿ لَا تُنفِقُوا۟ عَلَىٰ مَنْ عِندَ رَسُولِ ٱللَّهِ حَتَّىٰ يَنفَضُّوا۟ ﴾ حتى هنا للتعليل وليست للغاية ؛ يعني لأجل أن ينفضوا عنه ، ولكن كذبوا في ذلك وقالوا أيضًا ﴿ لَئِن رَّجَعْنَآ إِلَى ٱلْمَدِينَةِ لَيُخْرِجَنَّ ٱلْأَعَزُّ مِنْهَا ٱلْأَذَلَّ ﴾ [المنافقون : ٨] ويعني بالأعز نفسه وقومه ، وبالأذل رسول اللّه ﷺ فسمع ذلك زيد بن الأرقم ﷺ فأتى إلى النبي ﷺ فأخبره بأن عبد اللّه بن أبي قال هذا الكلام ، فأرسل إليه النبي ﷺ أي إلى عبد اللّه بن أبي ، فاجتهد يمينه أنه لم يقل هذا ، يعني حلف وأقسم واشتد في القسم أنه ما قال ذلك ؛ لأن المنافقين هذا دأبهم ، يحلفون علي الكذب وهم يعلمون ، فأقسم أنه ما قال ذلك ، وكان النبي ﷺ يقبل علانيتهم ويترك سريرتهم إلى اللّه ، فلما بلغ ذلك زيد بن الأرقم اشتد عليه الأمر ؛ لأن الرجل حلف وأقسم عند الرسول ﷺ واجتهد يمينه فاشتد هذا على زيد بن الأرقم ، فقال : كذب زيد بن الأرقم رسول اللّه ﷺ يعني أخبره بالكذب حتى أنزل اللّه تصديق زيد بن الآرقم في قوله : ﴿ هُمُ ٱلَّذِينَ يَقُولُونَ لَا تُنفِقُوا۟ عَلَىٰ مَنْ عِندَ رَسُولِ ٱللَّهِ حَتَّىٰ يَنفَضُّوا۟ وَلِلَّهِ خَزَآئِنُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَلَٰكِنَّ ٱلْمُنَٰفِقِينَ لَا يَفْقَهُونَ ۞ يَقُولُونَ لَئِن رَّجَعْنَآ إِلَى ٱلْمَدِينَةِ لَيُخْرِجَنَّ ٱلْأَعَزُّ مِنْهَا ٱلْأَذَلَّ وَلِلَّهِ ٱلْعِزَّةُ وَلِرَسُولِهِۦ وَلِلْمُؤْمِنِينَ وَلَٰكِنَّ ٱلْمُنَٰفِقِينَ لَا يَعْلَمُونَ ﴾ [المنافقون : ٨] وتأمل جواب اللّه ﷻ لقول عبد اللّه بن أبي ﴿ لَيُخْرِجَنَّ ٱلْأَعَزُّ مِنْهَا ٱلْأَذَلَّ ﴾ حيث قال : ﴿ وَلِلَّهِ ٱلْعِزَّةُ وَلِرَسُولِهِۦ ﴾ ولم يقل إن اللّه هو الأعز ؛ لأنه لو قال هو الأعز ، لصار في ذلك دليل على أن المنافقين لهم العزة ، وهم لا عزة لهم ، بل قال ﴿ وَلِلَّهِ ٱلْعِزَّةُ وَلِرَسُولِهِۦ وَلِلْمُؤْمِنِينَ وَلَٰكِنَّ ٱلْمُنَٰفِقِينَ لَا يَعْلَمُونَ ﴾ في هذه الآية : دليل على أنه لا بأس أن الإنسان ينقل كلام المنافق إلى ولي الأمر حتى يتخذ فيه ما ينبغي اتخاذه ، وكذلك ينقل كلام المفسد إلى ولي الأمر حتى لا يتمادى في إفساده ، وإذا كان الإنسان يخشى من الكلام أن يحصل فيه فساد ؛ وجب عليه أن يبلغه إلى ولي الأمر حتى يقضي على الفساد قبل أن يستفشي ، لا يقال : أخشى أن ولي

الأمر يفعل بي أو يفعل فيه ، لا ، قد يفعل فيه ، هو الذي جنى على نفسه إذا كان يتكلم بكلام يخشى منه الفساد ، فالواجب رفع الكلام إلى ولي الأمر ، لكن لابد من التثبت وألا يقع الإنسان في حرج ، في عهد الرسول - عليه الصلاة والسلام - لما أنكر عبد الله بن أبي ما قيل عنه ، نزل الوحي بتصديق زيد بن الأرقم ، لكن في وقتنا لا يوجد وحي يؤيد أو يفند ، فأنت إذا تثبّت وسمعت من بعض الناس كلامًا يؤدي إلى الشر والفساد ؛ وجب عليك أن تبلغ به ولي الأمر حتى لا يستفشي الشر والفساد ، فالمهم أن المؤلف رَحِمَهُ اللَّهُ ذكر مسائل وضوابط لما يجوز من الغيبة ، ثم ذكر أدلة ذلك والله الموفق .

* * *

١٥٣٥ - وعنْ عائشةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا قالتْ : قالتْ هِندُ امْرَأَةُ أبي سُفْيَان للنبيِّ ﷺ : إنَّ أَبا سُفْيَانَ رجُلٌ شَحِيحٌ وَلَيس يُعْطِيني ما يَكْفِيني ووَلَدِي إلا ما أَخَذْتُ مِنه وهوَ لا يَعْلَمُ ؟ قالَ : « خُذِي ما يَكْفِيكِ ووَلَدَكِ بالمَعْرُوفِ » [1] متفقٌ عليه .

* * *

٢٥٧ - باب تحريم النميمة وهي نقل الكلام بين الناس على جهة الإفساد

قال الله تعالى : ﴿ هَمَّازٍ مَّشَّآءٍ بِنَمِيمٍ [2] ﴾ [القلم : ١١] وقال تعالى : ﴿ مَّا يَلْفِظُ مِن قَوْلٍ إِلَّا لَدَيْهِ رَقِيبٌ عَتِيدٌ ﴾ [ق : ١٨] .

١٥٣٦ - وعَنْ حُذَيفَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قالَ : قالَ رسولُ اللَّهِ ﷺ : « لا يَدْخُلُ الجنَّةَ نَمَّامٌ » [3] متفقٌ عليه .

١٥٣٧ - وَعَن ابنِ عَبَّاسٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا أَنَّ رَسُولَ اللَّه ﷺ مَرَّ بِقَبْرَينِ فقال : « إنَّهُمَا يُعَذَّبانِ ، وما يُعَذَّبانِ في كَبيرٍ ! بَلى إنَّهُ كَبيرٌ : أَمَّا أَحدهمَا ، فَكَانَ يَمشي بالنَّمِيمَةِ ، وَأَمَّا الآخرُ فَكَانَ لَا يَسْتَتِرُ مِنْ بولِه » [4] . متفقٌ عليه ، وهذا لفظ إحدى روايات البخاري .

قالَ العُلَمَاءُ : مَعْنَى : « وَمَا يُعَذَّبَانِ في كَبِيرٍ » أَي : كَبِيرٍ في زَعْمِهِما ، وقيلَ : كَبيرٌ تَرْكُهُ عَلَيهما .

الشرح

سبق أن المؤلف (النووي) رَحِمَهُ اللَّهُ في كتابه (رياض الصالحين) ذكر بابًا مفيدًا في باب ما يجوز من الغيبة ، وذكر من ذلك ستة مسائل ، ذكر لها أدلة سبق الكلام عليها ، ومن ذلك : التظلم ، يعني إذا تظلم

---

(١) أخرجه البخاري في النفقات بنحوه (٥٣٥٩) ، ومسلم في الأقضية (٧) ، وأحمد في مسنده (٦/٣٩) ، والنسائي في السنن (٨/٢٤٧) .

(٢) قوله : ﴿ هَمَّازٍ ﴾ أي مغتاب عيّاب . قوله : ﴿ مَّشَّآءٍ بِنَمِيمٍ ﴾ أي يمشي بين الناس بالنميمة والإفساد .

(٣) أخرجه البخاري في الأدب بنحوه (٦٠٥٦) ، ومسلم في الإيمان (١٦٨) ، وأحمد في مسنده (٥/٣٩١) .

(٤) أخرجه البخاري في الجنائز (١٣٧٨) ، ومسلم في الطهارة (١١١) ، وأبو داود في الطهارة (٢٠) ، والبيهقي في السنن (١/١٠٤) .

إنسان عند ولي الأمر من شخص ظلمه ، فإن ذلك لا بأس به ، لأن حقه لن يتمكن منه إلا بذلك ، والدليل على هذا حديث هند بنت عتبة امرأة أبي سفيان ، جاءت إلى النبي ﷺ فقالت له : « يا رسول اللّه ، إن أبا سفيان رجل شحيح » يعني بخيل ، لا يعطيني ما يكفيني وولدي بالمعروف فوصفته بأنه شحيح ، وهذا وصف ذم يكرهه الإنسان لكن لماذا قالت ذلك ؟ تظلمًا من أجل رفع الظلم عنها ، وذلك أن الواجب على الإنسان أن ينفق على زوجته وعلى أولاده بالمعروف ، لا وكس ولا شطط ، لا يقصر ولا يزيد ، كما قال اللّه تعالى ﴿ وَالَّذِينَ إِذَآ أَنفَقُوا۟ لَمْ يُسْرِفُوا۟ وَلَمْ يَقْتُرُوا۟ وَكَانَ بَيْنَ ذَٰلِكَ قَوَامًا ﴾ [الفرقان : ٦٧] .

وأما البخل : بما يزيد ؛ فهذا حرام لا يجوز ، ومن وقع عليه ذلك ؛ فله أن يتظلم إلى شخص يستطيع أن يأخذ الحق له ؛ فهذه هند تظلمت عند الرسول ﷺ ولم يقل لها لا تقولي رجل شحيح ، أقرها على ذلك ؛ لأنها تطلب حقها ، فقال لها النبي « خذي ما يكفيك ويكفي ولدك بالمعروف » فأذن لها أن تأخذ من ماله بغير علمه ما يكفيها ويكفي ولدها ، ولكن بالمعروف ، يعني لا تزيد على ذلك ، فدل هذا على مسائل :

منها : جواز غيبة الإنسان للتظلم منه ، لكن بشرط أن يكون ذلك عند من يمكنه أخذ الحق لصاحبه ، وأما إذا لم يكن كذلك ؛ فلا فائدة من التظلم .

ومنها : أنه يجب على الإنسان أن ينفق على أهله زوجته وولده بالمعروف ، حتى لو كانت الزوجة غنية ؛ فإنه يجب على الزوج أن ينفق ، ومن ذلك ما إذا كانت الزوجة تدرس ، وقد شُرط على الزوج تمكينها من تدريسها ؛ فإنه لا حق له فيما تأخذه من راتب لا نصف ولا أكثر ولا أقل ، الراتب لها ما دام قد شرط عليه عند العقد أنه لا يمنعها من التدريس فرضي بذلك ، فليس له الحق أن يمنعها من التدريس ، وليس له الحق أن يأخذ من مكافأتها أي من راتبها شيئًا ، هو لها ، أما إذا لم تشترط عليه أن يمكنها من التدريس ، ثم لما تزوج قال : لا تدرسي ؛ فهنا لهما أن يصطلحا على ما يشاءان ، يعني مثلًا له أن يقول : أمكنك من التدريس بشرط أن يكون لي نصف الراتب ، أو ثلثاه ، أوثلاثة أرباعه ، أو ربعه ، وما أشبه ذلك ، على ما يتفقان عليه ، وأما إذا شرطت عليه أن تدرس وقَبِلَ ؛ فليس له الحق أن يمنعها ، وليس له الحق أن يأخذ من راتبها شيئًا .

ومن فوائد هذا الحديث أيضًا : أنه يجوز لمن له النفقة على شخص وامتنع من عليه النفقة من بذل النفقة ، أن يأخذ من ماله بقدر النفقة سواء علم أم لم يعلم ، وسواء أذن أم لم يأذن ، فللمرأة مثلًا أن تأخذ من جيب زوجها ما يكفيها ويكفي أولادها ، وكذلك أيضًا تأخذ من شنطته أو صندوقه ما يكفيها ويكفي أولادها ، سواء علم أم لم يعلم . فإن قال قائل : إذا كان لي حق على إنسان وجحد وأنكر وقدرت على أخذ شيء من ماله ، فهل يجوز أن آخذ مقدار حقي من ماله ؟ يعني مثلًا إنسان عنده لي مائة ريال وجحد ، قال : مالك عندي شيء ، فهل إذا قدرت على شيء من ماله يجوز أن آخذ من ماله مائة ريال ؟ الجواب لا ، لا يجوز [١] ، والفرق بين هذا وبين النفقة : أن النفقة لإنقاذ

---

(١) وفي هذه الحالة أي إذا أخذ ما يوازي ماله الذي تركه فإنه لا قطع عليه ؛ فقد أجمع الفقهاء على أن القطع من =

النفس وسببها ظاهر ، كلنا يعرف أن هذه زوجة فلان وأن الزوجة لها نفقة ، بخلاف الدَّين ؛ فإنه أمر خفي لا يقال عليه ، وقد قال النبي ﷺ : « أَدِّ الأمانة إلى من ائتمنك ، ولا تخُن من خانك »[1] .

فهذا هو القول الراجح في هذه المسألة ، ويعبر عنها عند العلماء بمسألة الظفر ، يعني من ظفر بمال من له حق عليه هل يأخذ منه أم لا ؟ والجواب بالتفصيل : أنه إذا كان في مقابل النفقة الواجبة فلا بأس ، وأما إذا كان في مقابل دين واجب ؛ فإنه لا يجوز لعموم قول الرسول ﷺ : « لا تخن من خانك » . والله الموفق .

* * *

١٥٣٨ - وعن ابن مَسْعُودٍ ﷺ أنَّ النَّبيَّ ﷺ قالَ : « ألا أُنبِّئُكُمْ ما العَضْهُ ؟ هِيَ النَّميمَةُ ، القَالَةُ بَيـنَ الناس »[2] رواه مسلم .

« العَضْهُ » بفَتْح العين المُهمَلَة ، وإسْكانِ الضَّادِ المُعْجَمَةِ ، وبالهاءِ على وزن الوجهِ ، ورُوي : « العِضَةُ » بِكَسْرِ العَينِ وفَتْحِ الضَّادِ المُعْجَمَة عَلى وَزْنِ العِدَةِ ، وهِيَ : الكَذِبُ والبُهتانُ ، وعَلى الرِّواية الأولى : العَضْهُ مصدرٌ ، يقال : عَضَهَهُ عَضْهًا ، أَي : رماهُ بالعَضْهِ .

الشرح

ذكر المؤلف رحمه الله في تحريم النميمة ، فيما نقله عن عبد الله بن مسعود ﷺ أن النبي ﷺ قال : «ألا أنبئكم ما العضه ؟ هي النميمة ، القالة بين الناس » . هذا من أساليب التعليم الجيدة ، وهي أن يلقي المعلم السؤال على المخاطبين للتنبيه ، حتى يستثير أفهامهم ويعطوا الكلام انتباهًا « ألا أنبئكم ما العضه » والنبأ والخبر في اللغة العربية معناها واحد ، والعضة ، من القطع والتمزيق ومنه قوله تعالى ﴿ ٱلَّذِينَ جَعَلُوا۟ ٱلْقُرْءَانَ عِضِينَ ﴾ [الحجر : ٩١] يعني قطعًا وأجزاءً يؤمنون ببعضه ويكفرون ببعضه ، فما هي الأداة المفرقة للأمة الممزقة لهم ، قال : هي النميمة أن ينقل الإنسان كلام الناس بعضهم في بعض من أجل الإفساد بينهم ، وهي من كبائر الذنوب ، وقد كُشف للنبي ﷺ عن رجلين يعذبان في قبورهما ، وأخبر أن أحدهما كان يمشي بالنميمة[3] ، وذلك أن بعض الناس - والعياذ بالله - يفتن

= شروطه : أن يكون المال ملكًا لغير السارق ، وأنه لا قطع على من سرق مال نفسه كما لو كان ماله في يد المرتهن أو المستأجر أو المستعير أو المودع أو الوكيل أو العامل .. إلخ . (انظر : الأنوار ٢/٥٠٤ ، ٥٠٥) والمغني (٨/٢٥٤ ، ٢٥٥) وفقه الكتاب والسنة (٤/٢٠٩١ ، ٢٠٩٢) .

(١) أخرجه أبو داود في السنن (٣٥٣٤) ، والترمذي في السنن (١٢٦٤) ، وأحمد في مسنده (٣/٤١٤) ، والحاكم في المستدرك (٢/٤٦) .

(٢) أخرجه مسلم في البر والصلة (١٠٢) ، وأحمد في مسنده (١/٤٣٧) . قوله « القالة بين الناس » هي كثرة القول وإيقاع الخصومة بين الناس بما يحكي للبعض عن البعض .

(٣) انظر الحديث في البخاري في الوضوء(٢١٦) ، والنسائي في السنن(٤/١٠٦) ، والترمذي في الطهارة(٧٠) ، وابن ماجه في السنن(٣٤٧) .

فيكون شغوفًا بنقل كلام الناس بعضهم لبعض ، يتزين بها عند الناس ، يأتي لفلان ويقول : فلان قال فيك كذا وكذا ، قد يكون صادقًا وقد يكون كاذبًا ، حتى إن كان صادقًا فإنه حرام ، ومن كبائر الذنوب ، وقد نهى الله تعالى أن يطاع مثل هذا الرجل قال تعالى : ﴿ وَلَا تُطِعْ كُلَّ حَلَّافٍ مَّهِينٍ ۝ هَمَّازٍ مَّشَّآءٍۭ بِنَمِيمٍ ﴾ [ن : ١٠ ، ١١] وقال بعض أهل العلم : من نَمَّ إليك الحديث نمة منك ، يعني من نقل كلام الناس إليك ؛ فإنه ينقل كلامك أنت ، فاحذره ولا تطعه ولا تلتفت إليه ، وفي هذا : دليل على حسن تعليم النبي ﷺ ، حيث يأتي بالأساليب التي يكون فيها انتباه المخاطب ، ولا سيما إذا رأى الإنسان من المخاطَب غفلة ، فإنه ينبغي أن يأتي بالأسلوب الذي ينبهه ؛ لأن المقصود من الخطاب هو الفهم والاستيعاب والحفظ ، فيأتي الإنسان بالأساليب المفيدة في ذلك .

فإذا قال قائل : إذا كان الشخص ينقل كلام الإنسان في الإنسان نصيحة ، مثل أن يرى شخصًا مغرورًا بشخص يفضي إليه أسراره ويلازمه ، والشخص هذا يفضي أسرار صاحبه الذي يفضي إليه أسراره ويخدعه ، فهل له أن يتكلم فيه ؟ فالجواب : نعم ، له أن يتكلم فيه ويقول : يا فلان احذر هذا الشخص فإنه ينقل كلامك ويقول : فيك كذا وكذا ؛ لأن هذا من باب النصيحة ليس غرضه أن يفرق بين الناس ولكن غرضه أن يسدي النصيحة إلى صاحبه ، والله تعالى يقول : ﴿ وَٱللَّهُ يَعْلَمُ ٱلْمُفْسِدَ مِنَ ٱلْمُصْلِحِ ﴾ [البقرة : ٢٢٠] والله الموفق .

* * *

٢٥٨ - باب النهي عن نقل الحديث وكلام الناس إلى ولاة الأمور إذا لم تدعُ إليه حاجة كخوف مفسدة ونحوها

قال اللَّهُ تعالى : ﴿ وَلَا تَعَاوَنُوا۟ عَلَى ٱلْإِثْمِ وَٱلْعُدْوَٰنِ (١) ﴾ [المائدة : ٢] . وفي الباب الأحاديث السابقة في الباب قبلَهُ .

١٥٣٩ - وعن ابنِ مَسْعُودٍ ﷺ قالَ : قالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ : « لا يُبلِّغْني أَحَدٌ من أَصْحابي عَنْ أَحَدٍ شَيئًا ، فإنِّي أحِبُّ أَنْ أَخْرُجَ إِلَيكُم وأَنَا سَلِيمُ الصَّدْر » (٢) رواهُ أَبو داودَ ، والترمذيّ .

الشرح

ذكر المؤلف - رحمه الله تعالى - النهي عن نقل الحديث وكلام الناس إلى ولاة الأمور إذا لم تدع الحاجة إلى ذلك ، يعني هذا الباب أراد المؤلف به رحمه الله ألا ينقل الناس إلى الولاة كلام الناس وأحوالهم إذا لم تدع الحاجة إلى ذلك ؛ لأن نقل الكلام إلى ولاة الأمور إذا لم يكن هناك مصلحة

(١) قوله : ﴿ ٱلْإِثْمِ ﴾ أي المعاصي . قوله : ﴿ وَٱلْعُدْوَٰنِ ﴾ أي الظلم .

(٢) أخرجه الترمذي في المناقب (٣٨٩٦) ، وأبو داود في الأدب (٤٨٦٠) ، وأحمد في مسنده (١/٣٩٦) ، والبيهقي في السنن (٨/١٦٦) .

يوجب إما العدوان على الشخص الذي نُقل عنه الكلام ، وإما أن ولاة الأمور يتصورون أشياء لا حقيقة لها وأن الناس يكرهونهم ويسبونهم وما أشبه ذلك ، فلهذا ينبغي ألا يُنقل إلى ولاة الأمور الحديث ، حديث الناس وكلام الناس إلا إذا دعت الحاجة والمصلحة إلى ذلك ، فإذا دعت الحاجة أو المصلحة إلى ذلك ؛ فإنه ينقل كلام الناس إلى ولاة الأمور خوفًا من المفسدة ، فمثلًا إذا كان أحد من الناس يتكلم في ولاة الأمور في المجالس ، ويقول فيهم كذا وفيهم كذا ويسبهم ، فإن الأولى ألا ينقل هذا الكلام إلى ولاة الأمور ؛ لئلا تحصل المفسدة التي أشرت إليها ، وهي العدوان على هذا الشخص وتصور ولاة الأمور أن الناس يكرهونهم ، فيكرهون الناس ولا يأتون بالأمر الذي ينبغي أن يأتوا به من مصالح المسلمين ، أما إذا دعت الحاجة إلى ذلك ، إلى نقل كلام الناس إلى ولاة الأمور لدفع مفسدة أو حصول مصلحة ؛ فإنه لابد من نقله إليهم ، فإذا رأينا رجلًا يتكلم في ولاة الأمور بما فيهم من المعاصي والفسوق وما أشبه ذلك ، وينشرها بين الناس ؛ فإنه لابد أن تُعلم ولاة الأمور بهذا ؛ لأن هذا من النصيحة لهذا الشخص لئلا يتمادى في طغيانه وهجومه على ولاة الأمور ، ومن النصيحة لولاة الأمور أيضًا : ألا يحمل الناس في قلوبهم على ولاة الأمور ، وأما ترك المفسد يفسد ويتكلم بما شاء من غير ردع له ولا زجر ، فهذا خلاف النصيحة ، بل فيه المفسدة العظيمة .

فالحاصل : أن النووي رَحِمَهُ اللَّهُ ذَكَر في هذا الباب أنه لا ينبغي أن ينقل إلى ولاة الأمور كلام الناس وحديثهم ما لم تقتض المصلحة ذلك ، فإن اقتضت المصلحة ذلك ؛ لكبح الشر والفساد والطغيان ؛ فإنه يجب أن ينقل إلى ولاة الأمور بعد التثبت والتحقق من الأمر حتى تردع ولاة الأمور أهل الشر والفساد ، وإلا فلو ترك الناس يتكلمون كما يشاؤون لحصل في هذا مفسدة كبيرة .

ثم استدل المؤلف لهذا بآية وحديث ، أما الآية فقوله تعالى : ﴿ وَلَا تَعَاوَنُوا عَلَى الْإِثْمِ وَالْعُدْوَانِ ﴾ ومن التعاون على الإثم والعدوان : أن ينقل الإنسان كلام الناس ، أو كلام شخص معين إلى ولاة الأمور بدون مصلحة تقتضي ذلك ، فإن هذا قد يحصل به كما أشرنا عدوان من ولاة الأمور على الشخص بلا سبب شرعي .

وأما الحديث : فهو حديث ابن مسعود رضي الله عنه أن النبي صلى الله عليه وسلم قال : « لا يبلغني أحدٌ عن أحدٍ شيئًا ، فإني أحب أن أخرج إليكم وأنا سليم الصدر » وهذا من حكمة الرسول صلى الله عليه وسلم أنه لا أحد ينقل إليه كلام الناس لكي لا يقع في قلبه شيء على هذا المتكلم فيحب أن يخرج إليهم وهو سليم الصدر ، ولهذا كثيرًا ما يكون الإنسان محبًا لشخص يقدره ويرى أنه رجل كريم ورجل سليم ، ثم إذا نقل إليه شيء عن هذا الرجل كرهه ونفر منه وصار يبغضه ، لكن كما قلنا أولًا : إذا اقتضت المصلحة أن نتكلم فلابد أن نتكلم ؛ لكي لا ينتشر الشر والفساد وتحصل الفتن . والله الموفق .

* * *



٢٥٩ - باب ذم ذي الوجهين

قال الله تعالى: ﴿ يَسْتَخْفُونَ مِنَ النَّاسِ وَلَا يَسْتَخْفُونَ مِنَ اللَّهِ وَهُوَ مَعَهُمْ إِذْ يُبَيِّتُونَ مَا لَا يَرْضَىٰ مِنَ الْقَوْلِ وَكَانَ اللَّهُ بِمَا يَعْمَلُونَ مُحِيطًا ﴾ (١) [النساء: ١٠٨].

١٥٤٠ - وعن أبي هُرَيرَةَ ﷺ قالَ: قال رَسُولُ اللّه ﷺ: « تَجدُونَ النَّاسَ مَعَادِنَ: خِيارُهُمْ في الجاهِلِيَّةِ خِيارُهُمْ في الإسْلامِ إذا فَقُهُوا، وَتجدُونَ خِيارَ النَّاسِ في هذا الشَّأْنِ أَشَدَّهُم لَهُ كَراهِيَةً، وَتجدُونَ شَرَّ النَّاسِ ذَا الوَجْهَينِ، الَّذي يَأْتي هؤلاء بِوَجْهٍ، وَهؤلاءِ بِوَجْهٍ » (٢) متفقٌ عليه.

١٥٤١ - وعنْ محمدِ بنِ زَيدٍ أَنَّ نَاسًا قالُوا لجَدِّهِ عبدِ اللّهِ بنِ عُمَرَ ﷺ: إِنَّا نَدْخُلُ عَلى سَلاطِيننا فنقولُ لهمْ بِخلافِ ما نَتَكَلَّمُ إذا خَرَجْنَا مِنْ عِندِهِمْ. قال: كُنَّا نَعُدُّ هذا نِفاقًا عَلى عَهْدِ رَسُولِ اللّهِ ﷺ (٣). رواه البخاري.

الشرح

ذكر المؤلف رَحِمَهُ اللَّهُ في كتابه باب ذم ذي الوجهين: وذو الوجهين هو الذي يأتي هؤلاء بوجه وهؤلاء بوجه، كما يفعل المنافقون ﴿ وَإِذَا لَقُوا الَّذِينَ آمَنُوا قَالُوا آمَنَّا وَإِذَا خَلَوْا إِلَىٰ شَيَاطِينِهِمْ قَالُوا إِنَّا مَعَكُمْ إِنَّمَا نَحْنُ مُسْتَهْزِئُونَ (٤) ﴾ [البقرة: ١٤] وهذا يوجد في كثير من الناس والعياذ بالله، وهو شعبة من النفاق، تجده يأتي إليك يتملق ويثني عليك وربما يغلو في ذلك الثناء، ولكنه إذا كان من ورائك عقرك وذمك وشتمك، وذكر فيك ما ليس فيك، فهذا والعياذ بالله كما قال النبي « تجدون شر الناس ذا الوجهين يأتي هؤلاء بوجه وهؤلاء بوجه » (٥) وهذا من كبائر الذنوب؛ لأن النبي ﷺ وصف فاعله بأنه شر الناس، والواجب على الإنسان أن يكون صريحًا، لا يقول إلا ما في قلبه؛ فإن كان خيرًا حُمد عليه، وإن كان سوى ذلك وُجِّه إلى الخير، أما كونه يأتي هؤلاء بوجه وهؤلاء بوجه، سواء كان فيما يتعلق بعبادته يظهر أنه عابد مؤمن تقي وهو بالعكس، أو فيما يتعلق بمعاملته مع الشخص يظهر أنه ناصح له ويثني عليه ويمدحه، ثم إذا غاب عنه عقره، فهذا لا يجوز.

ثم ذكر المؤلف رَحِمَهُ اللَّهُ الآية الكريمة ﴿ يَسْتَخْفُونَ مِنَ النَّاسِ وَلَا يَسْتَخْفُونَ مِنَ اللَّهِ وَهُوَ مَعَهُمْ إِذْ يُبَيِّتُونَ مَا لَا يَرْضَىٰ مِنَ الْقَوْلِ وَكَانَ اللَّهُ بِمَا يَعْمَلُونَ مُحِيطًا ﴾ [النساء: ١٠٨] هذه الآية نزلت في قوم يخفون في أنفسهم

(١) وقوله: ﴿ يَسْتَخْفُونَ ﴾ أي يستترون. قوله: ﴿ يُبَيِّتُونَ ﴾ أي يدبرون. قوله: ﴿ الْقَوْلِ ﴾ هو شهادة الزور والقذف.

(٢) أخرجه البخاري في المناقب (٣٤٩٣)، ومسلم في فضائل الصحابة (١٩٩)، وأحمد في مسنده (٢/٥٢٥).
قوله « تجدون الناس معادن » أي ذوي أصول ينسبون إليها ويتفاخرون بها، قوله « خيارهم » أي أشرفهم، قوله « إذا فقهوا » أي إذا علموا الأحكام الشرعية.

(٣) أخرجه البخاري في الأحكام (٧١٧٨)، والطبراني في الكبير (١٢/٣٢١) بنحوه.

(٤) قوله: ﴿ خَلَوْا ﴾ أي انفردوا، قوله: ﴿ شَيَاطِينِهِمْ ﴾ أي رؤسائهم وقادتهم المشبهين للشياطين في تمردهم وعتوهم.

(٥) أخرجه البخاري في الأدب (٦٠٥٨)، والمنذري في الترغيب والترهيب (٣/٦٠٣).

ما لا يبدونه ، يحدثون الناس بما ليس في قلوبهم ، فإذا صاروا في الوحدة واجتمعوا في الليل ؛ أظهروا ما في نفوسهم - والعياذ بالله - الذي كانوا أخفوه عن الناس من قبل ، فيقول الله ﷻ ﴿ يَسْتَخْفُونَ مِنَ ٱلنَّاسِ وَلَا يَسْتَخْفُونَ مِنَ ٱللَّهِ وَهُوَ مَعَهُمْ إِذْ يُبَيِّتُونَ مَا لَا يَرْضَىٰ مِنَ ٱلْقَوْلِ ۚ وَكَانَ ٱللَّهُ بِمَا يَعْمَلُونَ مُحِيطًا ﴾ ومثل ذلك أيضًا من يعمل المعصية خفاءً ولا يعملها أمام الناس حياءً منهم وخجلًا ، وأما الله فلا يستحي منه ولا يخجل والعياذ بالله ، وهذا يدخل في الآية الكريمة . وأما من عمل المعصية وندم وتاب ؛ فإنه لا يجوز له أن يحدث الناس بما فعل ، فإن النبي ﷺ قال : « كل أمتي معافى إلا المجاهرون »(١) والمجاهر هو الذي إذا فعل المعصية حدث بها ، فالواجب على الإنسان أن يكون صريحًا ، ظاهره كباطنه ، وهو إذا كان صريحًا إن كان على خير ثبته أهل الخير عليه واستمر ، وإن كان على خلاف ذلك بينوا له ما هو عليه من الشر حتى يرتدع - نسأل الله تعالى - أن يجعل بواطننا خيرًا من ظواهرنا وأن يوفقنا ، وإياكم إلى ما يحب ويرضى إنه على كل شيء قدير .

* * *

٢٦٠ - باب تحريم الكذب

قال الله تعالى : ﴿ وَلَا تَقْفُ مَا لَيْسَ لَكَ بِهِۦ عِلْمٌ ۚ إِنَّ ٱلسَّمْعَ وَٱلْبَصَرَ وَٱلْفُؤَادَ كُلُّ أُولَـٰٓئِكَ كَانَ عَنْهُ مَسْـُٔولًا ﴾ [الإسراء: ٣٦] وقال تعالى : ﴿ مَّا يَلْفِظُ مِن قَوْلٍ إِلَّا لَدَيْهِ رَقِيبٌ عَتِيدٌ ﴾ [ق : ١٨]

الشرح

ذكر المؤلف رحمه الله تحريم الكذب ، والكذب هو أن يخبر الإنسان بخلاف الواقع ، فيقول : حصل كذا ، وهو كاذب ، أو قال فلان كذا ، وهو كاذب وما أشبه ذلك ، فهو الإخبار بخلاف الواقع .

واعلم أن الكذب أنواع :

الأول : الكذب على الله ورسوله ، وهذا أعظم أنواع الكذب ، لقول الله تعالى ﴿ فَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ ٱفْتَرَىٰ عَلَى ٱللَّهِ كَذِبًا لِّيُضِلَّ ٱلنَّاسَ بِغَيْرِ عِلْمٍ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلظَّـٰلِمِينَ ﴾ [الأنعام: ١٤٤] واللام في قوله ﴿ لِّيُضِلَّ ٱلنَّاسَ بِغَيْرِ عِلْمٍ ۗ ﴾ اللام لام العاقبة وليست لام التعليل ، فهي كقوله تعالى في موسى عليه السلام ﴿ فَٱلْتَقَطَهُۥٓ ءَالُ فِرْعَوْنَ لِيَكُونَ لَهُمْ عَدُوًّا وَحَزَنًا ۗ ﴾ [القصص: ٨] وهم ما التقطوه لهذا ولكن الله تعالى جعل العاقبة أن كان لهم عدوًّا وحزنًا ، وهكذا من افترى على الله كذبًا ، فإنه بافترائه يضل الناس بغير علم . والافتراء على الله نوعان :

النوع الأول : أن يقول : قال الله كذا ، وهو يكذب ، يكذب على الله ، والله لم يقل شيئًا .

والنوع الثاني : أن يفسر كلام الله بغير ما أراد الله ؛ لأن المقصود من الكلام معناه ، فإذا قال : أراد

---

(١) أخرجه البخاري في الأدب (٦٠٦٩) ، ومسلم في الزهد (٥٢) ، والطبراني في الصغير .

اللَّه بكذا كذا وكذا ، فهو كاذب على اللَّه ، شاهد على اللَّه بما لا يرده اللَّه ﷻ ، لكن الثاني إذا كان عن اجتهاد وأخطأ في تفسير الآية ؛ فإن اللَّه تعالى يعفو عنه ، لأن اللَّه قال : ﴿ وَمَا جَعَلَ عَلَيْكُمْ فِي ٱلدِّينِ مِنْ حَرَجٍ ﴾ [الحج : ٧٨] وقال : ﴿ لَا يُكَلِّفُ ٱللَّهُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا ﴾ [البقرة : ٢٨٦] وأما إذا تعمد أن يفسر كلام اللَّه بغير ما أراد اللَّه اتباعًا لهواه ، أو إرضاء لمصالح ، أو ما أشبه ذلك ؛ فإنه كاذب على اللَّه ﷻ. وهكذا من بعده الكذب على رسول اللَّه ﷺ بأن يقول : قال رسول اللَّه كذا ، ولم يقله ، لكن كذب عليه ، وكذلك أيضًا إذا فسر حديث رسول اللَّه ﷺ بغير معناه فقد كذب على رسول اللَّه ﷺ وقد قال النبي ﷺ « من كذب علي متعمدًا فليتبوأ مقعده من النار »[(١)] المعنى أن من كذب على الرسول ﷺ متعمدًا قد تبوأ مقعده من النار وسكن في مقعده من النار – والعياذ باللَّه – فهذان النوعان من الكذب هما أشد أنواع الكذب : الكذب على اللَّه والكذب على رسول اللَّه ﷺ . وأكثر الناس كذبًا على رسول اللَّه هم الرافضة الشيعة ؛ فإنه لا يوجد في طوائف أهل البدع أحد أكثر منهم كذبًا على رسول اللَّه ﷺ كما نص على هذا علماء مصطلح الحديث – رحمهم اللَّه – لما تكلموا على أن الحديث الموضوع ، قالوا : إن أكثر من يكذب على الرسول هم الرافضة الشيعة وهذا شيء مشاهد ومعروف لمن تتبع كتبهم .

أما القسم الثاني من الكذب : فهو الكذب على الناس ، والكذب على الناس نوعان أيضًا : كذب يظهر الإنسان فيه أنه من أهل الخير والصلاح والتقى والإيمان وهو ليس كذلك ، بل هو من أهل الكفر والطغيان – والعياذ باللَّه – فهذا هو النفاق ، النفاق الأكبر الذين قال اللَّه فيهم ﴿ وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يَقُولُ ءَامَنَّا بِٱللَّهِ وَبِٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِ وَمَا هُم بِمُؤْمِنِينَ ﴾ [البقرة : ٨] لكنهم يقولون بألسنتهم ويحلفون على الكذب وهم يعلمون ، وشواهد ذلك في القرآن والسنة كثيرة ، إنهم – أعني المنافقين – أهل الكذب يكذبون على الناس في دعوى الإيمان وهم كاذبون ، وانظر إلى قول اللَّه تعالى في سورة المنافقين حيث صدَّرَ هذه السورة ببيان كذبهم حيث قال تعالى : ﴿ إِذَا جَآءَكَ ٱلْمُنَٰفِقُونَ قَالُوا۟ نَشْهَدُ إِنَّكَ لَرَسُولُ ٱللَّهِ ﴾ [المنافقون : ١] أكدوا هذه الجملة بكم مؤكد ، بثلاثة مؤكدات ، ﴿ نَشْهَدُ ﴾ (إن) (اللام) ثلاثة مؤكدات ، يؤكدون أنهم يشهدون أن محمدًا رسول اللَّه ، فقال اللَّه تعالى : ﴿ وَٱللَّهُ يَعْلَمُ إِنَّكَ لَرَسُولُهُۥ وَٱللَّهُ يَشْهَدُ إِنَّ ٱلْمُنَٰفِقِينَ لَكَٰذِبُونَ ﴾ [المنافقون : ١] في قولهم ﴿ قَالُوا۟ نَشْهَدُ إِنَّكَ لَرَسُولُ ٱللَّهِ ﴾ هذا أيضًا من أنواع الكذب ، وهو أشد أنواع الكذب على الناس ؛ لأن فاعله – والعياذ باللَّه – منافق .

والنوع الثالث من الكذب : هو الكذب في الحديث بين الناس الجاري بين الناس ، يقول : قلت لفلان كذا وهو لم يقله ، قال فلان كذا وهو لم يقله ، جاء فلان وهو لم يأت ، وهكذا ، هذا أيضًا محرم ومن علامات النفاق كما قال النبي ﷺ « آية المنافق ثلاث : إذا حدث كذب »[(٢)] ثم ساق المؤلف رحمه الله الأدلة على تحريم الكذب منها قوله تعالى ﴿ وَلَا تَقْفُ مَا لَيْسَ لَكَ بِهِۦ عِلْمٌ ۚ إِنَّ ٱلسَّمْعَ وَٱلْبَصَرَ وَٱلْفُؤَادَ كُلُّ أُو۟لَٰٓئِكَ كَانَ عَنْهُ مَسْـُٔولًا ﴾ ﴿ وَلَا تَقْفُ ﴾ أي لا تتبع ما ليس لك به علم ﴿ إِنَّ ٱلسَّمْعَ وَٱلْبَصَرَ

---

(١) أخرجه البخاري في العلم (١٠٧) ، ومسلم في المقدمة (٣ ، ٤) ، وابن ماجه في السنن (٣٠ – ٣٦) ، وأحمد في مسنده (١٣٠/١) .

(٢) سبق تخريجه .

وَٱلْفُؤَادَ كُلُّ أُوْلَٰٓئِكَ كَانَ عَنْهُ مَسْـُٔولًا ﴾ وإذا كان هذا نهيًا عما لم تحط به علمًا ، فما بالك بما أحطت به علمًا وأخبرت بخلافه ؟ يكون هذا أشد وأعظم ، وبهذا نعرف أن الإنسان إذا تكلم بكلام ؛ فإما أن يكون قد أحاط به علمًا ، فكلامه هذا مباح في الأصل ما لم يجر إلى مفسدة ، الثاني : أن يقفو ما يعلم أن الأمر بخلافه ؛ فهذا كذب واضح وصريح ، والثالث : أن يقفو ما لم يحط به علمًا ولا يعلم أن الأمر بخلافه ؛ فهذا منهي عنه ﴿ وَلَا تَقْفُ مَا لَيْسَ لَكَ بِهِۦ عِلْمٌ ﴾ فيُنهى أن يتكلم الإنسان في حالين ، في الحالة الأولى : أن يعلم أن الأمر بخلاف ما يتكلم به . والحالة الثانية : أن يتكلم في أمر لا يعلمه ، هذا كله منهي عنه ، أما إذا تكلم بما يعلم ؛ فهذا أمر لا بأس به .

وذكر الآية الأخرى ﴿ مَّا يَلْفِظُ مِن قَوْلٍ إِلَّا لَدَيْهِ رَقِيبٌ عَتِيدٌ ﴾ ، ﴿ مِن قَوْلٍ ﴾ نكرة في سياق ماذا ؟ في سياق النفي ، ومؤكد عمومها بمن ﴿ مَّا يَلْفِظُ مِن قَوْلٍ إِلَّا لَدَيْهِ رَقِيبٌ عَتِيدٌ ﴾ أي قول تقوله عندك رقيب عتيد يعني حاضر يراقب يكتب ما تقول ﴿ إِذْ يَتَلَقَّى ٱلْمُتَلَقِّيَانِ عَنِ ٱلْيَمِينِ وَعَنِ ٱلشِّمَالِ قَعِيدٌ ﴿١٧﴾ مَّا يَلْفِظُ مِن قَوْلٍ إِلَّا لَدَيْهِ رَقِيبٌ عَتِيدٌ ﴾ ﴿ أَمْ يَحْسَبُونَ أَنَّا لَا نَسْمَعُ سِرَّهُمْ وَنَجْوَىٰهُم بَلَىٰ ﴾ يعني نسمع سرهم ونجواهم ﴿ وَرُسُلُنَا لَدَيْهِمْ يَكْتُبُونَ ﴾ ما أعظم الأمر ، كل كلمة تخرج منك تكتب وسوف تلقى ذلك يوم القيامة ، كما قال تعالى : ﴿ وَكُلَّ إِنسَٰنٍ أَلْزَمْنَٰهُ طَٰٓئِرَهُۥ فِى عُنُقِهِۦ ۖ وَنُخْرِجُ لَهُۥ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ كِتَٰبًا يَلْقَىٰهُ مَنشُورًا ﴿١٣﴾ ٱقْرَأْ كِتَٰبَكَ كَفَىٰ بِنَفْسِكَ ٱلْيَوْمَ عَلَيْكَ حَسِيبًا ﴾ أنت حسيب نفسك ، قال بعض السلف : واللَّه لقد أنصفك من جعلك حسيبًا على نفسك .

والحاصل : أن اللَّه يقول : ﴿ مَّا يَلْفِظُ مِن قَوْلٍ إِلَّا لَدَيْهِ رَقِيبٌ عَتِيدٌ ﴾ هذا الرقيب العتيد أي الحاضر يكتب كل شيء ، كل قولك ، سواء كان لك أو عليك ، أو من اللغو الذي ليس لك ولا عليك ، ولما كان الإمام أحمد رَحِمَهُ اللَّهُ مريضًا يئن من مرضه ، قيل له : إن فلانًا - وأظنه طاووسًا - يقول : إن الملك يكتب حتى أنين المريض ، أنين المريض وهو يئن من شدة المرض يكتب عليه ، أمسك رَحِمَهُ اللَّهُ - أعني الإمام أحمد - عن الأنين ، وصار يتصبر ولا يئن خوفًا ، من ماذا ؟ من أن يكتب عليه ، هؤلاء الذين يحفظون ألسنتهم وجوارحهم ويعرفون قدر الأمور ، أمسك حتى عن الأنين ، أما نحن نسأل اللَّه أن يعاملنا وإياكم بالعفو ، فإطلاق اللسان عندنا كثير ، وقد قال الرسول ﷺ : « من كان يؤمن باللَّه واليوم الآخر فليقل خيرًا أو ليصمت »[١] نسأل اللَّه أن يعيننا وإياكم على أنفسنا وأن يوفقنا إلى ما يحبه ويرضاه من القول والعمل .

* * *

١٥٤٢ - وعن ابنِ مسعودٍ رضي الله عنه قالَ : قالَ رَسولُ اللَّه ﷺ : « إنَّ الصِّدْقَ يَهْدِي إلى البرِّ ، وإنَّ البِرَّ يَهدِي إلى الجنَّةِ ، وإنَّ الرَّجُلَ لَيَصْدُقُ حتَّى يُكْتَبَ عِنْدَ اللَّهِ صِدِّيقًا ، وإنَّ الكَذِبَ يَهْدِي إلَى الفُجُورِ ، وَإنَّ الفُجُورَ يَهْدِي إلى النَّارِ ، وَإن الرجل لَيَكْذِبُ حَتَّى يُكْتَبَ عِنْدَ اللَّهِ كَذَّابًا »[٢] متفقٌ عليه .

---

(١) سبق تخريجه .

(٢) أخرجه البخاري في الأدب (٦٠٩٤) ، ومسلم في البر والصلة (١٠٣) ، وأحمد في مسنده (٣٨٤/١) ، والدارمي في السنن (٢٩٩/٢) . قوله « البر » اسم جامع للخير كله ، قوله « الفجور » هو الميل عن الاستقامة والانبعاث في المعاصي .

الشرح

سبق لنا الكلام على الآيتين اللتين ذكرهما المؤلف رحمه الله ثم ذكر المؤلف الأحاديث ، ومنها حديث عبد الله بن مسعود رضي الله عنه أن النبي ﷺ قال : « إياكم والكذب ؛ فإن الكذب يهدي إلى الفجور ، وإن الفجور يهدي إلى النار ، ولا يزال الرجل يكذب ويتحرى الكذب حتى يكتب عند الله كذابًا ، وعليكم بالصدق ، فإن الصدق يهدي إلى البر ، وإن البر يهدي إلى الجنة ، ولا يزال الرجل يصدق ويتحرى الصدق حتى يكتب عند الله صديقًا » ففي هذا الحديث : حذر النبي ﷺ من الكذب فقال : « إياكم والكذب » يعني ابتعدوا عنه واجتنبوه ، وهذا يعم الكذب في كل شيء ، ولا يصح قول من قال : إن الكذب إذا لم يتضمن ضررًا على الغير فلا بأس به ، فإن هذا قول باطل ؛ لأن النصوص ليس فيها هذا القول ، النصوص تحرم الكذب مطلقًا ، ثم بين الرسول ﷺ أن الكذب يهدي إلى الفجور ، يعني إذا كذب الرجل في حديثه ، فإنه لا يزال فيه الأمر حتى يصل به إلى الفجور - والعياذ بالله - وهو الخروج عن الطاعة ، والتمرد والعصيان ، والفجور يهدي إلى النار قال الله تعالى : ﴿ كَلَّآ إِنَّ كِتَٰبَ ٱلْفُجَّارِ لَفِى سِجِّينٍ ۝ وَمَآ أَدْرَىٰكَ مَا سِجِّينٌ ۝ كِتَٰبٌ مَّرْقُومٌ ۝ وَيْلٌ يَوْمَئِذٍ لِّلْمُكَذِّبِينَ ۝ ٱلَّذِينَ يُكَذِّبُونَ بِيَوْمِ ٱلدِّينِ (1) ﴾ [المطففين: ٧- ١١] ثم قال : « ولا يزال الرجل يكذب ويتحرى الكذب حتى يكتب عند الله كذابًا » - والعياذ بالله - أي من الكذابين لأن الكذب - نسأل الله لنا ولكم السلامة منه ومن سائر الآثام - إذا اعتاده الإنسان صار يكذب في كل شيء ، وصدق عليه وصف المبالغة ، فكتب عند الله كذابًا ، وأما الصدق فحث عليه النبي ﷺ فقال : « عليكم بالصدق » ، إذا تحدثتم فاصدقوا ، « فإن الصدق يهدي إلى البر ، وإن البر يهدي إلى الجنة » ، قال الله تعالى : ﴿ كَلَّآ إِنَّ كِتَٰبَ ٱلْأَبْرَارِ لَفِى عِلِّيِّينَ ۝ وَمَآ أَدْرَىٰكَ مَا عِلِّيُّونَ ۝ كِتَٰبٌ مَّرْقُومٌ ۝ يَشْهَدُهُ ٱلْمُقَرَّبُونَ (2) ﴾ فإذا صدق الإنسان وعوَّد لسانه على الصدق ؛ هداه إلى البر ، والبر يهدي إلى الجنة ، يعني يُوصل إليها ، « ولا يزال الرجل يصدق ويتحرى الصدق حتى يكتب عند الله صديقًا » ، والصديقية منزلة عالية ، هي التي تلي منزلة النبوة ، كما قال الله تعالى : ﴿ وَمَن يُطِعِ ٱللَّهَ وَٱلرَّسُولَ فَأُوْلَٰٓئِكَ مَعَ ٱلَّذِينَ أَنْعَمَ ٱللَّهُ عَلَيْهِم مِّنَ ٱلنَّبِيِّۦنَ وَٱلصِّدِّيقِينَ وَٱلشُّهَدَآءِ وَٱلصَّٰلِحِينَ ۚ وَحَسُنَ أُوْلَٰٓئِكَ رَفِيقًا ﴾ [النساء: ٦٩] .

واعلم أن الكذب يتضاعف جرمه بحسب ما يؤدي إليه ، فالكذب في المعاملة أشد من الكذب في مجرد الإخبار ، فإذا صار الرجل يكذب في بيعه وشرائه وأخذه وعطائه ؛ صار هذا أشد ؛ لأنه إذا كذب في البيع والشراء ، تمحق بركة بيعه قال النبي ﷺ : « البيّعان بالخيار ، فإن صدقا وبيّنا ؛ بورك لهما في بيعهما ، وإن كذبا وكتما ؛ مُحقت بركة بيعهما » (3) .

وما ترتب على الكذب في البيع والشراء من زيادة في الثمن أو زيادة في المبيع ؛ فإنه سحت - والعياذ

---

(١) قوله : ﴿ سِجِّينٍ ﴾ هو شر موضع في جهنم . قوله : ﴿ مَّرْقُومٌ ﴾ أي بَيِّنُ الكتابة . قوله : ﴿ يَوْمِ ٱلدِّينِ ﴾ هو يوم القيامة .

(٢) قوله : ﴿ عِلِّيُّونَ ﴾ أي في أعلى الدرجات في الجنة . قوله : ﴿ ٱلْمُقَرَّبُونَ ﴾ هم الملائكة .

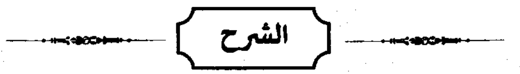
(٣) أخرجه البخاري في البيوع (٢١١٠) ، ومسلم في البيوع (٤٧) ، والترمذي في السنن (١٢٤٥) ، وأبو داود في السنن (٣٤٥٧) ، وأحمد في مسنده (٤٠٣/٣) .

بالله - لأنه مبني على الكذب ، والكذب باطل ، وما بني على الباطل فهو باطل ، وكذلك الكذب في وصف السلعة ، يقول الإنسان مثلًا : هذه السلعة فيها كذا وكذا من الصفات المرغوبة وهو كاذب ، هذا أيضًا من أكل المال بالباطل ، ومن ذلك : ما يفعله بائعو السيارات كما يقولون : يعطي الإنسان سيارته هذا الدلال وهو يدري أن فيها العيب الفلاني ثم يقول عند عرضها للبيع كل عيب فيها ولا يظهر العيب الحقيقي ؛ فهذا حرام لا يجوز ، إذا كان البائع يعلم العيب لكن كتمه ، وقال للمشتري : انظر إلى كل عيب ، هذا حرام إذا كان يعلم أن فيها عيبًا ، أما إذا كان لا يعلم لكنه يخشى أن يكون فيها عيب لا يطلع عليه ، فلا بأس أن يترك البراءة من كل عيب مشبوه ، والله الموفق .

* * *

١٥٤٣ - وعَنْ عبدِ اللَّه بنِ عَمْرو بْنِ العَاص رضي الله عنهما أن النبيَّ ﷺ قال : « أَرْبَعٌ مَنْ كُنَّ فِيهِ ، كانَ مُنَافِقًاخالِصًا ، وَمَنْ كانَتْ فِيهِ خَصْلَةٌ مِنْهُنَّ ، كَانَتْ فِيهِ خَصْلَة مِنْ نِفاقٍ حَتَّى يَدَعَهَا : إذا اؤْتُمِنَ خَانَ ، وَإذا حَدَّثَ كَذَبَ ، وَإذا عاهَدَ غَدَرَ ، وَإذا خَاصَمَ فَجَرَ » [1] متفقٌ عليه .

وقد سبقَ بيانه معَ حديثِ أبي هُرَيرَةَ بنحوِهِ في « باب الوفاءِ بالعهد » .


الشرح

ذكر النووي - رحمه الله تعالى - في أحاديث منها حديثًا عن عبد الله بن عمرو بن العاص رضي الله عنهما أن النبي ﷺ قال : « أربع من كن فيه كان منافقًا خالصًا ، ومن كان فيه خصلة منهن كان فيه خصلة من النفاق حتى يدعها » .

قوله : « أربع من كن فيه » أي من اتصف بهن كان منافقًا خالصًا ؛ لأنه أتى بجميع الأعمال التي يتصف بها المنافقون - والعياذ بالله - والمراد بالنفاق هنا : النفاق العملي الذي يكون عليه أهل النفاق العقدي ، وليس نفاق الاعتقاد ، لأن نفاق الاعتقاد ؛ نفاق كفر - والعياذ بالله - وهو الذي يظهر الإسلام ويبطن الكفر ، أما هؤلاء الذين يتصفون بهذه الصفات : فإنهم يؤمنون بالله واليوم الآخر إيمانًا حقيقيًا ، ولكنهم يستعملون هذه الصفات وفيها شيء من النفاق ، أولًا قال : « إذا أؤتمن خان » إذا ائتمنه إنسان على شيء خانه فمثلًا إذا أعطى وديعة وقيل له خذها احفظها ؛ دراهم أو ساعة أو قلم أو متاع أو غير ذلك ، يكون فيها ، يستعملها لنفسه ، أو يتركها فلا يحفظها في مكانها ، أو يظفر بها من يتسلط عليه ويأخذها ، المهم أنه لا يؤدي الأمانة فيها ، كذلك إذا اؤتمن على حديث سري وقيل له : لا تخبر أحدًا ذهب يخبر ، قال لي فلان ، قال لي فلان ، وبعض الناس - والعياذ بالله - يبتلى بحب الظهور والشهرة إذا ائتمنه أحد من ولاة الأمور أو من كبراء القوم ووجهائهم ذهب يتحدث قال

---

(١) أخرجه البخاري في الإيمان (٣٤) ، ومسلم في الإيمان (١٠٦) ، وأحمد في مسنده (١٨٩/٢) ، والبيهقي في السنن (٢٣٠/٩) ، قوله « خالصًا » أي شديد الشبه بالمنافقين بسبب هذه الخصال ، قوله « فجر » أي مال عن الحق وقال : الباطل والكذب .

لي الأمير كذا ، قال لي الوزير كذا ، قال لي الشيخ كذا ، يتجمل عند الناس بأنه ممن يحادثه الكبراء والشرفاء ، وهذه من خيانة الأمانة والعياذ بالله .

ومن ذلك أيضًا : الأمانات في الولايات ؛ يكون الإنسان وليًا على يتيم على ماله وحضانته وتربيته فلا يقوم بالواجب ، يهمل ماله ، وربما يستقرضه لنفسه ، ولا يدري هل يستطيع الوفاء فيما بعد أم لا ؟ ولا يقربه بالتي هي أحسن ؛ هذا أيضًا من خيانة الأمانة .

ومن ذلك أيضًا : أن الإنسان لا يقوم بواجب التربية في أهله وأولاده وقد ائتمنه الله عليهم فقال جلا وعلا : ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ قُوٓاْ أَنفُسَكُمۡ وَأَهۡلِيكُمۡ نَارٗا وَقُودُهَا ٱلنَّاسُ وَٱلۡحِجَارَةُ ﴾ [التحريم : ٦] ولم يجعل الله لك سلطانًا عليهم إلا ليسألك عنهم يوم القيامة حتى تتمنى أنك لم يكن بينك وبينهم صلة ، قال الله تعالى : ﴿ يَوۡمَ يَفِرُّ ٱلۡمَرۡءُ مِنۡ أَخِيهِ ۝٣٤ وَأُمِّهِۦ وَأَبِيهِ ۝٣٥ وَصَٰحِبَتِهِۦ وَبَنِيهِ ۝٣٦ لِكُلِّ ٱمۡرِيٕٖ مِّنۡهُمۡ يَوۡمَئِذٖ شَأۡنٞ يُغۡنِيهِ [(١)] ﴾ [عبس : ٣٤- ٣٧] .

ومن خيانة الأمانة : أن يكون الإنسان إمامًا للناس يصلي بهم الجمعة والجماعات فلا يقوم بالواجب ، تجده مرة يتقدم ، ومرة يتأخر ، ومرة يطيل بهم إطالة غير مشروعة ، ومرة لا يطمئن في صلاته ولا يهتم بمن وراءه ، هذا من خيانة الأمانة ، والمهم أن خيانة الأمانة تكون في جميع الأحوال في الأمانات ، وفي المعاملات ، وفي الأخلاق ، وفي كل شيء « إذا ائتمن خان ، وإذا حدث كذب » هذا الشخص إذا حدث الناس في الحديث قال فلان ، أو حصل كذا ، أو لم يحصل يكذب ، هذا من علامات النفاق ، ومن الناس من يفتن بهذا الأمر فتجده يكذب على الناس ، يمزح عليهم ليورطهم ، فإذا تورطوا قال : أمزح ، سبحان الله ! تكذب على الناس تمزح عليهم لتورطهم ! ومن الناس من يبتلى بالكذب لأجل أن يضحك الحاضرين ، وقد قال النبي ﷺ : « ويل لمن حدَّث فكذب ليضحك به القوم ويل له ، ثم ويل له » [(٢)] وقد سبق أن أعظم الكذب الكذب على الله ورسوله ﷺ ثم الكذب على العلماء ، فإن العلماء إذا كذب عليهم إنسان في الشرع ، بأن قال : قال فلان : هذا حرام ، أو هذا حلال ، أو هذا واجب ، وهو يكذب عليه صار هذا كاذبًا على الشرع ؛ لأن العلماء هم الذين يمثلون الشرع ، وهم الذين يبينونه للناس ، فإذا كذب الإنسان عليهم قالوا : إن فلانًا العالم قال كذا وقال كذا ، وهو كاذب ؛ فإنه يقرب ممن كذب على رسوله الله ﷺ . والمهم أن من حدث فكذب ؛ فإنه فيه خصلة من خصال النفاق أعاذنا الله ، وإياكم من ذلك .

أما الخصلة الثالثة : « وإذا عاهد غدر » يعني إذا أعطى عهدًا على أي شيء من الأشياء غدر به ونقض العهد ، وهذا يشمل المعاهدة مع الكفار ، والمعاهدة مع المسلم في بعض الأشياء ثم يغدر بذلك ، فالمعاهدة مع الكفار إذا عاهدنا الكفار على ترك الحرب بيننا وبينهم مدة معينة ، كما فعل النبي ﷺ مع قريش حين عاهدهم في صلح الحديبية على ترك القتال لمدة عشر سنوات ، فإذا عاهدنا هؤلاء

---

(١) قوله : ﴿ وَصَٰحِبَتِهِۦ ﴾ أي زوجته ، قوله : ﴿ شَأۡنٞ يُغۡنِيهِ ﴾ أي شغل يشغله .

(٢) انظر نص الحديث في أبو داود في السنن (٤٩٩٠) ، وأحمد في مسنده (٥/٥) ، والدارمي في السنن (٢/٢٩٦) ، والحاكم في المستدرك (١/٤٦) .

المشركين فلنا معهم ثلاث حالات :

الحالة الأولى : أن ينقضوا العهد ، فحينئذ يبطل العهد الذي بيننا وبينهم ، كما قال الله تعالى : ﴿ وَإِن نَّكَثُوٓا۟ أَيْمَٰنَهُم مِّنۢ بَعْدِ عَهْدِهِمْ وَطَعَنُوا۟ فِى دِينِكُمْ فَقَٰتِلُوٓا۟ أَئِمَّةَ ٱلْكُفْرِ ۙ إِنَّهُمْ لَآ أَيْمَٰنَ لَهُمْ لَعَلَّهُمْ يَنتَهُونَ (١) ﴾ [التوبة : ١٢] كما فعلت قريش في العهد الذي بينها وبين رسول الله ﷺ في الحديبية ؛ فإنها لم تمض ثماني سنوات إلا ونقضت قريش العهد حيث أعانوا حلفاءهم على حلفاء النبي ﷺ .

الحالة الثانية : أن يستقيموا على العهد ، فحينئذ يجب علينا أن نستقيم على العهد وأن نبقى حتى تنتهي المدة ، لقول الله تعالى : ﴿ فَمَا ٱسْتَقَٰمُوا۟ لَكُمْ فَٱسْتَقِيمُوا۟ لَهُمْ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلْمُتَّقِينَ ﴾ [التوبة : ٧] .

الحالة الثالثة : أن نخشى أن ينقضوا العهد ، يعني لم ينقضوه فعلًا ولم يظهر لنا استقامة تامة ، فنخشى أن ينقضوا العهد ، فهنا ننبذ إليهم العهد ، ونقول لهم صراحة : إنه لا عهد بيننا وبينكم ، دليل ذلك قول الله تعالى ﴿ وَإِمَّا تَخَافَنَّ مِن قَوْمٍ خِيَانَةً فَٱنۢبِذْ إِلَيْهِمْ عَلَىٰ سَوَآءٍ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ ٱلْخَآئِنِينَ (٢) ﴾ [الأنفال : ٥٨] .

أما العهود التي بين المسلمين بأن تعاهد شخصًا على أن تفعل كذا أو لا تفعل ، أو على أن تكتم سره ، أو ما أشبه ذلك ؛ فيجب الوفاء به ، يجب وجوبًا ، واختلف العلماء - رحمهم الله تعالى - فيما إذا وعدت شخصًا موعدًا فهل يجوز أن تخلفه بلا ضرورة أو لا ؟ مثل أن تقول : سآتيك غدًا ، لدعوة ، دعاك على غداء أو عشاء أو ما أشبه ذلك ، فهل يجوز أن تخلف الموعد ، من العلماء من يقول : إنك إذا أخلفت الموعد لا تأثم ، ولكن الصحيح أنك تأثم ، إلا لعذر شرعي ، فإذا وعدت أخاك موعدًا يجب أن توفي به لأنك وعدته ، وإخلاف الموعد من علامات ماذا ؟ النفاق ، فهل ترضى أن تكون منافقًا ؟ كل واحد لا يرضى ، فالصواب الذي دلت عليه السنة وجوب الوفاء بالوعد ، وهو اختيار شيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله ، لأن إخلافه من النفاق ، لكن إذا كان لك عذر أو لم تعط موعدًا صريحًا بأن قلت لصاحبك : آتيك إن شاء الله تعالى إذا لم يكن لي عذر ، فهنا إذا كان لك عذر فلا بأس ، أنت في حل لأنك لم تعطه موعدًا صريحًا ، وكذلك أيضًا إذا أخلفت لعذر ، مثل أن يكون تمام الوعد يحتاج إلى سيارة ، وخرجت وتعطلت السيارة ولم تتمكن من الوصول إليه في موعده ، فإن هذا عذر - بلا شك - تعذر به .

أما الخصلة الرابعة : فهي « إذا خاصم فجر » نسأل الله العافية ، إذا وقعت خصومة بينه وبين غيره فجر ، والفجور في الخصومة ينقسم إلى قسمين :

الأول : أن يجحد ما كان عليه . والثاني : أن يدعي ما ليس له .

مثال الأول : إنسان مطلوب لشخص بألف ريال ، فأقام الطالب دعوى على المطلوب ، وأنكر المطلوب ، قال : ما عندي لك شيء ، والطالب قد وثق منه ولم يُشْهد عليه فهنا يقول القاضي

---

(١) قوله : ﴿ نَّكَثُوٓا۟ ﴾ أي نقضوا .

(٢) قوله : ﴿ فَٱنۢبِذْ ﴾ أي اطرح إليهم عهدهم وحاربهم . قوله : ﴿ عَلَىٰ سَوَآءٍ ﴾ أي بأن تعلمهم بنبذك عهدهم قبل أن تحاربهم .

للمطلوب : احلف وتبرأ ذمتك ، فحلف المطلوب أنه ليس له عندي شيء ، فهنا سوف يقضي الحاكم بأن هذا المدعى عليه المطلوب ليس عليه شيء ، هذا فجور في الخصومة .

أما القسم الثاني : فأن يدعي ما ليس له ، بأن يقول عند القاضي : أنا أطالب هذا الرجل بمائة ريال فينكر المطلوب ، فيقول الطالب : عندي بينة ، ويأتي ببينة سوء يشهدون بأنه له عند فلان (المطلوب) مائة ريال ، فالقاضي سوف يحكم بالبينة فإذا حكم لهذا المدعي ببينة الزور ، فإن هذا يعتبر ممن خاصم ففجر - والعياذ بالله - فلهذا يجب التحرز في الخصومات من الكذب أو الالتواء أو المخادعة ؛ لأن كل هذا من الفجور في الخصومة نسأل الله تعالى أن يطهر قلوبنا وقلوبكم من النفاق والشك والشرك والرياء إنه على كل شيء قدير .

* * *

١٥٤٤ - وعن ابن عباس رضي الله عنهما عَن النبيِّ ﷺ ، قالَ : « مَنْ تَحَلَّمَ بِحُلْمٍ لَمْ يَرَهُ ؛ كُلِّفَ أَنْ يَعْقِدَ بينَ شَعِيرَتينِ وَلَنْ يَفْعَلَ ، وَمَنِ اسْتَمَعَ إلى حَديث قَومٍ وَهُمْ لهُ كارِهُونَ ؛ صُبَّ في أُذُنَيهِ الآنُكُ يَومَ القِيَامَةِ ، وَمَنْ صَوَّرَ صُورَةً ؛ عُذِّبَ ، وَكُلِّفَ أَنْ يَنْفُخَ فيها الرُّوحَ ، وَلَيسَ بِنافِخٍ »[1] رواه البخاري .

« تَحَلَّم » أي قالَ : إنَّهُ حَلَمَ في نَومِهِ ورأى كَذا وكذا ، وهو كاذبٌ . و « الآنك » بالمدِّ وضمِّ النونِ وتخفيفِ الكاف : وهو الرَّصاصُ المذابُ .

١٥٤٥ - وعنِ ابن عُمَرَ رضي الله عنهما قالَ : قالَ النبيُّ ﷺ : « أَفْرَى الفِرَى أنْ يُرِيَ الرَّجُلُ عَينَيهِ ما لَمْ تَرَيَا »[2] . رواه البخاري .

ومعناه : يقولُ : رأيتُ فيما لم يَرَهُ .

١٥٤٦ - وعنِ سَمُرَةَ بنِ جُنْدُب رضي الله عنه قالَ : كانَ رَسُولُ اللَّه ﷺ مِمَّا يُكثِرُ أَنْ يقولَ لأصْحَابِهِ : « هَلْ رَأَى أحدٌ مِنْكُمْ مِنْ رُؤيَا ؟ » فَيَقُصُّ عَلَيهِ مَنْ شَاءَ اللَّه أَنْ يَقُصَّ ، وَإنَّهُ قالَ لنا ذات غَدَاةٍ : « إنَّهُ أَتاني اللَّيلَةَ آتِيَانِ ، وَإنَّهُمَا قالا لي : انْطَلِقْ ، وَإنِّي انْطَلَقْتُ مَعَهُمَا ، وَإنَّا أَتَينا عَلى رَجُلٍ مُضْطجعٍ ، وإذا آخَرُ قائِم عَلَيهِ بِصَخْرَةٍ ، وَإذا هُوَ يَهْوِي بالصَّخْرَةِ لِرأسِهِ ، فَيَثْلَغُ رَأْسَهُ ، فَيَتَدَهْدَهُ الحَجَرُ هَا هُنَا ، فَيَتْبَعُ الحَجَر فَيَأْخُذُهُ ، فلا يَرجعُ إلَيهِ حتَّى يَصِحَّ رَأْسُهُ كَما كانَ ، ثُمَّ يَعُودُ عَلَيهِ ، فَيَفْعَلُ بهِ مِثْلَ ما فَعَلَ المَرَّةَ الأُولى ! » قال : « قلتُ لهما : سُبْحَانَ اللَّهِ ! مَا هذان ؟ قالا لي : انْطَلِقْ انْطَلِقْ ، فانْطَلَقْنا ، فَأَتَينا عَلى رَجُلٍ مُسْتَلْقٍ لقَفَاه ، وَإذَا آخَرُ قائِمٌ عَلَيهِ بكَلُّوبٍ مِنْ حَديدٍ ، وإذا هُوَ يَأْتي أَحَدَ شِقَّي وَجْهِه فَيُشَرْشِرُ شِدْقَهُ إلى قَفَاهُ ، و مَنْخِرَهُ إلى قَفاهُ ، وَعَينَهُ إلى قَفَاهُ ، ثُمَّ يَتَحَوَّلُ إلى الجانِبِ الآخَرِ ، فَيَفْعَلُ به مثل مَا فَعَلَ بالجانب الأَوَّلِ ، فَمَا يَفْرُغُ مِنْ ذلكَ الجانب حتَّى يَصِحَّ ذلكَ الجانِبُ كما كانَ ، ثمَّ يَعُودُ عليهِ ،

---

(١) أخرجه البخاري في التعبير (٧٠٤٢) ، والطبراني في الكبير (٣٠٩/١١) بنحوه .

(٢) أخرجه البخاري في التعبير (٧٠٤٣) ، وأحمد في مسنده (١١٩/٢) بنحوه . قوله « الفرى » أي الافتراء .

فَيَفْعَلُ مِثْلَ مَا فَعَلَ في المَرَّةِ الأولى ، قال : قُلتُ : سُبْحَانَ اللَّه ! ما هذانِ ؟ قال : قالا لي : انْطَلِقْ انْطَلِقْ ، فانْطَلَقْنا ، فَأَتَينا عَلى مِثْلِ التَّنُّورِ » فأَحْسِبُ أنَّهُ قال : « فإذا فيهِ لَغَطٌ وَأصْوَاتٌ ، فاطَّلَعْنا فيهِ فإذا فيه رجالٌ وَنِساءٌ عُرَاةٌ ، وَإذا هُمْ يَأتِيهِم لَهَبٌ مِنْ أسْفلَ مِنْهُمْ ، فإذا أتاهُمْ ذلكَ اللَّهَبُ ضَوضَوا . قلتُ : ما هؤلاء ؟ قالا لي : انْطَلِقْ انْطَلِقْ ، فانْطَلَقْنا فَأَتَينا عَلى نَهر » حَسِبْتُ أنَّهُ كانَ يَقُولُ : « أحْمَرُ مِثْلُ الدَّمِ ، وَإذا في النَّهْرِ رَجُلٌ سَابح يَسْبَحُ ، وَإذا عَلى شَطِّ النَّهْرِ رَجُلٌ قَد جَمَعَ عِنْدَهُ حِجارةً كَثِيرَةً ، وإذا ذلكَ السَّابِحُ يَسْبَحُ ما يَسْبَحُ ، ثُمَّ يَأْتي ذلكَ الذي قَدْ جَمَعَ عِنْدَهُ الحِجَارَةَ ، فَيَفْغَرُ لهُ فاهُ ، فَيُلْقِمُهُ حَجَرًا ، فَيَنْطَلِقُ فَيَسْبَحُ ، ثُمَّ يَرْجِعُ إلَيهِ ، كُلَّما رَجَعَ إليه فَغَرَ لهُ فاهُ ، فَأَلْقَمَهُ حَجَرًا ، قلت لهما : ما هذانِ ؟ قالا لي : انْطَلِقْ انطَلِقْ ، فانْطَلَقْنا ، فَأَتَينا عَلى رَجُلٍ كَرِيهِ المَرْآةِ ، أَو كأكْرهِ ما أَنتَ رَاءٍ رجلًا مَرْأًى ، فإذا هو عِنْدَه نَارٌ يَحشُّها وَيَسْعَى حَولَهَا . قلتُ لهما : ما هذا ؟ قالا لي : انْطَلِقْ انْطَلِقْ ، فَانْطَلَقْنَا ، فَأَتَينا على رَوْضَةٍ مُعْتَمَّةٍ فِيها مِنْ كلِّ نَورِ الرَّبِيعِ ، وإذ بينَ ظَهْرَي الرَّوضةِ رَجلٌ طويلٌ لا أَكادُ أرى رأْسَهُ طُولًا في السَّماءِ ، وإذا حَولَ الرجل مِنْ أكثر وِلْدانٍ رَأَيْتُهُمْ قطُّ ، قُلتُ : ما هذا ! وما هؤلاء ؟ قالا لي : انْطَلِق انْطَلِقْ ، فانْطَلَقْنا ، فَأَتَينا إلى دَوحَةٍ عظِيمَة لم أَرَ دَوحَةً قَطُّ أعظمَ منها ، ولا أحْسَنَ ! قالا لي : ارْقَ فيها ، فارتَقَينا فيها إلى مدينةٍ مَبْنِيَّة بلَبن ذَهَب ولَبن فضَّةٍ ، فَأَتَينا بابَ المَدينَة فَاسْتفتَحْنا ، فَفُتِح لَنَا ، فَدَخلَنَاها ، فَتَلَقَّانا رجالٌ شطْرٌ مِن خَلْقِهِم كأحْسَنِ ما أنت راءٍ ! وشَطْرٌ مِنهم كأقْبَحِ ما أنتَ راءٍ ! قالا لهُم : اذهَبوا فَقَعُوا في ذلك النَّهر ، وإذا هو نَهرٌ مُعترِضٌ يَجري كأنَّ ماءَهُ المحضُ في البَياضِ ، فَذَهَبُوا فوقعُوا فيه . ثمَّ رَجعُوا إلينَا قد ذَهَبَ ذلك السُّوء عَنهمْ ، فَصارُوا في أحسَن صُورَة . قال : قالا لي : هذه جَنَّةُ عَدْنٍ ، وهذاك مَنزلكَ ، فَسَمَا بَصَري صُعُدًا ، فإذا قصرٌ مِثْلُ الرَّبَابَة البيضاء . قالا لي : هذاك مَنزلكَ ؟ قلتُ لهما : بَارَكَ اللَّهُ فيكُما ، فَذراني فأَدخُلَه . قالا : أما الآن فلا ، وَأنتَ دَاخلُهُ . قلت لَهُما : فَإنّي رأَيتُ مُنذُ اللَّيلةَ عَجَبًا ؟ فما هذا الذي رأيتُ ؟ قالا لي : أمَا إنَّا سَنخبرُكَ : أَمَّا الرجلُ الأوَّلُ الذي أتَيتَ عليه يُثْلَغُ رأْسُهُ بالحَجَر ، فإنَّهُ الرَّجُلُ يأخُذُ القُرآنَ فيرفُضُهُ ، وينامُ عن الصَّلاةِ المكتوبَةِ ، وأمَّا الرَّجُلُ الذِي أتيتَ عَلَيهِ يُشَرشَرُ شِدْقُهُ إلى قَفَاهُ . ومَنْخِرُه إلى قَفاهُ ، وَعينُه إلى قفاهُ ؛ فإنه الرَّجُلُ يَغْدُو مِنْ بَيتِه فَيَكذِبُ الكَذْبَة تَبْلُغُ الآفاقَ . وأمَّا الرِّجالُ وَالنِّساءُ العُرَاةُ الذين هُمْ في مِثلِ بناءِ التَّنُّور ؛ فإنَّهم الزُّناة والزَّواني ، وأما الرجُلُ الذي أَتَيتَ عليهِ يَسْبَحُ في النَّهْرِ ، وَيُلْقَمُ الحجارَةَ ، فإنَّهُ آكِلُ الرِّبَا ؛ وأَمَّا الرَّجُلُ الكَريهُ المرآةِ الذِي عِندَ النَّارِ يَحشُّها ويسْعَى حولَهَا ؛ فإنَّهُ مالِكٌ خازِنُ جهنَّمَ ، وأما الرَّجُلُ الطَّوِيلُ الَّذي في الرَّوضَةِ ؛ فإنه إبراهيم ، وأما الوِلدان الذينَ حَولَه ، فكلُّ مَولودٍ ماتَ على الفِطْرَةِ » وفي رواية البَرْقانِيِّ : « وُلِدَ عَلى الفِطَرةِ » فقال بعض المسلمينَ : يا رسولَ اللَّهِ ، وأَولادُ المشرِكينَ ؟ فقال رَسُولُ اللَّهِ ﷺ : « وأَولادُ المشركينَ ، وأما القومُ الذينُ كانُوا شَطرٌ مِنهم حَسَنٌ ، وشَطْرٌ منهمْ قبيحٌ ؛ فإنهمْ قومٌ خَلَطُوا عَمَلًا صَالحًا وآخرَ سَيئًا ، تجَاوَزَ اللَّهُ عَنْهُم » رواه البخاري .

وفي رواية له : « رَأيتُ اللَّيلَةَ رجُلَين أَتيَاني فأخرَجاني إلى أرْضٍ مُقدَّسةٍ » ثم ذكَره وَقال :

«فانطَلقنَا إلى نَقب مثل التَّنُّورِ ، أَعْلاهُ ضَيِّقٌ وأَسفَلُهُ وَاسعٌ ؛ يَتوقَّدُ تَحتَهُ نَارًا ، فإذا ارْتَفَعت ارْتفَعُوا حتى كادُوا أَنْ يَخْرُجوا ، وإذا خَمَدتْ ، رَجَعوا فيها ، وفيها رجالٌ ونساءٌ عراةٌ » . وفيها : « حتى أَتَيْنا على نَهرٍ من دَم » ولم يشكَّ « فيه رجُلٌ قائمٌ على وسط النَّهْرِ ، وعلى شَطِّ النَّهر رجُلٌ ، وبَينَ يَدَيه حِجارةٌ ، فأَقبَل الرَّجُلُ الذي في النَّهْرِ ، فإذا أَرادَ أَنْ يَخْرُجَ ، رَمَى الرَّجُلُ بِحَجَرٍ في فيه ، فَرَدَّهُ حَيثُ كانَ ، فَجَعَلَ كُلَّمَا جَاءَ لِيَخْرُجَ جَعَلَ يَرْمي في فيه بحجَر ، فَيَرْجِعُ كَمَا كَانَ » . وَفيهَا : «فَصعِدَا بي الشَّجَرَةَ ، فأَدْخَلاني دَارًا لَمْ أَرَ قَطُّ أَحْسَنَ منْها ، فيهَا رجَالٌ شُيُوخٌ وَشَبَابٌ » . وَفيهَا : « الَّذي رَأَيتَهُ يُشَقُّ شِدْقُهُ فَكَذَّابٌ ، يُحدِّثُ بِالْكَذْبَةِ فَتُحملُ عَنْهُ حَتَّى تَبْلُغَ الآفاقَ ، فَيُصْنَعُ بِهِ ما رَأَيتَ إلى يَوم الْقِيامةِ » وَفيهَا : «الَّذي رَأَيتَهُ يُشدَخُ رَأسُهُ فرَجُلٌ علَّمَهُ اللَّهُ الْقُرآنَ ، فنامَ عَنْهُ باللَّيلِ ، ولَمْ يَعْمَلْ فيه بِالنَّهارِ ، فَيُفعَلُ به إلى يَومِ الْقِيامَةِ ، والدَّارُ الأولى الَّتي دَخلت دَارُ عَامَّةِ الْمُؤْمِنينَ . وَأَمَّا هذه الدَّارُ فَدَارُ الشُّهَدَاءِ ، وَأَنا جبْريلُ ، وهذا مِيكائيلُ ، فارْفَعْ رأَسَكَ ، فَرَفعتُ رَأْسي ، فإذا فوقي مِثْلُ السَّحابِ ، قالا : ذاكَ مَنزِلُكَ ، قلتُ : دَعاني أَدْخُلْ مَنزِلي ، قالا : إنَّهُ بَقِيَ لَكَ عُمرٌ لَم تَستكمِلْهُ ، فَلَو استَكْمَلْتَهُ ، أَتيتَ مَنْزِلَكَ »[١] رواه البخاري .

قوله : « يثْلَغ رَأْسَهُ » هو بالثاء المثلثة والغين المعجمة ، أي : يَشدَخُهُ وَيَشُقُّهُ . قوله : « يَتَدَهْدَه » أي : يتدحرج . و « الكَلُّوبُ » بفتح الكاف ، وضم اللامِ المشدَّدة ، وهو معروف . قوله : « فَيُشَرشِرُ » أي : يُقَطِّعُ . قوله : « ضَوضَوا » وهو بضادين معجمتين ، أي : صاحوا . قوله : « فَيَفْغَرُ » هو بالفاءِ والغينِ المعجمةِ ، أي : يفتحُ . قوله : « المرآةِ » هو بفتح الميم ، أي : المَنْظَر . قوله : « يَحُشُّها » هو بفتح الياء وضم الحاء المهملة والشين المعجمة ، أي يوقِدهَا . قوله : « رَوْضَةٍ مُعْتَمَّةٍ » هو بضم الميم وإسكان العين وفتح التاء وَتَشْديدِ الميم ، أي : وافيةِ النَّبات طَويلَته . قَوْلُهُ : « دَوحَةٌ » وَهي بفتح الدال ، وإسكان الواو وبالحاء المهملة : وَهِيَ الشَّجَرَةُ الكَبيرةُ . قولُهُ : « المَحْضُ » هو بفتح الميم وإسكان الحاء المهملة وبالضَّاد المعجمة : وهُوَ اللَّبَنُ . قُولُهُ : « فَسَمَا بَصَري » أي : ارْتَفَعَ . « وَصُعُدًا » : بضم الصاد والعين . أي : مُرْتَفِعًا . « والرَّبَابَةُ » : بفتح الراءِ وبالباءِ الموحدة مُكررةً ، وهيَ السَّحَابَة .

الشرح

ذكر الحافظ النووي – رحمه اللَّه تعالى – عن تحريم الكذب فيما نقله عن ابن عباس ﵄ أن النبي ﷺ قال : « من تحلم بحلم لم يره ؛ كلف أن يعقد بين شعيرتين وليس بعاقد » ، يعني من كذب في الرؤيا قال : رأيت في المنام كذا وكذا وهو كاذب ، فإنه يوم القيامة مكلف أن يعقد بين شعيرتين ، والمعلوم أن الإنسان لو حاول مهما حاول أن يعقد بين شعيرتين فإنه لا يستطيع ، ولكنه لا يزال يعذب

---

(١) أخرجه البخاري في التعبير (٧٠٤٧) ، وأحمد في مسنده (٥/٨ ، ١٤) ، والبيهقي في السنن (٥/٢٧٥) .
قوله : « ذات غداة » أي صبح يوم ، قوله « مستلق لقفاه » أي نائم على ظهره ، قوله « شقي وجهه » أي جانبي وجهه ، قوله : « فإذا فيه لغط » أي فيه كلام جلبه واختلاط بحيث لا يتبين ، قوله : « ارق » أي اصعد .

ويقال : لابد أن تعقد بينهما ، وهذا وعيد يدل على أن التحلم بحلم لم يره الإنسان من كبائر الذنوب ، وهذا يقع من بعض السفهاء ، يتحدث ويقول : رأيت البارحة كذا وكذا ، لأجل أن يضحك الناس ، وهذا حرام عليه ، وأشد من ذلك أن يقول : رأيت النبي ﷺ وقال لي كذا وكذا وما أشبه ذلك ؛ فإنه أشد وأشد ؛ لأنه كذب على رسول الله ﷺ أما من تحلم بحلم رآه ؛ فهذا لا بأس به ، ولكن ينبغي للإنسان أن يعلم أن ما يراه الإنسان في منامه ينقسم إلى ثلاثة أقسام :

قسم : يكون خيرًا ويستبشر به الإنسان ويفرح به الإنسان ، فهذا لا يحدِّث به إلا من يحب ؛ لأن الإنسان له حساد كثيرون فإذا رأى رؤيا حسنة وحدث بها من لا يحب ؛ فإنه ربما يكيد له كيدًا ، يحول بينه وبين هذا الخير الذي رآه ، كما فعل إخوة يوسف ﷺ فإن يوسف بن يعقوب عليه السلام وعلى أبيه قال لأبيه : ﴿ يَٰٓأَبَتِ إِنِّي رَأَيْتُ أَحَدَ عَشَرَ كَوْكَبًا وَٱلشَّمْسَ وَٱلْقَمَرَ رَأَيْتُهُمْ لِي سَٰجِدِينَ ﴾ [يوسف : ٤] يعني رأيت هؤلاء أحد عشر كوكبًا يعني نجومًا والشمس والقمر كلها تسجد لي فقال له ﴿ يَٰبُنَيَّ لَا تَقْصُصْ رُءْيَاكَ عَلَىٰٓ إِخْوَتِكَ فَيَكِيدُواْ لَكَ كَيْدًا إِنَّ ٱلشَّيْطَٰنَ لِلْإِنسَٰنِ عَدُوٌّ مُّبِينٌ ﴾ [يوسف : ٥] فلا تخبر إنسانًا ليس من أحبائك وأصدقائك الذين لا يودون لك ما يودون لأنفسهم ، لا تخبرهم بما ترى من رؤيا الخير .

القسم الثاني : رؤيا شر ، هذا القسم الثاني مما يراه الإنسان في المنام ، رؤيا شر تزعج وتخوف ، هذا لا تخبر به أحدًا أبدًا ، لا صديقك ولا عدوك ، وإذا قمت من منامك فاتفل عن يسارك ثلاثًا وقل: أعوذ بالله من شر الشيطان ومن شر ما رأيت [(١)] ، وإن كنت تريد أن تواصل النوم فنم على الجنب الآخر ، يعني لا على الجنب الذي رأيت فيه ما تكره فإنها لا تضر ، فمن رأى ما يكره يعمل ما يلي : أولًا : إن استيقظ يتفل عن يساره ثلاث مرات ويقول : أعوذ بالله من شر الشيطان ومن شر ما رأيت ، إن أراد أن يواصل النوم ينام على الجنب الثاني ، إذا قام فلا يخبر بها أحدًا ؛ لأن ذلك لا يضره ، فإذا فعل هذا ، فإنه لا يضره بإذن الله ، وكان الصحابة يرون الرؤيا تمرضهم وتقلقهم فلما حدثهم النبي ﷺ بهذا الحديث فعلوا ما أرشدهم إليه واستراحوا ، وكثير من الناس مبتلى يبحث عن الشر لنفسه ، يرى الرؤيا يكرهها ، ثم يحاول أن يقصها على الناس ليعبروها له ، وهذا غلط إذا رأيت الرؤيا تكرهها فهذا عندك دواء من أحسن الأدوية بل هو أحسن الأدوية ، علمك إياه رسول الله ﷺ .

القسم الثالث : رؤيا أضغاث أحلام ، ليس لها رأس ولا قدم ، يرى الإنسان أشياء متناقضة ويرى أشياء غريبة ، وهذه لا تحدِّث بها أحدًا ولا تهتم بها ، وقد حدث رجل رسول الله ﷺ حديثًا قال : يا رسول الله رأيت في المنام أن رجلًا قد قطع رأسي ، فذهب الرأس شاردًا ، فذهبت وراءه لاحقًا له . فقال له النبي ﷺ : « لا تحدث الناس بما يَتَلَعَّبُ الشَّيْطَانِ بِكَ في منامك » [(٢)] . وهذا من الشيطان يقطع رأسك ويشرد بها وأنت تلاحقه ، هذا ما له أصل ، فمثل هذه الأشياء لا تهتم بها ولا تحدث بها أحدًا ، أما من رأى الرسول ﷺ فإذا رأى الرسول ﷺ على الوصف المعروف الذي وُصف في السيرة

---

(١) ومصداق ذلك ما رواه مسلم في الرؤيا (٣) ، وأحمد في منسده (٣٠٩/٥) .

(٢) أخرجه مسلم في الرؤيا (١٥) .

النبوية ، ورآه على هيئة حسنة ؛ فهذا يدل على خير لهذا الرائي وأنه قد تأسى به أسوة حسنة ، وإن رآه على خلاف ذلك ؛ فليحاسب نفسه ، فإذا رآه مثلًا أنه يحدث الرسول ولكن الرسول مُعرضٌ عنه ، أو الرسول قد انصرف وتركه ، ورآه على هيئة غير حسنة ، يعني مثلًا من ثيابه أو ردائه أو إزاره أو ما شابه ذلك ؛ فليحاسب نفسه ، فإنه مقصر في اتباع الرسول ﷺ .

أما المسألة الثانية : « من تسمع قومًا وهم له كارهون صُبَّ في أذنيه الآنك يوم القيامة » يعني الذي يتسمع إلى أناس وهم يكرهون أن يسمع ؛ فإنه يصب في أذنيه الآنك يوم القيامة .

قال العلماء : (الآنك) هو الرصاص المذاب والعياذ بالله ، والرصاص المذاب بنار جهنم أعظم من نار الدنيا بتسعة وستين مرة [١] ، وسواء كانوا يكرهون أن يسمع لغرض صحيح أو لغير غرض ؛ لأن بعض الناس يكره أن يسمعه غيره ، ولو كان الكلام ما فيه خطأ ولا فيه سب ، ولكن لا يريد أن أحدًا يسمعه ، وهذا يقع فيه بعض الناس ، تجده مثلًا إذا رأى اثنين يتكلمون يأخذ المصحف ويجلس قريبًا منهم ، ثم يبدأ يطالع المصحف كأنه يقرأ ، وهو يستمع إليهم وهم يكرهون ذلك ، هذا الرجل يُصبُّ في أذنيه الآنك يوم القيامة ، فيعذب هذا العذاب والعياذ بالله .

أما الثالثة : فهي « من صور صورة فإنه يكلف أن ينفخ فيها الروح وليس بنافخ » .

واعلم أن الصورة تنقسم إلى قسمين : صور مجسمة ، بأن يصنع الإنسان تمثالًا على صورة إنسان أو حيوان ، فهذا محرم ، سواء أراده لغرض محرم ، أو لغرض مباح ، مجرد هذا التصوير محرم ، بل هو من كبائر الذنوب ؛ لأن النبي ﷺ لعن المصورين [٢] وبين أن أشد الناس عذابًا يوم القيامة الذين يضاهئون بخلق الله [٣] .

والقسم الثاني : المُلَوَّن ، يعني من ليس له جسم ؛ بل هو بالتلوين ، فهذا قد اختلف العلماء فيه ، فمنهم من أجاز وقال : لا بأس به إلا إذا قصد به غرضًا محرمًا مثل : أن يقصد به التعظيم - تعظيم المصور - ؛ فإنه يخشى إذا طال بالناس زمن أن يعبدوه ، كما جرى لقوم نوح فيما يذكر أنهم صوروا صورة لرجال صالحين ثم عبدوها لما طال الزمن .

وقال بعض العلماء : إنه لا بأس به إذا كان ملونًا ، واستدلوا بحديث زيد بن خالد وفيه « إلا رقمًا في ثوب » [٤] قالوا : هذا يدل على أن هذا مستثنى فيدل على أن المحرم ما له روح فقط ، ولكن الراجح الذي عليه جمهور العلماء أنه لا فرق بين المجسم وبين الملون الذي يكون بالرقم كلّه محرم ؛

---

(١) وذلك مصداقًا لما رواه البخاري في بدء الخلق(٣٢٦٥) ، والترمذي في السنن(٢٥٨٩) ، وأحمد في مسنده(٤٦٧/٢) ولكنهم ذكروا أنها أكثر بسبعين مرة وليس تسعة وستين .

(٢) انظر ذلك في الأذكار للنووي (٢١٤) ، والقرطبي في تفسيره (٢٣٨/١٤) .

(٣) أخرجه البخاري في اللباس (٥٩٥٠) ، وأحمد في مسنده (٣٦/٦) .

(٤) أخرجه البخاري في بدء الخلق(٣٢٢٦) ، ومسلم في اللباس (٨٥) ، والدارمي في الاستئذان (٣٣) ، ومالك في الموطأ(الاستئذان ٧) .

لأن الذي يرقم باليد صورة يحاول أن يكون مبدعًا مشابهًا لخلق الله ﷻ فيدخل في العموم ، وأما الصور التي تلتقط التقاطًا بالآلة المعروفة ، آلة التصوير الفوتوغرافية ، فهذه من المعلوم أنها لم تكن معروفة في عهد الرسول ﷺ والمعروف في عهده إنما هو التصوير باليد الذي يضاهي به الإنسان خلق الله ﷻ ، أما هذه الآلة فغير معروفة ، وليس الإنسان يصورها بيده ويخططها ، يخطط الوجه مثلًا ، والعينين ، والأنف ، والشفتين ، وما أشبه ذلك ، لكنه هو يلقي ضوءًا معينًا تقدمت به معرفة الناس فتنطبع هذه الصورة في ورقة ، وهو لم يُحدث شيئًا في الصورة ، لم يصورها إطلاقًا ، وإنما التقطت هذه الصورة بواسطة الضوء ، فهذا لا شك أنه فيما نرى أنه لم يصور ، غاية ما هنالك أن الصورة طبعت بالورقة ، فكان الذي بالورقة هو خلق الله ﷻ ، يعني هذه الصورة هي الصورة التي خلقها الله ، والدليل على ذلك : أن الإنسان لو كتب كتابًا بيده ثم صوره بالآلة ، آلة التصوير ، فإنها إذا طلعت الصورة لا يقال إن هذا هو كتابة الذي حرَّك الآلة وصور (الشخص القائم بالتصوير) بل يقال : هذا كتابة الأول الذي خطه بيده ، فهذا مثله ، ولكن يبقى النظر لماذا صور الإنسان هذه الصور الفوتوغرافية ؟ إذا كان لغرض محرم فهو حرام من باب تحريم الوسائل ، كما لو اشترى الإنسان سلاح في فتنة ، أو بيضًا لقمار ، أو ما أشبه ذلك ، يعني أن هذا مباح ولكن لغرض محرم ؛ فلا يجوز من باب تحريم الوسائل . أما إذا كان الغرض مباحًا كتصوير لاستخراج رخصة السيارة ، أو البطاقة الشخصية وما أشبه ذلك ؛ فهذا لا بأس به ، هذا هو الذي نراه في هذه المسألة ، والناس ابتلوا بها الآن بلوى عظيمة وصارت منتشرة في كل شيء ، ولكن يجب على الإنسان أن يعرف ويحقق ويميز بين ما حرمه الله ورسوله ، وبين ما لم يأت تحريمه ، فلا نضيق على عباد الله ولا نوقعهم في محارم الله .

هذا إذا كان المصور له روح لقوله (كلف أن ينفخ فيها الروح) أما إذا كان المصور لا روح له ، كتصوير الأشجار والشمس والقمر والنجوم والجبال والأنهار ، فهذا لا بأس به ، لأنه ليس فيه روح ، وقال بعض العلماء : ما كان ناميًا كالشجر والزرع فإنه لا يجوز تصويره ، لأنه جاء في الحديث : « فليخلقوا حبة ، أو ليخلقوا شعيرة » وهذا نامٍ فيشبه ما كان له روح ، لكن هذا خلاف قول جمهور العلماء ، والصحيح أنه لا بأس به ، أما ما يصنعه الإنسان فلا شك أنه يجوز تصويره ، كالقصور والسيارات وما أشبهها فصارت الآن الأقسام متعددة :

ما يصنعه الإنسان بيده ؛ فهذا لا بأس من تصويره ، مثل السيارات والقصور والأبواب وما أشبه ذلك .

وما هو من خلق الله ﷻ وليس بنامٍ لا ينمو ، كالشمس والقمر والنجوم والجبال والأقمار ؛ فهذا أيضًا لا بأس به ، وهذا محل اتفاق .

وما كان من خلق الله وليس له روح ولكنه ينمو كالشجر والزرع وما أشبهه ؛ فجمهور العلماء على أنه لا بأس به ، وذهب بعض العلماء ومنهم مجاهد بن جبر - تابعي مشهور - إلى أنه حرام ، والصحيح أنه لا بأس به .

وأما ما فيه روح : فهذا لا يجوز أن يصور ؛ لأن النبي ﷺ لعن المصوِّرين .

وأما مسألة التقاط الصور ؛ فهذا لا نرى أنه داخل في التصوير إطلاقًا ؛ لأن الملتقط لم يحصل منه فعلٌ يكون به التصوير ، ولكن يبقى النظر خلف النية هل يلتقط هذه الصور لشيء محرم أو لا ؟ هذا هو محل التفصيل ، والله الموفق .

* * *

٢٦١ - باب بيان ما يجوز من الكذب

اعلَمْ أنَّ الْكَذب ، وَإنْ كَانَ أصْلُهُ مُحرَّمًا ، فيَجُوزُ في بعْض الأحْوالِ بشرُوطٍ قد أوضَحْتُهَا في كتاب : « الأذْكارِ » ومُخْتَصَرُ ذلك أنَّ الكلامَ وسيلةٌ إلى المقاصدِ ، فَكُلُّ مَقْصُودٍ محْمُودٍ يُمْكِن تحْصيلُهُ بغير الْكَذِبِ يَحْرُمُ الْكذِبُ فيه ، وإنْ لَمْ يُمكِنْ تحصيله إلاَّ بالكذبِ جاز الْكذِبُ .

ثُمَّ إن كانَ تَحْصِيلُ ذلك المقْصُودِ مُباحًا كَانَ الْكَذِبُ مُباحًا ، وإنْ كانَ واجِبًا ، كان الكَذِبُ واجِبًا ، فإذا اخْتَفى مُسْلمٌ مِن ظالمٍ يريد قَتلَه ، أو أخْذَ مالِه ، وأخفي مالَه ، وسُئِل إنسانٌ عنه ، وجب الكَذبُ بإخفائِه ، وكذا لو كانَ عِندهُ وديعة ، وأراد ظالِمٌ أخذَها ، وجب الْكَذِبُ بإخفائها ، والأحْوطُ في هذا كُلِّه أنْ يُوَرِّي ، ومعْنَى التَّورِيةِ : أن يقْصِد بِعبارَتِه مَقْصُودًا صَحيحًا ليسَ هو كاذِبًا بالنِّسبةِ إلَيهِ ، وإنْ كانَ كاذِبًا في ظاهِرِ اللَّفظِ ، وبالنِّسْبةِ إلى ما يفهَمهُ المُخَاطَبُ ولَو ترَكَ التَّورِيةَ وَأطْلَق عِبارةَ الكذِبِ ، فليس بِحرَامٍ في هذا الحَالِ .

واسْتَدلَّ الْعُلَماءُ بجَوازِ الكَذِب في هذا الحَال بحدِيث أمِّ كُلْثومٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا أنَّها سَمِعَتْ رسول اللَّهِ ﷺ يقولُ : « لَيس الكَذَّابُ الَّذي يُصلحُ بينَ النَّاسِ ، فينمِي خَيرًا أو يقولُ خَيرًا » متفقٌ عليه .

زاد مسلم في رواية : قالت : أمُّ كُلْثُومِ : ولَم أسْمعْهُ يُرْخِّصُ في شَيْءٍ مِمَّا يقُولُ النَّاسُ إلاَّ في ثلاثٍ : تَعْني : الحَرْبَ ، والإصْلاحَ بين النَّاسِ ، وحديثَ الرَّجُلَ امْرَأَتَهُ ، وحديث المرْأَةِ زوجَهَا .

الشرح

سبق لنا أن الكذب محرم وأن منه ما هو كبيرة من كبائر الذنوب كالكذب على الله ورسوله ، وقد ذكر المؤلف في هذا الباب أن الكذب يجوز أحيانًا إذا كانت المصلحة كبيرة عظيمة ، وأنه قد يجب الكذب إذا كان فيه دفع مضرة وظلم ، مثال ذلك لدفع المضرة والظلم : أن يكون شخص ظالم يريد أن يقتل شخص معصومًا ، فيختفي هذا الشخص المعصوم عن الظالم ، وأنت تعلم مكانه ، فسألك هذا الظالم الذي يريد قتله بغير حق أين فلان ؟ هل فلان في هذا ؟ فتقول : لا ، ليس فلان في هذا ، وأنت تدري أنه فيه ، فهذا لا بأس به بل هو واجب لإنقاذ المعصوم من الهلكة ، فإن إنقاذ المعصوم من الهلكة واجب ، وما لا يتم الواجب إلا به فهو واجب .

ولكن الأفضل أن تورِّي ؛ يعني تنوي معنًى صحيحًا ليس فيه كذب وإن كان ظاهر اللفظ أنه

كذب فتقول مثلًا إذا قال هذا الظالم : فلان في هذا ؟ تقول : ليس في هذا ، وتشير إلى شيء معين ليس فيه ، كما يذكر أن الإمام أحمد رَحِمَهُ اللَّهُ جاءه رجل يسأل عن أحد التلاميذ : أين فلان ؟ فقال الإمام أحمد : ليس فلان ها هنا ، وما يصنع فلان ها هنا . ويلمس يده ، يعني ليس في يدي وما يصنع في يدي ، هذه تورية ، فإذا قيل مثلًا : إذا جاءك هذا الظالم الذي يريد أن يقتل هذا الشخص بغير حق ، وقال : هل فلان هاهنا ، تقول : لا ، وتلمس يدك بيدك الأخرى ؛ يعني ليس في يدي ، أو إنسان ألح بشيء وأنت لا تريد أن تعطيه ؛ لأنه يفسد المال ، فتقول : واللَّه ما بيدي شيء ، ويدك ليس فيها شيء ، ليس فيها دراهم ولا غير ، تقول : ليس في يدي شيء وأنت صادق ، وهو يفهم أنه ليس عندك شيء ، أو يكون عندك وديعة لشخص فيأتي إنسان ظالم ويقول : أين وديعة فلان ؟ يعني إنسان حط عندك أمانة - مثلًا دراهم - قال لك : احفظها لي ، فجاء شخص ظالم يريد أن يأخذ هذه الدراهم ، جاء إليك قال : أين الوديعة التي أعطاها لك فلان ؟ أعطني إياها ، فقلت : واللَّه ما عندي له وديعة ، تأول ، فتنوي بقولك : واللَّه ما عندي له وديعة ، يعني واللَّه إن الذي عندي له وديعة ، تجعل (ما) بمعنى (الذي) وأنت صادق الذي لفلان عندك وديعة ، لكن يفهم المخاطب أن (ما) نافية وأنه ليس له عندك وديعة ، فالحاصل أنه إذا كان هناك ظلم وأراد الإنسان أن يدفعه وكذب ؛ فهذا لا بأس به ، ولكن الأولى والأحسن أن يوري ؛ يعني ينوي معنى صحيحًا ليس فيه كذب ، والمخاطب يظن أنه كذب ، وكذلك أيضًا إذا كانت المصلحة كبيرة كالكذب في الحرب ؛ لا بأس به لأنه فيه مصلحة كبيرة ، مثل أن تأتي عيون العدو يعني جواسيسه يسألون يقولون مثلًا : هل الجيش كبير ؟ وهل معه عدة ؟ وهل هو قوي ؟ تقول : نعم ، الجيش كبير ، وعظيم وقوي ومعه عدة ، ولو كنت تعرف أن هذا لا بأس به ؛ لأن فيه مصلحة كبيرة وهي إلقاء الرعب في قلوب الأعداء ، وكذلك الإصلاح بين الناس ، يأتيك شخص قد ذكر له أن شخصًا آخر يغتابه ويسبه ، فيأتي إليك ويقول : سمعت أن فلانًا قال فيَّ كذا وكذا ؟ فتقول : أبدًا ما قال فيك شيئًا ، هذا لا بأس به ؛ لأن فيه إصلاحًا بين الناس .

كذلك من المصلحة حديث الرجل زوجته وحديث المرأة زوجها فيما يوجب الأُلفة والمودة ، مثل أن يقول لها : أنت عندي غالية ، وأنت أحب إليَّ من سائر النساء ، وما أشبه ذلك وإن كان كاذبًا ، لكن من أجل إلقاء المودة ، والمصلحة تقتضي هذا ، فالمهم أن الكذب يجب إذا كان لإنقاذ معصوم من هلكة ، أو حماية مالٍ معصومة من تلف ، ويباح إذا كان فيه مصلحة عظيمة ومع ذلك فمن الأولى أن يوري ، أي يجعل الكلام تورية حتى يسلم من الكذب . واللَّه الموفق .

* * *

٢٦٢ - باب الحث على التثبت فيما يقوله ويحكيه

قالَ اللَّه تَعالى : ﴿ وَلَا تَقْفُ مَا لَيْسَ لَكَ بِهِۦ عِلْمٌ ﴾ [الإسراء: ٣٦] . وقال تَعالى : ﴿ مَّا يَلْفِظُ مِن قَوْلٍ إِلَّا لَدَيْهِ رَقِيبٌ عَتِيدٌ ﴾ [ق: ١٨] .

١٥٤٧ - وعنْ أبي هُرَيرَةَ ﷺ أنَّ النبيَّ ﷺ قَالَ : « كفى بالمَرءِ كَذِبًا أَنْ يُحدِّثَ بِكُلِّ ما سَمِعَ » [(١)] رواه مسلم .

١٥٤٨ - وعنْ سَمُرَةَ ﷺ قالَ : قالَ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ : « مَنْ حَدَّثَ عَنِّي بِحَدِيثٍ يرى أنَّهُ كذِبٌ ؛ فَهُوَ أحَدُ الكَاذِبِينَ » [(٢)] رواه مسلم .

١٥٤٩ - وعنْ أسماءَ ﷺ أَنَّ امْرأَة قالَتْ : يا رسُولَ اللَّهِ ، إنَّ لي ضَرَّةً ، فهل عَلَيَّ جُناحٌ إنْ تَشَبَّعتُ مِن زوجي غيرَ الذي يُعطِيني ؟ فقال النبيُّ ﷺ : « المُتَشَبِّعُ بمَا لم يُعْطَ كَلابِسِ ثوبَي زُورٍ » [(٣)] متفقٌ عليه .

« المُتَشبِّعُ » : هوَ الذي يُظهِرُ الشِّبعَ وَليسَ بشَبْعَانَ ، ومعناها هُنا : أنَّهُ يُظهِرُ أَنه حَصَلَ له فَضِيلَةٌ وَلَيسَتْ حَاصِلةٌ . « ولابس ثَوبَي زورٍ » أي : ذي زور ، وهو الذي يُزوِّرُ على النَّاس ، بِأَن يَتَزَيَّ بِزيِّ أَهْلِ الزُّهْدِ أو العِلم أَو الثَّروة ، ليَغْتَرَّ بِهِ النَّاسُ ولَيسَ هوَ بِتِلكَ الصِّفَةِ . وَقِيلَ غيرُ ذلك . واللَّهُ أعلم .

الشرح

لما ذكر المؤلف ﷺ تحريم الكذب : والكذب أن يخبر الإنسان بما لم يكن على وجهه الصحيح . أعقبه بهذا الباب ، وهو أن الإنسان يتثبت فيما ينقل ويتكلم به لا سيما في زمن الأهواء وكثرة القيل والقال والتحدث بما كان أو لم يكن ، ثم استدل لذلك بالآيات والأحاديث قال اللَّه تعالى : ﴿ وَلَا تَقْفُ مَا لَيْسَ لَكَ بِهِۦ عِلْمٌ ﴾ ؛ ﴿ وَلَا تَقْفُ ﴾ يعني لا تتبع ما ليس لك به علم ولا تتكلم إلا بما تعلم ، وقد قال النبي ﷺ : « من كان يؤمن باللَّه واليوم الآخر فليقل خيرًا أو ليصمت » [(٤)] وقال تعالى : ﴿ مَّا يَلْفِظُ مِن قَوْلٍ إِلَّا لَدَيْهِ رَقِيبٌ عَتِيدٌ ﴾ يعني إلا عنده ﴿ رَقِيبٌ ﴾ أي مراقب يراقب ما تقول ، ﴿ عَتِيدٌ ﴾ حاضر فلا يغيب عنه ، وهذا تحذير من أن يتكلم الإنسان بشيء لا يعلم عنه ؛ لأنه بذلك آثم ، ثم ذكر في ذلك أحاديث منها : « كفى بالمرء كذبًا أن يحدث بكل ما سمع » يعني أن الإنسان إذا صار يحدث بكل ما سمع من غير تثبت وتأنٍّ ؛ فإنه يكون عُرضة للكذب ، وهذا هو الواقع ولهذا يجيء إليك بعض الناس يقولون : صار كذا وكذا ، ثم إذا بحثت وجدت أنه لم يكن ، أو يأتي إليك

---

(١) أخرجه مسلم في المقدمة (٥) ، وأبو داود في الأدب (٤٩٩٢) ، والحاكم في المستدرك (١/١١٢) .

(٢) أخرجه الترمذي في العلم (٢٦٦٢) ، والطبراني في الكبير (٨/١٤٤) .

(٣) أخرجه البخاري في النكاح (٥٢١٩) ، ومسلم في اللباس والزينة (١٢٧) ، وأبو داود في الأدب (٤٩٩٧) ، وأحمد في مسنده (٦/١٦٧) . قوله « ضَرَّة » أي أن لزوجها زوجة أخرى .

(٤) سبق تخريجه .

ويقول : قال فلان كذا وكذا ، فإذا بحثت وجدته لم يقل ، وأعظم شيء أن يكون هذا فيما يتعلق بحكم الله وشريعته ، بأن يكذب على الله ، فيقول في القرآن برأيه ، ويفسر القرآن بغير ما أراد الله ، أو يكذب على النبي ﷺ يقول : قال النبي ﷺ كذا . وهو كاذب ، أو ينقل حديثًا يرى أنه كذب وهو لم يكذبه ، ولكن يقول : قال فلان كذا وكذا عن رسول الله ﷺ وهو يرى أنه كذب ؛ فإنه يكون أحد الكاذبين كما بين ذلك النبي ﷺ ، ويزداد إثم التقول إذا تشبع الإنسان بما لم يُعط كما في حديث المرأة أنها يكون لها ضَّرة يعني زوجة أخرى مع زوجها ، فتقول : إن زوجي أعطاني كذا وأعطاني كذا وهي كاذبة ، لكن تريد أن تراغم (تغيظ) ضرتها وتفسدها على زوجها ، فهذا كما قال النبي ﷺ « المتشبع بما لم يُعط كلابس ثوبَي زور » أي كذب .

والحاصل : أنه يجب على الإنسان أن يتثبت فيما يقول ويتثبت فيمن ينقل إليه الخبر ، هل هو ثقة ؟ أو غير ثقة كما قال الله تعالى : ﴿ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِن جَآءَكُمْ فَاسِقُۢ بِنَبَإٍ فَتَبَيَّنُوٓاْ أَن تُصِيبُواْ قَوْمًۢا بِجَهَـٰلَةٍ فَتُصْبِحُواْ عَلَىٰ مَا فَعَلْتُمْ نَـٰدِمِينَ ﴾ [الحجرات : ٦] ولا سيما إذا كثرت الأهواء وصار الناس يتخبطون ويكثرون القيل والقال بلا تثبت ولا بينة ؛ فإنه يكون التثبت أشد وجوبًا ؛ حتى لا يقع الإنسان في المهلكة . والله الموفق .

* * *

٢٦٣ - باب بيان غلظ تحريم شهادة الزور

قَال اللَّه تَعالى : ﴿ وَٱجْتَنِبُواْ قَوْلَ ٱلزُّورِ ﴾ [الحج : ٣٠] . وقال تعالى : ﴿ وَلَا تَقْفُ مَا لَيْسَ لَكَ بِهِۦ عِلْمٌ ﴾ [الإسراء : ٣٦] . وقال تعالى : ﴿ مَّا يَلْفِظُ مِن قَوْلٍ إِلَّا لَدَيْهِ رَقِيبٌ عَتِيدٌ ﴾ [ق : ١٨] . وقال تعالى : ﴿ إِنَّ رَبَّكَ لَبِٱلْمِرْصَادِ ﴾ [الفجر : ١٤] . وقال تعالى : ﴿ وَٱلَّذِينَ لَا يَشْهَدُونَ ٱلزُّورَ ﴾ (١) [الفرقان : ٧٢] .

١٥٥٠ - وعنْ أبي بَكْرَةَ ﷺ قالَ : قالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ : « ألا أنبِّئُكم بأكْبَرِ الكَبائِرِ ؟ » قُلنَا : بَلى ، يا رسول اللَّهِ . قَالَ : « الإشْرَاكُ بِاللَّه ، وعُقُوقُ الوَالِدَينِ » وكانَ مُتَّكِئًا فَجَلَسَ ، فقال : « ألا وقَولُ الزُّورِ ! » فما زالَ يُكَرِّرُهَا حتى قلنا : لَيتَهُ سَكَتَ (٢) . متفقٌ عليه .

الشرح

ذكر المؤلف رحمه الله تعالى تحريم شهادة الزور : وشهادة الزور أن يشهد بما يعلم أن الأمر بخلافه ، أو يشهد بما لا يعلم أن الأمر بخلافه ، أو بوفاقه ، أو يشهد بما يعلم أن الأمر على وفاقه لكنه على صفة غير الواقع ، هذه ثلاثة أحوال وكلها حرام ، لا يحل لإنسان أن يشهد إلا بما علم على الوجه الذي علمه ، فإن شهد بما يعلم أن الأمر بخلافه مثل : أن يشهد لفلان بأنه يطلب فلان كذا وكذا

---

(١) قوله : ﴿ وَلَا تَقْفُ ﴾ أي لا ترم أحدًا .

(٢) أخرجه البخاري في الشهادات (٢٦٥٤) ، ومسلم في الإيمان (١٤٣) ، وأحمد في مسنده (١٣١/٣) ، والبيهقي في السنن (١٢١/١٠) .

أنه كاذب ، فإن هذا - والعياذ بالله - شهادة زور ، ومثل : أن يشهد لفلان أنه فقير يستحق الزكاة وهو يعلم أنه غني ، ومثل : ما يفعله بعض الناس عند الحكومة يشهد بأن فلانًا له عائلة عدد أفرادها كذا وكذا وهو يعلم أنه كاذب ، والأمثلة على هذا كثيرة ، ويظن هذا المسكين الذي شهد بشهادة الزور يظن أنه نافع لأخيه وأنه بار به ؛ والواقع أنه ظالم لنفسه وظالم لأخيه ، أما كونه ظالمًا لنفسه : فظاهر لأنه آثم وأتي كبيرة من كبائر الذنوب . وأما كونه ظالمًا لأخيه : فلأنه أعطاه ما لا يستحقه وجعله يأخذ المال بالباطل ، وقد قال النبي ﷺ « انصر أخاك ظالمًا أو مظلومًا » . قالوا : يا رسول الله ، هذا المظلوم كيف ننصر الظالم ؟ قال : « تمنعه من الظلم فذلك نصره » [1] فهؤلاء الذين يشهدون بالزور - والعياذ بالله - يظنون أنهم ينفعون إخوانهم وهم يضرون أنفسهم وإخوانهم .

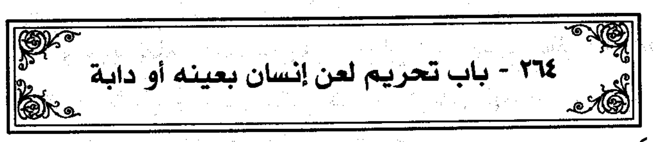
ثم استشهد المؤلف بآيات بعضها سبق قريبًا وبعضها لم يسبق فقال : قول الله تعالى : ﴿ فَٱجْتَنِبُواْ ٱلرِّجْسَ مِنَ ٱلْأَوْثَٰنِ وَٱجْتَنِبُواْ قَوْلَ ٱلزُّورِ ﴾ [الحج : ٣٠] وأول ما يدخل في قول الزور شهادة الزور ، وقد جعل الله تعالى ذلك مع الرجس من الأوثان أي مع الشرك فدل هذا على عظم شهادة الزور ، وقال الله تعالى ﴿ وَٱلَّذِينَ لَا يَشْهَدُونَ ٱلزُّورَ ﴾ [الفرقان : ٧٢] يمدحهم ، وإذا كان هؤلاء مدحوا بعدم شهود الزور فأولى أن يمدحوا إذا لم يقولوا الزور ، وإذا كان عدم شهود الزور مدحًا ، دل ذلك على أن شهادة الزور أو القول بالزور قدح وضرر .

ثم ذكر حديث أبي بكر رضي الله عنه أن النبي ﷺ قال : « ألا أنبئكم بأكبر الكبائر » (ألا) أداة عرض استفتح بها النبي ﷺ كلامه للتنبيه ، تنبيه المخاطب إلى أمر ذي شأن ، ولهذا قال : « ألا أنبئكم بأكبر الكبائر » قالوا : بلى يا رسول الله ، قال : « الشرك بالله » وهذا أعظم الظلم وأكبر الكبائر وأشد الذنوب عقوبة ؛ لأن من يشرك بالله فإن الله قد حرم عليه الجنة ومأواه النار وما للظالمين من أنصار . والثاني « عقوق الوالدين » يعني قطع برهما ، والوالدان : هم الأب والأم ، والواجب على الإنسان أن يبرهما وأن يخدمهما بقدر ما يستطيع ، وأن يطيعهما إلا من ضرر أو معصية لله عز وجل ؛ فإنه لا يطيعهما . « قال : وكان متكئًا فجلس » تعظيمًا لما سيقول قال : « ألا وقول الزور ، وشهادة الزور » وإنما عظم النبي ﷺ أمرها لكثرة الوقوع فيها وعدم اهتمام الناس بها ، فأرى الناس أن أمرها عظيم ، كان يحدث عن الشرك وعقوق الوالدين وهو متكئ ، ثم جلس اهتمامًا بالأمر « ألا وقول الزور ، وشهادة الزور ، فما زال يكررها حتى قلنا : ليته سكت » وهذا دليل : على عظم شهادة الزور وقول الزور ، وعلى الإنسان أن يتوب إلى الله عز وجل من هذا ؛ لأنه يتضمن - كما قلت - ظلم نفسه وظلم من شهد له . والله الموفق .

* * *

---

(١) أخرجه البخاري في اللقطة (٢٤٤٣) ، والترمذي في السنن (٢٢٨٢) ، وأحمد في مسنده (٩٩/٣) ، والبيهقي في السنن (٩٤/٦) .



٢٦٤ - باب تحريم لعن إنسان بعينه أو دابة

١٥٥١ - عنْ أَبي زَيدٍ ثابتِ بنِ الضَّحاكِ الأنصاريِّ ﷺ - وهو من أهْلِ بَيعَةِ الرِّضوانِ - قال : قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ : « مَنْ حَلَفَ عَلى يَمين بملَّةٍ غَيرِ الإسْلامِ كاذِبًا مُتَعَمِّدًا ؛ فَهُوَ كَمَا قَالَ ، وَمَنْ قَتَلَ نَفْسَهُ بِشيءٍ ؛ عُذِّبَ بِهِ يَومَ القِيَامَةِ ، وَلَيسَ عَلى رَجُلٍ نَذْرٌ فِيما لا يَمْلِكُهُ ، وَلَعْنُ المُؤمِنِ كَقَتْلِهِ » [١] متفقٌ عليه .

الشرح

ذكر المؤلف رحمه الله في كتابه تحريم لعن معين من آدمي أو دابة . واللعن معناه : الطرد والإبعاد عن رحمة اللَّه فإذا قلت : اللَّهم العن فلانًا ، فإنك تعنى أن اللَّه يبعده ويطرده عن رحمته والعياذ باللَّه .
ولهذا كان لعن المعين من كبائر الذنوب ؛ يعنى لا يجوز أن تلعن إنسانًا بعينه ، فتقول : اللَّهم العن فلانًا ، أو تقول : لعنة اللَّه عليك ، أو ما أشبه ذلك ، حتى لو كان كافرًا وهو حيٌّ ، فإنه لا يجوز أن تلعنه ؛ لأن النبي ﷺ لما صار يقول : « اللَّهم العن فلانا ، اللَّهم العن فلانًا » يعينهم ، قال اللَّه له : ﴿ لَيْسَ لَكَ مِنَ ٱلْأَمْرِ شَىْءٌ أَوْ يَتُوبَ عَلَيْهِمْ أَوْ يُعَذِّبَهُمْ فَإِنَّهُمْ ظَٰلِمُونَ ﴾ [٢] [آل عمران : ١٢٨] ومن الناس من تأخذه الغيرة فيلعن الرجل المعين إذا كان كافرًا وهذا لا يجوز ؛ لأنك لا تدرى لعل اللَّه أن يهديه ، وكم من إنسان كان من أشد الناس عداوة للمسلمين والإسلام هداه اللَّه وصار من خيار عباد اللَّه المؤمنين ! ونضرب لهذا مثلًا : عمر بن الخطاب الرجل الثانى بعد أبى بكر فى هذه الأمة ، كان من ألد أعداء الإسلام ففتح اللَّه عليه فأسلم . خالد بن الوليد كان يقاتل المسلمين فى أحد وهو من جملة من كر عليهم وداهمهم ، عكرمة ابن أبي جهل ، وغيرهم من كبار الصحابة الذين كانوا من أول ألد أعداء المسلمين فهداهم اللَّه عز وجل .
ولهذا قال : ﴿ لَيْسَ لَكَ مِنَ ٱلْأَمْرِ شَىْءٌ أَوْ يَتُوبَ عَلَيْهِمْ أَوْ يُعَذِّبَهُمْ فَإِنَّهُمْ ظَٰلِمُونَ ﴾ أما إذا مات الإنسان على الكفر وعلمنا أنه مات كافرًا ، فلا بأس أن نلعنه ؛ لأنه ميئوس من هدايته - والعياذ باللَّه - لأنه مات على الكفر . ولكن ما الذى نستفيده من اللعن !؟ ربما يدخل هذا - أعني لعنه - فى قول النبى ﷺ : « لا تسبوا الأموات فإنهم أفضوا إلى ما قدموا » [٣] ونحن نقول لهذا الرجل الذى يلعن الكافر أو الذى مات على الكفر ، نقول : إن لعنك إياه لا فائدة منه فى الواقع ؛ لأنه قد استحق الطرد والإبعاد عن رحمة اللَّه ، فليس هو من أهل رحمة اللَّه أبدًا ، بل هو من أصحاب النار هم فيها خالدون .

وكذلك أيضًا البهائم ، لا يجوز أن تلعن البهيمة : البعير ، الحمار ، البقرة ، الشاة ، لا يجوز لك أن تلعنه ، وسيأتى - إن شاء اللَّه - فى الأحاديث ما يبين حكم ذلك . ثم ذكر المؤلف حديث أبى زيد ثابت ﷺ أن النبي

---

(١) أخرجه البخاري في الجنائز (١٣٦٣) ، ومسلم في الإيمان (١٧٦) ، وأحمد في مسنده (٣٣/٤) . قوله « فهو كما قال » أي أنه يصير يهوديًا أو نصرانيًا .

(٢) انظر الحديث بنصه في البخاري في الاعتصام (٣٤٦) ، وأحمد في مسنده (٢٥٥/٢) ، والنسائي في السنن (٢٠٣/٢) ، والبيهقي في السنن (١٩٨/٢) .

(٣) أخرجه البخاري في الرقاق (٦٥١٦) ، والنسائي في السنن (٥٣/٤) ، والحاكم في المستدرك (٣٨٥/١) ، والبيهقي في السنن (٧٥/٤) .

ﷺ قال : « من حلف على يمين بملة غير الإسلام وهو فيها كاذب متعمدًا فهو كما قال » مثال ذلك : إذا قال الإنسان : هو يهودي أو نصراني ، إن كان كذا وكذا . وكان الأمر على خلاف ما يقول ؛ فإنه كما قال ، يعني أنه يهودي أو نصراني - نسأل الله العافية - مثال هذا ، أخبرنا رجل جاء إلينا وقال : إنه قدم فلان أمس ، قلنا : ما هو صحيح ، قال هو يهودي إن كان ما قدم . فتبين أنه لم يقدم ، والرجل قال : هو يهودي متعمدًا ، فبين الرسول ﷺ أنه كما قال عن نفسه ؛ أي أنه يصير يهوديًا أو نصرانيًا ، وهذا يدل على أن الحلف بملة غير الإسلام كاذبًا متعمدًا من كبائر الذنوب ، فإن كان غير كاذب بأن كان صادقًا ؛ فإنه لا يلحقه هذا الوعيد ، لكننا نقول له : إذا كنت حالفًا فاحلف بالله ، كما قال الرسول ﷺ : « من كان حالفًا فليحلف بالله أو ليسكت »[١] وكذلك إن كان قال ذلك غير متعمد بأن يظن أن الأمر كذلك ، وتبين أن الأمر على خلاف ما اعتقد فإنه لا يدخل في هذا الوعيد ، ويستفاد من هذا الحديث : أن الإنسان إذا حلف بالله على شيء معتقدًا أنه كما حلف ، ثم تبين أنه على خلاف اعتقاده ؛ فإنه لا إثم عليه ولا كفارة عليه . مثال ذلك : لو قال : متأكد أن فلان سيقدم غدًا ، يقول : إني متأكد والله ليقدمن غدًا ، قال ذلك بناء على ظنه ثم لم يقدم ؛ فلا كفارة عليه ؛ لأنه حلف على ظنه غير متعمد ، ولذلك أقر النبي ﷺ الرجل الذي قال : والله ما بين لابتيها أهل بيت أفقر منه[٢] . يعني ما بين لابتي المدينة أهل بيت أفقر منه ، مع أن هذا الرجل لم يأتِ على كل البيوت يفتش فيها ، لكن حلف على غالب ظنه ، فأقره النبي ﷺ على ذلك . وسيأتي - إن شاء الله - بقية الكلام على الحديث .

والثاني : أن من قتل نفسه بشيء عذب به في جهنم ، يعني إذا قتل الإنسان نفسه بشيء ؛ فإنه يعذب به في جهنم . رجل أكل سمًا ليموت فمات ؛ فإنه يحتي هذا السم في نار جهنم خالدًا مُخلَّدًا فيها - والعياذ بالله - صعد إلى السقف فأسقط نفسه حتى هلك ؛ فإنه يعذب بمثل ذلك في جهنم . قتل نفسه بسكين ؛ فإنه يعذب بها في جهنم . قتل نفسه بعصاة ؛ فإنه يعذب بها في جهنم ، قتل نفسه بقنابل ؛ فإنه يعذب بها في جهنم . ومن ذلك فعل بعض الناس الذين ينتحرون ، يلبس الإنسان قنابل يحزمها على بطنه ثم يذهب إلى فئة من العدو ويطلقها ؛ فيكون هو أول من يموت ، هذا يعتبر قاتلًا لنفسه ويعذب بما قتل به نفسه في جهنم - والعياذ بالله - وهؤلاء يطلقون على أنفسهم الفدائيين ، ولكنهم قتلوا أنفسهم فيعذبون في نار جهنم بما قتلوا به أنفسهم وليسوا بشهداء ؛[٣] لأنهم فعلوا فعلًا محرمًا ، والشهيد هو الذي يتقرب إلى الله تعالى بفعل ما أمره الله به لا بفعل ما نهاه عنه ، والله ﷻ يقول : ﴿ وَلَا تَقْتُلُوٓا۟ أَنفُسَكُمْ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ بِكُمْ رَحِيمًا ﴾ [النساء : ٢٩] ويقول ﴿ وَلَا تُلْقُوا۟ بِأَيْدِيكُمْ

---

(١) أخرجه البخاري في الشهادات (٢٦٧٩) ، ومسلم في الإيمان (٣) ، وأحمد في (٢/٥٢٠) ، والدارمي في السنن (٢/١٨٥) ، والبيهقي (١٠/٢٨) .

(٢) انظر الحديث في البخاري في الصوم (١٩٣٦) ، ومسلم في الصيام (٨١) ، وأحمد في مسنده (٢/٢٠٨) .

(٣) هذا هو رأي فضيلة الشيخ وقد أصدرت المجامع الفقهية في كثير من بلدان العالم الإسلامي وكذلك دار الإفتاء المصرية أن من فعل ذلك إذا كان موقنًا أنه سيكبد عدوه خسائر كبيرة فإنه يعد شهيدًا أما إذا كان غير متأكد من نتيجة عمله ؛ فإنه يجب عليه عدم المجازفة بحياته لأن حياة الفرد المسلم أغلى من شخص أو شخصين أو ثلاثة من أعداء الإسلام . (الناشر) .

﴿إِلَى التَّهْلُكَةِ وَأَحْسِنُوا إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُحْسِنِينَ﴾ [البقرة: ١٩٥] لكننا نقول: هؤلاء الذين نسمع عنهم يفعلون ذلك نرجو ألا يعذبون؛ لأنهم جاهلون متأولون، لكنهم ليس لهم أجر وليسوا بشهداء؛ لأنهم فعلوا مالم يأذن به اللَّه بل ما نهي اللَّه عنه، فإن قال قائل: أليس الصحابة يغامرون فيدخلون صف الأعداء من الروم وغير الروم؟ قلنا: بلى لكن هل هذا قتل لأنفسهم؟ ليس بقتل، صحيح أنهم على خطر لكن فيه احتمال النجاة، ولهذا يدخلون صفوف الروم فيقتلون من شاء اللَّه ثم يرجعون إلى الجيش، وكذلك ما فعله البراء بن مالك ﷺ في وقعة اليمامة فإنهم لما وصلوا إلى حائط مسيلمة الكذاب، وجدوا الباب مغلقًا ولم يتمكنوا من دخوله وكان البراء بن مالك ﷺ أخو أنس بن مالك، كان شجاعًا، فطلب من الجيش أن يلقوه من وراء الجدار ليفتح لهم الباب، فألقوه من وراء الجدار من أجل أن يفتح لهم الباب حتى يدخلوا على مسيلمة الكذاب، وفعلًا فتح لهم الباب ونجا (١)، فلا يمكن أن نستدل بمثل هذه الوقائع على جواز الانتحار الذي يفعله هؤلاء؟ ولكن نقول: نرجو من اللَّه ﷻ أن لا يأخذهم بما صنعوا؛ لأنهم صنعوا ذلك عن جهل وحسن نية، فمن قتل نفسه بشيء؛ فإنه يعذب به في نار جهنم، واعلم أنه قد ورد فيمن قتل نفسه بشيء أنه يعذب به في جهنم خالدًا مخلَّدًا أبدًا، فذكر التأبيد، فهل يعني ذلك أنه كافر لأنه لا يستحق الخلود المؤبد إلا الكفار؟ الجواب: لا ليس بكافر، بل يغسل ويكفن ويصلى عليه ويدعى له بالمغفرة. كما فعل النبي ﷺ في الرجل الذي قتل نفسه بمشاقص، فقدم إلى الرسول ﷺ ليصلى عليه، لكنه لم يصلِّ عليه، وقال: «صلوا عليه» (٢) فصلوا عليه بأمر الرسول ﷺ وهذا يدل على أنه ليس بكافر، وحينئذ لا يستحق الخلود المؤبد، فما ذكر في الحديث من ذكر التأبيد، إن كانت اللفظة محفوظة عن النبي ﷺ فالمراد شدة التهديد والتنفير من هذا العمل، وإلا فليس بكافر.

الجملة الثالثة: أن لعن المؤمن كقتله، يعني إذا قلت للمؤمن: لعنك اللَّه فكأنما قتلته؛ لأن اللعن هو الطرد والإبعاد عن رحمة اللَّه، ومن طُرد وأبعد عن رحمة اللَّه صار كالمقتول الذى عُدِم الحياة الدنيا، فإن ذلك المطرود المبعد عن رحمة اللَّه حُرِم حياة الآخرة. والقتل يحرم به المقتول من الحياة الدنيا.

واعلم أن لعن المؤمن من كبائر الذنوب، وأنه لا يحل، وأن من لعن مؤمنًا؛ فإن اللعنة تذهب إلى الملعون إن كان أهلًا لها فقد استحقها، وإن لم يكن أهلًا لها رجعت إلى قائلها - والعياذ باللَّه - فصار هو الملعون، المطرود عن رحمة اللَّه. واللَّه الموفق.

سؤال وجوابه: الإضراب عن الطعام حتى يموت هذا من قتل النفس.

وقد سبق الكلام على أول حديث أبي زيد ثابت بن الضحاك ﷺ وبقى فيه جملة تركناها، وهي قوله ﷺ: «ولا نذر على ابن آدم فيما لا يملك» يعني الإنسان ليس عليه نذر فيما لا يملك، فلو نذر قال: للَّه عليَّ نذر أن أتصدق بمال فلان - فهذا لغو ولا ينعقد النذر؛ لأن مال فلان ليس ملكًا له،

---

(١) انظر القصة في تاريخ الطبري (٣/٣٠٥).

(٢) انظر الحديث في الترمذي في السنن (١٠٧٠)، وأحمد في مسنده (٤/٤٣١)، والبيهقي في السنن (٦/٧٢، ٧٣).

وليعلم أن النذر مكروه ، نهى عنه النبي ﷺ نهى عن النذر . وقال : « إنه لا يأتي بخير ولا يرد قضاء وإنما يستخرج به من البخيل » [١] . وكثير من الناس يكون عنده مريض أو يضيع له مال فينذر إن شفى اللَّه مريضه أن يصوم أو يحج أو يتصدق أو يعتمر أو يفعل شيئًا من الطاعات ، ثم إذا قَدَّر اللَّه الشفاء ؛ ذهب يسأل العلماء يريد أن يتخلص مما نذر ، وربما يكسل ويترك ما نذر ، وهذا خطر ، خطر عظيم ، إذا نذرت للَّه تعالى شيئًا على شيء يحققه اللَّه لك ، ثم تحقق فلم توفِّ فإن هذا خطر عظيم يؤكده قوله تعالى : ﴿ وَمِنْهُم مَّنْ عَـٰهَدَ ٱللَّهَ لَئِنْ ءَاتَىٰنَا مِن فَضْلِهِۦ لَنَصَّدَّقَنَّ وَلَنَكُونَنَّ مِنَ ٱلصَّـٰلِحِينَ ۝ فَلَمَّآ ءَاتَىٰهُم مِّن فَضْلِهِۦ بَخِلُوا۟ ﴾ - فلم يتصدقوا - ﴿ وَتَوَلَّوا۟ وَّهُم مُّعْرِضُونَ ﴾ - فلم يكونوا من الصالحين - ﴿ فَأَعْقَبَهُمْ نِفَاقًا فِى قُلُوبِهِمْ إِلَىٰ يَوْمِ يَلْقَوْنَهُۥ بِمَآ أَخْلَفُوا۟ ٱللَّهَ مَا وَعَدُوهُ وَبِمَا كَانُوا۟ يَكْذِبُونَ ﴾ [التوبة : ٧٥، ٧٧] يعني ألقى اللَّه في قلوبهم النفاق إلى الموت - والعياذ باللَّه - وهذا وعيد شديد ولذلك نهى النبي ﷺ عن النذر ؛ لأن الإنسان يوجب على نفسه ماهو في غنى عنه ، وما هو في سعة منه ، وإذا أردت أن يشفى اللَّه مريضك أو أن يرد مالك ، فاسأل اللَّه : اللَّهم اشفِ مريضي ، اللَّهم رد عَلَيَّ مالي . ليس هناك طريق - يعني لم تنسد الطرق - إلا بالنذر ، وعلى كل حال قال أهل العلم - رحمهم اللَّه - : إن النذر أقسام .

النذر الأول : نذر الطاعة أن ينذر الإنسان أن يصلي أو يصوم ، أو يتصدق ، أو يحج ، أو يعتمر ؛ فهذا يجب الوفاء به لقول النبي ﷺ : « من نذر أن يطيع اللَّه فليطعه » [٢] وسواء كان معلق على شرط أو غير معلق .

الثاني : **نذر المعصية** فهذا لا يجوز الوفاء به ، مثل : أن ينذر الإنسان أن لا يكلم فلانًا وفلانًا من المؤمنين الذين لا يُهجرون لكن صارت بينه وبينه عداوة يعني سوء تفاهم ، قال : للَّه عليَّ نذر ما أكلم فلانًا ، أو للَّه على نذر أن لا أزور أخي ، أو قريبي أو ما أشبه ذلك ، هذه معصية حرام ، ولا يجوز الوفاء بهذا النذر ، لقول النبي ﷺ : « من نذر أن يعصي اللَّه فلا يعصه » ولكن ماذا يكون ، يجب عليه أن يكفر كفارة اليمين .

الثالث : **ما يسمى عند العلماء بنذر اللجاج والغضب** : وهو الذي يقصد به الإنسان المنع أو الحث أو التصديق أو التكذيب ، مثل أن يقول : للَّه على نذر أن لا أفعل كذا وكذا يحملها على ذلك أنه يريد الامتناع ما أراد النذر لكن أراد معنى النذر ، فهذا يخير بين فعله إن كان فعلًا ، أو تركه إن كان تركًا ، وبين كفارة اليمين ، مثاله : أن يقول : للَّه على نذر لا ألبس هذا الثوب ، نقول : أنت الآن بالخيار إن شئت تلبسه وكفر كفارة اليمين ، وإن شئت لا تلبسه ولا كفارة عليك .

القسم الرابع : **النذر المطلق** : يعني ليس في شيء محدد [٣] ، قال الإنسان : للَّه على نذر فقط فهذا عليه كفارة يمين ، لقول النبي ﷺ : « كفارة النذر إذا لم يسم كفارة يمين » [٤] .

---

(١) انظر ذلك في أحمد في مسنده (٦١/٢، ٨٦) ، والبيهقي في السنن (٧٧/١٠) .

(٢) أخرجه البخاري في الأيمان والنذور (٦٧٠٠) ، وأبو داود في السنن (٣٢٨٩) ، والنسائي في السنن (١٧/٧) ، وأحمد في مسنده (٤١/٦) .

(٣) انظر في ذلك الوسيط (٢١٠/٧) ، روضة الطالبين (١٧/١١) ، المغني (٧١/٨) ، الهداية (٦٩٨/٢) .

(٤) انظر الحديث بنصه في أبو داود في الأيمان والنذور (٣٣٢٢) ، وابن ماجه في السنن (٢١٢٨) .

والحاصل : أنه لا ينبغي للإنسان أن ينذر ، الخير يأتي بدون نذر ، والقضاء لا يرد بالنذر ، كما قال النبي ﷺ : « أنه لا يأتي بخير ولا يرد قضاء »[١] وكم من أناس الآن يسألون يقول مثلًا بعضهم : نذرت إن شفى الله مريضي لأصومن شهرين متتابعين . نقول من حثك على هذا إن شفى الله مريضه لزمه أن يصوم شهرين متتابعين . بعض الناس يقول : نذرت إن شفى الله مريضي أن أذبح سبعًا من الإبل - أعوذ بالله - إن شفى الله مريضه لزمه أن يذبح سبعًا من الإبل ويتصدق بها ولا يأكل منها شيئًا . نذر إن رد الله غائبه فإنه يذبح شاة ما الداعي! ؟ لكن لو رَدَّ الله غائبه وجب عليه أن يذبح شاة ويتصدق بها ولا يأكل منها شيئًا . فاترك النذر لكن إذا نذرت طاعة وجب عليك أن تفي بما نذرت ، والله الموفق .

* * *

١٥٥٢ - وعنْ أبي هُرَيرَةَ ﷺ أنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ قال : « لا يَنْبَغِي لِصِدِّيقٍ أنْ يَكُونَ لَعَّانًا »[٢] رواه مسلم .

١٥٥٣ - وعنْ أبي الدَّرْدَاءِ ﷺ قالَ : قالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ : « لا يَكُونُ اللَّعَّانُونَ شُفَعَاءَ ، وَلا شُهَدَاءَ يَومَ القِيَامَة »[٣] رواه مسلم .

١٥٥٤ - وعَنْ سَمُرَةَ بْنِ جُنْدُبٍ ﷺ قالَ : قالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ : « لا تَلاعنُوا بلَعْنَةِ اللَّه ، ولا بِغَضَبِهِ ، وَلا بِالنَّارِ »[٤] رواه أبو داودَ ، والترمذيّ وقالا : حديثٌ حَسَنٌ صَحيحٌ .

١٥٥٥ - وعن ابنِ مسعودٍ ﷺ قالَ : قالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ : « لَيسَ المؤمِنُ بالطَّعَّانِ ، وَلا اللَّعَّان ، وَلا الفَاحِشِ ، وَلا البَذِيِّ »[٥] رواه الترمذي وقالَ : حديثٌ حسنٌ .

١٥٥٦ - وعنْ أبي الدَّرْداءِ ﷺ قالَ : قالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ : « إنَّ العبْدَ إذا لَعَنَ شَيئًا ، صَعِدَتِ اللَّعْنَةُ إلى السَّمَاءِ ، فَتُغْلَقُ أَبْوابُ السَّمَاءِ دُونَها ، ثُمَّ تَهبِطُ إلى الأرْض ، فَتُغلَقُ أبوابُها دُونَها ، ثُمَّ تَأْخُذُ يَمِينًا وَشِمَالًا ، فَإذا لَمْ تَجِدْ مَسَاغًا رَجَعَتْ إلى الذي لُعِنَ ، فَإنْ كَانَ أَهْلًا لِذلكَ ؛ وَإلا رَجَعَتْ إلى قائِلِها »[٦] رواه أبو داود .

١٥٥٧ - وعنْ عِمْرَانَ بْنِ الحُصَينِ ﷺ قالَ : بَينَمَا رَسُولُ اللَّهِ ﷺ في بَعْضِ أَسْفَارِه ، وَامْرَأَةٌ مِنَ

(١) انظر الحديث في مسلم في النذور (٢/٦) ، والنسائي في السنن (٧/١٦) ، وأحمد في مسنده (٢/٦١) ، والبيهقي في السنن (١٠/٧٧) .
(٢) أخرجه مسلم في البر والصلة (٨٤) ، والبيهقي في السنن (١٠/١٩٣) .
(٣) أخرجه مسلم في البر والصلة (٨٥) ، وأبو داود في البر والصلة (٤٩٠٧) .
(٤) أخرجه أبو داود في الأدب (٤٩٠٦) ، وأحمد في مسنده (٥/١٥) ، والترمذي في البر والصلة (١٩٧٦) .
قوله « لا تلاعنوا بلعنة الله » أي لا يلعن بعضكم بعضًا بقول : لعنة الله عليك ، مثلًا ، قوله « ولا بغضبه » وذلك بأن يقال : غضب الله عليك ، قوله « ولا بالنار » وذلك بأن يقال : أدخلك الله النار .
(٥) أخرجه الترمذي في البر والصلة (١٩٧٧) ، والحاكم في المستدرك (١/١٢) ، والبيهقي في السنن (١٠/١٩٣) .
قوله « الطعان » أي الوقاع في أعراض الناس بالذم والغيبة .
(٦) أخرجه أبو داود في الأدب (٤٩٠٥) ، قوله « مساغًا » أي طريقًا أو مدخلًا .

الأنصارِ عَلى نَاقَةٍ ، فَضَجِرَتْ ، فَلَعَنَتْهَا ، فَسَمِعَ ذلكَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ فقالَ : « خُذُوا ما عَلَيها وَدَعُوها ؛ فَإنَّها مَلعُونةٌ » قالَ عِمرَانُ : فَكَأَني أَرَاهَا الآنَ تَمشي في النَّاسِ ما يَعرِضُ لَها أَحَدٌ [١] . رواه مسلم .

١٥٥٨ - وعن أبي بَرْزَةَ نَضْلَةَ بْنِ عُبيدِ الأسلَمِيِّ ﷺ قالَ : بَينَما جَارِيَةٌ عَلى نَاقَةٍ عَلَيها بَعضُ مَتَاعِ القَومِ ، إذْ بَصُرَتْ بالنَّبيِّ ﷺ ، وَتَضَايقَ بِهِمُ الجَبَلُ ، فقالتْ : حَلْ ، اللَّهُمَّ العَنْهَا . فقالَ النَّبيُّ ﷺ : « لا تُصَاحِبْنا نَاقَةٌ عَلَيها لَعنَةٌ » [٢] رواه مسلم .

قوله : « حَلْ » بفتح الحاءِ المُهْمَلَةِ ، وَإسكانِ اللَّامِ ، وَهيَ كَلِمَةٌ لِزَجْرِ الإبلِ .

واعْلَمْ أَنَّ هذا الحديثَ قَد يُسْتَشْكَلُ مَعْنَاهُ ، وَلا إشْكالَ فيه ، بَلِ المُرَادُ النَّهيُ أَنْ تُصاحِبَهُمْ تِلكَ النَّاقَةُ ، وَلَيسَ فيه نَهيٌ عَنْ بَيعِهَا وَذَبْحِهَا وَرُكُوبِها في غَيرِ صُحْبَةِ النبيِّ ﷺ ، بَلْ كُلُّ ذلك وَما سَوَاهُ مِنَ التَّصَرُّفاتِ جَائزٌ لا مَنْعَ مِنْهُ ، إلا مِنْ مُصاحَبَتِهِ ﷺ بها ؛ لأنَّ هذِهِ التصَرُّفاتِ كُلَّهَا كانَتْ جائزَةً فَمُنِعَ بَعْضٌ مِنْها ، فَبَقِيَ البَاقِي عَلى ما كانَ ، واللَّهُ أَعْلَمُ .

الشرح

هذه أحاديث ساقها النووي رحمه الله منها حديث سمرة بن جندب : أن النبي ﷺ قال : « لا تلاعنوا بلعنة اللَّه ولا بغضبه ، ولا بالنار » . يعني لا يلعن بعضكم بعضًا بلعنة اللَّه ، فيقول لصاحبه : لعنك اللَّه ، ولا بغضبه ، فيقول : غضب اللَّه عليك ، ولا بالنار ، فيقول : أدخلك اللَّه النار ، كل هذا حذر منه النبي ﷺ ؛ لأنه قد يقال لمن لا يستحقه .

وكذلك أيضًا أن النبي ﷺ قال : « ليس المؤمن بالطعان ، ولا باللعان ، ولا بالفاحش ، ولا بالبذي » وهذا يدل على أن هذه الأمور نقص في الإيمان ، وأنها تسلب عن المؤمن حقيقة الإيمان وكمال الإيمان ، فلا يكون طعانًا يطعن الناس بأنسابهم أو بأعراضهم أو بشكلهم وهيئاتهم أو بآمالهم . ولا باللعان الذي ليس له هم إلا اللعنة . كل كَلِمةٍ لعنك اللَّه ، كل كذا لعنك اللَّه ، لماذا تقول كذا ؟ أو يقول لأولاده : لعنكم اللَّه هاتوا هذا ، أو ما أشبه ذلك ، فالمؤمن ليس باللعان ، ولا بالفاحش الذى يفحش فى كلامه بصراخ أو نحو ذلك ، ولا بالبذيِّ الذي يعتدي على غيره ، فالمؤمن مؤمن مسالم ليس عنده فحش فى قوله ولا في فعله ولا غير ذلك ؛ لأنه مؤمن .

وكذلك حديث اللعنة : أن الإنسان إذا لعن شخصًا أو شيئًا من الأشياء ، صعدت اللعنة إلى السماء فتغلق أبواب السماء الأولى ثم تهبط إلى الأرض فتغلق أبواب الأرض دونها ، ثم تذهب يمينًا وشمالًا ، ثم ترجع إلى الذي لعن ، فإن كان أهلًا لها فقد استحقها ، وإلا رجعت إلى قائلها . وهذا وعيد شديد على من لعن من ليس أهلًا للعن فإن اللعنة تتجول فى السماء والأرض واليمين والشمال ،

(١) أخرجه مسلم في البر والصلة (٨٠) ، وأحمد في مسنده (٣٤١/٤) ، والطبراني في الكبير (٩٠/١٨) .
(٢) أخرجه الترمذي في البر والصلة (١٩٧٧) والحاكم في المستدرك (١٢/١) والبيهقي في السنن (١٩٣/١٠)
قوله « الطعان » أي الوقاع في أعراض الناس بالذم والغيبة .

ثم ترجع فى النهاية إلى قائلها إذا لم يكن الملعون أهلا لها .

ثم ذكر حديث عمران بن حصين : أن امرأة كانت على بعير لها فضجرت منها وتعبت وسأمت ولعنتها ، قالت : لعنك الله ، فسمع ذلك النبى ﷺ ، فأمر أن يأخذ ما عليها من الرحل والمتاع وتُعَرَّى - يعنى البعير - ثم تصرف ، قال : فلقد رأيتها فى الناس لا يتعرض لها أحد ؛ لأن النبى ﷺ أمر أن تصرف ، وهذا من باب التعزير : تعزير هذه المرأة أن تلعن دابة لا تستحق اللعن ، ولهذا قال : لا تصحبنا دابة ملعونة ؛ لأن هذه المرأة لعنتها ، والملعون لا ينبغي أن يُستعمل ، فلذلك نهى النبي ﷺ عنها وتركها ، فيكون هذا تعزيرًا للمرأة التي لعنت هذه الدابة وهي لا تستحق - والله الموفق .

* * *

٢٦٥ - باب جواز لعن أصحاب المعاصي غير المعينين

قال الله تعالى : ﴿ أَلَا لَعْنَةُ اللَّهِ عَلَى الظَّالِمِينَ ﴾ [هود : ١٨] وقالَ تعالى : ﴿ فَأَذَّنَ مُؤَذِّنٌ بَيْنَهُمْ أَن لَّعْنَةُ اللَّهِ عَلَى الظَّالِمِينَ (١) ﴾ [الأعراف : ٤٤] .

وَثبت في الصَّحيحِ أن رسُول اللَّه ﷺ قال : « لعَنَ اللَّه الوَاصِلَةَ والمُسْتَوصِلةَ » (٢) وأنَّهُ قال : « لعَنَ اللَّه آكِلَ الرِّبا » (٣) وأَنَّهُ لَعَنَ المُصَوِّرين (٤) ، وأنَّه قال : « لعنَ اللَّه مَنْ غَيَّر منارَ الأرْض » (٥) أي : حُدُودها ، وأنَّهُ قال : « لَعنَ اللَّه السَّارِقَ يَسرِقُ البيضَة » (٦) وأنهُ قال : « لَعنَ اللَّه مَنْ لعن والِديهِ » (٧) « وَلَعَنَ اللَّه مَنْ ذبح لِغيرِ اللَّه » (٨) وأنهُ قال : « منْ أحْدَثَ فِيها حدثًا أو آوى محدِثًا ، فَعليهِ لَعْنَةُ اللَّهِ والملائِكَةِ والنَّاسِ أجْمعِينَ » (٩) وأنَّهُ قالَ : « اللَّهُمَّ العنْ رِعْلًا ، وذَكوانَ ، وَعُصيَّةَ ، عصَوا اللَّه ورَسُولَهُ» (١٠) وَهذِهِ ثلاثُ قبائِل مِنَ العَرَبِ وأنَّه قال : « لَعنَ اللَّه اليهودَ اتخَذُوا قُبورَ أنبيَائِهم مسَاجِدَ» (١١) وأنَّهُ « لَعن المُتشبهِينَ مِنَ الرِّجالِ بِالنِّساءِ ، والمتشَبِّهَاتِ مِنَ النِّساءِ بالرِّجالِ » (١٢) .

وَجَميعُ هذِهِ الألفاظِ في الصحيحِ ، بَعْضُهَا في صحيحي البخاري ومسلمٍ ، وبعْضُها في أحدِهِمَا ، وإنَّما قَصدْتُ الاختصَار بالإشارةِ إليهَا ، وسأذكرُ مُعظَمَهَا في أبوابها مِنْ هذا الكتاب ، إن شاءَ اللَّه تعالى .

---

(١) قوله : ﴿ لَّعْنَةُ اللَّهِ ﴾ أي الخروج من رحمة اللَّه .
(٢) أخرجه البخاري في اللباس (٥٩٣٤) .
(٣) أخرجه أحمد في مسنده (١/٣٩٣) ، والطبراني في الكبير (٢/١٨٤) .
(٤) أخرجه أحمد في مسنده (٤/٣٠٨) .
(٥) أخرجه مسلم في الأضاحي (٤٣ ، ٤٥) .
(٦) أخرجه البخاري في الحدود (٦٧٩٩) .
(٧) أخرجه مسلم في الأضاحي (٤٤) ، وأحمد في مسنده (١/١٠٨) ، والبيهقي في السنن (٦/٩٩) .
(٨) أخرجه مسلم في الأضاحي (٤٣) ، وأحمد في مسنده (١/١٠٨) والحاكم في المستدرك (٤/١٥٣) .
(٩) أخرجه مسلم في الحج (٤٦٣) ، وأحمد في مسنده (٢/٥٢٦) .
(١٠) أخرجه أحمد في مسنده (٢/١٢٦) .
(١١) أخرجه البخاري في المغازي (١٣٩٠) .
(١٢) أخرجه البخاري في اللباس (٥٨٨٦) .

الشرح

ذكر المؤلف رَحِمَهُ اللَّهُ تحريم ذكر المعين وأنه لا يجوز أن تلعن شخصًا معينا ولو كان كافرًا مادام حيًّا ؛ لأنك لا تدري ، فلعل اللّه أن يهديه عَزَّوَجَلَّ فيعود إلى الإسلام إن كان مرتدًّا أو يسلم إن كان كافرًا أصليًّا . ثم ذكر بعد ذلك رَحِمَهُ اللَّهُ بابًا في جواز لعن أصحاب المعاصي غير المعينين ؛ لأن هناك فرقًا بين المعين وبين العام فيجوز أن تلعن أصحاب المعاصي على سبيل العموم إذا كان ذلك لا يخصُّ شخصًا بعينه ، ثم استدل بآيات وأحاديث منها قول اللّه تعالى : ﴿ أَلَا لَعْنَةُ ٱللَّهِ عَلَى ٱلظَّٰلِمِينَ ﴾ وقوله : ﴿ فَأَذَّنَ مُؤَذِّنٌۢ بَيْنَهُمْ أَن لَّعْنَةُ ٱللَّهِ عَلَى ٱلظَّٰلِمِينَ ﴾ وعلى هذا فيجوز أن تقول : اللّهم العن الظالمين على سبيل العموم ، ما هو شخص واحد معين ، فيشمل كل ظالم ، وكذلك ثبت عن النبي عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ أنه لعن الواصلة والمستوصلة وهذا فى النساء ، الواصلة التي تصل الشعر بشعر آخر حتى يُرى شعرها وكأنه طويل ، أو كأنه ثخين يعني منتشر . والمستوصلة التي تطلب من يصل هذا ، فهاتان امرأتان ملعونتان على لسان الرسول عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ الواصلة والمستوصلة ، لكن لو رأيت امرأة معينة تصل امرأة أخرى وامرأة معينة تطلب من يصل شعر رأسها فلا يجوز أن تلعن هذه المعينة لا يجوز ، مثل أننا نشهد لكل من قتل شهيدًا أنه فى الجنة كذا عمومًا لكن لو قتل الإنسان فى المعركة فى جهاد فى سبيل اللّه لا نقول هذا الرجل شهيد بعلم ، أو نشهد أنه فى الجنة ؛ لأن الشهادة فى الجنة لها شأن آخر ، وكذلك لعن المعين له شأن آخر وضرب المؤلف رَحِمَهُ اللَّهُ أمثلة لذلك ، منها : لعن اللّه من غيَّر منار الأرض - يعني حدودها - وذلك فى الجيران إذا كان الإنسان - مثلًا - له جار فى الأرض فغير مراسم الحدود أدخل شيئًا من أرض جاره إلى أرضه ، فهذا ملعون على لسان النبي عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ وهو مع كونه ملعونًا - والعياذ باللّه - سوف يكلف يوم القيامة بأن يحمل ما أدخل من أرض جاره يحمله على عنقه من سبع أراضين ، قال عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ : « من اقتطع شبرًا من الأرض ظلمًا طوقه يوم القيامة من سبع أراضين »[1] . نسأل اللّه العافية ونعوذ باللّه من الخزي والعار ، يأتي يوم القيامة بين العالم يحمل ما أدخله من أراضي غيره من سبع أراضين .

وكذلك أيضًا لعن النبي عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ من لعن والديه ، إذا قال إنسان لوالده ، أو لأمه ، أو لأبيه : لعنك اللّه ، أو عليك لعنة اللّه ؛ فإنه مستحق للعنة اللّه ؛ لأن الوالدين حقهما البر والإحسان ولين القول فإذا لعنهما - والعياذ باللّه - استحق اللعنة ، قال النبي عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ : « لعن اللّه من لعن والديه » فيجوز أن تقول : اللّهم العن من لعن والديه ، وكذلك المصورون ، فيمكن أن تقول : اللّهم العن كل مصور ؛ لأن النبي عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ : لعن المصورين ، وهكذا الأحاديث التي ذكرها المؤلف . فيفرق بين العام والخاص ، العام لا يخص أحدًا بعينه ، والخاص هو أن يخص أحدًا بعينه ، فتخصيص أحد بعينه باللعن هذا حرام ولا يجوز ، أما على سبيل العموم فلا بأس .

وَثبت في الصَّحيحِ أن رسُول اللّه عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ قال : « لعَنَ اللّه الوَاصِلَةَ والمُسْتَوصِلَةَ » وأنَّهُ قال : « لعَنَ اللّه آكِلَ الرِّبا » ، وأنَّهُ لَعَنَ المُصَوِّرين .

---

(١) أخرجه مسلم في المساقاة (١٣٧) ، وأحمد في مسنده (٤٣٢/٢) ، والبيهقي في السنن (٩٨/٦) .

هذه الأحاديث التي عقدها المؤلف رَحِمَهُ اللَّهُ لبيان جواز لعن أهل المعاصي غير المعينين ، وقد سبق في الباب الذي قبله أنه لا يجوز لعن المعين ولو كان كافرًا ، أما غير المعين بأن يلعن الإنسان من اتصف بهذه الصفة ، فهذا لا بأس به ؛ فقد ثبت عن النبي ﷺ أنه لعن الواصلة والمستوصلة ، الواصلة : هي التي تصل الشعر ، والمستوصلة : هي التي تطلب من يصله ، يعني بأن المرأة يكون شعر رأسها قصيرًا وشعرها قليلًا ، فتضيف إلى رأسها شيئًا من الشعر لأجل أن يكون طويلًا وكثيفًا عندما يراه الناس ، فلعن النبي ﷺ من فعل ذلك وبعض الأحاديث حتى ولو كان شعرها قليلًا جدًّا ؛ فإنه لا يجوز لها ذلك ، ومن هذا ما يسمى بالباروكة فإن بعض علمائنا المحققين قالوا : إن لبس الباروكة من الوصل ، وأن التي تلبس الباروكة ولو للتجمل ملعونة - والعياذ باللَّه - وهل يلحق بذلك ما يسمى بالعدسات الملونة التي تلبسها بعض النساء ربما يقال : إنه يلحق بذلك ؛ لأن المرأة تضع شيئًا يجمل عينها ، يجعل عينها كأنها عين إنسانة أخرى ، إما حمراء أو خضراء ، حتى سمعت بعضهم يقولون : إنهم يجعلون عدسات لونها أخضر وبعضها أزرق وما أشبه ذلك . فالاحتياط أن يقال : إنها تلحق بذلك لأنه لا فرق بينها وبين الشعر ، فإن قال قائل : هذه مثل الكحل لا تثبت . قلنا : وكذلك وصل الشعر لا يثبت . ولهذا أخشى أن تكون هذه العدسات الملونة من جنس الوصل . ثم إنه ثبت من الناحية الطبية أنها مضرة بالعين ، وإن كان ضررها لا يرى على المدى القصير لكن يرى على المدى الطويل .

قال : وثبت أنه « لعن آكل الربا » يعنى وموكله . لعن الرسول ﷺ فى الربا خمسة : آكله وهو الذي يأخذ الربا ، وموكله وهو الذي يعطي الربا ، وشاهديه وهما اللذان يشهدان به ، وكاتبه الذي يكتب بين المرابين . كل هؤلاء ملعونين على لسان الرسول ﷺ ، لكن لا يجوز إذا رأيت شخصًا يبيع بالربا لا يجوز أن تقول : لعنك اللَّه . بل تقول على سبيل العموم : لعن اللَّه آكل الربا وموكله وشاهديه وكاتبه . لأن هناك فرق بين التعيين وبين التعميم . فالتعميم لا بأس به ، لكن التخصيص لا يجوز .

وكذلك ثبت عنه أنه لعن المصورين ، لكن ليس كل مصور ؛ بل المراد من صور ما به روح إذا صور الإنسان ما فيه روح كالآدمي وقرد وأسد وذئب وحشرات وما أشبه ذلك [١] . إذا صورها ؛ فإنه حرام عليه لا يجوز ، بل هو ملعون على لسان النبي ﷺ فلك أن تقول : اللَّهم العن المصورين . لكن لا تقل : العن فلانًا ولو كان يصور ؛ لأنه مخصوص ، فالتعيين لا يجوز . ثم إن الصور التي تحرم هي الصورة التي مثل التمثال يعني يصنع إنسانًا من العجين أو من الجبس أو من الجص أو غيرها من المواد ، يصنع شيئًا على صورة إنسان أو حيوان ، فهذا حرام ، وأما الأشجار وشبهها ؛ فإنه لا بأس به على القول الراجح الذي عليه جمهور العلماء . وأما ما يصنعه الإنسان فلا بأس به قطعًا ، مثل : أن يصور سيارة أو قطار أو ما أشبه ذلك . واختلف العلماء - رحمهم اللَّه - في التصوير الرقم يعني التصوير باللون على ورقة أو على خرقة أو ما أشبه ذلك ، من العلماء من قال : لا بأس به ، واحتجوا بحديث

---

(١) ذكر جمهور من الصحابة والتابعين أن اتخاذ صورة الحيوان في موضع الامتهان والزراية ليس حرامًا وذلك كالصورة في بساط يُدَاس ومخدة ووسادة وغيرها (فقه الكتاب والسنة ٥/٣١٧) .

زيد بن خالد الجهني ، وهو أن الرسول ﷺ قال : « إن الملائكة لا تدخل بيتًا فيه صورة إلا رقمًا في ثوب » [١] . فقالوا : إلا رقما فى ثوب ، هذه الصورة التي ترسم باليد على ورقة أو على ثوب ، وما أشبه ذلك ، لكن الصحيح أنه لا يجوز حتى الرقم فى الثوب أو في الورقة ، لا يجوز أن تصور صورة بيدك . وأما الصورة بالآلة الفوتوغرافية الفورية ، فهذه ليست من التصوير في شيء ، ولا تدخل في قول الرسول ﷺ : « كل مصور فى النار » [٢] ؛ لأنك لم تصور فى الواقع ، فأنت لم تخط الوجه ولا العين ولا الأنف ولا الفم ، إنما سلطت ضوءًا معينًا إذا قابله جسم انطبع في الورق دون أن ترسم العين والأنف والشفاه وما أشبه هذا ، فليس هذا بتصوير وليس هذا بتخصيص للمصور بالآلة . ويدل على ذلك دلالة واضحة يتبين بها الأمر أنك لو كتبت رسالة إلى إنسان بقلمك بيدك ثم أدخلتها في الآلة المصورة وخرجت الصورة ، هل هي صورة الذي حرك الآلة أو هي صورة الكتاب الذي كتبه الأول ؟ . الجواب الثاني بلا شك ، ولهذا يمكن أن نحرك هذه الآلة آلة التصوير ويمكن أن يحركها رجل أعمى فليس هذا من فعله ، إنما يقال هذا الذي صور صورة فوتوغرافية إن كانت لمقصد حرام صارت حرامًا من باب تحريم الوسائل ، وإن كانت لمقصد جائز فهي جائزة .

ولا يقال إن المصور في النار ، ولذلك يجب أن يفرق الشخص بين التصوير وبين استعمال التصوير ، كما فرق بين ذلك أهل العلم ، ففي عبارة زاد المستقنع ، كتاب الفقه المعروف ، قال : يحرم التصوير واستعماله . ففرق بين التصوير واستعماله . فنحن نقول : هذه الصورة الفوتوغرافية لا تدخل في لفظ حديث التصوير ، لكن إذا صورها الإنسان ليستخدمها على وجه محرم صارت حرامًا من باب تحريم الوسائل . هؤلاء ثلاثة لعنهم الرسول ﷺ . الأول : الواصلة والمستوصلة ، والثاني : آكل الربا وموكله وشاهداه وكاتبه ، والثالث : المصورون .

وقد ثبت أن النبي ﷺ قال : « لعنَ اللَّه مَنْ غَيَّر منارَ الأرْض » أي : حُدُودها ، وأنَّهُ قال : « لَعنَ اللَّه السَّارِقَ يَسرِقُ البيضَة » وأنهُ قال : « لَعنَ اللَّه مَنْ لعن والِديهِ » .

فإن النبي ﷺ : لعن من غير منار الأرض – يعني حدودها – مثل أن يكون الإنسان له جار فيأتي الإنسان فيدخل من أرض جاره على أرضه فيوسع أرضه ويضيق أرض جاره ، فهذا ملعون لعنه النبي ﷺ ، وقد ثبت عنه ﷺ : « أن من اقتطع شبرًا من الأرض ظلمًا ؛ طوقه اللَّه به يوم القيامة من سبع أراضين » وإذا كان هذا فيمن غير حدود الأرض يعني المراسيم . فكيف بمن أخذ الأرض كلها واجتاحها – والعياذ باللَّه – فهو أولى باللعن والطرد عن رحمة اللَّه ، كما يوجد أناس يعتدون على أراضي غيرهم ، يأخذونها بالباطل ويدعون أنها لهم ، وربما يأتون بشهود زور يشهدون لهم ، فيحكم لهم بذلك فيدخلون فى اللعن ويوم القيامة يأتون بها مطوقين بها فى أعناقهم – نسأل اللَّه العافية – أمام عباد اللَّه .

---

(١) أخرجه البخاري في اللباس (٥٩٥٧) ، ومسلم في اللباس (٨٥) ، ومالك في الموطأ (الاستئذان ١٨) .
(٢) أخرجه مسلم في اللباس (٩٩) ، وأحمد في مسنده (٣٠٨/١) .

ومن ذلك : « أن النبي ﷺ لعن السارق يسرق البيضة فتقطع يده ، ويسرق الحبل فتقطع يده » والسارق هو الذي يأخذ المال بخفية من حرز مثله . مثل أن يأتي بالليل أو فى غفلة الناس فيفتح الأبواب ويسرق ، هذا السارق إذا سرق نصابًا وهو ربع دينار أو ما يساويه من الدراهم أو المتاع فإنها تقطع يده اليمنى من مفصل الكف [١] .

لقول اللّٰه تعالى ﴿ وَٱلسَّارِقُ وَٱلسَّارِقَةُ فَٱقْطَعُوٓا۟ أَيْدِيَهُمَا جَزَآءًۢ بِمَا كَسَبَا نَكَٰلًا مِّنَ ٱللَّهِ ۗ وَٱللَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴾ [المائدة : ٣٨] ولا فرق بين أن يكون السارق شريفا أو وضيعًا أو ذكرًا أو أنثى ؛ لأن النبي ﷺ أمر بقطع يد المرأة المخزومية التي كانت تستعير المتاع فتجحده ، فأمر النبي ﷺ أن تقطع يدها . فأهمَّ قريشًا ذلك وطلبوا من يشفع لها إلى الرسول ﷺ فطلبوا من أسامة بن زيد أن يشفع برفع العقوبة عنها فاختطب النبي ﷺ وقال : « إنما أهلك من قبلكم أنهم كانوا إذا سرق فيهم الشريف تركوه ، وإذا سرق فيهم الوضيع أقاموا عليه الحد ، وايم اللّٰه لو أن فاطمة بنت محمد سرقت لقطعت يدها » [٢] فأقسم – عليه الصلاة والسلام – أنه لو سرقت ابنته فاطمة أشرف النساء نسبًا لقطع يدها ، ولكن هذا الحديث الذي أشار إليه النووي رحمه الله في رياض الصالحين يقول : يسرق البيضة ، والبيضة لا تبلغ نصاب السرقة ؛ لأن نصاب السرقة ربع دينار ، فكيف قال : « يسرق البيضة فتقطع يده ، ويسرق الحبل فتقطع يده » قال بعض العلماء : إن المراد بالبيضة هنا بيضة الرأس الذي يجعلها الإنسان عند القتال على رأسه تقيه السهام ، وهي مثمنة تساوي ربع دينار أو أكثر ، والمراد بالحبل : حبل السفن الذي تربط به فى المرسى حتى لا تأخذها الأمواج وهو أيضًا ذو قيمة [٣] .

وقال بعض العلماء : المراد بالبيضة بيضة الدجاجة ، لأن النبي ﷺ أطلقها ، والبيضة عند الإطلاق لا يفهم منها إلا بيضة الدجاجة . والحبل هو الحبل الذي يربط به الحطب ، وما أشبه ذلك . ولكن الرسول ﷺ قال : تقطع يده لأنه إذا اعتاد سرقة الصغير تجرأ على سرقة الغالي والمثمن ، فقطعت يده . وهذا أقرب إلى الصواب : أن السارق – والعياذ باللّٰه – إذا سرق الشيء اليسير تجرأ فسرق الشيء الكبير فتقطع يده [٤] .

الثالث : قال : إن النبي ﷺ لعن من لعن والديه ، سواء كانت الأم أو الأب . يقول لأبيه أو لأمه : لعنة اللّٰه عليك ، ولكن الصحابة قالوا : يا رسول اللّٰه أيلعن الرجل والديه ؟! ، هذا أمر لا يمكن ، قال : « نعم ، يسب أبا الرجل فيسب أباه ، ويسب أمه فيسب أمه » [٥] . يعني يتنازع اثنان ، فيقول

---

(١) ولا تجوز الزيادة عن مفصل الكف وأيما زيادة ففيها حكومة وأرش (انظر المجموع ٩٦/٢٠ ، ٣) شرح فتح القدير (٣٩٣/٥ ، ٣٩٥) فقه الكتاب والسنة (٢١٣٠/٤ ، ٢١٣٢) .

(٢) أخرجه مسلم في الفضائل (١٣٠) ، وأحمد في مسنده (٤٨٢/٢) ، والبيهقي في السنن (٣٣٢/٨) .

(٣) وهذا هو قول الأعمش (انظر نيل الأوطار (٢٣١/٧) ، والمغني (٢٤٢/٨) .

(٤) هذا هو قول الحسن ، وداود الظاهري ، والخوارج ، فقد ذهبوا إلى وجوب القطع بإطلاق ، سواء كان المسروق قليلًا أو كثيرًا (انظر المحلى ٣٥١/١١) .

(٥) انظر الحديث في أحمد في مسنده(٢١٧/١) .

أحدهما للآخر : لعن اللّٰه والديك ، فيقول الثاني : بل أنت لعن اللّٰه والديك ، فلما كان هو السبب في أن يلعن الآخر والديه ، أُعطى حكم من لعن والديه مباشرة ، فهذان الشخصان لعنهما الرسول ﷺ ولكن هل يمكن أن تأتي لشخص معين غيَّر حدود الأرض تقول لعنك اللّٰه ؟ الجواب : لا ، لا يجوز أن تلعنه وهو معين ، أو سمعت إنسانًا يلعن والديه تقول : لعنك اللّٰه ؛ لا يصح ، هذا حرام ، لكن تقول له : اتق اللّٰه ، فإن الرسول ﷺ لعن من غيَّر منار الأرض ، وتقول للثاني السارق : اتق اللّٰه ، فإن الرسول ﷺ لعن السارق يسرق البيضة ويسرق الحبل ، وتقول للثالث : اتق اللّٰه ، لا تلعن والديك ، ولا تكن سببًا في لعنهما ؛ فإن النبي ﷺ لعن من لعن والديه . أما أن تنص عليه فتقول : لعنك اللّٰه ، أو أنت ملعون ؛ فهذا حرام ولا يجوز ؛ لأنه فرق بين العام وبين الخاص ، واللّٰه الموفق .

* * *

« وَلَعَنَ اللّٰه مَنْ ذبح لِغيرِ اللّٰه » وأنهُ قال : « منْ أحْدَثَ فِيها حدثًا أو آوى محدِثًا ، فَعليهِ لَعْنَةُ اللّٰهِ والملائِكَةِ والنَّاسِ أجْمعِينَ » وأنَّهُ قالَ : « اللَّهُمَّ العنْ رِعْلًا ، وذَكوانَ وَعُصيَّةَ ، عصَوا اللّٰه ورَسُولَهُ » وَهذِهِ ثلاثُ قبائِل مِنَ العَرَبِ

الشرح

هؤلاء ثلاثة أنواع ممن يجوز لعنهم على سبيل العموم ، وقد سبق أنه لا يجوز لعن المعين ولو كان كافرًا ؛ لأنه لا يجوز أن تقول : اللّٰهم العن فلانًا ، وإن كان كافرًا ، لكن على العموم وردت أحاديث في أصناف متعددة سبق منها ما سبق ، ويلحق منها ما يلحق إن شاء اللّٰه . ومن ذلك قول النبى ﷺ : « لعن اللّٰه من ذبح لغير اللّٰه » وذلك أن الذبح لغير اللّٰه شرك ؛ لأنه عبادة والعبادة إذا صرفها الإنسان لغير اللّٰه كان مشركًا . قال اللّٰه تعالى : ﴿ قُلْ إِنَّ صَلَاتِي وَنُسُكِي وَمَحْيَايَ وَمَمَاتِي لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ ۝ لَا شَرِيكَ لَهُ ﴾ (١) [الأنعام : ١٦٢] وقال تعالى ﴿ فَصَلِّ لِرَبِّكَ وَانْحَرْ ﴾ [الكوثر : ٢] فأمر بالصلاة وأمر بالنحر وأن ذلك للّٰه ﷻ ، فكما أن من صلى لغير اللّٰه فهو مشرك ، فمن ذبح لغير اللّٰه فهو مشرك ، وهذا إذا وقع الذبح عبادة وتقربًا وتعظيمًا أما إذا وقع الذبح لغير اللّٰه على سبيل الإكرام ، كإكرام الضيف ؛ مثلًا ، لو نزل بك ضيف فذبحت له ذبيحة من أجل أن تقدمها له ليأكلها فلا بأس ، بل هذا مما يؤمر به ، لقول النبي ﷺ : « من كان يؤمن باللّٰه واليوم الأخر فليكرم ضيفه » (٢) . وإذا كان من إكرام الضيف أن تذبح له ذبيحة إكرامًا لقدومه ، فهذا مما يؤمر به ، وتارة يذبح لغير اللّٰه يعني لقصد الأكل ، إنسان يريد أن يأكل لحمًا فذبح ذبيحة يريد بها الأكل ، هذا أيضًا ليس بشرك ، هذا أمر عادي ، يأكل الإنسان طعامًا ، لكن الشرك إذا ذبحه تعبدًا وتقربًا وتعظيمًا . مثل ما يفعل بعض الناس لملوكهم أو رؤسائهم أو علمائهم ، إذا أقبل ذبحوا الذبيحة بوجهه إكرامًا وتعظيمًا . هذا شرك أكبر مخرج من الملة

---

(١) قوله : ﴿ وَنُسُكِي ﴾ أي عباداتي كلها ، وقيل : المراد به ذبائح الحج والعمرة . وهو اختيار ابن جرير الطبري .

(٢) سبق تخريجه .

وهذا مع كونه شركًا حرم اللَّه على فاعله الجنة ومأواه النار وما للظالمين من أنصار [١] ، وهو أيضًا ملعون فاعله ، كما قال النبي ﷺ : « لعن اللَّه من ذبح لغير اللَّه » .

ومن ذلك أيضًا : ما ذكره بقوله : « من أحدث فيها حدثًا أو آوى محدثًا فعليه لعنة اللَّه والملائكة والناس أجمعين » من أحدث فيها - أي في المدينة - « حدثًا أو آوى محدثا » والحدث هنا يراد به شيئان :

الأول : البدعة ، فمن ابتدع فيها بدعة فقد أحدث فيها ، لقول النبي ﷺ : « كل محدثة بدعة ، وكل بدعة ضلالة » [٢] . « فمن أحدث فيها حدثًا » أي ابتدع فى دين اللَّه مالم يشرعه اللَّه فى المدينة ، « فعليه لعنة اللَّه والملائكة والناس أجمعين » يعني استحق أن يلعنه كل لاعن ، والعياذ باللَّه ؛ لأن المدينة مدينة السنة ، مدينة النبوة ، فكيف يحدث فيها حدث مضاد لسنة الرسول ﷺ .

والنوع الثانى من الحدث : الفتنة : أن يحدث فيها فتنة بين المسلمين سواء أدت إلى إراقة الدماء أو إلى ما دون ذلك من العداوة والبغضاء والتشتت . فإن من أحدث هذا الحدث فعليه لعنة اللَّه والملائكة والناس أجمعين . أما من أحدث معصية ، عصى اللَّه فيها في المدينة ؛ فإنه لا ينطبق عليه هذا الوعيد ، بل يقال : إن السيئة في المدينة أعظم من السيئة فيما دونها ، ولكن صاحبها لا يستحق اللعن ، الذي يستحق اللعن هو الذي أحدث فيها واحدًا من أمرين : إما بدعة ، وإما فتنة . هذا عليه لعنة اللَّه والملائكة والناس أجمعين .

الثالث : « اللَّهم العن رعلًا وذكوان ، وعصية عصوا اللَّه ورسوله » هؤلاء قبائل من العرب حصل منهم عدوان على أصحاب النبي ﷺ فدعى عليهم الرسول ﷺ باللعنة ؛ اللَّهم العنهم ، ولم يلعن شخصًا معينًا ، بل لعن القبيلة كلها ، والمراد من حدث منهم هذا الحدث وهو الاعتداء على أصحاب رسول اللَّه ﷺ ولا أظن أن من لم يفعل ذلك تلحقه هذه اللعنة ، لقول اللَّه تعالى : ﴿ وَلَا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَىٰ ﴾ [الأنعام : ١٦٤] واللَّه الموفق .

ثم ذكر المؤلف رَحِمَهُ اللَّهُ بقية الأصناف التي يجوز الدعاء عليهم على سبيل العموم ، ومنها قوله ﷺ « لعن اللَّه اليهود اتخذوا قبور أنبيائهم مساجد » ، اليهود هم أتباع موسى ، والنصاري هم أتباع عيسى ، لكن بعد أن بعث النبي ﷺ وعرفوه ولم يؤمنوا به كان حكمهم سواء فى أنهم مغضوب عليهم ؛ لأنهم تركوا الحق مع علمهم به - والعياذ باللَّه - وبين النبي ﷺ سبب لعنه إياهم في قوله : « اتخذوا قبور أنبيائهم مساجد » يعني أنهم يبنون المساجد على قبور أنبيائهم ويصلون فيها ، فهذا من فعله فهو ملعون على لسان النبي ﷺ ، إن كان من اليهود ، أو من النصارى ، أو ممن يدعى أنه مسلم ؛ فإنه ملعون على لسان رسول اللَّه ﷺ .

وإذا بُنى المسجد على القبر صلى الإنسان فيه للَّه ﷻ لا لصاحب القبر ؛ فإن صلاته باطلة محرمة ، يجب عليه إعادتها ، وهذا المسجد الذي بُنى يجب هدمه ، ولا تجوز الصلاة فيه ، أما لو كان المسجد

---

(١) انظر ذلك بدائع الصنائع (٤٨/٥) ، والمجموع (٤٠٨/٩) ، وبلغة السالك على شرح الدردير (٣١٤/١) ، المجموع (٤٠٩/٨) .
(٢) أخرجه ابن ماجه في المقدمة (٤٦) ، وأحمد في مسنده (٣٧١/٣) ، والبيهقي في السنن (٢١٤/٣) .

قائمًا ثم دفن به أحد من الصالحين ، أو من الأمراء أو من الوزراء أو من الرؤساء ؛ فإنه يجب أن ينبش القبر وأن يدفن في المكان الذى تدفن فيه الناس ، ولا يجوز إبقاؤه ؛ لأن المساجد لم تبن ليقبر فيها إنما بنيت للصلاة وذكر اللّٰه وقراءة القرآن . وإذا شككنا هل بنى المسجد أولًا ودفن فيه الميت أم دفن الميت ثم بنى عليه المسجد ؟ فالاحتياط ألا أصلى فيه للّٰه ، وأن يبتعد عنه لئلا يعرض صلاته للخطر . فإن قال قائل : ما الجواب عن هذا الحديث فى قصة قبر النبي ﷺ فإنه الآن في المسجد ، فالجواب أن يقال : إن النبي ﷺ لم يدفن في المسجد وإنما دفن في بيته ولم يبن عليه المسجد بل كان يمثل قائمه الأول ولكنهم احتاجوا لزيادته فزادوه من هذا الجانب أي من الجانب الذي يرتاده مستقبل القبلة ، وكأنهم واللّٰه أعلم في ذلك الوقت لم يتيسر لهم مكان سوى هذا فوسعوا من قبله فبقى القبر في مقصورة في البيت منفصل عن المسجد بينه وبينه جدار ، ثم بعد أن شاء اللّٰه ﷻ أن يسلط رجلين يريدان أن يستخرجا بدن رسول اللّٰه ﷺ ليحرقاه أو يجعلاه فى متحف أو ما لا ندري ، وذلك أن أحد الخلفاء جاءه آتٍ فى الليل وقال له : أدرك رسول اللّٰه ﷺ من الرجلين الأصغرين ، يعني في عيونهما صُغْرة ، فجاءه مرة ومرتين وثلاثة ففزع الخليفة ثم ارتحل من بلده إلى المدينة فزعًا مسرعًا ، فلما وصل المدينة أمر أن تصنع وليمة عظيمة « طعام » وقال لواليه على المدينة : ادع لي جميع أهل المدينة فدعاهم وهذا الخليفة ينظر فى الحاضرين فلم يجد الوصف الذي ذكر له فى المنام ثم أمر أن يدعوا مرة ثانية وثالثة ولم يرَ الرجلين ، فقال لواليه على المدينة : لماذا لم تدعوا أهل المدينة ؟ قال : كلهم دعوتهم ، لم يبقَ إلا رجلان غريبان فى المسجد منذ جاءا وهما معتكفان فى المسجد ، فقال : أحضرهما ، فجيء بهما وإذا هما على الوصف الذي قيل له فى المنام ، فأمر أن يبحث عن حالهما ، فإذا هما في الليل ينقبان خندقًا من أسفل الأرض وإذا هما قريبان من القبر ، فأمر بقتلهما ، ثم أمر أن يحفر إلى القبر على جوانبه إلى أن وصل إلى الجبل ثم صبه بالرصاص وبنى عليه ثلاثة جدران ، فأصبح القبر منفردًا تمامًا عن المسجد ليس فى المسجد ولم يبن عليه المسجد ، فهذا هو الجواب عما يشكك به أهل الشرك وأهل القبور من قبر النبى ﷺ .

أما الصنف الأخير فقال المؤلف رَحِمَهُ اللّٰهُ : « ولعن النبي ﷺ المتشبهين من الرجال بالنساء والمتشبهات من النساء بالرجال » والتشبه يكون بالأقوال والأفعال والهيئات واللباس ، فتجد الرجل يتشبه بالمرأة فى صوتها ، يحكى صوت المرأة ويتكلم وكأنه امرأة ، هذا ملعون على لسان النبي ﷺ وكذلك من يتشبه بالمرأة في لباسها فيلبس الثياب الذي لا يلبسه إلا النساء ، ومن ذلك أن يضع الباروكة على رأسه كأنه امرأة ، ومن ذلك أيضًا : أن يلبس اللباس الخاص بالنساء في الساعات ؛ لأن النساء لهن ساعات خاصة وللرجال ساعات خاصة فيلبس الرجل ساعة المرأة . وأما الهيئة : فأن يضع المكياج ويتورك إذا قام يمشي كأنه امرأة ، هذا أيضا ملعون على لسان النبي ﷺ فالمهم أن تشبه الرجل بالمرأة من كبائر الذنوب ، وتشبه المرأة بالرجل كذلك من كبائر الذنوب بأن تتشبه به في القول أي في الكلام ، تتكلم كما يتكلم الرجال في ضخامة الصوت ونبراته أو تجعل رأسها كرأس الرجل تقصه حتى يرتفع عن الكتفين ، أو كذلك تلبس من

الثياب والساعات لباس الرجل ، فكل هذا من كبائر الذنوب ، والمرأة إذا فعلت ذلك ؛ فإنها ملعونة على لسان النبي ﷺ . ولكن هل إذا رأينا رجلًا معينًا متشبهًا بامرأة هل نقول : لعنك الله ؟ لا ، ما نقول : لعنك الله ، نعظه ، ونقول : إن النبي ﷺ لعن المتشبهين من الرجال بالنساء . وكذلك المرأة ؛ لأن لعن المعين لا يجوز حتى لو كان كافرًا فكيف إذا كان فاسقًا ، فإنه لا يجوز لعنه . لكن تقول : من تشبه من الرجال بالنساء فهو ملعون ، ومن تشبه من النساء بالرجال فهي ملعونة ، هكذا على سبيل العموم والله الموفق .

* * *

٢٦٦ - باب تحريم سب المسلم بغير حق

قَالَ اللَّهُ تعالى : ﴿ وَٱلَّذِينَ يُؤْذُونَ ٱلْمُؤْمِنِينَ وَٱلْمُؤْمِنَٰتِ بِغَيْرِ مَا ٱكْتَسَبُواْ فَقَدِ ٱحْتَمَلُواْ بُهْتَٰنًا وَإِثْمًا مُّبِينًا ﴾ [الأحزاب : ٥٨] .

١٥٥٩ - وعَن ابنِ مَسْعُودٍ ﷺ قالَ : قالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ : « سِبَابُ المُسْلِمِ فُسوقٌ ، وَقِتَالُهُ كُفْرٌ » (١) متفقٌ عليه .

الشرح

ذكر المؤلف رحمه الله تحريم سباب المسلم بغير حق ، وسبه يعني عيبه ، ووصفه بما يكره لكن فى حضوره ، أما إذا كان فى غيبته فهو غيبة . ثم ذكر المؤلف رحمه الله قول الله تعالى : ﴿ وَٱلَّذِينَ يُؤْذُونَ ٱلْمُؤْمِنِينَ وَٱلْمُؤْمِنَٰتِ بِغَيْرِ مَا ٱكْتَسَبُواْ فَقَدِ ٱحْتَمَلُواْ بُهْتَٰنًا وَإِثْمًا مُّبِينًا ﴾ ﴿ وَٱلَّذِينَ ﴾ مبتدأ ، ﴿ فَقَدِ ٱحْتَمَلُواْ ﴾ خبره - والمعنى : وأن الذين يؤذون المؤمنين والمؤمنات بغير ما اكتسب المؤمن والمؤمنة اللذين أوذيا ﴿ فَقَدِ ٱحْتَمَلُواْ بُهْتَٰنًا ﴾ أي كذبًا ﴿ وَإِثْمًا مُّبِينًا ﴾ أي عقوبة - والعياذ بالله - وهذا يشمل كل أذية سواء كان في القول أو في الفعل وكُلَّما كان الإنسان أحق بالإكرام كانت أذيته أعظم وأكبر إثمًا ، فأذية القريب ليست كأذية البعيد ، وأذية الجار ليست كأذية غير الجار ، وأذية من له حق عليك ليست كأذية من لا حق له عليك . المهم أن الأذية يتفاوت أثمها وجرمها بحسب المؤذَى . والعجب أن كثيرًا من المسلمين اليوم يؤذون جيرانهم بالمضايقات والاطلاع على عوراتهم وغير ذلك ، وهذا من أعظم ما يكون من الإثم ، قال النبي ﷺ : « والله لا يؤمن والله لا يؤمن والله لا يؤمن » ثلاث مرات قالوا : من يا رسول الله ؟ قال : « الذي لا يأمن جاره بوائقه » يعني ظلمه وغشمه . وقوله تعالى « بغير ما اكتسبوا » يفهم منها أنه إذا أُوذِيَ المؤمن بما اكتسب فليس في ذلك بأس ، يعني لو آذيت إنسانًا ردًا على فعل له ، آذاك فأذيته ، فلا بأس . أو أذى إنسانًا لإقامة حد لله عز وجل ، أو أذى لأداء حق عليه أبى أن يقوم به ، فلا بأس ، بل قد أمر الله تعالى باللذين يأتيان الفاحشة فقال : ﴿ وَٱلَّذَانِ يَأْتِيَٰنِهَا مِنكُمْ فَـَٔاذُوهُمَا ﴾

---

(١) أخرجه البخاري في الأدب (٦٠٤٤) ، ومسلم في الإيمان (١١٦) ، وأحمد في مسنده (٣٨٥/١) ، وابن ماجه في الفتن (٣٩٣٩) . قوله « سباب » أي الشتم والتكلم في عرض الإنسان ما يعنيه . قوله « فسوق » أي خروج عن الشرع والطاعة .

فأمر بإيذائهما ﴿ فَإِن تَابَا وَأَصْلَحَا فَأَعْرِضُوا عَنْهُمَآ ﴾ [النساء: ١٦] وهذا قبل أن يشرع قتل الفاعل والمفعول به في اللواط ، كان اللوطي في الأول لا يجلد ولا يقتل ، لكن يؤذى حتى يتوب ، ثم أمر الله تعالى بقتل الفاعل والمفعول به على لسان نبيه ﷺ [١] وأجمع الصحابة على ذلك [٢] .

ثم ذكر المؤلف حديث عبد الله بن مسعود ﷺ : أن النبي ﷺ قال : « سباب المسلم فسوق ، وقتاله كفر » . وهذا يدل على أن الفسق أهون من الكفر ؛ لأنه جعل السب فسوقًا ، وجعل القتل كفرًا ، أي أن المقاتلة جعلها كفرًا ، فعلى هذا إذا سب المسلم أخاه صار هذا السابُّ فاسقًا لا تقبل شهادته ولا يجعل له ولاية فلا يزوج ابنته ؛ لأنه صار فاسقًا ، ولا يصح أن يكون إمامًا للمسلمين ، ولا يصح أن يكون مؤذنًا . هكذا قال كثير من العلماء - رحمهم الله - وفي بعض هذه المسائل خلاف . لكن المهم أن من سبَّ أخاه فإنه يفسق ، أما من قاتله فإنه يكفر . إن استحل المقاتلة بغير حق فهو كافر كفرًا مخرجًا عن الملة ، وإن لم يستحلَّها ولكنه قاتل لهوى في نفسه ؛ فإنه يكون كافرًا ، لكنه كفر لا يخرج من الملة ، والدليل على ذلك قوله تعالى : ﴿ وَإِن طَآئِفَتَانِ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ٱقْتَتَلُوا۟ فَأَصْلِحُوا۟ بَيْنَهُمَا ۖ فَإِنۢ بَغَتْ إِحْدَىٰهُمَا عَلَى ٱلْأُخْرَىٰ فَقَـٰتِلُوا۟ ٱلَّتِى تَبْغِى حَتَّىٰ تَفِىٓءَ إِلَىٰٓ أَمْرِ ٱللَّهِ ۚ فَإِن فَآءَتْ فَأَصْلِحُوا۟ بَيْنَهُمَا بِٱلْعَدْلِ وَأَقْسِطُوٓا۟ ۖ إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلْمُقْسِطِينَ ۝ إِنَّمَا ٱلْمُؤْمِنُونَ إِخْوَةٌ فَأَصْلِحُوا۟ بَيْنَ أَخَوَيْكُمْ ﴾ [الحجرات: ٩، ١٠] فجعل الله الطائفتين المقتتلتين إخوة للطائفة المصلحة ، وهذا يدل على أنهما لا يخرجان من الإيمان لكنه كفر دون كفر . والله الموفق .

* * *

١٥٦٠ - وعَنْ أبي ذَرٍّ ﷺ أَنَّهُ سَمِعَ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ يقولُ : « لا يرمي رَجُلٌ رَجُلًا بِالفِسْقِ أَوِ الكفرِ ، إلا ارتدَّت عليهِ ، إنْ لَمْ يَكُنْ صَاحِبُهُ كذلكَ » [٣] رواه البخاري .

١٥٦١ - وعنْ أبي هُرَيرَةَ ﷺ أنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ قَالَ : « المُتَسابَّانِ مَا قَالا فَعَلى البَادِي مِنْهُما حَتَّى يَعْتَدِيَ المَظْلُومُ » [٤] رواه مسلم .

---

(١) وذلك لما رواه أبو داود في الحدود (٤٤٦٢) ، والترمذي في الحدود (١٤٥٦) ، وابن ماجه في السنن (٢٥٦١) وأحمد في مسنده (١/٣٠٠) .

(٢) ذهب جمهور العلماء إلى أنه إذا أتى الرجل الرجل فحدهما الرجم سواء كانا بكرين أو ثيبين ، وهذا هو قول : علي وابن عباس وجابر بن زيد ، والزهري وقتادة والأوزاعي وغيرهم ، وبه قالت المالكية والحنابلة والشافعية في أحد قوليهم وبه قال أبو يوسف ومحمد والشيعة الإمامية ، وذهب آخرون من أهل العلم إلى أن حد اللواط مثل حد الزنا في المرأة ؛ فيجلد البكر ويرجم المحصن ، وهو قول الشافعية في المشهور من مذهبهم ، وبه قال أبو يوسف ومحمد بن الحسن ، واستدلوا بأن اللواط زنا بدليل قوله تعالى : ﴿ وَلَا تَقْرَبُوا۟ ٱلزِّنَىٰٓ ۖ إِنَّهُۥ كَانَ فَـٰحِشَةً ﴾ واللواط فاحشة ؛ فكان الزنا كالفاحشة بين الرجل والمرأة ، وأنه قضاء للشهوة في محل مشتهى ، والراجح هو الرأي الأول (انظر المجموع ٢٠/٢٧ ، بدائع الصنائع ٧/٣٤ ، شرح فتح القدير ٥/٢٦٢ ، المغني ٨/١٨٨) .

(٣) أخرجه البخاري في الأدب (٦٠٤٥) ، وأحمد في مسنده (٥/١٨١) . قوله « لا يرمي رجل رجلًا بالفسق » أي لا يقول له : يا فاسق ، قوله « إلا ارتدت » أي إلا عاد القول على القائل إذا لم يكن في المقول عليه .

(٤) أخرجه مسلم في البر والصلة (٦٨) بنحوه ، وأحمد في مسنده (٢/٥١٧) . قوله « حتى يعتدي المظلوم » أي يتجاوز المظلوم حد الانتصار .

الشرح

قال النووي – رحمه الله تعالى – في سباب المسلم بغير حق : حديثًا عن أبي ذر ﷺ أن النبي ﷺ قال : « من دعى أخاه بكفر أو فسق ، عاد عليه مالم يكن صاحبه كذلك » . يعني إذا قلت لإنسان : أنت فاسق ، أو يا فاسق صرت أنت الفاسق ، إلا إذا كان هو كذلك ، وهكذا من كفَّر أحدًا وقال : أنت كافر ، أو يا كافر وليس كذلك ؛ صار القائل هو الكافر ، وفي هذا : دليل على أن هذا من كبائر الذنوب ؛ لأن النبي ﷺ توعد هذا القائل أن يكون هو الذي يتصف بهذه الصفة . وعلى هذا فلا يحل للإنسان أن يقول لأخيه المؤمن : يا فاسق ، أو يقول : فلان فاسق . إلا إذا كان كذلك ، وأراد أن يحذر منه ، فلا بأس . وكذلك لا يقول له : يا كافر ، أو يقول : فلان كافر ، فإنه لا يحل له ذلك مالم يكن هكذا . وفيه التحذير من تكفير المسلمين بغير دليل شرعي خلافا لما يتجاسر به بعض الناس ، والعياذ بالله ، يكفر على أدنى شيء يقول : هذا كفر ، وهذا فسق ، وما أشبه ذلك . وأما الحديث الثاني في درس اليوم : فهو عن أبي هريرة ﷺ أن النبي ﷺ قال : المتسابان ما قالا فعلى البادي منهما . « المتسابان » مبتدأ ، « ما » مبتدأ ثاني ، فعلى البادي خبر المبتدأ الثاني ، والجملة خبر المبتدأ الأول . والمعنى أن المتسابان إذا تسابًا وتشاتما بكلام سيىء فإن الإثم على البادي منهما ، ما قالا فعلى البادي منهما ، مالم يعتد المظلوم فإن اعتدى صار عليه الإثم ، وفي هذا : دليل على أنه يجوز للإنسان أن يسب صاحِبه بمثل ما سبه به ولا يتعدى . ولهذا لما قال النبي ﷺ : « لعن الله من لعن والديه » قالوا : يا رسول الله ، كيف يلعن الرجل والديه ؟ قال : « يسب أبا الرجل فيسب أباه ويسب أمه فيسب أمه » ، فدل هذا على أن الإنسان إذا كان سببًا للشر فإنه يناله من شره . ما قال فعلى البادئ منه مالم يعتد المظلوم فإن اعتدى فعليه ، وإن أخذ بحقه بدون زيادة فليس عليه شيء . والله الموفق .

* * *

١٥٦٢ – وعنهُ قالَ : أُتِيَ النَّبيُّ ﷺ بِرجُلٍ قَدْ شَرِب قالَ : « اضربُوهُ » قالَ أَبو هُرَيرَةَ : فَمِنَّا الضَّاربُ بِيدِه ، والضَّاربُ بِنَعْلِهِ ، والضَّاربُ بثوبه ، فَلَمَّا انصرَفَ ، قالَ بَعضُ القَوم : أَخزاكَ اللَّهُ ، قَالَ : « لا تَقُولُوا هذا ، لا تُعِينُوا عليهِ الشَّيطَانَ » [1] رواه البخاري .

الشرح

هذه بقية الأحاديث في باب تحريم سب المسلم بغير حق ، وقد سبق حديثان حديث ابن مسعود وحديث أبي هريرة ﷺ : في هذا الموضوع . أما الحديث الثالث فهو عن أبي هريرة ﷺ أن النبي ﷺ أُتِيَ برجل قد شرب – يعني قد شرب الخمر – وذلك بعد أن نزل تحريمها ، والخمر : كل ما أسكر فهو خمر ، سواء كان من العنب أو من التمر أو من الشعير أو من البر أو من غير ذلك ، فكل ما أسكر فهو

(١) أخرجه البخاري في الحدود (٦٧٨١) ، وأحمد في مسنده (٣٠٠/٢) ، وأبو داود في الحدود (٤٤٧٧) .

خمر . وقد قال النبي ﷺ « كل مسكر خمر ، وكل مسكر حرام »[١] والإسكار هو تغطية العقل على وجه اللذة والطرب ، ليس مجرد تغطية العقل ، ولهذا البنج ليس مسكرًا وإن كان يغطي العقل ، والمبنَّج لا يدري ماذا حصل له . لكن الخمر - نسأل اللَّه العافية - يجد الإنسان من السكر لذة وطربًا ونشوى حتى يتصور أنه ملكٌ من الملوك وأنه فوق الثريا . وما أشبه ذلك . كما قيل في هذا : ونشربها فتتركنا ملوكًا .

وكما قال حمزة بن عبد المطلب ﷺ لابن أخيه النبيِّ ﷺ حين رآه النبيُّ ﷺ سكران فتكلم معه ، فقال له حمزة وهو سكران : هل أنتم إلا عبيد أبي[٢] . وهذه كلمة بشعة لكنه سكران ، والسكران لا يؤاخذ بما يقول ، وهذا قبل أن ينزل تحريم الخمر ، وكان الخمر على أربع مراحل ، المرحلة الأولى : إباحة ، أن اللَّه أباحه للعباد إباحة طيبة ، فقال تعالى : ﴿ وَمِن ثَمَرَٰتِ ٱلنَّخِيلِ وَٱلْأَعْنَٰبِ تَتَّخِذُونَ مِنْهُ سَكَرًا وَرِزْقًا حَسَنًا ﴾ [النحل : ٦٧] يعني : تشربونه فتسكرون ، وتتجرون به فتحصلون رزقًا .

المرحلة الثانية : عرض اللَّه تعالى بتحريمه ، وقال تعالى : ﴿ يَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلْخَمْرِ وَٱلْمَيْسِرِ ۖ قُلْ فِيهِمَآ إِثْمٌ كَبِيرٌ وَمَنَٰفِعُ لِلنَّاسِ وَإِثْمُهُمَآ أَكْبَرُ مِن نَّفْعِهِمَا ﴾ [البقرة : ٢١٩] ولم ينه عنهما .

المرحلة الثالثة : قال اللَّه تعالى : ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَا تَقْرَبُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ وَأَنتُمْ سُكَٰرَىٰ حَتَّىٰ تَعْلَمُوا۟ مَا تَقُولُونَ ﴾ [النساء : ٤٣] ، فنهى عن قربان الصلاة في حال السكر وهذا يقتضي أنه يباح شرب الخمر في غير أوقات الصلاة .

المرحلة الرابعة : التحريم (البائن) قال تعالى في سورة المائدة ، وهي من آخر ما نزل ، قال تعالى : ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ إِنَّمَا ٱلْخَمْرُ وَٱلْمَيْسِرُ وَٱلْأَنصَابُ وَٱلْأَزْلَٰمُ رِجْسٌ مِّنْ عَمَلِ ٱلشَّيْطَٰنِ فَٱجْتَنِبُوهُ ﴾ [النساء : ٩٠] فاجتنبه الناس . لكن لما كانت النفوس تدعو إليها ، إلى الخمر وشربها ، جعل لها رادع يردع الناس عن شربها ، وهو العقوبة .

ولم يقدر لها النبي ﷺ شيئًا ، فعقوبة الشارب ليست حدًّا ، لكنها تعزير ولهذا جيء برجل شرب ، فقال النبي ﷺ : « اضربوه » . ولا قال : أربعين ، ولا ثمانين ولا مائة ، ولا عشرة . فقاموا يضربونه ، منهم الضارب بثوبه ، ومنهم الضارب بيده ، ومنهم الضارب بنعله ، لكن ضربوه نحو أربعين جلدة ، فلما انصرفوا ، وانصرف الرجل ، قال رجل من القوم : أخزاه اللَّه . يعني : أذله ، وفضحه ، فقال النبي ﷺ : لا تقل هكذا ، لا تدعُ عليه بالخزي ، رجل شرب مسكرًا ، وجلد ، وتطهر بالجلد ، لا تعينوا عليه الشيطان ، فنهاهم النبي - صلى اللَّه عليه وعلى آله وسلم - أن يسبوه ، مع أنه شارب خمر .

إذًا ما موقفنا من شارب الخمر ، موقفنا أن ندعو له بالهداية ، قل : اللَّهم اهده ، اللَّهم أصلحه ،

---

(١) أخرجه مسلم في الأشربة (٧٣ ، ٧٤) ، وأبو داود في السنن (٣٦٧٩) ، والنسائي في السنن (٢٩٧/٨) ، وأحمد في مسنده (١٦/٢) .

(٢) نص الحديث في البخاري في المساقاة (٢٣٧٥) ، ومسلم في الأشربة (١) ، وأحمد في مسنده (١٤٢/١) .

اللَّهم ابعده عن هذا وما أشبه ذلك . أما أن تدعو عليه ؛ فإنك تعين عليه الشيطان .

وفي هذا دليل على أن الخمر محرم ، وأن عليه عقوبة ، لكن في عهد عمر بن الخطاب ﷺ انتشرت الفتوحات ، ودخل في دين الإسلام أناس جدد ، وكثر شرب الخمر في عهده ، وكان ﷺ رجلًا حازمًا ، فأراد أن يعاقب شارب الخمر بعقوبة تكون أشد وأردع ، إلا أنه ﷺ لورعه وتحرزه جمع الصحابة ؛ أي جمع ذوي الرأي ، وليس المراد كل الصحابة ، لأن السوقة وعامة الناس لا يصلحون لمثل هذه الأمور ، ولا لأمور السياسة ، وليس لعامة الناس أن يلوكوا ألسنتهم بسياسة ولاة الأمور ، السياسة لها أناس ، والصُّحون والقدور لها أناس آخرون ، ولو أن السياسة صارت تلاك بين ألسن عامة الناس لفسدت الدنيا ؛ لأن العامي ليس عنده علم ، وليس عنده عقل ، وليس عنده تفكير ، وعقله وفكره لا يتجاوز قَدَمَه ، ويدل لهذا قول اللَّه تعالى : ﴿ وَإِذَا جَآءَهُمْ أَمْرٌ مِّنَ ٱلْأَمْنِ أَوِ ٱلْخَوْفِ أَذَاعُواْ بِهِۦ ﴾ [النساء : ٨٣] ونشروه ، قال تعالى : ﴿ وَلَوْ رَدُّوهُ إِلَى ٱلرَّسُولِ وَإِلَىٰٓ أُوْلِى ٱلْأَمْرِ مِنْهُمْ لَعَلِمَهُ ٱلَّذِينَ يَسْتَنۢبِطُونَهُۥ مِنْهُمْ ﴾ [النساء : ٨٣] دل هذا : على أن العامة ليسوا كأولي الأمر ، وأولي الرأي والمشورة ، فليس الكلام في السياسة في المجالات العامة ، ومن أراد أن تكون العامة مشاركة لولاة الأمور في سياستها وفي رأيها وفكرها ، قد ضل ضلالًا بعيدًا ، وخرج عن هدي الصحابة وهدي الخلفاء الراشدين ، وهدي سلف الأمة .

فالمهم : أن عمر بن الخطاب لحزمه ، جمع ذوي الرأي من الصحابة ، وقال لهم ما معناه : « كثر شرب الخمر » ، وإذا قلَّ الوازع الديني ، يجب أن يقوى الرادع السلطاني يعني إذا ضعف الأمر من الناحيتين : الوازع الديني ، والرادع السلطاني ؛ فسدت الأمة . فاستشارهم ماذا يصنع ، فقال عبد الرحمن بن عوف : يا أمير المؤمنين ، أخف الحدود ثمانين جلدة ، ارفع العقوبة إلى ثمانين جلدة . ويشير ﷺ - أعني عبد الرحمن - إلى حد القذف ، فإن اللَّه تعالى قال : ﴿ وَٱلَّذِينَ يَرْمُونَ ٱلْمُحْصَنَٰتِ ثُمَّ لَمْ يَأْتُواْ بِأَرْبَعَةِ شُهَدَآءَ فَٱجْلِدُوهُمْ ثَمَٰنِينَ جَلْدَةً ﴾ [النور : ٤] هذا أخف الحدود ، فرجع عمر ﷺ عقوبة شارب الخمر إلى ثمانين ، وهذا كالنص الصريح على أن عقوبة شارب الخمر ليست حدًّا ، بل هي صريح لأنه قال : أخف الحدود ثمانين ، ووافقه الصحابة على هذا ، ولم يقل عمر ﷺ : أنه ليس كذلك فرفعه عمر ، وجعل ذلك ثمانين جلدة من أجل أن يرتدع الناس ، وقد جاء في السنة أن شارب الخمر إذا شرب فجلد ، ثم شرب فجلد ، ، ثم شرب فجلد ، ثم شرب الرابعة ، فإنه يجب قتله ، هكذا جاء في السنة [١] ، وأخذ بظاهره الظاهرية ، وقالوا : شارب الخمر إذا جلد ؛ فإنه يقتل في الرابعة ؛ لأنه أصبح عنصرًا فاسدًا لم ينفع به الإصلاح والتقويم [٢] . وقال جمهور العلماء : لا يقتل ، بل يكرر عليه الجلد ، كلما شرب جلد ، وتوسط شيخ الإسلام رحمه الله ، فقال : إذا كثر شرب الخمر في الناس ، ولم ينته الناس بدون القتل فإنه يقتل في الرابعة ، وهذا قول وسط روعي فيه الجمع بين المصلحتين ،

---

(١) انظر في ذلك : البخاري في الحدود (٦٧٧٩) ، وأبو داود في الحدود (٤٤٨٩) ، والدارقطني في السنن (١٥٨/٣) ، والبيهقي في السنن (٣٢٠/٨) ، والوسيط في المذهب (٥٠٩/٦) .

(٢) المحلى (٣٧٠/٨) .

مصلحة ما يدل عليه بعض النصوص الصريحة ؛ لأن عمر لم يرفع العقوبة إلى القتل ، مع أنه يقول إن الناس كثر شربهم ، وبين هذا الحديث الذي اختلفت الناس في صحته ، وفي بقاء حكمه ، هل هو منسوخ أو غير منسوخ ؟ وهل هو صحيح أو غير صحيح ؟ فعلى كل حال فما اختاره شيخ الإسلام فهو عين الصواب [١] .

أنه إذا كثر شرب الناس والخمر ، ولم ينته الناس دون قتل فإنه يقتل الشارب في الرابعة ، وليت ولاة الأمور يعملون هذا العمل ، ولو عملوا هذا العمل لحصل خير كثير ، واندرأ شر كثير ، وقل شرب الناس للخمر الذي بدأ ينتشر - والعياذ بالله - وفي بعض البلاد الإسلامية انتشر كانتشار الشراب المباح ، كعصير الليمون وعصير البرتقال وما أشبه ذلك ، وهذا - لا شك - أنه مظهر غير مظهر المسلمين ، وأنه استباحة له في الواقع ، كونه يصبح منشورًا بين الناس يفتح الإنسان الثلاجة ويشرب الخمر - والعياذ بالله - هكذا كأنه استباحه ، وهذا ينطبق عليه قول النبي ﷺ : « ليكونن من أمتي أقوام يستحلون الحر ، والحرير ، والخمر ، والمعازف » [٢] فإن الناس الآن تقاسموا هذه الأشياء الأربعة منهم من انتشر في : شعوبهم الزنا واللواط - والعياذ بالله - وصار عندهم مباحًا ، يذكر لنا أنه في بعض البلاد إذا نزلت الطائرة ، وإذا في المطار فتيات وفتيان يقولون للنازل ماذا تريد ؟ جميلة ، غير جميلة ، شابة ، غير شابة ؟.

الـحِرَ : يعني الزنا ، أو اللواط ، وفي بعض البلاد الخمر منتشر ، يباع في الأسواق ويشرب ليلًا ونهارًا وكأنه شراب حلال . وفي بعض البلاد ، ولاسيما في المترفين من رعيتهم ، نجد الرجل كالمرأة يلبس الحرير ، واللين من الثياب ، وربما يلبس حلي الذهب : قلادة ، خاتم ، أو ما أشبه ذلك .

والمعازف : الآن حدث ولا حرج ، المعازف منتشرة في غالب بلاد الإسلام إن لم أقل في كل بلاد الإسلام ، فقد انتشرت - والعياذ بالله - المعازف بجميع أنواعها ، فنسأل الله السلامة والهداية ، وأن يصلح ولاة الأمور ورعاياهم إنه على كل شيء قدير .

* * *

١٥٦٣ - وعَنْهُ قالَ : سَمِعْتُ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ يقُولُ : « مَنْ قَذَفَ مَمْلُوكَهُ بِالزِّنى يُقامُ عليهِ الحَدُّ يَومَ القِيامَةِ ، إلا أَنْ يَكُونَ كما قالَ » [٣] متفقٌ عليه .

الشرح

ذكر المؤلف الإمام النووي رحمه الله تحريم سباب المسلم بغير حق . أحاديث وقبلها آية ، ومن هذه الأحاديث ما رواه أبو هريرة رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال : « من قذف مملوكه بالزنا أقيم عليه الحد يوم القيامة إلا أن يكون كما قال » .

المملوك هو العبد يملكه الإنسان ، والمملوك كالسلعة يباع ويشترى ويوهب ، ويرهن ويوقف إلا أن

---

(١) فتاوى ابن تيمية (٢١٧/٣٤) .

(٢) أخرجه البخاري في الأشربة (٥٥٩٠) ، وأبو داود في السنن (٤٠٣٩) ، والبيهقي في السنن (٢٢١/١٠) .

(٣) أخرجه البخاري في المحاربين (٦٨٥٨) ، ومسلم في الإيمان (٣٧) ، وأحمد في مسنده ٤٣١/٣ بنحوه .

أحكام الله ﷻ هو والحر على حد سواء في غير الأمور المالية .

والسيد مالك للرقيق لعينه - يعني رقبته - ولمنافعه ، فإذا قذف عبده بأن قال للعبد : يا زاني ، أو يا لوطي ، أو ما أشبه ذلك من كلمات القذف فإنه لن يحد في الدنيا لأنه سيد ، والعبد مملوك ، لكن يقام عليه في دار عذابها أشدُّ - والعياذ بالله - وهي الدار الآخرة يقام عليه الحد يوم القيامة وعلى هذا فيكون قذف المملوك من كبائر الذنوب ؛ لأنه رتب عليه عقوبة في الآخرة وكل شيء رتب عليه عقوبة في الآخرة فإنه يكون من كبائر الذنوب ، كما قال أهل العلم - رحمهم الله - في حدِّ الكبيرة وأما لو زنى المملوك حقيقة وقذفه سيده بذلك فإنه لا حد عليه لقول النبي ﷺ « إلا أن يكون كذلك (يعني كما قال) ولكن متى يكون كما قال ؟ يكون بأن يشهد عليه أربعة . أربعة رجال عدول بأنه زنى ويصرحون بذكر حقيقة الوطء أو يقر هو بنفسه على نفسه فحينئذ يرتفع الحد عن السيد ، واعلم أن الرقيق إذا زنى فإن عليه نصف حد الحر كما قال الله تبارك وتعالى : ﴿ فَإِذَآ أُحۡصِنَّ فَإِنۡ أَتَيۡنَ بِفَٰحِشَةٖ﴾ يعني أن الإماء ﴿ فَعَلَيۡهِنَّ نِصۡفُ مَا عَلَى ٱلۡمُحۡصَنَٰتِ مِنَ ٱلۡعَذَابِۚ ﴾ [النساء: ٢٥] والذي يتنصف من عذاب المحصنات هو الجلد فيكون على الرقيق إذا زنى خمسون جلدة فقط . قال العلماء ويسقط عنه التغريب ؛ لأن الزاني الحر إذا زنى وهو غير محصن ؛ فإنه يجلد مائة جلدة ويطرد عن البلد عامًا كاملًا [1] أما الرقيق فأنه يجلد خمسين جلدة ولا يغرب ؛ لأن التغريب إضرار بسيده ، فيكون من باب تحميل الإنسان ما لم يحتمله [2] ، وللسيد أن يقيم على عبده الحد إذا زنى ؛ لقول النبي ﷺ : « إذا زنت أمة أحدكم فليجلدها » [3] فأمر السيد أن يجلدها ، أما الحر فإنه لا يتولى جلده إلا الإمام أو نائبه حتى لو كان ابنك وزنى وهو بالغ عاقل ، فإنه لا يتولى إقامة الحد عليه إلا الإمام أو نائبه ، وكذلك لو زنى أخوك بعد بلوغه وهو عاقل فإنه لا يقيمه إلا الإمام أو نائبه ، أما السيد فيقيمه على عبده خاصة في الجلد وأما لو سرق العبد فالسرقة فيها قطع اليد ، ولا يتولى قطع اليد إلا الإمام أو نائبه ؛ ولهذا قال العلماء : أن السيد لا يقيم الحد على عبده إلا إذا كان الحد جلدًا [4] ، والله أعلم .

* * *

---

(١) هذا هو قول الجمهور . وقد رُوي ذلك عن الخلفاء الراشدين . وبه قال ابن مسعود وعطاء وطاووس والثوري وابن أبي ليلى وإسحاق وهو قول الشافعي والحنابلة وأهل الظاهر . أما الحنفية فإنهم قد ذهبوا إلى عدم التغريب ذكرًا كان أو أنثى ، وقال المالكية يغرب الرجل ولا تغرب المرأة (انظر المجموع ٢٠/٤٥ ، المغني ٨/١٦٩ ، وأسهل المدارك ٣/١٦٥ ، بداية المجتهد ٢/٣٩٨ ، بدائع الصنائع ٧/٣٩) .

(٢) انظر ذلك في المغني (٨/١٦٢) ، والمجموع (٢٠/٨) ، وبداية المجتهد (٢/٣٩٨) ، وأحكام القرآن للشافعي (١/٣٠٨) ، وشرح فتح القدير (٥/٢٤٠) .

(٣) أخرجه الترمذي في الحدود (١٤٤٠) ، والدارقطني في السنن (٣/١٦٠) ، والطبراني في الكبير (٥/٢٧٥) وأخرجه البخاري في العتق (٢٥٥٥) ، ومسلم في الحدود (٣١) كلاهما بلفظ « إذا زنت الأمة فاجلدوها » .

(٤) انظر مغني المحتاج (٤/١٥٤ ، ١٥٥) ، المجموع (٢٠/٤٢) ، شرح فتح القدير (٥/٢٤٥) .

٢٦٧ - باب تحريم سَب الأموات بغير حَقٍّ وَمَصْلحةٍ شرعية

وَهُوَ التَّحْذِيرُ مِنَ الاقتِداءِ بِهِ في بِدْعَتِهِ ، وَفِسْقِهِ ، وَنَحْوِ ذلكَ ، وَفيه الآيَةُ والأَحاديثُ السَّابقَة في البابِ قبلَهُ .

١٥٦٤ - وعن عائِشةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا قالَتْ : قالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ : « لا تَسُبُّوا الأمْواتَ ؛ فَإِنَّهُمْ قَد أفضَوا إلى ما قَدَّمُوا » (١) رواه البخاري .

الشرح

ذكر المؤلف رَحِمَهُ اللَّهُ حديث عن تحريم سب الأموات بغير حق أو مصلحة شرعية . والأموات يعني بهم الأموات من المسلمين ، أما الكافر فلا حرمة له إلا إذا كان في سبه إيذاء للأحياء من أقاربه ، فلا يسب ، وأما إذا لم يكن هناك ضرر ؛ فإنه لا حرمة له وهذا هو معنى قوله : قول المؤلف رَحِمَهُ اللَّهُ : (بغير حق) لأننا لنا الحق أن نسب الأموات الكافرين الذين آذوا المسلمين وقاتلوهم ويحاولون أن يفسدوا عليهم دينهم أو مصلحة شرعية ، مثل أن يكون هذا الميت صاحب بدعة ينشرها بين الناس ، فهنا من المصلحة أن نسبه ونحذر منه ومن طريقته لئلا يغتر الناس به .

ثم استدل على ذلك بحديث عائشة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا أن النبي ﷺ قال : « لا تسبوا الأموات » والأصل في النهي التحريم ، فلا نسب الأموات ، ثم علل وقال : « فإنهم أفضوا إلى ما قدموا » . وسَبُّكم إياهم لا يغني شيئًا ؛ لأنهم أفضوا إلى ما قدموا حين انتقلوا إلى دار الجزاء من دار العمل ، فكل من مات فإنه أفضى إلى ما قدم والتحق بدار الجزاء وقامت قيامته ، أفضى وانقطع عمله ، ولم يبق له حظ من العمل إطلاقًا إلا ما دلت السنة عليه مثل قول النبي ﷺ : « إذا مات الإنسان انقطع عمله إلا من ثلاث ؛ صدقة جارية ، أو علم ينتفع به ، أو ولد صالح يدعو له » (٢) وفي هذا : دليل على أنه ينبغي على الإنسان أن يحفظ لسانه عما لا فائدة منه ، فإن هذا طريق أهل التقى ، فإن عباد الرحمن إذا مروا باللغو مروا كرامًا . وأما الزور فلا يشهدونه ولا يتكلمون إلا بالحق ، والله الموفق .

* * *

(١) أخرجه البخاري في الجنائز (١٣٩٣) ، والنسائي في السنن ٥٣/٤ ، والبيهقي في السنن (٧٥/٤) ، والحاكم في المستدرك (٣٨٥/١) . قوله : « فإنهم قد أفضوا إلى ما قدموا » أي وصلوا إلى دار الحساب ليحاسبوا على أعمالهم إن كانت خيرًا أو شرًّا ؛ فلا فائدة في سبِّهم .

(٢) أخرجه مسلم في الوصية (١٤) ، وأبو داود في السنن (٢٨٨٠) ، والترمذي في السنن (١٣٧٦) ، والنسائي في السنن ٢٥١/٦ .

٢٦٨ - باب النَّهي عن الإيذاء

قال الله تعالى : ﴿ وَٱلَّذِينَ يُؤْذُونَ ٱلْمُؤْمِنِينَ وَٱلْمُؤْمِنَٰتِ بِغَيْرِ مَا ٱكْتَسَبُوا۟ فَقَدِ ٱحْتَمَلُوا۟ بُهْتَٰنًا وَإِثْمًا مُّبِينًا ﴾ [الأحزاب : ٥٨] .

١٥٦٥ - وعنْ عبدِ اللهِ بن عَمرِو بنِ العاصِ رضي الله عنهما قال : قالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ : « المُسْلِمُ مَنْ سَلِمَ المُسْلِمُونَ مِنْ لِسَانِهِ وَيَدِهِ ، وَالمهَاجِرُ مَنْ هَجَرَ مَا نَهَى اللهُ عَنْهُ » [(١)] متفقٌ عليه .

١٥٦٦ - وعنهُ قالَ : قالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ : « مَنْ أَحَبَّ أَنْ يُزَحْزَحَ عَنِ النَّارِ ، وَيُدْخَلَ الجنَّةَ ، فَلْتَأْتِه مَنِيَّتُهُ وَهُوَ يُؤْمِنُ بِاللهِ وَاليومِ الآخِرِ ، وَلْيأْتِ إلى النَّاسِ الذي يُحِبُّ أَنْ يُؤْتَى إليهِ » [(٢)] رواه مسلم .

وَهُوَ بَعْضُ حَدِيثٍ طَويلٍ سَبَقَ في بَابِ طَاعةِ وُلاةِ الأُمُورِ .

الشرح

ذكر المؤلف رحمه الله حديثين عن تحريم الإيذاء بغير حق . والإيذاء يشمل الإيذاء بالقول ، والإيذاء بالفعل ، والإيذاء بالترك .

أما الإيذاء بالقول : فأن يُسمِعَ أخاه كلامًا يتأذى به وإن لم يضرَّه ؛ فإن ضره كان أشد إثمًا .

والإيذاء بالفعل : أن يضايقه في مكانه ، في جلوسه ، في طريقه ، وما أشبه ذلك .

والإيذاء بالترك : أن يترك شيئًا يختار منه أخوه المسلم فيتأذى به ، وإن كان لابد ، كل هذا محرم وعليه هذا الوعيد الشديد ، وهو قول الله تعالى : ﴿ وَٱلَّذِينَ يُؤْذُونَ ٱلْمُؤْمِنِينَ وَٱلْمُؤْمِنَٰتِ بِغَيْرِ مَا ٱكْتَسَبُوا۟ فَقَدِ ٱحْتَمَلُوا۟ بُهْتَٰنًا وَإِثْمًا مُّبِينًا ﴾ ﴿ ٱحْتَمَلُوا۟ ﴾ يعني تحملوا على أنفسهم البهتان وهو الكذب ، والإثم المبين وهو العقوبة العظيمة ، نسأل الله العافية .

وفي قول الله تعالى : ﴿ بِغَيْرِ مَا ٱكْتَسَبُوا۟ ﴾ دليل على أن لو أوذي الإنسان باكتسابه أي على عمل حق أن يؤذ عليه ؛ فأنه لا بأس به كما في قوله تعالى : ﴿ وَٱلَّذَانِ يَأْتِيَٰنِهَا مِنكُمْ فَـَٔاذُوهُمَا ۖ فَإِن تَابَا وَأَصْلَحَا فَأَعْرِضُوا۟ عَنْهُمَآ ﴾ [النساء : ١٦] وكان هذا في أول الأمر أن اللوطية - والعياذ بالله - يؤذي صاحبه حتى يتوب ، ثم بعد ذلك ثبت أن النبي ﷺ قال : « من وجدتموه يعمل عمل قوم لوط فاقتلوا الفاعل والمفعول به » [(٣)] قال شيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله : أجمع الصحابة على أن فاحشة اللواط

---

(١) أخرجه البخاري في الإيمان (١٠) ، ومسلم في الإيمان (٦٤) ، وأحمد في مسنده ٢/١٦٣ ، والنسائي في السنن ٨/١٠٥ .

(٢) أخرجه مسلم في الإمارة (٤٦) ، وأحمد في مسنده ٢/١٩٢ ، والبيهقي في السنن (٨/١٦٩) قوله « يزحزح » أي يبعد . قوله « وليأت إلى الناس الذي يحب أن يؤتي إليه » هذا من جوامع كلمة ﷺ وبديع حكمه ، وهذه قاعدة مهمة فينبغي الاعتناء بها ، وذلك بأن يلزم الإنسان نفسه بأن لا يفعل مع الناس إلا ما يجب أن يفعلوه معه .

(٣) أخرجه الترمذي في السنن (١٤٥٦) ، وأبو داود في السنن (٤٤٦٢) ، وابن ماجه في السنن (٢٥٦١) ، وأحمد في مسنده (١/٣٠٠) .

يقتل فيها الفاعل والمفعول به ، ولكنهم اختلفوا كيف يقتل ؟ فبعضهم قال : يرجم وبعضهم قال : يلقى من أعلى شاهق في البلد ثم يلقى بالحجارة وبعضهم قال : يحرق بالنار نسأل اللَّه العافية [١] .

فالمهم أن الإيذاء بحق لا بأس به ومن ذلك أن يكون الرجل يكره الحق ويكره الخير فتفعل الحق فيتأذى به ، فهنا تأذى بحق ؛ لأن بعض الناس - والعياذ باللَّه - يتأذى إذا رأى رجلًا متمسك بالسنة ، ثم ذكر حديثين أحدهما أن النبي ﷺ قال : « المسلم من سلم المسلمون من لسانه ويده ، والمهاجر من هجر ما نهى اللَّه عنه » المسلم من سلم المسلمون من لسانه : فلا يلعنهم ، ولا يسبهم ، ولا يشتمهم ، ولا يغتابهم ، ولا يَنُمّ فيهم ، كل آفات اللسان المتعلقة بالخلق قد كفها ، فسلم الناس منه ، وسلم المسلمون من يده أيضًا ، لا يعتدي عليهم بضرب ولا سرقة ولا إفساد مال ولا غير ذلك ؛ هذا هو المسلم وهذا ليس المراد بذلك إنه ليس هناك مسلم سواه ، ولكن المعنى أن هذا من الإسلام ، وإلا فإن المسلم من استسلم لله تعالى ظاهرًا وباطنًا ، لكن أحيانًا يأتي مثل هذا التعبير من أجل الحث على هذا العمل وإن كان يوجد سواه . « والمهاجر من هجر ما نهى اللَّه عنه» . ومعلوم أن المهاجر من خرج من بلد الكفر إلى بلد الإسلام ليقيم دينه ، لكن تأتي الهجرة بمعنى آخر وهي أن يهجر الإنسان ما نهى اللَّه عنه فلا يقول قولًا محرمًا ، ولا يفعل فعلًا محرمًا ، ولا يترك واجبًا ، بل يقوم بالواجب ويدع المحرم ، هذا المهاجر ؛ لأنه هجر ما نهى اللَّه عنه .

أما الحديث الثاني : فهو قول النبي ﷺ : « من أحب أن يزحزح عن النار ، ويدخل الجنة ؛ فلتأته منيته ، وهو يؤمن باللَّه واليوم الآخر ، وليأت إلى الناس ما يحب أن يؤتى إليه » فقوله : « من أحب » هذا الاستفهام للتشويق ، وإلا فكل واحد يحب أن يزحزح عن النار ، ويدخل الجنة ؛ لأن من زحزح عن النار وأدخل الجنة فقد فاز ، فمن أحب ذلك فلتأته منيته وهو يؤمن باللَّه واليوم الآخر . وبناء على هذا ينبغي للإنسان أن يكون دائمًا على ذكر الإيمان باللَّه واليوم الآخر وتذكره ؛ لأنه لا يدري متى يأتيه الموت . فليكن دائمًا نصب عينيه : الإيمان باللَّه واليوم الآخر ؛ فالإنسان إذا آمن باللَّه ﷻ وبمقتضى أسمائه وصفاته ، وآمن باليوم الآخر وما فيه من الصواب والعقاب ، فلابد أن يستقيم على دين اللَّه ، وهذا حق اللَّه ، أعني قوله : « وهو يؤمن باللَّه واليوم الآخر » أما حق الآدمي : فقال : « وليأت إلى الناس ما يحب أن يؤتى إليه » فلا يؤذيهم ؛ لأنه لا يحب أن يؤذوه ، ولا يعتدي عليهم ؛ لأنه لا يحب أن يعتدوا عليه ، ولا يشتمهم ؛ لأنه لا يحب أن يشتموه ، وهلم جرا : لا يغشهم في البيع والشراء وغير ذلك ، ولا يكذب عليهم ؛ لأنه لا يحب أن يفعل به ذلك . وهذه قاعدة لو أن الناس مشوا عليها في التعامل فيما بينهم لنالوا خيرًا كثيرًا . ويشبه هذا قول الرسول ﷺ : « لا يؤمن أحدكم حتى يحب لأخيه ما يحبه لنفسه » [٢] واللَّه الموفق .

* * *

---

(١) انظر نص ما قاله ابن تيمية في الفتاوى (١٨٢/٣٤) .

(٢) سبق تخريجه .



٢٦٩ - باب النهي عن التباغض والتقاطع والتدابر

قال اللّٰه تعالى : ﴿ إِنَّمَا ٱلْمُؤْمِنُونَ إِخْوَةٌ ﴾ [الحجرات : ١٠] . وقال تعالى : ﴿ أَذِلَّةٍ عَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ أَعِزَّةٍ عَلَى ٱلْكَٰفِرِينَ ﴾ [المائدة : ٥٤] وقال تعالى : ﴿ مُّحَمَّدٌ رَّسُولُ ٱللَّهِ وَٱلَّذِينَ مَعَهُۥٓ أَشِدَّآءُ عَلَى ٱلْكُفَّارِ رُحَمَآءُ بَيْنَهُمْ ﴾ [الفتح : ٢٩] .

الشرح

ذكر النووي - رحمه اللّٰه تعالى - آيات عن النهي عن التباغض والتقاطع والتدابر .

التباغض بالقلوب ، والتقاطع بالأفعال والأقوال أيضًا ، والتدابر بالأفعال أيضًا ، أما التباغض بالقلوب : أن يبغض الإنسان أخاه المسلم ، وهذا - أعني بغض المؤمن - حرام ، لأي شيء تبغضه ؟ قد تكون تبغضه ؛ لأنه يعصي اللّٰه ﷻ فنقول : وإذا عصى اللّٰه لا تبغضه بغضًا مطلقًا ، الذي تبغضه بغضًا مطلقًا على كل حال هو الكافر ؛ لأنه ما فيه خير . أما المؤمن وإن عصى وإن أصر على معصية ؛ يجب أن تحبه على ما معه من الإيمان ، وأن تكرهه على ما معه من الفسق والعصيان ، فإن قال إنسان كيف يجتمع البغض والحب ؟ قلنا : يجتمعان ؛ لأن كل واحد منهم منصب على وجه لم يتفقا في محل واحد ؛ أحبه لإيمانه ، واكرهه لفسوقه ، نظير ذلك المريض يعطى دواء مرًّا رائحته كريهة ، فيحب هذا الدواء من وجه ويكرهه من وجه ، يحبه لما فيه من الشفاء ، ويكرهه لطعمه أو رائحته أو ما أشبه ذلك . وكذلك المؤمن أخوك أنت وإياه في أصل واحد وهو الإيمان ، لماذا تبغضه بغضًا مطلقًا ؟ ابغضه على ما معه من المعصية ، لا بأس ، وأحبه على ما معه من الإيمان . وهذا يؤدي - أعني إذا أحببته لما معه من الإيمان ، وكرهته لما معه من الفسق - إلى أن تنصحه ؛ لأنك تثق أنه أخوك فتحبه وتؤدي له ما تؤدي لنفسك ، فتنصحه على ما تكره فيه من المعصية . ومن ذلك : السلام عليه ، سَلِّمْ عليه ، ولو كان عنده معصية ، إلا إذا علمت أنك إذا تركت السلام عليه اهتدى وصلحت أموره ، فهنا يكون الهجر دواء نافعًا .

وأما التقاطع ؛ وهو تقاطع الصلة بينك وبين أخيك ، أخوك المؤمن له حق عليك أن تصله ، ولا يحل لك أن تقطعه ، لأنه أخوك حتى وإن كان عاصيًا ، ولذلك تجد الإنسان يكرم جاره ولو كان جاره عاصيًا ؛ لأن النبي ﷺ قال : « من كان يؤمن باللّٰه واليوم الآخر فليكرم جاره »(١) أكرمه ولو كان عاصيًا ولكن انصحه ، وكذلك بعض الناس يقاطع أقاربه ؛ لأنهم قطعوه ، أو لأنهم على معصية ، وهذا خطأ ؛ صل أقاربك ولو كانوا عصاة ، صلهم ولو كانوا يقاطعونك ، كما جاء رجل للرسول ﷺ قال : يا رسول اللّٰه إن لي رحمًا أصلهم ويقطعونني ، وأحسن إليهم ويسيئون إليَّ ، وأحلم عليهم وقال كلمة أخرى ، فقال النبي ﷺ : « إن كان الأمر كما قلت ؛ فكأنما تسفهم الملَّ »(٢) . يعني كأنما تدخل في

---

(١) سبق تخريجه .

(٢) أخرجه أحمد في مسنده (٢/٤١٢) .

قلوبهم الرماد أو التراب الحار ، يعني فاستمرَّ على صلتهم ولو كانوا يقطعونك ، ولو كانوا يسيئون إليك ، ولو كانوا يعتدون عليك ، صلهم لأن من لا يَصِل إلا إذا وُصِل فليس بواصل بل هو مكافئ .

والتدابر : أيضًا لا يحل بين المؤمنين ، لكن هل هو التدابر في القلوب ، أو التدابر في الأبدان ، أو هذا وهذا ؟ إنه هذا وهذا ، لا تدابروا في القلوب حتى لو وجدت من أخيك أنه أدبر عنك بقلبه ، فاقرب منه وأقبل عليه ﴿ ادْفَعْ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ فَإِذَا الَّذِي بَيْنَكَ وَبَيْنَهُ عَدَاوَةٌ كَأَنَّهُ وَلِيٌّ حَمِيمٌ ﴾ [فصلت : ٣٤] لو طبقنا هذه التوجيهات الإلهية والنبوية ؛ لحصل لنا خير كثير ، لكن الشيطان يلعب بنا ، يقول : كيف تصله وهو يقطعك ؟ ، كيف تقبل عليه وهو يدبر عنك ؟ اتركه هذا ما فيه خير . هذا من وحي الشيطان . أما الله ﷻ والنبي ﷺ فإن نصوص الكتاب والسنة كلها تحرم التدابر ، كذلك التدابر بالأبدان بعض الناس لا يهمه أن يصعر وجهه للناس ، وإن يُعَرِّض ربما يكون من كبرياءه يتكلم معك ووجهه لجانب آخر ، نسأل الله العافية ، هذا لا يحل ، بعض الناس أيضًا كالبهائم تجدهم جلوس في مكان واحد كل واحد يدير للثاني دبره وظهره ، هذا ليس أدبًا ، لا أدبًا شرعيًا ولا أدبًا عربيًا ولا خلقًا ، تجلسوا معًا كل واحد يدابر الثاني ، إن الله وصف أهل الجنة بأنهم على سرر متقابلين التقابل صفة حميدة طيبة ، والتدابر صفة ذميمة خبيثة لكن بعض الناس همج ليس عندهم تربية إسلامية وتجدهم في المجالس متدابرين ، هذا خطأ .

ومما يشبه هذا الفعل ما يفعله بعض الناس إذا سلَّم من الصلاة وهو في الصف تقدم جعل الناس وراء استقبلهم بدبره وفي ظني أنه يتخيل في تلك اللحظة أنه ذو عظمة وأن الناس وراءه ؛ لأني ما أظن أحدًا يتقدم هذا التقدم إلا ويشعر ، وإن كان من غير قصد بالعظمة ، ولقد رأيتموني أنهى عنه ، إذا وجدت إنسانًا تقدم أقول له : ارجع لأن هذا يشبه التدابر . فإذا قال : ضاق علي المكان ولا أستطيع أن أبقى مفترشًا . قلنا : يا أخي ، الأمر واسع - والحمد لله - قم تقدم وكن على الجدار وافعل ما شئت أو تأخر أما أن تتقدم على الناس وتكون بين أيديهم والناس ورائك هذا لا ينبغي .

هذه ثلاث أشياء : الأول : التباغض ، والثاني : التقاطع ، والثالث : التدابر ، كل هذا منهي عنه .

سؤال وجوابه : إن قال إنسان : السلام عليك ، قل : عليك السلام ، وإن قال : أهلًا ومرحبًا فلا تكفي . ومن قال في الرد : أهلًا ومرحبًا فهو آثم لم يقم بالواجب ، وإذا رأيت أحدًا يقول هكذا فانصحه قل له : رُدَّ السلام .

وقد قال الله تعالى : ﴿ إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ إِخْوَةٌ ﴾ وهذه الآية في سياق ذكر الطائفتين تقتتلان فتصلح بينهما طائفة أخرى ، فقال تعالى : ﴿ إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ إِخْوَةٌ فَأَصْلِحُوا بَيْنَ أَخَوَيْكُمْ ﴾ وسياق الآيات يقول الله ﷻ : ﴿ وَإِن طَائِفَتَانِ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ اقْتَتَلُوا فَأَصْلِحُوا بَيْنَهُمَا ﴾ يعني لو اقتتلت طائفتان من المسلمين قبيلتان اقتتلا فيما بينهما ، فأصلحوا بينهما ، والخطاب لمن له الأمر من المؤمنين الذين لم يقاتلوا ﴿ فَإِنْ بَغَتْ إِحْدَاهُمَا عَلَى الْأُخْرَى ﴾ وأبت أن تصالح ﴿ فَقَاتِلُوا الَّتِي تَبْغِي حَتَّى تَفِيءَ إِلَى أَمْرِ اللَّهِ ﴾ يعني كونوا مع الطائفة العادلة التي ليست باغية ، قاتلوا الباغية ﴿ حَتَّى تَفِيءَ إِلَى أَمْرِ اللَّهِ ﴾ أي حتى ترجع إليه ﴿ فَإِن فَاءَتْ

فَأَصْلِحُوا بَيْنَهُمَا بِالْعَدْلِ ﴾ أي فيما جرى بينهم من إتلاف أنفس، أو أموال أو غير ذلك، ﴿ فَأَصْلِحُوا بَيْنَهُمَا بِالْعَدْلِ وَأَقْسِطُوا إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُقْسِطِينَ ﴾ فيقال مثلًا: كم قتلتم من نفس؟ لطائفة منهما، وللأخرى كذلك، ثم يعادل بينهما ويصلح بينهما، كم أتلفتم من مال؟ ويمضي فيعادل بينهما ويصلح بينهما، ثم قال ﷻ: ﴿ فَإِن فَاءَتْ فَأَصْلِحُوا بَيْنَهُمَا بِالْعَدْلِ وَأَقْسِطُوا إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُقْسِطِينَ ﴾ أي الذين يعدلون فيما ولاهم الله عليه ﴿ إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ إِخْوَةٌ فَأَصْلِحُوا بَيْنَ أَخَوَيْكُمْ ﴾ المؤمنون كلهم إخوة حتى الطائفتان المقتتلتان هم أخوة للذين أصلحوا بينهما، وفي هذه الآية رد صريح لقول الخوارج الذين يقولون: إن الإنسان إذا فعل الكبيرة صار كافرًا؛ فإنه من أكبر الكبائر أن يقتتل المسلمون بينهم، ومع ذلك قال الله فيهم - المقتتلين - وفي التي أصلحت بينهما: ﴿ إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ إِخْوَةٌ فَأَصْلِحُوا بَيْنَ أَخَوَيْكُمْ ﴾ فإذا كان الله تعالى أوجب الإصلاح بين المتقاتلين فكذلك أيضًا بين المتعادين عداءً دون قتل، يجب على الإنسان إذا علم أن بين اثنين عداوة وبغضاء وشحناء وتباعد أن يحاول الإصلاح بينهما، وفي هذه الحال يجوز أن يكذب للمصلحة، فيقول مثلًا لأحد منهم: إن فلانًا لم يفعل شيئًا يضرك وما أشبه ذلك، ويتأول شيئًا آخر غير الذي أظهره لهذا الرجل حتى يتم الصلح بينهما، والصلح خير.

أما الآية الثانية: فهي قول الله تعالى: ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا مَن يَرْتَدَّ مِنكُمْ عَن دِينِهِ فَسَوْفَ يَأْتِي اللَّهُ بِقَوْمٍ يُحِبُّهُمْ وَيُحِبُّونَهُ أَذِلَّةٍ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ أَعِزَّةٍ عَلَى الْكَافِرِينَ ﴾ يعني أنكم لو ارتددتم عن دينكم فإن ذلك لا يضر الله شيئًا، يأتي الله بقوم يحبهم ويحبونه لقيامهم بعبادته واتباع الرسول ﷺ لأن من أقوى أسباب محبة الله للعبد أن يتبع الرسول كما قال الله تعالى: ﴿ قُلْ إِن كُنتُمْ تُحِبُّونَ اللَّهَ فَاتَّبِعُونِي يُحْبِبْكُمُ اللَّهُ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ ﴾ [آل عمران: ٣١] فأنت إذا أحببت أن الله يحبك فاتبع الرسول، الطريق بين واضح يقول الله ﷻ ﴿ فَسَوْفَ يَأْتِي اللَّهُ بِقَوْمٍ يُحِبُّهُمْ وَيُحِبُّونَهُ أَذِلَّةٍ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ أَعِزَّةٍ عَلَى الْكَافِرِينَ ﴾ وهذا هو وصف المؤمن حقًّا أنه بالنسبة لإخوانه المسلمين ذليل متواضع متهاون ومتسامح، أما على الكافرين فهم أعزة على الكافرين يعني أنهم أقوياء أمام الكافر لا يلينون له ولا يداهنونه ولا يوادنه كل هذا بالنسبة للكافر حرام على المؤمن لا يجوز للمؤمن أن يواد الكافر ولا يجوز له أن يذل له؛ لأن الله تعالى جعل له دينًا يعلو على الأديان كلها بل يجب علينا أن نبغض الكفار وأن نعتبرهم أعداء لنا وأن نعلم أنهم لن يفعلوا بنا شيئًا هو في مصلحتنا إلا لينالوا ما هو أشد مما نتوقع من الإضرار بنا؛ لأنهم أعداء، والعدو ماذا يريد أن يفعل بك؟ يريد أن يفعل بك كل سوء وأن تظاهر بأنه صديق أو بأنه وليٌّ لك فهو كاذب، إنما يفعل لمصلحته؛ لأنه لا أحد أصدق من الله ﷻ وهو يعلم ما في الصدور، يقول الله ﷻ: ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَتَّخِذُوا عَدُوِّي وَعَدُوَّكُمْ أَوْلِيَاءَ ﴾ [الممتحنة: ١] ويقول جلا وعلا: ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَتَّخِذُوا الْيَهُودَ وَالنَّصَارَىٰ أَوْلِيَاءَ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ بَعْضٍ ﴾ [المائدة: ٥١] ويقول ﷻ: ﴿ وَلَن تَرْضَىٰ عَنكَ الْيَهُودُ وَلَا النَّصَارَىٰ حَتَّىٰ تَتَّبِعَ مِلَّتَهُمْ ﴾ [البقرة: ١٢٠] محال أن يرضوا عن المسلمين إلا إذا تهودوا أو تنصروا، ولهذا هم الآن يحاولون بكل ما يستطيعون أن يصدوا الناس عن دينهم تارةً بالأخلاق السافلة، وتارةً بالمجلات، وتارةً بالدعاية الخبيثة، وتارةً بالصراحة، يدعون إلى الكفر كما قال ﷻ: ﴿ وَجَعَلْنَاهُمْ أَئِمَّةً يَدْعُونَ إِلَى

﴿ٱلنَّارِۖ وَيَوۡمَ ٱلۡقِيَٰمَةِ لَا يُنصَرُونَ ۝ وَأَتۡبَعۡنَٰهُمۡ فِي هَٰذِهِ ٱلدُّنۡيَا لَعۡنَةٗۖ وَيَوۡمَ ٱلۡقِيَٰمَةِ هُم مِّنَ ٱلۡمَقۡبُوحِينَ﴾ [القصص: ٤١، ٤٢] فيقول ﷻ في وصف هؤلاء: ﴿أَذِلَّةٍ عَلَى ٱلۡمُؤۡمِنِينَ﴾ وهذا هو الشاهد ﴿أَعِزَّةٍ عَلَى ٱلۡكَٰفِرِينَ﴾.

وقال تعالى: في الآية الثالثة: ﴿مُّحَمَّدٞ رَّسُولُ ٱللَّهِۚ وَٱلَّذِينَ مَعَهُۥٓ أَشِدَّآءُ عَلَى ٱلۡكُفَّارِ رُحَمَآءُ بَيۡنَهُمۡۖ﴾ هذا وصف الرسول ﷺ ﴿مُّحَمَّدٞ رَّسُولُ ٱللَّهِۚ وَٱلَّذِينَ مَعَهُۥٓ﴾ يعني أصحابه، وصفهم ﴿أَشِدَّآءُ عَلَى ٱلۡكُفَّارِ﴾ لا يلينوا لهم، ولا يداهنونهم، ولا يوالونهم، ولا يوادونهم، لكن فيما بينهم ﴿رُحَمَآءُ بَيۡنَهُمۡۖ﴾ يرحم بعضهم بعضًا، ويلين بعضهم لبعض، وهذا هو حال المؤمنين، ضد ذلك نقص في الإيمان من لا يرحم إخوانه المؤمنين فإن ذلك نقصًا في إيمانه، وربما يُحرم الرحمة؛ لأن من لا يرحم لا يرحم - والعياذ بالله - وأيضًا مثل ذلك التباغض. احرص على أن تزيل كل سبب يكون سببًا للبغضاء بينكم أنتم المسلمون، بعض الناس يبغض أخاه من أجل شيء من الدنيا، إما لأجل مال، أو من أجل أنه لا يقابله ببشاشة، أو ما أشبه ذلك، هذا خطأ فحاول أن تزيل البغضاء بينك وبين إخوانك بقدر المستطاع، وحاول أن تبتعد عن كل شيء يثير العداوة والبغضاء؛ لأنكم إخوة. نسأل الله تعالى أن يوفقنا وإياكم لما فيه الخير والإصلاح.

* * *

١٥٦٧ - وعنْ أنسٍ ﷺ أنَّ النبيَّ ﷺ قَالَ: « لا تَبَاغَضُوا، وَلا تَحَاسَدُوا، وَلا تَدابَرُوا، وَلا تَقَاطَعُوا، وَكُونُوا عِبَادَ اللَّهِ إخوانًا، وَلا يَحِلُّ لِمُسْلِمٍ أَنْ يَهْجُرَ أَخَاه فَوقَ ثَلاثٍ» [١] متفقٌ عليه.

الشرح

بعد أن ذكر المؤلف ﵀ الآيات الدالة على تحريم التباغض والتقاطع والتدابر ذكر أحاديث منها حديث أنس بن مالك ﷺ أن النبي ﷺ قال: « لا تباغضوا، ولا تناجشوا، ولا تدابروا، ولا تقاطعوا » هذه أربعة أشياء نهى عنها النبي ﷺ.

الأول: التباغض: نهى عنه الرسول ﷺ حتى لو وقع في قلبك، بُغْضٌ لإنسان فحاول أن ترفع هذا عن قلبك وانظر إلى محاسنه حتى تمحوا سيئاته، وقد أرشد النبي ﷺ إلى هذا حيث قال: « لا يفرك مؤمن مؤمنة » [٢] يعني لا يبغض المؤمن المؤمنةَ - يعني زوجته، أو أخته، أو أمه، ولكن يراد الزوجة هنا - لا يفرك مؤمن مؤمنة إن سخط منها خلقًا رضي منها خلقًا آخر وهذا من الموازنة بين الحسنات والسيئات بعض الناس ينظر إلى السيئات - والعياذ بالله - فيحكم بها وينسى الحسنات وبعض الناس ينظر للحسنات وينسى السيئات، والعدل أن يقارن الإنسان بين هذا وهذا، وأن يميل إلى الصفح والعفو والتجاوز فإن الله تعالى يحب العافين عن الناس فإذا وجدت في قلبك بغضاء

---

(١) أخرجه البخاري في الأدب (٦٠٦٥)، ومسلم في البر والصلة (٢٣)، والإمام أحمد في مسنده (١/٥)، والبيهقي في السنن (١٠/٢٣٢).

(٢) أخرجه مسلم في الرضاع (٦١)، وأحمد في مسنده (٢/٣٢٩)، والبيهقي في السنن (٧/٢٩٥).

لشخص فحاول أن تزيل هذه البغضاء وذكر نفسك بمحاسنه ربما يكون بينك وبينه سوء عشرة أو سوء معاملة لكنه رجل فاضل طيب محسن إلى الناس يحب الخير ، يبذل فيه ، تذكر هذه المحاسن حتى تكون المعاملة السيئة التي يعاملك بها مضمحلة منغمرة في جانب الحسنات . كذلك أيضًا لا تناجشوا ، المناجشة : الزيادة في الثمن بغير إرادة الشراء مثلًا رأيت سلعة يُنادى عليها في السوق ، ثمنها مثلا مائة ريال ، وهو يريد شراءها فناجشت عليه وقلت : بمائة وعشرة وأنت لا تريدها ولكن تريد أن يزيد الثمن على المشتري هذا حرام عدوان . أما لو كنت رأيت السلعة رخيصة بمائة وزدت مائة وعشرة وأنت من الأول ما عندك نية لشرائها لكن استرخصتها فزدت حتى بلغت الثمن الذي لا ترى فيه مصلحة لك ثم تركتها ، هذا لا بأس به لكن إذا كان قصدك العدوان على المشتري وأن تنكد عليه وتزيد عليه الثمن فهذا هو النجش ، وكذلك لو زدت السلعة من أجل نفع البائع وهو لا يعرف المشتري وليس بينه وبينه شيء لكن يريد أن ينتفع البائع فزاد في الثمن وهو لا يريد الشراء وإنما يريد نفع البائع ، فمثلًا قيمة السلعة بمائة فقال بمائة ، وعشرة لا إضرارًا بالمشتري لأنه لا يعرفه وليس بينه وبينه شيء لكن من أجل نفع البائع هذا أيضًا حرام لا يجوز وهو من المناجشة التي نهى عنها النبي ﷺ ، وكذلك أيضًا إذا أراد الأمرين يعني أراد أن ينفع البائع ويضر المشتري فهذا أيضًا حرام وهو من النجش الذي حرمه الرسول ﷺ ، « ولا تدابروا » : سبق الكلام عليه ، « ولا تقاطعوا » : يعني لا يقطع أخ أخاه ، بل يواصله بحسب العرف وبحسب السبب الداعي للصلة لأن القريب تصله لقربه الجار لجيرته الصاحب لصحبته وهكذا لا تقاطع أخاك صله فإن اللّه تعالى يحب الواصلين الذين يصلون أرحامهم « ولا يحل لأحد أن يهجر أخاه فوق ثلاث » الهجر من التقاطع ؛ يعني يلقاه لا يسلم عليه حرام حرام ، إلا أن الشارع النبي ﷺ رخص لك ثلاثة أيام ؛ لأن الإنسان ربما يكون في نفسه شيء لا يعفو على واحد يهجره له رخصة ثلاثة أيام بعد الأيام الثلاثة لا يجوز أن يلقاه فلا يسلم عليه إلا إذا كان على معصية إذا هجرناه تركها فنهجره للمصلحة ، هذا كما هجر النبي ﷺ الثلاثة الذين خلفوا وتخلفوا عن غزوة تبوك وإلا فالأصل أن الهجر حرام ، وأما قول بعض العلماء وهو إطلاقهم أن المجاهر بالمعصية يهجر فهذا فيه نظر فصار عندنا الهجر إلى ثلاث جائز ، فوق الثلاث فهو حرام إلا للمصلحة واللّه الموفق .

* * *

١٥٦٨ - وعنْ أبي هُرَيرَةَ ﷺ أنَّ رَسُولَ اللّهِ ﷺ قَالَ : « تُفْتَحُ أَبوابُ الجَنَّةِ يَومَ الاثْنَينِ وَيوم الخَميسِ ، فَيُغفَرُ لِكُلِّ عَبدٍ لا يُشْرِكُ باللّهِ شَيْئًا ، إلا رَجُلًا كَانَتْ بَينَهُ وَبَينَ أخِيهِ شَحْنَاءُ فيقالُ : أَنظِرُوا هذَينِ حَتَّى يَصطَلِحَا ! أَنْظِرُوا هَذينِ حَتَّى يَصْطَلِحَا » رواه مسلم .

وفي روايةٍ له : « تُعرَضُ الأعْمالُ في كُلِّ يَومِ خَميسٍ وَاثْنَينِ » [1] وَذَكَرَ نحْوَهُ .

---

(١) أخرجه مسلم في البر والصلة (٣٥) ، والإمام مالك في الموطأ (٩٠٨) ، قوله : « شحناء » أي عداوة وبغضاء .

الشرح

ذكر المؤلف النووي رَحِمَهُ ٱللَّهُ عن أبي هريرة رضي الله عنه أن النبي ﷺ قال : تفتح أبواب الجنة في كل يوم اثنين وخميس فيغفر لكل مسلم إلا رجلين بينهما شحناء فيقال : أنظروا هؤلاء حتى يصطلحا وكذلك عرض الأعمال على اللّٰه عَزَّ وَجَلَّ يوم الاثنين والخميس فيغفر لكل مسلم إلا رجلين بينهما شحناء فيقال : أنظروا هؤلاء حتى يصطلحا فدل ذلك على أنه يجب على الإنسان أن يبادر بإزالة الشحناء والعداوة والبغضاء بينه وبين إخوانه حتى وإن رأى في نفسه غضاضة وثقلًا في طلب إزالة الشحناء فليصبر وليحتسب ؛ لأن العاقبة في ذلك حميدة ، والإنسان إذا رأى ما في العمل من الخير والأجر والثواب سهل عليه وكذلك إذا رأى الوعيد على تركه سهل عليه ، وإذا كان الإنسان لا يستطيع أن يذهب إلى الشخص ، ويقول : يجب أن نصالح بعض ونزيل ما بيننا من العداوة والبغضاء فبإمكانه أن يوسط رجلًا ثقة يرضاه الطرفان ويذهب إليه ويقول : إني أجد بينك وبين فلان كذا وكذا فلو اصطلحتم وأزلتم ما بينكم من العداوة والبغضاء ، فيكون هذا حسنًا جيدًا واللّٰه الموفق .

* * *

٢٧٠ - باب تحريم الحسد

وَهُو تمنّي زوالِ النِّعمةِ عنْ صاحِبِها : سَواءٌ كَانَتْ نِعْمَةَ دِينٍ أو دُنْيا ، قالَ اللّٰهُ تعالى : ﴿ أَمْ يَحْسُدُونَ ٱلنَّاسَ عَلَىٰ مَآ ءَاتَىٰهُمُ ٱللَّهُ مِن فَضْلِهِۦ ﴾ [النساء : ٥٤] . وفيهِ حَديثُ أَنسٍ السَّابقُ في البَابِ قَبْلَهُ .

١٥٦٩ - وعَنْ أبي هُرَيرَةَ رضي الله عنه أنَّ النبيَّ ﷺ قَالَ : « إيَّاكُمْ والحَسَدَ ؛ فَإنَّ الحَسَدَ يَأْكُلُ الحَسَنَاتِ كَمَا تَأْكُلُ النَّارُ الحَطَبَ » ، أَو قَالَ : « العُشْبَ » (١) رواه أبو داود .

الشرح

ذكر النووي - رحمه اللّٰه تعالى - تحريم الحسد . والحسد هو أن يكره الإنسان ما أنعم اللّٰه به على غيره من علم ، أو مال ، أو أهل ، أو جاه ، أو غير ذلك . والحسد من كبائر الذنوب ومن سمات اليهود - والعياذ باللّٰه - كما قال اللّٰه تعالى عنهم : ﴿ وَدَّ كَثِيرٌ مِّنْ أَهْلِ ٱلْكِتَـٰبِ لَوْ يَرُدُّونَكُم مِّنۢ بَعْدِ إِيمَـٰنِكُمْ كُفَّارًا حَسَدًا مِّنْ عِندِ أَنفُسِهِم ﴾ وقال تعالى : ﴿ أَمْ يَحْسُدُونَ ٱلنَّاسَ عَلَىٰ مَآ ءَاتَىٰهُمُ ٱللَّهُ مِن فَضْلِهِۦ ﴾ أي على ما أعطاهم من فضله ﴿ فَقَدْ ءَاتَيْنَآ ءَالَ إِبْرَٰهِيمَ ٱلْكِتَـٰبَ وَٱلْحِكْمَةَ وَءَاتَيْنَـٰهُم مُّلْكًا عَظِيمًا ﴾ وحذر النبي ﷺ من الحسد وبين أنه يأكل الحسنات كما تأكل النار العشب . أو قال الحطب (٢) .

ثم إن الحسد فيه اعتراض على قضاء اللّٰه وقدره ؛ لأن الحاسد لم يرض بقضاء اللّٰه وقدره ؛ يعني لم

---

(١) أخرجه أبو داود في الأدب (٤٩٠٣) قوله « يأكل الحسنات » أي يذهبها ويمحوها .

(٢) انظر الحديث بنصه في ابن ماجه في السنن (٤٢١٠) والمنذري في الترغيب والترهيب (٣/٥٤٧) .

يرض أن اللَّه أعطى هذا الرجل مالًا أو أعطاه أهلًا ، أو أعطاه علمًا ، ففيه اعتراض على قضاء اللَّه وقدره ، ثم إن الحسد جمرة في القلب والعياذ باللَّه كلما أنعم اللَّه على عبده نعمة احترق هذا القلب والعياذ باللَّه حيث أنعم اللَّه تعالى على عباده فتجده دائمًا في نكد وقلق ، والحسد ربما يحصل منه بغي وعدوان على غيره ممن آتاه اللَّه من فضله ، ربما يشوه سمعته عند الناس ويقول فيه كذا وكذا وهو كاذب أو صادق لكن يريد أن يحسد هذا الرجل على النعمة ، فربما يحصل منه هذا العدوان على أخيه المسلم ، ثم إن الحسد لا يرد نعمة اللَّه على عبده مهما حسدت ومهما بغيت فإنك لن تمنع قدر اللَّه على عباده ، قال النبي ﷺ لعبد اللَّه ابن عباس رضي الله عنهما : « واعلم أن الأمة لو اجتمعوا على أن يضروك بشيء لم يضروك إلا بشيء قد كتبه اللَّه عليك »[(١)] وإلا فلن يضروك ، فالواجب على الإنسان إذا رأى من نفسه حسدًا لأحد أن يتقي اللَّه وأن يوبخ نفسه ويقول لها كيف تحسدين الناس على ما آتاهم اللَّه من فضله ، كيف تكرهين نعمة اللَّه على عباده ، يقول أرأيتي لو كانت هذه النعمة عندك ، أتحبين أن أحدًا يحسدك عليها؟ ويوبخها ، يوبخ النفس ، وكذلك يقول لها ، أنت لو حسدت وكرهت ما أعطى اللَّه من فضله فإن ذلك لن يضر المحسود ، بل هو ضرر على الحاسد ، وأشبه ذلك مما يوبخ به نفسه ، حتى يدع ما به من الحسد ، وحين إذن يطمئن ويستريح ولا يتنكد ، ولا يتكدر « اللَّهم اهدنا لأحسن الأخلاق والأعمال ، فإنه لا يهدي لأحسنها إلا أنت ، واصرف عنا سيئ الأخلاق ، فإنه لا يصرف سيئها إلا أنت » .

* * *

٢٧١ - بابُ النهي عَن التجسُّس والتسمُّع لكلام من يكره استماعه

قال اللَّه تعالى : ﴿ وَلَا تَجَسَّسُوا ﴾ [الحجرات : ١٢] . وقال تعالى : ﴿ وَالَّذِينَ يُؤْذُونَ الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ بِغَيْرِ مَا اكْتَسَبُوا فَقَدِ احْتَمَلُوا بُهْتَانًا وَإِثْمًا مُبِينًا ﴾ [الأحزاب : ٥٨] .

١٥٧٠ - وعنْ أبي هُرَيرَةَ رضي الله عنه أنَّ رَسولَ اللَّهِ ﷺ قالَ : « إيَّاكُم وَالظَّنَّ ؛ فَإنَّ الظَّنَّ أكْذَبُ الحَديثِ ، وَلا تَحَسَّسُوا ، وَلَا تَجَسَّسُوا ، وَلا تَنافَسُوا ، وَلا تَحَاسَدُوا ، وَلا تَباغَضُوا ، وَلا تَدابَرُوا ، وَكُونُوا عِبَادَ اللَّهِ إخوَانًا كَمَا أمَرَكُم . المُسْلِمُ أَخُو المُسْلِمِ ، لا يَظْلِمُهُ ، وَلا يَخْذُلُهُ ، وَلا يَحْقِرُهُ ، التَّقْوَى ههُنَا ، التَّقْوَى ههنا » وَيُشِيرُ إلى صَدْرِه « بِحسبِ امريءٍ مِنَ الشَّرِّ أنْ يَحْقِرَ أخَاهُ المُسلمَ ، كُلُّ المُسلم عَلَى المُسْلِمِ حَرَامٌ : دَمُهُ ، وَعِرْضُهُ ، وَمَالُهُ ، إنَّ اللَّهَ لا يَنْظُرُ إلى أجْسَادِكُم ، وَلا إلى صُوَرِكُمْ ، وَلكِنْ يَنْظُرُ إلى قُلوبكُم وأعْمالِكُمْ » .

وفي رواية : « لا تَحَاسَدُوا ، وَلا تَبَاغَضُوا ، وَلا تَجَسَّسُوا ، وَلا تَحَسَّسُوا ، وَلا تَنَاجَشُوا وكُونُوا عبَادَ اللَّهِ إخوَانًا » .

---

(١) أخرجه الترمذي في السنن (٢٥١٦) ، والحاكم في المستدرك (٥٤١/٣) ، والطبراني في الكبير (١٢٣/١١) ، وأحمد في مسنده (٢٩٣/١) .

وفي روايةٍ : « لا تَقَاطَعُوا ولا تَدَابَرُوا ، وَلا تَبَاغَضُوا ، وَلا تَحَاسَدُوا ، وَكُونُوا عِبَادَ اللَّهِ إخْوَانًا » .

وفي روايةٍ : « لا تَهَاجَرُوا ، وَلا يَبِعْ بَعْضُكُم عَلى بَيعِ بَعْضٍ » (١) .

راوه مسلم بكلِّ هذه الروايات ، وروى البخاريُّ أكثَرَهَا .

الشرح

ذكر المؤلف رَحِمَهُ اللَّهُ تحريم التجسس . والتجسس هو : أن يتتبع الإنسان أخاه ليطلع على عوراته سواء كان ذلك عن طريق مباشر ، بأن يذهب هو بنفسه يتجسس لعله يجد عسرة أو عورة ، أو كان عن طريق الآلات المستخدمة في حفظ الصوت ، أو كان عن طريق الهاتف ، فكل شيء يوصل الإنسان إلى عورات أخيه ومسالبه ؛ فإن ذلك من التجسس ، وهو محرم ؛ لأن اللَّه سبحانه وتعالى قال : ﴿ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱجْتَنِبُوا۟ كَثِيرًا مِّنَ ٱلظَّنِّ إِنَّ بَعْضَ ٱلظَّنِّ إِثْمٌ وَلَا تَجَسَّسُوا۟ ﴾ فنهى سبحانه وتعالى عن التجسس ، ولما كان التجسس إيذاءً لأخيك المسلم ، أردف المؤلف رَحِمَهُ اللَّهُ ما استشهد به من هذه الآية بقول اللَّه تعالى : ﴿ وَٱلَّذِينَ يُؤْذُونَ ٱلْمُؤْمِنِينَ وَٱلْمُؤْمِنَـٰتِ بِغَيْرِ مَا ٱكْتَسَبُوا۟ فَقَدِ ٱحْتَمَلُوا۟ بُهْتَـٰنًا وَإِثْمًا مُّبِينًا ﴾ [الأحزاب : ٥٨] لأن التجسس أذية ، يتأذى به المتجسس عليه ، ويؤدي إلى البغضاء والعداوة ، ويؤدي إلى تكليف الإنسان نفسه ما لم يلزمه ؛ فإنك تجد المتجسس والعياذ باللَّه ، مرة هنا ، ومرة هنا ، ومرة هنا ، ومرة ينظر إلى هذا ومرة ينظر إلى هذا ، فقد أتعب نفسه في أذية عباد اللَّه ، نسأل اللَّه العافية ، ومن ذلك أيضًا : أن يتجسس على البيوت ، يعني من التجسس : أن يتجسس على البيوت يقف عند الباب ويستمع لما يقال في المجلس ، ثم يبني عليه الظن الكاذب ، والتُّهم التي ليس لها أصل ، ثم ذكر المؤلف حديث أبي هريرة ، في رواياته وأكثرها قد مرَّ علينا ، لكن من أهم ما ذكر « إياكم والظن فإن الظن ؛ أكذب الحديث » وهذا مطابق لقول اللَّه تعالى : ﴿ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱجْتَنِبُوا۟ كَثِيرًا مِّنَ ٱلظَّنِّ ﴾ [الحجرات : ١٢] لكن في هذه الآية قال اللَّه تعالى : ﴿ ٱجْتَنِبُوا۟ كَثِيرًا مِّنَ ٱلظَّنِّ ﴾ ولم يقل الظن كله ؛ لأن الظن المبني على القرائن لا بأس به ، فهو من طبيعة الإنسان ؛ أنه إذا وجد قرائن قوية توجب الظن الحسن أو غير الحسن ؛ فإنه لابد أن يخضع لهذه القرائن ، ولا بأس بذلك ، لكن الظن المجرد هو الذي حذر منه النبي ﷺ وقال : « إنه أكذب الحديث » ؛ لأن الإنسان إذا ظن صارت نفسه تحدثه ، تقول له : فعل فلان كذا ، وهو يفعل كذا ، وهو يريد كذا وما أشبه ذلك ، وهذا يقول الرسول ﷺ فيه « إنه أكذب الحديث » ، وفيه أيضًا مما لم يمر أن النبي ﷺ قال : « كونوا عباد اللَّه إخوانا كما أمركم » يعني أنه يجب على الإنسان أن يكون أخًا لأخيه ، بالمعنى المطابق للأخوة ، لا يكن عدوًّا له ، فإن بعض الناس إذا صار بينه وبين أخيه معاملة وساء الظن بينهما في هذه المعاملة اتخذه عدوًّا ، وهذا لا يجوز ، الواجب أن الإنسان يكون أخًا لأخيه ، في المحبة ، والألفة ، وعدم التعرض له بالسوء ، والدفاع عن عرضه ، وغير ذلك من مقتضيات الأخوة « المسلم أخو المسلم لا يظلمه ، ولا يحقره ، ولا

(١) أخرجه البخاري في الأدب (٦٠٦٤) ، ومسلم في البر والصلة (٢٨) ، وأحمد في مسنده (٣١٢/٢) .

يكذبه» وهذا أيضًا قد مر علينا سابقًا وقال : « التقوى هاهنا يشير إلى صدره » يعني في القلب ، وإذا اتقى القلب اتقت الجوارح ؛ لأن النبي ﷺ يقول : « إذا صلحت صلح الجسد كله » (١) يعني القلب ، بعض الناس تنهاهم مثلًا عن شيء من الأشياء ، أعفِ اللحية ، حرام عليك أنك تحلقها ، فيقول لك : التقوى هاهنا ، أين التقوى ؟ لو اتقى ما هاهنا لاتقى ما هاهنا - يعني لو اتقى القلب اتقت الجوارح - بعض الناس تنصحه في طول الثوب ، تجد ثوبه إلى أسفل من كعبه ، تنصحه في ذلك ، فيقول لك : التقوى هاهنا أين التقوى ؟ لو كان عندك تقوى في قلبك ، لاتقيت اللَّه تعالى في قولك وفعلك ؛ لأنه إذا صلحت صلح الجسد كله ، لكن بعض الناس - والعياذ باللَّه - يجادل بالباطل كالكافرين ، جادلوا بالباطل ليدحضوا به الحق ، ومع ذلك لا يخفى جدالهم بالباطل على من عنده بصيرة ، فإنه يعرف أن هذا جدل ليس له أصل بل هو باطل ، وهذا الحديث الذي ذكره المؤلف بألفاظه ، ينبغي للإنسان أن يتخذه مسارًا له ومنهجًا يسير عليه ويبني عليه حياته ؛ فإنه جامع لكثير من مسائل الأخلاق التي إذا تجنبها الإنسان حصل على خير كثير . واللَّه الموفق .

* * *

١٥٧١ - وعَنْ مُعَاوِيَةَ ﷺ قالَ : سَمِعْتُ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ يَقُولُ : « إِنَّكَ إِنِ اتَّبَعْتَ عَوَرَاتِ المُسْلِمِينَ أَفْسَدْتَهُمْ ، أَو كِدْتَ أَنْ تُفسِدَهُم » (٢) حديثٌ صحيحٌ . رواهُ أبو داود بإسنادٍ صحيح .

١٥٧٢ - وعَنِ ابْنِ مسعودٍ ﷺ أَنَّهُ أُتِيَ بِرَجُلٍ فَقِيلَ لَهُ : هذَا فُلانٌ تَقْطُرُ لِحيَتُهُ خَمرًا ، فقالَ : إِنَّا قَدْ نُهِينَا عَنِ التَّجَسُّسِ ، وَلكِنْ إن يَظهَرْ لَنَا شَيءٌ ، نَأْخُذْ بِهِ (٣) . حَديثٌ حَسَنٌ صَحيحٌ .

رواه أبو داود بإسْنادٍ عَلى شَرْطِ البخاريِّ ومسلمٍ .

* * *

٢٧٢ - باب النّهي عَنْ سُوء الظن بالمسلمين من غير ضرورة

قال اللَّه تعالى : ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱجْتَنِبُواْ كَثِيرًا مِّنَ ٱلظَّنِّ إِنَّ بَعْضَ ٱلظَّنِّ إِثْمٌ ﴾ [الحجرات : ١٢] .

١٥٧٣ - وعنْ أبي هُرَيرَةَ ﷺ أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ قَالَ : « إيَّاكُم وَالظَّنَّ ؛ فإنَّ الظَّنَّ أَكذَبُ الحَدِيثِ » (٤) متفقٌ عليه .

---

(١) أخرجه البخاري في الإيمان (٥٩) ، ومسلم في المساقاة (١٠٣) ، والبيهقي في السنن (٥/٢٦٤) .

(٢) أخرجه أبو داود في الأدب (٤٨٨٨) ، والطبراني في الكبير (١٩/٣٧٩) ، قوله : « إنك إن اتبعت عورات المسلمين» أي إذا تجسست على المسلمين وكشفت ما يخفونه .

(٣) أخرجه أبو داود في الأدب (٤٨٩٠) قوله : « نأخذ به » أي نعامله بمقتضاه من حد وتعزير .

(٤) أخرجه البخاري في الأدب (٤٠٦٤) ، ومسلم في البر والصلة (٢٥٦٣) ، وأحمد في مسنده ٢/٤٣٢ . « والظن» أي احذروا الظن السيئ . والظن هو ما يهجس في النفس .

الشرح

هذه الأحاديث من الأحاديث التي يتبين فيها أن الإنسان لا يتجسس على إخوانه المسلمين ، ولا يتتبع عوراتهم بل ما ظهر منها فإنه يعامل من أظهرها بما يليق به ، وما لم يظهر فلا يجوز التجسس ولا التحسس ، كما في حديث معاوية ﷺ ، أن الإنسان إذا تتبع عورات المسلمين أهلكهم أو كاد أن يهلكهم ، لأن كثيرًا من الأمور تجري بين الإنسان وبين ربه ، لا يعلمها إلا هو ، فإذا لم يعلم بها أحد وبقي عليه ستر الله ﷻ ، وتاب إلى ربه وأناب حسنت حاله ، ولم يطلع على عورته أحد ، ولكن إذا كان الإنسان والعياذ بالله يتتبع عورات الناس ، ماذا قال فلان وماذا فعل ، وإذا ذُكر له عورة مسلم ، ذهب يتجسس ، إما أن يصرح ، وإما أن يلمح فيقول مثلًا ، قالوا : إن فلانًا قال كذا وكذا أو فعل كذا وكذا فينشر ما عنده عند الخلق والعياذ بالله ، وفي الحديث عن النبي ﷺ أنه قال : « يا معشر من آمن بلسانه ، ولم يدخل الإيمان قلبه لا تؤذوا المسلمين ولا تتبعوا عوراتهم ، فإن من تتبع عورة أخيه ، تتبع الله عورته ومن تتبع الله عورته فضحه ولوفي بيت أمه » نسأل الله العافية جزاءًا وفاقًا ، مثل من تتبع عورات المسلمين ليفضحهم ، يتتبع الله ﷻ عورته حتى يفضحه « نسأل الله العافية » ولا يغنيه جدران ولا ستور ، وكذلك حديث ابن مسعود ﷺ أنه أتى برجل تقطر لحيته خمرًا ، لكنه شربه مختفيًا ، ولكن هؤلاء القوم تجسسوا عليه حتى أخرجوا على هذه الحالة ، فبين ﷺ أن من أبدى لنا عورته أو عيبه أخذناه به ، ومن استتر بستر الله فلا نؤاخذه ، وهذا أيضًا يدل على أنه لا يجوز التجسس ، وكذلك حديث أبي هريرة في الباب الذي يليه وقد سبق الكلام عليه أن النبي ﷺ قال : « إياكم والظن فإن الظن أكذب الحديث » وكذلك الآية التي قبله ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱجۡتَنِبُواْ كَثِيرٗا مِّنَ ٱلظَّنِّ ﴾ تكلمنا عليها فيما سبق . والله الموفق .

* * *

٢٧٣ - باب تحريم احتقار المسلمين

قال الله تعالى : ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا يَسۡخَرۡ قَوۡمٞ مِّن قَوۡمٍ عَسَىٰٓ أَن يَكُونُواْ خَيۡرٗا مِّنۡهُمۡ وَلَا نِسَآءٞ مِّن نِّسَآءٍ عَسَىٰٓ أَن يَكُنَّ خَيۡرٗا مِّنۡهُنَّۖ وَلَا تَلۡمِزُوٓاْ أَنفُسَكُمۡ وَلَا تَنَابَزُواْ بِٱلۡأَلۡقَٰبِۖ بِئۡسَ ٱلِٱسۡمُ ٱلۡفُسُوقُ بَعۡدَ ٱلۡإِيمَٰنِۚ وَمَن لَّمۡ يَتُبۡ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلظَّٰلِمُونَ ﴾ [الحجرات : ١١] . وقال تعالى : ﴿ وَيۡلٞ لِّكُلِّ هُمَزَةٖ لُّمَزَةٍ ﴾ [1] [الهمزة : ١] .

الشرح

ذكر المؤلف رحمه الله تحريم احتقار المسلم ، احتقار المسلم هو ازدراؤه والسخرية به ، والاستهزاء به ، والحط من قدره ، وما أشبه ذلك ، وهذا محرم لما فيه من العدوان على أخيك المسلم الذي يجب أن

(١) قوله : ﴿ تَلۡمِزُوٓاْ ﴾ أي لا يعب بعضكم بعضًا . واللمز : الطعن بالنسب . قوله : ﴿ تَنَابَزُواْ ﴾ أي يدعو بعضكم بعضًا باللقب السوء . قوله : ﴿ ٱلۡفُسُوقُ ﴾ أي السخرية واللمز والتنابز . قوله : ﴿ وَيۡلٞ ﴾ واد في جهنم . قوله : ﴿ هُمَزَةٖ ﴾ هو المغتاب قوله : ﴿ لُّمَزَةٍ ﴾ هو الذي يعيب الناس ويطعن فيهم .

تحترمه وأن تكن له كل تقدير ، لأنه أخوك والمؤمن أخو المؤمن كما قال النبي ﷺ [(١)] ، ثم استدل المؤلف رحمه الله بقوله تعالى : ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا يَسۡخَرۡ قَوۡمٞ مِّن قَوۡمٍ عَسَىٰٓ أَن يَكُونُواْ خَيۡرٗا مِّنۡهُمۡ وَلَا نِسَآءٞ مِّن نِّسَآءٍ عَسَىٰٓ أَن يَكُنَّ خَيۡرٗا مِّنۡهُنَّۖ ﴾ فوجّه الله الخطاب إلى المؤمنين ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ﴾ وتوجيه الخطاب للمؤمن يدل على أن ما يتلى عليه فهو من مقتضيات الإيمان وأن فقده ومخالفته نقص في الإيمان ، كما أن تصدير الحكم بالنداء يدل على الاهتمام به ، لأن النداء يعني تنبيه المخاطب لما يُلقى إليه ، يقول : ﴿لَا يَسۡخَرۡ قَوۡمٞ مِّن قَوۡمٍ ﴾ وهم الرجال ﴿ وَلَا نِسَآءٞ مِّن نِّسَآءٍ ﴾ وهن النساء الآيات ، والسخرية قد تكون في هيئته ، يسخر من هيئة هذا الرجل ، وقد يكون كذلك في خلقته ، يسخر من خلقته قصرًا أو طولًا ، أو ضخامةً أو نحافة أو ما أشبه ذلك ، ويكون كذلك سخرية بكلامه وتقليد كلامه ، استهزاءً وسخرية ، كما يفعل بعض السفهاء ، يقلد بعض القراء أو بعض العلماء ، يقلد أصواتهم سخرية واستهزاء - والعياذ بالله - ويكون كذلك في المعاملة يسخر به في معاملته الناس وكذلك بالمشية ، المهم أن كل شيء فيه سخرية في أخيك ؛ فإنه داخل في هذه الآية ﴿ لَا يَسۡخَرۡ قَوۡمٞ مِّن قَوۡمٍ عَسَىٰٓ أَن يَكُونُواْ خَيۡرٗا مِّنۡهُمۡ وَلَا نِسَآءٞ مِّن نِّسَآءٍ ﴾ وبين الله عز وجل أنه ربما يكون هؤلاء الذين سخروا منهم . ربما يكونون خيرًا منهم عند الله وعند عباد الله ، ولهذا قال : ﴿ عَسَىٰٓ أَن يَكُونُواْ خَيۡرٗا مِّنۡهُمۡ ﴾ هذا في القوم ﴿ عَسَىٰٓ أَن يَكُنَّ خَيۡرٗا مِّنۡهُنَّۖ ﴾ هذا في النساء ﴿ وَلَا تَلۡمِزُوٓاْ أَنفُسَكُمۡ ﴾ أي لا تعيبوها ، وقول ﴿ أَنفُسَكُمۡ ﴾ من المعلوم أن الإنسان لن يعيب نفسه ، لكنه لما كان المؤمنون أخوة ، صار أخوك كنفسك ، فقوله : ﴿ وَلَا تَلۡمِزُوٓاْ أَنفُسَكُمۡ ﴾ يعني لا تلمزوا إخوانكم ، لكنه عبر بالنفس ليتبين أن أخوك بمنزلة نفسك ، فكما أنك تكره أن تلمز نفسك ، تكره أن تلمز أخاك ﴿ وَلَا تَنَابَزُواْ بِٱلۡأَلۡقَٰبِۖ ﴾ ينبز بعضكم بعضًا باللقب ، سخرية به ، إما أن يكون مثلًا يعزى إلى قبيلة فيها شيء من اللقب المكروه ، فينسبه إليها ، أو قبيلة فيها شيء من اللقب المضحك فينسبه إليها ، وما أشبه ذلك مما يكون نبذًا بالألقاب ، ﴿ بِئۡسَ ٱلِٱسۡمُ ٱلۡفُسُوقُ بَعۡدَ ٱلۡإِيمَٰنِۚ ﴾ يعني إنكم إن فعلتم ذلك كنتم من الفاسقين ، و ﴿ بِئۡسَ ٱلِٱسۡمُ ٱلۡفُسُوقُ بَعۡدَ ٱلۡإِيمَٰنِۚ ﴾ فالإنسان إذا لمز أخاه أو سخر منه أو ما أشبه ذلك ، فإنه يكون بذلك فاسقًا وهذا يدل على أن السخرية من المؤمنين وأن لمزهم وأن منابزتهم بالألقاب كلها من كبائر الذنوب ﴿ وَمَن لَّمۡ يَتُبۡ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلظَّٰلِمُونَ ﴾ يعني من استمر على هذا ولم يتب إلى الله عز وجل فإنه ظالم .

ثم ذكر المؤلف رحمه الله آية أخرى وهي : ﴿وَيۡلٞ لِّكُلِّ هُمَزَةٖ لُّمَزَةٍ ﴾ وويل هذه كلمة وعيد جاءت في القرآن في عدة مواضع ، وكلها تفيد الوعيد والتهديد على من فعل هذا ، ﴿لِّكُلِّ هُمَزَةٖ لُّمَزَةٍ ﴾ أي يعيب غيره ، تارة بالهمز وتارة باللمز ، فاللمز باللسان ، والهمز بالجوارح ، فالهمزة اللمزة متوعد بهذا ، بالويل والعياذ بالله ، ثم ذكر المؤلف أحاديث يأتي الكلام عليها إن شاء الله .

* * *

١٥٧٤ - وعنْ أبي هُرَيرَةَ رضي الله عنه أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ قَالَ : « بِحَسْبِ امْرِئٍ مِنَ الشَّرِّ أَنْ يَحقِرَ أَخَاهُ

---

(١) انظر الحديث في البخاري في اللقطة (٢٤٤٦) ، ومسلم في البر والصلة (٣٢) ، وابن ماجه في السنن (٢١١٩) ، وأحمد في مسنده (٤٩١/٣) ، وأبو داود في السنن (٣٣٥٦) .

المُسْلِمَ » [(١)] .

رواه مسلم ، وقد سبق قريبًا بطوله .

١٥٧٥ – وعَن ابْنِ مسعُودٍ ﷺ عَن النبيِّ ﷺ قالَ : « لا يَدْخُلُ الجَنَّةَ مَنْ كانَ في قَلْبِهِ مِثْقَالُ ذَرَّةٍ مِنْ كِبْرٍ » فَقَالَ رَجُلٌ : إنَّ الرَّجُلَ يُحِبُّ أنْ يَكُونَ ثَوبُهُ حَسَنًا ، وَنَعْلُهُ حَسَنَةً ، فَقَال : « إنَّ اللَّهُ جَمِيلٌ يُحِبُّ الجَمَالَ ، الكِبْرُ بَطَرُ الحَقِّ ، وَغَمْطُ النَّاسِ » [(٢)] رواه مسلم .

وَمَعْنَى « بطر الحَقِّ » : دَفْعُه ، « وَغَمْطُهُم » : احْتِقارُهُم ، وَقَدْ سَبَقَ بَيَانُهُ أَوْضَحَ مِنْ هذا في بابِ الكِبرِ .

١٥٧٦ – وعَن جُنْدُب بْنِ عبدِ اللَّهِ ﷺ قَالَ : قالَ رسُولُ اللَّهِ ﷺ : « قالَ رَجُلٌ : واللَّهِ لا يَغْفِرُ اللَّه لِفُلانٍ ، فقالَ اللَّه ﷻ : مَنْ ذا الَّذِي يَتَأَلَّى عَليَّ أَنْ لا أَغفِرَ لفُلانٍ ؟! إنِّي قَد غَفَرْتُ لَهُ ، وَأَحْبَطْتُ عَمَلَكَ » [(٣)] رواه مسلم .

الشرح

هذه الأحاديث في بيان تحريم احتقار المسلم ، وقد سبق الكلام على الآيتين اللتين ساقهما المؤلف رحمه الله أما هذه الأحاديث فمنها حديث أبي هريرة ﷺ أن النبي ﷺ قال : « بحسب امرئ من الشر أن يحقر أخاه المسلم » بحسب ، حسب هنا بمعنى كافي ، يعني يكفي المؤمن من الشر أن يحقر أخاه المسلم ، وهذا تعظيم لاحتقار المسلم ، وأنه شر عظيم ، لو لم يأتِ الإنسان من الشر إلا هذا ، لكان كافيًا ، فلا تحقرن أخاك المسلم ، لا في خلقته ، ولا في ثيابه ، ولا في كلامه ، ولا في خلقه ، ولا غير ذلك ، أخوك المسلم حقه عليك عظيم ، فعليك أن تحترمه وأن توقره ، وأما احتقاره فإنه محرم ، ولا يحلُّ لك أن تحتقره ، وكذلك حديث ابن مسعود وحديث جندب بن عبد اللّه ﷺ كلاهما يدل على تحريم احتقار المسلم ، وأنه لا يحل ، حتى إن النبي ﷺ لما حدث بحديث ابن مسعود ، أنه « لا يدخل الجنة من في قلبه مثقال ذرة من كبر » قالوا : يا رسول اللّه : « إن الرجل يحب أن يكون ثوبه حسنًا ونعله حسنًا » ظن الصحابة ﷺ أن الإنسان إذا تلبس لباسًا حسنًا وانتعل نعلًا حسنًا ، أن هذا من التعاظم والتعالي والتكبر ، فبين لهم النبي ﷺ أن ليس الأمر كذلك قال : «إن اللّه جميل يحب الجمال » جميل بذاته جل وعلا وبأفعاله وبصفاته ، وكذلك يحب الجمال ؛ يعني يحب التجمل ، وكلما كان الإنسان متجملًا ، كان ذلك أحب إلى اللّه إذا كان هذا التجمل مما يسعه ، يعني ليس فقيرًا يذهب يتكلف الثياب الجميلة أو النعل الجميلة ، لكنه قد أنعم اللّه عليه وتجمل ، فإن اللّه تعالى يحب أن يرى أثر نعمته على عبده .

---

(١) أخرجه مسلم في البر والصلة (٣٢) ، والترمذي في البر والصلة (١٩٢٧) ، والبيهقي ٩٢/٦ .

(٢) أخرجه مسلم في الإيمان (١٤٧) ، والترمذي في البر والصلة (١٩٩٨) ، وأبو داود في اللباس (٤٠٩١) .

(٣) أخرجه مسلم في البر والصلة (١٣٧) ، والطبراني في الكبير ١٧٧/٢ قوله : « يتألى » أي يحلف . قوله : «أحبطت عملك » أي أبطلت ثواب عملك .

وكذلك حديث جندب بن عبد اللَّه ﷺ : أن النبي ﷺ أخبر أن رجلًا قال : « واللَّه لا يغفر اللَّه لفلان » ، وكان هذا الرجل عابدًا معجبًا بعمله محتقرًا لأخيه الذي رآه مفرطًا ، فأقسم أن اللَّه لا يغفر له ، فقال اللَّه ﷻ : « من ذا الذي يتألى عليَّ أن لا أغفر لفلان » يعني من ذا الذي يحلف علي أن لا أغفر لفلان ، والفضل بيد اللَّه يأتيه من يشاء ، « إني قد غفرت له وأحبطت عملك » أعوذ باللَّه ، تكلم بكلمة أوبقت دنياه وآخرته ، أهلكته ؛ لأنه قال ذلك معجبًا بنفسه ، محتقرًا لأخيه فأقسم أن اللَّه لا يغفر له ، فغفر اللَّه لهذا الرجل ، لأن معاصيه دون الشرك ، أو لأن اللَّه تعالى منَّ عليه فتاب ، وأما الآخر فأحبط عمله ؛ لأنه أعجب بعمله - والعياذ باللَّه - وتألى على ربه ، وأقسم عليه أن لا يغفر لفلان ، واللَّه تعالى كامل السلطان ، لا يتألى عليه أحد ، ولكن إذا حسن ظن المرء بربه ، وتألَّى على اللَّه في أمر ليس فيه عدوان على الغير ، فإن النبي ﷺ قال : « رُبَّ أشعث أغبر مدفوع بالأبواب لو أقسم على اللَّه لأبره » [(١)] واللَّه الموفق .

* * *

٢٧٤ - باب النهي عن إظهار الشماتة بالمسلم

قالَ اللَّهُ تَعالى : ﴿ إِنَّمَا ٱلْمُؤْمِنُونَ إِخْوَةٌ ﴾ [الحجرات : ١٠] . وقالَ تَعالى : ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ يُحِبُّونَ أَن تَشِيعَ ٱلْفَٰحِشَةُ فِى ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ فِى ٱلدُّنْيَا وَٱلْءَاخِرَةِ ﴾ [(٢)] [النور : ١٩] .

١٥٧٧ - وعنْ وَاثِلةَ بْنِ الأسْقَعِ ﷺ قال : قالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ : « لا تُظْهِرِ الشَّمَاتَةَ لأَخِيكَ ، فَيَرْحَمَهُ اللَّهُ وَيَبْتَلِيكَ » [(٣)] رواه الترمذي وقال : حديثٌ حسنٌ .

وفي البابِ حديثُ أبي هريرةَ السابقُ في باب التَّجَسُّسِ : « كُلُّ المُسْلِمِ عَلى المُسْلِمِ حَرَامٌ » الحديثَ .

* * *

٢٧٥ - باب تحريم الطعن في الأنساب الثابتة في ظاهر الشرع

قال اللَّهُ تَعالى : ﴿ وَٱلَّذِينَ يُؤْذُونَ ٱلْمُؤْمِنِينَ وَٱلْمُؤْمِنَٰتِ بِغَيْرِ مَا ٱكْتَسَبُوا۟ فَقَدِ ٱحْتَمَلُوا۟ بُهْتَٰنًا وَإِثْمًا مُّبِينًا ﴾ [(٤)] [الأحزاب : ٥٨] .

١٥٧٨ - وعَنْ أبي هُرَيرَةَ ﷺ قَالَ : قال رَسُولُ اللَّهِ ﷺ : « اثْنَتانِ في النَّاسِ هُمَا بِهِمْ كُفْرٌ : الطَّعْنُ في النَّسَبِ ، وَالنِّيَاحَةُ عَلى المَيِّتِ » [(٥)] رواه مسلم .

---

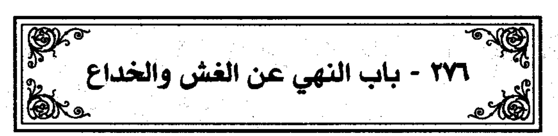
(١) أخرجه مسلم في البر والصلة (١٣٠) .

(٢) قوله : ﴿ تَشِيعَ ﴾ أي تنتشر . قوله : ﴿ ٱلْفَٰحِشَةُ ﴾ أي المنكرات .

(٣) أخرجه الترمذي في صفة القيامة (٢٥٠٦) قوله : « الشماتة » هي الفرح .

(٤) قوله : ﴿ بُهْتَٰنًا ﴾ هو أفحش الكذب .

(٥) أخرجه مسلم في الإيمان (١٢١) وأحمد في مسنده ٣٧٧/٢ بنحوه . قوله : « النياحة » هي رفع الصوت بالبكاء .



٢٧٦ - باب النهي عن الغش والخداع

قَالَ اللَّه تعالى : ﴿ وَٱلَّذِينَ يُؤْذُونَ ٱلْمُؤْمِنِينَ وَٱلْمُؤْمِنَٰتِ بِغَيْرِ مَا ٱكْتَسَبُوا۟ فَقَدِ ٱحْتَمَلُوا۟ بُهْتَٰنًا وَإِثْمًا مُّبِينًا ﴾ [الأحزاب : ٥٨] .

١٥٧٩ - وَعَنْ أبي هُرَيرَةَ ﷺ أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ قَالَ : « مَنْ حَمَلَ عَلَينَا السِّلاحَ فَلَيسَ مِنَّا ، وَمَنْ غَشَّنَا فَلَيسَ مِنَّا » رواه مسلم .

وفي روايةٍ لَهُ : أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ مَرَّ عَلى صُبْرَةِ طَعَامٍ ، فَأَدْخَلَ يدَهُ فِيهَا ، فَنَالَتْ أَصَابِعُهُ بَلَلًا ، فَقَالَ : « مَا هذَا يَا صَاحِبَ الطَّعَامِ ؟ » قَالَ : أَصَابَتْهُ السَّمَاءُ يَا رَسُولَ اللَّهِ ، قَالَ : « أَفَلا جَعَلْتَه فَوقَ الطَّعَامِ حَتَّى يَرَاهُ النَّاسُ ؟! مَنْ غَشَّنَا فَلَيسَ مِنَّا » (١) .

١٥٨٠ - وَعَنْهُ أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ قَالَ : « لا تَنَاجَشُوا » (٢) متفقٌ عليه .

١٥٨١ - وَعَنِ ابْنِ عُمَرَ ﷺ أَنَّ النَّبيَّ ﷺ نَهَى عَنِ النَّجَشِ (٣) . متفقٌ عليه .

١٥٨٢ - وَعَنْهُ قَالَ : ذَكَرَ رَجُلٌ لِرَسُولِ اللَّهِ ﷺ أَنَّه يُخْدَعُ في البُيُوعِ ؟ فَقَالَ رَسُولُ اللَّه ﷺ : « مَنْ بَايَعْتَ ، فَقُلْ : لا خِلابَةَ » (٤) متفقٌ عليه .

« الخِلابَةُ » بخاءٍ معجمةٍ مكسورة ، وباءٍ موحدة : وهي الخَدِيعةُ .

١٥٨٣ - وَعَن أبي هُرَيرَةَ ﷺ قَالَ : قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ : « مَنْ خَبَّبَ زَوجَةَ امْرِئٍ ، أَو مَمْلُوكَهُ ، فَلَيسَ مِنَّا » (٥) رواه أبو داود .

« خبب » بخاءٍ معجمة ، ثم باءٍ موحدة مكررة ، أَي : أَفسَدَهُ وَخَدَعَهُ .

الشرح

ذكر المؤلف بابين الأول في الشماتة ، والثاني في الطعن في النسب .

أما الشماتة فهي : التعيير بالذنب أو بالعمل أو حادثة تقع على الإنسان أو ما أشبه ذلك ، فيشيعها الإنسان ويبينها ويظهرها ، وهذا محرم ؛ لأنه ينافي قول اللّه تعالى : ﴿ إِنَّمَا ٱلْمُؤْمِنُونَ إِخْوَةٌ ﴾ فإن الأخ

---

(١) أخرجه مسلم في الإيمان (١٦٤) ، وأحمد في مسنده (٣/٢) ، وابن ماجه في الحدود (٢٥٧٥) ، قوله « صُبْرة طعام » أي كومة مجموعة من الطعام . وسُمّيت صبرة : لإفراغ بعضها على بعض . قوله : « أصابته السماء » أي المطر .

(٢) أخرجه البخاري في البيوع (١١) ، وأحمد في مسنده (٢٧٤/٢) ، والنسائي في السنن (٧١/٦). قوله «لاتناجشوا» أي لايزد أحدكم في ثمن السلعة ، وهو لايريد شراءها لكي يوقع غيره في الشراء .

(٣) أخرجه مسلم في البيوع بلفظه (١٣) ، والبخاري في الأب (٦٠٦٤) بنحوه .

(٤) أخرجه البخاري في البيوع (٢١١٧) ، ومسلم في البيوع (٤٨) ، وأحمد في مسنده (٧٢/٢) ، والبيهقي في السنن (٢٧٣/٥) .

(٥) أخرجه أبو داود في الطلاق (٢١٧٥) ، وأحمد في مسنده (٣٩٧/٢) بنحوه ، والبيهقي في السنن (١٣/٨) بنحوه .

لا يجب أن تظهر الشماتة في أخيه ، وكذلك ينافي قوله تعالى : ﴿ وَالَّذِينَ يُؤْذُونَ الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ بِغَيْرِ مَا اكْتَسَبُوا فَقَدِ احْتَمَلُوا بُهْتَانًا وَإِثْمًا مُبِينًا ﴾ [الأحزاب : ٥٨] .

ثم ذكر المؤلف حديث : « لا تُظْهِرِ الشَّمَاتَةَ لأخيك فَيرحمْهُ اللَّهُ وَيبتَلِيكَ » يعني أن الإنسان إذا عيَّر أخاه في شيء ربما يرحم اللَّه هذا المعيَّر ويشفى من هذا الشيء ويزول عنه ، ثم يبتلي به هذا الذي عيَّره ، وهذا يقع كثيرًا ، ولهذا جاء في حديث آخر ، في صحته نظر لكنه موافق لهذا الحديث : « من عيَّر أخاه بذنب لم يمت حتى يعمله » (١) فإياك وتعيير المسلمين والشماتة فيهم فربما يرتفع عنهم ما عيرتهم به ويحلُّ فيك .

أما الثاني : أي - الباب الثاني - هو الطعن في النسب : فمعناه التعيير بالنسب أو أن ينفي نسبه ، فمثلًا يقول في التعيير : أنت من القبيلة الفلانية التي لا تدفع العدو ولا تحمي الفقير . ويذكر فيها معايب ، أو مثلًا يقول : أنت تدعي أنك من آل فلان ولست منهم ، أنت ما فيك خير ، هؤلاء القبيلة ولو كنت منهم لكان فيك خير ، أو ما أشبه ذلك .

ثم ذكر حديث أبي هريرة ﷺ أن النبي ﷺ قال : « اثنتان في الناس هما بهم كفر : الطعن في النسب ، والنياحة على الميت » يعني خصلتان يفعلهما الناس وهما من خصال الكفر ، الطعن في النسب ، والثانية : النياحة على الميت ، النياحة على الميت أن يبكي عليه النساء أو الرجال أيضًا ، لكن النساء أكثر ، على شبه ما تنوح الحمامة ، يعني : يأتين بالبكاء برنة معروفة ، هذا حرام وقد لعن النبي ﷺ النائحة والمستمعة (٢) . ومن النياحة ما يفعله بعض الناس اليوم ، يجتمعون في بيت الميت ويؤتى إليهم بالطعام أو يصنعون لهم الطعام ويجتمعون عليه ، فإن هذا محرم ؛ لأن النبي ﷺ لعن النائحة والمستمعة ، وهؤلاء نواح ، لحديث جرير بن عبد اللَّه البَجَلي ﷺ قال : « كنا نرى الاجتماع في بيت الميت وصنع الطعام من النياحة » (٣) ، وهو صحابي جليل معروف ، فالصحابة يرون أن هذا من النياحة ، ولهذا ينهى أهل الميت إذا مات الميت أن يفتحوا أبوابهم للعزاء ؛ لأن ذلك منكر وبدعة ، فالصحابة ما كانوا يفعلون ذلك ، ثم هو فيه نوع من الاعتراض على قضاء اللَّه وقدره ، والواجب على الإنسان الرضا والتسليم ، وأن يبقي بابه مغلقًا ، ومن أراد أن يعزيه يجده في السوق أو في المسجد ، بالنسبة للرجال . وأما النساء فلا حاجة إلى فتح الباب لهن واجتماعهن ، فالمهم أن النبي ﷺ قال : إن النياحة من الكفر « اثنتان في الناس هما بهم كفر : الطعن في النسب ، والنياحة على الميت » ولا يغرنَّك يعني الناس ، فإن اللَّه يقول : ﴿ وَإِن تُطِعْ أَكْثَرَ مَن فِي الْأَرْضِ يُضِلُّوكَ عَن سَبِيلِ اللَّهِ ﴾ [الأنعام : ١١٦] وقال تعالى : ﴿ وَمَا أَكْثَرُ النَّاسِ وَلَوْ حَرَصْتَ بِمُؤْمِنِينَ ﴾ [يوسف : ١٠٣] فالمدار ما هو على عمل الناس وأن هذه عادة ، المدار على كتاب اللَّه وسنة رسوله ﷺ وسنة الخلفاء الراشدين

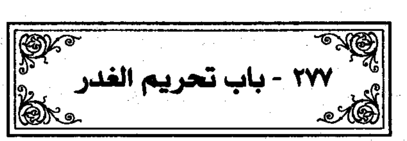
---

(١) أخرجه الترمذي في السنن (٢٥٠٥) ، والمنذري في الترغيب (٣/ ٣١٠) ، والبغوي في شرح السنة (١٣/ ٣١٠) .
(٢) أخرجه أبو داود في السنه (٣١٢٨) ، وأحمد في مسنده ٣/ ٦٥ .
(٣) أخرجه ابن ماجه في الجنائز (١٦١٢) ، وأحمد في مسنده ٢/ ٢٠٤ .

وعمل الصحابة ﷺ ، ما منهم أحد فتح بابه للمعزين أبدًا ، وما اجتمعوا على الأكل بل كانوا يعدون هذا من النياحة ويبتعدون عنه أشد البعد ؛ لأن النياحة كما سمعتم كفر ، يعني من خصال الكفر .

والثاني : أن الرسول ﷺ لعن النائحة والمستمعة . والله الموفق .

* * *



٢٧٧ - باب تحريم الغدر

قَالَ اللَّه تَعالَى : ﴿ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ أَوۡفُواْ بِٱلۡعُقُودِۚ ﴾ [المائدة : ١] . وَقَالَ تَعالَى : ﴿ وَأَوۡفُواْ بِٱلۡعَهۡدِۖ إِنَّ ٱلۡعَهۡدَ كَانَ مَسۡـُٔولٗا ﴾ [الإسراء: ٣٤] .

الشرح

ذكر النووي رحمه الله تحريم الغدر . والغدر هو خيانة الإنسان في موضع الاستئمان ، بمعنى أن يأتمنك أحد في شيء ثم تغدر به ، سواء أعطيته عهدًا أم لم تعطه ، وذلك لأن الذي ائتمنك اعتمد عليك ووثق بك ، فإذا خنته فقد غدرت به .

ثم استدل المؤلف على تحريم الغدر بوجوب الوفاء ؛ لأن الشيء يعرف بضده ، ووجوب الوفاء ساق له المؤلف رحمه الله آيتين ، الآية الأولى قوله تعالى : ﴿ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ أَوۡفُواْ بِٱلۡعُقُودِۚ ﴾ يعني ائتوا بها وافية شاملة على حساب العقد الذي اتفقت مع صاحبك عليه ، وهذا يشمل كل العقود ، يشمل عقود البيع ، فإذا بعت شيئًا على أخيك فالواجب عليك أن تفي بالعقد ، إن كان بينكما شرط فأوفه ، سواء كان عدميًّا أم وجوديًّا ، فمثلًا إذا بعت على أخيك بيتًا واشترطت عليه أن تسكنه لمدة سنة ، فالواجب على المشتري أن يمكنك من هذا وألا يتعرض لك ؛ لأنه شرط عليك أن يسكنه سنة ، وهذا مقتضى العقد ، إذا بعت على أخيك شيئًا واشترطت عليه أن يصبر بالعيب الذي فيه ، يعني قلت : فيه عيب فاصبر به فيجب عليك أن توفي بذلك وأن لا ترده ، وإذا رددته فلا حق لك ، لكن يجب عليك من الأصل ألا ترده .

وهاهنا مسألة يتخذها بعض الناس - والعياذ بالله - وهي حرام : يبيع الشيء ويعرف أن فيه عيبًا ، ثم يقول للمشتري ، ترى ما بعت عليك إلا ما أمامك واصبر بجميع العيوب ، وهذا ما يعرف عندهم في حارات السيارات حارات تحت المكرفون ، تجد السمسار الذي هو الدلال ، تجده ينادي بأعلى صوته ويقول : ترى ما بعت عليك إلا الإطارات ، ما بعت عليك إلا الكبوت ، ما بعت عليك إلا كذا وكذا ، وهو يعلم أن فيها العيب الفلاني لكن لا يذكره خداعًا - والعياذ بالله - لأنه لو ذكره لنقصت القيمة ، فإذا لم يذكره صار المشتري مترددًا ، يحتمل فيها عيب ، يحتمل ما فيها عيب ، فيدفع ثمنًا أكثر مما لو علم بالعيب المعين وهذا الذي باع على هذا الشرط ، ولو التزم المشتري بذلك ، إذا كان بها عيب حقيقة ؛ فإنه لا يبرأ منه يوم القيامة ، سوف يطالب به ولا ينفع هذا الشرط ، الواجب ، إذا علمت في السلعة عيبًا أن تبين أن فيها العيب الفلاني ، نعم لو فُرض أن إنسانًا اشترى

سيارة وبقيت عنده يومًا أو يومين ، ولم يعلم بها عيب ، ولم يشترط عليه عيب ، ثم أراد أن يسْلَم منها قال : بعت عليك هذا الذي أمامك ، معيب أو سليم ، ما علي منها ، فهذا لا بأس به .

والمهم : أن من علم العيب في السلعة يجب أن يبينه ، ومن لم يعلم فله أن يشترط على المشتري أنه لا ردَّ له ، ولا يعود عليه بشيء ، ولا بأس به .

ومن الوفاء بالعقود ما يحصل بين الزوجين عند العقد ، تشترط المرأة شروطًا أو يشترط الزوج شروطًا ، فيجب على من يشترط عليه أن يوفي بالشرط ، مثل أن تشترط عليه ألا تسكن مع أهله ، فيجب عليه أن يوفي ؛ لأن بعض النساء لا ترغب في أن تسكن مع أهل الزوج لكونها سمعت عنهم أنهم نكد ، وأنهم أهل تشويش وأهل نميمة ، فتقول : شرطت ألا أسكن مع أهلك فيجب عليه أن يوفي بذلك ، لأن اللَّه قال : ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ أَوۡفُواْ بِٱلۡعُقُودِۚ ﴾ أو شرطت عليه ألا يخرجها من بيتها ، مثلًا هي ربة أولاد من زوج سابق ، وتزوجها رجل جديد فقالت شرط ألا تخرجني من بيتي ، فيجب عليه أن يوفي بهذا الشرط وألا ينكد عليها ، لا يقول أنا ما أخرجتها من بيتها ، ولكن ينكد عليها حتى تمل وتتعب ، هذا حرام ، لأن اللَّه قال : ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ أَوۡفُواْ بِٱلۡعُقُودِۚ ﴾ اشترطت عليه مهرًا معينًا ، قالت : شرط أن تعطيني مهري مثلًا عشرة آلاف ، يجب عليه أن يوفي ، ولا يماطل ؛ لأنه مشروط عليه ، ولكن لو اشترطت هي أو هو شرطًا فاسدًا ، فإنه لا يقبل ، مثل لو اشترطت عليه ، قالت : شرط أن تطلق زوجتك الأولى ، فهذا الشرط لا يقبل ، ولا يوفى به وذلك ، لأن النبي ﷺ قال : « لا تسأل المرأة طلاق أختها لتدفع ما في إنائها »[(١)] أو قال : « ما في صحفتها »[(٢)] هذا الشرط محرم ، لأنه عدوان على الغير فيكون باطلًا ، ولا يجب الوفاء به ، بل هو لا يجب الالتزام به أصلًا ؛ لأنه شرط فاسد ، أما لو اشترطت ألا يتزوج عليها وقبل فشرطٌ صحيح ؛ لأنه ما فيه عدوان على أحد ، فيه منع الزوج من أمر يجوزله باختياره وهذا لا بأس به ، لأن الزوج هو الذي أسقط حقه وهو ليس فيه عدوان على أحد ، فإذا اشترطت ألا يتزوج عليها فتزوج فلها أن تفسخ النكاح ، رضي أم أبى ، لأنه خالف الشرط .

فالمهم : أن اللَّه أمر بالوفاء بالعقود في كل شيء ، يجب أن تفي بالعقد في كل شيء وألا تخون ولا تغدر ولا تكتم عيبًا ولا تدلس ، ويأتي الكلام - إن شاء اللَّه - على الآية الثانية . واللَّه أعلم .

* * *

١٥٨٤ - وعَنْ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ عَمْرِو بْنِ العَاصِ رضي الله عنهما أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ قَالَ : « أَرْبَعٌ مَنْ كُنَّ فيه كانَ مُنَافِقًا خالِصًا ، وَمَنْ كَانَتْ فيه خَصْلَةٌ مِنْهُنَّ ، كانَ فِيهِ خصْلَةٌ مِنَ النِّفَاقِ حَتَّى يَدَعَهَا : إذا اؤْتُمِنَ

(١) أخرجه البخاري في القدر (٦٦٠١) ، وأبو داود في السنن (٢١٧٦) ، وأحمد في مسنده (٢/٢٧٤) جميعهم بلفظ « لتكفي » بدلًا من لتدفع .

(٢) الترمذي في السنن (١١٩٠) ، والطبراني في الكبير (١٢/٤١٩) .

خَانَ ، وَإذا حَدَّثَ كَذَبَ ، وَإذا عَاهَدَ غَدَرَ ، وَإذا خَاصَمَ فَجَرَ » [١] متفقٌ عليه .

١٥٨٥ - وَعَن ابْنِ مَسْعُودٍ ، وَابْنِ عُمَرَ ، وَأَنَسٍ ﷺ قَالُوا : قَالَ النَّبِيُّ ﷺ : « لِكُلِّ غادِرٍ لِوَاءٌ يَوْمَ القِيَامَةِ ، يُقَالُ : هذِهِ غَدْرَةُ فُلانٍ » [٢] متفقٌ عليه .

١٥٨٦ - وَعَنْ أَبي سَعيد الخُدْرِيِّ ﷺ أَنَّ النَّبيَّ ﷺ قَالَ : « لِكُلِّ غَادِرٍ لِوَاءٌ عِنْدَ اسْتِه يَومَ القِيَامَةِ يُرْفَعُ لَهُ بِقَدْرِ غَدْرِه ، أَلا وَلا غَادِرَ أَعْظَمُ غَدْرًا مِنْ أَمِيرِ عامَّة » [٣] رواه مسلم .

١٥٨٧ - وعَنْ أَبي هُرَيرَةَ ﷺ عَنِ النبيِّ ﷺ قَالَ : « قال اللَّه تعالى : ثَلاثَةٌ أَنا خَصْمُهُمْ يَومَ القِيامَةِ : رَجُلٌ أَعْطَى بي ثُمَّ غَدَرَ ، وَرَجُلٌ بَاعَ حُرًّا فَأَكَلَ ثَمَنَهُ ، وَرَجُلٌ اسْتَأْجَرَ أَجِيرًا ، فَاسْتَوفَى مِنْهُ ، وَلَمْ يُعْطِهِ أَجْرَهُ » [٤] رواه البخاري .

الشرح

ذكر تحريم الغدر ، وقد تقدم معناه ، والكلام على الآية الأولى مما صدر به المؤلف الباب وهي قوله تعالى : ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ أَوۡفُواْ بِٱلۡعُقُودِ ﴾ أما الآية الثانية فهي قول اللَّه تعالى : ﴿ وَأَوۡفُواْ بِٱلۡعَهۡدِۖ إِنَّ ٱلۡعَهۡدَ كَانَ مَسۡـُٔولٗا ﴾ أمر اللَّه أن يوفي بالعهد ، يعني إذا عاهدت أحدًا . وقلت : عليك عهد اللَّه ألا أفعل كذا . أو ألا أخبر بما أخبرتني به أو ما أشبه ذلك ؛ فإنه يجب عليك أن تفي بالعهد ؛ لأن العهد سوف تسأل عنه يوم القيامة ، ولهذا قال : ﴿ إِنَّ ٱلۡعَهۡدَ كَانَ مَسۡـُٔولٗا ﴾ أي : مسئولًا عنه يوم القيامة ، ثم ذكر أحاديث سبق لنا الكلام عليها ، وأعظمها أنه ينصب لكل غادر يوم القيامة لواء ، واللواء ما يكون في الحرب مثل العلم « يرفع لكل غادر لواء تحت استه » والعياذ باللَّه ، أي تحت مقعدته ، ويرتفع هذا اللواء بقدر غدرته إن كانت كبيرة صار كبيرًا ، وإن كانت صغيرة صار صغيرًا ، ويقال : هذه غدرة فلان ابن فلان . والعياذ باللَّه ، وفي هذا الحديث دليل على أن الغدر من كبائر الذنوب ؛ لأن فيه هذا الوعيد الشديد ، وفيه أيضًا أن الناس يُدعَون يوم القيامة بآبائهم لا بأمهاتهم ، وأن ما ذكر من أن الإنسان يوم القيامة يدعى باسم أمه فيقال : يا فلان ابن فلانة ، فليست الحقيقة ، بل إن الإنسان يدعى باسم أبيه كما يدعى به في الدنيا .

وفي الحديث الأخير أيضًا التنبيه على مسألة يفعلها كثير من الناس اليوم ، وهي أنهم يستأجرون

---

(١) أخرجه البخاري في الإيمان (٣٤) ، ومسلم في الإيمان (١٠٦) ، وأحمد في مسنده (١٨٩/٢) ، والبيهقي في السنن (٢٣٠/٩) . قوله : « كان منافقًا خالصًا » أي شديد الشبه بالمنافقين . قوله : « وإذا خاصم فجر » أي إذا خاصم مال عن الحق . وقال : الباطل والكذب .

(٢) أخرجه البخاري في الحيل(٦٩٦٦) ، ومسلم في الجهاد والسير(٩) ، وأحمد في مسنده(٤١٧/١) ، والبيهقي في السنن (١٦٠/٨) قوله : «غادر » هو الذي يواعد على أمر ، ولايفي به . قوله : «لكل غادر علامة يشتهربها بين الناس يوم القيامة .

(٣) أخرجه مسلم في الجهاد والسير (١٥) ، وأحمد في مسنده (٣٥/٣) . قوله : « عند استه » أي خلف ظهره ، وذلك لأن لواء العزة يكون أمام الوجه ، فناسب أن يكون لواء المذلة خلف الظهر زيادة في الفضيحة ؛ لأن الأعين غالبًا تمتد إلى الألوية ، فيكون ذلك سببًا لامتدادها إلى التي بدت له ذلك اليوم ، فيزداد بها فضيحة .

(٤) أخرجه البخاري في البيوع(٢٢٢٧) ، وابن ماجه في الرهون(٢٤٤٢). قوله : «أعطى بي » أي حلف باللَّه أن يؤدي ما عليه .

الأجراء ولا يعطون لهم أجرًا ، هذا الذي يفعل يستأجر الأجير ولا يعطيه أجره يكون الله ﷻ خصمه يوم القيامة ، كما قال تعالى في الحديث القدسي : « ثلاثة أنا خصمهم يوم القيامة : رجل أعطى بي ثم غدر » يعني : عاهد بي ثم غدر ، والثاني : « رجل باع حرًّا فأكل ثمنه » حتى لو كان ابنه أو أخاه الأصغر ثم باعه وأكل ثمنه فخصمه الله يوم القيامة ، والثالث : « هذا الرجل الذي استأجر أجيرًا فاستوفى منه وقام الأجير بالعمل كاملًا ثم لم يعطه أجرته » ومن ذلك ما يفعله بعض الناس اليوم في العمال الذي يأتون بهم من الخارج ، تجده يستأجره بأجرة معينة مثلًا ستمائة ريال في الشهر ، ثم إذا جاء به إلى هنا ماطل به وآذاه ولم يؤدِ له حقه ، وربما يقول له تريد أن تبقى هنا بأربعمائة ريال وإلا سافرت ، هذا والعياذ بالله يكون الله خصمه يوم القيامة ، ويأخذ من حسناته ويعطيها هذا العامل ؛ لأن قوله إما أن تعمل بأربعمائة وإلا سفرتك ، هذا استأجره بستمائة ولم يعطه أجره ، فيدخل في هذا الوعيد الشديد ، وهؤلاء الذي يأتون بالعمال ولا يعطونهم أجورهم ، أو يأتون بهم وليس عندهم شغل ، ولكن يتركونهم في الأسواق ، ويقول : اذهب وما حصلته فلي نصفه ، أو مثلًا يقول : اذهب وعليك في الشهر ثلاثمائة ريال أو أربعمائة ريال ، كل هذا حرام والعياذ بالله ، ولا يحل لهم ، وما أكلوه فإنه سحت ، وكل جسد نبت من السحت فالنار أولى به [1] ، وهؤلاء الذين يأكلون أموال هؤلاء العمال المساكين ، هؤلاء لا تقبل لهم دعوة والعياذ بالله ، يدعون الله فلا يستجيب لهم ؛ لأن النبي ﷺ ذكر « الرجل يطيل السفر أشعث أغبر ، يمد يديه إلى السماء : يا رب يا رب . ومطعمه حرام وملبسه حرام ، وغُذي من حرام ، فأنّى يستجاب له » [2] وما يأكل هؤلاء من أجور هؤلاء العمال ؛ فإنهم يأكلونه سحتًا نسأل الله العافية . فعلى الإنسان أن يتقي الله ، أنا أعلم أنكم سوف تبلغون هذا إلى هؤلاء الظلمة والعياذ بالله ، الذين عاقبهم الله عقوبة عاجلة - والعياذ بالله - ما هي العقوبة العاجلة ؟ استمراء هذا العمل والاستمرار فيه والإصرار عليه ، فإن الإصرار على الذنب عقوبة والعياذ بالله إذا لم يمن الله على الإنسان بالتوبة من الذنب ، فاعلم أن استمراره في هذا الذنب عقوبة من الله له ، لأنه لا يزداد بهذا الذنب من الله إلا بعدًا ولا تزداد سيئاته إلا كثرة ، ولا يزيد إيمانه إلا نقصًا . فنسأل الله لنا ولهم الهداية والتوفيق .

* * *

٢٧٨ - باب النهي عن المن بالعطية ونحوها

قَالَ اللَّه تَعالى : ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تُبْطِلُواْ صَدَقَٰتِكُم بِٱلْمَنِّ وَٱلْأَذَىٰ ﴾ [البقرة: ٢٦٤] . وقال تَعالى : ﴿ٱلَّذِينَ يُنفِقُونَ أَمْوَٰلَهُمْ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ ثُمَّ لَا يُتْبِعُونَ مَآ أَنفَقُواْ مَنًّا وَلَآ أَذًى ﴾ [3] [البقرة : ٢٦٢] .

---

(١) وذلك مصداقًا لما رواه الطبراني في الكبير (١٩/١٣٦) .

(٢) أخرجه مسلم في الزكاة (٦٥) ، والدارمي في الرقاق (٩) ، وأحمد في مسنده (٢/٣٢٨) .

(٣) قوله : ﴿بِٱلْمَنِّ ﴾ هو تعداد النعمة على المنعم عليه .

١٥٨٨ - وعنْ أبي ذَرٍّ ﷺ عَنِ النبيِّ ﷺ قالَ : « ثلاثةٌ لا يُكَلِّمُهمُ اللَّهُ يومَ القِيامَةِ ، وَلا يَنْظُرُ إلَيهِمْ ، وَلا يُزَكِّيهِمْ ، وَلَهُمْ عَذابٌ أليمٌ » قالَ : فَقَرَأَهَا رَسُولُ اللَّهِ ﷺ ثَلاثَ مَرَّاتٍ . قالَ أبو ذَرٍّ : خَابُوا وَخَسِرُوا ، مَنْ هُمْ يا رسولَ اللَّهِ ؟ قال : « المُسْبِلُ ، وَالمَنَّانُ ، وَالمُنَفِّقُ سِلْعتَهُ بالحَلِفِ الكاذِبِ » [1] رواه مسلم .

وفي روايةٍ له : « المسْبِل إزارَهُ » يَعْني : المسْبِلُ إزَارَهُ وَثَوبَهُ أسْفَلَ مِنَ الكَعْبَيْنِ للخُيلاءِ .

الشرح

ذكر المؤلف - رحمه اللَّه تعالى - : تحريم المن بالعطاء والصدقة ونحوها ، وذلك أن الإنسان إذا أعطى أحدًا من الناس عطاء ، إن كان صدقة ؛ فقد أعطاه للَّه ﷻ وإن كان إحسانًا ؛ فالإحسان مطلوب ، فإذا كان كذلك ؛ فإنه لا يجوز للإنسان أن يمن بالعطية ، فيقول : أنا أعطيتك كذا ، أنا أعطيتك كذا ، سواء قاله في مواجهته أو في غير مواجهته ، مثل أن يقول بين الناس : أعطيت فلانًا كذا ، وأعطيت فلانًا كذا ، ليَمُنَّ بذلك عليه ، ثم استدل المؤلف لذلك بقوله تعالى : ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تُبْطِلُواْ صَدَقَٰتِكُم بِٱلْمَنِّ وَٱلْأَذَىٰ ﴾ فدل هذا على أن الإنسان إذا منَّ فإن الصدقة تبطل ولا ثواب له فيها وهو من كبائر الذنوب ، وقال تعالى : ﴿ ٱلَّذِينَ يُنفِقُونَ أَمْوَٰلَهُمْ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ ثُمَّ لَا يُتْبِعُونَ مَآ أَنفَقُواْ مَنًّا وَلَآ أَذًىۙ لَّهُمْ أَجْرُهُمْ عِندَ رَبِّهِمْ وَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴾ .

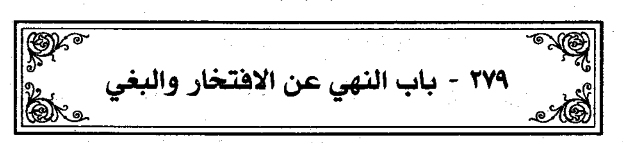
ثم ذكر حديث أبي ذر ﷺ أن النبي ﷺ قال : « ثلاثة لا يكلمهم اللَّه يوم القيامة ولا ينظر إليهم ولا يزكيهم ولهم عذاب أليم : المسبل ، والمنان ، والمنفق سلعته بالحلف الكاذب » .

« المسبل » : يعني الذي يجر إزاره أو قميصه أو مشلحه خيلاء وتبخترًا ، فهذا له هذا العقاب الشديد ، لا يكلمه اللَّه يوم القيامة ولا يزكيه وله عذاب أليم .

« والمنان » : المنان بما أعطى إذا أعطى أحدًا شيئًا صار يمنُّ به .

« والمنفق سلعته بالحلف الكاذب » : يعني الذي يحلف على السلعة حلفًا كاذبًا لأجل أن تزيد قيمتها ، هذا أيضًا من الذين لا يكلمهم اللَّه يوم القيامة ولا يزكيهم ، ولهم عذاب أليم . واللَّه الموفق .

* * *



٢٧٩ - باب النهي عن الافتخار والبغي

قَالَ اللَّهُ تَعَالى : ﴿ فَلَا تُزَكُّوٓاْ أَنفُسَكُمْۖ هُوَ أَعْلَمُ بِمَنِ ٱتَّقَىٰٓ ﴾ [النجم : ٣٢] . وقالَ تعالى : ﴿ إِنَّمَا ٱلسَّبِيلُ عَلَى ٱلَّذِينَ يَظْلِمُونَ ٱلنَّاسَ وَيَبْغُونَ فِى ٱلْأَرْضِ بِغَيْرِ ٱلْحَقِّۚ أُوْلَٰٓئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴾ [الشورى : ٤٢] .

---

(١) أخرجه مسلم في الإيمان (١٧) ، والبخاري في الأحكام (٧٢١٢) ، وأحمد في المسند (٢/ ٤٨٠) . قوله « ولاينظر إليهم » أي أنه يعرض عنهم . قوله : « ولايزكيهم » أي لايطهرهم من دنس ذنوبهم . قوله : « ولهم عذاب أليم » أي مؤلم ، وهو العذاب الذي يخلص إلى قلوبهم وجعه .

١٥٨٩ - وَعَنْ عِياضِ بْنِ حِمَارٍ ﷺ قَالَ : قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ : « إنَّ اللَّهَ تَعالى أَوحى إليَّ أَنْ تَوَاضَعُوا حَتّى لا يَبْغِيَ أَحَدٌ عَلى أَحَدٍ ، ولا يَفْخَرَ أَحدٌ على أَحَدٍ » (١) رواه مسلم .

قالَ أهلُ اللغة : « البَغْي » : التَّعدِّي وَالاسْتِطالَةُ .

الشرح

ذكر النووي رحمه الله النهي عن الافتخار والبغي .

الافتخار : أن يتمدح الإنسان في نفسه ويفتخر بما أعطاه اللَّه تعالى من نعمة ، سواء نعمة الولد أو المال أو العلم أو الجاه أو قوة البدن ، أو ما أشبه ذلك ، المهم أن يتمدح الإنسان بما أنعم اللَّه عليه فخرًا وعلوًّا على الناس ، وأما التحدث بنعمة اللَّه على وجه إظهار نعمة اللَّه على العبد ، مع التواضع فإن هذا لا بأس به ، لقول اللَّه تعالى : ﴿ وَأَمَّا بِنِعْمَةِ رَبِّكَ فَحَدِّثْ ﴾ [الضحى : ١١] ولقول النبي ﷺ : « أنا سيد ولد آدم يوم القيامة ولا فخر » (٢) .

فقال : « ولا فخر » يعني لا أفتخر بذلك وأزهو بنفسي .

وأما البغي : فهو العدوان على الغير ، وهو أن يعتدي الإنسان على غيره ؛ إما على ماله ، أو على بدنه ، أو على أهله ، أو على مقامه وما أشبه ذلك ، فالعدوان أنواعه كثيرة ، لكن يضمها كلها أنه انتهاك لحرمة أخيه المسلم ، وهذا أيضًا محرم . ثم استدل المؤلف بقول اللَّه ﷻ : ﴿ فَلَا تُزَكُّوٓا أَنفُسَكُمْ هُوَ أَعْلَمُ بِمَنِ اتَّقَىٰٓ ﴾ فنهى اللَّه ﷻ عباده أن يزكوا أنفسهم ، يعني أن يمدحوها افتخارًا على الخلق ، فيقول مثلًا لصاحبه : أنا أعلم منك ، أنا أكثر منك طاعة ، أنا أكثر منك مالًا . وما أشبه ذلك ، فهذا - نسأل اللَّه العافية - تزكية للنفس ونوع من الافتخار ولا يعارضه قول اللَّه تعالى : ﴿ قَدْ أَفْلَحَ مَن زَكَّىٰهَا ﴾ [الشمس : ٩] وذلك أن التزكية المنهي عنها هي أن الإنسان يفتخر ويعلو ويزهو بما أعطاه اللَّه تعالى من خير ومن عبادة ومن علم .

وأما : ﴿ قَدْ أَفْلَحَ مَن زَكَّىٰهَا ﴾ فالمراد من سلك بها طريق الزكاة واجتنب طريق الردى ، ولهذا قال : ﴿ وَقَدْ خَابَ مَن دَسَّىٰهَا ﴾ وهذه الآيات المتشابهات في القرآن يتخذ منها أهل الباطل حجة في التلبيس على الناس ، يقول : انظر إلى القرآن تارة يقول : ﴿ فَلَا تُزَكُّوٓا أَنفُسَكُمْ ﴾ وتارة يمدح من زكّى نفسه ، ولكن هؤلاء كما وصفهم اللَّه تعالى هم الذي في قلوبهم زيغ - والعياذ باللَّه - كما قال اللَّه تعالى : ﴿ هُوَ الَّذِىٓ أَنزَلَ عَلَيْكَ الْكِتَٰبَ مِنْهُ ءَايَٰتٌ مُّحْكَمَٰتٌ هُنَّ أُمُّ الْكِتَٰبِ وَأُخَرُ مُتَشَٰبِهَٰتٌ فَأَمَّا الَّذِينَ فِى قُلُوبِهِمْ زَيْغٌ فَيَتَّبِعُونَ مَا تَشَٰبَهَ مِنْهُ ابْتِغَآءَ الْفِتْنَةِ وَابْتِغَآءَ تَأْوِيلِهِۦ ﴾ [آل عمران : ٧] وإلا فالقرآن لا يمكن أبدًا أن يكون فيه شيء متناقض ، كما قال اللَّه تعالى : ﴿ وَلَوْ كَانَ مِنْ عِندِ غَيْرِ اللَّهِ لَوَجَدُوا فِيهِ اخْتِلَٰفًا كَثِيرًا ﴾ [النساء : ٨٢] أما القرآن فلا اختلاف فيه ، وقد أورد نافع بن الأزرق الخارجي المشهور عن ابن عباس رضي الله عنهما كثيرًا من الآيات المتشابهات التي ظاهرها

(١) أخرجه مسلم في الجنة وصفة نعيمها (٦٣) ، وابن ماجه في الزهد (٤٢١٤) ، والطبراني في الكبير (٣٦٥/١٧) . قوله « أوحى إلي أن تواضعوا » أمرني وإياكم بالتواضع والمبالغة فيه . قوله : « لا يبغي أحد » أي لا يستطيل أحد بعلمه أو جاهه أو ماله .

(٢) أخرجه مسلم في الفضائل (٣) ، والترمذي في السنن (٣١٤٨) ، وأحمد في مسنده (٢٨١/١) .

التعارض ، وأجاب عنها ﷺ في آيات متعددة ذكرها السيوطي في « الإتقان في علوم القرآن » .

ثم استدل على تحريم البغي بقول الله تعالى : ﴿ إِنَّمَا ٱلسَّبِيلُ عَلَى ٱلَّذِينَ يَظْلِمُونَ ٱلنَّاسَ وَيَبْغُونَ فِى ٱلْأَرْضِ بِغَيْرِ ٱلْحَقِّ ﴾ [الشورى : ٤٢] السبيل : التبعة واللوم والمذمة على هؤلاء الذين يظلمون الناس في أموالهم ، أو في أعراضهم ، أو في أنفسهم ، أو في أهليهم ، هؤلاء هم الذين عليهم السبيل والتبعة ﴿ وَيَبْغُونَ فِى ٱلْأَرْضِ بِغَيْرِ ٱلْحَقِّ ﴾ يعني يعتدون بغير الحق ، وإنما وصف الله البغي بغير حق ، لأنه حقيقةً ليس بحق ، كل البغي فهو بغير الحق ، فالقيد هنا ليس للاعتراض بل هو لبيان الواقع ، وهو أن كل شيء من البغي فإنه بغير الحق ، وهذا يرد في القرآن كثيرًا ، أن تجد قيدًا يبين الواقع وليس قيدًا يخرج ما سواه ، مثل قوله تعالى : ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱعْبُدُوا۟ رَبَّكُمُ ٱلَّذِى خَلَقَكُمْ وَٱلَّذِينَ مِن قَبْلِكُمْ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ ﴾ [البقرة : ٢١] فهنا ليس هناك ربٌ لم يخلقنا وربٌ خلقنا ، بل هو لبيان الواقع أن الرب هو الذي خلقنا وهو الذي رزقنا ، فالحاصل أن الله تعالى بين أن السبيل على الذين يظلمون الناس ويبغون في الأرض بغير الحق ، ثم ذكر حديث عياض بن حمار أن النبي ﷺ قال : « إن الله أوحى إليَّ أن لا يبغي أحد على أحد » هذا الشاهد من الحديث ، وهذا يدل على أن البغي أمر عظيم ، فيه عناية من الله ﷻ يبين لعباده أنه لا يبغي أحدٌ على أحد ، وأن الإنسان يتواضع لله ﷻ ، ويتواضع في الحق . والله الموفق .

* * *

١٥٩٠ - وَعَنْ أَبي هُرَيرَةَ ﷺ أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ قَالَ : « إذا قَالَ الرَّجُلُ : هَلَكَ النَّاسُ ؛ فَهُوَ أَهْلَكُهُمْ » (١) رواه مسلم .

الرِّوَايَةُ المَشْهُورَةُ : « أَهْلَكُهُمْ » بِرَفعِ الكَافِ ، ورُويَ بِنَصْبِهَا . وَهذَا النَّهْيُ لمنْ قَالَ ذلكَ عُجْبًا بِنَفْسِهِ ، وَتَصَاغُرًا للنَّاسِ ، وَارْتِفاعًا عَلَيهِمْ ، فَهذَا هُوَ الحَرَامُ . وَأَمَّا مَنْ قالَهُ لما يَرى في النَّاسِ مِنْ نَقْصٍ في أَمْرِ دِينِهم ، وَقَالَهُ تَحَزُّنًا عَلَيهِمْ ، وَعَلى الدِّينِ ، فلا بَأْسَ بِهِ . هكذَا فَسَّرَهُ العُلماءُ وَفَصَّلوهُ ، وَمِمَّنْ قالَهُ مِنَ الأَئمَّةِ الأَعْلامِ : مالكُ بنُ أنسٍ ، وَالخَطَّابيُّ ، وَالحُمَيدِيُّ وآخرون ، وقد أَوضَحْته في كِتَابِ « الأَذْكَارِ » .

* * *

٢٨٠ - باب تحريم الهجران بين المسلمين فوق ثلاثة أيام إلا لبدعة في المهجور أو تظاهرٍ بفسقٍ أو نحو ذلك

قَالَ اللَّهُ تَعالى : ﴿ إِنَّمَا ٱلْمُؤْمِنُونَ إِخْوَةٌ فَأَصْلِحُوا۟ بَيْنَ أَخَوَيْكُمْ ﴾ [الحجرات : ١٠] وقَال تعالى : ﴿ وَلَا تَعَاوَنُوا۟ عَلَى ٱلْإِثْمِ وَٱلْعُدْوَٰنِ ﴾ (٢) [المائدة : ٢] .

---

(١) أخرجه مسلم في البر والصلة (١٣٩) ، وأحمد في مسنده (٣٤٢/٢) .

(٢) قوله : ﴿ ٱلْإِثْمِ ﴾ أي الذنب . قوله : ﴿ وَٱلْعُدْوَٰنِ ﴾ أي الظلم .

١٥٩١ - وَعَنْ أَنَسٍ ﷺ قَالَ : قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ : « لا تَقَاطَعُوا ، وَلا تَدابَرُوا ، وَلا تَبَاغَضُوا ، وَلا تَحَاسَدُوا ، وَكُونُوا عِبَادَ اللَّهِ إِخْوَانًا ، وَلا يَحِلُّ لمُسْلِمٍ أَنْ يَهْجُرَ أَخَاهُ فَوقَ ثَلاثٍ » [١] متفقٌ عليه .

١٥٩٢ - وعَنْ أَبي أَيُّوب ﷺ أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ قَالَ : « لا يَحِلُّ لمُسْلِمٍ أَنْ يهْجُرَ أَخَاهُ فَوقَ ثَلاثِ لَيَالٍ : يَلتَقِيَانِ ، فَيعرِضُ هذا ، وَيعرِضُ هذَا ، وَخَيرُهُمَا الَّذِي يَبْدَأُ بالسَّلامِ » [٢] متفقٌ عليه .

١٥٩٣ - وَعَنْ أَبي هُرَيرَةَ ﷺ قَالَ : قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ : « تُعْرَضُ الأَعمَالُ في كُلِّ اثنَينِ وَخَمِيسٍ ، فَيَغفِرُ اللَّهُ لِكُلِّ امْرِئٍ لا يُشْرِكُ بِاللَّهِ شَيْئًا ، إلا امْرأً كانت بَينَهُ وَبَيـنَ أَخِيهِ شَحْنَاءُ ، فَيَقُولُ : اتْرُكُوا هذَينِ حَتَّى يَصطلِحَا » [٣] رواه مسلم .

١٥٩٤ - وعَنْ جَابِرٍ ﷺ قَالَ : سَمِعْتُ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ يَقُولُ : « إِنَّ الشَّيطَانَ قَد أَيِسَ أَنْ يَعْبُدَهُ المُصَلُّونَ في جَزِيرَةِ العَرَب ، وَلكِنْ في التَّحْرِيشِ بَينهم » [٤] رواه مسلم .

« التَّحْرِيشُ » الإِفسَادُ وَتغيِيرُ قُلُوبهم وَتَقَاطُعُهُم .

١٥٩٥ - وَعَنْ أَبي هُرَيرَةَ ﷺ قَالَ : قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ : « لا يَحِلُّ لمُسْلِمٍ أَنْ يَهجُرَ أَخَاهُ فَوقَ ثَلاثٍ ، فَمَنْ هَجَرَ فَوقَ ثَلاثٍ ، فَمَاتَ ؛ دَخَلَ النَّارَ » [٥] .

رَوَاهُ أَبو دَاود بِإسْنَادٍ عَلى شَرْطِ البُخَاري ومُسلم .

١٥٩٦ - وعَنْ أَبي خِرَاشٍ حَدْرَدِ بْنِ أَبي حَدْرَدٍ الأَسْلمي - وَيُقَالُ : السُّلمِي - الصَّحابي ﷺ أَنَّهُ سَمِعَ النَّبِيَّ ﷺ يَقُولُ : « مَنْ هَجَرَ أَخَاهُ سَنَةً فَهُوَ كَسَفكِ دَمِهِ » [٦] .

رواه أبو داود بإسناد صحيح .

١٥٩٧ - وَعَنْ أَبي هُرَيرَةَ ﷺ أَنَّ رَسُولَ اللَّه ﷺ قَالَ : « لا يَحِلُّ لمُؤْمِنٍ أَنْ يَهْجُرَ مُؤْمِنًا فَوقَ ثَلاثٍ ، فَإِنْ مَرَّت بِهِ ثَلاثٌ ، فَلْيَلْقَهُ ، فَلْيُسَلِّمْ عَلَيه ، فَإِنْ رَدَّ عَلَيهِ السَّلامَ ؛ فَقَدِ اشْتَرَكَا في الأَجرِ ، وَإِنْ

---

(١) أخرجه البخاري في الأدب (٦٠٦٥) ، ومسلم في البر والصلة (٢٣) ، وأحمد في مسنده (١٦٥/٣) .

(٢) أخرجه البخاري في الأدب (٦٠٧٧) ، ومسلم في البر والصلة (٢٥) ، وأحمد في مسنده (١٧٦/١) ، وأبو داود في الأدب (٤٩١١) . قوله : « يهجر أخاه » أي يقاطعه ، قوله : « يعرض هذا » أي يميل بوجهه عن صاحبه .

(٣) أخرجه مسلم في البروالصلة (٣٥) ، والترمذي في الصلاة (٧٤٧) ، وأحمد في مسنده (٢٦٨/٢) . بنحوه . قوله : « شحناء » أي عداوة وبغضاء .

(٤) أخرجه مسلم في البر والصلة (٣٧) ، وأحمد في مسنده (٣١٣/٣) . قوله : « أيس » أي يئس . قوله : « جزيرة العرب » هي ما بين عدن أبين حتى الشام طولًا . ومن جدة وما والاها من شاطئ البحر إلى ريف العراق .

(٥) أخرجه أبو داود في الأدب (٤٩١٤) ، وأحمد في مسنده (٤١٦/٥ ، ٤٢١) . بنحوه قوله : « يهجر أخاه » أي : يلقاه فلا يسلم عليه ، ولايكلمه .

(٦) أخرجه أبو داود في الأدب (٤٩١٥) ، وأحمد في مسنده (٣٢٠/٤) ، والحاكم في المستدرك (١٦٣/٤) . قوله : « فهو كسفك دمه » أي أن إثمه مساوٍ لإثم من سفك دم مسلم عدوانًا وظلمًا .

لَمْ يَرُدَّ عَلَيهِ ؛ فَقَدْ بَاءَ بالإثْمِ ، وَخَرَجَ المُسَلِّمُ مِن الهِجْرَةِ »[1] رواه أبو داود بإسناد حسن ، قال أبو داود : إذا كانَتِ الهِجْرَةُ للَّهِ تَعَالى ، فَلَيسَ مِنْ هذا في شَيءٍ .

الشرح

هذه الأحاديث كلها مرت علينا فيما سبق وشرحناها ، فلا نعود إليها ، ولكن نتكلم على نقاط مهمة ، منها : حديث أبي هريرة ﷺ أن النبي ﷺ قال : « إذا قال الرجل هلك الناس فهو أهلكهم » هذا القول يكون على وجهين :

الوجه الأول : أن يقول هلك الناس ، يعني وقعوا في المعاصي وفسقوا ، يريد بذلك أن يزكي نفسه ، وأن يقدح في غيره ، فهذا هو أَهْلك الناس ، لأنه يحبط عمله وهو لا يشعر ، كما في قصة الرجل الذي كان يمر برجل فاسق يعصي اللَّه ، وكان ينصحه ، ولكنه بقي على ما هو عليه من الفسوق ، فقال الرجل : واللَّه لا يغفر اللَّه لفلان . قال هذا إعجابًا بنفسه وتأليًا على اللَّه ﷻ ، فقال اللَّه تعالى : « من ذا الذي يتألَّى عليَّ أن لا أغفر لفلان ؟ قد غفرت له وأحبطت عملك » لأنه قال ذلك افتخارًا وإعجابًا بنفسه واحتقارًا لهذا الرجل واستبعادًا لرحمة اللَّه ﷻ ، ومن الذي يستبعد رحمة اللَّه إلا جاهل باللَّه ﷻ قال : ﴿ وَمَن يَقْنَطُ مِن رَّحْمَةِ رَبِّهِۦٓ إِلَّا ٱلضَّآلُّونَ ﴾ [الحجر: ٥٦] فهذا الذي يقول : هلك الناس ، ضاع الناس ، فسق الناس . وما أشبه ذلك ، يريد بهذا أن يزكي نفسه وأن يقدح في غيره ، فهو أَهلك الناس ، يعني أشدهم هلاكًا والعياذ باللَّه .

أما الأحاديث التي ذكرها المؤلف في باب تحريم الهجر ، فقد سبق لنا الكلام عليها مفصلًا وبيَّنا أنه لا يجوز للمسلم أن يهجر أخاه المسلم فوق ثلاثة أيام ، لكن فيما دون الثلاثة له أن يهجره ، لأن الإنسان ربما يكون بينه وبين أخيه شيء من وقفة الخواطر والشرف عليه ، فيهجره ، هذا رخص له النبي ﷺ ثلاثة أيام فقط ، وبعد ذلك لابد أن يسلم لكن إذا كان الهجر لمصلحة دينية ، مثل : أن يكون سببًا لاستقامة المهجور ، وتركه المعاصي ؛ فإنه لا بأس به ، بل قد يكون واجبًا ، وقد أمر الرسول ﷺ بهجر كعب بن مالك ﷺ وصاحبيه هلال بن أمية ومرارة بن الربيع ، الذين تخلفوا في غزوة تبوك ، ولما رجع النبي ﷺ من الغزوة جاء المنافقون يعتذرون للرسول (ويحلفون أنهم معذورون) فقال اللَّه تعالى : ﴿ سَيَحْلِفُونَ بِٱللَّهِ لَكُمْ إِذَا ٱنقَلَبْتُمْ إِلَيْهِمْ لِتُعْرِضُواْ عَنْهُمْ فَأَعْرِضُواْ عَنْهُمْ إِنَّهُمْ رِجْسٌ وَمَأْوَىٰهُمْ جَهَنَّمُ جَزَآءَۢ بِمَا كَانُواْ يَكْسِبُونَ ۝ يَحْلِفُونَ لَكُمْ لِتَرْضَوْاْ عَنْهُمْ فَإِن تَرْضَوْاْ عَنْهُمْ فَإِنَّ ٱللَّهَ لَا يَرْضَىٰ عَنِ ٱلْقَوْمِ ٱلْفَٰسِقِينَ ﴾ [التوبة: ٩٥، ٩٦] حتى لو رضيتم عنهم ما ينفع ، أما هؤلاء الثلاثة فمنَّ اللَّه عليهم بالصدق ، وصرحوا للرسول ﷺ أنهم تخلفوا بلا عذر ، وكان أشبُهم كعب بن مالك ﷺ ، شاب جلد وكان عنده في تلك الغزوة راحلتان يعني غنيٌّ يستطيع أن يخرج في هذه الغزوة ،

---

(١) أخرجه أبو داود في الأدب (٤٩١٢) ، والبيهقي في السنن (٦٣/١٠) . قوله : « فقد اشتركا في الأجر » أي أن هذا أخذ ثواب البدء بالسلام . والثاني أخذ ثواب رد السلام .

لكن سولت له نفسه التمهل : أخرج غدًا أخرج غدًا . حتى راح الوقت ، ولما رجع النبي ﷺ جاءه كعب بن مالك . وقال : يا رسول الله ، لقد أُوتيت جدلًا . أستطيع أن أُجادل وأخاطب ، ولو جلست عند رجل غيرك عرفت أن أتكلم لكن والله لا أقول شيئًا ترضى به عني اليوم يفضحني الله به غدًا ، انظر الإيمان إيمان عجيب ، فقال الرسول ﷺ : « أما هذا فقد صدق ، اذهب فسيقضي الله فيك وفي صاحبيك » ثم أمر الناس أن يهجروهم ، ما يكلموهم ، حتى أقاربهم ، قال : لا تكلموهم ، حتى أحسن الناس خلقًا وأشدهم تحملًا محمد ﷺ . يقول كعب بن مالك : آتي فأسلم عليه ولم أدر أحرَّك شفتيه برد السلام أم لا . مع أنه أحسن الناس خلقًا - عليه الصلاة والسلام - وكان إذا كنت أصلي نظر إليَّ بعينه فإذا نظرت إليه أعرض ، وبقوا على هذا الهجران خمسين ليلة ، كان كعب بن مالك رضي الله عنه يمر بحائط لأبي قتادة وهو ابن عمه وأحب الناس إليه فيسلم على ابن عمه ولا يرد عليه السلام ، ابن عمه وأحب الناس إليه ولكن لا يرد عليه السلام ، طاعة لمن ؟ لله ورسوله ﴿ مَّن يُطِعِ ٱلرَّسُولَ فَقَدْ أَطَاعَ ٱللَّهَ ﴾ [النساء : ٨٠] ما يرد عليه السلام ؟ فبكى كعب بن مالك ، وقال : أنشدك الله هل تعلم أني أبغض الله ورسوله . فسكت ، فناشده فسكت ، وفي النهاية قال : الله أعلم . انظر ما جاوب ، قال : الله أعلم ، فرجع ، ثم ابتُلي كعب ببلية عظيمة أرسل إليه ملك غسان ورقة ، قال : إنه بلغنا أن صاحبك قلاك وإنك لست بدار مذلة ولا هوان ، فالحَقْ بنا نُوَاسِكَ ، يعني تعال إلينا نواسيك نجعلك مثلنا ملك ، فقلت : هذا من البلاء ، يقول كعب رضي الله عنه : فأخذ الورقة ، وذهب بها إلى التنور وسجر بها النار ، أحرقها خوفًا من أن تسول له نفسه في يوم من الأيام أن ينقاد لهذا الملك ويذهب ، وهذا من باب دفع المفسدة وسدِّ الذرائع ، ولما تم لهم أربعون ليلة ، أربعون ليلة لا يكلمهم الناس وقد هجروهم ، أرسل النبي ﷺ إليهم أن اعتزلوا نساءكم ، فجاء الرسول إلى كعب قال : إن رسول الله ﷺ يأمرك أن تعتزل امرأتك . قال : أطلقها أم ماذا ؟ يعني أعتزلها فقط وهي في عصمتي أو أطلقها . لو قال طلِّقْها لطلَّقَها وليس عنده بشيء ، قال : هكذا قال الرسول ﷺ ، فقال للمرأة : الحقي بأهلك . ذهبت إلى أهلها وبقي عشر ليالٍ على هذه الحال التي وصفها الله في كتابه العزيز ﴿ حَتَّىٰٓ إِذَا ضَاقَتْ عَلَيْهِمُ ٱلْأَرْضُ بِمَا رَحُبَتْ وَضَاقَتْ عَلَيْهِمْ أَنفُسُهُمْ وَظَنُّوٓاْ أَن لَّا مَلْجَأَ مِنَ ٱللَّهِ إِلَّآ إِلَيْهِ ﴾ [التوبة : ١١٨] فرَّج الله عنهم ، آتاهم الفرج وتاب الله عليهم ، فأنزل الله عز وجل على رسوله ﷺ توبتهم في الليل ، فلما أصبح النبي ﷺ ، وصلى الصبح أخبر الصحابة بما أنزل الله عز وجل ، فلما أخبرهم وكان كعب بن مالك رضي الله عنه لضيق الأرض عليه صار لا يستطيع أن يواجه الناس ، يصلي في بيته ، فبينما هو في الليلة التي نزلت فيها التوبة ، يصلي على سطح بيت من بيوتهم ، سمع صارخًا أوفى على سَلْع - سَلْع جبل في المدينة معروف - يقول : يا كعب بن مالك أبشر بتوبة الله عليك . هذه والله هي البشرى العظيمة - نسأل الله أن يتوب علينا - أبشر بتوبة الله عليك ، فاستعار ثوبين من أصحابه وجاء إلى النبي ﷺ ، وإذا بفارس قد ركب فرسه ليبشر كعب بن مالك ، ولكن الصوت صار أسرع منه ، فلما دخل المسجد وأقبل على النبي ﷺ وإذا وجه الرسول ﷺ الذي كان بالأمس لا يرد عليه السلام ردًّا يسمعه

وإذا هو يتهلل مسرورًا – صلوات الله وسلامه عليه – أن الله تاب عليه ، فقال له الرسول ﷺ : « يا كعب أبشر بخير يوم مرَّ عليك منذ ولدتك أمك » وأخبره بتوبة الله عليه ، فقال : يا رسول الله أمن عندك أم من عند الله ، قال : « بل من عند الله » فشكر الله على ذلك ، فانظر ماذا حصل من هذا الضيق العظيم الذي بقوا فيه على صدقهم وإيمانهم ، أنزل الله فيهم كتابا يتلى إلى يوم القيامة [1] ، قصتهم تتلى إلى يوم القيامة يقرأها المسلمون في خلواتهم ، وفي تهجدهم وفي صلواتهم ، ويتقربون إلى الله تعالى بتلاوة قصتهم ، ولهم بكل حرف منها عشر حسنات إذا قرؤوها ، من يحصل له هذه الفائدة ، لكن هذه فائدة اللجوء إلى الله ﷻ ، فإنه ﷻ لا يخيب من رجاه ، وفائدة الصدق ، فالمهم أن هجْر كعب بن مالك وصاحبيه كان فيه فائدة عظيمة ، وهي أنهم لجأوا إلى الله وصدقوا الله وصدقوا مع رسول الله ﷺ وثبتوا على إيمانهم ، فكان في هجرهم فائدة كبيرة ، فإذا كان في هجر من فعل معصية لترك واجب أو فعل محرم فائدة يهجر حتى تتحقق الفائدة ، وأما من كان هجره لا يفيد شيئًا بل لا يزيد الأمر إلا شدة وإلا بعدًا عن أهل الخير فلا يهجر ؛ لأن الشرع جاء بالمصالح وليس بالمفاسد ، فإذا علمنا أننا لو هجرنا هذا العاصي لم يزدد إلا شرًّا وكراهة لنا وكراهة ما معنا من الخير ، فإننا لا نهجره ، نسلم عليه ونرد عليه السلام ؛ لأنه وإن عصى الله ، المؤمن لا يهجر فوق ثلاث ، هذا هو الحكم فيما يتعلق بالهجر ، وفي النهاية يسوءني أن بعض المسلمين اليوم يمر بعضهم ببعض لا يسلم أحدهم على الآخر ، يتلاقيان يضرب كتف أحدهم كتف الآخر لا يسلم عليه وكأنما مر بجيفة أو يهودي أو نصراني ، مع أنه أخوه ، ومع هذا إذا سلم ، ماذا يستفيد ، عشر حسنات نقدًا ، إيمان ، رسوخ إيمان ، محبة ، ألفة ، دخول الجنة . قال النبي ﷺ : « لا تدخلوا الجنة حتى تؤمنوا ، ولا تؤمنوا حتى تحابُّوا ، أفلا أخبركم بشيء إذا فعلتموه تحاببتم ؟ أفشوا السلام بينكم » [2] فبين أن إفشاء السلام من أسباب المحبة والمحبة من الإيمان والإيمان سبب في دخول الجنة . فيؤسفنا جدًّا أن نرى مسلمين يلتقي بعضهم ببعض ولا يسلم ، بل ربما كانا أخَوَين زميلَين في الدارسة ، سواء في دراسة المسجد أو في دراسة الكلية أو المعهد أو المدارس الأخرى ، لا يسلم بعضهم على بعض ، إذًا ما فائدة العلم ، ما فائدة طلب العلم ؟ إذا لم يَتربَّ طالب العلم بالتربية الحسنة التي دل عليها الكتاب والسنة وكان عليها رسول الله ﷺ فما الفائدة من التعليم ؟ فهو والجاهل سواء ، إن لم يكن الجاهل خيرًا منه ، ولهذا أحثكم على إفشاء السلام لفوائده العظيمة ، وهو لا يضر ؛ لأنه عمل اللسان ، واللسان لو يعمل من الصباح إلى الغروب ما كلَّ ولا ملَّ فنسأل الله لنا ولكم الهداية والتوفيق والعصمة والتوبة إنه على كل شيء قدير .

سؤال وجوابه : رد السلام يكون بقولك : عليكم السلام ، لقوله تعالى : ﴿ وَإِذَا حُيِّيتُم بِتَحِيَّةٍ فَحَيُّوا بِأَحْسَنَ مِنْهَا أَوْ رُدُّوهَا ﴾ [النساء : ٨٦] فبدأ بالأحسن ثم ذكر الكفاية . ﴿ أَوْ رُدُّوهَا ﴾ أما أهلًا وسهلًا ما فيها دعاء ، لكن السلام عليكم دعاء ، فرد عليه بقولك : عليكم السلام .

---

(١) انظر القصة بنصها في البخاري في المغازي (٤٤١٨) .

(٢) أخرجه الترمذي في السنن (٢٦٨٨) ، وابن ماجه في السنن (٣٦٩٢) وأحمد في مسنده (٤٧٧/٢) ، والبيهقي في السنن (٢٣٢/١٠) .

٢٨١ - باب النهي عَن تناجي اثنين دُونَ الثالث بغير إذنه إلا لحاجة وهو أن يتحدثا سرًا بحيث لا يسمعهما ، وفي معناه ما إذا تحدثا بلسان لا يفهمه

قَالَ اللَّه تَعَالى : ﴿ إِنَّمَا ٱلنَّجْوَىٰ مِنَ ٱلشَّيْطَٰنِ ﴾ [المجادلة : ١٠] .

١٥٩٨ - وَعَنِ ابْنِ عُمَرَ رضي الله عنهما أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ قَالَ : « إذا كَانُوا ثلاثَةً ، فَلا يَتَنَاجى اثْنَانِ دُونَ الثَّالِثِ » متفقٌ عليه .

ورواه أبو داود وزَادَ : قَالَ أَبُو صَالِح : قُلْتُ لابْنِ عُمَرَ : فأَرْبعَةً ؟ قَالَ : لا يَضُرُّكَ .

ورواه مالك في المُوَطأ : عَنْ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ دِينَارٍ قَالَ : كُنْتُ أَنَا وَابْنُ عُمَرَ عِنْدَ دَارِ خَالِدِ بْنِ عُقْبَةَ الَّتي في السُّوقِ ، فَجَاءَ رَجُلٌ يُرِيدُ أَنْ يُنَاجِيَه ، وَلَيسَ مَعَ ابْنِ عُمَرَ أَحَدٌ غَيرِي ، فَدَعَا ابْنُ عُمَرَ رَجُلًا آخَرَ حَتَّى كُنَّا أَرْبَعَةً فقالَ لي وَللرَّجُلِ الثَّالِثِ الَّذي دَعَا : اسْتَأْخِرَا شَيْئًا ؛ فَإِنّي سَمِعْتُ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ يَقُولُ : « لا يَتَنَاجَى اثْنَانِ دُونَ وَاحِدٍ » [(١)] .

١٥٩٩ - وَعَنِ ابْنِ مَسْعُودٍ رضي الله عنه أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ قَالَ : « إذا كُنْتُمْ ثَلاثَةً ، فَلا يَتَنَاجى اثْنَانِ دُونَ الآخرِ حَتَّى تَخْتَلِطُوا بالنَّاسِ ؛ مِنْ أَجْلِ أَنَّ ذلكَ يُحْزِنُهُ » [(٢)] متفق عليه .

الشرح

من الآداب التي حثَّ عليها الإسلام ورغَّب فيها ما أشار إليه النووي - رحمه اللَّه تعالى - في النهي عن تناجي اثنين دون الثالث ، واستدل لذلك بقوله تعالى : ﴿ إِنَّمَا ٱلنَّجْوَىٰ مِنَ ٱلشَّيْطَٰنِ ﴾ يعني التناجي من الشيطان ، وبين اللَّه ﷻ ماذا يريد الشيطان بهذه النجوى ، قال : ﴿ لِيَحْزُنَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَلَيْسَ بِضَآرِّهِمْ شَيْـًٔا إِلَّا بِإِذْنِ ٱللَّهِ ﴾ وكانوا إذا مر بهم المسلمون يأخذ بعضهم إلى بعض في التناجي ، يعني في الكلام السر ، يتناجون فيما بينهم ، لأجل أن يحزن المؤمنون ويقولون أن هؤلاء أرادوا بنا شرًّا أو ما أشبه ذلك ، وذلك أن أعداءِ المؤمنين من المنافقين والكافرين يحرصون دائمًا على ما يحزنهم ويسوءهم ؛ لأن هذا هو ما يريده الشيطان من أعداء اللَّه ، أي : يريد أن يحزن المؤمنين على كل حال ، به وبأوليائه قال تعالى : ﴿ وَلَيْسَ بِضَآرِّهِمْ شَيْـًٔا إِلَّا بِإِذْنِ ٱللَّهِ ﴾ فمن توكل على اللَّه واعتمد عليه فإنه لا يضره أحد ، كما قال النبي ﷺ لابن عباس رضي الله عنهما : « واعلم أن الأمة لو اجتمعوا على أن ينفعوك بشيء لم ينفعوك إلا بشيء قد كتبه اللَّه لك » [(٣)] فهم يتناجون فيما بينهم لإحزان المؤمنين .

---

(١) أخرجه البخاري في الاستئذان (٦٢٨٨) ، ومسلم في السلام (٣٦) ، والبيهقي في السنن (٣/٢٣٢) ، ومالك في الموطأ (٣/١٥١) ، وأبو داود في الأدب (٤٨٥٢) .

(٢) أخرجه البخاري في الاستئذان (٦٢٩٠) ، ومسلم في السلام (٣٧) ، وأحمد في مسنده (٢/١٨) ، والدارمي في السنن (٢/٢٨٢) . قوله : « حتى يختلطوا » أي حتى يختلط الثلاثة بالناس عندها يستطيع أن يناجي صاحبه .

(٣) سبق تخريجه .

ثم ذكر حديثي ابن عمر وابن مسعود رضي الله عنهما في هذا المعنى ، وأن الرسول ﷺ نهى أن يتناجى اثنان دون الثالث ، يعني إذا كانوا ثلاثة فإنه لا يحل لاثنين أن يتناجيا دون الثالث ؛ لأن الثالث يحزن ، ويقول لماذا لم يكلموني ؟ هذا إذا أحسن بهما الظن ، وربما يسيء بهما الظن ، ولكن إذا أحسن بهما الظن قال : لماذا ؟ أنا ليس لي قيمة ، يتناجيان دوني ، فلذلك نهى النبي ﷺ عن هذا ، ولا شك أن هذا من الآداب .

فإن قال قائل : إذا كانت بيني وبين صاحبي مسألة لا أحب أن يطلع عليها أحد ، مسألة خاصة ، قلنا : افعل كما فعل عبد الله بن عمر رضي الله عنهما ، ادع واحدًا لتكونوا كم ، أربعة ، فيتناجى اثنان ، واثنان يتكلمان فيما بينهما ، كما كان ابن عمر يفعل رضي الله عنه ، وكما دل عليه الحديث « حتى تختلطوا بالناس » في حديث ابن مسعود ، فإذا اختلطا بالناس زالت المشكلة ، ومن ذلك - من التناجي بين اثنين دون الثالث - إذا كانوا ثلاثة واثنين يجيدان لغة أجنبية والثالث لا يجيدها ، فجعلا يتحدثان بلغتهما ، والثالث يسمع ولا يفهم ما يقولان ، هذا نفس الشيء ، لأن ذلك يحزنه ، لماذا تركاني وصارا يتحدثان وحدهما ؟ أو ربما يسيء الظن بهما ، مثل أن يتكلم واحد مع آخر باللغة الإنجليزية ، والثالث لا يعرفها ، فهذا كالمتناجيين ، إذ أن رفع الصوت لا يفيدهم شيئًا ، فينهى عن ذلك ، فإذا قال قائل : إذا كان له حاجة في أخيه ، قلنا : يفعل كما فعل ابن عمر ، وإذا لم يمكن ولم يقابلهم أحد ، فإنهما يستأذنان منه ، يقولان له أتأذن لنا أن نتكلم ، فإذا أذن لهم في ذلك فالحق لهم ، وحينئذ لا يحزن ولا يهتم بالأمر . والله الموفق .

* * *

٢٨٢ - باب النهي عن تعذيب العبد والدابة والمرأة والولد بغير سبب شرعي أو زائد على قدر الأدب

قال الله تعالى : ﴿ وَبِٱلْوَٰلِدَيْنِ إِحْسَٰنًا وَبِذِى ٱلْقُرْبَىٰ وَٱلْيَتَٰمَىٰ وَٱلْمَسَٰكِينِ وَٱلْجَارِ ذِى ٱلْقُرْبَىٰ وَٱلْجَارِ ٱلْجُنُبِ وَٱلصَّاحِبِ بِٱلْجَنۢبِ وَٱبْنِ ٱلسَّبِيلِ وَمَا مَلَكَتْ أَيْمَٰنُكُمْ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ مَن كَانَ مُخْتَالًا فَخُورًا ﴾ [1] [النساء : ٣٦] .

١٦٠٠ - وَعَنْ ابْنِ عُمَرَ رضي الله عنهما أَنَّ رَسولَ اللَّهِ ﷺ قَالَ : « عُذِّبَت امرأَةٌ في هِرَّةٍ حَبَسَتْهَا حَتَّى مَاتَتْ ، فَدَخَلَتْ فِيها النَّارَ ، لا هيَ أَطْعَمَتْهَا وَسَقَتْهَا إِذْ حَبَسَتْهَا ، وَلا هِي تَرَكَتْهَا تَأْكُلُ مِنْ خَشَاشِ الأَرْضِ » [2] متفقٌ عليه .

« خَشَاشُ الأَرْضِ » بفتحِ الخاء المعجمةِ ، وبالشينِ المعجمة المكررة : وهي هَوامُّها وَحَشَرَاتُها .

---

(١) قوله : ﴿ وَبِذِى ٱلْقُرْبَىٰ ﴾ هم أولو الأرحام . قوله : ﴿ وَٱلْيَتَٰمَىٰ ﴾ هم الصغار الذين مات أبوهم .

(٢) أخرجه البخاري في أحاديث الأنبياء (٣٤٨٢) ، ومسلم في السلام (١٥١) ، وأحمد في مسنده (٢/٤٢٤) ، والبيهقي في السنن (٥/٢١٤) .

١٦٠١ - وَعَنْهُ أَنَّهُ مَرَّ بِفِتْيَانٍ مِنْ قُرَيْشٍ قَدْ نَصَبُوا طَيْرًا وَهُمْ يَرْمُونَهُ ، وَقَدْ جَعَلُوا لِصَاحِبِ الطَّير كُلَّ خَاطِئَةٍ مِنْ نَبْلِهِمْ ، فَلَمَّا رَأَوُا ابْنَ عُمَرَ تَفَرَّقُوا ، فَقَالَ ابْنُ عُمَرَ : مَنْ فَعَلَ هذا ؟ لَعَنَ اللَّهُ مَنْ فَعَلَ هذا ، إِنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ لَعَنَ مَنِ اتَّخَذَ شَيْئًا فِيهِ الرُّوحُ غَرَضًا [١] . متفقٌ عليه .

« الغَرَضُ » : بفتحِ الغينِ المعجمة والراء ، وَهُوَ الهَدَفُ ، وَالشَّيءُ الَّذي يُرْمَى إِلَيهِ .

١٦٠٢ - وَعَنْ أَنَسٍ ﷺ قَالَ : نَهَى رَسُولُ اللَّهِ ﷺ أَنْ تُصْبَرَ البَهَائِمُ [٢] . متفق عليه . وَمَعْنَاه : تُحْبَسَ للقَتْلِ .

١٦٠٣ - وَعَنْ أَبي عَلِيٍّ سوَيدِ بْنِ مُقَرِّن ﷺ قَالَ : لَقَدْ رَأَيْتُني سَابعَ سَبْعَةٍ مِنْ بَني مُقَرِّنٍ مَالَنَا خَادِمٌ إِلا وَاحِدَةٌ لَطَمَهَا أَصْغَرُنَا ، فَأَمَرَنَا رسُولُ اللَّهِ ﷺ أَنْ نُعْتِقَهَا [٣] .

رواه مسلم . وفي روايةٍ : « سَابعَ إِخْوَةٍ لي » .

الشرح

هذا الباب ذكره المؤلف رحمه الله في النهي عن تعذيب الحيوان والولد والوالد ومن لك ولاية عليه ؛ فإنه يحرم عليك أن تعذبه بضرب أو غيره إلا لسبب شرعي . ثم استشهد بقول اللّه تعالى : ﴿ وَبِٱلْوَٰلِدَيْنِ إِحْسَٰنًا وَبِذِى ٱلْقُرْبَىٰ وَٱلْيَتَٰمَىٰ وَٱلْمَسَٰكِينِ وَٱلْجَارِ ذِى ٱلْقُرْبَىٰ وَٱلْجَارِ ٱلْجُنُبِ وَٱلصَّاحِبِ بِٱلْجَنۢبِ وَٱبْنِ ٱلسَّبِيلِ وَمَا مَلَكَتْ أَيْمَٰنُكُمْ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ مَن كَانَ مُخْتَالًا فَخُورًا ﴾ [النساء : ٣٦] هؤلاء كلهم أصحاب الحقوق ﴿ وَبِٱلْوَٰلِدَيْنِ إِحْسَٰنًا ﴾ وهم أعظم البشر حقًّا عليك ، الأم والأب ﴿ وَبِذِى ٱلْقُرْبَىٰ وَٱلْيَتَٰمَىٰ وَٱلْمَسَٰكِينِ ﴾ القربى يعني الأقارب من قِبَل الأم أو من قبل الأب ، واليتامى : الصغار الذي مات آباؤهم ﴿ وَٱلْمَسَٰكِينِ وَٱلْجَارِ ذِى ٱلْقُرْبَىٰ ﴾ المساكين هم الفقراء ، والجار ذي القربى : الجار القريب ، والجار الجنب : الجار البعيد ، والصاحب بالجنب ، قيل : هي الزوجة وقيل : هو الصاحب في السفر ﴿ وَٱبْنِ ٱلسَّبِيلِ ﴾ المسافر الذي انقطع به السفر ﴿ وَمَا مَلَكَتْ أَيْمَٰنُكُمْ ﴾ هذا الشاهد ، أي : ما ملكت أيمانكم من الأرقاء والبهائم ؛ فإن الإنسان مأمور بالإحسان إليهم إن كان من بني آدم (أرقاء) يطعمهم مما يطعم ويكسوهم مما يكتسي وينزلهم المنازل اللائقة بهم ولا يكلفهم ما لا يطيقون .

ثم ذكر حديث ابن عمر رضي الله عنهما « أن امرأة دخلت النار في هرة حبستها » ، الهرة هي القطة ، حبستها ولم تجعل عندها ماء ولم تجعل عندها طعامًا حتى ماتت فدخلت النار بسبب هذه الهرة ،

---

(١) أخرجه البخاري في الذبائح (٥٥١٥) ، وأحمد في مسنده (٢٩٧/٣) . قوله « نبلهم » أي سهامهم . قوله « فيه الروح » كحيوان أو طير .

(٢) أخرجه البخاري في الذبائح (٥٥١٣) ، ومسلم في الصيد والذبائح (٥٨) ، وأحمد في مسنده (١١٧/٣) والنسائي في السنن (٢٣٨/٧) .

(٣) أخرجه مسلم في الإيمان (٣٢) قوله « من بني مقرن » هم سبعة إخوة كلهم صحابة لم يشاركهم أحد في مجموع ذلك وهم : النعمان ، ومعقل ، وعقيل ، وسويد ، وسنان ، وعبد الرحمن ، وعبد الله .

وعُذبت بها ، والعياذ باللَّه ، مع أنها هرة لا تساوي شيئًا ، لكنها أساءت إليها هذه الإساءة حبستها حتى ماتت جوعًا . وفُهم من هذا الحديث أنها لو جعلت عندها طعامًا وشرابًا يكفي فإن ذلك لا بأس به . ومن هذا الطيور التي تحبس في الأقفاص ، إذا وضع عندها الطعام والشراب ولم يقصر عليها وحفظها من الحر والبرد فلا بأس ، وأما إذا قصر وماتت بسبب تقصيره ؛ فإنه يعذب بها ، والعياذ باللَّه ، كما عذبت هذه المرأة في الهرة التي حبستها ، فدل ذلك على أنه يجب على الإنسان أن يحرص على ما ملكت يمينه من البهائم ، والآدميون أولى وأحرى ؛ لأنهم أحق بالإكرام .

أما الحديث الثاني : أن ابن عمر رضي الله عنهما مر بفتيان بقريش وقد جعلوا طائرًا يرمون عليه ، أيهم أشد إصابة ، فلما رأوا عبد اللَّه بن عمر رضي الله عنه تفرقوا هربًا منه ، ثم قال : « ما هذا ؟ » ، فأخبروه ، فقال : لعن اللَّه من فعل هذا ، لعن اللَّه من فعل هذا ، وذكر أن النبي ﷺ لعن من اتخذ شيئًا فيه الروح غرضًا . وهذا لأنه يتألم ؛ إذ أن هذا يضربه على جناحه ، وهذا يضربه على صدره ، وهذا يضربه على ظهره ، وهذا على رأسه ، فيتأذى ، فلهذا لعن النبي ﷺ من اتخذ شيئًا فيه الروح غرضًا . أما بعد ما مات فقد مات لا يحس بشيء .

وكذلك الحديث الذي بعده : أن النبي ﷺ نهى أن يقتل الحيوان صبرًا ، ومعناه : أن يحبس ثم يقتل ، فإن هذا لا يجوز ، وذلك لأنه إذا حُبس كان مقدورًا على ذبحه و تزكيته فلا يحل أن يُرمى ، ورميه إيلامًا له من وجه وإضاعة لماليته من وجه آخر . واللَّه الموفق .

* * *

١٦٠٤ - وَعَنْ أَبي مَسْعُودٍ البَدْرِيِّ رضي الله عنه قَالَ : كُنْتُ أَضْرِبُ غُلامًا لي بِالسَّوطِ ، فَسَمِعْتُ صَوتًا مِنْ خَلفِي : « اعْلَمْ أَبَا مَسْعُود » فَلَمْ أَفْهَم الصَّوت مِنَ الغَضَب ، فَلَمَّا دَنَا مِنِّي إذا هُوَ رَسُولُ اللَّه ﷺ فإذا هُوَ يَقُولُ : « اعلَمْ أَبَا مَسْعُودٍ أنَّ اللَّهَ أَقْدَرُ عَلَيكَ مِنْكَ عَلى هذا الغُلامِ » فَقُلْتُ : لا أَضْرِبُ مَمْلُوكًا بَعْدَهُ أَبَدًا .

وفي روايةٍ : فَسَقَطَ السَّوطُ مِنْ يَدِي مِنْ هَيبتِهِ .

وفي روايةٍ : فَقُلْتُ : يَا رَسُولَ اللَّهِ هُوَ حُرٌّ لِوَجْهِ اللَّهِ تعالى ، فَقَالَ : « أَمَا لَو لَمْ تَفْعَلْ ، لَلَفَحَتْكَ النَّارُ » ، أو « لَمَسَّتْكَ النَّارُ » [١] رواه مسلم بهذه الروايات .

١٦٠٥ - وَعَنِ ابْنِ عُمَرَ رضي الله عنهما أَنَّ النَّبِيَّ ﷺ قَالَ : « مَنْ ضَرَبَ غُلامًا له حدًّا لم يَأْتِهِ ، أو لَطَمَهُ ؛ فإنَّ كَفَّارَتَهُ أن يُعْتِقَهُ » [٢] رواه مسلم .

١٦٠٦ - وعَنْ هِشَام بْنِ حَكِيم بْنِ حزام رضي الله عنهما أَنَّهُ مَرَّ بالشَّامِ عَلى أُنَاسٍ مِنَ الأنباطِ ، وَقَدْ أُقِيمُوا في

---

(١) أخرجه مسلم في الإيمان (٣٤) ، وأبو داود في الأدب (٥١٥٩) ، والترمذي في البر والصلة (١٩٤٨) ، والبيهقي في السنن (٨/١٠) . قوله : « للفحتك » أي أحرقتك .

(٢) أخرجه مسلم في الإيمان (٣٠) ، وأحمد في مسنده (٢/٤٥) .

الشَّمْسِ ، وصُبَّ عَلى رُؤوسِهِم الزيتُ ! فَقَالَ : مَا هذَا ؟ قِيلَ : يُعَذبُونَ في الخَرَاجِ - وفي روايةٍ : حُبسُوا في الجزيةِ - فَقَالَ هِشَامٌ : أَشْهَدُ لسَمِعْتُ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ يَقُولُ : « إنَّ اللَّهَ يُعَذِّبُ الَّذِينَ يُعَذِّبُونَ النَّاسَ في الدُّنْيَا » فَدَخَلَ عَلى الأميرِ ، فَحَدَّثَهُ ، فَأَمَرَ بِهِم فَخُلُّوا [١] . رواه مسلم .

« الأنبَاطُ » الفَلَّاحُونَ مِنَ العَجَمِ .

١٦٠٧ - وعَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ ﷺ قَالَ : رَأى رَسُولُ اللَّه ﷺ حِمَارًا مَوسُومَ الوجْهِ ، فَأَنْكَرَ ذلكَ ، فَقَالَ : « وَاللَّهِ لا أَسِمُهُ إلا أَقْصى شَيءٍ مِنَ الوجْهِ » وَأَمَرَ بِحِمَارِهِ ، فَكُوِيَ في جَاعِرَتَيْهِ ، فهوَ أَوَّلُ مَنْ كوَى الجَاعِرَتَينِ [٢] . رواه مسلم .

« الجَاعِرَتَانِ » : نَاحِيتَا الوَرِكَينِ حَولَ الدُّبُرِ .

١٦٠٨ - وَعَنْه أنَّ النبيَّ ﷺ مَرَّ عَليهِ حَمارٌ قد وُسِمَ في وَجْهِهِ ، فَقَالَ : « لَعَنَ اللَّهُ الَّذي وَسَمَهُ » [٣] رواه مسلم .

وفي رواية لمسلم أيضًا : نَهَى رَسُولُ اللَّهِ ﷺ عَنِ الضَّرْبِ في الوجهِ ، وعَنِ الوسْمِ في الوجهِ [٤] .

الشرح

هذه الأحاديث التي ساقها النووي رحمه الله في النهي عن تعذيب الحيوان والرقيق والولد وغيرهم ممن يؤدبهم الإنسان ، وذلك أن المقصود بالتأديب هو الإصلاح وليس المقصود بالتأديب الإيلام والإيجاع ، ولذلك لا يجوز للإنسان أن يضرب الولد ما دام يمكن أن يتأدب بدون الضرب ، فإذا لم يتأتَّ الأدب إلا بالضرب فله أن يضرب ، وإذا ضرب فإنه يضرب ضربًا غير مُبرح ، واذكروا قول اللَّه ﷻ في النساء : ﴿ وَالَّتِي تَخَافُونَ نُشُوزَهُنَّ فَعِظُوهُنَّ وَاهْجُرُوهُنَّ فِي الْمَضَاجِعِ وَاضْرِبُوهُنَّ ﴾ [النساء: ٣٤] فجعل الضرب في المرتبة الثالثة ، والمقصود من الضرب هو التأديب لا أن يصل إلى حد الإيلام والإيجاع .

وذكر المؤلف أحاديث ، منها حديث أبي مسعود البدري رضي الله عنه أنه كان يضرب غلامًا له ، فسمع صوتًا من الخلف يقول : « أبا مسعود » ولم يفقه ما يقول من شدة الغضب ، فإذا الذي يتكلم هو رسول اللَّه ﷺ فقال : « يا أبا مسعود ألم تعلم أن اللَّه أقدر عليك من قدرتك على هذا الغلام » يعني تذكر قدرة اللَّه ﷻ ، فإنه أقدر عليك من قدرتك على هذا الغلام ، وإلى هذا يشير اللَّه ﷻ في الآية التي ذكرناها ﴿ فَإِنْ أَطَعْنَكُمْ فَلَا تَبْغُوا عَلَيْهِنَّ سَبِيلًا إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلِيًّا كَبِيرًا ﴾ [النساء: ٣٤] فلما رأى أنه النبي ﷺ وذكره بهذه الموعظة العظيمة ، أن اللَّه أقدر عليه من قدرته على هذا العبد ،

---

(١) أخرجه مسلم في البر والصلة (١١٨) ، وأحمد في مسنده (٤٠٤/٣) ، وأبو داود في الخراج والفيء (٣٠٤٥) . قوله : « فخلوا » أي أُطليق سراحهم .

(٢) أخرجه مسلم في اللباس والزينة (١٠٨) . قوله « موسوم » أي به أثر كوي بالنار في وجهه .

(٣) أخرجه مسلم في اللباس والزينة (١٠٧) . (٤) أخرجه مسلم في اللباس والزينة (١٠٦) .

فسقطت العصا من يده هيبة لرسول الله ﷺ ثم أعتقه ، أعتق العبد ، وهذا من حُسن فهمه ﷺ ، لأن الله تعالى يقول : ﴿ إِنَّ ٱلْحَسَنَٰتِ يُذْهِبْنَ ٱلسَّيِّـَٔاتِ ﴾[هود : ١١٤] فبدلًا من أنه أساء إلى هذا العبد أحسن إليه بالعتق ، لهذا أرشد النبي إلى هذا بأن من ضرب عبده أو لطمه ، فإن كفارة ذلك أن يعتقه ؛ لأن الحسنات يذهبن السيئات .

ثم ذكر حديث هشام بن حكيم بن حزام ﷺ ، في قصة المحبوسين في الخراج ، والمحبوسين في الخراج هم الأنباط ، وسمُّوا أنباطًا : لأنهم يستنبطون الماء أي يستخرجونه ، وهم فلاليح (فلاحين) في الشام عليهم خراج ، وكأنهم لم يؤدوه ، فعاقبهم الأمير هذه العقوبة العظيمة ، جعلهم في الشمس في الحر الشديد وصب على رؤوسهم الزيت ؛ لأن الزيت تشتد حرارته مع الشمس ، وهذا عذاب عظيم مؤلم موجع ، فدخل هشام ﷺ إلى الأمير فأخبره ، ففك الأمير أسرهم وأطلقهم ، وفي هذا دليل على حسن سيرة السلف ﷺ في مناصحة الحكام وأنهم يتقدمون إلى الحاكم وينصحونه ، فإن اهتدى ، فهذا المطلوب ، وإن لم يهتد برأت ذمة الناصح ، وصارت المسؤولية على الحاكم ، لكن الحكام الذين يخافون الله ﷻ إذا ذكروا بآيات ربهم لم يخروا عليها صمًّا وعميانًا ، اتعظ هذا الحاكم وأمر بإطلاقهم ؛ فدل هذا على أن التعذيب الذي يصل إلى هذا الحد أنه لا يجوز .

وكذلك أيضًا من الأحاديث التي ذكرها المؤلف : الوسم في الوجه ، وسم الحيوانات في الوجه حرام من كبائر الذنوب ؛ لأن النبي ﷺ لعن من فعل هذا ، والوسم هو عبارة عن كَيٍّ يكوي الحيوان ليكون علامة ، ولهذا هو مشتقٌّ من السمة ، وهي العلامة ، يتخذ أهل المواشي علامة لهم ، كل قبيلة لها وسم معين ، إما شرطتان ، أو شرطة مربعة ، أو دائرة ، أو هلال ، المهم أن كل قبيلة لها وسم معين ، والوسم هذا يحفظ الماشية إذا وجدت ضالة - يعني ضائعة - عرف الناس أنها لهذه القبيلة فذكروها لهم ، وكذلك أيضًا هي قرينة في مسألة الدعوى ، لو أن إنسانًا وجد بهيمة عليها وسم في يد إنسان وادعى أنها له ؛ فإن هذه قرينة تدل على صدق دعواه ترجح بها دعوى المدعي ، وهي من الأمور الثابتة بالسنة ، فإن النبي ﷺ كان يسم إبل الصدقة وكذلك الخلفاء من بعدهم ، لكن الوسم لا يجوز أن يكون في الوجه ؛ لأن الوجه لا يضرب ، ولا يوسم ، ولا يقطع ، هو جمال البهيمة ، أين يكون الوسم ؟ يكون في الرقبة ، يكون في العضد ، يكون في الفخذ ، يكون في أي موضع من الجسم إلا الوجه ، وفي هذا دليل على أن الإنسان إذا رأى شيئًا مما يلعن فاعله فقال : « اللَّهم العن من فعل هذا » فلا إثم عليه ، لو وجدنا بهيمة موسومة في الوجه وقلنا : (اللَّهم العن من وسمها) فلا بأس ، لكن ما نقول فلان ابن فلان ، نقول (اللَّهم العن من وسمها) كما قال النبي ﷺ ، ومثل ذلك إذا رأينا قذرًا في الشارع يعني غائطًا وجدناه في الشارع ، لنا أن نقول : لعن الله من تغوط هاهنا ؛ لأن النبي ﷺ يقول : « اتقوا الملاعن الثلاثة : البراز في الموانی ، وقارعة الطريق ، والظل »[1] وفقنا الله وإياكم لما يحب ويرضى وجعلنا هداة مهتدين من عباده الصالحين المصلحين .

---

(١) أخرجه أبو داود في السنن (٢٦) ، وأحمد في مسنده (١/٢٩٩) ، والحاكم في المستدرك (١/١٦٧) .

٢٨٣ - باب تحريم التعذيب بالنار في كل حيوان حتى النملة ونحوها

١٦٠٩ - عَنْ أبي هُرَيرَةَ ﷺ قَالَ : بَعَثَنَا رَسُولُ اللَّهِ ﷺ في بَعْثٍ فَقَالَ : « إن وَجَدْتُم فُلانًا وَفُلانًا » - لِرَجُلَين مِنْ قُرَيش سَمَّاهُمَا - « فَأَحْرِقُوهُمَا بالنَّارِ » ثُمَّ قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ حِينَ أَرَدْنَا الخُرُوجَ : « إنِّي كُنْتُ أَمَرْتُكُمْ أَنْ تُحْرِقُوا فُلانًا وَفُلانًا ، وَإِنَّ النَّارَ لا يُعَذِّبُ بِهَا إلا اللَّهُ ، فَإِنْ وَجَدْتُمُوهُمَا فَاقْتُلُوهُمَا » (١) رواه البخاري .

١٦١٠ - وَعن ابنِ مَسْعُودٍ ﷺ قَالَ : كُنَّا مَعَ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ في سَفَر ، فَانْطَلَقَ لحَاجَتِهِ ، فَرَأَينَا حُمَّرَةً مَعَهَا فَرْخَانِ ، فَأَخَذْنَا فَرْخَيهَا ، فَجَاءت الحُمَّرَةُ فَجَعَلَتْ تَعْرِشُ ، فَجاء النَّبيُّ ﷺ فَقَالَ : « مَنْ فَجَعَ هذِهِ بِوَلَدِهَا ؟ رُدُّوا وَلَدَهَا إلَيهَا » وَرَأى قَرْيَةَ نَمْلٍ قَدْ حَرَّقْنَاهَا ، فَقَالَ : « مَنْ حَرَّقَ هذِهِ ؟ » قُلْنَا : نَحْنُ . قالَ : « إنَّه لا يَنْبَغي أَنْ يُعَذِّبَ بالنَّارِ إلا ربُّ النَّارِ » (٢) رواه أبو داود بإسناد صحيح .

قوله : « قَرْيَةَ نَمْلٍ » مَعْنَاهُ : مَوضِعُ النَّمْلِ مَعَ النَّمْلِ .

الشرح

ذكر المؤلف - رحمه اللَّه تعالى - تحريم التعذيب بالنار ، يعني أنه لا يحل لإنسان أن يعذب أحدًا بالإحراق ؛ لأنه يمكن التعذيب بدونه ، ويمكن إقامة الحدود بدون ذلك ، فيكون الإحراق زيادة تعذيب لا حاجة لها .

ثم ذكر حديث أبي هريرة ﷺ أن النبي ﷺ بعث رجالًا في سرية وقال : « إذا وجدتم فلانًا وفلانًا » لرجلين سماهما « فأحرقوهما بالنار » فاعتمد الصحابة ذلك امتثالًا لأمر النبي ﷺ ، فلما أرادوا الخروج ، قال : « كنت قلت كذا وكذا ولكن لا يعذب بالنار إلا اللَّه ﷻ فإن وجدتموهما فاقتلوهما » فنسخ النبي ﷺ أمره الأول بأمره الثاني ، أمره الأول : أن يُحرقا ، وأمره الثاني : أن يُقتلا ، فدل ذلك على أن الإنسان إذا استحق القتل فإنه لا يُحرق بالنار وإنما يُقتل قتلًا عاديًا حسب ما تقتضيه النصوص الشرعية .

وكذلك الحديث الذي رواه أبو داود أن النبي ﷺ مضى لحاجته فوجد الصحابة حمرة ، نوع من الطيور ، معها ولداها ، فأخذوا ولديهما ، فجعلت تعرش ، يعني تحوم حولهم ، كما هو العادة أن الطائر إذا أخذ أولاده جعل يعرض ويحوم ويصيح لفقد أولاده ؛ لأن اللَّه ﷻ جعل في قلوب البهائم رحمة لأولادها ، حتى إن البهيمة لترفع حافرها عن ولدها خشية أن تصيبه (٣) ، وهذا من حكمة اللَّه ﷻ ، فأمر النبي ﷺ أن يطلق ولديها لها ، فأطلقوا ولديها ، ثم مرَّ بقرية نمل قد أُحرقت فقال : « من

(١) أخرجه البخاري في الجهاد والسير (٣٠١٦) ، وأحمد في المسند (٢/٣٠٧) ، والبيهقي في السنن (٦/٧١) .
(٢) أخرجه أبو داود في الجهاد (٢٦٧٥) ، والطبراني في الكبير (١٠/٢١٨) .
(٣) وذلك مصداقًا لما رواه البخاري في الأدب (٦٠٠٠) ، ومسلم في التوبة (١٧) ، والدارمي في الرقاق (٦٩) .

أحرق هذا ، » قالوا : نحن يا رسول الله . قرية النمل يعني مجتمع النمل ، جحورها ، أحرقوها بالنار ، فقال النبي ﷺ : « إنه لا ينبغي أن يعذب بالنار إلا رب النار » فنهى عن ذلك ، وعلى هذا إذا كان عندك نمل فإنك لا تحرقها بالنار وإنما تضع شيئًا يطردها مثل الجاز إذا صفيته على الجحر فإنها تنفر بإذن الله ولا ترجع ، وإذا لم يمكن اتقاء شرها إلا بمبيد يقتلها نهائيًا ، أعني النمل ، فلا بأس ؛ لأن هذا دفع لأذاها ، وإلا فالنمل مما نهى النبي ﷺ عن قتله ، لكن إذا آذاك ولم يندفع إلا بالقتل فلا بأس بقتله .

* * *

٢٨٤ - باب تحريم مطل الغني بحقٍّ طلبه صاحبه

قال الله تعالى : ﴿ إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُكُمْ أَن تُؤَدُّوا الْأَمَانَاتِ إِلَىٰ أَهْلِهَا ﴾ [النساء : ٥٨] . وقال تعالى : ﴿ فَإِنْ أَمِنَ بَعْضُكُم بَعْضًا فَلْيُؤَدِّ الَّذِي اؤْتُمِنَ أَمَانَتَهُ ﴾ [البقرة : ٢٨٣] .

١٦١١ - وعَنْ أبي هُرَيرَةَ ﷺ أنَّ رَسُولَ اللهِ ﷺ قَالَ : « مَطْلُ الغَنِيِّ ظُلْمٌ ، وَإذا أُتبعَ أَحَدُكُم عَلى مَلِيءٍ فَلْيَتْبَعْ » [1] متفقٌ عليه .

مَعْنَى « أُتبعَ » : أُحِيلَ .

الشرح

ذكر المؤلف - رحمه الله تعالى - تحريم مطل الغنى ، يعني في الحق الذي يجب عليه لغيره ، والمطل هو التأخير ، وهو ظلم ، فإذا كان لك حق على إنسان حالّ وطلبته منه ولكنه صار يماطل ؛ فإن ذلك ظلم وحرام وعدوان ، ومن ذلك ما يفعله الكفلاء لمكفوليهم ؛ فإنهم - والعياذ بالله - يماطلونهم ويؤذونهم ولا يؤتوهم تجد هذا الفقير المسكين الذي ترك أهله وبلده لينال لقمة العيش ، يبقى أربعة أشهر ، خمسة أشهر وأكثر ، والكفيل يماطل به - والعياذ بالله - ويهدده بأنه إن تكلم سفره ، ألا يعلم هؤلاء أن الله فوقهم ، وأن الله أعلى منهم ، وأنه ربما يسلط عليهم قبل أن يموتوا من يسومهم سوء العذاب ، نسأل الله العافية ، لأن هؤلاء مساكين ، وقد قال النبي ﷺ عن ربه تبارك وتعالى أنه قال : « ثلاثة أنا خصمهم يوم القيامة : رجل أعطى بي ثم غدر » يعني عاهد بالله ثم غدر والعياذ بالله « ورجل باع حرًا فأكل ثمنه ، ورجل استأجر أجيرًا فاستوفى منه ولم يعطه أجره » [2] فهؤلاء خصماء الله يوم القيامة ، نعوذ بالله من حالهم ، ومكرهم ، ظلم ، وكل ساعة بل كل لحظة تمر عليهم لا يوفون هذا حقه لا يزدادون من الله إلا بعدًا ، ولا يزدادون إلا ظلمًا ، والعياذ بالله ، والظلم ظلمات يوم القيامة .

ثم استدل بقوله تعالى : ﴿ إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُكُمْ أَن تُؤَدُّوا الْأَمَانَاتِ إِلَىٰ أَهْلِهَا ﴾ ومن الأمانات ثمن المبيع ، إذا باع

---

(١) أخرجه البخاري في الحوالات (٢٢٨٧) ، ومسلم في المساقاة (٣٣) ، وأحمد في مسنده (٧١/٢) ، وابن ماجه في الصدقات (٢٤٠٤) . قوله : « مطل » أي تأخير ما استحق أداؤه بغير غدر . قوله : « مليء » أي غني .

(٢) أخرجه ابن ماجه في السنن (٢٤٤٢) ، والترغيب والترهيب (٢٣/٣) .

عليك إنسان شيئًا وبقي ثمنه في ذمتك فهو يشبه الأمانة ، يجب أن تؤديها ولا يحل لك أن تماطل بها .

واستدل أيضًا بحديث أبي هريرة رضي الله عنه ، أن النبي ﷺ قال : « مطل الغني ظلم ، وإذا أحيل أحدكم على مليء فليتبع » فجمع النبي ﷺ في هذا الحديث بين حسن القضاء وحسن الاقتضاء ، أما حسن القضاء فقال : « مطل الغني ظلم » وهذا يتضمن الأمر بالمبادرة إلى إيتاء الحق وألا يتأخر ، فإن فعل فهو ظالم ، وما أكثر الذين يؤتى إليهم يطلب منهم الثمن أو الأجرة ويقول غدًا ، بعد غد ، والدراهم عنده في الدرج ، ولكن يلعب به الشيطان ، وكأنه إذا بقيت عنده تزيد ، وكأنها تنقص يعني ينقص صاحب الحق منها ، وعجبًا لهؤلاء الذين سفهوا في عقولهم وضلوا في دينهم ، هل يظنون أنهم إذا ماطلوا يسقط عنهم الحق أو ينقص ؟ أبدًا الحق باقٍ سواء أعطاه اليوم أو بعد عشرة أيام أو بعد عشر سنين ، لكن الشيطان يلعب بهم . وقول الرسول ﷺ : « مطل الغني » يدل على أن مطل الفقير ليس بظلم ، إذا كان الإنسان ليس عنده شيء وماطل فهذا ليس بظالم ، بل الظالم الذي يطلبه ، ولهذا إذا كان صاحبك فقيرًا وجب عليك أن تنظره وألا تطلبه وألا تطالبه به لقول الله تعالى : ﴿ وَإِن كَانَ ذُو عُسْرَةٍ فَنَظِرَةٌ إِلَىٰ مَيْسَرَةٍ ﴾ [البقرة : ٢٨٠] فأوجب الله الانتظار إلى الميسرة ، وكثير من الناس يكون له الحق عند الفقير ويعلم أنه فقير ويطالبه ويشدد عليه ويرفع بشكواه إلى ولاة الأمور ويحبس على دينه وهو ليس بقادر ، هذا أيضًا حرام وعدوان ، ويجب على القاضي إذا علم أن هذا فقير وطالبه من له الحق يجب عليه أن ينهر صاحب الحق وأن يوبخه وأن يصرفه ؛ لأنه ظالم ، فإن الله أمره بالانتظار ﴿ وَإِن كَانَ ذُو عُسْرَةٍ فَنَظِرَةٌ إِلَىٰ مَيْسَرَةٍ ﴾ ولا يحل له أبدًا أن يقول له أعطني حقي ، وهو يدري أنه فقير ، ولا يتعرض له .

وقوله : « من أحيل على مليء فليتبع » يعني إذا كان إنسان له حق على زيد وقال له زيد : أنا أطلب عمرًا مقدار حقي ، يعني ، مثلًا زيد مطلوب ١٠٠ ريال وهو يطلب عمرًا ١٠٠ ريال فقال : أنا أحيلك على عمرو في ١٠٠ ريال ، فليس للطالب أن يقول لا أقبل ، لأن الرسول ﷺ قال : « من أحيل على مليء فليتبع » [١] إلا إذا كان المحول عليه فقيرًا أو مماطلًا أو قريبًا للشخص لايستطيع أن يرافعه عند الحاكم .

المهم : إذا وجد مانع فلا بأس أن يرفض الحوالة ، وأما إذا لم يكن مانع فإن النبي ﷺ أمر أن يقبل الحوالة ، قال : « فليتبع » .

واختلف العلماء : هل هذا على سبيل الوجوب أو أن هذا على سبيل الاستحباب ؟

فذهب الحنابلة - رحمهم الله - إلى أن هذا على سبيل الوجوب ، وأنه يجب على الطالب أن يتحول إن حُوِّل على إنسان مليء ، وقال أكثر العلماء : إنه على سبيل الاستحباب ، لأن الإنسان لا يلزمه أن يتحول [٢] . قد يقول صاحب الأول أهون وأيسر وأما الثاني فأهابه وأخاف منه وما أشبه ذلك ، لكن لا شك أن الأفضل أن يتحول إلا لمانع شرعي . والله الموفق .

---

(١) ذكره - بهذا اللفظ - البخاري في الكبير (٢٣٩/١) ، والزيلعي في نصب الراية (٥٩/٤) .

(٢) راجع ذلك بتفصيله في المغني (٥٧٧/٤) ، وبدائع الصنائع (١٦/٦ ، ١٧) ، ومغني المحتاج (١٩٤/٢) ، وفقه الكتاب والسنة (١٧٨٥/٣ - ١٧٩٣) .

٢٨٥ - باب كراهة عودة الإنسان في هِبَةٍ لم يُسلمها إلى الموهوب له وفي هبة وهبها لولده وسلمها أو لم يسلمها وكراهة شرائه شيئًا تصدق به من الذي تصدق عليه أو أخرجه عن زكاة أو كفارة ونحوها ولا بأس بشرائه من شخص آخر قد انتقل إليه

١٦١٢ - عَن ابْنِ عَبَّاسٍ رضي الله عنهما أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ قَالَ : « الَّذِي يَعُودُ فِي هِبَتِهِ كَالكَلْبِ يَرجِعُ فِي قَيْئِهِ » متفقٌ عليه .

وفي روايةٍ : « مَثَلُ الَّذِي يَرجِعُ فِي صَدَقَتِهِ ، كَمَثَلِ الكَلْبِ يَقيءُ ، ثمَّ يَعُودُ فِي قَيْئِهِ فَيَأْكُلُهُ » .

وفي روايةٍ : « العَائِدُ فِي هِبَتِهِ كالعَائِدِ فِي قيْئِه » [١] .

١٦١٣ - وَعَنْ عُمَرَ بْنِ الخَطَّاب رضي الله عنه قَالَ : حَمَلْتُ عَلى فَرسٍ في سَبيلِ اللَّهِ فَأَضَاعَهُ الَّذي كَانَ عِنْدَه ، فَأَردتُ أَنْ أَشْتَرِيَهُ ، وَظَنَنْتُ أَنَّهُ يَبِيعُهُ بِرُخْصٍ ، فَسَأَلتُ النبيَّ ﷺ فَقَالَ : « لا تَشْتَرِهِ ، وَلا تَعُدْ في صَدَقَتِكَ وَإِن أَعْطَاكَهُ بِدِرْهَمٍ ؛ فَإِنَّ العَائِدَ في صَدَقَتِهِ كَالعَائِدِ في قَيْئِهِ » متفق عليه .

قوله : « حَمَلتُ عَلى فَرَسٍ في سَبيلِ اللَّه » مَعْنَاهُ : تَصَدَّقْتُ بِه عَلى بَعْضِ المُجَاهِدينَ [٢] .

الشرح

ذكر المؤلف رحمه الله ما يدل على تحريم الرجوع في الهبة ، يعني أنك إذا أعطيت إنسانًا شيئًا مجانًا تبرعًا من عندك ؛ فإنه لا يحل لك أن ترجع فيه ، سواء كان قليلًا أم كثيرًا ، لأن النبي ﷺ شبه العائد في هبته بالكلب ، الكلب يقيء ما في بطنه ثم يعود فيأكله ، وهذا تشبيه قبيح ، شبه النبي ﷺ العائد في هبته بهذا تقبيحًا له وتنفيرًا منه ، ولا فرق بين أن يكون الذي وهبته من أقاربك أو من الأباعد عندك ، فلو وهبت لأخيك شيئًا ، ساعة أو قلمًا أو سيارة أو بيتًا ، فإنه لا يحل لك أن ترجع فيه ، إلا أن ترضى لنفسك أن تكون كلبًا ، ولا أحد يرضى لنفسه أن يكون كلبًا ، وكذلك الابن لو وهب لأبيه شيئًا ؛ فإنه لا يرجع فيه ، كرجل غني له أب فقير ، فوهبه بيتًا ، فإنه لا يجوز له أن يرجع في الهبة ولو كان أباه ، أما العكس ، لو أن الرجل وهب ابنه شيئًا ، فلا بأس أن يرجع فيه ، لقول النبي ﷺ « لا يحل لواهب أن يرجع فيما وهب ، إلا الوالد فيما يعطي ولده » [٣] لأن الوالد له الحق أن يأخذ من مال ولده الذي لم يهبه له ما لم يضره .

ثم ذكر أيضًا حديث عمر بن الخطاب رضي الله عنه : أنه حمل على فرس في سبيل الله يعني أعطى رجلًا

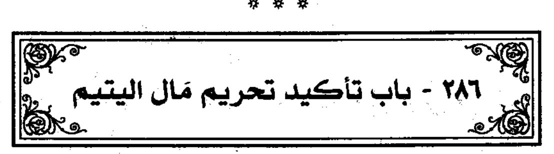
---

(١) أخرجه البخاري في الهبة (٢٦٢١) ، ومسلم في الهبات (١٦٢٢) ، والنسائي في السنن (٦/٢٦٦) .
(٢) أخرجه البخاري في الهبة (٢٦٢٣) ، ومسلم في الهبات (١٦٢٠) ، وأحمد في مسنده (١/٢٥) . قوله « فأضاعه الذي كان عنده » أي قصر في القيام بعلفه ومؤنته . قوله : « حملت » أي تصدقت ووهبت لمن يقاتل .
(٣) أخرجه البيهقي في السنن (٦/١٧٩) ، والبغوي في شرح السنة (٨/٣٠٠) .

فرسًا يقاتل عليه ، فأضاعه الرجل وأهمله ، فظن عمر ﷺ أنه يبيعه برخص ، وأنه ليس قادرًا على تحمل مؤونته ، فذكر ذلك للنبي ﷺ فقال : « لا تشتره ولو أعطاكه بدرهم » لأنك أخرجته للَّه ، ولا يمكن للإنسان أن يشتري صدقته ؛ لأن ما أخرجه الإنسان للَّه لا يعود فيه ، ولهذا قال : « العائد في صدقته كالكلب يقيء ثم يعود في قيئه » فتركه عمر ﷺ .

هذا إذا قبض الموهوب له الهبة ، أما قبل قبضها : فهذا لا يحرم عليه أن يعود ، لكن يوفي بوعده ، كما لو قال شخص لآخر : سوف أعطيك ساعةً مثلًا . ولكنه لم يسلمها له ، فله أن يرجع لكن ينبغي أن يفي بوعده ، لأن الذي لا يفي بما وعد فيه خصلة من خصال النفاق ، ولا يجوز للإنسان أن يتحلى بخصال المنافقين . واللَّه الموفق .

* * *



٢٨٦ - باب تأكيد تحريم مال اليتيم

قال اللَّه تعالى : ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ يَأْكُلُونَ أَمْوَٰلَ ٱلْيَتَٰمَىٰ ظُلْمًا إِنَّمَا يَأْكُلُونَ فِى بُطُونِهِمْ نَارًا ۖ وَسَيَصْلَوْنَ سَعِيرًا ﴾ [النساء : ١٠] . وقال تعالى : ﴿ وَلَا تَقْرَبُوا۟ مَالَ ٱلْيَتِيمِ إِلَّا بِٱلَّتِى هِىَ أَحْسَنُ ﴾ [الأنعام : ١٥٢] . وقال تعالى : ﴿ وَيَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلْيَتَٰمَىٰ ۖ قُلْ إِصْلَاحٌ لَّهُمْ خَيْرٌ ۖ وَإِن تُخَالِطُوهُمْ فَإِخْوَٰنُكُمْ ۚ وَٱللَّهُ يَعْلَمُ ٱلْمُفْسِدَ مِنَ ٱلْمُصْلِحِ ﴾ (١) [البقرة : ٢٢٠] .

١٦١٤ - وعَنْ أَبي هُرَيرَةَ ﷺ عَنِ النبيِّ ﷺ قَالَ : « اجْتَنِبُوا السَّبْعَ المُوبِقَاتِ » قَالُوا : يا رَسُولَ اللَّهِ وَمَا هُن ؟ قال : « الشِّرْكُ باللَّهِ ، وَالسِّحْرُ ، وَقَتْلُ النَّفْسِ الَّتي حَرَّمَ اللَّهُ إلا بالحقِّ ، وَأَكْلُ الرِّبَا ، وَأَكْلُ مَالِ اليَتِيمِ ، والتَّوَلِّي يَومَ الزَّحْفِ ، وقذفُ المُحْصَنَاتِ المُؤمِناتِ الغَافِلات » (٢) متفقٌ عليه .

« المُوبِقاتُ » المُهلِكَاتُ .

الشرح

قال المؤلف - رحمه اللَّه تعالى - في تحريم أموال اليتامى . اليتامى هم الذين مات آباؤهم قبل البلوغ ، سواء كانوا ذكورًا أو إناثًا ، وهؤلاء ، أعني اليتامى ، محل الرفق والعناية والرحمة والشفقة ؛ لأنهم كسرت قلوبهم بموت آبائهم وليس لهم عائل إلا اللَّه ﷻ ، فكانوا محل الرفق والعناية ، ولهذا أوصى اللَّه بهم في كتابه وحث على الرحمة بهم في آيات كثيرة ، ولا يحل للإنسان أن يأكل أموال اليتامى ظلمًا ، لقول اللَّه تعالى : ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ يَأْكُلُونَ أَمْوَٰلَ ٱلْيَتَٰمَىٰ ظُلْمًا إِنَّمَا يَأْكُلُونَ فِى بُطُونِهِمْ نَارًا ۖ

---

(١) قوله : ﴿ يَأْكُلُونَ ﴾ أي يتلفون ويستولون عليها . وقوله : ﴿ وَسَيَصْلَوْنَ سَعِيرًا ﴾ أي سيدخلون نار جهنم . قوله : ﴿ تُخَالِطُوهُمْ ﴾ أي تخلطوا طعامكم بطعامهم وشرابكم بشرابهم .

(٢) أخرجه البخاري في الوصايا (٢٧٦٦) ومسلم في الإيمان (٨٩) وأبو داود في الوصايا (٢٨٧٤) والبيهقي في السنن (٢٨٤/٦) قوله : « وأكل مال اليتيم » أي التسلط عليه وإتلافه . قوله : « والتولي يوم الزحف » أي الهروب من ساحة المعركة أثناء القتال . قوله : « المحصنات » أي العفيفات . قوله : « الغافلات » أي الغافلات عن الفواحش وما قذفن به .

وَسَيَصْلَوْنَ سَعِيرًا ﴾ [النساء: ١٠] ويوجد بعض الناس - والعياذ بالله - يموت أخوه ويكون له أولاد صغار، فيتولى ماله ويتاجر به لنفسه - والعياذ بالله - ويتصرف فيه بغير حق وبغير مصلحة للأيتام، وهؤلاء يستحقون هذا الوعيد أنهم يأكلون في بطونهم نارًا، نسأل الله العافية.

وقال تعالى: ﴿ وَلَا تَقْرَبُوا۟ مَالَ ٱلْيَتِيمِ إِلَّا بِٱلَّتِى هِىَ أَحْسَنُ ﴾ [الأنعام: ١٥٢] يعني لا تتعاملوا في أموال اليتامى إلا بالتي هي أحسن، فإذا كان أمامك مشروعان تريد أن تشغل مال اليتيم في واحد منهما فانظر أيهما أقرب إلى المصلحة والربح والسلامة فافعل، ولا يحل لك أن تفعل ما هو أسوأ لحظ نفسك، أو لحظ قريب، أو ما أشبه ذلك، بل انظر للذي هو أحسن، فإن أشكل عليك، هل فيه مصلحة لليتيم أم لا؟ فلا تتصرف، لا تتصرف، أمسك الدراهم، لأن الله قال: ﴿ وَلَا تَقْرَبُوا۟ مَالَ ٱلْيَتِيمِ إِلَّا بِٱلَّتِى هِىَ أَحْسَنُ ﴾ فإذا أشكل عليك فلا تفعل، ولا يحل لك أن تُقرض أحدًا من مال اليتامى، يعني جاء إنسان يقول: سلفني مثلًا ١٠٠٠٠ ريال أو ١٠٠٠٠٠ ريال وعندك مالًا لليتيم، لا يحل لك أن تقرضه، لأنه قد يعجز عن الوفاء ولا مصلحة لليتيم في قرضه، وإذا كان لا يجوز أن تقرضه غيرك فمن باب أولى أن لا تستقرضه أنت لنفسك، وبعض أولياء اليتامى - والعياذ بالله - يتجرأون، يستقرض مال اليتيم لنفسه ويتصرف فيه لنفسه والكسب له والربح له، ومال اليتيم لا يستفيد، والله يقول: ﴿ وَلَا تَقْرَبُوا۟ مَالَ ٱلْيَتِيمِ إِلَّا بِٱلَّتِى هِىَ أَحْسَنُ ﴾ [الأنعام: ١٥٢] فإذا رأيت أن هذا المشروع أحسن وساهمت فيه، وقدر الله أن يخسر هذا المشروع فليس عليك شيء، لأنك مجتهد، والمجتهد لو أصاب له أجران وإن أخطأ فله أجر، لكن تتعمد أن تترك ما هو أحسن لما دونه، هذا حرام عليك.

وقال الله تبارك وتعالى: ﴿ وَيَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلْيَتَٰمَىٰ قُلْ إِصْلَاحٌ لَّهُمْ خَيْرٌ وَإِن تُخَالِطُوهُمْ فَإِخْوَٰنُكُمْ ﴾ [البقرة: ٢٢٠] وهذه الآية وردت جوابًا عن سؤال أورده الصحابة على الرسول ﷺ قالوا: يا رسول الله نحن عندنا أموال اليتامى، والبيت واحد والطعام واحد، كيف نعمل، إن جعلنا طعام هؤلاء في إناء خاص تعبنا، وربما يفسد عليهم، ماذا نعمل؟ فقال الله ﷻ: ﴿ إِصْلَاحٌ لَّهُمْ خَيْرٌ وَإِن تُخَالِطُوهُمْ فَإِخْوَٰنُكُمْ ﴾ يعني افعلوا ما هو الأصلح وخالطوهم، اجعلوا القدر واحد والإناء واحد، وما دمتم تريدون الإصلاح، فالله يعلم المفسد من المصلح ولو شاء الله لأعنتكم وشق عليكم لكنه سبحانه وتعالى رحيم بالمؤمنين.

ثم ذكر حديث أبي هريرة ﷺ: أن النبي ﷺ قال: « اجتنبوا السبع الموبقات » السبع الموبقات المهلكات التي تهلك الدين والعياذ بالله، قالوا: وما هن يا رسول الله؟ قال: « الشرك بالله » وهذا أعظم الموبقات، أن تشرك بالله ﷻ وهو خلقك وأنعم عليك في بطن أمك، وبعد وضعك، وفي حال صباك، أنعم الله عليك بنعم كثيرة فتشرك به والعياذ بالله! هذا أظلم الظلم، أظلم الظلم أن تجعل لله ندًا وهو خلقك، وهذا أعظم الموبقات، الإشراك بالله.

والإشراك بالله أنواع كثيرة منها:

- أن يعظم الإنسانُ المخلوقَ كما يعظم الخالقَ، وهذا موجود عند بعض الخدم، الأحرار وغير

الأحرار ، تجده يعظم رئيسه ، يعظمه ملكه ، يعظم وزيره أكثر من تعظيم اللَّه – والعياذ باللَّه – هذا شركٌ عظيم ، تعظم مخلوقًا مثلك أعظم من تعظيم اللَّه ! ويدل لهذا أن أميره أو وزيره أو ملكه ، أو سيده إذا قال افعل كذا وقت الصلاة ترك الصلاة وفعل ، حتى لو خرج وقتها لا يبالي ، معناه أنه جعل تعظيم المخلوق أعظم من تعظيم الخالق .

ومن ذلك أيضًا : المحبة ، أن يحب أحدًا من المخلوقين كمحبة اللَّه أو أعظم ، تجده يداري هذا الإنسان ويطلب محبته أكثر من محبة اللَّه ، وهذا يوجد – والعياذ باللَّه – في المفتونين بالعشق ، الذين فتنوا بالعشق سواء كان عشق نساء أو غيرهم ، تجد قلبه مملوءًا بمحبة غير اللَّه أكثر من محبة اللَّه ، وقد قال اللَّه تعالى : ﴿ وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يَتَّخِذُ مِن دُونِ ٱللَّهِ أَندَادًا يُحِبُّونَهُمْ كَحُبِّ ٱللَّهِ ۖ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ أَشَدُّ حُبًّا لِّلَّهِ ﴾ (١) [البقرة : ١٦٥] .

ومن ذلك : وهو أمر خفي ، من ذلك الرياء ، فإنه من الشرك باللَّه ، يقوم الإنسان يصلي ويزين صلاته لأن فلانًا يراه ، ينظر إليه ، يصوم ليقال : إنه رجل عابد يصوم ، يتصدق ليقال إنه رجل كريم يتصدق هذا رياء ، وقد قال اللَّه تعالى : « أنا أغنى الشركاء عن الشرك من عمل عملًا أشرك فيه معي غيري تركته وشركه » .

ومن ذلك أيضًا : من الشرك ، وهو خفي أيضًا : أن تأخذ الدنيا لبَّ الإنسان وعقله تجد عقله ؛ وفكره وبدنه ونومه ويقظته كلها في الدنيا ، ماذا كسب اليوم وماذا خسر ؟ ولذلك تجده يتحيل على الدنيا بالحلال والحرام ، والكذب والخديعة لولاة الأمور ، ولا يبالي ؛ لأن الدنيا استعبدته – والعياذ باللَّه – والدليل على هذا الشرك قول النبي ﷺ : « تعس عبد الدينار » هل تظنون أن هذا يسجد للدينار ، لا ، لكن الدينار ملك قلبه « تعس عبد الدينار ، تعس عبد الدرهم ، تعس عبد الخميصة » يعني : الثياب « تعس عبد الخميلة » يعني الفرش ، ما همه إلا تجميل ثيابه تجميل فراشه أكبر عنده من الصلاة وغيرها من عبادة اللَّه « تعس إن أعطى رضي وإن لم يُعْطَ سخط » (٢) إن أنعم اللَّه عليه قال : هذا الربُّ الكريم العظيم الجليل الذي يستحق كل شيء وإن لم يعْطَ سخط ، والعياذ باللَّه ﴿ يَعْبُدُ ٱللَّهَ عَلَىٰ حَرْفٍ ۖ فَإِنْ أَصَابَهُۥ خَيْرٌ ٱطْمَأَنَّ بِهِۦ ۖ وَإِنْ أَصَابَتْهُ فِتْنَةٌ ٱنقَلَبَ عَلَىٰ وَجْهِهِۦ خَسِرَ ٱلدُّنْيَا وَٱلْءَاخِرَةَ ﴾ يقول الرسول ﷺ : « إن أعطي رضي وإن لم يعْطَ سخط تعس وانتكس » خسر ، انتكس ، انتكست عليه الأمور وأفسد اللَّه عليه أمره « وإذا شيك فلا انتقش » يعني : معناه أن اللَّه يعسر عليه الأمور حتى الشوكة لا يقدر يطلعها من بدنه « إذا شيك » أي : أصابته الشوكة « فلا انتقش » ثم قال في مقابل هذا « طوبى لعبد آخذ بعنان فرسه في سبيل اللَّه » طوبى : يعني الحياة الطيبة في الدنيا والآخرة لهذا العبد « لعبد آخذ بعنان فرسه في سبيل اللَّه ، أشعث رأسه مغبرة قدماه » انظر الأول : عبد خميصة وخميلة ، أما

---

(١) قوله : ﴿ أَندَادًا ﴾ أمثالًا ونظراء ، والمراد بها الأصنام والأوثان التي اتخذوها آلهة . وقيل : الرؤساء الذين يطيعونهم طاعة الأرباب .

(٢) الحديث أخرجه بلفظ ابن ماجه في السنن (٤١٣٥) ، والبيهقي في السنن (١٥٩/٩) ، والهيثمي في مجمع الزوائد (٣٤٨/١٠) ، وأخرجه البخاري في الجهاد والسير (٢٨٨٦) بلفظ « تعس عبد الدينار والدرهم والقطيفة » .

الثاني : ما يبالي بنفسه ، أهم شيء عنده هو عبادة الله ورضا الله « أشعث رأسه مغبرةٌ قدماه إن كان في الساقة كان في الساقة »[١] ، يعني معناه أنه لا يبالي أية منزلة ينزلها ، إذا كانت فيها مصلحة الجهاد فإنه يكون فيها ، هذا هو الذي ربح الدنيا والآخرة .

فالحاصل : أن من الناس من يشرك بالله وهو لا يعلم ، وأنت يا أخي إذا رأيت الدنيا قد ملأت قلبك وأنه ليس لك همٌّ إلا هي ، تنام عليها وتستيقظ عليها ، فاعلم أن في قلبك شِرْكًا لأن الرسول ﷺ قال : « تعس عبد الدينار » ويدل لهذا أنه يحرص على الحصول على المال سواء بالحلال أو بالحرام . والذي يعبد الله حقًّا لا يمكن أن يأخذ المال بالحرام إطلاقًا ؛ لأن الحرام فيه سخط الله والحلال فيه رضا الله ﷻ، والإنسان الذي يعبد الله حقًّا يقول لا يمكن أن آخذ المال إلا بطريقه ولا أصرفه إلا بطريقه .

فالحاصل : أن الرسول ﷺ قال : « اجتنبوا السبع الموبقات » قالوا : وما هن ، قال : « الشرك بالله »[٢] .

قال : « اجتنبوا السبع الموبقات » فأبهمها « اجتنبوا السبع الموبقات » ولم يبينها لأول مرة لأجل أن يتشوف الناس إليها حتى ترد على أذهانهم وهم مستعدون لها ، ولهذا قالوا : ما هن يا رسول الله ؟ قال : « الإشراك بالله » وسبق لنا أن الإشراك بالله أنواع .

الثاني : السحر ، والسحر عبارة عن عُقَد ورُقي يعني قراءات مطلسمة في صور الشياطين وعفاريت الجن ، ينفث بها الساحر فيؤذي المسحور بمرض أو موت أو صرف أو عطف صرف : يعني يصرفه عن ما يريد ، عطف : يعني يعطفه على ما لا يريد ، كما قال الله تعالى : ﴿ فَيَتَعَلَّمُونَ مِنْهُمَا مَا يُفَرِّقُونَ بِهِۦ بَيْنَ ٱلْمَرْءِ وَزَوْجِهِۦ ﴾ [البقرة : ١٠٢] وهو من كبائر الذنوب ، والساحر يجب أن يقتل حدًّا ، سواء تاب أو لم يتب ، وذلك لعظم مضرته على الناس وشدة جرأته - والعياذ بالله - ولهذا جاء في الحديث « حد الساحر ضربُه بالسيف » وفي رواية « ضربة بالسيف »[٣] ثم إن السحر منه ما يكون كفرًا ، وهو أن يستعين بالشياطين والجن وهذا كفر ، لقول الله تبارك وتعالى في سورة البقرة : ﴿ وَٱتَّبَعُواْ مَا تَتْلُواْ ٱلشَّيَـٰطِينُ عَلَىٰ مُلْكِ سُلَيْمَـٰنَ ۖ وَمَا كَفَرَ سُلَيْمَـٰنُ وَلَـٰكِنَّ ٱلشَّيَـٰطِينَ كَفَرُواْ يُعَلِّمُونَ ٱلنَّاسَ ٱلسِّحْرَ وَمَآ أُنزِلَ عَلَى ٱلْمَلَكَيْنِ بِبَابِلَ هَـٰرُوتَ وَمَـٰرُوتَ ۚ وَمَا يُعَلِّمَانِ مِنْ أَحَدٍ حَتَّىٰ يَقُولَآ إِنَّمَا نَحْنُ فِتْنَةٌ فَلَا تَكْفُرْ ۖ ﴾ [البقرة : ١٠٢] وهذا نص صريح بأن السحر كفر إذا كان متلقيًا من الشياطين ؛ لأن الشياطين لا يمكن أن تخدم الإنسان إلا بشيء يكون شركًا ، وقد سُحر النبي ﷺ ، سحره يهودي خبيث ، يقال له لبيد بن الأعصم ، وضع له سحرًا في بئر في مُشْطٍ ومُشَّاطة وجُفِّ طَلْعةِ ذَكَر - يعني النخلة الفحل - لجمرته جف يسمى الكافور أو الكُفُرة ، هذا الخبيث ، وضع السحر للرسول (في مشط ، المشط الذي يمشط به عادة ، مُشَّاطة يعني : ما سقط من الشعر عند المشط ، فوضعه في هذا البئر ، لكن لم يؤثر على النبي

---

(١) أخرجه البخاري في الجهاد (٢٨٨٧) والبيهقي في السنن (٩/١٥٩) .

(٢) بعد هذا الجزء قام الشارح ؒ بذكر باب تغليظ تحريم الربا ولم يستكمل بقية شرح الحديث إلا بعد شرح الآيات ثم عاد وذكر الحديث مرة أخرى ، وقد قمنا بمتابعة الشرح إتمامًا للفائدة وترتيبًا لموضوعات الكتاب .

(٣) أخرجه الترمذي في السنن (١٤٦٠) ، والحاكم في المستدرك (٤/٣٦٠) .

ﷺ في أمر يتعلق بالرسالة أبدًا ، لكن صار يخيل إليه أنه أتى أهله أو أنه فعل الشيء ولم يفعله ، حتى أنزل الله ﷻ سورتي ﴿ قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ ٱلْفَلَقِ ﴾ [الفلق : ١] و ﴿ قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ ٱلنَّاسِ ﴾ [الناس : ١] فرقاه بهما جبريل ، فشفي بإذن الله ، ثم استخرج السحر من هذه البئر وفلَّه وأبطله [١] . وهذا دليل على خبث اليهود وأنهم من أشدِّ الناس عداوة ، بل قال الله تعالى : ﴿ لَتَجِدَنَّ أَشَدَّ ٱلنَّاسِ عَدَٰوَةً لِّلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱلْيَهُودَ وَٱلَّذِينَ أَشْرَكُواْ ﴾ فبدأ باليهود قبل المشركين ، فهم أشد الناس عداوة للمسلمين ، ولهذا سحروا النبي ﷺ ولكن الله ، ولله الحمد ، أبطل سحرهم .

فصار السحر ينقسم إلى قسمين : سحر كفر وهو الاستعانة بالأرواح الشيطانية ، وغير كفر وهو أن يكون بالعقد والأدوية والأخشاب وما أشبه ذلك ، أما حكم الساحر فإنه يجب أن يقتل بكل حال إن كان كافرًا فلردته ، وإن كان سحره دون الكفر فلأذيته [٢] ، قال الله تعالى : ﴿ إِنَّمَا جَزَٰٓؤُاْ ٱلَّذِينَ يُحَارِبُونَ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ وَيَسْعَوْنَ فِى ٱلْأَرْضِ فَسَادًا أَن يُقَتَّلُوٓاْ أَوْ يُصَلَّبُوٓاْ أَوْ تُقَطَّعَ أَيْدِيهِمْ وَأَرْجُلُهُم مِّنْ خِلَٰفٍ .. ﴾ [المائدة : ٣٣] الإشراك بالله والسحر .

والثالثة : « وقتل النفس التي حرم الله إلا بالحق » والنفس التي حرم الله قتلها أربع نفوس : المسلم ، الذمي ، المعاهد ، المستأمن ، هذه أربع نفوس محترمة لا يجوز قتلها ، المسلم فظاهر .

وأما الذمي : فهو الذي يكون بيننا وفي بلدنا من أهل الكتاب أو غيرهم ، يدفع الجزية لنا ونحميه مما يؤذيه ، ونحترمه وإن كان على غير الإسلام .

وأما المعاهد : فهو الذي بيننا وبينهم عهد وإن كانوا في بلادنا كما جرى بين النبي ﷺ وبين قريش في صلح الحديبية ، فإذا كان من المعاهدين حرم عليك أن تقتله ، وهو نفس معصومة .

وأما المستأمن : فهو الذي يدخل لبلادنا بأمان ، نعطيه أمانًا ، إما لكونه تاجرًا يجلب تجارته ويشتري ، أو لأنه يريد أن يبحث عن الإسلام ، ويعرف الإسلام ، كما قال الله تعالى : ﴿ وَإِنْ أَحَدٌ مِّنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ٱسْتَجَارَكَ فَأَجِرْهُ حَتَّىٰ يَسْمَعَ كَلَٰمَ ٱللَّهِ ثُمَّ أَبْلِغْهُ مَأْمَنَهُۥ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لَّا يَعْلَمُونَ ﴾ [التوبة : ٦] .

أما الحربي : الذي بيننا وبينه حرب ، وليس بيننا وبينه عهد ولا ذمة ولا أمان فهذا يحل قتله ، لأنه ليس بيننا وبينه عهد ، بل هو محارب لنا ، لو تمكن منا لقَتَل من يقتل من المسلمين ، فهذا لا عهد له ولا ذمة .

قوله : « التي حرم الله إلا بالحق » يعني أن النفوس المحترمة ، قد يكون من الحق أن تقتل وهي محترمة ، مسلم أو ذمي أو معاهد أو مستأمن ، تقتل مثل قول الرسول ﷺ : « لا يحل دم امرئ

---

(١) انظر الحديث والقصة في البخاري في بدء الخلق (٣٢٦٨) ، ومسلم في السلام (٤٣) ، وأحمد في مسنده (٥٧/٦) .

(٢) هذا هو قول الحنفية والمالكية والحنابلة وهو مروي عن عمر وعثمان وابن عمرو حفصة وأبي موسى ، وعن جماعة من التابعين . أما الشافعية فقالوا : إنما يقتل الساحر إذا كان يعمل سحره ما يبلغ الكفر ، فإذا عمل عملًا دون الكفر فلا قتل عليه ، وقالوا : يطلب منه أن يصف سحره فإن بين ما يوجب الكفر كان كافرًا فيقتل (انظر . أحكام القرآن لابن العربي ٣١/١ ، بداية المجتهد ٢٤٠/٢ ، المهذب ١٧٧/٢ ، المغني ١٥١/٨ ، فقه الكتاب والسنة ٣٠/١ - ٣٣) .

مسلم إلا بإحدى ثلاث : الثيب الزاني ، والنفس بالنفس ، والتارك لدينه المفارق للجماعة »[١] فإذا زنى الإنسان وهو ثيب ، قد تزوج بنكاح صحيح وجامع زوجته ، ثم زنى بعد ذلك ؛ فإنه يرجم بالحجارة يوقف ويجتمع الناس عليه ويأخذون حجارة دون البالغة لا تكون كبيرة تقضي عليه بسرعة ولا صغيرة تشق عليه ، ثم يرجمونه ، ويتقون المقاتل يرجمونه على الظهر ، على البطن ، على الكتف ، على الفخذ حتى يموت ، كما فعل النبي ﷺ بالغامدية وماعز بن مالك وغيرهما .

الثاني النفس بالنفس : إذا قتل الإنسان شخصًا عمدًا وتمت شروط القصاص فإنه يقتل ولو كان مسلمًا النفس بالنفس .

والثالث التارك لدينه المفارق للجماعة : قيل : إن هذا هو المرتد ، يعني بعد أن كان مسلمًا ترك الدين ، والعياذ باللَّه ، فارق جماعة المسلمين ، فهذا يقتل .

الرابع أكل الربا : ثم قال ﷺ : « وأكل الربا » يعني أنه من الموبقات السبع ، والربا فسوف يأتي الكلام على تعريفه في الباب الذي يليه ، والأشياء التي يجري فيها الربا ، وأن الربا من أكبر الكبائر التي دون الشرك .

والخامس : « وأكل مال اليتيم » من السبع الموبقات ، واليتيم هو الذي مات أبوه قبل أن يبلغ ، فيتولى عليه الإنسان ويأكل ماله ، ينفقه على أهله ، أو يتجه به لنفسه ، أو ما أشبه ذلك ، هذا أيضًا من السبع الموبقات ، نسأل اللَّه العافية ، ولا فرق بين أن يكون اليتيم ذكرًا أو أنثى .

والسادس : « والتولي يوم الزحف » التولي عن صف القتال يوم الزحف ، يعني : يوم يزحف المسلمون على الكفار فيأتي إنسان ويتولى ، فإن هذا من كبائر الذنوب ، من السبع الموبقات ؛ لأنه يتضمن مفسدتين : المفسدة الأولى كسر قلوب المسلمين . والمفسدة الثانية : تقوية الكفار على المسلمين ، إذا انهزم بعضهم لا شك أنهم سوف يزدادون قوة على المسلمين ، يكون لهم بسبب ذلك نشاط ، لكن اللَّه ﷻ استثنى في القرآن فقال تعالى : ﴿ وَمَن يُوَلِّهِمْ يَوْمَئِذٍ دُبُرَهُۥٓ إِلَّا مُتَحَرِّفًا لِّقِتَالٍ أَوْ مُتَحَيِّزًا إِلَىٰ فِئَةٍ فَقَدْ بَآءَ بِغَضَبٍ مِّنَ ٱللَّهِ ﴾ [الأنفال : ١٦] فمن تولى لهذين الأمرين ، متحيزًا إلى فئة ، يعني : بأن يقال إن الفئة الفلانية قد حصرها العدو ، وخطر عليها أن يكتسحها العدو ، فانصرف لإنقاذهم فهذا لا بأس به ، لأنه انتقل إلى ما هو أنفع .

والثاني : المتحرف لقتال وهو المذكور أولًا في الآية ﴿ إِلَّا مُتَحَرِّفًا لِّقِتَالٍ ﴾ يعني مثلًا انصرف لإصلاح سلاحه أو ارتداء دروعه أو ما أشبه ذلك من مصلحة القتال ، فهذا لا بأس به .

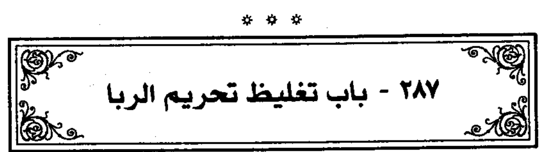
والسابع : « قذف المحصنات المؤمنات الغافلات » يعني أن يقذف المرأة العفيفة المؤمنة ، فهذا من كبائر الذنوب ، بأن يقول لامرأة : إنها زانية إنها قحبة وما أشبه ذلك ، هذا من كبائر الذنوب ،

---

(١) أخرجه مسلم في القسامة (٢٥) وأبو داود في السنن (٤٣٥٣) والترمذي في السنن (١٤٠٢) والنسائي في السنن (٩٢/٧) .

والقائل يجلد ثمانين جلدة ، ولا تقبل شهادته ويكون من الفاسقين لا من أهل العدل ، كما قال الله تبارك وتعالى : ﴿ وَالَّذِينَ يَرْمُونَ الْمُحْصَنَاتِ ثُمَّ لَمْ يَأْتُوا بِأَرْبَعَةِ شُهَدَاءَ فَاجْلِدُوهُمْ ثَمَانِينَ جَلْدَةً ﴾ [النور: ٦] هذه أول عقوبة ﴿ وَلَا تَقْبَلُوا لَهُمْ شَهَادَةً أَبَدًا ﴾ [النور: ٦] هذه العقوبة الثانية ﴿ وَلَا تَقْبَلُوا لَهُمْ شَهَادَةً أَبَدًا وَأُولَٰئِكَ هُمُ الْفَاسِقُونَ ۝ إِلَّا الَّذِينَ تَابُوا مِن بَعْدِ ذَٰلِكَ ﴾ [النور: ٦] فإنه يرتفع عنهم الفسق ويكونون من أهل العدالة ، وقوله : « قذف المحصنات المؤمنات الغافلات » مثلها أيضًا قذف الغافل المحصن المؤمن ، يعني الرجل إذا قذف فإنه يجلد القاذف ثمانين جلدة ، كالذي يقذف المرأة ، هذه هي السبع الموبقات . أعاذنا الله وإياكم منها وأجارنا وإياكم من الفتن إنه على كل شيء قدير .

* * *



٢٨٧ - باب تغليظ تحريم الربا

قال الله تعالى : ﴿ الَّذِينَ يَأْكُلُونَ الرِّبَا لَا يَقُومُونَ إِلَّا كَمَا يَقُومُ الَّذِي يَتَخَبَّطُهُ الشَّيْطَانُ مِنَ الْمَسِّ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ قَالُوا إِنَّمَا الْبَيْعُ مِثْلُ الرِّبَا وَأَحَلَّ اللَّهُ الْبَيْعَ وَحَرَّمَ الرِّبَا فَمَن جَاءَهُ مَوْعِظَةٌ مِّن رَّبِّهِ فَانتَهَىٰ فَلَهُ مَا سَلَفَ وَأَمْرُهُ إِلَى اللَّهِ وَمَنْ عَادَ فَأُولَٰئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ ۝ يَمْحَقُ اللَّهُ الرِّبَا وَيُرْبِي الصَّدَقَاتِ ﴾ إلى قَوْلِهِ تَعالى : ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَذَرُوا مَا بَقِيَ مِنَ الرِّبَا ﴾ (١) [البقرة: ٢٧٥] .

وَأَمَّا الأَحَادِيثُ فَكَثِيرةٌ في الصَّحِيحِ مَشْهُورَةٌ ، مِنْها حَدِيثُ أبي هُرَيرَة السَّابقُ في البَابِ قَبْلَهُ .

الشرح

قال المؤلف - رحمه الله تعالى - في تغليظ تحريم الربا .

الربا هو : الزيادة أو التأخير ؛ لأنه إما زيادة في شيء على شيء وإما تأخير قبض ، وقد بين الله ﷻ في كتابه حكم الربا وذكر فيه من الوعيد ، وكذلك النبي ﷺ ذكر حكم الربا وما فيه من الوعيد ، وبين النبي ﷺ أين يكون الربا وكيف يكون ؟ فذكر أن الربا يكون في ستة أصناف : الذهب ، والفضة ، والبر ، والشعير ، والتمر ، والملح ، هذه ستة أشياء هي التي فيها الربا .

إذا بعت شيئًا بجنسه فلا بد من أمرين : التساوي ، والتقابض قبل التفرق ، بعت ذهبًا بذهب ، لابد أن يكون سواء في الميزان وأن يكون القبض ؛ من الجانبين قبل التفرق ، بعت فضة بفضة ؛ لابد أن يكون سواء في الميزان ، وأن يكون القبض قبل التفرق من الجانبين ، بعت برًا ببرٍّ ؛ لابد أن يكون سواء في المكيال ، وأن يكون القبض قبل التفرق من الجانبين ، بعت شعيرًا بشعير ؛ لابد أن يكون سواءً

---

(١) قوله ﷻ : ﴿ الرِّبَا ﴾ هو إعطاء قدر من المال أو الحب أو غيرهما لشخص ما ثم أخذ هذا الشيء بقدر أكبر منه . قوله ﷻ : ﴿ لَا يَقُومُونَ ﴾ أي من قبورهم يوم القيامة . قوله ﷻ : ﴿ يَتَخَبَّطُهُ الشَّيْطَانُ ﴾ هو المصروع . قوله ﷻ : ﴿ الْمَسِّ ﴾ أي الجنون قوله ﷻ : ﴿ مَا سَلَفَ ﴾ أي ما مضي خلا إثم عليه فيه . قوله ﷻ : ﴿ يَمْحَقُ ﴾ أي يذهب بركته ويمحوها . قوله ﷻ : ﴿ وَيُرْبِي ﴾ أي يزيد . قوله ﷻ : ﴿ أَثِيمٍ ﴾ أي فاجر . قوله ﷻ : ﴿ وَذَرُوا ﴾ أي اتركوا .

بالمكيال ، وأن يكون القبض قبل التفرق من الجانبين ، بعت تمرًا بتمر لابد أن يكون سواءً في المكيال ، وأن يكون القبض قبل التفرق من الجانبين ، بعت ملحًا بملح ؛ لابد أن يكون سواء في المكيال ، وأن يكون القبض قبل التفرق .

هذا إذا بعت الشيء بجنسه من هذه الأصناف الستة ، وإن بعته بغير جنسه ؛ فلا بد من التقابض قبل التفرق من الجانبين ، ولا يشترط التساوي ، فإذا بعت صاعًا من البُرِّ بصاعين من الشعير ؛ فلا بأس ، لكن لابد من القبض قبل التفرق ، وإذا بعت صاعًا من التمر بصاعين من الشعير ؛ فلا بأس ، لكن بشرط التقابض قبل التفرق ، وإذا بعت ذهبًا بفضة فلا بأس بالزيادة أو النقص ، لكن لابد من القبض قبل التفرق .

هذه هي الأصناف الستة التي نص الرسول ﷺ على جريان الربا فيها ، وكذلك ما كان بمعناها ؛ فإنه يكون له حكمها ؛ لأن هذه الشريعة الإسلامية لا تفرق بين شيئين متماثلين ، كما أنها لا تساوي بين شيئين مفترقين ، أما حكم الربا فإنه من السبع الموبقات ، من كبائر الذنوب ، والعياذ بالله ، ومَن تعاطَى الربا ففيه شبه من اليهود ، أخبث عباد الله ؛ لأن اليهود هم الذين يأكلون السحت ، ويأكلون الربا ، فمن تعامل بالربا من هذه الأمة ؛ فإن فيه شبهًا من اليهود ، نسأل الله العافية .

أما الوعيد عليه فقال الله ﷻ : ﴿ ٱلَّذِينَ يَأْكُلُونَ ٱلرِّبَوٰاْ لَا يَقُومُونَ إِلَّا كَمَا يَقُومُ ٱلَّذِى يَتَخَبَّطُهُ ٱلشَّيْطَٰنُ مِنَ ٱلْمَسِّ ﴾ هذا حكمه ﴿ لَا يَقُومُونَ إِلَّا كَمَا يَقُومُ ٱلَّذِى يَتَخَبَّطُهُ ٱلشَّيْطَٰنُ مِنَ ٱلْمَسِّ ﴾ الشيطان يسلط على بني آدم ، نسأل الله السلامة ، إلا أن يمنّ الله عليه بالأذكار الشرعية التي تقيه من الشياطين ، مثل قراءة آية الكرسي في كل ليلة ، وغيرها مما هو معروف ، فالشيطان يسلط على بني آدم ويصرعه ، ويبقى الإنسان يبطش بيديه ويتحرك بيديه ورجليه ويتخبط ، هؤلاء أكلة الربا ، لا يقومون إلا كما يقوم الذي يتخبطه الشيطان من المس ، مجانين .

واختلف العلماء - رحمهم الله - هل المعنى لا يقومون من قبورهم يوم القيامة إلا على هذا الوصف ؟! يعني يقومون من القبور كأنهم مجانين ، كأن يضربهم الشيطان بالمس ، أو المعنى : لا يقومون للربا ؛ لأنهم يأكلون الربا وكأنهم مجانين ، من شدة طمعهم وجشعهم وشحهم ، لا يُبالون ، فيكون هذا وصفًا لهم في الدنيا ؟

والصحيح أن الآية إذا كانت تحتمل المعنيين فإنها تُحْمَلُ عليهما جميعًا ، يعني أنهم في الدنيا يتخبطون ويتصرفون تصرف الذي يتخبطه الشيطان من المسّ ، وفي الآخرة كذلك يقومون من قبورهم على هذا الوصف ، نسأل الله العافية .

ثم قال ﷻ مبينًا أن هؤلاء قاسوا قياسًا فاسدًا فقالوا : ﴿ إِنَّمَا ٱلْبَيْعُ مِثْلُ ٱلرِّبَوٰاْ ﴾ لا فرق ، كما أنك تبيع للرجل مثلاً شاة بمائة ريال تبيع عليه درهم بدرهمين ، أيُّ فرق ؟ فيقولون : ﴿ إِنَّمَا ٱلْبَيْعُ مِثْلُ ٱلرِّبَوٰاْ ﴾ وقياسهم هذا كقياس الشيطان حين أمره الله أن يسجد لآدم ، فقال : ﴿ أَنَا۠ خَيْرٌ مِّنْهُ خَلَقْتَنِى مِن نَّارٍ وَخَلَقْتَهُۥ مِن طِينٍ ﴾ [الأعراف : ١٢] فقابل النص بالقياس الفاسد . هؤلاء أيضًا قاسوا قياسًا فاسدًا ، فبين الله ﷻ أنه لا

قياس مع الحكم الشرعي ، قال : ﴿ وَأَحَلَّ ٱللَّهُ ٱلْبَيْعَ وَحَرَّمَ ٱلرِّبَوٰاْ ﴾ ولم يحل الله البيع ويحرم الربا إلا للفرق العظيم بينهما ، وأنهما ليسا سواءً ، لكن من طمس الله على قلبه رأى الباطل حقًّا والحق باطلًا - والعياذ بالله - كما قال عَجَلَك فيمن طمس الله على قلبه ﴿ إِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِ ءَايَٰتُنَا قَالَ أَسَٰطِيرُ ٱلْأَوَّلِينَ ﴾ [القلم : ١٥] القرآن الكريم أساطير الأولين ! أعظم كلام ، وأبين كلام ، وأفصح كلام ، يقولون أساطير الأولين ! لماذا ؟! ﴿ كَلَّا بَلْ رَانَ عَلَىٰ قُلُوبِهِم مَّا كَانُوا يَكْسِبُونَ ﴾ [المطففين : ١٤] إذا انطمس القلب - والعياذ بالله - رأى الباطل حقًّا ورأى الحق باطلًا ، هؤلاء يقولون : ﴿ إِنَّمَا ٱلْبَيْعُ مِثْلُ ٱلرِّبَوٰاْ ﴾ فقال الله : ﴿ وَأَحَلَّ ٱللَّهُ ٱلْبَيْعَ وَحَرَّمَ ٱلرِّبَوٰاْ ﴾ .

ثم عرض الله عَجَلَك التوبة على هؤلاء الأكالين للربا ، كعادته جل وعلا يعرض التوبة على المذنبين لعلهم يتوبون إليه ، لأن الله يحب التوابين ويحب المتطهرين ، حتى قال الرسول ﷺ : « لله أشد فرحًا بتوبة عبده من أحدكم براحلته »[(١)] كان رجل في البر معه راحلته عليها طعامه وشرابه فضاعت منه ، ضاع الطعام والشراب وهو في فلاة من الأرض ، ليس عنده أحد ، طلبها ولم يجدها ، فاضطجع تحت شجرة ، ميت ، ينتظر أن يقبض الله روحه ، فبينما هو كذلك إذا بخطام الناقة متعلق بالشجرة ، وهو بين الحياة والموت ، فأخذ بالخطام وقال : « اللَّهم أنت عبدي وأنا ربك » يريد أن يقول : « أنت ربي وأنا عبدك » لكنه أخطأ من شدة الفرح ، قال النبي ﷺ : لله أشد فرحًا بتوبة الإنسان من هذا الرجل براحلته ، مع أن هذا الفرح لا يمكن أن يدركه الإنسان الآن ، نحن لا نصف شدة هذا الفرح ، رجل مقبل على الموت ، فَقَدَ ماله وطعامه وشرابه وناقته ، فإذا بها عنده ، لا يمكن أن يتصور إنسان شدة هذا الفرح ، فالله عَجَلَك أشد فرحًا بتوبة العبد من هذا بناقته ، انظر ماذا قال هنا ، يقول جل وعلا : ﴿ فَمَن جَآءَهُۥ مَوْعِظَةٌ مِّن رَّبِّهِۦ فَٱنتَهَىٰ فَلَهُۥ مَا سَلَفَ[(٢)] ﴾ [البقرة : ٢٧٥] الحمد لله ، يعني الأكال للربا إذا جاءه موعظة من ربه فانتهى ، فله ما سلف ، يغفر له كل ما سلف ، ولا يؤاخذ عليه وأمره إلى الله ، ولكن إذا جاءت الموعظة وله ربًا في ذمم الناس ؛ وجب عليه أن يسقطه ، يجب أن يسقطه ؛ لأن الله قال : ﴿ فَلَهُۥ مَا سَلَفَ ﴾ أما ما بقي فليس له ، ولهذا أعلن الرسول ﷺ في حجة الوداع أعلن إعلانًا إلى يوم القيامة قال : « ربا الجاهلية موضوع » يعني الربا الذي كانوا يترابون به في الجاهلية موضوع مهدر ، يوجد أقارب للرسول يرابون في الجاهلية ، يجب عليهم إسقاط الربا أو لا يجب ؟ يجب ولهذا قال : « أول ربًا أضع ربا العباس بن عبد المطلب »[(٣)] ما صلته بالعباس بن عبد المطلب ؟ العباس عمه ، أول ربًا أضع ، ربا العباس ، هكذا الحكم ، هكذا السلطان ، أول ما يبدأ السلطان يبدأ بأقاربه ، خلاف عادة الناس اليوم ، أقارب السلطان عندهم حماية ، دبلوماسية يفعلون ما يشاءون ، لكن في عهد الرسول - عليه الصلاة والسلام - يقول : أول ربا أضع من ربانا ربا العباس بن عبد المطلب ؛ فإنه موضوع كله ، تأكيد ، عمر بن الخطاب رضي الله عنه إذا نهى الناس عن شيء ، جمع أهله وأقاربه وقال : نهيت الناس عن كذا

---

(١) الحديث أخرجه مسلم في التوبة (٣) ، وأحمد في مسنده (٣١٦/٢) ، والبيهقي في السنن (١٨٨/١٠) .

(٢) قوله ﷻ : ﴿ فَلَهُۥ مَا سَلَفَ ﴾ أي ما قد مضى .

(٣) الحديث أخرجه مسلم في الحج (١٤٧) ، وابن ماجه في السنن (٣٠٧٤) ، والبيهقي في السنن (٨/٥) .

وكذا ، وإن الناس ينظرون إليكم نظر الطير إلى اللحم ، والله لا يبلغني عن أحد منكم أنه فعله لأُضاعِفَنَّ عليه العقوبة (١) . يعاقبه مرة أم مرتين ؟ مرتين ، لأن هؤلاء الأقارب يخالفون متسترين أو لائذين بقربهم من الحاكم ، فيكون هذا القرب من الحاكم يوجب أن تضاعف عليكم العقوبة ، والله أكبر . وبذلك ملكوا مشارق الأرض ومغاربها ودانت لهم الأمم ، فالأمم لا يفعلون هكذا ، القريب من السلطان ليس عليه شيء ، لكن الأمة الإسلامية والخلافة الإسلامية أول من يقام عليه تنفيذ هذه الأحكام ، في من ؟ في أقارب الحاكم ، حتى لا يقال : الرجل حكم لأجل أن يقي أقاربه عقوبة الظالمين .

فالحاصل : أن الله ﷻ بمنه وكرمه ورحمته ولطفه يعرض التوبة على المذنبين ﴿ فَمَن جَآءَهُۥ مَوۡعِظَةٞ مِّن رَّبِّهِۦ فَٱنتَهَىٰ فَلَهُۥ مَا سَلَفَ ﴾ نسأل الله أن يتوب علينا وعليكم ، وقال : ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ فَتَنُواْ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ وَٱلۡمُؤۡمِنَٰتِ ﴾ [البروج : ١٠] هذه القصة في من ؟ في أصحاب الأخدود ، الذين حفروا حفرًا في الأرض وأضرموا فيها النيران ومن كان مؤمن ألقوه في النار ﴿ وَهُمۡ عَلَىٰ مَا يَفۡعَلُونَ بِٱلۡمُؤۡمِنِينَ شُهُودٞ ۝ وَمَا نَقَمُواْ مِنۡهُمۡ إِلَّآ أَن يُؤۡمِنُواْ بِٱللَّهِ ٱلۡعَزِيزِ ٱلۡحَمِيدِ ﴾ [البروج : ٧، ٨] يقول الله ﷻ : ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ فَتَنُواْ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ وَٱلۡمُؤۡمِنَٰتِ ثُمَّ لَمۡ يَتُوبُواْ ﴾ يعرض عليهم التوبة وهم يحرقون أولياءه ، لكنه ﷻ يحب التوابين ﴿ ثُمَّ لَمۡ يَتُوبُواْ فَلَهُمۡ عَذَابُ جَهَنَّمَ وَلَهُمۡ عَذَابُ ٱلۡحَرِيقِ ﴾ [البروج : ١٠] . نسأل الله أن يتوب علينا وعليكم .

يقول ﷻ : ﴿ فَمَن جَآءَهُۥ مَوۡعِظَةٞ مِّن رَّبِّهِۦ فَٱنتَهَىٰ فَلَهُۥ مَا سَلَفَ وَأَمۡرُهُۥٓ إِلَى ٱللَّهِۖ وَمَنۡ عَادَ ﴾ بعد أن تبين له الحكم ﴿ فَأُوْلَٰٓئِكَ أَصۡحَٰبُ ٱلنَّارِۖ هُمۡ فِيهَا خَٰلِدُونَ ﴾ هذه عقوبتهم في الآخرة ، أما العقوبة في الدنيا ﴿ يَمۡحَقُ ٱللَّهُ ٱلرِّبَوٰاْ ﴾ [البقرة : ٢٧٥] يتلفه ، لكن التلف نوعان :

تلف حسّيّ : كأن يسلط على ماله آفة تفنيه ، إما أن يمرض ويحتاج إلى دواء ومعالجات ، أو يمرض أهله ، أو يسرق ، أو يحترق ، هذه عقوبة الدنيا ﴿ يَمۡحَقُ ٱللَّهُ ٱلرِّبَوٰاْ ﴾ عقوبة حسّيّة . أو محق معنوي ، المال عنده يكيس أكياسًا لكنه كالفقير لا ينتفع به ، هل يقال : إن هذا عنده مال ، أبدًا ، هذا أسوأ حالًا من الفقير ؛ لأن ماله عنده بالأكياس يدخره لورثته ، أما هو فلم ينتفع به ، وهذا نسميه محقًا حسيًّا أم معنويًّا ؟ محقًا معنويًّا ﴿ يَمۡحَقُ ٱللَّهُ ٱلرِّبَوٰاْ ﴾ نسأل الله أن يرزقنا وإياكم الموعظة التي تحيي قلوبنا وتصلح أحوالنا . انتهى .

وقال ﴿ وَيُرۡبِي ٱلصَّدَقَٰتِۗ ﴾ يربيها : أي ينميها ويزيدها ، فإنه قد ثبت عن النبي ﷺ أنه قال : « من تصدق بعدل تمرة من طيب - ولا يقبل إلا الطيب - فإن الله تعالى يأخذها بيمينه ويربيها كما يربي أحدكم فلوه » يعني فرسه الصغير « حتى تكون مثل الجبل » (٢) وقال تعالى : ﴿ مَّثَلُ ٱلَّذِينَ يُنفِقُونَ أَمۡوَٰلَهُمۡ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ كَمَثَلِ حَبَّةٍ أَنۢبَتَتۡ سَبۡعَ سَنَابِلَ فِي كُلِّ سُنۢبُلَةٖ مِّاْئَةُ حَبَّةٖۗ وَٱللَّهُ يُضَٰعِفُ لِمَن يَشَآءُۚ ﴾ فالصدقات إحسان وعبادة لله ، إذا تصدق الإنسان بشيء من ماله ؛ فإن الله تعالى يضاعف له هذه الصدقة في ثوابها وأجرها وينزل البركة فيما بقي من ماله كما صح عن النبي ﷺ قال : « ما نقصت

---

(١) الطبقات الكبرى لابن سعد (٢٠٧/١) ، وأخبار عمر للطنطاويين (ص ٢٩١) .

(٢) أخرجه البخاري في الزكاة (١٤١٠) ، وأحمد في مسنده (٣٣١/٢٥) ، والبيهقي في السنن (١٩٠/٤) .

صدقة من مال »[١] وإنما ذكر الله الصدقات بجانب الربا لأن الربا ظلم ، ظلم وأخذ للمال بالباطل ، والصدقات إحسان وخير ، فقارن هذا بهذا لأجل أن يتبين للإنسان الفرق بين المحسنين وبين الظالمين أكلة الربا . ثم قال : ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ وَأَقَامُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتَوُا۟ ٱلزَّكَوٰةَ لَهُمْ أَجْرُهُمْ عِندَ رَبِّهِمْ وَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴾ [البقرة : ٢٧٧] حثًّا على الإيمان والعمل الصالح ، ثم قال ﷻ : ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ وَذَرُوا۟ مَا بَقِىَ مِنَ ٱلرِّبَوٰٓا۟ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ﴾ اتقوا الله ، فأمر بتقوى الله ثم قال : ﴿ وَذَرُوا۟ مَا بَقِىَ مِنَ ٱلرِّبَوٰٓا۟ ﴾ يعني اتركوه لا تأخذونه ، فخص بعد أن عَمَّ ؛ لأن تقوى الله تعم اجتناب كل محرم وفعل كل واجب ، ولما قال : ﴿ وَذَرُوا۟ مَا بَقِىَ مِنَ ٱلرِّبَوٰٓا۟ ﴾ صار تخصيصًا بعد تعميم ﴿ فَإِن لَّمْ تَفْعَلُوا۟ ﴾ يعني : وتدعوا ما بقي من الربا ﴿ فَأْذَنُوا۟ بِحَرْبٍ مِّنَ ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ ﴾ وفي قراءة ﴿ فَآذِنوا بِحَرْبٍ مِّنَ ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ ﴾[٢] والمعنى : أعلنوا الحرب على الله ورسوله ، نسأل الله العافية . ﴿ وَإِن تُبْتُمْ فَلَكُمْ رُءُوسُ أَمْوَٰلِكُمْ لَا تَظْلِمُونَ وَلَا تُظْلَمُونَ ﴾ إن تبتم عن أكل الربا فلكم رؤوس أموالكم ، أنت أعطيت مائة بمائة وعشرين ، إذا صدقت في التوبة لا تأخذ إلا مائة فقط ، لأن الله يقول : ﴿ فَلَكُمْ رُءُوسُ أَمْوَٰلِكُمْ لَا تَظْلِمُونَ وَلَا تُظْلَمُونَ ﴾ وقد ابتلي بعض الناس بالقياس الفاسد مع النص فقال : إذا أودعت مالك في بنوك أجنبية ، في أمريكا ، في إنجلترا ، في فرنسا ، في أي بلد ، فإنك تأخذ الربا تأخذ الربا وتتصدق به . سبحان الله! يلطخ الإنسان يده بالدم والنجاسة ثم يذهب ويغسلها ، لماذا لا يتجنب النجاسة من الأول ؟! هذا قياس فاسد مقابل للنص ، وفاسد في الاعتبار أيضًا ، إذا أعطوك فقل : لا ، شرعنا يحرم علينا الربا ، يقول بعض الناس إذا لم تأخذ منهم فإنهم يصرفونها في الكنائس وحرب المسلمين ، نقول من قال هذا ؟ ممكن أن صاحب البنك يأخذ لنفسه ، يأخذ لقرابته ، يأخذ لمصالحه ، من يقول إنها تصرف في الكنائس ، ثم على فرض أنها صرفت في الكنائس ، هل دخلت في ملكك حتى يقال إنك أعنتهم ؟ لم تدخل في ملكك أصلًا ، ولهذا لا يعطونك ربح مالك ، ربما يدخلون مالك في مالهم ويخسر ، وإنما يعطونك ربًا واضحًا محددًا من الأصل ، فليس هو ربح مالك حتى تقول أعطيتهم شيئًا من مالي ليستعينوا به على الحرام ، أبدًا ، ثم على فرض أنه ربح مالك أو أن مالك ربح أكثر وأبيت أن تأخذه لأنه ربًا وصرفوه في الكنائس وفي حرب المسلمين ، هل أنت أمرتهم بهذا ، أبدًا ، اتق الله ، لك رأس مالك لا تَظلم ولا تُظلم ، أما أن تأخذه وتقول أتصدق به ، ما مثل هذا الإنسان إلا مثل من أخذ الغائط بيده وعصره ثم قال أين الماء لأطهر يدي ، هذا غير صحيح . ثم يقول : من الذي يضمن أنه إذا جاءك مليون أو مليونان ربًا أنك ستتصدق بها ربما يغلبك الشح ، فتقول والله مليونان أتصدق لا أتصدق ، أنتظر ، ثم تمضي بك الأيام وتموت وتدعها لغيرك ، ثم إذا فعلت ذلك صرت قدوة للناس يقولون فلان أخشى ، دخل ماله في البنك وأخذ الربا ، إذًا ما فيه بأس ، ستكون قدوة ، ثم إننا إذا استمرأنا هذا الشيء وأخذنا الربا معناه أننا لن نحاول أن نوجد بنكًا إسلاميًا ، لأن إنشاء البنك الإسلامي

---

(١) أخرجه مسلم في البر والصلة (٦٩) ، وأحمد في مسنده (٢/٢٣٥) ، والترمذي في السنن (٢٠٢٩) .

(٢) قرأ حمزة ﴿ فآذنوا ﴾ بالمد وكسر الذال والباقون بالقصر وفتح الذال .

ما هو سهل ، صعب وفيه موانع ، وأناس يحولون بين المسلمين وبينه ، فإذا استمرأ الناس هذا ، سهل عليهم قوله : نأخذ الربا حتى يتواجد بنك إسلامي ، لكن لو قلنا لهم هذا حرام عليكم ، حينئذ يضطر المسلمون إلى أن ينشئوا بنوكًا إسلامية تكفيهم هذه البنوك الربوية .

والحاصل : أن من قال خذ الربا وتصدق به ، فقد قابل النص بالقياس ، والله ﷻ وضح ﴿ فَلَكُمْ رُءُوسُ أَمْوَٰلِكُمْ لَا تَظْلِمُونَ وَلَا تُظْلَمُونَ ﴾ [البقرة : ٢٧٩] وإذا كان عقد الربا الذي حصل في الجاهلية في عهد الرسول ﷺ وضعه الرسول مع أنه قبل الشريعة وأهل الجاهلية يتعارفون على أنه مباح ، ومع ذلك وضعه النبي ﷺ ، قال : « ربا الجاهلية موضوع » فكيف لمسلم يعرف أن الربا حرام ويقول لك : آخذه وأتصدق به ؟

فالحاصل من هذا – مع الأسف – اشتبهت مع بعض العلماء الذين يشار إليهم بالأصابع ، وظنوا أنه لا بأس به أن تأخذ هذا وتتصدق به ، ولو أمعنوا النظر وفكروا لعرفوا أنهم مخطئون ، ما حجتنا عند الله يوم القيامة ﴿ وَإِن تُبْتُمْ فَلَكُمْ رُءُوسُ أَمْوَٰلِكُمْ لَا تَظْلِمُونَ وَلَا تُظْلَمُونَ ﴾ ما قال : إلا أن تتعاملوا مع الكفار ﴿ وَإِن تُبْتُمْ فَلَكُمْ رُءُوسُ أَمْوَٰلِكُمْ لَا تَظْلِمُونَ وَلَا تُظْلَمُونَ ﴾ ولم يقل : إلا إذا تعاملتم مع الكفار فخذوا الربا ، فالحقيقة أننا نأسف أن يوجد بعض من يشار إليهم يفتون بمثل هذا مع أنهم لو أمعنوا النظر ودققوا لوجدوا أنهم على خطأ ؛ أنا إذا قال لي ربي لك رأس مالك لا تظلم ولا تُظلم ، أقول : سمعًا لك يا ربي وطاعة ، آخذ رأس مالي والباقي ما علي منه ، دعهم يجعلونه فيما يريدون ، ثم هل هؤلاء ما بقي عليهم أن يعمروا الكنائس إلا بربح يأخذونه مني ، الكنائس معمورة وحرب المسلمين شعواء بدراهمك وبغير دراهمك ، هل المسألة متوقفة على دراهمك ، يأخذونها ويصرفونها في الكنائس أو في حرب المسلمين ؟ هذا إذا قدرنا أنهم صرفوها في ذلك ، لكن هذا وهم وتخيُّل يلبس بها الشيطان ، يقول إن تركتم هذا صرفوه في الكنائس وفي إرهاب المسلمين ، من قال هذا ؟! فعلى كل حال نحن بيننا وبين الناس كتاب الله ﷻ ﴿ وَإِن تُبْتُمْ فَلَكُمْ رُءُوسُ أَمْوَٰلِكُمْ لَا تَظْلِمُونَ وَلَا تُظْلَمُونَ ﴾ وإذا اتبعنا الشرع جعل الله لنا من كل هَمٍّ فرجًا ، ومن كل ضيق مخرجًا ، أما إذا ذهبنا نقيس بعقولنا ونقول كالذين قالوا : ﴿ إِنَّمَا ٱلْبَيْعُ مِثْلُ ٱلرِّبَوٰاْ ﴾ أو كالشيطان الذي قال : ﴿ أَنَا خَيْرٌ مِّنْهُ خَلَقْتَنِى مِن نَّارٍ وَخَلَقْتَهُۥ مِن طِينٍ ﴾ [الأعراف : ١٢] هذا غلط ، غلط عظيم فالمهم أن هذا يا إخواني شيء واضح ما يحتاج إلى اجتهاد ﴿ وَإِن تُبْتُمْ فَلَكُمْ رُءُوسُ أَمْوَٰلِكُمْ لَا تَظْلِمُونَ وَلَا تُظْلَمُونَ ﴾ إذا كان معسرًا وحلَّ وقت الدين وليس عنده شيء ألا أضيف عليه شيئًا بدلَ انظاره « أصبرْ عليه لمدة » يقول : ما أخالفك ، ما عندك شيء الآن ؟ لكن هذه الألف نجعلها ألف ومائة إلى سنة ، يقول : لا ، أبصر الآية التي بعدها ﴿ وَإِن كَانَ ذُو عُسْرَةٍ فَنَظِرَةٌ إِلَىٰ مَيْسَرَةٍ ﴾ ما فيه ؟ حل الأجل على هذا الفقير وليس عنده ما يوفي به . يجب عليك إنظاره ﴿ فَنَظِرَةٌ إِلَىٰ مَيْسَرَةٍ ﴾ من الذي قال ﴿ فَنَظِرَةٌ إِلَىٰ مَيْسَرَةٍ ﴾ ؟ الله ﷻ ، هو الذي أعطاك المال ومَنَّ به عليك وأباح لك التصرف فيه ، وقال لك إذا كان المطالب فقيرًا ، فعليك أن تنظره ، تقول له : ما أُنظرك هيا إلى الحبس ، وإلا إضافة

الربا ؟!! أين الإيمان ؟ أين العبادة ؟ العبد حقًّا هو الذي يقول لله سمعًا وطاعة ، أما الذي يعبد الدرهم والدينار وليس عنده هَمٌّ إلا الدرهم والدينار ، ولا يبالي من أي مصدر حصل ، فهذا عبد الدرهم والدينار ، وقد دعا عليه الرسول ﷺ بالتعاسة والهلاك والانتكاس ﴿ وَإِن تُبْتُمْ فَلَكُمْ رُءُوسُ أَمْوَالِكُمْ لَا تَظْلِمُونَ وَلَا تُظْلَمُونَ ۝ وَإِن كَانَ ذُو عُسْرَةٍ فَنَظِرَةٌ إِلَىٰ مَيْسَرَةٍ ﴾ ثم تأتي المرتبة العليا التي هي أفضل من الإنظار ، وهي ﴿ وَأَن تَصَدَّقُوا خَيْرٌ لَّكُمْ ﴾ إن كان معسرًا وعرفت أنه معسر تصدقت عليه ، قلت : يا فلان أنت معسر وقد أبرأتك من دينك ، هذا خير لك ، إذا كان خيرًا لك فافعله ، خرجت من بطن أمك ومعك ألف كيس ذهب ، وألف ثوب ، وألف فضة ، وألف هل صح ؟ هذا صحيح ؟ لا ، خرجت من بطن أمك ما معك شيء ، عريان ما عليك شيء . من الذي أعدك وأمدك وأعطاك المال ؟ الله ﷻ، قال لك افعل كذا ، قلت : سمعًا وطاعة ﴿ وَأَن تَصَدَّقُوا خَيْرٌ لَّكُمْ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ ﴾ ثم ختم الآيات بقوله : ﴿ وَاتَّقُوا يَوْمًا تُرْجَعُونَ فِيهِ إِلَى اللَّهِ ثُمَّ تُوَفَّىٰ كُلُّ نَفْسٍ مَّا كَسَبَتْ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ ﴾ [البقرة : ٢٧٩] اتقوا هذا اليوم ، اليوم العظيم الذي تُرجعون فيه إلى الله ﷻ ، حُفاة عُراة غُرلًا ﴿ يَوْمَ يَفِرُّ الْمَرْءُ مِنْ أَخِيهِ ۝ وَأُمِّهِ وَأَبِيهِ ۝ وَصَاحِبَتِهِ وَبَنِيهِ ۝ لِكُلِّ امْرِئٍ مِّنْهُمْ يَوْمَئِذٍ شَأْنٌ يُغْنِيهِ ﴾ [عبس : ٣٤ ، ٣٧] اتقوا هذا اليوم ، وتقوى هذا اليوم وتقوى شره وبلائه تكون بطاعة الله ﷻ نسأل الله أن يمنَّ علينا وعليكم بالتقوى والبر والإحسان إنه على كلِّ شيء قدير .

* * *

١٦١٥ - وعَنِ ابْنِ مَسْعُودٍ رضي الله عنه قَالَ : « لَعَنَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ آكِلَ الرِّبَا ، وَمُوكِلَهُ » (١) رواه مسلم .

زاد الترمذي وغيره : « وَشَاهِدَيهِ ، وَكَاتِبَهُ » .

الشرح

ذكر المؤلف - رحمه الله تعالى - التغليظ في تحريم الربا ، فيما نقله عن ابن مسعود رضي الله عنه « أن النبي ﷺ لعن آكل الربا وموكله » .

آكل الربا يعني : الذي يأكله ، سواء استعمله في أكل أو لباس أو مركوب أو فراش أو مسكن أو غير ذلك ، المهم أنه أخذ الربا ، كما قال تعالى عن اليهود : ﴿ وَأَخْذِهِمُ الرِّبَا وَقَدْ نُهُوا عَنْهُ ﴾ [النساء : ١٦١] فآكل الربا ملعون على لسان الرسول ﷺ .

والثاني : موكله : يعني الذي يعطي الربا ، مع أن معطي الربا مظلوم ؛ لأن آخذ الربا ظالم ، والمأخوذ منه الربا مظلوم ، ومع ذلك كان ملعونًا على لسان النبي ﷺ ؛ لأنه أعانه على الإثم والعدوان ، وقد قال النبي ﷺ : « انصر أخاك ظالمًا أو مظلومًا » قالوا : يا رسول الله هذا المظلوم ،

---

(١) أخرجه مسلم في المساقاة (١٥٩٧) ، والترمذي في البيوع (١٢٠٦) ، والنسائي في السنن (٨/١٤٧) ، والبيهقي في السنن (٥/٢٨٥) .

كيف ننصر الظالم ؟ قال : « تمنعه من الظلم ، فذلك نصرك إياه » [(١)] . فإذا احتاج الإنسان إلى دراهم وذهب إلى البنك وأخذ منه عشرة آلاف بأحد عشر ألفًا ؛ صار صاحب البنك ملعونًا والآخذ ملعونًا على لسان أشرف الخلق محمد ﷺ ؛ وما أقرب الإجابة فيمن لعنه الرسول ﷺ ، واللعن هو الطرد والإبعاد عن رحمة الله ، ويكون هذا الملعون مشاركًا لإبليس في العقوبة ؛ لأن الله تعالى قال لإبليس : ﴿ وَإِنَّ عَلَيْكَ ٱللَّعْنَةَ ﴾ [الحجر : ٣٥] كذلك آكل الربا عليه اللعنة ، وموكله عليه اللعنة ، مطرود مبعد عن رحمة الله ، ثم هذا الذي يأكله ، يأكله سحتًا . وكل جسد نبت من السحت فالنار أولى به [(٢)] ، ثم إن هذا الربا الذي يدخل عليك ينزع الله به البركة من مالك ، وربما يوالي عليه النكبات حتى يتلف .

قال الله تعالى : ﴿ وَمَآ ءَاتَيْتُم مِّن رِّبًا لِّيَرْبُوَا۟ فِىٓ أَمْوَٰلِ ٱلنَّاسِ فَلَا يَرْبُوا۟ عِندَ ٱللَّهِ ﴾ [الروم : ٣٩] وأما الذي أعطى الربا ؛ فإن وجه اللعنة في حقه أنه أعان على ذلك ، فإذا قال قائل : هل للإنسان من توبة إذا كان يتعاطى الربا ثم منَّ الله عليه واهتدى ؟ نقول : نعم له توبة ، ومن الذي يَحُوْلُ بينه وبين توبة الله ، ولكن لابد من صدق التوبة وإخلاصها ، والندم على الذنب ، والعزم على ألا يعود ، ثم إن كان صاحب الربا الذي أُخذ منه قد استفاد ؛ فإن الربا يؤخذ من المرابي ويتصدق به أو يوضع في بيت المال ، وإن كان لم يستفد ؛ فإنه يعطي المطلوب ؛ لأنه إذا استفاد لا يمكن أن نجمع له بين الحق من الربا وبين انتفاعه ، نقول : أنت حظك الانتفاع ، ولكن إذا كان لم ينتفع ؛ فإنه يعطي ما أخذ من الربا ، وذكر الترمذي وغيره في رواية أخرى : أن النبي ﷺ لعن شاهدي الربا وكاتبه [(٣)] مع أن الشاهدين والكاتب ليس لهما منفعة لكن أعانوا على تثبيت الربا ، الشاهدان والكاتب يثبت بهما الربا ؛ لأن الشاهدين يثبتان الحق والكاتب يوثقه ، ولهذا يكون هؤلاء الثلاثة : الشاهدان والكاتب قد أعانوا على الإثم والعدوان ، فنالهم من ذلك نصيب ، فهؤلاء الخمسة كلهم ملعونون على لسان محمد ﷺ : « آكل الربا ، وموكله ، والشاهدين ، والكاتب » خمسة . وفي هذا الحديث دليل على أن المعين على الإثم مشارك للفاعل ، وهو كذلك ، وهذا قد دل عليه القرآن ، قال الله تبارك وتعالى : ﴿ وَإِذَا رَأَيْتَ ٱلَّذِينَ يَخُوضُونَ فِىٓ ءَايَٰتِنَا فَأَعْرِضْ عَنْهُمْ حَتَّىٰ يَخُوضُوا۟ فِى حَدِيثٍ غَيْرِهِۦ ﴾ [الأنعام : ٦٨] ﴿ وَإِمَّا يُنسِيَنَّكَ ٱلشَّيْطَٰنُ ﴾ [الأنعام : ٦٨] وجلست ناسيًا ﴿ فَلَا تَقْعُدْ بَعْدَ ٱلذِّكْرَىٰ ﴾ [الأنعام : ٦٨] يعني بعد أن تفطن ﴿ مَعَ ٱلْقَوْمِ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴾ [الأنعام : ٦٨] وقال ﷻ : ﴿ وَقَدْ نَزَّلَ عَلَيْكُمْ فِى ٱلْكِتَٰبِ أَنْ إِذَا سَمِعْتُمْ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ يُكْفَرُ بِهَا وَيُسْتَهْزَأُ بِهَا فَلَا تَقْعُدُوا۟ مَعَهُمْ حَتَّىٰ يَخُوضُوا۟ فِى حَدِيثٍ غَيْرِهِۦٓ ۚ إِنَّكُمْ إِذًا مِّثْلُهُمْ ﴾ [النساء : ١٤٠] فالمشارك لفاعل الإثم ولو بالجلوس يكون له مثل ما على صاحب الإثم ﴿ إِنَّكُمْ إِذًا مِّثْلُهُمْ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ جَامِعُ ٱلْمُنَٰفِقِينَ وَٱلْكَٰفِرِينَ فِى جَهَنَّمَ جَمِيعًا ﴾ [النساء : ١٤٠] وفي هذا دليل على التحذير من الربا ووجوب البعد عنه ، والمسلمون ما

---

(١) أخرجه البخاري في اللقطة (٢٤٤٣) ، والترمذي في السنن (٢٨٨٢) ، وأحمد في مسنده (٢٠١/٣) ، والبيهقي في السنن (٩٤/٦) .

(٢) وذلك لما رواه الطبراني في الكبير (١٣٦/١٩) ، والدارمي في الرقاق (٦٠) .

(٣) انظر الترمذي في البيوع (١٢٠٦) ، ومسلم في المساقاة (١٠٥) ، والنسائي في السنن (١٤٧/٨) ، وأحمد في مسنده (٨٣/١) .

ضرهم الذي ضرهم إلا هذا الربا ، تجد الفقير المسكين يهون عليه أن يستدين بالربا ؛ لأنه لا يكلفه إلا زيادة الكمية ، والله أعلم بنيته ، قد يكون ليس بنيته أن يوفي عند حلول الأجل ، لكن يستسهل هذا ويستدين ، فتراكم عليه الديون بدون ضرورة ، حتى إن بعض المساكين السفهاء ضعفى الإيمان يستدينون من أجل فرش درج العمارة ، هل هناك ضرورة ؟ لا ضرورة ولا حاجة أيضًا ، عاش الناس أزمنة طويلة لا يفرشون الدرج ولم يضرهم ذلك شيئًا ، يستدين من أجل أن يصنع ذلك ؟ هل هناك ضرورة ؟ لا ضرورة ، لكن الشيطان يغريه ولم يعلم هذا المسكين أن الذي له الدَّين لا يرحمه ، إذا حل الأجل سوف يطالبه بالوفاء ، أو بالحبس ، أو بمضاعفة الربا عليه ، كما هو الواقع عند كثير من الذين لا يمتثلون قول الله : ﴿ وَإِن كَانَ ذُو عُسْرَةٍ فَنَظِرَةٌ إِلَىٰ مَيْسَرَةٍ ﴾ وغفل هذا المسكين عن كون نفسه - إذا مات - معلقة بدينه حتى يدفع عنه ، وغفل هذا المسكين عن كون النبي ﷺ إذا قدمت إليه الجنازة وخطى خطوات يصلي عليها ، فسأل « هل عليه دين ؟ » قالوا : نعم ، قال : «عليه وفاء » قالوا : لا . قال : « صلوا على صاحبكم » [1] وترك الصلاة عليه ، مما يدل على عظم الدين ، وغفل هذا المسكين عن كون القتل في سبيل الله إذا قتل الإنسان في سبيل الله ، فالشهادة تكفر كل شيء ، إلا الدين لا تكفره [2] ، ومع هذا .. يقع في ذلك كثير من سفهائنا ، يستهين بالدين يكون عنده سيارة تساوي عشرين ألفًا ، وقد مشت حاله ، كفته ، يقول : لا ، ما يكفي ، أنا أشتري سيارة بثمانين ألف ، وتقول : ما معك شيء ، يقول آخذها بالتقسيط ، أو أتحيل على الربا كما يفعل بعض الناس ، يأتي المعرض يقول : بكم السيارة الفلانية ، يقول له بكذا وكذا ، ويذهب إلى التاجر ويقول له اشتريها وبيعها عليَّ - أعوذ بالله - حيل على رب العالمين ، مكر ، خداع ﴿ يُخَٰدِعُونَ ٱللَّهَ وَهُوَ خَٰدِعُهُمْ ﴾ يعني هذا التاجر ما قصد السيارة ، قصد الزيادة ، ولهذا لو قيل للتاجر بعها عليه برأس مالك الذي اشتريتها به ، فما الفائدة ؟ ما أبيعه إلا بالربا ، بالزيادة ، يقول بعض الناس الذين يزين لهم الشيطان ، يقول : احتج على الذي يقول هذا ما يجوز ؟ فنقول هذا كذب على الله ، رجل جاء محتاج سيارة هذا بعيد جدًّا ، ثم إن المسموع عن هؤلاء أنه إذا هون كتب اسمه في القائمة السوداء ، ما عاد يعامل مرة أخرى ، هذا كالإجبار على أن يبقى ، تحيَّل على رب العالمين ، هذا ما يصلح ، والله لو سألنا هذا التاجر الذي أخذ السيارة من المعرض ثم باعها لهذا : ماذا تقصد ؟ أتقصد الإحسان لهذا الرجل ؟ قال : أبدًا ، ولا بيني وبينه معرفة ، أقصد المائة مائة وعشرة ، هذا ما أقصده ، هذا هو الواقع ، كيف نتحايل على رب العالمين ! لو جاء هذا الرجل إلى البنك ، قال : أعطني مائة ألف وعشرة وأشتري السيارة أهون من هذا الدين ؛ لأن الخدَّاعَ أشد من الصريح ، المخادع ارتكب الإثم مع زيادته ماذا .. ؟ الخِدَاع . والصريح ارتكب الإثم وهو يعترف أنه إثم ، ويحاول أن يتوب عنه ؛ لأن نفسه لا ترضى عن

---

(١) انظر الحديث بنصه في أحمد في مسنده(٢٩٦/٣) ، والبيهقي في السنن(٧٣/٦) ، والطبراني في الكبير(٣٥/٧) .

(٢) وذلك مصداقًا لما رواه مسلم في الإمارة(١٢٠) ، ومالك في الموطأ(الجهاد ٣١) ، والدامي في الجهاد(٢٠) ، وأحمد في مسنده(٣٨١/٢) .

هذا الشيء ، لكن المشكلة أنَّ المخادع يرى : أن هذا حلال ويستمرئ هذا الفعل ، ويقول : ما فيه شيء . اسأل نفسك ، لا تسأل أحدًا ، الرسول قال : « الإثم ما حاك في نفسك وكرهت أن يطلع عليه الناس ، والبر ما اطمأنت إليه النفس واطمأن إليه القلب ، وإن أفتاك الناس وأفتوك » (١) لا تسأل أحدًا ، هل أنت اشتريت السيارة شراءً حقيقيًا تطلب به الربح ؟ كلا أبدًا ، لولا أن هذا جاء ما اشتريتها . إذًا فالسيارة شراؤها مقصود أو غير مقصود ؟ غير مقصود المقصود بيده الدراهم ، لكن بدل ما يقول هذا بخمسين ألفًا ، بستين ألفًا مقسطة ، يقول اذهب عاينها ، وأنا أذهب إلى المعرض أشتريها بخمسين ألفًا وأبيعها عليك بستين ألفًا ، كل إنسان مجرد من الهوى يعرف أن هذا حرام ولا إشكال فيه ، وإن سألت الناس وأفتوك ، الذي يسألك يوم القيامة هو رب العالمين ، هو الذي يعلم ما في قلبك ، وإذا كان شيخ الإسلام ابن تيمية رَحِمَهُ ٱللَّهُ يقول : لو احتجت سلعة من عند إنسان ، سيارة عند إنسان ، وأنت لا تجد دراهم وذهبت إلى الذي عنده السيارة تشتريها منه ، وهي تساوي الآن (نقدي) خمسين ، وقلت له : بعها لي بستين إلى سنة ، ثم أخذتها وبعتها ، يقول شيخ الإسلام : هذا حرام ، ولا تحل ، وحيلة ، وهي من العينة التي حذر منها الرسول ﷺ وقال : « إذا تبايعتم بالعينة ، وأخذتم بأذناب البقر ، ورضيتم بالحرث ، وتركتم الجهاد ؛ سلط اللَّه عليكم ذلاً لا ينزعه من قلوبكم حتى ترجعوا إلى دينكم » (٢) وهذه الصلة فيها واضحة ، أما مسألة التوافر ؛ فالسلعة موجودة عند البائع لهذا ولغيره ، إن جاءه من اشتراه بنقد باعها بخمسين ، وإن جاءه من يشتريها مؤجلة بستين باعها لكن الإنسان ما له غرض في السلعة نهائيا ، ليس له إلا الربا ، ثم يستمرئ هذا الأمر ويقول هذا حلال ، فكر ، يوم القيامة ستلاقي ربك وحدك ، ما معك أحد لا مفتي ولا غير مفتي ، واللَّه تعالى هو الذي يعلم خائنة الأعين وما تخفي الصدور .

والحاصل : أن الربا يجب الحذر منه ، ولهذا تَبَيَّنَّا على ما قلت ؛ لما سهل الأمر عند الفقراء ، لما سهل عندهم هذا ، صار ما أسهل أن يقول للتاجر : يا فلان أنا أبغي السيارة الفلانية ، قال : اذهب واشتريها من المعرض وأنا أسدد القيمة للمعرض وأبيعها لك بالزيادة ، سهل الدين على الناس ولكن لو لم يجدوا من يسهل الأمر عليهم امتنعوا بعض الشيء وسلمت ذممهم واستراحوا . نسأل اللَّه لنا ولكم التوفيق والهداية .

* * *

٢٨٨ - باب تحريم الرياء

قال اللَّه تعالى : ﴿ وَمَآ أُمِرُوٓاْ إِلَّا لِيَعۡبُدُواْ ٱللَّهَ مُخۡلِصِينَ لَهُ ٱلدِّينَ حُنَفَآءَ وَيُقِيمُواْ ٱلصَّلَوٰةَ وَيُؤۡتُواْ ٱلزَّكَوٰةَۚ وَذَٰلِكَ دِينُ ٱلۡقَيِّمَةِ ﴾ [البينة : ٥] . وقال تعالى : ﴿ لَا تُبۡطِلُواْ صَدَقَٰتِكُم بِٱلۡمَنِّ وَٱلۡأَذَىٰ كَٱلَّذِي يُنفِقُ مَالَهُۥ رِئَآءَ ٱلنَّاسِ ﴾

(١) أخرجه مسلم في البر والصلة (١٥) ، والبيهقي في السنن (١٠/١٩٢) .

(٢) أخرجه أبو داود في السنن (٣٤٦٢) ، والبيهقي في السنن (٥/٣١٦) .

[البقرة: ٢٦٤] . وقال تعالى : ﴿ يُرَآءُونَ ٱلنَّاسَ وَلَا يَذْكُرُونَ ٱللَّهَ إِلَّا قَلِيلًا ﴾ [النساء: ١٤٢] .

الشرح

الرياء : مصدر راءى يقال : راءى يرائي رياءً ومُرَاءَاةً ، ، كجاهد يجاهد جهادًا ومجاهدة . والمراد بالرياء هنا : أن يتعبد الإنسان لربه ﷻ ، ولكن يحسن العبادة من أجل أن يراه الناس ، فيقولون : ما أعبده ، ما أحسن عبادته ، وما أشبه ذلك ، فهو يريد من الناس أن يمدحوه في عبادته ، لا يريد أن يتقرب إليهم بالعبادة ؛ لأنه لو فعل هذا لكان شركًا أكبر ، لكنه يريد أن يمدحوه في عبادة اللَّه ، فيقولون : فلان عابد ، فلان كثير الصوم ، فلان كثير الصدقة ، وما أشبه ذلك ، فهو لا يخلص للَّه في عمله ، لكن يريد أن يمدحه الناس على ذلك ؛ فهو يرائي الناس ، والرياء يَسِيرُهُ من الشرك الأصغر ، وكثيره من الشرك الأكبر . ثم استدل المؤلف رَحِمَهُ ٱللَّهُ على تحريمه بآيات منها قول اللَّه تعالى : ﴿ وَمَآ أُمِرُوٓاْ إِلَّا لِيَعْبُدُواْ ٱللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ ٱلدِّينَ حُنَفَآءَ ﴾ (١) يعني ما أمر الناس إلا بهذا أن يعبدوا اللَّه مخلصين له الدين ، يصلون إخلاصًا للَّه ، ويتصدقون إخلاصًا للَّه ، ويصومون إخلاصًا للَّه ، ويحجون إخلاصًا للَّه ، ويساعدون الناس إخلاصًا له ، إلى غير ذلك من الأعمال الصالحة ، نكون مخلصين للَّه في ذلك ﴿ وَيُقِيمُواْ ٱلصَّلَوٰةَ ﴾ يأتون بها مستقيمة على الوجه الأكمل . ﴿ وَيُؤْتُواْ ٱلزَّكَوٰةَ ﴾ يعطونها مستحقها ، ﴿ وَذَٰلِكَ دِينُ ٱلْقَيِّمَةِ ﴾ أي دين الملة القيمة . والمخلص للَّه ﷻ لا يكون في قلبه رياء ؛ لأنه إنما يريد بعبادته وجه اللَّه وثواب اللَّه والدار الآخرة . وقال تعالى : ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تُبْطِلُواْ صَدَقَٰتِكُم بِٱلْمَنِّ وَٱلْأَذَىٰ ﴾ يعني إذا أعطيت الفقير صدقة فلا تمن عليه وتبقى كل ساعة تقول : أنا أعطيتك ، أنا فعلت ، لأن هذا يبطل الأجر ﴿ وَٱلْأَذَىٰ ﴾ : تؤذيه ، تؤذي الفقير بأن تتسلط عليه وترى أنك فوقه ، وما أشبه ذلك ، هذا أيضًا يبطل الأجر ﴿ كَٱلَّذِي يُنفِقُ مَالَهُۥ رِئَآءَ ٱلنَّاسِ وَلَا يُؤْمِنُ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِ ﴾ الشاهد هذا ، الشاهد من الآية هذه الجملة ، كالذي ينفق ماله رئاء الناس ليمدحوه ويقولوا ما أكثر صدقته وما أشبه ذلك ﴿ وَلَا يُؤْمِنُ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِ ﴾ وقال اللَّه تبارك وتعالى : ﴿ يُرَآءُونَ ٱلنَّاسَ وَلَا يَذْكُرُونَ ٱللَّهَ إِلَّا قَلِيلًا ﴾ وهذا من أوصاف المنافقين ، إذا قاموا إلى الصلاة قاموا كسالى لا يقومون بنشاط ومحبة ولهف لها ؛ بل يقومون كسالى . وأيضًا لا يصلون إلا مراءاة للناس ، والعياذ باللَّه ، ولهذا أثقل الصلوات عليهم صلاة العشاء والفجر ؛ لأنه في ذلك الوقت ما في نور ، ولا يعرف الحاضر من غير الحاضر ، فكانت أثقل الصلوات عليهم صلاة العشاء وصلاة الفجر ، فهؤلاء المنافقون يراءون الناس ، يعني لا يأتون الصلاة إلا رياء ، ولا ينفقون إلا رياء ، ولا يخرجون في الجهاد إلا رياء ، فعلى هذا فإن من راءى من المسلمين فقد شابه المنافقين والعياذ باللَّه . وقال تعالى : ﴿ فَوَيْلٌ لِّلْمُصَلِّينَ ۞ ٱلَّذِينَ هُمْ عَن صَلَاتِهِمْ سَاهُونَ ۞ ٱلَّذِينَ هُمْ يُرَآءُونَ ﴾ (٢) [الماعون: ٤، ٥، ٦] أي يراءون في أعمالهم ، يريدون أن يراهم الناس فيمدحوهم على عبادتهم ، فالرياء ذنب من الشرك ، وقد يكون شركًا أكبر وهو من صفات النفاق ، أعاذنا اللَّه وإياكم من النفاق ، واللَّه الموفق .

---

(١) قوله ﷻ : ﴿ حُنَفَآءَ ﴾ أي مائلين عن كل دين يخالف دين الإسلام .

(٢) قوله ﷻ : ﴿ فَوَيْلٌ ﴾ أي هلاك وعذاب لمن جمع هذه الخلال الثلاث .

١٦١٦ - وَعَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ ﷺ قَالَ : سَمِعْتُ رَسُول اللَّهِ ﷺ يَقُولُ : « قَالَ اللَّه تعالى : أَنَا أَغْنى الشُّرَكَاءِ عَنِ الشِّرْكِ ، مَنِ عَمِلَ عَمَلًا أَشْرَكَ فِيهِ مَعِي غَيرِي ، تَرَكْتُهُ وَشِرْكَهُ »[1] رواه مسلم .

١٦١٧ - وَعَنْهُ قَالَ : سَمِعْتُ رَسُول اللَّهِ ﷺ يَقُولُ : « إِنَّ أَوَّلَ النَّاسِ يُقْضَى يَومَ القِيَامة عَلَيهِ رَجُلٌ اسْتُشْهِدَ ، فَأُتِيَ بِهِ ، فَعَرَّفَهُ نِعْمَتَهُ ، فَعَرَفَهَا ، قَالَ : فَمَا عَمِلْتَ فِيهَا ؟ قَالَ : قَاتَلْتُ فِيكَ حَتَّى اسْتُشْهِدْتُ ، قَالَ : كَذَبْتَ ، وَلكِنَّكَ قَاتَلْتَ لأَنْ يُقَالَ : جَرِيءٌ ، فَقَدْ قِيلَ ، ثُمَّ أُمِرَ بِهِ ، فَسُحِبَ عَلى وَجْهِهِ حَتَّى أُلقِي في النَّارِ . وَرَجُلٌ تَعَلَّمَ العِلْمَ وَعَلَّمَهُ ، وَقَرأَ القُرْآنَ ، فَأُتِيَ بِهِ ، فَعَرَّفَهُ نِعَمَهُ فَعَرَفَهَا . قَالَ : فَمَا عَمِلْتَ فِيهَا ؟ قَالَ : تَعَلَّمْتُ العِلْمَ وَعَلَّمْتُهُ ، وَقَرَأْتُ فِيكَ القُرْآنَ ، قَالَ : كَذَبْتَ ، وَلكِنَّكَ تَعَلَّمْتَ لِيُقَالَ : عَالِمٌ ، وَقَرَأْتَ القُرْآنَ لِيُقَالَ : هو قَارِئٌ ، فَقَدْ قيلَ ، ثُمَّ أُمِرَ بِهِ ، فَسُحِبَ عَلى وَجْهِهِ حَتَّى أُلقِيَ في النَّارِ ، وَرَجُلٌ وَسَّعَ اللَّهُ عَلَيهِ ، وَأَعْطَاهُ مِنْ أَصْنَافِ المَالِ ، فأُتِيَ بِهِ فَعَرَّفَهُ نِعَمَهُ ، فَعَرَفَهَا . قَالَ : فَمَا عَمِلْتَ فيهَا ؟ قَالَ : ما تَرَكْتُ مِنْ سَبيلٍ تُحِبُّ أَنْ يُنْفَق فيها إلا أَنْفَقْتُ فيهَا لَكَ . قَالَ : كَذَبْتَ ، ولكِنَّكَ فَعَلْتَ لِيُقَالَ : هو جَوادٌ ، فَقَدْ قيلَ ، ثُمَّ أُمِرَ بِهِ فَسُحِبَ عَلى وَجْهِهِ ثُمَّ أُلْقِيَ في النَّارِ »[2] . رواه مسلم .

« جَرِيءٌ » بفتح الجيم وكسر الرَّاء وَبالمَدِّ ، أَي : شُجَاعٌ حَاذِقٌ .

الشرح

بعد أن ذكر المؤلف رحمه الله الآيات التي تدل على تحريم الشرك ومنه الرياء ، ذكر الأحاديث فمنها : حديث أبي هريرة قال : سمعت النبي ﷺ يقول : « قال اللَّه تعالى : أنا أغنى الشركاء عن الشرك ، من عمل عملًا أشرك فيه معي غيري تركته وشركه » . هذا الحديث يسمى عند العلماء حديث قدسي ، وهو الذي يرويه النبي ﷺ عن ربه فيقول : قال اللَّه تعالى كذا ؛ لأن الأحاديث التي تروى عن الرسول ﷺ إما أن ينسبها الرسول ﷺ إلى اللَّه ، فتسمى أحاديث قدسية ، وإما ألا ينسبها إلى اللَّه فتسمى أحاديث نبوية . هذا الحديث القدسي يقول اللَّه تعالى فيه : « أنا أغنى الشركاء عن الشرك » ، « الشركاء » : كل محتاج إلى الآخر ، وكل محتاج إلى شركته ونصيبه وحصته لا يتنازل أحد للآخر عن نصيبه فمثلًا : دار بين اثنين كل منهما محتاج للآخر ، لو حصل في الدار خلل أو احتاجت إلى تعمير ؛ صار الشريك لابد أن يقول لشريكه الثاني أعطني ، أعطني نصيبي حتى نعمر البيت ، وصار كل إنسان متمسكًا بنصيبه من هذا البيت . أما اللَّه تعالى فهو الغني عن كل شيء ، غني عن العالمين ، إذا عمل الإنسان عملًا للَّه ولغير اللَّه تركه اللَّه ، لو صلى الإنسان للَّه وللناس ؛ لم يقبل اللَّه صلاته ، لا يُقال : إنه يقبل نصفها ويترك نصفها ، أو يقبلها قبولًا نصفيًّا ، لا ، لا يقبلها أبدًا ، لو تصدق الإنسان بصدقة يرائي بها الناس فإنها لا تقبل منه ، لأن اللَّه تعالى أغنى الشركاء عن

---

(١) أخرجه مسلم في الزهد والرقائق (٢٩٨٥) .

(٢) أخرجه مسلم في الإمارة (١٩٠٥) ، والحاكم في المستدرك (١/١٠٧) .

الشرك ، إذا عمل الإنسان عملًا أشرك فيه مع اللَّه غيره ، فإن اللَّه لا يقبله منه . وفي هذا دليل على أن الرياء إذا شارك العبادة ؛ فإنها لا تُقْبل ، فلو أن الإنسان صلى أول ما صلى وهو يرائي الناس لأجل أن يقولوا : فلان ما شاء اللَّه يتطوع يصلي ويكثر الصلاة . فإنه لا حظ له في صلاته ولا يقبلها اللَّه ﷻ ، حتى لو أطال ركوعها وسجودها وقيامها وقعودها وصار لا يتحرك ، وصارت عينه في موضع سجوده فهي غير مقبولة ، لماذا ؟ لأنه أشرك مع اللَّه غيره يصلي للَّه والناس ، اللَّه غني عن عبادته ﷻ ، لا تقبل صلاته . كذلك رجل تصدق صار يمشي على الفقراء ويعطيهم لكنه يرائي الناس من أجل أن يقولوا : فلان واللَّه ما شاء اللَّه ، رجل جواد كريم يتصدق ، فهذا أيضًا لا يُقبل منه . وإن أنفد ماله كله ؛ لأن اللَّه يقول : « أنا أغنى الشركاء عن الشرك ، من عمل عملًا أشرك فيه معي غيري ، تركته وشركه » ، وعلى هذا فقس ، لكن إن طرأ الرياء على الإنسان ؛ يعني رجل مخلص شرع في الصلاة ثم صار في قلبه شيء من الرياء ، فهذا إن دافعه فلا يضره ؛ لأن الشيطان يأتي للإنسان في عبادته التي هو مخلص فيها من أجل أن يفسدها عليه بالرياء ، هذا لا يضر ولا ينبغي أن يكون ذليلًا أمام ما يلقيه الشيطان من الرياء ، بل يجب أن يصمد وأن يستمر في عبادته ، لا يقول : واللَّه أنا صار معي رياء أخاف أن تبطل، لا بل يستمر ، والشيطان إذا دحرته اندحر ﴿ مِن شَرِّ ٱلْوَسْوَاسِ ٱلْخَنَّاسِ ﴾ [الناس : ٤] الذي يخنس ويولي مدبرًا إذا رأى العزيمة ، فأنت اعزمْ ولا يهمك ، هذا لا يضرك ، أما إذا طرأ عليه الرياء بعد أن بدأ الصلاة مخلصًا للَّه ، ثم طرأ عليه الرياء واستمر ، استمر على الرياء ، والعياذ باللَّه ؛ فإنها تبطل الصلاة كلها من أولها إلى آخرها ، لأنها - أي الصلاة - إذا بطل آخرها بطل أولها . فالحذر الحذر من الرياء ، والحذر الحذر من ترك العبادة خوفًا من الرياء ، لأن بعض الناس أيضًا يأتيه الشيطان يقول له : لا تقم تصلي ، لا تقرأ ، صار هذا رياء . لا يكن عليك السكينة والوقار ، هذا رياء ، من أجل ماذا ؟ من أجل أن يصده عن هذا العمل الصالح ؛ فعلينا ألا ندع للشيطان مجالًا ، يفعل يقدم يصلي يكون علينا السكينة والوقار ولا يضرنا هذا ، وهو إذا كافح الشيطان ولم يبالِ به ، ففي النهاية يخنس ، يخنس الشيطان ويتراجع ويتقهقر ، فالإنسان في الحقيقة محاط بأمرين : أمر قبل الإقدام على العبادة يثبطه الشيطان يقول : لا تعمل هذا رياء ترى الناس يمدحونك .

وأمر ثانٍ : بعد أن يشرع في العبادة يأتيه الشيطان أيضًا فعليه أن يدحض الشيطان وأن يستعيذ باللَّه منه وأن يمضي في سبيله وألا يفتر ، فإن قال قائل : إذا فرغ الإنسان من العبادة وسمع الناس يثنون عليه وفرح بهذا ، هل يضره ؟ فالجواب : لا يضره ؛ لأن العبادة وقعت سليمة ، وكون الناس يثنون عليه ، هذا من عاجل بشرى المؤمن ، أن يكون محل الثناء من الناس ، لكن هذا بعد أن ينتهي من العبادة نهائيًا ، سمع الناس يثنون عليه يقول : الحمد اللَّه الذي جعلني محل الثناء بالخير . كذلك أيضًا لو أن الإنسان فعل العبادة ولما انتهى منها سر بها ، فهل نقول : هذا السرور إعجاب يبطل العمل ؟ لا يضره ؛ لأن الإعجاب أن الإنسان إذا فرغ من العبادة أعجب بنفسه وأبلى على اللَّه بها ، ومَنَّ على اللَّه بها ، هذا هو الذي يبطل عمله والعياذ باللَّه ، لكن هذا الإنسان ما خطر على باله هذا ، ولكن حمد

الله وفرح أن الله وفقه إلى الخير ، هذا لا يضره ، ولهذا جاء في الحديث : « من سرته حسنته وساءته سيئته ؛ فذلك المؤمن »[1] . **جعلنا الله وإياكم منهم .**

أما حديث أبي هريرة الثاني : **في ذكر أول من يُقْضَى يوم القيامة وهم ثلاثة أصناف : متعلم ، ومقاتل ، ومتصدق .**

أمَّا المتعلم : **فهو من تعلم العلم وعلِم القرآن وعلَّم ، ثم إن الله ﷺ أُتيَ به إليه ﷺ يوم القيامة ، فعرفه الله نعمته فعرفها ، وأقر واعترف ، فسأله ماذا صنعت ؟ يعني في شكر هذه النعمة** « فقال : تعلمت العلم ، وقرأت القرآن فيك ، فقال الله له : كذبت ، ولكن تعلمت ليقال : عالم ، وقرأت القرآن ليقال : قارئ » **ليس لله ، بل لأجل الرياء** « ثم أمر به فسحب على وجهه في النار » **وهذا دليل على أنه يجب على طالب العلم في طلب العلم أن يخلص نيته لله ﷻ ، وألا يبالي إنْ قال الناس أنه عالم أو شيخ أو أستاذ أو مجتهد أو ما أشبه ذلك . لا يهمه هذا الأمر ، لا يهمه إلا رضا الله ﷻ وحب الشريعة وتعليمها ، ورفع الجهل عن نفسه ، ورفع الجهل عن عباد الله ؛ حتى يكتب من الشهداء الذين مرتبتهم بعد مرتبة الصديقين .** ﴿ وَمَن يُطِعِ ٱللَّهَ وَٱلرَّسُولَ فَأُوْلَٰٓئِكَ مَعَ ٱلَّذِينَ أَنۡعَمَ ٱللَّهُ عَلَيۡهِم مِّنَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ وَٱلصِّدِّيقِينَ وَٱلشُّهَدَآءِ وَٱلصَّٰلِحِينَۚ ﴾ [النساء : ٦٩] **وأما من تعلم لغير ذلك ، ليقال : إنه عالم ، وإنه مجتهد ، وإنه علامة ، وما أشبه لك من الألقاب ، فهذا عمله حابط والعياذ بالله ، وهو أول من يقضى عليه ويسحب على وجهه في النار ويكذب يوم القيامة ويوبخ .**

أما الثاني : فهو رجل مقاتل ، قاتل في سبيل الله وقُتل ، فلما كان يوم القيامة أُتي به إلى الرب ﷻ فعرفه نعمه فعرفها ؛ يعني النعم أنه ﷻ مده وأعده ورزقه وقواه حتى وصل إلى هذه المرتبة إلى أن قاتل ، ثم سئل ماذا صنعت فيها ؟ قال : يا رب قاتلت فيك ، فيقال : كذبت ، قاتلت من أجل أن يقال فلان شجاع جريء ، وقد قيل ، ثم أمر به فسحب على وجهه في النار والعياذ بالله ، وهكذا أيضًا المقاتل في سبيل الله ، المقاتلون في سبيل الله لهم نوايا متعددة من قاتل لتكون كلمة الله هي العليا فهو في سبيل الله ، كما قال النبي ﷺ[2] « ومن قاتل وطنية ؛ ففي سبيل الطاغوت ، ومن قاتل حمية على قومية ؛ فهو في سبيل الطاغوت ، ومن قاتل لينال دنيا ، فهو في سبيل الطاغوت » **لأن الله يقول** ﴿ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ يُقَٰتِلُونَ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِۖ وَٱلَّذِينَ كَفَرُواْ يُقَٰتِلُونَ فِي سَبِيلِ ٱلطَّٰغُوتِ ﴾ [النساء: ٧٦] **لكن لو قاتل الإنسان قومية أو وطنية ، لا من أجل القومية ولا الوطنية ، ولكن من أجل حماية وطنه المسلم أن يعتدي عليه الكفار ؛ فهذا في سبيل الله ؛ لأن حماية بلاد المسلمين ثمرتها أن تكون كلمة الله هي العليا ، وكذلك حماية المسلمين ثمرتها أن تكون كلمة الله هي العليا . ولكن لو أن الإنسان قاتل ليقتل فقط في هذا القتال ، هل يكون في سبيل الله ؟ الجواب : لا ، وهذا نية كثير من الشباب ،**

---

(١) أخرجه الترمذي في السنن (٢١٦٥) ، وأحمد في مسنده (٨١/١) ، والحاكم في المستدرك (١٤/١ ، ١١٤) .

(٢) انظر ذلك في مسلم في الإمارة (١٤٩) ، والترمذي في السنن (١٦٤٦) ، والنسائي في السنن (٢٣/٦) ، وابن ماجه في السنن (٢٧٨٣) .

يذهبون لأجل أن يُقْتَلُوا ويقولوا نحن نُقْتَلُ شهداء ، فيقال : لا ، أنتم اذهبوا لتقاتلوا لتكون كلمة اللَّه هي العليا ولو بقيتم ، لا تذهبوا لأجل أن تقتلوا ، لكن لأجل أن تكون كلمة اللَّه هي العليا وحينئذ إن قتلتم في هذا السبيل فأنتم في سبيل اللَّه .

أما الثالث : فرجل أنعم اللَّه عليه بالمال وصار يتصدق ويعطي وينفق ، فإذا كان يوم القيامة أُتِيَ به إلى اللَّه وعرَّفه نِعَمَه فعرفها ، ثم سأله ماذا صنعت فيها ؟ فيقول : تصدقت وفعلت وفعلت ، فيقال : كذبت ولكنك فعلت ليقال : فلان جواد يعني : كريمًا ، وقد قيل ، ثم أمر به فسحب على وجهه في النار . هذا أيضًا من الثلاثة الذين تسعر بهم النار يوم القيامة . وفي هذا دليل على أنه يجب على الإنسان أن يخلص النية للَّه في جميع ما يبذله من مال أو بدن أو علم أو غيره ، وأنه لو فعل شيئًا مما يبتغي به وجه اللَّه تعالى وصرفه إلى غير ذلك ؛ فإنه آثم به . واللَّه الموفق .

* * *

١٦١٨ - وَعَنِ ابْنِ عُمَرَ ﷺ أَنَّ نَاسًا قَالُوا لَهُ : إِنَّا نَدْخُلُ عَلَى سَلاطِينِنَا فَنَقُولُ لَهُم بِخِلافِ مَا نَتَكَلَّمُ إِذا خَرَجْنَا مِنْ عِنْدِهِمْ ؟ قالَ ابْنُ عُمَرَ ﷺ : كُنَّا نَعُدُّ هذا نِفَاقًا عَلى عَهْدِ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ (١) . رواه البخاري .

الشرح

نقل المؤلف رَحِمَهُ اللَّهُ عن عبد اللَّه بن عمر ﷺ : أن أناسًا جاءوا إليه وقالوا : إننا ندخل على سلاطيننا فنقول لهم قولًا ، ولكن إذا خرجنا من عندهم قلنا بخلافه . فقال : « كنا نعد ذلك نفاقًا على عهد النبي ﷺ » . وذلك لأنهم حدثوا فكذبوا وخانوا ما ائتمنوا ، فالواجب على من دخل على السلاطين من الأمراء والوزراء والرؤساء والملوك ، الواجب عليه أن يتكلم بالأمر على حقيقته ، يبين لهم الواقع ، سواء كان الناس على استقامة ، أو على اعوجاج ، أو على حق ، أو على باطل ، ولا يجوز للإنسان أي إنسان أن يدخل على الأمير أو على الملك أو ما أشبه ذلك ثم يقول : الناس بخير ، الناس أحوالهم مستقيمة ، الناس ملأوا المساجد ، الناس عبدوا اللَّه ، الناس اقتصادياتهم جيدة ، الناس أمنهم جيد ، وما أشبه ذلك ، وهو كاذب ، هذا حرام خداع لولاة الأمور وخداع للأمة جمعاء ؛ لأن ولي الأمر ليس شمسًا تدخل في كل مكان ، بل الشمس لا تدخل كل مكان ، الحجر المغلقة ما تدخلها الشمس ، وولاة الأمور علمهم محدود ، سمعهم محدود ، بصرهم محدود ، إدراكهم محدود ، عقولهم محدودة ، كغيرهم من البشر لا يمكن أن يعلموا بأحوال الناس كلها ، فإذا جاء مثل هذا الغاش الغادر الخائن ، وقال لهم : إن الأمور كلها خير ورخاء وأمن وعبادة ، وما أشبه ذلك ، غرهم فظنوا أن الأمور هكذا ولم يتحركوا بإصلاح ما فسد ؛ لأنهم يقال لهم : إن كل شيء على ما يرام ، الواجب الصراحة ولا يمكن مداواة الجرح إلا بشقه بعد أن تشقه ويخرج الدم يخرج الخبث ، حينئذ

(١) أخرجه البخاري في الأحكام (٧١٧٨) ، والطبراني في الكبير (١٢/٣٣١) بنحوه .

تداويه ، أما أن تلمه على شعث ؛ فهذا لا يجوز ، لأن هذا غش وابن عمر يقول : هذا من النفاق وصدق فهو من النفاق ، حدث فكذب وخانوا وما ائتمنوا ، فالواجب البيان ، أما النفاق والمداهنة فهذه لا تجوز ، لذلك الواجب على كل إنسان أتى إلى شخص مسؤول ولو عن عشرة طلاب ، دعنا من المسؤولين عن أمة كاملة ، الواجب أن يخبره بالواقع ، لا يقول : واللَّه الطلاب كلهم بخير ، كلهم حريصون ، كلهم كلمتهم واحدة ، كلهم على أدب طيب ، لا ، الواجب أن يبلغ بالحقيقة وينص على كل واحد بعينه إذا اقتضى الحال هذا ، وذكر العيب لإزالة العيب سلامة ونصح ، وليس من الغيبة في شيء . فهذا رسول اللَّه ﷺ جاءته امرأة - فاطمة بنت قيس - قالت : يا رسول اللَّه خطبني ثلاثة : أسامة بن زيد ، ومعاوية بن أبي سفيان ، وأبو جهم ، فقال لها النبي ﷺ « أما معاوية فصعلوك لا مال له يعني من أين ينفق عليك ، ما عنده مال ، وأما أبو جهم فضراب للنساء » - هذا مدح أم ذم ؟ ذم ، « انكحي أسامة بن زيد » [(١)] ، لكن كيف يغتابهما الرسول ؟ ، اغتابهما لأي شيء ؟ نصح وإرشاد . فإذا جئت - مثلًا - إلى أي إنسان تحته أناس وهو ولي عليهم ، تقول : هذا فلان كذا وكذا وأنت صادق بارٌّ ليس بينك وبينه عداوة أو مشاحنة ، فأنت على خير ومأجور وناصح ، ولا يمكن أن تستقيم الأمور إلا أن الإنسان يُعطي عنها صورة واضحة ، أما الكتمان فهذا لا يجوز وكذلك أيضًا في المدرسة مدير المدرسة أو عميد الكلية يجب إذا رأيت طالبًا منحرفًا في أخلاقه أو سلوكه أو غيبة لولاة الأمور يجب أن تنصحه أولًا وإلا يجب أن ترفع أمره حتى يُصلح حاله ؛ لأن مثل هذا جرثومة فاسدة يفسد الطلاب كلهم أو من قدر عليه منهم ، ولا تقره وهو في هذه الحال الذي ليس له هَمٌّ إلا الإفساد دينًا أو سلوكًا ومنهجًا ؛ لأن هذا هو النصح . كذلك أيضًا عندما نأتي أمير بلدة ، نرى في البلدة منكرات ، نرى فيها غشًّا ، نرى فيها تقصيرًا من المسئولين الآخرين ؛ لا يجوز أن نعطي الأمير صورة على أن كل شيء تام ، يجب أن نبين ونوضح . صحيح أنه إذا أمكن أن تُصلح الأمور قبل أن تُرفع إلى الأمير فهذا حسن وطيب ، ولكن إذا علمنا أن المسألة ما هي صالحة ، وأننا لو ذهبنا إلى المسئول الذي تحت الأمير قال : إن شاء اللَّه تعالى : أبشروا ، كل شيء يتيسر ولكنه يماطل فلابد من إبلاغ من فوقه حتى يقوم باللازم . فالحاصل من هذا الحديث أنه لابد من النصح ، وبيان الأمور على ما هي عليه ، وأما أن تَلْقَى الإنسان بوجه وإذا أدبرت عنه أدبرت ، فهذا حرام ومن النفاق ، ومن ذلك أيضًا مسألة أخص من هذا ، يجيء إلى الإنسان شخصٌ يقول : ما شاء اللَّه عليك ، أنت رجل طيب حبيب وكريم ، يثني عليك بلسان يملأ الجوف وقلبه حاقد ، لكن يريد أن يأخذ ما عندك يعني : بعض الناس خبثاء يأخذ ما عنده والرجل سليم القلب يمكن أن يصغي إلى هذا الشخص إذا رأى أنه ناصح ، ثم إذا أدبر والعياذ باللَّه فإنه يكيل له الصاع مقلوبًا فيتكلم في عرضه ويسبه ويقول : هذا مقصر ، هذا لا دين له . فعلى المسلم أن يتقي اللَّه ربه ، وأن يتجنب المداهنة والكذب والغش وأن يكون صريحًا حتى يصلح اللَّه على يديه . واللَّه الموفق .

---

(١) سبق تخريجه .

١٦١٩ – وعنْ جُنْدُبِ بْنِ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ سُفْيَانَ ﷺ قَالَ : قَالَ النَّبِيُّ ﷺ : « مَنْ سَمَّعَ ؛ سَمَّعَ اللَّهُ بِهِ ، وَمَنْ يُرَائي ؛ يُرَائي اللَّهُ بِهِ » (١) متفقٌ عليه .

وَرواه مسلّم أيضًا مِنْ روايَةِ ابْنِ عَبَّاسٍ ﷺ

« سَمَّعَ » بتَشْدِيدِ الميم ، وَمَعْنَاهُ : أَظْهَرَ عَمَلَهُ للنَّاسِ رياء « سَمَّعَ اللَّهُ بِهِ » أي فَضَحَهُ يَومَ القِيَامَةِ ، وَمَعْنى : « مَنْ رَاءَى » أي : مَنْ أَظْهَرَ للنَّاسِ العَمَل الصَّالِحَ لِيَعْظُمَ عِندَهُمْ « رَاءَى اللَّهُ بِهِ » أي : أَظْهَرَ سَرِيرَتَهُ عَلى رُؤُوسِ الخَلائِقِ .

١٦٢٠ – وَعَنْ أبي هُرَيرَةَ ﷺ قال : قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ : « مَنْ تَعَلَّمَ عِلْمًا مِمَّا يُبْتَغَى بِهِ وَجْهُ اللَّهِ ﷻ لا يَتَعَلَّمُهُ إلا لِيُصِيبَ بِهِ عَرَضًا مِنَ الدُّنْيا ؛ لَمْ يَجِدْ عَرْفَ الجَنَّةِ يَومَ القِيامَةِ» يَعْني رِيحَهَا (٢) . رواه أبو داود بإسنادٍ صحيحٍ . والأحاديث في الباب كَثيرةٌ مشهورة .

الشرح

نقل المؤلف ﷺ ما بقي من أحاديث الرياء التي سبقت ، ومنها عن جندب بن عبد اللَّه ﷺ أن النبي ﷺ قال : « من سمَّع سمَّع اللَّه به ، ومن راءى راءى اللَّه به » . يعني من قال قولًا يتعبد به للَّه ورفع صوته بذلك حتى يسمعه الناس ويقولون : فلان كثير الذكر ، كثير القراءة وما أشبه ذلك ، فإن هذا قد سمَّع عباد اللَّه يرائي بذلك – نسأل اللَّه العافية – « سمَّع اللَّه به » أي : فضحه وكشف أمره ، وبين عيبه للناس ، وتبين لهم أنه مرائي ، والحديث لم يقيد هل هو في الدنيا أو في الآخرة ؟ فيمكن أن يسمع اللَّه به في الدنيا فيكشف عيبه عند الناس ، ويمكن أن يكون ذلك في الآخرة وهو أشد والعياذ باللَّه وأخزى ، كما قال اللَّه تعالى : ﴿ وَلَعَذَابُ ٱلْءَاخِرَةِ أَخْزَىٰ وَهُمْ لَا يُنصَرُونَ ﴾ [فصلت : ١٦] وكذلك من راءى راءى اللَّه به يعني من عمل عملًا ليراه الناس ويمدحوه عليه ، فإن اللَّه تعالى يرائي به ويبين عيبه للناس ويفضحه – والعياذ باللَّه – حتى يتبين أنه يرائي . وفي هذا الحديث التحذير العظيم من الرياء وأن المرائي مهما كان ومهما اختفى لابد أن يتبين والعياذ باللَّه ، لأن اللَّه تعالى تكفل بهذا « من سمَّع سمَّع اللَّه به ، ومن راءى راءى اللَّه به » .

أما حديث أبي هريرة : فهو فيمن طلب علمًا مما يبتغي به وجه اللَّه وذلك هو العلم الشرعي علم الكتاب والسنة ، إذا طلب الإنسان علمًا من علم الكتاب والسنة لا يريد إلا أن ينال به عرض من الدنيا لم يجد عرف الجنة يعني ريحها ، وإن ريحها سيوجد من مسيرة كذا وكذا ، فمثلًا لو أن إنسان تعلم علم العقائد ، لأجل أن يقال : فلان جيد في العقيدة ، أو لأجل أن يوظف أو ما أشبه ذلك ، أو

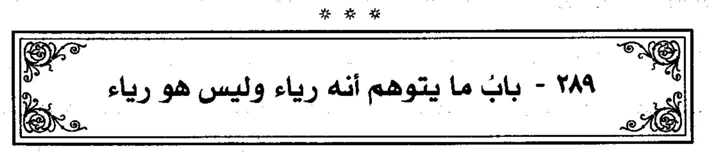
---

(١) أخرجه البخاري في الرقاق (٦٤٩٩) ، ومسلم في الزهد والرقاق (٢٩٨٦) ، وأحمد في مسنده (٤٥/٥) والطبراني في الكبير (١٧٩/٢) .

(٢) أخرجه أبو داود في العلم (٣٦٦٤) ، وأحمد في مسنده (٣٣٨/٢) ، وابن ماجه في المقدمة (٢٥٢) . قوله « مما يبتغي به وجه اللَّه » أي : مما يراد به التقرب إلى اللَّه تعالى مثل العلوم الشرعية . قوله « عرضًا » أي : متاع الدنيا وحطامها .

علم الفقه ، أو علم التفسير ، أو علم الحديث ، ليرائي به الناس ؛ فإنه لا يجد ريح الجنة والعياذ بالله يعني يحرم دخولها . وأما العلوم التي ليست مما يبتغى بها وجه الله كعلوم الدنيا : كعلم الحساب والهندسة والبناء ، لو تعلمه الإنسان يريد عرضًا من الدنيا فلا شيء عليه ، لأن هذا العلم دنيوي يراد للدنيا ، والحديث الذي فيه الوعيد مقيد بالعلم الذي يبتغي به وجه الله ، فإن قال قائل : كثير من الطلبة الآن يدرسون في الكليات يريدون الشهادة ، الشهادة العليا ، فيقال : إنما الأعمال بالنيات ، إذا كان يريد بالشهادات العليا أن ينال الوظيفة والمرتبة ، فهذا أراد به عرضًا من الدنيا ، إذا أراد بذلك أن يتبوأ مكانًا لينفع الناس ليكون مدرسًا ، ليكون مديرًا ، ليكون موجهًا ، فهذا خير ولا بأس به ، لأن الناس أصبحوا الآن لا يقدرون الإنسان بعلمه وإنما يقدرونه بشهادته ، فإذا قال قائل - مثلًا - : لو أبقيت بدون شهادة مهما بلغت من العلم لن يجعلوني معلمًا لكني أتعلم وآخذ شهادة ، لأجل أن أكون معلمًا أنفع المسلمين ، فهذه نية طيبة وليس فيها شيء . والله الموفق .

* * *



٢٨٩ - بابُ ما يتوهم أنه رياء وليس هو رياء

١٦٢١ - عَنْ أبي ذَرٍّ ﵁ قَالَ : قِيلَ لِرَسُولِ اللَّهِ ﷺ : أَرَأَيتَ الرَّجُلَ يَعْمَلُ العَمَلَ مِنَ الخَيرِ ، وَيَحْمَدُه النَّاسُ عَلَيه ؟ قال : « تِلكَ عَاجِل بُشْرَى المُؤمِنِ »(١) رواه مسلم .

الشرح

ذكر المؤلف النووي ﵀ في باب (ما يتوهم أنه رياء وليس هو رياء) يعني : ما يظنه الإنسان أنه رياء ولكن ليس برياء ، ثم ذكر حديث أبي هريرة أن النبي ﷺ سئل عن الرجل يعمل العمل فيحمده الناس على ذلك ، فقال : « تلك عاجل بشرى المؤمن » . أن الناس يثنون عليه . وصورة المسألة التي في الحديث أن الرجل يعمل عملًا صالحًا لله لا يبالي - أَعَلِمَ به الناس أم لم يعلموا ؟ أرأوه أم لم يروه ؟ أسمعوه أم لم يسمعوه ؟ لكنه لله يعمل خالصًا ، ثم إن الناس يحسدونه على ذلك يقولون : فلان كثير الخير ، فلان كثير الطاعة ، فلان كثير الإحسان إلى الخلق ، وما أشبه ذلك ، فقال : « تلك عاجل بشرى المؤمن » ، وهو الثناء عليه ، لأن الناس إذا أثنوا على الإنسان خيرًا ؛ فهم شهداء الله في أرضه . ولهذا لما مرت جنازة من عند النبي ﷺ وأصحابه أثنوا عليها خيرًا ، قال : « وجبت » ، ثم مرت أخرى فأثنوا عليها شرًا ، قال : « وجبت » ، فقالوا : يا رسول الله ، ما وجبت ؟ قال : « أما الأول فوجبت له الجنة ، وأما الثاني فوجبت له النار »(٢) ، أنتم شهداء الله في الأرض . فهذا معنى قوله : « تلك عاجل بشرى المؤمن » . والفرق بين هذه وبين الرياء : أن المرائي لا يعمل العمل ، إلا لأجل

---

(١) أخرجه مسلم في البر والصلة (١٦٦) ، وأحمد في مسنده (١٥٦/٥) .

(٢) انظر الحديث بنصه في : أبو داود في السنن (٣٢٣٣) ، والنسائي في السنن (١٧١/٢) ، والبيهقي في السنن (٧٥/٤) .

الناس ليراه الناس فيكون في نيته شرك ، شرك مع الله غيره ، وأما هذا فنيته خالصة لله ﷻ ولم يطرأ على باله أن يمدحه الناس أو يذموه ، لكن الناس يعلمون ، كما قال الشاعر :

ومهما تكن عند امرء من خليقة وإن خالها تخفى على الناس تعلمي

يعني : أي شيء خلق [1] عند الإنسان يقوم به وإن ظن أن الناس لا يعلمون ، فإنهم لابد أن يعلموه ، فإذا علموا بطاعته ومدحوه وأثنوا عليه ؛ فهذا ليس برياء . هذا عاجل بُشْرى المؤمن ، حيث إن الناس أثنوا عليه خيرًا ، ومن أثنى الناس عليه خيرًا ؛ فحري بأن يكون من أهل الجنة . أما المرائي والعياذ بالله ؛ فإنه إن صلى يريد من الناس أن يعلموا بذلك ، إن تكلم بخير أراد من الناس أن يسمعوه ليمدحوه على هذا . والفرق بين هذا وبين ما ذكر في حديث أبي هريرة اليوم فرق عظيم . نسأل الله أن يعيذنا وإياكم من الرياء وأن يعيذنا من سوء الفتن إنه على كل شيء قدير .

* * *

٢٩٠ - باب تحريم النَّظر إلى المرأة الأجنبية والأمرد الحسن لغير حاجة شرعية

قال الله تعالى : ﴿ قُل لِّلْمُؤْمِنِينَ يَغُضُّوا مِنْ أَبْصَـٰرِهِمْ ﴾ [النور : ٣٠] . وقال تعالى : ﴿ إِنَّ ٱلسَّمْعَ وَٱلْبَصَرَ وَٱلْفُؤَادَ كُلُّ أُولَـٰٓئِكَ كَانَ عَنْهُ مَسْـُٔولًا ﴾ [الإسراء : ٣٦] . وقال تعالى : ﴿ يَعْلَمُ خَآئِنَةَ ٱلْأَعْيُنِ وَمَا تُخْفِى ٱلصُّدُورُ ﴾ [غافر : ١٩] . وقال تعالى : ﴿ إِنَّ رَبَّكَ لَبِٱلْمِرْصَادِ ﴾ [الفجر : ١٤] .

الشرح

ذكر النووي رحمه الله في كتابه « رياض الصالحين » باب تحريم النظر إلى المرأة الأجنبية ، والأمرد الحسن لغير حاجة ، والمرأة الأجنبية هي التي ليس بينك وبينها محرمية ، سواء أكانت قريبة أم بعيدة ، والأمرد هو الشاب الذي لم تنبت لحيته ولم يكن على شاربه شعر ثخين ، يعني أن شاربه أخضر ولحيته لم تنبت والحسن ضد القبيح . ؛ النظر إلى المرأة الأجنبية محرم ، كما قال المؤلف رحمه الله ، وذلك لأن الله أمر بغض البصر ، فقال ﴿ قُل لِّلْمُؤْمِنِينَ يَغُضُّوا مِنْ أَبْصَـٰرِهِمْ وَيَحْفَظُوا فُرُوجَهُمْ ذَٰلِكَ أَزْكَىٰ لَهُمْ إِنَّ ٱللَّهَ خَبِيرٌۢ بِمَا يَصْنَعُونَ ﴾ [النور : ٣٠] فأمر بغض البصر ، وحفظ الفرج ، وهذا يدل على أن عدم غض البصر سبب لعدم حفظ الفرج ، وأن الإنسان إذا أطلق بصره تعلق قلبه بالنساء ، ثم لا يزال به النظر حتى يدنو من المرأة ويكلمها ويخاطبها ، ثم يعدها ، ثم تحصل الفاحشة - والعياذ بالله - ولهذا يقال : إن النظر بَرِيدُ الزنا ، يعني أنه يدعو إلى الزنا ، فأمر اللهُ بغض البصر ، وقال ﷻ : ﴿ يَعْلَمُ خَآئِنَةَ ٱلْأَعْيُنِ وَمَا تُخْفِى ٱلصُّدُورُ ﴾ [غافر : ١٩] خائنة الأعين مسارقتها النظر ، يعني أن تنظر على وجه الخفاء الذي لا يدركه الناس لكن الله يعلمه ، فهو يعلم خائنة الأعين ويعلم جل وعلا ما تخفي الصدور من النيات الحسنة والنيات السيئة ، بل هو يعلم ما

---

(١) المقصود الأمور التي يحب الإنسان أنْ يستتر فيها عن أعين الناس .

توسوس به النفس وما يستقبل للمرء ، وقال اللّٰه تعالى : ﴿ إِنَّ ٱلسَّمْعَ وَٱلْبَصَرَ وَٱلْفُؤَادَ كُلُّ أُوْلَٰٓئِكَ كَانَ عَنْهُ مَسْـُٔولًا ﴾ [الإسراء: ٣٦] فالإنسان مسؤول عن السمع ، ماذا سمع بأذنيه ؟ هل سمع قولًا محرمًا أو استمع إلى امرأة أجنبية يتلذذ بصوتها ؟ وكذلك البصر ، وكذلك الفؤاد . فالواجب على الإنسان حفظ نفسه . أما المرأة التي ليست أجنبية والتي يحرم عليك نكاحها ؛ فالنظر إليها لا بأس به ، النظر إلى وجهها ، وإلى رأسها ، وإلى كفيها وذراعيها وساقيها وقدميها ، كل هذا لا بأس به ، إلا أن يخاف الإنسان الفتنة على نفسه ، فإن خاف الفتنة على نفسه ؛ فإنه لا ينظر ، ولا إلى محارمه ، فلو قدر أن للإنسان أختًا من الرضاعة . جميلة فهي محرم له ، أخته من الرضاعة كأخته من النسب ، لكن إذا خاف على نفسه الفتنة من النظر إليها وجب عليه غض بصره ، ووجب عليها أن تحتجب عنه أيضًا ، لأن أصل وجوب الحجاب : الخوف من الفتنة ، فإذا وجدت الفتنة ؛ فإنه لابد من ستر الوجه ولو عن المحارم ، وأما إذا لم تكن فتنة وكان الإنسان سليم القلب عفيفًا ؛ فهذا يحرم عليه أن ينظر إلى غير محارمه – مثلًا – لا ينظر إلى بنت عمه ولا بنت خاله ، وكذلك لا ينظر إلى أخت زوجته ، ولا ينظر إلى زوجة أخيه ، وهلم جرًا ، المهم : أن المحارم يجوز النظر إليهن ما لم يخش الفتنة ، أما غير المحارم فيحرم النظر إليهن مطلقًا . واللّٰه الموفق .

* * *

١٦٢٢ – وَعَنْ أَبِي هُرَيرَةَ ﷺ عَنِ النبيِّ ﷺ قَالَ : « كُتِبَ عَلَى ابْنِ آدَمَ نَصِيبُهُ مِنَ الزِّنا مُدْرِكٌ ذلكَ لا مَحَالَةَ : العَينانِ زنَاهُمَا النَّظَرُ ، والأُذُنان زِناهُمَا الاسْتِمَاعُ ، وَاللِّسَانُ زِنَاهُ الكَلامُ ، وَاليدُ زنَاهَا البَطْشُ ، وَالرِّجْلُ زِنَاهَا الخُطَا ، وَالقَلْبُ يَهْوَى وَيَتمنى ، ويُصَدِّقُ ذلكَ الفَرْجُ أو يُكَذِّبُهُ »[1] .

متفقٌ عليه . وهذا لَفْظُ مسلمٍ ، وروايةُ البُخاريِّ مُخْتَصَرَةٌ .

الشرح

ذكر المؤلف رحمه الله بعد ذكر الآيات حديث أبي هريرة أن النبي ﷺ قال : « كتب على ابن آدم حظه من الزنا وهو مدرك ذلك لا محالة » ، يعني أن الإنسان مدرك للزنا لا محالة إلا من عصمه اللّٰه ، ثم ذكر النبي ﷺ أمثلة لذلك ؛ فالعين زناها النظر ؛ يعني أن الرجل إذا نظر إلى امرأة ولو لغير شهوة وهي ليست من محارمه ؛ فهذا نوع من الزنا ، وهو زنا العين ، والأذن زناها الاستماع ، يستمع الإنسان إلى كلام المرأة ويتلذذ به ، هذا زنا الأذن ، وكذلك اليد زناها البطش ؛ يعني العمل باليد من اللمس وما أشبه ذلك ، والرِّجْلُ زناها الخُطا ؛ يعني أن الإنسان يمشي إلى محل الفواحش مثلًا ، أو يسمع إلى صوت امرأة فيمشي إليه ، أو يرى امرأة فيمشي إليها ، هذا نوع من الزنا ، لكنه زنا الرِّجْلُ ، القلب يهوى ويميل إلى هذا الأمر – أي التعلق بالنساء – هذا زنا القلب ، والفرج يصدق ذلك أو يكذبه ، يعني أنه إذا زنى بالفرج والعياذ باللّٰه فقد صدق زنا هذه الأعضاء ، وإن لم يزنِ بفرجه بل سلم

(١) أخرجه البخاري ومسلم (٦٢٤٣) الاستئذان في القدر (٢١) وأحمد مسنده (٣١٧/٢) ، قوله « والقلب يهوى ويتمنى » أي : يهوى ويتمنى وقوع ما تحبه النفس من الشهوة .

وحفظ نفسه ؛ فإن هذا يكون تكذيبًا لزنا هذه الأعضاء . فدل ذلك على الحذر من التعلق بالنساء ، لا بأصواتهم ، ولا بالرؤية إليهن ، ولا بمسهن ، ولا بالسعي إليهن ولا بغواية القلب لهن ، كل ذلك من أنواع الزنا والعياذ باللّه ، فليحذر الإنسان العاقل العفيف من أن يكون في هذه الأعضاء شيء يتعلق بالنساء . والواجب على الإنسان إذا أحس من نفسه بهذا أن يبتعد ، لأن الشيطان يجري من ابن آدم مجرى الدم ، والنظر سهم مسموم من سهام إبليس الملعون ، قد ينظر المرء إلى امرأة ولا تتعلق نفسه بها أول مرة لكن في الثانية في الثالثة حتى يكون قلبه معلق بها والعياذ باللّه ، ويصبح هيمان لا يذكر إلا هذه المرأة ، إن قام ذكرها ، وإن قعد ذكرها ، وإن نام ذكرها ، وإن استيقظ ذكرها ، فيحصل بهذا الشر والفتنة ، نسأل اللّه العافية ، واللّه الموفق .

* * *

١٦٢٣ - وَعَنْ أَبي سَعِيدِ الخُدْرِيِّ ﷺ عَنِ النبيِّ ﷺ قَالَ : « إيَّاكُمْ وَالجُلُوسَ في الطُّرقَات » قَالُوا : يَا رَسُولَ اللّهَ مَالَنَا مِنْ مَجَالِسِنَا بُدٌّ نَتَحدَّثُ فيهَا . فَقَال رَسُولُ اللّهِ ﷺ : « فَإذَا أَبَيْتُمْ إلا المجلِسَ، فَأَعْطُوا الطَريقَ حَقَّهُ » قَالُوا : وَمَا حَقُّ الطَّرِيقِ يَا رَسُولَ اللّهِ ؟ قَالَ : « غَضُّ البَصَرِ ، وكَفُّ الأَذَى ، ورَدُّ السَّلامِ ، والأمْرُ بِالمَعْرُوفِ ، والنَّهيُ عَنِ المُنكَرِ » [(١)] متفقٌ عليه .

١٦٢٤ - وَعَنْ أبي طَلْحَةَ زَيدِ بْنِ سَهْلٍ ﷺ قَالَ : كُنَّا قُعودًا بالأفنِيَةِ نَتَحَدَّثُ فيها ، فَجاءَ رَسُولُ اللّهِ ﷺ فَقَامَ علينا فقالَ : مَا لكُمْ وَلِمجَالِسِ الصُّعُدَاتِ ؟ اجتنِبُوا مجالسَ الصُّعداتِ » فَقُلْنَا : إنَّما قَعَدنَا لغَيرِ ما بَأس ، قَعَدْنَا نَتَذاكَرُ ، وَنَتحَدَّثُ . قَالَ : « إمَّا لا فَأَدُّوا حَقَّهَا : غَضُّ البَصَرِ ، وَرَدُّ السَّلام ، وحُسْنُ الكَلام » [(٢)] رواه مسلم .

« الصُّعُداتُ » بضمِّ الصَّادِ والعَينِ ، أي : الطُّرقَاتُ .

الشرح

لما ذكر المؤلف رَحِمَهُ اللَّهُ تعالى الآيات الدالة على وجوب غض البصر ذكر أحاديث ، منها حديث أبي سعيد الخدري وحديث زيد بن سهل ، أما الأول : فإن النبي ﷺ قال : « إياكم والجلوس على الطرقات » وهذا تحذير ، يعني احذروا الجلوس على الطرقات ، فقالوا : يا رسول اللّه مجالسنا ما لنا منها بد ، وكانوا يجلسون على أفنية البيوت كما يفعل كثير من الناس اليوم ، يجلس في فناء بيته ويجتمع إليه جيرانه يتحدثون فيما جرى بينهم وفي مصالحهم ، في دين أو دنيا ، قال : فإن أبيتم إلا ذلك فأعطوا الطريق حقه ، يعني إن أبيتم إلا أن تجلسوا وكان لابد من الجلوس فأعطوا الطريق حقه ، قالوا : وما حقه يا رسول اللّه ، فذكر حقه عليه الصلاة والسلام :

---

(١) أخرجه البخاري في الاستئذان (٦٢٢٩) ، ومسلم في اللباس والزينة (١٤) ، وأحمد في مسنده (٣٦/٣) .

(٢) أخرجه مسلم في السلام (٢) ، وأحمد في مسنده (٣٠/٤) . قوله : « الأفنية » هي الأماكن المتسعة التي تتوسط الدور . قوله « مجالس الصعدات » : هي التي يخرج منها أصحاب الدور ليقضوا حوائجهم . قوله « فأدوا » أي فأعطوا .

الأول : « غض البصر » يعني : أن تغضوا أبصاركم عن المارة ، ولا تحدقوا فيهم ، ولا تنظروا إليهم ، لأن بعض الناس يجلس على الطرقات وكلما مر إنسان صار يراقبه من حين أن يقبل إلى أن يدبر ، وهذا خلاف ما أمر به النبي ﷺ ، فيغض البصر ، ولا سيما إذا مرت المرأة ؛ فإن الواجب غض البصر من وجهين : من حيث أنها امرأة ، ومن حيث إن التركيز على المار يوجب أن يخجل ويتأذى بذلك .

الثاني : « كف الأذى » ألا تؤذوا أحدًا من المارة لا بقول ولا بفعل ، لا بقول تسمعونه إياه يتأذى به ولا بفعل بأن تضيقوا الطريق فتمدوا أرجلكم مثلًا ، أو تضجعوا في الطريق أو ما أشبه ذلك .

والثالث : « رد السلام » يعني : إذا سلم أحد تردون عليه السلام ، على الوجه الواجب ، إذا قال : السلام عليكم تقول : عليكم السلام ، ولا يكفي أن تقول : أهلًا وسهلًا أو مرحبًا ، أو ما أشبه ذلك ، بل لابد من الرد الواجب ، ﴿ وَإِذَا حُيِّيتُم بِتَحِيَّةٍ فَحَيُّوا۟ بِأَحْسَنَ مِنْهَآ أَوْ رُدُّوهَآ ﴾ [النساء : ٨٦] .

الرابع : « الأمر بالمعروف » إذا رأيتم أحدًا قد قصر في أمر مطلوب منه تأمرونه به ، والمعروف : كل ما أمر به الشرع ، وكل ما عرفه الناس وأقروا به مما لا يكون حرامًا فإنه معروف ، فمثلًا لو جلستم في الطريق ورأيتم امرأة كاشفة الوجه ، فهنا إنهها عن هذا المنكر ، رأيتم إنسانًا مفرطًا تقام الصلاة وهو لا يصلي وأنتم قد صليتم وهو لم يصل ؛ تأمرونه أن يصلي مع الجماعة مثلًا ، وهلم جرًا ، تأمرون بالمعروف وتنهون عن المنكر ، فهذه خمسة حقوق على من جلسوا في الطرقات . وكذلك الحديث الذي بعده يدل على ما دَلَّ عليه هذا ، والمقصود والشاهد من هذا قوله « غض البصر » . واللَّه الموفق .

* * *

١٦٢٥ – وَعَنْ جَرِيرٍ ﷺ قَالَ : سَأَلْتُ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ عَنْ نَظَرِ الفَجأَةِ فَقَالَ : « اصْرِفْ بَصَرَكَ » (١) رواه مسلم .

١٦٢٦ – وعَنْ أُمِّ سَلَمَةَ ﷺ قَالَتْ : كُنتُ عِنْدَ رَسُول اللَّه ﷺ وَعِنْدَهُ ميمُونَةُ ، فَأَقْبَل ابْنُ أُمِّ مَكْتومٍ – وذلك بَعْدَ أَنْ أُمِرْنَا بالحِجَابِ – فَقَالَ النَّبيُّ ﷺ : « احْتَجبَا مِنْهُ » فَقُلْنَا : يَا رَسُولَ اللَّهِ أَلَيسَ هُوَ أَعْمَى لا يُبْصِرُنَا ، وَلا يَعْرِفُنَا ؟ فَقَالَ النَّبيُّ ﷺ : « أَفَعَمْيَاوَانِ أَنْتُما ؟ أَلَسْتُما تُبصِرَانِهِ !؟ » (٢) رواه أبو داود والترمذي وقَالَ : حَدِيثٌ حَسَنٌ صَحِيحٌ .

١٦٢٧ – وَعَنْ أبي سَعِيدٍ ﷺ أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ قَالَ : « لَا يَنْظُرُ الرَّجُلُ إلى عُورَةِ الرَّجُلِ ، وَلا المَرْأَةُ إلى عَورَةِ المَرْأَةِ ، وَلا يُفْضِي الرَّجُلُ إلى الرَّجُلِ في ثَوبٍ وَاحِدٍ ، وَلا تُفْضِي المَرْأَةُ إلى المَرْأَةِ في

---

(١) أخرجه مسلم في اللباس والزينة (٤٥) بنحوه ، وأحمد في مسنده (٣٦١/٤) ، وأبو داود في النكاح (٢١٤٨) والطبراني في الكبير (٣٨٤/٢) .

(٢) أخرجه أبو داود في اللباس (٤١١٢) ، والترمذي في الأدب (٢٧٧٨) ، وأحمد في مسنده (١٩٦/٦) . قوله « احتجبا منه » أي : استترا ولاتنظرا إليه .

الثَّوبِ الوَاحِدِ » (١) رواه مسلم .

الشرح

قال المؤلف - رحمه اللَّه تعالى - فيما نقله في باب (تحريم النظر إلى المرأة الأجنبية والأمرد الحسن بغير حاجة شرعية) عن جرير بن عبد اللَّه ﷺ أنه سألَ النبي ﷺ عن نظرة الفجأة ؟ قال : اصرف بصرك . نظر الفجأة : هو الذي يفاجئ الإنسان مثل أن تمر به امرأة مفاجأة وتكون قد كشفت وجهها فقال النبي ﷺ : « اصرف بصرك » يعني : أدره يمينًا أو شمالًا حتى لا تنظر ، فيستفاد من هذا الحديث : تحريم نظر الرجل إلى المرأة ، لكن إذا حصل هذا فجأة ؛ فإنه يعفى عنه ، لأنه بغير اختيار من الإنسان ، وما كان بغير اختيار من الإنسان فإن اللَّه قد عفى عنه .

وأما الحديث الثاني حديث أم سلمة ، أنها كانت عند النبي ﷺ وعنده ميمونة ، فدخل عبد اللَّه بن أم مكتوم وكان رجل أعمى وكان ذلك بعد نزول الحجاب ، فأمرهما أن تحتجبا منه ، يعني قال لأم سلمة وميمونة « احتجبا منه » يعني من ابن أم مكتوم وهو أعمى ، فقالتا : « يا رسول اللَّه إنه رجل أعمى لا يبصرنا ولا يعرفنا » ، فقال : « أفعمياوان أنتما احتجبا منه » ، فأمرهما أن تحتجبا عن الرجل ولو كان أعمى ، لكن هذا الحديث ضعيف ، لأن الأحاديث الصحيحة كلها ترده ؛ فإن النبي ﷺ قال لفاطمة بنت قيس : « اعتدي في بيت ابن أم مكتوم فإنه رجل أعمى تضعين ثيابك عنده » (٢) ، وهذا الحديث في الصحيحين ، وأما هذا الحديث الذي ذكره المؤلف رحمه الله ، فقد قال الإمام أحمد : إن رفعه خطأ ، يعني لا يصح عن النبي ﷺ . وعلى هذا فلا يحرم على المرأة أن تنظر إلى الرجل ولو كان أجنبيًا ، بشرط ألا يكون نظرها بشهوة أو لتمتع ؛ يعني : نظر عادي ، ولذلك نجد الرجال يمشون في الأسواق كاشفين وجوههم والنساء ينظرون إلى الوجوه ، وكذلك النساء في عهد النبي ﷺ يحضرن إلى المسجد ولا يحتجب الرجال عنهن ، ولو كان الرجل لا يحل للمرأة أن تراه ؛ لوجب عليه أن يحتجب كما تحتجب المرأة عن الرجل . فالصحيح أن المرأة لها أن تنظر من الرجل لكن بغير شهوة ولا استمتاع أو تلذذ ، وأما الرجل فيحرم عليه أن يرى المرأة كما مر علينا الآن ، وكما مَرَّ علينا فيما سبق ، وأما الحديث الأخير فحديث أبي سعيد الخدري ﷺ أن النبي ﷺ قال : « لا تنظر المرأة إلى عورة المرأة ، ولا الرجل إلى عورة الرجل ، ولا يفضي الرجل إلى الرجل في الثوب الواحد » فقوله ﷺ : « لا تنظر المرأة إلى عورة المرأة » هذا نهي للناظرة أن تنظر إلى عورة المنظورة ، يعني لو انكشفت عورة المرأة المنظورة بريح أو بقضاء حاجة أو ما أشبه ذلك ؛ فإنه لا يحل للأخرى أن تنظر إلى عورتها وهي ما بين السرة والركبة ، وكذلك الرجل لو انكشفت عورته بريح ، أو لغير هذا من الأسباب ؛ فلا يحل للرجل أن ينظر إلى عورة الرجل ، وهذا الحديث تشبث به بعض النساء ، فقلن : إن المرأة لا

(١) أخرجه مسلم في الحيض (٧٤) ، وأبو داود في الحمام (٤٠١٨) ، والحاكم في المستدرك (١٥٨/١) . قوله : « لايفضي الرجل إلى الرجل في ثوب واحد » أي : لا يضَّجعان متجردين تحت ثوب واحد ، وذلك خشية الوقوع في الفاحشة .

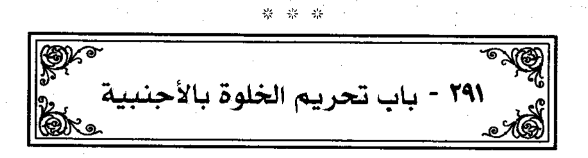
(٢) أخرجه مسلم في الطلاق (٣٦) ، وأحمد في مسنده (٤١٢/٦) ، والبيهقي في السنن (١٧٧/٧) .

يلزمها أن تستر من بدنها إلا ما بين السرة والركبة ، وهذا فهم خاطئ ، لأن النبي ﷺ لم يرخص للمرأة أن تقتصر على ثوب يستر ما بين السرة والركبة ، وإنما نهى المرأة الأخرى أن تنظر إلى عورة المرأة ، والفرق بين الأمرين ظاهر فالمرأة اللابسة يجب أن يكون لباسها ساترًا ، وكان نساء الصحابة ﵅ ، يسترن ما بين كعب القدم إلى كف اليد ، كل هذا مستور ، لكن لو قدر أن امرأة انكشفت عورتها لحاجة ، أو انكشفت من ريح أو غير هذا ؛ فإن المرأة لا تنظر إلى ما بين السرة والركبة بالنسبة للأخرى ، وكذلك يقال للرجل لا ينظر الرجل إلى عورة الرجل وهي ما بين السرة والركبة ، وهذا بالنسبة للرجل يجوز له أن يكشف الصدر والكتف لأخيه ، بدليل أنه يجوز للإنسان الرجل أن يقتصر على الإزار كما في حديث الرجل الذي طلب من النبي ﷺ أن يزوجه الواهبة ، وهي امرأة جاءت إلى الرسول ﷺ قالت : يا رسول الله وهبت نفسي لك ، فصعد فيها النظر وصوبه ولم تطب نفسه بها ، فسكت ، فجلست المرأة ، ثم قال رجل من القوم : زوجنيها يا رسول الله . قال : « ما معك من الصداق ، قال : معي إزاري ، قال سهل راوي الحديث : ليس له رداء ، ما عليه إلا إزار فقط ، فقال له الرسول ﷺ : إن أعطيتها إزارك بقيت بلا إزار وإن أبقيته لك لم يكن لها مهر ، اطلب ، ابحث ، التمس ولو خاتمًا من حديد ، فذهب يلتمس فلم يجد ولو خاتمًا من حديد ، فإنه فقير ، فقال : هل معك شيء من القرآن ؟ قال : نعم سورة كذا وكذا ، قال : زوجتكها بما معك من القرآن [1] ، يعني علِّمها الذي معك من القرآن وهذا هو مهرها . فالشاهد من هذا أن الرجل لا بأس أن يقتصر على لبس الإزار ، أما المرأة فلا يمكن أن تقتصر على لبس الإزار ، وليس هذا من عادة نساء الصحابة ﵅ والله الموفق .

- سؤال وجوابه :

الخادمة التي في البيوت كغيرها يجب أن تستر وجهها وهي أشد خطرًا ، لأنها لو كشفت وجهها وكانت شابة أو جميلة افتتن بها صاحب البيت وأولاده ، إذا كان له أولاد .

* * *



٢٩١ - باب تحريم الخلوة بالأجنبية

قال الله تعالى : ﴿ وَإِذَا سَأَلْتُمُوهُنَّ مَتَٰعًا فَسْـَٔلُوهُنَّ مِن وَرَآءِ حِجَابٍ ﴾ [2] [الأحزاب : ٥٣] .

١٦٢٨ - وَعَنْ عُقْبَةَ بْنِ عَامِرٍ ﵁ أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ قَالَ : « إِيَّاكُمْ وَالدُّخُولَ عَلَى النِّسَاءِ » ، فَقَالَ رَجُلٌ مِنَ الأَنْصَارِ : أَفَرَأَيْتَ الحَمْوَ ؟ قَالَ : « الحَمْوُ المَوتُ » [3] متفقٌ عليه .

---

(١) انظر القصة بلفظها في البخاري النكاح (٥١٢١) ، وأبو داود في السنن (٢١١١) ، والترمذي في السنن (١١١٤) ، والدارمي في السنن (٢/١٤٢) . (٢) قوله تعالى : ﴿ مَتَٰعًا ﴾ أي حاجة : قوله تعالى : ﴿ حِجَابٍ ﴾ أي ساتر .

(٣) أخرجه البخاري في النكاح (٥٢٣٢) ، ومسلم في السلام (٢٠) ، وأحمد في مسنده (٤/١٤٩) ، والبيهقي في السنن (٧/٩٠) . قوله ﷺ : « إياكم والدخول على النساء » أي : الاختلاء بالنساء الأجنبيات .

« الحَمْوُ » قَرِيبُ الزَّوجِ كَأَخِيهِ ، وابْنِ أَخِيهِ ، وَابْنِ عَمِّهِ .

١٦٢٩ - وَعَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ رضي الله عنهما أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ قَالَ : « لا يَخْلُوَنَّ أَحَدُكُمْ بِامْرَأَةٍ إلا مَعَ ذِي مَحْرَمٍ »[١] متفقٌ عليه .

١٦٣٠ - وَعَنْ بُرَيدَةَ رضي الله عنه قَالَ : قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ : « حُرْمَةُ نِسَاءِ المُجَاهِدِينَ عَلَى القَاعِدِينَ كَحُرْمَةِ أُمَّهَاتِهِمْ ، مَا مِنْ رَجُلٍ مِنَ القَاعِدِينَ يَخْلُفُ رَجُلًا مِنَ المُجَاهِدِينَ في أَهْلِهِ ، فَيَخُونُهُ فِيهِمْ ؛ إلا وَقَفَ لَهُ يَوْمَ القِيَامَة ، فَيَأْخُذُ مِنْ حَسَنَاتِهِ مَا شَاءَ حَتَّى يَرْضَى » ثُمَّ التَفَتَ إِلَينَا رَسُولُ اللَّهِ ﷺ فَقَالَ : « مَا ظَنُّكُمْ ؟ »[٢] رواه مسلم .

الشرح

ذكر المؤلف رحمه الله تحريم الخلوة بالمرأة الأجنبية ، والمرأة الأجنبية : هي التي ليس بينك وبينها محرم ، مثل بنت العم ، بنت العمة ، بنت الخالة ، وما أشبه ذلك ، أو من لم يكن من أقاربك ، فالمراد بالأجنبية هنا من ليست لك بمحرم ، والخلوة بها حرام ، وما خلى رجل بامرأة إلا كان ثالثهما الشيطان[٣] ، فما ظنكم بمن ثالثهما الشيطان ، إنا ظننا بذلك أنهما سيكونا عرضة للفتنة والعياذ بالله ، ثم ذكر قوله تعالى : ﴿ وَإِذَا سَأَلْتُمُوهُنَّ مَتَٰعًا فَسْـَٔلُوهُنَّ مِن وَرَآءِ حِجَابٍ ﴾ يعني : لا تدخلوا عليهن ، اسألوهن من وراء حجاب حتى لا تحصل الخلوة ، ثم ذكر حديث عقبة بن عامر رضي الله عنه أن النبي ﷺ قال : « إياكم والدخول على النساء » يعني : أحذروا أن تدخلوا على النساء ، وهذا تحذير بالغ ، قالوا : يا رسول الله أرأيت الحمو ، قال : « الحمو الموت » الحمو يعني : أقارب الزوج من : أخيه ، عمه ، خاله ، ... هذا هو الحمو ، أما أبو الزوج وابن الزوج فهم من المحارم ، لكن حواشيه كأخيه وعمه وخاله فهؤلاء ليسوا من المحارم قال : « الحمو الموت » . وهذه كلمة من أبلغ ما يكون من التحذير ، يعني كما أن الإنسان يفر من الموت ؛ فيجب أن يفر من دخول أقاربه على زوجته وأهله بلا محرم ، وهذا يدل على التحذير الشديد . ودخول أقارب الزوج على بيت الزوج أخطر من دخول الأجانب ، لأن هؤلاء يدخلون باعتبارهم أقارب فلا يستنكرهم أحد ، وإذا وقفوا عند الباب يستأذنون لم ينكر عليهم أحد ، لذلك كان حرامًا على الإنسان أن يمكن أخاه من الخلوة بزوجته ، وبعض الناس يتهاون في هذا الأمر ، تجد عنده زوجة وله أخ بالغ ، فيذهب الرجل إلى العمل ويترك زوجته وأخاه في البيت وحدهما ، وهذا حرام لا يجوز ؛ لأن الشيطان يجري من ابن آدم مجرى الدم[٤] ، ولكن كيف الخلاص إذا كان البيت واحدًا ؟! يجب أن يجعل بابًا

---

(١) أخرجه البخاري في النكاح (٥٢٣٣) ، ومسلم في الحج (٤٢٤) ، وأحمد في مسنده (١٨/١٥) قوله ﷺ : « ذي محرم » : هو من يحرم عليه زواج المرأة مثل : الأخ والأب والعم والخال وابن الأخ وابن الأخت والأخ من الرضاع .

(٢) أخرجه مسلم في الإمارة (١٣٩) ، وأحمد في مسنده (٣٥٢/٥) ، وأبو داود في الجهاد (٢٤٩٦) . قوله « يخلف رجلًا من المجاهدين » أي : يقوم بحوائج أهل المجاهد .

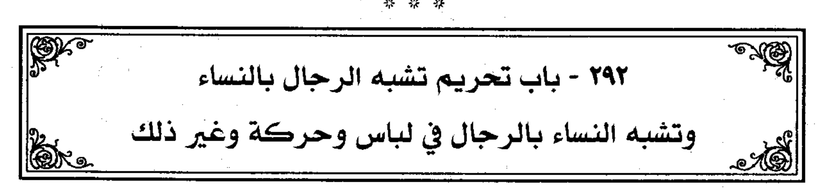
(٣) انظر الحديث الدال على ذلك في الترمذي في الرضاع (١١٧١) ، وأحمد في مسنده (١٨/١) .

(٤) وذلك مصداقًا لما رواه مسلم في الدم (٢٤) ، وأحمد في مسنده (١٥٦/٣) ، والدارمي في السنن (٣٢٠/٢) .

بين محل الرجال ومحل النساء مغلقًا مفتاحه معه يأخذه معه ثم يقول لأخيه : هذا محلك ، ويقول لأهله : هذا محلك . ولا يجوز أن تبقى الأبواب مفتوحة ، لأنه قد يدخل عليها فيأزه الشيطان فيغتصبها ، وربما يغرها حتى توافق وتكون كأنها زوجة له يدخل عليها ويخرج ولا يبالي ، نسأل اللّٰه العافية .

ومن الخلوة : الخلوة بالسائق يعني الإنسان عنده سائق وله امرأة أو بنت ؛ لا يحل له أن يجعل السائق مع المرأة أو البنت وحدها إلا مع ذي محرم ، لأن الخلوة في السيارة أقوى من الخلوة في البيت ، إذ أن الخلوة في السيارة يستطيع أن يتفاهم معها ، ثم يذهبان إلى أي مكان ويفعل بها الفاحشة ، من الذي يمنعه ؟ لهذا .. حرامٌ على الإنسان أن يمكن أهله من زوجة أو أخت أو بنت من أن تركب وحدها مع السائق ولو بقدر خمس خطوات أبدًا ، لا يجوز . فإن قال قائل : لو كانت امرأة تدرس وأبوها مريض أو مشغول لا يتمكن وهي لابد أن تدرس ؟ قلنا : لا ، من يقول لابد أن تدرس ، الدراسة التي تستلزم الوقوع في المحرم حرام ، يجب أن تبقى في بيتها والدراسة - الحمد للّٰه - لها الشباب الذكور فيهم خير ، والمرأة إذا كان معها مبادئ تستطيع أن تراجع وتنتسب ، أما أن تذهب مع السائق وحدها فهذا حرام . ويخشى أن يكون الذي يمكّن أهله من ذلك ، يخشى أن ينطبق عليه شيء من وصف الدَّيُوث ؛ وهو الذي يقر أهله على الفاحشة . لكن هذا لم يقر أهله على الفاحشة إنما يخشى أن يكون ذلك وسيلة . واللّٰه الموفق .

* * *



٢٩٢ - باب تحريم تشبه الرجال بالنساء وتشبه النساء بالرجال في لباس وحركة وغير ذلك

١٦٣١ - عَن ابْنِ عَبَّاسٍ رضي الله عنهما قَالَ : لَعَنَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ المُخَنَّثِينَ مِنَ الرِّجَالِ ، وَالمُتَرَجِّلاتِ مِنَ النِّساء .

وفي رواية : لَعَنَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ المُتَشَبِّهِينَ مِنَ الرِّجَالِ بِالنِّسَاء ، وَالمُتَشَبِّهَاتِ مِنَ النِّسَاء بالرِّجَالِ [١] . رواه البخاري .

١٦٣٢ - وَعَنْ أَبِي هُرَيرَةَ رضي الله عنه قَالَ : لَعَنَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ الرَّجُلَ يَلْبَسُ لِبْسَةَ المَرْأَةِ ، وَالمَرْأَةَ تَلْبَسُ لِبْسَةَ الرَّجُلِ [٢] . رواهُ أبو داود بإسناد صحيح .

١٦٣٣ - وَعَنْهُ قَالَ : قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ : « صِنْفَانِ مِنْ أَهْلِ النَّارِ لَم أَرَهُمَا : قَومٌ مَعَهُمْ سِيَاطٌ كَأَذْنَابِ البَقَرِ يَضْرِبُونَ بهَا النَّاسَ ، وَنِسَاءٌ كاسِيَاتٌ عَارِيَاتٌ مُمِيلاتٌ مَائِلاتٌ ، رُؤوسُهُنَّ كَأَسْنِمَةِ البُخْتِ المَائِلَةِ لَا يَدْخُلْنَ الجَنَّةَ ، وَلا يَجِدْنَ رِيحَهَا ، وإنَّ رِيحَهَا لَيُوجَدُ مِنْ مَسِيرَةِ كَذَا وَكَذَا » [٣] رواه مسلم .

معنى « كاسِيَاتٌ » أي : مِنْ نعْمَةِ اللَّهِ . « عَارِيَاتٌ » مِنْ شُكْرِهَا . وَقِيلَ : مَعناهُ : تَسْتُرُ بَعْضَ بَدَنِهَا ،

---

(١) أخرجه البخاري في اللباس (٥٨٨٥) ، وأحمد في مسنده (١/٢٥٥) ، وأبو داود في الأدب (٤٩٣٠) .

(٢) أخرجه أبو داود في اللباس (٤٠٩٨) ، وأحمد في مسنده (٢/٣٢٥) .

(٣) أخرجه مسلم في اللباس والزينة (١٢٥) ، وأحمد في مسنده (٢/٤٤٠) ، والبيهقي في السنن (٢/٢٣٤) .

وَتَكْشِفُ بَعْضَهُ إِظْهَارًا لِجَمَالِها وَنَحْوِهِ . وقِيلَ : تَلْبَسُ ثَوبًا رَقِيقًا يَصِفُ لَونَ بَدَنِها . وَمَعْنَى « مَائِلاتٌ » قِيلَ : عَنْ طَاعَةِ اللَّهِ تعالى وَمَا يَلْزَمُهُنَّ حِفْظُهُ « مُمِيلاتٌ » : أَي : يُعَلِّمْنَ غَيرَهُنَّ فِعْلَهُنَّ المَذْمُومَ ، وقِيلَ : مَائِلاتٌ يَمْشِينَ مُتَبَخْتِرَاتٍ ، مُمِيلَاتٍ لأَكْتافِهِنَّ ، وَقِيلَ : مَائِلاتٌ يَمْتَشِطْنَ المِشْطَةَ المَيلاَءَ : وَهِيَ مِشْطَةُ البَغَايَا . و « مُمِيلاَتٌ » : يُمَشِّطْنَ غَيرَهُنَّ تِلْكَ المِشْطَةَ . « رُؤوسُهُنَّ كَأَسْنِمَةِ البُخْتِ » : أَي : يُكَبِّرْنَهَا وَيُعَظِّمْنَهَا بِلَفِّ عِمَامَةٍ أو عِصابَةٍ أَو نَحْوِه .

الشرح

ذكر المؤلف النووي رَحِمَهُ اللَّهُ تحريم تشبه الرجال بالنساء والنساء بالرجال ، وذلك أن اللَّه ﷻ خلق الذكور والإناث وجعل لكل منهما مَزِيَّة ، الرجال يختلفون عن النساء في الخلقة والخُلق والقوة والدين وغير ذلك ، والنساء كذلك يختلفن عن الرجال . فمن حاول أن يجعل الرجال مثل النساء أو أن يجعل النساء مثل الرجال ؛ فقد حاد اللَّه في قدره وشرعه ، لأن اللَّه ﷻ له حكمة فيما خلق وشرع ، ولهذا جاءت النصوص بالوعيد الشديد باللعن وهو الطرد والإبعاد عن رحمة اللَّه لتشبه الرجل بالمرأة أو المرأة بالرجل ، فمن تشبه بالنساء فهو ملعون على لسان النبي ﷺ ، ومن تشبهت بالرجال فهي ملعونة على لسان النبي ﷺ ، كما في حديث ابن عباس رضي الله عنهما : « أن النبي ﷺ لعن المخنثين من الرجال » ، وفي لفظ « المتشبهين من الرجال بالنساء » وهؤلاء هم المخنثون في هذا الحديث ، « ولعن المترجلات من النساء » يعني المتشبهات بالرجال . واللعن : هو الطرد والإبعاد عن رحمة اللَّه ، فإذا تشبه الرجل بالمرأة في لباسه ولا سيما إذا كان مُحَرَّمًا ؛ كالحرير والذهب ، أو تشبه بالمرأة في كلامها وصار يغير لسانه في الكلام حتى كأنما تتكلم امرأة ، أو تشبه بالمرأة في مشيتها أو في غير ذلك مما يختص بالمرأة ؛ فإنه ملعون على لسان أشرف الخلق ، ونحن نلعن من لعنه رسول اللَّه ﷺ ، فالمتشبه من الرجال بالنساء ملعون ، كذلك المرأة إذا تشبهت بالرجال فهي ملعونة ، لو صارت تتكلم كما يتكلم الرجل ، أو جعلت لها عمامة كما يلبس الرجل أو جعلت ثيابها كثياب الرجل ومن ذلك البنطلون ؛ فإن لباس البنطلون خاص بالرجال ، النساء عليهن أن يلبسن الثياب الساترة ، والبنطلون كما نعلم جميعًا يكشف المرأة تتبين أفخاذها وسوقها - يعني سيقانها - وما أشبه ذلك ، فلهذا نقول : لا يحل للمرأة أن تلبس البنطلون حتى عند زوجها ، لأنه ليست العلة العورة ، العلة التشبه ، فإذا تشبهت المرأة بالرجال ؛ فهي ملعونة على لسان محمد ﷺ ، ولهذا أردف المؤلف رَحِمَهُ اللَّهُ حديث ابن عباس بحديث أبي هريرة أن النبي ﷺ قال : « صنفان من أهل النار لم أرهما : قوم معهم سياط كأذناب البقر يضربون بها الناس » قال العلماء : وهؤلاء هم الشرط الذين يضربون الناس بغير حق « معهم سياط كأذناب البقر » يعني : سوط طويل وله ريشة يضربون بها الناس بغير حق ، أما بحق فإنه يضرب المعتدي ﴿ الزَّانِيَةُ وَالزَّانِي فَاجْلِدُوا كُلَّ وَاحِدٍ مِّنْهُمَا مِائَةَ جَلْدَةٍ وَلَا تَأْخُذْكُم بِهِمَا رَأْفَةٌ فِي دِينِ اللَّهِ ﴾ [النور : ٢] لا ترأفوا بهما اجلدوهما تمامًا . لكن من ضرب الناس بغير حق فهو من أصناف أهل النار ، والعياذ باللَّه .

الثاني : « نساء كاسيات عاريات مميلات مائلات رؤوسهن كأسنمة البخت المائلة لا يدخلن

الجنة ولا يجدن ريحها ، وإن ريحها ليوجد من مسيرة كذا وكذا » . هؤلاء أيضًا النساء « كاسيات عاريات » ، قيل : كاسيات بثيابهن كسوة حسية ، عاريات من التقوى ، لأن الله تعالى قال : ﴿ وَلِبَاسُ ٱلتَّقْوَىٰ ذَٰلِكَ خَيْرٌ ﴾ [الأعراف : ٢٦] وعلى هذا فيشمل هذا الحديث كل امرأة فاسقة فاجرة وإن كان عليها ثياب فضفاضة ، لأن المراد بالكسوة الكسوة الظاهرة كسوة الثياب ، عاريات من التقوى ، لأن العاري من التقوى لا شك أنه عارٍ ، كما قال تعالى : ﴿ وَلِبَاسُ ٱلتَّقْوَىٰ ذَٰلِكَ خَيْرٌ ﴾ [الأعراف : ٢٦] . وقيل : « كاسيات عاريات » أي عليهن كسوة حسية لكن لا تستر ، إما لضيقها ، وإما لخفتها تكون رقيقة ما تستر ، وإما لقصرها ، كل هذا يقال للمرأة التي تلبس ذلك إنها كاسية عارية . مميلة مائلة ، مميلة : يعني تميل المشطة كما فسرها بعضهم بأنها المشطة المائلة التي تجعل المشطة على جانب فإن هذا من الميل ، لأنها مميلات المشطة ، ولا سيما أن هذا الميل الذي جاءنا إنما وردنا من النساء الكفار . وهذا والعياذ بالله ابتلى به بعض النساء ، فصارت تفرق ما بين الشعر من جانب واحد ، فتكون هذه مميلة ؛ أي قد أمالت مشطتها . وقيل : « مميلات » أي فاتنات غيرهن لما يخرجن به من التبرج والطيب وما أشبه ذلك ، فهن مميلات لغيرهن ولعل اللفظ يشمل المعنيان ، لأن القاعدة أنَّ النص إذا كان يحتمل معنيين ولا مرجح لأحدهما ؛ فإنه يحمل عليهما جميعًا . وهنا لا مرجح ولا منافاة لاجتماع المعنيين فيكون شاملًا لهذا وهذا ، وأما قوله : « مائلات » فمعناه منحرفات عن الحق وعما يجب عليهن من الحياء والحشمة ، تجدها في السوق تمشي مشية الرجل بقوة وجلد حتى إن بعض الرجال لا يستطيع أن يمشي هذه المشية ، لكنها هي تمشي كأنها جندي من شدة مشيتها وضربها بالأرض وعدم مبالاتها ، كذلك أيضًا تضحك إلى زميلتها معها ، تضحك وترفع الصوت على وجه يثير الفتنة ، وكذلك تقف على صاحب الدكان تماكثه في البيع والشراء وتضحك معه وربما تمد يدها إليه ، لأجل يضع عليها ساعة اليد وما أشبه ذلك من المفاسد والبلاء ، وهؤلاء مائلات ، لا شك أنهن مائلات عن الحق . نسأل الله العافية . « رؤوسهن كأسنمة البخت المائلة » ، البخت : نوع من الإبل لها سنام طويل ينضجع يمينًا أو شمالًا ، هذه ترفع شعرها حتى يكون مائلًا يمينًا أو يسارًا كأسنمة البخت المائلة . وقال بعض العلماء : بل هذه المرأة تضع على رأسها عمامة كعمامة الرجل حتى يرتفع الخمار ويكون كأنه سنام إبل من البخت ، وعلى كل حال فهذه تجمل رأسها بتجميل يفتن ، لا يدخلن الجنة ولا يجدن ريحها – نعوذ بالله – يعني : لا يدخلن الجنة ولا يقربنها ، « وإن ريحها ليوجد من مسيرة كذا وكذا » ، من مسيرة سبعين عامًا أو أكثر . ومع ذلك لا تقرب هذه المرأة الجنة والعياذ بالله ، لأنها خرجت عن الصراط ؛ فهي كاسية عارية مميلة مائلة ، على رأسها ما يدعو إلى الفتنة والزينة ، وفي هذا دليل على تحريم هذا النوع من اللباس ، لأنه توعد عليه بالحرمان من الجنة ، وهذا يدل على أنه من الكبائر . وكذلك المتشبهات من النساء بالرجال ، تشبههن من كبائر الذنوب ، وكذلك المتشبهون من الرجال بالنساء تشبههم من كبائر الذنوب . وهنا مسألة تشكل على بعض النساء وعلى بعض الناس أيضًا ، يفعل الإنسان ما فيه التشبه ، ويقول : أنا ما نويت ، أنا لم أنو التشبه ، فيقال : إن الشبه صورة غالبة متى وجدت حذر التشبه سواء

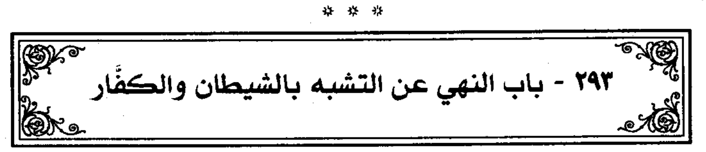
بنية أو بغير نية . فمتى ظهر أن هذا تشبه ويشبه الكافرات ويشبه الفاجرات والعاريات ، أو يشبه الرجل من المرأة ، أو المرأة من الرجل ، متى ظهر التشبه ؛ فهو حرام ، سواء كان بقصد أو بغير قصد ، لكن إذا كان بقصد فهو أشد ، وإن كان بغير قصد قلنا : يجب عليك أن تغير ما تشبهت به حتى تبتعد عن التشبه .

وأما الحديث الأخير حديث أبي هريرة رواه أبو داود بإسناد حسن : « أن الرسول ﷺ نهى أن تلبس المرأة لبسة الرجل ، والرجل لبسة المرأة » هذا يؤيد ما قلنا فيما سبق أن التشبه يكون باللباس والمشية والهيئة وغير ذلك . نسأل الله لكم ولنا السلامة وأن يحفظ ذكورنا وإناثنا مما فيه الفتنة والغلط .

- سؤال وجوابه :

المميلون من الرجال ربما يكونون أخبث ؛ يعني يوجد بعض الشبان ولا سيما إذا كان جميلًا يميل لباسه ويتغنج حتى كأنه يدعو الناس إلى نفسه . والعياذ بالله .

* * *



٢٩٣ - باب النهي عن التشبه بالشيطان والكفَّار

١٦٣٤ - عَنْ جَابِرٍ ﷺ قَالَ : قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ : « لَا تَأْكُلُوا بِالشِّمَالِ ؛ فَإِنَّ الشَّيْطَانَ يَأْكُلُ وَيَشْرَبُ بِشِمالِهِ » (١) رواهُ مسلم .

١٦٣٥ - وَعَنِ ابْنِ عُمَرَ ﷺ أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ قَالَ : « لَا يَأْكُلَنَّ أَحَدُكُمْ بِشِمالِهِ ، وَلَا يَشْرَبَنَّ بهَا ؛ فَإِنَّ الشَّيْطَانَ يَأْكُلُ بِشمَالِهِ وَيَشْرَبُ بِهَا » (٢) رواهُ مسلم .

الشرح

ذكر المؤلف (تحريم التشبه بالشيطان والكفار) :

والشيطان هو رأس الكفر ، كما قال الله تعالى : ﴿ وَإِذْ قُلْنَا لِلْمَلَٰٓئِكَةِ ٱسْجُدُوا۟ لِءَادَمَ فَسَجَدُوٓا۟ إِلَّآ إِبْلِيسَ أَبَىٰ وَٱسْتَكْبَرَ وَكَانَ مِنَ ٱلْكَٰفِرِينَ ﴾ [البقرة : ٣٤] . والكفار من بني آدم هم أعداء الله وأولياء الشيطان ، كما قال الله تعالى : ﴿ ٱللَّهُ وَلِىُّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ يُخْرِجُهُم مِّنَ ٱلظُّلُمَٰتِ إِلَى ٱلنُّورِ ۖ وَٱلَّذِينَ كَفَرُوٓا۟ أَوْلِيَآؤُهُمُ ٱلطَّٰغُوتُ يُخْرِجُونَهُم مِّنَ ٱلنُّورِ إِلَى ٱلظُّلُمَٰتِ ۗ أُو۟لَٰٓئِكَ أَصْحَٰبُ ٱلنَّارِ ۖ هُمْ فِيهَا خَٰلِدُونَ ﴾ [البقرة : ٢٥٧] .

والتشبه بالشيطان أو الكفار : أن يعمل الإنسان أعمالهم ، أو يلبس لباسهم الخاص بهم ، أو يتزين بزيهم الخاص ، سواء قصد التشبه أو لم يقصده ، فإذا قيل : هذا لباس الكفار ؛ حَرُم على المسلم أن يلبسه ، إذا قيل : هذا الزي زي الكفار ؛ حرم على المسلم أن يتشبه بهم .

الشيطان كذلك ، لا يتشبه به في أعماله ، لكن الشيطان من عالم الغيب ، لا نعلم من أعماله إلا ما

(١) أخرجه مسلم في الأشربة (١٠٤) ، وأحمد في مسنده (٢٣٣٤/٣) ، وابن ماجه في الأطعمة (٣٢٦٨) .
(٢) أخرجه مسلم في الأشربة (١٠٦) ، وأحمد في مسنده (١٢٨/٢) .

حدثنا عنه رَسُوْلُ اللَّه ﷺ ، ففي حديث ابن عمر رضي الله عنهما ، أن النبي ﷺ قال : « لا يأكلن أحدكم بشماله ، ولا يشربن بشماله ، فإن الشيطان يأكل بشماله ويشرب بشماله » الشمال : اليد اليسرى ، فنهى النبي ﷺ عن الأكل بها ، والشرب بها وعلل ذلك بأن هذا عمل الشيطان ، الشيطان يأكل بشماله ويشرب بشماله ، وقد نُهينا عن اتباعه ، كما قال تعالى : ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَتَّبِعُواْ خُطُوَٰتِ ٱلشَّيۡطَٰنِۚ وَمَن يَتَّبِعۡ خُطُوَٰتِ ٱلشَّيۡطَٰنِ فَإِنَّهُۥ يَأۡمُرُ بِٱلۡفَحۡشَآءِ وَٱلۡمُنكَرِۚ ﴾ [النور : ٢١] . وهذا الحديث يدل على تحريم الأكل بالشمال ، وتحريم الشرب بالشمال ، وأن من أكل أو شرب بشماله ؛ فإنه مشابهة للشيطان الذي هو عدونا وعدو اللَّه ﷻ .

وإنك لتعجب من قوم الآن بعد أن امتزجوا بالكفار وشاهدوهم يقلدون زعيمهم الشيطان في الأكل بالشمال والشرب بالشمال ، تعجب من هؤلاء القوم أن يأكلوا بشمالهم ويشربوا بشمالهم ، ويدعون هدى النبي ﷺ فيكونون متشبهين بالشيطان والكفار غير متأسين برسول اللَّه ﷺ ، مخالفين لهديه وسننه ، ومن الناس من يأكل باليمين ويشرب باليمين ، ولكن إذا قُدم له الشرب وهو يأكل شرب بالشمال ، وقال : أخاف أن يتلطخ الإناء ! سبحان اللَّه ! وإن تلطخ الإناء يتلطخ بنجاسة أو بطعام ؟! بطعام ! والطعام حلال ، وما على الإنسان إلا أن يغسل الكأس بعد الشرب ، ونحن الآن في الوقت الحاضر نشرب الكأس الباغ ويُرْمَى ، لكن الشيطان يزين للإنسان سوءَ عمله ، فيراه حسنًا وقد قال اللَّه تعالى منكرًا على هؤلاء : ﴿ أَفَمَن زُيِّنَ لَهُۥ سُوٓءُ عَمَلِهِۦ فَرَءَاهُ حَسَنٗاۖ فَإِنَّ ٱللَّهَ يُضِلُّ مَن يَشَآءُ وَيَهۡدِي مَن يَشَآءُۖ ﴾ [فاطر : ٨] . نسأل اللَّه العافية .

فيحرم على الإنسان بأي حال من الأحوال أن يأكل أو يشرب بشماله إلا لضرورة ، إذا كانت اليد اليمنى شلاء أو مكسورة ، أو ليس لها أصابع ، أو ما أشبه ذلك من الضرورة ، فهذه ضرورة ، وما جعل اللَّه علينا في الدين من حرج ، ورأى النبي ﷺ رجلًا يأكل بشماله فنهاه ، وقال : لا أستطيع أن آكل - يعني باليمين - فقال له النبي ﷺ : « لا استطعت » . فما رفع يده اليمنى إلى فمه بعد ذلك [1] . شُلت ، لأنه كاذب عندما قال : لا أستطيع ، لكن دعاء الرسول ﷺ عليه يدل على أن هذا - أعني الأكل بالشمال - حرام . وإن كان هذا الرجل قد منعه الكبر ، لكن دعاء الرسول ﷺ عليه يدل على تحريم فعله ، وهو كذلك .

ومن هذا أيضًا - أي من مشابهة الشيطان - : الأخذ بالشمال والإعطاء بالشمال ، ومع الأسف أن كثيرًا من الناس ومن طلبة العلم ، ومن أهل الخير والعبادة يأخذ بشماله ويعطي بشماله ، فمثلًا يعطي شيئًا بالشمال ... سبحان اللَّه ! الذي يأخذ بالشمال ويعطي بالشمال مشابه للشيطان ، وهو خلاف المروءة ، وخلاف الأدب ، إذا أردت أن تعطي أحدًا أعطه باليمين ، وإذا أردت أن تأخذ منه شيئًا فخذ باليمين ، اللَّهم إلا إذا كانت اليمين مشغولة ، مثل أن تكون تحمل فيها شيئًا ثقيلًا ، لا يمكن أن تنقله إلى اليد اليسرى ، فلكل حال مقام ، لكن بدون سبب لا تعطي بالشمال ، ولا تأخذ بالشمال ، إن كنت تريد هدي النبي ﷺ نسأل اللَّه لنا ولكم التوفيق والهداية .

* * *

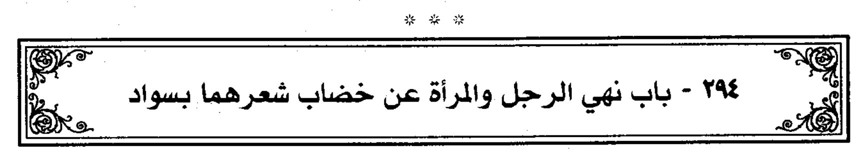
---

(١) أخرجه مسلم في الأشربة (١٠٧) ، وأحمد في مسنده (٤٦/٤) ، والدارمي في السنن (٩٧/٢) ، والبيهقي في السنن (٢٧٧/٧) .

١٦٣٦ - وَعَنْ أَبي هُرَيْرَةَ ﷺ أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ قَالَ : « إِنَّ الْيَهُودَ وَالنَّصارَى لَا يَصْبِغُونَ ، فَخَالِفُوهُمْ » [١] متفقٌ عليه .

المُرَادُ : خِضَابُ شَعْرِ اللِّحْيَةِ وَالرَّأسِ الأَبْيَضِ بِصُفْرَةٍ أَو حُمْرَةٍ ، وأَمَّا السَّوادُ ، فَمَنْهِيٌّ عَنْهُ كَمَا سَنَذْكُرُ في الْبَابِ بَعْدَهُ ، إن شَاءَ اللَّهُ تعالى .

* * *



٢٩٤ - باب نهي الرجل والمرأة عن خضاب شعرهما بسواد

١٦٣٧ - عن جابرٍ ﷺ قال : أُتيَ بأبي قُحَافَةَ والدِ أبي بكرٍ الصِّدِّيقِ ﷺ يَومَ فتحِ مكةَ ورأسُهُ ولحيتُه كالثَّغَامَةِ بَيَاضًا ، فقالَ رسولُ اللَّهِ ﷺ : « غيِّرُوا هذا ، واجتنبوا السواد » [٢] رواه مسلم .

الشرح

ذكر المؤلف - رحمه اللَّه تعالى - في تحريم التشبه بالشيطان والكفار : حديثًا عن أبي هريرة ﷺ ، أن رسول اللَّه ﷺ قال : « إن اليهود والنصارى لا يصبغون فخالفوهم » . يعني : اصبغوا ، وهذا يعني به صبغ البياض الشيب ، بدليل الحديث الذي في الباب الذي بعده ، أنه « أتيَ بأبي قحافة والد أبي بكر ﷺ ، ورأسه ولحيته كالثغامة بياضًا » ، الثغامة : نوع من النبات أبيض ، يسمى العرسج ، فقال النبي ﷺ : « غيروا هذا الشيب وجنبوه السواد » ففي هذا دليل على أن الأفضل أن الإنسان يغير الشيب بصبغه ، لكن بغير الأسود ، إما بالأصفر كالحناء ، أو بالأصفر الممزوج بالكتم ، والكتم أسود ، فإذا مزج الأصفر بالأسود ظهر لون بُني ، فيصبغ الإنسان بالبني أو بالأصفر ، كما أمر بذلك النبي ﷺ ، ولولا المشقة والمؤونة على بعض الناس لكان يفعل ذلك ، لكن في مراعاة ومراقبة ، ويخرج أسفل الشعر أبيض وأعلاه مصبوغًا .

وفي قوله : « جنبوه السواد » دليل على أنه يمنع اللون الأسود ؛ لأن السواد يعني أنه يعيد الإنسان شابًا ، فكان ذلك مضاد لفطرة اللَّه ﷻ وسنته في خلقه ، وأما بقية الأصباغ فلا بأس بها ، إلا السواد ؛ لأن النبي ﷺ نهى عنه ، وإلا إذا كان صبغة مختصة بنساء الكفار ؛ فإنه لا يجوز لنساء المؤمنين أن يصبغوا بها ، لأنهن إن فعلوا ذلك تشبهوا بالكفار وهو منهي عنه . واللَّه الموفق .

* * *

---

(١) أخرجه البخاري في اللباس (٥٨٩٩) ، ومسلم في اللباس والزينة (٨٠) ، وأحمد في مسنده (٢/٢٤٠) ، والنسائي في السنن (٨/١٨٥) .

(٢) أخرجه مسلم في اللباس والزينة (٧٩) ، وأحمد في مسنده (٢/٤٩٩) ، وأبو داود في الترجل (٤٢٠٤) . قوله « الثغامة » هو نبت أبيض الزهر والثمر ، شُبِّهَ بَياض الشيب به .

٢٩٥ - باب النهي عن القزع : وهو حلق بعض الرأس دون بعض وإباحة حلقه كله للرجل دون المرأة

١٦٣٨ - عَنِ ابْنِ عُمَرَ رضي الله عنهما قَالَ : نَهَى رَسُولُ اللَّهِ ﷺ عَنِ الْقَزَعِ [١] . متفق عليه .

١٦٣٩ - وَعَنْهُ قَالَ : رَأَى رَسُولُ اللَّهِ ﷺ صَبِيًّا قَدْ حُلِقَ بَعْضُ شَعْرِ رَأْسِهِ وَتُرِكَ بَعْضُهُ ، فَنَهَاهُمْ عَنْ ذلِكَ وَقَالَ : « احْلِقُوهُ كُلَّهُ ، أَوِ اتْرُكُوهُ كُلَّهُ » [٢] .

رواه أبو داود بإسنادٍ صحيحٍ عَلى شَرْطِ البُخَارِي وَمُسْلِم .

١٦٤٠ - وَعَنْ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ جَعْفَر رضي الله عنهما أَنَّ النَّبِيَّ ﷺ أَمْهَلَ آلَ جَعْفَرٍ رضي الله عنه ثَلاثًا ، ثُمَّ أَتَاهُمْ فَقَالَ : « لَا تَبْكُوا عَلَى أَخِي بَعْدَ الْيَوْمِ » . ثُمَّ قَالَ : « ادْعُوا لِي بَنِي أَخِي » فَجِيءَ بِنَا كَأَنَّا أَفْرُخٌ فَقَالَ : « ادْعُوا لِيَ الْحَلَّاقَ » فَأَمَرَهُ ، فَحَلَقَ رُؤُوسَنَا [٣] . رواهُ أبو داود بإسنادٍ صحيحٍ عَلَى شَرْطِ البُخَارِيِّ ومُسْلِمٍ .

١٦٤١ - وعَنْ عَلِيٍّ رضي الله عنه قَالَ : نَهَى رَسُولُ اللَّهِ ﷺ أَنْ تَحْلِقَ الْمَرْأَةُ رَأْسَهَا [٤] . رواهُ النَّسَائي .

الشرح

هذا الباب ذكره المؤلف رحمه الله في بيان حكم القَزَع ، ثم ذكر فيه أحاديث ، منها حديث ابن عمر رضي الله عنهما ، قال : « نهى رسول الله ﷺ عن القزع » ، والقزع أن يحلق بعض الرأس ويترك بعضه ، سواء كان من جانب واحد أو من كل الجوانب ، أو من فوق ، ومن يمين ، ومن شمال ، ومن وراء ، ومن أمام ، المهم أنه إذا حلق بعض الرأس وترك بعضه فهذا قزع ، وقد نهى عنه النبي ﷺ . ومنه قول أنس : « وما نرى في السماء من سحاب ولا قزعة » [٥] أي قطعة من السحاب . وذكر حديث ابن عمر الآخر أن صبيًّا أُتِيَ به إلى النبي ﷺ وقد حُلق بعض رأسه وترك بعضه ، فقال : « احلقوه له ، أو اتركوه كله » .

ثم ذكر حديث أولاد جعفر بن أبي طالب رضي الله عنه ، حين قتل شهيدًا ، فأمهلهم النبي ﷺ ثلاثة أيام ، ثم أتاهم وقال : « لا تبكوا على أخي بعد اليوم » . وإنما أمهلهم ثلاثًا من أجل أن تطيب نفوسهم ، ويذهب ما في نفوسهم من الحزن والأسى ، ثم بعد الثلاث نهاهم أن يبكوا جعفرًا ، وأُتي بأولاده

---

(١) أخرجه البخاري في اللباس (٥٩٢١) ، ومسلم في اللباس والزينة (١١٣) ، وأبو داود في الترجل (٤١٩٣) والنسائي في السنن (٨/١٣٠) .

(٢) أخرجه أبو داود في الترجل (٤١٩٥) ، والنسائي في السنن (٨/١٣٠) ، وأحمد في مسنده (٢/٨٨) بنحوه .

(٣) أخرجه أبو داود في الترجل (٤١٩٢) ، وأحمد في مسنده (١/٢٠٤) ، والنسائي في السنن (٨/١٨٢) . قوله «أفْرُخٌ » هو ولد الطائر ، شبه به الصغير ، وقد حلق النبي ﷺ رؤوسهم ؛ لأن أمهم شغلت بالمصيبة عن ترجيل شعورهم وغسل رؤوسهم فخاف عليهم الوسخ والقمل .

(٤) أخرجه النسائي في السنن (٨/١٣٠) ، والترمذي في الحج (٩١٤) .

(٥) أخرجه البخاري في الاستسقاء (١٠٢٣) ، وأحمد في مسنده (٣/٢٧١) .

صغار ، فأمر بحلق رؤوسهم ، فَحُلِقَتْ رؤوسهم ، وذلك من أجل ألا تتوسخ ؛ لأن الصبيان كما هو معروف تتوسخ أبدانهم وشعورهم ، فمن أجل ذلك حلق رؤوسهم ، وهذا إذا كانوا ذكورًا ، أما الإناث ؛ فإن النبي ﷺ : نهى أن تحلق المرأة رأسها (١) ، ولهذا إذا ولد المولود ؛ فإنه يحلق رأسه يوم السابع مع العقيقة ، إذا كان ذكرًا (٢) ، أما الأنثى فلا يحلق رأسها (٣) .

وفي هذه الأحاديث دليل على أن اتخاذ الشعر ليس بسنة . ومعنى اتخاذ الشعر : أن الإنسان يبقي شعر رأسه حتى يكثر ، ويُكَوِّنَ ضفرة أو لمة ، فهو عادة من العادات ولو كان سنة لقال النبي ﷺ : اتركوه لا تحلقوه - في الصبي - ولَمَّا حلق رؤوس أولاد جعفر بن أبي طالب ﷺ ولكنه - أي اتخاذ الشعر - عادة ، إذا اعتاده الناس فاتخذه ، وإن لم يعتده الناس فلا تتخذه ، وأما من ذهب إلى أنه سنة من أهل العلم ؛ فإن هذا اجتهاد منهم ، والصحيح أنه ليس بسنة ، وأننا لا نأمر الناس باتخاذ الشعر ، بل نقول : إن اعتاده الناس وصار الناس يتخذون الشعر ، فاتخذه لئلا تشذ على العادة ، وإن كانوا لا يتخذونه كما هو معروف الآن في أهلنا ، فلا تتخذه .

ولهذا كان مشايخنا الكبار ، كالشيخ عبد الرحمن بن سعدي ، والشيخ محمد بن إبراهيم ، والشيخ عبد العزيز بن باز ، وغيرهم من العلماء لا يتخذون الشعر لأنه ليس بسنة ولكنه عادة . والله الموفق

- شعر البنات لا يحلق لا صغارًا ، ولا كبارًا ، إلا لحاجة ، مثل إن كانت الرأس فيها جروح يجب التداوي منها ، فلا بأس ؛ لأن النبي ﷺ لما احتاج إلى الحجامة وهو مُحْرِم حلقه ، واحتجم وهو محرم (٤) . مع أن حلق رأس المحرم حرام ، لكن عند الحاجة هذا شيء آخر .

* * *

٢٩٦ - باب تحريم وصل الشعر والوشم والوشر وهو تحديد الأسنان

قَالَ اللَّهُ تَعَالَى : ﴿ إِن يَدْعُونَ مِن دُونِهِۦٓ إِلَّآ إِنَٰثًا وَإِن يَدْعُونَ إِلَّا شَيْطَٰنًا مَّرِيدًا ﴿١١٧﴾ لَّعَنَهُ ٱللَّهُ وَقَالَ لَأَتَّخِذَنَّ مِنْ عِبَادِكَ نَصِيبًا مَّفْرُوضًا ﴿١١٨﴾ وَلَأُضِلَّنَّهُمْ وَلَأُمَنِّيَنَّهُمْ وَلَءَامُرَنَّهُمْ فَلَيُبَتِّكُنَّ ءَاذَانَ ٱلْأَنْعَٰمِ وَلَءَامُرَنَّهُمْ فَلَيُغَيِّرُنَّ خَلْقَ ٱللَّهِ ﴾ (٥) [النساء : ١١٧ - ١١٩] .

---

(١) وذلك رواه الترمذي في السنن (٩١٤) ، والنسائي في السنن (١٣٠/٨) .

(٢) وذلك لما رواه أبو داود في الأضاحي (٢٨٣٨) ، والترمذي في السنن (١٥٢٢) ، والنسائي في السنن (١٦٦/٧) وابن ماجه في السنن (٣١٦٥) ، وأحمد في مسنده (٧/٥) .

(٣) هذا هو رأي بعض المالكية (انظر : سبل السلام ٩٩/٤ ، فقه الكتاب والسنة ٣١١٤/٥ ، والوسيط ١٠٣/٧) .

(٤) انظر الحديث في أبو داود في السنن (١٨٣٥) .

(٥) قوله ﴿ إِن يَدْعُونَ مِن دُونِهِۦٓ إِلَّآ إِنَٰثًا ﴾ هي اللات والعزى ومناة . قوله ﴿ مَّرِيدًا ﴾ أي خارجًا عن طاعة الله . قوله ﴿ لَّعَنَهُ ٱللَّهُ ﴾ أي أخرجه من رحمته . قوله ﴿ نَصِيبًا مَّفْرُوضًا ﴾ أي معينًا معلومًا . قوله ﴿ وَلَأُضِلَّنَّهُمْ ﴾ أي أغويهم حتى يضلوا . قوله ﴿ فَلَيُبَتِّكُنَّ ءَاذَانَ ٱلْأَنْعَٰمِ ﴾ أي يشقونها ويحرمون ركوبها . قوله ﴿ فَلَيُغَيِّرُنَّ خَلْقَ ٱللَّهِ ﴾ بعمل الوشم وغيره من الأشياء التي تغير الخلقة . وقيل : يغيرن دين الله .

١٦٤٢ - وَعنْ أَسْمَاءَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا أَنَّ امْرَأَةً سَأَلَتِ النَّبيَّ ﷺ فَقَالَتْ : يَا رَسُولَ اللَّهِ إنَّ ابْنَتِي أَصَابَتْهَا الْحَصْبَةُ ، فتَمرَّقَ شَعْرُهَا ، وَإنِّي زَوَّجْتُهَا ، أَفَأَصِلُ فِيهِ ؟ فَقَالَ : « لَعَنَ اللَّهُ الواصِلة وَالمَوصُولَةَ »[١] متفقٌ عليه .

وفي رواية : « الْوَاصِلَةَ ، وَالْمُسْتوصِلَةَ » .

قَولُهَا : « فتَمرَّقَ » هو بالرَّاء ، ومَعناه : انْتَثَرَ وَسَقَطَ . « وَالْواصِلَةُ » : الَّتي تَصِلُ شَعْرَهَا ، أو شَعْرَ غيرها بشَعْرٍ آخَرَ . « وَالمَوصُولَةُ » : الَّتي يُوصَلُ شَعْرُهَا . « وَالمُستوصِلَة » : الَّتي تَسْأَلُ مَنْ يَفْعَلُ ذلكَ لَها .

وَعَنْ عَائِشَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا : نَحْوُهُ ، متفقٌ عليه .

١٦٤٣ - وَعَنْ حُمَيدِ بْنِ عَبْدِ الرَّحمَنِ أَنَّهُ سَمِعَ مُعَاوِيَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ عَامَ حَجَّ ، عَلَى المِنْبَرِ وَتَنَاوَلَ قُصَّةً مِنْ شَعْرٍ كَانَتْ فِي يَدِ حَرسِيٍّ فَقَالَ : يَا أَهْلَ المَدِينَةِ أَينَ عُلَمَاؤُكُم ؟! سَمِعْتُ النبيَّ ﷺ يَنْهَى عَنْ مِثْلِ هذهِ . وَيَقُولُ : « إنَّمَا هَلَكَتْ بَنُو إسْرَائِيلَ حينَ اتَّخَذَ هذِهِ نِسَاؤُهُمْ »[٢] متفقٌ عليه .

١٦٤٤ - وعَنِ ابْنِ عُمَرَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا أَنَّ رَسُولَ اللَّه ﷺ لَعَنَ الوَاصِلَةَ وَالمُسْتَوصِلَةَ ، وَالْوَاشِمَةَ وَالمُسْتَوشِمَةَ[٣] . متفقٌ عليهِ .

١٦٤٥ - وَعَنِ ابنِ مَسْعُودٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قَالَ : لَعَنَ اللَّهُ الْوَاشِماتِ ، وَالمُسْتَوشِمَاتِ ، وَالنَّامِصَاتِ ، وَالمُتَنَمِّصَاتِ ، وَالمُتَفَلِّجَاتِ لِلحُسْنِ ، المُغَيِّرَاتِ خَلْقَ اللَّهِ ! فَقَالَتْ لَهُ امْرَأَةٌ في ذلِكَ ، فَقَالَ : وَمَا لي لا أَلْعَنُ مَنْ لَعَنَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ وَهُوَ في كِتَابِ اللَّهِ ؟! قَالَ اللَّهُ تَعَالى : ﴿ وَمَآ ءَاتَىٰكُمُ ٱلرَّسُولُ فَخُذُوهُ وَمَا نَهَىٰكُمْ عَنْهُ فَٱنتَهُوا۟ ﴾ [الحشر : ٧] [٤] متفقٌ عليه .

« المُتَفَلِّجَةُ » هي الَّتي تَبْرُدُ مِنْ أَسْنَانِهَا لِيَتَبَاعَدَ بَعْضُهَا مِنْ بَعْضٍ قَلِيلًا ، وَتُحَسِّنُهَا وَهَوَ الْوَشْرُ ، « وَالنَامِصَةُ » : هِيَ الَّتي تَأْخُذُ مِنْ شَعْرِ حَاجِبِ غَيرِهَا ، وَتُرَقِّقُهُ لِيَصِيرَ حَسَنًا ، « وَالمُتَنَمِّصَةُ » : الَّتي تَأْمُرُ مَنْ يَفْعَلُ بِهَا ذلِكَ .

* * *

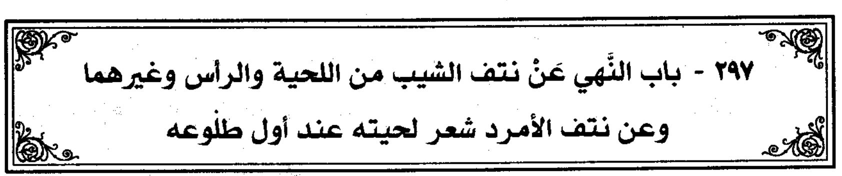
---

(١) هذا الحديث لم يقم الشارح رحمه الله بشرحه ، والحديث أخرجه البخاري في اللباس (٥٩٣٢) ، ومسلم في اللباس والزينة (٢١٢٢) بنحوه . قوله (الحصبة) هي مرض معد يخرج بثورًا في الجلد ، ويسبب حمى وبحة في الصوت غالبًا .

(٢) هذا الحديث لم يقم الشارح رحمه الله بشرحه ، والحديث أخرجه البخاري في اللباس (٥٩٣٢) ، ومسلم في اللباس والزينة (٢١٢٧) ، والبيهقي في السنن (٢٩٠/٤) والطبراني في الكبير (٣٢٦/١٩) . قوله (قصة من شعر) هي شعر مقدم الرأس المقبل على الجبهة ، قوله (حرسي) هو كالشرطي ، وهو غلام الأمير .

(٣) هذا الحديث لم يقم الشارح رحمه الله بشرحه ، والحديث أخرجه البخاري في اللباس (٥٩٣٧) ، ومسلم في اللباس والزينة (١١٧ ، ١١٩) ، وأبو داود في الترجل (٤١٦٨) والنسائي في السنن (١٤٥/٨) . قوله (الواشمة) هي التي تصنع الوشم . وهي أن تغرز إبرة أو مسلة أو نحوهما في ظهر الكف أو المعصم أو غير ذلك من بدن المرأة حتى يسيل الدم ، ثم تحشو ذلك الموضع بالكحل فيخضر ، وقد يفعل ذلك على هيئة نقوش ورسومات .

(٤) هذا الحديث لم يقم الشارح رحمه الله بشرحه ، والحديث أخرجه البخاري في اللباس (٥٩٣١) ، ومسلم في اللباس والزينة (١٢٠) ، والإمام أحمد في المسند (٤٣٤/١) والبيهقي في السنن (٣١٢/٧) .

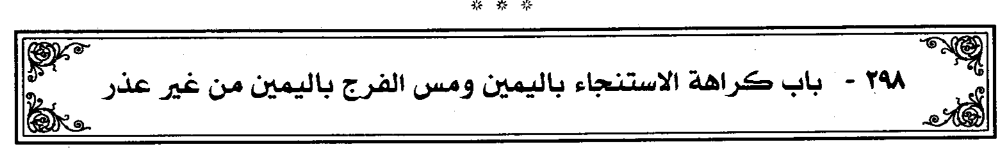


٢٩٧ - باب النَّهي عَنْ نتف الشيب من اللحية والرأس وغيرهما وعن نتف الأمرد شعر لحيته عند أول طلوعه

١٦٤٦ - عَنْ عَمْرِو بْنِ شُعَيبٍ ، عَنْ أَبِيهِ ، عَنْ جَدِّهِ ، عَنْ النَّبِيِّ ﷺ قَالَ : « لَا تَنْتِفُوا الشَّيبَ ؛ فَإِنَّهُ نُورُ الْمُسْلِمِ يَومَ الْقِيَامَةِ » [١] حديث حسن ، رَوَاهُ أَبُو دَاوُدَ ، وَالتِّرْمِذِيُّ ، وَالنَّسَائِيُّ بِأَسَانِيدَ حَسَنَةٍ . قَالَ التِّرْمِذِيُّ : هُوَ حَدِيثٌ حَسَنٌ .

١٦٤٧ - وَعَنْ عَائِشَةَ رَضِيَ اللهُ عَنْهَا قَالَتْ : قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ : « مَنْ عَمِلَ عَمَلًا لَيسَ عَلَيهِ أَمْرُنَا فَهُوَ رَدٌّ » [٢] رواه مسلم .

* * *



٢٩٨ - باب كراهة الاستنجاء باليمين ومس الفرج باليمين من غير عذر

١٦٤٨ - عَنْ أَبِي قَتَادَةَ عَنِ النبيِّ ﷺ قَالَ : « إِذَا بَالَ أَحَدُكُم ، فَلَا يأْخُذَنَّ ذَكَرَهُ بِيَمِينِهِ ، وَلَا يَسْتَنْجِ بِيَمِينِهِ ، وَلا يَتَنَفَّسْ في الإِنَاءِ » [٣] .

متفقٌ عليه . وَفي البَابِ أَحَادِيثُ كَثِيرَةٌ صَحِيحَةٌ .

الشرح

ذكر المؤلف - رحمه اللّه تعالى - كراهة الاستنجاء باليمين . والاستنجاء تطهير القبل أو الدبر ، من الحدث ، من البول أو الغائط ويكون بالاستجمار ، ويكون بالماء ، يعني يكون بالحجارة ، أو ما ينوب عنها من الخرق والخشب والتراب وغير ذلك . أو بالماء . ولكن الاستجمار بالحجارة له شروط ، ذكرها العلماء رحمهم اللّه .

وأما الماء : فشرطه أن يزول أثر النجاسة ، وأثر النجاسة معلوم ، فإذا زال الأثر وعاد المحل كما كان ، فهذا هو الطهارة [٤] .

---

(١) هذا الحديث لم يقم الشارح رحمه الله بشرحه والحديث أخرجه أبو داود في الترجل (٤٢٠٢) ، والترمذي في الأدب (٢٨٢١) ، والبيهقي في السنن (٣١٧/٧) .

(٢) هذا الحديث لم يقم الشارح رحمه الله بشرحه ، والحديث أخرجه مسلم في الأقضية (١٧) ، والإمام أحمد في المسند (١٤٦/٦) . قوله (فهو رد) أي فهو مردود عليه ، ومعناه : فهو باطل غير معتد به . وهذا الحديث قاعدة عظيمة من قواعد الإسلام ، وهو من جوامع كلمه ﷺ ؛ فإنه صريح في رد كل البدع .

(٣) أخرجه البخاري في الوضوء (١٥٤) ، ومسلم في الطهارة (٦٣) بنحوه ، والنسائي في السنن (٢٥/١) وأحمد في مسنده (٣٠٠/٥) بنحوه .

(٤) راجع ذلك في الهداية (٤٤/١ ، ٤٥) ، المجموع (١٨١/١ - ١٨٢) ، شرح فتح القدير (٨٣/١) ، روضة الطالبين (١٣/١٣ - ٢٦) .

ثم ذكر المؤلف حديث أبي قتادة أن النبي ﷺ ، قال : « لا يستنج أحدكم بيمينه » – يعني لا يمسك الذكر باليمين فيغسله – لأن اليد اليمنى مُكرمة ، ولهذا قال العلماء – رحمهم الله – : اليمنى هي المقدمة إلا في مواضع الأذى . فاليسرى تقدم للأذى ، واليمنى لما سواه . وعلى هذا فيستنجي باليسار ، ويصب الماء باليمين ، لأن النبي ﷺ نهى عن الاستنجاء باليمين ، ثم قال – عليه الصلاة والسلام – « ولا يتمسح من الخلاء بيمينه » ، يعني كذلك بالأحجار ، إذا أراد أن يمسح محل الغائط ؛ فإنه لا يمسك الحجر بيمينه ، وإنما يمسكه باليسرى .

ولا يتنفس في الإناء ، يعني إذا شرب فالسنة أن يتنفس ثلاث مرات ، يشرب أولًا ثم يقطع ، ثم يشرب ثانيًا ثم يقطع ، ثم يشرب ثالثًا ، هكذا هي السنة وهو أنفع للبدن وأنفع للمعدة ، لأن العطش التهاب في المعدة وحرارة ، فإذا جاءها الماء دفعة واحدة ، أثر عليها ، وإذا كان يمصُّهُ مصًّا ويتنفس ثلاثًا ؛ فهو أهنأ وأبرأ وأمرأ ، كما قال النبي ﷺ [١] ، لكن إذا تنفس لا يتنفس في الإناء ، يزيل فمه عن الإناء ثم يتنفس ، لأن التنفس بالإناء فيه ضرر على الشارب ؛ لأن النفَس يكون صاعدًا ، والماء يكون نازلًا فيلتقيان فيحصل الشَّرق ، وفيه أيضًا أذى لمن بعده ؛ لأنه قد يخرج مع نفسه أمراض ، التي يسمونها (ميكروبات) فتكون في الماء فتؤثر على من شرب من بعده ؛ فلذلك نهى النبي ﷺ عن أن يتنفس الإنسان في الإناء . والله الموفق .

* * *

٢٩٩ - باب كراهة المشي في نعل واحدة أو خف واحد لغير عذر وكراهة لبس النعل والخف قائمًا لغير عذر

١٦٤٩ – عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ ﷺ أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ قَالَ : « لَا يَمْشِ أَحَدُكُمْ فِي نَعْلٍ وَاحِدَةٍ ، لِيَنْعَلْهُمَا جَمِيعًا ، أَوْ لِيَخْلَعْهُمَا جَمِيعًا » .

وفي روايةٍ : « أو لِيُحْفِهِمَا جَمِيعًا » [٢] متفقٌ عليه .

١٦٥٠ – وَعَنْهُ قَالَ : سَمِعْتُ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ يَقُولُ : « إِذَا انْقَطَعَ شِسْعُ نَعْلِ أَحَدِكُمْ، فَلَا يَمْشِ فِي الْأُخْرَى حَتَّى يُصْلِحَهَا » [٣] . رواه مسلم .

---

(١) انظر ذلك في مسلم في الصيد (١٧) ، وأحمد مسنده (٢/٣١١) .

(٢) أخرجه البخاري في اللباس (٥٨٥٥) ، ومسلم في اللباس والزينة (٦٨) ، وأبو داود في اللباس (٤١٣٦) ، والترمذي في اللباس (١٧٧٤) قوله « لينعلهما » أي ليلبسهما في وقت واحد . قوله « ليحفهما » أي ليخلعهما .

(٣) أخرجه مسلم في اللباس والزينة (٢٠٩٨) ، والنسائي في السنن (٨/١١٨) ، وأحمد في المسند (٢/٢١٤) والطبراني في الكبير (٧/٣٣٧) . قوله « شسع أحدكم » : هو أحد سيور النعال ، وهو الذي يدخل بين الأصبعين ويدخل طرفه في الثقب الذي في صدر النعل المشدود في الزمام .

١٦٥١ – وَعَنْ جَابِرٍ ﵁ أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ نَهَى أَنْ يَنْتَعِلَ الرَّجُلُ قَائِمًا [١] . رَوَاهُ أَبُو دَاوُدَ بِإِسْنَادٍ حَسَنٍ .

الشرح

هذه أحاديث في النعل وكراهة أن ينتعل الإنسان برجل واحدة ، أو يلبس خفًّا برجل واحدة ، بل إما أن يُحفيَهما جميعًا ، يعني لا يلبس في الرجلين شيئًا ، وإما أن ينعلهما جميعًا .

وليعلم أن لبس النعال من السنة ، والاحتفاء من السنة أيضًا ، ولهذا نهى النبي ﷺ عن كثرة الإرفاه ، وأمر بالاحتفاء أحيانًا [٢] ، فالسنة أن الإنسان يلبس النعال لا بأس ، لكن ينبغي أحيانًا أن يمشي حافيًا بين الناس ليظهر هذه السنة التي كان بعض الناس ينتقدها ، إذا رأى شخصًا يمشي حافيًا قال : ما هذا ؟! هذا من الجهال . وهذا غلط ، لأن النبي ﷺ كان ينهى عن كثرة الإرفاه ويأمر بالاحتفاء أحيانًا . فإذا لبست النعل ، فعند اللبس ، ألبسْ الرجل اليمنى ، وعند الخلع ابدأ باليسرى ، وكذلك أيضًا إذا انتعلت وأردت دخول المسجد بنعليك فتفقدهما عند الدخول ، إن كان فيهما أذى ، أو قذر فامسحهما بالأرض حتى يزول ، ثم صَلِّ بهما ، فإن هذا من السنة . قال النبي ﷺ : « خالفوا اليهود ، صلوا في نعالكم » [٣] لأن اليهود لا يصلون في النعل . فالسنة إذًا أن يصلي بنعليه كما أن كثيرًا من الناس يصلي في خفيه ، فلا فرق بين الخف والنعل ، لكن الناس تستنكر لأنه سنة أميتت . هذا إذا كانت المساجد مفروشة بما كانت تفرش به المساجد فيما سلف . كانت المساجد فيما سلف تفرش بالحجارة بالحصباء ، أو الرمل ، أو نحو ذلك . ولا يحصل أذى بالنعل ، أما الآن وقد فرشت بهذه الفرش ؛ فإن الناس لو دخلوا للوثوا المسجد تلويثًا ظاهرًا بينًا ؛ لأن أكثر الناس لا يبالي لو كان في نعليه أذى أو قذر ؛ ولهذا رأى العلماء الآن أن الإنسان لا يدخل بنعليه في المسجد ؛ نظرًا لأنها مفروشة بفُرُشٍ تتلوث لو دخل الإنسان بنعليه ، وإذا أراد الإنسان أن يطبق السنة ؛ فليصلِّ في بيته بنعليه ، التهجد ، أو الراتبة أو ما أشبه ذلك ، ويحصل بذلك امتثال أمر النبي ﷺ في قوله : « إن اليهود لا يصلون في نعالهم » . ثم إن الأحاديث : حديث أبي هريرة نهى أن ينتعل الرجل بنعل واحد ، يعني إما أن يلبس النعلين جميعًا ، وإما أن يخلعهما جميعًا ، أما أن يلبس واحدة ويدع الأخرى ، فهذا قد نهى عنه . ووجه ذلك والله أعلم : أن هذا الدين الإسلامي جاء بالعدل حتى في اللباس ، لا تنعل إحدى الرجلين وتترك الأخرى ؛ لأن هذا فيه جور على الرجل الثانية التي لم تُنعل ، فلذلك نهى النبي ﷺ عن المشي في نعل ، قال العلماء : (ولو لإصلاح الأخرى) . ولهذا جاء في حديث أبي هريرة الثاني : (إذا انقطع شسع نعل أحدكم فلا يلبسها حتى يصلح الأخرى ، ثم يلبسهما جميعًا) .

أما حديث جابر الذي رواه أبو داود « أن النبي ﷺ نهى أن ينتعل الرجل قائمًا » . فهذا في نعل يحتاج إلى معالجة في إدخاله في الرجل ، لأن الإنسان لو انتعل قائمًا والنعل يحتاج إلى معالجة ؛ فربما

---

(١) أخرجه أبو داود في اللباس (٤١٣٥) ، وابن ماجه في اللباس (٣٦١٨) قوله « قائمًا » قيل : هو مخصوص بما إذا لحقته مشقة في لبسه قائمًا كالخف والنعال المحتاجه إلى شد شراكها .

(٢) وذلك لما رواه أبو داود في الترجل (٤١٦٠) ، وأحمد في مسنده (٢٢/٦) .

(٣) أخرجه أبو داود في الصلاة (٦٥٢) ، والحاكم في المستدرك (٢٦٠/١) ، والبيهقي في السنن (٤٣٢/٢) .

يسقط إذا رفع رجله ليصلح النعل . أما النعال المعروفة الآن ؛ فلا بأس أن ينتعل الإنسان وهو قائم ولا يدخل ذلك في النهي ؛ لأن نعالنا الموجودة يسهل خلعها ولبسها . والله الموفق .

* * *

٣٠٠ - باب النهي عن ترك النار في البيت عند النوم ونحوه سواء كانت في سراج أو غيره

١٦٥٢ - عَنِ ابْنِ عُمَرَ رضي الله عنهما عَنِ النبيِّ ﷺ قَالَ : « لَا تَتْرُكُوا النَّارَ في بُيُوتِكُمْ حِينَ تَنَامُونَ » [١] متفقٌ عليه .

١٦٥٣ - وَعَنْ أَبِي مُوسَى الأَشْعَرِيِّ رضي الله عنه قَالَ : احْتَرَقَ بَيْتٌ بالمَدِينَة عَلى أَهْلِهِ مِنَ اللَّيلِ ، فَلَمَّا حُدِّثَ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ بِشَأْنِهِمْ قَالَ : « إنَّ هذِهِ النَّارَ عَدُوٌّ لكُمْ ، فإذَا نِمْتُمْ ، فَأَطْفِئُوهَا » [٢] متفقٌ عليه .

١٦٥٤ - وَعَنْ جَابِرٍ رضي الله عنه عَنِ النبيِّ ﷺ قَالَ : « غَطُّوا الإنَاءَ ، وَأَوكِئُوا السِّقَاءَ ، وَأَغْلِقُوا البَابَ ، وَأَطْفِئُوا السِّرَاجَ ؛ فإنَّ الشيطَانَ لَا يَحِلُّ سِقاءً ، وَلا يَفْتَحُ بَابًا ، وَلَا يَكْشِفُ إنَاءً ، فَإنْ لَمْ يَجِدْ أَحَدُكُمْ إلا أَنْ يَعْرُضَ عَلى إنَائِهِ عُودًا ، وَيَذْكُرَ اسْمَ اللَّهِ ، فَلْيَفْعَلْ ؛ فإنَّ الفُوَيسِقَةَ تُضْرِمُ عَلى أَهْلِ البَيْتِ بَيتهُمْ » [٣] رواه مسلم .

« الفُوَيسِقَةُ » : الفَأْرَةُ ، وَ « تُضْرِمُ » : تُحْرِقُ .

الشرح

ذكر المؤلف رحمه الله في كتابه النهي عن إبقاء النار ونحوها في البيت عند النوم ونحوه ، وذلك أن النار كما وصفها النبي ﷺ في هذه الأحاديث عدو للإنسان ، فإذا أبقاها الإنسان ونام ، فربما تأتي الفويسقة - يعني الفأرة - فتنخسها ثم تشتعل كما هو الشأن فيما سبق ، كانت السرج من النار توقد في الزمان الأول ، بالودك ، والسويت وشبهه ، ثم صارت توقد بالجاز وكلها مواد سائلة ، فإذا جاءت الفأرة وعبثت بها ؛ انصب الذي في السراج على الأرض ، ثم اشتعلت النار ، وحصل الحريق ، ولهذا أمر النبي ﷺ بإطفاء النار عند النوم ؛ لئلا يحصل هذا الحريق ، ولكن في الوقت الحاضر ، ليس يوقد كما كان فيما سبق ، فاليوم الكهرباء سالب وموجب ، يحصل بها إيقاد اللمبة مثلًا ، فلو نام

---

(١) أخرجه البخاري في الاستئذان (٦٢٩٣) ، ومسلم في الأشربة (٢٠١٥) ، وأحمد في مسنده (٢/٧ ، ٨) وابن ماجه في الأدب (٣٧٦٩) .

(٢) أخرجه البخاري في الاستئذان (٦٢٩٤) ، ومسلم في الأشربة (٢٠١٦) .

(٣) أخرجه البخاري في الاستئذان (٦٢٩٦) ، ومسلم في الأشربة (٢٠١٢) ، وأحمد في مسنده (٣/٣٥٥) ، وابن ماجه في الأشربة (٣٤١٠) قوله « أوكئوا السقاء » أي شدوا رؤوسها بالوكاء لئلا يدخلها حيوان أويسقط فيها شيء ، والوكاء هو الخيط الذي تشد به الصرة والكيس وغيرهما ، وقوله « يعرض على إنائه عودًا » أي يضعه عليه بالعرض .

الإنسان ، وفي بيته لمبة موقدة فلا بأس ؛ لأن العلة التي من أجلها نهى النبي ﷺ عن إبقاء النار غير موجودة في الكهرباء في الوقت الحاضر . نعم فيه أشياء تشبه ذلك كالدفايات ؛ هذه لا شك أنها على خطر ، ولا سيما إذا قربها الإنسان من فراشه ، فإنه ينقلب أو ربما يمس هذه النار . فلهذا ينهى أن تبقى هذه الدفايات موقدة إلا في مكان آمن ، بعيدًا عن الفراش ، لئلا يحصل الحريق .

وكذلك ينبغي للإنسان إذا نام أن يجافي الباب ، بمعنى يغلقه ، وكذلك ينبغي إذا أراد أن ينام أن يغطي الإناء ولو بوضع عود عليه ؛ لأن في ذلك حماية له من الشيطان . والله الموفق .

* * *

٣٠١ - باب النهي عن التكلف ، وهو فعل وقول ما لا مصلحة فيه بمشقة

قال الله تعالى : ﴿ قُلْ مَآ أَسْـَٔلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ وَمَآ أَنَا۠ مِنَ ٱلْمُتَكَلِّفِينَ ﴾ (١) [ص: ٨٦] .

١٦٥٥ - وَعَنْ عُمَرَ ﷺ قَالَ : نُهينا عَنِ التَّكلُّف (٢) . رواه البخاري .

١٦٥٦ - وعَنْ مَسْرُوقٍ قَالَ : دَخَلْنا عَلى عَبْدِ اللَّهِ بْن مَسْعُودٍ ﷺ فقَالَ : يَا أَيُّها النَّاسُ مَنْ عَلِمَ شَيْئًا فَلْيَقُلْ بهِ ، وَمَنْ لَمْ يَعْلَمْ ، فلْيَقُل : اللَّهُ أَعْلَمُ ، فَإِنَّ مِنَ العِلْمِ أَنْ تَقُولَ لِمَا لا تَعْلَمُ : اللَّهُ أَعْلَمُ . قَالَ اللَّهُ تَعَالى لِنبيِّهِ ﷺ : ﴿ قُلْ مَآ أَسْـَٔلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ وَمَآ أَنَا۠ مِنَ ٱلْمُتَكَلِّفِينَ ﴾ (٣) رواه البخاري .

الشرح

ذكر المؤلف - رحمه الله تعالى - (النهي عن التكلف) .

التكلف معناه : تكلف الشيء ومحاولة معرفته ، وإظهار الإنسان بمظهر العالم ، وهو ليس كذلك ، ثم ذكر المؤلف قوله تعالى : ﴿ قُلْ مَآ أَسْـَٔلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ ﴾ أي : لا أسألكم على ما جئت به من الوحي أجرًا تعطونني إياه ، وإنما أدلكم على الخير وأدعوكم إلى الله ﷻ ، وهكذا الرسل - عليهم الصلاة والسلام - كلهم يقولون لأصحابهم ﴿ قُلْ مَآ أَسْـَٔلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ وَمَآ أَنَا۠ مِنَ ٱلْمُتَكَلِّفِينَ ﴾ أي : من الشاقين عليكم ، أو القائلين بلا علم ، بل إنه - عليه الصلاة والسلام - كان يقول ، ويؤيده الله على قوله بإقراره عليه ، ثم حديث عبد الله بن عمر ﷺ قال : « نهينا عن التكلف » ، والناهي هو الرسول ﷺ ، فإذا قال الصحابي : نهينا ، فإن هذا له حكم الرفع يعني كأنه قال : نهانا رسول الله ﷺ ، فعليه يكون هذا الناهي هو الرسول ﷺ « نهينا عن التكلف » أن يتكلف الإنسان ما لا علم له به ويحاول أن يظهر بمظهر العالم العارف ، وليس كذلك .

ثم ذكر حديث عبد الله بن مسعود ﷺ ، أن الإنسان إذا سُئِل عما لا يعلم فلا يتكلم ، ويأتي بجواب لا يدري أهو صحيح أم لا ؟ ولكن لا يقول إلا ما علم به ، فإذا سُئِل عن شيء لا يعلمه ،

(١) قوله تعالى : ﴿ ٱلْمُتَكَلِّفِينَ ﴾ أي : من المتصنعين الذين يتحلون بما ليسوا أهله .
(٢) أخرجه البخاري في الاعتصام بالكتاب والسنة (٦٢٩٣) .
(٣) أخرجه البخاري في تفسير القرآن (٤٨٠٩) .

فليقل : اللَّه أعلم ، فإن من العلم أن يقول الإنسان لما لا يعلم : اللَّه أعلم . ووصف هذا ﷺ بالعلم ، لأن الذي يقول لا أعلم وهو لا يعلم هو العالم حقيقة ، هو الذي علم قدر نفسه ، وعلم منزلته ، وأنه جاهل ، فيقول لما لا يعرف : اللَّه أعلم .

ثم إن الإنسان إذا قال لما لا يعلم : اللَّه أعلم ، ولم يُفْتِ به ، يثق الناس به ، ويعلمون أن ما أفتى به فهو عن علم ، وما لم يعلمه يمسك عنه .

وأيضًا إذا قال الإنسان لما لا يعلم : اللَّه أعلم ؛ عوَّد نفسه الرضوخ للحق وعدم التصدر للفتوى ، وهذا خلافًا لبعض الناس اليوم ، تجده يرى أن الفتوى ربح بضاعة ، فيفتي بعلم وبغير علم ، ويفتي بنصف علم ، ولهذا قال شيخ الإسلام رَحِمَهُ اللَّهُ في كتابه (الفتوى الحموية) : كانوا يقولون : (ما أفسد الدنيا والدين إلا أربعة : نصف متكلم ، نصف فقيه ، نصف لغوي ، نصف طبيب) .

أما المتكلم : فإنه أفسد الأديان والعقائد ، لأن أهل الكلام الذين ينالون من الكلام شيئًا ولم يصلوا إلى غايته اغتروا به . وأما أهل الكلام الذين وصلوا إلى غايته فقد عزموا حقيقته ورجعوا إلى الحق .

ونصف فقيه : يفسد البُلدان ؛ لأنه يقضي بغير الحق ، فيفسد البلدان ، فيعطي حق هذا لهذا ، وهذا لهذا .

ونصف نحوي : لأنه يفسد اللسان ؛ لأنه يظن أنه أدرك قواعد اللغة العربية فيلحن فيفسد اللسان .

ونصف طبيب : فيفسد الأبدان ، لأنه لا يعرف ، فربما يصف دواءً يكون داءً ، وربما لا يصف الدواء فيهلك المريض .

فالحاصل : أنه لا يجوز للإنسان أن يفتي إلا إذا جازت له الفتوى .

ثم استدل ابن مسعود بقوله تعالى : ﴿ قُلْ مَآ أَسْـَٔلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ وَمَآ أَنَا۠ مِنَ ٱلْمُتَكَلِّفِينَ ﴾ واللَّه الموفق .

* * *

٣٠٢ - باب تحريم النياحة على الميت ولطم الخد وشق الجيب ونتف الشعر وحلقه والدعاء بالويل والثبور

١٦٥٧ - عَنْ عُمَرَ بْنِ الخَطَّابِ رضي الله عنه قَالَ : قَالَ النَّبِيُّ ﷺ : « المَيتُ يُعَذَّبُ في قَبْرِهِ بِمَا نِيحَ عَلَيهِ » .

وفي روايةٍ : « مَا نِيحَ عَلَيهِ » [١] متفقٌ عليه .

١٦٥٨ - وَعَنِ ابْنِ مَسْعُودٍ رضي الله عنه قَالَ : قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ : « لَيسَ مِنَّا مَنْ ضَرَبَ الخُدُودَ ، وَشَقَّ الجُيُوبَ ، وَدَعَا بِدَعْوَى الجَاهِلِيَّةِ » [٢] متفقٌ عليه .

---

(١) أخرجه البخاري في الجائز (١٢٩٢) ، ومسلم في الجنائز (١٦) ، وأحمد في مسنده (١/٢٦) بنحوه .

(٢) أخرجه البخاري في الجنائز (١٢٩٢) ، ومسلم في الإيمان (١٦٥) ، وأحمد في مسنده (١/٣٨٦) ، والبيهقي في =

الشرح

قال المؤلف – رحمه الله تعالى – في كتابه « رياض الصالحين » (باب تحريم النياحة على الميت) النياحة : هي البكاء على الميت برنة ، ينوح فيها كما تنوح الحمام ، والبكاء على الميت نوعان :

نوع اقتضته الطبيعة ؛ فهذا لا بأس به ولا يلام عليه العبد ، ومنه ما حصل للنبي ﷺ حين رفع إليه صبي ونفسه تقعقع كأنه في شن [1] فبكى – عليه الصلاة والسلام – رحمة بهذا الصبي الذي يدافعه الموت. فقال له الأقرع بن حابس : ما هذا ؟ قال : « إنها رحمة ، وإنما يرحم الله من عباده الرحماء » [2] ، فبكاء النبي ﷺ على هذا الصبي ليس من أجل الحزن لكن رق له ورحمة ، حيث إنه ينازع الموت ، وقال : « إنما يرحم الله من عباده الرحماء » ، جعلنا الله وإياكم منهم .

ومن ذلك أيضًا – البكاء الذي تقتضيه الطبيعة – : حزنًا على فراق المحبوب ، كما حصل للنبي حين مات ابنه إبراهيم ﷺ من مارية القبطية التي أهداها إليه ملك القبط – جاءت منه بولد ، وترعرع الصبي ، وبلغ نحو سته عشر شهرًا ، يعني سنة وأربعة أشهر ، ثم توفاه الله ﷻ ، وسماه بإبراهيم الذي هو خليل الرحمن – عليه الصلاة والسلام – : ﴿ مِّلَّةَ أَبِيكُمْ إِبْرَٰهِيمَ ﴾ [الحج : ٧٨] سماه إبراهيم ولما بلغ ستة عشر شهرًا تقريبًا توفاه الله ﷻ ، فَرُفِعَ إلى النبي ﷺ فقال النبي ﷺ : « العين تدمع ، والقلب يحزن ، ولا نقول إلا ما يرضي ربنا ، وإنا على فراقك يا إبراهيم لمحزونون » [3] هكذا قال النبي ﷺ ، فتُوفِّيَ الطفل ، وأُخبر النبي ﷺ أنه له مرضعًا في الجنة ترضعه ، هذا النوع من البكاء لا يضر ؛ لأنه شيء تقتضيه الطبيعة والجبلة ، ولا يدل على سخط الإنسان على ما قضاه الله وقدره .

أما النوع الثاني : فهو البكاء الذي ينوح فيه الإنسان نياحًا ، هذا البكاء يعذب به الميت في قبره والعياذ بالله ، يعني أنت تنوح ، وميتك يعذب في قبره بما يناح عليه ، مادمت تنوح ، فالميت يعذب ، فتكون أنت المتسبب لعذابه في قبره والعياذ بالله ، ولهذا يخطئ بعض الناس – نسأل الله العافية – إذا مات له قريب ينوح ، يبكي ... هذا مادام يفعل هكذا ، يعذب الميت في قبره ، بسبب بكائه عليه كما ثبت ذلك عن النبي ﷺ من حديث عمر بن الخطاب ﷺ ، فالواجب على الإنسان أن يتصبر ويحتسب الأجر عند الله ، ويعلم أن عظم الثواب من عظم المصاب ، وأنه كلما عظمت المصيبة كثر الثواب .

أما حديث ابن مسعود ﷺ فقال النبي ﷺ : « ليس منا من شق الجيوب ، وضرب الخدود ، ودعا بدعوى الجاهلية » . وهذا شيء يفعله الناس في الجاهلية ، إذا أصابتهم مصيبة شق جيبه ، أو جعل يلطم خده ، ينتف شعره أو يدعو بدعاء الجاهلية : يا ويلاه ، يا ثبوراه ، يا انقطاع ظهراه ، وما أشبه

= السنن (٦٣/٤) . قوله : « الجيوب » هي ما يدخل منه الرأس عند لبس الملابس ، قوله « ودعا بدعوى الجاهلية » هي النياحة والدعاء بالويل وشبهه وهو ما كان يحدث قبل الإسلام .

(١) الشنُّ : هي قِرْبَة خَلَقٌ صغيرة .

(٢) الحديث أخرجه أبو داود في الجنائز (٣١٢٥) .

(٣) أخرجه البخاري في الجنائز (١٣٠٣) ، ومسلم في الفضائل (٦٢) ، والبغوي في شرح السنة (٤٢٩/٥) بلفظ : « تدمع العين ويحزن القلب » .

ذلك ، فتبرأ النبي ﷺ من هؤلاء ؛ لأن المؤمن مؤمن القلب بالله ، مؤمن بقضاء الله ، يعلم أنه لا يمكن أن تتغير الحال عما كان ، وأن هذا أمر قضي وانتهى ، كتب قبل أن تخلق السموات والأرض بخمسين ألف سنة ، جفت الأقلام وطويت الصحف ، لا يمكن أن تتغير الحال عما كان مهما كان ، إذًا ما الفائدة من الجزع ؟! ما الفائدة من السخط ؟! ما هو إلا أمر أو وحي من الشيطان ليحرمك الأجر من جهة ، وليعذب به الميت من جهة أخرى .

فعليك يا أخي أن تتقي الله ﷻ وأن تصبر ، وتحتسب ، وأن تقول كما أثنى الله على من يقوله : ﴿ وَبَشِّرِ ٱلصَّٰبِرِينَ ﴾ من هم ؟ ﴿ ٱلَّذِينَ إِذَآ أَصَٰبَتۡهُم مُّصِيبَةٌ قَالُوٓاْ إِنَّا لِلَّهِ وَإِنَّآ إِلَيۡهِ رَٰجِعُونَ ﴾ [البقرة : ١٥٦] وقال النبي ﷺ : « ما من مسلم تصيبه مصيبة فيقول : اللَّهم آجرني في مصيبتي واخلفني خيرًا منها ؛ إلا آجره الله في مصيبته وأخلف له خيرًا منها » (١) ، هكذا يجب على الإنسان أن يصبر ويحتسب الأجر ، ويعلم أن الحزن والبكاء لا يغني شيئًا ، انتهى كل شيء .

لو أن أحدًا سافر ، وأصيب بحادث هل يقول : لو أني ما سافرت ما كان هذا حصل ! لا يمكن ، كما قال الله تعالى : ﴿ ٱلَّذِينَ قَالُواْ لِإِخۡوَٰنِهِمۡ وَقَعَدُواْ لَوۡ أَطَاعُونَا مَا قُتِلُواْۗ ﴾ قال الله تعالى : ﴿ قُلۡ فَٱدۡرَءُواْ عَنۡ أَنفُسِكُمُ ٱلۡمَوۡتَ إِن كُنتُمۡ صَٰدِقِينَ ﴾ [آل عمران : ١٦٨] لا فرار من الموت ، إذًا عليك أن تصبر وتحتسب ، وأن تقول : « إنا لله وإنا إليه راجعون ، اللَّهم آجرني في مصيبتي واخلفني خيرًا منها » . يؤجرك الله في مصيبتك ويخلف عليك خيرًا منها .

وهذه قصة أم سلمة مات عنها زوجها أبو سلمة ، وهو من أحب الناس إليها فحزنت لفراقه ، وكانت قد سمعت النبي ﷺ يقول : « إن الإنسان إذا أصيب بمصيبة فقال : اللَّهم آجرني في مصيبتي واخلفني خيرًا منها ، آجره الله في مصيبته ، وأخلف له خيرًا منها » فقالت هذا ، قالت : (اللَّهم آجرني في مصيبتي واخلفني خيرًا منها) وتقول في نفسها : من خير من أبي سلمة ، أبو سلمة زوجها يحبها وتحبه من يكون خيرًا من أبي سلمة ؟ هي ما شكّتْ في الخبر ، هي توقن أنه صدق ، لكن تقول : من يكون هذا ؟ فما إن انتهت عدتها حتى خطبها النبي ﷺ فكان خيرًا من أبي سلمة (٢) ، فأخلف الله لها خيرًا من مصيبتها ، وصار النبي ﷺ هو الذي يربي أولادها ، أولادها صاروا تحت الرسول ﷺ .

وهذا أيضًا نتيجة لقصة أخرى ، دخل النبي ﷺ على أبي سلمة ﷺ وقد شخص بصره ، خرجت روحه - فأغمض عينيه ، ثم قال : « إن الروح إذا قبض تبعه البصر » ، روحك إذا خرجت من جسدك البصر يشاهدها بإذن الله ، يشاهدها خارجة يتبعها - فلما سمع أهل البيت ذلك ، عرفوا أن أبا سلمة قد مات ، فضجَّ ناس منهم ، فقال النبي ﷺ : « لا تدعوا على أنفسكم إلا بخير ؛ فإن الملائكة يؤمنون على ما تقولون ، ثم قال : اللَّهم اغفر لأبي سلمة ، وارفع درجته في المهديين ، وأفسح له في قبره ، ونور له

---

(١) أخرجه مسلم في الجنائز (٤) ، ابن ماجه في السنن (١٥٩٨) ، وأحمد في مسنده (٢٦١/٦) .
(٢) انظر ذلك في مسلم في الجنائز (٣ ، ٥) .

فيه ، واخلفه في عقبه في الغابرين »[١] دعوات خمس تزن الدنيا وما عليها : « اللَّهم اغفر لأبي سلمة – وارفع درجته في المهديين – وافسح له في قبره – ونور له فيه – واخلفه في عقبه » .

إحدى هذه الدعوات عرفناها ، والباقي – إن شاء اللَّه – مجاب . الذي عرفناه ، أن النبي ﷺ خلف أبا سلمة في عقبه ، فكان زوج امرأته ، وكان مربي أولاده ، يعني عاشوا في حجر الرسول ﷺ .

والمهم أن على المرء أن يصبر عند المصائب مهما كانت ويسترجع ويقول : اللَّهم أجرني في مصيبتي واخلفني خيرًا منها . ولا بأس أن يبكي البكاء الطبيعي الذي ليس فيه نَوْحٌ ، فإن هذا حصل من خير البشر محمد ﷺ . واللَّه الموفق .

* * *

١٦٥٩ – وَعَنْ أَبي بُرْدَةَ قَالَ : وَجِعَ أَبُو مُوسَى ، فَغُشِيَ عَلَيهِ ، وَرَأْسُهُ في حجْرِ امْرَأَةٍ مِنْ أَهْلِهِ ، فَأَقْبَلَتْ تَصِيحُ بِرَنَّةٍ ، فَلَمْ يَسْتَطِعْ أَنْ يَرُدَّ عَلَيهَا شَيئًا ، فَلَمَّا أفاقَ ، قَالَ : أَنَا بَرِيء مِمَّنْ بَرِئَ مِنْهُ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ ، إنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ بَرِئَ مِنَ الصَّالِقَةِ ، وَالحَالِقَةِ ، وَالشَّاقَّةِ[٢] . متفقٌ عليه .

« الصَّالِقَةُ » : الَّتي تَرْفَعُ صَوتَهَا بِالنِّيَاحَةِ والنَّدْبِ « والحَالِقَةُ » : التي تَحْلِقُ رَأْسَهَا عِنْدَ المُصِيبَةِ . «ثوالشَّاقَّةُ » : الَّتي تَشُقُّ ثَوبَهَا .

١٦٦٠ – وَعَنِ المُغِيرَةِ بْنِ شُعْبَةَ رضي الله عنه قَالَ : سَمِعْتُ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ يَقُولُ : « مَنْ نِيحَ عَلَيهِ ، فَإنَّهُ يُعَذَّبُ بِمَا نِيحَ عَلَيهِ يومَ القِيامَةِ »[٣] متفقٌ عليه .

١٦٦١ – وَعَنْ أُمِّ عَطِيَّةَ نُسَيبَةَ – بِضَمِّ النُّونِ وَفَتْحِهَا – رضي الله عنها قَالَتْ : أَخَذَ عَلَينَا رَسُولُ اللَّهِ ﷺ عِنْدَ البَيعَةِ أَنْ لَا نَنُوحَ[٤] . متفقٌ عليه .

١٦٦٢ – وعَنِ النُّعْمَانِ بْنِ بَشِيرٍ رضي الله عنه قَالَ : أُغْمِيَ عَلى عَبْدِ اللَّهِ بْنِ رَوَاحَةَ رضي الله عنه فَجَعَلَتْ أُخْتُهُ تَبْكِي ، وَتَقُولُ : وَاجَبَلاهُ ، وَا كَذَا ، وَا كذَا ؛ تُعَدِّدُ عَلَيهِ . فَقَالَ حِينَ أَفَاقَ : مَا قُلْتِ شَيئًا إلا قِيلَ لي : أَنْتَ كَذلِكَ ؟![٥] رواه البخاري .

١٦٦٣ – وَعَنِ ابْنِ عُمَرَ رضي الله عنهما قال : اشْتَكَى سَعْدُ بْنُ عُبَادَةَ رضي الله عنه شَكْوَى ، فَأَتَاهُ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ يَعُودُهُ مَعَ عَبْدِ الرَّحمنِ بْنِ عَوفٍ ، وَسَعْدِ بن أَبي وَقَّاص ، وَعَبْدِ اللَّه بْنِ مَسْعُودٍ رضي الله عنه ، فَلَمَّا دَخَل عَلَيهِ ، وَجَدَهُ في غَشْيَةٍ فَقَالَ : « أَقَضَى ؟ » قَالُوا : لَا يَا رَسُولَ اللَّهِ . فَبَكَى رَسُولُ اللَّهِ ﷺ فَلَمَّا رَأَى القَومُ بُكَاءَ

---

(١) أخرجه مسلم في الجنائز (٧) ومعنى « إن الروح إذا قبض تبعه البصر » : أنه إذا خرج الروح من الجسد يتبعه البصر ناظرًا أين يذهب . وقوله « واخلفه في عقبه في الغابرين » أي : كن خليفة له في ذريته . وقوله « في الغابرين » أي : الباقين .

(٢) أخرجه البخاري في الجنائز (١٢٩٦) ، ومسلم في الإيمان (١٦٧) ، قوله « برنة » أي : بصيحة مرتفعة .

(٣) أخرجه البخاري في الجنائز (١٢٩١) ، ومسلم في الجنائز (٢٨) ، والبيهقي في السنن (٤/٧٢) .

(٤) أخرجه البخاري في الجنائز (١٣٠٦) ، ومسلم في الجنائز (٣٢) .

(٥) أخرجه البخاري في المغازي (٤٢٦٧) ، قوله « أخته » هي عمرة بنت رواحة .

النَّبيِّ ﷺ بَكَوا ، قَالَ : « أَلَا تَسمَعُونَ ؟ إنَّ اللَّهَ لا يُعَذِّبُ بِدَمْعِ العَيـنِ ، وَلَا بِحُزْنِ القَلْبِ ، وَلكِنْ يُعَذِّبُ بِهذَا » وأَشَارَ إِلَى لِسَانِهِ « أَو يَرْحَمُ » [١] متفقٌ عليه .

١٦٦٤ - وَعَنْ أَبِي مَالكٍ الأَشْعَرِيِّ ﷺ قَالَ : قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ : « النَّائِحَةُ إِذَا لَمْ تَتُبْ قَبْلَ مَوتِهَا ؛ تُقَامُ يَومَ القِيَامَةِ عَلَيها سِرْبَالٌ مِنْ قَطِرَانٍ ، وَدِرْعٌ مِنْ جَرَبٍ » [٢] رواه مسلم .

١٦٦٥ - وَعَنْ أَسِيدِ بْنِ أَسِيدٍ التَّابِعِيِّ عَن امْرَأَةٍ مِنَ المُبَايِعات قَالَتْ : كَانَ فِيمَا أَخَذَ عَلَينَا رَسُولُ اللَّه ﷺ في المَعْرُوفِ الَّذي أَخَذَ عَلَينَا أَنْ لَا نَعْصِيَهُ فِيهِ : أَنْ لَا نَخمِشَ وَجْهًا ، وَلَا نَدْعُوَ وَيلًا ، وَلا نَشُقَّ جَيبًا ، وَأَنْ لَا نَنْثُرَ شَعْرًا [٣] . رَوَاهُ أَبُو دَاوُد بِإسْنَادٍ حَسَنٍ .

١٦٦٦ - وَعَنْ أَبِي مُوسَى ﷺ أَنَّ رَسُولَ اللَّه ﷺ قَالَ : « مَا مِنْ مَيِّتٍ يَمُوتُ ، فَيَقُومُ بَاكِيهِمْ ، فَيقُولُ : وَا جَبَلَاهُ ، وَا سَيِّدَاهُ ، أَوَ نَحْوَ ذلِكَ ؛ إلا وُكِّلَ بِهِ مَلَكَانِ يَلْهَزانِهِ : أَهكَذَا كُنْتَ ؟! » [٤] رَوَاهُ التِّرمِذِي وقَالَ : حَدِيثٌ حَسَنٌ . « اللَّهْزُ » الدَّفْعُ بِجُمْعِ اليَدِ في الصَّدْرِ .

١٦٦٧ - وَعَنْ أَبِي هُرَيرَةَ ﷺ قَالَ : قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ : « اثْنَتَانِ في النَّاسِ هُمَا بِهِمْ كُفْرٌ : الطَّعْنُ في النَّسَبِ ، وَالنِّيَاحَةُ على المَيِّتِ » [٥] رواه مسلم .

الشرح

هذه الأحاديث التي ساقها النووي رحمه الله تدل على تحريم النياحة والندب على الميت .

أما النياحة : فهي البكاء برنة ، حتى يكون كنوح الحمام ، وأما الندب : فهو أن يذكر محاسن الميت ويتأوه منها ، ويتوجع ، وقد ذكر أحاديث منها حديث أبي موسى ﷺ : أنه غشي ورأسه في حجر بعض أهله ، فجعلت هذه المرأة التي هو بحجرها تبكي برنة ؛ يعني بنياحة ، فلما أفاق ﷺ قال : أنا بريء مما برئ منه النبي ﷺ « إن النبي ﷺ بريء من الصالقة ، والحالقة ، والشاقة » ، الصالقة : من الصلق وهو رفع الصوت ، يعني بأن تصرخ وتعلي صوتها عند المصيبة ، فهذه برئ منها النبي ﷺ ، ونحن نشهد الله أننا بريئون من كل ما يتبرأ منه الرسول ﷺ ، ومن كل عمل تبرأ منه .

(١) أخرجه البخاري في الجنائز (١٣٠٤) ، ومسلم في الجنائز (١٢) قوله « شكوى » أي مرض . قوله « غشية » أي إغماءة . قوله : « أقضى » أي : أمات ؟ .

(٢) أخرجه مسلم في الجنائز (٢٩) ، وأحمد في مسنده (٣٤٤/٥) ، قوله « ودرع من حرب » أي : أنه يسلط على أعضائها الجرب والحكة بحيث يغطي بدنها تغطية الدرع وهو القميص . قوله « سربال » أي : قميص أو درع . قوله « قطران » هو ما يتحلل من بعض الأشجار ويطلى به الإبل ، ومن شأنه أن يسرع إشعال النار ، وهو أسود منتن .

(٣) أخرجه أبو داود في الجنائز (٣١٣١) ، وأحمد في مسنده (٨٤/٥) ، قوله « نخمش وجهًا » أي : نضربه بأظفارنا حتى نجرح ظاهر البشرة . قوله « ولاندعو ويلًا » مثل أن نقول : ياويلاه .

(٤) أخرجه الترمذي في الجنائز (١٠٠٣) .

(٥) أخرجه الترمذي في الإيمان (١٢١) ، وأحمد في مسنده (٤٩٦/٢) . قوله « الطعن في النسب » هو : التشكيك في نسب الأبناء لآبائهم .

أما الحالقة : فهي أنه جرت عادة النساء في الجاهلية أن المرأة إذا أصيبت بميت تحلق شعر رأسها ، كأنها غاضبة ، والرأس يتخذ زينة عند النساء ، وطوله وكثافته مرغوبة عند النساء ، لكن في وقتنا الحاضر ، لما انفتح الناس على نساء الكافرين أو من تشبه بهم ، صارت المرأة تحاول أن تقصر شعر رأسها حتى يكون كرأس الرجل والعياذ بالله .

أما الشاقة : فهي التي تشق جيبها عند المصيبة ، وكذلك أيضًا التي تنفش شعرها عند المصيبة ، كل فعل يدل على التضجر ، فإنه داخل في هذه البراءة التي تبرَّأ منها النبي ﷺ .

وفي هذه الأحاديث أن النائحة إذا لم تتب قبل موتها ؛ فإنها تقام يوم القيامة من قبرها ، وعليها سربال من قطران ودرع من جرب السربال : يعني الثوب ، والدرع : ما كان لاصقًا بالبدن ، والمعنى أن جلدها أجرب والعياذ بالله ، والجرب معروف ، هو عبارة عن حكة يتبرز منها الجلد ، وإذا كان جلدها من جرب وعليها سربال من قطران صار هذا أشد اشتعالًا في النار والعياذ بالله ، لكن إذا تابت قبل موتها ، تاب الله عليها ؛ لأن من تاب من أي ذنب قبل أن يموت تاب الله عليه .

ومن جملة الأحاديث هذه : أن النبي ﷺ بكى لما رأى سعد بن عبادة ﷺ قد غشي عليه ، فبكى من معه من الصحابة ، ثم قال ﷺ : « ألا تسمعون ؟ ألا تسمعون ؟ » الاستفهام هنا بمعنى الأمر ، أي اسمعوا - اسمعوا ، « إن الله لا يعذب ببكاء العين ، ولا بحزن القلب ، ولكن يعذب بهذا - وأشار إلى لسانه - أو يرحم » . يعني : أن الله لا يعذب بالبكاء ، وبالحزن لكن يعذب بالقول والصوت أو يرحم ، فمثلًا إذا أصيب الإنسان بمصيبة ، وقال : إنا لله وإنا إليه راجعون مؤمنًا بها قلبه ، مؤمنًا بأن لله مُلكًا وتقديرًا وتدبيرًا ، وأننا راجعون إليه في أمورنا كلها وسنلاقيه يوم القيامة إذا آمن بهذا ، وقال ما في حديث أم سلمة ﷺ « اللَّهم آجرني في مصيبتي واخلفني خيرًا منها » ، فهذه يؤجر عليها الإنسان ، أما إذا جعل يقول : وا جبلاه ، وا ويلاه ، وا ثبوراه ، وما أشبه ذلك ؛ فإن هذا يعذب به والعياذ بالله .

ومعنى واجبلاه : أن هذا الميت مثل الجبل ، ملجأ لي وقد فقدته ، فهو عبارة عن ندب مع مدح .

فالحاصل وخلاصة هذه الأحاديث : أن البكاء الذي يأتي بمجرد الطبيعة لا بأس به ، وأما النوح والندب ولطم الخد ، وشق الثوب ، ونتف الشعر ، أو حلقه أو نفشه ؛ فكل هذا حرام ؟وهو مما برئ منه النبي ﷺ . والله الموفق .

* * *

٣٠٣ - باب النَّهي عن إتيان الكهَّان والمنجمين والعراف وأصحاب الرمل والطوارق بالحصى وبالشعير ونحو ذلك

١٦٦٨ - عَنْ عَائِشَةَ ﷺ قَالَتْ : سَأَلَ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ أُنَاسٌ عَنِ الكُهَّان ، فَقَالَ : « لَيسُوا بِشَيءٍ » فَقَالُوا : يَا رَسُولَ الله ، إِنَّهُمْ يُحَدِّثُونَا أَحيَانًا بِشَيءٍ ، فَيَكُونُ حَقًّا ؟ فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ :

« تِلْكَ الكَلِمَةُ مِنَ الحَقِّ يَخْطَفُهَا الجِنِّيُّ ، فَيَقُرُّهَا في أُذُنِ وَلِيِّهِ ، فَيَخْلِطُونَ مَعَهَا مائَةَ كَذْبَةٍ » متفقٌ عليه .

وفي روايةٍ للبُخَارِيِّ عَنْ عَائِشَةَ رضي الله عنها أَنَّها سَمِعَتْ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ يَقُولُ : « إنَّ المَلائكَةَ تَنْزِلُ في العَنَانِ - وهو السَّحابُ - فَتَذْكُرُ الأَمْرَ قُضِيَ في السَّمَاء ، فَيَسْتَرِقُ الشَّيطَانُ السَّمْعَ ، فَيَسْمَعُهُ ، فَيُوحِيهِ إلى الكُهَّانِ ، فَيَكْذِبُونَ مَعَهَا مائَةَ كَذبَةٍ مِنْ عِنْدِ أَنْفُسِهِمْ » (١) .

قولُهُ : « فَيَقُرُّهَا » هو بفتح الياء ، وضم القاف والراء : أي : يُلْقِيهَا . « وَالعَنَانُ » بفتح العين .

الشرح

قال المؤلف - رحمه اللَّه تعالى - في كتابه رياض الصالحين : باب تحريم إتيان الكهان والمنجمين ونحوهم .

الكهان : جمع كاهن ، والكاهن هو الذي يخبر عن المغيبات في المستقبل ، فيقول مثلًا : كذا وكذا في يوم كذا وكذا ، أو يقول للإنسان : ستكون سعيدًا في اليوم الفلاني .. أو سيصيبك حادث في اليوم الفلاني .... أو ما أشبه ذلك - هؤلاء هم الكهان .

أما المنجمون : فهم الذين يمتهنون علم النجوم ، يعني يتخذونه مهنة ، ولكن علم النجوم ينقسم إلى قسمين : جائز ، ومحرم .

- نتكلم عن الكهان : الكهان هم أناس من بني آدم لهم أولياء من الجن ، والجن أعطاهم اللَّه قدرة عظيمة على الأشياء ، سرعة وقوة ، فهم يصعدون إلى السماء ، ولكل واحد منهم مقعد معين ، يسترقون السمع ، أي ما يسمعونه من الملائكة ، فيقضي اللَّه تبارك وتعالى الأمر في السماء ، ثم يخطفون منه شيئًا فينزلون إلى أوليائهم من البشر من بني آدم ، وهم الكهان ، ثم يضيف هذا الكاهن إلى هذا الذي سمعه من السماء كما قال النبي ﷺ وهو الصادق : « مائة كذبة » ، يعني يزيدون على ما سمعوا ، فيصادف أن هذه الكلمة المسموعة من السماء تقع كما سمعها الجني .

وقد ذكرت عائشة رضي الله عنها أن النبي ﷺ سئل عن الكهان فقال : « ليسوا بشيء » ؛ لأن الكهان كثروا على عهد النبي ﷺ قبل أن ينزل عليه الوحي ، وصارت الجن كما ذكر اللَّه عنهم ﴿ كُنَّا نَقْعُدُ مِنْهَا ﴾ - يعني من السماء - ﴿ مَقَٰعِدَ لِلسَّمْعِ ﴾ فلما بُعث النبي ﷺ ، صار الجني إذا قعد بمقعده يستمع جاءه شهاب من نار فأحرقه - ﴿ فَمَن يَسْتَمِعِ ٱلْآنَ يَجِدْ لَهُۥ شِهَابًا رَّصَدًا ﴾ [الجن : ٩] . فسئل النبي ﷺ عن الكهان فقال : « ليسوا بشيء » ، يعني : لا تعبؤوا بهم ، ولا تأخذوا بكلامهم ، ولا يهمكم أمرهم ، قالوا : يا رسول اللَّه ، إنهم يقولون القول فيكون حقًّا ، فأخبر النبي ﷺ أن هذا الحق الذي يقع ممزوجٌ بمائة كذبة ، وأن سببه أن الجني الذي له ولي من البشر يخطف الخبر من السماء ويوحيه إلى وليه من الإنس فيتحدث ثم يقع ما كان حقًّا ، وما كان باطلًا يُنسى عند الناس وكأنه لم يكن ، هؤلاء الكهان يجب علينا أن نكذبهم ، وألا نصدقهم ، ومن أتاهم وسألهم وصدقهم فقد كفر بما أُنزل على محمد ﷺ . يعني كفر : بالقرآن .

---

(١) أخرجه البخاري في بدء الخلق (٣٢١٠) ، ومسلم في السلام (١٢٢) ، وأحمد في مسنده (٦/٨٧) ، والبيهقي في السنن (٨/١٣٨) .

ووجه كفره أن الله تعالى قال : ﴿ قُل لَّا يَعْلَمُ مَن فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ٱلْغَيْبَ إِلَّا ٱللَّهُ ﴾ [النمل : ٦٥] فإذا ادعى هؤلاء علم الغيب ، وصدقهم الإنسان صار مضمون تصديقه إياهم تكذيب قول الله : ﴿ قُل لَّا يَعْلَمُ مَن فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ٱلْغَيْبَ إِلَّا ٱللَّهُ ﴾ . أما المنجمون : فهم الذين يتعاطون علم النجوم ، وعلم النجوم قسمان : قسم لا بأس به ، وهو ما يسمى بعلم التسيير ، يعني : علم سير النجوم ، يستدل به على الفصول وعلى طول النهار ، وقصر النهار ، حاجة لا بأس بها ولا حرج بها ؛ لأن الناس يهتدون به لمصالحهم . ومن ذلك علم جهات النجوم ، مثل : القطب الشمالي معروف جهة الشمال ، الجدي معروف قرب القطب من ناحية الشمال ، يستدل به على القبلة ، وعلى الجهات . قال الله تعالى : ﴿ وَعَلَٰمَٰتٍ ﴾ - يعني الجبال - ﴿ وَبِٱلنَّجْمِ هُمْ يَهْتَدُونَ ﴾ [النحل : ١٦] يهتدون في ظلمات البر والبحر ، إذا لم يكن سحاب يغطي النجوم اهتداو بها . ففي القصيم إذا أردت أن تستقبل القبلة اجعل القطب خلف أذنك اليمنى ، إذا جعلته خلف أذنك اليمنى فقد استقبلت القبلة . وفي كل منطقة وجهة يستدل بها ، فصار علم التسيير ما يتعلمه الإنسان للزمان والمكان ، للزمان مثل الفصول ، وقت الشتاء ، وقت الصيف ، المكان : الجهات .

القسم الثاني : علم التأثير مقابل علم التسيير - علم التأثير : أن يتخذ من علم النجوم سببًا يدَّعى به أن ما حصل في الأرض فإنه من سبب النجم ، كالذين يقولون في الجاهلية : مطرنا بنوء كذا وكذا ، هذا هو المحرم ، ولا يجوز اعتماده ؛ لأنه لا علاقة لما يحدث في الأرض بما يحدث للسماء ، السماء مستقلة ، فما حصل من أثر في السماء فإنه لا يؤثر على الأرض . فالنجوم لا دخل لها في الحوادث .

بعض الناس - والعياذ بالله - يقول : هذا الولد ولد في النوء الفلاني فسيكون سعيدًا ، هذا الولد ولد في النوء الفلاني فسيكون شقيًا ، من قال هذا ؟! ويسمونه (الطالع) أي طالع هذا الولد . هذا هو المحرم الذي من صدق المنجم فيه فهو كمن صدق الكاهن . والله الموفق .

* * *

١٦٦٩ - وَعَنْ صَفِيَّةَ بنْتِ أبي عُبَيدٍ ، عَنْ بَعْضِ أزْوَاجِ النَّبيِّ ﷺ و رضي الله عنها عَنِ النبيِّ ﷺ قَالَ : « مَنْ أَتَى عَرَّافًا فسَأَلَهُ عنْ شَيءٍ ، فَصَدَّقَهُ ، لَمْ تُقْبَلْ لَهُ صَلاةٌ أرْبَعِينَ يَوْمًا » (١) رواه مسلم .

١٦٧٠ - وعنْ قَبِيصَةَ بنِ المُخَارِقِ رضي الله عنه قَالَ : سَمِعْتُ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ يَقُولُ : « العِيَافَةُ ، وَالطِّيرَةُ ، والطَّرْقُ ، مِنَ الجِبْتِ » (٢) .

رَوَاهُ أبو دَاود بإسنادٍ حَسَن ، وقالَ : الطَّرْقُ ، هُوَ الزَّجْرُ ، أَي : زَجْرُ الطَّيرِ ، وهُوَ أنْ يَتَيَمَّنَ أو يَتَشَاءَمَ بِطَيَرَانِهِ ، فَإنْ طَارَ إلى جهَةِ اليَمِين ، تَيَمَّنَ ، وَإنْ طَارَ إلى جهةِ اليَسَارَ تَشاءمَ : قَالَ أبو داود :

---

(١) أخرجه مسلم في السلام (١٢٥) ، والحاكم في المستدرك (١/٨) ، والبيهقي في السنن (٨/١٣٥) .
(٢) أخرجه أبو داود في الطب (٣٩٠٧) ، وأحمد في مسنده (٣/٤٧٧) ، والبيهقي في السنن (٨/١٣٩) ، والطبراني في الكبير (١٨/٣٦٩) . قوله « العيافة » : هي زجر الطير والتفاؤل بأسمائها وأصواتها . قوله « والطيرة » هي : التشاؤم بالشيء . قوله « الجبت » هو كل ما عُبِدَ من دون الله .

« وَالعِيَافَةُ » : الخَطُّ .

قالَ الجوهَريُّ في « الصِّحَاح » : الجِبْتُ كَلِمَةٌ تَقَعُ عَلى الصَّنَم وَالكَاهِن وَالسَّاحِرِ وَنَحْوِ ذلكَ .

١٦٧١ - وَعَنِ ابْنِ عبَّاسٍ رضي الله عنهما قال : قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ : « مَنِ اقْتَبَسَ عِلْمًا مِنَ النُّجُومِ ؛ اقْتَبَسَ شُعْبَةً مِنَ السِّحْرِ زَادَ مَا زَادَ » [1] رَوَاهُ أَبو دَاود بإسناد صحيح .

١٦٧٢ - وَعَنْ مُعَاوِيَةَ بْنِ الحَكَم رضي الله عنه قَالَ : قُلْتُ : يَا رَسُولَ اللَّهِ إِنِّي حَدِيثُ عهْدٍ بِجاهِلِيَّةٍ ، وَقَدْ جَاءَ اللَّهُ تَعَالى بالإسْلامِ ، وَإنَّ مِنَّا رجَالًا يَأْتُونَ الكُهَّانَ ؟ قَالَ : « فَلا تَأْتِهِمْ » قُلْتُ : وَمِنَّا رجَالٌ يَتَطَيَّرُونَ ؟ قالَ : ذلكَ شيءٌ يَجِدُونَه في صُدُورِهِمْ ، فَلا يَصُدُّوهُمْ » قُلْتُ : وَمِنَّا رِجَالٌ يَخُطُّونَ ؟ قَالَ : « كَانَ نَبيٌّ مِنَ الأَنْبِيَاءِ يَخُطُّ ، فَمَنْ وَافَقَ خَطَّهُ ، فَذاكَ » [2] رواه مسلم .

الشرح

هذه الأحاديث التي ذكرها المؤلف والآثار فيها دليل على ما سبق : أنه يحرم أن يأتي الإنسان الكهان فيصدقهم ، كمن أتى عرافًا فسأله لم تُقْبل له صلاةٌ أربعين يومًا . مجرد ما يسأل العراف ، ومنه الكهان ، لا تقبل له صلاة أربعين يومًا ؛ فإن صَدَّقه فقد كفر بما أُنزل على محمد ﷺ .

أما إذا أتى الكاهن ليبين كذبه وزيفه ؛ فهذا لا بأس به ، بل قد يكون أمرًا محمودًا ، كما فعل النبي ﷺ مع ابن صياد ، رجل كاهن أو ساحر ، كلمه النبي ﷺ فقال له : « ماذا خبأت لك » ؟ - يعني ما الذي أضمرت في نفسي ؟ قال : الدخ . وعجز أن يكمل الكلمة ، لأن الرسول ﷺ أضمر في نفسه الدخان . ولكنه عجز أن يدركها قال : الدخ . قال له النبي ﷺ : « اخسأ فلن تعدوا قدرك » [3] .

وأما ما يتعلق بذلك .. أي بالتنجيم والكهانة ، فمنه التطير ؛ استعمال الطيور ، وكانوا في الجاهلية يستعملون الطيور ، يطيرونه من الأرض إن اتجه للأمام مضى في سفره ، وإن طار ثم رجع رجع من سفره ، وإن طار فذهب يمينًا تيمن في سفره وقال : هذا سفر طيب وخير ، وإن ذهب يسارًا ، مضى في سفره لكن يعتقد أن السفر شاقًّا . لماذا ؟ لأن الطير ذهب إلى الشمال والشمال غير مرغوبة - هذه عادتهم والعياذ باللَّه ، الطيور لا تغني شيئًا ، هذا كله أبطله النبي ﷺ لئلا يتعلق الإنسان بأحدٍ سوى اللَّه ، وأمر الإنسان إذا هَمَّ بأمر ، ولم يتبين له أن يستخير ، يصلي ركعتين من غير الفريضة ، ويقول الدعاء المعروف للاستخارة : « اللَّهم إني استخيرك بعلمك ، واستقدرك بقدرتك ، وأسألك من فضلك العظيم ، اللَّهم إن كنت تعلم أن هذا الأمر - ويسميه - خير لي في ديني ودنياي وعاقبة أمري - أو قال :

---

(١) أخرجه أبو داود في الطب (٣٩٠٥) ، وأحمد في مسنده (٣١١/١) ، والبيهقي في السنن (١٣٨/٨) . قوله « اقتبس علمًا » أي استفاده . قوله « شعبة » أي : قطعة .

(٢) أخرجه مسلم في المساجد ومواضع الصلاة (٥٣٧) ، قوله « بجاهلية » قال العلماء : الجاهلية ما قبل ورود الشرع ، سموا جاهلية ؛ لكثرة جهالاتهم وفحشهم . قوله « يخطون » أي : يضربون الرمل لادعاء معرفة الغيب .

(٣) انظر في ذلك مسلم في الفتن (٨٥ ، ٨٦) ، وأحمد في مسنده (٣٨٠/١) .

« عاجل أمري وآجله - فاقدره لي ويسره لي ، وإن كنت تعلم أنه شر لي في ديني ودنياي وعاقبة أمري أو قال عاجل أمري وآجله - فاصرفه عني واصرفني عنه ، واقدر لي الخير حيث كان ثم ارضني به »[1] .

حينئذ إذا قدر الله له شيئًا بعد هذه الاستخارة فهو خير له ، يمضي ويتوكل على الله ، وإن صرف الله همته عنه ، فهذا يعني بأنه ليس بخير له .

وأما الاستقسام بالأزلام ، والطير ، وما أشبه ذلك ، فكله لا خير فيه .

* * *

١٦٧٣ - وَعَنْ أَبِي مَسْعُودٍ البَدريِّ ﷺ أَنَّ رَسُولَ اللَّه ﷺ « نَهَى عَنْ ثَمَنِ الكَلْبِ ، وَمَهْرِ البَغِيِّ ، وَحُلْوَانِ الكَاهِنِ »[2] متفقٌ عليه .

هذا الحديث آخر حديث في هذا الباب ، وهو « أن النبي ﷺ نهى عن ثمن الكلب ، ومهر البغي ، وحلوان الكاهن » .

أما الكلب : فمعروف واقتناؤه حرام ، لا يجوز للإنسان أن يقتني الكلب ، ويجعله عنده في بيته ، سواء بيت الطين ، أو المسلح ، أو الشعر ، إلا في ثلاث حالات :

١ - كلب الحرث - يعني الزرع .

٢ - وكلب الماشية - يعني إنسان عنده غنم أو إبل أو بقر - يتخذ الكلب ليحرسها .

٣ - وكلب الصيد - يصيد عليه الإنسان ؛ لأن الكلب إذا تعلم وصار شيئًا ؛ فإنه حلال ، فلو كان عند الإنسان كلب معلم ، وأرسله على أرنب مثلًا ، ثم صادها وقتلها فهي حلال . لأن الله تبارك وتعالى قال : ﴿ وَمَا عَلَّمْتُم مِّنَ ٱلْجَوَارِحِ مُكَلِّبِينَ تُعَلِّمُونَهُنَّ مِمَّا عَلَّمَكُمُ ٱللَّهُ فَكُلُوا۟ مِمَّآ أَمْسَكْنَ عَلَيْكُمْ وَٱذْكُرُوا۟ ٱسْمَ ٱللَّهِ عَلَيْهِ وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ إِنَّ ٱللَّهَ سَرِيعُ ٱلْحِسَابِ ﴾ [المائدة : ٤] .

فهذه الثلاثة : كلب الحرث ، والماشية ، والصيد ، يجوز للإنسان أن يقتنيها ، وما عدا ذلك فاقتناؤه حرام[3] ، والكلب أخبث الحيوانات في النجاسة ، لأن نجاسته مغلظة ، إذا شرب من الإناء يجب أن يغسل الإناء سبع مرات ، واحدة منها بالتراب[4] ، والأفضل أن يكون التراب مع الأولى ،

---

(١) سبق تخريجه .

(٢) أخرجه البخاري في الإجارة (٢٢٨٢) ، وأبو داود في السنن (١٥٤٣) ، والترمذي في السنن (٤٨٠) ، وابن ماجه في السنن (١٣٨٣) .

(٣) وقد اشترط الفقهاء في هذا شروطًا فقالوا : إذا لم يكن الكلب أسود وقد علمه مسلم فيُرسَل إذا أرسل ، وينزجر إذا انزجر ، ويجيب إذا دُعيَ ، ولا يأكل من صيده الذي صاده . فإذا انخرم واحد من هاتيك الشروط فقد اختلفت كلمة العلماء إذ ذاك (انظر في ذلك المغني ٤٤٧/٨ ، وبداية المجتهد ٣٩١/١ ، والمجموع ٩٥/٩ ، والمحلى ٤٧٧/٧ ، وفقه الكتاب والسنة ١٨٩٦/٣ - ١٩٠٠) .

(٤) ودليل ذلك ما أخرجه مسلم في الطهارة (٩٣) ، وأبو داود في الطهارة (٧٣) ، والنسائي في سننه (٥٤/١) والدارمي في السنن (١٨٨/١) .

فهو الأحسن والأَولى فإذا كان عند الإنسان كلب ، ولو كان كلب صيد ، أو ماشية ، أو زرع ؛ فإنه يحرم عليه بيعه ، وثمنه عليه حرام .

وإذا انتهى منه يعطيه أحدًا يحتاج له ، ولا يحل له أن يبيعه ؛ لأن النبي ﷺ نهى عن ثمن الكلب .

الثاني : حلوان الكاهن : الكاهن هو الذي يخبر عن المغيبات في المستقبل فيقول : سيحصل كذا ، سيكون كذا ، سواء كان عامًّا أو خاصًّا ، كأن يقول لشخص معين : سيصيبك كذا وكذا في يوم كذا وكذا - والكهان كانوا في الجاهلية يأتي إليهم الناس ، فيأخذون منهم أجرًا كثيرًا ، فنهى النبي ﷺ عن حلوان الكاهن ؛ لأن الكهانة حرام ، وماكان حرامًا ، فالتعويض عليه حرام .

الثالث : مهر البغي : يعني أجرة الزانية - والعياذ باللّٰه - تكون امرأة تزني ، فيأتي إليها الأنجاس من بني آدم فيستأجرونها لمدة يوم أو يومين أو ثلاثة أو أكثر أو أقل ، ويعطونها عن ذلك عوضًا ، هذا أيضًا نهى عنه الرسول ﷺ ؛ لأن هذا العوض يكون في مقابلة حرام ، وإذا حرم اللّٰه شيئًا ، حرم ثمنه ، وحرم أجرته ، فإذا قال قائل : لو أن الكاهن قد تاب إلى اللّٰه وقد كسب مالًا من الناس ، هل يرده عليهم ؟ نقول : لا ، لا يرده عليهم ؛ لأنهم قد أخذوا عوضًا ، فلا يجمع لهم بين العوض والمعوض ، ولكن يتصدق به ، تخلصًا منه ، أو يجعله في بيت المال ، إن كان هناك بيت مال .

وكذلك يقال فيمن باع كلبًا سواء كان كلب صيد أو حرث أو ماشية وأخذ ثمنه ثم هداه اللّٰه وتاب ، نقول : لا ترد هذا الثمن إلى الذي أخذ الكلب ، فتجمع له بين العوض والمعوض ، ولكن تصدق به تخلصًا منه . أو اجعله في بيت المال . وكذلك يقال في مهر البغي ، إذا تابت إلى اللّٰه ورجعت هل ترد ما أخذت من الزاني عليه أم لا ؟ لا ترده عليه ، بل تجعله في بيت المال ، أو تصدق به أو تنفقه في أي سبيل من سبل الخير .

* * *

٣٠٤ - باب النهي عن التطير

فيه الأحاديثُ السابقة في الباب قَبْلَه .

١٦٧٤ - عَنْ أَنَس ﷺ قالَ : قَالَ رَسُولُ اللّٰهِ ﷺ : « لا عَدْوَى ، وَلا طِيَرَةَ ، وَيُعْجِبُني الفَأْلُ » قَالُوا : وَمَا الفأْلُ ؟ قالَ : « كَلِمَةٌ طَيِّبَة » [1] متفقٌ عليه .

١٦٧٥ - وَعَنِ ابْنِ عُمَرَ ﷺ قالَ : قالَ رَسُولُ اللّٰهِ ﷺ : « لا عَدْوَى ، وَلا طِيَرَةَ ، وَإِنْ كَانَ الشُّؤْمُ في شَيءٍ ؛ فَفي الدَّارِ ، وَالمرْأَةِ ، والفَرَسِ » [2] متفقٌ عليه .

١٦٧٦ - وَعَنْ بُرَيدَةَ ﷺ أَنَّ النَّبيَّ ﷺ كَانَ لا يَتَطَيَّرُ [3] . رَوَاهُ أبو داود بإسنادٍ صحيحٍ .

---

(١) أخرجه البخاري في الطب (٥٧٥٦)، ومسلم في السلام (١١٢)، وأحمد في مسنده (١٥٤/٤).

(٢) أخرجه البخاري في الطب (٥٧٥٣)، ومسلم في السلام (١١٦).

(٣) أخرجه أبو داود في الطب (٣٩٢٠)، وأحمد في مسنده (٣٤٧/٥)، والبيهقي في السنن (١٤٠/٨).

١٦٧٧ - وَعَنْ عُرْوَةَ بْنِ عَامِرٍ ﷺ قَالَ : ذُكِرَتِ الطِّيَرَةُ عِنْدَ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ فَقَالَ : « أَحْسَنُهَا الفَأْلُ ، وَلا تَرُدُّ مُسْلِمًا ، فإذا رَأَى أحَدُكُم مَا يَكْرَهُ ، فَلْيَقُل : اللَّهُمَّ لا يَأْتِي بالحَسَنَاتِ إلا أَنْتَ ، وَلا يَدْفَعُ السَّيِّئَاتِ إلا أنْتَ ، وَلا حَولَ وَلا قُوةَ إلا بكَ » (١) حَدِيثٌ صَحِيحٌ رَوَاهُ أبو دَاوُد بإسنادٍ صَحيحٍ .

الشرح

ذكر المؤلف - رحمه اللَّه تعالى - التطير : والتطير هو التشاؤم بمرئي أو مسموع ، أو زمان أو مكان . هذا هو التطير : أن يتشاءم الإنسان في الشيء ، وإنما سُمِّيَ تطيرًا ، لأن العرب في الجاهلية يتشاءمون بالطيور فغلب الاسم على كل التشاؤم . فمن العرب من يتشاءم بالطيور ، إذا زجر الطير أو أثاره حتى طار . إن طار يسارًا تشاءم ، وإن رجع إليه ألغى ما يريد الإقدام عليه ، وإن طار أمامه عزم على تنفيذ ما أراد . وإن طار على يمينه قال : هذا عمل ميمون مبارك ، فصاروا يتشاءمون بالطيور . كذلك أيضًا الطيور في الجو ربما يتشاءمون بها ، الغراب يُتشاءم به ، والبومة يتشاءمون بها ، وبعض الطيور .

ومن العرب من يتشاءم بالزمان ، لقد شاع عندهم أن المرأة إذا تزوجت في شوال لم توفق ولا يحبها زوجها ، وهذا باطل ؛ فإن النبي ﷺ عقد على أم المؤمنين عائشة ﷺ في شوال ، ودخل بها في شوال ، فكانت تقول : أيكم أحظى عنده مني (٢) ؛ لأنهم يزعمون أن المرأة إذا تزوجت في هذا الشهر لم توفق في زواجها وهذا أيضًا ما له تفسير . ومنهم من يتشاءم بالسفر في يوم الأربعاء يقولون : إذا سافر الإنسان في يوم أربعاء لابد من حدوث حادث أو خسارة أو بلاء ، وهذا أيضًا لا صحة له ، الأربعاء والخميس والثلاثاء و غير ذلك كلها واحد .

ومنهم من يتشاءم بشهر صفر ، صفر الذي بعد محرم ويقولون : لو عمل فيه الإنسان أي عمل : زواج أو ولد له فيه أو سافر فيه ؛ فإنه لا يوفق وهذا أيضًا باطل ، ولا أثر للشهر في تفاؤل ولا في تشاؤم . ولهذا قال بعض الناس : يقابل البدعة ببدعة ، يسمى صفر : صفر الخير ، وهذا أيضًا لا يجوز ، فصفر مثل محرم مثل ربيع الأول ، ومثل أي من الشهور ، لا فيه تشاؤم ولا تفاؤل ، ولا يجوز أن نداوي البدعة ببدعة ، وهذا كما يفعل بعض الناس في يوم عاشوراء ، يوم عاشوراء تتخذه الرافضة يوم حزن ويلطمون الخدود ، ويشقون الجيوب ، وينتفون الشعور ، وربما يجرحون أنفسهم بالخناجر وغيرها وعندهم أن الذي يموت في هذه الليلة يموت شهيدًا والعياذ باللَّه ، وبعض الناس تقول في هذا اليوم الذي اتخذه الرافضة حزنًا : نحن نتخذه سرورًا نطعم الطعام ونكسوا الأولاد وندخل الفرح في الصدور . هذا أيضًا غلط هذا من البدع ، والبدعة لا ترد بالبدعة ، لا يقتلها إلا السنة ، استمسك بالسنة تمت البدع .

ثم ذكر أحاديث في هذا ومنها أن النبي ﷺ نهي عن التطير وقد ثبت عنه أنه قال : « لا عدوى

---

(١) أخرجه أبو داود في الطب (٣٩١٩) ، والبيهقي في السنن (١٣٩/٨) ، قوله « ولاترد مسلمًا » أي أن شأن المسلم ألا يرجع عما غزم عليه من أجلها ؛ لعلمه أن لا أثر لغير اللَّه تعالى أصلًا .

(٢) انظر الحديث بنصه في مسلم في النكاح (٧٣) ، والدارمي في النكاح (٢٨) ، وأحمد في مسنده (٥٤/٦) .

ولا طيرة ويعجبنى الفأل » . قالوا : وما الفأل ؟ . قال :« الكلمة الطيبة » [١] ؛ فإن الكلمة الطيبة تدخل السرور على النفس وتشرح الصدر .

ومن ذلك : أن النبي ﷺ كان في غزوة الحديبية كانت قريش تراسله ، فأرسلوا إليه في النهاية سهيل بن عمرو ، فلما أقبل ، قال النبي ﷺ : « هذا سهيل بن عمرو وما أراه إلا قد سهل أمره » ، أو كلمة نحوها [٢] . فتفاءل بالاسم ، فالتفاؤل خير ، لأنه يشرح الصدر ، ويفرح القلب ، وينشط اللسان ، ويعزم على الخير ، أما التشاؤم فإنه بخلاف ذلك ، ولكن إذا أصابك شيء من تشاؤم فأعرض عنه ، أعرض عن هذا الحزن ، وقل : اللَّهم لا خيرَ إلا خيرُك ، ولا طيرَ إلا طيرُك ، ولا إله غيرك [٣] . يعنى إن الأمر كله بيدك ولا إله غيرك .

وأما قول الرسول ﷺ : « إن كان الشؤم في شيء ، فإنه في ثلاث : في الدار والمرأة والفرس » . فالمعنى أن هذه الثلاثة هي أكثر ما يكون مرافقة للإنسان . المرأة زوجه ، والدار بيته ، والفرس مركوبه ، وهذه الأشياء الثلاثة أحيانًا يكون فيها شؤم ، أحيانًا تدخل المرأة على الإنسان يتزوجها ولا يجد إلا النكد والتعب منها ومن مشاكلها ، أيضًا ينزل الدار فيكون فيها شؤم يضيق صدره ولا يتسع ويمل منها . أيضًا الفرس ، والفرس الآن ليس مركوبنا ولكن مركوبنا السيارات ، بعض السيارات يكون فيها شؤم ، تكثر حوادثها وخرابها ، ويسأم الإنسان منها ، فإذا أصيب الإنسان بمثل هذا فليستعذ باللَّه من الشيطان الرجيم ويقول : « اللَّهم لا خير إلا خيرك ، ولا طير إلا طيرك ، ولا إله غيرك » [٤] فيزيل اللَّه ما في نفسه من الشؤم . واللَّه الموفق .

* * *

٣٠٥ - باب تحريم تصوير الحيوان في بساط أو حجر أو ثوب أو درهم أو مخدَّة أو دينار أو وسادة وغير ذلك وتحريم اتخاذ الصورة في حائط وسِتْر وعمامة وثوب ونحوها والأمر بإتلاف الصور

١٦٧٨ - عَن ابْنِ عُمَرَ رضي الله عنهما أَنَّ رَسُولَ اللَّه ﷺ قَالَ : « إِنَّ الَّذِينَ يَصْنَعُونَ هذِهِ الصُّوَرَ يُعَذَّبُونَ يَومَ القِيَامَةِ ، يُقَالُ لَهُمْ : أَحْيُوا مَا خَلَقْتُمْ » [٥] متفقٌ عليه .

١٦٧٩ - وَعَنْ عَائِشَةَ رضي الله عنها قَالَتْ : قَدِمَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ مِنْ سَفَرٍ وَقَدْ سَتَرْتُ سَهْوَةً لي بِقِرَام فِيهِ تَمَاثِيلُ ، فَلَمَا رَآهُ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ تَلَوَّنَ وَجْهُهُ ، وقَالَ : « يَا عَائِشَةُ ، أَشَدُّ النَّاسِ عَذَابًا عِندَ اللَّهِ يوم

---

(١) أخرجه البخاري في الطب (٥٧٧٦)، ومسلم في السلام (١١١٢)، وأحمد في مسنده (١٥٤/٢)، وأبو داود في السنن (٣٩١٦).

(٢) انظر الحديث بنصه في البخاري في الشروط (٢٧٣١ ، ٢٧٣٢) ، وأحمد في مسنده (٣٣٠/٤٥) .

(٣ ، ٤) انظر في ذلك ما أخرجه أحمد في مسنده (٢٢٠/٢) .

(٥) أخرجه البخاري في اللباس (٥٩٥١) ، ومسلم في اللباس والزينة (٩٧) ، والبيهقي في السنن (٢٦٨/٧) . قوله « أحيوا ما خلقتم » أي : أحيوا ما صورتم .

الْقِيَامَةِ الَّذِينَ يُضَاهُونَ بخَلْقِ اللَّه » قَالَتْ : فَقَطَعْنَاهُ ، فَجَعَلْنَا مِنْهُ وِسَادَةً أَو وِسَادَتَيـن [١] . متفقٌ عليه .

« القِرَامُ » بكسْرِ القَافِ ، هُوَ السِّتْرُ . « وَالسَّهْوَةُ » بِفَتْحِ السِّينِ المُهْمَلَةِ وَهِيَ : الصُّفَّةُ تَكُونُ بَين يَدَيِ البَيتِ ، وَقِيلَ : هِيَ الطَّاقُ النَّافِذُ في الحَائِطِ .

١٦٨٠ - وَعَن ابْنِ عَبَّاسٍ رضي الله عنهما قَالَ : سَمِعْتُ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ يَقُولُ : « كُلُّ مُصَوِّرٍ في النَّارِ ، يُجْعَلُ لَهُ بِكُلِّ صُورَةٍ صَوَّرهَا نَفْسٌ ، فَيُعَذِّبُهُ في جَهَنَّمَ » قَالَ ابْنُ عَبَّاسٍ : فَإِنْ كُنْتَ لابُدَّ فَاعلًا ، فَاصْنَعِ الشَّجَرَ وَمَا لا رُوحَ فِيهِ [٢] . متفقٌ عليه .

الشرح

ذكر المؤلف - رحمه اللَّه تعالى - في باب ما جاء في المصورين .

يعني من الوعيد الشديد . وذكر رحمه اللَّه تعالى أحاديث ابن عمر وعائشة وابن عباس رضي الله عنهم .

والتصوير ينقسم إلى قسمين : قسم متفق على تحريمه ، وهو أن يصور ما فيه روح على وجه تمثال من خشب أو حجر أو طين أو جبس أو ما أشبه ذلك ، فهذا إذا صوره على صورة حيوان أو إنسان أو أسد أو أرنب أو قرد أو غير ذلك ؛ فهذا حرام بالاتفاق ، وفاعله ملعون على لسان النبي ﷺ ويعذب يوم القيامة فيقال له : أحيي ما خلقت .

وفي حديث ابن عباس قال : كل مصور في النار ، فإن كنت لابد فاعلًا ، فاصنع الشجر وما لا روح فيه .

والقسم الثاني : تصوير ما لا روح فيه مثل : الأشجار والشمس والقمر والنجوم والأنهار والجبال ، وما أشبهها هذه جائزة . لكن ما كان ينمو كالنبات ؛ فمن العلماء من لم يجزه كمجاهد رحمه الله من التابعين المشهورين ، قال : كل ما ينمو فإنه لا يجوز أن يصور ولو كان لا روح له ، لأنه في الحديث الصحيح أن اللَّه قال : « فليخلقوا حبة ، أو ليخلقوا شعيرة ، أو ليخلقوا ذرة » ولكن الذي عليه جمهور العلماء أن الذي لا روح فيه لا بأس أن يصوره سواء كان مما ينمو كالأشجار أو مما لا ينمو كالشمس والبحار والقمر والأنهار وما أشبهها .

القسم الثالث : تصوير ما فيه روح لكن بالتلوين والرسم ؛ فهذا قد اختلف فيه العلماء ، فمنهم من يقول : إنه جائز ؛ لما رواه البخاري من حديث زيد بن خالد - أظن - قال :« إلا رقمًا في ثوب » [٣] فاستثنى الرقم ؛ لأن الرقم لا يماثل ما خلق اللَّه عز وجل إذ أن ما خلق اللَّه عز وجل جسم ملموس ، وأما هذا ؛ فهو

---

(١) أخرجه البخاري في اللباس (٥٩٥٤) ، ومسلم في اللباس والزينة (٩٢) ، قوله « يضاهون بخلق اللَّه » أي : يماثلون ما صوروه بخلق اللَّه .

(٢) أخرجه البخاري في البيوع (٢٢٢٥) ، وأحمد في مسنده (٣٠٨/١) ، ومسلم في اللباس والزينة (٩٩) . قوله « فاصنع » أي : فصور .

(٣) سبق تخريجه .

مجرد رقم وتلوين فيجوز ولو باليد ، ولكن جمهور العلماء على أنه لا يجوز ، وهو الصحيح أنه لا يجوز التصوير لا بالتمثال ولا بالرقم ما دام المصور من الأشياء التي بها الروح (١) ، ولم يحدث في عهد النبي ﷺ ما حدث في زماننا هذا من الصور الفوتوغرافية - وهل تدخل في النهي أولا تدخل ؟ وإذا تأملت النص وجدت أنها لا تدخل ؛ لأن الذي يصور صورة فوتوغرافية لا يصور في الواقع . غاية ما هنالك أنه يلقي هذا الضوء الشديد على جسم أمامه فيلتقط صورتَه في لحظة ، والمصور لابد أن يعاني من التصوير ويخطط العين ، الرأس ، الأنف والأذن وما أشبه ذلك ، فلابد أن يكون منه عمل ، أما هذه الصور فإنها في لحظة تلتقطها وكأنها تنقل التي صورها اللّه لتجعلها في هذا الكارت . وهذا القول هو الراجح .

وعلماء العصر مختلفون في هذا : هل يدخل هذا في اللعن و النهي أم لا ؟ والصحيح أنه لا ؛ لأنه لا علاج من المرء فيه وليس بمصور ، ولو أنه أراد أن يصور لبقي في هذه الصورة مدة ربع ساعة أو أكثر ، لكن هذا يتم في لحظة . ونظيره تمامًا أن الإنسان لو كتب رسالة إلى أخيه ثم جاء هذا المكتوب إليه وأدخلها في آلة التصوير وخرجت صورة الرسالة ، فهل هذا الذي صورها هل هو رسم الكلمات والحروف ؟ لا ، وإنما الصورة لما فيها من الضوء العظيم حسب صناعتها طَبعت هذا ، ولا أحد من الناس يقول : إن هذه الحروف التي انطبعت في هذه الورقة ، ولهذا يصور الإنسان هذا في الظلمة ، ويصوره الأعمى أيضًا ، الأعمى لو علمته صَوَّرَ الكتاب ، فمن تَـأَمَّلَ النص ، وَتَـأَمَّلَ الحكمة من ذلك عرف أن المراد ، من أراد أن يضاهي خلق اللّه ويبدع في تصويره وتخطيطه وكأنه خالق . هذا الذي يشمله النهي واللعن . أما هذا فهو التقاط صورة فقط .

ولكن يبقى النظر في : ما هو الغرض الذي من أجله صورت هذه الصورة ؟! يعنى إذا فهمنا أنها مباحة وأنها لا تكون تصويرًا يبقى أن ننظر فيها كما ننظر في أي مباح من المباحات ، لأي غرض صنعت ؟ أو لأي غرض صورت ؟ لأن المباح يختلف حكمه بحسب ما قُصد به ، ولهذا لو أراد الإنسان أن يسافر في رمضان من أجل أن يفطر قلنا : حرام عليه مع أن السفر في الأصل مباح حلال . ولو أراد الإنسان أن يشتري بندقية ليقتل بها مسلمًا أو يعتدي على مال مسلم . قلنا : هذا البيع حرام . مع أن البيع في الأصل مباح . فينظر إلى هذا التصوير ماذا قصد به ، قد يقصد الإنسان بهذا التصوير قصدًا سيئًا ، يصور امرأة ليتمتع بالنظر إليها وهي ليست زوجته . كل ما مضى زمن أخرجها من محفظته أو ممن يسمونه الألبوم وجعل ينظر إليها ليتلذذ بذلك ، وهذا حرام لا إشكال فيه . يصور أمردًا جميلًا من أجل أن يتمتع بالرؤية إليه زمنًا بعد زمن هذا أيضًا حرام . يصور عظماء من الأمراء أو السلاطين أو العلماء من أجل أن يعظمهم ، ويعلقهم عنده في البيت تعظيمًا لهم في البيت ؛ هذا أيضًا حرام . يصور عُبَّادًا قانتين للّه من أجل أن يجعلهم في بيته تبركًا بهم ؛ هذا أيضًا حرام ولا يجوز . يصور للذكرى هذا أيضًا حرام ولا يجوز ، لأنه إضاعة للوقت وأي فائدة لك أن تذكر هذا المصَور حينًا بعد حين . وأشد من ذلك أن بعض الناس يموت له الميت ، وللميت صورة فيبقيها عنده وهذا لا يجوز ، إذا مات الميت فاحرق صورته لأجل أن لا تذهب

(١) وهذا ما قال به الزهري والنووي (انظر فقه الكتاب والسنة ٥/٣٠١٦ - ٣٠١٩) .

تتذكر هذا الميت كل ما أردت أن تتذكره فيتجدد الحزن وربما تعتقد فيه اعتقادًا باطلًا ، فبمجرد أن يموت تحرق لا فائدة منها ، اللَّهم إلا أن يكون الإنسان يخشى أن يحتاج إليها في إثبات معاشات تقاعد عند الدولة أو ما أشبه ذلك ، فهذا يكون معذورًا أما إذا لم يكن هناك سبب فواجب إحراقها .

وأما إذا قُصد في التصوير الفوتوغرافي إذا قصد به إثبات الشخصية أو إثبات وقائع من الواقع لغرض صحيح فهذا لا بأس به ، وكذلك لو أراد إنسان شهد مشهدًا يحب أن الناس يطلعون عليه استعطافًا واستدرارًا لأموالهم كالنظر مثلًا إلى قوم جياع عراة مجروحين من الأعداء وما أشبه ذلك ليعرضهم على الناس ليستعطفهم عليهم هذا أيضًا غرض صحيح لا بأس منه .

وخلاصة القول : أن التصوير باليد ولو كان بالتلوين والتخطيط حرام على القول الراجح .

وأما التصوير بالآلة الفوتوغرافية : فليس بتصوير أصلًا ، ونحن يجب علينا أن نتأمل أولًا بدلالة النص ، ثم في الحكم الذي يقتضيه النص ، وإذا تأملنا وجدنا أن هذا ليس بتصوير ، ولا يدخل في النهي ، ولا في اللعن ، ولكن يبقى مباحًا ثم يُنظر في الغرض الذي من أجله يصور إن كان غرضًا مباحًا فالتصوير مباح ، وإن كان غرضًا محرمًا فهو محرم . واللَّه الموفق .

* * *

١٦٨١ - وَعَنْهُ قَالَ : سَمِعْتُ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ يَقُولُ : « مَنْ صَوَّرَ صُورَةً في الدُّنْيا ، كُلِّفَ أَنْ يَنْفُخَ فيها الرُّوحَ يَومَ الْقِيامَةِ ، وَلَيسَ بِنَافِخٍ » [1] متفقٌ عليه .

١٦٨٢ - وعَنِ ابْنِ مَسْعُودٍ ﷺ قَالَ : سَمِعْتُ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ يَقُولُ : « إِنَّ أَشَدَّ النَّاسِ عَذابًا يَومَ الْقِيامَةِ الْمُصَوِّرُونَ » [2] متفقٌ عليه .

١٦٨٣ - وَعَنْ أَبي هُرَيرَةَ ﷺ قَالَ : سَمِعْتُ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ يقُولُ : « قَالَ اللَّهُ تَعالى : وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنْ ذَهَبَ يَخْلُقُ كَخَلْقِي ! فَلْيَخْلُقُوا ذَرَّةً ، أَو لِيَخْلُقُوا حَبَّةً ، أَو لِيَخْلُقُوا شَعِيرَةً » [3] متفقٌ عليه .

١٦٨٤ - وَعَنْ أَبي طَلْحَةَ ﷺ أَنَّ رَسُولَ اللَّه ﷺ قَالَ : « لا تَدْخُلُ المَلائِكَةُ بَيتًا فِيهِ كَلْبٌ وَلا صُورَةٌ » [4] متفقٌ عليه .

١٦٨٥ - وعنِ ابْنِ عُمَرَ ﷺ قالَ : وَعَدَ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ جبْريلُ أَنْ يَأْتِيَهُ ، فَرَاثَ عَلَيهِ حَتَّى اشْتَدَّ

(١) أخرجه البخاري في اللباس (٥٩٦٣) ، ومسلم في اللباس والزينة (١٠٠) ، والطبراني في الكبير (٢٠٤/١٢) .

(٢) أخرجه البخاري في اللباس (٥٩٥٠) ، ومسلم في اللباس والزينة (٩٨) ، وأحمد في مسنده (٣٧٥/١) ، والبيهقي في السنن (٢٦٧/٦) .

(٣) أخرجه البخاري في اللباس (٥٩٥٣) ، ومسلم في اللباس والزينة (١٠١) ، وأحمد في مسنده (٣٩١/٢) . قوله «فليخلقوا ذرة » أي : نملة .

(٤) أخرجه البخاري في المغازي (٤٠٠٢) ، ومسلم في اللباس والزينة (٨٣) ، والنسائي في السنن (١٨٥/٧) ، وأحمد في مسنده (٢٨/٧) .

عَلى رَسُولِ اللَّهِ ﷺ ، فَخَرَجَ فَلَقِيَهُ جِبْرِيلُ فَشَكا إِلَيهِ ، فَقَالَ : إِنَّا لا نَدْخُلُ بَيْتًا فِيهِ كَلْبٌ وَلا صُورَةٌ [١] . رواه البخاري . « رَاثَ » : أَبْطَأَ ، وهو بالثاء المثلثةِ .

١٦٨٦ - وَعَنْ عَائِشَةَ رَضِيَ اللهُ عَنهَا قَالَتْ : وَاعَدَ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ جِبْرِيلُ عليه السلام في سَاعَةٍ أَنْ يَأْتِيهُ ، فَجَاءَتْ تِلْكَ السَّاعَةُ وَلم يَأْتِهِ ! قَالَتْ : وَكَانَ بِيَدِهِ عَصًا ، فطَرَحَهَا مِنْ يَدِهِ وَهُوَ يَقُولُ : « مَا يُخْلِفُ اللَّهُ وَعْدَهُ وَلا رُسُلُهُ » ثُمَّ الْتَفَتَ ، فَإِذا جرْوُ كَلْبٍ تحْتَ سَرِيرِهِ فَقَالَ : « مَتَى دَخَلَ هذا الْكَلْبُ ؟ » فَقُلْتُ : وَاللَّهِ مَا دَرَيتُ بِهِ ، فَأَمَرَ بِهِ فأُخْرِجَ ، فَجَاءَهُ جبْرِيلُ عليه السلام : فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ : « وَعَدْتَني ، فَجَلَسْتُ لَكَ وَلَمْ تَأْتِني » فَقَالَ : مَنَعَني الْكَلْبُ الذي كَانَ في بَيْتِكَ ، إِنَّا لا نَدْخُلُ بَيْتًا فِيهِ كَلْبٌ وَلا صُورَةٌ » [٢] رواه مسلم .

١٦٨٧ - وَعَنْ أَبي الهَيَّاجِ حَيَّانَ بْنِ حُصَينٍ قَالَ : قَالَ لي عَلِيُّ بْنُ أَبي طَالِبٍ رضي الله عنه : أَلَا أَبْعَثُكَ عَلى مَا بَعَثَني عَلَيهِ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ ؟ أَنْ لا تَدَعَ صُورَةً إِلَّا طَمَسْتَهَا ، وَلا قَبْرًا مُشْرِفًا إِلَّا سَوَّيْتَهُ [٣] ، رَوَاهُ مُسْلِمٌ .

الشرح

هذه الأحاديث التي ذكرها المؤلف تدل على أن التصوير من كبائر الذنوب ؛ لأن فيها وعيدًا شديدًا باللعنة« لعن اللَّه المصورين » : وهو الطرد والإبعاد عن رحمة اللَّه ، وبأنه يكلف يوم القيامة - أي يُلزم - بأن ينفخ الروح فيما صور وليس بنافخ ، ومعلوم أنه إذا كان ليس بنافخ وهو مستحيل ، فإنه يستحيل أن يرفع عنه العذاب إلا أن يشاء اللَّه .

ومنها : أن المصورين من أظلم الظالمين ، يقول اللَّه تعالى : « ومن أظلم ممن ذهب يخلق كخلقي » يعني لا أحد أظلم منه « فليخلقوا حبة ، أو ليخلقوا ذرة ، أو ليخلقوا شعيرة » يعني إن كانوا صادقين يريدون أن يضاهوا خلق اللَّه فليخلقوا حبة من طعام ، ولتكن من البر ، لو اجتمع أهل الأرض كلهم بل وأهل السماء على أن يخلقوا حبة من حنطة ؛ فإنهم لا يستطيعون ، حتى لو صنعوا من العجين شيئًا على صورة الحبة تمامًا ؛ فإنهم لا يستطيعون أن تكون حبة ، لو أنهم بذروها في الأرض ما نبتت ، لأنها ليست حبة فإذا كان الإنسان لا يستطيع أن يخلق الحبة أو الشعيرة أو الذرة وهو ما يضرب به المثل في القِلة ، فما فوقها من باب أعظم وأولى .

وهذا دليل على أن هذا التصوير محرم ، أما اتخاذ الصور وإدخالها البيوت فهو أيضًا محرم ؛ لأن

---

(١) أخرجه البخاري في اللباس (٥٩٦٠) ، وأحمد في مسنده (١٤٨/١) بنحوه ، قوله « اشتد عليه » أي : اهتم لتأخره .

(٢) أخرجه مسلم في اللباس والزينة (٨١) ، قوله « فطرحها » أي ألقاها . قوله « جرو » هو ولد الكلب أو السباع . وقيل : الجرو : الصغير من كل شيء .

(٣) أخرجه مسلم في الجنائز (٩٣) ، والحاكم في المستدرك (٣٦٩/١) ، قوله « إلا طمستها » أي أزلت معالمها . قوله « ولاقبرًا مشرفًا إلا سويته » أي : ولا قبرًا مرتفعًا عن الأرض إلا سويته بالأرض .

الملائكة لا تدخل بيتًا فيه صورة ولا كلب ، والملائكة - عليهم الصلاة والسلام - لا يدخلون البيت الذي فيه صورة ولا كلب . وما ظنك ببيتٍ لا تدخله الملائكة ، إنه بيت سوء . فإذا كان في البيت صورة أو به كلب فإن الملائكة لا تدخله .

لكن أُستثنيَ من الصور ما دعت الضرورة إليه مثل الصورة في الدرهم في الدينار ، مثل ما يوجد الآن في دراهمنا ، يوجد بها صور الملوك وهذا يخاطب به من وضَع هذه الصورة .

أما عامة الناس فلا يخاطبون ، ماذا يصنعون ؟ يلقون دراهمهم ونفقاتهم ؟ . ﴿ لَا يُكَلِّفُ ٱللَّهُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا ﴾ . ولكن الملائكة لا تمتنع من دخول البيت الذي به الدراهم ولو كان فيه صورة . وكان في الأول النقود فيها صورة أعظم من الصورة الموجودة الآن ؛ لأن الصورة الموجودة الآن ما هي إلا تلوين ، وقد عرفتم فيما سبق أن العلماء مختلفون في صورة التلوين هل هي تدخل في الوعيد أم لا ؟ لكن فيما سبق الصورة تمثال بمعنى أنها ملموسة . الريال الفرنسي فيه صورة ملك من ملوك أوربا ، فيه أيضًا صورة طيور ، الجنيه الإفرنجي فيه أيضًا صورة رئيس من رؤساء بريطانيا ، فيه أيضًا صورة فرس ركبه خيال ، تلمس باليد فهي كالمجسمة لكن العلماء - رحمهم اللَّه - لم ينهوا عن ذلك ، لأن هذا أمر ضروري لا يستطيع الناس أن يتخلصوا منه ؛ لأنهم لا يمكن أن يلقوا بدراهمهم في الأرض فهذا ضرورة ومن ذلك أيضًا البطاقة وحاوية النقود كل هذا مما دعت الضرورة إليه ، أو الحاجة الملحة ، و﴿ لَا يُكَلِّفُ ٱللَّهُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا ﴾ [البقرة : ٢٨٦] وما جعل اللَّه علينا في الدين من حرج . هذه أيضًا لا تمنع دخول الملائكة .

الثالث : ما لا يحترم ، أي ما يُمتهن ويداس بالأرجل كالصور التي تكون في الفرش أو المخدة ، فهذه أيضًا لا تمنع دخول الملائكة ؛ لأنها مباحة عند أكثر أهل العلم . ولكن التنزه عنها أولى وأحسن ؛ لأنها فيها خلاف ، بعض الأئمة يقول : إنها داخلة في التحريم ولو امتهنت . وبعضهم يقول : لا ، وهم الأكثر ، فمثلًا لو كان عند الإنسان بطانية فيها صورة أسد وجعلها تحته يفترشُها فلا شيء عليه ، أما إذا تخطاها فلا ؛ لأنه إذا تخطاها ما يوجد فيها امتهان .

الرابع : الصور التي للصبيان ، الصور التي للصبيان يلعبون بها أيضًا مما يُرخص فيه ، ولا تمنع الملائكة من دخول البيت الذي فيه هذه الصور ؛ لأن عائشة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا كان لها صورة تلعب بها في بيت الرسول ﷺ [(١)] ، ولم ينه عن ذلك ، لكن ينبغي أن لا تستعمل الصور البلاستيكية ، لأن الصور البلاستيكية صورة تامة فيها حتى رمش العين حتى إنهم يضعون خرزة تكون عينًا لها تتقلب ، بعضها يخطو خطوات ، بعضها يصوت . هذه يخشى أن تكون داخلة في النهي وأن الملائكة لا تدخل البيت الذي هي فيه . أما الصور الأخيرة التي بدؤوا يستعملونها والحمد للَّه ، فهي صورة كأنها ظل ليس لها وجه ، وليس لها عين ، وليس لها أنف وليس لها فم ، غاية الأمر أنها لها يدان ورجلان ورأس ممدود وليس فيها صورة ، هذه إن شاء اللَّه ليس فيها شيء ولا تمنع الملائكة من دخول البيت التي هي فيه .

---

(١) ما رُوِيَ أن ما كانت تلعب به السيدة عائشة هي عرائس لعب وليس صورًا ، ودليل ذلك ما رواه البخاري في الأدب (٦١٣٠) ، وأبو داود في الأدب (٤٩٣١) .

وتستغني بها الطفلة عن غيرها .

والواجب على من شاهد صورة محرمة أن يطمسها ، لقول علي رضي الله عنه لأبي التياح الأسدي ألا أبعثك على ما بعثني عليه رسول الله ﷺ : « أن لا تضع صورة إلا طمستها ولا قبرًا مشرفًا إلا سويته » القبر المشرف يعنى القبر المتميز عن القبور سواء كان بارتفاعه أو ارتفاع النصائب التي عليه ، يعنى الأحجار التي عليه . ولهذا يجب الحذر مما يفعله بعض الناس الآن ، يصبون ، صبة ، وربما كتبوا عليها آيات من القرآن أو ما أشبه ذلك . هذه لا يجوز إقرارها ، لأنها من القبور المشرفة ومن رآها جزاه الله خيرًا فليحفر لها وينزلها ويجعل الكتابة في الأسفل حتى تندفن بالتراب ، لأن القبور المشرفة هذه ربما يُغالى بها في المستقبل ، بل تكون القبور كلها على وتيرة واحدة ليس فيها شيء يدل على التعظيم ؛ لأن البلاء كل البلاء ، بلاء الشرك من تعظيم القبور - نسأل الله أن يحمينا وإياكم إنه على كل شيء قدير .

أما الجرائد التي فيها الصور : إن كنت اشتريتها من أجل الصور فهي حرام ، أما من أجل الكلام الذي فيها فلا بأس .

* * *

٣٠٦ - باب تحريم اتخاذ الكلب إلا لصيد أو ماشية أو زرع

١٦٨٨ - عَنِ ابْنِ عُمَرَ رضي الله عنهما : قَالَ : سَمِعْتُ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ يَقُولُ : « مِنِ اقْتَنَى كَلْبًا إِلَّا كَلْبَ صَيدٍ أَو مَاشِيَةٍ ؛ فَإِنَّهُ يَنْقُصُ مِنْ أَجْرِهِ كُلَّ يَومٍ قِيرَاطَانِ » [١] متفقٌ عليه .

وفي رِوَايَةٍ : « قِيرَاطٌ » .

١٦٨٩ - وَعَنْ أَبِي هُرَيرَةَ رضي الله عنه قَالَ : قال رَسُولُ اللَّهِ ﷺ : « مَنْ أَمْسَكَ كَلْبًا ، فَإِنَّهُ يَنْقُصُ كُلَّ يَومٍ مِنْ عَمَلِه قِيرَاطٌ إِلَّا كَلْبَ حَرْثٍ أَو مَاشِيَةٍ » متفقٌ عليه .

وفي رواية لمسلم : « مَن اقْتَنَى كَلْبًا لَيسَ بِكَلْب صَيدٍ ، وَلا مَاشِيَةٍ ، وَلا أَرْضٍ ؛ فَإِنَّهُ يَنْقُصُ مِنْ أَجْرِهِ قِيرَاطَانِ كُلَّ يَومٍ » [٢] .

الشرح

ذكر المؤلف رحمه الله تحريم اتخاذ الكلب إلا لحرث أو صيد أو ماشية .

والكلب معلوم ، وهو ذو ألوان متعددة ، لكن يختص الأسود منه بأنه شيطان كما قال النبي ﷺ

---

(١) أخرجه البخاري في الذبائح (٥٤٨٠) ، ومسلم في المساقاة (٥١) ، وأحمد في مسنده (٢/ ٨) والدارمي في السنن (٢/ ٩٠) . قوله « اقتنى » أي : اتخذه لنفسه وليس التجارة فيه .

(٢) أخرجه البخاري في الحرث والمزارعة (٢٣٢٢) ، ومسلم في المساقاة (٥٧) ، والنسائي في السنن (١٨٩/٧) والبيهقي في السنن (٢٥١/١) . قوله « أمسك كلبًا » أي : اقتناه .

حين سئل : ما بال الكلب الأحمر من الأبيض من الأسود ؟ قال :« الكلب الأسود شيطان »[(١)] ، والكلب الأسود إذا مَرَّ بين يدي المصلي قطع صلاته ووجب عليه أن يستأنفها من جديد ، وكذلك إذا مَرَّ بين المصلي وسترته ؛ فإنه يقطع الصلاة ويستأنفها من جديد .

والكلب الأسود لا يحل صيده عند أكثر العلماء حتى لو كان معلمًا وأرسله صاحبه وسمى عليه فإنه لا يحل صيده ، لأنه شيطان[(٢)] . وإذا كان الكفار من بني آدم لا يحل صيدهم ما عدا اليهود والنصارى ، فكذلك هذا الشيطان الكلب لا يصح صيده ، وأما غيره من الكلاب ذوات الألوان المتعددة ؛ فإنها لا تبطل الصلاة ، ويباح صيدها بالشروط المعروفة عند العلماء .

وأما اتخاذ الكلب وكون الإنسان يقتنيه ؛ فإن هذا حرام بل هو من كبائر الذنوب والعياذ بالله ؛ لأن الذي يقتني الكلب إلا ما أُستثنيَ ينقص من أجره كل يوم قيراطان ، وقد قال النبي ﷺ : « من اتبع الجنازة حتى تدفن فله قيراطان » قيل : وما القيراطان ؟ قال : « مثل الجبلين العظيمين أصغرهما مثل أحد »[(٣)] . فالذي يتخذ الكلب بدون ما أُستثنيَ ينقص كل يوم من أجره مثل جبلي أحد ، قيراط ، بل قيراطان ، وهذا يدل على أن اتخاذ الكلاب من كبائر الذنوب ، إلا ما استثني : الصيد والحرث والماشية ؛ فالصيد : هو الكلب المعلم الذي يصيد به الإنسان ؛ فهذا يحل صيده إذا كان معلمًا بحيث يسترسل إذا أُرْسِلَ ، ويقف إذا زُجِرَ ، وإذا أمسك لم يأكل ، وأن يسمي الله عند إرساله . فهذا صيده حلال ، والإنسان يقتنيه لحاجة ومصلحة .

كذلك الحرث : يتخذ الإنسان كلبًا يحمي زرعه لئلا تأكله الماشية فتفسده .

والثالث : الماشية : يتخذ الإنسان كلبًا لماشيته سواء كان من الإبل أو الغنم أو البقر ، لأنه يحميها من الذئاب ويحميها من اللصوص ؛ لأنه إذا رأى من يستنكره نبح فانتبه صاحبه . وكذلك لو فرض أن الإنسان يحتاج إلى حفظ مال كإنسان في مكان ناءٍ وليس حوله رجال أمن فيتخذ الكلب ، فهذا لا بأس به ؛ لأن هذا حماية مال كالحرث ، وما عدا ذلك فإنه حرام .

ومن حكمة الله ﷻ : أن الخبيثات للخبيثين ، والخبيثون للخبيثات يقال : إن الكفار من اليهود والنصارى والشيوعيين في الشرق والغرب كل واحد له كلب - والعياذ بالله - يتخذه معه ، وإذا اشترى اللحم أعطاه اللحم الجيد وأكل هو اللحم الرديء ، وكل يوم ينظفه بالصابون والمنظفات الأخرى مع أنه

---

(١) أخرجه مسلم في الصلاة (٢٦٥) ، والترمذي في الصلاة (٣٣٨) ، وابن ماجه في السنن (٩٥٢) ، وأحمد في مسنده (١٤٩/٥) .

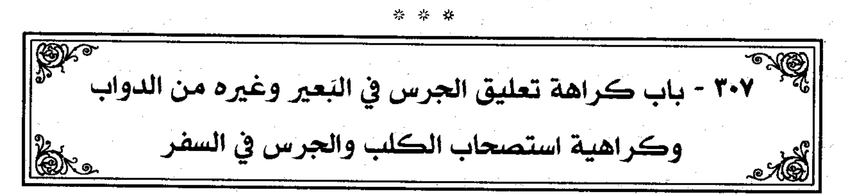
(٢) وهو مذهب أحمد وأهل الظاهر ، وذهب أكثر العلماء إلى إباحة الصيد بالكلب الأسود ، وهو قول الحنفية والشافعية والمالكية ؛ فقد قال كل هؤلاء بجواز الاصطياد بجميع الجوارح المعلمة من السباع والطير كالكلب الأسود وغيره ، واحتجوا بعموم قوله تعالى ﴿ وَمَا عَلَّمْتُم مِّنَ الْجَوَارِحِ مُكَلِّبِينَ ﴾ والجوارح تطلق على السباع والطير (انظر : المجموع ٩٥/٩ ، بداية المجتهد ٣٩١/١ ، المغني ٤٤٧/٨ ، المحلى ٤٧٧/٧) .

(٣) انظر الحديث بنصه في البخاري في الجنائز (١٣٢٣) ، وأبو داود في السنن (٣١٦٨) ، والنسائي في السنن (٥٥/٤) ، وأحمد في مسنده (٢/٢ ، ٣) .

لو نظفه بماء البحار كلها وصابون العالم كله ما طَهُر ، لأنه نجاسته عينية ، والنجاسة العينية لا تطهر إلا بتلفها وزوالها بالكلية . لكن هذه من حكمة اللَّه ، حكمة اللَّه ﷻ أن يألف هؤلاء الخبثاء ما كان خبيثًا . كما أنهم يألفون أيضًا وحي الشيطان ، لأن كفرهم هذا من وحي الشيطان ومن أمر الشيطان فإن الشيطان يأمر بالفحشاء والمنكر ، ويأمر بالكفر والضلال ، فهم عبيد للشيطان وعبيد للأهواء ، وهم أيضًا خبثاء يألفون الخبائث . نسأل اللَّه لنا ولهم الهداية .

المهم : أن اتخاذ الكلب بلا سبب شرعي كبيرة من كبائر الذنوب ثم إن نجاسة الكلب أخبث النجاسات ، أخبث نجاسة في الحيوان نجاسة الكلب ، لأنه إذا ولغ في الإناء لا يطهر الإناء إلا إذا غُسِلَ سبع مرات إحداها بالتراب ، غيره من النجاسات إذا زالت عين النجاسة طهر المحل ؟ أما هو لابد من غسلها سبع مرات إحداها بالتراب ، واللَّه الموفق .

* * *



٣٠٧ - باب كراهة تعليق الجرس في البَعير وغيره من الدواب وكراهية استصحاب الكلب والجرس في السفر

١٦٩٠ - عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ ﷺ قَالَ : قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ : « لا تَصْحَبُ المَلائِكَةُ رُفْقَةً فيهَا كَلْبٌ أو جَرَسٌ » [١] رواه مسلم .

١٦٩١ - وَعَنْهُ أَنَّ النَّبيَّ ﷺ قَالَ : « الجَرَسُ مَزَامِيرُ الشَّيطَانِ » [٢] رواه مسلم .

الشرح

ذكر المؤلف - رحمه اللَّه تعالى - كراهية تعليق الجرس على الدواب وشبهها وكراهة استصحاب الكلب والجرس في السفر .

ثم ذكر حديث أبي هريرة ﷺ ، والجرس معلوم وهو هذا الذي يُعلق على الدواب ويكون له رنة معينة تجلب النشوى [٣] والطرب والتمتع بصوته ، فهذا نهى عنه النبي ﷺ نهى عنه بالتحذير منه حيث أخبر أن الملائكة لا تصحب رفقة فيها جرس ؛ لأنه مع مشى الدواب ، وهملجتها [٤] يكون له شيء من العزف والموسيقى ، ومن المعلوم أن المعازف حرام .

---

(١) أخرجه مسلم في اللباس والزينة (١٠٣) ، وأبو داود في الجهاد (٢٥٥٥) ، والدارمي في السنن (٢/٢٨٨) .
قوله « رفقه » أي : جماعة في سفر .

(٢) أخرجه مسلم في اللباس والزينة (١٠٤) ، وأحمد في مسنده (٢/٣٧٢) ، والحاكم في المستدرك (١/٤٤٥) .
قوله « مزايد الشيطان » أي : صوته .

(٣) النشوة : هي ارتياح الشخص وفرح وسرور يتملكه (لسان العرب ٦/٤٤٣٤) .

(٤) الهملجة : هي حسن سير الدابة في سرعة . (لسان العرب ٦/٤٧٠٢) .

وأما استصحاب الكلب : فقد سبق أن الملائكة لا تدخل بيتًا فيه كلب ، إلا الكلاب المستثناة كلب الحرث ، والماشية ، والصيد ؛ فهذه لا بأس به .

وأما ما يكون في المنبهات من الساعات وشبهها : فلا يدخل في النهي ؛ لأنه لا يعلق على البهائم وإنما هو مؤقت بوقت معين للتنبيه .

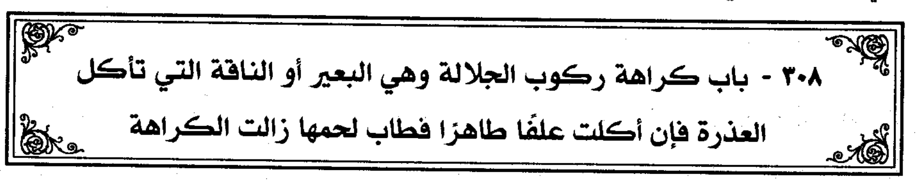
وكذلك ما يكون عند الأبواب يُستأذنُ به ؛ فإن بعض الأبواب يكون عندها جرس للاستئذان هذا أيضًا لا بأس به ، ولا يدخل في النهي ، لأنه ليس معلقًا على بهيمة وشبهها ، ولا يدخل به الطرب الذي يكون مما نهى عنه الرسول ﷺ .

ويوجد في بعض التليفونات عند الانتظار إذا اتصلت عليه ولم يكن حاضرًا قال : انتظر ثم تسمع موسيقى ، هذا هو الحرام ، لأن الموسيقى من آلات العزف وهي محرمة ، لكن إذا كان الإنسان لا يستطيع أن يتصل بمن يريد إلا بهذا فالإثم على من وضعه إلا أنه ينبغي لمن سمعه أن ينصح صاحب التليفون ويقول : افصل هذا الجرس ، واجعله يقول : انتظر ويسكت ، حتى يكلمك المطلوب .

وأما ما يجعل في الانتظار في الهاتف من قراءة القرآن أحيانًا إذا اتصلت سمعت آيات من القرآن ثم يقول : انتظر ثم تسمع آيات من القرآن . فهذا فيه ابتذال لكلام الله ﷻ حيث يجعل كأداة يعلم بها الانتظار - القرآن نزل لما هو أشرف من هذا وأعظم نزل لإصلاح القلوب والأعمال ما نزل لِيُجْعَل وسيلة للانتظار في الهاتف وغيره ، ثم إنه قد يتصل عليك إنسان لا يعظم القرآن ولا يهتم به ويثقل عليه أن يسمع شيئًا من كتاب الله ، ثم قد يأذن عليك نصراني أو كافر أو يهودي فيسمع هذا القرآن فيظنه أغنية ، لأنه لا يعرفه قد لا يكون عربيًا أيضًا ، فلا شك أن هذا ابتذال للقرآن ، وأن من وضع القرآن من أجل الانتظار يُنصح ويقال له : اتقِ الله ، كلام الله أشرف من أن يجعل أداة للانتظار ، أما إذا جعل في هذا الانتظار حكمة مأثورة أو حديثًا مأثورًا عن النبي ﷺ هذا لا بأس به. مثل أن يجعل : « من حسن إسلام المرء تركه ما لا يعنيه » « دع ما يريبك إلى مالا يريبك » « من اتقى الشبهات فقد استبرأ لدينه وعرضه » « اتبع الحسنة السيئة تمحوها » « خالط الناس بخلق حسن » وما أشبه ذلك من الأشياء النافعة أو مثلًا من الحكم : إذا لم يكن إلا الأسنة مركب فما حيلة المضطر إلا ركوبها .

المهم : الحِكَمُ واسعة كثيرة ، أما أن يجعل كلام رب العالمين الذي نزل لإصلاح القلوب والأعمال والأفراد والشعوب يُجعل آلة للانتظار على التليفون ؟! سبحان الله ! القرآن أشرف من أن يكون كذلك ، والله الهادي إلى الصراط المستقيم .

* * *



٣٠٨ - باب كراهة ركوب الجلالة وهي البعير أو الناقة التي تأكل العذرة فإن أكلت علفًا طاهرًا فطاب لحمها زالت الكراهة

١٦٩٢ - عَنِ ابْنِ عُمَرَ رضي الله عنهما قَالَ : نَهَى رَسُولُ اللَّهِ ﷺ عَنِ الجَلَّالَةِ في الإِبِلِ أَنْ يُرْكَبَ عَلَيهَا [1] .

رواه أبو داود بإسناد صحيح .

الشرح

ذكر المؤلف رحمه الله النهي عن ركوب الجلالة .

والجلالة : هي التي تأكل الجِلَّة أي العذرة ، يعنى تأكل نجاسة الآدمي وروث الحمير ، وما أشبه ذلك . والعادة أنها إذا كانت تأكل هذا أن يتلوث شيء من بدنها أو قدمها أو ما أشبه ذلك ، فلهذا نهى النبي ﷺ عن ركوبها ، وكذلك أكل لحمها يُنْهَى عنه ، لو كانت دجاجة مخلاة تأكل العذرة والنجاسات وتتغذى بها ؛ فإنها تكون جلالة ، ويكره أكل لحمها ، إما كراهة تنزيه ، أو كراهة تحريم [2] .

وأما إذا كانت تأكل الطيب والقبيح وأكثر علفها الطيب ؛ فإنها ليست جلالة بل هي مباحة ولا بأس ، ومن هذا ما يفعله بعض أرباب الدواجن يعطونها من الدم المسفوح ، لكنه ليس أكثر غذائها ؛ بل أكثر غذائها الطيب إلا إنهم يعطونها هذا من أجل تقويتها أو تنميتها فلا تحرم بهذا ولا تكره ، لأنه إذا كان الأكثر هو الطيب فالحكم للأكثر . هذه هي الجلالة ، فالنهي فيها عن الركوب للتنزيه .

وأما عن الأكل ؛ فهو إما كراهة تنزيه ، وإما كراهة تحريم ، على خلاف بين العلماء في ذلك ، ولكن بشرط أن يكون أكثر علفها الشيء النجس ، أما إذا كان أقل من الطيب فلا بأس بها . والله الموفق .

* * *

٣٠٩ - باب النَّهي عن البصاق في المسجد والأمر بإزالته منه إذا وجد فيه والأمر بتنزيه المسجد عن الأقذار

١٦٩٣ - عَنْ أَنسٍ رضي الله عنه أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ قَالَ : « البُصَاقُ في المَسْجِدِ خَطِيئَةٌ ، وَكَفَّارَتُهَا

---

(١) أخرجه أبو داود في الجهاد (٢٥٥٨) ، والحاكم في المستدرك (٢٣٢/٢) ، والبيهقي في السنن (٣٣٣/٩) .

(٢) وهو قول الحنفية والشافعية والحنابلة ؛ فقد ذهبوا إلى كراهة لحم الجلالة ؛ لأنه يتولد من النجاسة فيكون نجسًا ، كما أن الجلالة إذا كان الغالب من أكلها النجاسات فإنه يتغير لحمها وينتن فيكره أكله حتى لايتأذى الناس أما المالكية فقد ذهبوا إلى إباحة كل ما تعمل فيه الذكاة من نعم وطير بجميع أنواعه ، واستدلوا بما أخرجه البيهقي في سننه (٣٣٣/٩) عن زهدم قال : رأيت أبا موسى يأكل الدجاج ، فدعاني ، فقلت : إني رأيته يأكل نتنًا ، قال : ادنه فكل ؛ فقد رأيت النبي ﷺ يأكله » (انظر : المغني ٥٩٣/٨ ، وبدائع الصنائع ٣٩/٥ ، والمهذب ٥٠/١ ، وفقه الكتاب والسنة ١٨٥٥/٣ ، بلغة السالك ٣٢٢/١) .

دَفْنُهَا » [(١)] . متفقٌ عليه .

والمُرادُ بِدَفْنِهَا إذا كَانَ المَسْجِدُ تُرابًا أو رَمْلًا وَنحْوَهُ ، فَيُوَارِيهَا تحْتَ تُرَابِهِ . قالَ أبو المحاسِنِ الرُّويَاني مِنْ أَصْحَابِنَا في كِتَابِهِ « البحر » وقيلَ : المُرَادُ بدَفْنِهَا إخْرَاجُهَا مِنَ المَسْجِدِ ، أمَّا إذا كَانَ المَسْجِدُ مُبَلَّطًا أو مجَصَّصًا ، فَدَلَكَهَا عَلَيهِ بمَدَاسِهِ أو بغَيرِهِ كَمَا يَفْعَلُهُ كثيرٌ مِنَ الجهَّال ، فَلَيسَ ذلكَ بدَفْنٍ ، بَلْ زِيَادَةٌ في الخَطِيئَةِ وَتَكْثِيرٌ للقَذَرِ في المَسْجِدِ ، وَعَلى مَنْ فَعَل ذلكَ أنْ يَمْسَحَهُ بَعَدَ ذلكَ بِثَوبِهِ أو بِيَدِهِ أو غيرِهِ أو يَغْسِلَهُ .

١٦٩٤ - وَعَنْ عَائشَةَ رَضِيَ اللهُ عَنْهَا أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ رَأى في جِدَار القِبْلَةِ مُخَاطًا ، أو بُزَاقًا ، أو نُخَامَةً ، فَحَكَّهُ [(٢)] . متفقٌ عليه .

١٦٩٥ - وَعَنْ أَنَسٍ رضي الله عنه أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ قَالَ : « إنَّ هذهِ المَسَاجِدَ لا تَصْلُحُ لِشَيءٍ مِنَ البَولِ وَلا القَذَر ، إنَّمَا هِيَ لِذِكْرِ اللَّهِ تَعَالى ، وَقِرَاءةِ القُرْآنِ » أَو كَمَا قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ [(٣)] . رواه مسلم .

الشرح

هذا الباب عقده المؤلف رحمه الله في كتابه (رياض الصالحين) ليبين به وجوب تنزيه المساجد عن الأذى والقذر والنخامة والبصاق وما أشبه ذلك ، ثم ذكر حديث أنس ، وعائشة رضي الله عنهما .

أما حديث أنس أن النبي ﷺ قال : « البصاق في المسجد خطيئة » - يعني إثمًا - « وكفارتها دفنها » يعني : إذا وقعت من الإنسان فإنه يدفنها ، ففي قوله : ﷺ « البصاق في المسجد خطيئة » دليل على تحريم البصاق في المسجد ، أن يبصق الإنسان نخامة ، أو أن يتنخع في المسجد وما أشبه ذلك . فهو خطيئة بسببين ، السبب الثاني : أنه إيذاء للمصلين ؛ قد يسجد المصلى عليه وهو لا يشعر به ، وقد يتقزز إذا رآه وتشمئز نفسه لذلك فيتأذى بهذا .

والسبب الأول : أن فيه إهانة لبيوت الله عز وجل الذي أمر تعالى أن ترفع ويذكر فيها اسمه ، فلا يجوز للإنسان أن يبصق في المسجد ، لكن لو فرض أنه فعل فكفارتها دفنها إن كانت في الأرض وكفارتها حكها إن كانت على الجدار ونحوه ، لحديث عائشة رضي الله عنها : « أن النبي ﷺ رأى نخامة أو بصاقًا أو بزاقًا في قبة المسجد فحكه » ، فصارت كفارة ذلك إن كانت على الأرض ؛ ففي دفنه ، إن كانت على الجدار ففي حَكِّه حتى تزول .

أما مساجدنا الآن فكما ترون مفروشة كفارة ذلك أن يمسحها بمنديل حتى تزول ، لكننا نقول أصلًا : لا يحل لك أن تتنخم في المسجد ، لكن إن وقع فهذه كفارته .

---

(١) أخرجه البخاري في الصلاة (٤١٥) ، ومسلم في المساجد ومواضع الصلاة (٥٥) ، وأحمد في في مسنده (٣/١٧٣) قوله « البصاق » قال النووي : المخاط من الأنف ، والبصاق والبزاق من الفم ، والنخامة من الرأس .

(٢) أخرجه البخاري في الصلاة (٤٠٧) ، ومسلم في المساجد ومواضع الصلاة (٥٢) .

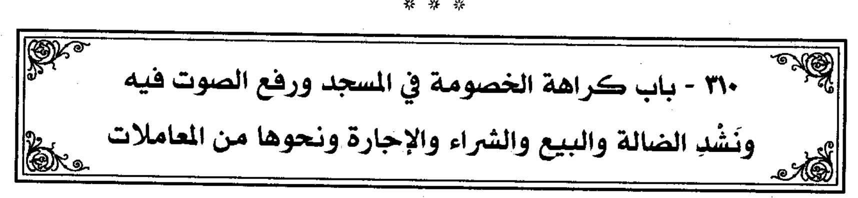
(٣) أخرجه مسلم في الطهارة (١٠٠) ، وأحمد في مسنده (٣/٩١) ، والبيهقي في السنن (٢/٤١٣) .

ثم ذكر حديث عائشة رضي الله عنها أن النبي ﷺ : « رأى البصاق فحكه » - فدل ذلك على أن الإنسان إن رأى أذىً أو قذرًا في المسجد فإنه يزيله - .

أما حديث أنس الثاني فهو في قصة الأعرابي الذي جاء إلى المسجد فبال في جهة منه ، جاهلًا ، لأن الأعراب لا يعرفون - غالبهم - فزجره الناس ، فنهاهم النبي ﷺ عن زجره فلما قضى بوله قال ﷺ للصحابة : أريقوا على بوله سجلًا من ماء ، ثم دعى الأعرابي وقال :« إن هذه المساجد لا يصلح فيها شيء من الأذى والقذر ؛ إنما هي للصلاة والقرآن والذكر » فبين الرسول ﷺ أن هذه المساجد لا يصلح فيها شيء من الأذى والقذر .

فعلى المؤمن أن يحترم بيوت الله فلا يلقِ فيها الأذى ولا القذر ، ولا يرفع الصوت فيها وإنما يكون متأدبًا ، لأن المساجد بيوت الله ، ومأوى الملائكة . والله الموفق .

* * *



٣١٠ - باب كراهة الخصومة في المسجد ورفع الصوت فيه ونَشْدِ الضالة والبيع والشراء والإجارة ونحوها من المعاملات

١٦٩٦ - عَنْ أبي هُرَيرَة رضي الله عنه أنّه سَمِعَ رَسُولَ اللّه ﷺ يَقُولُ : « مَنْ سَمِعَ رَجُلًا يَنْشُدُ ضَالَّةً في المَسْجِدِ فَلْيَقُلْ : لا رَدَّهَا اللّهُ عَلَيكَ ؛ فإنَّ المَسَاجِدَ لَمْ تُبْنَ لهذا » [١] رواه مسلم .

١٦٩٧ - وَعَنْهُ أنَّ رَسُولَ اللّهِ ﷺ قَالَ : « إذا رَأَيتُم مَنْ يَبيعُ أَو يَبْتَاعُ في المَسْجِدِ ، فَقُولُوا : لا أَرْبَحَ اللّهُ تِجارَتَكَ ، وَإذا رَأَيتُم مَنْ يَنْشُدُ ضَالَّةً فَقُولُوا : لا رَدَّهَا اللّهُ عَلَيكَ » [٢] . رواه الترمذي وقال : حديثٌ حسنٌ .

١٦٩٨ - وَعَنْ بُرَيدَةَ رضي الله عنه أنَّ رَجُلًا نَشَدَ في المَسْجِدِ فَقَالَ : مَنْ دَعَا إلى الجَمَلِ الأحْمَرِ ؟ فَقَالَ رَسُولُ اللّهِ ﷺ : « لا وَجَدْتَ ، إنَّمَا بُنِيَتِ المَسَاجِدُ لِمَا بُنِيَتْ لَهُ » [٣] . رواه مسلم .

١٦٩٩ - وَعَنْ عَمرِو بْنِ شُعَيبٍ ، عَنْ أَبِيهِ ، عَنْ جَدِّهِ رضي الله عنه أَنَّ رَسُولَ اللّهِ ﷺ نَهَى عَنِ الشِّرَاءِ وَالبَيعِ في المسْجِدِ ، وَأَنْ تُنْشَدَ فيهِ ضَالَّةٌ ، أو يُنْشَدَ فيهِ شِعْرٌ [٤] . رَوَاهُ أبو داود ، والتِّرمذي وقال : حَديثٌ حَسَنٌ .

١٧٠٠ - وَعَنْ السَّائِبِ بْنِ يَزيد الصَّحابي رضي الله عنه قَالَ : كُنْتُ في المَسْجِدِ فَحَصَبَنِي رَجُلٌ ، فَنَظَرْتُ

---

(١) أخرجه مسلم في المساجد ، ومواضع الصلاة (٧٩) ، وأحمد في مسنده (٣٤٩/٢) ، والبيهقي في السنن (٤٤٧/٢) .
قوله « ينشد ضالة » هي : طلب الشيء الضائع من كل ما يُقتنى من الحيوان وغيره .

(٢) أخرجه الترمذي في البيوع (١٣٢١) ، والحاكم في المستدرك (٥٦/٢) ، والبيهقي في السنن (٣٢٦/١) .

(٣) أخرجه مسلم في المساجد ومواضع الصلاة (٨٠) ، وأحمد في مسنده (٣٦١/٥) ، والبيهقي في السنن (٤٧٧/٢) .

(٤) أخرجه أبو داود في الصلاة (١٠٧٩) ، والترمذي في الصلاة (٣٢٢) بنحوه .

فَإذا عُمَرُ بْنُ الخطَّابِ ﷺ فَقَالَ : اذْهَبْ فَائْتِني بِهذينِ ، فَجِئْتُهُ بِهِمَا ، فَقَالَ : مِنْ أَينَ أَنْتُمَا ؟ فَقَالا : مِنْ أَهْلِ الطَّائِفِ ، فَقَالَ : لَو كُنْتُمَا مِنْ أَهْلِ البَلَدِ ، لأَوجَعْتُكُمَا ؛ تَرْفَعَانِ أَصْواتكُمَا في مَسْجِدِ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ ؟! (١) رواه البخاري .

الشرح

ذكر المؤلف رحمه الله كراهة رفع الأصوات في المساجد وإنشاد الضالة والبيع والشراء ونحو ذلك .

فالمساجد أضافها الله تعالى إلى نفسه ، فقال تعالى : ﴿ وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّن مَّنَعَ مَسَٰجِدَ ٱللَّهِ أَن يُذْكَرَ فِيهَا ٱسْمُهُۥ ﴾ [البقرة : ١١٤] وأضافها النبي ﷺ إلى ربه في قوله ﷺ : « لا تمنعوا إماء الله مساجد الله » (٢) وبيَّنَ الله ﷻ أن هذه المساجد بيوت يذكر فيها اسم الله ﷻ ، أذِنَ الله أن ترفع وأنها محل التسبيح ﴿ يُسَبِّحُ لَهُۥ فِيهَا بِٱلْغُدُوِّ وَٱلْءَاصَالِ ۝ رِجَالٌ لَّا تُلْهِيهِمْ تِجَٰرَةٌ وَلَا بَيْعٌ عَن ذِكْرِ ٱللَّهِ وَإِقَامِ ٱلصَّلَوٰةِ وَإِيتَآءِ ٱلزَّكَوٰةِ ﴾ . [النور : ٣٦] .

والمساجد بما أن الله أضافها إلى نفسه وأضافها النبي ﷺ إلى ربه ، وأذن الله أن ترفع ، لها حرمة ، ولها أحكام واحترام وتعظيم .

ومن ذلك : أنه لا يحل للجُنُبِ أن يمكث فيه إلا بوضوء ، لأن الجنب قال فيه النبي ﷺ : « لا تدخل الملائكة بيتًا فيه جنب » (٣) مادام على جنابته ، فالملائكة لا تدخل بيته ، وكذلك في المسجد إذا كان جنبًا وبقى فيه يؤذي الملائكة ، لأنه يمنعهم من دخولهم ، أو يتأذون إذا دخلوا . ولهذا نقول : من عليه جنابة فلا يدخل المسجد إلا أن يتوضأ واستثنينا الوضوء ، لأن الصحابة ﷺ كانوا ينامون في المسجد فتصيب أحدهم، الجنابة فيقوم ويتوضأ ويرجع فينام ، وهذا في عهد النبي ﷺ وقد أقرهم الرسول ﷺ على ذلك .

ومنها – أي من أحكام المساجد – أن الإنسان إذا دخل المسجد فلا يجلس حتى يصلي ركعتين ، لا يجلس حتى يصلي ركعتين في أي وقت دخل في الصباح في المساء في الليل في النهار عند طلوع الشمس عند غروبها في أي وقت ، لأن النبي ﷺ قال :« إذا دخل أحدكم المسجد فلا يجلس حتى يصلي ركعتين » (٤) حتى إنه كان ﷺ يخطب الناس يوم الجمعة ، فدخل رجل فجلس فقطع النبي ﷺ خطبته وقال له : « هل صليت ؟ قال : لا . قال : « قم فصلِّ ركعتين وتجوز فيهما » (٥) يعني أسرع من أجل أن يستمع إلى الخطبة .

وقد أخذ بعض العلماء من هذا الحديث أن تحية المسجد بالركعتين واجبة ، لأن الرسول ﷺ أمر

---

(١) أخرجه البخاري في الصلاة (٤٧٠) .

(٢) أخرجه البخاري في الجمعة (٩٠٠) ، ومسلم في الصلاة (١٣٦) ، وأبو داود في الصلاة (٥٦٥) ، وأحمد في مسنده (١٦/٢) .

(٣) أخرجه أحمد في مسنده (٨٣/١) ، وأبو داود في السنن (٢٢٧) ، والنسائي (١٤١/١) والبيهقي في السنن (٢٠١/١) .

(٤) أخرجه البخاري في التهجد (١١٦٣) ، ومسلم في صلاة المسافرين (٧٠) ، وأحمد في مسنده (٣١١/٥) .

(٥) أخرجه أحمد في مسنده (٣٠٢/٣) ، والطبراني في الكبير (١٩٤/٧) ، وابن خزيمة في صحيحه (١٤٥٣) .

هذا الرجل أن يصلي ركعتين [١] ، ويشتغل بهما عن سماع الخطبة ، وسماع الخطبة واجب ، ولا يُشتغل عن واجب إلا بما هو أوجب منه .

فلهذا ذهب بعض العلماء إلى أن الإنسان إذا دخل المسجد وهو على وضوء فجلس ولم يصلِّ فهو آثم . ونحن نقول : هو عاصٍ للرسول ﷺ لا شك أنه إذا دخل وجلس وهو على وضوء ؛ فإنه عاصٍ للرسول ﷺ لقوله : « لا يجلس حتى يصلى ركعتين » .

ومن أحكام المساجد : أنه لا يجوز بها البيع والشراء سواء كان قليلًا أو كثيرًا ، لا تبعْ شيئًا بقرش واحد ، فإن ذلك حرام عليك ، والبيع فاسد لا ينتقل فيه الثمن للبائع ، ولا المبيع للمشتري ، ويجب أن يرد كل واحد منهما للآخر ما أخذ منه سواء قل أو كثر حتى لو قال : يا فلان عندك الحاجة الفلانية ، قال : نعم ، قال : أرسل لي منها كذا وكذا . إن قال له : عندك أرز . قال : نعم ، قال : أرسل لنا منه كيسًا . وهو في المسجد فهذا حرام ، لأن هذا بيع وشراء .

فالبيع والشراء في المسجد بأي حال من الأحوال لا يجوز لو كانت معه عشرة ريالات وقال لآخر : معي عشرة أعطني بها ورقة ذات خمس ، يعنى ورقتين ؛ فهذا لا يجوز .

لكن بعض العلماء قال : يجوز إذا كان هناك حاجة مثل أن يقف عليك فقير يشحذ وليس معك إلا عشرة ريالات ، فقلت : هذه عشرة أعطني تسعة ، لكي تتصدق عليه بريالٍ ، بعض العلماء رخص في هذا ، لأن هذا صدقة لا يتوصل إليها إلا بهذا العمل ولا قصد كل منهما البيع والشراء .

فالبيع والشراء في المسجد حرام هذا بالنسبة للبائع والمشتري .

لكن بالنسبة للذي يسمع إنسانًا يبيع ويشتري ماذا عليه ؟ قال النبي ﷺ قولوا له : « لا أربح اللَّه تجارتك » . ادعوا عليه بأن اللَّه يخسره ولا يربحه ، بأن اللَّه لا يربح تجارته . ولكن الرسول ﷺ قال فيه : « فإن المساجد لم تُبْنَ لهذا » . يحتمل أن هذه الكلمة يضيفها القائل إلى قوله ، ويحتمل أنها تعليل للحكم من النبي ﷺ وأنها لا تقال ، لكن إذا كان في قولك إياها تطييب لقلبه فهنا قولها حسن يعنى تقول : لا أربح اللَّه تجارتك فإن المساجد لم تبن لهذا يعنى للبيع والشراء ، ما بنيت للبيع والشراء ، بنيت للصلاة والذكر وقراءة القرآن وطلب العلم وما أشبه هذا ، فإذا كان في قولك : إن المساجد لم تبن لهذا تطييب لقلبه فقلها حتى لا يغضب عليك . أنا إذا دعوت عليك ، فقد دعوت عليك لأمر من الرسول ﷺ وأمر الرسول ﷺ مطاع كأمر اللَّه ﴿ أَطِيعُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ ﴾ فأقول : لا أربح اللَّه تجارتك ؛ لأن المساجد لم تبن لهذا ، حتى يطيب قلبه .

---

(١) وهذا هو قول الشافعية وأهل الظاهر ، أما الحنفية والحنابلة فقالوا : إذا خرج الإمام يوم الجمعة لأجل الخطبة ترك الناس الصلاة حتى يفرغ من خطبته أمّا إذا دخل الجامع والإمام في الخطبة ينبغي أن يصلي ركعتين خفيفتين تحية المسجد ، واستدلوا على ذلك بقوله تعالى : ﴿ فَٱسْتَمِعُوا۟ لَهُۥ وَأَنصِتُوا۟ ﴾ والصلاة تفوت الاستماع والإنصات فلا يجوز ترك الفرض لإقامة السنة وقد أجيب على ذلك بأن الخطبة ليست قرآنًا (انظر : المجموع ٤/٥٥٠ ، بدائع الصنائع ١/ ٢٦٣ ، وشرح فتح القدير ٢/٦٧ ، وفقه الكتاب والسنة ٥/٢٩٠٩ - ٢٩١١) .

كذلك أيضًا إنشاد الضالة . يجيئ رجل ويقول : ضاع مني كذا .. فهذا حرام لا يجوز ، حتى وإن غلب على أمرك أنه سرق في المسجد لا تقل هذا ؟ . كيف أتوصل إلى هذا ؟ اجلس عند باب المسجد خارج المسجد وقل : جزاكم اللَّه خيرًا ضاع مني كذا .

ولهذا قال النبي ﷺ : « إذا سمعتم من ينشد ضالة في المسجد ، فقولوا : لا ردها اللَّه عليك » . ندعو عليه بأن اللَّه لا يردها عليه ولا يعثر عليها ، لا ردها اللَّه عليك ، فإن المساجد لم تبن لهذا ، ولما سمع النبي ﷺ رجلًا يقول : من دعى إلى الجمل الفلاني ؟ قال النبي ﷺ : « لا وجدت » لا وجدت بمعنى : لا رده اللَّه عليك ، فدعى عليه الرسول ﷺ أن لا يجد جمله ، لماذا ؟ لأن المساجد لم تبن لهذا ، فإن أراد الإنسان أن ينشد ضالة لصاحبها ؛ يعني ليس ضائعًا منه بل شيئًا وجده في المسجد ، وجد المفاتيح ، قال : من يريد هذه المفاتيح ، فهل هذا نشد ضالة يعني طلبها أو نشد عن صاحبها ؟ بالطبع الثاني ؛ نشد عن صاحبها ، هذا أجازه بعض العلماء وقال : لا بأس به ، لأن هذا إحسان . وبعض العلماء كرهه وقال : حتى هذه الحال تكره ، ولكن إذا كان يريد أن يتم إحسانه ؛ يجلس عند باب المسجد ويقول : من ضاع له المفتاح ، من ضاع له نقود ، من ضاع له كذا وكذا ، فالمهم أن المساجد يا إخواني يجب أن تحترم .

ولما سمع أمير المؤمنين عمر بن الخطاب رجلين يرفعان أصواتهما في مسجد النبي ﷺ بالمدينة دعاهما وقال : « من أين أنتما ؟ » كأنه استغرب ما رآه ، إنهما غريبان ، قالا : من أهل الطائف . قال : « لو كنتما من أهل هذا البلد لأوجعتكما » - يعني أوجعتكما ضربًا ، يعني ضربتكما حتى يُوجِعَكما الضربُ ، ترفعان أصواتكما في مسجد النبي ﷺ ، وهذا إنكار من عمر ، لكن هل قوله : في مسجد النبي - يعنى احترام المسجد نفسه أو جميع المساجد - ؟ الظاهر أن جميع المساجد مثل المسجد النبوي ، لأن هذا الاحترام احترام للمسجد من حيث إنه مسجد .

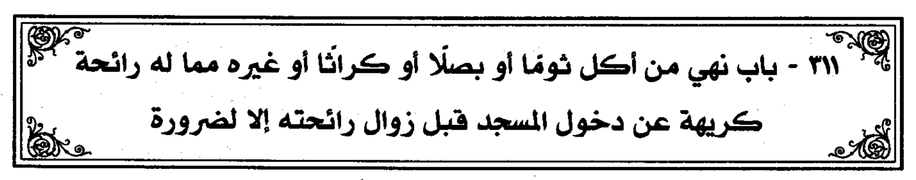
وأما إنشاد الأشعار في المسجد ، الذي وردت الأحاديث النهي عنه ، والمراد بذلك الأشعار اللغو أو التي لا خير فيها ، أما الأشعار التي بها الخير فإنها جائزة ، كان حسان بن ثابت رضي الله عنه ينشد الشعر في مسجد النبي ﷺ والنبي ﷺ يسمع ، ولما سمعه ذاتَ يوم عمر بن الخطاب كأنه أنكر عليه . قال : قد كنت أنشد في هذا المسجد وفيه من هو خير منك [1] . يعنى بذلك رسول اللَّه ﷺ .

فالأشعار إن كان فيها خير ومصلحة فلا بأس بها ، كالأشعار التي تشجع على الطاعة وعلى الجهاد في سبيل اللَّه ، إذا كان هناك جهاد وما أشبه ذلك فهذه تنشد ، وأما أشعار لا خير فيها فلا تنشد في المسجد . واللَّه أعلى وأعلم .

تنبيه : إذا احتلم الإنسان وهو نائم في المسجد كفاه الوضوء لكن يغتسل إذا أراد أن يصلي .

* * *

(١) انظر ذلك في أحمد في مسنده (٥/٢٢٣) .



٣١١ - باب نهي من أكل ثومًا أو بصلًا أو كراثًا أو غيره مما له رائحة كريهة عن دخول المسجد قبل زوال رائحته إلا لضرورة

١٧٠١ - عَنِ ابْنِ عُمَرَ رضي الله عنهما أنَّ النَّبيَّ ﷺ قَالَ : « مَنْ أَكَلَ مِنْ هذِهِ الشَّجَرَةِ - يَعْني الثُّومَ - فَلا يَقْرَبَنَّ مَسْجِدَنَا » [1] متفقٌ عليه .

وفي روايةٍ لمسلم : « مَسَاجِدَنَا » .

١٧٠٢ - وَعَنْ أَنسٍ رضي الله عنه قَالَ : قَالَ النَّبيُّ ﷺ : « مَنْ أَكَلَ مِنْ هذِهِ الشَّجَرَةِ ، فَلا يَقْرَبَنَّا ، وَلا يُصَلِّيَنَّ مَعَنَا » [2] متفقٌ عليه .

١٧٠٣ - وَعَنْ جَابِرٍ رضي الله عنه قَالَ : قَالَ النَّبيُّ ﷺ : « مَنْ أَكَلَ ثُومًا أَو بَصَلًا ؛ فَلْيَعْتَزِلنَا » ، أَو « فَلْيَعْتَزِلْ مَسْجِدَنَا » متفقٌ عليه .

وفي رواية لمُسْلِم : « مَنْ أَكَلَ البَصَلَ ، وَالثُّوم ، وَالكُرَّاث ، فَلا يَقْرَبَنَّ مسجِدنا ؛ فَإِنَّ المَلائِكَةَ تَتَأَذَّى مِمَّا يَتَأَذَّى مِنْهُ بَنُو آدَمَ » [3] .

١٧٠٤ - وَعَنْ عُمَرَ بْنِ الخَطَّابِ رضي الله عنه أَنَّهُ خَطَبَ يَومَ الجُمُعَةِ فَقَالَ في خُطْبَتِهِ : ثُمَّ إِنَّكُمْ أَيُّهَا النَّاسُ تَأْكُلُونَ شَجَرَتَينِ مَا أَرَاهُمَا إِلا خَبِيثَتَينِ : البَصَلَ ، وَالثُّومَ . لَقَدْ رَأَيتُ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ إِذا وَجَدَ رِيحَهُمَا مِنَ الرَّجُلِ في المَسْجِدِ أَمَرَ بِهِ ، فَأُخْرِجَ إِلى البَقِيعِ ، فَمَنْ أَكَلَهُمَا ، فَلْيُمِتْهُمَا طَبْخًا [4] . رواه مسلم .

الشرح

هذا الباب الذي ذكره المؤلف هو من الأحكام التي تتعلق بالمساجد وهو نهي من أكل بصلًا أو ثومًا أو كراثًا أو نحوه فلا يقرب المسجد ولا يدخل المسجد حتى يذهب ريحه .

ثم ذكر أحاديث منها : حديث عمر بن الخطاب رضي الله عنه فقال : إنكم تأكلون من هاتين الشجرتين البصل والثوم ، وما أُراهما أو ما أَراهما إلا خبيثتين في الرائحة .

وأخبر أن النبي ﷺ كان إذا دخل أحد وقد أكل منهما أمر به فأخرج إلى البقيع ، والبقيع قريب من المسجد كما هو معروف ، قريب من المسجد النبوي ؛ ولكن يبعده إلى البقيع تعزيرًا له ، وإلا فيكفي أن يخرجه من باب المسجد ، لكن من أجل التعزير كان يخرجه إلى هذا المكان الذي هو بعيد

---

(١) أخرجه البخاري في الأذان (٨٥٣) ، ومسلم في المساجد ومواضع الصلاة (٦٨) ، وأبو داود في الأطعمة (٣٨٢٥) .

(٢) أخرجه البخاري في الأذان (٨٥٦) ، ومسلم في المساجد ومواضع الصلاة (٧١) ، وأحمد مسنده (٥/٢٦) .
قوله « فليعتزلنا » أي : فليبتعد عن مجلسنا حتى تذهب رائحته عنه .

(٣) أخرجه البخاري في الأذان (٨٥٤) ، ومسلم في المساجد ومواضع الصلاة (٧٣ ، ٧٤) ، وأبو داود في الأطعمة (٣٨٢٢) .

(٤) أخرجه مسلم في المساجد ومواضع الصلاة (٧٨) .

نوعًا ما . ولكن عمر ﷺ قال : من أكلهما - يعني من أراد أن يأكلهما - فليمتهما طبخًا - يعني فليطبخهما - فإنه إذا طبخهما راحت الرائحة وحصلت الفائدة .

ويستفاد من هذا الحديث أن البصل والثوم ليسا حرامًا ، يجوز للإنسان أن يأكلهما ، لكن إذا أكلهما فلا يدخل المسجد ، ولا يصلي مع جماعة ، ولا يحضر درس علم ؛ لأن الملائكة تتأذى منه برائحته الخبيثة .

وكذلك قال العلماء: من كان به رائحة أسنان ، أو بخر في الفم ، أو رائحة كريهة ، أو ما أشبه ذلك ؛ فإنه لا يَقْرب المسجد حتى يزيل هذه الرائحة ، لأن العلة قائمة وهي تأذي الملائكة بالروائح الكريهة .

فإن قال قائل: لو أن الإنسان استعمل شيئًا تذهب به الرائحة ، فهل يجوز أن يدخل ؟ نقول : نعم يجوز إذا أكل ما يذهب الرائحة إذهابًا كاملًا ، ولا صار يخرج من المعدة رائحة ، فلا بأس ، لأن الحكم يدور مع علته وجودًا وعدمًا ، فإن قال إنسان : هل يجوز للإنسان أن يأكلهما لئلا يحضر المسجد ؟ قلنا : حرام لا يجوز للإنسان أن يتوصل إلى إسقاط الفرض بأي سبب كان ، لكن لو أكلهما لأنه يشتهيهما ، فإننا نقول : الأكل مباح ، ولكن لا تقرب المسجد حتى تزول رائحتهما . والله الموفق .

* * *

٣١٢ - باب كراهة الاحتباء يوم الجمعة والإمام يخطب لأنه يجلب النوم فيفوت استماع الخطبة ويخاف انتقاض الوضوء

١٧٠٥ - عَنْ مُعَاذِ بْنِ أَنَسٍ الجُهَنِيِّ ﷺ أَنَّ النَّبِيَّ ﷺ نَهَى عَنِ الحِبْوَةِ يَومَ الجُمُعَةِ وَالإِمَامُ يَخْطُبُ [١] .
رواه أبو داود ، والترمذي وَقَالا : حَدِيثٌ حَسَنٌ.

* * *

٣١٣ - باب نهي من دخل عليه عشر ذي الحجة وأراد أن يضحي عن أخذ شيء من شعره أو أظفاره حتى يضحي

١٧٠٦- عَنْ أُمِّ سَلَمَةَ ﷺ قَالَتْ : قَالَ رَسُولُ اللَّه ﷺ : «مَنْ كَانَ لَهُ ذِبْحٌ يَذْبَحُهُ ، فَإذا أَهَلَّ هِلالُ ذِي الحِجَّة ، فَلا يَأْخُذَنَّ مِنْ شَعْره ، وَلا منْ أَظْفَارِهِ شَيْئًا حَتى يُضَحِّيَ »[٢] رواه مسلم .

---

(١) أخرجه أبو داود في الصلاة (١١١٠)، وأحمد في مسنده (٤٣٩/٣). قوله « الحبوة» هي أن يضم الإنسان رجليه إلي بطنه بثوب - بجمعهما فيه مع ظهره . وقد يكون الاحتباء باليد عوض الثوب .

(٢) أخرجه مسلم في الأضاحي (٤٢)، وأبو داود في الضحايا (٢٧٩١). قوله « ذبح يذبحه» أي حيوان يريد ذبحه .

الشرح

ذكر المؤلف - رحمه الله تعالى - النهي عن الحِبوة يوم الجمعة والإمام يخطب . والحِبوة أن يضم الإنسان فخذيه إلى بطنه ، وساقيه إلى فخذيه ويربط نفسه بسير أو عمامة أو نحوها ، وقد نهي النبي ﷺ عنها والإمام يخطب يوم الجمعة ، لسببين ، الأول : أنه ربما تكون هذه الحبوة سببًا لجلب النوم إليه فينام عن سماع الخطبة . والثاني : أنه ربما لو تحرك لبدت عورته ، لأن غالب لباس الناس فيما سبق الأُزر والأردية ، ولو تحرك أو انقلب لبدت عورته ، وأما إذا أُمن ذلك ؛ فإنه لا بأس بها ؛ لأن النهي إذا كان لعلة معقولة فزالت العلة فإنه يزول النهي .

أما الباب الذي بعده : فهو نهي من أراد أن يضحي أن يأخذ من شعره أو ظفره شيئًا حتى يضحي ، وذلك فيه هذا الحديث : عن أم سلمة رضي الله عنها ، وفيه أن النبي ﷺ قال : « إذا هل هلال ذي الحجة ولأحدكم ذبح ، فلا يأخذ من شعره ولا من ظفره شيئًا » - يعنى حتى يضحي - فإذا دخل العشر من ذي الحجة ، وأنت تريد أن تضحي أضحية عن نفسك أو عن غيرك من مالك ، فلا تأخذ منها شيئًا من شعرك ، لا من الإبط ، ولا من العانة ، ولا من الشارب ، ولا من الرأس حتى تضحي ، وكذلك لا تأخذ شيئًا من الظفر ، ظفر القدم أو ظفر اليد حتى تضحي ﷺ .

وزاد غير مسلم : « ولا من بشرته » - يعني من جلده - لا يأخذ شيئًا حتى يضحي . وذلك احترام للأضحية ، ولأجل أن ينالَ غيرَ المُحْرِمين ما نالَه المُحْرِمُون ، من احترام الشعور ، لأن الإنسان إذا حج أو اعتمر فإنه لا يحلق رأسه حتى يبلغ الهدى محله ، فأراد الله ﷻ أن يجعل لعباده الذين لم يحجوا ويعتمروا نصيبًا من شعائر النسك . والله أعلم .

* * *

٣١٤ - باب النهي عن الحلف بمخلوق كالنبي والكعبة والملائكة والسماء والآباء والحياة والروح والرأس ونعمة السلطان وتُربة فلان والأمانة ، وهي من أشدها نهيًا

١٧٠٧ - عَنِ ابْنِ عُمَرَ رضي الله عنهما عَنِ النبيِّ ﷺ ، قَالَ : « إنَّ اللَّهِ تَعَالى يَنْهَاكُمْ أَنْ تَحْلِفُوا بآبائِكُمْ ، فَمَنْ كَانَ حَالِفًا ؛ فَلْيَحْلِفْ بِاللَّهِ ، أَوْ لِيَصْمُتْ » متفقٌ عليه .

وفي روايةٍ في الصَّحيحِ « فَمَنْ كانَ حَالِفًا ؛ فلا يَحْلِفْ إلا باللَّهِ ، أو لِيَسْكُتْ » [(١)] .

١٧٠٨ - وَعَنْ عَبْدِ الرَّحمنِ بنِ سَمُرَةَ رضي الله عنه قَالَ : قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ : « لا تَحْلِفُوا بِالطَّوَاغِي ، ولا

---

(١) أخرجه البخاري في الأيمان والنذور (٦٦٤٦) ، ومسلم في الإيمان (١) ، وأحمد في مسنده (١/١٨) والنسائي في السنن (٧/٤) . قوله « ينهاكم أن تحلفوا بآبائكم » قال العلماء : الحكمة في النهي عن الحلف بغير الله تعالى : أن الحلف يقتضي تعظيم المحلوف به ، وحقيقة العظيمة مختصة بالله تعالى ، فلا يضاهي بها غيره .

بِآبَائِكُمْ »[١] . رواه مسلم .

« الطَّوَاغي » : جَمْعُ طَاغِيَةٍ ، وَهِيَ الأَصْنَامُ ، وَمِنْهُ الحَدِيثُ : « هٰذِهِ طَاغِيَةُ دَوسٍ » : أَي : صَنَمُهُم وَمَعْبُودُهُم . وَرُوِيَ في غَيرِ مُسْلِمٍ : « بِالطَّوَاغِيتِ » جَمْعُ طَاغُوتٍ ، وهَوَ الشَّيطَانُ وَالصَّنَمُ .

١٧٠٩ - وَعَنْ بُرَيدَةَ ﷺ أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ قَالَ : « مَنْ حلَفَ بِالأَمانَةِ ؛ فليسَ مِنَّا »[٢] . حَدِيثٌ صَحيحٌ ، رَوَاهُ أَبُو داود بإسنادٍ صَحيحٍ .

١٧١٠ - وَعَنْهُ قَالَ : قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ : « مَنْ حَلَفَ ، فَقَالَ : إِنِّي بَرِيءٌ مِن الإِسْلاَمِ ، فَإِنْ كَانَ كَاذِبًا ؛ فَهُوَ كَمَا قَالَ ، وَإِنْ كَانَ صَادِقًا ؛ فَلَنْ يَرْجِعَ إِلى الإِسْلاَمِ سَالِمًا »[٣] . رواه أبو داود .

١٧١١ - وَعَنِ ابْن عمرَ ﷺ أَنَّهُ سَمِعَ رَجُلًا يَقُولُ : لا وَالكَعْبَةِ : قَالَ ابْنُ عُمَرَ : لاَ تَحْلِفْ بِغَيرِ اللَّهِ ؛ فَإِنِّي سَمِعْتُ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ يَقُولُ : « مَنْ حَلَفَ بِغَيرِ اللَّه ، فَقَدْ كَفَرَ أَو أَشْرَكَ »[٤] رواه الترمذي وقالَ : حَدِيثٌ حَسَنٌ .

وَفَسَّرَ بَعْضُ العُلَمَاءِ قَولَهُ : « كَفَرَ أَو أَشْرَكَ » عَلَى التَّغْلِيظِ ، كَمَا رُوِيَ أَنَّ النَّبِيَّ ﷺ قَالَ : « الرِّيَاءُ شِرْكٌ » .

الشرح

ذكر المؤلف رَحِمَهُ اللَّهُ تعالى النهي عن الحلف .

الحلف : معناه تأكيد الشيء بذكر مُعظم ، والإنسان لا يحلف بشيء إلا لأنه عظيم ، في نفسه فكأنه يقول : بقدر عظمة هذا المحلوف به إني صادق . ولهذا كان الحلف باللّه ﷻ ، احلف باللّه ، أو بصفة من صفاته ، أو بأي اسم من أسمائه . قال اللّه تعالى : ﴿ وَلِلَّهِ ٱلْأَسْمَآءُ ٱلْحُسْنَىٰ فَٱدْعُوهُ بِهَا ﴾ [الأعراف : ١٨٠] وقال اللّه تعالى : ﴿ أَيًّا مَّا تَدْعُواْ فَلَهُ ٱلْأَسْمَآءُ ٱلْحُسْنَىٰ ﴾ [الإسراء : ١١٠] فإذا حلفت بالرحمن أو بالرحيم أو بالسميع .... أو أي اسم من أسماء اللّه فهذا جائز .

وحروف القسم ثلاثة : الواو والباء والتاء - الواو مثل واللّه لأفعلن كذا . والباء مثل باللّه لأفعلن كذا . والتاء تاللّه لأفعلن كذا . قال اللّه تعالى : ﴿ وَأَقْسَمُواْ بِٱللَّهِ جَهْدَ أَيْمَٰنِهِمْ ﴾ [الإنعام : ١٠٩] ﴿ يَحْلِفُونَ بِٱللَّهِ لَكُمْ لِيُرْضُوكُمْ ﴾ [التوبة : ٦٢] وقال تعالى : ﴿ تَٱللَّهِ إِن كِدتَّ لَتُرْدِينِ ﴾ [الصافات : ٥٦] وقال تعالى : ﴿ فَلَا وَرَبِّكَ لَا يُؤْمِنُونَ ﴾ [النساء : ٦٥] فهذه حروف القسم .

---

(١) أخرجه مسلم في الإيمان (٦) ، والنسائي في السنن بنحوه (٧/٧) ، وابن ماجه في الكفارات (٢٠٩٥) .

(٢) أخرجه أبو داود في الأيمان والنذور (٣٢٥٣) ، والبيهقي في السنن (٣٠/٥) .

(٣) أخرجه أبو داود في الأيمان والنذور (٣٢٥٨) ، وأحمد في مسنده (٣٥٥/٥) بنحوه .

(٤) أخرجه الترمذي في النذور والأيمان (١٥٣٥) ، وأحمد في مسنده (١٢٥/٢) ، والحاكم في المستدرك (١٨/١) ، والبيهقي في السنن (٢٩/١٠) .

والقسم بغير اللَّه كفر أو شرك ، ثم قد يكون كفرًا أكبر وقد يكون كفرًا أصغر .

وكذلك قد يكون شركًا أكبر وقد يكون شركًا أصغر ، فإذا اعتقد الحالف في شيء أن هذا الشيء له من العظمة مثل ما للَّه ؛ فإن هذا شرك أكبر .

وإن اعتقد أن له عظمة دون عظمة اللَّه ؛ فهو شرك أصغر ، لأنه وسيلة للأكبر .

وكانوا في الجاهلية قد اعتادوا أن يحلفوا بآبائهم ، فنهي النبي ﷺ عنه وقال : « لا تحلفوا بآبائكم » يعنى ولا بإخوانكم ، ولا بأجدادكم ، ولا برؤسائكم ، لكن خص الآباء بالذكر ؛ لأن هذا هو المعتاد عندهم . من كان حالفًا فليحلف باللَّه أو ليسكت . يعني إما ليحلف باللَّه أو لا يحلف . أمَّا أن يحلف بغير اللَّه فلا .

ومن ذلك الحلف بالنبي محمد ﷺ أشرف البشر وسيد البشر . لو قلت : والنبي محمد ، كنت مشركًا أو كافرًا ، الحلف بجبريل ، لو قلت : وجبريل وميكائيل وإسرافيل ومالك خازن النار ، أو غير هؤلاء ، فهذا شرك ، لو قلت : والشمس والقمر والليل والنهار ، تحلف بها ، فهذا شرك . إما أكبر وإما أصغر على حسب ما قسمنا .

وتحلف أيضا بصفة من صفات اللَّه مثل وعزة اللَّه لأفعلن ، وحكمة اللَّه لأفعلن كذا وكذا لا بأس به . أما الحلف بغير اللَّه ، فهو كما قلت كفر أو شرك إما أكبر وإما أصغر .

ثم ذكر المؤلف الحديث أن من قال : هو بريء من دين الإسلام إن كان كذا ، وأن الإنسان لا يحل له أن يقول هذا ، وأنه إن قال هذا ؛ فإن كان كاذبًا فهو كما قال ، يعنى أنه بريء من الإسلام - والعياذ باللَّه - وإن كان صادقًا فلن يرجع إلى الإسلام سالمًا ؛ يعنى لابد أن يأثم أو يكفر ، ومثله قول القائل : هو يهودي إن حصل كذا وكذا ، هو نصراني إن حصل كذا كذا . هذا يقال له : إن ذلك محرم عليك ؛ لأنك إن كنت كاذبًا فأنت كما قلت يهودي أو نصراني ، وإن كنت صادقًا فلن ترجع إلى الإسلام سالمًا .

مثال ذلك : قال رجل : إن فلانًا قَدِم اليوم ، وصل اليوم وكان مسافرًا ، فقال له صاحبه : لا ما وصل . قال الأول : هو يهودي إن كان لم يقدم ، فإن كان كاذبًا وأنه لم يقدم - يعنى كاذبًا - فإنه يكون يهوديًا ؛ لأنه قال : هو يهودي إن كان لم يقدم ، وهو كاذب ؛ فيكون بذلك يهوديًا ، وإن كان صادقًا ، أنه قدم ، فإنه لن يرجع إلى الإسلام سالمًا ، كما قال الرسول ﷺ .

المهم أنك إذا أردت أن تحلف فاحلف باللَّه ، بأي اسم من أسماء اللَّه ، أو بأي صفة من صفات اللَّه .

قد يقول قائل : أليس اللَّه تعالى أقسم بالمخلوقات ، قال : ﴿ وَٱلشَّمْسِ وَضُحَىٰهَا ﴾ [الشمس : ١] وقال : ﴿ وَٱلَّيْلِ إِذَا يَغْشَىٰ ﴾ [الليل : ١] وقال : ﴿ وَٱلَّيْلِ إِذَا يَغْشَىٰهَا ﴾ [الشمس : ٤] ، نقول : إن اللَّه تعالى له أن يحلف بما شاء من خلقه ، فهو إذا حلف بشيء كان ذلك دليلًا على عظمة اللَّه ، لأن عظم المخلوق يدل على

عظم الخالق ، واللَّه تعالى لا يحلف بشيء إلا بشيء عظيم ، وعظم المخلوق من عظم الخالق ، ولله أن يحلف بما شاء من خلقه ، ولا أحد يحجر على اللَّه ، يفعل ما يريد ﷻ . فإن قال قائل : نسمع بعض الناس تقول : أُقسم بآيات اللَّه ، هل هذا حلف بغير اللَّه ؟ وهل هذا كفر أو شرك ؟ نقول : ماذا يريد بآيات اللَّه ؟ إن أراد بآيات اللَّه الشمس والقمر والليل والنهار ، فهذا حلف بغير اللَّه فيكون مشركًا أو كافرًا ، لأن اللَّه يقول : ﴿ وَمِنْ ءَايَـٰتِهِ ٱلَّيْلُ وَٱلنَّهَارُ وَٱلشَّمْسُ وَٱلْقَمَرُ ﴾ [فصلت : ٣٧] فإذا قال : أنا أريد بآيات اللَّه التي حلفت بها هذه الأشياء . قلنا : هذا حلف بغير اللَّه ، فيكون مشركًا أو كافرًا . وإن قال : أريد بآيات اللَّه القرآن ، لأن القرآن آيات اللَّه ﷻ ، فهذا ليس بمشرك ، لماذا ؟ لأن القرآن الكريم كلام اللَّه ، وكلام اللَّه تعالى من صفاته ، فإذا قال : أقسم بآيات اللَّه ، أقصد بذلك القرآن ، قلنا : هذا قسم صحيح وليس فيه شيء . وفي ظني أن العوام إذا قال : أقسم بآيات اللَّه ، في ظني أنهم يريدون القرآن ، فإذا كانوا يريدون القرآن ؛ فليس حرامًا ، ولكن إن كانوا يريدون الآيات التي هي الشمس والقمر والنجوم والليل والنهار ، وما أشبه ذلك ، هذا شرك أو كفر ، واللَّه الموفق .

* * *

٣١٥ - باب تغليظ اليمين الكاذبة عمدًا

١٧١٢ - عَنِ ابْنِ مَسْعُودٍ رضي الله عنه أَنَّ النَّبِيَّ ﷺ قَالَ : « مَنْ حَلَفَ عَلَى مَال امْرِئ مُسْلِم بِغَيرِ حَقِّهِ ، لَقِيَ اللَّهَ وَهُوَ عَلَيهِ غَضْبَانُ » قَالَ : ثُمَّ قرأ عَلَينَا رَسُولُ اللَّهِ ﷺ مِصْدَاقَهُ مِنْ كِتَابِ اللَّهِ ﷻ : ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ يَشْتَرُونَ بِعَهْدِ ٱللَّهِ وَأَيْمَـٰنِهِمْ ثَمَنًا قَلِيلًا ﴾ [آل عمران : ٧٧] إلى آخِرِ الآيَةِ (١) : متفقٌ عليه .

١٧١٣ - وَعَنْ أبي أُمَامَةَ إِيَاسِ بْنِ ثَعْلَبَةَ الحَارِثِيِّ رضي الله عنه أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ قَالَ : « مَن اقْتَطَعَ حَقَّ امْرِئٍ مُسْلِم بيَمِينِهِ ؛ فَقَدْ أَوجَبَ اللَّه لَهُ النَّارَ ، وَحَرَّمَ عَلَيهِ الجَنَّةَ » فقالَ لَهُ رَجُلٌ : وإنْ كَانَ شَيئًا يَسِيرًا يَا رَسُولَ اللَّهِ ؟ قَالَ : « وَإِنْ كَانَ قَضِيبًا مِنْ أَرَاكٍ » (٢) رواهُ مُسْلِمٌ .

١٧١٤ - وَعَنْ عَبْدِ اللَّهِ بْن عَمْرِو بْنِ الْعَاص رضي الله عنهما عَنِ النَّبيِّ ﷺ قَالَ : « الكَبَائِرُ : الإشراكُ بِاللَّهِ ، وَعُقُوقُ الْوَالِدَينِ ، وَقَتْلُ النَّفْسِ ، والْيَمِينُ الغَمُوسُ » رواه البخاري .

وفي رِوَايَةٍ : أَنَّ أعْرَابيًّا جَاءَ إلى النَّبيِّ ﷺ فَقَالَ : يَا رَسُولَ اللَّهِ ، مَا الْكَبَائِر ؟ قَالَ : « الإشْرَاكُ باللَّهِ» قَالَ : ثُمَّ ماذا ؟ قَالَ : « اليَمِينُ الْغَمُوسُ » قُلْتُ : وَمَا الْيَمِينُ الغَمُوسُ ؟ قَالَ : « الَّذِي يَقْتَطِعُ مَالَ امْرِئٍ مُسْلِمٍ » يَعْنِي بِيَمِينٍ هُوَ فِيهَا كَاذِبٌ (٣) .

---

(١) أخرجه البخاري في الأيمان والنذور (٦٦٧٦) بنحوه ، ومسلم في الإيمان (٢٢٢) ، والبيهقي في السنن (٢٥٤/١٠) .

(٢) أخرجه مسلم في الإيمان (١٢٨) ، وأحمد في مسنده (٢٦٠/٥) ، والنسائي في السنن (٢٤٦/٨) . قوله «اقتطع حق امرئ مسلم بيمينه » أي من أخذ حق امرئ بيمين كاذبة هو فيها فاجر .

(٣) أخرجه البخاري في الأيمان والنذور (٦٦٧٥) ، وأحمد في مسنده (٢٠١/٢) ، والنسائي في السنن (٨٨/٧) ، =

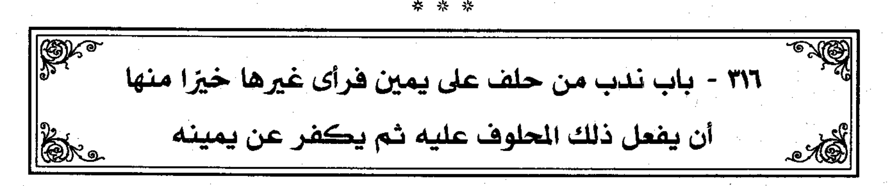
الشرح

ذكر المؤلف - رحمه اللّه تعالى - تغليظ اليمين الكاذبة التي يُقتطع بها مال امرئ مسلم .

وذلك أن الإنسان يجب عليه إذا حلف باللّه أن يكون صادقًا ، سواءٌ حلف على أمر يتعلق به ، أو على أمر يتعلق بغيره ، فإن حلف على يمين وهو فيها كاذب ، فإن كان يقتطع بها مال امرئ مسلم ولو يسيرًا ، فإنه يلقى اللّه يوم القيامة وهو عليه غضبان . مثال هذا : إنسان ادعى عليه شخص قال : أنا أعطيتك ألف ريال ، قال : لا ليس لك عندي شيء ، والمدعي ليس عنده بينة ، فقال القاضي للمنكر : احلف أنه ليس له عندك شيء ، فحلف فقال : واللّه ما له عندي شيء ، القاضي سيحكم بأنه لا حق له عليه ؛ لأن البينة على من أدعى ، واليمين على من أنكر . فهذا الرجل الذي حلف وهو كاذب يلقى اللّه وهو عليه غضبان - والعياذ باللّه - ويُحرم اللّه عليه الجنة ويُدخله النار ، نسأل اللّه العافية ، حتى قالوا : يا رسول اللّه ، وإن كان شيئًا يسيرًا ، قال : « وإن كان قضيبًا من أراك » . قضيب : ما يملأ اليد من علف أو أعواد أو ما أشبه ذلك ؛ يعني حتى ولو كان كذلك ، أو إن القضيب هو العود الواحد من الأراك يعني من المساويك ، حتى لو أن الإنسان حلف على يمين يقتطع بها مال امرئ مسلم ولو عودًا من أراك ؛ فإنه يحصل على هذا الوعيد الشديد ، والعياذ باللّه .

وأما ما يتعلق بنفسه مثل أن يقال له : إنك فعلت كذا ، فقال : واللّه ما فعلت ، وهو كاذب ، فهذا إذا كان كاذبًا ؛ فإنه لا يستحق هذا الوعيد ، لكنه - والعياذ باللّه - آثم ، جمع بين الكذب وبين الحلف باللّه ﷻ كاذبًا ، فتتضاعف عليه العقوبة . فعلى المسلم أن يكون محترمًا لله ﷻ معظمًا له لا يكثر اليمين ، وإذا حلف فليكن صادقًا حتى يكون بارًّا بيمينه ، نسأل اللّه لنا ولكم التوفيق .

* * *



٣١٦ - باب ندب من حلف على يمين فرأى غيرها خيرًا منها أن يفعل ذلك المحلوف عليه ثم يكفر عن يمينه

١٧١٥ - عَنْ عَبْدِ الرَّحْمنِ بْنِ سَمُرَةَ ﷺ قَالَ : قَالَ لي رَسُولُ اللَّهِ ﷺ : « وَإِذَا حَلَفْتَ عَلَى يَمِينٍ ، فَرَأيتَ غَيرَهَا خَيرًا مِنْهَا ؛ فَائْتِ الَّذِي هُوَ خَيرٌ ، وَكَفِّرْ عَنْ يَمِينِكَ » [١] متفقٌ عليه .

١٧١٦ - وَعَنْ أبي هُرَيرَةَ ﷺ أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ قَالَ : « مَنْ حَلَفَ عَلَى يَمِينٍ ، فَرَأَى غَيرَهَا خَيرًا مِنْهَا ؛ فَلْيُكَفِّرْ عَنْ يَمِينِهِ ، وَلْيَفْعَلِ الَّذِي هُوَ خَيرٌ » [٢] رواه مسلم .

= والدارمي في السنن (٢/١٩١) . قوله « اليمين الغموس » هي التي تغمس صاحبها في الإثم ؛ لأنه حلف كاذبًا على علم منه وقصد .

(١) أخرجه البخاري في الأيمان والنذور (٦٦٢٢) ، ومسلم في الأيمان (١٩) .

(٢) أخرجه مسلم في الإيمان (١١) ، وأحمد في مسنده (٢/١١١ ، ٢١٢) ، والبيهقي في السنن (١٠/٥١ ، ٥٢) .

١٧١٧ - وَعَنْ أَبِي مُوسَى ﷺ أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ قَالَ : « إِنِّي وَاللَّهِ إِنْ شَاءَ اللَّهُ لا أَحْلِفُ عَلَى يَمِينٍ ، ثُمَّ أَرَى خَيرًا مِنْهَا ؛ إلا كَفَّرْتُ عَنْ يَمِينِي ، وَأَتَيتُ الَّذِي هُوَ خَيرٌ » (١) متفقٌ عليه .

١٧١٨ - وَعَنْ أَبِي هُرَيرَةَ ﷺ قَالَ : قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ : « لأَنْ يَلَجَّ أَحَدُكُمْ فِي يَمِينِهِ فِي أَهْلِهِ آثَمُ لَهُ عِنْدَ اللَّهِ تَعَالَى مِنْ أَنْ يُعْطِيَ كَفَّارَتَهُ الَّتِي فَرَضَ اللَّهُ عَلَيهِ » (٢) متفقٌ عليه .

قولُهُ : « يَلَجَّ » بِفَتْحِ اللامِ ، وَتَشْدِيدِ الجيمِ : أَي يَتَمَادَى فِيهَا ، وَلَا يُكَفِّرُ ، قولُهُ : « آثَمُ » هو بالثاء المثلثة ، أي : أَكْثَرُ إِثْمًا .

الشرح

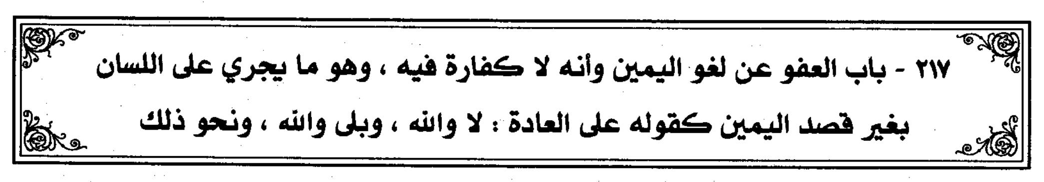
هذا الباب عقده المؤلف رحمه الله في من حلف على يمين فرأى غيرها خيرًا منها أن يكفر عن يمينه ويأتي الذي هو خير .

وذلك أن الإنسان إذا حلف على شيء فالأفضل ألا يحنث في يمينه ، وأن يبقى على ما حلف عليه ، لكن إذا حلف على ترك واجب ؛ وجب عليه أن يحنث ويكفر ، مثل : أن يقول والله لا أصلي اليوم في جماعة ، هذا حرام عليه ، صلاة الجماعة واجبة ، وهذا ربما يقع ، ربما يقول مثلًا أبوه له : يا ولد ، روح صلي ، يقول : والله اليوم ما أصلي مع جماعة عنادًا لكم ، هكذا يقول بعض السفهاء . فإذا حلف قلنا : هذا لا يجوز ، لابد وأن تصلي مع جماعة وتكفر عن يمينك ، وإذا حلف فقال : والله لا أكلم ابن عمي ، لسوء تفاهم بينهما مثلًا ، هذا أيضًا حرام ؛ لأنه قطيعة رحم وهجر لأخيه ، فيقال : كلمه وكفر عن يمينك . وإذا قال عندما أمره أبوه مثلًا أن يصلي نافلة الظهر ، قال : والله ما أصليها عنادًا لك ، نقول : هذا الأفضل أن يصلي ويكفر عن يمينه ، ولكن ليس بواجب ؛ لأن نافلة الظهر ما هي واجبة ؛ فالحاصل أن الإنسان إذا حلف على يمين فرأى غيرها خيرًا منها فليكفر عن يمينه ويأتي الذي هو خير . وهو بالخيار إن شاء فعل ثم كفَّر أو إن شاء كفر ثم فعل .

وذكر المؤلف أحاديث منها ، حديث عبد الرحمن بن سمرة ﷺ أن النبي ﷺ قال : « إذا حلفت على يمين فرأيت غيرها خيرًا منها ، فكفر عن يمينك ، وائت الذي هو خير » . هذا قول النبي ﷺ ، أما فعله فقال : إن شاء الله إني لا أحلف على يمين فأرى غيرها خيرًا منها إلا كفرت عن يميني ، وأتيت الذي هو خير » . فثبت بذلك - أي بالسنة القولية والفعلية - أن الإنسان إذا حلف على شيء ورأى غيره خيرًا منه ؛ فإنه يكفر عن يمينه ، ويأتي الذي هو خير . أما إذا لم يكن كذلك ، فالأفضل أن يبقى على يمينه وألا يحنث ، لقول الله تعالى : ﴿ وَاحْفَظُوا أَيْمَانَكُمْ ﴾ [المائدة : ٨٩] والله الموفق .

* * *

(١) أخرجه البخاري في الأيمان والنذور (٦٦٢٣) ، ومسلم في الأيمان بنحوه (١٠) ، والبيهقي في السنن (١٠/٥٢) .
(٢) أخرجه البخاري في الأيمان والنذور (٦٦٢٤) ، ومسلم في الإيمان (٢٦) ، والبيهقي في السنن (١٠/٣٢) .
قوله « لأن يلج أحدكم في يمينه في أهله » أي لأن يصر أحدكم على المحلوف عليه بسبب يمينه في أهله - أي في قطيعتهم - كالحلف على أن لا يكلمهم ولا يصلهم ، ثم لا ينقضها على أن يكفر بعده ، أكثر إثمًا .



٢١٧ - باب العفو عن لغو اليمين وأنه لا كفارة فيه ، وهو ما يجري على اللسان بغير قصد اليمين كقوله على العادة : لا والله ، وبلى والله ، ونحو ذلك

قال الله تعالى : ﴿ لَا يُؤَاخِذُكُمُ اللَّهُ بِاللَّغْوِ فِي أَيْمَانِكُمْ وَلَكِن يُؤَاخِذُكُم بِمَا عَقَّدتُّمُ الْأَيْمَانَ فَكَفَّارَتُهُ إِطْعَامُ عَشَرَةِ مَسَاكِينَ مِنْ أَوْسَطِ مَا تُطْعِمُونَ أَهْلِيكُمْ أَوْ كِسْوَتُهُمْ أَوْ تَحْرِيرُ رَقَبَةٍ فَمَن لَّمْ يَجِدْ فَصِيَامُ ثَلَاثَةِ أَيَّامٍ ذَلِكَ كَفَّارَةُ أَيْمَانِكُمْ إِذَا حَلَفْتُمْ وَاحْفَظُوا أَيْمَانَكُمْ ﴾ (١) [المائدة : ٨٩] .

١٧١٩ - وَعَنْ عَائِشَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا قَالَت : أُنزِلَتْ هذِهِ الآيَةُ : ﴿ لَا يُؤَاخِذُكُمُ اللَّهُ بِاللَّغْوِ فِي أَيْمَانِكُمْ ﴾ في قَوْلِ الرَّجُلِ : لا وَاللَّهِ ، وَبَلى واللَّهِ (٢) . رواه البخاري .

الشرح

ذكر المؤلف رحمه الله في باب العفو عن لغو اليمين .

ولغو اليمين : هي اليمين التي يقولها الإنسان على لسانه ولا يقصدها بقلبه ، وقد عفا اللّه تعالى عن ذلك ، لأنه يحصل كثيرًا أن يقول الإنسان : لا واللّه ما أنا ذاهب ، لا واللّه ما أنا فاعل ، وما أشبه ذلك ، فلما كثر هذا في ألسن الناس عفا اللّه عنه ، قال اللّه تعالى : ﴿ لَا يُؤَاخِذُكُمُ اللَّهُ بِاللَّغْوِ فِي أَيْمَانِكُمْ ﴾ فسرته أم المؤمنين عائشة رضي الله عنها : بأنه قول الرجل : لا واللّه ، وبلى واللّه في عرض الحديث ، ولا قصد اليمين ، هذا لا يؤاخذ به (٣) ، لا يأثم به ولا يحنث فيه ، ولا تجب فيه الكفارة . أما إذا عقد المسلم اليمين عقدًا جازمًا ، قال : واللّه لا أفعل كذا ، واللّه لأفعلن كذا ، ولم يفعل ، لزمته الكفارة وهي : عتق رقبة ، أو إطعام عشرة مساكين أو كسوتهم ، بدأ اللّه تعالى بالإطعام ، لأنه أهون الثلاثة ، قال : ﴿ فَكَفَّارَتُهُ إِطْعَامُ عَشَرَةِ مَسَاكِينَ مِنْ أَوْسَطِ مَا تُطْعِمُونَ أَهْلِيكُمْ أَوْ كِسْوَتُهُمْ أَوْ تَحْرِيرُ رَقَبَةٍ ﴾ فإن لم يجد فإنه يصوم ثلاثة أيام متتابعة لا يفطر بينها ، وهذا من سعة رحمة اللّه تعالى ، أن هذه الأيمان التي تتكرر على الألسن ، ولا يقصدها الحالف ليس فيها إثم وليس فيها كفارة ، لأن ذلك يقع كثيرًا (٤) .

ولكن مع ذلك يقول اللّه عز وجل : ﴿ وَاحْفَظُوا أَيْمَانَكُمْ ﴾ يعني لا تكثروا من الأيمان ، ولا تتركوا الكفارة إذا حنثتم فيها ، بل احفظوها ؛ لأن اليمين أمرها عظيم ، ولهذا سمى اللّه تعالى مخالفتها حنثًا ، بل سماها النبي صلى الله عليه وسلم حنثًا ؛ لأنه لولا رحمة اللّه لكان الإنسان إذا حلف لزمه أن يُوفي ، ولكن

(١) قوله ﴿ بِاللَّغْوِ ﴾ أي بالحنث والحلف . قوله ﴿ عَقَّدتُّمُ ﴾ أي قصدتم . قوله ﴿ رَقَبَةٍ ﴾ أي تحرير عبد من الرق . قوله ﴿ وَاحْفَظُوا ﴾ أي صونوها ولا تبذلوها لكل أمر . (٢) أخرجه البخاري في الأيمان والنذور (٦٦٦٣) .

(٣) وهذا هو ما ذهبت إليه الشافعية والحنابلة وهو قول عكرمة والشعبي ، أما الحنفية والمالكية فقالوا : إن يمين اللغو هي اليمين الكاذبة خطأ أو غلطًا سواء في الماضي أو في الحال ، وذلك أن يخبر الحالف عن الماضي أو عن الحال ظنًا منه أن ما أخبر به هو كما أخبر وهو في الحقيقة بخلافه (انظر بداية المجتهد ١/٣٤٨ ، بدائع الصنائع ٣/٣ ، والموطأ ص ٢٦٦) .

(٤) راجع ذلك في بداية المجتهد (١/٣٤٨ - ٣٤٩) ، بدائع الصنائع (٣/٣ - ٥) ، شرح فتح القدير (٥/٦٣ - ٦٥) .

من نعمة اللَّه أنه يسر للإنسان أن يخالف ما حلف عليه إذا لم يكن إثمًا واللَّه الموفق .

والإطعام : كيلو للنفر الواحد من الأرز يكفي بزيادة .

* * *

٣١٨ - باب كراهة الحلف في البيع وإن كان صادقًا

١٧٢٠ - وَعَنْ أبي هُرَيرَةَ ﷺ قَالَ : سَمِعْتُ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ يَقُولُ : « الحَلِفُ مَنْفَقَةٌ للسِّلْعَةِ ، مَمْحَقَةٌ للكَسْبِ » [١] متفقٌ عليه .

١٧٢١ - عَنْ أبي قَتَادَةَ ﷺ أَنَّهُ سَمِعَ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ يَقُولُ : « إيَّاكُمْ وَكَثْرَةَ الحَلِفِ في البَيعِ ؛ فَإِنَّهُ يُنَفِّقُ ثُمَّ يَمْحَقُ » [٢] رواه مسلم .

الشرح

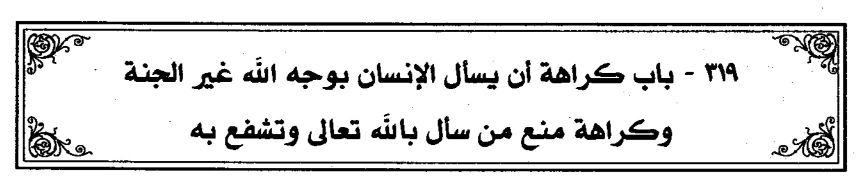
ذكر المؤلف رَحِمَهُ اللَّهُ في كراهة الحلف في البيع وإن كان صادقًا .

يعني معنى هذا أن الإنسان يُكره له أن يحلف عند البيع والشراء ولو كان صادقًا ، فمثلًا يُكره أن يقول : واللَّه لقد اشتريتها بمائة ولو كان صادقًا ، فإن كان كاذبًا ؛ صار ظلمًا على ظلم والعياذ باللَّه ، لو قال : واللَّه لقد اشتريتها بمائة ولم يشترها إلا بثمانين ؛ صار أشد ، لأنه يكون بذلك كاذبًا حانثًا في البيع ، وقد نهى النبي ﷺ عن ذلك ، وأخبر كما في حديث أبي هريرة : أنه منفقة للسلعة ممحقة للكسب ، يعني أنها وإن زادت السلعة بالحلف فإن اللَّه ينزع بركتها ويمحق كسبها ؛ لأن هذا الكسب مبني على معصيةِ الرسول ﷺ ، ومعصية الرسول معصية لله ، وكثير من الناس يقع في هذا الأمر ، تجده مثلًا يقول للزبون : واللَّه إنه طيب ، واللَّه إني اشتريته بكذا وكذا ، سواء كان صادقًا أو كاذبًا ، فهو منهي عنه ، بع واشتر بلا يمين ، إذا أردت أن يبارك اللَّه لك في كسبك . وكذلك حديث أبي قتادة فيه التحذير عن الحلف في البيع : « إياكم والحلف في البيع ، فإنه ينفق ، ويمحق » والحديثان معناهما واحد ، كلاهما يدل على أن الإنسان يُنهى عن الحلف في البيع ، وظاهر الحديث أنه لا فرق بين أن يكثر الحلف أو لا ، لكن لما كان الإنسان البائع والمشتري دائمًا يحلف دائما يبيع ويشتري ، حمله بعض العلماء على الكثرة ، كثرة الحلف عند البيع والشراء ، فالإنسان إذا أراد اللَّه له الرزق أتاه بدون يمين . نسأل اللَّه أن يرزقنا وإياكم الرزق الحلال .

---

(١) أخرجه البخاري في البيوع (٢٠٨٧) ، ومسلم في المساقاة (١٣١) ، وأبو داود في البيوع (٣٣٣٥) ، والنسائي في السنن (٢٤٦/٧) قوله « منفقة للسلعة » أي سبب لرواج السلعة في ظن الحالف . قوله « ممحقة للربح » أي سبب لمحق البركة وذهابها ، إما بتلف يلحقه في ماله ، أو بإنفاقه في غير ما يعود إليه في العاجل ، أو ثوابه في الآجل .

(٢) أخرجه مسلم في المساقاة (١٣٢) ، وأحمد في مسنده (٢٩٧/٥) ، والنسائي في السنن (٢٩٧/٥) ، والبيهقي في السنن (٢٦٥/٥) . قوله « ينفّق » أي يكون سببًا لنفاق المبيع وأخذه بالزيادة لأجل الحلف . قوله « ثم يمحق » أي ثم يذهب ويتلف .



٣١٩ - باب كراهة أن يسأل الإنسان بوجه الله غير الجنة وكراهة منع من سأل بالله تعالى وتشفع به

١٧٢٢ - عَنْ جَابِرٍ رضي الله عنه قَالَ : قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ : « لا يُسْأَلُ بِوَجْهِ اللَّهِ إلا الجَنَّةُ » [١] رواه أبو داود .

١٧٢٣ - وعَنَ ابْنِ عُمَرَ رضي الله عنهما قَالَ : قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ : « مَنِ اسْتَعَاذَ بِاللَّهِ ؛ فَأَعِيذُوهُ ؛ وَمَنْ سَأَلَ باللَّهِ ؛ فَأَعْطُوهُ ، وَمَنْ دَعاكُم ؛ فَأَجِيبُوهُ ، وَمَنْ صَنَعَ إِلَيكُم مَعْرُوفًا ؛ فَكَافِئُوهُ ، فَإِنْ لَمْ تَجِدُوا مَا تُكَافِئُونَهُ ؛ فَادْعُوا لَهُ حَتَّى تَرَوا أَنَّكُمْ قَدْ كَافَأْتُموهُ » [٢] حَدِيثٌ صَحِيحٌ رواه أبو داود ، والنسائي بأسانيدِ الصحيحين .

الشرح

ذكر المؤلف - رحمه اللَّه تعالى - كراهة أن يسأل الإنسان بوجه اللَّه غير الجنة .

وجه اللَّه تعالى وصفه اللَّه تعالى بأنه ذو الجلال والإكرام ، قال تعالى : ﴿ كُلُّ مَنْ عَلَيْهَا فَانٍ ۝ وَيَبْقَىٰ وَجْهُ رَبِّكَ ذُو ٱلْجَلَٰلِ وَٱلْإِكْرَامِ ﴾ [الرحمن: ٢٦، ٢٧] كل من على البسيطة ؛ فإنه فَانٍ زائل لكن يبقى وجه اللَّه عز وجل ﴿ وَيَبْقَىٰ وَجْهُ رَبِّكَ ذُو ٱلْجَلَٰلِ وَٱلْإِكْرَامِ ﴾ ولهذا قال بعض العلماء : ينبغي أن يصل قول ﴿ وَيَبْقَىٰ وَجْهُ رَبِّكَ ﴾ بما قبله حتى يتبين كمال اللَّه عز وجل ، وأنه يستحيل عليه الفناء ، بل هو الباقي الذي لا يزول . فوجه اللَّه تعالى عظيم ، وأعظم ما يسأله المرء الجنة ، قال اللَّه تعالى ﴿ فَمَن زُحْزِحَ عَنِ ٱلنَّارِ وَأُدْخِلَ ٱلْجَنَّةَ فَقَدْ فَازَ ﴾ [آل عمران : ١٨٥] نسأل اللَّه أن يجعلنا وإياكم منهم . هذا الفوز الأعظم الذي لا يدانيه أي فوز . فلما كانت الجنة أعظم مسؤول يعني مسؤول به ، يعني أعظم ما يسأله الإنسان هو الجنة ، صار لا يُسأل بوجه اللَّه إلا الجنة . فلا تسأل بوجه اللَّه شيئًا من أمور الدنيا ، لا تقل : اللَّهم إني أسألك بوجهك أن تعطيني بيتًا أسكنه ، أو سيارة أركبها ، أو ما أشبه ذلك ؛ لأن وجه اللَّه أعظم من أن يسأل به شيء من الدنيا ، الدنيا كلها دنيئة ، كلها فانية ، كلها لا خير فيها إلا ما يقرب إلى اللَّه عز وجل ، وإلا فهي خسارة ، قال تعالى : ﴿ وَٱلْعَصْرِ ۝ إِنَّ ٱلْإِنسَٰنَ لَفِى خُسْرٍ ﴾ [العصر : ١، ٢] العصر يعني الدهر وهو الدنيا ، أقسم بالعصر أن كل إنسان في خسر ، لا يستفيد من عصره إلا من جمع هذه الصفات الأربع ﴿ إِلَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ﴾ واحد ﴿ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ ﴾ اثنين ﴿ وَتَوَاصَوْا۟ بِٱلْحَقِّ ﴾ يعني أوصى بعضهم بعضًا بالحق ، والرابع ﴿ وَتَوَاصَوْا۟ بِٱلصَّبْرِ ﴾ [العصر : ٣] أي بالصبر على الحق والدعوة إليه ، والصبر على أقدار اللَّه وغير ذلك . فالمهم لا تسأل بوجه اللَّه إلا الجنة ، وكذلك ما يقرب إلى

---

(١) أخرجه أبو داود في الزكاة (١٦٧١) .

(٢) أخرجه أبو داود في الزكاة (١٦٧٢) ، والنسائي باختلاف يسير (٥/٨) ، وأحمد في مسنده (٢/٩٩) ، والبيهقي في السنن (٤/١٩٩) ، والحاكم في المستدرك (٢/٦٤) . قوله « من استعاذ » أي سأل العوذ والعصمة من شيء متوسلًا إليكم باللَّه . قوله « فكافئوه » أي أحسنوا إليه بمثل ما فعل أو بأحسن منه .

الجنة ، فلك أن تسأل بوجه اللَّه النجاة من النار ، اللَّهم إني أسألك بوجهك أن تنجني من النار ؛ لأنه إذا نجا الإنسان من النار لابد أن يدخل الجنة . فليس هناك ثلاثة دور ، إنما هما داران فقط ، دار الكفار وهي النار ، أعاذنا اللَّه وإياكم منها ، ودار المؤمنين المتقين وهي الجنة ، فإذا قلت : أسألك بوجهك أن تجيرني من النار ، فلا بأس ؛ لأن اللَّه متى أجارك من النار أدخلك الجنة . وهذا الحديث إسناده ضعيف [١] ولكن معناه صحيح ، لا ينبغي أن تسأل بوجه اللَّه العظيم إلا بشيء عظيم .

أما حديث ابن عمر رضي الله عنهما أن النبي ﷺ قال : « من استعاذ باللَّه ، فأعيذوه » يعني معناه : إذا قال أحد لك : أعوذ باللَّه منك ، فأعذه ، واتركه ، كما فعلت امرأة تزوجها الرسول ﷺ فلما دنا منها قالت : أعوذ باللَّه منك ، جاهلة ، فقال النبي ﷺ : « لقد عذتِ بمعاذ ، الحقي بأهلك » [٢] وتركها لأنها استعاذت باللَّه منه . فإذا استعاذ أحد باللَّه منك فأعذه ، إلا إذا استعاذ عن حق واجب ، فإن اللَّه لا يعيذه ، لو أنه كان مطلوبًا لك ، فسألته حقك ، قلت : أعطني حقي ، فقال : أعوذ باللَّه منك ، فهنا لا تعذه ؛ لأن اللَّه تعالى لا يعيذ عاصيًا . لكن إذا كان الأمر ليس محرمًا ، فاستعاذ باللَّه منك ، فأعذه ، تعظيمًا لله عز وجل .

« ومن سأل باللَّه فأعطه » لو سألك سائل فقال : أسألك باللَّه أن تعطيني كذا وكذا ، أعطه ، إلا إذا سألك شيئًا محرمًا ، فلا تعطه ، مثلًا أن يسألك يقول لك : أسألك باللَّه أن تخبرني ماذا تصنع مع أهلك ؟ مثلًا ، هذا لا يجوز أن تخبره ، بل وجِّهه وانصحه وقل : هذا تَدَخُّلٌ فيما لا يعنيك ، وقد قال النبي ﷺ : « من حسن إسلام المرء تركه ما لا يعنيه » [٣] وكذلك لو سأل محرمًا ولو سألك باللَّه لا تعطه ، لو قال : أسألك باللَّه أن تعطيني كذا وكذا ليشتري به دخانًا ، فلا تعطه ؛ لأنه سألك ليستعين به على شيء محرم ، فالمهم أن من سألك باللَّه فأعطه مالم يكن على شيء محرم . وكذلك مالم يكن عليك ضرر ، فإن كان عليك ضرر فلا تعطه ؛ لأن النبي ﷺ قال : « لا ضرر ولا ضرار » [٤] .

« ومن صنع إليكم معروفًا فكافئوه » يعني إذا صنع إليك أحد معروفًا إما بمعونة في شيء ، أو باستخدامك إياه في شيء من الأشياء ، أو غير ذلك ، فكافئه ، أعطه ما تظن أنه يكافئ معروفه . فإن لم تجد ما تكافئه أو كان ممن لا يَحسُن مكافأته كالملك والوزير والرئيس وما أشبه ذلك ؛ فادعو له ، حتى تعلموا أنكم قد كافأتموه .

---

(١) من أسباب ضعفه ورود سليمان بن قرم في إسناده ، وقد تكلم فيه غير واحد . (انظر عون المعبود ٨٨/٥ ، ٨٩) وانظر في الترجمة له : تهذيب التهذيب (٢١٣/٤) .

(٢) أخرجه ابن ماجه في السنن (٢٠٣٧) ، وأحمد في مسنده (٤٩٨/٣) ، والطبراني في الكبير (٢٦٢/١٩) .

(٣) أخرجه مالك في المَوَطَّأ في حسن الخلق (٣) ، وابن ماجه في الفتن (٣٩٧٦) ، وأحمد في مسنده (٢٠/١) ، والهيثمي في مجمع الزوائد (١٨/٨) .

(٤) أخرجه ابن ماجة في السنن (٢٣٤٠) ، وأحمد في مسنده (٣١٣/١) ، والحاكم في المستدرك (٥٨/٢) ، والبيهقي في السنن (٦٩/٦) .

« ومن دعاكم فأجيبوه » من دعاك إلى بيته إلى وليمة قليلة أو كثيرة فأجبه ، لكن هذا مشروط بما إذا لم يكن عليك ضرر ، فإن كان عليك ضرر فلا تجبه ، أو كان هذا الرجل ممن يُهجر ، فلا تجبه أيضًا أو كان هذا الرجل في ماله حرام ، ورأيت أنه من المصلحة ألا تجيبه ، لعله يقلع عن الحرام ، فلا تجبه . أما في وليمة العرس فقد قال النبي ﷺ : « من لم يُجب الدعوة فقد عصى اللَّه ورسوله » [1] ، إذا دعاك الزوج لوليمة العرس فأجبه ما لم يكن عليك ضرر أو يكن هناك منكر ، فإن كان عليك ضرر فلا يلزمك إجابته ، وإن كان هناك منكر فإن كنت تستطيع أن تغيره ، فأجب وغيِّر ، وإلا فلا تجب . واللَّه الموفق .

* * *

٣٢٠ - باب تحريم قول شاهِنشاه للسلطان وغيره لأن معناه ملك الملوك ، ولا يوصف بذلك غير الله سبحانه وتعالى

١٧٢٤ - عَنْ أَبِي هُرَيرَةَ ؓ عَنِ النبيِّ ﷺ : « إنَّ أَخْنَعَ اسْمٍ عِنْدَ اللَّهِ عَزَّ وَجَلَّ رَجُلٌ تَسَمَّى مَلِكَ الأمْلاكِ » [2] متفقٌ عليه .

قال سُفْيَانُ بن عُيَيْنَةَ : « مَلِكُ الأمْلاكِ » مِثْلُ شَاهِنشَاهِ .

* * *

٣٢١ - باب النَّهي عَنْ مخاطبة الفاسِق والمبتدع ونحوهما بسيِّد ونحوه

١٧٢٥ - عن بُرَيدَةَ ؓ قَالَ : قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ : « لا تَقُولُوا للمُنَافِقِ سَيِّدٌ ، فَإنَّهُ إنْ يَكُ سَيِّدًا ، فَقَدْ أَسْخَطْتُمْ رَبَّكُمْ ﷻ » [3] رواه أبو داود بإسنادٍ صحيحٍ .

* * *

٣٢٢ - باب كراهة سب الحمى

١٧٢٦ - عَنْ جَابر ؓ أنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ دَخَلَ على أُمِّ السَّائبِ - أَوْ أُمِّ المُسَيَّبِ - فَقَالَ : « مَالَكِ يَا أُمَّ السَّائبِ - أو يا أُمَّ المَسيَّب - تُزَفْزِفينَ ؟ » قَالَت : الحُمَّى لَا بَارَكَ اللَّهُ فِيهَا ، فَقَالَ : « لَا

---

(١) أخرجه مسلم في النكاح (١١٠) ، وأحمد في مسنده (٢/٦١) ، والبيهقي في السنن (٧/٢٦٢) .

(٢) هذا الحديث لم يقم الشارح - رحمه اللَّه تعالى - بشرحه ، والحديث أخرجه البخاري في الأدب (٦٢٠٥) ، ومسلم في الآداب (٢٠) ، والحاكم في المستدرك (٤/٢٧٤) . قوله « أخنع » أي أفجر قوله « تسمى » أي سمى نفسه .

(٣) هذا الحديث لم يقم الشارح - رحمه اللَّه تعالى - بشرحه ، والحديث أخرجه أبو داود في الأدب (٤٩٧٧) ، والإمام أحمد في المسند (٥/٤٣٦) . قوله « أسخطتم ربكم » أي أغضبتموه ؛ لأنه يكون تعظيمًا له ، وهو ممن لا يستحق التعظيم .

تَسُبِّي الحُمَّى ؛ فَإِنَّهَا تُذْهِبُ خَطَايَا بَنِي آدَمَ ، كَمَا يُذْهِبُ الكِيرُ خَبَثَ الحَدِيد » (١) رواه مسلم .

« تُزَفْزِفِينَ » أَي : تَتَحَرَّكِينَ حركةً سَرِيعَةً ، وَمَعْنَاهُ : تَرْتَعِدُ ، وَهُوَ بضمِّ التاءِ وبالزاي المكررة ، والفاءِ المكررة ، ورُوِي أيضًا بالراءِ المكررة والقافين .

الشرح

ذكر المؤلف - رحمه اللَّه تعالى - كراهة سبِّ الحمى .

والحمى : هي السخونة ، وهي نوع من الأمراض ، وهي أنواع متعددة ، ولكنها تكون بقدر اللَّه ﷻ، فهو الذي يقدرها وقوعًا ، ويرفعها سبحانه وتعالى ، وكل شيء من أفعال اللَّه لا يجوز للإنسان أن يسبه ؛ لأن سبه سبٌّ لخالقه جل وعلا ، ولهذا قال النبي ﷺ : « لا تسبوا الدهر فإن اللَّه هو الدهر » (٢) .

وهنا حديث جابر ﷺ : أن النبي ﷺ دخل على أم المسيب أو أم السائب وهي تزفزف من الحمى ، يعني أن نَفَسها قد ثار من الحمى ، فقال : « مالك تزفزفين ؟ » قالت : الحمى ، لا بارك اللَّه فيها . فنهى النبي ﷺ عن سبها . وعلى المرء إذا أُصيب أن يصبر ويحتسب الأجر على اللَّه ﷻ، وأخبر أنها تذهب بالخطايا كما يذهب الكير بخبث الحديد ، فإن الحديد إذا صُهر على النار ذهب خبثه وبقي صافيًا ، كذلك الحمى تفعل في الإنسان كذلك ، ولها أدوية علاجية ، منها : الماء البارد ؛ فإن النبي ﷺ أخبر أن الحمى من فيح جهنم ، وأمرنا أن نطفئها بالماء البارد (٣) ؛ ولهذا أقر الأطباء في الوقت الحاضر بأن من أفضل علاج الحمى البرودة ، حتى إنهم يجعلون الإنسان إذا أصابته الحمى حول المكيفات الباردة التي لا تضره ، أو يجعلون خرقة مبلولة بالماء يغطونه بها ، يغطون المريض ؛ لأن الحمى بإذن اللَّه حرارة كما هو معروف ، وهذا الماء يبردها ويطردها وهو شيء أخبر به الرسول ﷺ وما أخبر به الرسول ﷺ فهو حق . المهم أن الإنسان يصبر ويحتسب على كل الأمراض ، لا يَسُبُّها .

* * *

٣٢٣ - باب النهي عن سب الريح وبيان ما يقال عند هبوبها

١٧٢٧ - عَنْ أَبي المُنْذِرِ أُبَيِّ بْنِ كَعْبٍ ﷺ قَالَ : قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ : « لا تَسُبُّوا الرِّيحَ ، فَإِذَا رَأَيتُمْ مَا تَكْرَهُونَ ، فَقُولُوا : اللَّهُمَّ إِنَّا نَسْأَلُكَ مِنْ خَيرِ هذِهِ الرِّيحِ ، وَخَيرِ مَا فِيهَا ، وَخَيرِ مَا أُمِرَتْ بِهِ ،

(١) أخرجه مسلم في البر والصلة الآداب (٥٣) ، والبيهقي في السنن (٣٧٧/٣) . قوله « الكير » هو زق الحداد الذي ينفع به قوله « خبث » أي درن .

(٢) أخرجه مسلم في الألفاظ من الأدب (٥) ، وأحمد في مسنده (٣٩٥/٢) بنحوه .

(٣) انظر ذلك في البخاري في بدء الخلق (٣٢٦٣) ، ومسلم في السلام (٧٨ ، ٧٩) ، وابن ماجه في السنن (٣٤٧١) ، وأحمد في مسنده (٢١/٢) .

وَنَعُوذُ بِكَ مِنْ شَرِّ هَذِهِ الرِّيحِ ، وشَرِّ مَا فِيهَا ، وَشَرِّ مَا أُمِرَتْ بِهِ »[١] رواه الترمذي وقَالَ : حَديثٌ حسنٌ صحيحٌ .

١٧٢٨ - وَعَنْ أبي هُرَيرَةَ ﷺ قَالَ : سَمِعْتُ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ يَقُولُ : « الرِّيحُ مِنْ رَوحِ اللَّهِ ، تَأْتي بِالرَّحْمَةِ ، وَتأْتي بالعَذابِ ، فَإِذَا رَأَيتُمُوهَا فَلا تَسُبُّوهَا ، وَسَلُوا اللَّهَ خَيرَهَا ، واسْتَعِيذُوا باللَّهِ مِنْ شَرِّهَا »[٢] رواه أبو داود بإسنادٍ حسنٍ .

قوله ﷺ : « مِنْ رَوحِ اللَّهِ » هو بفتح الراءِ : أَي : رَحْمَتِهِ بِعبادِهِ .

١٧٢٩ - وعَنْ عَائِشَةَ ﷺ قَالَتْ : كَانَ النَّبيُّ ﷺ إذا عَصَفَتِ الرِّيحُ قَالَ : « اللَّهُمَّ إنِّي أَسْأَلُكَ خَيرَهَا ، وَخَيرَ مَا فِيهَا ، وَخَيرَ مَا أُرسِلَتْ بِهِ ، وَأَعُوذُ بك مِنْ شَرِّهَا ، وَشَرِّ مَا فِيها ، وَشَرِّ مَا أُرْسِلَتْ بِهِ »[٣] رواه مسلم .

الشرح

ذكر المؤلف - رحمه اللَّه تعالى - النهي عن سب الريح .وسبق فيما مضى النهي عن سب الحمى .

والرياح : من آيات اللَّه ﷻ ، من آيات اللَّه تعالى في تصريفها وفي إرسالها وفي كيفيتها ، إذ لا يقدر أحد على أن يصرف هذه الرياح إلا خالقُها ﷻ ، كما قال اللَّه تبارك وتعالى : ﴿ إِنَّ فِي ٱخْتِلَـٰفِ ٱلَّيْلِ وَٱلنَّهَارِ وَمَا خَلَقَ ٱللَّهُ فِي ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ لَـَٔايَـٰتٍ لِّقَوْمٍ يَتَّقُونَ ﴾ [يونس: ٦] وقال اللَّه تبارك وتعالى : ﴿وَهُوَ ٱلَّذِى يُرْسِلُ ٱلرِّيَـٰحَ بُشْرًۢا بَيْنَ يَدَىْ رَحْمَتِهِۦ ﴾ [الأعراف: ٥٧] وقال تعالى : ﴿ وَمِنْ ءَايَـٰتِهِۦٓ أَن يُرْسِلَ ٱلرِّيَاحَ مُبَشِّرَٰتٍ وَلِيُذِيقَكُم مِّن رَّحْمَتِهِۦ ﴾ [الروم: ٤٦] والآيات في هذه كثيرة .

هذه الريح التي خلقها اللَّه ﷻ وصرفها تنقسم إلى قسمين ، قسم : ريح عادية لا تخيف لا يُسن لها ذكر معين ، وريح أخرى عاصفة ، هذه تخيف ، لأن عادًا عذبهم اللَّه تعالى بالريح العقيم ، والعياذ باللَّه . فإذا عصفت الريح ؛ فإنه لا يجوز لك أن تسبها ، لأن الريح إنما أرسلها اللَّه ﷻ ، فسبك إياها سبٌ لله تبارك وتعالى ، ولكن قل : كما قال النبي ﷺ : « اللَّهم إني أسألك خير هذه الريح ، وخير ما فيها ، وخير ما أرسلت به ، وأعوذ بك من شرها ، وشر ما فيها ، وشر ما أرسلت به» وبهذا الدعاء يحصل لك خيرُها ويزول عنك شرها . « أسألك خير هذه الريح » ، لأن هذه الريح قد تكون عاصفة شديدة تقلع الأبواب وتجتث الأشجار وتهدم الديار ، « وخير ما فيها » ، ما فيها أي ما تحمله من أمور

---

(١) أخرجه الترمذي في الفتن (٢٢٥٢) ، وأحمد في مسنده (١٢٣/٥) . قوله « فإذا رأيتم ما تكرهون » أي إذا رأيتم من عصفها وشدتها . قوله « وخير ما فيها » أي المرتب عليها من جمع السحاب الذي يخرج منه المطر أو الخير الذي فيها من تسيير السفن بها ونحو ذلك . قوله « وشر هذه الريح » هي العواصف أو الريح المهلكة .

(٢) أخرجه أبو داود في الأدب (٥٠٩٧) ، وأحمد في مسنده (٢٦٨/٢) ، والحاكم في المستدرك (٢٨٥/٤) ، والبيهقي في السنن (٣٦١/٣) .

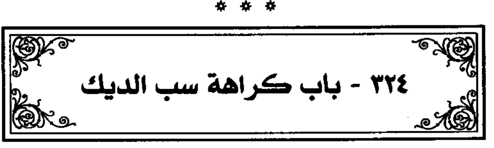
(٣) أخرجه مسلم في الاستسقاء (١٣) ، والبيهقي في السنن (٣٦٠/٣) . قوله « عصفت » أي اشتدت .

قد تكون نافعة وقد تكون ضارة .

« وخير ما أرسلت به » لأنها تارة تُرسَل بالخير ، وتارة ترسل بالشر ، فتسأل اللَّه خير ما أرسلت به . « وأعوذ بك من شرها ، وشر ما فيها ، وشر ما أرسلت به » . فإذا استعاذ الإنسان من شرها ، وشر ما فيها ، وشر ما أرسلت به ، وسأل اللَّه خيرها ، وخير ما فيها ، وخير ما أرسلت به ؛ كفاه اللَّه شرَّها .

واعلم أنه لا يجوز للإنسان أن يتعلق بالريح في حصول المطر والغيث والصحو وما أشبه ذلك ؛ لأن هذا من جنس الاستقاء بالأنواء الذي نهى عنه النبي ﷺ كثير من الناس يعلق رجاءه بالريح الجنوبي يقول : إذا هبت الجنوب حصل الغيث وتجد قلبه متعلقًا بها ، وهذا لا يجوز ، لأنها قد تهب ريح الجنوب كثيرًا ولا يأتي أمطار ولا غيوم ، وقد يكون بالعكس تأتي الأمطار والغيوم من الريح الشمالي ، فالأمر كله بيد اللَّه ﷻ ، فعليك أن تعلق قلبك بربك تبارك وتعالى وألا تسب ما خلقه من الرياح . واسأل اللَّه خيرها وخير ما فيها وخير ما أُرسلت به واستعذ باللَّه من شرها وشر ما فيها وشر ما أرسلت به . واللَّه الموفق .

* * *



٣٢٤ - باب كراهة سب الديك

١٧٣٠ - عَنْ زَيدِ بْنِ خَالِد الجُهَنيِّ ؓ قَالَ : قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ : « لا تَسُبُّوا الدِّيكَ ؛ فإنَّهُ يُوقِظُ للصَّلاةِ » [(١)] رواه أبو داود بإسنادٍ صحيحٍ .

* * *

٣٢٥ - باب النهي عن قول الإنسان : مطرنا بنوء كذا

١٧٣١ - عَنْ زَيدِ بْن خَالدٍ ؓ قَالَ : صَلَّى بِنَا رَسُولُ اللَّه ﷺ صَلاةَ الصُّبْحِ بِالحُدَيبيَة في إثْرِ سَمَاءٍ كانَتْ مِنَ اللَّيلِ ، فَلَمَّا انْصَرفَ أَقْبَلَ عَلى النَّاسِ ، فَقالَ : « هَلْ تَدْرُونَ مَاذَا قَالَ رَبُّكُمْ ؟ » قَالُوا : اللَّهُ وَرَسُولُهُ أَعْلَمُ . قَالَ : قَالَ : « أَصْبَحَ مِنْ عِبَادِي مُؤمنٌ بي ، وَكَافِرٌ ، فأمَّا مَنْ قالَ : مُطِرْنَا بِفَضْلِ اللَّهِ وَرَحْمَتِهِ ؛ فَذلِكَ مُؤْمِنٌ بي كَافِرٌ بالكَوكَبِ ، وَأَمَّا مَنْ قالَ : مُطِرْنا بِنَوءِ كَذا وَكَذا ؛ فَذلكَ كَافِرٌ بي مُؤمِنٌ بالكَوكَبِ » [(٢)] متفقٌ عليه .

وَالسَّماءُ هُنَا : المَطَرُ .

---

(١) أخرجه أبو داود في الأدب (٥١٠١) ، وأحمد في مسنده (١٩٣/٥) بنحوه .

(٢) أخرجه البخاري في الأذان (٨٤٦) ، ومسلم في الإيمان (١٢٥) ، وأحمد في مسنده (١١٧/٤) ، والبيهقي في السنن (١٨٥/٢) . قوله « الحديبية » بئر قريب من مكة . وقيل : شجرة حدباء قرب مكة . قوله « إثر السماء » أي بعد سقوط المطر . قوله « كانت من الليل » أي في بعض أجزائه . قوله « بنوء » أي بسقوط نجم وطلوع نظيره .

الشرح

ذكر المؤلف رَحِمَهُ ٱللَّهُ النهي عن سب الديك .

والديك : هو الذكر من الدجاج وله صوت يؤذن فيوقظ النائم ، وبعضها يؤذن على الأوقات عند أوقات الصلوات ، وقد أمر النبي ﷺ من سمع صوت الديك أن يَسأل اللَّهَ من فضله ، إذا سمعت صوت الديك فقل : أسأل اللَّه من فضله ؛ فإنها رأت ملكًا [١] ، وبعض الديكة يكون أذانه على دخول الوقت أو قرب دخول الوقت ، فيوقظ الناس للصلاة ، فنهى النبي ﷺ عن سبه لهذه المزية التي تميز بها ، كما نُهي عن قتل النملة [٢] ؛ لأنها كانت دلت أخواتها على النجاة من سليمان - عليه الصلاة والسلام - وهذا من تمام عدل اللَّه عَزَّوَجَلَّ أن بعض الحيوانات التي يكون فيها مصلحة للعباد يكون لها مزية وفضل على غيرها ، سب الديك قد يقع من بعض الناس ، يفزع من صوته وهو نائم فيسبه ويشتمه ، وهذا منهي عنه لأن النبي ﷺ قال : « لا تسبوا الديك » .

وفي هذا الحديث : دليل على أنه ينبغي للإنسان أن يتخذ ما يوقظه للصلاة ، وذلك مثل الساعات المنبهة ، فإن الإنسان ينبغي له أن يقتني من هذه الساعات حتى تنبهه للصلاة في الوقت الذي يدرك فيه الصلاة . وكثير من الناس يتهاون في هذا الأمر ، ينام معتمدًا على أنه سيقوم في الوقت الذي يريده ولكن يغلبه النوم ، فإذا علمت من نفسك هذا فاجعل لنفسك منبهًا ينبهك للصلاة ؛ لأن ما لا يتم المأمور إلا به فهو مأمور به وأنت مثاب على هذا .

وأما الباب الثاني : وهو تحريم قول الإنسان مطرنا بنوء كذا وكذا : وهو أيضًا عن زيد بن خالد الجهني رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ : أنهم كانوا مع النبي ﷺ في الحديبية ، والحديبية غزوة مشهورة ومعروفة ، وذلك أن النبي ﷺ خرج إلى مكة معتمرًا ومعه الإبل - الهدى - فلما وصل إلى الحديبية وهي أرض بين الحل والحرم ، منعته قريش أن يدخل مكة ، وجرى بينهم وبين النبي ﷺ ما هو معروف من المصالحة ، لكن في إحدى الليالي ، صلى بهم النبي ﷺ صلاة الصبح على إثر مطر ، فلما انصرف من صلاته أقبل عليهم ، وقال : « هل تدرون ماذا قال ربكم ؟ » قالوا : اللَّه ورسوله أعلم وإنما ألقى عليهم هذا السؤال من أجل أن ينتبهوا ؛ لأن إلقاء الأسئلة يوجب الانتباه ، قالوا : « اللَّه ورسوله أعلم » . وهكذا كل إنسان يجب عليه إذا سئل عما لا يعلم أن يقول : اللَّه ورسوله أعلم ؛ في الأمور الشرعية ، أما الأمور الكونية القدرية ، فهذا لا يقول : ورسوله أعلم ؛ لأن النبي ﷺ لا يعلم الغيب ، كما مثلًا لو قال قائل : أتظن المطر ينزل غدًا ، تقول : اللَّه أعلم ، ولا تقل : اللَّه ورسوله أعلم ؛ لأن الرسول ﷺ لا يعلم مثل هذه الأمور ، لكن لو قال لك : هل هذا حرام أم حلال ؟ تقول : اللَّه ورسوله أعلم ؛ لأن النبي ﷺ عنده علم الشريعة . المهم أنهم قالوا : اللَّه ورسوله أعلم وهذا من الأدب ، قال : قال عَزَّوَجَلَّ :

---

(١) انظر في ذلك ما أخرجه البخاري في بدء الخلق (٣٣٠٣) ، ومسلم في الذكر والدعاء (٨٢) ، وأبو داود في السنن (٥١٠٢) ، والترمذي في السنن (٣٤٥٩) ، وأحمد في مسنده (٣٠٦/٢) .

(٢) انظر في ذلك الحديث الذي أخرجه البيهقي في السنن (٩١/٩) .

« أصبح من عبادي مؤمن بي وكافر بي » ، يعني في تلك الليلة قال الله ﷻ فيما أوحاه إلى نبيه : « أصبح من عبادي مؤمن بي وكافر بي » « فأما من قال : مطرنا بفضل الله ورحمته ؛ فذلك مؤمن بي كافر بالكواكب ، وأما من قال : مطرنا بنوء كذا وكذا ؛ فذلك كافر بي مؤمن بالكواكب » . والباء هنا للسببية . يعني معناه أنك إذا أضفت المطر إلى النوء ، فقلت : هذا النجم نجم بركة وخير ، يأتي بالمطر ، فهذا حرام عليك ، كفر بالله ﷻ ، وإضافة للشيء إلى سببه مع نسيان المسبب وهو الله ﷻ . وأما إذا قلت : مُطرنا بفضل الله ورحمته في هذا النوء ، فلا بأس ؛ لأن هذا اعتراف منك بأن المطر بفضل الله ولكنه صار في هذا بالنوء ، كثير من العامة عندنا يقولون : مُطرنا بالفصل كذا وكذا ... ، وليسوا يقصدون بهذا السببية وإنما يقصدون الظرفية ، أي أن المطر صار في هذا الوقت وهذا لا بأس به . وأما إذا جعل الباء للسببية ؛ فهذا هو الذي كفر بالله وآمن بالكواكب ، ثم إن اعتقد أن الكوكب هو الذي يأتي بالمطر ، فهذا كفر أكبر مخرج عن الملة ، وإن اعتقد أن الكوكب سبب وأن الخالق هو الله ﷻ ، فهذا كفر بنعمة الله وليس كفرًا مخرجًا عن الملة . وفي هذا الحديث ، نعرف أنه ينبغي للإنسان إذا جاء المطر أن يقول : مُطرنا بفضل الله ورحمته . والله الموفق .

* * *

٣٢٦ - باب تحريم قوله لمسلم : يا كافر

١٧٣٢ - عَنِ ابْنِ عُمَرَ رضي الله عنهما قَالَ : قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ : « إذا قَالَ الرَّجُلُ لأخِيهِ : يَا كَافِرُ ؛ فَقَدْ بَاءَ بِهَا أَحَدُهُمَا ، فَإِنْ كَانَ كَمَا قَالَ : وَإِلا رَجَعَت عَلَيهِ » [(١)] متفقٌ عليه .

١٧٣٣ - وَعَنْ أَبِي ذَرٍّ رضي الله عنه أَنَّهُ سَمِعَ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ يَقُولُ : « مَنْ دَعَا رَجُلًا بالكُفْرِ ، أَو قَالَ : عَدُوَّ اللَّهِ ، وَلَيسَ كَذلِكَ ؛ إلا حَارَ عَلَيهِ » [(٢)] متفقٌ عليه . « حَارَ » : رَجَعَ .

الشرح

ذكر المؤلف - رحمه الله تعالى - قول مسلم لمسلم : يا كافر .

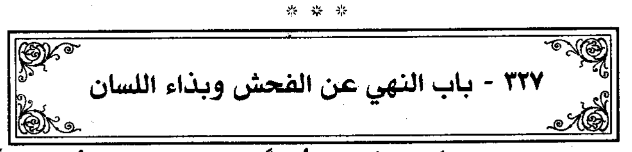
المسلم والكافر حكمهما إلى الله ﷻ ، فالذي يحكم بالكفر هو الله ، والذي يحكم بالإسلام هو الله ، كما أن الذي يحلل ويحرم هو الله ﷻ ، فليس لنا أن نحلل ما حرم الله ، ولا أن نحرم ما أحل الله ، ولا أن نكفر من ليس بكافر في حكم الله ، ولا أن نقول هذا مسلم وليس مسلمًا عند الله . ومسألة التكفير مسألة خطيرة جدًا ، فُتح بها أبواب شر كبيرة على الأمة الإسلامية . فإن من أول من انتحل هذه النحلة الخبيثة وهي تكفير المسلمين هم الخوارج ، الخوارج الذين أخبر النبي ﷺ أنهم

(١) أخرجه البخاري في الأدب (٦١٠٤) ، ومسلم في الإيمان (١١١) ، والطبراني في الكبير (١٨/١٩٤) ، وقوله ﷺ : باء : أي رجع والمعنى : وعاد عليه الوصف الذي وصف به غيره ، دون حق .

(٢) أخرجه مسلم في الإيمان بلفظه (١١٢) ، والبخاري في الأدب بنحوه (٦٠٤٥) ، وأحمد في مسنده (٥/١٦٦) .

« يمرقون من الإسلام كما يمرق السهم من الرمية ، وأنهم يقرؤون القرآن لا يتجاوز حناجرهم ، وأنهم يصلون ويتصدقون ويقرؤون القرآن » [١] حتى أخبر النبي ﷺ أن الصحابة يحقِر أحدُهم صلاتَه عند صلاة هؤلاء ، لكنهم - والعياذ بالله - كَفَّروا المسلمين واستحلوا دماءهم وأموالهم ونساءهم - نسأل الله العافية - وما زال هذا الحكم موجودًا إلى يومنا هذا ، فإن هناك شعبة ضالة مبتدعة خبيثة تكفر من لم يكفره الله ورسوله بأهوائهم ، هذا كافر ، هذا مبتدع ، هذا فاسق ، وما أشبه ذلك ، وماذا حصل من هؤلاء الخوارج المارقين من الإسلام ؟ حصل منهم أنهم اجتمعوا مع علي بن أبي طالب رضي الله عنه وهو الخليفة الراشد الرابع من الخلفاء الراشدين ، اجتمعوا معه على حرب أهل الشام ، واتفقوا على ذلك وجرت بينهم حروب عظيمة ودماء كثيرة ، ثم اصطلح علي رضي الله عنه مع أهل الشام وتصالحوا حقنًا لدماء المسلمين . فقالت الخوارج لعلي بن أبي طالب : أنت كافر لماذا تصالحهم ، كفرت كما كفروا ، فخرجوا عليه وقاتلوه ، لكن صارت العاقبة والحمد لله له ، قتلهم قتل عاد وإرم ، وقضى عليهم جميعًا ، لكن ما زال فيهم [بقية] ، ما زال هذا المذهب الخبيث موجودًا في المسلمين ، يبيحون دماء المسلمين مع احترامها ، وأموالهم مع احترامها ، ونسائهم مع احترام الأعراض ، فيقولون مثلًا : من زنى فهو كافر ، ومن سرق فهو كافر ، ومن شرب الخمر فهو كافر ، كل ذنب من كبائر الذنوب فهو عندهم كفر ، والعياذ بالله ، يُخرج من الملة . فهؤلاء الذين يكفرون المسلمين لا شك أنهم هم الكفار ؛ لأن النبي ﷺ أخبر أن الرجل إذا قال لأخيه : يا كافر فإنه يبوء بها أحدهما ، لابد ، إن كان كما قال : كافر ، فهو كافر ، وإلا كان الكافر هو القائل والعياذ بالله . ولهذا يجب أن ينزه الإنسان لسانَه وقلبه عن تكفير المسلمين ، لا يتكلم فيقول : هذا كافر ، ولا يعتقد في قلبه أن هذا كافر ، لمجرد الهوى . وإطلاق الحكم بالتكفير ليس لزيد ولا لعمرو ، بل هو لله ورسوله . من كفره الله ورسوله فهو كافر ، وإن قلنا إنه مسلم ، ومن لم يكفره الله ورسوله فهو مسلم ، وإن قال من قال : إنه كافر . لذلك نقول لمن قال لمسلم يا كافر ، أو يا عدو الله . إن كان المخاطب كما قال فهو كافر وعدو لله ، وإن لم يكن كذلك فالقائل هو الكافر العدو لله والعياذ بالله . وعلى هذا فيكون هذا القول من كبائر الذنوب إذا لم يكن الذي قيل فيه أهلًا لها ، ولهذا جزم المؤلف رحمه الله في تحريم هذا ، أي في تحريم القول للمسلم : يا كافر أو يا عدو الله ، نسأل الله تعالى أن يحمي قلوبنا ويكفنا عن الكلام فيما يغضبه ويضرنا ، إنه على كل شيء قدير .

* * *



٣٢٧ - باب النهي عن الفحش وبذاء اللسان

١٧٣٤ - عَن ابْنِ مَسْعُودٍ رضي الله عنه قَالَ : قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ : « لَيسَ المُؤمِنُ بالطَّعَّانِ ، وَلا اللَّعَّانِ ، وَلا الفَاحِشِ ، ولا البَذيِّ » [٢] رواه الترمذي وقال : حديثٌ حسنٌ .

---

(١) انظر في ذلك ما أخرجه البخاري في التوحيد (٧٥٦٢) ، وأحمد في مسنده (٥٢/٣) .

(٢) أخرجه الترمذي في البر والصلة (١٩٧٧) ، والحاكم في المستدرك (١٢/١) ، والبيهقي في السنن (١٩٣/١٠) .

١٧٣٥ - وَعَنْ أَنَسٍ ﷺ قَالَ : قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ : « مَا كَانَ الْفُحْشُ فِي شَيْءٍ إِلا شَانَهُ ، وَمَا كَانَ الحَيَاءُ فِي شيءٍ إِلا زَانَهُ » [١] رواه الترمذي وقال : حديثٌ حسنٌ .

* * *

٣٢٨ - باب كراهة التقعير في الكلام والتشدق فيه وتكلف الفصاحة واستعمال وحشي اللغة ودقائق الإعراب في مخاطبة العوام ونحوهم

١٧٣٦ - عَنِ ابْنِ مَسْعُودٍ ﷺ أَنَّ النَّبِيَّ ﷺ قَالَ : « هَلَكَ الْمُتَنَطِّعُونَ » . قَالَهَا ثَلاثًا [٢] . رَوَاهُ مُسْلِم .

« الْمُتَنَطِّعُونَ » : الْمُبَالِغُونَ فِي الأُمُورِ .

١٧٣٧ - وَعَنْ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ عَمْرِو بْنِ الْعَاصِ ﷺ أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ قَالَ : « إِنَّ اللَّهَ يُبْغِضُ الْبَلِيغَ مِنَ الرِّجَالِ الَّذِي يَتَخَلَّلُ بِلِسَانِهِ كَمَا تَتَخَلَّلُ الْبَقَرَةُ » [٣] . رواهُ أبو داودَ ، والترمذي ، وقال : حديثٌ حسنٌ .

١٧٣٨ - وَعَنْ جَابِرِ بْنِ عَبْدِ اللَّهِ ﷺ أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ قَالَ : « إِنَّ مِنْ أَحَبِّكُمْ إِلَيَّ ، وَأَقْرَبِكُمْ مِنِّي مَجْلِسًا يَومَ الْقِيَامَةِ ، أَحَاسِنُكُمْ أَخْلاقًا ، وَإِنَّ أَبْغَضَكُمْ إِلَيَّ ، وَأَبْعَدَكُمْ مِنِّي يَومَ الْقِيَامَةِ ، الثَّرْثَارُونَ ، وَالْمُتَشَدِّقُونَ ، وَالْمُتَفَيهِقُونَ » [٤] رواه الترمذي وقالَ : حديثٌ حسن ، وقد سبق شرحُهُ في باب حُسْنِ الخُلقِ .

الشرح

هذه الأحاديث كلها تتعلق بما ينطق به الإنسان ، وذلك أنه ينبغي بل يجب على الإنسان ألا يتكلم إلا بخير ، لقول النبي ﷺ : « من كان يؤمن بالله واليوم الآخر فليقل خيرًا أو ليصمت » [٥] . والخير قد يكون خيرًا لذاته وقد يكون خيرًا لغيره ، فمن الخير لذاته أن يتكلم الإنسان بالقرآن ، بالذكر ، بالأمر بالمعروف ، بالنهي عن المنكر ، وما أشبه ذلك . وأما الخير لغيره : بأن يتكلم الإنسان بما ليس في ذاته خيرًا لكنه يريد أن يبسط إخوانه ويزيل عنهم الوحشة ويؤلف قلوبهم ، هذا من الخير حتى الكلام العام إذا كان قَصْدُ الإنسان في ذلك ما ذكرنا كان هذا من الخير . ضد ذلك من كان بذيء اللسان والعياذ بالله ، (الطَّعَّانُ اللَّعَّانُ) ، طعانًا : يعني يطعن في الأنساب ويعيب الناس (ولعانًا) يكثر لعنهم وسبهم ، نسأل

---

(١) أخرجه الترمذي في البر والصلة (١٩٧٤) ، وابن ماجه في الزهد (٤١٨٥) ، وأحمد في مسنده (١٦٥/٣) بنحوه. قوله « الفحش » هو مجاوزة الحد المعروف شرعًا وعرفًا . قوله « شانه » أي أساء إليه وعابه .

(٢) أخرجه مسلم في العلم (٧) ، والطبراني في الكبير (٢١٦/١٠) .

(٣) هذا الحديث لم يقم الشارح ﷺ بشرحه ، وقد أخرجه أبو داود في الأدب (٥٠٠٥) ، وأحمد في مسنده (١٦٥/٢) ، والترمذي في الأدب (٢٨٥٣) . قوله « يبغض » أي يكره . قوله « البليغ » أي المبالغ في فصاحة الكلام وبلاغته . قوله « يتخلل بلسانه » أي يدير لسانه حول أسنانه مبالغة في إظهار فصاحته .

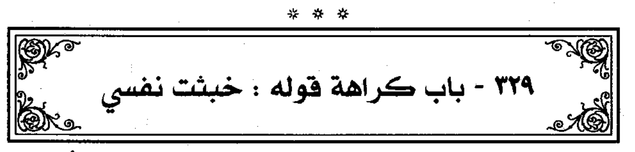
(٤) هذا الحديث لم يقم الشارح ﷺ بشرحه ، وقد أخرجه الترمذي في البر والصلة (٢٠١٩) ، وأحمد في مسنده (١٨٩/٢) .

(٥) سبق تخريجه .

اللَّه العافية ، فقد نفى النبي ﷺ الإيمان عن مثل هذا ، فقال : « ليس المؤمن بالطعان ، ولا باللعان ، ولا بالفاحش ، ولا بالبذيّ » . فالمؤمن رفيق هين لين ، كلامه سهل ، ومن ذلك أيضًا من آفات اللسان : التقعر في الكلام والتشدق حتى يتكلم الإنسان بكل شيء بليغ ، وحتى يتكلم عند العامة في غرائب اللغة العربية ، إما رياءً ليقول الناس : ما أعلمه باللغة العربية أو لغير ذلك . فالإنسان ينبغي أن يكون كلامه ككلام الناس ، الكلام الذي يفهم حتى وإن كان بالعامية ما دام يخاطب العوام . أما إذا كان يخاطب طلبة علم وفي مجلس التعلم ؛ فهنا ينبغي أن يكون كلامه بما يَقدر عليه من اللغة العربية .

وفي الباب الثاني : الذي ذكره المؤلف أن النبي ﷺ قال : « هلك المتنطعون ، هلك المتنطعون ، هلك المتنطعون » المتنطع هو المتقعر في الكلام الذي يتنطع بكلامه أو بقوله أو بفعله أو برأيه أو بغير ذلك مما يعده الناس خروجًا عن المألوف . وكل هذا من الآداب الحسنة التي جاء بها الإسلام ، والحمد للَّه رب العالمين .

* * *

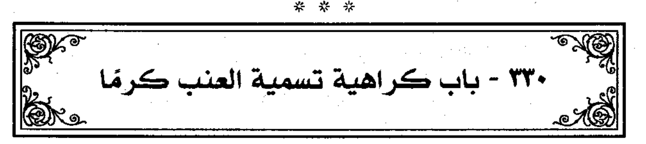


٣٢٩ - باب كراهة قوله : خبثت نفسي

١٧٣٩ - عَنْ عَائِشَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا عَنِ النَّبيِّ ﷺ قَالَ : « لا يَقُولَنَّ أحدُكُم خَبُثَتْ نَفْسي ، وَلكِنْ لِيَقُلْ : لَقِسَتْ نَفْسِي » (١) متفقٌ عليه .

قالَ العُلَمَاءُ : مَعْنَى « خَبُثَتْ » : غَثَتْ ، وَهُوَ مَعْنَى « لَقِسَتْ » وَلكِنْ كَرِهَ لَفْظَ الخُبْثِ .

* * *



٣٣٠ - باب كراهية تسمية العنب كرمًا

١٧٤٠ - عَنْ أبي هُرَيرَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قَالَ : قال رَسُولُ اللَّهِ ﷺ : « لا تُسَمُّوا الْعِنَبَ الْكَرْمَ ؛ فإنَّ الْكَرْمَ الْمُسْلِمُ » متفقٌ عليه . وهذا لفظُ مسلمٍ .

وفي روايةٍ : « فَإنَّمَا الكَرْمُ قَلْبُ المُؤْمِنِ » وفي رواية للبخاري ومسلمٍ : « يَقُولُونَ الكَرْمُ ، إنَّمَا الكَرْمُ قَلْبُ المُؤْمِنِ » (٢) .

١٧٤١ - وَعَنْ وَائِلِ بنِ حُجْرٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ عَنِ النبيِّ ﷺ قَالَ : « لا تَقُولُوا : الكَرْمُ ، وَلكِنْ قُولُوا : العِنَبُ ، والحَبَلَةُ » (٣) رواه مسلم .

« الحَبَلَةُ » بفتح الحاءِ والباء ، ويقال أَيضًا بإسكان الباء .

---

(١) أخرجه البخاري في الأدب (٦١٧٩) ، ومسلم في الألفاظ من الأدب (١٦) ، وأحمد في مسنده (٦/٥١ ، ٢٠٩) ، وأبو داود في الأدب (٤٩٧٨) .

(٢) أخرجه البخاري في الأدب (٦١٨٣) ، ومسلم في الألفاظ من الأدب (٨) ، وأحمد في مسنده (٢/٢٥٩) .

(٣) أخرجه مسلم في الألفاظ من الأدب (١١) ، والدارمي في السنن (٢/١١٨) بنحوه .

الشرح

ذكر المؤلف رَحِمَهُ ٱللَّهُ كراهة قول الرجل خبثت نفسي .

خبثت نفسي يعني لقست ، ومعنى لقست غثيت ، أحيانًا يصيب الإنسان كتمة يسميها الناس كتمة ، فتضيق عليه الدنيا بدون أن يعرف السبب لذلك ، فيقول خبثت نفسي ، وخبثت يعني صارت خبيثة ، وهذه كلمة مكروهة ، ولهذا نهى النبي ﷺ أن يقول الرجل : خبثت نفسي ، ولكن يقول : لقست ، ولقست بمعنى خبثت ، ولكنها في اللفظ تخالفها ، فهي أهون منها وأيسر . وفي هذا الحديث : دليل على اجتناب الألفاظ المكروهة وإبدالها بألفاظ غير مكروهة وإن كان المعنى واحدًا ، لأن اللفظ قد يكون سببًا للمعنى ، قد يقول : خبثت نفسي بمعنى غثيت ، والخبث الغثيان ، ويأتي في باله أنه من الخبث الذي هو ضد الطيب ، والنفوس الخبيثة هي نفوس الكفرة والعياذ بالله ، لقول الله تعالى : ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِنَّمَا ٱلْمُشْرِكُونَ نَجَسٌ فَلَا يَقْرَبُواْ ٱلْمَسْجِدَ ٱلْحَرَامَ بَعْدَ عَامِهِمْ هَٰذَا ﴾ [التوبة : ٢٨] ولقوله تعالى : ﴿ ٱلْخَبِيثَٰتُ لِلْخَبِيثِينَ وَٱلْخَبِيثُونَ لِلْخَبِيثَٰتِ وَٱلطَّيِّبَٰتُ لِلطَّيِّبِينَ وَٱلطَّيِّبُونَ لِلطَّيِّبَٰتِ ﴾ [النور : ٢٦] ؛ ولأن النبي ﷺ كان إذا أراد دخول الخلاء ليبول ، أو يتغوط يقول : « أعوذ بالله من الخبث والخبائث » [(١)] . يعني الشياطين والشر .

فالمهم : أن الإنسان يكره له أن يُطلق ألفاظًا مكروهة على معاني صحيحة بل يبدلها بألفاظ محبوبة للنفوس .

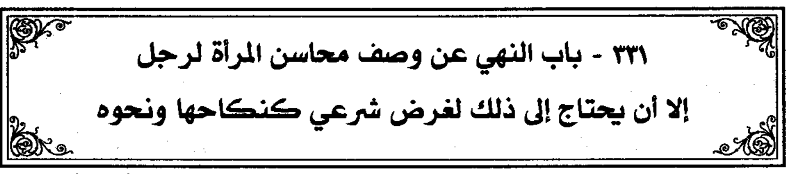
وأما الباب الثاني : فهو النهي عن تسمية العنب كَرْمًا ، والكرم كما قال النبي ﷺ هو المؤمن أو قلب المؤمن ، لأنه مأخوذ من الكَرَم ..! والكرم هو وصف محبوب يوصف به المؤمن ولا سيما إذا كان جوادًا باذلًا للخير بجاهه أو بماله أو علمه فإنه أحق بهذا الوصف من العنب .

وإنما يقال الحَبَلة أو يقال العنب ، وأما أن تسميه كرمًا فهذا لا . وهذا - والله أعلم - له سبب ؛ وهو أن هذا العنب قد يُتخذ شرابًا خبيثًا محرمًا ؛ لأن العنب ربما يتخذ منه الخمر نسأل الله العافية ، يعصر ويخمر فيكون خمرًا خبيثة ، لهذا نهى النبي ﷺ أن يسمى العنب كرمًا ، وما يوجد في بعض الكتب المؤلفة في الزراعة ونحوها ، يقال : شجر الكرم أو الكروم أو نحو ذلك داخل في هذا النهي ، فلا ينبغي أن يسمي العنب أو أشجار العنب بالكرم أو بالكروم ، بل يقال : الأعناب والعنب والحَبَلة وما أشبه ذلك . والله الموفق .

* * *

---

(١) أخرجه البخاري في الوضوء (١٤٢) بلفظ : « اللهم إني أعوذ بك .. » ، وابن ماجه في الطهارة (١٩٨) ، وأحمد في مسنده (١٠١/٣) ، والبيهقي في السنن (٩٦/١) .



٣٣١ - باب النهي عن وصف محاسن المرأة لرجل إلا أن يحتاج إلى ذلك لغرض شرعي كنكاحها ونحوه

١٧٤٢ - عَنِ ابْنِ مَسْعُودٍ ﷺ قَالَ : قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ : « لا تُبَاشِرِ المَرْأَةُ المَرْأَةَ ، فَتَصِفَهَا لِزَوجِهَا كَأَنَّهُ يَنْظُرُ إِلَيهَا » (١) متفقٌ عليه .

الشرح

ذكر المؤلف رَحِمَهُ اللَّهُ النهي عن وصف محاسن المرأة لرجل إلا لأمر شرعي كنكاحها .

يعني أنه لا يجوز للإنسان أن يصف امرأة لرجل فيقول صفتها كذا في الطول والحسن والبياض وما أشبه ذلك ، إلا إذا كان هناك موجب شرعي ، مثل أن يكون هذا الرجل يريد أن يتزوجها ، فيصفها له أخوها مثلًا من أجل أن يقدم أو يترك ؛ لأن هذا لا بأس به ، كما أنه يجوز للخاطب إذا خطب امرأة أن ينظر إليها من أجل أن يكون هذا أدعى لقبوله أو رفضه ، ولهذا نهى النبي ﷺ المرأة أن تصف المرأة لزوجها حتى كأنه ينظر إليها ، وهذا كما أنه محرم ، فهو من جهة الزوجة ضرر عليها ، وذلك لأنه إذا وصفت المرأة لزوجها فربما يرغب فيها ويتزوجها عليها ، ويقع بينهما مشاكل كما هي العادة . ولا يعني هذا أن الإنسان يدع التعدد ، تعدد الزوجات خوفًا من ذلك ؛ لأن التعدد مشروع إذا قَدر الإنسان على ذلك في بدنه وماله وعدله ؛ فإنه يشرع له أن يكثر الزوجات ليكثر النسل وتكثر الأمة الإسلامية ، لكن إذا كان يخشى ألا يعدل ، فقد قال اللَّه تعالى : ﴿ فَإِنْ خِفْتُمْ أَلَّا تَعْدِلُوا فَوَاحِدَةً أَوْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُكُمْ ذَلِكَ أَدْنَى أَلَّا تَعُولُوا ﴾ [النساء : ٣] .

والحاصل : أنه لا يجوز للإنسان أن يصف المرأة لرجل أجنبي منها إلا إذا كان هناك موجب شرعي ، ومن ذلك ما يفعله بعض السفهاء بحيث يفتخر عند أصحابه وزملائه يقول : امرأتي جميلة ، يعني يفتخر بجمال زوجته ، امرأتي جميلة ووجهها كذا وعينها كذا وفمها كذا وما أشبه ذلك ، فإن هذا من المحرم ؛ لأن النبي ﷺ نهى عنه . واللَّه الموفق .

* * *

٣٣٢ - باب كراهة قول الإنسان : اللهم اغفر لي إن شئت بل يجزم بالطلب

١٧٤٣ - عَنْ أَبي هُرَيرَةَ ﷺ أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ قَالَ : « لا يَقُولَنَّ أَحَدُكُم : اللَّهُمَّ اغْفِرْ لي إنْ شِئْتَ . اللَّهُمَّ ارْحَمْني إنْ شِئْتَ ، لِيَعْزِمِ المَسْأَلَةَ ؛ فَإِنَّهُ لا مُكْرِهَ لَهُ » . متفقٌ عليه .

(١) أخرجه البخاري في النكاح (٥٢٤٠) والترمذي في الأدب (٢٧٩٢) وأحمد في مسنده (٣٨٧/١) وأبو داود في النكاح (٢١٥٠) . قوله : « لا تباشر المرأة المرأة » أي لا تمس المرأة بشرة المرأة ببشرتها فتعرف نعومة بدنها وما فيه من المحاسن الخفية .

وفي روايةٍ لمُسْلِمٍ : « وَلكِنْ لِيَعْزِمْ ، وَلْيُعْظِمِ الرَّغْبَةَ ؛ فَإِنَّ اللَّهَ تَعَالى لا يَتَعَاظَمُهُ شَيءٌ أَعْطَاهُ »[١] .

١٧٤٤ - وَعَنْ أَنَسٍ ﷺ قَالَ : قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ : « إذا دَعا أَحَدُكُمْ ، فَلْيَعْزِمِ المَسْأَلَةَ ، وَلا يَقُولَنَّ : اللَّهُمَّ إن شِئْتَ فَأَعْطِني ؛ فَإنَّهُ لا مُسْتكرِهَ لَهُ »[٢] متفقٌ عليه .

الشرح

ذكر المؤلف - رحمه اللَّه تعالى - كراهة قول الإنسان اللَّهم اغفر لي إن شئت ، اللَّهم ارحمني إن شئت .

ومن المعلوم أن الإنسان لا ملجأ له إلا اللَّه ﷻ في طلب الخير ودفع الشر ، وإذا كان اللَّه تعالى هو المقصود وهو الذي يريده العباد ويلجؤون إليه ويعتمدون عليه ؛ فإنه لا ينبغي للإنسان أن يقول : اللَّهم اغفر لي إن شئت ، اللَّهم ارحمني إن شئت ، بل هذا حرام ؛ لأن قول القائل : إن شئت ؛ كأنه يقول : إن شئت اغفر لي وإلا ما يهمني ، كأنه يقول : أنا في غنى عنك ، كما تقول لصحابك : إن شئت فزرني ؛ يعني وإن شئت فلا تزرني فأنا لست في حاجة إليك ، ولهذا كان قول القائل : اللَّهم اغفر لي إن شئت ، حرامًا ، فقول المؤلف : كراهة قول الإنسان : اللَّهم اغفر لي إن شئت : يعني كراهة التحريم ، وكذلك لا يقول : اللَّهم ارحمني إن شئت ، بل يعزم ؛ لأنه يسأل جوادًا كريمًا غنيًّا حميدًا ﷻ ، ولأنه مفتقر إلى اللَّه فليكن عازمًا في الدعاء ، يقول : اللَّهم اغفر لي ، اللَّهم ارحمني ، بدون (إن شئت) وكذلك لا يقول : اغفر لي إن شاء اللَّه ، أو يقول الإنسان : غفر اللَّه لك إن شاء اللَّه ، هداك اللَّه إن شاء اللَّه ، كل هذا لا يقال ، وإنما يجزم الإنسان ويعزم .

وبيَّن النبي ﷺ ذلك لأن فيه محظورين ، الأول : قال : « وليعزم المسألة ؛ فإن اللَّه لا مُكره له » يعني اللَّه ﷻ إن غفر لك فمشيئته ، أو رحمك فمشيئته ، لا أحد يكرهه على ذلك ، فهو يفعل ما يشاء ويختار ﷻ ، لا مكره له حتى تقول إن شئت . كذلك أيضًا يقول الإنسان : إن شئت كأنه يتعاظم الشيء ، فيقول : إن شئت فأت به وإن شئت فلا تأت ، واللَّه تعالى لا يتعاظمه شيء أعطاه ، مهما عظم الشيء ؛ فإن اللَّه تعالى غني كريم يعطي الكثير ﷻ ويترك القليل .

والحاصل : أنه لا يحل لك أن تقول : اللَّه اغفر لي إن شئت ، اللَّهم ارحمني إن شئت ، اللَّهم أدخلني الجنة إن شئت ، اللَّهم ارزقني أولادًا إن شئت ، اللَّهم ارزقني زوجة صالحة إن شئت ، كل هذا لا يجوز ، اعزم المسألة ولا تقل فيها المشيئة .

ومن ذلك أيضًا : ما يقوله بعض الناس ، وأظنهم من الصوفية : اللَّهم إني لا أسألك رد القضاء ولكني أسألك اللطف فيه . فإن هذا حرام ، كيف لا تسألُ اللَّه رد القضاء ، وهل يرد القضاء إلا الدعاء ، كما جاء

---

(١) أخرجه البخاري في الدعوات (٦٣٣٩) ومسلم في الذكر والدعاء (٩) وأبو داود في الصلاة (١٤٨٣) وابن ماجه في الدعاء (٣٨٥٤) قوله « فإنه لا مكره له » أي لا يقدر أحد أن يكرهه على نعل أراد تركه ، بل يفعل ما يشاء .

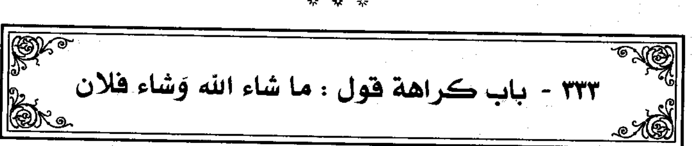
(٢) أخرجه البخاري في الدعوات (٦٣٣٨) ومسلم في الذكر والدعاء (٧) وأحمد في مسنده (١٠١/١) . قوله « فَلْيَعزِمْ المسألة » أي فليطالب بها بشدة عن غير ضعف في الطلب ولا تعليق على المشيئة .

في الحديث : « لا يرد القضاء إلا الدعاء » [١] . وكأنك إذا قلت : اللّٰهم لا أسألك رد القضاء ولكن أسألك اللطف فيه ، كأنك تقول : يا ربي عذبني ولكن ارفق بي ، يا رب أهلك أحبابي ولكن أرفق ، وما أشبه ذلك ، كل هذه الأدعية يجب على الإنسان أن يتوخى فيها ما جاء في الكتاب والسنة وما كان بمعنى ذلك .

نقول بناء على حسن نغمة هذا الدعاء وسجعه فهذا لا يجوز ، فصار عندنا الآن مسألتان ؛ الأولى: لا يَقُلْ : اللّٰهم اغفر لي إن شئت ، اللّٰهم ارحمني إن شئت ، اللّٰهم ارزقني إن شئت ، اللّٰهم اهدني إن شئت ، قُلِ الدعاء ولا تقل إن شئت . والثانية : لا تَقُلْ : اللّٰهم إني لا أسألك رد القضاء ولكن أسألك اللطف فيه ، ولكن قل : اللّٰهم ارفق بي ، اللّٰهم اكفني الشر ، وما أشبه ذلك .

وأما قول الرسول ﷺ لمن وجده مريضًا : « لا بأس ، طهور إن شاء اللّٰه » [٢] فهذا من باب الرجاء وهو خبر ؛ يعني أرجو أن يكون هذا طهورًا . وأيضًا لم يكن بلفظ المخاطبة ، ما قال : إن شئت ، قال : إن شاء اللّٰه ، واللفظ بغير المخاطبة أهون وقعًا من اللفظ الذي يأتي بالمخاطبة ، واللّٰه أعلم .

* * *



٣٣٣ - باب كراهة قول : ما شاء الله وَشاء فلان

١٧٤٥ - عَنْ حُذَيفَةَ بْنِ اليَمَانِ ﷺ عَنِ النبيِّ ﷺ قال : « لا تَقُولوا : ما شاءَ اللّٰهُ وشاءَ فُلانٌ ، ولكِنْ قُولوا : مَا شَاءَ اللّٰهُ ، ثُمَّ شَاءَ فُلانٌ » [٣] رواه أبو داود بإسنادٍ صحيحٍ .

الشرح

ذكر المؤلف رحمه الله كراهة قول الإنسان : ما شاء اللّٰه وشاء فلان ، والكراهة هنا يراد بها التحريم ، يعني أنك إذا قُلْتَ : ما شاء اللّٰه وشاء فلان ، أو ما شاء اللّٰه وشئت ، أو ما أشبه ذلك ، وذلك أن الواو تقتضي التسوية ، إذا قلت : ما شاء اللّٰه وشاء فلان ، كأنك جعلت فلانًا مساويًا لله عز وجل في المشيئة ، واللّٰه تعالى وحده له المشيئة التامة ، يَفعل ما يشاء اللّٰه . ولكن أرشد النبي ﷺ لما نهى عن ذلك ، أرشد إلى قول مباح ، فقال : « ولكن قولوا : ما شاء اللّٰه ثم شاء فلان » ؛ لأن (ثم) تقتضي الترتيب بمهلة ، يعني أن مشيئة اللّٰه فوق مشيئة فلان ، وكذلك قول : ما شاء اللّٰه وشئت ، فإن رجلًا قال للنبي ﷺ : ما شاء اللّٰه وشئت قال : « أجعلتني لله ندًا ؟! » ، يُنكر عليه ، « بل قل : ما شاء اللّٰه

---

(١) أخرجه الترمذي في السنن (٢١٣٩) بلفظه ، وابن ماجه في المقدمة (٩) وأحمد في مسنده (٢٧٧/٥) والحاكم في المستدرك (٤٩٣/١) بنحوه .

(٢) أخرجه البخاري في التوحيد (٧٤٧٠) والبيهقي في السنن (٣٨٣/٣) والطبراني في الكبير (٣٤٢/١١) والبغوي في شرح السنة (٢٢٣/٥) .

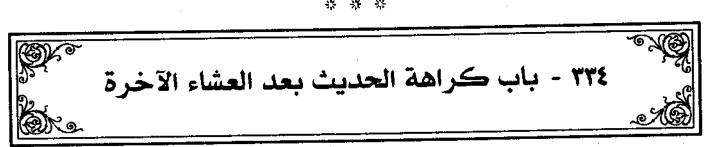
(٣) أخرجه أبو داود في الأدب (٤٩٨٠) وأحمد في مسنده (٣٨٤/٥) والحاكم في المستدرك (٤٦٢/٣) والبيهقي في السنن (٢١٦/٣) .

وحده »[١] . فها هنا مراتب :

المرتبة الأولى : أن يقول : ما شاء اللَّه وحده ، وهذه كلمة فيها تفويض الأمر إلى اللَّه ، واتفق عليها المسلمون ، كل المسلمين يقولون : ما شاء اللَّه كان وما لم يشأ لم يكن[٢] . المرتبة الثانية : يقول : ما شاء اللَّه ثم شاء فلان ، فهذه جائزة ، أجازها النبي ﷺ وأرشد إليها . المرتبة الثالثة : أن يقول : ما شاء اللَّه وشاء فلان ، فهذه محرمة ولا تجوز ، وذلك أن الإنسان جعل المخلوق مساويًا للخالق ﷻ في المشيئة . المرتبة الرابعة : أن يقول : ما شاء اللَّه فشاء فلان بالفاء ، فهذه محل نظر ؛ لأن الترتيب فيها وارد ، بمعنى أنك إذا قلت فشاء ، فالفاء تدل على الترتيب ، لكنها ليست كـ (ثم) ؛ لأن (ثم) تدل على الترتيب بمهلة ، وهذه تدل على الترتيب بتعقيب ، ولهذا فهي محل نظر ، ولهذا لم يرشد إليها النبي ﷺ .

وفي هذا الحديث دليل على أن الإنسان إذا ذكر للناس شيئًا لا يجوز ، فليبين لهم ما هو جائز ، لأنه قال : لا تقولوا ما شاء اللَّه وشاء فلان ، ولكن قولوا : ما شاء اللَّه ثم شاء فلان . وهكذا ينبغي لمعلم الناس إذا ذكر لهم الأبواب الممنوعة ؛ فليفتح لهم الأبواب الجائزة ، حتى يخرج الناس من هذا إلى هذا ، بعض الناس يذكر الأشياء الممنوعة ، يقول : هذا حرام ، هذا حرام ، ولا يبين لهم الأشياء الجائزة ، وهذا سد للأبواب أمامهم دون فتح للأبواب ، وانظر إلى النبيِّ لوط عليه الصلاة والسلام ، قال لقومه : ﴿ أَتَأْتُونَ الذُّكْرَانَ مِنَ الْعَالَمِينَ ﴾ بعده ﴿ وَتَذَرُونَ مَا خَلَقَ لَكُمْ رَبُّكُم مِّنْ أَزْوَاجِكُم ﴾ [الشعراء : ١٦٥، ١٦٦] نهاهم عن الممنوع وأرشدهم إلى الجائز . وهكذا النبي ﷺ قال : « لا تقولوا : ما شاء اللَّه وشاء فلان ، ولكن قولوا : ما شاء اللَّه ثم شاء فلان » . بل انظر إلى قول اللَّه ﷻ : ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَقُولُوا رَاعِنَا وَقُولُوا انظُرْنَا ﴾[٣] [البقرة : ١٠٤] فنهاهم عن كلمة راعنا وأرشدهم إلى الكلمة الجائزة ﴿ وَقُولُوا انظُرْنَا ﴾ ولما جيء إلى النبي ﷺ بتمر ، تمر طيب ، فقال : « أَكُلُّ تمر خيبر هكذا ؟ » قالوا : لا ، لكننا نشتري الصاع من هذا بالصاعين ، والصاعين بثلاثة . قال : « لا ، بع التمر الرديء بالدراهم ، ثم اشتر بالدراهم تمرًا طيبًا »[٤] .

* * *



٣٣٤ - باب كراهة الحديث بعد العشاء الآخرة

والمرادُ بِهِ الحديثُ الذي يكونُ مُبَاحًا في غير هذا الوقت ، وفعلُه وتَركُهُ سواءٌ ، فَأَمَّا الحَدِيثُ المُحَرَّمُ أو المَكْرُوهُ في غَيرِ هذا الوَقْتِ ، فَهوَ في هَذَا الوَقْتِ أَشَدُّ تَحْرِيمًا وَكَرَاهَة . وَأَمَّا الحَدِيثُ في الخَيرِ كَمُذَاكَرَةِ العِلْمِ وحكاياتِ الصَّالِحِينَ ، ومَكارِمِ الأخْلاقِ ، والحَدِيثُ مَعَ الضَّيفِ ، وَمَعَ طَالِب

(١) انظر الحديث بنصه في أحمد في مسنده (٢٦٤/١) ، والبيهقي في السنن (٢١٧/٣) .
(٢) ذكره ابن السيني في عمل اليوم والليلة (٤٠ ، ٤٤) ، والسيوطي في الدر المنثور (٢٥/٦) .
(٣) قوله تعالى : ﴿ رَاعِنَا ﴾ من المراعاة ، وهي المبالغة في الرعاية ، وهي حفظ الغير وتدبير أموره ، وتدارك مصالحه .
(٤) أخرجه البخاري في الاعتصام (٧٣٥٠) ومسلم في المساقاة (٩٤) والنسائي في السنن (٢٧١/٧) والبيهقي في السنن (٢٨٥/٥) .

حَاجَةٍ، ونَحْو ذلكَ، فَلا كَرَاهَةَ فِيهِ، بل هُوَ مُسْتَحَبٌّ، وَكذا الحَديثُ لِعُذْرٍ وعارِضٍ لا كَرَاهَةَ فِيهِ، وقَدْ تَظَاهَرَتِ الأَحَادِيثُ الصَّحيحةُ على كُلِّ مَا ذَكَرْتُهُ.

١٧٤٦ - عَنْ أَبي بَرْزَةَ ﷺ: أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ كَانَ يَكْرَهُ النَّومَ قبلَ العِشاءِ، وَالحَدِيثَ بعْدَهَا[١]. متفقٌ عليه.

١٧٤٧ - وَعَن ابْنِ عُمَرَ ﷺ: أَنَّ رَسُول اللَّهِ ﷺ صَلَّى العِشَاءَ في آخِرِ حَيَاتِهِ، فَلَمَّا سَلَّمَ، قَالَ: «أَرَأَيتَكُمْ لَيلَتَكُمْ هذِهِ؟ فَإِنَّ عَلى رَأْسِ مِائَةِ سَنةٍ لا يَبْقَى مِمَّنْ هُوَ عَلى ظَهْرِ الأَرْض اليَومَ أَحَدٌ»[٢] متفقٌ عليه.

١٧٤٨ - وَعَنْ أَنَسٍ ﷺ: أَنَّهمُ انْتَظَرُوا النَّبيَّ ﷺ، فَجَاءَهُمْ قريبًا منْ شَطْرِ اللَّيلِ فَصَلَّى بِهِم - يعْني العِشَاءَ - قَالَ: ثُمَّ خَطَبَنَا فقال: «ألا إِنَّ النَّاسَ قَدْ صَلُّوا ثُمَّ رَقَدُوا، وَإِنَّكُمْ لَنْ تَزالُوا في صَلاةٍ مَا انْتَظَرْتُمُ الصَّلاةَ»[٣] رواه البخاري.

الشرح

ذكر المؤلف ﷺ كراهة الحديث بعد صلاة العشاء الآخرة، ثم ذكر ﷺ أن الحديث ينقسم إلى ثلاثة أقسام، قسم مكروه محرم، وقسم مندوب إليه، وقسم مباح، أما المكروه والمحرم: فإنه يزداد كراهة وتحريمًا إذا كان بعد صلاة العشاء، وأما المباح: فهو الذي كان النبي ﷺ يكرهه بعد العشاء، وأما المندوب: فإنه مندوب ولا يضر ولو كان بعد صلاة العشاء. **فأما الأول**: فمثل الحديث في الغيبة والنميمة وقول الزور والاستماع إلى اللَّهو والغناء ومشاهدة ما لا يحل مشاهدته، فهذا حرام في كل وقت وحين، ويزداد إثمًا إذا كان بعد العشاء الآخرة؛ لأنه في وقت يكره فيه الكلام المباح، فكيف بالمحرم والمكروه؟ **والقسم الثاني**: الكلام اللغو الذي ليس حرامًا ولا مكروهًا ولا مندوبًا وهو أكثر كلام الناس، فهذا كان النبي ﷺ يكرهُه بعد صلاة العشاء، وذلك لأنه إذا تحدث الإنسان بعد صلاة العشاء يطول به المجلس ثم يتأخر نومه فيكسل عن قيام الليل وعن صلاة الفجر، وما أدى إلى تهاون في الأمر المشروع فإنه يكون مكروهًا. **وأما المندوب**: فهو التشاغل بالعلم مطالعة أو حفظًا أو مذاكرة. والحديث مع الضيف ليؤنسه ويكرمه بحديثه، والحديث مع الأهل لتأليف قلوبهم، وما أشبه ذلك، وكذلك الحديث العارض الذي ليس دائمًا، كل هذا لا يضره، بل إنه مستحب إذا كان المقصود به حصول خير.

---

(١) أخرجه البخاري في مواقيت الصلاة (٥٦٨)، ومسلم في المساجد ومواضع الصلاة (٢٣٧) بنحوه. وأحمد في مسنده (٤/٤٢١)، والترمذي في الصلاة (١٦٨).

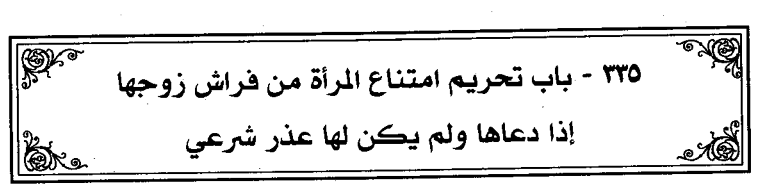
(٢) هذا الحديث لم يقم الشارح ﷺ بشرحه، وقد أخرجه البخاري في العلم (١١٦)، ومسلم في فضائل الصحابة (٢١٧)، والحاكم في المستدرك (٢/٣٧). قوله: «أرأيتكم» أي أخبروني.

(٣) هذا الحديث لم يقم الشارح ﷺ بشرحه، وقد أخرجه البخاري في مواقيت الصلاة (٦٠٠)، والبيهقي في السنن (٣/٦٥). قوله: «شطر الليل» أي منتصف الليل. قوله «ما انتظرتم الصلاة أي مدة انتظاركم للصلاة».

ثم ذكر المؤلف أحاديث منها : حديث أبي برزة ﷺ « أن النبي ﷺ كان يكره النوم قبل العشاء والحديث بعدها » وذلك لأن النوم قبل العشاء يؤدي إلى الكسل إذا قام ليصلي وربما استغرق به النوم حتى أخر الصلاة عن وقتها ، فلذلك كان النبي ﷺ يكره النوم قبل صلاة العشاء من أجل أن يكون الإنسان نشيطًا . وأما النعاس ؛ فهذا ليس باختيار الإنسان ولا يضره .

والشاهد من هذا الحديث قوله : « والحديث بعدها » ، فإن الحديث بعد العشاء كرهه النبي ﷺ . وأما إذا كان في خير فإنه لا بأس به ، ولهذا كان النبي ﷺ يحدث أصحابه بعد صلاة العشاء وينصحهم ، ويبين لهم عليه الصلاة والسلام ، فهذا لا بأس به . واللَّه الموفق .

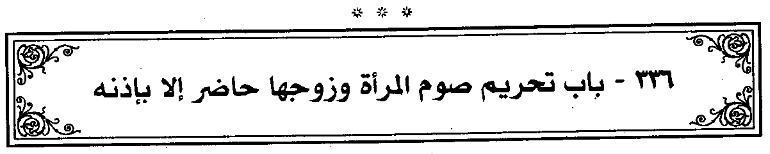
* * *



٣٣٥ - باب تحريم امتناع المرأة من فراش زوجها إذا دعاها ولم يكن لها عذر شرعي

١٧٤٩ - عَنْ أَبي هُرَيرَةَ ﷺ قَالَ : قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ : « إذا دَعَا الرَّجُلُ امْرَأَتَهُ إلى فِرَاشِهِ فأَبَتْ ، فَبَاتَ غَضْبَانَ عَلَيهَا ؛ لَعَنَتْهَا المَلائِكَةُ حَتَّى تُصْبحَ » متفقٌ عليه . وفي رواية : حَتَّى « تَرْجعَ » (١) .

* * *



٣٣٦ - باب تحريم صوم المرأة وزوجها حاضر إلا بإذنه

١٧٥٠ - عَنْ أَبي هُرَيرَةَ ﷺ أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ قَالَ : « لا يَحِلُّ للمَرْأَةِ أَنْ تَصُومَ وَزَوجُهَا شَاهِدٌ إلا بِإِذْنِهِ ، وَلا تَأْذَنَ في بَيتِهِ إلا بِإِذْنِهِ » (٢) متفقٌ عليه .

الشرح

هذان البابان ذكرهما النووي رحمه الله في بيان ما يجب على [الزوجة تجاه زوجها] (٣) ، واللَّه سبحانه وتعالى أوصى : بالجار ذي القربى والجار الجنب و (الصاحب بالجنب) ، والصاحب بالجنب قيل : إنه الزوج ، وقيل : الصاحب بالجنب يعني في السفر .

فذكر الحديث الأول : أن النبي ﷺ قال : « إذا دعا الرجل امرأته إلى فراشه فأبت أن تجيء ؛ لعنتها الملائكة حتى تصبح » - أو قال : « حتى ترجع » . وذلك أن الواجب عليها إذا دعاها الرجل

---

(١) أخرجه البخاري في بدء الخلق (٣٢٣٧) ومسلم في النكاح (١٢٢) والبيهقي في السنن (٢٩٢/٧) وأبو داود في النكاح (٢١٤١) .

(٢) أخرجه البخاري في النكاح (٥١٩٥) ومسلم في الزكاة (٨٤) بنحوه . قوله : « وزوجها مشاهد » أي مقيم في البلد .

(٣) ذكر المؤلف رحمه الله عبارة نعتقد أنها تحتاج إلى ما يوضحها حيث قال : « هذان البابان ذكرهما النووي رحمه الله في بيان ما يجب على المسلم لأخيه واللَّه سبحانه ... » وقد رأينا أن نضع هذه العبارة حتى تؤدي الغرض وتوضحه .

إلى حاجته أن تجيبه إلا إذا كان هناك عذر شرعي ؛ كما لو كانت مريضة لا تستطيع معاشرته إياها ، أو كان عليها عذر يمنعها من الحضور إلى فراشه ، فهذا لا بأس ، وإلا فإنه يجب عليها أن تحضر وأن تجيبه ، وإذا كان هذا في حق الزوج على الزوجة ، فكذلك ينبغي للزوج إذا رأى من أهله أنهم يريدون التمتع ؛ فإنه ينبغي أن يجيبهم ليعاشرها كما تعاشره ، فإن اللّه تعالى قال : ﴿ وَعَاشِرُوهُنَّ بِٱلْمَعْرُوفِ ﴾ [النساء : ١٩] .

وأما الثاني : فإنه لا يجوز للمرأة أن تصوم وزوجها شاهد إلا بإذنه ، ولا تأذن في بيته إلا بإذنه ، المسألة الأولى الصيام ، والصيام نوعان : نوع واجب ؛ وهذا تصومه بغير إذن زوجها ، ونوع تطوع ؛ فلا تصوم إذا كان شاهدًا إلا بإذنه ، أما إذا كان غائبًا ؛ فهي حرة ، لكن إذا كان شاهدًا فلا تصوم ، لأنه ربما يدعوها إلى حاجته وهي صائمة فيقع في حرج ، وتقع هي كذلك في حرج .

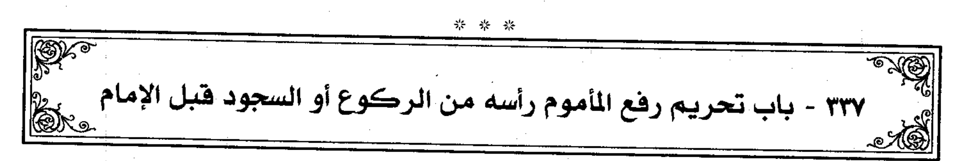
أما إذا كان في صوم الواجب ، كما لو كان عليها أيام من رمضان ولم يبق على رمضان الثاني إلا بمقدار ما عليها ؛ فهنا يجب عليها أن تصوم ، سواء أذن أم لم يأذن .

فمثلًا : إذا كانت المرأة عليها من رمضان عشرة أيام ، ولم يبق على رمضان الثاني إلا عشرة أيام ؛ فهنا تصوم سواء أذن أم لم يأذن ، بل لو منعها من الصوم فلها أن تصوم ؛ لأن هذا واجب ، أما إذا كان عليها عشرة أيام من رمضان وقد بقي على رمضان الثاني شهر أو شهران أو أكثر ، فله أن يمنعها من الصوم ، ولا يحل لها أن تصوم إلا بإذنه ، وذلك أن الوقت واسع ، وإذا كان واسعًا فلا ينبغي لها أن تضيق على زوجها . وإذا أذن لها وسامحها ووافق ، فإن كان الصوم واجبًا حَرُم عليه أن يفسده بالجماع ؛ لأنه أذن فيه ، وقد شرعت في صوم الواجب فيلزمها إتمامه . وإن كان تطوعًا ؛ فله أن يجامعها فيه ولو فسد الصوم ؛ لأن التطوع لا يلزم إتمامه .

لكن لو قالت : أنت أذنت لي وهذا وعد منك بأنك لا تفسد صومي ، وجب عليه الوفاء وحرم عليه أن يفسدَ صومها . لقول اللّه تعالى : ﴿ وَأَوْفُوا۟ بِٱلْعَهْدِ ۖ إِنَّ ٱلْعَهْدَ كَانَ مَسْـُٔولًا ﴾ [الإسراء : ٣٤] .

وأما قوله : « ولا تأذن في بيته إلا بإذنه » يعني لا تُدْخل أحدًا إلى البيت إلا بإذنه ، فإن منعها أن تدخل أحدًا معينًا ، قال : فلان لا يدخل عليَّ ، حرم عليها أن تدخلَه بيته ، لأن البيت له ، وأما إذا كان رجلًا واسع الصدر لا يهمه أن يدخل إلى أهله أحد ، فلا يلزمها أن تستأذنه لكل واحد . واللّه الموفق .

* * *



٣٣٧ - باب تحريم رفع المأموم رأسه من الركوع أو السجود قبل الإمام

١٧٥١ - عَنْ أَبي هُرَيرَةَ ﷺ أَنَّ النَّبيَّ ﷺ قَالَ : « أَمَا يَخْشَى أَحَدُكُمْ إذا رَفَعَ رَأْسَهُ قَبْلَ الإمَامِ أَنْ يَجْعَلَ اللّه رَأْسَهُ رَأْسَ حِمَارٍ ! أو يَجْعَلَ اللَّهُ صُورَتَهُ صُورَةَ حِمارٍ ؟ » [(١)] متفقٌ عليه .

---

(١) أخرجه البخاري في الأذان (٦٩١) ومسلم في الصلاة بنحوه (١١٤) ، وأحمد في مسنده (٢/٤٦٩ ، ٥٠٤) .

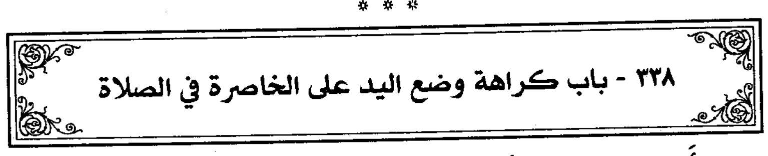
الشرح

هذه أفعال بَيَّنَ النبيُّ ﷺ حكمها فيما ساقه المؤلف من الأحاديث في كتابه رياض الصالحين ، فالأول : تحريم رفع المأموم رأسه قبل إمامه في الركوع والسجود ، وذلك أن المأموم مأمور بأن يتابع الإمام ، فلا يتقدم عليه ، ولا يتأخر عنه ، ولا يوافقه ، ولكن يتابعه ، فأما سَبْقُهُ ، أي : التقدمُ عليه ، فإن كان في تكبيرة الإحرام ، لم تنعقد الصلاة ، يعني لو كبر للصلاة قبل أن يكبر إمامه ، ولو كان ناسيًا أو ساهيًا ؛ فإن صلاته لا تنعقد ، وعليه أن يعيدها . وإن كان في الركوع أو السجود ، يعني سبق الإمام في الركوع والسجود ، وهو متعمد يعلم أن ذلك حرام ، فصلاته باطلة ، تبطل صلاته ؛ لأنه فعل فعلًا محرمًا في الصلاة ، فبطلت صلاته ..! كما لو تكلم .

وأما الموافقة : فأن يشرع مع الإمام إذا شرع في الشيء . مثلًا : يركع مع ركوع الإمام ، يسجد مع سجوده ، يقوم مع قيامه ، فهذا إن كان في تكبيرة الإحرام لم تنعقد صلاته ، وإن كان في غيرها ؛ فهو منهي عنه ، قال بعضهم : مكروه ، وقال بعضهم : حرام [١] . وأما المسابقة بأن يأتي بالشيء قبل الإمام ، فسبق أن قلنا : أنه في تكبيرة الإحرام لا تنعقد الصلاة ، أما في الركوع والسجود ؛ فقد حذر منه النبي ﷺ في الرفع منهما ، فقال : « أما يخشى أحدكم إذا رفع رأسه قبل الإمام أن يحول اللَّه رأسه رأس حمار ، أو يجعل صورته صورة حمار » ، وهذا وعيد ؟! يخشى أن الإنسان إذا رفع رأسه من الركوع قبل إمامه ، أو من السجود قبل إمامه ، أن يجعل اللَّه صورته صورة حمار ، والعياذ باللَّه ، أو يحول رأسه إلى رأس حمار .

وإنما اختار النبي ﷺ الحمار دون سائر البهائم ؛ لأن الحمار أبلد ما يكون من البهائم ، فأبلد البهائم ، الحمار ، ولهذا مُثِّلِ به اليهود ، الذين حُملوا التوراة ثم لم يحملوها فقال : ﴿ كَمَثَلِ ٱلْحِمَارِ يَحْمِلُ أَسْفَارًاۢ ﴾ [الجمعة : ٥] وهذا يدل على تحريم سبق الإمام في الرفع من الركوع والرفع من السجود ، وكذلك السبق إلى الركوع والسجود حرام على المأموم ، وأما التأخر عن الإمام كما يفعله بعض الناس ، إذا سجد وقام الإمام من السجود ، تجده يبقى ساجدًا ، يزعم أنه يدعو اللَّه ، وأنه في خير ودعاء ، نقول : نعم أنت في خير ودعاء لو كنت وحدك ، أما وأنت مع الإمام ؛ فإن تأخرك عن الإمام مخالف لهدي النبي ﷺ ، لقوله ﷺ : « فإذا ركع فاركعوا » [٢] والفاء تدل على الترتيب والتعقيب ، فالمشروع للإنسان أن يبادر وألا يتأخر .

* * *



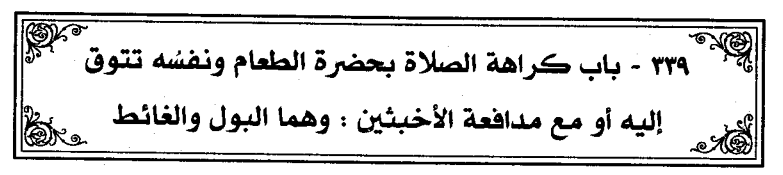
٣٣٨ - باب كراهة وضع اليد على الخاصرة في الصلاة

١٧٥٢ - عَنْ أَبي هُرَيرَةَ ﷺ قالَ : نُهِي عن الخَصْرِ في الصَّلاةِ [٣] . متفقٌ عليه .

---

(١) انظر ذلك في الهداية (١٨٤/١) الوسيط (٢٣٦/٢) . (٢) سبق تخريجه .

(٣) أخرجه البخاري في العمل في الصلاة (١٢١٩) بلفظه ، ومسلم في المساجد ومواضع الصلاة (٤٦) بنحوه . قوله : « الخصر في الصلاة » هو أن يصلي المرء وهو يضع يده على خاصرته .



٣٣٩ - باب كراهة الصلاة بحضرة الطعام ونفسه تتوق إليه أو مع مدافعة الأخبثين : وهما البول والغائط

١٧٥٣ - عَنْ عَائِشَةَ رَضِيَ اللهُ عَنْهَا قَالَتْ : سَمِعْتُ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ يَقُولُ : « لا صَلاةَ بِحَضْرَةِ طَعَامٍ ، وَلا هُوَ يُدافِعُهُ الأَخْبَثانِ » (١) رواه مسلم .

الشرح

ذكر المؤلف كراهة أن يصلي الرجل ويدُه على خاصرته .

والخاصرة : ما بين الحقو وأسفل الأضلاع ، وذلك أن الإنسان مأمور إذا كان في صلاته أن يضع يده اليمنى على ذراعه اليسرى ، أو على الرسغ - أي ما بين الكف والذراع - ويرفعهما على صدره ، هذه هي السنة . يفعل ذلك في القيام قبل الركوع وبعد الركوع ، وأما وضعها على الخاصرة ؛ فإن النبي ﷺ نهى عن ذلك .

بعض الناس يجعل اليدين على القلب ، وهذا غلط ، الشرع ليس له مدخل في العقل ، الشرع يُتَلقى من النبي ﷺ ، ولم يرد عن النبي ﷺ أنه كان يضم يده اليمنى على اليسرى ثم يجعلها على الخاصرة ، بل هذا داخل في النهي ، وهذا النهي للكراهة ، كما قال المؤلف رَحِمَهُ اللهُ .

ثم ذكر المؤلف في هذا الباب الذي بعده كراهة الصلاة بحضرة الطعام ..

فعن عائشة رَضِيَ اللهُ عَنْهَا أن النبي ﷺ قال : « لا صلاة بحضرة طعام ، ولا وهو يدافعه الأخبثان » ، يعني إذا قُدم الطعام للإنسان وهو يشتهيه ؛ فإنه لا يصلي حتى يقضي حاجته منه ، حتى ولو سمع الناس يصلون في المسجد ، فله أن يبقى ويأكل حتى يشبع ، فقد كان ابن عمر رَضِيَ اللهُ عَنْهُمَا يسمع قراءة الإمام يُصلي وهو يتعشى ولا يقوم حتى يفرغ ، وذلك لأن الإنسان إذا دخل في الصلاة وهو مشغول القلب ؛ فإنه لا يطمئن في صلاته ، ولا يخشع فيها ، يكون قلبه عند طعامه ، والإنسان ينبغي له أن يصلي وقد فرغ من كل شيء ، ﴿ فَإِذَا فَرَغْتَ فَٱنصَبْ ۝ وَإِلَىٰ رَبِّكَ فَٱرْغَب ﴾ (٢) [الشرح : ٧، ٨] ولكنه لا ينبغي أن يجعل ذلك عادة له ، بحيث لا يقدم عشاءه أو غداءه إلا عند إقامة الصلاة .

ثانيًا : لا يصلي وهو يدافعه الأخبثان ، البول والغائط ، فإن هذا أيضًا يذهب الخشوع ؛ لأنه لا يدري الإنسان أيدافع البول والغائط الذي حاصره ، أم يقبل على صلاته ، ولأن حبس البول أو الغائط يضر البدن ، فإن اللّه سبحانه وتعالى جعل للبول والغائط أمكنة متى امتلأت فلابد من إخراجها ، فكون الإنسان يحبس ذلك ضرر عليه ، فإذا قال قائل : لو ذهبت أقضي الحاجة ، فاتتني الصلاة مع الجماعة ، قلنا : لا بأس اذهب ، واقْضِ حاجتك ولو فاتتك الصلاة ، ولو قال : إذا ضاق الوقت وهو (حسران) فبي بول أو غائط ، هل يقضي حاجته ثم يصلي ولو فات الوقت ، أو يصلي في الوقت ولو كان مشغول

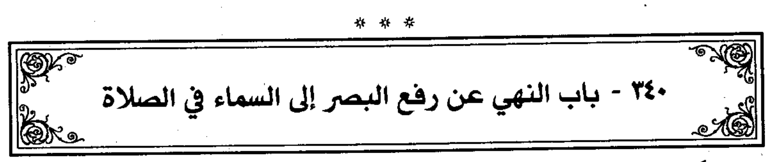
---

(١) أخرجه مسلم في المساجد ومواضع الصلاة (٦٧) ، والبيهقي في السنن (٧٣/٣) .

(٢) قوله : ﴿ فَٱنصَبْ ﴾ أي فأتبع العبادة بعبادة أخرى . قوله : ﴿ فَرَغْتَ ﴾ أي اجعل رغبتك وضراعتك ومسألتك إلى ربك .

القلب . ففي هذه خلاف بين العلماء ، ذهب شيخ الإسلام ابن تيمية رحمه اللّٰه تعالى إلى أنه يقضي حاجته ولو خرج الوقت ، لأن هذا ضرورة وفيه ضرر على بدنه لو حبسه . وقال أكثر العلماء : لا يخرج الوقت من أجل ذلك ، بل يصلي ويخفف ولعله لا يتضرر بذلك [(١)] .

* * *



٣٤٠ - باب النهي عن رفع البصر إلى السماء في الصلاة

١٧٥٤ - عَنْ أَنَسِ بْنِ مَالِكٍ ﷺ قَالَ : قَالَ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ : « مَا بَالُ أَقْوَام يَرْفَعُونَ أَبْصَارَهُمْ إِلى السَّمَاءِ فِي صَلاتِهِمْ » فَاشْتَدَّ قَوْلُهُ فِي ذلكَ حَتَّى قالَ : « لَيَنْتَهُنَّ عَنْ ذلكَ ، أَو لَتُخْطَفَنَّ أَبْصَارُهُمْ » [(٢)] رواه البخاري .

الشرح

روى أنس عن النبي ﷺ أنه نهى أن يرفع الرجل بصره إلى السماء ، فقال : « ما بال أقوام يرفعون أبصارهم إلى السماء في الصلاة » - يعني ما شأنهم ؟ لماذا يرفعون أبصارهم إلى السماء ؟ - « لينتهن عن ذلك أو لتخطفن أبصارهم » وهذا وعيد يدل على أنه يحرم على الإنسان أن يرفع بصره إلى السماء وهو يصلي .

وقد رأيت بعض الناس إذا رفع من الركوع قال : سمع اللّٰه لمن حمده ، رفع بصره ووجهه ، وهذا حرام عليه ، حتى إن بعض العلماء رحمهم اللّٰه قال : إن فعل بطلت صلاته ، لأنه ارتكب منهيًا عنه ، نهيًا خاصًا في الصلاة ، والقاعدة الشرعية : أن من ارتكب شيئًا منهيًا عنه في العبادة بخصوصه ؛ فإن عبادته تبطل ، ثم إن هؤلاء عللوا بعلة ثانية ، وقالوا : (إن هذا سوء أدب مع اللّٰه ، والمطلوب من المرء وهو يصلي أن يخشع ويطأطأ رأسه) ، وقالوا أيضًا في التعليل : (إن الإنسان مأمور بأن يستقبل القبلة بجميع بدنه ، فإذا رفع بصره إلى السماء صار وجهه إلى السماء لا إلى القبلة ، فتبطل صلاته) ، فالمسألة على خطر ، ولهذا اشتد قول النبي ﷺ في ذلك ، حتى قال : « لينتهن أو لتخطفن أبصارهم » ، فإذا قال قائل : إذًا أين أضع رأسي ؟! قلنا : ضع بصرك حيث مكان سجودك ، إلا في حال رفع السبابة في التشهد فانظر إلى السبابة ؛ لأن النبي ﷺ حين رفعها لا يتجاوز بصرُه إشارَته ، واستثنى بعض العلماء رحمهم اللّٰه من ذلك النظر إلى الإمام ليقتدي به لا سيما إذا كان الإنسان لا يسمع ، ولا يمكن اقتداؤه بإمامه إلا بالنظر ؛ فإنه ينظر إليه ؛ لأن الصحابة كانوا يفعلون ذلك ، وقد

---

(١) فتاوى ابن تيمية (٥٩/٢٢ ، ٦٠) .

(٢) أخرجه البخاري في الأذان (٧٥٠) ، وأبو داود في الصلاة (٩١٣) ، وابن ماجه في إقامة الصلاة (١٠٤٤) وأحمد في مسنده (١٠٩/٣) . قوله : « أو ليخطفن » أي ليسلبن اللّٰه أبصارهم بسرعة ، أي أن أحد الأمرين واقع لا محالة إما الانتهاء منهم ، أو خطف أبصارهم من اللّٰه تعالى عقوبة على فعلهم .

صعد النبي ﷺ المنبر ، وجعل يصلي عليه ، وقال : « إنما صنعت ذلك لتأتموا بي ولتعلموا صلاتي »[١] ولا يمكن أن يحصل تعلم الصلاة إلا وهم ينظرون إليه ، ولهذا كانوا يحكون اضطراب لحيته في الصلاة السرية ، مما يدل على أنهم كانوا ينظرون إلى إمامهم ، واستثنى بعض العلماء إذا كان الإنسان في المسجد الحرام والكعبة أمامه ؛ فإنه يجعل بصره إلى الكعبة ، ولكن هذا الاستثناء ضعيف . الصحيح أنه لا ينظر إلى الكعبة حال الصلاة ؛ لأنه لم يرد عن النبي ﷺ ، ولأنه يوجب التشويش حيث ينظر إلى الناس يطوفون ويذهبون ويجيئون ، ثم إن قول بعضهم : إن النظر إلى الكعبة عبادة[٢] خطأ ، ليس بصحيح ، لم يرد عن النبي ﷺ فيما نعلم حديث صحيح ولا ضعيف أن النظر إلى الكعبة عبادة .

* * *

٣٤١ - باب كراهة الالتفات في الصلاة لغير عذر

١٧٥٥ - عَنْ عَائِشَةَ رضي الله عنها قَالَتْ : سَأَلْتُ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ عَن الالتِفَاتِ في الصَّلاةِ فَقَالَ : « هُوَ اخْتِلاسٌ يَخْتَلِسُهُ الشَّيطَانُ مِنْ صَلاةِ العَبْدِ »[٣] رواه البخاري .

١٧٥٦ - وَعَنْ أَنَسٍ رضي الله عنه قَالَ : قَالَ لِي رَسُولُ اللَّهِ ﷺ : « إياكَ وَالالتفاتَ في الصَّلاةِ ، فَإِنَّ الالتفَاتَ في الصَّلاة هَلَكَةٌ ، فَإِنْ كَانَ لابُدَّ ؛ فَفي التَّطَوُّعِ لا في الفرِيضَةِ »[٤] .

رواه التِّرمذي وقال : حديثٌ حسنٌ صَحِيحٌ .

الشرح

ذكر المؤلف - رحمه اللَّه تعالى - كراهة الالتفات في الصلاة مع غير حاجة .

فالإنسان إذا قام يصلي فإنه بين يدي اللَّه عز وجل ، فلا ينبغي له أن يلتفت لا بقلبه ، ولا بوجهه إلى غير اللَّه سبحانه وتعالى .

أما الالتفات في القلب : فهو أن الإنسان يفكر في غير ما يتعلق بالصلاة ، مثل الهواجس التي تعتري كثيرًا من المصلين ، فإن هذا التفات في القلب وهو أشد إخلالًا للصلاة من الالتفات بالبدن ؛ لأنه ينقص من الصلاة حتى إن الإنسان ينصرف من صلاته ما كتب له إلا عشرها أو أقل ، حسب حضور قلبه .

وأما الالتفات بالوجه : فهو أن يلتفت الإنسان بلي عنقه ، يلوي عنقه يمينًا أو شمالًا ، وذلك لأن

---

(١) أخرجه البخاري في الجمعة (٩١٧) ومسلم في المساجد (٤٥) وأحمد في مسنده (٣٣٩/٥) .

(٢) ذكره الهندي في (كنز العمال) (٣٤٦٤٧) ، وابن الجوزي في (العلل المتناهية) (٣٤٤/٢) ، والعجلوني في (كشف الخفاء) (٤٣٦/٢) ، وذكر أنه قول لعائشة رضي الله عنها .

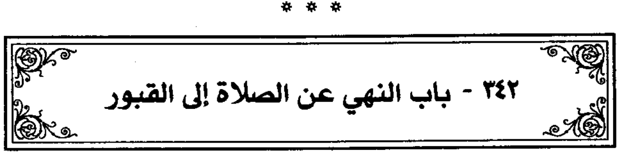
(٣) أخرجه البخاري في الأذان (٧٥١) ، والترمذي في الصلاة (٥٩٠) ، والحاكم في المستدرك (٢٣٧/١) .

(٤) أخرجه الترمذي في الصلاة (٥٨٩) .

الإنسان مأمور في صلاته أن يكون وجهه تلقاء القبلة ، لا يميل يمينًا ولا شمالًا [١] . فإن فعل ، فقد سألت عائشة النبي ﷺ عن الالتفات في الصلاة ، فقال : « هو اختلاس يختلسه الشيطان من صلاة العبد » . والاختلاس : أخذ الشيء بخفية يعني أن الشيطان يتسلط على الإنسان في صلاته فيؤدي إلى أن يتلفت يمينًا أو شمالًا لأجل أن ينقص أجره ، فإن اللّه سبحانه وتعالى مقبل على العبد بوجهه ، فإذا أعرض الإنسان عن ربه ؛ فإنه يوشك أن يُعرض اللّه عنه ، ولهذا نهى النبي ﷺ عن الالتفات في الصلاة ، كما في حديث أنس بن مالك ، قال : « فإن الالتفات في الصلاة هلكة » ، ولكن إذا كان هناك حاجة ، فلا بأس ، كما لو سمعت صوت حيوان يريد أن يعدو عليك ، والتفت فلا بأس ، أو إنسانًا في حاجة مهمة والتفت فلا بأس ، بشرط أن يكون الالتفات بالرأس فقط .

وأما الالتفات بالبدن ؛ فإنه يبطل الصلاة ؛ لأنه انحراف عن القبلة ، ومن شروط الصلاة استقبال القبلة ، يوجد بعض الناس لا يلتفت بلي العنق ، ولكن يلتفت بالبصر ، تجده يجعل بصره يحوم يمينًا وشمالًا إن قام أحد نظر إليه ، وإن تحرك نظر إليه ، وهذا لا شك ينقص أجر الصلاة ، فعلى الإنسان أن يكون بصرُه تلقاءَ وجهه ، وأن ينظر إلى محل سجود ولا ينظر يمينًا ولا شمالًا ، واللّه الموفق .

* * *



٣٤٢ - باب النهي عن الصلاة إلى القبور

١٧٥٧ - عَنْ أَبي مَرْثَدٍ كَنَّازِ بْنِ الحُصَينِ ﷺ قَالَ : سَمِعْتُ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ يقُولُ : « لا تُصَلُّوا إلى القُبُورِ ، وَلا تَجْلِسُوا عَلَيها » [٢] رواه مسلم .

* * *

٣٤٣ - باب تحريم المرور بين يدي المصلي

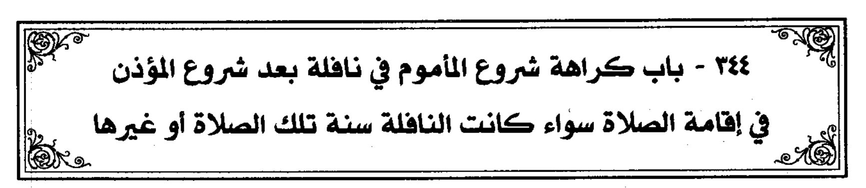
١٧٥٨ - عَنْ أَبي الجُهَيم عَبْدِ اللَّهِ بن الحَارِثِ بْنِ الصِّمَّةِ الأَنْصَارِيِّ ﷺ قَالَ : قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ : « لَو يَعْلَمُ المَارُّ بَينَ يَدَي المُصَلِّي مَاذا عَلَيهِ ؛ لَكَانَ أَنْ يَقِفَ أَرْبَعِينَ خَيرًا لَهُ مِنْ أَنْ يَمُرَّ بَينَ يَدَيهِ » قَالَ الرَّاوِي : لا أَدْرِي قَالَ أَرْبَعِينَ يَومًا ، أو أَرْبَعِينَ شَهْرًا ، أَو أَرْبَعِين سَنَةً [٣] . متفقٌ عليه .

---

(١) راجع ذلك في بدائع الصنائع (١/١١٨) ، المغني (١/٤٣٨) ، المجموع (٣/٩٢) .

(٢) هذا الحديث لم يقم الشارح رحمه الله بشرحه ، والحديث أخرجه مسلم في الجنائز (٩٨) والإمام أحمد في المسند (٤/١٣٥) والنسائي في السنن (٢/٦٧) .

(٣) هذا الحديث لم يقم الشارح رحمه الله بشرحه ، والحديث أخرجه البخاري في الصلاة (٥١٠) ومسلم في الصلاة (٢٦١) وأبو داود في الصلاة (٧٠١) والإمام أحمد في الصلاة (٤/١٦٩) .



٣٤٤ - باب كراهة شروع المأموم في نافلة بعد شروع المؤذن في إقامة الصلاة سواء كانت النافلة سنة تلك الصلاة أو غيرها

١٧٥٩ - عَنْ أَبي هُرَيرَةَ ﷺ عَنِ النبيِّ ﷺ قَالَ : « إذا أُقِيمَتِ الصَّلاةُ ؛ فَلا صَلاةَ إلا المَكْتُوبَة »[1] رواه مسلم .

* * *

٣٤٥ - باب كراهة تخصيص يوم الجمعة بصيام أو ليلته بصلاة من بين الليالي

١٧٦٠ - عَنْ أَبي هُرَيرَةَ ﷺ عَنِ النبيِّ ﷺ قَالَ : « لا تَخُصُّوا لَيلَةَ الجُمُعَةِ بِقِيَامٍ مِنْ بَينِ اللَّيَالي ، وَلا تَخُصُّوا يَومَ الجُمُعَةِ بِصِيَامٍ مِنْ بَينِ الأيَّامِ إلا أَنْ يَكُونَ في صَومٍ يَصُومُهُ أَحَدُكُمْ »[2] رواه مسلم .

١٧٦١ - وَعَنْهُ قَالَ : سَمِعْتُ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ يَقُولُ : « لا يَصُومَنَّ أَحَدُكُم يَومَ الجُمُعَةِ إلَّا يَومًا قَبْلَهُ أَو بَعْدَهُ »[3] متفقٌ عليه .

١٧٦٢ - وَعَنْ مُحَمَّدِ بْنِ عَبَّادٍ قَالَ : سَأَلْتُ جَابِرًا ﷺ : أَنَهَى النَّبيُّ ﷺ عَنْ صَومِ يوم الجُمُعَةِ ؟ قَالَ : نَعَمْ[4] . متفقٌ عليه .

١٧٦٣ - وَعَنْ أُمِّ المُؤْمِنِينَ جُويرِيَةَ بِنْتِ الحَارِثِ ﷺ أَنَّ النَّبيَّ ﷺ دَخَلَ عَلَيهَا يَومَ الجُمُعَةِ وَهِيَ صَائِمَةٌ ، فقَالَ : « أَصُمْتِ أَمْسِ ؟ » قَالَتْ : لا ، قَالَ : « تُرِيدِينَ أَنْ تَصُومِي غَدًا ؟ » قَالَتْ : لا ، قَالَ : « فَأَفطِرِي »[5] رواه البخاري .

الشرح

ذكر المؤلف رحمه الله كراهة شروع المأموم في نافلة بعد أن تُقام الفريضة .

يعني أنه إذا أقيمت الصلاة ؛ فإنه لا يَشْرَع المأموم في نافلة ، سواء كانت هذه النافلة تحية مسجد أو تطوعًا مطلقًا ، أو راتبةَ تلك الصلاة ، مثل : أن تحضر لصلاة الفجر وتقام الصلاة ، فلا يجوز أن

(١) أخرجه مسلم في صلاة المسافرين (٦٣) وأحمد في مسنده (٤٥٥/٢) والترمذي في الصلاة (٤٢١) . قوله «إذا أقيمت الصلاة » أي أقيمت الجماعة المفروضة . قوله « إلا المكتوبة » أي الصلاة الحاضرة وقت الإمامة .

(٢) أخرجه مسلم في الصيام (١٤٨) والحاكم في المستدرك (٣١١/١) .

(٣) أخرجه البخاري في الصوم (١٩٨٥) ومسلم في الصيام بنحوه (١٤٧) وأبو داود في الصيام (٢٤٢٠) والترمذي في الصوم (٧٤٣) .

(٤) أخرجه البخاري في الصوم (١٩٨٤) ومسلم في الصيام (١٤٦) قوله « نهى عن صوم يوم الجمعة » أي منفردًا .

(٥) أخرجه البخاري في الصوم (١٩٨٦) وأحمد في مسنده (١٨٩/٢) وأبو داود في الصوم (٢٤٢٢) .

تصلي سنة الفجر ؛ لأنه أقيمت الصلاة ، ودليل ذلك : حديث أبي هريرة ﷺ أن النبي ﷺ قال : « إذا أقيمت الصلاة فلا صلاة إلا المكتوبة » فقوله : « لا صلاة » عام ، يشمل أي صلاة كانت ، حتى لو كان على الإنسان فريضة فائتة ، نسيها ولم يذكرها إلا حين أقيمت الصلاة ؛ فإنه لا يصليها ، ولكن يدخل مع الإمام بنية تلك الفريضة التي فاتته ولا ينفرد عن الناس ، فمثلًا إذا أقيمت صلاة العصر ، ودخلت المسجد وأنت لم تصل الظهر ، فلا تصل الظهر ؛ لأنه أقيمت صلاة العصر ، لكن ادخل معهم بنية الظهر ، ثم إذا فرغت من صلاتك فصلِّ العصر . ولكن إذا أقيمت وأنت قد شرعت في النافلة ، فهل تكملها أو تخرج منها . في هذا للعلماء قولان : القول الأول : أنه إذا أقيمت الصلاة وأنت قد شرعت في النافلة فاقطعها ولا تكملها مطلقًا .

والقول الثاني : كمِلها ولو فاتتك ركعة ، أو ركعتان ، أو كل الصلاة إلا مقدار تكبيرة الإحرام قبل السلام .

والصحيح أن نقول : إذا أقيمت الصلاة وأنت في نافلة ، فإن كنت في الركعة الأولى فاقطعها ، وإن كنت في الركعة الثانية فأتمها خفيفة ، وهذا هو الصحيح الذي يمكن أن تجتمع عليه الأدلة .

أما صوم يوم الجمعة : فقد عقد المؤلف له بابًا ، وهو كراهة تخصيص يوم الجمعة بصيام ، وليلتها بقيام .

يوم الجمعة هو عيد الأسبوع ، ويتكرر في كل سبعة أيام يومًا وهو الثامن ، ولما كان عيدًا نهى النبي ﷺ عن صومه ، لكنه ليس نهي تحريم ؛ لأنه يتكرر كل عام أكثر من خمسين مرة .

وأما النهي عن صوم العيدين ، عيد الأضحى والفطر : فهو نهي تحريم ؛ لأنه لا يتكرر في السنة إلا مرة واحدة ، عيد الفطر مرة ، وعيد الأضحى مرة ، أما الجمعة : فيتكرر ، ولهذا كان النهي عنه أخص ، كان نهي كراهة ، وتزول الكراهة إذا ضممت إليه يومًا قبله ، أو يومًا بعده ، ولهذا جاءت أحاديث أبي هريرة ﷺ أن النبي ﷺ قال : « لا تخصوا يوم الجمعة بصيام ، ولا ليلتها بقيام » لكن إذا لم يكن تخصيصًا بأن كان الإنسان يقوم كل ليلة ، فلا بأس أن يقوم ليلة الجمعة ، أو كان يصوم يومًا ويفطر يومًا ، فصادف يومُ الجمعة يومَ صومه ، فلا بأس أن يصومه .

وكذلك لو صادف يومُ الجمعة يومَ عرفة ، أو يوم عاشوراء ، فلا بأس أن يصومه ؛ لأن هذا الصيام ليس تخصيصًا ليوم الجمعة ، ولكنه تخصيص لليوم الذي صادف يوم الجمعة .

فإذا كان يوم الجمعة يوم عرفة ، فصمه ولا تبالي ، وإن لم تكن صائمًا قبله ، وإذا صادف يوم عاشوراء فصم ولا تبالي [١] .

لكن يوم عاشوراء ينبغي أن نخالف اليهود فيه ، فنصوم يومًا قبله ، أو يومًا بعده .

ولهذا قال في الحديث الآخر : « إلا أن يصوم يومًا قبله ، أو يومًا بعده » [٢] وإلا أن يكون في صوم يصومه الإنسان .

---

(١) انظر ذلك في المغني (٤١١/٣) ، والمهذب (٢٢٦/١) ، والمجموع (٤٠١/٦ ، ٤٠٢) .

(٢) أخرجه أحمد في مسنده (٢٣٩/١) .

وفي حديث جويرية بنت الحارث رضي الله عنها أم المؤمنين أن النبي ﷺ قال لها وهي صائمة في يوم الجمعة : « أتريدين أن تصومي غدًا ؟ » قالت : لا . قال : « أصمت أمس ؟ » قالت : لا . قال : « فأفطري » فيه دليل على أن يوم الجمعة إذا صمت يومًا قبله ، أو يومًا بعده فلا بأس . وفي قوله : « أتصومين غدًا ؟ » دليل على جواز صوم يوم السبت في النفل ، وأنه لا بأس به ولا كراهة إذا ضمت إليه الجمعة . وقد ورد عن النبي ﷺ حديث أنه قال : « لا تصوموا يوم السبت إلا فيما افترض عليكم ، ولو أن يأخذ أحدكم لحاء عنب فيمضغه »[1] أو كما قال عليه الصلاة والسلام ، لكن هذا الحديث اختلف العلماء فيه ، فمنهم من قال : إنه ضعيف ، لا يعمل به ، وقال ذلك شيخنا المحدث عبد العزيز بن باز . قال : حديث النهي عن صوم يوم السبت ضعيف ، شاذ لا يعمل به . ومنهم من قال : إنه منسوخ . ومنهم من قال : إن النهي إنما هو عن إفراده فقط ، وأما إذا صام يوم الجمعة ، أو يوم الأحد فلا كراهة . وإلى هذا ذهب الإمام أحمد رحمه الله .

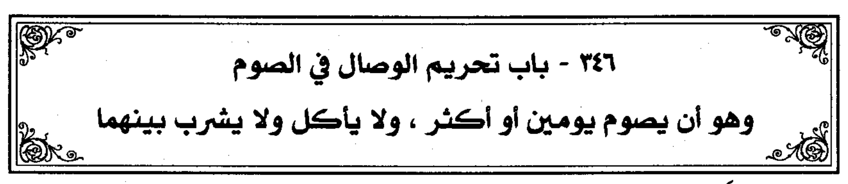
وعلى كل حال لو صامه فإنه لا إثم عليه ، ولكن الأفضل ألا يصومه إلا مضمومًا إليه يوم الجمعة ، أو يوم الأحد . وحديث جويرية في صحيح البخاري ، وحديث محمد بن عباد في صحيح مسلم . وكلاهما يدل على أن صوم يومَ السبت ليس محرمًا ، وأنه يجوز إذا صام يوم الجمعة . وبهذا نعرف أنه لا ينبغي للإنسان ألا يكون إمعة ، يقلد غيرَه ، كلما ذكر غيرُه شيئًا قلده دون نظر في الأدلة ، وجمع بينهما ؛ لأن بعض العلماء ينظر إلى ظاهر الإسناد فيحكم بصحة الحديث دون النظر إلى متنه ، والنظر إلى المتن أمر مهم ؛ لأن خطأ الواحد من الناقلين أهون من الخطأ المخالف لقواعد الشريعة ، والمخالف للأحاديث الصحيحة الصريحة الواضحة التي هي أقوى سندًا وأشد متنًا . لهذا ينبغي لطالب العلم ، ولا سيما طالب الحديث ، المعتني به ، أن يتفطن له ، وألا يحكم بصحة الحديث بمجرد ظاهر الإسناد ، بل لا بد من أن ينظر في المتن هل يخالف القواعد المعلومة من الشريعة ، هل يخالف الأحاديث التي رواها الثقات الأثبات في الحديث فليَحكم بشذوذه ، فخطأ واحد في النقل أهون من خطأ الأئمة الأثبات ، أو خطأ القواعد الشرعية المرعية في الشريعة .

على كل حال صوم يوم السبت تطوعًا ليس حرامًا ، لكن ينبغي ألا يصومه إلا أن يصوم معه يومًا قبله ، أو يومًا بعده . والله الموفق .

* * *

---

(١) أخرجه أبو داود في الصوم (٢٤٢١) والترمذي في الصوم (٧٤٢) وابن ماجه في الصيام (١٧٢٦) وأحمد في مسنده (٣٨٦/٦) . وقد قال : أبو عيسى : هذا حديث حسن ، ومعنى كراهته في هذا أن يخص الرجل يوم السبت بصيام ؛ لأن اليهود تعظم يوم السبت وقوله : « لحاء » أي قشرها .



٣٤٦ - باب تحريم الوصال في الصوم
وهو أن يصوم يومين أو أكثر ، ولا يأكل ولا يشرب بينهما

١٧٦٤ - عَنْ أَبي هُرَيرَةَ وَعَائِشَةَ رضي الله عنهما أَنَّ النَّبيَّ ﷺ نَهَى عَنِ الوِصَالِ (١) . متفقٌ عليه .

١٧٦٥ - وَعَنِ ابْنِ عُمَرَ رضي الله عنهما قَالَ : نَهَى رَسُولُ اللَّه ﷺ عَنِ الوِصَال . قَالُوا : إِنَّكَ تُوَاصِلُ ؟ قَالَ : « إِنِّي لَسْتُ مِثْلَكُمْ ، إِنِّي أُطْعَمُ وَأُسْقَى » (٢) متفقٌ عليه ، وهذا لَفْظُ البُخاري .

* * *

٣٤٧ - باب تحريم الجلوس على قبر

١٧٦٦ - عَنْ أَبي هُرَيرَةَ رضي الله عنه قَالَ : قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ : « لأَنْ يَجْلِسَ أَحَدُكُم عَلى جَمْرَةٍ ، فَتُحْرِقَ ثِيَابَهُ ، فَتَخْلُصَ إِلى جِلْدِهِ خَيرٌ لَهُ مِنْ أَنْ يَجْلِسَ عَلى قَبْرٍ » (٣) رواه مسلم .

* * *

٣٤٨ - باب النهي عن تجصيص القبر والبناء عليه

١٧٦٧ - عَنْ جَابِرٍ رضي الله عنه قَالَ : نَهَى رَسُولُ اللَّهِ ﷺ أَنْ يُجَصَّصَ القَبْرُ ، وَأَنْ يُقْعَدَ عَلَيهِ ، وَأَنْ يُبْنَى عَلَيهِ (٤) . رواه مسلم .

الشرح

ذكر المؤلف رحمه الله تحريم الوصال في الصوم .

ومعنى الوصال : أن يقرن الإنسان بين يومين في الصيام ، فلا يفطر بينهما ، والله سبحانه وتعالى قد حدد الصيام في قوله : ﴿ فَٱلْـَٔـٰنَ بَـٰشِرُوهُنَّ وَٱبْتَغُوا۟ مَا كَتَبَ ٱللَّهُ لَكُمْ ۚ وَكُلُوا۟ وَٱشْرَبُوا۟ حَتَّىٰ يَتَبَيَّنَ لَكُمُ ٱلْخَيْطُ ٱلْأَبْيَضُ مِنَ ٱلْخَيْطِ ٱلْأَسْوَدِ مِنَ ٱلْفَجْرِ ۖ ثُمَّ أَتِمُّوا۟ ٱلصِّيَامَ إِلَى ٱلَّيْلِ .. ﴾ [البقرة : ١٨٧] .

---

(١) أخرجه البخاري في الصوم (١٩٦٥) ، ومسلم في الصيام (٥٨) ، وأحمد في مسنده (٢/١١٢ ، ٢١٦) . قوله : « نهى عن الوصال » قال الإمام النووي : اتفق أصحابنا على النهي عن الوصال ، وهو صوم يومين فصاعدًا من غير أكل وشرب بينهما .

(٢) أخرجه البخاري في الصوم (١٩٦٢) ، ومسلم في الصيام (٥٥) ، وأبو داود في الصوم (٢٣٦٠) . قوله : « أطعم وأسقى » أي يجعل الله تعالى فيَّ قوة الطاعم والشارب .

(٣) أخرجه مسلم في الجنائز (٩٦) ، وأحمد في مسنده (٢/٣١١) ، وأبو داود في الجنائز (٣٢٢٨) ، والبيهقي في السنن (٤/٧٩) . قوله : « فتخلص » أي فتصل .

(٤) أخرجه مسلم في الجنائز (٩٤) قوله : « أن يجصص » أي أن يبني بالجص . قوله « وأن يُبنى عليه » أي يبني عليه قبة أو نحوها .

قال : ﴿ ثُمَّ أَتِمُّوا الصِّيَامَ إِلَى الَّيْلِ .. ﴾ فحد اللّه ابتداء الصيام وانتهاءه ، وقال النبي ﷺ : « لا يزال الناس بخير ما عجلوا الفطر »[١] هذا هو المشروع ، أن الإنسان يبادر بالفطور ولا يتأخر ، ولا يحل له أن يواصل بين يومين ، لأن النبي ﷺ نهى عن ذلك ، وقال : « أيكم أراد أن يواصل فليواصل إلى السَّحَر »[٢] ، فأذن ﷺ بالمواصلة إلى السحر ، يعني وليتسحر في آخر الليل ، وبهذا تبين أن للصائم ثلاث حالات :

الأولى : أن يبادر بالإفطار بعد غروب الشمس ، وهذه هي السنة والأفضل والأكمل .

الثانية : أن يتأخر إلى السحر ، وهذا جائز لكنه خلاف الأولى .

الثالثة : ألا يفطر بين يومين ، بل يواصل وهذه حرام على ما ذهب إليه المؤلف رحمه اللّه ، وهذا هو الأقرب ؛ لأن النبي ﷺ نهى عن الوصال ، فواصلوا ﷺ ظنًا منهم أنه إنما نهى عنه من أجل الرفق بهم والشفقة عليهم ، وقالوا : نحن نتحمل ؟فواصلوا ، فتركهم ، وواصلوا ، حتى هَلَّ الشهر - شهر شوال - فقال : « لو تأخر الهلال لزدتكم »[٣] كالمُنكر لهم ، وهذا يدل على التحريم ، وذهب بعض العلماء إلى كراهة الوصال دون التحريم ؛ لأن العلة هي الرفق بالإنسان ، والإنسان أمير نفسه ، لكن الأقرب أن الوصال في نهي النبي ﷺ عنه ، ولأن النبي ﷺ واصل بهم يومًا ، ويومًا ويومًا حتى رؤي الهلال ، وقال : « لو تأخر لزدتكم » . وما يفعله بعض السلف كما يروى عن عبد اللّه بن الزبير رضي الله عنهما ، أنه كان يواصل خمسة عشر يومًا لا يفطر بينهما ، فهذا اجتهاد منه ، وتأويل ، ولكن الصواب ما دلت عليه السنة .

ثم ذكر المؤلف رحمه الله باب تحريم الجلوس على القبر ؛ لأن القبر فيه إنسان مسلم محترم ، وجلوسك عليه إهانة له ، ولهذا قال النبي ﷺ فيما رواه أبو هريرة : « لأن يجلس أحدكم على جمرة فتُحرق ثيابه ، فتخلص إلى جسده ؛ خير له من أن يجلس على القبر » وهذا يدل على التحريم ، وأنه لا يجوز للإنسان أن يجلس على قبر المسلم ، وإذا أراد أن يجلس فليجلس من وراء القبر ، يجعل القبر خلف ظهره أو عن يمينه أو عن شماله ، وأما إن يجلس عليه فهذا حرام .

ومثل ذلك الغلو في القبور ، ولهذا نهى ﷺ أن يُجصص القبر ، وأن يبنى عليه ، وأن يكتب عليه ؛ لأن تجصيصه يعني تفخيمه ، وتعظيمه يؤدي إلى الشرك به ، وكذلك البناء عليه ، فالتجصيص حرام ، والبناء أشد حرمة ، والكتابة عليه فيها تفصيل :

الكتابة التي لا يراد بها إلا إثبات الاسم للدلالة على القبر : فهذه لا بأس بها .

وأما الكتابة التي تشبه ما كانوا يفعلونه في الجاهلية ، يكتب اسم الشخص ، والثناء عليه ، وأنه فعل كذا وكذا وغيره من المدح : فهذا حرام .

---

(١) أخرجه البخاري في الصوم (١٩٥٧) ومسلم في الصيام (٤٨) والترمذي في الصوم (٦٩٩) وابن ماجه في الصيام (١٦٩٧) .

(٢) أخرجه البخاري في الصوم (١٩٦٣) والدارمي في الصوم (١٤) وأحمد في مسنده (٣/٨) .

(٣) أخرجه البخاري في الصوم (١٩٦٥) بنحوه ، ومسلم في الصيام (٥٧) بلفظه ، وأحمد في مسنده (٢/٥١٦) والبيهقي في السنن (٤/٢٨٢) .

ومن هذا ما يفعله بعض الجهال : أنه يكتب على الحجر الموضوع على القبر سورة الفاتحة مثلاً . . أو غيرها من الآيات ، فكل هذا حرام . وعلى من رآه في المقبرة أن يزيل هذا الحجر ؛ لأن هذا من المنكر الذي يجب تغييره . والله الموفق .

* * *

٣٤٩ - باب تغليظ تحريم إباق العبد من سيّده

١٧٦٨ - عَنْ جَرير بْنِ عبدِ اللَّهِ ﷺ قَالَ : قالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ : « أَيُّمَا عَبْدٍ أَبَقَ ؛ فَقَدْ بَرِئَتْ مِنْهُ الذِّمَّةُ » (١) رواه مسلم .

١٧٦٩ - وَعَنْهُ عَنِ النبيِّ ﷺ : « إذا أَبَقَ العَبْدُ ، لَمْ تُقْبَلْ لَهُ صَلاةٌ » رواه مسلم . وفي روايةٍ : « فَقَدْ كَفَرَ » (٢) .

* * *

٣٥٠ - باب تحريم الشفاعة في الحدود

قال اللَّه تعالى : ﴿ الزَّانِيَةُ وَالزَّانِي فَاجْلِدُوا كُلَّ وَاحِدٍ مِّنْهُمَا مِائَةَ جَلْدَةٍ وَلَا تَأْخُذْكُم بِهِمَا رَأْفَةٌ فِي دِينِ اللَّهِ إِن كُنتُمْ تُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ ﴾ (٣) [النور : ٢] .

١٧٧٠ - وَعَنْ عَائِشَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا ، أنَّ قُرَيشًا أهمَّهُمْ شأنُ المَرْأَة المَخْزُومِيَّةِ الَّتي سَرَقَتْ فَقَالُوا : مَنْ يُكَلِّمُ فِيهَا رَسُولَ اللَّهِ ﷺ ؟ فَقَالُوا : وَمَنْ يَجْتَرِئُ عَلَيهِ إلا أُسَامَةُ بْنُ زَيدٍ ، حِبُّ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ ، فَكَلَّمَهُ أُسَامَةُ ، فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ : « أَتَشْفَعُ في حَدٍّ مِنْ حُدُودِ اللَّهِ تَعَالى ؟ » ثُمَّ قَامَ فَاخْتَطَبَ ، ثُمَّ قَالَ : « إنَّمَا أَهْلَكَ الَّذينَ قَبْلَكُم أَنَّهُمْ كَانُوا إذا سَرَقَ فِيهمُ الشَّرِيفُ تَرَكُوهُ ، وَإذا سَرَقَ فِيهِمُ الضَّعِيفُ ، أَقَامُوا عَلَيهِ الحَدَّ ، وَايمُ اللَّهِ لَو أنَّ فاطِمَةَ بِنْتَ مُحَمَّدٍ سَرَقَتْ لَقَطَعْتُ يَدَهَا » متفقٌ عليه .

وفي رواية : فَتَلَوَّنَ وَجْهُ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ ، فَقَالَ : « أَتَشْفَعُ في حَدٍّ مِنْ حُدودِ اللَّهِ !؟ » قَالَ أُسَامَةُ : اسْتَغْفِرْ لي يَا رَسُولَ اللَّهِ . قَالَ : ثُمَّ أَمَرَ بِتِلْكَ المَرْأَةِ ، فَقُطِعَتْ يَدُهَا (٤) .

---

(١) أخرجه مسلم في الإيمان (١٢٣) وأحمد في مسنده (٣٦٢/٤) والبيهقي في السنن (٢٠٤/٨) . قوله « أبق » أي : هرب من سيرة دون أن يعتقه . قوله : « برئت منه الذمة » أي أنه لا حرمة له ولا ضمان .

(٢) أخرجه مسلم في الإيمان (١٢٤) وأحمد في مسنده (٢٩٩/٦) .

(٣) قوله ﷻ : ﴿ رَأْفَةٌ ﴾ أي رحمة . قوله ﷻ : ﴿ دِينِ اللَّهِ ﴾ أي حد الله .

(٤) أخرجه البخاري في الحدود (٦٧٨٨) ومسلم في الحدود (٨) وأبو داود في الحدود (٤٣٧٣) والدارمي في السنن (١٧٣/٢) . قوله : « يجترئ » أي لا يتجاسر على الكلام من ذلك أحد لمهابته ، قوله : « حب رسول الله » أي : حبيبه . قوله : « فتلون » أي فتغير غيظًا .

الشرح

ذكر المؤلف رَحِمَهُ اللَّهُ تغليظ تحريم إباق العبد .

العبد : يعني المملوك ، وإباقه : هربه من سيده ، وذلك أن العبد مملوك للسيد في ذاته ومنافعه ، فإذا هرب ، فقد فوت على سيده ذلك ، وقد ورد الوعيد في هذا بأنه يكون كافرًا ، وأن الذمة بريئة منه ، وأنه لا تقبل صلاته ، فهذه ثلاث عقوبات ، والعياذ بالله .

الأولى : أنه برئت منه الذمة ، كما في حديث جرير رضي الله عنه .

الثانية : أنه كافر ، ولكنه ليس كفرًا مخرجًا عن الملة .

الثالثة : أنه لا تقبلُ صلاتُه ، فالعبد إذا أبق وهرب من سيده ، ثم صلى ، فلا صلاة له ، واختلف العلماء رحمهم الله : هل صلاته غير مقبولة ... لا الفريضة ولا النافلة ؟ أو أنها النافلة فقط ؟ . فمن العلماء من قال : صلاة الفريضة مقبولة ؛ لأن زمنها مستثنى شرعًا ، ولا يمتنع أن يعاقب بذلك ، ويكون المراد بنفي القبول بالنسبة للنوافل نفي الصحة ، وبالنسبة للفرائض نفي الإثابة ، وهذا جمع حسن .

أما الباب الثاني : فهو تحريم الشفاعة في الحد ؛ أي في العقوبة المقدرة شرعًا ، واعلم أن العقوبات على الذنوب تنقسم إلى قسمين :

عقوبات أخروية هذه أمرها إلى الله ، وقال الله تعالى : ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَغۡفِرُ أَن يُشۡرَكَ بِهِۦ وَيَغۡفِرُ مَا دُونَ ذَٰلِكَ لِمَن يَشَآءُۚ ﴾ [النساء: ٤٨] فكل ذنب سوى الشرك فإنه قابل أن يغفره الله عَزَّ وَجَلَّ بفضله ورحمته .

وأما العقوبة الدنيوية فهي أقسام كثيرة : منها : أقسام معينة محددة في الشريعة ، فهذه لا يجوز تعديها ، فمثلًا : السارق تقطع يده ، ولا يجوز أن تقطع رجله مع يده ، ولا أن تقلع عينه ، ولا أن تقطع أذنه ، لا يجوز أن يتعدى فيها ما حده الله ورسوله ، وهو قطع اليد .

كذلك أيضًا الزنا : إذا كان الزاني لم يتزوج من قبل فحده مائة جلدة ، وتغريب عام ، أي خروجه وطرده من البلد إلى بلد آخر لمدة سنة ، هذا أيضًا لا تجوز الزيادة فيه ، ولا النقص منه ؛ لأنه حد من الحدود .

ومثل المحاربين لله ورسوله ، الساعين في الأرض فسادًا ، هؤلاء جزاؤهم أن يقتلوا أو يصلبوا أو تقطع أيديهم وأرجلهم من خلاف أو ينفوا من الأرض .

هناك عقوبات أخرى غير مقدرة ، هذه يُرجع إلى رأي الحاكم يعني القاضي الشرعي أو من له تنظيم وتقنين العقوبات ، هذه أمرها واسع ، تارة تكون العقوبة بالمال يغرم الإنسان مالًا ، وتارة تكون العقوبة بالعزل عن منصبه ، وتارة تكون بالحبس ، وتارة تكون بالتشهير بأن يعلن اسمه ومخالفته بين الناس ، وتارة تكون بالتقويم من المجلس ، حسب ما تقتضيه المصلحة والتأديب .

فأما العقوبات المحددة : فإنه إذا بلغت السلطان ، فلا يجوز لأحد أن يشفع فيها ، كما قال النبي صلى الله عليه وسلم : « إذا بلغت الحدود السلطان فلعن الله الشافع والمشفع له » (١) لعن : طَردٌ وإبعادٌ عن رحمة الله .

(١) أخرجه مالك في الموطأ (الحدود ٢٠٩) بلفظ : « إذا بلغت به السلطان » .

وقال : « من حالت شفاعته دون حد من حدود اللّه ، فقد ضاد اللّه في أمره »[١] والعياذ باللّه .

وإن لم تصل إلى الحاكم : فهنا قد يجوز الشفاعة والتوسط ، مثل : لو أن أحدًا رأى شخصًا يزني ، وشاهده ، وعنده أربع شهود على ذلك ، ورأى أن من المصلحة أن يستتاب هذا الرجل فإذا تاب سُتر عليه ، فلا بأس ، أما بعد أن تبلغ السلطان فلا يجوز .

ثم ذكر المؤلف حديث عائشة رضي الله عنها في باب تحريم الشفاعة في الحدود . في قصة المرأة المخزومية .

والحدود : هي العقوبات التي قدرها اللّه ورسوله على فاعل المعصية ، فمنها حد الزنا ، ومنها حد القذف ، وحد السرقة ، وحد الحرابة ، وأما القتل بالردة فليس من الحدود ؛ لأن المرتد إذا تاب ، ولو بعد أن رفع إلى السلطان ؛ فإنه يسقط عنه القتل . لكن هذه الحدود لا بد منها ، ولا تسقط إلا إذا تاب الإنسان قبل أن يقدر عليه . لقول اللّه تعالى : ﴿ إِنَّمَا جَزَٰٓؤُاْ ٱلَّذِينَ يُحَارِبُونَ ... ﴾ [المائدة : ٣٣] .

وذكر المؤلف حديث عائشة رضي الله عنها : أن امرأة من بني مخزوم سرقت ، وقد بُينت السرقة بأنها تستعير المتاع وتجحده . يعني تأتي إلى الناس وتقول : أعرني القدر ، أعرني الدلو ... فيعيرونها ، ثم تجحد العارية وتقول : ما أعرتموني .

فجعل النبي ﷺ جحد العارية في منزلة السرقة ؛ لأن السارق يدخل البيوت في خفية ، وهذه سرقت أموال الناس في خفية ، أخذتها منهم على أنها عارية ، وأنها إحسان من أهلها - أي من أهل الأموال ، ثم تجحد .

أمر النبي ﷺ أن تقطعَ يدُها ، وكانت من بني مخزوم ، من أشرف قبائل قريش « فأهمهم ذلك » أي لحقهم الهم في هذا ، كيف تقطع يد المخزومية ؟! فطلبوا من يشفع إلى رسول اللّه ﷺ ، فقالوا : « من يجترئ عليه إلا أسامة بن زيد » ولم يذكروا أبا بكر ولا عمر ولا عثمان ، ولا من هو أعلى قدرًا من أسامة بن زيد ، فإما أن يكونوا قد حاولوا ذلك ، ولم يفلحوا ، وإما أن يكونوا من الأصل علموا أنهم لن يشفعوا في حد من حدود اللّه .

المهم : أنهم طلبوا من أسامة بن زيد رضي الله عنه ، وأسامة هو أسامة بن زيد بن حارثة ، وزيد بن حارثة كان عبدًا مملوكًا وهبته خديجة إلى النبي ﷺ فأعتقه ، وكان يحبه ، ويحب ابنه أسامة ، تكلم أسامة مع النبي في شأن المرأة لعله يرفع عنها القطع . فتلون وجه رسول اللّه ﷺ تغير لونه ، وقال له منكرًا عليه : « أتشفع في حد من حدود اللّه ؟! » ، يعني ما كان ينبغي أن تشفع في حد من حدود اللّه .

« ثم قام فاختطب » أي خطب خطبة بليغة ؛ لأن اختطب أبلغ من خطب . لزيادة الهمزة والتاء ، وقد قال علماء اللغة العربية : إن زيادة المبنى تدل على زيادة المعنى . يعني زيادة الحروف في الكلمة تدل على زيادة معناها . المهم : أن قوله : « اختطب » ، يعني خطب خطبة بليغة ، ثم قال : « إنما هلك من

---

(١) أخرجه أبو داود في السنن (٣٥٩٧) وأحمد في مسنده (٨٢/٢) والحاكم في المستدرك (٢٧/٢) والبيهقي في السنن (٨٢/٦) .

كان قبلكم » - يعني من الأمم - « أنهم كانوا إذا سرق فيهم الشريف تركوه ، وإذا سرق فيهم الضعيف أقاموا عليه الحد » . أهلكهم : يعني بذنوبهم بالعذاب والعقوبات . إذا سرق فيهم الشريف تركوه ، وإذا سرق فيهم الضعيف أقاموا عليه الحد ، فصارت إقامتهم لحدود اللّه على حسب أهوائهم .

وفي هذا دليل على أن من سبقنا كانوا يسرقون ، وأن السرقة كبيرة فيه بين الغني والفقير والشريف والضعيف .

ثم أقسم عليه الصلاة والسلام وهو البار الصادق بدون قسم أقسم قال : « وايم اللّه » - أي : أحلف باللّه - « لو أن فاطمة بنت محمد سرقت لقطعت يدها » . اللّهم صل وسلم عليه ، هكذا العدالة ، وهكذا تنفيذ حكم اللّه ، لا اتباع الهوى . أقسم بأن فاطمة بنت محمد ، وهي أشرف من المخزومية حسبًا ونسبًا ؛ لأنها رضي الله عنها سيدة نساء أهل الجنة (١) . أقسم أنها لو سرقت لقطع يدها . وفي قوله : « لقطعت يدها » قولان . القول الأول : أن الرسول ﷺ نفسه يباشر القطع وهذا أبلغ . الثاني : أنه يأمر من يقطع يدها .

ومهما كان فإن الرسول ﷺ لا يمكن أن يدرأ الحد عن أحد لشرفه ومكانته أبدًا ، الحد حق اللّه عز وجل . « وايم اللّه لو أن فاطمة بنت محمد سرقت لقطعت يدها » ثم أمر النبي ﷺ أن تقطع يد المرأة المخزومية فقطعت ، وهي امرأة من أشراف قريش ، ومع ذلك لم يسقط عنها الحد ، وهكذا يجب على ولاة الأمور أن يكون الناس عندهم سواء في إقامة الحدود ، وألا يحابوا أحدًا لقربه ، أو لغناه ، أو لشرفه في قبيلته ، أو غير ذلك ، الحد لله عز وجل ، تجب إقامته لله عز وجل .

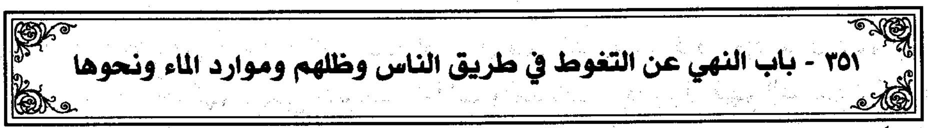
انظر إلى قوله تعالى : ﴿ ٱلزَّانِيَةُ وَٱلزَّانِي فَٱجْلِدُوا۟ كُلَّ وَٰحِدٍ مِّنْهُمَا مِا۟ئَةَ جَلْدَةٍ وَلَا تَأْخُذْكُم بِهِمَا رَأْفَةٌ فِى دِينِ ٱللَّهِ ﴾ [النور : ٢] . ومن الرأفة الشفاعة لهما ، لا تشفع لأحد في حد ، أقمه ، ولا ترفق به ، ولا ترحمه ، لا تقل : هذا شريف ، هذا ضعيف ، هذا أبو أولاد ، أبدًا لا يهمك ، يعني لو زنى إنسان وهو محصن ، وثبت عليه الحد وله أولاد صغار ، وزوجات سوف يكن أرامل بعده ، والأولاد أيتامًا بعده ، لا تبالي بهذا ، أقم الحد عليه ، ارجمه حتى يموت ، ولا تقل : هذا له أولاد صغار وزوجات ، لا يهمك هذا . أقم الحد على كل من أتى بمعصية توجب الحد .

ولما كانت الأمة الإسلامية على هذه العدالة ، وعدم المبالاة ، وأنها لا تأخذها في اللّه لومة لائم كان لها العزة والقوة والنصر المبين ، ولما تخلت الأمة الإسلامية عن إقامة حدود اللّه ، وصارت المحسوبيات والوساطات تعمل عملها في إسقاط حدود اللّه عز وجل تدهورت الأمة إلى الحد الذي ترونه الآن ، فنسأل اللّه تعالى أن يُعيد للأمة الإسلامية مجدها وتمسكها بدينها ، إنه على كل شيء قدير .

* * *

---

(١) وذلك مصداقًا لما أخرجه البخاري في فضائل أصحاب النبي ﷺ (باب مناقب قرابة النبي ﷺ) ، وأحمد في مسنده (٣/٨٠) .



٣٥١ - باب النهي عن التغوط في طريق الناس وظلهم وموارد الماء ونحوها

قال اللّٰه تعالى : ﴿ وَٱلَّذِينَ يُؤْذُونَ ٱلْمُؤْمِنِينَ وَٱلْمُؤْمِنَٰتِ بِغَيْرِ مَا ٱكْتَسَبُوا۟ فَقَدِ ٱحْتَمَلُوا۟ بُهْتَٰنًا وَإِثْمًا مُّبِينًا ﴾ [الأحزاب : ٥٨].

١٧٧١ - وَعَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ ﷺ أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ قَالَ : « اتَّقُوا اللاعِنَيـنِ » قَالُوا : وَمَا اللاعِنَانِ ؟ قَالَ : « الَّذِي يَتَخَلَّى فِي طَرِيقِ النَّاسِ ، أَو فِي ظِلِّهِمْ » [١] رواه مسلم .

* * *

٣٥٢ - باب النهي عن البول ونحوه في الماء الراكد

١٧٧٢ - عَنْ جَابِرٍ ﷺ أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ نَهَى أَنْ يُبَالَ فِي الماءِ الرَّاكِد [٢] . رواه مسلم .

الشرح

ذكر المؤلف رحمه الله تحريم التغوط في طريق الناس أو ظلهم أو نحو ذلك .

التغوط يعني : إخراج البراز من الدبر ، ومثله التبول ، فلا يجوز للإنسان أن يتبول أو يتغوط في طريق الناس ، أو في ظلهم ، يعني المكان الذي يستظلون به ، وكذلك مُشمسُهم في الشتاء ، وكذلك مجالسهم ، فإن هذا من أذية المؤمنين . وقد قال اللّٰه تعالى : ﴿ وَٱلَّذِينَ يُؤْذُونَ ٱلْمُؤْمِنِينَ وَٱلْمُؤْمِنَٰتِ ﴾ بالقول أو بالفعل ، فالأذية بالقول مثل : التعيير ، والتوبيخ ، والسب ، وما أشبه ، وبالفعل مثل : أن يتبول في طريقه ، أو يتغوط ، أو ما أشبه ذلك .

وقوله : ﴿ بِغَيْرِ مَا ٱكْتَسَبُوا۟ ﴾ يعني إلا إذا كان السبب في ذلك هم الذين أذوا يعني أنهم تعرضوا لما حل بهم فهذا جنايتهم بأيديهم .

ثم ذكر حديث أبي هريرة ﷺ أن النبي ﷺ قال : « اتقوا اللاعنين » ، قالوا : وما اللاعنان ؟! قال : « الذي يتخلى في طريق الناس أو ظلهم » .

اللاعن : اسم فاعل من اللعن ، وسمى النبي ﷺ ذلك لاعنًا ؛ لأنه سببٌ في اللعن ، فالذي يتخلى في طريق الناس ، أو يتخلى في ظلهم ملعون والعياذ باللّٰه .

وأيضًا من رأى بولًا أو غائطًا في طريق الناس أو ظلهم ، فله أن يقول : اللّٰهم العنْ من فعل هذا ؛ لأنه هو الذي عرض نفسه لذلك ، وكذلك أيضًا لا يجوز البول في الماء الراكد ونحوه ، لأن النبي

---

(١) أخرجه مسلم في الطهارة (٦٨) ، وأحمد في مسنده (٢/٣٧٢) ، والحاكم في المستدرك (١/١٨٦) ، والبيهقي في السنن (١/٩٧) . قوله : « اللاعنين » هما الأمرين الجالبين للعن الحاملين الناس عليه ، والداعيين إليه . قوله : « الذي يتخلى في طريق الناس » أي الذي يتغوط في موضع يمر الناس به .

(٢) أخرجه مسلم في الطهارة (٩٤) ، وأحمد في مسنده (٢/٢٨٨) قوله : « الراكد » أي الذي لا يتحرك كماء البرك .

ﷺ نهى عن ذلك كما في حديث جابر الذي رواه مسلم ، فلا يجوز للإنسان أن يبول في الماء الراكد مثل الغدير ، أو شبهه ، أما الماء الجاري ، فالجاري يمشي ، ولا يتأثر إلا إذا كان جاريًا نحو ساقية وتحته أناس يتطهرون في هذا الماء ، أو يشربون منه ، فهذا لا يجوز ؛ لأنه يؤذي من تحته ، والله الموفق .

* * *

٣٥٣ - باب كراهة تفضيل الوالد بعض أولاده على بعض في الهبة

١٧٧٣ - عَنِ النُّعْمانِ بْنِ بَشِيرٍ ﵄ أَنَّ أَبَاهُ أَتَى بِهِ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ فَقَالَ : إِنِّي نَحَلْتُ ابْنِي هذا غُلامًا كَانَ لي ، فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ : « أَكُلَّ وَلَدِكَ نَحَلْتَهُ مِثْلَ هذا ؟ » فَقَالَ : لا ، فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ : « فَأَرْجِعْهُ » .

وفي روايةٍ : فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ : « أَفَعَلْتَ هذَا بِوَلَدِكَ كُلِّهِمْ ؟ » قَالَ : لا ، قَالَ : « اتَّقُوا اللَّهَ وَاعْدِلُوا في أَوْلادِكُمْ » فَرَجَعَ أَبِي . فَرَدَّ تِلْكَ الصَّدَقَةَ .

وفي روايةٍ : فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ : « يا بَشِيرُ أَلَكَ وَلَدٌ سِوَى هذا ؟ » قَالَ : نَعَمْ ، قَالَ : « أَكُلَّهُمْ وَهَبْتَ لَهُ مِثْلَ هذا ؟ » قَالَ : لا ، قَالَ : « فَلا تُشْهِدْني إذًا ؛ فَإِنِّي لا أَشْهَدُ عَلى جَورٍ » .

وفي روايةٍ : « لا تُشْهِدْني عَلى جَورٍ » .

وفي روايةٍ : « أَشْهِدْ عَلى هذا غَيرِي » ثُمَّ قَالَ : « أَيَسُرُّكَ أَنْ يَكُونُوا إِلَيكَ في البِرِّ سَوَاءً ؟ » قَالَ : بَلى ، قَالَ : « فَلا إذًا » [1] متفقٌ عليه .

الشرح

ذكر المؤلف - رحمه الله تعالى - تحريم تفضيل بعض الأولاد على بعض في العطية .

الأولاد : يشمل الذكور والإناث ، والمراد بالعطية التبرع المحض ، ليس النفقة ، النفقة يعطي كل إنسان ما يحتاج قليلًا كان أو كثيرًا ، فإذا قدر أن أحدهم يطلب العلم ، ويحتاج إلى كتب ، والآخر ليس كذلك ، فأعطى الأول ما يحتاج إليه من الكتب فلا بأس ، وكذلك لو كان أحدهم يحتاج إلى ثياب ، والآخر لا يحتاج ، فيعطي من يحتاج إلى الثياب ، وكذلك لو مرض فاحتاج إلى دراهم وإلى دواء فأعطاه فلا بأس ، وكذلك لو بلغ أحدهم سن الزواج فزوجه ؛ فإنه يزوجه ولا بأس ، المهم ما لِدَفْعِ الحاجة فالتسوية فيه أن يعطي كل إنسان ما يحتاجه .

أما إذا كان تبرعًا محضًا ، فلابد من العدل بينهم .

---

(١) أخرجه البخاري في الهبة وفضلها (٢٥٨٦) ، ومسلم في الهبات (٩٠ ، ١٠) ، وأحمد في مسنده (٢٧١/٤) ، والترمذي في الأحكام (١٣٦٧) . قوله « تخلت » أي أعطيت ورهبت . قوله « فرد تلك الصدقة » أي أعاد إلى ماله ما كان قد وهبه لابنه . قوله « جور » أي ظلم .

واختلف العلماء هل العدل أن يعطي الذكر والأنثى سواء ، فإذا أعطى الذكر مائة أعطى الأنثى مائة ، أم أن العدل أن يعطيهم كما أعطاهم اللَّه ﷻ في الميراث ؛ يعني للذكر مثل حظ الأنثيين ، فإذا أعطى الذكر مائة أعطى الأنثى خمسين . وهذا القول هو الراجح ، لأنه لا قسمة أعدل من قسمة اللَّه ﷻ ، فإذا أعطى كل واحد ما يحتاجه ، ثم تبرع تبرعًا محضًا فنقول : إذا أعطيت الأنثى درهمًا ، فأعط الذكر درهمين هذا هو العدل ، فإن فعل - يعني فضل بعض الأولاد على بعض - فإنه يجب عليه أن يرد ما فضله به ، فإذا أعطى أحدهم مائة ، ولم يعط الآخرين ، وجب عليه أن يرد المائة ، أي يستردها ، أو يعطي الآخرين مثلما أعطى الأول ، أو يستحلهم بشرط أن يحللوه عن رضا وقناعة ، لا عن حياء وخجل .

فصار طريق العدل فيمن فضل بعض أولاده عن بعض طرق ثلاثة .

فالعدل له طرق ثلاثة : الأول : أن يَرد ما فضله به .

الثاني : أن يعطي الآخرين مثله . ﴿ لِلذَّكَرِ مِثْلُ حَظِّ ٱلْأُنثَيَيْنِ ﴾ [النساء : ١١] .

الثالث : أن يستحلهم بشرط أن يحللوه عن قناعة ورضا لا عن خجل وحياء .

ثم ذكر المؤلف حديث النعمان بن بشير بن سعد الأنصاري رضي الله عنه ، أن النبي ﷺ أعطاه نحلة ، غلامًا ، وفي رواية : « حائطًا » بستانًا ، ولعله أعطاه البستان والغلام من أجل أن يعمل في البستان ، فقالت أمه : عمرة بنت رواحة رضي الله عنها - وهي فقيهة - لا أرضى أن تعطي ابني هذا دون إخوانه حتى تُشهد النبي ﷺ ، فذهب إلى النبي يشهده على ذلك ، فقال النبي له : ألك بنون ؟! قال : نعم ، قال : أعطيتهم مثل ما أعطيت النعمان ، قال : لا . قال : رد - يعني رد ما أعطيت - ثم قال : «أَشهد على هذا غيري » ، وهذا تبرؤ منه ، وليس إباحة له على أن يشهد على ذلك ، بل هو تبرؤ منه ولهذا قال : «أشهد على هذا غيري ؛ فإني لا أشهد على جور » ثم قال : أتريد أن يكونوا إليك في البر سواءً ؟ قال : نعم يا رسول اللَّه . قال : إذًا سوِ بينهم ، لأنك إذا فضلت أحدهم على الآخر صار في نفس المفضل عليه شيء . وصار لا يبر والده ، ثم قال : اتقوا اللَّه ، واعدلوا بين أولادكم . فأمر عليه الصلاة والسلام أن نعدل بين الأولاد في العطية ، حتى لو تعطي أحدهم عشرة ريالات ، فأعطِ الآخر مثله ، لا تقل هذا شيء زهيد ، ما يساوى شيئًا . لا ، أعطهم كما أعطيت الثاني ، حتى كان السلف الصالح رحمهم الله إذا قبلوا أحد الأولاد ، قَبَّل الثاني من شدة العدل بينهم ، وكذلك أيضًا في النظر إليهم ، لا تنظر إلى هذا نظرة غضب ، وإلى هذا نظرة رضا . لا أعدل بينهم حتى في المواجهة وطلاقة الوجه ، إلا أن يفعل أحدهم ما يغضب ، فهذا له شأن . أما بدون سبب ، اجعلهم سواءً ولا تفضل أحدًا على أحد .

وهنا مسألة وهي : أن بعض الناس يزوج أولاده الكبار ، وله أولاد صغار فيوصي لهم بعد موته بمقدار المهر ، وهذا حرام ولا يحل ، لأن هؤلاء إنما أعطيته لحاجتهم حاجة لا يماثلهم إخوانهم الآخرون الصغار ، فلا يحل لك أن توصي لهم بشيء ، وإذا أوصيت فالوصية باطلة ترد في التركة ، ويرثونها على قدر ميراثهم .

كذلك أيضًا بعض الناس يكون ولده يشتغل معه ، في تجارته ، في فلاحته ، فيعطيه أكثر من إخوانه ، وهذا أيضًا لا يجوز ، لأن الولد إن كان قد تبرع بعمله مع أبيه ، فهذا بر ، وثوابه في الآخرة أعظم من ثوابه في الدنيا ، وإن كان لا يريد ذلك ، يريد أن يشتغل بأجرة ، فليفرض له أجرة ، مثلًا لك كل شهر كذا وكذا ، كما يعطي الأجنبي ، أو يقول : لك سهم من الربح ، وأما أن يخصه من بين أولاده مع أن الولد قد تبرع بعمله ، وجعل ذلك من البر ، فلا يجوز له ذلك .

وإن أعطى أحدَهم لكونه طالب علم يحفظ القرآن ، فإن قال للآخرين : من طلب منكم العلم أعطيته مثل أخيه ، أو من حفظ القرآن أعطيته مثل أخيه ، فطلب بعضهم وترك بعض ، فهؤلاء هم الذين تركوا الأمر بأنفسهم ، فلا حق لهم ، وأما إذا كان خص هذا دون أن يفتح الباب لإخوانه ، فهذا لا يجوز [١] .

وقول الرسول ﷺ « اتقوا اللَّه واعدلوا بين أولادكم » أن غير الأولاد من الأقارب لا يجب العدل بينهم ، فلك أن تعطي بعض إخوانك أكثر من الآخرين ، أو تعطيهم وتحرم الآخرين ؛ لأن النص إنما ورد في الأولاد فقط ، وأما قول بعض العلماء - رحمهم اللَّه - : (إنه يجب عليه العدل بين جميع الورثة بقدر ميراثهم) فهذا قول لا دليل عليه ، العدل إنما يجب بين الأولاد فقط [٢] ، واللَّه الموافق .

* * *

٣٥٤ - باب تحريم إحداد المرأة على ميت فوق ثلاثة أيام إلا على زوجها أربعة أشهر وعشرة أيام

١٧٧٤ - عَنْ زَيْنَبَ بِنْتِ أَبي سَلَمَةَ ﵂ قَالَتْ : دَخَلْتُ على أُمِّ حَبِيبَةَ ﵂ زَوجِ النَّبيِّ ﷺ حِينَ تُوفِّي أَبُوها أَبُو سُفْيَانَ بْنُ حَرْبٍ ﵁ ، فَدَعَتْ بِطِيبٍ فِيهِ صُفْرَةُ خَلُوقٍ أَو غَيرِهِ ، فَدَهَنَتْ مِنهُ جَارِيَةً ، ثُمَّ مَسَّتْ بعَارِضَيها . ثُمَّ قَالَتْ : وَاللَّهِ مَالي بِالطِّيبِ مِنْ حَاجَةٍ ، غَيرَ أَنِّي سَمِعْتُ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ يَقُولُ عَلى المِنْبَر : « لا يَحِلُّ لامْرَأَةٍ تُؤْمِنُ باللَّهِ واليوم الآخر أَنْ تُحِدَّ عَلى مَيِّتٍ فَوقَ ثَلاثِ لَيَالٍ ، إلا عَلى زَوجٍ أَرْبَعَةَ أَشْهُرٍ وَعَشْرًا » قَالَتْ زَيْنَبُ : ثُمَّ دَخَلْتُ عَلى زَيْنَبَ بِنْتِ جَحْشٍ ﵂ حِينَ تُوُفِّيَ أَخُوهَا ، فَدَعَتْ بِطِيب ، فَمَسَّتْ مِنْهُ ، ثُمَّ قَالَت : أَمَا وَاللَّهِ مَا لي بِالطِّيب مِنْ حَاجَةٍ ، غَيرَ أَني سَمِعْتُ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ يَقُولُ عَلى المِنْبَرِ : « لا يَحِلُّ لامْرَأَةٍ تُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَاليَومِ الآخِرِ أَنْ تُحِدَّ عَلى مَيِّتٍ فَوق

---

(١) ذهب الشافعية وهو قول المتأخرين من مشايخ الحنفية إلى أن التفضيل للعلم والورع معتبر ولا يكره ؛ إذ قالوا : لا بأس أن يعطي المتأدبين والمتفقهين دون الفسقة الفجرة . أما المتقدمون من مشايخ الحنفية فقالوا بكراهة التفضيل مطلقًا . سواء كان المحروم فقيهًا تقيًا أو جاهلًا فاسقًا (انظر : مغني المحتاج ٤٠١/٢ ، وبدائع الصنائع ١٢٧/٦ ، وفقه الكتاب والسنة ١٦١١/٣) .

(٢) وهذا هو ما عليه جمهور الفقهاء من المالكية والأحناف والشافعية والحنابلة والظاهرية (انظر في ذلك : بداية المجتهد ٢٩٩/٢ ، وبدائع الصنائع ١٢٧/٦ ، ومغني المحتاج ٤٠١/٢ ، وأسهل المدارك ٩٤/٣ ، ٩٥ ، والمحلى ١٤٢/٩) .

ثَلاثٍ ، إلا عَلى زَوجٍ أَرْبَعَةَ أَشهُرٍ وَعَشْرًا » [(١)] . متفقٌ عليه .

الشرح

ذكر – رحمه اللَّه تعالى – تحريم إحداد المرأة على ميت فوق ثلاث إلا على زوجها أربعة أشهر وعشرًا .

والإحداد معناه : ترك الزينة ، والطيب ونحوه ، مما يعد بهجة وسرورًا وترفهًا وهو حرام ، وكانوا في الجاهلية إذا مات الإنسان وهو حبيب إليهم امتنعوا عن الطيب والتجمل وما أشبه ذلك إلى مدة حسب ما يقدرونها بأنفسهم ، فبين النبي ﷺ في هذا الحديث الذي رواه عنه زوجتاه أم حبيبة ، وزينب بنت جحش رضي الله عنهما أنه لا يجوز الإحداد على ميت فوق ثلاث إلا على زوج ؛ فرخص النبي ﷺ في هذا ، في الإحداد لمدة ثلاثة أيام ، ولا يجوز أكثر من ذلك .

مثاله : رجل مات ابنه فحزن عليه ، فالواجب الصبر ، والاحتساب ، وأن تجري الأمور على ما هي عليه ، يخرج إلى دكانه إذا كان صاحب دكان ، وإلى فلاحته إذا كان صاحب فلاحة وإلى مكتبه إذا كان موظفًا ، وإلى مدرسته إذا كان معلمًا أو طالبًا ، المهم ألا تتأثر أعماله بشيء ، هذا هو المشروع ، وهذا هو السنة وهذا هو الأوفق ، وهذا هو الأرفق بالشخص ، ألا يحد على أحد ، حتى على ابنه وأبيه ، وأمه وأخيه ، لا يحد عليهم ، الأمر لله عز وجل ، لله الملك وله الحمد ، فهو المالك ، وهو المحمود على كل حال . فلا حاجة إلى أن تحد ، اصبر واحتسب ، لا تقل : لا تحزن ، كل إنسان له قلب حي سيحزن ، لكن نقول : اصبر واحتسب وكأن شيئًا لم يكن ، لا تخرب شيئًا من أمور دنياك ، هذا هو الأفضل والأوفق والأرفق والأحسن .

لكن لما كانت النفوس قد لا تطيق هذا لا سيما مع عظم المصائب ، رخص النبي ﷺ في الإحداد لمدة ثلاثة أيام فقط . يعني لا بأس مثلًا أن الإنسان إذا مات له صديق أو قريب وحزن حزنًا شديدًا لا يستطيع أن يقابل الناس ، لا بأس أن يبقى في بيته لمدة ثلاثة أيام ، فأقل ، ولكن لابد من صلاة الجماعة . هذا لا بأس به .

وكذلك بالنسبة للنساء لو مات ابنها أو أبوها أو أخوها أو أحد ممن تأثرت بهم تأثرًا بالغًا ، فلا حرج عليها أن تحد لمدة ثلاثة أيام فأقل : أما ما زاد فلا يجوز .

« لا يحل لامرأة تؤمن باللَّه واليوم الآخر ، أن تحد فوق ثلاث إلا على زوج » . فالزوج له حق عظيم ، حتى قال النبي ﷺ : « لو أمرت أحدًا أن يسجد لأحد لأمرت الزوجة أن تسجد لزوجها من عظم حقه عليها » [(٢)] لكن السجود لا يكون إلا لرب العالمين الخالق عز وجل .

---

(١) أخرجه البخاري في الجنائز (١٢٨٠) ، ومسلم في الطلاق بنحوه (٦٢) ، وأحمد في مسنده (٣٧/٦) ، وأبو داود في الطلاق (٢٢٩٩) . قوله : « أم حبيبة » هي أم المؤمنين : رملة بنت أبي سفيان بن حرب بن أمية زوج النبي ﷺ ، قوله « بعارضيها » أي بكتفيها .

(٢) أخرجه ابن ماجه في السنن (١٨٥٢) ، والحاكم في المستدرك (١٧٢/٤) ، والمنذري في الترغيب والترهيب (٥٦/٣) ، والهيثمي في مجمع الزوائد (٣١٠/٤) ، والبغوي في شرح السنة (١٥٨/٩) .

المهم أن الزوجة تحد أربعة أشهر وعشرًا ، هذا إذا كانت غير حامل ، أما الحامل فتحد إلى وضع الحمل فقط ، زاد أو نقص .

فعلى هذا إذا مات زوج ، فالمرأة تحد أربعة أشهر وعشرة أيام ، لقول الله تعالى : ﴿ وَٱلَّذِينَ يُتَوَفَّوْنَ مِنكُمْ وَيَذَرُونَ أَزْوَٰجًا يَتَرَبَّصْنَ بِأَنفُسِهِنَّ أَرْبَعَةَ أَشْهُرٍ وَعَشْرًا ﴾ [البقرة : ٢٣٤] حتى لو كان ما دخل عليها ، لو عقد عليها وهي في المدينة وهو في مكة ، ومات فإنها تحد عليه وإن لم يدخل عليها ، ما دام العقد صحيحًا .

وإذا كانت حاملًا فإلى وضع الحمل . حتى لو وضعت قبل أن يُغسل الزوج ، انتهت العدة ، وانتهى الإحداد ، يعني مثلًا امرأة توفى زوجها وهي في الطلق ، فلما خرجت روحه ، خرج الحمل ، يعني ما بين خروج روح زوجها ، وخروج حملها إلا دقائق معلومة ، فالآن انتهت العدة ، وانتهى الإحداد ، فلها أن تتزوج ، يمكن شرعًا أن تتزوج قبل أن يدفن هذا الزوج ؛ لأنها وضعت الحمل ، ﴿ وَأُوْلَٰتُ ٱلْأَحْمَالِ أَجَلُهُنَّ أَن يَضَعْنَ حَمْلَهُنَّ ﴾ [الطلاق : ٤] . فهذه انتهت عدتها ، والإحداد [١] .

ولكن ما هو الإحداد ؟ الإحداد أن تجتنب المرأة الأشياء التالية :

أولًا ، : لباس الزينة ، لا تلبس ثوبًا يعد ثوبَ زينة ، أما الثياب العادية فلها أن تلبسها ، بأي لون كان ، أصفر ، أحمر ، أخضر .. أي شيء ، إنما الذي يعد زينة بحيث يقال : إن هذه المرأة تزينت وتجملت ؛ فإنه لا يحل لها أن تلبسه وهي محدة على الزوج .

الثاني : الطيب بجميع أنواعه : دهنًا ، أو بخورًا ، أو شمًّا ، أو غير ذلك ، لا تتطيب إطلاقًا ، إلا إذا طهرت من الحيض ؛ فإنها تأخذ شيئًا يسيرًا من الطيب تتطيب به أي تطيب محل الخبث حتى لا يكون لها رائحة .

الثالث : الحلي بجميع أنواعه ، لا تلبس الحلي لا في القدمين ، ولا في الكفين ، ولا في الرقبة ، ولا في الأذنين ، ولا على الصدر ، أي نوع من أنواع الحلي ما تلبسه ، حتى لو كانت تلبس سنًّا من ذهب ؛ فإنها تخلعه إذا لم يكن عليها مضرة ، فإن كان عليها مضرة ، فلتحرص على أن تخفيه بأن تقلل الضحك ، حتى لا تظهر السن ويتبين للناس .

الرابع : ألا تخرج من البيت أبدًا إلا لضرورة أو حاجة ، لضرورة في الليل ، أو حاجة بالنهار ، وأما بدون حاجة ولا ضرورة ؛ فلا يجوز أن تخرج من بيتها الذي مات زوجها وهي فيه ، فهي يجب عليها أن تبقى في البيت فلا تخرج [٢] .

إذا قالت أريد أن أخرج إلى جيراني أستأنس عندهم في النهار وأول الليل ، وأرجع إلى بيتي .

---

(١) انظر في ذلك شرح فتح القدير (٢٤٨/١) ، أحكام القرآن لابن العربي (٢٠٨/١) ، تفسير ابن كثير (٢٨٤/١) .

(٢) وهذا هو الذي عليه جمهور الفقهاء وذهب إليه جماعة من الصحابة والتابعين ومن بعدهم ، وهو قول الأوزاعي وإسحاق وأبي عبيد (انظر : شرح فتح القدير ٢٤٤٨/١ ، أحكام القرآن للجصاص ٤١٤/١ ، والمجموع ١٧١/١٨ ، بداية المجتهد ٩٥/٢ ، فقه الكتاب والسنة ٤٦٨/١ - ٤٧٠) .

نقول : لا ، جيرانك يأتون إليك أما أنت لا تذهبي ، تبقين في البيت الذي مات زوجك وأنت فيه ، فإذا قدرنا أنها سافرت مع زوجها إلى بلد للعلاج ، ومات زوجها بالبلد الذي هو غير بلدها ، نقول : ارجعي إلى بلدك ، لأن هذا ليس مسكنكِ في الأصل .

الخامس : التجميل والتكحل بالكحل وما أشبه ذلك ، حتى لو فرضنا أن عينها فيها مرض ، فلا تتكحل ، إلا بصبر أو شبهه - مما لا لون له - تفعله بالليل وتمسحه بالنهار ، هذا إن احتاجت وإلا فلا[1] . ولهذا جاءت امرأة إلى النبي وقالت : يا رسول الله ، إن ابنتي مات زوجها ، وقد اشتكت عينَها - يعني توجعها - أفنكحلها قال : « لا »[2] مع أنها توجعها عينها ، فقال : « لا » . حتى قال ابن حزم رَحِمَهُ اللَّهُ : لو فقدت عينها فإنها لا تكحلها بأي حال من الأحوال ؛ لأن النبي سئل عن هذه المريضة في عينها فأبى أن يرخص لهم في الكحل[3] . وكذلك التحمير والتجميل وما أشبه ذلك . أما الصابون الذي ليس فيه طيب فلا بأس ، وكذلك تنظيف الرأس وكذلك تنظيف الجلد .

وما اشتهر عند العوام أن المرأة تغتسل من الجمعة إلى الجمعة يعني المحادة ، فهذا لا أصل له .

كذلك أيضًا ما اشتهر عندهم أنها في الليل لا تخرج إلى الحوش بل تكون تحت السقف ؛ فهذا لا صحة له ، تخرج إلى ما شاءت .

كذلك ما اشتهر في العامية المحضة ، يقولون : إن القمر رجل ، له عيون ، وأنف ، وفم ، فلا تخرج المرأة للقمر ؛ لأن القمر رجل يطلع عليها ، هذا غلط وليس بصحيح . تخرج في الليالي المقمرة ، وفي كل شيء ، لكن لا تخرج من البيت .

كذلك أيضًا ما اشتهر عند العوام أنها لا تكلم أحدًا إلا من محارمها ، وهذا غلط أيضًا ، تكلم من شاءت لا بأس ، ولا حرج ، يعني هي في الكلام كغيرها من النساء ، لا يحرم عليها الكلام ، لكنها كما قال الله عَزَّ وَجَلَّ : ﴿ فَلَا تَخْضَعْنَ بِٱلْقَوْلِ فَيَطْمَعَ ٱلَّذِى فِى قَلْبِهِۦ مَرَضٌ ﴾[4] [الأحزاب : ٣٢] والله الموفق .

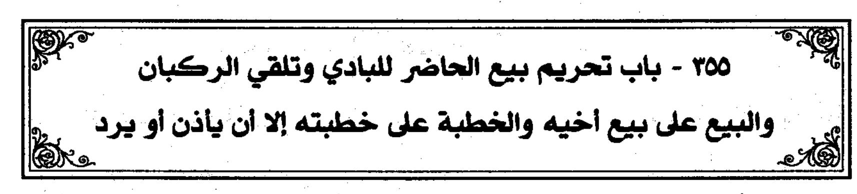
* * *

(١) وهذا هو قول الحنفية والمالكية والشافعية والحنابلة ، وهو قول عطاء والنخعي ، حيث قالوا : إن الاكتحال من أجل التداوي مباح ، وذلك لضرورة التطيب من مرض يصيب العين ، وخالفهم في ذلك أهل الظاهر ؛ إذ قالوا : على المعتدة من الوفاة أن تجتنب الكحل كله لضرورة أو لغير ضرورة ولو ذهبت عيناها لا ليلًا أو نهارًا (انظر : الموطأ ص : ٢٠٠ ، المغني ٥١٩/٧ ، المهذب ١٤٤٩/٢ ، أسهل المدارك ١٨٨/٢ ، المحلى ٢٧٦/١٠ ، فقه الكتاب والسنة ٤٧٢/١ ، ٤٧٣) .

(٢) أخرجه النسائي في الطلاق ١٨٩/٦ ، ومالك في الموطأ (الطلاق ١٠٣) .

(٣) المحلى ٢٧٦/١٠ .

(٤) قوله ﴿ فَلَا تَخْضَعْنَ بِٱلْقَوْلِ ﴾ أي لا ترققن الكلام إذا خاطبتن الرجال .



٣٥٥ - باب تحريم بيع الحاضر للبادي وتلقي الركبان والبيع على بيع أخيه والخطبة على خطبته إلا أن يأذن أو يرد

١٧٧٥ - عَنْ أَنَسٍ ﷺ قَالَ : نَهَى رَسُولُ اللَّهِ ﷺ أَنْ يَبِيعَ حَاضِرٌ لِبَادٍ وَإِنْ كَانَ أَخَاهُ لأَبِيهِ وَأُمِّهِ [١] . متفقٌ عليه .

١٧٧٦ - وَعَنِ ابْنِ عُمَرَ قَالَ : قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ : « لا تَتَلَقَّوُا السِّلَعَ حَتَّى يُهْبَطَ بها إلى الأَسْوَاقِ » [٢] متفقٌ عليه .

١٧٧٧ - وَعَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ ﷺ قَالَ : قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ : « لا تَتَلَقَّوُا الرُّكْبَانَ ، وَلا يَبِعْ حَاضِرٌ لِبَادٍ » فَقَالَ لَهُ طَاوُسُ : مَا قوله : لا يَبِعْ حَاضِرٌ لِبَادٍ ؟ قال : لا يَكُونُ لَهُ سِمْسَارًا [٣] . متفقٌ عليه .

١٧٧٨ - وَعَنْ أَبِي هُرَيرَةَ ﷺ قَالَ : نَهَى رَسُولُ اللَّهِ ﷺ أَنْ يَبِيعَ حَاضِرٌ لِبَاد ، وَلا تَنَاجَشُوا ، وَلا يَبِيعُ الرَّجُل عَلى بَيع أَخِيهِ ، وَلا يَخْطُبُ عَلى خِطْبَةِ أَخِيهِ ، وَلا تَسْأَلُ المَرْأَةُ طَلاقَ أُخْتِهَا لِتَكْفَأَ مَا في إنَائِهَا .

وفي رواية قَالَ : نَهَى رَسُولُ اللَّه ﷺ عَنِ التَّلَقِّي ، وَأَنْ يَبْتَاعَ المُهَاجِرُ لِلأَعْرابِيِّ ، وَأَنْ تَشْتَرِطَ المَرْأَةُ طَلاقَ أُخْتِهَا ، وَأَنْ يَسْتَامَ الرَّجُلُ عَلى سَوم أَخِيهِ ، وَنَهَى عَنِ النَّجَشِ وَالتَّصْرِيَةِ [٤] . متفق عليه .

١٧٧٩ - وَعَنِ ابْنِ عُمَرَ ﷺ أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ قَالَ : « لا يَبِعْ بَعْضُكُمْ عَلى بَيعِ بَعْضٍ ، وَلا يَخْطُبْ عَلَى خِطْبَة أَخِيهِ إلا أَنْ يَأْذَنَ لَهُ » [٥] متفقٌ عليه . وهذا لَفْظُ مسلم .

١٧٨٠ - وَعَنْ عُقْبَةَ بْنِ عَامِرٍ ﷺ أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ قَالَ : « المُؤْمِنُ أَخُو المُؤْمِنِ ، فَلا يَحِلُّ لِمُؤْمِنٍ أَنْ يَبْتَاعَ عَلى بَيعِ أَخيهِ ، وَلاَ يَخْطُبَ عَلَى خِطْبَةِ أَخِيهِ حَتَّى يَذَرَ » [٦] رواه مسلم .

---

(١) أخرجه البخاري في البيوع (٢١٥٩) ، ومسلم في البيوع (٢١) ، وأحمد في مسنده (١٥٣/٢ ، ٢٣٨ ، ٢٥٤) .

(٢) أخرجه البخاري في البيوع (٢١٦٥) ، ومسلم في البيوع (١٤) قوله : « السلع » هي المتاع وما يتجر فيه .

(٣) أخرجه البخاري في البيوع (٢١٦٣) ، ومسلم في البيوع (١٩) ، وأحمد في مسنده (٥٠١/٢) ، والبيهقي في السنن (٣٤٨/٥) .

(٤) هذا الحديث لم يقم الشارح ﷺ بشرحه ، والحديث أخرجه البخاري في البيوع بنحوه (٢١٦٢) ، ومسلم في النكاح (٥١) ، والنسائي في السنن (٢٥٥/٧) . قوله : « ولا تناجشوا » النجش هو الزيادة في ثمن السلعة من غير رغبة في شرائها لخداع المشتري وترغيبه فيها ، قوله : « لتكفأ ما في إنائها » المعنى : لا تسأل المرأةُ - ولو أجنبية - طلاقَ زوجة لينكحها أو يصير لها من نفقته ومعروفه ومعاشرته ما كان للمطلقة ، قوله « وأن يستام الرجل على سوم أخيه) هو أن يتجاذب المتبايعان السلعة حتى إذا تقاربا على العقد ، يجيء رجل آخر يريد أن يشتري تلك السلعة فيخرجها من يد المشتري الأول بزيادة على ما استقر عليه من المتساومين ، ورضيا به قبل الانعقاد .

(٥) هذا الحديث لم يقم الشارح ﷺ بشرحه ، والحديث أخرجه مسلم في النكاح بلفظه (٤٩) ، والبخاري في البيوع بنحوه (٢١٦٥) ، وأبو داود في البيوع (٣٤٣٦) ، والإمام أحمد في المسند (٣٦٠/٢) .

(٦) هذا الحديث لم يقم الشارح ﷺ بشرحه ، والحديث أخرجه مسلم في النكاح (٥٦) ، والبيهقي في السنن (٣٤٦/٥) .

الشرح

هذه أمور ثلاثة عقد لها المؤلف - رحمه الله تعالى - بابا في كتابه ومنها : أن يبيع حاضر لباد ، ومنها : تلقي الركبان ، ومنها : البيع على بيع أخيه .

أما بيع الحاضر للبادي : فهو أن يأتي إنسان قادم من البادية بغنمه أو إبله أو سمنه أو لبنه أو أقطه ليبيعه في السوق ، فيأتي الإنسان إليه وهو من أهل البلد ويقول : يا فلان أنا أبيع لك ، هذا لا يجوز [(١)] ؛ لأن النبي قال : « دعوا الناس يرزق الله بعضهم من بعض » [(٢)] دع البدوي يبيع ، ربما يريد أن يبيع برخص ، لأنه يريد أن يرجع إلى أهله ، وأيضًا إذا باع البدوي فالعادة أن الحضري ينقده الثمن ولا يؤخره ؛ لأنه يعرف أنه صاحب بادية يريد أن يرجع ، فيكون بذلك فائدة للبائع وهو البدوي ، ينقد له الثمن ، وفائدة للمشتري وهو أن الغالب أن البدوي يبيع برخص ؛ لأنه عجل ، لا ينتظر الزيادة ، ولهذا نهى النبي ﷺ أن يبيع حاضر لباد .

واستدل العلماء - رحمهم الله تعالى - بالعلة ، على أنه إذا جاء البادي إلى الحاضر ، وقال : يا فلان بع هذه السلعة لي ، فإنه لا بأس بذلك ؛ لأن البادي الآن يعلم أنه إذا باعه الحضري فهو غالبًا أكثر ثمنًا ولا يهمه أن يبقى يومًا أو يومين ، من أجل أن يأخذ الثمن [(٣)] .

ولكن ظاهر الحديث العموم ، وأن الحاضر لا يبيع للبادي ، وأنه إذا جاء إليه قال : يا فلان خذ سلعتي بعها ، يقول : لا ، بعها أنت .

كذلك أيضًا استنبط العلماء - رحمهم الله - من هذه العلة ، « دعوا الناس يرزق الله بعضهم من بعض » أنه إذا كان السعر واحدًا سواء باع الحاضر أو البادي فإنه لا بأس أن يبيع الحاضر للبادي ؛ لأن السعر لن يتغير ، ومثال ذلك : أن تكون الدولة قد قررت سعرًا معينا لهذا النوع لا يزيد ولا ينقص ، فهذا لا فرق بين أن يبيعه الحاضر أو البادي ، ليس للحاضر مكسب وفائدة في ذلك ، فقالوا : إذا كان السعر معلومًا ؛ فإنه لا بأس أن يبيع الحاضر للبادي ، واستنبط بعض العلماء من العلة أنه لا بد أن تكون السلعة هذه للناس بها حاجة ، يعني مما تتعلق به حوائج الناس ، وأما الشيء الذي لا يحتاجه الناس إلا نادرًا فلا بأس ، لكن هذا الاستنباط ضعيف ، والصواب أنه لا فرق بين السلعة التي يحتاجها الناس ،

---

(١) اشترطت الحنفية لتحريم هذا البيع أن يكون الناس في قحط وضيق لما في ذلك من إضرار بهم ، أما إذا لم يكونوا في قحط وضيق فلا بأس بهذا البيع ، وهو أن يتولى السمسار بيع السلعة للبادي ، وإلى ذلك ذهب الشافعية ، أما الحنابلة ، والظاهر من قول المالكية فإنهم ذهبوا إلى بطلان هذا البيع ، ووجه قولهم بالبطلان أن هذا البيع منهي عنه ، والنهي يقتضي فساد المنهي عنه (انظر في ذلك : مغني المحتاج ٣٦/٢ ، البناية ٤٦٥/٦ - ٤٦٦ ، المغني ٢٣٨/٤ ، بداية المجتهد ١٤٥/٢) .

(٢) أخرجه مسلم في البيوع (٢٠) ، والترمذي في البيوع (١٢٢٣) ، وابن ماجه في السنن (٢١٧٦) ، وأحمد في مسنده ٣٨٦/٣ .

(٣) وهذا قول المالكية والشافعية والحنابلة في أحد قوليهم ؛ حيث قالوا : يجوز الشراء من الحاضر للبادي ، ووجه هذا القول : أن النهي لا يتناول الشراء بلفظه ولا هو في معناه . أما الحنفية والحنابلة في قولهم الثاني وهو رواية عن مالك ؛ فإنهم قالوا بعد جواز الشراء للبادي ، وحجتهم في ذلك ما روي عن أنس : « لا تبيعن شيئًا ولا تبتاعن له شيئًا » (انظر في ذلك : بداية المجتهد ١٤٥/٢ ، مغني المحتاج ٣٦/٢ ، المغني ٢٣٩/٤ ، البناية ٤٦٥/٦ ، فقه الكتاب والسنة ١١٢٧/٢ ، ١١٢٨) .

والسلعة التي لا يحتاجونها إلا نادرًا .

الأمر الثاني : تلقي الركبان : وذلك لأنهم كانوا فيما سبق يعرفون أن البادية تأتي بالسلع ، مثلًا في أول النهار يوم الجمعة ، فتجد بعض الناس يخرج من البلد إلى قريب منه ، ثم يتلقى الركبان ، ويشتري منهم قبل أن يصلوا إلى السوق ، فيقطع الرزق على أهل البلد الذين ينتظرون الركبان ، وكذلك يغبن المتلقين ، بأن يغبن الركبان ، فيحصل بتلقي الركبان مضرتان :

الأولى : على أهل البلد ، الذين ينتظرون قدوم الركبان من أجل أن يشتروا منهم برخص .

الثانية : الضرر على الركبان ؛ لأن هذا الذي تلقاهم سيغبنهم ، ويشتري منهم بأقل من السوق ، ولم يصلوا إلى السوق حتى يعرفوا السعر ، ولهذا قال النبي ﷺ : « فمن تُلقي فاشترى منه ، فأتى السوق فهو بالخيار » [1] يعني إذا تلقى الإنسان الركبان خارج البلدان واشترى منهم ، ثم دخل البلد ووجد أنه مغبون ؛ فله أن يرد البيع ؛ لأنه قد غُر وغُبن .

المسألة الثالثة : بيع المسلم على بيع أخيه ، وهو أيضًا حرام ، وخطبته على خطبته حرام ، بيعه على بيعه أن يقول : من اشترى سلعة بعشرة أنا أبيع مثلها بثمانية . حرام ؛ لأن المشتري سوف يحاول أن يفسخ العقد من أجل أن يأخذ السلعة برخص ، وكذلك الخطبة على خطبة أخيه ، فمثلًا لو سمعت أن فلانًا خطب من أناس ابنتهم فذهبت وخطبت ابنتهم هذه ، فهذا حرام ، إلا إذا أذن الخاطب ، بمعنى أنك ذهبت إلى الخاطب وقلت : يا فلان ، سمعتُ أنك خطبت فلانة ، وأنا لي بها حاجة أتأذن لي ، . إذا قال : نعم لا بأس ، الحق له .

أو يُرَدُّ ؛ أي يرده أهل البنت ، عرفت أن فلان خطب من هؤلاء الجماعة وردوه ، فلا بأس أن تخطب ، لأنهم ردوه ، ليس له علاقة بالمرأة الآن .

فأما إذا سمعت أن فلان خطب من جماعة ولكنك لم تتأكد هل ردوه أم لا ؛ فإنه لا يحل لك أن تخطب ؛ لأنه قد يكونون على وشك أن يقبلوا ، فإذا خطبت منهم رفضوا ، فيكون في ذلك حرمان لهذا الخاطب من حقه في المخطوبة . والله الموفق .

* * *

٣٥٦ - باب النهي عن إضاعة المال في غير وجوهه التي اذن الشرع فيها

١٧٨١ - عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ ﷺ قَالَ : قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ : « إِنَّ اللَّهَ تَعَالى يَرْضَى لَكُمْ ثَلاثًا ، وَيَكْرَه لَكُمْ ثَلاثًا : فَيَرْضَى لَكُم أَنْ تَعْبُدوه ، وَلا تُشْركُوا بِهِ شَيْئًا ، وَأَنْ تَعْتَصِموا بِحَبْلِ اللَّهِ جَمِيعًا وَلَا تَفَرَّقُوا ، وَيَكْرَهُ لَكُمْ : قِيلَ وَقَالَ ، وَكَثْرَةَ السُّؤَالِ ، وَإِضاعَةَ المَالِ » [2] رواه مسلم ، وتقدَّم شرحه .

---

(١) انظر الحديث في مسلم في البيوع (١١ ، ١٩) ، وأحمد في مسنده (٣٦٨/١ ، ٤٢/٢) .

(٢) أخرجه مسلم في الأقضية (١٠) ، وأحمد في مسنده ٣٦٧/٢ ، والبيهقي في السنن ١٦٣/٨ ، ومالك في الموطأ (٩٩٠) .

١٧٨٢ - وَعَنْ وَرَّادٍ كَاتِبِ المُغِيرَةِ بْنِ شُعْبَةَ قَالَ : أَمْلَى عَلَيَّ المُغِيرَةُ فِي كِتَابٍ إِلى مُعَاوِيَةَ ﷺ ، أَنَّ النَّبِيَّ ﷺ كَانَ يَقُولُ فِي دبُرِ كُلِّ صَلاةٍ مَكْتُوبَةٍ : « لا إله إلا اللَّهُ وَحْدَهُ لا شريكَ لَهُ ، لَه المُلْكُ وَلَه الحَمْدُ وَهُوَ عَلى كُلِّ شَيءٍ قَدِيرٌ ، اللَّهُمَّ لَا مَانِعَ لِمَا أَعْطَيتَ ، وَلا مُعْطِيَ لِمَا مَنَعْتَ ، وَلا يَنْفَع ذَا الجَدِّ مِنْكَ الجَدُّ » وَكَتَبَ إِلَيهِ أَنَّه « كَانَ يَنْهَى عَنْ قِيلَ وَقَالَ ، وَإِضَاعَةِ المَالِ ، وَكَثْرَةِ السُّؤالِ ، وَكَانَ يَنْهَى عَنْ عُقُوقِ الأُمَّهَاتِ ، وَوَأْدِ البَنَاتِ ، وَمَنْعٍ وَهَاتِ »[1] متفق عليه وسبق شرحه .

الشرح

ذكر المؤلف - رحمه اللَّه تعالى - النهي عن إضاعة المال في غير ما أذن اللَّه فيه .

فالمال جعله اللَّه ﷻ قيامًا للناس تقوم به مصالح دينهم ودنياهم كما قال تعالى : ﴿ وَلَا تُؤْتُوا السُّفَهَاءَ أَمْوَالَكُمُ الَّتِي جَعَلَ اللَّهُ لَكُمْ قِيَامًا ﴾ [النساء : ٥] ولهذا حرم الاعتداء عليه ، وقال النبي ﷺ : « إن دماءكم ، وأموالكم ، وأعراضكم ، حرام عليكم »[2] ورتب سبحانه وتعالى تقسيم المال في مواضع كثيرة بنفسه جل وعلا ، قال : ﴿ وَاعْلَمُوا أَنَّمَا غَنِمْتُم مِّن شَيْءٍ فَأَنَّ لِلَّهِ خُمُسَهُ ﴾ [الأنفال : ٤١] وقال : ﴿ إِنَّمَا الصَّدَقَاتُ لِلْفُقَرَاءِ وَالْمَسَاكِينِ وَالْعَامِلِينَ عَلَيْهَا ﴾ [التوبة : ٦٠] وقال تعالى : ﴿ يُوصِيكُمُ اللَّهُ فِي أَوْلَادِكُمْ لِلذَّكَرِ مِثْلُ حَظِّ الْأُنثَيَيْنِ ﴾ [النساء : ١١] وغيرها من آيات المواريث كل هذا يدل على عناية الشرع بالمال وأنه أمر مهم ، ولهذا كان كثير من الدول الآن إنما تقوى باقتصادها ونماء مالها وغناها .

فالمال أمر مهم فلا يجوز للإنسان أن يضيعه في غير فائدة ، وإضاعته في غير فائدة أنواع متعددة ، منها : الإسراف في بذله ، فإن الإسراف محرم حتى في المآكل والمشرب والملابس والمراكب والمنازل ، متى تجاوز الإنسان الحد فإنه آثم ، لقوله تعالى : ﴿ وَكُلُوا وَاشْرَبُوا وَلَا تُسْرِفُوا إِنَّهُ لَا يُحِبُّ الْمُسْرِفِينَ ﴾ [الأعراف : ٣١] فمجاوزة الحد إسراف ، وهي محرمة وعرضة لأن يكره اللَّه تعالى فاعلها ، وإذا قلنا : إن الإسراف مجاوزة الحد ، تبين لنا أن إنفاق المال يختلف ، فالغني مثلًا قد يؤسس بيته ، أو يشتري سيارة ، أو يلبس الثياب التي لا تعد في حقه إسرافًا ؛ لأنه لم يتجاوز بها حد الغنى ، لكن لو أن فقيرًا فعل مثل فعله ، قلنا : إن هذا إسراف وإنه حرام . ولهذا يغلط كثير من الناس الآن من الفقراء ومتوسطي الحال أن يلحقوا أنفسهم بالأغنياء ، هذا غلط وخطأ .

والإنسان كما قال العوام : يمد رجله على قدر لحافه ، إذا كان اللحاف واسعًا ، مد رجليك كلها ، وإذا كان ضيقًا فكف رجليك . أما أن تكون فقيرًا وتريد أن تساوي الأغنياء في مأكلك ومشربك وملبسك ومنكحك ومركوبك ومسكنك ؛ فهذا من السفه وهو حرام أيضًا ، لا يحل للإنسان .

وقد غلط بعض الناس أكثر من هذا ، فذهب يستدين ويرهق نفسه بدين من أجل أن يؤسس بيته كما أسس جاره الغني بيته ، وهذا غلط أيضًا ، هذا مما حرم اللَّه .

---

(١) أخرجه البخاري في الرقاق (٦٤٧٣) ، ومسلم في الأقضية (١٢) .

(٢) أخرجه البخاري في العلم (٦٧) ، ومسلم في القسامة (٢٩ ، ٣٠) ، وأحمد في مسنده (٥/٤٠) .

الإسراف هو مجاوزة الحد ؛ لأن اللَّه لا يحب المسرفين ، وقد امتدح اللَّه عباده الذين إذا أنفقوا لم يسرفوا ولم يقتروا وكانوا بين ذلك قوامًا (١) .

ومن الإسراف تعدد الملابس بدون حاجة ، كثير من النساء الآن كلما ظهر شكل من أشكال اللباس ذهبت تشتريه حتى تملأ بيتها من الثياب بدون حاجة ، لكن ظهر شيء يختلف عن الأول بشيء بسيط تقول : خلاص لا ألبسه وألبس الثوب الجديد ، ثم بعض النساء تلعب بعقول بعض الرجال ، فتجد المرأة هي التي توجه الرجل وتقول : اشتر كذا ، اشتر كذا ، فصارت القوامة الآن للنساء على الرجال ، إلا من شاء اللَّه .

والرجل يجب أن يكون رجلًا يمنع زوجته من الإسراف سواء من مالها أو من ماله .

ومما لا يجوز بذل المال فيه : أن يبذله في محرم ، كهؤلاء الذين يشترون الدخان بالمال ؛ فإن هذا حرام عليه ، وهو مما نهى اللَّه عنه ؛ لأنه إضاعة للمال واضحة ، يبذل الإنسان ماله في شيء يحرقه ؛ لأن الدخان لا يشرب إلا إذا أحرق ، فكأنما الرجل أحرق الدراهم وأتلفها في أمر يضره أيضًا ، ليته يسلم من ضرره ، ولهذا اتفق الأطباء الآن على أنه ضار ، وأنه يجب على الإنسان أن يتجنبه ، حتى الدول الكافرة الآن الراقية الفاهمة ، تجدهم يمنعون الدخان ، ولا يمكن أن يشرب الدخان .

أما في المجالس العامة فممنوع قطعًا ، وأما في المجالس الخاصة فممنوع أيضًا ، إلا إذا استأذنوا أهل المجلس فأذنوا وإلا فيمنع ؛ لأنه ضار للشارب وللحاضر ، حتى إنهم يمنعون من شرب الدخان فوق الأجواء ، كما حدثني قواد الطائرات أنهم إذا دخلوا حدود بعض البلاد الكافرة امتنعوا من التدخين ، كل من في الطائرة لا يدخن ، لا من أجل الدين ، لكن لأنه مضر ، واحترامًا لأجوائهم ، فيا أسفا أن يكون هذا من الكفار ، وأما من المسلمين اليوم فلا تجد الرجل يبالي بالناس يخرج السيجارة ويشربها ولا يبالي بأحد . وهذا حرام عليه ، أولًا لنفسه ، حرام عليه ، والثاني لأذية المسلمين ، الناس يتأذون بهذا وقد قال تعالى : ﴿ وَالَّذِينَ يُؤْذُونَ الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ بِغَيْرِ مَا اكْتَسَبُوا فَقَدِ احْتَمَلُوا بُهْتَانًا وَإِثْمًا مُبِينًا ﴾ [الأحزاب : ٥٨] فهو يؤذيهم ، والدخان الذي يكون بينهم يدخل أيضًا إلى أجوافهم ويتضررون به .

هذا أيضًا من الحرام ، يحرم على الإنسان أن يشتري شيئًا يشربه من الدخان وهو بذلك آثم ومُصر على معصية ، وتسقط عدالته بذلك ، وترتفع ولايته عن من له ولاية عليه ، حتى إن كثيرًا من العلماء يقول : إنه لا يزوج ابنته إذا كان يشرب الدخان ، ابنته لا يزوجها ، لماذا ؟ لأنه خرج عن العدالة إلى الفسق ، والفاسق لا ولاية له ، فالمسألة خطيرة .

من إضاعة المال أيضًا : أن يصرفه الإنسان في شيء لا فائدة منه في ألعاب وما أشبه ذلك ، ومن هذا الألعاب النارية .

« قيل وقال » معناه : أن يشتغل الإنسان بالكلام بنقله قال فلان وقيل كذا وقيل كذا كما يوجد

---

(١) راجع سورة الفرقان الآية (٦٧) .

في كثير من المسرفين الآن الذين يعمرون مجالسهم بقولهم ماذا قيل اليوم ؟ وقال فلان وماذا تقول في فلان ؟ وما أشبه ذلك من الكلام الذي يضيع به الوقت . كما نهى عن إضاعة المال الذي جعله الله قيامًا للناس ، نهى عن إضاعة الوقت أيضًا ، فإضاعة الوقت في قيل وقال وكثرة السؤال ، هذا لا شك أشد ضررًا على الإنسان من إضاعة المال ، إضاعة المال ربما يُخلف ، لكن إضاعة الوقت لا يمكن أن يخلف ، الوقت يذهب ولا يرجع ، لهذا يجب على الإنسان أن يتجنب الخوض في القيل والقال وما تقول في فلان وما أشبه ذلك .

كذلك كثرة السؤال ، وكثرة السؤال يحتمل أن يراد به سؤال الخلق ، يعني لا تسأل الناس ، والسؤال إن كان سؤال مال ؛ فإنه حرام ، بل لا يزال الإنسان يسأل ويسأل حتى يأتي يوم القيامة وما في وجهه مذعة لحم [١] والعياذ بالله .

ويحتمل أن يراد به كثرة السؤال عن أحوال الناس بدون حاجة وبدون فائدة ، ماذا تقول في فلان؟ هل هو غني ، فقير ، متعلم أم جاهل ؟ وما أشبه ذلك .

ويحتمل أن يراد به كثرة السؤال عن العلم الذي لا يحتاج إليه الإنسان ولا سيما في عهد النبوة ؛ لأنه يخشى أن يسأل الإنسان عن شيء لم يحرم فيحرم من أجل مسألته أو عن شيء لم يجب ، فيوجب من أجل مسألته ، ولكن الأخير هذا يقيد بما إذا لم يحتاج الإنسان إلى السؤال ، فإن كان يحتاج إلى ذلك ، كطالب العلم الذي يسأل ويستفهم ؛ فإنه لا بأس أن يسأل ويستفهم ويزيل اللبس عن نفسه .

وكان - عليه الصلاة والسلام - ينهى عن عقوق الأمهات ، يعني عن قطع الأمهات عن حقوقهن ، والأم لها حق عظيم على الولد من ذكر أو أنثى حتى إنها أحق من الأب ، سُئل النبي ﷺ : أي الناس أحق بصحبتي ؟ قال : « أمك » ، قال : ثم من؟ قال : « أمك » ، قال : ثم من ؟ قال : « أمك » ، قال ثم من ؟ قال : « ثم أبوك » [٢] ، فالأم لها حق كبير عظيم ؛ لأنها حملت ولدها كرهًا [٣] ووضعته كرهًا ، وأرضعته كرهًا ، وأتعب ليلها ونهارها ، فلها حق عظيم .

وكذلك عقوق الآباء : وهو أيضًا من كبائر الذنوب لكن النبي ﷺ ذكر عقوق الأمهات لأنه أشد ، وكان ينهى عن عقوق الأمهات وعن وأد البنات ، وأد البنات هو : أن من عادة الجاهلية الحمقاء أن الإنسان إذا ولد له بنت دفنها والعياذ بالله ، دفنها وهي حية : ﴿ وَإِذَا بُشِّرَ أَحَدُهُم بِٱلْأُنثَىٰ ظَلَّ وَجْهُهُۥ مُسْوَدًّا وَهُوَ كَظِيمٌ ۝ يَتَوَٰرَىٰ مِنَ ٱلْقَوْمِ مِن سُوٓءِ مَا بُشِّرَ بِهِۦٓ ﴾ [النحل: ٥٨، ٥٩] يعني : يختفي عن الناس من سوء ما بشر به ﴿ أَيُمْسِكُهُۥ عَلَىٰ هُونٍ أَمْ يَدُسُّهُۥ فِى ٱلتُّرَابِ ﴾ [النحل: ٥٩] أي : يبقيها مع الإهانة وعدم المبالاة بها ﴿ أَمْ يَدُسُّهُۥ فِى ٱلتُّرَابِ ﴾ أي : يدفنه وهو حي ، حتى إن بعضهم ، والعياذ بالله كان يحفر

(١) مذعة لحم أي قطعة لحم (لسان العرب ٤١٦٣/٦) .

(٢) أخرجه البخاري في الأدب (٥٩٧١) ، ومسلم في البر والصلة (١ ، ٢) ، والترمذي في السنن (١٨٩٧) ، وابن ماجه في السنن (٣٦٥٨) ، وأحمد في مسنده (٥/٣) .

(٣) راجع ذلك في سورة الأحقاف الآية (١٥) .

حفرة لابنته فطار شيء من الغبار على لحيته وهو يريد أن يدفنها فنفضت لحيته عن التراب ودفنها والعياذ بالله ، إلى هذا الحد ، يعني قلوب أغلظ من الحجارة ، حتى البهائم لا تفعل بأولادها هكذا ، وهؤلاء والعياذ بالله يفعلون هذا . يحفر لها ليدفنها وهي تنظف لحيته من التراب ثم يدفنها والعياذ بالله ، وكان بعضهم يحفر لابنته ، فإذا أحست به قامت تتوسل به يا أبت ، يا أبت ، فيمسكها ويطرحها حتى يدفنها ، نعوذ بالله .

مع ما في كفالة البنات من الأجر العظيم « ما من إنسان يكفل ثلاث بنات يحسن إليهن إلا كن حجابًا له من النار » قالوا : وابنتين يا رسول الله ؟ قال : « وابنتين » ، قالوا : وواحدة ؟ قال : « وواحدة » [١] .

وكان الإمام أحمد رَحِمَهُ اللَّهُ إذا قيل له : ولد لك بنت ، قال : ولدت الإناث للأنبياء . ولدت الإناث للأنبياء ، الأنبياء عليهم الصلاة والسلام يولد لهم بنات ، فهذا أشرف الأنبياء محمد ﷺ له أربع بنات وله ثلاث أولاد ، أربع بنات وثلاث أولاد ، والذين بلغوا منهم الحلم هم البنات ، وأما الأولاد البنين فماتوا صغارًا ، أكبرهم إبراهيم توفي وله ستة عشر شهرًا ، سنة وأربع أشهر ، رضيع وكان له مرضع في الجنة ، لإبراهيم ابن النبي ﷺ [٢] .

وأما البنات الأربع : فثلاث منهن متن في حياته - عليه الصلاة والسلام - وهن : زينب ، ورقية ، وأم كلثوم ، والرابعة : فاطمة ماتت بعده بأشهر .

فالحاصل : أن البنات إذا منَّ الله على الإنسان بهن وكفلهن وأحسن إليهن ؛ كن له حجابًا من النار .

« ومنع وهات » أي : وينهى عن منع وهات ، وهذا كناية عن الشح والبخل « منع » يعني يمنع ولا يعطي ولا يجود بالمال ولا بالنفس ، « وهات » يترك ، فهو والعياذ بالله بخيل شحيح لا يشفع ولا ينفع ، والله الموفق .

* * *

٣٥٧ - باب النهي عن الإشارة إلى مسلم بسلاح ونحوه سواء كان جادًا أو مازحا ، والنهي عن تعاطي السيف مسلولا

١٧٨٣ - عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ عَنْ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ قَالَ : « لا يُشِرْ أَحَدُكُمْ إِلَى أَخِيهِ بِالسِّلاحِ ؛ فَإِنَّهُ لَا يَدْرِي لَعَلَّ الشَّيْطَانَ يَنْزَعُ فِي يَدِهِ ، فَيَقَعَ فِي حُفْرَةٍ مِنَ النَّارِ » متفقٌ عليه .

وفي رِوَايَةٍ لِمُسْلِمٍ قَالَ : قَالَ أَبُو الْقَاسِمِ ﷺ : « مَنْ أَشَارَ إِلَى أَخِيهِ بِحَدِيدَةٍ ؛ فَإِنَّ الْمَلَائِكَةَ تَلْعَنُهُ

---

(١) أخرجه أحمد في مسنده (٣/٣٠٣) ، والطبراني في الكبير (١٨/٥٦) ، والهيثمي في مجمع الزوائد (٨/١٥٧) ، والمنذري في الترغيب والترهيب (٣/٦٧) .

(٢) ودليل ذلك ما أخرجه أحمد في مسنده (٤/٣٠٠) ، والحاكم في المستدرك (٤/٣٨) ، والهيثمي في مجمع الزوائد (٩/١٦٢) .

حَتَّى يَنزِعَ ، وَإِنْ كَانَ أَخَاهُ لأَبِيهِ وَأُمِّهِ » [١] .

قَوْلُهُ ﷺ : « يَنْزِعَ » ضُبِطَ بالْعَينِ المُهْمَلَةِ مَعَ كَسْرِ الزَّايِ ، وبالْغَينِ المُعجَمَةِ مع فتحها و معناهما متقارب ، ومعناه بالمهملة يرمي ، وبالمعجمة أيضًا يَرْمِي وَيُفْسِدُ ، وَأَصْلُ النَّزْعِ : الطَّعْنُ وَالفَسَادُ .

١٧٨٤ - وَعَنْ جَابِرٍ ﷺ قَالَ : « نَهَى رَسُولُ اللَّهِ ﷺ أَنْ يُتَعَاطَى السَّيفُ مَسْلُولًا »[٢] .

رَوَاهُ أَبُو دَاود ، والترمذي وقال : حديثٌ حَسَنٌ .

الشرح

ذكر المؤلف - رحمه اللَّه تعالى - النهي عن الإشارة بحديدة أو نحوها يعني : على الأخ سواء جادًّا أو هازلًا ، والنهي عن تعاطي السيف مسلولًا هاتان مسألتان :

المسألة الأولى : أن يشير إلى أحد بسلاح أو حديدة أو حجر أو ما أشبه ذلك كأنه يريد أن يرميه به ، فقد نهى النبي ﷺ عن ذلك ؛ لأنه ربما يشيرها هكذا كأنه يريد أن يرميه بالحجر أو بالحديدة أو نحوها ، فينزع الشيطان في يده وتنطلق من يده ، فيقع في حفرة من النار ، والعياذ باللَّه . وكذلك أيضًا ما يفعله بعض السفهاء ، يأتي بالسيارة مسرعًا نحو شخص واقف أو جالس أو مضطجع ، يلعب عليه ثم يحركها بسرعة إذا قرب منه حتى لا يدهسه ، هذا أيضًا ينهى عنه ، كالإشارة بالحديدة ؛ لأنه لا يدري لعل الشيطان ينزع في يده فلا يتحكم في السيارة ، وحينئذ يقع في حفرة من النار ، ومن ذلك : أن يشري الكلب به ، يكون الإنسان عنده كلب ويأتي إنسان آخر إليه زائرًا أو نحو ذلك ، فيشري الكلب به يعني يغريه به ؛ فإنه ربما ينطلق الكلب ويأكل هذا الرجل ، أو يجرحه ولا يتمكن من فضه بعد ذلك .

فالمهم : أن جميع أسباب الهلاك يُنهى الإنسان أن يفعلها سواء أكان جادًّا أم هازلًا ، كما دل على ذلك حديث أبي هريرة .

أما تعاطي السيف مسلولًا : فمثله أيضًا ينهى عنه ؛ لأنه ربما إذا مد يده لأخذ السيف وهو مسلول ربما تضطرب يد الإنسان فتنقطع يد الآخر .

وكذلك السكين ونحوها ، لا تتعاطها وهي موجهة إلى صاحبك ، إذا أردت أن تعطيه السكين ؛ فأمسك بالسكين من عندك ، واجعل المقبض نحو صاحبك لئلا تقع في المحظور ، يعني ريشة السكين إذا أردت أن تعطيها لصاحبك فاجعلها مما يليك ، واجعل المقبض مما يلي صاحبك حتى لا تقع زلة يد فتنجرح يده .

ومن ذلك أيضًا : إذا كان معك عصًا وأنت تمشي بين الناس فلا تحمله عرضًا ؛ لأنك إذا حملته

---

(١) أخرجه البخاري في الفتن (٧٠٧٢) ، ومسلم في البر والصلة (١٢٥) ، والحاكم في المستدرك (١٥٨/٢) بنحوه . قوله « ينزع في يده » أي يرمي في يده ويحقق ضربته ورميته .

(٢) أخرجه أبو داود في الجهاد (٢٥٨٨) ، والترمذي في الفتن (٢١٦٤) ، وأحمد في مسنده (٣٠٠/٣) ، والحاكم في المستدرك (٢٩٠/٤) قوله : « مسلولًا » أي مخرجًا عن غمده .

عرضًا ربما يتعثر به من وراءك أو من أمامك ، ولكن أمسكه نصبًا واقفًا ، تمسكه واقفًا حتى لا تؤذي من وراءك ومن أمامك .

كل هذا من باب الآداب الحميدة التي ينبغي للإنسان أن يسلكها في حياته حتى لا يقع في أمر يؤذي الناس أو يضرهم . والله الموفق .

* * *

٣٥٨ - باب كراهة الخروج من المسجد بعد الأذان إلا لعذر حتى يصلي المكتوبة

١٧٨٥ - عَنْ أَبِي الشَّعْثاءِ قال : كُنَّا قُعُودًا مَعَ أَبِي هُرَيرَةَ ﷺ في المَسْجِدِ ، فَأَذَّنَ المؤَذِّنُ ، فَقَامَ رَجُلٌ مِنَ المَسْجِدِ يَمْشي ، فَأَتْبَعَهُ أَبُو هُرَيرَة بَصَرَهُ حَتَّى خَرَجَ مِنَ المَسْجِدِ ، فَقَالَ أَبُو هُرَيرَة : أَمَّا هَذَا فقَدْ عَصَى أَبَا القَاسِمِ ﷺ [1] . رواه مسلم .

الشرح

ذكر المؤلف رحمه الله تعالى كراهة الخروج من المسجد بعد الأذان حتى يؤدي الصلاة المكتوبة .

وذلك أن المؤذن إذا أذن فإنه يقول للناس : حي على الصلاة ، يعني اقبلوا إليها ، والخروج من المسجد بعد ذلك معصية ؛ فإنه يقال : أقبل ، ولكنه يدبر .

ثم ذكر حديث أبي الشعثاء ، أنهم كانوا قعودًا مع أبي هريرة ﷺ ، فقام رجل يمشي ، فأتبعه أبو هريرة بصره حتى إذا خرج من المسجد . قال : « أما هذا فقد عصى أبا القاسم ﷺ » وإنما أتبعه بصره لينظر هل هو يمشي ليكون في جهة أخرى من المسجد أم ماذا يريد ؟ فلما خرج تبين له أنه أراد الخروج من المسجد ، قال : « أما هذا فقد عصى أبا القاسم » يعني بذلك : رسول الله ﷺ وإذا قال الصحابي : لقد عصى أبا القاسم فهو في حكم المرفوع ؛ يعني كأنه يقول فقد نهى عن ذلك رسول الله ﷺ .

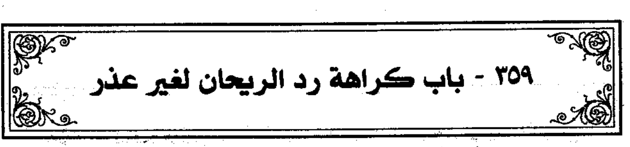
واستدل العلماء بهذا الحديث على أنه يحرم الخروج من المسجد بعد الأذان لمن تلزمه الصلاة إلا لعذر ، فمن العذر : أن يكون حاقنًا يعني يحتاج إلى بول ، أو حاقدًا يحتاج إلى غائط ، أو معه ريح محتبسة يحتاج إلى أن ينقض الوضوء ، أو أصابه مرض يحتاج إلى أن يخرج معه ، أو كان إمامًا لمسجد آخر ، أو مؤذنًا في مسجد آخر .

وأما إذا خرج من هذا المسجد ليصلي في مسجد آخر ؛ فهذا فيه توقف . قد يقول قائل : فالحديث عام ، وقد يقول قائل : إن الحديث فيمن خرج لئلا يصلي مع جماعة ، وأما من خرج من مسجد ليصلي في آخر ، فهذا لم يفر من صلاة الجماعة ، ولكنه أراد أن يصلي في مسجد آخر ، وعلى كل

(١) أخرجه مسلم في المساجد ومواضع الصلاة (٢٥٨) قوله : « فأتبعه » أي ظل ناظرًا إليه .

لا ينبغي أن يخرج حتى وإن كان يريد أن يصلي في مسجد آخر إلا لسبب شرعي ، مثل : أن يكون في المسجد الثاني جنازة يريد أن يصلي عليها ، أو يكون المسجد الثاني أحسن قراءة من المسجد الذي هو فيه ، أو ما أشبه ذلك من الأسباب الشرعية . فهنا نقول لا بأس أن يخرج . واللَّه الموفق .

* * *



٣٥٩ - باب كراهة رد الريحان لغير عذر

١٧٨٦ - عَنْ أبي هُرَيرَةَ ﷺ قَالَ : قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ : « من عُرِضَ عَلَيهِ رَيحَانٌ ، فَلَا يَرُدُّهُ ؛ فَإِنَّهُ خَفِيفُ المَحمل ، طَيِّبُ الرِّيح » [١] رَواهُ مسلم .

١٧٨٧ - وعَنْ أَنَسِ بْنِ مَالِكٍ ﷺ أَنَّ النَّبِيَّ ﷺ كَانَ لا يَرُدُّ الطِّيبَ [٢] . رواه البخاري .

الشرح

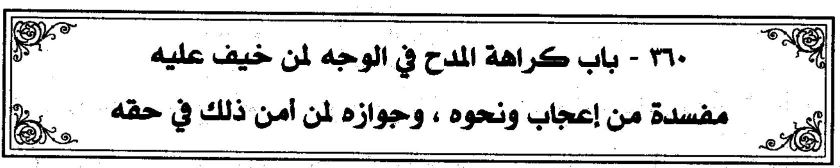
ذكر المؤلف رحمه اللَّه تعالى كراهة رد الريحان .

والريحان : نوع من الطيب ، وهو كما وصفه النبي ﷺ : « خفيف المحمل ، طيب الريح » وقد أرشد النبي ﷺ إلى عدم رده ، وبين المؤلف رحمه اللَّه فيما ساقه من حديث البخاري « أن النبي ﷺ كان لا يرد الطيب » والطيب لا شك أنه يفتح النفس ، ويشرح الصدر ، ويوسع القلب ، ويسر الجليس ، ولهذا كان النبي ﷺ يعجبه الطيب حتى قال : « حبب إليَّ من دنياكم : الطيب ، والنساء ، وجعلت قرة عيني في الصلاة » [٣] فينبغي للإنسان أن يستعمل الطيب دائمًا ؛ لأنه علامة على طيب الأصل ؛ فإن الطيبات للطيبين ، والطيبون للطيبات ، واللَّه تعالى طيب لا يقبل إلا طيبًا .

وإذا أُهدى إليك الطيب فلا ترده ؛ لأن النبي ﷺ كان لا يرد الطيب ولا سيما إذا كان كما وصف النبي ﷺ في الريحان إذا كان خفيف المحمل طيب الريح ؛ لأنه لا يضرك شيء . لكن لو خفت أن هذا الذي أهدى إليك الطيب سيتكلم في المجالس ، أو أن يمن عليك في المستقبل ويقول : أنا أهديت إليك كذا وهذا جزائي ، ويريد منك أن يستخدمك بما أهدى إليك ؛ فهنا لا تقبل الهدية ، لأن هذا يبطل أجره وثوابه بالمن والأذى ، أما إذا كان لا يضرك منه شيء ؛ فإن الأفضل أن لا ترده . واللَّه الموفق .

* * *

(١) أخرجه مسلم في الألفاظ من الأدب (٢٠) قوله ﷺ : « خفيف المحمل » أي أنه سهل الحمل لا يحتاج إلى مشقة .
(٢) أخرجه البخاري في الهبة وفضلها (٢٥٨٢) وأحمد في مسنده (١٣٣/٣) والترمذي في الأدب (٢٧٨٩) .
(٣) سبق تخريجه .



٣٦٠ - باب كراهة المدح في الوجه لمن خيف عليه مفسدة من إعجاب ونحوه، وجوازه لمن أمن ذلك في حقه

١٧٨٨ - عَنْ أَبِي مُوسَى الأَشْعَرِيِّ ﷺ قَالَ: سَمِعَ النَّبِيُّ ﷺ رَجُلًا يُثْنِي عَلَى رَجُلٍ وَيُطْرِيهِ في المِدْحَةِ، فَقَالَ: «أَهْلَكْتُم، أَو قَطَعْتُمْ ظَهْرَ الرَّجُلِ» [١] متفقٌ عليه.

«وَالإِطْرَاءُ» المُبَالَغَةُ في المَدْحِ.

١٧٨٩ - وَعَنْ أَبِي بَكْرَةَ ﷺ أَنَّ رَجُلًا ذُكِرَ عِنْدَ النَّبي ﷺ، فَأَثْنَى عَلَيهِ رَجُلٌ خَيرًا، فَقَالَ النَّبِيُّ ﷺ: «وَيحَكَ! قَطَعْتَ عُنُقَ صَاحِبِكَ» يَقُولُهُ مِرَارًا «إِنْ كَانَ أَحَدُكُم مَادِحًا لَا مَحَالَةَ، فَلْيَقُلْ: أَحْسِبُ كَذَا وَكَذَا، إِنْ كَانَ يَرَى أَنَّهُ كَذلِكَ وَحَسِيبُهُ اللَّهُ، وَلاَ يُزَكَّى عَلَى اللَّهِ أَحَدٌ» [٢] متفقٌ عليه.

١٧٩٠ - وَعَنْ هَمَّامِ بْنِ الحَارِثِ، عَنْ المِقْدَادِ ﷺ أَنَّ رَجُلًا جَعَلَ يَمْدَحُ عُثْمَانَ ﷺ فَعَمِدَ المِقْدَادُ، فَجَثَا عَلَى رُكْبَتَيهِ، فَجَعَلَ يَحْثُو في وَجْهِهِ الحَصْبَاءِ، فَقَالَ لَهُ عُثْمَانُ: مَا شَأْنُكَ؟ فَقَالَ: إِنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ قَالَ: «إذا رَأَيتُمُ المَدَّاحِينَ، فَاحْثُوا في وُجُوهِهِمُ التُّرَابَ» [٣] رَوَاهُ مسلم.

فَهذِهِ الأَحَادِيثُ في النَّهْيِ، وَجَاءَ في الإِبَاحَةِ أَحادِيثُ كَثِيرَةٌ صَحِيحَةٌ.

قَالَ العُلَمَاءُ: وَطَرِيقُ الجَمْعِ بَينَ الأَحَادِيثِ أَنْ يُقَالَ: إِنْ كَانَ المَمْدُوحُ عِنْدَهُ كَمَالُ إِيمَانٍ وَيَقِينٍ، وَرِيَاضَةُ نَفْسٍ، وَمَعْرِفَةٌ تَامَّةٌ بِحَيثُ لا يَفْتَتِنُ ولا يَغْتَرُّ بِذلِكَ، وَلَا تَلْعَبُ بِهِ نَفْسُهُ، فَلَيسَ بِحَرَامٍ وَلَا مَكْرُوهٍ، وَإِنْ خِيفَ عَلَيهِ شَيءٌ مِنْ هذِهِ الأُمُورِ، كُرِهَ مَدْحُهُ في وَجْهِهِ كَرَاهَةً شَدِيدَة، وَعَلَى هذَا التَّفْصِيلِ تُنَزَّلُ الأَحادِيثُ المُخْتَلِفَةُ في ذلِكَ. وَمِمَّا جَاءَ في الإِبَاحَةِ قَولُهُ ﷺ لأَبِي بَكرٍ ﷺ: «أَرْجُو أَنْ تَكُونَ مِنْهُم» [٤] أَي: مِنَ الَّذِينَ يُدْعَونَ مِنْ جَمِيعِ أَبْوابِ الجَنَّةِ لِدُخُولِهَا، وفي الحَدِيثِ الآخَر: «لَسْتَ مِنْهُمْ» [٥]، أَي: لَسْتَ مِنَ الَّذِينَ يُسْبِلُونَ أُزُرَهُمْ خُيَلاءَ، وَقَالَ ﷺ لِعُمَرَ ﷺ: «مَا رَآكَ الشَّيطَانُ سَالِكًا فَجًّا إلا سَلَكَ فَجًّا غَيرَ فَجِّكَ» [٦] وَالأَحادِيثُ في الإِبَاحَةِ كَثِيرَةٌ، وَقَدْ ذَكَرْتُ جُمْلَةً مِنْ أَطْرَافِهَا في كِتَابِ: «الأَذْكَارِ».

---

(١) أخرجه البخاري في الشهادات (٢٦٦٣)، ومسلم في الزهد والرقائق (٦٧). قوله «ويطريه في المدحة» هو مجاوزة الحد في المديح.

(٢) أخرجه البخاري في الشهادات (٢٦٦٢)، ومسلم في الزهد والرقائق (٦٥)، وأحمد في مسنده (٥/٤١) قوله: «**قطعت عنق صاحبك**» أي أهلكته. قوله «أحسبه» أي أظنه. قوله «وحسيبه الله» أي أن محاسبه الله، فلا يكذب بالثناء بما يعم، أو يظن خلافه فيقع في الكذب.

(٣) أخرجه مسلم في الزهد والرقائق (٦٩) وأحمد في مسنده (٦/٥) قوله «**عمد**» أي قصد. قوله «**يحثو**» أي يلقي.

(٤) أخرجه مسلم في فضائل الصحابة (١٢) وأحمد في مسنده (٦/٣٥٩).

(٥) أخرجه مسلم في اللباس (٤٤) والنسائي في السنن (٨/٢٠٩) وأحمد في مسنده (٢/٣٣).

(٦) أخرجه البخاري في فضائل أصحاب النبي (٣٦٨٣) ومسلم في فضائل الصحابة (٢٢) وأحمد في مسنده (١/١٧١، ١٨٢).

الشرح

ذكر المؤلف رحمه الله بيان مدح الإنسان، هل ينبغي للإنسان أن يمدح أخاه بما هو فيه أم لا؟ وهذا له أحوال:

الحال الأول: أن يكون في مدحه خير وتشجيع له على الأوصاف الحميدة والأخلاق الفاضلة، فهذا لا بأس به؛ لأنه تشجيع لصاحبه، فإذا رأيت من رجل الكرم والشجاعة وبذل النفس والإحسان إلى الغير، فذكرته بما هو فيه أمامه من أجل أن تشجعه وتثبته حتى يستمر على ما هو عليه، فهذا حسن، وهو داخل في قوله تعالى: ﴿ وَتَعَاوَنُوا عَلَى الْبِرِّ وَالتَّقْوَى ﴾ [المائدة: ٢].

والثاني: أن تمدحه لتبين فضله بين الناس، وينتشر، ويحترمه الناس، كما فعل النبي ﷺ مع أبي بكر وعمر رضي الله عنهما، أما أبي بكر: فإن النبي ﷺ كان يتحدث ذات يوم قال: «من أصبح منكم صائمًا؟» فقال أبو بكر: أنا، فقال: «من تبع منكم جنازة؟» قال أبو بكر: أنا، فقال: «من عاد اليوم مريضًا؟» فقال أبو بكر: أنا، وذكر أشياء، فقال النبي ﷺ: «ما اجتمعن في امرئٍ إلا دخل الجنة»[(١)].

وكذلك: لما حدث أنه من جر ثوبه خيلاء لن ينظر الله إليه، قال أبو بكر: يا رسول الله إن أحد شقي إزاري يسترخي عليَّ إلا أن أتعاهده، فقال: «إنك لست ممن يصنع ذلك خيلاء».

وقال لعمر: «إن الشيطان ما سلكت فجًا إلا سلك فجًا غير فجك» يعني إذا سلكت طريقًا فإن الشيطان يهرب منه ويذهب إلى طريق آخر، كل هذا لبيان فضل أبي بكر وعمر رضي الله عنهما. هذا لا بأس به.

الثالث: أن يمدح غيره ويغلو في إطرائه ويصفه بما لا يستحق، فهذا محرم وهو كذب وخداع، مثل: أن يذكر رجلًا أميرًا أو وزيرًا أو ما أشبه ذلك ويُطريه ويصفه بما ليس فيه من الصفات الحميدة؛ فهذا حرام عليك، وهو أيضًا ضرر على الممدوح.

الرابع: أن يمدحه بما هو فيه، لكن يخشى أن الإنسان الممدوح يغتر بنفسه ويزهو بنفسه ويترفع على غيره، فهذا أيضًا محرم لا يجوز.

وذكر المؤلف أحاديث في ذلك: أن رجلًا ذُكر عند النبي ﷺ آخر فأثنى عليه فقال: «ويحك! قطعت عنق صاحبك» يعني كأنك ذبحته بسبب مدحك إياه؛ لأن ذلك يوجب أن هذا الممدوح يترفع ويتعالى، وقد أمر النبي ﷺ أن يحثي التراب في وجوه المداحين، يعني إن كان هذا الإنسان معروف ما جلس مجلسًا أمام أحد له جاه وشرف إلا امتدحه، هذا مدَّاح، والمداح غير المادِح، المادِح هو: الذي يُسمع منه مرة بعد أخرى، لكن المدَّاح كلما جلس عند إنسان كبير أو أمير أو قاضٍ أو عالم أو ما أشبه ذلك قام يمدحه، هذا حقه أن يحثي في وجهه التراب؛ لأن رجلًا امتدح عثمان رضي الله عنه فقام المقداد وأخذ الحصباء ونفضها في وجه المداح، فسأله عثمان لما فعل ذلك، قال: إن النبي ﷺ قال: «إذا رأيتم المداحين فاحثوا في وجوههم التراب». وعلى كل حال فالذي ينبغي للإنسان ألا يتكلم إلا بخير، لأن النبي ﷺ قال: «من كان يؤمن بالله واليوم الآخر فليقل خيرًا أو ليصمت»[(٢)]. والله الموفق.

---

(١) أخرجه مسلم في فضائل الصحابة (١٢). (٢) سبق تخريجه.

٣٦١ - باب كراهة الخروج من بلد وقع فيها البلاء فِرارًا منه وكراهة القدوم

قال اللَّه تعالى : ﴿ أَيْنَمَا تَكُونُوا يُدْرِكُكُمُ الْمَوْتُ وَلَوْ كُنتُمْ فِي بُرُوجٍ مُّشَيَّدَةٍ ﴾ [النساء: ٧٨] وقال تعالى : ﴿وَلَا تُلْقُوا بِأَيْدِيكُمْ إِلَى التَّهْلُكَةِ ﴾ [البقرة: ١٩٥] .

١٧٩١ - وَعَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ رضي الله عنهما أَنَّ عُمَرَ بْنَ الخَطَّابِ رضي الله عنه خَرَجَ إِلَى الشَّامِ حَتَّى إِذَا كَانَ بِسرغَ لَقِيَهُ أُمَراءُ الأَجْنَادِ - أَبُو عُبَيْدَةَ بْنُ الجَرَّاحِ وَأَصْحَابُهُ - فَأَخبَرُوهُ أَنَّ الوَبَاءَ قَدْ وَقَعَ بالشَّام ، قَالَ ابْنُ عَبَّاسٍ : فَقَالَ لِي عُمَر : ادْعُ لي المُهَاجِرينَ الأَوَّلِينَ ، فَدَعَوتُهُمْ ، فَاسْتَشَارَهُمْ ، وَأَخْبَرَهُمْ أَنَّ الوَبَاء قَدْ وَقَعَ بِالشَّامِ ، فَاخْتَلَفوا ، فَقَالَ بَعْضُهُمْ : خَرَجْتَ لأَمْرٍ ، وَلاَ نَرَى أَنْ تَرْجعَ عَنْهُ . وَقَالَ بعضُهُمْ : مَعَكَ بَقِيَّةُ النَّاس وَأَصْحَابُ رَسُولِ اللَّه ﷺ ، وَلاَ نَرَى أَنْ تُقْدِمَهُمْ على هذا الوَبَاءِ . فَقَالَ : ارْتَفِعُوا عَنِّي ، ثُمَّ قَالَ : ادْعُ لِيَ الأَنْصَارَ ، فَدَعَوتُهُمْ ، فَاسْتَشَارَهُمْ ، فَسَلَكُوا سَبِيلَ المهاجِرينَ ، وَاخْتَلَفُوا كَاخْتِلاَفِهِمْ ، فَقَالَ: ارْتَفِعُوا عَنِّي ، ثُمَّ قَالَ : ادْعُ لِيَ مَنْ كَانَ هَا هُنَا مِنْ مَشْيَخَةِ قُرَيشٍ مِنْ مُهَاجِرَةِ الفَتْحِ ، فَدَعَوتُهُمْ ، فَلَمْ يَخْتَلِفْ عَلَيهِ مِنْهُمْ رَجُلانِ ، فَقَالُوا : نَرَى أَنْ تَرْجعَ بالنَّاسِ ، وَلاَ تُقْدِمَهُمْ على هذا الوَبَاءِ ، فَنَادَى عُمَرُ رضي الله عنه في النَّاسِ : إنِّي مُصْبِحٌ عَلَى ظَهْرٍ ، فَأَصْبحُوا عَلَيهِ ، فَقَالَ أَبُو عُبَيْدَةَ بْنُ الجَرَّاحِ رضي الله عنه : أَفِرارًا مِنْ قَدَرِ اللَّهِ ؟ فَقَالَ عُمَرُ رضي الله عنه : لَو غَيرُكَ قَالَهَا يَا أَبَا عُبَيدَةَ ! - وَكَانَ عُمَرُ يَكْرَهُ خِلافَهُ - نَعَمْ نَفِرُّ مِنْ قَدَرِ اللَّهِ إلى قَدَرِ اللَّه ، أَرَأَيتَ لَو كَانَ لَكَ إِبلٌ ، فَهَبَطَتْ وَادِيًا لَهُ عُدْوَتَانِ ، إحْدَاهُمَا خَصْبَةٌ ، والأُخْرَى جَدْبَةٌ ، أَلَيسَ إنْ رَعَيتَ الخَصْبَةَ رَعَيتَهَا بقَدر اللَّهِ ، وَإنْ رَعَيتَ الجَدْبَةَ رَعَيتَهَا بِقَدرِ اللَّهِ ؟ قَالَ : فَجَاءَ عَبْدُ الرَّحْمنِ بْنُ عَوفٍ رضي الله عنه وَكَانَ مُتَغَيِّبًا في بَعْضِ حَاجَتِهِ ، فَقَالَ : إنَّ عِنْدِي مِنْ هذَا عِلْمًا ، سَمِعْتُ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ يَقُولُ : « إِذَا سَمِعْتُمْ بِهِ بِأَرْضٍ ، فَلا تَقْدَمُوا عَلَيهِ ، وَإِذا وَقَعَ بِأَرْضٍ وَأَنْتُمْ بِهَا ، فَلَا تَخْرُجُوا فِرارًا مِنْهُ » فَحَمِدَ اللَّهَ تَعَالَى عُمَرُ رضي الله عنه وَانْصَرَفَ (١) . متفقٌ عليه .

« وَالعُدْوَةُ » : جَانِبُ الوادِي .

١٧٩٢ - وَعَنْ أُسَامَةَ بن زَيدٍ رضي الله عنه عَنِ النبيِّ ﷺ قَالَ : « إِذَا سَمِعْتُمُ الطَّاعُونَ بِأَرْضٍ ، فَلا تَدْخُلُوهَا ، وَإِذَا وَقَعَ بِأَرْضٍ ، وَأَنْتُمْ فِيهَا ، فَلا تَخْرُجُوا مِنْهَا » (٢) متفقٌ عليه .

---

(١) أخرجه البخاري في الطب (٥٧٢٩) ومسلم في السلام (٩٨) . قوله : « بسرغ » هي قرية في طرف الشام مما يلي الحجاز ، قوله : « أهل الأجناد » هم سكان مدن الشام الخمس وهي : فلسطين والأردن ودمشق وحمص وقنسرين ، قوله : « الوباء » هو الطاعون ، قوله : « مشيخة قريش » هم المهاجرين الأولين الذين صلوا إلى القبلتين ، قوله : « مهاجرة الفتح » هم الذين أسلموا قبل الفتح ، فحصل لهم فضل الهجرة والفتح ، قوله : « إني مصبح » أي: مسافر عائد إلى وطني ، قوله : « على ظهر » أي على ظهر راحلة .

(٢) أخرجه البخاري في الطب (٥٧٢٨) ومسلم في السلام (١٠٠) وأبو داود في الجنائز (٣١٠٣) وأحمد في مسنده (٥/٢٠٦) .

الشرح

هذا الباب باب عظيم عقده المؤلف - رحمه اللَّه تعالى - وهو كراهة أن يقدم الإنسان على أرض نزل فيها البلاء ، وأن يخرج منها بعد نزول البلاء فرارًا منه ، يعني إذا سمعت بوباء نازل في أرض فلا تقدم عليها ، وإذا وقع وأنت فيها فلا تخرج منها فرارًا منه ، ثم استدل المؤلف رحمه الله بقول اللَّه : ﴿أَيْنَمَا تَكُونُوا يُدْرِككُّمُ الْمَوْتُ وَلَوْ كُنتُمْ فِي بُرُوجٍ مُّشَيَّدَةٍ﴾ إشارة إلى قوله : « لا تخرجوا منها » واللَّه يقول : ﴿أَيْنَمَا تَكُونُوا﴾ وفي أي مكان وفي أي زمان ﴿وَلَوْ كُنتُمْ فِي بُرُوجٍ مُّشَيَّدَةٍ﴾ يعني محصنة مطوية مليفة بالشيد يعني : بالجص محكمة متقنة فإن الموت سوف يأتيكم ﴿أَيْنَمَا تَكُونُوا يُدْرِككُّمُ الْمَوْتُ وَلَوْ كُنتُمْ فِي بُرُوجٍ مُّشَيَّدَةٍ﴾ وفي آية أخرى أعظم من هذا وأبلغ ﴿قُلْ إِنَّ الْمَوْتَ الَّذِي تَفِرُّونَ مِنْهُ فَإِنَّهُ مُلَاقِيكُمْ﴾ [الجمعة : ٨] تفر منه وهو لا يلحقك بل يلاقيك ويقابلك ، فلا فرار من الموت ، فكيف تخرج من أرض نزل فيها الوباء فرارًا من الموت ؟ إنك لو فعلت فليس لك فرار من قدر اللَّه عز وجل . واقرأ قول اللَّه تعالى : ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ خَرَجُوا مِن دِيَارِهِمْ وَهُمْ أُلُوفٌ حَذَرَ الْمَوْتِ فَقَالَ لَهُمُ اللَّهُ مُوتُوا ثُمَّ أَحْيَاهُمْ﴾ [البقرة : ٢٤٣] هؤلاء ألوف كثيرة مؤلفة نزل الوباء بأرض فخرجوا خوفًا من الموت ، فأراهم اللَّه عز وجل الآية وأنه بكل شيء محيط وأنه مدرك ما أراد لا محالة ﴿فَقَالَ لَهُمُ اللَّهُ مُوتُوا﴾ قال ذلك قولًا كونيًّا قدريًّا ، فماتوا ، لأن اللَّه إذا أراد شيئًا قال له : كن فيكون ، ماتوا وهم ألوف ، ثم أحياهم اللَّه واللَّه على كل شيء قدير ، لكن أراهم اللَّه عز وجل أنه لا فرار من قدر اللَّه عز وجل لا فرار ، ثم استدل المؤلف على كون الإنسان لا يقدم على أرض فيها الوباء بقول اللَّه تعالى : ﴿وَلَا تُلْقُوا بِأَيْدِيكُمْ إِلَى التَّهْلُكَةِ﴾ أي : لا تفعلوا الشيء الذي يكون فيه هلاككم .

ثم استدل أيضًا بالأحاديث الواردة عن النبي صلى الله عليه وسلم وذكر قصة عمر بن الخطاب رضي الله عنه ، حين خرج من المدينة إلى الشام فذكر له الطاعون ، وفيه أن النبي صلى الله عليه وسلم قال : « إذا سمعتم به في أرض فلا تقدموا عليها» فنهى النبي صلى الله عليه وسلم عن القدوم إلى أرضٍ فيها الطاعون ، والطاعون وباء فتاك والعياذ باللَّه . قال بعض أهل العلم : إنه نوع خاص من الوباء ، وإنه عبارة عن جروح وتقرحات في البدن تصيب الإنسان وتجري جريان السيل حتى تقضي عليه ، وقيل : إن الطاعون وخز في البطن يصيب الإنسان فيموت ، وقيل : إن الطاعون اسم لكل وباء عام ينتشر بسرعة ، كالكوليرا وغيرها . وهذا أقرب ، فإن هذا إن لم يكن داخلًا في اللفظ ؛ فهو داخل في المعنى ، كل وباء عام ينتشر بسرعة ؛ فإنه لا يجوز للإنسان أن يقدم على البلد الذي حل فيها هذا الوباء ، وإذا وقع وأنتم فيها فلا تخرجوا منها ، لأنكم تخرجون منها فرارًا من قدر اللَّه ، لو فررتم فإنكم مدركون لا محالة ، ولهذا قال : لا تخرجوا منها فرارًا منه .

أما خروج الإنسان منها لا فرارًا منه ولكن لأنه أتى إلى هذا البلد لحاجة ثم انقضت حاجته وأراد أن يرجع إلى بلده ؛ فلا بأس .

وفي هذا الحديث الذي رواه ابن عباس رضي الله عنهما أنه كان مع عمر حين خرج إلى الشام وذلك - واللَّه أعلم - لفتح بيت المقدس ، فلما كان في أثناء الطريق أتاه أمراء الأجناد يخبرونه أنه وقع في الشام

طاعون ، والطاعون والعياذ بالله وباء فتاك سريع الانتشار ، فتوقف عمر وأمر عبد الله بن عباس رضي الله عنهما أن يدعو له المهاجرين ، فدعاهم وشاورهم ، فاختلفوا ، فمنهم من قال : لا ترجع عما أتيت إليه ، ومنهم من قال : ارجع ، ثم قال : ارتفعوا عني ، ثم أمر عبد الله بن عباس أن يجمع الأنصار ، فجمعهم واختلفوا كاختلاف المهاجرين ، ثم قال : ارتفعوا عني ، ثم أمره أن يدعو مشيخة مهاجرة الفتح يعني كبار المهاجرين ، فدعاهم فلم يختلف عليه اثنان ، وقالوا : ارجع . فنادى في الناس : إني مصبح على ظهر - يعني راجع - فقال أبوعبيدة بن الجراح الذي سماه النبي ﷺ أمين هذه الأمة ، قال : يا أمير المؤمنين ، « أفرارًا من قدر الله ؟ » يعني ترجع بالناس تفر من قدر الله ، قال : « لو غيرك قالها يا أبا عبيدة » وكان يكره مخالفته ، يعني : لو أن غيرك قد قالها لكان أهون ، أما أنت فكيف تقول هذا ، ثم ضرب له مثلًا مقنعًا ، قال : « أرأيت لو كان لك إبل فهبطت بها واديًا له عدوتان » يعني شعبتين إحداهما مخصبة والثانية مجدبة ، فإن رعيتها في المخصبة رعيتها بقدر الله ، وإن رعيتها في المجدبة رعيتها بقدر الله ، ومعلوم أنك سوف تختار المخصبة على المجدبة ، وبينما هم كذلك إذ جاء عبد الرحمن بن عوف رضي الله عنه وكان قد تغيب في حاجة له ، فقال : « إن عندي من ذلك علمًا » يعني عن النبي ﷺ ثم تلا عليهم الحديث « إذا سمعتم به في أرض فلا تقدموا عليه ، وإذا وقع وأنتم فيها فلا تخرجوا فرارًا منه » . فوافق هذا حكم النبي ﷺ فحمد اللهَ عمرُ على موافقته الصواب .

ففي هذا الحديث فوائد ، منها : أن الخليفة يتولى الغزو بنفسه إذا دعت الحاجة إلى ذلك .

ومنها : حسن سياسة أمير المؤمنين عمر رضي الله عنه ، فإنه على ما عنده من الدين والعلم والعقل وإصابة الصواب لم يفتِ في هذا الأمر إلا بعد المشاورة والمراجعة .

ومنها : أنه ينبغي أن يبدأ بالأفضل ؛ فالأفضل في المشاورة الأفضل في علمه وفي رأيه وفي لطفه ، يبدأ بالأفضل فالأفضل ، فإذا أشير عليه انتهى الموضوع ، ما حاجة لأن يأتي بالآخرين ، وإلا أتى بالآخرين الذين هم دونهم .

ومنها : أن المشاورة من سمات المؤمنين ، كما قال الله تبارك وتعالى : ﴿ وَأَمْرُهُمْ شُورَىٰ بَيْنَهُمْ ﴾ [الشورى : ٣٨] فينبغي لمن ولاه الله أمرًا ، وتردد في شيء من الأشياء ولم يتبين له الصواب أن يشاور غيره من ذوي العقل والدين والتجربة ، وكذلك إذا كان الأمر عامًّا يعم الناس كلهم ؛ فإنه ينبغي أن يشاور حتى يصدر عن رأي الجميع .

ومنها : أنه يجوز للواحد من الرعية أن يراجع الإمام لكن بحضرته ؛ لأن أبا عبيدة راجع عمر بن الخطاب رضي الله عنه لكن بحضرته ، وبشرط أن يكون المراجع ممن له علم ودين وعقل ، ليس ممن عنده غيرة عاصفة وعاطفة هوجاء ، فإن هذا لا يتكلم ، إنما يتكلم العقلاء ، هم الذين يتكلمون مع ولاة الأمور ، ولكن لا يتكلمون من وراء ولي الأمر ، بل يتكلمون من بين يديه حتى يحصل النقاش والإقناع .

ومنها : ضرب الأمثال ؛ فإن ضرب الأمثال يقرب المعاني للإنسان ، وذلك أن عمر رضي الله عنه ضرب

مثلًا لأبي عبيدة : إنسان هبط واديًا ومعه إبل وله شعبتان إحداهما مخصبة فيها الأشجار وفيها الحشيش وفيها كل شيء ينفع الإبل ، والثانية مجدبة بيضاء ، فمن المعلوم أن الإنسان لن يختار المجدبة ، سوف يختار المخصبة ، فاختياره للمخصبة بِقَدَرِ اللَّه ﷻ ، وعدوله عن المجدبة بِقَدَرِ اللَّه ﷻ .

ومنها : الرد على القدرية المعتزلة الذين يقولون : إن الإنسان مستقل بعمله لا علاقة لله به والعياذ باللَّه ، ولهذا سُمُّوا مجوس هذه الأمة ؛ لأنهم يشبهون المجوس ولكن الإنسان يفعل الفعل بقدر اللَّه ﷻ .

ومنها : أنه قد يخفى العلم الشرعي على كبراء الناس ، ويعلمه من دونهم ، فإنه لاشك أن عمر بن الخطاب ﷺ أعلم بكثير من عبد الرحمن بن عوف ، وكذلك كثير ممن معه عندهم من العلم ما ليس عند عبد الرحمن بن عوف ، لكن قد يكون عند الصغير من العلم ما ليس عند الكبير ، كما حصل هذا .

ومنها : حكمة النبي ﷺ في أن الإنسان لا يُقدم على ما فيه الهلكة والضرر ، لأن اللَّه تعالى قال : ﴿ وَلَا تَقْتُلُوٓاْ أَنفُسَكُمْ ﴾ [النساء : ٢٩] وقال : ﴿ وَلَا تُلْقُواْ بِأَيْدِيكُمْ إِلَى ٱلتَّهْلُكَةِ ﴾ فلا يجوز للإنسان أن يخاطر في أمر يخشى منه الهلاك ، وإن كان كل شئ بقدر لكن الأسباب لها أثرها .

ومنها : أنه إذا وقع الوباء في الأرض فإنه لا يجوز للإنسان أن يخرج منها فرارًا منه ، وأما إذا خرج لحاجة فلا بأس .

ومنها : أنه لا بأس أن يستعمل الإنسان من الأدوية والحبوب والإبر ما يمنع الوباء ، لأن ذلك من الوقاية قبل نزول البلاء ، ولا بأس بها ، كما أن الإنسان إذا نزل به وباء وعالجه فلا حرج عليه ، فكذلك إذا أخذ وقاية منه فلا حرج عليه ، ولا يعد ذلك من نقص التوكل ، بل هذا من التوكل ؛ لأن فعل الأسباب الواقية من الهلاك والعذاب أمر مطلوب ، والذي يتوكل أو يدعي أنه متوكل ولا يأخذ بالأسباب ليس بمتوكل في الحقيقة ، بل إنه طاعن في حكمة اللَّه ﷻ ؛ لأن حكمة اللَّه تأبى أن يكون الشيء إلا بالسبب الذي قدره اللَّه تعالى له . واللَّه الموفق .

* * *

٣٦٢ - باب التغليظ في تحريم السحر

قال اللَّه تعالى : ﴿ وَمَا كَفَرَ سُلَيْمَٰنُ وَلَٰكِنَّ ٱلشَّيَٰطِينَ كَفَرُواْ يُعَلِّمُونَ ٱلنَّاسَ ٱلسِّحْرَ ﴾ (١) الآية [البقرة : ١٠٢] .

١٧٩٣ - عَنْ أبي هُرَيرَةَ ﷺ عَنِ النبيِّ ﷺ قَالَ : « اجْتَنِبُوا السَّبْعَ المُوبِقَاتِ » قَالُوا : يَا رسُولَ اللَّهِ وَمَا هُنَّ ؟ قَالَ : « الشِّرْكُ باللَّهِ ، وَالسِّحْرُ ، وَقَتْلُ النَّفْسِ الَّتِي حَرَّمَ اللَّهُ إلا بِالحَقِّ ، وَأَكْلُ الرِّبَا ، وَأَكلُ

(١) قوله ﷺ : ﴿ وَمَا كَفَرَ سُلَيْمَٰنُ ﴾ أي وما سحر ، وعبر عن السحر بالكفر ؛ للتغليظ .

مَالِ اليَتِيم ، وَالتَّوَلِّي يَومَ الزَّحْفِ ، وَقَذْفُ المُحْصَنَاتِ المُؤْمِنَاتِ الغَافِلاتِ » [١] متفقٌ عليه .

الشرح

ذكر المؤلف رحمه الله تعالى باب تغليظ تحريم السحر ، والسحر هو : عبارة عن عُقد وقراءات ونفثات يَتوصل بها الساحر إلى الإضرار بالمسحور ، فمنه ما يقتل ، ومنه ما يمرض ، ومنه ما يذهب العقل ، ومنه ما يوجب العقد ، يعني تعلق الإنسان بغيره تعلقًا شديدًا ، ومنه ما يوجب الصرف ، يعني انصرافه عن غيره انصرافًا كاملًا ، فهو أنواع والعياذ بالله ، لكن كله محرم ، وقد تبرأ النبي ﷺ ممن سَحَرَ وسُحِرَ له . ومنه ما يوصل إلى الكفر ، فإذا كان الساحر يتوصل إلى سحره بالأرواح الشيطانية يتقرب إليها ويتعبد لها حتى تطيعه فهذا كفر لاشك فيه ، وأما إذا لم يكن كذلك ؛ فإنه أذية ومحرم ومن كبائر الذنوب ويجب على ولي الأمر أن يقتل الساحر قتلًا بدون توبة ، بمعنى أن يقتله قتلًا وإن تاب ؛ لأنه إن تاب فأمره إلى الله ﷻ ، وإن لم فأمره إلى الله لكننا نقتله درءًا لمضرته ومفسدته [٢] .

وأما إذا لم يتب : فهو من أهل النار إذا كان سحره مكفرًا ؛ لأن السحر والعياذ بالله من أعظم الفساد في الأرض ومن أعظم الشرور ؛ لأنه يأتي الإنسان من غير أن يحترز منه ، ولكن هناك شيء يحميك منه بإذن الله ﷻ وهي قراءة الأوراد الشرعية ، مثل : آية الكرسي ، ﴿ قُلْ هُوَ ٱللَّهُ أَحَدٌ ﴾ ، ﴿ قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ ٱلْفَلَقِ ﴾ ، ﴿ قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ ٱلنَّاسِ ﴾ ، وما أشبه ذلك مما جاء في الآيات والأحاديث عن النبي ﷺ فإن هذا أكبر واقٍ يقي الإنسان من السحر .

ثم ذكر المؤلف رحمه الله قول الله تعالى : ﴿ وَمَا كَفَرَ سُلَيْمَٰنُ وَلَٰكِنَّ ٱلشَّيَٰطِينَ كَفَرُوا۟ ﴾ أول الآية قوله : ﴿ وَٱتَّبَعُوا۟ مَا تَتْلُوا۟ ٱلشَّيَٰطِينُ عَلَىٰ مُلْكِ سُلَيْمَٰنَ ﴾ أي : ما تتبعه على ملك الشياطين وهو أن الشياطين علمت الناس السحر ﴿ وَمَا كَفَرَ سُلَيْمَٰنُ وَلَٰكِنَّ ٱلشَّيَٰطِينَ كَفَرُوا۟ يُعَلِّمُونَ ٱلنَّاسَ ٱلسِّحْرَ ﴾ سليمان عليه الصلاة والسلام ما كفر ولم يخلف سحرًا وإنما خلف علم النبوة ؛ فإنه كان أحد الأنبياء الكرام عليهم الصلاة والسلام ﴿ وَلَٰكِنَّ ٱلشَّيَٰطِينَ كَفَرُوا۟ يُعَلِّمُونَ ٱلنَّاسَ ٱلسِّحْرَ ﴾ وفي هذا دليل على أن السحر تعلمه من الشياطين كُفْرٌ ، ولهذا قلنا قبل قليل : إذا استعان الإنسان على سحره بالشياطين كان كافرًا . ﴿ وَمَآ أُنزِلَ عَلَى ٱلْمَلَكَيْنِ بِبَابِلَ هَٰرُوتَ وَمَٰرُوتَ ﴾ وهذان ملكان بعثهما الله ﷻ إلى أرض بابل لكثرة السحرة فيها يعلمون الناس السحر ولكنهما ينصحان الناس ﴿ وَمَا يُعَلِّمَانِ مِنْ أَحَدٍ حَتَّىٰ يَقُولَآ إِنَّمَا نَحْنُ فِتْنَةٌ فَلَا تَكْفُرْ ﴾ أرسلهما الله ﷻ يعلمان الناس السحر ، وهنا قد يسأل الإنسان : كيف

---

(١) أخرجه البخاري في الوصايا (٢٧٦٦) ومسلم في الإيمان (١٤٥) وأبو داود في الوصايا (٢٨٧٤) والبيهقي في السنن (٢٨٤/٦) . قوله : « الموبقات » أي المهلكات . قوله ﷺ : « المحصنات » أي العفائف . قوله ﷺ : « والتولي يوم الزحف » أي الفرار عن القتال يوم المعركة . قوله ﷺ : « الغافلات » أي البعيدات عما نسب إليهن من الفواحش .

(٢) هذا هو رأي عامة الفقهاء عدا الشافعية الذين قالوا : إنما يقتل الساحر إذا كان يعمل بسحره ما يبلغ الكفر ، فإذا عمل عملًا دون الكفر فلا قتل عليه . وقالوا : يطلب منه أن يصف سحره فإن بين ما يوجب الكفر قتل وإلا فلا . (انظر المهذب ١٧٧/٢ ، أحكام القرآن للجصاص ٥٥/١ بداية المجتهد ٤٢٠/٢ ، المغني ١٥٠/٨ ، ١٥١) .

يرسل اللَّه تعالى ملكين والملائكة كرام مكرمون عند اللَّه ﷻ ، كيف يرسلهم يعلمون الناس السحر ؟! فيقال : هذا فتنة من اللَّه ﷻ ، ولهذا إذا علما الناس قالا : ﴿ إِنَّمَا نَحْنُ فِتْنَةٌ فَلَا تَكْفُرْ ﴾ ، ينصحون الناس ، لكن اللَّه ﷻ ابتلى الناس بهذا ، فجعلوا يتعلمون من الملكين ، يتعلمون منهما ما يسمي بالعقد والصرف وهو من أشد أنواع السحر : ﴿ فَيَتَعَلَّمُونَ مِنْهُمَا مَا يُفَرِّقُونَ بِهِۦ بَيْنَ ٱلْمَرْءِ وَزَوْجِهِۦ ﴾ يأتي الساحر إلى رجل قد حسنت الحال بينه وبين أهله وقد طابت لهما الحياة فيفرق بين الرجل وزوجته والعياذ باللَّه ، تأخذ تصيح إذا قرب إليها وتبكي وتنفر منه ، وإذا أبعد عنها بكت على فراقه والعياذ باللَّه ، فيضرها من الناحيتين : من ناحية الاجتماع ، ومن ناحية الافتراق . وكذلك الزوج تجده في شوق عظيم لأهله ، فإذا أتى إلى أهله ضاق بهم ذرعًا وضاق صدره وتمنى أن يموت والعياذ باللَّه .

هذا من السحر العظيم ، قال اللَّه تعالى : ﴿ وَمَا هُم بِضَآرِّينَ بِهِۦ مِنْ أَحَدٍ إِلَّا بِإِذْنِ ٱللَّهِ ﴾ سبحان اللَّه العظيم ، من بيده ملكوت السماوات والأرض ؟ اللَّه ﷻ ، هؤلاء السحرة والشياطين مهما اجتمعوا على أمر يريدون أن يضروك به واللَّه تعالى لا يضرك ؛ فإنهم لن يضروك ﴿ وَمَا هُم بِضَآرِّينَ بِهِۦ مِنْ أَحَدٍ إِلَّا بِإِذْنِ ٱللَّهِ ﴾ تأمل هذا التركيب ، فإن الجملة هنا اسمية ﴿ وَمَا هُم بِضَآرِّينَ بِهِۦ مِنْ أَحَدٍ ﴾ والاسمية تفيد الثبوت والاستغراق ، ثم إن النفي مؤكد بالباء ﴿ وَمَا هُم بِضَآرِّينَ بِهِۦ مِنْ أَحَدٍ إِلَّا بِإِذْنِ ٱللَّهِ ﴾ يعني : لا يمكن أبدًا أن يضروا أحدًا بسحرهم إلا بإذن اللَّه ، إذا أذن اللَّه بذلك قدرًا ، فاللَّه على كلِّ شيء قدير ، وإذا شاء ﷻ منع ، منع كلَ شر ، لأنه هو الذي بيده ملكوت السموات والأرض وهو خالق الأسباب ومانع الأسباب وهو على كل شيء قدير .

﴿ وَمَا هُم بِضَآرِّينَ بِهِۦ مِنْ أَحَدٍ إِلَّا بِإِذْنِ ٱللَّهِ وَيَتَعَلَّمُونَ ﴾ أي هؤلاء الناس الذي أرسل إليهم الملكان ﴿ وَيَتَعَلَّمُونَ مَا يَضُرُّهُمْ وَلَا يَنفَعُهُمْ ﴾ يعني : ما فيه الضرر المحض الذي لا نفع فيه إطلاقًا ، ولهذا قال : ﴿ مَا يَضُرُّهُمْ وَلَا يَنفَعُهُمْ ﴾ هو ضرر محض في الدين والدنيا والعاقبة الوخيمة ، وكذلك الظلم الذي يحصل على المسحور فإنه سوف يقضي له بحقه يوم القيامة لن يهمله اللَّه ﷻ : ﴿ وَلَقَدْ عَلِمُوا۟ لَمَنِ ٱشْتَرَىٰهُ مَا لَهُۥ فِى ٱلْءَاخِرَةِ مِنْ خَلَٰقٍ ﴾ أكد اللَّه هذه الجملة بـ (القسم واللام وقد) ، أي : لقد علم هؤلاء الذين يتعلمون السحر أن الذي يتعلمه ما له في الآخرة من خلاق ، علموا من أين ؟ من قول الملكين ﴿ إِنَّمَا نَحْنُ فِتْنَةٌ فَلَا تَكْفُرْ ﴾ قد علموا وظهر لهم الأمر ولكنهم والعياذ باللَّه اختاروا ذلك ولهذا قال : ﴿ لَمَنِ ٱشْتَرَىٰهُ ﴾ والشراء إنما يكون عن رغبة وطمع في المبيع ، ولهذا سمى اللَّه تعالى تعلمه اشتراء ﴿ مَا لَهُۥ فِى ٱلْءَاخِرَةِ مِنْ خَلَٰقٍ ﴾ أي : ما له نصيب في الآخرة ، وليس أحد من الناس ليس له نصيب في الآخرة على الإطلاق إلا الكافر ، المؤمن له نصيب في الآخرة ، إما أن يدخل الجنة بلا حساب ، وإما أن يعذب على قدر ذنبه ثم يكون مآله الجنة .

لكن الكافر ليس له في الآخرة من خلاق أي : من نصيب . ﴿ وَلَبِئْسَ مَا شَرَوْا۟ بِهِۦٓ أَنفُسَهُمْ ﴾ . ﴿ شَرَوْا۟ ﴾ هنا بمعنى باعوا ، يعني أن اللَّه ذم هذا الذي اختاروه وباعوا أنفسهم من أجله ﴿ لَوْ كَانُوا۟ يَعْلَمُونَ ﴾ يعني لو كانوا من ذوي العلم لعلموا أن هذا شر محض .

والخلاصة : أن السحر من كبائر الذنوب وقد يؤدي إلى الكفر ، وأن عقوبة الساحر أن يقتل ، سواء كفر بسحره أم لم يكفر ، لقول النبي ﷺ : « حد الساحر ضربه بالسيف » وفي لفظ : « ضربة بالسيف » . نسأل الله تعالى أن يقي المسلمين شرهم ، وأن يرد كيدهم في نحورهم ، وأن يعيننا وإياكم على تعلم الأوراد الشرعية التي يحتمي بها المرء من أعدائه من الشياطين ، والإنس . والله الموفق .

وبعد أن تقدم الكلام على أول هذا الحديث ونذكر قوله ﷺ : « وقتل النفس التي حرم الله إلا بالحق » .

فنقول : إن النفوس المحرمة أربعة : أربعة أنواع : المسلم ، والذمي ، والمعَاهَد ، والمستأمن . وأنه لا يجوز قتل واحد منهم إلا بالحق .

وقد تكلمنا عن العهد بين المسلمين وبين الكفار وبيَّنا أنه جائز إذا دعت الحاجة إليه أو المصلحة ، وأن العلماء اختلفوا - رحمهم الله - هل يجوز العهد أكثر من عشر سنوات أو لا ؟ وهل يجوز العهد المطلق أو لا ؟ وذكرنا أنه أي العهد ثلاثة أقسام :

عهد مؤبد ، وهذا لا يجوز . وعهد مطلق ، وهذا جائز على القول الراجح . وعهد مؤقت ، وهذا جائز .

ثم اختلف القائلون به ، هل يجوز أن يزيد على عشر سنوات ، أو لا ؟ والصحيح أنه جائز ؛ لأنه للحاجة .

ثم قال ﷺ : « وأكل الربا » أكل الربا أيضًا من الموبقات .

قال شيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله : وقد ورد من الوعيد على أكل الربا ما لم يرد مثله على أي ذنب سوى الشرك [(١)] . فهو عظيم والعياذ بالله حتى إن الله قال في كتابه : ﴿ يَاأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَذَرُوا مَا بَقِيَ مِنَ الرِّبَا إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ۝ فَإِن لَّمْ تَفْعَلُوا فَأْذَنُوا بِحَرْبٍ مِّنَ اللَّهِ وَرَسُولِهِ وَإِن تُبْتُمْ فَلَكُمْ رُءُوسُ أَمْوَالِكُمْ لَا تَظْلِمُونَ وَلَا تُظْلَمُونَ ﴾ [البقرة : ٢٧٨، ٢٧٩] فبين الله ﷻ أنه إذا لم يترك الإنسان الربا فإنه معلن للحرب على الله ورسوله ﴿ فَأْذَنُوا بِحَرْبٍ مِّنَ اللَّهِ وَرَسُولِهِ ﴾ وأنه إذا تاب فإنه يحرم عليه أن يأخذ أكثر من ماله ﴿ فَلَكُمْ رُءُوسُ أَمْوَالِكُمْ لَا تَظْلِمُونَ وَلَا تُظْلَمُونَ ﴾ وقد استحسن بعض الناس بعقولهم استحسانًا مخالف لشرع الله ﷻ ، فقالوا : إن الإنسان إذا أودع ؛ بل إذا جعل أمواله عند أهل الربا ؛ فإنه يجوز أن يأخذ الربا ثم يتصدق به تخلصًا منه ، وهذا القول مخالف للقرآن الكريم ، لأن الله ﷻ يقول : ﴿ وَإِن تُبْتُمْ فَلَكُمْ رُءُوسُ أَمْوَالِكُمْ لَا تَظْلِمُونَ وَلَا تُظْلَمُونَ ﴾ يقولون في وجه استحسانهم : إننا لو تركناه للبنوك لكانوا يستعينون به على بناء الكنائس وإعانة الكفار على قتال المسلمين وما أشبه ذلك من الأقوال التي يصادمون بها النص .

ونقول لهم : أولًا : إن هذا الربح ليس داخلًا في ملكه حتى نقول : إنه تبرع للبنك به فهو من الأصل لم يدخل في ملكه ، مَالُهُ الذي أودعه عند البنك ربما يشتري به الحاجات أو يدخل في مشروعات ويخسر . فهذه الزيادة فليست نماء ملكه بل هي زيادة محضة يسلمها البنك لمن أعطى هذا المال .

وثانيًا : من يقول إنهم يستعينون بها يجعلونها في الكنائس والأسلحة ضد المسلمين ، من قال هذا ؟ .

---

(١) فتاوى ابن تيمية (٢٣٥/٢٩ - ٢٣٧) .

وثالثًا : فهل إذا أخذنها منهم سوف يمسكون عن قتال المسلمين وعن إضلالهم عن دينهم .

رابعًا : إذا قلنا بذلك ثم قلنا : خذها وتصدق بها ، فمعنى ذلك : أننا قلنا له تلطخ بالنجاسة ثم حاول أن تغسل يدك منها ، إذًا ما الفائدة أن تأخذها ثم تتصدق بها ؟ لا فائدة ، اتركها من الأصل تسلم منها . ثم إننا إذا قلنا بذلك فأخذها الإنسان ، فهل يضمن لنفسه أن يقوي نفسه على التصدق بها ولا سيما إذا كانت كثيرة ؟ قد يأخذها بهذه النية ثم تغلبه نفسه فلا يتصدق بها ويأكلها ، سواء حصل هذا في أول مرة ، أو في ثاني مرة ، أو في ثالث مرة . وأيضًا إذا قلنا : خذها وتصدق بها ، فأخذها أمام الناس ، فمن الذي يعلم الناس أنه تصدق بها . الناس لا يدرون ، وربما اتخذوا من فعله هذا قدوة ، وفعلوا مثل فعله وأكلوا الربا . وأيضًا فإننا إذا قلنا بذلك استمرينا الدخول في الربا وسهل علينا وصرنا نأخذه ، لكن إذا قلنا بالمنع سلمنا من الربا من وجه ، واضطررنا إلى أن نجد سبيلًا إلى معاملات شرعية لا تخالف الدين ، بإنشاء البنوك الإسلامية التي ليست فيها ربا .

والمهم : أن أول شيء نرد به على هذا القول المستحسن وليس بحسن ، هو أنه مصادم للنص ﴿ وَإِن تُبْتُمْ فَلَكُمْ رُءُوسُ أَمْوَٰلِكُمْ لَا تَظْلِمُونَ وَلَا تُظْلَمُونَ ﴾ [البقرة : ٢٧٩] ولا استحسان للعقول مع وجود النص ، وكل شيء تستحسنه بعقلك وهو مخالف للنص فهو ليس بحسن ، بل هو سيئ ، وعاقبته سيئة ، ولا تنظر إلى الشيء المستعجل انظر إلى العاقبة .

والعاقبة في كل ما خالف الشرع ، لا شك أنها عاقبة سيئة ؛ لأن اللَّه يقول : ﴿ وَٱلْعَٰقِبَةُ لِلْمُتَّقِينَ ﴾ [الأعراف : ١٢٨] وهذا يدل على أنه مَن ليس بمتَّقٍ فليس له عاقبة محمودة ولا حسنة . ولا يغرنك التحسين المبني على الوهم ، عليك بكتاب اللَّه وسنة رسوله ﷺ ولا تتجاوزهما إن شئت البركة والخير وأن ينمو جسدك على طاعة اللَّه ﷻ .

المهم أن أكل الربا من الموبقات ، والربا يكون في أصناف ستة بيَّنها النبي ﷺ في قوله : « الذهب بالذهب ، والفضة بالفضة ، والبر بالبر ، والشعير بالشعير ، والتمر بالتمر ، والملح بالملح ، مثلًا بمثل ، سواء بسواء ، يدًا بيد ، فإذا اختلفت هذه الأصناف فبيعوا كيف شئتم إذا كان يدًا بيد »[1] .

وغالب الربا الآن بين الناس غالبه النوعين الأولين : الذهب والفضة ؛ لأن الأطعمة التبادل فيها قليل ، والربا فيها أيضًا قليل ، لكن الأكثر في الأموال .

والعلماء رحمهم اللَّه لما ظهرت هذه الأوراق النقدية التي هي بدل عن الذهب والفضة . اختلفوا فيها اختلافًا عظيمًا حتى بلغ الخلاف إلى أكثر من ستة أقوال ، كل يقول برأي ، وأقرب الأقوال فيها : أنه يجوز فيها ربا الفضل ، ولا يجوز ربا النسيئة ، بمعنى أنه يجوز فيها ربا الفضل دون ربا النسيئة إذا اختلفت الأجناس .

---

(١) أخرجه مسلم في المساقاة (٨١ ، ٨٢) بلفظه ، والبخاري في البيوع (٢١٣٤) ، وابن ماجه في السنن (٢٢٥٣) والترمذي في السنن (١٢٤٠) وأحمد في مسنده (٣/٥٨) .

فعلى ذلك : فيجوز أن أعطيك عشر ريالات بالورق وأخذ منك تسعة ريالات بالحديد . وما أشبه ذلك ؛ لأن الصفة مختلفة ، وقد جاء في الحديث : إذا اختلفت هذه الأصناف فبيعوا كيف شئتم [١] .

والقيمة وإن كانت متفقة حسب النظام وتقرير الحكومة ، لكن الكلام على الحقيقة الذاتية ، نجد أن الحديد يختلف عن القرطاس ، حتى في القيمة يختلف ، يعني لو فرضنا أن قطعة من حديد وورقة من الشارع ، أردت أن تساوي بينهما ؛ لم يكن بينهما سواء ، بل بينهما فرق ؛ فالجنس مختلف ، والقيمة مختلفة ، ولولا أن الحكومة جعلت هذه بمنزلة هذه في القيمة ، فما صارت مساوية لها في القيمة ، وعلى هذا تكون داخلة تحت قول الرسول ﷺ : « فإذا اختلفت هذه الأصناف فبيعوا كيف شئتم إذا كان يدًا بيد » [٢] .

ثم إن الربا أصناف كثيرة بعضها أقبح من بعض ، أعظمه وأشده هو أن يأكل الربا أضعافًا مضاعفة ، بحيث إذا حل الدين على الفقير وليس عنده مال ، يقول له : أنذرك لمدة سنة وأزيدك ، أزيد الدين عليك ، مثل أن يحل دينه وهو عشر آلاف وليس عنده شيء ، فيقول : أنذرك إلى سنة ونجعله إحدى عشر ألفًا . هذا حرام ولا يجوز ، سواء جعل ذلك صريحًا أو بحيلة ، بأن قال : اشتر مني السلعة بإحدى عشر ألفًا ، وبعها عليَّ بعشرة آلاف ، حتى يكون في ذمته إحدى عشر ألفًا ، يتحيل على محارم الله ، والعياذ بالله . والحيلة على محارم الله أقبح من إتيان المحرم صريحًا ، ولهذا تجد الذين يتحيلون على الربا ، ينطبق عليهم قول الله تعالى : ﴿ ٱلَّذِينَ يَأْكُلُونَ ٱلرِّبَوٰاْ لَا يَقُومُونَ إِلَّا كَمَا يَقُومُ ٱلَّذِى يَتَخَبَّطُهُ ٱلشَّيْطَٰنُ مِنَ ٱلْمَسِّ ﴾ [البقرة : ٢٧٥] فإن هذه الآية فيها للعلماء قولان :

الأول : أنهم يقومون لأكل الربا وأخذه كالمجانين ؛ يعني في تصرفهم في الدنيا ، يتصرف تصرف المجنون الطائش يريد هذا المكسب الحرام ، نجد هؤلاء الذين يتحيلون على الربا يتصرفون تصرف المجانين بكل لهف ، وبكل شغف ، وبكل وسيلة ، وفي كل يوم لهم حيلة .

والقول الثاني في الآية : أنهم يقومون من قبورهم يوم القيامة كالذي يقوم مصروعًا من الجن [٣] - نسأل الله العافية - أمام العالم وشاهد ومشهود .

فعلى كل حال الربا محرم سواء كان صريحًا ، أو كان عن طريق المكر والخداع ، وما كان عن طريق المكر والخداع فهو أشد إثمًا وأقرب إلى قسوة القلب ، والعياذ بالله ، ﴿ كَلَّا بَلْ رَانَ عَلَىٰ قُلُوبِهِم مَّا كَانُواْ يَكْسِبُونَ ﴾ [المطففين : ١٤] لهذا تجدهم يفعلون هذه الحيل ويرون أنها حلال ، وأنه لا بأس بها ، ولا يكادون يقلعون عنها . لكن من فعل المحرم على وجهه الصريح خجل من الله وعرف أنه في معصية ، وربما ييسر الله له الأمر ويمن عليه بالتوبة .

---

(١) راجع هذه الآراء والاختلافات في فقه الزكاة للدكتور يوسف القرضاوي (١/٢٧٠ - ٢٧٥) النظم النقدية والمصرفية للدكتور عبد العزيز مرعي (ط . ١٩٥٨ ص : ٦٥ ، ٦٧) .

(٢) أخرجه مسلم في المساقاة (٨١) وأحمد في مسنده (١٩/٥) .

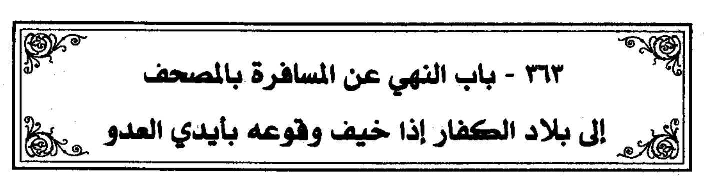
(٣) وهذا هو قول ابن عباس ، ومجاهد وسعيد بن جبير وقتادة والضحاك وغيرهم (انظر : تفسير الطبري ١٤٠/٣ ، ١٤١) .

« وأكل مال اليتيم » أيضًا من الموبقات ، واليتيم هو الذي مات أبوه قبل بلوغه ، واليتيم مسكين ، بمعنى أنه لا يستطيع الدفاع عن نفسه ، فيأتي من يُسلط على ماله ويأكله ، هذا أيضًا من الموبقات .

« والتولي يوم الزحف » يعني القتال مع الكفار ، إذا تقابل المسلمون والكفار فإن المتولي يكون قد فعل موبقًا من موبقات الذنوب ، والعياذ بالله ، إلا فيما ذكر الله ﷻ : ﴿ إِلَّا مُتَحَرِّفًا لِقِتَالٍ أَوْ مُتَحَيِّزًا إِلَىٰ فِئَةٍ ﴾ [الأنفال : ١٦] .

« وقذف المحصنات المؤمنات الغافلات » يعني أن يرمي الإنسان المرأة الغافلة المؤمنة بالزنا ، فيقول : إنها زنت ، هذا أيضًا من موبقات الذنوب . ومثلها أيضًا الرجل المحصن قذفه من كبائر الذنوب . والله الموفق .

* * *



٣٦٣ - باب النهي عن المسافرة بالمصحف إلى بلاد الكفار إذا خيف وقوعه بأيدي العدو

١٧٩٤ - عَنْ ابْن عُمَرَ ﭭ قَالَ : نَهَى رَسُولُ اللَّهِ ﷺ أَنْ يُسَافَرَ بِالقُرْآنِ إِلَى أَرْضِ العَدُوِّ . [(١)] متفقٌ عليه .

* * *

٣٦٤ - باب تحريم استعمال إناء الذهب وإناء الفضة في الأكل والشرب والطهارة وسائر وجوه الاستعمال

١٧٩٥ - عَنْ أُمِّ سَلَمَةَ ﭫ أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ قَالَ : « الَّذِي يَشْرَبُ في آنِيَةِ الفِضَّةِ إِنَّمَا يُجَرْجِرُ في بَطْنِهِ نَارَ جهَنَّمَ » [(٢)] متفق عليه .

وفي روايةٍ لمُسْلِمٍ : « إِنَّ الَّذِي يأْكُلُ أَو يَشْرَبُ في آنيةِ الفِضَّةِ وَالذَّهب » .

١٧٩٦ - وعَنْ حُذَيفَةَ ﭬ قَالَ : إنَّ النَّبي ﷺ نَهَانَا عَنْ الحَرِيرِ ، وَالدِّيبَاجِ ، وَالشُّرْبِ في آنِيَةِ الذَّهبِ وَالفِضَّةِ ، وقال : « هُنَّ لَهمْ في الدُّنيَا ، وَهِي لَكُمْ في الآخِرَةِ » متفقٌ عليه .

وفي روايةٍ في الصَّحِيحَينِ عَنْ حُذَيفَةَ ﭬ : سَمِعْتُ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ يقولُ : « لا تَلْبَسُوا الحَرِيرَ وَلا

---

(١) أخرجه البخاري في الجهاد والسير (٢٩٩٠) ، ومسلم في الإمارة (٩٢) ، وأحمد في مسنده (٢ / ٧ ، ٦٣) ، وابن ماجه (٢٨٧٩) .

(٢) أخرجه البخاري في الأشربة (٥٦٣٤) ، ومسلم في اللباس (١) ، والبيهقي في السنن (٣ / ٢٧) . قوله : « يجرجر في بطنه النار » أي يلقي النار في بطنه . يقال : جرجر الماء في حلقه ؛ إذا جرعه جرعًا متتابعًا يسمع له صوت .

الدِّيبَاجَ ، وَلا تَشْرَبُوا فِي آنِيَةِ الذَّهَبِ والفِضَّةِ ، وَلا تَأْكُلُوا فِي صِحَافِهَا » (١) .

١٧٩٧ - وَعَنْ أنسِ بنِ سِيرِينَ قَالَ : كُنتُ مَعَ أَنَسِ بنِ مالكٍ ﷺ عِنْدَ نَفَرٍ مِنَ المَجُوسِ ، فَجِيءَ بفَالُوذَجٍ عَلى إنَاءٍ مِنْ فِضَّة ، فَلَمْ يَأْكُلْهُ ، فَقِيل لَهُ : حَوِّلْهُ ، فَحَوَّلَهُ عَلى إناءٍ مِنْ خَلَنْجٍ ، وَجِيء بِهِ فأكَلَهُ (٢) . رواه البيهقي بإسْنادٍ حَسَنٍ .

الشرح

هذان البابان ذكرهما المؤلف رحمه الله الأول : في تحريم السفر بالمصحف إلى بلاد العدو ؛ يعني أنه لا يجوز للإنسان أن يسافر بالمصحف إلى بلاد الكفار ، وذلك أنه يخشى أن يقع في أيديهم فيستهينوا به ويُذلوه ، والقرآن أشرف وأعظم من أن يكون في يدي العدو ، ولهذا ذكر عبد الله بن عمر رضي الله عنهما : أن النبي ﷺ نهى أن يسافر بالمصحف إلى أرض العدو ، وهذا كما قال المؤلف رحمه الله إذا خيف عليه ، أما إذا لم يخف عليه كما في وقتنا الحاضر ؛ فلا بأس ، فيجوز للإنسان إذا سافر في تجارة أو دراسة في بلد الكفار أن يأخذ معه المصحف ، ولا حرج عليه ، ولكن يجب أن يعلم أن السفر إلى بلاد العدو للإقامة في دراسة أو شبهها أي مدة طويلة لا يجوز إلا بشروط ثلاثة :

الشرط الأول : أن يكون عند الإنسان علم يدفع به الشبهات ، وذلك لأن الكفار أعداء يريدون أن يصدوا الناس عن دين الله ، فإذا قدم إليهم الشاب الساذج الذي ليس عنده علم أوردوا عليه من الشبهات والشكوك ما يخرجه عن دينه من حيث لا يشعر ، فمن ليس عنده علم يدفع به الشبهات ، فهو لا يحل له أن يذهب إلى بلاد الكفار ، مهما كان الأمر ، اللَّهم إلا للضرورة القصوى كالعلاج يكون معه من يصاحبه ويقيه من شر الناس .

الشرط الثاني : أن يكون عنده دين يحميه من الشبهات ؛ وذلك لأن بلاد الكفر ، بلاد كفر ليس فيها مانع لا من وازع ديني ولا من وازع سلطاني ، الناس أحرار كما يقولون ، وهم أحرار في الهوى لكنهم عبيد للهوى في الواقع . فإذا لم يكن عنده دين يحميه عن الشهوات ؛ فإنه يهلك ؛ لأنه سيجد النساء الكاسيات العاريات ، ويجد الخمور ، ويجد الشرور ، فإذا لم يكن عنده دين سقط في الهاوية .

والشرط الثالث : أن يكون هناك ضرورة بأن يسافر لعلم لا يوجد في بلده ، ويحتاج الناس إليه ، فهذا لا بأس به ، فإذا تمت الشروط الثلاثة ؛ جاز للإنسان أن يسافر إلى أرض العدو ، وإلا فإنه لا يحل له . هذا إذا كان سيقيم مدة ، أما رجل سيذهب لتجارة ويشتري ويرجع ، فهذا أهون .

أما الباب الثاني : فهو الأكل والشرب في آنية الذهب والفضة ، الذهب والفضة كلاهما معدن مما خلقه الله

---

(١) أخرجه : البخاري في الأشربة (٥٦٣٣) ومسلم في اللباس والزينة (٥) والبيهقي في السنن (٢٨/١) وأحمد في مسنده (٣٩٠/٥) . قوله ﷺ : « الديباج » هو نوع من أنواع الحرير الفاخر . قوله ﷺ : « صحافها » هي وعاء الطعام الذي يشبع خمسة أفراد . قوله ﷺ : « لا تلبسوا الحرير ولا الديباج » هذا الأمر مقصور على الذكور دون الإناث .

(٢) أخرجه البيهقي في السنن (٢٨/١) . قوله « فالوذج » هو نوع من الحلوى يصنع من النشا واللبن والسكر .

ﷻ في الأرض وخلقه لنا ، كما قال تعالى : ﴿ هُوَ ٱلَّذِى خَلَقَ لَكُم مَّا فِى ٱلْأَرْضِ جَمِيعًا ﴾ [البقرة : ٢٩] فلنا أن ننتفع بالذهب والفضة على ما أردنا إلا ما جاء الشرع بتحريمه ، ونهى ﷺ عن الأكل والشرب في آنية الذهب والفضة ، وأخبر أنها للكفار في الدنيا ولنا في الآخرة ، وأخبر أن الذي يأكل ويشرب في آنية الفضة إنما يجرجر في بطنه نار جهنم ، والعياذ بالله ، والجرجرة : هي صوت الماء إذا جرى في الحلق ، فهذا الرجل ، والعياذ بالله ، يُسقي من نار جهنم - نسأل الله العافية - حتى يجرجر الصوت في بطنه كما جرجر في الدنيا .

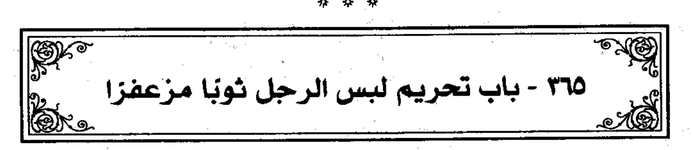
وهذا يدل على أن الأكل والشرب في آنية الذهب والفضة من كبائر الذنوب ، وأنه لا يحل للمؤمن أن يفعل ذلك .

أما استعمال الذهب والفضة في غير ذلك ؛ فهذا موضع خلاف بين العلماء ، جمهور العلماء يقول : لا يجوز أن يستعمل الذهب والفضة في غير الأكل والشرب كما أنه لا يجوز في الأكل والشرب ، فلا يجوز أن تجعلهما مستودعًا للدواء ، أو مستودعًا للدراهم أو للدنانير ، أو ما أشبه ذلك ؛ لأن النبي ﷺ نهى عن الأكل والشرب فيهما وما سوى ذلك فهو مثله .

ومن العلماء من أباح ذلك ، وقال : إننا نقتصر على ما جاءنا به النص ، والباقي ليس حرامًا ؛ لأن الأصل الحل ، ولهذا كانت أم سلمة رضي الله عنها وهي ممن روى حديث النهي عن الأكل والشرب في آنية الفضة ، كانت عندها جُلجل من فضة مثل وعاء البيبسي وشبهه ، جلجل من فضة جعلت فيه شعرات من شعرات النبي ﷺ يستشفي الناس بها ، إذا مرض الإنسان أتوا إليها وجعلت في هذا الجلجل ماءً وراجته في الشعر وشربه المريض فيشفى بإذن الله ، فهي رضي الله عنها تستعمل الفضة في غير الأكل والشرب .

وهذا أقرب إلى الصواب ، أن استعمال الذهب والفضة في غير الأكل والشرب جائز ، لكن الورع تركه احتياطًا لموافقة جمهور العلماء . والله الموفق .

* * *



٣٦٥ - باب تحريم لبس الرجل ثوبًا مزعفرًا

١٧٩٨ - عَنْ أنسٍ رضي الله عنه قالَ : نَهَى النَّبيُّ ﷺ أَنْ يَتَزَعْفَرَ الرَّجُلُ [١] . متفقٌ عليه .

١٧٩٩ - وعَنْ عبدِ اللهِ بن عَمرو بنِ العاص رضي الله عنهما قالَ : رَأَى النَّبيُّ ﷺ عَلَيَّ ثَوبَينِ مُعَصْفَرَينِ فَقَالَ : « أُمُّكَ أَمَرَتْكَ بهذا ؟ » قلتُ : أَغْسِلُهُمَا ؟ قال : « بَلْ أَحْرِقْهُمَا » .

وفي روايةٍ فقالَ : « إِنَّ هذا مِنْ ثِيَابِ الكُفَّارِ فَلا تَلْبَسْهَا » [٢] رواه مسلم .

---

(١) أخرجه البخاري في اللباس (٥٨٤٦) ، ومسلم في اللباس والزينة (٧٧) ، والنسائي في السنن (١٤٢/٥) ، وأحمد في مسنده (١٠١/٣) .

(٢) أخرجه مسلم في اللباس والزينة (٢٧) ، وأحمد في مسنده (٢٠٧/٢) ، والحاكم في المستدرك (١٩٠/٤) .
قوله : «أمك أمرتك بهذا » معناه : أن هذا من لباس الناس وزينتهن وأخلاقهن .

٣٦٦ - باب النهي عن صمت يوم إلى الليل

١٨٠٠ - عَنْ عَليٍّ ﷺ قالَ : حَفِظْتُ عَنْ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ : « لا يُتْمَ بَعْدَ احْتِلامٍ ، وَلا صُمَاتَ يَومٍ إلى اللَّيل » (١) رواه أبو داود بإسنادٍ حسنٍ .

قالَ الخطَّابي في تفسير هذا الحديثِ : كَانَ مِنْ نُسُكِ الجَاهِلِيَّةِ الصُّمَاتُ ، فَنُهوا في الإسْلامِ عَنْ ذلكَ ، وأُمِرُوا بِالذِّكْرِ وَالحَدِيثِ بِالخَيرِ .

١٨٠١ - وَعَنْ قيسِ بنِ أبي حازِمٍ قالَ : دَخَلَ أبو بكرٍ الصِّدِّيقُ ﷺ عَلى امْرأَةٍ مِنْ أَحْمَسَ يُقَالُ لَها : زَيْنَبُ ، فَرآهَا لا تَتَكَلَّمُ . فقالَ : مَا لَها لا تَتَكَلَّمُ ؟ فقالُوا : حَجَّتْ مُصْمِتَةً . فقالَ لَها : تَكَلَّمِي ؛ فَإن هذا لا يَحِلُّ ، هذا مِنْ عَمَلِ الجَاهِلِيَّةِ ! فَتَكَلَّمَتْ (٢) . رواه البخاري .

الشرح

ذكر المؤلف رحمه الله في كتابه بابين : الباب الأول : نهي الرجل أن يلبس الثوب المزعفر : يعني الذي صبغ بالعصفر ، وهو نوع من النبات يشبه الزعفران ، وذكر فيه حديث عبد اللَّه بن عمرو بن العاص رضي الله عنهما أن النبي ﷺ رأى عليه ثوبين معصفرين أو ثوبًا معصفرًا فقال : « أمك أمرتك بهذا ؟ » يعني ينكر عليه ، فدل ذلك على أنه يكره أو يحرم على الرجل أن يلبس مثل هذه الثياب الصفراء التي تميل إلى الحمرة قليلًا ، وكذلك الثوب الأحمر نهى النبي ﷺ عن لبسه (٣) ، وأخبر أن هذا من لباس الكفار ، وإذا كان الأمر كذلك فإنا قد نهينا أن نتشبه بهم ، لقول النبي ﷺ : « من تشبه بقوم فهو منهم » (٤) .

وأما الباب الثاني : فهو الصمت إلى الليل ، وكانوا في الجاهلية يدينون لله عز وجل بالصمت إلى الليل ، يعني : أن الإنسان يقوم من نومه في الليل ويسكت ولا يتكلم حتى تغيب الشمس ، فنهى المسلمون عن ذلك ، لأن هذا يؤدي إلى ترك التسبيح والتهليل والتحميد ، والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر ، وقراءة القرآن وغير ذلك ، وأيضًا هو من فعل الجاهلية ، فلذلك نهى عنه . فلا يجوز للإنسان أن يصمت ولا يتكلم إلى الليل ، وإذا قدر أن أحدًا نذر هذا ؛ فإنه لا يفي بنذره ، فليحل النذر ويكفر كفارة يمين ، وإذا تكلم الإنسان فلا يتكلم إلا بخير ، لقول النبي ﷺ : « من كان يؤمن باللَّه واليوم الآخر فليقل خيرًا أو ليصمت » (٥) . واللَّه الموفق .

---

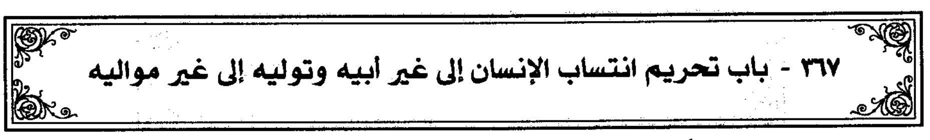
(١) أخرجه أبو داود في الوصايا (٢٨٧٣) والبيهقي في السنن (٥٧/٧) . قوله : « لا يتم بعد احتلام » أي أن الإنسان إذا بلغ سن الرشد لم يعد يتيمًا . قوله : « ولا صمات » أي لا سكوت عند الكلام .

(٢) أخرجه البخاري في مناقب الأنصار (٣٨٣٤) قوله : « مصمتة » أي ساكتة لا تتكلم .

(٣) انظر في ذلك ما أخرجه النسائي في السنن (١٦٥/٨) .

(٤) أخرجه أبو داود في السنن (٤٠٣١) وأحمد في مسنده (٥٠/٢) والهيثمي في مجمع الزوائد (٢٧١/١٠) .

(٥) سبق تخريجه .



٣٦٧ - باب تحريم انتساب الإنسان إلى غير أبيه وتوليه إلى غير مواليه

١٨٠٢ - عَنْ سَعْدِ بنِ أَبي وَقَّاصٍ ﷺ أَنَّ النَّبيَّ ﷺ قَالَ : « مَنِ ادَّعَى إلى غَيرِ أَبِيهِ وَهوَ يَعْلَمُ أَنَّهُ غَيرُ أَبِيهِ ؛ فالجَنَّةُ عَلَيهِ حَرَامٌ » (١) متفقٌ عليه .

١٨٠٣ - وَعَنْ أَبي هُرَيرَةَ ﷺ عَنِ النَّبيِّ ﷺ قَالَ : « لا تَرْغَبُوا عَنْ آبَائِكُمْ ، فَمَنْ رَغِبَ عَنْ أَبِيهِ ؛ فَهُوَ كُفْرٌ » (٢) متفقٌ عليه .

١٨٠٤ - وَعَنْ يزيدَ بنِ شريك بن طارِقٍ قالَ : رأَيتُ عَلِيًّا ﷺ على المِنْبَرِ يَخْطُبُ ، فَسَمِعْتُهُ يَقُولُ : لا وَاللَّهِ مَا عِنْدنَا مِنْ كِتَابٍ نَقْرَؤُهُ إلَّا كِتَابَ اللَّهِ ، وَمَا في هذهِ الصَّحِيفَةِ ، فَنَشَرَهَا ، فَإذَا فِيهَا أَسْنَانُ الإبِلِ ، وَأَشْيَاءُ مِنَ الجرَاحَاتِ ، وَفيهَا : قالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ : « المَدِينَةُ حَرَمٌ مَا بَينَ عَيرٍ إلى ثَور ، فَمَنْ أَحْدَثَ فيهَا حَدَثًا ، أو آوى مُحدِثًا ، فَعَلَيهِ لَعْنَةُ اللَّهِ وَالمَلائِكَة وَالنَّاسِ أَجْمَعِينَ ، لا يَقْبَلُ اللَّهُ مِنْهُ يَومَ القِيَامَةِ صَرْفًا وَلا عَدْلًا ، ذمَّةُ المُسْلِمِينَ وَاحِدَةٌ ، يَسْعَى بهَا أَدْنَاهُمْ ، فَمَنْ أَخْفَرَ مُسْلِمًا ؛ فَعَلَيهِ لَعْنَةُ اللَّهِ والمَلائِكَةِ وَالنَّاسِ أَجْمَعِينَ ، لا يَقْبَلُ اللَّهُ مِنْهُ يومَ القِيَامَةِ صَرْفًا وَلا عَدْلًا ، وَمَنِ ادَّعَى إلى غيرِ أَبيهِ ، أَوِ انْتَمَى إلى غَيرِ مَوَالِيهِ ؛ فَعَلَيهِ لَعْنَةُ اللَّهِ وَالمَلائِكَةِ وَالنَّاسِ أَجْمَعِينَ ، لا يَقْبَلُ اللَّهُ مِنْهُ يَومَ القِيَامَةِ صَرْفًا ولا عَدْلًا » (٣) . متفقٌ عليه .

« ذِمَّةُ المُسْلِمِينَ » أَي : عَهْدُهُمْ وَأَمَانَتُهُمْ . « وَأَخْفَرَهُ » : نَقَضَ عَهْدَهُ « الصَّرْفُ » : التَّوبَةُ ، وَقِيلَ : الحِيلَةُ . « وَالعَدْلُ » : الفِدَاءُ .

١٨٠٥ - وَعَنْ أبي ذَرٍّ ﷺ أَنَّهُ سَمِعَ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ يَقُولُ : « لَيسَ مِنْ رَجُلٍ ادَّعَى لِغَيرِ أَبِيهِ وَهُوَ يَعْلَمُهُ إلا كَفَرَ ، وَمَنِ ادَّعَى مَا لَيسَ لَهُ ؛ فَلَيسَ مِنَّا ، وَلْيَتَبَوَّأْ مَقْعَدَهُ مِنَ النَّار ، وَمَنْ دَعَا رَجُلًا بالكُفْرِ ، أَو قالَ : عَدُوَّ اللَّهِ ، وَلَيسَ كَذلكَ ؛ إلا حَارَ عَلَيهِ » (٤) متفقٌ عليه ، وهذا لَفْظُ روايةِ مُسْلِمٍ .

(١) أخرجه البخاري في الفرائض (٦٧٦٦) ومسلم في الإيمان (١١٥) وأحمد في مسنده (١٧٤/١) وابن ماجه في الحدود (٢٦١٠) .

(٢) أخرجه البخاري في الفرائض (٦٧٨٦) ومسلم في الإيمان (١١٣) وأحمد في مسنده (٥٢٦/٢) بنحوه . قوله « لا ترغبوا » أي لا تتبرؤوا .

(٣) أخرجه مسلم في العتق (٢٠) والبخاري في الفرائض (٦٧٥٥) بنحوه ، وأحمد في مسنده (٨١/١) . قوله « أسنان الإبل » أي في تلك الصحيفة بيان أسنان الإبل التي تعطى دية ، قوله « ذمة المسلمين واحدة » أي أمان المسلمين للكافرين واحد ، فإذا أمنه أحد المسلمين حرم على غيره التعرض له ما دام في أمان المسلمين ، قوله « يسعى بها أدناهم » أي يتولاها ويلي أمرها أدنى المسلمين مرتبة ، قوله « أخفر مسلمًا » أي من نقض أمان مسلم فتعرض لكافر أمنه ذلك المسلم .

(٤) أخرجه البخاري في المناقب (٣٥٠٨) ومسلم في الإيمان (١١٢) والإمام أحمد في المسند (١٦٦/٥) . قوله « ليس من رجل ادعى لغير أبيه » فيه تأويلان : أحدهما : أنه في حق المستحل . والثاني : كفر النعمة والإحسان وحق اللَّه تعالى وحق أبيه . وليس المراد الكفر الذي يخرجه عن ملة الإسلام . والتعبير بالرجل جرى مجرى الغالب ، وإلا فالمرأة كذلك .

الشرح

ذكر المؤلف رَحِمَهُ ٱللَّهُ تحريم انتساب الإنسان إلى غير أبيه ، أو تولِّيه غير مواليه .

فذكر رَحِمَهُ ٱللَّهُ شيئين كلاهما لحمة يلتحم الناس بعضهم ببعضهم به ، ويدنو بعضهم من بعض .

الأول : النسب ، **والثاني** : الولاء ، وقد قال النبي ﷺ : « الولاء لحمة كلحمة النسب » (١) .

أما النسب : فإن الإنسان يجب عليه أن ينتسب إلى أهله : أبيه ، جده ، جد أبيه .. وما أشبه ذلك ، ولا يحل له أن ينتسب إلى غير أبيه وهو يعلم أنه ليس بأبيه ، فمثلًا : إذا كان أبوه من قبيلةٍ ما ، ورأى أنها فيها نقص عن غيرها ، فانتمى إلى قبيلة ثانية أعلى حسبًا ، لأجل أن يزيل عن نفسه عيب قبيلته ، فإن هذا - والعياذ بالله - ملعون ، عليه لعنة الله والملائكة والناس أجمعين ، لا يقبل الله منه يوم القيامة صرفًا ولا عدلًا .

وأما إذا انتمى الإنسان إلى جدِّه ، وأبي جدِّه ، وهو مشهور ومعروف دون أن ينتفي من أبيه فلا بأس بهذا ، فقد قال النبي ﷺ : « أنا ابن عبد المطلب ، أنا النبي لا كذب » (٢) مع أنه محمد بن عبد الله بن عبد المطلب ، فعبد المطلب جدُّه، ولكنه ﷺ قال ذلك في غزوة حنين ، لأن عبدَ المطلب أشهرُ من أبيه عبد الله ، وهو عند قريش في المكانة العليا ، لكنه من المعلوم أنه محمد بن عبد الله ، فلم ينتفِ من أبيه، وكذلك أيضًا الناس ينتسبون إلى اسم القبيلة : فيقول مثلًا : أحمد ابن تيمية وما أشبه ذلك ، لكن المهم الذي عليه الوعيد هو الذي ينتمي إلى غير أبيه ، لأنه غير راضٍ بحسبه ونسبه فيريد أن يرفع نفسه وخسيسته بالانتماء إلى غير أبيه فهذا هو الذي عليه اللعنة والعياذ بالله .

يوجد - والعياذ بالله - من يفعل ذلك للدنيا ، ينتسبون إلى أعمامهم دون آبائهم ، للدنيا ، هذا حرام عليه ، والواجب على من كان كذلك أن يُعدل من انتمائه وتبعيته ، ومن اتق الله جعل له من أمره يسرًا ورزقه من حيث لا يحتسب . والله الموفق .

أما حديث علي بن أبي طالب رضي الله عنه : أنه أعلن وهو على المنبر أنه ليس عندهم شيء خصهم به الرسول ﷺ إلا كتاب الله ، وهذا عام لكل أحد ، والمراد بكتاب الله : ما يقرأه المسلمون اليوم من أولهم إلى آخرهم صغارًا وكبارًا ، لم يزد فيه أحد ، ولم ينقص منه أحد ، وفي هذا رد على الرافضة الشيعة الذين يدَّعون أن القرآن الكريم قد حُذف منه ثلثه ، وحذفت منه سورة الولاية وما أشبه ذلك ، فخرجوا عن إجماع المسلمين ﴿ وَمَن يُشَاقِقِ ٱلرَّسُولَ مِنۢ بَعۡدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُ ٱلۡهُدَىٰ وَيَتَّبِعۡ غَيۡرَ سَبِيلِ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ نُوَلِّهِۦ مَا تَوَلَّىٰ وَنُصۡلِهِۦ جَهَنَّمَۖ وَسَآءَتۡ مَصِيرًا ﴾ [النساء: ١١٥] وفي إقسام أمير المؤمنين رضي الله عنه وهو الخليفة الرابع وهو البار الصادق بدون قسم - أن النبي ﷺ لم يخصهم بشيء ، دليل على كذب الرافضة

---

(١) أخرجه الحاكم في المستدرك (٣٤١/٤) والبيهقي في السنن (٢٤٠/٦) .

(٢) أخرجه البخاري في الجهاد والسير (٢٩٣٠) ومسلم في الجهاد (٧٨) والترمذي في السنن (١٦٨٨) وأبو داود في السنن (٤٨٧) وأحمد في مسنده (٢٦٤/١) .

الشيعة الذين يقولون : إن النبي ﷺ عهد بالخلافة إلى علي بن طالب ، وأن أبا بكر وعمر ظالمون معتدون كافرون منافقون هكذا - والعياذ بالله - يصفون خير هذه الأمة بهذه الأوصاف ، نسأل الله العافية ، ونسأل الله أن يجازيهم بما يستحقون به من عدله إنه على كل شيء قدير . فعلي بن أبي طالب إن كانوا صادقين في محبته وولايته وأنهم يتولونه وأنهم شيعته ؛ فليصدقوه بهذا اليمين الذي أقسم به على المنبر - وهو يخطب الناس - معلنًا أن النبي ﷺ ما خصهم بشيء أبدًا إلا كتاب الله الذي يقرأه المسلمون صغارًا وكبارًا إلى يومنا هذا - والحمد لله - « وما في هذه الصحيفة » ثم نشرها ، وقرأ فيها شيئًا من أسنان الإبل في الزكاة والثياب والجراحات ، التي لم تبين في هذا الحديث ، وإنما بينت في أحاديث أخرى ، وذكر فيها : « أن المدينة حرام ما بين عير إلى ثور » فالمدينة لها حرم كحرم مكة ، لكنه دون حرم مكة في الفضيلة ؛ لأن حرم مكة لا يمكن لمؤمن يتم إيمانه إلا أن يقصده حاجًا ومعتمرًا بخلاف حرم المدينة ، ثم إن المحرمات في المدينة أخف من المحرمات في مكة ، ولهذا يجب في حرم مكة في قتل الصيد الجزاء ، ولا يجب هذا في حرم المدينة ، وليس هذا موضوع ذكر الفروق بين الحرمين فهي حوالي ستة أو سبعة فروق معروفة ، وما بين عير إلى ثور معروف أيضًا ، فإن هذا الحرم مساحته أربعة فراسخ في أربعة فراسخ ، هذا الحرم يقول النبي ﷺ : « من أحدث فيه حدثًا أو آوى محدثًا ؛ فعليه لعنة الله والملائكة والناس أجمعين »[1] ، أحدث حدثًا في أي شيء : في العقيدة ، في المنهج ، في السلوك مخالفًا للمسلمين ؛ فعليه لعنة الله والملائكة والناس أجمعين ، وكذلك من آوى محدثًا - يعني أدخله المدينة - وهو يعلم أنه صاحب حدث فآواه ونصره وأدخله في منزله وتستر عليه وما أشبه ذلك ، هذا يكون أيضًا مشاركًا له في الإثم ، عليه لعنة الله والملائكة والناس أجمعين .

الجملة الثانية : (أن ذمة المسلمين واحدة) : يعني عهدهم واحد ، إذا عاهد أحد من المسلمين ممن لهم ولايات العهد ثم خفر ذمة أحد ؛ فعليه لعنة الله والملائكة والناس أجمعين ، فمثلًا : إذا دخل كافر إلى البلد في أمان وعهد ممن لهم ولاية العهد أو غيرهم ممن له الأمان ثم خفره أحد ؛ استحق اللعنة من الله والملائكة والناس أجمعين ، لو أن كافرًا دخل بأمان وآواه رجل مؤمن وقال له : ادخل أنت في جواري . ثم جاء إنسان وقتل هذا الكافر - رغم أمانه من المسلم - فعلى القاتل لعنة الله والملائكة والناس أجمعين - نسأل الله العافية - كيف إذا دخل بأمان من ولي الأمر ، على أنه مؤتمن وفي جوار وأمان الدولة ، ثم يأتي إنسان فيقتله ، هذا عليه لعنة الله والملائكة والناس أجمعين .

وفي هذا دليل على حماية الدين الإسلامي لمن دخل بأمانه وجواره ، وأن الدين الإسلامي لا يعرف الغدر والاغتيال والجرائم ، إنه دين صريح .

وبهذا نعرف غلط من يغدرون بالذمم ويخونون ويغتالون أناسًا لهم عهد وأمان ، وأن هؤلاء مستحقون لما أعلنه أمير المؤمنين علي رضي الله عنه « عليهم لعنة الله والملائكة والناس أجمعين » - والعياذ بالله - نعم ، الحربي الذي يدخل بدون أمان لم يعطه أحد من المسلمين الأمان ، ويدخل مستخفيًا ليكون

---

(١) أخرجه مسلم في العتق (٢٠) وأحمد في مسنده (٥٦٢/٢) وأبو داود في الحج (٢٠٣٤) والترمذي في الحج (٢١٢٧) .

جاسوسًا للعدو ، أو مفسدًا في الأرض ، هذا يُقتَلُ . أما إنسان دخل بأمان من الدولة أو أمان من أي طرف من المسلمين ؛ فهذا لا يُقتَلُ ، فهو نفس محترمة معصومة ، من غدر بها فعليه لعنة الله والملائكة والناس أجمعين . وبهذا نعرف خطأ ما نسمعه في بعض البلاد من الاعتداء على الآمنين الذين لهم عهد من الدولة تجدهم آمنين بذلك ، ثم يأتي إنسان باسم الإسلام فيغتالهم ! . لا ، فالإسلام لا يعرف الغدر يقول الله ﷻ : ﴿ وَأَوْفُوا بِعَهْدِ اللَّهِ إِذَا عَاهَدتُّمْ وَلَا تَنقُضُوا الْأَيْمَانَ بَعْدَ تَوْكِيدِهَا ﴾ [النحل : ٩١] ويقول ﷻ : ﴿ وَلَا تَكُونُوا كَالَّتِي نَقَضَتْ غَزْلَهَا مِن بَعْدِ قُوَّةٍ أَنكَاثًا تَتَّخِذُونَ أَيْمَانَكُمْ دَخَلًا بَيْنَكُمْ أَن تَكُونَ أُمَّةٌ هِيَ أَرْبَىٰ مِنْ أُمَّةٍ ﴾ [النحل ٩٢] ، العهد شيء عظيم والغدر به فظيع - والعياذ بالله - ليس من الإسلام في شيء ، لكن بعض الجهال يظنون أن يخفوا غيرتهم بما لا يطابق الكتاب والسنة وهذا خطأ ، المؤمن مقيد بما جاء به الشرع وليس الإيمان بالهوى ، ﴿ وَلَوِ اتَّبَعَ الْحَقُّ أَهْوَاءَهُمْ لَفَسَدَتِ السَّمَاوَاتُ وَالْأَرْضُ ﴾ [المؤمنون : ٧١] . والله أعلم .

* * *

٣٦٨ - باب التحذير من ارتكاب ما نهى الله ﷻ أو رسوله ﷺ عنه

قال الله تعالى : ﴿ فَلْيَحْذَرِ الَّذِينَ يُخَالِفُونَ عَنْ أَمْرِهِ أَن تُصِيبَهُمْ فِتْنَةٌ أَوْ يُصِيبَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴾ [النور : ٦٣] . وقال تعالى : ﴿ وَيُحَذِّرُكُمُ اللَّهُ نَفْسَهُ ﴾ [آل عمران : ٣٠] . وقال تعالى : ﴿ إِنَّ بَطْشَ رَبِّكَ لَشَدِيدٌ ﴾ [البروج : ١٢] .

وقال تعالى : ﴿ وَكَذَٰلِكَ أَخْذُ رَبِّكَ إِذَا أَخَذَ الْقُرَىٰ وَهِيَ ظَالِمَةٌ إِنَّ أَخْذَهُ أَلِيمٌ شَدِيدٌ ﴾ (١) [هود : ١٠٢] .

١٨٠٦ - وَعَنْ أَبِي هُرَيرَة ﷺ أَنَّ النَّبي ﷺ قَالَ : « إِنَّ اللَّهَ تَعَالَى يَغَارُ ، وَغَيرَةُ اللَّهِ أَنْ يأتِي المَرْءُ مَا حَرَّمَ اللَّهُ عَلَيهِ » (٢) متفقٌ عليه .

الشرح

ذكر النووي - رحمه الله تعالى - باب التحذير من الوقوع فيما نهى الله ورسوله محمد ﷺ عنه .

يعني أن الإنسان يجب أن يكون حذرًا من الوقوع في المحرمات ولا يتهاون ، ولا يغلبه الأمن من مكر الله ﷻ . فإن بعض الناس يغره الشيطان : يقول : افعل المعصية واستغفر الله ، افعل المعصية ورحمة الله تعالى سبقت غضبه ، افعل المعصية فقد قال الله تعالى : ﴿ إِنَّ اللَّهَ لَا يَغْفِرُ أَن يُشْرَكَ بِهِ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَٰلِكَ لِمَن يَشَاءُ ﴾ [النساء : ٤٨] إلى غير ذلك من الأماني الكاذبة التي يغر بها الشيطان بني

---

(١) قوله ﷻ : ﴿ نَفْسَهُ ﴾ أي عقابه . قوله ﷻ : ﴿ بَطْشَ ﴾ أي أخذه بالعنف لأعدائه . قوله ﷻ : ﴿ أَخَذَ الْقُرَىٰ ﴾ أي : أهلك أهلها . قوله ﷻ : ﴿ أَلِيمٌ ﴾ أي موجع .

(٢) أخرجه البخاري في النكاح (٥٢٢٣) ومسلم في التوبة (٣٦) وأحمد في مسنده (٢/٣٨٧) .

آدم : ﴿ يَعِدُهُمْ وَيُمَنِّيهِمْ وَمَا يَعِدُهُمُ الشَّيْطَانُ إِلَّا غُرُورًا ﴾ [النساء: ١٢٠] ، فالواجب الحذر مما نهى الله ورسوله عنه ، ثم استدل المؤلف رَحِمَهُ اللَّهُ بآيات من كتاب الله منها : قول الله تعالى : ﴿ فَلْيَحْذَرِ الَّذِينَ يُخَالِفُونَ عَنْ أَمْرِهِ أَن تُصِيبَهُمْ فِتْنَةٌ أَوْ يُصِيبَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴾ ﴿ فَلْيَحْذَرِ الَّذِينَ يُخَالِفُونَ عَنْ أَمْرِهِ ﴾ : أي عن أمر رسول الله ﷺ ومعنى يخالفون عنه : يخرجون عنه ولا يبالون به ويرتكبونه ليحذروا ﴿ أَن تُصِيبَهُمْ فِتْنَةٌ أَوْ يُصِيبَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴾ فتنة في قلوبهم - والعياذ بالله - يُلقى في قلوبهم من الشك فيما يجب اليقين فيه ، أو الشهوة فيما يحرم تناوله ، ولهذا قال الإمام أحمد رَحِمَهُ اللَّهُ : أتدري ما الفتنة ؟ الشرك ، لعله إذا ردَّ بعض قوله أن يقع في قلبه شيء من الزيغ فيهلك - والعياذ بالله - فاحذر الفتنة ، احذر المخالفة عن أمر الله ورسوله . ﴿ أَوْ يُصِيبَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴾ : يعني عذاب مؤلم إما في الدنيا وإما في الآخرة . قال الله تعالى : - ﴿ وَيُحَذِّرُكُمُ اللَّهُ نَفْسَهُ ﴾ : يعني : احذروا الله عَزَّ وَجَلَّ فإنه شديد العقاب كما قال تعالى : ﴿ نَبِّئْ عِبَادِي أَنِّي أَنَا الْغَفُورُ الرَّحِيمُ ۝ وَأَنَّ عَذَابِي هُوَ الْعَذَابُ الْأَلِيمُ ﴾ [الحجر: ٤٩] وقال تعالى : ﴿ اعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ شَدِيدُ الْعِقَابِ وَأَنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴾ [المائدة: ٩٨] فبدأ بالعقاب وثنى بالمغفرة ، لئلا يغلب الأمن من مكر الله ، والإنسان إذا أمن من مكر الله أصابه البلاء والعذاب ، ولهذا قال الله تبارك وتعالى : ﴿ أَفَأَمِنَ أَهْلُ الْقُرَىٰ أَن يَأْتِيَهُم بَأْسُنَا بَيَاتًا وَهُمْ نَائِمُونَ ۝ أَوَأَمِنَ أَهْلُ الْقُرَىٰ أَن يَأْتِيَهُم بَأْسُنَا ضُحًى وَهُمْ يَلْعَبُونَ ۝ أَفَأَمِنُوا مَكْرَ اللَّهِ ۚ فَلَا يَأْمَنُ مَكْرَ اللَّهِ إِلَّا الْقَوْمُ الْخَاسِرُونَ ﴾ [الأعراف: ٩٧- ٩٩] الآمن من مكر الله هو المغالي وأنه يعمل ما يشاء من المعاصي ولا يخافه لكنه في الحقيقة خاسر ؛ لأن مآله العذاب والنكال نسأل الله العافية - وقال تبارك وتعالى : ﴿ وَكَذَٰلِكَ أَخْذُ رَبِّكَ إِذَا أَخَذَ الْقُرَىٰ وَهِيَ ظَالِمَةٌ ۚ إِنَّ أَخْذَهُ أَلِيمٌ شَدِيدٌ ﴾ فسرها النبي ﷺ بقوله : إن الله ليملي للظالم - يعني يمهله ويدعه يظلم نفسه - حتى إذا أخذه لم يفلته وتلا قوله تعالى : ﴿ وَكَذَٰلِكَ أَخْذُ رَبِّكَ إِذَا أَخَذَ الْقُرَىٰ وَهِيَ ظَالِمَةٌ ۚ إِنَّ أَخْذَهُ أَلِيمٌ شَدِيدٌ ﴾ »(١) . فالحذر الحذر من التهاون بمعصية الله عَزَّ وَجَلَّ حتى إن من أهل العلم مَنْ قال : إن الرجل إذا فعل المعصية متهاونًا بها ولو كانت صغيرة صارت كبيرة والعياذ بالله لما قام في قلبه من التهاون بها نسأل الله أن يأمنا وإياكم من أسباب عقابه وغضبه .

* * *

٣٦٩ - باب ما يقوله ويفعله من ارتكب منهيًا عنه

قال الله تعالى : ﴿ وَإِمَّا يَنزَغَنَّكَ مِنَ الشَّيْطَانِ نَزْغٌ فَاسْتَعِذْ بِاللَّهِ ﴾ [فصلت: ٣٦] .

وقال تعالى : ﴿ إِنَّ الَّذِينَ اتَّقَوْا إِذَا مَسَّهُمْ طَائِفٌ مِّنَ الشَّيْطَانِ تَذَكَّرُوا فَإِذَا هُم مُّبْصِرُونَ ﴾ [الأعراف: ٢٠١] . وقال تعالى : ﴿ وَالَّذِينَ إِذَا فَعَلُوا فَاحِشَةً أَوْ ظَلَمُوا أَنفُسَهُمْ ذَكَرُوا اللَّهَ فَاسْتَغْفَرُوا لِذُنُوبِهِمْ وَمَن يَغْفِرُ الذُّنُوبَ إِلَّا اللَّهُ وَلَمْ يُصِرُّوا عَلَىٰ مَا فَعَلُوا وَهُمْ يَعْلَمُونَ ۝ أُولَٰئِكَ جَزَاؤُهُم مَّغْفِرَةٌ مِّن رَّبِّهِمْ

---

(١) أخرجه مسلم في البر والصلة (١٦) ، والترمذي في السنن (٣١١٠) ، وابن ماجه في السنن (٤٠١٨) .

وَجَنَّٰتٌ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَا ۚ وَنِعْمَ أَجْرُ ٱلْعَٰمِلِينَ ﴾ [آل عمران: ١٣٥، ١٣٦] . وقال تعالى : ﴿ وَتُوبُوٓا۟ إِلَى ٱللَّهِ جَمِيعًا أَيُّهَ ٱلْمُؤْمِنُونَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ﴾ (١) [النور: ٣١] .

١٨٠٧ - وَعَنْ أَبي هُرَيرَةَ ﷺ عَنِ النبيِّ ﷺ قالَ : « مَنْ حَلَفَ فَقَالَ في حَلِفِهِ : بِاللَّاتِ وَالعُزَّى ؛ فَلْيَقُلْ : لا إلهَ إلا اللَّه ، وَمَنْ قَالَ لِصَاحِبِهِ : تَعَالَ أُقَامِرْكَ ؛ فَلْيَتَصَدَّقْ » (٢) . متفقٌ عليه .

الشرح

سبق لنا الكلام على أنه لا يجوز للإنسان أن يغتر في إمهال اللَّه تعالى له ، وأن يرتكب المعاصي بناءً على أن اللَّه لن يعاجله بالعقوبة ، وأن هذا من باب الأمن من مكر اللَّه ﷻ وذكرنا أن اللَّه تعالى يملي للظالم حتى إذا أخذه لم يفلته كما قال النبي ﷺ وتلا قول اللَّه تعالى : ﴿ وَكَذَٰلِكَ أَخْذُ رَبِّكَ إِذَآ أَخَذَ ٱلْقُرَىٰ وَهِىَ ظَٰلِمَةٌ ۚ إِنَّ أَخْذَهُۥٓ أَلِيمٌ شَدِيدٌ ﴾ . وكثير من الناس يتهاون في هذا الأمر ، يعصى اللَّه فيُنهى عن ذلك ، ويترك الواجب فيؤمر بفعله ، ويقول : ﴿ وَأَنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴾ ، ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَغْفِرُ أَن يُشْرَكَ بِهِۦ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَٰلِكَ لِمَن يَشَآءُ ﴾ وأنا لست مشركًا باللَّه فيقال له : إن الذي قال ذلك هو الذي قال : ﴿ ٱعْلَمُوٓا۟ أَنَّ ٱللَّهَ شَدِيدُ ٱلْعِقَابِ ﴾ وقال : ﴿ نَبِّئْ عِبَادِىٓ أَنِّىٓ أَنَا ٱلْغَفُورُ ٱلرَّحِيمُ ۝ وَأَنَّ عَذَابِى هُوَ ٱلْعَذَابُ ٱلْأَلِيمُ ﴾ ولا يجوز لك أن تغتر بإمهال اللَّه لك ، ربما يمهل اللَّه العبد على معاصيه ويستدرجه من حيث لا يعلم ، حتى إذا أخذه أخذه أخذ عزيز مقتدر والعياذ باللَّه فإياك أن تتهاون راقب اللَّه ﷻ، واعلم أنه لكل داء دواء ، فإذا مَسَّكَ طائفٌ من الشيطان تذكر واتعظ وأقبل على اللَّه وتب إلى اللَّه ﷻ وكن كمن قال اللَّه فيهم : ﴿ وَٱلَّذِينَ إِذَا فَعَلُوا۟ فَٰحِشَةً أَوْ ظَلَمُوٓا۟ أَنفُسَهُمْ ذَكَرُوا۟ ٱللَّهَ فَٱسْتَغْفَرُوا۟ لِذُنُوبِهِمْ وَمَن يَغْفِرُ ٱلذُّنُوبَ إِلَّا ٱللَّهُ وَلَمْ يُصِرُّوا۟ عَلَىٰ مَا فَعَلُوا۟ وَهُمْ يَعْلَمُونَ ﴾ . والتوبة لا بد فيها من شروط خمسة :

الأول : الإخلاص لله ﷻ ، بألا يحمل الإنسان على التوبة مراعاة أحد من الخلق ، ولا أن ينال بذلك جاهًا أو رئاسةً ؛ بل يخلص النية لله ﷻ خوفًا من عقابه ورجاء لثوابه .

الثاني : الندم على ما فعل من الذنب ، بحيث لا يتساوى عنده الذنب وعدمه ، بل يندم على ما حصل منه ، يتحسر في نفسه ، ويقول : ليتني لم أفعل هذا ، لكنه يخضع لقضاء اللَّه وقدره ويتوب إلى اللَّه ﷻ .

الثالث : الإقلاع عن الذنب ، بترك المعصية إن كان الذنب معصية ، أو فعل الواجب إن كان الذنب بترك الواجب يمكن تداركه ، فإما أن يصر على الذنب ويرجوا التوبة فهذا خطأ ، وهو من الأماني الكاذبة ، بعض الناس يقول : أستغفر اللَّه ، وأتوب إليه من الغيبة ، وهو يغتاب الناس ، يقول :

---

(١) قوله ﷻ : ﴿ يَنزَغَنَّكَ ﴾ أي يفسدك . قوله ﷻ : ﴿ فَٱسْتَعِذْ ﴾ أي تحصن . قوله ﷻ : ﴿ طَٰٓئِفٌ ﴾ أي : لمة أو وسوسة . قوله ﷻ : ﴿ يُصِرُّوا۟ ﴾ أي يتمسكوا .

(٢) أخرجه البخاري في الأيمان والنذور (٦٦٥٠) ومسلم في الإيمان (٥) وأحمد في مسنده . قوله « اللات » اسم صنم كان لثقيف بالطائف . قوله « العزى » اسم صنم كان لغطفان .

أستغفر اللّه من الربا ، وهو يأكل الربا - يقول : أستغفر اللّه وأتوب إليه من حقوق الناس ، وهو يأكل حقوق الناس ، يماطل في الحق الذي عليه مع قدرته على وفائه ، وغير ذلك من الأمور التي يكذب بها الإنسان على نفسه في أنه تائب وهو لم يتب .

وإذا كان الذنب حقًّا لآدمي ؛ فلا بد أن يوصله إليه : أخذ مالًا من شخص ، سرق منه مالًا وجاء يسأل يقول : إنه تاب ، نقول : رد المال إلى صاحبه ، أما بدون أن ترده فالتوبة لم تتم ، كذلك إذا كانت توبته من أكل لحم الناس يغتاب شخصًا يسبه في المجالس ، وقال : إنه تاب إلى اللّه نقول له : اذهب واطلب منه أن يحلَّك حتى تنفعك التوبة ، وإنما قيدنا هذا بما إذا كان قد علم أنك قد اغتبته ، وإلا فلا حاجة أن تخبره ، أثن عليه بالخير في المجالس التي كنت تسبه فيها ثم استغفر اللّه له .

الرابع : العزم على ألا يعود ، يعني : لا يتوب إلى اللّه وهو عازم على أن يعود متى سنحت الفرصة ، فإن هذه ليست توبة ، بل يجب أن يعزم على ألا يعود إلى الذنب .

الخامس : أن تكون التوبة في وقت القبول ، وذلك بأن يتوب قبل أن يحضره الموت ، أو قبل أن تطلع الشمس من مغربها ، فإن لم يتُب إلا إذا حضره الموت ؛ فإن التوبة لا تتم .

ومن هذا نعرف أن التوبة واجبة على الفور بدون تأخير ؛ لأن الإنسان لا يدري متى يفاجأ بالموت ؛ فيجب عليه أن يكون مستعدًا - نسأل اللّه تعالى أن يتوب علينا وعليكم وأن يتوفانا على الإيمان .

وقد ذكر المؤلف - رحمه اللّه تعالى - ما يقوله ويفعله من فعل محرمًا .

وذلك أن الإنسان ليس معصومًا من الذنب ، فلابد لكل إنسان من ذنوب كما جاء في الحديث عن النبي ﷺ : « كل بني آدم خطَّاء ، وخير الخطَّائين التوابون »[١] وقال ﷺ : « لو لم تذنبوا لَذهب اللّه بكم ثم جاء بقوم يذنبون فيستغفرون اللّه فيغفر لهم »[٢] فلابد للإنسان من ذنب ، ولكن ماذا يصنع ؟ يجب عليه إذا أذنب ذنبًا أن يرجع إلى اللّه ويتوب إليه ويندم ويستغفر حتى يَنْمَحي عنه ذلك الذنب . قال اللّه تعالى : ﴿ وَإِمَّا يَنزَغَنَّكَ مِنَ ٱلشَّيۡطَٰنِ نَزۡغٞ فَٱسۡتَعِذۡ بِٱللَّهِۚ ﴾ يعني إذا نزغك الشيطان وألقى في قلبك الزيغ والمعصية فاستعذ باللّه ، فإذا هممت بمعصية سواء كان فيما يتعلق بحق اللّه أو بحق المخلوق فقل : « أعوذ باللّه من الشيطان الرجيم » فإذا قلت ذلك بإخلاص ؛ فإن اللّه يعينك ويعيذك من الشيطان الرجيم ويعصمك منه .

وقال اللّه تعالى : ﴿ إِذَا مَسَّهُمۡ طَٰٓئِفٞ مِّنَ ٱلشَّيۡطَٰنِ تَذَكَّرُواْ فَإِذَا هُم مُّبۡصِرُونَ ﴾ : أي وقع في قلوبهم زيغ وعملوا عملًا سيئًا تذكروا ، اعتبروا ، ﴿ فَإِذَا هُم مُّبۡصِرُونَ ﴾ فيعرفون أنهم في غيٍّ وحينئذ يستغفرون اللّه تعالى كما قال في الآية الأخرى التي ساقها المؤلف رَحِمَهُ اللَّهُ في أوصاف المتقين :

---

(١) أخرجه الترمذي في السنن (٢٤٩٩) ، وأحمد في مسنده (١٩٨/٢) .

(٢) أخرجه مسلم في التوبة (١١) ، وأحمد في مسنده (٢٨٩/١) ، والهيثمي في مجمع الزوائد (٢١٥/١٠) ، والمنذري في الترغيب والترهيب (٩٩/٤) .

﴿ وَٱلَّذِينَ إِذَا فَعَلُواْ فَٰحِشَةً أَوْ ظَلَمُوٓاْ أَنفُسَهُمْ ذَكَرُواْ ٱللَّهَ ﴾ .

﴿ إِذَا فَعَلُواْ فَٰحِشَةً ﴾ يعني سيئة عظيمة ، ﴿ أَوْ ظَلَمُوٓاْ أَنفُسَهُمْ ﴾ : بما دون ذلك ذكروا اللَّه بقلوبهم وألسنتهم ، ﴿ فَٱسْتَغْفَرُواْ لِذُنُوبِهِمْ ﴾ : سألوا اللَّه تعالى أن يغفر لهم ، ﴿ وَمَن يَغْفِرُ ٱلذُّنُوبَ إِلَّا ٱللَّهُ ﴾ : يعني لا أحد يغفر الذنوب إلا اللَّه لو اجتمع أهل الأرض كلهم وأهل السماوات كلهم على أن يرفعوا عنك ذنبًا واحدًا ما استطاعوا أبدًا ، كل الخلق لو أرادوا أن يمحوا عنك ذنبًا واحدًا ما استطاعوا ، لا يغفر الذنوب إلا اللَّه ، ﴿ وَلَمْ يُصِرُّواْ عَلَىٰ مَا فَعَلُواْ وَهُمْ يَعْلَمُونَ ﴾ : يعني لم يستمروا في معصيتهم وذنوبهم وهم يعلمون أنهم على ذنب ، أما لو أنهم فعلوا ذنبًا وأصروا عليه وهم لا يعلمون أنه ذنب فإن اللَّه تعالى لا يؤاخذهم ، لقوله تعالى : ﴿ رَبَّنَا لَا تُؤَاخِذْنَآ إِن نَّسِينَآ أَوْ أَخْطَأْنَا ﴾ [البقرة : ٢٨٦] .

﴿ أُوْلَٰٓئِكَ جَزَآؤُهُم مَّغْفِرَةٌ مِّن رَّبِّهِمْ وَجَنَّٰتٌ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَا ۚ وَنِعْمَ أَجْرُ ٱلْعَٰمِلِينَ ﴾ : يعني هؤلاء الذين يتصفون بهذه الصفات هذا جزاؤهم عند اللَّه .

وقال اللَّه تعالى : ﴿ وَتُوبُوٓاْ إِلَى ٱللَّهِ جَمِيعًا أَيُّهَ ٱلْمُؤْمِنُونَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ﴾ توبوا إلى اللَّه ، هذه ذكرها اللَّه تعالى بعد الأمر بغض البصر وعدم إبداء الزينة من النساء ، قال بعد ذلك : ﴿ وَتُوبُوٓاْ إِلَى ٱللَّهِ جَمِيعًا ﴾ والتوبة إلى اللَّه تعالى هي الرجوع إليه ﷻ من معصيته إلى طاعته ، ومن الإشراك به إلى توحيده ، ومن البدعة إلى اتباع الرسول ﷺ ، أن يرجع الإنسان إلى ربه فيندم على ما فعل ، ويعزم على ألا يعود ، ويستغفر اللَّه ﷻ . وقوله : ﴿ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ﴾ : أي لأجل أن تفلحوا ، والفلاح هو الفوز بالمطلوب ، والنجاة من المرغوب ، والتوبة واجبة من كل ذنب ، لا تتهاون في الذنوب ، لا تقل : هذا سهل يغفره اللَّه ؛ لأنه ربما تتراكم الذنوب على القلب والعياذ باللَّه فيصبح مظلمًا وينسد عليه باب الخير ، كما قال اللَّه تعالى : ﴿ كَلَّا ۖ بَلْ ۜ رَانَ عَلَىٰ قُلُوبِهِم مَّا كَانُواْ يَكْسِبُونَ ﴾ [المطففين : ١٤] تب إلى اللَّه من كل ذنب .

وفي الحديث الذي ساقه المؤلف عن أبي هريرة : أن النبي ﷺ قال : « من حلف باللات والعزى فليقل : لا إله إلا اللَّه » . اللات : صنم يعبده الجاهليون في الجاهلية وكذلك العزى ، كما قال تعالى : ﴿ أَفَرَءَيْتُمُ ٱللَّٰتَ وَٱلْعُزَّىٰ ۝١٩ وَمَنَوٰةَ ٱلثَّالِثَةَ ٱلْأُخْرَىٰٓ ﴾ [النجم : ١٩ ، ٢٠] كانوا يحلفون بهما كما يحلفون باللَّه فيقولون : واللات ، أو واللات والعزى ، فإذا قال الإنسان ذلك ؛ فإنه شرك يداوى بالإخلاص ، ولهذا قال : « فليقل : لا إله إلا اللَّه » ليداوي الشيء بضده .

« ومن قال لصاحبه : تعال أقامرك ؛ فليتصدق » هذا أيضًا من دواء الشيء بضده ، المقامرة : الرهان على أي شيء ، فمن قال هذا فقد قال قولًا حرامًا ؛ فعليه أن يتوب ، ومن توبته أن يتصدق . وكذلك أيضًا يقال : من فرط في واجب ، فإن دواءه أن يتوب إلى اللَّه ويكثر من عمل الصالحات حتى يكون دواءً لذلك . نسأل اللَّه تعالى أن يتوب علينا وعليكم ويوفقنا لما يحبه ويرضاه .

* * *

كتاب المنثورات والملح

٣٧٠ - بابُ المنثورات وَالملح

١٨٠٨ - عَنِ النَّوَّاسِ بنِ سَمْعَانَ ﷺ قَالَ : ذَكَرَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ الدَّجَّالَ ذَاتَ غَدَاةٍ ، فَخَفَّضَ فِيهِ ، وَرَفَّعَ ، حَتَّى ظَنَنَّاه في طَائِفَةِ النَّخْلِ . فَلَمَّا رُحْنا إلَيهِ ، عَرَفَ ذلِكَ فِينا ، فقالَ : « مَا شَأْنُكُمْ ؟ » قُلْنَا : يا رَسُولَ اللَّهِ ذَكَرْتَ الدَّجالَ الْغَدَاةَ ، فَخَفَّضْتَ فِيهِ وَرَفَّعْتَ ، حَتَّى ظَنَنَّاه في طَائِفَةِ النَّخْلِ ، فقالَ : « غَيرُ الدَّجَّالِ أَخْوَفني عَلَيكُمْ ؛ إنْ يَخْرُجْ وَأَنَا فِيكُمْ ، فَأَنَا حَجِيجُه دونَكُم ؛ وَإنْ يَخرجْ وَلَسْتُ فِيكُمْ ، فَامْرُؤٌ حَجيجُ نَفْسِهِ ، وَاللَّهُ خَلِيفَتِي عَلى كُلِّ مُسْلم . إنَّه شَابٌّ قَطَطٌ ، عَينُهُ طَافِيَةٌ ، كأَنِّي أُشَبِّهُه بِعَبْدِ الْعُزَّى بن قَطَنٍ ، فَمَنْ أَدْرَكَه مِنْكُمْ ، فَلْيَقْرَأْ عَلَيهِ فَوَاتِحَ سُورَةِ الْكَهْف : إنَّه خَارِجٌ خَلَّةً بَينَ الشَّامِ وَالْعِرَاقِ ، فَعَاثَ يَمِينًا وَعاثَ شِمَالًا ، يَا عِبَادَ اللَّهِ فَاثْبُتُوا » قُلْنَا : يا رسولَ اللَّهِ وَمَا لُبْثُه في الأَرْضِ؟ قالَ : « أَرْبَعُونَ يَومًا : يَومٌ كَسَنَةٍ ، وَيَومٌ كَشَهْرٍ ، وَيَومٌ كَجُمُعَةٍ ، وَسَائِرُ أَيَّامِهِ كأَيَّامِكُمْ » قُلْنَا : يا رَسُولَ اللَّهِ ، فَذَلكَ الْيَومُ الذي كَسَنَةٍ أَتَكْفِينا فِيهِ صَلاةُ يَومٍ ؟ قال : « لا ، اقْدُرُوا لَهُ قَدْرَهُ » قُلْنَا : يَا رَسُولَ اللَّهِ وَمَا إسْرَاعُهُ في الأرْضِ؟ قالَ : « كَالْغَيثِ اسْتَدبَرَتْهُ الرِّيحُ ، فَيَأْتي عَلى الْقَومِ ، فَيَدْعُوهُم ، فَيُؤمِنُونَ بِهِ ، وَيَسْتَجِيبُونَ لَهُ ، فَيَأْمُرُ السَّماءَ فَتُمْطِرُ ، وَالأَرْضَ فَتُنْبِتُ ، فَتَرُوحُ عَلَيهِمْ سَارِحَتُهُمْ ، أَطْوَلَ مَا كَانَتْ ذُرًى ، وَأَسْبَغَهُ ضُرُوعًا ، وَأَمَدَّهُ خَواصرَ ، ثُمَّ يَأْتي الْقَومَ فَيَدْعُوهُمْ ، فَيَرُدُّونَ عَلَيهِ قَولَهُ ، فَيَنْصَرِفُ عَنْهُمْ ، فَيُصْبِحُونَ مُمْحِلينَ ليسَ بأيديهمْ شيءٌ من أَمْوَالِهِمْ ، وَيَمُرُّ بالخَرِبَةِ فيَقُولُ لَهَا : أَخْرِجِي كُنُوزَكِ ، فَتَتبَعُهُ كُنُوزُها كَيعَاسِيبِ النَّحْلِ ، ثُمَّ يَدْعُو رَجُلًا مُمْتلِئًا شَبَابًا فَيَضْرِبُهُ بِالسَّيفِ ، فَيَقْطَعُهُ جِزْلَتَينِ رَمْيَةَ الْغَرَضِ ، ثُمَّ يَدعُوهُ ، فَيُقْبِلُ ، وَيَتَهلَّلُ وَجْهُهُ يَضْحَكُ ، فَبينَما هُو كَذلك إذ بَعَثَ اللَّهُ تَعالى المَسِيحَ ابْنَ مَرْيَمَ ﷺ فَيَنْزِلُ عِنْدَ المَنَارَةِ الْبَيضَاءِ شَرْقِيَّ دِمَشْقَ بَينَ مَهْرُودَتَينِ ، وَاضِعًا كَفَّيهِ عَلى أَجْنِحَةِ مَلَكَينِ ، إذا طَأْطَأَ رَأْسَهُ قَطَرَ ، وَإذا رَفَعَهُ تَحَدَّرَ مِنْهُ جُمَانٌ كاللُّؤلُؤِ ، فَلا يَحِلُّ لِكَافِرٍ يَجِدُ رِيحَ نَفَسِه إلَّا ماتَ ، ونَفَسُهُ يَنْتَهي إلى حَيثُ يَنْتَهي طَرْفُهُ ، فَيَطْلُبُهُ حَتَّى يُدرِكَهُ بِبابِ لُدٍّ فَيَقْتُلُهُ ، ثُمّ يَأتي عِيسَى ﷺ قَومٌ قَدْ عَصَمَهُمُ اللَّه مِنْهُ ، فَيَمْسَحُ عَنْ وُجوهِهِمْ ، وَيُحَدِّثُهُم بِدَرَجَاتِهِمْ في الجنَّةِ ، فَبَينَما هُوَ كَذلك إذْ أوحَى اللَّهُ تَعالى إلى عِيسى ﷺ إنِّي قَدْ أَخْرَجْتُ عِبادًا لي لا يَدَان لأحدٍ بِقِتالهم ، فَحَرِّزْ عِبَادي إلى الطُّور . وَيَبْعَثُ اللَّهُ يَأْجُوجَ وَمأْجُوجَ وَهُمْ مِنْ كُلِّ حَدَبٍ يَنْسلُونَ ، فَيَمُرُّ أَوَائِلُهُم عَلى بُحيرَةِ طَبَرِيَّةَ فَيَشْرَبُونَ مَا فيهَا ، وَيَمُرُّ آخِرُهُم فيقولُون : لَقَدْ كَانَ بِهَذِهِ مَرَّةً ماءٌ ، وَيُحْصَرُ نَبِيُّ اللَّهِ عِيسى ﷺ وَأَصْحَابُهُ حَتَّى يَكُونَ رَأسُ الثَّور لأحدهم خيرًا مِنْ مِائَةِ دِينَارٍ لأَحَدِكُمُ الْيَومَ ، فَيَرْغَبُ نَبيُّ اللَّه عِيسى ﷺ وَأَصْحَابُهُ ﷺ إلى اللَّهِ تَعَالى ، فَيُرْسِلُ اللَّهُ تَعالى عَليهِمُ النَّغَفَ في رِقَابِهِمْ ، فيصْبِحُونَ فَرْسَى كَمَوتِ نَفْسٍ وَاحِدَةٍ ، ثُمَّ يَهبِطُ نَبِيُّ اللَّه عِيسَى ﷺ وَأَصْحَابُهُ ﷺ إلى الأَرضِ ، فَلَا يَجِدُونَ في الأَرْض مَوضِعَ شِبْرٍ إلَّا مَلأَهُ زَهَمُهُم وَنَتَنُهُمْ ، فَيَرْغَبُ نَبيُّ اللَّه عيسى ﷺ

وأَصْحَابُهُ ﷺ إلى اللَّه تَعالى ، فَيُرسِلُ اللَّهُ تَعالَى طيرًا كَأعْنَاق الْبُخْتِ ، فَتَحْمِلُهُمْ ، فَتَطْرَحُهُمْ حَيثُ شَاءَ اللَّهُ ، ثُمَّ يُرسِلُ اللَّهُ ﷻ مَطَرًا لا يُكِنُّ مِنْهُ بَيتُ مَدَرٍ وَلاَ وَبَر ، فَيَغْسِلُ الأرضَ حَتى يَتْرُكَهَا كَالزَّلَفَةِ ، ثُمَّ يُقَالُ لِلأَرْضِ : أَنْبِتِي ثَمَرَتَكِ ، وَرُدِّي بَرَكَتَك ، فَيَومَئِذٍ تَأْكُلُ العِصَابة مِن الرُّمَّانَةِ ، وَيَستظِلُّونَ بِقِحفهَا ، وَيُبَارَكُ في الرِّسْل حَتَّى إنَّ اللِّقْحَةَ من الإبلِ لَتَكْفِي الْفِئَامَ مِن النَّاس ، وَاللِّقْحَة مِنَ الْبَقَر لَتكفي الْقَبِيلَةَ مِنَ النَّاسِ ، واللِّقْحة من الْغَنَم لَتَكْفِي الْفَخِذَ مِنَ النَّاس ، فَبَينَما هُمْ كَذَلِك ؛ إِذْ بَعَثَ اللَّهُ تَعالَى رِيحًا طَيِّبَةً ، فَتَأْخُذُهُمْ تَحْتَ آبَاطِهِمْ ، فَتَقْبضُ رُوح كُلِّ مُؤمِنٍ وكُلِّ مُسْلِمٍ ؛ وَيَبْقَى شِرارُ النَّاسِ يَتَهَارجُونَ فِيهَا تَهَارُجَ الْحُمُرِ ، فَعَليهِم تَقُومُ السَّاعَةُ »[(١)] رواهُ مسلم .

قَوله : « خَلَّةً بَين الشَّامِ وَالْعِرَاق » : أي : طَرِيقًا بَينَهُما . وقَولُهُ : « عاثَ » بالعَين المهملة والثاء المثلثة ، وَالعَيثُ : أَشَدُّ الْفَسَادِ . « وَالذُّرى » : بِضَمِّ الذَّالِ المُعْجَمَةِ وَهوَ أعالي الأسْنِمَةِ . وَهُوَ جَمْعُ ذِرْوَةٍ بضَم الذَّالِ وَكَسْرِها « وَالْيَعَاسِيبُ » ذُكُورُ النَّحْلِ . « وَجزْلَتَيـنِ » أي : قِطْعَتين ، « وَالغَرَضُ » : الْهَدَفُ الَّذِي يُرْمَى إليهِ بِالنُّشَّابِ ، أَي : يَرْمِيهِ رَمْيَةً كَرَمْي النُّشَّاب إِلَى الْهَدَفِ . « وَالْمَهرودَةُ » بِالدَّال الْمُهْمَلَةِ والْمُعجَمَةِ ، وَهيَ : الثَّوبُ المَصْبُوغُ . قَولُهُ : « لَا يَدَان » أي : لَا طَاقَةَ . « وَالنَّغَفُ » : دُودٌ . « وَفَرْسَى » : جَمْعُ فَرِيس ، وَهُوَ الْقَتِيلُ : وَ « الزَّلَفَةُ » : بفتحِ الزَّاي واللاَّمِ وبالْقَافِ ، ورُوِيَ « الزُّلْفَةُ » بضمِّ الزَّاي وإسْكَان اللاَّم وبالْفاءِ ، وهي المِرْآةُ . « وَالعِصَابَةُ » : الجَمَاعَةُ . « وَالرِّسْلُ » بكسر الراء : اللَّبَنُ « وَاللِّقْحَةُ » : اللَّبُونُ ، « وَالفِئامُ » بكسرِ الفاء وبعدها همزة ممْدُودَةٌ : الجماعَةُ . « والْفَخِذُ » مِنْ النَّاسِ : دُونَ الْقَبِيلَةِ .

الشرح

ذكر المؤلف رَحِمَهُ ٱللَّهُ كتاب المنثورات والملح .

والمنثورات : يعني أنها من أبواب متفرقة ، ليست من باب واحد

والملح : جمع مُلْحَة وهي ما يُسْتَمْلَح ويُستعذب . ثم ذكر الباب الأول : باب الدجال وأشراط الساعة . الدجال : مبالغة من الدجل وهو الكذب ، والدجال : يعني كثير الكذب ، الذي لا يتصف

(١) أخرجه مسلم في الفتن (١١٠) وأحمد في مسنده (٣٢٩/٣) ، وابن ماجه في الفتن (٤٠٧٥) . قوله « فخفض فيه ورفع » أي حقر من شأنه وعظم ، قوله « قطط » أي شديد جعودة الشعر ، قوله « تروح عليهم سارحتهم » أي ترجع مواشيهم التي تذهب أول النهار في آخر النهار ، قوله « فيصبحون ممحلين » أي أصابهم الجدب من قلة المطر ويبس الأرض من الكلأ ، قوله « مهرودتين » أي ثوبين مصبوغين بورس ثم بزعفران ، قوله « جمان اللؤلؤ » أي حبات اللؤلؤ . والمراد أن الماء ينحدر منه على هيئة اللؤلؤ في صفائه ، قوله « باب لد » قرية قريبة من بيت المقدس ، قوله « فحرز عبادي إلى الطور » أي ضَمَّهم واجعله لهم حرزًا ، قوله « من كل حدب ينسلون » أي من كل موضع مرتفع يمشون مسرعين ، قوله « زهمهم » أي دسمهم ، قوله « البخت » هي جمال طوال الأعناق ، قوله « بقحفها » أي ما بقي من قشرها ، قوله « يتهارجون فيها تهارج الحمر » أي يجامع الرجال النساء علانية بحضرة الناس كما يفعل الحمير .

إلا بالكذب ، وأما أشراط الساعة : فهي علامات قربها كما قال الله تعالى : ﴿ فَهَلْ يَنظُرُونَ إِلَّا ٱلسَّاعَةَ أَن تَأْتِيَهُم بَغْتَةً فَقَدْ جَآءَ أَشْرَاطُهَا ﴾ [محمد: ١٨] يعني : علاماتها القريبة ، ثم ذكر حديث النواس بن سمعان رضي الله عنه الطويل وفيه : « أن النبي ﷺ ذكر الدجال ذات غداة » يعني ذات صبح في يوم من الأيام « فخفض فيه ورفع » يعني أنه تكلم بكلام طويل ، حتى ظنوا أنه في طائفة النخل : يعني ظنوا أنه ذكر في المدينة وأنه قد جاء، ولكن الأمر لم يكن كذلك . ثم إن النبي ﷺ عرف ذلك فيهم فسألهم فقالوا : إنك ذكرت الدجال الغداة وخفضت فيه ورفعت فظننا أنه في النخل . فقال : « غير الدجال أخوفني عليكم » يعني أخاف عليكم شيئًا أشد من الدجال ، ومن ذلك الرياء ، حيث ثبت عنه ﷺ أنه قال : « أخوف ما أخاف عليكم الشرك الأصغر ، فَسُئِلَ عنه فقال : الرياء » [(١)] أن الإنسان يُرائي في عباداته : يصلي لأجل الناس ، يتصدق لأجل الناس ، يحسن الخلق لأجل الناس .. فهذا رياء والعياذ بالله والمراء حابط عمله ، والرياء من صفات المنافقين كما قال الله تبارك وتعالى ﴿ إِنَّ ٱلْمُنَٰفِقِينَ يُخَٰدِعُونَ ٱللَّهَ وَهُوَ خَٰدِعُهُمْ وَإِذَا قَامُوٓا۟ إِلَى ٱلصَّلَوٰةِ قَامُوا۟ كُسَالَىٰ يُرَآءُونَ ٱلنَّاسَ ﴾ [النساء: ١٤٢] واعلم أيها المرائي أن الله سيفضحك عن قرب ؛ لأن النبي ﷺ قال : « من راءى راءى الله به » [(٢)] يعني أظهر مُراءاته وعيوبه عند الناس ، ومن سَمَّعَ سمَّع الله به . ثم قال ﷺ : « إن يظهر وأنا فيكم فأنا حجيجه دونكم » : يعني لو خرج الدجال وأنا موجود فأنا أكفيكم إياه ، وإن يخرج يعني ولست فيكم فامرء حجيج نفسه يعني كل إنسان يحاج عن نفسه ، « والله خليفتي على كل مؤمن » فاستخلف ربه عز وجل أن يكون مؤيدًا للمؤمنين واقيًا لهم من فتن الدجال الذي ليس بين خلق آدم وقيام الساعة فتنة أشد منها نسأل الله أن يقينا وإياكم فتنته . والله الموفق .

وقد روى المؤلف رحمه الله تعالى عند سياق حديث النواس بن سمعان رضي الله عنه في ذكر الدجال : « إنه شاب قَطَطٌ عينه طافية » : شاب من بني آدم ، قطط : يعني مجتمع الخلق ، عينه طافية : يعني أنه لا يبصر بها كأنه عنبة طافية كما قال النبي ﷺ ، فهو أعور خبيث ، لكن الله عز وجل يرسله فتنة للناس فيأتي إليهم يدعوهم ويدعي أنه رب ، وقد مكن الله له ، فكان يأتي القوم يدعوهم فيستجيبون له ويؤمنون به ، فيأمر السماء فتمطر والأرض فتنبت ، يشاهدون ذلك بأعينهم ، يقول : أيتها السماء : أمطري ، فتمطر ، أيتها الأرض أنبتي ، فتنبت ، لكن ليس بقدرته وقوته بل بإرادة الله عز وجل لكن الله مكن له ابتلاء وامتحانًا ، « فيصبحون تروح عليهم سارحتهم » يعني الغنم والإبل أكثر ما يكون ذروعًا وأوفر ما تكون ذرى وأمدها خواصر ، تمتلئ بطونها ، وتمتلئ دروعها ، ويكون عليها الشحم ، ويأتي القوم فيدعوهم فلا يستجيبوا له ، فينصرف ، فيصبحون ممحلين ليس لهم من أموالهم شيء ، الأرض يبست ، والسماء لا تمطر والمال يمور ، ولكن هؤلاء هم الذين لهم الأجر والثواب ، وعاقبتهم حميدة ، أما الأولون الذين آمنوا به وأمطرت لهم السماء وأنبتت لهم الأرض ؛ فهم خاسرون وإن ظنوا أنهم رابحون ، ويأتي إلى

---

(١) أخرجه أحمد في مسنده (٥/٢٢٨) والهيثمي في مجمع الزوائد (٢/٢٠١) .

(٢) أخرجه مسلم في الزهد (٤٧) .

الخربة ، أرض خربة ما بها بناء وما بها أناس ، فيقول : أيتها الأرض أخرجي كنوزك ، فتخرج كنوزها وما بها من معادن : ذهبًا ، وفضة وغير ذلك « فتتبعه كيعاسيب النحل » ثم إنه يبقى في الأرض أربعين يومًا : اليوم الأول طوله طول سنة (٣٦٠) يومًا ، والثاني مقداره شهر (٣٠) يومًا ، والثالث مقداره أسبوع ، وباقي الأيام وهي سبعة وثلاثون يومًا كالأيام المعتادة ، ولكن اللَّه ﷻ نبه الصحابة ، قالوا : « يا رسول اللَّه هذا اليوم الذي كسنة تكفينا فيه صلاة واحدة ؟ » قال لهم : « لا ، اقدروا له قدره » يعني صلوا صلاة كاملة في يوم واحد ، وهذا ما يؤخذ به يقال : إنسان وجب عليه صلاة سنة كاملة في يوم واحد ، وأيضًا يقال : وجبت زكاة ماله في يوم واحد ، وأيضًا يقال : يصوم رمضان بعض يوم يعني جزءًا من اثني عشر جزءًا من هذا اليوم ، نقول : هذا يوم الدجال وسبحان اللَّه الحكيم الذي أكمل لنا الدين قبل موت سيد المرسلين ﷺ ، أنطق اللَّه الصحابة أن يسألوا عن هذا اليوم : هل تكفي فيه صلاة واحدة أم لا ، يوجد الآن في الأرض من يومهم ستة أشهر ، وليلهم ستة أشهر ، عند المدار القطبي ستة أشهر والشمس عليهم ، وستة أخرى والشمس لا يرونها . فكيف يصلي هؤلاء ... يصلون صلاة يوم وليل فقط أو يقدرون لها قدرها ؟ نقول : يقدرون لها قدرها كيوم الدجال تمامًا ، اليوم الثاني من أيام الدجال كشهر كيف تكون فيه الصلاة ؟ .. يصلون صلاة شهر ، واليوم الثالث يصلون صلاة أسبوع ، واليوم الرابع وما بقي كالعادي ، ثم سألوه الصحابة عن سيره في الأرض هل هو كالسير المعتاد كسير الإبل أو الأرجل ؟ قال : يسير كالغيث إذا سيرته الريح واللَّه أعلم ، كيف هذا الذي أخبر به النبي ﷺ أنه يكون كالغيث - أي المطر - سنة وشهر وأربعة وأربعون يومًا ثم ينزل عيسى ابن مريم ﵇ فيقتله .

ثم ساق المؤلف ﵀ في باب المنثورات والملح وأشرطة الساعة وغيرها حديث النواس بن سمعان ﵁ الذي حدث به عن النبي ﷺ عن شيء من أشرطة الساعة ومنها الدجال ، وسبق أن الدجال هو ذو الدجل والكذب والتمويه والتغرير وأنه كافر ، وأنه خارج بين الشام والعراق - يعني يخرج من طريق بين الشام والعراق - من قبل إيران ، ويتبعه من يهود أصفهان سبعون ألفًا ، وكأنهم - واللَّه أعلم - يجتمعون هناك ليتبعوا الدجال ؛ لأن اليهود أهل دجل وكذب وغدر وخيانة .

ثم ذكر من فتنته : أنه يأتيه شاب ممتلئ شبابًا ، من المسلمين فيقول له : أشهد أنك الدجال الذي أخبرنا عنه النبي ﷺ ، فيقطعه نصفين بالسيف ، واحدة بعيدة عن الأخرى ، ثم يدعوه بعد أن قطعه - يا فلان فيجتمع النصفين ببعضهم البعض ، ويقوم ويقبل على الدجال يتهلل وجهه وكأنه لم يفعل شيئًا ، ثم يقول له : واللَّه أشهد أنك أنت المسيح الدجال ، واللَّه ما ازددت فيك إلا بصيرة ، فيقتله للمرة الثانية ويقطعه نصفين ثم يدعوه فيأتي ووجهه يتهلل ، ثم يأتي الثالثة فيعجز أن يقتله ، هكذا من فتنة الدجال والإنسان إذا رأى هذا يغتر بلا شك ، ثم إن اللَّه تعالى ينزل عيسى ابن مريم رسول اللَّه ﷺ ينزل يداه على أجنحة ملكين ؛ لأن الملائكة أولو أجنحة ، ينزلان من السماء ، لأن عيسى الآن حي في السماء ، ينزل عند قيام الساعة ليقتل الدجال ، وكأنه - واللَّه أعلم - قد اغتسل بماء طيب ، إذا طأطأ رأسه قطر ماء ، وإذا رفعه تحدر منه مثل الجمان ، ويحتمل أن هذا ماء ، ويحتمل

أنه عرق ، والله أعلم . ثم إنه يطلبه أي يطلب الدجال الخبيث الماكر الأعور فلا يحل لكافر يجد نفس عيسى إلا مات – سبحان الله – ونفسه ينتهي حيث ينتهي طرفه ، وهذا أيضًا من آيات الله ، يعني أنفاسنا نحن لا تعدو إلا شِبرًا أو نحوه ، لكن نفس عيسى ينتهي حيث ينتهي طرفه ، ومعنى ذلك : أنه يقتل أناسًا كثيرين من الكفار ، لأن هذا النفس يطير في الهواء ، ولا يحل لكافر يجد نَفَسه إلا مات ، ينزل عند المنارة البيضاء شرقي دمشق هكذا وصفه النبي ﷺ ، وهي لابد أن توجد عند نزوله ، فيبلغ الدجال فيطلبه فيدركه عند باب لد وهي الآن مثل الطين استعمرها اليهود عليهم لعائن الله إلى يوم القيامة استعمروها ، يدرك عيسى عليه السلام المسيحَ الدجال فيقتله هناك ، وبهذا انتهى المسيح الدجال ، وبقى المسيح رسول الله عيسى عليه السلام والله الموفق .

ثم يأتي عيسى ابن مريم قوم قد عصمهم الله عز وجل من فتنة الدجال ، فيمسح على وجوههم ويبشرهم بمنازلهم في الجنة ، فبينما هم كذلك – يعني على حالهم – إذا أوحى الله عز وجل إلى عيسى أني قد أخرجت عبادًا لي لا يدان لأحد بقتالهم ، وهؤلاء العباد ليسوا عبادَ دين بل عباد قدر . ﴿ إِن كُلُّ مَن فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ إِلَّآ ءَاتِي ٱلرَّحْمَٰنِ عَبْدًا ﴾ [مريم : ٩٣] هؤلاء العباد هم يأجوج ومأجوج من كل حدب ينسلون – أي من كل مكان مرتفع ينسلون – لأن الشعاب والأودية لا تسعهم فتجدهم يصعدون الجبال لينزلوا إلى الأرض من كثرتهم ، هؤلاء من بني آدم ليسو جنًّا ولا جنسًا ثالثًا بل هم من بنى آدم ، ودليل ذلك : أن النبي ﷺ قال : « إن الله تعالى يقول يوم القيامة : يا آدم . فيقول لبيك وسعديك ، فيقول الله له : « أخرج من ذريتك بعثًا إلى النار » – أو قال بعث النار – قال : « يارب وما بعث النار ؟ » قال : « من كل ألف تسعمائة وتسعًا وتسعين من بني آدم » كل هؤلاء في النار إلا واحدًا في الألف من بنى آدم من أهل الجنة – فكبر ذلك على الصحابة وعظم عليهم ، وقالوا : يا رسول الله أينا ذلك الواحد ؟ قال لهم ﷺ : أبشروا ؟ فإنكم في أمتين ما كانتا في شيء إلا كثرتاه : يأجوج ومأجوج ، منكم واحد ومنهم ألفًا ، فاستبشر الصحابة لذلك ، ثم قال : « إني لأرجو أن تكونوا ربع أهل الجنة » فكبر الصحابة فرحًا بنعمة الله عز وجل ثم قال : « أرجو أن تكونوا شطر أهل الجنة » فكبروا وفرحوا ، ثم قال : « أرجو أن تكونوا ثلثي أهل الجنة [1] » وهذه الثالثة عندي فيها شك ، لكن قد ورد عن النبي ﷺ أن أهل الجنة مائة وعشرون صنفًا منهم ثمانون من هذه الأمة . المهم : أن يأجوج ومأجوج من بني آدم ، شكلهم شكل بني آدم لا يختلفون عنهم . أما ما ورد في بعض الآثار : أن منهم القصير المفرط من القصر ، والطويل المفرط في الطول ، وأن بعضهم يفترش إحدى أذنيه ويلتحف بالأخرى كل هذا لا صحة له ، هم من بني آدم ومثلهم ، لكنهم أمم عظيمة كما قال تعالى : ﴿ وَهُم مِّن كُلِّ حَدَبٍ يَنسِلُونَ ﴾ أي من كل مرتفع ؛ لأن الأرض السهلة لا تسعهم من كثرتهم ، ﴿ يَنسِلُونَ ﴾ أي يسرعون كأنهم مسلطون على بني آدم ، فيقول عز وجل لعيسى : إني قد بعثت عبادًا لا يدان لأحد بقاتلهم – يعنى ما لأحد على قتالهم من قوة « فحرز عبادي إلى الطور » يعنى احتزوا فيه – والطور جبل معروف ، فيصعد عيسى عليه السلام ومن معه إليه

(١) انظر الحديث بلفظه في أحمد في مسنده (٤٤١/٤) والهيثمي في مجمع الزوائد (٣٩٣/١٠) .

حتى إنهم يلحقهم من الجوع وشدة المؤنة ما يكون رأس الثور أحب إلى أحدهم من كذا وكذا من الدنانير ، وحينئذٍ يرغب عيسى وقومه إلى الله ﷻ يدعون الله تعالى أن يصرف عنهم هذه الأمم التي حاصرتهم في هذا الجبل ، فيرسل الله تعالى النغف ، وهو عباره عن دودة في أعناقهم فيصبحون فرسى - جمع فريسة يعني موتى - كنفس واحدة كل هذه الأمم التي لا يحصيها إلا الله تموت في ليلة واحدة ؛ لأن الأمر بيد الله ﷻ هذا النغف من حين ما يدخل في أعناقهم يموتون على الفور ، ثم ينزل عيسى ابن مريم وقومه إلى الأرض وإذا الأرض مملوءة من هذه الجثث نتنًا ورائحة خبيثة ، فيرغب عيسى وقومه إلى الله ﷻ أن ينقذهم من هذا ، فيرسل الله تعالى طيورًا كأعناق البخت - يعني مثل أعناق الإبل - طيورًا كبيرة قوية تأخذ الواحد منهم وتلقيه في البحر ، ومعنى هذا أنها طيور عظيمة لا يعلمها إلا الله ﷻ كل هذا بقدرة الله ﷻ ؛ لأن أمره إذا أراد شيئًا أن يقول له : كن ، فيكون ، لكن كما تعلمون لابد أن يبقى في الأرض شيء من القذر والأذى والرائحة بعد هذه الجثث فيرسل الله تعالى مطرًا عظيمًا يغسل الأرض لا يُكَنُّ منه مدر ولا وبر ، كل الأرض تمتلئ ماء حتى تكون كالزلقة تنظف تنظيفًا تامًا بإذن الله ﷻ ، ويأمر الله الأرض أن تخرج بركاتها وثمراتها ، فيكون فيها الثمرات العظيمة ؟ والخير والبركة حتى إن اللقحة من الإبل لتكفي فئامًا من الناس ، ومن البقر تكفي القبيلة من الناس ، ومن الغنم تكفي الفخذ من الناس ، وهي واحدة لكن الله ينزل فيها البركة فتكفي أممًا ، و تكثر الخيرات والبركات ، وكل هذا يدل على عظمة وقدرة الله ﷻ ﴿فَإِنَّ مَعَ ٱلْعُسْرِ يُسْرًا ۝ إِنَّ مَعَ ٱلْعُسْرِ يُسْرًا﴾ [الشرح : ٦، ٧] بدلًا من حصرتهم في الطور لا يجدون شيئًا ، إذا بالأرض تنبت وتكثر فيها البركة والثمار .. وغير ذلك ، كل هذا بأمر الله ﷻ . والله الموفق .

* * *

١٨٠٩ - وَعَنْ رِبْعِيِّ بْن حِرَاشٍ قَالَ : انْطَلَقْتُ مَعَ أَبِي مَسْعُودٍ الأَنْصَارِيِّ إلى حُذَيْفَةَ بْنِ الْيَمَانِ ﷺ فَقَالَ لَهُ أَبُو مسعودٍ : حَدِّثْني مَا سَمعْتَ مِنْ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ في الدَّجَّالِ قَالَ : « إِنَّ الدَّجَّالَ يَخْرُجُ ، وَإِنَّ مَعَهُ ماء وَنَارًا ، فَأَمَّا الَّذي يَرَاهُ النَّاسُ مَاءً فَنَارٌ تُحْرِقُ ، وَأَمَّا الَّذي يَرَاهُ النَّاسُ نَارًا ، فَمَاءٌ بَارِدٌ عَذْبٌ ، فَمَنْ أَدْرَكَهُ منْكُمْ ، فَلْيَقَعْ في الَّذِي يَرَاهُ نَارًا ؛ فَإِنَّهُ ماءٌ عَذْبٌ طَيِّبٌ » فَقَالَ أَبُو مَسْعُودٍ : وَأَنَا قَدْ سَمِعْتُهُ (١) . متَّفَقٌ عَلَيهِ .

١٨١٠ - وعَنْ عَبْدِ اللَّهِ بنِ عَمْرو بنِ العاص ﷺ قالَ : قالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ : « يَخْرُجُ الدَّجَّالُ في أُمَّتي فَيَمْكُثُ أَرْبَعِينَ لا أَدْري أَرْبَعِينَ يَومًا ، أو أَرْبَعِينَ شَهْرًا ، أَو أَرْبَعِينَ عَامًا ، فَيَبْعَثُ اللَّهُ تَعَالى عِيسَى ابْنَ مَرْيَمَ ﷺ فَيَطْلُبُهُ فَيُهْلِكُهُ ، ثُمَّ يَمْكُثُ النَّاسُ سَبْعَ سِنِينَ لَيسَ بَينَ اثْنَينِ عَدَاوَةٌ ، ثُمَّ يُرسِلُ اللَّهُ ﷻ ، رِيحًا بَارِدَةً مِنْ قِبَلِ الشَّام ، فَلا يَبْقَى عَلَى وَجْهِ الأَرْضِ أَحَدٌ في قَلْبِهِ مِثْقَالُ ذَرَّةٍ مِنْ خَيرٍ أو إِيمَانٍ إِلَّا قَبَضَتْهُ ، حَتَّى لَو أَنَّ أَحَدَكُم دَخَلَ في كَبِدِ جَبَلٍ ، لَدَخلَتْهُ عَلَيهِ حَتَّى تَقْبضَهُ ، فَيَبْقَى شِرارُ النَّاس في

---

(١) أخرجه البخاري في الفتن (٧١٣٠) ، ومسلم في الفتن وأشراط الساعة (١٠٥ ، ١٠٦) .

خِفَّةِ الطَّير ، وأَحْلام السِّبَاعِ لا يَعْرِفُونَ مَعْرُوفًا ، وَلا يُنْكِرُونَ مُنْكَرًا ، فَيَتَمَثَّلُ لَهُمُ الشيطَانُ ، فَيَقُولُ : أَلا تَسْتَجِيبُونَ ؟ فَيَقُولُونَ : فَمَا تَأْمُرُنا ؟ فَيَأْمُرُهُمْ بِعِبَادةِ الأوثَانِ ، وَهُمْ في ذلكَ دَارٌّ رِزقُهُمْ ، حَسَنٌ عَيشُهُمْ ، ثُمَّ يُنْفَخُ في الصُّورِ ، فَلا يَسْمَعُهُ أَحَدٌ إلَّا أَصْغَى لِيتًا وَرَفَعَ لِيتًا ، وَأَوَّلُ مَنْ يَسْمَعُهُ رَجُلٌ يَلُوطُ حَوضَ إبله فَيُصْعَقُ ويُصْعَقُ النَّاسُ ، ثُمَّ يُرسِلُ اللَّه - أو قالَ : يُنْزِلُ اللَّهُ - مَطَرًا كأَنَّهُ الطَّلُّ أَوِ الظِّلُّ ، فَتَنْبُتُ مِنْهُ أَجْسَادُ النَّاسِ، ثُمَّ يُنْفَخُ فِيهِ أُخرَى ، فَإذا هم قِيامٌ يَنْظُرونَ ، ثُمَّ يُقَالُ : يا أَيُّها النَّاسُ هَلُمَّ إلى رَبِّكُمْ ﴿ وَقِفُوهُمْ إِنَّهُم مَّسْئُولُونَ ﴾ ثُمَّ يُقالُ : أخرِجوا بَعْثَ النَّارِ ، فَيُقَالُ : مِنْ كَمْ ؟ فَيُقالُ : مِنْ كُلِّ أَلْفٍ تِسْعَمِائةٍ وَتِسْعَةً وتِسْعِينَ ، فذلكَ يومَ يَجْعَلُ الْوِلْدانَ شِيبًا ، وذلكَ يومَ يُكْشَفُ عَنْ سَاقٍ »[1] رواه مسلم .

« اللِّيتُ » صَفْحَةُ العُنُقِ ، وَمَعْنَاهُ : يَضَعُ صَفْحَةَ عُنُقِهِ وَيَرْفَعُ صَفْحَتهُ الأُخْرَى .

١٨١١ - وَعَنْ أنس ﷺ قَالَ : قَالَ رسُولُ اللَّهِ ﷺ : « لَيسَ مِنْ بَلَدٍ إلَّا سَيَطَؤُهُ الدَّجَّالُ ، إلَّا مَكَّةَ وَالمَدِينَةَ ؛ وَلَيسَ نَقْبٌ مِنْ أَنْقَابِهَا إلَّا عَلَيهِ الملائِكَةُ صَافِّينَ تَحْرُسُهُمَا ، فَيَنْزِلُ بالسَّبَخَةِ ، فَتَرْجُفُ المَدِينَةُ ثَلاثَ رَجَفَاتٍ ، يُخْرِجُ اللَّهُ مِنْهَا كُلَّ كَافِرٍ وَمُنَافِقٍ »[2] رواه مسلم .

١٥١٢ - وعَنْهُ ﷺ أَنَّ رَسُولَ اللَّه ﷺ قَالَ : « يَتْبَعُ الدَّجَّالَ مِنْ يَهُودِ أَصْبَهَانَ سَبْعُونَ أَلْفًا عَلَيهِمُ الطَّيَالِسَةُ »[3] رَوَاهُ مسلم .

١٨١٣ - وعَنْ أُمِّ شَرِيكٍ ﷺ أَنَّها سَمِعَتِ النبيَّ ﷺ يَقُولُ : « لَيَنْفِرَنَّ النَّاسُ مِنَ الدَّجَّالِ في الجِبَالِ »[4] رَوَاهُ مُسْلِمٌ .

١٨١٤ - وَعَنْ عِمْرانَ بن حُصَين ﷺ قالَ : سَمِعْتُ رَسولَ اللَّه ﷺ يَقُولُ : « مَا بَينَ خَلْقِ آدَمَ إلى قِيَامِ السَّاعَةِ أَمْرٌ أَكْبَرُ مِنَ الدَّجَّالِ »[5] رواه مسلم .

١٨١٥ - وَعَنْ أبي سَعِيدٍ الخُدْرِيِّ ﷺ عن النَّبيِّ ﷺ قَالَ : « يَخْرُجُ الدَّجَّالُ فَيَتَوجَّهُ قِبَلَه رَجُلٌ مِنَ

---

(١) أخرجه مسلم في الفتن وأشراط الساعة (١١٦) والإمام أحمد في المسند (١٦٦/٢) والحاكم في المستدرك (٥٥/٤) قوله « في كبد جبل » أي في وسطه وداخله ، قوله « في خفه الطير وأحلام السباع » أي أنهم يكونون في سرعتهم إلى الشرور وقضاء الشهوات والفساد كطيران الطيور . وفي العدوان وظلم بعضهم بعضًا في أخلاق السباع العادية ، قوله « يلوط حوض إبله » أي يطينه ويصلحه ، قوله « يكشف عن ساق » أي يكشف عن هول عظيم .

(٢) أخرجه مسلم في الفتن وأشراط الساعة (١٢٣) والبخاري في فضائل المدينة (١٨٨١) بنحوه . قوله « نقب » أي خرق . قوله « السبخة » هي الأرض الرملة التي لا تنبت لملوحتها ، وهذه الصفة خارج المدينة من غير الحرة ، قوله « فترجف » أي تهتز .

(٣) أخرجه مسلم في الفتن وأشراط الساعة (١٢٤) قوله « عليهم الطيالسة » هو ثوب يلبس على الكتف يحيط بالبدن ينسج للبس ، خال من التفصيل والخياطة .

(٤) أخرجه مسلم في الفتن وأشراط الساعة (١٢٥) وأحمد في مسنده (٤٦٢/٢) . قوله « لينفرن الناس » يقصد بهم المؤمنين .

(٥) أخرجه مسلم في الفتن وأشراط الساعة (١٢٦) وأحمد في مسنده (١٩/٤) والحاكم في المستدرك (٥٢٨/٤) .

المؤمنينَ فيَتلَقَّاهُ المَسالِحُ : مَسالِحُ الدَّجّال ، فيَقولونَ له : إلى أينَ تعمِدُ ؟ فيَقول : أَعْمِدُ إلى هذا الَّذي خَرَجَ ، فيقولونَ له : أَوَ مَا تُؤمِن بربِّنا ؟ فيقول : ما بِرَبِّنَا خَفاءٌ ! فيقولُونَ : اقْتُلُوهُ ، فيقُول بَعضُهُمْ لبَعضٍ : أَليسَ قَدْ نَهاكُمْ رَبُّكُمْ أنْ تَقتلوا أحَدًا دونَه ، فيَنْطَلِقُونَ بِهِ إلى الدَّجّالِ ، فَإذا رآه المُؤمِنُ قالَ : يا أَيُّهَا النَّاسُ إنَّ هذا الدَّجّالُ الذي ذَكرَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ ؛ فيَأمُرُ الدَّجّالُ بهِ فيُشَبَّحُ : فيقولُ : خُذُوهُ وَشُجُّوهُ ، فيُوسَعُ ظَهْرُهُ وَبَطْنُهُ ضَرْبًا ، فيقولُ : أوَمَا تُؤمِنُ بي ؟ فيَقولُ : أَنت المَسيحُ الْكَذَّابُ ! فيُؤْمَرُ بِهِ ، فيُؤْشَرُ بالمِنْشَارِ مِنْ مَفرِقِه حتَّى يُفْرَقَ بَينَ رِجلَيهِ ، ثُمَّ يَمْشِي الدَّجّالُ بَينَ الْقِطعَتَينِ ، ثُمَّ يقولُ لَهُ : قُمْ ، فَيَسْتَوي قَائمًا ، ثُمَّ يقولُ لَهُ : أَتُؤمِنُ بي ؟ فيقولُ : مَا ازْدَدْتُ فِيكَ إلاَّ بَصِيرَةً . ثُمَّ يَقُولُ : يَا أَيُّهَا النَّاسُ إنَّهُ لا يَفْعَلُ بَعْدِي بأحَدٍ مِنَ النَّاسِ ، فيَأْخُذُهُ الدَّجّالُ لِيَذْبَحَهُ ، فيَجْعَلُ اللَّهُ مَا بَينَ رَقَبَتِهِ إلى تَرْقُوَتِهِ نُحَاسًا ، فَلا يَسْتَطِيعُ إلَيهِ سَبِيلًا ، فيَأْخُذُ بيَدَيهِ وَرِجلَيه فيَقذِفُ بِهِ ، فيَحْسَبُ النَّاسُ أنَّما قَذَفَهُ إلى النَّار ، وإنَّما أُلْقِيَ في الجَنَّةِ » فقالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ : « هذا أعْظَمُ النَّاسِ شَهادَةً عِنْدَ رَبِّ الْعَالَمِينَ » [١] رواه مسلم . وروى البخاريُّ بَعْضَهُ بمَعْنَاهُ . « المَسَالِحُ » : هُمُ الخُفَرَاءُ وَالطلائِعُ .

١٨١٦ – وعَنِ المُغِيرَةِ بنِ شُعْبَةَ رضي الله عنه قالَ : ما سَأَلَ أَحدٌ رَسُول اللَّهِ ﷺ عَنِ الدَّجّال أَكْثَرَ مِمَّا سأَلْتُهُ ؛ وَإنَّهُ قالَ لي : « مَا يَضُرُّكَ ؟ » قلتُ : إنهُمْ يَقُولُونَ : إنَّ مَعَهُ جَبَلَ خُبْزٍ ، وَنَهرَ مَاءٍ ! قالَ : « هُوَ أَهْوَنُ عَلى اللَّهِ مِنْ ذلكَ » [٢] متفقٌ عليه .

١٨١٧ – وعَنْ أنَسٍ رضي الله عنه قَالَ : قالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ : « مَا مِنْ نَبيٍّ إلَّا وَقَدْ أنذَرَ أُمَّتَهُ الأَعْوَرَ الْكَذَّابَ ، ألا إنَّهُ أعْوَرُ ، وَإنَّ رَبَّكُمْ عز وجل لَيسَ بأعْوَرَ ، مَكتوبٌ بَينَ عَينَيهِ ك ف ر » [٣] متفقٌ عليه .

١٨١٨ – وَعَنْ أبي هُرَيرَةَ رضي الله عنه قالَ : قالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ : « أَلا أُحَدِّثُكُمْ حَدِيثًا عن الدَّجّال مَا حَدَّثَ بِهِ نَبيٌّ قَومَهُ ! إنَّهُ أَعْوَرُ ، وَإنَّهُ يَجيءُ مَعَهُ بِمِثالِ الجَنَّةِ والنَّار ، فالَّتي يَقُولُ إنَّهَا الجَنَّةُ هِيَ النَّارُ » [٤] متفقٌ عليه .

---

(١) أخرجه مسلم في الفتن وأشراط الساعة (١١٣) قوله « فيشبح » أي يمد على بطنه . قوله « شجوه » أي اجرحوه في رأسه ، قوله « مفرقة » أي وسط رأسه . قوله « ترقوته » هي العظم الذي بين ثغر النحر والعاتق .

(٢) أخرجه البخاري في الفتن (٧١٢٢) ومسلم في الفتن وأشراط الساعة (١١٥) والإمام أحمد في المسند (٢٥٢/٤) . قوله « هو أهون على اللَّه من ذلك » أي هو أهون على اللَّه من أن يجعل ما خلقه اللَّه تعالى على يده مضلًا للمؤمنين ومشككًا لقلوبهم ؛ بل إنما جعله ؛ ليزداد الذين آمنوا إيمانًا ، وتثبت الحجة على الكافرين والمنافقين ونحوهم .

(٣) أخرجه البخاري في الفتن (٧١٣١) ومسلم في الفتن وأشراط الساعة (١٠١) والإمام أحمد في المسند (١٧٣/٣) والترمذي في الفتن (٢٢٤٥) .

قوله « مكتوب بين عينيه ك ف ر » الصحيح الذي عليه العلماء أن هذه الكتابة على ظاهرها ، وأنها كتابة حقيقية جعلها اللَّه آية وعلامة من جملة العلامات القاطعة بكفره وكذبه ، وهذه الكتابة يظهرها اللَّه تعالى لكل مسلم كاتب أو غير كاتب ، ويخفيها عمن أراد شقاوته وفتنته .

(٤) أخرجه البخاري في أحاديث الأنبياء (٣٣٣٨) ومسلم في الفتن وأشراط الساعة (١٠٩) .

١٨١٩ - وعَن ابنِ عُمَر رضي الله عنهما أنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ ذَكَرَ الدَّجَّالَ بَينَ ظَهْرَاني النَّاس فَقَالَ : « إنَّ اللَّهَ لَيسَ بِأعْوَر ، ألَا إنَّ المَسِيحَ الدَّجَّالَ أعْوَرُ العَينِ اليُمْنى ، كَأَنَّ عَينَهُ عِنَبَةٌ طَافِيَةٌ »(١) متفقٌ عليه .

الشرح

هذه الأحاديث الكثيرة التي ساقها المؤلف رحمه اللَّه تعالى في بيان الدجال هي جديرة بأن تساق وتذكر ، لأن النبي ﷺ يقول : « ما بين خلق آدم وقيام الساعة أمر أكبر من الدجال »(٢) ولذلك ما من نبي من الأنبياء إلا أنذر قومه مع أنه لا يأتي إلا في آخر الزمان ، واللَّه عز وجل يعلم أن محمدًا خاتم الأنبياء ومع ذلك أنذر به الأنبياء السابقون ، والحكمة من هذا التنويه بفتنته وبيانها وأنها عظيمة وإن كان لن يأتي إلا في آخر الدنيا ففتنته عظيمة ، وبين النبي ﷺ أن الدجال يدخل كل بلد يدعو الناس والعياذ باللَّه لعبادته ، إلا مكة والمدينة فإنه لا يدخلهما ؛ لأن عليهما الملائكة على كل باب منهما يذودون عنهما ، وأخبر النبي ﷺ أنه يتبعه من يهود أصفهان سبعون ألفًا عليهم الطيالسة وهو نوع رفيع من الثياب . المعنى : أنه يتبعه من أصفهان ، وهي معروفة من مدن إيران يتبعه منها سبعون ألفًا ، وأخبر النبي ﷺ أنه أعور وأن الرب عز وجل ليس بأعور ؛ لأن العَوَرَ نقص واللَّه عز وجل منزه عن كل نقص ، واستدل أهل السنة والجماعة من هذا الحديث على أن ربنا جل وعلا له عينان لكنهما لا تشبهان أعين المخلوقين ، لقوله تعالى ﴿ لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ وَهُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ ﴾ [الشورى : ١١] .

وذكر أيضًا في هذه الأحاديث : أن رجلًا شابًّا مسلمًا يخرج إذا سمع به ليبين للناس كذبه فيتلقاه حرس الدجال المتسلحون ويقولون : أين تريد ، يقول : أريد الرجل الذي خرج ، فيأخذونه ويقولون : أتؤمن بربنا ؟ فيقول : لا ، إنه الدجال ، فيريدون أن يقتلوه ، ولكن بعضهم يقول لبعض : أليس قال ربنا لاتقتلوا أحدًا دوني ؟ فيتركونه ، ثم يأتون به إلى الدجال فيشهد هذا الرجل المسلم أنه هو الدجال الذي أخبر به النبيُّ ﷺ فيغضب عليه ، ويأمر بالمنشار فينشر من رأسه إلى ما بين رجليه طولًا كما جاء في الحديث السابق ويمشي بينهما ، ثم يدعوه فيخرج ويقوم يتهلل وهو يقول : « واللَّه ما ازددت فيك إلا بصيرة » يفعل هذا مرتين أو ثلاثة ، ثم يريد أن يقتله ويعجز ، يجعل اللَّه تعالى هذا الرجل حديدًا لا يستطيع أن يقتله ، وهذا إما يكون حديدًا حقًّا واللَّه على كل شيء قدير ، وإما أن يكون صلبًا لا تنفذ فيه السيوف ، هذه كلها صفات الدجال .

ومنها أيضًا : أن الرسول ﷺ ذكر أن معه نارًا وجنة ، ولكن ناره جنة وجنته نار ، ولما سأل أبو هريرة رضي الله عنه إنهم يقولون : إن معه جبل من خبز ، قال : إنه أهون على اللَّه من ذلك ؛ يعني حتى لو كان معه هذا الشيء ؛ فإنه أهون على اللَّه ، أو أن المعنى أنه لا يكون معه هذا لكنه مموه .

---

(١) أخرجه البخاري في الفتن (٧١٢٧) ومسلم في الفتن وأشراط الساعة (١٠٠) والإمام أحمد في المسند (٣٧/٢) . قوله « طائفة » أي بارزة مرتفعة .

(٢) أخرجه مسلم في الفتن (١٢٦ ، ١٢٧) وأحمد في مسنده (١٩/٤) .

وعلى كل حال فإننا نؤمن أنه يكون في آخر الزمان رجل يخرج يسمى الدجال من أوصافه ما ذكر في هذا الباب وغيره . ونستعيذ بالله منه في كل صلاة ، أمرنا النبي ﷺ بعد التشهد الأخير من كل صلاة ، أن نستعيذ منه ، ومن فتنة المحيا والممات ، ومن عذاب القبر ، ومن عذاب النار (١) .

* * *

١٨٢٠ – وعَنْ أبي هُرَيرَةَ ﷺ أنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ قَالَ : « لا تَقُومُ السَّاعَةُ حَتَّى يُقَاتِلَ المُسْلِمُونَ الْيَهُودَ ، حَتَّى يَخْتَبِئَ الْيهودي مِنْ وَرَاءِ الحَجَر وَالشَّجَر ، فَيَقُولُ الحَجَرُ والشَّجَرُ : يَا مُسْلِمُ هَذا يَهُودي خَلْفِي تَعَالَ فَاقْتُلْهُ ، إلا الْغَرْقَدَ ؛ فَإِنَّهُ مِنْ شَجَرِ الْيَهُودِ » (٢) متفقٌ عليه .

١٨٢١ – وَعَنْه ﷺ قال : قالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ : « والذِي نَفْسي بِيَدِهِ لا تَذْهَبُ الدُّنْيا حَتَّى يَمُرَّ الرَّجُلُ بِالْقَبْر ، فَيَتَمَرَّغُ عَلَيهِ ، ويقولُ : يَالَيتَني مَكَانَ صَاحِب هذا القبر ، وَلَيس بِهِ الدِّينُ ، مَا بِهِ إِلَّا الْبلاء » (٣) . متفق عليه .

١٨٢٢ – وعَنْهُ ﷺ قالَ : قالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ : « لا تَقُومُ السَّاعَةُ حَتَّى يَحْسِرَ الْفُرَاتُ عَنْ جَبَلٍ مِنْ ذَهَب يُقْتَتَلُ عَلَيهِ ، فَيُقْتَلُ مِنْ كُل مائةٍ تسْعَةٌ وَتِسْعُونَ ، فَيَقُول كُلُّ رَجُلٍ مِنْهُمْ : لَعَلِّي أَنْ أَكُونَ أَنَا أَنْجُو » .

وفي روايةٍ : « يُوشِكُ أَنْ يَحْسِرَ الفُراتُ عَنْ كَنْزٍ مِنْ ذَهَبٍ ، فَمَنْ حَضَرَهُ فَلا يَأْخُذْ مِنْهُ شَيْئًا » (٤) متفق عليه .

الشرح

ذكر المؤلف رحمه الله فيما ذكره من أشراط الساعة ما نقله عن أبي هريرة ﷺ : « أنه لا تقوم الساعة حتى يقتتل المسلون واليهود » . المسلمون بعد بعثة الرسول ﷺ هم أتباع الرسول محمد ﷺ ، وأما قبل ذلك : فالمسلم من اتبع الشريعة القائمة ، فقوم موسى – بعهد موسى – مسلمون ، والنصارى – في عهد عيسى – مسلمون ، ومن آمن من قوم نوح مسلمون ... وهكذا كل من كان مؤمنًا برسول قائمة رسالته فهو مسلم ، لكن بعد بعثة الرسول محمد ﷺ ليس مسلمًا إلا من آمن به ﷺ ، وإلا فلا يخفاكم أن الحواريين قالوا : ﴿ نَحْنُ أَنصَارُ ٱللَّهِ ﴾ [الصف : ١٤] ، وأن ملكة سبأ ، قالت : ﴿ إِنِّي ظَلَمْتُ نَفْسِي وَأَسْلَمْتُ مَعَ سُلَيْمَٰنَ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴾ [النحل : ٤٤] وغير ذلك مما هو معروف .

---

(١) انظر الحديث في البخاري في الدعوات (٦٣٧٧) ومسلم في المساجد ومواضع الصلاة (١٢٩) والنسائي في السنن (٢٦٦/٨) وأبو داود في الصلاة (٨٧٤) وأحمد في مسنده (٣٠٥/١) .

(٢) أخرجه البخاري في الجهاد والسير (٢٩٢٦) ومسلم في الفتن وأشراط الساعة (٨٢) وأحمد في مسنده (٤١٧/٢) .

(٣) أخرجه مسلم في الفتن وأشراط الساعة (٥٤) بلفظه ، والبخاري في الفتن (٧١١٥) بنحوه . قوله « وليس به الدين ، مابه إلا البلاء » أي أن الحامل له على التمني ليس الدين ، بل هو البلاء وكثرة المحن والفتن وسائر البلايا .

(٤) أخرجه البخاري في الفتن (٧١١٩) ومسلم في الفتن وأشراط الساعة (٢٩) قوله « يحسر » أي ينكشف ؛ لذهاب مائه .

اليهود هم اتباع موسى سموا بذلك نسبة إلى جدهم يهوذا ، فهم ينتسبون إليه ، لكن مع التعريب صاروا (يهود) بالدال ، وهي أمة ملعونة غدارة ، خوانة ، مكارة ، واصفة لربها بالعيب والنقص ، قالوا - أي اليهود - : ﴿ يَدُ ٱللَّهِ مَغْلُولَةٌ ﴾ [المائدة : ٦٤] وقالوا : ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ فَقِيرٌ ﴾ [آل عمران : ١٨١] ، وقالوا : (إن اللَّه تعب حين خلق السموات والأرض فاستراح يوم السبت) . إلى غير ذلك مما وصفوا اللَّه تعالى به بالنقائص والعيوب ، أما الرسل فحدِّث ولا حرج : كفروا بالرسل ، وقتلوهم بغير حق ، وقتلوا المسيح عيسى ابن مريم بزعمهم ﴿ وَمَا قَتَلُوهُ وَمَا صَلَبُوهُ ﴾ فهم أخبث أمة من الأمم ، وهم قوم خونة غدارة لا يوفون بعهد ولا ذمة ولا يؤتمنون على شيء ، قبل يوم القيامة يقاتلون المسلمين ، وتأمل كلمة (المسلمين) يقتتل المسلمون واليهود فينصر المسلمون عليهم نصرًا عزيزًا ، حتى إن اليهودي يختبئ بالحجر وبالشجر فيقول الشجر والحجر - فينطق بأمر اللَّه الذي أنطق كل شيء - فيقولا : « يا مسلم هذا يهودي تحتي فاقتله » أحجار تنطق وأشجار ؟! لماذا ؟ لأن القتال بين المسلمين وبين اليهود ، أما بين العرب واليهود فهذا - واللَّه أعلم - من ينتصر ؛ لأن الذي يقاتل اليهود من أجل العروبة فقد قاتل حمية وعصبية ليس لله ﷻ ولا يمكن أن ينتصر ما دام قتاله من أجل العروبة لا من أجل الدين والإسلام إلا أن يشاء اللَّه ، لكن إذا قاتلناهم - أي اليهود - من أجل الإسلام ونحن على الإسلام حقيقة ؛ فإننا غالبون بإذن اللَّه .

حتى الأحجار والأشجار تتكلم لصالحنا وضد اليهود ، أما ما دامت المسألة عصبية وعروبة وما أشبه ذلك فلا ضمان للنصر أبدًا ، ولهذا لا يمكن أن يقوم للعرب قائمة على هذا الأساس ؛ أي أساس العروبة ، والدليل على هذا الواقع ، فقد طحنوا وخبزوا عليها ولم تستفد شيئًا ، بل بالعكس صارت النكبات العظيمة من اليهود على العرب شيئًا عظيمًا . احتلوا ديارهم وحاصروهم وآذوهم ، لكن لو كان القتال من أجل الإسلام وباسم المسلمين ما قامت لليهود قائمة ، لكن من جهل العرب صاروا يقاتلون اليهود من أجل العروبة . ولذلك لم يُنصروا عليهم حتى الآن ، الانتصار على اليهود حقيقة في الإسلام لا غيب ، ولن تقوم الساعة حتى يحصل ما أخبر به الصادق المصدوق رسول اللَّه ﷺ ؛ يقاتل المسلمون اليهود فيقتلهم المسلمون وينتصرون عليهم ، وينادي الحجر والشجر الذي ليس من عادته أن ينطق : « يا مسلم هذا يهودي فاقتله » .

كذلك أيضًا من أشراط الساعة والذي لابد أن يكون : أن الفرات وهو النهر المعروف في شرقي أقصى الجزيرة يحسر عن ذهب - جبل من ذهب أو كنز من ذهب - تحسر بمعنى أن الذهب يخرج جبلًا والذهب معروف :

رأيتُ النَّاسَ قَدْ ذَهَبُوا إلَى مَنْ عِنْدَهُ ذَهَبُ

فالذهب يسلب العقول ، سوف يحسر هذا الماء - النهر الجاري - عن جبل من ذهب ، سبحان اللَّه ! كل إنسان يقاتل غيره لأجل أن يحصل على البترول وصاروا يسمونه الذهب الأسود ، فاللَّه أعلم بما أراد رسول اللَّه ، لكننا إلى الآن لا نعرف الذهب إلا أنه ذلك المعدن الأصفر المعروف فنبقى على ما هو عليه ، ووراءنا أجيال ، فالدنيا لم تنته بعد حتى نوقف الحديث على الواقع الذي نحن فيه ، بل ننتظر ما أخبر به

الصادق المصدوق ولا بد أن يقع ويقتتل الناس عليه وهذا من أشراط الساعة لكنه لم يأت بعد . واللّه الموفق .

* * *

١٨٢٣ - وعَنْهُ قالَ : سَمِعْتُ رَسُول اللّه ﷺ يَقُولُ : « يَتْرُكُونَ المَدِينَة عَلى خَيرِ مَا كَانَتْ ، لا يَغْشَاهَا إلَّا الْعَوَافي - يُرِيدُ : عَوَافِي السِّباعِ والطَّيرِ - وَآخِرُ مَنْ يُحْشَرُ رَاعِيَانِ مِنْ مُزَينَة يُرِيدَانِ المَدِينَةَ يَنْعِقَانِ بِغَنَمِهِمَا فَيَجِدَانِها وُحُوشًا ، حَتَّى إذا بَلَغَا ثَنِيَّةَ الْوَدَاعِ خَرَّا عَلى وُجُوهِهِمَا »[١] متفق عليه .

١٨٢٤ - وعَنْ أَبِي سَعِيدٍ الخُدْرِيِّ رضي الله عنه أنَّ النَّبيَّ ﷺ قَالَ : « يَكُون خَلِيفَةٌ مِنْ خُلَفَائِكُمْ في آخِرِ الزَّمَانِ يَحْثُو المَالَ وَلا يَعُدُّهُ »[٢] رواه مسلم .

١٨٢٥ - وَعَنْ أبي مُوسى الأَشْعَرِيِّ رضي الله عنه أنَّ النَّبي ﷺ قال : « لَيَأْتِيَنَّ عَلى النَّاس زَمَانٌ يَطوفُ الرَّجُلُ فِيهِ بالصَّدقَةِ مِنَ الذهبِ ، فَلا يَجدُ أحدًا يَأْخُذُهَا مِنْهُ ، وَيُرَى الرَّجُلُ الْوَاحِدُ يَتْبَعُهُ أَرْبَعُونَ امْرَأَةً يَلُذْن بِهِ مِنْ قلَّةِ الرِّجالِ وَكَثرةِ النِّسَاءِ »[٣] رواه مسلم .

١٨٢٦ - وعَنْ أبي هُرَيرَةَ رضي الله عنه عَن النَّبيِّ ﷺ قَالَ : « اشْتَرَى رَجُلٌ مِنْ رَجُلٍ عَقَارًا ، فَوَجَدَ الَّذي اشْتَرى الْعقَارَ في عَقَارِهِ جَرَّةً فِيهَا ذَهَبٌ ، فقالَ لَهُ الَّذِي اشْتَرى الْعَقَارَ : خُذْ ذَهَبَكَ ، إنَّمَا اشْتَرَيتُ مِنْكَ الأَرْضَ ، وَلَمْ أَشْتَرِ الذَّهَبَ ، وقالَ الَّذي لَهُ الأرضُ : إنَّما بعْتُكَ الأَرْض وَمَا فِيهَا ، فَتَحَاكَمَا إلى رَجُلٍ ، فقالَ الذي تَحَاكَمَا إلَيهِ : أَلَكُمَا وَلَدٌ ؟ قالَ أَحَدُهُمَا : لي غُلامٌ ، وقال الآخرُ : لي جَارِيةٌ ، قالَ : أَنْكِحَا الْغُلامَ الجَارِيَةَ وَأَنْفِقُوا على أَنْفُسِهمَا مِنْهُ وتَصدَّقَا »[٤] متفقٌ عليه .

١٨٢٧ - وعَنْهُ رضي الله عنه أَنَّهُ سَمِعَ رَسُولَ اللّهِ ﷺ يَقُولُ : « كانَت امْرَأَتَان مَعَهُمَا ابْناهُمَا ، جَاءَ الذِّئْبُ فَذَهَبَ بابْنِ إحْداهُمَا ، فقالتْ لصَاحِبَتِها : إنَّما ذَهَبَ بِابنك ، وقالت الأخرى : إنما ذهب بابنك ، فتحاكمَا إلى داود ﷺ فقضى به للْكُبْرَى ، فَخَرَجَتَا عَلى سُلَيمَانَ بن داودَ ﷺ ، فَأَخْبَرَتَاهُ . فقالَ : ائْتُوني بِالسِّكين أَشُقُّهُ بينَهُمَا . فقالت الصُّغْرَى : لا تَفْعَل، رَحِمَكَ اللّه، هُوَ ابْنُهَا . فَقَضَى بِهِ للصُّغْرَى »[٥] متفق عليه .

---

(١) أخرجه البخاري في فضائل المدينة (١٨٧٤) ومسلم في الحج (٤٩٩) قوله « ينعقان » أي يصيحان . قوله « وحوشًا » أي خلاءً ليس به أحد إلا الوحوش . قوله « خرًّا على وجوههما » أي سقطا ميتين .

(٢) أخرجه مسلم في الفتن وأشراط الساعة (٦٨) .

(٣) أخرجه البخاري في الزكاة (١٤١٤) ومسلم في الزكاة (٥٩) قوله « يلذن به » أي ينتمين إليه ؛ ليقوم بحوائجهن ويذب عنهن كقبيلة بقي من رجالها واحد فقط وبقيت نساؤها . فيلذن بذلك الرجل ليذب عنهن ويقوم بحوائجهن ، ولا يطمع فيهن أحد بسببه .

(٤) أخرجه البخاري في أحاديث الأنبياء (٣٤٧٢) ومسلم في الأقضية (٢١) وأحمد في مسنده (٢/٣١٦) . قوله « عقارًا » العقار هو الأرض وما يتصل بها . قوله « جرة » هو إناء من خزف له بطن كبير وفم واسع . قوله « وقال الذي له الأرض » أي باعتبار ما مضى قبل عقد البيع .

(٥) أخرجه البخاري في الفرائض (٦٧٦٩) ومسلم في الأقضية (٢٠) قوله « فذهب بابْن أحدهما » أي أكل ابن أحدهما .

الشرح

في هذا الباب الذي عقده النووي رحمه الله في كتابه (رياض الصالحين) في المنثورات والمُلَح تقدم ما تقدم من ذكر الدجال ويأجوج ومأجوج وذكر أحاديث في هذا المجلس تدل على أن المدينة النبوية زادها الله تشريفًا وتعظيمًا أنه يخرج عنها أهلها ولا يبقى فيها إلا الهوام - أي السباع - والطيور ليس فيها أحد لكن هذا لم يأت بعد ولكن ما أخبر به الصادق المصدوق صلى الله عليه وسلم فسوف يقع ؛ لأن النبي صلى الله عليه وسلم في أمور الغيب لا ينطق عن الهوى يوحى إليه بها .

وفيها : كثرة المال حيث أخبر صلى الله عليه وسلم أنه يقوم في آخر الزمان خليفة يحثو المال ولا يعده ؛ يعني أنه ينفق إنفاقًا بلا عدد لكثرة الأموال ، وفيها أيضًا : حديث أبي هريرة رضي الله عنه وهذا ليس من أشراط الساعة لكن من المُلَح : أن رجلًا اشترى من رجل أرضًا فوجد فيها جرة من ذهب فذهب المشتري إلى البائع وقال : خذ هذا فإنني اشتريت أرضًا ولم أشتر الذهب ، فقال البائع : أنا بعت الأرض وما فيها ، هذا يدل على ورعهما ، فكل واحد ورع يقول : ليس لي الحق في هذا المال . فتحاكما إلى رجل فقال لأحدهما : ألك بنت ؟ قال : نعم ، وقال للثاني : ألك ابن ؟ قال : نعم ، فقال : زوجا الابن للبنت واجعلا هذا الذهب للمهر والنفقة ، ففعلا . ففي هذا دليل على أنه يوجد من الناس من هو ورع إلى هذا الحد .

أما حكم هذه المسألة فقال العلماء رحمهم الله : إن الإنسان إذا باع أرضًا على شخص ووجد المشتري فيها شيئًا مدفونًا فيها من ذهب أو غيره ؛ فإنه لا يملكه بملك الأرض ولكنه للبائع ، وإذا كان البائع اشتراها من آخر فهي للأول ؛ لأن هذا المدفون ليس من الأرض بخلاف المعادن : لو اشترى أرضًا ووجد فيها معدنًا من ذهب أو فضة أو حديد أو غيره ؛ فإنه يتبع الأرض [1] . هذا من المُلَح .

ومنها أيضًا حديث أبي هريرة : في قصة امرأتين خرجتا بابنين لهما فأكل الذئب ابن واحدة منهما وبقي ابن الأخرى فقالت كل واحدة منهما : إنه لي . فتحاكما إلى داود عليه السلام فقضى به للكبرى اجتهادًا منه ، لأن الكبرى ربما تكون قد توقفت عن الإنجاب ، أما الصغرى شابة وربما تنجب غيره في المستقبل ، ثم خرجتا منه إلى سليمان ابنه فأخبرتاه بالخبر فدعا بالسكين وقال : أشقه بينكما نصفين ، أما الكبرى فرحبت ، وأما الصغرى فأبت وقالت هو ابنها - أدركتها الشفقة لأنه ابنها حقيقة ، ولكن الكبرى لا يهمها ؛ لأنه ليس ولدها - لكن الصغرى أدركتها الرحمة فقالت : هو بنيُّها يا نبي الله فقضى به للصغرى ... بأي بيِّنة ؟! القرينة ؛ لأن كونها ترحم هذا الولد وتقول : هو للكبرى ويبقى حيًّا وإن كان سيكون عند غيرها ، لكن بقاؤه حيًّا - ولو كان عند غيرها - أهون من شقه نصفين ، فقضى به للصغرى .

أخذ العلماء من هذا الحديث : العمل بالقرائن ، وأنه يجوز للقاضي أن يحكم بالقرائن إذا كانت قوية ، ومن ذلك : ما حصل بين امرأة العزيز ، ويوسف بن يعقوب عليهما الصلاة والسلام ، فمن المعلوم أن يوسف حبس في السجن وكان صلى الله عليه وسلم جميلًا جدًّا حتى إنه أعطى نصف الحسن ، فامرأة العزيز ، وهي

---

(١) راجع ذلك في مغني المحتاج (٣٦٣/٢) وفقه الكتاب والسنة (٢٢٧٢/٤) .

امرأة ملكة لها حسب ولها منزلة عجزت أن تملك نفسها حتى مكرت به وكادت له ، وأدخلته في البيت ، وغلقت الأبواب ودعته إلى نفسها - والعياذ بالله - ولكنه عصمه الله ﷻ فلحقته وأمسكت بثوبه وانشق الثوب من الخلف ، ووجدا سيدها لدى الباب : ﴿ وَأَلْفَيَا سَيِّدَهَا لَدَا الْبَابِ قَالَتْ مَا جَزَاءُ مَنْ أَرَادَ بِأَهْلِكَ سُوءًا إِلَّا أَن يُسْجَنَ أَوْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴾ [يوسف: ٢٥] هذا حصل قبل السجن ، ﴿ قَالَ هِيَ رَاوَدَتْنِي عَن نَّفْسِي ﴾ [يوسف: ٢٦] وهذا قبل أن يسجن ليس عنده بينة ، والمرأة قد لحقته وهو يريد الخروج ، ومن يصدق ، سوف يكون المصدق في هذه الحال امرأة العزيز ؛ لأنها ذات حسب وزوجة الملك ، فلا يمكن أن تذل نفسها للخادم ، ولكن ﴿ قَالَ هِيَ رَاوَدَتْنِي عَن نَّفْسِي ﴾ فحكم حاكم من أهل البيت قال : انظروا إلى قميصه - ثوبه - إن كان قُدَّ من قبل فصدقت وهو من الكاذبين ، وإن كان قُدَّ من دبر فكذبت وهو من الصادقين ؛ لأنه إذا كان من قبل يعني أنه الطالب المراود وأرادت التخلص منه فمزقت ثوبه ، وإن كان من دبر فهو قد هرب منها ولحقته ﴿ فَلَمَّا رَءَا قَمِيصَهُ قُدَّ مِن دُبُرٍ قَالَ إِنَّهُ مِن كَيْدِكُنَّ إِنَّ كَيْدَكُنَّ عَظِيمٌ ﴾ [يوسف: ٢٨] وصار الصادق يوسف وليس معه بينة تشهد ولكن هناك قرينة ، وهذا لا شك أنه قاعدة جليلة للقاضي ، ولمن جعل حكمًا بين الناس .. والله الموفق .

* * *

١٨٢٨ - وَعَنْ مِرْدَاسٍ الأَسْلَمِيِّ ﷺ قالَ : قالَ النبيُّ ﷺ : « يَذْهَبُ الصَّالِحُونَ الأَوَّلُ فَالأَوَّلُ ، وَتَبْقَى حُثَالَةٌ كَحُثَالَةِ الشَّعِيرِ أَوِ التَّمْرِ ، لا يُبَالِيهِمُ اللَّهُ بَالَةً » [1] رواه البخاري .

١٨٢٩ - وعَنْ رِفاعَةَ بنِ رَافِعٍ الزُّرَقِيِّ ﷺ قالَ : جَاءَ جِبْرِيل إِلى النَّبيِّ ﷺ قالَ : مَا تَعُدُّونَ أَهْلَ بَدْرٍ فِيكُمْ ؟ قالَ : « مِنْ أَفْضَلِ المُسْلِمِينَ » أو كَلِمَةً نَحْوَهَا . قالَ : « وَكَذَلِكَ مَنْ شَهِدَ بَدْرًا مِن المَلائِكَة » [2] رواه البخاري .

١٨٣٠ - وعَن ابن عُمَر ﷺ قال : قالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ : « إذا أَنْزَلَ اللَّهُ تَعَالى بِقَومٍ عَذَابًا أَصَابَ العذابُ مَنْ كَانَ فِيهِمْ ، ثُمَّ بُعِثُوا عَلى أَعْمَالِهِمْ » [3] متفقٌ عليه .

الشرح

هذه أيضًا من الأحاديث التي ذكرها النووي .

منها أن النبي ﷺ أخبر أنه يذهب الصالحون الأول فالأول ، ثم يبقى حثالة كحثالة الشعير أو التمر

---

(١) أخرجه البخاري في المغازي (٤١٥٦) والبيهقي في السنن (١٠/١٢٢) . قوله « يذهب الصالحون » أي تقبض أرواحهم . قوله « حثالة » هي الرديء من كل شيء . وقيل : ما يبقى من الشعير عند الغربلة . ومن التمر بعد الأكل . قوله « لا يبالهم الله بالة » أي لا يرفع لهم قدرًا ، ولا يقيم لهم وزنًا .

(٢) أخرجه البخاري في المغازي (٣٩٩٢) وابن ماجه في المقدمة (١٦٠) .

(٣) أخرجه البخاري في الفتن (٧١٠٨) ومسلم في الجنة وصفة نعيمها (٨٣) وأحمد في مسنده (٢/١١٠) . قوله « ثم بعثوا على أعمالهم » أي بعث المؤمن مع أهل الجنة ، وبعث الكافر مع أهل النار .

لا يبالي اللَّه بهم بالًا يعني لا يبالي بهم ولا يرحمهم ولا ينزل عليهم الرحمة ، فالصالحون يذهبون الأول فالأول ، وهذا الحديث يشبه حديث أنس بن مالك ﷺ حين جاء الناس إليه يشكونه ما وجدوا من الحجاج بن يوسف الثقفي فأخبرهم أن النبي ﷺ قال : « لا يأتي على الناس زمان إلا وما بعده شر منه حتى تلقوا ربكم »[1] فهذا الحديث يشبه الحديث الذي أشرنا إليه ، ولذلك تجد الناس يترددون كل عام عن العام الذي قبله ، يذهب الصالحون الأول فالأول ، فيما سبق تجد الناس يتهجدون في الليل ، يصومون في النهار ، يتصدقون من أقواتهم ، يؤثرون على أنفسهم ، في اليوم تجد الناس تغيروا من سنة إلى أخرى إلى أردأ من قبل ، سَهَرٌ في الليل على غير طاعة اللَّه ، ونوم في النهار أو لهو أو بيع وشراء يشتمل على الغش والكذب والخيانة - والعياذ باللَّه - فالناس إلى أردأ ، لكن مع ذلك في الناس خير لا شك - يوجد أناس - ولله الحمد - على دين اللَّه مستقيمين على ما يبدو ، لكن العبرة بالعموم والشمول ، ولهذا أخبر النبي ﷺ كما في الحديث الثالث الذي رواه البخاري : أن إذا أُنزل بهم العذابُ شمل الجميع كما قال تعالى ﴿ وَاتَّقُوا فِتْنَةً لَا تُصِيبَنَّ الَّذِينَ ظَلَمُوا مِنكُمْ خَاصَّةً وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ شَدِيدُ الْعِقَابِ ﴾ [الأنفال : ٢٥] لكنهم يبعثون يوم القيامة على نياتهم كل على ماهو عليه ، ولذلك يجب الحذر من أن يكون الإنسان من الحثالة التي كحثالة الشعير أو التمر ، وأن يحرص على أن يستقيم على أمر اللَّه حتى لو كان الناس قد هلكوا فإنهم - إن أصيبوا بالعذاب - فإنه يبعث كل إنسان على نيته .

كذلك أيضًا من المُلح : أن جبريل أتى النبي ﷺ فقال له : « ما تعدون أهل بدرٍ فيكم ؟ » قال النبي ﷺ : « من أفضل المسلمين » أو كلمة نحوها . قال : وكذلك الملائكة الذين قاتلوا في بدر .

بدر : اسم مكان بين مكة والمدينة معروف ، كان فيه وقعة بين المسلمين والمشركين سببها أن أبا سفيان صخر بن حرب كان رئيسًا في أهل مكة وكان قدم من الشام بميرة - عير فيها طعام لأهل مكة - فلما سمع النبي ﷺ أنه قادم إلى مكة أخبر أصحابه بذلك وكان أهل مكة قد أخرجوا المسلمين من ديارهم وأموالهم واستباحوها ، فكان للمؤمنين أن يستبيحوا أموال الكفار جزاءً وفاقًا ، فأخبر النبي ﷺ أصحابه ليخرجوا إلى هذه العير فقط ، فخرج معه ثلاثمائة وبضعة عشر رجلًا ؛ يعني مابين العشرة إلى العشرين ؛ يعني مائة وعشرون أو ثلاثمائة وعشر ليس معهم سلاح ، ما معهم إلا سبعون بعيرًا يتعاقبونها ، وفرسان فقط ، لأنهم لم يخرجوا لقتال وإنما خرجوا للعير يأخذونها ويرجعون ، وكان أبو سفيان رجلًا محنكًا ذكيًا أرسل إلى أهل مكة وقال لهم : أنقذوا عيركم ، محمد وأصحابه سيخرجون إلينا ليأخذوها ، ثم سلك طريق البحر بعيدًا عن المدينة ، وقريش لما سمعت بهذا أخذتها حمية الجاهلية فاستنفروا ، ونفروا جميعًا بكبرائهم وعظمائهم لحكمة أرادها اللَّه ﷻ فلما خرجوا ظاهر مكة جاءهم الخبر أن أبا سفيان سلِم ونجا ؛ لأنه سلك طريق البحر بعيدًا عن المدينة ، ولم يدركه الرسول وأصحابه ، فتشاوروا فيما بينهم : قالوا ما دامت العير نجت فنرجع إلى مكة وما لنا والحروب ؟ فقال كبراؤهم كأبي جهل وغيره : واللَّه ما نرجع إلى مكة أبدًا حتى نصل إلى

---

(١) انظر الحديث بلفظه في البخاري في الفتنة (٧٠٦٨) .

بدر - وهي نقطة المفرق بين مكة والمدينة والشام - ننحر الجذور ونشرب الخمور - نعوذ بالله - وتعزف علينا القيان فرحًا وطربًا ، وتسمع بنا العرب ، فلا يزالون يهابوننا أبدًا - أعوذ بالله - خرجوا كما قال الله ﷻ : ﴿ خَرَجُواْ مِن دِيَـٰرِهِم بَطَرًا وَرِئَآءَ ٱلنَّاسِ ﴾ [الأنفال : ٤٧] فصمموا على أن يقابلوا الرسول ﷺ ويلتقوا في بدر .

كان النبي ﷺ وأصحابه ثلاثمائة وبضعة عشر رجلًا ، وقريش تسعمائة رجلًا لكن قريش مستعدة للحرب بعتادها وقوتها ، والرسول ﷺ ما استعد ، ولكن الله ﷻ جمع بينهما على غير ميعاد لينفذ ما حكم وأراد ﷻ فالتقوا . وفي هذا يقول الله ﷻ : ﴿ إِذْ يُرِيكَهُمُ ٱللَّهُ فِى مَنَامِكَ ﴾ فقد رآهم الرسول ﷺ في المنام قليلًا ليتشجع على لقائهم ﴿ وَلَوْ أَرَىٰكَهُمْ كَثِيرًا لَّفَشِلْتُمْ وَلَتَنَـٰزَعْتُمْ فِى ٱلْأَمْرِ وَلَـٰكِنَّ ٱللَّهَ سَلَّمَ إِنَّهُۥ عَلِيمٌۢ بِذَاتِ ٱلصُّدُورِ ۝٤٣ وَإِذْ يُرِيكُمُوهُمْ إِذِ ٱلْتَقَيْتُمْ فِىٓ أَعْيُنِكُمْ قَلِيلًا وَيُقَلِّلُكُمْ فِىٓ أَعْيُنِهِمْ ﴾ [الأنفال : ٤٣، ٤٤] سبحان الله ! هم يرون الصحابة قليلين ، والصحابة يرونهم قليلين حتى يتحفز كل واحد لمقابلة الآخر ، فالتقوا وحدثت معركة ، وقتل من أهل مكة سبعون وأسر سبعون . وقتل من المسلمين سبعون رجلًا [(١)] ، سبحان الله ﴿ وَتِلْكَ ٱلْأَيَّامُ نُدَاوِلُهَا بَيْنَ ٱلنَّاسِ ﴾ [آل عمران : ١٤٠] .

المهم : أنه حدثت الواقعة وقاتلوا قتالًا شديدًا وقتل صناديد قريش ومنهم السبعة أو الثمانية الذين ألقوا سلا الجزور على رسول الله ﷺ وهو ساجد تحت الكعبة في هذه القصة المشهورة والتي دعا فيها الرسول عليهم قائلًا : « اللّهم عليك بقريش ، اللّهم عليك بقريش ، اللّهم عليك بفلان وفلان » وعدَّدهم فقتلوا في بدر [(٢)] ، ثم إن الرسول ﷺ أمر بهؤلاء الصناديد الكبراء وألقوا في قليب - بئر - منتنة خبيثة ، وبقى الرسول ﷺ منصورًا مظفرًا في ذلك المكان ثلاثة أيام ، وكان من عادته إذا قاتل قومًا وانتصر عليهم أن يبقى في العرسة ثلاثة أيام .. إلى آخر ما هو مشهور عن تلك القصة [(٣)] .

المهم : أن الذين قاتلوا في بدر وهم ثلاثمائة وسبعة عشر رجلًا هم من أفضل المسلمين ، أتدرون ماذا قال لهم ربهم ﷻ ؟ قال : « اعملوا ما شئتم فقد غفرت لكم » [(٤)] كل ذنب يفعله واحد من أهل بدر - مهما كان عظمه - فهو مغفور له ، لكنهم لن يكفروا ، وحصل هذا تطبيقًا : فإن أحدهم لما أراد النبي ﷺ أن يذهب إلى قريش في غزوة الفتح ، أرسل حاطب وهو ممن حضروا معه بدرًا امرأة معها كتاب إلى قريش قال لهم : إن الرسول ﷺ سيغزوكم فانتبهوا . فأطلع الله نبيه ﷺ على ذلك ، فأرسل رجلين أحدهما على بن أبي طالب إلى هذه المرأة وأدركوها في روضة (خاخ) وأمسكوا بها

---

(١) الذي أجمع عليه المؤرخون أن شهداء المسلمين في بدر كانوا أربعة عشر رجلًا : ستة من المهاجرين ، وثمانية من الأنصار (السيرة النبوية لابن كثير ٤٦٣/٢ ، تاريخ الطبري ٤٩/٣ ، والسيرة النبوية لابن هشام ٣٦٤/٢ ، ٣٦٥) .

(٢) انظر الحديث في البخاري في الجهاد والسير (٢٩٣٤) ومسلم في الجهاد (١٠٨) وأحمد في مسنده ٤١٧/١ .

(٣) راجع القصة في السيرة النبوية لابن هشام (٣٤٥/٢ - ٣٧٠) تاريخ الطبري (٤٠/٣١ - ٥٠) السيرة النبوية لابن كثير (٤٥٥/٢ - ٤٦٥) .

(٤) أخرجه البخاري في المغازي (٤٢٨٠) والبيهقي في السنن (١٤٦/٩) .

وقالوا لها : إلى أين ؟ قالت : إلى مكة ، وماذا معك ؟ قالت : لا شيء . قالوا لها : إما أن تعطينا ما معك وإلا كشفنا عنك ، فأخرجته لهم وإذا هو كتاب من حاطب بن بلتعة ﷺ وهو ممن شهد بدرًا فجاءوا به للرسول ﷺ وعرضوه عليه ، فدعاه قائلًا : ماهذا يا حاطب ؟ كيف تخون ؟ كيف ترسل إلى قريش بأخبارنا ، وهذا يسمى عند الناس جاسوسًا ، اعتذر بعذر ، قال عمر أو غيره من الصحابة : يا رسول الله أنا أضرب عنقه ؛ فإنه قد خان الله ورسوله . قال ﷺ : « أما علمت أن الله اطلع على أهل بدر فقال : اعملوا ما شئتم فقد غفرت لكم » فوقعت هذه الفعلة القبيحة الشنيعة ، وقعت موقع مغفرة ، لماذا ؟ لأن الرجل من أهل بدر ، فهم ﷺ وجمعنا وإياكم معهم ، في جنات النعيم ، فالذي منع الرسول أن يقتل هذا الرجل أنه شهد بدرًا ، وعلى هذا إذا وجدنا جاسوسًا من المسلمين يخبر الكفار بأخبارنا وجب قتله حتى لو قال : أشهد أن لا إله إلا الله وأن محمدًا رسول الله وجب قتله بدون استثناء ، لأن الرسول ﷺ لم يمنعه من قتل حاطب إلا كونه من أهل بدر وهي مزية لن تحصل إلى يوم القيامة ، وقد استدل العلماء رحمهم الله بهذا الحديث على أن الجاسوس يقتل سواء أكان مسلمًا أو كافرًا على كل حال ، لأنه يفضي بأخبارنا إلى أعدائنا . والله الموفق .

* * *

١٨٣١ - وعَنْ جَابِرٍ ﷺ قَالَ : كانَ جِذْعٌ يَقُومُ إلَيهِ النَّبِيُّ ﷺ - يَعْني في الخُطْبَة - فَلَما وُضِعَ المِنْبَرُ ، سَمِعْنَا لِلجذْعِ مثْلَ صَوتِ الْعِشَار حَتَّى نَزَلَ النَّبيُّ ﷺ فَوَضَعَ يَدَه عَلَيهِ فسَكَنَ .

وفي رواية : فَلَمَّا كَانَ يَومُ الجُمعَة قَعَد النَّبي ﷺ على المِنْبرِ ، فَصَاحَتِ النَّخْلَةُ الَّتي كَانَ يَخْطُبُ عِنَدهَا حَتَّى كَادَتْ أنْ تَنْشَقَّ .

وفي رواية : فَصَاحَتْ صِيَاحَ الصَّبيِّ ، فَنَزَلَ النبيُّ ﷺ حَتَّى أخَذَهَا فَضَمَّها إلَيهِ ، فَجَعَلَتْ تَئِنُّ أَنِينَ الصبيِّ الَّذي يُسَكَّتُ حَتَّى اسْتَقَرَّتْ ، قالَ : « بَكَتْ عَلى مَا كَانتْ تسمَع مِن الذِّكْر »[1] رَواه البخارِيُّ .

الشرح

هذه الأحاديث المنثورة التي ذكرها المؤلف رحمه الله في آخر كتابه منها : حديث جابر وفيه : آية من آيات الله ﷻ ، وآية لرسول ﷺ واعلم أن الله تعالى لم يبعث نبيًّا إلا آتاه من الآيات ما يؤمن على مثله البشر ؛ لأنه لو أرسل رسولًا بدون آية تدل على أنه رسول الله ما صدقه أحد ولكان للناس عذر في رد قوله ، ولكن الله تعالى بحكمته ورحمته ما أرسل رسولًا إلا آتاه من الآيات ما يؤمن على مثله البشر ، الآيات يعني العلامات التي تدل على صدقه ، وآيات النبي ﷺ كثيرة ، ومن أراد الاستزادة

(١) أخرجه البخاري في المناقب (٣٥٨٣ ، ٣٥٨٤ ، ٣٥٨٥) قوله : « جذع » هو ساق النخلة . قوله : « العشار » الناقة التي انتهت في حملها إلى عشرة أشهر . قوله « كادت أن تنشق » أي قاربت على الانكسار . قوله : « تئن أنين » أي تبكي بكاء . قوله : « استقرت » أي سكنت وكفت عن البكاء .

منها فعليه بكتابين : أحدهما : (الجواب الصحيح لمن بدل دين المسيح) فقد ذكر رحمه الله شيخ الإسلام في هذا الكتاب في آخره من آيات النبي ﷺ الكونية والشرعية ما لم يحصل لغيره رحمه الله رحمة واسعة . والثاني : (البداية والنهاية) لابن كثير رحمه الله .

فآيات الرسول ﷺ كثيرة منها ما ذكره جابر : كان النبي ﷺ يخطب يوم الجمعة إلى جذع نخلة ، فلما صنعت له امرأة من الأنصار منبرًا يخطب عليه ، فإذا بالجذع يحن حنان العشار وأحيانًا يبكي بكاء الصبي لفقد النبي ﷺ الله أكبر ! جماد .. جزع .. يبكي لفقد الرسول ﷺ والآن قمم عظيمة فقدت لا يبكي لها أحد ، أعاننا الله وإياكم على ذكره وشكره وحسن عبادته ، نزل النبي ﷺ وجعل يسكته كما تسكت الأم صبيًا وهو جماد ، فسكت الجزع فكان في هذا آيتان :

١ - صياح الجزع لما فقد النبي ﷺ .

٢ - سكوت الجزع لما نزل النبي ﷺ يسكته . ونظيرها آية وقعت لموسى عليه السلام فقد آذاه بنو إسرائيل أذية عظيمة كما قال الله عز وجل : ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَا تَكُونُوا۟ كَٱلَّذِينَ ءَاذَوْا۟ مُوسَىٰ فَبَرَّأَهُ ٱللَّهُ مِمَّا قَالُوا۟ ﴾ [الأحزاب : ٦٩] من جملة ما قالوا فيه : إنه آدر - يعني كبير الخصيتين - وهو عيب وكان ﷺ يستتر إذا اغتسل ، وكانوا هم يغتسلون عراة ، فقالوا : إن موسى لا يستتر إلا لما فيه من عيب ، فأراد الله عز وجل أن يريهم أنه لا عيب فيه بغير اختيار موسى . نزل يغتسل مرة ووضع ثوبه على حجر فلما كان يغتسل هرب الحجر ، ذهب يسعى يشتد فلحقه موسى يقول : « ثوبي حجر ، ثوبي حجر » يعني أعطني ثوبي يا حجر - والحجر سائر حتى وصل إلى ملأ من بني إسرائيل فشاهدوا موسى بلا عيب - والحمد لله - ثم وقف الحجر فجعل موسى يضربه [1] ؛ لأنه فَعَلَ فِعْلَ ما يفعله العاقل فاستحق أن يؤدبه بالضرب ، مثل ذلك ما تفعله الأمهات بأولادها الصغار إذا عثر الطفل أو ضربه شيء ، جعلت تضرب ما عثر لأجل أن تسكت الصبي وتطيّب خاطره ، المهم أن الرسول ﷺ نزل فسكَّتْ الجزع فسكت وهذه من آيات الله عز وجل ، والله أعلم .

* * *

١٨٣٢ - وعَنْ أبي ثَعْلَبَة الخُشَنِيِّ جَرْثُوم بن نَاشِرٍ رضي الله عنه عَنْ رَسُول اللَّهِ ﷺ قالَ : « إن اللَّه تَعالى فَرَضَ فَرَائِض فَلا تُضيِّعُوهَا ، وَحَدَّ حُدُودًا فَلا تَعتَدُوهَا ، وَحَرَّمَ أَشْياءَ فَلا تَنْتَهِكُوها ، وَسَكَتَ عَنْ أَشْياءَ رَحْمَةً لكُمْ غَيرَ نِسْيَانٍ فَلا تَبْحَثُوا عَنْها » [2] حديثٌ حسنٌ ، رواه الدَّارَقُطْني وغَيرُهُ .

١٨٣٣ - وعَنْ عَبْدِ اللَّه بنِ أَبي أوفَى رضي الله عنهما قالَ : غَزَونَا مَعَ رَسُولِ اللَّه ﷺ سَبْع غَزَوَاتٍ نَأْكُلُ الجَرَادَ [3] . وفي روايةٍ : نَأْكُلُ مَعَهُ الجَرَادَ ، متفقٌ عليه .

---

(١) انظر القصة في البخاري في الأنبياء (٣٤٠٤) أحمد في مسنده (٣٩٢/٢) وتفسير الطبري (٦٣/٢٢) .

(٢) أخرجه الدارقطني في السنن (١٨٤/٤) والحاكم في المستدرك (١١٥/٤) والبيهقي في السنن (١٣/١٠) .
قوله : « وسكت عن أشياء » أي لم يحكم فيها بوجوب أو حل أو حرمة . قوله « فلا تبحثوا عنها » أي لا تسألوا عنها .

(٣) أخرجه البخاري في الذبائح (٥٤٩٥) ومسلم في الصيد والذبائح (٥٢) والنسائي في السنن (٢١٠/٧) .

١٨٣٤ - وَعَنْ أَبِي هُرَيرَةَ ﷺ أَنَّ النَّبيَّ ﷺ قَالَ : « لا يُلْدَغُ المُؤْمِنُ مِنْ جُحْرٍ وَاحِدٍ مَرَّتَينِ »[(١)] متفقٌ عليه .

الشرح

هذه الأحاديث من أحاديث المُلح المنثورة التي ذكرها النووي رَحِمَهُ اللَّهُ : فعن أبي ثعلبة الخشني ﷺ أن النبي ﷺ قال : « إن اللَّه فرض فرائض فلا تضيعوها ، وحد حدودًا فلا تنتهكوها ، وسكت عن أشياء رحمة لكم فلا تبحثوا عنها » هذه ثلاث جمل بينها النبي ﷺ وبين حكمها .

أولًا : فرض اللَّه فرائض ، وأعظم فرائض اللَّه على عباده التوحيد : شهادة أن لا إله إلا اللَّه وأن محمدًا رسول اللَّه ؛ ففي شهادة أن لا إله إلا اللَّه : توحيد اللَّه بالعبادة وألا يعبد أحد سواه ، وفي شهادة أن محمدًا رسول اللَّه : توحيد النبي ﷺ بالمتابعة بحيث لا يتابع أحد سواه .

هذه أفرض الفرائض : ثم الصلوات والزكاة والصوم والحج وبر الوالدين وصلة الرحم وحسن الجوار والصدق والنصيحة .... أشياء كثيرة فرضها اللَّه تعالى على عباده ، منها فرائض عينية على كل واحد ، ومنها فرائض كفاية إذا قام بها من يكفي سقط عن الباقين ، فالصلوات الخمس فرض عين لابد على كل مسلم أن يقوم بها ، والصلاة على الجنازة فرض كفاية إذا قام بها البعض سقط الإثم عن الباقين .

« وحد حدودًا فلا تعتدوها » في الفرائض قال : لا تضيعوها ، ولكن احرصوا عليها ، وقوموا بها على الوجه المطلوب . « وحد حدودًا فلا تعتدوها » يعني جعل للأشياء حدًّا معينًا ، فالصلوات الخمسة مثلًا لها حد وهي أوقاتها : الظهر من زوال الشمس إلى أن يصير ظل كل شيء مثله بعد فيء الزوال ، العصر من هذا الوقت إلى غروب الشمس ، والمغرب من غروب الشمس إلى مغيب الشفق الأحمر ، العشاء من مغيب الشفق الأحمر إلى نصف الليل ، الفجر من طلوع الفجر إلى طلوع الشمس ، هذه حدود ، الصوم له حد من طلوع الفجر إلى غروب الشمس ، الحج له حد أشهر معلومات في أماكن معينة ... إلخ « حد حدودًا فلا تعتدوها » يعني لا تتجاوزوها قال تعالى : ﴿ وَمَن يَتَعَدَّ حُدُودَ ٱللَّهِ فَقَدْ ظَلَمَ نَفْسَهُۥ ﴾ [الطلاق : ٢] ﴿ وَمَن يَتَعَدَّ حُدُودَ ٱللَّهِ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلظَّٰلِمُونَ ﴾ [البقرة : ٢٢٩] .

« وسكت عن أشياء رحمة لكم فلا تبحثوا عنها » سكت عن أشياء : لم يوجبها علينا ولم يحرمها ، ولو شاء لأوجب علينا ما شاء وحرم ما شاء ، لكنه سكت عن أشياء لولا رحمته لألزمنا بها ، وأضرب لكم مثلًا بالصلوات الخمس : فأول ما فرضها اللَّه على العباد خمسين صلاة في اليوم والليلة ، ثم إن اللَّه تعالى عفا وصارت خمسًا في العمل ، خمسين في الثواب ، وأشياء كثيرة عفا اللَّه عنها ولو شاء لألزمنا بها . وفي قوله :

---

(١) أخرجه البخاري في الأدب (٦١٣٣) ومسلم في الزهد والرقائق (٦٣) وأحمد في مسنده (١١٥/٢) . قوله « لا يلدغ المؤمن من جحر واحد مرتين » أي : أن المؤمن لا يخدع مرتين ولا يفطن لذلك . وسبب هذا الحديث : أن النبي ﷺ أسر أبا عزة الشاعر يوم بدر ، فعاهد النبي أن لا يحرض عليه ولا يهجوه ، فأطلقه النبي ﷺ فلحق بقومه ، ثم رجع إلى التحريض والهجاء ، حتى أسر يوم أحد ، فطلب من النبي ﷺ أن يمن عليه بالعفو ، فقال له النبي ﷺ ما قال .

« وسكت عن أشياء » دليل على ما ذهب إليه أهل السنة والجماعة من أن اللَّه يتكلم بصوت مسموع ؛ لأن السكوت ضد الكلام ، وهو جل وعلا يتكلم بما شاء متى شاء وكيف شاء ، لا نعلم كيف يتكلم ، ولا متى ، ولا بماذا يتكلم ، لكن نؤمن بأنه إذا أراد شيئًا قال له : كن . فيكون ، ولهذا لا تحصى كلمات اللَّه ﷻ قال اللَّه تعالى : ﴿ وَلَوْ أَنَّمَا فِي الْأَرْضِ مِن شَجَرَةٍ أَقْلَامٌ ﴾ [لقمان : ٢٧] يعني لو كانت جميع أشجار الأرض أقلامًا يكتب بها ﴿ وَالْبَحْرُ يَمُدُّهُ مِن بَعْدِهِ سَبْعَةُ أَبْحُرٍ مَّا نَفِدَتْ كَلِمَاتُ اللَّهِ ﴾ [لقمان : ٢٧] وقال ﷻ : ﴿ قُل لَّوْ كَانَ الْبَحْرُ مِدَادًا لِّكَلِمَاتِ رَبِّي لَنَفِدَ الْبَحْرُ قَبْلَ أَن تَنفَدَ كَلِمَاتُ رَبِّي وَلَوْ جِئْنَا بِمِثْلِهِ مَدَدًا ﴾ (١) [الكهف : ١٠٩] .

ثم ذكر حديث عبد اللَّه بن أوفى ﷺ قال : « غزونا مع النبي ﷺ سبع غزوات نأكل الجراد معه » الجراد معروف وهو من الحلال ، يأكله الإنسان حيًا وميتًا ، قال النبي ﷺ : « أحلت لنا ميتتان ودمان : الميتتان : الحوت والجراد » (٢) ولهذا لا يحتاج إلى تزكية وهو صيد ، فإن كان في مكة حرم على الإنسان أن يصيده وأن يطيره من مكانه ، ويجب على من رأى من يصيده بالحرم أن يزجره ويمنعه ؛ لأنه صيد محرم لا يجوز صيده في مكة ولا أن تطيره وغيرها من الطيور .

وفي هذا دليل على أن الصحابة ﷺ يستدلون بإقرار الرسول ﷺ ؛ يعني إن فعلوا شيئًا وأقرهم عليه فهو حلال ، وهو كذلك ؛ لأن الرسول ﷺ يستطيع منعهم ولكن ما دام سكت دل ذلك على الجواز .

أما حديث أبي هريرة فقال النبي ﷺ : « لا يلدغ المؤمن من جحر مرتين » اللدغ هو لدغ الحية ، والمؤمن كيس فَطِن محترز لا يلدغ من جحر مرتين ؛ بمعنى أنه إذا حدث له شيء من أي عمل يكون ، فإنه لا يعود إليه ، لأنه يحاذر وإذا لدغ من جحر تركه وعرف أنه لا فائدة منه . فالمؤمن لا يلدغ من جحر مرتين ، لأنه حاذر فطن كيس ، فدل ذلك على أن الإنسان ينبغي له أن يكون فطنًا ، وألا يعود لشيء أصابه منه ضرر بل يكون مؤمنًا ؛ لأن هذا من كمال الإيمان . واللَّه الموفق .

* * *

١٨٣٥ - وَعَنْهُ قَالَ : قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ : « ثَلاثَةٌ لَا يُكَلِّمُهُمُ اللَّهُ يَومَ الْقِيَامَةِ ، وَلاَ يَنْظُرُ إِلَيهِمْ ، وَلَا يُزَكِّيهِمْ ، وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ : رَجُلٌ عَلَى فَضْل مَاءٍ بالفَلاةِ يَمْنَعُهُ مِن ابْن السَّبيل ، وَرَجُلٌ بَايَعَ رَجُلًا سِلْعَةً بَعْدَ الْعَصْرِ ، فَحَلَفَ بِاللَّهِ لأَخَذَهَا بِكَذا وَكَذَا ، فَصَدَّقَهُ وَهُوَ عَلَى غَير ذَلكَ ، وَرَجُلٌ بَايَعَ إِمَامًا لَا يُبَايِعُهُ إلا لِدُنْيا ، فَإِنْ أَعْطاهُ مِنْهَا وَفى ، وَإِنْ لَمْ يُعْطِهِ مِنْهَا لَمْ يَفِ » (٣) متَّفقٌ عليه .

---

(١) قوله ﷺ : ﴿ مِدَادًا ﴾ أي حبرًا يكتب به .

(٢) أخرجه ابن ماجه في السنن (٣٣١٨) وأحمد في مسنده (٩٧/٢) والبيهقي في السنن (٢٥٤/١) والبغوي في شرح السنة (٢٤٤/١١) .

(٣) أخرجه البخاري في الشهادات (٢٦٧٢) ومسلم في الإيمان (١٨٣) والنسائي في السنن (٨١/٥) وأحمد في مسنده (٤٨٠/٢) . قوله « لا يكلمهم اللَّه » أي لا يرسل إليهم الملائكة بالتحية ، قوله « ولا يزكيهم » أي لا يطهرهم من الذنوب ، ولا يثني عليهم ، قوله « رجل على فضل ماء في الفلاة » أي رجل عنده ماء فاضل عن حاجته في الأرض التي لا ماء فيها ، قوله « ابن السبيل » هو المسافر ، قوله « لا يبايعه إلا لدنيا » أي : إذا أعطي منها استمر على طاعته ، وإن لم يعط خرج على الطاعة .

الشرح

هذه الأحاديث ذكرها المؤلف رحمه اللَّه تعالى في كتابه كلها عن أبي هريرة ﷺ ومنها : « أن ثلاثة لا يكلمهم اللَّه يوم القيامة ولا ينظر إليهم ولا يزكيهم ولهم عذاب أليم » : (ثلاثة) : يعني ثلاثة أصناف ليس المقصود ثلاثة رجال ، وإنما قد يكونون أممًا عظيمة اتصفوا بهذه الأوصاف :

أولهم : رجل على فضل ماء في فلاة يمنعه ابن السبيل ؛ يعني إنسان عنده ماء من مزرعة أو بئر أو غير ذلك ، في أرض فلاة خالية من السكان يمر الناس من عنده ليشربوا فيمنعهم والعياذ باللَّه ، هذا لا يكلمه اللَّه يوم القيامة ، ولا ينظر إليه ، ولا يزكيه ، وله عذاب أليم . وما بالك بحال رجل هذا حاله لا يكلمه اللَّه يوم القيامة ، ولا ينظر إليه ، ولا يزكيه ، وله عذاب أليم يوم القيامة .

والثاني : رجل باع سلعة بعد العصر ، فحلف للمشتري أنه أعطى كذا وكذا وهو كاذب ، فاشتراها المشتري بناء على ما قاله البائع أنه صدق والأمر ليس كذلك ، فهذا أيضًا لا يكلمه اللَّه يوم القيامة ، ولا ينظر إليه ، ولا يزكيه ، وله عذاب أليم ، وذكر النبي ﷺ العصر ؛ لأن أفضل أوقات النهار ما بعد صلاة العصر وإلا فلو حلف الإنسان على سلعة في غير هذا الوقت أيضًا ؛ فإنه لا يكلمه اللَّه ، ولا ينظر إليه ، ولا يزكيه ، وله عذاب أليم . ففي حديث أبي ذر الذي رواه مسلم : أن النبي ﷺ قال : « ثلاثة لا يكلمهم اللَّه يوم القيامة ، ولا ينظر إليهم ، ولا يزكيهم ، ولهم عذاب أليم » قالها ثلاثًا ، فقال أبو ذر : من هم يا رسول اللَّه خابوا وخسروا ؟ قال : « المسبل » : يعني الذي يسبل ثوبه ينزله على الكعب حتى يجره علىالأرض .

والثاني : « المنان » ، الذي يمن على الناس ، إذا أعطاهم مالًا أو علمهم أو أحسن إليهم بشيء ، جعل يمن عليهم والعياذ باللَّه .

والثالث : « المنفق سلعته بالحلف الكاذب » [1] يعني الذي يحلف وهو كاذب ليزيد ثمن السلعة ؛ فدل ذلك على أن ذكر وقت العصر في حديث أبي هريرة إنما هو لشدة العذاب والوعيد . وإلا فكل من حلف على سلعة وهو كاذب من أجل أن يزيد ثمنها فإنه لا يكلمه اللَّه ولا ينظر إليه ولا يزكيه وله عذاب أليم .

والثالث في حديث أبي هريرة : رجل بايع إمامًا لا يبايعه إلا للدنيا ، إن أعطاه له بالبيعة ، وإن لم يعطه لم يف بالبيعة ، هذا أيضًا من الذين لا يكلمهم اللَّه يوم القيامة ، ولا ينظر إليهم ، ولا يزكيهم ، ولهم عذاب أليم ، وذلك أن بيعة الإمام واجبة ، يجب على كل مسلم أن يكون له إمام ، سواء كان إمامًا عامًّا كما كان في عهد الخلفاء الراشدين ومن بعدهم من الخلفاء ، أو إمامًا في منطقته كما هو الحال الآن . ومنذ أزمنة بعيدة من زمن الأئمة الأربعة ومن بعدهم ، والمسلمون متفرقون ، كل جهة لها إمام ، وكل إمام مسموع له ومطاع بإجماع المسلمين ، لم يقل أحد من المسلمين : أنه لا تجب الطاعة إلا إذا كان الخليفة واحدًا لجميع بلاد الإسلام ، ولا يمكن أن يقول أحد بذلك ؛ لأنه لو قيل بهذا ما

---

(١) سبق تخريج الحديث .

بقى للمسلمين الآن إمام ولا أمير ، ولمات الناس كلهم ميتة جاهلية ؛ لأن الإنسان إذا مات وليس له إمام ؛ فإنه يموت ميتة جاهلية يحشر مع أهل الجهل - والعياذ بالله - الذين كانوا قبل الرسالات ، فالإمام في مكان وفي كل منطقة بحسبها .

فهذا الرجل بايع الإمام لكنه بايعه للدنيا لا للدين ولا لطاعة رب العالمين إن أعطاه من المال وفي ، وإن منعه لم يف ، فيكون هذا الرجل - والعياذ بالله - متبعًا لهواه غير متبع لهداه ولا طاعة لمولاه ؛ بل هو بنى بيعته على الهوى .

قد يقول قائل مثلًا : نحن لم نبايع الإمام فليس كل واحد بايعه ؟

فيقال : هذه شبهة شيطانية باطلة ؛ هل الصحابة ﷺ حين بايعوا أبا بكر هل كل واحد منهم بايع ، حتى العجوز في بيتها ، واليافع في سوقه ؟! أبدًا المبايعة لأهل الحل والعقد ، ومتى بايعوا ثبتت الولاية على كل أهل هذه البلاد شاء أم أبى ، و لا أظن أحدًا من المسلمين بل و لا من العقلاء يقول : إنه لا بد أن يبايع كل إنسان ولو في حجر بيته ، ولو عجوزًا أو شيخًا كبيرًا أو صبيًّا صغيرًا ! ما قال أحد بهذا ، حتى الذين يدعون الديمقراطية في البلاد الغربية وغيرها لا يفعلون هذا - وهم كاذبون - حتى انتخاباتهم كلها مبنية على التزوير والكذب ولا يبالون أبدًا إلا بأهوائهم فقط . الدين الإسلامي متى اتفق أهل الحل والعقد على مبايعة الإمام فهو الإمام شاء الناس أم أبوا ، فالأمر كله لأهل الحل والعقد ، ولو جُعل الأمر لعامة الناس حتى للصغار والكبار والعجائز والشيوخ وحتى من ليس له رأي ويحتاج أن يُولي عليه ما بقي للناس إمام ؛ لأنهم لا بد أن يختلفوا .

المهم هذه ثلاثة أشياء : إذا صارت في الإنسان ؛ فإن الله لا يكلمه يوم القيامة ، ولا ينظر إليه ، ولا يزكيه ، وله عذاب أليم .

وفي هذا الحديث دليل على ثبوت كلام الله ﷻ كما هو مذهب أهل السنة والجماعة : أن الله يتكلم كما شاء وبما شاء ومتى شاء لا أحد يعجزه ولا يمتنع عليه شيء ﴿ إِنَّمَآ أَمۡرُهُۥٓ إِذَآ أَرَادَ شَيۡـًٔا أَن يَقُولَ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ ﴾ [يس : ٨٢] ﴿ وَمَا كَانَ ٱللَّهُ لِيُعۡجِزَهُۥ مِن شَيۡءٖ فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَلَا فِي ٱلۡأَرۡضِۚ إِنَّهُۥ كَانَ عَلِيمٗا قَدِيرٗا ﴾ [فاطر : ٤٤] .

فقوله : « لا يكلمهم الله » دليل على أنه يكلم غيرهم وهو كذلك ، وفيه أن الله ينظر نظرين : الأول العام : فإنه لا يخفى على نظره شيء - جل وعلا - يرى كل شيء . والثاني الخاص : وهو نظر الرحمة ، وهو المعني في الحديث ، فإن الله لا ينظر إليهم نظر رحمة .

وفيه أيضًا دليل على أن الله هو المزكي للعباد كما قال الله تعالى : ﴿ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ يُزَكِّي مَن يَشَآءُۗ ﴾ [النور : ٢١] فالمزكِي للأمور وللأشخاص وللأعمال هو رب العالمين ﷻ ، فأسأل الله تعالى أن يجعلنا وإياكم ممن زكاه ربه إنه على كل شيء قدير .

* * *

١٨٣٦ - وَعَنْهُ عَنِ النَّبِيِّ ﷺ قَالَ : « بَين النَّفْخَتَينِ أَرْبَعُونَ » قَالُوا : يَا أَبَا هُرَيرَةَ ، أَرْبَعُونَ يَومًا ؟ قَالَ : أَبَيتُ ، قَالُوا : أَرْبَعُونَ سَنَةً ؟ قَالَ : أَبَيتُ . قالُوا : أَرْبَعُون شَهْرًا ؟ قَالَ : أَبَيتُ . « وَيَبْلَى كُلُّ شَيءٍ مِنَ الإِنْسَان إلا عَجْبَ الذَّنَب ، فِيه يُرَكَّبُ الْخَلْقُ ، ثُمَّ يُنَزِّلُ اللَّهُ مِنَ السَّمَاءِ مَاء ، فَيَنْبُتُونَ كَمَا يَنْبتُ الْبَقْلُ » [١] مُتَّفَقٌ عَلَيهِ .

١٨٣٧ - وَعَنْهُ قَالَ : بَينَمَا النَّبِيُّ ﷺ في مَجْلِسٍ يُحدِّثُ الْقَومَ ، جَاءَهُ أَعْرَابِيٌّ فَقَالَ : مَتى السَّاعَةُ؟ فَمَضَى رَسُولُ ﷺ ، يُحَدِّثُ ، فَقَالَ بَعْضُ الْقَوم : سَمِعَ مَا قَالَ ، فَكَرِهَ ما قالَ ، وَقَالَ بَعْضُهُم : بَلْ لَمْ يَسْمَعْ ، حَتَّى إذَا قَضَى حَدِيثَه قَالَ : « أينَ السَّائِلُ عَنِ السَّاعَةِ ؟ » قَالَ : هَا أَنَا يَا رَسُولَ اللَّهِ . قَالَ : « إذَا ضُيِّعَتِ الأَمَانَةُ ، فَانْتَظِر السَّاعَةَ » قَالَ : كَيفَ إضَاعَتُهَا ؟ قَالَ : « إِذَا وُسِّدَ الأَمْرُ إلى غَيرِ أَهْلِهِ فَانْتَظِر السَّاعَةَ » [٢] رَوَاهُ البُخَاري .

١٨٣٨ - وَعَنْهُ أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ قَالَ : « يُصَلُّونَ لَكُم ، فإِنْ أَصَابُوا فَلَكُمْ ، وَإِنْ أَخْطَأُوا فَلَكُمْ وَعَلَيهِمْ » [٣] رواهُ البُخاري .

١٨٣٩ - وَعَنْهُ ﷺ : ﴿ كُنتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ ﴾ قَالَ : خَير النَّاسِ لِلنَّاسِ يَأْتُونَ بِهِمْ في السَّلاسِلِ في أَعْنَاقِهِمْ حَتى يَدْخُلُوا في الإِسْلام [٤] .

١٨٤٠ - وَعَنْهُ عَنِ النَّبِيِّ ﷺ قَالَ : « عَجِبَ اللَّهُ ﷻ مِنْ قَومٍ يَدْخُلُونَ الْجَنَّةَ في السَّلاَسِل » [٥] رواهُما البُخاري .

معناهُ : يُؤْسَرُونَ وَيُقَيَّدُونَ ، ثُم يُسْلِمُونَ ، فَيَدْخُلُونَ الْجَنَّةَ .

الشرح

هذه أحاديث أربعة عن أبي هريرة ﷺ أنه سمع النبي ﷺ يقول : « بين النفختين أربعون » : يعني النفخ في الصور ، والصور مُوكل به ملك من الملائكة يسمى (إسرافيل) هذا الصور ينفخُ فيه أولَ مرة

---

(١) أخرجه البخاري في تفسير القرآن (٤٨١٤) ، ومسلم في الفتن وأشراط الساعة (١٤١) . قوله : « أبيت » أي لا أستطيع أن أجزم إن كان المراد أربعين يومًا أو شهرًا أو سنة ، بل الذي أجزم به أنها أربعون ، قوله : « عجب ذنبه » هو العظم الرقيق الذي في أسفل الصلب والذي يقال له : رأس العصعص ، وهو أول ما يخلق من الإنسان ، وهو الذي يبقى منه ليعاد تركيب الخلق عليه ، قوله : « البقل » هو كل نبات اخضرت به الأرض .

(٢) أخرجه البخاري في العلم (٥٩) ، وأحمد في مسنده (١٠٤/٣) ، والبيهقي في السنن (١١٨/١٠) . قوله : « مضى » أي استمر . قوله : « وسد » أي جعل .

(٣) أخرجه البخاري في الأذان (٦٩٤) ، والبيهقي في السنن (٣٩٧/٢) .

(٤) أخرجه البخاري في تفسير القرآن (٤٥٥٧) .

(٥) أخرجه البخاري في الجهاد والسير (٣٠١٠) ، وأحمد في مسنده (٤٥٧/٢) بنحوه . قوله « عجب اللَّه » أي رضي عليهم وأكرمهم .

فيفزع الناس لهوله وشدته ثم يصعقون كلهم - أي يموتون - كما قال الله تعالى : ﴿ وَيَوْمَ يُنفَخُ فِي ٱلصُّورِ فَفَزِعَ مَن فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَن فِي ٱلْأَرْضِ إِلَّا مَن شَآءَ ٱللَّهُ وَكُلٌّ أَتَوْهُ دَٰخِرِينَ ﴾ (١) [النمل: ٨٧] وقال تعالى : ﴿ وَنُفِخَ فِي ٱلصُّورِ فَصَعِقَ مَن فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَن فِي ٱلْأَرْضِ إِلَّا مَن شَآءَ ٱللَّهُ ثُمَّ نُفِخَ فِيهِ أُخْرَىٰ فَإِذَا هُم قِيَامٌ يَنظُرُونَ ﴾ [الزمر: ٦٨] فالنفخة الأولى يكون بها الفزع والصعق يعني الموت والفناء ، والنفخة الثانية يكون فيها القيام ﴿ فَإِذَا هُم قِيَامٌ يَنظُرُونَ ﴾ قيام من قبورهم ينظرون ماذا حدث ، وذلك أن الله تعالى يرسل عليهم قبل ذلك مطرًا غليظًا كمني الرجال ، ثم ينبتون في قبورهم كما ينبت حمى السيل - يعني حبة تنبت في الأرض ثم تخرج - وهم كذلك ينبتون ، ثم ينفخ في الصور النفخةَ الثانية فيخرج من هذا الصور كلُّ نفوس العالم بإذن الله ، وتذهب كل نفس إلى جسدها الذي كانت تعمره في الدنيا لا تخطئه .. سبحان الله !. بينهما أربعون ، قيل لأبي هريرة : أربعون يومًا ؟ قال : أبيت - يعني لا يدري - قالوا : أربعون سنة ؟ قال : أبيت . قالوا : أربعون شهرًا ؟ قال : أبيت . قال النبي ﷺ : بينهما أربعون . فنقول كما قال الرسول ﷺ ، والله أعلم .

المهم : أن هذا هو نفخ الصور ، ثم يقوم الناس إلى يوم الحساب لرب العالمين فيحاسبهم : كل يحاسب بذنبه . وحسابه ﷻ دائر ما بين الفضل والعدل لا ظلم فيه ، لأن المحاسبة إما ظلم أو عدل أو فضل ، وحسابه ﷻ دائر ما بين الفضل والعدل قال الله ﷻ ﴿ فَٱلْيَوْمَ لَا تُظْلَمُ نَفْسٌ شَيْـًٔا وَلَا تُجْزَوْنَ إِلَّا مَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴾ [يس: ٥٤] .

أما الحديث الثاني : حديث الأعرابي الذي جاء إلى النبي ﷺ قال : متى الساعة ؟ وكان النبي ﷺ يتحدث إلى أصحابه ، فمضى في حديثه لم يحب أن يقطعه ﷺ وكأنه - والله أعلم - حديث متواصل . فقال قوم : سمع ما قال فكرهه . والإنسان إذا كره سؤال السائل فلا حرج عليه ألا يجيبه ، حتى ولو سمعه ؛ لأنه قد يكون السائل ليس عنده حكمة فيسأل سؤالًا غير مناسب ، فللمُجيب أن يدعه ولا يجيب . وقال آخرون : لعله لم يسمعه . فلما قضى النبي ﷺ حديثه قال : « أين السائل ؟ » قال : أنا يا رسول الله . قال : « إذا وسد الأمر إلى غير أهله فانتظر الساعة » يعني إذا فسد الناس وكانت الأمور تسند إلى غير أهلها ، الفتوى تسند للجاهل ، والإمارة تسند للسفيه ، والإدارة تسند لمن لا علم عنده بالإدارة ... وهكذا .

والخلاصة : أنه إذا فسد الناس فانتظر الساعة ، لأن الساعة تقوم على شرار الخلق (٢) ، ففي هذا التحذير من تضييع الأمانة ، وأنه يجب أن يولي المناصب الأهل فالأهل ؛ لأن هذا مقتضى الأمانة .

أما الحديث الثالث : فهو أن النبي ﷺ أخبر أن هناك أئمة - يعني أمراء - يصلون لكم فإن أحسنوا فلكم ولهم ، وإن أساءوا فلكم وعليهم . وهذا وإن كان في الأمراء يشمل أيضًا أئمة المساجد .

---

(١) قوله : ﴿ فَفَزِعَ ﴾ أي خاف خوفًا يستتبع الموت . قوله : ﴿ دَٰخِرِينَ ﴾ أي أذلاء صاغرين .

(٢) وذلك مصداقًا لما أخرجه مسلم في الفتن (١٣١) ، وابن ماجه في السنن (٤٠٣٩) ، وأحمد في مسنده (١/٤٣٥) ، والحاكم في المستدرك (٤/٤٥٦) .

(يصلون لكم) فإن أحسنوا في الصلاة وأتوا بها على ما ينبغي ؛ فذلك لكم ولهم ، وإن أساؤوا ؛ فلكم وعليهم – يعني ليس عليكم أنتم من إساءتهم من شيء ، وفي هذا إشارة إلى أنه يجب الصبر على ولاة الأمر – وإن أساؤوا في الصلاة ، وإن لم يصلوها على وقتها – فإن الواجب ألا نشذ عنهم ، وأن نؤخر الصلاة كما يؤخرون ، وحينئذ يكون تأخيرنا للصلاة عن أول وقتها يكون تأخيرًا بعذر ، لأجل موافقة الجماعة وعدم الشذوذ ، ويكون بالنسبة لنا كأننا صلينا في أول الوقت .

وفي هذا إشارة على أن الشذوذ عن الناس وعن ولاة الأمور والبعد عنهم وإثارة الناس عليهم ونشر مساوئهم ؛ كل هذا مجانب للدين الإسلامي ، فالدين يأمر بالخير والعدل وينهي عن الشر والفساد ، حتى إن الله قال : ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ كُونُواْ قَوَّٰمِينَ لِلَّهِ شُهَدَآءَ بِٱلْقِسْطِ ﴾ [المائدة : ٨] إذا ذكرت سيئة فاذكر الحسنة أما أن تسعد بذكر السيئات وتجحد الحسنات ، فهذا جور وظلم والله ﷻ لا يحب الظلم ﴿ وَلَا يَجْرِمَنَّكُمْ شَنَـَٔانُ قَوْمٍ عَلَىٰٓ أَلَّا تَعْدِلُواْ ٱعْدِلُواْ هُوَ أَقْرَبُ لِلتَّقْوَىٰ ﴾ [المائدة : ٨] أي : لا يحملكم بغض قوم على عدم العدل ، بل اعدلوا هو أقرب للتقوى . فهؤلاء الذين يصلون ويؤخرون الصلاة عن وقتها نصلي معهم ويكون لنا الأجر وإن كان التأخير فيه وزر فعلى المؤخرين ...

أما الحديث الرابع : لأبي هريرة : « عجب الله لقوم يقادون إلى الجنة بالسلاسل » وفسره المؤلف رحمه الله بأنهم قوم من الكفار يؤسرون ثم يسلمون فيكون هذا الأسر سببًا في إسلامهم ودخولهم الجنة ... والله الموفق .

* * *

١٨٤١ – وعَنْهُ عَن النَّبيِّ ﷺ قَالَ : « أَحَبُّ الْبِلادِ إلى اللَّهِ مَسَاجِدُهَا ، وَأَبْغَضُ الْبِلادِ إلى اللَّهِ أَسْواقُها » [(١)] رَوَاه مُسلم .

١٨٤٢ – وَعَنْ سَلْمَانَ الْفَارِسِيِّ رضي الله عنه مِنْ قَولِهِ : قَالَ : لا تَكُونَنَّ إنِ استطَعْتَ أَوَّلَ مَنْ يَدْخُلُ السُّوق ، ولَا آخِر مَنْ يَخْرُجُ مِنْهَا ؛ فَإِنَّهَا مَعْرَكَةُ الشَّيطَانِ ، وبِهَا يَنْصِبُ رَايَتَهُ . رواهُ مسلم هكذا .

وَرَوَاهُ البَرْقَاني في صحيحه عَنْ سَلْمَانَ قَالَ : قَالَ رَسُول اللَّه ﷺ : « لا تَكُن أَوَّل مَنْ يَدْخُلُ السُّوق ، وَلا آخر مَنْ يَخْرُجُ مِنْهَا ، فِيها بَاضَ الشَّيطانُ وَفَرَّخَ » [(٢)] .

١٨٤٣ – وعَنْ عَاصِمِ الأَحْوَل عَنْ عَبْدِ اللَّه بْن سَرْجِسَ رضي الله عنه قَالَ : قُلْتُ لِرسُول اللَّهِ ﷺ : يَا رَسُول اللَّهِ ، غَفَرَ اللَّهُ لَكَ ، قالَ : « وَلَكَ » قَالَ عَاصِمٌ : فَقُلْتُ لَهُ : أَسْتَغْفَرَ لَكَ رَسُولُ اللَّه ﷺ ؟ قَالَ : نَعَمْ

---

(١) أخرجه مسلم في المساجد ومواضع الصلاة (٢٨٨) ، والبيهقي في السنن (٦٥/٣) .

(٢) أخرجه مسلم في فضائل الصحابة (١٠٠) ، والطبراني في الكبير (٣٠٩/٦) . قوله « فإنها معركة الشيطان » أي إنها لكثرة ما يقع فيها من أنواع الباطل والغش والخداع والأيمان الكاذبة والعقود الفاسدة والبيع على بيع الأخ وبخس المكيال والميزان ؛ لذا شبهت السوق بموضع قتال الشيطان ؛ لأنه هو الذي يسول للإنسان كل هذه الأمور ، قوله « وبها ينصب رايته » أي أنه يثبت هناك ويجتمع أعوانه إليه للتحريش بين الناس على هذه المفاسد ، قوله « باض الشيطان وفرخ » الكلام مجاز عن كون السوق محلًا للمعاصي من الغش والخداع وغيرها .

وَلَكَ ، ثُمَّ تَلَا هَذِهِ الآية : ﴿ وَٱسْتَغْفِرْ لِذَنۢبِكَ وَلِلْمُؤْمِنِينَ وَٱلْمُؤْمِنَٰتِ ﴾ [محمد : ١٩] [(١)] ، رَوَاهُ مُسلم .

١٨٤٤ - وَعَنْ أَبِي مَسْعُودٍ الأَنْصاريِّ ﷺ قَالَ : قَالَ النَّبيُّ ﷺ : « إِنَّ مِمَّا أَدْرَكَ النَّاسُ مِنْ كَلَامِ النُّبوةِ الأُولى : إِذَا لَمْ تَسْتَحِ فَاصْنَعْ مَا شِئْتَ » [(٢)] رواهُ البُخَاري .

الشرح

هذه الأحاديث من الأحاديث المنثورة التي ذكرها النووي رحمه الله ومنها حديث أبي هريرة : أن النبي ﷺ قال : « أحب البقاع إلى اللَّه مساجدها ، وأبغض البقاع إلى اللَّه أسواقها » أو قال « البلاد » .

فالمساجد مساجد اللَّه ﷻ ، ولهذا أضافها اللَّه إلى نفسه فقال : ﴿ وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّن مَّنَعَ مَسَٰجِدَ ٱللَّهِ أَن يُذْكَرَ فِيهَا ٱسْمُهُۥ ﴾ [البقرة : ١١٤] وقال تعالى : ﴿ فِى بُيُوتٍ أَذِنَ ٱللَّهُ أَن تُرْفَعَ وَيُذْكَرَ فِيهَا ٱسْمُهُۥ يُسَبِّحُ لَهُۥ فِيهَا بِٱلْغُدُوِّ وَٱلْءَاصَالِ ۝٣٦ رِجَالٌ لَّا تُلْهِيهِمْ تِجَٰرَةٌ وَلَا بَيْعٌ عَن ذِكْرِ ٱللَّهِ وَإِقَامِ ٱلصَّلَوٰةِ وَإِيتَآءِ ٱلزَّكَوٰةِ يَخَافُونَ يَوْمًا تَتَقَلَّبُ فِيهِ ٱلْقُلُوبُ وَٱلْأَبْصَٰرُ ﴾ [النور : ٣٦، ٣٧] فالمساجد أحب البقاع إلى اللَّه ؛ لأنها محل ذكره وعبادته وقراءة شرعه وغير ذلك من مصالح الدنيا والدين ، ولهذا كان بذل المال فيها من أفضل أنواع البذل ، والبذل فيها من الصدقة الجارية ، وهي أفضل من أن يجعل الإنسان ماله في أضحية أو عشاء أو ما أشبه ذلك ، فإذا جعل ماله في بناء المساجد وعمارتها كان ذلك أفضل ؛ لأن المساجد صدقة جارية باقية عامة كل المسلمين ينتفع بها المصلون والدارسون والمتعلمون والمعلمون والذين آواهم البرد أو الحر إلى المساجد ... إلى غير ذلك .

أما الأسواق : فإنها مأوى الشياطين ؛ فيها باض الشيطان وفرخ - والعياذ باللَّه - ونصب رايته وخيمته ؛ لأن أسواق البيع والشراء الغالب فيها - إلا ما شاء اللَّه - الكذب والغش والخيانة والحلف وما أشبه ذلك ، فلهذا كانت أبغض البلاد إلى اللَّه ﷻ ، وفي هذا الحديث إثبات الحب والبغض لله ﷻ أي أن اللَّه يحب ويبغض ، ومن أصول أهل السنة والجماعة أننا نؤمن بذلك ونقول : إن اللَّه تعالى يحب ويبغض ، وهو ﷻ موصوف بصفات الكمال ، وأنه لا يحب إلا ما فيه الخير والصلاح ، ولا يبغض إلا الشر والخبائث ، وينبغي أيضًا كما جاء في حديث سلمان ألا يكون أول من يدخلها ولا آخر من يخرج منها ، لأنها أبغض البلاد إلى اللَّه ويحصل فيها اختلاط بين الرجال والنساء والنظرات المحرمة ، والكلام المحرم وما أشبه ذلك .

أما حديث عبد اللَّه بن سرجس ﷺ : فهو أنه سأل النبي ﷺ أن يستغفر له ، فأجابه النبي ﷺ ، قال : استغفر لي يا رسول . فأجابه . وفي هذا دليل على أن النبي ﷺ ليس كغيره - أي يسأل منه الدعاء - أن إنسانًا يقول له : يا رسول اللَّه ، استغفر لي وهذا في حياته ، أما بعد موته فلا يجوز ، فمن

---

(١) أخرجه مسلم في الفضائل (٢١١٠) قوله « نعم ولك » أي وأستغفر لك أيضًا ، وذلك لأنه أمر بذلك كما تنص الآية .

(٢) أخرجه البخاري في الأدب (٦١٢٠) ، وأحمد في مسنده (١٢١/٤) ، والبيهقي في السنن (١٩٢/١٠) والطبراني في الكبير (٢٣٠/١٧) . قوله « مما أدرك » أي مما وصل إليهم عنه وظفروا به . قوله « النبوة الأولى » أي النبوة المتقدمة على نبوة نبينا محمد ﷺ . قوله « إذا لم تستح » أي إذ نزع منك الحياء فافعل ما شئت .

سأل الرسول أن يستغفر له بعد وفاته فهو مشرك كافر، أما في حياته فلا بأس، وقد أمر اللَّه نبيه أن يستغفر لذنبه وللمؤمنين والمؤمنات فقال: ﴿ وَٱسْتَغْفِرْ لِذَنْبِكَ وَلِلْمُؤْمِنِينَ وَٱلْمُؤْمِنَٰتِ ﴾ [غافر: ٥٥] والمغفرة هي أن اللَّه تعالى يستر العبد ولا يُطلع الناس على ذنبه ويعفو عنه ويتجاوز عنه؛ لأنها مأخوذة من الستر والوقاية وهو المغفرة.

* * *

١٨٤٥ - وَعَنِ ابْنِ مَسْعُودٍ ﷺ قَالَ: قَالَ النَّبِيُّ ﷺ: «أَوَّلُ مَا يُقْضى بَيـنَ النَّاسِ يَومَ الْقِيامَةِ في الدِّمَاءِ» (١) مُتَّفَقٌ عَلَيهِ.

١٨٤٦ - وَعَنْ عَائِشَةَ ﷺ قَالَتْ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «خُلِقَتِ الملَائِكَةُ مِنْ نُورٍ، وَخُلِقَ الجَانُّ مِنْ مَارِجٍ مِنْ نَارٍ، وَخُلِقَ آدَمُ مِمَّا وُصِفَ لَكُمْ» (٢) رواهُ مسلم.

١٨٤٧ - وَعَنْهَا ﷺ قَالَتْ: «كَانَ خُلُقُ نَبِيِّ اللَّهِ ﷺ الْقُرْآنَ» (٣) رواهُ مُسْلِم في جُمْلَةِ حَدِيثٍ طَويلٍ.

١٨٤٨ - وَعَنْهَا قَالَتْ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «مَنْ أَحَبَّ لِقَاءَ اللَّهِ، أَحَبَّ اللَّهُ لِقَاءَهُ، وَمَنْ كَرِهَ لِقَاءَ اللَّهِ، كَرِهَ اللَّهُ لِقَاءَهُ» فَقُلْتُ: يَا رَسُولَ اللَّهِ، أَكَرَاهِيَةُ المَوتِ؟ فَكُلُّنَا نَكْرَهُ المَوتَ! قَالَ: «لَيسَ كَذلِكَ، وَلكِنَّ المُؤْمِنَ إذَا بُشِّرَ بِرَحْمَةِ اللَّهِ وَرِضْوَانِهِ وَجَنَّتِهِ أَحَبَّ لِقَاءَ اللَّهِ، فَأَحَبَّ اللَّهُ لِقاءَهُ. وإنَّ الْكَافِرَ إذاَ بُشِّرَ بِعَذابِ اللَّهِ وَسَخَطِهِ، كَرِهَ لِقَاءَ اللَّهِ، وَكَرِهَ اللَّهُ لِقَاءَهُ» (٤) رواهُ مسلم.

الشرح

هذه الأحاديث من الأحاديث المنثورة التي ذكرها النووي رحمه الله ومنها: حديث عبد اللَّه بن مسعود ﷺ أن النبي ﷺ قال: «أول ما يقضي بين الناس يوم القيامة في الدماء» وذلك أن اللَّه تعالى يفصل يوم القيامة بين العباد ويحكم بينهم، أما فيما بينهم وبين اللَّه، فحكمه دائر بين العدل والفضل: إما أن يجازي بالعدل، وإما بالفضل، وأما فيما بين الناس بعضهم مع بعض: فيجازي بالعدل، فكل إنسان منهم يعطى حقه بدون نقص ولا زيادة، فأول ما يحاسب عليه العبد من حقوق اللَّه الصلاة، فإن كان أحسنها فقد أفلح وأنجح، وإن كان قد ضيعها فهو لما سواها أضيع (٥)؛ لأن

(١) أخرجه البخاري في الديات (٦٨٦٤)، ومسلم في القسامة (٢٨)، والنسائي في السنن (٨٤/٧)، وأحمد في مسنده (٤٨٨/١).

(٢) أخرجه مسلم في الزهد والرقائق (٦٠)، وأحمد في مسنده (١٥٣/٦)، والبيهقي في السنن (٣/٩). قوله «مارج» أي لهب مختلط بسواد النار.

(٣) أخرجه مسلم في صلاة المسافرين (١٣٩)، وأحمد في مسنده (١٦٣/٦)، والبيهقي في السنن (٤٩٩/١).

(٤) أخرجه مسلم في الذكر والدعاء (١٥)، والبخاري في الرقاق (٦٥٠٧)، وأحمد في مسنده (٣١٣/٢)، وابن ماجه في الزهد (٤٢٦٤) قوله «كره اللَّه لقاءه» أي أبعده عن رحمته وكرامته.

(٥) وذلك مصداقًا لما رواه النسائي في السنن (٢٣٤/١)، وابن ماجه في الصلاة (١٤٢٦)، وأحمد في مسنده (٦٥/٤).

من ضيع الصلاة فلا آمر له بالمعروف ولا ناهي له عن المنكر كما قال تعالى : ﴿ ٱتْلُ مَآ أُوحِىَ إِلَيْكَ مِنَ ٱلْكِتَٰبِ وَأَقِمِ ٱلصَّلَوٰةَ ۖ إِنَّ ٱلصَّلَوٰةَ تَنْهَىٰ عَنِ ٱلْفَحْشَآءِ وَٱلْمُنكَرِ ۗ ﴾ [العنكبوت : ٤٥] أما فيما بين العباد فأول ما يقضي بينهم في الدماء - القتل - ثم الأموال والأعراض .

والقتل تارة يكون بحق وتارة يكون بغير حق ، والمقصود بذلك القتل بغير حق ، فهذا هو أول ما يقضى فيه الناس يوم القيامة .

وفي هذا الحديث إثبات القضاء يوم القيامة وأنه حق ، وأنه لابد أن يعطي كل مظلوم مظلمته ، لكن ها هنا مسألة وهي : يأتي إنسان إلى شخص يكون قد ظلمه بغيبة أو قذف أو ما أشبه ذلك ثم يطلب منه السماح بعد أن تاب إلى اللَّه وندم فيقول لصاحب الحق : اسمح لي أنا مذنب وأنا الآن أستغفر اللَّه وأتوب إليه ، فاسمح لي ويعتذر ، ولكن صاحب الحق لا يقبل ! فهنا نقول : إذا علم اللَّه من العبد صحة التوبة ؛ فإن اللَّه تعالى يتحمل عنه حق هذا الآدمي الذي أبى أن يسامحه ، ومثل ذلك أيضًا المال ، لو أن إنسانًا كان بينك وبينه مشاجرة وجحدتَ ماله ، وكان في ذمّتك له مال ، لكنك جحدته ثم بعد ذلك تبتَ إلى اللَّه وأقررت به ، وذهبت إليه وقلت : يا فلان أنا جحدتك حقك في الأول ، والآن أنا تائب إلى اللَّه ونادم خذ مالك . ولكنه قال : بيني وبينك يوم القيامة : فهنا نقول : إذا علم اللَّه من نيتك أنك صادق في التوبة ؛ فإن اللَّه يتحمل عنك الإثم - يعني يُرْضي صاحبك - لكن تصدق بهذا المال عنه حتى تبرأ ذمتك منه .

فمثلًا إذا كان حقه مائة ريال ، ثم جئت إليه بعد أن ندمت واستغفرت وقلت له خذ هذه الدراهم - مائة ريال - قال : لا ، أريدها من عملك الصالح يوم القيامة وأبى ، فحينئذ نقول : إذا علم اللَّه من نيتك أنك صادق ؛ فإنك لا تأثم ، ويزول عنك الإثم ، لكن هذه المائة تَصَدَّقْ بها عن صاحبك تخلُّصًا منها .

أما الحديث الثاني : فحديث عائشة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا : أن النبي ﷺ أخبر عن بدء الخلق ، فذكر ﷺ أن الملائكة خُلقوا من النور ، ولذلك كانوا كلهم خيرًا ، لا يعصون اللَّه ، ولا يستكبرون عن عبادته ولا يستحسرون ، يسبحون الليل والنهار لا يفترون ، فالملائكة خلقوا من نور ، أما الشياطين - الجن - فقال : إنهم خلقوا من نار . وفي هذا دليل على أن الجن هم ذرية الشيطان الأكبر الذي أبى أن يسجد لآدم وقال : ﴿ أَنَا۠ خَيْرٌ مِّنْهُ خَلَقْتَنِى مِن نَّارٍ وَخَلَقْتَهُۥ مِن طِينٍ ﴾ [الأعراف : ١٢] فالجن كلهم مخلوقون من النار ، ولهذا كثير منهم الطيش والعبث والعدوان على كل من يستطيعون العدوان عليه ، لكن اقرأ آية الكرسي في ليلك فلا يزال عليك من اللَّه حافظ ولا يقربك الشيطان حتى تصبح .

« وخلق آدم مما ذكر لكم » : يعني خلق من طين ، من تراب ، من صلصال كالفخار ؛ لأن التراب صار طينًا ثم صار فخارًا ، فخلق منه آدم - عليه الصلاة والسلام - ولهذا قال اللَّه تعالى ﴿ مِنْهَا خَلَقْنَٰكُمْ وَفِيهَا نُعِيدُكُمْ وَمِنْهَا نُخْرِجُكُمْ تَارَةً أُخْرَىٰ ﴾ .

وحديثها الثاني رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا : قالت : « كان خلق النبي ﷺ القرآن » يعني أنه يتخلّق بأخلاق القرآن ،

ما أمر به القرآن قام به ، وما نهى عنه القرآنُ اجتنبه ، سواء كان ذلك في عبادات اللَّه أو في معاملة عباد اللَّه ، فخُلق النبي ﷺ القرآن ، وفي هذا إشارة من أم المؤمنين عائشة رضي الله عنها أننا إذا أردنا أن نتخلَّق بأخلاق الرسول ﷺ فعلينا أن نتخلَّق بالقرآن ؛ لأن هذا هو أخلاق النبي ﷺ .

حديثها الثالث رضي الله عنها : أن النبي ﷺ قال : « من أحب لقاء اللَّه أحب اللَّه لقاءه ، ومن كره لقاء اللَّه كره اللَّه لقاءه » فقالت عائشة رضي الله عنها أكراهية الموت يا رسول ، فكلنا يكره الموت ؟! قال : « ليس كذلك » فأخبر النبي ﷺ أن الإنسان إذا أحب لقاء اللَّه أحب اللَّه لقاءه ، وذلك أن المؤمن يؤمن بما أعد اللَّه للمؤمنين في الجنة من الثواب الجزيل والعطاء العميم الواسع ، فيحب ذلك وترخص عليه الدنيا ولا يهتم بها ؛ لأنه سوف ينتقل إلى خير منها فحينئذ يحب لقاء اللَّه ولاسيما عند الموت إذا بُشِّر بالرضوان والرحمة ؛ فإنه يحب لقاء اللَّه عز وجل ويتشوَّق إليه فيحب اللَّه لقاءه .

أما الكافر والعياذ باللَّه : فإنه إذا بُشِّر بعذاب اللَّه وسخطه كره لقاء اللَّه ، فكره اللَّه لقاءه ، ولهذا جاء في حديث المحتضر : إن نفس الكافر إذا بُشرت بالغضب والسخط تفرقت في جسده وأَبَتْ أن تخرج [1] ، ولهذا تُنزع النفس - روح الكافر - من جسده كما ينزع الشعر من السَّفود المبلول ، بمعنى : أنه يُكْرَه على أن تخرج روحه ، وذلك لأنه يبشَّر - والعياذ باللَّه - بالشر ، ولهذا قال اللَّه تعالى ﴿ وَلَوْ تَرَىٰٓ إِذِ ٱلظَّٰلِمُونَ فِى غَمَرَٰتِ ٱلْمَوْتِ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةُ بَاسِطُوٓا۟ أَيْدِيهِمْ أَخْرِجُوٓا۟ أَنفُسَكُمُ ﴾ [الأنعام: ٩٣] فهم شحيحون بأنفسهم - والعياذ باللَّه - لا يريدون أن تخرج ولكن الملائكة تقول ﴿ أَخْرِجُوٓا۟ أَنفُسَكُمُ ﴾ فإذا بُشرت تَفرقت في الجسد فينتزعها الملائكة كما ينتزع السفود [2] من الصوف المبلول - والعياذ باللَّه - حتى تخرج .

المهم : أن المؤمن يحب لقاء اللَّه ، لأنه يحب اللَّه عز وجل ، يحب ثوابه ، يحب جنته ، يحب النعيم ، فهو يحب لقاء اللَّه ولا سيما عند الموت فيحب اللَّه لقاءه - اللَّهم اجعلنا ممن يحب لقاءك يا رب العالمين وأحسن لنا الختام إنك على كل شيء قدير .

* * *

١٨٤٩ - وَعَنْ أُمِّ المُؤْمِنِينَ صَفِيَّةَ بنْتِ حُيَيٍّ رضي الله عنها قَالَتْ : كَانَ النَّبِيُّ ﷺ مُعْتَكِفًا ، فَأَتَيْتُهُ أَزورُهُ لَيلًا ، فَحَدَّثْتُهُ ثُمَّ قُمْتُ لأَنْقَلِبَ ، فَقَامَ مَعِي لِيَقْلِبَنِي ، فَمَرَّ رَجُلانِ مِنَ الأَنْصَارِ رضي الله عنهما فَلَمَّا رَأَيا النَّبِيَّ ﷺ أَسْرَعَا ، فَقَالَ ﷺ : « عَلَى رِسْلِكُمَا ؛ إِنَّهَا صَفِيَّةُ بِنْتُ حُيَيٍّ » فَقَالَا : سُبْحَانَ اللَّهِ يَا رَسُول اللَّهِ ! فَقَالَ : « إِنَّ الشَّيطَانَ يَجْرِي مِن ابْنِ آدَمَ مَجْرَى الدَّمِ ، وَإِنِّي خَشِيتُ أَنْ يَقْذِفَ في قُلُوبِكُمَا شَرًّا - أَو قَالَ : شَيْئًا - » [3] متفقٌ عليه .

---

(١) انظر الحديث بنصه في الترمذي في السنن (٩٨٠) ، والهيثمي في مجمع الزوائد (٢/٣٢٦) .

(٢) السفود : هو عود من حديد ينظم فيه اللحم ليشوى (انظر المعجم الأساسي ص ٢٦٢ مادة سفد) .

(٣) أخرجه البخاري في الاعتكاف (٢٠٣٥) ، ومسلم في السلام (٢٢) ، وأحمد في مسنده (٦/٣٣٧) ، وأبو داود في الصوم (٢٤٧٠) .

١٨٥٠ - وَعَنْ أَبِي الفَضْل العَبَّاسِ بْنِ عَبدِ المُطَّلِبِ ﷺ قَالَ : شَهِدْتُ مَعَ رَسُولِ اللَّه ﷺ يَومَ حُنَينٍ فَلَزِمْتُ أَنَا وَأَبُو سُفْيَانَ بنُ الحارِثِ بن عَبْدِ المُطَّلِبِ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ فَلَمْ نُفارِقْهُ وَرَسُولُ اللَّه ﷺ عَلَى بَغْلَةٍ لَهُ بَيضَاءَ ، فَلَمَّا التَقَى المُسْلِمُونَ وَالمُشْرِكُونَ وَلَّى المُسْلِمُونَ مُدْبِرِينَ ، فَطَفِقَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ يَرْكُضُ بَغلَتَهُ قِبَلَ الكُفَّارِ ، وَأَنَا آخِذٌ بِلِجَامِ بَغْلَةِ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ أَكُفُّهَا إرَادَةَ أَنْ لا تُسْرِعَ ، وَأَبُو سُفْيَانَ آخِذٌ بِركَابِ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ ، فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ : « أَي عَبَّاسُ نَادِ أَصْحَابَ السَّمُرَةِ » قَالَ العَبَّاسُ - وَكَانَ رَجُلًا صَيِّتًا - : فَقُلْتُ بأَعْلَى صَوتِي : أَينَ أَصْحَابُ السَّمُرَةِ ؟ فَوَاللَّه لَكَأَنَّ عَطْفَتَهُمْ حِينَ سَمِعُوا صَوتِي عَطْفَةُ البَقَرِ عَلَى أَولادِهَا ، فَقَالُوا : يَا لَبَّيكَ يَا لَبَّيكَ ، فَاقْتَتَلُوا هُمْ وَالكُفَّارُ ، وَالدَّعْوَةُ في الأَنْصَارِ يَقُولُونَ : يَا مَعْشَرَ الأَنْصَارِ ، يَا مَعْشَرَ الأَنْصَارِ ، ثُمَّ قُصِرَتِ الدَّعْوَةُ عَلَى بَنِي الحَارِثِ بنِ الخَزْرَجِ ، فَنَظَرَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ وَهوَ عَلَى بَغْلَتِهِ كَالمُتَطَاوِلِ عَلَيهَا إِلَى قِتَالِهِمْ فَقَالَ : « هذَا حِينَ حَمِيَ الوَطِيسُ » ثُمَّ أَخَذَ رَسُولُ اللَّه ﷺ حَصَيَاتٍ ، فَرَمَى بِهِنَّ وُجُوهَ الكُفَّارِ ، ثُمَّ قَالَ : « انْهَزَمُوا وَرَبِّ مُحَمَّد » فَذَهَبْتُ أَنْظُرُ ؛ فإِذَا القِتَالُ عَلى هَيئَتِهِ فِيمَا أَرَى ، فَوَاللَّهِ مَا هُوَ إلا أَنْ رَمَاهُمْ بحصَيَاتِهِ ، فَمَا زِلْتُ أرَى حَدَّهُمْ كَلِيلًا ، وأَمْرَهُمْ مُدْبِرًا [١] . رواه مسلم .

« الوَطِيسُ » التَّنُّور . وَمَعْنَاهُ : اشْتَدَّتِ الحَرْبُ . وَقَوْلُهُ : « حَدَّهُمْ » هُوَ بِالحَاءِ المُهْمَلَةِ ، أي : بَأسَهُمْ .

الشرح

هذان الحديثان ذكرهما المؤلف رحمه الله الأول حديث صفية بنت حُيَيٍّ رضي الله عنها أم المؤمنين : كان النبي ﷺ معتكفًا في المسجد في رمضان ، ولا اعتكاف إلا في رمضان [٢] ؛ لأن النبي ﷺ لم يعتكف في غير رمضان إلا سنة واحدة فاتته العشر في رمضان فقضاها في شوال ، وما عدا ذلك فلم يشرع لأمته ﷺ أن يعتكفوا في غير رمضان ، وإنما كان الاعتكاف من أجل تحرّي ليلة القدر ، فقد كان النبي ﷺ يعتكف العشر الأول من رمضان رجاء ليلة القدر ، ثم الأوسط ، ثم قيل له : إنها في العشر الأواخر فواظب على الاعتكاف في العشر الأواخر .

وأما حديث عمر : أنه سأل النبي ﷺ أنه نذر - أي عمر - أن يعتكف ليلة أو ليلتين في المسجد

---

(١) أخرجه مسلم في الجهاد والسير (٧٦) ، والحاكم في المستدرك (٣/٣٢٨) . قوله « حنين » هي واد بين مكة والطائف وراء عرفات ، بينه وبين مكة بضعة عشر ميلًا ، ووقعت به غزوة شهيرة انتصر فيها المسلمون على هوازن وثقيف ، قوله « يركض بغلته » أي يضربها برجله الشريفة لتسرع ، قوله « أصحاب السمرة » هي الشجرة التي بايعوا تحتها النبي ﷺ بيعة الرضوان . والمعنى : نادِ أصحاب بيعة الرضوان ، قوله « رجلًا صيتًا » أي رجلًا قوي الصوت . ويذكر عن العباس ﷺ أنه كان يقف على جبل سلع وينادي غلمانه في آخر الليل ، وهم في الغابة ، فَيُسْمِعَهُم ، وكان بين سلع والغابة حوالى ١٥ كم ، قوله « عطفتهم حين سمعوا صوتي عطفة البقر » أي أن عودتهم لمكانهم مثل عودة أمهات البقر لأولادها حنينًا على أولادها ، قوله « والكفار » أي مع الكفار ، قوله « والدعوة في الأنصار » يعني الاستغاثة والمناداة إليهم ، قوله « كليلًا » أي ضعيفًا .

(٢) سبق الحديث عن هذا الرأي عند ذكر باب الاعتكاف ، فليرجع إليه .

الحرام فقال : أوف بنذرك . فهذا لا يدل على أن الاعتكاف مشروع وإنما يدل على وفاء النذر بالاعتكاف ، وأنه ليس بمعصية لو أوفى بنذره فيه ، لكن السنة أن الاعتكاف يكون في رمضان فقط ، وفي العشر الأواخر منه فقط ، اعتكف ﷺ في العشر الأواخر .

والاعتكاف هو : لزوم المسجد في طاعة الله ، ليتفرغ الإنسان للعبادة ، وليس لغير ذلك

جاءته صفية - وهو معتكف - لتتحدث إليه - وهى امرأته - ولا بأس للإنسان أن يتحدث إليه أهله وهو معتكف ، فذلك من الألفة والمحبة والمودة ، ثم قامت إلى بيتها ، وكان النبي ﷺ خير الناس بأهله كما قال ﷺ : « خيركم خيركم لأهله ، وأنا خيركم لأهلي »[1] فقام معها يشيعها إلى بيته ، فإذا برجلين من الأنصار يمرّان ، فلما رأيا رسول الله ﷺ خجلا واستحييا ، فأسرعا في مشيهما ، فقال النبي ﷺ : « على رِسْلِكما » - يعني : لا تُسْرِعا - إنها صفية بنت حيي ، لئلا يظنا أنها امرأة جاءت لرسول الله ﷺ في الليل محل السكن وإيواء البيوت ، فقالا : سبحان الله ! تعجبًا أن يقول الرسول هذا الكلام ، فقال النبي ﷺ : « إن الشيطان يجري من ابن آدم مجرى الدم » فيصل إلى قلبه وإلى عروقه كما أن الدم يسير في جميع البدن ، كذلك الشيطان يجري من ابن آدم مجرى الدم ، ومجرى هذا اسم مكان : أي في مكان جريان الدم « وإني خشيت أن يقذف في قلوبكما شرًا أو قال : شيئًا » .

ففي هذا الحديث دليل على فوائد :

١ - حسن خلق النبي ﷺ في معاملته أهلَه .

٢ - جواز زيارة المرأة زوجها في الاعتكاف ، وأن ذلك لا يبطل الاعتكاف حتى لو فرض أنه تلذذ بالنظر إليها وما أشبه ذلك ؛ فإنه لا يضر ؛ لأن الله إنما نهى عن مباشرة النساء في الاعتكاف .

٣ - أنه ينبغي للإنسان أن يشيّع أهله إذا انقلبوا من عنده إذا كان ذلك ليلًا أو في وقت يخاف فيه عليهم .

٤ - أنه ينبغي للإنسان أن يزيل أسباب الوساوس من القلوب ، فمثلًا : إذا خشي أن أحدًا يظن به شرًا ؛ فإنه يجب عليه أن يزيل ذلك عنه ويخبره بالواقع حتى لا يحدث في قلبه شيءٌ .

٥ - أنه إذا حدث للإنسان ما يتعجب منه فليقل : سبحان الله ، كما قال ذلك الأنصاريان وأقرهما النبي ﷺ .

٦ - شفقة النبي ﷺ على أمته ، ودرء الشر عنهم .

أما الحديث الثاني : عن العباس رضي الله عنه فهو في قصة حنين . وحنين : هي اسم مكان غزا به النبي ﷺ « ثقيفًا » وكان الصحابة رضي الله عنهم قد فتحوا مكة في رمضان في السنة الثامنة من الهجرة ، ومعهم عشرة آلاف من خارج مكة وألفان من أهل مكة ، فالجميع اثنا عشر ألفًا ، فجعل بعضهم يقول لبعض : لن

---

(١) أخرجه الترمذي في السنن (٣٨٩٥) ، وابن ماجه في السنن (١٩٧٧) ، والدارمي في السنن (٢/١٥٩) ، والبيهقي في السنن (٧/٤٦٨) .

نغلب اليوم من قلة . أعجبوا بكثرتهم ، ولكن الله تعالى - أراهم أن النصر من عند الله ، وأن الكثرة والقوة لا تحولان بين قضاء الله وقدره . قابلوا ثقيفًا وكانت ثقيف « ثلاثة آلاف وخمسمائة نفر » ، والمسلمون اثنا عشر ألفًا ومعهم الرسول ﷺ ، فكمنت لهم ثقيف في وادي حنين ، ومعلوم أنه إذا كمنوا لهم ثم تقدم بعضهم وتأخر آخرون سوف تحدث الهزيمة ، انهزم الصحابة ﷺ وولَّوا ، ولم يبقَ مع الرسول ﷺ من اثني عشر ألفا إلا نحو مائة رجل ، كما قال الله تعالى ﴿ ثُمَّ وَلَّيْتُم مُّدْبِرِينَ ﴾ [التوبة : ٢٥] ولكن محمدًا ﷺ الذي أعطاه الله تعالى الشجاعة العظيمة ، والإقدام في موضع الإقدام جعل يركض بغلته نحو العدو وهو يقول ﷺ : « أنا النبي لا كذب أنا ابن عبد المطلب » - يُعْلِمهم عليه الصلاة والسلام - وأمر العباس ﷺ - وكان رجلا جهوريَّ الصوت - أمره أن ينادي الصحابة ليرجعوا ، فجعل ينادي : يا أصحاب السَّمُرة ... يا أصحاب السَّمُرة ، : يا أصحاب السَّمُرة أقبلوا .. هلموا .

والسَّمُرة : هي الشجرة التي بايع الصحابة عليها رسول الله ﷺ في الحديبية على ألا يفروا - وهم فروا الآن - فقال : يا أصحاب السَّمُرة يذكرهم بهذه المبايعة ، وهذه السمرة شجرة بايع النبي ﷺ تحتها الصحابة على ألا يفروا أبدا ، وفيها يقول الله تعالى : ﴿ لَّقَدْ رَضِيَ ٱللَّهُ عَنِ ٱلْمُؤْمِنِينَ إِذْ يُبَايِعُونَكَ تَحْتَ ٱلشَّجَرَةِ ﴾ [الفتح : ١٨] فأخبر الله تعالى أنه ﷺ ، وأخبر النبي ﷺ « أنه لا يدخل النارَ أحدٌ بايع تحت الشجرة » بشرى عظيمة أنهم لا يدخلون النار لا قليلًا ولا كثيرًا .

المهم أن العباس دعاهم بهذا - يا أصحاب السمرة - قالوا : لبيك .. لبيك ، وأقبلوا كأنهم البقر على أولادها الصغار يعني مسرعين جدًّا ، فقاتلوا العدو ، وأخذ النبي ﷺ حَصَيات رمى بها وجوه القوم ، وقال : انهزموا وربِّ محمد ، وصار الأمر كذلك ، انهزمت ثقيف ، وغنم منها النبي ﷺ غنائم كثيرة كثيرة جدًّا ما بين إبل وغنم وأحوال .

فالحاصل : أن هذا الحديث من آيات الله ﷻ حيث نصر الله المؤمنين بعد أن أراهم قوته وأن الأمر أمرُه - جل وعلا - ليس بالكثرة ولا بالقوة ولا بالعزيمة ولكن النصر من عند الله ﷻ قال الله تعالى : ﴿ لَقَدْ نَصَرَكُمُ ٱللَّهُ فِي مَوَاطِنَ كَثِيرَةٍ وَيَوْمَ حُنَيْنٍ إِذْ أَعْجَبَتْكُمْ كَثْرَتُكُمْ فَلَمْ تُغْنِ عَنكُمْ شَيْـًٔا وَضَاقَتْ عَلَيْكُمُ ٱلْأَرْضُ بِمَا رَحُبَتْ ثُمَّ وَلَّيْتُم مُّدْبِرِينَ ۝٢٥ ثُمَّ أَنزَلَ ٱللَّهُ سَكِينَتَهُۥ عَلَىٰ رَسُولِهِۦ وَعَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ وَأَنزَلَ جُنُودًا لَّمْ تَرَوْهَا وَعَذَّبَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ ۚ وَذَٰلِكَ جَزَآءُ ٱلْكَٰفِرِينَ ۝٢٦ ثُمَّ يَتُوبُ ٱللَّهُ مِنۢ بَعْدِ ذَٰلِكَ عَلَىٰ مَن يَشَآءُ ﴾ [التوبة : ٢٥- ٢٧] .

وفي هذا الحديث من الفوائد :

١ - قوة شجاعة النبي ﷺ ، حيث تقدم إلى العدو بقوله وفعله ، أما فعله ؛ فإنه جعل يركض بغلته - التي هو راكب عليها - نحو العدو ، وأما قوله : فإعلانه بصوته الرخيم « أنا النبي لا كذب أنا ابن عبد المطلب » .

٢ - ومنها : أنه يجب على الإنسان ألا يُعجب بقوته ولا بكثرته ولا بعلمه ولا بماله ولا بذكائه

ولا بعقله . والغالب أن الإنسان إذا أعجب ؛ فإنه يُهزم بإذن اللَّه : إن أعجب بكثرته هُزم ، وإن أعجب بعلمه ضلَّ ، وإن أعجب بعقله تاهَ ، لا تُعجب بنفسك ولا بأي قوة من قواتك بل استعن باللَّه ﷻ وفوِّضِ الأمر إليه حتى يتم لك ماتريد .

٣ - ومنها : جواز ركوب البغلة ، والبغل متولد من بين الحمار والفرس ، ينزو الحمار على الأنثى من الخيل فتلد البغل وهو نجس وحرام لكنه طاهر في ظاهره كالهرة طاهرة ولكن بولها وعذرتها نجسة ، وكذلك البغل فعرقُه طاهر ، ومسه حال ركوبه طاهر ؛ لأن النبي ﷺ ركبه وهو يعرق وقد يكون المطر ولم يرد أن النبي ﷺ كان يحترز منه ، فدل ذلك على أنه طاهر وهو القول الراجح .

٤ - ومنها : أنه ينبغي للإنسان أن ينادي الناس بما يشجعهم ، لأن العباس لم يقل : يا أيها المؤمنون ، يا أيها الصحابة بل قال : « يا أصحاب السَّمرة » ؛ لأن هذا يشجعهم ويذكرهم بالبيعة التي بايعوا عليها رسول اللَّه ﷺ .

٥ - ومنها : أن اللَّه تعالى قد ينصر الفئة القليلة - ولو على باطل - على الفئة الكثيرة ولو على حق . الفئة القليلة هنا مَنْ ؟ الكفار - ثلاثة آلاف وخمسمائة - الفئة الكثيرة : الصحابة ﷺ ومعهم رسول اللَّه ﷺ .

لكن يستفاد من هذا فائدة أيضًا : أن العاقبة للمتقين حتى لو هزم المسلمون بكثرتهم ، فإن العاقبة لهم ؛ لأن اللَّه تعالى يقول ﴿ فَاصْبِرْ إِنَّ الْعَاقِبَةَ لِلْمُتَّقِينَ ﴾ [هود : ٤٩] واللَّه الموفق .

* * *

١٨٥١ - وعَنْ أَبِي هُرَيرَةَ ﷺ قَالَ : قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ : « أَيُّهَا النَّاسُ إنَّ اللَّهَ طَيِّبٌ لاَ يَقْبَلُ إلا طَيِّبًا ، وَإنَّ اللَّهَ أَمَرَ المُؤمِنينَ بِمَا أَمَرَ بِهِ المُرْسَلِينَ ، فَقَالَ تَعَالى : ﴿ يَا أَيُّهَا الرُّسُلُ كُلُوا مِنَ الطَّيِّبَاتِ وَاعْمَلُوا صَالِحًا ﴾ وقال تعالى : ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا كُلُوا مِن طَيِّبَاتِ مَا رَزَقْنَاكُمْ ﴾ ثُمَّ ذَكَرَ الرَّجُلَ يُطِيلُ السَّفَرَ أَشْعَثَ أَغْبَرَ يَمدُّ يَدَيهِ إِلَى السَّمَاءِ : يَا رَبِّ ، يا رَبِّ ، وَمَطْعَمُهُ حَرَامٌ ، وَمَشْرَبُهُ حَرَامٌ ، ومَلْبَسُهُ حَرَامٌ ، وَغُذِيَ بِالحَرَامِ ، فَأَنَّى يُسْتَجَابُ لِذلِكَ !؟ » (١) رواه مسلم .

١٨٥٢ - وَعَنْهُ ﷺ قَالَ : قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ : « ثَلاَثَةٌ لاَ يُكَلِّمُهُمُ اللَّهُ يَومَ القِيَامَةِ ، وَلَا يُزَكِّيهِمْ ، وَلَا يَنْظُرُ إِلَيهِمْ ، وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ : شَيخٌ زَانٍ ، وَمَلِكٌ كَذَّابٌ ، وَعَائِلٌ مُسْتَكبِرٌ » (٢) رواه مسلم . « العَائِلُ » : الفَقِير .

---

(١) أخرجه مسلم في الزكاة (٦٥) ، وأحمد في مسنده (٣٢٨/٢) قوله إن اللَّه طيب أي منزه على كل نقص . قوله « أشعث أغبر » أي متفرق شعر الرأس مغبر الوجه . قوله « فأنى » أي فكيف .

(٢) أخرجه مسلم في الأيمان (١٧٢) ، وأحمد في مسنده (٢٥٣/٢) والنسائي في السنن (٢٤٧/٧) ، والدارمي في السنن (٢٦٧/٢) . قوله « لا يكلمهم اللَّه يوم القيامة ولا يزكيهم ولا ينظر إليهم » أي يعرض عنهم ، ولا يطهرهم من دنس الذنوب . قوله « ولهم عذاب أليم » أي مؤلف ، وهو العذاب الذي يخلص إلى قلوبهم ألمه . قوله « وعائل مستكبر » أي فقير مستكبر .

١٨٥٣ - وَعَنْه ﷺ قَالَ : قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ : « سَيحانُ وجَيحَانُ وَالفُراتُ وَالنِّيلُ ، كُلٌّ مِنْ أَنْهارِ الجَنَّةِ » (١) رواه مسلم .

١٨٥٤ - وَعَنْهُ قَالَ : أَخَذَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ بِيَدي فَقَالَ : « خَلَقَ اللَّهُ التُّرْبَةَ يَومَ السَّبْتِ ، وَخَلَقَ فِيهَا الجِبَالَ يَومَ الأَحَد ، وَخَلَقَ الشَّجَرَ يَومَ الاثنَينِ ، وَخَلَقَ المَكْرُوهَ يَومَ الثُّلاثَاءِ ، وَخَلَقَ النُّورَ يَومَ الأَرْبعَاءِ ، وَبَثَّ فِيهَا الدَّوابَّ يَومَ الخَميسِ ، وَخَلَقَ آدَمَ ﷺ بَعْدَ العَصْرِ مِنْ يَومِ الجُمُعَةِ في آخِرِ الخَلْقِ في آخِرِ سَاعَةٍ مِنَ النَّهارِ فِيمَا بَينَ العَصْرِ إلى اللَّيلِ » (٢) رواه مسلم .

الشرح

ذكر المؤلف - رحمه اللَّه تعالى - في آخر كتابه من الأحاديث المنثورة ما نقله عن أبي هريرة ﷺ أن النبي ﷺ قال : « ثلاثة لا يكلمهم اللَّه يوم القيامة ، ولا يزكيهم ، ولا ينظر إليهم ، ولهم عذاب أليم» كان من عادة النبي ﷺ وحسن بلاغته وبيانه أنه يذكر أحيانًا الأشياء مفصلة محددة حتى يسهل حفظها وفهمُها أحيانا يقول : « ثلاثة لا يكلمهم اللَّه يوم القيامة » وأحيانا يقول : « اثنتان من أمتي ... » وأحيانا يقول : « سبعة يظلهم اللَّه يوم لا ظل إلا ظله » وأشباه ذلك كثيرة ، لأن الشيء إذا فُصِّل وحُدِّد في العدد صار أضبط للإنسان وأقرب إلى الفهم ولا ينسى .

« ثلاثة » : يعني ثلاثة أصناف ، وليس المراد ثلاثة أفراد بل ثلاثة أصناف من الناس : « لا يكلمهم اللَّه يوم القيامة » تكليم رضا ، وإلا فإنه ﷻ يتكلم تكليم غضب حتى يكلم أهل النار لما قالوا : ﴿ رَبَّنَآ أَخْرِجْنَا مِنْهَا فَإِنْ عُدْنَا فَإِنَّا ظَٰلِمُونَ ﴾ [المؤمنون : ١٠٧] قال لهم : ﴿ ٱخْسَـُٔواْ فِيهَا وَلَا تُكَلِّمُونِ ﴾ [المؤمنون : ١٠٨] ، لكن المراد كلام الرحمة والرضا ، فهؤلاء الثلاثة لا يكلمهم اللَّه يوم القيامة ولا ينظر إليهم : أي نظر رحمة وإشفاق وإكرام وعزة بل يذلهم ﷻ ﴿ وَلَا يُزَكِّيهِمْ ﴾ : أي لا يجعل لهم زكاء بل هم في شقاء دائم - والعياذ باللَّه - .

الأول : « شيخ زانٍ » يعني كبير السن زانٍ هذا - والعياذ باللَّه - زناه أشد من زنا الشاب ، لأن دواعي الشهوة فيه قليلة على عكس الشاب فدواعي الشهوة فيه قوية قد تغلبه على ما في قلبه من كراهة الزنا وبغضه ، لكن الشيخ ميت الشهوة فإذا زنا الشيخ - والعياذ باللَّه - وهو الكبير ؛ دل ذلك على فساد طويَّته ، وأنه يحب الزنا ؛ لأنه زنا لا لقوة شهوة عنده .

الثاني : « ملك كذاب » الملك هو حاكم له السلطة إذا قال فعل ، ولهذا قال ابن الموردي في لاميته المشهورة :

جانب السلطان واحذر بطشه لا تخاصم من إذا قال فعل

---

(١) أخرجه مسلم في الجنة وصفة نعيمها (٢٦)، وأحمد في مسنده (٢/٢٨٩) قوله « سيحان وجيحان » نهران ببلاد فارس .

(٢) أخرجه مسلم في صفات المنافقين (٢٧)، وأحمد في مسنده (٢/٣٢٧) . والحاكم في المستدرك (٢/٤٥٠) ، والبيهقي في السنن (٩/٣) .

السلطان يقول وينفذ ويفعل ولا حاجة له إلى الكذب ، وإنما عامة الرعية ربما يحتاج الواحد منهم إلى الكذب لينقذ نفسه ، لكن السلطان الملك ليس له حاجة إلى الكذب ، فإذا كذب فهو من الذين لا يكلمهم الله يوم القيامة ولا ينظر إليهم ولا يزكيهم ولهم عذاب أليم - والعياذ بالله - .

الثالث : « عائل مستكبر » عائل يعني : فقير ، سبحان الله ! فقير ويستكبر على الناس : الغنى ربما يستكبر لغناه كما قال ﷻ : ﴿ كَلَّآ إِنَّ ٱلۡإِنسَٰنَ لَيَطۡغَىٰٓ ۝ أَن رَّءَاهُ ٱسۡتَغۡنَىٰٓ ﴾ [العلق : ٦، ٧] لكن الفقير ليس له سبب يستكبر به على الناس ، فإذا استكبر دل ذلك على خبثه وخبث طَوِيَّتِه ، وأنه رجل طُبع على الكبرياء - والعياذ بالله - .

أما الحديث الثاني : عن أبي هريرة عن النبي ﷺ فقال : « سيحان وجيحان والنيل والفرات كل من أنهار الجنة » هذه أربعة أنهار في الدنيا وصفها النبي ﷺ بأنها من أنهار الجنة ، فقال بعض أهل العلم : إنها من أنهار الجنة حقيقة ، لكنها لما نزلت إلى الدنيا غلب عليها طابع أنهار الدنيا ، وصارت من أنهار الدنيا ؛ لأن أنهار الآخرة أربعة - أنهار الجنة أربعة - ﴿ فِيهَآ أَنۡهَٰرٞ مِّن مَّآءٍ غَيۡرِ ءَاسِنٖ وَأَنۡهَٰرٞ مِّن لَّبَنٖ لَّمۡ يَتَغَيَّرۡ طَعۡمُهُۥ وَأَنۡهَٰرٞ مِّنۡ خَمۡرٖ لَّذَّةٖ لِّلشَّٰرِبِينَ وَأَنۡهَٰرٞ مِّنۡ عَسَلٖ مُّصَفّٗى ﴾ [محمد : ١٥] وهذه الأنهار الأربعة في الجنة لا نعلم كيفيتها ولا طعمها ؛ لأن النبي ﷺ قال عن الجنة عن ربه ﷻ في الحديث القدسي : « أعددت لعبادي الصالحين ما لا عين رأت ، ولا أذن سمعت ، ولا خطر على قلب بشر »(١) لكن سيحون وجيحون والنيل والفرات معلومة وهي تأسن - تتغير - مع طول المدة ، فللعلماء فيها تأويلان :

١ - أنها من أنهار الجنة حقيقة لكن لما نزلت إلى الأرض صار لها حكم أنهار الدنيا .

٢ - أنها ليست من أنهار الجنة حقيقة لكنها أطيب الأنهار وأفضلها فذكر النبي ﷺ هذا الوصف لها من باب رفع شأنها والثناء عليها - والله أعلم بما أراد رسوله ﷺ .

أما الحديث الثالث : « خلق الله التربة يوم السبت ... » إلى آخر الحديث .

فهذا الحديث رواه الإمام مسلم رحمه الله وقد أنكره العلماء عليه ؛ فهو حديث ليس بصحيح ولا يصح عن النبي ﷺ لأنه يخالف القرآن الكريم ، وكل ما خالف القرآن الكريم فهو باطل (٢) ؛ لأن الذين رووا نقله بشر يخطئون ويصيبون والقرآن ليس فيه خطأ ، كله صواب منقول بالتواتر ، فما

(١) أخرجه أحمد في مسنده (٤٣٨/٢) ، والمنذري في الترغيب والترهيب (٥٢١/٤) .

(٢) ذكر الشيخ الألباني رحمه الله في تعليقه على هذا الحديث في كتاب مشكاة المصابيح (١٥٩٨/٣) حديث رقم (٥٧٣٤) ما نصه : ولا مطعن في إسناده البتة ، وليس هو بمخالف للقرآن بوجه من الوجوه ، خلافًا لما توهمه بعضهم ؛ فإن الحديث يفصل كيفية الخلق على الأرض وحدها ، وأن ذلك كان في سبعة أيام ، ونص القرآن على أن خلق السماوات والأرض كان في ستة أيام ، والأرض في يومين - لا يعارض ذلك ؛ لاحتمال أن هذه الأيام الستة غير الأيام السبعة المذكورة في الحديث ، وأنه - أعني الحديث - تحدث عن مرحلة من مراحل تطور الخلق على الأرض حتى صارت صالحة للسكنى ، ويؤيده أن القرآن يذكر أن بعض الأيام عند الله كألف سنة ، وبعضها مقداره خمسون ألف سنة . فما المانع أن تكون الأيام الستة من هذا القبيل ، والأيام السبعة من أيامنا هذه ، كما هو صريح الحديث ، وحينئذٍ فلا تعارض بينه وبين القرآن اهـ . كلام الشيخ الألباني .

خالفه من أي حديث كان فإنه يحكم بأنه غير صحيح وإن رواه من رواه ؛ لأن الرواة هؤلاء لا يتلقون عن رسول الله ﷺ مباشرة لكن بواسطة الإسناد : حدثنا فلان عن فلان إلى رسول الله ﷺ وهؤلاء قد يخطئون . لكن القرآن ليس فيه خطأ .

فهذا الحديث مما أنكره أهل العلم - رحمهم الله - على الإمام مسلم ولا غرابة في ذلك ، لأن الإنسان بشر « مسلم وغير مسلم » كلهم بشر يخطئون ويصيبون ، فعلى هذا لا حاجة أن نتكلم عليه ، مادام ضعيفًا فقد كُفيناه - والله الموفق .

* * *

١٨٥٥ - وَعَنْ أَبي سُلَيمَانَ خَالِدِ بْنِ الوَلِيدِ رضي الله عنه قَالَ : « لَقَدِ انْقَطَعَتْ في يَدِي يَوم مُؤْتَةَ تِسْعَةُ أَسْيَافٍ ، فَمَا بَقِيَ في يَدي إلا صَفيحَةٌ يَمانِيَّةٌ » [١] ، رواه البخاري .

١٨٥٦ - وَعَنْ عَمْرِو بْنِ العَاص رضي الله عنه أَنَّهُ سَمِعَ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ يَقُولُ : « إذَا حَكَمَ الحَاكِمُ ، فَاجْتَهَدَ ، ثُمَّ أَصَابَ ؛ فَلَهُ أَجْرَانِ ، وإنْ حَكَمَ وَاجْتَهَدَ ، فَأَخْطَأَ ؛ فَلَهُ أُجْرٌ » [٢] متفقٌ عليه .

١٨٥٧ - وَعَنْ عَائِشَةَ رضي الله عنها أَنَّ النَّبيَّ ﷺ قَالَ : « الحُمَّى مِنْ فَيحِ جَهَنَّمَ ؛ فَأَبْرِدُوهَا بِالمَاءِ » [٣] متفقٌ عليه .

١٨٥٨ - وَعَنْهَا رضي الله عنها عَنِ النبيِّ ﷺ قَالَ : « مَنْ مَاتَ وَعَلَيهِ صَومٌ ، صَامَ عَنْهُ وَلِيُّهُ » [٤] متفقٌ عليه .

وَالمُخْتَارُ جَوازُ الصَّومِ عَمَّنْ مَاتَ وَعَلَيهِ صَومٌ لِهذا الحَدِيثِ ، وَالمُرَادُ بِالوَلِيِّ : القَرِيبُ وَارِثًا كَانَ أَو غَيرَ وَارِثٍ .

الشرح

هذه من الأحاديث التي ذكرها النووي رحمه الله في آخر كتابه فمنها حديث خالد بن الوليد رضي الله عنه أنه انقطع في يده تسعة أسياف في غزوة مؤتة ولم يبقَ معه إلا صفيحة يمانية .

---

(١) أخرجه البخاري في المغازي (٤٢٦٥) قوله « مؤتة » هي موضع بالقرب من الشام حدثت فيها معركة بين المسلمين والروم استشهد فيها جعفر بن أبي طالب وعبد الله بن رواحة وزيد بن ثابت . وتولى خالد بن الوليد قيادة الجيش بعد استشهادهم وعاد بجيش المسلمين سالمًا . قوله « صفيحة يمانية » أي سيف على تلك الصفة ، وذلك من شدة القتال .

(٢) أخرجه البخاري في الاعتصام (٧٣٥٢) ، ومسلم في الأقضية (١٥) ، وأحمد في مسنده (٢٠٤/٤٥) ، وأبو داود في الأقضية (٣٥٧٤) قوله « إذا حكم الحاكم فاجتهد » هذا الكلام ينطبق على الحاكم العالم للحكم ، أما من ليس بأهل للحكم ؛ فلا يحل له الحكم ، فإن حكم فلا أجر له ؛ بل هو آثم ولا ينفذ حكمه . سواء وافق الحق أم لا ؛ لأن إصابته ليست صادرة عن أصل شرعي .

(٣) أخرجه البخاري في بدء الخلق (٣٢٦٣) ، ومسلم في السلام (٧٩) ، وأحمد في مسنده (٢٩١/١) ، والحاكم في المستدرك (٤٠٣/٤) . قوله « فيح جهنم » انتشار لهبها وقوته .

(٤) أخرجه البخاري في الصوم (١٩٥٢) ، ومسلم في الصيام (١٥٣) ، والبيهقي في السنن (٢٥٥/٤) ، وأحمد في مسنده (٦٩/٦) بنحوه . قوله « وليه » أي ابنه أو من يليه في تركته .

خالد بن الوليد ﷺ من أشجع الناس ، ولكن هو كان في غزوة أحد في جيش قريش المشركين وهو ممن كرُّوا على الصحابة ﷺ من خلف جبل أحد وقاتلوا الصحابة وقاتلوا النبي ﷺ هو وعكرمة ابن أبي جهل ، ثم مَنَّ اللَّه عليهما بالإسلام ، فكانا من قوَّاد المسلمين .

وفي قصتهما دليل على كمال قدرة اللَّه ﷻ وأنه بيده أزِمَّة الأمور ، وأنه يضل من يشاء ، ويهدي من يشاء ، فكم من ضالٍّ هداه اللَّه ! وكم من مهتدٍ أضله اللَّه ! - والعياذ باللَّه - وانظر إلى حديث عبد اللَّه بن مسعود ﷺ أن النبي ﷺ قال : « إن الرجل ليعمل بعمل أهل الجنة حتى ما يكون بينه وبينها إلا ذراع فيسبق عليه الكتابُ فيعمل بعمل أهل النار فيدخلها »[(١)] ، وإن الرجل ليعمل بعمل أهل النار حتى ما يكونَ بينه وبينها إلا ذراع فيسبق عليه الكتاب فيعمل بعمل أهل الجنة فيدخلها يعني الرجل يعمل حتى لا يبقى على أجله إلا ذراع - أي مدة قريبة - ثم يموت فيسبق عليه الكتاب .

وأما الحديث الثاني : حديث عمرو بن العاص ﷺ أن النبي ﷺ قال : « إذا حكم الحاكم فاجتهد فأصاب فله أجران ، وإن أخطأ فله أجر » .

المراد بالحاكم هنا القاضي ، والظاهر أن المفتي مثله ، يعني : أن الإنسان إذا اجتهد في طلب الحق ، وتبين له شيء من الحق ثم أفتى به - أو حكم به - فهو على خير : إن أصاب فله أجران ، وإن أخطأ فله أجر واحد . ولا يضيع اللَّه تبارك وتعالى أجر من أحسن عملا ، فدل ذلك على أن الإنسان إذا اجتهد وتحرَّى الحق وبذل وسعه في ذلك فإن اللَّه سبحانه وتعالى يُثيبه على هذا : إن أصاب فله أجران : الأجر الأول على إصابة الحق والثاني على اجتهاده ، وإن أخطأ فله أجر واحد وهو الاجتهاد وبذل الوسع والطاقة في طلب الحق .

وأما الحديث الثالث : حديث عائشة ﷺ أن النبي ﷺ قال : « من مات وعليه صيام صام عنه وليُّه » يعني إذا مات الإنسان وعليه صيام فإنه يصوم عنه وليُّه ، سواء كان نذرًا أو واجبًا في أصل الشرع . فإذا قُدِّر أن رجلًا أفطر في رمضان ، لأنه مسافر ، ثم تهاون بعد رمضان ولم يقضِ ، لأنه يجوز أن يؤخر القضاء إلى شعبان ولكنه مات قبل القضاء ؛ فإن وليه - أي وارثه - يصوم عنه من أم أو أب أو ابن أو بنت ، أو زوجة .

وهذا ليس على سبيل الوجوب بل الاستحباب ، فإن لم يصم وليه أطعم عنه عن كل يوم مسكينًا . وكذلك لو كان عليه كفارة ومات قبل أن يؤديها مع تمكنه منها فإنه يصوم عنه وليه ، وكذلك لو نذر أن يصوم ثلاثة أيام ومات قبل أن يصوم ؛ فإنه يصوم عنه وليه ، فإن لم يفعل ؛ فإنه يُطعم عن كل يوم مسكينًا .

وأما حديث عائشة ﷺ وهو الحديث الرابع : فهو أن النبي ﷺ أخبر « أن الحمى من فيح جهنم ؛ فأبردوها بالماء » . الحمى : هي المرض الذي يصيب الإنسان بالحرارة في جسمه ، هذه من فيح جهنم ، كما قال النبي ﷺ . أما كيف وصل فيح جهنم إلى بدن الإنسان ؟ فهذا أمره إلى اللَّه ولا

(١) انظر الحديث بنصه فيما أخرجه البخاري في المغازي (٤٢٠٧) ، ومسلم في الإيمان (١٧٩) ، وأحمد في مسنده (٣٣٥/٥) .

نعرفه ، ما ندري ، لكن نقول كما قال النبي ﷺ : « إن الحمى من فيح جهنم فأبردوها بالماء » يعني صبوا على المريض ماء يبرده ، وهذا من أسباب الشفاء لمن أصيب بالحمى ، وقد شهد الطب الحديث بذلك ، فكان من جملة علاجات الحمى أنهم يأمرون - أي الأطباء - المريضَ أن يتحمم بالماء وكلما كان أبرد على وجه لا مضرة فيه فهو أحسن وبذلك تزول الحمى بإذن الله . والله الموفق .

* * *

١٨٥٩ - وَعَنْ عَوفِ بْنِ مَالِكِ بْنِ الطُّفَيلِ أَنَّ عَائِشَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا حُدِّثَتْ أَنَّ عَبْدَ اللَّهِ بْنَ الزُّبَيرِ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا قَالَ في بَيعٍ أَو عَطَاءٍ أَعْطَتْهُ عَائِشَةُ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا : وَاللَّهِ لَتَنْتَهِيَنَّ عَائِشَةُ ، أَو لأَحْجُرَنَّ عَلَيهَا ، قَالَتْ : أَهُوَ قَالَ هذَا ؟ قَالُوا : نَعَمْ ، قَالَتْ : هُوَ لِلَّهِ عَلَيَّ نَذْرٌ أَنْ لا أُكَلِّمَ ابْنَ الزُّبَيرِ أَبَدًا ، فَاسْتَشْفَعَ ابْنُ الزُّبَيرِ إِلَيهَا حِينَ طَالَتِ الهِجْرَةُ . فَقَالَتْ : لَا واللَّه لا أَشَفِّعُ فِيهِ أَبَدًا ، وَلا أَتَحَنَّثُ إِلَى نَذْرِي ، فَلَمَّا طَالَ ذلِكَ عَلى ابْنِ الزُّبَيرِ كَلَّمَ المِسْوَرَ بْنَ مَخْرَمَةَ ، وَعَبْدَ الرَّحمنِ بْنَ الأَسْوَدِ بْن عَبْد يَغُوثَ وَقَالَ لَهُمَا : أَنْشُدُكُمَا اللَّهَ لَمَا أَدْخَلْتُمَانِي عَلَى عَائِشَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا ، فَإِنَّهَا لا يَحِلُّ لَهَا أَنْ تَنْذِرَ قَطِيعَتي ، فَأَقْبَلَ بِهِ المِسْوَرُ ، وَعَبْدُ الرَّحْمنِ حَتَّى اسْتَأْذَنَا عَلَى عَائِشَةَ ، فَقَالا : السَّلامُ عَلَيكِ وَرَحْمَةُ اللَّهِ وَبَرَكَاتُهُ ، أَنَدْخُلُ ؟ قَالَتْ عَائِشَةُ : ادْخُلُوا . قَالُوا : كُلُّنَا ؟ قَالَتْ : نَعَم ادْخُلُوا كُلُّكُمْ ، وَلا تَعْلَمُ أَنَّ مَعَهُمَا ابْنَ الزُّبَيرِ ، فَلَمَّا دَخَلُوا ، دَخَلَ ابْنُ الزُّبَيرِ الحِجَابَ ، فَاعْتَنَقَ عَائِشَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا ، وطَفِقَ يُنَاشِدُهَا وَيَبْكِي ، وَطَفِقَ المِسْوَرُ ، وَعَبْدُ الرَّحْمنِ يُنَاشِدَانِهَا إلا كَلَّمَتْهُ وَقَبِلَتْ مِنْهُ ، وَيَقُولاَنِ : إِنَّ النَّبيَّ ﷺ نَهَى عَمَّا قَدْ عَلِمْتِ مِنَ الْهِجْرَةِ ، وَلاَ يَحِلُّ لِمُسْلِمٍ أَنْ يَهْجُرَ أَخَاهُ فَوقَ ثَلاثِ لَيَالٍ ، فَلَمَّا أَكْثَرُوا عَلَى عَائِشَةَ مِنَ التَّذْكِرَةِ وَالتَّحْرِيجِ ، طَفِقَتْ تُذَكِّرُهُمَا وَتَبْكِي ، وتَقُولُ : إِنِّي نَذَرْتُ وَالنَّذْرُ شَدِيدٌ ، فَلَمْ يَزَالا بِهَا حَتَّى كَلَّمَتِ ابنَ الزُّبَيرِ ، وَأَعْتَقَتْ في نَذْرِهَا ذلِكَ أَرْبَعِينَ رَقَبَةً ، وَكَانَتْ تَذْكُرُ نَذْرَهَا بَعْدَ ذلِكَ فَتَبْكِي حَتَّى تَبُلَّ دُمُوعُهَا خِمَارَهَا [١] . رواه البخاري .

١٨٦٠ - وَعَنْ عُقْبَةَ بْنِ عَامِرٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ خَرَجَ إِلى قَتْلَى أُحدٍ ، فَصَلَّى عَلَيهِمْ بَعْدَ ثَمَانِ سِنِينَ كَالمُوَدِّعِ للأَحْيَاءِ وَالأَمْوات ، ثُمَّ طَلَعَ إِلى المِنْبَرِ ، فَقَالَ : إِنِّي بَينَ أَيدِيكُمْ فَرَطٌ ، وَأَنَا شَهِيدٌ عَلَيكُمْ ، وَإِنَّ مَوعِدَكُمُ الحَوضُ ، وَإِنِّي لأَنْظُرُ إِلَيهِ مِنْ مَقَامِي هذَا ، أَلا وَإِنِّي لَسْتُ أَخْشَى عَلَيكُمْ أَنْ تُشْرِكُوا ، وَلكِنْ أَخْشَى عَلَيكُمُ الدُّنْيَا أَنْ تَنَافسوهَا » قَالَ : فَكَانَتْ آخِرَ نَظْرَةٍ نَظَرْتُهَا إِلَى رَسُولِ اللَّهِ ﷺ . متفقٌ عليه .

وفي رواية : « وَلكِنِّي أَخْشَى عَلَيكُمُ الدُّنْيَا أَنْ تَنَافَسُوا فِيهَا ، وَتَقْتَتِلُوا فَتَهْلِكُوا كَمَا هَلَكَ مَنْ كَانَ قَبْلَكُمْ » قَالَ عُقْبَةُ : فَكَانَ آخِرَ مَا رَأَيتُ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ عَلَى المِنْبَرِ .

---

(١) أخرجه البخاري في الأدب (٦٠٧٣) . قوله « لتنتهين عائشة » أي عن هذا الكرم والسماحة التي تفعلها ؛ قوله « طالت الهجرة » أي هجرانها له وعدم كلامها معه ، قوله « ولا أتحنث » أي ولا أرجع ، قوله « وطفق يناشدها » أي أخذ يسألها الرضا عنه .

وفي رِواية قَالَ : « إِنِّي فَرَطٌ لكُمْ ، وَأَنَا شَهِيدٌ عَليكُمْ ، وَإِنِّي وَاللَّهِ لأَنْظُرُ إِلَى حَوضِي الآنَ ، وَإِنِّي أُعْطِيتُ مَفَاتِيحَ خَزَائِنِ الأَرْض - أو مَفَاتِيحَ الأَرْضِ - وَإِنِّي وَاللَّهِ مَا أَخَافُ عَلَيكُمْ أَنْ تُشْرِكُوا بَعْدِي ؛ وَلكِنْ أَخَافُ عَلَيكُمْ أَنْ تَنَافَسُوا فِيهَا » (١) .

وَالمُرَادُ بِالصَّلاةِ عَلَى قَتْلَى أُحُدٍ : الدُّعَاءُ لَهُمْ ، لَا الصَّلاَةُ المَعْرُوفَةُ .

الشرح

هذان حديثان عظيمان فيهما فوائد ذكرها المؤلف رَحِمَهُ اللَّهُ في الأحاديث المنثورة .

الحديث الأول : حديث عائشة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا أم المؤمنين وأفضل زوجاته بعد موته ، وكانت مَنْ كانت في العلم والعبادة والرأي والتدبير ، وكان عبد اللَّه بن الزبير وهو ابن أختها أسماء بنت أبي بكر سمع عنها أنها تبرعت وأعطت عطايا كثيرة فاستكثر ذلك منها وقال : لئن لم تنتهِ لأحجرن عليها ، وهذه كلمة شديدة بالنسبة لأم المؤمنين عائشة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا ؛ لأنها خالتُه ، وعندها من الرأي والعلم والحلم والحكمة ما لا ينبغي أن يقال فيها ذلك القول ، والحجر عليها يعني منعها من التصرف في مالها أو التبرع الكبير من مالها ، فسمعت بذلك ، وأخبرت به ، أخبرها بذلك الواشون الذين يَشُون بين الناس ويفسدون بينهم بالنميمة - والعياذ باللَّه - والنميمة من كبائر الذنوب ، وقد حذر اللَّه من النمام وإن حلف - فقال : ﴿ وَلَا تُطِعْ كُلَّ حَلَّافٍ مَّهِينٍ ۝ هَمَّازٍ مَّشَّآءٍ بِنَمِيمٍ ﴾ (٢) [القلم : ١٠، ١١] ومرَّ النبي ﷺ بالمدينة على قبرين من قبور المسلمين فقال : « إنهما ليعذبان في قبورهما وما يعذبان في كبير » - يعني لا يعذبان في أمر شاق وأمر صعبٍ بل يسهل بالنسبة للقيام به لا بالنسبة لعظمه عند اللَّه - « أما أحدهما : فكان لا يستنزه من البول » يعني لا يستنجي استنجاءً تامًّا وإذا أصاب البول ثوبه أو بدنه لا يبالي به . « وأما الآخر : فكان يمشي بالنميمة » (٣) يأتي للناس فيخبر بما قال البعض في البعض الآخر من أجل أن يفرق بينهم - والعياذ باللَّه - فالنميمة من كبائر الذنوب يُعذَّب عليها النمَّام في قبره ، ولا يدخل الجنةَ نمام - نسأل اللَّه العافية - .

المهم أن هذه الكلمة وصلت إلى عائشة ، فنذرت رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا ألا تكلمه أبدًا ، وذلك لشدة ما حصل لها من الانفعال على ابن أختها ، وهجرته .

ومن المعلوم أن هجر أم المؤمنين رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا لابن أختها سيكون شديدًا عليه ، فحاول أن يسترضيها

---

(١) أخرجه البخاري في الجنائز (١٣٤٤) ، ومسلم في الفضائل (٣٠) ، والبيهقي في السنن (٤/١٤) ، والنسائي في السنن (٤/٦٢) . قوله « فرط » أي سابق لكم إلى الآخرة مهيأ لمصالحها الأخروية بالشفاعة للعصاة والشهادة للمطيعين . قوله « تنافسوها » أي تتنافسوا في طلبها . قوله « أعطيت مفاتيخ خزائن الأرض » أي أنه أعطي ما في الوجود من الخير .

(٢) قوله ﴿ حَلَّافٍ ﴾ أي كثير الحلف . قوله ﴿ مَّهِينٍ ﴾ أي حقير . قوله ﴿ هَمَّازٍ ﴾ أي عياب أو مغتاب للناس . قوله ﴿ مَّشَّآءٍ بِنَمِيمٍ ﴾ أي نقال للحديث للإنسان بين الناس .

(٣) أخرجه البخاري في الجنائز (١٣٦١) ، والترمذي في الطهارة (٧٠) ، والنسائي في السنن (٤/١٠٦) ، وابن ماجه في السنن (٣٤٧) .

ولكنها صمَّمت ؛ لأنها ترى أن النذرَ شديدٌ ، فاستشفع إليها برجلين من أصحاب رسول الله ﷺ وفَعَلا حيلة بأم المؤمنين لكنها حيلة حسنة ؛ لأنها أدت إلى مطلوب حسن وهو الإصلاح بين الناس ، والكذب في الإصلاح بين الناس باللسان جائز فكيف بالأفعال ؟ ، استأذَنَا على عائشة رضي الله عنها فسلَّما عليها وهذه هي السنة عند الاستئذان أنك إذا قرعت الباب على شخص تقول السلام عليكم . ثم استأذناها في الدخول فقالا : ندخل ؟ قالت : نعم ، قالوا : كلنا ، قالت : كلكم ، ولم تعلم أن عبد الله بن الزبير معهما لكنها لم تقل : هل معكم عبد الله بن الزبير فلم تستفصل ، وأتت بقول عام : ادخلوا كلكم ، فدخلوا ، فلما دخلوا عليها وإذا عليها الحجاب : حجاب أمهات المؤمنين وهو عبارة عن ستر تستتر به - أمهات المؤمنين - لا يراهن الناس وهو غير الحجاب الذي يكون لعامة النساء ؛ لأن الحجاب الذي لعامة النساء هو تغطية الوجه والبدن ، ولكن هذا حجاب يكون حاجبًا وحائلًا بين أمهات المؤمنين والناس ، فلما دخلا البيت دخل عبد الله بن الزبير الحجاب ؛ لأنه ابن أختها ، فهي من محارمه فأكبَّ عليها يقبلها ويبكي ويناشدها الله عز وجل ويحذرها من القطيعة ويبين لها أن هذا لا يجوز لكنها قالت : النذر شديد ، ثم إن الرجلين أقنعاها بالعدول عما صممتْ عليه من الهجر وذكَّراها بحديث النبي ﷺ : « إنه لا يحل للمؤمن أن يهجر أخاه فوق ثلاث » حتى اقتنعت وبكَتْ وكلمت عبدَ الله بن الزبير ، ولكن هذا الأمر أهمَّها شديدًا ، فكانت كلما ذكرته بكت رضي الله عنها ، لأنه شديد . وهذا قاعدة في كل إنسان يخاف الله ، كل من كان بالله أعرفَ كان منه أخوفَ . كلما ذكرت هذا النذر وأنها انتهكته بكت رضي الله عنها ومع هذا أعتقت أربعين عبدًا من أجل هذا النذر ليُعتق الله تعالى رقبتها من النار ، وفي هذا دليل على شدة إيمان أمهات المؤمنين وحرصهن على العتق من النار والبراءة من عذاب الكفار ، ففي هذا الحديث دليل على فوائد :

١ - أن الإنسان لا يحل له أن يهجر أخاه فوق ثلاثة أيام ، ولا سيما إذا كان قريبًا ، وأنه يجب عليه أن يحنث ويُكفِّر ، لقول النبي ﷺ : « من حلف على يمين فرأى خيرًا منها فليكفر عن يمينه وليأتِ الذي هو خير » (١) والله عز وجل غفور رحيم بالنسبة لليمين إذا كفرتَ عن يمينك ، وأتيت الذي هو خير كما أمر النبي ﷺ .

٢ - فضيلة الإصلاح بين الناس ، ومعلوم أن الإصلاح بين الناس من أفضل الأعمال قال الله تعالى : ﴿ لَّا خَيْرَ فِي كَثِيرٍ مِّن نَّجْوَاهُمْ إِلَّا مَنْ أَمَرَ بِصَدَقَةٍ أَوْ مَعْرُوفٍ أَوْ إِصْلَاحٍ بَيْنَ النَّاسِ ۚ وَمَن يَفْعَلْ ذَٰلِكَ ابْتِغَاءَ مَرْضَاتِ اللَّهِ فَسَوْفَ نُؤْتِيهِ أَجْرًا عَظِيمًا ﴾ [النساء : ١١٤] .

٣ - جواز الحيل إذا لم تصل إلى شيء مُحرَّمٍ ؛ لأن عائشة رضي الله عنها تحيَّل عليها الرجلان في الدخول عليها ومعهما عبد الله بن الزبير .

٤ - رقة قلوب الصحابة وسرعة بكائهم رضي الله عنهم من خشية الله عز وجل ، وهذا دليل على لين القلب

---

(١) سبق تخريجه .

وخشيته لله ، وكلما كان قلب الإنسان أقسى كان من البكاء أبعد - والعياذ بالله - ولذلك نرى الناس لما كانوا أقرب للأخرة من اليوم نجد فيهم الخشوع والبكاء وقيام الليل واللجوء إلى الله والصدقة وفعل الخير ، لكن لما قست القلوب صارت المواعظ تمر عليها مرور الماء على الصفا لا تنتفع به إطلاقًا نسأل الله لنا ولكم العافية .

أما الحديث الثاني : ذكره المؤلف رَحِمَهُ اللَّهُ عن عقبة بن عامر رضي الله عنه أن النبي ﷺ خرج إلى أحد فصلى على الشهداء هناك - أي دعا لهم - وليس المراد الصلاة المعروفة كما قال المؤلف رَحِمَهُ اللَّهُ لأن صلاة الجنازة المعروفة إنما تكون قبل الدَّفن لا بعده إلا من فاته الصلاة عليه قبل الدفن يصلى عليه بعده لكن هذه الصلاة الدعاء [1] كما في قوله تعالى ﴿ خُذْ مِنْ أَمْوَٰلِهِمْ صَدَقَةً تُطَهِّرُهُمْ وَتُزَكِّيهِم بِهَا وَصَلِّ عَلَيْهِمْ ﴾ [التوبة : ١٠٣] يعني ادع لهم ، ثم صعد المنبر ﷺ وخطب الناس كالمودِّع ، وأخبر أنه يرى حوضه ماؤه أشد بياضًا من اللبن وأحلى من العسل ، وأطيب من المسك رائحة ، وآنيته كنجوم السماء في الكثرة والنور - هذا الحوض يرده الناس وهم عطاش - من طول المقام يوم القيامة ، ويشرب منه المؤمنون - جعلنا الله وإياكم ممن يشربون منه بمنِّه وكرمه - ويُذاد عنه الكافرون ، فمن شرب من شريعته في الدنيا واهتدى بسنته واتبع آثارَه ؛ فليبشِرْ أنه سيشرب من حوضه يوم القيامة ، ومن لم يكن كذلك حُرم إياه - والعياذ بالله - .

كان الرسول ﷺ يقول : « إنه ينظر إلى حوضه الآن » كُشف له عنه في الدنيا كما كشف عنه حين رأى الجنة والنار في صلاة الكسوف ، وهذه أمور غيبية لا نَعرف كيف كذلك ولكن الله ورسوله أعلم .

المهم : علينا أن نؤمن ونصدق ، فهذا الحوض يرده الناس يوم القيامة ويشربون منه إلا من طغى واستكبر - والعياذ بالله - وأخبر ﷺ أنه لا يخشى على أمته الشركَ ؛ لأن البلاد - ولله الحمد - فُتحت وصار أهلها إلى التوحيد ولم يقع في قلب النبي ﷺ أنه يقع الشرك بعد ذلك ، لكن لا يُفهم من هذا - أي من كونه لا يخفِ الشرك على أمته - ألا يقع ، فإن الشرك وقع الآن فهو موجود الآن : من المسلمين من يقول : إنه مسلم وهو يطوف بالقبور ، ويسأل المقبورين ويذبح لهم وينذر لهم فهو موجود ، والرسول ﷺ لم يقل : إنكم لن تشركوا حتى نقول : إن ما وقع ليس بشرك ؛ لأن الرسول نفى أن يكون الشرك ، وهو لا ينطق عن الهوى لكن قال : « إني لا أخاف » وهذا بناء على وقوع

---

(١) يمكن الإشارة هنا إلى أن في الصلاة على الشهيد قولين :
الأول : عدم الصلاة عليه وذهب إلى هذا الرأي أكثر العلماء وهو قول الشافعية والمالكية والحنابلة ، وبه قال عطاء وإسحاق والنخغي وأبو ثور وابن المنذر . والثاني : وجوب الصلاة عليه وأنه كغيره من الموتى واستدلوا على ذلك بهذا الحديث الذي بين أيدينا . وبما أخرجه البيهقي في السنن (١٤/٤) عن عقبة بن عامر قال : خرج رسول الله ﷺ يومًا إلى أحد فصلى على أهل أحدٍ صلاته على الميت ثم انصرف إلى المنبر ، فقال « إني فرطكم ... » الحديث . وظاهر الحديث يدل على أنه ﷺ صلى عليهم صلاة الجنازة وإنه لم يكن دعاءً فقط .

الدعوة في عهده ﷺ وبيان التوحيد وتمسُّك الناس به ، لكن لا يلزم من هذا أن يستمر ذلك إلى يوم القيامة ، ويدل لهذا أنه صح عن الرسول ﷺ : « لا تقوم الساعة حتى يعبد فئام من أمته الأوثان »[١] . أي جماعات كبيرة ، ولكن الرسول ﷺ في تلك الساعة لا يخشى على أمته الشرك لكن خشي شيئًا آخر ، الناسُ أسرع إليه ؛ وهو أن تُفتح الدنيا على الأمة فيتنافسوها ويتقاتلوا عليها فتهلكهم كما أهلكت من قبلهم ، وهذا هو الذي وقع الآن ، فقد فتحت الدنيا وجاءتنا من كل جانب وصار فيها ما لا يخطر على البال مما سبق ، ولو أن أحدًا حُدِّث به لم يُصدِّق لكن وقع فصار الناس الآن يتنافسون فيها ويتقاتلون عليها ، فأهلكتهم كما أهلكت من كان قبلهم .

والذين لم يقاتلوا عليها صارت قلوبهم للدنيا - والعياذ باللَّه - الدنيا همُّهم في المنام واليقظة ، والقعود والقيام ، والليل والنهار ، حتى أصبح المثل المشهور واقعًا على كثير من الناس وهو (الحلال ما حلَّ باليد من حرام أو حلال) وحتى صدق فيهم قول الرسول ﷺ : « يأتي على الناس زمان لا يبالي الرجل أخذ المالَ من حلال أو حرام »[٢] - والعياذ باللَّه - أصبح الناس الآن يتقاتلون على الدنيا - على الدنيا - !! والعجب أن الإنسان يسعى وراء الدنيا التي خُلقت له فيكون كأنه هو الذي خُلق لها - والعياذ باللَّه - يخدمها خدمةً عظيمة يُرهق فيها بدنه وعقله وفكره وراحتَه والأنسَ بأهله ثم ماذا ، قد يفقدها في لحظة !! يخرج من بيته ولا يرجع إليه ، ينام على فراشه ولا يستيقظ ، وهذا مشاهد ، والعجب أن هذه الآيات نشاهدها ، نشاهد من عقد على امرأة ولم يدخل عليها ... مات !! مع شدة شوقه إليها وبُعد أمله ولكن حال دونه المنون[٣] ، نجد أناسًا معهم بطاقات دعوة زواجهم ثم يموتون وهي في سياراتهم . إذن فما فائدة الدنيا وهي إلى هذا الحد في الغرور ؟! لذلك أخبر النبي ﷺ وهو الرحيم بالمؤمنين الرءوف بهم الشفيق عليهم : إنما يخشى علينا أن تفتح الدنيا فنتنافس فيها وهذا هو الواقع .

فاحذر - يا أخي - لا تغرنك الحياة الدنيا ولا يغرنك باللَّه الغرورُ ، أنت إن وسَّع اللَّه عليك الرزق وشكرته فهو خير لك ، وإن ضُيِّق عليك وشكرت فهو خير لك ، أما أن تجعل الدنيا أكبر همِّك ومبلغ علمك ؛ فهذا خسار في الدنيا والأخرة - أعاذنا اللَّه وإياكم من الفتن ما ظهر منها وما بطن - .

* * *

١٨٦١ - وَعَنْ أَبي زَيدٍ عَمرِو بنِ أَخطَبَ الأَنْصَارِيِّ ﷺ قَالَ : صَلَّى بِنَا رَسُولُ اللَّهِ ﷺ الفَجْرَ ، وَصَعِدَ المِنبَرَ ، فَخَطَبَنَا حَتَّى حَضَرَتِ الظهْرُ ، فَنَزَلَ فَصلَّى ، ثُمَّ صَعِدَ المِنْبَرَ حَتَّى حَضَرَتِ العَصْرُ ، ثُمَّ نَزَلَ فَصلَّى ، ثُمَّ صَعِدَ المِنبر حتى غَربَتِ الشَّمْسُ ، فَأَخبَرَنَا مَا كَانَ ، وَمَا هُوَ كَائِنٌ ، فَأَعْلَمُنَا أَحْفَظُنَا[٤] . رواه مسلم .

---

(١) ويدل على ذلك ما أخرجه أحمد في مسنده (٢٧٨/٥) وابن حجر في فتح الباري (٧٦/١٣) والحميدي في مسنده (٧٤٣) .

(٢) أخرجه البخاري في البيوع (٢٠٥٩) والنسائي في السنن (٢٣٤/٧) .

(٣) المنون : هو الموت .

(٤) أخرجه مسلم في الفتن وأشراط الساعة (٢٥) قوله « فخطبنا حتى حضرت الظهر » أي استمر يخطب حتى موعد صلاة الظهر .

١٨٦٢ - وَعَنْ عَائِشَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا قَالَتْ : قَالَ النَّبِيُّ ﷺ : « مَنْ نَذَرَ أَنْ يُطِيعَ اللَّهَ ؛ فَلْيُطِعْهُ ، وَمَن نَذَر أَنْ يَعْصِيَ اللَّهَ ؛ فَلَا يَعْصِهِ » (١) رواه البخاري .

١٨٦٣ - وَعَنْ أُمِّ شَرِيكٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا ، أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ أَمَرَهَا بِقَتْلِ الأَوْزَاغِ ، وَقَالَ : « كَانَ يَنْفُخُ عَلَى إِبْرَاهِيمَ » (٢) متفقٌ عليه .

١٨٦٤ - وَعَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قَالَ : قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ : « مَنْ قَتَلَ وَزَغَةً في أَوَّلِ ضَرْبَةٍ ؛ فَلَهُ كَذَا وَكَذَا حَسَنَةً ، وَمَنْ قَتَلَهَا في الضَّرْبَةِ الثَّانِيَةِ ؛ فَلَهُ كَذَا وَكَذَا حَسَنَةً دون الأولى ، وإن قتلها في الضربة الثالثة ؛ فله كذا وكذا حسنةً » .

وفي روايةٍ : « مَنْ قَتَلَ وَزَغًا في أَوَّلِ ضَرْبَةٍ ؛ كُتِبَ لَهُ مائةُ حَسَنةٍ ، وَفي الثَّانِيَةِ دُونَ ذلِكَ ، وَفي الثَّالِثَةِ دُونَ ذلِكَ » (٣) . رواه مسلم .

قَالَ أَهْلُ اللُّغَةِ : « الوَزَغُ » : العِظَامُ مِنْ سَامِّ أَبْرَصَ .

١٨٦٥ - وَعَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ قَالَ : « قَالَ رَجُلٌ : لأَتَصَدَّقَنَّ بِصَدَقَةٍ ، فَخَرَجَ بِصَدَقَته ، فَوَضَعَهَا في يَدِ سَارِقٍ ، فَأَصْبَحُوا يَتَحَدَّثُونَ : تُصُدِّقَ عَلَى سَارِقٍ ! فَقَالَ : اللَّهُمَّ لَكَ الحَمْدُ ! لأَتَصَدَّقَنَّ بِصَدَقَةٍ ، فَخَرَجَ بِصَدَقَتِهِ ، فَوَضَعَهَا في يَدِ زَانِيَةٍ ، فَأَصْبَحُوا يَتَحَدَّثُون : تُصُدِّقَ اللَّيْلَةَ عَلَى زَانِيَةٍ ! فَقَالَ : اللَّهُمَّ لَكَ الحَمْدُ عَلَى زَانِيَةٍ ! لأَتَصَدَّقَنَّ بِصَدَقَة ، فَخَرَجَ بِصَدَقَتِهِ ، فَوَضَعَهَا في يَدِ غَنِيٍّ ، فَأَصْبَحُوا يَتَحَدَّثُونَ : تُصُدق عَلَى غَنِيٍّ ! فَقَالَ : اللَّهُمَّ لَكَ الحَمْدُ عَلَى سَارِقٍ ، وعلى زَانِيَةٍ ، وَعَلَى غَنِيٍّ ! فَأُتِيَ فَقِيلَ لَهُ : أَمَّا صَدَقَتُكَ عَلَى سَارِقٍ : فَلَعَلَّهُ أَنْ يَسْتَعِفَّ عَنْ سَرِقَتِهِ ، وَأَمَّا الزَّانِيَةُ : فَلَعَلَّهَا تَسْتَعِفُّ عَنْ زِنَاهَا ، وَأَمَّا الغَنِيُّ : فَلَعَلَّهُ أَنْ يَعْتَبِرَ ، فَيُنْفِقَ مِمَّا آتَاهُ اللَّهُ » (٤) . رواه البخاريُّ بلفظِهِ ، ومُسْلِمٌ بمَعْنَاهُ .

الشرح

هذه الأحاديث من الأحاديث التي ذكرها المؤلف من الأحاديث المنثورة التي لا تختص بباب دون باب ، فمنها هذا الحديث الدال على أن النبي ﷺ أخطب الناس وأن اللَّه تعالى أعطاه قوة لم يعطها أحدًا غيره ؛ فقد صلّى الفجر ﷺ ذات يوم وصعد المنبر وخطب الناس حتى أذن الظهر ثم نزل فصلى

(١) أخرجه البخاري في الأيمان والنذور (٦٦٩٦) ، وأحمد في مسنده (٣٦/٦) ، وأبو داود في الأيمان والنذور (٣٢٨٩) ، وابن ماجه في الكفارات (٢١٢٦) .

(٢) أخرجه البخاري في أحاديث الأنبياء (٣٣٥٩) ، ومسلم في السلام (١٤٢) قوله « الأوزاغ » حشرات سامة مؤذية .

(٣) أخرجه مسلم في السلام (١٤٦ ، ١٤٧) .

(٤) أخرجه البخاري في الزكاة (١٤٢١) ، ومسلم في الزكاة (٧٨) ، والبيهقي في السنن (٢٦٧/٢) . قوله « يستعف عن سرقته » أي تغنيه هذه الصدقة عن السرقة قوله « يعتبر » أي يأخذ العظة والعبرة فيفعل مثلما فعل ذلك المتصدق .

الظهر ، ثم عاد فصعد المنبر وخطب حتى أذّن العصر ، فنزل وصلّى العصر ، ثم صعد المنبر فخطب حتى غابت الشمس يعني يومًا كاملًا من صلاة الفجر إلى غروب الشمس وهو ﷺ يخطب ، ولم يُذكر أنه خرج إلى البيت ليتغدى أو نحو ذلك ، فإما أن يكون صائمًا ، وإما أن يكون قد انشغل بما هو أهم ، وكذلك أيضًا لم يُذكر أنه صلى راتبة الظهر فيكون هنا اشتغل عن الراتبة بما هو أهم ؛ لأن موعظة الناس وتعليم الناس أهم من الراتبة ، فإن دار الأمر بين أداء الراتبة والتعليمِ فالتعليمُ أفضل .

قال : « وأخبرنا بما كان وما يكون » يعني مما أطلعه اللَّه عليه وليس يعلم الغيب إلا من أطلعه اللَّه عليه فقط ، فأعلمَه اللَّه ﷻ في ذلك اليوم شيئًا من علوم الغيب الماضية ومن الغيوبِ المستقبلة وأخبر بها ﷺ .

« فأعلمنا أحفظنا » يعني منا من علم وحفظ وبقي ذلك في ذهنه ومنا من لم يحفظ ، ففي هذا دليل على قوة النبي ﷺ ونشاطِه وحرصه على إبلاغ الرسالة حتى قام يومًا كاملًا .

وأما الحديث الثاني : فهو حديث عائشة أن النبي ﷺ قال : « من نذر أن يطيع اللَّه فليطعه ، ومن نذر أن يعصيه فلا يعصه » .

النذر : هو أن يلزم الإنسان نفسه شيئًا لله ﷻ مثل أن يقول : لله عليَّ نذرأن أقوم ، أن أصوم ، أن أصلي ، أن أقرأ القرآن ، أن أتصدق ... إلخ . والنذر إما حرام وإما مكروه ، فبعض العلماء يرى أن النذر حرام ، وأنه لا يحل للإنسان أن ينذر ؛ لأنه يكلف نفسه ماهو في غنى عنه وكم من إنسان نذر ولم يوفِ ! وكم من إنسان نذر وتعب في الوفاء ! وكم من إنسان نذر وذهب إلى أبواب العلماء يستفتيهم لعله يجد رخصة ! المهم : أن النبي ﷺ نهى عن النذر ، واختلف علماء المسلمين في هذا النهي : فمنهم من قال : إنه للتحريم ، ومنهم من قال : إنه للكراهة ، ولكن إذا نذر أن يطيع اللَّه وجب عليه أن يطيع اللَّه وجوبًا : فإذا قال : لله عليَّ نذر أن أصوم كل يوم اثنين من كل أسبوع ؛ وجب عليه ذلك ، ولا يحل له أن يخلف إلا لعذر كمرض ونحوه ، وإذا نذر أن يصلي كل يوم ركعتي الضحى ؛ وجب عليه أن يصلي ركعتين ... إلخ .

مع أنه كان في حلٍّ من ذلك إن شاء صام ، وإن شاء لم يصم ، وإن شاء صلّى وإن شاء لم يصلِّ ... إلخ ، في غير فرائض اللَّه فهو في حلٍّ وسعة فيذهب فيضيق على نفسه ، والعجب أن بعض الناس - نسأل اللَّه لنا ولهم الهداية - إذا كان مريضًا قال : لله عليَّ نذر إن عافاني اللَّه لأفعلن كذا وكذا . سبحان اللَّه ! اللَّه لا يعافيك إلا إذا أعطيت الشرط !! ولهذا أشار النبي ﷺ لذلك فقال : « إن النذر لا يردُّ قضاء »[1] إذا أراد اللَّه أمرًا - سواء نذرت أو لم تنذر - سيتم ، وقال : إنه لا يأتي بخير[2] وصدق

---

(١) أخرجه البخاري في الأيمان والنذور (٦٦٩٢) بلفظ : « إن النذر لا يغني من القدر شيئًا » ومثله الترمذي في السنن (١٥٣٨) .

(٢) ويدل على ذلك نهيه عن النذر وذلك فيما رواه البخاري في الأيمان (٦٦٩٢ ، ٦٦٩٤) ، ومسلم في النذر (٦،٤) ، وأحمد في مسنده (٦١/٢) .

ﷺ النذر ما فيه خير ، واعلم أنك إذا نذرت ، على شرط فلم توفِ إذا حصل الشرط فإنك مُهدد بأمر عظيم ، مُهدد بنفاقٍ يجعله اللَّه في قلبك حتى تموت قال اللَّه ﷻ ﴿ وَمِنْهُم مَّنْ عَٰهَدَ ٱللَّهَ لَئِنْ ءَاتَىٰنَا مِن فَضْلِهِۦ لَنَصَّدَّقَنَّ وَلَنَكُونَنَّ مِنَ ٱلصَّٰلِحِينَ ﴾ [التوبة: ٧٥] عاهدوا اللَّه إن أعطانا مالًا لنتصدقن منه ونقوم بطاعة اللَّه ﴿ فَلَمَّآ ءَاتَىٰهُم مِّن فَضْلِهِۦ ﴾ [التوبة: ٧٦] وتم لهم مطلوبهم ﴿ بَخِلُوا۟ بِهِۦ وَتَوَلَّوا۟ ﴾ [التوبة: ٧٦] ما وفوا بما عاهدوا اللَّه عليه ﴿ فَأَعْقَبَهُمْ نِفَاقًا فِى قُلُوبِهِمْ إِلَىٰ يَوْمِ يَلْقَوْنَهُۥ ﴾ نفاق دائم لا يوفقون إلى التوبة منه ولا تنسلخ قلوبهم منه بل يبقى في قلوبهم إلى أن يموتوا - والعياذ باللَّه - على النفاق ، فالمهم - يا أخي المسلم - احذر النذر ، وحذِّر إخوانك المسلمين وقل للمريض : إن أراد اللَّه لك شفاء شفاك بدون نذر ، وقل للتلميذ : إن أراد اللَّه أن تنجح نجحت بدون نذر ، وقل لمن ضاع منه شيء : إن أراد اللَّه آتاك به من غير نذر ، واصْدُقِ اللَّه في نفسك إذا حصل ذلك الشيء فحينئذ اشكرِ اللَّه ، تصدَّق بما شئت ، صُم ، صلِّ ، أما أنْ تنذر وكأن اللَّه ﷻ لا يأتي إلا إذا شُرط له شرط - نسأل اللَّه العافية ، ولهذا فالقول بالتحريم قول قويٌّ ، وإليه مال شيخ الإسلام ابن تيمية رَحِمَهُ اللَّهُ [١] .

أما « من نذر أن يعصي اللَّه فلا يعصه » لو نذر أن يشرب الخمر مثلًا حَرُم عليه شربها ، ولا يحل له أن يشرب الخمر بالنذر لا يقول : أنا نذرت وأوفي بنذري : نقول : لا وفاء لنذر في معصية اللَّه . لو نذر أن يعتدي على شخص ؛ لا يحل أن يعتدي عليه ولو نذر ، لو نذر أن يغتاب شخصًا ؛ فلا يحل له أن يغتابه ، ولو نذر أن يقاطع قريبه ؛ لم يحل له أن يقاطع قريبه ، لو نذر أن يعقَّ والديه ؛ لم يحل له أن يعق والديه ، لأن ذلك معصية ، ومن نذر أن يعصي اللَّه فلا يعصِ ، ولكن ماذا يفعل ؟ قال أهل العلم : إنه لا يعصي اللَّه ويكفر كفارة يمين : يطعم عشرة مساكين أو يكسوهم ، أو يعتق رقبة ، فإن لم يجد صام ثلاثة أيام متتابعة لحديث ورد في ذلك عن النبي ﷺ .

أما الحديث الثالث في درسنا : فهو قتل الوزغ : والوزغ سام أبرص هذا الذي يأتي في البيوت يبيض ويفرِّخ ويؤذي الناس ، أمر النبي ﷺ بقتله ، وكان عند عائشة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا رمح بها تتبع الأوزاغ وتقتلها [٢] ، وأخبر النبي ﷺ أن من قتله في أول مرة فله كذا وكذا من الأجر ، وفي الثانية أقل ، وفي الثالثة أقل ... كل ذلك تحريضًا للمسلمين على المبادرة لقتله ، وأن يكون قتله بقوة ليموت في أول مرة ، وسماه النبي ﷺ فاسقًا ، وأخبر أنه كان ينفخ النار على إبراهيم - والعياذ باللَّه - حين ألقاه أعداؤه في النار جعل هذا الخبيث الوزغ ينفخ النار على إبراهيم من أجل أن يشتد لهبُها ، مما يدل على عداوته التامة لأهل التوحيد والإخلاص ولذلك ينبغي للإنسان أن يتتبع الأوزاغ في بيته ، في السوق ، في المسجد ويقتلها - واللَّه الموفق .

أما حديث أبي هريرة الثاني في درسنا : فهو في قصة الرجل الذي خرج ليتصدق ، ومعروف أن الصدقة على الفقراء والمساكين ، فوقعت صدقته في يد سارق ، فأصبح الناس يتحدثون : تُصدِّق الليلة

---

(١) انظر فتاوى ابن تيمية (٣٥/٢٥٧ ، ٢٨٥) .

(٢) انظر في ذلك ما أخرجه أحمد في مسنده (٦/٨٣ ، ١٠٩) .

على سارق ، والسارق ينبغي أن يعاقب لا أن يُعطى ويُنَمَّى ماله فقال هذا الرجل المتصدق : « الحمد لله » حمد الله ، لأن الله – تعالى – محمود على كل حال ، وكان من هدي النبي ﷺ أنه إذا أصابه ما يسره قال : « الحمد لله الذى تتم بنعمته الصالحات »[(١)] ، وإذا أصابه خلاف ذلك قال : « الحمد لله على كل حال »[(٢)] هذا هدي النبي ﷺ . وأما ما يقوله بعض الناس : (الحمد لله الذى لا يحمد على مكروه سواه) فهذه عبارة لا ينبغي أن تقال ، لأن كلمة (على مكروه) تنبئ عن كراهتك لهذا الشيء وأن هذا فيه نوع من الجزع ، ولكن قل كما قال النبي ﷺ : « الحمد لله على كل حال » والإنسان لا شك في أنه في هذه الدنيا يومًا يأتيه ما يسره ، ويومًا يأتيه ما لا يسره ، فإن الدنيا ليست باقية على حال وليست صافية من كل وجه بل صفوها مشوب بالكدر – نسأل الله أن يكتب لنا ولكم بها نصيبًا للآخرة – لكن إذا أتاك ما يسرك فقل : « الحمد لله الذي بنعمته تتم الصالحات » ، وما يسوءك فقل : « الحمد لله على كل حال » ، ثم إنه خرج هذا الرجل فقال : « لأتصدقن الليلة فوقعت صدقته في يد زانية » امرأة بغي تُمكِّن الناسَ من الزنا بها ، فأصبح الناس يتحدثون : « تصدق الليلة على زانية » وهذا شيء لا يقبله العقل ولا الفطرة فقال : « الحمد لله ، ثم قال : لأتصدقن الليلة » وكأنه رأى أن صدقته الأولى والثانية لم تُقبل ، فتصدق « فوقعت صدقتُه في يد غني » والغني ليس من أهل الصدقة ؛ بل من أهل الهدية والهبة وما أشبه ذلك ، فأصبح الناس يتحدثون : « تصدق الليلة على غني ، فقال : الحمد لله ، على سارق وزانية وغني » وقد كان يريد أن تقع صدقته في يد فقير متعفف نزيه ، لكن كان أمر الله قدرًا مقدورًا ، فقيل له : « إن صدقتك قد قُبلت » ؛ لأنه مخلِص ، قد نوى خيرًا لكنه لم يتيسر له ، وقد قال النبي ﷺ في هذا الشأن : « إذا حكم الحاكم فاجتهد ... فأخطأ فله أجر »[(٣)] هذا مجتهد ولم يتيسر له ما يريد فقيل له : أما صدقتك فقد قُبِلت . وأما السارق فلعله أن يستعف عن السرقة ، ربما يقول : هذا مال يكفيني ، وأما البغي فلعلها أن تستعف عن الزنا ، لأنها ربما كانت تزني – والعياذ بالله – ابتغاء المال وقد حصل لها ما يكفها عن الزنا . وأما الغني فلعله يعتبر فينفق مما آتاه الله .

هكذا النية الطيبة يحصل بها الثمرات الطيبة ، وكل هذا الذي ذكر متوقع وربما يكون .

يستعف السارق عن السرقة ، والبغي عن الزنا والغني يعتبر .

ففي هذا الحديث دليل على أن الإنسان إذا نوى الخير وسعى فيه وأخطأ ؛ فإنه يُكتب له ، ولا يضره ، ولهذا قال العلماء – رحمهم الله : إذا أعطى زكاته من يظنه من أهل الزكاة فتبيَّن أنه ليس من أهلها ؛

---

(١) أخرجه ابن ماجه في السنن (٣٨٠٣) ، والحاكم في المستدرك (٤٩٩/١) .

(٢) أخرجه الترمذي في الدعوات (٣٥٩٩) ، وابن ماجه في السنن (٣٨٠٣) ، وأحمد في مسنده ١١٧/٢ ، والحاكم في المستدرك (٤٩٩/١) .

(٣) أخرجه مسلم في الأقضية (١٥) ، وأبو داود في السنن (٣٥٧٤) ، والنسائي في السنن (٢٢٤/٨) ، وأحمد في مسنده (٢٠٤/٤) .

فإنها تجزئه ، مثلًا رأيت رجلًا عليه ثياب رثَّة تحسبه فقيرًا فأعطيته الزكاة ، ثم تحدَّث الناس أنه غني عنده أموال كثيرة ، فهل تجزئك الزكاة ؟ الجواب : نعم ، تجزئه الزكاة ، لأنه قيل لهذا الرجل : أما صدقتك فقد قبلت ، وكذلك إذا أعطيتها غيره ممن ظننته مستحقًّا ولم يكن كذلك فإنها تجزئك . والله الموفق .

* * *

١٨٦٦ - وَعَنْهُ قَالَ : كُنَّا مَعَ رَسُول اللَّهِ ﷺ في دَعْوَةٍ ، فَرُفِعَ إِلَيْهِ الذِّرَاعُ ، وَكَانَتْ تُعْجِبُهُ ، فَنَهَسَ مِنْهَا نَهْسَةً وقَالَ : أَنَا سَيِّدُ النَّاسِ يومَ القِيَامَةِ ، هَلْ تَدْرُونَ مِمَّ ذَاكَ ؟ يَجْمَعُ اللَّهُ الأَوَّلِينَ والآخِرِينَ في صَعِيد وَاحِدٍ ، فيُبْصِرُهُمُ النَّاظِرُ ، وَيُسْمِعُهُمُ الدَّاعِي ، وَتَدْنُو مِنْهُمُ الشَّمْسُ ، فَيَبْلُغُ النَّاسُ مِنَ الغَمِّ وَالكَرْبِ مَا لَا يُطِيقُونَ وَلَا يَحْتَمِلُونَ ، فَيَقولُ النَّاسُ : أَلا تَرَونَ إلى مَا أَنْتُمْ فِيهِ إلى مَا بَلَغَكُمْ ؟ أَلا تَنْظُرُونَ مَنْ يَشْفَعُ لَكُمْ إلى رَبِّكُمْ ؟ فَيَقولُ بَعْضُ النَّاسِ لِبَعْضٍ : أَبُوكُمْ آدَمُ ، وَيَأْتُونَهُ فَيَقولُونَ : يَا آدَمُ أَنْتَ أَبُو البَشَرِ ، خَلَقَكَ اللَّهُ بِيَدِهِ ، وَنَفَخَ فِيكَ مِنْ رُوحِهِ ، وأَمَرَ المَلائكةَ ، فَسَجَدُوا لَكَ ، وأَسْكَنَكَ الجَنَّةَ ، أَلا تَشْفَعُ لَنَا إِلَى رَبِّكَ ؟ أَلا تَرَى مَا نَحْنُ فِيهِ ، وَمَا بَلَغَنَا ؟ فَقَالَ : إِنَّ رَبِّي غَضِبَ غَضَبًا لَمْ يَغْضَبْ قَبْلَهُ مِثْلَهُ ، وَلا يَغْضَبُ بَعْدَهُ مِثْلَهُ ، وَإِنَّهُ نَهَانِي عَنِ الشَّجَرَةِ ، فَعَصَيْتُ ، نَفْسِي نَفْسِي نَفْسِي ، اذْهَبُوا إِلَى غَيْرِي ، اذْهَبُوا إِلَى نُوحٍ ، فَيَأْتُونَ نُوحًا فَيَقُولُونَ : يَا نُوحُ ، أَنْتَ أَوَّلُ الرُّسُلِ إِلَى أَهْلِ الأَرْضِ ، وَقَدْ سَمَّاكَ اللَّهُ عَبْدًا شَكُورًا ، أَلا تَرَى إِلَى مَا نَحْنُ فِيهِ ؟ أَلا تَرَى إِلَى مَا بَلَغَنَا ؟ أَلا تَشْفَعُ لَنَا إِلَى رَبِّكَ ؟ فَيَقُولُ : إِنَّ رَبِّي غَضِبَ اليَومَ غَضَبًا لَمْ يَغْضَبْ قَبْلَهُ مِثْله ، وَلَنْ يَغْضَبَ بَعْدَهُ مِثْلَهُ ، وَإِنَّهُ قَدْ كَانَتْ لِي دَعْوَةٌ دَعَوتُ بِهَا عَلَى قَومِي ، نَفْسِي نَفْسِي نَفْسِي ، اذْهَبُوا إِلَى غَيْرِي ، اذْهَبُوا إِلَى إِبْرَاهِيمَ ، فَيَأْتُونَ إِبْرَاهِيمَ فَيَقُولُونَ : يَا إِبْرَاهِيمُ أَنْتَ نَبِيُّ اللَّهِ وَخَلِيلُهُ مِنْ أَهْلِ الأَرْضِ اشْفَعْ لَنَا إِلَى رَبِّكَ ، أَلا تَرَى إِلَى مَا نَحْنُ فِيهِ ؟ فَيَقُولُ لَهمْ : إِنَّ رَبِّي قَدْ غَضِبَ اليَومَ غَضبًا لَمْ يَغْضَبْ قَبْلَهُ مِثْلَهُ ، وَلَنْ يَغْضَب بَعْدَهُ مِثْلَهُ ، وَإِنِّي كُنتُ كَذَبْتُ ثَلَاثَ كَذبَاتٍ ، نَفْسِي نَفْسِي نَفْسِي ، اذْهَبُوا إِلَى غَيْرِي ، اذْهَبُوا إِلَى مُوسَى ، فَيَأْتُونَ مُوسَى ، فَيَقُولُونَ : يَا مُوسَى أَنْت رَسُولُ اللَّهِ فَضَّلكَ اللَّهُ بِرِسَالاَتِهِ وَبِكَلامِهِ عَلَى النَّاس ، اشْفَعْ لَنَا إِلَى رَبِّكَ ، أَلا تَرَى إِلَى مَا نَحْنُ فِيهِ ؟ فَيَقُولُ : إِنَّ رَبِّي قَدْ غَضِبَ اليَومَ غَضَبًا لَمْ يَغْضَبْ قَبْلَهُ مِثْلَهُ ، وَلَنْ يَغْضَبَ بَعْدَهُ مِثْلَهُ ، وَإِنِّي قَدْ قَتَلْتُ نَفْسًا لَمْ أُومَرْ بِقَتْلِهَا ، نَفْسِي نَفْسِي نَفْسِي ، اذْهَبُوا إِلَى غَيْرِي ، اذْهَبُوا إِلَى عِيسَى ، فَيَأْتُونَ عِيسَى ، فَيَقُولُونَ : يَا عِيسَى أَنْتَ رسُول اللَّهِ وَكَلِمَتُهُ أَلقَاهَا إِلَى مَرْيَمَ وَرُوحٌ مِنْهُ ، وَكَلَّمْتَ النَّاسَ في المَهْدِ ، اشْفَعْ لَنَا إِلَى رَبِّكَ ، أَلا تَرَى إِلَى مَا نَحْنُ فِيهِ ؟ فَيَقُولُ عِيسَى : إِنَّ رَبِّي قَدْ غَضِبَ اليَومَ غَضَبًا لَمْ يَغْضَبْ قَبْلَهُ مِثْلَهُ ، وَلَنْ يَغْضَبَ بَعْدَهُ مِثْلَهُ ، وَلَمْ يَذْكُرْ ذَنْبًا ، نَفْسِي نَفْسِي نَفْسِي ، اذْهَبُوا إِلَى غَيْرِي ، اذْهَبُوا إِلَى مُحَمَّدٍ ﷺ » .

وفي رواية : « فَيَأْتُونِي فَيَقُولُونَ : يَا مُحَمَّدُ أَنْتَ رَسُولُ اللَّهِ ، وَخاتَمُ الأَنْبِيَاءِ ، وَقَدْ غَفَرَ اللَّهُ لَكَ مَا تَقَدَّمَ مِنْ ذَنْبِكَ وَمَا تَأَخَّرَ ، اشْفَعْ لَنَا إِلَى رَبِّكَ ، أَلا تَرَى إِلَى مَا نَحْنُ فِيهِ ؟ فَأَنْطَلِقُ ، فَآتي تَحْتَ العَرْشِ ، فَأَقَعُ سَاجِدًا لِرَبِّي ، ثُمَّ يَفْتَحُ اللَّهُ عَلَيَّ مِنْ مَحَامِدِه ، وَحُسْنِ الثَّنَاءِ عَلَيْهِ شَيْئًا لَم يَفْتَحْهُ عَلَى أَحدٍ قَبْلِي ،

ثُمَّ يُقَال : يَا مُحَمَّدُ ارفَع رَأسَكَ ، سَل تُعْطَهْ ، وَاشْفَعْ تُشَفَّعْ ، فَأَرفَعُ رَأسِي ، فَأَقُولُ : أُمَّتِي يَا رَبُّ ، أُمَّتِي يَا رَبُّ ، فَيُقَالُ : يَا مُحَمَّدُ أَدْخِلْ مِنْ أُمَّتِكَ مَنْ لاحِسَابَ عَلَيْهِمْ مِنَ البَابِ الأَيمنِ مِنْ أَبْوَابِ الجَنَّةِ وَهُمْ شُركَاءُ النَّاسِ فيمَا سِوَى ذلِكَ منَ الأبْوابِ » ثُمَّ قالَ : « وَالَّذِي نَفْسِي بِيَدِهِ إنَّ مَا بَيْنَ المصراعَيْنِ مِنْ مَصَارِيعِ الجَنَّةِ كَمَا بَيْنَ مَكَّةَ وَهَجَرَ ، أَو كَمَا بَيْنَ مَكَّةَ وَبُصْرَى »[١] متفقٌ عليه .

الشرح

هذا الحديث الطويل الذي ساقه المؤلف رحمه الله في آخر كتابه عن أبي هريرة رضي الله عنه أنهم كانوا مع النبي ﷺ في دعوة فقدمت إليه الذراع ، فنهس منها نهسة وكانت تعجبه ، (الذراع) : يعني ذراع الشاه - وكانت تعجب النبي ﷺ ؛ لأن لحمها أطيب ما في الجسم من لحم ، لين وسريع الهضم ومفيد ، وكانت تعجب النبي ﷺ فنهس منها نهسة ثم حدثهم بهذا الحديث العجيب الطويل فقال : « أنا سيد ولد آدم يوم القيامة » ولا شك أنه ﷺ سيد ولد آدم وأشرف بني الإنسان عند الله - تبارك وتعالى - «أتدرون مم ذاك ؟ » ، قالوا : لا يا رسول الله ، فساق لهم بيان شرفه وفضله ﷺ على جميع بني آدم ، ذكر أن الناس يحشرون يوم القيامة في صعيد واحد أولهم وآخرهم كما قال عز وجل : ﴿ قُلْ إِنَّ ٱلْأَوَّلِينَ وَٱلْآخِرِينَ ۝ لَمَجْمُوعُونَ إِلَىٰ مِيقَٰتِ يَوْمٍ مَّعْلُومٍ ﴾ [الواقعة : ٤٩، ٥٠] يجمعون في صعيد واحدٍ والأرض يومئذٍ ممدودة ليست كهيئتها اليوم كروية لا ترى - إذا مددتَ بصرك - لا ترى إلا ما يواجهك من ظهرها فقط ، أما يوم القيامة فإن الأرض تـُمَدُّ مدَّ الجلد وليس فيها جبال ولا أودية ولا أنهار ولا بحار ، تُمَدُّ مَدًّا واحدًا والعالم فيها ، يُسمعهم الداعي ويَنفذهم البصر - يعني لو تكلم الإنسان يسمعهم آخر واحد - والبصر ينفذهم ، يراهم ، لأنه ليس بها تكور حتى يغيب بعض عن بعض ولكن كلهم في صعيد واحد ، في ذلك اليوم تدنو الشمس من الخلائق على قدر ميل ، ويلحقهم من الغم والكرب ما لا يطيقون ولا يحتملون ، فتضيق بهم الأرض ، ويطلبون الشفاعة لعل أحدًا يشفع فيهم عند الله - جل وعلا - ينقذهم من هذا الموقف العظيم على الأقل ، يلهمهم الله عز وجل أن يأتوا إلى آدم أبي البشر فيأتون إليه ويبينون فضله ، لعله يشفع لهم عند الله عز وجل يقولون له : أنت آدم أبو البشر - كل البشر من بني آدم : الذكور والإناث إلى يوم القيامة - (خلقك الله بيده) كما قال تعالى منكرًا على إبليس : ﴿ مَا مَنَعَكَ أَن تَسْجُدَ لِمَا خَلَقْتُ بِيَدَيَّ ﴾ [ص : ٧٥] خلقه الله بيده ، وخلق بقية البشر بكلمة (كن فيكون) أما آدم فخلقه جل وعلا بيده ، يقولون : « خلقك الله بيده وأسجد لك ملائكته » قال الله تعالى : ﴿ وَإِذْ قُلْنَا لِلْمَلَٰٓئِكَةِ ٱسْجُدُوا۟ لِءَادَمَ فَسَجَدُوٓا۟ ﴾ [البقرة : ٣٤] (وعلمك أسماء كل شيء) قال الله تعالى : ﴿ وَعَلَّمَ ءَادَمَ ٱلْأَسْمَآءَ كُلَّهَا ﴾ [البقرة : ٣١] « ونفخ فيك من روحه » : قال الله تعالى : ﴿ فَإِذَا سَوَّيْتُهُۥ وَنَفَخْتُ فِيهِ مِن رُّوحِى فَقَعُوا۟ لَهُۥ

---

(١) أخرجه البخاري في أحاديث الأنبياء (٣٣٤٠) ومسلم في الإيمان (٣٢٧) وأحمد في مسنده (٢/ ٤٣٥) والترمذي في صفة القيامة (٢٤٣٤) قوله « نهس » أي أخذ بأطراف أسنانه . قوله في صعيد واحد » في أرض متسعة مستوية . قوله : « وينفذهم بصره » أي يحيط بهم . ولا يخفى عليهم منه شيء لاستواء الأرض . قوله « مصاريع الجنة » أي جوانب أبواب الجنة .

سَٰجِدِينَ ﴾ [ص : ٧٢] كل هذا يعلمه الخلق ولا سيما أمة محمد الذين أعطاهم الله تعالى من العلوم ما لم يعط أحدًا من الأمم ، فيعتذر ويقول : « إن ربي غضب اليوم غضبًا لم يغضب مثله ولن يغضب مثله قط» ثم يذكر خطيئته : أن الله سبحانه وتعالى نهاه أن يأكل من شجرة فأكل قال الله تعالى : ﴿ وَلَا تَقْرَبَا هَٰذِهِ ٱلشَّجَرَةَ فَتَكُونَا مِنَ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴾ [الأعراف : ١٩] شجرة في الجنة لا ندري ما هذه الشجرة ولا نوعها ولا كبرها ولا صغرها ، شجرة أبهمها الله ، فعلينا أن نؤمن بها مبهمة ، نهى آدمَ أن يأكل منها ، وبيَّنَ له أنه إذا أكل منها هو وزوجه فإنهما يكونان من الظالمين ، ولكن عدوهما الشيطان دلَّاهما بغرور ووسوس لهما وقاسمهما :إني لكما لمن الناصحين ، فغرهما ونسي آدم ما عهده إلى الله ﷻ ﴿ وَعَصَىٰٓ ءَادَمُ رَبَّهُۥ فَغَوَىٰ ﴾ [طه : ١٢١] نسي وأكل من الشجرة فعوقب بأن أخرج من الجنة إلى الأرض لحكمة يريدها الله ﷻ فيذكر معصيته ويقول : « نفسي نفسي » يعني : عسى أن أنقذ نفسي ، ويؤكد ذلك ويكرره ثلاث مرات : « اذهبوا إلى غيري ، اذهبوا إلى نوح » ، ونوح هو الأبُ الثاني للبشرية ، لأن الله أغرق جميع أهل الأرض الذين كذبوا نوحًا ﴿ وَمَآ ءَامَنَ مَعَهُۥٓ إِلَّا قَلِيلٌ ﴾ [هود : ٤٠] وكان نوح هو الأب الثاني للبشر ، اذهبوا إلى نوح فيأتون إلى نوح ؛ لأنهم في شدة وضيق ، فيأتونه ويذكرون نعم الله عليه وأنه أول رسول أرسله الله إلى أهل الأرض ، وأن الله سمَّاه عبدًا شكورًا ، ولكنه يقول كما قال آدم في غضب الله ﷻ : « إن ربي غضب اليوم غضبًا لم يغضب مثله قط ولن يغضب مثله » ثم ذكر دعوته التي دعا بها على قومه : ﴿ رَّبِّ لَا تَذَرْ عَلَى ٱلْأَرْضِ مِنَ ٱلْكَٰفِرِينَ دَيَّارًا ﴾ [نوح : ٢٦] وفي رواية أنه يذكر دعوته التي دعا به لابنه ﴿ فَقَالَ رَبِّ إِنَّ ٱبْنِى مِنْ أَهْلِى وَإِنَّ وَعْدَكَ ٱلْحَقُّ وَأَنتَ أَحْكَمُ ٱلْحَٰكِمِينَ ۝ قَالَ يَٰنُوحُ إِنَّهُۥ لَيْسَ مِنْ أَهْلِكَ ۖ إِنَّهُۥ عَمَلٌ غَيْرُ صَٰلِحٍ ۖ فَلَا تَسْـَٔلْنِ مَا لَيْسَ لَكَ بِهِۦ عِلْمٌ ۖ إِنِّىٓ أَعِظُكَ أَن تَكُونَ مِنَ ٱلْجَٰهِلِينَ ﴾ [هود : ٤٥، ٤٦] يذكر ذنبه ، والشافع لا يشفع إلا إذا كان ليس بينه وبين المشفوع عنده ما يوجب الوحشة ، والمعصية بين العبد وربه ، توجب الوحشة بينهما وخجله منه ، فيذكر معصيته ويقول : نفسي نفسي نفسي ، ويحيلهم إلى إبراهيم ﷺ فيأتي الناس إليه ويقولون : « أنت خليل الله في الأرض » ويذكرون من صفاته ، ويطلبون منه أن يشفع لهم عند ربه فيعتذر ، ويقول : إنه كذب ثلاث كذبات ، ويقول : نفسي نفسي .

والكذبات هي : قوله : ﴿ إِنِّى سَقِيمٌ ﴾ [الصافات : ٨٩] وهو ليس بسقيم ، لكنه قال متحديًا لقومه الذين يعبدون الكواكب .

والثانية : قوله للملك الكافر : (هذه أختي) يعني زوجته ليسلم من شره وهي ليست كذلك .

والثالثة : قوله : ﴿ بَلْ فَعَلَهُۥ كَبِيرُهُمْ هَٰذَا ﴾ [الأنبياء : ٦٣] أي الأصنام ، لأن إبراهيم ﷺ ذهب إلى أصنامهم وكسَّرها ، فلما رجعوا وجدوها مكسَّرة قالوا : ﴿ مَن فَعَلَ هَٰذَا بِـَٔالِهَتِنَآ ﴾ [الأنبياء : ٥٩] فقالوا : (فعله فتى يقال له إبراهيم) وجرى بينهم وبين إبراهيم ما جرى ، وقال لهم : ﴿ بَلْ فَعَلَهُۥ كَبِيرُهُمْ هَٰذَا فَسْـَٔلُوهُمْ إِن كَانُوا۟ يَنطِقُونَ ﴾ [الأنبياء : ٦٣] وهو ما فعل ، وإنما الذي فعله هو إبراهيم ﷺ لكن ذكر ذلك على سبيل التحدي لهؤلاء الذين يعبدون الأوثان . هذه كذبات في ظاهر الأمر لكنها في الحقيقة وبمناسبة تأويله ﷺ لم تكن كذبات ، لكنه لشدة ورعه وحيائه من الله – تبارك

وتعالى - اعتذر لهذا الإثم ، ويقول : « نفسي نفسي نفسي ، اذهبوا إلى غيري ، اذهبوا إلى موسى ، فيأتون موسى » ويذكرون من صفاته وأن اللَّه تعالى كلّمه تكليمًا واصطفاه على أهل الأرض برسالاته وكلامه فيذكر ذنبًا ويعتذر ، يذكر أنه قتل نفسًا قبل أن يُؤذن له في قتلها ، وهو القبطي الذي كان في خصام مع رجل من بني إسرائيل ، وموسى من بني إسرائيل ﷺ والقبطي من أهل فرعون ﴿ فَٱسْتَغَٰثَهُ ٱلَّذِى مِن شِيعَتِهِۦ عَلَى ٱلَّذِى مِنْ عَدُوِّهِۦ فَوَكَزَهُۥ مُوسَىٰ فَقَضَىٰ عَلَيْهِ ﴾ [القصص : ١٥] دون أن يؤمر بقتله ، فرأى ﷺ أن هذا يحول مما يحول بينه وبين الشفاعة للخلق حيث قتل نفسًا لم يؤمر بقتلها ، وقال : « نفسي نفسي ، اذهبوا إلى غيري ، اذهبوا إلى عيسى ، فيأتون عيسى » ويذكرون منه مِنَّة اللَّه عليه ، أنه نفخ فيه من روحه وأنه كلمته ألقاها إلى مريم وروح منه ، لأنه عيسى خُلِقَ بلا أبٍ ، فلا يذكر ذنبًا ، ولكنه يحيلهم إلى محمد ﷺ وهذا شرف عظيم لرسول اللَّه ﷺ حيث كان أربعة من الأنبياء يعتذرون بذكر ما فعلوه ، وواحد لا يعتذر بشيء ، ولكن يرى أن محمدًا ﷺ أولى منه ، فيأتون إلى رسول اللَّه ﷺ فيقبل ذلك ، ويجلس تحت العرش ويفتح اللَّه عليه من المحامد والثناء على اللَّه ما لم يفتحه على أحد غيره ثم يقال له : « ارفع رأسك ، وقل يُسمع ، وسَلْ تُعطَهْ ، واشفع تُشَفَّع » فيشفع ﷺ يقول : يا رب أمتي أمتي . فيتقبل اللَّه شفاعته ويُقال له : أدخل أمتك من الباب الأيمن من الجنة ، وهم شركاء مع الناس في بقية الأبواب ، وهذه فيها دلالة ظاهرة على أن النبي ﷺ أشرف الرسل ، والرسل هم أفضل الخلق كما قال ﷻ : ﴿ وَمَن يُطِعِ ٱللَّهَ وَٱلرَّسُولَ فَأُوْلَٰٓئِكَ مَعَ ٱلَّذِينَ أَنْعَمَ ٱللَّهُ عَلَيْهِم مِّنَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ وَٱلصِّدِّيقِينَ وَٱلشُّهَدَآءِ وَٱلصَّٰلِحِينَ ﴾ [النساء : ٦٩] هؤلاء هم الأصناف الأربعة الذين هم أفضل الخلق ، والنبي ﷺ أفضلهم . واللَّه الموفق .

* * *

١٨٦٧ - وَعَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ ﭭ قالَ : جَاءَ إبْرَاهِيمُ ﷺ بأُمِّ إسْمَاعِيلَ وبابْنِهَا إسْمَاعِيل وَهِيَ تُرْضِعُهُ حَتَّى وَضَعَهَا عِندَ البَيْتِ عِنْدَ دَوحَةٍ فَوقَ زَمْزَمَ في أعْلَى المَسْجِدِ ، وَلَيسَ بِمَكَّةَ يَومَئِذٍ أَحَدٌ وَلَيْس بها ماءٌ ، فَوَضَعَهُمَا هُنَاكَ ، وَوَضَعَ عِنْدَهُمَا جِرَابًا فِيهِ تَمْرٌ ، وَسِقَاءً فِيه مَاءٌ ، ثُمَّ قَفَّى إبْرَاهِيمُ مُنْطَلِقًا ، فَتَبِعَتْهُ أُمُّ إسْمَاعِيلَ فَقَالَت : يَا إبْرَاهِيمُ أَيْنَ تَذْهَبُ وَتَتْرُكُنَا بهذَا الوَادِي الَّذي لَيْسَ فِيهِ أَنِيسٌ وَلاَ شيء ؟ فَقَالَت لَهُ ذلِكَ مِرَارًا ، وَجَعَلَ لَا يَلْتَفِتُ إلَيْهَا ، قَالَتْ لَهُ : آللّهُ أَمَرَكَ بِهذَا ؟ قالَ : نَعَمْ . قَالَتْ : إذًا لاَ يُضَيِّعُنَا ، ثُمَّ رَجَعَتْ ، فَانْطَلَقَ إبْرَاهِيمُ ﷺ ، حَتَّى إذَا كَانَ عِنْدَ الثَّنِيَّةِ حَيْثُ لَا يَرونَهُ ، اسْتَقْبَلَ بَوجْهِهِ البَيْتَ ، ثُمَّ دَعَا بهؤلاء الدَّعَوَاتِ ، فَرَفَعَ يَدَيْهِ فَقَالَ : ﴿ رَّبَّنَآ إِنِّىٓ أَسْكَنتُ مِن ذُرِّيَّتِى بِوَادٍ غَيْرِ ذِى زَرْعٍ ﴾ حتى بلغ ﴿ يَشْكُرُونَ ﴾ وَجَعَلَتْ أُمُّ إسْمَاعِيل تُرْضِعُ إسْمَاعِيلَ ، وَتَشْرَبُ مِنْ ذلِكَ المَاءِ ، حَتَّى إذا نَفِذَ مَا في السِّقَاءِ ، عَطِشَتْ ، وَعَطِشَ ابْنُهَا ، وَجَعَلَتْ تَنظُرُ إلَيهِ يَتَلَوَّى - أَو قَالَ : يَتَلَبَّطُ - فَانطَلَقَتْ كَرَاهِيَةَ أَنْ تَنْظُرَ إلَيْه ، فَوَجَدَتِ الصَّفَا أَقْرَبَ جَبَلٍ في الأرْض يَلِيها ، فَقَامَتْ عَلَيْهِ ، ثُمَّ اسْتَقْبَلَتِ الوَادِيَ تَنْظُرُ هَلْ تَرَى أَحَدًا ؟ فَلَمْ تَرَ أَحَدًا . فَهَبَطَتْ مِنَ الصَّفَا حَتَّى إذَا بَلَغَتِ الوَادِيَ ، رَفَعَتْ طَرَفَ دِرْعِهَا ، ثُمَّ سَعَتْ سَعْيَ الإنْسَانِ المجهودِ حَتَّى جَاوَزَتِ الوَادِيَ ، ثُمَّ أَتَتِ المَرْوَة ، فَقَامَتْ عَلَيْهَا ، فَنَظَرتْ هَلْ

تَرَى أَحَدًا ؟ فَلَمْ تَرَ أَحَدًا ، فَفَعَلَتْ ذلِكَ سَبْعَ مَرَّاتٍ ، قَالَ ابْنُ عَبَّاسٍ رضي الله عنهما : قَالَ النَّبِيُّ ﷺ : « فَذلِكَ سَعْيُ النَّاسِ بَيْنَهُمَا » فَلَمَّا أَشْرَفَتْ عَلَى المَرْوَةِ سَمِعَتْ صَوتًا ، فَقَالَتْ : صَهْ - تُرِيدُ نَفْسَهَا - ثُمَّ تَسَمَّعَتْ ، فَسَمِعَتْ أَيْضًا ، فَقَالَتْ : قَدْ أَسْمَعْتَ إنْ كَانَ عِندَكَ غَوَاثٌ ، فإذَا هِيَ بالمَلَكِ عِنْدَ مَوضِعِ زَمْزَمَ ، فَبَحَثَ بعَقِبِهِ - أَو قَالَ بِجَنَاحِهِ - حَتَّى ظَهَرَ المَاءُ ، فَجَعَلَتْ تُحَوِّضُهُ وَتَقُولُ بِيَدِهَا هَكَذَا ، وَجَعَلَتْ تَغرِفُ المَاءَ فِي سِقَائِهَا وَهُوَ يَفُورُ بَعْدَ مَا تَغْرِفُ .

وفي روايةٍ : بقَدرِ مَا تَغْرِفُ . قَالَ ابْنُ عَبَّاسٍ رضي الله عنهما : قَالَ النَّبِيُّ ﷺ : « رَحِمَ اللَّهُ أُمَّ إسْمَاعِيلَ لَو تَرَكَتْ زَمْزَمَ - أَو قَالَ : لَو لَمْ تَغْرِفْ مِنَ المَاءِ - لَكَانَتْ زَمْزَمُ عَيْنًا مَعِينًا » قَالَ : فَشَرِبَتْ ، وَأَرْضَعَتْ وَلَدَهَا ، فَقَالَ لَهَا المَلَكُ : لا تَخَافُوا الضَّيْعَةَ ؛ فَإنَّ هٰهنا بَيْتًا للّهِ يَبنيهِ هذَا الغُلَامُ وَأَبُوهُ ، وَإنَّ اللَّهَ لا يُضَيِّعُ أَهْلَهُ ، وَكَانَ البَيْتُ مُرْتَفِعًا مِنَ الأَرْضِ كَالرَّابِيَةِ تَأتِيهِ السُّيُولُ ، فَتَأْخُذُ عَنْ يَمِينِه وَعَنْ شِمَالِهِ ، فَكَانَتْ كَذلِكَ حَتَّى مَرَّتْ بِهِمْ رُفْقَةٌ مِنْ جُرْهُمٍ أَو أَهْلُ بَيْتٍ مِنْ جُرْهُم مُقْبلينَ مِنْ طَرِيق كَدَاء ، فَنَزَلُوا فِي أَسْفَلِ مَكَّةَ ، فَرَأَوا طَائِرًا عَائِفًا فقَالُوا : إنَّ هذا الطَّائِرَ لَيَدُورُ عَلى مَاءٍ ؛ لَعَهْدُنَا بهذا الوادي وَمَا فِيهِ ماء ، فَأَرْسَلُوا جرِيًّا أَو جَرِيَّيْنِ ، فَإذا هُمْ بالماءِ . فَرَجَعُوا ، فَأَخْبَرُوهُمْ ، فَأَقبَلُوا وَأُمُّ إسْمَاعِيلَ عِنْدَ المَاءِ ، فَقَالُوا : أَتَأْذَنِينَ لَنَا أَنْ نَنزِلَ عِنْدَكِ ؟ قَالَتْ : نَعَمْ ، وَلكِنْ لا حَقَّ لَكُم في المَاءِ ، قَالُوا : نَعَمْ ، قَالَ ابْنُ عَبَّاسٍ : قَالَ النَّبِيُّ ﷺ : « فَألفَى ذلك أُمَّ إسمَاعِيلَ ، وَهِيَ تُحِبُّ الأُنسَ ، فَنَزَلُوا ، فَأَرْسَلُوا إلى أَهْلِيهِمْ فَنَزَلُوا مَعَهُمْ ، حَتَّى إذا كَانُوا بِهَا أَهْلَ أَبيَاتٍ ، وَشَبَّ الغُلامُ وَتَعَلَّمَ العَرَبِيَّةَ مِنهُمْ وأَنفَسَهُم وأعجَبَهُمْ حِينَ شَبَّ ، فَلَمَّا أَدْرَكَ ، زَوَّجُوهُ امرأَةً منهُمْ ، وَمَاتَتْ أُمُّ إسمَاعِيلَ ، فَجَاءَ إبْرَاهِيمُ بَعْدَ ما تَزَوجَ إسمَاعِيلُ يُطالِعُ تَرِكَتَهُ فَلَم يَجِدْ إسْمَاعِيلَ ، فسَأَلَ امْرَأَتَهُ عَنْهُ فَقَالَتْ : خَرَجَ يَبْتَغِي لَنَا - وفي روايةٍ : يَصِيدُ لَنَا - ثُمَّ سأَلَهَا عَنْ عَيْشَهِمْ وهَيئَتِهِمْ فَقَالَتْ : نَحْنُ بشَرٍّ ، نَحنُ في ضِيق وَشِدَّةٍ ، وَشَكَتْ إلَيْهِ ، قَالَ : فإذا جَاءَ زَوجُك ، اقْرَئِي عليه السلام ، وَقُولي لَهُ يُغَيِّرْ عَتَبَةَ بَابِهِ ، فَلَمَّا جَاءَ إسمَاعِيلُ كَأَنَّهُ آنسَ شَيْئًا فَقَالَ : هَلْ جَاءَكُم منْ أَحَدٍ ؟ قَالَتْ : نَعَمْ ، جَاءَنَا شَيْخٌ كَذا وَكَذَا ، فَسَأَلَنَا عَنْكَ ، فَأَخْبَرْتُهُ ، فَسَأَلَنِي : كَيْفَ عَيْشُنَا ، فَأَخْبَرْتُهُ أَنَّا في جَهْدٍ وَشِدَّةٍ . قَالَ : فَهَلْ أَوصَاكِ بشَيءٍ ؟ قَالَتْ : نَعَمْ أَمَرَني أَنْ أَقْرَأَ عَلَيْكَ السَّلامَ وَيَقُولُ : غَيِّرْ عَتَبَةَ بَابِكَ . قَالَ : ذَاكَ أَبي وقَدْ أَمَرَني أَنْ أُفَارِقَكِ ، الحَقِي بأَهْلِكِ . فَطَلَّقَهَا ، وَتَزَوَّجَ مِنْهُمْ أُخْرَى ، فَلَبثَ عَنْهُمْ إبْرَاهيمُ ما شَاء اللَّهُ ثُمَّ أَتَاهُمْ بَعْدُ ، فَلَمْ يَجِدْهُ ، فَدَخَلَ عَلى امْرَأَتِهِ ، فَسَأَلَ عَنْهُ . قَالَتْ : خَرَجَ يَبْتَغِي لَنَا ، قَالَ : كَيْفَ أَنْتُم ؟ وَسَأَلَها عَنْ عَيْشِهِمْ وهَيْئَتِهِمْ . فَقَالَتْ : نَحنُ بِخَيْرٍ وَسَعَةٍ ، وَأَثْنَتْ عَلى اللّهِ تَعَالى ، فقَالَ : مَا طَعَامُكُمْ ؟ قَالَت : اللَّحْمُ . قَالَ : فَمَا شَرَابُكُم ؟ قَالَت المَاءُ . قَال : اللَّهُمَّ بَارِكْ لَهُمْ في اللَّحمِ وَالمَاءِ ، قَالَ النَّبِيُّ ﷺ : « وَلَمْ يَكُنْ لَهُمْ يَومَئِذٍ حَبٌّ ، وَلَو كَانَ لَهُمْ دَعَا لَهُمْ فيهِ » قَالَ : فَهُمَا لا يَخْلُو عَلَيْهِمَا أَحَدٌ بغَيْرِ مَكَّةَ إلا لَمْ يُوافِقَاهُ .

وفي روايةٍ : فَجَاءَ فَقَالَ : أَيْنَ إسْمَاعِيلُ ؟ فَقَالَتِ امْرَأَتُهُ : ذَهَبَ يَصِيدُ ، فَقَالَتِ امْرَأَتُهُ : أَلا تَنْزِلُ ،

فَتطعَمَ وَتَشْرَبَ ؟ قَالَ : وَمَا طَعَامُكُم وَمَا شَرَابُكُمْ ؟ قَالَتْ : طَعَامُنَا اللَّحْمُ ، وَشرابُنَا الماءُ . قَالَ : اللَّهُمَّ بَارِكْ لهُمْ في طَعَامِهِم وَشَرابهِمْ ، قَالَ : فَقَالَ أَبُو القَاسِم ﷺ : « بَرَكَةُ دَعْوةِ إبْرَاهِيمَ ﷺ » قَالَ : فإذا جَاءَ زَوجُكِ ، فاقْرئي عليه السلام وَمُرِيهِ يُثَبِّتْ عَتَبَةَ بَابِهِ ، فَلَمَّا جاء إسْمَاعِيلُ ، قَالَ : هَلْ أَتَاكُمْ مِنْ أَحَدٍ ؟ قَالَتْ : نَعَمْ ، أَتَانَا شَيْخٌ حَسَنُ الهَيْئَةِ ، وَأَثْنَتْ عَلَيْهِ ، فَسَأَلني عَنْكَ ، فَأَخْبَرْتُهُ ، فَسألني كَيْفَ عَيْشُنَا ، فَأَخْبَرْتُهُ أَنَّا بِخَيْرٍ . قَالَ : فأوصَاكِ بِشَيْءٍ ؟ قَالَتْ : نَعَمْ ، يَقْرأُ عَلَيْكَ السَّلامَ ، وَيَأْمُرُكَ أَنْ تُثَبِّتَ عَتَبَةَ بَابِكَ . قَالَ : ذَاكَ أَبِي ، وَأَنْتِ العَتَبَةُ أَمَرَني أَنْ أُمسِكَكِ ، ثُمَّ لَبِثَ عَنْهُمْ مَا شَاءَ اللَّهُ ، ثُمَّ جاءَ بَعْدَ ذلكَ وَإسْمَاعِيلُ يَبْرِي نَبْلًا لَهُ تَحْتَ دَوحَةٍ قريبًا مِنْ زَمْزَمَ ، فَلَمَا رآهُ ، قَامَ إلَيْهِ ، فَصنَعَ كَمَا يَصْنَعُ الوَالِدُ بِالوَلَدِ ، وَالوَلَدُ بِالوَالِدِ قالَ : يَا إسْمَاعِيلُ إنَّ اللَّهَ أمَرني بِأَمْر ، قَالَ : فَاصْنَعْ مَا أَمَرَكَ رَبُّكَ ؟ قَالَ : وَتُعِينني ، قَالَ : وَأُعِينُكَ ، قَالَ : فَإنَّ اللَّهَ أمَرَني أنْ أبْني بَيْتًا ههنَا ، وأشَارَ إلى أكَمَةٍ مُرْتَفِعَةٍ عَلى ما حَولَها ، فعِندَ ذلكَ رَفَعَ القَوَاعِدَ مِنَ البَيْتِ ، فَجَعَلَ إسْمَاعِيلُ يَأْتي بالحِجَارَةِ ، وَإبْرَاهِيمُ يَبْني حَتَّى إذا ارْتَفَعَ البنَاءُ ، جَاء بهذا الحَجَر فَوَضَعَهُ لَهُ فقامَ عَلَيْهِ ، وَهوَ يَبْني وَإسماعيل يُنَاوِلُهُ الحِجَارَة وَهُمَا يَقُولانِ : ﴿ رَبَّنَا تَقَبَّلْ مِنَّآ إِنَّكَ أَنتَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ ﴾ .

وفي روايةٍ : إنَّ إبْرَاهِيمَ خَرَجَ بِإسْمَاعِيلَ وَأُمِّ إسْمَاعِيلَ ، مَعهُمْ شَنَّةٌ فِيهَا مَاءٌ ، فَجَعلَتْ أُمُّ إسْمَاعِيلَ تَشْرَبُ مِنَ الشَّنَّة ، فَيدِرُّ لَبَنُهَا عَلى صَبِيِّهَا حَتَّى قَدِمَ مَكَّةَ ، فَوَضَعَهَا تحْتَ دَوحَةٍ ، ثُمَّ رَجَعَ إبْرَاهِيمُ إلى أَهْلِهِ ، فاتَّبعَتْهُ أُمُّ إسْمَاعِيلَ حَتَّى لَمَّا بَلغوا كَداءَ ، نَادَتْهُ مِنْ وَرَائِه : يَا إبْرَاهِيمُ إلى مَنْ تَتْرُكُنا ؟ قَالَ : إلى اللَّه ، قَالَتْ : رَضِيتُ باللَّهِ ، فَرجَعَتْ ، وَجَعلَتْ تَشْرَبُ مِنَ الشَّنَّةِ ، وَيَدِرُّ لَبَنُها على صبيِّهَا حَتَّى لمَّا فني المَاءُ قَالَتْ : لَو ذَهَبْتُ ، فَنَظَرْتُ لَعَلِّي أُحِسُّ أَحدًا ، قَالَ : فَذَهَبَتْ فَصعِدَت الصّفا ، فَنَظَرَتْ وَنَظَرَتْ هَلْ تُحِسُّ أَحَدًا ، فَلَمْ تُحِسَّ أَحَدًا ، فَلمَّا بَلَغَت الوَادي ، سَعَتْ ، وَأتَتِ المَرْوَةَ ، وَفعَلَتْ ذلكَ أَشْوَاطًا ، ثُمَّ قَالَتْ : لَو ذَهَبْتُ فَنَظَرْتُ ما فَعَلَ الصبيُّ ، فَذَهَبَتْ وَنَظَرَتْ ، فإذا هُوَ عَلى حَالِهِ كأَنَّهُ يَنْشَغُ لِلموتِ ، فَلَمْ تُقِرَّهَا نَفْسُهَا . فَقَالَتْ : لَو ذَهَبْتُ ، فَنَظرتُ لَعَلِّي أُحِسُّ أَحدًا ، فَذَهَبَتْ فَصَعِدَتِ الصَّفَا ، فَنَظَرَتْ ونظرتْ ، فلَمْ تُحِسَّ أحدًا حَتَّى أَتَمَّتْ سَبْعًا ، ثُمَّ قالَتْ : لَو ذَهَبْتُ ، فَنَظَرْتُ مَا فَعَلَ ، فَإذا هِيَ بَصوتٍ ، فَقالَتْ : أَغِثْ إنْ كان عِنْدكَ خَيْرٌ ، فَإذا جِبْرِيلُ ﷺ فَقَالَ بِعَقِبِهِ هكذَا ، وَغمزَ بعقبه عَلى الأَرْضِ ، فَانْبَثَقَ المَاءُ فَدَهِشَتْ أُمُّ إسْمَاعِيلَ ، فَجَعلَتْ تَحْفِنُ - وذَكَرَ الحَدِيثَ بِطُولِهِ [1] .

رواه البخاري بهذِهِ الرواياتِ كلها .

---

(١) أخرجه البخاري في أحاديث الأنبياء (٣٣٦٤) والإمام أحمد في المسند (١/ ٣٦٠) بنحوه . قوله « جرابًا » أي وعاءً يكون للماء واللبن ، قوله « الثنية » هي موضع الحجون ، قوله « يتلبط » أي يتمرغ ويضرب الأرض ، قوله « طرف درعها » أي طرف قميصها أو ثوبها ، قوله « صه » أي اسكتي ، قوله « بحث بعقبه » أي ضرب بجناحه ، قوله « يفور » أي ينبع نبعًا شديدًا ، قوله « لا تخافوا الضيعة » أي لا تخافوا الهلاك ، قوله « رفقة من جرهم » أي جماعة من جرهم ، قوله « طائرًا عائفًا » هو الذي يحلق فوق الماء ، قوله « شب » أي بلغ سن الشباب ، قوله « يطالع تركته » أي يزور أهله وعائلته ، قوله « يبتغي لنا » أي يطلب الرزق ويسعى عليه ، قوله « أنس » أي أحس ، قوله « شنة » هي وعاء الماء المصنوع من الجلد .

« الدَّوحَةُ » : الشَّجَرَةُ الكَبيرَةُ . قولهُ : « قَفَّى » أيْ : وَلَّى « وَالجَرِيُّ » : الرَّسُول « وَألفى » معناه : وَجَدَ . قَولُهُ : « يَنْشَغُ » أيْ : يَشْهَقُ .

١٨٦٨ - وَعَنْ سَعيدِ بْنِ زَيْدٍ ﷺ قَالَ : سَمِعْتُ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ يَقُولُ : « الكَمْأَةُ مِنَ المَنِّ ، وَمَاؤهَا شِفَاءٌ لِلعَيْنِ » [١] متفقٌ عليه .

الشرح

ذكر المؤلف - رحمه اللَّه تعالى - فيما نقله عن سعيد بن زيد ﷺ أن النبي ﷺ قال : « الكمأة من المنّ ، وماؤها شفاء للعين » : الكمأة : هي التي تعرف عند الناس بالفجع تنبت من كثرة الأمطار ولا سيما الأمطار الموسمية . وهي معروفة ، لذيذة الطعم ، تنبت على الأرض وإذا كبرت يأخذها الناس بدون كلفة وبدون مشقة ، ولهذا قال النبي ﷺ إنها من المنّ - أي مما مَنَّ اللَّه به على عباده بيسرٍ وسهولةٍ - (وماؤها شفاء للعين) يعني أن الماء الذي يُستخرج منها إذا مرضت العينُ بسبب الرطوبة فإن هذه تشفيه بإذن اللَّه ﷻ لأن ماءها ناشف - وإن كان سائلًا - يُنَشِّف العين ويزيل عنها الرطوبات ، ولهذا قال : (ماؤها شفاء للعين) يعني ليس من كل مرض بل من الأمراض التي أسبابها الرطوبة ؛ فإنها تُشْفَى بإذن اللَّه ﷻ ولكن كيف يستخرج ماؤها ، قيل : إنها تُصهر على النار ثم تعصر ، لأنها إذا صهرت على النار لانت ثم تعصر ، وقيل : إنها تُقطع قطعًا صغيرة ثم تُعصر عصرًا شديدًا فيخرج منها الماء ولكنه قليل . واللَّه الموفق .

* * *

٣٧١ - باب الاستغفار

قَالَ اللَّهُ تَعَالى : ﴿ وَٱسْتَغْفِرْ لِذَنۢبِكَ وَلِلْمُؤْمِنِينَ وَٱلْمُؤْمِنَٰتِ ﴾ [محمد : ١٩] . وقَالَ تَعَالى : ﴿ وَٱسْتَغْفِرِ ٱللَّهَ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ غَفُورًا رَّحِيمًا ﴾ [النساء : ١٠٦] . وقَالَ تَعَالى : ﴿ فَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ وَٱسْتَغْفِرْهُ إِنَّهُۥ كَانَ تَوَّابًۢا ﴾ [النصر : ٣] . وقَالَ تَعَالى : ﴿ لِلَّذِينَ ٱتَّقَوْا عِندَ رَبِّهِمْ جَنَّٰتٌ تَجْرِى ﴾ إلى قوله ﷻ : ﴿ وَٱلْمُسْتَغْفِرِينَ بِٱلْأَسْحَارِ ﴾ [آل عمران : ١٥ - ١٧] . وقَالَ تَعَالى : ﴿ وَمَن يَعْمَلْ سُوٓءًا أَوْ يَظْلِمْ نَفْسَهُۥ ثُمَّ يَسْتَغْفِرِ ٱللَّهَ يَجِدِ ٱللَّهَ غَفُورًا رَّحِيمًا ﴾ [النساء : ١١٠] وقَالَ تَعَالى : ﴿ وَمَا كَانَ ٱللَّهُ لِيُعَذِّبَهُمْ وَأَنتَ فِيهِمْ وَمَا كَانَ ٱللَّهُ مُعَذِّبَهُمْ وَهُمْ يَسْتَغْفِرُونَ ﴾ [الأنفال : ٣٣] . وقَالَ تَعَالى : ﴿ وَٱلَّذِينَ إِذَا فَعَلُوا۟ فَٰحِشَةً أَوْ ظَلَمُوٓا۟ أَنفُسَهُمْ ذَكَرُوا۟ ٱللَّهَ فَٱسْتَغْفَرُوا۟ لِذُنُوبِهِمْ وَمَن يَغْفِرُ ٱلذُّنُوبَ إِلَّا ٱللَّهُ وَلَمْ يُصِرُّوا۟ عَلَىٰ مَا فَعَلُوا۟ وَهُمْ يَعْلَمُونَ ﴾ [٢] [آل عمران : ١٣٥]

---

(١) أخرجه البخاري في الطب (٥٧٠٨) ومسلم في الأشربة (١٥٧) والإمام أحمد في المسند (١/١٨٧) والطبراني في الكبير (١٢/٦٣) . قوله « الكمأة » هو نبات يوجد في الربيع تحت الأرض وهو أصل مستدير كالقلقاس لا ساق له ولا عرق ، لونه يميل إلى الغبرة ، يقال له : شحم الأرض ، قوله : « من المن » أي من المن الذي أنزل على بني إسرائيل ليأكلوه دون تعب أو عناء ، قوله « وماؤها شفاء للعين » وذلك بعصر مائها والاكتحال به .

(٢) قوله ﷻ : ﴿ وَٱسْتَغْفِرِ ٱللَّهَ ﴾ أي سله المغفرة لذنوب المذنبين . قوله ﷻ : ﴿ بِٱلْأَسْحَارِ ﴾ هو الوقت ما بين آخر الليل وطلوع الفجر . قوله ﷻ : ﴿ يُصِرُّوا۟ ﴾ أي يستمروا متمسكين .

والآيات في الباب كثيرة مَعْلُومة .

الشرح

ختم المؤلف رحمه الله كتابه بالاستغفار والتوبة ، لأن الله عز وجل أمر نبيه ﷺ في آخر حياته فقال : ﴿إِذَا جَآءَ نَصۡرُ ٱللَّهِ وَٱلۡفَتۡحُ ۝ وَرَأَيۡتَ ٱلنَّاسَ يَدۡخُلُونَ فِي دِينِ ٱللَّهِ أَفۡوَاجٗا ۝ فَسَبِّحۡ بِحَمۡدِ رَبِّكَ وَٱسۡتَغۡفِرۡهُۚ إِنَّهُۥ كَانَ تَوَّابَۢا﴾ [سورة النصر] فالمؤلف رحمه الله ختم هذا الكتاب العظيم النافع الذي ينتفع به المسلمون في أقطار الدنيا كلها ، العامة وطلبة العلم .

وهذا الكتاب - رياض الصالحين - من أبرك ما رأيت من الكتب في انتفاع الناس به مما يدل على حسن نية مؤلفه رحمة الله عليه .

الاستغفار : هو طلب المغفرة ، وما من إنسان إلا وهو خطاء كما قال النبي ﷺ : « كل بني آدم خطّاء ، وخير الخطّائين التوابون » [1] والخطأ الذي يصدر من بني آدم : إما تقصير في واجب ، أو فعل لمحرم ، ولا يخلو الإنسان من ذلك ، ولكن داوء الذنوب الاستغفارُ - والحمد لله - وفي الأثر : «أن الشيطان يقول : أهلكتُ بني آدم - يعني بالخطايا والذنوب - وأهلكوني - بـ (لا إله إلا الله) والاستغفار » . فالاستغفار سبب للمغفرة ، ولذا أمر الله - تعالى - به في آيات كثيرة من القرآن ساق منها المؤلف جملة صالحة منها : - قول الله تعالى لنبيه ﷺ : ﴿فَٱعۡلَمۡ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا ٱللَّهُ وَٱسۡتَغۡفِرۡ لِذَنۢبِكَ﴾ [محمد : ١٩] فأمر الله - تعالى - نبيه ﷺ أن يعلم بأنه لا معبود حقًّا إلا الله ، وأمره أن يستغفر قال : ﴿وَٱسۡتَغۡفِرۡ لِذَنۢبِكَ﴾ هذا وهو النبي ﷺ الذي غفر الله له ما تقدم من ذنبه وما تأخر ، أمر أن يستغفر لذنبه ، وقال تعالى : ﴿وَٱسۡتَغۡفِرۡ لِذَنۢبِكَ وَلِلۡمُؤۡمِنِينَ وَٱلۡمُؤۡمِنَٰتِۗ﴾ وكذلك أثنى الله تعالى على المستغفرين في آيات كثيرة ومنها : ﴿وَٱلۡمُسۡتَغۡفِرِينَ بِٱلۡأَسۡحَارِ﴾ وهم الذين يستغفرون الله في آخر الليل ، قال العلماء : وذلك أنهم يتهجّدون ويعبدون الله ويرون أنهم مقصرون فيسألون الله المغفرة ، هذا مع أنهم مجتهدون قائمون الليل ومع ذلك يستغفرون خوفًا من التقصير ، فينبغي للإنسان أن يُكثر من استغفار الله عز وجل .

* * *

١٨٦٩ - وَعَن الأَغرّ المُزنيّ رضي الله عنه أنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ قَالَ : « إنَّهُ لَيُغَانُ عَلى قَلْبي ، وَإني لأَسْتَغْفِرُ اللَّهَ في الْيَومِ مائَةَ مَرَّةٍ » [2] رَوَاهُ مُسْلِم .

١٨٧٠ - وَعَنْ أَبي هُرَيْرَةَ رضي الله عنه قَالَ : سَمِعْتُ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ يَقُولُ : « واللَّهِ إنِّي لأَسْتَغْفِرُ اللَّهَ وأَتُوبُ إلَيْهِ في الْيَومِ أَكْثَرَ مِنْ سَبْعِينَ مَرَّةً » [3] رواه البخاري .

---

(١) أخرجه الترمذي في السنن (٢٤٩٩) وأحمد في مسنده (١٩٨/٢) .

(٢) أخرجه مسلم في الذكر والدعاء (٤١) في مسنده (٢١١/٤) والبيهقي في السنن (٥٢/٧) والطبراني في الكبير (٢٨٠/١) . قوله « ليغان على قلبي » أي الفتور قليلًا عن الذكر الذي شأنه أن يداوم عليه . فإذا فتر عنه لأمر ما عُدَّ ذلك ذنبًا . فاستغفر فيه . وقيل : هو السكينة التي تغشى عليه والاستغفار لإظهار العبودية لله والشكر لما أولاه .

(٣) أخرجه البخاري في الدعوات (٦٣٠٧) وأحمد في مسنده (٣٤١/٢) .

١٨٧١ - وَعَنْهُ ﷺ قَالَ : قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ : « وَالَّذي نَفْسِي بِيَدِهِ لَو لَمْ تُذْنِبُوا ، لَذَهَبَ اللَّهُ تَعَالى بِكُمْ ، وَلَجَاءَ بِقَومٍ يُذنِبُونَ فَيَسْتَغْفِرُونَ اللَّهَ تَعَالى فَيغفِرُ لهُمْ » (١) رواه مسلم .

١٨٧٢ - وَعَنْ ابْنِ عُمَر ﷺ قَالَ : كُنَّا نَعُدُّ لِرَسُولِ اللَّهِ ﷺ في المَجْلِسِ الْوَاحِدِ مائَةَ مَرَّةٍ : « رَبِّ اغْفِر لي ، وَتُبْ عَليَّ إنَّكَ أَنْتَ التَّوَّابُ الرَّحِيمُ » (٢) .

رواه أبو داود ، والترمذي وقال : حديثٌ صحيحٌ .

١٨٧٣ - وَعَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ ﷺ قَالَ : قالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ : « مَنْ لَزِمَ الاسْتِغْفَارَ ، جَعَلَ اللَّهُ لَهُ مِنْ كُلِّ ضِيقٍ مَخْرَجًا ، وَمنْ كُلِّ هَمٍّ فَرَجًا ، وَرَزَقَهُ مِنْ حَيْثُ لا يَحْتَسِبُ » (٣) رواه أبو داود .

١٨٧٤ - وَعَنِ ابْنِ مَسْعُودٍ ﷺ قالَ : قالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ : « مَنْ قالَ : أَسْتَغْفِرُ اللَّهَ الذي لا إله إلا هُوَ الحَيَّ القَيُّومَ وَأَتُوبُ إلَيْهِ ؛ غُفِرَتْ ذُنُوبُهُ وَإنْ كانَ قَدْ فَرَّ مِنَ الزَّحْفِ » (٤) رواه أبو داود والترمذي والحَاكِمُ . وقَالَ : حَدِيثٌ صَحيحٌ عَلى شَرْطِ البُخَارِيِّ وَمُسْلِمٍ .

الشرح

سبقت الآيات التي ذكرها المؤلف رحمه الله التي فيها الحث على الاستغفار ، والثناء على أهله ، ثم ذكر المؤلف أحاديث متعددة في ذلك .

منها : قوله عن النبي محمد ﷺ الذي غفر اللَّه له ما تقدم من ذنبه وما تأخر ، قال ﷺ فيما رواه عنه الأغر المزني ﷺ : « إنه ليغان على قلبي » - يعني يحدث له شيء : من الكتمة والغم وما أشبه ذلك « وإني لأستغفر اللَّه في اليوم مائة مرة » يقول : أستغفر اللَّه (في اليوم مائة مرة) هذا وهو النبي ﷺ الذي غفر له ما تقدم من ذنبه وما تأخر ! فكيف بنا !! ولكن قلوبنا قاسية ميتة لا يُغان عليها بكثرة الذنوب ولا يهتم الواحد منا بما فعل ، ولذلك تجد الإنسانَ غير مبالٍ بمثل هذا ، وقليلَ الاستغفار . والذي ينبغي للإنسان أن يكون له أسوة حسنة في رسول اللَّه ﷺ يكثر من الاستغفار كما قال ابن عمر : (إننا نعد للنبي ﷺ في المجلس الواحد مائة مرة أو أكثر : ربِّ اغفر لي وارحمني) . وكذلك أخبر ﷺ أن من نعمة اللَّه على العباد أنه إذا ابتلاهم بالذنوب فاستغفروا اللَّه غفر لهم وأنه : « لولم تذنبوا لذهب اللَّه تعالى بكم ، وَلَجَاءَ بقوم يذنبون فيستغفرون اللَّه تعالى فيغفر لهم » وهذا حثٌّ على أن يستغفر الإنسان ربه ويكثر من الاستغفار ، لأنه ينال

---

(١) أخرجه مسلم في التوبة (١١) وأحمد في مسنده (٣٠٩/٢) .

(٢) أخرجه أبو داود في الصلاة (١٥١٦) والترمذي في الدعوات (٣٤٣٣) والبيهقي في السنن (٥٨/٢) . قوله « وتبِ علي » أي ارجع علي بالرحمة ، أو وفقني للتوبة .

(٣) أخرجه أبو داود في الصلاة (١٥١٨) والبيهقي في السنن (٣٥١/٣) والطبراني في الكبير (٣٤٢/١٠) . قوله « لزم » أي داوم . قوله « من حيث لا يحتسب » أي من حيث لا يخطر بباله .

(٤) أخرجه أبو داود في الصلاة (١٥١٧) والحاكم في المستدرك (٥١١/١) بنحوه . قوله « فر من الزحف » أي هرب من ميدان المعركة .

بذلك درجة المستغفرين الله ﷻ وكذلك أخبر فيما رواه أبو داود : أن « من لزم الاستغفار ؛ جعل الله له من كل ضيق مخرجًا ، ومن كل هم فرجًا ، ورزقه من حيث لا يحتسب » .

« من لزم الاستغفار » : يعني داوم عليه ، وأكثر منه ، فإنه يُفرِّج عنه الكروب ، وتوسَّع له الضيقات ، ويوسع له في رزقه ، ورزقه من حيث لا يحتسب .

والأحاديث في فضل الاستغفار والثناء على أهله والحث عليه كثيرة ، فعليك - يا أخي - بكثرة الاستغفار ، أكْثِرْ من قول : اللَّهم اغفر لي ، اللَّهم ارحمني ، أستغفر اللَّه وأتوب إليه ، وما أشبه ذلك ، لعلك تصادف ساعة إجابة من اللَّه ﷻ فيغفر لك فيها ... واللَّه الموفق .

* * *

١٨٧٥ - وَعَنْ شَدَّادِ بْنِ أَوسٍ ﷺ عَن النبيِّ ﷺ قَالَ : « سَيِّدُ الاسْتِغْفارِ أَنْ يَقُولَ العَبْدُ : اللَّهُمَّ أَنْتَ رَبِّي ، لا إلهَ إلا أنتَ ، خَلَقْتَني وَأَنَا عَبْدُكَ ، وَأَنَا عَلى عَهْدِك وَوَعْدِكَ ما اسْتَطَعْتُ ، أَعُوذُ بكَ مِنْ شَرِّ ما صَنَعْتُ ، أبوءُ لَكَ بِنعْمَتِكَ عَلَيَّ ، وَأَبُوءُ بذَنْبي ، فَاغْفِرْ لي ؛ فَإِنَّهُ لا يَغفِرُ الذُّنُوبَ إلا أنْت ، مَنْ قَالَهَا مِنَ النَّهَارِ مُوقِنًا بهَا ، فَمَاتَ مِنْ يَومِهِ قَبْلَ أَنْ يُمْسِي ؛ فَهُوَ مِنْ أَهْلِ الجنَّةِ ، وَمَنْ قَالَها مِنَ اللَّيْلِ وَهُوَ مُوقِنٌ بها فَمَاتَ قَبْلَ أَنْ يُصْبحَ ؛ فَهُوَ مِنْ أَهْلِ الجَنَّةِ» [1] رواه البخاري .

« أَبُوءُ » بياءٍ مَضْمومَةٍ ثُمَّ واوٍ وهمزَةٍ ممدودَةٍ ، وَمَعْنَاهُ : أُقِرُّ وَأَعْتَرِفُ .

١٨٧٦ - وَعَنْ ثَوبَانَ ﷺ قَالَ : كَانَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ إذا انْصَرَفَ مِنْ صَلاتِهِ ، اسْتَغْفَرَ اللَّهَ ثَلاثًا وَقَالَ : « اللَّهُمَّ أَنْتَ السَّلامُ ، وَمِنْكَ السَّلامُ ، تَبَارَكْتَ يا ذَا الجَلالِ والإكْرَامِ » قيلَ لِلأوزاعِيِّ - وهُوَ أَحَدُ رُوَاتِهِ - : كَيْفَ الاسْتِغْفَارُ ؟ قَالَ : يَقُولُ : أَسْتَغْفِرُ اللَّه ، أَسْتَغْفِرُ اللَّه [2] . رواه مسلم .

١٨٧٧ - وَعَنْ عَائِشَةَ ﵂ قَالَتْ : كَانَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ يُكْثِرُ أَنْ يَقُولَ قَبْلَ مَوتِهِ : « سُبْحَانَ اللَّهِ وَبِحَمْدِهِ ، أَسْتَغفِرُ اللَّه وَأَتُوبُ إِلَيْهِ » [3] متفقٌ عليه .

الشرح

هذه الأحاديث ساقها النووي - رحمه اللَّه تعالى - في باب (الاستغفار) منها حديث شداد بن أوس أن النبي ﷺ قال : سيد الاستغفار ويعني أشرف الاستغفار وأفضله أن تقول : «اللَّهم أنت ربي ، لا إله إلا

---

(١) أخرجه البخاري في الدعوات (٦٣٠٦) وأحمد في مسنده (١٢٢/٤) والحاكم في المستدرك (٤٥٨/٢) والطبراني في الكبير (٣٥١/٧) .

(٢) أخرجه مسلم في المساجد ومواضع الصلاة (١٣٥) وأحمد في مسنده (٣٥/٦) والطبراني في الكبير (٣٦٢/٨) . قوله «انصرف من صلاته » أي انتهى من صلاته بالتسليم . وقوله «أنت السلام ومنك السلام » أي أنت المالك المسلِّم العباد من المهالك والسلامة لا ترجى إلا منك . قوله «تباركت يا ذا الجلال والإكرام » أي تعاليت يا ذا العظمة والمكرمة .

(٣) أخرجه مسلم في الصلاة بلفظه (٢١٨) والبخاري في تفسير القرآن بنحوه (٤٩٦٧) وأحمد في مسنده (٢٧٥/٥) والنسائي في السنن (٦٩/٣) .

أنت خلقتني وأنا عبدك وأنا على عهدك ووعدك ما استطعت ، أعوذ بك من شر ما صنعت ، أبوء لك بنعمتك عليّ ، وأبوء بذنبي فاغفر لي ، فإنه لا يغفر الذنوب إلا أنت » من قالها حين يصبح موقنًا بها ثم مات من يومه قبل أن يمسي دخل الجنة . ومن قالها حين يُمسي موقنًا بها ثم مات قبل أن يصبح دخل الجنة .

يقول : « سيد الاستغفار أن تقول : اللَّهم أنت ربي ... وأنا عبدك » فتقرّ للَّه ﷻ بلسانك وبقلبك أن اللَّه هو ربك المالك لك ، المدبر لأمرك ، المعتني بحالك ، وأنت عبده كونًا وشرعًا : عبده كونًا يفعل بك ما يشاء ، إن شاء أمرضك ، وإن شاء أصحك ، وإن شاء أغناك ، وإن شاء أفقرك ، وإن شاء أضلك ، وإن شاء هداك ، حسبما تقتضيه حكمته ﷻ وكذلك أنت عبده شرعًا تتعبد له بما أمَرَ ، تقوم بأوامره وتنتهي عن نواهيه ، تقر بذلك : (اللَّهم أنت ربي ... خلقتني وأنا عبدك وأنا على عهدك ووعدك ما استطعت) ، تقر بأن اللَّه خلقك ، هو الذي أوجدك من العدم ، وأنك على عهده ووعده ما استطعت « على عهده » لأن كل إنسان قد عاهد اللَّه أن يعمل بما علم ﴿ وَإِذْ أَخَذَ اللَّهُ مِيثَاقَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ لَتُبَيِّنُنَّهُ لِلنَّاسِ وَلَا تَكْتُمُونَهُ ﴾ [الأعراف : ١٨٧] فمتى أعطاك اللَّه علمًا فإنه قد عهد إليك أن تعمل به ، « وعلى وعدك » أي تطبيق وعدك ، ما وعدت أهل الخير من الخير وما وعدت أهل الشر من الشر ، ولكن أنا على وعدك أي في الخير ، لأنك في هذه الكلمات تتوسل إلى اللَّه ﷻ .

« أعوذ بك من شر ما صنعتُ » : يعني أنت تعوذ باللَّه من شر ما صنعتَ ، لأن الإنسان يصنع خيرًا فيثاب ، ويصنع شرًا فيعاقب ، ويصنع الشر فيكون سببًا لضلاله كما قال اللَّه تعالى : ﴿ فَإِن تَوَلَّوْا فَاعْلَمْ أَنَّمَا يُرِيدُ اللَّهُ أَن يُصِيبَهُم بِبَعْضِ ذُنُوبِهِمْ ﴾ [المائدة : ٤٩] فأنت تتعوذ باللَّه من شر ما صنعت ، ثم : « أبوء لك بنعمتك عليّ » : يعني أعترف بنعمتك العظيمة الكبيرة التي لا أحصيها « وأبوء بذنبي » : أعترف به « فاغفر لي » هذا الذنب إنك أنت الغفور الرحيم فاحرص على حفظ هذا الدعاء وحافظ عليه صباحًا ومساءً ، إن متَّ من يومك ؛ فأنت من أهل الجنة ، وإن متَّ من ليلتك فأنت من أهل الجنة ، ثم ذكر أحاديث أخرى منها حديث ثوبان ﷺ أن النبي ﷺ كان إذا انصرف من صلاته استغفر ثلاثًا وقال : « اللَّهم أنت السلام ، ومنك السلام ، تباركت يا ذا الجلال والإكرام » .

« إذا انصرف » يعني إذا سلَّم .

فأول ما تبدأ بعد أن تسلم من الفريضة تقول : أستغفر اللَّه ، أستغفر اللَّه ، أستغفر اللَّه (ثلاث مرات) كيف تقول : أستغفر اللَّه وأنت صليت أديت طاعة ؟! ؛ لأن طاعتك هذه لا تخلو من نقص وخلل فتستغفر اللَّه - تعالى - مما حصل فيها من خلل ، ونظير ذلك أن المجتهدين المتهجدين في الليل إذا فرغوا من تهجدهم استغفروا كما قال - تعالى - : ﴿ وَالْمُسْتَغْفِرِينَ بِالْأَسْحَارِ ﴾ وتقول : (اللَّهم أنت السلام ، ومنك السلام) . « أنت السلام » يعني السالم من كل نقص وعيب ، « ومنك السلام » يعني منك السلامة لولا اللَّه ﷻ ما سلمنا ولا عملنا ولا قمنا ولا قاتلنا ، « تباركت يا ذا الجلال والإكرام » وليس فيها (وتعاليت) ولكن في أحاديث أخرى فيها- يا ذا الجلال والإكرام : أي عظمت خيراتك وبركاتك ونعمك على عبادك : فينبغي للإنسان أن يستغفر بعد الصلاة - الفريضة -

ثلاث مرات ويقول : « اللَّهم أنت السلام ، ومنك السلام ، تباركت يا ذا الجلال والإكرام » .

* * *

١٨٧٨ - وَعَنْ أنسٍ ﷺ قالَ : سَمِعْتُ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ يَقُولُ : « قال اللَّهُ تَعالى : يَا ابْنَ آدَمَ إنَّكَ ما دَعَوتَني وَرَجَوتَني ؛ غَفَرْتُ لَكَ عَلى ما كَانَ مِنْكَ وَلا أُبَالي ، يَا ابْنَ آدَمَ لَو بَلَغَتْ ذُنُوبُكَ عَنَانَ السَّماءِ ، ثُمَّ اسْتَغْفَرْتَني ؛ غَفَرْتُ لَكَ وَلا أُبَالي ، يَا ابْنَ آدَمَ إنَّكَ لَو أَتَيْتَني بِقُرَابِ الأرْضِ خَطايَا ، ثُمَّ لَقِيتَني لا تُشْرِكُ بي شَيْئًا ؛ لأتَيْتُكَ بِقُرابِهَا مَغْفِرَةً »(١) رواه الترمذي وَقالَ : حَدِيثٌ حَسَنٌ .

« عَنانَ السَّماءِ » بفتْحِ العَيْنِ : قِيل : هُوَ السَّحَابُ ، وَقيلَ : هُوَ مَا عَنَّ لَكَ مِنْها ، أيْ ظَهَرَ ، وَ« قُرَابُ الأرْضِ » بِضَمِّ القَافِ ، وَرُوِيَ بِكَسْرِهَا ، والضَّمُّ أَشْهَرُ ، وهُوَ ما يُقارِبُ مِلأَها .

١٨٧٩ - وَعَنِ ابْنِ عُمَرَ ﷺ أَنَّ النَّبيَّ ﷺ قَالَ : « يا مَعْشَرَ النِّساء تَصَدَّقْنَ ، وَأَكْثِرنَ مِنَ الاسْتِغْفَار ، فَإنِّي رَأيْتُكُنَّ أكْثَر أهْلِ النَّار » قالَتِ امْرَأةٌ مِنهُنَّ : مَالَنَا أكْثَرَ أهلِ النَّارِ؟ قالَ : « تُكْثِرْنَ اللَّعْنَ ، وَتَكْفُرْنَ العَشِيرَ ، مَا رَأَيْتُ مِنْ نَاقِصاتِ عَقْلٍ وَدينٍ أَغْلَبَ لِذي لُبٍّ مِنْكُنَّ » قالَتْ : ما نُقْصَانُ العَقْلِ والدِّينِ ؟ قالَ : « شَهَادَةُ امْرَأَتَيْنِ بِشهَادَةِ رَجُلٍ ، وَتَمْكُثُ الأيَّامَ لا تُصَلِّي »(٢) رواه مسلم .

* * *

٣٧٢ - باب بيان ما أعد الله للمؤمنين في الجنة

قَالَ اللَّهُ تَعالى : ﴿ إِنَّ ٱلْمُتَّقِينَ فِى جَنَّٰتٍ وَعُيُونٍ ﴿٤٥﴾ ٱدْخُلُوهَا بِسَلَٰمٍ ءَامِنِينَ ﴿٤٦﴾ وَنَزَعْنَا مَا فِى صُدُورِهِم مِّنْ غِلٍّ إِخْوَٰنًا عَلَىٰ سُرُرٍ مُّتَقَٰبِلِينَ ﴿٤٧﴾ لَا يَمَسُّهُمْ فِيهَا نَصَبٌ وَمَا هُم مِّنْهَا بِمُخْرَجِينَ ﴾ [الحجر : ٤٥- ٤٨] .

وَقَالَ تَعالى : ﴿ يَٰعِبَادِ لَا خَوْفٌ عَلَيْكُمُ ٱلْيَوْمَ وَلَآ أَنتُمْ تَحْزَنُونَ ﴿٦٨﴾ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَا وَكَانُوا۟ مُسْلِمِينَ ﴿٦٩﴾ ٱدْخُلُوا۟ ٱلْجَنَّةَ أَنتُمْ وَأَزْوَٰجُكُمْ تُحْبَرُونَ ﴿٧٠﴾ يُطَافُ عَلَيْهِم بِصِحَافٍ مِّن ذَهَبٍ وَأَكْوَابٍ ۖ وَفِيهَا مَا تَشْتَهِيهِ ٱلْأَنفُسُ وَتَلَذُّ ٱلْأَعْيُنُ ۖ وَأَنتُمْ فِيهَا خَٰلِدُونَ ﴿٧١﴾ وَتِلْكَ ٱلْجَنَّةُ ٱلَّتِىٓ أُورِثْتُمُوهَا بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿٧٢﴾ لَكُمْ فِيهَا فَٰكِهَةٌ كَثِيرَةٌ مِّنْهَا تَأْكُلُونَ ﴾ [الزخرف : ٦٨- ٧٣] .

وَقَالَ تَعالى : ﴿ إِنَّ ٱلْمُتَّقِينَ فِى مَقَامٍ أَمِينٍ ﴿٥١﴾ فِى جَنَّٰتٍ وَعُيُونٍ ﴿٥٢﴾ يَلْبَسُونَ مِن سُندُسٍ وَإِسْتَبْرَقٍ مُّتَقَٰبِلِينَ ﴿٥٣﴾ كَذَٰلِكَ وَزَوَّجْنَٰهُم بِحُورٍ عِينٍ ﴿٥٤﴾ يَدْعُونَ فِيهَا بِكُلِّ فَٰكِهَةٍ ءَامِنِينَ ﴿٥٥﴾ لَا يَذُوقُونَ فِيهَا ٱلْمَوْتَ إِلَّا ٱلْمَوْتَةَ ٱلْأُولَىٰ ۖ وَوَقَىٰهُمْ عَذَابَ ٱلْجَحِيمِ ﴿٥٦﴾ فَضْلًا مِّن رَّبِّكَ ۚ ذَٰلِكَ هُوَ ٱلْفَوْزُ ٱلْعَظِيمُ ﴾ [الدخان : ٥١- ٥٧] .

---

(١) أخرجه الترمذي في الدعوات (٣٥٤٠) ، وأحمد في مسنده (١٧٢/٥) ، والدارمي في السنن (٣٢٢/٢) . قوله ﷺ : « ولا أبالي » أي لا أكترث بذنوبك ولا أستكثرها وإن كثرت . قوله ﷺ : « ولو بلغت ذنوبك عنان السماء » أي حتى لو ملأت ذنوبك ما بين السماء والأرض .

(٢) أخرجه مسلم في الإيمان (١٣٢) وأحمد في مسنده (٣٦٣/١) وابن ماجه في الفتن (٤٠٠٣) قوله ﷺ : « تكفرن العشير » أي تجحدن نعمة الزوج . قوله ﷺ : « لب » أي عقل .

وَقَالَ تَعالى : ﴿ إِنَّ ٱلْأَبْرَارَ لَفِى نَعِيمٍ ﴿٢٢﴾ عَلَى ٱلْأَرَآئِكِ يَنظُرُونَ ﴿٢٣﴾ تَعْرِفُ فِى وُجُوهِهِمْ نَضْرَةَ ٱلنَّعِيمِ ﴿٢٤﴾ يُسْقَوْنَ مِن رَّحِيقٍ مَّخْتُومٍ ﴿٢٥﴾ خِتَٰمُهُۥ مِسْكٌ ۚ وَفِى ذَٰلِكَ فَلْيَتَنَافَسِ ٱلْمُتَنَٰفِسُونَ ﴿٢٦﴾ وَمِزَاجُهُۥ مِن تَسْنِيمٍ ﴿٢٧﴾ عَيْنًا يَشْرَبُ بِهَا ٱلْمُقَرَّبُونَ ﴾ (١) [المطففين: ٢٢- ٢٨] . والآياتُ في البابِ كَثِيرَةٌ مَعْلُومَةٌ .

الشرح

نقل النووي رحمه الله أحاديث كثيرة حول الاستغفار والحث عليه :

منها : أن الله ﷻ قال : « يا ابن آدم إنك ما دعوتني ورجوتني غفرت لك » : يعني مهما دعوتني ورجوتني فإني أغفر لك ؛ لأن الله ﷻ عند ظن عبده به كما ثبت ذلك عنه - تبارك وتعالى - في الحديث القدسي الذي رواه النبي ﷺ عن ربه أن الله تعالى قال : « أنا عند ظن عبدي بي وأنا معه إذا ذكرني ، فإن ذكرني في نفسه ذكرته في نفسي ، وإن ذكرني في ملأ ذكرته في ملأ خير منه » (٢) .

وفيه أيضًا أن الله ﷻ قال : (يا ابن آدم لو أتيتني بقراب الأرض خطايا ثم استغفرتني لغفرت لك) (٣) فهذا يدل على أن الإنسان مهما عمل من الذنوب إذا استغفر الله تعالى ورجع إليه فإن الله تعالى يغفر له ، وكذلك أمر النبي ﷺ النساء أن يُكثرن من الصدقة والاستغفار حيث رآهن أكثرَ أهل النار ، فدل هذا على أن الاستغفار من موانع دخول النار ، فعليك - يا أخي - بكثرة الاستغفار ، أكثِرْ من قول : أستغفر الله ، اللَّهم اغفر لي وارحمني ... وما أشبه ذلك ، وهو كلام يسير لا يضرُّك ولا يشقُّ عليك .

ثم ختم المؤلف رحمه الله كتابه (رياض الصالحين) ببيان ما أعده الله للمؤمنين من النعيم المقيم - جعلني الله وإياكم منهم - وهذا نرجو أن يكون تفاؤلًا حسنًا وأن الله يختم لنا ولكم بعمل أهل الجنة ، وأن يكون قد غفر لمؤلف الكتاب وختم له بعمل أهل الجنة .

ذكر الله تعالى - في كتابه العظيم آيات كثيرة فيها بيان ما أعد الله لأهل الجنة ، ومن أجمع الآيات قول الله - تبارك وتعالى - : ﴿ وَلَكُمْ فِيهَا مَا تَشْتَهِىٓ أَنفُسُكُمْ وَلَكُمْ فِيهَا مَا تَدَّعُونَ ﴿٣١﴾ نُزُلًا مِّنْ غَفُورٍ رَّحِيمٍ ﴾ كل ما يشتهي الإنسان من نعيم فإنه في الجنة ، كل ما يطلب فإنه في الجنة ، بل أكثر من ذلك قال الله تعالى : ﴿ لَهُم مَّا يَشَآءُونَ فِيهَا وَلَدَيْنَا مَزِيدٌ ﴾ وقال - جلّ ذكره - : ﴿ فَلَا تَعْلَمُ

---

(١) قوله ﷻ : ﴿ جَنَّٰتٍ ﴾ أي بساتين . قوله ﷻ : ﴿ وَعُيُونٍ ﴾ أي أنهار . قوله ﷻ : ﴿ غِلٍّ ﴾ أي حقد . قوله ﷻ : ﴿ نَصَبٌ ﴾ أي تعب . قوله ﷻ : ﴿ تُحْبَرُونَ ﴾ أي تسرون . قوله ﷻ : ﴿ بِصِحَافٍ ﴾ أي أباريق . قوله ﷻ : ﴿ وَأَكْوَابٍ ﴾ هو الكوز لا يد له . قوله ﷻ : ﴿ مَقَامٍ ﴾ أي موضع إقامة . قوله ﷻ : ﴿ سُندُسٍ ﴾ ما رق من الحرير . قوله ﷻ : ﴿ وَإِسْتَبْرَقٍ ﴾ ما غلظ من الحرير . قوله ﷻ : ﴿ وَزَوَّجْنَٰهُم ﴾ أي قرناهم . قوله ﷻ : ﴿ بِحُورٍ ﴾ نقيات . قوله ﷻ : ﴿ عِينٍ ﴾ أي عظيمة العين . قوله ﷻ : ﴿ وَوَقَىٰهُمْ ﴾ أي نجاهم . قوله ﷻ : ﴿ فَضْلًا ﴾ أي نعمة . قوله ﷻ : ﴿ ٱلْفَوْزُ ﴾ أي الظفر والثواب . قوله ﷻ : ﴿ ٱلْأَرَآئِكِ ﴾ أي السرر . قوله ﷻ : ﴿ نَضْرَةَ ﴾ أي بهجة . قوله ﷻ : ﴿ رَّحِيقٍ مَّخْتُومٍ ﴾ خمر خالص مختومة أوانيه كعادة الملوك . قوله ﷻ : ﴿ فَلْيَتَنَافَسِ ﴾ أي فليرتقب . قوله ﷻ : ﴿ تَسْنِيمٍ ﴾ هي عين في الجنة .

(٢) أخرجه أحمد في مسنده (٢/٣١٥) والمنذري في الترغيب والترهيب (٢/٣٩٣) .

(٣) أخرجه مسلم في الذكر (٢٢) بنحوه ، وأحمد في مسنده (٥/١٤٧ ، ١٤٨) .

نَفْسٌ مَّآ أُخْفِىَ لَهُم مِّن قُرَّةِ أَعْيُنٍ جَزَآءًۢ بِمَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴾ يعني أنه لا يمكن للإنسان أن يحيط علمًا بحقيقة ما أعد الله لأهل الجنة فيها ؛ لأنه فوق ما يتصور الإنسان ، ما يوجد من نعيم الدنيا فإنه نموذج نموذج نموذج لا ينسب لشيء من نعيم الآخرة لكن الله تعالى أرى عباده شيئًا من النعيم وشيئًا من العذاب في الدنيا حتى يعتبروا به فقط وإلا فبين نعيم الدنيا ونعيم الآخرة فرق لا يمكن إدراكه .

والجنة هي الدار التي أعدها الله تعالى لأوليائه المتقين ، وقد بدأ المؤلف بقول الله - تبارك وتعالى - ﴿ إِنَّ ٱلْمُتَّقِينَ فِى جَنَّٰتٍ وَعُيُونٍ ۝ ٱدْخُلُوهَا بِسَلَٰمٍ ءَامِنِينَ ﴾ : يعني يُقال لهم : ادخلوها بسلام آمنين من كل شيء ؛ من كل آفة من كل مرض من الهرم من الموت من كل شيء . ﴿ وَنَزَعْنَا مَا فِى صُدُورِهِم مِّنْ غِلٍّ ﴾ : يعني أنهم إذا دخلوا الجنة نزع الله تعالى - ما في صدورهم من غلٍّ ؛ وذلك أنهم يُوقفون قبل دخول الجنة على قنطرة بين الجنة والنار فيُقْتص لبعضهم من بعض حتى إذا هُذِّبوا ونُقّوا وبقيت قلوبهم صافية ليس فيها غل دخلوا الجنة بعد أن ينزع الله ما في قلوبهم من غلٍّ .

وقوله : ﴿ عَلَىٰ سُرُرٍ مُّتَقَٰبِلِينَ ﴾ السُّرُر : جمع سرير وهو معروف ما يجلس عليه . وقوله ﴿ مُّتَقَٰبِلِينَ ﴾ : يعني أنهم على جانب من الأدب العظيم في جلوسهم لا يستدبر بعضهم بعضًا ولكنهم متقابلون . قال بعض العلماء : لأنهم يجلس بعضهم إلى بعض على حلقة واسعة . والحلقة لا يتدابر فيها الجالسون كل واحد مقابل للآخر ﴿ لَا يَمَسُّهُمْ فِيهَا نَصَبٌ وَمَا هُم مِّنْهَا بِمُخْرَجِينَ ﴾ [الحجر: ٤٨] يعني لا يمسهم تعب وإعياء، ولا يخرجون منها بل هم ساكنوها أبد الآبدين الآية الثانية .

﴿ يَٰعِبَادِ لَا خَوْفٌ عَلَيْكُمُ ٱلْيَوْمَ ﴾ [الزخرف: ٦٨- ٧٣] : ينادي الله ﷻ عباده المؤمنين يوم القيامة إذا دخلوا الجنة يقول : ﴿ لَا خَوْفٌ عَلَيْكُمُ ٱلْيَوْمَ وَلَآ أَنتُمْ تَحْزَنُونَ ﴾ الخوف مما يستقبل والحزن من الماضي ، ذلك لأنهم نالوا كمال النعيم ، فلا يخافون من مستقبل ولا يحزنون على ماضٍ ؛ لأنه كمل لهم النعيم ﴿ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَا وَكَانُوا۟ مُسْلِمِينَ ﴾ آمنوا بقلوبهم وكانوا مسلمين بجوارحهم منقادين لأمر الله ﷻ لا يعصون الله لا بفعل محرم ولا بترك واجب ﴿ ٱدْخُلُوا۟ ٱلْجَنَّةَ أَنتُمْ وَأَزْوَٰجُكُمْ تُحْبَرُونَ ﴾ : يعني تنعمون ، وأزواجكم هم الحور العين ، وزوجاتهم في الدنيا أيضًا لقول الله - تبارك وتعالى - : ﴿ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَٱتَّبَعَتْهُمْ ذُرِّيَّتُهُم بِإِيمَٰنٍ أَلْحَقْنَا بِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ وَمَآ أَلَتْنَٰهُم مِّنْ عَمَلِهِم مِّن شَىْءٍ كُلُّ ٱمْرِئٍۭ بِمَا كَسَبَ رَهِينٌ ﴾ فهم وأزواجهم يُحبرون - أي في مكان حبر ؛ أي أنهم منعمون مترفون وفيها ما تشتهي الأنفس وتلذ الأعين ﴿ يُطَافُ عَلَيْهِم بِصِحَافٍ مِّن ذَهَبٍ وَأَكْوَابٍ وَفِيهَا مَا تَشْتَهِيهِ ٱلْأَنفُسُ وَتَلَذُّ ٱلْأَعْيُنُ ﴾ ولم يبين الله تعالى - من يطوف عليهم في هذه الآية لكن بيَّنها في آيات أخرى فقال : ﴿ يَطُوفُ عَلَيْهِمْ وِلْدَٰنٌ مُّخَلَّدُونَ ۝ بِأَكْوَابٍ وَأَبَارِيقَ وَكَأْسٍ مِّن مَّعِينٍ ۝ لَّا يُصَدَّعُونَ عَنْهَا وَلَا يُنزِفُونَ ﴾ [الواقعة: ١٧- ١٩] .

الآية الثالثة : قوله تعالى : ﴿ إِنَّ ٱلْمُتَّقِينَ فِى مَقَامٍ أَمِينٍ ﴾ أي في مكان إقامة آمنين كما سبق آمنين من كل شيء ﴿ يَلْبَسُونَ مِن سُندُسٍ وَإِسْتَبْرَقٍ مُّتَقَٰبِلِينَ ﴾ هذا لباسهم وهو أعلى أنواع الحرير .

وقال تعالى - : ﴿ إِنَّ ٱلْأَبْرَارَ لَفِى نَعِيمٍ ۝ عَلَى ٱلْأَرَآئِكِ يَنظُرُونَ ۝ تَعْرِفُ فِى وُجُوهِهِمْ نَضْرَةَ ٱلنَّعِيمِ ۝ يُسْقَوْنَ مِن

رَحِيقٍ مَّخْتُومٍ ۝٢٥ خِتَٰمُهُۥ مِسْكٌۚ وَفِى ذَٰلِكَ فَلْيَتَنَافَسِ ٱلْمُتَنَٰفِسُونَ ۝٢٦ وَمِزَاجُهُۥ مِن تَسْنِيمٍ ۝٢٧ عَيْنًا يَشْرَبُ بِهَا ٱلْمُقَرَّبُونَ ﴾ [المطففين: ٢٢- ٢٨] . الأبرار هم الذين فعلوا الخيرات وتركوا المحرمات مأخوذة من البر وهو القيام بطاعة الله ﴿ إِنَّ ٱلْأَبْرَارَ لَفِى نَعِيمٍ ﴾ يعني أنهم في نعيم في القلب وفي نعيم في البدن فهم في أَسَرِّ ما يكون – جعلنا الله وإياكم منهم – ﴿ عَلَى ٱلْأَرَآئِكِ يَنظُرُونَ ﴾ الأرائك : جمع أريكة وهي المقاعد [١] المغطاة المزخرفة المزينة وينظرون ما أعد الله لهم من النعيم في هذه الجنات ويشمل ذلك النظر إلى وجه الله ﷻ ﴿ تَعْرِفُ فِى وُجُوهِهِمْ نَضْرَةَ ٱلنَّعِيمِ ﴾ أي أنك إذا رأيتهم عرفت أنهم منعمون ؛ لأن وجوههم نضرة حسنة جميلة . ﴿ يُسْقَوْنَ مِن رَّحِيقٍ مَّخْتُومٍ ۝٢٥ خِتَٰمُهُۥ مِسْكٌۚ وَفِى ذَٰلِكَ فَلْيَتَنَافَسِ ٱلْمُتَنَٰفِسُونَ ﴾ أي يشربون من خير الشراب ، مختوم : يعني له خاتمة وهي : رائحة طيبة مسك ، وفي هذا الثواب والأجر والنعيم فليتسابق المتسابقون والله الموفق .

* * *

١٨٨٠ – وَعَنْ جَابِرٍ ﷺ قَالَ : قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ : « يَأْكُلُ أَهلُ الجنَّة فِيهَا ، وَيَشْرَبُونَ ، وَلا يَتَغَوَّطُونَ ، وَلا يَمْتَخِطُونَ ، وَلا يَبُولُونَ ، وَلكِنْ طَعَامُهُمْ ذلكَ جُشَاءٌ كَرَشْحِ المِسْكِ ، يُلهَمُونَ التَّسْبِيحَ وَالتَّكْبِيرَ ، كَمَا يُلْهَمُونَ النَّفَسَ » [٢] . رواه مسلم .

١٨٨١ – وَعَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ ﷺ قَالَ : قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ : « قَالَ اللَّهُ تعالى : أَعْدَدْتُ لِعِبَادِيَ الصَّالِحِينَ مَا لا عَيْنٌ رَأَتْ ، وَلا أُذُنٌ سَمِعَتْ ، وَلَا خَطَرَ عَلى قَلْبِ بَشَرٍ ، وَاقْرَؤُوا إنْ شِئْتُمْ : ﴿ فَلَا تَعْلَمُ نَفْسٌ مَّآ أُخْفِىَ لَهُم مِّن قُرَّةِ أَعْيُنٍ جَزَآءًۢ بِمَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴾ » [السجدة: ١٧] [٣] متفقٌ عليه .

١٨٨٢ – وَعَنْهُ قَالَ : قالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ : « أَوَّلُ زُمْرَةٍ يَدْخُلُونَ الجَنَّةَ عَلى صُورَةِ القَمَرِ لَيْلَةَ البَدْرِ ، ثُمَّ الَّذِينَ يَلُونَهُمْ عَلَى أَشَدِّ كَوكَب دُرِّيٍّ في السَّمَاءِ إِضَاءَةً ، لَا يَبُولُونَ ، وَلاَ يَتَغَوَّطُونَ ، وَلاَ يَتْفُلُونَ ، وَلاَ يَمْتَخِطُونَ . أَمْشَاطُهُمُ الذَّهَبُ ، وَرَشْحُهُمْ المِسْكُ ، وَمَجَامِرُهُمُ الأَلوَّةُ – عُودُ الطِّيبِ – أَزْوَاجُهُمُ الحُورُ العِينُ ، عَلَى خَلْقِ رَجُلٍ وَاحِدٍ ، عَلَى صُورَةِ أَبِيهِمْ آدَمَ سِتُّونَ ذِرَاعًا في السَّمَاءِ » متفقٌ عليه .

وفي روايةٍ للبُخاري وَمُسْلِم : آنِيَتُهُمْ فِيهَا الذَّهَبُ ، وَرَشْحُهُمُ المِسْكُ ، وَلِكُلِّ وَاحِدٍ مِنْهُمْ زَوجَتانِ يُرَى مُخُّ سُوقِهِما مِنْ وَرَاءِ اللَّحْمِ منَ الحُسْنِ ، لا اخْتِلافَ بَيْنَهُمْ ، وَلا تَبَاغُضَ : قُلُوبُهُمْ قَلْبٌ وَاحِدٍ ، يُسَبِّحُونَ اللَّهَ بُكْرَةً وَعَشِيًّا » [٤] .

---

(١) في الأصل « سقف » .

(٢) أخرجه مسلم في الجنة وصفة نعيمها (١٩) « يتمخطون » أي لا يخرج شيء من أنوفهم . قوله « جشاء » هو تنفس المعدة من الامتلاء . قوله « كرشح المسك » أي أن عرقهم على أبدانهم رشحًا طيبًا مثل المسك .

(٣) أخرجه البخاري في بدء الخلق (٣٢٤٤) ومسلم في الجنة وصفة نعيمها (٢) وأحمد في مسنده (٤٣٨/٢) . قوله « ولا خطر » أي ولا مر .

(٤) أخرجه البخاري في بدء الخلق (٣٢٤٦) ومسلم في الجنة وصفة نعيمها (١٥) وأحمد في مسنده (٢٥٣/٢) والحاكم في المستدرك (٢٢٨/٣) . قوله « زمرة » أي جماعة . قوله « ومجامرهم الألوة » أي وعطرهم في بيوتهم العود الذي يتبخر به . قوله « يرى مخ سوقهما من وراء اللحم » أي يرى ما في العظم . قوله « ولا تباغض » أي ولا كره ولا مشاحنة .

قَوْلُهُ : « عَلَى خَلْقِ رَجُلٍ وَاحِد » رواهُ بَعْضُهُمْ بِفَتْحِ الخَاءِ وَإسْكَانِ اللَّامِ ، وَبَعْضُهُمْ بِضَمِّهِما ، وَكِلاَهُمَا صَحِيحٌ .

١٨٨٣ - وَعَنِ المُغِيرَةِ بْنِ شُعْبَةَ ﷺ عَنْ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ قَال : « سَأَلَ مُوسَى ﷺ رَبَّهُ : مَا أَدْنَى أَهْلِ الجَنَّةِ مَنْزِلَةً ؟ قَالَ : هُوَ رَجُلٌ يجيء بَعْدَ مَا أُدْخِل أَهْلُ الجَنَّةِ الجَنَّةَ ، فَيُقَالُ لَهُ : ادْخُلِ الجنَّة ، فَيقُولُ : أَيْ رَبِّ كَيْفَ وَقَدْ نَزَلَ النَّاسُ مَنَازِلَهُمْ ، وَأَخَذُوا أَخذاتِهِمْ ؟ فَيُقَالُ لَهُ : أَتَرْضَى أَنْ يَكُونَ لَكَ مِثْلُ مُلْكِ مَلِكٍ مِنْ مُلُوكِ الدُّنْيا ؟ فَيَقُولُ : رَضِيتُ رَبِّ ، فَيَقُولُ : لَكَ ذلِكَ وَمِثْلُهُ وَمِثْلُهُ وَمِثْلُهُ وَمِثْلُهُ ، فَيقُولُ في الخَامِسَة : رَضِيتُ رَبِّ ، فَيَقُولُ : هذَا لَكَ وَعَشْرَةُ أَمْثَالِهِ ، وَلَكَ مَا اشْتَهَتْ نَفْسُكَ ، وَلَذَّتْ عَيْنُكَ . فَيَقُولُ : رَضِيتُ رَبِّ ، قَالَ : رَبِّ فَأَعْلاهُمْ مَنْزِلَةً ؟ قَالَ : أُولَئِكَ الَّذِينَ أَرَدْتُ ؛ غَرَسْتُ كَرَامَتَهُمْ بِيَدِي ، وَخَتَمْتُ عَلَيْهَا ، فَلَم تَرَ عَيْنٌ ، وَلَمْ تَسْمَعْ أُذُنٌ ، وَلَمْ يَخْطُرْ عَلَى قَلْبِ بَشَرٍ »[١] رواه مسلم .

١٨٨٤ - وَعَنِ ابْنِ مَسْعُودٍ ﷺ قَالَ : قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ : « إنِّي لأَعْلَمُ آخِرَ أَهْلِ النَّار خُرُوجًا مِنْهَا ، وَآخِرَ أَهْلِ الجَنَّةِ دُخولًا الجَنَّةَ ؛ رَجَل يَخْرُجُ مِنَ النَّار حَبْوًا : فَيَقُولُ اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ لَهُ : اذْهَبْ فَادْخُلِ الجَنَّة ، فَيَأْتِيهَا ، فَيُخَيَّلُ إِلَيْهِ أَنَّهَا مَلأَى ، فَيَرْجِعُ . فَيَقُولُ : يَا رَبِّ وَجَدْتُهَا مَلأى ، فَيَقُولُ اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ لَهُ : اذْهَبَ فَادْخُلِ الجَنَّةَ ، فَيأتِيهَا ، فَيُخَيَّلُ إِلَيْهِ أَنَّها مَلأَى ، فَيَرْجِعُ . فَيَقُولُ : يَا رَبِّ وَجَدْتُهَا مَلأَى ! فَيَقُولُ اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ لَهُ : اذْهَبْ فَادْخُل الجَنَّةَ . فَإنَّ لَكَ مِثْلَ الدُّنْيَا وَعَشْرَةَ أَمْثَالِها - أَو إنَّ لَكَ مِثْلَ عَشْرَةِ أَمْثَالِ الدُّنيا - فَيَقُولُ : أَتَسْخَرُ بِي - أو تَضْحَكُ بِي - وَأَنْتَ المَلِكُ » قَالَ : فَلَقَدْ رَأَيْتُ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ ضَحِكَ حَتَّى بَدَتْ نَواجِذُهُ ، فَكَانَ يَقُولُ : « ذلِكَ أَدْنَى أَهْلِ الجَنَّةِ مَنْزِلَةً »[٢] مُتَّفَقٌ عَلَيْهِ .

الشرح

هذه أحاديث كثيرة ذكرها المؤلف رحمه الله في بيان نعيم أهل الجنة فمنها : أن أول زمرة تدخل الجنة على صورة القمر ليلة البدر ، وهذه أول زمرة ، وهي أفضل الزمر ، وقد ثبت عن النبي ﷺ أن أول أهل الجنة دخولاً هم هذه الأمة ، ثم الذين يلونهم على ألمع كوكب دري في السماء - يعني مثل أضوء نجم في السماء - ثم الذين يلونهم على حسب مراتبهم ، وفيه أيضًا أن أهل الجنة يأكلون ويشربون لكنهم لا يبولون ولا يتغوطون ولا يتمخطون ولا يبولون[٣] ؛ لأن جميع فضلاتهم ليست كفضلات أهل الدنيا ، إنما فضلاتهم تخرج رشحًا - يعني كالعرق - أطيب من ريح المسك وجشاء

(١) أخرجه مسلم في الإيمان (٣١٢) قوله « ما أدنى » أي ما أقل . قوله « وأخذوا أخذاتهم » أي ما أخذوه من كرامات مولاهم ﷻ وحصلوه .

(٢) أخرجه البخاري في الرقاق (٦٥٧١) ومسلم في الإيمان (٣٠٨) وابن ماجه في الزهد (٤٣٣٩) والبيهقي في السنن (١٠/١٩٠) . قوله « حبوًا » أي مشيًا على اليدين والرجلين .

(٣) انظر في ذلك ما أخرجه البخاري في أحاديث الأنبياء (٣٣٢٧) ومسلم في الإيمان (٣١٦) والدارمي في الرقاق (١٠٢) وأحمد في مسنده (٢/٢٣٠ ، ٢٣٢) .

أطيب من رائحة المسك ؛ لأنهم في نعيم مقيم . ثم ذكر أيضًا أدنى أهل الجنة منزلة وأعلاهم وكلها تدل على فضل هذا النعيم - نسأل الله أن يجعلنا وإياكم من أهله - أما أهل النار - والعياذ بالله - فهم أسفل من ذلك ، وحُقَّ لعين ترجوا الجنة ألا تنام ، وحق لعين تخشى النار ألا تنام ؛ لأن متاع الدنيا قليل والآخرة خير لمن اتقى ، ولكن حكمة من الله ﷻ وابتلاء وامتحان أن الناس في هذه الدنيا كأن لم يكن إلا الدنيا عند كثير من الناس ، كأنما خلقوا لها مع أن الدنيا هي التي خُلقت لهم ، إن الإنسان إنما خُلق للآخرة ، فهي الدار الباقية التي لا تفنى ، فإما في جحيم وسعير - والعياذ بالله - وإما في نعيم مقيم - نسأل الله لنا ولكم أن نكون من الصالحين الذين أعد الله لهم ما لا عين رأت ولا أذن سمعت ولا خطر على قلب بشر .

* * *

١٨٨٥ - وَعَنْ أَبِي مُوسَى ﷺ أَنَّ النَّبِيَّ ﷺ قَالَ : إِنَّ لِلْمُؤْمِنِ في الجَنَّةِ لَخَيْمَةً مِنْ لُؤْلُؤَةٍ وَاحِدَةٍ مُجَوَّفَةٍ ، طُولُهَا في السَّمَاءِ سِتُّونَ مِيلًا . لِلْمُؤْمِنِ فِيهَا أَهْلُونَ ، يَطُوفُ عَلَيْهِمُ المُؤمِنُ فَلاَ يَرَى بَعْضُهُمْ بَعْضًا » [(١)] . متفقٌ عليه . « المِيلُ » : سِتَّة آلاف ذِرَاع .

١٨٨٦ - وَعَنْ أَبِي سَعِيدِ الخُدْرِيِّ ﷺ عَنِ النبيِّ ﷺ قَالَ : « إِنَّ في الجَنَّةِ لَشَجَرةً يَسِيرُ الرَّاكِبُ الجَوَادَ المُضَمَّرَ السَّرِيعَ مِائَةَ سَنَةٍ مَا يَقْطَعُهَا » متفقٌ عليه .

وَرَوَيَاهُ في « الصَّحِيحَيْنِ » أَيْضًا مِنْ رِوَايَةِ أَبِي هُرَيْرَةَ ﷺ قالَ : « يَسِيرُ الرَّاكِبُ في ظِلِّهَا مائَةَ سَنَةٍ مَا يَقْطَعُهَا » [(٢)] .

١٨٨٧ - وَعَنْهُ عَنِ النبيِّ ﷺ قَالَ : « إِنَّ أَهْلَ الجَنَّةِ لَيَتَرَاءَوْنَ أَهْلَ الغُرَفِ مِنْ فَوقِهِمْ كَمَا تَرَاءَوْنَ الكَوكَبَ الدُّرِّيَّ الغَابِرَ في الأُفُقِ مِنَ المَشْرِقِ أَوِ المَغْرِبِ ؛ لِتَفَاضُلِ ما بَيْنَهُمْ » قَالُوا : يَا رَسُولَ اللَّهِ ، تِلْكَ مَنَازِلُ الأَنْبِيَاءِ لاَ يَبْلُغُهَا غَيْرُهُمْ ؟ قَالَ : « بَلَى وَالَّذِي نَفْسِي بِيَدِهِ رِجَالٌ آمَنُوا بِاللَّهِ وَصَدَّقُوا المُرْسَلِينَ » [(٣)] متفقٌ عليه .

١٨٨٨ - وَعَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ ﷺ أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ قَالَ : « لَقَابُ قَوسٍ في الجَنَّةِ خَيْرٌ مِمَّا تَطْلُعُ عَلَيْهِ الشَّمْسُ أَو تَغْرُبُ » [(٤)] متفقٌ عليه .

---

(١) أخرجه مسلم في الجنة وصفة نعيمها (٢٣) ، والبخاري في بدء الخلق بنحوه (٣٢٤٣) . قوله « مجوفة » أي مثقوبة يظهر ما بداخلها .

(٢) أخرجه البخاري في الرقاق (٦٥٥٣) ومسلم في الجنة وصفة نعيمها (٨) وأحمد في مسنده (٥٦/١) . قوله « الجواد المضمر » أي الجواد القوي الكثير اللحم .

(٣) أخرجه البخاري في بدء الخلق (٣٢٥٦) ، ومسلم في الجنة وصفة نعيمها (١١) ، والطبراني في الكبير (١٧٣/٦ ، ٢٢٨) . قوله « الغابر » أي الذاهب الماشي الذي تدلى الغروب وبعد عن العيون .

(٤) أخرجه البخاري في بدء الخلق (٣٢٥٣) ، وأحمد في مسنده (٤٨٢/٢) . قوله « قاب قوس » هو قدم ما بين المقبض والسية من القوس .

١٨٨٩ - وَعَنْ أَنسٍ ﷺ أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ قَالَ : « إِنَّ في الجَنَّةِ سُوقًا يَأْتُونَهَا كُلَّ جُمُعَةٍ ؛ فَتَهُبُّ رِيحُ الشَّمَالِ ، فَتَحْثُو في وُجُوهِهِمْ وَثِيَابِهِمْ ، فَيَزْدَادُونَ حُسْنًا وَجَمَالًا ، فَيَرْجِعُونَ إِلَى أَهْلِيهِمْ ، وَقَد ازْدَادُوا حُسْنًا وَجَمَالًا ، فَيَقُولُ لَهُمْ أَهْلُوهُمْ : وَاللَّهِ لَقَدِ ازْدَدْتُمْ حُسْنًا وَجَمَالًا ! فَيَقُولُونَ : وَأَنْتُمْ وَاللَّهِ لَقَدِ ازْدَدْتُمْ بَعْدَنَا حُسْنًا وَجَمَالًا ! » (١) رواه مسلم .

١٨٩٠ - وَعَنْ سَهْلِ بْنِ سَعْدٍ ﷺ أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ قَالَ : « إِنَّ أَهْلَ الجَنَّةِ لَيَتَرَاءَوْنَ الغُرَفَ في الجَنَّةِ كَمَا تَتَرَاءَوْنَ الكَوكَبَ في السَّمَاءِ » (٢) متفقٌ عليه .

١٨٩١ - وَعَنْهُ ﷺ قَالَ : شَهِدْتُ مِنَ النَّبِيِّ ﷺ مَجْلسًا وَصفَ فِيهِ الجَنَّةَ حَتَّى انْتَهَى ، ثُمَّ قَالَ في آخِرِ حَدِيثِهِ : « فِيهَا ما لا عَيْنٌ رَأَتْ ، وَلاَ أُذُنٌ سَمِعَتْ ، وَلا خَطَرَ عَلَى قَلْب بَشَرٍ » ثُمَّ قَرَأَ ﴿ تَتَجَافَىٰ جُنُوبُهُمْ عَنِ ٱلْمَضَاجِعِ ﴾ إِلَى قَوْلِهِ تَعَالى : ﴿ فَلَا تَعْلَمُ نَفْسٌ مَّآ أُخْفِىَ لَهُم مِّن قُرَّةِ أَعْيُنٍ ﴾ (٣) . رواه البخاري .

١٨٩٢ - وَعَنْ أَبِي سَعِيدٍ وَأَبِي هُرَيْرَةَ ﷺ أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ قَالَ : « إِذَا دَخَلَ أَهْلُ الجَنَّةِ الجَنَّةَ يُنَادِي مُنَادٍ : إِنَّ لَكُمْ أَنْ تَحْيَوا ، فَلا تَمُوتُوا أَبَدًا ، وَإِنَّ لَكُمْ أَنْ تَصِحُّوا ، فَلاَ تَسْقَمُوا أَبَدًا ، وَإِنَّ لَكُمْ أَنْ تَشِبُّوا فَلَا تَهْرَمُوا أَبَدًا ، وَإِنَّ لَكُمْ أَنْ تَنْعَمُوا ، فَلاَ تَبْأَسُوا أَبَدًا » (٤) رواهُ مُسْلِم .

الشرح

هذه الأحاديث في بيان تفصيل ما لأهل الجنة من النعيم فيها . فمنها : أن النبي ﷺ ذكر أن للمؤمن في الجنة خيمة من لؤلؤة واحدة مجوفة طولها في السماء ستون ميلاً ، وأن له فيها أهلين لا يرى بعضهم بعضًا ؟ وذلك - والله أعلم - لسعتها وحُسن غرفها وسترها ومنها أن النبي ﷺ أخبر أن أهل الجنة يُنادي فيهم مناد : « إن لكم أن تحيوا فلا تموتوا أبدًا ... » وإن لكم أن تصحوا فلا تسقموا أبدًا وذكر الحديث . أي أنهم في نعيم دائم لا يخافون الموت ولا السقم ولا انقطاع ما هم فيه من النعيم كما قال تعالى - : ﴿ وَفَٰكِهَةٍ كَثِيرَةٍ ۝ لَّا مَقْطُوعَةٍ وَلَا مَمْنُوعَةٍ ﴾ [الواقعة : ٣٢، ٣٣] وأن لهم سوقًا كل يوم جمعة يعني في مقدار ذلك ، وإلا فالجنة ليس فيها صلاة ولا جمعة ولا غيرها ، وأنها تهب ريح الشمال فتزيدهم حسنًا وجمالاً . والمراد ريح تشبه ريح الشمال في برودتها ولذاذتها ، وكل هذا المذكور في هذه الأحاديث توجب للإنسان الرغبة في العمل الصالح الذي يتوصل به إلى هذه الدار -

---

(١) أخرجه مسلم في الجنة وصفة نعيمها (١٣) ، وأحمد في مسنده (١٥٦/١) . قوله « ريح الشمال » خص ريح الجنة بالشمال ؛ لأنها ريح العطر عند العرب ، وكانت تهب من جهة الشام وبها يأتي سحاب المطر ، وكان العرب يرجونها .

(٢) أخرجه البخاري في الرقاق (٦٥٥٥) ، ومسلم في الجنة وصفة نعيمها (١٠) ، والترمذي في صفة الجنة (٢٥٥٦) ، وأحمد في مسنده (٣٤٠/٥) .

(٣) أخرجه البخاري في تفسير القرآن (٤٧٧٩) ومسلم في الجنة وصفة نعيمها (٥) وأحمد في مسنده (٣٣٤/٥) . والحاكم في المستدرك (٤١٣/٢) . قوله « لا تسقموا » أي لا تمرضوا .

(٤) أخرجه مسلم في الجنة وصفة نعيمها (٢٢) ، وأحمد في مسنده (٣٣٣/٤) .

جعلنا الله وإياكم من أهلها - وأحسن ما فيها وأنعم ما فيها أنهم ينظرون إلى الله ﷻ نظرًا حقيقيًا كما قال الله تعالى : ﴿ وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ نَّاضِرَةٌ ۝ إِلَىٰ رَبِّهَا نَاظِرَةٌ ﴾ [القيامة : ٢٢، ٢٣] وقال تعالى : ﴿ عَلَى الْأَرَائِكِ يَنظُرُونَ ﴾ [المطففين : ٣٥] وقال تعالى : ﴿ لِّلَّذِينَ أَحْسَنُوا الْحُسْنَىٰ وَزِيَادَةٌ ﴾ [يونس : ٢٦] والزيادة هي النظر إلى وجه الله - تبارك وتعالى - أسأل الله العظيم رب العرش العظيم أن يجعلني وإياكم من أهلها .

* * *

١٨٩٣ - وَعَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ رضي الله عنه أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ قَالَ : « إِنَّ أَدْنَى مَقْعَدِ أَحَدِكُمْ مِنَ الْجَنَّةِ أَنْ يَقُولَ لَهُ : تَمَنَّ ، فَيَتَمَنَّى وَيَتَمَنَّى ، فَيَقُولُ لَهُ : هَلْ تَمَنَّيْتَ ؟ فَيَقُولُ : نَعَمْ ، فَيَقُولُ لَهُ : فَإِنَّ لَكَ مَا تَمَنَّيْتَ وَمِثْلَهُ مَعَهُ » (١) رَوَاهُ مُسْلِمٌ .

١٨٩٤ - وَعَنْ أَبِي سَعِيدٍ الْخُدْرِيِّ رضي الله عنه أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ قَالَ : « إِنَّ اللَّهَ ﷻ يَقُولُ لأَهْلِ الْجَنَّةِ : يَا أَهْلَ الْجَنَّةِ ، فَيَقُولُونَ : لَبَّيْكَ رَبَّنَا وَسَعْدَيْكَ ، وَالْخَيْرُ فِي يَدَيْكَ ، فَيَقُولُ : هَلْ رَضِيتُمْ ؟ فَيَقُولُونَ : وَمَا لَنَا لا نَرْضَى يَا رَبَّنَا وَقَدْ أَعْطَيْتَنَا ما لَمْ تُعْطِ أَحَدًا مِنْ خَلْقِكَ ! فَيَقُولُ : أَلا أُعْطِيكُمْ أَفْضَلَ مِنْ ذلِكَ فَيَقُولُونَ : وَأَيُّ شَيءٍ أَفْضَلُ مِنْ ذلِكَ ؟ فَيَقُولُ : أُحِلُّ عَلَيْكُمْ رِضْوَانِي ، فَلا أَسْخَطُ عَلَيْكُمْ بَعْدَهُ أَبَدًا » (٢) متفقٌ عليه .

١٨٩٥ - وَعَنْ جَرِيرِ بْنِ عَبْدِ اللَّهِ رضي الله عنه قَالَ : كُنَّا عِنْدَ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ فَنَظَرَ إِلَى الْقَمَرِ لَيْلَةَ الْبَدْرِ ، وَقَالَ : « إِنَّكُمْ سَتَرَوْنَ رَبَّكُمْ عِيَانًا كَمَا تَرَوْنَ هذَا الْقَمَرَ ، لَا تُضَامُونَ فِي رُؤْيَتِهِ » (٣) متفقٌ عليه .

١٨٩٦ - وَعَنْ صُهَيْبٍ رضي الله عنه أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ قَالَ : « إِذَا دَخَلَ أَهْلُ الْجَنَّةِ الْجَنَّةَ يَقُولُ اللَّهُ تَبَارَكَ وَتَعَالَى : تُرِيدُونَ شَيْئًا أَزِيدُكُمْ ؟ فَيَقُولُونَ : أَلَمْ تُبَيِّضْ وُجوهَنَا ؟ أَلَمْ تُدْخِلْنَا الْجَنَّةَ وَتُنَجِّنَا مِنَ النَّارِ ؟ فَيَكْشِفُ الْحِجَابَ ، فَمَا أُعْطُوا شَيْئًا أَحَبَّ إِلَيْهِمْ مِنَ النَّظَرِ إِلَى رَبِّهِمْ » (٤) رواهُ مُسْلِمٌ .

قَالَ اللَّهُ تَعَالَى : ﴿ إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ يَهْدِيهِمْ رَبُّهُم بِإِيمَانِهِمْ تَجْرِي مِن تَحْتِهِمُ الْأَنْهَارُ فِي جَنَّاتِ النَّعِيمِ ۝ دَعْوَاهُمْ فِيهَا سُبْحَانَكَ اللَّهُمَّ وَتَحِيَّتُهُمْ فِيهَا سَلَامٌ وَآخِرُ دَعْوَاهُمْ أَنِ الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ ﴾ [يونس : ٩، ١٠] .

الحَمْدُ للهِ الَّذِي هَدَانَا لهذَا وَمَا كُنَّا لِنَهْتَدِيَ لَولَا أَنْ هَدَانَا اللَّهُ . اللَّهُمَّ صَلِّ عَلَى مُحَمَّدٍ وَعَلَى آلِ مُحَمَّدٍ ، كَمَا صَلَّيْتَ عَلَى إِبْرَاهِيمَ وَعَلَى آل إِبْرَاهِيمَ ، وَبَارِكْ عَلَى مُحَمَّدٍ ، وَعَلَى آلِ مُحَمَّدٍ ، كَمَا

---

(١) أخرجه مسلم في الإيمان (٣٠١) ، وأحمد في مسنده (٣١٥/٢) . قوله « أدنى مقعد » أي أقل مكانة لأهل الجنة .

(٢) أخرجه البخاري في الرقاق (٦٥٤٩) ، ومسلم في الجنة وصفة نعيمها (٩) ، وأحمد في مسنده (٨٨/٣) ، والترمذي في صفة الجنة (٢٥٥٢) قوله « أحل عليكم » أي أنزل بكم . قوله « رضواني » أي نعمتي وفضلي .

(٣) أخرجه البخاري في مواقيت الصلاة (٥٥٤) ، ومسلم في المساجد ومواضع الصلاة (٢١١) ، وأحمد في مسنده (٣٦٠/٤) ، والترمذي في صفة الجنة (٢٥٥٤) قوله « لا تضامون » أي تستوون كلكم في رؤيته .

(٤) أخرجه مسلم في الإيمان (٢٩٧) ، والحاكم في المستدرك (٨٢/١) .

بَارَكْتَ عَلَى إِبْرَاهِيمَ وَعَلَى آلِ إِبْرَاهِيمَ ، إِنَّكَ حَمِيدٌ مَجِيدٌ .

قَالَ مُؤَلِّفُهُ يحيى النَّوَوِيُّ غَفَرَ اللَّهُ لَهُ : « فَرَغْتُ مِنْهُ يَومَ الاثْنَيْنِ رَابِعَ عَشَرَ رَمَضَانَ سَنَةَ سَبْعِينَ وَسِتِّمائَةٍ » .

الشرح

ذكر المؤلف في سياق الأحاديث الواردة في نعيم أهل الجنة الذي ختم به الكتاب رحمه الله ، ونسأل الله تعالى أن يجعل هذا فألًا طيبًا فيدخله وإيانا جنة النعيم . ذكر حديثين في رؤية المؤمنين ربَّهم يوم القيامة في الجنة ، وذكر أن الله تعالى يحلّ عليهم رضوانه فلا يسخط عليهم بعد ذلك أبدًا ، ورؤية المؤمنين لربهم في الجنة ثابتة بكتاب الله وسنة رسوله وإجماع الصحابة وأئمة الأمة ، ولم ينكرها إلا من أعمى الله قلبه - والعياذ بالله - ولهذا كانت هذه الأحاديث من الأحاديث المتواترة عن النبي ﷺ يقول الله عز وجل : ﴿ وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ نَّاضِرَةٌ ۝ إِلَىٰ رَبِّهَا نَاظِرَةٌ ﴾ [القيامة : ٢٢، ٢٣] ويقول تعالى ﴿ لِّلَّذِينَ أَحْسَنُوا الْحُسْنَىٰ وَزِيَادَةٌ ﴾ [يونس : ٢٦] وقد فسَّر - أعلم الخلق بكتاب الله ، محمد - رسول الله الزيادة أنها النظر إلى وجه الله ، وقال الله - تبارك وتعالى - : ﴿ عَلَى الْأَرَائِكِ يَنظُرُونَ ﴾ [المطففين : ٣٥] أي ينظرون ما أعد الله لهم من النعيم وأعلاه النظر إلى وجه الله ، وقال تعالى - ﴿ لَهُم مَّا يَشَاءُونَ فِيهَا وَلَدَيْنَا مَزِيدٌ ﴾ [ق : ٣٥] والمزيد هو الزيادة التي قال الله تعالى فيها : ﴿ لِّلَّذِينَ أَحْسَنُوا الْحُسْنَىٰ وَزِيَادَةٌ ﴾ والتي فسرها النبي ﷺ بالنظر إلى وجه الله تعالى وقال تعالى : ﴿ لَّا تُدْرِكُهُ الْأَبْصَارُ وَهُوَ يُدْرِكُ الْأَبْصَارَ وَهُوَ اللَّطِيفُ الْخَبِيرُ ﴾ [الأنعام : ١٠٣] فقوله ﴿ لَّا تُدْرِكُهُ الْأَبْصَارُ ﴾ يدل على أن الأبصار تراه ولكنها لا تدركه ؟ لأنه - جَلّ وعلا - أعظم من أن تدركه الأبصار . فهذه خمس آيات في كتاب الله كلها تدل على أن المؤمنين يرون ربهم يوم القيامة ، ولا ينكر هذا إلا ظالم ، فنسأل الله تعالى - أن يهديه إلى الحق أو أن يحرمه لذة النظر إلى وجهه ؛ لأنه لا ينكر هذا إلا معاند ، إذ إن الآيات واضحة أما الأحاديث فإنها متواترة كما قال الناظم :

مما تواتر حديث من كذب	ومن بنى للّه بيتًا واحتسب
ورؤية وشفاعة والحوض	ومسح خفين وهذه بعض

رؤية : يعني رؤية المؤمنين ربهم يوم القيامة . ومن ذلك أن النبي ﷺ قال : « إنكم سترون ربكم كما ترون القمر ليلة البدر لا تضامون في رؤيته » وقال : « إنكم سترون ربكم كما ترون الشمس صحوًا ليس دونها سحاب » والأحاديث كثيرة جدًا من أحب أن يطلع عليها فليرجع إلى كتاب (حادي الأرواح إلى بلاد الأفراح) لابن القيم رحمه الله نسأل الله تعالى أن يرزقنا وإياكم النظر إلى وجهه الكريم في جنات النعيم إنه على كل شيء قدير . والله الموفق .

* * *





القرآن والتفسير :

- القرآن الكريم .
- جامع البيان عن تأويل آي القرآن للإمام الطبري (ت : ٢١٠ هـ) ط . المكتبة التجارية ١٩٩٥ م .
- الجامع لأحكام القرآن للإمام القرطبي (ت ٦٧١ هـ) ط . دار الفكر ١٩٨٧ م .
- تفسير القرآن العظيم للإمام ابن كثير (ت ٧٧٤ هـ) ط . دار الفكر العربي . بدون تاريخ .
- الدر المنثور في التفسير بالمأثور للإمام السيوطي (ت ٩١١ هـ) ط . دار المعرفة . بيروت . بدون تاريخ .
- التفسير الكبير للإمام فخر الدين الرازي (ت ٦٠٤ هـ) ط . دار الفكر ١٤١٤ هـ .
- زاد المسير في علم التفسير للإمام ابن الجوزي (ت ٥٩٧ هـ) ط . المكتب الإسلامي ١٩٨٤ م .

كتب الحديث :

- الجامع الصحيح للإمام محمد بن إسماعيل البخاري (ت ٢٥٦ هـ) ط . دار الفكر ١٩٩٤ م .
- صحيح مسلم للإمام مسلم بن الحجاج القشيري النيسابوري (ت ٢٦١ هـ) ط . دار إحياء التراث ١٩٥٤ م .
- سنن أبي داود للإمام سليمان بن الأشعث السجستاني (ت ٢٧٥ هـ) ط . دار الكتب العلمية . بيروت . بدون تاريخ .
- الجامع الصحيح للإمام أبي عيسى محمد بن عيسى بن سورة الترمذي (ت ٢٧٩ هـ) ط . دار إحياء التراث العربي . بيروت . بدون تاريخ .
- سنن ابن ماجه للإمام ابن ماجه (ت ٢٧٠ هـ) ط . دار الفكر العربي ١٩٥٤ م .
- سنن النسائي للإمام أبي عبد الرحمن أحمد بن شعيب . ط . مكتبة المطبوعات الإسلامية . حلب ١٩٨٦ م .
- المسند للإمام أحمد بن حنبل (ت ٢٤١ هـ) ط . المكتب الإسلامي ١٩٨٣ م .
- المستدرك على الصحيحين لأبي عبد الله محمد بن عبد الله المعروف بالحاكم النيسابوري (ت ٤٠٥ هـ) . دار الكتاب العربي . بيروت . بدون تاريخ .
- السنن الكبرى للحافظ أبي بكر أحمد بن الحسن البيهقي (ت ٤٥٨ هـ) ط . دار الفكر . بدون تاريخ .
- سنن الدارقطني للإمام علي بن عمر الدارقطني ط . دار المحاسن للطباعة . مصر ١٩٦٦ م .
- فتح الباري شرح صحيح البخاري لشيخ الإسلام الحافظ ابن حجر العسقلاني (ت ٨٥٢ هـ) ط . دار المعرفة . بدون تاريخ .
- شرح النووي على صحيح مسلم للإمام النووي (ت ٦٧٦ هـ) ط . دار إحياء التراث . بدون تاريخ .
- عمدة القاري شرح صحيح البخاري للبدر العيني (ت ٨٥٥ هـ) .
- دليل الفالحين لطرق رياض الصالحين لابن علان الصديقي (ت ١٠٥٧ هـ) ط . دار الفكر . بدون تاريخ .
- تحفة الأحوذي بشرح جامع الترمذي للمباركفوري (ت ١٣٥٣ هـ) ط . دار الاتحاد العربي

للطباعة . القاهرة . بدون تاريخ .
- عون المعبود شرح سنن أبي داود ط . المكتبة السلفية . المدينة المنورة ١٩٦٨ م .

كتب اللغة :

- غريب الحديث لأبي القاسم بن سلام (ت ٢٢٥ هـ) ط . حيدر آباد . بدون تاريخ .
- النهاية في غريب الحديث لابن الأثير (ت ٦٠٦ هـ) ط . الخيرية . بدون تاريخ .
- لسان العرب لابن منظور الأنصاري (ت ٧١١ هـ) ط . دار المعارف . بدون تاريخ .
- المصباح المنير للفيومي (ت ٧٧٠ هـ) المطبعة الأميرية . مصر . ط ثالثة ١٩١٢ م .
- مختار الصحاح للرازي (ت ٦٦٦ هـ) ط . دار البصائر ١٩٨٥ م .
- المعجم الوسيط . مجمع اللغة العربية ط . ثالثة ١٩٨٥ م .

كتب الفقه :

- الأم للإمام محمد بن إدريس الشافعي ، ط . دار الفكر .
- بداية المجتهد ونهاية المقتصد للإمام أبي الوليد محمد بن أحمد ابن رشد . ط . دار الفكر .
- بدايع الصنائع للكاساني . ط . دار الفكر .
- الأنوار لأعمال الأبرار للأردبيلي ومعه حاشية الكمثري ، وحاشية الحاج إبراهيم .
- حاشيتا القليوبي وعميرة على شرح المحلى على المنهاج
- روضة الطالبين للنووي . ط . المكتب الإسلامي .
- زاد المعاد في هدي خير العباد لابن قيم الجوزية مؤسسة الرسالة .
- الفتاوى الكبرى لابن تيمية .
- الكافي في فقه الإمام أحمد لأبي محمد بن قدامة المقدسي المكتب الإسلامي .
- المغني مع الشرح الكبير لابن قدامة المقدسي . ط . دار الفكر .
- المهذب لأبي إسحاق الشيرازي (ت ٤٧٦) ط المنيرية .
- المحلى لابن حزم . ط . دار الفكر .
- فقه الكتاب والسنة د. أمير عبد العزيز - ط . دار السلام للطباعة والنشر والتوزيع والترجمة .
- الهداية شرح بداية المبتدي للمرغيناني تحقيق . محمد تامر . ط دار السلام للطباعة والنشر والتوزيع .
- الوسيط في المذهب للغزالي تحقيق د. أحمد محمود ، ومحمد تامر ، ط . دار السلام للطباعة والنشر والتوزيع .

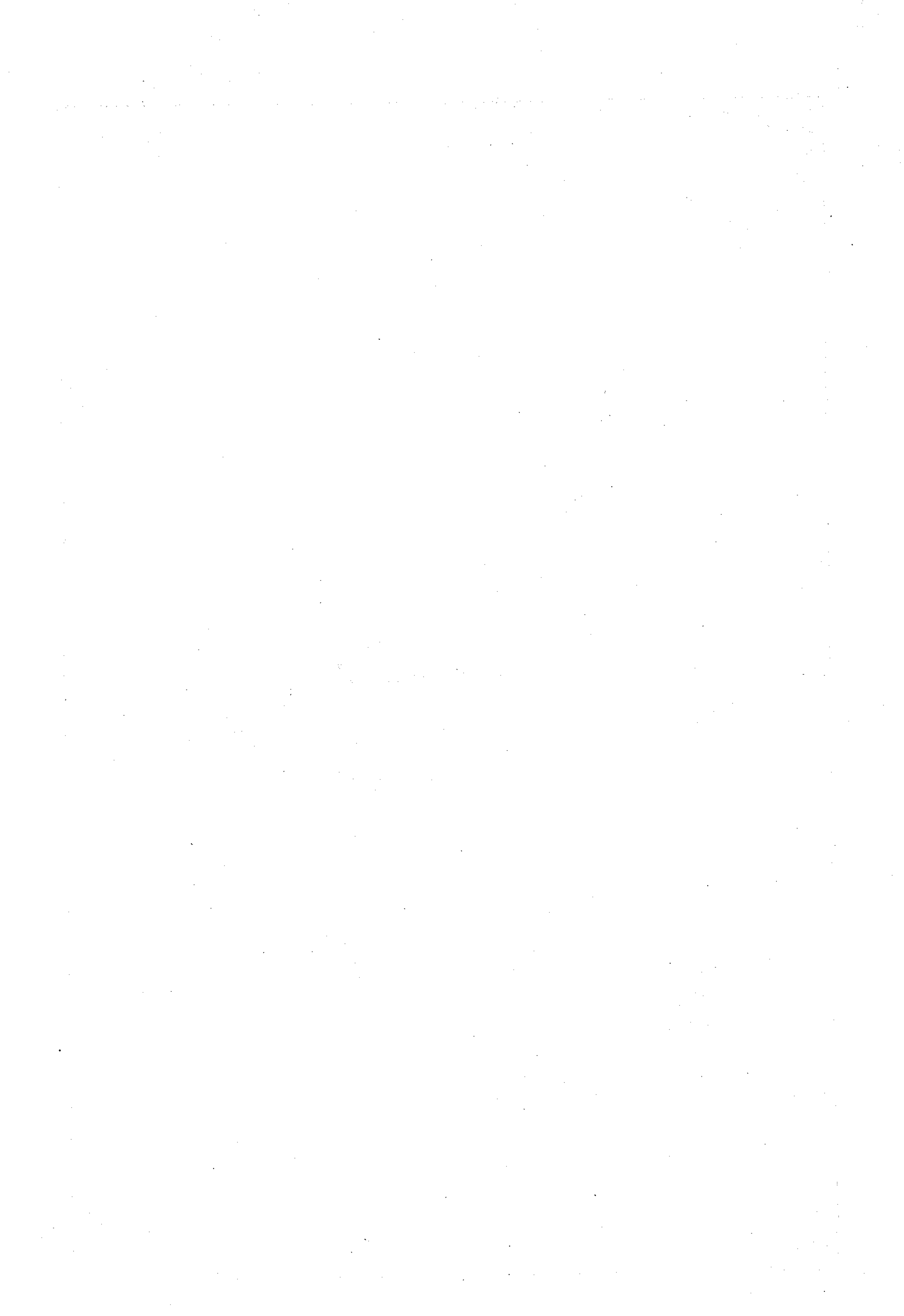
كتب التاريخ والسير :

- تاريخ الطبري . لابن جرير الطبري . ط . دار الفكر .
- السيرة النبوية لابن هشام . إحياء التراث العربي .
- السيرة النبوية لابن كثير . ط . دار المعرفة .
- البداية والنهاية لابن كثير . ط . مكتبة المعارف .

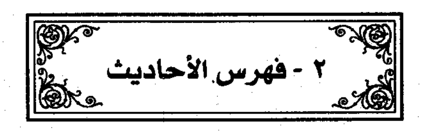



الفهارس



١ - فهرس الآيات القرآنية


٢ - فهرس الأحاديث

حرف الباء

حرف الخاء

حرف الدال

حرف الذال

حرف الراء

حرف الزاي

حرف السين

حرف الشين

حرف الصاد

حرف الضاد

حرف الطاء

حرف العين

حرف الغين

حرف الفاء

حرف القاف

حرف الكاف

حرف اللام

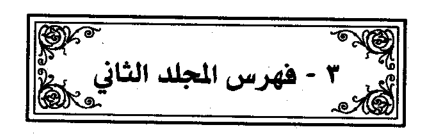
حرف الميم

حرف النون

حرف الهاء

حرف الواو

حرف الياء



٣ - فهرس المجلد الثاني

كتاب آداب النوم

كتاب السلام

كتاب عيادة المريض وتشييع الميت

كتاب آداب السفر

كتاب الفضائل

كتاب المنثورات والملح

رقم الإيداع
2002/8091
الترقيم الدولي I.S.B.N
977-342-065-5